# الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثاني والعشرون

الاجزاء من ٤١٤ الى ٤٣٢

# الحاوي في التفسير

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ

الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

# بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

# محتويات الكتاب


| الجزء | الموضوع | الموضوع الفرعي | الصفحة |
|---|---|---|---|
| 414 | سورة الرعد | الآية 40 الى الآية 43 | 2 |
| 415 | سورة ابراهيم | فصول مهمة | 564 |
| 416 | = | الآية 1 الى الآية 12 | 862 |
| 417 | = | الآية 13 الى الآية 23 | 1281 |
| 418 | = | الآية 24 الى الآية 27 | 1663 |
| 419 | = | الآية 28 الى الآية 34 | 2134 |
| 420 | = | الآية 35 الى الآية 43 | 2397 |
| 421 | = | الآية 44 الى الآية 52 | 2778 |
| 422 | سورة الحجر | فصول مهمة | 3416 |
| 423 | = | الآية 1 الى الآية 15 | 3760 |
| 424 | = | الآية 16 الى الآية 25 | 4160 |
| 425 | = | الآية 26 الى الآية 44 | 4483 |
| 426 | = | الآية 45 الى الآية 56 | 4780 |
| 427 | = | الآية 57 الى الآية 79 | 5148 |
| 428 | = | الآية 80 الى الآية 87 | 5427 |
| 429 | = | الآية 88 الى الآية 99 | 5930 |
| 430 | سورة النحل | فصول مهمة | 6517 |
| 431 | = | فصل في الوقف والابتداء | 6796 |
| 432 | = | الآية 1 الى الآية 13 | 7116 |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع عشر بعد الأربعمائة

حُقوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 40 ﴾ من سورة الرعد

وحتى الآية ﴿ 43 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/414)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تم ما أراد مما يتعلق بتألفهم ، وختم بأنه سبحانه يفعل ما يشاء من تقديم وتأخير ومحو وإثبات ، وكان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به ، وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك للبعض وإثباته ليؤمن غيره تقريباً لفصل النزاع ، قال سبحانه

وتعالى : ﴿ وإن ما نرينك ﴾ أكده لتأكيد الإعلام بأنه لا حرج عليه في ضلالة من ضل بعد إبلاغه ، نفياً لما يحمله عليه - صلى الله عليه وسلم - شدة رحمته لهم وشفقته عليهم من ظن أنه عليه أن يردهم إلى الحق حتماً ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ وأنت حي مما تريد أو يريد أصحابك ، فصل الأمر به فثبت وقوعه إقراراً لأعينكم قبل وفاتك ؛ والوعد : الخبر عن خير مضمون ، والوعيد : الخبر عن شر مضمون ، والمعنى هاهنا عليه ، وسماه وعداً لتنزيلهم إياه في طلب نزوله منزلة الوعد ﴿ أو نتوفينك ﴾ قبل أن نريك ذلك ، وهو ممحو الأثر لم يتحقق ، فالذي عليك والذي إلينا مستو بالنسبة إلى كلتا الحالتين ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ وهو إمرار الشيء إلى منتهاه ، وهو هنا الرسالة ؛ وليس عليك أن تحاربهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات ﴿ وعلينا الحساب ﴾ وهو جزاء كل عامل بما عمل في الدنيا والآخرة ، ولنا القوة التامة عليه ؛ والآية من الاحتباك - كما مضى بيان ذلك في مثلها من سورة يونس عليه السلام .

(5/414)

---

ولما أرشد السياق إلى أن التقدير في تحقيق أنه سبحانه قادر على الجزاء لمن أراد : ألم يروا أنا أهلكنا من قبلهم وكانوا أقوى منهم شوكة وأكثر عدة ؟ عطف عليه قوله : ﴿ أولم يروا

أنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ نأتي الأرض ﴾ التي هؤلاء الكفرة بها ، فكأنه قيل : أي إتيان ؟ فقيل : إتيان البأس إذا أردنا ، والرحمة إذا أردنا ﴿ ننقصها ﴾ والنقص : أخذ شيء من الجملة تكون به أقل ﴿ من أطرافها ﴾ بما يفتح الله على المسلمين مما يزيد به في أرض أهل الإسلام بقتل بعض الكفار واستسلام البعض حتى يبيد أهلها على حسب ما نعلمه حكمة من تدبير الأمور وتقليبها حالاً إلى حال حتى تنتهي إلى مستقرها بعد الحساب في دار ثواب أو عقاب ، وذلك أن المسلمين كانوا يغزون ما يلي المدينة الشريفة من أطراف بلاد الكفار كما أرشد تعالى إليه بقوله : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ فيفتحونها أولاً فأولاً حتى دان العرب كلهم طوعاً أو كرهاً بعد قتل السادة وذل القادة - والله غالب على أمره ؛ والطرف : المنتهى ، وهو موضع من الشيء ليس وراءه منه شيء ، وأطراف الأرض : جوانبها ، وكان يقال : الأطراف : منازل الأشراف ، يطلبون القرب على الأضياف ؛ ثم أثبت لنفسه تعالى أمراً كلياً يندرج ذلك فيه ، فقال لافتاً الكلام من أسلوب التكلم بالعظمة إلى غيبة هي أعظم العظمة بالاسم الأعظم : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ يحكم ﴾ ما يريد لأنه ﴿ لا معقب ﴾ أي أراد ، لأن التعقيب : رد الشيء بعد فصله ﴿ لحكمه ﴾ وقد حكم للإسلام بالغلب والإقبال ، وعلى الكفر بالانتكاس والإدبار ، وكل من حكم على غير هذه الصفة فليس بحاكم ، وذلك كاف في الخوف من سطوات قدرته ﴿ وهو ﴾ مع تمام القدرة ﴿ سريع الحساب ﴾ جزاءه محيط بكل عمل لا يتصور أن

يفوته شيء فلا بد من لقاء جزائه ، وكل ما هو آت سريع ، وهو مع ذلك يعد لكل عمل جزاءه على ما تقتضيه الحكمة من عدل أو فضل حين صدوره ، لا يحتاج إلى زمان ينظر فيه ما جزاءه؟ ولا : هل عمل أو لا؟ لأنه

(6/414)

---

لا تخفى عليه خافية ؛ والسرعة : عمل في قلة المدة على ما تحده الحكمة ، والإبطاء : عمله في طول مدة خارجة عن الحكمة ، والسرعة محمودة ، والعجلة مذمومة ، وهو تعالى قادر على الكفرة وإن كانوا كالقاطعين بأنهم يغلبون ، لما لهم من القوة والكثرة ، مع جودة الآراء وحدة الأفكار والقدرة بالأموال وإن اشتد مكرهم ، فهو لا يغني عنهم شيئاً ، فقد مكروا بك غير مرة ثم لم أزدك إلا علواً ﴿ وقد مكر الذين ﴾ ولما كان المراد بالمكرة إنما هو بعض الناس في بعض الزمان قال : ﴿ من قبلهم ﴾ أي بالرسل وأتباعهم ، فكان مكرهم وبالاً عليهم ، فطوى في هذه الجملة مكرهم الذي اجتمعوا عليه غير مرة وأتقنوه بزعمهم ، فكان سبب الرفعة للإسلام وأهله وذل الشرك وأهله ، ودل على ذلك المطوي بواو العطف في قوله ﴿ وقد ﴾ وطوى في الكلام السابق إهلاك الأمم الماضية في الاستدلال على قدرته

على الجزاء الذي هو روح الحساب ودل عليه بواو العطف في ﴿ أولم يروا ﴾ فتأمل هذا الإبراز في قوالب الإعجاز .

(7/414)

---

ولما كان ذلك كذلك ، تسبب عنه أن يقال : ﴿ فلله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط علمه وقدرته خاصة ﴿ المكر جميعاً ﴾ والمكر : الفتل عن البغية بطريق الحيلة ، ويلزمه الستر - كما مضى بيانه ، ولا شيء أستر عن العباد من أفعاله تعالى : فلا طريق لهم إلى علمها إلا من جهته سبحانه ، وسمي فعله مكراً مجازاً لأنه ناشىء عن مكرهم جزاء لهم ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ يعلم ﴾ ويجوز أن يكون تفسيراً لما قبله ، لأن علم المكر من الماكر مكن حيث لا يشعر أدق المكر ﴿ ما تكسب كل نفس ﴾ أي من مكر وغيره ، فيجازيهم إذا أراد بأن ينتج عن كل سبب أقاموه مسبباً يكون ضد ما أرادوا ، ولا تمكنهم إرادة شيء إلا بإرادته ، فستنظرون ماذا يحل بهم من بأسه بواسطتكم أو بغيرها حتى تظفروا بهم فتبيدوهم أجمعين ﴿ وسيعلم الكافر ﴾ أي كل كافر بوعد لا خلف فيه ، إن كان من الجهل بحيث لا يعلم الأشياء إلا بالتصريح أو الحس ﴿ لمن عقبى الدار ﴾ حين نأتيهم ضد مرادهم ؛ والكسب : الفعل لاجتلاب النفع أو دفع الضر .

ولما تقدم قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية ﴾ عطف عليه – بعد شرح ما استتبعه – قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ أي أوجدوا الكفر ولو على أدنى الرتب ، قولاً على سبيل التكرار : ﴿ لست مرسلاً ﴾ لكونك لا تأتي بمقترحاتهم مع أنه لم يقل يوماً : إنه قادر عليها ، فكأنه قيل : فما أقول لهم ؟ فقال : ﴿ قل كفى ﴾ والكفاية : وجود الشيء على مقدار الحاجة ؛ ومعنى الباء في ﴿ بالله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة – التأكيد ، لأن الفعل جاز أن يضاف إلى غير فاعله إذا أمر به أزيل هذا الاحتمال من وجهين : جهة الفاعل وجهة صرف الإضافة ﴿ شهيداً ﴾ أي بليغ العلم في شهادته بلاطلاع على ما ظهر وما بطن ﴿ بيني وبينكم ﴾ يشهد بتأييد رسالتي وتصحيح مقالتي بما أظهر لي من الآية وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ، ويشهد بتكذيبكم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزاً ، وهذا على مراتب الشهادة ، لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الأمر كما شهد به ، والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بأن ما جاءت لأجله كما هو ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ مما أنزله فيه من الأصول والفروع والخبر عما كان يكون على نحو من الأساليب ونمط من المناهيج أخرس الفصحاء ، وأبكم البلغاء ، وأبهت الحكماء ،

وهو الله تعالى ، تأيداً وتحقيقاً لدعواي ، ويؤيد أن المراد به " الله " قراءة ﴿ من ﴾ على أنها جارة ، وفي سوقه هكذا على طريق الإبهام من ترويع النفس بهزّها إلى تطلب المتصف بهذا الوصف ما ليس في التعيين ، فهو إذن كدعوى الشيء مقروناً بدليله ، فقد انطبق هذا الآخر على أول السورة في أن المنزل حق من عنده وأنهم لا يؤمنون - والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 161.164 ﴾

(9/414)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) ﴾

اعلم أن المعنى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب : ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ، والمعنى : سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره ، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب .

والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراج والأداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) ﴾

اعلم أنه تعالى لما وعد رسوله بأن يريه بعض ما وعدوه أو يتوفاه قبل ذلك ، بين في هذه الآية أن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ فيه أقوال :

القول الأول : المراد أنا نأتي أرض الكفرة ننقصها من أطرافها وذلك لأن المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهراً وجبراً فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والأمارات على أن الله تعالى ينجز وعده .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغالبون ﴾ [ الأنبياء : 44 ] وقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الآفاق ﴾ [ فصلت : 53 ] .

(10/414)

---

والقول الثاني : وهو أيضاً منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله : ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ المراد : موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والأخيار ، وقال

الواحدي : وهذا القول ، وإن احتمله اللفظ ، إلا أن اللائق بهذا الموضع هو الوجه الأول .

ويمكن أن يقال هذا الوجه أيضاً لا يليق بهذا الموضع ، وتقريره أن يقال : أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة ، وموت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ، وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين ، ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله ، وقيل : ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟

ثم قال تعالى مؤكداً لهذا المعنى : ﴿ والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ معناه : لا راد لحكمه ، والمعقب هو الذي يعقبه بالرد والإبطال ، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب .

فإن قيل : ما محل قوله : ﴿ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ .

قلنا : هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه خالياً عن المدافع والمعارض والمنازع .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ قال ابن عباس : يريد سريع الانتقام يعني أن حسابه للمجازاة بالخير والشر يكون سريعاً قريباً لا يدفعه دافع .

أما قوله : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني أن كفار الأمم الماضية قد مكروا برسلهم وأنبيائهم مثل نمروذ مكر بإبراهيم ، وفرعون مكر بموسى ، واليهود مكروا بعيسى .

(11/414)

---

ثم قال : ﴿فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا﴾ قال الواحدي : معناه أن مكر جميع الماكرين له ومنه ، أي هو حاصل بتخليقه وإرادته ، لأنه ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد ، وأيضاً فذلك المكر لا يضر إلا بإذن الله تعالى ولا يؤثر إلى بتقديره ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وأمان له من مكرهم ، كأنه قيل له : إذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره من الممكور به أيضاً من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى وأن لا يكون الرجاء إلا من الله تعالى ، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى : فلله جزاء المكر ، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم .

قال الواحدي : والأول أظهر لقولين بدليل قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ يريد أن اكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع ، وكل ما علم الله عدمه كان ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله تعالى .

قالت المعتزلة : الآية الأولى إن دلت على قولكم فالآية الثانية وهي قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ دلت على قولنا ، لأن الكسب هو الفعل المشتمل على دفع مضرة أو جلب منفعة ، ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه أثر ، فوجب أن لا يكون للعبد كسب .

وجوابه : أن مذهبنا أن مجموع القدرة مع الداعي مستلزم للفعل وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد .

ثم إنه تعالى أكد ذلك التهديد فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكافر لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكافر ﴾ على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب "الكشاف" قرىء : ( الكفار ، والكافرون ، والذين كفروا ، والكفر ) أي أهله قرأ جناح بن حبيش : ( وسيعلم الكافر ) من أعلمه أي سيخبر .

المسألة الثانية :

المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [ العصر : 2 ] والمعنى : إنهم وإن كانوا جهالاً بالعواقب فسيعلمون لمن العاقبة الحميدة ، وذلك كالزجر والتهديد .

والقول الثاني : وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة ، والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون .

والقول الثالث : وهو قول ابن عباس يريد أبا الجهل .

والقول الأول هو الصواب .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن القوم أنهم أنكروا كونه رسولاً من عند الله .

ثم إنه تعالى احتج عليهم بأمرين : الأول : شهادة الله على نبوته ، والمراد من تلك الشهادة أنه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقاً في ادعاء الرسالة ، وهذا أعلى مراتب الشهادة لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الأمر كذلك .

أما المعجز فإنه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولاً من عند الله تعالى ، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة .

والثاني : قوله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ وفيه قراءتان : إحداهما : القراءة المشهورة

: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ يعني والذي عنده علم الكتاب .

والثانية : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ وكلمة "من" ههنا لابتداء الغاية أي ومن عند الله حصل علم الكتاب .

أما على القراءة الأولى ففي تفسير الآية أقوال :

القول الأول : أن المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم : عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الداري .

ويروى عن سعيد بن جبير : أنه كان يبطل هذا الوجه ويقول : السورة مكية فلا يجوز أن يراد به ابن سلام وأصحابه ، لأنهم آمنوا في المدينة بعد الهجرة .

(13/414)

---

وأجيب عن هذا السؤال بأن قيل : هذه السورة وإن كانت مكية إلا أن هذه الآية مدنية ، وأيضاً فإثبات النبوة بقول الواحد والإثنين مع كونهما غير معصومين عن الكذب لا يجوز ، وهذا السؤال واقع .

القول الثاني : أراد بالكتاب القرآن ، أي أن الكتاب الذي جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر ، إلا أنه لا يحصل العلم بكونه معجزاً إلا لمن علم ما في هذا الكتاب من الفصاحة

والبلاغة، واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة.

فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزاً.

فقوله: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ أي ومن عنده علم القرآن وهو قول الأصم.

القول الثالث: ومن عنده علم الكتاب المراد به: الذي حصل عنده علم التوراة والإنجيل، يعني: أن كل من كان عالماً بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهداً على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول حق من عند الله تعالى.

القول الرابع: ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى، وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، والزجاج قال الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وقال الزجاج: الأشبه أن الله تعالى لا يستشهد على صحة حكمه بغيره، وهذا القول مشكل، لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزاً في الجملة إلا أنه خلاف الأصل.

لا يقال: شهد بهذا زيد والفقيه، بل يقال: شهد به زيد الفقيه، وأما قوله إن الله تعالى لا يستشهد بغيره على صدق حكمه فبعيد، لأنه لما جاز أن يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله:

﴿ والتين والزيتون ﴾ [ التين: 1 ] فأي امتناع فيما ذكره الزجاج.

وأما القراءة الثانية : وهي قوله : ﴿ وَمَنْ عِندهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ على من الجارة فالمعنى : ومن لدنه علم الكتاب ، لأن أحداً لا يعلم الكتاب إلا من فضله وإحسانه وتعليمه ، ثم على هذه القراءة ففيه أيضاً قراءتان : ومن عنده علم الكتاب ، والمراد العلم الذي هو ضد الجهل ، أي هذا العلم إنما حصل من عند الله .

والقراءة الثانية : ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على ما لم يسم فاعله ، والمعنى : أنه تعالى لما أمر نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله تعالى على ما ذكرناه ، وكان لا معنى لشهادة الله تعالى على نبوته إلا إظهار القرآن على وفق دعواه ، ولا يعلم كون القرآن معجزاً إلا بعد الإحاطة بما في القرآن وأسراره ، بين تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله ، والمعنى : أن الوقوف على كون القرآن معجزاً لا يحصل إلا إذا شرف الله تعالى ذلك العبد بأن يعلمه علم القرآن ، والله تعالى أعلم بالصواب .

تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وستمائة .

وأنا ألتمس من كل من نظر في كتابي هذا وانتفع به ، أن يخص ولدي محمداً بالرحمة والغفران ، وأن يذكرني بالدعاء .

وأقول في مرثية ذلك الولد شعراً :

أرى معالم هذا العالم الفاني . . ممزوجة بمخافات وأحزان

خيراته مثل أحلام مفزعة . . وشره في البرايا دائم داني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 53 . 56 ﴾

(15/414)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاَللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاَللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فِيهَا الِاكْتِفَاءُ بِشَهَادَةِ وَاحِدٍ ، وَهُوَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ إنْ كَانَ يَعْلَمُ مِنِّي الْحَقَّ فِي الدَّعْوَى وَالصِّدْقَ فِي التَّبْلِيغِ فَسَيَنْصُرُنِي ، فَلَا جَرَمَ صَدَّقَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَنَصَرَهُ بِالدَّلَالَاتِ ، وَأَكْرَمَهُ بِالظُّهُورِ فِي الْعَوَاقِبِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ؟ قِيلَ : هُوَ وَإِنْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ فِي

اللَّفْظِ فَإِنَّهُ مَقْطُوعٌ عَنْهُ فِي الْمَعْنَى .

التَّقْدِيرُ : وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ يَشْهَدُ لِي بِصِدْقِي ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنَّ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذِهِ غَفْلَةٌ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ ، فَلَوْ كَانَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هُوَ اللَّهُ لَكَانَ تَكْرَارًا مَحْضًا خَارِجًا عَنْ صِحَّةِ الْمَعْنَى وَجَزَالَةِ اللَّفْظِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ فِي : الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ : اُخْتُلِفَ فِيمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ بَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِ مُجَاهِدٍ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَنْ آمَنَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

الثَّانِي : أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ .

(16/414)

---

الثَّالِثُ : أَنَّهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَدْ قُرِئَ : وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ بِخَفْضِ الْمِيمِ مِنْ " مِنْ " وَرَفْعِ الْعَيْنِ مِنْ " عُلِمَ " .

وَقُرِئَ بِخَفْضِ الْمِيمِ مِنْ " مِنْ " وَبَاقِيهِ عَلَى الْمَشْهُورِ .

الرَّابِعُ : الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي تَدَبُّرِ مَا مَضَى : أَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْيَهُودِ ، كَابْنِ سَلَامٍ ،

وَابْنِ يَامِينَ .

وَمِنَ النَّصَارَى ، كَسَلْمَانَ ، وَتَمِيمٍ الدَّارِيِّ ، فَإِنَّ الْمَعْنَى عِنْدَهُ بِالْكِتَابِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَعَوَّلَ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إِمَّا لِأَنَّهُ عِنْدَهُ أَعْلَمُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ أَعْلَمُ مِنْهُ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ فِي ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ؛ أَوْ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا ﴾ .

وَهُوَ حَدِيثٌ بَاطِلٌ ، النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَدِينَةُ عِلْمٍ وَأَبْوَابُهَا أَصْحَابُهَا ؛ وَمِنْهُمْ الْبَابُ الْمُنْفَسِحُ ، وَمِنْهُمْ الْمُتَوَسِّطُ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ فِي الْعُلُومِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُمْ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ فَصَدَقَ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَعْلَمُ الْكِتَابَ ، وَيُدْرِكُ وَجْهَ إِعْجَازِهِ ؛ يَشْهَدُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصِّدْقِ .

(17/414)

---

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فَعَوَّلَ عَلَى حَدِيثٍ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ لَمَّا أُرِيدَ قَتْلُ عُثْمَانَ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : جِئْتُ فِي نَصْرِكَ .

قَالَ: اُخْرُجْ إِلَى النَّاسِ، فَاطْرُدْهُمْ عَنِّي، فَإِنَّكَ خَارِجًا خَيْرٌ لِي مِنْكَ دَاخِلًا.

فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ كَانَ اسْمِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فُلَانٌ، فَسَمَّانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ، وَنَزَلَتْ فِي آيَاتٌ مِنْ الْقُرْآنِ فَنَزَلَتْ فِي: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ الْآيَةَ إِلَى آخِرِهَا، وَنَزَلَتْ فِي: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾.

إِنَّ لِلَّهِ سَيْفًا مَغْمُودًا عَنْكُمْ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ جَاوَرَتْكُمْ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا الَّذِي نَزَلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اللَّهَ اللَّهَ فِي هَذَا الرَّجُلِ أَنْ تَقْتُلُوهُ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَتَطْرُدُنَّ جِيرَانَكُمُ الْمَلَائِكَةَ، وَلَيُسَلَّنَّ سَيْفُ اللَّهِ الْمَغْمُودُ عَنْكُمْ، فَلَا يُغْمَدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالُوا: اُقْتُلُوا الْيَهُودِيَّ، وَاقْتُلُوا عُثْمَانَ.



---

وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ تَنْزِلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ سَبَبًا، وَتَتَنَاوَلَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ لَفْظًا؛ وَيُعَضِّدُهُ مِنْ النِّظَامِ أَنَّ قَوْلَهُ: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْنِي بِهِ قُرَيْشًا؛ فَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ النُّبُوَّةِ وَالْكِتَابِ أَقْرَبُ مِنْ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي هَذَا قَوْلُ الْمُتَجَادِلِينَ : كَفَى بِفُلَانٍ بَيْنَنَا شَهِيدًا فَيَرْضَيَانِ بِهِ ، وَقَدْ قَدَّمْنَاهُ ، وَيَزِيدُ هَذَا عَلَيْهِ ظُهُورُ هَذَا الْحَقِّ يَقِينًا ، وَأَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُهُ نَصْرًا مُبِينًا ، وَيُوَفِّقُ مَنْ يَعْرِفُهُ حَقًّا ، وَيَشْهَدُ بِهِ تَصْدِيقًا وَصِدْقًا .

وَالَّذِي اخْتَارَهُ مَالِكٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ كَذَلِكَ رَوَى عَنْهُ ابْنُ وَهْبٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(19/414)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصُها من أطرافها ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : بالفتوح على المسلمين من بلاد المشركين ، قاله قتادة .

الثاني : بخراجها بعد العمارة ، قاله مجاهد .

الثالث : بنقصان بركتها وتمحيق ثمرتها ، قاله الكلبي والشعبي .

الرابع : بموت فقهائها وخيارها ، قاله ابن عباس .

ويحتمل خامساً : أنه بجور ولاتها .

قوله عز وجل : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مُرْسلاً ﴾

قال قتادة : هم مشركو العرب .

﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي يشهد بصدقي وكذبكم .

﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم عبد الله بن سلام وسلمان وتميم الداري ، قاله قتادة .

الثاني : أنه جبريل ، قاله سعيد بن جبير .

الثالث : هو الله تعالى ، قاله الحسن ومجاهد والضحاك .

وكانوا يقرأون ﴿ ومِن عنده علم الكتاب ﴾ أي من عِنْد الله علم الكتاب ، وينكرون على من قال هو عبد الله بن سلام وسلمان لأنهم يرون السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة ، والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(20/414)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾

﴿ إن ﴾ شرط دخلت عليها ﴿ ما ﴾ مؤكدة ، وهي قبل الفعل فصارت في ذلك بمنزلة

اللام المؤكدة في القسم التي تكون قبل الفعل في قولك : والله لنخرجن ، فلذلك يحسن أن تدخل النون الثقيلة في قولك : ﴿ نرينك ﴾ لحلولها هنا محل اللام هنالك ، ولو لم تدخل ﴿ ما ﴾ لما جاز ذلك إلا في الشعر ، وخص " البعض " بالذكر إذ مفهوم أن الأعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار مما توعد به الكفار . وكذلك أعطي الوجود ، ألا ترى أن أكثر الفتوح إنما كان بعد النبي عليه السلام و﴿ أو ﴾ عاطفة . وقوله : ﴿ فإنما ﴾ جواب الشرط .

ومعنى الآية : إن نبقك يا محمد لترى أو نتوفينك ، فعلى كلا الوجهين إنما يلزمك البلاغ فقط .

وقوله : ﴿ نعدهم ﴾ محتمل أن يريد به المضار التي توعد بها الكفار ، فأطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضار معلومة مصرحاً بها ، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد في إهلاك الكفرة ، ثم أضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم .

والضمير في قوله : ﴿ يروا ﴾ عائد على كفار قريش وهم المتقدم ضميرهم في قوله : ﴿ نعدهم ﴾ .

وقوله : ﴿ نأتي ﴾ معناه بالقدرة والأمر ، كما قال الله تعالى : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ [ النحل : 26 ] و﴿ الأرض ﴾ يريد به اسم الجنس ، وقيل : يريد أرض الكفار المذكورين .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بحسب الاختلاف في قوله : ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ .

وقرأ الجمهور: "نَنقصها" وقرأ الضحاك "نُنقصها".

وقوله: ﴿ من أطرافها ﴾ من قال: إنها أرض الكفار المذكورين – قال: معناه، ألم يروا أنا نأتي أرض هؤلاء بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك في القبائل، والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمنهم أن نمكنك منهم أيضاً، كما فعلنا بمجاوريهم – قاله ابن عباس والضحاك.

(21/414)

---

قال القاضي أبو محمد: وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ القول لا يتأتى إلا بأن نقدر نزول هذه الآية بالمدينة، ومن قال: إن ﴿ الأرض ﴾ اسم جنس جعل الانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يحله الله بالكفرة – هذا قول ابن عباس أيضاً ومجاهد.

وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البشر وهلاك الثمرات ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضاً والشعبي وعكرمة وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت العلماء والأخيار – قال ذلك ابن عباس أيضاً ومجاهد – وكل ما ذكر يدخل في لفظ الآية.

و"الطرف" من كل شيء خياره، ومنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العلوم أودية في أي واد أخذت منها حسرت فخذوا من كل شيء طرفاً. يعني خياراً.

وجملة معنى هذه الآية : الموعظة وضرب المثل ، أي ألم يروا فيقع منهم اتعاظ .

وأليق ما يقصد لفظ الآية هو تنقص الأرض بالفتوح على محمد .

وقوله : ﴿ لا معقب ﴾ أي لا راد ولا مناقض يتعقب أحكامه ، أي ينظر في أعقابها أمصيبة هي أم لا ؟ وسرعة حساب الله واجبة لأنها بالإحاطة ليست بعدد .

و﴿ المكر ﴾ : ما يتمرس بالإنسان ويسعى عليه – علم بذلك أو لم يعلم – فوصف الله تعالى الأمم التي سعت على أنبيائها – كما فعلت قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم – ب ﴿ المكر ﴾ .

وقوله : ﴿ فلله المكر جميعاً ﴾ أي العقوبات التي أحلها بهم . وسماها " مكراً " على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب ، كقوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [ البقرة : 15 ] ونحو هذا .

وفي قوله تعالى : ﴿ يعلم ما تكسب مل نفس ﴾ تنبيه وتحذير في طي إخبار ثم توعدهم تعالى بقوله : ﴿ وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار ﴾ .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو " الكافر " بالإفراد ، وهو اسم الجنس ، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " الكفار " ، وقرأ عبد الله بن مسعود " الكافرون " ، وقرأ أبي بن كعب : " الذين كفروا " . وتقدم القول في ﴿ عقبى الدار ﴾ قبل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ الآية ، المعنى : ويكذبك يا محمد هؤلاء الكفرة ويقولون : لست مرسلاً من الله وإنما أنت مدع ، قل لهم : ﴿ كفى بالله شهيداً ﴾ .

و ﴿ بالله ﴾ في موضع رفع ، التقدير : كفى الله . و" شهيد " بمعنى : شاهد ، وقوله : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قيل : يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب الناطقة برفض الأصنام وتوحيد الله تعالى ، وقال قتادة : يريد من آمن منهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري وسلمان الفارسي ، الذين يشهدون بتصديق محمد ، وقال مجاهد : يريد عبد الله بن سلام خاصة ، قال هو : فيّ نزلت ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا القولان الأخيران لا يستقيمان إلا أن تكون الآية مدنية ، والجمهور على أنها مكية - قاله سعيد بن جبير ، وقال : لا يصح أن تكون الآية في ابن سلام لكونها مكية وكان يقرأ : " ومِن عنده عُلم الكتاب " .

وقيل : يريد جنياً معروفاً ، حكاه النقاش ، وهو قول شاذ ضعيف . وقيل : يريد الله تعالى ، كأنه استشهد بالله تعالى ، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم . ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف ، وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض . ويحتمل أن تكون في موضع رفع بالابتداء ، والخبر محذوف تقديره : أعدل وأمضى قولاً ، ونحو هذا مما يدل عليه لفظ ﴿ شهيداً ﴾ ويراد بذلك الله تعالى .

(23/414)

---

وقرأ علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وابن عباس وابن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والحكم وغيرهم " وِمن عندِه علم الكتاب " بكسر الميم من " من " وخفض الدال ، قال أبو الفتح : ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً والحسن وابن السميفع " وِمن عنده عُلم الكتابُ " بكسر الميم من " من " وضم العين من " علم " على أنه مفعول لم يسم فاعله ، ورفع الكتاب ، وهذه القراءات يراد فيها الله تعالى ، لا يحتمل لفظها غير ذلك . والله المعين برحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(24/414)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِمّا نُرِيَنَّك بعض الذي نعدهم ﴾

أي : من العذاب وأنت حيٌّ أو ﴿ نتوفَّيَنَّك ﴾ قبل أن نريَك ذلك ، فليس عليك إِلا أن تبلّغ ، ﴿ وعلينا الحساب ﴾ قال مقاتل : يعني الجزاء .

وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله : "فإنما عليك البلاغ" نُسخ بآية السيف وفرض الجهاد ، وبه قال قتادة .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾

فيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه ما يفتح الله على نبيه من الأرض ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والضحاك .

قال مقاتل : "أولم يروا" يعني : كفار مكة "أنا نأتي الأرض" يعني : أرض مكة "ننقصها من أطرافها" يعني : ما حولها .

والثاني : أنها القرية تخرب حتى تبقى الأبيات في ناحيتها ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : أنه نقص أهلها وبركتها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال الشعبي : نقص الأنفس والثمرات .

والرابع : أنه ذهاب فقهائها وخيار أهلها ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والخامس : أنه موت أهلها ، قاله مجاهد ، وعطاء ، وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ والله يحكم لا معقِّب لحكمه ﴾ قال ابن قتيبة : لا يتعقَّبه أحد بتغيير ولا نقص .

وقد شرحنا معنى سرعة الحساب في سورة [ البقرة : 202 ] .

قوله تعالى : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾

يعني : كفار الأمم الخالية ، مكروا بأنبيائهم يقصدون قتلهم ، كما مكرت قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه .

﴿ فلله المكر جميعاً ﴾ يعني : أن مَكر الماكرين مخلوق له ، ولا يضرُّ إلا بإرادته ؛ وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسكين له .

﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ من خير وشر ، ولا يقع ضرر إلا بإذنه .

﴿ وسيعلم الكافر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : "وسيعلم الكافر" .

قال ابن عباس : يعني : أبا جهل .

وقال الزجاج : الكافر هاهنا : اسم جنس .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "الكفار" على الجمع .

*(25/414)*

---

قوله تعالى : ﴿ لمن عقبى الدار ﴾ أي : لمن الجنة آخر الأمر .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾

فيهم قولان:

أحدهما: أنهم اليهود والنصارى.

والثاني: كفار قريش.

﴿ قل كفى بالله شهيداً ﴾ أي: شاهداً ﴿ بيني وبينكم ﴾ بما أظهرَ من الآيات، وأبان من الدلالات على نبوَّتي.

قوله تعالى: ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ فيه سبعة أقوال:

أحدها: أنهم علماء اليهود والنصارى، رواه العوفي عن ابن عباس.

والثاني: أنه عبد الله بن سلام، قاله الحسن، ومجاهد، وعِكرمة، وابن زيد، وابن السائب، ومُقاتل.

والثالث: أنهم قوم من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق، منهم عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداريّ، قاله قتادة.

والرابع: أنه جبريل عليه السلام، قاله سعيد بن جُبير.

والخامس: أنه علي بن أبي طالب، قاله ابن الحنفية.

والسادس: أنه بنيامين، قاله شمر.

والسابع: أنه الله تعالى، روي عن الحسن، ومجاهد، واختاره الزجاج واحتجَّ له بقراءة من قرأ: "ومِنْ عِندِهِ عُلِمَ الكتابُ" وهي قراءة ابن السّميفع، وابن أبي عبلة، ومجاهد، وأبي

حيوة .

ورواية ابن أبي سريج عن الكسائي : "وِمنْ" بكسر الميم "عِندِه" بكسر الدال "عُلِمَ" بضم الميم وكسر اللام وفتح الميم "الكتابُ" بالرفع .

وقرأ الحسن "ومِنْ" بكسر الميم "عندِه" بكسر الدال "عِلْمُ" بكسر العين وضمّ الميم "الكتابِ" مضاف ، كأنه قال : أُنزل من عِلم الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(26/414)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾

"ما" زائدة ، والتقدير : وإن نرينك بعض الذي نعدهم ، أي من العذاب لقوله : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ أي إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ ؛ أي التبليغ ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ أي الجزاء والعقوبة .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني أهل مكة ، ﴿ أَنَّا نَأْتِي الأرض ﴾ أي نقصدها .

﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ موت علمائها وصلحائها .

قال القُشَيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال ابن الأعرابي : الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان في أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى .

وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن : هو ما يغلب عليه المسلمون مما في أيدي المشركين ؛ وروي ذلك عن ابن عباس ، وعنه أيضاً هو خراب الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها ؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها .

وذكر وكيع بن الجرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبي رَبَاح في قول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها .

قال أبو عمر بن عبد البر : قول عطاء في تأويل الآية حسن جداً ؛ تلقاه أهل العلم بالقبول .

(27/414)

قلت : وحكاه المهدويّ عن مجاهد وابن عمر ، وهذا نص القول الأوّل نفسه ؛ روى سفيان عن منصور عن مجاهد ، "نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا" قال : موت الفقهاء والعلماء ؛ ومعروف في اللغة أن الطَّرف الكريمُ من كل شيء ؛ وهذا خلاف ما ارتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم من قول ابن عباس .

وقال عِكْرِمة والشّعبيّ : هو النقصان وقبض الأنفس .

قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حَشّك .

وقال الآخر : لضاق عليك حشٌّ تتبرز فيه .

قيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أو لم تر قريش هلاك من قبلهم ، وخراب أرضهم بعدهم ؟! أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ذلك ؛ وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج .

وعن ابن عباس أيضاً أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها .

وقيل : ( نقصها ) بِجَوْرِ وُلاَتها .

قلت : وهذا صحيح معنى ؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد ، بقتل أهلها وانجلائهم عنها ، وترفع من الأرض البركة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقص ولا تغيير .

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ أي الانتقام من الكافرين، سريع الثواب للمؤمن.

وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقد بَنَان؛ حسب ما تقدّم في "البقرة" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

أي من قبل مشركي مكة، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم.

﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً ﴾ أي هو مخلوق له مكر الماكرين، فلا يضرّ إلا بإذنه.

وقيل؛ فللّهِ خير المكر؛ أي يجازيهم به.

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه.

﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار ﴾ كذا قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو.

الباقون: "الْكُفَّارُ" على الجمع.

وقيل: عنى (به) أبو جهل.

(28/414)

---

﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ أي عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو لمن الثواب والعقاب في الدّار الآخرة؛ وهذا تهديد ووعيد.

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ قال قَتَادة : هم مشركو العرب ؛ أي لست بنبيّ ولا رسول ، وإنما أنت متقوّل ؛ أي لما لم يأتهم بما اقترحوا قالوا ذلك .

﴿ قُلْ كفى بالله ﴾ أي قل لهم يا محمد : ﴿ كفى بالله ﴾ أي كفى الله ﴿ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بصدقي وكذبكم .

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ وهذا احتجاج على مشركي العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب من آمن منهم في التفاسير .

وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلاَم وسَلْمان الفارسيّ وتميم الداريّ والنجاشيّ وأصحابه ؛ قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَير .

وروى الترمذيّ عن ابن أخي عبد الله بن سَلاَم قال : لما أريد ( قتل ) عثمان جاء عبد الله بن سَلاَم فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت في نُصرتك ؛ قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عني ، فإنك خارج خير لي من داخل ؛ ( قال ) فخرج عبد الله بن سَلاَم إلى الناس فقال : أيها الناس ! إنه كان اسمي في الجاهلية فلان ، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله ؛ فنزلت فيّ : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ فَآمَنَ واستكبرتم إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [ الأحقاف : 10 ] ونزلت فيّ : ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ الحديث .

وقد كتبناه بكماله في كتاب "التذكرة" .

وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله .

وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَيْر ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ ؟ قال : هو عبد الله بن سَلاَم .

(29/414)

---

قلت : وكيف يكون عبد الله بن سَلاَم وهذه السورة مكية وابن سَلاَم ما أسلم إلا بالمدينة ؟! ذكره الثعلبي .

وقال القُشَيري : وقال ابن جُبَير السورة مكية وابن سَلاَم أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سَلاَم ؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل ؛ وهو قول ابن عباس .

وقال الحسن ومجاهد والضّحاك : هو الله تعالى ؛ وكانوا يقرؤون "وِمن عِندِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ" وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلاَم وسَلْمان ؛ لأنهم يَرَوْن أن السورة مكية ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : "وِمنْ عِندِه عِلم الكِتَابِ" وإن كان في الرواية

ضعف ، وروى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وروى محبوب عن إسماعيل بن محمد اليمانيّ أنه قرأ كذلك "وِمِن عِندِهِ" بكسر الميم والعين والدال "عُلِمَ الكِتَابُ" بضم العين ورفع الكتاب .

وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلاَم فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية .

وقيل : جميع المؤمنين ، والله أعلم .

قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك ؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه .

ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا مدينة العلم وعليّ بابها " وهو حديث باطل ؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها ؛ فمنهم الباب المنفسح ، ومنهم المتوسط ، على قدر منازلهم في العلوم .

وأما من قال إنهم جميع المؤمنين فصدق ؛ لأن كل مؤمن يَعْلَم الكتاب ، ويُدرك وجه إعجازه ، ويشهد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن .

وأما من قال هو عبد الله بن سَلاَم فعوّل على حديث الترمذيّ ؛ وليس يمتنع أن ينزل في عبد الله بن سَلاَم شيئاً ويتناول جميع المؤمنين لفظاً ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني قريشاً ؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان .

قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلاَم وغيره يحتمل أيضاً ؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن كان أمراً مؤكداً ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(31/414)

وقال الخازن :

﴿ وإن ما نرينك ﴾ يعني يا محمد ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ يعني من العذاب ﴿ أو نتوفينك ﴾ يعني قبل أن نريك ذلك ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ ﴿ وعلينا الحساب ﴾ يعني وعلينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم .

قوله : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ يعني أو لم ير كفار مكة الذين سألوا محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) الآيات أنا نأتي الأرض يعني أرض الشرك ننقصها من أطرافها .

قال أكثر المفسرين : المراد منه فتح دار الشرك فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) أرضاً بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون ، فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين : وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهراً وتخريباً كان ذلك نقصاناً في ديارهم ، وزيادة في ديار المسلمين ، وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه ، وينجز له ما وعده .

وقيل : هو خراب الأرض والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون أن نفعل بهم مثل ذلك ، وقال مجاهد : هو خراب الأرض وقبض أهلها .

(32/414)

---

وعن عكرمة والشعبي نحوه وهذا القول قريب من الأول وقال عطاء وجماعة من المفسرين نقصانها موت العلماء وذهب الفقهاء ( ق ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت

رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقول : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس " ، وفي رواية " من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا " قال الحسن قال عبد الله بن مسعود : موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار ، وقال عبد الله أيضاً : عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله ، وقال سليمان : لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخر فإذا هلك الأول ولم يتعلم الآخر هلك الناس .

وقيل لسعيد بن جبير : ما علامة هلاك الناس ؟ قال : هلاك العلماء .

فعلى هذا القول فالمراد بالأطراف العلماء ، والأشراف من الناس : حكى الجوهري عن ثعلب قال : الأطراف الأشراف .

واستدل الواحدي لهذه اللغة بقول الفرزدق :

واسأل بنا وبكم إذا وردت مني . . .

أطراف كل قبيلة من يتبع

قال : يريد أشراف كل قبيلة .

قال الواحدي : والتفسير على القول الأول أولى لأن هذا وإن صح فلا يليق بهذا الموضع .

قال الإمام فخر الدين الرازي : ويمكن أن يقال أيضاً إن هذ الوجه لا يليق بهذا الموضع وتقديره أن يقال : أو لم يروا أن كل ما يحدث في الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة

وموت بعد حياة وذل بعد عز ونقص بعد كمال وإذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة، فيجعلهم ذليلين بعد ما كانوا عزيزين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وعلى هذا الوجه أيضاً يجوز إيصال الكلام بما قبله.

(33/414)

---

وقوله تعالى ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ يعني لا رادّ لحكمه ولا ناقض لقضائه، والمعقب هو الذي يعقب غيره بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق: معقب، لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب.

والمعنى: والله يحكم نافذاً حكمه خالياً من المدافع والمعارض والمنازع لا يتعقب حكمه أحد غيره بتغيير، ولا نقض ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ قال ابن عباس: يريد سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم، ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم، وقد تقدم بسط الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ يعني من قبل مشركي مكة من الأمم الماضية، الذين مكروا بأنبيائهم والمكر إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر مثل ما مكر نمرود بإبراهيم وفرعون بموسى

واليهود بعيسى ، ﴿ فلله المكر جميعاً ﴾ يعني عند الله جزاء مكرهم .

وقال الواحدي : يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وإرادته فالمكر جميعاً مخلوق له بيده الخير والشر وإليه النفع والضر .

والمعنى أن المكر لا يضر إلا بإذنه وإرادته ، وفي هذه تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأمان له من مكرهم كأنه قيل : قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم ، فلم يضروا إلا من أراد الله ضره ، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله لا من أحد من المخلوقين ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ يعني أن جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله هو خالقها أو خلاف المعلوم ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه كان ممتنع الوقوع وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله ولا يحصل ضرراً إلا بإذنه وإرادته ، وفيه وعيد للكفار الماكرين ﴿ وسيعلم الكافر ﴾ على التوحيد وقرىء وسيعلم الكفار على الجمع .

قال ابن عباس : يعني أبا جهل .

وقيل : أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة ﴿ لمن عقبى الدار ﴾ والمعنى أنهم وإن كانوا جهالاً بالعواقب فسيعلمون أن العاقبة الحميدة للمؤمنين ، ولهم العاقبة المذمومة في الآخرة حين يدخلون النار ، ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾ لما أنكر الكفار كون محمد رسولاً من عند الله أمره الله بقوله ﴿ قل ﴾ أي قل : يا محمد لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك ﴿ كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ المراد بشهادة الله على نبوة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه ، وكونه نبياً مرسلاً من عند الله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ يعني ومن عنده علم الكتاب أيضاً يشهد على نبوتك يا محمد وصحتها .

واختلفوا في الذي عنده علم الكتاب من هو فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى ، والمعنى أن كل من كان عالماً من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالإنجيل علم أن محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم ، وقيل : إنهم مؤمنو أهل الكتاب يشهدون أيضاً على نبوته .

قال قتادة : هو عبد الله بن سلام ، وأنكر الشعبي هذا وقال : هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن

سلام؟ فقال: كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية؟ وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى.

وعلى هذا القول يكون المعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ إلا هو شهيداً بيني وبينكم.

قال الزجاج: الأشبه أن الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره.

وهذا قول مشكل لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزاً إلا أنه خلاف الأصل.

فلا يقال شهد بهذا زيد والفقيه.

(35/414)

---

بل يقال: شهد بهذا زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال، وهي قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله ﴿ وعلمناه من دلنا علماً ﴾ وقيل: معناه إن من علم أن القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والإخبار عن الغيوب، وعن الأمم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيداً بيني وبينكم والله أعلم بمراده وأسرار كتابه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾

إنّ جواب الشرط الأول محذوف ، وكلام ابن عطية في ما ونون التوكيد .

وقال الزمخشري : وإما نرينك ، وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم ، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ، أو نتوفينك قبل ذلك ، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة ، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم ، فلا يهمنك إعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم انتهى .

وقال الحوفي وغيره : فإنما عليك البلاغ جواب الشرط ، والذي تقدم شرطان ، لأنّ المعطوف على الشرط شرط .

فأما كونه جواباً للشرط الأول فليس بظاهر ، لأنه لا يترتب عليه ، إذ يصير المعنى : وإما نرينك بعض ما نعدهم من العذاب فإنما عليك البلاغ .

وأما كونه جواباً للشرط الثاني هو أو نتوفينك فكذلك ، لأنه يصير التقدير : إن ما نتوفينك فإنما عليك البلاغ ، ولا يترتب وجوب التبليغ عليه على وفاته عليه السلام ، لأنّ التكليف

ينقطع بعد الوفاة فيحتاج إلى تأويل وهو : أن يتقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاء مترتباً عليه .

وذلك أن يكون التقدير والله أعلم وأنّ ما نرينك بعض الذي نعدهم به من العذاب فذلك شافيك من أعدائك ، ودليل على صدقك ، إذا أخبرت بما يحل بهم .

ولم يعين زمان حلوله بهم ، فاحتمل أن يقع ذلك في حياتك ، واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك أو نتوفينك أي : أو أن نتوفينك قبل حلوله بهم ، فلا لوم عليك ولا عتب ، إذ قد حل بهم بعض ما وعد الله به على لسانك من عذابهم ، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم .

إذ ذاك راجع إليّ ، وعلينا جزاؤهم في تكذيبهم إياك ، وكفرهم بما جئت به .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾

الضمير في أو لم يروا عائد على الذين وعدوا ، وفي ذلك اتعاظ لمن اتعظ ، نبهوا على أنْ ينظروا بعض الأرض من أطرافها .

(37/414)

---

ونأتي يعني بالأمر والقدرة كقوله : ﴿ فأتى الله بنيانهم ﴾ والأرض أرض الكفار المذكورين ، ويعني بنقصها من أطرافها للمسلمين : من جوانبها .

كان المسلمون يغزون من حوالى أرض الكفار مما يلي المدينة ، ويغلبون على جوانب أرض مكة ، والأطراف : الجوانب .

وقيل : الطرف من كل شيء خياره ، ومنه قول علي بن أبي طالب : العلوم أودية ، في أي واد أخذت منها خسرت ، فخذوا من كل شيء طرفاً يعني : خياراً قاله ابن عطية ، والذي يظهر أن معنى طرفاً جانباً وبعضاً ، كأنه أشار إلى أنّ الإنسان يكون مشاركاً في أطراف من العلوم ، لأنه لا يمكنه استيعاب جميعها ، ولم يشر إلى أنه يستغرق زمانه في علم واحد .

وقال ابن عباس والضحاك : نأتي أرض هؤلاء بالفتح عليك ، فتنقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم ، فما يؤمنهم أن يمكنه منهم .

وهذا التفسير لا يتأتى إلا أن قدر نزول هذه الآية بالمدينة .

وقيل : الأرض اسم جنس ، والانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يحله الله بالكفرة .

وروي هذا عن ابن عباس أيضاً ، ومجاهد ، وعنهما أيضاً : الانتقاص هو بموت البشر ، وهلاك الثمرات ، ونقص البركة .

وعن ابن عباس أيضاً : موت أشرافها وكبرائها ، وذهاب الصلحاء والأخيار ، فعلى هذا الأطراف هنا الأشراف .

وقال ابن الأعرابي : الطرف والطرف الرجل الكريم .

وعن عطاء بن أبي رباح : ذهاب فقهائها وخيار أهلها .

وعن مجاهد : موت الفقهاء والعلماء .

وقال عكرمة والشعبي : هو نقص الأنفس .

وقيل : هلاك من أهلك من الأمم قبل قريش ، وهلاك أرضهم بعدهم .

والمناسب من هذه الأقوال هو الأول .

ولم يذكر الزمخشري إلا ما هو قريب منه قال : نأتي الأرض أرض الكفر ننقصها من أطرافها بما يفتح على المسلمين من بلادهم ، فينقص دار الحرب ، ويزيد في دار الإسلام ، وذلك من آيات الغلبة والنصرة .

(38/414)

---

ونحوه : ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾ والمعنى : عليك بالبلاغ الذي حملته ، ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ، ونتم ما وعدناك من الظفر ، ولا يضجرك تأخره ، فإنّ ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها ، ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر .

ويتجه قول من قال : النقص بموت الأشراف والعلماء والخيار وتقريره : أو لم يروا أنا نحدث في الدنيا من الاختلافات خراباً بعد عماره ، وموتاً بعد حياة ، وذلاً بعد عز ، ونقصاً بعد كمال ، وهذه تغييرات مدركة بالحس .

فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله الأمر عليهم ويصيرون دليلين بعد أن كانوا قاهرين .

وقرأ الضحاك : ننقصها مثقلاً ، من نقص عداه بالتضعيف من نقص اللازم ، والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله ، وحقيقته الذي يعقبه أي : بالرد والإبطال ، ومنه قيل لصاحب الحق : معقب ، لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب .

قال لبيد :

طلب المعقب حقه المظلوم . . .

والمعنى : أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس .

وقيل : تتعقب أحكامه أي : ينظر في أعقابها أمصيبة هي أم لا ، والجملة من قوله : لا معقب لحكمه في موضع الحال أي : نافذ حكمه ، وهو سريع الحساب تقدم الكلام على مثل هذه الجملة .

ثم أخبر تعالى أن الأمم السابقة كان يصدر منهم المكر بأنبيائهم كما فعلت قريش ، وأنّ ذلك عادة المكذبين للرسل ، مكر بابراهيم نمروذ ، وبموسى فرعون ، وبعيسى اليهود ، وجعل تعالى مكرهم كلا مكر إذ أضاف المكر كله له تعالى .

ومعنى مكره تعالى عقوبته إياهم ، سماها مكراً إذ كانت ناشئة عن المكر وذلك على سبيل المقابلة كقوله : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ ثم فسر قوله فللّه المكر ، بقوله : يعلم ما تكسب كل نفس ، والمعنى : يجازي كل نفس بما كسبت .

*(39/414)*

---

ثم هدد الكافر بقوله : وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار ، إذ يأتيه العذاب من حيث هو في غفلة عنه ، فحينئذ يعلم لمن هي العاقبة المحمودة .

وقرأ جناح بن حبيش : وسيعلم الكافر مبنياً للمفعول من أعلم أي : وسيخبر .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو : الكافر على الإفراد والمراد به الجنس ، وباقي السبعة الكفار جمع تكسير ، وابن مسعود : الكافرون جمع سلامة وأبي الذين كفروا ، وفسر عطاء الكافر بالمستهزئين وهم خمسة ، والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون .

وقال ابن عباس : يريد بالكافر أبا جهل .

وينبغي أن يحمل تفسيره عطاء على التمثيل ، لأنّ الإخبار بعلم الكافر لمن عقبى الدار معنى يعم جميع الكفار ، ولما قال الكفار : لست مرسلاً أي : إنما أنت مدع ما ليس لك ، أمره تعالى أن يكتفي بشهادة الله تعالى بينهم ، إذ قد أظهر على يديه من الأدلة على رسالته

ما في بعضها كفاية لمن وفق ، ثم أردف شهادة الله بشهادة من عنده علم الكتاب .

والكتاب هنا القرآن ، والمعنى : إنّ من عرف ما ألف فيه من المعاني الصحيحة والنظم المعجز الفائت لقدر البشر يشهد بذلك .

وقيل : الكتاب التوراة والإنجيل ، والذي عنده علم الكتاب : من أسلم من علمائهم ، لأنهم يشهدون نعته عليه الصلاة والسلام في كتبهم .

قال قتادة ، كعبد الله بن سلام ، وتميم الداري ، وسلمان الفارسي .

وقال مجاهد : يريد عبد الله بن سلام خاصة .

وهذان القولان لا يستقيمان إلا على أن تكون الآية مدنية ، والجمهور على أنها مكية .

وقال محمد بن الحنفية ، والباقر : هو علي بن أبي طالب .

وقيل : جبريل ، والكتاب اللوح المحفوظ .

وقيل : هو الله تعالى قاله : الحسن ، وابن جبير والزجاج ، وعن الحسن : لا والله ما يعني إلا الله ، والمعنى : كفى بالذي يستحق العبادة ، وبالذي لا يعلم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم .

قال ابن عطية : ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف ، وذلك لا يجوز ، وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض انتهى .

وليس ذلك كما زعم من عطف الصفة على الموصوف ، لأنّ من لا يوصف بها ولا لشيء من الموصولات إلا بالذي والتي وفروعهما ، وذو وذوات الطائيتين .

وقوله : وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض ليس على إطلاقه ، بل له شرط وهو أن تختلف مدلولاتها .

ويعني ابن عطية : لا تقول مررت بزيد .

والعالم فتعطف ، والعالم على الاسم وهو علم لم يلحظ منه معنى صفة ، وكذلك الله علم .

ولما شعر بهذا الاعتراض من جعله معطوفاً على الله قدر قوله : بالذي يستحق العبادة ، حتى يكون من عطف الصفات بعضها على بعض ، لا من عطف الصفة على الاسم .

ومن في قراءة الجمهور في موضع خفض عطفاً على لفظ الله ، أو في موضع رفع عطفاً على موضع الله ، إذ هو في مذهب من جعل الباء زائدة فاعل بكفى .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون في موضع رفع بالابتداء ، والخبر محذوف تقديره : أعدل وأمضى قولاً ونحو هذا مما يدل عليه لفظة شهيداً ، ويراد بذلك الله تعالى .

وقرىء : وبمن بدخول الباء على من عطفاً على بالله .

وقرأ علي وأبي وابن عباس وعكرمة وابن جبير وعبد الرحمن بن أبي بكرة والضحاك

وسالم بن عبد الله بن عمرو بن أبي إسحاق ، ومجاهد ، والحكم ، والأعمش : ومن عنده علم الكتاب بجعل من حرف جر ، وجر ما بعده به ، وارتفاع علم بالابتداء ، والجار والمجرو في موضع الجر .

وقرأ علي أيضاً وابن السميقع ، والحسن بخلاف عنه .

ومن عنده بجعل من حرف جر علم الكتاب ، بجعل علم فعلاً مبنياً للمفعول ، والكتاب رفع به .

وقرىء ومن عنده بحرف جر علم الكتاب مشدداً مبنياً للمفعول ، والضمير في عنده في هذه القراآت الثلاث عائد على الله تعالى .

(41/414)

---

وقال الزمخشري في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدر في الظرف فيكون فاعلاً ، لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول ، فعمل على الفعل كقولك : مررت بالذي في الدار أخوه ، فأخوه فاعل ، كما تقول : بالذي استقر في الدار أخوه انتهى .

وهذا الذي قاله الزمخشري ليس على وجه التحتم ، لأنّ الظرف والجار والمجرور إذا وقعا

صلتين أو حالين أو خبرين ، إما في الأصل ، وإما في الناسخ ، أو تقدمهما أداة نفي ، أو استفهام ، جاز فيما بعدهما من الاسم الظاهر أن يرتفع على الفاعل وهو الأجود ، وجاز أن يكون ذلك المرفوع مبتدأ ، والظرف أو الجار والمجرور في موضع رفع خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر صلة أو صفة أو حال أو خبر ، وهذا مبني على اسم الفاعل .

فكما جاز ذلك في اسم الفاعل ، وإن كان الأحسن إعماله في الاسم الظاهر ، فكذلك يجوز في ما ناب عنه من ظرف أو مجرور .

وقد نص سيبويه على إجازة ذلك في نحو : مررت برجل حسن وجهه ، فأجاز حسن وجهه على رفع حسن على أنه خبر مقدم ، وهكذا تلقفنا هذه المسألة عن الشيوخ .

وقد يتوهم بعض النشأة في النحو أن اسم الفاعل إذا اعتمد على شيء مما ذكرناه يتحتم إعماله في الظاهر ، وليس كذلك .

وقد أعرب الحوفي عنده علم الكتاب مبتدأ وخبراً في صلة من .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون خبراً يعني عنده ، والمبتدأ علم الكتاب انتهى .

ومن قرأ : ومن عنده ، على أنه حرف جر فالكتاب في قراءته هو القرآن ، والمعنى : أنه تعالى من جهة فضله وإحسانه علم الكتاب ، أو علم الكتاب على القراءتين ، أي : علمت معانيه وكونه أعظم المعجزات الباقي على مر الأعصار ، فتشريف العبد بعلوم القرآن إنما

ذلك من إحسان الله تعالى إليه وتوفيقه على كونه معجزاً ، وتوفيقه لإدراك ذلك . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(42/414)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾

أصلُه إنْ نُرِكَ وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ومن ثمةَ أُلحقت النون بالفعل ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ أو وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ، والعدولُ إلى صيغة المضارع لحكاية الحالِ الماضيةِ أو نعدهم وعداً متجدداً حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذار ، وفي إيراد البعض رمزٌ إلى إراءة بعض الموعودِ ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ أي تبليغُ أحكام الرسالةِ بتمامها لا تحقيقُ مضمون ما بلّغته من الوعيد الذي هو من جملتها ﴿ وَعَلَيْنَا ﴾ لا عليك ﴿ الحساب ﴾ محاسبةُ أعمالهم السيئةِ والمؤاخذةُ بها أي كيفما دارت الحال أُريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نُرِكَه فعلينا ذلك وما عليك إلا تبليغُ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتمّ ما وعدناك من الظفر ولا يُضجِرْك تأخرُه فإن ذلك لما نعلم من المصالح الخفيةِ ثم طيّب نفسَه عليه الصلاة والسلام

بطلوع تباشيره فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ استفهامٌ إنكاري والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكّوا أو ألم ينظروا في ذلك ولم يروا ﴿ أَنَّا نَأْتِى الأرض ﴾ أي أرضَ الكفر ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئاً فشيئاً ونُلحقَها بدار الإسلام ونُذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاءِ أليس هذا من ذلك؟ ومثله قوله عز سلطانه: ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغالبون ﴾ وقوله: ننقصها حالٌ من فاعل نأتي أو من مفعوله، وقرىء نُنَقّصها بالتشديد وفي لفظ الإتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل:

(43/414)

---

﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً . ﴾ ﴿ والله يَحْكُمُ ﴾ ما يشاء وقد حكم للإسلام بالعزة والإقبال، وعلى الكفر بالذلة والإدبار حسبما يشاهَد من المخايل والآثار، وفي الالتفات من التكلم إلى الغَيبة وبناءِ الحُكم على الاسم الجليل من الدِلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى، وهي جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى: ﴿ لاَ مُعَقّبَ

لِحُكْمِهِ ﴾ اعتراضٌ في اعتراض لبيان علوّ شأن حكمِه جل جلاله ، وقيل : نصبٌ على الحالية ، كأنه قيل : والله يحكمُ نافذاً حكمُه ، كما تقول : جاء زيد لا عمامةٌ على رأسه أي حاسراً ، والمعقّب من يكرُّ على الشيء فيبطله وحقيقتُه مِن يعقّبه ويقفّيه بالرد والإبطال ، ومنه قيل لصاحب الحق : معقّب لأنه يقفّي غريمَه بالاقتصاء والطلب ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ فعما قليلٍ يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانينِ العذاب غِبّ ما عذبهم بالقتل والأسر والإجلاءِ حسبما يُرى . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سريعُ الانتقام .

(44/414)

---

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ﴾ الكفار ﴿ الذين ﴾ خلَوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل كفار مكةَ بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاءِ ، وهذا تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرةَ بمكرهم ولا تأثير ، بل لا وجود له في الحقيقة ولم يصرّح بذلك اكتفاءً بدلالة القصرِ المستفادِ من تعليله أعني قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ المكر ﴾ أي جنسُ المكر ﴿ جَمِيعاً ﴾ لا وجودَ لمكرهم أصلاً ، إذ هو عبارةٌ عن إيصال المكروهِ إلى الغير من حيث لا يشعُر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وإنما لهم مجردُ الكسب من غير فعلٍ ولا تأثير حسبما يبيّنه قوله عز وجل : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ومن قضيته عصمةُ

أوليائِه وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكل نفس جزاءَ ما تكسِبه ظهر أنْ ليس لمكرهم بالنسبة إلى مَن مكروا بهم عينٌ ولا أثرٌ وأن المكرَ كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرُهم من حيث لا يحتسبون ، أو لله المكرُ الذي باشروه جميعاً لا لهم على معنى أن ذلك ليس مكراً منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكرٌ من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكرُ السيّيءُ إلا بأهله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار ﴾ حين يقضي بمقتضى علمه فيوفِّي كلَّ نفس جزاءَ ما تكسبه ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ أي العاقبةُ الحميدةُ من الفريقين وإن جهِلوا ذلك يومئذ ، وقيل : السينُ لتأكيد وقوعِ ذلك وعلمِهم به حينئذ ، وقرىء سيعلم الكافرُ على إدارة الجنسِ والكافرون والكفرُ أي أهله والذين كفروا وسيُعلم على صيغة المجهول من الإعلام أي سيُخبر .

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾

(45/414)

---

قيل : قاله رؤساءُ اليهود ، وصيغةُ الاستقبال لاستحضار صورةِ كلمتهم الشنعاءِ تعجيباً منها أو للدِلالة على تجدد ذلك واستمرارِه منهم ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعةِ والبينات الساطعةِ ما فيه مندوحةٌ عن

شهادة شاهد آخرَ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ أي علمُ القرآنِ وما عليه من النظم المعجز أو مَن هو مِن علماء أهلِ الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتبهم ، والآية مدنيةٌ بالاتفاق أو مَنْ عنده علم اللوحِ المحفوظ وهو الله سبحانه أي كفى به شاهداً بيننا بالذي يستحق العبادةَ فإنه قد شحَن كتابه بالدعوة إلى عبادته وأيدني بأنواع التأييدِ ، وبالذي يختص بعلم ما في اللوح من الأشياء الكائنةِ الثابتةِ التي من جملتها رسالتي ، وقرىء من عندِه بالكسر و ( علمُ الكتاب ) على الأول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول ، أو مبتدأٌ خبرُه الظرف وهو متعين على الثاني ، ومِن عنده عُلِمَ الكتابُ بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة الرعد أعطيَ من الأجر عشرَ حسناتٍ بوزن كل سحابٍ مضى وكلِّ سحابٍ يكون إلى يوم القيامة وبُعث يوم القيامة من المُوفين بعهد الله عز وجل " والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(46/414)

وقال الآلوسي :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾

أصله إن نريك و﴿ مَا ﴾ مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ومن ثمة الحقت النون بالفعل ، قال ابن عطية : ولو كانت ﴿ إن ﴾ وحدها لم يجز إلحاق النون ، وهو مخالف لظاهر كلام سيبويه ، قال ابن خروف : أجاز سيبويه الإتيان بما وعدم الإتيان بها والإتيان بالنون مع ﴿ مَا ﴾ وعدم الإتيان بها ، والإراءة هنا بصرية والكاف مفعول أول وقوله سبحانه : ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ مفعول ثان ، والمراد بعض الذي وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ، والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدم وعداً متجدداً حسب ما تقتضيه الحكمة من إنذار عقيب إنذار ، وفي إيراد البعض رمز على ما قيل إلى إراءة بعض الموعود ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ أي تبليغ أحكام ما أنزلنا عليك وما تضمنه من الوعد والوعيد لا تحقيق مضمون الوعيد الذي تضمنه ذلك ، فالمقصور عليه البلاغ ولهذا قدم الخبر ، وهذا الحصر مستفاد من ﴿ إِنَّمَا ﴾ لا من التقديم وإلا لانعكس المعنى ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ الظاهر أنه معطوف على ما في حيز ﴿ إِنَّمَا ﴾ فيصير المعنى إنما علينا محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها دون جبرهم على اتباعك أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات .

واعتبر الزمخشري عطفه على جملة ﴿ إِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ فيصير المعنى وعلينا لا

عليك محاسبة أعمالهم ، قيل : وهو الظاهر ترجيحاً للمنطوق على المفهوم إذا اجتمع دليلاً حصر ، وحاصل معنى الآية كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نركه فعلينا ذلك وما عليك إلا التبليغ فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك به من الظفر ولا يضجرك تأخره فإن ذلك لما نعلم من المصالح الخفية .

(47/414)

---

وفي "البحر" عن الحوفي أنه قد تقدم في الآية شرطان ﴿ نُرِيَنَّكَ ﴾ لأن المعطوف على الشرط شرط ، وقوله تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغ ﴾ لا يصلح أن يكون جواباً للشرط الأول ولا للشرط الثاني لأنه لا يترتب على شيء منهما وهو ظاهر فيحتاج إلى تأويل ، وهو أن يقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاء مترتباً عليه ، فيقال والله تعالى أعلم : وإما نرينك بعض الذين نعدهم فذلك شافيك من أعدائك ودليل صدقك وإما نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب ، ويكون قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ الخ دليلاً عليهما ، والواقع من الشرطين هو الأول كما في بدر .

ثم إنه سبحانه طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشير الظفر فقال جل شأنه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ الخ ، والاستفهام للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي

أأنكروا نزول ما وعدناهم أو أشكوا أو ألم ينظروا في ذلك ولم يروا ﴿ أَنَّا نَأْتِى الأرض ﴾ أي أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ من جوانبها بأن نفتحها شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء أليس هذا مقدمة لذاك .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغالبون ﴾ [ الأنبياء : 44 ] وروي ذلك عن ابن عباس .

والحسن .

والضحاك .

وعطية .

والسدي .

وغيرهم ، وروي عن ابن عباس أيضاً وأخرجه الحاكم عنه وصححه أن انتقاص الأرض موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها .

وفي رواية عن أبي هريرة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الاقتصار على الأخير ، وروي أيضاً عن مجاهد ، فالمراد من الأرض جنسها ، والأطراف كما قيل بمعنى الإشراف ، ومجيء ذلك بهذا المعنى محكي عن ثعلب ، واستشهد له الواحدي بقول الفرزدق :

واسأل بنا وبكم إذا وردت مني . . .

أطراف كل قبيلة من يمنع

---

وقريب من ذلك قول ابن الأعرابي : الطرف والطرف الرجل الكريم .

وقول بعضهم : طرف كل شيء خياره ، وجعلوا من هذا قول علي كرم الله تعالى وجهه : العلوم أودية في أي واد أخذت منها خسرت فخذوا من كل شيء طرفاً قال ابن عطية : أراد كرم الله تعالى وجهه خياراً ؛ وأنت تعلم أن الأظهر جانباً ، وادعى الواحدي أن تفسير الآية بما تقدم هو اللائق .



---

وتعقبه الإمام بأنه يمكن القول بلياقة الثاني ، وتقرير الآية عليه أو لم يروا أنا نحدث في الدنيا من الاختلافات خراباً بعد عمارة وموتاً بعد حياة وذلاً بعد عز ونقصاً بعد كمال وهذه تغييرات مدركة بالحس فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله تعالى الأمر عنهم فيجعلهم أذلة بعد أن كانوا أعزة ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين وهو كما ترى ، وقيل : نقصها هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وخراب أرضهم أي ألم يروا هلاك من قبلهم وخراب ديارهم فكيف يأمنون

من حلول ذلك بهم ، والأول أيضاً أوفق بالمقام منه ، ولا يخفى ما في التعبير بالإتيان المؤذن

بعظيم الاستيلاء من الفخامة كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ

هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ [ الفرقان : 23 ] وفي "الحواشي الشهابية" أن المعنى يأتيها أمرنا وعذابنا

، وجملة ﴿ نَنقُصُهَا ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿ يَأْتِىَ ﴾ أو من مفعوله ؛ وقرأ

الضحاك ﴿ نَنقُصُهَا ﴾ مثقلاً من نقص عداه بالتضعيف من نقص اللازم على ما في

"البحر" ﴿ والله يَحْكُمُ ﴾ ما يشاء كما يشاء وقد حكم لك ولأتباعك بالعز والإقبال

وعلى أعدائك ومخالفيك بالقهر والإذلال حسبما يشاهده ذوو الأبصار من المخائل والآثار

، وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة

وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى ، وهي جملة اعتراضية

جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها ، وقوله سبحانه : ﴿ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ اعتراض

أيضاً لبيان علو شأن حكمه جل وعلا ، وقيل : هو نصب على الحال كأنه قيل : والله تعالى

يحكم نافذاً حكمه كما تقول : جاء زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة أي حاسراً وإليه

ذهب الزمخشري ، قيل : وإنما أول الجملة الاسمية بالمفرد لأن تجردها من الواو إذا وقعت

حالاً غير فصيح عنده ولا يخفى عليك أن جعلها معترضة أولى وأعلى ، والمعقب من يكر

على

الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال ، ومنه يسمى الذي يطلب حقاً من آخر معقباً لأن يعقب غريمه ويتبعه للتقاضي ، قال لبيد :

حتى تهجر بالرواح وهاجها . . .

طلب المعقب حقه المظلوم

وقد يسمى الماطل معقباً لأنه يعقب كل طلب برد ، وعن أبي علي عقبني حقي أي مطلني ، ويقال للبحث عن الشيء تعقب ، وجوز الراغب أن يراد هذا المعنى هنا على أن يكون الكلام نهياً للناس أن يخوضوا في البحث عن حكمه وحكمته إذا خفيت عليهم ، ويكون ذلك من نحو النهي عن الخوض في سر القدر ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والأسر والإجلاء في الدنيا حسبما يرى ، وكأنه قيل : لا تستبطىء عقابهم فإنه آت لا محالة وكل آت قريب ، وقال ابن عباس : المعنى سريع الانتقام .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ﴾ الكفار ﴿ الذين ﴾ خلوا ﴿ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من قبل كفار مكة بأنبيائهم وبالمؤمنين كما فعل هؤلاء ، وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له في الحقيقة ، ولم يصرح سبحانه بذلك اكتفاءً بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعني قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ المكر ﴾ أي جنس المكر ﴿ جَمِيعاً ﴾ لا وجود لمكرهم أصلاً ، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون ويذرون بعلمه وقدرته سبحانه وإنما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ومن قضيته عصمة أوليائه سبحانه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما كسبت ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة إلى من مكروا بهم عين ولا أثر وإن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون ، كذا قاله شيخ الإسلام ، وقد تكلف قدس سره في ذلك ما تكلف ، وحمل الكسب على ما هو الشائع عند الأشاعرة والله تعالى لا يفرق بينه وبين الفعل وكذا رسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعون واللغويون ؛ وقيل : وجه الحصر أنه لا يعتد بمكر غيره سبحانه لأنه سبحانه هو القادر بالذات على إصابة المكروه المقصود منه وغيره تعالى إن قدر على ذلك فبتمكينه تعالى وإذنه فالكل راجع إليه جل وعلا .

وفي "الكشاف" أن قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ الخ تفسير لقوله سبحانه :

﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا ﴾ لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو له المكر لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة مما يراد بهم ، وقيل : الكلام على حذف مضاف أي فلله جزاء المكر .

*(52/414)*

---

وجوز في أل أن تكون للعهد أي له تعالى المكر الذي باشروه جميعاً لا لهم ، على معنى أن ذلك ليس مكراً منهم بالأنبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار ﴾ حين يأتيهم العذاب ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ أي العاقبة الحميدة من الفريقين وإن جهل ذلك قبل ، وقيل : السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمه به حينئذٍ ، والمراد من الكافر الجنس فيشمل سائر الكفار ، وهذه قراءة الحرميين .

وأبي عمرو ، وقرأ باقي السبعة ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار ﴾ بصيغة جمع التكسير .

وقرأ ابن مسعود ﴿ الكافرون ﴾ بصيغة جمع السلامة ، وقرأ أبي ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ وقرأ ﴿ الكفر ﴾ أي أهله ، وقرأ جناح بن حبيس ﴿ وَسَيَعْلَمُ ﴾ بالبناء للمفعول من أعلم أي سيخبر واللام للنفع ، وجوز أن تكون للملك على معنى سيعلم الكفرة من يملك

الدنيا آخراً ، وفسر عطاء ﴿ الكافر ﴾ بالمستهزئين وهم خمسة والمقسمين وهم ثمانية وعشرون ، وقال ابن عباس : يريد بالكافر أبا جهل ، وما تقدم هو الظاهر ، ولعل ما ذكر من باب التمثيل .

﴿ ويَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾

قيل : قاله رؤساء اليهود .

(53/414)

---

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : " قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقف من اليمن فقال له عليه الصلاة والسلام : هل تجدني في الإنجيل رسولاً ؟ قال : لا " فأنزل الله تعالى الآية ، فالمراد من الذين كفروا على هذا هذا ومن وافقه ورضي بقوله ، وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تعجيباً منها أو للدلالة على تجدد ذلك منهم واستمراره ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه جل وعلا قد أظهر على رسالتي من الأدلة والحجج ما فيه غني عن شهادة شاهد آخر ، وتسمية ذلك شهادة مع أنه فعل وهي قول مجاز من حيث أنه يغني غناها بل هو أقوى منها ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ أي علم القرآن وما عليه من النظم المعجز ، قيل : والشهادة إن أريد بها تحملها

فالأمر ظاهر وإن أريد أداؤها فالمراد بالموصول المتصف بذلك العنوان من ترك العناد وآمن .

وفي "الكشف" أن المعنى كفى هذا العالم شهيداً بيني وبينكم ، ولا يلزم من كفايته في الشهادة أن يؤديها فمن أداها فهو شاهد أمين ولم لم يؤدها فهو خائن ، وفيه تعريض بليغ بأنهم لو أنصفوا شهدوا ، وقيل : المراد ﴿ بالكتاب ﴾ التوراة والإنجيل ، والمراد بمن عنده علم ذلك الذين أسلموا من أهل الكتابين كعبد الله بن سلام .

وإضرابه فإنهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتابهم وإلى هذا ذهب قتادة ، فقد أخرج عبد الرزاق .

وابن جرير .

وابن المنذر عنه أنه قال في الآية : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه منهم عبد الله بن سلام .

والجارود .

وتميم الداري .

وسلمان الفارسي ، وجاء عن مجاهد .

وغيره وهي رواية عن ابن عباس أن المراد بذلك عبد الله ولم يذكروا غيره .

وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال : جاء عبد الله بن سلام

حتى أخذ بعضادتي باب المسجد ثم قال : أنشدكم بالله تعالى أتعلمون أني الذي أنزلت فيه ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ ؟ قالوا : اللهم نعم .

(54/414)

---

وأنكر ابن جبير ذلك ، فقد أخرج سعيد بن منصور وجماعة عنه أنه سئل أهذا الذي عنده علم الكتاب هو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية .

والشعبي أنكر أن يكون شيء من القرآن نزل فيه وهذا لا يعول عليه فمن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وأجيب عن شبهة ابن جبير بأنهم قد يقولون : إن السورة مكية وبعض آياتها مدنية فلتكن هذه من ذلك ، وأنت تعلم أنه لا بد لهذا من نقل .

وفي "البحر" أن ما ذكر لا يستقيم إلا أن تكون هذه الآية مدنية والجمهور على أنها مكية ، وأجيب بأن ذلك لا ينافي كون الآية مكية بأن يكون الكلام إخباراً عما سيشهد به ، ولك أن تقول .

إذا كان المعنى على طرز ما في "الكشف" وأنه لا يلزم من كفاية من ذكر في الشهادة أداؤها لم يضر كون الآية مكية وعدم إسلام عبد الله بن سلام حين نزولها بل ولا عدم حضوره ، ولا مانع أن تكون الآية مكية ، والمراد من الذين كفروا أهل مكة ﴿ وَمَّن عِندَهُ عِلْمُ الكتاب

﴾ اليهود والنصارى كما أخرجه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ويكون حاصل الجواب بذلك إنكم لستم بأهل كتاب فاسألوا أهله فإنهم في جواركم .

نعم قال شيخ الإسلام : إن الآية مدنية بالاتفاق وكأنه لم يقف على الخلاف ، وقيل : المراد بالكتاب اللوح و ﴿ مِنْ ﴾ عبارة عنه تعالى ؛ وروي هذا عن مجاهد .

والزجاج ، وعن الحسن لا والله ما يعني إلا الله تعالى ، والمعنى كما في الكشاف كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم ، وبهذا التأويل صار العطف مثله في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . .

وليث الكتيبة في المزدحم

فلا محذور في العطف ، والحصر إما من الخارج لأن علم ذلك مخصوص به تعالى أو للذهاب إلى أن الظرف خبر مقدم فيفيد الحصر .



---

وقسم الحسن للمبالغة في رد ما زعموا على ما قيل : وفي "الكشف" إنما بالغ الحسن لما قدمنا من بناء السورة الكريمة على ما بنى وجعل السابقة مثل الخاتمة وما في العطف من

النكتة ، ولهذا فسره الزمخشري بقوله : كفى بالذي الخ عطفه عطف ذات على ذات إشارة إلى الاستقلال بالشهادة من كل واحد من الوصفين من غير نظر إلى الآخر فالذي يستحق العبادة قد شهد بما شحن الكتاب من الدعوة إلى عبادته وبما أيد عبده من عنده بأنواع التأييد والذي لا يعلم علم ما في اللوح أي علم كل شيء إلا هو قد شهد بما ضمن الكتاب من المعارف وأنزله على أسلوب فائق على المتعارف ، ويعضد ذلك القول أنه قرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وأبي .

وابن عباس .

وعكرمة .

وابن جبير .

وعبد الرحمن بن أبي بكرة .

والضحاك .

وسالم بن عبد الله بن عمر .

وابن أبي إسحاق .

ومجاهد .

والحكم .

والأعمش ﴿ وَمَنْ عِندِهِ عِلْمُ الكتاب ﴾ بجعل من حرف جر والجار والمجرور خبر مقدم وعلم مبتدأ مؤخر.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه أيضاً.

وابن السميقع.

والحسن بخلاف عنه ﴿ وَمَنْ عِندِهِ ﴾ بحرف الجر و ﴿ عِلْمُ الكتاب ﴾ على أن علم فعل مبني للمفعول و ﴿ الكتاب ﴾ نائب الفاعل فإن ضمير ﴿ عِندَهُ ﴾ على القراءتين راجع لله تعالى كما في القراءة السابقة على ذلك التأويل والأصل توافق القراآت، وقيل: المراد بالكتاب اللوح ﴿ وبِمَن ﴾ جبريل عليه السلام.

وأخرج تفسير ﴿ مِنْ ﴾ بذلك ابن أبي حاتم عن ابن جبير وهو كما ترى.

وقال محمد بن الحنفية.

(56/414)

---

والباقر كما في "البحر": المراد ﴿ بِمَن ﴾ علي كرم الله تعالى وجهه، والظاهر أن المراد ﴿ بالكتاب ﴾ حينئذٍ القرآن، ولعمري أن عنده رضي الله تعالى عنه علم الكتاب كملاً لكن الظاهر أنه كرم الله تعالى وجهه غير مراد، والظاهر أن ﴿ مِنْ ﴾ في قراءة الجمهور في

محل جر بالعطف على لفظ الاسم الجليل ، ويؤيده أنه قرئ بإعادة الباء في الشواذ ، وقيل : إنه في محل رفع بالعطف على محله لأن الباء زائدة ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون في موضع رفع على الإبتداء والخبر محذوف تقديره أعدل أو أمضى قولاً أو نحو هذا مما يدل عليه لفظ ﴿ شَهِيداً ﴾ ويراد بذلك الله تعالى ، وفيه من البعد ما لا يخفى ، والعلم في القراءة التي وقع ﴿ عِندَهُ ﴾ فيها صلة مرفوع بالمقدر في الظرف ؛ فيكون فاعلاً لأن الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول فعمل عمل الفعل كقولك : مررت بالذي في الدار أخوه فأخوه فاعل كما تقول : بالذي استقر في الدار أخوه قاله الزمخشري ، وليس بالمتحتم لأن الظرف وشبهه إذا وقعا صلتين أو صفتين أو حالين أو خبرين أو تقدمهما أداة نفي أو استفهام جاز فيما بعدهما من الاسم الظاهر أن يرتفع على الفاعلية وهو الأجوز وجاز أن يكون مبتدأ والظرف أو شبهه في موضع الخبر والجملة من المبتدا والخبر صلة أو صفة أو حال أو خبر ، وهذا مبني على اسم الفاعل فكما جاز ذلك فيه وإن كان الأحسن أعماله في الاسم الظاهر فكذلك يجوز فميا ناب عنه من ظرف أو مجرور ، وقد نص سيبويه على إجازة ذلك في نحو مررت برجل حسن وجهه فأجاز رفع حسن على أنه خبر مقدم ، وقد توهم بعضهم أن اسم الفاعل إذا اعتمد على شيء مما ذكر تحتم أعماله في الظاهر وليس كذلك ، وقد أعرب الحوفي ﴿ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ مبتدأ

وخبراً في صلة ﴿ مِنْ ﴾ وهو ميل إلى المرجوح ، وفي الآية على القراءتين بمن الجارة دلالة على أن تشريف العبد بعلوم القرآن من إحسان الله تعالى إليه وتوفيقه ،

(57/414)

---

نسأل الله تعالى أن يشرفنا بها تيك العلوم ويوفقنا للوقوف على أسرار ما فيه من المنطوق والمفهوم ويجعلنا ممن تمسك بعروته الوثقى واهتدى بهداه حتى لا يضل ولا يشقى ببركة النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(58/414)

---

وقال الشوكانى :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ " ما " زائدة وأصله : وإن نرك ﴿ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب كما وعدناهم بذلك بقولنا : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ وبقولنا : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ والمراد أريناك بعض ما نعدهم قبل موتك ، أو توفيناك قبل إراءتك لذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ أي : فليس عليك إلاّ تبليغ أحكام الرسالة ،

ولا يلزمك حصول الإجابة منهم لما بلغته إليهم ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ أي : محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها ، وليس ذلك عليك .

وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به ، وليس عليه غيره ، وأن من لم يجب دعوته ، ويصدّق نبوّته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني أهل مكة ، والاستفهام للإنكار ، أي : أولم ينظروا ﴿ أَنَّا نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي : نأتي أرض الكفر كمكة ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها شيئاً فشيئاً .

قال الزجاج : أعلم الله أن بيان ما وعد المشركين من قهرهم قد ظهر ، يقول : أولم يروا أنا فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم ، فكيف لا يعتبرون ؟ وقيل : إن معنى الآية : موت العلماء والصلحاء .

قال القشيري : وعلى هذا فالأطراف الأشراف .

وقد قال ابن الأعرابي : الطرف الرجل الكريم .

قال القرطبي : وهذا القول بعيد ؛ لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان في أمرهم ليعلموا أن تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز إلاّ أن يحمل على موت أحبار اليهود والنصارى .

وقيل : المراد من الآية خراب الأرض المعمورة حتى يكون العمران في ناحية منها .

وقيل : المراد بالآية هلاك من هلك من الأمم .

وقيل : المراد نقص ثمرات الأرض .

وقيل : المراد جور ولاتها حتى تنقص .

(59/414)

---

﴿ واللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أي : يحكم ما يشاء في خلقه ، فيرفع هذا ويضع هذا ، ويحيي وهذا ويميت هذا ، ويغني هذا ، ويفقر هذا ، وقد حكم بعزّة الإسلام وعلوّه على الأديان .

وجملة ﴿ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ في محل نصب على الحال .

وقيل : معترضة .

والمعقب : الذي يكرّ على الشيء فيبطله ، وحقيقته الذي يقفيه بالردّ والإبطال .

قال الفراء : معناه لا رادّ لحكمه ، قال : والمعقب الذي يتبع الشيء فيستدركه ، ولا يستدرك أحد عليه ، والمراد من الآية أنه لا يتعقب أحد حكم الله سبحانه بنقص ولا تغيير .

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته على السرعة

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا ﴾ أي : قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل ؛ فكادوهم وكفروا بهم ، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه ، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم ، وأن المكر كله لله ، فقال : ﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا ﴾ لا اعتداد بمكر غيره ، ثم فسر سبحانه هذا المكر الثابت له دون غيره ، فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من خير وشرّ فيجازيها على ذلك .

ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها كان المكر كله له ؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يشعرون .

وقال الواحدي : إن مكر الماكرين مخلوق فلا يضرّ إلاّ بإرادته .

وقيل : المعنى فللّه جزاء مكر الماكرين ﴿ وَسَيَعْلَمُ * الكافر لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو " الكافر " بالإفراد ، وقرأ الباقون ﴿ الكفار ﴾ بالجمع ، أي : سيعلم جنس الكافر لمن العاقبة المحمودة من الفريقين في دار الدنيا ، أو في الدار الآخرة ، أو فيهما .

وقيل المراد بالكافر ، أبو جهل .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ أي : يقول المشركون أو جميع الكفار : لست يا محمد مرسلاً إلى الناس من الله ، فأمره الله سبحانه بأن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فهو يعلم صحة رسالتي ، وصدق دعواتي ، ويعلم كذبكم ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ أي : علم جنس الكتاب كالتوراة والإنجيل ، فإن أهلهما العالمين بهما يعلمون صحة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الداري ونحوهم ، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم ، فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك .

وقيل : المراد بالكتاب القرآن ، ومن عنده علم منه هم المسلمون .

وقيل : المراد من عنده علم اللوح المحفوظ ، وهو الله سبحانه ، واختار هذا الزجاج وقال : لأن الأشبه أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : " ذهاب العلماء " وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، ونعيم بن حماد في الفتن ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار

أهلها .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير عن مجاهد في تفسير الآية قال : موت العلماء .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك في الآية قال : يعني أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون .

*(61/414)*

---

وقال الله في سورة الأنبياء : ﴿ نَأْتِى الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغالبون ﴾ [ الأنبياء : 44 ] .

بل نبي الله وأصحابه هم الغالبون .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : نقصان أهلها وبركتها .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : إنما تنقص الأنفس والثمرات وأما الأرض فلا تنقص .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن مجاهد نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ والله يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ليس أحد يتعقب حكمه فيردّه كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقف من اليمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل تجدني في الإنجيل؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ "يقول عبد الله بن سلام.

وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب قال: جاء عبد الله بن سلام حتى أخذ بعضاضتي باب المسجد، ثم قال: أنشدكم بالله أتعلمون أني الذي أنزلت فيّ: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾؟ قالوا: اللهم نعم.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق أخرى عنه نحوه.

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ قال: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في الآية قال: كان قوم من

أهل الكتاب يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام ، والجارود ، وتميم الداري ، وسلمان الفارسي .

(62/414)

---

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وابن عديّ بسندٍ ضعيف عن ابن عمر ، أن النبيّ قرأ : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ قال : " ومن عند الله علم الكتاب " .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ يقول : ومن عند الله علم الكتاب .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس في ناسخه عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ أهو عبد الله بن سلام؟ قال : كيف؟ وهذه السورة مكية .

. وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال : ما نزل في عبد الله بن سلام شيء من القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: هو الله. انتهى ا. هـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(63/414)

---

وقال القاسمي:

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾

أي: من إنزال العذاب في حياتك: ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ أي: قبل ذلك: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ أي: تبليغ الوحي: ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم. قال أبو حيان: جواب الشرط الأول: (فذلك شافيك) والثاني: (فلا لوم عليك) وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ﴾ الخ دليل عليهما.

(64/414)

---

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي: أرض الكفرة، ننقصها عليهم بإظهار دين الإسلام في أطراف ممالكهم.

قال ابن عباس : أي : أولم يروا أنا نفتح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعني أن انتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينجز وعده ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [ الأنبياء : من الآية 44 ] ، وقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ [ فصلت : من الآية 53 ] .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعني لم يؤخر عذابهم لإهمالهم ، بل لوقته المقدر ، أوَ ما تَرَى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام ، ولم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سنة الغفلة . ومعنى : ﴿ نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ يأتيها أمرنا وعذابنا . انتهى .

وقيل : ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم . فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبيه :

يذكرون – ها هنا – رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهري حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف ، جمع طرف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق :

~واسأل بنا وبكم إذا وردت منى أطراف كل قبيلة من يتبع

يريد أشراف كل قبيلة . فمعنى الآية : أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ، وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ؛ فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفاك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلاً لخطب موت العلماء بسبب أنهم أركان الأرض وصلاحها وكمالها وعمرانها ، فموتهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد بن غزال :

~الأرض تحيى إذا ما عاش عالمها متى يمت عالم منها يمت طرف

~كالأرض تحيى إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أكنافها التلف

ولذا قال الزهري كما في " لسان العرب " : أطراف الأرض نواحيها ، الواحد طرف ، و : ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أي : نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا من فسر ( نقصها من أطرافها ) فتوح الأرضين . وأما من جعل ( نقصها من أطرافها ) موت علمائها فهو من غير هذا ، قال : والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ أي : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالعز والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من المخايل والآثار . وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخمة وتربية

المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلة ما لا يخفى ، وهو جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ اعتراض في اعتراض ؛ لبيان علو شأن حكمه تعالى ، وقيل : نصب على الحالية ، كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ، كما تقول : جاء زيد لا عمامة على رأسه ، أي : حاسراً . و ( المعقب ) من ينكر على الشيء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه ويقفّيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

(66/414)

---

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي : فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا بالقتل والأسر .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكروه بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله : ﴿ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ﴾ إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يومئ إليه قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أي : فيوفيها جزاءها

المعد لها على ما كسبت من فنون المعاصي التي منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أي : العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [ النمل : 50 - 52 ] .

(67/414)

---

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه أظهر على رسالتي ، من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ، وما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة ( وهو فعل والشهادة قول ) على سبيل الاستعارة ؛ لأنه يغني عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعم من القول والفعل . على أن المراد من تلك الحجج هي آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهي كلامه تعالى ، وقد قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ [ يونس : 53 ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ أي : ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته في كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال

تعالى : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [ الأعراف : 157 ]

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ ﴾ [ الشعراء : 197 ] .

ويروى عن مجاهد أنه عنى بـ : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ عبد الله بن سلام . ونوقش بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المكية ربما وجد في مدني وبالعكس ، وكأن هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في " دلائل النبوة " : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه . ثم آب إلى المدينة وكتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 297 . 300 ﴾

*(68/414)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) ﴾

عطف على جملة ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ [ الرعد : 39 ] باعتبار ما تفيده من

إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات ، فبينت هذه الجملة أن النبي ليس مأموراً بالاشتغال بذلك ولا بترقبه وإنما هو مبلّغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبي ذلك أم لم يشهده .

وجعل التوفي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله : ﴿ نرينك ﴾ .

والمعنى : ما عليك إلا البلاغ سواء رأيت عذابهم أم لم تره .

وفي الإتيان بكلمة ﴿ بعض ﴾ إيماء إلى أنه يرى البعض .

وفي هذا إنذار لهم بأن الوعيد نازل بهم ولو تأخر ؛ وأن هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعاً ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه الذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعاً مستمراً بعده ، ضرورة أن الوسيلة لا تكون من الأهمية بأشدّ من المقصد المقصودة لأجله .

وتأكيد الشرط بنون التوكيد و ﴿ مَا ﴾ المزيدة بعد ﴿ إنْ ﴾ الشرطية مراد منه تأكيد الربط بين هذا الشرط وجوابه وهو ﴿ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

على أن نون التوكيد لا يقترن بها فعل الشرط إلاّ إذا زيدت ﴿ ما ﴾ ؛ بعد ﴿ إن ﴾ الشرطية فتكون إرادة التأكيد مقتضية لاجتلاب مؤكدين ، فلا يكون ذلك إلا لغرض تأكيد قويّ .

وقد أرى الله نبيئه بعض ما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم

حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يُرِه بعضه مثل عذاب أهل الردة فإن معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل : مسيلمة الكذاب .

(69/414)

---

وفي الآية إيماء إلى أن العذاب الذي يحل بالمكذبين لرسوله صلى الله عليه وسلم عذاب قاصر على المكذبين لا يصيب غير المكذب لأنه استئصال بالسيف قابل للتجزئة واختلاف الأزمان رحمةً من الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم

و﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ مستعملة في الإيجاب والإلزام ، وهو في الأول حقيقة وفي الثاني مجاز في الوجوب لله بالتزامه به .

و﴿ إنما ﴾ للحصر ، والمحصور فيه هو البلاغ لأنه المتأخر في الذكر من الجملة المدخولة لِحرف الحصر ، والتقدير : عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب ، ولهذا قدم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه .

وجملة ﴿ وعلينا الحساب ﴾ عطف على جملة ﴿ عليك البلاغ ﴾ فهي مدخولة في المعنى لحرف الحصر .

والتقدير : وإنما علينا الحساب ، أي محاسبتهم على التكذيب لا غير الحساب من إجابة

مقترحاتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) ﴾

عطف على جملة ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ [ الرعد : 40 ] المتعلقة بجملة لكل أجل كتاب ﴾ .

عقبت بهذه الجملة لإنذار المكذبين بأن ملامح نصر النبي صلى الله عليه وسلم قد لاحت وتباشير ظَفَرِه قد طلعت ليتدبروا في أمرهم ، فكان تعقيب المعطوف عليها بهذه الجملة للاحتراس من أن يتوهموا أن العقاب بطيء وغيرُ واقع بهم .

وهي أيضاً بشارة للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله مظهر نصره في حياته وقد جاءت أشراطه ، فهي أيضاً احتراس من أن ييأس النبي صلى الله عليه وسلم من رؤية نصره مع علمه بأن الله متم نوره بهذا الدّين .

والاستفهام في ﴿ أولم يروا أنا ﴾ إنكاري ، والضمير عائد إلى المكذبين العائد إليهم ضمير ﴿ نعدهم ﴾ .

والكلام تهديد لهم بإيقاظهم إلى ما دب إليهم من أشباح الاضمحلال بإنقاص الأرض ، أي سكانها .

والرؤية يجوز أن تكون بصرية .

والمراد : رؤية آثار ذلك النقص ؛ ويجوز أن تكون علمية ، أي ألم يعلموا ما حل بأرضي الأمم السابقة من نقص .

وتعريف ﴿ الأرض ﴾ تعريف الجنس ، أي نأتي أية أرض من أرضي الأمم .

وأطلقت الأرض هنا على أهلها مجازاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ سورة يوسف : 82 ] بقرينة تعلق النقص بها ، لأن النقص لا يكون في ذات الأرض ولا يرى نقص فيها ولكنه يقع فيمن عليها .

وهذا من باب قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ [ سورة محمد : 10 ] .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالأرض ﴾ أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد ، وتكون الرؤية بصرية ، ويكون ذلك إيقاظاً لهم لما غلب عليه المسلمون من أرض العدوّ فخرجت من سلطانه فتنقص الأرض التي كانت في تصرفهم وتزيد الأرض الخاضعة لأهل الإسلام .

وبنوا على ذلك أن هذه الآية نزلت بالمدينة وهو الذي حمل فريقاً على القول بأن سورة الرعد

مدنية فإذا اعتبرت مدنية صح أن تفسر الأطراف بطرفين وهما مكة والمدينة فإنهما طرفا بلاد العرب ، فمكة طرفها من جهة اليَمن ، والمدينة طرف البلاد من جهة الشام ، ولم يزل عدد الكفار في البلدين في انتقاص بإسلام كفارها إلى أن تمحضت المدينة للإسلام ثم تمحضت مكة له بعد يوم الفتح .

وأيًّا ما كان تفسير الآية وسبب نزولها ومكانه فهي للإنذار بأنهم صائرون إلى زوال وأنهم مغلوبون زائلون ، كقوله في الآية الأخرى في سورة الأنبياء : ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ [ سورة الأنبياء : 51 ] ، أي ما هم الغالبون .

وهذا إمهال لهم وإعذار لعلهم يتداركون أمرهم .

(71/414)

---

وجملة ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ [ سورة الرعد : 41 ] عطف على جملة أولم يروا أنا ﴾ مؤكدة للمقصود منها ، وهو الاستدلال على أن تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه ، فاستدل على ذلك بجملة ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ ثم بجملة ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ﴾ ثم بجملة ﴿ والله يحكم ﴾ ، لأن المعنى : أن ما حكم الله به من العقاب لا يبطله أحد وأنه واقع ولو تأخر .

ولذلك فجملة ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ في موضع الحال ، وهي المقيدة للفعل المراد إذ هي مصب الكلام إذ ليس الغرض الإعلام بأن الله يحكم إذ لا يكاد يخفى ، وإنما الغرض التنبيه إلى أنه لا معقب لحكمه .

: وأفاد نفي جنس المعقب انتفاء كل ما من شأنه أن يكون معقباً من شريك أو شفيع أو داع أو راغب أو مستعصم أو مفتد .

والمعقب : الذي يعقب عملاً فيبطله ، مشتق من العَقِب ، وهو استعارة غلبت حتى صارت حقيقة .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ له معقبات ﴾ [ سورة الرعد : 11 ] في هذه السورة ، كأنه يجيء عقب الذي كان عمل العمل .

وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار الذي في قوله : أنا نأتي الأرض ﴾ لتربية المهابة ، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع ، وأيضاً لتكون الجملة مستقلة بنفسها لأنها بمنزلة الحكمة والمثل .

وجملة ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ يجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ والله يحكم ﴾ فتكون دليلاً رابعاً على أن وعده واقع وأن تأخره وإن طال فما هو إلا سريع باعتبار تحقق وقوعه ؛ ويجوز أن يكون عطفاً على جملة الحال .

والمعنى : يحكم غير منقوص حكمه وسريعاً حسابه .

ومآل التقديرين واحد .

والحساب : كناية عن الجزاء والسرعة : العجلة ، وهي في كل شيء بحسبه .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) ﴾

(72/414)

---

لما كان قوله : ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [ سورة الرعد : 41 ] تهديداً وإنذاراً مثل قوله : ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ [ محمد : 18 ] وهو إنذار بوعيد على تظاهرهم بطلب الآيات وهم يضمرون التصميم على التكذيب والاستمرار عليه .

شبه عملهم بالمكر وشبه بعمل المكذبين السابقين كقوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ [ سورة الأنبياء : 6 ] .

وفي هذا التشبيه رمز إلى أن عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها .

فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر الله بهم جزاء مكرهم ، فلذلك أعقب بقوله : وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ أي كما مكر هؤلاء .

فجملة ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ حال أو معترضة .

وجملة ﴿ فللَّه المكر جميعاً ﴾ تفريع على جملة ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الرعد : 41] وجملة ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ [الرعد : 41].

والمعنى : مكرَ هؤلاء ومكرَ الذين من قبلهم وحل العذاب بالذين من قبلهم فمكر الله بهم وهو يمكر بهؤلاء مكراً عظيماً كما مكر بمن قبلهم.

وتقديم المجرور في قوله : فللَّه المكر جميعاً ﴾ للاختصاص، أي له لا لغيره، لأن مكره لا يدفعه دافع فمكر غيره كلاَ مكر بقرينة أنه أثبت لهم مكراً بقوله : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾.

وهذا بمعنى قوله تعالى : ﴿ والله خير الماكرين ﴾.

وأكد مدلول الاختصاص بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ وهو حال من المكر.

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً في [سورة يونس : 4].

وإنما جعل جميع المكر لله بتنزيل مكر غيره منزلة العدم، فالقصر في قوله : فللَّه المكر ﴾ ادعائي، والعموم في قوله : ﴿ جميعاً ﴾ تنزيليّ.

وجملة ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ بمنزلة العلة لجملة ﴿ فللَّه المكر جميعاً ﴾ ، لأنه لما كان يعلم ما تكسب كل نفس من ظاهر الكسب وباطنه كان مكره أشد من مكر كل نفس لأنه لا يفوته شيء مما تضمره النفوس من المكر فيبقى بعض مكرهم دون مقابلة بأشد منه فإن القوي الشديد الذي لا يعلم الغيوب قد يكون عقابه أشد ولكنه قد يفوقه الضعيف بحيلته .

وجملة ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ عطف على جملة ﴿ فللَّه المكر جميعاً ﴾ .

والمراد بالكافر الجنس ، أي الكفار ، و ﴿ عقبى الدار ﴾ تقدم آنفاً ، أي سيعلم عقبى الدار للمؤمنين لا للكافرين ، فالكلام تعريض بالوعيد .

وقرأ الجمهور : ﴿ وسيعلم الكافر ﴾ بإفراد الكافر .

وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة والكسائي ، وخلف ﴿ وسيعلم الكفار ﴾ بصيغة الجمع .

والمفرد والجمع سواء في المعرف بلام الجنس .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

عطف على ما تضمنته جملة ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ [ الرعد : 42 ] من

التعريض بأن قولهم: لولا أنزل عليه آية من ربه [سورة الأنعام: 37] ضَرْب من المكر بإظهارهم أنهم يتطلبون الآيات الدالة على صدق الرسول، مظهرين أنهم في شك من صدقه وهم يبطنون التصميم على التكذيب.

فذكرت هذه الآية أنهم قد أفصحوا تارات بما أبطنوه فنطقوا بصريح التكذيب وخرجوا من طور المكر إلى طور المجاهرة بالكفر فقالوا: لست مرسلاً ﴾.

وقد حكي قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق، كما عبر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [سورة هود: 38] وقوله: ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [سورة هود: 11].

ولما كانت مقالتهم المحكية هنا صريحة لا مواربة فيها أمر الرسول بجواب لا جدال فيه وهو تحكيم الله بينه وبينهم.



---

وقد أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع.

ولما كانت الشهادة للرسول عليه الصلاة والسلام بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم .

وإشهاد الله في معنى الحلف على الصدق كقول هود عليه السلام ﴿ إنّي أشهد الله ﴾ [ هود : 54 ] .

والباء الداخلة على اسم الجلالة الذي هو فاعل كفى ﴾ في المعنى للتأكيد وأصل التركيب : كفى اللّهُ .

و﴿ شهيداً ﴾ حال لازمة أو تمييز ، أي كفى الله من جهة الشاهد .

﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ معطوف على اسم الجلالة .

والموصول في ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ يجوز أن يراد به جنس من يتصف بالصلة .

والمعنى : وكل من عندهم علم الكتاب .

وإفراد الضمير المضاف إليه ﴿ عِنْدَ ﴾ لمراعاة لفظ ﴿ من ﴾ .

وتعريف ﴿ الكتاب ﴾ تعريف للعهد ، وهو التوراة ، أي وشهادة علماء الكتاب .

وذلك أن اليهود كانوا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يستظهرون على المشركين بمجيء النبي المصدق للتوراة .

ويحتمل أن يكون المراد بمن عنده علم الكتاب معيّناً ، فهو ورقة بن نوفل إذ علم أهل مكة أنه شهد بأن ما أوحي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الناموس الذي أنزل على

موسى عليه السلام كما في حديث بدء الوحي في الصحيح .

وكان ورقة منفرداً بمعرفة التوراة والإنجيل .

وقد كان خبر قوله للنبيء صلى الله عليه وسلم ما قاله معروفاً عند قريش .

.

فالتعريف في ﴿ الكتاب ﴾ تعريف الجنس المنحصر في التوراة والإنجيل .

وقيل : أريد به عبد الله بن سلام الذي آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم في أول مقدمهِ المدينة .

ويبعده أن السورة مكية كما تقدم .

*(75/414)*

---

ووجه شهادة علماء الكتاب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وجدانهم البشارة بنبيء خاتم للرسل صلى الله عليه وسلم ووجدانهم ما جاء في القرآن موافقاً لسنن الشرائع الإلهية ومفسراً للرموز الواردة في التوراة والإنجيل في صفة النبي صلى الله عليه وسلم المصدق الموعود به .

ولهذا المعنى كان التعبير في هذه الآية بـ ﴿ من عنده علم الكتاب ﴾ دون أهل الكتاب لأن

تطبيق ذلك لا يدركه إلا علماؤهم .

قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ [ سورة الشعراء : 97 ] .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾



---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ .

الظاهر أن قوله ومن عنده علم الكتاب عطف على لفظ الجلالة وأن المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل ويدل له قوله تعالى ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [ آل عمران : 18 ] الآية وقوله ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ﴾ [ يونس : 94 ] الآية وقوله ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 43 ] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) ﴾

هذه الآية تُحدِّد مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يُبلِّغ منهج الله ، فمن شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه في رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ التوبة : 128 ]

جعله هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله في موقع آخر : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [ الكهف : 6 ]

أي : أنك لستَ مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألاَّ تحزن إنْ لم ينضمُّوا إلى الموكب الإيماني ، وكُلُّ ما عليك أن تدعوهم وتُبلِّغهم ضرورة الإيمان ؛ والحق سبحانه هو الذي سوف يحاسبهم إما في الدنيا بالمحو والإهاب ، أو في الآخرة بأن يَلْقَوْا عذاب النار .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [ الرعد : 40 ]

فنحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبُر يوماً بعد يوم ؛ ودعوات الشر تبهت يوماً بعد يوم . ومَنْ يدعو إلى الخير يُحِب ويتشوق أنْ يرى ثمار دعوته وقد أينعتْ ، ولكن الأمر في بعض دعوات الخير قد يحتاج وقْتاً يفوق عمر الداعي .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ . . . ﴾ [ الرعد : 40 ]

(78/414)

---

أي : اغرس الدعوة ، ودَعْ مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ، وأنت حين تتفرّغ للغَرْس فقط ؛ ستجد الخير والثمار تأتي حين يشاء الله ؛ سواء شاء ذلك إبّان حياتك أو من بعد موتك .

وأنت إذا نظرتَ إلى الدعوات التي تستقبلها الحياة تجد أن لكل دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن القائمين على تلك الدعوات قد تعجّلوا الثمرة ؛ مع أنهم لو تمهّلوا ليقطفها مَنْ يأتي بعدهم لَنجحتْ تلك الدعوات .

ونحن في الريف نرى الفلاح يغرس ؛ ومن خلال غَرْسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتي بعده ؟

فَمنْ يغرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يغرس نخلة أو شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد سنين طويلة ، تبلغ سبع سنوات في بعض الأحيان ، وهذا يزرع ليؤدي لِمَنْ يجئ ما أداه له مَنْ ذهبَ .

ونحن نأكل من تَمْرٍ زَرَعه لنا غيرنا مِمَّنْ ذهبوا ، ولكنهم فكّروا فيمَنْ سيأتي من بعدهم ، ومَنْ يفعل ذلك لأبدَّ وأن يكون عنده سِعَة في الأرض التي يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سِعَة من الأرض فهو يفكر فقط فيمَنْ يعول وفي نفسه فقط ؛ لذلك يزرع على قَدْر ما يمكن أن تعطيه الأرض الآن .

أما مَنْ يملك سِعَة من الأرض وسِعَة في النفس ؛ فهو مَنْ وضع في قلبه مسئولية الاهتمام بمَنْ سيأتون بعده .

وأنْ يردّ الجميل الذي أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره ممَّنْ سيأتون من بعده .

ودعوة محمد عليه الصلاة والسلام شِهدتْ له بأنه لم يبحثْ لنفسه عن ثمرة عاجلة ؛ بل نجد الدعوة وهي تُقابل الصِّعاب تِلْو الصعاب ، ويَلْقي صلى الله عليه وسلم ما تلقَّى من العنت والإرهاق والجهد ؛ بعد أنْ جهر بالدعوة في عشيرته الأقربين .

ثم ظلَّتْ الدعوة تتسع في بعض العشائر والبطون إلى أن دالت عاصمة الكفر ؛ وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله ، وأرسل صلى الله عليه وسلم الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله صلى الله عليه وسلم " أسلم تسلم " .

ودلَّتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هي دعوة مُمتدَّة لكل الناس ؛ تطبيقاً لِمَا قاله الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه : " رسول للناس كافة " .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً . . . ﴾ [ سبأ : 28 ]

وفَهِم الناس الفَارِق بين رسالته صلى الله عليه وسلم وبين كَافَّة الرسالات السابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً عليه السلام .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . . ﴾ [ الأعراف : 65 ]

وقال عن أهل مَدْين : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . ﴾ [ الأعراف : 85 ]

وقال عن بَعْثة موسى : ﴿ وَرَسُولاً إلى بني إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ [ آل عمران : 49 ]

وهكذا حدَّد الحق سبحانه زمان ومكان القوم في أيِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً وجعله للناس كَافَّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم ؛ لذلك أرسل رسول الله إلى حُكَّام

العالم المعاصرين له دعوةً لدخول الدين الخاتم .

وقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم تلك المهمة لَمنْ يخلفونه ، ودعا صلى الله عليه وسلم الجزيرة العربية تحت لواء " لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " بعد أن كانت قبائل متعددة .

(80/414)

---

كل قبيلة كانت لا تُلزِم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ؛ وكل قبيلة لا تلزم نفسها بتقنين القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شَمْل ، ولا استيطانَ لهم إلا في بعض القُرَى ، ذلك أن أغلبهم من البَدْو الرُّحَّل ؛ كل واحد منهم يحمل بيته الخيمة على ظهر بعيره ، ويمشي بحثاً عن الكلأ والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطني ؛ فضلاً عن القبائل التي كانت تتقاتل فيما بينها في تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً في بعض الأحيان .

استطاع صلى الله عليه وسلم أن يُوظِّف ما كانوا عليه من تدريب وعَتَاد وعُدَّةٍ لِنُصْرة دين الله ؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياره للسرايا كان يجد المقاتلين في كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجرِ لهم تدريبات ؛ فقد كان الكل مُدرَّباً على القتال .

وهكذا صارتْ القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وحدة التكامل العقدي تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية ، قال فيها الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ . . . ﴾ [ الجمعة : 2 ]

وكانت هذه الأمية شرفاً لهم كَيْلا يُقال : إنهم أصحاب قَفْزة حضارية من أمة مُتمدينة .

وكانت هذه الأمية مُلْفتة ، لأن ما جاء في تلك الأمة من تشريعات وقفتْ أمامه الأمم الأُخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الأمة أن تحمِل رسالة السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً . . . ﴾ [ المائدة : 3 ]

فَهِم بعض الناس أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينعِي نفسه لأمته .

(81/414)

---

ومن بعد رحيله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم في الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان ؛ جناح في الشرق ، وجناح في الغرب . وهزم أكبر إمبراطوريتين متعاصرتين له ؛ هما إمبراطورية فارس

بحضارتها وإمبراطورية الروم .

وكانت البلاد تتخطَّف الإسلامَ كمنهج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلامُ الإمبراطوريتين في آنٍ واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليتحقَّقوا من معجزته التي لَمسُوها في خُلُق مَنْ سمِعوا القرآن وحَملوا رسالته ؛ ثم في اكتشافهم لعدالة القرآن في إدارة حركة الحياة .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ؛ وأن رسوله صلى الله عليه وسلم هو الرسول الخاتم الذي لم يَأْتِ لهم بمعجزة حِسِّية ، وإذا كان القرآن معجزة في اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالقرآن لِمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة في العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به ، وبقوة جَذْب من غير المؤمنين ؛ حين يروْنَ ألاَّ فَرْق بين الأمير وأصغر فَرْد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . ﴾ [ فصلت : 53 ]

ونجد مُفكِّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ؛ بل نظر فقط في المبادئ التي قنَّنها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لِمَا عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل

القوانين في كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءتْ لرسول ينتمي لأمة لم تبرعْ إلا في البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعاني منها الدنيا كلها .

(82/414)

---

ورأينا كيف بحثَ رجل عن أعظم مائة في تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً صلى الله عليه وسلم أولهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ؛ ولكنه درسَ آثار تطبيق القرآن ، وبعد أنْ يُعجبَ بالمنهج القرآني نجده يُعجب بالنص القرآني .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحِسِّ ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم؟ وكيف يلمس الإنسان بِبَشْرته بملمسٍ ناعم فيُسَرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات ؛ كي يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه في الإنسان ، هل هو في المُخِّ أم أين ؛ إلى أن انتهوْا إلى منَاطَ الإحساس في كُلِّ إنسان هو في الجِلْد ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجِلْد مباشرة ؛ بدليل أن الإبرة حين نغرزها في جسم الإنسان ؛ فهو يتألم فقط في منطقة دخولها ؛ وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء ؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال : ﴿ . . .

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً

﴾ [ النساء : 56 ]

ومن الأمثلة المعاصرة في العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه في القانون ، ووجدهم يقفون عند قضية التعسُّف في استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية في القرآن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم في تقدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان .

" " وروى لهم أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : إن لفلان عندي في ساحة بيتي نخلة ، وهو يدخل بيتي كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ؛ مرة بدعوى تأبيرها ؛ وأخرى جَنْي ثمارها . وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

*(83/414)*

---

وشكا الرجل للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يتأذى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى صاحب النخلة وقال له : أنت بالخيار

بين ثلاثة مواقف : إما أن تهبه النخلة وتلك منتهى الأريحية ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها " .

وهكذا وضع صلى الله عليه وسلم قواعد للتعامل فيما يسمى " التعسُّف في استعمال الحق " .

وفي إنجلترا وجدوا أن القانون التجاري مليء بالثغرات ، ومثال هذا أن التعامل في السوق قد يتطلب بعضاً من المرونة بين التجار ؛ فهذا يرسل لذلك طالباً من الآخر ألفاً من الجنيهات ؛ وفلان يردُّ ما أخذه أو يقايضه .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التي عليهم ، وقديماً كان إذا أراد تاجر أن يقترض من زميل له ؛ فهو يكتب الدَّين في كمبيالة أو إيصال أمانة ؛ وذلك لتوثيق الدَّين .

ولكن الأمر اليومي في السوق قد يختلف ؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق في قدرته على الردِّ والتسديد ؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ؛ ولذلك أنشأوا ما يُسمَّى بالدَّين التجاري ، فيفتحون " دفتراً " يُسجِّلون في الديون التجارية ؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكّره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعثة دراسية هناك ؛ وأوضح لهم أن قضية الدّين أخذت اهتمام الإسلام ؛ لدرجة أن أطول آية في القرآن هي الآية التي تحدد التعامل مع الديون ؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه : ﴿ يا أيُّهَا الذين آمنوا إِذَا تدايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فاكتبوه ولْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالعدل ولاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ الله فَلْيَكْتُبْ ولْيُمْلِلِ الذي عَلَيْهِ الحق ولْيَتَّقِ الله رَبَّهُ ولاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الذي عَلَيْهِ الحق سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بالعدل واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى ولاَ يَأْبَ الشهدآء إِذَا مَا دُعُواْ ولاَ تسأموا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ الله وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وأدنى أَلاَّ ترتابوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وأشهدوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [ البقرة : 282 ]

وظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ، ولكن الحقيقة أنه يحمي المدين أيضاً ؛ لأن المدين إنْ علم أنّ الدين مُوثَّق ؛ فهو سيسعى جاهداً أن يؤديه في موعده ، وأيضاً كي لا يأخذ النصّابون فرصة

للهرب من السداد ، وبذلك حمى القرآنُ الدائن والمدين معاً كي لا تقف حركة التعامل بين الناس .

(85/414)

---

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك طريقها في عالم الود والإخاء المؤمن ؛ فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صِلَة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك ؛ يقول لك الحق سبحانه : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتمن أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ . . . ﴾ [ البقرة : 283 ]

وبهذا القول يشعر مَنْ يحمل أمانة من الغير بالخجل ؛ فيعمل على رَدِّها . ثم يضيف الحق سبحانه : ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا . . . ﴾ [ البقرة : 282 ]

وهكذا جاء الإسلام بقوانين لا يمكن أن تخرج من أمة أُمِيّة ؛ لأنها قوانين تسبق العصور ، وهي قوانين تنبع من دين سماوي خاتم . ولذلك عندما سألوني عن موقف الإسلام من التقدمية والرجعية ، قلت لهم :

إن القياس خاطئ ؛ لأنك لن تستطيع أن تقيس فِكْر بشر بما أنزله ربُّ كل البشر ، وإذا كان

العالم بشَرقْه وغَرْبه يهتدي إلى أيِّ خير تنتظم به حياته ؛ ويجد جذوراً لذلك الخير في الإسلام ؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المثل في الشيوعية التي قامت ثورتها الدموية في عام 1917 ؛ وقالوا : إنها مُقدّمة للشيوعية ؛ وسقطتْ الشيوعية من بعد أن أصيب المجتمع الروسي بالتيبُّس والجمود ، والخوف من أسلوب حُكْم الحزب الشيوعي .

ونجد الرأسمالية الشرسة ، وهي تُهذِّب من شراستها ؛ وتعطي العامل حقَّه وتُؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالم إلى الوسطية التي دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَل عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل .

*(86/414)*

---

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمِئنُ رسوله صلى الله عليه وسلم إنْ آذاه أحدٌ في المنهج الذي جاء به ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ِليأبه بمَنْ يحاول أن يُؤذِيَه في شخصه ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يغضب لنفسه ؛ ولكن إنْ تعرَّض أحد للمنهج فغضبه صلى الله عليه وسلم يظهر جلياً .

ومَنْ وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة ؛ فمَنْ آمن منهم نال

حلاوة الإيمان ؛ ومن لم يؤمن فقد توالتْ عليه المصائب من كل جانب ، منهم مَنْ رأى النبي صلى الله عليه وسلم مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [ الزخرف : 41-42 ]

أي : أنه جَلَّ وعلاَ إما أن يُلحِق رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده ؛ أو يُريه عذابهم رَأْى العين .

وكأن هذا القول هو الذي يشرح قوله سبحانه هنا : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [ الرعد : 40 ]

وعذاب الدنيا كما نؤمن مَهْما بلغ فلن يصل إلى مرتبة عذاب الآخرة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا . . . ﴾

و﴿ يَرَوْاْ ﴾ هنا بمعنى " يعلموا " ، ولم يَقُلْ ذلك ؛ لأن العلم قد يكون عِلْماً بغيب ، ولكن " يروا " تعني أنهم قد علموا ما جاء بالآية عِلْم مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أَيْن .

وإذا جاء قول الحق سبحانه ليخبرنا بأمر حدث في الماضي أو سيحدث في المستقبل ؛

ووجدنا فيه فعل الرؤية ؛ فهذا يعني أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهدٍ ، لأن قوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك .

(87/414)

---

وسبق أن قال الحق سبحانه لرسوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [ الفيل : 1 ]

ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وُلِد في عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حدث لأصحاب الفيل ، ولكنه صدّق ما جاء به القول الحق وكأنه رؤيا مَشْهدية .

وقال الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً . . . ﴾ [ الفرقان : 45 ]

وحين يُعبّر القرآن عن أمر غيبي يأتي بفعل " يرى " مثل قوله الحق : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ﴾ [ السجدة : 12 ]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ . . . ﴾ [ الأنبياء : 44 ]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [ الرعد : 41 ]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب في أن نُعرِّف الأرض ؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التي نقف عليها ؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التي يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما ؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض . . . ﴾ [ القصص : 81 ]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض . . . ﴾ [ النور : 55 ]

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً : ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله . . . ﴾ [ الأعراف : 73 ]

وهكذا نفهم أن كلمة " الأرض " تطلق على بُقعة لها حَدث خاص ، أما إذا أُطلقتْ ؛ فهي تعني كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [ الرحمن : 10 ]

ومثل قوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . . ﴾ [الإسراء : 104]

مع أنه قد قال لهم في آية أخرى : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ . . . ﴾ [المائدة : 21]

فبعد أنْ حَدَّدَ لهم الأرض بموقع معين عاد فأطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألاَّ يكون لهم وَطَن ، وأنْ يظلُّوا مُبعْثرين ، ذلك انهم رفضوا دخول الموقع الذي سبق وأنْ حَدَّده لهم وقالوا : ﴿ إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا . . . ﴾ [المائدة : 24]

ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . . ﴾ [الأعراف : 168]

أي : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود في العالم ؛ حيث يُوجَدُونَ في أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم ؛ فلم يذوبوا في مجتمع ما .

وقوله الحق هنا : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [الرعد : 41]

مُوجَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر في كُلِّ يوم عن اليوم الآخرِ ؛ ففي كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة لِتعلِنَ إسلامها وتبايعه .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم في الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصتْ أرض الكفر ، وازدادتْ أرض الإيمان ، ورَأَوْا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبْرة بما رَأَوْه أمام أعينهم من أن الدعوة مُمْتدة ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا بمكين فيها .

*(89/414)*

---

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزيد رُقْعة الإيمان ؛ إلى أنْ جاء ما قال فيه الحق سبحانه : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح * وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا ﴾ [ النصر : 1-3 ]

وهناك أناس مُخْلِصون لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعاني التي لم تُكتشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل المثال فَوْر صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين قال : ﴿ يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [ الرحمن : 33 ]

وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون في قوله بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ

﴾ [الرحمن : 35]

فهل يعني ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة رَبْطكم للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات والأرض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المُتَّسع ، فأين هو من النجم المسمَّى بالشِّعْري ، أو بسلسلة الأجرام المُسمَّاة بالمرأة المُسلْسَلَة ؟ بل أين هو من المَجَرَّات التي تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التي تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن ، فعليك أنْ تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ . . . ﴾ [الرحمن : 35]

وإنْ سألْتَ : وما فائدة الآية التي تحكي عن هذا السلطان ؛ فهي قد جاءتْ لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعدَ إلى السماء وعُرِج به ، أي : أنه صُعِد وعُرِج به بسلطان الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [ الرعد : 41 ]

وكلمة " أطراف " تدلنا على أن لكل شيء طُولاً وعَرْضاً تتحدد به مساحته ؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أيَّ طول له طرفان ، وإنْ كان الشيء على شكل مساحي تكون أطرافه بعدد الأضلاع .

ومادام الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مِنْ أَطْرَافِهَا . . . ﴾ [ الرعد : 41 ]

أي : من كل نقطة من دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أنْ تضيق أرض الكفار ، وأنْ يُوسِّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحْدّثة ، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك : ﴿ واللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . . . ﴾ [ الرعد : 41 ]

أي : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره . . ونحن في حياتنا اليومية نقول : " هذا الموضوع قد انتهى ؛ لأن الرئيس الكبير قد عقَّب على الحكم فيه " .

ونحن في القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتي الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عقَّب على الحكم الابتدائي ؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رفْضاً ؛ فما بالنا بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن

أن يُعقّب أحد عليه ؟

والمَثَل في ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً . . . ﴾ [ الأنبياء : 78-79 ]

وأَصلْ الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغنام يملكها إنسان ؛ واقتحمتْ الأغنامُ زراعةَ إنسانٍ آخر ؛ فتحاكموا إلى داود عليه السلام ؛ فقال داود : إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب الأرض .

(91/414)

---

وكان سيدنا سليمان عليه السلام جالساً يسمع أطراف الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغنامه لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثل ما أكلتْ الأغنام من أرضه .

وقال الحق سبحانه : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ . . . ﴾ [ الأنبياء : 79 ]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعني الاستئناف طَعْنَ قاضٍ في القاضي الأول ؛ لكنه بَحْثٌ عن جوهر العدل ؛ ولعل القضية إنْ أُعيدتْ لنفس القاضي الأول لَحكَم نفس الحكم الذي

حكم به الاستئناف بعد أن يستكشف كل الظروف التي أحاطتْ بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ واللهُ يَحْكُمُ . . . ﴾ [الرعد : 41]

ولحظة أن يُصدِر الله حُكْماً ؛ فلن يأتي له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق : ﴿ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ . . . ﴾ [الرعد : 41]

وكأن هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف ؛ ولا أحد يُعقِّب على حُكْم الله ؛ لأن المُعقِّب يفترض فيه أن يكون أيقظَ من المُعَقَّب عليه ؛ وعنده قدرةُ التقاف إلى ما لم يلتفت إليه القاضي الأول ، ولا يوجد قَيُّوم إلا الله ، ولا أحدَ بقادر على أن يعلم كل شيء إلا هو سبحانه .

وآفة كل حُكْم هو تنفيذه ؛ ففي واقعنا اليومي نجد مِنَ استصدر حُكْماً يُعاني من المتاعب كي يُنفِّذه ؛ لأن الذي يُصدِر الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْم الصادر من الله ؛ إنما يُنفِّذ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قويٌّ على الإطلاق سِوَاه ، ولذلك يأتي قول الحق : ﴿ . . . وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ [الرعد : 41]

فكأن الله يُنبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى في حياتنا اليومية : كيف يُرْهق مَنْ له حكم بحقٍّ عادل ؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الأحكام لَسادَتْ الطمأنينة قلوبَ أفراد المجتمع .

ونحن نجد استشراء العصبيات في الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب الإبطاء في نظر القضايا ؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنواتٍ ؛ مِمَّا يجعل الحقدَ يزداد . لكن لو تَمَّ تنفيذ الحكم فَوْرَ معرفة القاتل ، وفي ظل الانفعال بشراسة الجريمة ؛ لَمَا ازدادتْ عمليات الثأر ولَهدأَت النفوس .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) ﴾

وهنا يخبر الحق سبحانه رسوله ، وأيُّ سامع لهذا البلاغ يستقرئ موكب الرسالات السابقة ؛ وسيجد أن كُلَّ أمة أُرسِل لها رسول مكرتْ به وكادتْ له كي تبطل دعواه ، ولم ينفع أيّ أمة أي مكر مَكرتْه أو أيّ كَيْدٍ كادَتْهُ ، فكُلُّ الرسالات قد انتصرتْ .

فسبحانه القائل : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي . . . ﴾ [ المجادلة : 21 ]

وهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [ الصافات : 171-173 ]

والحق سبحانه حين يُورِد حُكْماً فبالقرآن ؛ وهو الذي حفظ هذا القرآن ؛ فلن تأتي أيٌّ قضية كونية لتنسخ الحكم القرآني .

وأنت إذا استقرأتَ مواكب الرسل كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً ؛ كما أثبتها الحق سبحانه في القرآن المحفوظ ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزه .

وبالفعل فقد مكرتْ كُلُّ أمة برسولها ؛ ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً ؛ ومَكْر الله خَيْرٌ للبشرية من مَكْر كل تلك الأمم ؛ ومَكْره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله ؛ فالأمر معك لا بُدَّ أنْ يختلفَ لأنك مُرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيبَ يأتي من بعدك .

(93/414)

---

وكُلُّ تلك الأمور كانت تطمئنه صلى الله عليه وسلم ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته ؛ فسبحانه محيط بأيِّ مَكْر يمكره أيّ كائن ؛ وهو جَلَّ وعلاَ قادر على أنْ يُحبط كل ذلك .

ويتابع سبحانه في نفس الآية : ﴿ . . . يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ [ الرعد : 42 ]

والحق سبحانه يعلم ما يخفي عن الأعين في أعماق الكائنات؛ خَيْر هو أو شَرٌّ، ويحمي مَنْ شاءَ من عباده من مَكْر الماكرين، ويُنزِل العقاب على أصحاب المَكْر السيء بالرسل والمؤمنين.

ولَسوفَ يعلم الكافرين أن مصيرهم جهنم، وبئس الدار التي يدخلونها في اليوم الآخر؛ فَضْلاً عن نُصْرة رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا وخِزْيهم فيها.

وهكذا يكونوا قد أخذوا الخِزْي كجزاءٍ لهم في الدنيا؛ ويزدادون عِلْماً بواقع العذاب الذي سَيلقَوْنَهُ في الدار الآخرة.

ويُنهي الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

ونفهم من كلمة: ﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً . . . ﴾ [الرعد: 43]

أن الكافرين يتوقفون عند رَفْض الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وكأن كُلَّ أمانيهم أن يَنْفوا عنه أنه رسولٌ اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة؛ بدليل أنهم قالوا: ﴿ . . . لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31]

ومن بعد ذلك قالوا: ﴿ . . . اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32]

أي : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

(94/414)

---

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ . . . قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [ الرعد : 43 ]

والشهيد كما نعلم هو الذي يرجح حُكْم الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور في حياتنا الدنيا الذي نحتاج إلى حُكْم فيها ؛ فنحن نرفع الأمر الذي فيه خلاف إلى القاضي ، فيقول : " هاتوا الشهود " .

ويستجوب القاضي الشهود ليحكمَ على ضَوْء الشهادة ؛ فَما بالُنَا والشاهد هنا هو الحقُّ سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولِمَنْ سيقول شهادته ؛ وهم غَيْرُ مُصدِّقين لكلام الله الذي نزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ؟

ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدَّالة على صِدْق رسالته في البلاغ عن الله ، والمعجزة خَرْقٌ لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالةً بين يدي رسوله وعلى لسانه ؛ فهذا يعني أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أَمْر خارق للعادة يُظهِرها الله على مَنْ بلغ أنه مُرْسَل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول " صدق عبدي فيما بلغ عنّي " .

وإرادة المعجزة ليست في المعنى الجزئي ؛ بل في المعنى الكُلّيّ لها . والمثل في المعجزات البارزة واضح ؛ فها هي النار التي أَلْقَوْا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القَصْد هو نجاته من النار ؛ لكانت هناك ألف طريقة ووسيلة لذلك ؛ كأنْ تُمطِر الدنيا ؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبّلوه بالقيود ، ومن بعد أن ألقوه في النار ؛ ويأتي أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه : ﴿ قُلْنَا يا نار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ الأنبياء : 69 ]

وهكذا غيّر الحق سبحانه الناموس وخَرَقه ؛ وذلك كي يتضح لهم صِدْق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ؛ فقد خرَق له الحق سبحانه النواميس دليلَ صحة بلاغه .

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . . ﴾ [ الرعد : 43 ]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ؛ تتمثل في أنه صلى الله عليه وسلم قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغه أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخرَ عبقرياتُ النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجري القرآن على لسان رسوله في هذا العمر ليبلغ محمد صلى الله عليه وسلم الناسَ جميعاً به ، وهذا في حدِّ ذاته شهادة من الله .

ويضيف سبحانه هنا : ﴿ . . . وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [ الرعد : 43 ]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ؛ ومَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإعجاز فيه ؛ ومَنْ يتدبر ما فيه من مَعَانٍ ويتفحَّص أسلوبه ؛ يجده شهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أو يكون المقصود بقوله الحق : ﴿ . . . وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [ الرعد : 43 ]

أي : هؤلاء الذين يعلمون خبر مَقْدِم رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل ؛ لأن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفته مذكورة في تلك الكتب السابقة على القرآن ؛ لدرجة " أن عبد الله بن سلام ، وقد كان من أحبار اليهود قال : " لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لِمُحمد أشد " .

ولذلك ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إن نفسي مالتْ

إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بُهَتٌ ، فإذا أعلنتُ إسلامي ؛ سيسبُّونني ، ويلعنوني ، ويلصقون بي أوصافاً ليست فيّ . وأريد أنْ تسألهم عنّي أولاً . فأرسل لهم رسول الله يدعو صناديدهم وكبار القوم فيهم ؛ وتوهموا أن محمداً قد يلين ويعدل عن دعوته ؛ فجاءوا وقال لهم صلى الله عليه وسلم : " ما تقولون في ابن سلام ؟ " فأخذوا يكيلون له المديح ؛ وقالوا فيه أحسن الكلام .

(96/414)

---

وهنا قال ابن سلام : " الآن أمامكم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " ، فأخذوا يسبُّون ابن سلام ؛ فقال ابن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أَقُلْ إن يهود قوم بهت "

؟ ونعلم أن الذين كانوا يفرحون من أهل الكتاب بما ينزله الحق سبحانه على رسول الله صلى الله عليه وسلم من وحي هم أربعون شخصاً من نصارى نجران ؛ واثنان وثلاثون من الحبشة ؛ وثمانية من اليمن .

ونعلم أن الذين أنكروا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ينهوْنَ بعضهم البعض عن سماع القرآن ؛ وينقل القرآن عنهم ذلك حين قالوا : ﴿ . . . لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [ فصلت : 26 ]

وهذا يعني أنهم كانوا متأكدين من أن سماع القرآن يُؤثِّر في النفس بيقظة الفطرة التي تهفو إلى الإيمان به .

أما مَنْ عندهم عِلْم بالكتب السابقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يعلمون خبر بعثته وأوصافه من كتبهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . . . ﴾ [ البقرة : 146 ]

ويقول أيضاً : ﴿ . . . فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ﴾ [ البقرة : 89 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(97/414)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) ﴾

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : ذهاب العلماء " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ، عن مجاهد - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : موت علمائها وفقهائها وذهاب خيار أهلها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : موت العلماء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال : كان عكرمة يقول : هو قبض الناس . وكان الحسن يقول : هو ظهور المسلمين على المشركين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ أو لم يروا

أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ يعني بذلك ما فتح الله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فذلك نقصانها .

(98/414)

---

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال : يعني أن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، كان ينتقص له ما حوله من الأرضين ، فينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون ، وقال الله في سورة الأنبياء عليهم السلام ﴿ ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ [ الأنبياء : 44 ] قال : بل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هم الغالبون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن عطية - رضي الله عنه - في الآية قال : نقصها الله من المشركين للمسلمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : نفتحها لك من أطرافها .

وأخرج عبد بن حميد ، عن الضحاك - رضي الله عنه ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها

من أطرافها ﴾ قال: أولم يروا أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم أرضاً بعد أرض؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ يقول: نقصان أهلها وبركتها.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية قال: إنما تنقص الأنفس والثمرات، وأما الأرض فلا تنقص.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن الشعبي - رضي الله عنه - في الآية قال: لو كانت الأرض تنقص، لضاق عليك حشك، ولكن، تنقص الأنفس والثمرات.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة - رضي الله عنه - في الآية قال: هو الموت. لو كانت الأرض تنقص، لم تجد مكاناً تجلس فيه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال: أولم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال: خرابها.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن أبي مالك – رضي الله عنه – ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ قال : القرية تخرب ناحية منها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد – رضي الله عنه – ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ ليس أحد يتعقب حكمه فيرده ، كما يتعقب أهل الدنيا بعضهم حكم بعض فيرده .

أما قوله تعالى : ﴿ فلله المكر جميعاً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بهذا الدعاء : " رب أعني ولا تعن عليّ ، وانصرني ولا تنصر عليّ ، وامكر لي ولا تمكر عليّ ، واهدني ويسر الهدى إليّ ، وانصرني على من بغى عليّ " .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقف من اليمن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تجدني في الإنجيل رسولاً ؟ قال : لا . فأنزل الله ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ " يقول : عبد الله بن سلام .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير ، أن محمد بن يوسف بن عبد

الله بن سلام قال : قال عبد الله بن سلام : قد أنزل الله فيّ في القرآن ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير ، عن جندب - رضي الله عنه - قال : جاء عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - حتى أخذ بعضادتي باب المسجد ، ثم قال : أنشدكم بالله ، أتعلمون أني أنا الذي أنزلت فيه ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ ؟ قالوا اللهم نعم .

*(100/414)*

---

وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه عن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - أنه لقي الذين أرادوا قتل عثمان - رضي الله عنه - فناشدهم بالله فيمن تعلمون نزل ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ قالوا فيك .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد - رضي الله عنه - أنه كان يقرأ ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : هو عبد الله بن سلام .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ ومن عنده

علم الكتاب ﴾ قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في الآية قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم : عبد الله بن سلام والجارود وتميم الداري وسلمان الفارسي .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه وابن عدي بسند ضعيف ، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : من عند الله علم الكتاب .

وأخرج تمام في فوائده وابن مردويه ، عن عمر – رضي الله عنه – أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : من عند الله علم الكتاب .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه كان يقرأ ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ يقول : ومن عند الله علم الكتاب .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه ، عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه – أنه سئل عن قوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ أهو عبد الله بن سلام – رضي الله عنه ؟ قال : وكيف ، وهذه السورة مكية ؟ !

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي – رضي الله عنه – قال : ما نزل في عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – شيء من القرآن .

(101/414)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قال : هو الله عز وجل .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهري - رضي الله عنه - قال : كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - شديداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق يوماً حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فسمعه وهو يقرأ ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . . . ﴾ [ العنكبوت : 48 ] حتى بلغ ﴿ الظالمون . . . ﴾ [ العنكبوت : 49 ] وسمعه وهو يقرأ يقول ﴿ الذين كفروا لست مرسلاً . . . ﴾ إلى قوله ﴿ علم الكتاب ﴾ فانتظره حتى سلم ، فأسرع في أثره فأسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 4 ص ﴾

(102/414)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ : جوابٌ للشرط قبله . قال الشيخ : " والذي تقدَّم شرطان ؛ لأنَّ المعطوفَ على الشرط شرطٌ : فامَّا كونُه جواباً للشرط الأول فليس بظاهرٍ ؛ لأنه لا يترتَّب عليه ؛ إذ يصير المعنى : وإمَّا نُرِيَنَّك بعضَ ما نَعِدُهم من العذاب فإنَّما عليك البلاغُ ، وأمَّا كونُه جواباً للشرطِ الثاني وهو ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ فكذلك ؛ لأنه يصير التقدير : إنْ ما نَتَوَفَّيَنَّك فإنَّما عليك البلاغُ ، ولا يترتَّب جوابُ التبليغِ عليه - على وفاته عليه السلام - لأنَّ التكليفَ ينقطعُ عند الوفاة فيُحتاج إلى تأويل : وهو أنْ يُقَدَّرَ لكلِّ شرطٍ ما يناسبُ أَنْ يكون جزاءً مترتباً عليه ، والتقدير : وإمَّا نُرِيَنَّك بعضَ الذي نَعِدُهم فذلك شافيك مِنْ أعدائك ، أو : إنْ نَتَوَفَّيَنَّك قبل خَلْقِه لهم فلا لَوْمَ عليك ولا عَتَبَ " .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) ﴾

قوله تعالى : ﴿ نَنقُصُهَا ﴾ : حال : إمَّا مِنْ فاعل " نأتي " أو مِنْ مفعوله . وقرأ " نُنَقِّصُها " بالتضعيف الضحَّاكُ ، عدَّاه بالتضعيف .

قوله: ﴿ لاَ مُعَقِّبَ ﴾ جملةٌ حالية، وهي لازمةٌ. والمُعَقِّبُ: الذي يكرُّ على الشيء، فيُبْطله. قال لبيد.

2864- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

طَلَبُ المُعقِّب حَقَّه المَظْلومُ

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) ﴾

(103/414)

---

قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ﴾ قرأ ابنُ عامرٍ والكوفيون "الكفَّار" جمعَ تكسير، والباقون "الكافر" بالإِفراد، ذهاباً إلى الجنس. وقرأ عبد الله "الكافرون" جمعَ سلامةٍ.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾: العامَّة [على فتح ميم] "مَنْ"، وهي موصولةٌ، وفي محلِّها أوجهٌ، أحدُها: أنها مجرورةُ المحلِ نَسَقاً على لفظ الجلالةِ، أي: بالله وبمَنْ عنده عِلْمُ الكتابِ كعبد الله بن سلام ونحوِه. والثاني: أنها في محلِ رفعٍ عطفاً على محل [الجلالة، إذ

هي ] فاعلةٌ ، والباءُ زائدةٌ فيها . الثالث : أن يكونَ مبتدأً ، وخبرُه محذوف ، أي : ومَنْ عنده عِلْم الكتاب أَعْدَلُ وأمضى قولاً .

و ﴿ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ يجوز أن يكونَ الظرفُ صلةً ، و " عِلْمُ " فاعلٌ به . واختاره الزمخشري ، وتقدَّم تقريره ، وأن يكونَ مبتدأً وما قبله الخبرُ ، والجملةُ صلةٌ ل " مَنْ " .

والمراد بمَنْ عنده عِلْمُ الكتاب : إمَّا ابنُ سَلام أو جبريلُ أو اللهُ تعالى . قال ابن عطية : " ويُعْتَرض هذا القولُ بأنَّ فيه عطفَ الصفة على الموصوف ولا يجوز ، وإنما تُعْطَفُ الصفاتُ " . واعترض الشيخُ عليه بأنَّ " مَنْ " لا يُوصَفُ بها ولا بغيرِها من الموصولات إلاَّ ما اسْتُثْني ، وبأنَّ عطفَ الصفاتِ بعضِها على بعض لا يجوز إلا بشرطِ الاختلاف .

قلت : ابن عطية إنما عَنَى الوصفَ المعنويَّ لا الصناعيَّ ، وأمَّا شرطُ الاختلافِ فمعلومٌ .

(104/414)

---

وقرأ عليٌّ وأُبَيٌّ وابنُ عباس وعكرمة وابن جبير وعبد الرحمن ابن أبي بكرة والضحاك وابن أبي إسحاق ومجاهد في خَلْق كثير ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ جعلوا " مِنْ " حرفَ جرّ ، و " عندِه " مجرورٌ بها ، وهذا الجارُّ هو خبرٌ مقدَّمٌ ، و " عِلْم " مبتدأ مؤخر .

وقرأ عليٌّ أيضاً والحسن وابن السَّمَيْفع ﴿ وَمِنْ عِندِهِ عُلِمَ الكتاب ﴾ يجعلون " مِنْ " جارَّةً

، و " عُلِمَ " مبنياً للمفعول ، و " الكتابُ " رفعٌ به . وقُرئ كذلك إلاَّ أنه بتشديد " عُلِّم " .
والضمير في " عنده " على هذه القراءاتِ لله تعالى فقط . وقُرئ أيضاً " وبِمَن " بإعادةِ الباءِ الداخلةِ على الجلالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 60. 63 ﴾

*(105/414)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (40) ﴾

نفي عنه الاستعجال أمراً ، و ( . . . . ) في قلوبهم أنه يوشك أن يجعل الموعود جهراً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) ﴾

في التفاسير : بموت العَلماء ، وفي كلام أهل المعرفة بموت الأولياء ، الذين إذا أصاب الناسَ بلاءٌ ومحنةٌ فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاءَ عنهم .

ويقال هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشِدٌ في طريق الله لم يجد مَنْ يهديه إلى الله .

ويقال: في كل زمان لسانٌ ينطق عن الحقّ سبحانه فإذا وقعت فترةٌ سكن ذلك اللسانُ - وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية وأنشد بعضهم:

طوى العصران ما نشراه مني . . . وأبلى جدتي نشرٌ وطيٌّ

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ . . . ولا يبقى مع النقصان شيءُ

ويقال ينقصها مِنْ أطرافها أي بفتح المدائن وأطراف ديار الكفار، وانتشار الإسلام، قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: 28].

ويقال ينقصها من أطرافها بخراب البلدان، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26] فموعودُ الحقّ خرابُ العَالَمِ وفناءُ أهلِه، ووعده حقٌّ لأن كلامَه صِدْقٌ، واللَّهُ يحكم لا مُعقِّبَ لِحُكمِه، ولا ناقِضَ لما أبرمه، ولا مُبْرِمَ لِمَا نَقَضَه، ولا قابلَ لِمَنْ ردَّه، ولا رادَّ لِمَنْ قَبِلَه ولا مُعِزَّ لِمَنْ أهانه، ولا مُذِلَّ لمن أعزّه.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41]: لأن ما هو آتٍ فقريب.

ويقال ﴿ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ [ الرعد : 41 ] في الدنيا ؛ لأنَّ الأولياءَ إذا ألَموا بشيءٍ ، أو همُّوا لمزجورٍ عُوتِبُوا في الوقت ، وطولِبوا بحُسْنِ الرُّجعي .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) ﴾

مكرُهم إظهارُ الموافقة مع إسرارهم الكُفْرَ ، ومكرُ الله بهم توَهُّمُهم أنهم مُحْسِنون في اعمالهم ، وحسبانهم أنهم سَنأْمَنُ أحوالُهم ، وظَنُّهم أنه لا يحيق بهم مكرُهم ، وتخليتُه إياهم - مع مَكرِهم - مِنْ أَعْظَمِ مَكْرِه بهم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43) ﴾

وَبالُ تكذيبهم عائدٌ إليهم ، فإنَّ اللَّهَ شهيدٌ لَكَ بصدْقِك . ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ ﴾ هو الله سبحانه وتعالى عنده عِلْمُ جميع المؤمنين . فالمعنى كفى بالله شهيداً فعنده علم الكتاب وكفى بالمؤمنين شهيداً ؛ إذا المؤمنون يعلمون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 236 . 238 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾

يعني : يعلم أن القرآن الذي أنزل من الله تعالى هو الحق ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ يعني : كمن هو لا يعلم .

ويقال : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ ﴾ أن ما ذكر من المثل حق كمن لا يعلم .

وهذا كقوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْىِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذين ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [ البقرة : 26 ] يعني : المثل .

ويقال : أفمن يرغب في الحق حتى يعلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ يعني : كمن لا يرغب فيه ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الالباب ﴾ يعني : يتعظ بما أنزل إليك من القرآن ذوو العقول من الناس ، وهم المؤمنون .

ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ يعني : العهد الذي بينهم وبين الله تعالى والعهد الذي بينهم وبين الناس ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ يعني : الميثاق الذي أخذ عليهم .

يوم الميثاق .

ويقال : يعني : أهل الكتاب الميثاق الذي أخذ عليهم في كتابهم .

(108/414)

---

قوله : ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ يعني : يصلون الأرحام ، ولا يقطعونها ، وقال : يعني : الإيمان بجميع الأنبياء ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ يعني : يمتنعون عما نهاهم الله تعالى عنه ، والخشية من الله ، الامتناع عن المحرمات والمعاصي ﴿ وَيَخَافُونَ سُوء الحِسَابِ ﴾ يعني : شدته ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ يعني : صبروا عن المعاصي ، وصبروا عن أداء الفرائض ، وصبروا على المصائب والشدائد ، وصبروا على أذى الكفار والمنافقين ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : صبروا على طلب مرضاة الله تعالى ﴿ والذين يُمَسّكُونَ ﴾ يعني : أتموها بركوعها ، وسجودها في مواقيتها ﴿ وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ يعني : من الأموال ﴿ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ يعني : يتصدقون في الأحوال كلها ظاهراً ، وباطناً .

ويقال : مرة يتصدقون سراً مخافة الرياء ، ومرة يتصدقون علانية لكي يقتدى بهم .

ويقال : يتصدقون صدقة التطوع في السر ، وزكاة الفريضة علانية ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ يقول : يدفعون بالكلام الحسن السيئة .

يعني : الكلام القبيح .

فهذا كله صفة ذوي الألباب ، وهم الذين استجابوا لربهم .

(109/414)

---

ثم بيّن ثوابهم ، ومرجعهم في الآخرة فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ يعني : لهم الجنة ، وهم المهاجرون ، والأنصار ، ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ ﴾ يعني : ومن آمن ، وأطاع الله تعالى ﴿ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ يدخلون أيضاً جنات عدن وهذا كقوله : ﴿ والذين ءَامَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بإيمان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا آلتناهم مّنْ عَمَلِهِم مّن شَىْءٍ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾ [ الطور : 21 ] ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مّن كُلّ بَابٍ ﴾ ويسلمون عليهم ، ويقولون : ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ على أمر الله تعالى وطاعته ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ يعني : نعم العاقبة الجنة .

فقد بيّن حال الذين استجابوا لربهم ، والذين يعلمون أن الذي أنزل إليك هو الحق .

ثم بيّن حال الذين لم يستجيبوا له ، وهم الذين ينقضون الميثاق ، فقال تعالى : ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ يعني : من بعد تأكيده ، وتغليظه ، يعني : بعد إقرارهم

بالتوحيد يوم الميثاق ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ يعني : الأرحام .

ويقال : الإيمان بالنبيّين ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ بالدعاء إلى عِبادة غير الله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللعنة ﴾ يعني : يلعنهم في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ يعني : سوء المرجع .

ويقال : لهم اللعنة .

يعني : هم مطرودون من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَهُمْ سُوء الدار ﴾ يعني : عذاب النار في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاء ﴾ يعني : يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يعني : يقتر في الرزق .

يعني : يختار للغني الغنى ، وللفقير الفقر ، لأنه يعلم أن صلاحه فيه .



---

وروي عن ابن عباس أنه قال : إن الله تعالى خلق الخلق ، وهو بهم عليم .

فجعل الغنى لبعضهم صلاحاً ، وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً ، فذلك الخيار للفريقين وقال الحسن البصري : ما أحد من الناس يبسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به

فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه، وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه.

ثم قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُواْ بِالحياة الدنيا ﴾ يقول: استأثروا الدنيا على الآخرة ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِى الآخرة إِلاَّ مَتاع ﴾ يعني: الدنيا بمنزلة الأواني التي لا تبقى مثل السكرجة، والزجاجة، وأشباه كل ذلك التي يتمتع بها ثم تذهب، فكذلك هذه الدنيا تذهب وتفنى.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلاَّ كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُم أصْبُعَهُ هذه فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ ".

وقال مجاهد: ﴿ إِلاَّ مَتاع ﴾ أي: قليل ذاهب، وهكذا قال مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلا ﴾ يعني: هلاَّ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ ﴾ يعني: علامة لنبوته ﴿ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ من عباده من الهدى يعني: إذا لم يرغب فيه ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ ﴾ يرشد إلى دينه ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ يعني: من رجع إلى الحق.

ويقال: رجع عن الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ هذا مقرون بالأولى.

يعني: ويهدي الَّذِينَ آمَنُوا ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني: تسكن وترضى قلوبهم ﴿ بِذِكْرِ الله ﴾ يعني: إذا ذكروا الله تعالى بوحدانيته، آمنوا به، غير شاكين.

وقال الكلبي : يعني : وتسكن ، وترضى قلوبهم لمن يحلف لهم بالله ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ يعني : ترضى وتسكن قلوب المؤمنين ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني : صدقوا بالله ، وبمحمد ، وبالقرآن ، ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : الطاعات ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ يعني : غبطة لهم .

قال مجاهد : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ يعني : الجنة .

ويقال : شجرة في الجنة .

قال الفقيه : حدثنا محمد بن الفضل .

قال : حدثنا محمد بن جعفر .

قال : حدثنا إبراهيم بن يوسف .

قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي اليسر ، عن مغيث بن سمي في قوله تعالى ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ قال : طوبى شجرة في الجنة ساقها من ذهب ، الورقة منها تغطي الدنيا ، ليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن من أغصانها .

وقال أبو هريرة ، ﴿ طوبى ﴾ شجرة في الجنة .

وقال قتادة : هي كلمة عربية ، يقول الرجل : طوبى لك إذا أصبت خيراً .

وقال عكرمة : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ أي : نعمًا لهم .

ويقال : ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ أي : خير لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ يعني : حسن المرجع في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ ﴾ يقول : هكذا بعثناك في أمة كما بعثنا إلى من كان قبلك من الرجال في الأمم الخالية ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا ﴾ يعني : قد مضت من قبل قومك ﴿ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ ﴾ يعني : أرسلناك لتقرأ عليهم ﴿ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ يعني : يجحدون ، ويكذبون ، وذلك أن عبد الله بن أمية المخزومي وأصحابه ، قالوا : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾ يعني : قل يا محمد : الرحمن الذي تكفرون به ، هو الله ربي الذي ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعني : فوضت أمري إليه ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ يعني : وإليه أتوب وأرجع .



---

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ وذلك أن عبد الله بن أمية وغيره من كفار مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : سيرت لنا جبال مكة ذهباً وفضة ، حتى نعلم أنك صادق في مقالتك ، أو قرب أسفارنا كما فعل سليمان بن داود بريحه ، أو كلم موتانا كما

فعل عيسى ابن مريم بدعائه، فنزل ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ عن أماكنها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ غدوها شهر، ورواحها شهر ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ فلم يذكر جوابه، لأن في الكلام دليلاً عليه.

يعني: لو فعلنا بقرآن قبل قرآن محمد صلى الله عليه وسلم، لفعلنا ذلك بقرآن محمد صلى الله عليه وسلم.

ويقال: لو فعل أحد من الأنبياء ما تسألوني، لفعلت لكم.

ولكن الأمر إلى الله تعالى، إن شاء فعل، وإن شاء لم يفعل، فذلك قوله تعالى: ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ ويقال: معناه ولو أن قرآناً سيرت به الجبال عن أماكنها، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لم يؤمنوا به.

وهذا كقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: 111] الآية إلى قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: 111] ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ إن شاء هدى من كان أهلاً لذلك، وإن شاء لم يهد من لم يكن أهلاً لذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ ﴾ قال الحسن وقتادة: أفلم يعلم.

وقال الفراء: لم أجد في العربية مثل هذا.

ويقال : معناه أفلم يتبيّن للذين آمنوا ، وهو بلسان النخع .

ويقال : هو من الإياس .

(113/414)

---

ومعناه : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يؤمنون ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ يعني : إنهم لم يكونوا أهلاً لذلك ، فلم يهدهم .

وروى ابن أبان بإسناده عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنه كان يقرأ ﴿ أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ ﴾ فقيل له : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ ﴾ فقال : إني لأرى الكاتب كتبها وهو ناعس .

وروي في خبر آخر أن نافع بن الأزرق ، سأل ابن عباس عن قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ ﴾ قال : أفلم يعلم .

قال : وهل تعرف العرب ذلك .

قال ابن عباس : نعم أما سمعت قول مالك بن عوف وهو يقول :

قد يئس الأقوام أني أنا ابنه .

. . وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ثم قال : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾

يعني : نكبة وشدة .

ويقال : القارعة داهية تقرع .

ويقال : لكل مهلكة قارعة .

ويقال : نازلة تنزل لأمر شديد .

فالمراد هنا سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم تأتيهم ، وتصيبهم من ذلك شدة ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ يعني : تنزل أنت يا محمد بجماعة أصحابك قريباً من دارهم ، يعني : من مكة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم سار بجنوده حتى أتى عسفان ، ثم بعث مائتي راكب حتى انتهوا قريباً من مكة ، ثم قال : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ يعني : فتح مكة .

قالوا : هذه الآية مدنية .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أي : بفتح مكة على النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ كما استهزأ بك قومك ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني : أمهلتهم بعد الاستهزاء ، ولم أعاقبهم ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بالعذاب عند المعصية بالتكذيب ، فأهلكتهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ يعني : فكيف رأيت إنكاري وتعبيري عليهم بالعذاب .

لم ير النبي صلى الله عليه وسلم عقوبتهم إلا أنه علم بحقيقته فكان رأي عيانٍ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يقول : هو الله القائم على كل نفس برة ، وفاجرة ، بالرزق لهم ، والدفع عنهم ، وجوابه مضمر .

يعني : كمن هو ليس بقائم على ذرة ، وهذا كقوله : ﴿ فَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [ النحل : 17 ] ثم قال : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآء ﴾ يعني : قالوا ، ووصفوا لله شريكاً .

وقال مقاتل : ﴿ وَجَعَلُواْ الله شُرَكَآء ﴾ يقول : أنا القائم على كل نفس بأرزاقهم ، وأطعمتهم ، كالذين يصفون أن لي شريكاً .

معناه : لا تكون عبادة الله بعبادة غيره ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ يعني : قل يا محمد سموا هؤلاء الشركاء .

يعني : سموا دلائلهم ، وبراهينهم ، وحججهم .

ويقال : سموا منفعتهم ، وقدرتهم .

ثم قال ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأرض ﴾ يعني : تخبرونه بما علم أنه لا يكون .

ويقال : معناه أتشركون معه جاهلاً لا يعلم ما في الأرض .

ويقال : معناه أتخبرون الله بشيء لا يعلم من آلهتكم .

يعني : يعلم الله أنه ليس لها في الأرض قدرة ﴿ أَم بظاهر مّنَ القول ﴾ يعني : أتقولون قولاً بلا برهان ، ولا حجة .

ويقال : بباطل من القول .

يعني : إن قلتم إن لها قدرة لقلتم باطلاً .

وقال قتادة الظاهر من القول الباطل ، وكذلك قال مجاهد .

ثم قال : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ يقول : ولكن زين للذين كفروا من أهل مكة كفرهم ، وقولهم الشرك ﴿ وَصَدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمر ، ﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ بنصب الصاد .

يعني : إن الكافرين صدوا الناس عن السبيل .

يعني : عن دين الله الإسلام .

وقرأ الباقون : ﴿ وَصُدُّواْ ﴾ بضم الصاد على فعل ما لم يسم فاعله .

(115/414)

---

مثل قوله : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سوء عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حسرات إِنَّ الله عَلِيمُ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [ فاطر : 8 ] .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ ﴾ يعني : من يخذل عن دينه الإسلام ، ولا يوفقه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يعني : ما له من مرشد إلى دينه غير الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ يعني : لهم في الدنيا الشدائد ، والأمراض .

ويقال : وعند الموت .

ويقال : القتل على أيدي المسلمين ، والغلبة عليهم ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ﴾ يعني : أشدّ ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ يعني : ملجأ يلجؤون إليه فيمنعهم من عذاب الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ قال بعضهم : المثل هنا أراد به الصفة ، ولم يرد به التشبيه ، لأنه قد ذكر من قبل حديث الجنة ، وهو قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِى الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أولئك لَهُمْ سوء الحساب وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ﴾ [ الرعد : 18 ] وقال بعد ذلك : ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [ الرعد : 23 ] ثم بيّن ههنا صفة الجنة .

فقال : ﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ يعني : صفة الجنة ﴿ التى وُعِدَ المتقون ﴾ ، الذين يتقون الشرك ، والفواحش .

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون

﴾ يعني: صفاتها وأحاديثها ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ يعني: نعيمها لا ينقطع عنهم أبداً ﴿ وظِلُّهَا ﴾ يقول: وهكذا ظلها دائم أبداً، ليس فيها شمس.

(116/414)

---

وقال بعضهم: أراد به التشبيه، لأن الله عرفنا أمور نعيم الجنة، التي لم نراها، ولم نشاهدها بما شاهدنا من أمور الدنيا، ومعناه: ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ جنة تجري من تحتها الأنهار.

ثم قال: ﴿ تِلْكَ عقبى الذين اتقوا ﴾ يعني: تلك الجنة، جزاء الذين اتقوا الشرك، والفواحش ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ يعني: مصيرهم، وجزاؤهم النار.

ثم قال تعالى: ﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ أي: التوراة ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب، يعجبون بذكر الرحمن ﴿ وَمِنَ الاحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ يعني: أهل مكة ينكرون ذكر الرحمن، ويقولون: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب.

ويقال: ﴿ وَمِنَ الاحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ يعني: ومن أهل الكتاب من ينكر ما كان فيه نسخ شرائعهم ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ﴾ يعني: أمرت أن أقيم على

التوحيد ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ ﴾ شيئاً .

ثم قال : ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ يقول : أدعو الخلق إلى توحيده ﴿ وَإِلَيْهِ مَابِ ﴾ يعني : المرجع في الآخرة .

ثم قال ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ يعني : القرآن ﴿ حُكْمًا ﴾ يعني : القرآن حكماً على الكتب كلها .

ويقال : محكماً ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ يعني : القرآن بلغة العرب ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ قال الكلبي : يعني : لئن صليت إلى قبلتهم يعني : نحو بيت المقدس ﴿ بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ يعني : من بعد ما أتاك العلم بأن قبلتك نحو الكعبة .

ويقال : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم ﴾ يعني : أهل مكة فيما يدعونك إلى دين آبائك بعد ما ظهر لك أن الإسلام هو الحق ﴿ مَا لَكَ مِنَ الله ﴾ يعني : من عذابه ﴿ مِن وَلِىّ ﴾ ينفعك ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يقيك من عذاب الله الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمُراد به أصحابه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ وذلك أن اليهود عيَّروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لو كان هذا نبيّاً كما يزعم ، لشغلته النبوة عن تزوج النساء .

فنزل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ قال الكلبي : كان لسليمان بن داود عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهرية ، وتسعمائة سرية ، وكان لداود مائة امرأة .

ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ يعني : ليس ينبغي لرسول ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً ﴾ إلى قومه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يعني : بأمر الله تعالى .

ويقال : معناه ما كان يقدر أحد أن يأتي بآية من الآيات إلا بإذن الله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أي : لكل أجل من آجال العباد كتاب مكتوب ، لا يزاد عليه ، ولا ينقص منه ، ويقال : لكل أجل وقت قد كتب .

وقال الفراء : هذا مقدم ومؤخر أي : لكل كتاب أجل مثل قوله : ﴿ جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ ق : 19 ] أي : سكرة الحق بالموت ، وكذلك قال ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أن قريشاً ، لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [ الرعد : 38 ] قالوا : ما نراك يا محمد تملك

من شيء ، ولقد فرغ من الأمر .

فنزلت هذه الآية تخويفاً ، ووعيداً لهم .

فإنّا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما نشاء ، فيمحو الله ما يشاء ، ويثبت ما يشاء من أرزاق العباد ، ومصايبهم ، وما يعطيهم ، وما يقسم لهم .

وروى وكيع عن الأعمش ، عن أبي وائل أنه كان يقول في دعائه : اللَّهم إن كنت كتبتنا سعداء ، فأثبتنا .

وإن كنت كتبتنا أشقياء ، فامحنا واكتبنا سعداء .

(118/414)

---

فإنك تمحو ما تشاء ، وتثبت ما تشاء ، وعندك أم الكتاب .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ ﴾ إلا الشقاوة ، والسعادة ، والموت ، والحياة .

وروى منصور عن مجاهد أنه قال : إلا الشقاوة ، والسعادة ، لا يتغيران .

ويقال : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاء ﴾ من أعمال بني آدم .

ما كتب الحفظة ما ليس فيه جزاء خير ولا شر ﴿ وَيُثَبِّتْ ﴾ ما فيه جزاء خير أو شر .

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن الحفظة إذا رفعت ديوان العبد ، فإن كان في أوله وآخره خير ، يمحو الله ما بينهما من السيئات ، وإن لم يكن في أوله وآخره حسنات ، يثبت ما فيه من السيئات .

وقال مقاتل : ﴿ يَمْحُوا اللهُ ﴾ يعني : ينسخ الله ما يشاء من القرآن ، ويثبت ، ويقر المحكم الناسخ ما يشاء فلا ينسخه .

ويقال : ﴿ يَمْحُوا اللهُ ﴾ يعني : المعرفة عن ما يشاء ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ في قلب من يشاء .

وهو مثل قول ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيهدى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [ الرعد : 27 ] ويقال : يقضي على العبد البلاء ، فيدعو العبد ، فيزول عنه .

كما روي في الخبر "الدُّعَاءُ يَرُدُّ البَلاَءَ" .

ثم قال : ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ يعني : أصل الكتاب ، وجملته ، وهو اللوح المحفوظ كتب فيه كل شيء قبل أن يخلقهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب ، والزلازل ، والمصايب ، في الدنيا إذ كذبوك ، وأنت حي ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ يقول : أو نميتك قبل أن نرينك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ بالرسالة ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ يعني : الجزاء .

ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأَرضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ يعني : نفتحها من نواحيها .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " هُوَ ذَهَابُ العُلَمَاءِ " .

*(119/414)*

---

وقال ابن عباس : ذهاب فقهائها ، وخيار أهلها .

وعن ابن مسعود نحوه .

وقال الضحاك : أولم ير المشركون أنا ننقصها من أطرافها يعني : يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ما حولهم من أراضيهم ، وقراهم ، وأموالهم ، أفهم الغالبون؟ يعني : أولا يرون أنهم المغلوبون ، والمنتقصون ، وعن عكرمة .

أنه قال : الأرض لا تنقص ، ولكن تنقص الثمار ، وينقص الناس .

وعن عطاء أنه قال : هو موت فقهائها ، وخيارها .

وقال السدي : يعني : ينقص أهلها من أطرافها ، ولم تهلك قرية إلا من أطرافها .

يعني : تخرب قبل ، ثم يتبعها الخراب .

﴿ والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ يقول : لا راد لحكمه ، ولا مغير له ، ولا مرد لما حكم لمحمد صلى الله عليه وسلم النصرة والغنيمة ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ إذا حاسب

فحسابه سريع.

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني: صنع الذين من قبلهم، كصنيع أهل مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا ﴾ يعني: يجازيهم جزاء مكرهم، وينصر أنبياءه، ويبطل مكر الكافرين.

ثم قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ برّة وفاجرة ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ يعني: الجنة.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ يعني: كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وسائر اليهود.

ويقال: يعني: أهل مكة ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ يقول: كفى الله شاهداً بيني وبينكم على مقالتكم ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ يعني: ومن آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وأصحابه ﴿ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ لأنهم وجدوا نعته، وصفته، في كتبهم.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ﴿ يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ ﴾ بجزم الثاء والتخفيف.

وقرأ الباقون: بنصب الثاء، وتشديد الباء ﴿ وَيُثَبّتْ ﴾ ومعناهما واحد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكافر ﴾ بلفظ الوحدان، وهو اسم جنس، فيقع على الواحد، وعلى الجماعة.

وقرأ الباقون ﴿ الكفار ﴾ بلفظ الجماعة.

وقال أبو عبيدة: رأيت في مصحف الإمام ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار ﴾ بلفظ الجماعة.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ ﴿ وَمَنْ عِندِهِ ﴾ بالكسر.

يعني: القرآن من عند الله تعالى.

وروي عنه أيضاً: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكافرون ﴾.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ ﴾.

وقال عبد الله بن مسعود: هذه السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم بعد ذلك بمدة، فكيف يجوز أن يكون المراد به عبد الله بن سلام، وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ: بالكسر.

وقرأ بعضهم ﴿ وَمَنْ عِندِهِ عِلْمُ الكتاب ﴾ بضم العين، وكسر اللام، على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

وروى عن ابن عباس أنه كان يقول: هذه السورة مدنية، وكان يقرأ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ بالنصب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 224. 233 ﴾

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ [ . . . . . . . . . . ] فهو كافيه ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ عنه لا يعلمه ولا تعمل ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ الخطاب للأصحاب وذوي العقول ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ في أمرهم يعني فرضه عليهم فلاهم يخالفونه إلى ما هم فيه ، ﴿ وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق * والذين يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ قيل أراد الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يعترفون بها .

وقال أكثر المفسرين : يعني الرحم ويقطعونها .

الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : اشتكى أبو الدرداء فعاده عبد الرحمن بن عوف . فقال : خيرّهم أو صلهم ما علمت يا محمد . فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله تبارك وتعالى : أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته " .

عن شيبة قال : حدثنا محمد بن عبد الله بن موهب وأبوه عثمان بن عبد الله ، أنهما سمعا موسى بن طلحة يحدث عن أبي أيوب الأنصاري : " أنّ رجلا قال : يا رسول الله أخبرني

بعمل يدخلني الجنة ، فقال القوم : ماله وماله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرب ماله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم ذرها "

قال : كأنه كان على راحلته .

عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن كعب قال : والذي فلق البحر لبني إسرائيل إنّ في التوراة لمكتوباً يا بن آدم اتق ربك وأبرّ والديك وصل رحمك أمدُّ لك في عمرك وأُيسّر لك يسرك ، وأصرف عنك عسرك .

وعن أبي إسحاق عن مغراء العبدي عن عبد الله بن عمرو قال : من اتقى ربه ووصل رحمه نسئ له في عمره وثرا ماله وأحبه أهله .



---

صالح عن جرير عن برد عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعمل الخير [ ليس شيء اطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة ] الرحم وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع " .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على طاعة الله وتصبروا عن معصية الله .

قاله ابن زيد ، وقال ابن عباس : وصبروا على أمر الله .

قال عطاء : على الرزايا والمصائب والحوادث والنوائب .

أبو عمران الجوني : صبروا على دينهم .

﴿ ابتغاء وَجْهِ ربِّهمْ ﴾ طالب يعتصم بالله ويستغفر ربه أن يعصيه ويخالفه في أمره ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ يعني الزكاة ﴿ وَيَدْرَءُونَ ﴾ ويدفعون ﴿ بالحسنة السيئة ﴾ يقال : درأ الله عني بشرّك .

قال ابن زيد : يعني لا يكافؤون الشر بالشر ولكن يدفعونه بالخير .

وقال القتيبي : معناه إذا سفه عليهم حلموا فالسفه السيئة والحلم الحسنة .

قتادة : ردوا عليهم معروفاً نظيره ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [ الفرقان : 63 ] .

قال الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا أخلصوا عفوا ، وإذا قُطعوا وصلوا .

ابن كيسان : إذا أذنبوا أيسوا وإذا حرفوا أثابوا ليدفعوا بالتوبة عن أنفسهم فغفر الذنب .

فهذا قول ابن عباس في رواية الضحاك عنه قال : يدفعون بالصالح من العمل الشر من العمل ، ويؤيد هذا الخبر المأثور : " إن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله أوصني . قال : إذا عملت سيئة فاعمل لجنبها حسنة تمحها ، السر بالسر والعلانية بالعلانية " .

قال عبد الله بن المبارك : هذه ثماني خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة .

أبو بكر الوراق : هذه ثمانية جسور فمن أراد القربة من الله عبرها .

﴿ أولئك لَهُمْ عقبى الدار ﴾ ثم بين فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ .

قرأه العامة : بفتح الياء وضم الخاء . وقرأ ابن كثير وأبو عمر : بضم الياء وفتح الخاء .

(123/414)

---

قال عبد الله بن عمير : وإن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلاّ نبي أو صديق أو شهيد .

﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ لهن ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أهلهم وولدهم أيضاً يدخلونها ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ فيه آمنا تقديره ويقولون سلام عليكم ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ .

قال مقاتل : يدخلون في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف يقولون : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ .

صالح عن يزيد عن أنس بن مالك : أنّه تلا هذه الآية جنات عدن إلى قوله : ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ . ثم قال : إنه جنة من در وفضة طولها في الهواء ستون ميلا ليس فيها صدع ولا وصل منه كل زاوية منها أهل فقال : لها أربعة آلاف مصراع من ذهب يقوم على كل باب

سبعون ألف من الملائكة مع كل ملك منهم هدية من الرحمن ليس في مثلها ، لا يَعْلُونَ [ . . . . ] ليس بينهم وبينه حجاب .

وروى ابن المبارك عن عقبة بن الوليد قال : حدثنا أرطأة بن المنذر قال : سمعت رجلا من ملجف بالجند يقال له أبو الحجاج يقول : حدثني خالي أبي أُمامة فقال : إنّ المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين سور فيقبل الملك ، يستأذن فيقول الذي يليه : ملك يستأذن ، ويقول الذي يليه : ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول : ائذنوا فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا فيقول الذي يليه للذي يليه كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف .

*(124/414)*

---

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله " قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " الفقراء والمهاجرون الذين تسدّ بهم الثغور ويتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء " " .

قال : فيأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ .

وروى سهيل بن أبي صالح عن محمد بن إبراهيم قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعمى عقبى الدار . أبو بكر وعمر وعثمان عليهم السلام كانوا يفعلون كذلك .

﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض أولئك لَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سواء الدار ﴾ يعني النار .

وقال سعد بن أبي وقاص : هم الحرورية .

﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ ﴾ يوسع عليه ﴿ وَيَقَدِرُ ﴾ ويقتر ويضيق ﴿ وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا ﴾ يعني فرطوا وجهلوا ما عند الله ويطمعون ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ قليل ذاهب قاله مجاهد ، وقال عبد الرحمن بن سابط : كزاد الراعي يزود ، أهله الكف من التمر أو الشيء من الدقيق أو الشيء يشرب عليه اللبن .

الكلبي : كمثل السكرجة والقصعة أو القدح والقدر ونحوها ينتفع بها ثم يذهب ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكة ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ ويرشد الأُمّة إلى طاعته من رجع إليه بقلبه ثم وصفهم فقال ﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ في محل النصب والأمن قبله من ﴿ وَتَطْمَئِنُّ ﴾ وتسكن فستأنس ﴿ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ .

مقاتل : بالقرآن ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ .

قال ابن عباس : هذا في الحلف ويقولها إذا حلف الرجل المسلم بالله على شيء يم سكن قلوب المؤمنين إليه .

وقال مجاهد : هم أصحاب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

﴿ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ابتداء ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ خبره ، وقيل : معناه لهم طوبى فطوبى خبر الابتداء الأول .

واختلف العلماء في تفسير "طوبى لَهُمْ" .

الوالبي عن ابن عباس : طوبى لهم : فرح وقرة عين لهم ، عكرمة : نِعم مالهم ، الضحاك : غبطة لهم .

قتادة : حسنى لهم معمر عنه : هذه كلمة عربية ، يقول الرجل للرجل طوبى لكم أي أصبت خيراً .

إبراهيم : خير وكرامة لهم .

شميط بن عجلان : طوبى يعني دوام الخير . الفراء : أصله من الطيب وإنما جاءت الواو لضم ماقبلها وإتيان بقول العرب : طوباك ، طوابى لك .

سعيد بن جبير عن ابن عباس : طوبى اسم الجنة بالحبشية .

سعيد بن مسجوح : اسم الجنة بالهندية ربيع البستان بلغة الهند .

وروى ابن سعيد الهندي " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ رجلا قال له : يا رسول الله ما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة يخرج من أكمامها " .

وروى معاوية بن مرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإنّ أغصانها لترى من وراء سور الجنة " .

وقال أبو هريرة : طوبى شجرة من الجنة [ غرسها ] الله لها [ ثمر ] تفتقي لعبدي عياشاً صنعه له من الحلي بسرجها ولحمها وعن الإبل بأنّ تحتها قماشاً من الكسوة .

وقال مغيث بن سمي : طوبى شجرة من الجنة ، لو أنّ رجلاً ركب قلوصاً جذعاً ثم دار بها لم يبلغ المكان الذي ارتحل منه حتى يموت هرماً وما في أهل منزل إلاّ فيه غصن من أغصان تلك الشجرة متدلّ يصلهم الماء بالدلاء وإذا أرادوا أن يأكلوا من الثمرة تدلى إليهم فأكلوا منه ما شاؤوا ويجئ عليها الطير أمثال البخت ، يعني الطير ويأكلون منه قديداً وشواءً ثم تطير .

قال عندر بن عمير : هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلاّ وفيها منها إلاّ السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلاّ وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل مقابل كل ورقة منها تظل أُمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح .

وقال أبو سلام : حدثني عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبيد السلمي يقول :

" جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله في الجنة فاكهة ؟ قال : فيها شجرة تدعى طوبى هي تطابق الفردوس " .

قال : أي شجر أرضنا تشبه ؟ قال : " ليس تشبه شيئاً من شجر أرضك ولكن أتيت الشام " ، فقال : أتيت الشام يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فإنها تشبه شجرة تدعى الجوز ينبت على ساق واحد ثم ينتشر أعلاها . فقال : ما أعظم أصلها .

قال : لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تتكسر ترقوتاها هرماً " .

قال وهب بن منبه : إنّ في الجنة شجرة . قال : الطوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا يقطعها زهوها رياط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها ياقوت وترابها كافور وحملها مسك يخرج من أصلها أنها الخمر واللبن والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة فبينما هم في مجلسهم إذا أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نجاماً مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسناً ووبرها كخز المرعزي من لينة ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ودفوفها

من ذهب وثيابها من سندس واستبرق فيفتحونها ويقولون : إنّ ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه .

(127/414)

---

قال : فيركبونها فهي أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش نجباً من غير مهنة يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أُذن راحلة منها إذن صاحبتها حتى إنّ الشجرة لتنتحي عن طرقهم فهم لا يفرقون بين الرجل وبين أخيه ، قال : فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه ، قالوا : اللهم أنت السلام ومنك السلام وأنت الجلال والإكرام ، ويقول تبارك وتعالى عند ذلك : أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي مرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري ، قال : فيقولون ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدّرك حق قدرك فأذن لنا في السجود قدامك ، قال : فيقول الله عزّ وجلّ : إنها ليست بدار نصب وعبادة ولكنها دار ملك ونعيم وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلوني ما شئتم فإنّ لكل رجل منكم أُمنيته ، فيسألونه حتى إن أقصرهم أُمنيةً يقول : رب يتنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها فأتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت فيقول الله عزّ وجلّ : لقد قصرت

بك أُمنيتك ولقد سألت دون منزلتك هذا لك منّي وسأُلحقك بمن أتى ، لأنه ليس في عطائي تكديرٌ ولا تصدير .

قال : ثم يقول : أعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال ، فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أما نيهم التي في أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منهم سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة . في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين وعلى كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة ، وليس في الجنة لون إلاّ وهو فيهما ولا ريح طيب إلاّ وقد عبق بهما ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظنّ من يراهما أنهما دون القبة يرى مخهما من فوق سقفهما ، كالسلك الأبيض من ياقوتة حمراء .

(128/414)

---

يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ويرى هو لهما مثل ذلك ثم يدخل إليهما فيطيبانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له : والله ما ظننا أنّ الله يخلق مثلك ، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أُعدت له .

الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : فطوبى لهم شجرة أصلها في دار علي في الجنة ، وفي دار كل مؤمن منها غصن يقال له طوبى .

﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ حسن المرجع .

وروى داود بن عبد الجبار عن جابر عن أبي جعفر قال : " سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ طوبى لهم وحسن مآب ﴾ .

فقال : " شجرة أصلها في داري وفرعها في الجنة " . ثم سُئل عنها مرة أُخرى . فقال : " شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفرعها على أهل الجنة " .

فقيل له : يا رسول الله نسألك عنها مرة فقلت : " شجرة في الجنة أصلها في دار علي وفرعها على أهل الجنة " فقال : ذلك في داري ودار علي أيضاً واحدة في مكان واحد " " .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ المكان ﴿ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ليقرأ عليهم القرآن ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ .

قال قتادة ومقاتل وابن جريج : نزلت في صلح الحديبية حتى أرادوا كتاب الصلح . " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي ( رضي الله عنه ) : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم " .

فقال سهيل بن عمرو والمشركون معه : ما نعرف الرحمن إلاّ صاحب اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب ، اكتب باسمك اللهم وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . فقال المشركون وقريش : لئن كتب رسول الله بِمَ قاتلناك وصددناك قال فأمسك ولكن اكتب هذا ما صالح محمد ابن عبد الله .

فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعنا نقاتلهم .



---

قال : لا ولكن اكتبوا كما تريدون " ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : " نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : اسجدوا للرحمن " فقالوا : وما الرحمن ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ."

وقال : قل لهم يا محمد : إنّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إله إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ ومضى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا ﴾ الآية نزلت في نفر من مشركي مكة فيهم أبو جهل ابن هشام وعبد الله بن أبي أُمية المخزومي جلسوا خلف الكعبة فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم فقال له عبد الله بن أبي أُمية : إن تشرك نتبعك فسيّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تُفتح . فإنها ضيّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً

حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال يسبح لربه ، أو سخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضي عليه أُمورنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا .

فقد كان سليمان سخرت له الريح ، فكما حملت لنا فلست بأهون على ربك من سليمان في داود .

وأحيي لنا جدك أيضاً ومن شئت من موتانا لنسأله أحق ما يقول أم باطل ؟ فإنّ عيسى قد كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ وأذهبت عن وجه الأرض ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ أي شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً .

﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ واختلفوا في جواب لو ، فقال قوم : هذا من النزول المحذوف الجواب أقتضى بمعرفة سامعه مراده وتقدير الآية لكان هذا القرآن .

كقول أمرىء القيس :

فلو أنها نفس تموت بتوية . . . ولكنها نفس بقطع النفسا

يعني لهان عليّ ، وهي آخر بيت في القصيدة .

وقال آخر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله . . . سواك ولكن لم نجد لك مرفعاً

فأراد أرددناه ، وهذا معنى قول قتادة . لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم .

وقال آخرون : جواب لو يقدم وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ الآية كأنه قال ولو أنّ قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن وبما آمنوا .

ثم قال : ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين آمنوا ﴾ .

قال المفسرون : أفلم يعلم .

وقال الكلبي : هي بلغة النخع حي من العرب .

وقال القاسم معن : هي لغة هوازن .

وقال سحيم بن وثيل الرياحي :

أقول لهم بالشعب إذ يسرونني . . . ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أراد ألم يعلموا ، وقوله : هاد يسرونني أي يقتسمونني من الميسر كما يقتسم الجزور .

ويروى : لمسرونني من الأسر .

وقال الآخر :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه . . . وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

ودليل هذا التأويل قراءة ابن عباس : أفلم يتبين ، وقيل لابن عباس : المكتوب "أفلم ييئس" قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس .

وأما الفراء : فكان ينكر ذلك ويزعم أنه لم يُسمع أحدٌ من العرب يقول : يئست وهو يقول هو في المعنى وإنْ لم يكن مسموعاً يئست بمعنى علمت متوجه إلى ذلك ، وذلك أنّ الله تعالى قد أوحى إلى المؤمنين أنه لو شاء الله لهدى الناس جميعاً .

فقال ألم ييئسوا علماً يقول يؤسهم العلم فكان العلم فيه مضمراً كما يقول في الأعلام يئست منك أن لا يفلح علماً كأنه قول علمته علماً .

قال الشاعر :

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا . . . غضفاً دواجن قافلاً أعصامها

بمعنى إذا يئسوا من كل شيء مما يمكن إلاّ الذي ظهر لهم أرسلوا فهو في معنى : حتى إذا علموا أن ليس وجه إلاّ الذي رأوا وانتهى علمهم فكان ما سواه يأساً .

﴿ أَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ لَهَدَى الناس جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ ﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية ومصيبة وشديدة تقرعهم من أنواع البلاء والعذاب أحياناً بالجدب وأحياناً بالسلب وأحياناً بالقتل وأحياناً بالأسر .

وقال ابن عباس : أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثهم إليها ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أي تنزل أنت يا محمد بنفسك ﴿ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ﴾ .

وقال قتادة : هي تاء التأنيث يعني وتحل القارعة قريباً من دارهم ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ الفتح والنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه ، وقيل يعني القيامة ﴿ إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد * وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أصلهم واطلب لهم ومنه الملاوة والملوان ويقال طبت حيناً ، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ عاقبتهم ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي حافظها ورازقها وعالم بها ومجازيها بما عملت ، وجوابه محذوف تقديره : كمن هو هالك بائد لا يسمع ولا يبصر ولا يفهم شيئاً ولا يدفع عن نفسه ، نظيره قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل ﴾ [ الزمر : 9 ] يعني كمن ليس بقانت ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ بيّنوا أسماءهم ثم قال : ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ يعني يخبرون الله ﴿ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض ﴾ فإنه لم يعلم لنفسه شريكاً ولا في الأرض إلهاً غيره ﴿ أَم بِظَاهِرٍ ﴾ يعني بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له ولا باطل صالح ولا حاصل وكان أُستاذنا أبو الاقسم الحبيبي يقول : معنى الآية عندي : قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا بباطن لا يعلمه أحالوا ، وإن قالوا : بظاهر يعلمه قل لهم سموهم ، وبينوا من هم ، فإن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ، ثم قال : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ كيدهم .

قال مجاهد : قولهم يعني شركهم وكذبهم على الله .

﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ وصرفوا عن الدين والطريق المستقيم .

قرأ أهل الكوفة : بضم الصاد واختاره أبو عبيد بأنه قراءة أهل السنة : وفيه إثبات القدر .

وقرأ الباقون : بالفتح ، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ الحج : 25 ] وقوله ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام ﴾ [ الفتح : 25 ] وقوله ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ النساء : 167 ] ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ يعني إياه ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ موفق ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ﴾ أشد ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ﴾ مانع يمنعهم من

العذاب .

﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾ في دخولها اختلفوا في الرافع للمثل .

(133/414)

---

فقال الفراء : هو ابتداء وخبر على قوله ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وقيل معنى المثل الصفة كقوله ﴿ وَلِلَّهِ المثل الأعلى ﴾ [ النحل : 60 ] أي الصفة العليا وقوله ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ﴾ [ الفتح : 29 ] ومجاز الآية صفة الجنة التي وعد المتقون أنّ الأنهار تجري من تحتها وكذا وكذا .

وقيل مثل وجه مجازها الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ، والعرب تفعل هذا كثيراً بالمثل والمثل كقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [ الشورى : 11 ] أي ليس هو كشيء .

وقيل معناه : ﴿ لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى ﴾ [ الرعد : 18 ] . قيل الجنة [ بدل منها .

قال مقاتل : معناه شبه الجنة التي وعد المتقون في الخير والنعمة والخلود والبقاء كشبه النار [ في العذاب و ] الشدّة والكرب .

﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ لا ينقطع ولا يفنى ﴿ وِظِلُّهَا ﴾ ظليل لا يزال وهذا رد على الجهمية ،

حيث قالوا : إن نعيم الجنة يفنى ﴿ تِلْكَ عقبى ﴾ يعني ما فيه ﴿ الذين اتقوا ﴾ الجنة ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار * والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ يعني القرآن وهم أصحاب محمد ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ﴿ وَمِنَ الأحزاب ﴾ يعني الكفار الذين كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم اليهود والنصارى ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وذلك أنهم آمنوا بسورة يوسف وقالوا إنها واطأت كتابنا وهذا قول مجاهد وقتادة .

وقال باقي العلماء : كان ذكر الرحمن في القرآن قليلا في بدء ما أنزل فلما أسلم عبد الله . ابن سلام وأصحابه : ساءهم قلّة ذكر الرحمن في القرآن ؛ لأن ذكر الرحمن في التوراة كثير فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك قوله الله تعالى ﴿ قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [ الإسراء : 110 ] الآية .

(134/414)

---

فقالت قريش حين نزلت هذه الآية : ما بال محمد كان يدعو إلى إله واحد فهو اليوم يدعو إلى إلهين : الله والرحمن ، ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [ الأنبياء : 36 ] وهم يكفرون بالرحمن وفرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن فأنزل الله ﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾

الله من ذكر الرحمن ﴿ وَمِنَ الأَحزاب ﴾ يعني مشركي قريش من يذكر بعضه . قال الله ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ مرجعي ﴿ وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾ وكما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد وأنكره الأحزاب ، كذلك أيضاً أنزلنا الحكم والدين حكماً عربياً ، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزل على محمد وهو عربي ، فنسب الدين إليه إذ كان منزلاً عليه فكذب الاحزاب بهذا الحكم أيضاً ، وقال قوم معنى الآية : وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغنا هم كذلك أنزلنا عليك القرآن حكماً عربياً ثم توعده على إتباع هوى الأحزاب فقال ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم ﴾ قيل بما شاء الله ، وقيل في أهل القبلة لأنّه ﴿ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ فجعلناهم بشراً مثلك ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ ﴾ نكحوهن وأولاد ينسلوهم ولم يجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحوهن ، فنجعل الرسول إلى قومك ملائكة ولكن أرسلنا إلى قومك بشراً مثلهم كما أرسلنا إلى من قبلهم من الأُمم بشراً مثلهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ وهذا جواب عبد الله بن أبي أُمية ثم قال : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لكل أمر أمضاه الله كان قد كتبه لجميع عبيده ، الضحاك : معناه لكل كتاب نزل من السماء أجل ووقت ينزل فيه وهذا

من المقلوب ﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ .

قرأ حميد وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب : ويثبت بالتخفيف .

وقرأ الآخرون : بالتثقيل واختاره أبو عبيد لكثرة من قرأها ولقوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ [ إبراهيم : 27 ] .

واختلف المفسرون في معنى الآية ، فروى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يمحو الله ما يشاء إلاّ الشقاوة والسعادة والموت " .

وعن ابن عباس قال : يمحو الله ما يشاء إلا أشياء : الخَلْق والخُلُق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة .

عكرمة عنه هما كتابان سوى أم الكتاب يمحو الله فهما ما يشاء ويثبت ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ الذي لا يغير منه شيء .

أبو صالح والضحاك : يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ويثبت ما فيه ثواب وعقاب .

وروى عفان عن همام عن الكلبي : يمحو الله ما يشاء ويثبت . قال : يمحو من الرزق ويزيد فيه ويمحو من الأجل ويزيد فيه . قلت من حدثك ؟

قال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم فقدم

الكلبي بعد فسئل عن هذه الآية فقال : حتى إذا كان يوم الخميس يطرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب . مثل قولك أكلت ، شربت ، دخلت ، خرجت ونحوها من الكلام وهو صادق ، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب .

وقال بعضهم : يمحو الله ما يشاء ويثبت كل ما يشاء [ من ] غير استثناء كما حكى الكلبي عن راذان عن جابر عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) .

روى أبو عثمان النهدي : أنّ عمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) كان يطوف بالبيت السبت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فإن كنت كتبت عليَّ الذنب والشقوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أُم الكتاب .

(136/414)

---

ابن مسعود : إنه كان يقول : اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء وأثبتني في السعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أُم الكتاب .

وروى حماد بن أبي حمزة عن إبراهيم : أن كعباً قال لعمر ( رضي الله عنه ) : يا أمير المؤمنين

لولا اية في كتاب الله لأُنبئنك بما هو كائن إلى يوم القيامة .

قال : وما هو ؟ قال : قول الله تعالى ﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ .

وروى عطية عن ابن عباس : في هذه الآية قال : هو الرجل يعمل للزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يثبت الرجل الذي عمل بطاعة الله وقد كان يقول : خير أُمتي يموت وهو في طاعة الله ، فهو الذي يثبت .

قال علي بن أبي طالب ( رضي الله عنه ) : يمحو الله ما يشاء من القرون ويثبت ما يشاء منها كقوله ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون ﴾ [ يس : 31 ] وقوله ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ [ المؤمنون : 31 ] .

سعيد بن جبير وقتادة : يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء وما ينسخه .

الحسن : لكل أجل كتاب يعني آجال بني آدم في كتاب يمحو الله ما يشاء من جاء أجله فيذهب به ويثبت من لم يجىء أجله إلى أجله .

مجاهد وابن قيس : حين ما أنزل ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [ الرعد : 38 ] ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من أمره . فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعداً لهم أي إن يشاء أحدثها من أمر . قاله بأشياء ويحدث في كل رمضان في ليلة القدر فيمحوا ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وينسئهم له .

محمد بن كعب القرظي : إذا ولد الإنسان . أثبت أجله ورزقه وإذا مات محى أجله ورزقه .

(137/414)

---

وروى سعيد بن جبير : يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء بتركها فلا يغفرها .

عكرمة : يمحو الله ما يشاء يعني بالتوبة جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات فإنه ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [ الفرقان : 70 ] .

وروى عن الحسن أيضاً : يمحو الله ما يشاء يعني الآباء ويثبت يعني الأبناء .

السدي : يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت يعني الشمس .

بيانه قوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [ الإسراء : 12 ] .

ربيع : هذا في الأرواح في حال النوم يقبضها عند النوم فمن أراد موته محا وأمسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده إلى صاحبه .

بيانه قوله ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى

عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [ الزمر : 42 ] .

وقيل : يمحو الله ما يشاء الدنيا ويثبت الآخرة .

وروى محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل ، في الساعة الأُولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه آخر غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء " .

ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة جنانها رمان من ياقوت ولله في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو منها ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب .

قال قيس بن عباد : العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب يعني اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل .

قال قتادة والضحاك : حلية الكتاب وأصله فيه ما يمحو ويثبت .

فسأل ابن عباس كذا عن أُم الكتاب .

قال : يعلم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون فقال لعلمه : كن كتابا فكان كتابا ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل أن نريك ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ الذي عليك [ أن تبلغهم ] ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ والجزاء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني أهل مكة الذين يسألون محمداً الإيمان ﴿ أَنَّا نَأْتِي الأرض ﴾ نقصدها ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ يفتحها لمحمّد صلى الله عليه وسلم أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم فلا يخافون أن نفتح أرضهم كما فتحنا له غيرها ، وبنحو ذلك قال أهل التأويل . روى صالح بن عمرو عن عمرو بن عبيد عن الحسن قال : ظهور المسلمين على المشركين .

وروى وكيع عن سلمة بن سبط عن الضحاك قال : ما تغلب عليه محمد صلى الله عليه وسلم من أرض العدو .

جبير عن الضحاك قال : أو لم ير أهل مكة إنا نفتح لمحمد ما حوله من القرى .

وروى إسحاق بن إبراهيم السلمي عن مقاتل بن سليمان قال : الأرض مكة وننقصها من أطرافها غلبة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليها وانتقاصهم وازدياد المسلمين . فكيف لا يعتبرون وقال قوم : معناه أو لم يروا إلى الأرض ننقصها أفلا تخافون إن جعل بهم بأرضهم مثل ذلك فيهلكهم ويخرب أرضهم .

ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : خراب الأرض وقبض أهلها .

يزيد الخوي عن عكرمة قال : يعني قبض الناس .

وقال : لو نقصت الأرض لصارت مثل هذه وعقد بيده سويتين .

عثمان بن السنّاج عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : موت أهل الأرض .

طلحة بن أبي طلحة القناد عن الشعبي : قبض الأنفس والثمرات .

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نقصان أهلها وتركها .

عثمان بن عطاء عن أبيه : قال ذهاب علمائها وفقهائها .

(139/414)

---

قال الثعلبي : أخبرنا أبو علي بن أحمد الفقيه السرخسي قال : حدثنا أبو لبيد بن محمد بن إدريس البسطامي حدثنا سعد بن سعيد حدثنا أبي حدثنا أبو حفص عن محمد بن عبد الله عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا العلم قبل أن يذهب " .

قلنا : وكيف يذهب العلم والقرآن بين أظهرنا قد أثبته الله في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نقرأه ونقرئه أولادنا فأنصت ثم قال هل ظلت اليهود والنصارى الا والتوراة بين أظهرهم

ذهاب العلم ذهاب العلماء .

وحدثنا الأُستاذ أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب لفظاً في صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة في آخرين .

قالوا : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف : حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو ضمرة وأنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمر بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " .

وحدثنا أبو القاسم أخبرنا محمد بن أحمد بن سعيد حدثنا العباس بن حمزة حدثنا [ . . . . . . . . . ] السدي حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان عن عبد الله بن عبد الرحمن عن سالم بن أبي الجنيد عن أبي الدرداء أنه قال : يا أهل حمص مالي أرى أنّ علماؤكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ، فأراكم قد أقبلتم على ما يكفل لكم ، وضيعتم ما وكلتم به اعلموا قبل أن يرفع العلم فإن رفع العلم ذهاب العلماء .

وأخبرنا أبو القاسم حدثنا عبد الله بن المأمون بهرات حدثنا أبي حدثنا خطام بن الكاد بن الجراح عن أبيه عن جويبر عن الضحاك قال : قال علي ( رضي الله عنه ) : إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كفٌ لم تعد .

حدثنا أبو القاسم حدثنا أبي حدثنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد الرازي الزعفراني حدثنا عمر بن مدرك البلخي، أبو حفص حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا هشام بن حيان عن الحسين قال: قال عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار.

ومنه عن الرازي حدثنا عمرو بن تميم الطبري. أخبرنا محمد بن الصلت. حدثنا عباد بن العوام عن هلال عن حيان قال: قلت لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم، ونظير هذه الآية في سورة الأنبياء عليهم السلام.

﴿ والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ لا راد لحكمه، والمعقب في كلام العرب الذي يكرّ على الشيء ويتبعه.

قال لبيد:

حتى تهجر في الرواح وهاجه . . . طلب المعقب حقه المظلوم

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب * وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني من قبل مشركي مكة ﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً ﴾ يعني له أسباب المكر وبيده الخير والشر وإليه النفع والضر فلا يضر مكر

أحد أحداً إلاّ من أراد الله ضره ، وقيل : معناه له جزاء إليكم .

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نفسٍ وَسَيَعْلَمُ الكفار ﴾ سيعلم : قرأ ابن كثير وأبو عمر : الكافر على الواحد ، والباقون على الجمع .

﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ عاقبة الدار الآخرة ممن يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ إني رسوله إليكم ، ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ أيضاً يشهدون على ذلك . هم مؤمنو أهل الكتاب .

وقرأ الحسين وسعيد بن جبير : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ بكسر الميم والدال . علم الكتاب مبني على الفعل المجهول .

وروى أبو عوانة عن أبي الخير قال : قلت لسعيد بن جبير ﴿ وَمَنْ عِندِهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ أهو عبد الله بن سلام ؟ قال : كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية .

*(141/414)*

---

وكان سعيد يقرأها ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ ، ودليل هذه القراءة قوله ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [ الكهف : 65 ] وقوله ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن ﴾ [ الرحمن : 1-2 ] .

وأخبرنا عبد الله بن يوسف بن أحمد بن بابويه أخبرنا أبو رجاء محمد بن حامد بن محمد المقرئ بمكة حدثنا محمد بن حدثنا عبد الله بن عمر حدثنا سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ومن عنده علم الكتاب.

وبه عن السمري حدثنا أبو تويه عن الكسائي عن سليمان عن الزهري عن نافع عن ابن عمر قال: قال: وذكر الله أشدّ فذكر إنه حيث جاء إلى الدار ليسلم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ وَمَنْ عِندِهِ عِلْمُ الكتاب ﴾ بكسر الميم وسمعه في الركعة الثانية يقرأ ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين ﴾ [العنكبوت: 49] الآية.

أخبرني أبو محمد عبد الله بن محمد الفاسي حدثنا القاضي الحسين بن محمد بن عثمان النصيبي أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين السميعي بحلب حدثني الحسين بن إبراهيم بن الحسين الجصاص. أخبرنا الحسين بن الحكم حدثنا سعيد بن عثمان عن أبي مريم وحدثني بن عبد الله ابن عطاء قال: كنت جالساً مع أبي جعفر في المسجد فرأيت ابن عبد الله بن سلام جالساً في ناحية فقلت لأبي جعفر: زعموا أنّ الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام. فقال: إنما ذلك علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

وفيه عن السبيعي: حدثنا عبد الله بن محمد بن منصور بن الجنيد الرازي عن محمد بن الحسين بن الكتاب.

أحمد بن مفضل حدثنا مندل بن علي عن إسماعيل بن سلمان عن أبي عمر زاذان عن ابن الحنفية ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الكشف والبيان جـ 5 صـ 284. 303 ﴾

(142/414)

---

وقال الزمخشرى:

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله أَفَمَنْ يَعْلَمُ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم أنما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب: كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ أى الذين عملوا على قضيات عقولهم، فنظروا واستبصروا.

[سورة الرعد (13): الآيات 20 إلى 24]

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا

الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ
(22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

(143/414)

---

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ مبتدأ . وأُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ خبره كقوله : والذين ينقضون عهد اللّه أولئك لهم اللعنة . ويجوز أن يكون صفة لأولى الألباب ، والأوّل أوجه .

وعهد اللّه : ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى . وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه : من الإيمان باللّه وغيره من المواثيق بينهم وبين اللّه وبين العباد ، تعميم بعد تخصيص ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ من الأرحام والقرابات ، ويدخل فيه وصل قرابة رسول اللّه وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم ، والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم ، وإفشاء السلام عليهم ، وعيادة مرضاهم ، وشهود جنائزهم . ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ، وكل ما تعلق منهم بسبب ، حتى الهرة

والدجاجة . وعن الفضيل بن عياض أنّ جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ قالوا : من أهل خراسان . قال : اتقوا اللّه وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أنّ العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أى يخشون وعيده كله وَيَخافُونَ خصوصا سُوءَ الْحِسابِ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا صَبَرُوا مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّه ، لا ليقال : ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل ، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله :

وَتَجَلُّدِى لِلشّامِتِينَ أُرِيهِمُ «1»

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع ولا مردّ فيه للفائت ، كقوله :

مَا إنْ جَزِعْتُ وَلَا هَلَعْ تُ وَلَا يَرُدُّ بُكَاىَ زَنْدَا «2»

---

(1) وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتجلدي للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

لأبى ذؤيب خويلد بن خالد المخزومي ، يرثى بنيه . روى أن معاوية مرض ، فعاده الحسن بن على رضى اللّه عنهما فقال : كحلونى وألبسونى عمامتي ، وأظهر القوة وأنشد له البيت الثاني ، فأجابه الحسن بغتة بالأول . وشبه المنية بالسبع على طريق المكنية . وإنشاب الأظفار : تخييل . ومنى له : قدر له . والمنية : الموت لأنه مقدر .

والانشاب : الغرز والتعليق . ألفيت : أى وجدت كل تميمة لا تنفع ، وهي ما يعلق على الولدان خوف الجن والحسد . وتجلدي : أى تصبرى وتصلبي . مبتدأ . وأريهم : خبره ، أى أظهر لهم به أنى لا أتضعضع وأتخشع وأضعف لأجل ريب الدهر ، أى حدثانه الطارئ من حيث لا أشعر . [. . . . .]

(2) ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت برداً

إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجداً

أعددن للحدثان سابقة وعداء علندى

نهداً وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا

كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا

ما إن هلعت ولا جزعت ولا يرد بكاى زندا

لعمرو بن معد يكرب . يقول : ليس الجمال بفاخر الثياب . وفاعلم : اعتراض . والخطاب لغير معين ، أى ليس كذلك وإن ألبستها والبرد ، ثوب سابغ يرتدى به إن الجمال خصال حميدة أكسبت أصحابها الشرف . والحدثان : مكروه الدهر المنقلب . والسابغة الدرع ، وكانت له درع من ذهب . والعداء : الفرس الكثير العدو . والعلندى – بالفتح – : الغليظ الشديد السريع . وشيء علند : صلب – واعلندى البعير : اشتد . والنهد : الضخم الطويل . والشطب – بالضم – :

طرائق السيف . والأبدان : الدروع القصيرة ، وإذا قطع البيضة والبدن مع أنهما من الحديد ، قطع غيرهما بالأولى :

مدح نفسه بالشجاعة ، ثم بالصبر فقال : كثير من إخواني أنزلتهم اللحود بيدي ، ومع ذلك ما جزعت لا قليلا ولا كثيراً فان زائدة . والهلع : شدة الجزع . وفي الحديث «من شر ما أوتى العبد : شح هالع ، وجبن خالع» أى يهلع فيه وكأنه يخلع فؤاده . وتزند فلان . ضاق بالجواب وغضب . والمزند : مثل في الشيء . ويقال للحقير : زندان في مرقعة ، فالزند : الشيء الحقير . ويروى : زيدا : بالياء ، على أنه زيد بن الخطاب أخو عمر رضى اللّه عنه ، كان صديقا له في الجاهلية . ويروى : وهل يرد بكائي ؟ أى : لم أجزع ، لعلمي أنه لا ينفع .

(144/414)

---

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حسناً عند اللّه ، وإلا لم يستحق به ثواباً ، وكان فعل كلا فعل مِمَّا رَزَقْناهُمْ من الحلال ، لأنّ الحرام لا يكون رزقا «1» ولا يسند إلى اللّه «2» سِرًّا وَعَلانِيَةً يتناول النوافل ، لأنها في السر أفضل - والفرائض ، لوجوب المجاهرة بها نفيا للتهمة وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ويدفعونها . عن ابن عباس :

يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم . وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا . وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا . وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره عُقْبَى الدَّارِ عاقبة الدنيا وهي الجنة ، لأنها التي أراد اللّه أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها «3» . وجَنَّاتُ عَدْنٍ بدل من عقبى الدار . وقرئ : فنعم ، بفتح النون .

---

(1) . قوله «لأن الحرام لا يكون رزقا» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فيكون رزقا كالحلال . (ع)

(2) . قال محمود : «المراد مما رزقناهم من الحلال ، لأن الحرام لا يكون رزقا ولا يسند إلى اللّه تعالى» قال أحمد :

الحق أن لا رازق إلا اللّه إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ كما أنه لا خالق إلا اللّه هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لا رازق إلا اللّه فأى مقال بعد ذلك يبقى للقدرى الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم لأن الغالب الحرام وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه ولا تكفه القوارع السمعية والعقلية ولا تردعه فبأى حديث بعد اللّه وآياته يؤمنون .

(3) . قال محمود : «المراد عاقبة الدنيا ومرجع أهلها . . . الخ» قال أحمد : قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة مثل وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ، مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ .

وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ والمراد في جميع ذلك: عقبى الخير والسعادة، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة والمراد عاقبة الخير أنها هي التي أرادها اللّه فهي الأصل والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة بل عارضة على خلاف المراد والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها إلا بتقييد يفهمها كقوله وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ كل ذلك من الزمخشري تهالك على أن ينسب إلى اللّه إرادة ما لم يقع ومشيئة ما لم يكن مصادمة لما أنطق اللّه به ألسنة حملة الشريعة ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق ما يعين أنه الأصل باعتبار الارادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إن المؤدى إلى حمد العاقبة مأمور به، والمؤدى إلى سوئها منهى عنه، فمن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، واللّه الموفق.

(145/414)

---

والأصل: نعم. فمن كسر النون فلنقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل وقرى:

يَدْخُلُونَها على البناء للمفعول. وقرأ ابن أبى عبلة صَلَحَ بضم اللام، والفتح أفصح، أعلم أنّ الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوى كل واحد منهم،

فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم سَلامٌ عَلَيْكُمْ في موضع الحال ، لأنّ المعنى : قائلين سلام عليكم ، أو مسلمين . فإن قلت : بم تعلق قوله بِما صَبَرْتُمْ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ، يعنون هذا الثواب بسبب صبركم ، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم . والمعنى : لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة ، كقوله :

بِمَا قَدْ أرَى فِيهَا أوَانِسَ بُدَّنَا «1»

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» «2» ويجوز أن يتعلق بسلام ، أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم .

[سورة الرعد (13) : آية 25]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)

مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول سُوءُ الدَّارِ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا ، لأنه في مقابلة عقبى الدار ، . ويجوز أن يراد بالدار جهنم ، وبسوئها عذابها .

[سورة الرعد (13) : آية 26]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

مَتاعٌ (26)

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ أى اللّه وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره ، وهو الذي بسط

---

(1) أرى الوحش ترعي اليوم في ساحة الحما بما قد أرى فيها أوانس بدنا

يقول : أرى الوحش ترعى في ساحة الحما في هذا الزمان ، بدل ما كنت أرى فيها الأحبة ، فقد أرى : حكاية حال ماضية ، وقد لتقريبها . والأوانس : جمع آنسة . والبدن : جمع بادنة ، أى سمينة البدن .

(2) . أخرجه عبد الرزاق والطبري من رواية سهيل بن أبى صالح عن محمد بن إبراهيم التيمي قال «كان النبي صلى اللّه عليه وسلم - فذكره» وزاد «كان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك» .

*(146/414)*

---

رزق أهل مكة ووسعه عليهم وَفَرِحُوا بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل اللّه وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة ، وخفى عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجالة الراكب ، وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق أو نحو ذلك .

[سورة الرعد (13) : الآيات 27 إلى 29]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

فإن قلت: كيف طابق قولهم لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قوله قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ؟ قلت: هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يؤتها نبىّ قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية، فإذا جحدوها ولم يعتدّوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعاً للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم: إن اللّه يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدّة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ كان على خلاف صفتكم أَنابَ أقبل إلى الحق، وحقيقته دخل في نوبة الخير، والَّذِينَ آمَنُوا بدل من مَنْ أَنابَ. وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته، كقوله ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها الَّذِينَ آمَنُوا مبتدأ، وطُوبى لَهُمْ خبره. ويجوز أن يكون بدلا من القلوب، على تقدير حذف المضاف، أى: تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا، وطوبى

مصدر من طاب ، كبشرى وزلفى . ومعنى «طوبى لك» أصبت خيراً وطيبا ، ومحلها النصب أو الرفع ، كقولك :

طيبا لك ، وطيب لك ، وسلاما لك ، وسلام لك . والقراءة في قوله وَحُسْنُ مَآبٍ بالرفع والنصب ، تدلك على محليها . واللام في لَهُمْ للبيان مثلها في سقيا لك ، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها ، كموقن وموسر . وقرأ مكوزة الأعرابى : طيبي لهم ، فكسر الطاء لتسلم الياء ، كما قيل : بيض ومعيشة .



---

[سورة الرعد (13) : آية 30]

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (30)

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، يعنى : أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات ، ثم فسر كيف أرسله فقال فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ أى أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك وَهُمْ يَكْفُرُونَ وحال هؤلاء أنهم يكافرون

بِالرَّحْمنِ بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء ، وما بهم من نعمة فمنه ، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم قُلْ هُوَ رَبِّي الواحد المتعالي عن الشركاء عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في نصرتي عليكم وَإِلَيْهِ مَتابِ فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم.

[سورة الرعد (13) : آية 31]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31)

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً جوابه محذوف ، كما تقول لغلامك : لو أنى قمت إليك ، وتترك الجواب والمعنى : ولو أن قرآنا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ عن مقارّها ، وزعزعت عن مضاجعها أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ حتى تتصدع وتتزايل قطعا أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فتسمع وتجيب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف ، كما قال لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ هذا يعضد ما فسرت به قوله لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن.

وقيل : معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم ، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ الآية. وقيل : إن أبا جهل بن هشام

قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع ،

(148/414)

---

كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم ، فلست بأهون على اللّه من داود . وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام . أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا : منهم قصى بن كلاب « 1 » فنزلت . ومعنى تقطيع الأرض على هذا : قطعها بالسير ومجاوزتها . وعن الفراء : هو متعلق بما قبله . والمعنى : وهم يكافرون بالرحمن وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ وما بينهما اعتراض ، وليس ببعيد من السداد .

وقيل قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ شققت فجعلت أنهارا وعيونا بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً على معنيين ، أحدهما : بل للّه القدرة على كل شيء ، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها ، إلا أنّ علمه بأنّ إظهارها مفسدة يصرفه . والثاني : بل للّه أن يلجئهم إلى الإيمان ، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار . ويعضده قوله أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ يعنى مشيئة الإلجاء والقسر «2» لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ومعنى أَفَلَمْ يَيْأَسِ أفلم

يعلم . قيل : هي لغة قوم من النخع . وقيل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه ، لأنّ اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في معنى الترك لتضمن ذلك . قال سحيم بن وثيل الرياحي :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَيْسِرُونَنِى أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّى ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ «3»

ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرءوا : أفلم يتبين ، وهو تفسير أَفَلَمْ يَيْأَسِ وقيل : إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق

---

(1) . لم أجده بهذا السياق ، وقد روى ابن ربيعة عن أبى أسامة عن مجالد عن الشعبي قال قالت قريش النبي صلى اللّه عليه وسلم «إن كنت نبياً كما تزعم فباعد بين جبلي مكة - أحسبها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى تزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام ، أو إلى اليمن ، أو إلى الحيرة ، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلت . فأنزل اللّه تعالى وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً - الآية وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق عطية بن أبى سعيد قال قالوا لمحمد صلى اللّه عليه وسلم : «لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح» وروى أبو يعلى من حديث الزبير بن العوام يقول «لما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين صاح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يا آل قريش ، فجاءته

قريش . فحذرهم وأنذرهم فقالوا : تزعم أنك نبى وأن سليمان سخر له الريح والجبال ، وأن موسى سخر له البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى . فادع اللّه أن يسير عنا هذه الجبال وتنفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل أو ادع اللّه أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أو ادع اللّه أن يصبر هذه الصخرة التي بجنبك ذهبا فننحت منها ويغنينا قال : فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحى . فلما سرى عنه قال : والذي نفسي بيده ، لقد أعطانى ما سألتم ولو شئت كان ولكن أخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم . فنزلت» .

(2) . قوله «أن لو يشاء اللّه يعنى مشيئة الإلجاء» هذا عند المعتزلة دون أهل السنة . (ع)

(3) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 261 فراجعه إن شئت اه مصححه .

*(149/414)*

---

في كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام . وكان متقلبا في أيدى أولئك الأعلام المحتاطين في دين اللّه المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه واللّه فرية ما فيها مرية . ويجوز أن يتعلق أَنْ لَوْ يَشاءُ بآمنوا ، على : أولم

يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء اللّه لهدى الناس جميعا ولهداهم تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارِعَةٌ داهية تقرعهم بما يحل اللّه بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم أَوْ تَحُلُّ القارعة قَرِيباً منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها ، ويتعدى إليهم شرورها حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ وهو موتهم ، أو القيامة . وقيل : ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة ، لأنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان لا يزال يبعث السرايا «1» فتغير حول مكة وتختطف منهم ، وتصيب من مواشيهم . أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك ، كما حل بالحديبية ، حتى يأتى وعد اللّه وهو فتح مكة ، وكان اللّه قد وعده ذلك

[سورة الرعد (13) : آية 32]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (32)

الإملاء : الإمهال ، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن ، كالبهيمة يملى لها في المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

استهزاء به وتسلية له .

[سورة الرعد (13) : الآيات 33 إلى 34]

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ

فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (34)

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ احتجاج عليهم في إشراكهم باللّه ، يعنى أفا اللّه الذي هو قائم رقيب عَلى كُلِّ نَفْسٍ صالحة أو طالحة بِما كَسَبَتْ يعلم خيره وشره ، ويعدّ لكل جزاءه ،

---

(1) . قلت : هو موجود في المغازي لابن اسحق . والواقدي ، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا منها سرية زيد ابن حارثة ليلقى عير قريش ، وسرية على الحر بن سعد بن بكر وغيرهما .



---

كمن ليس كذلك . ويجوز أن يقدّر ما يقع خبراً للمبتدإ ويعطف عليه وجعلوا ، وتمثيله : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وَجَعَلُوا له وهو اللّه الذي يستحق العبادة وحده شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أى جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ، ثم قال : أَمْ تُنَبِّئُونَهُ على أم المنقطعة ، كقولك للرجل : قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف ، ومعناه : بل أتنبؤونه بشركاء «1» لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم

أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفى أن يكون له شركاء . ونحوه : قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كقوله ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ ، ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة «2» التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق : أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وقرئ «أ تنبئونه» بالتخفيف مَكْرُهُمْ كيدهم للإسلام بشركهم وَصُدُّوا قرئ بالحركات الثلاث . وقرأ ابن أبى إسحاق :

وصدّ بالتنوين وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ومن يخذله لعلمه أنه لا يهتدى فَما لَهُ مِنْ هادٍ فما له من أحد يقدر على هدايته لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن ، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ، ولذلك سماه عذابا وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ

وما لهم من حافظ من عذابه . أو ما لهم من جهته واق من رحمته .

[سورة الرعد (13) : آية 35]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35)

مَثَلُ الْجَنَّةِ صفتها التي هي في غرابة المثل ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب

سيبويه ، أى فيما قصصناه عليكم مثل الجنة . وقال غيره : الخبر تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كما تقول : صفة زيد أسمر . وقال الزجاج : معناه مثل الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، على حذف الموصوف تمثيلا لما غاب عنا بما نشاهد . وقرأ على رضى اللّه عنه : أمثال الجنة ، على

---

(1) . قال محمود : «معناه بل أتنبئونه بشركاء . . . الخ» قال أحمد : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء ، وأن اللّه لا يعلمهم كذلك ، لأنهم ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها اللّه ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة ، ولكن مجيء النفي على هذا السنن المتلو بديع ، لا تكنه بلاغته وبراعته ، ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان : وجعلوا للّه شركاء وما هم بشركاء ، فلم يكن بهذا الموقع التي اقتضته التلاوة .

(2) . عاد كلامه . قال : «وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها . . . الخ» قال أحمد : هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلا ، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنبه لها ، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه وهو غافل عما تحته ، لولا هذا التنبيه والإيقاظ ، واللّه أعلم .

الجمع، أى صفاتها أُكُلُها دائِمٌ كقوله لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ وظِلُّها دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس.

[سورة الرعد (13) : آية 36]

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (36)

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يريد من أسلم من اليهود، كعبد اللّه بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، هؤلاء يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ يعنى ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه، والسيد والعاقب أسقفى نجران وأشياعهما مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني هو ثابت في كتبهم غير محرف، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وغير ذلك مما حرّفوه وبدّلوه من الشرائع. فإن قلت: كيف اتصل قوله قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ بما قبله؟ قلت: هو جواب للمنكرين معناه: قل إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد اللّه ولا أشرك به. فإنكاركم له إنكار لعبادة اللّه وتوحيده فانظروا ما ذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة

اللّه وأن لا يشرك به قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وقرأ نافع في رواية أبى خليد : ولا أشرك بالرفع على الاستئناف كأنه قال : وأنا أشرك به ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى : أمرت أن أعبد اللّه غير مشرك به . إِلَيْهِ أَدْعُوا خصوصا لا أدعو إلى غيره وَإِلَيْهِ لا إلى غيره مرجعي ، وأنتم تقولون مثل ذلك ، فلا معنى لإنكاركم .

[سورة الرعد (13) : آية 37]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (37)

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأمورا فيه بعبادة اللّه وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه ، والإنذار بدار الجزاء حُكْماً عَرَبِيًّا حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصابه على الحال . كانوا يدعون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلى إلى قبلتهم بعد ما حوّله اللّه عنها ، فقيل له : لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة ، خذلك اللّه فلا ينصرك ناصر ، وأهلكك

فلا يقيك منه واق ، وهذا من باب الإلهاب والتهييج ، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه ، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من شدّة الشكيمة بمكان .

[سورة الرعد (13) : الآيات 38 إلى 39]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (39)

كانوا يعيبونه بالزواج والولاد ، كما كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، وكانوا يقترحون عليه الآيات ، وينكرون النسخ . فقيل : كان الرسل قبله بشراً مثله ذوى أزواج وذرية . وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم ، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ، فلكل وقت حكم يكتب على العباد ، أى : يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ينسخ ما يستصوب نسخه ، ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته ، أو يتركه غير منسوخ ، وقيل : يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة ، لأنهم مأمورون بكتبة كل قول وفعل وَيُثْبِتُ غيره . وقيل . يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم . وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسى وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها ، والكلام في نحو

هذا واسع المجال وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ ، لأنّ كل كائن مكتوب فيه . وقرئ : ويثبت .

[سورة الرعد (13) : آية 40]

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40)

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم . أو توفيناك قبل ذلك ، فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ، وعلينا لا عليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم ، فلا يهمنك إعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم .

[سورة الرعد (13) : آية 41]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ أرض الكفر نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها بما نفتح على



---

المسلمين من بلادهم ، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام ، وذلك من آيات النصرة والغلبة ونحوه أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ، أَفَهُمُ الْغالِبُونَ ، سَنُرِيهِمْ آياتِنا

فِي الْآفاقِ والمعنى : عليك بالبلاغ الذي حملته ، ولا تبهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ، ولا يضجرك تأخره ، فإن ذلك لما نعلم من المصالح التي لا تعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تباشير الظفر . وقرئ : ننقصها ، بالتشديد لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ لا رادّ لحكمه . والمعقب : الذي يكرّ على الشيء فيبطله . وحقيقته : الذي يعقبه أي يقفيه بالردّ والإبطال . ومنه قيل لصاحب الحق : معقب ، لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب . قال لبيد :

طَلَبُ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ «1»

والمعنى : أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا . فإن قلت : ما محل قوله لا معقب لحكمه ؟ قلت : هو جملة محلها النصب على الحال ، كأنه قيل : واللَّه يحكم نافذاً حكمه ، كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة ، تريد حاسراً .

[سورة الرعد (13) : آية 42]

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وصفهم بالمكر ، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ثم فسر ذلك بقوله يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ

عُقْبَى الدَّارِ لأنّ من علم ما تكسب كل نفس ، وأعدّ لها جزاءها فهو المكر كله ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون . وهم في غفلة مما يراد بهم . وقرئ : الكفار . والكافرون . والذين كفروا . والكفر :

أى أهله ، والمراد بالكافر الجنس : وقرأ جناح بن حبيش ، وسيعلم الكافر ، من أعلمه أى سيخبر .

[سورة الرعد (13) : آية 43]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (43)

---

(1) حتى تهجر في الرواح وهاجها طلب المعقب حقه المظلوم

للبيد بن ربيعة ، يصف حمار وحش خرج في الهاجرة وراء أتانه ، وهاجها : أى بعثها على السير ونشطها لسرعة سيره في طلبها ، كما يطلب المعقب المظلوم حقه ودينه ممن هو عليه ، فالمظلوم بالرفع صفة للمعقب ، لأنه فاعل في المعنى .

ومعناه الذي رجع إلى حقه الذي كان أعطاه للدين ، فكأنه رجع على عقبه ، أو لأنه يعقب المدين ويتبعه .

كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً لما أظهر من الأدلة على رسالتي وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ والذي عنده علم القرآن «1» وما ألف عليه من النظم المعجز الفائت لقوى البشر. وقيل: ومن هو من علماء أهل الكتاب «2» الذين أسلموا. لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم: وقيل هو اللّه عز وعلا «3» والكتاب: اللوح المحفوظ. وعن الحسن: لا واللّه ما يعنى إلا اللّه. والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو، شهيداً بيني وبينكم. وتعضده قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب، على من الجارّة، أى. ومن لدنه علم الكتاب، لأن علم من علمه من فضله ولطفه. وقرئ: ومن عنده علم الكتاب على من الجارّة. وعلم، على البناء للمفعول. وقرئ:

وبمن عنده علم الكتاب. فإن قلت: بم ارتفع علم الكتاب؟ قلت: في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدّر في الظرف، فيكون فاعلا، لأنّ الظرف إذا وقع صلة أوغل في شبه الفعل لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل، كقولك: مررت بالذي في الدار أخوه، فأخوه فاعل، كما تقول: بالذي استقرّ في الدار أخوه. وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبعث يوم القيامة من

الموفين بعهد اللّه «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 524.536 ﴾

---

(1) . قال محمود : «المراد والذي عنده علم القرآن . . . الخ» قال أحمد : فيكون المراد حينئذ : جنس المؤمنين . [ . . . . . ]

(2) . قال محمود : «وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم» قال أحمد : فالكتاب على التأويل الأول مراد به القرآن خاصة ، وعلى الثاني جنس الكتب المتقدمة عليه .

(3) . قال محمود : «وقيل هو اللّه عز وجل ، والكتاب ، اللوح المحفوظ . وعن الحسن : لا واللّه ما يعنى إلا اللّه والمعنى : كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو ، شهيداً بيني وبينكم . وتعضده قراءة من قرأ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ على من الجارة» قال أحمد : وإنما قدر الزمخشري في المعطوف عليه اسم اللّه بالذي يستحق العبادة ، حذراً من عطف الصفة على الموصوف ، وعدولا إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً وإنما أخذ الحصر حيث يقول : ومن لا يعلم علم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذي هو عنده على مبتدئه ، وشأن الزمخشري أخذ الحصر من التقديم ، واللّه الموفق للصواب .

(4) . تقدم إسناده في آل عمران .

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (30) ﴾

التفسير : عن ابن عباس والحسن ﴿ أرسلناك ﴾ كما أرسلنا الأنبياء قبلك ﴿ في أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ وقال آخرون : معنى التشبيه كما أرسلنا إلى أمم وآتيناهم كتباً تتلى عليهم كذلك آتيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلم اقترحوا غيره ؟ وقال في الكشاف : معناه مثل ذلك الإرسال أرسلناك يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات . ثم فسر كيف أرسله فقال : ﴿ في أمة قد خلت من قبلها أمم ﴾ كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء . ثم ذكر مقصود الإرسال فقال ﴿ لتتلو ﴾ أي لتقرأ ﴿ عليهم ﴾ الكتاب العظيم ﴿ الذي أوحينا إليك وهم يكفرون ﴾ وحال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿ بالرحمن ﴾ للمفسرين خلاف في تخصيص لفظ الرحمن بالمقام فقال جار الله : المراد كفرهم بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء وما بهم من نعمة فمنه ، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال مثل هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم .

وعن ابن عباس في رواية الضحاك : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : اسجدوا للرحمن فقالوا وما الرحمن ؟ فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل ﴾ لهم إن الرحمن الذين أنكرتم معرفته ﴿ هو ربي لا إله إلا هو ﴾ الواحد القهار المتعالي عن الشركاء . ﴿ عليه توكلت ﴾ في نصرتي عليكم ﴿ وإليه متاب ﴾ رجوعي فيثيبني على مصابرتكم . وقيل : نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة – يعنون مسيلمة الكذاب – اكتب باسمك اللّهم وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون . فأنزل الله الآية . فعلى هاتين الروايتين كان الذم متوجهاً على كفرهم بإطلاق هذا الاسم على غير الله تعالى لا على جحودهم أو إشراكهم . روي أن أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليهم الإسلام فقال له رؤساؤهم – كأبي جهل وعبد الله بن أمية المخزومي – سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها ، وأحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقوله أم باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى ، أو

سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان ولست بأهون على ربك منه فنزل قوله : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ عن مقارها وأزيلت عن مراكزها ﴿ أو قطعت به الأرض ﴾ أي وقع به السير في البلاد فوق المعتاد شبه طي الأرض أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ بعد إحيائهم به لكن هذا القرآن. قال الراوي : لما سري عن رسول الله عليه وسلم بعد نزول هذا الوحي قال : والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم ثم إن كفرتم يعذبكم عذاباً لا يعذب به أحداً من



---

العالمين فاخترت باب الرحمة. وقال الزجاج : معناه ولو أن قرآناً وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى أي تنبيههم لما آمنوا به كقوله : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾ [ الأنعام : 111 ] الآية. وقال في الكشاف : هذه الآية لبيان تعظيم شأن القرآن. ومعنى تقطيع الأرض تصدعها كقوله ﴿ ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً ﴾ [ الحشر : 21 ] ونقل في الكشاف عن الفراء أن الآية تتعلق بما قبلها والمعنى وهم

يكفرون بالرحمن . وبمدلول هذا الكلام وهو قوله : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ وما بينهما اعتراض . ثم قال رداً عليهم ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ قال أهل السنة : يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ولا اعتراض لأحد عليه .

وقالت المعتزلة : له القدرة على الآيات التي اقترحتموها إلا أن علمه بأن إظهار مفسدة يصرفه ، أوله أن يلجئهم إلى الإيمان إلا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار . قالوا : ويعضده قوله : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله ﴾ مشيئة الإلجاء ﴿ لهدى الناس جميعاً ﴾ أو لو يشاء لهداهم إلى الجنة ، أو المراد نفي العموم لا عموم النفي وذلك أنه ما شاء هداية الأطفال والمجانين . أجاب أهل السنة بأن كل هذا خلاف الظاهر .

(158/414)

---

ومعنى ﴿ أفلم ييأس ﴾ أفلم يعلم . وهذا لغة قوم من النخع . وقال الزجاج : إنه مجاز لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون نظيره استعمال الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في معنى الترك لتضمنهما إياهما ، ويؤيده قراءة علي عليه السلام وابن عباس وجماعة ﴿ أفلم يتبين ﴾ وهو تفسير ﴿ أفلم ييأس ﴾ . وقيل : إن قراءتهم أصل والمشهورة تصحيف وقع من جهة أن الكاتب كتبه مستوي السينات . وهذا القول سخيف جداً والظن بأولئك

الثقات الحفظة غير ذلك ولهذا قال في الكشاف : هذه والله فرية ما فيها مرية . وجوز أن يتعلق ﴿ أن لو يشاء ﴾ ب ﴿ آمنوا ﴾ معناه أفلم يقنط من إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ثم أوعد الكافرين بقوله : ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾ يعني عامة الكفار ﴿ تصيبهم بما صنعوا ﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿ قارعة ﴾ داهية تقرعهم من السبي والقتل ﴿ أو تحل ﴾ القارعة ﴿ قريباً من دارهم ﴾ فيتطاير إليهم شررها . ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ وهو إسلامهم أو موتهم أو القيامة. وقيل : خاصة في أهل مكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يبعث السرايا حول مكة فتغير عليهم وتختطف منهم ، وعلى هذا احتمل أن يكون قوله : ﴿ أو تحل ﴾ خطاباً أي تحل أنت يا محمد قريباً من دراهم بجيشك كما في يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة ، وكان قد وعده الله الفتح عموماً وخصوصاً وكان كما وعد وكان معجزاً ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ قد مر البحث في أول سورة آل عمران ثم ازداد في الوعيد فقال : ﴿ ولقد استهزىء ﴾ الآية . والإملاء الإمهال وقد مر هناك . والاستفهام في قوله : ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ للتقرير والتهديد . ثم أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج والتوبيخ والتعجب من عقولهم فقال : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ ومعنى القائم الحفيظ والرقيب أي الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات كمن ليس كذلك . وجوز في الكشاف أن

يقدر الخبر بحيث يمكن عطف وجعلوا عليه التقدير : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء فيكون قوله : " لله " من وضع الظاهر مقام الضمير ، وذكر السيد صاحب حل العقد أنه يجوز أن يجعل الواو في قوله : ﴿ وجعلوا لله ﴾ للحال ويضمر للمبتدأ خبر يكون المبتدأ معه جملة مقررة لإنكار ما يقارنها من الحال والتقدير : أفمن هو قائم على كل نفس موجود والحال أنهم جعلوا له ﴿ شركاء ﴾ فأقيم الظاهر مقام المضمر كما قلنا تقريراً للإلهية وتصريحاً بها وإنه هو الذي يستحق العبادة وحده وهذا كما تقول معطي الناس ومغنيهم موجود ويحرم مثلي .

ثم زاد في المحاجة فقال : ﴿ قل سموهم ﴾ أي جعلتم له شركاء فسموهم له من هم وأنبئوه بأسمائهم . وإنما يقال ذلك في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه فيقال : سمه إن شئت يعني أنه أخس من أن يسمى ويذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . وقيل : المراد سموهم بالآلهة على سبيل التهديد .

قال في الشكاف : " أم " في قوله ﴿ أم تنبئونه ﴾ منقطعة كقولك للرجل قل لي من زيد أم هو أقل من أن يعرف . أقول : وذلك لأنه لا شيء محض إذ لو كان الشريك موجوداً وهو أرضيّ لتعلق به علم العالم بالذات المحيط بجميع السفليات ونحوه ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم ﴾ [ يونس : 18 ] وقد مر في أول " يونس " . ثم أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من الكلام من غير أن يكون له حقيقة كقوله : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها ﴾ [ يوسف : 40 ] وهذا الاحتجاج من أعاجيب الأساليب التي اختص بها القرآن الكريم المعجز فللّه در شأن التنزيل . ثم بين سوء طريقتهم فقال : ﴿ بل للذين كفروا مكرهم ﴾ قال الواحدي : معنى " بل " ههنا كما يقال دع ذكر الدليل فإنه لا فائدة فيه إنه كذا وكذا . والكلام في أن المزين هو الله تعالى أو غيره قد مر في أول سورة آل عمران ، وكذا البحث فيمن قرأ ﴿ وصدوا ﴾ بضم الصاد ، وأما من قرأ بالفتح فيحتمل أن يكون لازماً أي أعرضوا عنه ، ويحتمل أن يكون متعدياً أي صرفوا غيرهم ، والخلاف في قوله : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ تقدم في مواضع منها آخر الأعراف ثم عاد إلى الإيعاد فقال : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ من القتل والقتال واللعن والذم لا المصائب والأمراض لأنها قد تصيب المؤمنين أيضاً ، ولأنها مأمور بالصبر عليها والعقاب لا يكون كذلك ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ لأنه أشد وأدوم ﴿ وما لهم من الله ﴾ أي من عذابه ﴿ من واق ﴾ من حافظ أو ما لهم من جهة الله واق أي دافع ومانع من رحمته بل

إنما يمنع رحمته منهم باختياره وحكمه . ثم عقب الوعيد بالوعد فقال : ﴿ مثل الجنة ﴾ وتقديره عند سيبويه فيما قصصنا عليكم في الجنة . وقال غيره : الخبر ﴿ تجري ﴾ كما تقول صفة زيد أسمر . وقال الزجاج : إنه تمثيل للغائب بالشاهد ومعناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار .

(161/414)

---

وقيل : إن فائدة الخبر ترجع إلى قوله : ﴿ أكلها دائم ﴾ كأنه قال مثل الجنة ﴿ التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار ﴾ كما تعلمون من حال جناتكم إلا أن هذه ﴿ أكلها دائم ﴾ كقوله : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ [ الواقعة : 33 ] ﴿ وظلها ﴾ دائم أيضاً .

والمراد أنه لا حر هناك ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ، وقد مر هذا البحث في سورة النساء في قوله : ﴿ وندخله ظلاً ظليلاً ﴾ [ الآية : 57 ] قيل : في الآية دلالة على أن حركات الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل وأتباعه . قال القاضي : وفيها دليل على أن الجنة لم تخلق بعد وإلا انقطع أكلها لقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ [ الرحمن : 26 ] ، ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [ القصص : 88 ] قال : ولم ننكر أن تحصل الآن في السموات جنات تتمتع بها الملائكة ومن يعد حياً من الأنبياء والشهداء

وغيرهم إلا أن جنة الخلد خاصة إنما تخلق بعد الإعادة. وأجيب بأننا نخصص عموم كل شيء هالك بالدليل الدال على أن الجنة مخلوقة وهو قوله: ﴿ أعدت للمتقين ﴾ [آل عمران: 133].

*(162/414)*

---

ثم ذكر عقائد الفرق في شأن القرآن المتلو فقال: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ قيل: أراد بالكتاب القرآن يعني أن المسلمين ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ من الشرائع والعلوم ﴿ ومن الأحزاب ﴾ الجماعات من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿ من ينكر بعضه ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام المطابقة لشرائعهم وعقائدهم. وإنما أنكروا ما يختص به الإسلام من نعت الرسول وغيره قاله الحسن وقتادة. واعترض عليه بأن أهل الإسلام فرحهم بنزول القرآن معلوم فلا فائدة في ذكره. ويمكن أن يقال: المراد زيادة الفرح والاستبشار بما فيه من العلوم والفوائد وأنهم يتلقون نزول الوحي بالبشر والطلاقة لا بالتثاقل والجهالة. وقيل: الكتاب التوراة والإنجيل، والمراد من أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وكعب ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة، وثمانية من أهل اليمن، فرحوا بالقرآن لأنهم آمنوا به وصدقوه، والأحزاب بقية

أهل الكتاب والمشركون قاله ابن عباس . وقال مجاهد : أراد أن اليهود والنصارى كلهم يفرحون بما أنزل إليك لأنه مصدق لما معهم ، ومن سائر الكفرة من ينكر بعضه . واعترض بأنهم كلهم لا يفرحون بكل ما أنزل رسولنا . وقوله : ﴿ بما أنزل ﴾ يفيد العموم . وأجيب بالمنع من أن ما يفيد العموم لصحة الاستثناء ولصحة إدخال كل عليه ولا تكرير وإدخال بعض ولا نقص . ثم لما بين عقائد الفرق أمر نبيه بأن يصرح بطريقته فقال : ﴿ قال إنما أمرت أن أعبد الله ﴾ ما أمرت إلا بعبادته وعدم الإشراك به ويندرج فيه جميع وظائف العبودية . ثم ذكر أنه مع كماله مكمل فقال : ﴿ إليه أدعو ﴾ خصه بالدعاء إلى عبوديته دون غيره كائناً من كان . ثم ختم بذكر المعاد فقال : ﴿ وإليه أدعو ﴾ لا مرجع لي إلا إليه .



---

ومن تأمل في هذه الألفاظ عرف أنها مع قلتها مشتملة على حاصل علوم المبدأ والوسط والمعاد . ثم ذكر بعض فضائل القرآن وأوعد على الإعراض عن اتباعه فقال : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ الضمير يعود إلى ما في قوله : ﴿ بما أنزل إليك ﴾ أو إلى القرآن في قوله : ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ ووجه التشبيه كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم كذلك أنزلنا إليك هذا

القرآن . وقال في الكشاف : معناه ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿ حكماً عربياً ﴾ نصب على الحال أي حكمة مترجمة بلسان العرب . وقيل : سمي حكماً لأنه حكم على جميع المكلفين بقبوله والعمل به ، أو لأنه اشتمل على أصول الأحكام والشرائع فجعل نفس الحكم للمبالغة . روي أن الكفار كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور ليوافقهم فيها منها : أن يصلي إلى قبلتهم بعدما حوله الله عنها فأوعد على ذلك . وعن ابن عباس : الخطاب له والمراد أمته وقد مر الوجوه في مثله في أوائل سورة البقرة .

*(164/414)*

---

قال الكلبي : عيرت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح . ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء فأنزل الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ الآية . وفيه أن الرسل كانوا من جنس البشر لا من جنس الملك وما كان لهم نقص من قبل الزواج والولاد فقد كان لسليمان ثلثمائة امرأة منكوحة وسبعمائة سرية ، ولداود مائة ، وذراري يعقوب أكثر من أن تحصى ، وكانوا يقترحون الآيات فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ولا بد لكل نبي من

معجز واحد والزائد على ذلك بل أصل النبوة وتعيين المعجز الواحد مفوض إلى مشيئته سبحانه ولا حكم لأحد عليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوفهم بنزول العذاب وظهور نصرة الإسلام وذويه فكانوا يكذبونه ويستبطئون موعده فأجيبوا بقوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أي لكل وقت حكم مكتوب وحادث معين لا يتأخر ذلك الحكم والحادث عنه ولا يتقدم عليه . وقيل : هذا على القلب أي لكل مكتوب وقت معين . والتحقيق أنه لا حاجة إلى ارتكاب القلب لأن المعية تقتضي التلازم وكانوا ينكرون النسخ في الشرائع وفي التكاليف فنزل : ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ أي يثبته فاستغنى بالصريح عن الكناية . والمحو ذهاب أثر الكتابة ونحوها . وفي الآية قولان : الأول أنها عامة وأنه سبحانه يمحو من الرزق ويزيد فيه كذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر وهو مذهب عمر وابن مسعود ، وقد رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذاهبون إليه يدعون ويتضرعون إلى الله في أن يجعلهم سعداء إن كانوا أشقياء وهذا لا ينافي قوله : " جف القلم " لأن المحو والإثبات أيضاً من جملة ما قضى به .

الثاني أنها خاصة في بعض الأشياء فقيل : أراد نسخ حكم وإثبات آخر مكانه وقد مر تمام البحث في النسخ في "البقرة" في قوله : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ [ الآية : 106 ] وقيل : يمحو من دويان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة لأنهم مأمورون بكتب كل قول وفعل ويثبت غيره . واعترض الأصم عليه بأنه ينافي قوله تعالى ﴿ مالِ هذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها ﴾ [ الكهف : 49 ] وأجاب القاضي بأن المراد صغائر الذنوب وكبائرها . ورد بأن هذا اصطلاح المتكلمين والمفهوم اللغوي أعم فيتناول المباحات أيضاً . وقيل : يمحو بالتوبة ما يشاء من الكفر والمعاصي ويثبت بدلها الحسنة كقوله : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ [ الفرقان : 70 ] . وقيل : يثبت في أول السنة أحكام تلك السنة فإذا مضت السنة محيت ويثبت كتاب آخر للمستقبل . وقيل : يمحو نور القمر ويثبت نور الشمس أو يمحو الدنيا ويثبت الآخرة . أما قوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أي أصله فقيل : هو اللوح المحفوظ . عن النبي صلى الله عليه وسلم : "كان الله ولا شيء ثم خلق اللوح المحفوظ وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى يوم القيامة" فعلى هذا عند الله كتابان : أحدهما اللوح المحفوظ وإنه لا يتغير ، وثانيهما الذي تكتبه الملائكة على الخلق وهو محل المحو والإثبات . روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله سبحانه في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو

ما يشاء ويثبت ما يشاء " وقيل : هو علم الله تعالى المتعلق بجميع الموجودات والمعلومات وإنه لا يتغير ولا يتبدل بتغير المتزمنات وتبدلها ، وقد مر تحقيقه في مواضع .



---

ولما بين كيفية انطباق الحوادث على أوقاتها قال : ﴿ وإما نرينك ﴾ يعني كيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من العذاب أو توفيناك قبل ذلك ، فليس يجب عليك إلا التبليغ وما حسابهم وما جزاؤهم إلا علينا . والبلاغ بمعنى التبليغ كالسلام والكلام . ثم ذكر أن آثار حصول تلك المواعيد وأماراتها قد ظهرت وقربت وأن تباشير الظفر قد طلعت ولاحت فقال : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ﴾ يعني إتيان القهر والغلبة بدليل ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ والأرض أرض مكة كان المسلمون ينالون من أهاليها ونواحيها في البعوث والسرايا والجيوش ، والآن صارت الأرض أعم وأشمل ولله الحمد على إعلاء شأن المسلمين زاده الله علواً ، فلا يزال ينقص شيء من ديار الكفر ويزيد في بلاد الإسلام . ونقل عن ابن عباس أن المراد بنقص أطراف الأرض موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وصلحائها . قال الواحدي . الأليق بالمقام هو القول الأول . وقد يوجه الثاني بأنه أراد أنهم

إذا شاهدوا هذه التغيرات فما الذي يؤمنهم أن يقلب الله عليهم الأمر فيجعلهم أذلة مغلوبين بعد أن كانوا أعزة غالبين.

(167/414)

---

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿ والله يحكم ﴾ ومحل ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ نصب على الحال والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وذلك أنه يعقبه بالرد والإبطال فكأنه قيل: والله يحكم نافذاً حكمه. ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ عن ابن عباس: هو سريع الانتقام فيعاقبهم في الدنيا ثم في الآخرة. ثم سلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ برسلهم كنمرود بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى. ﴿ فللَّه المكر جميعاً ﴾. قال الواحدي: لأن مكر جميع الماكرين بتخليقه وإرادته ولأنه لا يضر إلا بإذنه ولا يؤثر إلا بتقديره. وقالت المعتزلة: إنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره. وقيل: أراد فللَّهَ جزاء مكر الماكرين. قال الواحدي: والقول الأوّل أظهر بدليل قوله: ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ يريد أن أكسابها بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف معلومه ممتنع الوقوع فلا يقدر العبد على خلاف معلومه. وناقضت المعتزلة بأنه أثبت لكل نفس كسباً فدل على أنه مقدور العبد. وأجيب بأن المقتضي للفعل عندنا هو مجموع القدرة

والداعي وهذا معنى قولهم الكسب حاصل للعبد . ثم ختم الآية بوعيد آخر إجمالي فقال : ﴿ وسيعلم الكفار ﴾ من قرأ على الجمع فظاهر ، ومن قرأ على الواحدة فالمراد الجنس . وعن ابن عباس أن المراد أبو جهل . وعن عطاء أراد المستهزئين وهم خمسة ، والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون .

(168/414)

---

ثم ذكر حاصل شبههم مع الجواب القاطع فقال : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً ﴾ والمراد من هذه الشهادة أنه أظهر المعجزات على وفق دعواه ولا شهادة أعلى من هذه الشهادة القولية منا لا تفيد إلا غلبة الظن وهذه تفيد القطع بصحة نبوته . ثم عطف على اسم الله قوله : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ أي الذي حصل عنده علم القرآن وفهم معانية واشتماله على دلائل الإعجاز من النظم الأنيق والأسلوب العجيب الفائت لقوى البشر . فمن علم هذا الكتاب على هذا الوجه شهد بأنه معجز قاهر وأن الذي ظهر هذا المعجز عليه نبي حق ورسول صدق . وعن الحسن وسعيد بن جبير والزجاج : أن الكتاب هو اللوح المحفوظ . والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ إلا هو يعني الله جل وعلا شهيداً . ويعضده قراءة من قرأ

ومن عنده على من الجارة. واعترض على هذا القول بأن عطف الصفة على الموصوف بعيد لا يقال: شهد بهذا زيد والفقيه، وإنما يقال: زيد الفقيه. وقيل: المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري لأنهم يشهدون بنعمته في كتبهم. والاعتراض بأن إثبات النبوة بقول الواحد والاثنين مع جواز الكذب على أمثالهما لكونهم غير معصومين لا يجوز.

وقال الزجاج: الأشبه أن الله تعالى لا يستشهد على صحة حكمه بغيره. وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله. وعن سعيد بن جبير أن السورة مكية وابن سلام وأصحابه آمنوا بالمدينة بعد الهجرة والله أعلم بمراده. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 167.160﴾

(169/414)

---

وقال النسفي:

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

دخلت همزة الإنكار على الفاء في ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ ﴾ لإنكار أن تقع شبهة ما بعد ما ضرب

من المثل في أن حال من علم ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله : ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا .

﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ كقوله ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللعنة ﴾ [ الرعد : 25 ] وقيل هو صفة لأولي الألباب والأول أوجه وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته وأشهدهم على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ألست بربكم قالوا بلى ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص



---

﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ من الأرحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران

والرفقاء في السفر ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي وعيده كله ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ مطلق فيهما يصير عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكاليف ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا لئلا يعاب في الجزع ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ داوموا على إقامتها ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا ﴿ سِرًّا وَعَلانِيَةً ﴾ يتناول النوافل لأنها في السر أفضل والفرائض لأن المجاهرة بها أفضل نفياً للتهمة ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم أو إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا وإذا قطعوا وصلوا وإذا أذنبوا تابوا وإذا هربوا أنابوا وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره فهذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿ أولئك لَهُمْ عقبى الدار ﴾ عاقبة الدنيا وهي الجنة لأنها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها .

(171/414)

---

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ ﴾ أي آمن ﴿ مِنْ ءَابَائِهِمْ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ وقرىء صلُح والفتح أفصح و ﴿ من ﴾ في محل الرفع

بالعطف على الضمير في ﴿ يدخلونها ﴾ وساغ ذلك وإن لم يؤكد لأن ضمير المفعول صار فاصلاً وأجاز الزجاج أن يكون مفعولاً معه ووصفهم بالصلاح ليعلم أن الأنساب لا تنفع بنفسها والمراد أبو كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ في قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ في موضع الحال إذ المعنى قائلين سلام عليكم أو مسلمين ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات أو على أمر الله أو بسلام أي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والأول أوجه ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ الجنات ﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ بالكفر والظلم ﴿ أولئك لَهُمُ اللعنة ﴾ الإبعاد من الرحمة ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدار ﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة عقبى الدار وأن يراد بالدار جهنم وبسوئها عذابها ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ ﴾ أي ويضيق لمن يشاء والمعنى الله وحده وهو يبسط الرزق ويقدر دون غيره ﴿ وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا ﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ متاع ﴾ وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب

نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزراً يتمتع به كعجلة الراكب وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق .

(172/414)

---

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مّن رَّبّهِ ﴾ أي الآية المقترحة ﴿ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاء ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ ويرشد إلى دينه من رجع إليه بقلبه

﴿ الذين آمنوا ﴾ هم الذين أو محله النصب بدل من ﴿ من ﴾ ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ ﴾ تسكن ﴿ بِذِكْرِ الله ﴾ على الدوام أو بالقرآن أو بوعده ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين ﴿ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مبتدأ ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ خبره وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيباً لك وطيب لك وسلاماً لك وسلام لك .

واللام في ﴿ لهم ﴾ للبيان مثلها في سقيا لك والواو في ﴿ طوبى ﴾ منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن والقراءة في ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ مرجع .

بالرفع والنصب تدل على محليها ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ ﴾ مثل ذلك الإرسال أرسلناك

إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات ثم فسر كيف أرسله فقال ﴿ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء ﴿ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ وحال هؤلاء أنهم يكفرون ﴿ بالرحمن ﴾ بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾ ورب كل شيء ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ أي هو ربي الواحد المتعالي عن الشركاء ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في نصرتي عليكم ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ مرجعي فيثيبني على مصابرتكم .

﴿ متابي ﴾ و ﴿ عقابي ﴾ و ﴿ مآبي ﴾ في الحالين : يعقوب .

(173/414)

---

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ عن مقارّها ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعاً ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف فجواب "لو" محذوف .

أو معناه ولو أن قرآناً وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملئكة ﴾ [ الأنعام : 111 ] الآية ﴿ بَل للَّهِ

الأمر جَمِيعًا ﴾ بل لله القدرة على كل شيء وهو قادر على الآيات التي اقترحوها ﴿ أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الذين ءَامَنُوا ﴾ أفلم يعلم وهي لغة قوم من النخع وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون كما استعمل النسيان في معنى الترك لتضمن ذلك ، دليله قراءة علي رضي الله عنه ﴿ أفلم يتبين ﴾ وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوي السنات وهذه والله فرية ما فيها مرية ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى الناس جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ ﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أو تحل القارعة قريباً منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ويتعدى إليهم شرورها ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ﴾ أي موتهم أو القيامة أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لأن جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم أو تحل أنت يا محمد قريباً من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله أي فتح مكة ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ أي لا خلف في موعده .

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الإملاء الإمهال وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاءً به وتسلية له

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو رقيب ﴿ على كُلِّ نَفْسٍ ﴾ صالحة أو طالحة ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك.

ثم استأنف فقال ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي الأصنام ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي سموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ثم قال: ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ ﴾ على "أم" المنقطعة أي بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السماوات والأرض فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء والمراد نفي أن يكون له شركاء ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبه: 30] ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف: 40] ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ عن سبيل الله بضم الصاد كوفي وبفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ من أحد يقدر على هدايته ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ

فِى الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر وأنواع المحن ﴿ وَلَعَذَابُ الأخرة أَشَقُّ ﴾ أشد لدوامه ﴿ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ من حافظ من عذابه.

(175/414)

---

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ صفتها التي هي في غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف أي فيما يتلى عليكم مثل الجنة أو الخبر ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ كما تقول صفة زيد أسمر ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ ثمرها دائم الوجود لا ينقطع ﴿ وِظِلُّهَا ﴾ دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿ تِلْكَ عقبى الذين اتقوا ﴾ أي الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعني منتهى أمرهم ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾

(176/414)

---

﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بأرض الحبشة ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأحزاب ﴾ أي ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه

والسيد والعاقب وأشياعهما ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ هو جواب للمنكرين أي قل إنما أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله ولا أشرك به فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به ﴿ إِلَيْهِ ادعوا ﴾ خصوصاً لا أدعو إلى غيره ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ مَئَابٍ ﴾ مرجعي وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لإنكاركم ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يشاركهم فيها فقيل ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ العلم ﴾ أي بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيّ وَلَا وَاقٍ ﴾ أي لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين وأن لا يزال زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الثبات بمكان .

وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساءا وأولاداً ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي ليس في وسعه إتيان الآيات على ما يقترحه قومه وإنما ذلك إلى الله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لكل وقت حكم يكتب على العباد أي يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته

(178/414)

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاء ﴾ ينسخ ما يشاء نسخه ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ بدله ما يشاء أو يتركه غير منسوخ أو يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره أو يمحو كفر التائبين ويثبت إيمانهم أو يميت من حان أجله وعكسه ﴿ ويثبت ﴾ مدني وشامي وحمزة وعلي ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم أو توفيناك قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ فيما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على

أعمالهم لا عليك فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأرض ﴾ أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة ، والمعنى عليك البلاغ الذي حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من النصرة والظفر ﴿ والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ لا راد لحكمه والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقبه أي يقفيه أي بالرد والإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ، ومحل ﴿ لا معقب لحكمه ﴾ النصب على الحال كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه كما تقول : جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة له تريد حاسراً ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا



---

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر إرادة المكروه في خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال ﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ يعني العاقبة

المحمودة لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة عما يراد بهم الكافر .

على إرادة الجنس حجازي وأبو عمرو

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ المراد بهم كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود قالوا : لست مرسلاً ولهذا قال عطاء هي مكية إلا هذه الآية ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بما أظهر من الأدلة على رسالتي والباء دخلت على الفاعل و ﴿ شهيداً ﴾ تمييز ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ قيل هو الله عز وجل ، والكتاب : اللوح المحفوظ دليله قراءة من قرأ ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ أي ومن لدنه علم الكتاب لأن علم من علمه من فضله ولطفه ، وقيل ومن هو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم وقال ابن سلام : فيّ نزلت هذه الآية وقيل هو جبريل عليه السلام و ﴿ من ﴾ في موضع الجر بالعطف على لفظ ﴿ الله ﴾ أو في موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور إذ التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر في الظرف فيكون فاعلاً لأن الظرف صلة ل "من" و "من" هنا بمعنى الذي والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لأن الظرف إذا وقع صلة يعمل عمل الفعل "نحو مررت بالذي في الدار أخوه" فأخوه فاعل كما تقول "بالذي استقر في الدار أخوه" وفي القراءة بكسر ميم "من" يرتفع العلم بالابتداء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 248. 254 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ ﴾

تقرير . والمعنى أسواء من آمن ومن لم يؤمن ، والأعمى هنا من لم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم : " وقيل : إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وأبي جهل لعنه الله "

﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ القرابات وغيرها ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ قيل يدفعون الشرك بقول لا إله إلا الله ، وقيل : يدفعون من أساء إليهم بالتي هي أحسن ، والأظهر يفعلون الحسنات فيدرؤن بها السيئات كقوله : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [ هود : 114 ] ، وقيل : إن هذه الآية نزلت في الأنصار ، ثم هي عامة في كل مؤمن اتصف بهذه الصفات ﴿ عقبى الدار ﴾ يعني الجنة ، ويحتمل أن يريد بالدار : الآخرة وأضاف العقبى إليها لأنها فيها ، ويحتمل أن يريد بالدار الدنيا ، وأضاف العقبى إليها لأنها عاقبتها ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من عقبى الدار ، أو خبر ابتداء مضمر تفسيراً لعقبى الدار ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ أي من كان صالحاً ﴿ سلام عَلَيْكم ﴾ أي يقولون لهم : سلام عليكم ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ يتعلق بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ويجوز أن يتعلق

بسلام أي ليسلم عليكم بما صبرتم .

﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله ﴾ إلى آخر الآية أوصاف مضافة كما تقدم وقيل : إنها في الخوارج ، والأظهر أنها في الكفار ﴿ سواء الدار ﴾ يحتمل أن يراد بها الدنيا والآخرة .



---

﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقَدِرُ ﴾ أي يوسع على ما من يشاء ، ويضيق على من يشاء ، وهذا تفسيره حيث وقع ﴿ وَفَرِحُواْ بالحياوة الدنيا ﴾ إخبار في ضمنه ذم وتسفيه لمن فرح بالدنيا ، لذلك حقرها بقوله : وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ؛ أي : قليل بالنظر إلى الآخرة ﴿ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ خرج به مخرج التعجب منهم لما طلبوا آية ، أي قد جاءكم محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن وآيات كثيرة فعميتم عنها ، وطلبتم غيرها وتماديتم على الكفر ، لأنّ الله يضل من يشاء مع ظهور الآيات ، وقد يهدي من يشاء دون ذلك ﴿ الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ بدل من أناب ، أو خبر ابتداء مضمر والذين آمنوا وعملوا الصالحات بدل ثان ، أو مبتدأ ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ مصدر من طاب كبشرى ومعناها أصابت خيراً وطيباً ، وقيل : هي شجرة في الجنة ، وإعرابها مبتدأ .

﴿ كَذَٰلِكَ أرسلناك ﴾ الكاف تتعلق بالمعنى الذي في قوله : ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [ النحل : 93 ] ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ قيل : إنها نزلت في أبي جهل ، وقيل : نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، فكتب الكاتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال قائلهم : نحن لا نعرف الرحمن وهذا ضعيف ، لأن الآية نزلت قبل ذلك ولأن تلك القصة إنما أنكروا فيها التسمية فقط ، ومعنى الآية : أنهم يكفرون بالله مع تلاوة القرآن عليهم ﴿ مَتَابِ ﴾ مفعل من التوبة وهو اسم مصدر .

(182/414)

---

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ الآية : جواب لو محذوف تقديره : لو أن قرآناً على هذه الصفة من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض وتكليم الموتى لم يؤمنوا به ، فالمعنى كقوله : لا يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية ، وقيل تقديره : ولو أن قرآناً على هذه الصفة لكان هذا القرآن الذي هو غاية في التذكير ونهاية في الإنذار كقوله : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدِّعاً ﴾ [ الحشر : 21 ] ، وقيل هو متعلق بما قبله والمعنى ، وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ﴾ معناه أفلم يعلم وهي لغة هوازن ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ ﴾ يعني كفار قريش ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ يعني مصيبة في أنفسهم وأولادهم

وأموالهم ، أو غزوات المسلمين إليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ الفاعل ضمير القارعة . والمعنى إما إن تصيبهم ، وإما أن تقرب منهم ، وقيل التاء للخطاب ، والفاعل ضمير المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والأول أظهر ﴿ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله ﴾ هو فتح مكة ، وقيل قيام الساعة .

(183/414)

---

﴿ وَلَقَدِ استهزئ ﴾ الآية مقصدها تأنيس وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهكذا حيث وقع ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾ أي أمهلتهم ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ هو الله تعالى أي حفيظ رقيب على عمل كل أحد ، والخبر محذوف تقديره : أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحق أن يعبد أم غيره؟ ويدل على ذلك قوله : وجعلوا لله شركاء ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي اذكروا أسماءهم ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض ﴾ المعنى : أن الله لا يعلم لنفسه شركاء وإذا لم يعلمهم هو فليسوا بشيء ، فكيف تفترون الكذب في عبادتهم ، وتعبدون الباطل ، وذلك كقولك : قل لي من زيد ؟ أم هو أقل من أن يعرف فهو كالعدم ﴿ أم بظاهر مِّنَ القول ﴾ المعنى أتسمونهم شركاء بظاهر اللفظ من غير أن يكون

لذلك حقيقة كقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم ﴾ [ النجم : 23 ] ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الحياوة الدنيا ﴾ يعني بالقتل والأسر والخوف وغير ذلك .

(184/414)

---

﴿ مَّثَلُ الجنة ﴾ ﴾ هنا وفي القتال [ محمد : 15 ] صفتها ، وليس بضرب مثل لها ، والخبر عند سيبويه محذوف مقدم تقديره : فيما يتلى عليكم صفة الجنة ، وقال الفراء : الخبر مؤخر ، وهو تجري من تحتها الأنهار ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ يعني ما يؤكل فيها من الثمرات وغيرها والأكل . بضم الهمزة المأكول ، ويجوز فيه ضم الكاف وإسكانها ، والأكل بفتح الهمزة المصدر ﴿ والذين آتيناهم ﴾ يعني من أسلم من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه وقيل : يعني المؤمنين والكتاب على هذا القرآن ﴿ وَمِنَ الأحزاب ﴾ قيل : هم بنو أمية ، وبنو المغيرة من قريش والأظهر أنها في سائر كفار العرب ، وقيل : هم اليهود والنصارى ؛ لأنهم لا ينكرون القصاص والأشياء التي في كتبهم ، وإنما ينكرون البعض مما لا يعرفونه أو حرفوه ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ ﴾ وجه اتصاله بما قبله أنه جواب المنكرين ، ورد عليهم كأنه قال : إنما أمرت بعبادة الله وتوحيده ، فكيف تنكرون هذا ﴿ مَآبِ ﴾ مفعل من الأوب وهو الرجوع ، أي مرجعي في الآخرة أو مرجعي

بالتوبة .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ ردّ على من أنكر أن يكون الرسول من البشر أو يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من النساء والذرية ، فالمعنى لست ببدع في ذلك ، بل أنت كمن تقدم من الرسل .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ ردّ على الذين اقترحوا الآيات ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ قال الفراء لكل كتاب أجل بالعكس . وهذا لا يلزم ، بل المعنى صحيح من غير عكس ، أي لكل أجل كتاب كتبه الله في اللوح المحفوظ .

(185/414)

---

﴿ يَمْحُواْ اللهُ مَا يَشَآءُ ﴾ وقيل : يعني ينسخ ما يشاء من القرآن والأحكام ، ويثبت منها ما يشاء ، وقيل : هي في آجال بني آدم ، وذلك أن الله تعالى قدر في ليلة القدر ، وقيل : في ليلة النصف من شعبان بكتب أجل من يموت في ذلك العام ، فيمحوه من ديوان الأحياء ، ويثبت من لا يموت في ذلك العام ، وقيل : إن المحو والإثبات على العموم في جميع الأشياء ، وهذا تردّه القاعدة المتقررة أن القضاء لا يبدل ، وأن علم الله لا يتغير ، فقال بعضهم : المحو

الإثبات في كل شيء إلا في السعادة والشقاوة الأخروية ، والآجال ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أصل كل كتاب ، وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها .

(186/414)

---

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ إن شرط دخلت عليها ما المؤكدة وجوابها : فإنما ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ الاتيان هنا بالقدرة والأمر ، والأرض أرض الكفار ونقصها هو بما يفتح الله على المسلمين منها ، والمعنى أو لم يروا ذلك فيخافوا أن نمكنك منهم ، وقيل : الأرض جنس ، ونقصها بموت الناس ، وهلاك الثمرات وخراب البلاد وشبه ذلك ﴿ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ المعقب الذي يكر على لاشيء فيبطله ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً ﴾ تسمية للعقوبة باسم الذنب ( وسيعلم الكافر ) تهديد ، والمراد بالكافر الجنس بدليل قراءة الكفار بالجمع ، وعقبى الدار الدنيا والآخرة ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أمره الله أن يستشهد الله على صحة نبوته وشهادة الله له هي : علمه بذلك وإظهاره الآيات الدالة على ذلك ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ معطوف على اسم الله على وجه الاستشهاد به ، وقيل : المراد عبد الله بن سلام ومن أسلم من اليهود والنصارى الذين يعلمون صفته صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل ، وقيل : المراد المؤمنون الذين

يعلمون علم القرآن ودلالته على النبوّة ، وقيل : المراد الله تعالى ، فهو الذي عنده علم الكتاب ، ويضعف هذا ، لأنه عطف صفة على موصوف ، ويقويه قراءة : ومن عنده بمن الجارة وخفض عنده . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 134 . 137﴾

(187/414)

---

وقال البيضاوى :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾

فيستجيب . ﴿ كَمَنْ هُوَ أعمى ﴾ عمى القلب لا يستبصر فيستجيب ، والهمزة لإِنكار أن تقع شبهة في تشابههما بعدما ضرب من المثل . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الألباب ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الألف ومعارضة الوهم .

﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى ، أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه . ﴿ وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص .

﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ من الرحم وموالاة المؤمنين والإِيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس . ﴿ وَيَخْشَوْنَ

رَبِّهِمْ ﴾ وعيده عموماً . ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى . ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما . ﴿ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ المفروضة . ﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه . ﴿ سِرّا ﴾ لمن لم يعرف بالمال . ﴿ وَعَلاَنِيَةً ﴾ لمن عرف به . ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ ويدفعونها بها فيجازون الإساءة بالإحسان ، أو يتبعون السيئة الحسنة فتمحوها . ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة ، والجملة خبر الموصولات إن رفعت بالابتداء وإن جعلت صفات لأولي الألباب فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات .

(188/414)

---

﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ عقبى الدار ﴾ أو مبتدأ خبر . ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ والعدن الإقامة أي جنات يقيمون فيها ، وقيل هو بطنان الجنة . ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءابَائِهِمْ وأزواجهم وَذُرّيَّاتِهِمْ ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون ، وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم

وتعظيماً لشأنهم ، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم ، وفي التقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع . ﴿ والملائكة يَدْخُلونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين .

﴿ سلام عَلَيْكُم ﴾ بشارة بدوام السلامة . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ متعلق ب ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم لا ب ﴿ سلام ﴾ ، فإن الخبر فاصل والباء للسببية أو للبدلية . ﴿ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ وقرىء ﴿ فَنَعْمَ ﴾ بفتح النون والأصل نعم فسكن العين بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره .

﴿ والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله ﴾ يعني مقابلي الأولين . ﴿ مِن بَعْدِ ميثاقه ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ بالظلم وتهييج الفتن . ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سُوءُ الدار ﴾ عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة ﴿ عقبى الدار ﴾ .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿ وَفَرِحُوا ﴾ أي أهل مكة. ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿ وَمَا الحياة الدنيا فِى الآخرة ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿ إِلاَّ متاع ﴾ إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نزر قليل النفع سريع الزوال.

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مّن رَّبّهِ قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرى التعجب من قولهم كأنه قال قل لهم ما أعظم عنادكم إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به بل بأدنى منه من الآيات.

﴿ الذين ءَامَنُواْ ﴾ بدل ﴿ من ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ﴾ أنساً به واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ تسكن إليه.

﴿ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مبتدأ خبره. ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ وهو فعلى من

الطيب قلبت ياؤه واواً لضمة ما قبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى ، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرىء . ﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ بالنصب .

(190/414)

---

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك يعني إرسال الرسل قبلك . ﴿ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا ﴾ تقدمتها . ﴿ أُمَمٌ ﴾ أرسلوا إليهم فليس ببدع إرسالك إليهم . ﴿ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته ، فلم يشكروا نعمه وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم ، وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية عليهم . وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم ﴿ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ رَبّى ﴾ أي الرحمن خالقي ومتولي أمري . ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ لا مستحق للعبادة سواه . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في نصرتي عليكم . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ مرجعي ومرجعكم .

(191/414)

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ﴾ شرط حذف جوابه والمراد منه تعظيم شأن القرآن ، أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم أي : ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارها . ﴿ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً . ﴿ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ فتسمع فتقرؤه ، أو فتسمع وتجيب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإِعجاز والنهاية في التذكير والإِنذار ، أو لما آمنوا به كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ الآية . وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن سرك أن نتبعك فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها بساتين وقطائع ، أو سخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ، أو ابعث لنا به قصي بن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك ، فنزلت . وعلى هذا فتقطيع الأرض قطعها بالسير . وقيل الجواب مقدم وهو قوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرحمن ﴾ وما بينهما اعتراض وتذكير ﴿ كلام ﴾ خاصة لاشتمال الموتى على المذكر الحقيقي . ﴿ بَل للَّهِ الأمر جَمِيعًا ﴾ بل لله القدرة على كل شيءٍ وهو إضراب عما تضمنته ﴿ لَوْ ﴾ من معنى النفي أي : بل الله قادر على الإِتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك ، لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم ويؤيد ذلك قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم ، وذهب أكثرهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا

"أفلم يتبين" ، وهو تفسيره وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم لأنه مسبب عن العلم ، فإن الميئوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله : ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فإن معناه نفي هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم ييأس الذين



آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً أو ﴿ بآمنوا ﴾ .

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا ﴾ من الكفر وسوء الأعمال . ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية تقرعهم وتقلقهم . ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ ليفزعون منها ويتطاير إليهم شررها . وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث السرايا عليهم فتغير حواليهم وتختطف مواشيهم ، وعلى هذا يجوز أن يكون تحل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ لامتناع الكذب في كلامه .

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تسلية لرسول الله صلى الله

عليه وسلم . ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه ، والإملاء أن يترك ملاوة من الزمان في دعة وأمن . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي عقابي إياهم .

(193/414)

---

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ ﴾ رقيب عليها ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من خير أو شر لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ولا يفوت عنده شيء من جزائهم ، والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك . ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ استئناف أو عطف على ﴿ كَسَبَتْ ﴾ إن جعلت "ما" مصدرية ، أو لم يوحدوه وجعلوا عطف عليه ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة وقوله : ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها ، والمعنى صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ بل أتنبئونه . وقرىء "تنبئونه" بالتخفيف . ﴿ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم ، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء . ﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى كتسمية الزنجي كافوراً وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾

تمويههم فتخيلوا أباطيل ثم خالوها حقاً ، أو كيدهم للإسلام بشركهم . ﴿ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل ﴾ سبيل الحق ، وقرأ ابن كثير . ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿ وَصَدُّواْ ﴾ بالفتح أي وصدوا الناس عن الإيمان ، وقرىء بالكسر "وَصَدٌ" بالتنوين . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ الله ﴾ يخذله . ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفقه للهدى .

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ﴾ لشدته ودوامه . ﴿ وَمَا لَهُم مّنَ الله ﴾ من عذابه أو من رحمته . ﴿ مِن وَاقٍ ﴾ حافظ .

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ صفتها التي هي مثل في الغرابة ، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة وقيل خبره .

(194/414)

---

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر ، أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار ، أو على زيادة المثل وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوف أو من الصلة . ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ثمرها . ﴿ وِظِلُّهَا ﴾ أي وظلها كذلك لا ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿ تِلْكَ ﴾ أي الجنة الموصوفة .

﴿ عقبى الذين اتقوا ﴾ مآلهم ومنتهى أمرهم . ﴿ وَّعُقْبَى الكافرين النار ﴾ لا غير ، وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين .

﴿ والذين اتيناهم الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابن سلام وأصحابه ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة ، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم . ﴿ وَمِنَ الأحزاب ﴾ يعني كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما . ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم أو ما يوافق ما حرفوه منها . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ جواب المنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحده ، وهو العمدة في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره ، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام . وقرىء ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ ﴾ بالرفع على الاستئناف . ﴿ إِلَيْهِ ادعوا ﴾ لا إلى غيره . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره ، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء ، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم فلا معنى لإنكاركم المخالفة فيه .

﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها . ﴿ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا ﴾ يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة . ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ مترجماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه وانتصابه على الحال . ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم ﴾ التي يدعونك إليها ، كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها . ﴿ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العلم ﴾ بنسخ ذلك . ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك وهو حسم لأطماعهم وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك . ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ نساء وأولاداً كما هي لك . ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه . ﴿ أَن يَأْتِىَ بِآيَةٍ ﴾ تقترح عليه وحكم يلتمس منه . ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فإنه المليء بذلك . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ لكل وقت وأمد حكم يكتب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم .

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه . ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ ما تقتضيه حكمته . وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها . وقيل يمحو من كتاب الحفظة ما لا يتعلق به جزاء ويترك غيره مثبتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه . وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين . وقيل يمحو الفاسدات الكائنات . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ وَيُثَبِّتُ ﴾ بالتشديد . ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ أصل الكتاب وهو اللوح

المحفوظ إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله . ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ﴾ لا غير . ﴿ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم فإنا فاعلون له وهذا طلائعه .

(196/414)

---

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى الأرض ﴾ أرض الكفرة . ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بما نفتحه على المسلمين منها . ﴿ والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ لا راد له وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال ، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء ، والمعنى أنه حكم للإسلام بالاقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره ، ومحل ﴿ لا ﴾ مع المنفي النصب على الحال أي يحكم نافذاً حكمه . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين به منهم . ﴿ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعًا ﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره . ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ

كُلُّ نَفْسٍ ﴾ فيعد جزاءها . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعد لهم وهم في غفلة منه ، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم ، واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة . مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكافر على إرادة الجنس ، وقرىء "الكافرون" و"الذين كفروا" و"الكفر" أي أهله وسيعلم من أعلمه إذا أخبره .

(197/414)

---

﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود . ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها . ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ علم القرآن وما ألف عليه من النظم المعجز ، أو علم التوراة وهو ابن سلام وأضرابه ، أو علم اللوح المحفوظ وهو الله تعالى ، أي كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو شهيداً بيننا فيخزي الكاذب منا ، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ بالكسر و﴿ عِلْمِ الكتاب ﴾ وعلى الأول مرتفع بالظرف فإنه معتمد على الموصول ، ويجوز أن يكون مبتدأ والظرف خبره وهو متعين على الثاني . وقرىء ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ على الحرف والبناء للمفعول . عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم " من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة من الموفين بعهد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 326 . 335 ﴾

*(198/414)*

---

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ﴾

أي : يؤمن به ويعمل بما فيه ، وهو حمزة أو عمار رضي الله تعالى عنهما . ﴿ كمن هو أعمى ﴾ ، أي : أعمى البصيرة ولا يؤمن به ولا يعمل بما فيه وهو أبو جهل ، قال ابن الخازن في تفسيره : وحمل الآية على العموم أولى ، وإن كان السبب مخصوصاً ، والمعنى : لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه ، وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى ؛ لأنّ الأعمى لا يهتدي لرشد ﴿ إنما يتذكر ﴾ ، أي : يتعظ ﴿ أولو الألباب ﴾ ، أي : أصحاب العقول الذين يطلبون من كل صورة معناها ، ويأخذون من كل قشرة لبابها ، ويعبرون من ظاهر كل حديث إلى سره ولبابه .

﴿ الذين يوفون بعهد الله ﴾ ، أي : ما عاقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا

: بلى ، أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه . ﴿ ولا ينقضون الميثاق ﴾ ، أي : ما واثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى ، وبينهم وبين العباد ، فهو تعميم بعد تخصيص .

﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ ، أي : من الإيمان والرحم وغير ذلك ، والأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم . عن أبي موسى أنّ عبد الرحمن بن عوف عاد أبا الدرداء فقال عبد الرحمن : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : فيما يحكي عن ربه تعالى : "أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ، أو قال : بتته" . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الرحم متعلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله" . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من سره أن يبسط في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه" . ومعنى ينسأ يؤخر ، والمراد به تأخير الأجل ، وفيه قولان:

أحدهما وهو المشهور : أنه يزاد في عمره زيادة حقيقية .

والثاني : يبارك له في عمره فكأنه قد زيد فيه . وعن ابن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها" . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تأتي يوم القيامة لها ألسنة ذلقة الرحم فتقول : أي : رب قطعت والأمانة تقول : أي رب تركت والنعمة تقول : أي : رب كفرت" . وعن الفضيل بن عياض أنّ جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ فقالوا : من خراسان . قال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أنّ العبد لو أحسن كل الإحسان وكان له دجاجة ، فأساء إليها لم يكن من المحسنين .

﴿ ويخشون ربهم ﴾ ، أي : وعيده عموماً ، والخشية خوف يشوبه تعظيم ﴿ ويخافون سوء الحساب ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ﴿ والذين صبروا ﴾ ، أي : على طاعة الله تعالى وعن معاصيه وفي كل ما ينبغي الصبر فيه . وقال ابن عباس : صبروا على أمر الله . وقال عطاء : على المصائب والنوائب . وقيل : صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ، ومرجع الكل واحد فإنّ الصبر الحبس ، وهو تجرع مرارة منع النفس عما تحب مما لا يجوز فعله ﴿ ابتغاء ﴾ ، أي : طلب ﴿ وجه ربهم ﴾ ، أي : رضاه لا طلب غيره من جور أو سمعة أو رياء أو لغرض من أغراض الدنيا أو نحو ذلك ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ ، أي : المفروضة ، وقيل : مطلق الصلاة ، فيدخل فيه الفرض والنفل .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية ﴾ قال الحسن : المراد به الزكاة ، فإن لم يتهم بترك الزكاة فالأولى أن يؤدّيها سرًّا ، وإن كان يتهم بترك أدائها ، فالأولى أن يؤدّيها علانية ، وقيل : المراد بالسر صدقة التطوّع ، وبالعلانية الزكاة . وقيل : المراد بالسر ما يؤدّيه من الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه إلى الإمام . ﴿ ويدرؤون ﴾ ، أي : يدفعون ﴿ بالحسنة السيئة ﴾ كالجهل بالحلم والأذى بالصبر . روي عن ابن عباس قال : يدفعون بالصالح من العمل السيء من العمل ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ إنّ الحسنات يذهبن السيئات ﴾ (هود ، ) وقوله صلى الله عليه وسلم "إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية" . وعن عقبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض" . وقال ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم . وعن الحسن إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا . وعن ابن عمر : ليس الواصل من وصل ، ثم وصل تلك مجازاة لكن من قطع ثم وصل وعطف من لم يصله ، وليس الحليم من ظلم ، ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا . وعن ابن كيسان إذا أذنبوا تابوا ، وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ، وروي أنّ شقيقاً البلخي دخل على ابن المبارك

متنكراً فقال له : من أين أنت ؟ فقال : من بلخ . فقال : وهل تعرف شقيقاً ؟ قال : نعم . فقال : وكيف طريقة أصحابه ؟ قال : إذا منعوا صبروا وإذا أعطوا شكروا . فقال ابن المبارك : طريقة كلابنا هكذا . فقال شقيق : فكيف ينبغي أن يكون الأمر ؟ فقال : الكاملون هم الذين إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا . ﴿ أولئك ﴾ ، أي : العالو الرتبة ﴿ لهم عقبى الدار ﴾ وبينها تعالى بقوله:

(201/414)

---

﴿ جنات عدن ﴾ ، أي : إقامة لا انفكاك لها يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ، ثم استأنف بيان تمكنهم بها بقوله تعالى : ﴿ يدخلونها ﴾ ولما كانت الدار لا تطيب بدون الأحبة قال تعالى عاطفاً على الضمير المرفوع : ﴿ ومن صلح من آبائهم ﴾ ، أي : الذين كانوا سبباً في إيجادهم ، فيشمل ذلك الآباء والأمهات وإن علوا ﴿ وأزواجهم وذرياتهم ﴾ ، أي : الذين تسببوا عنهم ، والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم ، وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم ، ويقال : إنّ من أعظم موجبات سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ، ولذلك قال الله تعالى في صفة أهل الجنة أنهم يقولون : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من

المكرمين ﴾ (يس : ، ) . وفي ذلك دليل على أنّ الدرجة تعلو بالشفاعة ، وأن الموصوفين بتلك الصفات يقترن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم ، والتقييد بالصلاح دلالة على أنّ مجرد الأنساب لا تنفع .

وفسر ابن عباس الصلاح بالتصديق فقال : يريد من صدّق بما صدّقوا وإن لم يعمل مثل أعمالهم ، قال الرازي : قوله ﴿ وأزواجهم ﴾ ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه ، وما روي عن سودة أنها لما همّ الرسول صلى الله عليه وسلم بطلاقها قالت : دعني يا رسول الله أحشر في جملة نسائك . كالدليل على ما ذكرنا اه . وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل : إنها تتخير بينهما ، ثم زاد تعالى في ترغيبهم بقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم ﴾ لأنّ الإكثار من تردد رسل الملك أعظم في الفخر وأكثر في السرور والعز . ولما كان إتيانهم من الأماكن المعتادة مع القدرة على غيرها أدل على الأدب والكرم قال تعالى : ﴿ من كل باب ﴾ قال ابن عباس : لهم خيمة من درّة مجوّفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصارعها من ذهب يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم:

﴿ سلام عليكم ﴾ ، أي : فأضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه ﴿ بما صبرتم ﴾ على أمر الله ، والباء للسببية ، أي : بسبب صبركم ، أو البدلية ، أي : بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه . فإن قيل : بم يتعلق قوله ﴿ بما صبرتم ﴾ قال الزمخشري : بمحذوف تقديره : هذا بما صبرتم ، وقال البيضاوي : متعلق بعليكم أو بمحذوف لا بسلام ، فإن الخبر فاصل مع أنّ الزمخشري قال ويجوز أن يتعلق بسلام ، أي : نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم ، وهذا أظهر وردّ الأول بأن الممنوع منه إنما هو المصدر المؤوّل بحرف مصدري ، وفعل والمصدر هنا ليس كذلك .

ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى : ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ وهي المسكن في قرار المهيأ بالأبنية التي يحتاج إليها ، والمرافق التي ينتفع بها ، والعقبى الإنتهاء الذي يؤدي إليه الابتداء من خير أو شر ، والمخصوص بالمدح محذوف ، أي : عقباكم . ولما ذكر تعالى صفات السعداء وما يترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر أحوال الأشقياء ، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكربة ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب ؛ ليكون البيان كاملاً فقال تعالى:

﴿ والذين ينقضون عهد الله ﴾ ، أي : فيعملون بخلاف موجبه ، والنقض التفريق الذي ينفي تأليف البناء ﴿ من بعد ميثاقه ﴾ ، أي : الذي أوثقه عليهم من الإقرار والقبول ﴿ ويقطعون ما ﴾ ، أي : الذي ﴿ أمر الله به أن يوصل ﴾ وذلك في مقابلة قوله من قبل ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ (الرعد ، ) فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل ، والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله ، أي : لما له من المحاسن الجلية والخفية التي هي عين الصلاح ، ويدخل في ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم بالموالاة والمعاونة ، ووصل المؤمنين ووصل الأرحام ، ووصل سائر من له حق ﴿ ويفسدون ﴾ ، أي : يوقعون الفساد ﴿ في الأرض ﴾ ، أي : في أي جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن ، والدعاء إلى غير دين الله تعالى ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ لهم اللعنة ﴾ ، أي : الطرد والبعد ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ والدار لهم هي جهنم ، وليس لهم فيها إلا ما يسوء الصائر إليها . ولما حكم تعالى على من نقض عهده في قبول التوحيد والنبوّة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة ، فكأنه قيل : لو كانوا أعداء الله تعالى لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا فأجاب الله تعالى بقوله تعالى:

﴿ الله يبسط الرزق ﴾ ، أي : يوسعه ﴿ لمن يشاء ويقدر ﴾ ، أي : يضيقه على من يشاء سواء في ذلك الطائع والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر والإيمان فقد يوجد الكافر موسعاً عليه دون المؤمن ويوجد المؤمن موسعاً عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان ولما كانت السعة مظنة الفرح إلا عند من وفقه الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ وفرحوا ﴾ ، أي : كفار مكة فرح بطر ﴿ بالحياة الدنيا ﴾ ، أي : بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله والعافية عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة ﴿ وما الحياة الدنيا ﴾ ، أي : بكمالها ﴿ في الآخرة ﴾ ، أي : في جنبها ﴿ الامتاع ﴾ ، أي : حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهي ما يتعجله من تميرات أو شربة ماء سويق أو نحو ذلك .

﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ من أهل مكة ﴿ لولا ﴾ ، أي : هلا ﴿ أنزل عليه ﴾ ، أي : على هذا الرسول ﴿ آية ﴾ ، أي : علامة بينة ﴿ من ربه ﴾ ، أي : المحسن إليه كالعصا واليد لموسى والناقة لصالح لنهتدي بها فنؤمن به وأمره الله تعالى أن يجيبهم بقوله : ﴿ قل ﴾ ، أي : لهؤلاء المعاندين ﴿ إن الله يضل من يشاء ﴾ إضلاله فلا تغني عنه الآيات شيئاً وإن أنزلت كل آية ﴿ ويهدي ﴾ ، أي : يرشد ﴿ إليه ﴾ ، أي : إلى دينه ﴿ من أناب ﴾ ، أي : رجع إليه كأبي بكر الصديق وغيره ممن تبعه من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو حصلت آية واحدة فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا إلى الله تعالى في طلب الهداية وقوله تعالى:

﴿ الذين آمنوا ﴾ بدل من أناب أو خبر مبتدأ محذوف ﴿ وتطمئن ﴾ ، أي : تسكن ﴿ قلوبهم بذكر الله ﴾ ، أي : أنساً به واعتماداً عليه ورجاءً منه أو بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق و الاضطراب من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده أو بالقرآن الذي هو أقوى المعجزات وقال ابن عباس : يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت فإن قيل : قد قال الله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ (الأنفال ، ) والوجل ضد الاطمئنان فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟

أجيب : بأنهم إذا ذكروا العقاب ولم يأمنوا أن يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم إلى ذلك وحينئذ حصل الجمع بينهما ﴿ ألا بذكر الله ﴾ ، أي : الذي له الجلال والإكرام لا بذكر غيره ﴿ تطمئن ﴾ ، أي : تسكن ﴿ القلوب ﴾ ويثبت اليقين فيها وقوله تعالى:

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ مبتدأ خبره ﴿ طوبى لهم ﴾ واختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس : فرح لهم وقرة عين . وقال عكرمة : نعمى لهم . وقال قتادة : حسنى لهم . وقال النخعي : خير لهم وكرامة . وقال سعيد بن جبير : طوبى اسم الجنة بالحبشية . قال الرازي : وهذا القول ضعيف ؛ لأنه ليس في القرآن إلا العربي لا سيما ، اشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر . وعن أبي هريرة وأبي الدرداء أن طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها . وقال عبيد بن عمير : هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبيّ صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرة إلا وفيها منه إلا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة إلا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل . وقال مقاتل : وكل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله تعالى بأنواع التسبيح . وعن أبي سعيد الخدري أنّ رجلاً سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم ما طوبى ؟ قال : "شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها" . وعن معاوية بن قرّة عن أبيه يرفعه : "طوبى شجرة غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة" . وفي رواية عن أبي هريرة أنه قال : "إنّ في الجنة شجرة يقال لها : طوبى يقول الله تعالى لها : تفتقي لعبدي عما يشاء فتتفتق له عن فرس مسرجة بلجامها وهيئتها كما يشاء وتتفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء" . وقيل : طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واواً لضم ما قبلها مصدر لطاب

كبشرى وزلفى ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً . ﴿ وحسن مآب ﴾ ، أي : حسن المنقلب .

(207/414)

---

﴿ كذلك ﴾ ، أي : مثل إرسال الرسل الذين قدمنا الإشارة إليهم في آخر سورة يوسف وفي غيرها ﴿ أرسلناك في أمّة ﴾ ، أي : جماعة كثيرة ﴿ قد خلت من قبلها ﴾ ، أي : تقدّمتها ﴿ أمم ﴾ طال أذاهم لأنبيائهم ، ومن آمن بهم ، واستهزاؤهم بهم في عدم الإجابة حتى كأنهم تواصوا بهذا القول فليس ببدع إرسالك إليهم ﴿ لتتلو ﴾ ، أي : لتقرأ ﴿ عليهم ﴾ ، أي : على أمّتك ﴿ الذي أوحينا إليك ﴾ من القرآن وشرائع الدين ﴿ وهم ﴾ ، أي : والحال أنهم ﴿ يكفرون بالرحمن ﴾ ، أي : بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء .

(208/414)

---

وقال قتادة : هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية ، وذلك أن سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : "أكتب بسم الله الرحمن الرحيم" . فقال سهل بن عمرو : لا نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعني مسيلمة الكذاب أكتب كما كنت تكتب باسمك اللهمّ" فهذا معنى قوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ ، أي : أنهم يكفرونه ويجحدونه . قال البغويّ : والمعروف أنّ الآية مكية ، وسبب نزولها أنّ أبا جهل سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن ، فرجع إلى المشركين فقال : إنّ محمداً يدعو الله ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن ، إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ (الإسراء ، ) . وروى الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم "اسجدوا للرحمن" قالوا : وما الرحمن ؟ قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد إنّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿ هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ ، أي : اعتمدت عليه في أموري كلها ﴿ وإليه متاب ﴾ ، أي : مرجعي ومرجعكم . روي أنّ أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة فأتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعرض الإسلام عليهم ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي : سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا ، واجعل لنا فيها أنهاراً نزرع فيها ، وأحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أم باطل ؟ فقد كان عيسى يحي

الموتى ، وسخر لنا الريح حتى نركبها إلى البلاد ، فقد كانت الريح مسخرة لسليمان ، فلست بأهون على ربك من سليمان ، فنزل قوله تعالى:

(209/414)

---

﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ ، أي : نقلت عن أماكنها ﴿ أو قطعت ﴾ ، أي : شققت ﴿ به الأرض ﴾ من خشية الله تعالى عند قراءته ، فجعلت أنهاراً وعيوناً . ﴿ أو كلم به الموتى ﴾ ، أي : بأن يحيوا ، وجواب لو محذوف ، أي : لكان هذا القرآن في غاية ما يكون من الصحة ، واكتفى بمعرفة السامعين مراده ، وهذا معنى قول قتادة قال : لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم . وقيل : تقديره لما آمنوا ، ونقل عن الفراء أنّ جواب لو هي الجملة من قوله : ﴿ وهم يكفرون ﴾ ففي الكلام تقديم وتأخير وما بينهما اعتراض ، وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو أنّ قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ، ولم يؤمنوا لما سبق من علمنا فيهم .

فإن قيل : لم حذفت التاء في قوله تعالى : ﴿ وكلم به الموتى ﴾ وثبتت في الفعلين قبله ؟

أجيب : بأنه من باب التغليب ؛ لأنّ الموتى يشمل المذكر والمؤنث . ﴿ بل لله الأمر ﴾ ، أي : القدرة على كل شيء ﴿ جميعاً ﴾ وهذا إضراب عما تضمنته لو من معنى النفي ، أي :

بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه تعالى بأنه لا يلين قلوبهم ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم وذهب أكثرهم إلى أنّ معناه: أفلم يعلم الذين آمنوا ﴿ أن ﴾، أي: بأنه ﴿ لو يشاء الله ﴾، أي: الذي له صفات الكمال ﴿ لهدى الناس جميعاً ﴾، أي: إلى الإيمان من غير آية، ولكنه تعالى لم يشأ هداية جميع الخلائق ﴿ ولا يزال الذين كفروا ﴾، أي: جميع الكفار ﴿ تصيبهم بما ﴾، أي: بسبب ما ﴿ صنعوا قارعة ﴾، أي: نازلة وداهية تقرعهم بأنواع البلايا تارة بالجدب، وتارة بالسلب وتارة بالقتل، وتارة بالأسر وغير ذلك.

واختلف في الكفار على قولين.

قيل: أراد بهم جميع الكفار، لأنّ الوقائع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار من ذلك أوجبت حصول الغم في قلب الكل.

*(210/414)*

---

وقيل: المراد الكفار من أهل مكة والألف واللام للمعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس: أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها إليهم ﴿ أو تحل ﴾، أي: تنزل نزولاً ثابتاً تلك القارعة ﴿ قريباً من دارهم ﴾، أي: فتوهن أمرهم، وقيل:

معناه أو تحل أنت يا محمد بجيشك قريباً من دارهم مكة كما حل بالحديبية ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ ، أي : بالنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة ، أو بالنصر على جميع الكفرة في زمن عيسى عليه السلام فينقطع ذلك ؛ لأنه لا يبقى على الأرض كافر .

وقيل : أراد بوعد الله يوم القيامة ؛ لأنّ الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ إنّ الله لا يخلف الميعاد ﴾ لامتناع الكذب في كلامه تعالى . ولما كان الكفار يسألون هذه الآيات منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تعالى تسلية له وتصبيراً له على سفاهة قومه:

﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ كما استهزئ بك ﴿ فأمليت للذين كفروا ، أي : أطلت المدّة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم ﴾ بالعقوبة ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ ، أي : هو واقع موقعه ، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك ، والإملاء الإمهال بأن يترك مدّة من الزمان في راحة وأمن كالبهيمة يملي لها في المرعى ، وهذا استفهام معناه التعجب ، وفي ضمنه وعيد شديد لهم ، وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج ، وما يكون توبيخاً لهم وتعجيباً من عقولهم فقال تعالى:

﴿ أفمن هو قائم ﴾ ، أي : رقيب ﴿ على كل نفس بما كسبت ﴾ ، أي : عملت من خير وشر وهو الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات ، ولا بدّ لهذا الكلام من جواب فإن من موصولة صلتها هو قائم ، والموصول مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف تقديره كمن ليس بهذه الصفة ، وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ دل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ (الزمر ، ) الآية تقديره كمن قسا قلبه يدل عليه قوله : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ (الزمر ، ) وإنما حسن حذفه كون الخبر مقابلاً للمبتدأ ، وقد جاء مبيناً كقوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ (النحل ، ) وقوله تعالى : ﴿ قل سموهم ﴾ فيه تنبيه على أنّ هؤلاء الشركاء لا يستحقونها ، والمعنى : سموهم بأسمائهم الحقيقية ، فإنهم إذا عرفت حقائقهم أنها حجارة أو غير ذلك مما هو مركز العجز ، ومحل الفقر عرف ما هم عليه من سخافة العقول وركاكة الآراء ، ثم قيل : أرجعتم عن ذلك إلى الإقرار بأنهم من جملة عبيده ؟ ﴿ أم تنبئونه ﴾ ، أي : تخبرونه ﴿ بما لا يعلم ﴾ وعلمه محيط بكل شيء ﴿ في الأرض ﴾ من كونها آلهة ببرهان قاطع ﴿ أم ﴾ تسمونهم شركاء ﴿ بظاهر من القول ﴾ ، أي : بحجة إقناعية تقال بالفم ، وكل ما لا يعلم فليس بشيء ، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز .

ولما كان التقدير ليس لهم على شيء من هذا برهان قاطع ، ولا قول ظاهر بنى عليه قوله تعالى : ﴿ بل زين ﴾ ، أي : وقع التزيين بأمر من لا يرد أمره على يد من كان من شياطين الإنس أو شياطين الجنّ . ﴿ للذين كفروا مكرهم ﴾ ، أي : أمرهم الذي أرادوا به ما يراد بالمكر من إظهار شيء وإبطان غيره ، وذلك أنهم أظهروا أنّ شركاءهم آلهة حقاً وهم يعلمون بطلان ذلك ، وليس بهم في الباطن إلا تقليد الآباء ، وأظهروا أنهم يعبدونها لتقرّبهم إلى الله زلفى ، ولتشفع لهم ، وهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً ، فصار كل ذلك من فعلهم فعل الماكر ﴿ وصدّوا ﴾ غيرهم ﴿ عن السبيل ﴾ ، أي : طريق الهدى الذي لا يقال لغيره سبيل ، فإنّ غيره عدم بل العدم خير منه ، فهم لم يسلكوا السبيل ، ولا تركوا غيرهم يسلكه ، فضلوا وأضلوا ، وليس ذلك بعجيب فإنّ الله أضلهم ﴿ ومن يضلل الله ﴾ ، أي : الذي له الأمر كله بإرادة إضلاله ﴿ فما له من هاد ﴾ وقرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد الدال في الوقف دون الوصل ، والباقون بغير ياء وقفاً ووصلاً . وكذلك من واق وكذا ولا واق . ولما أخبر الله تعالى بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بقوله تعالى:

﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر والذم والإهانة واغتنام الأموال واللعن، ونحو ذلك مما فيه غيظهم ﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ ، أي: أشدّ في المشقة بسبب القوّة والشدّة وكثرة الأنواع والدوام، وعدم الانقطاع، ثم بين تعالى أنّ أحداً لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى: ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ ، أي: مانع يمنعهم إذا أراد بهم سوءاً لا في الدنيا ولا في الآخرة، والواقي فاعل من الوقاية، وهي الحجز بما يدفع الأذية. ولما ذكر تعالى عذاب الكفار في الدنيا والآخرة أتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى:



---

﴿ مثل ﴾ ، أي: صفة ﴿ الجنة ﴾ ، أي: التي هي مقرهم ﴿ التي وعد المتقون ﴾ واختلف في إعراب ذلك على أقوال: الأوّل: قال سيبويه: ﴿ مثل الجنة ﴾ مبتدأ وخبره محذوف والتقدير فيما قصصناه عليك ﴿ مثل الجنة ﴾ . والثاني: قال الزجاج: ﴿ مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا . والثالث: مثل الجنة ﴾ مبتدأ وخبره. ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ كما تقول صفة زيد أسمر، والرابع الخبر. ﴿ أكلها ﴾ ، أي: مأكولها ﴿ دائم ﴾ لأنه الخارج عن العادة، فقد وصف الله تعالى الجنة بثلاثة أوصاف، الأوّل: تجري من تحتها، أي: من تحت قصورها وأشجارها الأنهار. الثاني: إن أكلها دائم لا

ينقطع أبداً بخلاف جنة الدنيا . والثالث : قوله تعالى : ﴿ وظلها ﴾ ، أي : دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه الشمس ولا غيرها إذ ليس فيها شمس ولا قمر ولا ظلمة ، بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول . ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بيّن تعالى أنها للمتقين بقوله تعالى : ﴿ تلك ﴾ ، أي : الجنة العالية الأوصاف ﴿ عقبى ﴾ ، أي : آخر أمر ﴿ الذين اتقوا ﴾ ، أي : الشرك ، ثم كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى ﴿ وعقبى ﴾ ، أي : منتهى أمر ﴿ الكافرين النار ﴾ لا غير ، وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقناط للكافرين . واختلف في قوله تعالى:

على قولين الأوّل : أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ من أنواع التوحيد والعدل والنبوّة والبعث والأحكام والقصص ﴿ ومن الأحزاب ﴾ ، أي : الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار ﴿ من ينكر بعضه ﴾ وهذا قول الحسن وقتادة .

فإن قيل : الأحزاب منكرون كل القرآن ؟

أجيب : بأنهم لا ينكرون كل ما في القرآن ، لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء ، والأحزاب لا ينكرون كل هذه الأشياء .

والقول الثاني : أنّ المراد بالكتاب التوراة ، وبأهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام وأصحابه ، ومن أسلم من النصارى ، وهم ثمانون رجلاً أربعون من نجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من أرض الحبشة ، وفرحوا بالقرآن ؛ لأنهم آمنوا به وصدّقوه ، والأحزاب بقية أهل الكتاب ، وسائر المشركين ، وقيل : كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما اسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه من أهل الكتاب ساءهم قلة ذكر الرحمن مع كثرة ذكره في التوراة ، فلما كرّر الله تعالى ذكره في القرآن فرحوا به فأنزل الله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ (الرعد ، ) يعني مشركي مكة حين كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا : ما نعرف إلا رحمن اليمامة ؟ يعني مسيلمة فأنزل الله تعالى : ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ (الأنبياء ، ) . ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة المبدأ والمعاد وبينه بألفاظ قليلة فقال : ﴿ قل ﴾ ، أي : يا أكرم الخلق على الله تعالى ﴿ إنما أمرت ﴾ ، أي : وقع إليّ الأمر الجازم الذي لا شك فيه ولا تغيير ممن له الأمر كله ﴿ أن أعبد الله ﴾ ، أي : وحده ، ولذلك قال : ﴿ ولا أشرك به ﴾ شيئاً ﴿ إليه ﴾ وحده ﴿ أدعو وإليه مآب ﴾ ، أي : مرجعي للجزاء لا إلى غيره .

﴿ وكذلك ﴾ ، أي : كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم ﴿ أنزلناه ﴾ ، أي : القرآن ﴿ حكماً ﴾ والحكم فصل الأمر على الحق ﴿ عربياً ﴾ بلسانك ولسان قومك ، وإنما سمي القرآن حكماً ؛ لأنّ فيه جميع التكاليف والحلال والحرام ، والنقض والإبرام ، فلما كان سبباً للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة . وروي أنّ المشركين كانوا يدعون النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى ملة آبائه ، فوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب بأن يصلي إلى قبلتهم بعد ما حوّله الله تعالى عنها بقوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ ، أي : الكفار فيما يدعونك إليه من ملتهم ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ ، أي : بأنك على الحق وأن قبلتك هي الكعبة ﴿ ما لك من الله من ولي ﴾ ، أي : ناصر ﴿ ولا واق ﴾ ، أي : مانع من عذابه . وقال ابن عباس : الخطاب مع النبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . ونزل لما عير الكفار النبيّ صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء .

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً ﴾ ، أي : نساء ينكحونهنّ فكان لسليمان امرأة وسرية وكان لداود عليه السلام إمرأة ﴿ وذرية ﴾ ، أي : أولاداً فأنت مثلهم ، وكانوا يقولون أيضاً : لو كان رسولاً من عند الله لكان ، أي : شيء طلبناه منه من المعجزات أتى به فردّ الله تعالى عليهم بقوله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بأذن الله ﴾ ، أي : بإرادته ؛ لأنّ المعجزة الواحدة كافية في إزالة العذر ، والعلة وفي إظهار الحجة والبينة ، وأمّا الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض لأحد عليه في ذلك . ولما توعدهم صلى الله عليه وسلم نزول العذاب ، وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا : لو كان نبياً صادقاً لما ظهر كذبه ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله تعالى ﴿ لكل أجل ﴾ ، أي : مدّة ﴿ كتاب ﴾ ، أي : مكتوب قد أثبت فيه أن أمر كذا يكون في وقت كذا من الثواب والعقاب والأحكام ، والإتيان بالآيات وغيرها إثباتاً ونسخاً على ما تقتضيه الحكمة . ولما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنّ محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم ، ثم يأمر بخلافه غداً ، وما سبب ذلك إلا أنه يقوله من تلقاء نفسه ، فردّ الله تعالى عليهم بقوله تعالى:

﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ ، أي : محوه من الشرائع والأحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه ﴿ ويثبت ﴾ ما يشاء إثباته من ذلك بأن يقرّه ويمضي حكمه كقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ (البقرة ، ) إلى قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير ﴾ (البقرة ، ) .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بسكون الثاء المثلثة وتخفيف الباء الموحدة، والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة.

تنبيه: في هذه الآية قولان:

(217/414)

---

أحدهما أنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ، وهذا مذهب عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا: إنّ الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر. وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة، فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليّ الشقاوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب، ومثله عن ابن مسعود وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي بعض الآثار: أنّ الرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فيردّ إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيرد إلى ثلاثين سنة. وروي أنّ الله تعالى ينزل، أي: أمره في آخر ثلاث ساعات تبقى من الليل فينظر في الساعة منهنّ في أمّ الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت. والقول الثاني أنّ هذه الآية

خاصة في بعض الأشياء دون بعض ، واختلفوا على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة : يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض ، فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه . وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة ، واستدل لهذا بما رواه حذيفة بن أسيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يقول الملك : يا رب رزقه فيقضي ربك ما يشاء ، ويكتب الملك ثم يقول : يا رب أشقي أم سعيد ؟ فيكتبان فيكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص" .



---

وقال ابن عطية عن ابن عباس : هو الرجل يعمل بطاعة الله تعالى ، ثم يرجع لمعصية الله تعالى ، فيموت على ضلاله فهو الذي يمحو الذي يثبت يعمل الرجل بطاعة الله ، فيموت وهو في طاعته فهو الذي يثبت . وقال الحسن : يمحو ما يشاء ، أي : من جاء أجله يذهب به ويثبت من لم يجيء أجله إلى أجله . وعن سعيد بن جبير قال : يمحو ما يشاء من ذنوب

العباد فيغفرها ، ويثبت ما يشاء فلا يغفرها . وقال عكرمة : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ، ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ . (الفرقان ، ) وقال السدي : يمحو الله ما يشاء يعني القمر ويثبت ما يشاء يعني الشمس بيانه قوله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ (الإسراء ، ) . وقال الربيع : هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم ، فمن أراد موته أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه بيانه قوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ (الزمر ، ) الآية . وقيل إنّ الله تعالى يثبت في أوّل كل سنة حكمها ، فإذا مضت السنة محاه ، وأثبت حكماً آخر للسنة المستقبلة . وقيل : يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة .

وقيل : إنّ الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب .

وقيل : هذا في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ، ثم يمحوها بالدعاء والصدقة ﴿ وعنده ﴾ تعالى ﴿ أمّ الكتاب ﴾ أصل الكتب والعرب تسمى كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أمّا ، ومنه أمّ الرأس للدماغ ، وأمّ القرى ، وكل مدينة فهي أمّ لما حولها من القرى فكذلك أمّ الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب ، وفيه قولان : الأوّل : أنه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدّل وجميع حوادث العالم العلوي والسفلي يثبت فيه . روي

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كان الله ولا شيء ثم خلق اللوح وأثبت فيه أحوال جميع الخلق إلى قيام الساعة" .

(219/414)

---

والقول الثاني : أنّ أمّ الكتاب أصله الذي لا يغير منه شيء وهو الذي كتب في الأزل . وقال ابن عباس في رواية عكرمة : هما كتابان كتاب سوى أمّ الكتاب يمحو ما يشاء منه ويثبت وعنده أمّ الكتاب لا يغير منه شيء ، وعلى هذا فالكتاب الذي يمحو منه ويثبت هو الكتاب الذي تكتبه الملائكة على الخلق . وعن ابن عباس قال : إنّ لله لوحاً محفوظاً مسيرته خمسمائة عام من درّة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه في كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب . وسأل ابن عباس كعباً عن أمّ الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه . ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك البعض وإثباته ليؤمن به غيره تقريباً لفصل النزاع قال تعالى:

﴿ وإما نرينك ﴾ يا محمد وأكده بتأكيد للإعلام بأنه لا حرج عليه في ضلال من ضل بعد إبلاغه ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ ، أي : من العذاب وأنت حيّ مما تريد ، أو تريد أصحابك

قبل وفاتك فذلك شافيك من أعدائك، والوعد الخبر عن خير مضمون، والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى عليه وسماه وعداً لتنزيلهم إياه في طلب نزوله منزلة الوعد ﴿أو نتوفينك﴾ ، أي: قبل أن نرينك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ ، أي: ليس عليك إلا تبليغ الرسالة إليهم، وليس عليك أن تجازيهم ولا أن تأتيهم بالمقترحات، والبلاغ، اسم أقيم مقام التبليغ، وأمّا فيه إدغام نون أن الشرطية في ما الزائدة. ﴿وعلينا الحساب﴾ ، أي: علينا أن نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، فلا تحتفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم.

(220/414)

---

تنبيه: قال أبو حيان: هنا شرطان؛ لأنّ المعطوف على الشرط شرط، فيقدّر لكل شرط، ما يناسب أن يكون جزاء مرتباً عليه والتقدير: وإمّا نرينك بعض الذي نعدهم، فذلك شافيك من أعدائك، وإمّا نتوفينك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك ولما وعد الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يريه بعض ما يعده أو يتوفاه قبل ذلك بين تعالى آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى:

﴿ أو لم يروا ﴾ ، أي : كفار مكة ﴿ أنّا نأت الأرض ﴾ ، أي : نقصد أرض هؤلاء الكفرة ﴿ ننقصها من أطرافها ﴾ بما يفتح الله تعالى على المسلمين من ديار الشرك أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم ، هذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة . وقال مجاهد : هو خراب الأرض وقبض أهلها . وعن عكرمة قال : هو قبض الناس . وعن الشعبي مثله ، وعطاء وجماعة نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء ، ويؤيد هذا ما رواه عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا" . وقال الحسن : قال عبد الله بن مسعود : عليكم بالعلم قبل أن يقبض وقبضه ذهاب أهله . وقال عليّ : إنما مثل الفقهاء كمثل الأنف إذا قطعت لم تعد . وقال سليمان : لا يزال الناس بخير ما بقي الأوّل حتى يتعلم الآخر ، وإذا هلك الأوّل قبل أن يتعلم الآخر هلك الناس . وقيل لسعيد بن جبير : ما علامة هلاك الناس ؟ قال : هلاك علمائهم ، ثم أثبت تعالى لنفسه أمراً كلياً فقال : ﴿ والله ﴾ ، أي : الملك الأعلى .

﴿ يحكم ﴾ في خلقه بما يريد ؛ لأنه ﴿ لا معقب ﴾ ، أي : راد ؛ لأنّ التعقيب ردّ الشيء بعد فصله ﴿ لحكمه ﴾ وقد حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره .

تنبيه : محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه كما تقول : جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسراً ﴿ وهو ﴾ عز وجل مع تمام القدرة ﴿ سريع الحساب ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا . وقال ابن عباس : يريد سريع الانتقام يعني : حسابه للمجازاة بالخير والشرّ ، فمجازاة الكفار بالإنتقام منهم ، ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب إليهم ، وقد تقدّم الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا . وقوله تعالى:

﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ ، أي : من كفار الأمم الماضية قيل : مكروا بأنبيائهم مثل نمروذ مكر بإبراهيم ، وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى فيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ فلله المكر جميعاً ﴾ ، أي : أن مكر جميع الماكرين حاصل بتخليقه وإرادته ؛ لأنه تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد ، فالمكر لا يضرّ إلا بإذنه ولا يؤثر إلا بتقديره ، فيه أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم ، فكأنه قيل : إذا كان حدوث المكر من الله تعالى وتأثيره في الممكور به من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى لا من أحد من المخلوقين ، وذهب بعض المفسرين إلى أنّ المعنى : فلله جزاء المكر ، وذلك أنهم لما مكروا بالمؤمنين بيّن الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم . قال الواحدي : والأوّل أظهر القولين بدليل قوله تعالى:

﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ ، أي : أنّ أكساب العباد معلومة لله تعالى ، وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك ، فلا قدرة لعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله فيجازيهم على أعمالهم ، وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ، ثم إنه تعالى أكد ذلك التهديد بقوله تعالى : ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ ، أي : العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ألهم أم للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بالألف بعد الكاف على الإفراد والكاف مفتوحة والفاء مكسورة مخففة ، والباقون بالألف بعد الفاء على الجمع ، فالكاف مضمومة والفاء مفتوحة مشدّدة ، فمن قرأ بالإفراد أراد الجنس كقوله تعالى : ﴿ إنّ الإنسان لفي خسر ﴾ (العصر ، ) ليوافق قراءة الجمع . وقال عطاء : المستهزؤون وهم خمسة والمقتسمون وهم ثمانية وعشرون . وقال ابن عباس : يريد أبا جهل . قال الرازي : والأوّل هو الصواب ، أي : ليوافق قراءة الجمع كما مرّ . ولما تقدّم قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ (الرعد ، ) عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى:

﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾ ، أي : لكونك لا تأتي بمقترحاتهم مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يقل يوماً : إنه قادر عليها ، فكأنه قيل : فما أقول لهم ؟ فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ كفى بالله ﴾ الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ شهيداً ﴾ ، أي : بليغ العلم في شهادته بالإطلاع على ما ظهر وما بطن ﴿ بيني وبينكم ﴾ يشهد بتأييد رسالتي ، وتصحيح مقالتي بما أظهر لي من الآية ، وأوضح من الدلالة بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبهم بادعائكم القدرة على المعارضة ، وترككم لها عجزاً ، وهذا أعلى مراتب الشهادة ؛ لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظنّ بأن الأمر كما شهد به ، والمعجزة فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولاً من عند الله ، واختلف في قوله تعالى : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ فروى العوفي عن ابن عباس أنهم علماء اليهود والنصارى ، أي : أنّ كل من كان عالماً من اليهود بالتوراة ، ومن النصارى بالإنجيل علم أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوّته فيها شهد بذلك من شهد به وأنكره من أنكره منهم . n

والثاني : أنّ المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا ، وهم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وتميم الداري. وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ هو الله تعالى. قال الحسن : لا والله لا يعني إلا الله ، والمعنى كفى بالله الذي يستحق العبادة ، وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم ، وهذا أظهر كما استظهره البقاعي ، وإن كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الأصل إذ يقال : شهد بهذا زيد الفقيه ، لا زيد والفقيه ؛ لأنه جائز في الجملة ، وقيل : معناه : أن علم أنّ القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والإخبار عن الغيوب وعن الأمم الماضية فمن علمه بهذه الصفة كان شهيداً بيني وبينكم والله أعلم بمراده. وما رواه البيضاويّ تبعاً للزمخشريّ وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 3 صـ 226. 243﴾

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) ﴾

بعد المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب ، وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول ، يأخذ الشطر الثاني في لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة رفيقة ، حول قضية الوحي والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة الآيات واستعجال تأويل الوعيد . . وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثاني عمى . وفي طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء . يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين . فلمسة في بسط الرزق وتقديره وردهما إلى الله . فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله . فوصف لهذا القرآن الذي يكاد يسير الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى . فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم أو تحل قريباً من دارهم . فجدل تهكمي حول الآلهة المدعاة . فلمسة من مصارع الغابرين ونقص أطراف الأرض منهم حيناً بعد حين . يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للمصير المعلوم !

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر السورة الأول ، تحضر المشاعر

وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني ، وهي على استعداد وتفتح لتلقيها ؛ وأن شطري السورة متكاملان ؛ وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة .

والقضية الأولى هي قضية الوحي . وقد أثيرت في صدر السورة . وهي تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد . .

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ . .

(226/414)

---

إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق ، وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى . والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمي فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع . .

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ . .

الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر .

وهذه صفات أولي الألباب هؤلاء :

﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ . .

وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق . والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ؛ والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

وعهد الإيمان قديم وجديد . قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله ؛ المدركة إدراكاً مباشراً لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة ، وأنه وحده المعبود . وهو الميثاق المأخوذ على الذرية في ظهور بني آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير . . ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجددوه ويذكروا به ويفصلوه ، ويبينوا مقتضياته من الدينونة لله وحده والانخلاع من الدينونة لسواه ، مع العمل الصالح والسلوك القويم ، والتوجه به إلى الله وحده صاحب الميثاق القديم . .

ثم تترتب على العهد الإلهي والميثاق الرباني كل العهود والمواثيق مع البشر. سواء مع الرسول أو مع الناس. ذوي قرابة أو أجانب. أفراداً أم جماعات. فالذي يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود، لأن رعايتها فريضة؛ والذي ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدي كل ما هو مطلوب منه للناس، لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق.

فهي القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنيان الحياة كله. يقررها في كلمات.

﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب ﴾ ..

هكذا في إجمال. فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه. أي أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء. لهذا ترك الأمر مجملاً، ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل، لأن هذا التفصيل يطول، وهو غير مقصود، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوي، والطاعة المطلقة التي لا تتفلت، والصلة المطلقة التي لا تنقطع. . ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة:

﴿ ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ ..

فهي خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب.

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ ..

والصبر ألوان . وللصبر مقتضيات . صبر على تكاليف الميثاق . من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد . . الخ وصبر على النعماء والبأساء . وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر . وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور . . وصبر وصبر وصبر . . كله ابتغاء وجه ربهم ، لا تحرجاً من أن يقول الناس : جذعوا . ولا تجملاً ليقول الناس : صبروا . ولا رجاء في نفع من وراء الصبر . ولا دفعاً لضر يأتي به الجزع . ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله ، والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع . .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ . .

*(228/414)*

---

وهي داخلة في الوفاء بعهد الله وميثاقه ، ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء ، ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله ، ولأنها الصلة بين العبد والرب ، الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ .

.

وهي داخلة في وصل ما أمر الله به أن يوصل ، وفي الوفاء بتكاليف الميثاق . ولكنه يبرزها لأنها الصلة بين عباد الله ، التي تجمعهم في الله وهم في نطاق الحياة . والتي تزكي نفس معطيها من البخل ، وتزكي نفس آخذها من الغل ؛ وتجعل الحياة في المجتمع المسلم لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الكرام على الله . والإنفاق سراً وعلانية . السر حيث تصان الكرامة وتطلب المروءة ، وتتحرج النفس من الإعلان . والعلانية حيث تطلب الأسوة ، وتنفذ الشريعة ، ويطاع القانون . ولكل موضعه في الحياة .

﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ . .

والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة في التعاملات اليومية لا في دين الله . ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شرة النفوس ، وتوجهها إلى الخير ؛ وتطفئ جذوة الشر ، وترد نزغ الشيطان ، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها في النهاية . فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيباً في مقابلة السيئة بالحسنة وطلباً لنتيجتها المرتقبة . .

ثم هي إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ! فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلي .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملة الشخصية بين المتماثلين . فأما في دين الله

فلا . . إن المستعلي الغاشم لا يجدي معه إلا الدفع الصارم . والمفسدون في الأرض لا يجدي معهم إلا الأخذ الحاسم . والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب .

(229/414)

---

﴿ أولئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار ﴾ . .

﴿ أولئك ﴾ في مقامهم العالي لهم عقبى الدار : جنات عدن للإقامة والقرار .

في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم . ولكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقي أحبابهم ، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان .

وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم ، في حركة رائحة غادية :

﴿ يدخلون عليهم من كل باب ﴾ . .

ويدعنا السياق نرى المشهد حاضراً وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافاً أطوافاً :

﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ . .

فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام .

وعلى الضفة الأخرى أولئك الذين لا ألباب لهم فيتذكروا . ولا بصيرة لهم فيبصروا . وهم على النقيض في كل شيء مع أولي الألباب :

﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض . أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار ﴾ . .

إنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة في صورة الناموس الأزلي ؛ وينقضون من بعده كل عهد ، فمتى نقض العهد الأول فكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس .

الذي لا يرعى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق . ويفسدون في الأرض في مقابل صبر أولئك وإقامتهم للصلاة وإنفاقهم سراً وعلانية ودرء السيئة بالحسنة . فالإفساد في الأرض يقابل هذا كله ، وترك شيء من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد .

﴿ أولئك ﴾ . . المبعدون المطرودون ﴿ لهم اللعنة ﴾ والطرد في مقابل التكريم هناك ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ ولا حاجة إلى ذكرها ، فقد عرفت بمقابلها هناك !

أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم . مع أن الله هو الذي يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق فالأمر كله إليه في الأولى والآخرة على السواء .

ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض ، وهو الذي أعطاهم إياه :

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ . .

ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق ، ومن هو أعمى . فالآن يحكي السياق شيئاً عن العمي الذين لا يرون آيات الله في الكون ، والذين لا يكفيهم هذا القرآن ، فإذا هم يطلبون آية . وقد حكى السياق شيئاً كهذا في شطر السورة الأول ، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذراً والآيات عند الله . وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال . ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله ، لا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها . هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية . وينهي الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والخوارق بتيئيس المؤمنين منهم ، وبتوجيههم إلى المثلات من قبلهم ، وإلى ما يحل بالمكذبين من حولهم بين الحين والحين :

﴿ ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدي إليه من أناب : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ . .

﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت ، وإليه متاب ﴾ . .

*(231/414)*

---

﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعاً . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ ﴾ . .

إن الرد على طلبهم آية خارقة ، أن الآيات ليست هي التي تقود الناس إلى الإيمان ، فللإيمان دواعيه الأصيلة في النفوس ، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس :

﴿ قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ . .

فالله يهدي من ينيبون إليه . فالإنابة إلى الله هي التي جعلتهم أهلاً لهداه . والمفهوم إذن أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضلال ، فيضلهم الله . فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه ، أما القلوب التي لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد . .

ثم يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة . في جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام :

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ . .

تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن في جانبه وفي حماه . تطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق . بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة :

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . .



---

ذلك الاطمئنان بذكر الله في قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله . يعرفونها ، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها ، لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما تسري في القلب فيستروحها ويهش لها

ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام ، ويحس أنه في هذا الوجود ليس مفرداً بلا أنيس . فكل ما حوله صديق ، إذ كل ما حوله من صنع الله الذي هو في حماه .

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس أشقى ممن ينطلق في هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله في الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التي تربطه بما حوله في الله خالق الكون . ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعاني ما يعاني في الحياة ؟ ليس أشقى ممن يسير في الأرض يوجس من كل شيء خيفة لأنة لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شيء في هذا الوجود . ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريداً وحيداً شارداً في فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك للحظات في الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكناً إلى الله ، مطمئناً إلى حماه ، مهما اوتي من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . . ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله :

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . .

هؤلاء المنيبون إلى الله ، المطمئنون بذكر الله ، يحسن الله مآبهم عنده ، كما أحسنوا الإنابة إليه وكما أحسنوا العمل في الحياة :

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ .

.

طوبى ( على وزن كبرى من طاب يطيب ) للتفخيم والتعظيم . وحسن مآب إلى الله الذي أنابوا إليه في الحياة . .

(233/414)

---

أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم في قلق يطلبون الخوارق والمعجزات . ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ما جئت به حتى يكون الأمر عليهم غريباً ، فقد خلت من قبلهم الأمم وخلت من قبلهم الرسل . فإذا كفروا هم فلتمض على نهجك ولتتوكل على الله :

﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ، لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب ﴾ .

والعجيب أنهم يكفرون بالرحمن ، العظيم الرحمة ، الذي تطمئن القلوب بذكره ، واستشعار رحمته الكبرى . وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك . فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سواه .

وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن . هذا القرآن العجيب ، الذي لو كان من شأن قرآن

أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض . أو يكلم به الموتى ، لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ، ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات . ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء .

فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون ، وأن يدعوهم حتى يأتي وعد الله للمكذبين :

﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعاً . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ . .

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى . لقد صنع في هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثاراً في أقدار الحياة ، بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته . فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض ، إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟ !

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها . طبيعته في دعوته وفي تعبيره . طبيعته في موضوعه وفي أدائه . طبيعته في حقيقته وفي تأثيره . . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة ، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحي به . والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ؛ وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ما هو أخمد من الموتى . وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام . والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النفوس والحياة ، أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها ، وتحول الموتى عن الموات !

﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ .

.

وهو الذي يختار نوع الحركة وأداتها في كل حال .

فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما أجدر المؤمنين الذي يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم ؛ وأن يدعوا الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، فلهدى الناس جميعاً على نحو خلقة الملائكة لو كان يريد . أو لقهرهم على الهدى بأمر قدري منه . . ولكن لم يرد هذا ولا ذاك . لأنه خلق هذا الإنسان لمهمة خاصة يعلم

سبحانه أنها تقتضي خلقته على هذا النحو الذي كان .

فليدعوهم إذن لأمر الله . وإذا كان الله قد قدر ألا يهلكهم هلاك استئصال في جيل كبعض الأقوام قبلهم ، فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك .

﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ . .

فتروعهم وتدعهم في قلق وانتظار لمثلها ؛ وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتحييها .

﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ . .

الذي أعطاهم إياه ، وأمهلهم إلى انتهاء أجله :

﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ . .

فهو آت لا ريب فيه ، فملاقون فيه ما وعدوه .



---

والأمثلة حاضرة ، وفي مصارع الغابرين عبرة ، بعد الإنظار والإمهال :

﴿ ولقد أستهزئ برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ ﴾ .

وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب . فلقد كان عقاباً تتحدث به الأجيال ! ! !

والقضية الثانية هي قضية الشركاء . وقد أثيرت في الشطر الأول من السورة كذلك . وهي تثار هنا في سؤال تهكمي حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس ، المجازي لها بما كسبت في الحياة . وتنتهي هذه الجولة بتصوير العذاب الذي ينتظر المفترين لهذه الفرية في الدنيا والعذاب الأشق في الآخرة . وفي مقابلة ما ينتظر المتقين من أمن وسلام !

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء . قل : سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد . لهم عذاب في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق ﴾ . .

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار ﴾ . .

والله سبحانه رقيب على كل نفس ، مسيطر عليها في كل حال ، عالم بما كسبت في السر والجهر . ولكن التعبير القرآني المصور يشخص الرقابة والسيطرة والعلم في صورة حسية على طريقة القرآن صورة ترتعد لها الفرائص :

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ .

.

فلتتصور كل نفس أن عليها حارساً قائماً عليها مشرفاً مراقباً يحاسبها بما كسبت. ومن؟ إنه الله! فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق، إنما يجسمها التعبير للإدراك البشري الذي يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريديات.

أفذلك كذلك؟ ثم يجعلون لله شركاء؟! هنا يبدو تصرفهم مستنكراً مستغرباً في ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب.

﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ ..

الله القائم على كل نفس بما كسبت، لا تفلت منه ولا تروغ.

(236/414)

---

﴿ قل: سموهم ﴾! فإنهم نكرات مجهولة. وقد تكون لهم أسماء. ولكن التعبير هنا ينزلهم منزلة النكرات التي لا تعرف أسماؤها.

﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض؟ ﴾ .. يا للتهكم! أم إنكم أنتم البشر تعلمون ما لا يعلمه الله؟ فتعلمون أن هناك آلهة في الأرض، وغاب هذا عن علم الله؟! إنها دعوى لا يجرؤون على تصورها. ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال، حين يقول الله أن ليست هناك آلهة، فيدعون وجودها وقد نفاه الله!

﴿ أم بظاهر من القول ؟ ﴾ .

تدعون وجودها بكلام سطحي ليس وراءه مدلول . وهل قضية الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول ؟ !

وينتهي هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل :

﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل . ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . .

فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتديرهم ضد الدعوة حسن وجميل ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم . ومن تقتضي سنة الله ضلاله لأنه سار في طريق الضلال فلن يهديه أحد ، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد .

والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هي العذاب :

﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ .

إن أصابتهم قارعة فيها ، وإن حلت قريباً من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع . وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب ، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب . ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب . .

﴿ ولعذاب الآخرة أشق ﴾ . .

ويتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود .

﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ .

يحميهم من أخذه ، ومن نكاله . فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله من عذاب . .



---

وعلى الضفة الأخرى ﴿ المتقون ﴾ . . في مقابل ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ . المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم في مأمن من العذاب . بل لهم فوق الأمن الجنة التي وعدوها : ﴿ ذلك مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ﴾ فهو المتاع والاسترواح ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح في مقابل المشقة هناك :

ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء :

﴿ تلك عقبى الذين اتقوا .

وعقبى الكافرين النار ﴾ . .

ويمضي السياق مع قضية الوحي وقضية التوحيد معاً يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل

فيما جاءت به الكتب قبله ، وهو المرجع الأخير ، أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذي جاء به الرسل كافة ؛ ومحا ما شاء محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته . فليقف عندما أنزل عليه ، لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب في كبيرة ولا صغيرة . أما الذين يطلبون منه آية ، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ .

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو ، وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق . ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله . لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء . ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ﴾ . .



---

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه ، يجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد ؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقته وكتبها ، ودرسها مع الإكبار والتقدير ، وتصور الآصرة الواحدة التي تربط المؤمنين بالله جميعاً . فمن

ثم يفرحون ويؤمنون . والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق ، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له . .

﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ . .

الأحزاب من أهل الكتاب والمشركين . . ولم يذكر السياق هذا البعض الذي ينكرونه ، لأنه الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه :

﴿ قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعوا وإليه مآب ﴾ . .

فله وحده العبادة ، وإليه وحده الدعوة ، وله وحده المآب .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلن منهجه في مواجهة من ينكر بعض الكتاب ، وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذي أنزل إليه من ربه ، سواء فرح به أهل الكتاب كله ، أم أنكر فريق منهم بعضه . ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير ، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماماً ، وإليه يرجع ما دام هو حكم الله الأخير في العقيدة :

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ . .

﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من واق ﴾ .

.

فالذي جاءك هو العلم اليقين ، وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين . وهذا التهديد الموجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغ في تقرير هذه الحقيقة ، التي لا تسامح

في الانحراف عنها ، حتى ولو كان من الرسول ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشراً :

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ .

وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية ، فذلك ليس من شأنه إنما هو شأن الله :

﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ . .

(239/414)

---

وفق ما تقتضيه حكمته وعندما يشاء .

وإذا كان هناك خلاف جزئي بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب ، فإن لكل فترة كتاباً ، وهذا هو الكتاب الأخير :

﴿ لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ . .

فما انقضت حكمته يمحوه ، وما هو نافع يثبته . وعنده أصل الكتاب ، المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه . فعنه صدر الكتاب كله ، وهو المتصرف فيه ، حسبما تقتضي حكمته ، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض .

وسواء أخذهم الله في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بشيء مما أوعدهم ، أو توفاه إليه

قبل ذلك ، فإن هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، ولا يبدل من طبيعة الرسالة وطبيعة الألوهية :

﴿ وإمّا نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ . .

وفي هذا التوجيه الحاسم ما فيه من بيان طبيعة الدعوة وطبيعة الدعاة . . إن الدعاة إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا تكاليف الدعوة في كل مراحلها ؛ وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ما يشاؤه الله . كما أنه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة ، ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة ، إذا رأوا قدر الله يبطئ بهم عن الغلب الظاهر والتمكين في الأرض ، إنهم دعاة وليسوا إلا دعاة .

وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم ، فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها ؛ وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد ، وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه ، ولا بد له من النفاذ :

﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ! والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ﴾ . .

وليسوا هم بأشد مكراً ولا تدبيراً ولا كيداً ممن كان قبلهم . فأخذهم الله وهو أحكم تدبيراً وأعظم كيداً :

﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً . يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ . .

(240/414)

---

ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة . وقد بدأها بإثبات الرسالة .

فيلتقي البدء والختام . ويشهد الله مكتفياً بشهادته . وهو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب :

﴿ ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

وتنتهي السورة وقد طوفت بالقلب البشري في أرجاء الكون ، وأرجاء النفس ، ووقعت عليه إيقاعات مطردة مؤثرة عميقة . وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله التي جاء بها المطلع وجاء بها الختام ، والتي يحسم بها كل جدل ، وينتهي بعدها كل كلام . .

وبعد . . ففي السورة معالم للعقيدة الإسلامية ، وللمنهج القرآني في عرض هذه العقيدة . . وكان من حق هذه المعالم أن نقف عندها في مواضعها ؛ لولا أننا آثرنا ألا نقطع تدفق السياق القرآني في هذه السورة بتلك الوقفات ؛ وأن نبقيها إلى النهاية لنقف أمامها متمهلين !

وقد أشرنا في أثناء استعراض السورة في سياقها إلى تلك المعالم إشارات سريعة؛ فنرجو أن نقف عندها الآن وقفات أطول بقدر المستطاع.

.. والله المستعان..

(241/414)

---

إن افتتاح السورة، وطبيعة الموضوعات التي تعالجها، وكثيراً من التوجيهات فيها.. كل أولئك يدل دلالة واضحة على أن السورة مكية وليست مدنية كما جاء في بعض الروايات والمصاحف وأنها نزلت في فترة اشتد فيها الإعراض والتكذيب والتحدي من المشركين؛ كما كثر فيها طلب الخوارق من الرسول صلى الله عليه وسلم واستعجال العذاب الذي ينذرهم به؛ مما اقتضى حملة ضخمة تستهدف تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه على الحق الذي أنزل إليه من ربه، في وجه المعارضة والإعراض، والتكذيب والتحدي؛ والاستعلاء بهذا الحق، والإلتجاء إلى الله وحده؛ وإعلان وحدانيته إلهاً وربا ً؛ والثبات على هذه الحقيقة؛ والاعتقاد بأنها هي وحدها الحق، مهما كذب بها المشركون. كما تستهدف مواجهة المشركين بدلائل هذا الحق في الكون كله، وفي أنفسهم، وفي التاريخ البشري وأحداثه كذلك؛ مع حشد جميع هذه المؤثرات ومخاطبة الكينونة

البشرية بها خطاباً مؤثراً موحياً عميق الإيقاع قوي الدلالة.

وهذه نماذج من التوكيدات على أن هذا الكتاب هو وحده الحق؛ وأن الإعراض عنه، والتكذيب به، والتحدي، وبطء الاستجابة، ووعورة الطريق.. كلها لا تغير شيئاً من تلك الحقيقة الكبيرة:

* ﴿ تلك آيات الكتاب، والذي أنزل إليك من ربك الحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾..

* ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه! إنما أنت منذر، ولكل قوم هاد ﴾.

* ﴿ له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾.

* ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل.

فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال ﴾..

* ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ . .

* ﴿ ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . .

* ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك . وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربي ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب ﴾ . .

* ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه ، قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو ، وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكماً عربياً . ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ . .

* ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ . .

* ﴿ ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً . قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ . .

وهكذا نلمس في هذه الطائفة من الآيات التي أوردناها طبيعة المواجهة التي كان المشركون يتحدون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتحدون بها هذا القرآن ؛ ثم دلالة هذا

التحدي ودلالة التوجيه الرباني إزاءه على طبيعة الفترة التي نزلت فيها السورة من العهد المكي .

ومن اللمحات البارزة في التوجيه الرباني لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجهر في مواجهة الإعراض والتكذيب والتحدي وبطء الاستجابة ووعورة الطريق بالحق الذي معه كاملاً ؛ وهو أنه لا إله إلا الله ، ولا رب إلا الله ، ولا معبود إلا الله ، وأن الله هو الواحد القهار ، وأن الناس مردودون إليه فإما إلى جنة وإما إلى نار . . وهي مجموعة الحقائق التي كان ينكرها المشركون ويتحدونه فيها . . وألا يتبع أهواءهم فيصانعها ويترضاها بكتمان شيء من هذا الحق أو تأجيل إعلانه ! مع تهديده بما ينتظره من الله لو اتبع أهواءهم في شيء من هذا من بعد ما جاءه من العلم ! . .



وهذه اللمحة البارزة تكشف لأصحاب الدعوة إلى الله عن طبيعة منهج هذه الدعوة التي لا يجوز لهم الاجتهاد فيها ! وهي أن عليهم أن يجهروا بالحقائق الأساسية في هذا الدين ، وألا يخفوا منها شيئاً ، وألا يؤجلوا منها شيئاً . . وفي مقدمة هذه الحقائق : أنه لا ألوهية ولا ربوبية إلا لله . ومن ثم فلا دينونة ولا طاعة ولا خضوع ولا اتباع إلا لله . . فهذه الحقيقة

الأساسية يجب أن تعلن أياً كانت المعارضة والتحدي؛ وأياً كان الإعراض من المكذبين والتولي؛ وأياً كانت وعورة الطريق وأخطارها كذلك. . وليس من "الحكمة والموعظة الحسنة" إخفاء جانب من هذه الحقيقة أو تأجليه، لأن الطواغيت في الأرض يكرهونه أو يؤذون الذين يعلنونه! أو يعرضون بسببه عن هذا الدين، أو يكيدون له وللدعاة إليه! فهذا كله لا يجوز أن يجعل الدعاة إلى هذا الدين يكتمون شيئاً من حقائقه الأساسية أو يؤجلونه؛ ولا أن يبدأوا مثلاً من الشعائر والأخلاق والسلوك والتهذيب الروحي، متجنبين غضب طواغيت الأرض لو بدأوا من إعلان وحدانية الألوهية والربوبية، ومن ثم توحيد الدينونة والطاعة والخضوع والاتباع لله وحده!

إن هذا لهو منهج الحركة بهذه العقيدة كما أراده الله سبحانه؛ ومنهج الدعوة إلى الله كما سار بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتوجيه من ربه.

. فليس لداع إلى الله أن يتنكب هذا الطريق؛ وليس له أن ينهج غير ذلك المنهج. . والله بعد ذلك متكفل بدينه، وهو حسب الدعاة إلى هذا الدين وكافيهم شر الطواغيت!

والمنهج القرآني في الدعوة يجمع بين الحديث عن كتاب الله المتلوّ وهو هذا القرآن وبين كتاب الكون المفتوح؛ ويجعل الكون بجملته مصدر إيحاء للكينونة البشرية؛ بما فيه من دلائل شاهدة بسلطان الله وتقديره وتدبيره. كما يضم إلى هذين الكتابين سجل التاريخ البشري، وما يحفظه من دلائل ناطقة بالسلطان والتقدير والتدبير أيضاً. ويواجه الكينونة البشرية بهذا كله ويأخذ عليها أقطارها جميعاً؛ وهو يخاطب حسها وقلبها وعقلها جميعاً!

وهذه السورة تحوي من النماذج الباهرة في عرض صفحات الكتاب الكوني عقب الكتاب القرآني في مواجهة الكينونة البشرية بجملتها.. وهذه بعض هذه النماذج:

﴿ المر. تلك آيات الكتاب. والذي أنزل إليك من ربك الحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. ﴾ ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها؛ ثم استوى على العرش؛ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات، لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مد الأرض، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ يحشد السياق هذه المشاهد الكونية، ليحيل الكون كله شاهداً ناطقاً بسلطان الله سبحانه في الخلق والإنشاء، والتدبير. ثم يعجّب من أمر قوم يرون هذه الشواهد كلها، ثم يستكثرون

قضية البعث والنشأة الأخرى ، ويكذبون بالوحي من أجل أنه يقرر هذه الحقيقة القريبة . . القريبة في ظل تلك المشاهد العجيبة . .

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

(245/414)

---

يعرض هذه الصفحة من الوجود الكوني ليعجّب من أمر قوم يجادلون في الله ويشركون به ، وهم يشاهدون آثار ربوبيته وقدرته وسلطانه ، ودينونة الكون له ، وتصريفه وتدبيره لأمر العباد فيه ؛ وعجز كل من عداه سبحانه عن الخلق والتدبير والتقدير :

﴿ وهم يجادلون في الله ، وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال . . قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق

كل شيء ، وهو الواحد القهار ﴾ وهكذا يستحيل الكون معرضاً باهراً لدلائل القدرة وموحيات الإيمان ، يخاطب الفطرة بالمنطق الشامل العميق ؛ ويخاطب الكينونة البشرية جملة ، بكل ما فيها من قوى الإدراك الباطنة والظاهرة ، في تناسق عجيب .

ثم يضيف إلى صفحات الكتاب الكوني ، صفحات التاريخ الإنساني ؛ ويعرض آثار القدرة والسلطان والهيمنة والقهر والتدبير في حياة الإنسان :

﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ! ﴾ ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾ * ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وفرحوا بالحياة الدنيا ، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ . .

﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ، ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ﴾ . .

* ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ؟ والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ﴾ .

* ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ، فلله المكر جميعاً ، يعلم ما تكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ! ﴾ .

وهكذا يحشد المنهج القرآني هذه الشواهد والدلائل في التاريخ البشري ؛ ويحيلها إلى مؤثرات وموحيات ، تخاطب الكينونة البشرية بجملتها في تناسق واتساق .

ونقف من هذا الحشد على معلم من معالم هذا المنهج في الدعوة إلى الله على بصيرة دعوة تخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، ولا تخاطب فيها جانباً واحداً من قواها المدركة . . جانب الفكر والذهن ، أو جانب الإلهام والبصيرة ، أو جانب الحس والشعور . .

وهذا القرآن ينبغي أن يكون هو كتاب هذه الدعوة ، الذي يعتمد عليه الدعاة إلى الله ، قبل الاتجاه إلى أي مصدر سواه . والذي ينبغي لهم بعد ذلك أن يتعلموا منه كيف يدعون الناس ، وكيف يوقظون القلوب الغافية ، وكيف يحيون الأرواح الخامدة .

إن الذي أوحى بهذا القرآن هو الله ، خالق هذا الأنسان ، العليم بطبيعة تكوينه ، الخبير

بدروب نفسه ومنحنياتها . . وكما أن الدعاة إلى الله يجب أن يتبعوا منهج الله في البدء بتقرير ألوهية الله سبحانه وربوبيته وحاكميته وسلطانه ؛ فإنهم كذلك يجب أن يسلكوا إلى القلوب طريق هذا القرآن في تعريف الناس بربهم الحق على ذلك النحو كما تنتهي هذه القلوب إلى الدينونة لله وحده ، والاعتراف بربوبيته المتفردة وسلطانه . .



---

ولتعريف الناس بربهم الحق ، ونفي كل شبهة شرك ، يعنى المنهج القرآني ببيان طبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول . . ذلك أن انحرافات كثيرة في التصور الاعتقادي جاءت لأهل الكتاب من قبل ، من جراء الخلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة وبخاصة في العقائد النصرانية حيث خلعت على عيسى عليه السلام خصائص الألوهية وخصائص الربوبية ؛ ودخل أتباع شتى الكنائس في متاهة من الخلافات العقيدية المذهبية بسبب ذلك الخلط المنافي للحقيقة .

ولم تكن عقائد النصارى وحدهم هي التي دخلت في تلك المتاهة ؛ فقد خبطت شتى الوثنيات في ذلك التيه ؛ وتصورت للنبوة صفات غامضة ؛ بعضها يصل بين النبوة والسحر ! وبعضها يصل بين النبوة والتنبؤات الكشفية ! وبعضها يصل بين النبوة والجن والأرواح

الخفية !

وكثير من هذه التصورات كان يخالج الوثنية العربية . . من أجل هذا كان بعضهم يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينبأهم بالغيب ! وبعضهم كان يقترح أن يصنع لهم خوارق مادية معينة ! كما أنهم كانوا يرمونه صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، وبأنه " مجنون " أي على صلة بالجن ! بعضهم كان يطلب أن يكون معه ملك . . . إلى آخر هذه المقترحات والتحديات والاتهامات التي كانت متلبسة بالتصورات الوثنية عن طبيعة النبي وطبيعة النبوة !

ولقد جاء هذا القرآن ليجلي الحقيقة كاملة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي ؛ وعن طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ وعن حقيقة الألوهية المتمثلة في الله وحده سبحانه وحقيقة العبودية التي تشمل كل ما خلق الله وكل من خلق ؛ ومنهم أنبياء الله ورسله ؛ فهم عباد صالحون ؛ وليسوا خلقاً آخر غير البشر ؛ وليس لهم من خصائص الألوهية شيء ؛ وليسوا على اتصال بعوالم الجن والخفاء المسحور ! إنما هو الوحي من الله سبحانه وليس لهم وراءه شيء من القدرة على الخوارق إلا بإذن الله حين يشاء فهم بشر من البشر ، وقع عليهم الاختيار ، وبقيت لهم بشريتهم وعبوديتهم لله سبحانه كبقية خلق الله .

وفي هذه السورة نماذج من تجلية طبيعة النبوة والرسالة ؛ وحدود النبي والرسول ؛ وتخليص العقول والأفكار من رواسب الوثنيات كلها ؛ وتحريرها من تلك الأساطير التي أفسدت عقائد أهل الكتاب من قبل ؛ وردتها إلى الوثنية بأوهامها وأساطيرها !

وقد كانت تلك التجلية تواجه تحديات المشركين الواقعية ؛ ولم تكن جدلاً ذهنياً ، ولا بحثاً فلسفياً " ميتافيزيقياً " . . . كانت " حركة " تواجه " الواقع " وتجاهده مجاهدة واقعية :

﴿ ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد ﴾ *

﴿ ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ . . * ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل : هو ربي ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وإليه متاب ﴾ . .

* ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب ﴾ . .

* ﴿ وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ . .

وهكذا تتجلى طبيعة الرسالة وحدود الرسول . . إنما هو منذر ، ليس عليه إلا البلاغ

وليس له إلا أن يتلو ما أوحي إليه ، وما كان له أن يأتي بخارقة إلا بإذن الله . ثم هو عبد الله ، الله ربه ، وإليه متابه ومآبه ؛ وهو بشر من البشر يتزوج وينسل ؛ ويزاول بشريته كاملة بكل مقتضيات البشرية ؛ كما يزاول عبوديته لله كاملة بكل مقتضيات العبودية . .

(249/414)

---

وبهذه النصاعة الكاملة في العقيدة الإسلامية تنتهي تلك الأوهام والأساطير المهِّومة في الفضاء والظلام ، حول طبيعة النبوة وطبيعة النبي ، وتخلص العقيدة من تلك التصورات المحيرة التي حفلت بها العقائد الكنسية كما حفلت بها شتى العقائد الوثنية ؛ والتي قضت على " المسيحية " منذ القرن الأول لها أن تكون إحدى العقائد الوثنية في طبيعتها وحقيقتها ، بعد ما كانت عقيدة سماوية على يد المسيح عليه السلام ؛ تجعل المسيح عبداً لله ؛ لا يأتي بآية إلا بإذن الله .

ولا ننتهي من هذه الوقفة قبل أن نلم بتلك اللفتة البارزة في قوله تعالى :

﴿ وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ . .

إن هذا القول إنما يقال للنبي صلى الله عليه وسلم الرسول الذي أوحي إليه من ربه .

وكلف مخاطبة الناس بهذه العقيدة . . وخلاصة هذا القول : إن أمر هذا الدين ليس إليه

هو ، ومآل هذه الدعوة ليس من اختصاصه ! إنما عليه البلاغ وليس عليه هداية الناس . فالله وحده هو الذي يملك الهداية . سواء حقق الله بعض وعده له من مصير القوم أو أدركه الأجل قبل تحقيق وعد الله ، فهذا أو ذاك لا يغير من طبيعة مهمته . . البلاغ . . وحسابهم بعد ذلك على الله . . وليس بعد هذا تجريد لطبيعة الداعية وتحديد لمهمته . فواجبه محدد ، والأمر كله في هذه الدعوة وفي كل شيء آخر لله .

(250/414)

---

بذلك يتعلم الدعاة إلى الله أن يتأدبوا في حق الله ! إنه ليس لهم أن يستعجلوا النتائج والمصائر . . ليس لهم أن يستعجلوا هداية الناس ، ولا أن يستعجلوا وعد الله ووعيده للمهتدين وللمكذبين . . ليس لهم أن يقولوا : لقد دعونا كثيراً فلم يستجب لنا إلا القليل ؛ أو لقد صبرنا طويلاً فلم يأخذ الله الظالمين بظلمهم ونحن أحياء ! . . إنْ عليهم البلاغ . . أما حساب الناس في الدنيا أو في الآخرة فهذا ليس من شأن العبيد . إنما هو من شأن الله ! فينبغي تأدباً في حق الله واعترافاً بالعبودية له أن يترك له سبحانه ، يفعل فيه ما يشاء ويختار . .

والسورة مكية . . من أجل ذلك تحدد فيها وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم " بالبلاغ

" . . ذلك أن " الجهاد " لم يكن بعد قد كتب . فأما بعد ذلك فقد أمر بالجهاد بعد البلاغ

وهذا ما تنبغي ملاحظته في الطبيعة الحركية لهذا الدين . فالنصوص فيه نصوص حركية ؛ مواكبه لحركة الدعوة وواقعها ؛ وموجهة كذلك لحركة الدعوة وواقعها . . وهذا ما تغفل عنه كثرة " الباحثين " في هذا الدين في هذا الزمان . وهم يزاولون " البحث " ولا يزاولون " الحركة " فلا يدركون من ثم مواقع النصوص القرآنية ، وارتباطها بالواقع الحركي لهذا الدين !

وكثيرون يقرأون مثل هذا النص : ﴿ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ ثم يأخذون منه أن مهمة الدعاة إلى الله تنتهي عند البلاغ . فإذا قاموا " بالتبليغ " فقد أدوا ما عليهم ! . . أما " الجهاد " ! فلا أدري والله أين مكانه في تصور هؤلاء !

كما أن كثيرين يقرأون مثل هذا النص ، فلا يلغون به الجهاد ، ولكن يقيدونه ! . . دون أن يفطنوا إلى أن هذا نص مكي نزل قبل فرض الجهاد . ودون أن يدركوا طبيعة ارتباط النصوص القرآنية بحركة الدعوة الإسلامية . ذلك أنهم هم لا يزاولون الحركة بهذا الدين ؛ إنما هم يقرأونه في الأوراق وهم قاعدون ! وهذا الدين لا يفقهه القاعدون . فما هو بدين القاعدين !

على أن " البلاغ " يظل هو قاعدة عمل الرسول ، وقاعدة عمل الدعاة بعده إلى هذا الدين . وهذا البلاغ هو أول مراتب الجهاد . فإنه متى صح ، واتجه إلى تبليغ الحقائق الأساسية في هذا الدين قبل الحقائق الفرعية . . أي متى اتجه إلى تقرير الألوهية والربوبية والحاكمية لله وحده منذ الخطوة الأولى ؛ واتجه إلى تعبيد الناس لله وحده ، وقصر دينونتهم عليه وخلع الدينونة لغيره . . فإن الجاهلية لا بد أن تواجه الدعاة إلى الله ، المبلغين التبليغ الصحيح ، بالإعراض والتحدي ، ثم بالإيذاء والمكافحة . . ومن ثم تجيء مرحلة الجهاد في حينها ، نتاجاً طبيعياً للتبليغ الصحيح لا محالة ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ هذا هو الطريق . . وليس هنالك غيره من طريق !

ثم نقف من السورة أمام معلم آخر ، وهي تقرر كلمة الفصل في العلاقة بين اتجاه " الإنسان " وحركته وبين تحديد مآله ومصيره ؛ وتقرير أن مشيئة الله به إنما تتحقق من خلال حركته بنفسه ؛ وذلك مع تقرير أن كل حدث إنما يقع ويتحقق بقدر من الله خاص . . ومجموعة النصوص الخاصة بهذا الموضوع في السورة كافية بذاتها لجلاء النظرة الإسلامية في هذه القضية الخطيرة . . وهذه نماذج منها كافية :

* ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾ . .

* ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعا

ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ . .

* ﴿ قل : إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . .

* ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ؟ ! ﴾ . .

* ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ . .

(252/414)

---

وواضح من النص الأول من هذه النصوص أن مشيئة الله في تغيير حال قوم إنما تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم ، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييراً شعورياً وعملياً .

فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاهاً وعملاً غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم . .

فإذا اقتضى حالهم أن يريد الله بهم السوء مضت إرادته ولم يقف لها أحد ، ولم يعصمهم من الله شيء ، ولم يجدوا لهم من دونه ولياً ولا نصيراً .

فأما إذا هم استجابوا لربهم ، وغيروا ما بأنفسهم بهذه الاستجابة ، فإن الله يريد بهم الحسنى ، ويحقق لهم هذه الحسنى في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما جميعاً ، فإذا لم

يستجيبوا أراد بهم السوء ، وكان لهم سوء الحساب ، ولم تغن عنهم فدية إذا جاءوه غير مستجيبين يوم الحساب !

وواضح من النص الثاني أن الاستجابة أو عدم الاستجابة راجعة إلى اتجاههم وحركتهم ؛ وأن مشيئة الله بهم إنما تتحقق من خلال هذه الحركة وذلك الاتجاه .

أما النص الثالث فإن مطلعه يتحدث عن طلاقة مشيئة الله في إضلال من يشاء . ولكن عقب النص : ﴿ ويهدي إليه من أناب . . الخ ﴾ يقرر أن الله سبحانه يقضي بالهدى لمن ينيب إليه ؛ فيدل هذا على أنه إنما يضل من لا ينيب ومن لا يستجيب ، ولا يضل منيباً ولا مستجيباً . وذلك وفق وعده سبحانه في قوله : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ فهذه الهداية وذلك الإضلال هما مقتضى مشيئته سبحانه بالعباد . هذه المشيئة التي تجري وتتحقق من خلال تغيير العباد ما بأنفسهم ، والاتجاه إلى الاستجابة أو الإعراض .



---

والنص الرابع يقرر أن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً . . وفي ظل مجموع النصوص يتضح أن المقصود هو أنه لو شاء سبحانه لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، أو لقهرهم على الهدى . ولكنه سبحانه شاء أن يخلقهم كما خلقهم مستعدين للهدى أو للضلال ؛ ولم يشأ

بعد ذلك أن يقهرهم على الهدى ولا أن يقهرهم على الضلال حاشاه ! إنما جعل مشيئته بهم تجري من خلال استجابتهم أو عدم استجابتهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان .

أما النص الخامس فيقرر أن الذين كفروا زُين لهم مكرهم وصُدوا عن السبيل . . وأخذ أمثال هذا النص بمفرده هو الذي ساق إلى الجدل المعروف في تاريخ الفكر الإسلامي حول الجبر والاختيار . . أما أخذه مع مجموعة النصوص كما رأينا فإنه يعطي التصور الشامل : وهو أن هذا التزيين وهذا الصد عن السبيل ، إنما كان من جراء الكفر وعدم الاستجابة لله . أي من جراء تغيير الكفار ما بأنفسهم إلى ما يقتضي أن تجري مشيئة الله فيهم بالتزيين والصد والإضلال .

وتبقى تكملة لا بد منها لجلاء هذا الموضوع الذي كثر فيه الجدل في جميع الملل . . ذلك أن اتجاه الناس بأنفسهم لا يوقع بذاته مصائرهم . فهذه المصائر أحداث لا ينشئها إلا قدر الله ؛ وكل حادث في هذا الكون إنما ينشأ ويقع ويتحقق بقدر من الله خاص ؛ تتحقق به إرادته وتتم به مشيئته : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وليست هنالك آلية في نظام الكون كله ، ولا حتمية أسباب تنشئ بذاتها آثاراً . فالسبب كالأثر كلاهما مخلوق بقدر . . وكل ما يصنعه اتجاه الناس بأنفسهم هو أن تجري مشيئة الله بهم من خلال هذا الاتجاه ، أما جريان هذه المشيئة وآثاره الواقعية فإنما يتحقق بقدر من الله خاص بكل حادث : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ وهذا التصور كما أسلفنا عند مواجهة النص في سياق السورة يزيد من

ضخامة التبعة الملقاة على هذا الكائن الإنساني ؛ بقدر ما يجلو من كرامته في نظام الكون كله . فهو وحده المخلوق الذي تجري مشيئة الله به من خلال اتجاهه وحركته .



---

. وما أثقلها من تبعة ! وما أعظمها كذلك من كرامة !

وفي السورة كلمة الفصل كذلك في دلالة الكفر وعدم الاستجابة لهذا الحق الذي جاء به هذا الدين ، على فساد الكينونة البشرية ، وتعطل أجهزة الاستقبال الفطرية فيها ، واختلال طبيعتها وخروجها عن سوائها . فما يمكن أن تكون هناك بنية إنسانية سوية ، غير مطموسة ولا معطلة ولا مشوهة ؛ ثم يعرض عليها هذا الحق ، ويبين لها بالصورة التي بينها المنهج القرآني ؛ ثم لا تستجيب لهذا الحق بالإيمان والإسلام . والفطرة الإنسانية بطبيعتها مصطلحة على هذا الحق في أعماقها ؛ فإذا صُدت عنه فإنما يصدها صاحبها لآفة تجعله يختار لنفسه غير هذا الهدى ؛ وتجعله بذلك مستحقاً للضلال ، ومستحقاً للعذاب ، كما قال الله سبحانه في السورة الأخرى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ وفي

هذه السورة ترد أمثال هذه الآيات الدالة على طبيعة الكفر فتقرر أنه عمىً وانطماس بصيرة ، وأن الهدى دلالة على سلامة الكينونة البشرية من هذا العمى ، ودلالة على سلامة القوى المدركة فيها ؛ وأن في صفحة هذا الكون من الدلائل ما يبين عن الحق لمن يتفكرون ولمن يعقلون :

* ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . . . ﴾ .

(255/414)

---

* ﴿ ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ . .

﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات ،

وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ وهكذا يتقرر أن الذين لا يستجيبون لهذا الحق هم بشهادة الله سبحانه عُمْي . وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون . وأن الذين يستجيبون له هم أولو الألباب ، وهؤلاء تطمئن قلوبهم بذكر الله ، وتتصل بما هي عارفة له ومصطلحة عليه بفطرتها العميقة ، فتسكن وتستريح .

وإن الإنسان ليجد مصداق قول الله هذا في كل من يلقاه من الناس معرضاً عن هذا الحق الذي تضمنه دين الله ، والذي جاء به في صورته الكاملة محمد رسول الله .

. فإن هي إلا جبلات مؤوفة مطموسة . وإن هي إلا كينونات معطلة في أهم جوانبها بحيث لا تتلقى إيقاعات هذا الوجود كله من حولها ، وهو يسبح بحمد ربه ؛ وينطق بوحدانيته وقدرته وتدبيره وتقديره .

وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عُمياً بشهادة الله سبحانه فإنه لا ينبغي لمسلم يزعم أنه يؤمن برسول الله ، ويؤمن بأن هذا القرآن وحي من عند الله . . لا ينبغي لمسلم يزعم هذا الزعم أن يتلقى في شأن من شؤون الحياة عن أعمى ! وبخاصة إذا كان هذا الشأن متعلقاً بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان ؛ أو بالقيم والموازين التي تقوم عليها حياته ؛ أو بالعادات والسلوك والتقاليد والآداب التي تسود مجتمعه . .

وهذا هو موقفنا من نتاج الفكر غير الإسلامي بجملته فيما عدا المادية البحته وتطبيقاتها العملية مما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " أنتم أعلم بشؤون دنياكم " فإنه ما ينبغي قط لمسلم يعرف هدى الله ويعرف هذا الحق الذي جاء به رسول الله ، أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من أي إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق . . فهو أعمى بشهادة الله سبحانه . . ولن يرد شهادة الله مسلم . . ثم يزعم بعد ذلك أنه مسلم ! ! !

إنه لا بد لنا أن نأخذ هذا الدين مأخذ الجد ؛ وأن نأخذ تقريراته هذه مأخذ الجزم . . وكل تميع في مثل هذه القضية هو تميع في العقيدة ذاتها ؛ إن لم يكن هو رد شهادة الله سبحانه وهو الكفر البواح في هذه الصورة !

وأعجب العجب أن ناساً من الناس اليوم يزعمون أنهم مسلمون ؛ ثم يأخذون في منهج الحياة البشرية عن فلان وفلان من الذين يقول عنهم الله سبحانه : إنهم عمي . ثم يظلون يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون !

إن هذا الدين جد لا يحتمل الهزل ، وجزم لا يحتمل التميع ، وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة . . فمن لم يجد في نفسه هذا الجد وهذا الجزم وهذه الثقة فما أغنى هذا الدين عنه . والله غني عن العالمين !

وما يجوز أن يثقل الواقع الجاهلي على حس مسلم ، حتى يتلقى من الجاهلية في منهج حياته ؛ وهو يعلم أن ما جاءه به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ؛ وأن الذي لا يعلم أن هذا هو الحق ﴿ أعمى ﴾ . ثم يتبع هذا الأعمى ، ويتلقى عنه ، بعد شهادة الله سبحانه وتعالى . .

وأخيراً نقف أمام المعلم الأخير من المعالم التي تقيمها هذه السورة لهذا الدين . .

إن هناك علاقة وثيقة بين الفساد الذي يصيب حياة البشر في هذه الأرض وبين ذلك العمى عن الحق الذي جاء من عند الله لهداية البشر إلى الحق والصلاح والخير .



---

فالذين لا يستجيبون لعهد الله على الفطرة ، ولا يستجيبون للحق الذي جاء من عنده ويعلمون أنه وحده الحق . . هم الذين يفسدون في الأرض ؛ كما أن الذين يعلمون أنه الحق ويستجيبون له هم الذين يصلحون في الأرض ، وتزكو بهم الحياة :

* ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا

مما رزقناهم سراً وعلانية، ويدرأون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار.. ﴾ ..

* ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ ..

إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولو الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق. ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة، وبعهد الله على آدم وذريته، أن يعبدوه وحده، فيدينوا له وحده، ولا يتلقوا عن غيره، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه. ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم ما نهى عنه وما يغضبه؛ ويخافون سوء الحساب، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل حركة؛ ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذاك بكل تكاليف الاستقامة؛ ويقيمون الصلاة؛ وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية؛ ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان..



---

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا بمثل هذه القيادة المبصرة؛ التي تسير على هدى الله وحده؛ والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه.. إنها لا تصلح بالقيادات الضالة

العمياء ، التي لا تعلم أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق وحده ؛ والتي تتبع من ثم مناهج أخرى غير منهج الله الذي ارتضاه للصالحين من عباده . . إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية ، كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية ! . . إنها كلها من مناهج العُمْي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الحق ، الذي لا يجوز العدول عنه ، ولا التعديل فيه . . إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية ! فكلها سواء في كونها من مناهج العُمي ، الذين يقيمون من أنفسهم أرباباً من دون الله ، تضع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة ، وتشرع للناس ما لم يأذن به الله ؛ وتعبدهم لما تشرع ، فتجعل دينونتهم لغير الله .

.

وآية هذا الذي نقوله استمداداً من النص القرآني هو هذا الفساد الطامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين . وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها . . سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية ! . . وسواء في ذلك أشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية ! إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد ومن تحلل ومن شقاء ومن قلق . . لأنها كلها سواء من صنع العُمي الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد من ربه

هو الحق وحده ؛ ولا تلتزم من ثم بعهد الله وشرعه ؛ ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه .

(259/414)

---

إن المسلم يرفض بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد هو الحق كل منهج للحياة غير منهج الله ؛ وكل مذهب اجتماعي أو اقتصادي ؛ وكل وضع كذلك سياسي ؛ غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد الذي سنه الله وارتضاه للصالحين من عباده .

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ؛ فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه .

إن هذا الاعتراف فوق أنه يخالف بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي ، فهو في الوقت ذاته يسلم الخلافة في هذه الأرض للعُمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض . . فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العُمي ! . .

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله ؛ وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع

وشتى الشرائع بقيادة أولئك العُمي ، الذين يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون . فلم تسعد قط ؛ ولم ترتفع " إنسانيتها " قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط ، إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم .

هذه بعض المعالم البارزة في هذه السورة ، وقفنا عندها هذه الوقفات التي لا تبلغ مداها ، ولكنها تشير إليها .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . . انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2056 . 2076 ﴾

*(260/414)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ يعنى أن الصفة الرحمانية اقتضت إيجاد جميع الموجودات وإفاضة جميع النعم كما أن صفة القهارية كانت مقتضية للوحدة بأن لا يكون معه شيء ولا نعمة أجل من بعث الرسل ، ففيه صلاح حال الدارين لهم ، فإذا جحدوا

الرسول فقد جحدوا الرحمن وهذا سبب تخصيص هذا الاسم بالمقام كقوله : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ﴾ [ مريم : 93 ] ولذلك أمر بأن يقول في الجواب : ﴿ هو ربي ﴾ الذي رباني ﴿ لا إله إلا هو ﴾ لا يستحق العبادة إلا هو ولا أفوض أمري إلا إليه وإليه مرجعي كما كان منه مبدئي ﴿ سيرت به ﴾ جبال النفوس ﴿ أو قطعت به ﴾ أرض البشرية ﴿ أو كلم به ﴾ القلوب الميتة بتلاوته عليهم ﴿ تصيبهم بما صنعوا ﴾ من كفرهم بالرحمن ﴿ قارعة ﴾ من الأحكام الأزلية تقرعهم في أنواع المعاملات التي تصدر عنهم موجبة للشقاوة ﴿ أو تحل قريباً من دراهم ﴾ قالبهم بأن تصدر تلك المعاملة ممن يصحبهم :

(261/414)

---

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه . . . ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ يدرك الشقاء الأزلي . ومن أمارات الشقاوة الاستهزاء بالأنبياء والأولياء ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أي أمسكتهم لئلا يرجعوا عن مقام الشقاوة ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ بالبعد والحجاب وعبودية النفس والهوى ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ بأنواع الحسرات والشعور بالهيئات والملكات الموجبة للدركات ﴿ أكلها دائم ﴾ هي مشاهدات الجمال ومكاشفات الجلال ﴿ وظلها

﴿ أي إنهم في ظل معاملاتهم وأحوالهم التابعة لشمس وجودهم على الدوام ﴾ والذين آتيناهم الكتاب ﴿ هم السر والروح والقلب الذين فهموا أسرار القرآن ﴾ ومن الأحزاب ﴿ النفس والهوى والقوى ﴾ من ينكر بعضه ﴿ لثقل التكليف عليهم وللجهل بفوائده ﴾ ولئن اتبعت أهواء ﴿ المخالفين بالشرك في الطلب ﴾ من بعد ما جاءك من العلم ﴿ وهو طلب الوحدانية ببذل الأنانية ﴾ وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴿ فيه أن ارسل جذبتهم العناية في البداية فترقوا من حضيض الحيوانية إلى أوج الروحانية ثم إلى معارج النبوة والرسالة في النهاية فلم يبق فيهم من دواعي البشرية ما يزعجهم إلى طلب الأزواج بالطبيعة والركون إلأى الأولاد بخصائص الحيوانية بل رغبهم الله سبحانه في ذلك على وفق الشريعة بخصوصية الخلافة بإظهار صفة الخالقية ومثله ﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴿ [الأنبياء : 8] ﴾ يمحوا الله ما يشاء ﴿ لأهل السعادة من أفاعيل أهل الشقاوة ﴾ ويثبت ﴿ لهم من خصال أهل السعادة وبالعكس لأهل الشقاوة ﴾ وعنده أم الكتاب ﴿ الذي قدر فيه خاتمة كل من الفريقين ﴾ وإما نرينك ﴿ بالكشف بعض مقاماتهم كما أخبر عن العشرة المبشرة بأنهم في الجنة وعن غيرهم بأنه في النار . ﴿ أنا نأتي الأرض ﴾ أرض البشرية فننقص منا بالازدياد في الأوصاف الروحانية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 167.168 ﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلاَ يِنقُضُونَ الميثاق ﴾ [ الرعد : 20 ]

قيل : عهد الله تعالى مع المؤمنين القيام له سبحانه بالعبودية في السراء والضراء ﴿ والذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ فيصلون بقلوبهم محبته وبأسرارهم مشاهدته سبحانه وقربته ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ عند تجلي الصفات في مقام القلب فيشاهدون جلالة صفة العظمة ويلزمهم الهيبة والخشية

﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾ [ الرعد : 21 ] عند تجلي الأفعال في مقام النفس فينظرون إلى البطش والعقاب فيلزمهم الخوف .



وسئل ابن عطاء ما الفرق بين الخشية والخوف ؟ فقال : الخشية من السقوط عن درجات الزلفى والخوف من اللحوق بدركات المقت والجفا ، وقال بعضهم : الخشية أدق والخوف أصلب ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ صبروا عما دون الله تعالى بالله سبحانه

لكشف أنوار وجهه الكريم أو صبروا في سلوك سبيله سبحانه عن المألوفات طلباً لرضاه ﴿ والذين يُمَسّكُونَ ﴾ صلاة المشاهدة أو اشتغلوا بالتزكية بالعبادات البدنية ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أفادوا مما مننا عليهم من الأحوال والمقامات والكشوف وهذبوا المريدين حتى صار لهم ظاهراً وباطناً أو اشتغلوا بالتزكية بالعبادات المالية أيضاً ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة ﴾ الحاصلة لهم من تجلي الصفة الإلهية السنية ﴿ السيئة ﴾ التي هي صفة النفس ، وقال بعضهم : يعاشرون الناس بحسن الخلق فإن عاملهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عقبى الدار ﴾ [ الرعد : 22 ] البقاء بعد الفناء أو العاقبة الحميدة ﴿ جنات عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ قيل : يدخلون جنة الذات ومن صلح من آباء الأرواح ويدخلون جنة الصفات بالقلوب ويدخلون جنة الأفعال ومن صلح من أزواج النفوس وذريات القوى أو يدخلون جنات القرب والمشاهدة والوصال ومن صلح من المذكورين تبع لهم ولأجل عين ألف عن تكرم ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [ الرعد : 23 ] ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [ الرعد : 24 ] يدخل عليهم أهل الجبروت والملكوت من كل باب من أبواب الصفات محيين لهم بتحايا الإشراقات النورية والإمدادات القدسية أو يدخل عليهم الملائكة الذي صحبوهم في الدنيا من كل باب من أبواب الطاعة مسلمين عليهم بعد

استقرارهم في منازلهم كما يسلم أصحاب الغائب عليه إذا قدم إلى منزله واستقر فيه ﴿ الذين آمنوا ﴾

(264/414)

---

الإيمان العلمي بالغيب ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ قالوا : ذكر النفس باللسان والتفكر في النعم ، وذكر القلب بالتفكر في الملكوت ومطالعة صفات الجمال ، وذكر السر بالمناجاة ، وذكر الروح بالمشاهدة ، وذكر الخفاء بالمناغاة في العشق ، وذكر الله تعالى بالفناء فيه ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [ الرعد : 28 ] وذلك أن النفس تضطرب بظهور صفاتها وأحاديثها وتطيش فيتلون القلب ويتغير لذلك فإذا تفكر في الملكوت ومطالعة أنوار الجمال والجبروت استقر واطمأن ، وسائر أنواع الذكر إنما يكون بعد الاطمنان ، قال الهزجوري : قلوب الأولياء مطمئنة لا تتحرك دائماً خشية أن يتجلى الله تعالى عليها فجأة فيجدها غير متسمة بالأدب ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ تخلية وتحلية ﴿ طوبى لَهُمْ ﴾ بالوصول إلى الفطرة وكمال الصفات

﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ [ الرعد : 29 ] بالدخول في جنة القلب وهي جنة الصفات أو طوبى لهم الآن حيث لم يوجد منهم ما يخالف رضاء محبوبهم وحسن مآب في الآخرة حيث

لا يجدون من محبوبهم خلاف مأمولهم ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [ الرعد : 33 ] أي بحسب كسبها ومقتضاه أي كما تقتضي مكسوباتها من الصفات والأحوال التي تعرض لاستعدادها يفيض عليها من الجزاء ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ [ الرعد : 36 ] ما أخرج سبحانه أحداً من العبودية حتى سيد أحرار البرية صلى الله عليه وسلم ، وفسرها أبو حفص بأنها ترك كل ملك وملازمة المأمور به .

(265/414)

---

وقال الجنيد قدس سره : لا يرتقي أحد في درجات العبودية حتى يحكم فيما بينه وبين الله تعالى أوائل البدايات وهي الفروض والواجبات والسنن والأوراد ، ومطايا الفضل عزائم الأمور فمن أحكم على نفسه هذا من الله تعالى عليه بما بعده ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرّيَّةً ﴾ فيه على ما قيل إشارة إلى أنه إذا شرف الله تعالى شخصاً بولايته لم يضر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد ولم يكن بسط الدنيا له قدحاً في ولايته ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِئَايَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ فيه منع طلب الكرامات واقتراحها من المشايخ ﴿ لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [ الرعد : 38 ] لكل وقت أمر مكتوب يقع فيه ولا يقع في غيره ؛ ومن هنا قيل : الأمور مرهونة لأوقاتها ، وقيل :

لله تعالى خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص ﴿ يَمْحُوا اللهُ ﴾ ما يشاء ويثبت ﴾ قيل : يمحو عن ألواح العقول صور الأفكار ويثبت فيها أنوار الأذكار ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان ويثبت فيها لدنيات علم العرفان ، وقيل : يمحو العارفين بكشف جلاله ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله ، وقال ابن عطاء : يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم لأنها موضع المشاهدة ، وقيل : يمحو ما يشاء عن الألواح الجزئية التي هي النفوس السماوية من النقوش الثابتة فيها فيعدم عن المواد ويفنى ويثبت ما يشاء فيها فيوجد ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ [ الرعد : 39 ] العلم الأزلي القائم بذاته سبحانه ، وقيل : لوح القضاء السابق الذي هو عقل الكل وفيه كل ما كان ويكون أزلاً وأبداً على الوجه الكلي المنزه عن المحو والاثبات ، وذكروا أن الألواح أربعة .

لوح القضاء السابق العالي عن المحو والإثبات وهو لوح العقل الأول .

ولوح القدر وهو لوح النفس الناطقة الكلية التي يفصل فيها كليات اللوح الأول وهو المسمى باللوح المحفوظ .

ولوح النفس الجزئية السماوية التي ينتقش فيها كل ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره وهو المسمى بالسماء الدنيا وهو بمثابة خيال العالم كما أن الأول بمثابة روحه والثاني بمثابة قلبه .

ثم لوح الهيولي القابل للصور في عالم الشهادة اه وهو كلام فلسفي ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قيل : ذلك بذهاب أهل الولاية الذي بهم عمارة الأرض ، وقيل : الإشارة أنا نقصد أرض وقت الجسد الشيخوخة ننقصها من أطرافها بضعف الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة شيئاً فشيئاً حتى يحصل الموت أو نأتي أرض النفس وقت السلوك ننقصها من أطرافها بإفناء أفعالها بأفعالنا أولاً وبإفناء صفاتها بصفاتنا ثانياً وبإفناء ذاتها في ذاتنا ثالثاً ﴿ لاَ مُعَقِّبَ لِحكمه ﴾ [ الرعد : 41 ] لا راد ولا مبدل لكل ما حكم به نسأل الله تعالى أن يحكم لنا بما هو خير وأولى لي الآخرة والأولى بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم وكرم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

25 .أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها

والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

.الرعد 41.

بقلم: د . زغلول النجار

جاءت هذه الآية الكريمة في خواتيم سورة الرعد , وهي السورة الوحيدة من سور القرآن التي تحمل اسم ظاهرة من الظواهر الجوية , وسورة الرعد توصف بأنها سورة مدنية . وإن كان الخطاب فيها خطابا مكيا , يدور حول أسس العقيدة الاسلامية ومن أولها قضية الايمان بالوحي المنزل من رب العالمين إلي خاتم الانبياء والمرسلين ( صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه أجمعين ) , والايمان بالحق الذي اشتمل عليه هذا الوحي الرباني , ومن ركائزه الايمان بالله , وبوحدانيته المطلقة فوق كافة خلقه , والايمان بملائكته , وكتبه , ورسله , وباليوم الآخر , وما يستتبعه من بعث ونشور , وعرض أكبر أمام الله , وحساب

وجزاء , وما يستوجبه هذا الايمان من خشية لله وتقواه , وحرص علي طلب رضاه بالعمل الصالح لأن ذلك كله نابع من الايمان بالوحي , وبأن الله ( تعالي ) هو منزل القرآن الداعي الي عبادة الله بما أمر ( سبحانه وتعالي ) , وبالقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن عمارتها , وإقامة عدل الله فيها .

وتعجب الآيات من منكري البعث والحساب والجزاء , الدين كفروا بربهم , وكذبوا رسله , وجحدوا آياته , وتعرض لشيء من عذابهم في الآخرة , وخلودهم في النار .

وتستشهد السورة في مواضع كثيرة منها بالعديد من الآيات والظواهر الكونية الدالة علي طلاقة القدرة الالهية المبدعة في الخلق والافناء , وفي الأماتة والاحياء , وفي النفع والضر , والشاهدة علي أن كل ما جاء به القرآن الكريم حق مطلق , وإن كان أكثر الناس لا يؤمنون

.

ثم



---

تقارن الآيات بين أهل النار وأهل الجنة , وبين أوصاف كل فريق منهم وخصاله وأعماله , وضربت لهما مثلا بالأعمي والبصير , وبينت مصير كل من الفريقين , مع تصوير رائع لكل

من الجنة والنار .

وتستطرد آيات سورة الرعد في الحديث عن عدد من الظواهر الكونية من مثل حدوث الرعد , والبرق , والصواعق , وتكوين السحاب الثقال , وإنزال المطر , وتدفق الأودية بمائه حاملة من الزبد والخبث الذي لايلبث أن يذهب جفاء , وبما ينفع الناس من نفائس المعادن التي لا تلبث أن تمكث في الأرض , وتشبه الآيات الكريمة ذلك بكل من الباطل والحق , ولله المثل الأعلي .

ثم تعرض السورة لحقيقة غيبية تتمثل في تسبيح الرعد بحمد الله , وتسبيح الملائكة خشية لجلالة , وخيفة من سلطانه , وجميع من في السماوات والأرض يسجد لله طوعا وكرها , حتي ظلالهم فإنها تسجد لله بالغدو والاصال , أي مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس , فيمد الظل ويقبض في حركة كأنها الركوع والسجود .

وتنعي الآيات علي الكفار استهزاءهم بالرسل السابقين علي بعثة المصطفي ( صلي الله عليه وسلم ) , وفي الاشارة الي ذلك ضرب من التثبيت لرسول الله , والتأكيد له علي أن الابتلاء هو طريق النبوات , وطريق أصحاب الرسالات من بدء الخلق إلي قيام الدعوة المحمدية وإلي أن يرث الله ( تعالي ) الأرض ومن عليها . . . ! ! ! وتشير السورة بالقرب من نهايتها الي فرح الصالحين من أهل الكتاب بمقدم الرسول الخاتم , وفي الوقت الذي حاول فيه الكفار والمشركون التشكيك في حقيقة رسالته وتؤكد انزال القرآن حكما عربيا مبينا ,

وتدعو المصطفي (صلي الله عليه وسلم) الي الحذر من ضغوط الكافرين من أجل اتباع أهوائهم . وتؤكد أنه ما كان لرسول من الرسل أن يأتي بآية الا بإذن الله .

ثم تأتي الآية الكريمة التي نحن بصددها ناطقة بحقيقة كونية يقول عنها ربنا (تبارك وتعالي) :

أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها



---

من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (الرعد :41)

ويتكرر معني هذه الآية الكريمة مرة أخري في سورة الأنبياء والتي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالي) : بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتي طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون .

(الأنبياء :44)

ثم تختتم سورة الرعد بالحديث عن مكر الأمم السابقة الذي لم يضر المؤمنين شيئا لأن لله (تعالي) المكر جميعا , وأن له (سبحانه وتعالي) عقبي الدار , كما تتحدث عن إنكار الكافرين لبعثة المصطفي (صلي الله عليه وسلم) , وتأتي الآيات , مؤكدة أن الله تعالي

يشهد له بالنبوة والرسالة وكذلك كل من عنده علم من رسالات الله السابقة لوجود ذكره ( صلي الله عليه وسلم ) في الآيات التي لم تحرف من بقايا كتبهم .

وهنا يبرز التساؤل المنطقي : ما هو معني إنقاص الأرض من أطرافها في هاتين الايتين الكريمتين ؟ وما هو مغزي دلالتها العلمية والمعنوية ؟ وقبل الخوض في ذلك لابد من استعراض سريع لشروح المفسرين .

شروح المفسرين لمعني إنقاص الأرض من أطرافها

في تفسير قول الحق ( تبارك وتعالي ) : أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ذكر ابن كثير قول ابن عباس ( رضي الله عنهما ) : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد صلي الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض , وقوله في مقام آخر : انقاصها من اطرافها هو خرابها بموت علمائها , وفقهائها , وأهل الخير منها

وقال ابن كثير : والقول الأول أولي , وهو ظهور الاسلام علي الشرك قرية بعد قرية , كقوله تعالي : ( ولقد أهلكنا ما حولكم من القري ) الآية , وأشار الي أن هذا هو اختيار ابن جرير .

كذلك ذكر ابن كثير قول كل من مجاهد وعكرمة : إنقاص الأرض من أطرافها معناه خرابها , أو هو موت علمائها , وقول كل من الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين علي المشركين , كما قالا : هو نقصان الأنفس والثمرات , وخراب

الأرض , وقول الشعبي : لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك ( أي بستانك ) , ولكن تنقص الأنفس والثمرات .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين : ( او لم يروا ) أي : أهل مكة وغيرها ( أنا نأتي الأرض ) نقصد أرضهم , ( ننقصها من أطرافها ) بالفتح علي النبي صلي الله عليه وسلم .

أما صاحب الظلال فذكر : أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتنقص من قوتها وقدرها وثرائها وتحصرها في رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان .

وجاء في ( صفوة البيان لمعاني القرآن ) ما نصه : ( أو لم يروا أنا نأتي الأرض . . ) أي أأنكروا نزول ما وعدناهم , أو شكوا ولم يروا أننا نفتح أرضهم من جوانبها ونلحقها بدار الاسلام ! ! أولم يروا هلاك من قبلهم وخراب ديارهم كقوم عاد وثمود ! فكيف يأمنون حلول ذلك بهم ! . . . .

وجاء في صفوة التفاسير ما نصه : أي أو لم ير هؤلاء المشركون أنا نمكن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتي تنقص دار الكفر وتزيد دار الاسلام ؟ وذلك من

أقوي الأدلة علي أن الله منجز وعده لرسوله عليه السلام .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه : وأن أمارات العذاب والهزيمة قائمة ! ألم ينظروا الي أنا نأتي الأرض التي قد استولوا عليها , يأخذها منهم المؤمنون جزءا بعد جزء ؟ وبذلك ننقص عليهم الأرض من حولهم , والله وحده هو الذي يحكم بالنصر أو الهزيمة , والثواب أو العقاب , ولا راد لحكمه , وحسابه سريع في وقته , فلا يحتاج الفصل الي وقت طويل , لأن عنده علم كل شيء , فالبينات قائمة . وفي الهامش جاء ذكر ما يلي : تتضمن هذه الآية حقائق وصلت اليها البحوث العلمية الأخيرة إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها , وقوة طردها المركزي يؤديان الي تفلطح في القطبين وهو نقص في طرفي الأرض , وكذلك عرف أن سرعة انطلاق جزيئات الغازات المغلفة للكرة الأرضية , اذا ما جاوزت قوة



---

جاذبية الأرض لها فإنها تنطلق الي خارج الكرة الأرضية , وهذا يحدث بصفة مستمرة فتكون الأرض في نقص مستمر لأطرافها , لا أرض أعداء المؤمنين , وهذا احتمال في التفسير تقبله الآية الكريمة .

من الدلالات العلمية لإنقاص الأرض من أطرافها

ترد لفظة الأرض في القرآن الكريم بمعني الكوكب ككل , كما ترد بمعني اليابسة التي نحيا عليها من كتل القارات والجزر البحرية والمحيطية , وإن كانت ترد أيضا بمعني التربة التي تغطي صخور اليابسة . ولإنقاص الأرض من أطرافها في إطار كل معني من تلك المعاني عدد من الدلالات العلمية التي نحصي منها ما يلي :

أولا : في إطار دلالة لفظة الأرض علي الكوكب ككل :

في هذا الإطار نجد ثلاثة معان علمية بارزة يمكن ايجازها فيما يلي :

( أ ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعني إنكماشها علي ذاتها وتناقص حجمها باستمرار :

يقدر متوسط قطر الأرض الحالية بحوالي 12742 كم , ويقدر متوسط محيطها بنحو 40042 كم , ويقدر حجمها بأكثر من مليون مليون كم 3 . وتفيد الدراسات أن أرضنا مرت بمراحل متعددة من التشكيل منذ انفصال مادتها عن سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن عملية الانفجار العظيم إما مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عبر سديم الدخان الذي تولدت عنه مجموعتنا الشمسية , وبذلك خلقت الأرض الابتدائية التي لم تكن سوي كومة ضخمة من الرماد ذات حجم هائل يقدر بمائة ضعف حجمها الحالي علي الأقل , ومكونة من عدد من العناصر الخفيفة . ثم ما لبثت تلك الكومة الابتدائية أن رجمت بوابل من النيازك الحديدية , والحديدية الصخرية , والصخرية , كتلك التي تصل الأرض في زماننا

( والتي تتراوح كمياتها بين الألف والعشرة آلاف طن سنويا من مادة الشهب والنيازك ) .

وبحكم كثافتها العالية نسبيا اندفعت النيازك الحديدية إلي مركز تلك الكومة الابتدائية حيث استقرت , مولدة حرارة عالية أدت إلي صهر كومة الرماد التي شكلت الأرض الابتدائية



---

وإلي تمايزها إلي سبع أرضين علي النحو التالي :

1 .لب صلب داخلي : عبارة عن نواة صلبة من الحديد (90%) وبعض النيكل (9%) مع قليل من العناصر الخفيفة مثل الكربون والفوسفور , والكبريت والسيليكون والأوكسجين (1%) وهو قريب من تركيب النيازك الحديدية مع زيادة واضحة في نسبة الحديد , ويبلغ قطر هذه النواة حاليا ما يقدر بحوالي 2402 كم , وتقدر كثافتها بحوالي 10 إلي 13.5 جرام / سم 3 .

2 .نطاق لب الأرض السائل ( الخارجي ) : وهو نطاق سائل يحيط باللب الصلب , وله نفس تركيبه الكيميائي تقريبا ولكنه في حالة انصهار , ويقدر سمكه بحوالي 2275 كم , ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية شبه منصهرة يبلغ سمكها 450 كم تعتبر الجزء

الأسفل من هذا النطاق , ويكون كل من لب الأرض الصلب والسائل حوالي 31% من كتلتها .

3. النطاق الأسفل من وشاح الأرض ( الوشاح السفلي ) : وهو نطاق صلب يحيط بلب الأرض السائل , ويبلغ سمكه نحو 2215 كم ( من عمق 670 كم إلي عمق 2885 كم ) ويفصله عن الوشاح الأوسط ( الذي يعلوه ) مستوي انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل .

4. النطاق الأوسط من وشاح الأرض ( الوشاح الأوسط ) : وهو نطاق صلب يبلغ سمكه نحو 270 كم , ويحده مستويات من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية يقع أحدهما علي عمق 670 كم ويفصله عن الوشاح الأسفل , ويقع الآخر علي عمق 400 كم ويفصله عن الوشاح الأعلي .

5. النطاق الأعلي من وشاح الأرض ( الوشاح العلوي ) : وهو نطاق لدن , شبه منصهر , عالي الكثافة واللزوجة ( نسبة الانصهار فيه في حدود 1%) يعرف باسم نطاق الضعف الأرضي ويمتد بين عمق 65. 120 كم وعمق 400 كم ويتراوح سمكه بين 335 كم و 380 كم , ويعتقد بأن وشاح الأرض كان كله منصهرا في بدء خلق الأرض ثم أخذ في التصلب بالتدريج نتيجة لفقد جزء هائل من حرارة الأرض .

6. النطاق السفلي من

الغلاف الصخري للأرض : ويتراوح سمكه بين 60.40 كم ( بين أعماق 80.60 كم ) 120 كم ويحده من اسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي , ومن أعلي خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروف باسم الموهو .

7 .النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض ( قشرة الأرض ) :

ويتراوح سمكه بين (8.5) كم تحت قيعان البحار والمحيطات وبين (80.60) كم تحت القارات , ويتكون أساسا من العناصر الخفيفة مثل السيليكون , والصوديوم , والبوتاسيوم , والكالسيوم , والألومنيوم , والأوكسجين مع قليل من الحديد (5.6%) وبعض العناصر الأخري وهو التركيب الغالب للقشرة القارية التي يغلب عليها الجرانيت والصخور الجرانيتية , أما قشرة قيعان البحار والمحيطات فتميل إلي تركيب الصخور البازلتية .

وأدي هذا التمايز في التركيب الداخلي للأرض إلي نشوء دورات من تيارات الحمل , تندفع من نطاق الضعف الأرضي ( الوشاح الأعلي ) غالبا , ومن وشاح الأرض الأوسط أحيانا , لتمزق الغلاف الصخري للأرض إلي عدد من الألواح التي شرعت في حركة دائبة حول نطاق الضعف الأرضي نشأ عنها الثورات البركانية , والهزات الأرضية , والحركات البانية

للجبال, كما نشأ عنها دحو الأرض بمعني اخراج كل من غلافيها المائي والغازي من جوفها وتكون كتل القارات .

(274/414)

---

هذا التاريخ يشير إلي أن حجم الأرض الابتدائية كان علي الأقل يصل إلي مائة ضعف حجم الأرض الحالية والمقدر بأكثر قليلا من مليون مليون وثلاثمائة وخمسين كيلومترا مكعبا وأن هذا الكوكب قد أخذ منذ اللحظة الأولي لخلقه في الانكماش علي ذاته من كافة أطرافه . وكان انكماش الارض علي ذاتها سنة كونية لازمة للمحافظة علي العلاقة النسبية بين كتلتي الأرض والشمس, هذه العلاقة التي تضبط بعد الأرض عن الشمس, ذلك البعد الذي يحكم كمية الطاقة الواصلة إلينا . ويقدر متوسط المسافة بين الأرض والشمس بنحو مائة وخمسين مليونا من الكيلومترات, ولما كانت كمية الطاقة التي تصل من الشمس إلي كل كوكب من كواكب مجموعتها تتناسب تناسبا عكسيا مع بعد الكوكب عن الشمس, وكذلك تتناسب سرعة جريه في مداره حولها, بينما يتناسب طول سنة الكوكب تناسبا طرديا مع بعده عنها (وسنة الكوكب هي المدة التي يستغرقها في اتمام دورة كاملة حول الشمس), اتضحت لنا الحكمة من استمرارية تناقص الأرض وانكماشها

علي ذاتها أي تناقصها من أطرافها . ولو زادت الطاقة التي تصلنا من الشمس عن القدر

الذي يصلنا اليوم قليلا لأحرقتنا , وأحرقت كل حي علي الأرض , ولبخرت الماء ,

وخلخلت الهواء ,

ولو قلت قليلا لتجمد كل حي علي الأرض ولقضي علي الحياة الأرضية بالكامل .

ومن الثابت علميا أن الشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية نحو خمسة ملايين من



---

الأطنان علي هيئة طاقة ناتجة من تحول غاز الايدروجين بالاندماج النووي إلي غاز الهيليوم

. وللمحافظة علي المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لابد وأن تفقد الأرض من كتلتها

وزنا متناسبا تماما مع ما تفقده الشمس من كتلتها , ويخرج ذلك عن طريق كل من فوهات

البراكين وصدوع الأرض علي هيئة الغازات والأبخرة وهباءات متناهية الضآلة من المواد

الصلبة التي يعود بعضها إلي الأرض , ويتمكن البعض الآخر من الافلات من جاذبية الأرض

والانطلاق إلي صفحة السماء الدنيا , وبذلك الفقدان المستمر من كتلة الأرض فإنها

تنكمش علي ذاتها , وتنقص من كافة أطرافها , وتحتفظ بالمسافة الفاصلة بينها وبين

الشمس . ولولا ذلك لانطلقت الارض من عقال جاذبية الشمس لتضيع في صفحة الكون

وتهلك ويهلك كل من عليها , أو لانجذبت إلي قلب الشمس حيث الحرارة في حدود 15 مليون درجة مئوية فتنصهر وينصهر كل ما بها ومن عليها .

ومن حكمة الله البالغة أن كمية الشهب والنيازك التي تصل الأرض يوميا تلعب دورا هاما في ضبط العلاقة بين كتلتي الأرض والشمس إذا زادت كمية المادة المنفلتة من عقال جاذبية الأرض .

( ب ) انقاص الأرض من أطرافها بمعني تفلطحها قليلا عند القطبين , وانبعاجها قليلا عند خط الاستواء :

في زمن الخليفة المأمون قيست المسافة المقابلة لكل درجة من درجات خطوط الطول في كل من تهامة والعراق , واستنتج من ذلك حقيقة أن الأرض ليست كاملة الاستدارة , وقد سبق العلماء المسلمون الغرب في ذلك بثمانية قرون علي الأقل لأن الغربيين لم يشرعوا في قياس أبعاد الأرض إلا في القرن السابع عشر الميلادي , حين أثبت نيوتن نقص تكور الأرض وعلله بأن مادة الأرض لاتتأثر بالجاذبية نحو مركزها فحسب , ولكنها تتأثر كذلك بالقوة الطاردة ( النابذة ) المركزية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها , وقد نتج عن ذلك انبعاج بطئ في الأرض ولكنه مستمر عند خط الاستواء حيث تزداد القوة

الطاردة المركزية إلي ذروتها , وتقل قوة الجاذبية إلي المركز إلي أدني قدر لها , ويقابل ذلك الانبعاج الاستوائي تفلطح ( انبساط ) قطبي غير متكافئ عند قطبي الأرض حيث تزداد قوتها الجاذبة , وتتناقص قيمة القوة الطاردة المركزية , والمنطقة القطبية الشمالية أكثر تفلطحا من المنطقة القطبية الجنوبية . ويقدر متوسط قطر الأرض الاستوائي بنحو 12756.3 كم , ونصف قطرها القطبي بنحو 12713.6 كم وبذلك يصبح الفارق بين القطرين نحو 42.7 كم , ويمثل هذا التفلطح نحو 33 . % من نصف قطر الأرض , مما يدل علي أنها عملية بطيئة جدا تقدر بنحو 1 سم تقريبا كل ألف سنة , ولكنها عملية مستمرة منذ بدء خلق الأرض , وهي إحدي عمليات إنقاص الأرض من أطرافها .

( جـ ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعني اندفاع قيعان المحيطات تحت القارات وانصهارها وذلك بفعل تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض :

يمزق الغلاف الصخري للأرض بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة , وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات في الطول , وتتراوح أعماقها بين 65 كم و 120 كم , وتفصل هذه الشبكة من الصدوع الغلاف الصخري للأرض إلي 12 لوحا رئيسيا وعدد من الألواح الصغيرة نسبيا , ومع دوران الأرض حول محورها تنزلق ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق نطاق الضعف الأرضي متباعدة عن بعضها البعض ,

أو مصطدمة مع بعضها البعض , ويعين علي هذه الحركة اندفاع الصهارة الصخرية عبر مستويات الصدوع خاصة عبر تلك المستويات التصدعية التي تشكل محاور حواف أواسط المحيطات فتؤدي إلي اتساع قيعان البحار والمحيطات وتجدد صخورها , وذلك لأن الصهارة الصخرية المتدفقة بملايين الأطنان عبر مستويات صدوع أواسط المحيطات تؤدي إلي دفع جانبي قاع المحيط يمنة ويسرة لعدة سنتيمترات في السنة الواحدة , وتؤدي إلي ملء المسافات الناتجة بالطفوحات البركانية المتدفقة والتي تبرد وتتطلب علي



---

هيئة أشرطة متوازية تتقادم في العمر . في اتجاه حركة التوسع , وينتج عن هذا التوسع اندفاع صخور قاع المحيط يمنة ويسرة , في اتجاهي التوسع ليهبط تحت كتل القارات المحيطة في الجانبين بنفس معدل التوسع ( أي بنصفه في كل اتجاه ) , وتستهلك صخور قاع المحيط الهابطة تحت القارتين المحيطتين بالانصهار في نطاق الضعف الأرضي .

وكما يصطدم قاع المحيط بكتل القارتين أو القارات المحيطة بحوض المحيط أو البحر , فإن العملية التصادمية قد تتكرر بين كتل قاع المحيط الواحد فتكون الجزر البركانية وينقص قاع المحيط , وكما تحدث عملية التباعد في أواسط القارة فتؤدي إلي فصلها إلي كتلتين قاريتين

مفصولتين ببحر طولي مثل البحر الأحمر يظل يتسع حتي يتحول إلي محيط في المستقبل البعيد وفي كل الحالات تستهلك صخور الغلاف الصخري للأرض عند خطوط التصادم , وتتجدد عند خطوط التباعد , وهي صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها .

وتتخذ ألواح الغلاف الصخري للأرض في العادة أشكالا رباعية يحدها من جهة خطوط انفصام وتباعد , يقابلها في الجهة الأخري خطوط تصادم , وفي الجانبين الآخرين حدود انزلاق , تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري منزلقة بجرية عن بعضها البعض .

وتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض يؤدي بإستمرار إلي استهلاك صخور قيعان كل محيطات الأرض , وإحلالها بصخور جديدة , وعلي ذلك فإن محاور المحيطات تشغلها صخور بركانية ورسوبية جديدة قد لا يتجاوز عمرها اللحظة الواحدة , بينما تندفع الصخور القديمة ( التي قد يتجاوز عمرها المائتي مليون سنة ) عند حدود تصادم قاع المحيط مع القارات المحيطة به , والصخور الأقدم عمرا من ذلك تكون هبطت تحت كتل القارات وهضمت في نطاق الضعف الأرضي وتحولت إلي صهارة , وهي صورة رائعة من صور انقاص الأرض من أطرافها .

ويبدو أن هذه العمليات الأرضية المتعددة كانت في بدء خلق الأرض أشد عنفا من معدلاتها الحالية لشدة حرارة جوف

الأرض بدرجات تفوق درجاتها الحالية وذلك بسبب الكم الهائل من الحرارة المتبقية عن الأصل الذي انفصلت منه الأرض , والكم الهائل من العناصر المشعة الآخذة في التناقص بإستمرار بتحللها الذاتي منذ بدء تجمد مادة الأرض .

ثانيا : في اطار دلالة لفظ الأرض علي اليابسة التي نحيا عليها :

في هذا الاطار نجد معنيين علميين واضحين نوجزهما فيما يلي :

( أ ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعني أخذ عوامل التعرية المختلفة من المرتفعات وإلقاء نواتج التعرية في المنخفضات من سطح الأرض حتي تتم تسوية سطحها :

فسطح الأرض ليس تام الاستواء وذلك بسبب اختلاف كثافة الصخور المكونة للغلاف الصخري للأرض , وكما حدث انبعاج في سطح الأرض عند خط الاستواء , فإن هناك نتوءات عديدة في سطح الأرض حيث تتكون قشرة الأرض من صخور خفيفة , وذلك من مثل كتل القارات والمرتفعات البارزة علي سطحها , وهناك أيضا انخفاضات مقابلة لتلك النتوءات حيث تتكون قشرة الأرض من صخور عالية الكثافة نسبيا وذلك من مثل قيعان المحيطات والأحواض المنخفضة علي سطح الأرض .

ويبلغ ارتفاع أعلي قمة علي سطح الأرض وهي قمة جبل افريست في سلسلة جبال الهيمالايا 8840 مترا فوق مستوي سطح البحر , ويقدر منسوب أخفض نقطة علي

اليابسة وهي حوض البحر الميت 395 مترا تحت مستوي سطح البحر , ويبلغ منسوب أكثر أغوار الأرض عمقا حوالي 10,800 مترا وهو غور ماريانوس في قاع المحيط الهادي بالقرب من جزر الفلبين , والفارق بينهما أقل من عشرين كيلو مترا (1960 مترا ) , وهو فارق ضئيل إذا قورن بنصف قطر الأرض .

ويبلغ متوسط ارتفاع سطح الأرض حوالي 840 مترا فوق مستوي سطح البحر ومتوسط أعماق المحيطات حوالي أربعة كيلو مترات تحت مستوي سطح البحر (3729 مترا إلي 4500 متر تحت مستوي سطح البحر )

وهذا الفارق البسيط هو الذي أعان عوامل التعرية المختلفة علي بري صخور المرتفعات والقائها في منخفضات الأرض في



---

محاولة متكررة لتسوية سطحها , وهي سنة دائبة من سنن الله في الأرض , فإذا بدأنا بمنطقة مرتفعة ولكنها مستوية يغشاها مناخ رطب , فإن مياه الأمطار سوف تتجمع في منخفضات المنطقة علي هيئة عدد من البحيرات والبرك . حتي يتكون نظام صرف مائي جيد , وعندما تجري الأنهار فإنها تنحر مجاريها في صخور المنطقة حتي تقترب من

المستوي الأدني للتحات فتسحب كل مياه البحيرات والبرك التي تمر بها , وكلما زاد النحر إلي أسفل تزايدات التضاريس تشكلا وبروزا , وعندما تصل بعض المجاري المائية إلي المستوي الأدني للتحات فإنها تبدأ في النحر الجانبي لمجاريها بدلا من النحر الرأسي فيتم بذلك التسوية الكاملة لتضاريس المنطقة علي هيئة سهول مستوية ( أو سهوب ) تتعرج فيها الأنهار , وتتسع مجاريها , وتضعف سرعات جريها . وقدراتها علي النحر , وبعد الوصول إلي هذا المستوي أو الاقتراب منه يتكرر رفع المنطقة وتعود الدورة إلي صورتها الأولي , وتعتبر هذه الدورة ( التي تعرف باسم دورة التسهيب ) صورة من صور إنقاص الأرض من أطرافها , وينخفض منسوب قارة أمريكا الشمالية بهذه العملية بمعدل يصل إلي 0,03 مم في السنة حتي يغمرها البحر إن شاء الله .

( ب ) إنقاص الأرض من أطرافها بمعني طغيان مياه البحار والمحيطات علي اليابسة وإنقاصها من أطرافها :

من الثابت علميا أن الأرض قد بدأت منذ القدم بمحيط غامر , ثم بتحرك ألواح الغلاف الصخري الابتدائي للأرض وبدأت جزر بركانية عديدة في التكون في قلب هذا المحيط الغامر , وبتصادم تلك الجزر تكونت القارة الأم التي تفتت بعد ذلك إلي العدد الراهن من القارات , وتبادل الأدوار بين اليابسة والماء هو سنة أرضية تعرف باسم دورة التبادل بين المحيطات والقارات

وتحول أجزاء من اليابسة إلي بحار. والتي من نماذجها المعاصرة كل من البحر الأحمر, وخليج كاليفورنيا, هو صورة من صور انقاص الأرض من أطرافها, ليس هذا فقط



---

بل أن من الثابت علميا أن غالبية الماء العذب علي اليابسة محجوز علي هيئة تتابعات هائلة من الجليد فوق قطبي الأرض, وفي قمم الجبال, يصل سمكها في القطب الجنوبي إلي أربعة كيلو مترات, ويقترب من هذا السمك قليلا في القطب الشمالي (3800 متر), وانصهار هذا السمك الهائل من الجليد سوف يؤدي الي رفع منسوب المياه في البحار والمحيطات لأكثر من مائة متر, وقد بدأت بوادر هذا الانصهار, وإذا تم ذلك فإنه سوف يغرق أغلب مساحات اليابسة ذات التضاريس المنبسطة حول البحار والمحيطات وهي صورة من صور انقاص الأرض من أطرافها, وفي ظل التلوث البيئي الذي يعم الأرض اليوم, والذي يؤدي إلي رفع درجة حرارة نطاق المناخ المحيط بالأرض بإستمرار بات انصهار هذا السمك الهائل من الجليد أمرا محتملا, وقد حدث ذلك مرات عديدة في تاريخ الأرض الطويل الذي تردد بين دورات يزحف فيها الجليد من أحد قطبي الأرض أو منهما معا في اتجاه خط الاستواء, وفترات ينصهر فيها الجليد فيؤدي إلي رفع منسوب المياه في البحار

والمحيطات وفي كلتا الحالتين تتعرض حواف القارات للتعرية بواسطة مياه البحار والمحيطات فتؤدي إلي انقاص الأرض ( أي اليابسة ) من أطرافها , وذلك لأن مياه كل من البحار والمحيطات دائمة الحركة بفعل دوران الأرض حول محورها , وباختلاف كل من درجات الحرارة والضغط الجوي , ونسب الملوحة من منطقة إلي أخري , وتؤدي حركة المياه في البحار والمحيطات ( من مثل التيارات المائية , وعمليات المد والجزر , والأمواج السطحية والعميقة ) إلي ظاهرة التآكل ( التحات ) البحري وهو الفعل الهدمي لصخور الشواطيء وهو من عوامل انقاص الأرض ( اليابسة ) من أطرافها .

ثالثا : في اطار دلالة لفظ الأرض علي التربة التي تغطي صخور اليابسة :

( أ ) انقاص الأرض من أطرافها بمعني التصحر :

أي زحف الصحراء علي المناطق الخضراء وانحسار التربة الصالحة للزراعة في



---

ظل افساد الإنسان للبيئة علي سطح الأرض بدأ زحف الصحاري علي مساحات كبيرة من الأرض الخضراء , وذلك بالرعي الجائر , واقتلاع الأشجار , وتحويل الأراضي الزراعية إلي أراض للبناء , وندرة المياه نتيجة لموجات الجفاف والجور علي مخزون المياه تحت سطح

الأرض , وتملح التربة , وتعريتها بمعدلات سريعة تفوق بكثير محاولات استصلاح بعض الأراضي الصحراوية , أضف إلي ذلك التلوث البيئي , والخلل الاقتصادي في الأسواق المحلية والعالمية , وتذبذب أسعار كل من الطاقة والآلات والمحاصيل الزراعية مما يجعل العالم يواجه أزمة حقيقية تتمثل في انكماش المساحات المزروعة سنويا بمعدلات كبيرة خاصة في المناطق القارية وشبه القارية نتيجة لزحف الصحاري عليها , ويمثل ذلك صورة من صور خراب الأرض بإنقاصها من أطرافها .

هذه المعاني الستة ( منفردة أو مجتمعة ) تعطي بعدا علميا رائعا لمعني انقاص الأرض من أطرافها , ولا يتعارض ذلك أبدا مع الدلالة المعنوية للتعبير , بمعني خراب الأرض الذي استنتجه المفسرون , بل يكمله ويجليه . وعلي عادة القرآن الكريم تأتي الاشارة الكونية بمضمون معنوي محدد , ولكن بصياغة علمية معجزة , تبلغ من الشمول والكمال والدقة ما لم يبلغه علم الإنسان , فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة هذه الإشارة العلمية الدقيقة إلي حقيقة إنقاص الأرض من أطرافها , وهي حقيقة لم يدرك الإنسان شيئا من دلالاتها العلمية إلا منذ عقود قليلة , وقد يري فيها القادمون فوق ما نراه نحن اليوم , ليظل القرآن الكريم مهيمنا علي المعرفة الانسانية مهما اتسعت دوائرها , وتظل آياته الكونية شاهدة بإستمرار علي أنه كلام الله الخالق , وشاهدة للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه بأنه ( صلي الله عليه وسلم ) كان موصولا بالوحي , ومعلما من قبل خالق السماوات

والأرض. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية.

بقلم الدكتور: زغلول النجار ﴾.

*(282/414)*

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة الرّعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (1)

الإعراب:

(المر) حروف مقطّعة لا محلّ لها " 1 "، (تلك) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ رفع مبتدأ، والاشارة إلى آيات القرآن كلّها أو إلى آيات السورة... و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (آيات) خبر مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل هو (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بـ (أنزل) ، (من ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 2 " ، و (الكاف) ضمير مضاف إليه (الحقّ) خبر المبتدأ الموصول " 3 " (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف

---

(1) وانظر الآية الأولى من سورة البقرة.

(2) يجوز أن يكون حالا من الحقّ - نعت تقدّم على المنعوت -

(3) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو . . . وحينئذ يعرب (الذي أنزل . . .) معطوف على آيات الكتاب الذي هو بدل من تلك - أو نعت له - ، وجملة هو الحقّ خبر المبتدأ (تلك) .

(283/414)

---

استدراك ونصب - ناسخ - (أكثر) اسم لكنّ منصوب (النّاس) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . و (الواو) فاعل .

جملة : " تلك آيات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " الّذي أنزل . . . الحقّ " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " أنزل إليك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لكنّ أكثر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذي أنزل . . .

الحقّ.

وجملة: "لا يؤمنون..." في محلّ رفع خبر لكنّ.

الفوائد

- ذكرنا رأينا فيما سبق، حول افتتاح بعض السور بمثل هذه الحروف فعد إليه في مظانه.

[سورة الرعد (13) : الآيات 2 إلى 4]

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

الإعراب:

(اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (الّذي) موصول خبر " 1 " ، (رفع) ، فعل ماض ، والفاعل هو (السّموات) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (بغير) جارّ ومجرور حال من السموات أي خالية عن عمد " 2 " ، (عمد) مضاف إليه مجرور (ترونها) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل ، و (ها) ضمير مفعول به " 3 " ، (ثمّ) حرف عطف (استوى) مثل رفع والفتح مقدّر على الألف (على العرش) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استوى) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (سخّر الشّمس) مثل رفع السموات (القمر) معطوف على الشمس بالواو منصوب (كلّ) مبتدأ مرفوع " 4 " ، (يجري) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل هو (لأجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجري) ، (مسمّى) نعت لأجل مجرور ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (يدبّر) مضارع مرفوع ، والفاعل هو أي اللّه (الأمر) مفعول به منصوب (يفصّل الآيات) مثل يدبّر الأمر ، وعلامة نصب المفعول الكسرة (لعلّكم) حرف ترجّ ونصب - ناسخ - و (كم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (بلقاء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (توقنون) ، (ربّكم) مضاف إليه مجرور . . و (كم) ضمير مضاف إليه (توقنون) مضارع مرفوع . . . و (الواو) فاعل .

جملة : " اللّه الذي رفع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يكون نعتا للفظ الجلالة . . وجملة يدبّر الأمر خبرا للفظ الجلالة .

(2) أو غير معتمدة على شيء .

(3) وهو إمّا أن يعود على السموات أو على العمد . . وحينئذ يختلف إعراب جملة ترونها بحسب عودة الضمير.

(4) النكرة هنا دالّة على عموم، والمضاف إليه مقدّر أي كلّ كوكب.

(285/414)

---

وجملة: " رفع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذي) .

وجملة: " ترونها . . . " في محلّ نصب حال من السموات " 1 " .

وجملة: " استوى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع . .

وجملة: " سخّر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة رفع . .

وجملة: " كلّ يجري . . . " في محلّ نصب حال من مفعول سخّر.

وجملة: " يجري . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

وجملة: " يدبّر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة: " يفصّل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " لعلّكم . . . توقنون " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " توقنون " في محلّ رفع خبر لعلّكم.

(الواو) عاطفة (هو الّذي مدّ الأرض) مثل اللّه الذي رفع السموات . .

(الواو) عاطفة (جعل) مثل رفع (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (جعل)، (رواسي) مفعول به منصوب (أنهارا) معطوف على رواسي بالواو (الواو) عاطفة (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جعل) " 3 " ، (الثمرات) مضاف إليه مجرور (جعل) مثل رفع (فيها) مثل الأول متعلّق بـ (جعل) ، (زوجين) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء (اثنين) نعت لزوجين منصوب مثله وهو ملحق بالمثنّى (يغشي) مضارع ، مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة ، والفاعل هو أي اللّه (الليل) مفعول به " 4 " منصوب (النهار) مفعول به

---

(1) والحال مقدّرة لأننا لم نكن مخلوقين حين الرفع ، ويجوز أن تكون مستأنفة فلا محلّ لها

. . .

وإذا كان الضمير في (ترونها) يعود على العمد فالجملة في محلّ جرّ نعت لعمد .

(2) يجوز أن تكون حالا من فاعل استوى على العرش . . . ومثلها جملة يفصّل . .

(3) يجوز أن يكون متعلّقا بحال من اثنين - نعت تقدّم على المنعوت .

(4) أو منصوب على نزع الخافض والتقدير يغشي النهار بالليل .

ثان (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (في) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر إنّ . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (اللام) للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لآيات (يتفكّرون) مثل توقنون .

وجملة : " هو الّذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه الذي رفع . .

وجملة : " مدّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذي) .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " جعل (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعل الأولى .

وجملة : " يغشي . . . " في محلّ نصب حال من فاعل مدّ " 1 " .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتفكّرون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(الواو) عاطفة (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بخبر محذوف (قطع) مبتدأ مؤخّر مرفوع (متجاورات) نعت لقطع مرفوع (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة الآتية (جنّات ، زروع ، نخيل) ألفاظ معطوفة على قطع بحروف العطف مرفوعة (من أعناب) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لجنّات (صنوان) نعت لنخيل مرفوع (غير) معطوف على صنوان بالواو مرفوع

(صنوان) مضاف إليه مجرور (يسقى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي ما ذكر من الجنّات والزروع والنخيل (بماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسقى)، (واحد) نعت لماء مجرور (الواو) عاطفة (نفضّل) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (بعضها) مفعول به منصوب و (ها) مضاف إليه (على بعض) جارّ ومجرور

(1) يجوز قطعها على الاستئناف.. فلا محلّ لها.



متعلّق بـ (نفضّل)، (في الأكل) جارّ ومجرور متعلّق بحال من بعضها (إنّ في ذلك... يعقلون) مثل إن في ذلك... يتفكّرون.

وجملة: "في الأرض قطع... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة.

وجملة: "يسقى... " في محلّ رفع نعت لما ذكر من الأنواع.

وجملة: "نفضّل... " لا محلّ لها معطوفة على جملة في الأرض قطع.

وجملة: "إنّ في ذلك... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " يعقلون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الصرف :

(288/414)

---

(عمد) ، جمع عماد - على غير قياس - لأنّ قياسه أن يجمع على عمد بضمّتين ، اسم جامد للحجر على أيّ شكل كان ، ويجوز أن يكون عمد - بفتحتين - اسم جمع .

(رواسي) ، جمع رأس ، اسم للجبل ، وهو في الأصل اسم فاعل من رسا الناقص ، وزنه فاعل ، وقد حذف حرف العلّة لأنه اسم منقوص لالتقاء الساكنين ، وبدون حذف (الراسي) فيه إعلال بالقلب لأنّ لام الكلمة واو من فعل رسا يرسو ، أصله (الراسو) بكسر السين . . ثمّ قلبت (الواو) ياء لانكسار ما قبلها .

(قطع) ، انظر الآية (27) من سورة يونس .

(متجاورات) ، جمع متجاورة ، مؤنّث متجاور ، اسم فاعل من تجاور الخماسيّ ، وزنه متفاعل بضمّ الميم وكسر العين .

(زرع) ، اسم للمزروع جاء على لفظ المصدر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(صنوان) ، جمع صنو اسم بمعنى الأخ الشقيق أصلا ، وهنا فرع النخلة ، وزنه فعل بكسر

الفاء وفتحها ، وله جمع آخر هو أصناء .

البلاغة

(1) الاستعارة : في قوله تعالى اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ أي دعائم ، والمراد هنا قدرة الله تعالى ، وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض ، فيكون العمد على هذا استعارة .

(2) نفي الشيء بإيجابه : في قوله تعالى بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها أي رفع السموات خالية من العمد ، فالوجه انتفاء العمد والرؤية جميعا فلا رؤية ولا عمد .

الفوائد

- قوله في الآية الثالثة جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يتردد ذكر الزوجية في القرآن الكريم ، سواء في عالم الإنسان أو عالم النبات . وفي ذلك ما فيه من الأدلة القطعية على وجود الإله القادر العالم المنظم لشؤون هذا الكون ، وقد قال أحد الفلاسفة المعاصرين : إن وجود الزوجية في الأحياء لدليل على وجود الله ، وأعظم من ذلك دلالة وجودها في النبات الذي لا يعقل ولا يفكر . وإنما يخضع لقوانين تملى عليه من الخالق المبدع ، ولا يمكن أن توجد بالمصادفة في حال من الأحوال .

[سورة الرعد (13) : آية 5]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (تعجب) مضارع مجزوم فعل الشرط، والفاعل أنت (الفاء) رابطة لجواب الشرط (عجب) خبر مقدّم مرفوع (قولهم) مبتدأ مؤخّر مرفوع.. و (هم) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام (إذا) ظرف للزمن المستقبل غير متضمّن معنى الشرط متعلّق بمحذوف تقديره أنبعث - أو - أنحشر - (كنّا) فعل ماض ناقص.. و (نا) ضمير اسم كان (ترابا) خبر منصوب (الهمزة) مثل الأولى (إنّا) حرف توكيد ونصب - ناسخ - و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) للتوكيد (في خلق) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (جديد) نعت لخلق مجرور (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ.. و (الكاف) حرف خطاب (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (كفروا) فعل ماض وفاعله (بربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) .. و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أولئك) مثل الأول (الأغلال) مبتدأ ثان مرفوع (في أعناقهم) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ الثاني.. و (هم) مثل الأخير (الواو)

عاطفة (أولئك) مثل الأول (أصحاب) خبر أولئك مرفوع (النار) مضاف إليه مجرور (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدون) وهو خبر المبتدأ هم مرفوع وعلامة الرفع (الواو) .

جملة : " إن تعجب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عجب قولهم . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " كنّا ترابا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . والظرف والجملة بعده مقول القول لقولهم .



---

وجملة : " إنّا لفي خلق . . . " لا محلّ لها تفسيريّة لمضمون متعلّق الظرف إذا .

وجملة : " أولئك الّذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محل لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " أولئك . . . (الثانية) . . . " لا محل لها معطوفة على جملة أولئك الذين . .

وجملة : " الأغلال في أعناقهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " أولئك أصحاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة أولئك . .

وجملة: " هم فيها خالدون . . . " في محلّ رفع خبر ثان لأولئك " 1 " .

الصرف:

(جديد) ، صفة مشبّهة من فعل جدّ يجدّ باب ضرب ، وزنه فعيل .

[سورة الرعد (13) : الآيات 6 إلى 7]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (يستعجلون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل (الكاف) ضمير مفعول به (بالسيّئة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يستعجلون) ، (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بحال من السيّئة (الحسنة) مضاف إليه مجرور (الواو) واو الحال (قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء سكون التاء مع سكون الألف . . و (التاء) للتأنيث (من قبلهم) جار ومجرور متعلّق بـ (خلت) . .

و (هم) ضمير متّصل مضاف إليه (المثلات) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (إنّ)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من أصحاب ، والعامل فيها الإشارة . [ . . . . . ]

حرف توكيد ونصب - ناسخ - (ربّك) اسم إنّ منصوب . . و (الكاف) مضاف إليه (اللام) المزحلقة للتوكيد (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (مغفرة) مضاف إليه مجرور (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مغفرة) ، (على ظلمهم) جارّ ومجرور حال من الناس عاملها مغفرة . . و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (إنّ . . . لشديد) مثل إنّ . . . لذو (العقاب) مضاف إليه مجرور .

جملة : "يستعجلونك . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك الذين . . " 1 "

وجملة : " خلت . . المثلات " في محلّ نصب حال " 2 " .

وجملة : " إنّ ربّك لذو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يستعجلونك .

وجملة : " إنّ ربّك لشديد . . . " لا محلّ لها معطوفة على الجملة السابقة .

(الواو) عاطفة (يقول) مضارع مرفوع (الّذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض وفاعله (لولا) حرف تحضيض بمعنى هلّا (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) (آية) نائب الفاعل مرفوع (من ربّه) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لآية . . و (الهاء) مضاف إليه (إنّما) كافّة ومكفوفة (أنت)

ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (منذر) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدم (قوم) مضاف إليه مجرور (هاد) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف المحذوفة، فهو اسم منقوص " 3 " وجملة: "يقول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ربّك لذو . .

وجملة: "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) في الآية السابقة (5) .

(2) يجوز أن تكون استئنافيّة بعد واو الاستئناف لا محلّ لها .

(3) وهو نعت لمنعوت محذوف أي نبيّ هاد .



---

وجملة: "أنزل . . آية" في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "إنّما أنت منذر" لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة: "لكلّ قوم هاد" لا محلّ لها معطوفة على جملة أنت منذر .

الصرف:

(المثلات)، جمع المثلة، اسم للعقوبة الفاضحة، وزنه فعلة بفتح الفاء وضمّ العين، ووزن

مثلات فعلات بفتح الفاء وضمّ العين .

(هاد) ، اسم فاعل من هدى الثلاثيّ ، وزنه فاع ، فيه إعلال بالحذف فهو منقوص حذفت ياؤه لالتقاء الساكنين .

الفوائد

1 - ذو : هي من الأسماء الخمسة ، ومنهم من اعتبرها ستة ، وهي : أب أخ حم فم ذو ، والسادس هو " الهن " .

أ- إعرابها فيه ثلاثة آراء :

1 - الرأي الراجح : ترفع بالواو ، وتنصب بالألف ، وتجرّ بالياء .

2 - الرأي الثاني " المرجوح " : أنها تعرب إعراب الاسم المقصور ، فتلزمها الألف في آخرها .

3 - ومن العرب من زعم بأنها تعرب بالحركات كغيرها من الأسماء .

ب - شروط إعرابها بالأحرف :

أن تكون مفردة ، وأن تكون مضافة ، وأن تكون إضافتها إلى غير ياء المتكلم .

ج- إذا ثنيت الأسماء الخمسة أعربت إعراب المثنى ، بالألف رفعا ، وبالياء نصبا وجرا .

وإذا جمعت أعربت إعراب جمع التكسير بالحركات ، إلا ذو فتعرب إعراب جمع المذكر السالم ، لأنها ملحقة به . وإذا أضيفت إلى ياء المتكلم ، فتعرب بحركات مقدّرة على ما قبل

الياء ، لاشتغال المحلّ بالحركة المناسبة . وتنفرد " ذو " من بين الأسماء الخمسة بأنها قد تأتي موصولة . وتأتي للإشارة ، وتأتي بمعنى صاحب وكل يبحث في مقامه . فلا تتعجّل .

2 – من خصائص لغتنا العربية " القلب " وهو نوعان :

أ – قلب في الاسناد ومنه " يجعلون الأغلال في أعناقهم والقيود في أيديهم " .

وهو خلاف الحقيقة ، لأن الأعناق هي التي تكون في الأغلال والأيدي هي التي تكون في القيود ، وليس العكس هو الصحيح .

ب – القلب في الأحرف ، مثله خيرزان ، وخيزران . وسجادة ، وسداجة .

وله نظائر كثيرة في الفعل والاسم .

ملاحظة : هناك نوع من الاقلاب يحصل في تلاوة القرآن الكريم فتقلب النون الساكنة أو التنوين ميما في مواضع خاصة مكانها علم التجويد فمن شاء فليراجعها هناك .



---

[سورة الرعد (13) : آية 8]

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8)

الإعراب:

(اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 "، والعائد محذوف (تحمل) مثل يعمل (كلّ) فاعل مرفوع (أنثى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (ما تغيض الأرحام وما تزداد) مثل ما تحمل كلّ أنثى، وفاعل تزداد ضمير تقديره هي (الواو) عاطفة (كلّ) مبتدأ مرفوع (شيء) مضاف إليه مجرور (عنده) ظرف منصوب متعلّق

---

(1) يجوز أن يكون حرفا مصدريّا، والمصدر المؤوّل مفعول به.. وأجازوا أن يكون اسم استفهام معمولا لفعل تحمل - مفعولا به - وجملة تحمل معمولة للعلم المعلّق بالاستفهام.



---

بنعت لكلّ أو لشيء " 1 " و (الهاء) ضمير مضاف إليه (بمقدار) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ كلّ.

جملة: "اللّه يعلم..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يعلم..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "تحمل كلّ..." لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة: " تغيض الأرحام . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني.

وجملة: " تزداد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث.

وجملة: "كلّ شيء . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

الصرف:

(مقدار)، يحتمل أن يكون مصدرا بمعنى القدرة أو بمعنى القدر - بسكون الدال - ويحتمل أن يكون اسما لما يعرف به قدر الشيء من معدود وكيل وموزون، وزنه مفعال بكسر الميم وجمعه مقادير زنة مفاعيل.

البلاغة

1 - الطباق: في قوله تعالى اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ أي ما تنقص وتزيد.

[سورة الرعد (13): آية 9]

عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9)

الإعراب:

(عالم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو " 2 "، (الغيب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الشهادة) معطوف على الغيب مجرور (الكبير) خبر ثان مرفوع (المتعال) خبر ثالث مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من مقدار أو متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر.

(2) أو مبتدأ خبره الكبير.

(295/414)

---

المحذوفة للتخفيف أو لمناسبة فواصل الآي.

جملة: "هو عالم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(المتعال) ، اسم فاعل من فعل تعالى الخماسيّ، وزنه متفاعل بضمّ الميم وكسر العين، و (الياء) المحذوفة منقلبة عن واو، أصله المتعالو - بكسر اللام - لأن مجرّده علا يعلو.. ثمّ قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وقد رسمت الكلمة محذوفة الياء في المصحف للتخفيف، وقد تلفظ الياء في الوقف.

[سورة الرعد (13) : آية 10]

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10)

الإعراب:

(سواء) خبر مقدّم " 1 " مرفوع (من) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من

الضمير في سواء الذي هو بمعنى مستو (من) اسم موصول مبتدأ مؤخّر في محلّ رفع (أسرّ) فعل ماض، والفاعل هو، وهو العائد (القول) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (من جهر) مثل من أسرّ ومعطوف عليه (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جهر)، (الواو) عاطفة (من) مثل الأول ومعطوف عليه (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (مستخف) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص منوّن (بالليل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مستخف) (الواو) عاطفة (سارب بالنهار) مثل مستخف بالليل.

جملة: "سواء... من أسرّ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو مبتدأ موصوف بقوله (منكم)، والخبر من أسرّ..

(296/414)

---

وجملة: "أسرّ..." لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

وجملة: "جهر به..." لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: "هو مستخف..." لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث.

الصرف:

(مستخف) ، اسم فاعل من (استخفى) السداسيّ ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وحذفت الياء - أصله المستخفي - لالتقاء الساكنين لمناسبة التنوين .

(سارب) ، اسم فاعل من (سرب) الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

البلاغة

1 - المبالغة : في قوله تعالى وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ مبالغ في الاختفاء ، كأنه مختف (بالليل) وطالب للزيادة ، وتقديم الإسرار والاستخفاء لإظهار كمال علمه تعالى ، فكأنه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر ، وإلا فنسبته إلى الكل سواء .

[سورة الرعد (13) : آية 11]

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (11)

الإعراب :

(اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (معقّبات) مبتدأ مؤخّر مرفوع (من بين) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لمعقّبات (يديه) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء ، و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (من خلفه) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به الجارّ السابق فهو معطوف عليه . . و (الهاء) مثل الأخير (يحفظون) مضارع مرفوع . . و (الواو)

فاعل و (الهاء) ضمير مفعول به (من أمر) جار ومجرور متعلّق بـ (يحفظون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يغيّر) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (بقوم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول (حتّى) حرف غاية وجرّ (يغيّروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى وعلامة النصب حذف النون . . و (الواو) فاعل (ما بأنفسهم) مثل ما بقوم . . و (هم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يغيّروا . . ) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (يغيّر) .

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب " 1 " ، (أراد) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بقوم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (سوءا) وهو مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (مردّ) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (له) مثل الأول متعلّق بخبر لا (الواو) عاطفة (ما) حرف ناف (لهم) مثل له متعلّق بخبر مقدّم (من دونه) مثل من خلفه متعلّق بحال من وال (من) حرف جرّ زائد (وال) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر ، وعلامة الجرّ الكسرة

المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص.

جملة: "له معقّبات... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يحفظونه... " في محلّ رفع نعت آخر لمعقّبات "2".

وجملة: "إنّ اللّه لا يغيّر... " لا محلّ لها تعليليّة.

---

(1) وتقدير الكلام: إذا أراد اللّه بقوم سوءا وقع أو لم يردّ - بالبناء للمجهول -

(2) أو في محلّ نصب حال من معقّبات لأنه موصوف.

(298/414)

---

وجملة: "لا يغيّر... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يغيّروا... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "أراد... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "لا مردّ له... " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "ما لهم... من وال" لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط.

الصرف:

(معقّبات)، جمع معقّبة مؤنّث معقّب، اسم فاعل من عقّب الرباعيّ وزنه مفعّل بضمّ الميم

وكسر العين .

(مردّ) ، مصدر ميميّ من (ردّ) الثلاثيّ ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين لأن عينه في المضارع مضمومة .

(وال) ، اسم فاعل من الثلاثيّ ولي ، وزنه فاع ، وفيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين لمناسبة التنوين .

الفوائد

1 - قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ .

لقد جرت هذه الآية مجرى المثل ، ولكن الناس فهموا فحواها على وجوه .

وأغلب الظن أن الراجح من وجوهها الكثيرة وجهان :

أ - أحدهما ، وهو الذي يهجم على الفكر ، وهو أن يكون الناس في صورة من صور الضرّ والشرّ ، فيلهجون بالدعاة إلى الله ، ليرفع عنهم غائلة الشر . فالآية تذكرهم بأن عليهم أن يصلحوا أنفسهم أولا ، وبالتالي يصلح الله لهم أمرهم .

ب - الوجه المقابل لهذا ، أن يكون الناس في نعمة وخير ، فإذا تغيرت نفوسهم وتنكرت لأنعمه تعالى ، تأذّن الله بأن يذهب عنهم نعمه ، ويستبدل لهم النعماء بالبأساء ، والخير العميم بالشر الوخيم .

فاستأذن في فهمك ، وتخيّر في رأيك ، وكل مجتهد وله نصيب من الأجر .

[سورة الرعد (13) : الآيات 12 إلى 13]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13)

الإعراب:



---

(هو) ضمير منفصل مبنيّ على الفتح في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (يريكم) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء.. و (كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (البرق) مفعول به ثان منصوب (خوفا) مصدر في موضع الحال من المفعول في (يريكم) " 1 "، (الواو) عاطفة (طمعا) معطوف على (خوفا) منصوب (الواو) عاطفة (ينشئ) مثل يري (السحاب) مفعول به منصوب (الثقال) نعت للسحاب منصوب.

جملة: " هو الذي... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يريكم... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة : " ينشئ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول .

(الواو) عاطفة (يسبّح) مضارع مرفوع (الرعد) فاعل مرفوع (بحمده) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسبّح) " 2 " ، و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (الملائكة) معطوف على الرعد مرفوع (من خيفته) جارّ ومجرور متعلّق

---

(1) أي يريكم البرق خائفين . . وقد جعله العكبريّ مفعولا لأجله ، ومنع ذلك الزمخشريّ لاختلاف الفاعل بين الفعل والمصدر ، ففاعل الفعل هو اللّه ، وفاعل المصدر هو الناس . . .

(2) أو متعلّق بحال من الرعد .



---

ب (يسبّح) ، ومن سببيّة و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يرسل الصواعق) مثل ينشئ السحاب (الفاء) عاطفة (يصيب) مثل يسبّح (الباء) حرف عطف و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يصيب) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله يصيب (يشاء) مثل يسبّح ، ومفعول يشاء محذوف تقديره إصابته ، وفاعل يشاء اللّه

(الواو) واو الحال (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يجادلون) مضارع مرفوع . .

و (الواو) فاعل (في اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجادلون) ، (الواو) واو الحال (هو) مثل هم (شديد) خبر مرفوع (المحال) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " يسبّح الرعد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يريكم " 1 " .

وجملة : " يرسل الصواعق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يسبّح الرعد .

وجملة : " يصيب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم يجادلون . . . " في محلّ نصب حال من الموصول من " 2 " .

وجملة : " هو شديد . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة .

الصرف :

(الرعد) ، في التفسير : الرعد اسم ملك من الملائكة أو هو صوته . . أو هو مصدر أطلق على صوت الشرارة الكهربائيّة الحاصلة من احتكاك السحب . . . وقال أبو حيّان : المفسّرون لم يجمعوا على أنّ الرعد اسم لملك وعلى تقدير أن يكون اسما لملك لا يلزم أن يكون ذلك الملك يدبّر لا

---

(1) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

(2) أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

السحاب ولا غيره . . . إلخ . وانظر الآية (19) من سورة البقرة .

(المحال) ، قيل : الميم فيه أصل من محلّ بفلان إذا كاده وعرّضه للهلاك فهو على هذا مصدر سماعيّ للفعل الذي يأتي من باب فتح وباب فرح وباب كرم . . وقيل أيضا : المحال المكايدة والقوّة . . وجاء في القاموس : المحال ككتاب الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والقوة والشدّة . . ومحلّ به مثلّث الحاء محلا ومحالا حاده بسعاية إلى السلطان وماحله مماحلة ومحالا قاواه حتّى يتبيّن أيهما أشدّ . في كلّ ما سبق الميم أصليّة ، وزنه فعال . . وقيل : الميم زائدة من الحول والحيلة ، أعلّ على غير قياس لأن قياسه عدم الإعلال ، كما يقال محور ومقود ومرود . . وزنه مفعل بكسر الميم وفتح العين .

البلاغة

1 - هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً والمراد من البرق معناه المتبادر وعن ابن عباس ، أن المراد به الماء فهو مجاز ، من باب اطلاق الشيء على ما يقارنه غالبا .

2 - وفي الآية فن رائع من فنون البلاغة وهو " صحة الأقسام " ، ويمكن تحديده بأنه عبارة عن استيفاء المعنى من جميع أقسامه ووجوهه ، بحيث لا يغادر المتكلم منها شيئًا ففي الآية المذكورة ، استوفى قسمي رؤية البرق ، إذ ليس فيها إلا الخوف من الصواعق ، والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين . ولكن مجرد استيفاء الأقسام لا يعتبر بيانا ، بل هناك أبعد من ذلك ، وأدق وأبعد منالا ، وهذا الأمر هو تقديم ما هو أولى بالذكر ، وأجدر بالتقديم ، حيث قدم الخوف على الطمع ، إذا كانت الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة ولا يحصل المطر إلّا بعد

تواتر الإبراق ، لأن تواتره لا يكاد يخلف ، ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع ، فلا تخطئ الغيث والكلأ .

الفوائد

1 - يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ رغم اختلاف العلماء حول هذه الباء ، فقد عقدوا البسيط ، وصعّبوا السهل ولم يتفقوا . ونحن نعلم أن المعنى الأصلي للباء هو الإلصاق ، وهو لا يفارقها في جميع معانيها ، ولذلك اقتصر عليه سيبويه ، وسواء قلنا إن الباء هنا للإلصاق أو الاستعانة أو السببية ، فجميعها تخرج من مشكاة واحدة ، وهو الملاصقة والمصاحبة ، ولا حاجة لنا للتكلف والتّمحّل ، ونشير هنا إلى أن العلماء ذكروا للباء ثلاثة عشر معنى .

[سورة الرعد (13) : الآيات 14 إلى 15]

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15)

الإعراب:

(303/414)

---

(له دعوة) مثل له معقّبات " 1 "، (الحقّ) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يدعون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من مفعول يدعون المقدّر و (الهاء) مضاف إليه (لا) نافية (يستجيبون) مثل يدعون (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستجيبون) (بشيء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يستجيبون) على معنى يجيبون (إلّا) أداة حصر (كباسط) جارّ

---

(1) في الآية (11) من هذه السورة. [.....]

و مجرور " 1 " متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي : إلّا استجابة كاستجابة باسط كفّيه " 2 " ، فهو على حذف مضاف (كفّيه) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء . . و (الهاء) مضاف إليه (إلى الماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (باسط) (اللام) للتعليل (يبلغ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو أي الماء (فاه) مفعول به منصوب وعلامة النصب الألف . . و (الهاء) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يبلغ . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (باسط) .

(الواو) واو الحال (ما) نافية عاملة عمل ليس (هو) ضمير منفصل اسم ما في محلّ رفع (الباء) زائدة (بالغة) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . .

و(الهاء) مثل الأخير (الواو) استئنافيّة (ما) نافية مهملة (دعاء) مبتدأ مرفوع (الكافرين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (إلّا) أداة حصر (في ضلال) جارّ ومجرور خبر المبتدأ .

جملة : " له دعوة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الّذين يدعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة: "يدعون... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "لا يستجيبون... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين).

وجملة: "يبلغ... " لا محلّ لها صلة الموصول (أن) المضمر.

وجملة: "ما هو ببالغه... " في محلّ نصب حال.

وجملة: "ما دعاء الكافرين... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(دعوة)، مصدر مرّة من دعا يدعو، وزنه فعلة بفتح الفاء،

---

(1) يجوز أن تكون الكاف اسما بمعنى مثل فهي في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته..

(2) وهو تخريج الزمخشري وتبعه في ذلك أبو البقاء العكبريّ.. وثمّة توجيهات أخرى كثيرة في تفسير الآية يرجع إليها في كتب التفسير.



---

وقد يكون مصدرا خالصا مجرّدا من الوحدة.

(كفّيه)، مثنّى كفّ، اسم جامد للعضو المعروف، وزنه فعل بفتح فسكون.

(الواو) عاطفة (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسجد ) وهو مضارع مرفوع (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (طوعا ) مصدر في موضع الحال أي طائعا (كرها ) معطوف على (طوعا ) بالواو منصوب (الواو) عاطفة (ظلالهم) معطوف على الموصول من مرفوع . . و (هم) ضمير مضاف إليه (بالغدوّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسجد ) ، (الآصال) معطوف على الغدوّ بالواو مجرور مثله .

وجملة : " يسجد . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة السابقة .

البلاغة

1 - التشبيه المركب التمثيلي : في قوله تعالى وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ أي لكونه جمادا لا يشعر بعطشه وبسط يديه إليه ، حيث شبه آلهتهم حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلا عن الاستطاعة للاستجابة وبقائهم لذلك في الخسارة بحال ماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة فهو لذلك في زيادة الكباد والبوار .

وعن أبي عبيدة ، أن ذلك تشبيه بالقابض على الماء ، في أنه لا يحصل على شيء ، ثم قال :

والعرب تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بالقابض على الماء ، وأنشد قول الشاعر :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها في الود مثل القابض الماء باليد



---

2 - التهكم : في الآية الكريمة ، حيث أخرج الكلام مخرج التهكم بهم ، فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة إلا استجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا ، فهو في الحقيقة من باب التعلق بالحال .

3 - الاستعارة : في قوله تعالى وَلِلَّهِ يَسْجُدُ حيث استعار السجود للانقياد والخضوع .

[سورة الرعد (13) : آية 16]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع

مبتدأ (ربّ) خبر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (قل) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف تقديره ربّ السموات (قل) مثل الأول (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (اتّخذتم) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (تم) ضمير في محلّ رفع فاعل (من دونه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من أولياء - نعت تقدّم على المنعوت - و (الهاء) مضاف إليه (أولياء) مفعول به منصوب (لا يملكون لأنفسهم) مثل لا يستجيبون لهم " 1 "

---

(1) في الآية (14) من هذه السورة.



---

(نفعا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (ضرا) معطوف على (نفعا) منصوب مثله (قل) مثل الأول (هل) حرف استفهام (يستوي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (الأعمى) فاعل مرفوع، وعلامة الرفع الضمة المقدّرة على الألف (البصير) معطوف على الأعمى بالواو مرفوع (أم) بمعنى بل للإضراب (هل تستوي.. النور) مثل هل يستوي... البصير (أم) مثل الأول وبعده همزة مقدّرة (جعلوا) فعل ماض وفاعله (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بحال من (شركاء) وهو مفعول جعلوا

منصوب (خلقوا) مثل جعلوا (كخلقه) جار ومجرور نعت لمحذوف هو مفعول به " 1 " - و (الهاء) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (تشابه) فعل ماض (الخلق) فاعل مرفوع (على) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تشابه) ، (قل اللّه) مثل السابقة (خالق) خبر المبتدأ مرفوع (كلّ) مضاف إليه مجرور (شيء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الواحد) خبر مرفوع (القهّار) خبر ثان مرفوع.

جملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " من ربّ . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " قل (الثانية) . . . " لا محلّ لها استئناف مقرّر لحكاية قولهم.

وجملة: " اللّه (ربّ السموات) . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " قل (الثالثة) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اتّخذتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقدّر هو مقول القول

---

(1) بكون الخلق اسم جمع أو بمعنى المخلوق . . أو هو مفعول مطلق بكون الخلق مصدرا.

أي : أأقررتم بالجواب فاتّخذتم . . أو أعلمتم أنّ الله ربّ السموات والأرض فاتّخذتم " 1 "
.

وجملة : " لا يملكون . . . " في محلّ نصب نعت لأولياء .

وجملة : " قل (الرابعة) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هل يستوي الأعمى . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هل تستوي الظلمات . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلقوا . . . " في محلّ نصب نعت لشركاء .

وجملة : " تشابه الخلق . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة خلقوا .

وجملة : " قل (الخامسة) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الله خالق . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هو الواحد . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ والأعمى هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ، والبصير هو الموحد العالم بذلك . وقيل : إن الكلام على التشبيه ، والمراد لا يستوي المؤمن والكافر كما لا يستوي الأعمى والبصير فلا مجاز .

2 - التهكم : في قوله تعالى أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ في سياق الإنكار ، جيء به للتهكم ، فإن غير الله تعالى لا يخلق شيئا لا مساويا ولا منحطا .

---

(1) يجوز أن تكون الفاء رابطة لجواب شرط مقدّر ، والجملة جواب الشرط أي : إن أقررتم بربوبيّة اللّه فلم اتّخذتم . .

(2) يجوز أن تكون الجملة مستأنفة غير واقعة في حيّز القول .



---

الفوائد

استعارة السجود للانقياد والخضوع في قوله تعالى وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وهما من خصائص العقلاء للكائنات العاقلة وغير العاقلة ، والطوع الناشئ عن اختيار ، وهو الصادر عن الإنسان ، والكره الناشئ عن غير اختيار وهو الصادر عن الجماد . ومعنى انقياد الظلال مطاوعتها لما يراد منها كطولها وقصرها وامتدادها وتقلصها .

ولأبي حيان كلام لطيف نثبته فيما يلي ، دفعا للأوهام ، قال : " وكون الظلال يراد بها الأشخاص كما قال بعضهم ضعيف ، وأضعف منه قول ابن الأنباري : إنه تعالى جعل

للظلال عقولا تسجد لها ، وتخشع بها ، كما جعل للجبال أفهاما حتى خاطبت وخوطبت ، لأن الجبل لا يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به " .

[سورة الرعد (13) : آية 17]

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17)

الإعراب :

(أنزل) فعل ماض ، والفاعل هو (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 1 " ، (ماء) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (سالت) فعل ماض . . و (التاء) للتأنيث (أودية) فاعل مرفوع (بقدرها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سالت) " 2 " و (ها) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (احتمل) مثل أنزل (السيل) فاعل مرفوع (زبدا) مفعول به منصوب (رابيا) نعت للمفعول

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من ماء - نعت تقدّم على المنعوت .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لأودية .

منصوب (الواو) عاطفة (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (يوقدون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يوقدون) ، (في النّار) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الضمير في (عليه) " 1 " ، (ابتغاء) مفعول لأجله " 2 " ، (حلية) مضاف إليه مجرور (أو) حرف عطف (متاع) معطوف على حلية مجرور (زبد) مبتدأ مؤخّر مرفوع (مثله) نعت لزبد مرفوع . . و (الهاء) مضاف إليه (الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يضرب ، والإشارة إلى المذكور المتقدّم و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (يضرب) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الحقّ) مفعول به منصوب على حذف مضاف أي مثل الحقّ (الباطل) معطوف على (الحقّ) بالواو منصوب (الفاء) عاطفة تفريعيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الزبد) مبتدأ مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (يذهب) مثل يضرب ، والفاعل هو (جفاء) حال منصوبة (الواو) عاطفة (أمّا) مثل الأول (ما) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ (ينفع الناس) مثل يضرب . . الحقّ ، والفاعل هو وهو العائد ، (فيمكث) مثل فيذهب (في

الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يمكث) ، (كذلك يضرب اللّه الأمثال) مثل كذلك . . .

الحق .

جملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سالت أودية . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل .

وجملة : " احتمل السيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سالت .

وجملة : " يوقدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ممّا يوقدون . . . زبد " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل فهي

---

(1) أو متعلّق بـ (يوقدون) .

(2) أو مصدر في موضع الحال أي مبتغين حلية . .



---

مثل آخر .

وجملة : " يضرب اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أمّا الزبد فيذهب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يضرب اللّه . .

وجملة : " يذهب جفاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الزبد) " 1 " .

وجملة : " ما ينفع الناس فيمكث . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الزبد فيذهب .

وجملة : " ينفع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يمكث . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " يضرب اللّه (الثانية) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة للتأكيد .

الصرف :

(سالت) فيه إعلال بالقلب أصله سيلت قلبت الياء ألفا لتحرّكها وفتح ما قبلها وزنه فعلت .

(السيل) ، اسم جامد سمّي به الماء الكثير السائل باسم المصدر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(زبدا) ، اسم للوسخ والوضر وما يعلو وجه الماء كالحبب ، وزنه فعل بفتحتين .

(رابيا) ، اسم فاعل من ربا يربو بمعنى زاد ، وهنا بمعنى عال ، وزنه فاعل ، و (الياء) منقلبة عن واو بالإعلال لأنها متحرّكة بعد كسر ، والأصل رابوا بكسر الباء .

(حلية) ، اسم لما يزيّن به من المعدن الثمين أو الأحجار الكريمة ، وزنه

---

(1) أصل الكلام : مهما يكن من شيء فالزبد يذهب جفاء ، فلما استعيض من الشرط بأمّا انقلبت الفاء إلى الخبر .

فعلة بكسر الفاء وفتح العين، جمعها حلي بكسر الحاء وضمّها - والأخير على غير قياس - أمّا حليّ بضمّ وكسرها مع تشديد الياء فهو جمع الحلي، بفتح الحاء وسكون اللام.. انظر الآية (148) من سورة الأعراف.

(جفاء)، اسم لما يلقيه السيل على الجانبين مما لا ينتفع به من جفأ النهر أي رمى بالزبد والقذى، وعلى هذا فالهمزة أصلية.. ويقال: جفأت القدر بزبدها، وأجفأت.. ويقال جفأ الوادي وأجفأ إذا نشف والعكبري يجعل الهمزة منقلبة عن حرف وليس بذلك.

البلاغة

- المثل: في الآية الكريمة مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلا لها، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء، فتسيل به أودية الناس، فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحليّ منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يرمي به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

وقد انطوت تحت هذا المثل الرائع أنواع من البلاغة نوردها باختصار :

آ - تنكير الأودية ، لأن المطر لا يأتي إلا على طريق التناوب بين البقاع .

ب - الاحتراس بقوله " بقدرها " أي بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للمطمور عليهم غير ضار ، وإلا فلو طما واستحال سيلا لاجتاح الأخضر واليابس ولأهلك الحرث والنسل .

ج - مراعاة النظير في ألفاظ الماء والسيل والزبد والربو ، وفي ألفاظ النار والجوهر والفلزات المعدنية والإيقاد والحلية والمتاع .

د - اللف والنشر الموشى في قوله تعالى فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً إلى آخر الآية .

[سورة الرعد (13) : آية 18]

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18)

الإعراب :

(اللام) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 1 "

(استجابوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

و (الواو) فاعل (لربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استجابوا) ، و (هم) ضمير مضاف إليه (الحسنى) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (لم) حرف نفي وجزم (يستجيبوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و (الواو) فاعل (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستجيبوا) ، (لو) حرف شرط غير جازم (أنّ) حرف توكيد ونصب - ناسخ - (لهم) مثل له متعلّق بخبر أنّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم أنّ (في الأرض) جار ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (جميعا) حال منصوبة من ضمير الاستقرار الذي هو خبر.

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم ما في الأرض) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت . . وهو فعل الشرط.

---

(1) أو متعلّق بـ (يضرب) في الآية السابقة - على رأي الزمخشريّ - و (الحسنى) هو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته أي: استجابوا الاستجابة الحسنى.

(2) أو هو في محلّ جرّ معطوف على الموصول الأول (للذين) .

(الواو) عاطفة (مثله) معطوف على محلّ ما منصوب . . و (الهاء) مضاف إليه (معه) ظرف منصوب متعلّق بحال من مثله . . و (الهاء) مثل الأخير (اللام) واقعة في جواب لو (افتدوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و (الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (افتدوا) ، (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و (الكاف) حرف خطاب (لهم) مثل له متعلّق بخبر مقدّم (سوء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الحساب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (مأواهم) مبتدأ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف . . و (هم) ضمير مضاف إليه (جهنّم) خبر مرفوع ، وامتنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (الواو) واو الحال (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (المهاد) فاعل مرفوع . .

(316/414)

---

والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أو جهنّم .

جملة : " استجابوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة : " للذين استجابوا . . . الحسنى " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " الذين لم يستجيبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " لم يستجيبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " (ثبت) ملك الأرض . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 1 ".

وجملة: " افتدوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: " أولئك لهم سوء . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (الذين) " 2 ".

---

(1) يجوز أن تكون الجملة في محلّ نصب حال . . أو لا محلّ لها استئنافيّة في حال عطف الموصول الثاني على الأول. [. . . . . .]

(2) أو لا محلّ لها استئنافيّة.

(317/414)

---

وجملة: " لهم سوء الحساب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك).

وجملة: " مأواهم جهنّم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم سوء الحساب.

وجملة: " بئس المهاد . . . " في محلّ نصب حال.

[سورة الرعد (13) : الآيات 19 إلى 25]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (19) الَّذِينَ

يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)
جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
مِنْ كُلِّ بابٍ (23)

*(318/414)*

---

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ
وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
(25)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو وهو العائد (أنّ) حرف توكيد ونصب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب اسم أنّ (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل)

، (من ربّك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) ، و (الكاف) مضاف إليه (الحقّ) خبر أنّ مرفوع

(الكاف) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر الموصول من (هو)

ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (أعمى) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة

على الألف (إنّما) كافّة ومكفوفة (يتذكّر) مثل يعلم (أولو) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع

(الواو) فهو ملحق بجمع المذكّر (الألباب) مضاف إليه مجرور .

جملة : " من يعلم . . . كمن هو أعمى " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " والمصدر المؤوّل (أنّ ما أنزل

. . الحقّ) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

وجملة : " هو أعمى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " إنّما يتذكّر أولو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) يجوز أن تكون (أنّما) كافّة ومكفوفة ، وجملة أنزل تسدّ مسدّ مفعولي يعلم المعلّق بـ (ما) الكافّة .

(الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت - (أولو) " 1 " ، (يوفون) مضارع مرفوع

وعلامة الرفع ثبوت النون . . و (الواو) فاعل (بعهد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يوفون) ،

(اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لا) نافية (ينقضون) مثل يوفون

(الميثاق) مفعول به منصوب .

وجملة : " يوفون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذّين) .

وجملة : " لا ينقضون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

(الواو) عاطفة (الذين يصلون) مثل الذين يوفون ومعطوف عليه (ما) اسم موصول مبنيّ في

محلّ نصب مفعول به (أمر) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ و

(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمر) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (يوصل) مضارع

مبنيّ للمجهول منصوب ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

والمصدر المؤوّل (أن يوصل) في محلّ جرّ بدل من الضمير في (به) .

(الواو) عاطفة (يخشون ربّهم) مثل ينقضون الميثاق . . و (هم) ضمير مضاف إليه (الواو)

عاطفة (يخافون سوء) مثل ينقضون الميثاق (الحساب) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " يصلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أمر اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يوصل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(1) أو بدل منه . . أو مبتدأ خبره (أولئك لهم عقبى الدار) . . أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . أو مفعول به لفعل محذوف تقديره أمدح.



---

وجملة: "يخشون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصلون.

وجملة: "يخافون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصلون.

(الواو) عاطفة (الّذين) مثل الأول ومعطوف عليه (صبروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) فاعل (ابتغاء) مفعول لأجله منصوب " 1 "، (وجه) مضاف إليه مجرور (ربّهم) مضاف إليه مجرور و (هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أقاموا) مثل صبروا (الصلاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (أنفقوا) مثل صبروا (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنفقوا)، (رزقنا) فعل ماض مبنيّ على السكون.

و (نا) فاعل و (هم) ضمير مفعول به (سرّا) مصدر في موضع الحال " 2 "، (علانية) معطوف على (سرّا) بالواو منصوب (يدرءون) مثل يوفون (بالحسنة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدرءون)، (السيّئة) مفعول به منصوب (أولئك لهم عقبى الدار) مثل أولئك لهم سوء

الحساب " 3 " .

وجملة : " صبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أقاموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أنفقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " رزقناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يدرءون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صبروا .

وجملة : " أولئك لهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 4 " .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي مبتغين .

(2) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي يسرّونه سرّا .

(3) في الآية (18) من هذه السورة .

(4) أو هي خبر للموصول الأول (الذين يوفون . . . ) وما عطف عليه إذا أعرب مبتدأ .



---

وجملة : " لهم عقبى الدار . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

(جنّات) بدل من عقبى " 1 " مرفوع (عدن) مضاف إليه مجرور (يدخلون) مثل يوفون و

(ها) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على ضمير الفاعل في (يدخلونها " 2 " (صلح) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (من آبائهم) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الضمير العائد . . و (هم) مضاف إليه (أزواجهم) معطوف على آبائهم بالواو مجرور فهو مثله، وكذلك (ذرّيّاتهم)، (الواو) استئنافيّة (الملائكة) مبتدأ مرفوع (يدخلون) مثل يوفون (عليهم) مثل لهم متعلّق بـ (يدخلون)، (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدخلون)، (باب) مضاف إليه مجرور.

وجملة: "يدخلونها . . . "في محلّ رفع نعت لجنّات" 3" .

وجملة: "صلح . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "الملائكة يدخلون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يدخلون . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الملائكة) .

(سلام) مبتدأ مرفوع "4 " (عليكم) مثل لهم متعلّق بمحذوف خبر (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ "5 "، (صبرتم) فعل ماض وفاعله.

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي . . . أو مبتدأ خبره جملة يدخلونها، وجاز الابتداء بالنكرة لأنها خصّت بالإضافة.

(2) الذي سوّغ العطف من غير تأكيد الضمير بضمير منفصل وجود الفاصل وهو ضمير المفعول.

(3) أو في محلّ نصب حال من جنّات فهو مضاف .

(4) الذي سوّغ البدء بالنكرة كونها دعاء .

(5) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والجملة صلة ، والعائد محذوف تقديره له ، وفي هذا التخريج ضعف بسبب التأويل .



---

والمصدر المؤوّل (ما صبرتم) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به (عليكم) " 1 " ، (الفاء) عاطفة (نعم) فعل ماض جامد لإنشاء المدح (عقبى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الدار) مضاف إليه مجرور ، والمخصوص بالمدح محذوف أي الجنّة ، أو عقباهم .

وجملة : " سلام عليكم . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي : يقولون : سلام عليكم . . والجملة المقدّرة في محلّ نصب حال .

وجملة : " صبرتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " نعم عقبى الدار . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة سلام عليكم .

(الواو) استئنافيّة (الذين) موصول مبتدأ في محلّ رفع (ينقضون) مثل (يوفون) ، (عهد)

مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينقضون)، (ميثاقه) مضاف إليه مجرور . .

و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يقطعون ما . . . أن يوصل) مثل يصلون ما . . . أن يوصل (الواو) عاطفة (يفسدون) مثل يوفون (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفسدون)، (أولئك لهم اللعنة، ولهم سوء الدار) مثل أولئك لهم عقبى الدار .

وجملة: "الّذين ينقضون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "ينقضون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة: "يقطعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينقضون .

وجملة: "أمر اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "يوصل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: "يفسدون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينقضون .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الثواب بسبب صبركم .

وجملة : " أولئك لهم اللعنة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ الذين .

وجملة : " لهم اللعنة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك .

وجملة : " لهم سوء الدّار . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم اللعنة .

الصرف :

(عقبى) ، اسم بمعنى الجزاء أو آخر كلّ أمر ، وزنه فعلى بضمّ الفاء وسكون العين .

البلاغة

2 - فن الاحتراس : في قوله تعالى وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ فقد انتفى بقوله ابتغاء وجه ربهم أن يكون صبرهم ناشئا عن حب الجاه والشهرة ، أو ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ، لئلا يشمت به الأعداء .

كقول أبي ذؤيب :

وتجلّدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتزعزع

ولا اعتقادا منهم بأن الأمر مقدور ولا مفر منه ولا طائل من الهلع ولا مرد للفائت ولا دافع لقضاء الله .

[سورة الرعد (13) : آية 26]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (26)

الإعراب :

(اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يبسط) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الرّزق) مفعول به منصوب (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبسط) ، (يشاء) مثل يبسط (الواو) عاطفة (يقدر) مثل يبسط (الواو) استئنافيّة (فرحوا) فعل ماض وفاعله ، ويعود إلى الذين

ينقضون عهد اللّه . . (بالحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (فرحوا) ، (الدّنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) واو الحال (ما) ناف مهمل (الحياة) مبتدأ مرفوع (الدّنيا) مثل الأول ، مرفوع (في الآخرة) جار ومجرور حال من الحياة الدّنيا أي مقيسة في جنب الآخرة . . وفيه حذف مضاف (إلّا) أداة حصر (متاع) خبر المبتدأ مرفوع .

جملة : " اللّه يبسط . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يبسط الرّزق . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقدر . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبسط .

وجملة : " فرحوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " ما الحياة . . . إلّا متاع " في محلّ نصب حال.

البلاغة



---

- المجاز: في قوله تعالى وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا أي بما بسط لهم فيها من النعيم، لأن فرحهم ليس بنفس الدنيا، فنسبة الفرح إليها مجازية. أو هناك تقديرا أي ببسط الحياة، أو الحياة الدنيا مجاز عما فيها.

[سورة الرعد (13): الآيات 27 إلى 28]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (يقول) مضارع مرفوع (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض وفاعله (لولا) حرف تحضيض (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل)، (آية) نائب الفاعل مرفوع (من ربّه) جارّ ومجرور نعت لآية " 1 " . .

و(الهاء) مضاف إليه (قل) فعل أمر، والفاعل أنت (إنّ) حرف توكيد ونصب – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (يضلّ) مثل يقول، والفاعل هو (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مثل يقول، والفاعل هو أي اللّه (الواو) عاطفة (يهدي) مثل يقول (إليه) مثل عليه متعلّق بـ (يهدي)، (من) مثل الأول (أناب) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد.

جملة: "يقول ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كفروا ..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "أنزل عليه آية ..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قل ..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنّ اللّه يضلّ ..." في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "يضلّ ..." في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "يشاء ..." لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

وجملة: "يهدي ..." في محلّ رفع معطوفة على جملة يضلّ.

وجملة: "أناب ..." لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

(الذين) موصول في محلّ نصب بدل من الموصول الثاني (من) – أو عطف بيان "2" (آمنوا) مثل كفروا (الواو) عاطفة (تطمئنّ) مثل يقول (قلوبهم)

---

(1) أو متعلّق بفعل أنزل. [. . . . . .]

(2) ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هم.

(325/414)

---

فاعل مرفوع.. و (هم) ضمير مضاف إليه (بذكر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تطمئنّ) " 1 "، (اللّه) مضاف إليه مجرور (ألا) أداة تنبيه (بذكر اللّه تطمئنّ القلوب) مثل تطمئنّ قلوبهم...

وجملة: " آمنوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " تطمئنّ قلوبهم... " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: " تطمئنّ القلوب... " لا محلّ لها في حكم التعليل.

البلاغة

- العدول إلى صيغة المضارع: في قوله تعالى الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ فقد عدل عن عطف الماضي على الماضي، فلم يقل واطمأنت قلوبهم لسر من الأسرار يدق إلا على العارفين بأسرار هذه اللغة. وذلك لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد المنزل من الذكر.

[سورة الرعد (13) : آية 29]

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

الإعراب :

(الذين) موصول مبتدأ (آمنوا) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (عملوا) مثل آمنوا (الصالحات) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (طوبى) مبتدأ مرفوع " 2 " ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ طوبى (الواو) عاطفة (حسن) معطوف على طوبى مرفوع (مآب) مضاف إليه مجرور .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من قلوبهم .

(2) الذي سوّغ الابتداء به وهو نكرة على الظاهر ، إمّا كونه علما بعينه وإمّا كون النكرة جاءت على معنى الدعاء كسلام عليك ، وويل له .



---

جملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " طوبى لهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

الصرف :

(طوبى) ، مصدر من الطيب مثل البشرى والرجعى ، وزنه فعلى بضمّ الفاء ، وفيه إعلال بالقلب وأصله طيبي بضمّ الطاء وسكون الياء . . . فهو من طاب يطيب ، فلمّا جاءت الياء ساكنة بعد ضمّ قلبت واوا .

الفوائد

(1) يقول ابن مالك :

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تخصّص كعند زيد نمرة

فالأصل في المبتدأ أن يكون معرفة ، ولا يكون نكرة الا بمسوّغ ، والمسوغات كثيرة ، قد تبلغ نيفا وثلاثين مسوغا ، وترجع جميعها إلى العموم والخصوص . وإليك أهم هذه المسوغات :

أ- أن يتقدم الخبر على النكرة .

ب - أن يتقدم استفهام على النكرة .

ج - أن يتقدم عليها نفي .

ء - أن توصف النكرة .

ه - أن تكون النكرة عاملة .

و - أن تكون مضافة .

ز - أن تكون شرطا .

ح - أن تكون جوابا .

ط - أن تكون عامة .

ي - أن تكون دعاء .

ك - أن يكون فيها معنى التعجب .

ل - أن تكون خلفا عن موصوف .

م - أن تكون مصغرة .

ن - أن يقع قبلها واو الحال .

س - أن تكون معطوفة على معرفة .

ع - أن يعطف عليها موصوف .

ف - أن تكون مبهمة .

ص - أن تقع بعد لولا .

وثمة مسوغات أخرى ترجع إلى ما ذكرنا لك من المسوغات . وهذا بحث دقيق حقيق بالمراجعة والمعاودة .

[سورة الرعد (13) : آية 30]

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (30)

الإعراب:

(327/414)

---

(الكاف) حرف جرّ وتشبيه "1"، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أرسلناك، والإشارة إلى إرسال الرسل، و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و (نا) فاعل و (الكاف) ضمير مفعول به (في أمّة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلناك) أي إلى أمّة (قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض مبنيّ

---

(1) اختلف المفسّرون والمعربون في تعليق الكاف، فقيل هي متعلّقة بالمعنى الذي في قوله:

يضلّ من يشاء ويهدي أي كما هدى اللّه من أناب كذلك أرسلناك.. وعلّق العكبري الكاف بخبر لمبتدأ مقدّر أي: كذلك الأمر أرسلناك.

على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و (التاء) للتأنيث ، (من قبلها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلت) . . و (ها) ضمير مضاف إليه (أمم) فاعل خلت مرفوع (اللام) للتعليل (تتلو) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (على) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تتلو) ، (الّذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (أوحينا) مثل أرسلنا (إليك) مثل عليهم متعلّق بفعل أوحينا . والمصدر المؤوّل (أن تتلو . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أرسلناك) .

(الواو) واو الحال (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يكفرون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل (بالرّحمن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يكفرون) ، (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (هو) مثل هم (ربّي) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب . . وخبر لا محذوف تقديره موجود (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في الخبر (عليه) مثل عليهم متعلّق بـ (توكّلت) فعل ماض وفاعله (الواو) عاطفة (إليه) مثل عليهم متعلّق بخبر مقدّم (متاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع ، وعلامة الرفع

الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . .

و(الياء) المحذوفة ضمير مضاف إليه أي متابي .

جملة : " أرسلناك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد خلت . . أمم " في محلّ جرّ نعت لأمّة .

وجملة : " تتلو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هم يكفرون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " يكفرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هو) " 1 " .

وجملة : " توكّلت . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبدأ (هو) " 2 " .

وجملة : " إليه متاب . . . " في محلّ معطوفة على جملة توكّلت .

الصرف :

(متاب) ، مصدر ميميّ من تاب يتوب ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله متوب - بسكون التاء وفتح الواو - ثمّ سكّنت الواو ونقلت الحركة إلى التاء قبلها ،

ثمّ قلبت الواو ألفا لانفتاح ما قبلها .

[سورة الرعد (13) : آية 31]

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (أنّ) حرف توكيد ونصب - ناسخ - (قرآنا) اسم أنّ منصوب (سيّرت) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، و (التاء) للتأنيث (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ

---

(1 ، 2) يجوز أن تكون استئنافيّة في حيّز القول .



---

متعلّق بـ (سيّرت) والباء سببيّة (الجبال) نائب الفاعل مرفوع (أو) حرف عطف في الموضعين (قطّعت به الأرض ، كلّم به الموتى) مثل سيّرت به الجبال . .

وعلامة الرفع في الموتى الضمّة المقدّرة على الألف .

والمصدر المؤوّل (أنّ قرآنا . . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت.

(بل) حرف إضراب (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (الأمر) مبتدأ مؤخّر مرفوع (جميعا) حال منصوبة من الأمر، والعامل فيه معنى الاستقرار (الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (ييأس) مضارع مجزوم (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (آمنوا) فعل ماض وفاعله (أن) مخفّفة من الثقيلة "1"، واسمها ضمير الشأن محذوف (لو) مثل الأولى (يشاء) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (اللام) واقعة في جواب لو (هدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف، والفاعل هو (الناس) مفعول به منصوب (جميعا) حال من الناس منصوبة.

والمصدر المؤوّل (أنه) لو يشاء . . في محلّ نصب مفعول به لفعل ييأس بتضمينه معنى يعلم "2".

(الواو) استئنافيّة (لا) نافية (يزال) مضارع ناقص - ناسخ - (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع اسم لا يزال (كفروا) فعل ماض وفاعله (تصيبهم) مضارع مرفوع . . و (هم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ "3"، (صنعوا) مثل كفروا (قارعة) فاعل تصيبهم مرفوع (أو)

---

(1) هذا قول الجمهور . . واختار أبو حيّان أن تكون (أن) زائدة في صدر جملة جواب القسم المقدّر، والتقدير: أقسم أن لو يشاء اللّه لهدى . .

(2) وقالوا هي لغة هوازن أو حيّ من النخع بمعنى يعلم .

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والجملة بعده صلة ، والعائد محذوف أي : بما صنعوه .

*(330/414)*

---

حرف عطف (تحلّ) مثل تصيب ، والفاعل : إمّا القارعة وإمّا ضمير الخطاب الموجّه إلى الرسول عليه السلام (قريبا) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تحلّ) - وهو صفة لموصوف محذوف أي مكانا قريبا - (من دارهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قريبا) . . و (هم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (ما صنعوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تصيب) .

(حتّى) حرف غاية وجرّ (يأتي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (وعد) فاعل مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه والمصدر المؤوّل (أن يأتي . . ) في محلّ جرّ بـ (حتّى) ، متعلّق بـ (تحلّ) .

(إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يخلف) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الميعاد) مفعول به منصوب .

جملة : " (ثبت) تسير الجبال . . . " لا محلّ لها استئنافية ، وجواب الشرط محذوف

تقديره لما آمنوا أو لكان هذا القرآن.

وجملة: " سيّرت به الجبال . . . " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: " قطّعت به الأرض . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة سيّرت.

وجملة: " كلّم به الموتى . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة قطّعت.

وجملة: " للّه الأمر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

(331/414)

---

وجملة: " ييئس الذين آمنوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي: أغفلوا عن كون الأمر للّه فلم يعلموا . .

وجملة: " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: " يشاء اللّه . . . " في محلّ رفع خبر أن المخفّفة.

وجملة: " هدى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) الثاني.

وجملة: " لا يزال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: " تصيبهم . . قارعة " في محلّ نصب خبر لا يزال.

وجملة: " صنعوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: " تحلّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تصيبهم .

وجملة: " يأتي وعد اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) مضمرا .

وجملة: " إنّ اللّه لا يخلف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " لا يخلف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف:

(قارعة) . مؤنّث قارع ، اسم فاعل من قرع الثلاثيّ ، وزنه فاعل والمؤنّث فاعلة .

البلاغة

الإيجاز: في قوله تعالى وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ إلى آخر الآية ، حيث أن جواب " لو " محذوف لانسياق الكلام إليه ، واختلف المفسرون والمعربون في تقديره ، فقدره الزمخشري " لما آمنوا به " ولكنه جعله مرجوحا وقدر الأرجح بقوله " لكان هذا القرآن " .

- اختلف المعربون في تقدير جواب " لو " في هذه الآية ، وذهبوا به مذاهب ، والذي يتسارع إلى الذهن من سياق الكلام أن يكون الجواب " لما آمنوا " فتدبر فإن التقدير ملكة من الذوق وحسن الإدراك .

[سورة الرعد (13) : آية 32]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32)

الإعراب :

(332/414)

---

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (استهزئ) ماض مبنيّ للمجهول (برسل) جارّ ومجرور نائب الفاعل (من قبلك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استهزئ) . . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أمليت) فعل ماض وفاعله (اللام) حرف جرّ (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمليت) ، (كفروا) فعل ماض وفاعله (ثمّ) حرف عطف (أخذتهم) مثل أمليت . . و (هم) ضمير مفعول به (الفاء) عاطفة (كيف) اسم استفهام فيه معنى الوعيد والتقرير خبر (كان) الناقص (عقاب) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، ولفاصلة الآي . . و (الياء) المحذوفة ضمير مضاف إليه .

جملة : " استهزئ برسل . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " أمليت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "أخذتهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أمليت.

وجملة: "كان عقاب . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أمليت " 1 " .

[سورة الرعد (13) : آية 33]

أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة بعد الفاء الاستئنافيّة.



---

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، وخبره محذوف تقديره كمن ليس كذلك . .

(هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (قائم) خبر مرفوع (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قائم) (نفس) مضاف إليه مجرور (بما كسبت) مثل بما صنعوا " 1 " ، والفاعل هي عائد على النفس (الواو) استئنافيّة " 2 " ، (جعلوا) مثل كفروا " 3 " ، (اللّه) جارّ

ومجرور متعلّق بحال من (شركاء) وهو مفعول به منصوب قل فعل أمر والفاعل أنت (سمّوهم) فعل أمر مبني على حذف النون . .

و(الواو) فاعل، و (هم) ضمير مفعول به (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (تنبّئونه) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل، و (الهاء) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تنبّئون)، (لا) حرف ناف (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو، وهو العائد (في الأرض) جار ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لفعل يعلم " 4 "، (أم) مثل الأول (بظاهر) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف تقديره تسمّونهم (من القول) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (ظاهر)، (بل) للإضراب (زيّن) فعل ماض مبنيّ للمجهول (للذين كفروا) مرّ إعرابها " 5 "، والجار متعلّق بـ (زيّن)، (مكرهم) نائب الفاعل مرفوع . . و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (صدّوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول، مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) نائب فاعل . (عن السبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (صدّوا)، (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (يضلل) مضارع مجزوم فعل الشرط وحرّك بالكسر

---

(1) في الآية (31) من هذه السورة .

(2) أو حاليّة، والجملة بعدها في محلّ نصب حال .

(3) في الآية السابقة (32) .

(4) والمفعول الأول محذوف أي لا يعلمه موجودا في الأرض.

(5) في الآية السابقة (32). [.....]

(334/414)

---

لالتقاء الساكنين (اللّه) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (هاد) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر، أو هو اسم ما العاملة عمل ليس مؤخّر، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على آخره لأنه اسم منقوص، وحذفت الياء لمناسبة التنوين.

جملة: "من هو قائم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " هو قائم... " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "كسبت... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسمي أو الحرفي.

وجملة: " جعلوا... " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 ".

وجملة: " قل... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " سمّوهم... " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " تنبّئونه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لا يعلم ... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: "(تسمّونهم) بظاهر ... "لا محلّ لها استئنافيّة "2" .

وجملة: "زيّن .. مكرهم "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "كفروا ... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "صدّوا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة زيّن ...

وجملة: "يضلل اللّه ... "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "ما له من هاد ... "في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

---

(1) أو في محلّ نصب حال .

(2) يجوز أن تكون (أم) متّصلة فتعطف ما بعدها على جملة تنبّئونه ... أو تعطف الجارّ بظاهر على الجارّ بما لا يعلم .

(335/414)

---

الصرف:

(سمّوهم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون أصله سميوهم حذفت الياء بعد نقل حركتها إلى الميم وزنه فعّوهم .

البلاغة

(1) الاستفهام الإنكاري : في قوله تعالى أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ الخبر محذوف ، أي كمن ليس كذلك ، إنكارا لذلك . وإدخال الفاء لتوجيه الإنكار إلى توهم المماثلة ، وحذف الخبر تصريحا في التوبيخ والزراية عليهم .

(2) وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فوضع المظهر موضع المضمر ، للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما ، وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الإبهام .

3 - التعجيز : في قوله تعالى قُلْ سَمُّوهُمْ تبكيت إثر تبكيت ، أي سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ وفي البحر : أن المعنى أنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، انما يذكر ويسمى من ينفع ويضر ، وهذا مثل أن يذكر لك أن شخصا يوقر ويعظم ، وهو عندك لا يستحق ذلك ، فتقول لذاكره : سمه حتى أبين لك زيفه وأنه بمعزل عن استحقاق ذلك .

4 - الكناية : في قوله تعالى أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أي بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم سبحانه وتعالى ، والمراد نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية ، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها وهو الذي لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فهي لا حقيقة لها أصلا .

5 - الاستدراج : بقوله أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ليحثهم على التفكير دون القول المجرد من الفكر

، كقوله في مكان آخر ذِلكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها وهذا الاحتجاج من أعجب الأساليب وأقواها .

[سورة الرعد (13) : آية 34]

لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (34)

الإعراب :



---

(لهم عذاب) مثل إليه متاب " 1 " ، (في الحياة الدّنيا) مرّ إعرابها " 2 " ، والجارّ متعلّق بنعت لعذاب (الواو) عاطفة (اللام) للابتداء تفيد التوكيد (عذاب) مبتدأ مرفوع (الآخرة) مضاف إليه مجرور (أشقّ) خبر مرفوع.

(الواو) عاطفة (ما لهم من واق) مثل ماله من هاد " 3 " ، (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق ب (واق) " 4 " .

جملة : " لهم عذاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " لعذاب الآخرة أشقّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 5 " .

وجملة : " ما لهم . . من واق " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

الصرف :

(أشقّ) ، اسم تفضيل من شقّ الثلاثيّ ، وزنه أفعل ، وقد أدغمت عينه ولامه فهما حرف واحد .

(واق) ، اسم فاعل من وقى الثلاثيّ ، وزنه فاع ، ففيه إعلال بالحذف

---

(1) في الآية (30) من هذه السورة .

(2) في الآية (26) من هذه السورة .

(3) في الآية (33) السابقة .

(4) أو متعلّق بالخبر المتقدّم .

(5) يحتمل أن تكون الجملة حالا من الضمير الغائب في (لهم) ، والرابط مقدّر أي أشقّ لهم .. أو يكتفى بالواو والعامل في الحال الاستقرار .



---

لالتقاء الساكنين لأنه اسم منقوص ولمناسبة التنوين .

الفوائد

(1) يجد القارئ في هذه الآيات تكرار حذف الياء ، مراعاة للفواصل وجرس الكلام .

ولكن حذف المذكور ليس من نوع واحد . ففي لفظ " عقاب " حذفت ياء المتكلم ، والقارئ يقدرها من سياق الكلام ، وفي كلمتي " هاد وواق " حذفت الياء التي هي من أصل الكلمة ، وسبب حذفها التقاء الساكنين " التنوين والياء الساكنة في آخر الاسم المنقوص . ولدى الوقوف على أواخر الآيات يحصل الجرس المطلوب الذي نلحظه دائما وأبدا في نسق القرآن الكريم . وهو عامل من عوامل إعجازه وبلاغته .

[سورة الرعد (13) : آية 35]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35)

الإعراب :

(مثل) مبتدأ مرفوع (الجنّة) مضاف إليه مجرور . . والخبر محذوف تقديره كائن في ما نقصّه أو نتلوه (الّتي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للجنّة (وعد ) فعل ماض مبنيّ للمجهول (المتّقون) نائب الفاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو ، والعائد محذوف أي وعد بها (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحتها ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 1 " . . و (ها ) ضمير مضاف إليه مجرور (الأنهار ) فاعل مرفوع (أكلها )

---

(1) أو بمحذوف حال من الأنهار .

مبتدأ مرفوع . . و (ها ) مثل الأخير (دائم) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (ظلّها ) معطوف على أكلها " 1 " ، (تلك) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب ، والإشارة إلى الجنّة (عقبى) خبر مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (اتّقوا ) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و (الواو) فاعل (الواو) عاطفة (عقبى) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع كالأول (الكافرين) مضاف إليه مجرور ، وعلامة الجرّ الياء (النار) خبر مرفوع.

جملة : " مثل الجنّة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " وعد المتّقون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " تجري . . الأنهار . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " أكلها دائم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 3 " .

وجملة : " تلك عقبى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عقبى الكافرين النار . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تلك عقبى . .

الصرف :

(دائم) ، اسم فاعل من دام الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، وفيه قلب حرف العلّة همزة لأن فعله معتلّ أجوف أصله دوام - الألف أصلها واو ، مضارعه يدوم - .

---

(1) أو هو مبتدأ ، والخبر محذوف ، والعطف من عطف الجمل .

(2) أو في محلّ نصب حال من العائد المقدّر أي وعد بها المتّقون جارية من تحتها الأنهار .

(3) أو في محلّ نصب حال ثانية من العائد المقدّر أي دائما أكلها .

*(339/414)*

---

[سورة الرعد (13) : آية 36]

وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (36)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الّذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ (آتيناهم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل ، و (هم) ضمير مفعول به (الكتاب) مفعول به ثان منصوب

(يفرحون) مضارع مرفوع . .

و(الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يفرحون) ، (أنزل) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) ، (الواو) عاطفة (من الأحزاب) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (ينكر) مضارع مرفوع ، والفاعل هو وهو العائد (بعضه) مفعول به منصوب . . و (الهاء) مضاف إليه (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (إنّما) كافّة ومكفوفة (أمرت) مثل أنزل . . و (التاء) نائب الفاعل (أن) حرف مصدريّ (أعبد) مضارع منصوب ، والفاعل أنا (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا) نافية (أشرك) مثل أعبد ومعطوف عليه (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أشرك) .



---

والمصدر المؤوّل (أن أعبد . . ) في محلّ نصب مفعول به عامله أمرت .

(إليه) مثل به متعلّق بـ (أدعو) وهو مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو (الواو) عاطفة (إليه) مثل به متعلّق بخبر مقدّم (مآب)

مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . و (الياء) المحذوفة ضمير مضاف إليه .

جملة : " الذين آتيناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يفرحون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " أنزل إليك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " من الأحزاب من ينكر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ينكر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أمرت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا أشرك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعبد .

وجملة : " أدعو . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 1 " .

وجملة : " إليه مآب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إليه أدعو .

[سورة الرعد (13) : آية 37]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (37)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (كذلك أنزلناه) مثل كذلك أرسلناك " 2 "، (حكما) حال منصوبة من الضمير الغائب أي حاكما (عربيّا) نعت لـ (حكما)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل أشرك.

(2) في الآية (30) من هذه السورة.

*(341/414)*

---

منصوب " 1 "، (الواو) استئنافيّة، (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (اتّبعت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط.. و (التاء) فاعل (أهواءهم) مفعول به منصوب.. و (هم) ضمير مضاف إليه (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (اتّبعت)، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (جاءك) فعل ماض.. و (الكاف) مفعول به، والفاعل هو وهو العائد (من العلم) جارّ ومجرور حال من العائد (مالك... ولا واق) مرّ إعراب نظيرها " 2 "، و (لا) زائدة لتأكيد النفي (واق) معطوف على وليّ يأخذ إعرابه.

جملة : " أنزلناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن اتّبعت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاءك من العلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما لك . . من وليّ " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

الفوائد

- يتساءل المعرب : لماذا لم تقترن جملة ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ بالفاء ؟ والجواب على ذلك : أنه قد اجتمع في الآية قسم وشرط ، وقد تقدم القسم على الشرط ، فجاء الجواب للمتقدم وأما جواب الشرط ، فقد دلّ عليه جواب القسم ، وجواب القسم لا يقتضي لزوم ارتباطه بالفاء . فعد إلى هذا البحث في مظانه فقد أوليناه حقه هناك .

---

(1) أو حال ثانية منصوبة - الجمل في حاشيته - . [ . . . . . ]

(2) في الآية (33) من هذه السورة .

[سورة الرعد (13) : آية 38]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (38)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) فعل ماض وفاعله (رسلا) مفعول به منصوب (من قبلك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا) ، و (الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (جعلنا) مثل أرسلنا (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (جعلنا) " 1 " ، (أزواجا) مفعول به منصوب (ذرّيّة) معطوف على (أزواجا) بالواو منصوب (الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (لرسول) جارّ ومجرور خبر كان (أن يأتي) مثل أن أعبد " 2 " ، (بآية) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتي) ، (إلّا) استثناء (بإذن) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مستثنى من أعمّ الأحوال (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . .) في محلّ رفع اسم كان .

(لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (أجل) مضاف إليه مجرور (كتاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع .

جملة : " أرسلنا رسلا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة: "جعلنا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف مفعول به ثان لـ (جعلنا).

(2) في الآية (36) من هذه السورة.

*(343/414)*

---

وجملة: "ما كان لرسول ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم " 1 ".

وجملة: "لكلّ أجل كتاب ... "لا محلّ لها تعليليّة أو استئناف بيانيّ.

[سورة الرعد (13) : آية 39]

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (39)

الإعراب:

(يمحو) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو (اللّه) لفظ الجلالة فاعل

مرفوع (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع، والفاعل هو

(الواو) عاطفة (يثبت) مثل يشاء (الواو) عاطفة (عنده) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف

خبر مقدّم..

و(الهاء) مضاف إليه (أمّ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الكتاب) مضاف إليه.

جملة : " يمحو اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يثبت . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " عنده أمّ الكتاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " .

البلاغة

- فن الاستخدام : في قوله تعالى لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ وهذا الفن هو فن رفيع من فنون البلاغة ، أطلق عليه علماء هذا الفن اسم " فن الاستخدام " ، وعرفوه بتعريفات لا تخلو من غموض . فأما تعريفه كما أورده ابن أبي الإصبع وابن منقذ وصاحب نهاية الأرب فهو : أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان ، ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما

---

(1) أو معطوفة على جملة القسم المقدّرة المستأنفة .

(2) أو في محلّ نصب حال من فاعل يمحو ، ويثبت .

وتستخدم كل لفظة منهما أحد محملي اللفظة المتوسطة ، ففي الآية المذكورة لفظة "كتاب" تحتمل الأمد المحتوم ، بدليل قوله تعالى حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ أي أمده ، أي أمد العدة ، وأجله منتهاه ، والكتاب المكتوب ، وقد توسطت لفظة كتاب بين لفظتي "أجل" و "يمحو" ، فاستخدمت لفظة أجل أحد مفهوميها وهو الأمد ، واستخدمت لفظة يمحو مفهومها الآخر وهو المكتوب ، فيكون التقدير على ذلك : لكل حد مؤقت مكتوب يمحى ويثبت .

الفوائد

- نزلت هذه الآية ردا على الذين استنكروا النسخ من المشركين ، واتخذوه وسيلة للطعن بالقرآن والتشهير بالرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ . وقد فند مزاعمهم مبينا أن التغيير كما يقول الفقهاء يحصل بالفروع التي لا ينكر تغير أحكامها بتغير الزمان والمكان .

فهي تدور في فلك المنفعة العامة ومصالح الناس .

(345/414)

---

وأما المقاصد الثابتة ، والمبادئ العامة ، فهي الباقية الخالدة التي لا ينالها تبديل أو تغيير ، وهي المشار إليها بـ "أم الكتاب" . فتأمل فقه هذا الدين ، عصمنا الله وإياكم من الزلل والأوهام .

[سورة الرعد (13) : الآيات 40 إلى 41]

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40)

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم أدغم مع ما و (ما) زائدة (نرينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط، و (النون)

للتوكيد و (الكاف) ضمير مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (بعض) مفعول به ثان منصوب (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (نعدهم) مضارع مرفوع.. و (هم) ضمير مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (أو) حرف عطف (نتوفّينّك) مثل نرينّك ومعطوف عليه (الفاء) تعليليّة (إنّما) كافّة ومكفوفة (على) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (البلاغ) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (علينا الحساب) مثل عليك البلاغ.

جملة: "نرينّك..." لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب الشرط محذوف تقديره فذلك شافيك.

وجملة: "نعدهم..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة : " توفّينّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف تقديره فلا لوم عليك .

وجملة : " عليك البلاغ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " علينا الحساب . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

(346/414)

---

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (يروا) مضارع مجزوم ، وعلامة الجزم حذف النون . . و (الواو) فاعل (أنّا) حرف توكيد ونصب . . و (نا) اسم أن (نأتي) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء والفاعل نحن للتعظيم (الأرض) مفعول به منصوب (ننقصها) مثل نأتي . . و (ها) مفعول به (من أطرافها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ننقصها) ، و (ها) ضمير مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحكم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (لا) نافية للجنس (معقّب) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (لحكمه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر لا . .

و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (سريع) خبر مرفوع (الحساب) مضاف إليه مجرور .

وجملة: "لم يروا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نرينّك.

وجملة: "نأتي ... " في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّا نأتي ..) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا.

وجملة: "ننقصها ... " في محلّ نصب حال من فاعل نأتي، أو من مفعوله.

وجملة: "اللّه يحكم ... " لا محلّ لها استئنافيّة فيها حكم التعليل.

وجملة: "يحكم ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه).

وجملة: "لا معقّب لحكمه ... " في محلّ نصب حال أي نافذا حكمه.

وجملة: "هو سريع ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اللّه يحكم.

الصرف:

(معقّب)، اسم فاعل من الرباعيّ عقّب، وزنه مفعّل بضمّ الميم وكسر العين.

البلاغة



---

- الالتفات: في قوله تعالى أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ التفات من المتكلم إلى الغيبة، وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة

على الفخامة، وتربية المهابة، وتحقيق مضمون الخبر، بالإشارة إلى العلة التي هي السبب في إتيان الأرض وانتقاص أطرافها، ونقل السيطرة من الظالمين بالأمس إلى المظلومين، ومن الغالبين بالأمس إلى المغلوبين، وهذه الفخيمة لا تتأتى إلّا بإيراد الكلام في معرض الغيبة.

[سورة الرعد (13) : آية 42]

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قد) حرف تحقيق (مكر) فعل ماض (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل (من قبلهم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول... و(هم) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (المكر) مبتدأ مرفوع (جميعا) حال منصوبة (يعلم) مضارع مرفوع، والفاعل هو (ما) حرف مصدريّ "1" (تكسب) مثل يعلم (كلّ) فاعل مرفوع (نفس) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (السين) حرف استقبال (يعلم) مثل الأول (الكفّار) فاعل مرفوع (اللام) حرف جرّ (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عقبى) مبتدأ مؤخّر مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الدار) مضاف إليه مجرور.

جملة: "مكر الذين..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "للّه المكر... "في محلّ جواب شرط مقدّر أي إن يمكروا فلله المكر "2".

وجملة: "يعلم... "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "تكسب كلّ... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ.

والمصدر المؤوّل (ما تكسب...) في محلّ نصب مفعول به.

وجملة: "سيعلم الكفّار... "لا محلّ لها معطوفة على جملة قد مكر الذين...

وجملة: "لمن عقبى الدار... "في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق بالاستفهام (من).

---

(1) أو اسم موصول في محلّ نصب مفعول به، والجملة بعده صلة له، والعائد محذوف اي تكسبه.

(2) يجوز أن تكون تعليليّة لكلام مقدّر أي: لا عبرة لمكرهم فلله المكر.



---

[سورة الرعد (13): آية 43]

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يقول) مضارع مرفوع (الذين) موصول في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض وفاعله (لست) فعل ماض ناقص جامد مبنيّ على السكون . . و (التاء) اسم ليس (مرسلا) خبر منصوب (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (كفى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (الباء) حرف جرّ زائد (اللّه) لفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل كفى (شهيدا) تمييز منصوب " 1 " ، (بيني) ظرف منصوب متعلّق بـ (شهيدا) ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) عاطفة (بينكم) مثل الأول ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على محلّ لفظ الجلالة (عنده) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم . . و (الهاء) مضاف إليه (علم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور .

جملة : " يقول الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لست مرسلا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : "كفى باللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة: "عنده علم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) . انتهى انتهى. ا هـ ﴿الجدول

حـ 13 صـ 150.85﴾

---

(1) أو حال منصوبة.

(349/414)

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(13) سورة الرّعد

مدنيّة وآياتها ثلاث وأربعون

[سورة الرعد (13) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ

الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ

الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ

النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ

أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

اللغة :

(عَمَدٍ) بفتحتين وقد اضطربت أقوال علماء اللغة فقال بعضهم هو جمع عماد على غير قياس والقياس أن يجمع على عمد بضم العين والميم وقيل إن عمدا جمع عماد في المعنى أي انه اسم جمع لا جمع صناعي والذي في القاموس والتاج : " العمود ما يقوم عليه البيت وغيره وقضيب الحديد وجمعه أعمدة وعمد وعمد " وقال بعضهم :

والعمد جمع عمود ولم يأت في كلام العرب على هذا الوزن إلا أحرف أربعة : أديم وأدم وعمود وعمد وأفيق وأفق وإهاب وأهب ، وزاد الفراء خامسا : قضيم وقضم يعني الصكاك والجلود .

)



---

صِنْوانٌ) : الصنو بكسر الصاد وفتحها وضمها نخلة لها رأسان وأصلهما واحد والاثنان صنوان والجمع صنوان بكسر الصاد فيهما وفي المختار " إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل

واحد فكل واحدة منهن صنو والاثنتا ن صنوان والجمع صنوان " أي فهو معرب وفي الأساس : " شجر صنوان : من أصل واحد وكل واحد صنو ومن المجاز : هو شقيقه وصنوه قال :

أتتركني وأنت أخي وصنوي فيا للناس للأمر العجيب

وركيتا ن صنوان متقاربتا ن وتصغيره : صنيّ قالت ليلى الاخيلية :

أنابغ لم تنبغ ولم تك أولا وكنت صنيّا بين صدّين مجهلا

أي ركيا مجهولا بين جبلين ، وقال بعض اللغويين : " والصنو الفرع يجمعه وفرعا آخر أصل واحد والمثل " وفي الحديث " عم الرجل

صنو أبيه " أي مثله أو لأنهما يجمعهما أصل واحد والنخيل والنخل بمعنى واحد والواحدة نخلة قال :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورحمة اللّه السلام

وعبارة أبي حيان :

" الصنو الفرع يجمعه وآخر أصل واحد وأصله المثل ومنه قيل للعم صنو وجمعه في لغة الحجاز صنوان بكسر الصاد كقنو وقنوان وبضمها في لغة تميم وقيس كذئب وذؤبا ن ويقال صنوان بفتح الصاد وهو اسم جمع لا جمع تكسير لأنه ليس من أبنيته " وقال : " ونظير هذه الكلمة قنو وقنوان ولا يوجد لهما ثالث " .

(الْأُكُلِ) : بضم الكاف وسكونها وفي المصباح : الأكل بضمتين واسكان الثاني للتخفيف : المأكول .

الاعراب :

(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) المر : تقدم اعرابها والقول فيها وفي أوائل السور عموما واسم الاشارة مبتدأ وآيات الكتاب خبر .

)



---

وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة من عطف الجمل على الجمل والذي مبتدأ وجملة أنزل إليك صلة ومن ربك جار ومجرور متعلقان بأنزل أيضا والحق خبر الذي ولكن الواو حالية ولكن حرف استدراك ونصب وأكثر الناس اسمها وجملة لا يؤمنون خبرها . (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ) الله مبتدأ والذي خبره ويجوز أن يكون صفة والخبر سيأتي وجملة

رفع السموات صلة وبغير عمد هذا الجار والمجرور في محل نصب على الحال من السموات أي رفعها خالية من عمد وجملة ترونها فيها وجهان أولهما أن تكون مستأنفة ويكون الضمير عائدا على النون أو نصبا على الحال من السموات أي مرئية لكم ويجوز أن تكون صفة لعمد إذا كان الضمير عائدا إليها والجملة كلها مستأنفة مسوقة للشروع في ذكر دلائل العالم العلوي تمهيدا لذكر دلائل العالم السفلي . (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي واستوى فعل ماض وفاعل مستتر وعلى العرش متعلقان باستوى وسخر الشمس والقمر عطف على استوى وكل مبتدأ وتقدم الكلام في تسويغ الابتداء به وجملة يجري خبر ولأجل متعلقان بيجري ومسمى صفة . (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) الجملة مستأنفة أو خبر لله على ما تقدم ويدبر الأمر فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ويفصل الآيات عطف ولعل واسمها وبلقاء ربكم متعلقان بتوقنون وجملة توقنون خبر لعلكم . (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا) هو مبتدأ والذي خبره وجملة مدّ الأرض صلة وجعل عطف على مدّ وفيها متعلقان بجعل ورواسي مفعول به وأنهارا عطف عليه .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) يجوز في هذا الجار والمجرور أن يتعلق بجعل بعده والتقدير وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال

من اثنين لأنه في الأصل صفة له ويجوز أن يتم الكلام عند قوله من كل الثمرات فيتعلق بجعل الأولى والتقدير أنه جعل في الأرض كذا وكذا ومن كل الثمرات ويكون جعل الثاني مستأنفا وفيها متعلقان بجعل على كل حال وزوجين مفعول جعل واثنين صفة لزوجين. (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ) الجملة مستأنفة أو حال من فاعل

(353/414)

---

الأفعال قبلها والفاعل ليغشي مستتر والليل مفعول أول والنهار مفعول ثان والمعنى يلبسه مكانه فيصير أسود مدلهما بعد ما كان أبيض منيرا والأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي ولذلك جعلناه المفعول الأول وان كان الكلام يحتمل الثاني. (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) إن وخبرها المقدم ولآيات اللام المزحلقة للتأكيد وآيات اسم ان المؤخر ولقوم صفة لآيات وجملة يتفكرون صفة لقوم. (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ) الواو عاطفة وفي الأرض خبر مقدم وقطع مبتدأ مؤخر ومتجاورات صفة لقطع أي بقاع مختلفة متباينة مع كونها متجاورة.

(وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ) وجنات عطف على قطع ومن أعناب صفة وزرع ونخيل معطوفان أيضا وصنوان صفة لنخيل وغير عطف وصنوان

مضاف إليه . (يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) جملة يسقى صفة لجنات وما بعدها وبماء متعلقان بيسقى وواحد صفة لماء ونفضل بعضها فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وعلى بعض متعلقان بنفضل وفي الأكل حال من بعضها أي نفضل بعضها مأكولا أو وفيه الأكل ويجوز أن يتعلق بنفضل لأنه ظرف له . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) تقدم اعراب مثيلتها قريبا .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " ثم استوى على العرش " استعارة مكنية أو تخييلية حسب تعريف الأقدمين لها فالمستعار الاستواء والمستعار منه كل جسم مستو والمستعار له الحق سبحانه ليتخيل السامع عند سماع لفظ هذه الاستعارة ملكا فرغ من ترتيب ممالكه وتشييد ملكه



---

وجميع ما تحتاج اليه رعاياه وجنده من عمارة بلاده ، وتدبير أحوال عباده استوى على سرير ملكه استواء عظمة فيقيس السامع ما غاب عن حسه من أمر الإلهية على ما هي متخيلة ولهذا لا يقع ذكر الاستواء على العرش إلا بعد الفراغ من خلق السموات والأرض

وما بينهما وإن لم يكن ثمة سرير منصوب ولا جلوس محسوس ولا استواء على ما يدل عليه الظاهر من تعريف هيئة مخصوصة .

2- وفي قوله تعالى " بغير عمد ترونها " فن رفيع تقدم ذكره وهو نفي الشيء بإيجابه أي رفع السموات خالية من العمد فالوجه انتفاء العمد والرؤية جميعا فلا رؤية ولا عمد .

وقد أثارت هذه الآية في النفس موضوع غزو القمر وكيف ارتاد الإنسان الفضاء ورأى عجائب صنع اللّه وشهد الأرض معلقة والقمر معلقا وكذلك الكواكب والنجوم الأخرى معلقات بغير سناد يسندها ولا عمد تقوم عليها مصداقا لقول اللّه " بغير عمد ترونها " .

[سورة الرعد (13) : الآيات 5 إلى 6]

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (6)

اللغة :

)

(الْمَثُلاتُ) : جمع مثلة بفتح الميم وضم الثاء وفي القاموس : المثلة العقوبة وما أصاب القرون الماضية من العذاب وهي عبر يعتبر بها ، وشرحها الزمخشري شرحا لطيفا فقال : المثلة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة . وقال غيره : المثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالا يرتدع غيره به . وقال ابن الأنباري : المثلة كسمرة العقوبة التي تبقي في المعاقب شيئا بتغيير بعض خلقه من قولهم مثل فلان بفلان إذا شان خلقه بقطع أنفه وسمل عينيه وبقر بطنه .

الاعراب :

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) الواو استئنافية وإن شرطية وتعجب فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره أنت يا محمد والفاء رابطة وعجب خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر وجملة فعجب قولهم في محل جزم جواب الشرط الجازم . (أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) هذه الجملة مقول للقول ولك أن تعربها بدلا منه والهمزة للاستفهام الانكاري وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه ومتعلق بجوابه وهو مدلول قوله أإنا لفي خلق جديد والتقدير نبعث أو نحشر واختار أبو حيان أن تكون إذا متمحضة للظرف وليس فيها معنى للشرط فالعامل فيها محذوف يفسره ما يدل عليه الجملة الثانية وتقريره أنبعث أو أنحشر ، وكنا كان واسمها وترابا خبرها ، أإنا الهمزة للاستفهام الانكاري وان واسمها واللام المزحلقة

وفي خلق خبر إن وجديد صفة لخلق . (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) أولئك مبتدأ والذين خبره وجملة



كفروا صلة وبربهم متعلقان بكفروا . (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) الواو عاطفة وأولئك مبتدأ والأغلال مبتدأ ثان وفي أعناقهم خبر الأغلال والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الاول والأغلال جمع غل وهو طوق من حديد يجعل في العنق . (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) الواو عاطفة أيضا وأولئك مبتدأ وأصحاب النار خبره وهم مبتدأ وفيها متعلقان بخالدون وخالدون خبرهم وجملة هم فيها خالدون خبر ثان لأولئك أو حال . (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) الواو عاطفة ويستعجلونك فعل وفاعل ومفعول به وبالسيئة متعلقان بيستعجلونك لأنه ظرف للاستعجال . (وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) الواو للحال وقد حرف تحقيق وخلت فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوفة للالتقاء الساكنين ومن قبلهم متعلقان بخلت والمثلات فاعل خلت . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ) الواو للحال أيضا وان واسمها واللام المزحلقة وذو مغفرة خبر إن وللناس جار ومجرور متعلقان بمغفرة وعلى ظلمهم حال من الناس والعامل فيها

مغفرة لأنه العامل في صاحبها والمعنى ظالمين لأنفسهم ومعنى على هنا المصاحبة أي كمع .

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وشديد العقاب خبرها .

الفوائد :

في هذه الآية فن من فنون العرب في كلامهم وهو القلب وذلك في قوله تعالى : " وأولئك الأغلال في أعناقهم " لأن الأعناق هي التي تكون في الأغلال ولا عكس ومنه قول رؤبة :

ومهمه مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أي كأن لون سمائه لون أرضه فعكس التشبيه مبالغة وحذف المضاف .

[سورة الرعد (13) : الآيات 7 إلى 11]



---

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (7) اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (8) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (9) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (10) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (11)

اللغة :

(الْأَرْحامُ) : جمع رحم بفتح الراء وكسر الحاء وبكسر الراء وسكون الحاء مستودع الجنين في أحشاء الحبلى وهي مؤنثة والرحم أيضا القرابة والمراد هنا الأول .

(سارِبٌ) : ذاهب في سربه بالفتح أي في طريقه ووجهه يقال سرب في الأرض سروبا وفي المصباح : سرب في الأرض سروبا من باب

قعد ذهب ، وسرب الماء سروبا جرى وسرب المال سربا رعي نهارا بغير راع فهو سارب وسرب تسمة بالمصدر والسرب أيضا الطريق ومنه يقال خل سربه أي طريقه والسرب بالكسر النفس وهو واسع السرب أي رخيّ البال ويقال واسع الصدر بطيء الغضب والسرب بفتحتين بيت في الأرض لا منفذ له وهو الوكر .

"

معقبات " : فيها احتمالان : أحدهما أن يكون جمع معقبة بمعنى معقب والتاء للمبالغة كعلامة ونسابة ، أي ملك معقب ، ثم جمع هذا كعلامات ونسابات . والثاني أن يكون جمع معقبة صفة لجماعة ثم جمع هذا الوصف كجمل وجمال وجمالات وقال الزمخشري : " وقيل المعقبات الحرس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه ، وتقديره من أمر الله أي من قضاياه ونوازله أو على التهكم به " .

الاعراب :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) الواو استئنافية ويقول الذين فعل وفاعل وعدل عن الإضمار إلى الموصول ذما لهم بكفرهم بآيات الله وجملة كفروا صلة ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل وآية نائب فاعل ومن ربه صفة لآية . (إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ) إنما كافة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومنذر خبر ولكل خبر مقدم وقوم مضاف اليه وهاد مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة . (اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى ) الله مبتدأ وجملة يعلم خبر وفاعل يعلم مستتر تقديره هو وما تحتمل ثلاثة أوجه متساوية أحدها أن تكون موصولة في محل نصب مفعول يعلم وجملة تحمل كل أنثى صلة والعائد محذوف أي تحمله والثاني أن تكون مصدرية وهي مع مدخولها مفعول يعلم فالجملة بعدها لا محل

لها ولا حاجة إلى العائد والثالث أن تكون استفهامية إما مبتدأ وجملة تحمل خبر والجملة معلقة للعلم واما مفعول مقدم لتحمل . (وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ) عطف على الجملة السابقة وتسري على " ما " الأوجه المتقدمة وغاض وزاد يستعملان متعديين ولازمين ومعنى غيض الأرحام وازديادها أفاض فيه المفسرون وخلاصته أن المراد به غذاء الولد في الرحم فإذا خرج الدم نقص الغذاء فينقص الولد وإذا لم تحض يزداد الولد وينمو وقيل ما يتعلق بمدة الحمل والرجوع لمعرفة التفاصيل إلى المطولات أولى . (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ) كل مبتدأ وشيء مضاف اليه وعنده ظرف متعلق بمحذوف صفة لشيء أو لكل وبمقدار خبر والمراد بالعندية العلم بكمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين أو العلم بوقت كل شيء وحالته المعينة . (عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ) عالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف أي هو والغيب مضاف اليه والشهادة عطف والكبير خبر ثان للمبتدأ المحذوف والمتعال خبر ثالث ورسمت بغير ياء لأنها رأس آية ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها .

(

سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) يجوز في سواء أن تكون خبرا مقدما ومنكم حال من ضميره ومن موصول مبتدأ مؤخر وهو في الأصل مصدر بمعنى مستو وقد تقدم القول فيه في البقرة ويجوز أن تكون مبتدأ ومنكم صفة ومن خبر وجملة أسر القول صلة أي أخفاه

في نفسه ومن جهر به عطف على من أسر القول . ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ومن عطف على من السابقة وهو مبتدأ ومستخف خبر والجملة الاسمية صلة وبالليل جار ومجرور متعلقان بمستخف وسارب عطف على مستخف وبالنهار متعلقان بسارب وقياس الكلام : ومن هو سارب ، والسر فيه أن الموصول حذف وصلته باقية والمعنى ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع خصوصا وقد تكرر



---

الموصول في الآية ثلاثا ومنه قوله تعالى : " وما أدري ما يفعل بي ولا بكم " والأصل ولا ما يفعل بكم وإلا كان حرف النفي دخيلا في غير موضعه لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهي موقع وانما صحب في الأول الموصول لا الصلة

ومنه قول حسان :

فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه وينصره سواء .

)

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) له خبر مقدم والضمير مردود على "من "كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب معقبات ، ومعقبات مبتدأ مؤخر ومن بين يديه صفة لمعقبات أو متعلقان بمعقبات نفسها ومن خلفه عطف على من بين يديه وجملة يحفظونه صفة لمعقبات أيضا ومن أمر الله متعلقان بيحفظونه وتقدّم القول في المراد بالمعقبات في باب اللغة ومعنى يحفظونه من أمر الله أي مما أمر هو به لأنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله قال ابن الأنباري : وفي هذا قول آخر وهو ان من بمعنى الباء أي يحفظونه بأمر الله وقيل ان من بمعنى عن أي يحفظونه عن أمر الله بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله : أطعمهم من جوع أي عن جوع وقيل يحفظونه من ملائكة العذاب وقيل يحفظونه من الجن واختار ابن جرير ان المعقبات المواكب بين أيدي الأمراء على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء .

وعبارة الفراء : " في هذا قولان أحدهما أنه على التقديم والتأخير تقديره : له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه والثاني ان كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به " .

)

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ) إن واسمها وجملة لا يغير خبرها وفاعل يغير عائد على اللّه وما موصول مفعول يغير وبقوم صلة وحتى حرف غاية وجر ويغيروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وما مفعول به وبأنفسهم صلة. (وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ) الواو عاطفة وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن خافض لشرطه منصوب بجوابه وجملة أراد اللّه مضاف إليها وبقوم متعلقان بأراد والفاء رابطة ولا نافية للجنس ومرد اسمها وله خبرها. (وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ) الواو عاطفة وما نافية ولهم خبر مقدم ومن دونه حال ومن زائدة ووال مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه مبتدأ مؤخر.

البلاغة:

1- الطباق في قوله "اللّه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد" أي ما تنقص وتزيد.

2- المبالغة أو الافراط في الصفة على اختلاف في التسمية والأولى لقدامة والثانية لابن المعتز والناس على تسمية قدامة وعرفها قدامة فقال: هي أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عندها لأجزأت فلا يقف عندها حتى يزيد في معنى كلامه ما يكون أبلغ في معنى قصده وهي أقسام عديدة نوردها مختصرة فيما يلي:

آ- المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة وقد جاءت على ستة أمثلة: فعلان

كرحمن عدل عن راحم للمبالغة، كما تقدم في البسملة، ولا يوصف به إلا اللّه تعالى ولم تنعت العرب به أحدا في جاهلية ولا إسلام إلا مسيلمة الكذاب نعتوه به فقال شاعرهم:

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا فأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

فأما الرحمن فلم يوصف به إلا اللّه.

وفعال كقوله تعالى: "وإني لغفار لمن تاب".

وفعول كغفور وشكور وودود.

وفعيل كعليم وحكيم وسميع.

ومفعل كمدعس كمنبر الرمح يدعس به أي يطعن كما في تاج العروس.

ومفعال كمطعام ومقدام.



---

ب- ما جاء بالصيغة العامة موضع الخاصة كقولك أتاني الناس كلهم ولم يكن أتاك إلا واحد منهم أردت تعظيمه ومنه قوله تعالى:

"إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" فوعدهم سبحانه بجزاء غير مقدر لاخراج العبارة مخرجا عاما لتردد الأذهان في مقدار الثواب.

ج- إخراج الكلام مخرج الاخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقوله تعالى : " وجاء ربك والملك صفا صفا " فجعل مجيء آياته مجيئا له سبحانه .

د - إخراج الممكن من الشرط إلى الممتنع ليمتنع وقوع المشروط كقوله تعالى في سورة الأعراف وقد تقدم : " ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط " .

ه- ما جرى مجرى الحقيقة وقد كان مجازا كقوله تعالى :

" يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار " فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان .

وهذه مبالغة ظاهرة في جميع هذه الاقسام على أن هناك مبالغة مدمجة وهي قوله تعالى في الآية التي نحن بصددها وهي " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " فإن مبالغة هذه الآية جاءت مدمجة في المقابلة .

وسيأتي مزيد من المبالغة وأقسامها في مواضع متفرقة من هذا الكتاب .

الفوائد :

يكاد المفسرون يجمعون على أن هذه الآية تدل على أنه إذا عاش قوم في نعمة فإن اللّه لا يغيرها عنهم إلا إذا عصوا ربهم وظلم بعضهم بعضا ولازم هذا التفسير أن النعمة تدوم وتزداد بالشكر والطاعة وانها تزول بالجحود والطغيان وكان وما زال في النفس شيء من هذا التفسير لأمور :

أولها : اننا نرى المحتكرين والمستثمرين كلما نشطوا في الطغيان والسلب والنهب كثرت أموالهم وربت .



---

و ثانيها : ان هذا التفسير يتنافى مع قول اللّه تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة الزخرف " ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين " إذن فالسعة في الرزق لا تدل على رضا اللّه كما أن الضيق لا يشعر بغضبه لأنه لا يجزي الشاكرين

بالذهب والفضة ولا يعاقب العاصين بالحرمان منهما بل الأمر بالعكس فقد جاء في القرآن الكريم أن اللّه يعاقب الجاحدين بكثرة الأموال " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد اللّه ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون " .

وثالثها : انه متناف مع ما هو مأثور ومتعالم من أن المؤمن مبتلى وممتحن .

ولعل خير تفسير تتحمله الآية هو أن يقال : ان المرء الذي يثور أولا على نفسه فيصلحها إنما هو المصلح الحقيقي وعلى ما ورث من تقاليد ونظم ربما كانت فاسدة أو على ما أفسده

الزمان فيصلحه هو الذي يصح أن يكون معنيا بهذه الآية التي تكمن فيها روح الشجاعة والثورة على فساد العادات والتقاليد وفساد العقائد والمبادئ وعلى الفقر والجهل وعلى الاستعمار والاقطاع، كما تكمن فيها روح الثورة على الذين يبنون قصورا من عرق الكادحين ويعدون سيارات من دموع المنكوبين.

[سورة الرعد (13) : الآيات 12 إلى 14]



---

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (13) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14)

اللغة:

(السَّحابَ) : الغيم المنسحب في الهواء والسحاب اسم جنس واحده سحابة فلذلك وصف بالجمع وهو الثقال جمع ثقيلة، ويفهم من كلام صاحب القاموس انه جمع سحابة قال: والسحابة: الغيم والجمع سحاب وسحائب وسحب.

(المِحالِ) : المماحلة وهي شدة المماكرة والمكايدة ومنه تحمل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان ومنه الحديث " ولا تجعله علينا ماحلا مصدقا " وقال الأعشى :

فرع نبع يهشّ في غصن المجد غزير الندى شديد المحال ولعل أصله المحل بمعنى القحط وقيل : فعال من المحل بمعنى القوة فالميم أصلية وقيل أصله مفعل من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس وفي القاموس : " والمحال ككتاب الكيد وروم الأمر بالحيل والتدبير والقدرة والجدال والعذاب والعقاب والعداوة والمعاداة كالمماحلة والقوة والشدة والهلاك والإهلاك ، ومحل به مثلث الحاء محلا ومحالا كاده بسعاية إلى السلطان وماحله مماحلة ومحالا قاواه حتى يتبين أيهما أشد " وفي الأساس : وماحله كايده ، وهو شديد المحال ورجل متماحل فاحش الطول وبلد متماحل : بعيد ، قال يصف فرسا :

من المسبطرّات الجياد طمرّة لجوج هواها السبسب المتماحل

وقال آخر يصف بعيرا :

بعيد من الحادي إذا ما ترقّصت بنات الصّوى في السبسب المتماحل

قال الزجاج يقال : ما حلته محالا : إذا قاويته حتى يتبين أيكما أشد ، وقال ابن قتيبة : أي شديد الكيد وأصله من الحيلة جعل الميم كميم المكان وأصله من الكون قال الأزهري : غلط ابن قتيبة ان الميم فيه زائدة بل هي أصلية وإذا رأيت الحرف على مثال فعال أوله ميم مكسور فهي أصلية مثل مهاد وملاك ومراس .

الاعراب :

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ) هو مبتدأ والذي خبره ويريكم البرق فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعولاه والجملة صلة وخوفا وطمعا اختلف في نصبهما فقيل على المصدرية أي لتخافوا خوفا ولتطمعوا طمعا وقيل هما حالان من الكاف في يريكم أي حال كونكم خائفين وطامعين ويجوز أن يكونا مفعولا لهما واختاره أبو البقاء ومنعه الزمخشري ونص عبارته : "لا يصح أن يكونا مفعولا لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى إخافة وإطماعا ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع أو على ذا خوف وذا طمع أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين ومعنى الخوف والطمع أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث قال أبو الطيب :

فتى كالسحاب الجون تخشى وترتجى يرجّى الحيا منها وتخشى الصواعق

على أن منع الزمخشري فيه تعسف ويمكن أن يكونا مفعولا لهما على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى لأنه إذا أراهم فقد رأوا والأصل : وهو الذي يريكم البرق فترونه خوفا وطمعا أي ترقبونه وتتراءونه تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع . وينشىء السحاب عطف والسحاب مفعول به والثقال صفة للسحاب . (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) عطف على ما تقدم ويسبح الرعد فعل مضارع وفاعل وبحمده في موضع نصب على الحال وفي هذه الباء خلاف ترى بحثا عنه في باب الفوائد ، والملائكة عطف على الرعد أي ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله فهو متعلق بيسبح ولك أن تنصبه على الحال أي هائبين وخائفين . (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) ويرسل الصواعق عطف على ما تقدم فيصيب عطف أيضا وبها متعلقان بيصيب ومن مفعول به ليصيب وجملة يشاء صلة . (وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) الواو استئنافية أو حالية وهم مبتدأ وجملة يجادلون خبر وفي اللّه متعلقان بيجادلون والواو حالية وهو مبتدأ وشديد المحال خبره والجملة حالية . (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ) له خبر مقدم ودعوة الحق مبتدأ مؤخر وهي من اضافة الموصوف إلى صفته أي لدعوة الحق المطابقة للواقع . (وَالَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) والذين مبتدأ وجملة يدعون صلة والضمير في يدعون عائد على الكفار والعائد على الذين محذوف أي يدعونهم ويؤيده قراءة من قرأ تدعون

بالتاء في تدعون وقيل الذين أي الكفار الذين يدعون ومفعول يدعون محذوف أي يدعون الأصنام والعائد على الذين الواو في يدعون والواو في ولا يستجيبون عائد في هذا القول على مفعول يدعون المحذوف وعلى القول الأول على الذين ، ومن دونه حال وجملة لا يستجيبون خبر ولهم متعلقان بيستجيبون وكذلك بشيء .

*(367/414)*

---

(إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) إلا أداة حصر وكباسط متعلق بمحذوف نعت لمصدر محذوف أي إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه وكفيه مضاف لباسط والى الماء جار ومجرور متعلقان بباسط وليبلغ اللام للتعليل ويبلغ مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بباسط وفاه مفعول به وعلامة نصبه الألف لأنه من الأسماء الخمسة وفاعل يبلغ ضمير الماء والواو حالية وما نافية حجازية وهو اسمها واختلف في هذا الضمير فقيل انه ضمير الماء والهاء في ببالغه للفم وقيل انه ضمير

الفم والهاء في ببالغه للماء وقيل انه ضمير لباسط والهاء في ببالغه للماء ، وببالغه الباء حرف جر زائد وبالغه مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما . (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) الواو حالية أو استئنافية وما نافية ودعاء الكافرين مبتدأ وإلا أداة حصر وفي ضلال خبر .

البلاغة :

1- في قوله تعالى " هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا " فن رائع من فنون البلاغة وهو " صحة الاقسام " ويمكن تحديده بأنه عبارة عن استيفاء المعنى من جميع اقسامه ووجوهه بحيث لا يغادر

المتكلم منها شيئًا ، ففي الآية المذكورة استوفي قسمي رؤية البرق إذ لبس فيها إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار كما ألمعنا في الاعراب ولا ثالث لهذين القسمين ولكن مجرد استيفاء الأقسام لا يعتبر بيانا بل هناك أمر أبعد من ذلك وأدق وأبعد منالا وهذا الأمر هو تقديم ما هو أولى بالذكر وأجدر بالتقديم وفي الآية قدم الخوف على الطمع إذ كانت الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة ولا يحصل المطر إلا بعد تواتر الا براق لأن تواتره لا يكاد يخلف ولهذا كانت العرب تعد سبعين برقة وتنتجع فلا تخطىء الغيث والكلأ وقد رمق أبو الطيب سماء هذه البلاغة العالية فقال :

وقد أرد المياه بغير هاد سوى عدي لها برق الغمام

يقول : لا أحتاج في ورود الماء إلى دليل يدلني سوى أن أعد برق الغمام فأتبعه كعادة العرب في عدها بروق الغمام ، قال ابن السكيت :

" العرب إذا عدت مائة برقة لم تشك في أنها ماطرة قد سقت فتتبعها على الثقة بالمطر "

وقال ابن الاعرابي في النوادر : " العرب كانوا إذا لاح البرق عدوا سبعين برقة فإذا كملت وثقوا بأنه برق ماطر فرحلوا يطلبون موضع الغيث ، وأنشد عمر بن الأعور :

سقى اللّه جيرانا حمدت جوارهم كراما إذا عدّوا وفوق كرام

يعدون برق المزن في كل مهمه فما رزقهم إلا بروق غمام

ولما كان الأمر المخوف من البرق يجوز وقوعه من أول برقة واحدة أتى ذكر الخوف في الآية مقدما أولا لكون الواحد أول العدد ولما كان الأمر المطمع من البروق إنما يقع بعد عدد من الابراق أتى ذكر الطمع تاليا لكونه لا يقع إلا في أثناء العدد وليكون الطمع ناسخا للخوف كمجيء الرخاء بعد الشدة ، والفرج بعد الكربة ، والمسرة بعد الحزن ، فيكون ذلك أحلى موقعا في القلوب ويشهد لهذا التفسير قوله :

" وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته " فجاء معنى الآية على ما جاء

رحمة من اللّه سبحانه بخلقه وبشرى لعباده .

المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني

وحيث وصلنا إلى هذا المدى من ترتيب الاقسام يجدر بنا أن نتحدث عن المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني وانها سر البيان ونسمة الروح فيه وقد أخذوا على أبي الطيب قوله على أنه آية في الحسن والروعة :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو مساءة مجرم

فإن المقابلة الصحيحة بن المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم وليس كل من أجرم إليك كان مبغضا لك .

وروى أبو الفرج في الأغاني انه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة وإن تكامل فيها الدّل والشّنب



---

فعقد نصيب واحدة فقال له الكميت : ماذا تحصي ؟ قال : خطأك فإنك تباعدت في القول ، أين الدل من الشنب ؟ ألّا قلت كما قال دو الرمة :

لمياء في شفتيها حوّة لعس وفي اللّثات وفي أنيابها شنب

وهذا موضع دقيق – كما قلنا – يتورط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا وهو مظنة الغلط لأنه يحتاج إلى شفوف طبع وثقوب نظر وقد وقع الخطأ لأبي نواس في قوله في وصف الديك وهي أرجوزة سنوردها في باب الفوائد لملاحتها وندرتها ولأن الدواوين الموجودة بين أيدينا أوردتها خطأ قال :

له اعتدال وانتصاب قدّ وجلده يشبه وشي البرد

كأنها الهداب في الفرند محدودب الظهر كريم الجد

فإن ذكر الظهر من جملة الخلق والجد من النسب وكان ينبغي أن يذكر مع الظهر ما يقرب منه ويؤاخيه أيضا وسيرد من أمثلة هذا الفن في كتابنا الشيء الكثير .

2- وفي قوله تعالى : " والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه " تشبيه تمثيلي رائع فقد شبه دعوة الكفار للآلهة ليستجيبوا لهم ثم صمم الآلهة وجمودها وعدم استجابتها وهذا هو المشبه المركب بمن يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وهو بعيد عنه ثم يبالغ في الدعوة ويحمله الهوس على الرجاء من الماء أن يستجيب وهو جماد لا يشعر فهذا هو المشبه به

وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطها ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئا ولم يبلغ طلبته وشربته .

وقال أبو عبيدة " أي كالقابض على الماء ليس على شيء " قال والعرب تضرب المثل في

الساعي فيما لا يدركه بالقابض على الماء وأنشد سيبويه :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

وقال آخر :

وإني وإياكم وشوقا إليكم كقابض ماء لم تطعه أنامله

وقال آخر :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

الفوائد :

1- خلاف حول الباء :



---

اختلف النحاة والمعربون في الباء من قوله تعالى " ويسبح الرعد بحمده " فقيل : هي للمصاحبة أو الملابسة أو باء الحال أي يسبحه حامدا له أي ينزهه عما لا يليق به ويثبت له ما يليق به ، وضابط هذه الباء أن يغني عنها وعن مصحوبها الحال كما رأيت أو يحسن في موضعها " مع " وقيل هي للاستعانة أي يسبحه بما حمد به نفسه فيكون الحمد مضافا إلى الفاعل أما في الأولى فهو مضاف إلى المفعول

ومن العجيب أن ابن خالويه النحوي أعربها في كتابه اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم عند إعرابه " فسبح بحمد ربك " أعربها زائدة ولا أدري كيف استساغ ذلك ومواضع زيادة الباء معروفة وهي هنا ليست واحدة منها .

سبحانك اللهم وبحمدك :

قال ابن هشام في مغني اللبيب : واختلف في " سبحانك اللهم وبحمدك " فقيل جملة واحدة ، وليس مراد المغني الخلاف في الباء بل في الواو " على أن الواو زائدة وقيل جملتان على أنها عاطفة ومتعلق الباء محذوف أي بحمدك سبحتك وقال الخطابي : المعنى وبمعونتك التي هي نعمة توجب علي حمدك سبحتك لا بحولي وقوتي يريد انه مما أقيم فيه المسبّب مقام السبب .

2- قصيدة أبي نواس في وصف الديك :

وعدناك بإثبات أرجوزة أبي نواسس في وصف الديك وبرا بالوعد نثبتها كما رأينا وخلافا لما وردت عليه في الدواوين :

أنعت ديكا من ديوك الهند أحسن من طاووس قطر المهدي

أسجع من عادي عرين الأسد ترى الدجاج حوله كالجند

يقعين منه خيفة للسّفد له سقاع كدويّ الرّعد

منقاره كالمعول المحدّ يقهر ما ناقره بالنقد

عيناه منه في القفا والخد ذو هامة وعنق كالورد

وجلدة تشبه وشي البرد ظاهرها زفّ شديد الوقد

كأنه الهدّاب في الفرند مضمّر الخلق عميما

لقدّ له اعتدال وأنصاب قد محدودب الظهر كريم الجدّ

[سورة الرعد (13) : الآيات 15 إلى 18]



---

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (15) قُلْ
مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا
ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ
خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16) أَنْزَلَ
مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي
النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (17) لِلَّذِينَ
اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ

لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (18)

اللغة:

(الغدو) جمع غدوة بضم الغين وتجمع أيضا على غدى والغداة بفتح الغين وتجمع على غدوات والغديّة وتجمع على غدايا وغديات:

البكرة أو ما بين الفجر وطلوع الشمس.

(الْآصالِ) جمع الأصيل وهو الوقت بين العصر والمغرب ويجمع أيضا على آصال وأصائل وأصل وأصلان.

(احتمل): أي حمل فافتعل بمعنى المجرد أو هو بمعنى المطاوع كما يفهم من عبارة الأساس:

"وحملت الشيء وحملنيه غيري فاحتملته وتحملته ومن المجاز حملت إدلاله عليّ واحتملته قال:



---

أدلّت فلم أحمل وقالت فلم أجب لعمر أبيها انني لظلوم

(زَبَداً): الزبد وضر الغليان والوضر بفتحتين وبالضاد المعجمة وسخ الدسم ونحوه

وعبارة الخازن: الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب وكذلك ما يعلو على

القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبدا رابيا أي عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليها ، وفي القاموس : الزبد ما يعلو على وجه الماء ونحوه من الرغوة ومن معانيه الخبث ومنه المثل : " صرّح المخض عن الزبد " يعنون بالزبد رغوة اللبن يضرب للصدق يحصل بعد الخبر المظنون (جُفاءً) قال ابن الأنباي : الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح السحاب أي قطعته ومزقته وقيل الجفاء ما يرمي به السيل يقال جفأت القدر بزبدها تجفأ من باب قطع وجفأ السيل بزبده وأجفأ وأجفل باللام وفي همزة جفاء وجهان أظهرهما أنها أصل لوجودها في تصاريف هذه المادة والثاني أنها بدل من واو وقال في الأساس : " ذهب الزبد جفاء أي مدفوعا مرميا به قد جفأه الوادي إلى جنباته ويقال : جفأت القدر بزبدها ، ومرّ جفاء من العسكر إلى البيات أي جماعة معتزلة من معظمه وتقول سامه جفاء ونبذه جفاء إذا عزله عن صحبته " .

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رؤبة يقرأ جفالا قال أبو عبيدة يقال :

أجفلت القدر إذا قذفت بزبدها وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته " قال أبو حاتم : لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفأر .

الاعراب :

)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة ومسوقة لبيان انقياد الخلائق جميعها والكائنات بأسرها للقوة الخالقة المدبرة والتصرف على مشيئته في الحركة والسكون والامتداد والزوال أو الفيء والتقلص ولله متعلقان بيسجد ومن فاعل يسجد وفي السموات والأرض صلة من وطوعا وكرها نصب على الحال أي طائعين وكارهين أو على المصدرية أي انقياد طوع وانقياد كره. (وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ) الواو عاطفة وظلالهم عطف على من وبالغدو والآصال متعلقان بيسجد.

(قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ) قل فعل أمر وفاعله أنت والجملة بعده مقول القول ومن اسم استفهام مبتدأ ورب السموات والأرض خبر وقل فعل أمر والله خبر لمبتدأ محذوف أي هو الله أو مبتدأ والخبر محذوف أي الله رب السموات والأرض. (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا)



الهمزة للاستفهام الانكاري التهكمي والفاء عاطفة على محذوف كأن في الكلام تقديرا بين الهمزة والفاء تقديره قل أأقررتم بالجواب المذكور فاتخذتم، وقد تقرر هذا كثيرا، واتخذتم

فعل وفاعل ومن دونه حال لأنه كان في الأصل صفة لأولياء وأولياء مفعول به وجملة لا يملكون صفة ولأنفسهم حال أو بالنفع والضر على أنهما مصدران ونفعا مفعول به ولا ضرا عطف عليه. (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ) هل حرف استفهام بمعنى النفي أي لا يستويان ويستوي الأعمى فعل مضارع وفاعل وأم حرف عطف وهل تستوي الظلمات والنور عطف على الجملة السابقة ولك أن تجعل أم منقطعة بمعنى بل. (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) أم المنقطعة وجعلوا فعل وفاعل ولله حال لأنه كان صفة لشركاء وشركاء مفعول به أو لله مفعول به ثان لجعلوا وجملة خلقوا صفة والكاف مع مدخولها نعت لمفعول محذوف أي خلقوا خلقا مثل خلقه والفاء حرف عطف وتشابه الخلق فعل ماض وفاعل وعليهم متعلقان بتشابه. (قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) اللّه مبتدأ وخالق كل شيء خبر وهو مبتدأ والواحد خبر والقهار خبر ثان. (أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها) الجملة مستأنفة مسوقة لضرب مثل لتقدير ما تقدم وأنزل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو أي اللّه تعالى ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزل وماء مفعول به والفاء حرف عطف وسالت أودية فعل وفاعل وبقدرها متعلقان بسالت أو بمحذوف صفة لأودية أي بمقدار ما يملؤها وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة. )

(فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ) الفاء عاطفة واحتمل السيل فعل ماض وفاعل وزبدا مفعول احتمل لأنه بمعنى حمل ورابيا صفة لزبدا أي طافيا على وجهه وعاليا عليه، ومما الواو عاطفة لتعطف مثلا آخر على المثل الأول ومما خبر مقدم وجملة يوقدون صلة وعليه متعلقان بيوقدون وفي النار حال وابتغاء حلية مفعول لأجله على الأصح وقيل مصدر بمعنى الحال أي مبتغين حلية وليس ثمة مانع من ذلك وأو حرف عطف ومتاع معطوف على حلية وزبد مبتدأ مؤخر ومثله صفة أي مثل زبد السيل وهو وضره الذي ينفيه كير الحداد. (كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك المذكور من الأمور الأربعة مثلين للحق ومثلين للباطل فالأولان الماء والجوهر والآخران الزبد والوضر. ويضرب الله الحق فعل مضارع ومفعول به والباطل عطف على الحق. (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً) الفاء عاطفة للتفريع وأما حرف شرط وتفصيل والزبد مبتدأ والفاء رابطة وجملة يذهب خبر وجفاء حال.

(وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) الواو عاطفة وأما حرف شرط وتفصيل وما موصول مبتدأ وجملة ينفع الناس صلة والفاء رابطة وجملة يمكث في الأرض خبر. (كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ) تقدم إعرابه. (لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى) اختلفت آراء المعربين في إعراب هذه الآية ونرى أن هنالك وجهين هما أولى نوردهما فالأول:

---

للذين خبر مقدم وجملة استجابوا صلة ولربهم متعلقان باستجابوا والحسنى مبتدأ مؤخر والثاني : للذين متعلقان بيضرب في الآية السابقة والحسنى صفة لمصدر محذوف أي الاستجابة الحسنى . (وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) ويتمشى على هذه الآية الاعرابان المتقدمان فلك أن تجعل الذين مبتدأ فيكون الكلام مستأنفا وخبره لو وما في حيزها ، ولك أن تعطفها نسقا على الذين السابقة وجملة لم يستجيبوا صلة وله متعلقان بيستجيبوا ولو شرطية وأن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف وقد تقدم ، ولهم خبر

ان وما اسمها وفي الأرض صلة وجميعا حال ومثله عطف ومعه ظرف متعلق بمحذوف حال أي كائنا معه ، لافتدوا اللام واقعة في جواب لو وافتدوا فعل ماض والواو فاعل وبه متعلقان بافتدوا . (أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ) أولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وسوء الحساب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر أولئك ومأواهم مبتدأ وجهنم خبر مأواهم وبئس فعل ماض جامد لإنشاء الذم والمهاد فاعل والمخصوص بالذم محذوف أي مهادهم أو هي .

البلاغة :

1- استعارة السجود للانقياد والخضوع وهما من خصائص العقلاء للكائنات العاقلة وغير العاقلة والطوع الناشئ عن اختيار وهو الصادر عن الإنسان والكره الناشئ عن غير اختيار وهو الصادر عن الجماد ومعنى انقياد الظلال مطاوعتها لما يراد منها كطولها وقصرها وامتدادها وتقلصها .

ولأبي حيان كلام لطيف نثبته فيما يلي دفعا للأوهام قال :

"

وكون الظلال يراد بها الأشخاص كما قال بعضهم ضعيف وأضعف منه قول ابن الأنباري : انه تعالى جعل للظلال عقولا تسجد بها وتخشع بها كما جعل للجبال أفهاما حتى خاطبت وخوطبت لأن الجبل لا يمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة وأما الظل فعرض لا يتصور قيام الحياة به " .



---

2- التهكم والفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل لمجيئه على سبيل الاستهزاء والسخرية هذا على

ما تعارفناه بيننا والهزل الذي يراد به الجد ظاهره هزل وباطنه جد وفي قوله تعالى " خلقوا كخلقه " في سياق الإنكار تهكم بهم لأن غير اللّه لا يخلق خلقا البتة لا بطريق المشابهة والمساواة ولا بطريق الانحطاط والقصور فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقا ولكن جاء قوله تعالى كخلقه تهكما يزيد الإنكار تأكيدا وقد أسلفنا القول في التهكم وأوردنا أبياتا لابن الرومي وغيره فيه ونرى من المفيد أن نتحدث قليلا عن نقيضه وهو الهزل المراد به الجد وهو من يقصد المتكلم مدح شيء أو ذمه فيخرج ذلك المقصود مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب وخير مثال عليه قول أبي نصر بن أبي الفتح كشاجم :

صديق لنا من أبدع الناس في البخل وأفضلهم فيه وليس بذي فضل

دعاني كما يدعو الصديق صديقه فجئت كما يأتي إلى مثله مثلي

فلما جلسنا للطعام رأيته يرى أنه من بعض أعضائه كلّيّ

ويغتاظ أحيانا ويشتم عبده وأعلم أن الشتم والغيظ من أجلي

فأقبلت أستل الغذاء مخافة وألحاظ عينيه رقيب على فعلي

أمدّ يدي سرا لأسرق لقمة فيلحظني شزرا فأعبث با

لبقل إلى أن جنت كفي لحتفي جناية وذلك أن الجوع أعدمني

عقلي فجرت يدي للحين رجل دجاجة فجرت كما جرت يدي رجلها

رجلي وقدم من بعد الطعام حلاوة فلم أستطع منها أمر ولا

أحلي وقمت لو اني كنت بيّت نية ربحت ثواب الصوم من عدم الأكل

(378/414)

---

3- المثل : تقدم القول في المثل السائر ونقول هنا إن كتاب اللّه الكريم طافح بالأمثال وفي قوله تعالى : " أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب اللّه الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع فيمكث في الأرض " مثلان ضربهما اللّه للحق وأهله والباطل وحزبه فمثّل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فتخصوصب وتخضر وتنبت وتزدهر وينتفعون بأنواع المنافع وبالجواهر التي يصوغون منها الحلي والآلات التي تضفي عليهم القوة والهيبة والجمال والبأس الشديد وإن ذلك كله ماكث في الأرض لا تخلق له جدة ولا تذبل منه نضارة وشبّه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنافع بزبد السيل الطافي الذي تقحمه العين وينبو عنه البصر لعدم جدواه وبالوضر الذي يطفو فوق الجوهر إذا أذيب وقد انطوت تحت هذا المثل الرائع أنواع من البلاغة نوردها باختصار :

آ- تنكير الأودية لأن المطر لا يأتي إلا على طريق التناوب بين البقاع.

ب- الاحتراس بقوله " بقدرها " أي بمقدارها الذي عرف اللّه أنه نافع للممطور عليهم غير ضار وإلا فلو طما واستحال سيلا لا جتاح الأخضر واليابس ولأهلك الحرث والنسل.

ج- تعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو قوله تعالى:

" فسالت " وهو لو ذكر لكان نكرة فلما أعيد أعيد معرفة نحو رأيت رجلا فأكرمت الرجل وهكذا تطرد القاعدة في النكرة إذا أعيدت.

د- مراعاة النظير في ألفاظ الماء والسيل والزبد والربو وفي ألفاظ النار والجوهر والفلزات المعدنية والإيقاد والحلية والمتاع.

ه- اللف والنشر الموشى في قوله تعالى: " فأما الزبد فيذهب جفاء " إلى آخر الآية.



---

واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطرقة أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبدا رابيا فوقه وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى

يذوب من الأجسام المنطرقة فان أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب

فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثا مرتفعا فوقها .

[سورة الرعد (13) : الآيات 19 إلى 24]

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (23)

سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)

الإعراب :

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى) أفمن تقدم القول في هذا التركيب كثيرا ونعيده للفائدة فالهمزة للاستفهام الانكاري والفاء مؤخرة من تقديم أو عاطفة على محذوف هو

مدخول الهمزة والتقدير : أيستوي المؤمن والكافر أفمن يعلم . ومن مبتدأ وجملة يعلم صلة ولك في أنما وجهان أن تجعلها كافة ومكفوفة فأنزل فعل ماض مبني للمجهول وإليك حال ومن ربك متعلقان بأنزل والحق نائب فاعل ، ولك أن تفصل ما فتعرب أن حرفا مشبها للفعل وما اسمها والحق خبرها وأن وما في حيزها على الوجهين سدت مسد مفعولي يعلم والكاف اسم بمعنى مثل خبر من وهو مبتدأ وأعمى خبر والجملة الاسمية صلة من . (إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ) إنما كافة ومكفوفة ويتذكر فعل مضارع وأولو فاعله وهو مرفوع وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والألباب مضاف اليه . (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ) الذين مبتدأ وخبره سيأتي فيما بعد وهو قوله أولئك لهم عقبى الدار ولك أن تعربه بدلا من أولي الألباب تفاديا لطول الفصل بين الابتداء والخبر وجملة يوفون صلة وبعهد اللّه متعلقان بيوفون ، ولا ينقضون الميثاق عطف على الجملة السابقة وستأتي سبع صفات أخرى لهم فتكون صفاتهم ثمانيا . (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) والذين عطف على الذين وجملة يصلون صلة وما مفعول به وجملة أمر اللّه صلة ومفعول أمر محذوف والتقدير ما أمرهم وبه متعلقان بأمر وأن وما في حيزها بدل من الضمير المجرور وهو الهاء أي بوصله . (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ) ويخشون عطف على يصلون ويخشون فعل مضارع وفاعل وربهم مفعول به ويخافون عطف على يخشون وسوء الحساب مفعول به . (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) والذين عطف على

الذين السابقة وصبروا صلة وابتغاء وجه ربهم مفعول لأجله ، وقال بعضهم :

"

والذين صبروا " قيل هو كلام مستأنف وقيل معطوف على ما قبله والتعبير عنه بلفظ المضي للتنبيه على أنه ينبغي تحققه . (وَأَقَامُوا

(381/414)

---

الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً)

وأقاموا الصلاة عطف وهي فعل وفاعل ومفعول به وأنفقوا عطف على أقاموا ومما متعلقان بأنفقوا وجملة رزقناهم صلة وهي فعل وفاعل ومفعول به وسرا وعلانية منصوبان بنزع الخافض أو هما مصدران في موضع الحال واختار هذا أبو البقاء أي في السر والعلانية ويجوز نصبهما على الحال أي مسرين ومعلنين . (وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) عطف على ما تقدم وبها تكتمل أوصافهم الثمانية وبالحسنة متعلقان بيدرءون والسيئة مفعول به ليدرءون .

(أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) أولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم وعقبى الدار مبتدأ مؤخر وجملة لهم عقبى الدار خبر أولئك والجملة كلها خبر الذين الأولى (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) جنات عدن بدل من عقبى الدار أو خبر لمبتدأ محذوف أي

هي جنات أو مبتدأ وجملة يدخلونها خبر وعلى الأولين تكون الجملة حالية .

ومن عطف على الواو في يدخلونها ولا حاجة لتقدير ضمير كما فعل بعض المعربين لوجود الفصل بالضمير المنصوب ولك أن تعربها مفعولا معه والواو واو المعية وجملة صلح صلة ومن آبائهم حال وما بعده عطف عليه . (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) الواو حالية والملائكة مبتدأ وجملة يدخلون خبر وعليهم متعلقان بيدخلون ومن كل باب متعلقان بيدخلون أيضا . (سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) سلام مبتدأ وعليكم خبر وساغ الابتداء لما فيه من معنى الدعاء والجملة مقول قول محذوف في موضع نصب على الحال أي قائلين وبما صبرتم الباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا بسبب صبركم فهما خبر لمبتدأ محذوف أو متعلق بسلام أي نسلم



---

عليكم ونكرمكم بصبركم وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . والفاء الفصيحة ونعم فعل ماض جامد لإنشاء المدح وعقبى الدار فاعل نعم والمخصوص بالمدح محذوف أي

هي.

البلاغة:

في قوله تعالى "صبروا ابتغاء وجه ربهم" فن الاحتراس وقد تقدم فقد انتفى بقوله ابتغاء وجه ربهم أن يكون صبرهم ناشئا عن حب الجاه والشهرة أو ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل لئلا يشمت به الأعداء كقول أبي ذؤيب:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتزعزع

ولا اعتقادا منهم بأن الأمر مقدور ولا مفر منه ولا طائل من الهلع ولا مرد للفائت ولا دافع لقضاء الله كقوله:

ما إن جزعت ولا هلع .... ت ولا يرد بكاي زندا

[سورة الرعد (13) : الآيات 25 إلى 29]

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ (26) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ

وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

اللغة :

(383/414)

---

(طُوبى ) : مصدر من الطيب كبشرى ورجعى وزلفى فالمصدر قد يجيء على وزن فعلى وأصله يائي فهي طيبى قلبت الياء واوا لوقوعها ساكنة إثر ضمة كما قلبت في موقن وموسر من اليقين واليسر ومعنى طوبى لك أصبت خير طيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك وفي القاموس : الطوبى مؤنث الأطيب والغبطة والسعادة والخير والخيرة وجمع طيبة وهذا من نوادر الجموع .

الاعراب :

(وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ) الذين مبتدأ وجملة ينقضون صلة والواو فاعل وعهد اللّه مفعول به ومن بعد ميثاقه حال .

(وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ) تقدم إعراب نظيرتها .

)

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) عطف على الجمل السابقة . (أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

أولئك مبتدأ وخبره لهم اللعنة وقد تقدم اعراب نظيرتها وجملة أولئك لهم اللعنة خبر الذين ولهم سوء الدار عطف على لهم اللعنة. (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ) اللّه مبتدأ وجملة

يبسط الرزق خبر ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يشاء.

(وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا) الواو استئنافية وجملة فرحوا مستأنفة مسوقة لبيان قبح أفعالهم مع ما أفاضه عليهم من رزق ونعم سوابغ وبالحياة جار ومجرور متعلقان بفرحوا والدنيا صفة للحياة.



---

(وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ) الواو حالية وما نافية والحياة مبتدأ والدنيا صفة وفي الآخرة حال على حذف مضاف أي في جنب الآخرة و"في" هذه للمقايسة وهي الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق والتقدير وما الحياة الدنيا كائنة في جنب الآخرة ولا يجوز أن تكون "في" للظرفية لأن الحياة الدنيا لا تكون في الآخرة وإلا أداة حصر ومتاع خبر.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) الواو عاطفة ليتساوق الارتباط بين قولهم وما كانوا عليه من ضلال.

ويقول الذين فعل مضارع وفاعل وجملة كفروا صلة ولولا حرف تحضيض بمثابة هلا وأنزل فعل ماض مبني للمجهول وعليه متعلقان بأنزل والضمير يعود على النبي محمد عليه السلام وآية نائب فاعل ومن ربه صفة. (قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) إن واسمها وجملة يضل خبرها ومن مفعول به وجملة يشاء صلة ويهدي عطف على يضل واليه متعلقان بيهدي ومن مفعول به وجملة أناب صلة.

)

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الذين بدل وجملة آمنوا صلة، أو الذين مبتدأ خبره الذين آمنوا والأول أولى، وتطمئن عدل عن الماضي إلى المضارع لإفادة التجدد وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة وقلوبهم فاعل تطمئن وبذكر الله متعلقان بتطمئن والقلوب فاعل. (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) الذين مبتدأ أو خبر الذين الأولى وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على الصلة وطوبى مبتدأ ولهم خبر وساغ

الابتداء بها لما فيها من معنى الدعاء ، وقيل طوبى خبر لمبتدأ محذوف واللام في لهم للبيان مثل سقيا لك ورعيا لك أو مفعول لفعل محذوف أي أصبت خيرا طيبا وقرئ وحسن مآب بالنصب والرفع ، ولك أن تعربها مفعولا مطلقا كما قدمنا على قراءة من نصب حسن لظهور حركة الاعراب عليها والأول أولى لأن الجمهور قرأ بالرفع ولأبي البقاء وهم فيها إذ أجاز اعرابها حالا مقدرة ولا أدري ما هو مبرره وحسن عطف على طوبى ومآب مضاف اليه .

البلاغة :

في قوله تعالى " الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم " فن رفيع من فنون البلاغة وقد سبق ذكره ونعيد الآن ما يتعلق بهذه الآية فقد عدل عن عطف الماضي على الماضي فلم يقل واطمأنت قلوبهم لسر من الأسرار يدق إلا على العارفين بأسرار هذه اللغة الشريفة ذلك أن من خصائص الفعل المضارع أنه قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال وهما الزمانان اللذان يحتملهما المضارع فلا يدل إلا على مجرد الاستمرار ومنه هذه الآية أي أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بصورة مطردة مهما تتالت المحن ، وتعاقبت الأرزاء ، وحدثت المفاجأة فكأنما أعدوا لكل محنة صبرا ولكل رزء اطمئنانا جديدا فتدبر هذه الملاحظة فإنها عمود الجمال وسره .

]

سورة الرعد (13) : الآيات 30 إلى 31]

(386/414)

---

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ
يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (30) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ
تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (31)

اللغة:

(يَيْأَسِ) قال الزمخشري: ومعنى أفلم ييئس: أفلم يعلم قيل:

هي لغة قوم من النخع وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف والنسيان في معنى الترك قال سحيم بن وثيل الرياحي:

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونني ألم تيئسوا أني ابن فارس زهدم

وفي المختار : " اليأس : القنوط وقد يئس من الشيء من باب فهم وفيه لغة أخرى يئس ييئس بالكسر فيهما وهو شاذ ويئس أيضا بمعنى علم في لغة النخع ومنه قوله تعالى : " أفلم ييئس الذين آمنوا " .

(قارِعَةٌ) : داهية تقرعهم بصنوف البلاء وفي المختار قرع الباب من باب قطع والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية .

الاعراب :

)



---

كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ) الكاف في محل نصب كنظائرها أي مثل ذلك الإرسال أرسلناك إرسالا له شأن وقد تقدمت نظائرها كثيرا وأرسلناك فعل وفاعل ومفعول به وفي أمة متعلقان بأرسلناك وجملة قد خلت صفة لأمم ومن قبلها حال لأنه كان صفة لأمم وأمم فاعل . (لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ) لتتلو اللام للتعليل وتتلو مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بتتلو والفاعل أنت وعليهم متعلقان بتتلو والذي مفعول به وجملة أوحينا إليك صلة . (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ) الواو

للحال أي وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن والجار والمجرور متعلقان بيكفرون ولا مانع من جعلها استئنافية كما قال بعضهم. (قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) هو ربي مبتدأ وخبر والجملة الاسمية مقول القول ولا إله إلا هو تقدم القول فيها مفصلا في البقرة فجدد به عهدا. (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) عليه متعلقان بتوكلت وإليه خبر مقدم ومتاب مبتدأ مؤخر. (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للرد على من طلبوا من رسول الله أن يسيّر الجبال بقرآنه عن مكة حتى تتسع لهم ويبعث لهم آباءهم ليشهدوا بنبوته. ولو شرطية وان حرف مشبه بالفعل وقرآنا اسمها وجملة سيرت خبران وبه متعلقان بسيرت والجبال نائب فاعل وأو حرف عطف وقطعت به الأرض معطوفة وكذلك أو كلم به الموتى وجواب لو محذوف كما تقول لمن تهدده لو أني قمت إليك وتترك الجواب والمعنى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال عن مقارها أو



قطعت به الأرض حتى تتصدع وتتزايل وتتهافت أو كلم به الموتى فتسمع وتجيب لما آمنوا وقدرة أبو حيان "لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار والتخويف" وسيأتي مزيد بحث عن هذا الحذف في باب البلاغة. (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً) بل حرف

إضراب ولله خبر مقدم والأمر مبتدأ مؤخر وجميعا حال وهو عطف للاضراب عما تضمنته لو من معنى النفي أي بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه متعنتين. (أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً) الهمزة للاستفهام والتقرير ولم حرف نفي وقلب وجزم وييئس مضارع مجزوم بلم والذين فاعل وجملة آمنوا صلة وأن مخففة من الثقيلة لتقدم معنى العلم عليها واسمها ضمير الشأن ولو حرف شرط ويشاء فعل مضارع والله فاعل واللام رابطة وجملة هدى الناس جواب لو لا محل لها وجميعا حال وجملة الشرط وجوابه خبر ان. (وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ) الواو عاطفة ولا يزال فعل مضارع ناقص والذين اسمها وجملة كفروا صلة وجملة تصيبهم خبر لا تزال وبما صنعوا متعلقان بتصيبهم أي بسبب صنعهم فالباء سببية وما مصدرية وقارعة فاعل تصيبهم. (أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ) أو حرف عطف وتحل عطف على تصيبهم والفاعل هي أي القارعة وقريبا ظرف مكان أي مكانا قريبا من دارهم ومن دارهم متعلقان بقريبا فيتطاير عليهم شرارها وتطوح بهم ويلاتها وقيل إن الفاعل لتحل يعود إلى المخاطب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم أي تحل أنت بجيشك قريبا من دارهم كما حل بالحديبية وقد أتى فتح مكة والأول أظهر وأولى. (

حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ) حتى حرف غاية وجر ويأتي مضارع

منصوب بأن مضمرة بعد حتى ووعد الله فاعل والمراد بوعده النصر المحتوم وان واسمها وجملة لا يخلف خبرها والميعاد مفعول به .



---

البلاغة :

في قوله تعالى : ولو أن قرآنا سيرت به الجبال إلى آخر الآية إيجاز عجيب فقد حذف الجواب كما تقدم ، واختلف المعربون والمفسرون في تقديره وقد قدرناه في الاعراب : لما آمنوا وقد اختار الزمخشري هذا التقدير ولكنه جعله مرجوحا وقدر الأرجح بقوله " لكان هذا القرآن " لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار وهو تقدير لا بأس به وإن كان الأول أقرب إلى سياق الحديث وأوكد في تقرير المعنى وحذف جواب " لو " شائع في كلامهم ومن أمثلته في الشعر قول أبي تمام في قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم عند فتحه عمورية :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كنت له المنية بين السّمر والقضب

فإن جواب لو محذوف تقديره لأخذ أهبته ولأعد للأمر عدته أو لما أقدم على ما أقدم عليه من اجتراء كما تدل عليه قصة المرأة الهاشمية التي سباها أحد العلوج فصرخت وا معتصماه .

وعبارة ابن هشام : " ولو أن قرآنا سيرت به الجبال " الآية أي لما آمنوا به بدليل وهم يكفرون بالرحمن والنحويون يقدرون : لكان هذا القرآن وما قدرته أظهر " .

أي للدليل المذكور وفيه أن ما قدروه أيضا دل عليه قوله تعالى :

" لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية اللّه " فلم يتبين كون تقديره أظهره من تقديرهم واعلم أن كلّا من الوجهين

ودليل كل واحد ذكره الزمخشري فلم يقدر المصنف شيئًا انفرد به عن غيره خلافا لما يشعر به قوله : وما قدرته أظهر . هذا وقد أطلق الباقلاني على هذه الآية فن الاشارة وعرفه " بأنه اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة وقال بعضهم في وصف البلاغة " لمحة دالة " وهو بعينه تعريف الإيجاز .

[سورة الرعد (13) : الآيات 32 إلى 34]



---

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (32)
أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ
فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ

اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ واقٍ (34)

اللغة :

(فَأَمْلَيْتُ) : الاملاء أن يترك مدة طويلة من الزمن في دعة وأمن وفي القاموس وشرحه : "

أملي إملاء الله فلانا أطال عمره : أطاله ومتعه به وأملى الله الظالم وله أمهله " وقال :

والاملاء مصدر والامهال والتأخير وما يملى من الأقوال والمليّ الطويل من الزمان يقال :

انتظرته مليا أي زمنا طويلا ومر مليّ من الليل وهو ما بين أوله إلى ثلثه وقيل هو قطعة منه لم

تحد .

(أَشَقُّ)

أشد منه اسم تفضيل من شق يشق من باب نصر مشقة وشقّ الأمر : اشتد وصعب .

الاعراب :

)

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) الواو عاطفة ليتساوق الكلام وللتمهيد إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق واستهزىء فعل ماض مبني للمجهول وبرسل سد مسد نائب الفاعل ومن قبلك صفة لرسل. (فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ) الفاء للعطف وأمليت فعل وفاعل وللذين متعلقان بأمليت وجملة كفروا صلة وثم حرف عطف وأخذتهم فعل وفاعل ومفعول به، فكيف: الفاء عاطفة وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر لكان مقدم وكان فعل ماض ناقص وعقابي اسمها وحذفت الياء لمراعاة الفواصل. (أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ) الهمزة للاستفهام الانكاري وجوابه محذوف تقديره لا كما سيأتي والفاء عاطفة على محذوف وقد تقدم تقديره ومن اسم موصول مبتدأ وهو مبتدأ ثان وقائم خبر المبتدأ الثاني والجملة الاسمية صلة الموصول وعلى كل متعلقان بقائم والباء حرف جر بمعنى مع وما موصول مجرور بالباء أو مصدرية وهي مع مدخولها مجرورة بالباء والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال وخبر من محذوف تقديره كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضر ولا تنفع وقد دل عليه قوله فيما بعد: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ) وجواب الاستفهام "لا" كما قدرناه. (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ) الواو للاستئناف والجملة مستأنفة مسوقة للدلالة على خبر من المحذوف كما تقدم وهذا أحسن الأقوال فيها وجعلها أبو البقاء عاطفة وجعلها غيره حالية

، وجعلوا فعل وفاعل ولله متعلقان بمحذوف مفعول ثان أو بمحذوف حال وشركاء مفعول جعلوا الأول إن كانت جعل بمعنى صيّر .

(392/414)

---

(

قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ) سموهم فعل أمر للتعجيز وهو فعل وفاعل ومفعول به وأم هي المنقطعة وتنبئونه فعل مضارع حذفت منه همزة الاستفهام والتقدير أتنبئونه وهو فعل وفاعل ومفعول به وبما متعلقان بتنبئونه وجملة لا يعلم صلة ومفعول يعلم محذوف أي يعلمه وفي الأرض حال والمراد نفي أن يكون له شركاء كما سيأتي في باب البلاغة وإلا لتناولهم علمه . (أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ) أم المنقطعة أيضا وهي بمعنى بل وبظاهر متعلقان بتنبئونه أي من غير حقيقة واعتبار معنى ومن القول صفة لظاهر . (بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ) بل حرف إضراب وعطف وزين فعل ماضي مبني للمجهول وللذين متعلقان بزين وكفروا صلة ومكرهم نائب فاعل . (وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ) الواو عاطفة وصدوا فعل وفاعل وعن السبيل متعلقان بصدوا ومن الواو استئنافية ومن شرطية في محل نصب مفعول به مقدم ليضلل ويضلل فعل الشرط والله فاعل

، فما : الفاء رابطة لجواب الشرط وما نافية حجازية وله خبرها المقدم ومن حرف جر زائد وهاد اسم ما محلا مجرور بما لفظا . (لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا)

لهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وفي الحياة صفة لعذاب والدنيا صفة للحياة .

(وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ)

الواو عاطفة أو حالية واللام للابتداء والآخرة مضاف اليه وأشق خبر عذاب وما لهم من اللّه من واق تقدم اعرابها .

البلاغة :

انطوت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : "أ فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت . . . " إلى آخر الآية على فنون عديدة من البلاغة لأنها وردت في معرض الاحتجاج عليهم في اشراكهم باللّه ندرجها فيما يلي :



---

1- الاستفهام الانكاري في قوله تعالى أفمن وحذف خبره تصريحا في التوبيخ والزراية عليهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما وهذا ما يسميه علماء البيان :

الإضمار على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به في آخره فيكون

الآخر دليلا على الأول وهو على ثلاثة أضرب :

آ- أن يأتي عن طريق الاستفهام فتذكر الجملة الأولى دون الثانية كالآية التي نحن بصددها وكقوله تعالى أيضا : " أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين " تقدير الآية أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه ويدل على المحذوف قوله " فويل للقاسية قلوبهم " .

ب- أن يرد على حد النفي والإثبات كقوله " لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا " تقديره لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل .

ج- أن يرد على غير هذين الوجهين فلا يكون استفهاما ولا نفيا واثباتا كقول أبي تمام :

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام

ففي صدر البيت إضمار مفسر في عجزه وتقديره انه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة ثم يخاف تلك الحسنة فكأنما حسناته آثام والبيت بعد مأخوذ بطرف خفي من قوله تعالى : " والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة " .

2- وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه وذلك في قوله " وجعلوا لله شركاء " .

3- التعجيز في قوله " قل سموهم " أي عيّنوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان فهو إنكار

لوجودها على وجه برهاني كما تقول : إن كان الذي تدعيه موجودا فسمّه لأن المراد بالاسم العلم .



---

4- نفي الشيء بإيجابه أو عكس الظاهر وقد تقدم بحث هذا الفن وهو من متطرفات علم البيان وهو في قوله تعالى " أم تنبئونه بما لا يعلم " وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء وان اللّه لا يعلمهم كذلك لأنهم - في الواقع - ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها اللّه إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة . معبودة ولكن مجيء النفي على هذه السنن المتلو بديع لا تكاد تكتنه بلاغته وعبارته ومن طريفه قول علي بن أبي طالب في وصف مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم " لا تثنى فلتاته " أي لا تذاع سقطاته فظاهر هذا اللفظ انه كان ثم فلتات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل المراد أنه لم يكن ثم فلتات فتثنى .

5- الاستدراج بقوله " أم بظاهر من القول " ليحثهم على التفكير دون القول المجرد من الفكر كقوله في مكان آخر : " ذلك قولهم بأفواههم " ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها " وهذا الاحتجاج من أعجب الأساليب وأقواها .

6- التدرج في كل من الإضرابات بأم المنقطعة وب " بل " على أنطف وجه .

[سورة الرعد (13) : الآيات 35 إلى 37]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (35) وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (36) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (37)

الإعراب:

)



مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) مثل الجنة مبتدأ وخبره محذوف على مذهب سيبويه أي فيما قصصناه عليكم مثل الجنة أي صفتها التي هي مثل في الغرابة وقد تقدمت مقتطفات من كلام سيبويه في مثل هذا التركيب وقال الزجاج معناه مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار على حذف الموصوف تمثيلا لما غاب عنا بما نشاهد . والتي صفة للجنة ووعد المتقون فعل ماض مبني للمجهول

ونائب فاعل وجملة تجري من تحتها الأنهار تفسير للمحذوف على رأي سيبويه فهي نصب على الحال وكذلك جملة أكلها دائم ، وأكلها مبتدأ ودائم خبر وظلها مبتدأ حذف خبره دل عليه ما قبله أي دائم وتلك مبتدأ وعقبى خبر والذين مضاف اليه وجملة اتقوا صلة .

(وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) عقبى مبتدأ والنار خبر أو بالعكس

لمناسبة الاول ولعله أولى . (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) والذين مبتدأ وجملة آتيناهم صلة والكتاب مفعول آتيناهم الثاني وجملة يفرحون خبر الذين وبما متعلقان بيفرحون وجملة أنزل إليك صلة وسر الفرح موافقته لما ورد عندهم .

)

(396/414)

---

وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) الواو عاطفة ومن الأحزاب خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة ينكر صلة وبعضه مفعول به وسيرد في باب الفوائد كتاب الصلح يوم الحديبية . (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ) إنما كافة ومكفوفة وأمرت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي بأن أعبد اللّه والجار والمجرور متعلقان بأمرت . (وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ) ولا أشرك عطف على أن أعبد وبه متعلقان

بأشرك واليه متعلقان بأدعو وإليه الثانية خبر مقدم ومآب مبتدأ مؤخر وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل أي واليه مآبي أي مرجعي .

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا ) الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف أي ومثل ذلك الإنزال أنزلناه ، وأنزلناه فعل وفاعل ومفعول به وحكما عربيا حالان أي حاكما بين الناس عربيا أي بلغة العرب ولما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم وقد تقدمت له نظائر . (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) اللام موطئة لتقسم وان شرطية واتبعت فعل وفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط وأهواءهم مفعول به وبعد ظرف متعلق باتبعت وما موصول مضاف اليه وجملة جاءك صلة ومن العلم حال . (ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ) ما نافية حجازية أو تميمية ولك خبر مقدم ومن اللّه حال لأنه كان في الأصل صفة ومن زائدة وولي اسم ما أو مبتدأ ولا واق عطف عليه وجملة مالك لا محل لها لأنها جواب القسم ولذلك لم تقترن بالفاء

وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم وفقا للقاعدة في اجتماع الشرط والقسم .

الفوائد :

لما كتب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم اللّه الرّحمن الرّحيم قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل اللّه تعالى " وهم يكفرون بالرحمن قل : هو ربي " وانما قال : " ومن الأحزاب من ينكر بعضه " لأنهم كانوا لا ينكرون اللّه وينكرون الرحمن وقيل لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم وكانوا ينكرون نعت رسول اللّه وغير ذلك .

[سورة الرعد (13) : الآيات 38 إلى 43]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (38) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (39) وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (40) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (41) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (43)

اللغة :

(أُمُّ الْكِتابِ) : أصله الذي يرتد إليه فكل كائن مكتوب فيه والأم أصل الشيء والعرب

تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أمّا له ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

)

(398/414)

---

مُعَقِّبَ) : المعقب في الأصل هو الذي يتعقب الشيء بالابطال ومنه قيل الحق معقب لأنه يتعقب غريمه بالطلب والمعقب هو الذي يكر على الشيء فيبطله .

الاعراب :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ) الواو للاستئناف والجملة مستأنفة مسوقة لابطال الشبهات التي كانوا يوردونها لابطال النبوة وقد أنهاها المفسرون إلى ست شبهات ويمكن الرجوع إليها في المطولات واللام مواطئة للقسم وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل وفاعل ورسلا مفعول به ومن قبلك متعلقان بأرسلنا . (وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً) وجعلنا فعل وفاعل ولهم في موضع المفعول الثاني وأزواجا هو المفعول الأول وذرية عطف على أزواجا وهذا إبطال للشبهة الأولى من شبهاتهم وهي قولهم : لو كان رسولا من عند اللّه لما اشتغل بالنسوة ولما انهمك في تعدد الزوجات ولا نصرف إلى النسك والزهادة فأجاب بأن الرسل الذين سبقوك كانت لهم زوجات كثيرة فلم يقدح ذلك في نبوتهم .

(

وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) الواو عاطفة وكان فعل ماض ناقص ولرسول خبر كان المقدم وأن وما في حيزها اسمها المؤخر وبآية جار ومجرور متعلقان بيأتي وإلا أداة حصر وبإذن اللّه استثناء من أعم الأحوال فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال. (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ) لكل خبر مقدم وأجل مضاف اليه وكتاب مبتدأ مؤخر. (يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ) يمحو اللّه فعل مضارع وفاعل وما مفعول به وجملة يشاء صلة ويثبت عطف على يمحو وعنده الظرف خبر مقدم وأم مبتدأ مؤخر والكتاب مضاف وهذا رد على شبهة ثانية كانوا يوردونها تعطيلا وإرجافا وهي أن محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر كاستقبال بيت المقدس ثم يأمرهم في الغد بخلافه كاستقبال الكعبة فرد عليهم مفندا شبهتهم بأنه سبحانه إنما شرع الشرائع كلها لإصلاح أحوالهم ورأب صدوعهم واختيار الأنفع لهم ولكنهم معطلة لا يأبهون لصلاح أمورهم ومقتضيات أحوالهم. (

وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ) الواو عاطفة وإن الشرطية أدغمت بما الزائدة ونرينك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم فعل الشرط والفاعل مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وبعض مفعول به ثان والذي مضاف اليه وجملة نعدهم صلة الذي وأو حرف عطف ونتوفينك عطف على نرينك ويقدر المعربون جواب الشرط محذوفا أي فذلك شافيك ودليل صدقك ويعربون الفاء في قوله فإنما للتعليل لهذا المحذوف ولا داعي لهذا التكلف بل الأسهل أن يكون قوله فانما هو الجواب وتقدير الكلام ومهما يكن من أمر وكيفما دارت الأحوال وإن أريناك مصارعهم وأنزلنا بهم ما أوعدناهم به من عذاب أو توفيناك قبل أن ترى شيئا من ذلك فما يترتب عليك وليس قصاراك إلا تبليغ الرسالة فحسب. وإنما كافة ومكفوفة وعليك خبر مقدم والبلاغ مبتدأ مؤخر وعلينا خبر مقدم



---

والحساب مبتدأ مؤخر. (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على محذوف- كما تقدم- تقديره أأنكروا نزول ما أوعدناهم وشكوا في ذلك وامتروا فيه ألم ينظروا في ذلك؟ ألم يروا؟ ألم تكن لهم في تلك المشاهد

الكافية والدلائل الوافية عبرة لهم ؟ ولم حرف نفي وقلب وجزم وأن واسمها سدت مسد مفعولي يروا وجملة نأتي خبر أن وفاعل نأتي مستتر تقديره نحن والأرض مفعول به وجملة ننقصها من أطرافها حالية من فاعل نأتي أو من مفعوله أي نفتحها أرضا بعد أرض بما ينقص من أطراف المشركين ويزيد في أطراف المؤمنين . (وَاللَّهُ يَحْكُمُ) لفظ الجلالة مبتدأ وجملة يحكم خبر . (لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ) لا نافية للجنس ومعقب اسمها المبني على الفتح ولحكمه خبر لا وهو الواو عاطفة وهو مبتدأ وسريع الحساب خبر هو وجملة لا معقب لحكمه حال أيضا من فاعل نأتي على الالتفات كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه وستأتي الفائدة من الالتفات في باب البلاغة . (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً) الواو استئنافية وقد حرف تحقيق وجملة مكر الذين من قبلهم استئنافية مسوقة لتسليته صلى الله عليه وسلم وقد مر بحث اسناد المكر إلى الله كثيرا فعرج عليه ، فلله المكر الفاء عاطفة على محذوف بمثابة التعليل أي فلا تأبه لمكرهم ولا تخش ضيرا منه فحذف هذا اكتفاء

بدلالة القصر المستفاد من التعليل ، والله خبر مقدم والمكر مبتدأ مؤخر وجميعا حال وشتان بين مكرهم ومكره . (يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) الجملة تفسير لقوله فلله المكر جميعا ويعلم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو وما مفعول به وجملة تكسب صلة وكل نفس فاعل .

(402/414)

---

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) السين للاستقبال ويعلم الكفار وفي قراءة الكافر فعل وفاعل ولمن اللام حرف جر ومن اسم استفهام في محل

جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعقبى الدار مبتدأ مؤخر . (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ) الجملة مستأنفة مسوقة لإجمال الشبهات الست التي أوردوها والتي تنتهي في اعتقادهم إلى هذه النتيجة وهي إبطال رسالته صلى اللّه عليه وسلم وجملة لست مرسلا مقول قولهم وهو مجمل شبهاتهم وليس واسمها وخبرها .

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) كفى فعل ماض تقدم بحثه مستوفى وباللّه الباء حرف جر زائد ولفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلا وشهيدا تمييز وبيني وبينكم ظرفان متعلقان بشهيدا ومن عطف على اللّه وعنده الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وعلم الكتاب مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية صلة من .

البلاغة :

(403/414)

---

1- في قوله تعالى " أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها واللّه يحكم لا معقب في حكمه " التفات بليغ ، وقد سبق ذكر الالتفات مشفوعا بالأمثلة والشواهد ونزيده هنا بسطا بصدد ما يتعلق بالآية فنقول : الرجوع عن خطاب النفس إلى الغيبة في الآية وبناء الحكم على الاسم الجليل ينطوي على أعظم الأسرار وأبهرها فإنه لما أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة المشوبة بالتحذير كان لا بد أن يتوجه إليهم بالخطاب ليريهم مكان القوة والعظمة لديه ، عاد إلى تصوير الفخامة والمهابة ، وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة إلى العلة التي هي السبب في إتيان الأرض وانتقاص أطرافها وإدالة الأمر من قوم لقوم ، ونقل السيطرة من الظالمين بالأمس إلى المظلومين ومن الغالبين بالأمس إلى المغلوبين وهذه الفخمية لا تتأتى إلا بإيراد الكلام في معرض الغيبة فقال ملتفتا واللّه يحكم في خلقه بما يشاء لا راد لحكمه ثم أردف ذلك بقوله لا معقب

لحكمه ولا مبطل لمشيئته وثلث بقوله وهو سريع الحساب فكل شيء محسوب لديه وعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا وستأتي شواهد بديعة من هذا الفن الرفيع .

2- الاستخدام :

وفي قوله " لكل أجل كتاب يمحو اللّه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " فن رفيع من فنون البلاغة أطلق عليه علماء هذا الفن اسم :

" فن الاستخدام " وعزفوه بتعريفات لا تخلو من غموض وسنحاول بسط ما أجملوه فأما تعريفه كما أورده ابن أبي الإصبع وابن منقذ وصاحب نهاية الأرب فهو : أن يأتي المتكلم بلفظة لها محملان ثم يأتي بلفظتين تتوسط تلك اللفظة بينهما وتستخدم كل لفظة منهما أحد محملي اللفظة المتوسطة ، ففي الآية المذكورة لفظة "كتاب " تحتمل الأمد المحتوم بدليل قوله تعالى في البقرة " حتى يبلغ الكتاب أجله " أي حتى يبلغ الكتاب أمده أي أمد العدة وأجله منتهاه والكتاب المكتوب وقد توسطت لفظه كتاب بين لفظتي " أجل " و " يمحو " فاستخدمت لفظة أجل أحد مفهوميها وهو الأمد واستخدمت لفظة يمحو مفهومها الآخر وهو المكتوب فيكون التقدير على ذلك لكل حد مؤقت مكتوب يمحي ويثبت .

وهنالك تعريف آخر يتمشى على طريقة صاحب الإيضاح ومشى عليه كثير من الناس وهو أن الاستخدام اطلاق لفظ مشترك بين معنيين فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين ثم تعيد عليه ضميرا تريد به المعنى الآخر أو تعيد عليه إن شئت ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر ومثال هذا النوع قول القائل :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فلفظة السماء يراد بها المطر وهو أحد المعنيين والضمير في رعيناه يراد به المعنى الآخر

وهو النبات وأما شاهد الضميرين فمثاله قول البحتري :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبّوه بين جوانحي وضلوعي

(405/414)

---

فإن لفظة الغضا محتملة الموضع والشجر والسقيا صالحة لكل منهما فلما قال والساكنيه أحد معنى اللفظة وهو الموضع بدلالة القرينة عليه ولما قال شبوه استعمل المعنى الآخر وهو الشجر بدلالة القرينة عليه ، وقد أورد الشيخ عز الدين الموصلي في شرح بديعيته نقدا حسنا لبيت البحتري فقد قال : " شرط علماء البديع أن يكون اشتراك لفظة الاستخدام اشتراكا أصليا والنظر هنا في اشتراك لفظة الغضا فإنه ليس بأصلي لأن أحد المعنيين منقول من الآخر والغضا في الحقيقة الشجر وسموا الوادي غضا لكثرة نبته فيه وقالوا جمر الغضا لقوة ناره فكل منقول من أصل واحد .

ومن الاستخدام قول أبي العلاء في داليته الشهيرة :

قصد الدهر من أبي حمزة الأ واب مولى حجا وخدن اقتصاد

وفقيها أفكاره شدن للنعمان ما لم يشده شعر زياد فالنعمان يحتمل هنا أبا حنيفة رحمه الله ويحتمل النعمان بن المنذر وقد أراد أبو العلاء بلفظ النعمان أبا حنيفة بدليل قوله وفقيها

وأراد

بالضمير المحذوف النعمان بن المنذر ملك الحيرة بدليل زياد وهو النابغة وكان معروفا بمدح النعمان بن المنذر وقد انتقدوه أيضا لأن ضمير يشده لم يعد على واحد منهما لأن شرط الضمير في الاستخدام أن يكون عائدا على اللفظة المشتركة ليستخدم بها معناها الآخر كما قال البحتري في شبوه فهذا الضمير عائد على الغضا وهذا قد جعل الضمير في يشده غير عائد على اللفظة المشتركة التي هي النعمان فصار طيب الذكر الذي شيده زياد لا يعلم لمن هو لأن الضمير لا يعود على النعمان. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 80. 139﴾

(406/414)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/415)

---

الجزء الخامس عشر بعد الأربعمائة

( سورة إبراهيم عليه السلام )

(4/415)

---

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

( سورة إبراهيم عليه السلام )

(5/415)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

ذكروا فيه أَحاديث ضعيفة واهية .

منها : مَن قرأَ سورة إِبراهيم أُعْطِى من الأَجْر عشرَ حسنات ، بعدد كلّ مَن عبد الأَصنام ، وعدد من لم يعبدها ، وفى لفظٍ : أُعطى بعدد مَن عبد الأَصنام مدينةً فى الجَنَّة ، لو نزل بها مثل يأْجوج ومأْجوج لوسِعتهم ما شاءُوا من اللِّباس ، والخَدَم ، والمأْكول ، وسائر النّعم ، وحرم عليهم سرابيل القطِران ، ولا تغشى النّارُ وجهه ، وكان مع إِبراهمي فى قباب الجنان ، وأُعطِى بعدد أَولادِ إِبراهيم حسنات وجردات ، وحديث علىّ : يا علىُّ مَن قرأَ سورة إِبراهيم كان فى الجَنَّة رفيق إِبراهيم ، وله مثل ثُواب إِبراهيم ، وله بكلِّ آية قرأَها مثل ثُواب إِسحق بن إِبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 271﴾

(6/415)

فصل

قال البقاعى :

مقصود السورة التوحيد ، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله ، لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدى إليه .

ناقل – بما فيه من الأسرار – للخلق من طور إلى طور – بما يشير إليه حرف الراء ، وأدل ما فيها على هذا المرام قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أما التوحيد فواضح ، وأما أمر الكتاب فلأنه من جملة دعائه لذريته الذين أسكنهم عند البيت المحرم من ذرية إسماعيل عليه السلام ) ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ) [ البقرة : 129 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 165 ﴾

(7/415)

---

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى . . الر كتاب أنزلناه اليك )

السّورة مكيّة إِجماعاً ، غيرآية واحدة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً ﴾ الآية .

وعدد آياتها خمس وخمسون عند الشاميّين، واثنتان عند الكوفيّين، وأَربع عند الحجازيّين، وواحدة عند البصريّين، وكلماتها ثمانمائة وإِحدى وثلاثون.

وحروفها ستَّة آلاف وأَربعمائة وأَربع وثلاثون.

والآيات المختلف فيها سبع: ﴿ إِلَى النُّوْرِ ﴾، وعاد، وثمود، ﴿ بِخَلْقٍ جَدِيْدٍ ﴾، ﴿ وَفَرْعُهَا فِيْ السَّمَآءِ ﴾ ﴿ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ﴿ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾.

مجموع فواصل آياتها (آدم نظر، صبّ ذلّ).

وتسمّى سورة إِبراهيم؛ لتضمُّنها قصّة إِسكانه ولده إِسماعيل بواد غير ذى زرع، وشكره لله تعالى على ما أَنعم عليه من الولدَيْن: إِسماعيل بواد غير ذى زرع، وشكره الله تعالى على ما أَنعم عليه من الولدَيْن: إِسماعيل وإِسحق.

(8/415)

---

مقصود السّورة: بيان حقيقة الإِيمان، وبرهان النبوّة، وأَن الله تعالى أَرسل كلّ رسول بلغة قومه، وذِكر الامتنان على بنى إِسرائيل بنجاتهم من فرعون، وأَنَّ القيام بشكر النّعم يوجب المزيد، وكفرانها يوجب الزّوال، وذكر معاملة القرون الماضية مع الأَنبياءِ، والرّسل الغابرين، وأَمر الأَنبياءِ بالتَّوكُّل على الله عند تهديد الكفَّار إِيّاهم، وبيان مَذَلَّة الكفَّار فى

العذاب، والعقوبة، وبطلان أَعمالهم، وكمال إِذلالهم فى القيامة، وبيان جزعهم من العقوبة، وإِلزام الحجّة عليهم، وإِحال إِبليس اللاَّئمة عليهم، وبيان سلامة أَهل الجنَّة، وكرامتهم، وتشبيه الإِيمان (والتَّوحيد بالشَّجرة الطَّيِّبة وهى النخلة وتمثيل الكفر بالشَّجرة الخبيثة وهى الحنظة وتثبيت أَهل الإِيمان) على كلمة الصّواب عند سؤال منكر ونكير، والشكوى من الكفَّار بكفران النّعمة، وأَمر المؤمنين بإِقامة الصّلوات، والعبادات، وذكر المِنَّة على المؤمنين بالنّعم والسّابغات، ودعائه إِبراهيمُ بتأْمين الحَرَم المكّى، وتسليمه إِسماعيل إِلى كرم الحَقّ تعالى.

ولطفه وشكره لله على إِعطائه الولد، والتهديد العظيم للظَّالمين بمذلّتهم فى القيامة، وذِكْر أَن الكفار قُرناءُ الشياطين فى العذاب، والإِشارة إِلى أَنّ القرآن أَبلغ وعظ، وذكرى للعقلاءِ فى قوله: ﴿هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ﴾ إِلى آخر السّورة.

والسّورة خالية عن المنسوخ فى قول.

وعند بعضهم ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ م ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ن. انتهى انتهى. ا هـ

﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 268.269﴾

(9/415)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة إبراهيم عليه السلام

216 - مسألة :

قوله تعالى : (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) وقال بعده : (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) ولم يقل : (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) ؟ .

جوابه :

أن قصة موسى عليه السلام مضت وعرفت نبوته فلا حاجة

إلى توكيدها بذلك . ونبوة النبى – صلى الله عليه وسلم – باقية ، وكذلك دعاؤه

إلى الله تعالى فناسب التوكيد لرسالته ونبوته بقوله تعالى :

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)

217 - مسألة :

قوله تعالى : (لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)

لم يقل "صبور ولا شكار فما فائدة ذلك التغاير وكلاهما للمبالغة ؟ .

جوابه :

أن نعم الله تعالى مستمرة متجددة في كل حين وأوان فناسب

(شَكُورٍ) لأن صيغة "فعول " تدل على الدوام كصدوق ورحوم وشبهه .

وأما المؤلمات المحتاجة إلى الصبر عليها فليست عامة بل تقع في بعض الأحوال فناسب صبار ، لأن : " فعالا" لا يشعر بالدوام كنوام وركاب وأكال ، ولمراعاة رؤوس الآي .

218 - مسألة :

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا)

جوابه :

تقدم في المائدة مثيله .

219 - مسألة :

قوله تعالى : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

ولم يقل بعده : "لأعذبنكم أشد عذاب "كما قال (لَأَزِيدَنَّكُمْ)

جوابه :

من وجهين :

الأول : حسن المخاطبة في التصريح بالزيادة في الخير ، ولم يصرح بالعذاب في المخاطبة .

الثاني : لو صرح بخطابهم بذلك لم يكن صريحا بدخول غيرهم في ذلك الحكم فعدل عن

إضافة ذلك إليهم ليفيد عمومه في كل كافر مطلقا .

220 - مسألة :

قوله تعالى : (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ) .

ولم يقل : قالوا لرسلهم ؟ .

جوابه :

أن التصريح باللام آكد في تبليغ الرسالة لهم فناسب

ذكرها في سياق الرسل .

221 - مسألة :



---

قوله تعالى : (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وفى النمل : (وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)) ؟ .

جوابه :

أنه لما قال هنا : (رِزْقًا لَكُمْ) وإقرانها بالرزق أبلغ في النعمة

والمنة أغنى ذكرها آخرا عن ذكرها أولا .

وفى النمل : صدرها مع (أَنزَلَ) للمنة وليس ثَم ما يغنى عنها بالمنة عليهم . انتهى ا . هـ ﴿كشف المعاني صـ 222.219﴾

(11/415)

---

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وبعده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لأَنَّ الإِيمان سابق على التوكُّل .

قوله : ﴿ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ والقياس على شىء ممّا كسبوا كما فى البقرة لأَنَّ على (من صلة القدرة ، ولأَن ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ صف لشىء .

وإِنَّما قدم فى هذه السورة لأَن) الكسب هو المقصود بالذكر ، وأَنَّ المَثَل ضُرب للعمل ، يدلّ عليه قوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ .

قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وفى النَّمل : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ بزيادة (لكم) ؛ لأَنَّ (لكم) فى هذه السّورة مذكور فى آخر الآية ، فاكتُفِىَ بذكره ، ولم يكن فى النّمل فى

آخرها ، فذكر فى أَوّلها .

وليس قوله : ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ ﴾ يكفى من ذكره ؛ لأَنَّه نفى لا يفيد معنى الأَوّل .

قوله : ﴿ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ ﴾ قدّم الأَرض ؛ لأَنَّها خُلِقت قبل السّماءِ ؛ ولأَنّ هذا الدّاعى فى الأَرض .

وقدّمت الأَرض فى خمسة مواضع : هنا ، وفى آل عمران ، ويونس ، وطه ، والعنكبوت .

قوله : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (خصّ أُولى الأَلباب) بالذكر لأَنّ المراد فى الآية التّذكُّر ، والتدبّر ، والتَّفكُّر فى القرآن ، وإنَّما يتأَتّى ذلك منهم ، مِثله فى البقرة ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً

(12/415)

---

كَثِيراً ﴾ يريد فَهْم معانى القرآن ، ثمّ خَتَمَ الآية بقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ ومثلها فى آل عرمان ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ﴾ وذكر فيه المحكمات والمتشابهات ، وختمها بقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ ، ولا رابع لها فى القرآن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 269 . 271 ﴾

(13/415)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة إبراهيم

243 - قوله ويذبحون 6 بواو العطف قد سبق والله أعلم

244 - قوله وإنا 9 بنون واحدة و تدعوننا 9 بنونين على القياس وقد سبق في هود

245 - قوله فليتوكل المؤمنون 11 وبعده فليتوكل المتوكلون 12 لأن الإيمان سابق على التوكل لأن على من صفة القدرة ولأن مما كسبوا صفة لشيء وإنما قدم مما كسبوا في هذه السورة لأن الكسب هو المقصود بالذكر فإن المثل ضرب للعمل يدل عليه ما قبله أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء

246 - قوله تعالى لا يقدرون مما كسبوا على شيء 18 وقال في البقرة لا يقدرون على شيء مما كسبوا 264 لأن الأصل ما في البقرة

247 - قوله أنزل من السماء ماء 32 وفي النمل وأنزل لكم من السماء ماء 60 بزيادة لكم لأن لكم في هذه السورة مذكور في آخر الآية فاكتفى بذكره ولم يكن في النمل في آخرها فذكر في أولها وليس قوله ما كان لكم يكفى عن ذكره لأنه نفى ولا يفيد معنى الأول . انتهى

انتهى . اهـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 117﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

تمهيد :

سورة إبراهيم مكية إلا الآيتين 28 ، 29 ، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية ، وسميت سورة إبراهيم لما فيها من قصص إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق ، وسكن إسماعيل وذريته بجوار بيت الله المحرم ، ولكن لم يتخذ شخص إبراهيم ـ عليه السلام ـ محور السورة ، كما كان الشأن فى سورة يوسف ـ عليه السلام ـ

ابتدئت السورة الكريمة بالحروف المجردة وهى (الر) ثم ذكر الكتاب الكريم وأن الله أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، وذكرت السورة ملك الله للسموات والأرض وما فيهما ،

وأن الويل للكافرين بآياته الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله تعالى ويبغونها معوجة ، وأولئك فى ضلال مبين .

ويذكر الله سبحانه أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء

ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم .

وبعد ذلك يشير الله سبحانه إلى طرف من قصة موسى وقومه ، فيذكر سبحانه على لسان موسى بنعمته عليهم إذ أخرجهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب ، ويبين سبحانه وتعالى أنهم إن شكروا زادهم نعما على نعم ، ويقول موسى لقومه ( . . . إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) .

ويشير سبحانه من بعد ذلك إلى أبناء قوم نوح وعاد والذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ، وعضوها غيظا ، وقالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب .

(15/415)

---

ويحكى سبحانه وتعالى دعوة الرسل عامة ، ومجاوبة المشركين المتشابهين عامة ، قالت لهم رسلهم : ( . . . أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلىٰ أجل مسمى . . . فيرد عليهم الكافرون وهو رد متحد عند الكافرين جميعا ، قد انبعث عن جحود واحد فاتحد . . قالوا : ( . . . إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . وكان رد الرسل واحدا . . . إن نحن

إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، وقد قرروا أنهم لا يتوكلون إلا على الله ، وليصبرن على أذى أقوامهم .

ولقد كان الإيذاء متحدا من الكافرين ، إذ اتحد السبب المنبعث منه وهو الجحود ، وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد .

وإنه من بعد ذلك الخزى فى الحياة الدنيا يكون العذاب الشديد ، ( . . . ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه . . . .

وقد مثل الله تعالى أعمال الذين كفروا فى الكفر بأن ( . . . أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد .

ثم بين بعد ذلك خلق السموات والأرض ( . . . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ، وقد صور الله سبحانه وتعالى حالهم يوم القيامة ، إذ تجادل الضعفاء والذين استكبروا ( وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (21)

ويدخل الشيطان فى المجادلة فيقول : ( . . . إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22) .

وقد ذكر سبحانه بعد ما كان بين المشركين ضعفاء ومستكبرين والشيطان ، ذكر سبحانه وتعالى إدخال المؤمنين الجنة .

( وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ (23) .

وقد ضرب سبحانه مثلا يفرق بين الإيمان والكفر بالفرق بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، فالكلمة الطيبة . . . كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والكلمة الخبيثة . . . كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء .

وذكر سبحانه أن حال الكافرين حال عجيبة تثير الاستفهام ، فقد ( . . . بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ؟

وذلك لأنهم جعلوا لله أندادا من الحجارة ، وقد صاروا بذلك غير مدركين حقائق أمورهم

، وجديرون بأن يقال لهم ( . . . تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ،

وذكر فى مقابل ذلك المؤمنين الذين لم يبدلوا نعمة الله كفرا ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .

*(17/415)*

---

ولقد ذكر الله نعمه على خلقه ، فهو ( الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (32) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) .

ولقد ذكر الله تعالى بعد ذلك خبرا صادقا عن إبراهيم أبى العرب ، وكيف كان يدعو الله ولا يعبد الأصنام ، ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36) . وأخذ يدعو لذريته فى البلاد العربية بسعة الرزق فقال :

( رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ

تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء (38)
الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء (39)
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) .

(18/415)

---

ذكر الله سبحانه وتعالى أدعية إبراهيم ليكون ذلك تذكيرا لذريته من العرب ، ليتركوا الأوثان ويتجهوا إلى الضراعة إلى الله تعالى كضراعة جدهم أبى الأنبياء إبرهيم .

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الله لا يخلف وعده رسله يوم القيامة ، فقال عز من قائل : ( وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء (43)

وقد أمر الله تعالى نبيه " محمد - صلى الله عليه وسلم - أن ينذر قومه بيوم القيامة ، وبما كان قد نزل بمن قبلهم ، فقال تعالى : ( وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (44) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا

لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) .

ولقد حذر الله تعالى من نزول وعده ، وذكر سبحانه أنه فى يوم القيامة يكون الجزاء ، تجزى فيه كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب . (هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 3976 . 3980 ﴾

(19/415)

---

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم – عليه السلام – فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره .

ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء – صلى الله عليه وسلم – ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول .

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم - عليه السلام - جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات ﴿ألر﴾ .

وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء - عليهم السلام - التي جاءت قصصهم فيها ، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة الحجر ، ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك لأنها متميزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء .

وهي مكية كلها عند الجمهور .

وعن قتادة إلا آيتي ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله : ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [سورة إبراهيم : 28] ، وقيل : إلى قوله : ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [سورة إبراهيم : 30] .

نزل ذلك في المشركين في قضية بدر ، وليس ذلك إلا توهما كما ستعرفه .

نزلت هذه السور بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء .

وقد عدت السبعين في ترتيب السور في النزول .

وعدت آياتها أربعا وخمسين عند المدنين وخمسين عند أهل الشام ، وإحدى وخمسين عند أهل البصرة .

واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة .

واشتملت من الأغراض على أنها ابتدأت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن ، وبالتنويه بشأنه ، وأنه

أنزل لإخراج الناس من الضلالة .

والامتنان بأن جعله بلسان العرب .

وتمجيد الله تعالى الذي أنزله .

(20/415)

---

ووعيد الذين كفروا به بمن أنزل عليه .

وإيقاظ المعاندين بأن محمد صلى الله عليه وسلم ما كان بدعا من الرسل .

وأن كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل .

وضرب له مثلا برسالة موسى – عليه السلام – إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل

وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم

وما لاقته رسلهم من التكذيب .

وكيف كانت عاقبة المكذبين .

وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته وذكر البعث وتحذير الكفار

من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف

حالهم وحال المؤمنين يومئذ .

وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين.

وعد بعض نعمة على الناس تفضيلا ثم جمعها إجمالا.

ثم ذكر الفريقين بحال إبراهيم – عليه السلام – ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم – عليه السلام – ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام وتحذيرهم من كفران النعمة.

وإنذارهم أن يحل بالذين ظلموا من قبل.

وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم بوعد النصر.

وما تخلل ذلك من الأمثال.

وختمت بكلمات جامعة من قوله: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة إبراهيم: 52] إلى آخرها. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ 213.214 ﴾

*(21/415)*

---

وقال الشيخ سيد قطب

التعريف بالسورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة - سورة إبراهيم - مكية , موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب:العقيدة في أصولها الكبيرة:الوحي والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء .

ولكن السياق في السورة يسلك نهجا خاصا بها في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصيلة . نهجا مفردا يميزها - كالشأن في كل سورة قرآنية - عن السور غيرها . يميزها بجوها وطريقة أدائها , والأضواء والظلال الخاصة التي تعرض فيها حقائقها الكبرى . ولون هذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها في السور الأخرى ; ولكنها تعرض من زاوية خاصة , في أضواء خاصة فتوحي إيحاءات خاصة . كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها , فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا , فيحسها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد في "اللقطات الفنية" . ونحن نستعمل هذا التعبير "اللقطات الفنية" لأنه يلاحظ في صورته المعجزة في طريقة الأداء القرآنية !

ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم . . أبو الأنبياء . . المبارك , الشاكر الأواه المنيب . وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جو السورة , وفي الحقائق التي تبرزها , وفي طريقة الأداء , وفي التعبير والإيقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسية في العقيدة . ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها . وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظل إبراهيم في جو السورة: حقيقة وحدة الرسالة والرسل , ووحدة دعوتهم , ووقفتهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان . وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر ; ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران . .

وبروز هاتين الحقيقتين , أو هذين الظلين . لا ينفي أن هناك حقائق أخرى في سياق السورة . ولكن هاتين الحقيقتين تظللان جو السورة . وهذا ما أردنا الإشارة إليه:

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وما أوتيه من كتاب . . فهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله:

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) .

وتختم بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الرسالة . حقيقة التوحيد:

هذا بلاغ للناس ولينذروا به , وليعلموا أنما هو إله واحد , وليذكر أولو الألباب) .

وفي أثنائها يذكر أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد (صلى الله عليه وسلم) ولمثل ما أرسل به , حتى في ألفاظ التعبير:

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) . .

ويذكر كذلك أن وظيفة الرسل عامة كانت هي البيان:

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) . . .

وتتضمن إلى جانب وظيفة الرسول بيان حقيقته البشرية , وهي التي تحدد وظيفته . فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين . ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة إلا بإذن الله , وحين يشاء الله , لا حين يشاء هو أو قومه ; ولا يملك كذلك أن يهدي قومه أو يضلهم , فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي اقتضتها مشيئته المطلقة .

ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم , والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين:

(23/415)

---

(قالوا:إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا , فأتونا بسلطان مبين)

.

وتحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين:

(قالت لهم رسلهم:إن نحن إلا بشر مثلكم , ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما

كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم (بإذن ربهم) . .

وكل رسول يبين لقومه (فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء , وهو العزيز الحكيم) .

وبهذا وذلك تتحدد حقيقة الرسول , فتتحدد وظيفته في حدود هذه الحقيقة , ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم , بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة .

كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا . تحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف , وفي الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

يصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين في الدنيا :

(وقال الذين كفروا لرسلهم:لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين , ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد . . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . .) .

ويصورها في مشاهد القيامة في الآخرة:

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) . .

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد , سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) .

.

ويصورها في الأمثال التي يضربها لهؤلاء وهؤلاء:

(24/415)

---

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ; ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثمن فوق الأرض ما لها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة , ويضل الله الظالمين , ويفعل الله ما يشاء) . .

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف , لا يقدرون مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد) . .

فأما الحقيقتان اللتان تظللان جو السورة , وتتسقان مع ظل إبراهيم: أبي الأنبياء . الشكور الأواه المنيب , وهما حقيقة وحدة الرسالة والرسل , ووحدة دعوتهم , ووقفتهم أمة واحدة في مواجهة الجاهلية المكذبة . وحقيقة نعمة الله على البشر كافة وعلى المختارين منهم بصفة خاصة . . فنفردهما هنا بالحديث .

فأما الحقيقة الأولى فيبرزها السياق في معرض فريد في طريقة الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية في صورة توحيد الدعوة التي يجيء بها كل رسول , فيقول كلمته لقومه ويمضي , ثم يجيء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها , ويلقون الرد ذاته , ويصيب المكذبين ما يصيبهم في الدنيا , وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل في الأرض أو إلى أجل في يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول في مشهد , كالشريط المتحرك منذ الرسالات الأولى . وأقرب مثل لهذا النسق سورة الأعراف وسورة هود .

فأما سورة إبراهيم - أبي الأنبياء - فتجمع الأنبياء كلهم في صف وتجمع الجاهليين كلهم في صف . وتجري المعركة بينهم في الأرض , ثم لا تنتهي هنا , بل تتابع خطواتها كذلك في يوم الحساب !

ونبصر فنشهد أمة الرسل , وأمة الجاهلية , في صعيد واحد , على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان , أما الحقيقة الكبرى في هذا الكون - حقيقة الإيمان والكفر - فهي أضخم وأبرز من عرضي الزمان والمكان:

ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله .

جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم , وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به , وإنا لفي

شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم: أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ,

يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم , ويؤخركم إلى أجل مسمى ? قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ,

تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا , فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم: إن نحن

إلا بشر مثلكم , ولكن الله يمن على من يشاء من عباده , وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا

بإذن الله , وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ,

ولنصبرن على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا

لرسلهم: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ,

ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد .

(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد , من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد , يتجرعه ولا

يكاد يسيغه , ويأتيه الموت من كل مكان , وما هو بميت , ومن ورائه عذاب غليظ) . .

فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل ; ويتلاشى الزمان والمكان ; وتبرز

الحقيقة الكبرى: حقيقة الرسالة وهي واحدة . واعتراضات الجاهليين عليها وهي واحدة

. وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهي واحدة . وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهي

واحدة . وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهي واحدة . وحقيقة العذاب الذي

ينتظرهم هناك وهي واحدة . . وذلك إلى التماثل بين قول الله لمحمد (صلى الله عليه وسلم) :

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) .

وحكاية قوله لموسى - عليه السلام -:

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) .

(26/415)

---

ولا تنتهي المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة . فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوعة التي تتضمنها السورة . وهذه نماذج منها :

(وبرزوا لله جميعا , فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا , فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ? قالوا : لو هدانا الله لهديناكم , سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم , وما كان لي عليكم من سلطان , إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي , فلا تلوموني ولوموا أنفسكم , ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي , إني كفرت بما أشركتمون من قبل , إن الظالمين لهم عذاب أليم . . وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من

تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم , تحيتهم فيها سلام) . .

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون , إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .

مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) . .

(وقد مكروا مكرهم , وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات , وبرزوا لله الواحد القهار , وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) . . .

وهي كلها تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة , وتكمل إحداهما الأخرى بلا انقطاع ولا انفصال .

وتكمل الأمثال التي تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة كذلك إبراز معالم المعركة بين الفريقين , ونتائجها الأخيرة: مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة: شجرة النبوة , وشجرة الإيمان , وشجرة الخير . والكلمة الخبيثة: كالشجرة الخبيثة: شجرة الجاهلية والباطل والتكذيب والشر والطغيان .

وأما الحقيقة الثانية المتعلقة بالنعمة والشكر والبطر فتطبع جو السورة كله , وتتناثر في سياقها .

يعدد الله نعمه على البشر كافة , مؤمنهم وكافرهم , صالحهم وطالحهم , برهم وفاجرهم , طائعهم وعاصيهم . وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمة في هذه الأرض , كالمؤمن والبار والطائع :لعلهم يشكرون . ويعرض هذه النعمة في أضخم مجالي الكون وأبرزها , ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة:

(الله الذي خلق السماوات والأرض , وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ; وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره , وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين , وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه , وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار) . .

وفي إرسال الرسل للناس نعمة تعدل تلك أو تربو عليها :

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) . .

والنور أجل نعم الله في الوجود . والنور هنا هو النور الأكبر . النور الذي يشرق به كيان الإنسان , ويشرق به الوجود في قلبه وحسه . . وكذلك كانت وظيفة موسى في قومه . ووظيفة الرسل كما بينتها السورة .

وفي قول الرسل مجتمعين:

(يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) . .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور , وهي منه قريب . .

وفي جو الحديث عن النعمة يذكر موسى قومه بأنعم الله عليهم:

(وإذ قال موسى لقومه:اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) .

وفي هذا الجو يذكر وعد الله للرسل:

(فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) . .

وهي نعمة من نعم الله الكثار الكبار .

ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر:

(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم , ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) . .

مع بيان أن الله غني عن الشكر وعن الشاكرين:

(إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد) .

ويقرر السياق أن الإنسان في عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر:

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) . .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله, وتتفتح لها بصائرهم يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء:

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

ويمثل الصبر والشكر في شخص إبراهيم في موقف خاشع, وفي دعاء واجف, عند بيت الله الحرام, كله حمد وشكر وصبر ودعاء .

(وإذ قال إبراهيم: رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس, فمن تبعني فإنه مني, ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة, فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن, وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي, ربنا وتقبل دعاء, ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة تجيء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو:

(وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) . .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) . .

(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) . .

(اذكروا نعمة الله عليكم) . .

(الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق) . .

وفي رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجيء:

(ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) . .

فيبرز منة الله تنسيقا للرد مع جو السورة كله . جو النعمة والمنة والشكر والكفران . .

وهكذا يتساوق التعبير اللفظي مع ظلال الجو العام في السورة كلها على طريقة التناسق الفني في القرآن . .

وتنقسم السورة إلى مقطعين متماسكي الحلقات:



---

المقطع الأول يتضمن بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول . ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين في الدنيا وفي الآخرة , ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

والمقطع الثاني يتحدث عن نعم الله على البشر , والذين كفروا بهذه النعمة وبطروا . والذين آمنوا بها وشكروا ونموذجهم الأول هو إبراهيم . ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها , وأحفلها بالحركة والحياة . .

ليختم السورة ختاما يتسق مع مطلعها :

هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد , وليذكر أولو الألباب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 2077.2082﴾

(30/415)

---

وقال الشيخ الصابونى :

سورة إبراهيم

مكية وآياتها اثنتان وخمسون آية

بين يدي السورة

* تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة ( الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، والإيمان بالبعث والجزاء ) ويكاد يكون محور السورة الرئيسي الرسالة والرسول " فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل ، وبينت وظيفة الرسول ، ووضحت

معنى وحدة الرسالات السماوية ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، جاءوا لتشييد صرح الإيمان ، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنو له الوجوه ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فدعوتُهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وإن كان بينهم اختلافٌ في الفروع .

* وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام ، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه ، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل ، من الأمم السابقة كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور ، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات ، انتهت بأهلاك الله للظالمين

[ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ] .

* وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة ، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون ، بأتباعهم الضعفاء ، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل ، ينتهي بتكدس الجميع في (نار جهنم ) ، يصطلون سعيرها ، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم ، التي وجهوها إلى الرؤساء ، فالكل في السعير ، ثم ضربت الآيات ، مثلا لكلمة الإيمان ، وكلمة الضلال ، بالشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين ، يوم الجزاء

والدين .

التسمية :

(31/415)

---

سميت السورة الكريمة (سورة إبراهيم ) تخليدا لمآثر أب الأنبياء ، وإمام الحنفاء " إبراهيم " عليه السلام ، الذي حطم الأصنام ، وحمل راية التوحيد ، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام ، الذي بعث الله به خاتم المرسلين ، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق ، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 2 صـ 89 ﴾

(32/415)

---

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة إبراهيم

الظلمات : الضلالات ، والنور : الهدى ، وإذن ربهم : تيسيره وتوفيقه ، والعزيز : الغالب ، والحميد : المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له أبدا ، ويل : هلاك ، يستحبون : يختارون ، سبيل اللّه : هو دينه الذي ارتضاه ، يبغونها : يطلبون لها ، عوجا : زيغا واعوجاجا ، واللسان : اللغة

الآيات : هى الآيات التسع التي أجراها اللّه على يده عليه السلام ، والظلمات : الكفر والجهالات ، والنور : الإيمان باللّه وتوحيده وجميع ما أمروا به ، وذكرهم : أي عظهم ، وأيام اللّه : وقائعه فى الأمم السابقة ويقال فلان عالم بأيام العرب : أي بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ويوم الفجار قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غرّ طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

والصبار . كثير الصبر ، والشكور كثير الكشر ، يسومونكم . يكلفونكم بلاء . أي ابتلاء واختبار ، وتأذن : أي آذن وأعلم ، وحميد مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد .

الريبة : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر ، وفاطر السموات والأرض أي موجدهما على نظام بديع ، والسلطان . الحجة والبرهان .

لتعودنّ : لتصيرن ، والملة : الدين والشريعة ، والمقام : موقف الحساب ، واستفتحوا : أي طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء ، وخاب : هلك ، والجبار : العاتي المتكبر على طاعة اللّه ، والعنيد : المعاند للحق المخالف له ، ومن ورائه : أي من بعد ذلك ينتظره ،

والصديد ما يسيل من جلود أهل النار ، يسيغه : أي يستطيبه يقال ساغ الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة ، يأتيه الموت : أي تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جهة ، عذاب غليظ : أي شديد غير منقطع .

وبرزوا : أي صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم والضعفاء : واحدهم ضعيف ، ويراد به ضعيف الرأى والفكر ، والذين استكبروا :

(33/415)

---

هم رؤساؤهم الذين استنفروهم ، والتبع : واحدهم تابع كخادم وخدم ، مغنون : أي دافعون ، ومحيص : أي منجى ومهرب ، والسلطان : التسلط ، بمصرخكم : أي بمغيثكم ، يقال استصرخنى فأصرخته : أي استغاثني فأغثته .

المثل : قول فى شىء يشبّه بقول فى شىء آخر ، لما بينهما من المشابهة ، ويوضح الأول بالثاني ، ليتم انكشاف حاله به ، ثابت : أي ضارب بعروقه فى الأرض ، فى السماء : أي جهة العلو ، تؤتى أكلها : أي تعطى ثمرها ، بإذن ربها : أي بإرادة خالقها ، اجتثت : أي استؤصلت وأخذت جثتها ، والقرار : الاستقرار ، القول الثابت : أي الذي ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم .

البوار : الهلاك ، يقال رجل بائر وقوم بور كما قال : " وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً " ويصلونها : يقاسون حرها ، والأنداد : واحدهم ندّ وهو المثل والشبيه ، والمصير : المرجع ، والبيع : الفدية ، والخلال : المخالّة والصداقة .

السماء : السحاب ، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء ، والرزق : كل ما ينتفع به ، والتسخير : التيسير والإعداد ، والفلك : السفن ، دائبين : أي دائمين فى الحركة لا يفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : " تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً " آتاكم : أي أعطاكم ، لا تحصوها : لا تطيقوا حصرها ، والإحصاء : العد بالحصى ، وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع ، ظلوم : أي لنفسه بإغفال شكر النعمة ، كفار : شديد الكفران والجحود لها .

واجنبنى : أي أبعدنى ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيره ، ثم استعمل فى البعد مطلقا ، وتهوى إليهم : أي تسرع شوقا وحبا ، ويقوم الحساب : أي يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أي وجدتا .

تشخص : ترتفع ، مهطعين : مسرعين إلى الداعي ، مقنعى رءوسهم : أي رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء .

لا يرتد : لا يرجع ، هواء :

خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه هواء : أي لا قوة ولا رأى له كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوّف نخب هواء

من زوال : أي من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء وضربنا لكم الأمثال : أي بينا لكم أنهم مثلكم فى الكفر واستحقاق العذاب . عزيز : أي غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وبرزوا : أي خرجوا من قبورهم ، مقرّنين أي مشدودين ، فى الأصفاد : أي فى القيود واحدها صفد ، سرابيلهم ، واحدها سربال :

وهو القميص ، والقطران : دهن يتحلّب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الهناء ، وهو أسود اللون منتن الريح تقول هنأت البعير أهنؤه إذا طليته بالهناء ، وتغشى وجوههم النار : أي تعلوها وتحيط بها ، بلاغ :

كفاية فى العظة والتذكير . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير المراغى حـ 13 صـ 123 .

164﴾ . باختصار .

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة إبراهيم

مكية وآياتها 52 آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة إبراهيم وهي مكية وهي مكية إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة فيمن قتل من المشركين يوم بدر وهما الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا إلى آخر الآيتين

1 - قوله تبارك وتعالى الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم (آية 1) الظلمات الكفر والنور الإسلام على التمثيل لأن الكفر بمنزلة الظلمة والإسلام بمنزلة النور

والباء في قوله بإذن ربهم متعلقة بقوله لتخرج الناس والمعنى في قوله بإذن ربهم أنه لا يهتدي أحد إلا بإذن الله ويجوز ان يكون المعنى بتعليمك إياهم ثم بين النور فقال إلى صراط العزيز الحميد 2 - ومعنى قوله تعالى ويبغونها عوجا (آية 3)

ويطلبون غير القصد

3 - وقوله جل وعز وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه (آية 4)

أي بلغة قومه ليبين لهم أي ليفهمهم لتقوم عليهم الحجة 4 - وقوله جل وعز ولقد ارسلنا موسى بآياتنا (آية 5) قال مجاهد أي بالآيات البينات يعني قوله ولقد آتينا موسى تسع آيات

بينات 5 - وقوله تعالى ودكرهم يحيى بأيام الله (آية 5) قال أبي بن كعب أي بنعم الله وقال غيره بإهلاكه من قبلهم وبانتقامه الرحمن منهم بكفرهم

6 - وقوله تعالى وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ انجاكم وكان من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم (آية 7) وفي موضع آخر يذبحون بغير واو ومعنى الواو يوجب انه قد أصابهم من العذاب شئ سوى التذبيح وإذا كان بغير واو فإنما هو تبيين الأول 7 - وقوله جل وعز ويستحيون نساءكم (آية 7) أي لا يقتلونهن من الحياة أي يدعونهن يحيين وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم اقتلوا شيوخ المشركين

*(36/415)*

---

واستحيوا شرخهم 8 - ثم قال تعالى وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم (آية 6) قال المعنى في إنجائ روى غياكم منهم نعمة عظيمة ويكون البلاء ها هنا النعمة وقيل فيما جرى منهم عليكم بلاء أي بلية وقيل البلاء ها هنا الاختبار 9 - وقوله جل وعز وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم (آية 7) تأذن بمعنى أعلم من قولهم آذنه فأذن بالأمر وهذا كما يقال توعدته وأوعدته بمعنى واحد

10 - قوله تعالى والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله (آية 9) روى سفيان عن أبي إسحاق

عن عمرو بن ميون ورواه إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله في قوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله قال كذب النسابون وروي عن ابن عباس قال بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وروي عن عروة بن الزبير أنه قال ما وجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل 11 - وقوله تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في أفواههم (آية 9) في معنى هذا أقوال (أ) قال مجاهد ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم (ب) قال قتادة ردوا على الرسل ما جاءوا به فهذا على التمثيل وهو مذهب أبي عبيدة أي تركوا ما جاءهم به الرسل فكانوا بمنزلة من رده إلى فيه وسكت فلم يقل وقيل فردوا أيديهم في أفواههم ردوا ما لو قبلوه كان نعما في أفواههم أي بأفواههم أي بألسنتهم (ج) وقيل ردوا نعم الرسل لأن إرسالهم نعم عليهم بالنطق وبالتكذيب (د) وفي الآية قول رابع وهو أولاها وأجلها إسنادا قال أبو عبيد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله

فردوا أيديهم في أفواههم قال عضوا عليها غيظا قال أبو جعفر والدليل على صحة هذا القول قوله عز وجل وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قال الشاعر لو ان سلمى أبصرت تخددي ودقة في عظم ساقي ويدي

وبعد أهلي وجفاء عودي عضت من الوجد بأطراف اليد 12 - وقوله جل وعز ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد (آية 14) أي ذلك لمن خاف مقامه بين يديه والمصدر يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول لأنه متشبث بهما

13 - وقوله تعالى واستفتحوا (آية 15) قال مجاهد وقتادة واستنصروا وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح القتال بصعاليك المهاجرين 14 - ثم قال تعالى وخاب كل جبار عنيد (آية 15) قال أبو اسحاق الجبار عند أهل اللغة الذي لا يرى لأحد عليه حقا قال مجاهد العنيد المعاند المجانب للحق وقال قتادة العنيد الذي أبى ان يقول لا إله إلا الله 15 - ثم قال تعالى من ورائه جهنم (آية 16)

أي من أمامه وليس من الأضداد ولنه من توارى أي استتر 16 - ثم قال تعالى ويسقى من ماء صديد (آية 16) قال ابن عباس أي قد خالط لحمه ودمه

قال الضحاك يعني القيح والصديد وقال مجاهد هو القيح والصديد وقال غيره يجوز أن يكون هذا تمثيلا أي يسقى ما هو بمنزلة القيح والصديد ويجوز أن يكون يسقى القيح والصديد

17 - ثم قال تعالى يتجرعه ولا يكاد يسيغه (آية 17) أي يبلعه 18 - ثم قال تعالى ويأتيه الموت من كل مكان (آية 17) أي من كل مكان من جسده 19 - ثم قال تعالى وما هو

بميت ومن ورائه عذاب غليظ (آية 17) أي من أمامه عذاب جهنم حدثني أحمد بن محمد بن الحجاج قال حدثنا أحمد بن الحسين قال قال فضيل بن عياض في قول الله تبارك وتعالى ومن ورائه عذاب غليظ قال حبس الأنفاس 20 - ثم قال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به

الريح في يوم عاصف (آية 18) أي لم يقبل منهم وعاصف على النسق أي الريح فيه شديدة ويجوز أن يكون التقدير عاصف الريح

(38/415)

---

21 - وقوله جل وعز وقال الشيطان لما قضي الأمر (آية 22) أي فرغ منه فدخل أهل الجنه الجنه وأهل النار النار إن الله وعدكم وعد الحق أي وعد من أطاعه الجنة ومن عصاه النار ووعدتكم فأخلفتكم أي وعدتكم خلاف ذلك وما كان لي عليكم من سلطان أي من حجة أبينها إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي أي إلا أن أغويتكم فتابعتموني

22 - ثم قال تعالى ما أنا بمصرخكم (آية 22) قال مجاهد وقتادة أي بمغيثكم ويروى أنه يخاطب بهذا في النار ومعنى إني كفرت بما اشركتمون من قبل أي كفرت بشرككم إياي

23 - وقوله جل وعز ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة (آية 24)

حدثنا محمد بن جعفر الفاريابي قال حدثنا عبد الأعلى بن حماد قال حدثنا وهب بن خالد قال حدثنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه أنبؤوني بشجرة تشبه المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال فوقع في قلبي أنها النخلة قال فسكت القوم فقال النبي هي النخلة فقلت لأبي لقد كان وقع في قلبي أنها النخلة

فقال فما منعك أن تكون قلته لرسول الله لأن تكون قلته أحب إلي من كذا وكذا فقلت كنت في القوم وأبو بكر فلم تقولا شيئا فكرهت أن أقول وروى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال هي النخلة وكذلك وروى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس وروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله جل وعز وضرب الله مثلا كلمة طيبة قال لا إله إلا الله كشجرة طيبة قال المؤمن أصلها ثابت لا إله إلا الله ثابت في قلب المؤمن

(39/415)

---

24 - ومثل كلمة خبيثة قال الشرك كشجرة خبيثة قال المشرك اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه وروى شعيب بن الحبحاب عن أنس بن

مالك كشجرة طيبة قال النخلة قال والشجرة الخبيثة الحنظلة 25 - وقوله جل وعز تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها (آية 25) روى ابن أبي نجيح وابن جريج عن مجاهد قال كل سنة وروى عطاء بن السائب وطارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كل ستة أشهر

وروى أبو بكر الهذلي عن عكرمة عن ابن عباس قال الحين حينان حين يعرف مقداره وحين لا يعرف مقداره فأما الذي يعرف مقداره فقوله تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها وقال عكرمة هو ستة أشهر وروى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال الحين يكون غدوة وعشية وقال الضحاك في قوله تؤتى أكلها كل حين قال في الليل والنهار وفي الشتاء والصيف وكذلك المؤمن ينتفع بعمله كل وقت قال أبو جعفر وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره وأنشد الأصمعي بيت النابغة تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه حينا وحينا تراجع فهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت غير أن الأشبه في الآية أن يكون الحين السنة لأن إدراك الثمرة كل عام وكذا طلعها وقد روي عن علي بن أبي طالب رحمة الله عليه أنه قال أدنى الحين سنة وروى سفيان عن الحكم وحماد قالا الحين سنة

ومعنى اجتثت قطعت جثتها بكمالها

26 – وقوله جل وعز يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة (آية 27) روى معمر عن طاووس عن أبيه في يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا قال لا إله إلا الله وفي الآخرة عند المسألة في القبر وقال البراء بن عازب وأبو هريرة هذا عند المسألة إذا صار في القبر وروى شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعيد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبر إذا سئل وروى معمر عن قتادة قال بلغني أن هذه الأمة تبتلى في

قبورها فيثبت الله الذين آمنوا ويروى أنه يقال له من ربك وما دينك ومن نبيك فمن ثبته الله قال الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي فهذا تثبيت في الآخرة والتثبيت في الدنيا أنه لم يوفق لها إلا وقد كان اعتقاده في الدنيا 27 – وقوله تعالى ألم تر إلى الذين بدلعوا ولم نعمة الله كفرا وأحلوا

قومهم دار البوار (آية 28) قال علي بن أبى طالب رضي الله عنه هم كفار قريش وقال عبد الله بن عباس رحمه الله هم قادة المشركين يوم بدر أحلوا قومهم أي الذين اتبعوهم دار البوار وهي جهنم دارهم في الآخرة قال أبو جعفر البوار في اللغة الهلاك 28 – وقوله تعالى من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال (آية 31) قال أبو عبيدة البيع ها هنا الفدية قال

أبو جعفر وأصل البيع في اللغة أن تدفع وتأخذ عوضا منه والذي قال أبو عبيدة حسن جدا وهو مثل قوله تعالى واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ومثل قوله تعالى ولا يقبل منها عدل أي قيمة

والخلال والمخالة والخلة بمعنى الصداقة قال الشاعر صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي بين الخلال ولا قالي 29 - وقوله جل وعز وآتاكم من كل ما سألتموه (آية 34) قال مجاهد أي من كل ما رغبتم إليه فيه قال أبو جعفر وهذا قول حسن يذهب إلى أنهم قد أعطوا

(41/415)

---

مما لم يسالوه وذلك معروف في اللغة أن يقال امض إلى فلان فإنه يعطيك كل ما سألت وإن كان يعطيه غير ما سأل

وفي الاية قول آخر وهو أنه لما قال جل وعز وآتاكم من كل ما سألتموه لم ينف غير هذا على ان الضحاك قد قرأ وآتاكم من كل ما سالتموه وقد رويت هذه القراءة عن الحسن ايضا وفسره الضحاك وقتادة على النفي وقال الحسن أي من كل الذي سالتموه بمعنى وآتاكم من كل الأشياء التي سألتم قال أبو جعفر وقول الحسن أولى والآخر يجوز على بعد وبعده أنه

بالواو أحسن عطفا بمعنى وما سألتموه إلا أنه يجوز على بعد

30 – وقوله جل وعز وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (آية 35) وقرأ الجحدري وعيسى واجنبني بقطع الآلف ومعناه اجعلني جانبا وكذلك معنى اجنبني وجنبني معناه ثبتني على توحيدك كما قال تعالى واجعلنا مسلمين لك وهما مسلمان 31 – ثم قال تعالى رب إنهن أضللن كثيرا من الناس (آية 36) وهن لا يعقلن فالمعنى إن كثيرا من الناس ضلوا بسببهن وهذا كثير في اللغة يقال فتنتني هذه الدار أي استحسنتها فافتتنت بسببها فكأنها فتنتني 32 – وقوله جل وعز فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم (آية 37)

وقرا مجاهد تهوى إليهم معنى تهوي تنزع وتهوى تحب حدثنا محمد بن الحسن بن سماعة قال نا أبو نعيم قال نا عيسى بن قرطاس قال أخبرني المسيب بن رافع قال قال ابن عباس إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين قال رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع إلى قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم فلو أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم قال اجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لغلبكم عليه الترك والديلم وقرئ على علي بن الحسين القاضي بمصر عن الحسن ابن محمد عن يحيى بن عباد قال حدثنا شعبة عن الحكم قال سألت عطاء وطاووسا وعكرمة عن قوله جل وعز

فاجعل أفئدة من الناس قالوا الحج 33 - وقوله جل وعز رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي (آية 40)

(42/415)

---

المعنى واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة 34 - ثم قال ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب (آية 41) قيل إنما دعا بهذا أولا فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وقيل يعني بوالديه آدم وحواء وقرأ سعيد بن جبير اغفر لي الوالدي يعني أباه وقرأ النخعي ويحيى بن يعمر اغفر لي ولولدي يعني ابنيه

35 - وقول جل وعز مهطعين مقنعي رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم (آية 43) قوله مهطعين قال مجاهد وابو الضحى أي مديمي النظر وقال قتادة أي مسرعين والمعروف في اللغة أن يقال أهطع إذا أسرع قال أبو عبيدة وقد يكون الوجهان جميعا يعني الإسراع مع إدامة النظر

36 - ثم قال تعالى مقنعي رؤسهم (آية 43) قال مجاهد أي رافعيها وقال قتادة المقنع الرافع رأسه شاخصا ببصره لا يطرف

قال أبو جعفر وهذا قول أهل اللغة إلا أن أبا العباس قال يقال اقنع إذا رفع رأسه وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلا وخضوعا قال وقد قيل في الآية القولان جميعا قال ويجوز أن يرفع راسه

مديما لنظر ثم يطاطئه حديث خضوعا وذلا قال أبو جعفر والمشهور في اللغة ان يقال للرافع راسه مقنع وروي انهم لا يزالون يرفعون رؤسهم وينظرون ما يأتي من عند الله جل وعز وأنشد أهل اللغة يباكرن العضاه بمقنعات نواجذهن كالحدإ الوقيع يصف أبلا وأنهن رافعات رؤسهن كالفؤوس عند ومنه قيل مقنعة لارتفاعها

ومنه قنع الرجل إذا رضي وقنع إذا سال أي أتى ما يتقنع منه 37 - وقوله جل وعز لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء (آية 43) روى سفيان عن أبي إسحاق عن مرة وأفئدتهم هواء قال متخرقة لا تعي شيئا يعني من الخوف وروى حجاج عن ابن جريج قال هواء ليس فيها

شئ من الخير كما يقال للبيت الذي ليس فيه شئ هواء وقيل وصفهم بالجبن والفزع أي قلوبهم منخوبة وأصل الهواء في اللغة المجوف الخالي ومنه قول زهير كان الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء



---

أي ليس فيها مخ ولا شئ وقال حسان ألا ابلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء 38 - وقوله جل وعز وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب (آية 44) أي خوفهم 39 - وقوله جل

وعز أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال (آية 44) قال مجاهد أي أقسمتم انكم لا تموتون لقريش 40 – وقوله جل وعز وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال (آية 46)

قرأ عمر بن الخطاب رحمه الله عليه وإن كاد بالدال وقرأ علي بن أبى طالب رضوان الله عليه وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال بفتح اللام ورفع الفعل وكاد بالدال هذا المعروف من قراءته والمشهور من قراءة عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وإن كاد بالدال وقرأ مجاهد وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال وهي قراءة الكسائي ومجاهد وإن معناها لو أي ولو كان مكرهم لتزول منه الجبال لم يبلغوا هذا ولن يقدروا على الإسلام وقد شاء الله تبارك وتعالى ان يظهره على الدين كله

قال أبو جعفر وهذا معروف في كلام العرب كما يقال لو بلغت أسباب السماء وهو لا يبلغها فمثله هذا وروي في قراءة أبي بن كعب رحمه الله ولولا كلمة الله لزال مكرهم الجبال وقال قتادة وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال قال حين دعوا لله ولد وقد قال سبحانه تكاد السموات يتفطرن منه ومن قرأ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ذهب إلى ان المعنى ما كان مكرهم ليزول به القرآن على تضعيفه وقد ثبت ثبوت الجبال وقال الحسن مكرهم أوهى وأضعف من أن تزول منه الجبال وقرأ بهذه القراءة

وقد قيل في معنى الرفع قول آخر يروى عن علي بن أبي

طالب رضي الله عنه ان نمروذ لما جوع النسور وعلق لها اللحم في الرماح فاستعلى فيل فقيل له أين تريد أيها الفاسق فاهبط قال فهو قوله جل وعز وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال وقال عبد الله بن عباس مكرهم ههنا شركهم وهو مثل قوله تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا 41 - وقوله جل وعز يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار (آية 48) روى إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود قال تبدل أرضا بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم حرام ولا يفعل فيها خطيئة

وقال جابر سالت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله عز وجل يوم تبدل الأرض غير الأرض قال تبدل خبزة يأكل منها الخلق يوم القيامة ثم قرأ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام حدثنا الحسن بن فرج بغزة قال نا يوسف بن عدي قال حدثنا علي بن مسهر عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت سالت النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله جل وعز يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله قال على الصراط وقال الحسن تبدل تلأرض كما يقول القائل لقد تبدلت يدينا

قال تذهب شمسها وقمرها ونجومها وأنهارها وجبالها فذلك هو التبديل

42 - وقوله جل وعز وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد (آية 49) قال قتادة في الأغلال والأقياد 43 - وقوله جل وعز سرابيلهم من قطران وتعشى وجوههم النار (آية 50) قال الحسن هو قطران الإبل وروي عن جماعة من التابعين أنهم قالوا هو النحاس والمعروف في اللغة انه يقال للنحاس قطر قال الله عز وجل وأسلنا له عين القطر وقرأ ابن عباس وعكرمة سرابيلهم من قطر آن وفسراه بالنحاس قال أبو جعفر وهذا هو الصحيح ومنه قوله تعالى وأسلنا له عين القطر والسرابيل القمص

وقال عكرمة وآن انتهى حره ويقال إن الهمزة بدل من الحاء فإن قيل فلعل الحاء بدل الهمزة قيل ذلك أولى لأنه مأخوذ من الحين تمت سورة إبراهيم

(45/415)

---

(آية 49) قال قتادة في الأغلال والأقياد 43 - وقوله جل وعز سرابيلهم من قطران وتعشى وجوههم النار (آية 50) قال الحسن هو قطران الإبل وروي عن جماعة من التابعين أنهم قالوا هو النحاس والمعروف في اللغة انه يقال للنحاس قطر قال الله عز وجل وأسلنا له عين القطر وقرأ ابن عباس وعكرمة سرابيلهم من قطر آن وفسراه بالنحاس قال أبو جعفر

وهذا هو الصحيح ومنه قوله تعالى وأسلنا له عين القطر والسرابيل القمص

وقال عكرمة وآن انتهى حره ويقال إن الهمزة بدل من الحاء فإن قيل فلعل الحاء بدل الهمزة

قيل ذلك أولى لأنه مأخوذ من الحين تمت سورة إبراهيم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن

/ للنحاس حـ 3 صـ 511.547 ﴾

(46/415)

---

وقال الفراء :

ومن سورة إبراهيم

قول اللّه عزّ وجلّ : إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [1] اللَّهِ الَّذِي [2].

يخفض فى الإعراب ويرفع «1». الخفض على أن تتبعه (الْحَمِيدِ) والرّفع على الاستئناف

لانفصاله من الآية كقوله عزّ وجلّ (إِنَّ «2» اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ

الْجَنَّةَ) إلى آخر الآية، ثم قال (التَّائِبُونَ «3») وفى قراءة عبد اللّه (التائبين) كل ذلك

صواب.

وقوله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ [4].

يقول : ليفهمهم وتلزمهم الحجّة. ثم قال عزّ وجلّ (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ) فرفع لأنّ النيّة فيه

الاستئناف لا العطف على ما قبله . ومثله (لِنُبَيِّنَ «4» لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ)

ومثله

---

(1) الرفع قراءة نافع وابن عامر وأبى جعفر . والخفض قراءة غيرهم .

(2) الآية 111 سورة التوبة .

(3) فى الآية 112 سورة التوبة .

(4) الآية 5 سورة الحج .

(47/415)

---

فى براءة (قاتِلُوهُمْ «1» يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) ثم قال (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ) فإذا رأيت الفعل منصوبا وبعده فعل قد نسق عليه بواو أو فاء أو ثمّ أو أو فإن كان يشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه . وإن رأيته غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته .

فمن المنقطع ما أخبرتك به . ومنه قول اللّه عز وجل (وَاللَّهُ «2» يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ) رفعت (وَيُرِيدُ الَّذِينَ) لأنها لا تشاكل (أَنْ يَتُوبَ) ألا ترى أن ضمّك إياهما لا يجوز ، فاستأنفت أو رددته على قوله (وَاللَّهُ يُرِيدُ) ومثله (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ «3») فيأبى فى موضع رفع لا يجوز إلا ذلك .

ومثله قوله :

والشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه «4»

وكذلك تقول : آتيك أن تأتينى وأكرمك فتردّ (أكرمك) على الفعل الأول لأنه مشاكل له

وتقول آتيك أن تأتينى وتحسن إلىّ فتجعل (وتحسن) مردودا على ما شاكلها ويقاس على هذا .

وقوله : وَذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ اللّهِ [5] .

يقول : خوّفهم بأيّام عاد وثمود وأشباههم بالعذاب وبالعفو عن آخرين . وهو فى المعنى كقولك :

خذهم بالشدّة واللين .

وقوله هاهنا : وَيُذَبِّحُونَ [6] وفى موضع آخر (يذبحون «5») بغير واو وفى موضع آخر

---

(1) الآية 14 من سورة التوبة .

(2) الآية 27 سورة النساء .

(3) الآية 32 سورة التوبة .

(4) هذا من رجز ينسب إلى الحطيئة قاله حين احتضاره . وانظر الخزانة فى الشاهد 149 .

(5) الآية 49 سورة البقرة . [ . . . . . ]

(يقتلون «1») بغير واو. فمعنى الواو أنهم يمسّهم العذاب غير التذبيح كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح. ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب. وإذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملا فى كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو. وإذا كان أوّله غير آخره فبالواو. فمن المجمل قول اللّه عز وجل (وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ «2» يَلْقَ أَثاماً) فالأثام فيه نيّة العذاب قليله وكثيره. ثم فسّره بغير الواو فقال (يُضاعَفْ «3» لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ) ولو كان غير مجمل لم يكن ما ليس به تفسيرا له، ألا ترى أنك تقول عندى دابّتان بغل وبرذون ولا يجوز عندى دابّتان وبغل وبرذون وأنت تريد تفسير الدّابتين بالبغل والبرذون، ففى هذا كفاية عمّا نترك من ذلك فقس عليه.

وقوله (وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) يقول: فيما كان يصنع بكم فرعون من أصناف العذاب بلاء عظيم من البليّة. ويقال: فى ذلكم نعم من ربّكم عظيمة إذ أنجاكم منها. والبلاء قد يكون نعما، وعذابا. ألا ترى أنك تقول: إن فلانا لحسن البلاء عندك تريد الإنعام عليك.

وقوله: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ [7] معناه: أعلم ربّكم وربما قالت العرب فى معنى أفعلت تفعّلت

فهذا من ذلك والله أعلم. ومثله: أوعدني وتوعّدني وهو كثير.

وقوله فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ [9] جاء فيها أقاويل. حدثنا محمّد قال حدّثنا الفراء قال

:

حدّثني حبّان عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كانوا إذا جاءهم الرسول

قالوا له:

اسكت وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم كما تسكّت أنت - قال: وأشار لنا الفراء

بأصبعه السبّابة على فيه - ردّا عليهم وتكذيبا. وقال بعضهم: كانوا يكذّبونهم ويردّون

القول بأيديهم إلى أفواه الرسل وأشار لنا الفراء هكذا بظهر كفه إلى من يخاطبه. قال: وأرانا

ابن عبد الله الإشارة في الوجهين (وأرانا «4» الشيخ ابن العباس بالإشارة بالوجهين) وقال

بعضهم: فردّوا

---

(1) الآية 141 سورة الأعراف.

(2) الآية 68 سورة الفرقان.

(3) الآية 69 سورة الفرقان.

(4) سقط ما بين القوسين في ا

أيديهم فى أفواههم يقول ردّوا ما لو قبلوه لكان نعما وأيادى من اللّه فى أفواههم ، يقول بأفواههم أي بألسنتهم . وقد وجدنا من العرب من يجعل (فى) موضع الباء فيقول : أدخلك اللّه بالجنّة يريد :

فى الجنة . قال : وأنشدنى بعضهم :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنّنى عن سنبس لست أرغب

فقال : أرغب فيها يعنى بنتا له . أي إنى أرغب بها عن لقيط «1» .

وقوله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا [13] قال (أَوْ لَتَعُودُنَّ) فجعل فيها لا ما كجواب اليمين وهى فى «2» معنى شرط ، مثله من الكلام أن تقول : واللّه لأضربنّك أو تقرّ لى : فيكون معناه معنى حتّى أو إلّا ، إلا أنها جاءت بحرف نسق . فمن العرب من يجعل الشرط متبعا للذى قبله ، إن كانت فى الأول لام كان فى الثاني لام ، وإن كان الأول منصوبا أو مجزوما نسقوا عليه كقوله : (أَوْ لَتَعُودُنَّ) ومن العرب من ينصب ما بعد أو ليؤذن نصبه بالانقطاع عمّا قبله . وقال الشاعر «3» :

لتقعدنّ مقعد القصىّ منّى ذى القاذورة المقلىّ

أو تحلفي بربّك العلىّ أنيّ أبو ذيّالك الصبىّ

فنصب (تحلفي) لأنه أراد : أن تحلفي . ولو قال أو لتحلفنّ كان صوابا ومثله قول امرئ

القيس:

بكى صاحبى لمّا رأى الدرب دونه وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا «4»

---

(1) فى الطبري بعده: «ولا أرغب بها عن قبيلتى» فأفاد أن الشاعر من سنبص. وسنبس حى من طىء.

(2) سقط فى ا.

(3) هو بعض العرب، قدم من سفر فوجد امرأته قد ولدت غلاما فانكره. وانظر اللسان (ذا) فى حرف الألف اللينة فى أواخر الجزء العشرين وفى ب: «ليقعدن».

(4) من قصيدة له قالها حين ذهب إلى قيصر. وانظر الديوان ص 65 وما بعدها.

*(50/415)*

---

فقلت له لا تبك عينك إما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فنصب آخره ورفع (نحاول) على معنى إلّا أو حتى. وفى إحدى القراءتين: (تقاتلونهم «1» أو يسلموا) والمعنى - والله أعلم - تقاتلونهم حتى يسلموا. وقال الشاعر «2»:

لا أستطيع نزوعا عن مودّتها أو يصنع الحبّ بي غير الذي صنعا

وأنت قائل فى الكلام: لست لأبى إن لم أقتلك أو تسبقنى فى الأرض فتنصب (تسبقنى)

وتجزمها . كأنّ الجزم فى جوازه : لست لأبى إن لم يكن أحد هذين ، والنصب على أنّ آخره منقطع عن أوّله كما قالوا : لا يسعنى شىء ويضيق عنك ، فلم يصلح أن تردّ (لا) على (ويضيق) فعلم أنها منقطعة من معناها . كذلك قول العرب : لو تركت والأسد لأكلك لّما جاءت الواو تردّ اسما على اسم قبله ، وقبح أن تردّ الفعل الذي رفع الأوّل على الثاني نصب ألا ترى أنك لا تقول لو تركت وترك الأسد لأكلك . فمن ها هنا أتاه النصب . وجاز الرفع لأن الواو حرف نسق معروف فجاز فيه الوجهان للعلّتين .

وقوله : ذِلكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي [14] معناه : ذلك لمن خاف مقامه بين يدىّ ومثله قوله : (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ «3») معناه : رزقى إيّاكم أنكم تكذّبون والعرب تضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما أوقعت عليه ، فيقولون : قد ندمت على ضربى إيّاك وندمت على ضربك فهذا من ذلك واللّه أعلم .

وقوله : وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ [17] فهو يسيغه . والعرب قد تجعل (لا يَكادُ) فيما قد فعل وفيما لم يفعل . فأمّا ما قد فعل فهو بيّن هنا من ذلك لأن اللّه عزّ وجلّ يقول لما جعله لهم طعاما

---

(1) الآية 16 سورة الفتح . وهذه القراءة فى قراءة أبى وزيد بن على كما فى البحر 8/ 94 . وهى من القراءات الشاذة .

(2) هو الأحوص .

(3) الآية 82 سورة الواقعة .

(إِنَّ «1» شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ) فهذا أيضا عذاب فى بطونهم يسيغونه. وأمّا ما دخلت فيه (كاد) ولم يفعل فقولك فى الكلام: ما أتيته ولا كدت، وقول اللّه عزّ وجلّ فى النور (إِذا «2» أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها) فهذا عندنا - واللّه أعلم - أنه لا يراها. وقد قال ذلك بعض الفقهاء لأنها لا ترى فيما هو دون هذا من الظلمات، وكيف بظلمات قد وصفت بأشدّ الوصف.

وقوله: ويأتيه الموت من كلّ مكان: حدّثنا الفراء: قال: حدثنى حبّان عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال: (يأتيه الموت) يعنى: يأتيه العذاب من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. حدثنى هشيم عن العوّام بن حوشب عن إبراهيم التّيمىّ قال: من كل شعرة.

وقوله: (وَما هُوَ بِمَيِّتٍ) العرب إذا كان الشيء قد مات قالوا: ميت وميّت. فإن قالوا: هو ميت إن ضربته قالوا: مائت وميّت. وقد قرأ بعض القراء (إنّك «3» مائت وإنّهم مائتون) وقراءة العوامّ على (ميّت). وكذلك يقولون هذا سيّد قومه وما هو بسائد هم عن قليل، فيقولون:

بسائدهم وسيّدهم ، وكذلك يفعلون فى كل نعت مثل طمع ، يقال : طمع إذا وصف بالطمع ، ويقال هو طامع أن «4» يصيب منك خيرا ، ويقولون : هو سكران إذا كان فى سكره ، وما هو ساكر عن كثرة الشراب ، وهو كريم إذا كان موصوفا بالكرم ، فإن نويت كرما يكون منه فيما يستقبل قلت : كارم .

وقوله : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ [18] .

أضاف المثل إليهم ثم قال (أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ) والمثل للأعمال والعرب تفعل

---

(1) الآيات 43 - 45 سورة الدخان

(2) الآية 40 سورة النور

(3) فى الآية 30 سورة الزمر . وهذه القراءة قراءة الحسن وابن محيصن ، كما فى الإتحاف [. . . . . .]

(4) ا : «إذ»



---

ذلك : قال اللّه عزّ وجلّ (وَيَوْمَ «1» الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) والمعنى ترى وجوههم مسودّة . وذلك عربىّ لأنهم يجدون المعنى فى آخر الكلمة فلا يبالون

ما وقع على الاسم المبتدأ . وفيه أن تكرّ ما وقع على الاسم المبتدأ على الثاني كقوله (لَجَعَلْنا لِمَنْ «2» يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً) فأعيدت اللام فى البيوت لأنها التي تراد بالسقف ولو خفضت ولم تظهر اللام كان صوابا كما قال اللّه عز وجل (يَسْئَلُونَكَ «3» عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ) .

فلو خفض قارئ الأعمال فقال (أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ) كان جائزا ولم أسمعه فى القراءة . وقد أنشدنى بعضهم :

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلا يحملن أم حديدا «4»

أراد ما للجمال ما لمشيها وئيدا . وقال الآخر «5» :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفيتنى حلمى مضاعا

فالحلم منصوب بالإلقاء على التكرير ولو رفعته كان صوابا .

وقال (فِي يَوْمٍ عاصِفٍ) فجعل العصوف تابعا لليوم فى إعرابه ، وإنما العصوف للريح . وذلك جائز على جهتين ، إحداهما أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون ، فجاز أن تقول يوم عاصف كما تقول : يوم بارد ويوم حارّ . وقد أنشدنى بعضهم :

يومين غيمين ويوما شمسا

---

(1) الآية 60 سورة الزمر

(2) الآية 33 سورة الزخرف

(3) الآية 217 سورة البقرة

(4) من رجز للزباء فى قصة لها. ووئيدا: له صوت شديد يريد شدة وطئها الأرض من ثقل ما تحمله فيسمع لوقعها صوت. وانظر شواهد العيني على هامش الخزانة 2/ 448.

(5) هو عدى بن زيد العبادي، كما فى شواهد العيني فى البدل.

*(53/415)*

---

فوصف اليومين بالغيمين وإنما يكون الغيم فيهما. والوجه الآخر أن يريد فى يوم عاصف الريح فتحذف الريح لأنها قد ذكرت فى أوّل الكلمة كما قال الشاعر:

فيضحك عرفان الدروع جلودنا إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف

يريد كاسف الشمس فهذان وجهان. وإن نويت أن تجعل (عاصف) من نعت الريح خاصّة فلمّا جاء بعد اليوم أتبعته إعراب اليوم وذلك من كلام العرب أن يتبعوا الخفض الخفض إذا أشبهه.

قال الشاعر:

كأنّما ضربت قدّام أعينها قطنا بمستحصد الأوتار محلوج «1»

وقال الآخر «2» :

تريك سنّة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

قال : سمعت الفراء قال : قلت لأبى ثروان وقد أنشدنى هذا البيت بخفض : كيف تقول : تريك سنّة وجه غير مقرفة ؟ قال : تريك سنّة وجه غير مقرفة . قلت له : فأنشد فخفض (غير) فأعدت القول عليه فقال : الذي تقول أنت أجود ممّا أقول أنا وكان إنشاده على الخفض . وقال آخر «3» :

وإيّاكم وحيّة بطن واد هموز الناب ليس لكم بسىّ

وممّا يرويه نحويّونا الأوّلون أن العرب تقول : هذا جحر ضبّ خرب . والوجه أن يقول : سنّة وجه غير مقرفة ، وحيّة بطن واد هموز الناب ، وهذا جحر ضبّ خرب . وقد ذكر عن

---

(1) أراد بمستحصد الأوتار مندفا متينا . وقوله : «محلوج» من صفة (قطنا) وكان حقه النصب ، ولكنه جره على المجاورة .

(2) هو ذو الرمة فى بائيته المشهورة . والسنة : الصورة . والمقرفة . التي دنت من الهجنة ، وهو عيب . والندب الأثر من الجراح . وانظر الديوان 4

(3) هو الحطيئة كما فى اللسان (سوا) والهمز : العض . وسى : مساو وانظر الخصائص 3 هما 22

يحيى بن وثّاب أنه قرأ (إِنَّ «1» اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) فخفض المتين وبه أخذ الأعمش.

والوجه أن يرفع (المتين) أنشدنى أبو الجرّاح العقيلىّ:

يا صاح بلّغ ذوى الزوجات كلّهم أن ليس وصل إذا انحلّت عرا الذنب «2»

فأتبع (كلّ) خفض (الزوجات) وهو منصوب لأنه نعت لذوى.

وقوله: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ [22] أي الياء منصوبة لأن الياء من المتكلّم تسكن إذا تحرك ما قبلها وتنصب إرادة الهاء «3» كما قرئ (لَكُمْ «4» دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (ولى دين) فنصبت وجزمت. فإذا سكن ما قبلها ردّت إلى الفتح الذي كان لها. والياء من (مصرخىّ) ساكنة والياء بعدها من المتكلم ساكنة فحرّكت إلى حركة قد كانت لها. فهذا مطّرد فى الكلام.

ومثله (يا بُنَيَّ «5» إِنَّ اللَّهَ) ومثله (فَمَنْ تَبِعَ «6» هُدايَ) ومثله (مَحْيايَ «7» وَمَماتِي).

وقد خفض الياء من قوله (بمصرخىّ) الأعمش «8» ويحيى بن وثّاب جميعا. حدّثنى

القاسم بن معن عن الأعمش عن يحيى أنه خفض الياء . قال الفراء : ولعلها من وهم القرّاء طبقة يحيى فإنه قل من سلم منهم من الوهم . ولعله ظن أن الباء فى (بمصرخىّ) خافضة للحرف كله ، والياء من المتكلّم خارجة من ذلك . ومما نرى أنهم أوهموا فيه قوله (نُوَلِّهِ «9» ما تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ) ظنّوا - واللّه

---

(1) الآية 58 سورة الذاريات

(2) هو لأبى الغريب وهو أعرابى أدرك دولة العباسيين . وانظر الخزانة 2/ 325 .

(3) أي هاء السكت كأن تقول فى غلامى : غلاميه

(4) الآية 6 سورة الكافرين . وهو يريد القراءة بالياء (دينى) وهى قراءة سلام كما فى البحر المحيط ، وهى من الشواذ

(5) الآية 132 سورة البقرة [ . . . . . ]

(6) الآية 38 سورة البقرة

(7) الآية 162 سورة الأنعام

(8) وقرأ به حمزة كما فى الإتحاف

(9) الآية 115 سورة النساء . وهو يريد قراءة تسكين الهاء فى (نوله) و(نصله) وهى قراءة أبى عمرو وأبى بكر وحمزة كما فى الإتحاف

أعلم – أن الجزم فى الهاء والهاء فى موضع نصب ، وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه .

وممّا أوهموا فيه قوله (وما «1» تنزّلت به الشياطون) وحدّث مندل بن علىّ العنزىّ عن الأعمش قال : كنت عند إبراهيم النخعىّ وطلحة بن مصرّف [يقرأ] (قال «2» لمن حوله ألا تستمعون) بنصب اللام من (حوله) فقال إبراهيم : ما تزال تأتينا بحرف أشنع ، إنما هى (لِمَنْ حَوْلَهُ) قال قلت : لا ، إنما هى (حوله) قال : فقال إبراهيم يا طلحة كيف تقول ؟ قال : كما قلت (لِمَنْ حَوْلَهُ) قال الأعمش . قلت : لحنتما لا أجالسكما اليوم . وقد سمعت بعض العرب ينشد :

قال لها هل لك يا تافيّ قالت له ما أنت بالمرضىّ «3»

فخفض الياء من (فىّ) فإن يك ذلك صحيحا فهو مما يلتقى من الساكنين فيخفض الآخر منهما ، وإن كان له أصل فى الفتح : ألا ترى أنهم يقولون : لم أره مذ اليوم ومذ اليوم والرفع فى الذال هو الوجه لأنه أصل حركة مذ والخفض جائز ، فكذلك الياء من مصرخىّ خفضت ولها أصل فى النصب .

وقوله (إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ) هذا قول إبليس. قال لهم: إنى كنت كفرت بما أشركتمون يعنى بالله عز وجل (مِنْ قَبْلُ) فجعل (ما) فى مذهب ما يؤدّى عن الاسم 89 ب.

وقوله: وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ [27] رفعت المثل بالكاف التي فى شجرة.

ولو نصبت المثل «4». تريد: وضرب الله مثل كلمة خبيثة. وهى فى قراءة أبيّ (وضرب مثلا كلمة خبيثة) كشجرة خبيثة وكل صواب.

---

(1) الآية 210 سورة الشعراء. وهذه القراءة تنسب إلى الحسن

(2) الآية 25 سورة الشعراء

(3) من أرجوزة للأغلب العجلى، وانظر الخزانة 2/ 257

(4) الجواب محذوف أي لجاز. وفى الكشاف أنها قراءة

(56/415)

---

وقوله: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا [27] يقال: بلا إله إلا اللّه فهذا فى الدنيا. وإذا سئل عنها فى القبر بعد موته قالها إذا كان من أهل السّعادة، وإذا

كان من أهل الشقاوة «1» لم يقلها . فذلك قوله – عزّ وجلّ – (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) عنها أي عن قول لا إله إلا اللّه (وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ) [29] أي لا تنكروا له قدرة «2» ولا يسأل عما يفعل . اءة الحسن والأعمش كما فى الإتحاف

(57/415)

---

عزّ وجل شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه ، فقال : وآتاكم من كلّ ما لم تسألوه فيكون (ما) جحدا . والوجه الأوّل أعجب إلىّ لأن المعنى – واللّه أعلم – آتاكم من كلّ ما سألتموه لو سألتموه ، كأنك قلت : وآتاكم كل سؤلكم ، ألا ترى أنك تقول للرجل لم يسأل شيئا : واللّه لأعطينّك سؤلك : ما بلغته مسألتك وإن لم تسأل .

وقوله : وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ [35] أهل الحجاز يقولون : جنبنى «1» ، هى خفيفة .

وأهل نجد يقولون : أجنبنى شرّه وجنّبنى شرّه . فلو قرأ «2» قارئ : (وأجنبنى وبنىّ) لأصاب ولم أسمعه من قارئ .

[قوله : إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي . . [37]] وقال (إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي) ولم يأت منهم بشىء يقع عليه الفعل . وهو جائز : أن تقول : قد أصبنا من بنى فلان ، وقتلنا من بنى فلان

وإن لم تقل : رجالا ، لأن (من) تؤدّى عن بعض القوم كقولك : قد أصبنا من الطعام وشربنا من الماء . ومثله (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ «3» الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) .

وقوله (تَهْوِي إِلَيْهِمْ) يقول : اجعل أفئدة من الناس تريدهم كقولك : رأيت فلانا يهوى نحوك أي يريدك . وقرأ بعض القرّاء (تهوى إليهم) بنصب الواو ، بمعنى تهواهم كما قال (رَدِفَ «4» لَكُمْ) يريد ردفكم ، وكما قالوا : نقدت لها مائة أي نقدتها .

وقوله : لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ [43] رفعت الطرف بيرتد واستأنفت الأفئدة فرفعتها بهواء كما قال فى آل عمران (وَما يَعْلَمُ «5» تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) استأنفتهم فرفعتهم بيقولون لا بيعلم .

---

(1) سقط فى ب

(2) فى الكشاف أنه قرئ بها

(3) الآية 50 سورة الأعراف

(4) الآية 72 سورة النمل

(5) الآية 7 سورة آل عمران

وقوله : يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ : [44] رفع تابع ليأتيهم وليس بجواب للأمر ولو كان جوابا لجاز نصبه ورفعه ، كما قال الشاعر «1» :

يا ناق سيرى عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

والرفع على الاستئناف . والائتناف بالفاء فى جواب الأمر حسن ، وكان شيخ لنا يقال له : العلاء بن سيابة - وهو الذي علم معاذا الهرّاء وأصحابه - يقول : لا أنصب بالفاء جوابا للأمر .

وقوله : وَتَبَيَّنَ لَكُمْ [45] وأصحاب عبد اللّه : (ونبيّن «2» لكم) .

وقوله : وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ [46] .

فأكثر القراء على كسر اللام ونصب الفعل من قوله (لِتَزُولَ) يريدون : ما «3» كانت الجبال لتزول من مكرهم . وقرأ عبد اللّه بن مسعود (وما كان مكرهم لتزول منه الجبال) حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى جاز لنا من القراء يقال له غالب بن نجيح - وكان ثقة ورعا - أن عليّا كان يقرأ : (وإن كان مكرهم لتزول منه) بنصب «4» اللام الأولى ورفع الثانية . فمن قرأ :

(وإن كان مكرهم لتزول منه) فعلى معنى قراءة علىّ أي مكروا مكرا عظيما كادت الجبال تزول منه .

وقوله : فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ [47] أضفت (مخلف) إلى الوعد ونصبت

الرسل على التأويل «5» . وإذا كان الفعل يقع على شيئين مختلفين مثل كسوتك الثوب وأدخلتك الدار فابدأ

---

(1) هو أبو النجم العجلى . كما فى شواهد العيني وكما فى كتاب سيبويه 1/ 421

(2) أي بالجزم ، وقد نسب القرطبي هذه القراءة إلى أبى عبد الرحمن السلمى . انظر تفسيره 9/ 379 والجزم بالعطف على قوله : «أو لم تكونوا» وفى البحر المحيط 5/ 436 أنه روى عنه أيضا الرفع

(3) أي أن «إن» نافية

(4) هى قراءة الكسائي

(5) جعله على التأويل إذا كان الأصل تقديمه على «وعده»

*(59/415)*

---

بإضافة الفعل إلى الرجل فتقول : هو كاسى عبد اللّه ثوبا ، ومدخله الدار . ويجوز : هو كاسى الثوب عبد اللّه ومدخل الدار زيدا ، جاز ذلك لأن الفعل قد يأخذ «1» الدار كأخذه عبد اللّه فتقول : أدخلت الدار وكسوت الثوب . ومثله قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظلّ رأسه وسائره باد إلى الشمس أجمع «2»

فأضاف (مدخل) إلى (الظل) وكان الوجه أن يضيف (مدخل) إلى (الرأس) ومثله :

ربّ ابن عمّ لسليمى مشمعلّ طبّاخ ساعات الكرى زاد الكسل «3»

ومثله :

فرشنى بخير لا أكونن ومدحتى كناحت يوم صخرة بعسيل «4»

وقال آخر :

يا سارق الليلة أهل الدار «5»

فأضاف سارقا إلى الليلة ونصب (أهل الدار) وكان بعض النحويّين ينصب (الليلة) ويخفض (أهل) فيقول : يا سارق الليلة أهل الدار .

وكناحت يوما صخرة

---

(1) أن يعمل وينصب

(2) يصف هاجرة ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور قد أدخل رأسه فى ظل كناسه لما يجده من شدة الحرارة وسائر جسده بارز للشمس وانظر سيبويه 1/ 92 [. . . . .]

(3) من رجز لجبار بن جزء ابن أخى الشماخ. والمشمعل : الجاد فى الأمور الخفيف فيما يأخذ فيه. والكرى النوم. وهو يصف عمه الشماخ وسلمى امرأة الشماخ وكان ابن عمها . يمدح الشماخ بخفته فى خدمة إخوانه فهو يطبخ زاد الكسلان فى وقت النوم ويكفيه أمره. وانظر ديوان الشماخ 109 ، وكتاب سيبويه 1/ 90 والخزانة 2/ 172

_

(4) راشه : نفعه وأصلح حاله والعسيل : مكنسة العطار ، وهو شعر يكنس به الطيب ، والمراد أنه لا فائدة فيه كمن ينحت الصخرة بهذه المكنسة .

(5) رجز ورد فى كتاب سيبويه 1/ 89 .

(60/415)

---

وليس ذلك «1» حسنا فى الفعل ولو كان اسما لكان الذي قالوا أجوز . كقولك : أنت صاحب اليوم ألف دينار ، لأن الصّاحب إنما يأخذ واحدا ولا يأخذ الشيئين ، والفعل قد ينصب الشيئين ، ولكن إذا اعترضت صفة بين خافض وما خفض جاز إضافته مثل قولك : هذا ضارب فى الدار أخيه ، ولا يجوز إلّا فى الشعر ، مثل قوله :

تروّح فى عمّيّة وأغاثه على الماء قوم بالهراوات هوج «2»

مؤخّر عن أنيابه جلد رأسه لهنّ كأشباه الزّجاج خروج «3»

وقال الآخر «4» :

وكرّار دون المجحرين جواده إذا لم يحام دون أنثى حليلها

وزعم الكسائي أنهم يؤثرون النصب إذا حالوا بين الفعل المضاف بصفة فيقولون : هو

ضارب فى غير شىء أخاه ، يتوهّمون إذ حالوا بينهما أنهم نوّنوا . وليس قول من قال (مخلف وعده رسله) ولا (زَيَّنَ «5» لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ) بشىء ، وقد فسّر «6» ذلك . ونحويّو أهل المدينة ينشدون قوله :

فزججتها متمكنا زجّ القلوص أبى مزاده «7»

---

(1) ا : «بحسن» .

(2) العمية : الضلالة والكبر . والهراوات العصى . و«هوج» ضبط في ا : «هوج» وهو لا يستقيم مع البيت الذي بعده «خروج» فالظاهر أن يضبط «هوج» بسكون الواو جمع أهوج ، ويراد به المتسرع العجل .

(3) كأنه يريد بتأخير جلد رأسه عن أنيابه أنه كالأسد يكشر عن أسنانه ويبديها ولا يطبق رأسه على أسنانه فيخفيها .

ويذكر أن أنيابه لها خروج أي بروز وظهور كأطراف الزجاج . والزجاج جمع زج ، وهو الحديدة فى أسفل الرمح .

(4) هو الأخطل يمدح همام بن مطرف التغلبي . والمحجر : الملجأ الذي غشيه عدوه . يصفه بالشجاعة والإقدام ، فاذا فر الرجال عن أزواجهم منهزمين وأسلموهن للعدو كر جواده يدافع عنهم . وانظر كتاب سيبويه 1/ 90 .

(5) هذه قراءة ابن عامر .

(6) انظر ص 357 من الجزء الأول .

(7) انظر ص 358 من الجزء الأول من هذا الكتاب ، وشرح المفصل 3/ 19 .

*(61/415)*

---

قال الفراء : باطل والصواب :

زجّ القلوص أبو مزاده

قوله : سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ [50] عامّة القراء مجمعون على أن القطران حرف «1» واحد مثل الظّربان . حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : وحدّثنى حبّان عن الكلبىّ عن أبى صالح أن ابن عباس فسّرها (مِنْ قَطِرَانٍ«

) : قد انتهى حرّه ، قرأها ابن عبّاس كذلك . قال أبو زكريّا ، وهو من قوله : (قالَ«3» آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 67. 82 ﴾

---

(1) هذا مقابل الوجه الآتي فى القراءة عن ابن عباس فانه حرفان : قطر وآن .

(2) هذا تفسير للآنى . والقطر هو النحاس أو الصفر المذاب .

(3) الآية 96 سورة الكهف .

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة إبراهيم عليه السلام

(الله الذي له ما في السماوات) [2] رفعه على الاستئناف ، وجره -وهو القراءة المعروفة- على البدل ، أو على أنه عطف بيان . ولا يجوز الجر على أنه صفة للحميد ، لأن [الـ]ـشيء يوصف بما هو أنقص منه وأخص ، وهذا الاسم العظيم فوق كل اسم ، وبمنزلة الأسماء الأعلام ، فلا يصلح وصفاً .

(الذين يستحبون) [3] يعتاضون ويستبدلون . وقيل: يختارون . (وإذ تأذن ربكم) [7] أذن وأعلم . والتفعل يجيء بمعنى الإفعال والتفعيل وغيرهما . قال جرير: 633- بيض تربها النعيم وخالطت عيشاً كحاشية الحرير غريراً[ا] 634- أصبحن عني للمشيب [نوافرا] ولقد يكن إلى حديثي صورا . (فردوا أيديهم في أفواههم) [9]

أي: عضوا على أيديهم من الغيظ والحزن ، والمحزون المغيظ يعض يده . أنشد المبرد:

635- لو أن سلمى أبصرت تخددي ودقة في عظم ساقي ويدي 636- وبعد أهلي وجفاء عودي عضت من الوجد بأطراف [اليد] . قال الحسن: كأنهم ردوا أيديهم على

أفواه الرسل، على طريقة المثل، إما على ردهم قولهم، وعدم استماعهم، وإما لخوفهم منهم.

قال عبد يغوث: 637- أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا.

وقال عمرو بن معد يكرب -وشبه مثل هذه الحال بإجرار [الفيصل] بالرضاع-: 638- فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح [أجرت]

ويجوز الحمل على كراهيتهم ما قاله الرسل، كما يقال لمن كره استماع شيء: رد يده إلى صماخه، وجعل إصبعه في أذنه، قال الله تعالى: (يجعلون أصابعهم في ءاذانهم) وقال ابن ناعصة الأسدي: 639- وحصا المنادح من حماها يرد بها البنان إلى الصماخ 640- فقلنا "ها" فأنجدنا قرآها بنعمانا إلى العيش الرخاخ. (من ماء صديد) [16] أي: من ماء مثل الصديد، فاختصر، كقولك: [هو] أسد.

(63/415)

---

وقيل: من ماء يصد الصادي عنه لشدته [وكراهيته]. (ويأتيه الموت من كل مكان) [17] أي: أسبابه من جميع جسده، كأن من تحت كل منبت شعرة منبع ألم. وقيل: من جهاته الست. (في يوم عاصف) [18] أي: عاصف الريح فاكتفي بدلالة الحال، وقيل: يوم

عاصف: ذو عصوف. (ما أنا بمصرخكم) [22]

هذه من لغات السلب، فإن الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث، ونظائرها كثيرة، مثل: الإشكاء، والإعتاب، ونحوهما. قال سلامة بن جندل: 641- كنا إذا ما أتانا صارخ [فزع] كان الصراخ له قرع [الظنابيب]. وقال آخر: 642- نثوب إليهم كلما صاح صارخ وتصرخهم فيما ينوب وتفرع.

وجميع النحاة لا يقبلون قراءة حمزة (بمصرخي) بكسر الياء. وهو لغة بني يربوع، ولها وجهان: إشباع ياء الإضافة، فيصير بمصرخي، ثم حذفت الزيادة وتركت الحركة للدلالة عليها. والثاني: أنه لما حذفت نون الجمع للإضافة التقت/ياء الجميع [بياء الإضافة] وهما ساكنتان في الأصل، فحركت ياء الإضافة إلى الكسرة.

(اجتثت) [26] انتزعت. قال الهذلي: 643- أو كالنعامة إذ غدت من بيتها [ليصاغ] قرناها [بغير] أذين 644- فاجتثت الأذنان منها فانتهت صلماء ليست [من] ذوات قرون.

(لا بيع فيه) [31] خص البيع، لما في المبايعة من المعاوضة، فيظن أن ذلك كالفداء في النجاة عما أوعدوا به، فصار في المعنى كقوله: (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها). (ولا خلال) مصدر خاللته مخالة، وخلالاً. (دائبين) [33] دائمين فيما سخرهما الله عليه.

(أفئدة من الناس) [37] قلوباً. وقيل: إنها تكسير [وفود على أوفدة]، ثم قلب اللفظ،

ثم قلبت الواو، كما قلب في الأفئدة التي هي جمع الفؤاد. (تهوى إليهم) [37] تقصدهم. (وتقبل دعائي) [40] عبادتي. (ربنا اغفر لي ولوالدي) [41] [كانا] في الأحياء، فرجا إيمانهما. (تشخص فيه الأبصار) [42] [ترتفع] من قولهم شخص بصر المريض شخوصاً، وشق شقوقاً. (مهطعين) [43] مسرعين.

*(64/415)*

---

[ولا يفسر بالإطراق] لقوله: (مقنعي رءوسهم)، والإقناع: رفع الرأس إلى السماء من غير إقلاع، قال الراعي: 645- زجل الحداء كأن في حيزومه قصباً ومقنعة الحنين عجولا. العجول: الناقة مات ولدها فحنت، وإذا حنت الناقة، رفعت رأسها. (وأفئدتهم هواء) جوف عن القلوب، لشدة الارتياع. أنشد أبو زيد: 646- لقد أعجبتموني من جسوم وأسلحة ولكن لا فؤادا.

[و] مثله [للراعي]: 647- وغدو بصكهم وأحدب أسأرت منه السياط يراعةً إجفيلا/. (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) [46] أي ما [كا] ن مكرهم لتزول منه الجبال، توهيناً لمكرهم، وتحقيراً لأمرهم. (فلا تحسين الله مخلف وعده رسله) [47] قيل: تقديره: مخلف رسله وعده، فجاء مقلوباً: 648- وكل كميت كأن السليط في

حيث وارى الأديم [الشعارا]

أي: الشعار الأديم. وقال آخر: 649- ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه وسائره باد إلى الشمس أجمع. والأولى: أن يقرر على اللفظ، لأن الإخلاف من الأفعال الجارية على الوجهين، يقال: أخلف [زيد] وعده، وأخلف وعده [زيداً]، ومثله: أصاب زيد مالاً، وأصاب زيداً مال، ووافق زيد [حديثا]، إذا صادفهم يتحدثون، ووافق زيداً حديثا، إذا سره وأعجبه، وأحرز زيد سيفه، إذا صانه في غمده، وأحر[ز] زيداً سيفه، إذا [حصنه] وصانه من القتل.

(مقرنين في الأصفاد) [49] أي: يجمعون في الأغلال، كما كانوا في الدنيا [مقترنين] على الضلال.

[تمت سورة إبراهيم]. انتهى انتهى. اهـ ﴿باهر البرهان صـ 757. 771﴾

(65/415)

---

وقال الأخفش:

سورة (إبراهيم)

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً

أُوْلَائِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

قال ﴿ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ فاوصل الفعل بـ"على" كما قالوا "ضَرَبُوهُ في السيف" يريدون "بالسيف". وذلك ان هذه الحروف يوصل بها كلها وتحذف نحو قول العرب: "نَزَلْتُ زيداً" تريد "نَزَلْتُ عَلَيْهِ".

﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾

وقال ﴿ مِّن وَرَآئِهِ ﴾ اي: من أمامه. وانما قال ﴿ وراء ﴾ اي: انه وراء ما هو فيه كما تقول للرجل: "هذا مِن ورائِكَ" أي: "سيأتي عَلَيْكَ" و"هُوَ مِنْ وراءِ ما أَنْتَ فيه" لأَنَّ ما أَنْتَ فيه قد كان مثل ذلك فهو وراؤه. وقال ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ في هذا المعنى. أي: كانَ وراءَ ما هُمْ فيه.

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾

وقال: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كأنه قال: "وَمِمَّا نَقُصُّ عليكم مثلُ الذين كَفَرُوا" ثم أقبل يفسر كما قال ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ وهذا كثير.

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ

بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(66/415)

---

وقال ﴿ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ ﴾ وهذا استثناء خارج كما تقول: "ما ضَرَبْتُهُ إلّا أَنَّهُ أَحْمَقُ" وهو الذي في معنى "لكنّ" .

وقال ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ فتحت ياء الاضافة لأن قبلها ياء الجميع الساكنة التي كانت في "مُصْرِخِيّ" فلم يكنْ من حركتها بدٌّ لأَنْ الكسر من الياء . وبلغنا ان الاعمش قال (بِمُصْرِخِيِّ) [141 ب] فكسرو هذه لحن لم نسمع بها من أحد من العرب ولا أَهل النحو .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴾

وقال ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ منصوبة على (ضَرَبَ) كأنه قال "وَضَرَبَ اللهُ كَلِمَةً طَيِّبَةً مَثَلاً" .

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وقال: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا ﴾ ومثل ذلك ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ ﴾ و"الأُكُلُ" هو: الطعامُ و"الأَكْلُ" هو:

"الفِعْل" .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾

وقال ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ وفي موضع آخر (ولا خلَّةٌ) وإنَّما "الخِلالُ" لجماعة "الخُلَّة" كما تقول: "جُلّة" و"جِلال" ، و"قُلَّة" و"قِلال" . وقال الشاعر: [من المتقارب وهو الشاهد الخامس والعشرون]:

وكيفَ تواصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ * خلالَتُهُ كأَبي مَرْحَبِ

ولو شيت جعلت "الخِلال" مصدراً لأنها من "خَالَلْتُ" مثل "قَاتَلْتُ" ومصدر هذا لا يكون الا "الفِعال" أو "المُفاعَلَة" .

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

(67/415)

---

وقال ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ اي: آتاكم من كُلِّ شَيْءٍ سَأَلْتُمُوهُ شَيْئاً" وأَضمر الشيء كما قال ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أيْ: "أُوتِيَتْ من كلِّ شَيءٍ في زمانِها شَيْئاً" قال بعضهم: "إِنما ذا على التكثير" نحو قولك: "هُوَ يَعْلَمُ كُلَّ شيء" و"أتاه كلُّ الناسِ" وهو

يعني بعضهم: وكذلك ﴿ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ . وقال بعضهم: "لَيْسَ من شَيْءٍ إلاّ وقَدْ سأله بعضُ الناس فقال ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي: "مِن كل ما سألتُمُوهُ قد آتى بعضكُم منهُ شيئا وآتى آخر شَيْئاً مما قد سأَل" . ونون بضعهم ﴿ مِّن كُلٍّ ﴾ يقول ﴿ مِّن كُلٍّ ﴾ ثم قال "لَمْ تَسْأَلُوهُ إيّاه" كما تقول: "قَدْ سَأَلْتُكَ مِنْ كُلٍّ" و"قَدْ جاءَنِي مِنْ كُلٍّ" لأنّ "كُلّ" قد تفرد وحدها .

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

وكذلك قال ﴿ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ ﴾ يقول: "أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيّتِي أُناساً" [142] ودخلت الباء على "وادٍ" كما تقول: "هو بالبَصْرَةِ" و"هو في البصرة" .

وقال ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ زعموا انه في التفسير "تَهْواهُم" .

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

ونصب ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ على الحال وكذلك ﴿ مُقْنِعِي ﴾ كأنه قال: "تَشْخَصُ أَبْصارُهُمْ مُهْطِعِينَ" وجعل "الطَرْفَ" للجماعة كما قال ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾

وقال ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ فأضاف الى الأول ونصب الآخر على الفعل ، ولا يحسن ان نضيف الى الآخر لأنه يفرق بين المضاف والمضاف اليه وهذا لا يحسن . ولا بد من اضافته لانه قد ألقى الألف ولو كانت "مخلفا" نصبهما جميعا وذلك جائز في الكلام . ومثله "هذا مُعْطي زَيْدٍ دِرْهَما" و"مُعْطٍ زيداً دِرْهَما" .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾

وواحد ﴿ الأَصْفَادِ ﴾ صَفَد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 410.406 ﴾

(69/415)

---

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة إبراهيم

مكية كلها

5 - وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ أي بأيام النّعم .

7 - وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ مبين في سورة الأعراف .

9 - فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ قال أبو عبيدة: تكروا ما أمروا به، ولم يسلموا.

ولا أعلم أحدا قال: ردّ يده في فيه، إذا أمسك عن الشيء! والمعنى: ردّوا أيديهم في أفواههم، أي عضوا عيها حنقا وغيظا، كما قال الشاعر:

يردّون في فيه عشر الحسود يعني: أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه العشر

ونحوه قول

قد أفنى أنامله أزمه فأضحى بعضّ على الوظيفا

يقول: قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى بعضّ عليّ وظيف الذراع. وهكذا فسر هذا الحرف ابن مسعود واعتباره قوله عز وجل في موضع آخر: وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ.

(70/415)

---

15 - وَاسْتَفْتَحُوا أي استنصروا. وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ 16 - وِمِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ أي أمامه.

وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ والصديد: القيح والدم. أي يسقى الصديد مكان الماء. كأنه قال: يجعل ماؤه صديدا.

ويجوز أن يكون على التشبيه . أي يسقى ماء كأنه صديد .

17 - وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ أي من كل مكان من جسده .

وَما هُوَ بِمَيِّتٍ .

18 - أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ أي شديد الريح . شبه أعمالهم بذلك : لأنه يبطلها ويمحقها .

21 - ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ أي معدل . يقال : حاص عن الحق يحيص ، إذا زاغ وعدل .

22 - لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ أي فرغ منه ، فدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

24 - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً شهادة أن لا إله إلّا اللّه ، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ «1» يقال : هي النخلة . أَصْلُها ثابِتٌ في الأرض ، وَفَرْعُها : أعلاها ، فِي السَّماءِ .

---

(1) أخرج البخاري عن ابن عمر قال : كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا ولا ولا تؤتي أكلها كل حين قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئا . قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «هي النخلة» ، فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه واللّه لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة فقال : ما منعك أن تكلم ، قال : لم أركم تلكمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا .

25 - تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ يقال: كلّ ستة أشهر، ويقال: كلّ سنة.

26 - وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ يعني: الشرك كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ قال أنس بن مالك: هي الحنظلة.

اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ أي استؤصلت وقطعت.

ما لَها مِنْ قَرارٍ أي فما لها من أصل.

فشبّه كلمة الشرك، بحنظلة قطعت: فلا أصل لها في الأرض، ولا فرع لها في السماء، ولا حمل.

38 - دارَ الْبَوارِ دار الهلاك. وهي: جهنم «1»

31 - وَلا خِلالٌ مصدر «خاللت فلانا خلالا ومخالّة» والاسم الخلة، وهي: الصداقة.

35 - وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أي اجنبني وإيّاهم.

36 - رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أي ضل بهن كثير من الناس.

37 - فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ أي تنزع إليهم.

43 - مُهْطِعِينَ أي مسرعين. يقال: أهطع البعير في سيره واستهطع، إذا أسرع.

مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ والمقنع رأسه: الذي رفعه وأقبل بطرفه على ما بين يديه. والإقناع في

الصلاة هو من إتمامها .

لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ أي نظرهم إلى شيء واحد .

---

(1) أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر .

[. . . . . .]

(72/415)

---

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ يقال : لا تعي شيئا من الخير . ونحوه قول الشاعر في وصف الظّليم :

. . . جؤجؤه هواء «1» أي ليس لعظمه مخّ ولا فيه شيء .

ويقال : أفئدتهم هواء منخوبة من الخوف والجبن .

49 - وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ أي قد قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال

واحدها : صفد .

50 - سَرابِيلُهُمْ أي قمصهم . واحدها : سربال . مِنْ قَطِرانٍ .

ومن قرأ : «من قطر آن» أراد : نحاسا قد بلغ منتهى حرّه . أنى فهو آن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 197 . 200 ﴾

---

(1) ذكره زهير في بيت له:

كأن الرجل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هداه

والجؤجؤ: الصدر.

(73/415)

---

وقال الغزنوى:

ومن سورة إبراهيم

3 يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ: يعتاضونها ويؤثرونها/ [50/ أ] عليها.

5 وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ: بنعم أيامه ونقمها «1».

7 تَأَذَّنَ [رَبُّكُمْ] «2»: آذن وأعلم، كقولك: توعّد وأوعد «3».

9 فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ: عضوا عليها من الغيظ «4»، أو ردّوا أيديهم على أفواه الرّسل على المثل «5»، إما على ردّهم قولهم، وإما لخوفهم

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 155، ونص كلامه: «و تذكيرهم بأيام اللّه، أي: تذكيرهم بنعم اللّه عليهم، وبنقم اللّه التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود، أي: ذكرهم بالأيام التي سلفت لمن كفر وما نزل بهم فيها، وذكرهم بنعم اللّه...».

وانظر تفسير الطبري: 16/ 519، وزاد المسير: 4/ 346.

(2) في الأصل: «ربك»، وهي قراءة نسبها الفخر الرازي في تفسيره: 19/ 86، إلى ابن مسعود رضي الله عنه، والمثبت في النص موافق لرسم المصحف والقراءات المعتمدة.

(3) ينظر تفسير الطبري: 16/ 526، ومعاني القرآن للنحاس: 3/ 517.

(4) روى هذا القول عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أخرج ذلك عبد الرزاق في تفسيره: 265، والطبري في تفسيره: (16/ 530 - 533)، والحاكم في المستدرك: 2/ 351، وقال: «هذا حديث صحيح بالزيادة على شرطهما»، ووافقه الذهبي.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 340 عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 10، وزاد نسبته إلى الفريابي، وأبي عبيد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود. ورجح الطبري هذا القول في تفسيره: 16/ 535، وكذا النحاس في معاني القرآن: (3/ 519، 520).

(5) ذكره الطبري في تفسيره: 16/ 535 دون عزو.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 341، وابن عطية في المحرر الوجيز: 8/ 208، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 349 عن الحسن رحمه الله.

منهم، وإما بإيمائهم إليهم أن اسكتوا «1».

وحكى أبو عبيدة «2»: كلّمته في حاجتي فرد يده في فيه: إذا سكت فلم يجب.

16 مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ: من ماء مثل الصديد كقولك: هو أسد «3»، أو من ماء يصدّ الصّادي عنه لشدته «4».

17 وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ: أي: أسبابه من جميع جسده «5».

18 فِي يَوْمٍ عاصِفٍ: ذي عصوف «6»، أو عاصف الرّيح.

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 156.

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 340، وزاد المسير: 4/ 349، وتفسير القرطبي: 9/ 345.

(2) مجاز القرآن: 1/ 336، ونص كلامه: «مجازه مجاز المثل، وموضعه موضع كفوا عما أمروا بقوله من الحق ولم يؤمنوا به ولم يسلموا، ويقال: ردّ يده في فمه، أي أمسك إذا لم يجب».

ونقل ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 230 قول أبي عبيدة هذا ثم قال: «ولا أعلم

أحدا قال : ردّ يده في فيه ، إذا أمسك عن الشيء ! والمعنى : ردّوا أيديهم في أفواههم ، أي : عضوا عليها حنقا وغيظا . . . » .

وأورد الطبري في تفسيره : 16/ 535 قول أبي عبيدة ورده بقوله : « وهذا أيضا قول لا وجه له ، لأن اللّه عز ذكره ، قد أخبر عنهم أنهم قالوا : «إنا كفرنا بما أرسلتم» ، فقد أجابوا بالتكذيب» .

(3) عن تفسير الماوردي : 2/ 343 ، ونص كلامه : «من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع : أسد ، أي : مثل الأسد .

وانظر هذا المعنى في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 331 ، ومعاني النحاس : 3/ 522 ، وتفسير الفخر الرازي : 19/ 105 ، وتفسير القرطبي : 9/ 351 .

(4) في تفسير الماوردي : 2/ 343 : «من ماء كرهته تصد عنه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصد » .

والصادي شديد العطش كما في النهاية : 3/ 19 .

(5) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 2/ 343 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وكذا القرطبي في تفسيره : 9/ 352 .

(6) قال الفراء في معانيه : (2/ 73 ، 74) : «فجعل «العصوف» تابعا لليوم في إعرابه ، وإنما العصوف للريح وذلك جائز على جهتين ، إحداهما : أن العصوف وإن كان للريح فإن

اليوم يوصف به لأن الريح فيه تكون، فجاز أن تقول: «يوم عاصف كما تقول: يوم بارد ويوم حار...».

والوجه الآخر: أن يريد في يوم عاصف الريح، فتحذف الريح لأنها ذكرت في أول الكلمة».

وانظر تفسير الطبري: (16/ 554، 555)، وتفسير الماوردي: 2/ 344، وتفسير البغوي:

3/ 30، والمحرر الوجيز: 8/ 221، وتفسير القرطبي: 9/ 353. [.....]

(75/415)

---

22 بِمُصْرِخِكُمْ: الصّارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث «1». من لغات السّلب كالمشكي والمعتب «2».

26 اجْتُثَّتْ: انتزعت كأنه أخذت جثتها بكمالها «3».

27 بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ: المسألة في القبر «4».

28 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً: قال عليّ رضي اللّه عنه: هم الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين، وأمّا بنو المغيرة فأخزاهم اللّه يوم بدر «5». وعن ابن عمر «6»

(1) تهذيب اللغة : 7/ 135 ، واللسان : 3/ 33 (صرخ) وهو في تفسير الفخر الرازي : 19/ 116 عن ابن الأعرابي .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 339 ، وتفسير الطبري : 16/ 561 ، ومعاني الزجاج :

3/ 159 ، وتفسير القرطبي : 9/ 357 .

(2) المشكي والمعتب من أساليب السلب ، وهي صفة إذا أطلقت على الشيء نفت ضدها .

ينظر اللسان : 1/ 578 ، وتاج العروس : 3/ 311 (عتب) . ومعاني النحاس : 3/ 529 ، والمفردات للراغب : (88 ، 447) .

(3) معاني القرآن للزجاج : 3/ 161 .

(4) ثبت ذلك في رواية أخرجها الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 220 ، كتاب التفسير ، باب «يثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت» عن البراء بن عازب رضي اللّه عنه مرفوعا .

وكذا في صحيح مسلم : 4/ 2201 ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه» .

وانظر تفسير الطبري : 16/ 589 ، وتفسير ابن كثير : 4/ 413 .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 13/ 221 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 352 ، كتاب التفسير ، وقال : «هذا حديث صحيح ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 41 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن مردويه عن علي رضي اللّه تعالى عنه .

(6) كذا في «ك» ، ولم أقف على هذا الأثر عنه . لكن الإمام البخاري أخرجه في التاريخ الكبير :

8/ 373 عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مختصرا .

وكذا الطبري في تفسيره : 13/ 221 وإسناده حسن ورجاله ثقات ، إلا حمزة بن حبيب الزيات فهو صدوق كما في التقريب : 179 .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 41 ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن مردويه عن عمر رضي اللّه عنه ، ولعل «ابن» زائدة هنا فيكون من مسند عمر رضي اللّه عنه . وفي صحيح البخاري : 5/ 220 ، كتاب التفسير باب «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : «هم كفار أهل مكة» .

رضي اللّه عنهما مثله .

33 دائِبَيْنِ : دائمين فيما سخرهما اللّه عليه .

34 وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ : ما احتجتم إليه من غنى وعافية وولد وخول «1» ونجاة وشرح صدر ونحوها .

37 أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ : تكسير «وفود» على «أوفدة» «2» ثم قلب اللّفظ وقلبت الواو ياء كما قلبت في الأفئدة جمع «فؤاد» .

تَهْوِي إِلَيْهِمْ : تقصدهم .

40 وتقبّل دعائي «3» : عبادتي «4» .

41 رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ : كانا في الأحياء فرجي إيمانهما «5» ، أو هو على وجه التعليم .

---

(1) في النهاية : 2/ 88 : «الخول : حشم الرجل وأتباعه ، واحدهم خائل . وقد يكون واحدا ، ويقع على العبد والأمة ، وهو مأخوذ من التخويل : التملك ، وقيل : من الرعاية» .

(2) تفسير القرطبي : 9/ 373 .

(3) بإثبات الياء في الوصل ، وهي قراءة ابن كثير ، وحمزة ، وأبي عمرو ، وحفص عن عاصم .

ورواية البزّي عن ابن كثير إثبات الياء في الوصل والوقف .

ينظر السبعة لابن مجاهد: 363، والتبصرة لمكي: 237، والبحر المحيط: 5/ 434.

(4) تفسير الطبري: 13/ 235، والكشاف: 2/ 382، وتفسير الفخر الرازي: 19/ 142، وتفسير القرطبي: 9/ 375.

(5) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 351، وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 369، والفخر الرازي في تفسيره: 19/ 142.

*(77/415)*

---

42 تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ: ترتفع «1».

43 مُهْطِعِينَ: مسرعين «2»، وبعير مهطع: في عنقه تصويب خلقة «3»، ولا يفسّر بالإطراق «4»، لقوله: مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ، والإقناع: رفع الرأس إلى السّماء من غير إقلاع «5».

وقيل «6»: المقنع والمقمح الشّاخص ببصره.

وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ: جوف عن القلوب للخوف «7».

وقيل «8»: منخرقة للرّعب كهواء الجوّ في الانخراق وبطلان الإمساك

---

(1) تفسير البغوي: 3/ 39، واللسان: 7/ 46 (شخص).

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 342، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 233، ورجحه الطبري في تفسيره: 13/ 237.

ونقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 2/ 352 عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

وكذا ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 370، والقرطبي في تفسيره: 9/ 376.

(3) عن الليث في تهذيب اللغة: 1/ 134، واللسان: 8/ 372 (هطع).

[.....]

(4) وهو قول ابن زيد كما في تفسير الطبري: 13/ 237، وتفسير الماوردي: 2/ 352، وزاد المسير: 4/ 370، وتفسير القرطبي: 9/ 376.

(5) معاني القرآن للزجاج: 3/ 166، وتفسير البغوي: 3/ 39، وتفسير الفخر الرازي:

19/ 144، واللسان: 8/ 299 (قنع).

(6) معاني القرآن للنحاس: 3/ 538، وقال الفراء في معانيه: 2/ 373: «والمقمح: الغاض بصره بعد رفع رأسه».

وقال الزجاج في معانيه: 4/ 279: «المقمح: الرافع رأسه الغاض بصره».

وانظر تهذيب اللغة: (4/ 81، 82)، والمفردات للراغب: 412، واللسان: 2/

566 (قمح).

(7) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 344، وتفسير البغوي: 3/ 39، وزاد المسير: 4/ 371 عن أبي عبيدة.

(8) تفسير الماوردي: 2/ 353، والمحرر الوجيز: 8/ 261، وزاد المسير: 4/ 371، وتفسير القرطبي: 9/ 377.

قال البغوي في تفسيره: 3/ 39: «وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم».



---

[50/ ب] فالهواء لا يثبت على حال ولا يثبت فيه شيء/

44 يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ: نصب يَوْمَ على المفعول به والعامل فيه «أنذرهم»، وليس بظرف. [إذا] «1» لم يؤمر بالإنذار في ذلك اليوم.

46 وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ: أي: ما كان توهينا لأمرهم «2».

48 يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ: تصوّر صورة أخرى أرضا بيضاء كالفضّة لم يعمل عليها معصية «3»، وَالسَّماواتُ: بانتشار نجومها «4».

49 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ : يجمعون في الأغلال كما كانوا مقترنين على الضلال «5» . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 1 صـ 459 . 464 ﴾

---

(1) في الأصل : «إذا» ، والمثبت في النص من «ك» و«ج» .

(2) تفسير الماوردي : 2/ 354 ، وزاد المسير : 4/ 374 .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 8/ 264 : «و هذا على أن تكون إِنْ نافية بمعنى «ما» ، ومعنى الآية تحقير مكرهم ، وأنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأقدار اللّه بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها ، وهذا تأويل الحسن وجماعة المفسرين» .

(3) ورد في هذا المعنى أثر أخرجه الطبري في تفسيره : 13/ 164 عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : «أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة» .

وأخرج نحوه الطبراني في المعجم الكبير : 9/ 232 .

وأشار إليه الهيثمي في مجمع الزوائد : 7/ 48 ، وقال : «إسناده جيد» .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 57 ، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والحاكم ، والبيهقي في «البعث» عن ابن مسعود رضي اللّه عنه موقوفا .

وأخرج الطبراني في المعجم الكبير : 10/ 199 عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي صلّى

اللّه عليه وسلّم في قوله : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ، قال : أرض بيضاء ، كأنها فضة لم

يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها بمعصية» .

وفي إسناده جرير بن أيوب البجلي ، قال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : 7/ 48 : وهو

متروك» .

(4) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 169 ، والماوردي في تفسيره : 2/ 355 .

(5) عن تفسير الماوردي : 2/ 355 .

وانظر معنى «الأصفاد» في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 234 ، ومعاني القرآن

للزجاج :

3/ 170 ، ومعاني النحاس : 3/ 546 ، والمفردات للراغب : 282 .

(79/415)

---

وقال ملا حويش :

تفسير سورة ابراهيم

عدد 22 - 72 - 14

نزلت بمكة بعد سورة نوح ، عدا الآيتين 28/ 29 فإنهما نزلنا في المدينة ، وهي اثنتان

وخمسون آية ، وثمنمئة وإحدى وستون كلمة ، وثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفا ، ومثلها في عدد الآي الحاقة ونون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الر" تقدم ما فيه أول سورة يونس لمارة ، هذا القرآن العظيم المدون في أنزلنا "كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ" يا سيد الرسل "لِتُخْرِجَ النَّاسَ" بهديه وإرشاده "مِنَ الظُّلُماتِ" الكفر والطغيان والجهالة "إِلَى النُّورِ" الإيمان والطاعة والعلم ، تشير هذه الآية إلى أن طرق الإضلال كثيرة ، لأنه جمع لفظ الظلمات الداخل فيه جميع أنواعها ، وأفرد لفظ النور لأن طريق الإيمان واحد ، وهكذا في جميع ما ورد في كتاب اللّه تعالى يكون النور مفردا والظلمات جمعا ، وإنما شبه الكفر بالظلمات لأنها نهاية ما يتحيّر فيها الرجل من طرق الهدى ، وشبه الإيمان بالنور لأنه غاية ما ينجلي به طريق الهداية ، وهذا الإخراج "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ" وأمره وتوفيقه وتسهيله وتيسيره "إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"



---

1 الذي أمر عباده بسلوكه ويجوز في اللفظ العظيم الآتي الجر على أنه صفة لما قبله والرفع على الابتداء "اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ" ملكا وعبيدا "وَوَيْلٌ

"لِلْكافِرِينَ" به التاركين عبادته "مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ" 2 في الآخرة لا تطيقه أجسامهم ، ووصف الكافرين بأنهم "الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ" وآثروها عليها طوعا واختيارا ورضاء "وَيَصُدُّونَ" الناس مع ذلك "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" فيمنعونهم من سلوكها "وَيَبْغُونَها" الطريق الموصلة إلى اللّه المؤدية لدينه القويم المسببة لدخول الجنة "عِوَجاً" ميلا وزيغا حائدين عن القصد السوي ، راجع الآية الأولى من سورة الكهف المارة "أُولئِكَ" الذين هذه صفتهم كانوا "فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ" 3 عن الصواب ناء عن الحق في هذه الدنيا ويوم القيامة في أشد العذاب إذا لم يتوبوا ويرجعوا ، قال تعالى "وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ" يتكلم بلغتهم ، وقرىء بلسن على الجمع ، ثم بين العلة في ذلك بقوله "لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" ما يفعلون ويذرون فيفهمهم ويفهموا عنه ، ولا يفهم من هذه الآية كون محمدا عربيا وقد أرسل للعرب خاصة لأنه لا يعرف لغة الآخرين ممن على وجه الأرض ، لأن اللّه تعالى آذنه بإرسال رسل من قبله إلى الأطراف يترجمون لهم بألسنتهم ما يتعلق بالإيمان والإسلام ، لأن القرآن العظيم أثبت عموم رسالته بالآية 158 من الأعراف المارة في ج 1 ، لأن لفظ الناس يدخل فيه العربي والأعجمي ، فضلا عن الناس كلهم تبعا للعرب ، لأن القرآن جاء بلغتهم ليجتمعوا عليه والاجتماع خير من التفرقة ، وجاء في تفسير أبو السعود والرازي أن اللّه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها السيد جبريل على الأنبياء بلغة أقوامهم ليفهموها .

هذا وإذا كان الكتاب واحدا بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وحدوده وأحكامه.

وقد ألمعنا إلى عموم الرسالة في الآية 28 من سورة سبأ المارة فراجعها وما ترشدك إليه.

وبعد بيان الرسول للمرسل إليهم ذلك "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ" ممن آثر الضلالة على الهدى "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" ممن فضّل الهدى على الضلال تبعا لما هو مخلوق له أزلا "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب على أمره الذي لا يكون في ملكه إلا ما يريد "الْحَكِيمُ" فيمن يضل ويهدي بحسب معدنه وجبلته "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا" التسع المار ذكرها في الآية 129 من الأعراف في ج 1، وقلنا له "أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ" بني إسرائيل من بين القبط وأنقذهم "مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ" مر تفسيرها آنفا "وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ" التي أوقعها على الأمم السابقة بعد ما ابتلاهم بنعمه وأظهروا للناس كفرها، والمراد من الأيام هنا الوقائع لأن العرب يعبرون عن الحوادث بأيام فيقولون يوم الفجار وذي قار ويوم قضّه وغيرها، قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غور طوال عصينا الملك فيها ان ندينا

ونظير هذه الآية بالمعنى الآية 14 من سورة الجاثية المارة، "إِنَّ فِي ذَلِكَ" التذكير بالوقائع الكائنة على الأمم السالفة "لَآيَاتٍ" عبر وعظات "لِكُلِّ صَبَّارٍ" على البلاء وعلى الجور والأذى "شَكُورٍ" 5 لنعم اللّه وعطائه وهما صفة خيرة الخلق من المؤمنين لأن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر "وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ" أي اذكر يا خاتم الرسل ما قاله أخوك موسى لبني إسرائيل إذ يعدد نعمه عليهم لتقصها على قومك ومقول القول "اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ" عذا بعد أن خلصهم من رق الفراعنة الملمع إليه في الآية 127 من الأعراف فما بعدها في ج 1، وبعد أن أراهم آيات ربهم في إغراق عدوهم ونجاتهم بآن واحد والآيات التي بعدها كالمن والسلوى والإظلال بالغمام وتفجير الماء وقد كانوا فرعون وآله "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ" يبغونكم باشده وأشنعه "وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ" يسترقونهم ويستخدمونهم "وَفِي ذلِكُمْ" الحال الذي أجروه معكم "بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ" 6 لا أعظم منه، لأن قتل الذكور وإبقاء النسوة للاسترقاق غاية في الذل ونهاية في العار، وقيل في المعنى:

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا

وهذه الواو التي في ويذبحون يسميها القراء الواو الكبيرة، إذ مر قبلها في

الآية 141 من سورة الأعراف ج 1 ويأتي بعدها في الآية 29 من البقرة في ج 3 بلا واو "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ" أعلم ووعد وأوعد "لَئِنْ شَكَرْتُمْ" نعمه التي من جملتها خلاصكم من رق القبط والغرق "لَأَزِيدَنَّكُمْ" نعما فأجعل منكم ملوكا وأنبياء راجع الآية 23 من المائدة في ج 3 ، "وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ" تلك النعم وجحدتموها "إِنَّ عَذابِي" لمن يكفرها "لَشَدِيدٌ" 7 أشد من عذاب استرقاق القبط وإماتة الرجال وإبقاء النساء منكم "وَقالَ مُوسى" لبني إسرائيل "إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً" فضره يعود عليكم وعليهم في الدنيا والآخرة والله لا يعبا بكم "فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ" عن جميع خلقه لا حاجة له في شكرهم "حَمِيدٌ" 8 بذاته وإن لم يحمده خلقه ثم ذكرهم بمن قبلهم فقال "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ" كقوم إبراهيم وموسى وشعيب وغيرهم "لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ" لعدم إحاطة علم البشر بهم لكثرتهم ولأن الله لم يبينهم لنا ، قال تعالى (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ) الآية 79 من الفرقان المارة في ج 1 ونظيرتها الآية 79 من سورة المؤمن المارة ، ولهذا قال ابن مسعود كذب النسّابون الذين يدعون معرفة الأنساب إلى آدم ، والله تعالى نفى معرفة العلم بذلك عن عباده ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم فيمن ينتسب لآدم

عليه السلام وفيمن ينتسب من عدنان إلى إسماعيل عليه السلام كذب النسّابون ، لأن اللّه تعالى لم يبين القرون ما بين النّبيين .

مطلب النهي عن الانتساب لما بعد عدنان ومحاورة الكفرة وسؤال الملكين في القبر :

(84/415)

---

وهذه الآية التي نحن بصددها كافية لسد باب الانتساب إلى ما بعد عدنان لأن الذي لا يعلمه إلا اللّه يعجز عنه البشر ، لذلك يجب علينا أن نحجم عن الانتساب إلى ما بعد عدنان ، ولهذا البحث صلة في الآية 111 من سورة المؤمنين الآتية .

قال تعالى "جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" على صدقهم وما جاؤهم به من عند ربهم "فَرَدُّوا" أي الكفرة من أولئك الأمم "أَيْدِيَهُمْ" أوصلوها وأخذوها

"فِي أَفْواهِهِمْ" أي الرسل لئلا يتكلموا بما أرسلوا به ، أو إلى أفواه أنفسهم إشارة لعدم رغبتهم بما يقولون لهم ، وهذا كناية عن إسكاتهم تكذيبا لهم ، وكثيرا ما يقع هذا بين المخاطبين الآن من أهل القرى والبوادي ، إذا لم يرد المخاطب أن يسمع كلام المخاطب فإنه يشير إليه بيده ويضعها على فم نفسه كأنه يقول له ردّ قولك إلى فيك ولا تنطق بما تريد لأني لا أصدقه ، وقد يقوم إليه ويضع يده على فيه إذا كان لا يهابه ، يدل على هذا المعنى قوله تعالى "وَقالُوا

إِنَّا كَفَرْنَا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ" فلا حاجة لبيان "وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ" من الإيمان والتوحيد والبعث "مُرِيبٍ" 9 موقع في التهمة إن لم نجزم جحود ما جئتم به ، والريبة قلق وعدم طمأنينة بالأمر ، لذلك فلا نميل لأمر نحن في شك منه .

(85/415)

---

وقيل إنهم أخذوا أيديهم فعضوها بأفواههم تعجبا أو غيظا ، وهذا لا يوافق النظم ويأباه السياق "قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي" وجود "اللَّهِ شَكٌّ" استفهام إنكاري ، أي أتنكرون وجود الإله "فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وخالق ما فيهما وبينهما الذي "يَدْعُوكُمْ" للإيمان به والتصديق برسله "لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ" إذا أجبتم دعوته وصدقتم رسله ، والمراد من لفظ من هنا وفي مثلها غفران الذنوب التي هي حق اللّه فقط ، أما حقوق العباد فلا تغفر إلا بإسقاطها من قبل أهلها أو بمشيئه اللّه القادر على إرضاء خصومهم ، راجع الآية الثانية من سورة نوح المارة "وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" عنده لا يقدم ولا يؤخر ولا يبدل ، وانه قدّر لكم آجالا تبلغونها إن أنتم آمنتم وصدقتم وآجالا دونها إن أصررتم على كفركم عقوبة لكم ، راجع الآية 12 من سورة نوح المارة "قالُوا" لرسلهم "إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا" ولستم بآلهة ولا ملائكة حتى نتبعكم أ"تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا" من الآلهة "فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ"

10 يميّزكم عنا ويثبت أن آلهتنا باطلة وأنكم على الحق

"قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ" لسنا بآلهة ولا ملائكة كما ذكرتم "وَلَكِنَّ اللَّهَ" الذي خلق ورزق وأحيا وأمات الذي منّ عليكم بالعقل والسمع والبصر والأمن والعافية والولد والجاه والرياسة "يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"

*(86/415)*

---

برسالته إلى إرشاد خلقه لدينه رحمة بهم، ولئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير "وَمَا كَانَ لَنَا" بصفتنا رسل اللّه "أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ" قوة وبرهان ومعجزة نقسركم بها على اتباعنا والإيمان بنا "إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" لأنا عاجزون مثلكم، ولولا ما خصنا اللّه به من الوحي لما فضلناكم بشيء، ولولا أن يرسلنا إليكم لما دعوناكم إلى شيء "وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" 11 أمثالنا على أن يقدرنا لمجابهة عنادكم وعدائكم "وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ" نحن معاشر الأنبياء، يراجع نظير هذه الآية في المعنى الآية 22 من سورة يس في ج 1، "وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا" التي نسلكها في أمور ديننا الموصل لرضاء اللّه.

واعلموا أيها الناس أننا عبيد اللّه ورسله إليكم وقد أمرنا بإنذاركم وإقلاعكم عما أنتم عليه من الكفر وما علينا إلا نصحكم وسنثابر عليه ولو لم تصغوا إلينا "وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا

آذَيْتُمُونا" به من التكذيب والإهانة والاستخفاف ، لأنه في سبيل تنفيذنا أمر اللّه بدعوتكم إلى دينه القويم المؤدي إلى جنات النعيم لا إلى شيء يعود علينا بالنفع المادي ونستمد المعونة منه على ما نريده من إرشادكم "وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ" 12 أمثالنا فيما هم سائرون فيه .

(87/415)

---

واعلم أن التوكل في الآية الأولى بقصد إحداثه وفي هذه بقصد التثبت عليه ، فلا يعد تكرارا "وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ" لما رأوهم مثابرين على دعوتهم إلى دينهم دين اللّه الواحد وأنهم أقسموا على الصبر فيما يلاقونه من أذى في سبيل دعوتهم "لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا" بلادنا وقرانا "أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا" كما كنتم قبل ادعائكم النبوة والرسالة ، وذلك أنهم كانوا قبل لم يأمروهم بتركها ولم يخالفوهم في شيء مما هم عليه ، وإلا فهم نشأوا على التوحيد من حين فصالهم كسائر الأنبياء ، وكانوا قبل أمرهم بالدعوة كأنهم منهم "فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ" 13 الذين كذبوكم وأمروكم بالعودة إلى دينهم .

ونظير هذه الآية الآية 88 من سورة الأعراف المارة في ج 1 ، "وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ" التي

يريدون إخراجكم منها "مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ" الوعيد بإهلاكهم والوعد بإحلالكم محلّهم حق ثابت "لِمَنْ خافَ مَقامِي" الوقوف بين يدي في الآخرة "وَخافَ وَعِيدِ" 14 بالعذاب

(88/415)

---

"وَاسْتَفْتَحُوا" استنصروا أي طلبوا النصر من اللّه على أعدائهم لما رأوا إصرارهم على الكفر وعلى أذاهم ، وقد جرت عادة اللّه تعالى بنصرة أوليائه عند الضيق بمقتضى عهده المار ذكره في الآية 172 من الصافات والآية 110 من سورة يوسف المارتين فنصروا حالا "وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" 15 لا يميل إلى الحق لتعاظمه في نفسه وخسر ، وهذه الآية على حد قوله تعالى (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ) الآية 19 من الأنفال والآية 88 من سورة التوبة في ج 3 ، وقال تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا) الآية 110 من سورة يوسف المارة وجزاء هذا المخالف لرسوله "مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ" يعذب فيها في الآخرة لأنه قادم عليها غير العذاب الذي حل به في الدنيا وقال (من ورائه) لأنها تكون بعد موته لا مناص له منها فهو واردها حتما ، قال :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء اللّه للمرء مذهب

وتأتي وراء بمعنى قدام على أنها من الأضداد والمشتركات اللفظية أو المعنوية ، فتكون

بمعنى القدام والخلف وعلى هذا قوله :

أليس ورائي ان تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وقوله :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقوم تميم والغلاة ورائيا

وقول الآخر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب



---

"وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ" 16 عطف بيان لأن الماء مبهم ففسره بالصديد وهو القيح الذي يسيل من جلود المعذبين فيها "يَتَجَرَّعُهُ" يتكلف بلعه مرة أخرى لشدة العطش واستيلاء الحرارة "وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ" بسهولة بل يغص به لنتنه وكراهيته فيشربه بعد اللّتيا والتي على كره وقسر "وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ" من أطراف جسده حتى من شعره وظفره "وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ" إذ لا موت فيها "وَمِنْ وَرَائِهِ" أي شراب الصديد "عَذَابٌ غَلِيظٌ" 17 أشد وأزهق للنفس مما كان فيه من أمامه وخلفه ، قال تعالى "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ"

المثل يستعار للصفة التي فيها غرابة راجع الآية 112 من سورة النحل المارة ، وبيّن ذلك المثل بقوله عز قوله "أَعْمالُهُمْ" التي عملوها في الدنيا من إقراء ضيف أو إغاثة ملهوف أو صلة رحم أو عتق رقبة أو فك الأسير أو غيرها "كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ" فطيّرته ولم تبق له أثرا ، هكذا يمثله اللّه لهم يوم القيامة لتزداد حسرتهم فتراهم "لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ" منها من الثواب لأنها وقعت منهم حال الكفر إذ يشترط لثواب الأعمال أن تكون مع الإيمان باللّه وعدم الشرك به "ذلِكَ" حرمانهم من ثواب أعمالهم الطيبة "هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ" 18 عن طريق الصواب والخسران الكبير عن حسن المآب ، وشبه هذه الآية ، الآية 29 من سورة النور في ج 3 ، قال تعالى "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ" لأمر عظيم لا عبثا ولا باطلا "إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ" أيها الناس من بينهما فيخسف بكم الأرض أو يطيركم بالهواء فيجعلكم هباء "وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ" 19 غيركم أطوع منكم إليه وأكثر عبادة "وَما ذلِكَ" إذهابكم والإتيان بغيركم "عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ" 20 لا ممتنع ولا متعذر لأن القادر لا يصعب عليه شيء فالذي خلق السموات والأرض لا شك قادر على إبادتهما ومن فيهما وإيجاد غيرهم ، وهذه الآية مكررة في سورة فاطر ج 1 ، والأنعام المارة والنساء ج 3 ، وغيرها ولكن لمناسبة أخرى .

قال تعالى "وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً" من قبورهم بعد النفخة الثانية وسيقوا إلى المحشر وبعد إجراء الحساب ومقابلة العابدين لمعبوديهم من البشر وغيره وعند إجراء المحاورة بينهم "فَقَالَ الضُّعَفَاءُ" العابدون والأتباع الذين غلبوا على أمرهم في الدنيا لما رأو العذاب "لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا" عليهم في الدنيا من الرؤساء والأغنياء الذين ساقوهم لعبادة غير الله "إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً" في الدنيا مسيرين في خدمتكم وأمركم "فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا" اليوم فتكفونا وتدفعوا عنا وتمنعونا "مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ" فترفعونه عنا كما كنتم تعدونا بذلك في الدنيا "قَالُوا" لهم لا لأنه "لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ" إلى الإيمان الذي كنا نؤمر به ولا نسمعه، ولكن ضللنا فأضللناكم "سَوَاءٌ عَلَيْنَا" نحن وأنتم في



في العذاب سواسية "أَجَزِعْنَا" منه "أَمْ صَبَرْنَا" عليه "مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ" 21 عنه فلا نجاء ولا مهرب ولا محيد ولا مخلص، من خاص إذا عدل لجهة الفرار، راجع الآية 10 من

سورة القيامة المارة في ج 1 ، ثم ان الفريقين ألقوا اللوم على الشيطان فاستحضره الحق جل وعلا وذكر لنا ما جابههم به وهو "وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ" بين الناس وعرف كل مصيره وصار أهل الجنة للجنة يحمدون اللّه تعالى على ما صاروا إليه بسبب اتباعهم أوامر ربهم وأهل النار للنار يلومون إبليس ويوبخونه على إغرائه لهم في الدنيا ، فيقول لهم "إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ" الناجز فلم تصدقوه "وَوَعَدْتُكُمْ" خداعا بكم وإغواء لكم وعدا كذبا "فَأَخْلَفْتُكُمْ" لأنه لا حقيقة له ولا قدرة لي على إنجازه "وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ" أقهركم به على اتباعي "إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ" دعوة عادية بما أوقعته في قلوبكم من الوسوسة لا بسيفي ولا برمحي ولا بأية معجزة "فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" طوعا ورغبة واختيارا عفوا من أنفسكم وتبعا لشهواتكم الخسيسة التي منبتكم بها قولا .

والأماني كالآمال لا وثوق بها ولا بوقوعها "فَلا تَلُومُونِي" الآن على ما كنتم به راضين قبلا "وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ" على عدم إصغائكم لدعوة الرسل المؤيدة بالبراهين والآيات وعدم اتعاظكم بمعجزاتهم وركونكم لنصحهم وإرشادهم الحق ، فاقطعوا أملكم "ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ" ولا مغيثكم ومنقذكم من العذاب الآن وإن ما وعدتكم به في الدنيا كله زور وبهت لا صحة لشيء منه وإني عاجز الآن عن كل شيء مثلكم "وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ" مما أنا فيه من العذاب "إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ" في عبادة اللّه حال الدنيا إذ لا يعبد

غيره إلا ظالم "إِنَّ الظَّالِمِينَ" أمثالنا في الدنيا "لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" 22 في الآخرة وها قد وقعنا به .

(93/415)

---

هذا آخر قول المغوي للغوات فاعتبروا يا أولي الأبصار واتعظوا يا أولي الألباب من الآن قبل أن يحلّ بكم ما قصه اللّه علينا ، وقد تكررت بين العابدين والمعبودين المحاورة في القرآن كثيرا لمناسبات ، ومعان أخرى لا تغني عن بعضها ، راجع سورة سبأ المارة وفاطر والأعراف في ج 1 والبقرة والأنفال في ج 3 وغيرها ، قال تعالى

"وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ" 23 فيما بينهم أنفسهم ، وبينهم وبين الملائكة ، وبينهم وبين ربهم "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا" وصفه بكونه "كَلِمَةً طَيِّبَةً" هي كلمة الإيمان "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ" هي النخلة "أَصْلُها ثابِتٌ" في الأرض "وَفَرْعُها" أغصانها المتفرعة من رأسها صاعدة "فِي السَّماءِ 24 تُؤْتِي أُكُلَها" ثمرها "كُلَّ حِينٍ" ووقت وقته اللّه تعالى لنضجه والثمر ما يدخر ليؤكل إبان نضجه وغيره في كل زمان "بِإِذْنِ رَبِّها" وتيسيره وتكوينه "وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ" اعتبارا وعظة "لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" 25 المعاني المضروبة من أجلها فيتعظوا بها .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال : كنا عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يتحات ورقها وتؤتي أكلها كل حين .

قال ، قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولا شيئا قال صلى اللّه عليه وسلم هي النخلة ، قال فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه واللّه لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، فقال ما منعك أن تتكلم ؟ فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم وأقول شيئا ، فقال عمر لأن تكون قلتها أحبّ إلي من كذا كذا .

(94/415)

---

قال تعالى "وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ" هي كلمة الكفر إذ لا أخبث منها أبدا "كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ" هي الحنظل على أصح ما جاء فيها إذا لا أخبث منها عندنا في الدنيا أما في الآخرة فالزقوم والضريع والغسلين أجارنا اللّه منها "اجْتُثَّتْ" استؤصلت وقطعت ورفعت جثّتها المفروشة "مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ" لأنها "ما لَها مِنْ قَرارٍ" 26 ثابت فيها ولا فرع صاعد في السماء ، لأن كل شجرة عادة بقدر ما تتغلغل في الأرض ترتفع في السماء ، وهذا هو الذي

يثبتها ويقيها من تأثير الهواء وغيره "يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ" وهو كلمة التوحيد الحاصل أجرها "فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" للذين يتمسكون بها لا يزيغون عن الحق فيمن زاغ ممن سلف كأصحاب الأخدود المتقدم ذكرهم في الآية 4 من سورة البروج في ج 1 ، ومن رسخ كسلمان ورفقائه المتقدم ذكرهم

وكعمار ورفقائه المار ذكرهم في الآيتين 109/ 110 من سورة النحل وفي الآية 24 من سورة الكهف المارتين ، الثابتين على الإيمان مع تعذيبهم من أجله وأمثال هؤلاء كما أن اللّه تعالى ثبتهم في الدنيا "وَفِي الْآخِرَةِ" يثبتهم أيضا وفي أول برزخ من برازخها وهو القبر ، وعند سؤال الملكين ، وفي المحشر والحساب إلى مواقف القيامة ، حتى يدخلهم الجنة التي وعدها لهم .

روى البخاري ومسلم عن أنس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ، فأما المؤمن فيقول اشهد أنه عبد اللّه ورسوله ، فيقال له أنظر إلى مقعدك من النار أبدلك اللّه به مقعدا في الجنة ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم فيراهما جميعا ، قال قتادة ذكر لنا أنه يفسح له في قبره ، ثم يرجع إلى حديث أنس قال :

وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه من الثقلين ، لفظ البخاري ، ولمسلم بمعناه زاد في رواية : أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون .

وأخرج أبو زيد عن أنس والنسائي عن أبي هريرة ما بمعناه ، وأخرج الترمذي عن البراء بن عازب ، وأبو داود عن عثمان بن عفان بزيادة في ذلك .

الحكم الشرعي : سؤال الملكين في القبر لكل إنسان وإنسانة حق ثابت واجب الاعتقاد به ، وهو معتقد أهل السنة والجماعة بالإتفاق ، قال في بدء الأمالي :

وفي الأجداث عن توحيد ربي سيبلى كل شخص بالسؤال

ومثله في الجوهرة ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا فاسق زنديق ، راجع ما يتعلق فيه في الآية 26 من سورة المؤمن المارة وله صلة في الآية 53 من سورة الروم الآتية ، "وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" فيزلهم في ذلك كله ويحرمهم مما أعده للمؤمنين "وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ" 27 من الهداية والإضلال فيمن يريده وفاقا لما في أزله لا اعتراض عليه فيما يفعل وهو لا يسأل ، وهذا أول الآيتين المدنيتين .

قال تعالى "أَلَمْ تَرَ" يا سيد الرسل "إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً" جحودا بدلا من

الاعتراف

بها والقيام بشكرها "وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ" الذين تابعوهم على ذلك وسببوا لهم ولأنفسهم "دارَ الْبَوارِ" 28 الهلاك والدمار ، روى البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ) إلخ قال هم كفّار قريش .

وفي رواية كفار مكة أنعم اللّه عليهم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم وبالقرآن المنزل عليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور فاختاروا الكفر على الإيمان ، ولهذا أحلّوا قومهم دار البوار "جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ" 29 هي لهم على اختيارهم ذلك .

(96/415)

---

أخرج البخاري في ناسخه عن الحبر أن هذه السورة مكيّة إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما (ألم تر) إلخ نزلتا في قتلى بدر من المشركين ، والآية عامة لفظا ومعنى ، وما خصه بعض المفسرين بكفار قريش بأن اللّه تعالى أسكنهم حرمه ووسع عليهم بإيلاف الرحلتين وجعلهم قوام بيته فأبدلوا هذه النعمة كفرا به وجحودا بربوبيته ، أو أنه من عليهم بالقرآن العظيم فكفروا به وهو لا نعمة تضاهيه ولا خير يوازيه ، أو أنهم من عليهم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم الذي هو أكبر نعمة وأجل منة وأعظم منحة فلم يؤمنوا به وبدلوه بالكفر لا يخصصها ،

وكذلك لا يقيدها الحديث الذي أخرجه الحاكم وصححه وابن جرير والطبراني وغيرهم من طرق ، عن علي كرم اللّه وجهه ، أنه قال في هؤلاء المبدلين هما الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة بقطع اللّه دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين. لأن هذا القول صدر منه بعد نزولها في زمن خلافته كما يدل عليه لفظه ، وكذلك ما أخرجه البخاري في تاريخه وابن المنذر وغيرهما عن عمر رضي اللّه عنه في هذا المعنى ، ويدل على عمومها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال هم جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، لأن هذه الحادثة وقعت زمن عمر فلا علاقة لها بسبب نزولها ، بل تشمل كل من بدّل النعمة كفرا ، وهذا هو الأولى والأوفق ، قال تعالى "وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً" أمثالا وأشباها يعبدونها من دونه "لِيُضِلُّوا" أنفسهم وغيرهم "عَنْ سَبِيلِهِ" الحق الذي لا مثيل له ولا شبيه "قُلْ" لأمثال هؤلاء يا سيد الرسل "تَمَتَّعُوا" في هذه الدنيا بشهواتكم الخبيثة أياما قليلة "فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ" 30 في الآخرة وبئس المصير النار ،

ويا أكرم الرسل

*(97/415)*

"قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ" المفروضة عليهم "وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ" ما تيسر منه وتسمح به نفوسهم مما خولناهم من النعم في وجوه البر والخير "سِرًّا وَعَلَانِيَةً" وليبادروا فيه "مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ" عليهم وقد نكّره لهول ما يقع فيه يوم "لَا بَيْعٌ فِيهِ" ليبتاع المقصر ويتلافى تقصيره ولا فداء فيه ليفتدي نفسه ، يوم لا دية فيه ، ولا خلاص من العذاب ، وعدم إمكان شراء النفس مما حق عليها بخلاف الدنيا الممكن فيها ذلك "وَلَا خِلَالٌ" 31 جمع خلة إذ لا ينفع الصاحب صاحبه ، ولا قريب قريبه ، يوم تنقطع فيه المودة والقرابة :

مطلب في الخلة ونفعها وضرها وعدم إحصاء نعم اللّه على عباده ، وظلم الإنسان نفسه :

هذا وقد نفى اللّه تعالى في هذه الآية وآية البقرة عدد 256 في ج 3 نفع الخلة ، ويراد بها الحاصلة بميل الطبيعة ورعونة النفس ، وأثبتها في الآية 66 من الزخرف المارة ، لأن المراد بها الخلة الحاصلة بمحبة اللّه وطاعته ، لأنه أثبتها للمتقين وجعل الأولى محض عداء بين المتخالدين لغير اللّه وعلى سخطه ، إذ تكون بلاء خالصا عليهم يوم القيامة ، راجع تفسيرها ففيه بحث نفيس جامع مانع نعلم منه أن كل صحبة لغير اللّه تكون محنة يوم القيامة ، قال هرم بن جبان : ما أقبل عبد بقلبه إلى اللّه عز وجل إلا أقبل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم .

وقال كعب : مكتوب في التوراة لا صحبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤهما من اللّه عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض ، وتصديق ذلك في القرآن قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا) الآية 99 من سورة مريم في ج 1 فراجعها أيضا ففيها ما تقرّ به الأعين "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ" أيها الناس ولدوابكم "وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ" فتحملكم وأثقالكم إلى مقاصدكم بأقل زمن وأقل كلفة من البر "وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ" 32 تجرونها حيث شئتم للشفة والسقي والنّضارة وغيرها "وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ" مستمرين على عادتهما من الطلوع والغياب بصورة مطّردة وحالة دائمة لمنافعكم أيضا ، إذ أودع اللّه فيهما ما أودع من التأثيرات من نضج الثمار وطعمها ولونها وإخراج النبات وأشياء أخرى مما علمه البشر وما لم يعلمه بعد "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" 33 لتنتفعوا بكل منهما ، راجع الآية 12 من الإسراء في ج 1 تقف على فوائدها التي اطلع عليها البشر ، ولهما فوائد أخرى تعلم فيما بعد ، لأن الدنيا لم تكمل بعد ، لأنها .

لا تخرب إلا بعد كمالها ، راجع الآية 44 من سورة يونس المارة "وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ"

وما لم تسألوه لأنكم لا تعرفون كل النعم التي أنعمها عليكم إلا بعد حدوثها ، ومن أين لنا أن

نعرف الكثرى والموز والبرتقال والخوخ وغيرها قبل أن نراها ، وحتى الآن يوجد ثمار لا

نعرفها "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها" لأنها كثيرة جدا فلا تطيقوا عدها إجمالا فضلا

عن التفصيل "إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" 34 أنعم اللّه ظلام لنفسه ولغيره ، وبعد أن ذكر اللّه

تعالى أحوال الكافرين بنعمه وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكرا لها لما فيها من

تفضيلهم وتكريمهم على الخلق كافة ، وبين لهم أن الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن

الجسام لمن ثابر عليها ، حثا للمؤمنين على المداومة عليها ، وتقريعا للكافرين والعصاة

المخلّين بهما ، ختم الآية بقوله (ظلوم كفار) يريد أن جنس الإنسان مجبول على هاتين

الخصلتين ، على أن الآية 18 من سورة النحل المارة ختمت بقوله (إن اللّه لغفور رحيم)

ليتعظ هذا الظلوم الكفار بهذه النعم ويرتدع عن غيه ويجنح إلى مغفرة ربه ويتوب من كفره .

فانظروا رعاكم اللّه أيجوز عصيان هذا الإله الخالق لهذه الأشياء ومذللها لكم وجاعل

منافعها العظيمة لتأمين راحتكم والتوسع عليكم ، فاحمدوا هذا الرب الذي يمهل من عصاه

وكفر نعمه ليتوب إليه ويرجع عن غيه رحمة به ، ويثيب من أطاعه كرامة له وفضلا ليزيد في

طاعته ، فبعد هذا كله أيجوز عصيانه ؟ كلا ثم كلا .

وهذه الآية عامة أيضا لأن المراد بالإنسان جنسه لا خصوص أبي جهل وأضرابه كما ذكر

بعض المفسرين ، على أنه وأمثاله داخلون في معناها دخولا أوليا "وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ" أي اذكر يا محمد لقومك قول جدك الكريم "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا" صيّره وما حوله من الخوف إلى الأمن ، وآية البقرة 147 في ج 3 (اللهم اجعل هذا بلدا آمنا)

(100/415)

---

أي اجعل مكة شرفها اللّه من جملة البلاد الآمنة التي يأمن أهلها فيها على أنفسهم وأموالهم "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ" 35 أدخل نفسه عليه السلام مع أنه معصوم من عبادتها لزيادة التثبت وإظهار عجزه لربه وإعلاما بأنه لا يقدر أحد علي حفظ نفسه إلا يحفظ اللّه تعالى ، وفيه تعليم للغير بالتبرّي من الاعتماد على النفس ، وقد أجاب اللّه دعاءه لبنيه من صلبه إذ ثبت أن أحدا منهم لم يعبد صنما ما ، وكذلك أولادهم الموجودون في زمانهم .

واعلم أن عجز هذه الآية يفيد أن من

(101/415)

---

لم يتبعه على دينه فليس منه ، وهو كذلك ، ولكن ينفي ما يرد عليه من أن أهل مكة من نسل إسماعيل عليه السلام ابنه قد عبدوا الأوثان وهذا مردود ، لأنهم ليسوا في زمن إسماعيل ولا أولاد إسماعيل أيضا ، فلا محل لهذا الإيراد ، ولا يرد أيضا ما جاء في الحديث الصحيح (يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة) لأن المراد بالأمن الذي طلبه إبراهيم أمن أهلها وقد كان ، قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) الآية 68 من سورة العنكبوت الآتية أي وهم آمنون ، على أنه لو أريد بالأمن عدم خرابها لا يتجه أيضا ، لأن اللّه تعالى قد حفظها من كل من أراد خرابها ، أبرهة فمن قبله وحتى الآن محفوظة بحفظ اللّه ، وستبقى كذلك بإذن اللّه إلى الوقت المقدر لخرابها ، إذ لا يبقى لها أهل ولا من يقول اللّه ، وهو من علامات الساعة ، فلا تنافي بين الحديث والآية على هذا المعنى أيضا ، والأول أولى وأوجه "رَبِّ إِنَّهُنَّ" الأصنام "أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ" وهو يعلم أن المضل في الحقيقة هو اللّه كما ذكرناه في الآية 112 من الأنعام المارة ، لأن هذه الأصنام وإبليس وشياطين الإنس والجن لا تقدر أن تضل من هداه اللّه ، قال تعالى (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً) الآية 17 من سورة الكهف ، ولا سيما الأصنام لأنها جماد لا تعقل حتى تضل غيرها ، إلا أنه لما حصل الإضلال بعبادتها أضيف إليها كما أضيف الغرور والفتنة إلى الدنيا ، والنزغ والإغواء والتزيين إلى الشيطان ، راجع الآية 39 من سورة الحجر المارة وما ترشدك إليه تقف على ما تريده من هذا البحث

مفصلا ، ثم خصّص عليه السلام دعاءه العام في صدر هذه الآية بقوله "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي"

(102/415)

---

على ديني وعقيدتي "وَمَنْ عَصَانِي" فيها "فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" 36 به تقدر على هدايته إذا شئت ، وليس في هذه الآية جواز الدعاء للكافرين بالمغفرة والرحمة ، لأنها جارية مجرى الخبر ، أي أن الكافر إذا تاب وأناب فإنك غفور لأمثاله ، رحيم بهم ، أو أنها على حد استغفاره لأبيه قبل أن يعلمه اللّه عدم غفران الشرك ، لعلمه أنه قادر على أن ينقله من الكفر إلى الإيمان ، وعلى هذا قول عيسى بن مريم عليه السلام في الآية 118 من المائدة في ج 3 (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) إلا أن عيسى ختم كلامه بما لا يدل على المغفرة والرحمة ، لأن لفظ العزيز يدل على العظمة والغلبة ، ولفظ الحكيم يدل على أن ما يفعله اللّه موافق للواقع ، لأن الحكمة تعذيب العاصي وتكريم الطائع ، فبين ختام الآيتين بون شاسع في المعنى ، وإن استغفار إبراهيم لأبيه وقع منه بعد أن وعده بالإيمان به ، راجع الآية 114 من سورة التوبة في ج 3 ، لهذا فإن من استدل بهذه الآية على جواز مغفرة الشرك فقد مال ، إذ لا دليل له لمخالفته صراحة قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ

يُشْرَكَ بِهِ) الآية 48 من النساء في ج 3 ، وهي مكررة فيها راجع الآية 8 من الشعراء في ج 1 فيما يتعلق في هذا البحث ، ومنها تعلم أن عدم غفران الشرك قديم لا خاص بأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم "رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي" يريد إسماعيل عليه السلام "بِوادٍ" بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل جياد ويسمى وادي مكة "غَيْرِ ذِي زَرْعٍ" لأنه رمال لا تنبت "عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" التعرض له ولما فيه والتهاون به "رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ" أي لم أسكنهم فيه إلا ليعبدوك ويوحدوك لأن القصد إظهار ركون الإسكان مع فقدان لوازمه لمحض التقرب والالتجاء إلى جواره ، لأنه بلقع خال من كل ما تقتضيه الحياة ، ولهذا قال جل قوله "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ



---

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ" تميل حنانا وشوقا إليه ورغبة فيه "وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ" الموجودة في بلادك الأخرى بأن سخّر لهم الناس بجلبها إليهم من بلادهم ، وقد أجاب اللّه دعاءه ، فترى في مكة جميع أصناف اللباس والمأكول والمشروب بكثرة كما قال تعالى (يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ) الآية 57 من سورة القصص في ج 1 ، "لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" 37 نعمك ويقولون إن الإتيان بها من جملة آياتك ونعمك عليهم ، قال سعيد بن جبير : لو قال اللّه أفئدة الناس

لحجت النصارى واليهود والمجوس ، ولكنه قال من الناس يريد المسلمين فقط ، لأنه سبق في علمه حرماتهم من زيارته لقوله جل قوله (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ) الآية

25 من التوبة في ج 3 ، "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ" في كل أمورنا وأحوالنا وأفعالنا ونيّاتنا ، لا تفاوت عندك بين السر والعلانية ، قال تعالى "وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ" 38 تصديقا لقولهم ذلك ، وقد جمع الضمير لأن الدعاء منه ومن ابنه إسماعيل بدليل ما جاء في الآية 138 من البقرة في ج 3 ، وهو قوله تعالى حكاية عنهم كما هنا (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وفي تكرير هذا النداء دلالة على أن كثرة التضرع إلى اللّه تعالى واللجوء إليه وحصر القصد فيه مطلوب.



---

ثم قال إبراهيم وحده "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ" 39 إشارة إلى قوله قبلا (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) الآية 100 من سورة الصافات المارة ، فأجاب اللّه دعاءه فوهب له إسماعيل من هاجر وهو ابن تسع

وتسعين سنة ، وإسحق من سارة وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة ، قال تعالى على لسان خليله أيضا "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي" اجعل من يقيمها ، وذلك أنه علم بإعلام اللّه إياه أن أناسا يكونون من ذريته لا يقيمونها "رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ" 40 بإثبات الياء ودونها ، وقد أجاب اللّه دعاءه إذ جعل النسوة في ذريته وهم أهل الصلاة

"رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ" إذا تابا وأنابا وأسلما لك ، وهذا قبل أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم ، ولأنهما وعداه أن يؤمنا به وبربه .

أما استغفاره لنفسه مع علمه أنه معصوم من الذنب فهو بقصد الالتجاء إلى ربه والاتكال عليه ، ولما يظن أن ما قاله في جملة (بل فعله كبيرهم) في الآية 63 من الأنبياء الآتية ، والآية 89 من سورة الصافات المارة وهي (إني سقيم) وقوله للجبار عن زوجته هذه أختي يريد بالخلقة والدين - تستوجب الاستغفار ، لأنه من الأبرار ، وإن حسنات

(105/415)

---

الأبرار سيئات المقرّبين "وَلِلْمُؤْمِنِينَ" جميعهم اغفر يا رب ، وهذا تعميم بعد تخصيص لأنه داخل فيهم دخولا أوليا ، وفي هذه الآية بشارة عظيمة لجميع المؤمنين لأن اللّه تعالى أكرم من أن يردّ دعاء خليله ، وستظهر ثمرة هذا الغفران "يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ" 41 أسند القيام إليه

مجازا على حدّ قوله (واسأل القرية) أي أهل الحساب ، لأن القيام منهم وهذا مما لا يخالف الظاهر ، لأن من المعلوم أن القرية لا تسأل والحساب لا يقوم ، لأنه معنى ، والقيام للأجسام لا للمعاني ، قال تعالى "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ" حاشا ، بل هو مطلع عليهم ومحص أعمالهم ، ولكنه تعالى "إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ" للتقاصّ منهم "لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ" 42 لجهة العلو لما يرون من الهول الذي يدهشهم ويحيرهم ، وشخوصها بقاؤها مفتوحة لا تطرف حال كونهم "مُهْطِعِينَ" مسرعين بمشيهم إلى جهة الداعي مهرولين وراءه ، لا يعرفون ما هو مصيرهم كالنعم حين يسوقها الجزار إلى المذبح ، بخلاف حال الدنيا فإن من يشخص منهم بصره يقف مبهوتا لا يقدر على الحركة ، وأهل الآخرة على العكس ، فإنهم يمشون مسرعين ، وهذا من جملة عجائب أحوال أهل ذلك اليوم "مُقْنِعِي" رافعي "رُؤُسِهِمْ" إلى السماء ، وهذا أيضا على خلاف عادة أهل الدنيا ، لأن من يتوقع منهم شيئًا يخافه يطرق رأسه إلى الأرض "لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ" للنظر على أنفسهم بل يبقى شاخصا من شدة الفزع ، وسبب رفعها إلى السماء توقع نزول شيء منها عليهم ، إذ ينزل العرش الإلهي محمولا على الملائكة ويوضع في الموقف لفصل القضاء بين الناس ، وأما الذين يعتريهم الخوف فيكونون هم "وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ" 43 أي قلوبهم خالية فارغة لا تفكر بشيء ، ولا تعقل شيئًا ، أجارنا اللّه من هول ذلك اليوم .

والفؤاد هو الجؤجؤ ، قال زهير :

كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمات جؤجؤه هواء

(106/415)

---

يريد قلبه .

وقول حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوّف نخب هواء

مطلب في الغفلة والقلب والشكوى وفتح لام كي وكسرها والقراءة الواردة فيها وعدم صحة الحكايتين في هذه الآية :

واعلم أن الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ، وسهو يعتريه من قلة التحفظ والتيقظ وهو في حق اللّه تعالى محال ، والمقصود منها عدم معاملة الظالم معاملة الغافل ، بل ينتقم منه للمظلوم ويعامله معاملة الرقيب الحفيظ الحسيب العالم بجزئيات ما وقع منه فضلا عن كلياتها ، ففي الآية تهديد للظالم وتعزية للمظلوم .

والمراد من توجيه الخطاب لحضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم مع أنه يعلم أن ربه ليس بغافل ولا يتصور منه الغفلة فيما يتعلق بربه التثبت على ما كان عليه ، كقوله تعالى (يا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا) الآية 135 من سورة النساء في ج 3 ، أي اثبتوا على الإيمان الذي أنتم عليه ، وقد يراد به خطاب أمته الغير عارفين بصفات اللّه ، ويكون على حد قوله (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الآية 87 من سورة النمل المارة في ج 1 (وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ) الآية 89 منها أيضا ، ولا يخفى أن حضرة الرسول عالم بذلك ، وظهور الحال على ما قيل يغني عن السؤال ، وقيل في هذا المعنى مما هو منسوب للشيخ عمر السهروردي دفين بغداد قدّس سره ونور ضريحه :

ويمنعني الشكوى إلى الناس أنني عليل ومن أشكو إليه عليل

ويمنعني الشكوى إلى اللّه أنه عليم بما أشكوه قبل أقول

(107/415)

---

و سنأتي على بحث إسكان إسماعيل في مكة في الآية المذكورة من سورة البقرة إن شاء اللّه "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ" ويحيط بهم "فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم إذ ذاك "رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ" أي ردنا إلى الدنيا وأمهلنا فيها مدة قليلة "نُجِبْ دَعْوَتَكَ" التي أمرت بها "وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ" الذين أرسلتهم فأجابهم ربهم "أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ" حينما كنتم في الدنيا وقلتم فيما بينكم فيها "ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ" 44 من مصيركم الذي دفنتم فيه إذا متم

أي تبقون ميتين وأنكرتم النشور والحساب "وَسَكَنْتُمْ" فيها "فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" من الكفرة أمثالكم "وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ" من الإهلاك والتدمير بسبب إنكارهم البعث "وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ" 45 بأفعالهم وبما فعل بهم لتتعظوا وترجعوا عن غيكم ، فأبيتم ولم ينجع بكم إرسال الرسل ولا نصحهم وإرشادهم "وَقَدْ مَكَرُوا" الذين سكنوا مساكن الظالمين "مَكْرَهُمْ" مثل الظالمين المذكورين "وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ" ثابت بعلمه الأزلي قبل إحداثه منهم وقبل خلقهم "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" 46 إن هنا وصلية أي وإن كان مكرهم في غاية الشدة ونهاية المتابة ، فإنه مبطله في الدنيا ومجازيهم عليه في الآخرة .

وتكون إن هنا بمعنى ما ، أي ما كان مكرهم لإزالة الجبال ، لأن اللام فيه مفتوحة وهي لام كي ، ولذلك صارت اللام الأخيرة مفتوحة لنصبها بها ، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، واللام في لتزول لام التأكيد ، أي مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال في الثبوت .

وقرأ بعضهم بفتح اللام الأولى وضم الثانية على الفاعلية ، وتكون فيها إن مخففة من الثقيلة ايضا ، واللام للتوكيد .

وقرىء بفتح اللامين على لغة من فتح لام كي وهي شاذة .

هذا ، وما حكي عن علي كرم الله وجهه بأن هذه الآية نزلت في النمروذ لأنه اتخذ أربعة أنسر وشدّ عليهن تابوتا وطرن به إلى السماء ليرى إله إبراهيم عليه السلام ، وجعل لحما في خشبات بأعلى التابوت لتراها النسور فتطير إليه لتأكله فتحمل التابوت بسبب ذلك وترتفع به نحو العلو ، وبهذه الصورة تمكن من الطيران مع صاحب له ، وصار كلما ارتفع سأل صاحبه فيخبره أن السماء كهيأتها والأرض كذلك ، ولا زال حتى خبره أن الأرض صارت عبارة عن ظلمة ، وصارت الريح بينه وبين الارتفاع ، والسماء كهيئتها لم يحس بقرب ما منها ، قالوا ونودي أيها الطاغي إلى أين تريد ، ثم صار يرمي بقوسه إلى السماء حتى افتتن ورجعت النبل ملطخة بالدم ، فلما رأى ذلك قال كفيت رب السماء ، فحول الخشبات التي عليها اللحم ونكسها لجهة الأرض ، فهبطت النسور لتناوله ، ولا زالت تهبط به حتى وصل الأرض بسلامة .

قالوا فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور فظنت حدوث أمر في السماء ، ففزعت وخافت وكادت تزول عن أماكنها من شدة الهلع فهو حكاية مستبعدة ، لا يكاد يصدقها العقل ولا يسلم لها

الضمير ، ولو قيل إنها نقلت عن ابن جبير والسدّي ومجاهد وأبي عبيدة وغيرهم ، كما لا

يرتاح الوجدان بتسليم نقلها عن علي كرم اللّه وجهه ، ولا مناسبة بينها وبين هذه الآية ، وما هو بالخبر الذي يعتمد عليه ، وقال بعضهم إن الفاعل لهذا هو بختنصر .

(109/415)

---

وكذلك ما قيل إن امرأة اتهمها زوجها وكلفها أن تحلف على جبل مشهور لديهم أن من حلف عليه كاذبا مات ، وأنها بعد أن اتفقت مع صاحبها بأن ينتظرها بمكان على الطريق وأفقت زوجها على الحلف وذهبت معه ، حتى إذا وصلت إلى المحل الذي فيه صاحبها رمت نفسها وأظهرت سوءتها له ، فأركها زوجها وذلك الرجل حتى إذا وصلت إلى الجبل حلفت بأنه لم يمسها أحد إلا زوجها وذلك الرجل ، مكرا منها ، ونزلت من الجبل سالمة ، لأن كلمة مسّها أرادت بها الفعل وأظهرت لزوجها أنه اللمس بسبب إركابه لها واطلاعه على سوءتها حين رمت نفسها ، قالوا ومنذ ذلك اليوم اندك الجبل بسبب مكرها الذي مكرته على زوجها الذي لا يعلم ما دبرت له ، قالوا وإن المرأة من عدنان ، فهذه وأمثالها قصص لا عبرة بها ، ولا وثوق بصحتها ، لهذا فإن الأخذ بها لا يجوز ، والأجدر حمل الآية على ما ذكرناه في تفسيرها بصورة عامة يندمج فيها كل كافر ماكر مجترئ على مناوأة اللّه تعالى ومبارزته ، فتكون

الآية من قبيل قوله تعالى (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) الآية 90 من سورة مريم في ج 1 .

قال تعالى "فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ" بإعلاء كلمتهم ونصرتهم وإهلاك عدوهم "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ" غالب مكر الماكرين "ذُو انْتِقَامٍ" 47 عظيم من أعدائه المكذبين لأوليائه ، واذكر يا سيد الرسل لقومك وغيرهم "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ" المعهودة ذات الجبال والوديان والبحار والأشجار .



---

والعيون والنبات حتى تظنها أيها الرائي لها غير أرضك التي تعرفها ونشأت عليها في الدنيا لخلوها من جميع ذلك ، كما قال تعالى (قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) الآية 107 من سورة طه في ج 1 "وَالسَّمَاوَاتُ" ذات الكواكب والشموس والأقمار المعهودة التي عشت تحت ظلها تبدل أيضا بما يبدعه اللّه تعالى حتى لا تشك بأنها غير السموات الأولى لخلوها مما كان فيها من الثريا والميزان والمجرة وغيرها ، روي عن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة (هو الطلمه أي الرغيف الثخين العظيم الذي يعملونه فيخبزونه على الملّة وكانت العرب قديما تعمله ،

ويوجد الآن من عشائر الجبور في الجزيرة آل محمد آمين يعملونه ، وان الرغيف منه يكفي الجماعة ويضعون عليه السمن والسكر ، ومنه ما يكفي الأربعين وأكثر بارك اللّه في الكرام) يوم القيامة يتكفأها الجبار بيده ، (أي يميلها من يد إلى يد كالرقاقة) كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة.

- أخرجاه في الصحيحين - .

وروي عن عائشة قالت : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ) إلخ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول اللّه ؟

فقال على الصراط - أخرجه مسلم - .

ولا تنافي بين هذه الآية وآية (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها ) من سورة الزلزلة في ج 1 لإمكان الجمع بينهما ، وهو أن الأرض تتبدل صفتها مع بقاء ذاتها ، فيضع اللّه تعالى بها قوة النطق ، فتحدث بإذنه تعالى بكل ما وقع عليها ، ثم تبدل ذاتها بغيرها ، وما ذلك على اللّه بعزيز ، وأنشد بالمعنى :

اما الديار فإنها كديارهم وأرى نساء الحي غير نسائها

ومن هذا القبيل قوله :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعلم

"وَبَرَزُوا" الموتى من قبورهم متوجهين "لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ" 48 ليتمثلوا أمامه بالموقف للحساب "وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ" بعضهم ببعض "فِي الْأَصْفَادِ" 49 القيود والسلاسل والأغلال "سَرَابِيلُهُمْ" لباسهم "مِنْ قَطِرَانٍ" هو ما تدهن به الإبل الجربة مستخرج من شجر مخصوص بإشعال النار تحت وسطه ، فيسيل من طرفيه ، وأكثر ما يكون شمالي حلب بمنطقة الاكبس وغيرها .

وهذه الكلمة لم تكرر في القرآن إلا في سورة ص الآية 38 في ج 1 ، وكلمة سرابيل كذلك لم تكرر إلا في سورة النحل المارة في الآية 80 ، والقطران يشبه الزفت ورائحته كالنفط ، وقد يستخرج من شجر الأبهل والعرعر والتوت أيضا ، وقد حذرهم اللّه تعالى مما يعرفون مبالغة في الاشتعال ، وإلا فعنده أشياء لمبالغة الاحتراق أعظم وأعظم من هذه لا نعرفها أجارنا اللّه منها .

وإذا نظرتم أيها الناس إلى هذه المتفجرات التي أحدثت في الحروب واستعملت لإهلاك الناس فدمرت الحرث النسل وهي من عمل البشر فما بالكم بما هو من خلق اللّه الذي أتقن كل شيء ؟

علموا أن هؤلاء الكفرة بعد أن يلبسوا ثياب القطران يزجّون في جهنم "وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ" 50 خص الوجه لأنه أعزّ موضع في ظاهر البدن كالقلب في عنه ، ولذلك قال تعالى

في سورة الهمزة في ج 1 (تطلع على الأفئدة) وإلا تعلو الرأس برماح كثيرة ، وكل ما ذكره اللّٰه تعالى إنما هو على قدر ما يعقله سر ، وإلّا أفظع وأعظم ، وإنما ذكرها كالمثل بالنسبة لما تعرفه كما مثّل بالمشكاة ، وأين المشكاة من نوره المقدس ، وكذلك ما ذكره لنا من وصف ؟ ؟ ونعيمها فهو لا يقاس بما عندنا

*(112/415)*

---

"لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ" الدنيا لا يظلمها وينقصها "إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" 51 يحاسب الخلق كلهم ، واحد محاسبة رجل واحد بالنسبة لنا ، وإلا فهو أقل من ذلك "هذا" ؟ ؟ لما ذكر من قوله فلا تحسبنّ إلى هنا "بَلاغٌ" إخطار وإنذار من اللّٰه ؟ ؟ إلى خلقه ليتعظوا به ويتدبروا عاقبة أمرهم فيقلعوا عما هم عليه مما لا يرضاه اللّٰه يزيدوا مما يرضاه ، وهو كاف للتذكير وللتحذير والتيقظ "لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ" بعدهم ومن معهم فيخوفوهم ويهددوهم "وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ" الإله المعبود ، القادر على ذلك كله المحيي الميت هو "إِلهٌ واحِدٌ" لا شريك له ولا شبيه مثيل ولا ند ولا ضد ولا معاون ولا وزير ، المنفرد بالأمر بلا ممانع ولا الأرض "وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ" 52 الصحيحة والعقول السليمة في هذا ؟ ؟ الإلهي الذي هو عبر وعظات وذكرى ما وراءها وراء ليعظوا بها ويتعظوا ، يرشدوا

ويرشدوا .

واعلم أن هذه الجملة لم تختم بها غير هذه السورة ، بما يدل أنها أكبر عظة لمن يتذكر .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه أن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 271 . 293 ﴾

(113/415)

---

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة إبراهيم عليه السلام

مكية إلا قوله ألم ترى الذين بدّلوا الآيتين فمدني

الر تقدم الكلام عليه العزيز الحميد تام لمن قرأ الله بالرفع وليس بوقف لمن قرأه بالجر لأنه بدل مما قبله وما في الأرض حسن وقال أبو عمرو تام شديد تام إن جعل ما بعده مبتدأ وجائز إن جعل ذلك نعتا للكافرين وإنما جاز على هذا لأنه رأس آية وعليه يوقف عند قوله ويبغونها عوجا بخلافه على الأول لان قوله أولئك في ضلال خبر المبتدأ فلا يفصل بينهما في ضلال

بعيد تام ليبين لهم كاف وكذا من يشاء الحكيم تام بأيام الله كاف شكور حسن نساءكم كاف وكذا عظيم لأزيدنكم مفهوم لشديد حسن حميد تام وكذا وعاد وثمود إن جعل ما بعده مبتدأ فان جعل معطوفا فليس ذلك وقفا بل الوقف على من بعدهم وهو وقف كاف إلا الله كاف إليه مريب حسن مثلنا مفهوم من عباده كاف وكذا بإذن الله المؤمنون حسن وقال أبو عمرو كاف على ما آذيتمونا كاف المتوكلون تام في ملتنا صالح من بعدهم كاف وكذا وخاف وعيد وقال أبو عمرو تام واستفتحوا حسن إن لم يبتدأ به وإلا فليس بحسن لما فيه من الابتداء بكلمة والوقف عليها جبار عنيد كاف وكذا غليظ تام مثل الذين كفروا بربهم حسن أن جعل خبره محذوفا أي فيما نقص عليك مثل الذين كفروا بربهم ومثل الذين كفروا بربهم شر مثل وليس بوقف إن جعل خبره أعمالهم الخ على شيء كاف البعيد تام بالحق حسن وقال أبو عمرو كاف جديد حسن وكذا بعزيز من شيء صالح من محيص تام فأخلفتكم مفهوم وكذا ولوموا أنفسكم من قبل حسن وقال أبو عمرو تام أليم تام بإذن ربهم كاف تحيتهم فيها سلام تام يتذكرون ومن قرار وفي الآخرة حسن وقال أبو عمرو كاف الظالمين صالح ما يشاء تام جهنم يصلونها كاف إن جهل بدلا من دار البوار فأن جعل مستأنفا فالوقف على دار البوار كاف أيضا وبئس القرار تام عن سبيله كاف إلى النار تام وكذا ولا خلال رزقا لكم حسن بأمره كاف وكذا الأنهار ودائبين والنهار حسن سألتموه تام

لا تحصوها كاف كفار تام أن نعبد الأصنام حسن من الناس أحسن منه رحيم حسن وكذا المحرم ويشكرون

(114/415)

---

وما نعلن وكذا ولا في السماء لسميع الدعاء حسن وكذا ومن ذريتي ودعائي الحساب تام وقال أبو عمرو كاف الظالمون حسن إليهم طرفهم كاف وليس بشيء وأفئدتهم هواء تام وكذا ونتبع الرسل من زوال حسن وكذا الأمثال الجبال كاف وكذا رسله ذو انتقام كاف إن جعل ما بعده بدلا من يوم يقوم الحساب وليس بوقف إن جعل ذلك معمولا له والسموات حسن القهار كاف في الأصفاد صالح وجوهم النار حسن كسبت صالح سريع الحساب حسن وقال أبو عمرو تام آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 413. 422 ﴾

(115/415)

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة إبراهيم عليه السلام مكية إلاَّ قوله تعالى ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً الآيتين فمدني وهي إحدى وخمسون آية في البصري واثنان في الكوفي وأربع في المدنيين والمكي وخمس في الشامي اختلافهم في سبع آيات لتخرج الناس من الظلمات إلى النور أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور لم يعدهما الكوفي والبصري وعاد وثمود لم يعدها الكوفي والشامي بخلق جديد عدها المدني الأول والكوفي والشامي وفرعها في السماء لم يعدها المدني الأول وسخر لكم الليل والنهار لم يعدها البصري عما يعمل الظالمون عدها الشامي وكلمها ثمانمائة وإحدى وثلاثون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وأربعمائة وثلاثون حرفاً وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع أربعة مواضع وسخر لكم الشمس والقمر دائبين إلى أجل قريب غير الأرض والسموات سرابيلهم من قطران

(الر) تقدم الكلام عليه ولا وقف من أولها إلى الحميد وهو تام لمن قرأ الله بالرفع على الابتداء والخبر الذي له ما في السموات وليس بوقف لمن قرأ بالجر بدلاً مما قبله أو عطف بيان قرأ نافع وابن عامر برفع الجلالة والباقون بالجرّ

وما في الأرض (تام)

شديد (كاف) لمن رفع ما بعده مبتدأ خبره أولئك أو قطع على الذم أو نصب بإضمار فعل تقديره أذم وليس بوقف إن جر صفة للكافرين أو بدلاً أو عطف بيان ومن حيث كونه رأس

آية يجوز ومن جعل الذين يصدون مجروراً لمحل وقف على عوجاً وابتدأ أولئك في ضلال

بعيد

وبعيد (تام)

(116/415)

---

ليبين لهم (كاف) لأنَّ قوله فيضل حكم مبتدأ آخر خارج عن تعليل الإرسال قاله

السجاوندي وقرأ العامة بلسان بزنة كتاب أي بلغة قومه وقريء بلسن قومه بكسر اللام

وسكون السين قيل هما بمعنى واحد وقيل اللسان يطلق على العضو المعروف وعلى اللغة

وأما اللسن فخاص باللغة ذكره ابن عطية قال الجلال كل ثلاثيّ ساكن الوسط يجوز تحريكه

قال شيخ شيوخنا الأجهوري بشروط ثلاثة صحة عينه وصحة لامه وعدم التضعيف

فإن اعتلت عينه نحو سود أو لامه نحو عمى أو كان مضعفاً نحو عن جمع أعن لم يجز ضم

عينه اهـ فمن ذكر اللسان قال في جمعه ألسنة كحمار أو حمرة ومن أنث قال في جمعه ألسن

كذواع وأذرع وقد لسن بالكسر فهو لسن وألسن وقوم لسن بضم اللام انظر شرحه على

ألفية العراقي والضمير في قومه يعود على رسول المذكور وقيل يعود على محمد صلى الله

عليه وسلم قاله الضحاك وغلط إذ يصير المعنى أنَّ التوراة وغيرها نزلت بلسان العرب ليبين

لهم محمد لتوراة وغيرها

ويهدي من يشاء (كاف) ولم يفصل بينهما لأنَّ الجمع بينهما أدل على الانتباه

الحكيم (تام)

بأيام الله (كاف) للابتداء بإن

شكوراً (أكفى) مما قبله إن نصب إذ باذكر مقدرة فيكون من عطف الجمل ويحتمل أن يكون

عطفاً على إذ أنجاكم من آل فرعون

سوء العذاب ليس بوقف لأنَّ ويذبحون معطوف عليه وأتى بالواو هنا ولم يأت بها في البقرة

لأن العطف بالواو يدل على المغايرة فإنَّ سوم سوء العذاب كان بالذبح وبغيره ولم يأت بها في

البقرة لأنَّه جعل الفعل تفسيراً لقوله يسومونكم

نساءكم (كاف) على استئناف ما بعده

عظيم (تام)

لأزيدنكم (جائز) عند نافع

لشديد (كاف)

جميعاً ليس بوقف لأنَّ الفاء مع إن جزاء إن تكفروا فلا يفصل بين الشرط وجزائه

حميد (كاف) وقيل تام للابتداء بالاستفهام

وثمود (كاف) إن جعل والذين مبتدأ خبره لا يعلمهم وإن جعل والذين في موضع خفض

عطفاً على قوم نوح كان الوقف على من بعدهم كافياً

لا يعلمهم إلاَّ الله (تام) عند نافع

(117/415)

---

في أفواههم (جائز) ومثله بما أرسلتم به

إليه مريب (كاف)

أفي الله شك ليس بوقف لأنَّ ما بعده نعت لما قبله

والأرض (جائز) فصلاً بين الاستخبار والأخبار على أنَّ ما بعده مستأنف وليس بوقف إن

جعل جملة في موضع الحال مما قبله

مسمى (حسن) ومثله مثلنا على استئناف ما بعده لأنَّ تريدون لا يصلح وصفاً لبشر

فالاستفهام مقدر أي أتريدون

آباؤنا (حسن)

بسلطان مبين (تام) وقيل حسن

إلاَّ بشر مثلكم ليس بوقف للاستدراك بعده ولجواز الوقف مدخل لقوم

من عباده (كاف) للابتداء بالنفي ومثله بإذن الله

المؤمنون (كاف)

سبلنا (كاف)

على ما آذيتمونا (حسن)

المتوكلون (تام)

في ملتنا (جائز)

الظالمين ليس بوقف

من بعدهم (تام) عند نافع وأبي حاتم

وعيد (كاف)

واستفتحوا (حسن) إن لم يبتدأ به وإلاَّ فلا يحسن الوقف لما فيه من الابتداء بكلمة والوقف عليها

جبار عنيد (كاف) وقيل لا يوقف عليه لأنَّ جملة من ورائه جهنم في محل جر صفة لجبار

جهنم (كاف) على استئناف ما بعده وكذا إن عطف على محذوف تقديره يدخلها

ويسقى وليس بوقف إن عطف ما بعده على ما قبله

صديد (حسن) على استئناف ما بعده وإلاَّ بأن جعلت جملة يتجرعه صفة لما أو حالاً من الضمير في يسقى فلا يوقف على صديد

وما هو بميت (كاف)

غليظ (تام)

مثل الذين كفروا بربهم (تام) على أنَّ خبر مثل محذوف أي فيما يتلى عليكم أو يقص قال سيبويه وقال ابن عطية مثل مبتدأ وأعمالهم مبتدأ ثان وكرماد خبر الثاني والجملة خبر الأول قال أبو حيان وهذا عندي أرجح الأقوال وكذا يوقف على بربهم إن جعلت وأعمالهم جملة مستأنفة على تقدير سؤال كأنه قيل كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد كما تقول زيد عرضه مصون وماله مبذول فنفس عرضه مصون هو نفس صفة زيد وليس بوقف إن جعل خبر مثل قوله أعمالهم أو جعل مثل مبتدأ أو أعمالهم بدل منه بدل كل من كل

(118/415)

---

في يوم عاصف (جائز) على استئناف ما بعده وعاصف على تقدير عاصف ريحه ثم حذف ريحه وجعلت الصفة لليوم مجازاً والمعنى أنَّ الكفار لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا إذا احتاجوا إليها في الآخرة لإشراكهم بالله وإنَّما هي كرماد ذهبت به ريح شديدة الهبوب فمزقته في أقطار الأرض لا يقدرون على جمع شيء منه فكذلك الكفار قاله الكواشي

على شيء (كاف)

البعيد (تام)

بالحق (حسن) للابتداء بالشرط ومثله جديد

وما ذلك على الله بعزيز (أحسن منهما ) لأنَّ به تمام الكلام

تبعاً (حسن) للابتداء بالاستفهام

ومن شيء ولهدیناكم وأم صبرنا كلها وقوف حسان

من محيص (تام) لما فرغ من محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس ولا وقف من قوله وقال الشيطان إلى قوله من قبل لأنَّ ذلك كله داخل في القول لأنها قصة واحدة وقيل يوقف على فأخلفتكم وفاستجبتم لي ولوموا أنفسكم وما أنتم بمصرخيّ للابتداء بإني ولا يقال الابتداء بإني كفرت رضاً بالكفر لأنا نقول دك إذا كان القاريء يعتقد معنى ذلك وليس هو شياً يعتقده الموحد إنَّما هو حال مقول الشيطان ومن كره الابتداء بقوله إني كفرت يقول نفي الإشراك واجب كالإيمان بالله تعالى وهو اعتقاد نفي شريك الباري وذلك هو حقيقة الإيمان قال الله تعالى فمن كفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى وما في قوله بما أشركتموني يحتمل أن تكون مصدرية ومعنى إني كفرت إني تبرأت اليوم من إشراككم إياي من قبل هذا اليوم في الدنيا ويحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف والتقدير إني كفرت من قبل أي حين أبيت السجود لآدم بالذي

أشركتمونيه وهو الله تعالى

من قبل (تام) عند أبي عمرو لأنَّه آخر كلام الشيطان وحكى الله ما سيقوله في ذلك اليوم لطفاً من الله بعباده ليتصوروا ذلك ويطلبوا من الله تعالى النجاة منه ومن كل فتنة وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد وطالما قلد بعض القراء بعضاً ولم يصيبوا حقيقته

(119/415)

---

لهم عذاب أليم (تام)

بإذن ربهم (حسن)

سلام (تام)

في السماء (حسن) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في موضع الصفة لشجرة والكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلاَّ الله وفي الحديث عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ لله عموداً من نور أسفله تحت الأرض السابعة ورأسه تحت العرش فإذا قال العبد أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله اهتز ذلك العمود فيقول الله اسكن فيقول كيف أسكن ولم تغفر لقائلها فقال صلى الله عليه وسلم

أكثروا من هز العمود والكلمة الخبيثة هي الشرك والشجرة الخبيثة هي الحنظلة

بإذن ربها (حسن) لأنه آخر وصف الشجرة

يتذكرون (تام)

من فوق الأرض (كاف) للابتداء بالنفي

من قرار (تام)

وفي الآخرة (حسن) ومثله الظالمين

ما يشاء (تام)

كفراً (حسن)

دار البوار (تام) عند نافع على أن جهنم منصوب بفعل مضمر ويكون من باب اشتغال الفعل عن المفعول لضميره وليس بوقف إن جعلت جهنم بدلاً من قوله دار البوار لأنَّه لا يفصل بين البدل والمبدل منه أو عطف بيان لها ويصلح أيضاً أن يكون يصلونها حالاً لقوله وأحلوا قومهم أي أحلوا قومهم صالين جهنم

يصلونها (كاف) عند أبي حاتم لأنه جعل جهنم بدلاً من دار البوار فإن جعل مستأنفاً كان الوقف على دار البوار كافياً

وبئس القرار (تام)

عن سبيله (كاف)

إلى النار (تام) ومثله ولا خلال

رزقاً لكم (حسن) والوقف على بأمره والأنهار ودائبين والنهار كلها وقوف حسان وإنما حسنت هذه الوقوف مع العطف لتفصيل النعم وتنبيهاً على الشكر عليها

(120/415)

---

ما سألتموه (تام) على قراءة كل بالإضافة إلى ما وهي قراءة العامة على أنَّ ما اسم ناقص أو نكرة موصوفة أرادوا آتاكم من كل ما سألتموه أي سألتموه وإن قرأت من كل بالتنوين جاز الوقف عليها لأنَّ معنى ما في هذا الوقف النفي كأنَّه قال وآتاكم من كل يعني ما تقدم ذكره مما لم تسألوه وذلك أننا لم نسأل الله شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه وهي قراءة سلام بن المنذر فمن أضاف جعل ما بمعنى الذي من وقف على كل جعل ما نافية

لا تحصوها (تام) عند نافع

كفار (تام)

آمناً (حسن)

الأصنام (تام)

من الناس (حسن)

فإنه مني (تام) عند نافع للابتداء بالشرط فصلاً بين النقيضين مع اتحاد الكلام وقال ابن نصير النحوي إذا كان خبر إن مختلفين لم استحسن الوقف على أحدهما حتى آتي بالآخر فقوله فمن تبعني فإنه مني لم أستحسن الوقف عليه حتى أقول ومن عصاني فإنك غفور رحيم

رحيم (كاف)

المحرم (حسن) وقيل ليس بوقف لأنَّ ليقيموا متعلق بأسكنت وربنا دعاء معترض

يشكرون (كاف) ومثله ونعلن وفي السماء واسحق كلها وقوف كافية

لسميع الدعاء (أكفى ) مما قبله للابتداء بالنداء ومن ذريتي كذلك للنداء بعده عند أحمد ابن جعفر أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة

ربنا وتقبل دعاء (كاف) ورأس آية قرأ أبو عمرو وحمزة وورش والبزري بإثبات الياء وصلاً وحذفها وقفاً والباقون يحذفونها وصلاً ووقفاً

الحساب (تام)

الظالمون (حسن) لمن قرأ نؤخرهم بالنون

الأبصار ليس بوقف لأنَّ مهطعين مقنعي حالان من المضاف المحذوف أي أصحاب الأبصار أي تشخص فيه أبصارهم وقيل مهطعين منصوب بفعل مقدر أي تبصر مهطعين والإهطاع الإسراع في المشي

مقنعي رؤوسهم (جائز) على استئناف النهي

طرفهم (كاف) وقال أبو حاتم تام وخولف لأنَّ قوله وأفئدتهم يصلح أن يكون من صفات أهل المحشر أي قلوبهم خالية عن الكفر ويحتمل أن يكون صفة الكفرة في الدنيا أي قلوبهم خالية من الخير

هواء (تام)

(121/415)

---

العذاب وقريب ليسا بوقف لأنَّ قوله نجب جواباً أخرنا

ونتبع الرسل (كاف)

من قبل (جائز) للابتداء بالنفي

من زوال (تام) لأنَّ ما بعده خطاب لغيرهم فإن جعل قوله وسكنتم معطوفاً على أقسمتم وجعل الخطابات لجهة واحدة فلا يتم الوقف على زوال

فعلنا بهم (جائز)

الأمثال (كاف)

مكرهم (جائز) ومثله وعند الله مكرهم

الجبال (كاف) ومثله وعده رسله وكذا ذو انتقام وقيل تام إن جعل العامل في الظرف

مضمراً فإن جعل العامل فيه ذو انتقام أي ينتقم يوم تبدل لم يتم الوقف للفصل بين العامل

والمعمول

والسموات (حسن)

القهار (كاف) على استئناف ما بعده

في الأصفاد (جائز) ومثله من قطران

النار ليس بوقف لاتصال الكلام بما قبلها وقال أبو حاتم اللام لام قسم وليست لام كي

ما كسبت (حسن)

الحساب (تام)

للناس (جائز) على أنَّ ما بعده معطوف على محذوف يدل عليه ما تقدم تقديره وأعلمنا به

لينذروا به أو فعلنا ذلك لينذروا به أو هذه عظة كافية ليوعظوا ولينذروا به دل على

المحذوف الواو والأكثرون على أن الوقف على آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

منار الهدى صـ 413. 421 ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة إبراهيم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ أبو السمال : "بِلِسْنِ قَوْمِهِ" 1 .

قال أبو الفتح : حُكي أن بعض أصحابنا قال : دخلت علي أبي السمال وهو ينتف شعر إسْبِهِ وهو يقرأ : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسْنِ قومه" ، وإِسْبُهُ يعني عانته ، فاللِّسْنُ واللسان ، كالريش والرياش : فِعْل وفِعَال بمعنى واحد . هذا إذا أردت باللسان اللغة والكلام . فإن أردت به العضو فلا يقال فيه : لِسْن ؛ إنما ذلك في القول لا العضو . وكأن الأصل فيهما للعضو ، ثم سَمَّوا القول لسانًا ؛ لأنه باللسان ، كما يُسَمى الشيء باسم الشيء لملابسته إياه ؛ كالراوية2 والظعينة3 ونحوها .

ومن ذلك قراءة الحسن : "فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" 4 .

قال أبو الفتح : هذا لعمري الأصل في لام الأمر : أن تكون مكسورة ، إلا أنهم أقروا إسكانها تخفيفًا . وإذا كانوا يقولون : مُرْه فلْيَقُمْ ، فيسكنونها مع قلة الحروف والحركات ، فإسكانها مع كثرة الحروف والحركات أمثل ، وتلك حالها في قوله : "فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" ، لا سيما وقبلها كسرة الهاء ، فاعرف ذلك ، فإن مصارفة الألفاظ باب معتمد في الاستثقال

والاستخفاف.

ومن ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن محيصن: "وَاسْتَفْتِحُوا"5 .

---

1 سورة إبراهيم: 4 .

2 الراوية: الدابة يستقى عليها، وتسمى بها المزادة فيها الماء .

3 الظعينة: الهودج، وتسمى بها المرأة ما دامت في الهودج.

4 سورة إبراهيم: 11 .

5 السورة السابقة: 15 .



---

قال أبو الفتح: هو معطوف على ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ 1 أي: قال لهم: اسْتَفْتِحُوا، ومعناه: استنصِروا الله عليهم، واستحكموه بينكم وبينهم، والقاضى اسمه الفتاح، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ 2 أي: تستنصروا فقد جاءكم النصر. وعليه سَمَّوا الظفر بالعدو فتحًا، ومنه الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستفتح بصعاليك المهاجرين3 ؛ أي: يستنصر بهم. وقال أحمد بن يحيى: أي يقدِّمهم ويبدأ أمره بهم، وكأنهم إنما سَمَّوا القاضي فتَّاحًا لأنه يفتح باب

الحق الذي هو واقف ومنسد ، فيُصار إليه ويُعمل عليه .

ومن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بُكَير : "فِي يَوْمِ عَاصِفٍ"4 بالإضافة .

قال أبو الفتح : هذا على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ؛ أي : في يوم ريح عاصف ، وحسن "87و" حذف الموصوف هنا شيئًا ؛ لأنه قد أُلف حذفه في قراءة الجماعة : ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ .

فإن قيل : فإذا كان "عاصف" قد جرى وصفًا على "يوم" فكيف جاز إضافة "يوم" إليه ، والموصوف لا يصاف إلى صفته ؛ إذ كانت هي هو في المعنى ؛ والشيء لا يضاف إلى نفسه ؟ ألا تراك لا تقول : هذا رُجُلُ عاقلٍ ، ولا غلامُ ظريفٍ ، وأنت تريد الصفة ؟ قيل : جاز ذلك من حيث كان "اليوم" غير العاصف في المعنى وإن كان إياه في اللفظ ؛ لأن العاصف في الحقيقة إنما هو الريح لا اليوم ، وليس كذلك هذا رُجُلُ عاقلٍ ؛ لأن الرجل هو العاقل في الحقيقة ، والشيء لا يضاف إلى نفسه ، فهذا فرق .

ومن ذلك قراءة السلمي : ﴿أَلَمْ تَرْ أَنَّ اللَّهَ﴾ 5 ساكنة الراء .

قال أبو الفتح : فيها ضعف ؛ لأنه إذا حذف الألف للجزم فقد وجب إبقاؤه للحركة قبلها

---

1 السورة السابقة : 13 .

2 سورة الأنفال : 19 .

3 النهاية : 3/ 204 .

4 سورة إبراهيم : 18 .

5 السورة السابقة : 19 .

(124/415)

---

دليلًا عليها ، وكالعوض منها لا سيما وهي خفيفة ، إلا أنه شبه الفتحة بالكسرة المحذوفة في نحو هذا استخفافًا . أنشد أبو زيد :

قالت سليمى اشْتَرْ لنا دقيقا 1

وأنشدنا أيضًا :

قالت سليمى كَلْمَةً تَلَجْلَجَا لو طُبِخَ النّيِء به لأُنْضِجَا

يا شيخ لا بدّ لنا أن نَحْجُجَا قد حج في ذا العامِ مَن كان رَجَا

فاكْتَرْ لنا كَرِيَّ صدق فالنَّجا واحذر فلا تَكْتَرْ كَرِيًّا أَعْوجَا

عِلْجًا إذا ساق بنا عَفَنْجَجَا 2

فأسكن الراء من "اشترْ" و"اكترْ" استخفافًا ، أو إجراء للوصل على حد الوقف . وروينا عن أبي بكر محمد بن الحسن عن أحمد بن يحيى قول الشاعر :

ومن يتَّقْ فإن الله معه ورزقُ اللهِ مُؤتابٌ وغادِي 3

فأسكن قاف "يتقْ" لما ذكرنا ، وكذلك شبه السلمى "أَلَمْ تَرْ" بذلك إذا كانت الكسرة أثقل ، أو لأنه أجرى الوصل مجرى الوقف .

ومن ذلك قراءة الحسن : "وَأُدْخِلُ الَّذِينَ"4 برفع اللام .

قال أبو الفتح : هذه القراءة على أن "أُدْخِلُ" من كلام الله تعالى ؛ كأنه قطَع الكلام واستؤنف

---

للعذافر الكندي ، وبعده :

وهات خبز البر أو سويقا

انظر : شواهد الشافية : 225 .

2 يُروى :

قالت له كليمة تلجلجا

وبعد هذا البيت :

من الكلام لينًا سَمَلَّجا

ويُروى : "من تحرجا" مكان "من كان رجا" ، و"فاحذر ولا" مكان "واحذر فلا" ،

والسملج : الخفيف ، والنجا : النجاء ؛ وهو الخلاص ، والعلج : الرجل الشديد الغليظ ، العفنجج : الضخم الأحمق . المنصف : 3/ 9 ، واللسان "سملج" .

3 مؤتاب : راجع ، من ائتاب بمعنى آب . الخصائص : 1/ 306 ، 2/ 317 ، 339 ،

وشواهد الشافية : 228 ، واللسان "أوب" و"وقى" .

4 سورة إبراهيم : 23 .

(125/415)

---

فقال الله عز وجل : "وَأُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا" أي : وأنا أدخلُهم جنات تجرى من تحتها الأنهار بإذن ربهم ؛ أي : بإذني ، إلا أنه أعاد ذكر الرب ليضيفه إليهم ، فتقوى الملابسة باللفظ ، فيكون أحنى وأذهب في الإكرام والتقريب منه لهم . ومثله في القرآن : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ 1 ، وقال : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ ﴾ 2 ، فهذا كله تحقُّق بالله تعالى ، وتقرب منه ، وانتساب إليه .

ومن ذلك قراءة أنس بن مالك : "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثابتٍ أَصْلُهَا" 3 .

قال أبو الفتح : قراءة الجماعة : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أقوى معنى ؛ وذلك أنك إذا قلت : "ثابت أصلها" فقد أجريت ثابتًا صفة على شجرة ، وليس الثبات لها ؛ إنما هو للأصل . ولعمري إن الصفة إذا كانت في المعنى لِما هو من سبب الموصوف جرت عليه ؛ إلا أنها إذا كانت له كانت أخص لفظا به .

وإذا كان الثبات في الحقيقة إنما هو للأصل فالمعتمد بالثبات هو الأصل ، فبِقَدْر ذلك ما 4

حسن تقديمه عناية به ومسارعة إلى ذكره ، ولأجل ذلك قالوا : زيد ضربته "87ظ" فقدموا المفعول لأن الغرض هنا ليس بذكر الفاعل ؛ وإنما 5 هو ذكر المفعول ، فقدموه عناية بذكره ، ثم لم يُقْنِع ذلك حتى أزالوه عن لفظ الفضلة وجعلوه في اللفظ رَبَّ الجملة ، فرفعوه بالابتداء ، وصارت الجملة التي إنما كان ذيلًا لها وفضلة ملحقة بها في قولهم : ضربت زيدًا ، ثانية له ، وواردة في اللفظ بعده ، ومسندة إليه ، ومخبَرًا بها عنه . وقد تقدم في هذا الكتاب نحو هذا مستقصى .

فكذلك قولك : مررت برجل أبوه قائم ، أقوى معنى من قولك : قائم أبوه ؛ لأن المخبر عنه بالقيام إنما هو الأب لا رجل ؛ ومن هنا ذهب أبو الحسن في نحو قولنا : قام زيد ، إلى أن قام في موضع ؛ لأنه وقع موقع الاسم ؛ لأن تقدير المحدَّث عنه أن يكون أسبق رتبة من الحديث ،

---

1 سورة طه : 50 ، وهذه قراءة الجماعة ، وهي في نسختي الأصل "قالا" بألف الاثنين ، ولم يذكر ابن جني هذا الحرف في سورة طه من المحتسب ، ولم أجده في المظان التي التمسته فيها .

2 سورة الأعراف : 196 .

3 سورة إبراهيم : 24 .

4 ما زائدة .

5 في ك : فإنما .

إلا أن لقراءة أنس هذه وجهًا من القياس حسنًا ؛ وذلك أن قوله : "ثَابِتٍ أَصْلُهَا" صفة لشجرة ، وأصل الصفة أن تكون اسمًا مفردًا لا جملة ، يدل على ذلك أن الجملة إذا جرت صفة للنكرة حُكم على موضعها بإعراب المفرد الذي هي واقعة موقعه .

فإذا قال : "ثَابِتٍ أصلُها" فقد جرى لفظ المفرد صفة على النكرة ، وإذا قال : "أصلُها ثابت" فقد وضع الجملة موضع المفرد ، فالموضع إذن له لا لها .

فإن قلت : فليس اللفظ مفردًا ، ألا ترى أنه ثابت أصلها ؟ قيل : هذا لا يبلغ به صورة الجملة ؛ لأن ثابتًا جارٍ في اللفظ على ما قبله ، وإنما فيه أنه وضع أصلها لتضمنه لفظ الضمير موضع الضمير الخاص بالأول ، وليس كذلك "أصلها ثابت" ؛ لأن معك صورة الجملة ألبتة ، فهذا تقوية لقول أنس .

وكان أبو علي يعتذر من إجازتهم : مررت برجل قائمٌ أبوه ، ويقول : إنما ذلك لأن الجملة نكرة ، كما أن المفرد هنا لو وقع لم يكن إلا نكرة ؛ لأن موصوفه نكرة .

ومن ذلك قراءة ابن عباس والحسن والضحاك ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وعمرو بن فائد ويعقوب : "مِنْ كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ" 1 بالتنوين .

قال أبو الفتح : أما على هذه القراءة فالمفعول ملفوظ به ؛ أي : وآتاكم ما سألتموه أن يؤتيكم منه . وأما على قراءة الجماعة : ﴿ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ على الإضافة فالمفعول محذوف ؛ أي : وآتاكم سؤلكم من كل شيء ؛ أي : وآتاكم ما ساغ إيتاؤه إياكم أياه منه ، فهو كقوله عز وجل : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ 2 أي : أوتيت من كل شيء شيئًا . وقد سبق ذكرُنا حذف المفعول للعلم به ، وأنه مع ذلك عذْب عالٍ في اللغة .

ومن ذلك قراءة الجحدري والثقفي وأبي الْهَجْهاج : "وَأَجْنِبْنِي "3 بقطع الألف .

قال أبو الفتح : يقال : جنبتُ الشيء أَجْنُبه جُنُوبًا ، وتميم تقول : أجنَبْتُه أُجْنِبه إجْنَابًا ؛ أي : نَحَّيته عن الشيء . فجنَبتُه كصرفته ، وأَجنَبتُه جعلته جِنيبًا عنه ، وكذلك :

﴿ وَاجْنُبْنِي

---

1 سورة إبراهيم : 34 .

2 سورة النمل : 23 .

3 سورة إبراهيم : 35 .

وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ أي: اصرفني وإياهم عن ذلك، وأَجْنبني: أي اجعلني كالجَنيب لك؛ أي: المنقاد معك عنها.

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وأبي جعفر محمد بن علي وجعفر بن محمد -عليهم السلام- ومجاهد: "تَهْوَى"1 بفتح الواو، وقرأ "88و" مسلمة بن عبد الله: "تُهوَى إليهم".

قال أبو الفتح: أما قراءة الجماعة: ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِم ﴾ بكسر الواو فتميل إليهم: أي تحبهم، فهذا في المعنى كقولهم: فلان يَنْحَط في هواك؛ أي: يُخلد إليه ويقيم عليه؛ وذلك أن الإنسان إذا أحب شيئًا أكثر من ذكره وأقام عليه، فإذا كرهه أسرع عنه وخف إلى سواه، وعلى ذلك قالوا: أَحبَّ البعيرُ: إذا برك في موضعه، قال:

حُلْت عليه بالقطيع ضَربَا ضرب بعير السوء إذا أَحَبَّا2

أي: برك.

ومنه قولهم: هَوِيت فلانًا، فهذا من لفظ هَوَى الشيء يَهْوِي، إلا أنهم خالفوا بين المثالين لاختلاف ظاهر الأمرين وإن كانا على معنى واحد متلاقيين، فقراءة علي عليه السلام: "تَهْوَى إليهم" بفتح الواو؛ وهو من هَوِيتُ الشيء إذا أحببته، إلا أنه قال: "إليهم"، وأنت لا تقول: هوِيت إلى فلان؛ لكنك تقول: هويت فلانًا؛ لأنه -عليه السلام- حمله على المعنى، ألا ترى أن معنى هوِيت الشيء ملت إليه؟ فقال: "تهوى إليهم" لأنه لاحظ معنى تميل

إليهم. وهذا باب من العربية ذو غور، وقد ذكرناه في هذا الكتاب.

ومنه قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ 3، عدّاه بإلى وأنت لا تقول: رَفَثْتُ إلى المرأة، وإنما تقول: رفثتُ بها أو معها؛ لكنه لما كان معنى الرّفَث معنى الإفضاء عداه بإلى ملاحظة لمعنى ما هو مثله، فكأنه قال: الإفضاء إلى نسائكم، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ 4 لما كانت التوبة سببًا للعفو لاحظ معناه فقال: عن عباده، حتى كأنه قال: وهو الذي يقبل سبب العفو عن عباده، وقد أفردنا لهذا ونحوه في الخصائص بابًا 5.

---

1 السورة السابقة: 37.

2 القطيع: السوط.

3 سورة البقرة: 187.

4 سورة الشورى: 25.

5 الخصائص: 2/ 306.

وأما "تُهوَى إليهم" فمنقول من تهوِي إليهم ، وإن شئت كان منقولًا من قراءة علي عليه السلام : "تَهْوَى" ، كلاهما جائز على ما مضى .

ومن ذلك قراءة يحيى بني يعمر : "وِلوُلْدِي"1 ، وقرأ : "لِوَلَدَيّ" على اثنين الحسين بن علي والزهري وإبراهيم النخعي2 وأبو جعفر محمد بن علي ، وقرأ : "ولوالِدِي" يعني : أباه وحده سعيد بن جبير .

قال أبو الفتح : الوُلْدُ يكون واحدًا ويكون جمعًا ، قال في الواحد :

فليت زيادًا كان في بطن أمه وليت زيادًا كان وُلْد حمار3

ومن كلام بني أسد : وُلْدُكِ من دمي عِقبيكِ ؛ أي : وُلْدُكَ مَن وَلَدتِهِ فسال دمكِ على عقبيكِ عند ولادته ، لا مَن اتخذته وَلَدًا ، قريبًا كان منك أو بعيدًا .

وإذا كان جمعًا فهو جمع وَلَد كأَسَد وأُسُد ، وخَشَبَة وخُشْب . وقد يجوز أن يكون الوُلْد أيضًا جمع وُلْد كالفُلْك في أنه جمع الفُلْك ، وقالوا : كُور الناقة للواحد والجماعة على هذا ، ورجل هُود : أي تائب ، وقوم هود . وقول الله تعالى : ﴿ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ ﴾ 4 أي : رهطه ، ويقال : وِلدُه ، والوَلَد اسم يجمع الواحد والجماعة والأنثى والذكر . وقالوا : وِلْد أيضًا .

ومن ذلك قراءة علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود – واختلف عنه – وأبي بن كعب وأبي إسحاق السبيعي5 : "وإنْ كاد" بالدال "مَكْرُهم لَتزُولُ"6

بفتح اللام الأولى وضم الثانية .

---

1 سورة إبراهيم : 41 .

2 هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران الكوفي الإمام المشهور الصالح الزاهد العالم . قرأ على الأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس ، وقرأ عليه سليمان الأعمش وطلحة بن مصرف . توفي سنة 96 ، وقيل : سنة 95 . طبقات ابن الجزري : 1/ 30 .

3 يُروى : "فلانًا" مكان "زيادًا" في الشطرين . وانظر : اللسان "ولد" .

4 سورة نوح : 21 ، وقراءة نافع وابن عامر وعاصم وأبي جعفر "وَلَده" بفتح الواو واللام ، وعن الحسن بكسر الواو وسكون اللام ، والباقون بضم الواو وسكون اللام . انظر : الإتحاف : 262 .

5 هو عمرو بن عبد الله بن علي بن أحمد أبو إسحاق السبيعي الهمداني الكوفي الإمام الكبير . أخذ القراءة عرضًا عن عاصم بن ضمرة والحارث الهمداني وعلقمة وغيرهم ، وأخذ القراءة عنه عرضًا حمزة الزيات . مات سنة 132 ، وقيل : سنة 128 ، طبقات ابن الجزري : 1/ 602 .

6 سورة إبراهيم : 46 .

قال أبو الفتح: هذه "إِنْ" مخففة من الثقيلة، واللام في قوله: "لَتَزُول" هي التي تدخل بعد "إنْ" هذه المخففة من الثقيلة؛ فصلًا بينها وبين "إنْ" التي للنفي في قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ 1 أي: ما الكافرون إلا في غرور، فكأنه قال: وإنه كاد مكرهم "88ظ" تزول منه الجبال.

ودخلت يومًا على أبي علي بُعيد عوده من شيراز سنة تسع وستين، فقال لي: ألا أحدثك؟ قلت له: قل! قال: دخل إليَّ هذ الأندلسي فظننته قد تعلم، فإذا هو يظن أن اللام التي تصحب إنْ المخففة من الثقيلة هي لام الابتداء، قلت: لا تعجب، فأكثر مَن ترى هكذا.

ومن ذلك قراءة ابن عباس وأبي هريرة وعلقمة2 وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وسنان3 بن سلمة بن المحبق وعمرو بن عبيد والكلبي وأبي صالح وعيسى4 الهمداني وقتادة والربيع بن أنس وعمرو بن فائد: "مِنْ قِطْرٍ آنٍ"5.

قال أبو الفتح: القِطْر: الصُّفْر والنحاس، هو أيضًا الفِلزُّ، رويناه عن قطرب، وهو أيضًا الصاد، ومنه قدور الصاد؛ أي: قدور الصُّفْر. والآني: الذي قد أنى وأدرك. أَنَى الشيء يأني أُنِيًّا وإِنًى مقصور، ومنه قول الله سبحانه: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ 6 أي: بلوغه وإدراكه. قال أبو علي: ومنه الإناء؛ لأنه الظرف الذي قد بلغ غايته المرادة فيه من

خَرَز أو صياغة أو نحو ذلك . قال أمية :

وسليمانُ إذ يَسيل له القِطر على ملكه ثلاث ليالِ

---

1 سورة الملك : 20 .

2 هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك أبو شبل النخعي الفقيه الكبير ، خال إبراهيم النخعي . ولد في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأخذ القرآن عرضًا عن ابن مسعود ، وسمع من علي وعمر وأبي الدرداء وعائشة . عرض عليه القرآن إبراهيم بن يزيد النخعي وأبو إسحاق السبيعي وغيرهما . مات سنة 62 . طبقات ابن الجزري : 1/ 516 .

3 هو سنان بن سلمة بن المحبق ، يكنى أبا عبد الرحمن ، وقيل : يكنى أبا جبير . كان من الشجعان الأبطال الفرسان . وجهه زياد لثغر الهند بعد مقتل عبد الله بن سوار . توفي في آخر أيام الحجاج . الاستيعاب : 2335 .

4 هو عيسى بن عمر أبو عمر الهمداني الكوفي القارئ الأعمى ، مقرئ الكوفة بعد حمزة . عرض على عاصم وطلحة بن مصرف والأعمش ، وعرض عليه الكسائي وغيره . وكان ثقة صالحًا . مات سنة 156 ، وقيل : سنة 150 . ابن الحزري : 612 .

5 سورة إبراهيم : 50 .

6 سورة الأحزاب : 53 .

وأما القطران ففيه ثلاث لغات: قَطِرَان على فَعِلان، وهو أحد الحروف التي جاءت على فَعِلان؛ وهي: ثَلِثَان، وبدِلَان، والشَّقِرَان1 . ويقال أيضًا: قَطْرَان بفتح القاف وإسكان الطاء. وقِطْران بكسر القاف وإسكان الطاء. والأصل فيها قَطِرَان فأُسكنا على ما يقال في كَلِمة: كَلْمَة وكِلْمَة، لغة تميمية. قال أبو النجم:

جونٌ كأَن العرَق الْمَنْتُوحَا لَبَّسهُ القِطْرَان والْمُسُوحا2

وقال النابغة:

وتُخْضَبُ لحية غَدَرَتْ وخانت بأحمر من نَجِيع الجوف آنِ3

ومن ذلك قراءة يحيى بن عمر الذارع وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي: "وِلِيَنْذَرُوا به"4 بفتح الياء والذال.

قال أبو الفتح: يقال نَذِرتُ بالشيء: إذا علمتَ به فاستعددت له، فهو في معنى فهمته، وعلمت به، وطَبِنْتُ له، وفي وزن ذلك. ولم تستعمل العرب لقولهم: نَذِرت بالشيء مصدرًا، كأنه من الفروع المهجورة الأصول. ومنه عسى لا مصدر لها، وكذلك ليس. وكأنهم استغنوا عنه بأن والفعل، نحو: سرني أن نَذِرت بالشيء، ويسرني أن تَنْذَر به.

انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 1 صـ 358 . 366﴾

---

1 الثلثان : عنب الثعلب ، والشقران : نبت أو موضع . أما البدلان فلم أعثر عليها في المظان التي رجعت إليها بحثًا عنها .

2 العرق المنتوح : الخارج من الجلد . انظر : اللسان "نتح" .

3 الديوان : 79 .

4 سورة إبراهيم : 52 .

*(131/415)*

---

وقال العلامة الدمياطى :

سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

مكية قيل إلا آيتين في كفار قتلى قريش ببدر ألم تر إلى الذين بدلوا إلى آخرهما وآيها إحدى وخمسون بصري واثنان كوفي وأربع حرمي وخمس شامي خلافها سبع إلى النور معا حرمي وشامي وعاد وثمود حرمي وبصري بخلق جديد كوفي ودمشقي ومدني أول وفرعها في السماء تركها غير أول وغير بصري وسخر لكم الليل والنهار شامي يعمل الظالمون شامي مشبه الفاصلة سبعة الر الظالمين دائبين يأتيهم العذاب قريب والسموات من قطران

وعكسه ثلاثة ما يشاء فيها سلام هواء القرآآت سبق سكت أبي جعفر على حروف الر

كإمالة الراء وتقليلها بأول يونس وغيرها

واختلف في قراءة ( الله الذي ) الآية 2 فنافع وابن عامر وأبو جعفر برفع الجلالة الشريفة وصلا وابتدأ بها على أنه مبتدأ خبره الموصول بعده أو خبر مضمر أي هو الله وكذا قرأ رويس في الابتداء فقط وافقهم الحسن في الحالين والباقون بالجر على البدل مما قبله أو عطف البيان لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته على المعبود بحق وعن الحسن ويصدون بضم الياء وكسر الصاد من أصد وعن المطوعي بلسن قومه بفتح اللام وسكون السين

(132/415)

---

وأمال ( صبار ) الآية 5 أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي وقلله الأزرق ومر إمالة أنجاكم لحمزة والكسائي وخلف وتقليله للأزرق بخلفه ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على نبؤا المرسوم بالواو بإبدال الهمزة ألفا لانفتاح ما قبلها على القياس وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واوا مضمومة ثم تسكن للوقف ويتحد معه وجه اتباع الرسم ويجوز الروم والإشمام فهذه أربعة والخامس تسهيلها كالواو مع الروم وأدغم ذال إذ تأذن أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف ( وسهل ) همز ( تأذن ) بين بين الأصبهاني

بخلف عنه وأسكن سين رسلهم وباء سبلنا أبو عمرو وأمال جاءتهم حمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه وأمال فأوحى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

وأمال خاف حمزة وأثبت ياء وعيد وصلا ورش وفي الحالين يعقوب وعن ابن محيصن واستفتحوا بكسر التاء الثانية على صيغة الأمر

وأمال وخاب حيث جاء حمزة والداجوني عن هشام من طريق التجريد والروضة والمبهج وغيرها وابن ذكوان من طريق الصوري وفتحه الباقون وبه قرأ الحلواني وابن سوار وغير عن الداجوني عن هشام والأخفش عن ابن ذكوان وقرأ الرياح بالجمع نافع وأبو جعفر

واختلف في ( ) خلق السماوات والأرض ( ) الآية 19 و ( ) خلق كل دابة ( ) في النور الآية 45 فحمزة والكسائي وخلف بألف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف اسم فاعل وخفض ( السموات ) على الإضافة والأرض على العطف عليه ( كل ) في النور على الإضافة أيضا وافقهم الحسن والأعمش والباقون بفتح الخاء واللام بلا ألف وفتح القاف فعلا ماضيا ونصب السموات بالكسرة والأرض وكل على المفعولية وفتح ياء الإضافة من لي عليكم حفص وحده

واختلف في ( بمصرخي ) الآية 22 فحمزة بكسر الياء وافقه الأعمش لغة بني يربوع وأجازها قطرب والفراء وإمام النحو واللغة والقراءة أبو عمرو بن العلاء وهي متواترة صحيحة والطاعن فيها غالط قاصر ونفي النافي لسماعها لا يدل على عدمها فمن سمعها مقدم عليه إذ هو مثبت وقرأ بها أيضا يحيى بن وثاب وحمران بن أعين وجماعة من التابعين وقد وجهت بوجوه منها أن الكسرة على أصل التقاء الساكنين وأصله مصرخين حذفت النون للإضافة فالتقى ساكنان ياء الإعراب وياء الإضافة وهي ياء المتكلم وأصلها السكون فكسرت للتخلص من الساكنين والباقون بفتح الياء لأن الياء المدغم فيها تفتح أبدا وأثبت ياء أشركتمون وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين يعقوب وعن الحسن وأدخل الذين برفع اللام مضارعا وقرأ أكلها بسكون الكاف نافع وابن كثير وأبو عمرو ومر بالبقرة ككسر تنوين خبيثة أجتثت لقنبل وابن ذكوان بخلفهما وابي عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب

وأمال ( من قرار ) الآية 26 أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والكسائي وكذا خلف وبالصغرى الأزرق وأما حمزة فعنه الكبرى والصغرى من روايتيه والفتح من رواية خلاد وبه قرأ الباقون وأبدل الثانية واوا مفتوحة من ما يشاء ألم نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وأمال البوار أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن

الكسائي وقلله الأزرق وحمزة من روايتيه كما في الشاطبية وعليه المغاربة جميعا والفتح له رواية العراقيين قاطبة ووقف على نعمت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب

(134/415)

---

واختلف فيليضلوا عن سبيله ) الآية 30 وفي الحج الآية 9 ( ) ليضل عن سبيل الله ( وفي لقمان الأية 6 ( ) ليضل عن سبيل الله ( وفي الزمر وفي الآية 8 ( ) ليضل عن سبيله ( فابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء في الأربعة وقرأ رويس كذلك في غير لقمان من غير طريق أبي الطيب وروى عنه أبو الطيب بعكس ذلك ففتح الياء في لقمان وضمها في الباقي وافقهم ابن محيصن واليزيدي في الأربعة والحسن في الزمر والباقون بالضم في الأربعة من أضل رباعيا واللام للجر مضمرة أن بعدها وهي للعاقبة حيث كان مآلهم إلى ذلك أو للتعليل وفتح ياء الإضافة من قل لعبادي الذين نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وروس وأبو جعفر وخلف عن نفسه وقرأ لا بيع فيه ولا خلال بالرفع والتنوين نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وسبق حكم وآتاكم للأزرق من حيث مد البدل والتقليل والفتح وعن الحسن والأعمش من كل بتنوين كل وما بعدها إما نافية أو موصولة فالجمهور على إضافة كل إلى ما وتكون من تبعيضية أي بعض جميع ما سألتموه يعني من كل شيء

سألتموه شيئا فإن الموجود من كل صنف بعض ما في قدرة الله تعالى قاله القاضي وقرأ ﴿ إبراهام ﴾ هنا بالألف ابن عامر سوى النقاش عن الأخفش وكذلك المطوعي عن الصوري كلاهما عن ابن ذكوان

وأمال عصاني الكسائي وقلله الأزرق بخلفه وفتح ياء الإضافة من إني أسكنت نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر



---

واختلف في ( أفئدة ) الآية 37 هنا فهشام من جميع طرق الحلواني بياء بعد الهمزة لغرض المبالغة على لغة المشبعين من العرب على حد الدراهم والصياريف وليست ضرورة بل لغة مستعملة معروفة ولم ينفرد بهما الحلواني عن هشام ولا هشام عن ابن عامر كما بينه في النشر فالطعن فيها مردود وروى الداجوني من أكثر الطرق عن هشام بغير ياء وبه قرأ الباقون جمع فؤاد كغراب وأغربه وخرج بهنا نحو وأفئدتهم هواء المجمع على أنها بغير ياء أي قلوبهم فارغة من العقول وضم هاء إليهم حمزة ويعقوب وأمال ما يخفى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وعن ابن محيصن وهبني على الكبر بالنون عوضا من اللام

وأثبت الياء في دعاء وصلا ورش وابو عمرو وحمزة وأبو جعفر وقنبل من طريق ابن شنبوذ

وحذفها في الحالين من طريق ابن مجاهد وهذا هو طريق النشر الذي هو طريق كتابنا وورد أيضا إثباتها وقفا أيضا من طريق ابن شنبوذ قال في النشر وبكل من الحذف والإثبات قرأت عن قنبل وصلا ووقفا وبه أخذ في الحالين البزي ويعقوب

وقرأ (تحسبن) الآية 42 بفتح السين ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وعن الحسن إنما نؤخرهم بنون العظمة وبذلك انفرد القاضي أبو العلا عن النخاس

عن رويس ولم يعول على ذلك في الطيبة على عادته وضم هاء يأتيهما لعذاب) وصلا ووقفا يعقوب وضم الميم معها وصلا وضمهما حمزة والكسائي وخلف وصلا وكسرهما كذلك أبو عمرو وكسر الهاء وضم الميم الباقون



---

واختلف في (لتزول) الآية 46 فالكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية على أن أن مخففة من الثقيلة والهاء مقدرة واللام الأولى هي الفارقة بين المخففة والنافية والفعل مرفوع أي وإنه كان مكرهم وافقه ابن محيصن والباقون بكسر الأولى ونصب الثانية على أنها نافية واللام لام الجحود والفعل منصوب بعدها بأن مضمرة ويجوز جعلها أيضا مخففة من الثقيلة والمعنى إنهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الثابتة ثباتا وتمكنا من آيات الله تعالى وشرائعه قاله

القاضي وعن الحسن رسله بإسكان السين ومر قريبا تحسبن

وأمال ( القهار ) الآية 48 أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي

وقلله الأزرق وحمزة بخلف عنه تقدم تفصيله في البوار

وأمال ( وترى المجرمين ) الآية 49 وصلا السوسي بخلفه

وأمال ( وتغشى ) الآية 50 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

المرسوم به الريح بلا ألف واختلف في الريح لواقح بالحجر بايبم الله بياء يين المشددة والميم في

بعض المصاحف وفي بعض بألف مكانها فلا تلوموني فمن تبعني بالياء فيها وقال الضعفؤا

بواو بعد الفاء وزيادة ألف بعدها وكذا نبؤا بواو بعد الباء فألف عصاني بالياء المقطوع

اتفقوا على قطع لام من كل ما سألتموه فقط الهاء نعمت الله معا بالتاء ياآت الإضافة ثلاث (

لي عليكم ) الآية 22 ( لعبادي الذين ) الآية 31 ( إني أسكنت ) الآية 37 والزوائد ثلاث

أيضا ( وعيد ) الآية 14 ( أشركتمون ) الآية 22 ( دعاء ) الآية 40 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 341. 344 ﴾

(137/415)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة إبراهيم "

" الر " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة .

أنزلناه ، صراط ، وهو إليه " جلي كله .

" الحميد الله " قرأ المدنيان والشامي برفع الهاء من لفظ الجلالة وصلا وابتداء ورويس برفعها في الابتداء وخفضها في الوصل . والباقون بالجر في الحالين .

" نبؤا " رسمت الهمزة على واو ففيه لهشام وحمزة وقفا خمسة أوجه الإبدال حرف مد التسهيل بالروم والإبدال واوا خالصة مع السكون المحض والإشمام والروم .

" رسلهم " أسكن السين أبو عمرو ، وضمها غيره .

" مريب " آخر الربع .

الممال

" عقبى الثلاثة لدى الوقف عليها والدنيا ، وموسى الثلاثة بالإمالة للأصحاب ، والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، الكافرين . وللكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس وبالتقليل لورش . والدار وصبار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، جاءك وجاءتهم لابن ذكوان وحمزة وخلف . كفى وأنجاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الر بالإمالة للبصري والشامي شعبة والأخوين وخلف والتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " وإذ تأذن للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " من العلم مالك ، يعلم ما ، الكافر لمن ، والكتاب بسم الله ، على وجه البسملة مع وصل آخر السورة بالبسملة " ليبين لهم " ويستحيون نساءكم " تأذن ربكم " .

ولنصبرن ، إليهم ، لمن خاف . عذاب غليظ كلمة خبيثة . جلي .

" رسلهم معا " وسبلنا ، ولرسلهم ، أسكن البصري السين فيما عدا سبلنا والباء في سبلنا وضم الباقون السين والباء .

" ليغفر ، فأتونا " جلي .

" ويؤخركم " أبدل ورش وأبو جعفر الهمزة واوا خالصة في الحالين وحمزة في الوقف ورقق ورش راءه .

" وعيد " أثبت الياء ورش وصلا وحذفها وقفا ، وأثبتها في الحالين يعقوب وحذفها الباقون مطلقا .

" بميت " أجمعوا على تشديده .

" الرياح " قرأ المدنيان بفتح الياء وبعدها ألف على الجمع وغيرهما بإسكان الياء وحذف الألف على الإفراد .

" خلق السموات والأرض " قرأ الأخوان وخلف بألف بعد الخاء مع كسر اللام ورفع القاف وخفض تاء السموات وضاد الأرض ، والباقون بحذف الألف وفتح اللام والقاف ونصب السموات بالكسرة ونصب الأرض بالفتحة الظاهرة .

" إن يشأ " أبدل همزه في الحالين أبو جعفر وحده وحمزة عند الوقف فقط ومعه هشام .

" الضعفاء " لحمزة وهشام ، في الوقف عليه اثنا عشر وجها خمسة القياس وسبعة الرسم وتقدم مثله في جزاء المائدة .

" لي عليكم " فتح الياء حفص وأسكنها غيره .

" بمصرخي " قرأ حمزة بكسر الياء والباقون بفتحها يعقوب عليه بهاء السكت .

" أشركتمون " أثبت الياء وصلا أبو عمرو وأبو جعفر وفي الحالين يعقوب وحذفها الباقون كذلك .

" أكلها " أسكن الكاف نافع والمكي والبصري وضمها الباقون .

" خبيثة اجتثت " كسر التنوين وصلا البصريان وعاصم وحمزة وابن ذكوان بخلف عنه وضمه الباقون وهو الوجه الثاني لابن ذكوان .

" يشاء " فيه لحمزة وهشام عند الوقف خمسة القياس وهي معلومة ، وهو آخر الربع .

الممال

مسمى لدى الوقف عليه ، وهدانا معا لدى الوقف على الثاني ، وفأوحى ويسقى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . خاف معا ، وخاب لحمزة وحده . جبار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . للناس لدوري البصري ، قرار بالإمالة للبصري والكسائي وخلف في اختياره وبالتقليل لورش وحمزة . الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " ليغفر لكم ، الصالحات جنات ، الأمثال للناس ، ولا إدغام في بإذن ربهم لكون ما قبل النون ساكنا .

" يشاء ألم " أبدل الهمزة الثانية واوا خالصة المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون ، ولا خلاف في تحقيق الأولى .

" نعمت الله معا " رسم بالتاء ووقف عليهما بالهاء المكي والبصريان والكسائي وغيرهم بالتاء .

" يصلونها " مصيركم ، إنهن ، كثيرا ، بواد غير ، الصلاة ، إليهم ، ظلموا ، يؤخرهم غير . كله ظاهر وتقدم .

" وبئس " أبدل همزة مطلقا ورش والسوسي وأبو جعفر وفي الوقف حمزة .

" ليضلوا " فتح الياء المكي والبصري ورويس وضمها سواهم .

" قل لعبادى الذين " قرأ الشامي والأخوان وروح بإسكان الياء فتسقط وصلا وتثبت وقفا الباقون بفتحها وصلا بإسكانها وقفا .

" لا بيع فيه ولا خلال " قرأ المكي والبصريان بفتح العين في بيع واللام في خلال من غير تنوين فيهما والباقون برفع العين واللام مع التنوين فيهما .

" بأمره " فيه لحمزة وقفا تحقيق الهمزة وإبدالها ياء خالصة .

" الأنهار . والأصنام . والأبصار . والأمثال . والأصفاد . والألباب " فيها لحمزة بتمامه وقفا النقل والسكت فقط .

" دائبين " فيه لحمزة التسهيل مع المد والقصر وقفا .

" وآتكم " فيه لورش أربعة أوجه: قصر البدل وفتح ذات الياء والتوسط مع التقليل والمد مع الفتح والتقليل .

" وإذ قال إبراهيم " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها والباقون بكسر الهاء وياء بعدها .

" إني أسكنت " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" أفئدة " قرأ هشام بخلف عنه بياء ساكنة بعد الهمزة والباقون بغير ياء وهو الوجه الثاني

لهشام ووقف عليه حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الفاء مع حذف الهمزة فيصير النطق بفاء مكسورة وبعدها الدال .

" دعاء " قرأ ورش والبصري وحمزة وأبو جعفر بإثبات الياء بعد الهمزة وصلا وقرأ البزي ويعقوب بإثباتها في الحالين والباقون بحذفها مطلقا . ولورش فيه ثلاثة البدل وصلا ولحمزة فيه وقفا خمسة القياس .

" ولا تحسبن ، فلا تحسبن " فتح السين فيهما عاصم والشامي وحمزة وأبو جعفر وكسرها غيرهم .

" يأتيهم العذاب " حكمه حكم: يريهم الله أعمالهم بالبقرة .

" لتزول " قرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية والباقون بكسر الأولى ونصب الثانية .

الألباب: آخر السورة وآخر الربع .

الممال

البوار والقهار بالإمالة للبصري والدوري ، وبالتقليل لورش وحمزة ، النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

وآتاكم ويخفى وتغشى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . للناس لدوري البصري ، عصاني بالإمالة للكسائي وبالتقليل لورش بخلف عنه . وترى المجرمين عند الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش وعند الوصل بالإمالة للسوسي خلف عنه .

المدغم

" الصغير " اغفر لى للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " يأتي يوم ، وسخر لكم الأربعة ، يعلم ما ، وتبين لكم ، كيف فعلنا بهم ، الأصفاد سرابيلهم ، النار ليجزي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 175.178 ﴾

*(141/415)*

---

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة إبراهيم

قوله تعالى إلى صراط العزيز الحميد الله يقرأ بالرفع والخفض فالحجة لمن رفع أنه جعل الكلام تاما عند قوله الحميد ثم ابتدأ قوله الله الذي فرفعه بالابتداء وإنما حسن ذلك لأن الذي قبله

رأس آية والحجة لمن خفض أنه جعله بدلا من قوله الحميد أو نعتا له والبصريون يفرقون بين البدل والنعت فما كان حلية للإنسان جاءت بعد اسمه ليفرق بذلك بينه وبين غيره ممن له هذا الاسم فهو النعت كقولك مررت بزيد الظريف

وما بدأت فيه بالحلية ثم أتيت بعدها بالاسم فهو البدل كقولك مررت بالظريف زيد

فاعرف الفرق في ذلك قوله تعالى ألم تر أن الله خلق يقرأ بإثبات الألف وطرحها فالحجة لمن أثبتها أنه جعله اسما للفاعل ورفعه بخبر إن وأضافه إلى السموات فكان بالإضافة في معنى ما قد مضى وثبت والحجة لمن طرحها أنه جعله فعلا ماضيا وعداه إلى السموات فنصبها وإن كان النصب فيها كالخفض لأن الكسرة في جمع المؤنث السالم كالياء في جمع المذكر السالم قوله تعالى وما أنتم بمصرخي تقرأ بفتح الياء وكسرها فالحجة لمن فتح أنه يقول الأصل بمصرخيني فذهبت النون للإضافة وأدغمت الياء في الياء فالتقى ساكنان ففتح الياء لالتقائهما كما تقول على ومسلمي وعشري والحجة لمن كسر أنه جعل الكسرة بناء لا إعرابا واحتج بأن العرب تكسر لالتقاء الساكنين كما تفتح وإن كان الفتح عليهم أخف وأنشد شاهدا لذلك قال لها هل لك يا تا في قالت له ما أنت بالمرضي قوله تعالى لتزول منه الجبال يقرأ بفتح اللام الأولى ورفع الفعل وبكسرها ونصب الفعل فالحجة لمن فتح أنه جعلها لام التأكيد فلم تؤثر في الفعل ولم تزله عن أصل إعرابه وهذه القراءة توجب زوال الجبال

لشدة مكرهم وعظمه وقد جاء به التفسير والحجة لمن كسر أنه جعلها لام كي وهي في الحقيقة لام الجحد وإن

(142/415)

---

ها هنا بمعنى ما ومثله قوله وما كان الله ليضيع إيمانكم ومعنى ذلك أن مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال قوله تعالى وتقبل دعائي ويقرأ بإثبات الياء وصلا ووقفا وبطرحها وقفا وإثباتها وصلا وبطرحها من الوجهين معا وقد ذكرت علة ذلك فيما سلف. انتهى.

اهـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 202.204 ﴾

(143/415)

---

وقال ابن زنجلة:

سورة إبراهيم

﴿ إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض 1 و2 ﴾

قرأ نافع وابن عامر الله الذي له بالرفع على الاستئناف لأن الذي قبله رأس آية

وقرأ الباقون إلى صراط العزيز الحميد الله بالخفض لأنه بدل من الحميد ولا يجوز أن يقول نعت للحميد وإنما هو كقولك مررت بزيد الظريف فإن قلت بالظريف زيد عاد بدلا ولم يكن نعتا

ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق 19

قرأ حمزة والكسائي ألم تر أن الله خالق السموات والأرض

وحجتهما أنه إذا قرئ على فاعل وأضيف دخل به معنى الماضي ودخل فيه معنى المدح يكسبه لفظ فاعل ومما يقوي ذلك فاطر السموات والأرض ألا ترى أن فاطرا بمعنى خالق وكذلك فالق الإصباح هو على فاعل دون فعل

وقرأ الباقون خلق السموات والأرض نصبا وحجتهم أن أكثر ما جاء في القرآن على هذا اللفظ من قوله خلق السموات والأرض بالحق خلق السموات بغير عمد ونظائر ذلك

وما أنتم بمصرخي 22

قرأ حمزة وما أنتم بمصرخي بكسر الياء وقرأ الباقون بفتح الياء وهو الاختيار لالتقاء الساكنين والأصل بمصرخيني فذهبت النون للإضافة وأدغمت ياء الجمع بياء الإضافة كما تقول لدي وعلي وتقول مررت بمسلمين فإذا أضفتهم إلى نفسك قلت بمسلمي وأسقطت النون

وأهل النحو يلحنون حمزة قالوا وذلك أن ياء الإضافة إذا لم يكن قبلها ساكن حركت إلى

الفتح تقول هذا غلامي قد جاء وذلك أن الاسم المضمر لما كان على حرف واحد وقد منع الإعراب حرك بأخف الحركات كما تقول هو قام ويجوز إسكاء الياء لثقل الياء التي قبلها كسرة فإذا كان قبل الياء ساكن حركت إلى الفتح لا غير لأن أصلها أن تحرك ولا ساكن قبلها فإذا كان قبلها ساكن صارت

حركتها لازمة لالتقاء الساكنين فتقول وما أنتم بمصرخي وأما حمزة فليس لاحنا عند الحذاق لأن الياء حركتها حركة بناء لا حركة إعراب والعرب تكسر لالتقاء الساكنين كما تفتح

(144/415)

---

قال الجعفي سألت أبا عمرو عن قوله بمصرخي فقال إنها بالخفض لحسنة

وجعلوا الله أندادا ليضلوا عن سبيله 30

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضلوا عن سبيله بفتح الياء أي ليضلوا هم أي يصيرون هم ضلالا

وحجتهم قوله إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وقد وصف بالضلال

وقرأ الباقون ليضلوا بضم الياء أي ليضلوا غيرهم وحجتهم في وصفهم الكفار بالإضلال أن الذين أخبر الله جل وعز عنهم بما تقدم من قوله وجعلوا لله أندادا ثبت أنهم ضالون بجعلهم

لله الأنداد ولم يكن لإعادة الوصف لهم بالضلال معنى لاستقرار ضلالهم بفعلهم ذلك عند السامعين بل وصفهم بإضلال الناس عن السبيل بفعلهم

ذلك ويزيد الكلام فائدة لأنهم لم يكونوا وصفوا بها فكان ذلك أبلغ في ذمهم مما تقدم كفرهم

وإذا قرئ ليضلوا بالفتح لم يكن في الكلام فائدة غير أنهم ضالون وقد علم ضلالهم فيما تقدم

وإذا قرئ ليضلوا بضم الياء فقد وصفهم بأنهم ضالون لشركهم مضلون غيرهم

وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال 46

قرأ الكسائي وإن كان مكرهم لتزول بفتح اللام الأولى وضم الثانية اللام لام التوكيد و تزول رفع بالمضارعة كما تقول إن زيدا ليقول و إن في قوله وإن كان مكرهم مخففة من الثقيلة أي وإن مكر هؤلاء لو بلغ مكر ذلك يعني نمرود لم ينتفعوا به وحجته قراءة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن مسعود وإن كاد مكرهم لتزول بالدال وهذا دليل على تعظيم مكرهم

قال الزجاج وإن كان مكرهم لتزول معناه معنى حسن المعنى وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم يبلغ في الكيد إزالة الجبال فإن الله جل وعز ينصر دينه ومكرهم عنده لا يخفى

وقرأ الباقون وإن كان مكرهم لتزول بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخيرة بمعنى ما واللام لام الجحود والمعنى وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أي ما كان مكرهم ليزول به أمر النبي وأمر دين الإسلام وثبوته كثبوت الجبال الراسيات لأن

الله جل وعز وعد نبيه صلى الله عليه إظهار دينه على الأديان فقال ليظهره على الدين كله ودليل هذا قوله بعدها فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله أي لا يخلفهم ما وعدهم من نصره وإظهار نبوتهم وكلمتهم وحجتهم ما روي عن الحسن أنه قال كان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال . انتهى انتهى . اهـ ﴿حجة القراءات صـ 376. 380﴾

*(146/415)*

---

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة إبراهيم عليه السلام

قد تقدمت نظائر آيات فيها قبلها فذكرت معها .

121 الآية الأولى منها

قوله عز وجل : (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) إبراهيم : 32 .

وقال في سورة النمل 60 : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء به

حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنتبوا شجرها ) .

للسائل أن يسأل فيقول : قال في هذه الآية الأولى (وأنزل من السماء ) وقال في الثانية : (وأنزل لكم من السماء ) فما الذي أوجب لكم في الثانية ، ولم يوجبها في الأولى ؟

والجواب إن لكم في آخر الآية الأولى مذكورة ، لأنه قال : (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) فأغنى ذكرها هناك عن ذكرها أولا ، والآية الثانية لما لم يكن في آخرها ذكر أنه فعل لهم ذكر في أولها لكم لأن بعدها : (فأنبتنا به حدائق ذات بهجة) وليست لكم في قوله : (ما كان لكم أن تنتبوا شجرها ) تكفي من ذكرها في أولها ، لأنها في معنى غير معنى : خلق لكم أصناف النعم . انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل صـ 178 ﴾

*(147/415)*

---

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة إبراهيم عليه السلام

مكية إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة في قتلى قريش يوم بدر كذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وهما قوله تعالى ( ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ﴾ ) إلى قوله ( ﴿ وبئس

القرار ﴾ )

ونظيرتها في الكوفي ن والقلم والحاقة وفي المدنيين والمكي سبأ فقط وفي الشامي سبأ والقمر

والمدثر وفي البصري الحاقة فقط

وكلمها ثماني مئة وإحدى وثلاثون كلمة

وحروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفا

وهي خمسون وآية في البصري وآيتان في الكوفي وأربع في المدنيين والمكي وخمس في الشامي

اختلافها سبع آيات ( ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ ) و ( ﴿ أن أخرج قومك

من الظلمات إلى النور ﴾ ) لم يعدهما الكوفي والبصري وعدهما الباقون ( ﴿ وعاد وثمود

﴾ ) لم يعدها الكوفي والشامي وعدها الباقون ( ﴿ بخلق جديد ﴾ ) عدها المدني

الأول والكوفي والشامي ولم يعدها الباقون ( ﴿ وفرعها في السماء ﴾ ) لم يعدها المدني

الأول وعدها الباقون ( ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ ) لم يعدها البصري وعدها

الباقون ( ﴿ عما يعمل الظالمون ﴾ ) عدها الشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع أربعة مواضع ( ﴿ الشمس والقمر دائبين

﴾ إلى أجل قريب ) ( ﴿ غير الأرض والسماوات ﴾ سرابيلهم من قطران )

ورؤوس الآي

إلى النور

شكور

5 عظيم

6 لشديد

7 حميد

8 وثمود

* مريب

9 مبين

10 المؤمنون

11 المتوكلون

12 الظالمين

13 وعيد

14 عنيد

15 صديد

16 غليظ

17 البعيد

18 بعزيز

20 محيص

21 أليم

22 سلام

23 في السماء

24 يتذكرون

25 قرار

26 يشاء

27 البوار

28 القرار

29 النار

30 ولا خلال

31 الأنهار

32 والنهار

33 كفار

34 الأصنام

35 رحيم

36 يشكرون

37 في السماء

38 الدعاء

39 دعاء

40 الحساب

41 الأبصار

42 هواء

43 زوال

44 الأمثال

45 الجبال

46 ذو انتقام

47 القهار

48 الأصفاد

49

النار

50 الحساب

51 الألباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 172.171 ﴾

*(149/415)*

---

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة إبراهيم عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (كتاب) خبر مبتدإ محذوف: أي هذا كتاب ، و (أنزلناه) صفة للكتاب وليس بحال ، لأن كتابا نكرة (بإذن ربهم) في موضع نصب إن شئت على أنه مفعول به: أي بسبب الإذن ، وإن شئت في موضع الحال من الناس: أي مأذونا لهم أو من ضمير الفاعل: أي مأذونا لك (إلى صراط) هذا بدل من قوله إلى النور بإعادة حرف الجر .

قوله تعالى (الله الذى) يقرأ بالجر على البدل ، وبالرفع على ثلاثة أوجه: أحدها على

الابتداء ، وما بعده الخبر .

والثانى على الخبر والمبتدأ محذوف : أي هو الله ،

والذى صفة .

والثالث هو مبتدأ .

والذى صفته ، والخبر محذوف تقديره : الله الذى له مافى السموات وما في الأرض العزيز الحميد ، وحذف لتقدم ذكره (وويل) مبتدأ ، و (للكافرين) خبره (من عذاب شديد ) في موضع صفة لويل بعد الخبر وهو جائز ، ولايجوز أن يتعلق بويل من أجل الفصل بينهما بالخبر .

قوله تعالى (الذين يستحبون) في موضع جر صفة للكافرين ، أو في موضع نصب بإضمار أعنى ، أو في موضع رفع بإضمارهم (ويبغونها عوجا ) قد ذكر في آل عمران .

قوله تعالى (إلا بلسان قومه) في موضع نصب على الحال : أي إلا متكلما بلغتهم ، وقرئ في الشاذ " بلسن قومه " بكسر اللام وإسكان السين وهى بمعنى اللسان (فيضل) بالرفع ، ولم ينتصب على العطف على ليبين لأن العطف يجعل معنى المعطوف كمعنى المعطوف عليه ، والرسل أرسلوا للبيان لا للضلال .

وقال الزجاج : لو قرئ بالنصب على أن تكون اللام لام العاقبة جاز .

قوله تعالى (أن أخرج قومك) أن بمعنى أي فلا موضع له ، ويجوز أن تكون مصدرية فيكون

التقدير: بأن أخرج، وقد ذكر في غير موضع.

قوله تعالى (نعمة الله عليكم إذ أنجاكم) قد ذكر في قوله "إذ كنتم أعداء" في آل عمران

(ويذبحون) حال أخرى معطوفة على يسومون.

قوله تعالى (وإذ تأذن) معطوف على إذ أنجاكم.



---

قوله تعالى (قوم نوح) بدل من الذين (والذين من بعدهم) معطوف عليه، فعلى هذا يكون

قوله تعالى (لايعلمهم) حالا من الضمير في "من بعدهم"، ويجوز أن يكون مستأنفا،

وكذلك (جاءتهم) ويجوز أن يكون والذين من بعدهم مبتدأ، ولا يعلمهم خبره، أو حال من

الاستقرار، وجاءتهم الخبر (في أفواههم) في على بابها ظرف لردوا، وهو على المجاز لانهم

إذا سكتوهم فكأنهم وضعوا أيديهم في أفواههم فمنعوهم بها من النطق: وقيل هي بمعنى

إلى: وقيل بمعنى الباء.

قوله تعالى (أفي الله شك) فاعل الظرف لأنه اعتمد على الهمزة (فاطر السموات) صفة أو

بدل (ليغفر لكم من ذنوبكم) المفعول محذوف، ومن صفة له: أي شيئا من ذنوبكم، وعند

الأخفش "من" زائدة.

وقال بعضهم: من

للبدل: أي ليغفر لكم بدلا من عقوبة ذنوبكم كقوله: "أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة" (تريدون) صفة أخرى لبشر.

قوله تعالى (وما كان لنا أن نأتيكم) اسم كان، ولنا الخبر، و (إلا بإذن الله) في موضع الحال، وقد ذكر في أول السورة، ويجوز أن يكون الخبر بإذن الله، ولنا تبيين.

قوله تعالى (ألا نتوكل) أي في أن لا نتوكل، ويجوز أن يكون حالا: أي غير متوكلين، وقد ذكر في غير موضع.

قوله تعالى (واستفتحوا) ويقرأ على لفظ الأمر شاذا.

قوله تعالى (يتجرعه) يجوز أن يكون صفة لماء، وأن يكون حالا من الضمير في يسقى، وأن يكون مستأنفا.

(151/415)

---

قوله تعالى (مثل الذين كفروا) مبتدأ، والخبر محذوف: أي فيما يتلى عليكم مثل الذين، و (أعمالهم كرماد) جملة مستأنفة مفسرة للمثل، وقيل الجملة خبر مثل على المعنى، وقيل مثل مبتدأ وأعمالهم خبره: أي مثلهم مثل أعمالهم، وكرماد على هذا خبر مبتدإ

محذوف ، أي هي كرماد ، وقيل أعمالهم بدل من مثل وكرماد الخبر ، ولو كان في غير القرآن لجاز إبدال أعمالهم من الذين ، وهو بدل الاشتمال (في يوم عاصف) أي عاصف الريح ، أو عاصف ريحه ، ثم حذف الريح وجعلت الصفة لليوم مجازا : وقيل التقدير : في يوم ذي عصوف ، فهو على النسب كقولهم: نابل ورامح ، وقرئ" يوم عاصف " بالإضافة أي يوم ريح عاصف (لا يقدرون) مستأنف .

قوله تعالى (ألم تر أن الله) يقرأ شاذا بسكون الراء في الوصل على أنه أجراه مجرى الوقف (خلق السموات) يقرأ على لفظ الماضي ، وخالق على فاعل وهو للماضي فيتعرف بالإضافة .

قوله تعالى (تبعا ) إن شئت جعلته جمع تابع مثل: خادم وخدم ، وغايب وغيب ، وإن شئت جعلته مصدر تبع ، فيكون المصدر في موضع اسم الفاعل ، أو يكون التقدير : ذوى تبع (من عذاب الله) في موضع نصب على الحال لإنه في الأصل صفة لشئ تقديره: من شئ من عذاب الله ، ومن زائدة: أي شيئا كائنا من عذاب الله ، ويكون الفعل محمولا على المعنى تقديره: هل تمنعون عنا شيئا ، ويجوز أن يكون شئ واقعا موقع المصدر : أي عناء فيكون من عذاب الله متعلقا بمغنون (سواء علينا أجزعنا ) قد ذكر في أول البقرة .

قوله تعالى (إلا أن دعوتكم) استثناء منقطع ، لأن دعاءه لم يكن سلطانا : أي حجة

(بمصرخي) الجمهور على فتح الياء وهو جمع مصرخ.

فالياء الأولى ياء الجمع ، والثانية ضمير المتكلم ، وفتحت لئلا يجتمع الكسرة واليا آن بعد كسرتين ، ويقرأ بكسرها ، وهو ضعيف لما ذكرنا من الثقل ، وفيها وجهان: أحدهما أنه كسر على الأصل.

(152/415)

---

والثانى أنه أراد مصرخى وهى لغية ، يقول أربابها فتى ورميتيه ، فتتبع الكسرة الياء إشباعا ، إلا أنه في الآية حذف الياء الإخيرة اكتفاء بالكسرة قبلها (بما أشركتمون) في " ما " وجهان.

أحدهما هي بمعنى الذى ، فتقديره على هذا: بالذى أشركتموني به.

أي بالصنم الذى أطعتموني كما أطعتموه ، فحذف العائد والثانى هي مصدرية: أي بإشراككم إياى مع الله عز وجل ، و (من قبل) يتعلق بأشركتمونى: أي كفرت الآن بما أشركتموني من قبل ، وقيل هي متعلقة بكفرت: أي كفرت من قبل إشراككم فلا أنفعكم شيئًا.

قوله تعالى (وأدخل) يقرأ على لفظ الماضي ، وهو معطوف على برزوا ، أو على فقال

الضعفاء ، ويقرأ شاذا بضم اللام على أنه مضارع ، والفاعل الله (بإذن ربهم) يجوز أن يكون من تمام أدخل ، ويكون من تمام خالدين (تحيتهم) يجوز أن يكون المصدر مضافا إلى الفاعل أي يحيى بعضهم بعضا بهذه الكلمة ، وأن

يكون مضافا إلى المفعول ، أي يحييهم الله أو الملائكة .

قوله تعالى (كلمة) بدل من مثل (كشجرة) نعت لها ، ويقرأ شاذا "كلمة" بالرفع ، وكشجرة خبره ، و (تؤتى أكلها) نعت للشجرة ، ويجوز أن يكون حالا من معنى الجملة الثانية: أي ترتفع مؤتية أكلها .

قوله تعالى (مالها من قرار) الجملة صفة لشجرة ، ويجوز أن تكون حالا من الضمير في اجتثت .

قوله تعالى (في الحياة الدنيا) يتعلق بيثبت ، ويجوز أن يتعلق بالثابت .

قوله تعالى (كفرا) مفعول ثان لبدل ، و (جهنم) بدل من دار البوار ، ويجوز أن ينتصب بفعل محذوف: أي يصلون جهنم أو يدخلون جهنم ، و (يصلونها) تفسير له فعلى هذا ليس ليصلونها موضع ، وعلى الأول يجوز أن يكون موضعه حالا من جهنم أو من الدار أو من قومهم .

قوله تعالى (يقيموا الصلاة) فيه ثلاثة أوجه: أحدها هو جواب قل ، وفى

الكلام حذف تقديره: قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا : أي إن تقل لهم يقيموا قاله الأخفش ، ورده قوم قالوا : لأن قول الرسول لهم لا يوجب أن يقيموا ، وهذا عندي لا يبطل قوله ، لأنه لم يرد بالعباد الكفار بل المؤمنين ، وإذا قال الرسول لهم أقيموا الصلاة أقاموها ، ويدل على ذلك قوله " لعبادي الذين آمنوا " والقول الثاني حكى عن المبرد ، وهو أن التقدير قل لهم أقيموا يقيموا فيقيموا المصرح جواب أقيموا المحذوف ، حكاه جماعة ولم يتعرضوا بإفساده ، وهو فاسد لوجهين: أحدهما أن جواب الشرط يخالف الشرط ، إما في الفعل أو في الفاعل أو فيهما ، فأما إذا كان مثله في الفعل والفاعل فهو خطأ كقولك: قم تقم ، والتقدير على ما ذكر في هذا الوجه: إن يقيموا يقيموا ، والوجه الثاني أن الأمر المقدر للمواجهة ، ويقيموا على لفظ الغيبة وهو خطأ إذا كان

الفاعل واحدا .

والقول الثالث أنه مجزوم بلام محذوفة ، تقديره: ليقيموا ، فهو أمر مستأنف ، وجاز حذف اللام لدلالة قل على الأمر (وينفقوا) مثل يقيموا (سرا وعلانية) مصدران في موضع الحال .

قوله تعالى (دائبين) حال من الشمس والقمر .

قوله تعالى (من كل ما سألتموه) يقرأ بإضافة "كل " إلى " ما " فمن على قول الأخفش زائدة ، وعلى قول سيبويه المفعول محذوف تقديره: من كل ما سألتموه ما سألتموه ، و " ما " يجوز

أن تكون بمعنى الذى ، ونكرة موصوفة ومصدرية ، ويكون المصدر بمعنى المفعول ، ويقرأ بتنوين "كل" فما سألتموه على هذا مفعول آتاكم .

قوله تعالى (آمنا) مفعول ثان ، والبلد وصف المفعول الأول (واجنبني) يقال جنبته وأجنبته وجنبته وقد قرئ بقطع الهمزة وكسر النون (أن نعبد) أي عن أن نعبد ، وقد ذكر الخلاف في موضعه من الإعراب مرارا .

قوله تعالى (ومن عصاني) شرط في موضع رفع وجواب الشرط (فإنك غفور رحيم) والعائد محذوف: أي له ، وقد ذكر مثله في يوسف .

(154/415)

---

قوله تعالى (من ذريتي) المفعول محذوف: أي ذرية من ذريتي ، ويخرج على قول الأخفش أن تكون من زائدة (عند بيتك) يجوز أن يكون صفة لواد ، وأن يكون بدلا منه (ليقيموا) اللام متعلقة بأسكنت و (تهوى) مفعول ثان لاجعل ، ويقرأ بكسر الواو ، وماضيه هوى ومصدره الهوى ، ويقرأ بفتح الواو وبالألف بعدها وماضيه هوى يهوى هوى ، والمعنيان متقاربان إلا أن هوى يتعدى بنفسه وهوى يتعدى بإلى إلا أن القراءة الثانية عديت بإلى حملا على تميل .

قوله تعالى (على الكبر) حال من الياء في " وهب لى " .

قوله تعالى (ومن ذريتي) هو معطوف على المفعول في اجعلني ، والتقدير:

ومن ذريتي مقيم الصلاة .

قوله تعالى (وإنما يؤخرهم) يقرأ بالنون على التعظيم ، وبالياء لتقدم اسم الله تعالى (ليوم) أي لأجل جزاء يوم ، وقيل هي بمعنى إلى .

قوله تعالى (مهطعين) هو حال من الأبصار ، وإنما جاز ذلك لأن التقدير تشخص فيه أصحاب الأبصار لأنه يقال: شخص زيد بصره ، أو تكون الأبصار دلت على أربابها ، فجعلت الحال من المدلول عليه ، ويجوز أن يكون مفعولا لفعل محذوف تقديره: تراهم مهطعين (مقنعي رؤوسهم) الإضافة غير محضة لأنه مستقبل أو حال (لا يرتد) حال من الضمير في مقنعي ، أو بدل من مقنعي ، و (طرفهم) مصدر في الأصل بمعنى الفاعل لأنه يقال: ماطرفت عينه ، ولم يبق عين تطرف ، وقد جاء مجموعا (وأفئدتهم هواء) جملة في موضع الحال أيضا ، فيجوز أن يكون العامل في الحال يرتد أو ما قبله من العوامل الصالحة للعمل فيها .

فإن قيل: كيف أفرد هواء وهو خبر لجمع ؟ قيل لما كان معنى هواء هاهنا قارعة منحرفة أفرد ، كما يجوز إفراد قارعة لأن تاء التأنيث فيها تدل على تأنيث الجمع الذى في أفئدتهم ،

ومثله أحوال صعبة ، وأفعال فاسدة ونحو ذلك (يوم يأتيهم) هو مفعول ثان لأنذر ،

والتقدير: وأنذرهم عذاب يوم ، ولايجوز أن يكون ظرفا لأن الإنذار لا يكون في ذلك اليوم .

*(155/415)*

---

قوله تعالى (وتبين لكم) فاعله مضمر دل عليه الكلام: أي تبين لكم حالهم و (كيف) في

موضع نصب ب (فعلنا ) ولايجوز أن يكون فاعل تبين لأمرين: أحدهما أن الاستفهام لا يعمل

فيه ما قبله .

والثانى أن كيف لا تكون إلا خبرا أو ظرفا أو حالا على اختلافهم في ذلك .

قوله تعالى (وعند الله مكرهم) أي علم مكرهم أو جزاء مكرهم ، فحذف المضاف

(لتزول منه) يقرأ بكسر اللام الأولى وفتح الثانية ، وهى لام كى ،

فعلى هذا في " إن " وجهان: أحدهما هي بمعنى ما : أي ما كان مكرهم لإزالة الجبال وهو

تمثيل أمر النبي صلى الله عليه وسلم .

والثانى أنها مخففة من الثقيلة ، والمعنى: أنهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال في الثبوت ، ومثل

هذا المكر باطل ، ويقرأ بفتح اللام

الأولى وضم الثانية ، وإن على هذا مخففة من الثقيلة واللام للتوكيد ، وقرئ شاذا بفتح

اللامين ، وذلك على لغة من فتح لام كى ، وكان هنا يحتمل أن تكون التامة ويحتمل أن تكون الناقصة .

قوله تعالى (مخلف وعده رسله) الرسل مفعول أول ، والوعد مفعول ثان وإضافة مخلف إلى الوعد اتساع ، والأصل مخلف رسله وعده ، ولكن ساغ ذلك لما كان كل واحد منهما مفعولا ، وهو قريب من قولهم: * يا سارق الليلة أهل الدار * قوله تعالى (يوم تبدل) يوم هنا ظرف لانتقام أو مفعول فعل محذوف: أي اذكر يوم ، ولا يجوز أن يكون ظرفا لمخلف ولا لوعده ، لأن ما قبل إن لا يعمل فيما بعدها ، ولكن يجوز أن يلخص من معنى الكلام ما يعمل في الظرف: أي لا يخلف وعده يوم تبدل (والسموات) تقديره غير السموات ، فحذف لدلالة ما قبله عليه (وبرزوا) يجوز أن يكون مستأنفا : أي ويبرزون ، ويجوز أن يكون حالا من الأرض ، وقد معه مرادة .

قوله تعالى (سرابيلهم من قطران) الجملة حال من المجرمين أو من الضمير في مقرنين ، والجمهور على جعل القطران كلمة واحدة ، ويقرأ " قطرآن " كلمتين ، والقطر النحاس ، والآنى المتناهى الحرارة (وتغشى) حال أيضا .

قوله تعالى (ليجزى) أي فعلنا ذلك للجزاء ، ويجوز أن يتعلق ببرزوا .

قوله تعالى (ولينذروا به) المعنى القرآن بلاغ للناس والإنذار ، فتتعلق اللام بالبلاغ أو بمحذوف إذا جعلت للناس صفة ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف تقديره: ولينذروا به أنزل أو تلى ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 65. 71﴾

(157/415)

---

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة إبراهيم

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3)

"الر" هذه الحروف وأمثالها لا محل لها من الإعراب "كِتَابٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة مستأنفة "أَنْزَلْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة "إِلَيْكَ" متعلقان بأنزلناه "لِتُخْرِجَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر باللام ومتعلقان بأنزلناه "النَّاسَ" مفعول به "مِنَ الظُّلُمَاتِ" متعلقان بتخرج "إِلَى النُّورِ" متعلقان بتخرج "بِإِذْنِ" متعلقان بتخرج "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "إِلَى صِرَاطِ" بدل من إلى النور "الْعَزِيزِ" مضاف إليه "الْحَمِيدِ" صفة "اللَّهِ" لفظ الجلالة بدل من العزيز "الَّذِي" في محل جر صفة "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "ما" موصول مبتدأ والجملة صلة الذي "فِي السَّمَاوَاتِ" متعلقان بصلة لما "وَمَا فِي الْأَرْضِ" عطف على ما في السموات وإعرابها مثلها "وَوَيْلٌ" مبتدأ "لِلْكَافِرِينَ" متعلقان بالخبر والجملة مستأنفة "مِنْ عَذَابٍ" متعلقان بويل "شَدِيدٍ" صفة "الَّذِينَ" مبتدأ والجملة مستأنفة "يَسْتَحِبُّونَ" مضارع والواو فاعله والجملة صلة الموصول لا محل لها "الْحَيَاةَ" مفعول به "الدُّنْيَا" صفة منصوبة بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "عَلَى الْآخِرَةِ" متعلقان بيستحبون "وَيَصُدُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة "عَنْ

سَبِيلِ" متعلقان بيصدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَيَبْغُونَهَا" مضارع وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة "عِوَجاً" مفعول به ثان "أُولَئِكَ" مبتدأ والكاف حرف خطاب "فِي ضَلالٍ" متعلقان بالخبر "بَعِيدٍ" صفة والجملة خبر الذين.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 4 الى 5]

*(159/415)*

---

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

"وَما أَرْسَلْنا" الواو استئنافية وما نافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ" حرف جر زائد "رَسُولٍ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "بِلِسانِ" متعلقان بمحذوف حال "قَوْمِهِ" مضاف إليه "لِيُبَيِّنَ" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ومتعلقان بيبين والفاعل مستتر "لَهُمْ" متعلقان بيبين "فَيُضِلُّ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والجملة استئنافية "مَنْ يَشاءُ" من

*(160/415)*

موصولية مفعول به ومضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" إعرابها كسابقتها "وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" مبتدأ وخبراه والجملة حالية "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق وجملة القسم لا محل لها وأرسلنا ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مُوسى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر "بِآياتِنا" متعلقان بأرسلنا ونا مضاف إليه "أَنْ أَخْرِجْ" أن مفسرة وفعل أمر فاعله مستتر "قَوْمَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة تفسيرية لا محل لها "مِنَ الظُّلُماتِ" متعلقان بأخرج "إِلَى النُّورِ" متعلقان بأخرج "وَذَكِّرْهُمْ" أمر فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة معطوفة "بِأَيَّامِ" متعلقان بذكرهم "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَنْ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بالخبر المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة تعليل لا محل لها "لِكُلِّ" متعلقان بصفة "صَبَّارٍ" مضاف إليه "شَكُورٍ" صفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 6 الى 8]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ
تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

*(161/415)*

---

"وَإِذْ" الواو حرف استئناف وإذ ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "قالَ مُوسى " ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "لِقَوْمِهِ" متعلقان بقال والهاء مضاف إليه "اذْكُرُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "نِعْمَةَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان "أَنْجاكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة في محل جر مضاف إليه "مِنْ آلِ" متعلقان بأنجاكم "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة "يَسُومُونَكُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله الأول "سُوءَ" مفعول به ثان "الْعَذابِ" مضاف إليه والجملة حالية "وَيُذَبِّحُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة معطوفة "أَبْناءَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَفِي ذلِكُمْ" ذا اسم إشارة ومتعلقان بخبر مقدم "بَلاءٌ" مبتدأ مؤخر "مِنْ رَبِّكُمْ" صفة بلاء والكاف مضاف إليه "عَظِيمٌ" صفة ثانية والجملة معطوفة "وَإِذْ" الواو استئنافية وإذ ظرف زمان "تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة مضاف إليه

"لَئِنْ" اللام موطئة للقسم المحذوف وإن شرطية "شَكَرْتُمْ" ماض وفاعله والجملة فعل الشرط "لَأَزِيدَنَّكُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم وجواب الشرط محذوف "وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ" إعرابها كسابقتها إن شرطية وماض وفاعله وهو



---

فعل الشرط والجملة معطوفة "إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة مستأنفة "وَقَالَ مُوسَى" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنْ تَكْفُرُوا" إن شرطية ومضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل وهو فعل الشرط "أَنْتُمْ" في محل رفع توكيد للفاعل "وَمَنْ" اسم موصول معطوف على الواو "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بصلة الموصول "جَمِيعاً" حال "فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ" الفاء رابطة للجواب وإن ولفظ الجلالة اسمها وغني حميد خبراها واللام المزحلقة والجملة في محل جزم جواب الشرط.

[سورة إبراهيم (14) : آية 9]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ

جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

(163/415)

---

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف جازم "يَأْتِكُمْ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والكاف مفعوله والميم للجمع "نَبَؤُا" فاعل والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" موصول مضاف إليه "مِنْ قَبْلِكُمْ" متعلقان بالصلة المحذوفة "قَوْمِ" بدل مجرور من الذين "نُوحٍ" مضاف إليه "وَعادٍ" معطوف على نوح "وَثَمُودَ" معطوف مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "وَالَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ" لا نافية ومضارع والهاء مفعوله وإلا أداة حصر ولفظ الجلالة فاعل والجملة لا محل لها لأنها جملة اعتراضية "جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ" ماض ومفعوله وفاعله والهاء مضاف إليه "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بجاءتهم والجملة استئنافية "فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "فِي أَفْواهِهِمْ" متعلقان بردوا "وَقالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "إِنَّا" إن واسمها والجملة مقول القول "كَفَرْنا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "بِما" ما موصولية ومتعلقان بكفرنا "أُرْسِلْتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة صلة "بِهِ"

متعلقان بأرسلتم "وَإِنَّا" إن واسمها والجملة معطوفة "لَفِي شَكٍّ" اللام المزحلقة ومتعلقان بالخبر المحذوف "مِمَّا" من وما الموصولية متعلقان بشك "تَدْعُونَنا" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة "إِلَيْهِ" متعلقان بتدعوننا "مُرِيبٍ" صفة لشك.

[سورة إبراهيم (14) : آية 10]

قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (10)

*(164/415)*

---

"قالَتْ رُسُلُهُمْ" ماض والتاء للتأنيث ورسلهم فاعل والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "أَفِي اللَّهِ" الهمزة للاستفهام ولفظ الجلالة مجرور بفي متعلقان بخبر مقدم "شَكٌّ" مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "فاطِرِ" صفة لله "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "يَدْعُوكُمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وفاعله مستتر والكاف مفعول به والميم للجمع والجملة في محل نصب على الحال "لِيَغْفِرَ" اللام للتعليل ومضارع منصوب وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر ومتعلقان

بيدعوكم "لَكُمْ" متعلقان بيغفر "مِنْ ذُنُوبِكُمْ" متعلقان بيغفر والكاف مضاف إليه "وَيُؤَخِّرَكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله محذوف والجملة معطوفة "إِلى أَجَلٍ" متعلقان بيؤخركم "مُسَمًّى" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنْ" نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بَشَرٌ" خبر والجملة مقول القول "مِثْلُنا" صفة لبشر ونا مضاف إليه "تُرِيدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "إِنْ" ناصبة "تَصُدُّونا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل ونا مفعول به والجملة من أن والفعل في تأويل المصدر في محل نصب مفعول به لتريدون "عَمَّا" ما موصولية ومتعلقان بتصدونا "كانَ" فعل ماض ناقص واسمها محذوف والجملة صلة "يَعْبُدُ آباؤُنا" مضارع وفاعله ونا مضاف إليه والجملة خبر كان "فَأْتُونا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِسُلْطانٍ" متعلقان بأتونا "مُبِينٍ" صفة سلطان.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 11 الى 12]

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا
أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى
اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

(166/415)

---

"قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ" ماض والتاء للتأنيث ورسلهم فاعل مؤخر والهاء مضاف إليه ولهم متعلقان بقالت والجملة مستأنفة "إِنْ" نافية "نَحْنُ" مبتدأ "إِلَّا" أداة حصر "بَشَرٌ" خبر والجملة مقول القول "مِثْلُكُمْ" صفة "وَلَكِنَّ اللَّهَ" لكن حرف مشبه بالفعل ولفظ الجلالة اسمه والجملة معطوفة "يَمُنُّ" مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر والجملة خبر "عَلَى مَنْ" من موصولية متعلقان بيمن "يَشَاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ عِبَادِهِ" متعلقان بمحذوف حال "وَمَا" الواو استئنافية وما نافية "كَانَ" فعل ماض ناقص "لَنَا" متعلقان بخبر كان المقدم والجملة مستأنفة "إِنْ" ناصبة "نَأْتِيَكُمْ" مضارع وفاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة في تأويل المصدر اسم كان "بِسُلْطَانٍ" متعلقان بنأتيكم "إِلَّا" أداة حصر "بِإِذْنِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهَ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَعَلَى اللَّهِ" الواو عاطفة ولفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بيتوكل "فَلْيَتَوَكَّلِ" الفاء استئنافية ولام الأمر ومضارع مجزوم

بلام الأمر "الْمُؤْمِنُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة مستأنفة "وَما لَنا" الواو استئنافية وما اسم استفهام مبتدأ ولنا متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "أَلَّا" أن ناصبة ولا نافية "نَتَوَكَّلَ" مضارع فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بمحذوف حال "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "هَدانا" ماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر "سُبُلَنا" مفعوله به ثان ونا مضاف إليه والجملة حالية "وَلَنَصْبِرَنَّ" حرف عطف ومضارع بني على الفتح واللام واقعة في جواب القسم المحذوف "عَلى ما" متعلقان بالفعل "آذَيْتُمُونا" ماض وفاعله ومفعوله والواو لإشباع الضمة والجملة صلة "وَعَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة

(167/415)

---

مجرور بعلى متعلقان بيتوكل والواو عاطفة "فَلْيَتَوَكَّلِ" الفاء استئنافية ومضارع مجزوم بلام الأمر "الْمُتَوَكِّلُونَ" فاعل مرفوع بالواو والجملة مستأنفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 13 الى 15]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15)

"وَقالَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعله والجملة استئنافية "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة.

"لِرُسُلِهِمْ" متعلقان بقال "لَنُخْرِجَنَّكُمْ" اللام موطئة للقسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب قس وفاعله والجملة معطوفة "جَبَّارٍ" مضاف إليه "عَنِيدٍ" صفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 16 الى 18]

مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (18)

"مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ" مبتدأ مؤخر ومتعلقان بخبر مقدم والجملة صفة ثانية لجبار "وَيُسْقى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف والجملة معطوفة "مِنْ ماءٍ" متعلقان بيسقى "صَدِيدٍ" بدل من ماء "يَتَجَرَّعُهُ" مضارع فاعله محذوف والهاء مفعوله والجملة مستأنفة أو صفة لماء "وَلا يَكادُ" الواو عاطفة

ولا نافية ويكاد مضارع ناقص اسمه محذوف والجملة معطوفة "يُسِيغُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة خبر "وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بيأتيه "مَكانٍ" مضاف إليه "وَما هُوَ بِمَيِّتٍ" الواو حالية وما تعمل عمل ليس وهو في محل رفع اسمها والباء زائدة وميت خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة حالية "وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ" الواو عاطفة ومبتدأ مؤخر ومتعلقان بخبر مقدم والجملة معطوفة "غَلِيظٌ" صفة عذاب "مَثَلُ" مبتدأ "الَّذِينَ" موصول مضاف إليه والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بكفروا "أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ" مبتدأ والهاء مضاف إليه ومتعلقان بالخبر والجملة استئنافية "اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ" ماض والتاء للتأنيث والريح فاعله ومتعلقان باشتدت والجملة صفة لرماد "فِي يَوْمٍ" متعلقان باشتدت "عاصِفٍ" صفة ليوم "لا يَقْدِرُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بمحذوف حال "كَسَبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلى شَيْءٍ" متعلقان بيقدرون "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "هُوَ" مبتدأ ثان "الضَّلالُ" خبر هو والجملة خبر ذلك "الْبَعِيدُ" صفة الضلال.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 19 الى 21]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ
عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21)

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم جازمة "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة وفاعله محذوف والجملة مستأنفة "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها وأن وما بعدها سد مسد مفعولي تر "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ" ماض وفاعله مستتر ومفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة خبر إن "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات منصوب مثله "بِالْحَقِّ" متعلقان بخلق "إِنْ يَشَأْ" إن شرطية ومضارع مجزوم فعل الشرط وفاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "يُذْهِبْكُمْ" مضارع مجزوم جواب الشرط وفاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "وَيَأْتِ" مضارع معطوف على ما سبق وهو مجزوم مثله وفاعله مستتر "بِخَلْقٍ" متعلقان بيأت "جَدِيدٍ" صفة "وَمَا" الواو حرف استئناف وما تعمل عمل ليس "ذَلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب في محل رفع اسم ما

"عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بعزيز "بِعَزِيزٍ" الباء حرف جر زائد وعزيز خبر ما مجرور لفظا منصوب محلا "وَبَرَزُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان ببرزوا "جَمِيعاً" حال "فَقَالَ الضُّعَفَاءُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة

(170/415)

---

"لِلَّذِينَ" موصول متعلقان بقال "اسْتَكْبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِنَّا" إن واسمها والجملة مقول القول "كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً" كان واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بتبعا والجملة خبر إنا "فَهَلْ" الفاء حرف استئناف وهل حرف استفهام "أَنْتُمْ مُغْنُونَ" مبتدأ وخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "عَنَّا" متعلقان بمغنون "مِنْ عَذَابِ" متعلقان بمغنون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ شَيْءٍ" من حرف جر زائد وشيء مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به لاسم الفاعل مغنون "قَالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "هَدَانَا" ماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها "لَهَدَيْنَاكُمْ" اللام واقعة في جواب الشرط وفعل ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "سَوَاءٌ" مبتدأ "عَلَيْنَا" الجار

والمجرور متعلقان بسواء "أَجَزِعْنا" الهمزة للتسوية وماض وفاعله والجملة من همزة التسوية وما بعدها مقول القول "أَمْ" عاطفة "صَبَرْنا" معطوف على جزعنا "ما لَنا" ما تعمل عمل ليس ولنا متعلقان بالخبر المقدم "مِنْ مَحِيصٍ" من حرف جر زائد ومحيص اسم ما مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مقول القول.

[سورة إبراهيم (14) : آية 22]

وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22)

(171/415)

---

"وَقالَ الشَّيْطانُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَمَّا" ظرف بمعنى حين "قُضِيَ الْأَمْرُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مقول القول "وَعَدَكُمْ وَعْدَ" ماض فاعله مستتر ووعد مفعوله ومفعول مطلق والجملة خبر "الْحَقِّ" مضاف إليه "وَوَعَدْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على الخبر

"فَأَخْلَفْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَما" الواو استئنافية وما نافية "كانَ" ماض ناقص "لِي" متعلقان بالخبر المقدم "عَلَيْكُمْ" متعلقان بحال محذوفة "مِنْ" حرف جر زائد "سُلْطانٍ" اسم كان مجرور لفظا مرفوع محلا "إِلَّا" أداة استثناء "أَنْ دَعَوْتُكُمْ" أن مخففة "دَعَوْتُكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب على الاستثناء المنقطع "فَاسْتَجَبْتُمْ" ماض وفاعله والجملة معطوفة بالفاء "لِي" متعلقان باستجبتم "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَلُومُونِي" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والياء مفعول به والجملة لا محل لها "وَلُومُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة "أَنْفُسَكُمْ" مفعول به والكاف مضاف إليه "ما أَنَا" ما تعمل عمل ليس وأنا اسمها "بِمُصْرِخِكُمْ" الباء زائدة ومصرخكم مجرور لفظا منصوب محلا خبر والجملة لا محل لها "وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ" إعرابها كسابقتها "إِنِّي" إن والياء اسمها "كَفَرْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر إن "بِما" متعلقان بكفرت "أَشْرَكْتُمُونِ" ماض وفاعله والواو للإشباع والنون للوقاية والياء مفعوله والجملة صلة "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بأشركتموني "إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ" إن واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بعذاب "أَلِيمٌ" صفة والجملة مستأنفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 23 الى 25]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)

(173/415)

"وَأُدْخِلَ" ماض مبني للمجهول "الَّذِينَ" موصول نائب فاعل والجملة مستأنفة "آَمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الصَّالِحَاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "جَنَّاتٍ" مفعول به ثان على التوسعة "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بتجري "الْأَنْهَارُ" فاعل والجملة صفة لجنات "خَالِدِينَ" حال "فِيهَا" متعلقان بخالدين "بِإِذْنِ" متعلقان بأدخل "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "تَحِيَّتُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "فِيهَا" متعلقان بتحية "سَلَامٌ" خبر "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم حرف جازم "تَرَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والجملة مستأنفة "كَيْفَ" اسم استفهام حال "ضَرَبَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة

فاعله "مَثَلًا" مفعول به "كَلِمَةً" بدل من مثلا "طَيِّبَةً" صفة لكلمة "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ" متعلقان بصفة ثانية لكلمة وطيبة صفة لشجرة "أَصْلُها ثابِتٌ" مبتدأ وخبر والهاء مضاف إليه والجملة صفة ثانية لشجرة "وَفَرْعُها" مبتدأ والهاء مضاف إليه "فِي السَّماءِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة "تُؤْتِي أُكُلَها" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر وأكلها مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة أو حالية "كُلَّ" ظرف زمان "حِينٍ" مضاف إليه "بِإِذْنِ" متعلقان بتؤتي "رَبِّها" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والأمثال مفعوله والجملة معطوفة "لِلنَّاسِ" متعلقان بيضرب "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها والجملة تعليل لا محل لها "يَتَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 26 الى 27]



---

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27)

"وَمَثَلُ" الواو عاطفة ومثل مبتدأ "كَلِمَةٍ" مضاف إليه "خَبِيثَةٍ" صفة "كَشَجَرَةٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "خَبِيثَةٍ" صفة لشجرة والجملة معطوفة على ما سبق "اجْتُثَّتْ" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث ونائب فاعله محذوف والجملة صفة ثانية لشجرة "مِنْ فَوْقِ" متعلقان باجتثت "الْأَرْضِ" مضاف إليه "ما لَها" ما نافية ولها متعلقان بخبر مقدم "مِنْ" حرف جر زائد "قَرارٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة صفة ثانية لشجرة "يُثَبِّتُ اللَّهُ" فعل مضارع ولفظ الجلالة فاعل "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِالْقَوْلِ" متعلقان بيثبت "الثَّابِتِ" صفة "فِي الْحَياةِ" متعلقان بالفعل يثبت "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَفِي الْآخِرَةِ" معطوف على الدنيا "وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والظالمين مفعوله والجملة معطوفة "وَيَفْعَلُ اللَّهُ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة "ما يَشاءُ" ما اسم موصول مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 28 الى 31]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31)

*(176/415)*

---

"أَلَمْ" الهمزة للاستفهام لم حرف جازم "تَرَ" فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والجملة استئنافية "إِلَى الَّذِينَ" جار ومجرور متعلقان بتر وهو سدّ مسدّ مفعولي تر "بَدَّلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "نِعْمَتَ" مفعول به أول "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "كُفْرًا" مفعول به ثان "وَأَحَلُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "قَوْمَهُمْ" مفعول به أول "دارَ" مفعول به ثان "الْبَوارِ" مضاف إليه "جَهَنَّمَ" بدل من دار "يَصْلَوْنَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة حال "وَبِئْسَ الْقَرارُ" الواو استئنافية "بِئْسَ" فعل ماض لإنشاء الذم "الْقَرارُ" فاعل والجملة مستأنفة "وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدادًا" ماض وفاعله ومفعوله الأول ولفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالمفعول الثاني والجملة معطوفة "لِيُضِلُّوا" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بحذف النون والواو فاعل "عَنْ سَبِيلِهِ" جار ومجرور متعلقان بالفعل قبله

وكذلك اللام وما بعدها ، والهاء في محل جر بالإضافة "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "تَمَتَّعُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ" إن واسمها والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف والجملة تعليل "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِعِبادِيَ" متعلقان بقل والياء مضاف إليه "الَّذِينَ" اسم موصول صفة لعبادي "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "يُقِيمُوا الصَّلاةَ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب بحذف النون والواو فاعله والجملة مقول القول والصلاة مفعول به "وَيُنْفِقُوا" معطوف على يقيموا وإعرابه مثله "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية متعلقان بينفقوا "رَزَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعول به والجملة صلة "سِرًّا" حال "وَعَلانِيَةً" معطوف على سرا "مِنْ قَبْلِ" متعلقان بينفق "أَنْ" ناصبة "يَأْتِيَ يَوْمٌ" مضارع و



---

فاعله "لا بَيْعٌ" لا نافية ومبتدأ "فِيهِ" متعلقان بالخبر "وَلا خِلالٌ" معطوف على لا بيع والجملة صفة ليوم .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 32 الى 34]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنهارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

(178/415)

---

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر "خَلَقَ السَّماواتِ" ماض ومفعوله المجرور بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وفاعله مستتر والجملة صلة "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات منصوب مثله "وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً" ماض فاعله مستتر وماء مفعوله ومتعلقان بأنزل والجملة معطوفة "فَأَخْرَجَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة بالفاء "بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ" الجاران والمجروران متعلقان بأخرج "رِزْقاً" مفعول به أو مفعول لأجله "لَكُمْ" متعلقان برزقا "وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ" ماض فاعله مستتر والفلك مفعوله والجار والمجرور متعلقان بسخر والجملة معطوفة "لِتَجْرِيَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر مجرور باللام ومتعلقان بسخر "فِي الْبَحْرِ" متعلقان بتجري "بِأَمْرِهِ" متعلقان بتجري والهاء مضاف إليه "وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنهارَ" معطوف على سخر لكم الفلك وهو مثلها لا محل لها "وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ"

الجملة معطوفة على ما سبق وإعرابها كسابقتها "وَالْقَمَرَ" معطوف على الشمس "دائِبَيْنِ" حال "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ" ماض ومفعوله ومتعلقان بسخر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "وَآتاكُمْ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة معطوفة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بآتاكم "ما" موصول في محل جر مضاف إليه "سَأَلْتُمُوهُ" ماض والتاء فاعله والواو للإشباع والهاء مفعول به والجملة صلة "وَإِنْ تَعُدُّوا" إن شرطية ومضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله وجملة فعل الشرط لا محل لها من الأعراب "نِعْمَتَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لا تُحْصُوها" لا نافية ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ

(179/415)

---

كَفَّارٌ" إن واسمها وخبراها واللام لام المزحلقة والجملة مستأنفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 35 الى 36]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)

"وَإِذْ" الواو حرف استئناف وإذ ظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر وجملته مستأنفة

"قال إِبْراهِيمُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "رَبِّ" منادى منصوب لأنه مضاف والياء المحذوفة للتخفيف مضاف إليه "اجْعَلْ" فعل دعاء وفاعله مستتر "هَذَا" ذا اسم إشارة في محل نصب مفعول به أول والهاء للتنبيه "الْبَلَدَ" بدل "آمِناً" مفعول به ثان والجملة مقول القول "وَاجْنُبْنِي" فعل دعاء والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به أول والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما سبق "وَبَنِيَّ" الواو عاطفة وبني معطوف على الياء في اجنبني منصوب مثلها وعلامة نصبه الياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم والياء



---

مضاف إليه "أَنْ نَعْبُدَ" أن ناصبة ومضارع منصوب وفاعله مستتر وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب مفعول به ثان "الْأَصْنامَ" مفعول به لنعبد . "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء محذوفة للتخفيف في محل جر مضاف إليه "إِنَّهُنَّ" إن واسمها والجملة مقول القول "أَضْلَلْنَ" ماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل "كَثِيراً" مفعول به والجملة خبر إن "مِنَ النَّاسِ" متعلقان بأضللن "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم شرط جازم مبتدأ "تَبِعَنِي" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مع جملة الجواب خبر المبتدأ "فَإِنَّهُ" الفاء رابطة للجواب وإن

واسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط و"مِنّي" متعلقان بالخبر المحذوف "وَمَنْ عَصانِي" معطوف على من تبعني "فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة معطوفة.

[سورة إبراهيم (14) : آية 37]

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)



---

"رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف إليه وجملة النداء لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها "أَسْكَنْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر والجملة الاسمية مستأنفة "مِنْ ذُرِّيَّتِي" متعلقان بأسكنت والياء مضاف إليه "بِوادٍ" متعلقان بأسكنت "غَيْرِ" صفة لواد "ذِي" مضاف إليه "زَرْعٍ" مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بأسكنت "بَيْتِكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "الْمُحَرَّمِ" صفة لبيتك "رَبَّنا" منادى بأداة محذوفة منصوب ونا مضاف إليه "لِيُقِيمُوا" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والجملة مستأنفة والجار والمجرور المكون من اللام وما بعدها في تأويل

المصدر متعلقان بأسكنت "الصَّلاةَ" مفعول به "فَاجْعَلْ" الفاء الفصيحة وفعل دعاء فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جملة جواب شرط غير جازم "أَفْئِدَةً" مفعول به "مِنَ النَّاسِ" صفة لأفئدة "تَهْوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "إِلَيْهِمْ" متعلقان بتهوي "وَارْزُقْهُمْ" فعل دعاء فاعله مستتر والهاء مفعول به وهو معطوف على ما سبق "مِنَ الثَّمَراتِ" متعلقان بارزقهم "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر لعل وجملة لعل واسمها وخبرها تعليل لا محل لها من الإعراب.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 38 الى 40]

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ
(38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ
(39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40)

(182/415)

---

"رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف إليه وجملة النداء لا محل لها. "إِنَّكَ" إن واسمها والجملة مستأنفة. "تَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إنك "ما" اسم

موصول في محل نصب مفعول به "نُخْفِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة صلة "وَما" معطوفة على ما السابقة "نُعْلِنُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "يَخْفى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بيخفى "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صفة لشيء "وَلا فِي السَّماءِ" الواو عاطفة ولا زائدة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لشيء "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بمحذوف خبر والجملة مستأنفة "الَّذِي" موصول صفة لله "وَهَبَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "لِي" متعلقان بوهب "عَلَى الْكِبَرِ" متعلقان بمحذوف حال "إِسْماعِيلَ" مفعول به "وَإِسْحاقَ" معطوف على إسماعيل "إِنَّ رَبِّي" إن واسمها المنصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والجملة مستأنفة "لَسَمِيعُ" اللام المزحلقة وسميع خبر إن "الدُّعاءِ" مضاف إليه "رَبِّ" منادى بأداة محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف والياء مضاف إليه "اجْعَلْنِي" فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعول به أول "مُقِيمَ" مفعول به ثان "الصَّلاةِ" مضاف إليه "وَمِنْ ذُرِّيَّتِي" الجار والمجرور معطوفان على ياء المتكلم في اجعلني وياء المتكلم مضاف إليه "رَبَّنا" منادى بأداة

نداء محذوفة منصوب ونا مضاف إليه "وَتَقَبَّلْ" فعل دعاء فاعله مستتر "دُعاءِ" مفعول به منصوب

*(183/415)*

---

بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء المحذوفة مضاف إليه وحذفت للتخفيف والجملة معطوفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 41 الى 42]

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41) وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42)

"رَبَّنَا" منادى منصوب بالياء المحذوفة ونا مضاف إليه "اغْفِرْ" فعل دعاء فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِي" متعلقان باغفر "وَلِوالِدَيَّ" معطوف على لي "وَلِلْمُؤْمِنِينَ" معطوف على والدي "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بمحذوف حال "يَقُومُ الْحِسابُ" مضارع وفاعله والجملة مضاف إليه "وَلا" الواو استئنافية "لا" ناهية "تَحْسَبَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والجملة في محل جزم بلا وفاعله مستتر "اللَّهَ غافِلًا" مفعولا تحسبنّ "عَمَّا" عن حرف جر وما اسم موصول، متعلقان بغافلا "يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ" مضارع

وفاعله المرفوع بالواو والجملة صلة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يُؤَخِّرُهُمْ" مضارع مرفوع والهاء مفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لِيَوْمٍ" متعلقان بيؤخرهم "تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ" مضارع وفاعله والجار والمجرور متعلقان بتشخص وجملة تشخص في محل جر مضاف إليه.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 43 الى 44]

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44)

*(184/415)*

---

"مُهْطِعِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "مُقْنِعِي" حال منصوبة بالياء وحذفت النون للإضافة "رُؤُسِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "لا" نافية "يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ" مضارع وفاعله والجار والمجرور متعلقان بيرتد والهاء مضاف إليه والجملة في محل نصب على الحال أو مستأنفة "وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ" مبتدأ وخبر والهاء في أفئدتهم مضاف إليه والجملة مستأنفة او حالية "وَأَنْذِرِ" فعل أمر فاعله مستتر "النَّاسَ" مفعول به أول والجملة

معطوفة على ما سبق "يَوْمَ" مفعول به ثان "يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ" مضارع وفاعله والهاء مفعوله والجملة مضاف إليه "فَيَقُولُ" الفاء عاطفة "يقول" مضارع مرفوع "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل والجملة معطوفة "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف إليه "أَخِّرْنا" فعل دعاء وفاعله والجملة مقول القول "إِلى أَجَلٍ" جار ومجرور متعلقان بأخّرنا "قَرِيبٍ" صفة لأجل "نُجِبْ" مضارع فاعله مستتر وهو مجزوم لأنه جواب الطلب والجملة لا محل لها من الإعراب "دَعْوَتَكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه "وَنَتَّبِعِ" معطوف على نجب مجزوم مثله وفاعله مستتر وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين "الرُّسُلَ" مفعول به منصوب "أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو عاطفة لم جازمة "تَكُونُوا" مضارع ناقص مجزوم والواو اسمها والجملة مقول القول لفعل محذوف أي فيقال لهم هذا القول "أَقْسَمْتُمْ" ماض وفاعله والجملة خبر "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بأقسمتم "ما" نافية "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المقدم "مِنْ" حرف جر زائد "زَوالٍ" خبر مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 45 الى 46]

وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46)

"وَسَكَنْتُمْ" ماض وفاعله والميم للجمع والجملة معطوفة على أقسمتم "فِي مَساكِنِ" تتعلقان بسكنتم "الَّذِينَ" موصول مضاف إليه "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَتَبَيَّنَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما سبق "لَكُمْ" متعلقان بتبين "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب مفعول مطلق أو حال "فَعَلْنا" ماض وفاعله "بِهِمْ" متعلقان بفعلنا والجملة مفسرة لا محل لها "وَضَرَبْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما سبق "لَكُمْ" متعلقان بضربنا "الْأَمْثالَ" مفعول به "وَقَدْ" الواو استئنافية وقد حرف تحقيق "مَكَرُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مَكْرَهُمْ" مفعول مطلق "وَعِنْدَ اللَّهِ" الواو حالية وعند ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم ولفظ الجلالة مضاف إليه "مَكْرُهُمْ" مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة حالية "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن نافية "كانَ مَكْرُهُمْ" كان واسمها والهاء مضاف إليه والجملة استئنافية "لِتَزُولَ" اللام لام الجحود والمصدر المؤول في محل جر خبر كان ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود "مِنْهُ" متعلقان بتزول "الْجِبالُ" فاعل.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 47 الى 50]

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (49) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50)

"فَلا" الفاء استئنافية ولا ناهية "تَحْسَبَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر "اللَّهَ مُخْلِفَ" مفعولا تحسبن "وَعْدِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه وهو مفعول مخلف الثاني في الأصل "رُسُلَهُ" مفعول مخلف الأول لأن مخلف اسم فاعل "إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وعزيز خبرها "ذُو" خبر ثان مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة "انتِقامٍ" مضاف إليه والجملة تعليل لا محل لها "يَوْمَ" ظرف زمان بدل من يوم يأتيهم "تُبَدَّلُ الْأَرْضُ" مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله والجملة مضاف إليه "غَيْرَ" مفعول به ثان والأرض كان مفعوله الأول فصار نائب فاعل "الْأَرْضُ" مضاف إليه "وَبَرَزُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة على سابقتها "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور متعلقان ببرزوا "الْواحِدِ" صفة لله "الْقَهَّارِ" صفة ثانية "وَتَرَى" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف وفاعله مستتر "الْمُجْرِمِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة "مُقَرَّنِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فِي الْأَصْفادِ" متعلقان بمقرنين "سَرابِيلُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "مِنْ قَطِرانٍ" متعلقان بالخبر والجملة مستأنفة

"وَتَغْشى " الواو عاطفة وفعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر

"وُجُوهَهُمُ" مفعول به مقدم والهاء مضاف إليه "النَّارُ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 51 الى 52]

(187/415)

---

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (52)

"لِيَجْزِيَ اللَّهُ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور المكون من لام التعليل وأن المضمرة وما بعدها في تأويل المصدر متعلقان ببرزوا ولفظ الجلالة فاعل "كُلَّ" مفعول به أول "نَفْسٍ" مضاف إليه "ما" موصولة في محل نصب مفعول به ثان "كَسَبَتْ" ماض والتاء للتأنيث وفاعله مستتر والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ" إن ولفظ الجلالة اسمها وسريع خبرها والحساب مضاف إليه والجملة مستأنفة "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "بَلاغٌ" خبر "لِلنَّاسِ" متعلقان ببلاغ والجملة مستأنفة "وَلِيُنْذَرُوا" الواو عاطفة واللام للتعليل ومضارع مبني للمجهول منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور

بلام التعليل ومتعلقان بمحذوف تقديره لينصحوا ولينذروا "بِهِ" متعلقان بينذروا "وَلِيَعْلَمُوا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل وهو معطوف "أَنَّما" كافة ومكفوفة "هُوَإِلَهٌ" مبتدأ وخبر وسد أن وما بعدها مسد مفعولي يعلموا "واحِدٌ" صفة لإله "وَلِيَذَّكَّرَ" الواو عاطفة واللام للتعليل ومضارع منصوب بأن وهو معطوف على ما سبق "أُولُوا" فاعل مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "الْأَلْبابِ" مضاف إليه.

انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 124. 138﴾

*(188/415)*

---

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

655 - الحَدِيث الأول

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ (من أَذَى جَاره ورثه الله دَاره)

656 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن ابْن عمر رَضِي اللَّهُ عَنهُ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ ذَات يَوْم إِن الله ضرب مثل الْمُؤمن بشجرة فَأَخْبرُونِي مَا هِيَ ) فَوَقع النَّاس فِي شجر الْبَوَادِي وَكنت صَبيا فَوَقع فِي قلبِي أَنَّهَا النَّخْلَة فهبت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأَنا أَصْغَر الْقَوْم وروي فَمَنَعَنِي مَكَان عمر وَاسْتَحْيَيْت فَقَالَ عمر يَا بني لَو كنت قلتهَا لَكَانَ أحب إِلَيّ من حمر النعم ثمَّ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّهَا ( النَّخْلَة )

قَالَ الطَّيِّبِيّ وَيُوجد فِي بعض النّسخ ابْن عَبَّاس وَلَيْسَ بِصَحِيح

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْعلم وَفِي الْبيُوع وَفِي الْأَطْعِمَة وَمُسلم فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث مُجَاهِد عَن ابْن عمر قَالَ كُنَّا عِنْد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأتى بجمار فَقَالَ ( إِن من الشّجر شَجَرَة مثلهَا كَمثل الْمُسلم ) فَأَرَدْت أَن أَقُول هِيَ النَّخْلَة فَإِذا أَنا أَصْغَر الْقَوْم فَسكت فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ( هِيَ النَّخْلَة ) وَزَاد مُسلم فَذكرت ذَلِك لعمر فَقَالَ لِأَن يكون قلت هِيَ النَّخْلَة أحب إِلَيّ من كَذَا وَكَذَا انْتهى

657 - الحَدِيث الثَّالِث

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ قَبْضَ رُوحِ الْمُؤْمِنِ فَقَالَ ( ثُمَّ تُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينِي الْإِسْلَامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي )

قُلْتُ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ مِنْ حَدِيثِ الْمِنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ زَاذَانَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ بَعْدُ قَالَ فَقَعَدْنَا حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ يَرْفَعُ بَصَرَهُ وَيَخْفِضُهُ ثُمَّ قَالَ ( إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ) إِلَى أَنْ قَالَ ( ثُمَّ يُعَادُ رُوحُهُ إِلَى جَسَدِهِ فَتَأْتِيهِ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ اللَّهُ فَيَقُولُونَ وَمَا دِينُكَ فَيَقُولُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُونَ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي خَرَجَ فِيكُمْ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي )

مُخْتَصَرٌ

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَقَالَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ رَاهَوَيْهِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مَسَانِيدِهِمْ بِطُولِهِ

وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مُخْتَصر أَخْرجَاهُ عَن سعد بن عُبَيْدَة عَن الْبَراء بن عَازِب مَرْفُوعا قَالَ يثبت الله الَّذين آمنُوا بالْقَوْل الثَّابت فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفِي

(190/415)

---

الْآخِرَة) نزلت فِي عَذَاب الْقَبْر يُقَال لَهُ من رَبك فَيَقُول رَبِّي الله ونبيي مُحَمَّد فَذَلِك قَوْله تَعَالَى يثبت الله الَّذين آمنُوا الْآيَة

انْتَهى

658 - الحَدِيث الرَّابِع قَالَ الْمُصَنّف وَمِنْه قَوْله (من غشنا فَلَيْسَ منا)

قلت هُوَ حَدِيث مَرْفُوع رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن مَسْعُود وَمن حَدِيث الْحَارِث بن سعيد النّخعِيّ وَمن حَدِيث أبي بردة وَمن حَدِيث أبي الْحَمْرَاء وَمن حَدِيث أبي مُوسَى وَمن حَدِيث عَليّ وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث الْبَراء بن عَازِب وَمن حَدِيث عَائِشَة وَمن حَدِيث أنس وَمن حَدِيث عبد الله بن أبي ربيعَة

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الْإِيمَان من حَدِيث أبي صَالح عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من حمل علينا السَّيْف فَلَيْسَ منا وَمن غشنا فَلَيْسَ منا)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الرَّابِع والثمانين من الْقسم الثَّانِي من حَدِيث عَاصِم بن أبي النجُود عَن زر عَن عبد الله بن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من غَشنَا فَلَيْسَ منا وَالْمَكْر والْخداع فِي النَّار)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث الْحَارِث بن سعيد النَّخعِيّ فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْبيُوع من حَدِيث عبد الله بن عِيسَى عَن عُمَيْر بن سعيد عَن عَمه واسْمه الْحَارِث بن سعيد النَّخعِيّ قَالَ خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى البقيع فَرَأى طَعَاما يُبَاع فِي غرَائِر فَأدْخل يَده فَأخْرج شَيْئا كرهه فَقَالَ (من غَشنَا فَلَيْسَ منا)

انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث صَحِيح



---

وَأما حَدِيث أبي بردة فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده حَدثنَا أسود بن عَمْرو حَدثنَا شريك عَن عبد الله بن عِيسَى عَن جَمِيع بن عُمَيْر عَن خَاله أبي بردة بن

نيار أَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . بنَحْوِهِ

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى أخبرَنَا أَحْمد بن عُثْمَان بن حَكِيم حَدثنَا أَبُو الْمُنْذر يَحْيَى بن الْمُنْذر الْكِنْدِيّ شيخ صَدُوق أَنا شريك عَن عبد الله بن عِيسَى بِهِ سَوَاء

وَأما حَدِيث أبي الْحَمْرَاء فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة أَيْضا حَدثنَا فضل بن دُكَيْن عَن يُونُس عَن أبي دَاوُد عَن أبي الْحَمْرَاء مَرْفُوعا . . . نَحوه

قَالَ التِّرْمِذِيّ فِي علله الْكُبْرَى بعد أَن رَوَاهُ بِسَنَدِهِ سَأَلت مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل عَن هَذَا الحَدِيث فَقَالَ لَا يَصح لأبي الْحَمْرَاء عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَدِيث وَأَبُو دَاوُد نفيع الْأَعْمَى ذَاهِب الحَدِيث لَا أكتب حَدِيثه قلت فَأَبُو الْحَمْرَاء مَا أُسَمِّه فَلم يعرفهُ انْتَهَى

وَرَأَيْت فِي حَاشِيَة بِخَط بعض الْفُضَلَاء أَبُو الْحَمْرَاء ذكره فِي الصَّحَابَة ابْن أبي خَيْثَمَة وَابْن أبي حَاتِم وَالْبَغوِيّ وَذكره العسكري أَيْضا فِي الصَّحَابَة وَسَماهُ هِلَال بن الْحَارِث مولى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَكَذَلِكَ ذكره ابْن عَسَاكِر فِي التَّارِيخ فِي موَالِي النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ وَسَماهُ هِلَال بن الْحَارِث

وَأما حَدِيث أبي مُوسَى فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا أَبُو حُسَيْن القَاضِي حَدثنَا يَحْيَى الْحمانِي حَدثنَا أَبُو أُسَامَة عَن بريد عَن أبي بردة عَن أبي مُوسَى عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ ( من غشنا فَلَيْسَ منا ) انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي الْوسط حَدثنَا الْعَبَّاس بن الرّبيع بن ثَعْلَب حَدثنَا أبي حَدثنَا يحيى بن عقبَة بن أبي الْعيزَار عَن عبد الله بن عِيسَى حَدثنَا عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى عَن مجمع بن بَحر عَن أبي بردة عَن أبي مُوسَى

وَأما حَدِيث عَليّ فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْخَامِس وَالسبْعين من طَرِيق عُثْمَان بن سعيد الدَّارمِيّ حَدثنَا القعْنبِي أَن حُسَيْن بن عبد الله بن ضميرَة حَدثهمْ عَن أَبِيه عَن جده عَن عَليّ قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَيْسَ منا من لم يرحم صَغِيرنَا وَيعرف حق كَبِيرنَا وَلَيْسَ منا من غشنا وَلَا يكون الْمُؤمن مُؤمنا حَتَّى يحب للنَّاس مَا يحب لنَفسِهِ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن أبي أويس حَدثنَا حُسَيْن بن عبد الله بن ضميرَة عَن أَبِيه عَن جده مَرْفُوعا نَحوه وَلم يذكر فِيهِ عليا ذكره فِي تَرْجَمَة ضميرَة بن أبي ضميرَة مولى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده حَدثنَا عبد الْعَزِيز ابْن مُحَمَّد

عَن ثَوْر بن يزِيد عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس مَرْفُوعا (من غَشنَا فَلَيْسَ منا)

انْتَهى

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

(193/415)

---

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أَيْضا أخبرنَا يحْيَى بن آدم حَدثنَا يحْيَى بن المتَوَكل عَن الْقَاسِم بن عبيد الله عَن عَمه سَالم بن عبد الله عَن أَبِيه عبد الله بن عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر فِي السُّوق بِطَعَام لرجل فَأدْخل يَده فِيهِ فَأخْرج مِنْهُ شَيْئا لَيْسَ كَالظَّاهِرِ فأنف بِصَاحِبِهِ ثمَّ قَالَ لرجل مَعَه (نَاد فِي النَّاس لَيْسَ منا من غَشنَا)

انْتَهى

وَعَن ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي الكنى لم يذكر فِيهِ قصَّة الطَّعَام ثمَّ قَالَ وَأَبُو عقيل يحْيَى بن المتَوَكل أثنى عَلَيْهِ أَبُو بكر بن عَيَّاش

انْتَهى وَلم يُضعفهُ هُوَ بِشَيْء

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده حَدثنَا مُحَمَّد بن معمر حَدثنَا عبد الْعَزِيز بن الْخطاب حَدثنَا أَبُو معشر عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من غَشنَا فَلَيْسَ منا)

انْتَهى

وَسكت عَنهُ

ورَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وأعله بِيَحْيَى بن المتَوكل أبي عقيل الْبَاهِلِيّ وَضَعفه عَن النَّسَائِيّ وَأحمد وَابْن معِين والسَّعْدِي وَالْفَلَّاس ووَافَقَهُمْ

وَأما حَدِيث الْبَراء فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَارِيخه الْكَبِير فِي تَرْجَمَة سعيد بن مَيْمُون قَالَ قَالَ لي مَنْصُور عَن مُحَمَّد بن عِيسَى الواشبي أَنه سمع شَرِيكا عَن سعيد بن مَيْمُون عَن الْبَراء بن عَازِب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من غشنا فَلَيْسَ منا )

انْتَهى

(194/415)

---

وَله لفظ آخر عِنْد الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه رَوَاهُ من حَدِيث قيس بن أبي عَرزَة الْغِفَارِيّ وَيُقَال الْجُهَنِيّ وَيُقَال البَجلِيّ وَكَانَ من الصَّحَابَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر عَلَى رجل يَبِيع طَعَاما فَقَالَ لَهُ (يَا هَذَا أَسْفَل هَذَا الطَّعَام مثل أَعْلَاهُ ) قَالَ نعم فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (من غش الْمُسلمين فَلَيْسَ مِنْهُم )

انْتَهى

وَأما حَدِيث عَائِشَة فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث أبي عَلّي الْحَنَفِيّ حَدثنَا أَبُو هَارُون السَّامِي عَن الحكم بن عُيَيْنَة عَن إِبْرَاهِيم عَن الْأسود عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من غَشنَا فَلَيْسَ منا)

انْتَهَى

وَقَالَ لَا نعلمهُ يرْوَى عَن عَائِشَة إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي جُزْء وَضعه فِي جمع طرق حَدِيث (من غَشنَا فَلَيْسَ منا) فَقَالَ حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد حَدثنَا عَلّي بن الْمُبَارك الصَّنْعَانِيّ حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن أبي أويس حَدثنِي سُلَيْمَان بن هِلَال عَن إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم بن عبد الرَّحْمَن بن أبي ربيعَة عَن أنس بن مَالك مَرْفُوعا (من غَشنَا فَلَيْسَ منا)

وَأما حَدِيث عبد الله بن أبي ربيعَة فَرَوَاهُ أَبُو نعيم أَيْضا حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن الْحسن حَدثنَا مُحَمَّد بن عُثْمَان بن أبي شيبَة حَدثنَا سعيد بن عَمْرو حَدثنَا حَاتِم ابْن إِسْمَاعِيل حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم المَخْزُومِي عَن أَبِيه عَن جده عَن عبد الله بن أبي ربيعَة مَرْفُوعا نَحوه

وَأخرج الطَّبَرَانِيّ حَدِيث الْبَراء فِي مُعْجَمه الْوسط عَن سوار بن مُصعب عَن مطرف بن طريف عَن أبي الجهم عَن الْبَراء بن عَازِب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مر

بطَعَام فَأَدْخلهُ فِيهِ وَقَال ( من غَشنَا فَلَيْسَ منا )

انْتَهى

659 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي الحَدِيث ( مَا أذن الله لشَيْء كإذْنه لنَبِي يتغنَّى بِالْقُرْآن )

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي فَضَائِل الْقُرْآن وَمُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ ( مَا أذن الله لشَيْء كإذْنه لنَبِي يتغنَّى بِالْقُرْآن )

انْتَهى

وَأَعَادَهُ فِي سُورَة الانشقاق

660 - الحَدِيث السَّادِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ ( من قَرَأَ سُورَة إِبْرَاهِيم أعطي من الْأجر عشر حَسَنَات بِعَدَد كل من عبد الْأَصْنَام وعدد من لم يَعْبُدهَا )

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم الْمَدَائِنِي حَدثنَا هَارُون بن كثير حَدثنَا زيد

بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره كَمَا تقدم فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 199 . 205 ﴾

(196/415)

---

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة إبراهيم

قوله تعالى : (تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ) ، الآية/ 25 .

روي عن ابن عباس أنه قال : غدوة وعشية ، ولعله أخذ ذلك من قوله تعالى : (فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) «1» .

وعن ابن عباس رواية أخرى أنه قال : هي النخلة تطعم في كل ستة أشهر «2» .

وعن علي أنه قال : الحين سنة .

وقال ابن المسيب «3» : الحين شهران من حين تصرم النخل إلى حين تطلع .

وروي عنه أنه قال : النخلة لا يكون فيها أكلها إلا شهران .

وقال تعالى : (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) «4» ، وعنى به ثلاث عشرة سنة .

---

(1) سورة الروم آية 17

(2) انظر تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ، وتفسير الطبري ، وتفسير ابن كثير .

(3) هو سعيد بن المسيب ، سيد التابعين .

(4) سورة يوسف آية 35 .



---

وقال تعالى : (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) «1» : يوم القيامة .

وعن عكرمة أن رجلا قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حر ، فأتى إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن ذلك ، فسألني عنها فقلت :

إن من الحين حين لا يدرك .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ «2» .

فأرى أن يمسك ما بين صرام النخل إلى حملها ، فأعجبه ذلك .

وبالجملة : للحين مصارف ، ولم ير للشافعي تعيين مصرف من هذه المصارف ، لأنه لم يوضع في اللغة لمعنى معين ، والذي ذكره أبو حنيفه من تقييد الحين في الحلف بستة أشهر اتباعا لعكرمة تحكم ، وتخصيصه بإدراك النخل لا مأخذ له فلا معنى لاعتباره . انتهى . ا . هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 237. 238﴾

---

(1) سورة ص آية 88 .

(2) سورة الأنبياء آية 111 [. . . . .]

(198/415)

---

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

﴿بسم اللّه الرّحمن الرّحيم﴾

«سورة إبراهيم» (14)

«الر» (1) ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي

، ومجاز موضعه فى المعنى كمجاز ابتداء فواتح سائر السّور .

«كِتابٌ أُنْزَلْناهُ إِلَيْكَ» مجازه مستأنف أو مختصر فيه ضمير كقولك :

هذا كتاب أنزلناه إليك ، وفى آية أخرى : «الم ذلِكَ الْكِتابُ» (2/ 1) وفى غيرها ما قد

أظهر .

«يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ» (3) [يختارون] .

«وَيَبْغُونَها عِوَجاً» (3) يلتمسون ، ويحتالون لها عوجا ، مكسور الأول مفتوح الثاني وذلك

فى الدّين وغيره ، وفى الأرض مما لم يكن قائما وفى الحائط وفى الرمح وفى السنّ عوج وهو

مفتوح الحروف .

«يَسُومُونَكُمْ» (6) أي يولونكم ويبلونكم .

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ» (7) مجازه : وآذنكم ربكم ، و«إذ» من حروف الزوائد ، وتأذن تفعل

من قولهم : أذنته . «1»

---

(1) «وإذ تأذن . . . أدنته» : روى ابن حجر كلام أبى عبيدة هذا فى فتح الباري (8/ 285) .

«فردّوا أيديهم فى أفواههم» (9) مجازه مجاز المثل، وموضعه موضع كفّوا عما أمروا بقوله من الحق ولم يؤمنوا به ولم يسلموا، ويقال: ردّ يده فى فمه، أي أمسك إذا لم يجب. «1»

«فاطِرِ» (10) أي خالق.

«لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ» (10) مجازه: ليغفر لكم ذنوبكم، و«من» من حروف الزوائد، وفى آية أخرى: «فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (69/ 47) مجازه: ما منكم أحد، وقال [أبو ذؤيب]:

جزيتك ضعف الحبّ لما شكوته وما إن جزاك الضّعف من أحد قبلى (58)

أي أحد قبلى.

«أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا» (13) أي فى ديننا وأهل ملتنا.

---

(1) «كفوا... يجب»: هذا الكلام فى الطبري 13/ 111، ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة، وقال: وقد تعقبوا كلام أبى عبيدة فقيل لم يسمع من العرب: رد يده فى فيه، إذا ترك الشيء الذي كان يريد أن يفعله (فتح الباري 8/ 285) فالطبرى من الذين تعقبوا كلام أبى عبيدة هذا.

«خافَ مَقامِي» (14) مجازه: حيث أقيمه بين يدى للحساب. «1»

«وَاسْتَفْتَحُوا» (15) مجازه: واستنصروا.

عنود و«عَنِيدٍ» (15) وعاند كلها، واحد والمعنى جائر عاند عن الحق، قال:

إذا نزلت فاجعلانى وسطا إنى كبير لا أطيق العنّدا (325)

«مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ» (16) مجازه: قدامه وأمامه، يقال إن الموت من ورائك أي قدامك، «2» وقال:

أتوعدني وراء بنى رياح كذبت لتقصرنّ يداك دونى (377)

أي قدام بنى رياح وأمامهم، وهم دونى أي بينى وبينك، وقال:

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا «3»

---

(1) «خاف... للحساب»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 286.

(2) «من ورائك... قدامك»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 286، ومن «يقال» إلى «قدامك» فى الطبري 13/ 114.

(3): اختلف فى قائل هذا البيت، فبعضهم قال إنه لسوار بن المضرب، وبعضهم قال إنه للفرزدق واستشهد أبو عبيدة به مرات. فنسبه فى نسخة مرة لسوار ومرة للفرزدق ونسبه هنا لجرير، ولم أجده فى ديوانيهما. وهو لسوار من كلمة فى الكامل 289،

والطبري 16/ 2، والجمهرة 1/ 177 و3/ 495، والقرطبي 11/ 35 واللسان

والتاج (ورى) .

(201/415)

---

وقال: «مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ» (16) والصديد القيح والدّم. «1»

«مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ» (18) مجازه: مثل أعمال الذين كفروا بربهم

كمثل رماد، وتصديق ذلك من آية أخرى: «أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (32/ 7) مجازه:

أحسن خلق كل شىء، وقال [حميد بن ثور الهلاليّ]:

وطعنى إليك الليل حضنيه إنّني لتلك إذا هاب الهدان فعول «2»

أراد: «3» وطعنى حضنى الليل إليك [أول الليل وآخره]، وإذا ثنّوه كان أكثر فى كلامهم

وأبين، قال:

كأن هندا ثناياها وبهجتها يوم التقينا على أدحال دبّاب «4»

---

(1) «الصديد القيح والدم» كذا فى البخاري، ولم ينبه عليه ابن حجر فى فتح الباري 8/ 284.

(2) حميد: حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر بن أبى ربيعة الهلالي، شاعر إسلامى

أخباره فى الأغانى 4/ 97، وله ترجمة فى الاستيعاب 1/ 267، والإصابة رقم 1834 والبيت فى اللسان والتاج (طعن) .

(3) «أراد . . . إليك» : روى صاحب اللسان هذا الكلام عنه (طعن) .

(4) : البيت منسوب للراعى فى معجم ما استعجم 2/ 540، وورد من غير عزو فى اللسان والتاج (دبب) .

(202/415)

---

أراد : كأن ثنايا هند وبهجتها يوم التقينا على أدحال دبّاب .

«اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ» (18) يقال : قد عصف يومنا وذاك إذا اشتدّت الريح فيه، والعرب تفعل ذلك إذا كان فى ظرف صفة لغيره، وجعلوا الصفة له أيضا، كقوله «1» :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السّرى ونمت وما ليل المطىّ بنائم (313)

ويقال : يوم ماطر، وليلة ماطرة، وإنما المطر فيه وفيها .

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ» (19) ألم تعلم، ليس رؤية عين .

«إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً» (20) جميع تابع، خرج مخرج غائب والجميع غيب . «2»

«ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» (22) أي بمغيثكم، ويقال: استصرخنى فأصرخته، أي استعاننى فأعنته واستغاثني فأغثته. «3»

---

(1) «كقوله»: القائل جرير.

(2) «تبعا ... غيب»: كذا فى البخاري. قال ابن حجر: هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 286). [.....]

(3) «ما أنا ... فأعنته» الذي ورد فى الفروق: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 286

(203/415)

---

«تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ» (25) أي تخرج ثمرتها، والحين هاهنا ستة أشهر أو نحو ذلك.

«اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ» (26) أي استؤصلت، [يقال اجتث الله دابرهم، أي أصلهم.]

«دارَ الْبَوارِ» (28) أي الهلاك والفناء ويقال بار ببور، ومنه قول عبد الله بن الزّبعرى:

يا رسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور «1»

[البور والبوار واحد].

(1) : عبد اللّه بن الزبعرى : ابن قيس بن عدى بن سعد بن سهم القرشي ، هو آخر شعراء قريش المعدودين وكان يهجو المسلمين ويحرض عليهم وأسلم يوم الفتح.

وهذا البيت من كلمة قالها عند إسلامه انظر المؤتلف 132 ، والسمط 388 ، 390 833 ، وإصلاح المنطق 141 ، والسيرة (جوتنجن) 827 ، والطبري 13/ 130 ، وتاريخه 3/ 122 ، والجمهرة 1/ 298 ، والقرطبي 13/ 11 ، واللسان والتاج (بور) ، وشواهد المغني 188.

(204/415)

---

«وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً» (30) أي أضدادا ، واحدهم ندّ ونديد ، قال رؤبة :

تهدى رؤوس المترفين الأنداد إلى أمير المؤمنين الممتاد (341)

«لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ» (31) مجازه : مبايعة فدية ، «وَلا خِلالٌ» :

أي مخالّة خليل ، وله موضع آخر أيضا تجعلها جميع خلة بمنزلة جلّة والجميع جلال وقلّة والجميع قلال ، «1» وقال :

فيخبره مكان النّون منى وما أعطيته عرق الخلال «2»

أي المخالّة.

«الْفُلْكَ» (32) واحد وجميع وهو السفينة والسفن.

---

(1) «خلال... قلال»: كذا فى البخاري بفرق يسير، قال ابن حجر (8/ 285):
كذا وقع فيه (أي فى البخاري من رواية أبى ذر) فأوهم أنه من تفسير مجاهد، وإنما هو
كلام أبى عبيدة، ثم روى الكلام بلفظه.

(2): البيت للحارث بن زهير العبسي وهو فى النقائض 96، وتهذيب الألفاظ 467،
والجمهرة 1/ 70، والأغانى 16/ 31، والسمط 583. - العرق: المكافأة يقول لم
يعطونى السيف عن مودة ولكى قتلت وأخذت (النقائض).

(205/415)

---

«الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ» (33) والشمس أنثى والقمر ذكر فإذا جمعا ذكّر صفتهما لأنّ
صفة المذكر تغلب صفة المؤنث.

«وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ» (35): جنبت الرجل الأمر، وهو يجنب أخاه الشرّ وجنّبته واحد،
وقال:

وتنقض مهده شفقا عليه وتجنبه قلائصنا الصعابا «1»

وشدّده ذو الرّمة فقال:

وشعر قد أرقت له غريب أجنّبه المساند والمحالا «2»

«رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي» (40) مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير

كقوله : واجعل من ذرّيّتى من يقيم الصلاة.

«مُهْطِعِينَ» (43) أي مسرعين ، قال الشاعر :

بمهطع سرح كأنّ زمامه فى رأس جذع من أول مشذّب «3»

---

(1) : فى الطبري 13/ 135.

(2) : ديوانه 440 ، والصحاح واللسان والتاج (سند) .

(3) : فى الطبري 13/ 142.



---

وقال :

بمستهطع رسل كأنّ جديله بقيدوم رعن من صؤام ممنّع «1»

[الرّسل الذي لا يكلّفك شيئا ، بقيدوم : قدّام ، رعن الجبل أنفه ، صؤام : «2» جبل ، قال

يزيد بن مفرّغ الحميرىّ :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السّماع ] «3»

«مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ» (43) مجازه: رافعى رؤوسهم، قال الشّمّاخ [بن ضرار]:

يباكرن العضاه بمقنعات نواجذهن كالحدأ الوقيع «4»

أي برؤوس مرفوعات إلى العضاه ليتناولن منه [و العضاه: كل شجرة ذات شوك نواجذهن أضراسهن] وقال: الحدأ الفأس وأراه: الذي ليس له خلف، وجماعها حدأ، وحدأة الطير، [الوقيع أي المرقّقة المحدّدة، يقال وقّع حديدتك، والمطرقة يقال لها ميقعة]، وقال:

---

(1): فى الطبري 13/ 142، والأساس (هطع) واللسان والتاج (قيدوم).

(2) «صوأم»: جبل قرب البصرة (معجم البلدان 3/ 431).

(3): يزيد بن مفرغ: مرت ترجمته - والبيت فى القرطبي 9/ 279، واللسان والتاج (هطع).

(4): ديوانه 56. - والطبري 13/ 142 واللسان والتاج (حدأ).



---

أنفض نحوى رأسه وأقنعا كأنّما أبصر شيئا أطمعا «1»

«وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (43) أي جوف، ولا عقول لهم، قال حسّان [ابن ثابت]:

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوّف نخب هواء «2»

وقال :

ولا تك من أخدان كل يراعة هواء كسقب البان جوف مكاسرة «3»

[اليراعة القصبة ، واليراعة هذه الدواب الهمج بين البعوض والذبّان ، «4» واليراعة النعامة. قال الراعىّ :

جاؤا بصكّهم وأحدب أخرجت منه السياط يراعة إجفيلا «5»

أي يذهب فزعا ، كسقب البان عمود البيت الطويل ] .

---

(1) : فى الطبري 13/ 142 .

(2) : ديوانه 7 ، والطبري 13/ 144 ، واللسان والتاج (هوا ، جوف) .

(3) : هذا البيت منسوب فى نسخة إلى صخر الغى الهذلي ، ولم أقف عليه فى ديوان الهذليين ، وقد أنشده صاحب اللسان وقال : إن ابن برى أنشد هذا البيت لكعب الأمثال (هوا) ، وهو فى الطبري 13/ 144 والتاج (هوا) . [ . . . . . ]

(4) «اليراعة . . . والذبان» : وقد حكى ابن برى هذا الكلام عن أبى عبيدة ، فى اللسان (برع) .

(5) : من قصيدة له فى آخر ديوان جرير (القاهرة 1373) 2/ 202 - 205 وجمهرة الأشعار : 172 - 176 ، والبيت فى الجمهرة 2/ 392 .

«وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ» (46) أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، فى قول من كسر لام «لتزول» الأولى ونصب اللام الآخرة ومن فتح اللام الأولى ورفع اللام الآخرة فإن مجازه مجاز المثل كأنه قال :

وإن كان مكرهم تزول منه الجبال فى المثل وعند من لم يؤمن .

«مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ» (49) أي فى الأغلال ، وواحدها صفد [و الصّفد فى موضع آخر : العطاء وقال الأعشى :

تضيفته يوما فقرّب مقعدى وأصفدنى على الزّمانة قائدا «1»

وبعضهم يقول : صفدنى .]

«سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ» (50) أي قمصهم ، وواحدها سربال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجاز القرآن حـ 1 صـ 335. 345 ﴾

---

(1) : ديوانه 49 ، والطبري 13/ 152 .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «إبراهيم عليه السلام»

[سورة إبراهيم (14) : آية 5]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

قوله سبحانه : وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [5] وهذه استعارة . والمراد بها - واللّه أعلم - التذكير بأيام نقم اللّه التي أوقعها بالماضين ، كعاد وثمود ومن جرى مجراهم : وهذا كقولنا : أيام العرب . وإنما تريد به الأيام التي كانت فيها الوقائع المشهورة والملاحم العظيمة . وقد يجوز أن يكون الأيام ها هنا عبارة عن أيام النعم ، كما قلنا إنها عبارة عن أيام النقم . فيكون المعنى : فذكّرهم بالأيام التي أنعم اللّه فيها عليهم وعلى الماضين من آبائهم بوقم «1» الأعداء ، وكشف اللأواء ، وإسباغ النعماء . ألا ترى أن أيام العرب التي هى عبارة عن الوقائع يكون فيها لبعضهم الظهور على بعض ، فذلك من النعم ، وعلى بعضهم السّوء والدائرة ، وتلك من النقم ؟ فالأيام إذن تذكرة لمن أراد التذكرة بالإنعام والانتقام .

[سورة إبراهيم (14) : آية 9]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

وقوله سبحانه : جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ [9] وهذه استعارة ، على وجه واحد من وجوه التأويلات التي حملت عليها هذه الآية. وذلك أن يكون المعنى ما ذهب إليه بعضهم من أن الأيدى هاهنا عبارة عن حجج الرسل عليهم السلام ، والبينات التي جاءوا بها قومهم ، وأكّدوا بها شرعهم. لأن بذلك يتم لهم السلطان عليهم والتدبير لهم ، وقد سمّوا السلطان يدا فى كثير من المواضع ، فقالوا : ما لفلان على فلان يد ، أي سلطان. ويقولون : قد زالت يد فلان الأمير. إذا عزل عن ولايته ،

---

(1) وقم العدو : قهره وأذله ، ووقم الرجل : رده عن حاجته أقبح رد.



---

بمعنى زال سلطانه عن رعيته. ويقولون : أخذت هذا الأمر باليد. أي بالسلطان.

فالحجج التي جاء بها الأنبياء أممهم قد تسمى أيديا على ما ذكرناه ، فلما وصف الكفار

على هذا التأويل بأنهم ردّوا أيدى الأنبياء - عليهم السلام - فى أفواههم ، كان المراد بذلك ردّ حججهم من حيث جاءت ، وطريق مجيئها أفواههم فكأنهم ردّوا عليهم أقوالهم ، وكذّبوا دعواهم .

وفى هذا التأويل بعد وتعسّف ، إلا أننا ذكرناه لحاجتنا إليه ، لما ذهبنا مذهب من حمل قوله سبحانه : فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ على الاستعارة لا على الحقيقة .

فإذا حملت الآية على حقيقة الأيدى التي هى الجوارح كان المراد بها مختلفا «1» فيه .

فمن العلماء من قال : المراد بذلك أنهم كانوا يعضّون أناملهم تغيظا «2» على الرسل عليهم السلام ، كما يفعل المغيظ المحنق ، والواجم المفكر .

وقال بعضهم : المراد بذلك أن المشركين أومأوا إلى أفواه الأنبياء ، بالتسكيت لهم ، والقطع لكلامهم .

وقال بعضهم : بل المراد بذلك ضرب من الهزء «3» يفعله المجّان والسفهاء ، إذا أرادوا الاستهزاء ببعض الناس ، وقصدوا الوضع منه ، والإزراء عليه . فيجعلون أصابعهم فى أفواههم ويتبعون هذا الفعل بأصوات تشبهه وتجانسه ، يستدل بها على قصد السخف ، وتعمد الفحش . وهذا عندى بعيد من السداد ، وغيره من الأقوال أولى منه بالاعتماد .

---

(1) فى الأصل : مختلف فيه . وهو تحريف من الناسخ . [. . . . .]

(2) فى الأصل: تغيضا بالضاد المعجمة لا بالظاء المعجمة.

(3) الهزء بفتح الهاء والهزء بضمها: السخرية.

(211/415)

---

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك أن الكفار كانوا إذا بدأ عليهم الرسل بالكلام سدّوا بأيديهم أسماعهم دفعة، وأفواههم دفعة، إظهارا منهم لقلة الرغبة فى سماع كلامهم وجواب مقالهم، ليدلّوهم - بهذا الفعل - على أنهم لا يصغون لهم إلى مقال، ولا يجيبونهم عن سؤال، إذ قد أبهموا طريقى السماع والجواب، وهما الآذان والأفواه. وشاهد ذلك قوله سبحانه حاكيا عن نوح عليه السلام يعنى قومه: وَإِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً «1» فيكون معنى رد أيديهم فى أفواههم على القول الذي قلنا أن يمسكوا أفواههم بأكفهم، كما يفعل المظهر الامتناع من الكلام. ويكون إنما ذكر تعالى ردّ الأيدى هاهنا - وهو يفيد فعل الشيء ثانيا بعد أن فعل أولا - لأنهم كانوا يكثرون هذا الفعل عند كلام الرسل عليهم السلام. فوصفوا فى هذه الآية بما قد سبق لهم مثله، وألف منهم فعله، فحسن ذكر الأيدى بالرد على الوجه الذي أومأنا إليه. وأيضا فقد يقول القائل لغيره: اردد إليك يدك. بمعنى اقبضها

وكفها . لا يريد غير ذلك .

[سورة إبراهيم (14) : آية 14]

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14)

وقوله سبحانه : ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ [14] . وهذه استعارة .

لأن المقام لا يضاف إلّا إلى من يجوز عليه القيام . وذلك مستحيل على اللّه سبحانه ، فإذن المراد به يوم القيامة ، لأن الناس يقومون فيه للحساب ، وعرض الأعمال على الثواب والعقاب ، فقال سبحانه فى صفة ذلك اليوم : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ «2» .

وإنما أضاف تعالى هذا المقام إلى نفسه فى هذا الموضع ، وفى قوله :

---

(1) سورة نوح عليه السلام . الآية رقم 7 .

(2) سورة المطففين . الآية رقم 6 .

(212/415)

---

وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ «1» لأن الحكم فى ذلك اليوم له خالصا ، لا يشاركه فيه حكم [حاكم] «2» ، ولا يحادّه أمر آمر . وقد يجوز أن يكون المقام هاهنا معنى آخر ، وهو أن العرب تسمى المجامع التي تجتمع فيها لتدارس مفاخرها ، وتذاكر مآثرها

«مقامات» و«مقاوم» .

فيجوز أن يكون المراد بالمقام هاهنا الموضع الذي يقصّ فيه سبحانه على بريّته محاسن أعمالهم ، ومقابح أفعالهم ، لاستحقاق ثوابه وعقابه ، واستيجاب رحمته وعذابه ، وقد يقولون : هذا مقام فلان ومقامته ، على هذا الوجه ، وإن لم يكن الإنسان المذكور فى ذلك المكان قائما ، بل كان قاعدا أو مضطجعا . ومن الشاهد على ذلك قوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام :

أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ «3» أي من مجلسك . سماه مقاما - مع ذكره أنّ سليمان عليه السلام كان جالسا فيه - لأنه قال قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ . وإنما سماه مقاما ، لأن القاعد إذا قام بعد قعوده ففيه يكون قيامه . وهذا من غرائب القرآن الكريم . وقد استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 17 الى 18]

يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (18)

وقوله سبحانه : وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَما هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ [17] فهذه استعارة . لأن المراد بذلك لو كان الموت الحقيقي ولم يكن «4» سبحانه ليقول

: وَما هُوَ بِمَيِّتٍ ، وإنما المعنى أن غواشى الكروب ، وحوازب الأمور

---

(1) سورة الرحمن . الآية رقم 46.

(2) لفظة «حاكم» ناقصة من الأصل . وقد وضعناها بين حاصرتين ، لأن السياق يقتضيها .

(3) سورة النمل . الآية رقم 39 .

(4) هذه العبارة غير واضحة كما هى . والمقصود أن الموت هنا مجاز لا حقيقة ، ولو كان الموت هنا حقيقة لم يكن سبحانه ليقول : (و ما هو بميت) . ولعل الواو زائدة فى قوله «و لم يكن»



---

تطرقه من كل مطرق ، وتطلع عليه من كل مطلع . وقد يوصف المغموم بالكرب ، والمضغوط بالخطب بأنه فى غمرات الموت ، مبالغة فى عظيم ما يغشاه ، وأليم ما يلقاه .

وقوله سبحانه : أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ [18] فى هذه الآية استعارتان إحداهما «1» قوله تعالى : اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ «2» .

[سورة إبراهيم (14) : آية 37]

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

وقوله سبحانه: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ [37]. وهذه من محاسن الاستعارة. وحقيقة الهوىّ النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط. والمراد به هاهنا المبالغة فى صفة الأفئدة بالنّزوع إلى المقيمين بذلك المكان. ولو قال سبحانه: تحنّ إليهم، لم يكن فيه من الفائدة ما فى قوله سبحانه: تَهْوِي إِلَيْهِمْ لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم فى مكانه، والهوىّ يفيد انزعاج الهاوي من مستقرّه.

[سورة إبراهيم (14): آية 43]

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43)

وقوله تعالى: لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ [43] وهذه استعارة. والمراد بها صفة قلوبهم بالخلوّ من عزائم الصبر والجلد، لعظيم الإشفاق والوجل. ومن عادة العرب أن يسمّوا الجبان يراعة جوفاء، أي ليس بين جوانحه قلب.

وعلى ذلك قول جرير يهجو قوما ويصفهم بالجبن:

قل لخفيف القصبات الجوفان جيئوا بمثل عامر والعلهان «3»

---

(1) فى الأصل: أحدهما. بالتذكير وهو تحريف من الناسخ.

(2) هنا ورقة ضائعة من الأصل. من الآية 18 إلى الآية 37.

(3) ورد هذا البيت فى ديوان جرير هكذا .

ويلكمويا قصبات الجوفان جيئوا بمثل قعنب والعلهان

(214/415)

---

وإنما وصف الجبان بأنه لا قلب له ، لأن القلب محل الشجاعة ، وإذا نفى المحل فأولى أن ينتفى الحالّ فيه . وهذا على المبالغة فى صفته بالجبن . ويسمون الشيء إذا كان خاليا «هواء» ، أي ليس فيه ما يشغله إلا الهواء .

وعلى هذا قول اللّه سبحانه : «1» وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً أي خاليا من التجلد ، وعاطلا من التصبّر . وقيل أيضا : إن معنى ذلك أنّ أفئدتهم منحرفة «2» لا تعى شيئا ، للرعب الذي دخلها ، والهول «3» الذي استولى عليها . فهى كالهواء الرقيق فى الانخراف ، وبطلان الضبط والامتساك .

[سورة إبراهيم (14) : آية 46]

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46)

وقوله سبحانه : وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ [46] . وهذه استعارة على إحدى القراءتين . وهما : لتزول . بكسر اللام الأولى وفتح اللام الأخرى . ولتزول .

بفتح اللام الأولى وضم الأخرى. وقرأنا بهذه القراءة للكسائى «4» وحده، وقرأنا لبقية السبعة القراءة الأولى.

فمعنى القراءة الأولى أن يكون موضع «أن» فيها موضع نعم، لأنها قد ترد «5» بهذا المعنى مثقلة: كقوله: (إنّ وراكبها «6»).

---

(1) سورة القصص. الآية رقم 10.

(2) فى الأصل: مستحرفة.

(3) فى الأصل: والقول الذي استولى عليها. ولا معنى للقول هنا. وإنما هو الهول المقابل للرعب. [. . . . .]

(4) الكسائي: هو على بن حمزة الكوفي، أحد القراء السبعة. وإمام مدرسة فى النحو واللغة مشهورة. وكان مؤدبا للرشيد العباسي وابنه الأمين. توفى سنة 189 بمدينة الري.

(5) فى الأصل: قد تردد. وهو تحريف من الناسخ.

(6) هذا هو ما ردّ به ابن الزبير رضى اللّه عنه لمن قال له: لعن اللّه ناقة حملتنى إليك. فقال ابن الزبير: إنّ وراكبها. أي: نعم! ولعن راكبها. وهو من شواهد كتب معانى الحروف. انظر «مغنى اللبيب» ج 1 ص 36.

ويجوز أن ترد مخففة. لأنّ «أن» على أصلها قد تأتى مخففة ومثقلة. ويكون المعنى واحدا.

وكذلك «أن» المفتوحة. قال الشاعر «1»:

أكاشره وأعلم أن كلانا على ما ساء صاحبه حريص

وأراد «أنّ كلانا» فخفف. فإذا تقرر ذلك صار تقدير الكلام فى الآية: ونعم كان مكرهم لتزول منه الجبال. وقد وردت هذه اللام فى موضع ليس، لأن الخفيفة فيه تحمل «2».

قال الفرّاء «3»: سمعت العرب تقول: الكراء حينئذ لرخيص. ولم يقل: إن الكراء لرخيص. فيكون المراد: إن الجبال تزول من مكرهم استعظاما واستفظاعا، لو كانت مما يعقل الحال، ويقدر على الزوال. وهذه اللام هاهنا تومىء إلى معنى «تكاد» «4»

.... انتهى. اهـ ﴿تلخيص البيان صـ 180. 186﴾

---

(1) تعبت كثيرا فى معرفة اسم هذا الشاعر وفى العثور على هذا البيت فى المراجع الكثيرة فلم أهتد بعد طول بحث.. فلعل اللّه يوفق من يدلنا عليه فنشكر صنيعه.

(2) هنا الكلام ناقص، ولعل الناسخ أراد أن يكتب «لأن الخفيفة فيه تحمل محمل ما ،

وتكون اللام للجحود» . وعبارة القرطبي فى هذا المقام واضحة دالة على الغرض حيث

يقول فى جزء 9 ص 380 :

(إن : بمعنى ما . أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال . لضعفه ووهنه) . ثم زاد القرطبي

خمسة مواطن فى القرآن جاءت فيها «إن» بمعنى «ما» وهذا هو أحدها .

(3) الفراء هو يحيى بن زياد أبو زكريا إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة والأدب . وكان

فوق علمه باللغة والنحو فقيها متكلما مفسرا . وقد عهد إليه الخليفة المأمون بتربية ولديه .

توفى سنة 207 .

وهناك فراء آخر اسمه الحسين بن مسعود البغوي اشتهر بالفقه والحديث والتفسير وتوفى

سنة 510 ه وليس هو المقصود هنا ، فقد ولد بعد وفاة الشريف الرضى بثلاثين عاما .

(4) هنا قطعة مفقودة من الكتاب تبلغ ورقة تقريبا .



---

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة إبراهيم

"كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض" . فى الحياة الدنيا ظلمات كثيرة ، ظلمة الجهل ، وظلمة الغرور ، وظلمة الإثم ، وظلمة العصيان . وقد أنزل الله كتابه على محمد خاتم الأنبياء ليخرج الناس من هذه الظلمات كلها ، وليعلمهم أن هذه الحياة الدنيا مرحلة إلى ما بعدها ، وأن الذين يستحبون الدنيا على الآخرة ضالون ، وأن الذين يقاومون الوحى ويكرهون العيش فى مناره جائرون معوجون . ومن قبل محمد أرسل الله موسى لينقذ قومه من ظلمات الذل والعبودية ، ويمن عليهم بالحرية المطلقة ، حرية العقل والضمير والحركة والمرح فى نعمة الله ! ! . وكل ما طلبه منهم أن يذكروا هذا الفضل ، ويعرفوا حق صاحبه " ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور " والأديان كلها نقلة من الجهل إلى العلم ، ومن العوج إلى الاستقامة ، والكتاب الذى اختص به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ملئ بحزم من الأشعة التى تمحو العمى ، وتهدى الطريق ، وتقود إلى الله ـ سبحانه ـ وتعصم من الوقوع فى ضروب الجاهليات كلها . ولكن البشر ـ على امتداد العصور ـ يخاصمون الوحى ، ويكابرون المرسلين ، ويحاولون البطش بهم ، ويستغلون ما أوتوا من قوة لفتنة المؤمنين عن الحق ، لكن المؤمنين يصمدون ويتحملون " وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا

ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون " . وإخراج أمة من الظلمة إلى النور لا يتم بين عشية وضحاها ، إنه يحتاج إلى زمان طويل ، وقد مكث نبينا ثلاثا وعشرين



---

سنة يتعهد العرب بالقرآن الكريم حتى محا بداوتهم وجهالتهم وتخففهم العلمى والحضارى ، وأمسوا أهلا لصدارة العالم وقيادته . إن القرآن نقلهم نقلة فسيحة: ثقافيا وسياسيا وعقليا وخلقيا ، فلما اشتبكوا مع أعداء الله رجحت كفتهم عن جدارة ، واستحقوا التمكين فى الأرض .

وتلمح هذه المعانى فى قوله تعالى: " وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد " . إن الأمم المغلوبة على أمرها ، المحجوبة بخواصها عن السيادة والصدارة لا تبلغ القمة ، وهى واهنة الإرادة مختلطة القصد ! لابد أن يغير الإيمان أحوالها ويزودها بطاقات جديدة من اليقين والتجرد والجراءة ، حتى تستطيع أن تقهر خصومها ، وتضع على الأرض طابعا جديدا من العبودية لله ، والازدراء لشهوات الدنيا . عندئذ يحكم الله بزوال دول وإقامة أخرى " واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد " . فلتفقه

هذا الدرس أمتنا الإسلامية التى لا تريد أن تغير نفسها ! ! . ومن قديم والمجتمع البشرى طبقات أو درجات ! هناك السادة والعبيد ، أو الرؤساء والأتباع ، أو القادة والجماهير ، أو أصحاب المواهب المادية والأدبية والمعجبون بهم ، المقلدون لهم السائرون وراءهم . وبين الفريقين قاسم مشترك أو هدف واحد ، والذين يحبون كاتبا من الكتاب يغلب أن تكون فى نفوسهم الأفكار التى يترجم المؤلف عنها . . الفارق أنها مستخفية فى ضمائرهم ، وأن الكاتب أحسن صياغتها . ويطرد هذا الشبه فى ميادين شتى بين الرؤساء والأتباع ، أو القادة والمعجبين . وقد لاحظت أنه فى موقعة " بدر " أحاط المشركون بأبى جهل زعيم الكفر وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه ! ! فكان بينهم كأنه فى غابة من الرماح ، ولكن أشبال الصحابة أجهزوا عليه . والغريب أن الكفار سوف يلجأون إلى هذه الرابطة فى الدار الآخرة ، ولكنها لا تغنى عنهم شيئًا " وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين



---

استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص " ! وقد شرح الله هذه الحقائق

للناس فى يومهم القريب ، حتى لا ينخدع رئيس بتابع ، ولا تابع برئيس ، ومع ذلك فإن نفرا من الرؤساء المغرورين خدعوا الجماهير ، واستغلوا ثقتهم فجروهم إلى الهلاك "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار" . إن المصير واحد للأئمة الذين يدعون إلى النار والأغرار الذين يستجيبون لهم . . ! وتشبه سورة إبراهيم سورة الرعد فى شرحها لطبيعة الحق ! فإن الحق ينفع الناس إلى جانب صدقه العقلى ، أما الباطل فمجلبة للمتاعب والآلام ! . فى سورة الرعد يقول ـ جل شأنه ـ : "كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال" . وفى سورة إبراهيم يقول ـ جل شأنه ـ : "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن . . . " وتتفاوت الأمم بجملة الحقائق التى تستند إليها وتحيا بها ، فإن هناك حقائق عقائدية وأخلاقية وعمرانية وحضارية . والمفروض أن كلمة التوحيد جذر شجرة كثيرة الفروع ، طيبة الثمر ، غزيرته ! وأنها تثمر حضارة يانعة لمن عرفها ، واستنار بها ، واستظل بأفنانها الكثيرة . أما الباطل ـ فلأنه لا أصل له ـ لا ينتج إلا القوارح والهزائم "ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار" . فهل نتفيأ ظلال الحق ؟ أم نجنح إلى غيره فلا نفيد إلا السراب ؟ ! . وتتحدث سورة إبراهيم عن ناحيتين يجب أن تتوفرا للأمة المؤمنة : الأولى : انشغال الأمة بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أكثر

من انشغال الأمم القومية بشئونها الخاصة ، فالأمة صاحبة الرسالة الإلهية تستغل تمكينها فى الأرض لإعلاء كلمة الله ، ومواصلة ذكره وتمجيده: " قل لعبادي

(219/415)

---

الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال" . وتاريخ النبوات كلها يشير إلى أن الدول التى يقيمونها تهتف لله لا لبشر ، وتجعل صلتها بالسماء أساس نشاطها الدءوب . ومع شحوب التعاليم السماوية أو غروبها ترى الأمم مستغرقة فى الطعام والتمتع والمكاثرة

والمفاخرة ، فإذا بكت على شىء فعلى هبوط مستواها الاقتصادى ، وقلة المواد التى تستهلكها فى ملذاتها . والعالم اليوم محتاج إلى أمة تضرب المثل من نفسها فى عبادة الله ، والحديث عن أمجاده ووصاياه ، وتلك هى الأمة الإسلامية . . على أن هذه الأمة المسبحة بحمد الله يجب أن تكون مالكة لزمان الأرض ، سيدة على مرافق الحياة المختلفة . وهنا تجىء الناحية الثانية ، وهى ناحية توضح أن أهل الإيمان ملاك لا عالة ، وأن بأيديهم قياد الدنيا يصرفونه كيف شاءوا . ويتضح هذا من الآيات الثلاث الآتية ، والتى تكررت فيها كلمة (لكم) خمس مرات ! ! " الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء

فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . . " . إن هناك مؤمنين شردوا عن الصراط المستقيم ، وتجمدت مواهبهم ، وعاشوا غرباء فوق أرض سخرت لهم ، فسخروا فيها ، وبدل أن ينصروا الله بما آتاهم ارتعشت أصابعهم ، ونكصت أعقابهم ، فتقدم أعداء الله إلى الزمام الخالى فامتلكوه ، وسخروا الدنيا لكفرهم ، وأحرجوا الإيمان فى مواطنه فما يكاد يبين . والجهاد فى عصرنا : سيادة فى البر والبحر والجو ، وعلم بالكون يرتقق الأرض والسماء وما بينهما . فما هو حظ المسلمين من ذلك كله ؟ . إن الأسى يقهرنى عندما أجد أننا لم نصنع طيارة تخترق الفضاء ، ولا غواصة تمخر العباب ، ولا دبابات يتحرك بها الحديد على الأرض ، ليدعم الحق وينصر المظلومين . على حين



---

مهر اليهود فى هذه الفنون ، وانطلقوا هنا وهناك وكأنهم جن سليمان ! . والفارق أن جن سليمان كانوا فى قبضة رجل مؤمن يسخر قوته لله ، أما يهود اليوم فإنهم جاءوا لخلع جذور العروبة والإسلام ، وبناء سلطان للطغيان والتمرد على الله . . . ما أوسع التفاوت بين ذرية

إبراهيم ، فيهم من ذهب بنفسه وتبع هواه وكفر بعيسى ومحمد جميعا ، وهؤلاء الآن معهم القوة ! .

ومنهم من ورث الوحى ولم يحسن الوصاية عليه ، فعاش خاملا مسيئا وهم عرب هذه الأيام العجاف ! . كان إبراهيم صالح مصلحا ، جاب الآفاق داعيا إلى التوحيد ، ومعلنا حربا شعواء على الأوثان . ثم جاء إلى الحجاز وهو يدعو: " ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" . وهذا الفرع من ذرية إبراهيم هو إسماعيل من زوجته هاجر . أما الفرع الآخر فهو إسحاق أبو إسرائيل من زوجته سارة ، وقد رزق إبراهيم بهما على الكبر ، ولذلك يقول: " الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء * رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء" . والغريب أن اليهود يرون أنفسهم أبناء السيدة الحرة ، أما العرب فهم دونهم ، لأنهم أبناء أمة ! وهذا فكر هابط ، فبنو آدم سواء ، لا يختلفون إلا بالتقوى ، وإذا كان لإبراهيم ميراث فهو لولده جميعا ، ورب العالمين أعز وأجل من أن يقطع أبناء يعقوب أرضا يتوارثونها إلى قيام الساعة "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " وفى المعركة الأزلية بين الحق والباطل سيشعر بالضيم مستضعفون ومهزومون ، وسيقولون لقاهريهم : " . . . ولنصبرن على ما آذيتمونا " والظلم مرتعه وخيم . وقد يعجل الله بعقوبته فى الدنيا ، ومهما

تخفف الجزاء فالقصاص حق : "ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار" . وقد تبين لنا من استقراء التاريخ أن كيد الكافرين



---

شديد ، وأن مكرهم سيئ ، وأن الخطط التى يرسمونها لضرب الحق خبيثة ماهرة ! ! على أن ذلك كله لن يغير النتائج المقدورة: " وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام" .

لقد بدأت سورة إبراهيم ببلاغ للناس أن الله أنزل الكتاب على نبيه الخاتم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وها هى ذى السورة تختم ببلاغ مؤكد حاسم " هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب" . على أولى الألباب أن يحترموا عقولهم فلا يعبدوا الأوهام ويسجدوا للأصنام ، وعليهم أن يتدبروا الوحى الإلهى ، ويتشبثوا بالحق الذى يضىء لهم الطريق ، ويوضح الغاية ، ويهدى إلى الرشد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 193.198 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السادس عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة إبراهيم عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 12 ﴾ من نفس السورة

(4/416)

---

( فى رياض آيات السورة الكريمة )

(5/416)

---

" فصل "

قال السيوطى :

سورة إبراهيم

أقول: وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفكاري فيه برهة: أن قوله في مطلعها : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) مناسب لقوله: في مقطع تلك: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) على أن المراد ب (من) هو: الله تعالى جل جلاله وأيضاً ففي الرعد : (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ

قبلِكَ فأمليت للذين كفروا ثم أَخذتهم) وذلك مجمل في أربعة مواضع: الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ وقد فصلت الأربعة في قوله: (أَلم يأْتِكم نبأ الذين مِن قبلِكُم قوم نوح وعاد وثمود) . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 110 ﴾

(6/416)

---

قوله تعالى ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

بسم الله (الذي تفرد بالكمال ، وعز عن أن يكون له كفو أو مثال ) الرحمن (لجميع خلقه بكتاب هو الغاية في البيان ) الرحيم (الذي اختار من عباده من ألزمهم روح وداده ) الر ( مقصود السورة التوحيد ، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلى الله ، لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدى إليه .

ناقل – بما فيه من الأسرار – للخلق من طور إلى طور – بما يشير إليه حرف الراء ، وأدل ما فيها على هذا المرام قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، أما التوحيد فواضح ، وأما أمر الكتاب فلأنه من جملة دعائه لذريته الذين أسكنهم عند البيت المحرم من ذرية إسماعيل عليه السلام ) ) ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ( ) [ البقرة : 129 ] .

ولما ختم الرعد بأنه لا شهادة تكافىء شهادة من عنده علم الكتاب إشارة إلى أن الكتاب هو الشاهد بإعجازه ببلاغته وما حوى من فنون العلوم ، وأتى به في ذاك السياق معرفاً لما تقدم من ذكره في البقرة وغيرها ثم تكرر وصفه في سورة يونس وهود ويوسف والرعد بأنه حكيم محكم مفصل مبين ، وأنه الحق الثابت الذي تزول الجبال الرواسي وهو ثابت لا يتعتع شيء منه .

ولا يزلزل معنى من معانيه ، ذكره في أول هذه السورة منكراً تنكير التعظيم فقال :

﴿ كتاب ﴾ أي عظيم في درجات من العظمة .

لا تحتمل عقولكم الإخبار عنها بغير هذا الوصف ، ودل تعليل وصفه بالمبين بأنه عربي على أن التقدير : ﴿ أنزلناه ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إليك ﴾ بلسان قومك لتبين لهم .

ولما استجمع التعريف بالأوصاف الموجبة للفلاح المذكورة أول السورة المستدل عليها بكل برهان منير وسلطان مبين ، فصار بحيث لا يتوقف عن اجتناء ثمرته من وقف على حقائق تلك النعوت ، شوق إلى تلك الثمرة بعد تفصيل ما في أول البقرة في التي قبلها كما مضى بما يحث عليه ويقبل بقلب كل عاقل إليه فقال : ﴿ لتخرج الناس ﴾ أي عامة قومك وغيرهم بدعائك إياهم به وإن كانوا ذوي اضطراب ﴿ من الظلمات ﴾ التي هي أنواع كثيرة من الضلالات التي أدت إليها الجهالات ﴿ إلى النور ﴾ الذي هو واحد ، وهو سبيل الله المدعو بالهداية إليه في الفاتحة ، أو لتبين للعرب قومك لأنه بلسانهم بياناً شافياً ، فتجعلهم - بما تقيم عليهم من الحجج الساطعة ، وتوضح لهم من البراهين القاطعة ، وتنصب لهم من الأعلام الظاهرة ، وتحكم لهم من الأدلة الباهرة - في مثل ضوء النهار بما فتح من مقفل أبصارهم ، وكشف عن أغطية قوبهم ، فيكونوا متمكنين من أن يخرجوا من ظلمات الكفر التي هي طرق الشيطان إلى نور الإيمان الذي هو سبيله ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [ الأنعام : 153 ] وشبه الإيمان وما أرشد إليه بالنور ، لأنه عصمة العقل من الخطأ في الطريق إلى الله كما أن النور عصمة البصر من الضلال عن الطريق الحسي ، وإذا خرجوا إلى النور كانوا جديرين بأن يخرجوا جميع الناس ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي المحسن إليهم ؛ والإذن : الإطلاق في الفعل بقول يسمع بالأذن ، هذا أصله - قاله الرماني .

ولما كان النور مجملاً ، بينه على سبيل الاستئناف أو البدل بتكرير العامل فقال : ﴿ إلى صراط العزيز ﴾ الذي تعالى عن صفات النقص فعز عن أن يدخل أحد صراطه الذي هو ربه ، أو يتعرض أحد إلى سالكه بغير إذنه ﴿ الحميد ﴾ المحيط بجميع الكمال ، فهو المستحق لجميع المحامد لذاته وبما يفيض على عباده من النعم التي يربيهم ويتحمد إليهم بها على كل حال ، فكيف إذا سلكوا سبيله الواضح الواسع السهل ! .

(8/416)

---

ولما أضاف طريق النجاة إلى وصفين يجوز إطلاق كل منهما على الخلق ، بينهما باسمه الشريف العَلم على الاستئناف في قراءة نافع وابن عامر بالرفع .

وعلى أنه عطف بيان في قراءة الباقين بالجر لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لاختصاصه بالمعبود بحق ووصفه بما اقتضى توحيده ، فقال : ﴿ الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ الذي له ما في السماوات ﴾ أي الأجسام العالية من الأراضي وغيرها .

ولما كان في سياق الدلالة على الخالق وإثبات توحيده ، أكد بإعادة الموصول مع صلته فقال : ﴿ وما في الأرض ﴾ أي فويل لمن أشرك به شيئاً منهما أو فيهما ، فإنه لا أبين من أن ما كان مملوكاً لا يصلح لأن يكون شريكاً .

ويجوز أن يكون التقدير : فوأل ونجاة وسلامة لمن اهتدى به فخرج من ظلمات الكفر ﴿ وويل ﴾ مصدر بمعنى الهلاك ، ينصب نصب المصادر ثم يرفع رفعها لإفادة أن معنى الهلاك - وهو ضد الوأل الذي هو النجاة - ثابت ﴿ للكافرين ﴾ الذين ستروا أدلة عقولهم ﴿ من عذاب شديد ﴾ تتضاعف آلامه وقوته ؛ والشدة : تجمع يصعب معه التفكيك .

(9/416)

---

ولما أشار إلى ما للكافرين ، وصفهم بما عاقهم عن قبول الخير وتركهم في أودية الشر فقال : ﴿ الذين يستحبون ﴾ أي يطلبون أن يحبوا أو يوجدون المحبة بغاية الرغبة متابعة للهوى ﴿ الحياة الدنيا ﴾ وهي النشأة الأولى التي هي دار الارتحال ، مؤثرين لها ﴿ على الآخرة ﴾ أي النشأة الأخرى التي هي دار المقام ، وذلك بأن يتابعوا أنفسهم على حبها حتى يكونوا كأنهم طالبون لذلك ، وهذا دليل على أن المحبة قد تكون بالإرادة ؛ والمحبة : ميل الطباع إلى الشيء بالشهوة ، فهم يمتنعون خوفاً على دنياهم التي منها رئاستهم عن سلوك الصراط ﴿ و ﴾ يضمون إلى ذلك أنهم ﴿ يصدون ﴾ أي يعرضون بأنفسهم ويمنعون غيرهم ﴿ عن سبيل الله ﴾ أي طريق الملك الأعظم ؛ والسبيل : المذهب المهيأ للسلوك ﴿ و ﴾ يزيدون على ذلك أنهم ﴿ يبغونها ﴾ أي يطلبون لها ، حذف الجار

وأوصل الفعل تأكيداً له ﴿ عوجاً ﴾ والعوج: ميل عن الاستقامة، وهو بكسر العين في الدين والأمر والأرض، وبالفتح في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح ونحوهما ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ في ضلال بعيد ﴾ أي عن الحق، إسناد مجازي، لأن البعيد أهل الضلال بميلهم عن الباقي إلى الفاني وبطلبهم العوج فيما قومه الله المحيط بكل شيء قدرة وعلماً. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 165.167 ﴾

(10/416)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ الله الذي ﴾ بالرفع على الابتداء في الحالين: أبو جعفر ونافع وابن عامر والمفضل، وقرأ يعقوب والخزاعي عن ابن فليح بالرفع إذا ابتدأ وبالخفض إذا وصل. الباقون بالجر مطلقاً ﴿ وعيدي ﴾ بالياء في الحالين: يعقوب وافق ورش وسهل وعباس في الوصل.

الوقوف: ﴿ الر ﴾ قف كوفي ﴿ الحميد ﴾ 5 ط لمن قرأ ﴿ الله ﴾ بالرفع. ﴿ وما في الأرض ﴾ ط ﴿ شديد ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿ الذين ﴾ صفة الكافرين ﴿ عوجاً

﴿ ط بناء على ما قلنا أو على أن ﴿ الذين ﴾ منصوب أو مرفوع على الذم أي أعني الذين أو هم الذين ، وإن جعل ﴿ الذين ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أولئك في ضلال ﴾ فلا وقف على ﴿ عوجاً ﴾ ولك أن تقف على ﴿ شديد ﴾ للآية ﴿ بعيد ﴾ 5 ﴿ ليبين لهم ﴾ ط لأن قوله : ﴿ فيضل ﴾ حكم مبتدأ خارج عن تعليل الإرسال ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ ط ﴿ الحكيم ﴾ 5 ﴿ بأيام الله ﴾ ط ﴿ شكور ﴾ 5 ط ﴿ نساءكم ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ لشديد ﴾ 5 ﴿ جميعاً ﴾ لا لأن ما بعده جزاء ﴿ حميد ﴾ 5 ﴿ وثمود ﴾ ط لمن لم يعطف وجعله مستأنفاً ومن عطف فوقه على ﴿ من بعدهم ﴾ ط ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ مريب ﴾ 5 ﴿ والأرض ﴾ ط فصلاً بين الاستخبار والإخبار ﴿ مسمى ﴾ ط لتقدير همزة الاستفهام في ﴿ تريدون ﴾ . ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ من عباده ﴾ ط ﴿ وبإذن الله ﴾ ط ﴿ المؤمنون ﴾ 5 ﴿ سبلنا ﴾ ط ﴿ آذيتمونا ﴾ ط ﴿ المتوكلون ﴾ 5 ﴿ في ملتنا ﴾ ط ﴿ من بعدهم ﴾ ط ﴿ وعيد ﴾ 5 ﴿ عنيد ﴾ 5 لا لأن ما بعده وصف ﴿ صديد ﴾ 5 لا لذلك ﴿ بميت ﴾ ط ﴿ غليظ ﴾ 5 . انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 170 ﴾

(11/416)

فصل

قال الفخر :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد .

ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء ، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة وقوله :

﴿ الر كِتَابٌ ﴾ معناه أن السورة المسماة بالر كتاب أنزلناه إليك لغرض كذا وكذا فقوله :

﴿ الر ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبره وقوله : ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ صفة لذلك الخبر

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

دلت هذه الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلاً من عند الله تعالى .

قالت المعتزلة : النازل والمنزل لا يكون قديماً .

وجوابنا : أن الموصوف بالنازل والمنزل هو هذه الحروف وهي محدثة بلا نزاع .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة : اللام في قوله : ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ لام الغرض والحكمة ، وهذا يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذا الغرض ، وذلك يدل على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة برعاية المصالح .

أجاب أصحابنا عنه بأن من فعل فعلاً لأجل شيء آخر فهذا إنما يفعله لو كان عاجزاً عن تحصيل هذا المقصود إلا بهذه الواسطة وذلك في حق الله تعالى محال ، وإذا ثبت بالدليل أنه يمتنع تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه بالعلل ثبت أن كل ظاهر أشعر به فإنه مؤول محمول على معنى آخر .

المسألة الثالثة :

إنما شبه الكفر بالظلمات لأنه نهاية ما يتحير الرجل فيه عن طريق الهداية وشبه الإيمان بالنور لأنه نهاية ما ينجلي به طريق هدايته .

المسألة الرابعة :

قال القاضي : هذه الآية فيها دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات : أحدها : أنه تعالى لو كان يخلق الكفر في الكافر فكيف يصح إخراجه منه بالكتاب .

وثانيها : أنه تعالى أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فإن كان خالق ذلك الكفر هو الله تعالى فكيف يصح من الرسول عليه الصلاة والسلام إخراجهم منه وكان للكافر أن يقول : إنك تقول : إن الله خلق الكفر فينا فكيف يصح منك أن تخرجنا منه فإن قال لهم : أنا أخرجكم من الظلمات التي هي كفر مستقبل لا واقع ، فلهم أن يقولوا : إن كان تعالى سيخلقه فينا لم يصح ذلك الإخراج وإن لم يخلقه فنحن خارجون منه بلا إخراج.

وثالثها : أنه صلى الله عليه وسلم إنما يخرجهم من الكفر بالكتاب بأن يتلوه عليهم ليتدبروه وينظروا فيه فيعلموا بالنظر والاستدلال كونه تعالى عالماً قادراً حكيماً ويعلموا بكون القرآن معجزة صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحينئذ يقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع ، وذلك لا يصح إلا إذا كان الفعل لهم ويقع باختيارهم ، ويصح منهم أن يقدموا عليه ويتصرفوا فيه.

والجواب عن الكل أن نقول : الفعل الصادر من العبد إما أن يصدر عنه حال استواء الداعي إلى الفعل والترك أو حال رجحان أحد الطرفين على الآخر ، والأول : باطل ، لأن صدور الفعل رجحان لجانب الوجود على جانب العدم ، وحصول الرجحان حال حصول الاستواء محال.

والثاني : عين قولنا لأنه يمتنع صدور الفعل عنه إلا بعد حصول الرجحان ، فإن كان ذلك

الرجحان منه عاد السؤال، وإن لم يكن منه بل من الله تعالى، فحينئذ يكون المؤثر الأول هو الله تعالى وذلك هو المطلوب والله أعلم.

المسألة الخامسة:

احتج أصحابنا على صحة قولهم في أن فعل العبد مخلوق لله تعالى بقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ فإن معنى الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا بإذن ربهم، والمراد بهذا الإذن إما الأمر، وإما العلم، وإما المشيئة والخلق.

(13/416)

---

وحمل الإذن على الأمر محال، لأن الإخراج من الجهل إلى العلم لا يتوقف على الأمر، فإنه سواء حصل الأمر أو لم يحصل، فإن الجهل متميز عن العلم والباطل متميز عن الحق، وأيضاً حمل الإذن على العلم محال، لأن العلم يتبع المعلوم على ما هو عليه فالعلم بالخروج من الظلمات إلى النور تابع لذلك الخروج ويمتنع أن يقال إن حصول ذلك الخروج تابع للعلم بحصول ذلك الخروج ولما بطل هذان القسمان لم يبق إلا أن يكون المراد من الإذن المشيئة والتخليق، وذلك يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكنه إخراج الناس من الظلمات إلى

النور إلا بمشيئة الله وتخليقه .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الإذن الإلطاف .

قلنا : لفظ اللطف لفظ مجمل ونحن نفصل القول فيه فنقول : المراد بالإذن إما أن يكون أمراً يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم أو لا يقتضي ذلك ، فإن كان الثاني لم يكن فيه أمر ألبتة ، فامتنع أن يقال : إنه مما حصل بسببه ولأجله فبقي الأول وهو أن المراد من الإذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم .

وقد دللنا في "الكتب العقلية" على أنه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب ولا معنى لذلك إلا الداعية الموجبة وهو عين قولنا ، والله أعلم .

المسألة السادسة :

القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام ، احتجوا عليه بهذه الآية وقالوا : إنه تعالى صرح في هذه الآية بأن الرسول هو الذي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وذلك يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم .

وجوابنا : أن الرسول صلى الله عليه وسلم يكون كالمنبه ، وأما المعرفة فهي إنما تحصل بالدليل ، والله أعلم .

المسألة السابعة :

الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وأن طريق الخير ليس إلا الواحد ، لأنه تعالى قال : ﴿ لِتُخْرِجَ النَاس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد ، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة ، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا الواحد .

المسألة الثامنة :

في قوله تعالى : ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ وجهان الأول : أنه بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل كقوله : ﴿ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ [ الأعراف : 75 ] الثاني : يجوز أن يكون على وجه الاستئناف كأنه قيل : إلى أي نور فقيل : ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ .

المسألة التاسعة :

قالت المعتزلة : الفاعل إنما يكون آتياً بالصواب والصلاح ، تاركاً للقبيح والعبث إذا كان قادراً على كل المقدورات عالماً بجميع المعلومات غنياً عن كل الحاجات ، فإنه إن لم يكن قادراً على الكل فربما فعل القبيح بسبب العجز ، وإن لم يكن عالماً بكل المعلومات فربما فعل

القبيح بسبب الجهل ، وإن لم يكن غنياً عن كل الحاجات فربما فعل القبيح بسبب الحاجة ، أما إذا كان قادراً على الكل عالماً الكل غنياً عن الكل امتنع منه الإقدام على فعل القبيح ، فقوله : ﴿ العزيز ﴾ إشارة إلى كمال القدرة ، وقوله : ﴿ الحميد ﴾ إشارة إلى كونه مستحقاً للحمد في كل أفعاله ، وذلك إنما يحصل إذا كان عالماً بالكل غنياً عن الكل فثبت بما ذكرنا أن صراط الله إنما كان موصوفاً بكونه شريفاً رفيعاً عالياً لكونه صراطاً مستقيماً للإله الموصوف بكونه عزيزاً حميداً ، فلهذا المعنى : وصف الله نفسه بهذين الوصفين في هذا المقام .

المسألة العاشرة :

(15/416)

---

إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد ، لأن الصحيح أن أول العلم بالله العلم بكونه تعالى قادراً ، ثم بعد ذلك العلم بكونه عالماً ، ثم بعد ذلك العلم بكونه غنياً عن الحاجات ، والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني ، فلما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً بالكل غنياً عن الكل لا جرم قدم الله ذكر العزيز على ذكر الحميد ، والله أعلم .

﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2)

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ الله ﴾ مرفوعاً بالابتداء وخبره ما بعده ، وقيل التقدير هو الله والباقون بالجر عطفاً على قوله : ﴿ العزيز الحميد ﴾ وههنا بحث ، وهو أن جماعة من المحققين ذهبوا إلى أن قولنا : الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله تعالى وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق والحق عندنا هو الأول .

ويدل عليه وجوه : الأول : أن الاسم المشتق عبارة عن شيء ما حصل له المشتق منه ، فالأسود مفهومه شيء ما حصل له السواد ، والناطق مفهومه شيء ما حصل له النطق ، فلو كان قولنا الله اسماً مشتقاً من معنى لكان المفهوم منه أنه شيء ما حصل له ذلك المشتق منه ، وهذا المفهوم كلي لا يمتنع من حيث هو هو عن وقوع الشركة فيه ، فلو كان قولنا الله لفظاً مشتقاً لكان مفهومه صالحاً لوقوع الشركة فيه ، ولو كان الأمر كذلك لما كان قولنا لا إله إلا الله موجباً للتوحيد ، لأن المستثنى هو قولنا الله وهو غير مانع من وقوع الشركة فيه ولما اجتمعت الأمة على أن قولنا لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أن قولنا الله جار مجرى الاسم العلم .

الثاني : أنه كلما أردنا أن نذكر سائر الصفات والأسماء ذكرنا أولاً قولنا الله ثم وصفناه بسائر الصفات كقولنا هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس ولا يمكننا أن نعكس الأمر فنقول الرحمن الرحيم الله فعلمنا أن الله هو اسم علم للذات المخصوصة وسائر الألفاظ دالة على الصفات والنعوت .

الثالث : أن ما سوى قولنا الله كلها دالة ، إما على الصفات السلبية ، كقولنا : القدوس السلام ، أو على الصفات الإضافية ، كقولنا الخالق الرازق أو على الصفات الحقيقية كقولنا : العالم القادر ، أو على ما يتركب من هذه الثلاثة ، فلو لم يكن قولنا : الله اسماً للذات المخصوصة لكان جميع أسماء الله تعالى ألفاظاً دالة على صفاته ، ولم يحصل فيها ما يدل على ذاته المخصوصة وذلك بعيد ، لأنه يبعد أن لا يكون له من حيث إنه هو اسم مخصوص .

والرابع : قوله تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [ مريم : 65 ] والمراد هل تعلم من اسمه الله غير الله ، وذلك يدل على أن قولنا : الله اسم لذاته المخصوصة ، وإذا ظهرت هذه المقدمة فالترتيب الحسن أن يذكر عقيبه الصفات كقوله تعالى : ﴿ هُوَ الله الخالق البارىء

المصور ﴾ [ الحشر : 24 ] فإما أن يعكس فيقال : هو الخالق المصور البارىء الله ، فذلك غير جائز .

وإذا ثبت هذا فنقول : الذين قرؤا : ﴿ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السموات ﴾ بالرفع أرادوا أن يجعلوا قوله : ﴿ الله ﴾ مبتدأ ويجعلوا ما بعده خبراً عنه وهذا هو الحق الصحيح ، فأما الذين قرؤا : ﴿ الله ﴾ بالجر عطفاً على : ﴿ العزيز الحميد ﴾ فهو مشكل لما بينا أن الترتيب الحسن أن يقال : الله الخالق .

وإما أن يقال : الخالق الله فهذا لا يحسن ، وعند هذا اختلفوا في الجواب على وجوه : الأول : قال أبو عمرو بن العلاء : القراءة بالخفض على التقديم والتأخير ، والتقدير : صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات .

(17/416)

---

والثاني : أنه لا يبعد أن يذكر الصفة أولاً ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة أخرى كما يقال : مررت بالإمام الأجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله : ﴿ صِرَاطِ العزيز الحميد * الله الذى لَهُ مَا فِى السموات ﴾ وتحقيق القول فيه : أنا بينا أن الصراط إنما يكون ممدوحاً محموداً إذا كان صراطاً للعالم القادر الغني ، والله تعالى عبر عن هذه الأمور الثلاثة بقوله :

﴿ العزيز الحميد ﴾ ثم لما ذكر هذا المعنى وقعت الشبهة في أن ذلك العزيز من هو ؟

فعطف عليها قوله : ﴿ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ إزالة لتلك الشبهة .

الثالث : قال صاحب "الكشاف" : الله عطف بيان للعزيز الحميد ، وتحقيق هذا القول ما قررناه فيما تقدم .

الرابع : قد ذكرنا في أول هذا الكتاب أن قولنا الله في أصل الوضع مشتق إلا أنه بالعرف صار جارياً مجرى الاسم العلم فحيث يبدأ بذكره ويعطف عليه سائر الصفات فذلك لأجل أنه جعل اسم علم ، وأما في هذه الآية حيث جعل وصفاً للعزيز الحميد ، فذاك لأجل أنه حمل على كونه لفظاً مشتقاً فلا جرم بقي صفة .

الخامس : أن الكفار ربما وصفوا الوثن بكونه عزيزاً حميداً فلما قال : ﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبّهِمْ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ بقي في خاطر عبدة الأوثان أنه ربما كان ذلك العزيز الحميد هو الوثن ، فأزال الله تعالى هذه الشبهة وقال : ﴿ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي المراد من ذلك العزيز الحميد هو الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ الله الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو ألبتة ، وذلك لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء ، فلو حصل ذات الله تعالى في جهة فوق ، لكان حاصلاً في السماء ، وهذه الآية دالة على أن كل ما في السموات فهو ملكه ، فلزم كونه ملكاً لنفسه وهو محال ، فدلت هذه الآية على أنه منزه عن الحصول في جهة فوق .

المسألة الثالثة :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خالق لأعمال العباد لأنه قال : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ وأعمال العباد حاصلة في السموات والأرض فوجب القول بأن أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له ، والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله تعالى ، وإذا ثبت أنها مقدورة لله تعالى وجب وقوعها بقدرة الله تعالى ، وإلا لكان العبد قد منع الله تعالى من إيقاع مقدوره وذلك محال .

واعلم أن قوله تعالى : ﴿ لَّهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأَرض ﴾ يفيد الحصر والمعنى أن ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره وذلك يدل على أنه لا مالك إلا الله ولا حاكم إلا الله ثم إنه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال : ﴿ وَوَيْلٌ للكافرين مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ والمعنى : أنهم لما تركوا عبادة الله تعالى الذي هو المالك للسموات والأرض ولكل

ما فيهما إلى عبادة ما لا يملك ضراً ولا نفعاً ويخلق ولا يخلق ، ولا إدراك لها ولا فعل ، فالويل ثم الويل لمن كان كذلك ، وإنما خص هؤلاء بالويل ، لأن المعنى يولولون من عذاب شديد ويصيحون منه ويقولون يا ويلاه .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [ الفرقان : 13 ] ثم بين تعالى صفة هؤلاء الكافرين الذين توعدهم بالويل الذي يفيد أعظم العذاب وذكر من صفاتهم ثلاثة أنواع :

الأول : قوله : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الأخرة ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(19/416)

---

إن شئت جعلت "الذين" صفة الكافرين في الآية المتقدمة وإن شئت جعلته مبتدأ وجعلت الخبر قوله : ﴿ أولئك ﴾ وإن شئت نصبته على الذم .

المسألة الثانية :

الاستحباب طلب محبة الشيء ، وأقول إن الإنسان قد يحب الشيء ولكنه لا يحب كونه محباً لذلك الشيء ، مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه محباً لهما ، أما إذا أحب الشيء وطلب كونه محباً له ، وأحب تلك المحبة فهذا هو نهاية المحبة فقوله :

﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا ﴾ يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية ، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلاً عن الحياة الأخروية ، وعن معايب هذه الحياة العاجلة ، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة ، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب .

فأحدها : أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والأسقام والغموم والهموم والمخاوف والأحزان .

وثانيها : أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام ، بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات .

وثالثها : أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والإنقراض والانقضاء .

ورابعها : أنها حقيرة قليلة ، وبالجملة فلا يحب هذه الحياة إلا من كان غافلاً عن معايبها وكان غافلاً عن فضائل الحياة الروحانية الأخروية ، ولذلك قال تعالى : ﴿ والأخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [ الأعلى : 17 ] فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه .

المسألة الثالثة :

إنما قال : ﴿ يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الأخرة ﴾ لأن فيه إضماراً ، والتقدير : يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة ،

فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذموماً حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة.

(20/416)

---

النوع الثاني: من الصفات التي وصف الله الكفار بها قوله تعالى: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

واعلم أن من كان موصوفاً باستحباب الدنيا فهو ضال، ومن منع الغير من الوصول إلى سبيل الله ودينه فهو مضل، فالمرتبة الأولى إشارة إلى كونهم ضالين، وهذه المرتبة الثانية وهي كونهم صادين عن سبيل الله إشارة إلى كونهم مضلين.

والنوع الثالث: من تلك الصفات قوله: ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾، واعلم أن الإضلال على مرتبتين:

المرتبة الأولى: أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم والصراط المستقيم.

والمرتبة الثانية: أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق ويحاول تقبيح

صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل ، وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ قال صاحب "الكشاف" الأصل في الكلام أن يقال : ويبغون لها عوجاً ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، ولما ذكر الله تعالى هذه المراتب الثلاثة لأحوال هؤلاء الكفار قال في صفتهم : ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ وإنما وصف هذا الضلال بالبعد لوجوه :

الوجه الأول : أنا بينا أن أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق ، فإن شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد ، مثل السواد والبياض ، فكذا ههنا الضلال الذي يكون واقعاً على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فإنه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال .

والوجه الثاني : أن يكون المراد أنه يبعد ردهم عن طريقة الضلال إلى الهدى ، لأنه قد تمكن ذلك في نفوسهم .

والوجه الثالث : أن يكون المراد من الضلال الهلاك ، والتقدير : أولئك في هلاك يطول عليهم فلا ينقطع ، وأراد بالبعد امتداده وزوال انقطاعه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 57.62 ﴾

وقال الماوردي :

﴿ الر كتاب أنزلناه إليك ﴾ يعني القرآن .

﴿ لتُخرِجَ الناسَ مِن الظلماتِ إلى النُّور ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : من الشك إلى اليقين .

الثاني : من البدعة إلى السنّة .

الثالث : من الضلالة إلى الهدى

الرابع : من الكفر إلى الإيمان

﴿ بإذن ربهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بأمر ربهم ، قاله الضحاك .

الثاني : بعلم ربهم .

﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ فروى مِقْسم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى ، وقوم كفروا به ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر به الذين آمنوا بعيسى ، فنزلت هذه الآية .

قوله عز وجل : ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يختارونها على الآخرة ، قاله أبو مالك .

الثاني : يستبدلونها من الآخرة ، ذكره ابن عيسى ، والاستحباب هو التعرض للمحبة .

ويحتمل ما يستحبونه من الحياة الدنيا على الآخرة وجهين :

أحدهما : يستحبون البقاء في الحياة الدنيا على البقاء في الآخرة .

الثاني : يستحبون النعيم فيها على النعيم في الآخرة .

﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ قال ابن عباس : عن دين الله .

ويحتمل : عن محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ ويبغونها عِوَجاً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يرجون بمكة غير الإسلام ديناً ، قاله ابن عباس .

الثاني : يقصدون بمحمد صلى الله عليه وسلم هلاكاً ، قاله السدي .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن معناه يلتمسون الدنيا من غير وجهها لأن نعمة الله لا تستمد إلا بطاعته دون معصيته .

والعِوَج بكسر العين : في الدين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائماً . والعوج بفتح العين : في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور والاختلاف في ذلك .

و ﴿ كتاب ﴾ رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره هذا كتاب ، وهذا على أكثر الأقوال في الحروف المقطعة ، وأما من قال فيها ، إنها كناية عن حروف المعجم ، ف ﴿ كتاب ﴾ مرتفع بقوله : ﴿ الر ﴾ أي هذه الحروف كتاب أنزلناه إليك ، وقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ في موضع الصفة للكتاب .

قال القاضي ابن الطيب وأبو المعالي وغيرهما : إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، لكن بالمعاني التي أفهمها الله تعالى جبريل عليه السلام من الكلام .

وقوله : ﴿ لتخرج ﴾ أسند الإخراج إلى النبي صلى الله عليه وسلم من حيث له فيه المشاركة بالدعاء والإنذار ، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية . وفي هذه اللفظة تشريف للنبي عليه السلام .

وعم ﴿ الناس ﴾ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق ، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نقل تواتراً من دعوته العالم كله ، ومن بعثه إلى الأحمر والأسود علم الصحابة ذلك مشاهدة ، ونقل عنهم تواتراً ، فعلم قطعاً والحمد لله .

واستعير ﴿ الظلمات ﴾ للكفر، و﴿ النور ﴾ للإيمان، تشبيهاً.

وقوله: ﴿ بإذن ربهم ﴾، أي بعلمه وقضائه به وتمكينه لهم..

و﴿ إلى ﴾ في قوله: ﴿ إلى صراط ﴾ بدل من الأولى في قوله: ﴿ إلى النور ﴾ أي إلى الحجة المؤدية إلى طاعة الله وللإيمان به ورحمته، فأضافها إلى الله بهذه التعلقات.

و﴿ العزيز الحميد ﴾ صفتان لائقتان بهذا الموضع، فالعزة من حيث الإنزال للكتاب، وما في ضمن ذلك من القدرة، واستيجاب الحمد من جهة بث هذه النعم على العالم في نصب هدايتهم.

(23/416)

---

وقرأ نافع وابن عامر "اللهُ الذي" برفع اسم الله على القطع والابتداء وخبره "الذي"، ويصح رفعه على تقدير هو الله الذي. وقرأ الباقون بكسر الهاء على البدل من قوله: ﴿ العزيز الحميد ﴾، وروى الأصمعي وحده هذه القراءة عن نافع. وعبر بعض الناس عن هذا بأن قال: التقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد، ثم قدم الصفات وأبدل منها الموصوف.

قال القاضي أبو محمد: وإذا كانت هكذا فليست بعد بصفات على طريقة صناعة النحو

، وإن كانت بالمعنى صفاته ، ذكر معها أو لم يذكر .

وقوله : ﴿ وويل ﴾ معناه : وشدة وبلاء ونحوه . أي يلقونه من عذاب شديد ينالهم الله به يوم القيامة ، ويحتمل أن يريد في الدنيا ، هذا معنى قوله : ﴿ وويل ﴾ . وقال بعض : " ويل " اسم واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار .

قال القاضي أبو محمد : وهذا خبر يحتاج إلى سند يقطع العذر ، ثم لو كان لقلق تأويل هذه الآية لقوله : ﴿ من عذاب ﴾ وإنما يحسن تأوله في قوله : ﴿ ويلٌ للمطففين ﴾ [ المطففين : 1 ] وما أشبهه ، وأما هنا فإنما يحسن في " ويل " أن يكون مصدراً ، ورفعه على نحو رفعهم : سلام عليك وشبهه .

و ﴿ الذين ﴾ بدل من الكافرين وقوله : ﴿ يستحبون ﴾ من صفة الكافرين الذين توعدهم قبل ، والمعنى : يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإذعان للشرع على رحمة الله وسكنى جنته ، وقوله ﴿ يصدون ﴾ يحتمل أن يتعدى وأن يقف ، والمعنى على كلا الوجهين مستقل ، تقول : صد زيد غيره ، ومن تعديته قول الشاعر : [ الوافر ]

صددتِ الكأس عنا أمَّ عمرو . . . وكان الكأس مجراها اليمينا

و ﴿ سبيل الله ﴾ طريقة هداه وشرعه الذي جاء به رسوله . وقوله : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل : أظهرها أن يريد : ويطلبونها في حالة عوج منهم . ولا يراعى إن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل اجتهاد واتباع الأحسن ، فقد وصف الله تعالى حالهم تلك بالعوج ، وكأنه قال : ويصدون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة سبيله ، ويطلبونها على عوج في النظر .

والتأويل الثاني أن يكون المعنى : ويطلبون لها عوجاً يظهر فيها ، أي يسعون على الشريعة بأقوالهم وأفعالهم . ف ﴿ عوجاً ﴾ مفعول .

والتأويل الثالث : أن تكون اللفظة من المعنى ، على معنى : ويبغون عليها أو فيها عوجاً ، ثم حذف الجار ، وفي هذا بعض القلق .

وقال كثير من أهل اللغة : العِوج – بكسر العين – في الأمور وفي الدين ، وبالجملة في المعاني ، والعَوج – بفتح العين – في الأجرام .

قال القاضي أبو محمد : ويعترض هذا القانون بقوله تعالى : ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ [ طه : 107 ] وقد تتداخل اللفظة مع الأخرى ، ووصف " الضلال " بالبعد عبارة عن تعمقهم فيه . وصعوبة خروجهم منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ قد سبق بيانه [ يونس : 1 ] .

وقوله : ﴿ كتابٌ ﴾ قال الزجاج : المعنى : هذا كتاب ، والكتاب ، القرآن .

وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الظلمات : الكفر ، والنور : الإِيمان ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أن الظلمات : الضلالة ، والنور : الهدى ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : أن الظلمات : الشكُّ ، والنور : اليقين ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : بأمر ربهم ، قاله مقاتل .

والثاني : بتوفيق ربهم ، قاله أبو سليمان .

والثالث : أنه الإِذن نفسه ، فالمعنى : بما أَذِن لك من تعليمهم ، قاله الزجاج ، قال : ثم بيَّن ما النُّور ، فقال : ﴿ إِلى صراط العزيز الحميد ﴾ قال ابن الأنباري : وهذا مِثْلُ قول العرب : جلست إِلى زيد ، إِلى العاقل الفاضل ، وإِنما تُعاد "إِلى" بمعنى التعظيم للأمر ، قال الشاعر :

إِذَا خَدِرَتْ رِجْلي تَذَكَّرْتُ مَنْ لَهَا . . .

فَنَادَيْتُ لُبْنَى بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ

دَعَوْتُ الَّتِي لَوَ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي . . .

لأَلْقَيْتُهَا من حُبِّهَا وقَضَيْتُ

فأعاد "دعوت" لتفخيم الأمر .

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الذي له ما في السموات ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "الحميدِ اللهِ" على البدل .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبان ، والمفضَّل : "الحميدِ .

اللهُ" رفعاً على الاستئناف ، وقد سبق بيان ألفاظ الآية .

قوله تعالى : ﴿ الذين يستحبُّون الحياة الدنيا ﴾

أي : يؤثرونها ﴿ على الآخرة ﴾ قال ابن عباس : يأخذون ما تعجَّل لهم منها تهاوُناً بأمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ ويَصُدُّون عن سبيل ﴾ أي : يمنعون الناس من الدخول في دِينه ، ﴿ ويبغونها عِوَجاً ﴾ قد شرحناه في [ آل عمران : 99 ] .

قوله تعالى : ﴿ أولئك في ضلال ﴾ أي : في ذهاب عن الحق ﴿ بعيد ﴾ من الصواب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدّم معناه .

﴿ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ أي بالكتاب ، وهو القرآن ، أي بدعائك إليه .

﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ أي من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيما ن والعلم ؛

وهذا على التمثيل ؛ لأن الكفر بمنزلة الظلمة ؛ والإسلام بمنزلة النور .

وقيل : من البدعة إلى السُّنة ، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب .

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء في "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ" متعلقة ب"تخرج"

وأضيف الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الداعي والمنذر الهادي .

﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقِل الفاضِل من غير واو

، لأنهما شيء واحد ؛ والله هو العزيز الذي لا مثل له ولا شبيه .

وقيل : "الْعَزِيز" الذي لا يغلبه غالب .

وقيل : "الْعَزِيز" المنيع في ملكه وسلطانه .

"الْحَمِيدِ" أي المحمود بكل لسان ، والممجد في كل مكان على كل حال .

وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى ابن مريم ، وقوم كفروا به ، فلما

بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى ، وكفر الذين آمنوا بعيسى ؛

فنزلت هذه الآية ، ذكره الماورديّ .

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾

أي ملكاً وعبيداً واختراعا وخلقاً .

وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما : "اللَّهُ" بالرفع على الابتداء "الَّذِي" خبره .

وقيل : "الَّذي" صفة ، والخبر مضمر ؛ أي الله الذي له ما في السموات وما في الأرض قادر على كل شيء .

الباقون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت ؛ كقولك : مررت بالظريفِ زيدٍ .

وقيل : على البدل من "الْحَمِيدِ" وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعلَم فلا يوصف ؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد .

*(27/416)*

---

وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير ، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض .

وكان يعقوب إذا وقف على "الْحَمِيدِ" رفع ، وإذا وصل خفض على النعت .

قال ابن الأنباري : من خفض وقف على ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدّم معنى الويل في "البقرة" وقال الزجاج : هي كلمة تقال للعذاب والهَلَكة .

"مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" أي في جهنم .

﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا ﴾ أي يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك .

ف"الَّذِينَ" في موضع خفض صفة لهم .

وقيل : في موضع رفع خبر ابتداء مضمر ؛ أي هم الذين .

وقيل : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ ﴾ مبتدأ وخبره .

"أُولَئِكَ" .

وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، واستحب البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة ، وصدّ عن سبيل الله أي صرف الناس عنه وهو دين الله ، الذي جاءت به الرسل ، في قول ابن عباس وغيره فهو داخل في هذه الآية ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إنّ أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلّون " وهو حديث صحيح .

وما أكثر ما هم في هذه الأزمان ، والله المستعان .

وقيل : "يَسْتَحِبُّونَ" أي يلتمسون الدنيا من غير وجهها ؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته

دون معصيته .

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ أي يطلبون لها زَيْغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم .

والسبيل تذكّر وتؤنّث .

والعِوج بكسر العين في الدّين والأمر والأرض ، وفي كل ما لم يكن قائماً ؛ وبفتح العين في كل ما كان قائماً ، كالحائط ، والرُّمح ونحوه ؛ وقد تقدم في "آل عمران" وغيرها .

﴿ أولئك فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي ذهاب عن الحق بعيد عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(28/416)

---

وقال الخازن :

قول القرآن ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك ﴾

يعني هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ لتخرج الناس من الظلمات الى النور ﴾ يعني بهذا القرآن والمراد من الظلمات الكفر والضلالة والجهل ، والمراد بالنور : الإيمان .

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله : وفيه دليل على أن طرق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس إلا واحداً لأنه تعالى قال : لتخرج الناس من الظلمات إلى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أن طرق الكفر والجهل كثيرة ، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا واحد ﴿ بإذن ربهم ﴾ يعني بأمر ربهم وقيل : يعلم ربهم ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ يعني إلى دين الإسلام وهو دينه الذي أمر به عباده ، والعزيز هو الغالب الذي لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد ﴿ الله ﴾ قرئ بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرئ بالجر نعتاً للعزيز الحميد فقال أبو عمرو قراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره إلى صراط الله العزيز الحميد ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ يعني ملكاً وما فيهما عبيده ﴿ وويل للكافرين ﴾ يعني الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وعبدوا من لا يملك شيئاً البتة بل هو مملوك لله لأنه من جملة خلق الله ، ومن جملة ما في السموات وما في الأرض ﴿ من عذاب شديد ﴾ يعني معد لهم في الآخرة ثم وصفهم .

فقال تعالى : ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ يعني يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي ويمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ يعني ويطلبون لها زيغاً وميلاً ، فحذف الجار وأوصل الفعل .

(29/416)

---

وقيل : معناه يطلبون سبيل الله حائدين عن القصد وقيل الهاء في ويبغونها راجعة إلى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل إلى الحرام ﴿ أولئك ﴾ يعني من هذه صفته ﴿ في ضلال بعيد ﴾ يعني عن الحق وقيل يجوز أن يراد في ضلال بعيد ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال يبعد عن الطريق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(30/416)

---

وقال أبو حيان :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

هذه السورة مكية كلها في قول الجمهور ، وعن ابن عباس وقتادة ، هي مكية إلا من قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ الآية إلى قوله ﴿ إلى النار ﴾ وارتباط أول هذه السورة بالسورة قبلها واضح جداً ، لأنه ذكر فيها : ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ ثم ﴿ وكذلك

أنزلناه حكماً عربياً ﴾ ثم ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ فناسب هذا قوله الر كتاب أنزلناه إليك .

وأيضاً فإنهم لما قالوا على سبيل الاقتراح ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وقيل له : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ أنزل الر كتاب أنزلناه إليك كأنه قيل : أو لم يكفهم من الآيات كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات هي الضلال ، إلى النور وهو الهدى .

وجوزوا في إعراب الر أن يكون في موضع رفع بالابتداء ، وكتاب الخبر ، أو في موضع رفع على خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الر ، وفي موضع نصب على تقدير : الزم أو اقرأ الر .

وكتاب أنزلناه إليك جملة مفسرة في هذين الإعرابين ، وكتاب مبتدأ .

وسوغ الابتداء به كونه موصوفاً في التقدير أي : كتاب أي : عظيم أنزلناه إليك .

وجوزوا أن يكون كتاب خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذا كتاب ، وأنزلناه جملة في موضع الصفة .

وفي قوله : أنزلناه .

وإسناد الإنزال إلى نون العظمة ومخاطبته تعالى بقوله إليك ، وإسناد الإخراج إليه عليه الصلاة والسلام ، تنويه عظيم وتشريف له ( صلى الله عليه وسلم ) من حيث المشاركة في تحصيل الهداية بإنزاله تعالى ، وبإخراجه عليه الصلاة والسلام ، إذ هو الداعي والمنذر ،

وإن كان في الحقيقة مخترع الهداية هو الله تعالى .

والناس عام ، إذ هو مبعوث إلى الخلق كلهم ، والظلمات والنور مستعاران للكفر والإيمان .

(31/416)

---

ولما ذكر علة إنزال الكتاب وهي قوله : لتخرج قال : بإذن ربهم ، أي : ذلك الإخراج بتسهيل مالكهم الناظر في مصالحهم ، إذ هم عبيده ، فناسب ذكر الرب هنا تنبيهاً على منة المالك ، وكونه ناظراً في حال عبيدة .

وبإذن ظاهره التعلق بقوله : لتخرج .

وجوز أبو البقاء أن يكون بإذن ربهم في موضع الحال قال : أي مأذوناً لك .

وقال الزمخشري : بإذن ربهم بتسهيله وتيسيره ، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب ، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق انتهى .

وفيه دسيسة الاعتزال .

والظاهر أن قوله : إن صراط ، بدل من قوله إلى النور ، ولا يضر هذا الفصل بين المبدل منه والبدل ، لأنّ بإذن معمول للعامل في المبدل منه وهو لتخرج.

وأجاز الزمخشري أن يكون إلى صراط على وجه الاستئناف ، كأنه قيل : إلى أي نور ، فقيل

: إلى صراط العزيز الحميد .

وقرئ : ليخرج مضارع خرج بالياء بنقطتين من تحتها ، والناس رفع به .

ولما كان قوله : إلى النور ، فيه إبهام مّا أوضحه بقوله : إلى صراط .

ولما تقدم شيئان أحدهما إسناد إنزال هذا الكتاب إليه .

والثاني إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة وذلك من حيث إنزال الكتاب ، وصفة الحمد المتضمنة استحقاقه الحمد من حيث الإخراج من الظلمات إلى النور ، إذ الهداية إلى الإيمان هي النعمة التي يجب على العبد الحمد عليها والشكر .

وتقدمت صفة العزيز ، لتقدم ما دل عليها ، وتليها صفة الحميد لتلو ما دل عليها .

وقرأ نافع وابن عامر الله بالرفع فقيل : مبتدأ محذوف أي : هو الله .

وهذا الإعراب أمكن لظهور تعلقه بما قبله ، وتفلته على التقدير الأول .

وقرأ باقي السبعة والأصمعي عن نافع : الله بالجر على البدل في قول ابن عطية ، والحوفي ، وأبي البقاء .

وعلى عطف البيان في قول الزمخشري قال : لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود الذي يحق له العبادة ، كما غلب النجم على الثريا انتهى .

وهذا التعليل لا يتم إلا على تقدير : أن يكون أصله الإله ، ثم نقلت الحركة إلى لام التعريف وحذفت الهمزة ، والتزم فيه النقل والحذف ، ومادته إذ ذاك الهمزة واللام والهاء ، وقد تقدمت الأقوال في هذا اللفظ في البسملة أول الحمد .

وقال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور : لا تقدم صفة على موصوف إلى حيث سمع وذلك قليل ، وللعرب فيما وجد من ذلك وجهان : أحدهما : أن تقدم الصفة وتبقيتها على ما كانت عليه ، وفي إعراب مثل هذا وجهان : أحدهما : إعرابه نعتاً مقدماً ، والثاني : أن يجعل ما بعد الصفة بدلاً .

والوجه الثاني : أن تضيف الصفة إلى الموصوف إذا قدمتها انتهى .

فعلى هذا الذي ذكره ابن عصفور يجوز أن يكون العزيز الحميد يعربان صفتين متقدمتين ، ويعرب لفظ الله موصوفاً متأخراً .

ومما جاء فيه تقديم ما لو تأخير لكان صفة ، وتأخير ما لو تقدم لكان موصوفاً قول الشاعر :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها . . .

ركبان مكة بين الغيل والسعد

فلو جاء على الكثير لكان التركيب : والمؤمن الطير العائذات ، وارتفع ويل على الابتداء ،

وللكافرين خبره .

لما تقدم ذكره الظلمات دعا بالهلكة على من لم يخرج منها ، ومن عذاب شديد في موضع الصفة لويل .

ولا يضر الفصل والخبر بين الصفة والموصوف ، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بويل لأنه مصدر ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلق به بالخبر .

ويظهر من كلام الزمخشري أنه ليس في موضع الصفة .

قال : ( فإن قلت ) : ما وجه اتصال قوله من عذاب شديد بالويل ؟ قلت : لأن المعنى أنهم يولون من عذاب شديد ويضجون منه ، ويقولون يا ويلاه كقوله : ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ انتهى .

(33/416)

---

وظاهره يدل على تقديره عامل يتعلق به من عذاب شديد ، ويحتمل هذا العذاب أن يكون واقعاً بهم في الدنيا ، أو واقعاً بهم في الآخرة .

والاستحباب الإيثار والاختيار ، وهو استفعال من المحبة ، لأنّ المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر .

ويجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل كاستجاب وأجاب ، ولما ضمن معنى الإيثار عدي بعلى .

وجوزوا في إعراب الذين أن يكون مبتدأ خبره أولئك في ضلال بعيد ، وأن يكون معطوفاً على الذم ، إما خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين ، وإما منصوباً بإضمار فعل تقديره أذم ، وأن يكون بدلا ، وأن يكون صفة للكافرين .

ونص على هذا الوجه الأخير الحوفي والزمخشري وأبو البقاء ، وهو لا يجوز ، لأن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما وهو قوله : من عذاب شديد ، سواء كان من عذاب شديد في موضع الصفة لويل ، أم متعلقاً بفعل محذوف أي : يضجون ويولولون من عذاب شديد .

ونظيره إذا كان صفة أن تقول : الدار لزيد الحسنة القرشي ، فهذا التركيب لا يجوز ، لأنك فصلت بين زيد وصفته بأجنبي منهما وهو صفة الدار ، والتركيب الفصيح أن تقول : الدار الحسنة لزيد القرشي ، أو الدار لزيد القرشي الحسنة وقرأ الحسن : ويصدون مضارع أصد ، الداخل عليه همزة النقل من صد اللازم صدوداً .

وتقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ في آل عمران ، وعلى وصف الضلال بالبعد . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ الر ﴾ مر الكلامُ فيه وفي محله غيرَ مرة وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبرٌ له على تقدير كون آلر مبتدأً أو لمبتدإٍ مضمرٍ على تقدير كونِه خبراً لمبتدأ محذوف ، أو مسروداً على نمط التعديد ، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً لهذا المبتدأ المحذوف ، وقوله تعالى : ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ صفةٌ له وقوله تعالى : ﴿ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ متعلقٌ بأنزلناه أي لتخرجَهم كافةً بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحةِ عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفةِ عن العقائد الحقةِ ، وقرىء ليخرِجَ الناسَ ﴿ مِنَ الظلمات ﴾ أي ليُخرِج به الناسَ من عقائد الكفر والضلال التي كلُّها ظلماتٌ محضةٌ وجهالاتٌ صِرْفة ﴿ إِلَى النور ﴾ إلى الحق الذي هو نورٌ بحتٌ لكن لا كيفما كان ، فإنك لا تهدي من أحببت بل ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بتيسيره وتوفيقِه وللإنباء عن كون ذلك منوطاً بإقبالهم إلى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ استُعير له الإذنُ الذي هو عبارةٌ عن تسهيل الحجابِ لمن يقصِد الورودَ ، وأُضيف إلى ضميرهم اسمُ الربِّ المفصحِ عن التربية التي هي عبارةٌ عن تبليغ الشيءِ إلى كماله المتوجّه إليه ، وشمولُ الإذن بهذا المعنى للكل واضحٌ وعليه يدور كونُ الإنزال لإخراجهم جميعاً ، وعدمُ تحققِ الإذن بالفعل في بعضهم لعدم تحققِ شرطِه المستند إلى سوء اختيارِهم غيرُ مخلٍ بذلك والباء متعلقةٌ بتخرج أو بمضمر وقع حالاً من مفعوله أي

ملتبسين بإذن ربّهم، وجعله حالاً من فاعله يأباه إضافةُ الربّ إليهم لا إليه وحيث كان الحقُّ مع وضوحه في نفسه وإيضاحه لغيره موصلاً إلى الله عز وجل استُعير له النورُ تارة والصراط أُخرى، فقيل: ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ على وجه الإبدال بتكرير العامل كما في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اَستضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ وإخلالُ البدل والبيانِ بالاستعارة إنما هو في الحقيقة لا في المجاز كما في قوله

(35/416)

---

سبحانه: ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الابيض مِنَ الخيط الاسود مِنَ الفجر ﴾ وقيل: هو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال، كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد، وإضافةُ الصراط إليه تعالى لأنه مقصِدُه أو المبينُ له، وتخصيصُ الوصفين بالذكر للترغيب في سلوكه ببيان ما فيه من الأمن والعاقبةِ الحميدة.

﴿ الله ﴾ بالجر عطفُ بيان للعزيز الحميد لجريانه مَجرى الأعلامِ الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم في الثريا. وقرىء بالرفع على (تقدير) هو الله، أي العزيزِ الحميد الذي أضيف إليه صراط الله ﴿ الذى لَهُ ﴾ مُلكا ومِلكاً ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ أي ما وُجد فيهما داخلاً فيهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما كما مر في آية

الكرسي ، ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فخامة شأنِ الصراط وإظهارٌ لتحتم سلوكه على الناس قاطبةً ، وتجويزُ الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبراً مبناه الغفولُ عن هذه النكتة وقوله عز وجل : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وعيدٌ لمن كفر بالكتاب ولم يخرجْ به من الظلمات إلى النور بالويل وهو نقيضُ الوال وهو النجاةُ وأصله النصبُ كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلامٌ عليك ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ متعلق بويل على معنى يولّون ويضِجون منه قائلين : يا ويلاه ، كقوله تعالى : ﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً . ﴾

﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا ﴾

(36/416)

---

أي يؤثرونها استفعالٌ من المحبة فإن المؤثرَ للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبَّ إليها وأفضلَ عندها من غيره ﴿ على الأخرة ﴾ أي الحياة الآخرةِ الأبدية ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ التي بين شأنُها ، والاقتصارُ على الإضافة إلى الاسم الجليلِ المنطوي على كل وصفٍ جميل لزومُ الاختصار ، وهو من صدّه صداً وقرىء يُصِدّون من أصدّ المنقولِ من صد صدوداً إذا نكَب وهو غيرُ فصيح كأوقف فإن في صدّه ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ أي يبغون لها فحُذف الجارّ وأوصل

الفعلُ إلى الضمير أي يطلبون لها ﴿ عِوَجًا ﴾ أي زيغاً واعوجاجاً وهي أبعدُ شيء من ذلك أي يقولون لمن يريدون صدَّه وإضلاله : إنها سبيلٌ ناكبةٌ وزائغة غيرُ مستقيمة ، ومحلُّ موصول هذه الصلاتِ الجرُّ على أنه بدلٌ من الكافرين أو صفةٌ له فيعتبر كلُّ وصف من أوصافهم بإزاء ما يناسبه من المعاني المعتبرةِ في الصراط ، فالكفرُ المنبىءُ عن الستر بإزاء كونه نوراً واستحبابُ الحياة الدنيا الفانيةِ المفصحةِ عن وخامة العاقبةِ بمقابلة كونِ سلوكه محمودَ العاقبة والصدُّ عنه بإزاء كونه مأموناً ، وفيه من الدلالة على تماديهم في الغي ما لا يخفى . أو النصبُ على الذم أو الرفعُ على الابتداء والخبر قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ وعلى الأول جملةٌ مستأنفة وقعت معلّلةً لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيداً لما أَشعر به بناءُ الحكم على الموصول أي أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورةِ من استحباب الحياةِ الدنيا على الآخرة وصدِّ الناس عن سبيل الله المستقيمةِ ووصفها بالاعوجاج وهي منه بنزه في ضلال عن طريق الحق بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ ، والبعدُ وإن كان من أحوال الضالّ إلا أنه قد وُصف به وصفُه مجازاً للمبالغة كجدّ جدُّه وداهيةٌ دهياءُ ، ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد أو فيه بُعدٌ ، فإن الضالّ قد يضِل عن الطريق

مكاناً قريباً وقد يضل بعيداً وفي جعل الضلال محيطاً بهم إحاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(38/416)

---

وقال الآلوسى :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم الر ﴾

مر الكلام فيما يتعلق به ﴿ كتاب ﴾ جوز فيه أن يكون خبراً لألر على تقدير كونه مبتدأ أو لمبتدأ مضمر على تقدير كونه خبراً لمبتدأ محذوف أو مفعولاً لفعل محذوف أو مسروداً على نمط التعديد ، وجوز أن يكون خبراً ثانياً للمبتدأ الذي أخبر عنه بالر وأن يكون مبتدأ وسوغ به كونه موصوفاً في التقدير أي كتاب عظيم ، وقوله تعالى : ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ إما في موضع الصفة أو الخبر وهو مع مبتدآته قيل في موضع التفسير ، وفي إسناد الإنزال إلى ضمي العظمة ومخاطبته عليه الصلاة والسلام مع إسناد الإخراج إليه صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه : ﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ ما لا يخفى من التفخيم والتعظيم ،

واللام متعلقة ﴿ بأنزلناه ﴾ ، والمراد من الناس جميعهم أي أنزلناه إليك لتخرجهم كافة بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله تعالى الكاشفة عن العقائد الحقة من عقائد الكفر والضلال وعبادة الله عز وجل من الآلهة المختلفة كالملائكة وخواص البشر والكواكب والأصنام التي كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة إلى الحق المؤسس على التوحيد الذي هو نور بحت وقرىء ﴿ مبينات لِّيُخْرِجَ ﴾ بالياء التحتانية في ﴿ يَخْرُجُ ﴾ ورفع ﴿ الناس ﴾ به ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بتيسيره وتوفيقه تعالى وهو مستعار من الاذن الذي يوجب تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود ، ويجوز أن يكون مجازاً مرسلاً بعلاقة اللزوم ، وقال محيى السنة : إذنه تعالى أمره ، وقيل : علمه وقيل : إرادته جل شأنه وهي ما قيل متقاربة ، ومنع الإمام أن يراد بذلك الأمر أو العلم وعلله بما لا يخلو عن نظر .

وفي الكلام على ما ذكر أولاً ثلاث استعارات .

(39/416)

---

إحداها ما سمعت في الاذن والأخريان في ﴿ الظلمات ﴾ و﴿ النور ﴾ وقد أشير إلى المراد منهما ، وجوز العلامة الطيبي أن تكون كلها استعارة مركبة تمثيلية بتصوير الهدى

بالنور والضلال بالظلمة والمكلف المنغمس في ظلمة الكفر بحيث لا يتسهل له الخروج إلى نور الايمان إلا بتفضل الله تعالى بإرسال رسول بكتاب يسهل عليه ذلك كمن وقع في تيه مظلم ليس منه خلاص فبعث ملك توقيعاً لبعض خواصه في استخلاصه وضمن تسهيل ذلك على نفسه ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك فقيل : توقيعاً لبعض خواصه في استخلاصه وضمن تسهيل ذلك على نفسه ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك فقيل : ﴿ كِتَابٌ أنزلناه ﴾ إلى آخره ، وكان الظاهر بإذننا إلا أنه وضع ذلك الظاهر موضع الضمير ، وقيل : ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ للإشعار بالتربية واللطف والفضل وبأن الهداية لطف محض ، وفيه أن الكتاب والرسول والدعوة لا تجدي دون إذن الله تعالى كما قال سبحانه :

(40/416)

---

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ [ القصص : 56 ] اه ، وما ذكره من الاستعارة التمثيلية مع بلاغته وحسنه لا يخلو عن بعد ، وكأنه للأنباء عن كون التيسير والتوفيق منوطين بالإقبال إلى الحق كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [ الرعد : 27 ] استعير لذلك الاذن الذي هو ما علمت ، وأضيف إلى ضمير الناس اسم الرب المفصح عن التربية التي هي عبارة عن تبليغ الشيء إلى كماله المتوجه إليه ، وشمول

الاذن بذلك المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعاً ، وعدم تحقق الاذن بالفعل في بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند إلى سوء اختيارهم ورداءة استعدادهم غير مخل بذلك ، ومن هنا فساد قول القطبرسي : إن اللام لام الغرض لا لام العاقبة والإلزام أن يكون جميع الناس مؤمنين والواقع بخلافه ، وذكر الإمام أن المعتزلة استدلوا بهذه الآية على أن أفعال الله تعالى تعلل برعاية المصالح ، ثم ساق دليل أصحابه على امتناع ذلك وذكر أنه إذا ثبت الامتناع يلزم تأويل كل ما أشعر بخلافه وتأويله بحمل اللام على لام العاقبة ونحوها ، ونقل عن ابن القيم .

وغيره القول بالتعليل وأنه مذهب السلف وأن في الكتاب والنسة ما يزيد على عشرة آلاف موضع ظاهرة في ذلك وتأويل الجميع خروج عن الإنصاف ، وليس الدليل على امتناع ذلك من المتانة على وجه يضطر معه إلى التويل ، وللشيخ إبراهيم الكوراني في بعض رسائله كلام نفيس في هذا الغرض سالم فيما أرى عن العلة إن أردته فارجع إليه ، والباء متعلقة بتخرج على ما هو الظاهر ، وجوز أن يكون متعلقاً بمضمر وقع حالاً من مفعوله أي ملتبسين بإذن ربهم ، ومنهم من جوز كونه حالاً من فاعله أي ملتبساً بإذن ربهم .

وتعقب بأنه يأباه إضافة الرب إليهم لا إليه صلى الله عليه وسلم .

وروود بما رد فتأمل .

واستدل بالآية القائلون بأن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم من الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ذكر فيها أنه عليه الصلاة والسلام هو الذي يخرج الناس من ظلمات الضلال إلى نور الهدى .

وأجيب بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كالمنبه وأما المعرفة فإنما تحصل من الدليل ،

واستدل بها أيضاً كل من المعتزلة وأهل السنة على مذهبه في أفعال العباد وتفضيل ذلك في تفسير الإمام .

﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور فيما تقدم أعني قوله تعالى : ﴿ إِلَى النور ﴾ وقال غير واحد : إن ﴿ صراط ﴾ بدل من ﴿ النور ﴾ وأعيد عامله وكرر لفظاً ليدل على البدلية كما في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ [ الأعراف : 75 ] ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه بما قبله لأنه غير أجنبي إذ هو من معمولات العامل في المبدل منه على كل حال .

واستشكل هذا مع الاستعارة السابقة بأن التعقيب بالبدل لا يتقاعد عن التعقيب بالبيان في مثل قوله تعالى : ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الابيض مِنَ الخيط الاسود مِنَ الفجر ﴾ [ البقرة : 187 ] وأجيب بأن الصراط استعارة أخرى للهدى جعل نوراً أولاً لظهوره في

نفسه واستضاءة الضلال في مهواة الهوى به ، ثم جعل ثانياً جادة مسلوكة مأمونة لا كبنيات الطرق دلالة على تمام الإرشاد .

(42/416)

---

وفي الإرشاد أن إخلال البيان والبدل بالاستعارة إنما هو في الحقيقة لا في المجاز وهو ظاهر ، وجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف على أنه جواب سائل يسأل إلى أي نور ؟ فقيل : ﴿ إلى صراط ﴾ إلى آخره ، وإضافة الصراط إليه تعالى لأنه مقصده أو المبين له ، وتخصيص الوصفين الجليلين بالذكر للترغيب في سلوكه إذ في ذلك إشارة إلى أنه يعز سالكه ويحمد سابله ، وقال أبو حيان : النكتة في ذلك أنه لما ذكر قبل إنزاله تعالى لهذا الكتاب وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة لإنزاله مثل هذا الكتاب المعجز الذي لا يقدر عليه سواه ، وصفة الحمد لإنعامه بأعظم النعم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ووجه التقديم والتأخير على هذا ظاهر .

وقال الإمام : إنما قدم ذكر ﴿ العزيز ﴾ على ذكر ﴿ الحميد ﴾ لأن الصحيح أن أول العلم بالله تعالى العلم بكونه تعالى قادراً ثم بعد ذلك العلم بكونه عالماً ثم بعد ذلك العلم بكونه

غنياً عن الحاجات ، والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني فلما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً بالكل غنياً عنه لا جرم قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد اه ولم نر تفسير ﴿ الحميد ﴾ بما ذكر لغيره ، وفي المواقف وشرح أسماء الله تعالى الحسنى لحجة الإسلام الغزالي وغيرهما أن ﴿ الحميد ﴾ هو المحمود المثنى عليه وهو سبحانه محمود بحمده لنفسه أزلاً وبحمد عباده له تعالى أبداً ، وبين هذا وما ذكره الإمام بعد بعيد ، وأما ما ذكره في ﴿ العزيز ﴾ فهو قول لبعضهم ؛ وقيل : هو الذي لا مثل له. وربما يقال على هذا : إن التقديم للاعتناء بالصفات السلبية كما يؤذن به قولهم : التخلية أولى من التحلية وكذا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [ الشورى : 11 ] ولعل كلامه قدس سره بعد لا يخلو عن نظر.

(43/416)

---

﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهِ ﴾ بالرفع على ما قرأ نافع.

وابن عمر خبر مبتدأ محذوف أي هو الله والموصول الآتي صفته ، وبالجر على قراءة باقي

السبعة .

والأصمعي عن نافع بدل مما قبله في قول ابن عطية : والحوفي .

وأبي البقاء ، وعطف بيان في قول الزمخشري قال : لأنه أجرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود بحق كما غلب النجم على الثريا ، ولعل جعله جارياً مجرى ذلك ليس لاشتراطه في عطف البيان بل لأن عطف البيان شرطه إفادة زيادة إيضاح لمتبوعه وهي هنا بكونه كالعلم باختصاصه بالمعبود بحق وقد خرج عن الوصفية بذلك فليس صفة كالعزيز الحميد .

ثم أنه لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين علم لا أنه كالعلم ، وعن ابن عصفور أنه لا تقدم صفة على موصوف إلا حيث سمع وذلك قليل ، وللعرب فيما وجد من ذلك وجهان :

أحدهما : أن تقدم الصفة وتبقيها على ما كانت عليه ، وفي إعراب مثل هذا وجهان :

أحدهما : إعرابه نعتاً مقدماً .

والثاني : أن يجعل ما بعد الصفة بدلاً ، والوجه الثاني : أن تضيف الصفة إلى الموصوف اه ، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ العزيز الحميد ﴾ [ ابراهيم : 1 ] صفتين متقدمتين ويعرب الاسم الجليل موصوفاً متأخراً ، ومما جاء فيه تقديم ما لو أخر لكان صفة وتأخير ما لو قدم لكان موصوفاً قوله :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها . . .

ركبان مكة بين الغيل والسعد

فلو جاء على الكثير لكان التركيب والمؤمن الطير العائذات ، ومثله قوله :

لو كنت ذا نبل وذا تشديب . . .

لم أخش شدات الخبيث الذيب

(44/416)

---

وجوز في قراءة الرفع كون الاسم الجليل مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ الذى لَهُ ﴾ أي ملكاً وملكاً ﴿ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ خبره وما تقدم أولى ، فإن في الوصفية من بيان كمال فخامة شأن الصراط وإظهار تحتم سلوكه على الناس ما ليس في الخبرية ، والمراد بما في السموات وما في الأرض ما وجد داخلاً فيهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما ، ومن الناس من استدل بعموم ﴿ مَا ﴾ على أن أفعال العباد مخلوقة له تعالى كما ذكره الإمام ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ للكافرين ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور بالويل .

وهو عند بعض نقيض الوأل بالهمز بمعنى النجاة فمعناه الهلاك فهو مصدر إلا أنه لا يشتق منه فعل إنما يقال : ويلا له فينصب نصب المصادر ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال

: ويل له كسلام عليك ، وقال الراغب : قال الأصمعي ويل قبوح وقد يستعمل للتحسر ، وويس استصغار ، وويح ترحم ، ومن قال : هو واد في جهنم لم يرد أنه في اللغة موضوع لذلك وإنما أراد أن من قال الله تعالى فيه ذلك فقد استحق مقراً من النار وثبت له ذلك ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ في موضع الصفة لويل ولا يضر الفصل على ما في "البحر" وغيره بالخبر ، وجوز أن يكون في موضع الحال على ما في الحواشي الهشابية و ﴿ مِنْ ﴾ بيانية ، وجوز أن تكون ابتدائية على معنى أن الويل بمعنى عدم النجاة متصل بالعذاب الشديد وناشيء عنه ، وقيل إن الجار متعلق : بويل على معنى أنهم يولولون من العذاب ويضجون منه قائلين يا ويلاه كقوله تعالى :

﴿ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [ الفرقان : 13 ] ومنع أبو حيان وأبو البقاء ذلك لما فيه من الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر وهو لا يجوز ، وقد مر قريباً في الرعد ما يتعلق بذلك فتذكر فما في العهد من قدم .

(45/416)

---

وفي "الكشاف" أن ﴿ مِنْ عَذَابِ ﴾ الخ متصل بالويل على معنى أنهم يولولون إلى آخر ما ذكرنا ، وهو محتمل لتعلقه به ولتعلقه بمحذوف ، واستظهر هذا في "البحر" .

وفي "الكشف" أن الزمخشري لما رأى أن الويل من الذنوب لا من العذاب كما يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ البقرة : 79 ] وأمثاله أشار هنا إلى أن الاتصال معنوي لا من ذلك الوجه فإنه هناك جعل الويل نفس العذاب وهنا جعله تلفظهم بكلمة التلهف من شدة العذاب وكلاهما صحيح ، ولم يرد أن هنالك فصلاً بالخبر لقرب ما مر في قوله تعالى : ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [ الرعد : 24 ] اه .

واعترض عليه بأنه لا حاجة لما ذكر من التكلف لأن اتصاله به ظاهر لا يحتاج إلى صرفه للتلفظ بتلك الكلمة ، و﴿ مِنْ ﴾ بيانية لا إبتدائية حتى يحتاج إلى ما ذكر ، ولا يخفى قوة ذلك وأنه لا يحتاج إلى التكلف ولو جعلت ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية فتأمل ، والظاهر أن المراد بالعذاب الشديد عذاب الآخرة ، وجوز أن يكون المراد عذاباً يقع بهم في الدنيا .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾

أي يختارونها عليها فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليه من غيره ، فالسين للطلب ، والمحبة مجاز مرسل عن الاختيار والإيثار بعلاقة اللزوم في الجملة فلا يضر وجود أحدهما بدون الآخر كاختيار المريض الدواء المر لنفعه وترك ما يحبه ويشتهيه من الأطعمة اللذيذة لضرره ، ولاعتبار التجوز عدي الفعل بعلى ويجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل كاستجاب بمعنى أجاب والفعل مضمن معنى الاختيار والتعدية بعلى لذلك ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعوقون الناس ويمنعونهم عن دين الله تعالى والإيمان به وهو

الصراط الذي يبين شأنه ، والاقتصار على الإضافة إلى الاسم الجليل المنطوي على كل وصف جميل لزوم الاختصار .

(46/416)

---

وقرأ الحسن ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ من أصد المنقول من صده صدود إذا تنكب وحاد وهو ليس بفصيح بالنسبة إلى القراءة الأخرى لأن في صده مندوحة عن تكلف النقل ولا محذور في كون القراءة المتواترة أفصح من غيرها ، ومن مجيء أصد قوله :

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم . . .

صدود السواقي عن أنوف الحوائم

ونظير هذا وقفه وأوقفه ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ أي يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير أي يطلبون لها ﴿ عِوَجَا ﴾ أي زيغاً واعوجاجاً وهي أبعد شيء عن ذلك أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله عن السبيل هي سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة ، وقيل : المعنى يطلبون أن يروا فيها ما يكون عوجاً قادحاً فيها كقول من لم يصل إلى العنقود وليسوا بواجدين ذلك ، وكلا المعنيين أنسب مما قيل : إن المعنى يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة .

ومحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل كما قيل من ﴿ الكافرين ﴾ [ إبراهيم : 2 ]

فيعتبر كل وصف من أوصافهم بما يناسبه من المعاني المعتبرة في الصراط ، فالكفر المنبىء عن الستر بإزاء كونه نوراً ، واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كون مسلوكه محمود العاقبة ، والصد عنه بإزاء كونه سالكه عزيزاً .

وقال الحوفي .

(47/416)

---

وأبو البقاء : إنه صفة ﴿ الكافرين ﴾ ورد ذلك أبو حيان بأن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 2 ] سواء كان في موضع الصفة لويل أو متعلقاً بمحذوف ، ونظير ذلك على الوصفية قولك : الدار لزيد الحسنة القرشي وهو لا يجوز لأنك قد فصلت بين زيد وصفته بأجنبي عنهما ، والتركيب الصحيح فيه أن يقال : الدار الحسنة لزيد القرشي أو الدار لزيد القرشي الحسنة ، وقيل إذا جعل ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 2 ] خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية لا يضر الفصل بها وهو كما ترى ، وجوز أن يكون محله النصب على الذم أو الرفع عليه بأن يقدر أنه كان نعتاً فقطع أي هم الذين ، وجوز أن لا يقدر ذلك ويجعل مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال ﴾ أي بعد عن الحق ﴿ بَعِيدٍ ﴾ وهو على غير هذا الوجه استئناف

في موضع التعليل ، وفيه تأكيد لما أشعر به بناء الحكم على الموصول ، والمراد أنهم قد ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل .

وفي الآية من المبالغة في ضلالهم ما لا يخفى حيث أسند فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازاً كجد جده إلا أن الفرق بين ما نحن فيه وذاك أن المسند إليه في الأول مصدر غير المسند وفي ذاك مصدره وليس بينهما بعد .

(48/416)

---

ويجوز أن يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب إتصافه بما وصف به بناء على أن البعد في الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده وسبب بعده ضلاله لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتل فلاناً عصيانه ، والإسناد مجازي وفيه المبالغة المذكورة أيضاً ، وفي "الكشاف" هو من الإسناد المجازي والبعد في الحقيقة للضال فوصف به فعله ، ويجوز أن يراد في ضلال ذي بعد أو فيه بعد لأن الضال قد يضل عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً ، وكتب عليه في "الكشف" أن الإسناد المجازي على جعل البعد لصاحب الضلال لأنه الذي يتباعد عن طريق الضلال فوصف ضلاله بوصفه مبالغة وليس المراد إبعادهم في الضلال وتعمقهم فيه .

وأما قوله : فيجوز أن يراد في ضلال ذي بعد فعلى هذا البعد صفة للضلال حقيقة بمعنى بعد غوره وأنه هاوية لا نهاية لها ، وقوله : أو فيه بعد على جعل الضلال مستقراً للبعد بمنزلة مكان بعيد عن الجادة وهو معنى بعده في نفسه عن الحق لتضادهما ، وإليه الإشارة بقوله : لأن الضال قد يضل مكاناً بعيداً وقريباً ، والغرض بيان غاية التضاد وأنه بعد لا يوازن وزانه ، وعلى جميع التقادير البعد مستفاد من البعد المسافي إلى تفاوت ما بين الحق والباطل أو ما بين أهلهما وجاز أن يكون قوله : ذي بعد أو فيه بعد وجهاً واحداً إشارة إلى الملابسة بين الضلال والبعد لا بواسطة صاحب الضلال لكن الأول أولى تكثيراً للفائدة ، ثم قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال ﴾ دون أن يقول سبحانه : أولئك ضالون ضلالاً بعيداً للدلالة على تمكنهم فيه تمكن المظروف في الظرف وتصوير اشتمال الضلال عليهم اشتمال المحيط على المحاط وليكون كناية بالغة في إثبات الوصف أعني الضلال على الأوجه فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(49/416)

---

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : قد أخرج صلى الله عليه وسلم أمته من ظلمات عديدة إلى نوار متعددة ؛ أولها : ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام ، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق ، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة ، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة ، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة ، ثم من ظلمة رؤية الأسباب ، والوقوف مع العوائد ، إلى نور شهود المسبب ، وخرق العوائد ، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود ، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة ، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون ، وهذا آخر ظلمة تبقى في النفس ، فتصير حينئذٍ روحاً وسراً من أسرار الله ، ويصير صاحبها روحانياً ربانياً عارفاً بالله ، ولا يبقى حينئذٍ إلا التراقي في شهود الأسرار أبداً سرمداً .

وهذا محل القطبانية والتهيؤ للتربية النبوية ، ويصير ولياً محمدياً ، يُخرج الناس من هذه الظلمات إلى هذه الأنوار .

وأما من لم يبلغ هذا المقام ، فإنه له الإخراج من أحد هذه الأشياء ؛ فالغزاة والمجاهدون يُخرجون من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، والعلماء يُخرجون من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، والعُباد والزهاد يُخْرِجونَ من صَحِبَهم من الذنوب إلى التوبة والاستقامة . وأما ما بقي من الظلمات فلا يُخْرِج منها إلا الربانيون الروحانيون . أهل التربية النبوية ، بإذن ربهم ، يدلهم

على صراط العزيز الحميد ، الموصل إلى العز المديد . وويل لمن أنكر هؤلاء ، واشتغل بمتابعة حظوظه وهواه ، واستحبَّ حياة دنياه على أخراه ، أولئك في ضلال عن حضرة الحق ببعيد . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 42. 43 ﴾

*(50/416)*

---

وقال القاسمي :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [ 1 ] .

﴿ الر كِتَابٌ ﴾ خبر لـ ( آلر ) على كونه مبتدأ . أو خبر لمحذوف على كونه خبراً لمضمر ، أو مسروداً على نمط التعديد . وقوله تعالى : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ صفة له : ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي : من الضلال إلى الهدى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : أمره . وقوله تعالى : ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ بدل من قوله : ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ بتكرير العامل . أو مستأنف ، كأنه قيل : إلى أي : نور ؟ فقيل : ﴿ إِلَى صِرَاطِ ﴾ الخ و : ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر القادر . و : ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ المحمود في أمره ونهيه لإنعامه فيهما بأعظم النعم .

﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قرئ لفظ الجلالة بالرفع على الابتداء وخبره ما بعده . أو على الخبرية لمحذوف . وقرئ بالجر ، عطف بيان لـ : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي : بما أنزلناه إليك : ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ يوم القيامة وهو عذاب النار .

(51/416)

---

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ أي : يؤثرونها عليها : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ أي : يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ، أو يبغون لها اعوجاجاً ، أي : يطلبون أن يروا فيها عوجاً قادحاً ، على الحذف والإيصال : ﴿ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : ضلوا عن طريق الحق ووقفوا دونه بمراحل ، والبعد في الحقيقة للضال نفسه ، وصف به فعله للمبالغة بجعل الضلال نفسه ضالاً . وفي إيثار الظرف على ( أولئك ضالون ضلالاً بعيداً ) دلالة على تمكنهم فيه ، باشتماله عليهم اشتمال المحيط على المحاط ، مبالغة في إثبات وصف الضلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 304 .

305﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الر ﴾ .

تقدم الكلام عى الحروف المقطعة في فاتحة سورة البقرة وعلى نظير هذه الحروف في سورة يونس .

﴿ كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾

الكلام على تركيب ﴿ الر كتاب أنزلته إليك ﴾ كالكلام على قوله تعالى : ﴿ ألمص كتاب أنزل إليك ﴾ [ سورة الأعراف : 21 ] عدا أن هذه الآية ذكر فيها فاعل الإنزال وهو معلوم من مادة الإنزال المشعرة بأنه وارد من قبل العالم العلوي ، فللعلم بمنزله حذف الفاعل في آية سورة الأعراف ، وهو مقتضى الظاهر والإيجاز ؛ ولكنه ذكر هنا لأن المقام مقام الامتنان على الناس المستفاد من التعليل بقوله : لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ ، ومن ذكر صفة الربوبية بقوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ ، بخلاف آية سورة الأعراف فإنها في مقام الطمأنة والتصبير للنبيء عليه الصلاة والسلام المنزل إليه الكتاب ، فكان التعرض لذكر المنزل إليه

والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حق الإيجاز .

أما التعرض للمنزل إليه هنا فللتنويه بشأنه ، وليجعل له حظ في هذه المنة وهو حظ الوساطة ، كما دل عليه قوله : ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ ، ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين للنبيء صلى الله عليه وسلم

ولأجل هذا المقصد وقع إظهار صفات فاعل الإنزال ثلاث مرات في قوله : ﴿ بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ بعد أن كان المقام للإضمار تبعاً لقوله : ﴿ أنزلناه ﴾ .

وإسناد الإخراج إلى النبي عليه الصلاة والسلام لأنه يبلغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر ، وهو مع التبليغ يبين للناس ويقرب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه ، ثم بما يبنيه عليه من المواعظ والنذر والبشارة .



---

وإذ قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه عُلِم أن إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل ، أي بما يشتمل عليه من معاني الهداية .

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دل على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس ، وأنه لم يتركهم في ضلالهم ، فمن اهتدى فبإرشاد الله ومن ضلّ فبإيثار الضال هوى نفسه

على دلائل الإرشاد ، وأمرُ الله لا يكون إلا لحِكم ومصالح بعضها أكبر من بعض .

والإخراج : مستعار للنقل من حال إلى حال .

شبه الانتقال بالخروج فشبه النقل بالإخراج .

و ﴿ الظلماتُ والنور ﴾ استعارة للكفر والإيمان ، لأن الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك ، والإيمان يرشد إلى الحق فهو كالنور في إيضاح السبيل .

وقد يستخلص السامع من ذلك تمثيل حال المنغمس في الكفر بالمتحير في ظلمة ، وحال انتقاله إلى الإيمان بحال الخارج من ظلمة إلى مكانٍ نيّر .

وجمع ﴿ الظلمات ﴾ وإفراد ﴿ النور ﴾ تقدم في أول سورة الأنعام ( 1 ) .

والباء في ﴿ بإذن ربهم ﴾ للسببية ، والإذنُ : الأمر بفعل يتوقف على رضَى الآمر به ، وهو أمر الله إياه بإرساله إليهم لأنه هو الإذن الذي يتعلق بجميع الناس ، كقوله : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله .

ولما كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير الناس ، أي بإذن الذي يدبر مصالحهم .

وقوله : ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ [ سورة إبراهيم : 1 ] بدل من النور ﴾ بإعادة الجار للمبدل منه لزيادة بيان المبدل منه اهتماماً به ، وتأكيد للعامل كقوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ في سورة الأعراف ( 88

) .

ومناسبة الصراط المستعار للدين الحق، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور ولما يتضمنه من التمثيل، ظاهرة.

واختيار وصف العزيز الحميد ﴾ من بين الصفات العُلى لمزيد مناسبتها للمقام، لأن العزيز الذي لا يُغلب.

(54/416)

---

وإنزال الكتاب برهان على أحقية ما أراده الله من الناس فهو به غالب للمخالفين مقيمُ الحجة عليهم.

والحميد: بمعنى المحمود، لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه، وبذلك استوعبَ الوصفان الإشارة إلى الفريقين من كل منساق إلى الاهتداء من أول وهلة ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجة ونفاد الحيلة.

﴿ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض ﴾ .

قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر برفع اسم الجلالة على أنه خبر عن مبتدإ محذوف.

والتقدير: هو (أي العزيزُ الحميد) اللّهُ الموصوف بالذي له ما في السماوات الأرض.

وهذا الحذف جارٍ على حذف المسند إليه المسمى عند علماء المعاني تبعاً للسكاكِي بالحَذف لمتابعة الاستعمال، أي استعمال العرب عندما يجري ذكر موصوف بصفات أن ينتقلوا من ذلك إلى الإخبار عنه بما هو أعظم مما تقدم ذكره ليكسب ذلك الانتقال تقريراً للغرض، كقول إبراهيم الصولي:

سأشكر عَمْراً إن تراختْ منيتي . . .

أيادي لم تُمْنَنْ وإنْ هي جَلّت

فَتى غيرُ محجوب الغنى عن صديقه . . .

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

أي هو فتى من صفته كيت وكيت.

وقرأه الباقون إلاّ رُوَيْساً عن يعقوب بالجَرّ على البدلية من ﴿ العزيز الحميد ﴾، وهي طريقة عربية.

ومآل القراءتين واحد وكلتا الطريقتين تفيد أن المنتقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإن اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات لأنه عَلَم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلمية إلا أن الرفع أقوى وأفخم.

وقرأه رُوَيْس عن يعقوب بالرفع إذا وقف على قوله: ﴿ الحميد ﴾ وابتدىء باسم ﴿ الله ﴾، فإذا وصل ﴿ الحميد ﴾ باسم ﴿ الله ﴾ جر اسم الجلالة على البدلية.

وإجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة لزيادة التفخيم لا للتعريف ، لأن ملك سائر الموجودات صفة عظيمة والله معروف بها عند المخاطبين .

(55/416)

---

وفيه تعريض بأن صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه .

وفي ذكر هذه الصلة إدماجُ تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض .

لمّا أفاد قوله : ﴿ إلى صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ تعريضاً بالمشركين الذين اتبعوا صراط غير الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض عطف الكلام إلى تهديدهم وإنذارهم بقوله : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ ، أي للمشركين به آلهة أخرى .

وجملة ﴿ وويل للكافرين ﴾ إنشاء دعاء عليهم في مقام الغضب والذم ، مثل قولهم : ويحك ، فعطفه من عطف الإنشاء على الخبر .

﴿ وويل ﴾ مصدر لا يعرف له فعل ، ومعناه الهلاك وما يقرب منه من سوء الحالة ، ولأنه لا يُعرف له فعل كان اسم مصدر وعومل معاملة المصادر ، ينصب على المفعولية المطلقة ويرفع لإفادة الثبات ، كما تقدم في رفع ﴿ الحمد لله ﴾ في سورة الفاتحة .

ويقال : ويل لك وويلك ، بالإضافة .

ويقال : يا ويلك ، بالنداء .

وقد يذكر بعد هذا التركيب سببه فيؤتى به مجروراً بحرف ﴿ مِن ﴾ الابتدائية كما في قوله هنا ﴿ من عذاب شديد ﴾ ، أي هلاكاً ينجر لهم من العذاب الشديد الذي يلاقونه وهو عذاب النار .

وتقدم الويل عند قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة البقرة ( 79 ) .

والكافرون هم المعهودون وهم الذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور ، ولا اتبعوا صراط العزيز الحميد ، ولا انتفعوا بالكتاب الذي أنزل لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

ويستحبون ﴾ بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد مثل استقدم واستأخر .

وضمن ﴿ يستحبون ﴾ معنى يؤثرون ، لأن المحبة تعدّت إلى الحياة الدنيا عقب ذكر العذاب الشديد لهم ، فأنبأ ذلك أنهم يحبون خير الدنيا دون خير الآخرة إذ كان في الآخرة في شقاء ، فنشأ من هذا معنى الإيثار ، فضُمّنه فعُدّي إلى مفعول آخر بواسطة حرف ﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ على الآخرة ﴾ أي يؤثرونها عليها .

وقوله: ﴿ ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ تقدم نظيره في قوله: ﴿ أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ في سورة الأعراف ( 45 ) ، وعند قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لِم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ﴾ في سورة آل عمران ( 99 ) ، فانظره هنالك .

والصدّ عن سبيل الله: منع الداخلين في الإسلام من الدخول فيه .

شبه ذلك بمن يمنع المارّ من سلوك الطريق .

وجعل الطريق طريقَ الله لأنه موصل إلى مرضاته فكأنه موصل إليه ، أو يصدّون أنفسهم عن سبيل الله لأنهم عطلوا مواهبهم ومداركهم من تدبر آيات القرآن ، فكأنهم صدّوها عن السير في سبيل الله ويبغون السبيل العَوجاء ، فعلم أن سبيل الله مستقيم ، قال تعالى: ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ [ سورة الأنعام: 153 ] .

والإشارة في قوله: ﴿ أولئك في ضلال بعيد ﴾ [ سورة إبراهيم: 3 ] للتنبيه على أنهم أحرياء بما وصفوا به من الضلال بسبب صدّهم عن سبيل الحق وابتغائهم سبيل الباطل ، فأولئك ﴾ في محل مبتدأ و ﴿ في ضلال بعيد ﴾ خبر عنه .

ودلّ حرف الظرفية على أن الضلال محيط بهم فهم متمكنون منه .

ووصف الضلال بالبعيد يجوز أن يكون على وجه المجاز العقلي ، وإنما البعيد هم الضالّون ،

أي ضلالاً بعدوا به عن الحق فأسند البعد إلى سببه .

ويجوز أن يراد وصفه بالبعد على تشبيهه بالطريق الشاسعة التي يتعذر رجوع سالكها ، أي ضلال قوي يعسر إقلاع صاحبه عنه .

ففيه استبعاد لاهتداء أمثالهم كقوله : ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ [ سورة الشورى : 18 ] وقوله : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ [ سورة سبأ : 8 ] .

وتقدم في قوله : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ في سورة النساء ( 116 ) . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(57/416)

---

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [ إبراهيم : 1 ] الآية .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب العظيم ليخرج به الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى وأوضح هذا المعنى في

آيات أخر كقوله ﴿ هُوَ الذي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [ الحديد : 9 ] وقوله ﴿ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [ البقرة : 257 ] الآية غلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه وقد بين تعالى أنه لا يخرج أحداً من الظلمات إلى النور إلا بإذنه جل وعلا في قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ الآية وأوضح ذلك في آيات أخر كقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله ﴾ [ النساء : 64 ] الآية وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [ يونس : 100 ] الآية إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(58/416)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة " ألف " " لام " " راء " ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلَّغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن المُلاحظ أن هذه الحروف التوقيفية المُقطَعة لم تأْتِ وحدها في هذه السورة كآية

منفصلة ؛ مثل قوله في أول سورة ق :

﴿ ق ﴾ [ ق : 1 ] .

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتي الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ . . . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

كلمة " كتاب " إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسمَّى كتاباً ؛ ويُسمَّى قرآناً ، ويُسمَّى تنزيلا ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة " كتاب " تدل على أنه مكتوب ، وكلمة " قرآن " تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العُمْدة في أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابي الذي يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْروءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مَقْروء كما تدل كلمة " قرآن " .

وقوله الحق :

﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ . . . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

يدلُّ على أنه جاء من عُلُوٍّ .

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر عن القرآن : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [ النحل : 89 ] .

ويقول في موقع آخر : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ . . . ﴾ [ الإسراء : 105 ] .

(59/416)

---

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به ؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذي أرسله الحق بالقرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ . . . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] للتعدي من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ، وعِلّية إنزال القرآن إليك يا محمد هي :

﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور . . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

ونلحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافّة ، ولم يَقُل الحقُّ سبحانه ما قاله للرسُل السابقين على رسول الله ؛ حيث كانت رسالة أيٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . . ﴾ [ الأعراف : 65 ] .

وقوله الحق : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . ﴾ [ الأعراف : 85 ] .

وكذلك قوله سبحانه لموسى : ﴿ وَرَسُولاً إلى بني إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ [ آل عمران : 49 ]

.

وهكذا كان كُلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أُناسٍ بعينهم ، وفي زمن خاصّ ، إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فقد بعثه الله إلى الناس كَافَّة .

والمثل أمامنا حين حكم صلى الله عليه وسلم بالحق بين مسلم ويهودي ؛ وأنصف اليهودي : لأن الحق كان معه ؛ والحق عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أعزُّ عليه مِمَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور .

. . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [ الأعراف : 158 ] .

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

الاصْطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً ؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة : فهذه منزلة عالية .

والاصْطفاء الثاني : أنه رسولٌ للناس كَافَّة ؛ وهذه منزلة عالية أخرى ؛ لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتي الإعجاز في قوله :

﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور . . . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أنْ يأتي بالظلمات كجمْع ؛ وأنْ يأتي بالنور كالمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأهواء ؛ ظُلْمة هنا وظُلْمة هناك .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلي المعاني بالمُحسَّات التي يدركها الجميع ، فلا شك أن الظُّلْمة تستر الأشياء التي قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إنِ اصطدم بشيء فقد يُحطِّم الشيء أو يُحطِّمه هذا الشيء ؛ وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسان من أن يهتدي إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحِسيّ ؛ وكُلٌّ من النور والظلمة أمرٌ حِسي .

وهكذا يُجلِّي الله لنا المعاني ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلي المظاهر المادية بالنور ؛ بل

تحتاج أيضاً إلى نور يُجلي المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بُدّ أن تُجْلَي المعاني أيضاً . والنور الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم يُجلي الحِسّ والمعنى في آن واحد ؛ لنتجنب الأشياء التي تطمسها الظُّلْمة ؛ ولنسير على بينة من المعاني ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوي ، فيقول :

﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد . . . ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

وهذا هو الصراط المستقيم الذي يُخرجنا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من الظلمات إلى نوره .

(61/416)

---

ويريد الحق سبحانه أنْ يُجلي لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يَصِل فيه الإنسان إلى الغاية بيُسْر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر

وسيلة للغاية المَرجُوّة من الحياة الدنيا والآخرة؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذي يُخرِجنا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ إلى صِراطِ العزيز الحميد ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

والعزيز هو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإنْ لَم يصدر حَمْدٌ من الغير ؛ فهو حميد في ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدتَه أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المَثَلُ الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه ؛ نجد في حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإنْ لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه في كُلِّ ما يصدر عنه يراعي أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حَدَثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطْلق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذي يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة في الإنسان تستقبل هذا الكون المُعَدّ من قَبْل أنْ يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حَمْد الإنسان أو عدم حَمْده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود في ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفي هذا هداية إلى صراط العزيز الذي لا يُغْلب ، والحميد الذي يستحق الحمد ؛ وإنْ لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخْلق المرزوق ، وهو مُعِز قبل أن يوجد مَنْ يُعِزه ؛ محمود قبل أنْ يوجد مَنْ يحمده ؛ توّاب قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

(62/416)

---

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطي عن جُودٍ وسَخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات . . . ﴾ .

وأنت إنْ قرأتَ هذه الآية موصولةً بما قبلها ؛ فستقرؤها :

﴿ صِرَاطِ العزيز الحميد * الله الذي لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [ إبراهيم : 1–2 ] .

وإن كنت ستقرؤها مَفْصُولة عمَّا قبلها ؛ فستقول :

﴿ الله الذي لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [

إبراهيم : 2 ] .

وستنطق كلمة " الله " غير مُرقَّقة عكسَ إنْ قرأتَها موصولة ، حيث يجب أن تنطقها مُرقَّقة .

وتقتضي الأصول في الكتاب أن يوجد الاسم العلَم على الذات أولاً ، ثم تأتي الصفة من بعده ، فتقول : " لقيت فلاناً الشاعر أو الكاتب أو العالم " ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النَّسَق : ﴿ صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ [ إبراهيم : 1 ] .

أي : قدَّم ﴿ العزيز الحميد ﴾ ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلَم على واجب الوجود " الله " ، وقد حدث ذلك لأن العلَم يدل على مُسمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .

وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشْتق بمعنى أن " الله " تعني المعبود بحقٍّ ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأنْ يُعبدَ سبحانه بحقٍّ .

ومن العلماء من قال : إن كلمة " الله " هي علَم ، وليست اسماً مُشْتقاً ؛ فَلَهُ الملكية المطلقة :

﴿ الذي لَهُ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ [ إبراهيم : 2 ] .

لا يقع في هذا المُلْك إلا ما شاء هو ، فَمنْ آمن به أنصف نفسه وحياته وآخرته ، أما مَنْ لم

يؤمن به فَلَه المقابل ، وهو قوله الحق :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 2 ] .

(63/416)

---

وهذا الوَيْل ليس في الآخرة فقط ، بل في الدنيا أيضاً ؛ لأن الإنسان يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له رصيداً في الدنيا يعتمد عليه في مواجهة الأحداث الجِسَام .

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان بربٍّ يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة " الويل " بأنها عذابُ الآخرة ؛ فأجد نفسي قائلاً : بل والوَيْل يكون في الدنيا أيضاً ؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لَفزِع من فَرْط اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مَفرّاً إلا أنْ يقولوا يا رب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التي قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان ؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد في

الآخرة .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا .

. . ﴾

وهنا نجد مادة الحاء والباء ؛ حب ؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً ؛ فنقول " أحبَّ فلان " ونقول لِمَنْ يحبه " محبوب " وهذا يعني أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما في حالة عدم التلاقي فيقال " حَبَّ يُحِب فهو حَابٌّ مُحِبٌّ " .

والفرق بين أحبَّ واستحبَّ ؛ ملحوظٌ في مَجيء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب . على هذا فاستحبَّ تعني أن مَنْ يحب لم يكتَفِ بالأمر الطبيعي ، بل تكلَّف الحب وأوغلَ فيه .

والمثل على ذلك نجده في الحياة اليومية ؛ فنرى مَنْ ينجرف إلى شيء من الانحراف ؛ ولكنه لا يُحِب أن يكون مُحِباً لهذا الانحراف في نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كَارِهٌ له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنجرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف ؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه ؛ وهو مُحِبٌّ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويُحب في نفسه أنه أحب تلك المعصية ؛ لأنها تُحقّق له شهوة عاجلة ؛ هذا هو مَنِ " استحبَّ " لأنه ازاد الحب عن حَدِّه الطبيعي .

وحين تُدقِّق في الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا ؛ لكنها تتحدث أنْ تستحِبَّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم ؛ أما إذا أحببت الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلْتَها مزرعة للآخرة ؛ فهذا أمر مطلوب ؛ لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد في آخرتك ؛ فهذا طَلَب للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق في سورة " المؤمنون " . ﴿ والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [ المؤمنون : 4 ] .

فهو لا يؤدي الزكاة فقط ؛ بل يعمل لِيأتيَ لنفسه ولعياله بالقُوتِ ؛ ويبذل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدي منه الزكاة ؛ ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أنْ يُعطِيه لِمَنْ لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه :

" والذين هم للزكاة مؤدون " بل قال :

﴿ والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [ المؤمنون : 4 ] .

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبّون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ؛ بل هم

يستحِبّون الحياة:

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ . . . ﴾ [إبراهيم: 3].

أي: أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط، ولم يكتفُوا بالسَّيْر في طريق الشهوات والملذَّات وتخريب ذواتهم، بل تمادَوْا في الغي وصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله.

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر: ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً . . . ﴾ [آل عمران: 99].

كأنهم ضَلُّوا في ذواتهم؛ ولم يكتفوا بذلك، بل يحاولون إضلال غيرهم ويصدونهم عن الهداية.

ثم تأتي مرحلة جديدة:

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً . . . ﴾ [إبراهيم: 3].

*(65/416)*

---

أي: يبغون شريعة الله مُعْوجة لتحقق لهم نزواتهم. وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة؛ والصَّد عن سبيل الله؛ وتشويه المنهج كي يُكرِّهوا الناس فيه.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 3 ] .

أي : أن أصحاب المرتبة في الضلال هم مَن استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين توغّلوا في الضلال أكثر فهم الذين يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين توغّلوا أكثر فأكثر فهُم الذين يُشوّهون في منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة في الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(66/416)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ( كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ) ( إبراهيم : 1 ) . وفي سورة الحج : ( وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ) ( الحج : 24 ) ، وفي سورة سبأ : ( وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ) ( سبأ : 6 ) ، فورد في هذه

السور الثلاث ذكر الصراط مضافاً في السورتين منها إلى العزيز من أسمائه تعالى ثم أتبع الحميد ، واقتصر في سورة الحج على إضافة اسمه الحميد ، فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

(67/416)

---

والجواب عنه ، والله أعلم : أن آية إبراهيم ، عليه السلام ، لما ورد فيها قوله تعالى لنبيه ، عليه السلام : (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) ، وكان السابق من مفهوم هذا أن ذلك الأمر بيده ، عليه السلام ، وقد قال له تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) (آل عمران : 128) ، وقال : (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) (الشورى : 48) ، وقال تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص : 56) ، فلما كان السابق من مفهوم آية إبراهيم كما ذكر أشار وصفه تعالى بالعزيز إلى قدرته تعالى وقهره ، وأنه لا يكون من العباد إلا ما سبقت به إرادته التي لا يخرج واقع عن حكمها ، وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد ، ولو شاء لهدى الكل ، قال تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) (السجدة : 13) ، فأحرز الوصف بالعزة هذا المعنى العظيم ، ولو لم يرد هذا الوصف لما تحرر هذا المقصود ، وكذلك الوارد في قوله في آية سبأ : (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ) (سبأ : 6) ، والرؤية هنا بمعنى العلم والحق مفعولها الثاني والضمير فصل لا

موضع له من الإعراب . وحال أن يرى من وصفه تعالى بالعلم حكم الله تعالى في خلقه جارياً إلا على ما يشاؤه ويريده ، إنه لو شاء لجمعهم على الهدى ، فهذه الآية كآية إبراهيم من غير فرق ، فوصفه سبحانه بالعزة تمام مقصودها كالمتقدمة ، وليس للمدعوين إلا ما سبقت به إرادته تعالى ، ولا بيد نبيه ، عليه السلام ، إخراجهم ولا هداهم ، ولم يرد في هاتين الآيتين أن الإخراج من الظلمات إلى النور والهداية مما وقع وانقضى ، وإنما مقتضى الآيتين رجاء إجابتهم وهدايتهم ( عند دعائه ، عليه السلام ، ثم

(68/416)

---

الرجاء راجع ( إلينا ) المنزه المتعالى عن الاتصاف به . وقد أحاط علمه سبحانه بما يكون منهم .

وأيضاً خوطبنا على ما نتعارف ، قال سيبويه ، رحمه الله ، وقد تعرض لهذا وقد ذكر قوله تعالى : ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ) ( المرسلات : 15 ) ، و ( وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ) ( المطففين : 1 ) ، فقال : لا ينبغي أن يقال دعاء بالويل ههنا لأن الكلام بذلك قبيح ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون ، فكأنه – والله أعلم – قيل لهم : ( وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ) ، ( ووَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ) أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم لأن ( هذا )

الكلام إنما يقال لصاحب الشر والمهلكة فقيل هؤلاء ممن دخل في المهلكة ووجب هذا ، ومثل هذا : ( فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ) ( طه : 44 ) والعلم قد أتى ( من وراء ) ما يكون ولكن اذهبا أنتما على طمعكما ورجائكم ومبلغكما من العلم ، وليس لهما أكثر من خذا ما لم يعلما . ومثله : ( قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ) ( التوبة : 30 ) فإنما جرى هذا على كلام العرب وبه أنزل القرآن فقد تبين تساوي هاتين الآيتين في استدعائهما وصفه تعالى بالعزيز لما يحرز من المعنى المتقدم .

أما آية سورة الحج فقوله تعالى : ( وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ) ( الحج : 24 ) إخبار منه سبحانه بما شاءه لهؤلاء من فوزهم وفلاحهم ، قد تم حكمه وانقضى ، فلم يكن ليناسبه ما يفهم القهر ، وإنما المناسب ما يفهمه اسمه الحميد ، وورد كل على ما يجب ويناسب ، ولم يكن عكس الوارد ليلائم ولا يناسب ، والله ( سبحانه ) أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ ملاك التأويل صـ 286.285 ﴾

*(69/416)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾: يجوزُ أَنْ يرتفعَ خبراً ل "ألر" إن قلنا إنها مبتدأٌ، والجملةُ بعده صفةٌ، ويجوز أن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمرٍ، أي: هذا كتابٌ، وأن يرتفعَ بالابتداء، وخبرُه الجملةُ بعده، وجاز الابتداءُ بالنكرة لأنها موصوفةٌ تقديراً. تقديره: كتابٌ أيُّ كتابٍ، يعني عظيماً مِنْ بينِ الكتبِ السماوية.

قوله: "لِتُخْرِجَ" متعلقٌ ب "أَنْزَلْنا" وقُرِئَ "ليَخْرِجَ الناسُ" بفتح الياء وضمِّ الراء مِنْ خَرَجَ يَخْرُج، "الناس" رفعاً على الفاعلية.

قوله: "بإذنِ" يجوز أن يتعلَّقَ بالإِخراج، أي: بتسهيله وتيسيرِه، ويجوز أَن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ فاعلِ "تُخْرِجَ"، أي: مأذوناً لك.

قوله: ﴿ إلى صِرَاطِ ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أنه بدلٌ من قوله ﴿ إِلَى النور ﴾ بإعادةِ العامل، ولا يَضُرُّ الفصل بالجارِّ لأنه من معمولاتِ العامل في المُبْدَلِ منه. والثاني: أنه متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنه جوابُ سؤالٍ مقدَّر، كأنه قيل: إلى أيِّ نور؟ إلى صراط.

﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2) ﴾

قوله تعالى: ﴿ اللهِ الذي ﴾: قرأ نافعٌ وابن عامرٍ برفعِ الجلالةِ والباقون - ورواها

الأصمعيُّ عن [ نافع ] - بالجرِّ .

فأمَّا الرفعُ فعلى وجهين ، أحدُهما : أنه مبتدأٌ ، خبرُه الموصولُ بعده ، أو محذوفٌ تقديرُه : اللهُ الذي له ما في السماواتِ وما في الأرضِ العزيزُ الحميد ، حُذِف لدلالة ما تقدَّم . والثاني : أنه خبرُ مبتدأ مضمر ، أي : هو اللهُ ، وذلك على المدح .

(70/416)

---

وأمَّا الجرُّ فعلى البدلِ عند أبي البقاء والحوفي وابنِ عطية ، والبيان عند الزمخشري قال : " لأنه جرَى مَجْرَى الأسماءِ الأعلام لغلبتِه على المعبودِ بحق كالنجم للثريا " . قال الشيخ : " وهذا التعليلُ لا يتمُّ إلا أن يكونَ أصلُه الإله ، ثم فُعِل فيه ما تقدَّم أولَ هذا الموضوع " . وقال الأستاذ ابن عصفور : " ولا تُقَدَّمُ صفةٌ على مَوصوفٍ إلا حيث سُمِع ، وهو قليلٌ ، وللعربِ فيه وجهان ، أحدُهما : أنْ تتقدَّمَ الصفةُ بحالها ، وفيه إعرابان للنحويين ، أحدُهما : أن تُعْرَبَ صفةً متقدمةً . والثاني : أن يُجعل / الموصوفُ بدلاً من صفتِه . الثاني من الأولين : أن تُضيفَ الصفةَ إلى الموصوف . فعلى هذا يجوز أن يُعْرَبَ ﴿ العزيز الحميد ﴾ صفةً متقدِّمة ، ومِنْ مجيء تقديمِ الصفةِ قولُه :

2865- والمُؤْمِنِ العائذاتِ الطيرِ يَمْسَحُها ... رُكْبانُ مكةَ بين الغِيل والسَّنَدِ

وقول الآخر :

2866- وبالطويلِ العُمْرِ عُمْراً حَيْدَراً . . . يريد : الطير العائذات ، وبالعمر الطويل .

قلت : وهذا فيما لم يكنِ الموصوفُ نكرةً ، أمَّا إذا كان نكرةً صار لنا عمل آخرُ : وهو أن تنتصبَ تلك الصفةُ على الحال .

قوله : ﴿ وَوَيْلٌ ﴾ جاز الابتداءُ به لأنه دعاء ك " سلامٌ عليكم " . و " للكافرين " خبره . و ﴿ مِنْ عَذَابٍ ﴾ متعلِّقٌ بالويل . ومنعه الشيخ . لأنه يَلْزَمُ منه الفصلُ بين المصدرِ ومعمولِه ، وقد تقدَّم لك بحثٌ في ذلك : وهو أنَّ ذلك ممنوعٌ حيث يتقدَّر المصدرُ بحرفٍ مصدريٍّ وفِعْلٍ ، ولذلك جوَّزوا تعلُّقَ ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [ الرعد : 24 ] ب " سلام " ولم يَعْتَرضوا عليه بشيء ، وقد تقدَّم ذلك في السورةِ قبلها ، ولا فرقَ بين الموضعين .

(71/416)

---

وقال الزمخشريُّ : " فإنْ قلتَ : ما وجهُ اتصالِ قولِه : ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ بالويل ؟ قلت : لأنَّ المعنى يُوَلْوِلون من عذاب شديد " . قال الشيخ : " فظاهره يدلُّ على تقدير عاملٍ يتعلَّقُ به ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ . ويجوز أنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ لأنه صفةٌ للمبتدأ ، وفيه سَلامةٌ من الاعتراضِ المتقدم ، ولا يَضُرُّ الفصلُ بالخبر .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ ﴾ يجوز أن يكون مبتدأً خبرُه "أولئك" وما بعده ، وأن يكونَ خبرَ مبتدأ مضمر ، أي : هم الذين ، وأن يكونَ منصوباً بإضمارِ فعلٍ على المدح فيهما ، وأن يكون مجروراً على البدلِ أو البيانِ أو النعتِ ، قاله الزمخشري وأبو البقاء والحوفيُّ وغيرُهم . وردَّه الشيخ بأنَّ فيه الفَصْلَ بأجنبي وهو قولُه ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قال : " ونظيرُه إذا كان صفةً أن تقول : " الدارُ لزيدٍ الحسنةُ القُرَشِيِّ : وهذا لا يجوز ، لأنك فَصَلْتَ بين زيد وصفتِه بأجنبيٍّ منهما وهو صفةُ الدار ، وهو لا يجوز ، والتركيبُ الفصيحُ أن تقول : الدارُ الحسنةُ لزيدٍ القرشيِّ ، أو : الدارُ لزيدٍ القرشيِّ الحسنةُ " .

و "يَسْتَحِبُّون" : استفعلَ فيه بمعنى أَفْعَل كاستجاب بمعنى أجاب ، أو يكونُ على بابه ، وضُمِّن معنى الإِيثار ، ولذلك تعدَّى ب على .

وقرأ الحسن "ويُصِدُّون" مِنْ أَصَدَّ ، وأَصَدَّ منقولٌ مِنْ صَدَّ اللازمِ ، والمفعولُ محذوفٌ ، أي : غيرَهم ، أو أنفسَهم .

و ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ تقدَّم مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 65.

69﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره : ( بسم الله الرحمن الرحيم )

بسم الله معناه بالله ، فقلوب العارفين بالله أشراقها ، وقلوب الوالهين بالله احتراقها ، لهؤلاء ، ( . . . ) محبته ، ولهؤلاء شوقا إلى عزيز رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . .

فوصل من الطالبين من وصل .

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

أقسم بهذه الحروف : إنه لكِتَابٌ أُنزِل إليك لتُخرِجَ الناسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومنْ ظُلمات الشّكِ إلى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ، ومن ظلمات الابتداع إلى نور الاتباع ، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إلى نورِ معارفِ القلب ، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجَمْعِ - بإذن ربهم - وبإرادته ومشيئته ، وسابقِ حُكْمِه وقضائه إلى صراط رحمته ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (2)

﴾

عرّف الخَلْقَ أنّ اللَّهَ هو الذي له ما في السموات وما في الأَرض .

فَمَنْ عَرَف فله المآب الحميد ، ومَنْ جَحَدَ فله العذاب الشديد ؛ وذلك العذاب هو جَهْلُه بأنه – سبحانه – مَنْ هو .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3) ﴾

ثم ذكر ذميمَ أخلاقِهم ، فقال : هُمُ الذين يُؤْثِرُونَ اليسيرَ مِنْ حُطَامِ الدنيا على الخطيرِ من نِعَم الآخرة ، وذلك من شدة جُحْدِهم ، ويبغون للدّين عِوَجاً بكثرة جَمْعِهم ، أولئك لهم في الدنيا الفراق وهو أشد عقوبة ، وفي الآخرة الاحتراق وهو أجل محنة ومصيبة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 238 . 239 ﴾

(73/416)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قدم ما أفهم أنه أرسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلسان قومه إلى الناس كافة لأن اللسان العربي أسهل الألسنة وأجمعها وأفصحها وأبينها ، فكان في غاية العدالة ، وختم بأن السبيل إليه في غاية الاستقامة والاعتدال ، دلّ على شرف هذا اللسان لصلاحيته لجميع الأمم وخفته عليهم بخصوص لسان كل من الرسل بقومه ، فلذلك أتبعه قوله : ﴿ وما أرسلنا ﴾ أي بما لنا في العظمة ، وأعرق في النفي فقال : ﴿ من رسول ﴾ أي في زمن من الأزمان ﴿ إلا بلسان ﴾ أي لغة ﴿ قومه ﴾ أي الذين فيهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿ ليبين ﴾ أي بياناً شافياً ﴿ لهم ﴾ كما تقدم أنا أرسلناك بكتاب عربي بلسان قومك لتبين لهم ولجميع الخلق ، فإن لسانك أسهل الألسنة وأعذبها ، فهو معطوف على ﴿ أنزلناه ﴾ بالتقدير الذي تقدم ، فإذا تقرر ذلك علم أنه لا مانع حينئذ لأمة من الأمم عن الاستقامة على هذا الصراط إلا إذن الله ومشيئته ﴿ فيضل ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه يضل ﴿ الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ من يشاء ﴾ إضلاله ، وقدم سبحانه هذا اهتماماً بالدلالة على أنه سبحانه خالق الشر كما أنه خالق الخير مع أن السياق لذم الكافرين الذين هم رؤوس أهل الضلال ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ هدايته فإنه سبحانه هو المضل الهادي ، وأما الرسل فمبينون ملزمون للحجة تمييزاً للضال من المهتدي ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يرام ما عنده إلا به ، ولا يمتنع عليه شيء أراده ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا

ينقض ما دبره ، فلذلك دبر بحكمته إرساله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الخلق كافة باللسان العربي ، لأن المقصود جمع الخلق على الحق ، فجمعهم على لسان واحد أنسب ما يكون لذلك ، ولو أنزل بألسنة كلها لكان منافياً لهذا المقصود ، وإن كان مع الإعجاز بكل لسان كان قريباً من الإلجاء فيفوت الإيمان بالغيب ، ويؤدي أيضاً إلى ادعاء أهل كل لسان أن التعبير عنه بلسانهم أعظم ، فيؤدي ذلك إلى المفاخرة والعصبية المؤدي إلى أشد الفرقة ، وأنسب الألسنة لسان قوم الرسول

(74/416)

---

لأنهم ، أقرب إليه ، فيكون فهمهم لأسرار شريعته ووقوفهم على حقائقها أسهل ، ويكونون عن الغلط والخطأ أبعد ، فإذا فهموا عنه دعوا من يليهم بالتراجمة وهلم جرا ، فانتشر الأمر وعم وسهل ، وكان مع ذلك أبعد من التحريف وأسلم من التنازع .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما كانت سورة الرعد على ما تمهد بأن كانت تلك الآيات والبراهين التي سلفت فيها لا يبقى معها شك لمن اعتبر بها لتعظيم شأنها وإيضاح أمرها ، قال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ [إبراهيم : 1] أي إذا هم تذكروا به واستبصروا ببراهينه وتدبروا آياته ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو

قطعت به الأرض ﴾ [ الرعد : 31 ] .

ولما كان هذا الهدى والضلال كل ذلك موقوف على مشيئته سبحانه وسابق إرادته وقد قال لنبيه عليه السلام ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ قال تعالى هنا ﴿ بإذن ربهم ﴾ ، إنما عليك البلاغ .

*(75/416)*

---

ولما قال تعالى : ﴿ وكأين من آية من السماوات والأرض ﴾ [ يوسف : 105 ] ثم بسطها في سورة الرعد ، أعلم هنا أن ذلك كله له وملكه فقال : ﴿ الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ [ إبراهيم : 2 ] فالسماوات والأرض بجملتهما وما فيهما من عظيم ما أوضح لكم الاعتبار به ، كل ذلك له ملكاً وخلقاً واختراعاً ، ﴿ وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [ آل عمران : 83 ] ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ [ إبراهيم : 2 ] لعنادهم مع وضوح الأمر وبيانه ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ [ التوبه : 34 ] مع وضوح السبيل وانتهاج ذلك الدليل ، ثم قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ [ إبراهيم : 4 ] وكأن هذا من تمام قوله سبحانه ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [ الرعد : 38 ] وذلك أن الكفار لما حملهم الحسد والعناد

وبعد الفهم بما جبل على قلوبهم وطبع عليها على أن أنكروا كون الرسل من البشر حتى قالوا : ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ [ التغابن : 6 ] ، ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [ يس : 15 ] وحتى قالت قريش : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [ الأنعام : 8 ] ، ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ ﴿ وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [ الزخرف : 31 ] فما كثر هذا منهم وتبع خلفهم في هذا سلفهم ، رد تعالى أزعامهم وأبطل توهمهم في آيات وردت على التدريج في هذا الغرض شيئاً فشيئاً ، فأول الوارد من ذلك في معرض الرد عليهم وعلى ترتيب سور الكتاب قوله تعالى :



---

﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ [ يونس : 2 ] ، الآية ثم أتبع ذلك بانفراده تعالى بالخلق والاختراع والتدبير والربوبية ، وفي طي ذلك أنه يفعل ما يشاء لأن الكل خلقه وملكه ، وأنه العليم بوجه الحكمة في إرسال الرسل وكونهم من البشر ، فأرغم الله تعالى بمضمون هذه الآي كل جاحد معاند ؛ ثم ذكر تعالى في سورة هود قول قوم نوح ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ [ هود : 27 ] ، الآية وجوابه عليه السلام ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ [ هود : 63

] أي أني وإن كنت في البشرية مثلكم فقد خصني الله بفضله وآتاني رحمة من عنده وبرهاناً على ما جئتكم به عنه ، وفي هذه القصة أعظم عظة ، ثم جرى هذا لصالح وشعيب عليهما السلام ، وديدن الأمم أبداً مع أنبيائهم ارتكاب هذه المقالات ، وفيها من الحيد والعجز عن مقاومتهم ما لا يخفى وما هو شاهد على تعنتهم ، ثم زاد سبحانه تعالى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تعريفاً بأحوال من تقدمه من الأنبياء عليهم السلام ليسمع ذلك من جرى له مثل ما جرى لهم فقال مثل مقالتهم ، فقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ [ الرعد : 38 ] وأعلم سبحانه أن هذا لا يحط شيئاً من مناصبهم ، بل هو واقع في قيام الحجة على العباد .

(77/416)

---

ثم تلا ذلك بقوله : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ [ إبراهيم : 4 ] أي ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للعذر ، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة : لا نفهم عنهم ، إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات ، فقد قال قوم شعيب عليه السلام ﴿ وما نفقة كثيراً مما تقول ﴾ [ هود : 91 ] هذا وهو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم فكيف لو كان على خلاف ذلك بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد واستعمال

الأغذية وغيرها من مألوفات البشر لكان منفراً ، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود لافتراق الجنسية ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ [ الأنعام : 9 ] أي ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة .

ولما كانت رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عامة ، كان عليه الصلاة والسلام يخاطب كل طائفة من طوائف العرب بلسانها ويكلمها بما تفهم ، وتأمل كم بين كتابه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأنس ـ رضى الله عنهم ـ في الصدقة وكتابه إلى وائل بن حجر مع اتحاد الغرض ، وللكتابين نظائر يوقف عليها في مظانها ، وكل ذلك لتقوم الحجة على الجميع ، واستمر باقي سورة إبراهيم عليه السلام على التعريف بحال مكذبي الرسل ووعيد من خالفهم وبيان بعض أهوال الآخرة وعذابها – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 170.167 ﴾

*(78/416)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في أول السورة : ﴿ كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [ إبراهيم : 1 ] كان هذا إنعاماً على الرسول من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاماً أيضاً على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وأرشدهم إلى نور الإيمان ، فذكر في هذه الآية ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين .

أما بالنسبة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلأنه تعالى بين أن سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة ، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة الخلق ، فكان هذا الإنعام في حقك أفضل وأكمل ، وأما بالنسبة إلى عامة الخلق ، فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلى قوم إلا بلسان أولئك القوم ، فإنه متى كان الأمر كذلك ، كان فهمهم لأسرار تلك الشريعة ووقوفهم على حقائقها أسهل ، وعن الغلط والخطأ أبعد .

فهذا هو وجه النظم .

المسألة الثانية :

احتج بعض الناس بهذه الآية على أن اللغات اصطلاحية لا توفيقية.

قال لأن التوقيف لا يحصل إلا بإرسال الرسل، وقد دلت هذه الآية على أن إرسال جميع الرسل لا يكون إلا بلغة قومهم، وذلك يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل، وإذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف، فوجب حصولها بالإصطلاح.

المسألة الثالثة:

*(79/416)*

---

زعم طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمداً رسول الله لكن إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين: الأول: أن القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربياً لم يكن القرآن حجة عليه.

الثاني: قالوا: إن قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: 4] المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط.

والجواب: لم لا يجوز أن يكون المراد من ﴿ قَوْمِهِ ﴾ أهل بلده، وليس المراد من ﴿ قَوْمِهِ ﴾

أهل دعوته .

والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِنّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [ الأعراف : 158 ] بل إلى الثقلين ، لأن التحدي كما وقع مع الإنس فقد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرءان لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [ الإسراء : 88 ] .

المسألة الرابعة :

تمسك أصحابنا بقوله تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ على أن الضلال والهداية من الله تعالى ، والآية صريحة في هذا المعنى .

قال الأصحاب : ومما يؤكد هذا المعنى ما روي : أن أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس وقد ارتفعت أصواتهما ، فقال عليه السلام



"ما هذا " فقال بعضهم : يا رسول الله يقول أبو بكر الحسنات من الله والسيئات من أنفسنا ، ويقول : عمر كلاهما من الله ، وتبع بعضهم أبا بكر وبعضهم عمر ، فتعرف الرسول صلى الله عليه وسلم ما قاله أبو بكر ، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه ، ثم أقبل على

عمر فتعرف ما قاله وعرف البشر في وجهه ثم قال : " أقضي بينكما كما قضى به اسرافيل بين جبريل وميكائيل ، قال جبريل مثل مقالتك يا عمر وقال ميكائيل مثل مقالتك يا أبا بكر فقضاء اسرافيل أن القدر كله خيره وشره من الله تعالى وهذا قضائي بينكما " قالت المعتزلة : هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها وبيانه من وجوه : الأول : أنه تعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ والمعنى : أنا إنما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم ، فيكون إدراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل ، وهذا الكلام إنما يصح لو كان مقصود الله تعالى من إرسال الرسل حصول الإيمان للمكلفين ، فأما لو كان مقصوده الإضلال وخلق الكفر فيهم لم يكن ذلك الكلام ملائماً لهذا المقصود .

والثاني : أنه عليه السلام إذا قال لهم إن الله يخلق الكفر والضلال فيكم ، فلهم أن يقولوا له فما الفائدة في بيانك ، وما المقصود من إرسالك ، وهل يمكننا أن نزيل كفراً خلقه الله تعالى فينا عن أنفسنا وحينئذ تبطل دعوة النبوة وتفسد بعثة الرسل .

الثالث : أنه إذا كان الكفر حاصلاً بتخليق الله تعالى ومشيئته ، وجب أن يكون الرضا به واجباً لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب ، وذلك لا يقوله عاقل .

والرابع : أنا قد دللنا على أن مقدمة هذه الآية وهو قوله : ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ إبراهيم : 1 ] يدل على مذهب العدل ، وأيضاً مؤخرة الآية يدل عليه ، وهو قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فكيف يكون حكيماً من كان خالقاً للكفر والقبائح ومريداً لها ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل قوله : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد ، فوجب المصير إلى التأويل ، وقد استقصينا ما في هذه التأويلات في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [ البقرة : 26 ] ولا بأس بإعادة بعضها ، فالأول : أن المراد بالإضلال : هو الحكم بكونه كافراً ضالاً كما يقال : فلان يكفر فلاناً ويضلله ، أي يحكم بكونه كافراً ضالاً ، والثاني : أن يكون الإضلال عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار ، والهداية عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة .

والثالث : أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله ولم يتعرض له صار كأنه أضله ، والمهتدي لما أعانه بالألطاف صار كأنه هو الذي هداه .

قال صاحب "الكشاف" : المراد بالإضلال : التخلية ومنع الألطاف وبالهداية التوفيق واللطف .

والجواب عن قولهم أولاً أن قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ لا يليق به أن يضلهم .

قلنا : قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر ، فإن كان الفعل الثاني مشاكلاً للأول نسقته عليه ، وإن لم يكن مشاكلاً له استأنفته ورفعته .

(82/416)

---

ونظيره قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ ﴾ [ التوبة : 32 ] فقوله : ﴿ ويأبى الله ﴾ في موضع رفع لا يجوز إلا ذلك ، لأنه لا يحسن أن يقال : يريدون أن يأبى الله ، فلما لم يمكن وضع الثاني موضع الأول بطل العطف ، ونظيره أيضاً قوله : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلأَرْحَامِ ﴾ [ الحج : 5 ] ومن ذلك قولهم : أردت أن أزورك فيمنعني المطر بالرفع غير منسوق على ما قبله لما ذكرناه ، ومثله قول الشاعر :

يريد أن يعربه فيعجمه . . إذا عرفت هذا فنقول : ههنا قال تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَاءُ ﴾ ذكر فيضل بالرفع فدل على أنه مذكور على سبيل الاستئناف وأنه غير معطوف على ما قبله ، وأقول تقرير هذا الكلام من حيث المعنى ، كأنه تعالى قال : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلسانهم الذي ألفوه واعتادوه ، ثم قال ومع أن الأمر كذلك فإنه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، والغرض منه التنبيه على أن تقوية البيان لا توجب حصول الهداية فربما قوي البيان ولا تحصل الهداية

وربما ضعف البيان وحصلت الهداية ، وإنما كان الأمر كذلك لأجل أن الهداية والضلال لا يحصلان إلا من الله تعالى .

أما قوله ثانياً : لو كان الضلال حاصلاً بخلق الله تعالى لكان الكافر أن يقول له : ما الفائدة في بيانك ودعوتك ؟ فنقول : يعارضه أن الخصم يسلم أن هذه الآيات أخبار عن كونه ضالاً فيقول له الكافر : لما أخبر إلهك عن كوني كافراً فإن آمنت صار إلهك كاذباً فهل أقدر على جعل إلهك كاذباً ، وهل أقدر على جعل علمه جهلاً .

وإذا لم أقدر عليه فكيف يأمرني بهذا الإيمان ، فثبت أن هذا السؤال الذي أورده الخصم علينا هو أيضاً وارد عليه .

وأما قوله ثالثاً : يلزم أن يكون الرضا بالكفر واجباً ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .



---

قلنا : ويلزمك أيضاً على مذهبك أنه يجب على العبد السعي في تكذيب الله وفي تجهيله ، وهذا أشد استحالة مما ألزمته علينا ، لأنه تعالى لما أخبر عن كفره وعلم كفره فإزالة الكفر عنه يستلزم قلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذباً .

وأما قوله رابعاً : إن مقدمة الآية وهي قوله تعالى :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ إبراهيم : 1 ] يدل على صحة الاعتزال فنقول : قد ذكرنا أن قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على صحة مذهب أهل السنة .

وأما قوله خامساً : أنه تعالى وصف نفسه في آخر الآية بكونه حكيماً وذلك ينافي كونه تعالى خالقاً للكفر مريداً له .

فنقول : وقد وصف نفسه بكونه عزيزاً والعزيز هو الغالب القاهر فلو أراد الإيمان من الكافر مع أنه لا يحصل أو أراد عمل الكفر منهم ، وقد حصل لما بقي عزيزاً غالباً .

فثبت أن الوجوه التي ذكروها ضعيفة ، وأما التأويلات الثلاثة التي ذكروها فقد مر إبطالها في هذا الكتاب مراراً فلا فائدة في الإعادة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 63 ـ 65 ﴾

*(84/416)*

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

هذه الآية طعن ورد على المستغربين أمر محمد عليه السلام ، أي لست يا محمد ببدع من

الرسل ، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على عادتنا في رسلنا ، في أن نبعثهم بألسنة أممهم ليقع البيان والعبارة المتمكنة ، ثم يكون سائر الناس من غير أهل اللسان عيالاً في التبيين على أهل اللسان الذي يكون للنبي ، وجعل الله العلة في إرسال الرسل بألسنة قومهم طلب البيان ثم قطع قوله : ﴿ فيضل ﴾ أي إن النبي إنما غايته أن يبلغ ويبين ، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل ، بل ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه ، وله في ذلك العزة التي لا تعارض ، والحكمة التي لا تعلل ، لا رب غيره .

قال القاضي أبو محمد : فإن اعترض أعجمي بأن يقول : من أين يبين لي هذا الرسول الشريعة وأنا لا أفهمه ؟ قيل له : أهل المعرفة باللسان يعبرون ذلك ، وفي ذلك كفايتك .

فإن قال : ومن أين تتبين لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفقه اللغة ؟ قيل له : الحجة عليك إذعان أهل الفصاحة والذين كانوا يظن بهم أنهم قادرون على المعارضة وبإذعانهم قامت الحجة على البشر ، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السحرة ، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباء .

و" اللسان " في هذه الآية يراد به اللغة .

وقرأ أبو السمال " بلسْن " بسكون السين دون ألف - كريش ورياش - ويقال : لسن ولسان في اللغة ، فأما العضو فلا يقال فيه لسن - بسكون السين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إلا بلسان قومه ﴾

أي : بلُغتهم .

قال ابن الأنباري : ومعنى اللغة عند العرب : الكلام المنطوق به ، وهو مأخوذ من قولهم :

لَغا الطائر يَلْغُو : إذا صَوَّت في الغَلَس .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو المتوكل ، والجُحدري : "إلاَّ بلُسُنِ قومه" برفع اللام والسين من غير ألف .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران : "بِلسْنِ قومه" بكسر اللام وسكون السين من غير ألف .

قوله تعالى : ﴿ ليُبيّن لهم ﴾ أي : الذي أُرسل به فيفهمونه عنه .

وهذا نزل ، لأن قريشاً قالوا : ما بال الكتب كلِّها أعجمية ، وهذا عربي ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ ﴾

أي قبلك يا محمد ﴿ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي بلغتهم ، ليبيّنوا لهم أمر دينهم ؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة ؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير ؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية ؛ لأن كل من ترجِم له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة يفهمها لزمته الحجة ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [ سبأ : 28 ] .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أُرسِل كلُّ نبيّ إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كلّ أحمرَ وأسودَ من خَلْقه " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار " .

خرجه مسلم ، وقد تقدّم .

﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ ردّ على القَدَرية في نفوذ المشيئة ، وهو مستأنف ، وليس بمعطوف على "لِيُبَيِّنَ" لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال .

ويجوز النصب في "يضل" لأن الإرسال صار سبباً للإضلال ؛ فيكون كقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] وإنما صار الإرسال سبباً للإضلال لأنهم كفروا به لما

جاءهم؛ فصار كأنه سبب لكفرهم.

﴿ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ تقدّم معناه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(87/416)

---

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾

يعني بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه وهو قوله تعالى ﴿ ليبين لهم ﴾ يعني ما يأتون وما يذرون.

فإن قلت : لم يبعث الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ بل هو مبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس قومه سوى العرب يقتضي بظاهره أنه مبعوث إلى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع ؟ قلت : بعث رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثاً إلى جميع الخلق، لأنهم تبع للعرب ثم إنه يبعث الرسل إلى الرسل إلى الأطراف، فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم إلى الله تعالى بلغاتهم.

وقيل : يحتمل أنه أراد بقومه أهل بلدة ، وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم في عموم الدعوى وقيل : إن الرسول إذا أرسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان أقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم في ذلك ، فإذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج إلى ذلك ممن هو من غير أهله ، وإذا كان الكتاب بلغة واحدة مع اختلاف الأمم وتباين اللغات كان ذلك أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه ، وتفهيم فوائده وغوامضه وأسراره وعلومه وجميع حدوده وأحكامه وقوله ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ يعني أن الرسول ليس عليه إلا التبليغ والتبيين والله هو الهادي المضل يفعل ما يشاء ﴿ وهو العزيز ﴾ يعني الذي يغلب ولا يغلب ﴿ الحكيم ﴾ في جميع أفعاله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(88/416)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

سبب نزولها أنّ قريشاً قالوا : ما بال الكتب كلها أعجمية وهذا عربي ؟ فنزلت .

وساق قصة موسى أنه تعالى أرسله إلى قومه بلسانه ، أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، كما أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .

والظاهر أن قوله : وما أرسلنا من رسول ، العموم فيندرج فيه الرسول عليه الصلاة والسلام .

فإن كانت الدعوة عامة للناس كلهم ، أو اندرج في اتباع ذلك الرسول من ليس من قومه ، كان من لم تكن لغته لغة ذلك النبي موقوفاً على تعلم تلك اللغة حتى يفهمها ، وأن يرجع في تفسيرها إلى من يعلمها .

وقيل : في الكلام حذف تقديره : وما أرسلنا من رسول قبلك إلا بلسان قومه ، وأنت أرسلناك للناس كافة بلسان قومك ، وقومك يترجمون لغيرهم بألسنتهم ، ومعنى بلسان قومه : بلغة قومه .

وقرأ أبو السمال ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران الجوني : بلسن بإسكان السين ، قالوا : هو كالريش والرياش .

وقال صاحب اللوامح : واللسن خاص باللغة ، واللسان قد يقع على العضو ، وعلى الكلام .

وقال ابن عطية مثل ذلك قال : اللسان في هذه الآية يراد به اللغة ، ويقال : لسن ولسان في اللغة ، فأما العضو فلا يقال فيه لسن .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو المتوكل ، والجحدري : لسن بضم اللام والسين ، وهو جمع لسان كعماد وعمد .

وقرىء أيضاً بضم اللام وسكون السين مخفف كرسل ورسل ، والضمير في قومه عائد على رسول أي : قوم ذلك الرسول .

وقال الضحاك : والضمير في قومه عائد على محمد ( صلى الله عليه وسلم ) قال : والكتب كلها نزلت بالعربية ، ثم أداها كل نبي بلغة قومه .

قال الزمخشري : وليس بصحيح ، لأنّ قوله : ليبين لهم ، ضمير القوم وهم العرب ، فيؤدي إلى أنّ الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب ، وهذا معنى فاسد انتهى .

*(89/416)*

---

وقال الكلبي : جميع الكتب أدت إلى جبريل بالعربية ، وأمره تعالى أن يأتي رسول كل قوم بلغتهم .

وأورد الزمخشري هنا سؤالاً وابن عطية أخرهما في كتابيهما ، ويقول : قامت الحجة على البشر بإذعان الفصحاء الذين يظن بهم القدرة على المعارضة وإقرارهم بالعجز ، كما قامت بإذعان السحرة لموسى ، والأطباء لعيسى عليهما السلام .

وبين تعالى العلة في كون من أرسل من الرسل بلغة قومه وهي التبيين لهم ، ثم ذكر أنه تعالى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته ، فليس على ذلك الرسول غير التبليغ والتبيين ، ولم يكلف أن يهدي بل ذلك بيد الله على ما سبق به قضاؤه وهو العزيز الذي لا يغالب ، الحكيم الواضع الأشياء على ما اقتضته حكمته وإرادته .

وقال الزمخشري : والمراد بالإضلال التخلية ومنع الإلطاف ، وبالهداية التوفيق واللطف ، وكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان ، وهو العزيز فلا يغلب على مشيئته ، الحكيم فلا يخذل إلا أهل الخذلان ، ولا يلطف إلا بأهل اللطف انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(90/416)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ أي في الأمم الخاليةِ من قبلك كما سيذكر إجمالاً ﴿ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ ﴾ ملتبساً ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ متكلماً بلغة من أُرسل إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواءٌ بعث فيهم أو لا ، وقرىء بِلِسْنِ وهو لغة فيه كريش ورياش وبِلُسُنْ بضمتين وضمة وسكون

كعُمُد وعُمْد ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ما أمروا به فيتلقَّوه منه بيُسر وسُرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ممن لم يُؤمر به ، وحيث لم يكن مراعاةُ هذه القاعدة في شأن سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثتِه للثقلين كافةً على اختلاف لغاتِهم وكان تعددُ نظمِ الكتاب المنزل إليه حسب تعددِ ألسنة الأممِ أدعى إلى التنازع واختلافِ الكلمة وتطرّقِ أيدي التحريف مع أن استقلال بعضٍ من ذلك بالإعجاز دون غيره مَئِنّةٌ لقدح القادحين واتفاقَ الجميع فيه أمرٌ قريب من الإلجاء وحصرِ البيانِ بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمةُ اتحادَ النظمِ المنبىء عن العزة وجلالةِ الشأن المستتبعِ لفوائدَ غنيةٍ عن البيان ، على أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعددِ إذ لا بد لكل أمةٍ من معرفة توافق الكلّ وتحاذيه حذوَ القُذّة بالقذة من مخالفة ولو في خَصلة فذّة ، وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحداً أو متعدداً وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناعَ ، ثم لما كان أشرفَ الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومُه الذين بعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات نزل الكتابُ المتين بلسان عربي مبين ، وانتشرت أحكامُه فيما بين الأمم أجمعين ، وقيل : الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه تعالى أنزل الكتب كلَّها عربيةً ثم ترجمها جبريلُ عليه الصلاة والسلام ، أو كلُّ من نزل عليه من الأنبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ، ويرده قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ فإنه ضميرُ القوم وظاهرٌ أن جميع الكتب لم تنزل لتبيين العرب وفي رَجْعه إلى قوم كل نبي كأنه

قيل : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومِ محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسولُ لقومه الذين أرسل إليهم ما لا يخفى من التكلف ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ ﴾ إضلالَه أي يخلق فيه الضلالَ لمباشرة أسبابِه المؤدية إليه أو يخذله ولا يلطُف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الإلطاف ﴿ وَيَهْدِى ﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايتَه لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق ، والالتفاتُ بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنِهما وترشيح مناطِ كلَ منهما ، والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحرَ فَانفَلَقَ ﴾ كأنه قيل : فبيّنوه لهم فأضل الله منهم من شاء إضلالَه لما لا يليق إلا به وهدى من شاء هدايتَه لاستحقاقه لها ، والحذفُ للإيذان بأن مسارعة كلِّ رسول إلى ما أمر به وجريانَ كلَ من أهل الخذلان والهدايةِ على سنته أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن الذكر والبيانِ .

والعدولُ إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على التجدد والاستمرارِ حسب تجدد البيانِ من الرسل المتعاقبةِ عليهم السلام ، وتقديمُ الإضلال على الهداية إما لأنه إبقاءُ ما كان على ما كان ، والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن ، أو للمبالغة في بيان أن لا تأثيرَ

للتبيين والتذكير من قبل الرسلِ ، وأن مدارَ الأمر إنما هو مشيئَتُه تعالى بإيهام أن ترتبَ الضلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتب الاهتداءِ وهذا محقِّقٌ لما سلف من تقييد الإخراجِ من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يغالَب في مشيئته ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغةٍ ، وفيه أن ما فُوّض إلى الرسل إنما هو تبليغُ الرسالة وتبيينُ طريقِ الحقّ ، وأما الهداية والإرشادُ إليه فذلك بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

*(92/416)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ أي في الأمم الخالية من قبلك كما سيذكر إن شاء الله تعالى إجمالاً ﴿ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ ﴾ متلبساً ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ متكلماً بلغة من أرسل إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولاً ، وقيل : بلغة قومه الذين هو منهم وبعث فيهم ، ولا ينتقض الحصر بلوط عليه السلام فإنه تزوج منهم وسكن معهم ، وأما يونس عليه السلام فإنه من القوم الذين أرسل إليهم كما قالوه فلا حاجة إلى القول بأن ذلك باعتبار الأكثر الأغلب ولعل

الأولى ما ذكرنا .

وقرأ أبو السمال .

وأبو الحوراء .

وأبو عمران الجوني ﴿ بلسن ﴾ بإسكان السين على وزن ذكر وهي لغة في لسان كريش ورياش ، وقال صاحب اللوامح : إنه خاص باللغة واللسان يطلق عليها وعلى الجارحة وإلى ذلك ذهب ابن عطية .

وقرأ أبو رجاء .

وأبو المتوكل .

والجحدري ﴿ بلسن ﴾ بضم اللام والسين وهو جمع لسان كعماد وعمد .

(93/416)

---

وقرىء ﴿ بلسن ﴾ بضم اللام وسكون السين وهو مخفف لسن كرسل ورسل ﴿ الله لِيُبَيِّنَ ﴾ ذلك الرسول ﴿ لَهُمْ ﴾ لأولئك القوم الذين أرسل إليهم ما كلفوا به فيتلقوه منه بسهولة وسرعة فيمتثلوا ذلك من غير حاجة إلى الترجمة وحيث لم تتأت هذه القاعدة في شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه المرسلين أجمعين لعموم بعثته وشموله

رسالته الأسود والأحمر والجن والبشر على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل إليه صلى الله عليه وسلم عليه حسب تعدد ألسنة الأمم أدعى إلى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدي التحريف مع أن استقلال بعض من ذلك بالإعجاز مئنة لقدح القادحين ، واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الإلجاء المنافي للتكليف ، وحصل البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة المنبىء عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان ، على أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعدد إذ لا بد لكل طائفة من معرفة توافق الكل حذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو في خصلة فذة ، وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحداً أو متعددا وفيه من التعذر ما فيه ، ثم لما كان أشرف الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث بين ظهرانيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المبين بلسان عربي مبين وانتشرت أحكامه بين الأمم أجمعين ، كذا قرره شيخ الإسلام الإسلام والمسلمين وهو من الحسن بمكان ، بيد أن بعضهم أبقى الكلام على عمومه بحيث يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وأراد بالقوم الذين ذلك الرسول منهم وبعث فيهم ، والمراد من قومه صلى الله عليه وسلم العرب كلهم ، ونقل ذلك أبو شامة في المرشد عن السجستاني واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم :

" انزل القرآن على سبعة أحرف " وفيه نظر ظاهر .

وقال ابن قتيبة : المراد منهم قريش ولم ينزل القرآن إلا بلغتهم ، وقيل : إنما نزل بلغة مضر خاصة لقول عمر رضي الله تعالى عنه : نزل القرآن بلغة مضر ، وعين بعضهم فيما حكاه ابن عبد البر سبعاً منهم هذيل وكنانة وقيس وضبة وتيم الرباب وأسيد بن خزيمة وقريش ، وأخرج أبو عبيد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : نزل بلغة الكعبين كعب قريش وكعب خزاعة فقيل : وكيف ؟ فقال : لأن الدار واحدة يعني خزاعة كانوا جيران قريش فسهلت عليهم لغتهم ؛ وجاء عن أبي صالح عنه أنه قال : نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن ويقال لهم عليا هوازن ، ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم يعني بني دارم ، والذي يذهب مذهب السجستاني يقول : إن في القرآن ما نزل بلغة حمير .

وكنانة .

وجرهم .

وأزد شنوءة .

ومذحج .

وخثعم .

وقيس عيلان .

وسعد العشيرة.

وكندة.

وعذرة.

وحضرموت.

وغسان.

ومزينة.

ولخم.

وجذام.

وحنيفة.

واليمامة.

وسبا.

وسليم.

وعمارة.

وطي.

وخزاعة.

وعمان.

وتميم.

وأنمار.

والأشعريين.

والأوس.

والخزرج.

ومدين؛ وقد مثل لكل ذلك أبو القاسم، وذكر أبو بكر الواسطي أن في القرآن من اللغات خمسين لغة وسردها ممثلاً لها إلا أنه ذكر أن فيه من غير العربية الفرس والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط، والذاهب إلى ما ذهب إليه ابن قتيبة يقول: إن ما نسب إلى غير قريش على تقدير صحة نسبته مما يوافق لغتهم، ونقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: إنه نزل أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ثم أبيح لسائر العرب أن تقرأه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها كاختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغتهم إلى لغة أخرى للمشقة.

ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل المراد ، لكن أنت تعلم أن هذه الإباحة لم تستمر ، وكون المتبادر من قومه عليه الصلاة والسلام قريشاً مما لا أظن أن أحداً يمتري فيه ويليه في التبادر العرب .

وفي "البحر" أن سبب نزول الآية أن قريشاً قالوا : ما بال الكتب كلها أعجمية وهذا عربي ؟ وهذا إن صح ظاهر في العموم ، ثم إنه لا يلزم من كون لغته لغة قريش أو العرب اختصاص بعثته صلى الله عليه وسلم بهم ، وإن زعمت طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية اختصاص البعثة بالعرب لذلك ، وحكمة إنزاله بلغتهم أظهر من أن تخفى ، وقيل : الضمير في ﴿ قَوْمِهِ ﴾ لمحمد صلى الله عليه وسلم المعلوم من السياق فإنه كما أخرج ابن أبي عن سفيان الثوري لم ينزل وحي إلا بالعربية ثم ترجم كل نبي لقومه ، وقيل : كان يترجم ذلك جبريل عليه السلام ونسب إلى الكلبي ، وفيه أنه إذا لم يقع التبيين إلا بعد الترجمة فات الغرض مما ذكر ، وضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للقوم بلا خلاف وهم المبين لهم بالترجمة .

وفي "الكشاف" أن ذلك ليس بصحيح لأن ضمير ﴿ لَهُمْ ﴾ للقوم وهم العرب فيؤدي إلى أن الله تعالى أنزل التوراة مثلاً بالعربية ليبين للعرب وهو معنى فاسد .

وتكلف الطيبي دفع ذلك بأن الضمير راجع إلى كل قوم بدلالة السياق ، والجواب كما في "الكشف" أنه لا يدفع عن الإيهام على خلاف مقتضى المقام .

واحتج بعض الناس بهذه الآية على أن اللغات اصطلاحية لا توقيفية قال : لأن التوقيف لا

يحصل إلا بإرسال الرسل ، وقد دلت الآية على أن إرسال كل من الرسل لا يكون إلا بلغة قومه وذلك يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسول ، وإذا كان كذلك امتنع حصول تلك اللغات بالتوقيف فوجب حصولها بالاصطلاح انتهى .

(96/416)

---

وأجيب بأنا لا نسلم توقف التوقيف على إرسال الرسل لجواز أن يخلق الله تعالى في العقلاء علماً بأن الألفاظ وضعها واضع لكذا وكذا ، ولا يلزم من هذا كون العاقل عالماً بالله تعالى بالضرورة بل الذي يلزم منه ذلك لو خلق سبحانه في العقلاء علماً ضرورياً بأنه تعالى الواضع وأين هذا من ذاك ، على أنه لا ضرر في التزام خلق الله تعالى هذا العلم الضروري وأي ضرر في كونه سبحانه معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء ؟ والقول بأنه يبطل التكليف حينئذٍ على عمومه غير مسلم وعلى تخصيصه بالمعرفة مسلم وغير ضار ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ ﴾ إضلاله أي يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه ، وقيل : يخذله فلا يلطف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الإلطاف ﴿ وَيَهْدِي ﴾ يخلق الهداية أو يمنح الإلطاف ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ هدايته لما فيه من الأسباب المؤدية إلى ذلك ، والالتفات بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما ، والفاء قيل فصيحة مثلها في قوله تعالى : ﴿

فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فانفجرت ﴾ [ البقرة : 60 ] كأنه قيل : فبينوه لهم فأضل الله تعالى من شاء إضلاله وهدى من شاء هدايته حسبما اقتضته حكمته تعالى البالغة ، والحذف للإيذان بأن مسارعة كل رسول إلى ما أمر به وجريان كل من الفعلين على سننه أمر محقق غني عن الذكر والبيان .

(97/416)

---

وفي "الكشف" وجه التعقيب عن السابق كوجهه في قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [ البقرة : 26 ] على معنى أرسلنا الكتاب للتبيين فمنهم من نفعناه بذلك البيان ومنهم من جعلناه حجة عليه ، والفاء على هذا تفصيلية ، والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو الدلالة على التجدد والاستمرار حيث تجدد البيان من الرسل عليهم السلام المتعاقبة عليهم ، وتقديم الإضلال على الهداية كما قال بعض المحققين إما لأنه إبقاء ما كان على ما كان والهداية إنشاء ما لم يكن أو للمبالغة في بيان أنه لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل عليهم السلام وأن مدار الأمر إنما هو مشيئته تعالى بإيهام أن ترتيب الضلالة أسرع من ترتب الاهتداء ، وهذا محقق لما سلف من تقييد الإخراج من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يغالب في مشيئته تعالى ﴿ الحكيم ﴾ فلا يشاء

ما يشاء إلا لحكمة بالغة ، وفيه كما في "البحر" وغيره أن ما فوض إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هو التبليغ وتبيين طريق الحق ، وأما الهداية والإرشاد إليه فذلك بيد الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ثم إن هذه الآية ظاهرة في مذهب أهل السنة من أن الضلالة والهداية بخلقه سبحانه ، وقد ذكر المعتزلة لها عدة تأويلات ، وللإمام فيها كلام طويل إن أردته فارجع إليه . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(98/416)

---

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

أي : ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به كما قال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [ فصلت : من الآية 44 ] . ( فإن قلت ) : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [ الأعراف : من الآية 158 ] ، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن

للعرب حجة ، فلغيرهم الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضاً ؟ ( قلت ) : لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة ؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل ؛ فبقي أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ؛ لأنهم أقرب إليه . فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ؛ قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكد القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحدٍ منها ، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها ، كما كلم أمته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً ؛ لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء .

ومعنى : ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ بلغة قومه – كذا في " الكشاف

" – .

وقال بعض المحققين : يقول قائل : ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانت للعرب خاصة ؟ نقول : لا ؛ لأنه جرت سنة الله أن يختار أمة واحدة ويعدها لتهذيب الأمم الأخرى ، كما يعد فرداً واحداً منها لتهذيب سائر أفرادها . ولما كانت الأمة العربية هي المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم ؛ فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعيد وتتهيأ لأداء وظيفتها . وقد أتم الله نعمته عليها ، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع ، ولله في خلقه شؤون .

تنبيه :

استدل بالآية من ذهب إلى أن اللغات اصطلاحية . قال : لأنها لو كانت توقيفية لم تعلم إلا بعد مجيء الرسول ، والآية صريحة في علمها قبله .

وقوله تعالى : ﴿ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي : لمباشرته أسبابه المؤدية إليه ، أو يخذله ولا يلطف به لعلمه أنه لا ينجع فيه الإلطاف : ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق . ( والفاء ) فصيحة ، كأنه قيل : فبينوه ، فأضل الله من شاء إضلاله وهدى من شاء . والحذف للإيذان بأن مسارعة كل رسول إلى ما أمر به ، وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سننه ، أمر محقق غني عن الذكر والبيان : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿ أي : فلا يغالب ، ولا يقضي إلا بما فيه الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 305.307 ﴾

(100/416)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

إذا كانت صيغة القصر مستعملة في ظاهرها ومسلّطة على متعلّقي الفعل المقصور كان قصراً إضافياً لقلب اعتقاد المخاطبين ، فيتعين أن يكون ردّاً على فريق من المشركين قالوا : هلا أنزل القرآن بلغة العجم .

وقد ذكر في "الكشاف" في سورة فصلت عند قوله تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ﴾ [ سورة فصلت : 44 ] فقال : كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، وهو مروي في تفسير الطبري ﴾ هنالك عن سعيد بن جبير أن العرب قالوا ذلك .

ثم يجوز أن يكون المراد بلغة العجم لغة غير العرب مثل العبرانية أو السريانية من اللغات التي أنزلت بها التوراة والإنجيل ، فكان من جملة ما موّت لهم أوهامهم أن حسبوا أن للكتب

بالإلهية لغة خاصة تنزل بها ثم تُفسر للّذين لا يعرفون تلك اللّغة.

وهذا اعتقاد فاش بين أهل العقول الضعيفة، فهؤلاء الّذين يعالجون سرّ الحرف والطلسمات يموّهون بأنها لا تكتب إلا باللغة السريانية ويزعمون أنها لغة الملائكة ولغة الأرواح.

وقد زعم السراج البلقيني: أن سؤال القبر يكون باللغة السريانية وتلقاه عنه جلال الدّين السيوطي واستغربه فقال:

ومن عجيب ما ترى العينان...

أن سُؤال القبر بالسرياني

أفتى بهذا شيخنا البلقيني...

ولم أره لغيره بعيني

وقد كان المتنصرون من العرب والمتهودون منهم مثل عرب اليمن تترجم لهم بعض التوراة والإنجيل بالعربية كما ورد في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من "صحيح البخاري"، فاستقرّ في نفوس المشركين من جملة مطاعنهم أن القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السالفة.

فصارت عربيته عندهم من وجوه الطعن في أنه منزل من الله، فالقصر هنا لرد كلامهم، أي ما أرسلنا من رسول بلسان إلا لسان قومه المرسل إليهم لا بلسان قوم آخرين.

فموقع هذه الآية عقب آية ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ بيّن المناسبة .

وتقدير النظم : كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزلناه بلغة قومك لتبيّن لهم الذي أوحينا إليك وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم فيخرجهم من الظلمات إلى النور .

وإذا كانت صيغة القصر جارية على خلاف مقتضى الظاهر ولم يكن ردّاً لمقالة بعض المشركين يكُن تنزيلاً للمشركين منزلة من ليسوا بعرب لعدم تأثرهم بآيات القرآن ، ولقولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ وكان مناط القصر هو ما بعد لام العلّة .

والمعنى : ما أرسلناك إلاّ لتبيين لهم وما أرسلنا من رسول إلا ليبين لقومه ، وكان قوله : ﴿ إلا بلسان قومه ﴾ إدْماجاً في الاستثناء المتسلط عليه القصرُ ؛ أو يكون متعلقاً بفعل ﴿ ليبين ﴾ مقدماً عليه .

والتقدير : ما أرسلناك إلا لتبين لهم بلسانهم ، وما أرسلنا من رسول إلا ليبين لقومه بلسانهم ، فما لقومك لم يهتدوا بهذا القرآن وهو بلسانهم ، وبذلك يتضح موقع التفريع في قوله : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

واللسان : اللغة وما به التخاطب .

أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحل على الحال به ، مثل : سَال الوادي .

والباء للملابسة ، فلغة قومه ملابسةِ لكلامه والكتابِ المنزل إليه لإرشادهم .

والقوم : الأمة والجماعة ، فقوم كل أُحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة ، وقوم كل رسول أمته المبعوث إليهم ، إذ كان الرسُل يبعثون إلى أقوامهم ، وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم العرب ، وأما أمته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم الناس كافة .

(102/416)

---

وإنما كان المخاطب أولاً هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذر نزوله بلغات الأمم كلها ، فاختار الله أن يكون رسوله عليه الصلاة والسلام من أمة هي أفصح الأمم لساناً ، وأسرعهم أفهاما ، وألمعهم ذكاءً ، وأحسنهم استعداداً لقبول الهدى والإرشاد ، ولم يؤمن برسول من الرسل في حياته عددٌ من الناس مثل الذين آمنوا بمحمّد صلى الله عليه وسلم في حياته فقد عم الإسلامُ بلاد العرب وقد حج مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع نحو خمسين ألفاً أو أكثر .

وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون .

واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب ، لأنها أصلح اللغات جمعَ معان ، وإيجاز عبارة ، وسهولة جري على الألسن ، وسرعة حفظ ، وجمال وقع في الأسماع ، وجعلت

الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادئ ذي بدء ، وعهد إليها نشره بين الأمم .

وفي التعليل بقوله : ﴿ ليبين لهم ﴾ إيماء إلى هذا المعنى ، لأنه لما كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها ، قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ [ سورة الشعراء : 195 ] .

فهذا كله من مطاوي هذه الآية .

ولكن لما كان المقصود من سياقها الرد على طعنهم في القرآن بأنه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتُصر في رد خطئهم على أنه إنما كان كذلك ليبيّن لهم لأن ذلك هو الذي يهمهم .

وتفريع قوله : فيضل الله من يشاء ﴾ الخ على مجموع جملة ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، ولذلك جاء فعل ﴿ يضلّ ﴾ مرفوعاً غير منصوب إذ ليس عطفاً على فعل ﴿ ليبين ﴾ لأن الإضلال لا يكون معلولاً للتبيين ولكنه مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين .

والمعنى أن الإرسال بلسان قومه لحكمة التبيين .

وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبيّن لهم .

والإضلال والهدى من الله بما أعد في نفوس الناس من اختلاف الاستعداد .

وجملة ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ تذييل لأن العزيز قويّ لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عما خُلق له ، والحكيم يضع الأشياء مواضعها ، فموضع الإرسال والتبيين أتي على أكمل وجه من الإرشاد .

ومَوْقع الإضلال والهدى هو التكوين الجاري على أنسب حال بأحوال المرسل إليهم ، فالتبيين من مقتضَى أمر التشريع والإضلال من مقتضَى أمر التكوين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(104/416)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَآءُ ﴾ الآية .

(105/416)

يبن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولاً إلى بلغة قومه لأنه لم يرسل رسولاً إلا إلى قومه دون غيرهم ولكنه يبن في مواضع أخر أن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [ الأعراف : 158 ] وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [ الفرقان : 1 ] وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [ سبأ : 28 ] الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته لأهل كل لسان فهو صلى الله عليه وسلم يجب عليه إبلاغ أهل كل لسان وقد قدمناه في سورة البقرة قول ابن عباس رضي الله عنهما " إن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وعلى أهل السماء فقالوا بم يا بن عباس فضله على أهل السماء ، فقال إن الله تعالى قال : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إني إله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ﴾ [ الأنبياء : 29 ] ، وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [ الفتح : 1 و 2 ] قالوا : فما فضله على الأنبياء قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [ سبأ : 28 ] ، فأرسله إلى الجن

والإنس " ، ذكره أبو محمد الدارمي في مسنده كما تقدم وهو تفسير من ابن عباس للآية بما ذكرنا والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(106/416)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾

ونعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مُبلِّغ عن الله منهجه ؛ ومُؤيَّد بمعجزة تثبت صدقة فيما بلغ لِمَنْ أُرسِل إليهم . وقد حدَّث الحق سبحانه من قبل عمَّا حدث للأمم السابقةَ على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقوم الاستقبال ؛ وهم الأمم السابقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالبةَ بأن تُبلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمُطَالبة بذلك ، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة .

ولم يُكنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل صلى الله عليه وسلم في أمة

العرب ؛ وحين استقبلوه وأُشرِبَتْ قلوبهم حُبّ الإيمان ؛ صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة ؛ لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

والقرآن حُجَّة لأنه يسوسُ حركة الحياة ؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف في الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتِها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذي تنطق به .

وترجمة المعاني من لسان إلى آخر مسألة معروفة في كُلِّ حضارات العالم ؛ لأن المسألة في جوهرها مسألة معانٍ ؛ والمعاني لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر ؛ ونزل العربية ؛ لأن موهبة الأمة العربية هي النبوغ في اللغة والكلام ؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية ؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات .

(107/416)

---

ولذلك تستطيع أن تَعقِد مقارنة بين البلاد التي فُتحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التي فُتِحتَ بالسِّلْم ورؤية القدوة المسلَمة الصالحة ؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام في كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نُقلوا الدين بالخِصَال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين في تعاملهم مع غيرهم ،

ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعاني ، بجانب كونه معجزةً في اللغة التي نزل بها ، وهي لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا تستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا في المصحف ، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة في المصحف ، واعتمدوا على فَهْم المعاني الموجودة فيه عَبْر الترجمات التي قام بها مُسلِمون أحبُّوا القرآن ، ونقلُوه إلى اللغات الأخرى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [ القمر : 17 ] .

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسَّر أُمَّ القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسرَّه بأن جعل من تلك الأمة التي نزل عليها القرآن أمة تَنشرُ البلاغ عنه سبحانه ، ذلك أن الرسالات تُريد تبليغاً ؛ والتبليغ وسيلتُه الأولى هي الكلام ؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هي الأذن ، فلا بُدَّ من الكلام أولاً ، ثم لا بُدَّ من أُذن تعرف مدلولاتِ الألفاظ لتسمعَ هذا الكلام ، ولِتُطبِّقه سلوكاً .

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعاني الألفاظ ؛ فما تسمعه الأُذن يحكيه اللسان .

وعرفْنَا أن اللغة بِنْت السماع ، وكُلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التي سمعها في بيئته ؛ وإذا تتبعتَ

سلسلة تعلُّم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجِذْر الأصلي الذي تعلَّم منه البشر الكلام ؛ وهو آدم عليه السلام .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . . ﴾ [البقرة : 31] .

*(108/416)*

---

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علَّمها الله لآدم ، ثم تكلَّمها آدم فسمعتْها بيئته ؛ فصارتْ وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ . . . ﴾ [إبراهيم : 4] .

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 4] .

وهكذا أوضح جَلَّ وعلاَ السبب في إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعْضِ الأعجمين * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 198-199] .

وقال أيضاً : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ

لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَاء والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . ﴾ [ فصلت : 44 ] .

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقِّي نفسه من الكَدَر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غِشَاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر .

والسبب – كما نعلم – أن حدوث الحادث مِن آمرٍ به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل .

وسبق أن ضربتُ مثلاً بمَنْ يشرب الشاي ؛ فينفخ فيه ليُبرده قليلاً ؛ ونفس هذا الإنسان حين يخرج في صباح شتوى فهو ينفخ في يديه لِيُدفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً ؛ وينفخ أخرى مُستدعياً الدفء .

والمسألة ليستْ في أمر النفخ ؛ ولكن في استقبال الشاي للهواء الخارج من فَمِك ، الشاي أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد في الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم ؛ فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا تجد أن القرآن واحدٌ ؛ لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه .

وسبحانه يقول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . ﴾ [ محمد : 16 ] .

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه ؛ ونجد مَن يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يُوصي به الحق سبحانه .

إذن : عرفنا الآن أن اللغة بدأتْ توقيفية وانتهتْ اصطلاحية ؛ فقد أخذنا من الله ما علَّمه لآدم من أسماء ؛ وتغيَّرت الألسن من جماعة إلى أخرى ، وهكذا اختلفتْ ألسنة الرُّسُل حَسْب القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبيِّن للقوم منهجَ الله ؛ فإذا بيَّن هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعضُ الآخر بالكُفْر والضَّلال .

فالذي هداه الله استشرف قلبُه إلى هذا المنهج ؛ وأخرج من قلبه أيّ عقيدة أخرى ، وبحثَ فيما جاء به الرسول ، وملأ قلبه بالمنهج الذي ارتاح له فهماً وطمأنينة .

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويُصرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمحيص والدراسة والاستشراف . وكان عليه أنْ يُخرِج القضية المُضِلة من قلبه ، وأن يبحث ويقارن ويستشف ويُحسِن التدبر ؛ ثم يُدخل إلى قلبه القضية الأكثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد " ما دام قد أضلنا الله فلم يعذبنا ؟ " ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة

لقابلية الإيمان موجودة، ولكنه لم يَسْتدعها إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ . . . ﴾ [ محمد : 17 ] .

ويقول : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [ البقرة : 26 ] .

أي : أن الفسق قد صدر منهم، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلاً .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :



---

﴿ فَيُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [ إبراهيم : 4 ] .

فمَنْ يُقبل على الضلال يزيده الله ضلالاً؛ فلن يزيد إيمانه مُلْكَ الله شيئاً، ومَنْ يؤمن فهو يضمن لنفسه سلامة الحياة وما بعد الموت؛ وهو في الحياة عنصر خَيْرٍ؛ وهو من بعد الموت يجد الحياة مع نِعَم المُنعِم سبحانه العزيز الذي لا يُغلب؛ والحكيم الذي قَدَّر لكلِّ أمر ما يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ يستحبون ﴾ قال : يختارون .

وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : إن الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قيل : ما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله قال لأهل السماء ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ [ الأنبياء : 29 ] وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [ الفتح : 2 ] فكتب له براءة من النار ، قيل له : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله تعالى يقول ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ وقال

لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ [ سبأ : 28 ] فأرسله إلى الانس والجن .

وأخرج أحمد عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لم يبعث الله نبياً إلا بلغة قومه " .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كان جبريل عليه السلام يوحى إليه بالعربية ، وينزل هو إلى كل نبي بلسان قومه .

*(112/416)*

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ قال : بلغة قومه ، إن كان عربياً فعربياً ، وإن كان عجمياً فعجمياً ، وإن كان سريانياً فسريانياً ، ليبين لهم الذي أرسل الله إليهم ، ليتخذ بذلك الحجة عليهم .

وأخرج الخطيب في تالي التلخيص ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ قال : أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بلسان قومه عربي .

وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ﴿ إلا بلسان قومه ﴾ قال :

نزل القرآن بلسان قريش .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد – رضي الله عنه – قال : نزل القرآن بلسان قريش .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن سفيان الثوري – رضي الله عنه – قال : لم ينزل وحي إلا بالعربية ، ثم يترجم كل نبي لقومه بلسانهم . قال : ولسان يوم القيامة السريانية ، ومن دخل الجنة تكلم بالعربية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عمر – رضي الله عنه – قال : لا تأكلوا ذبيحة المجوس ولا ذبيحة نصارى العرب ، أترونهم أهل الكتاب ؟ فإنهم ليسوا بأهل كتاب . قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ وإنما أرسل عيسى عليه السلام بلسان قومه ، وأرسل محمد صلى الله عليه وسلم بلسان قومه عربي ، فلا لسان عيسى عليه السلام أخذوا ، ولا ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم اتبعوا ، فلا تأكلوا ذبائحهم ، فإنهم ليسوا بأهل كتاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾



---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ : يجوز أن يكونَ حالاً ، أي : إلاَّ متكلّماً بلغةِ قومِهِ .

وقرا العامَّةُ " بلسان " بزِنَةِ "كِتاب " ، أي : بلغةِ قومِه . وأبو الجوزاء وأبو السَّمَّال وأبو عمران الجوني : بِلِسْنِ " بكسر اللام وسكون السين . وفيه قولان ، أحدُهما : أنهما بمعنى واحدٍ كالرِّيش والرِّياش . والثاني : أن اللسانَ يُطْلَقُ على العضوِ المعروف وعلى اللغةِ ، وأمَّا اللِّسْنُ فخاصٌّ باللغة ، ذكره ابن عطية وصاحب " اللوامح " .

وأبو رجاء وأبو المتوكل والجحدريُّ " بِلُسُن " بضمِّ اللام والسين وهو جمع "لِسان " ككِتاب وكُتُب . وقرئ بسكونِ السين فقط ، وهو تخفيفٌ للقراءةِ قبلَه ، نحو : رُسْل في رُسُل ، وكُتْب في كُتُب .

والهاءُ في " قومه " الظاهرُ عَوْدُها على " رسول " المذكور . وعن الضحاك : أنها تعودُ لمحمد صلَّى الله عليه وسلم ، وغَلَّطوه في ذلك ؛ إذ يصير المعنى : أنَّ التوراةَ وغيرَها أُنْزِلَتْ بلسانِ العربِ ، لِيُبَيِّن لهم النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم التوراة .

قوله : ﴿ فَيُضِلُّ ﴾ استئنافُ إخبار ، ولا يجوز نصبُه عطفاً على ما قبله ، لأنَّ المعطوفَ كالمعطوف عليه في المعنى ، والرسلُ أُرْسِلَتْ للبيانِ لا للإضلالِ . قال الزجاج : لو قُرِئَ

بنصبِه على أنَّ اللامَ لامُ العاقبة جاز " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 69 . 70﴾

(114/416)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4) ﴾

إنما كان كذلك ليكون آكَدَ في إلزام الحجة : وأَنَّى ينفع ذلك إذا لم يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ المحجَّةِ ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السابقة ، وأصحابُ الغوايةِ وقعوا في ذُلِّ العداوة : فلا اعتراضَ عليه فيما يصنع ، ولا يُسأَلُ عما يفعل أو لم يفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 239﴾

(115/416)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر سبحانه الرسل بما ذكره ، توقع السامع تفصيل شيء من أخبارهم ، فابتدأ بذكر من كتابه أجل كتاب بعد القرآن هدى للناس دليلاً على أنه يفعل ما يشاء من الإضلال والهداية ، وتسلية للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وتثبيتاً وتصبيراً على أذى قومه ، وإرشاداً إلى ما فيه الصلاح في مكالمتهم ، فقال مصدراً بحرف التوقع : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي البينات ؛ ثم فسر الإرسال بقوله : ﴿ إن أخرج قومك ﴾ أي الذين فيهم قوة على مغالبة الأمور ﴿ من الظلمات ﴾ أي أنواع الجهل ﴿ إلى النور ﴾ بتلك الآيات ﴿ وذكرهم ﴾ أي تذكيراً عظيماً ﴿ بأيام الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام من وقائعه في الأمم السالفة وغير ذلك من المنح لأوليائه والمحن لأعدائه كما أرسلناك لذلك ﴿ إن في ذلك ﴾ أي التذكير العظيم ﴿ لآيات ﴾ على وحدانية الله وعظمته ﴿ لكل صبار ﴾ أي بليغ الصبر بلاء الله ، قال في العوارف : وقال أبو الحسن بن

سالم : هم ثلاثة : متصبر ، وصابر ، وصبار ، فالمتصبر من صبر في الله ، فمرة يصبر ومرة يجزع ، والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولكن يتوقع منه الشكوى ، وقد يمكن منه الجزع ، فأما الصبار فذلك الذي صبّره الله في الله ولله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخليقة ، وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة .

(116/416)

---

﴿ شكور ﴾ أي عظيم الشكر لنعمائه ، فإن أيامه عند أوليائه لا تخلو من نعمة أو نقمة ، وفي صيغة المبالغة أشارة إلى أن عادته تعالى جرت بأنه إنما ينصر أولياءه بعد طول الامتحان بعظيم البلاء ليتبين الصادق من الكاذب ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ [ البقرة : 214 ] ﴿ حتى إذا استيئس الرسل ﴾ [ يوسف : 110 ] ، ﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا ﴾ [ العنكبوت : 2 ] وذلك أنه لا شيء أشق على النفوس من مفارقة المألوف لا سيما إن كان ديناً ولا سيما إن كان قد درج عليه الأسلاف ، فلا يقوم بالدعاء إلى الدين إلا من بلغ الذروة في الصبر .

ولما ذكر ما أمر به موسى عليه السلام ، وكان قد تقدم أمره في الشريف إليه صلى الله عليه

وعلى آله وسلم بالاقتداء بالأنبياء الذين هو من رؤوسهم وأولي عزمهم ، كان كأنه قيل : فبين أنت للناس ما نزل إليهم وذكرهم بأيام الله اقتداء بأخيك موسى عليه السلام ﴿ و ﴾ اذكر لهم خبره فإن أيامه من أعظم أيام الله : أشدها محنة وأجلها منحة ﴿ إذ قال موسى ﴾ امتثالاً لما أمرناه به ﴿ لقومه ﴾ مذكراً لهم بأيام الله معهم ثم أيامه مع غيرهم. ولما كان المراد بالتذكير بالأيام زيادة الترغيب والترهيب ، أشار إلى أن مقام الترهيب هنا أهم للحث على تركهم الضلال بترك عادته في الترفق بمثل ما في البقرة والمائدة من الاستعطاف بعاطفة الرحم بقوله : ﴿ ياقوم ﴾ فأسقطها هنا إشارة إلى أن المقام يقتضي الإبلاغ في الإيجاز في التذكير للخوف من معاجلتهم بالعذاب فقال : ﴿ اذكروا نعمة الله ﴾ أي ذي الجلال والإكرام ، وعبر بالنعمة عن الإنعام حثاً على الاستدلال بالأثر على المؤثر ﴿ عليكم ﴾ ثم أبدل من " نعمة " قوله : ﴿ إذ ﴾ وهو ظرف النعمة.



---

ولما كانوا قد طال صبرهم جداً بما طال من بلائهم من فرعون على وجه لا يمكن في العادة خلاصهم منه ، وإن أمكن على بعد لم يكن إلا في أزمنة طوال جداً بتعب شديد ، أشار إلى أسراعه بخلاصهم بالنسبة إليه لو جرى على مقتضى العادة جزاء لهم على طول صبرهم ،

فعبر بالإفعال دون التفعيل الذي اقتضاه سياق البقرة فقال : ﴿ أنجاكم من ﴾ بلاء ﴿ آل فرعون ﴾ أي فرعون نفسه وأتباعه وأوليائه ؛ قال في القاموس : ولا يستعمل إلا لما فيه شرف غالباً ، فكأنهم قالوا : من أيّ بلائهم ؟ فقال : ﴿ يسومونكم ﴾ أي يكلفونكم ويولونكم على سبيل الاستهانة والقهر ﴿ سوء العذاب ﴾ بالاستعباد .

ولما كان السياق للصبر البليغ ، اقتضى ذلك العطف في قوله : ﴿ ويذبحون ﴾ أي تذبيحاً كثيراً مميتاً - بما أفاده تعبير الأعراف بالقتل ، ومعرفاً بإعادة التعبير بالذبح أن الموت بالسكين ﴿ أبناءكم ويستحيون ﴾ أي يطلبوا أن يحيوا ﴿ نساءكم ﴾ لإفادة أن ذلك بلاء آخر ﴿ و ﴾ الحال أن ﴿ في ذلكم ﴾ أي الأمر الشديد المشقة من العذاب المتقدم أو الإنجاء أو هما ﴿ بلاء من ربكم ﴾ أي المربي لكم المدبر لأموركم ﴿ عظيم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 170.172 ﴾

(118/416)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بين أنه إنما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم وكيفية معاملة أقوامهم معهم تصبيراً للرسول عليه السلام على أذى قومه وإرشاداً له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الأنبياء عليهم السلام فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ قال الأصم : آيات موسى عليه السلام هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإظلال الجبل وإنزال المن والسلوى .

وقال الجبائي : أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى قومه من بني إسرائيل بآياته وهي دلالاته وكتبه المنزلة عليه ، وأمره أن يبين لهم الدين .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : إنه تعالى قال في صفة محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [ إبراهيم : 1 ] وقال في حق موسى عليه السلام : ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ والمقصود : بيان أن المقصود من البعثة واحد في حق جميع الأنبياء عليهم السلام ، وهو أن يسعوا في إخراج الخلق من

ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

المسألة الثانية:

قال الزجاج: قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أخرج قومك.

ثم قال: ﴿أن﴾ ههنا تصلح أن تكون مفسرة بمعنى أي، ويكون المعنى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أخرج قومك، كأن المعنى قلنا له: أخرج قومك.

(119/416)

---

ومثله قوله: ﴿وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَن امشوا﴾ [ص: 6] أي أمشوا، والتأويل قيل لهم: امشوا، وتصلح أيضاً أن تكون المخففة التي هي للخبر، والمعنى: أرسلناه بأن يخرج قومه إلا أن الجار حذف ووصلت (أن) بلفظ الأمر، ونظيره قولك: كتبت إليه أن قم وأمرته أن قم، ثم إن الزجاج حكى هذين القولين عن سيبويه.

أما قوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله﴾ فاعلم أنه تعالى أمر موسى عليه السلام في هذا المقام بشيئين: أحدهما: أن يخرجهم من ظلمات الكفر، والثاني: أن يذكرهم بأيام الله، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى:

قال الواحدي : أيام جمع يوم ، واليوم هو مقدار المدة من طلوع الشمس إلى غروبها ، وكانت الأيام في الأصل أيوام فاجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون ، فأدغمت إحداهما في الأخرى وغلبت الياء .

المسألة الثانية :

أنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها .

يقال : فلان عالم بأيام العرب ويريد وقائعها وفي المثل " من ير يوماً ير له " معناه : من رؤي في يوم مسروراً بمصرع غيره ير في يوم آخر حزيناً بمصرع نفسه وقال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ﴾ [ آل عمران : 140 ] .

إذا عرفت هذا ، فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الأيام ، والترهيب والوعيد : أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام ، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب .

واعلم أن أيام الله في حق موسى عليه السلام منها ما كان أيام المحنة والبلاء وهي الأيام التي كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى وانفلاق البحر وتظليل الغمام .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ والمعنى أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صباراً شكوراً ، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فإن كان الأول ، كان المؤمن صباراً ، وإن كان الثاني كان شكوراً .

وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولاً بالشكر ، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولاً بالصبر .

فإن قيل : إن ذلك التذكيرات آيات للكل فلماذا خص الصبار الشكور بها ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم لما كانوا هم المنتفعون بتلك الآيات صارت كأنها ليست آيات إلا لهم كما في قوله : ﴿ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ البقرة : 2 ] وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [ النازعات : 45 ] .

والثاني : لا يبعد أن يقال : الانتفاع بهذا النوع من التذكير لا يمكن حصوله إلا لمن كان صابراً أو شاكراً ، أما الذي لا يكون كذلك لم ينتفع بهذه الآيات .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهم بأيام الله تعالى ، حكى عن

موسى عليه السلام أنه ذكرهم بها فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ فقوله : ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾ ظرف للنعمة بمعنى الأنعام ، أي اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت .

بقي في الآية سؤالات :

السؤال الأول : ذكر في سورة البقرة : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ [ البقرة : 49 ] وفي سورة الأعراف : ﴿ يُقَتّلونَ ﴾ [ الأعراف : 141 ] وهها ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ مع الواو فما الفرق ؟

والجواب : قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ بغير واو لأنه تفسير لقوله : ﴿ سُوءَ العذاب ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو تقول : أتاني القوم زيد وعمرو .

(121/416)

---

لأنك أردت أن تفسر القوم بهما ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً * يضاعف لَهُ العذاب ﴾

[ الفرقان : 68 ، 69 ] فالآثام لما صار مفسراً بمضاعفة العذاب لا جرم حذف عنه الواو ، أما في هذه السورة فقد أدخل الواو فيه ، لأن المعنى أنهم يعذبونهم بغير التذبيح وبالتذبيح أيضاً فقوله : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ نوع آخر من العذاب لا أنه تفسير لما قبله .

السؤال الثاني : كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم ؟

والجواب من وجهين : أحدهما : أن تمكين الله إياهم حتى فعلوا ما فعلوا كان بلاء من الله .

والثاني : وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء ، وهو بلاء عظيم ، والبلاء هو الابتلاء ، وذلك قد يكون بالنعمة تارة ، وبالمحنة أخرى ، قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : 35 ] وهذا الوجه أولى لأنه يوافق صدر الآية وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ .

السؤال الثالث : هب أن تذبيح الأبناء كان بلاء ، أما استحياء النساء كيف يكون بلاء .

الجواب : كانوا يستخدمونهن بالاستحياء في الخلاص منه نعمة ، وأيضاً إبقاؤهن منفردات عن الرجال فيه أعظم المضار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 66. 67 ﴾

(122/416)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَك مِنْ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : مَعْنَى ذَكِّرْهُمْ قُلْ لَهُمْ قَوْلًا يَتَذَكَّرُونَ بِهِ أَيَّامَ اللَّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي أَيَّامِ اللَّهِ قَوْلَانِ " : أَحَدُهُمَا : نِعَمُهُ .

الثَّانِي : نِقَمُهُ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

وَكَذَلِكَ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : بَلَاؤُهُ الْحَسَنُ ، وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ .

وَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِي مِنْ الصُّوفِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ رَجُلٌ إذَا صَفَا لَهُ يَوْمٌ [ وَاحِدٌ ] جَعَلَ جَوْزًا فِي قِدْرٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سُئِلَ عَنْ عُمْرِهِ أَخْرَجَ الْقِدْرَ وَفَضَّ الْخَتْمَ ، وَعَدَّ الْجَوْزَ ، فَيَرَى أَنَّ أَيَّامَهُ بِعَدَدِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْوَعْظِ ، الْمُرَقِّقِ لِلْقُلُوبِ ، الْمُقَوِّي لِلْيَقِينِ ؛ فَقَدْ رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ بَيْنَمَا مُوسَى فِي قَوْمِهِ يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، وَأَيَّامُ اللَّهِ نَعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ ﴾ ، وَذَكَرَ حَدِيثَ الْخَضِرِ .

وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَا فِيهِ الْغَايَةَ فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ سَنَدًا وَمَتْنًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾

أي بحُججنا وبراهيننا وقال مجاهد هي التسع الآيات :

﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الضلالة إلى الهدى . الثاني : من ذل الاستعباد إلى عز المملكة . ﴿ وذكِّرهم بأيام الله ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه وعظهم بما سلف من الأيام الماضية لهم ، قاله ابن جرير .

الثاني : بالأيام التي انتقم الله فيها من القرون الأولى ، قاله الربيع وابن زيد .

الثالث : أن معنى أيام الله أن نعم الله عليهم ، قاله مجاهد وقتادة ، وقد رواه أبيّ بن كعب مرفوعاً . وقد تسمَّى النعم بالأيام ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غُرّ طِوالٍ . . . عصينا الملْك فيها أن نَدِينا

ويحتمل تأويلاً رابعاً : أن يريد الأيام التي كانوا فيها عبيداً مستذلين لأنه أنذرهم قبل استعمال النعم عليهم .

﴿ إنَّ في ذلك لآيات لكُلِّ صبَّارٍ شكورٍ ﴾ الصبار : الكثير الصبر ، والشكور : الكثير الشكر ، قال قتادة : هو العبد إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر . وقال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف ، وقرأ ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

وتوارى الحسن عن الحجاج تسع سنين ، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمته فأمت سنته

وسجد شكراً وقرأ ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

وإنما خص بالآيات كل صبار شكور ، وإن كان فيه آيات لجميع الناس لأنه يعتبر بها ويغفل

عنها .

قوله عز وجل : ﴿ . . . وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : نعمة من ربكم ، قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : شدة البلية ، ذكره ابن عيسى .

الثالث : اختبار وامتحان ، قاله ابن كامل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ

﴾

(124/416)

---

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى ﴾ الآية ،

آيات الله هي العصا واليد وسائر التسع . وقوله : ﴿ أن أخرج ﴾ تقديره : بأن أخرج ،

ويجوز أن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب ، وأما ﴿ الظلمات ﴾ و ﴿ النور ﴾ فيحتمل أن يراد بها من الكفر إلى الإيمان . وهذا على ظاهر أمر بني إسرائيل في أنهم كانوا قبل بعث موسى أشياعاً متفرقين في الدين . قوم مع القبط في عبادة فرعون ، وكلهم على غير شيء ، وهذا مذهب الطبري - وحكاه عن ابن عباس - وإن صح أنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل ونحو هذا ف ﴿ الظلمات ﴾ الذل والعبودية ، و ﴿ النور ﴾ العزة والدين والظهور بأمر الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد : وظاهر هذه الآية وأكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أنها إنما كانت إلى بني إسرائيل خاصة ، في معنى الشرع لهم وأمرهم ونهيهم بفروع الديانة ، وإلى فرعون وأشراف قومه في أن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقروا بالله ويؤمنوا به تعالى وبموسى ومعجزته ويتحققوا نبوته ويرسلوا معه بني إسرائيل .

قال القاضي أبو محمد : ولا يترتب هذا إلا بإيمان به . وأما أن تكون رسالته إليهم لمعنى اتباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة ولا كشف الغيب ذلك ، ألا ترى أن موسى خرج عنهم ببني إسرائيل ؟ فلو لم يتبع لمضى بأمته ، وألا ترة أنه لم يدع القبط بجملتهم وإنما كان يحاور أولي الأمر ؟ وأيضاً فليس دعاؤه لهم على حد دعاء نوح وهود وصالح أممهم في معنى كفرهم ومعاصيهم ، بل في الاهتداء والتزكي وإرسال بني إسرائيل .

ومما يؤيد هذا أنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدود دعوته لبني إسرائيل فلم كان

يطلب بأمر الله أن يرسل معه بني إسرائيل ؟ بل كان يطلب أن يؤمن الجميع ويتشرعوا بشرعه ويستقر الأمر . وأيضاً فلو كان مبعوثاً إلى القبط لرده الله إليهم حين غرق فرعون وجنوده ، ولكن لم يكونوا أمة له فلم يرد إليهم .

(125/416)

---

قال القاضي أبو محمد : واحتج من ذهب إلى أن موسى بعث إلى جميعهم بقوله تعالى في غير آية ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ [ الأعراف : 103 ] ، و ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ [ النمل : 12 ] والله أعلم .

وقوله : ﴿ وذكرهم ﴾ الآية . أمر الله عز وجل موسى أن يعظ قومه بالتهديد بنقم الله التي أحلها بالأمم الكافرة قبلهم وبالتعديد لنعمه عليهم في المواطن المتقدمة ، وعلى غيرهم من أهل طاعته ليكون جريهم على منهاج الذين أنعم عليهم وهربهم من طريق الذين حلت بهم النقمات ، وعبر عن النعم والنقم ب " الأيام " إذ هي في أيام ، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المذكور بها ، ومن هذا المعنى قولهم : يوم عصيب ، ويوم عبوس ، ويوم بسام ، وإنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من شدة أو سرور . وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت : ﴿ أيام الله ﴾ : نعمه : وعن فرقة أنها قالت : ﴿ أيام الله ﴾ : نقمه .

قال القاضي أبو محمد : ولفظة " الأيام " تعم المعنيين ، لأن التذكير يقع بالوجهين جميعاً .

وقوله : ﴿ لكل صبار شكور ﴾ إنما أراد لكل مؤمن ناظر لنفسه ، فأخذ من صفات المؤمن صفتين تجمع أكثر الخصال وتعم أجمل الأفعال .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

هذا من التذكير بأيام الله في النعم ، وكان يوم الإنجاء عظيماً لعظم الكائن فيه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية وقصصها بما يغني عن إعادته ، غير أن في هذه الآية زيادة الواو في قوله : ﴿ ويذبحون ﴾ وفي البقرة : ﴿ يذبحون ﴾ [ البقرة : 49 ] - بغير واو عطف . فهناك فسر سوء العذاب بأنه التذبيح والاستحياء ، وهنا دل بسوء العذاب على أنواع غير التذبيح والاستحياء ، وعطف التذبيح والاستحياء عليها .

وقرأ ابن محيصن : " وَيَذْبَحون " بفتح الياء والباء مخففة .

(126/416)

---

و ﴿ بلاء ﴾ في هذه الآية يحتمل أن يريد به المحنة ، ويحتمل أن يريد به الاختبار ، والمعنى متقارب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أن أَخرج قومك ﴾

قال الزجاج : "أن" مفسِّر ، والمعنى : قلنا له : أَخرج قومك .

وقد سبق بيان الظلمات والنور [ البقرة : 257 ] .

وفي قوله : ﴿ وذكِّرهم بأيام الله ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نِعَمُ الله ، رواه أُبيُّ بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنها وقائع الله في الأمم قبلهم ، قاله ابن زيد ، وابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : أنها أيام نِعَم الله عليهم وأيام نِقَمِه ممن كَفَر من قوم نوح وعاد وثمود ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ إِن في ذلك ﴾ يعني : التذكير ﴿ لآيات لكل صبَّار ﴾ على طاعة الله وعن معصيته ﴿ شَكور ﴾ لأنعُمه .

والصبَّار : الكثير الصبر ، والشّكور : الكثير الشُّكر ، وإِنما خصه بالآيات ، لانتفاعه بها .

وما بعد هذا مشروح في سورة [ البقرة : 49 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(128/416)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ ﴾

أي بحجتنا وبراهيننا ؛ أي بالمعجزات الدالة على صدقه .

قال مجاهد : هي التسع الآيات .

﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : ﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ .

وقيل : "أَنْ" هنا بمعنى أي ، كقوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا ﴾ [ ص : 6 ] أي امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ أي قل لهم قولاً يتذكرون به أيام الله تعالى .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبيّ بن كعب ورواه مرفوعاً ؛ أي بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التيه إلى سائر النعم ، وقد تسمى النعم الأيام ؛

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ . . .

وعن ابن عباس أيضاً ومقاتل : بوقائع الله في الأمم السالفة ؛ يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أي بوقائعها .

قال ابن زيد : يعني الأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه .

وقال الطبريّ : وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم ؛ أي بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ؛ وقد كانوا عبيداً مستذلين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم .

وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بينا موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيامُ الله بَلاؤه ونِعماؤه " وذكر حديث الخضر ؛ ودلّ هذا على جواز الوعظ المرقّق للقلوب ، المقوِّي لليقين ، الخالي من كل بدعة ، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة .

﴿ إِنَّ فِي ذلك ﴾ أي في التذكير بأيام الله ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي دلالات .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي كثير الصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه .

﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعم الله .

وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أُعطِي شكر ، وإذا ابتلي صَبر .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " ثم تلا هذه الآية ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

ونحوه عن الشعبيّ موقوفاً .

وتَوارَى الحسن البصريّ عن الحجّاج سبعَ سنين ، فلما بلغه موته قال : اللهم قد أمتّه فأمِت سُنَّته ، وسجد شكراً ، وقرأ : "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ" .

وإنما خص بالآيات كل صبار شكور ؛ لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها ؛ كما قال : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ وإن كان منذِراً للجميع .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ﴾

تقدم في "البقرة" مستوفى والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾

المراد بالآيات المعجزات التي جاء بها موسى ، مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة ﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ أي أن أخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر الى نور الإيمان ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة : يعني بنعم الله .

وقال مقاتل : بوقائع الله في الأمم السالفة .

يقال : فلان عالم بأيام العرب أي بوقائعهم بما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والنقمة ، فأخبر بذكر الأيام عن ذلك لأن ذلك كان معلوماً عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد .

والترغيب والوعد أن يذكرهم بما أنعم الله عليهم به من النعمة ، وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الأيام ، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله ، وشدة انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله ، وقيل : بأيام الله في حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت أيدي القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك ، وجعلهم مولكاً بعد أن كانوا مملوكين ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ الصبّار : الكثير الصبر ، والشكور : الكثير الشكر ، وإنما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات

وإن كان فيها عبرة للكافة لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات ، فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله ﴿ وهدى للمتقين ﴾ ولأن الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابراً شاكراً أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ لما أمر الله موسى أن يذكر قومه بأيام الله امتثل ذلك الأمر ، وذكرهم بأيام الله فال ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ ﴿ إذ أنجاكم من آل فرعون ﴾ أي اذركوا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت الذي أنجاكم فيه من آل فرعون ﴿ يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ﴾ .

(131/416)

---

فإن قلت قال في سورة البقرة : يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق ؟ قلت : إنما حذفت الواو في سورة البقرة لأن قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب ، وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءني القوم زيد وعمرو إذا أردت تفسير القوم وأما دخول الواو هنا في هذه السورة فلأن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضاً فقوله : ويذبحون نوع آخر من العذاب لأنه تفسير العذاب ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ يعني يتركونهن أحياء ﴿ وفي ذلك بلاء من ربكم

عظيم ﴾ .

فإن قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم ؟ قلت : تمكينهم وإمهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله ؛ ووجه آخر وهون أذن لكم إشارة إلى الانجاء ، وهو بلاء عظيم لأن البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ومنه قوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ وهذا الوجه أولى لأنه موافق لأول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم .

فإن قلت : هب أن تذبيح الأبناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء .

قلت : كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالإماء فكان ذلك بلاء . انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(132/416)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى ﴾

والجمهور على تفسير قوله : بآياتنا ، إنها تسع الآيات التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام .

وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة ، والتقدير : كما أرسلناك يا محمد بالقرآن بلسان عربي

وهو آياتنا ، كذلك أرسلنا موسى بالتوارة بلسان قومه ، وأن أخرج يحتمل أن أن تكون تفسيرية ، وأن تكون مصدرية ، ويضعف زعم من زعم أنها زائدة .

وفي قوله : قومك خصوص لرسالته إلى قومه ، بخلاف لتخرج الناس ، والظاهر أنّ قومه هم بنو إسرائيل .

وقيل : القبط .

فإن كانوا القبط فالظلمات هنا الكفر ، والنور الإيمان ، وإن كانوا بني إسرائيل وقلنا : إنهم كلهم كانوا مؤمنين ، فالظلمات ذل العبودية ، والنور العزة بالدين وظهور أمر الله .

وإن كانوا أشياعاً متفرقين في الدين ، قوم مع القبط في عبادة فرعون ، وقوم على غير شيء ، فالظلمات الكفر والنور الإيمان .

قيل : وكان موسى مبعوثاً إلى القبط وبني إسرائيل .

وقيل : إلى القبط بالاعتراف بوحدانية الله ، وأن لا يشرك به ، والإيمان بموسى ، وأنه نبي من عند الله ، وإلى بني إسرائيل بالتكليف وبفروع شريعته إذ كانوا مؤمنين .

ويحتمل وذكرهم أن يكون أمراً مستأنفاً ، وأن يكون معطوفاً على أن أخرج ، فيكون في حيزان .

وأيام الله قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : نعم الله عليهم ، ورواه أبي مرفوعاً .

ومنه قول الشاعر :

وأيام لنا غرّ طوال . . .

عصينا الملك فيها إن ندينا

وعن ابن عباس أيضاً ، ومقاتل ، وابن زيد : وقائعه ونقماته في الأمم الماضية ، ويقال : فلان عالم بأيام العرب أي وقائعها وحروبها وملاحمها : كيوم ذي قار ، ويوم الفجار ، ويوم فضة وغيرها .

وروي نحوه عن مالك قال : بلاؤه .

وقال الشاعر :

وأيامنا مشهورة في عدونا . . .

أي وقائعنا .

وعن ابن عباس أيضاً : نعماؤه وبلاؤه ، واختاره الطبري ، فنعماؤه : بتظليله عليهم الغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وفلق البحر .



---

وبلاؤه : باستعباد فرعون لهم ، وتذبيح أبنائهم ، وإهلاك القرون قبلهم .

وفي حديث أبيّ في قصة موسى والخضر عليهما السلام ، بينما موسى عليه السلام في قومه

يذكرهم بأيام الله ، وأيام الله بلاؤه ونعماؤه ، واختار الطبري هذا القول الآخر .

ولفظة الأيام تعم المعنيين ، لأنّ التذكير يقع بالوجهين جميعاً .

وفي هذه اللفظة تعظيم الكوائن المذكر بها .

وعبر عنها بالظرف الذي وقعت فيه .

وكثيراً ما يقع الإسناد إلى الظرف ، وفي الحقيقة الإسناد لغيرها كقوله : بل مكر الليل والنهار ، ومن ذلك قولهم : يوم عبوس ، ويوم عصيب ، ويوم بسام .

والحقيقة وصف ما وقع فيه من شدّة أو سرور .

والإشارة بقوله : إن في ذلك ، إلى التذكير بأيام الله .

وصبار ، شكور ، صفتا مبالغة ، وهما مشعرتان بأنّ أيام الله المراد بهما بلاؤه ونعماؤه أي : صبار على بلائه ، شكور لنعمائه .

فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو بما أفاض عليهم من النعم ، تنبه على ما يجب عليه من الصبر إذا أصابه بلاء ، من والشكر إذا أصابته نعماء ، وخص الصبار والشكور لأنهما هما اللذان ينتفعان بالتذكير والتنبيه ويتعظان به .

وقيل : أراد لكل مؤمن ناظر لنفسه ، لأنّ الصبر والشكر من سجايا أهل الإيمان .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

لما تقدم أمره تعالى لموسى بالتذكير بأيام الله ، ذكرهم بما أنعم تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون ، وفي ضمنها تعداد شيء مما جرى عليهم من نقمات الله .

وتقدم إعراب إذ في نحو هذا التركيب في قوله : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ﴾ وتفسير نظير هذه الآية ، إلا أنَّ هنا : ويذبحون بالواو ، وفي البقرة بغير واو ، وفي الأعراف ﴿ يقتلون ﴾ فحيث لم يؤت بالواو وجعل الفعل تفسيراً لقوله : يسومونكم . وحيث أتى بها دلّ على المغايرة .



---

وأنّ سوم سوء العذاب كان بالتذبيح وبغيره ، وحيث جاء يقتلون جاء باللفظ المطلق المحتمل للتذبيح ، ولغيره من أنواع القتل .

وقرأ ابن محيصن : ويذبحون مضارع ذبح ثلاثياً ، وقرأ زيد بن علي كذلك ، إلا أنه حذف الواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾



---

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى ﴾

شروعٌ في تفصيل ما أجمل في قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ الآية ﴿ بآياتنا ﴾ أي ملتبساً بها وهي معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ بمعنى أي أخرِجْ لأن الإرسالَ فيه معنى القول أو بأن أخرِجْ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ فإن صيغ الأفعال في الدلالة على المصدر سواءٌ ، وهو المدارُ في صحة الوصل والمرادُ بذلك إخراجُ بني إسرائيلَ بعد مهلِك فرعون ﴿ مِنَ الظلمات ﴾ من الكفر والجهالاتِ التي أدتهم إلى أن يقولوا : يا موسى اجعل لن إلها كما لهم آلهة ﴿ إِلَى النور ﴾ إلى الإيمان بالله وتوحيده وسائرِ ما أُمروا به ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ أي بنعمائه وبلائِه كما ينبىء عنه قوله : ﴿ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الأمم في الأيام الخالية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآيات ، أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح به قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾ والالتفاتُ من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنِها والإشعارِ بعدم اختصاصِ ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومِه كما تُوهمه الإضافة إلى ضمير المتكلم أي عظْهم بالترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد ، وقيل : أيامُ الله وقائعُه التي وقعت على الأمم قبلهم ، وأيامُ العرب وقائعُها وحروبُها وملاحمها أي

أنذرهم وقائعَه التي دهمت الأممَ الدارجة ، ويردّه ما تصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثالِ من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى عليك .

(136/416)

---

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في التذكير بها أو في مجموع تلك النعماءِ والبلاءِ أو في أيامها ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالةً على وحدانية الله تعالى وقدرتِه وعلمه وحكمته ، فهي على الأول عبارةٌ عن الأيام سواءٌ أريد بها أنفسُها أو ما فيها من النعماء والبلاءِ ، ومعنى ظرفية التذكيرِ لها كونُه مناطاً لظهورها ، وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر ، وأما على الثاني وهو كونُه إشارةً إلى مجموع النعماءِ فعن كل واحدةَ من تلك النعماء والمشارُ إليه المجموعُ المشتمل عليها من حيث هو مجموعٌ وكلمةُ في تجريديةٌ مثلُها في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ ﴿ لّكُلّ صَبَّارٍ ﴾ على بلائه ﴿ شَكُورٍ ﴾ لنعمائه ، وقيل : لكل مؤمنٍ ، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشعار بأن الصبرَ والشكرَ عنوانُ المؤمن أي لكل مَن يليق بكمال الصبرِ والشكر أو الإيمان ويصبر أمرَه إليها ، لا لمن اتصف بها بالفعل لأنه تعليلٌ للأمر بالتذكير المذكور السابقِ على التذكر المؤدّي إلى تلك المرتبة ، فإن من تذكّر ما فاض أو نزل

عليه أو على مَنْ قبله من النعماء والبلاءِ وتنبّه لعاقبة الشكر والصبر أو الإيمان لا يكاد يفارقها ، وتخصيصُ الآيات بهم لأنهم المنتفعون بها لا لأنها خافيةٌ عن غيرهم ، فإن التبيينَ حاصلٌ بالنسبة إلى الكل ، وتقديمُ الصبار على الشكور لتقدم متعلَّقِ الصبر أعني البلأَ على متعلّق الشكر أعني النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر .

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ ﴾

(137/416)

---

شروعٌ في بيان تصدّيه عليه الصلاة والسلام لما أُمر به من التذكير للإخراج المذكورِ ، وإذ منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مر سرُّه غيرَ مرة أي اذكر لهم وقت قولِه عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبلُ وهي إليه أميلُ ، والظرفُ متعلّقٌ بنفس النعمة إن جُعلت مصدراً أو بمحذوف وقع حالاً منها إن جعلت اسماً أي اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم ، وكذلك كلمة إذْ في قوله تعالى : ﴿ إِذَا أنجاكم من آل فرعون ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائِه إياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمةَ الله مستقرةً عليكم

وقت إنجائه إياكم منهم أو بدلُ اشتمال من نعمةَ الله مراداً بها الإنعامُ أو العطية ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يبغونكم مِنْ سامه خَسفاً إذا أولاه ظلماً ، وأصلُ السَّومِ الذهابُ في طلب الشيء ﴿ سُوءَ العذاب ﴾ السوءُ مصدر ساء يسوء والمرادُ به جنسُ العذاب السيّيء أو استعبادهم واستعمالُهم في الأعمال الشاقة والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك مما لا يحصر ، ونصبُه على أنه مفعولٌ ليسومونكم ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد ، وإنما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة أنه سيولد منهم مَنْ يذهب بملكه فاجتهدوا في ذلك فلم يُغن عنهم من قضاء الله شيئاً .

(138/416)

---

﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ أي يُبقونهن في الحياة مع الذل والصَّغار ولذلك عد من جملة البلاء . والجملُ أحوالٌ من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعاً لأن فيها ضميرَ كلٍ منهما ﴿ وَفِى ذلكم ﴾ أي فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿ بَلاء مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي ابتلاء منه لا أن البلاء عينُ تلك الأفعال اللهم إلا أن تجعل ( في ) تجريديةً فنسبتُه إلى الله تعالى إما من حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين ﴿ عظِيمٌ ﴾ لا يطاق ، ويجوز أن يكون

المشارُ إليه الإنجاء من ذلك ، والبلاءُ الابتلاءُ بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرضُ لوصف الربوبية ، وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاءُ أو باعتبار أن بلاَءَ المؤمن تربيةٌ له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(139/416)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى ﴾

شروع في تفصيل ما أجمل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [ إبراهيم : 4 ] الآية ﴿ بآياتنا ﴾ أي ملتبساً بها وهي كما أخرج ابن جرير .

وغيره عن مجاهد .

وعطاء .

وعبيد بن عمير الآيات التسع التي أجراها الله تعالى على يده عليه السلام ، وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ بمعنى أي أخرج فإن تفسيرية لأن في الإرسال معنى القول دون حروفه أو بأن أخرج فهي مصدرية حذف قبلها حرف الجر لأن أرسل يتعدى بالباء ، والجار يطرد حذفه قبل أن وأن ، واتصال المصدرية بالأمر أمر مر تحقيقه .

وزعم بعضهم أن ﴿ إن ﴾ هنا زائدة ولا يخفى ضعفه ، والمراد من قومه عليه السلام كما هو الظاهر بنو إسرائيل ومن إخراجهم إخراجهم بعد مهلك فرعون ﴿ مِنَ الظلمات ﴾ من الكفر والجهالات التي كانوا فيها وأدت بهم إلى أن يقولوا : ﴿ قَالُواْ يا موسى اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [ الأعراف : 138 ] ﴿ إِلَى النور ﴾ إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وسائر ما أمروا به ، وقيل : أخرجهم من ظلمات النقص إلى نور الكماب ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ أي بنعمائه وبلائه كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، واختاره الطبري لأنه الأنسب بالمقام والأوفق بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الكلام ، والعطف على ﴿ أَخْرَجَ ﴾ وجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، والالتفات من التكلم إلى الغيبة بإضافة الأيام إلى الاسم الجليل للإيذان بفخامة شأنها والإشعار على ما قيل بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما يوهمه الإضافة إلى ضمير المتكلم ، وحاصل المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد .

وعن ابن عباس أيضاً .

والربيع .

ومقاتل .

وابن زيد المراد بأيام الله وقائعه سبحانه ونقماته في الأمم الخالية ، ومن ذلك أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار .

ويوم الفجار .

ويوم قضة .

وغيرها ، واستظهره الزمخشري للغلبة العرفية وأن العرب استعملته للوقائع ، وأنشد الطبرسي لذلك قول عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غرر طوال . . .

عصينا الملك فيها إن ندينا

وأنشده الشهاب للمعنى السابق ، وأنشد لهذا قوله :

وأيامنا مشهورة في عدونا . . .

وأخرج النسائي .

وعبد الله بن حمد في "زوائد المسند" .

والبيهقي في شعب الإيمان .

وغيرهم عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر الأيام في الآية بنعم الله تعالى وآلائه ، وروى ذلك ابن المنذر عن ابن عباس .

ومجاهد ، وجعل أبو حيان من ذلك بيت عمرو ، واوظهر فيه ما ذكره الطبرسي .

وأنت تعلم أنه إن صح الحديث فعليه الفتوى ، لكن ذكر شيخ الإسلام في ترجيح التفسير المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أولاً على ما روي ثانياً بأنه يرد الثاني ما تصدى له عليه السلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما يتلى بعد ، وهو يبعد صحة الحديث ، والقول بأن النقم بالنسبة إلى قوم نعم بالنسبة إلى آخرين كما قيل :

مصائب قوم عند قوم فوائد . . .

مما لا ينبغي أن يلتفت إليه عاقل في هذا المقام .

نعم إن قوله تعالى : ﴿ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [ إبراهيم : 6 ] ظاهر في تفسير الأيام بالنعم وما يستدعي غير ذلك ستسمع فيه أقوالاً لا يستدعيه على بعضها .

وزعم بعضهم أن المراد من قومه عليه السلام القبط ﴿ وَرَسُولِهِ والنور ﴾ الكفر والإيمان لا غير ، وقيل : قومه عليه السلام القبط .

وبنو إسرائيل وكان عليه السلام مبعوثاً إليهم جميعاً إلا أنه بعث إلى القبط بالاعتراف بوحدانية الله تعالى وأن لا يشركوا به سبحانه شيئاً ، وإلى بني إسرائيل بذلك وبالتكليف بفروع الشريعة .

وقيل : هم بنو إسرائيل فقط إلا أن المراد من ﴿ الظلمات والنور ﴾ إن كانوا كلهم مؤمنين ظلمات ذل العبودية ونور عزة الدين وظهور أمر الله تعالى ، ونحن نقول : نسأل الله تعالى أن يخرجنا وأهل هذه الأقوال من ظلمات الجهل إلى نور العلم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي ذي التذكير بأيام الله تعالى أو في الأيام ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ، وهي على الأول الأيام ، ومعنى كون التذكير ظرفاً لها كونه مناطاً لظهورها ، وعلى الثاني كذلك أيضاً إلا أن كلمة ﴿ فِى ﴾ تجريدية أو هي عليه كل واحدة من النعماء والبلاء ، والمشار إليه المجموع المشتمل عليها من حيث هو مجموع ، وجوز أن يراد بالأيام فيما سبق أنفسها المنطوية على النعم والنقم ، فإذا كانت الإشارة إليها وحملت الآيات على النعماء والبلاء فأمر الظرفية ظاهر ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ كثير الصبر على بلائه تعالى ﴿ شَكُورٍ ﴾ كثير الشكر لنعمائه عز وجل .

وقيل : المراد لكل مؤمن ، فعلى الأول الوصفان عبارتان لمعنيين ، وعلى هذا عبارة عن معنى واحد على طريق الكناية كحي مستوي القامة بادي البشرة في الكناية عن الإنسان ، والتعبير عن المؤمن بذلك للإشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن الدال على ما في باطنه .

والمراد على ما قيل لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الإيمان ويصير أمره إلى ذلك لا لمن اتصف به بالفعل لأن الكلام تعليل للأمر بالتذكير المذكور السابق على التذكير المؤدي إلى تلك المرتبة ، فإن من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على ما قبله من النعمة والنقمة وتنبه لعاقبة الصبر والشكر أو الإيمان لا يكاد يفارق ذلك وتخصيص الآيات بالصبار الشكور لأنه المنتفع بها لا لأنها خافية عن غيره فإن التبيين حاصل بالنسبة إلى الكل ، وتقديم الصبر على الشكر لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، وقيل : لأنه من قبيل التروك يقال : صبرت الدابة إذا حبستها بلا علف والشكر ليس كذلك فإنه كما قال الراغب تصور النعمة وإظهارها ، قيل : وهو مقلوب الكشر أي الكشف ، وقيل : أصله من عين شكرى أي ممتلئة فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ، وهو على ثلاثة أضرب :

شكر القلب .

وشكر اللسان .

وشكر الجوارح ، وذكر أن توفية شكر الله تعالى صعبة ، ولذلك لم يثن سبحانه بالشكر على أحد من أوليائه إلا على اثنين نوح وإبراهيم عليهما السلام ، وقد يكون انقسام الشكر

على النعمة وعدم انقسام الصبر على النقمة وجهاً للتقديم والتأخير ، وقيل : ذلك لتقدم متعلق الصبر أعني البلاء على متعلق الشكر أعني النعماء .

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾

(143/416)

---

شروع في بيان تصديه عليه السلام لما أمر به من التذكير للإخراج المذكور ﴿ وَإِذْ ﴾ منصوب على المفعولية عند كثير بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر غيره مرة أي اذكر لهم وقت قوله عليه السلام ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ الذين أمرناه بإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿ اذكروا نِعْمَةَ الله ﴾ تعالى الجليلة ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وبدأ عليه السلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبل وهي إليه أميل ، وقيل : بدأ بهذا الأمر لما بينه وبين آخر الكلام السابق من مزيد الربط ، ولا يخفى أن هذا إنما هو على تقدير أن يكون عليه السلام مأموراً بالترغيب والترهيب ، أما إذا كان مأموراً بالترغيب فقط فلا سؤال ، والظرف متعلق بنفس النعمة إن جعلت مصدراً بمعنى الإنعام أو بمحذوف وقع حالاً منها إن جعلت اسماً أي اذكروا إنعامه عليكم أو نعمته كائنة عليكم ، و﴿ إِذْ ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ إِذْ نجيناكم مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ

﴾ يجوز أن يتعلق بالنعمة أيضاً على تقدير جعلها مصدراً أي اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائكم ، ويجوز أن يتعلق بكلمة ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ إذا كانت حالاً لا ظرفاً لغواً للنعمة لأن الظرف المستقر لنيابته عن عامله يجوز أن يعمل عمله أو هو على هذا معمول لمتعلقه كأنه قيل : اذكروا نعمة الله تعالى مستقرة عليكم وقت إنجائكم ، ويجوز أن يكون بدل اشتمال من نعمة الله مراداً بها الإنعام أو العطية المنعم بها ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يبغونكم من سامه خسفاً إذا أولاه ظلماً ، وأصل السوم كما قال الراغب الذهاب في طلب الشيء فهو لفظ لمعنى مركب من الذهاب والطلب فأجرى مجرى الذهاب في قولهم : سامت الإبل فهي سائمة ، ومجرى الطلب في قولهم : سمته كذا ﴿ سُوءَ العذاب ﴾ مفعول ثاني ليسومونكم والسوء مصدر ساء يسوء ، والمراد جنس العذاب السيء أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك .



---

وفي "أنوار التنزيل" أن المراد بالعذاب ههنا غير المراد به في سورة البقرة والأعراف لأنه مفسر بالتذبيح والتقتيل ثم ومعطوف عليه التذبيح المفاد بقوله تعالى : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ ههنا ، وفيه إشارة إلى وجه العطف وتركه مع أن القصة واحدة ، وحاصل ذلك أنه حيث

طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال وحيث عطف لم يقصد ذلك ، والعذاب إن كان المراد به الجنس فالتذبيح لكونه أشد أنواعه عطف عليه عطف جبريل على الملائكة عليهم السلام تنبيهاً على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس ، وإن كان المراد به غيره كالاستعباد فهما متغايران والمحل محل العطف ، وقد جوز أهل المعاني أن يكونا بمعنى في الجميع وذكر الثاني للتفسير ، وترك العطف في السورتين ظاهر والعطف هنا لعد التفسير لكونه أوفى بالمراد وأظهر منزلة المغاير وهو وجه حسن أيضاً ، وسبب هذا التذبيح أن فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة .

أنه سيولد لبني إسرائيل من يذهب بملكه فاجتهدوا في ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله تعالى شيئاً .

وقرأ ابن محيصن ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ مضارع ذبح ثلاثياً .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما كذلك إلا أنه حذف الواو ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ أي يبقونهن في الحياة مع الذل ، ولذلك عد من جملة البلاء أو لأن إبقاءهن دون البنين رزية في نفسه كما قيل :

ومن أعظم الرزي فيما أرى . . .

بقاء البنات وموت البنينا

والجمل أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل

منهما ، ولا اختلاف في العامل لأنه وإن كان في آل فرعون من في الظاهر لكنه لفظ ﴿ أَنجَاكُمْ ﴾ في الحقيقة ، والاقتصار على الاحتمالين الأولين هنا وتجويز الثلاثة في سورة البقرة كما فعل البيضاوي بيض الله تعالى غرة أحواله لا يظهر وجهه .

(145/416)

---

﴿ وَفِى ذلكم ﴾ أي فيما ذكرنا من الأفعال الفظيعة ﴿ بَلاء مّن رَّبّكُمْ ﴾ أي ابتلاء منه تعالى لأن البلاء عين تلك الأفعال اللهم إلا أن تجعل ﴿ فِى ﴾ تجريدية فنسبته إلى الله تعالى إما من حيث الخلق وهو الظاهر أو الإقدار والتمكين ، ويجوز أن يكون المشار إليه الإنجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة فإنه يكون بها كما يكون بالمحنة قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : 35 ] وقال زهير :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم . . .

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وهو الأنسب بصدر الآية ، ويلوح إليه التعرض لوصف الربوبية ، وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له ونفع في الحقيقة ﴿ عظِيمٌ

﴿ لا يطلق حمله أو عظيم الشأن جليل القدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(146/416)

---

وقال القاسمى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أي : أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم ، كقوم نوح ولوط . ومنه : أيام العرب ؛ لحروبها وملاحمها ؛ لأنها تعظم بها الأيام . وقيل : أيامه : نعماؤه عليهم . فتكون الآية بعدها تفصيلاً لها . وقيل : هي أعم من النعماء والبلاء . والوجه الأول أولى فيما أراه ؛ لاختصاص كل آية بمقام ، والتأسيس خير من التأكيد . وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، بالإضافة إلى الاسم الجليل ، إيذان بفخامة شأنها . قال أبو بكر ابن العربي : هذه الآية في الوعظ المرقق للقلوب .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي : في التذكير بها : ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي : يصبر على بلائه ويشكر نعماءه . فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل : أراد ( لكل مؤمن ) لأن الشكر

والصبر عنوان المؤمن . وتقديم ( الصبار ) على ( الشكور ) لتقدم متعلق الصبر – أعني الإيمان على متعلق الشكر – أعني النعماء – وكون الشكر عاقبة الصبر .



---

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي : يبغونكم إياه : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أي : المولودين صغاراً : ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي : يبقونهن في الحياة : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الإشارة إلى فعل آل فرعون . . ونسبته إليه تعالى للخلق أو الإقدار والتمكين . قيل : كون قتل الأبناء ، ابتلاء ظاهر . وأما استحياء النساء ، وهن البنات أي : استبقاؤهن ، فلأنهم كانوا يستخدمونهن ويفرقون بينهن وبين الأزواج ، أو لأن بقاءهن دون البنين رزية في نفسه كما قيل :

~ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا

ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء من ذلك . و ( البلاء ) : الابتلاء بالنعمة ، وهو بلاء عظيم .

قال الزمخشري : البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ

وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : من الآية 35 ] ، وقال زهير :

~فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

ولذا جوز أن تكون الإشارة إلى جميع ما مرَّ ، الشامل للنعمة والنقمة .

لطيفة :

(148/416)

---

أشار أهل المعاني إلى نكتة مجيء : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ هنا بالواو ، وفي سورة البقرة : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ [ البقرة : من الآية 49 ] ، وفي الأعراف : ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ [ الأعراف : من الآية 141 ] ، بدونها . والقصة واحدة – بأنه حيث طرح الواو قصد تفسير العذاب وبيانه – ، فلم يعطف لما بينهما من كمال الاتصال . وحيث عطف – كما هنا – لم يقصد ذلك .

والعذاب ، إن كان المراد منه الجنس ، فالتذبيح ، لكونه أشد أنواعه ، عطف عليه عطف جبريل على الملائكة ، تنبيهاً على أنه لشدته كأنه ليس من ذلك الجنس . وإن كان المراد به غيره ، كاسترقاقهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، فهما متغايران ، والمحل محل العطف .

وجوز أيضاً كون العطف هنا للتفسير وكأن التفسير – لكونه أوفى بالمراد وأظهر – بمنزلة المغاير فلذا عطف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 307.308 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

لما كانت الآيات السابقة مسوقة للرد على من أنكروا أن القرآن منزل من الله أعقب الرد بالتمثيل بالنظير وهو إرسال موسى عليه السلام إلى قومه بمثل ما أرسل به محمد صلى الله عليه وسلم وبمثل الغاية التي أرسل لها محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج قومه من الظلمات إلى النور .

وتأكيد الإخبار عن إرسال موسى عليه السلام بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم منزلة من ينكر رسالة موسى عليه السلام لأن حالهم في التكذيب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم يقتضي ذلك التنزيل ، لأن ما جاز على المِثل يجوز على المماثل ، على أن منهم من قال : ﴿ ما أنزلَ الله على بشر من شيء .

والباء في بآياتنا ﴾ للمصاحبة ، أي إرسالاً مصاحباً للآيات الدالة على صدقه في رسالته ، كما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم مصاحباً لآية القرآن الدال على أنه من عند الله ، فقد تمّ التنظير وانتهض الدليل على المنكرين .

و﴿ أنْ ﴾ تفسيرية ، فسر الإرسال بجملة "أخْرِج قومك" الخ ، والإرسال فيه معنى القول فكان حقيقاً بموقع ﴿ أن ﴾ التفسيرية .

و﴿ الظلمات ﴾ مستعار للشرك والمعاصي ، و ﴿ النور ﴾ مستعار للإيمان الحق والتقوى ، وذلك أن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد في مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام سَرَى إليهم الشرك واتّبعوا دين القبط ، فكانت رسالة موسى عليه السلام لإصلاح اعتقادهم مع دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله الواحد ، وكانت آيلة إلى إخراج بني إسرائيل من الشرك والفساد وإدخالهم في حظيرة الإيمان والصلاح .

والتذكير : إزالة نسيان شيء .

ويستعمل في تعليم مجهول كانَ شأنُه أن يُعلم .

ولما ضمن التذكير معنى الإنذار والوعظ عُدّي بالباء ، أي ذكرهم تذكير عظة بأيام الله .



---

و ﴿ أيام الله ﴾ أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره ، وتأييده المؤمنين على عدوّهم ، فإن ذلك كله مظهر من مظاهر عزّة الله تعالى .

وشاع إطلاق اسم اليوم مضافاً إلى اسم شخص أو قبيلة على يوم انتصر فيه مسمى

المضاف إليه على عدوه ، يقال : أيام تميم ، أي أيام انتصارهم ، ﴿ فأيام الله ﴾ أيام ظهور قدرته وإهلاكه الكافرين به ونصْره أولياءه والمطيعين له .

فالمراد بِ ﴿ أيام الله ﴾ هنا الأيام التي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخر لهم أسباب الفوز والنصر وأغدق عليهم النعم في زمن موسى عليه السلام ، فإن ذلك كله مما أمر موسى عليه السلام بأن يذكرهمُوه ، وكله يصح أن يكون تفسيراً لمضمون الإرسال ، لأن إرسال موسى عليه السلام ممتدّ زمنه ، وكلما أوحى الله إليه بتذكيرٍ في مدة حياته فهو من مضمون الإرسال الذي جاء به فهو مشمول لتفسير الإرسال .

فقول موسى عليه السلام ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ [ سورة المائدة : 20 ، 21 ] هو من التذكير المفسّر به إرسال موسى عليه السلام .

وهو وإن كان واقعاً بعد ابتداء رسالته بأربعين سنة فما هو إلا تذكير صادر في زمن رسالته ، وهو من التذكير بأيام نعم الله العظيمة التي أعطاهم ، وما كانوا يحصلونها لولا نصر الله إياهم ، وعنايتِه بهم ليعلموا أنه رُبّ ضعيفٍ غلب قوياً ونجا بضعفه ما لم ينجُ مثلَه القوي في قوته .

واسم الإشارة في قوله : إن في ذلك لآيات ﴾ عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير ، فالإخراج من الظلمات بعد توغلهم فيها وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها آية من آيات قدرة

الله تعالى .

والتذكير بأيام الله يشتمل على آيات قدرة الله وعزته وتأييد مَن أطاعه ، وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله .

(151/416)

---

وقد أحاط بمعنى هذا الشمول حرف الظرفية من قوله : ﴿ في ذلك ﴾ لأن الظرفية تجمع أشياء مختلفة يحتويها الظرف ، ولذلك كان لحرف الظرفية هنا موقع بليغ .

ولكون الآيات مختلفة ، بعضها آيات موعظة وزجر وبعضها آيات منة وترغيب ، جُعلت متعلقة بـ ﴿ كل صبار شكور ﴾ إذ الصبر مناسب للزجر لأن التخويف يبعث النفس على تحمل معاكسة هواها خيفة الوقوع في سوء العاقبة ، والإنعام يبعث النفس على الشكر ، فكان ذكر الصفتين توزيعاً لما أجمله ذكر أيام الله من أيام بؤس وأيام نعيم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ ﴾

عطف على جملة ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ باعتبار غرض الجملتين ، وهو التنظير بسنن ما جاء به الرسل السابقون من إرشاد الأمم وتذكيرها ، كما أنزل القرآن لذلك .

﴿ وإذ ﴾ ظرف للماضي متعلّق بفعل تقديره : اذكر ، دل عليه السياق الذي هو ذكر

شواهد التاريخ بأحوال الرسل عليهم السلام مع أممهم .

والمعنى : واذْكر قول موسى لقومه الخ .

وهذا مما قاله موسى لقومه بعد أن أنجاهم الله من استعباد القبط وإهانتهم ، فهو من تفاصيل ما فسّر به إرسال موسى عليه السلام وهو من التذكير بأيام الله الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يذكّره قومه .

و﴿ إذ أنجاكم ﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنام ، أي الإنعام الحاصل في وقت إنجائه إياكم من آل فرعون .

وقد تقدم تفسير نظيرها في قوله تعالى : ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون ﴾ في سورة البقرة ( 49 ) ، وكذا في سورة الأعراف يقتلون .

سوى أن هذه الآية عُطفت فيها جملة ويذبحون ﴾ على جملة ﴿ يسومونكم ﴾ وفي آية البقرة والأعراف جعلت جملة ﴿ يذبحون ﴾ وجملة ﴿ يقتلون ﴾ بدون عطف على أنها بدل اشتمال من جملة ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ .

فكان مضمون جملة ﴿ ويذبحون ﴾ هنا مقصوداً بالعدّ كأنه صنف آخر غير سوء العذاب اهتماماً بشأنه ، فعطفه من عطف الخاص على العامّ .

وعلى كلا النظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذكر ، فالقرآنُ حكى مراد كلام موسى عليه السلام من ذكر العذاب الأعم وذكر الأخص للاهتمام به ، وهو حاصل على كلا النظمين .

وإنما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة تفنّناً في إعادة القصة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي ، وهو ذكر سوء العذاب مجملاً ، وذكر أفظع أنواعه مبيّناً .

وأما عطف جملة ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ في الآيات الثلاث فلأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب ، لأن استحياء النساء في ذاته نعمة ولكنه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء ، إذ يُعلم أن مقصودهم من استحياء النساء استرقاقهن وإهانتهن فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهن .

ولذلك سمي جميع ذلك بلاء .

وأصل البلاء : الاختبار .

والبلاء هنا المصيبة بالشرّ ، سمي باسم الاختبار لأنه اختبارٌ لمقدار الصبر ، فالبلاء مستعمل في شدة المكروه من تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه على طريقة المجاز المرسل .

وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلاّ على المكروه .

وما ورد منه مستعملاً في الخير فإنما ورد بصيغة الفعل كقوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [ سورة الأنبياء : 35 ] ، وقوله : ﴿ ونبلوا أخباركم ﴾ [ سورة محمد : 31 ] .

وتقدم في نظيرها من سورة البقرة .

وجعل هذا الضر الذي لحقهم وارداً من جانب الله لأن تخلّيه آل فرعون لفعل ذلك وعدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحق الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب عليهم السلام واتّبَاعِهم دين القبط وعبادة آلهتهم .

واختيار وصف الربّ هنا للإيماء إلى أنه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين كقوله : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ [ سورة الإسراء : 8 ] .

وهذه الآية تضمنت ما في فقرة ( 17 ) من الإصحاح ﴿ ( 12 ) .

(153/416)

---

وفقرة ( 3 ) من "الإصحاح" ( 13 ) من "سفر الخروج" .

وما في فقرة ( 13 ) من الإصحاح ( 26 ) من "سفر اللاّويين" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(154/416)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

والآيات التي أرسلها الله مع – موسى عليه السلام – والمعجزات التي حدثت معه وبيّنها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم نزل ومعه معجزة واحدة وهي القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التي حدثتْ مع رسول الله ؛ فهي قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ، ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التي يأتنس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التي جاءت مع موسى – عليه السلام – تبين أن القوم الذين أُرسل لهم قوم لَجج وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التي جاءت مع موسى وجدها بعضٌ من العلماء تسع آيات ؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ؛ ووجدها بعضٌ ثالث أربع عشرة .

وفي التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفرِّق بين الآيات التي صدرت بالنسبة لفرعون ؛ والآيات التي جاءتْ لبني إسرائيل . فالعصا التي انقلبت حيَّة تسعى ، واليد التي تُضيء هي لفرعون ، وعدَّد القرآن الآيات التي جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ . . . ﴾ [النمل : 12] .

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن؛ فهو لم يُرْسَل لهدايته؛ ولكنه جاء ليُفحمه وليأخذ بني إسرائيل المُرْسَل إليهم، والآيات هي: العصا ووَضْع اليد في الجيب لتخرج بيضاء، ونَقْص الأنفس والثمرات؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، هذه هي الآيات التسع الخاصة بفرعون.

أما بقية الآيات التي جاء بها موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل فهي كثيرة مثل: ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ . . . ﴾ [الأعراف: 171].

وأيضاً: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام . . . ﴾ [البقرة: 57].

(155/416)

---

وكذلك قوله الحق: ﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى . . . ﴾ [البقرة: 57].

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التي جاءت مع موسى لقومه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله . . . ﴾ [إبراهيم: 5].

أي: أَعِدْ إلى بُؤْرة شعورهم ما كان في الحاشية؛ وأنْ يستدعوا من الذاكرة أيام الله، والمراد ما حدث في تلك الأيام، مثلما نقول نحن "يوم بدر" أو "يوم ذي قار" أو "السادس من

أكتوبر " أو " العاشر من رمضان " .

وهنا في القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثتْ للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم ؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المُرْسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلمهم ؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [ إبراهيم : 5 ] .

والصبَّار هو مَنْ يُكثِر الصبر على الأحداث ؛ وهي كلمة تُوحي بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقعتْ ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوحِي كلمة " شكور " بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين ؛ صَبْر على ما يُؤلم ، وشُكْر على ما يُرضي ، وحين تجتمع هاتان الصفتان في مؤمن ؛ يكون مُكتمِلَ الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه : إن تلك الآيات هي أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن ، وتُعطي له العِبْرة ، لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة ؛ ويجد أن مَنْ آمنَ منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة ؛ لكنه نال رضا الله ونعمه ؛ ومَنْ كفر منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تلَّقى نقمة الله وغضبه .

هذا يُقبل المؤمن على تحمُّل مَشَاقٍ الإيمان ؛ لأنه يثق في أن الحق سبحانه لا يُضِيع أجْر مؤمنٍ ؛ ولا بُدَّ لموكب الإيمان أنْ ينتصر ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا . . . ﴾ .

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحانه من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلِّط عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف " سام " الشيء أي : طلبه ؛ و " سام سوء العذاب " أي : طلب العذاب السيء .

قد ذَبَّح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبِّح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهُنَّ ، وفي هذا نِكَاية شديدة .

ووقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية في سورة البقرة ؛ حين قال : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [ البقرة : 49 ] .

فهل هذه الآية في سورة إبراهيم هي البليغة ، أم الآية التي في سورة البقرة ؛ خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجيء " الواو " كحرف عطف على ذبح الأبناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء في سورة الأعراف حين قال القرآن : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سوء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [ الأعراف : 141 ] .

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فَهْم القرآن عن مَلَكةٍ عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفَهْم ؛ لَعرفَ أن الكلام لم يصدر في الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

(157/416)

---

ففي آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ولذلك قال : ﴿ نَجَّيْنَاكُم . . . ﴾ [ البقرة : 49 ] .

ولكن المصدر المتكلم في سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام ؛ لم يَقُلْ أنه هو الذي أنجاهم بل يُعدِّد النعم التي مَنَّ الله بها عليهم ؛ ويمتن بها عليهم . وعِلَّة ذلك أن العظيم حين يمتنُّ على غيره لا يمتنُّ إلا بالعظائم ، أما دون العظيم فقد يمتنُّ بما دون ذلك .

وأسوق هذا المَثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمد الغنيُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتني

بأولاده ؛ ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتي ابن الفقير ليقول لابن الغني : لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغني : ألم يَأْتِ أبي لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التي تسكنون فيها ؟

ولكن العَمَّ الغنيّ يكتفي بأنْ يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنِّي أحضرت لكم الشقة التي تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذي يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعدِّد الأشياء .

وهنا يصف الحق سبحانه سوْم العذاب وذَبْح الأبناء بالبلاء العظيم في قوله تعالى :

﴿ ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 6] .

وهكذا نرى مظهرية الخير التي مَنَّ الله بها عليهم ، وهي الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء ؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

وسبق أنْ أوضحنا أنّ البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : 35] .

فلا الخير دليل تُكريم ، ولا الشرّ دليل إُهانة ؛ فهو القائل : ﴿ فَأَمَّا الإِنسانُ إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 15-16] .

فالابتلاء في الأصل هو الامتحان ؛ إما أنْ تنجحَ فيه أو ترسبَ ؛ ولذلك فهو غَيْر مذموم إلا بالنتيجة التي يَؤُول إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(159/416)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير في قوله ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ قال : بالبينات التسع : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى .

وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : " بنعم الله وآلائه " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : نعم الله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال : لما نزلت ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : وعظهم .

وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الله بن سلمة ، عن علي أو الزبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا فيذكرنا بأيام الله حتى نعرف ذلك في وجهه ، كأنما يذكر قوماً يصبحهم الأمر غدوة أو عشية ، وكان إذا كان حديث عهد بجبريل عليه السلام ، لم يتبسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : بالنعم التي أنعم بها عليهم ، أنجاهم من آل فرعون ، وفلق لهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : بوقائع الله في القرون الأولى .

(160/416)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ قال : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطي شكر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج – رضي الله عنه – في قوله ﴿ لكل صبار شكور ﴾ قال : وجدنا أصبرهم أشكرهم ، وأشكرهم أصبرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي ظبيان ، عن علقمة عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله . قال : فذكرت هذا الحديث للعلاء بن يزيد – رضي الله عنه – فقال : أو ليس هذا في القرآن ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ( إن في ذلك لآيات للموقنين ) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(161/416)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ ﴾: يجوز أن تكونَ "أنْ" مصدريةً، أي: بأَنْ أخْرِجْ. والباءُ في "بآياتنا" للحال، وهذه للتعدية. ويجوز أن تكونه مفسرةً للرسالة. وقيل: بل هي زائدةٌ، وهو غلطٌ.

قوله: ﴿ وَذَكِّرْهُمْ ﴾ يجوز أن يكونَ منسوقاً على "أَخْرِجْ" فيكونَ من التفسير، وأن لا يكونَ منسوقاً، فيكونَ مستأنفاً. و "أيام الله" عبارةٌ عن نعَمه، كقوله:

2867- وأيامٍ لنا غُرٍّ طِوالٍ . . . عَصَيْنا المَلْكَ فيها أن نَدِينا

أو نقَمه، كقوله:

2868- وأيامُنا مشهورةٌ في عَدُوِّنا . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ووجهه: أنَّ العرب تتجوَّز فتُسْنِدُ الحَدَثَ/ إلى الزمان مجازاً، وتُضيفُه إليها كقولهم: نهارٌ صائمٌ، وليل قائمٌ، ومَكْرُ الليلِ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(162/416)

---

قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾ : يجوز فيه ثلاثة أُوجهٍ ، أحدُها : أن يكونَ منصوباً ب " نِعْمَةَ " . الثاني : أن يكونَ ب " عليكم " ويوضِّح ذلك ما ذكره الزمخشريُّ فإنه قال : " إذ أَنْجاكم ظرفٌ للنعمة بمعنى الإِنعام ، أي : إنعامه عليكم ذلك الوقت . فإن قلت : هل يجوز أُن ينتصِبَ ب " عليكم " ؟ قلت : لا يَخْلو : إمَّا أن يكونَ صلةً للنعمة بمعنى الإِنعام ، أو غيرَ صلة إذا أُردت بالنعمة العَطِيَّة ، فإذا كان صلةً لم يعملْ فيه ، وإذا كان غيرَ صلةٍ بمعنى : اذكروا نعمةَ الله مستقرةً عليكم عَمِلَ فيه . ويتبيَّن الفرقُ بين الوجهين : أنك إذا قلت : ﴿ نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ﴾ فإنْ جَعَلْتَه صلةً لم يكن كلاماً حتى تقول : فائضة أو نحوها ، وإلاَّ كان كلاماً . والثالث : أنه بدلٌ من " نعمة " ، أي : اذكروا وقتَ إنجائِكم وهو مِنْ بدلِ الاشتمال .

قوله : ﴿ وَيُذَبِّحُونَ ﴾ حالٌ أُخرى مِنْ ﴿ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ . وفي البقرة دون واو لأنه قُصِد به التفسيرُ فالسَّوْم هنا غيرُ السَّوْمِ هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 70 . 71 ﴾

(163/416)

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) ﴾

أَخْرِجْ قومَك بدعوتك من ظلمات شكهم إلى نور اليقين ، ومنْ إشكالِ الجهل إلى رَوْحِ العِلْم .

وذَكِّرْهُم بأيام الله ؛ ما سلف لهم من وقت الميثاق ، وما رفع عنهم من البلاء في سابق أحوالهم .

ويقال ذَكِّرْهُم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريف التوحيد قبل حلولها في الأشباح :

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها . . . أيام لم ( . . . . . . . . . . . . . . . ) . . . ويقال ذَكِّرْهم بأيام الله وهي التي كان العبدُ فيها في كتم العدم ، والحق يتولَّى عباده قبل أن يكون لِلعبادِ فِعْلٌ ؛ فلا جُهْدَ للسابقين ، ولا عناءَ ولا تَرْكَ للمقتصدين ، ولا وقع من الظالم لنفسه ظلم .

إذ كان متعلق العلم متناول القدرة ، والحكم على الإرادة . . ولم يكن للعبد اختيار في تلك الأيام .

قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

﴿ صَبَّارٍ ﴾ : راضٍ بحكمه واقف عند كون لذيذ العيش يَسُرُّه .

﴿ شَكُورٍ ﴾ : محجوبٌ بشهود النّعم عن استغراقه في ظهور حقه . . . هذا واقفٌ مع صبره وهذا واقف مع شكره ، وكلٌّ مُلْزَمٌ بحده وقَدْره : والله غالب على أمره ، مقدّسٌ في نَفْسه مُتعزِّزٌ بجلال قُدْسِه .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) ﴾

تَذَكُّرُ ما سَلَفَ من النِّعَم يوجبُ تجديد ما سَبقَ من المحبة ، وفي الخبر :

*(164/416)*

---

" جُبلَتْ القلوبُ على حُبِّ مَنْ أحسن إليها " فالحقُّ أَمَرَ موسى عليه السلام بتذكير قومه ما سبق إليهم من فنون إنعامه ، ولطائف إكرامه . . . وفي بعض الكتب المنزلة على الأنبياء – عليهم السلام – : " عبدي ، أنا لكَ مُحِبٌّ فبحقي عليك كُنْ لي محباً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 239 . 241 ﴾

*(165/416)*

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكرهم بنعمة الأمن رغبهم فيما يزيدها ، ورهبهم مما يزيلها فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكروا إذ ﴿ تأذن ربكم ﴾ أي أعلم المحسن إليكم إعلاماً بليغاً ينتفي عنه الشكوك قائلاً : ﴿ لئن شكرتم ﴾ وأكده لما للأنفس من التكذيب بمثل ذلك لأعتقادها أن الزيادة بالسعي في الرزق والنقص بالتهاون فيه ﴿ لأزيدنكم ﴾ من نعمي ، فإن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود "إن عطائي لعتيد فأرجوه" ﴿ ولئن كفرتم ﴾ النعمة فلم تقيدوها بالشكر لأنقصنكم ولأعذبنكم ﴿ إن عذابي ﴾ بإزالتها وغيرها ﴿ لشديد ﴾ فخافوه ، فالآية - كما ترى - من الاحتباك .

ولما كان من حث على شيء وأثاب عليه أو نهى عنه وعاقب على فعله يكون لغرض له ،

بين أن الله سبحانه متعال عن أن يلحقه ضر أو نفع ، وأن ضر ذلك ونفعه خاص بالعبد فقال تعالى حاكياً عنه : ﴿ وقال موسى ﴾ مرهباً لهم معلماً أن وبال الكفران خاص بصاحبه ﴿ إن تكفروا ﴾ والكفر : تضييع حق النعمة بجحدها أو ما يقوم في العظم مقامه ﴿ أنتم ومن في الأرض ﴾ وأكد بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ فضرره لاحق بكم خاصة غير عائد على الله شيء منه ﴿ فإن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ لغني ﴾ أي في ذاته وصفاته عن كل أحد ، والغنى هنا المختص بما ينفي لحاق الضرر أو النقص ، والمختص بأنه قادر لا يعجزه شيء ، عالم لا يخفى عليه شيء ، وذلك بنفسه لا بشيء سواه ، ومن لم يكن كذلك لم يكن غنياً ﴿ حميد ﴾ أي بليغ الاستحقاق للحمد بما له من عظيم النعم وبما له من صفات الكمال ، وكل مخلوق يحمده بذاته وأفعاله وجميع أقواله كائنة ما كانت ، لأن إيجاده لها ناطق بحمده سبحانه .

ذكر التأذن بذلك المذكر به من التوراة :



---

قال في السفر الخامس : واختاركم الله ربكم أن تكونوا له شعباً حبيباً من جميع الشعوب التي على وجه الأرض ، وليس لأنكم أكثر من جميع الشعوب أحبكم الرب واختاركم ،

ولكن ليثبت الأيمان التي أقسم لآبائكم ، لذلك أخرجكم الرب بيد منيعة ، وأنقذكم من العبودية ، وخلصكم من يدي فرعون ملك مصر ، لتعلموا أن الله ربكم هو إله الحق ، إله مهيمن يحفظ النعمة والعهد لأوليائه الذين يحفظون وصيته لألف حقب ، ويكافىء شنأته في حياتهم ويجزيهم بالهلاك والتلف ، احفظوا السنن والأحكام والوصايا التي آمركم بها اليوم فافعلوها يحفظ الله الرب العهد والنعمة التي أقسم لآبائكم ، ويحبكم ويبارك عليكم ويكثركم ، ويبارك في أولادكم وفي ثمرة أرضكم وفي بركم وخبزكم وزيتكم ، وفي أقطاع بقركم وجفرات غنمكم ، وتكونوا مباركين من جميع الشعوب ، ولا يكون فيكم عاقر ولا عقيم ولا في بهائمكم ، ويصرف الله عنكم كل وجع ، وجميع الضربات التي أنزل الله بأهل مصر – كما تعلمون – لا ينزلها بكم بل ينزلها بجميع شنأتكم ، وتأكلون جميع خيرات الشعوب التي يعطيكم الله ربكم ، ولا تشفق أعينكم عليهم ، ولا تعبدوا آلهتهم لأنهم فخاخ لكم ، وإن قلتم في قلوبكم : إن هذه الشعوب أكثر منا فكيف نقدر أن نهلكها ! فلا تفرقوا منها ولكن اذكروا جميع ما صنع الله ربكم بفرعون ملك مصر وكل أصحابه ، والبلايا العظيمة التي رأيتم بأعينكم ، والآيات والأعاجيب واليد المنيعة والذراع العظيمة ، وكيف أخرجكم الله ربكم ! كذلك يفعل الله ربكم بجميع الشعوب التي تخافونها .

ويسلط الله ربكم عليهم عاهات حتى يهلكهم ، والذين يبقون ويختفون منكم لا تخافوهم لأن الله ربكم بينكم .

الإله العظيم المرهوب ، فيهلك الله ربكم هذه الشعوب من بين أيديكم رويداً رويداً ، لأنكم لا تقوون أن تهلكوهم سريعاً لئلا يكثر السباع ، ولكن يدفعهم الله ربكم إليكم وتضربونهم ضربة شديدة حتى تهلكوهم ، ويدفع ملوكهم في أيديكم وتهلكون أسماءهم من تحت السماء ، لا يقدر أحد أن يقوم بين أيديكم حتى تهلكوهم وتحرقوا آلهتهم المنحوتة بالنار ، ولا تشتهوا الفضة والذهب الذي عليها وتأخذوه منها لئلا تتنجسوا بها ، لأنها مرذولة عند الله ربكم ، فلا تدخلوا نجاسة إلى بيوتكم لئلا تكونوا منفيين مثلها ، ولكن أرذلوها ونجسوها وصيروها نفاية نجسة لأنها حرام .

ثم قال : انظروا ! إني أتلو عليكم دعاء ولعناً ، أما الدعاء فتصيرون إليه إن أنتم حفظتم وصايا الله ربكم ، وأما اللعن فيدرككم إن أنتم لم تسمعوا وصايا الله ربكم ، وزغتم عن الطريق الذي أمركم به اليوم – وقد مضى كثير من أمثال هذا عن التوراة ، ولا ريب في أن هذا الترغيب والترهيب والتذكير للتحذير كما أنه كان لبني إسرائيل ، فهو لكل من سمعه من المكلفين .

ولما حذرهم انتقام الله إن كفروا ، ذكرهم أيامه في الأمم الماضية ، وعين منهم الثلاثة الأولى لأنهم كانوا أشدهم أبداناً ، وأكثرهم أعواناً ، وأقواهم آثاراً ، وأطولهم أعماراً ، لأن البطش إذا برز إلى الوجود كان أهول ، لأن النفس للمحسوس أقبل ، فقال دالاً على ما أرشدهم إليه من غناه سبحانه وحمده مخوفاً لهم من سطوات الله سبحانه : ﴿ ألم يأتكم ﴾ أي يا بني إسرائيل ﴿ نبأ الذين ﴾ ولما كان المراد قوماً مخصوصين لم يستغرقوا الزمان قال : ﴿ من قبلكم ﴾ ثم أبدل منهم فقال : ﴿ قوم ﴾ أي نبأ قوم ﴿ نوح ﴾ وكانوا ملء الأرض ﴿ و ﴾ نبأ ﴿ عاد ﴾ وكانوا أشد الناس أبداناً وأثبتهم جناناً ﴿ و ﴾ نبأ ﴿ ثمود ﴾ وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور ﴿ و ﴾ نبأ ﴿ الذين ﴾ ولما كان المراد البعض ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ أي في الزمن حال كونهم في الكثرة بحيث ﴿ لا يعلمهم ﴾ أي حق العلم على التفصيل ﴿ إلا الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ، كفروا فأهلكهم الله ولم يزل غنياً حميداً عند أخذهم وبعده كما كان قبله ، وكان ابن مسعود . رضى الله عنهم . إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون .

ثم فصل سبحانه خبرهم ، فقال - جواباً لمن كأنه قال : ما كان نبأهم ؟ ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ وترك عطفه لشدة التباسه بالمستفهم عنه ﴿ فردوا ﴾ أي الأمم عقب مجيء الرسل من غير تأمل جامعين في تكذيبهم بين الفعل والقول ﴿ أيديهم في أفواههم ﴾ وهو

أشارة إلى السكوت عن ذلك والتسكيت ، كأنه لا يليق أن يتفوه ولو على سبيل الرد ؛ قال الرازي في اللوامع : حكى أبو عبيد : كلمته في حاجتي فرد يده في فيه – إذا سكت ولم يجب .

(169/416)

---

﴿ و ﴾ بعد أن فعلوا ذلك لهذه الأغراض الفاسدة ﴿ قالوا ﴾ أي الأمم ﴿ إنا كفرنا ﴾ أي غطينا مرائي عقولنا مستهينين ﴿ بما ﴾ ولما كان رد الرسالة جامعاً للكفر ، وكانوا غير مسلّمين أن المرسل لهم هو الله ، بنوا للمفعول قولهم : ﴿ أرسلتم به ﴾ أي لأنكم لم تأتونا بما يوجب الظن فضلاً عن القطع ، فلذا لا يحتاج رده إلى تأمل .

ولما كان ما أتى به الرسل يوجب القطع بما يعلمه كل أحد ، فكانوا بما قالوه في مظنة الإنكار ، أكدوا : ﴿ وإنا لفي شك ﴾ أي محيط بنا ، وهو وقوف بين الضدين من غير ترجيح أحدهما ، يتعاقب على حال الذكر ويضاد العلم والجهل .

ولما كان الدعاء مسنداً إلى جماعة الرسل ، أثبت نون الرفع مع ضمير المتكلمين بخلاف ما مضى في هود ، فقالوا ﴿ مما ﴾ أي شيء ﴿ تدعوننا ﴾ أيها الرسل ﴿ إليه ﴾ أي من الدين ﴿ مريب ﴾ أي موجب للتهمة وموقع في الشك والاضطراب والفزع ، من أراب

الرجل : صار ذا ريبة أي قلق وتزلزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 172 .
174 ﴾

(170/416)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ، ومعنى ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ أذن ربكم .

ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ، ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ، كأنه قيل : وإذ آذن ربكم إيذاناً بليغاً ينتفي عنده الشكوك ، وتنزاح الشبهة ، والمعنى : وإذ تأذن ربكم .

فقال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ فأجرى ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ مجرى قال لأنه ضرب من القول ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ .

واعلم أن المقصود من الآية بيان أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه ، ولا بد ههنا من معرفة حقيقة الشكر ومن البحث عن تلك النعم الزائدة الحاصلة عن الاشتغال بالشكر ، أما الشكر فهو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ، وأما الزيادة في النعم فهي أقسام : منها النعم الروحانية ، ومنها النعم الجسمانية ، أما النعم الروحانية فهي أن الشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى وأنواع فضله وكرمه ، ومن كثر إحسانه إلى الرجل أحبه الرجل لا محالة ، فشغل النفس بمطالعة أنواع فضل الله وإحسانه يوجب تأكد محبة العبد لله تعالى ، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين ، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة ، ولا شك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته ، فثبت أن الاشتغال بالشكر يوجب مزيد النعم الروحانية ، وأما مزيد النعم الجسمانية ، فلأن الاستقراء دل على أن من كان اشتغاله بشكر نعم الله أكثر ، كان وصول نعم الله إليه أكثر ، وبالجملة فالشكر إنما حسن موقعه ، لأنه اشتغال بمعرفة المعبود وكل مقام حرك العبد من

عالم الغرور إلى عالم القدس ، فهو المقام الشريف العالي الذي يوجب السعادة في الدين والدنيا .

(172/416)

---

وأما قوله : ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ فالمراد منه الكفران ، لا الكفر ، لأن الكفر المذكور في مقابلة الشكر ليس إلا الكفران ، والسبب فيه أن كفران النعمة لا يحصل إلا عند الجهل بكون تلك النعمة نعمة من الله ، والجاهل بها جاهل بالله ، والجهل بالله من أعظم أنواع العقاب والعذاب وأيضاً فههنا دقيقة أخرى وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فوجوده إنما يحصل بإيجاد الواجب لذاته ، وعدمه إنما يحصل بإعدام الواجب لذاته ، وإذا كان كذلك فكل ما سوى الحق فهو منقاد للحق مطواع له ، وإذا كانت الممكنات بأسرها منقادة للحق سبحانه فكل قلب حضر فيه نور معرفة الحق وشرف جلاله ، انقاد لصاحب ذلك القلب ما سواه ، لأن حضور ذلك النور في قلبه يستخدم كل ما سواه بالطبع ، وإذا خلا القلب عن ذلك النور ضعف وصار خسيساً فيستخدمه كل ما سواه ويستحقره كل ما يغايره فبهذا الطريق الذوقي يحصل العلم بأن الاشتغال بمعرفة الحق يوجب انفتاح أبواب الخيرات في الدنيا والآخرة ، وأما الإعراض عن معرفة الحق بالاشتغال

بمجرد الجسمانيات يوجب انفتاح أبواب الآفات والمخافات في الدنيا والآخرة .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) ﴾

(173/416)

---

اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة ، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد ، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة ، بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران أما المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران ، فلا جرم قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى الأرض جَمِيعًا فَإِنَّ الله لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا لمنافع عائدة إلى المعبود ، والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله : ﴿ إِنَّ الله لَغَنِىٌّ ﴾ وتفسيره أنه واجب الوجود لذاته واجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته ، فإنه لو لم يكن واجب الوجود لذاته ، لافتقر رجحان وجوده على عدمه إلى مرجح فلم يكن غنياً ، وقد فرضناه غنياً هذا خلف ، فثبت أن كونه غنياً يوجب كونه واجب الوجود في ذاته ، وإذا ثبت أنه واجب الوجود لذاته ، كان أيضاً واجب الوجود

بحسب جميع كمالاته ، إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال ، لافتقر في حصول ذلك الكمال إلى سبب منفصل ، فحينئذ لا يكون غنياً ، وقد فرضناه غنياً هذا خلف ، فثبت أن ذاته كافية في حصول جميع كمالاته ، وإذا كان الأمر كذلك كان حميداً لذاته ، لأنه لا معنى للحميد إلا الذي استحق الحمد ، فثبت بهذا التقرير الذي ذكرناه أن كونه غنياً حميداً يقتضي أن لا يزداد بشكر الشاكرين ، ولا ينتقص بكفران الكافرين ، فلهذا المعنى قال : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِى الأرض جَمِيعًا فَإِنَّ الله لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ وهذه المعاني من لطائف الأسرار .

(174/416)

---

واعلم أن قولنا : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِى الأرض جَمِيعًا ﴾ سواء حمل على الكفر الذي يقابل الإيمان أو على الكفران الذي يقابل الشكر ، فالمعنى لا يتفاوت ألبتة ، فإنه تعالى غني عن العالمين في كمالاته وفي جميع نعوت كبريائه وجلاله .

ثم إنه تعالى قال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وذكر أبو مسلم الأصفهاني أنه يحتمل أن يكون ذلك خطاباً من موسى عليه السلام لقومه والمقصود منه أنه عليه السلام كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم ، ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على

لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى ، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم .

واعلم أنه تعالى ذكر أقواماً ثلاثة ، وهم : قوم نوح وعاد وثمود .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ وذكر صاحب "الكشاف" فيه احتمالين : الأول : أن يكون قوله : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً .

والثاني : أن يقال قوله : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ معطوف على قوم نوح وعاد وثمود وقوله : ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ فيه قولان :

القول الأول : أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله ، لأن المذكور في القرآن جملة فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل .



والقول الثاني : أن المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً ، ولا يعلمهم إلا الله والقائلون بهذا القول الثاني طعنوا في قول من يصل الأنساب إلى آدم عليه

السلام كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد ، وعن ابن عباس : بين عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذلك كَثِيراً ﴾ [ الفرقان : 38 ] وقوله : ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [ غافر : 78 ] وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن أدد .

وقال : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق " قال القاضي : وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت ، لأنه إن أمكن ذلك لم يبعد أيضاً تحصيل العلم بالأنساب الموصولة .

فإن قيل : أي القولين أولى ؟

قلنا : القول الثاني عندي أقرب ، لأن قوله تعالى : ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ نفى العلم بهم ، وذلك يقتضي نفي العلم بذواتهم إذ لو كانت ذواتهم معلومة ، وكان المجهول هو مدد أعمارهم وكيفية صفاتهم لما صح نفي العلم بذواتهم ، ولما كان ظاهر الآية دليلاً على نفي العلم بذواتهم لا جرم كان الأقرب هو القول الثاني ، ثم إنه تعالى حكى عن هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم أنه لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات أتوا بأمور : أولها : قوله : ﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ وفي معناه قولان : الأول : أن المراد باليد والفم الجارحتان

المعلومتان، والثاني: أن المراد بهما شيء غيرها تين الجارحتين وإنما ذكرهما مجازاً وتوسعاً.

أما من قال بالقول الأول ففيه ثلاثة أوجه:

(176/416)

---

الوجه الأول: أن يكون الضمير في ﴿أَيدِيَهُمْ﴾ و ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ عائداً إلى الكفار، وعلى هذا ففيه احتمالات: الأول: أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها من الغيظ والضجر من شدة نفرتهم عن رؤية الرسل واستماع كلامهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ﴾ [آل عمران: 119] وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود رحمهما الله تعالى، وهو اختيار القاضي.

والثاني: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه، والثالث: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث، وهذا مروي عن الكلبي.

والرابع: أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم إنا كفرنا بما أرسلتم به

، أي هذا هو الجواب عندنا عما ذكرتموه ، وليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق ألا ترى إلى قوله : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ .

الوجه الثاني : أن يكون الضميران راجعين إلى الرسل عليهم السلام وفيه وجهان : الأول : أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم .

الثاني : أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم فإن من ذكر كلاماً عند قوم وأنكروه وخافهم ، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه وغرضه أن يعرفهم أنه لا يعود إلى ذلك الكرم ألبتة .

الوجه الثالث : أن يكون الضمير في أيديهم يرجع إلى الكفار وفي الأفواه إلى الرسل وفيه وجهان : الأول : أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء عليهم السلام ونصائحهم وكلامهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيباً لهم ورداً عليهم .



---

والثاني : أن الكفار وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء عليهم السلام منعاً لهم من الكلام ، ومن بالغ في منع غيره من الكلام فقد يفعل به ذلك .

أما على القول الثاني : وهو أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز ففيه وجوه :

الوجه الأول : قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج وذلك لأن أسماع الحجة انعام عظيم والإنعام يسمى يداً .

يقال لفلان عندي يد إذا أولاه معروفاً ، وقد يذكر اليد .

المراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ الفتح : 10 ] فالبينات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد ، وأيضاً العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادي وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي وفي العدد الكثير هو الأيادي ، فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي ، وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَّيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [ النور : 15 ] فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع رداً في الأفواه ، فهذا تمام كلام أبي مسلم في تقرير هذا الوجه .

الوجه الثاني : نقل محمد بن جرير عن بعضهم أن معنى قوله : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أنهم سكتوا عن الجواب يقال للرجل إذا أمسك عن الجواب ، رد يده في فيه وتقول العرب كلمت فلاناً في حاجة فرد يده في فيه إذا سكت عنه فلم يجب ، ثم إنه زيف هذا الوجه وقال : إنهم أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ .

الوجه الثالث : المراد من الأيدي نعم الله تعالى على ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم للإزالة والإبطال فقوله : ﴿ رَدُّوا۟ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التي صدرت عن أفواههم ولا يبعد حمل "في" على معنى الباء لأن حروف الجر لا يمتنع إقامة بعضها مقام بعض .

النوع الثاني : من الأشياء التي حكاها الله تعالى عن الكفار قولهم : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِۦ ﴾ والمعنى : إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم فيه لأنهم ما أقروا بأنهم أرسلوا .

واعلم أن المرتبة الأولى هو أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى ، وهذه المرتبة الثانية أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة .

والنوع الثالث : قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : وقرىء ﴿ تَدْعُونَا ﴾ بإدغام النون ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة من أرابه ، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر .

فإن قيل : لما ذكروا في المرتبة الثانية أنهم كافرون برسالتهم كيف ذكروا بعد ذلك كونهم شاكين مرتابين في صحة قولهم ؟

قلنا : كأنهم قالوا إما أن نكون كافرين برسالتكم أو أن ندع هذا الجزم واليقين فلا أقل من أن

نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم ، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 72.68 ﴾

*(179/416)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإذ تأذن ربُّكم ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه وإذ سمع ربكم ، قاله الضحاك .

الثاني : وإذا قال ربكم ، قاله أبو مالك .

الثالث : معناه وإذ أعلمكم ربكم ، ومنه الأذان لأنه إعلام ، قال الشاعر :

فلم نشعر بضوء الصبح حتى . . . سَمِعْنا في مجالِسنا الأذينا

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ، قاله الربيع .

الثاني : لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي ، قاله الحسن وأبو صالح .

الثالث : لئن وحّدتم وأطعتم لأزيدنكم ، قاله ابن عباس .

ويحتمل تأويلاً رابعاً: لئن آمنتم لأزيدنكم من نعيم الآخرة إلى نعيم الدنيا.

وسُئِل بعض الصلحاء على شكر الله تعالى، فقال: أن لا تتقوى بِنعَمِهِ على معاصيه.

وحكي أنَّ داود عليه السلام قال: أي ربِّ كيف أشكرك وشكري لك نعمة مجددة منك عليّ؟ قال: "يا داود الآن شكرتني".

﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديدٌ﴾ وعد الله تعالى بالزيادة على الشكر، وبالعذاب على الكفر.

قوله عز وجل: ﴿... والذين من بعدهم لا يَعْلمُهم إلا الله﴾

فيها وجهان:

أحدهما: يعني بعد من قص ذكره من الأمم السالفة قرون وأمم لم يقصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلمهم إلا الله عالم ما في السموات والأرض.

الثاني: ما بين عدنان وإسماعيل من الآباء. قال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون.

وكان ابن مسعود يقرأ: لا يعلمهم إلا الله كذب النسّابون.

﴿جاءَتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج.

﴿فردُّوا أيديهم في أفواههم﴾ فيه سبعة أوجه:

أحدها: أنهم عضوا على أصابعهم تغيظاً عليهم، قاله ابن مسعود واستشهد أبو عبيدة

بقول الشاعر :

لو أن سلمى أبصرت تخدُّدي . . . ودقةً في عظم ساقي ويدي

وبعد أهلي وجفاءَ عُوَّدي . . . عضت من الوجد بأطراف اليد

الثاني : أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم ، قاله ابن عباس .



---

الثالث : معناه أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم إني رسول الله إليكم ، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم بأن اسكت تكذيباً له ورداً لقوله ، قاله أبو صالح . الرابع : معناه أنهم كذبوهم بأفواههم ، قاله مجاهد .

الخامس : أنهم كانوا يضعون أيديهم على أفواه الرسل رداً لقولهم ، قاله الحسن .

السادس : أن الأيدي هي النعم ، ومعناه أنهم ردوا نعمهم بأفواههم جحوداً لها .

السابع : أن هذا مثل أريد به أنهم كفوا عن قبول الحق ولم يؤمنوا بالرسل ، كما يقال لمن أمسك عن الجواب رَدّ في فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾

و ﴿ تأذن ﴾ بمعنى آذن . أي أعلم ، وهو مثل : أكرم وتكرم ، وأوعد وتوعد ، وهذا الإعلام منه مقترن بإنفاذ وقضاء قد سبقه ، وما في تفعل هذه من المحاولة والشروع إذا أسندت إلى البشر منفي في جهة الله تعالى ، وأما قول العرب : تعلم بمعنى أعلم ، فمرفوض . الماضي على ما ذكر يعقوب . كقول الشاعر :

تعلم أبيت اللعن . . . . . . ونحوه .

وقال بعض العلماء : الزيادة على الشكر ليست في الدنيا وإنما هي من نعم الآخرة ، والدنيا أهون من ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وصحيح جائز أن يكون ذلك ، وأن يزيد الله أيضاً المؤمن على شكره من نعم الدنيا وأن يزيده أيضاً منهما جميعاً ، وفي هذه الآية ترجية وتخويف ، ومما يقضي بأن الشكر متضمن الإيمان أنه عادله بالكفر ، وقد يحتمل أن يكون الكفر كفر النعم لا كفر الجحد ، وحكى الطبري عن سفيان وعن الحسن أنهما قالا : معنى الآية : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ من طاعتي وضعفه الطبري ، وليس كما قال : بل هو قوي حسن ، فتأمله .

قال القاضي أبو محمد : وقوله : ﴿ لئن شكرتم ﴾ هو جواب قسم يتضمنه الكلام.

وقوله : ﴿ وقال موسى ﴾ الآية ، في هذه الآية تحقير للمخاطبين - بشرط كفرهم - وتوبيخ ، وذلك بين من الصفتين اللتين وصف بهما نفسه تعالى في آخر الآية ، وقوله : ﴿ لغني ﴾ يتضمن تحقيرهم وعظمته ، إذ له الكمال التام على الإطلاق ، وقوله : ﴿ حميد ﴾ يتضمن توبيخهم ، وذلك أنه صفة يستوجب المحامد كلها ، دائم كذلك في ذاته لم يزل ولا يزال ، فكفركم أنتم بإله هذه حاله غاية التخلف والخذلان ، وفي قوله أيضاً : ﴿ حميد ﴾ ما يتضمن أنه ذو آلاء عليكم أيها الكافرون به كان يستوجب بها حمدكم ، فكفركم به مع ذلك أذهب في الضلال ، وهذا توبيخ بين.

(182/416)

---

وقوله : ﴿ ألم يأتكم ﴾ الآية ، هذا من التذكير بأيام الله في النقم من الأمم الكافرة. وقوله : ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ من نحو قوله : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ [ الفرقان : 38 ] ، وفي مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذب النسابون من فوق عدنان" ، وروي عن ابن عباس أنه قال : "كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله". وحكى عنه المهدوي أنه قال : "كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون".

قال القاضي أبو محمد : وهذا الوقوف على عدتهم بعيد ، ونفي العلم بها جملة أصح ، وهو ظاهر القرآن .

واختلف المفسرون في معنى قوله : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ بحسب احتمال اللفظ .

قال القاضي أبو محمد : و" الأيدي " في هذه الآية قد تتأول بمعنى الجوارح ، وقد تتأول بمعنى أيدي النعم ، فمما ذكر على أن " الأيدي " الجوارح أن يكون المعنى : ردوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم عضاً عليها من الغيظ على الرسل ، ومبالغة في التكذيب - هذا قول ابن مسعود وابن زيد ، وقال ابن عباس : عجبوا وفعلوا ذلك ، والعض من الغيظ مشهور من البشر ، وفي كتاب الله تعالى : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ [ آل عمران : 119 ] وقال الشاعر :

قد أفنى أنامله أزمه . . . فأضحى يعضُّ عليَّ الوظيفا

وقال الآخر : [ الرجز ]

لو أن سملى أبصرت تخددي . . . ودقة في عظم ساقي ويدي

وبعد أهلي وجفاء عوَّدي . . . عضت من الوجد بأطراف اليد

ومما ذكر أن يكون المعنى أنهم ردوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم إشارة على الأنبياء بالسكوت ، واستبشاعاً لما قالوا من دعوى النبوءة ومما ذكر أن يكون المعنى ردوا أيدي

أنفسهم في أفواه الرسل تسكيتاً لهم ودفعاً في صدر قولهم - قاله الحسن - وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم .

(183/416)

---

قال القاضي أبو محمد : وتحتمل الألفاظ معنى رابعاً وهو أن يتجوز في لفظ " الأيدي " ، أي إنهم ردوا قوتهم ومدافعتهم ومكافحتهم فيما قالوه بأفواههم من التكذيب ، فكأن المعنى : ردوا جميع مدافعتهم في أفواههم أي في أقوالهم ، وعبر عن جميع المدافعة ب " الأيدي " ، إذ الأيدي موضع لشد المدافعة والمرادة .

وحكى المهدوي قولاً ضعيفاً وهو أن المعنى : أخذوا أيدي الرسل فجعلوها في أفواه الرسل .

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي لا وجه له .

ومما ذكر على أن " الأيدي " أيدي النعم ما ذكره الزجاج وذلك أنهم ردوا آلاء الرسل في الإنذار والتبليغ بأفواههم ، أي بأقوالهم - فوصل الفعل ب ﴿ في ﴾ عوض وصوله بالباء - وروي نحوه عن مجاهد وقتادة .

قال القاضي أبو محمد : والمشهور : جمع يد النعمة : أياد ، ولا يجمع على أيد ، إلا أن جمعه

على أبد ، لا يكسر باباً ولا ينقض أصلاً ، وبحسبنا أن الزجاج قدره وتأول عليه .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل اللفظ – على هذا – معنى ثانياً ، أن يكون المقصد : ردوا أنعام الرسل في أفواه الرسل ، أي لم يقبلوه ، كما تقول لمن لا يعجبك قوله : أمسك يا فلان كلامك في فمك . ومن حيث كانت أيدي الرسل أقوالاً ساغ هذا فيها ، كما تقول : كسرت كلام فلان في فمه ، أي رددته عليه وقطعته بقلة القبول والرد ، وحكى المهدوي عن مجاهد أنه قال : معناه : ردوا نعم الرسل في أفواه أنفسهم بالتكذيب والنجه .

وقوله : ﴿ لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ يقتضي أنهم شكوا في صدق نبوتهم وأقوالهم أو كذبها ، وتوقفوا في إمضاء أحد المعتقدين ، ثم ارتابوا بالمعتقد الواحد في صدق نبوتهم فجاءهم شك مؤكد بارتياب .

وقرأ طلحة بن مصرف : "مما تدعونّا " بنون واحدة مشددة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(184/416)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذ تأَذَّن ربُّكم ﴾

مذكور في [ الأعراف : 167 ] .

وفي قوله : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : لئن شكرتم نِعَمي لأزيدنكم من طاعتي ، قاله الحسن .

والثاني : لئن شكرتم إِنعامي لأزيدنكم من فضلي ، قاله الربيع .

والثالث : لئن وحَّدتموني لأزيدنكم خيراً في الدنيا ، قاله مقاتل .

وفي قوله : ﴿ ولئن كفرتم ﴾ قولان .

أحدهما : أنه كفر بالتوحيد .

والثاني : كفران النِّعَم .

قوله تعالى : ﴿ فإن الله لغني حميد ﴾ أي : غني عن خَلْقه ، محمود في أفعاله ، لأنه إِمّا متفضِّل بفعله ، أو عادل .

قوله تعالى : ﴿ لا يعلمهم إِلا الله ﴾ قال ابن الأنباري : أي : لا يحصي عددهم إِلا هو ، على أن الله تعالى أهلك أُمماً من العرب وغيرها ، فانقطعت أخبارهم ، وعفَت آثارهم ، فليس يعلمهم أحد إِلا الله .

قوله تعالى : ﴿ فردُّوا أيديَهم في أفواههم ﴾ فيه سبعة أقوال :

أحدها : أنهم عضُّوا أصابعهم غيظاً ، قاله ابن مسعود ، وابن زيد .

وقال ابن قتيبة : "في" هاهنا بمعنى : "إِلى" ومعنى الكلام : عضُّوا عليها حَنَقاً وغيظاً ، كما

قال الشاعر :

يَرُدُّون في فيه عَشْرَ الحَسودِ . . .

يعني : أنهم يغيظون الحسود حتى يَعَضّ على أصابعه العشر ، ونحوه قول الهذلي :

قَدَ افْنَى أَنَامِلَه أَزْمُهُ . . .

فأضحى يَعَضُّ عَلَيّ الوَظِيفا

يقول : قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعضِّ ، فأضحى يعضُّ عليّ وظيف الذارع .

والثاني : أنهم كانوا إذا جاءهم الرسول فقال : إني رسول ، قالوا له : اسكت ، وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم ، رَدّاً عليه وتكذيباً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنهم لما سمعوا كتاب الله ، عجّوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : أنهم وضعوا أيديَهم على أفواه الرسل .

ردّاً لقولهم ، قاله الحسن .

والخامس : أنهم كذَّبوهم بأفواههم ، وردُّوا عليهم قولهم ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والسادس : أنه مَثَلٌ ، ومعناه : أنهم كَفُّوا عما أُمروا بقبوله من الحق ، ولم يؤمنوا به .

يقال : رَدَّ فلان يده إلى فمه ، أي : أمسك فلم يُجب ، قاله أبو عبيدة .

والسابع : رَدُّوا ما لَوْ قبلوه لكان نِعماً وأياديَ من الله ، فتكون الأيدي بمعنى : الأيادي ، و"في" بمعنى : الباء ، والمعنى : رَدُّوا الأياديَ بأفواههم ذكره الفراء ، وقال : قد وجدنا مِن العرب مَن يجعل "في" موضعَ الباء ، فيقول : أدخلك الله بالجنة ، يريد : في الجنة ، وأنشدني بعضهم :

وأَرغَبُ فيها عن لَقيطٍ ورهطِهِ . . .

ولكنَّني عن سَنْبَسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

فقال : أرغب فيها ، يعني : بنتاً له ، يريد : أرغب بها ، وسَنْبَسُ : قبيلة .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا إِنا كفرنا بما أُرسلتم به ﴾ أي : على زعمكم أنكم أُرسلتم ، لا أنهم أقرُّوا بإرسالهم .

وباقي الآية قد سبق تفسيره [ هود : 62 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾

قيل : هو من قول موسى لقومه .

وقيل : هو من قول الله ؛ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا .

و "تَأَذَّنَ" وأذّن بمعنى أَعْلَم ؛ مثل أَوْعَد وتَوَعَّد ؛ روي معنى ذلك عن الحسن وغيره .

ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فَلَمْ نَشْعُرْ بضوءِ الصّبحِ حتّى . . .

سَمِعنا في مجَالِسِنا الأَذِينَا

وكان ابن مسعود يقرأ "وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ" والمعنى واحد .

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي .

الحسن : لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي .

ابن عباس : لئن وَحَّدْتم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب ، والمعنى متقارب في هذه الأقوال ؛

والآية نصٌّ في أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم في "البقرة" ما للعلماء في معنى الشكر .

وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألاّ تتقوّى بنعمه على معاصيه .

وحكي عن داود عليه السلام أنه قال : أي رب كيف أشكرك ، وشكري لك نعمة مجدّدة

منك عليّ .

قال : يا داود الآن شكرتني .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعترافُ بالنعمة للمنعم ، وألاّ يصرفها في غير طاعته ؛

وأنشد الهادي وهو يأكل :

أَنَالَكَ رِزقَه لتقومَ فيهِ . . .

بطاعتهِ وتشكرَ بعض حقّهِ

فلم تشْكُرِ لنعمتِهِ ولكِنْ . . .

قَوِيتَ على معاصِيهِ برزقه

فغُصَّ باللقمة ، وخنقته العَبْرة .

وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للمزيد .

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أي جحدتم حقّي .

وقيل : نِعَمِي ؛ وَعَد بالعذاب على الكفر ، كما وَعَد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التي في جواب الشرط من "إن" للشهرة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرض جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

أي لا يلحقه بذلك نقص ، بل هو الغني .

"الْحَمِيدُ" أي المحمود .

(187/416)

---

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ النبأ الخبر ، والجمع الأنباء ؛ قال :

أَلَمْ يَأْتِيكَ والأنباء تَنْمِي . . .

ثم قيل : هو من قول موسى .

وقيل : من قول الله ؛ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا .

وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى .

وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله في كتابه .

وقوله : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنّسابون وإن نَسَبوا إلى آدم فلا يدّعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض ، ويمسِكون عن نسب البعض ؛ " وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع النّسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النسابون إن الله يقول : ﴿ لاَ

يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ ﴾ " " وقد رُوي عن عُرْوة بن الزبير أنه قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما بين عدنان وإسمعيل .

وقال ابن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون .

وكان ابن مسعود يقول حين يقرأ : "لاَ يعلمهُمْ إِلاَّ اللَّه" : كذب النّسابون .

﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلالات .

﴿ فردوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي جعل أولئك القوم أيدي أنفسهم في أفواههم ليَعضُّوها غيظاً مما جاء به الرسل ؛ إذ كان فيه تَسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم ؛ قاله ابن مسعود ، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد ، وقرأ : ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [ آل عمران : 119 ] وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم .

وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أَنِ اسكت ، تكذيباً له ، وردّاً لقوله ؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى .



---

والضميران للكفار ؛ والقول الأول أصحها إسناداً ؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن أبي إسحق عن أبي الأحوص ( عن ) عبد الله في قوله تعالى : ﴿

فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قال : عَضوا عليها غيظاً ؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سَلْمَى أَبْصَرَتْ تَخَدُّدِي . . .

ودِقَّةً في عظمِ ساقي ويَدي

وبُعْدَ أَهْلي وجَفَاءَ عُوَّدِي . . .

عَضّتْ من الْوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى في "آل عمران" مجوّداً ، والحمد لله .

وقال مجاهد وقَتَادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم ؛ فالضمير الأول للرسل ، والثاني للكفار .

وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردًّا لقولهم ؛ فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثاني للرسل .

وقيل معناه : أَوْمأوا للرسل أن يسكتوا .

وقال مقاتل : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم .

وقيل : ردّ الرسل أيدي القوم في أفواههم .

وقيل : إن الأيدي هنا النِّعم ؛ أي ردّوا نِعم الرسل بأفواههم ، أي بالنطق والتكذيب ؛ ومجيء الرسل بالشرائع نِعَمٌ ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل .

و"في" بمعنى الباء ؛ يقال : جلست في البيت وبالبيت ؛ وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض .

وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل ؛ أي لم يُؤْمنوا ولم يُجيبوا ؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد ردّ يده في فيه ؛ وقاله الأخفش أيضاً .

وقال القُتَبيّ : لم نسمع أحداً من العرب يقول : ردّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى : عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً ؛ لقول الشاعر :

تَرُدّون في فِيهِ غِشّ الْحَسُو . . .

دِ حتى يَعَضّ عليّ الأَكُفّا

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه .

وقال آخر :

قَد أَفْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمَةً . . .

فأضحَى يَعَضُّ عليّ الْوَظِيفَا

وقالوا : – يعني الأمم للرسل ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي بالإرسال على زعمكم ، لا أنهم أقرّوا أنهم أُرسلوا .

﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ ﴾ أي في ريب ومِرية .

﴿ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد .

﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي موجب للرّيبة ؛ يقال : أربته إذ فعلت أمراً أوجب ريبة وشكّاً ؛ أي نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(190/416)

---

وقال الخازن :

﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾

هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ، ومعنى تأذن : آذن ، أي أعلم ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل وأذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه المعنى وإذ تأذن ربكم فقال :

﴿ ولئن شكرتم ﴾ يعني يا بني اسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿ لأزيدنكم ﴾ يعني نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما

أتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود .

وقيل : لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب وأصل الشكر تصور النعمة ، وإظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه ، وتوطين النفس على هذه الطريقة وهاهنا دقيقة وهي أن العبد إذا اشتغل بمطالعة أقسام نعم الله عليه ، وأنواع فضله وكرمه وإحسانه إليه اشتغل بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات إلى النعم ، وهذا مقام الصدّيقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه وإنعامه .

(191/416)

---

وقوله ﴿ ولئن كفرتم ﴾ المراد بالكفر هاهنا كفران النعمة ، وهو جحودها لأنه مذكور في مقابلة الشكر ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ يعني لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ﴿ وقال موسى إن تكفروا ﴾ يعني يا بني اسرائيل ﴿ أنتم ومن في الأرض جميعاً ﴾ يعني والناس كلهم جميعاً فإنما ضرر ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله ﴿ فإن الله لغني ﴾ يعني عن جميع خلقه ﴿ حميد ﴾ أي محمود في جميع أفعاله لأنه متفضل وعادل ﴿ ألم يأتكم نبأ ﴾

يعني خبر ﴿ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ قال بعض المفسرين : يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه ، والمقصود منه أنه يذكرهم بأمر القرون الماضية والأمم الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم ﴿ والذين من بعدهم ﴾ يعني من بعد هؤلاء الأمم الثلاثة ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ يعني لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم إلا الله لأن علمه محيط بكل شيء ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ وقيل : المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أقوام وأمم ما بلغنا خبرهم أصلاً ومنه قوله : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول : كذب النسابون .

يعني أنهم يدعون علم النسب إلى آدم ، وقد نفى الله علم ذلك عن العباد .

وعن عبد الله بن عباس أنه قال : بين إبراهيم وعدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله وكان مالك بن أنس يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم ، لأنه لا يعلم أولئك إلا الله .

وقوله تعالى ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ .

وفي معنى الأيدي والأفواه قولان : أحدهما أن المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه .

قال ابن مسعود : عضوا أيديهم غيظاً .

وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم .

وقال مجاهد وقتادة : كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به .

يقال : رددت قول فلان في فيه أي كذبته .

(192/416)

---

وقال الكلبي : يعني أن الأمم ردوا أيديهم إلى أفواه أنفسهم ، يعني أنهم وضعوا الأيدي على الأفواه إشارة منهم إلى الرسل أن اسكتوا .

وقال مقاتل : ردوا أيديهم إلى أفواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل : إن الأمم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه .

وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل الذي غلبه الضحك .

القول الثاني : أن المراد بالأيدي والأفواه غير الجارحتين فقيل المراد بالأيدي النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة ، والمراد بالأفواه وتكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردوا قولهم وقيل إنهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان رد يده إلى فيه إذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لأنهم قد أجابوا بالتكذيب وهو أن الأمم ردوا على رسلهم ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما

أرسلتم به ﴾ يعني إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به لأنهم لم يقروا بأنهم أرسلوا إليهم لأنهم لو أقروا بأن الرسل أرسلوا إليهم لكانوا مؤمنين ﴿ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة ، والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذي يشك فيه .

فإن قلت : إنهم قالوا أولاً إنا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانياً وإنا لفي شك والشك دون الكفر أو داخل فيه .

قلت : إنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا : إن لم تدع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكّين مرتابين في ذلك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(193/416)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾

وتقدم شرح تأذن وتلقيه بالقسم في قوله في الأعراف : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن ﴾

واحتمل إذ أن يكون منصوباً باذكروا ، وأن يكون معطوفاً على إذ أنجاكم ، لأنّ هذا الإعلام

بالمزيد على الشكر من نعمه تعالى .

والظاهر أنّ متعلق الشكر هو الإنعام أي : لئن شكرتم إنعامي ، وقاله الحسن والربيع .

قال الحسن : لأزيدنكم من طاعتي .

وقال الربيع : لأزيدنكم من فضلي .

وقال ابن عباس : أي لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم في الثواب .

وكأنه راعى ظاهر المقابلة في قوله : ولئن كفرتم إن عذابي لشديد .

وظاهر الكفر المراد به الشرك ، فلذلك فسر الشكر بالتوحيد والطاعة وغيره .

قال : ولئن كفرتم ، أي نعمتي فلم تشكروها ، رتب العذاب الشديد على كفران نعمة الله تعالى ، ولم يبين محل الزيادة ، فاحتمل أن يكون في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما ، وجاء التركيب على ما عهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخبر أسند إليه تعالى .

وإذ ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال : لأزيدنكم ، فنسب الزيادة إليه وقال : إنّ عذابي لشديد ، ولم يأت التركيب لأعذبنكم ، وخرج في لأزيدنكم بالمفعول ، وهنا لم يذكر ، وإن كان المعنى عليه أي : إنّ عذابي لكم لشديد .

وقرأ عبد الله : وإذ قال ربكم ، كأنه فسر قوله : تأذن ، لأنه بمعنى أذن أي : أعلم ، وأعلم يكون بالقول .

ثم نبه موسى عليه السلام قومه على أنّ الباري تعالى ، وإن أوعد بالعذاب الشديد على

الكفر ، فهو غير مفتقر إلى شكركم ، لأنه تعالى هو الغني عن شكركم ، الحميد المستوجب الحمد على ما أسبغ من نعمه ، وإن لم يحمده الحامدون ، فثمرة شكركم إنما هي عائدة إليكم .

وأنتم خطاب لقومه وقال : ومن في الأرض يعني : الناس كلهم ، لأنّ من كان في العالم العلوي وهم الملائكة لا يدخلون في من في الأرض ، وجواب أنْ تكفروا محذوف لدلالة المعنى التقدير : فإنما ضرر كفركم لاحق بكم ، والله تعالى متصف بالغني المطلق .

والحمد سواء .

(194/416)

---

كفروا أم شكروا ، وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم ، وتعظيم لله تعالى ، وكذلك في ذكر هاتين الصفتين .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾

الظاهر أن هذا من خطاب موسى لقومه .

وقيل : ابتداء خطاب من الله لهذه الأمة ، وخبر قوم نوح وعاد وثمود قد قصه الله في كتابه ، وتقدم في الأعراف وهود ، والهمزة في ألم للتقرير والتوبيخ .

والظاهر أنّ والذين في موضع خفض عطفاً على ما قبله ، إما على الذين ، وإما على قوم نوح وعاد وثمود .

قال الزمخشري : والجملة من قوله : لا يعلمهم إلا الله ، اعتراض والمعنى : أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله انتهى .

وليست جملة اعتراض ، لأنّ جملة الاعتراض تكون بين جزءين ، يطلب أحدهما الآخر .

وقال أبو البقاء : تكون هذه الجملة حالاً من الضمير في من بعدهم ، فإن عنى من الضمير المجرور في بعدهم فلا يجوز لأنه حال مما جر بالإضافة ، وليس له محل إعراب من رفع أو نصب ، وإن عنى من الضمير المستقر في الجار والمجرور النائب عن العامل أمكن .

وقال أبو البقاء : أيضاً ويجوز أن يكون مستأنفاً ، وكذلك جاءتهم .

وأجاز الزمخشري وتبعه أبو البقاء : أن يكون والذين مبتدأ ، وخبره لا يعلمهم إلا الله .

وقال الزمخشري : والجملة من المبتدأ والخبر وقعت اعتراضاً انتهى .

وليست باعتراض ، لأنها لم تقع بين جزءين : أحدهما يطلب الآخر .

والضمير في جاءتهم عائد على الذين من قبلكم ، والجملة تفسيرية للنبأ .

والظاهر أنّ الأيدي هي الجوارح ، وأنّ الضمير في أيديهم وفي أفواههم عائد على الذين جاءتهم الرسل .

وقال ابن مسعود ، وابن زيد أي : جعلوا ، أي : أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم ليعضوها

غيظاً مما جاءت به الرسل .

وقال ابن زيد : عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .

والعض بسبب مشهور من البشر .

وقال الشاعر :

قد أفنى أنامله أزمة . . .

(195/416)

---

وأضحى يعض على الوظيفا

وقال آخر :

لو أن سلمى أبصرت تخددي . . .

ودقة في عظم ساقي ويدي

وبعد أهلي وجفاء عوّدي . . .

عضت من الوجد بأطراف اليد

وقال ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم .

وقال أبو صالح : لما قال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أنا رسول الله إليكم ،

وأشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أنْ اسكت تكذيباً له، ورداً لقوله، واستبشاعاً لما جاء به.

وقيل: ردّوا أيديهم في أفواههم ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه.

وقيل: أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: إنا كفرنا بما أرسلتم به أي: هذا جواب لكم ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق.

وقيل: الضميران عائدان على الرسل قاله: مقاتل، قال: أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم.

وقال الحسن وغيره: جعلوا أيدي أنفسهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم، وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم، فعلى هذا الضمير في أيديهم عائد على الكفار، وفي أيديهم عائد على الرسل.

وقيل: المراد بالأيدي هنا النعم، جمع يد المراد بها النعمة أي: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجلّ النعم من مواعظهم ونصائحهم، وما أوحي إليهم من الشرائع والآيات في أفواه الأنبياء، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها في أفواههم، ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل.

وقيل: الضمير في أفواههم على هذا القول عائد على الكفار، وفي بمعنى الباء أي: بأفواههم، والمعنى: كذبوهم بأفواههم.

وفي بمعنى الباء يقال : جلست في البيت ، وبالبيت .

وقال الفراء : قد وجدنا من العرب من يجعل في موضع الباء فتقول : أدخلك الله الجنة ، وفي الجنة .

وأنشد :

وارغب فيها من لقيط ورهطه . . .

ولكني عن شنبس لست أرغب

يريد : أرغب بها .

وقال أبو عبيدة : هذا ضرب مثل أي : لم يؤمنوا ولم يجيبوا .

(196/416)

---

والعرب تقول للرجل إذا سكت عن الجواب وأمسك : رد يده في فيه ، وقاله الأخفش أيضاً .

وقال القتبي : لم يسمع أحد من العرب يقول : رد يده في فيه إذا ترك ما أمر به انتهى .

ومن سمع حجة على من لم يسمع هذا أبو عبيدة والأخفش نقلا ذلك عن العرب ، فعلى ما قاله أبو عبيدة يكون ذلك من مجاز التمثيل ، كان الممسك عن الجواب الساكت عنه وضع

يده فيه .

وقد رد الطبري قول أبي عبيدة وقال : إنهم قد أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، ولا يرد ما قاله الطبري ، لأنه يريد أبو عبيدة أنهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضي الذي يقتضيه مجيء الرسل بالبينات ، وهو الاعتراف بالإيمان والتصديق للرسل .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يتجوز في لفظة الأيدي أي : أنهم ردوا قوتهم ومدافعتهم ومكافحتهم فيما قالوا بأفواههم من التكذيب ، فكان المعنى : ردوا جميع مدافعتهم في أفواههم أي : في أقوالهم ، وعبر عن جميع المدافعة بالأيدي ، إذ الأيدي موضع أشد المدافعة والمرادة انتهى .

بادروا أولاً إلى الكفر وهو التكذيب المحض ، ثم أخبروا بأنهم في شك وهو التردد ، كأنهم نظروا بعض نظر اقتضى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردد ، أو هما قولان من طائفتين : طائفة بادرت بالتكذيب والكفر ، وطائفة شكت ، والشك في مثل ما جاءت به الرسل كفر .

وقرأ طلحة : مما تدعونا بإدغام نون الرفع في الضمير ، كما تدغم في نون الوقاية في مثل : أتحاجوني والمعنى : مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله .

ومريب صفة توكيدية ، ودخلت همزة الاستفهام الذي معناه الإنكار على الظرف الذي هو

خبر عن المبتدأ ، لأنّ الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه ، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(197/416)

---

وقال الثعالبى :

وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . ﴾ الآية : «تأَذَّن» : بمعنى آذَنَ ، أي : أعلم .

قال بعضُ العلماء : الزيادةُ على الشُّكر ليستْ في الدنيا ، وإِنما هي مِنْ نعم الآخرة ، والدنيا أهْوَنُ من ذلك .

قال *ع* : وجائزٌ أن يزيدَ اللّه المؤمِنَ على شُكْره من نعمِ الدنيا والآخرة ، «والكُفْر» : هنا : يحتمل أن يكون على بابه ، ويحتمل أنْ يكون كفرَ النِّعَمِ ، لا كُفْرَ الجَحْد ، وفي الآية ترجيةٌ وتخويفٌ ، وحكى الطبريُّ عن سفيان وعن الحسن ؛ أنهما قَالاَ : معنى الآية : لَئِنْ شكرتم لأَزيدنكم مِنْ طاعتي .

قال *ع* : وضعَّفه الطبريُّ ، وليس كما قال ، بل هو قويٌّ حَسَنٌ ، فتأَمَّلْهُ .

*ت* : وتضعيفُ الطبريِّ بيِّن ؛ من حيثُ التخصيصُ ، والأصل التعميمُ .

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾: هذا أيضاً من التذكير بأيام الله، وقوله سبحانه: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾: قيل: معناه: رَدُّوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم؛ إشارةً على الأنبياء بالسُّكوت، وقال الحسن: رَدُّوا أيدي أنفسهم في أفواه الرسُل تسكيتاً لهم، وهذا أشنَعُ في الرَّدِّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(198/416)

---

وقال أبو السعود:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾

من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوفٌ على نعمةَ الله أي اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذّن ربكم أي آذن إيذاناً بليغاً لا تبقى معه شائبةٌ لِما في صيغة التفعّل من معنى التكلف المجعولِ في حقه سبحانه على غايته التي هي الكمالُ، وقيل: هو معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾، أي اذكروا نعمتَه تعالى في هذين الوقتين فإن هذا التأذنَ أيضاً نعمةٌ من الله تعالى عليهم ينالون بها خيري الدنيا والآخرة، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وإذا قال ربكم.

ولقد ذكّرهم عليه الصلاة والسلام أولاً بنعمائه تعالى عليهم صريحاً وضمنّه تذكيرَ ما

أصابهم قبل ذلك من الضراء ، ثم أمرهم ثانياً بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر ، والمرادُ بتذكير الأوقات تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث مفصلةً إذ هي محيطةٌ بذلك فإذا ذُكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهَدٌ معايَن ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ يا بني إسرائيلَ ما خوّلتُكم من نعمة الإنجاء وإهلاكِ العدوّ وغير ذلك من النعم والآلاءِ الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ نعمةً إلى نعمة ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ذلك وغمِصتموه ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ، ومن عادة الكرام التصريحُ بالوعد والتعريضُ بالوعيد فما ظنُّك بأكرم الأكرمين ؟ ويجوز أن يكون المذكورُ تعليلاً للجواب المحذوفِ أي لأعذبنكم واللامُ في الموضعين موطئةٌ للقسم وكلٌّ من الجوابين سادٌّ مسدَّ جوابي الشرط والقسم ، والجملةُ إما مفعولٌ لتأذن لأنه ضربٌ من القول أو لقول مقدر بعده ، كأنه قيل : وإذ تأذن ربكم فقال ، الخ .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا ﴾

نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿ أَنتُمْ ﴾ يا بني إسرائيلَ ﴿ وَمَن فِى الأَرض ﴾ من الخلائق ﴿ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ ﴾ عن شكركم وشكرِ غيرِكم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ مستوجبٌ للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وإن لم يحمَدْه أحد ، أو محمودٌ يحمَده الملائكةُ بل كلُّ ذرةٍ من ذرات العالم ناطقةٌ بحمده ، والحمدُ حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدلَّ على كماله سبحانه ، وهو تعليلٌ لما حُذف من جواب إن ، أي إن تكفروا لم يرجِعْ وبالُه إلا عليكم فإن الله تعالى لغنيٌّ عن شكر الشاكرين ، ولعله عليه الصلاة والسلام إنما قاله عند ما عاين منهم دلائلَ العِناد ومخايلَ الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيبُ ولا التعريضُ بالترهيب ، أو قاله غِبَّ تذكيرِهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقاً لمضمونه وتحذيراً لهم من الكفران ثم شرَع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الخالية فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ليتدبروا ما أصاب كلَّ واحد من حزبي المؤمن والكافر فيُقلعوا عما هم عليه من الشر ويُنيبوا إلى الله تعالى ، وقيل : هو ابتداءُ كلامٍ من الله تعالى خطاباً للكفرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيختصّ تذكيرُ موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببني إسرائيلَ من السراء والضراء ، والأيامُ بالأيام الجاريةِ عليهم فقط ، وفيه ما لا يخفى من البعد ، وأيضاً لا يظهر حينئذ وجهُ تخصيصِ تذكيرِ الكفار الذين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوةٌ لهم في الخلوّ قبل هؤلاء ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ بدل من الموصول أو عطفُ بيان ﴿ وَعَادٌ ﴾ معطوفٌ على قوم

نوح ﴿ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد هؤلاء المذكورين عطفٌ عامٌ على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ اعتراضٌ أو الموصول مبتدأٌ ولا يعلمهم إلى آخره خبرُه

(200/416)

---

، والجملةُ اعتراضٌ ، والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددَهم إلا الله سبحانه . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بين عدنانَ وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون . وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا قرأ هذه الآية قال : كذَبَ النسّابون يعني أنهم يدّعون علم الأنساب وقد نفى الله تعالى علمَها عن العباد ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ استئنافٌ لبيان نَبَئِهم ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات الظاهرةِ والبيناتِ الباهرة فبيّن كلُّ رسول لأمته طريقَ الحق وهداهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ مشيرين بذلك إلى ألسنتهم وما يصدُر عنها من المقالة اعتناءً منهم بشأنها وتنبيهاً للرسل على تلقّيها والمحافظةِ عليها وإقناطاً لهم عن التصديق والإيمان بإعلام أن لا جوابَ سواه .

(201/416)

﴿ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي على زعمكم وهي البيناتُ التي أظهروها حجةً على صحة رسالاتِهم كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ ومرادُهم بالكفر بها الكفرُ بدِلالتها على صحة رسالاتِهم ، أو فعضّوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل كقوله تعالى : ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الانامل مِنَ الغيظ ﴾ أو وضعوها عليها تعجباً منه واستهزاءً به كمن غلبه الضِّحْكُ أو إسكاتاً للأنبياء عليهم السلام وأمراً لهم بإطباق الأفواه ، أو ردّوها في أفواه الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقاً أو تمثيلاً ، أو جعلوا أيديَ الأنبياء في أفواههم تعجباً من عُتوّهم وعِنادهم كما ينبىء عنه تعجّبهم بقولهم : ﴿ أَفِى الله شَكٌّ ﴾ وقيل : الأيدي بمعنى الأيادي عبر بها عن مواعظهم ونصائِحهم وشرائعهم التي هي مدارُ النعم الدينية والدنيوية لأنهم لما كذّبوها فلم يقبلوها فكأنهم ردّوها إلى حيث جاءت منه ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكّ ﴾ عظيم ﴿ مّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد فلا يُنافي شكُّهم في ذلك كفرَهم القطعيَّ بما أرسل به الرسل من البينات فإنهم كفروا بها قطعاً حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس المعجزات ولذلك قالوا : فأتونا بسلطان مبين ، وقرىء تدّعون بالإدغام ﴿ مُرِيبٍ ﴾ مُوقعٍ في الريبة من أرابه ، أو ذي ريبة من أراب الرجلُ وهي قلقُ النفس وعدم اطمئنانها بالشيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾

داخل في مقول موسى عليه السلام لا كلام مبتدأ ، وهو معطوف على نعمة الله أي اذكروا نعمة الله تعالى عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أي آذن إيذاناً بليغاً وأعلم إعلاماً لا يبقى معه شبهة لما في صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول في حقه تعالى لاستحالة حقيقته عليه سبحانه على غايته التي هي الكمال ، وجوز عطفه على ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾ أي اذكروا نعمته تعالى في هذين الوقتين فإن هذا التأذن أيضاً نعمة من الله تعالى عليهم لما فيه من الترغيب والترهيب الباعثين إلى ما ينالون به خيري الدنيا والآخرة ، وفي قراءة ابن مسعود ﴿ وَإِذْ قَالَتْ رَبُّكُمْ ﴾ ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ ما خولتكم من نعمة الإنجاء من إهلاك وغير ذلك وقابلتموه بالإيمان أو بالثبات عليه أو الإخلاص فيه والعمل الصالح ﴿ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي نعمة إلى نعمة فإن زيادة النعمة ظاهرة في سبق نعمة أخرى ، وقيل : يفهم ذلك أيضاً من لفظ الشكر فإنه دال على سبق النعم فليس الزيادة لمجرد الاحداث ، والظاهر على ما قيل إن هذه الزيادة في الدنيا ، وقيل : يحتمل أن تكون في الدنيا وفي الآخرة وليس ببعيد ، وعن

ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم في الثواب ، وعن الحسن .
وسفيان الثوري أن المعنى لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من طاعتي ، والكل خلاف
الظاهر .

(203/416)

---

وذكر الإمام أن حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه ، وبيان زيادة النعم به أن
النعم منها روحانية ومنها جسمانية والشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى
وأنواع فضله وكرمه وذلك يوجب تأكد محبة الله تعالى المحسن عليه بذلك ومقام المحبة أعلى
مقامات الصديقين ، ثم قد يترقى العبد من تلك الحالة إلى أن يكون حبه للمنعم شاغلاً له
عن الالتفات إلى النعمة وهذه أعلى وأغلى فثبت من هذا أن الاشتغال بالشكر يوجب
زيادة النعم الروحانية ، وكونه موبجاً لزيادة النعم الجسمانية فللاستقراء الدال على أن كل من
كان اشتغاله بالشكر أكثر كان وصول النعم إليه أكثر وهو كما ترى ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ذلك
وغمطتموه ولم تشكروه كما تدل عليه المقابلة ، وقيل : المراد بالكفر ما يقابل الإيمان كأنه
قيل : ولئن أشركتم ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ، ومن عادة
الكرام غالباً التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الأكرمين ، فلذا لم يقل

سبحانه : إن عذابي لكم لأعذبنكم كما قال جل وعلا : ﴿ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

وجوز أن يكون المذكور تعليلاً للجواب المحذوف أي لأعذبنكم ، وبين الإمام وجه كون كفران النعم سبباً للعذاب أنه لا يحصل الكفران إلا عند الجهل بكون تلك النعمة من الله تعالى ؛ والجاهل بذلك جاهل بالله تعالى والجهل به سبحانه من أعظم أنواع العذاب .

والآية مما اجتمع فيها القسم والشرط فالجواب ساد مسد جوابيهما ، والجملة إما مفعول لتأذن لأنه ضرب من القول أو مفعول قول مقدر منصوب على الحال ساد معموله مسده أي قائلاً لئن شكرتم الخ ، وهذان مذهبان مشهوران للكوفية والبصرية في أمثال ذلك .

(204/416)

---

واستدل بالآية على أن شكر المنعم واجب وهو مما أجمع عليه السنيون والمعتزلة إلا أن الأولين على وجوبه شرعاً والآخرين على وجوبه عقلاً ، وهو مبني على قولهم بالحسن والقبح العقليين ، وقد هد أركانه أهل السنة ، على أنه لو قيل به لم يكد يتم لهم الاستدلال بذلك في هذا المقام كما بين في محله .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لهم : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ نعمه سبحانه ولم تشكروها ﴿ أَنتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ وَمَن فِى الأَرْضِ ﴾ من الناس وقيل من الخلائق ﴿ جَمِيعاً ﴾ لم يتضرر

هو سبحانه وإنما يتضرر من يكفر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴾ عن شكركم وشكرهم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ مستوجب للحمد بذاته تعالى لكثرة ما يوجبه من أياديه وإن لم يحمده أحد أو محمود تحمده الملائكة عليهم السلام بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده ، والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله جل وعلا ، وهو تعليل لما حذف من جواب ﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ كما أشرنا إليه ، ثم إن موسى عليه السلام بعد أن ذكرهم أولاً بنعمائه تعالى عليهم صريحاً وضمنه بذكر ما أصابهم من الضراء ، وأمرهم ثانياً بذكر ما جرى منه سبحانه من الوعد بالزيادة على الشكر والوعيد بالعذاب على الكفر وحقق لهم مضمون ذلك ، وحذرهم من عند نفسه عن الكفران ثالثاً لما رأى منهم ما يوجب ذلك شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الأمم الدارجة فقال :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾

ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبي المؤمن والكافر فيتم له عليه السلام مقصوده منهم .



---

وجوز أن يكون من تتمة قوله عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُواْ ﴾ [ إبراهيم : 8 ] الخ على أنه كالبيان لما أشير إليه في الجواب من عود ضرر الكفران على الكافر دونه عز وجل ، وقيل :

هو من كلامه تعالى جيء تتمة لقوله سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ [ إبراهيم : 7 ] الخ وبياناً لشدة عذابه ونقل كلام موسى عليه السلام معترض في البين وهو كما ترى ، وقيل : هو ابتداء كلام منه تعالى مخاطباً به أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما ذكر إرساله عليه الصلاة والسلام بالقرآن وقص عليهم من قصص موسى عليه الصلاة والسلام مع أمته ولعل تخصيص تذكيرهم بما أصاب أولئك المعدودين مع قرب غيرهم إليهم للإشارة إلى أن إهلاكه تعالى الظالمين ونصره المؤمنين عادة قديمة له سبحانه وتعالى ، ومن الناس من استبعد ذلك .

﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ بدل من الموصول أو عطف بيان ﴿ وَعَادٌ ﴾ معطوف على قوم نوح ﴿ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد هؤلاء المذكورين عطف على قوم نوح وما عطف عليه ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ اعتراض أو الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره وجملة المبتدأ وخبره اعتراض ، والمعنى على الوجهين أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومعنى الاعتراض على الأول ألم يأتكم أنباء الجم الغفير الذي لا يحصى كثرة فتعتبروا بها إن في ذلك لمعتبراً ، وعلى الثاني هو ترق ومعناه ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى عددهم كأنه يقال : دع التفصيل فإنه لا مطمع في الحصر ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل ولذا جعله الزمخشري أول الوجهين ، وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : بين عدنان وإسماعيل عليه السلام ثلاثون أباً لا يعرفون ، وعن ابن

مسعود رضي الله تعالى عنه أنه إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد أظهر فيه على ما قيل .

(206/416)

---

ومن هنا يعلم أن ترجيح الطيبي الوجه الأول بما رجحه به ليس في محله : واعترض أبو حيان القول بالاعتراض بأنه لا يكون إلا بين جزئين يطلب أحدهما الآخر وما ذكر ليس كذلك ، ومنع بأن بين المعترض بينهما ارتباطاً يطلب به أحدهما الآخر لأنه يجوز أن تكون الجملة الآتية حالاً بتقدير قد والاعتراض يقع بين الحال وصاحبها ، فليس ما ذكر مخالفاً لكلام النحاة ، ولو سلم أنها ليست بحالية فما ذكروه هنا على مصطلح أهل المعاني وهم لا يشترطون الشرط المذكور ، حتى جوزوا أن يكون الاعتراض في آخر الكلام كما صرح به ابن هشام في "المغني" ، مع أن الجملة الآتية مفسرة لما في الجملة الأولى فهي مرتبطة بها معنى ، واشتراط الارتباط الإعرابي عند النحاة غير مسلم أيضاً فتأمل .

وجعل أبو البقاء جملة ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ على تقدير عطف الموصول على ما قبل حالاً من الضمير في ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ .

وجوز الاستئناف ، ولعله أراد بذلك الضمير المستقر في الجار والمجرور لا الضمير المجرور

بالإضافة لفقد شرط مجيء الحال منه ، وجوز على تقدير كون الموصول مبتدأ كون تلك الجملة خبراً وكونها حالاً والخبر قوله تعالى : ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ والكثير على أنه استئناف لبيان نبأهم ﴿ بالبينات ﴾ بالمعجزات الظاهرة ، فبين كل رسول منهم لأمته طريق الحق وهداهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي على زعمكم ، وهي البينات التي أظهروها حجة على صحة رسالتهم .

(207/416)

---

ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم أو الكتب والشرائع ، وحاصله أنهم أشاروا إلى جوابهم هذا كأنهم قالوا : هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق ، وهذا كما يقع في كلام الخاطبين أنهم بشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه أو يقرونه قم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب ، فضمير ﴿ أَيْدِيَهُمْ ﴾ إلى الكفار ، والأيدي على حقيقتها ، والرد مجاز عن الإشارة وهي تحتمل المقارنة والتقدم والتأخر ، وقال أبو صالح : المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك للرسل عليهم السلام أن يكفوا ويسكتوا عن كلامهم كأنهم قالوا : اسكتوا فلا ينفعكم الإكثار ونحن مصرون على

الكفلا لا نقلع عنه :

فكم أنا لا أصغي وأنت تطيل . . .

فالضميران للكفار أيضاً وسائر ما في النظم على حقيقته .

وأخرج ابن المنذر .

والطبراني .

والحاكم وصححه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن المراد أنهم عضوا أيديهم غيظاً من شدة نفرتهم من رؤية الرسل وسماع كلامهم ، فالضميران أيضاً كما تقدم ، واليد والفم على حقيقتهما ، والرد كناية عن العض ، ولا ينافي الحقيقة كون المعضوض الأنامل كما في قوله تعالى : ﴿ خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الانامل مِنَ الغيظ ﴾ [ آل عمران : 119 ] فإن من عض موضعاً من اليد يقال حقيقة إنه عض اليد ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان المراد أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم تعجباً مما جاء به الرسل عليهم السلام ، وهذا كما يضع من غلبه الضحك يده على فيه ، فالضميران وسائر ما في النظم كما في القول الثاني ، وجوز أن يرجع الضمير في ﴿ أَيْدِيهِمْ ﴾ إلى الكفار وفي ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ إلى الرسل عليهم السلام ، وفيه احتمالان .

الأول أنهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل عليهم السلام أن اسكتوا ، والآخر أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل عليهم السلام منعاً لهم من الكلام .

وروي هذا عن الحسن ، والكلام يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون استعارة تمثيلية بأن يراد برد أيدي القوم إلى أفواه الرسل عليهم السلام عدم قبول كلامهم واستماعه مشبها بوضع اليد على فم المتكلم لاسكاته .

وظاهر ما في البحر يقتضي أنه حقيقة حيث قال : إن ذلك أبلغ في الرد واذهب في الاستطاله على الرسل عليهم السلام والنيل منهم ، وان يكون الضمير في ﴿ أَيدِيهِمْ ﴾ للكفار وضمير ﴿ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ للرسل عليهم السلام .

والأيدي جمع يد بمعنى النعمة أي ردوا نعم الرسل عليهم السلام التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والأحكام في أفواههم ، ويكون ذلك مثلاً لردها وتكذيبها بأن بأن يشبه رد الكفار ذلك برد الكلام الخارج من الفم فقيل : ردوا أيديهم أي مواعظهم في أفواههم والمراد عدم قبولها ، وقيل : المراد بالأيدي النعم والضمير الأول للرسل عليهم السلام أيضاً لكن الضمير الثاني للكفار على معنى كذبوا ما جاؤوا به بأفواههم أي تكذيباً لا مستند له ، ﴿ وَفِى ﴾ بمعنى الباء ، وقد أثبت الفراء مجيئها بمعناها وأنشد :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه . . .

ولكنني عن سنبس لست أرغب

وضعف حمل الأيدي على النعم بأن مجيئها بمعنى ذلك قليل في الاستعمال حتى أنكره بعض أهل اللغة وإن كان الصحيح خلافه ، والمعروف في ذلك الأيادي كما في قوله :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي . . .

أيادي لم تمنن وان هي جلت

وبأن الرد والأفواه يناسب إرادة الجارحة ، وقال أبو عبيدة الضميران للكفار والكلام ضرب مثل أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للجرل إذا سكت عن الجواب وأمسك رديده في فيه ، ومثله عن الأخفش .

وتعقبه القتبى بأنا لم نسمع أحداً من العرب يقول رد فلان يده في فيه إذا سكت وترك ما أمر به ، وفيه أنهما سمعا ذلك ومن سمع حجة على من لم يسمع ، قال أبو حيان : وعلى ما ذكراه يكون ذلك من مجاز التمثيل كأن الممسك عن اجلواب الساكت عنه وضع يده على فيه .

ورده الطبري بأنهم قد أجابوا بالتكذيب لأنهم قالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ إلى آخره .

وأجيب بأنه يحتمل أن يكون مراد القائل أنهم أمسكوا وسكتوا عن الجواب المرضى الذي يقتضيه مجيء الرسل عليهم السلام إليهم بالبينات وهو الاعتراف والتصديق ، وقال ابن عطية : الضميران للكفار ويحتمل أن يتجوز في الأيدي ويراد منها ما يشمل أنوا المدافعة ، والمعنى ردوا جميع مدافعتهم في أفواههم أي إلى ما قالوا بأفواههم من التكذيب ، وحاصله أنهم لم يجدوا ما يدفعون به كلام الرسل عليهم السلام سوى التكذيب المحض ، وعبر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ هي موضع أشد المدافعة والمرادّة .

وقيل : المراد أنهم جعلوا أيديهم في محل ألسنتهم على معنى أنهم آذوا الرسل عليهم السلام بألسنتهم نحو الإيذاء بالأيدي ، والذي يطابق المقام وتشهد له بلاغة التنزيل هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوى لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل عليهم السلام كل الإنكار جمعوا في الإنكار بين الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا بل عقبول دعوتهم بالتكذيب وصدروا الجملة بإن ، ويلي ذلك على ما في الكشف الوجه الثاني ولا يخفى ما في أكثر الوجوه الباقية فتأمل ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكّ ﴾ عظيم ﴿ مّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من الإيمان والتوحيد ، وبهذا وتفسير ﴿ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ بما ذكر أولاً يندفع ما يتوهم من المنافاة بين جزمهم بالكفر وشكهم هذا ، وقيل في دفع ذلك على تقدير كون متعلقي الكفر والشك واحداً : إن الواو بمعنى أو أي أحد الأمرين لازم وهو أنا كفرنا

جزماً بما أرسلتم به فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه ؛ وأياً ما كان فلا سبيل إلى الإقرار والتصديق ، وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه فكفرنا بمعنى لم نصدق وبذلك فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وذلك لا ينافي الشك .



---

وفي البحر أنهم بادروا أولاً إلى الكفر وهو التكذيب المحض ثم أخبروا أنهم في شك وهو التردد كأنهم نظروا بعض نظر اقتضى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردد أو هما قولان من طائفتين طائفة بادرت بالتكذيب والكفر وأخرى شكت ، والشك في مثل ما جاءت به الرسل عليهم السلام كفر ، وهذا أولى من قرينه ، وقرأ طلحة ﴿ مِّمَّا تَدْعُونَا ﴾ بادغام نون الرفع في نون الضمير كما تدغم في نون الوقاية في نحو ﴿ أتحاجوني ﴾ [ الأنعام : 80 ] ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي موقع في الريبة من أرابني بمعنى أوقعني في ريبة أو ذي ريبة من أراب صار ذا ريبة ، وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء ، وهو صفة توكيدية . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ قد تقدم الكلام في أمثال هذا ، وبيان قول من قال إنه غير متشابه ، وهو إما مبتدأ خبره كتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف ، ويكون ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبراً لمحذوف مقدّر ، أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ ، أو يكون ﴿ الر ﴾ مسروداً على نمط التعديد فلا محلّ له ، و ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ صفة لكتاب : أي أنزلنا الكتاب إليك يا محمد ، ومعنى ﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية .

جعل الكفر بمنزلة الظلمات ، والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة ، واللام في ﴿ لتخرج ﴾ للغرض والغاية ، والتعريف في الناس للجنس ، والمعنى : أنه صلى الله عليه وسلم يخرج بالكتاب المشتمل على ما شرعه الله لهم من الشرائع مما كانوا فيه من الظلمات إلى ما صاروا إليه من النور .

وقيل : إن الظلمة مستعارة للبدعة ، والنور مستعار للسنّة .

وقيل : من الشك إلى اليقين .

ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور ، والباء في ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلقة ب " تخرج " ، وأسند الفعل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه الداعي والهادي والمنذر .

قال الزجاج : بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان ﴿ إِلَى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ هو بدل من ﴿ إلى النور ﴾ بتكرير العامل كما يقع مثله كثيراً ، أي : لتخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد ، وهو طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده ، وأمرهم بالمصير إليها والدخول فيها ، ويجوز أن يكون مستأنفاً بتقدير سؤال ، كأنه قيل : ما هذا النور الذي أخرجهم إليه ؟ فقيل : صراط العزيز الحميد ، والعزيز هو القادر الغالب ، والحميد هو الكامل في استحقاق الحمد .



---

﴿ الله الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض ، وقرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة ، فلا يصح وصف ما قبله به ؛ لأن العلم لا يوصف به .

وقيل : يجوز أن يوصف به من حيث المعنى .

وقال أبو عمر : إن قراءة الجرّ محمولة على التقديم والتأخير ، والتقدير : إلى صراط الله العزيز الحميد .

وكان يعقوب إذا وقف على ﴿ الحميد ﴾ رفع ، وإذا وصل خفض .

قال ابن الأنباري : من خفض وقف على وما في الأرض .

ثم توعد من لا يعترف بربوبيته فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدم بيان معنى الويل ، وأصله النصب .

كسائر المصادر ، ثم رفع للدلالة على الثبات .

قال الزجاج : هي كلمة تقال للعذاب والهلكة ، فدعا سبحانه وتعالى بذلك على من لم يخرج من الكفار بهداية رسول الله صلى الله عليه وسلم له بما أنزله الله عليه من العذاب الشديد الذي صاروا فيه .

ثم وصف هؤلاء الكفار بقوله : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا ﴾ أي : يؤثرونها لمحبتهم لها ﴿ على الآخرة ﴾ الدائمة والنعيم الأبدي .

وقيل : إن الموصول في موضع رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هم الذين .

وقيل : الموصول مبتدأ وخبره أولئك ، وجملة ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ وكذلك ﴿ ويبغون ﴾ معطوفتان على ﴿ يستحبون ﴾ ، ومعنى الصدّ ﴿ عن سبيل الله ﴾ صرف الناس عنه ومنعهم منه ، وسبيل الله دينه الذي شرعه لعباده ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي : يطلبون لها

زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، والعوج بكسر العين في المعاني وبفتح العين في الأعيان ، وقد سبق تحقيقه .

والأصل : يبغون لها .

(213/416)

---

فحذف الحرف وأوصل الفعل إلى الضمير ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال ، ولهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ ﴾ والإشارة إلى الموصوفين بتلك الصفات القبيحة والبعد وإن كان من صفة الضال لكنه يجوز وصف الضلال به مجازاً لقصد المبالغة .

ثم لمّا منّ على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسل ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل بلسان قومه فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي : متلبساً بلسانهم ، متكلماً بلغتهم ؛ لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ، ولا يفهمون ما يخاطبهم به ، حتى يتعلموا ذلك اللسان دهراً طويلاً ، ومع ذلك فلا بدّ أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة ؛ ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أي

: ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة .

وقد قيل : في هذه الآية إشكال ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس جميعاً ، بل إلى الجنّ والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة .

وأجيب بأنه وإن كان صلى الله عليه وسلم مرسلاً إلى الثقلين كما مرّ لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخصّ به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ، ويوضحونه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه ، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم ، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحاً لباب التنازع ؛ لأن كل أمة قد تدّعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وربما كان ذلك أيضاً مفضياً إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون .



---

وجملة ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ مستأنفة أي : يضلّ من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته .

قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأوّل فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، فيكون معنى هذه الآية : وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها ، ومع ذلك فإن المضلّ والهادي هو ، الله عزّ وجلّ ، والبيان لا يوجب حصول الهداية إلاّ إذا جعله الله سبحانه واسطة وسبباً ، وتقديم الإضلال على الهداية لأنه متقدّم عليها ، إذ هو إبقاء على الأصل ، والهداية إنشاء ما لم يكن ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ الذي لا يغالبه مغالب ﴿ الحكيم ﴾ الذي يجري أفعاله على مقتضى الحكمة .

ثم لما بيّن أن المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلاّ ذلك ، وخصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المحمدية فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بئَايَاتنا ﴾ أي : متلبساً بها ، والمراد بالآيات : المعجزات التي لموسى ، ومعنى ﴿ أَنْ أَخْرِجْ ﴾ أي : أخرج ، لأن الإرسال فيه معنى القول ، ويجوز أن يكون التقدير بأن أخرج ، والمراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون .

﴿ مِنَ الظلمات ﴾ من الكفر أو من الجهل الذي قالوا بسببه : ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [ الأعراف : 138 ] .

﴿ إِلَى النور ﴾ إلى الإيمان ، أو إلى العلم ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ أي : بوقائعه .

قال ابن السكيت : العرب تقول الأيام ، في معنى الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أي : بوقائعها .

(215/416)

---

وقال الزجاج : أي ذكرهم بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود ، والمعنى : عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي : في التذكير بأيام الله ، أو في نفس أيام الله ﴿ لآيَاتٍ ﴾ لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة ﴿ لّكُلّ صَبَّارٍ ﴾ أي : كثير الصبر على المحن والمنح ﴿ شَكُورٍ ﴾ كثير الشكر للنعم التي أنعم الله بها عليه .

وقيل : المراد بذلك كل مؤمن ، وعبّر عنه بالوصفين المذكورين ؛ لأنهما ملاك الإيمان ، وقدّم الصبار على الشكور ؛ لكون الشكر عاقبة الصبر .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ قال : من الضلالة إلى الهدى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿ يَسْتَحِبُّونَ ﴾ قال : يختارون .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن

مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : إن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قيل : ما فضله على أهل السماء ؟ قال : إن الله قال لأهل السماء : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلهٌ مِّن دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنبياء : 29 ] وقال لمحمد : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

[ الفتح : 2 ] .

فكتب له براءة من النار .

قيل : فما فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ ، وقال لمحمد : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [ سبأ : 28 ] فأرسله إلى الإنس والجنّ .

وأخرج ابن مردويه عن عثمان بن عفان ﴿ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ قال : نزل القرآن بلسان قريش .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد وعطاء وعبيد بن عمير في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ قال: بالآيات التسع الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى.

وأخرج النسائي، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: " ﴿ وَذَكّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ قال: " بنعم الله وآلائه " وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَذَكّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ قال: نعم الله.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَذَكّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ قال: وعظهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية قال: بوقائع الله في القرون الأولى.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾

أي : آذن وأعلم إعلاماً بليغاً - من جملة ما قال موسى لقومه - : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ أي : نعمه ، بصرفها إلى ما خُلقت له . كالعقل إلى تصحيح الاعتقاد فيه واستعمال سائر النعم بمقتضاه : ﴿ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي : من النعم : ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ فيصيبكم منه ما يسلب تلك النعم ويحل أشد النقم .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ أي : لقومه : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي : غني عن شكر عباده ، المحمود بأجلّ المحامد . وإن كفره من كفره . وهو تعليل لما حذف من جواب ( إن ) أي : إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم ، فإن الله لغني عن شكر الشاكرين .

وفي " صحيح مسلم " عن أبي ذر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : أنه قال : < يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت

كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر >

فسبحانه من غني حميد .

(218/416)

---

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أي : في مؤاخذة من كفر : ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أي : مع كثرتهم : ﴿ وَعَادٍ ﴾ أي : مع غاية قوتهم : ﴿ وَثَمُودَ ﴾ مع كثرة تحصنهم وصنائعهم : ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه ، يعني : وتذكاره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل .

قال ابن كثير : وفيما قال ابن جرير نظر ؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؛ فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه لقصَّه عليهم ، ولا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان في التوراة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف ( الذين ) على قوم نوح ، و : ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ ﴾ الخ اعتراض ، ومعنى

الاعتراض على الثاني : ألم يأتكم أنباء الجم الغفير الذي لا يحصى كثرة فتعتبروا بها ؟ إن في ذلك لمعتبراً . وعلى الأول : فهو ترق ، ومعناه : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى بعدهم ؟ كأنه يقول : دع التفصيل فإنه لا مطمع فيه ، وفيه لطف لإيهام الجمع بين الإجمال والتفصيل .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يحتمل الأيدي والأفواه أن يكونا الجارحتين المعروفتين . وأن يكونا من مجاز الكلام . وفي الأول وجوه :

(219/416)

---

أي : ردوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل ، كقوله : ﴿ عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عِمْرَان : من الآية 119 ] ، أو وضعوها على أفواههم ضحكاً واستهزاءً كمن غلبه الضحك . أو وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن يكفوا ويسكتوا . أو أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل أن اسكتوا . و ( في ) بمعنى ( إلى ) أو وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام ، أو أنهم أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم . ومن بالغ في منع غيره من الكلام ؛ فقد يفعل به ذلك . أو أشاروا بأيديهم إلى جوابهم وهو قولهم : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ أي : هذا جوابنا الذي نقوله بأفواهنا ، والمراد إشارتهم إلى كلامهم كما يقع في كلام المتخاطبين ، أنهم

يشيرون إلى أن هذا هو الجواب ثم يقررونه ، أو يقررون ثم يشيرون بأيديهم إلى أن هذا هو الجواب . قيل : وهو أقوى الوجوه المتقدمة ؛ لأنهم لما حاولوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، جمعوا في الإنكار بين الفعل والقول . ولذا أتى بالفاء تنبيهاً على أنهم لم يمهلوا ، بل عقبوا دعوتهم بالتكذيب . وفي تصديرهم الجملة بـ ( أن ) ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد .

وفي الثاني – أعني المعنى المجازي – وجوه :

*(220/416)*

---

قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن إسماع الحجة إنعام عظيم ، والإنعام يسمى يداً ، يقال : لفلان عندي يد ، إذا أولاه معروفاً . وقد تذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ الفتح : من الآية 10 ] . فالبينات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعمٌ وأيادٍ ، وأيضاً العهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أيادٍ ، وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي ، وفي العدد الكثير الأيادي . فثبت أن بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي . وإذا كانت النصائح والعهود إنما تظهر من الفم ،

فإذا لم تقبل صارت مردودة إلى حيث جاءت ، ونظير قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [ النور : من الآية 15 ] ، فلما كان القبول تلقياً بالأفواه عن الأفواه كان الدفع رداً في الأفواه . انتهى .

وفي " الرازي " تتمة الأوجه فانظرها إن شئت .

قال في " العناية " : فإن قلت : قولهم : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ جزم بالكفر لا سيما وقد أكد بـ ( إن ) ، فقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ ﴾ ينافيه ، قلت : أجيب بأن الواو بمعنى أو ، أي : أحد الأمرين لازم وهو : إنا كفرنا جزماً فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه . وأياً ما كان ، فلا سبيل إلى الإقرار . وقيل : إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه ، فكفرنا بمعنى لم نصدق ، وذلك لا ينافي الشك ، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع ، ومتعلق الشك وما يدعونهم إليه من التوحيد مثلاً . انتهى .

أي : فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعي بالأول .

وقوله تعالى : ﴿ مُرِيبٍ ﴾ بمعنى موقع في الريبة ، من ( أرابه ) أوقعه فيها ؛ أو ذي ريبة ، من ( أراب ) : صار ذا ريبة وهي صفة مؤكدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 10 صـ 309.311 ﴾

(222/416)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

عطف على ﴿ إذ أنجاكم من آل فرعون ﴾ فهو من كلام موسى عليه السلام والتقدير :

واذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذّن ربكم لئن شكرتم الخ ، لأن الجزاء عن شكر النعمة بالزيادة منها نعمةٌ وفضل من الله ، لأن شكر المنعم واجب فلا يستحق جزاءً لولا سعة فضل الله .

وأما قوله : ﴿ ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ فجاءت به المقابلة .

ويجوز أن يعطف ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ على ﴿ نعمة الله عليكم ﴾ .

فيكون التقدير : واذكروا إذ تأذن ربكم ، على أن ﴿ إذ ﴾ منصوبة على المفعولية وليست ظرفاً وذلك من استعمالاتها .

وقد تقدم عند قوله تعالى في سورة الأعراف ( 167 ) : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم ﴾ وقوله : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ [ سورة الأعراف : 86 ] .

ومعنى تأذن ربكم ﴾ تكلّم كلاماً عَلَناً ، أي كلم موسى عليه السلام بما تضمنه هذا الذي في الآية بمسمع من جماعة بني إسرائيل .

ولعل هذا الكلام هو الذي في الفقرات ( 20 9 ) من الإصحاح ( 19 ) من "سفر الخروج" ، والفقرات ( 18 1 ، 22 ) من الإصحاح ( 20 ) منه ، والفقرات ( من 20 إلى 30 ) من الإصحاح ( 23 ) منه .

والتأذن مبالغة في الأذان يقال : أذن وتأذّن كما يقال : توعّد وأوعد ، وتفضّل وأفضل .

ففي صيغة تفعّل زيادة معنى على صيغة أفْعَلَ .

وجملة ﴿ لئن شكرتم ﴾ موطئة للقسم والقسم مستعلم في التأكيد .

والشكر مؤذن بالنعمة .

فالمراد : شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها ، ولذلك حذف مفعول ﴿ شكرتم ﴾ ومفعول ﴿ لأزيدنكم ﴾ ليقدر عاماً في الفعلين .

والكفر مراد به كفر النعمة وهو مقابلة المنعم بالعصيان .

وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك ، كما أن الشكر مقابلة النعمة بإظهار العبودية والطاعة .

واستغنى بـ ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ عن ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ [ النمل : 21 ]

لكونه أعم وأوجز ، ولكون إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس .

والمعنى : إن عذابي لشديد لمن كفر فأنتم إذن منهم .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) ﴾

أعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى عليه السلام على بعض لِئَلا يتوهّم أن هذا مما

تأذّن به الرب وإنما هو تنبيه على كلام الله .

وفي إعادة فِعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتى تبرز مستقلة وحتى يصغي إليها

السامعون للقرآن .

ووجه الاهتمام بها أن أكثر الكفار يحسبون أنهم يحسنون إلى الله بإيمانهم ، وأن أنبياءهم

حين يلحّون عليهم بالإيمان إنما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرصَ على مصحلتهم .

فلمّا وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشي أن يحسبوا ذلك

لانتقام المثيب بما أثاب عليه ، ولتضرّره مما عاقب عليه ، فنبّههم إلى هذا الخاطر الشيطاني

حتى لا يسري إلى نفوسهم فيكسبهم إدْلالاً بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر .

و ﴿ أنتم ﴾ فصل بين المعطوف والمعطوف عليه إذ كان هذا المعطوف عليه ضميراً متّصلاً .

و ﴿ جميعاً ﴾ تأكيد لمن في الأرض للتنصيص على العموم .

وتقدم نظيره ونصبه غيرَ بعيد .

والغنيّ : الذي لا حاجة له في شيء ، فدخل في عموم غناه أنه غني عن الذين يكفرون به .

والحميد : المحمود .

والمعنى : أنه محمود من غيركم مستغن عن حمدكم ؛ على أنهم لو كفروا به لكانوا حامدين بلسان حالهم كرهاً ، فإنّ كل نعمة تنالهم فيحمدونها فإنما يحمدون الله تعالى ، كقوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ [ سورة الرعد : 15 ] .

وهذه الآية تضمنت ما في الفقرات ( 30 إلى 33 ) من الإصحاح ( 32 ) من سفر الخروج ﴿ .



---

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾

هذا الكلام استئناف ابتدائيّ رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات

في قوله : ﴿ ألم يأتكم ﴾ ، لأن الموجّه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيون بقوله : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ [ سورة إبراهيم : 2 ] ، وهم معظم المعنيّ من الناس في قوله : ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ [ سورة إبراهيم : 1 ] ، فإنهم بعد أن أُجمل لهم الكلام في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [ سورة إبراهيم : 4 ] الآية ، ثم فُصّل بأن ضُرب المثل للإرسال إليهم لغرض الإخراج من الظلمات إلى النور بإرسال موسى عليه السلام لإخراج قومه ، وقُضي حق ذلك عقبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلهم ، فكان بمنزلة الحوصلة والتذييل مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقلياتهم في حججهم الباطلة وردّ الرسل عليهم بمثل ما رَدّ به القرآن على المشركين في مواضع ، ثم ختم بالوعيد .

والاستفهام إنكاري لأنهم قد بلغتهم أخبارهم ، فأما قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان ، وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضاً بها ، قال تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ [ سورة إبراهيم : 45 ] وقال : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [ سورة الصافات : 137 ] .

والذين من بعدهم ﴾ يشمل أهل مدين وأصحابَ الرس وقومَ تُبّع وغيرَهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلا الله .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ [ سورة الفرقان : 38 ] .

(225/416)

---

وجملة لا يعلمهم إلا الله ﴾ معترضة بين ﴿ والذين من بعدهم ﴾ وبين جملة ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ الواقعة حالاً من ﴿ والذين من بعدهم ﴾ ، وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم الناس بهم .

ومعنى ﴿ جاءتهم رسلهم ﴾ جاءَ كلّ أمة رسولُها .

وضمائر ﴿ ردّوا ﴾ و ﴿ أيديهم ﴾ و ﴿ أفواههم ﴾ عائدٌ جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه .

وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن .

ومعنى ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ يحتمل عدة وجوه أنهاهَا في "الكشاف" إلى سبعة وفي بعضها بُعدٌ ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم .

وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل .

والردّ : مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه كما أشار إليه "الراغب" .

أي وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة رَدّ .

وحرف ﴿ في ﴾ للظرفية المجازية المراد بها التمكين ، فهي بمعنى ﴿ على ﴾ كقوله : ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ [ سورة الزمر : 22 ] .

فمعنى ردّوا أيديهم في أفواههم ﴾ جعلوا أيديهم على أفواههم .

وعطفه بفاء التعقيب مشير إلى أنهم بادروا بردّ أيديهم في أفواههم بفور تلقيهم دعوة رسلهم ، فيقتضي أن يكون ردّ الأيدي في الأفواه تمثيلاً لحال المتعجب المستهزىء ، فالكلام تمثيل للحالة المعتادة وليس المراد حقيقته ، لأن وقوعه خبراً عن الأمم مع اختلاف عوائدهم وإشاراتهم واختلاف الأفراد في حركاتهم عند التعجب قرينة على أنه ما أريد به إلاّ بيان عَربي .

ونظير هذا قوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صَدَقنا وعده وأورثنا الأرض ﴾ [ سورة الزمر : 74 ] ، فميراث الأرض كناية عن حسن العاقبة جرياً على بيان العرب عند تنافس قبائلهم أن حسن العاقبة يكون لمن أخذ أرض عدوّه .

وأكّدوا كفرهم بما جاءت به الرسل بما دلّت عليه إنّ ﴾ وفعل المضيّ في قوله : ﴿ إنا كفرنا ﴾ .

وسموا ما كفروا به مُرسلاً به تهكماً بالرسل ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [ سورة الحجر : 6 ] ، فمعنى ذلك : أنهم كفروا بأن ما جاءوا به مرسل به من الله ، أي كفروا بأن الله أرسلهم .

فهذا مما أيقنوا بتكذيبهم فيه .

وأما قولهم : وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه ﴾ فذلك شك في صحة ما يدعونهم إليه وسداده ، فهو عندهم معرض للنظر وتمييز صحيحه من سقيمه ، فمورد الشك مَا يدعونهم إليه ، ومورد التكذيب نسبة دعوتهم إلى الله .

فمرادهم : أنهم وإن كانوا كاذبين في دعوى الرسالة فقد يكون في بعض ما يدعون إليه ما هو صدق وحقّ فإن الكاذب قد يقول حقّاً .

وجعلوا الشك قوياً فلذلك عبر عنه بأنهم مَظروفون فيه ، أي هو محيط بهم ومتمكن كمال التمكن .

و﴿ مريب ﴾ تأكيد لمعنى ﴿ في شك ﴾ ، والمريب : المُتوقع في الريب ، وهو مرادف الشك ، فوصف الشك بالمريب من تأكيد ماهيته ، كقولهم : لَيل أَلْيَل ، وشِعر شَاعر .

وحذفت إحدى النونين من قوله : ﴿ إنا ﴾ تخفيفاً تجنباً للثقل الناشىء من وقوع نونين

آخرين بعد في قوله : ﴿ تدعوننا ﴾ اللازم ذكرهما ، بخلاف آية سورة هود ( 62 ) ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا ﴾ إذ لم يكن موجب للتخفيف لأن المخاطب فيها بقوله : تدعونا ﴾ واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(227/416)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فردوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ الآية .

اختلف العلماء في معنى هذه الآية الكريمة فقال بعض العلماء معناها أن اولئك الكفار جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوا عليها غيظاً وحنقاً لما جاءت به الرسل إذ كان فيه تسفيه أحلامهم وشتم أصنامهم وممن قال بهذا القول عبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير واستدل له بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ﴾ [ آل عمران : 119 ] الآية وهذا المعنى معروف في كلام العرب ومنه قوله الشاعر :

تردون فه غش الحسود . . . حتى يعض على الأكف

يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه : قال القرطبي ومنه قول الآخر

أيضاً :

قد أفنى أنامله أزمة . . . فأضحى يعض على الوظيفا

أي افنى أنامله وقال الراجز :

لو أن سلمى أبصرت تحذري . . . ودقة بعظم ساقي ويدي

وبهد أهلي وجفاء عودي . . . عضت من الوجد باطراف اليد

وفي الآية الكريمة أقواله غير هذا منها : أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم من العجب . ويروى عن ابن عباس ، ومنها : أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن أسكت تكذيباً له ورداً لقوله . ويروى هذا عن أبي صالح ومنها : أن معنى الآية أنهم ردوا على الرسل قولهم عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب قال ابن جرير وتوجيهه أن في هنا بمعنى الباء قال وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة وقال الشاعر :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه . . . ولكنني عن سنبس لست أرغب

يريد وأرغب بها : قال ابن كثير : ويؤيد هذا القول تغيّر ذلك بتمام الكلام وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [ إبراهيم : 9 ].

قال مقيده – عفا الله عنه : الظاهر عندي خلاف ما استظهر ابن كثير رحمه الله تعالى ، لأن العطف بالواو يقتضي مغايرة ما بعده لما قبله ، فيدل على أن المراد بقوله : ﴿ فردوا أَيدِيَهُمْ ﴾ الآية غير التصريح بالتكذيب بالأفواه والعلم عند الله تعالى . وقيل : المعنى أن الكفارق جعلوا ايديهم في أفواه الرسل على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم ويروى هذا مقاتل وقيل رد الرسل أيدي الكفار في افوههم وقيل غير ذلك فقد رايت الأقوال وما يشهد له القرآن منها والعلم عند الله تعالى .

تنبيه

جمع الفم مكسراً على أفواه يدل على أن أصله فوه فحذفت الفاء والواو وعوضت عنهما الميم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار صرحوا للرسل بأنهم كافرون بهم وأنهم شاكون فيما جاؤوهم به من الوحي وقد نص تعالى على بعضهم بالتعيين أنهم صرحوا بالكفر به وأنهم شاكون فيما يدعوهم إليه كقول قوم صالح له .

﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [ هود : 62 ]

وصرحوا بالكفر به في قوله ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [ الأعراف : 75 – 76 ] ونحو ذلك من الآيات وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر عموم في آية ثم يصرح في ىية أخرى بدخول بعض أفراد ذلك العموم فيه كما هنا وكما تقدم المثال له بقوله تعالى : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله ﴾ [ الحج : 32 ] مع قوله : ﴿ والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ الله ﴾ [ الحج : 36 ] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

*(230/416)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾

ونلحظ أن الآية تبدأ بكلمة " تأذَّن " وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن .

والأذن آلة السماع ، والأذان إعلام ، وآذنهم أي أعلمهم .

وتأذن أي : اعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : أني أعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إنْ شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه ؛ لأن الشكر دليل ارتباط بالواهب ؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإنسان ليطغى * أن رَّآهُ استغنى ﴾ [ العلق : 67 ] .

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ؛ لما فصل الحقَّ عن نعمه ؛ ولظل ذاكراً للحق الذي وهبه النِّعمَ .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعِم ؛ لأن النعمة موهوبة لك ؛ وليستْ ذاتية فيك .

وتأتي المقابلة من بعد ذلك مباشرة ؛ فيقول :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [ إبراهيم : 7 ] .

وهنا يثور سؤال : هل الذي لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلظ من معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [ إبراهيم : 7 ] .

والمثل في ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [آل عمران : 97] .

ومَنْ لم يحج فهو عَاصٍ ؛ وكأن الله يريد أن يُصعّب عدم القيام بالحج . أو : أن الآية تريد حُكْمين : الحكم الأول : الإيمان بفرضية الحج ؛ والثاني : القيام بالحج فعلاً .

*(231/416)*

---

ذلك أن الحق سبحانه قد قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً . . ﴾ [آل عمران : 97] .

فَمنْ يؤمن بأن هذا حُكْم صحيح واجب يؤمن به ولكنه لا يُنفّذه ؛ قد يدخل في المعصية ؛ لأنه يستطيع أن يحُجّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها ؛ فهو كافر والعياذ بالله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 7] .

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولا بُدّ من عذاب للكفر ؛ وعذابُ الله لا بُدّ أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطاق ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا

أَنتُمْ . . . ﴾ .

وقد قال موسى ذلك كي لا يظنّ ظَانٌّ من قومه أن الله في حاجة إلى شكرهم ؛ وأنه سيعاقبهم بالعذاب إنْ كفروا بشكره ؛ فأراد أنْ ينسخَ هذا الظنّ من أذهان مَنْ يسمعونه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً ؛ ولن يضيف هذا الإيمانُ منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشيء عن كمال موجود .

ولذلك يأتي قوله الحق : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . ﴾ .

فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

وهذه الآية الكريمة أعطتْنا تفسيراً لقوله سبحانه : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [ فاطر : 24 ] .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ . . . ﴾ [ غافر : 78 ] .

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى - عليه السلام - أن يُبلغ قومه بقصص بعض من الأنبياء السابقين عليه. وهذا واضح في قوله الحق:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . ﴾ [إبراهيم: 9].

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك:

﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات . . . ﴾ [إبراهيم: 9]

.

أي: أن الرسل قد حملوا منهج الله، وكذلك المعجزات الدالة على صدقهم لِمَنْ جاءوا من بعد ذلك. والبينات إما أن تكون المعجزات الدالة على صدقهم؛ أو: هي الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة التي تنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم.

ولكن هل قَبلَتْ تلك الأقوامُ تلك البيناتِ؟

لا، لأن الحق سبحانه يقول عنهم:

﴿ فردوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . . ﴾ [إبراهيم: 9].

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وضعوا أيديهم على أفواههم، وإما أنهم عَضُّوا على الأيدي بالنواجذ لأنهم لم يُطِيقوا تطبيق منهج الله؛ ولم يستطيعوا التحكُّم في أنفسهم.

أو: أنهم رَدُّوا أيديهم إلى أفواههم بمعنى أن قالوا للرسل: "هس"، أصمتوا ولا تتكلموا بما جِئْتم به من بلاغ. أو: أن بعضهم قال للرسل "لا فائدة من كلامكم في هؤلاء".

والثراء في القرآن يتحمّل كل هذه المعاني ؛ والآية تتسِق فيها كل تلك المعاني ؛ فالعبارة الواحدة في القرآن تكون شاملة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلِمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتي قولهم :

﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ . . . ﴾ [ إبراهيم : 9 ] .

(233/416)

---

ليكشف لنا غباءهم ، فَهُمْ يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفي نفس الوقت يُنكِرون المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [ إبراهيم : 9 ] .

أي : أنهم أعلنوا رأيهم في المنهج ، وقالوا : إنهم مُحيَّرون ويشكُّون في هذا المنهج . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(234/416)

---

"فصل"

قال السيوطي :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ قال : أخبرهم موسى عليه السلام عن ربه عز وجل ، أنهم إن شكروا النعمة ، زادهم من فضله وأوسع لهم في الرزق ، وأظهرهم على العالمين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ وإن تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ قال : حق على الله أن يعطي من سأله ويزيد من شكره ، والله منعم يحب الشاكرين ، فاشكروا لله نِعَمَهُ .

وأخرج ابن جرير عن الحسن – رضي الله عنه – في قوله ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ قال : من طاعتي .

وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن علي بن صالح – رضي الله عنه – مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن سفيان الثوري – رضي الله عنه – في قوله ﴿ لئن

شكرتم لأزيدنكم ﴾ قال : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا ، فإنها أهون على الله من ذلك .

ولكن ، يقول ﴿ لئن شكرتم ﴾ هذه النعمة إنها مني ﴿ لأزيدنكم ﴾ من طاعتي .



---

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإِيمان ، عن أبي زهير يحيى بن عطارد بن مصعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعطي أحد أربعة فمنع أربعة ، ما أعطي أحد الشكر فمنع الزيادة ، لأن الله تعالى يقول ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وما أعطي أحد الدعاء فمنع الإِجابة ، لأن الله يقول ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [ غافر : 29 ] وما أعطي أحد الاستغفار فمنع المغفرة ؛ لأن الله يقول ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ [ نوح : 10 ] وما أعطي أحد التوبة فمنع التقبل ؛ لأن الله يقول ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ [ الشورى : 25 ] "

وأخرج أحمد والبيهقي ، عن أنس - رضي الله عنه - قال : " أتى النبي صلى الله عليه وسلم سائل ، فأمر له بتمرة فلم يأخذها ، وأتاه آخر ، فأمر له بتمرة فقبلها وقال : تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال للجارية : اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها " .

وأخرج البيهقي عن أنس – رضي الله عنه – : " أن سائلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه تمرة ، فقال الرجل : سبحان الله ! . . . نبي من الأنبياء يتصدق بتمرة ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أما علمت أن فيها مثاقيل ذر كثيرة ؟ فأتاه آخر فسأله فأعطاه ، فقال : تمرة من نبي ، لا تفارقني هذه التمرة ما بقيت ، ولا أزال أرجو بركتها أبداً . فأمر له النبي صلى الله عليه وسلم بمعروف ، وما لبث الرجل أن استغنى " .

(236/416)

---

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق مالك بن أنس ، عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال – لما قال له سفيان الثوري – رضي الله عنه – : لا أقوم حتى تحدثني – قال جعفر – رضي الله عنه – : أما أني أحدثك ، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان ، إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقاءها ودوامها ، فأكثر من الحمد والشكر عليها ، فإن الله تعالى قال في كتابه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وإذا استبطأت الرزق ، فأكثر من الاستغفار ، فإن الله تعالى قال في كتابه ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً . يمددكم بأموال وبنين ﴾ [ نوح : 10-11-12 ] يعني في الدنيا والآخرة ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ [ نوح : 12 ] يا سفيان ، إذا أحزنك أمر من

سلطان أو غيره ، فأكثر من لا حول ولا قوّة إلا بالله ، فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع من أعطيهن لم يمنع من الله أربعاً : من أعطي الدعاء لم يمنع الاجابة ، قال الله ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ ومن أعطي الاستغفار لم يمنع المغفرة ، قال الله تعالى ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ ومن أعطي الشكر لم يمنع الزيادة ، قال الله ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن أعطي التوبة لم يمنع القبول ، قال الله ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ [ الشورى : 25 ] " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود – رضي الله عنه – سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من أعطي الشكر لم يحرم الزيادة ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول ؛ لأن الله يقول ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ " .



---

وأخرج البخاري في تاريخ والضياء المقدسي في المختارة ، عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أُلهِمَ خمسة لم يحرم خمسة ، من ألهم

الدعاء لم يحرم الاجابة ؛ لأن الله يقول ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ ومن ألهم التوبة لم يحرم القبول ؛ لأن الله يقول ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن ألهم الاستغفار لم يحرم المغفرة ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ ومن ألهم النفقة لم يحرم الخلف ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ [ سبأ : 29 ] " .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان يقرؤها " وعاداً وثموداً والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله " قال : كذب النسابون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن عمرو بن ميمون - رضي الله عنه - مثله .

وأخرج ابن الضريس ، عن أبي مجلز - رضي الله عنه - قال : قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنا أنسب الناس . قال : إنك لا تنسب الناس . قال : بلى . فقال له علي - رضي الله عنه - أرأيت قوله تعالى ﴿ وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ [ الفرقان : 38 ] اقل : أنا أنسب ذلك الكثير . قال : أرأيت قوله ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ فسكت .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عروة بن الزبير - رضي الله عنه - قال :

ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : بين عدنان وإسماعيل ، ثلاثون أبا لا يعرفون .



---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية قال : لما سمعوا كتاب الله ، عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به ، فإن عندنا فيه شكاً قوياً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال : كذبوا رسلهم بما جاؤوهم من البينات ، فردوه عليهم بأفواههم وقالوا ﴿ إنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ وكذبوا ما في الله عز وجل شك ، أفي من فطر السموات والأرض ؟ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وأظهر لكم من النعم والآلاء الظاهرة ما لا يشك في الله عز وجل .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ فردوا أيديهم في

أفواههم ﴾ قال: ردوا عليهم قولهم وكذبوهم.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال: عضوا عليها. وفي لفظ: عضوا على أناملهم غيظاً على رسلهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال أدخلوا أصابعهم في أفواههم. قال: وإذا غضب الإنسان عض على يده.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن محمد بن كعب القرظي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال: هو التكذيب. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(239/416)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ ﴾ يجوز أن يكون نَسَقاً على ﴿ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾، وأن يكون منصوباً بـ "اذكروا" مفعولاً لا ظرفاً. وجوَّز فيه الزمخشري أن يكون نَسَقاً على "نعمة"

فهو مِنْ قولِ موسى ، والتقدير : وإذ قال موسى : اذكروا نعمةَ الله واذكروا حينَ تَأَذَّن . وقد تقدَّم نظيرُ ذلك في الأعراف . وقرأ ابن محيصن "يَذْبَحون" مخففاً .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ : بدلٌ أو عطفُ [ بيانٍ ] .

قوله : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يجوز أن يكونَ عطفاً على الموصولِ الأول ، او على المبدل منه ، وأن يكونَ مبتدأً ، خبرُه ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ ، و "جاءَتْهُم" خبر آخر . وعلى ما تقدَّم يكون "لا يعلمهم" حالاً من "الذين" ، أو من الضمير في ﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ لوقوعِه صلةً ، وهذا عنى أبو البقاء بقوله : "حال من الضمير في ﴿ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ ، ولا يُريد به الضميرَ المجرورَ ، لأنَّ مذهبَه منعُ الحالِ من المضاف إليه ، وإن كان بعضُهم جوَّزه في صورٍ . وجَوَّز أيضاً هو الزمخشري أن تكونَ استئنافاً .

(240/416)

---

وقال الزمخشري : "والجملةُ مِنْ قولِه ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ اعتراضٌ . وردَّ عليه الشيخ بأنَّ الاعتراضَ إنما يكون بين جُزْأَيْن أحدهما يطلب الآخر ، ولذلك لَمَّا أَعْرَبَ الزمخشريُّ "الذين" مبتدأً و "لا يَعْلَمهم" خبره ، قال : "والجملةُ مِنَ المبتدأ والخبر اعتراضٌ" .

واعترضه الشيخُ أيضاً بما تقدَّم . ويمكنُ أن يُجابَ عنه في الموضعين : بأنَّ الزمخشريَّ يمكن أن يعتقدَ أنَّ " جاءَتْهم " حالٌ مما تقدَّم ، فيكون الاعتراضُ واقعاً بين الحالِ وصاحبِها ، وهذا كلامٌ صحيح .

قوله : ﴿ فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يجوز أن تكونَ الضمائرُ للكفَّار ، أي : فَرَدَّ الكفارُ أيديَهم في أفواههم من الغيظ . و " في " على بابِها من الظرفية ، أو فَرَدُّوا أيديَهم على أفواههم ضحكاً واستهزاءً . ف " في " بمعنى على ، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقوا به من قولِهم : إنَّا كَفَرْنا ، فهي بمعنى إلى . ويجوز أن يكونَ المرفوعُ للكفار والآخران للرسل ، على أن يُراد بالأيدي النِّعَم ، أي : ردُّوا نِعَمَ الرُّسُل وهي نصائحُهم في أفواهِ الرسل ، لأنهم إذا كَذَّبوها كأنهم رَجَعوا بها من حيث جاءَتْ على سبيل المثل . [ ويجوز أن يُراد هذا المعنى ، والمرادُ بالأيدي الجوارح ] . ويجوز أن يكون الأوَّلان للكفار ، والأخيرُ للرسُل ، أي : فَرَدَّ الكفارُ أيديَهم في أفواهِ الرسُل ، أي : أطبِقُوا أفواهَكم ، يشيرون إليهم بالسكوت ، أو وَضَعُوها على أفواههم يمنعونهم بذلك من الكلامِ .

وقيل : " في " هنا بمعنى الباء . قال الفراء : " قد وَجَدْنا من العرب مَنْ يجعل " في " موضعَ الباء . يُقال : أَدْخَلَكَ بالجنَّة ، وفي الجنَّة ، وأنشَد :

2869- وأرغَبُ فيها عن لَقيطٍ ورَهْطِهِ . . . ولكنَّني عن سِنْبِسٍ لستُ أَرغبُ

أي : أرغب بها . وقال أبو عبيدةَ : " هذا ضَرْبُ مَثَلٍ ، تقول العرب : " ردَّ يدَه في فيه " ، إذا أمسكَ عن الجواب " ، وقاله الأخفش أيضاً . وقال القتيبي : " لم نسمعْ أحداً يقول : " رَدَّ يده في فيه " إذا ترَكَ ما أُمِرَ به " . ورُدَّ عليه ، فإنَّ مَنْ حَفِظَ حجةٌ على مَنْ يَحْفَظْ .

وقرأ طلحة " تَدْعُونَّا " بإدغامِ نونِ الرفعِ في نونِ الضميرِ ، كما تُدْغَم في نونِ الوقاية . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 71.74﴾

(242/416)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) ﴾

إن شكرتم لأزيدنكم من إنعامي وإكرامي ، وإن كفرتم بإحساني لأعذبنكم اليوم بامتحاني ، وغداً بفراقي وهجراني .

لئن عرفتم وصالي لأزيدنكم من وجود نوالي إلى شهود جمالي وجلالي .

ويقال لئن شكرتم وجوده توفيق العبادة لأزيدنكم بتحقيق الإرادة .

ويقال لئن شكرتم شهود المَكَافِي لأزيدنكم بشهود أوصافي .

ويقال لئن شكرتم صنوف إنعامي لأزيدنكم بشهود إكْرَامِي ثم إلى شهود إقْدَامي .

ويقال لئن شكرتم مختص نعمائي لأزيدنكم مُنْتَظرَ الآئي .

ويقال لئن شكرتم مخصوص نِعَمي لأزيدنكم مأمول كَرَمِي .

ويقال لئن شكرتم ما خوّلناكُم من عطائي لأزيدنكم ما وعدناكم من لقائي .

ويقال لئن شكرتم ما لَوّحْتُ في سرائركم زدْناكُم ما ألْبسْنَا من العصمة لظواهركم .

ويقال لئن كفرتم نِعْمَتِي بأَنْ توهمتم استحقاقها لَجرّعْنَاكم ما تَسْتَمِرُّون مذاقها .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) ﴾

إن اجتمعتم أنتم ومن عَاضَدَكُم ، وكل من غاب عنكم وحضركم ، والذين يقتفون أثركم - على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً - ما أوجهتم لِعزّنا شَيْنا ، كما لو شكرتم ما جعلتم بِمُلْكِنا زَيْنا . والحقّ بنعوته ووصف جبروته عَلِيٌّ وعن العالَمِ بأَسْرِه غنيٌّ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾

استفهام في معنى التقرير . أخبره أنه لما جاءتهم الرسلُ قابلوهم بالكنود . وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم ، وحَذَوْا سبيل أمثالهم في الكفر ، وبنوا على الشك والريبة قواعدَهم ، وأسسوا على الشِّرْكِ والغيِّ مذاهبهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 241 . 242﴾

(244/416)

---

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان سامع هذا الكلام يشتد تشوفه إلى جوابه ، وكان أصل الدعوة في كل ملة التوحيد

، وكان الشاك فيه شاكاً في الله ، وكان أمر الله من الظهور بحيث لا يشك فيه عاقل حكّم عقله مجرداً عن الهوى ، ساغ الإنكار وإيراد الكلام على تقدير سؤال معرى من التقييد مبهم في قوله : ﴿ قالت رسلهم ﴾ ولما كان ما شكوا فيه من الظهور بحيث لا يتطرق إليه ريب ، أنكروا أن يكون فيه شك ، لأن ذلك يتضمن إنكار شكهم وشك غيرهم فقالوا : ﴿ أفي الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ شك ﴾ .

ولما كان الجواب عاماً لا يخص ناساً دون ناس ، لم يأت بصلة فقال بخلاف قوله : ﴿ إن نحن إلا بشر ﴾ ثم نبهوهم بالمصنوع على مقصود الدعوة من وجود الصانع وتفرده وظهوره في قولهم : ﴿ فاطر السماوات ﴾ ولما كان المقام لادعاء أنه في غاية الظهور ، لم يحتج إلى تأكيد بإعادة العامل ، فقال : ﴿ والأرض ﴾ أي على هذا المثال البديع والنمط الغريب المنتظم الأحوال ، الجميل العوائد ، والمتسق الفصول ؛ فلما أوضحوا لهم الأدلة على وحدانيته بينوا لهم بأن ثمرة الدعوة خاصة بهم ، إنه لا يأباها من له أدنى بصيرة ، فقالوا : ﴿ يدعوكم ﴾ أي على ألسنتنا ﴿ ليغفر لكم ﴾ .

ولما كان الكافر إنما يدعى أولاً إلى الإيمان ، وكان الإيمان إنما يجب ما كان قبله من الذنوب التي معهم بينهم وبينه دون المظالم ، قال : ﴿ من ذنوبكم ﴾ ولو عم بالغفران لأفهم ذلك أنهم لا يدعون بعد الإيمان إلى عمل أصلاً ﴿ و ﴾ لا يفعل بكم فعل من تعهدون من الملوك في المعاجلة بالإهلاك لمن خالفهم ، بل ﴿ يؤخركم ﴾ وإن أخطأتم أو تعمدتم وتبتم ﴿ إلى أجل

مسمى ﴾ عنده سبق علمه به ، وهو آجالكم على حسب التفريق ، ولا يستأصلكم بالعذاب في آن واحد كما فعل بمن ذكر من الأمم .

(245/416)

---

فلما بين لهم الأصيل بدليله فروع عليه ما لا ريب فيه في قصر نفعه عليهم ، علموا أنه لا يتهيأ لهم عن ذلك جواب فأعرضوا عنه إلى أن ﴿ قالوا ﴾ عناداً ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أنتم ﴾ أي أيها الرسل ﴿ إلا بشر ﴾ وأكدوا ما أرادوا من نفي الاختصاص فقالوا : ﴿ مثلنا ﴾ يريدون : فما وجه تخصيصكم بالرسالة دوننا ؟ ثم كان كأنه قيل : فكان ماذا ؟ فقالوا : ﴿ تريدون أن تصدونا ﴾ أي تلفتونا وتصرفونا ﴿ عما كان ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ، وأكدوا هذا المعنى للتذكير بالحال الماضية بالمضارع فقالوا : ﴿ يعبد آباؤنا ﴾ أي أنكم - لكونكم من البشر الذين يقع بينهم التحاسد - حسدتمونا على اتباع الآباء وقصدتم تركنا له لنكون لكم تبعاً ﴿ فأتونا ﴾ أي فتسبب - عن كوننا لم نر لكم فضلاً وإبدائنا من إرادتكم ما يصلح أن يكون مانعاً - أن نقول لكم : ائتونا لنتبعكم ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي حجة واضحة تلجئنا إلى تصديقكم مما نقترحه عليكم ، وهذا تعنت محض فإنهم جديرون بأن

يعرضوا عن كل سلطان يأتونهم به كائناً ما كان كما ألغوا ما أتوا هم به من البينات فلم يعتدوا به ، فكأنه قيل : فما كان جواب الرسل ؟ فقيل : ﴿ قالت ﴾ .

(246/416)

---

ولما أرادوا تخصيصهم برد ما قالوا ، قيد بقوله : ﴿ لهم رسلهم ﴾ مسلمين أول كلامهم غير فاعلين فعلهم في الحيدة عن الجواب ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ نحن إلا بشر مثلكم ﴾ ما لنا عليكم فضل بما يقتضيه ذواتنا غير أن التماثل في البشرية لا يمنع اختصاص بعض البشر عن بعض بفضائل ؛ والمثل : ما يسد مسد غيره حتى لو شاهده مشاهد ثم شاهد الآخر لم يقع فصل ﴿ ولكن الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فضلنا عليكم لأنه ﴿ يمن على من يشاء ﴾ أي أن يمن عليه ﴿ من عباده ﴾ رحمة منه له ، بأن يفضله على أمثاله بما يقسمه له من المزايا كما أنتم به عارفون ، فلم يصرحوا بما تميزوا به من وصف النبوة ، ولم يخصوا أنفسهم بمنّ الله بل أدرجوها في عموم من شاء الله ، كل ذلك تواضعاً منهم واعترافاً بالعبودية ؛ والمن : نفع يقطع به عن بؤس ، وأصله القطع ، ومنه ﴿ غير ممنون ﴾ ، والمنة قاطعة عن الدنيا .

(247/416)

ولما بينوا وجه المفارقة ، عطفوا عليه بيان العذر فيما طلبوه منهم فقالوا : ﴿ وما ﴾ أي فما كان لنا أن نتفضل عليكم بشيء من الأشياء لم يؤذن لنا فيه ، وما ﴿ كان ﴾ أي صح واستقام ﴿ لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ مما تقترحونه تعنتاً ، وهو البرهان الذي يتسلط به على إبطال مذهب المخالف للحق غير المعجزة التي يثبت بها النبوة ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بإطلاق الملك الأعظم وتسويفه ، فنحن نتوكل على الله في أمركم إن أذن لنا في الإتيان بسلطان أو لم يأذن وافقتم أو خالفتم ﴿ وعلى الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه وحده ﴿ فليتوكل ﴾ أي بأمر حتم ﴿ المؤمنون ﴾ فكيف بالأنبياء ؛ ثم بينوا سبب وجوب التوكل بقولهم : ﴿ وما ﴾ أي وأي شيء ﴿ لنا ﴾ في ﴿ ألاّ نتوكل على الله ﴾ أي ذي الجلال والإكرام ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ قد هدانا سبلنا ﴾ فبين لنا كل ما نأتي وما نذر ، فلا محيص لنا عن شيء من ذلك ، فلنفعلن جميع أوامره ، ولننتهين عن جميع مناهيه ﴿ ولنصبرن ﴾ أكدوا لإنكار أن يصبر الرسول - مع وحدته - على أذاهم مع كثرتهم وقوتهم ﴿ على ما ﴾ وعبر بالماضي إشارة إلى أنهم عفوا عن أذاهم في الماضي فلا يجازونهم به ، فهو استجلاب إلى توبة أولئك المؤذين ، وعدلوا عن المضارع لأنهم ينتظرون أمر الله في الاستقبال فقد يأمرهم بالصبر ، فقال : ﴿ آذيتمونا ﴾ أي في ذلك الذي أمرنا به كائناً فيه ما كان لأنا توكلنا على الله ونحن لا نتهمه في قضائه ﴿ وعلى الله ﴾ أي الذي له

جميع صفات الكمال وحده ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ الذين علموا من أنفسهم العجز سواء كانوا مؤمنين أو لا ، فوكلوا أمراً من أمورهم إلى غيرهم ليكفيهم إياه ، فإنه محيط العلم كامل القدرة ، وكل من عداه عاجز ، والصبر مفتاح الفرج ، ومطلع الخيرات المطلق من الكرب ، والحق لا بد وأن يصير غالباً قاهراً ، والباطل لا بد وأن يصير مغلوباً مقهوراً وإن طال الابتلاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 175 . 177 ﴾

(248/416)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

اعلم أن أولئك الكفار لما قالوا للرسل ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكّ مّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [ إبراهيم : 9 ] .

قالت رسلهم : وهل تشكون في الله ، وفي كونه فاطر السموات والأرض وفاطراً لأنفسنا وأرواحنا وأرزاقنا وجميع مصالحنا وإنا لا ندعوكم إلا إلى عبادة هذا الإله المنعم ولا نمنعكم

إلا عن عبادة غيره وهذه المعاني يشهد صريح العقل بصحتها ، فكيف قلتم : وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ؟ وهذا النظم في غاية الحسن .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ استفهام على سبيل الإنكار ، فلما ذكر هذا المعنى أردفه بالدلالة الدالة على وجود الصانع المختار ، وهو قوله : ﴿ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن وجود السموات والأرض كيف يدل على احتياجه إلى الصانع المختار الحكيم مراراً وأطواراً فلا نعيدها ههنا .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : أدخلت همزة الإنكار على الظرف ، لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في أن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك ، وأقول من الناس من ذهب إلى أنه قبل الوقوف على الدلائل الدقيقة فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار ، ويدل على أن الفطرة الأولية شاهدة بذلك وجوه :

الوجه الأول : قال بعض العقلاء : إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار ، فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول : من الذي ضربني وما ذاك إلا أن شهادة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل فعلها ، ولأجل مختار أدخلها في الوجود فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع حوادث العالم إلى الفاعل كان أولى ، وأما دلالتها على وجوب التكليف ، فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول : لم ضربني ذلك الضارب ؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال الإنسانية داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف ، وأن الإنسان ما خلق حتى يفعل أي فعل شاء واشتهى ، وأما دلالتها على وجوب حصول دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى ، وأما دلالتها على وجوب النبوة فلأنهم يحتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين لهم هذه الأحكام ، فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لا بد له من هذه الأمور الأربعة .

الوجه الثاني : في التنبيه على أن الإقرار بوجود الصانع بديهي هو أن الفطرة شاهد بأن

حدوث دار منقوشة بالنقوش العجيبة ، مبنية على التركيبات اللطيفة الموافقة للحكم والمصلحة يستحيل إلا عند وجود نقاش عالم ، وبان حكيم ، ومعلوم أن آثار الحكمة في العالم العلوي والسفلي أكثر من آثار الحكمة في تلك الدار المختصرة فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار النقش إلى النقاش ، والبناء إلى الباني ، فبأن تشهد بافتقار كل هذا العالم إلى الفاعل المختار الحكيم كان أولى .

(250/416)

---

الوجه الثالث : أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد ، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالإفتقار إلى الصانع المدبر .

الوجه الرابع : أن الموجود إما أن يكون غنياً عن المؤثر أو لا يكون ، فإن كان غنياً عن المؤثر فهو الموجود الواجب لذاته ، فإنه لا معنى للواجب لذاته إلا الموجود الذي لا حاجة به إلى غيره .

وإن لم يكن غنياً عن المؤثر فهو محتاج ، والمحتاج لا بد له من المحتاج إليه وذلك هو الصانع المختار .

الوجه الخامس : أن الاعتراف بوجود الإله المختار المكلف ، وبوجود المعاد أحوط ، فوجب المصير إليه فهذه مراتب أربعة : أولها : أن الإقرار بوجود الإله أحوط ، لأنه لو لم يكن موجوداً فلا ضرر في الإقرار بوجوده وإن كان موجوداً ففي إنكاره أعظم المضار .

وثانيها : الإقرار بكونه فاعلاً مختاراً لأنه لو كان موجباً فلا ضرر في الإقرار بكونه مختاراً . أما لو كان مختاراً ففي إنكار كونه مختاراً أعظم المضار .

وثالثها : الإقرار بأنه كلف عباده ، لأنه لو لم يكلف أحداً من عبيده شيئاً فلا ضرر في اعتقاد أنه كلف العباد ، أما إنه لو كلف ففي إنكار تلك التكاليف أعظم المضار .

ورابعها : الإقرار بوجود المعاد فإنه إن كان الحق أنه لا معاد فلا ضرر في الإقرار بوجوده ، لأنه لا يفوت إلا هذه اللذات الجسمانية وهي حقيرة ومنقوصة وإن كان الحق هو وجوب المعاد ففي إنكاره أعظم المضار فظهر أن الإقرار بهذه المقامات أحوط فوجب المصير إليه ، لأن بديهة العقل حاكمة بأنه يجب دفع الضرر عن النفس بقدر الإمكان .

المسألة الثالثة :

لما أقام الدلالة على وجود الإله بدليل كونه فاطر السموات والأرض وصفه بكمال الرحمة والكرم والجود وبين ذلك من وجهين ، الأول : قوله : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : لو قال قائل ما معنى التبعيض في قوله من ذنوبكم ، ثم أجاب فقال : ما جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين ، كقوله : ﴿ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [ نوح : 3 ، 4 ] .

﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَءامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذنوبكم ﴾

[ الأحقاف : 31 ] وقال في خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ الصف : 10 ] إلى أن قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [ آل عمران : 31 ] والاستقراء يدل على صحة ما ذكرناه ، ثم قال : وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوي بين الفريقين في المعاد ، وقيل : إنه أراد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم .

هذا كلام هذا الرجل ، وقال الواحدي في "البسيط" ، قال أبو عبيدة ( من ) زائدة ، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب ، وإذا قلنا إنها ليست زائدة فههنا وجهان : أحدهما : أنه ذكر البعض ههنا وأريد به الجميع توسعاً .

والثاني : أن ( من ) ههنا للبدل والمعنى لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب فدخلت من لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة ، وقال القاضي : ذكر الأصم أن كلمة ( من ) ههنا تفيد التبعيض ، والمعنى أنكم إذا تبتم فإنه يغفر لكم الذنوب التي هي من الكبائر ، فأما التي تكون من باب الصغائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها في أنفسها مغفورة ، قال القاضي : وقد أبعد في هذا التأويل ، لأن الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنها لا تغفر إلا بالتوبة وإنما تكون الصغيرة مغفورة من المؤمنين الموحدين من حيث يزيد ثوابهم على عقابها فأما من لا ثواب له أصلاً فلا يكون شيء من ذنوبه صغيراً ولا يكون شيء منها مغفوراً .

ثم قال وفيه وجه آخر وهو أن الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وإنابته فلا يكون المغفور منها إلا ما ذكره وتاب منه فهذا جملة أقوال الناس في هذه الكلمة .

المسألة الرابعة :

أقول هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يغفر الذنوب من غير توبة في حق أهل الإيمان والدليل عليه أنه قال : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وعد بغفران بعض الذنوب مطلقاً من غير اشتراط التوبة ، فوجب أن يغفر بعض الذنوب مطلقاً من غير التوبة وذلك البعض ليس هو الكفر لإنعقاد الإجماع على أنه تعالى لا يغفر الكفر إلا بالتوبة عنه والدخول في الإيمان فوجب أن يكون البعض الذي يغفر له من غير التوبة هو ما عدا الكفر من الذنوب .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال كلمة ( من ) صلة على ما قاله أبو عبيدة أو نقول : المراد من البعض ههنا هو الكل على ما قاله الواحدي .

أو نقول : المراد منها إبدال السيئة بالحسنة على ما قاله الواحدي أيضاً أو نقول : المراد منه تمييز المؤمن عن الكافر في الخطاب على ما قاله صاحب "الكشاف" أو نقول : المراد منه تخصيص هذا الغفران بالكبائر على ما قاله الأصم .

(253/416)

---

أو نقول : المراد منه الذنوب التي يذكرها الكافر عند الدخول في الإيمان على ما قاله القاضي ، فنقول : هذه الوجوه بأسرها ضعيفة أما قوله : إنها صلة فمعناه الحكم على كلمة من كلام الله تعالى بأنها حشو ضائع فاسد ، والعاقل لا يجوز المصير إليه من غير ضرورة ، فأما قول الواحدي : المراد من كلمة ( من ) ههنا هو الكل فهو عين ما قاله أبو عبيدة لأن حاصله أن قوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ هو أنه يغفر لكم ذنوبكم وهذا عين ما نقله عن أبي عبيدة ، وحكي عن سيبويه إنكاره ، وأما قوله : المراد منه إبدال السيئة بالحسنة فليس في اللغة أن كلمة من تفيد الإبدال ، وأما قول صاحب "الكشاف" : المراد تمييز خطاب المؤمن عن خطاب الكافر بمزيد التشريف فهو من باب الطامات ، لأن هذا التبعيض إن حصل فلا

حاجة إلى ذكر هذا الجواب ، وإن لم يحصل كان هذا الجواب فاسداً ، وأما قول الأصم فقد سبق إبطاله ، وأما قول القاضي فجوابه : أن الكافر إذا أسلم صارت ذنوبه بأسرها مغفورة لقوله عليه السلام :

" التائب من الذنب كمن لا ذنب له " فثبت أن جميع ما ذكروه من التأويلات تعسف ساقط بل المراد ما ذكرنا أنه تعالى يغفر بعض ذنوبه من غير توبة وهو ما عدا الكفر ، وأما الكفر فهو أيضاً من الذنوب وأنه تعالى لا يغفره إلا بالتوبة ، وإذا ثبت أنه تعالى يغفر كبائر كافر من غير توبة بشرط أن يأتي بالإيمان فبأن تحصل هذه الحالة للمؤمن كان أولى ، هذا ما خطر بالبال على سبيل الارتجال والله أعلم بحقيقة الحال .

النوع الثاني : مما وعد الله تعالى به في هذه الآية قوله : ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وفيه وجهان : الأول : المعنى أنكم إن آمنتم أخر الله موتكم إلى أجل مسمى وإلا عاجلكم بعذاب الاستئصال .

الثاني : قال ابن عباس : المعنى يمتعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت .

فإن قيل : أليس إنه تعالى قال : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ] فكيف قال ههنا : ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

قلنا : قد تكلمنا في هذه المسألة في سورة الأنعام في قوله : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ [ الأنعام : 2 ] ثم حكى تعالى أن الرسل لما ذكروا هذه الأشياء لأولئك الكفار قالوا : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ .

واعلم أن هذا الكلام مشتمل على ثلاثة أنوع من الشبه :

فالشبهة الأولى : أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية ، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد ، وهو أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطلعاً على الغيب مخالطاً لزمرة الملائكة ، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال أيضاً كانوا يقولون : إن كنت قد فارقتنا في هذه الأحوال العالية الإلهية الشريفة ، وجب أن تفارقنا في الأحوال الخسيسة ، وفي الحاجة إلى الأكل والشرب والحدث والوقاع ، وهذه الشبهة هي المراد من قولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ .

والشبهة الثانية : التمسك بطريقة التقليد ، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مطبقين متفقين على عبادة الأوثان .

قالوا ويبعد أن يقال : إن أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا

الدين ، وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه ، والعوام ربما زادوا في هذا الباب كلاما آخر ، وذلك أن الرجل العالم إذا بين ضعف كلام بعض المتقدمين قالوا له إن كلامك إنما يظهر صحته لو كان المتقدمون حاضرين ، أما المناظرة مع الميت فسهلة ، فهذا كلام يذكره الحمقى والرعاع وأولئك الكفار أيضاً ذكروه ، وهذه الشبهة هي المراد من قوله : ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ .

(255/416)

---

والشبهة الثالثة : أن قالوا المعجز لا يدل على الصدق أصلاً ، وإن كانوا سلموا على أن المعجز يدل على الصدق ، إلا أن الذي جاء به أولئك الرسل طعنوا فيه وزعموا أنها أمور معتادة ، وأنها ليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، وإلى هذا النوع من الشبهة الإشارة بقوله : ﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ فهذا تفسير هذه الآية بحسب الوسع ، والله أعلم .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة ، حكى عن الأنبياء عليهم السلام جوابهم عنها .

أما الشبهة الأولى : وهي قولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فجوابه : أن الأنبياء سلموا أن الأمر كذلك ، لكنهم بينوا أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من عباده ، فإذا كان الأمر كذلك فقد سقطت هذه الشبهة .

واعلم أن هذا المقام فيه بحث شريف دقيق ، وهو أن جماعة من حكماء الإسلام قالوا : إن الإنسان ما لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواص شريفة علوية قدسية ، فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة له .



---

وأما الظاهريون من أهل السنة والجماعة ، فقد زعموا أن حصول النبوة عطية من الله تعالى يهبها لكل من يشاء من عباده ، ولا يتوقف حصولها على امتياز ذلك الإنسان عن سائر الناس بمزيد إشراق نفساني وقوة قدسية ، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية ، فإنه تعالى بين أن حصول النبوة ليس إلا بمحض المنة من الله تعالى والعطية منه ، والكلام من هذا الباب غامض غائص دقيق ، والأولون أجابوا عنه بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسدانية تواضعاً منهم ، واقتصروا على قولهم : ﴿ ولكن اللهَ يَمُنُّ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالنبوة

، لأنه قد علم أنه تعالى لا يخصهم بتلك الكرامات إلا وهم موصوفون بالفضائل التي لأجلها استوجبوا ذلك التخصيص ، كما قال تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] .

وأما الشبهة الثانية : وهي قولهم : إطباق السلف على ذلك الدين يدل على كونه حقاً ، لأنه يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق العظيم ، فجوابه : عين الجواب المذكور عن الشبهة الأولى ، لأن التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه ، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية وأن يحرم الجمع العظيم منها .

وأما الشبهة الثالثة : وهي قولهم : إنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها ، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية .

فالجواب عنها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بسلطان إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ وشرح هذا الجواب أن المعجزة التي جئنا بها وتمسكنا بها حجة قاطعة وبينة قاهرة ودليل تام ، فأما الأشياء التي طلبتموها فهي أمور زائدة والحكم فيها لله تعالى فإن خلقها وأظهرها فله الفضل وإن لم يخلقها فله العدل ولا يحكم عليه بعد ظهور قدر الكفاية .

ثم إنه تعالى حكى عن الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم قالوا بعد ذلك : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بذلك الجواب فالقوم أخذوا في السفاهة والتخويف والوعيد ، وعند هذا قالت الأنبياء عليهم السلام : لا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت إلى تهديدكم فإن توكلنا على الله واعتمادنا على فضل الله ولعل الله سبحانه كان قد أوحى إليهم أن أولئك الكفرة لا يقدرون على إيصال الشر والآفة إليهم وإن لم يكن حصل هذا الوحي ، فلا يبعد منهم أن لا يلتفتوا إلى سفاهتهم لما أن أرواحهم كانت مشرقة بالمعارف الإلهية مشرقة بأضواء عالم الغيب والروح متى كانت موصوفة بهذه الصفات فقلما يبالي بالأحوال الجسمانية وقلما يقيم لها وزناً في حالتي السراء والضراء وطوري الشدة والرخاء ، فلهذا السبب توكلوا على الله وعولوا على فضل الله وقطعوا أطماعهم عما سوى الله ، والذي يدل على أن المراد ما ذكرناه قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ يعني أنه تعالى لما خصنا بهذه الدرجات الروحانية ، والمعارف الإلهية الربانية فكيف يليق بنا أن لا نتوكل على الله ، بل اللائق بنا أن لا نتوكل إلا عليه ولا نعول في تحصيل المهمات إلا عليه ، فإن من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مكان الإخلاص والمكاشفة يقبح به أن يرجع في أمر من الأمور إلى غير الحق سواء كان ملكاً له أو ملكاً أو روحاً أو جسماً ، وهذه الآية دالة على أنه تعالى يعصم أولياءه المخلصين في عبوديته من كيد أعدائهم ومكرهم ، ثم قالوا :

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا اذَيْتُمُونَا ﴾ فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والحق لا بد وأن يصير غالباً قاهراً، والباطل لا بد وأن يصير مغلوباً مقهوراً، ثم أعادوا قولهم: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ والفائدة فيه أنهم



---

أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾ ثم لما فرغوا من أنفسهم أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ وذلك يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً، ورأيت في كلام الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله فصلاً حسناً وحاصله: أن الإنسان إما أن يكون ناقصاً أو كاملاً أو خالياً عن الوصفين، أما الناقص فإما أن يكون ناقصاً في ذاته ولكنه لا يسعى في تنقيص حال غيره، وإما أن يكون ناقصاً ويكون مع ذلك ساعياً في تنقيص حال الغير، فالأول: هو الضال، والثاني: هو الضال المضل، وأما الكامل فإما أن يكون كاملاً ولا يقدر على تكميل الغير وهم الأولياء، وإما أن يكون كاملاً ويقدر على تكميل الناقصين وهم الأنبياء ولذلك قال عليه السلام:

" علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل " ولما كانت مراتب النقصان والكمال ومراتب الإكمال والإضلال غير متناهية بحسب الكمية والكيفية ، لا جرم كانت مراتب الولاية والحياة غير متناهية بحسب الكمال والنقصان ، فالولي هو الإنسان الكامل الذي لا يقوى على التكميل ، والنبي هو الإنسان الكامل المكمل ، ثم قد تكون قوته الروحانية النفسانية وافية بتكميل إنسانين ناقصين وقد تكون أقوى من ذلك فيفي بتكميل عشرة ومائة وقد تكون تلك القوة قاهرة قوية تؤثر تأثير الشمس في العالم فيقلب أرواح أكثر أهل العلم من مقام الجهل إلى مقام المعرفة ومن طلب الدنيا إلى طلب الآخرة ، وذلك مثل روح محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن وقت ظهوره كان العالم مملوءاً من اليهود وأكثرهم كانوا مشبهة ومن النصارى وهم حلولية ومن المجوس وقبح مذاهبهم ظاهر ومن عبدة الأوثان وسخف دينهم أظهر من أن يحتاج إلى بيان فلما ظهرت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم سرت قوة روحه في الأرواح فقلب أكثر أهل العالم من الشرك إلى التوحيد ، ومن التجسيم إلى التنزيه ، ومن الاستغراق في طلب الدنيا إلى التوجه إلى عالم الآخرة ، فمن هذا المقام ينكشف للإنسان مقام النبوة والرسالة .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾ إشارة إلى ما كانت حاصلة لهم من كمالات نفوسهم ، وقولهم في آخر الأمر ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ، إشارة إلى تأثير أرواحهم الكاملة في تكميل الأرواح الناقصة فهذه أسرار عالية مخزونة في ألفاظ القرآن ، فمن نظر في علم القرآن وكان غافلاً عنها كان محروماً من أسرار علوم القرآن والله أعلم ، وفي الآية وجه آخر وهو أن قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بسلطان إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ المراد منه أن الذين يطلبون سائر المعجزات وجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله تعالى لا عليها ، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها .

وأما قوله في آخر الآية : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ المراد منه الأمر بالتوكل على الله في دفع شر الناس الكفار وسفاهتهم ، وعلى هذا التقدير فالتكرار غير حاصل لأن قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ وارد في موضعين مختلفين بحسب مقصودين متغايرين ، وقيل أيضاً : الأول : ذكر لاستحداث التوكل .

والثاني : للسعي في إبقائه وإدامته ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 72.78 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عزوجل : ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أفي توحيد الله شك ؟ قاله قتادة .

الثاني : أفي طاعة الله شك ؟

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أفي قدرة الله شك ؟ لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها .

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ، لسهوهم عن قدرته .

﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي يدعوكم إلى التوبة ليغفر ما تقدمها من معصية .

وفي قوله تعالى : ﴿ من ذنوبكم ﴾ وجهان :

أحدهما : أن ﴿ من ﴾ زائدة ، وتقديره ، ليغفر لكم ذنوبكم ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : ليست زائدة ، ومعناه أن تكون المغفرة بدلاً من ذنوبكم ، فخرجت مخرج البدل .

﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ يعني إلى الموت فلا يعذبكم في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن ينكر قومهم أن يكونوا مثلهم وهم رسل الله إليهم .

الثاني : أن يكون قومهم سألوهم معجزات اقترحوها .

وفي قوله تعالى : ﴿ ولكن الله يمنّ على مَنْ يشاء من عباده ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : بالنبوة .

الثاني : بالتوفيق والهداية .

الثالث : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه ، قاله سهل بن عبد الله . ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بكتاب .

الثاني : بحجة .

الثالث : بمعجزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

*(262/416)*

---

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

قوله : ﴿ أفي الله ﴾ مقدر فيه ضمير تقديره عند كثير من النحويين أفي إلوهية الله شك ؟

وقال أبو علي الفارسي : تقديره : أفي وحدانية الله شك ؟ .

قال القاضي أبو محمد : وزعم بعض الناس : أن أبا علي إنما فزع إلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال وزوالاً عما تحتمله لفظة الألوهية من الصفات بحسب عمومها ، ولفظة الوحدانية مخلصة من هذا الاحتمال .

و" الفاطر " المخترع المبتدي ، وسوق هذه الصفة احتجاج على الشاكين يبين التوبيخ ، أي أيشك فيمن هذه صفته ؟ فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك .

وقوله : ﴿ من ذنوبكم ﴾ ذهب بعض النحاة إلى أنها زائدة ، وسيبويه يأبى أن تكون زائدة ويراها للتبعيض .

قال القاضي أبو محمد : وهو معنى صحيح ، وذلك أن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي ، وبقي ما يستأنفه أحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتاً ليبقى معه في مشيئة الله تعالى ، فالغفران إنما نفذ به الوعد في البعض ، فصح معنى ﴿ من ﴾ .

وقوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف ، في قوله : ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [ الأعراف : 34 ] وجلبت هذه هناك بسبب ما يظهر بين الآيتين من التعارض . ويليق هنا أن نذكر مسألة المقتول : هل قطع أجله أم ذلك هو أجله المحتوم عليه ؟ .

فالأول هو قول المعتزلة ، والثاني قول أهل السنة .

فتقول المعتزلة : لو لم يقتله لعاش ، وهذا سبب القود .

وقالت فرقة من أهل السنة ، لو لم يقتله لمات حتف أنفه .

(263/416)

---

قال أبو المعالي : وهذا كله تخبط ، وإنما هو أجله الذي سبق في القضاء أنه يموت فيه على تلك الصفة ، فمحال أن يقع غير ذلك ، فإن فرضنا أنه لو لم يقتله وفرضنا مع ذلك أن علم الله سبق بأنه لا يقتله ، بقي أمره في حيز الجواز في أن يعيش أو يقتل ، وكيفما كان علم الله تعالى يسبق فيه .

وقول الكفرة ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ فيه استبعاد بعثة البشر ، وقال بعض الناس : بل أرادوا إحالته ، وذهبوا مذهب البراهمة أو من يقول من الفلاسفة : إن الأجناس لا يقع فيها هذا التباين .

قال القاضي أبو محمد : وظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أغمضوا هذا الإغماض ، ويدل على ما ذكرت أنهم طلبوا منهم الإتيان بآية ، و ﴿ سلطان مبين ﴾ ، ولو كانت بعثتهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة ، ويحتمل أن طلبهم منهم السلطان إنما هو على جهة التعجيز ، أي بعثتكم محال وإلا ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ ، أي إنكم لا تفعلون ذلك أبداً ،

فيتقوى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

المعنى : صدقتم في قولكم ، أي بشر مثلكم في الأشخاص والخلقة لكن تبايننا بفضل الله ومنه الذي يختص به من يشاء .

قال القاضي أبو محمد : ففارقوهم في المعنى بخلاف قوله تعالى : ﴿ كأنهم حمر ﴾ [ المدثر : 50 ] فإن ذلك في المعنى لا في الهيئة .

وقوله : ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ هذه العبارة إذا قالها الإنسان عن نفسه أو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره – فمعناها النهي والحظر ، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه – فمعناها نفي ذلك الأمر جملة ، وكذا هي آيتنا ، وقال المهدوي لفظها لفظ الحظر ومعناها النفي .



---

واللام في قوله : ﴿ ليتوكل ﴾ لام الأمر . وقرأها الجمهور ساكنة وقرأها الحسن مكسورة ، وتحريكها بالكسر هو أصلها . وتسكينها طلب التخفيف ، ولكثرة استعمالها وللفرق بينها وبين لام كي التي ألزمت الحركة إجماعاً .

وقوله: ﴿ ما لنا ألا نتوكل ﴾ الآية، وقفتهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في أن لا يتوكلوا على الله، وهو قد أنعم عليهم وهداهم طريق النجاة وفضلهم على خلقه، ثم أقسموا أن يقع منهم الصبر على الإذاية في ذات الله تعالى. و﴿ ما ﴾ في قوله: ﴿ ما آذيتمونا ﴾ مصدرية، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها، إلا أنها اسم مع ما اتصل بها من المصدر، وقال بعض النحويين: "ما" المصدرية بانفرادها اسم. ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ -في هذا الموضع- بمعنى الذي، فيكون في ﴿ آذيتمونا ﴾ ضمير عائد، تقديره آذيتموناه، ولا يجوز أن تضمر به سبب إضمار حرف الجر، هذا مذهب سيبويه، والأخفش يجوز ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(265/416)

---

وقال ابن الجوزى:

﴿ قالت رسلهم أفي الله شك ﴾

هذا استفهام إِنكار، والمعنى، لا شك في الله، أي: في توحيده ﴿ يدعوكم ﴾ بالرسل والكتب ﴿ ليغفرَ لكم من ذنوبكم ﴾ قال أبو عبيدة: "مِن" زائدة، كقوله:

﴿ فما منكم من أَحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة: 47]، قال أبو ذؤيب:

جَزِيْتُكِ ضِعْفَ الحُبِّ لمَّا شَكَوتِه . . .

وما إِن جزاكِ الضِّعْفَ مِن أَحَدٍ قَبْلي

أي : أَحَدٌ .

وقوله : ﴿ ويؤخِّركم إلى أَجَل مسمّى ﴾ وهو الموت ، والمعنى : لا يعاجلكم بالعذاب .

﴿ قالوا ﴾ للرسل ﴿ إِن أنتم ﴾ أي : ما أنتم ﴿ إِلا بَشَر مِثلنا ﴾ أي : ليس لكم علينا

فضل ، والسلطان : الحُجَّة .

قالت الرسل : ﴿ إِن نحن إِلا بَشَر مثلكم ﴾ فاعترفوا لهم بذلك ، ﴿ ولكنَّ الله يمنُّ على

من يشاء ﴾ يعنون : بالنبوَّة والرسالة ، ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إِلا بإذن الله ﴾

أي : ليس ذلك من قِبَل أنفسنا .

قوله تعالى : ﴿ وقد هدانا سُبُلَنَا ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بيَّن لنا رشدنا .

والثاني : عرَّفنا طريق التوكل .

وإِنما قُصَّ هذا وأمثالُه على نبينا صلى الله عليه وسلم ليقتديَ بمن قبله في الصبر وليعلم ما

جرى لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾

استفهام معناه الإنكار ؛ أي لا شك في الله ، أي في توحيده ؛ قاله قتادة .

وقيل : في طاعته .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أفي قدرة الله شك ؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها ؛ يدلّ عليه قوله : ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم ، لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له .

﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أي إلى طاعته بالرسل والكتب .

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيد : "مِنْ" زائدة .

وقال سيبويه : هي للتبعيض ؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع .

وقيل : "مِن" للبدل وليست بزائدة ولا مُبعِّضَة ؛ أي لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب .

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني الموت ، فلا يعذبكم في الدنيا .

﴿ قالوا إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم .

﴿ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ في الهيئة والصورة ؛ تأكلون مما نأكل ، وتشربون مما نشرب ، ولستم ملائكة .

﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة ؛ وكان هذا مِحالاً منهم ؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

أي في الصورة والهيئة كما قلتم .

﴿ ولكن اللهَ يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي يتفضّل عليه بالنبوّة .

وقيل : بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية .

وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت : وهذا قول حسن ؛ وقد خرّج الطبريّ من حديث ابن عمر قال قلت لأبي ذرّ : يا عمّ أوصني ؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني فقال : " ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما منّ الله تعالى على عباده بمثل أن يُلهمهم ذِكره " .

﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ ﴾ أي بحجة وآية .

﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بمشيئته ، وليس ذلك في قدرتنا ؛ أي لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته ؛ فلفظه لفظ الخبر ، ومعناه النفي ، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه .

﴿ وعَلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾ "ما" استفهام في موضع رفع بالابتداء ، و "لَنَا" الخبر ، وما بعدها في موضع الحال ؛ التقدير : أيّ شيء لنا في ترك التوكل على الله .

﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أي الطريق الذي يوصل إلى رحمته ، وينجي من سخطه ونقمته .

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم ؛ مجازه : والله لنصبرن ﴿ على مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به ، أي من الإهانة والضرب ، والتكذيب والقتل ، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا .

﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

*(268/416)*

---

وقال الخازن :

﴿ قالت رسلهم ﴾

يعني مجيبين لأممهم ﴿ أفي الله شك ﴾ يعني وهل تشكون في الله وهو استفهام إنكار ونفي لما اعتقدوه ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والأرض وخالق جميع ما فيهما ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ يعني ليغفر لكم ذنوبكم إذا آمنتم وصدقتم وحرف ( من ) صلة وقيل : إنها أصل ليست بصلة ، وعلى هذا إنه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ يعني إلى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب ﴿ قالوا ﴾ يعني الأمم مجيبين للرسل ﴿ إن أنتم ﴾ يعني ما أنتم ﴿ إلا بشر مثلنا ﴾ يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة ﴿ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ يعني ما تريدون بقولكم : هذا إلا صدنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ حجة بينة واضحة على صحة دعواكم ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ يعني أن الكفار لما قالوا لرسلهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم : هب أن الأمر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم

الشريف ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ يعني وليس لنا من ما خصنا الله به من النبوة وشرفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية ، وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا إلا بإذن الله لنا في ذلك ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ يعني أن الأنبياء قالوا أيضاً قد عرفنا أنه لا يصيبنا شيء إلا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ يعني وقد عرفنا طريق النجاة ، وبين لنا الرشد ﴿ ولنصبرن ﴾ اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن ﴿ على ما آذيتمونا ﴾ يعني به من قول أو فعل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

(270/416)

---

فإن قلت : كيف كرر الأمر بالتوكل ؟ وهل من فرق بين التوكلين ؟ قلت : نعم التوكل الأول فيه إشارة إلى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه إشارة إلى السعي في التثبيت على ما استحدثوا من توكلهم وإبقائه وإدامته فحصل الفرق بين التوكلين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(271/416)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾

وقدر مضاف فقيل : أفي إلاهية الله .

وقيل : أفي وحدانيته ، ثم نبههم على الوصف الذي يقتضي أنْ لا يقع فيه شك البتة وهو كونه منشىء العالم وموجده ، فقال : فاطر السموات والأرض .

وفاطر صفة لله ، ولا يضر الفصل بين الموصوف وصفته بمثل هذا المبتدأ ، فيجوز أن تقول : في الدار زيد الحسنة ، وإن كان أصل التركيب في الدار الحسنة زيد .

وقرأ زيد بن علي : فاطر نصباً على المدح ، ولما ذكر أنه موجد العالم ، ونبه على الوصف الذي لا يناسب أن يكون معه فيه شك ذكر ما هو عليه من اللطف بهم والإحسان إليهم فقال : يدعوكم ليغفر لكم أي : يدعوكم إلى الإيمان كما قال : إذ تدعون إلى الإيمان أو يدعوكم لأجل المغفرة ، نحو : دعوته لينصرني .

وقال الشاعر :

دعوت لما نابني مسوراً . . .

فلبى فلبى يدي مسور

ومن ذنوبكم ذهب أبو عبيدة والأخفش إلى زيادة من أي : ليغفر لكم ذنوبكم .

وجمهور البصريين لا يجيز زيادتها في الواجب ، ولا إذا جرت المعرفة ، والتبعيض يصبح فيها إذ المغفور هو ما بينهم وبين الله ، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم .

وبطريق آخر يصح التبعيض وهو أنّ الإسلام يجب ما قبله ، ويبقى ما يستأنف بعد الإيمان من الذنوب مسكوتاً عنه ، هو في المشيئة والوعد إنما هو بغفران ما تقدم ، لا بغفران ما يستأنف .

وقال الزمخشري ما معناه : إنّ الاستقراء في الكافرين أنْ يأتي من ذنوبكم ، وفي المؤمنين ذنوبكم ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولأن لا يسوي بين الفريقين انتهى .

ويقال : ما فائدة الفرق في الخطاب والمعنى مشترك ، إذ الكافر إذا آمن ، والمؤمن إذا تاب مشتركان في الغفران وما تخليت فيه مغفرة بعض الذنوب في الكافر الذي آمن هو موجود في المؤمن الذي تاب .

(272/416)

---

وقال أبو عبد الله الرازي : أما قول صاحب الكشاف المراد تمييز خطاب المؤمن من خطاب الكافر ، فهو من باب الطامات ، لأنّ هذا التبعيض إنْ حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب ، وإنْ لم يحصل كان هذا الكلام فاسداً .

وقال : إلى أجل مسمى ، إلى وقت قد بيناه ، أو بينا مقداره إنْ آمنتم ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت انتهى .

وهذا بناء على القول بالأجلين ، وهو مذهب المعتزلة .

وتقدم الكلام في طرف من هذا في سورة الأعراف في قوله : ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ وقيل هنا : ويؤخركم إلى أجل مسمى قبل الموت فلا يعاجلكم بالعذاب ، إن أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تخصون بالنبوة دوننا ؟ قال الزمخشري : ولو أرسل الله إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة انتهى .

وهذا على مذهب المعتزلة في تفضيل الملائكة على من سواهم .

وقال ابن عطية : في قولهم استبعاد بعثة البشر .

وقال بعض الناس : بل أرادوا إحالته ، وذهبوا مذهب البراهمة ، أو من يقول من الفلاسفة أن الأجناس لا يقع فيها هذا القياس .

فظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أغمضوا هذا الإغماض ، ويدل على ما ذكرت أنهم طلبوا منهم حجة ، ويحتمل أن طلبهم منهم السلطان إنما هو على جهة التعجيز أي : بعثتكم محال ، وإلا فأتوا بسلطان مبين أي : إنكم لا تفعلون ذلك أبداً ، فتقوى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة انتهى .

والذي يظهر أنّ طلبهم السلطان المبين وقد أتتهم الرسل بالبينات إنما هو على سبيل التعنت

والاقتراح ، وإلا فما أتوا به من الدلائل والآيات كاف لمن استبصر ، ولكنهم قلدوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضلال .

ألا ترى إلى أنهم لما ذكروا أنهم مماثلوهم قالوا : تريدون أنْ تصدونا عما كان يعبد آباؤنا أي : ليس مقصودكم إلا أن نكون لكم تبعاً ، ونترك ما نشأنا عليه من دين آبائنا .



---

وقرأ طلحة : إن تصدونا بتشديد النون ، جعل إن هي المخففة من الثقيلة ، وقدر فصلاً بينها وبين الفعل ، وكان الأصل أنه تصدوننا ، فأدغم نون الرفع في الضمير ، والأولى أن تكون أن الثنائية التي تنصب المضارع ، لكنه هنا لم يعملها بل ألغاها ، كما ألغاها من قرأ ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ برفع يتم حملاً على ما المصدرية أختها .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

سلموا لهم في أنهم يماثلونهم في البشرية وحدها ، وأما ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختصوا بها ؛ فلم يكونوا مثلهم ، ولم يذكروا ما هم عليه من الوصف الذي تميزوا به تواضعاً منهم ، ونسبة ذلك إلى الله .

ولم يصرحوا بمنّ الله عليهم وحدهم ، ولكن أبرزوا ذلك في عموم من يشاء من عباده .

والمعنى : يمن بالنبوة على من يشاء تنبئته .

ومعنى بإذن الله : بتسويغه وإرادته ، أي الآية التي اقترحتموها ليس لنا الإتيان بها ، ولا هي في استطاعتنا ، ولذلك كان التركيب : وما كان لنا ، وإنما ذلك أمر متعلق بالمشيئة .

فليتوكل أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمروها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم ، وما يجري علينا منكم .

ألا ترى إلى قولهم وما لنا أن لا نتوكل على الله ومعناه : وأي عذر لنا في أنْ لا نتوكل على الله وقد هدانا ، فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يوجب عليه سلوكه في الدين .

والأمر الأول وهو قوله : فليتوكل المؤمنون لاستحداث التوكل ، والثاني للثبات على ما استحدثوا من توكيلهم .

ولنصبرن جواب قسم ، ويدل على سبق ما يجب فيه الصبر وهو الأذى .

وما مصدرية ، وجوزوا أن يكون بمعنى الذي .

والضمير محذوف أي : ما آذيتموناه وكان أصله به ، فهل حذف به أو الباء فوصل الفعل إلى الضمير قولان ؟ وقرأ الحسن : بكسر لام الأمر في ليتوكل وهو الأصل ، وأو لأحد الأمرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(275/416)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾

استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه المقال كأنه قيل : فماذا قالت لهم رسلُهم ؟ فأجيب بأنهم قالوا منكرِين عليهم ومتعجّبين من مقالتهم الحمقاءِ : ﴿ أَفِى الله شَكٌّ ﴾ بإدخال الهمزةِ على الظرف للإيذان بأن مدارَ الإنكار ليس نفسَ الشك بل وقوعُه فيما لا يكادُ يتوهّم فيه الشكّ أصلاً ، منقادين عن تطبيق الجوابِ على كلام الكفرة بأن يقولوا : أأنتم في شك مريب من الله تعالى ؟ مبالغةً في تنزيه ساحةِ السّبحان عن شائبة الشك وتسجيلاً عليهم بسخافة العقول ، أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدتِه ووجوبِ الإيمان به وحده شك وهو أظهرُ من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قِبله في شك مريب ، وحيث كان مقصِدُهم الأقصى الدعوةَ إلى الإيمان والتوحيد وكان إظهارُ البينات

وسيلةً إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، واقتصروا علي بيان ما هو الغايةُ القصوى ثم عقّبوا ذلك الإنكارَ بما يوجبه من الشواهد الدالّةِ على انتفاء المنكَر فقالوا : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ أي مُبدعُهما وما فيها من المصنوعات على نظام أنيقٍ شاهد بتحقق ما أنتم منه في شك ، وهو صفةٌ للاسم الجليل أو بدلٌ منه وشكٌّ مرتفعٌ بالظرف لاعتماده على الاستفهام ، وجعلُه مبتدأً على أن الظرف خبرُه يُفضي إلى الفصل بين الموصوف والصفةِ بالأجنبي ، أعني المبتدأَ والفاعلَ ليس بأجنبي مِنْ رافعه وقد جوز ذلك أيضاً ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان بإرساله إيانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسِنا كما يوهمه قولُكم مما تدعوننا إليه ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ بسببه أو يدعوكم لأجل المغفرة ، كقولك : دعوتُه ليأكلَ معي ﴿ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضَها وهو ما عدا المظالمَ مما بينهم وبينه تعالى فإن الإسلام يجُبّه ، قيل : هكذا وقع في جميع القرآنِ في وعد الكفرةِ دون وعد المؤمنين تفرقةً بين الوعدين ، ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتبةً على

محض الإيمان وفي شأن المؤمنين مشفوعةً بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروجَ من المظالم، وقيل: المعنى ليغفرَ لكم بدلاً من ذنوبكم ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعمارِكم على تقدير الإيمان.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ استئناف كما سبق ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير فضل يؤهّلكم لما تدّعونه من النبوة ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ صفةٌ ثانية لبشرٌ حملاً على المعنى كقوله تعالى: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أو كلامٌ مستأنفٌ أي تريدون بما تتصدَّوْن له من الدعوة والأرشاد ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ بتخصيص العبادةِ بالله سبحانه ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ أي عن عبادة ما استمر آباؤُنا على عبادته من غير شيءٍ يوجبه وإلا ﴿ فَأْتُونَا ﴾ أي وإن لم يكن الأمرُ كما قلنا بل كنتم رسلاً من جهة الله تعالى كما تدّعونه فأتونا ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقِكم لتلك الرتبة، أو على صحة ما تدّعونه من النبوة حتى نترُك ما لم نزل نعبُده أباً عن جد. ولقد كانوا آتَوهم من الآيات الظاهرةِ والبينات الباهرة ما تخرّ له صمُّ الجبال، ولكنهم إنما يقولون من العظائم مكابرةً وعِناداً وإراءةً لمن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ما ينطلق عليه السلطانُ المبين.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾

مجاراةً معهم في أول مقالتِهم وإنما قيل لهم لاختصاص الكلامِ بهم حيث أريد إلزامُهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوعِ الشكِّ في الله سبحانه فإن ذلك عامٌ وإن اختص بهم ما يعقُبه ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ كما تقولون ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ ﴾ بالنبوة ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يعنون أن ذلك عطيةٌ من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضلِ والامتنان من غير داعيةٍ توجبه، قالوه تواضعاً وهضماً للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشرٌ مثلُكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس، ولكن الله يمن بالفضائل والكمالاتِ والاستعدادات على من يشاء المنَّ بها وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقه لها، وتلك الفضائلُ والكمالاتُ والاستعدادات هي التي يدور عليها فلكُ الاصطفاء للنبوة ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ وما صح وما استقام ﴿ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ ﴾ أي بحجة من الحجج فضلاً عن السلطان المبين بشيء من الأشياء وسببٍ من الأسباب ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فإنه أمرٌ يتعلق بمشيئته تعالى إن شاء كان وإلا فلا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ وحده دون ما عداه مطلقاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودُهم حملُ أنفسِهم عليه آثرَ ذي أثيرٍ، ألا يُرى إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمَا لَنَا ﴾ أيُّ عذرٍ لنا ﴿ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي في أن لا نتوكل عليه، ولإظهار النشاطِ بالتوكل عليه والاستلذاذِ بذكر اسمِه تعالى وتعليلِ التوكل ﴿ وَقَدْ هَدَانَا ﴾ أي والحالُ أنه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا ﴿ سُبُلَنَا

﴿ أي أرشد كلاًّ منا سبيله ومنهاجَه الذي شرَع له وأوجب عليه سلوكَه في الدين ،

وحيث كانت أذيةُ الكفار مما يوجب القلقَ والاضطرابَ القادحَ في التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد القسميِّ مظهرين لكمال العزيمة : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ بالعِناد واقتراحِ الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه

(278/416)

---

﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ خاصة ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ فليثبُت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل ، والمرادُ هو المرادُ مما سبق من إيجاب التوكلِ على أنفسهم ، والمرادُ بالمتوكّلين المؤمنون ، والتعبيرُ عنهم بذلك لسبق ذكرِ اتصافِهم به ويجوز أن يُرادَ وعليه فليتوكل مَنْ توكل دون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(279/416)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾

استئناف مبني على سؤال ينساق إليه المقام كأنه قيل : فإذا قالت لهم رسلهم حين قابلوهم بما قابلوهم به ؟ فأجيب بأنهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء : ﴿ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ ﴾ بتقديم الظرف وإدخال الهمزة عليه للإيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيمن لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً ، ولولا هذا القصد لجاز تقديم المبتدأ ، والقول بأنه ليس كذلك خطأ لأن وقوع النكرة بعد الاستفهام مسوغ للابتداء بها وهو مما لا شك فيه ، وكون ذلك المؤخر مبتدأ غير متعين بل الأرجح كونه فاعلاً بالظرف المعتمد على الاستفهام كما ستعلم إن شاء الله تعالى ، والكلام على تقدير مضاف على ما قيل أي أفي وحدانية الله تعالى شك ، بناء على أن المرسل إليهم لم يكونوا دهرية منكرين للصانع بل كانوا عبدة أصنام ، وقيل : يقدر في شأن الله ليعم الوجود والوحدة لأن فيهم دهرية ومشركين . وقيل : يقدر حسب المخاطبين وتقدير الشأن مطلقاً ذو شأن ، وفي عدم تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : أأنتم في شك مريب من الله تعالى مبالغة في تنزيه ساحة الجلال عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول أي أفي شأنه تعالى شأنه من وجوده ووحدته ووجوب الإيمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قبله سبحانه في شك عظيم مريب ، وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وكان إظهار البينات وسيلة إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قولهم : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ [ إبراهيم : 9 ] إلى آخره واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى

، وقد يقال : إنهم عليهم السلام قد اقتصروا على انكار ما ذكر لأنه يعلم منه إنكار وقوع الجزم بالكفر به سبحانه من باب أولى .

﴿ فَاطِرَ السماوات والأرض ﴾ أي مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ما أنتم في شك منه .

(280/416)

---

وفي الآية كما قيل إشارة إلى دليل التمانع .

وجر ﴿ فَاطِرَ ﴾ على أنه بدل من الاسم الجليل أو صفة له .

وحيث كان ﴿ شَكٌّ ﴾ فاعلاً بالظرف وهو كالجزء من عامله لا يعد أجنبياً فليس هناك فصل بين التابع والمتبوع بأجنبي وبهذا رجحت الفاعلية على المبتدئية لأن المبتدأ ليس كذلك .

نعم إلى الابتدائية ذهب أبو حيان وقال : إنه لا يضر الفصل بين الموصوف وصفته بمثل هذا المبتدأ فيجوز أن تقول : في الدار زيد الحسنة وإن كان أصل التركيب في الدار الحسنة زيد .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ فَاطِرَ ﴾ نصباً على المدح .

ثم إنه بعد أن أشير إلى الدليل الدال على تحقق ما هم في شك منه نبه على عظم كرمه

ورحمته تعالى فقيل : ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ أي إلى الإيمان بإرساله ايانا لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهم قولكم

﴿ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ [إبراهيم : 9] ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ بسببه ، فالمدعو إليه غير المغفرة .

وتقدير الإيمان لقرينة ما سبق .

ويحتمل أن يكون المدعو إليه المغفرة لا لأن اللام بمعنى إلى فإنه من ضيق العطن بل لأن معنى الاختصاص ومعنى الانتهاء كلاهما واقعان في حاق الموقع فكأنه قيل : يدعوكم إلى المغفرة لأجلها لا لغرض آخر .

وحقيقته ان الأغراض غايات مقصودة تفيد معنى الانتهاء وزيادة قاله : في الكشف ، وهذا نظير قوله :

دعوت لما نابني مسورا . . .

فلبي فلبى يدي مسور

﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعضها وهو ما عدا المظالم وحقوق العباد على ما قيل ، وهو مبني على أن الإسلام إنما يرفع ما هو من حقوق الله تعالى الخالصة له دون غيره ، والذي صححه المحدثون في شرح ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام يهدم ما قبله " أنه يرفع ما قبله مطلقاً حتى المظالم وحقوق العباد ، وأيد ذلك بظاهر قوله تعالى في آية أخرى :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [ الأحزاب : 71 ] بدون من ، و﴿ مِنْ ﴾ هنا ذهب أبو عبيدة .

(281/416)

---

والأخفش إلى زيادة ﴿ مِنْ ﴾ فيما هي فيه ، وجمهور البصريين لا يجوزون زيادتها في الموجب ولا إذا جرت المعرفة كما هنا فلا يتأتى التوفيق بذلك بين الآيتين ، وجعلها الزجاج للبيان ويحصل به التوفيق ، وقيل : هي للبدل أي ليغفر لكم بدل ذنوبكم ونسب للواحدي . وجوز أيضاً أن تكون للتبعيض ويراد من البعض الجميع توسعاً .
ورد الإمام الأول بأن ﴿ مِنْ ﴾ لا تأتي للبدل ، والثاني بأنه عين ما نقل عن أبي عبيدة . والأخفش وهو منكر عند سيبويه والجمهور وفيه نظر ظاهر ، ولو قال : إن استعمال البعض في الجميع مسلم وأما استعمال من التبعيضية في ذلك فغير مسلم لكان أولى .
وفي البحر يصح التبعيض ويراد بالبعض ما كان قبل الإسلام وذلك لا ينافي الحديث وتكون الآية وعدا بغفران ما تقدم لا بغفران ما يستأنف ويكون ذاك مسكوتاً عنه باقياً تحت المشيئة في الآية والحديث ، ونقل عن الأصم القول بالتبعيض أيضاً على معنى إنكم إذا آمنتم يغفر لكم الذنوب التي هي الكبائر واما الصغائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها في نفسها

مغفورة ، واستطيب ذلك الطيبي قال : والذي يقتضيه المقام هذا لأن الدعوة عامة لقوله سبحانه : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السموات والأرض يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ كأنه قيل : أيها الشاكون الملوثون بأوضار الشرك والمعاصي إن الله تعالى يدعوكم إلى الإيمان والتوحيد ليطهركم من أخباث أنجاس الذنوب فلا وجه للتخصيص أي بحقوق الله تعالى الخالصة له ، وقد ورد



---

﴿ إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [ الأنفال : 38 ] و﴿ مَا ﴾ للعموم سيما في الشرط ، ومقام الكافر عند ترغيبه في الإسلام بسط لا قبض ، والكفار إذا أسلموا إنما اهتمامهم في الشرك ونحوه لا في الصغائر ، ويؤيده ما روى أن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله تعالى لم يغفر له فكيف ولم نهاجر وعبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرم الله تعالى فنزلت ﴿ قُلْ يا عِبَادِىَ الذين أَسْرَفُوا على أَنفُسِهِمْ ﴾ [ الزمر : 53 ] الآية ، وقصة وحشي مشهورة ، وجرح ذلك القاضي فقال : إن الأصم قد أبعد في هذا التأويل لأن الكفار صغائرهم ككبائرهم في أنها لا تغفر وإنما تكون الصغيرة مغفورة من الموحدين من حيث إنه يزيد ثوابهم على عقابها وأما من لا ثواب له أصلاً فلا

يكون شيء من ذنوبه صغيراً ولا يكون شيء منها مغفوراً ، ثم قال : وفي ذلك وجه آخر وهو أن الكافر قد ينسي بعض ذنوبه في حال توبته وإيمانه فلا يكون المغفور إلا ما ذكره وتاب منه اه .

ولو سمع الأصم هذا التوجيه لأحذ ثأره من القاضي فإنه لعمري توجيه غير وجيه ؛ ولو أن أحداً سخم وجه القاضي لسخمت وجهه ، وقال الزمخشري : إن الاستقراء في الكافرين أن يأتي ﴿ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ وفي المؤمنين ﴿ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى في الميعاد بين الفريقين .

وحاصلة على ما في الكشف أن ليس مغفرة بعض الذنوب للدلالة على أن بعضاً آخر لا يغفر فإنه من قبيل دلالة مفهوم اللقب ولا اعتداد به ، كيف وللتخصيص فائدة أخرى هي التفرقة بين الخطابين بالتصريح بمغفرة الكل والإبقاء البعض في حق الكفرة مسكوتا عنه لئلا يتكلوا على الإيمان .

وفيه أيضاً أن هذا معنى حسن لا تكلف فيه .

واعترض ابن الكمال بأن حديث التفرقة إنما يتم لو لم يجيء خطاب على العموم وقد جاء كذلك في سورة الأنفال ( 38 ) في قوله سبحانه : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ وأجيب بأن هذا غير وارد إذ المراد التفرقة فيما ذكر فيه صيغة ويغفر ذنوبكم لا مطلق ما كان بمعناه ولذا أسند الأمر إلى الاستقراء ، ومثل الزمخشري لا يخفى عليه ما أورد ولا يلزم رعاية هذه النكتة في جميع المواد ، وذكر البيضاوي في وجه التفرقة بين الخطابين ما حاصله لعل المعنى ذلك أنها لما ترتبت المغفرة في خطاب الكفرة على الإيمان لزمن فيه ﴿ مِنْ ﴾ التبعيضية لإخراج المظالم لأنها غير مغفورة ، وأما في خطاب المؤمنين فلما ترتب على الطاعة واجتناب المعاصي التي من جملتها المظالم لم يحتج إلى ﴿ مِنْ ﴾ لإخراجها لأنها خرجت بما رتبت عليه ، وهو مبني على خلاف ما صححه المحدثون ، وينافيه ما ذكره في تفسير ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ في سورة نوح عليه السلام ( 4 ) ؛ ومع ذا أورد عليه قوله تعالى :

﴿ قَالَ يا قوم إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعبدوا الله واتقوه وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [ نوح : 42 ] حيث ذكرت ﴿ مِنْ ﴾ مع ترتيب المغفرة على الطاعة واجتناب المعاصي الذي أفاده ﴿ اتقوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة ﴾ [ الصف : 10 ] الآية لعدم ذكر ﴿ مِنْ ﴾ مع ترتبها على الإيمان ، والجواب بأنه لا ضير إذ يكفي ترتيب ذلك على الإيمان في بعض المواد فيحمل مثله على أن القصد إلى ترتيبه عليه

وحده بقرينة ذلك البعض وما ذكر معه يحمل على الأمر به بعد الإيمان أدنى من أن يقال فيه ليس بشيء ، وبالجملة توجيه الزمخشري أوجه مما ذكره البيضاوي فتأمل وتذكر .

(284/416)

---

﴿ وَيُؤَخّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الإيمان ولا يعاجلكم بعذاب الاستئصال ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يمتعكم في الدنا باللذات والطيبات إلى الموت ، ولا يلزم مما ذكر القول بتعدد الأجل كما يزعمه المعتزلة ، وقد مر تحقيق ذلك ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف كما سبق آنفاً ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ ما أنتم ﴿ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ من غير فضل يؤهلكم لما تدعون من الرسالة .

والزمخشري تهالك في مذهبه حتى اعتقد أن الكفار كانوا يعتقدون تفضيل الملك ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ صفة ثانية لبشر حملاً على المعنى كقوله تعالى : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أو كلام مستأنف أي تريدون بما أنتم عليه من الدعوة والإرشاد ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ [ التغابن : 6 ] بما تدعونا إليه من التوحيد وتخصيص العبادة بالله تعالى ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ عما استمر على عبادته آباؤنا من غير شيء يوجبه .

وقرأ طلحة ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ بتشديد النون ، وخرج على جعل أن مخففة من الثقيلة

وتقدير فاصل بينها وبينا لفعل أي أنه قد تصدونا ، وقد جاء مثل ذلك في قوله :

علموا أن يؤملون فجادوا . . .

قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

والأولى أن يخرج على أن ﴿ إن ﴾ هي الثنائية التي تنصب المضارع لكنها لم تعمل كما قيل : في قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ﴾ [ البقرة : 233 ] في قراءة الرفع حملا لها على أختها ﴿ مَا ﴾ المصدرية كما عملت ﴿ مَا ﴾ حملا عليها فيما ذكره بعضهم في قوله :

أن تقرآن على أسماء ويحكما . . .

مني السلام وأن لا تشعرا أحداً

﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي إن لم يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسلاً من قبله تعالى كما تدعون فأتونا بما يدل على صحة ما تدعونه من الرسالة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبا عن جد ، أو على فضلكم واستحقاقكم لتلك المرتبة .

قال ابن عطية : إنهم استعبدوا إرسال البشر فأرادوا حجة عليه ، وقيل : بل إنهم اعتقدوا محاليته وذهبوا مذهب البراهمة وطلبوا الحجة على جهة التعجيز أي بعثكم محال وإلا فأتوا بسلطان مبين أي إنكم لا تفعلون ذلك أبداً .

وهو خلاف الظاهر ، وهطا الطلب كان بعد إتيانهم عليهم السلام لهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له الجبال الصم أقدمهم عليه العناد والمكابرة

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾



---

مجاراة لأول مقالتهم : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ كما تقولون وهذا كالقول بالموجب لأن فيه إطماعاً في الموافقة ثم كر إلى جانبهم بالإبطال بقولهم عليهم السلام : ﴿ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي إنما اختصنا الله تعالى بالرسالة بفضل منه سبحانه وامتنان ، والبشرية غير مانعة لمشيئته جل وعلا ، وفيه دليل على أن الرسالة عطائية وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئته تعالى ، ولا يخفى ما في العدول عن ولكن الله من علينا إلى ما في النظم الجليل من التواضع منهم عليهم السلام ، وقيل : المعنى ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس ولكن الله تعالى يمن على من يشاء

بالفضائل والكمالات والاستعدادات التي يدور عليها فلك الاصطفاء للرسالة ، وفي هذا ذهاب إلى قول بعض حكماء الإسلام : إن الإنسان لو لم يكن في نفسه وبدنه مخصوصاً بخواص شريفة علوية قدسية فإنه يمتنع عقلاً حصول صفة النبوة فيه ، وأجابوا عن عدم ذكر المرسلين عليهم السلام فضائلهم النفسانية والبدنية بأنه من باب التواضع كاختيار العموم ، والحق منع الامتناع العقلي وإن كانوا عليهم السلام جميعاً لهم مزايا وخواص مرجحة لهم على غيرهم ، وإنما قيل لهم كما قيل : لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشك فيه تعالى فإنه عام وإن اختص بهم ما يعقبه ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا ﴾ أي ما صح ما استقام ﴿ إن تَأْتِيكُمْ بسلطان ﴾ أي بحجة ما من الحجج فضلاً عن السلطان المبين الذي اقترحتموه بشيء من الأشياء وسبب من الأسباب ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئته تعالى إن شاء كان وإلا فلا ﴿ وَعَلَى الله ﴾ وحده دون ما عداه مطلقاً ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم ، عمموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل من الإيمان وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً ، ويدل على ذلك قولهم :

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾

ومحل الخلاف في دخول المتكلم في عموم كلامه حيث لم يعلم دخوله فيه بالطريق الأولى أو تقم عليه قرينة كما هنا .

واحتمال أن يراد بالمؤمنين أنفسهم و﴿ مَا لَنَا ﴾ التفات لا التفات إليه ، والجمع بين الواو والفاء تقدم الكلام فيه و﴿ مَا ﴾ استفهامية للسؤال عن السبب والعذر و﴿ إن ﴾ على تقدير حرف الجر أي أي عذر لنا في عدم التوكل عليه تعالى ، والإظهار لإظهار النشاط بالتوكل عليه جل وعلا والاستلذاذ باسمه تعالى وتعليل التوكل ﴿ وَقَدْ هَدَانَا ﴾ أي والحال أنه سبحانه قد فعل بنا ما يوجب ذلك ويستدعيه حيث هدانا ﴿ سُبُلَنَا ﴾ أي أرشد كلامنا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين .

وقرأ أبو عمرو ﴿ سُبُلَنَا ﴾ بسكون الباء ، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة .

﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ على ﴾ و﴿ فِي مَا ﴾ مصدرية أي إذائكم إيانا بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه ، وجوزوا أن تكون موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف أي الذي آذيتموناه ، وكان الأصل آذيتمونا به فعل حذف به أو الباء ووصل الفعل إلى الضمير ؟ قولان ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ خاصة ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ أي فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل ، والمراد بهم المؤمنون ، والتعبير عنهم بذلك لسبق اتصافهم به ، وغرض المرسلين

من ذلك نحو غرضهم مما تقدم وربما يتجوز في المسند إليه .

فالمعنى وعليه سبحانه فليتوكل مريد والتوكل لكن الأول أولى .

وقرأ الحسن بكسر لام الأمر في ﴿ ليتوكل ﴾ وهو الأصل هذا ، وذكر بعضهم أن من خواص هذه الآية دفع أذى البرغوث .

(288/416)

---

فقد أخرج المستغفري في الدعوات عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا آذاك البرغوث فخذ قدحاً من ماء واقرأ عليه سبع مرات ﴿ وَمَا لَنَا أَن لا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله ﴾ الآية وتقول : إن كنتم مؤمنين فكفوا شركم وأذاكم عنا ثم ترشه حول فراشك فإنك تبيت آمنا من شرها "

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أبي الدرداء مرفوعاً نحو ذلك إلا أنه ليس فيه "إن كنتم مؤمنين فكفوا شركم وأذاكم عنا" ولم أقف على صحة الخبر ولم أجرب ذلك إذ ليس للبرغوث ولع بي والحمد لله تعالى ، وأظن أن ذلك لملوحة الدم كما أخبرني به بعض الأطباء والله تعالى أعلم بحقيقة الحال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(289/416)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى ﴾ الظرف متعلق بمحذوف هو أذكر ، أي : اذكر وقت قول موسى ، و ﴿ إِذْ أَنْجَاكُمْ ﴾ متعلق ب ﴿ اذكروا ﴾ أي : اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائه لكم من آل فرعون ، أو بالنعمة ، أو بمتعلق عليكم ، أي : مستقرة عليكم وقت إنجائه ، وهو بدل اشتمال من النعمة مراداً بها الإنعام أو العطية ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ أي : يبغونكم ، يقال سامه ظلماً أي : أولاه ظلماً ، وأصل السوم الذهاب في طلب الشيء ، وسوء العذاب : مصدر ساء يسوء ، والمراد حبس العذاب السيء .

وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، وعطف ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْناءكُمْ ﴾ على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوء العذاب ﴾ وإن كان التذبيح من جنس سوء العذاب ؛ إخراجاً له عن مرتبة العذاب المعتاد حتى كأنه جنس آخر لما فيه من الشدّة ، ومع طرح الواو كما في الآية الأخرى يكون التذبيح تفسيراً لسوء العذاب ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ ﴾ أي : يتركونهنّ في الحياة لإهانتهنّ وإذلالهنّ ﴿ وَفِى ذلكم ﴾ المذكور من أفعالهم ﴿ بَلاء مّن رَّبّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي : ابتلاء لكم ، وقد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة البقرة مستوفى .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ ﴿ تأذن ﴾ بمعنى أذن، قاله الفراء، قال في الكشاف: ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليست في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنه الشكوك وتنزاح الشبه.

والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ أو أجرى ﴿ تأذن ﴾ مجرى قال، لأنه ضرب من القول.

انتهى.

وهذا من قول موسى لقومه، وهو معطوف على نعمة الله أي: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم.



---

وقيل: هو معطوف على قوله: إذ أنجاكم، أي: اذكروا نعمة الله تعالى في هذين الوقتين، فإن هذا التأذن أيضاً نعمة.

وقيل: هو من قول الله سبحانه، أي: واذكر يا محمد إذ تأذن ربكم، وقرأ ابن مسعود " وإذ قال ربكم " والمعنى واحد كما تقدم، واللام في لئن شكرتم هي الموطئة للقسم.

وقوله: ﴿ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ سادّ مسدّ جوابي الشرط والقسم، وكذا اللام في ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ

﴿ وقوله : ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ سادّ مسدّ الجوابين أيضاً ، والمعنى : لأن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلاً مني .

وقيل : لأزيدنكم من طاعتي .

وقيل : لأزيدنكم من الثواب .

والأوّل أظهر ، فالشكر سبب المزيد ، ولئن كفرتم ذلك وجحدتموه ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ ، فلا بدّ أن يصيبكم منه ما يصيب .

وقيل : إن الجواب محذوف ، أي : ولئن كفرتم لأعذبنكم ، والمذكور تعليل للجواب المحذوف .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أي : إن تكفروا نعمته تعالى أنتم وجميع الخلق ولم تشكروها ﴿ فَإِنَّ اللهَ ﴾ سبحانه ﴿ لَغَنِىٌّ ﴾ عن شكركم لا يحتاج إليه ولا يلحقه بذلك نقص ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي : مستوجب للحمد لذاته لكثرة إنعامه ، وإن لم تشكروه ، أو يحمده غيركم من الملائكة .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون هذا خطاباً من موسى لقومه ، فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى ، وتذكيراً لهم بالقرون الأولى وأخبارهم ، ومجيء رسل الله إليهم ، ويحتمل أنه ابتداء خطاب من الله سبحانه لقوم محمد صلى الله عليه وسلم تحذيراً لهم عن مخالفته ،

والنبأ : الخبر ، والجمع الأنباء ، ومنه قول الشاعر :

ألم يأتيك والأنباء تنمي . . . بما لاقت لبون بني زياد

(291/416)

---

و ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ بدل من الموصول ، أو عطف بيان ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي : من بعد هؤلاء المذكورين ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ أي : لا يحصي عددهم ويحيط بهم علماً إلاّ الله سبحانه ، والموصول مبتدأ وخبره لا يعلمهم إلاّ الله ، والجملة معترضة ، أو يكون الموصول معطوفاً على ما قبله ، ولا يعلمهم إلاّ الله اعتراض ، وعدم العلم من غير الله إما أن يكون راجعاً إلى صفاتهم وأحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم ، أي : هذه الأمور لا يعلمها إلاّ الله ، ولا يعلمها غيره ، أو يكون راجعاً إلى ذواتهم ، أي : لا يعلم ذوات أولئك الذين من بعدهم إلاّ الله سبحانه .

وجملة ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ مستأنفة لبيان النبأ المذكور في ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي : جاءتهم الرسل بالمعجزات الظاهرة وبالشرائع الواضحة ﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ليعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كما في قوله تعالى : ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ﴾ [ آل عمران : 119 ]

، لأن الرسل جاءتهم بتسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم .

وقيل : إن المعنى أنهم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، أي : اسكتوا واتركوا هذا الذي جئتم به تكذيباً لهم وردّاً لقولهم .

وقيل : المعنى أنهم أشاروا إلى أنفسهم وما يصدر عنها من المقالة ، وهي قولهم : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي : لا جواب لكم سوى هذا الذي قلناه لكم بألسنتا هذه .

وقيل : وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاءا وتعجباً .

كما يفعله من غلبه الضحك من وضع يده على فيه .

وقيل : المعنى ردّوا على الرسل قولهم ، وكذبوهم بأفواههم ، فالضمير الأوّل للرسل والثاني للكفار .

وقيل : جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردّاً لقولهم ، فالضمير الأول على هذا للكفار ، والثاني للرسل .



---

وقيل : معناه أومئوا إلى الرسل أن اسكتوا .

وقيل : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم .

وقيل : إن الأيدي هنا النعم ، أي : ردّوا نعم الرسل بأفواههم ، أي : بالنطق والتكذيب ، والمراد بالنعم هنا ما جاءهم به من الشرائع ، وقال أبو عبيدة : ونعم ما قال : هو ضرب مثل ، أي : لم يؤمنوا ولم يجيبوا .

والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد ردّ يده في فيه .

وهكذا قال الأخفش ، واعترض ذلك القتيبي فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول ردّ يده في فيه : إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقاً وغيظاً ، كقول الشاعر :

يردّن في فيه غيظ الحسود . . . حتى يعض عليّ الأكفا

وهذا هو القول الذي قدّمناه على جميع هذه الأقوال ، ومنه قول الشاعر :

لو أن سلمى أبصرت تخددي . . . عضت من الوجد بأطراف اليد

وهو أقرب التفاسير للآية إن لم يصح عن العرب ما ذكره أبو عبيدة والأخفش ، فإن صح ما ذكراه فتفسير الآية به أقرب ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ أي قال الكفار للرسل : إنا كفرنا بما أرسلتم به من البينات على زعمكم ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ أي : في شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه ﴿ مُرِيبٍ ﴾ أي : موجب للريب .

يقال : أربته إذا فعلت أمراً أوجب ريبة وشكاً .

والريب قلق النفس وعدم سكونها .

وقد قيل : كيف صرحوا بالكفر ثم أمرهم على الشك ؟ وأجيب بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنا نشك في صحة نبوّتكم .

ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم ، وجملة ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالت لهم الرسل ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ أي : أفي وحدانيته سبحانه شك ؟ وهي في غاية الوضوح والجلاء .

(293/416)

---

ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته ، فقالوا : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ أي : خالقهما ومخترعهما ومبدعهما وموجدهما بعد العدم ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان به وتوحيده ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قال أبو عبيدة : " من " زائدة ، ووجه ذلك قوله في موضع آخر ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [ الزمر : 53 ] .

وقال سيبويه : هي للتبعيض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع ؛ وقيل : التبعيض على حقيقته ، ولا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غفران جميعها لغيرهم .

وبهذه الآية احتج من جوّز زيادة " من " في الإثبات .

وقيل : " من " للبدل وليست بزائدة ولا تبعيضية ، أي : لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : إلى وقت مسمى عنده سبحانه ، وهو الموت فلا يعذبكم في الدنيا ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أي : ما أنتم إلاّ بشر مثلنا في الهيئة والصورة ، تأكلون وتشربون كما نأكل ونشرب ، ولستم ملائكة ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا ﴾ وصفوهم بالبشر أوّلاً ، ثم بإرادة الصدّ لهم عما كان يعبد آباؤهم ثانياً أي : تريدون أن تصرفونا عن معبودات آبائنا من الأصنام ونحوها ﴿ فَأْتُونَا ﴾ إن كنتم صادقين بأنكم مرسلون من عند الله ﴿ بسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي : بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدّعونه ، وقد جاؤهم بالسلطان المبين والحجة الظاهرة ، ولكن هذا النوع من تعنتاتهم ، ولون من تلوناتهم .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أي : ما نحن في الصورة والهيئة إلاّ بشر مثلكم كما قلتم ﴿ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : يتفضل على من يشاء منهم بالنبوّة .

وقيل : بالتوفيق والهداية ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بسلطان ﴾ أي : ما صح ولا استقام لنا أن نأتيكم بحجة من الحجج ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي : إلا بمشيئته وليس ذلك في قدرتنا .

قيل : المراد بالسلطان هنا هو ما يطلبه الكفار من الآيات على سبيل التعنت ، وقيل أعم من ذلك ، فإن ما شاءه الله كان وما لم يشأه لم يكن ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أي : عليه وحده ، وهذا أمر منهم للمؤمنين بالتوكل على الله دون من عداه ، وكأنّ الرسل قصدوا بهذا الأمر للمؤمنين الأمر لهم أنفسهم قصداً أوّلياً ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾ أي : وأيّ عذر لنا في ألاّ نتوكل عليه سبحانه ؟ ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أي : والحال أنه قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه من هدايتنا إلى الطريق الموصل إلى رحمته ، وهو ما شرعه لعباده وأوجب عليهم سلوكه ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ بما يقع منكم من التكذيب لنا والاقتراحات الباطلة ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ وحده دون من عداه ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ قيل : المراد بالتوكل الأوّل استحداثه ، وبهذا السعي في بقائه وثبوته .

وقيل : معنى الأوّل إن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله سبحانه لا علينا ، فإن شاء سبحانه أظهرها وإن شاء لم يظهرها .

ومعنى الثاني : أبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

قال : أخبرهم موسى عن ربه أنهم إن شكروا النعمة زادهم من فضله وأوسع لهم من الرزق وأظهرهم على العالم .

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال : من طاعتي .

وأخرج ابن المبارك ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن عليّ بن صالح مثله .

(295/416)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن سفيان الثوري في الآية قال : لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون عند الله من ذلك ، ولكن يقول لئن شكرتم لأزيدنكم من طاعتي .

وأخرج أحمد ، والبيهقي عن أنس قال : " أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها ، وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقبلها وقال : تمرة من رسول الله ، فقال للجارية : اذهبي إلى أمّ سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها "

، وفي إسناد أحمد عمارة بن زاذان ، وثقه أحمد ويعقوب بن سفيان وابن حبان .

وقال ابن معين : صالح ، وقال أبو زرعة : لا بأس به .

وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين ، وقال البخاري : ربما يضطرب في

حديثه ، وقال أحمد : روي عنه أحاديث منكرة ، وقال أبو داود : ليس بذاك .

وضعفه الدارقطني ، وقال ابن عدي : لا بأس به .

وأخرج البخاري في تاريخه ، والضياء المقدسي في المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ألهم خمسة لم يحرم خمسة ، وفيها : ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة " وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأغرّ أن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع من أعطيهنّ لم يمنع من الله أربعاً ، وفيها : ومن أعطي الشكر لم يمنع الزيادة ؟ " ولا وجه لتقييد الزيادة بالزيادة في الطاعة ، بل الظاهر من الآية العموم كما يفيده جعل الزيادة جزاء للشكر ، فمن شكر الله على ما رزقه وسع الله عليه في رزقه ، ومن شكر الله على ما أقدره عليه من طاعته زاده من طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه به من الصحة زاده الله صحة ونحو ذلك .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ ويقول : كذب النسابون .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عن عمرو بن ميمون مثله .

وأخرج ابن الضريس عن أبي مجلز قال : قال رجل لعليّ بن أبي طالب : أنا أنسب الناس ، قال : إنك لا تنسب الناس ، فقال بلى : فقال له عليّ : أرأيت قوله : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [ الفرقان : 38 ] قال : أنا أنسب ذلك الكثير ، قال : أرأيت قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ فسكت .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال : ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء معدّ بن عدنان .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قال : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ يقولون : لا نصدّقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وأبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ فردّوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال :

عضوا عليها .

وفي لفظ : على أناملهم غيظاً على رسلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(297/416)

---

وقال القاسمي :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : وهو مما لا مجال للشك فيه لغاية ظهوره .

قال ابن كثير : هذا يحتمل معنيين : أحدهما : أفي وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به . فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السماوات والأرض – أي : الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق – فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما . فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه .

والمعنى الثاني : أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له ، شك ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن

تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى . انتهى .

وسبق لنا في سورة الأعراف البحث في أن معرفته تعالى ضرورية أو نظرية فارجع إليه .

وفي إدخال همزة الإنكار على الظرف إيذان بأن مدار الإنكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلاً ، وفي العدول عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بأن يقولوا : ( أأنتم في شك مريب من الله ) مبالغة في تنزيه ساحة جلاله عن شائبة الشك وتسجيل عليهم بسخافة العقول .

(298/416)

---

وقوله تعالى : ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي : يدعوكم إلى الإيمان بإرساله إيانا ، لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم : ﴿ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ . ولام ( ليغفر ) متعلقة بـ ( يدعو ) أي : لأجل المغفرة لا لفائدته ، تعالى وتقدس . أو للتعدية أي : يدعوكم إلى المغفرة ، كقولك : دعوتك لزيد . و ( من ) إما تبعيضية أي : بعض ذنوبكم وهو ما بينهم وبين الله تعالى دون المظالم ، أو صلة على مذهب الأخفش وغيره ، من زيادتها في الإيجاب ، أو للبدل أي : بدل عقوبة ذنوبكم ، أو على تضمين ( يغفر ) معنى ( يخلص ) .

وادعى الزمخشري مجيئه بـ ( من ) هكذا في خطاب الكافرين دون المؤمنين في جميع القرآن .

قال : وكان ذلك للتفرقة بين خطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد .

قال في " الكشاف " : وللتخصيص فائدة أخرى وهي التفرقة بين الخطابين بالتصريح بمغفرة الكل ، وإبقاء البعض في حق الكفرة مسكوتاً عنه لئلا يتكلوا على الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي : يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى : ﴿ قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : آية مما نقترحه تدل على فضلكم علينا بالنبوة .

(299/416)

---

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : بالرسالة والنبوة : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ أي : بأمره وإرادته ، وهو لم يرد ذلك ، لقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [ الإسراء : من الآية 59 ] .

﴿ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال الزمخشري : أمرٌ منهم للمؤمنين كافة بالتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً وأمروها به كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم وما يجري علينا منكم . ألا ترى إلى قوله :

(300/416)

---

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ ومعناه: وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه: ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أي: أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له، وأوجب عليه سلوكه في الدين. وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل، قالوا على سبيل التوكيد القسمي، مظهرين لكمال العزيمة: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ أي: من الكلام السيئ والأفعال السخيفة. وقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ فيه اهتمام بالتوكل عليه سبحانه؛ لأن مقام الدعوة يقتضيه. ولذا أعيد ذكره. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 10 صـ 312.314﴾

(301/416)

---

وقال ابن عاشور:

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

استفهام إنكاري .

ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله ، فقدم متعلق الشك للاهتمام به ، ولو قال : أشك في الله ، لم يكن له هذا الوقع ، مثل قول القطامي :

أكفرا بعد رد الموت عني

وبعدَ عطائك المائةَ الرتاعا . . .

فكان أبلغ له لو أمكنه أن يقول : أبعد رد الموت عني كفرٌ .

وعلق اسم الجلالة بالشك ، والاسم العَلَم يدلّ على الذات .

والمراد إنكار وقوع الشك في أهم الصفات الإلهية وهي صفة التفرد بالإلهية ، أي صفة الوحدانية .

وأتبع اسم الجلالة بالوصف الدالّ على وجوده وهو وجود السماوات والأرض الدالُّ على أن لهما خالقاً حكيماً لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظمة عن غير فاعلٍ مختار ، وذلك معلوم بأدنى تأمل ، وذلك تأييد لإنكار وقوع الشك في انفراده بالإلهية لأن انفراده بالخلق يقتضي انفراده باستحقاقه عبادة مخلوقاته .

وجملة ﴿ يدعوكم ﴾ حال من اسم الجلالة ، أي يدعوكم أن تنبذوا الكفر ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك ويدفع عنكم عذاب الاستئصال فيؤخّركم في الحياة إلى أجل معتاد .

والدعاء : حقيقته النداء .

فأطلق على الأمر والإرشاد مجازاً لأن الآمر ينادي المأمور .

ويعدى فعل الدعاء إلى الشيء المدعو إليه بحرف الانتهاء غالباً وهو ﴿ إلى ﴾ ، نحو قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ﴾ [ سورة غافر : 41 ] .

وقد يعدّى بلام التعليل داخلةً على ما جُعل سبباً للدعوة فإن العلة تدل على المعلول ، كقوله تعالى : ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم ﴾ [ سورة نوح : 7 ] ، أي دعوتهم إلى سبب المغفرة لتغفر ، أي دعوتهم إلى الإيمان لتغفر لهم ، وهو في هذه الآية كذلك ، أي يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم من ذنوبكم .



---

وقد يعدى فعل الدعوة إلى المدعو إليه باللام تنزيلاً للشيء الذي يُدعى إلى الوصول إليه منزلة الشيء الذي لأجله يدعى ، كقول أعرابي من بني أسد :

دعَوْتُ لِمَا نَابني مِسْوَرًا

فلبّى فلبيْ يديْ مسور . . .

قالوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ

﴾ .

أرادوا إفحام الرسل بقطع المجادلة النظرية ، فنفوا اختصاص الرسل بشيء زائد في صورتهم البشرية يُعلم به أن الله اصطفاهم دون غيرهم بأن جعلهم رسلاً عنه ، وهؤلاء الأقوام يحسبون أن هذا أقطع لحجة الرسل لأن المماثلة بينهم وبين قومهم محسوسة لا تحتاج إلى تطويل في الاحتجاج ، فلذلك طالبوا رسلهم أن يأتوا بحجة محسوسة تثبت أن الله اختارهم للرسالة عنه ، وحسبانهم بذلك التعجيز .

فجملة ﴿ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ في موضع الحال ، وهي قيد لما دل عليه الحصر في جملة ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ من جحد كونهم رسلاً من الله بالدّين الذي جاءوهم به مخالفاً لدينهم القديم ، فبذلك الاعتبار كان موقع التفريع لجملة ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ لأن مجرّد كونهم بشراً لا يقتضي مطالبتهم بالإتيان بسلطان مبين وإنما اقتضاه أنهم جاءوهم بإبطال دين قومهم ، وهو مضمون ما أرسلوا به .

وقد عبّروا عن دينهم بالموصولية لما تؤذن به الصلة من التنويه بدينهم بأنه متقلَّد آبائهم الذين يحسبونهم معصومين من اتباع الباطل ، وللأمم تقديس لأسلافها فلذلك عدلوا عن أن يقولوا : تريدون أن تصدّونا عن ديننا .

والسلطان : الحجة .

وقد تقدّم في قوله : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من

سلطان ﴾ في سورة الأعراف ( 71 ) .

المبين الواضح الذي لا احتمال فيه لغير ما دل عليه .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

(303/416)

---

قول الرسل ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ جواب بطريق القول بالموجَب في علم آداب البحث ، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الاستدلال غيرُ تام الإنتاج ، وفيه إطماع في الموافقة .

ثم كرّ على استدلالهم المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [ سورة المنافقون : 8 ] .

وهذا النوع من القوادح في علم الجدل شديد الوقع على المناظر ، فليس قول الرسل إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ تقريراً للدليل ولكنه تمهيد لبيان غلط المستدل في الاستنتاج من دليله .

ومحل البيان هو الاستدراك في قوله : ﴿ ولكن الله يَمنّ على من يشاء من عباده ﴾ [ سورة إبراهيم : 11 ] .

والمعنى : أن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة في زائد عليها فالبشر كلهم عباد الله والله يمُنّ على من يشاء من عباده بِنعَم لم يعطها غيرهم .

فالاستدراك رفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضى الاستواء في كل خصلة .

وأورد الشيخ محمّد بن عرفة في التفسير ﴾ وجهاً للتفرقة بين هذه الآية إذ زيد فيها كلمة ﴿ لهم ﴾ في قوله : ﴿ قالت لهم رسلهم ﴾ [ سورة إبراهيم : 10 ] وبين الآية التي قبلها إذ قال فيها قالت رسلهم ﴾ بوجهين:

أحدهما : أن هذه المقالة خاصة بالمكذّبين من قومهم يقولونها لغيرهم إذ هو جواب عن كلام صدر منهم والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم ، أي للمصدقين والمكذبين .

وثانيهما : أن وجود الله أمر نظري ، فكان كلام الرسل في شأنه خطاباً لعموم قومهم ، وأما بعْثة الرسل فهي أمر ضروري ظاهر لا يحتاج إلى نظر ، فكأنه قال : ما قَالوا هذا إلا للمكذبين لغباوتهم وجهلهم لا لغيرهم .



---

وأجاب الأبي أن ﴿ أفي الله شك ﴾ خطاب لمن عاند في أمر ضروري ، فكأنّ المجيب عن ذلك يجيب به من حيث الجملة ولا يُقبل بالجواب على المخاطب لمعاندته فيجيب وهو

مُعْرِض عنه بخلاف قولهم : ﴿ إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ فإنه تقرير لمقالتهم فهم يُقبلون عليهم بالجواب لأنهم لم يبطلوا كلامهم بالإطلاق بل يقررونه ويزيدون فيه أ هـ .

والحاصل أن زيادة ﴿ لهم ﴾ تؤذن بالدلالة على توجه الرسل إلى قومهم بالجواب لما في الجواب عن كلامهم من الدقة المحتاجة إلى الاهتمام بالجواب بالإقبال عليهم إذ اللامُ الداخلة بعد فعل القول في نحو : أقول لك ، لام تعليل ، أي أقول قولي لأجلك .

ثم عطفوا على ذلك تبيين أن ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم ولكنه بمشيئة الله وليس الله بمكرَه على إجابة من يتحداه .

وجملة ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أمر لمَن آمن من قومهم بالتوكل على الله ، وقصدوا به أنفسهم قصداً أوليّاً لأنهم أول المؤمنين بقرينة قولهم : ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا ﴾ إلى آخره .

ولما كان حصول إذن الله تعالى بتأييد الرسل بالحجة المسؤولة غيرَ معلوم الميقات ولا متعيّنَ الوقوع وكانت مدة ترقب ذلك مظنة لتكذيب الذين كفروا رسلَهم تكذيباً قاطعاً وتَوَقَعَ الرسل أُذاه قومهم إياهم شأن القاطع بكذب من زَعم أنه مرسل من الله ، ولأنهم قد بدأوهم بالأذى كما دل عليه قولهم : ﴿ ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ﴾ .

أظهر الرسل لقومهم أنهم غير غافلين عن ذلك وأنهم يتلقون ما عسى أن يواجهَهُم به المكذّبون من أذى بتوكّلهم على الله هم ومن آمن معهم ؛ فابتدأوا بأن أمروا المؤمنين بالتوكل

تذكيراً لهم لئلا يتعرّض إيمانهم إلى زعزعة الشك حرصاً على ثبات المؤمنين، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: "أفي شك أنت يا بنَ الخطّاب".

(305/416)

---

وفي ذلك الأمر إيذان بأنهم لا يعبأون بما يضمره لهم الكافرون من الأذى، كقول السحرة لفرعون حين آمنوا ﴿ لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ [سورة الشعراء: 50].

وتقديم المجرور في قوله: وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ مؤذن بالحصر وأنهم لا يرجون نصراً من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم.

وفيه إيماء إلى أنهم واثقون بنصر الله.

والجملة معطوفة بالواو عطف الإنشاء على الخبر.

والفاء في قوله: ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ رابطة لجملة (ليتوكل المؤمنون) بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشرط الذي يدل عليه المقام.

والتقدير: إن عجبتم من قلة اكتراثنا بتكذيبكم أيها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيها المؤمنون فليتوكل المؤمنون على الله فإنهم لن يضيرهم عدوّهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ كما تقدم في سورة العقود (

23 ) .

والتوكّل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنه أعلم بما يصلح ، فالتوكل على الله تحقق أنه أعلم بما ينفع أولياءَه من خير الدنيا والآخرة .

وقد تقدم الكلام على التوكّل عند قوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في سورة آل عمران ( 59 ) .

وجملة وما لنا ألا نتوكل على الله ﴾ استدلال على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله ، لأنهم رأوا بوارق عنايته بهم إذ هداهم إلى طرائق النجاة والخير ، ومبادىء الأمور تدل على غاياتها .

وأضافوا السبل إلى ضميرهم للاختصار لأن أمور دينهم صارت معروفة لدى الجميع فجمعها قولهم : ﴿ سبلنا ﴾ .

﴿ وما لنا ألا نتوكل ﴾ استفهام إنكاري لانتفاء توكلهم على الله ، أتوا به في صورة الإنكار بناءً على ما هو معروف من استحماق الكفار إيّاهم في توكلهم على الله ، فجاءوا بإنكار نفي التوكل على الله ، ومعنى ﴿ وما لنا ألا نتوكل ﴾ ما ثبت لنا من عدم التوكل ، فاللام للاستحقاق .

وزادوا قومهم تأييساً من التأثر بالأذى فأقسموا على أن صبرهم على أذى قومهم سيستمر ، فصيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكد بنون التوكيد في ﴿ ولنصبرن ﴾ دلت على أذى مستقبل .

ودلّت صيغة المضي المنتزع منها المصدر في قوله : ﴿ ما آذيتمونا ﴾ على أذى مضى .

فحصل من ذلك معنى نصبر على أذى متوقع كما صبرنا على أذى مضى .

وهذا إيجاز بديع .

وجملة ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ يحتمل أن تكون من بقية كلام الرسل فتكون تذييلاً وتأكيداً لجملة ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فكانت تذييلاً لما فيها من العموم الزائد في قوله : ﴿ المتوكلون ﴾ على عموم ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ .

وكانت تأكيداً لأن المؤمنين من جملة المتوكلين .

والمعنى : من كان متوكلاً في أمره على غيره فليتوكل على الله .

ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى ، فهي تذييل للقصة وتنويه بشأن المتوكلين على الله ، أي لا ينبغي التوكل إلا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾

وقوله : ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ . . . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] هو لونٌ من الخطاب الذي لا يترك لِمَنْ توجه إليه الكلام أنْ يُجيب إلا كما تريد أنت . وأنت لا تفعل ذلك إلا إذا كُنْتَ واثقاً من أن مَنْ تُوجِّه إليه الكلام سيجيب - إنِ استحضرَ الحق في ذهنه - كما تريد أنت .

ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله " لا شك في الله " وبذلك يكون الكلام خبرياً ، وقد يقول واحد : إن هذا الكلام كاذب ، ولكن على الرغم من أن المستمعين من الكفار ، إلا أنه يأتي بالقضية في شكل تساؤل يستأمنهم على أنهم سوف يُديرون الكلام في رؤوسهم ، وسيعثرون على الإجابة التي لا يمكن أنْ ينكرونها ؛ وهي " ليس في الله شك " .

وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً ؛ وجاء لهم بالتساؤل الذي سيجيبون عليه " ليس في الله شك " ، ويأتي لهم بالدليل الذي لا يحتمل أيّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض . . . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

والفاطر هو الذي خلق خَلْقاً على غير مثال سابق ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ بَدِيعُ

السماوات والأرض . . . ﴾ [ البقرة : 117 ] .

فلا أحدَ قادرٌ على أن يخلقَ مثل السماوات والأرض ؛ وهي مخلوقة على غير مثال سابق . وسبحانه هو مَنْ شاء أن يكون الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسخّرة لخدمته .

وقد يتخيل الإنسان أن خَلْقه أكبر من خَلْق السماوات والأرض ؛ لذلك يُنبّهه الحق سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [ غافر : 57 ] .

(308/416)

---

ولو نظرت إلى الشمس وسألتَ نفسك ؛ كم من الأجيال قد استمتعوا بدفْئها واستفادوا منها ؛ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْل خَلْق البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عدد سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازي يضرب المَثل الذي لا يمكن أن يُنكِره أحد ، ويدلُّ على الفطرة في الإيمان ، ويُوضّح أن الحق سبحانه لم يُمهل الإنسان إلى أنْ ينضجَ عقله ليشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسلَّل ، وضرب شقيقه ؛ هنا لا بُدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَنِ الذي ضربه ؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أنْ لا شيءَ يحدث إلا وله

فاعل .

وهَبْ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسي ، وهو يريد أن يجلس على نفس الكرسي ؛ هنا سيقوم الطفل بشدّ وجَذْب أخيه من على الكرسي ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حَيِّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أوحد . وهكذا نجد قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض . . . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتي من بعد ذلك بالقول :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ .

. . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ؛ وهو هنا يقول :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

ولم يَقُلْ : يغفر لكم ذنوبكم ؛ ذلك أنه يخاطب الكفار ؛ بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم . . . ﴾ [ الصف : 10-12 ] .

(309/416)

---

وهكذا لا يساوي الحقُّ سبحانه في خطابه بين المؤمنين والكافرين .

أو : أن المقصود من قوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

هو غفران الكبائر : ذلك أن صغائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات ؛ فنحن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر " .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

وكلنا نعرف أن الأجل هو الزمن المضروب والمُقرر للحدثِ . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة فنجد ما يدل عليه قوله الحق : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [ القصص : 81 ] .

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾ [ إبراهيم : 10 ] مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لَدَد وعناد ، لذلك نجد قولهم :

﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسلهم أنهم يُفضّلون أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فكَّروا لَعلِموا أن التقليد لو شاع في المجتمعات لَما ارتقى أحدٌ عن آبائه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرُّد جيل على جيل سابق ، فلماذا يُصِرّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون في كل شيء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء الكفار بتقليد الآباء في العقائد ؟

ولا يكتفي أهل الكُفْر بذلك ، بل يطلبون أن يأتيَ لهم الرسل بسلطان مبين ، والسلطان يُطلق مرَّة على القهر على الفعل ، ويكون الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّة يطلق على الحجة التي تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحِباً لما يَقْدُم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لا بُدّ أن يُقبل الإنسان على الدين بقلبه ، وذلك لا يأتي قهراً .

لذلك نجد القول الحق : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي . . . ﴾ [ البقرة : 256 ] .

وما دام الرُّشْدُ قد ظهر فالإكراه لا مجال له ؛ لأن الذي يُكْره على شيء لا يمكن له أن يعتنق ما يُكره عليه .

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليه أن يلتزَم بما يُكلِّف به الدين ؛ ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مُكْرهاً ، بل ، لا بُدّ أن يدخله على بصيرة .

ويأتي الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قَوْل أهل الكفر : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ . . . ﴾ .

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذي نملكه هو المعجزة التي اختص بها الحق سبحانه كُلَّ رسول ، والحق سبحانه هو الذي يتفضَّل على عباده ؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبِل عليه بكل الثقة في أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره ؛ فسبحانه هو القائل : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [ الصافات : 173 ] .

ويخبرنا سبحانه بطمأنة الرسول ومَنْ معه لحظةَ أن تزلزلهم جِسَام الأحداث ؛ وتبلغ قلوبهم الحناجر ، ويتساءلون : ﴿ متى نَصْرُ الله . . . ﴾ [ البقرة : 214 ] .

فتأتي أخبار نَصرْ الحق سبحانه لرسله السابقين لطمأنه المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿ وَعلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ [ إبراهيم : 11 ] .

(311/416)

---

هكذا أعلن كل رسولٍ لِمَنْ آمن به من قومه ، فعلَى الله وحده يتوكّل المؤمنون ، ويُفوِّضون كل أمورهم إليه وحده ؛ صَبْراً على معاندة الكافرين ، وثِقةً في أنه سبحانه ينصر مَنْ أبلغوا رسالته ومنهجه ، وينصر معهم مَنْ آمنوا بالمنهج والرسالة .

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله . . . ﴾ .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد وصف المُتوكّلين في نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون ؛ وهنا يَصِفهم في نهاية هذه الآية بأنهم المتوكّلون ؛ لأن صفة الإيمان تدخل في صفة التوكل ضِمنْاً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتواكل ؛ فالتوكل يعني أن تستنفد أسباب الله المَمْدودة ؛

لأن التوكل عمل القلوب ؛ بعد أن تُؤدّي الجوارحُ ما عليها من عمل وأخْذ بالأسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلوب هي التي تتوكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(312/416)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ قال : ما قد خط من الأجل ، فإذا جاء الأجل من الله لم يؤخر .

وأخرج الديلمي في مسند الفردوس ، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - مرفوعاً : إذا آذاك البرغوث ، فخذ قدحاً من ماء واقرأ عليه سبع مرات ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله . . . ﴾ الآية ، ثم ترش حول فراشك .

وأخرج المستغفري في الدعوات ، عن أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا آذاك البرغوث ، فخذ قدحاً من ماء واقرأ عليه سبع مرات ﴿ وما لنا ألا

نتوكل على الله . . . ﴾ الآية . فإن كنتم مؤمنين ، فكفوا شركم وأذاكم عنا ، ثم ترشه حول فراشك ، فإنك تبيت آمنا من شرها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(313/416)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ ﴾ : يجوز في " شَكٌّ " وجهان ، أظهرُهما : أنه فاعل بالجارِّ قبله ، وجاز ذلك لاعتماده على الاستفهام . والثاني : أنه مبتدأٌ وخبره الجارُّ ، والأولُ أَوْلَى ، بل كان ينبغي أن يَتَعَيَّنَ لأنه يلزمُ مِنَ الثاني الفصلُ بين الصفة والموصوفِ بأجنبيّ وهو المبتدأ ، وهذا بخلاف الأول ، فإنَّ الفاصلَ ليس أجنبياً ؛ إذ هو فاعلٌ ، والفاعلُ كالجزء من رافعه . ويدلُّ على ذلك تجويزُهم : " ما رأيت رجلاً أحسنَ في عينه الكحلُ منه في عين زيد " بنصب " أحسنَ " صفةً ورفع " الكحلُ " فاعلاً بأَفْعَلَ ، ولم يَضُرَّ الفصلُ به بين أَفْعَلَ وبين " مِنْ " لكونه كالجزء مِنْ رافعه ، ولم يُجيزوا رَفْعَ " أحسن " خبراً مقدَّماً و " الكحلُ "

مبتدأ مؤخر، لئلا يلزم الفصل بين أَفْعَل وبين "مِنْ" بأجنبي. ووجهُ الاستشهادِ من هذه المسألة: أنهم جعلوا المبتدأ أجنبياً بخلاف الفاعل، ولهذه المسألةِ موضعٌ غيرُ هذا.

وقرأ العامَّةُ "فاطرِ" بالجرّ. وفيه وجهان: النعتُ والبدلية، قاله أبو البقاء: وفيه نظر؛ فإنَّ الإِبدالَ بالمشتقاتِ يَقِلُّ، ولو جعله عطفَ بيانٍ كان أسهلَ. قال الزمخشريُّ: "أُدْخِلَتْ همزةُ الإِنكارِ على الظرف، لأنَّ الكلامَ ليس في الشَّكِ، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشكَّ لظهورِ الأدلَّةِ وشهادتِها عليه/.

وقوله: "لِيَغْفِرَ" اللامُ متعلِّقةٌ بالدعاء، أي: لأجلِ غفرانِ ربِّكم، كقوله:

2870- دَعَوْتُ لِما نابني مِسْورا ... فلبَّى فَلَبَّى يَدَيْ مِسْوَرِ

(314/416)

---

ويجوز أن تكونَ اللامُ مُعَدِّيةً كقولِك: دَعَوْتُك لِزيدٍ، وقوله: ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى [الإِيمان] ﴾ [غافر: 10]. والتقدير: يَدْعُوكم إلى غفرانِ ذنوبكم.

وقوله: ﴿ أَن تَصُدُّونَا ﴾ العامَّة على تخفيفِ النون. وقرأ طلحة بتشديدها كما شدَّد "تَدْعُونَّا". وفيها تخريجان، أحدُهما: ما تقدَّم في نظيرِتها على أَنْ تكونَ "أَنْ" هي المخففة لا الناصبةَ، واسمُها ضميرُ الشأنِ، وشذَّ عَدَمُ الفصلِ بينها وبين الجملة الفعلية. والثاني:

أنها الناصبةُ، ولكنْ أُهْمِلَتْ حملاً على "ما" المصدريَّةِ، كقراءةِ "أَنْ يُتِمُّ" برفع "يُتِمُّ".

وقد تقدَّمَ القولُ فيه.

و"مِنْ" في ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قيل: مزيدةٌ. وقيل: تبعيضيةٌ. وقيل: بمعنى البدلِ أي: بدلَ عقوبةِ ذنوبكم، كقوله: ﴿ أَرَضِيتُمْ بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخرة ﴾ [التوبة: 38].

قوله: "تُرِيْدون" يجوز أن يكونَ صفةً ثانيةً لـ"بَشَرٌ"، وحُمِل على معناه؛ لأنَّ بمنزلةِ القومِ والرَّهْط، كقوله: ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: 6] وأَنْ يكونَ مُسْتَأْنفاً.

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُمْ ﴾: يجوز أن يكونَ خبرَ "كان": "لنا"، و﴿ أَن نَّأْتِيَكُمْ ﴾ اسمَها، أي: وما كان لنا إتيانُكم بسلطانٍ. و﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ حالٌ.

ويجوز أن يكونَ الخبرُ ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ و"لنا" تبيينٌ.

(315/416)

---

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا ﴾ : كقوله : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَاتِلَ ﴾ [ البقرة : 246 ] وقد تقدَّم و " لَنَصْبِرَنَّ " جوابُ قسمٍ . وقوله : " ما آذَيْتُمُونا " يجوز أَنْ تكونَ " ما " مصدرية ، وهو الأرجحُ لعدم الحاجةِ إلى رابطٍ ادُّعِي حَذْفُه على غير قياس والثاني أنها موصولةٌ اسميةٌ ، والعائدُ محذوفٌ على التدريج ، إذ الأصل : آذَيْتُمونا به ، ثم حُذِفَت الباءُ ، فوَصَلَ الفعلُ إليه بنفسِه .

وقرأ الحسن بكسرِ لامِ الأمرِ في " فَلْيَتَوَكَّلْ " وهو الأصلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 74 ـ 76 ﴾

*(316/416)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي. سبحانه لا يتحرك نَفَسٌ إلا بتصريفه.

وكيف يبصر جلال قَدَرِه إلا من كَحَّله بنور برّه؟

ثم قال: ﴿ يَدعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾: ليس العجب ممن تكلف لسيده المشاق وتحمل ما لا يطاق، وألاَّ يهرب من خدمةٍ أو يجنحَ إلى راحة.. إنما العَجَبُ من سيدٍ عزيزٍ كريمٍ يدعو عَبْدَه ليغفرَ له وقد أخطأ، ويعامله بالإحسان وقد جفا.

والذي لا يَكُفُّ عن العناد، ولا يؤثر رضاءَ سيده على راحة نفسه لا يُحْمَل هذا إلا على قِسمةٍ بالشقاء سابقة.. وإن أحكام الله بردّه صادقة. ثم أخبر أنهم قالوا رُسُلهم:

قوله جل ذكره: ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم، ولم يعرفوا سرائرهم، ومالوا إلى تقليد أسلافهم، وأصروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلافهم.

ق﴿ الَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

قالت لهم الرسل ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه - سبحانه - مَنَّ علينا بتعريفه، واسْتَخلَصنا بما أَفْرَدَنا به من تشريفه. والذي اقترحتم علينا من ظهور الآيات فليس لنا إلى الإتْيَانِ به سبيلٌ إلاَّ أن يُظْهِرَه الله علينا إذا شاء بما شاء - وهو عليه قدير.

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ :

وقد رقَّانا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان، فكفانا من مهان الشان. ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ : وقد حقَّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان، وكفاية ما أظلَّنا من الامتنان. ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ ولم نخرج إلى التقاضي على الله فيما وعدنا الله.

قوله: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ : والصبر على البلاءِ يهون إذا كان على رؤية المُبْلي، وفي معناه أنشدوا:

يستقدمون بلاياهم كأنهمُ... لا ييأسون من الدنيا إذا قبلوا. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 242.244﴾

(318/416)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء السابع عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 13 ﴾ من سورة إبراهيم عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 23 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضت هذه المحاورة وقد علم منها كل منصف ما عليه الرسل من الحلم والعلم والحكمة ، وما عليه مخالفهم من الضلال والجهل والعناد ، وكان في الكلام ما ربما أشعر بانقضائه ، ابتدأ تعالى عنهم محاورة أخرى ، عاطفاً لها على ما مضى ، فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم ﴾ مستهينين بمن قصروا التجاءهم عليه ، مؤكدين لاستشعارهم بإنكار من رأى مدافعة الله عن أوليائه لقولهم : والذي يحلف به !

ليكونن أحد الأمرين : ﴿ لنخرجنكم من أرضنا ﴾ أي التي لنا الآن الغلبة عليها ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ بأن تكفوا عن معارضتنا كما كنتم دعوى الرسالة ، فإطلاق ملتهم على السكوت عنهم من إطلاق اسم الكل على الجزء على زعمهم مثل ﴿ جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ [ نوح : 7 ] وهو مجاز مرسل ، فصبروا على ذلك كما أخبروا به توكلاً على ربهم واستمروا على نصيحتهم لهم بدعائهم إلى الله ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي كلمهم في خفاء بسبب توعد أممهم لهم ، مختصاً لهم بذلك ﴿ ربهم ﴾ المحسن إليهم الذي توكلوا عليه ، تسكيناً لقلوبهم وتسلية لنفوسهم ، وأكد لما - لمن ينظر كثرة الكفار وقوتهم - من التوقف في مضمون الخبر ولا سيما إن كان كافراً ، قائلاً : ﴿ لنهلكن ﴾ بما لنا من العظمة المقتضية لنفوذ الأمر ؛ والإهلاك : إذهاب الشيء إلى حيث لا يقع عليه الإحساس ﴿ الظالمين ﴾ أي العريقين في الظلم ، وربما تبنا على بعض من أخبرنا عنه بأنه كفر ، وهو من لم يكن عريقاً في كفره الذي هو أظلم الظلم ﴿ ولنسكننكم ﴾ أي دونهم ﴿ الأرض ﴾ أي مطلقها وخصوص أرضهم ، وأشار إلى عدم الخلود بالجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ بأن نورثكموها سواء قدرناهم على إخراجكم أم لا ، فكأنه قيل : هل ذلك خاص بهم ؟ فقيل : لا ، بل ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي المرام ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ أي المكان الذي يقوم فيه من أحاسبه : ماذا تكون عاقبته فيه ، وهو أبلغ من : خافني ، ﴿ وخاف وعيد ﴾ لا بد أن

أهلك ظالمه وأسكنه أرضه بعده ، فاستبشروا بذلك الوعد من الله تعالى

﴿ واستفتحوا ﴾

(6/417)

---

على أعدائهم فأفلحوا وأنجحوا ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ فأهلكناهم كلهم ، وكان لنا الغنى والحمد بعد إهلاكهم كما كان قبله ؛ والعناد : الامتناع من الحق مع العلم به كبراً وبغياً ، من عند عن الحق عنوداً ، والجبرية : طلب علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الصفة ، فهو ذم للعبد من حيث إنه طالب ما ليس له ؛ ثم أتبعه ما هو كدليل على خيبته من أن سيره إلى ما أمامه من العذاب ، فهو واقع فيه لا محالة وهو لا يشعر ، وعبر عن غفلته عنه بقوله :

﴿ من ورائه جهنم ﴾ أي لا بد أنه يتبوأها .

ولما كان المرجع وجود السقي للصديد مطلقاً ، بني للمفعول قوله : ﴿ ويسقى ﴾ أي فيها ﴿ من ماء صديد ﴾ وهو غسالة أهل النار كقيحهم ودمائهم ﴿ يتجرعه ﴾ أي يتكلف بلعه شيئاً فشيئاً لمرارته وحرارته ، فيغص به ويلقى منه من الشدة ما لا يعلم قدره إلا الله ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ ولا يقرب من إساغته ، فإن الإساغة جر الشيء في الحلق على تقبل النفس ﴿ ويأتيه الموت ﴾ أي أسبابه التي لو جاءه سبب منها في الدنيا لمات ﴿ من كل

مكان ﴾ والمكان : جوهر مهيأ للاستقرار ، فهو كناية عن أنه يحصل له من الشدائد ما يميت من قضى بموته ﴿ وما هو بميت ﴾ أي بثابت له الموت أصلاً .

لأنا قضينا بدوام حياته زيادة في عذابه ، والموت : عرض يضاد الإدراك في البنية الحيوانية ﴿ ومن ورائه ﴾ أي هذا الشخص ، بعد ذلك في يوم الجزاء الذي لا بد منه ، وما خلقنا السماوات والأرض إلا من أجله ﴿ عذاب غليظ ﴾ يأخذه في ذلك اليوم – مع ما قدمته له في الدنيا – وهو غافل عنه أخذ ما يكون من وراء ، فيكون أشد كما هو الحال الآتي بغتة ، أو يكون المعنى أن من بعد هذا العذاب في جهنم عذاباً آخر ، لا تحتمل عقولكم وصفه بأكثر من الغلظ .

(7/417)

---

فلما فرغ من محاوراتهم ، وما تبعها مما بين فيه أنه لا يغنيهم من بطشه شيء ، ضرب لهم في ذلك مثلاً فقال : ﴿ مثل ﴾ وهو مستعار هنا للصفة التي فيها غرابة ﴿ الذين كفروا ﴾ مستهينين ﴿ بربهم ﴾ مثل من قصد أمراً ثم لم ينظر لنفسه في السلوك إليه بل اغتر بمن جار به عن الطريق ، فأبعد كل البعد حتى وصل إلى شعاب لا يمكن فيها المقام ، ولا يتأتى منها الرجوع فهلك ضياعاً .

ولما كان الفرق بين الإنسان والعدم إنما هو بالعمل ، ذكر ما علم منه أن المثل لأعمالهم على طريق الجواب لمن كأنه قال : ما مثلهم ؟ فقال : ﴿ أعمالهم ﴾ أي المكارم التي كانوا يعملونها في الدنيا من الصلة والعتق وفداء الأسرى والجود ونحو ذلك ، في يوم الجزاء ، ويجوز أن يكون مبتدأ ثانياً - كما قال الحوفي وابن عطية .

وهو وخبره خبر المبتدأ الأول ، ولا يحتاج إلى رابط لأنه نفس المثل الذي معناه الصفة ﴿ كرماد ﴾ وهو ما سحقه الاحتراق سحق الغبار ﴿ اشتدت به الريح ﴾ أي أسرعت بالحركة على عظم القوة ؛ والريح : جسم رقيق منبث في الجو من شأنه الهبوب ، والرياح خمس : شمال وجنوب وصبا ودبور ونكباء ﴿ في يوم عاصف ﴾ أي شديد الريح ، فأطارته في كل صوب ، فصاروا بحيث ﴿ لا يقدرون ﴾ أي يوم الجزاء ؛ ولما كان الأمر هنا متمحصاً للأعمال ، قدم قوله : ﴿ مما كسبوا ﴾ في الدنيا من أعمالهم في ذلك اليوم ﴿ على شيء ﴾ بل ذهب هباء منثوراً لبنائه على غير أساس ، فثبت بمقتضى ذلك أن الذين كفروا بربهم واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة في ضلال بعيد ، بل ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الشديد الشناعة ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الضلال البعيد ﴾ الذي لا يقدر صاحبه على تداركه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 177.179 ﴾

*(8/417)*

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الأنبياء عليهم السلام ، أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة وقالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ والمعنى : ليكونن أحد الأمرين لا محالة إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .

والسبب فيه أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين ، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة .

فإن قيل : هذا يوهم أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها .

قلنا : الجواب من وجوه :

الوجه الأول : أن أولئك الأنبياء عليهم السلام إنما نشأوا في تلك البلاد وكانوا من تلك القبائل في أول الأمر ما أظهروا المخالفة مع أولئك الكفار ، بل كانوا في ظاهر الأمر معهم من غير إظهار مخالفة فالقوم ظنوا لهذا السبب أنهم كانوا في أول الأمر على دينهم فلهذا السبب قالوا : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ .

الوجه الثاني : أن هذا حكاية كلام الكفار ولا يجب في كل ما قالوه أن يكونوا صادقين فيه فلعلهم توهموا ذلك مع أنه ما كان الأمر كما توهموه .

الوجه الثالث : لعل الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل إلا أن المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم ولا بأس أن يقال : إنهم كانوا قبل ذلك لوقت على دين أولئك الكفار .

الوجه الرابع : قال صاحب "الكشاف" : العود بمعنى الصيرورة كثير في كلام العرب .

(9/417)

---

الوجه الخامس : لعل أولئك الأنبياء كانوا قبل إرسالهم على ملة من الملل ، ثم إنه تعالى أوحى إليهم بنسخ تلك الملة وأمرهم بشريعة أخرى وبقي الأقوام على تلك الشريعة التي صارت منسوخة مصرين على سبيل الكفر ، وعلى هذا التقدير فلا يبعد أن يطلبوا من الأنبياء أن يعودوا إلى تلك الملة .

الوجه السادس : لا يبعد أن يكون المعنى : أو لتعودن في ملتنا ، أي إلى ما كنتم عليه قبل إدعاء الرسالة من السكوت عن ذكر معايبة ديننا وعدم التعرض له بالطعن والقدح وعلى جميع هذه الوجوه فالسؤال زائل ، والله أعلم .

واعلم أن الكفار لما ذكروا هذا الكلام قال تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾

حكاية تقتضي إضمار القول أو إجراء الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه ، وقرأ أبو حيوة :

﴿ ليهلكن الظالمين وليسكننكم ﴾ بالياء اعتباراً لأوحى فإن هذا اللفظ لفظ الغيبة

ونظيره قولك أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن ، والمراد بالأرض ﴿ أَرْضُ الظالمين

وديارهم ﴾ ونظيره قوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض

ومغاربها ﴾ [ الأعراف : 137 ] ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم ﴾ [ الأحزاب : 27 ]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم :

" من آذى جاره أورثه الله داره " واعلم أن هذه الآية تدل على أن من توكل على ربه في دفع

عدوه كفاه الله أمر عدوه .

*(10/417)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ فقوله ذلك إشارة إلى أن ما

قضى الله تعالى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم أثر ذلك الأمر حق لمن

خاف مقامي وفيه وجوه : الأول : المراد موقفي وهو موقف الحساب ، لأن ذلك الموقف

موقف الله تعالى الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ، ونظيره قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِ ﴾ [ النازعات : 40 ] وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [ الرحمن : 46 ]

الثاني : أن المقام مصدر كالقيامة ، يقال : قام قياماً ومقاماً ، قال الفراء : ذلك لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي إياه كقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [ الرعد : 33 ] .

الثالث : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ أي إقامتي على العدل والصواب فإنه تعالى لا يقضي إلا بالحق ولا يحكم إلا بالعدل وهو تعالى مقيم على العدل لا يميل عنه ولا ينحرف ألبتة .

الرابع : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ أي مقام العائذ عندي وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول ، الخامس : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ أي لم خافني ، وذكر المقام ههنا مثل ما يقال : سلام الله على المجلس الفلاني العالي والمراد : سلام الله على فلان فكذا ههنا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ قال الواحدي : الوعيد اسم من أوعد إيعاداً وهو التهديد .

قال ابن عباس : خاف ما أوعدت من العذاب .

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً قوله : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ ثم عطف عليه قوله : ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ فهذا يقتضي أن يكون الخوف من الله تعالى مغايراً للخوف من وعيد الله ، ونظيره : أن حب الله تعالى مغاير لحب ثواب الله ، وهذا مقام شريف عال في أسرار الحكمة والتصديق .

ثم قال: ﴿ واستفتحوا ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى:

(11/417)

---

للاستفتاح ههنا معنيان: أحدهما: طلب الفتح بالنصرة، فقوله: ﴿ واستفتحوا ﴾ أي واستنصروا الله على أعدائهم، فهو كقوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح ﴾ [ الأنفال: 19 ].

والثاني: الفتح الحكم والقضاء، فقول ربنا: ﴿ واستفتحوا ﴾ أي واستحكموا وسألوه القضاء بينهم، وهو مأخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله: ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [ الأعراف: 89 ].

إذا عرفت هذا فنقول: كلا القولين ذكره المفسرون.

أما على القول الأول فالمستفتحون هم الرسل، وذلك لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [ نوح: 26 ] وقال موسى: ﴿ رَبَّنَا اطمس ﴾ [ يونس: 88 ] الآية.

وقال لوط: ﴿ رَبّ انصرنى عَلَى القوم المفسدين ﴾ [ العنكبوت: 30 ] وأما على القول

الثالث : وهو طلب الحكمة والقضاء فالأولى أن يكون المستفتحون هم الأمم وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ، ومنه قول كفار قريش :

﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

وكقول آخرين ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [ العنكبوت : 29 ] .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿ واستفتحوا ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ وقرىء واستفتحوا بلفظ الأمر وعطفه على قوله : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ﴾ أي أوحى إليهم ربهم ، وقال لهم : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ﴾ وقال لهم ﴿ استفتحوا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :



---

إن قلنا : المستفتحون هم الرسل ، كان المعنى أن الرسل استفتحوا فنصروا وظفروا بمقصودهم وفازوا ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وهم قومهم ؛ وإن قلنا : المستفتحون هم

الكفرة ، فكان المعنى : أن الكفار استفتحوا على الرسل ظناً منهم أنهم على الحق والرسل على الباطل ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ منهم وما أفلح بسبب استفتاحه على الرسل .

المسألة الثانية :

الجبار ههنا المتكبر على طاعة الله وعبادته .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ [ مريم : 14 ] قال أبو عبيدة عن الأحمر : يقال فيه جبرية وجبروة وجبروت وجبورة ، وحكى الزجاج : الجبرية والجبر بكسر الجيم والباء والنجبار والجبرياء .

قال الواحدي : فهي ثمان لغات في مصدر الجبار ، وفي الحديث أن امرأة حضرت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أمراً فأبت عليه فقال : " دعوها فإنها جبارة " أي مستكبرة ، وأما العنيد فقد اختلف أهل اللغة في اشتقاقه ، قال النضر بن شميل : العنود الخلاف والتباعد والترك ، وقال غيره : أصله من العند وهو الناحية يقال : فلان يمشي عنداً ، أي ناحية ، فمعنى عاند وعند .

أخذ في ناحية معرضاً ، وعاند فلان فلاناً إذا جانبه وكان منه على ناحية .

إذا عرفت هذا فنقول : كونه جباراً متكبراً إشارة إلى الخلق النفساني وكونه عنيداً إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخلق ، وهو كونه مجانباً عن الحق منحرفاً عنه ، ولا شك أن الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق

والصدق ، كان خائباً عن كل الخيرات خاسراً عن جميع أقسام السعادات .

واعلم أنه تعالى لما حكم عليه بالخيبة ووصفه بكونه جباراً عنيداً ، وصف كيفية عذابه بأمور : الأول : قوله : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ وفيه إشكال وهو أن المراد : أمامه جهنم ، فكيف أطلق لفظ الوراء على القدام والأمام ؟

(13/417)

---

وأجابوا عنه من وجوه : الأول : أن لفظ "وراء" اسم لما يوارى عنك ، وقدام وخلف متوار عنك ، فصح إطلاق لفظ "وراء" على كل واحد منهما .

قال الشاعر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه . . يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضاً : الموت وراء كل أحد .

الثاني : قال أبو عبيدة وابن السكيت : الوراء من الأضداد يقع على الخلف والقدام ، والسبب فيه أن كل ما كان خلفاً فإنه يجوز أن ينقلب قداماً وبالعكس ، فلاجرم جاز وقوع لفظ الوراء على القدام ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ ﴾ [ الكهف : 79 ] أي أمامهم ، ويقال : الموت من وراء

الإنسان .

الثاني : قال ابن الأنباري "وراء" بمعنى بعد .

قال الشاعر :

وليس وراء الله للمرء مذهب . . أي وليس بعد الله مذهب .

إذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى حكم عليه بالخيبة في قوله : ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي ومن بعده الخيبة يدخل جهنم .

النوع الثاني : مما ذكره الله تعالى من أحوال هذا الكافر قوله : ﴿ ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : علام عطف ﴿ ويسقى ﴾ .

الجواب : على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى من ماء صديد .

السؤال الثاني : عذاب أهل النار من وجوه كثيرة ، فلم خص هذه الحالة بالذكر ؟

الجواب : يشبه أن تكون هذه الحالة أشد أنواع العذاب فخصص بالذكر مع قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ .

السؤال الثالث : ما وجه قوله : ﴿ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ .

الجواب : أنه عطف بيان والتقدير : أنه لما قال : ﴿ ويسقى مِن مَّآءٍ ﴾ فكأنه قيل : وما

ذلك الماء فقال : ﴿ صَدِيدٍ ﴾ والصديد ما يسيل جلود أهل النار .

وقيل : التقدير ويسقى من ماء كالصديد .

(14/417)

---

وذلك بأن يخلق الله تعالى في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة ، وهو أيضاً يكون في نفسه صديداً ، لأن كراهته تصد عن تناوله وهو كقوله : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ] .

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاء كالمهل يَشْوِى الوجوه بِئْسَ الشراب ﴾ [ الكهف : 29 ] .

السؤال الرابع : ما معنى يتجرعه ولا يكاد يسيغه .

الجواب : التجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار ، ويقال : ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً وأساغه إساغة .

واعلم أن ( يكاد ) فيه قولان :

القول الأول : أن نفيه إثبات ، وإثباته نفي ، فقوله : ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي ويسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول : ما كدت أقوم ، أي قمت بعد إبطاء قال تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [ البقرة : 71 ] يعني فعلوا بعد إبطاء ، والدليل على حصول الإساغة

قوله تعالى : ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ [ الحج : 20 ] ولا يحصل الصهر إلا بعد الإساغة ، وأيضاً فإن قوله : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ يدل على أنهم أساغوا الشيء بعد الشيء فكيف يصح أن يقال بعده إنه يسيغه ألبتة .

والقول الثاني : أن كاد للمقاربة فقول : ﴿ لاَ يَكَادُ ﴾ لنفي المقاربة يعني : ولم يقارب أن يسيغه فكيف يحصل الإساغة كقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [ النور : 40 ] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها .

فإن قيل : فقد ذكرتم الدليل على حصول الإساغة ، فكيف الجمع بينه وبين هذا الوجه .

قلنا عنه جوابان : أحدهما : أن المعنى : لا يسيغ جميعه كأنه يجرع البعض وما ساغ الجميع .

(15/417)

---

الثاني : أن الدليل الذي ذكرتم إنما دل على وصول بعض ذلك الشراب إلى جوف الكافر ، إلا أن ذلك ليس بإساغة ، لأن الإساغة في اللغة إجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب والكافر يتجرع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه ، أي لا يستطيبه ولا يشربه شرباً بمرة واحدة وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة ، والله أعلم .

النوع الثالث : مما ذكره الله تعالى في وعيد هذا الكافر قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [ إبراهيم : 17 ] والمعنى : أن موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات ، ومع ذلك فإنه لا يموت وقيل من كل جزء من أجزاء جسده .

النوع الرابع : قوله : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن المراد من العذاب الغليظ كونه دائماً غير منقطع .

الثاني : أنه في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله .

قال المفضل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد ، والله أعلم .

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع عذابهم في الآية المتقدمة بين في هذه الآية أن أعمالهم بأسرها تصير ضائعة باطلة لا ينتفعون بشيء منها وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لأنهم لا يجدون في القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه في الدنيا وجدوه ضائعاً باطلاً ، وذلك هو الخسران الشديد .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في ارتفاع قوله : ﴿ مَثَلُ الذين ﴾ وجوه : الأول : قال سيبويه : التقدير : وفيما يتلى عليكم

مثل الذين كفروا ، أو مثل الذين كفروا فيما يتلى عليكم ، وقوله : ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم فقيل : أعمالهم كرماد .

(16/417)

---

الثاني : قال الفراء : التقدير مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتماداً على ذكره بعد المضاف إليه وهو قوله : ﴿ أعمالهم ﴾ ومثله قوله تعالى : ﴿ الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْء خَلَقَهُ ﴾ [ السجدة : 7 ] أي خلق كل شيء ، وكذا قوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [ الزمر : 60 ] المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة .

الثالث : أن يكون التقدير صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد ، كقولك صفة زيد عرضه مصون ، وماله مبذول .

الرابع : أن تكون أعمالهم بدلاً من قوله : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ ﴾ والتقدير : مثل أعمالهم وقوله : ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ هو الخبر .

الخامس : أن يكون المثل صلة وتقديره : الذين كفروا أعمالهم .

المسألة الثانية :

اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال ، هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر ، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر ، ثم اختلفوا في المراد بهذه الأعمال على وجوه :

الوجه الأول : أن المراد منها ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع ، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم ، ولولا كفرهم لانتفعوا بها .

والوجه الثاني : أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفوه من كفرهم الذي ظنوه إيماناً وطريقاً إلى الخلاص ، والوجه في خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم .

والوجه الثالث : أن المراد من هذه الأعمال كلا القسمين ، لأنهم إذا رأوا الأعمال التي كانت في أنفسها خيرات قد بطلت ، والأعمال التي ظنوها خيرات وأفنوا فيها أعمارهم قد بطلت أيضاً وصارت من أعظم الموجبات لعذابهم فلا شك أنه تعظم حسرتهم وندامتهم فلذلك قال تعالى : ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ .

المسألة الثالثة :

قرىء الرياح في يوم عاصف جعل العصف لليوم ، وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك : يوم ماطر وليلة ساكرة ، وإنما السكور لريحها قال الفراء : وإن شئت قلت في يوم ذي عصوف ، وإن شئت قلت : في يوم عاصف الريح فحذف ذكر الريح لكونه مذكوراً قبل ذلك ، وقرىء في يوم عاصف بالإضافة .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَىْء ﴾ أي لا يقدرون مما كسبوا على شيء منتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة وذلك لأنه ضاع بالكلية وفسد ، وهذه الآية دالة على كون العبد مكتسباً لأفعاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 84.78 ﴾

*(18/417)*

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ الطَّبَرِيُّ : مَعْنَاهُ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ، إلَّا أَنْ تَعُودُوا فِي مِلَّتِنَا ، وَهُوَ غَيْرُ مُفْتَقِرٍ إلَى هَذَا التَّقْدِيرِ ، فَإِنَّ ( أَوْ ) عَلَى بَابِهَا مِنْ التَّخْيِيرِ .

خَيَّرَ الْكُفَّارُ الرُّسُلَ بَيْنَ أَنْ يَعُودُوا فِي مِلَّتِهِمْ أَوْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ ؛ وَهَذِهِ سِيرَةُ اللَّهِ فِي رُسُلِهِ وَعِبَادِهِ .

أَلَا تَرَى إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ .

وَقَالَ فِي الصَّحِيحِ فِي ﴿ حَدِيثِ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَقَوْلُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُك قَوْمُك .

قَالَ : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قَالَ لَهُ وَرَقَةُ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْت بِهِ إلَّا عُودِيَ وَأُخْرِجَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُك أَنْصُرْك نَصْرًا مُؤَزَّرًا .

﴾ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِيهِ إكْرَاهُ الرُّسُلِ بِالْخُرُوجِ عَنْ أَرْضِهِمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شِدَّةُ ذَلِكَ وَوَقْعُهُ مِنْ النُّفُوسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اُقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اُخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ وُجُوهِ الْإِكْرَاهِ الْمُبِيحَةِ لِلْمَحْظُورِ ، وَيَأْتِي ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(19/417)

وَهَذِهِ سِيرَةُ اللَّهِ فِي رُسُلِهِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ ؛ فَلِذَلِكَ أَخْبَرَ عَنْ بَعْضِهِمْ ، وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، فَقَالَ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾ .

وَأَخْبَرَ هُنَا عَنْ عُمُومِ الْأَمْرِ ، فَقَالَ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(20/417)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾

أي المقام بين يدّي ، وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به :

والفرق بين المقام بالفتح وبين المقام بالضم أنه إذا ضم فهو فعل الإقامة ، وإذا فتح فهو مكان الإقامة .

﴿ وخاف وعيد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه العذاب .

والثاني : أنه ما في القرآن من زواجر .

﴿ واستفتحوا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الرسل استفتحوا بطلب النصر ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن الكفار استفتحوا بالبلاء ، قاله ابن زيد .

وفي الاستفتاح وجهان :

أحدهما : أنه الإبتداء .

الثاني : أنه الدعاء ، قاله الكلبي .

﴿ وخاب كلُّ جبار عنيد ﴾ في ﴿ خاب ﴾ وجهان :

أحدهما : خسر عمله .

الثاني : بطل أمله .

وفي ﴿ جبار ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه المنتقم .

الثاني : المتكبر بطراً .

وفي ﴿ عنيد ﴾ وجهان .

أحدهما : أنه المعاند للحق .

الثاني : أنه المتباعد عن الحق ، قال الشاعر :

ولست إذا تشاجر أمْرُ قوم . . . بأَوّلِ مَنْ يخالِفهُم عَنيدا

قوله عز وجل : ﴿ مِن ورائه جهنم ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه من خلفه جهنم . قال أبو عبيدة : وراء من الأضداد وتقع على خلف وقدام . جميعاً .

الثاني : معناه أمامه جهنم ، ومنه قول الشاعر :

ومن ورائك يومٌ أنت بالغه . . . لا حاضرٌ معجز عنه ولا بادي

الثالث : أن جهنم تتوارى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى حكاه ابن الأنباري .

الرابع : من ورائه جهنم معناه من بعد هلاكه جهنم ، كما قال النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً . . . وليس وراءَ الله للمرءِ مذهب

أراد : وليس بعد الله مذهب .

﴿ ويسقى من ماءٍ صديد ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : من ماء مثل الصديد كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أي مثل الأسد .

الثاني : من ماء كرهته تصد عنه ، فيكون الصديد مأخوذاً من الصد .

قوله عز وجل : ﴿ . . . ويأتيه الموت مِنْ كل مكان ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ، قاله إبراهيم التيمي ، للآلام التي في كل موضع من جسده .

الثاني : تأتيه أسباب الموت من كل جهة ، عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ، ومن قدامه وخلفه ، قاله ابن عباس .

الثالث : تأتيه شدائد الموت من كل مكان ، حكاه ابن عيسى .

﴿ وما هو بميتٍ ﴾ لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه ليكون ذلك زيادة في عذابه .

﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ فيه الوجوه الأربعة الماضية . والعذاب الغليظ هو الخلود في جهنم .

قوله عز وجل : ﴿ مثل الذين كفروا بربّهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾

وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكافر في أنه لا يحصل على شيء منها ، بالرماد الذي هو بقية النار الذاهبة لا ينفعه ، فإذا اشتدت به الريح العاصف : وهي الشديدة : فأطارته لم يقدر على جمعه ، كذلك الكافر في عمله .

وفي قوله ﴿ في يوم عاصف ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه وصف اليوم بالعصوف وهو من صفة الريح ، لأن الريح تكون فيه ، كما يقال يوم بارد ، ويوم حار ، لأن البرد والحر يكونان فيه .

الثاني : أن المراد به في يوم عاصف الريح ، فحذف الريح لأنها قد ذكرت قبل ذلك .

الثالث : أن العصوف من صفة الريح المقدم ذكرها ، غير أنه لما جاء بعد اليوم ابتع إعرابه .

﴿ لا يقدرون مما كسَبَوا على شيءٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يقدرون في الآخرة على شيء من ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر .

الثاني : لا يقدرون على شيء مما كسبوه من عروض الدنيا ، بالمعاصي التي اقترفوها ، أن ينتفعوا به في الآخرة .

﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ وإنما جعله بعيداً لفوات استدراكه بالموت . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(22/417)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

قوله : ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ قالت فرقة : ﴿ أو ﴾ هنا بمعنى : "إلا أن" كما هي في قول امرىء القيس : [ الطويل ]

فقلت له لا تبك عيناك إنما . . . نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

قال القاضي أبو محمد : وتحمل ﴿ أو ﴾ في هذه الآية أن تكون على بابها لوقوع أحد الأمرين ، لأنهم حملوا رسلهم على أحد الوجهين ، ولا يحتمل بيت امرئ القيس ذلك ، لأنه لم يحاول أن يموت فيعذر ، فتخلصت بمعنى إلا أن ، ولذلك نصب الفعل بعدها . وقالت فرقة هي بمعنى " حتى " في الآية ، وهذا ضعيف ، وإنما تترتب كذلك في قوله : لألزمنك أو تقضيني حقي ، وفي قوله : لا يقوم زيد أو يقوم عمرو ، وفي هذه المثل كلها يحسن تقدير إلا أن .

و" العودة " أبداً إنما هي إلى حالة قد كانت ، والرسل ما كانوا قط في ملة الكفر ، فإنما المعنى : لتعودن في سكوتكم عنا وكونكم أغفالاً ، وذلك عند الكفار كون في ملتهم .

وخصص تعالى ﴿ الظالمين ﴾ من الذين كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة الذي قالوا المقالة ناس ، فإنما توعد بالإهلاك من خلص للظلم .

وقوله : ﴿ لنسكننكم ﴾ الخطاب للحاضرين ، والمراد هم وذريتهم ، ويترتب هذا المعنى في قوله : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ [ إبراهيم : 10 ] أي يؤخركم وأعقابكم .

وقرأ أبو حيوة : " ليهلكن " و" ليسكننكم " بالياء فيهما .

وقوله : ﴿ مقامي ﴾ يحتمل أن يريد به المصدر من القيام على الشيء بالقدرة ، ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة ، فإضافته - إذا كان مصدراً - إضافة

المصدر إلى الفاعل ، وإضافته – إذا كان ظرفاً – إضافة الظرف إلى حاضره ، أي مقام حسابي ، فجائز قوله : ﴿ مقامي ﴾ وجائز لو قال : مقامه ، وجائز لو قال : مقام العرض والجزاء ، وهذا كما تقول : دار الحاكم ودار الحكم ودار المحكوم عليهم .

(23/417)

---

وقال أبو عبيدة : ﴿ مقامي ﴾ مجازه ، حيث أقيمه بين يدي للحساب ، و" الاستفتاح " طلب الحكم ، والفتاح : الحاكم ، والمعنى : أن الرسل استفتحوا ، أي سألوا الله تعالى إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب الكفرة ، وبل : بل استفتح الكفار ، على نحو قول قريش ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ [ ص : 16 ] وعلى نحو قول أبي جهل في بدر اللهم أقطعنا للرحم وأتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة . هذا قول أبي زيد .

وقرأت فرقة " واستفتِحوا " بكسر التاء ، على معنى الأمر للرسل ، قرأها ابن عباس ومجاهد وابن محيصن .

و﴿ خاب ﴾ معناه : خسر ولم ينجح ، و" الجبار " : المتعظم في نفسه ، الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ، وقيل : معناه الذي يجبر الناس على ما يكرهون .

قال القاضي أبو محمد : وهذا هو المفهوم من اللفظ ، وعبر قتادة وغيره عن " الجبار " بأنه

الذي يأبى أن يقول : لا إله إلا الله .

و" العنيد " الذي يعاند ولا ينقاد ، وقوله : ﴿ من ورائه ﴾ ذكر الطبري وغيره من المفسرين : أن معناه : من أمامه ، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ [ الكهف : 79 ] وأنشد الطبري :

أتوعدني وراء بني رياح . . . كذبت لتقصرن يداك دوني

قال القاضي أبو محمد : وليس الأمر كما ذكر ، و" الوراء " هنا على بابه ، أي هو ما يأتي بعد في الزمان ، وذلك أن التقدير في هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو بالزمان ، وما تقدم فهو أمام وهو بين اليد ، كما تقول في التوراة والإنجيل إنها بين يدي القرآن ، والقرآن وراءهما على هذا ، وما تأخر في الزمان فهو وراء المتقدم ، ومنه قولهم لولد الولد ، الوراء ، وهذا الجبار العنيد وجوده وكفره وأعماله في وقت ما ، ثم بعد ذلك في الزمان يأتيه أمر جهنم .

(24/417)

---

قال القاضي أبو محمد : وتلخيص هذا أن يشبه الزمان بطريق تأتي الحوادث من جهته الواحدة متتابعة ، فما تقدم فهو أمام ، وما تأخر وراء المتقدم ، وكذلك قوله : ﴿ وكان وراءهم ﴾ [ الكهف : 79 ] أي غصبه وتغلبه يأتي بعد حذرهم وتحفظهم .

وقوله: ﴿ ويسقى من ماء ﴾ وليس بماء لكن لما كان بدل الماء في العرف عندنا عد ماء، ثم نعته ب ﴿ صديد ﴾ كما تقول: هذا خاتم حديد، و" الصديد " القيح والدم، وهو ما يسيل من أجساد أهل النار، قاله مجاهد والضحاك.

وقوله: ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ عبارة عن صعوبة أمره عليهم، وروي أن الكافر يؤتى بالبشربة من شراب أهل النار فيتكرهها، فإذا أدنيت منه شوت وجهه وسقطت فيها فروة رأسه فإذا شربها قطعت أمعاءه.

قال القاضي أبو محمد: وهذا الخبر مفرق في آيات من كتاب الله.

وقوله: ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾، أي من كل شعرة في بدنه، قاله إبراهيم التيمي، وقيل من جميع جهاته الست، وقوله: ﴿ وما هو بميت ﴾ أي لا يراح بالموت، وباقي الآية كأولها، ووصف " العذاب بالغليظ " مبالغة فيه، وقال الفضيل بن عياض: العذاب الغليظ حبس الأنفاس في الأجساد وقيل: إن الضمير في ﴿ ورائه ﴾ هنا هو للعذاب المتقدم.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

اختلف في الشيء الذي ارتفع به قوله : ﴿ مثل ﴾ ، فمذهب سيبويه رحمه الله أن التقدير : فيما يتلى عليكم أو يقص : ﴿ مثل الذين كفروا ﴾ . ومذهب الكسائي والفراء : أنه ابتداء خبره ﴿ كرماد ﴾ والتقدير عندهم : مثل أعمال الذين كفروا كرماد ، وقد حكي عن الفراء : أنه يرى إلغاء ﴿ مثل ﴾ وأن المعنى : الذين كفروا أعمالهم كرماد ، وقيل : هو ابتداء و﴿ أعمالهم ﴾ ابتداء ثان ، و﴿ كرماد ﴾ خبر الثاني ، والجملة خبر الأول ، وهذا عندي أرجح الأقوال وكأنك قلت : المتحصل مثالاً في النفس للذين كفروا هذه الجملة المذكورة ، وهي : ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ . وهذا يطرد عندي في قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة ﴾ [ الرعد : 35 ، محمد : 15 ] . وشبهت أعمال الكفرة ومساعيهم في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها بالرماد الذي تذروه الريح ، وتفرقه بشدتها حتى لا يبقى أثر ، ولا يجتمع منه شيء ، ووصف " اليوم " ب " العصوف " - وهي من صفة الريح بالحقيقة - لما كانت في اليوم ، ومن هذا المعنى قول الشاعر [ جرير ] :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى . . . ونمت وما ليل المطي بنائم

ومنه قول الآخر :

يومين غيمين ويوماً شمساً . . . فأعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرون منها على شيء .

وقرأ نافع وحده وأبو جعفر " الرياح " والباقون " الريح " بالإفراد وقد تقدم هذا ومعناه مستوفى بحمد الله .

قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى كونهم بهذه الحال ، وعلى مثل هذا الغرور ، و ﴿ الضلال البعيد ﴾ الذي قد تعمق فيه صاحبه وأبعد عن لاحب النجاة .

وقرأ ابن أبي إسحاق وإبراهيم بن أبي بكر "في يوم عاصف" بإضافة يوم إلى عاصف ، وهذا بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(26/417)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لَنُهلكنَّ الظالمين ﴾

يعني : الكافرين بالرسل .

وقوله تعالى : ﴿ مِن بعدهم ﴾ أي : بعد هلاكهم .

﴿ ذلك ﴾ الإِسكان ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ قال ابن عباس : خاف مُقامه بين يديَّ.

قال الفراء : العرب قد تضيف أفعالها إِلى أنفسها ، وإِلى ما أُوقِعَتْ عليه ، فتقول : قد ندمت على ضربي إِياك ، وندمت على ضربك ، فهذا من ذاك ، ومِثْله ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ [ الواقعة : 82 ] أي : رزقي إِياكم .

قوله تعالى : ﴿ وخاف وعيد ﴾ أثبت ياء "وعيدي" في الحالين يعقوب ، وتابعه ورش في

الوُصْل .

قوله تعالى : ﴿ واستفتحوا ﴾

يعني : استنصروا .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وحميد ، وابن مُحَيصن : "واستفتِحوا" بكسر التاء على الأمر .

وفي المشار إِليهم قولان :

أحدهما : أنهم الرسل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنهم الكفار ، واستفتاحهم : سؤالهم العذاب ، كقولهم : ﴿ ربَّنا عجِّل لنا قِطَّنا ﴾ [ص : 16 ] وقولهم : ﴿ إِن كان هذا هو الحقَّ من عندك . . . ﴾ الآية [ الأنفال : 32 ] ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ وخاب كل جبَّار عنيد ﴾ قال ابن السائب : خسر عند الدعاء ، وقال مقاتل : خسر عند نزول العذاب ، وقال أبو سليمان الدمشقي : يئس من الإِجابة .

وقد شرحنا معنى الجبَّار والعنيد في [ هود : 59 ] .

قوله تعالى : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه بمعنى القُدَّام ، قال ابن عباس ، يريد : أمامه جهنم .

وقال أبو عبيدة : "من ورائه" أي : قُدّامه وأمامه ، يقال : الموت من ورائك ، وأنشد :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي . . .

وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا

والثاني : أنها بمعنى : "بَعْد" ، قال ابن الأنباري : "من ورائه" أي : من بعد يأسه ، فدلَّ "خاب" على اليأس ، فكنى عنه ، وحملت "وراء" على معنى : "بَعْد" كما قال النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً . . .

(27/417)

---

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلمرءِ مَذْهَبُ

أراد : ليس بَعْد الله مَذهب .

قال الزجاج : والوراء يكون بمعنى الخَلْف والقُدّام ، لأن ما بين يديك وما قُدّامك إِذا توارى عنك فقد صار وراءك ، قال الشاعر :

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي . . .

لُزُومُ العَصَا تُحنَى عليها الأَصَابِعِ

قال : وليس الوراء من الأضداد كما يقول بعض أهل اللغة .

وسئل ثعلب : لم قيل : الوراء للأمام ؟ فقال : الوراء : اسم لما توارى عن عينك ، سواء أكان

أمامك أو خلفك .

وقال الفراء : إنما يجوز هذا في المواقيت من الأيام والليالي والدهر ، تقول : وراءك برد شديد ، وبين يديك برد شديد .

ولا يجوز أن تقول للرجل وهو بين يديك : هو وراءك ، ولا للرجُل : وراءك : هو بين يديك .

قوله تعالى : ﴿ وَيُسقى من ماءٍ صديد ﴾ قال عكرمة ، ومجاهد ، واللغويون : الصديد : القيح والدَّم ، قاله قتادة ، وهو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه .

وقال القرظي : هو غُسالة أهل النار ، وذلك ما يسيل من فروج الزناة .

وقال ابن قتيبة : المعنى : يُسقى الصديدَ مكانَ الماء ، قال : ويجوز أن يكون على التشبيه ، أي : ما يُسقَى ماءٌ كأنه صديد .

قوله تعالى : ﴿ يتجرَّعه ﴾ والتجرع : تناول المشروب جُرعة جُرعة ، لا في مرة واحدة ، وذلك لشدة كراهته له ، وإنما يُكرهه على شربه .

قوله تعالى : ﴿ ولا يكاد يُسيغه ﴾ قال الزجاج : لا يقدر على ابتلاعه ، تقول : ساغ لي الشيء ، وأسغته .

وروى أبو أُمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُقرَّب إليه فيكرهه ، فإذا أُدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبره" .

قوله تعالى : ﴿ ويأتيه الموت ﴾ أي : همُّ الموت وكربه وألمه ﴿ من كل مكان ﴾ وفيه ثلاثة

أقوال :

أحدها : من كل شعرة في جسده ، رواه عطاء عن ابن عباس .

وقال سفيان الثوري : من كل عِرْق .

(28/417)

---

وقال ابن جريج : تتعلق نفسه عند حنجرته ، فلا تخرج من فيه فتموت ، ولا ترجع إِلى مكانها فتجد راحة .

والثاني : من كل جهة ، من فوقه وتحته ، وعن يمينه وشماله ، وخلفه وقُدَّامه ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها البلايا التي تصيب الكافر في النار ، سماها موتاً ، قاله الأخفش .

قوله تعالى : ﴿ وما هو بميِّت ﴾ أي : موتاً تنقطع معه الحياة .

﴿ ومن ورائه ﴾ أي : من بعد هذا العذاب .

قال ابن السائب : من بعد الصديد ﴿ عذاب غليظ ﴾ .

وقال إِبراهيم التيمي : بعد الخلود في النار .

والغليظ : الشديد .

قوله تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ﴾

قال الفراء : أضاف المَثَل إليهم ، وإنما المثل للأعمال ، فالمعنى : مَثَل أعمال الذين كفروا .

ومِثْله : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كَذَبوا على الله وجوهُهم مسودّة ﴾ [ الزمر 60 ] ، أي : ترى وجوههم .

وجعل العُصُوف تابعاً لليوم في إعرابه ، وإنما العُصُوف للريح ، وذلك جائز على جهتين :

إحداهما : أن العصوف ، وإن كان للريح ، فإن اليوم يوصف به ، لأن الريح فيه تكون ، فجاز أن تقول : يوم عاصف كما تقول : يوم بارد ، ويوم حار .

والوجه الآخر : أن تريد : في يومٍ عاصفِ الريح ، فتحذف الريح ، لأنها قد ذُكرت في أول الكلام ، كما قال الشاعر :

ويُضْحِكُ عِرفانُ الدُّرُوْعِ جُلودَنا . . .

إذا كانَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفُ

يريد : كاسف الشمس .

وروي عن سيبويه أنه قال : في هذه الآية إضمار ، والمعنى : وممّا نقصُّ عليك مَثَل الذين كفروا ، ثم ابتدأ فقال : "أعمالهم كرماد" .

وقرأ النخعي ، وابن يعمر ، والجُحدري : "في يومِ عاصفٍ" بغير تنوين اليوم .

قال المفسرون : ومعنى الآية : أن كل ما يتقرَّب به المشركون يَحْبط ولا ينتفعون به ، كالرماد الذي سَفَتْه الريح فلا يُقدَر على شيء منه ، فهم لا يقدرون مما كسبوا في الدنيا على شيء في الآخرة ، أي : لا يجدون ثوابه ، ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ من النجاة . انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(30/417)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾

اللام لام قسم ؛ أي والله لنخرجنكم .

﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أي حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا ؛ قاله الطبريّ وغيره .

قال ابن العربي : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير ؛ فإنّ "أَوْ" على بابها من التخيير ؛ خيّر الكفار الرسل بين أن يعودوا في مِلتهم أو يخرجوهم من أرضهم ؛ وهذه سِيرة الله تعالى في رسله وعباده ؛ ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ [ الإسراء : 76 ]

وقد تقدم هذا المعنى في "الأعراف" وغيرها .

﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أي إلى ديننا ، ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي مقامه بين يديّ يوم القيامة ؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل .

والمقام مصدر كالقيام ؛ يقال : قام قياماً ومَقَاماً ؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به .

والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و"ذَلِكَ لَمَنْ خَافَ مَقَامِي" أي قيامي عليه ، ومراقبتي له ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [ الرعد : 33 ] .

وقال الأخفش : ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ أي عذابي ، "وَخَافَ وَعِيدِ" أي القرآن وزواجره .

وقيل : إنه العذاب .

والوعيد الاسم من الوعد .

قوله تعالى : ﴿ واستفتحوا ﴾

أي واستنصروا ؛ أي أذِن للرسل في الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم ؛ قاله ابن عباس وغيره ، وقد مضى في "البقرة" .

ومنه الحديث : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أي يستنصر .

(31/417)

---

وقال ابن زيد : استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [ الأنفال : 32 ] الآية .

وروي عن ابن عباس .

وقيل قال الرسول : "إنهم كذبوني فافتح بيني وبينهم فتحاً" وقالت الأمم : إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا ، عن ابن عباس أيضاً ؛ نظيره ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [ العنكبوت : 29 ] ﴿ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [ الأعراف : 77 ] .

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً ؛ هكذا هو عند أهل اللغة ، ذكره النحاس .

والعنيد المعاند للحق والمجانب له ، عن ابن عباس وغيره ؛ يقال : عَنَد عن قومه أي تباعد عنهم .

وقيل : هو من العَنَد ، وهو الناحية وعاند فلان أي أخذ في ناحية مُعْرِضاً ؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فاجعلوني وَسَطَا . . .

إنّي كبيرٌ لا أُطِيقُ الْعُنَّدَا

وقال الهَرَويّ قوله تعالى : ﴿ جبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي جائر عن القصد ؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعانِد ؛ وفي حديث ابن عباس وسئِل عن المستحاضة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ .

قال أبو عبيد : هو الذي عَنَد وبَغَى كالإنسان يعانِد ؛ فهذا العِرق في كثرة ما يخرج منه بمنزلته .

وقال شَمِر : العاند الذي لا يرقأ .

وقال عمر يذكر سِيرته : أَضُمُّ العَنُود ؛ قال الليث : العنود من الإبل الذي لا يخالطها إنما هو في ناحية أبداً ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها .

وقال مقاتل : العِنيد المتكبر .

وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه .

وقيل : العَنُود والعَنِيد الذي يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العرب : شر الإبل العنود الذي يخرج عن الطريق .

وقيل : العنيد العاصي .

وقال قتادة : العنيد الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد في الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أي متكبر .

وقيل : إن المراد به في الآية أبو جهل ؛ ذكره المهدويّ .

وحكى الماورديّ في كتاب "أدب الدنيا والدين" أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل : ﴿ واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كلَّ جبَّارٍ عَنِيدِ . . .

فها أنا ذاكَ جبَّارٌ عَنِيدُ

إذا ما جئتَ ربَّكَ يوم حَشْرٍ . . .

فَقُلْ يا ربِّ مزَّقني الوليدُ

فلم يلبث ( إلا ) أياماً حتى قُتل شرّ قِتلةٍ ، وصُلِب رأسه على قصره ، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ، أي من بعد هلاكه .

ووراء بمعنى بعدُ ؛ قال النابغة :

حلَفتُ فلم أتركْ لِنفسكَ رِيبةً . . .

وليس وراءَ اللَّهِ للمرء مذهبُ

أي بعد الله جلّ جلالُه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي من بعده ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ ﴾ [ البقرة : 91 ] أي بما سواه ؛ قاله الفراء .

وقال أبو عبيد : بما بعده .

وقيل : "مِنْ وَرَائِهِ" أي من أمامه ، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائِكَ يومٌ أنتَ بالِغُه . . .

لا حاضرٌ مُعجزٌ عنه ولا بادِي

وقال آخر :

أتَرْجُو بنو مروانَ سمعِي وطاعتِي . . .

وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا

وقال لبيد :

أليس ورائِي إنْ ( تَراختْ ) مِنيَّتِي . . .

لزومُ العَصَا تُحنَى عليها الأصابعُ

يريد أمامي .

وفي التنزيل : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [ الكهف : 79 ] أي أمامهم ؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطُرب وغيرهما .

وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك ، أي سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه .

(33/417)

---

وقال النحاس : في قوله "مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ" أي من أمامه ، وليس من الأضداد ولكنه من توارى ؛ أي استتر .

وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيدة أيضاً ، واشتقاقهما مما توارى واستتر ، فجهنم تَوَارَى ولا تظهر ، فصارت من وراء لأنها لا ترى ؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن .

قوله تعالى : ﴿ ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي من ماء مثل الصديد ، كما يقال للرجل الشجاع أسد ، أي مثل الأسد ، وهو تمثيل وتشبيه .

وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم .

وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أَنَس : هو غسَالة أهل النار ، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني .

وقيل : هو من ماء كرهته تَصدّ عنه ، فيكون الصديد مأخوذاً من الصدّ .

وذكر ابن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ وِيسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ قال: "يُقرَّب إلى فِيهِ فيكرهه فإذا أدني منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقول الله: ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 15] ويقول الله: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب ﴾ [الكهف: 29] " خرجه الترمذي، وقال: حديث غريب، وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله بن بُسْر.

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أي يَتحسَّاه جُرَعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته.

﴿ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يبتلعه؛ يقال: جرع الماء واجترعه وتجرعه بمعنى.

وساغ الشّرابُ في الحلق يسوغ سوغاً إذا كان سَلِساً سهلاً، وأساغه اللَّهُ إساغةً.

(34/417)

---

و "يَكَادُ" صلة؛ أي يسيغه بعد إبطاء، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: 71] أي فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال: ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود ﴾ [الحج: 20] فهذا يدلّ على الإساغة.

وقال ابن عباس : يجيزه ولا يمر به .

﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أي يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه ، كقوله :

﴿ لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [ الزمر : 16 ] .

وقال إبراهيم التيمي : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ؛ للآلام التي في كل مكان من جسده .

وقال الضحّاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه .

وقال الأخفش : يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتاً ، وهي من أعظم الموت .

وقيل : إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكّل به نوع من العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة ؛ إما حية تنهشه ، أو عقرب تلسبه ، أو نار تسفعه ، أو قيد برجليه ، أو غُلّ في عنقه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيه ، أو زقوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب .

وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر في جهنم بالشراب فرآه مات موتاتٍ ، فإذا دنا منه مات موتاتٍ ، فإذا شرب منه مات موتاتٍ ؛ فذلك قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ .

قال الضحّاك : لا يموت فيستريح .

وقال ابن جريج : تعلق رُوحه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ؛ ونظيره قوله : ﴿ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [ طه : 74 ] .

وقيل : يخلق الله في جسده آلاماً كل واحد منها كألم الموت .

وقيل : "وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ" لتطاول شدائد الموت به ، وامتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة في عذابه .

(35/417)

---

قلت : ويظهر من هذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : ﴿ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [ فاطر : 36 ] وبذلك وردت السنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من استولى عليه سكرات الموت دائماً ، والله أعلم .

﴿ وَمِن وَرَآئِهِ ﴾ أي من أمامه .

﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي شديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنه قوله : ﴿ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [ التوبة : 123 ] أي شدة وقوة .

وقال فُضيل بن عِياض في قول الله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ قال : حبس

الأنفاس.

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾

اختلف النحويون في رفع "مَثَلُ" فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير: وفيما يُتلى عليكم أو يُقصّ "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ" ثم ابتدأ فقال: "أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ" أي كمثل رماد ﴿ اشتدت بِهِ الريح ﴾.

وقال الزجاج: أي مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالُهم كرماد، وهو عند الفرّاء على إلغاء المَثَل، التقدير: والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد.

وعنه أيضاً أنه على حذف مضاف؛ التقدير: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدويّ، والثاني القُشَيريّ والثّعلبيّ ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال: صفة فلان أسمر؛ ف "مَثَلُ" بمعنى صفة.

ويجوز في الكلام جر "أعمالهم" على بدل الاشتمال من "الَّذِينَ" واتصل هذا بقوله: ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ والمعنى: أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة.

والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفّار في أنه يمحقها كما تمحق الرّيحُ الشديدة الرّمادَ في يوم عاصف.

والعَصْفُ شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى.

وفي وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها أن العُصُوف وإن كان للريح فإن اليوم قد يوصف به ؛ لأن الرّيح تكون فيه ، فجاز أن يقال : يوم عاصف ، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد ، والبرد والحرّ فيهما .

والثاني أن يريد ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ الرّيح ؛ لأنها ذكرت في أول الكلمة ، كما قال الشاعر :

إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ . . .

يريد كاسف الشمس فحذف ؛ لأنه قد مرّ ذكره ؛ ذكرهما الهَرَوِيّ .

والثالث أنه من نعت الريح ؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خربٍ ؛ ذكره الثعلبيّ والماورديّ .

وقرأ ابن ( أبي ) إسحق وإبراهيم بن أبي بكر "في يومِ عاصفٍ" .

﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ يعني الكفار .

﴿ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ﴾ يريد في الآخرة ؛ أي من ثواب ما عمِلوا من البِرّ في الدنيا ، لإحباطه بالكفر .

﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ أي الخسران الكبير ؛ وإنما جعله كبيراً بعيداً لفوات استدراكه بالموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ يعني ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا وإما عودكم في ملتنا .

فإن قلت : هذا يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعود فيها قلت : معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم ، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوا إلى الله فقالوا لهم : لتعودن في ملتنا ظناً منهم أنهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره ﴿ فأوحى إليهم ربهم ﴾ يعني أن الله تعالى أوحى إلى رسله وأنبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات ﴿ لنهلكن الظالمين ﴾ يعني أن عاقبة أمرهم إلى الهلاك فلا تخافوهم ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ يعني من بعد هلاكهم ﴿ ذلك ﴾ يعني ذلك الإسكان ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فأضاف قيام

العبد إلى نفسه ، لأن العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها كقولهم : ندمت على ضربي إياك وندمت على ضربك مثله ﴿ وخاف وعيد ﴾ أي وخاف عذابي .

قوله : ﴿ واستفتحوا ﴾ يعني واستنصروا .

قال ابن عباس : يعني الأمم وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا

وقال مجاهد وقتادة : واستفتح الرسل على أممهم وذلك أنهم لما أيسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب ﴿ وخاب ﴾ يعني وخسر وقيل : هلك ﴿ كل جبار عنيد ﴾ والجبار في صفة الإنسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الإنسان ، وقيل : الجبار الذي لا يرى فوقه أحداً وقيل : الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قال مجاهد .

وقال ابن عباس : هو المعرض عن الحق .

وقال مقاتل : هو المتكبر .



---

وقال قتادة : هو الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله .

وقيل : العنيد هون المعجب بما عنده .

وقيل العنيد الذي يعاند ويخالف ﴿ من ورائه جهنم ﴾ يعني هي أمامه وهو صائر إليها قال أبو عبيدة : هو من الأضداد يعني أنه يقال : وراء بمعنى خلف وبمعنى أمام وقال الأخفش : هو كما يقال : هذا الأمر من ورائك يعني أنه سيأتيك ﴿ ويسقى ﴾ يعني في جهنم ﴿ من ماء صديد ﴾ وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار .

وقال محمد بن كعب القرظي : هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله ﴿ يتجرعه ﴾ أي يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي لا يقدر على ابتلاعه .

يقال : ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره فيه .

قال بعض المفسرين : إن يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف : دخلت يكاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه بعد إبطاء لأن العرب تقول ما كدت أقوم أي قمت بعد إبطاء فعلى هذا كاد أصلها وليست بصلة ، وقال ابن عباس : معناه لا يجيزه .

وقيل : معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه .

عن أبي إمامة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : " يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا أدني منه

شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم وقال وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا " أخرجه الترمذي .

وقال : حديث غريب .

قوله : وقعت فروة رأسة أي جلدة رأسه وإنما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها .

وقوله تعالى ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ يعني أن الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه .

(39/417)

---

وقال إبراهيم التيمي : حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ، ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت فيستريح .

وقال ابن جريج : تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ﴿ ومن ورائه ﴾ يعني أمامه ﴿ عذاب غليظ ﴾ أي شديد قيل : هو الخلود في النار .

قوله تعالى ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾

هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما نقص ، أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التي فيها غرابة ، وقوله : أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد .

وقال المفسرون والفراء : مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتماداً على ما ذكره بعد المضاف إليه .

(40/417)

---

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك في صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما يسقط من الحطب والفحم بعد إحراقه بالنار ، اشتدت به الريح يعني فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئاً في يوم عاصف ، وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح ، لأن الريح تكون فيه كقولك : يوم بارد وحار وليلة ماطرة لأن الحر والبرد والمطر توجد فيهما وقيل : معناه في يوم عاصف الريح فحذف الريح لأنه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار التي لم ينتفوا بها ، ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال هو أن الريح العاصف تطير الرماد

وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شيء وكذلك أعمال الكفار تبطل ، وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شيء ثم اختلفوا في هذه الأعمال ما هي فقيل : هي ما عملوه من أعمال الخير في حال الكفر كالصدقة وصلة الأرحام وفك الأسير وإقراء الضيف وبر الوالدين ، ونحو ذلك من أعمال البر والصلاح فهذه الأعمال ، وإن كانت أعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لأن كفره أحبطها وأبطلها كلها وقيل : المراد بالأعمال عبادتهم الأصنام التي ظنوا أنها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ، ووجه خسرانهم أنهم أتعبوا أبدانهم في الدهر الطويل لكي ينتفعوا بها فصارت وبالاً عليهم .

وقيل : أراد بالأعمال الأعمال التي عملوها في الدنيا وأشركوا فيها غير الله فإنها لا تنفعهم لأنها صارت كالرماد الذي ذرته الريح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى : ﴿ لا يقدرون مما كسبوا ﴾ يعني في الدنيا ﴿ عمل شيء ﴾ يعني من تلك الأعمال والمعنى أنهم لا يجدون ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ يعني ذلك : الخسران الكبير لأن أعمالهم ضلت وهلكت ، فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذي لا يرجى عوده .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾

أقسموا على أنه لا بد من إخراجهم ، أو عودهم في ملتهم كأنهم قالوا : ليكونن أحد هذين .

وتقدير أو هنا بمعنى حتى ، أو بمعنى إلا أن قول من لم ينعم النظر في ما بعدها ، لأنه لا يصح تركيب حتى ، ولا تركيب إلا أن مع قوله : لتعودن بخلاف لألزمنك ، أو تقضيني حقي

والعود هنا بمعنى الصيرورة .

أو يكون خطاباً للرسل ومن آمنوا بهم .

وغلب حكم من آمنوا بهم لأنهم كانوا قبل ذلك في ملتهم ، فيصح إبقاء لتعودن على المفهوم منها أولاً إذ سبق كونهم كانوا في ملتهم ، وأما الرسل فلم يكونوا في ملتهم قط .

أو يكون المعنى في عودهم إلى ملتهم سكوتهم عنهم ، وكونهم إغفالاً عنهم لا يطالبونهم بالإيمان بالله وما جاءت به الرسل .

وقرأ أبو حيوة : ليهلكن الظالمين وليسكننكم ، بياء الغيبة اعتباراً بقوله : فأوحى إليهم ربهم ، إذ لفظه لفظ الغائب .

وجاء ولنسكننكم بضمير الخطاب تشريفاً لهم بالخطاب ، ولم يأت بضمير الغيبة كما في قوله : فأوحى إليهم ربهم .

ولما أقسموا بهم على إخراج الرسل والعودة في ملتهم ، أقسم تعالى على إهلاكهم .

وأي إخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً ، وعلى إسكان الرسل ومن آمن بهم وذرياتهم أرض أولئك المقسمين على إخراج الرسل .

قال ابن عطية : وخص الظالمين من الذين كفروا ، إذ جائز أنْ يؤمن من الكفرة الذين قالوا المقالة ناس ، وإنما توعد لإهلاك من خلص للظلم .

وقال غيره : أراد بالظالمين المشركين ، قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ والإشارة بذلك إلى توريث الأرض الأنبياء ومن آمن بهم بعد إهلاك الظالمين كقوله تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ ومقام يحتمل المصدر والمكان .

(42/417)

---

فقال الفراء : مقامي مصدر أضيف إلى الفاعل أي : قيامي عليه بالحفظ لأعماله ، ومراقبتي إياه لقوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال الزجاج : مكان وقوفه بين يدي للحساب ، وهو موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وعلى إقحام المقام أي لمن خافني .

والظاهر أن الضمير في واستفتحوا عائد على الأنبياء : أي استنصروا الله على أعدائهم

كقوله: ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ ويجوز أن يكون الفتاحة وهي الحكومة، أي: استحكموا الله طلبوا منه القضاء بينهم.

واستنصار الرسل في القرآن كثير كقول نوح: ﴿ فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ﴾ وقول لوط: ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ وقول شعيب: ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ وقول موسى: ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون ﴾ الآية.

وقول ابن زيد: الضمير عائد على الكفار أي: واستفتح الكفار على نحو ما قالت قريش: ﴿ عجّل لنا قطنا ﴾ وقول أبي جهل: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يعرف فاحنه الغداة.

وكأنهم لما قوي تكذيبهم وأذاهم ولم يعاجلوا بالعقوبة، ظنوا أن ما جاؤوا به باطل فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء كقول قوم نوح: ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ وقوم شعيب: ﴿ فأسقط علينا كسفاً ﴾ وعاد: ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ وبعض قريش: ﴿ فأمطر علينا حجارة ﴾ وقيل: الضمير عائد على الفريقين: الأنبياء، ومكذبيهم، لأنهم كانوا كلهم سألوا أن ينصر المحق ويبطل المبطل.

ويقوي عود الضمير على الرسل خاصة قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن: واستفتحوا بكسر التاء، أمراً للرسل معطوفاً على ليهلكن أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: ليهلكن، وقال لهم: استفتحوا أي: اطلبوا النصر وسلوه من ربكم.

وقال الزمخشري : ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أي استمطروا ، والفتح المطر في سني القحط التي أرسلت عليهم بدعوة الرسول فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خيّب رجاء كل جبار عنيد ، وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر وهو صديد أهل النار .

واستفتحوا على هذا التفسير كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم انتهى .

وخاب معطوف على محذوف تقديره : فنصروا وظفروا .

وخاب كل جبار عنيد وهم قوم الرسل ، وتقدم شرح جبار .

والعنيد : المعاند كالخليط بمعنى المخالط على قول من جعل الضمير عائداً على الكفار ، كأن وخاب عطفاً على واستفتحوا .

ومن ورائه قال أبو عبيدة وابن الأنباري أي : من بعده .

وقال الشاعر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . .

وليس وراء الله للمرء مهرب

وقال أبو عبيدة أيضاً ، وقطرب ، والطبري ، وجماعة : ومن ورائه أي ومن أمامه ، وهو معنى قول الزمخشري : من بين يديه .

وأنشد :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه . . .

يكون وراء فرج قريب

وهذا وصف حاله في الدنيا ، لأنه مرصد لجهنم ، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها ، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف .

وقال الشاعر :

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . .

وقوم تميم والفلاة ورائيا

وقال آخر :

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . .

لزوم العصا تحني عليها الأصابع

ووراء من الأضداد قاله : أبو عبيدة والأزهري .

وقيل : ليس من الأضداد .

وقال ثعلب : اسم لما توارى عنك ، سواء كان أمامك أم خلفك .

وقيل : بمعنى من خلفه أي : في طلبه كما تقول الأمر من ورائك أي : سوف يأتيك .

ويسقى معطوف على محذوف تقديره : يلقى فيها ويسقى ، أو معطوف على العامل في من ورائه ، وهو واقع موقع الصفة .

وارتفاع جهنم على الفاعلية ، والظاهر إرادة حقيقة الماء .

وصديد قال ابن عطية : هو نعت لماء ، كما تقول : هذا خاتم حديد وليس بماء ، لكنه لما كان بدل الماء في العرف عندنا يعني أطلق عليه ماء .

(44/417)

---

وقيل : هو نعت على إسقاط أداة التشبيه كما تقول : مررت برجل أسد التقدير : مثل صديد .

فعلى قول ابن عطية هو نفس الصديد وليس بماء حقيقة ، وعلى هذا القول لا يكون صديداً ولكنه ما يشبه بالصديد .

وقال الزمخشري : صديد عطف بيان لماء قال : ويسقى من ماء ، فأبهمه إبهاماً ، ثم بينه بقوله : صديد انتهى .

والبصريون لا يجيزون عطف البيان في النكرات ، وأجازه الكوفيون وتبعهم الفارسي ،

فأعرب ﴿ زيتونة ﴾ عطف بيان ﴿ لشجرة مباركة ﴾ فعلى رأي البصريين لا يجوز أن يكون قوله : صديد ، عطف بيان .

وقال الحوفي : صديد نعت لماء .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : هو ما يسيل من أجساد أهل النار .

وقال محمد بن كعب والربيع : هو غسالة أهل النار في النار .

وقيل : هو ما يسيل من فروج الزناة والزواني .

وقيل : صديد بمعنى مصدود عنه أي : لكراهته يصد عنه ، فيكون مأخوذاً عنه من الصد .

وذكر ابن المبارك من حديث أبي أمامة عن الرسول قاله في قوله : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : "يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، وإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره" يتجرعه يتكلف جرعه .

ولا يكاد يسيغه أي : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة .

والظاهر هنا انتفاء مقاربة إساغته إياه ، وإذا انتفت انتفت الإساغة ، فيكون كقوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ؟ والحديث : "جاءنا ثم يشربه" فإن صح الحديث كان المعنى : ولا يكاد يسيغه قبل أن يشربه ثم شربه ، كما جاء ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أي وما كادوا يفعلون قبل الذبح .

وتجرع تفعل، ويحتمل هنا وجوهاً أن يكون للمطاوعة أي جرعة فتجرع كقولك: علمته فتعلم.

وأنْ يكون للتكلف نحو: تحلم، وأن يكون لمواصلة العمل في مهلة نحو: تفهم أي يأخذه شيئاً فشيئاً.

وأن يكون موافقاً للمجرد أي: تجرعه كما تقول: عدا الشيء وتعدّاه.

ويتجرعه صفة لما قبله، أو حال من ضمير وسقى، أو استئناف.

*(45/417)*

---

ويأتيه الموت أي: أسبابه.

والظاهر أنّ قوله: من كل مكان معناه من الجهات الست، وذلك لفظيع ما يصيبه من الآلام.

وقال إبراهيم التيمي: من كل مكان من جسده، حتى من أطراف شعره.

وقيل: حتى من إبهام رجليه، والظاهر أنّ هذا في الآخرة.

وقال الأخفش: أراد البلايا التي تصيب الكافر في الدنيا، سماها موتاً وهذا بعيد، لأنّ سياق الكلام يدل على أنّ هذا من أحوال الكافر في جهنم.

وقوله: وما هو بميت لتطاول شدائد الموت، وامتداد سكراته.

ومن ورائه الخلاف في من ورائه كالخلاف في من ورائه جهنم .

وقال الزمخشري : ومن بين يديه عذاب غليظ أي : في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ .

وعن الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد انتهى .

وقيل : الضمير في ورائه هو يعود على العذاب المتقدم لا على كل جبار .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

الرماد معروف ، وقال ابن عيسى : هو جسم يسحقه الإحراق سحق الغبار ، ويجمع على رمد في الكثرة وأرمدة في القلة ، وشذ جمعه على أفعلاء قالوا : أرمداء ، ورماد رمدد إذا صار هباء أرق ما يكون .

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ : ارتفاع مثل على الابتداء ، وخبره محذوف تقديره عند سيبويه .

فيما يتلى عليكم ، أو يقص .

والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة ، وأعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال كأنه قيل : كيف مثلهم ؟ فقيل : أعمالهم كرماد ، كما تقول : صفة زيد عرضه مصون ، وماله مبذول .

وقال ابن عطية : ومذهب الكسائي والفراء أنه على إلغاء مثل ، وأنّ المعنى : الذين كفروا أعمالهم كرماد .

وقال الحوفي : مثل رفع بالابتداء ، وأعمالهم بدل من مثل بدل اشتمال .

كما قال الشاعر :

ما للجمال مشيها وئيداً . . .

أجندلا يحملن أم حديدا

وكرماد الخبر .

(46/417)

---

وقال الزمخشري : أو يكون أعمالهم بدلاً من مثل الذين كفروا على تقدير : مثل أعمالهم ، وكرماد الخبر .

وقال ابن عطية : وقيل هو ابتداء ، وأعمالهم ابتداء ثان ، وكرماد خبر للثاني ، والجملة خبر الأول .

وهذا عندي أرجح الأقوال ، وكأنك قلت : المتحصل مثالاً في النفس للذين كفروا هذه الجملة المذكورة وهي أعمالهم في فسادها وقت الحاجة ، وتلاشيها كالرماد الذي تذروه

الريح ، وتفرقه بشدتها حتى لا يبقى له أثر ، ولا يجتمع منه شيء انتهى .

وهذا القول الذي رجحه ابن عطية قاله الحوفي ، وهو لا يجوز ، لأن الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ الأول الذي هو مثل عارية من رابط يعود على المثل ، وليست نفس المبتدأ في المعنى ، فلا تحتاج إلى رابط .

وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام ، وعتق الرقاب ، وفداء الأسارى ، وعقر الإبل للأضياف ، وإغاثة الملهوفين ، والإجارة ، وغير ذلك .

شبهها في حبوطها وذهابها هباءً منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به ، وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاصف .

وقرأ نافع ، وأبو جعفر : الرياح على الجمع ، والجمهور على الأفراد .

ووصف اليوم بقوم عاصف ، وإن كان من صفة الريح على سبيل التجوز ، كما قالوا : يوم ما حل وكيل نائم .

وقال الهروي : التقدير في يوم عاصف الريح ، فحذف لتقدم ذكرها كما قال الشاعر :

إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف . . .

يريد كاسف الشمس .

وقيل : عاصف من صفة الريح ، إلا أنه لما جاء بعد اليوم اتبع إعرابه كما قيل : جحر ضب خرب ، يعني : إنه خفض على الجوار .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وإبراهيم بن أبي بكر عن الحسن : في يوم عاصف على إضافة اليوم لعاصف ، وهو على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، تقديره : في يوم ريح عاصف .

(47/417)

---

وتقدم تفسير العصوف في يونس في قوله : ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ وعلى قول من أجاز إضافة الموصوف إلى صفته يجوز أن تكون القراءة منه : لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء ، أي : لا يرون له أثراً من ثواب ، كما لا يقدر من الرماد المطير بالريح على شيء .

وقيل : لا يقدرون من ثواب ما كسبوا ، هو على حذف مضاف .

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ، إنّ ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال : "لا ينفعه لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" وفي الصحيح أيضاً : "إن الكافر ليطعم بحسناته في الدنيا ما عمل لله منها " ذلك إشارة إلى كونهم بهذه الحال .

وعلى مثل هذا الغرر البعيد الذي يعمق فيه صاحبه ، وأبعد عن طريق النجاة ، والبعيد

عن الحق ، أو الثواب .

وفي البقرة : ﴿ لا يقدرون مما كسبوا ﴾ على شيء من التفنن في الفصاحة ، والمغايرة في التقديم والتأخير ، والمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(48/417)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾

لعل هؤلاء القائلين بعضُ المتمردين العاتين الغالين في الكفر من أولئك الأممِ الكافرة التي نُقِلت مقالاتُهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيبٍ وأضرابهم ولذلك لم يُقل وقالوا ﴿ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ لم يقنعوا بعصيانهم الرسلَ ومعاندتهم الحقَّ بعد ما رأوا البيناتِ الفائتةَ للحصر حتى اجترأوا على مثل هاتيك العظيمةِ التي لا يكاد يحيط بها دائرةُ الإمكانِ فحلفوا على أن يكون أحدُ المُحالَيْن ، والعَودُ إما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل ، وقد مر في الأعراف وسيأتي في الكهف ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى الرسل ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مالكِ أمرهم عند تناهي كفرِ الكفرة وبلوغِهم من العتو إلى غاية لا مطمعَ بعدها في إيمانهم ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ على إضمار

القولِ أو على إجراء الإيحاءِ مُجراه لكونه ضرباً منه .

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض ﴾ أي أرضَهم وديارَهم عقوبةً لهم بقولهم : لَنُخرجَنّكم من أرضنا كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد إهلاكِهم ، وقرىء لَيُهلكَن ولَيُسكِنَنّكم بالياء اعتباراً لأوحى ، كقولهم : حلف زيد ليخرُجَنّ غداً ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى الموحى به وهو إهلاكُ الظالمين وإسكانُ المؤمنين ديارَهم أي ذلك الأمرُ محققٌ ثابت ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ موقفي ، وهو الموقفُ الذي يقف فيه العبادُ يوم يقومُ الناسُ لرب العالمين ، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله ، وقيل : لفظُ المقام مُقحَمٌ ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ وعيدي بالعذاب أو عذابيَ الموعودَ للكفار ، والمعنى أن ذلك حقٌّ للمتقين كقوله : ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ . ﴾

﴿ واستفتحوا ﴾

(49/417)

---

أي استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح ﴾ أو استحكموا وسألوه القضاءَ بينهم من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ فالضميرُ للرسل ، وقيل : للفريقين فإنهم سألوا أن يُنصرَ المحِقُّ

ويهلَك المبطل ، وهو معطوفٌ على أوحى إليهم وقرئ بلفظ الأمرِ عطفاً على لنهلكن الظالمين ، أي أوحى إليهم ربهم لنُهلِكَنّ ، وقال لهم : استفتِحوا ﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسِر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ متّصفٍ بضد ما اتصف به المتقون ، أي فنُصروا عند استفتاحِهم وظفِروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كلُّ جبارٍ عنيد ، وهم قومُهم المعاندون فالخيبةُ بمعنى مطلقِ الحِرمان عن المطلوب ، أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعُمون أنهم على الحق ، أو استفتح الكفارُ على الرسل وخابوا ولم يُفلحوا ، وإنما قيل : وخاب كلُّ جبار عنيد ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالتجبّر والعِناد لا أن بعضَهم ليسوا كذلك وأنه لم يُصبْهم الخيبةُ ، أو استفتحوا جميعاً فنُصر الرسلُ وأُنجِز لهم الوعدُ وخاب كلّ عاتٍ متمردٍ ، فالخيبةُ بمعنى الحرمان غِبَّ الطلب ، وفي إسناد الخيبةِ إلى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة .

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي بين يديه فإنه مُرصَدٌ لها واقفٌ على شفيرها في الدنيا مبعوثٌ إليها في الآخرة ، وقيل : من وراء حياتِه وحقيقتِه ما توارى عنك ﴿ ويسقى ﴾ معطوف على مقدر جواباً عن سؤال سائلٍ ، كأنه قيل : فماذا يكون إذن ؟ فقيل : يلقى فيها ويُسقى ﴿ مِن مَّاء ﴾ مخصوصٍ لا كالمياه المعهودة ﴿ صَدِيدٍ ﴾ وهو قيحٌ أو دمٌ مختلط بمِدّة يسيل من الجرح ، قال مجاهد وغيره : هو ما يسيل من أجساد أهلِ النار ، وهو عطفُ بيانٍ لما أُبهم أولاً ثم بُيّن بالصديد تهويلاً لأمره وتخصيصُه بالذكر من بين عذابِها يدور على أنه من أشدّ أنواعِه .

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ قيل : هو صفةٌ لماءٍ أو حالٌ منه والأظهر أنه استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال ، كأنه قيل : فماذا يفعل به ؟ فقيل : يتجرعه ، أي يتكلف جَرْعه مرة بعد أخرى لغلبة العطشِ واستيلاء الحرارة عليه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي لا يقارب أن يسيغه فضلاً عن الإساغة بل يغَصّ به فيشربُه بعد اللتيا والتي جرعةً فيطول عذابُه تارةً بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحالِ ، فإن السَّوغَ انحدارُ الشراب في الحلق بسهولة وقَبولِ نفس ، ونفيُه لا يوجب نفيَ ما ذكر جميعاً ، وقيل : لا يكاد يدخُله في جوفه ، وعبّر عنه بالإساغة لما أنها المعهودةُ في الأشربة وهو حالٌ من فاعل يتجرّعه أو من مفعوله أو منهما جميعاً ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت ﴾ أي أسبابُه من الشدائد ﴿ مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ويُحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعرِه وإبهامِ رجله ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ ﴾ أي والحالُ أنه ليس بميت كما هو الظاهرُ من مجيء أسبابِه لا سيما من جميع الجهاتِ حتى لا يتألمُ بما غشِيه من أصناف الموبقات ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ من بين يديه ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ يستقبل كلَّ وقت عذاباً أشدَّ وأشق مما كان قبله ، ففيه دفعُ ما يُتوهم من الخِفّة بحسب الاعتيادِ كما في عذاب الدنيا ، وقيل : هو الخلودُ في النار ، وقيل : هو حبسُ الأنفاس ، وقيل : المرادُ

بالاستفتاح والخيبةِ استسقاءُ أهلِ مكةَ في سِنيهم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم في ذلك ، وقد وعَد لهم بدلَ ذلك صديدَ أهل النار .

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾

(51/417)

---

أي صفتُهم وحالُهم العجيبةُ الشأنِ التي هي كالمثل في الغرابة ، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ كقولك : صفةُ زيدٍ عرضُه مهتوكٌ ومالُه منهوب ، وهو استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال من قال : ما بال أعمالِهم التي عمِلوها في وجوه البرِّ من صلة الأرحامِ ، وإعتاقِ الرقاب ، وفداءِ الأسارى ، وإغاثةِ الملهوفين ، وقرى الأضياف ، وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرُهم إلى هذا المآل ؟ فأجيب بأن ذلك كرماد ﴿ اشتدت بِهِ الريح ﴾ حملتْه وأسرعتْ الذهاب به ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ العصْفُ اشتدادُ الريحِ وصف به زمانُها مبالغةً ، كقولك : ليلةٌ ساكرةٌ وإنما السكورُ لريحها شُبّهت صنائعُهم المعدودةُ لابتنائها على غير أساسٍ من معرفة الله تعالى والإيمان به والتوجّه بها إليه تعالى برماد طيّرته الريحُ العاصفةُ ، أو استئنافٌ مسوقٌ لبيان أعمالِهم للأصنام ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ كما هو رأيُ سيبويه أي فيما يتلى عليك مَثلُهم ، وقوله : أعمالُهم بدلٌ من مَثَلُ الذين

، وقوله : كرماد خبره ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من تلك الأعمال ﴿ على شَىْء ﴾ ما ، أي لا يروْن له أثراً من ثواب أو تخفيفِ عذابٍ كدأب الرماد المذكور ، وهو فذلكةُ التمثيل ، والاكتفاءُ ببيان عدمِ رؤيةِ الأثر لأعمالهم للأصنام مع أن لها عقوباتٍ هائلةً للتصريح ببطلان اعتقادِهم وزعمِهم أنها شفعاءُ لهم عند الله تعالى وفيه تهكّمٌ بهم ﴿ ذلك ﴾ أي ما دل عليه التمثيلُ دَلالةً واضحةً من ضلالهم مع حُسبانهم أنهم على شيء ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن طريق الصواب أو عن نيل الثواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

*(52/417)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾

قيل : لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب واضرابهم ولذلك لم يقل : وقالوا ، ﴿ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ وجوز أن يكون المراد بهم أهل الحل والعقد الذين لهم قدرة على الإخراج والإدخال ، ويكون ذلك علبة للعدول عن قالوا أيضاً ، و ﴿

أَوْ ﴾ لأحد الأمرين ، ومرادهم ليكونن أحد الأمرين إخراجهم أو عودكم ، فالمقسم عليه في وسع المقسم ، والقول بأنها بمعنى حتى أو إلا أن قول من لم يمعن النظر كما في البحر فيما بعدها إذ لا يصح تركيب ذلك مع ما ذكر كما يصح في لألزمنك أو تقضيني حقي ، والمراد من العود الصيرورة والانتقال من حال إلى أخرى وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، فيندفع ما يتوهم من أن العود يقتضي أن الرسل عليهم السلام كانوا وحاشاهم في ملة الكفر قبل ذلك .

واعترض في الرفرائد بأنه لو كان العود بمعنى الصيرورة لقيل إلى ملتنا فتعديته بفي يقتضي أنه ضمن معنى الدخول أي لتدخلن في ملتنا .

ورده الطيبي بأنه إنما يلزم ما ذكر لو كان ﴿ فِى مِلَّتِنَا ﴾ صلة الفعل إما إذا جعل خبراً له لأن صار من أخوات كان فلا يرد كما في نحو صار زيد في الدار .

نعم يفهم مما ذكره وجه آخر وهو جعله مجازاً بمعنى تدخلن لا تضمينا لأنه على ما قرروه يقصد فيه المعنيان فلا يدفع المحذور .

وفي الكشف إن ﴿ فِى ﴾ أبلغ من إلى لدلالته على الاستقرار والتمكن كأنهم لم يرضوا بأن يتظاهروا أنهم من أهل ملتهم ، وقيل : المراد من العود في ملتهم سكوتهم عنهم وترك مطالبتهم بالإيمان وهو كما ترى ، وقيل : هو على معناه المتبادر والخطاب لكل رسول ولمن آمن معه من قومه فغلبوا الجماعة على الواحد ، فإن كان الجماعة حاضرين فالأمر ظاهر وإلا فهناك تغليب آخر في الخطاب ، وقيل : لا تغليب أصلاً والخطاب للرسل وحدهم بناء على زعمهم أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة كقول فرعون عليه اللعنة لموسى عليه السلام : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الكافرين ﴾ [ الشعراء : 19 ] وقد مر الكلام في مثل ذلم فتذكر ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى الرسل عليهم البسلام بعد ما قيل لهم ما قيل ﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مالك أمرهم سبحانه ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ أي المشركين المتناهين في الظلم وهم أولئك القائلون ، وقال ابن عطية : خص سبحانه الظالمين من الذين كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا تلك المقالة ناس فالتوعد باهلاك من خلص للظلم ، و ﴿ أوحى ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء فلا مفعول له ﴿ ولنهلكن ﴾ على إضمار القول أي قائلاً لنهلكن ، ويحتمل أن يكون جارياً مجرى القول لكونه ضرباً منه ﴿ ولنهلكن ﴾ مفعوله .

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض ﴾

أي أرضهم وديارهم ، فاللام للعهد وعند بعض عوض عن المضاف إليه ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد اهلاكهم ، وأقسم سبحانه وتعالى في مقابلة قسمهم ، والظاهر أن ما أقسم عليه جل وعلا عقوبة لهم على قولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا ﴾ [ إبراهيم : 13 ] وفي ذلك دلالة على مزيد سناعة ما أتوا به حيث أنهم لما أرادوا إخراج المخاطبين من ديارهم جعل عقوبته إخراجهم من دار الدنيا وتوريث أولئك أرضهم وديارهم ، وفي الحديث " من آذى جاره أورثه الله تعالى داره " وقرأ أبو حيوة ﴿ ليهلكن الضالمين ﴾ [ إبراهيم : 13 ] ﴿ وليسكننكم الأرض ﴾ بياء الغيبة اعتباراً لأوحى كقولك : أقسم زيد ليخرجن ﴿ ذلك ﴾ اشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المخاطبين ديارهم ، وبذلك الاعتبار وحد اسم الإشارة مع أن المشار إليه إثنان فلا حاجة إلى جعله من قبيل ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ﴾ [ البقرة : 68 ] وان صح أي ذلك الأمر محقق ثابت .

﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ أي موقفي الذي يقف به العباد بين يدي للحساب يوم القيامة ، وإلى هذا ذهب الزجاج فالمقام اسم مكان وإضافته إلى ضميره تعالى لكونه بين يديه سبحانه ، وقال الفراء : هو مصدر ميمي أضيف إلى الفاعل أي خاف قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إياه ، وقيل : المراد إقامتي على العدل والصواب وعدم الميل عن ذلك .

وقيل : لفظ مقام مقحم لأن الخوف من الله تعالى أي لمن خافني ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي بالعذاب فياء المتكلم محذوف للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

(55/417)

---

والوعيد على ظاهره ومتعلقه محذوف ، وجوز أن يكون مصدراً من الوعد على وزن فعيل وهو بمعنى اسم المفعول أي عذابي الموعود للكفار : وفيه استعارة الوعد للإيعاد ، والمراد بمن خاف على ما أشير إليه في الكشاف المتقون ، ووقوع ذلك إلى آخره بعد ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ موقع ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ في قصة موسى عليه السلام حيث قال لقومه : ﴿ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ الأعراف : 128 ] ﴿ واستفتحوا ﴾ أي استنصروا الله تعالى على أعدائهم كقوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح ﴾ [ الأنفال : 19 ] ويجوز أن يكون من الفتاحة أي الحكومة أي استحكموا الله تعالى وطلبوا منه القضاء بينهم كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [ الأعراف : 89 ] والضمير للرسل عليهم السلام كما روي عن قتادة وغيره ، والعطف على ﴿ أوحى ﴾ ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس .

ومجاهد .

وابن محيصن ﴿ واستفتحوا ﴾ بكسر التاء أمراً للرسل عليهم السلام معطوفاً على ﴿ ليهلكن ﴾ [ إبراهيم : 13 ] فهو داخل تحت الموحى ، والواو من الحكاية دون المحكى ، وقيل : ما قبله لإنشاء الوعد فلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر مع أن مذهب بعضهم تجويزه ، وأخر على القراءتين عن قوله تعالى :

﴿ لَنُهْلِكَنَّ ﴾ [ إبراهيم : 13 ] أو أوحى إليهم على ما الكشف دلالة على أنهم لم يزالوا داعين إلى أن تحقق الموعود من إهلاك الظالمين ، وذلك لأن ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ﴾ [ إبراهيم : 13 ] وعد وإنما حقيقة الإجابة حين الإهلاك ، وليس من تفويض الترتب إلى ذهن السامع في شيء ولا ذلك من مقامه كما توهم .

(56/417)

---

وقال ابن زيد : الضمير للكفار والعطف حينئذ على ﴿ قَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ إبراهيم : 13 ] أي قالوا ذلك واستفتحوا على نحو ما قال قريش : ﴿ عَجّل لّنَا قِطَّنَا ﴾ [ ص : 16 ] وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم ولم يعاجلوا بالعقوبة ظنوا أن ما قيل لهم باطل فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء كقول قوم نوح : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [

الأعراف : 70 ] وقوم شعيب ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [ الشعراء : 187 ] إلى غير ذلك ، وقيل : الضمير للرسل عليهم السلام ومكذبيهم لأنهم كانوا كلهم سألوا الله تعالى أن ينصر الحق ويهلك المبطل ، وجعل بعضهم العطف على ﴿ أُوحِىَ ﴾ على هذا أيضاً بل ظاهر كلام بعض أن العطف عليه على القراءة المشهورة مطلقاً ، وسيأتي إن شاء الله تعالى احتمال آخر في الضمير ذكره الزمخشري .

(57/417)

---

﴿ وَخَابَ ﴾ أي خسر وهلك ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ متكبر عن عبادة الله تعالى وطاعته ، وقال الراغب : الجبار في صفة الإنسان يقال لمن يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها ، ولا يقال إلا على طريق الذم ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق مباه بما عنده ، وجاء فعيل بمعنى مفاعل كثيراً كخليط بمعنى مخالط ورضيع بمعنى مراضع ، وذكر أبو عبيدة أن اشتقاق ذلك من العند وهو الناحية ، ولذا قال مجاهد : العنيد مجانب الحق ، قيل : والوصف الأول : إشارة إلى ذمه باعتبار الخلق النفساني والثاني : إلى ذمه باعتبار الأثر الصادر عن ذلك الخلق وهو كونه مجانباً منحرفاً عن الحق ، وفي الكلام إيجاز الحذف بحذف الفاء الفصيحة والمنعوف عليه أي استفتحوا ففتح لهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب

كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون ؛ فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق ، هذا إذا كان ضمير ﴿ استفتحوا ﴾ للرسل عليهم السلام ، وأما إذا كان للكفار فالعطف كما في "البحر" على ﴿ استفتحوا ﴾ أي استفتح الكفار على الرسل عليهم السلام وخابوا ولم يفلحوا ، وإنما وضع ﴿ أَمْرُ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ موضع ضميرهم ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالتجبر والعناد لا أن بعضهم ليسوا كذلك ولم تصبهم الخيبة ، ويقدر إذا كان الضمير للرسل عليهم السلام وللكفرة استفتحوا جميعاً فنصر الرسل وخاب كل عات متمرد ، والخبة على الوجهين بمعنى الحرمان غب الطلب ، وفي إسناد الخيبة إلى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة .

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾

أي من قدامه وبين يديه كما قال الزجاج .

والطبري .

وقطرب .

وجماعة ، وعلى ذلك قوله :

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . .

لزوم العصا تحني عليها الأصابع

ومعنى كونها قدامه أنه مرصد لها واقف على شفيرها ومبعوث إليها ، وقيل : المراد من

خلف حياته وبعدها ، ومن ذلك .

قوله :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . .

(58/417)

---

وليس وراء الله للمرء مذهب

وإليه ذهب ابن الأنباري ، واستعمال ﴿ وَرَاءَ ﴾ في هذا وذاك بناء على أنها من الأضداد عند أبي عبيدة والأزهري فهي من المشتركات اللفظية عندهما .

وقال جماعة : إنها من المشتركات المعنوية فهي موضوعة لأمر عام صادق على القدام والخلف وهو ما توارى عنك .

وقد تفسر بالزمان مجازاً فيقال : الأمر من ورائك على معنى أنه سيأتيك في المستقيل من أوقاتك ﴿ ويسقى ﴾ قيل عطف على متعلق ﴿ مّن وَرَائِهِ ﴾ المقدر ، والأكثر على أنه عطف على مقدر جواباً عن سؤال سائل كأنه قيل : فماذا يكون إذن ؟ فقيل : يلقى فيها ما يلقى ويسقى ﴿ مِن مَّاء ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿ صَدِيدٍ ﴾ قال مجاهد .

وقتادة .

والضحاك هو ما يسيل من أجساد أهل النار ، وقال محمد بن كعب .

والربيع : ما يسيل من فروج الزناة والزواني ، وعن عكرمة هو الدم والقيح ؛ وأعربه الزمخشري عطف بيان لماء .

وفي إبهامه أولاً ثم بيانه من التهويل ما لا يخفى ، وجواز عطف البيان في النكرات مذهب الكوفيين .

والفارسي ، والبصريون لا يرونه وعلى مذهبهم هو بدل من ﴿ مَاء ﴾ أن أعتبر جامداً أو نعت أن أعتبر فيه الاشتقاق من الصد أي المنع من الشرب كأن ذلك الماء لمزيد قبحه مانع عن شربه ، وفي "البحر" قيل : إنه بمعنى مصدود عنه أي لكراهته يصد عنه ، وإلى كونه نعتاً ذهب الحوفي وكذا ابن عطية قال : وذلك كما تقول : هذا خاتم حديد ، وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة وإنما أطلق عليه باعتبار أنه بدله ، وقال بعضهم : هو نعت على إسقاط مفيد التشبيه كما تقول مررت برجل أسد ، والتقدير مثل صديد وعلى هذا فإطلاق الماء عليه حقيقة ، وبالجملة تخيص السقي من هذا الماء بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواعه .

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾

جوز أبو البقاء كونه صفة لماء أو حالاً منه أو استئنافاً .

وجوز أبو حيان كونه حالاً من ضمير ﴿ يسقى ﴾ [ إبراهيم : 16 ] والاستئناف أظهر وهو مبني على سؤال كأنه قيل : فماذا يفعل به ؟ فقيل : يتجرعه أي يتكلف جرعه مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي لا يقارب أن يسيغه فضلاً عن الإساغة بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتي جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش وأخرى بشربه على تلك الحالة ؛ فإن السوغ انحدار الماء انحدار الشراب في الحلق بسهولة وقبول نفس ونفيه لا يفيد نفي ما ذكر جميعاً ، وقيل : تفعل مطاوع فعل يقال : جرعه فتجرع وقيل : إنه موافق للمجرد أي جرعه كما تقول عدا الشيء وتعداه ، وقيل : الإساغة الإدخال في الجوف ، والمعنى لا يقارب أن يدخله في جوفه قبل أن يشربه ثم شربه على حد ما قيل في قوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [ البقرة : 71 ] أي ما قاربوا قبل الذبح ، وعبر عن ذلك بالإصاغة لما أنها المعهودة في الأشربة .

أخرج أحمد .

والترمذي .

والنسائي .

والحاكم وصححه .

وغيرهم عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الآية : "يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره" يقول الله تعالى : ﴿ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ] وقال سبحانه : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجوه ﴾ [ الكهف : 29 ] ويسيغه بضم الياء لأنه يقال : ساغ الشراب وأساغه غيه وهو الفصيح وإن ورد ثلاثيه متعدياً أيضاً على ما ذكره أهل اللغة ، وجملة ﴿ لاَ يَكَادُونَ ﴾ إلى آخره في موضع الحال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعاً ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت ﴾ أي أسبابه من الشدائد أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب فالكلام على المجاز أو بتقدير مضاف ﴿ مّن كُلّ مَكَانٍ ﴾ أي من كل موضع ، والمراد أنه يحيط به من جميع الجهات كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقال إبراهيم التيمي : من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره وروى نحو ذلك عن ميمون بن مهران .

ومحمد بن كعب ، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز ، والظاهر أن هذا الإتيان في الآخرة .

وقال الأخفش : أراد البلايا التي تصيب الكافر في الدنيا سماها موتاً لشدتها ولا يخفى بعده لأن سياق الكلام في أحوال الكافر في جهنم وما يلقى فيها ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ ﴾ أي والحال أنه ليس بميت حقيقة كما هو الظاهر من مجيء أسبابه على أتم وجه فيستريح مما غشيه من أصناف الموبقات ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ أي من بين يدي من حكم عليه بما مر ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ يستقبل كل وقت عذاباً أسد وأشق مما كان قبله ، وقيل : في ﴿ وَرَاء ﴾ هنا نحو ما قيل فيما تقدم أمامه ، وذكر هذه الجملة لدفع ما يتوهم من الخفة بحسب الاعتياد كما في عذاب الدنيا ، وقيل : ضمير ورائه يعود على العذاب المفهوم من الكلام السابق لا على كل جبار ، وروى ذلك عن الكلبي ، والمراد بهذا العذاب قيل : الخلود في النار وعليه الطبرسي ، وقال الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد هذا ، وجوز في الكشاف أن تكون هذه الآية أعني قوله تعالى :

﴿ واستفتحوا ﴾ [ إبراهيم : 15 ] إلى هنا منقطة عن قصة الرسل عليهم السلام نازلة في أهل مكة طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنينهم التي أرسلت عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيب سبحانه رجاءهم ولم يسقهم ووعدهم أن يسنيهم في جهنم

بدل سقياهم صديد أهل النار ، والواو على هذا قيل : للاستئناف ، وقيل : للعطف إما على قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 2 ] أو على خبر ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 3 ] لقربه لفظاً ومعنى ، والوجه الأول أوجه لبعد العهد وعدم قرينة تخصيص الاستفتاح بالاستمطار ولأن الكلام على ذلك التقدير يتناول أهل مكة تناولاً أولياً فإن المقصود من ضرب القصة أن يعتبروا .

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾

(62/417)

---

مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي في الغرابة كالمثل كما ذهب إليه سيبويه ، وقوله سبحانه : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ جملة مستأنفة لبيان مثلهم ، ورجح ابن عطية كونه مبتدأ وهذه الجملة خبره ، وتعقبه الحوفي بأنه لا يجوز لخلو الجملة عما ربطها بالمبتدأ وليست نفسه في المعنى لتستغني عن ذلك لظهور أن ليس المعنى مثلهم هذه الجملة .

وأجاب عنه السمين بالتزام أنها نفسه لأن مثل الذين في تأويل ما يقال فيهم ويوصفون به إذا وصفوا فلا حاجة إلى الرابط كما في قولك : صفة زيد عرضه مصمون وماله مبذول ، قيل

: ولا يخفى حسنه إلا أن المثل عليه بمعنى الفة ، والمراد بالصفة اللفظ الموصوف به كما يقال : صفة زيد أسمر أي اللفظ الذي يوصف به هو هذا ، وهذا وإن كان مجازاً على مجاز لكنه يغتفر لأن الأول ملحق بالحقيقة لشهرته وليس من الاكتفاء بعود الضمير على المضاف إليه لأن المضاف ذكر توطئة له فإن ذلك أضعف من بيت العنكبوت كما علمت .

وذهب الكسائي .

والفراء إلى أن ﴿ مَثَلُ ﴾ مقحم وتقدم ما عليه وله ، وقال الحوفي : هو مبتدأ و ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ خبره وأعمالهم بدل من المبتدأ بدل اشتمال كما في قوله :

ما للجمال مشيها وئيداً . . .

أجندلا يحملن أم حديدا

وفيه خفاء ، ولعله اعتبر المضاف إليه .

(63/417)

---

وفي "الكشاف" : جواز كونه بدلاً من ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ ﴾ لكن على تقدير مثل أعمالهم فيكون التقدير مثل الذي كفروا مثل أعمالهم كرماد ، قال في "الكشف" : وهو بدل الكل من الكل وذلك لأن مثلهم ومثل أعمالهم متحدان بالذات ، وفيه تفخيم اه ، وقيل

: إنه على هذا التقدير أيضاً بدل اشتمال لأن مثل أعمالهم كونها كرماد ومثلهم كون أعمالهم كرماد فلا اتحاد لكن الأول سبب للثاني فتأمل ، والمراد معروف وعرفه ابن عيسى بأنه جسم يسحقه الإحراق سحق الغبار ويجمع على رمد في الكثرة وأرمدة في القلة وشذ جمعه على أفعلاء قالوا أرمداء كذا في "البحر" وذكر في "القاموس" أن الإرمداء كالأربعاء الرماد ولم يذكر أنه جمع ، والمراد بأعمالهم ما هو من باب المكارم كصلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأساري وقرى الأضياف وإغاثة الملهوفين وغير ذلك ، وقيل : ما فعلوه لأصنامهم من القرب بزعمهم ، وقيل : ما يعم هذا وذاك ولعله الأولى ، وجيء بالجملة على ما اختاره بعضهم جواباً لما يقال : ما بال أعمالهم التي عملوها حتى آل أمرهم إلى ذلك المآل ؟ إذ يبين فيها أنها كرماد ﴿ اشتدت بِهِ الريح ﴾ أي حملته وأسرعت الذهاب به فاشتد من شد بمعنى عدا ، والباء للتعدية أو للملابسة ، وجوز أن يكون من الشدة بمعنى القوة أي قويت بملابسة حمله ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمان هبوبها على الإسناد المجازي كنهاره صائم وليله قائم للمبالغة ، وقال الهروي : التقدير في يوم عاصف الريح فحذف الريح لتقدم ذكره كما في قوله :

إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف . . .

والتنوين على هذا عوض من المضاف إليه ، وضعف هذا القول ظاهر ، وقيل : إن عاصف صفة الريح إلا أنه جر على الجوار ، وفيه أنه لا يصح وصف الريح به لاختلافهما

تعريفاً وتنكيراً ، وقرأ نافع .

وأبو جعفر ﴿ الرياح ﴾ على الجمع وبه يشتد فساد الوصفية ، وقرأ ابن أبي إسحق .

(64/417)

---

وإبراهيم بن أبي بكر عن الحسن ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ على الإضافة ، وذلك عند أبي حيان من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه والتقدير في يوم ريح عاصف ، وقد يقال : إنه من إضافة الموصوف إلى الصفة من غير حاجة إلى حذف عند من يرى جواز ذلك ﴿ لاَّيَقْدِرُونَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ في الدنيا من تلك الأعمال ﴿ على شَيْء ﴾ ما أي لا يرون له أثراً من ثواب أو تخفيف عذاب .

ويؤيد التعميم ما ورد في "الصحيح" عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله إن ابن جدعان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين هل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه لأنه لم يقل ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين ، وقيل : الكلام على حذف مضاف إي لا يقدرون من ثواب ما كسبوا على شيء ما والأول أولى ، وقدم المتعلق الأول للا يقدرون على الثاني وعكس في البقرة لأهمية كل في آيته وذلك ظاهر لمن له أدنى بصيرة ، وحاصل التمثيل تشبيه أعمالهم في حبوطها وذهابها هباء منثوراً لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به

وكونها لوجهه برماد طيرته الريح العاطف وفرقته ، وهذه الجملة فذلكة ذلك والمقصود منه ، قيل : والاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام مع أن لها عقوبات للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شعفاء لهم عند الله تعالى ، وفيه تهكم بهم ﴿ ذلك ﴾ أي ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع حسبانهم أنهم على شيء ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن طريق الحق والصواب ، وقد تقدم تمام الكلام في ذلك غير بعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(65/417)

---

وقال الشوكانى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

قوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ هؤلاء القائلون هم طائفة المتمرّدين عن إجابة الرسل ، واللام في لنخرجنكم هي الموطئة للقسم ، أي : والله لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملتنا ، لم يقنعوا بردهم لما جاءت به الرسل وعدم امتثالهم لما دعوهم إليه حتى اجترءوا عليهم بهذا ، وخيروهم بين الخروج من أرضهم ، أو العود في ملتهم الكفرية .

وقد قيل : إن "أو" في ﴿ أو لتعودنّ ﴾ بمعنى حتى ، أو يعني : إلا أن تعودوا كما قاله بعض

المفسرين، وردّ بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل "أو" على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، وقد تقدّم تفسير الآية في سورة الأعراف.

قيل: والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها.

وقيل: إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب على أتباعهم ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي: إلى الرسل ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ أي قال لهم: لنهلكن الظالمين.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض ﴾ أي أرض هؤلاء الكفار الذين توعدوكم بما توعدوا من الإخراج أو العود، ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ [الأعراف: 137].

وقال: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وديارهم ﴾ [الأحزاب: 27] وقرىء "ليهلكن"، "وليسكننكم" بالتحتية في الفعلين اعتباراً بقوله ﴿ فأوحى ﴾، والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين في مساكنهم ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ أي: موقفي، وذلك يوم الحساب، فإنه موقف الله سبحانه، والمقام بفتح الميم مكان الإقامة.

وبالضم فعل الإقامة، وقيل: إن المقام هنا مصدر بمعنى القيام، أي: لمن خاف قيامي عليه ومراقبتي له، كقوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نفسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: 33].

وقال الأخفش: ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ أي: عذابي ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي: خاف وعيدي بالعذاب.

وقيل: بالقرآن وزواجره.

وقيل: هو نفس العذاب، والوعيد الاسم من الوعد.

﴿ واستفتحوا ﴾ معطوف على ﴿ أوحى ﴾، والمعنى: أنهم استنصروا بالله على أعدائهم، أو سألوا الله القضاء بينهم، من الفتاحة وهي الحكومة ومن المعنى الأوّل قوله: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الفتح ﴾ [الأنفال: 19] أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر.

ومن المعنى الثاني قوله: ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ [الأعراف: 19] أي: احكم، والضمير في ﴿ استفتحوا ﴾ للرسل.

وقيل: للكفار.

وقيل: للفريقين ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ الجبار المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً

، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة ، والعنيد المعاند للحق والمجانب له ، وهو مأخوذ من العند ، وهو الناحية ، أي : أخذ في ناحية معرضاً .

قال الشاعر :

إذا نزلت فاجعلوني وسطا . . . إني كبير لا أطيق العندا

قال الزجاج : العنيد الذي يعدل عن القصد ، وبمثله قال الهروي ، وقال أبو عبيد : هو الذي عند وبغى .

وقال ابن كيسان : هو الشامخ بأنفه .

وقيل : المراد به العاصي .

وقيل : الذي أبى أن يقول لا إله إلاّ الله .

ومعنى الآية : أنه خسر وهلك من كان متصفاً بهذه الصفة ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي : من بعده جهنم ، والمراد بعد هلاكه على أن وراءها ها هنا بمعنى بعد ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وليس وراء الله للمرء مذهب

أي : ليس بعد الله ، ومثله قوله : ﴿ ومن مِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي : من بعده .

كذا قال الفراء .

وقيل : من ورائه أي : من أمامه ، قال أبو عبيد : هو من أسماء الأضداد ، لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر ، ومنه قول الشاعر :

ومن ورائك يوم أنت بالغه . . . لا حاضر معجز عنه ولا بادي

وقال آخر :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي . . . وقومي تميم والفلاة ورائيا

أي : أمامي ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [ الكهف : 79 ] .

أي : أمامهم ، ويقول أبي عبيدة هذا قاله قطرب .

وقال الأخفش : هو كما يقال : هذا الأمر من ورائك ، أي : سوف يأتيك ، وأنا من وراء فلان ، أي : في طلبه .

وقال النحاس : من ورائه ، أي : من أمامه ، وليس من الأضداد ، ولكنه من توارى ، أي : استتر فصارت جهنم من ورائه ؛ لأنها لا ترى ، وحكى مثله ابن الأنباري .

﴿ ويسقى مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴾ معطوف على مقدّر جواباً عن سؤال سائل ، كأنه قيل : فماذا يكون إذن ؟ قيل : يلقى فيها ويسقى ، والصديد ما يسيل من جلود أهل النار ، واشتقاقه من الصدّ ، لأنه يصدّ الناظرين عن رؤيته ، وهو دم مختلط بقيح ، والصديد صفة

لماء .

وقيل : عطف بيان منه ﴿ ويتجرعه ﴾ في محل جر على أنه صفة لماء ، أو في محل نصب على أنه حال .

وقيل : هو استئناف مبنيّ على سؤال .

والتجرع التحسي أي : يتحساه مرة بعد مرّة لا مرّة واحدة لمرارته وحرارته ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي : يبتلعه ، يقال ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً : إذا كان سهلاً ، والمعنى : ولا يقارب إساغته ، فكيف تكون الإساغة ؟ بل يغص به فيطول عذابه بالعطش تارة ، ويشربه على هذه الحال أخرى .

وقيل : إنه يسيغه بعد شدة وإبطاء ، كقوله : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [ البقرة : 71 ] أي : يفعلون بعد إبطاء ، كما يدلّ عليه قوله تعالى في آية أخرى ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ [ الحج : 20 ] ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلّ مَكَانٍ ﴾ أي : تأتيه أسباب الموت من كل جهة من الجهات .

أو من كل موضع من مواضع بدنه .

وقال الأخفش : المراد بالموت هنا البلايا التي تصيب الكافر في النار ، سماها موتاً لشدّتها ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي : والحال أنه لم يمت حقيقة فيستريح .

وقيل : تعلق نفسه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فيحيا ، ومثله قوله تعالى :

﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ [ الأعلى : 13 ] ، وقيل : معنى ﴿ وما هو بميت ﴾ لتطاول شدائد الموت به وامتداد سكراته عليه ، والأولى تفسير الآية بعدم الموت حقيقة لما ذكرنا من قوله سبحانه ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ وقوله : ﴿ لَا يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [ فاطر : 36 ] ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي من أمامه ، أو من بعده عذاب شديد .

وقيل هو الخلود .

وقيل حبس النفس .

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ قال سيبويه : مثل مرتفع على الابتداء ، والخبر مقدّر ، أي : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا وبه قال الزجاج .

وقال الفراء : التقدير ﴿ مثل ﴾ أعمال الذين كفروا فحذف المضاف .

وروي عنه أنه قال بإلغاء مثل .

والتقدير الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد .

وقيل هو: أعني ﴿ مثل ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ على أن معناه الصفة، فكأنه قال صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد.

(69/417)

---

والمعنى: أن أعمالهم باطلة غير مقبولة، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء، ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف، ومعنى اشتدّت به الريح: حملته بشدّة وسرعة، والعصف شدّة الريح، وصف به زمانها مبالغة كما يقال: يوم حار ويوم بارد، والبرد والحر فيهما لا منهما ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَىْءٍ ﴾ أي: لا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شيء منها، ولا يرون له أثراً في الآخرة يجازون به ويثابون عليه، بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها.

والإشارة بقوله: ﴿ ذلك ﴾ إلى ما دلّ عليه التمثيل أي: هذا البطلان لأعمالهم وذهاب أثرها ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ عن طريق الحقّ المخالف لمنهج الصواب، لما كان هذا خسراناً لا يمكن تداركه سماه بعيداً.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿

لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا ﴾ الآية، قال كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم، ويقهرونهم، ويكذبونهم، ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم، فأبى الله لرسوله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر، وأمرهم أن يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز لهم ما وعدهم.

واستفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: وعدهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، فبين الله من يسكنها من عباده فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: 46] وإن لله مقاماً هو قائمه، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ودأبوا الليل والنهار.

(70/417)

---

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ واستفتحوا ﴾ قال: للرسل كلها يقول استنصروا، وفي قوله: ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ قال: معاند للحقّ مجانب له.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال:

استنصرت الرسل على قومها ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يقول : عنيد عن الحق معرض عنه ، أبى أن يقول لا إله إلاّ إله .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال : العنيد الناكب عن الحق .

وأخرج أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " ﴿ ويسقى مِن مَّاء صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ ﴾ قال : " يقرب إليه فيتكرهه " ، فإذا دنا منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره .

يقول الله تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ " [ محمد : 15 ] .

وقال : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجوه ﴾ [ الكهف : 29 ] .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس في قوله : ﴿ مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴾ قال : يسيل من جلد الكافر ولحمه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ﴿ مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴾ هو القيح والدم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلّ مَكَانٍ ﴾ قال : أنواع العذاب ، وليس منها نوع إلاّ الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت لأن الله يقول : ﴿

لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [ فاطر : 36 ] .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال : من كلّ عظم وعرق وعصب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن محمد بن كعب نحوه .

(71/417)

---

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن إبراهيم التيمي قال : من موضع كل شعرة في جسده ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ قال : الخلود .

وأخرج ابن المنذر عن الفضيل بن عياض ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ قال : حبس الأنفاس .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ الآية قال : مثل الذين عبدوا غيره فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون على شيء من أعمالهم ، ينفعهم كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل في يوم عاصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(72/417)

وقال القاسمى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم ، لما رأوهم صابرين متوكلين ، لا يهمهم شأنهم من الإخراج من الأرض ، والنفي من بين أظهرهم ، أو العود في ملتهم . والمعنى : ليكونن أحد الأمرين .

والسبب في هذا التوعد - كما قال الرازي - أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين ، وأهل الباطل يكونون كثيرين . والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين . فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة . فإن قيل : يتوهم من لفظ ( العود ) أنهم كانوا في ملة الكفر قبل ! أجيب : بأن ( عاد ) بمعنى صار . وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، أو الكلام على ظنهم وزعمهم أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة . أو الخطاب للرسل ولقومهم ، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ الخ وعد صادق للرسل ، وبشارة حقة . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [ الصافات : 171 – 173 ] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ [ الأعراف : من الآية 137 ] ، والآيات في ذلك كثيرة . والإشارة في ( ذلك ) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين . وقوله : ﴿ لِمَنْ خَافَ ﴾ الخ ، أي : للمتقين ؛ لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ الأعراف : من الآية 128 ] . و ( المقام ) إما موقف الحساب ، فهو اسم مكان ، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه ، أو مصدر ميمي ، بمعنى : حفظي وقيامي لأعمالهم ليجازوا عليها . أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال : المقام العالي . وياء المتكلم في ( وعيد ) محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف .

قال السمين : أثبت الياء هنا وفي ( ق ) في موضعين : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ ق : من الآية 14 ] ، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ ق : من الآية 45 ] ، وصلاً ، وحذفها وقفاً ورش عن نافع . وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً .

وقوله تعالى :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا ﴾ أي : سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم . من ( الفتاحة ) وهي الحكومة كقوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ [ الأعراف : من الآية 89 ] ، فالضمير : للرسل ، وقيل : للكفرة ، وقيل : للفريقين ، فإنهم سألوا أن ينصر المحقّ ويهلك المبطل . وقوله : ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي : فنصروا عند استفتاحهم وأفلحوا : ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وهم قومهم . أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا . وإنما قيل : ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالتجبر والعناد . أو استفتحوا جميعاً فنَصَرَ الرسل وأنجز لهم الوعد ، وخاب أعداؤهم . و ( الجبار ) المتكبر على طاعة الله تعالى وعبادته . و ( العنيد ) المعاند للحق ، كخليط بمعنى مخالط .

﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ جملة في محل جر صفة لـ ( جبار ) كناية عن تطلبها له وترصدها إياه ، ومن تطلب شيئاً وترصده أدركه لا محالة . وقيل : على تقدير مضاف ، أي : من وراء حياته وانقضاء عمره ﴿ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴾ وهو ما يسيل من جوف أهل النار ، قد خالط القيح والدم .

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أي : يتكلف تجرعه لقهره عليه : ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ لخبثه : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي : تحيط به أسبابه من الأهوال ، وما هو بمستريح مما نزل به : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي : شديد متصل لا ينقطع .

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

المثل مستعار للصفة التي فيها غرابة . شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها - كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان ، في حبوطها ؛ لكونها على غير تقوى وإيمان - برماد طيرته الريح العاصف . وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ الخ ، مستأنف ، فذلك للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه ، أي : لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء منها ، أي : لا يرون له أثراً من ثواب ، كما لا يقدر ، من الرماد المطير في الريح ، على شيء .

قال أبو السعود : الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام ، مع أن لها عقوبات هائلة ؛ للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى ، وفيه تهكم بهم .

وفي توصيف الضلال بالبعد ، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب .

و ( اشتد به ) من ( شد ) بمعنى عدا والباء للتعدية أو ملابسة . أو من ( الشدة ) بمعنى القوة ، أي : قويت بملابسة حمله . و ( العصف ) قوة هبوب الريح ، وصف به زمانها على

الإسناد المجازي، ك: (نهاره صائم) وخبر (مثل) محذوف أي: فيما يتلى عليكم.

وجملة: ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ مستأنفة جواباً لسؤال: كيف مثلهم؟ أو (أعمالهم) بدل من (مثل) و(كرماد) الخبر.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان: 23]. وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عِمْرَان: 117]. وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 264]. انتهى انتهى. اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 10 صـ 314. 318﴾

(76/417)

---

وقال ابن عاشور:

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ

لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ .

تغيير أسلوب الحكاية بطريق الإظهار دون الإضمار يؤذن بأن المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ هنا غير الكافرين الذين تقدمت الحكاية عنهم فإن الحكاية عنهم كانت بطريق الإضمار .

فالظاهر عندي أن المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ هنا كفار قريش على طريقة التوجيه .

وأن المراد بـ ﴿ رُسُلِهم ﴾ الرسول مُحمّد صلى الله عليه وسلم أجريت على وصفه صيغة الجمع على طريق قوله : ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ في سورة غافر ( 70 ) .

فإن المراد المشركون من أهل مكة كما هو مقتضى قوله : فسوف يعلمون وقوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ [ سورة الحديد : 25 ] ، فإن المراد بالرسل في الموضعين الأخيرين الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لأنه الرسول الذي أنزل معه الحديد ، أي القتال بالسيف لأهل الدعوة المكذبين ، وقوله : ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ في سورة سبأ ( 45 ) على أحد تفسيرين في المراد بهم وهو أظهرهما .

وإطلاق صيغة الجمع على الواحد مجاز : إما استعارة إن كان فيه مراعاة تشبيه الواحد بالجمع تعظيماً له كما في قوله تعالى : ﴿ قال رب ارجعون ﴾ [ سورة المؤمنون : 99 ] .

وإما مجاز مرسل إذا روعي فيه قصد التعمية ، فعلاقته الإطلاق والتقييد .

والعدول عن الحقيقة إليه لقصد التعمية .

(77/417)

---

فلا جرم أن يكون المراد بالذين كفروا ﴾ هنا كفار مكة ويؤيده قوله بعد ذلك ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ فإنه لا يعرف أن رسولاً من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذّبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع " منزلُنا إن شاء الله غداً بالخَيْف خَيْفَ بني كنانة حيثُ تقاسموا على الكفر " .

وعلى تقدير أن يكون المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتصافهم بالكفر حتى صار الخصلة التي يعرفون بها .

وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهرَ الجمع فيكون هذا التوعد سنة الأمم ويكون الإيماء إليهم به سنة الله مع رسله .

وتأكيد توعدهم بالإخراج بلام القسم ونون التوكيد ضراوة في الشر .

و( أو ) لأحد الشيئين ، أقسموا على حصول أحد الأمرين لا محالة ، أحدهما من فعل

المقسمين ، والآخر من فعل مَن خوطب بالقسم ، وليست هي ﴿ أو ﴾ التي بمعنى ﴿ إلى ﴾ أو بمعنى ﴿ إلاّ .

والعود : الرجوع إلى شيء بعد مفارقته .

ولم يكن أحد من الرسل متبعاً ملّة الكفر بل كانوا منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم ، فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم ، وكان الرسُل يتجنبون مجتمعاتهم بدون أن يشعروا بمجانبتهم ، فلما جاءُوهم بالحق ظنّوهم قد انتقلوا من موافقتهم إلى مخالفتهم فطلبوا منهم أن يعودوا إلى ما كانوا يحسبونهم عليه .

والظرفية في قوله : في ملتنا ﴾ مجازية مستعملة في التمكن من التلبس بالشيء المتروك فكأنه عاد إليه .

والملّة : الدين .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ في آخر سورة الأنعام ( 161 ) ، وانظر قوله : ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ في أوائل سورة آل عمران ( 95 ) .

وتفريع جملة فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ على قول الذين كفروا لرسلهم ﴿ لنخرجنكم من أرضنا ﴾ [ سورة إبراهيم : 13 ] الخ تفريع على ما يَقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض ، أي أوحى الله إلى الرسل ما يثبت به قلوبهم ، وهو الوعد بإهلاك الظالمين .

وجملة لنهلكن الظالمين ﴾ بيان لجملة ( أوحى . . ) .

وإسكان الأرض : التمكين منها وتخويلها إياهم ، كقوله : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ [ سورة الأحزاب : 27 ] .

والخطاب في لنسكننكم ﴾ للرسل والذين آمنوا بهم ، فلا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون ، كما مكن الله لرسوله مكة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها .

﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من ﴿ لنهلكن ﴾ ، و ﴿ لنسكننكم ﴾ .

عاد إليهما اسم الإشارة بالإفراد بتأويل المذكور ، كقوله : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق آثاماً ﴾ [ سورة الفرقان : 68 ] .

واللام للملك ، أي ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي ، كقوله تعالى : ذلك لمن خشي ربه

[ سورة البينة : 8 ] .

والمعنى : ذلك الوعد لمن خاف مقامي ، أي ذلك لكم لأنكم خفتم مقامي ، فعدل عن ضمير الخطاب إلى من خاف مقامي ﴾ لدلالة الموصول على الإيماء إلى أن الصلة علة في حصول تلك العطية .

ومعنى ﴿ خاف مقامي ﴾ خافني ، فلفظ ﴿ مقام ﴾ مقحم للمبالغة في تعلق الفعل بمفعوله ، كقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [ الرحمن : 46 ] ، لأن المقام أصله مكان القيام ، وأريد فيه بالقيام مطلق الوجود لأن الأشياء تعتبر قائمة ، فإذا قيل خاف مقامي ﴾ كان فيه من المبالغة ما ليس في ( خافني ) بحيث إن الخوف يتعلق بمكان المخوف منه .

كما يقال : قصّر في جانبي .

ومنه قوله تعالى : ﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ [ سورة الزمر : 56 ] .

وكل ذلك كناية عن المضاف إليه كقول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى

في قُبة ضُربت على ابن الحشرج. . .

أي في ابن الحشرج من غير نظر إلى وجود قبة.

ومنه ما في الحديث إن الله لما خلق الرحم أخذت بساق العرش وقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، أي هذا العائذ بك القطيعة.

وخوف الله: هو خوف غضبه لأن غضب الله أمر مكروه لدى عبيده.

وعطف جملة وخاف وعيد ﴾ على ﴿ خاف مقامي ﴾ مع إعادة فعل ﴿ خاف ﴾ دون اكتفاء بعطف ﴿ وعيدي ﴾ على ﴿ مقامي ﴾ لأن هذه الصلة وإن كان صريحها ثناءً على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنهم لا يخافون وعيد الله، ولولا ذلك لكانت جملة ﴿ خاف مقامي ﴾ تغني عن هذه الجملة، فإن المشركين لم يعبأوا بوعيد الله وحسبوه عبثاً، قال تعالى:

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ [سورة الحج: 47]، ولذلك لم يجمع بينهما في سورة البينة (8) ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ لأنه في سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة.

وهذه الآية في ذكر إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم فكان المقام للفريقين، فجمع في جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعي الكافرين، وفي الجمع بينهما دلالة على أن من حق المؤمن أن يخاف غضب ربه وأن يخاف وعيده، والذين يخافون غضب الله ووعيده هم

المتقون الصالحون ، فآل معنى الآية إلى معنى الآية الأخرى ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [ سورة الأنبياء : 105 ] .

وقرأ الجمهور وعيد ﴾ بدون ياء وصلاً ووقفاً .

وقرأه ورش عن نافع بدون ياء في الوقف وبإثباتها في الوصل .

وقرأه يعقوب بإثبات الياء في حالي الوصل والوقف .

وكل ذلك جائز في ياء المتكلم الواقعة مضافاً إليها في غير النداء .

وفيها في النداء لغتان أخريان .

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) ﴾

جملة ﴿ واستفتحوا ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ فأوحى إليهم ربهم ﴾ ، أو معترضة بين جملة ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ وبين جملة ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ .

والمعنى : أنهم استعجلوا النصر .

وضمير ﴿ استفتحوا ﴾ عائد إلى الرسل ، ويكون جملة ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ عطفاً على جملة ﴿ فأوحى إليهم ربهم ﴾ الخ ، أي فوعدهم الله النصر وخاب الذين كفروا ، أي لم يتحقق توعدهم الرسل بقولهم : ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ .

ومقتضى الظاهر أن يقال : وخاب الذين كفروا ، فعدل عنه إلى ﴿ كل جبار عنيد ﴾ للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة عنداء وأن كل جبار عنيد يخيب .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ استفتحوا ﴾ عطفاً على جملة ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم ﴾ ويكون ضمير ﴿ استفتحوا ﴾ عائداً على الذين ﴿ كفروا ﴾ ، أي وطلبوا النصر على رسلهم فخابوا في ذلك .

ولكون في قوله : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ إظهار في مقام الإضمار عدل عن أن يقال : وخابوا ، إلى قوله : ﴿ كل جبار عنيد ﴾ لمثل الوجه الذي ذكر آنفاً .

والاستفتاح : طلب الفتح وهو النصر ، قال تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ [ سورة الأنفال : 19 ] .

والجبار : المتعاظم الشديد التكبر .

والعنيد المعاند للحق .

وتقدما في قوله : ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ في سورة هود ( 59 ) .

والمراد بهم المشركون المتعاظمون، فوصف جبار ﴾ خلُق نفساني، ووصف ﴿ عنيد ﴾ من أثر وصف ﴿ جبار ﴾ لأن العنيد المكابر المعارض للحجة.

وبين ﴿ خاف وعيد ﴾ و ﴿ خاب كل جبار عنيد ﴾ جناس مصحف.

وقوله: ﴿ من ورائه جهنم ﴾ صفة ل ﴿ جبار عنيد ﴾ ، أي خاب الجبّار العنيد في الدنيا وليس ذلك حظه من العقاب بل وراءه عقاب الآخرة.

والوراء: مستعمل في معنى ما ينتظره ويحل به من بعد ، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول كالشيء الذي يكون من وراء المرء لا يشعر به لأنه لا يراه، كقوله تعالى: ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [ سورة الكهف: 79 ] ، أي وهم غافلون عنه ولو ظفر بهم لافتك سفينتهم، وقول هدبة بن خشرم:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه

يكون وراءَه فَرج قريب . . .

(81/417)

---

وأما إطلاق الوراء على معنى من بَعْد ﴾ فاستعمال آخر قريب من هذا وليس عينه.

والمعنى: أن جهنم تنتظره، أي فهو صائر إليها بعد موته.

والصديد : المُهلة ، أي مثل الماء يسيل من الدمل ونحوه ، وجعل الصديد ماء على التشبيه البليغ في الإسقاء ، لأن شأن الماء أن يُسْقى .

والمعنى : ويسقى صديداً عوض الماء إن طلب الإسقاء ، ولذلك جعل ﴿ صديد ﴾ عطفَ بيان ل ﴿ ماء ﴾ .

وهذا من وجوه التشبيه البليغ .

وعطف جملة ﴿ يسقى ﴾ على جملة ﴿ من ورائه جهنم ﴾ لأن السقي من الصديد شيء زائد على نار جهنم .

والتجرع : تكلف الجَرْع ، والجرع ؛ بلع الماء .

ومعنى ﴿ يُسيغه ﴾ يفعل سوغه في حلقه .

والسوغ ؛ انحدار الشراب في الحلق بدون غصة ، وذلك إذا كان الشراب غير كريه الطعم ولا الريح ، يقال ساغ الشراب ، وشراب سائغ .

ومعنى ﴿ لا يكاد يسيغه ﴾ لا يقارب أن يسيغه فضلاً عن أن يسيغه بالفعل ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ في سورة البقرة ( 71 ) .

وإتيان الموت : حلوله ، أي حلول آلامه وسكراته ، قال قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة

لنفسي إلا قد قضيت قضاءها . . .

بقرينة قوله : وما هو بميت ﴾ ، أي فيستريح .

والكلام على قوله : ﴿ ومن وراءه عذاب غليظ ﴾ مثل الكلام في قوله : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ ، أي ينتظره عذاب آخر بعد العذاب الذي هو فيه .

والغليظ : حقيقته الخشن الجسم ، وهو مستعمل هنا في القوة والشدة بجامع الوفرة في كل ، أي عذاب ليس بأخف مما هو فيه .

وتقدم عند قوله : ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ في سورة هود ( 58 ) .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة .



---

وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق من شدة عذابهم ، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أن لهم أعمالاً من الصلة والمعروف من إطعام الفقراء ، ومن عتق رقاب ، وقِرى ضيوف ، وحمالة ديات ، وفداء أسارى ، واعتمار ، ورفادة الحجيج ، فهل يجدون ثواب ذلك ؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين تطلبت نفوسهم وجهَ الجمع بين وجود عمل صالح وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه ، فضُرب

هذا المثل لبيان ما يكشف جميع حتمالات .

والمثل : الحالة العجيبة ، أي حال الذين كفروا العجيبة أن أعمالهم كرماد الخ .

فالمعنى : حال أعمالهم ، بقرينة الجملة المخبر عنها لأنه مهما أطلق مَثَل كذا إلا والمراد حال خاصة من أحواله يفسرها الكلام ، فهو من الإيجاز الملتزم في الكلام .

فقوله : ﴿ أعمالهم ﴾ مبتدأ ثانٍ ، و ﴿ كرماد ﴾ خبر عنه ، والجملة خبر عن المبتدإ الأول .

ولما جعل الخبر عن ﴿ مثل الذين كفروا ﴾ ، ﴿ أعمالهم ﴾ آل الكلام إلى أن مَثَل أعمال الذين كفروا كرماد .

شبهت أعمالهم المتجمعة العديدة برماد مكدّس فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرق تفرقاً لا يُرجى معه اجتماعُه .

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه ، والهيئة المشبهة معقولة .

ووصف اليوم بالعاطف مجاز عقلي ، أي عاصف ريحُه ، كما يقال : يوم ماطر ، أي سحابه .

والرماد : ما يبقى من احتراق الحطب والفحم .

والعاصف تقدم في قوله : ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ في سورة يونس ( 22 ) .

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع ، لأن الرماد أثرٌ لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعِها بينهم وهو قِرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم .

وقرأ نافع وأبو جعفر اشتدت به الرياح ﴾ .

وقرأه البقية ﴿ اشتدت به الريح ﴾ بالإفراد ، وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس .

(83/417)

---

وجملة ﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ بيان لجملة التشبيه ، أي ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها .

وجملة ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ تذييل جامع لخلاصة حالهم ، وهي أنها ضلال بعيد .

والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيتُه ، أي بعيد في مسافات الضلال ، فهو كقولك : أقصى الضلال أو جِدّ ضَلال ، وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ في سورة النساء ( 116 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ .

بين الله تعالى في هذه الكريمة أن الكفار توعدوا الرسل بالأخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي وقد نص في آيات أخر أيضاً على بعض ذلك مفصلاً كقوله من قوم شعيب ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ [ الأعراف : 88 - 89 ] الآية وقوله عن قوم لوط ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [ النمل : 56 ] وقوله عن مشركي قريش ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [ الإسراء : 76 ] وقوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [ الأنفال : 30 ] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى رسله أن العاقبة والنصر لهم على أعدائهم وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [ الصافات : 171 - 173 ] وقوله : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [ المجادلة : 21 ] وقوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [ غافر : 51 ] الآية .

وقوله : ﴿ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ الأعراف : 128 ] وقوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ [ الأعراف : 137 ] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

لم يبين هنا كيفية خيبة الجبار العنيد ولكنه أشار إلى معنى خيبته وبعض صفاته القبيحة في قوله في سورة " ق " ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الذي جَعَلَ مَعَ

الله إلها آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي العذاب الشديد ﴾ [ ق : 24 - 26 ] والجبار المتجبر في نفسه والعنيد المعاند للحق ، قاله ابن كثير .

قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ الآية .

وراء هنا بمعنى أمام كما هو ظاهر . ويدل له إطلاق وراء بمعنى أمام في القرآن وفي كلام العرب ، فمنه في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [ الكهف : 79 ] أي أمامهم ملك . وكان ابن عباس يقرؤها وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، ومن إطلاق وراء بمعنى أمام في كلام العرب قول لبيد :

*(86/417)*

---

أليس ورائي إن تراخت منيتي . . . لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وقول الآخر :

أترجوا بنو مروان سمعي وطاعتي . . . وقومي تميم والفلاة ورائيا

وقوله الآخر :

ومن ورائك يوم أنت بالغه . . . لا حاضر معجز عنه ولا باد

فوراء بمعنى في الأبيات . وقال بعض العلماء . ومعنى من ورائه جهنم ، اي من بعد هلاكه

جهنم ، وعليه فوراء في الآية بمعنى بعد ، ومن إطلاق وراء بمعنى بعد قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وليس وراء الله للمرء مذهب

أي ليس بعد الله مذهب ، قاله القرطبي . والأول هو الظاهر وهو الحق .

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ الآية .

(87/417)

---

ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف ، اي شديد الريح ، فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد ولم تبق له اثراً فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرجام وقري الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها كما تطير تلك الريح ذلك الرماد وضرب أمثالاً أخر في آيات أخر لأعمال الكفار بهذا المعنى كقوله : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾ [ النور : 39 ] وقوله ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [ آل عمران : 117 ] الآية وقوله ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم

بالمن والأذى كالذي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ الناس وَلاَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [ البقرة : 264 ] وقوله : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [ الفرقان : 23 ] إلى غير ذلك من الآيات .

(88/417)

---

وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهوا الشيء بنظرة وهو قوله : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الحشر : 21 ] ونظيره قوله ﴿ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ إبراهيم : 25 ] وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم وهو قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ﴾ [ العنكبوت : 43 ] وبين في موضع آخر أن المثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ﴾ [ البقرة : 26 ] وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها قيل فما هو أضغر منها

لأنه يفوقها في الصغر وقيل فما فوقها اي فما هو أكبر منها وهو قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [ البقرة : 26 ] ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [ العنكبوت : 41 ] وضربه بالحمار في قوله ﴿ كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [ الجمعة : 5 ] الآية وضربه . بالكلب في قوله ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [ الأعراف : 176 ] إلى غير ذلك والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

*(89/417)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

ويأتي لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل الأقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ . . . ﴾ .

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فَشَتْ في الناس ؛ يغضب منها المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه ؛ ويتجه تفكير المفسدين إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التي يعيش المفسدون على الاستفادة من أهلها .

وإنْ عَزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْت إلى الشيء إلا إذا كنتُ في الشيء ثم خرجتُ عنه وعُدْتُ إليه .

هل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد ؛ يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا ؛ ولذلك نفهم من قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . . ﴾ [ إبراهيم : 13 ] .

بمعنى " أو لتصيرن في ملتنا " .

ولم يقبل الرسل تلك المُساوَمة ؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يُنزِل جنود التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُله والمؤمنين ؛ فلا يتأثر الرسل ومَنْ معهم بمثل هذا الكلام .

وهذا ما يُعبِّر عنه قَوْل الحق سبحانه في آخر الآية :

﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ [ إبراهيم : 13 ] .

وهكذا يأتي القانون السماوي بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً .

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله ومَنْ معهم من المؤمنين :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن مَنْ يثبت على الإيمان ، ويخاف مَقَام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب ؛ ولم ينكص عن منهج دعوة الحق ؛ سيُورثه الحق سبحانه أرض مَنْ كفر بالله ؛ فتلك سنة الله ؛ لأنه سبحانه قال : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا . . ﴾ [ الأحزاب : 27 ] .

(90/417)

---

ونعلم أن مَنْ يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كُلِّ نفس ؛ فسبحانه يجزي مَنْ يعيش حياته في ضَوْء الإيمان بأن يورثه أرض مَنْ كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله : ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا . . ﴾ [ الأعراف : 137 ] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ واستفتحوا . . . ﴾ .

و " استفتح " تعني طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة " فتح " تدل على أن شيئاً مُغْلقاً ينفتح ، ومرّة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسياً ؛ وأحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفصْل والحُكْم .

والمثل على الأمر الحِسيّ قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [ يوسف : 65 ] .

ومرَّة يكون الفَتْح معنوياً ؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالوا أَتُحدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ . . . ﴾ [ البقرة : 76 ] .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ . . . ﴾ [ فاطر : 2 ] .

أما المَثَل على الفَتْح بمعنى الفَصْل في الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [ الأعراف : 89 ]

وهكذا نجد للفتْح معاني متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق هي تُفَضّ ، ويُطلَق الفتح آخر الأمر على النصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ [ النصر : 1 ] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ واستفتحوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 15 ] .

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبةً من الكفار ؛ فَهُمْ طلبوا الفتح أي النصر ؛ وهم قد فعلوا ذلك مظنّة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُخيِّب الله ظنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جباراً في الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه :

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 15 ] .

والجبار هو مَنْ يقهر الناس على ما يريده ؛ والمقصود هنا هم المُتكبِّرون عن عبادة الحق سبحانه وتعالى ، ويعاندون في مسألة الإيمان به سبحانه .

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ . . . ﴾ .

أي : من خلف الجبار المُتعنِّت بالكفر جهنمُ ، وما فيها من عذاب . وفي العامية نسمع مَنْ يتوعد آخر ويقول له " وراك . . . وراك " ويعني بذلك أنه سيُوقع به أذىً لم يَأتِ أوانه بَعْد .

وكلمة " وراء " في اللغة لها استخدامات متعددة ؛ فمرَّة تأتي بمعنى " بَعْد " والمثل في قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [ هود :

71 ] .

أي : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرّة تُطلق " وراء " بمعنى " غير " مثل قول الحق سبحانه : ﴿ والذين هُمْ لِفرُوجهِمْ حَافِظُونَ * إلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون ﴾ [ المؤمنون : 5-7 ] .

وهنا يقول الحق سبحانهك

﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ . . . ﴾ [ إبراهيم : 16 ] .

ونعلم أن جهنم ستأتي مستقبلاً ، أي : أنها أمامه ، ولكنها تنتظره ؛ وتلاحقه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 16 ] .

والصديد هو الماء الرقيق الذي يخرج من الجُرْح ، وهو القَيْح الذي يسيل من أجساد أهل النار حين تُشْوى جلودهم .

(92/417)

ولنا أن نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيُقدَّم له الصديد الناتج من حَرْق جلده وجُلود أمثاله . والصديد أمر يُتأفَّفُ من رؤيته ؛ فما بالُنا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لِمَا ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصديد : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . . ﴾ .

ويتجرعه أي : يأخذه جَرْعة جَرْعة ، ومن فرط مرارته لا تكون له سيولة تُستساغ ؛ فيكاد يقف في الحَلْق ؛ والإنسان لا يأخذ الشيء جَرْعة جَرْعة إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ؛ ولكن هذا المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال : استساغ الشيء . أي : ابتلعه بسهولة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . . ﴾ [إبراهيم : 17] .

أي : لا يكاد يبلعه بسهولة فطعْمُه وشكله غير مقبولين .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ . . . ﴾ [إبراهيم : 17] .

أي : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا يموت ، ويُفاجأ بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصدِّقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [ إبراهيم : 17 ] .

هكذا يتعذب الجبار المتعنت في أمر الإيمان . وإذا قِسْنَا العذاب الغليظ بأهونِ عذاب يلقاهُ إنسان من النار لوجدنا أنه عَذَابٌ فوق الاحتمال ؛ فها هو صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يُوضع في أخْمَص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه " .

فمَا بالُنَا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شرَّه ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ . . . ﴾ .

*(93/417)*

---

وقد يأتي في أذهان البعض ما يُشوِّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلانُ النار وهو مَنْ أهدى البشريةَ تلك المخترعات الهائلة التي غيَّرت مسارات الحضارة ، وأسعدتْ الناس ؟ كيف يُعذِّب الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، أيعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أَجْرُ مَنْ أحسنَ عملاً ؛ وهو قادر على أنْ يَجزيهم في الدنيا بما ينالونه من مجد وشهرة وثروة ؛ وهم قد عملوا من أجل

ذلك . وانطبق عليه قوله : " عملتَ لِيُقال وقد قِيل " وأخذوا أجورهم مما عَمِلوا لهم ؛ ذلك أنهم عملوا ولم يكُنْ في بالهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذا كان يَلْقى العذاب الغليظ على الكفر ؛ فالحق لا يغمطه أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك في الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " أما في الآخرة فالعذاب جزاؤه ؛ لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التي صنعوها في الدنيا ، وظنُّوا أنها أعمالٌ إنسانية وأعمال برٍّ تأتي يوم القيامة وهي رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة في يوم عاصف لتذره بعيداً :

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ [ إبراهيم : 18 ] .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة ؛ بل أمامهم وحولهم العذاب ؛ لسان حال كل منهم يقول : ﴿ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً . . . ﴾ [ المؤمنون : 99100 ] .

لكنه لو رُدَّ إلى الحياة لعَاد إلى ما نُهي عنه ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [ الكهف : 36 ] .

وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذي جعل كل أعمالهم التي ظنُّوا أنها صالحة ؛ مجردَ أعمال مُحْبطة ؛ فضلُّوا بالكفر عن الطريق المُوصِّل إلى خير الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(95/417)*

---

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره برماد طيرته

الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه فلذلك قال ﴿ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثرا من ثواب ولا فائدة نافعة فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه موافقا لشرعه والأعمال أربعة فواحد مقبول وثلاثة مردودة فالمقبول: الخالص الصواب فالخالص أن يكون لله لا لغيره والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله والثلاثة مردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار وبها تسعر النار على أصحابها وينشىء الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا كما ينشىء لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار. انتهى انتهى. اهـ ﴿أعلام الموقعين جـ 1 صـ 170. 171 ﴾

(96/417)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ ويأتيه الموتُ في كل مكان . . ﴾ الآية .

يُفهم من ظاهره موتُ الكافر في النار .

وقوله : ﴿ وما هو بميت ﴾ يُصرِّح بنفي ذلك .

والجواب : أن معنى : ﴿ ويأتيه الموت ﴾ ، أي أسبابه المقتضية له عادة ، إلا أن الله يُمسك روحه في بدنه مع وجود ما يقتضي موته عادة .

وأوضح هذا المعنى بعض المتأخرين ممن لا حُجة في قوله : بقوله :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت إن الكلاب طويلة الأعمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 169 ﴾

(97/417)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ

لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية قال : كانت الرسل والمؤمنون يستضعفهم قومهم ويقهرونهم ويكذبونهم ويدعونهم إلى أن يعودوا في ملتهم ، فأبى الله لرسله والمؤمنين أن يعودوا في ملة الكفر ، وأمرهم أن يتوكلوا على الله وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة ، ووعدهم أن يسكنهم الأرض من بعدهم ، فأنجز الله لهم وعدهم واستَفتحوا كما أمرهم الله أن يستفتحوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ قال : وعدهم النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة . فبين الله تعالى من يسكنها من عباده ، فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [ الرحمن : 46 ] وإن لله مقاماً هو قائمه ، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا ، ودأبوا الليل والنهار .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : لما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ [ التحريم : 6 ] تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات ليلة ، فخر فتى مغشياً عليه ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على فؤاده ، فإذا هو يتحرك ، فقال : "

يا فتى . قل لا إله إلا الله . فقالها . فبشره بالجنة . فقال أصحابه : يا رسول الله ، أمن بيننا ؟ قال : أما سمعتم قوله تعالى ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ " .

*(98/417)*

---

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا ، عن عبد العزيز بن أبي رواد – رضي الله عنه – قال : بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾ [ التحريم : 6 ] ولفظ الحكيم ، لما أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، تلاها على أصحابه وفيهم شيخ . ولفظ الحكيم ، فتى . فقال : يا رسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ، لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا . فوقع مغشياً عليه ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على فؤاده فإذا هو حي ، فناداه فقال : قل لا إله إلا الله . فقالها ، فبشره بالجنة : فقال أصحابه : يا رسول الله ، أمن بيننا ؟ فقال : نعم ، يقول الله عز وجل ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [ الرحمن : 46 ] ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ " .

وأخرج الحاكم من طريق حماد بن أبي حميد ، عن مكحول عن عياض بن سليمان – رضي الله عنه – وكانت له صحبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(99/417)

---

" خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الأعلى ، قوم يضحكون جهراً في سعة رحمة ربهم ، ويبكون سراً من خوف عذاب ربهم ، يذكرون ربهم بالغداة والعشي في البيوت الطيبة والمساجد ، ويدعونه بألسنتهم رغباً ورهباً ، ويسألونه بأيديهم خفضاً ورفعاً ، ويقبلون بقلوبهم عوداً وبدءاً ، فمؤنتهم على الناس خفيفة ، وعلى أنفسهم ثقيلة . يدّبون في الليل حفاة على أقدامهم كدبيب النمل ، بلا مرح ولا بذخ ، يقرؤون القرآن ويقربون القربان ويلبسون الخلقان ، عليهم من الله تعالى شهود حاضرة وعين حافظة ، يتوسمون العباد ويتفكرون في البلاد ، أرواحهم في الدنيا وقلوبهم في الآخرة ، ليس لهم هم إلا أمامهم . أعدوا الجواز لقبورهم والجواز لسبلهم ، والاستعداد لمقامهم ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ " قال الذهبي – رضي الله عنه – هذا حديث عجب منكر ، وأحسبه أدخل علي بن السماك – رضي الله عنه – يعني شيخ الحاكم الذي حدثه به . قال : ولا وجه لذكره في هذا الكتاب – يعني المستدرك – قال : وحماد ضعيف .

ولكن ، لا يحتمل مثل هذا ، ومكحول مدلس وعياض لا يدري من هو . انتهى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ؛ عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ واستفتحوا ﴾ قال للرسل كلها . يقول : استنصروا . وفي قوله ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ قال : معاند للحق ، مجانب له .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ واستفتحوا ﴾ قال : استنصرت الرسل على قومها ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ يقول : بعيد عن الحق ، معرض عنه ، أبى أن يقول لا إله إلا الله .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي – رضي الله عنه – في قوله ﴿ عنيد ﴾ قال : هو الناكب عن الحق .



---

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب – رضي الله عنه – قال : يجمع الله الخلق في صعيد واحد يوم القيامة : الجن والإنس والدواب والهوام ، فيخرج عنق من النار فيقول : وكلت بالعزيز الكريم والجبار العنيد ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر . قال : فيلقطهم كما يلقط الطير الحب فيحتوي عليهم ، ثم يذهب بهم إلى مدينة من النار ، يقال لها : كيت وكيت ، فيثوون فيها

ثلثمائة عام قبل القضاء .

وأخرج الترمذي وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق ، فيقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصوّرين " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يخرج عنق من النار يوم القيامة ، فيتكلم بلسان طلق ذلق ، له عينان يبصر بهما ولسان يتكلم به ، فيقول : إني أمرت بكل جبار عنيد ، ومن دعا مع الله إلهاً آخر ، ومن قتل نفساً بغير نفس ، فتنضم عليهم فتقذفهم في النار قبل الناس بخمسمائة سنة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن في جهنم وادياً يقال له : هبهب ، حق على الله أن يسكنه كل جبار " .

وأخرج الطستي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ كل جبار عنيد ﴾ قال : الجبار ، العيار ، والعنيد الذي يعند عن حق الله تعالى . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

مصر على الحنث لا تخفى شواكله . . . يا ويح كل مصر القلب جبار

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي الدنيا في صفة النار ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور ، عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : "يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره" يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ [ محمد : 15 ] وقال ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ [ الكهف : 29 ] .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ من ماء صديد ﴾ قال : ما يسيل بين جلد الكافر ولحمه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم ، عن عكرمة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ قال : القيح والدم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور ، عن مجاهد في قوله ﴿ من ماء صديد ﴾ قال : دم وقيح .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ قال : ماء يسيل من بين لحمه وجلده .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن – رضي الله عنه – قال : لو أن دلواً من صديد جهنم دلي من السماء فوجد أهل الأرض ريحه ، لأفسد عليهم الدنيا .

﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال أنواع العذاب . وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ؛ لأن الله لا يقضي عليهم فيموتوا .

*(102/417)*

---

وأخرج ابن جرير عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ قال : تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه ، فيموت . ولا ترجع إلى مكانها من جوفه ، فيجد لذلك راحة فتنفعه الحياة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ميمون بن مهران - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : من كل عظم وعرق وعصب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، عن محمد بن كعب - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : من كل عضو ومفصل .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم التيمي - رضي الله عنه - ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : من كل موضع شعرة في جسده ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ قال : الخلود .

وأخرج ابن المنذر عن فضيل بن عياض في قوله ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ قال : حبس الأنفاس .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ﴾ قال : الذين كفروا بربهم عبدوا غيره ، فأعمالهم يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون على شيء من أعمالهم ينفعهم ، كما لا يقدر على الرماد إذا أرسل في يوم عاصف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي - رضي الله عنه - في الآية قال : مثل أعمال الكفار كرماد ضربته الريح فلم ير منه شيء ، فكما لم ير ذلك الرماد ولم يقدر منه على شيء ،

كذلك الكفار لم يقدروا من أعمالهم على شيء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله ﴿ كرماد اشتدت به الريح ﴾ قال : حملته الريح . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(103/417)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) ﴾

و﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ ﴾ : جوابُ قسمٍ مقدَّرٍ ، كقوله : " ولَنَصْبِرَنَّ " .

قوله : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ في " أوْ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها على بابها مِنْ كونِها لأحدِ الشيئين . والثاني : أنها بمعنى " حتى " . والثالث : أنها بمعنى " إلا " ، كقولهم : " لأَلْزَمَنَّكَ أو تَقْضِيَني حقي " . والقولان الأخيران مَرْدُودان ؛ إذ لا يَصِحُّ تركيبُ " حتى " ولا تركيبُ " إلا " مع قولِه " لَتَعُودُنَّ " بخلافِ المثال المتقدم .

والعَوْدُ هنا : يُحتمل أن يكونَ على بابِه ، أي : لَتَرْجِعُنَّ . و ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ متعلقٌ به ، وأن

يكونَ بمعنى الصيرورةِ ، فيكونَ الجارُّ في محلِّ نصبٍ خبراً لها ، ولم يذكُرْ الزمخشريُّ غيرَه . [ قال : ] " فإنْ قلتَ : كأنَّهم على مِلَّتهم حتى يَعُودوا فيها . قلت : مَعاذَ اللهِ ، ولكنَّ العَوْدَ بمعنى الصيرورة ، وهو كثيرٌ في كلام العرب كثرةً فاشيةً ، لا تكاد تسمعهم يستعملون " صار " ، ولكن " عاد " : ما عُدْتُ أراه ، عاد لا يكلمني ، ما عاد لفلان مالٌ ، أو خاطبوا به كلَّ رسولٍ ومَنْ آمن به ، فَغَلَّبوا في الخطاب الجماعةَ على الواحد " . فقوله " أو خاطبوا " إلى آخره هو الوجهُ الأول بالتأويلِ المذكورِ ، وهو تأويلٌ حسنٌ .

قوله : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ﴾ جوابُ قسمٍ مضمر ، وذلك القسمُ وجوابُه فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّه على إضمارِ القول ، أي : قال : لَنُهْلِكَنَّ . والثاني : أنه أجرى الإِيحاءَ مُجْرى القول لأنَّه ضَرْبٌ منه .

وقرأ أبو حَيْوَةَ " لَيُهْلِكَنَّ " ، و " لَيُسْكِنَنَّكم " بياءِ الغَيْبة مناسَبَةً لقوله " ربُّهم " .

*(104/417)*

---

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ : مبتدأٌ ، وهو مُشارٌ به إلى توريثِ الأرض . و " لِمَنْ خاف " الخبر . و " مَقامي " فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه مُقْحَمٌ وهو بعيدٌ ؛ إذ الأسماءُ لا تُقْحم .

الثاني: أنه مصدرٌ مضافٌ للفاعل.

قال الفراء: "مَقامي: مصدرٌ [مضافٌ] لفاعِله، أي: قيامي عليه بالحِفْظ". الثالث: أنه اسمُ مكانٍ. قال الزجاج: "مكان وقوفِه بين يدي الحسابِ، كقولِه ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [الرحمن: 46].

قوله: "وَعِيْد" أثبت الياءَ هنا وفي (ق) في موضعين: ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسل فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [الآية: 14] ﴿ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [الآية: 45] وصلاً وحَذَفَها وَقْفاً ورشٌ عن نافع، وحذفها الباقون وَصْلاً ووقفاً.

﴿ واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) ﴾

قوله تعالى: ﴿ واستفتحوا ﴾: العامَّةُ على "استفتحوا" فعلاً ماضياً، وفي ضميرِه أقوالٌ، أحدُها: أنه عائدٌ على الرسلِ الكرام، ومعنى الاستفتاحِ: الاستنصارُ: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ﴾ [الأنفال: 19]. وقيل: طَلَبُ الحكم من الفُتَّاحة.

الثاني: أن يعودَ على الكفَّار، أي: استفتح أُمَمُ الرسلِ عليهم، كقولِه: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال: 32]. وقيل: عائدٌ على الفريقين لأنَّ كُلاًّ طلب النصرَ على صاحبه. وقيل: يعودُ على قريشٍ لأنهم في سِنِي الجَدْبِ اسْتَمْطَرُواْ فلم يُمْطِروا، وهو على هذا مستأنفٌ، وأمَّا على غيرِه من الأقوال فهو عطفٌ على قولِه ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ ﴾.

وقرأ ابنُ/عباسٍ ومجاهدٌ وابنُ محيصن " واسْتَفْتِحوا " على لفظِ الأمر ، أمراً للرسل بطلبِ النُّصرة ، وهي مقوِّيةٌ لعَوْدِه في المشهورةِ على الرسل . والتقدير : قال لهم : لنهلكنَّ وقال لهم : اسْتَفْتِحُوا .

قوله : " وخابَ " هو في قراءةِ العامَّةِ عطفٌ على محذوفٍ تقديرُه : انتَصروا وظَفِرُوا وخاب . ويجوز أن يكونَ عطفاً على " اسْتَفْتَحوا " على انَّ الضميرَ فيه للكفار . وفي غيرها على القولِ المحذوف ، وقد تقدَّم أنه يُعْطَفُ الطلبُ على الخبر وبالعكس .

﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (16) ﴾

و﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ : جملةٌ في محل جَرٍّ صفةٌ ل " جبارٍ " . ويجوز أَنْ تكونَ الصفةُ وحدَها الجارَّ ، و " جهنمُ " فاعلٌ به . وقوله : " وُيسْقَى " صفةٌ معطوفةٌ على الصفةِ قبلَها ، جملةٌ فعليةٌ على اسمية . وإنْ جَعَلْتَ الصفةَ من الجارِّ وحدَه ، وعَلَّقْتَه بفعلٍ كان من عطفِ فعليةٍ على فعلية . وقيل : عطفٌ على محذوفٍ ، أي : يُلْقَى فيها ويُسْقَى .

و " وراء " هنا على بابها . وقيل : بمعنى " أمام " فهو من الأضداد ، وهذا عنى الزمخشري بقوله : " منْ بين يديه " وأنشد :

2871- عَسَى الكربُ الذي أَمْسَيْتُ فيه . . . يكون وراءه فَرَجٌ قريبُ

وهو قولُ أبي عبيدة وقطرب وابن جرير . وقال الآخَرُ في ذلك :

2872- أَيَرْجُو بنو مروانَ سَمْعي وطاعتي . . . وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائِيا

أي : قُدَّامي . وقال آخر :

2873- أليس ورائي إنْ تراخَتْ مَنِيَّتي . . . لُزومُ العَصَا تُحْنى عليها الأَصابعُ

وقال ثعلب : " هو اسمٌ لِما توارى عنك ، سواءً كان خلفَكَ أم قدَّامك " .

(106/417)

---

قوله : ﴿ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ في " صديد " ثلاثةُ أوجهٍ . أحدُها : أنه نعتٌ ل " ماء " وفيه تأويلان ، أحدهما : أنه على حَذْفِ أداة التشبيه ، أي : ماءٍ مثلِ صديد ، وعلى هذا فليس الماءُ الذي يَشْرَبونه صديداً ، بل مثلُه . والثاني : أنَّ الصديدَ لَمَّا كان يُشبه الماءَ أُطْلِقَ عليه ماءٌ ، وليس هو ماءً حقيقةً ، وعلى هذا فيكونون يشربون نفسَ الصديد المُشْبِهِ للماء . وهو قول ابن عطية . وإلى كونِه صفةً ذَهَبَ الحوفيُّ وغيره . وفيه نظرٌ ؛ إذ ليس بمشتقٍ ، إلا على مَنْ فسَّره بأنه صَدِيدٌ بمعنى مَصْدود ، أخذه مِن الصَّدِّ ، فكأنه لكراهيتِه مَصْدودٌ عنه ، أي : يمتنع عنه كلُّ أحدٍ .

الثاني : أنه عطفُ بيانٍ ، وإليه ذهب الزمخشريُّ ، وليس مذهبَ البصريين جريانُه في النكرات ، إنما قال به الكوفيون ، وتَبعهم الفارسيُّ أيضاً .

الثالث : أن يكونَ بدلاً . وأعرب الفارسيُّ " زَيتونةٍ " مِنْ قوله : " [ يُوْقَدُ ] مِنْ شجرةٍ مباركةٍ زَيْتُونةٍ " عطفَ بيانٍ أيضاً .

والصَّديدُ : ماءٌ يسيل مِنْ أجساد أهل النار . وقيل : ما حالَ بين الجلدِ واللحمِ مِنَ القَيْحِ .

﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ : يجوز أن تكونَ الجملة صفةً ل " ماءٍ " ، وان تكونَ حالاً من الضمير في " يُسْقَى " ، وأن تكونَ مستأنفةً . و " تجرَّع " تفعَّل وفيه احتمالاتٌ ، أحدُها : أنه مطاوعٌ لجَرَّعْتُه نحو : عَلَّمْته فتَعَلَّمْ .

(107/417)

---

والثاني : أن يكونَ للتكلُّف نحو : تَحَلَّم ، أي ، يتكلَّفُ جرْعَه ، ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَه :

الثالث : أنه دالٌّ على المُهْلة نحو : فَهَّمته ، أي : يتناوله شيئاً فشيئاً بالجَرْع ، كما يَفْهم شيئاً فشيئاً بالتفهيم . الرابع : أنه بمعنى جرَع المجرد نحو : " عَدَوْت الشيءَ " و " تَعَدَّيْتُه " .

﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ ، أي : لم يقارِبْ إساغَته فكيف بحصولها ؟ كقوله : " لَمْ يَكَدْ يَرَاها " وستأتي إن شاء الله .

قوله : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ في الضمير وجهان ، أظهرُهما : أنه عائدٌ على " كل جبار " . والثاني : أنه عائدٌ على العذابِ المتقدِّم .

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ ﴾ : فيه أوجه ، أحدُها : - وهو مذهبُ سيبويه - أنه مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ تقديرُه : فيما يُتْلَى عليكم مَثَلُ الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ مستأنفةً جواباً لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف مَثَلُهم ؟ فقيل : كيت وكيت . والمَثَل استعارةٌ للصفةِ التي فيها غرابةٌ كقولِك ، صفةُ زيدٍ ، عِرْضُه مَصُونٌ ، وماله مبذول .

(108/417)

---

الثاني : أن يكونَ " مَثَلَ " مبتدأً ، و " أعمالُهم " مبتدأ ثانٍ ، و " كرمادٍ " خبرُ الثاني ، والثاني وخبره خبرُ الأول . قال ابن عطية : " وهذا عندي أرجحُ الأقوال ، وكأنك قلت : المتحصِّلُ في النفس مثالاً للذين كفروا هذه الجملةُ المذكورةُ " . وإليه نحا الحوفي . قال

الشيخ : " وهو لا يجوز لأنَّ الجملةَ التي وقعت خبراً للمبتدأ لا رابطَ فيها يربُطها بالمبتدأ ، وليست نفسَ المبتدأ فتَسْتَغْني عن رابطٍ " . قلت : بل الجملةُ نفسُ المبتدأ ، فإنَّ نفسَ مَثَلِهم هو نفسُ أعمالِهم كرمادٍ في أنّ كلاًّ منها لا يفيد شيئاً ، ولا يَبْقَى له أثرٌ ، فهو نظيرُ قولك / " هَجِّيْرى أبي لا إله إلا اللهُ " .

الثالث : أنَّ " مَثَلَ " مزيدةٌ ، قاله الكسائيُّ والفراء : أي : الذين كفروا أعمالُهم كرَمادٍ ، فالذين مبتدأ " أعمالُهم " مبتدأٌ ثانٍ و "كرمادٍ " خبرُه . وزيادةُ الأسماءِ ممنوعةٌ .

الرابع : أن يكونَ " مَثَلَ " مبتدأً ، و " أعمالُهم " بدلٌ منه ، على تقدير : مَثَلُ أعمالِهم ، و " كرمادٍ " الخبرُ . قاله الزمخشريُّ : ، وعلى هذا فهو بدلُ كلٍ مِنْ كلٍ ، على حَذْفِ المضافِ كما تقدَّم .

الخامس : أن يكونَ " مَثَل " مبتدأ ، و " أعمالُهم " بدلٌ منه بدلُ اشتمالٍ ، و "كرمادٍ " الخبر ، كقول الزَّبَّاء :

2874- ما للجِمالِ مَشْيِها وئِيدا . . . أجَنْدَلاً يَحْمِلْن أم حديدا

والسادس : أن يكونَ " مَثَل " مبتدأً ، و " أعمالُهم " خبرَه ، أي : مَثَلُ أعمالِهم ، فحذف المضاف . و "كرماد " على هذا خبرُ مبتدأ محذوفٍ ، وقال أبو البقاء حين ذكر وجهَ البدل : " ولو كان القرآن لجاز إبدالُ " أعمالهم " من " الذين " وهو بدلُ اشتمال " ، يعني أنه كان يُقْرأُ " أعمالِهم " مجرورةً ، لكنه لم يُقرأْ به .

و " الرمادُ " معروفٌ " وهو ما سَحَقَتْه النارُ من الأَجْرام، وجمعُه في الكثرة على رُمُد، وفي القِلَّة على أرْمِدَة كجَماد وجُمُد وأَجْمِدَة، وجمعُه على " أَرْمِدَاء " شاذٌّ. والرِّماد: السَّنَةُ أيضاً، السَّنَةُ: المَحْل، أَرْمَدَ الماءُ، أي: صار بلون الرماد، والأَرْمَدُ: ما كان على لونِ الرَّماد. وقيل للبعوض " رُمْد " لذلك، ويقال: رَمادٌ رِمْدِدٌ، صار هباءً.

قوله: ﴿ اشتدت بِهِ الريح ﴾ في محلِّ جرٍّ صفةً لرماد، و " في يوم " متعلِّقٌ ب " اشْتَدَّت " .

قوله: " عاصفٍ " فيه أوجهٌ، أحدُها: أنه على تقدير: عاصفٍ ريحُه، أو عاصفِ الريح، ثم حُذِفَ " الريح " وجُعلت الصفةُ لليوم مجازاً كقولهم: " يومٌ ماطر " و " ليلٌ نائم " . قال الهرويُّ: " فَحُذِفَتْ لتقدُّم ذِكْرِهَا، كما قال:

2875- إذا جاء يومٌ مظلِمُ الشمسِ كاسفُ . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . . . . . .

أي: كاسِفُ الشمسِ.

الثاني: أنه على النَّسَبِ، أي: ذي عُصُوفٍ كلابِن وتامِر.

الثالث : أنه خُفِض على الجِوار ، أي : كان الأصل أن يَتْبع العاصفُ الريحَ في الإِعراب فيُقال : اشتدَّتْ به الريحُ العاصفُ في يوم ، فلمَّا وقع بعد اليوم أُعْرِبَ بإعرابه ، كقولهم : " جُحرُ ضَبّ خَربٍ " . وفي جَعْلِ هذا من باب الخفضِ على الجوار نظرٌ ، لأنَّ مِنْ شرطِه : أن يكون بحيث لو جُعِل صفةً لِما قُطع عن إعرابه لَصَحّ كالمثال المذكورِ ، وهنا لو جَعَلْتَه صفةً للريح لم يَصِحَّ لتخالفِهما تعريفا وتنكيراً في هذا التركيبِ الخاصّ .

وقرأ الحسن وابنُ أبي إسحاق بإضافة " يوم " ل " عاصِفٍ " . وهي على حَذْفِ الموصوفِ ، أي : في يومِ ريحٍ عاصِف ، فَحُذِفَ لَفَهْم المعنى الدالِّ على ذلك . ويجوز أن يكونَ من بابِ إضافةِ الموصوف إلى صفته عند مَنْ يَرَى ذلك نحو : بَقْلَةُ الحَمْقَاء .

(110/417)

---

ويقال : ريحٌ عاصِفٌ ومُعْصِفٌ ، وأصلُه من العَصْفِ ، وهو ما يُكْسَرُ مِن الزَّرْع فقيل ذلك للريحِ الشديدة لأنها تَعْصِفُ ، أي : تكسِرُ ما تَمُرُّ عليه .

قوله : { لاَّ يَقْدِرُونَ } مستأنفٌ ، ويَضْعُفُ أن يكونَ صفةً ليوم على حَذْفِ العائد ، أي : لا يَقْدِرُون فيه ، و " مِمَّا كَسَبُوا " متعلِّقٌ بمحذوفٍ ، لأنَّه حالٌ من " شيء " إذ لو تأخَّر

لكان َصفةً . والتقديرُ : على شيءٍ مِمَّا كسبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 84.76 ﴾

(111/417)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) ﴾

لما عجز الأعداءُ عن معارضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء معهم بأنواع الإنذار ، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان ، والتشريد في البلدان وبسط الله على قلوبهم بوعد نصره ولقائه ما أظلَّهم من الأمر ، ومكَّن لهم من مساكن أعدائهم بما قوَّى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال : ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وقال :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (14) ﴾

﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ : أي خاف مقامه في محل الحساب غداً فأناب إلى نفسه على وجه

التخصيص .

ويقال خاف مقامي أي هاب إطلاعي عليه ، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل ، والثاني تحقيق المراقبة في العاجل .

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) ﴾

الاستفتاح طلب الفتح ، الفتح القضاء ، واستعجلوا حلول القضاء مثل قولهم : ﴿ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [ الأنفال : 32 ] وغيره فلما نزل بهم البلاء ، وتحقق لهم الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم ، ولم تُقْبَلْ منهم صدقتُهم وفداؤهم ، وندموا حين لا ندامة ، وجزعوا بعدما عَدِموا السلامة .

(112/417)

---

ويقال : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا ﴾ : بغير الرسل ، ولما وجد الرسل إصرارَ قومهم سألوا النصرة عليهم من الله كقول نوح – عليه السلام : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [ نوح : 26 ] ، وقول موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [ يوسف : 88 ] فأجابهم الله بإهلاكهم .

ويقال إذا اشتد البلاءُ وصَدَقَ الدعاءُ قَرُبَ النّجاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ .

لفظ " وراء " يقع على ما بين يديه وعلى ما خلْف ، والوراء ما توارى عليك أي استتر ؛ يريد الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان ، وعلى ما خلْفَه ؛ أي لأجل ما سلف من الماضي من قبيح أفعاله ، ويُسْقَى من النار ما يشربه جرعة بعد جرعة ، فلصعوبته مرارته لا يشربه مرةً واحدةً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ .

يرى العذابَ – من شدته – في كل عضو ، وفي كل وقت ، وفي كل مكان وليس ذلك الموت ؛ لأنَّ أهلَ النار لا يموتون ، ولكنه في الشدة كالموت . ثم ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ : وهو الخلود في النار ، وهذا جزاء مَنْ اغترَّ بأيامٍ قلائل ساعدته المشيئةُ فيها ، وانخدع فلم يشرع بما يليها .

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18) ﴾

أي وفيما يُتْلَى عليكَ – يا محمد – مَثَلُ لأعمال الكفار في تلاشيها ، وكيف أنه لا يُقبَلُ شيءٌ منها كرَمَادٍ في يوم عاصف ، فإنه لا يَبْقَى منه شيء – كذلك أعمالُهم . ومَنْ كان كذلك فقد خاب في الدارين ، وحلّ عليه الويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 246.244 ﴾

(114/417)

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

التفسير : كون السورة مكية أو مدنية إنما يفيد في الأحكام لتعرف المنسوخ من الناسخ وفي غير ذلك المكية والمدنية سيان . قوله : ﴿ ألر كتاب ﴾ أي السورة المسماة ب ﴿ ألر ﴾ كتاب ﴿ أنزلناه إليك ﴾ لغرض كذا وإن كان ﴿ الر ﴾ مذكوراً على جهة التعديد فقوله : ﴿ كتاب ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا القرآن أو هذه السورة كتاب . والظلمات استعارة لطرق الضلال ومظانه والنور مستعار للحق . واللام في ﴿ لتخرج ﴾ للغرض

عند المعتزلة، وللغاية عند الحكيم، وإن شئت فقل: للعاقبة. واللام في ﴿ الناس ﴾ للجنس المتسغرق ظاهراً ففيه دليل على أن دعوته صلى الله عليه وسلم عامة. ومعنى إخراج النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ من الظلمات إلى النور ﴾ أنه سبحانه جعل إنزال الكتاب عليه ودعوته صلى الله عليه وسلم إياهم به إلى الحق واسطة لهدايتهم لا مطلقاً ولكن ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي بتسهيله وتيسيره وكل ميسر لما خلق له. والحاصل أن المراد من الإذن معنى يقتضي ترجيح جانب الوجود على جانب العدم ومتى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب عند المحققين، ولك أن تعبر عن ذلك المعنى بداعية الإيمان. احتج بالآية من قال: إن معرفة الله تعالى لا تمكن إلا بالتعليم الذي عبر عنه بالإخراج من الظلمة إلى النور: وأجيب بأن معنى الإخراج التنبيه، وأما المعرفة فإنما تحصل من الدليل وقوله ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ بدل من قوله: ﴿ إلى النور ﴾ بتكرير العامل الجار.



---

وجوز في الكشاف أن يكون على جهة الاستئناف كأنه قيل: إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد. وفي ذكر الوصفين تأكيد لحقية الصراط واستنارته لأن العزيز هو القادر الغالب، والحميد هو الكامل في خصائص الحمد من العلم والغنى وغير ذلك. ولا

ريب أن من هذه صفته كان سبيله الذي نهج لعباده مفضياً إلى صلاح حالهم ديناً ودنيا ، إذ لا حاجة له إلى ارتكاب عبث أو قبيح . قال بعض العلماء : إنما قدم ذكر العزيز لأن الصحيح أن أول العلم بالله العلم بكونه قادراً غالباً وهو معنى العزيز ، ثم بعد ذلك العلم بكونه عالماً والعلم بكونه غنياً عن الحاجات والنقائص وهذا معنى الحميد ، ثم أثنى على نفسه تحقيقاً لحقية صراطه وبياناً لتنزهه عن العبث فقال : ﴿ الله الذي ﴾ مبتدأ وخبر والمبتدأ محذوف تقديره هو الله . ومن قرأ بالجر فعلى أنه عطف بيان للوصفين بناء على أن لفظ ﴿ الله ﴾ جار مجرى اسم العلم ، وقد سبق هذا البحث مشبعاً في تفسير البسملة من سورة الفاتحة . ثم ختم الآية بوعيد من لا يعترف بربوبيته ولا يقر بوحدانيته ذلك قوله : ﴿ وويل للكافرين ﴾ وهو دعاء عليهم بالهلاك والثبور وكل سوء . قال في الكشاف : وجه اتصال قوله : ﴿ من عذاب شديد ﴾ بالويل أنهم يولولون من العذاب ويقولون يا ويلاه . ﴿ الذين يستحبون ﴾ أي يؤثرون ويختارون لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون ذلك الشيء عنده أحب من الآخر وذلك أن الإنسان قد يحب الشيء ولكنه يكره كونه محباً له ، أما إذا أحب الشيء وطلب كونه محباً له وأحب تلك المحبة فتلك نهاية المحبة وهذا شأن محبة أهل الدنيا للدنيا ولكنها أدنى مراتب الضلال . وقوله : ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ إشارة إلى الضلال . وقوله : ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أراد به الإضلال بإلقاء الشكوك والشبهات ، واجتماع هذه الخصال نهاية الضلال

فلهذا وصف ضلالهم بالبعد عن الحق لأنه وقع عنه في الطرف الآخر فبينهما غاية الخلاف

ويمكن أن يكون إسناداً

(116/417)

---

مجازياً باعتبار أن صاحبه بعيد عن طريق الحق .

ثم لما مَنَّ على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ذكر أن من كمال تلك النعمة أن يكون ذلك الكتاب بلسان المرسل إليهم . احتج أصحاب أبي هاشم بالآية على أن اللغات اصطلاحية وضعها البشر واحد وجماعة وحصل التعريف للباقين بالإشارة والقرائن كالأطفال . قالوا : إن كانت توقيفية والتوقيف إنما يكون بالوحي والوحي موقوف على لغة سابقة لقوله : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ أي بلغتهم لزم الدور . أجيب بأن الآية تختص برسول له قوم ولا قوم لآدم فينتهي التوقيف إليه فيندفع الدور .

(117/417)

---

وتمسك طائفة من اليهود - يقال لهم العيسوية - بهذه الآية في أن محمداً رسول الله ولكن إلى العرب لأنهم قومه وهم الذين عرفوا فصاحة القرآن وإعجازه ، فيكون القرآن حجة عليهم لا على غيرهم . والجواب سلمنا أن قومه هم العرب ولكن قوم النبي أخص من أهل دعوته فقد يكون أهل دعوته الناس كافة بل الثقلين كما في حق نبينا صلى الله عليه وسلم لأن التحديث وقع بالفريقين في قوله : ﴿ قل لئن اجتمع الإنس والجن ﴾ [ الإسراء : 88 ] وإنما يكون أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه فيرسل الرسول أوّلاً إليهم ليبين لهم فيفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، ثم ينوب التراجم في كل أمة من أمم دعوته مقام الأصل ويكفي التطول ويؤمن اللبس والتخليط ويوجب للمفسرين الثواب الجزيل في التعلم والتعليم والإرشاد والاجتهاد . وقالت المعتزلة : إن مقدمة هذه الآيات وهي قوله : ﴿ لتخرج الناس ﴾ ووسطها وهو قوله : ﴿ ليبين لهم ﴾ فإن فائدة النبيين إنما تظهر إذا كان للمكلف قدرة واختيار ، وآخرها وهو قوله ﴿ الحكيم ﴾ فإن الحكمة تنافي خلق الكفر ، والقبائح تدل على صحة مذهب الاعتزال . وقالت الأشاعرة . قوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ وقوله : ﴿ فيضل الله من يشاء ﴾ وقوله : ﴿ العزيز ﴾ فإن العزة لا تجامع أن يكون لغيره قدرة وتصرف يؤيد مذهبنا . أقول : نحن قد حققنا مسألة الجب مراراً فتذكر . ومما يخص هذا الموضع قول الفراء إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه كقوله : ﴿ لنبين لكم ونقر ﴾ [ الحج : 5 ] بالرفع نظيره في الآية

قوله : ﴿ فيضل ﴾ بالرفع على الاستئناف كأنه قال : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليكون بيانه لهم تلك الشرائع بلغة ألفوها واعتادوها . ومع ذلك فإن المضل والهادي هو الله والبيان لا يوجب حصول الهداية إلا إذا جعله الله واسطة وسبباً لما بين أن المقصود من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم هو إخراج الناس من الظلمات إلى

*(118/417)*

---

النور ، أرد أن يبين أن الغرض من إرسال جميع الأنبياء لم يكن إلا ذلك وذكر لذلك مثالاً . وخص موسى بالذكر لأنه أمته أكثر الأمم سوى أمة محمد كما جاء في الحديث ولكثرة معجزاته الباهرة . ومعنى ﴿ أن أخرج ﴾ أي أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول : ويجوز أن تكون أن ناصبة والتقدير بأن أخرج . ومعنى التذكير بأيام الله الإنذار بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم . ويقال : أيام العرب لحروبها وملاحمها . وعن ابن عباس : أيام الله نعماؤه من تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وبلاؤه إهلاك القرون ، أو الأيام التي كانوا فيها تحت تسخير فرعون ، أو المراد عظهم بالترغيب والترهيب ﴿ إن في ذلك ﴾ التذكير والتنبيه دلائل ﴿ لكل صبار ﴾ على الضراء ﴿ شكور ﴾ على السراء . وذلك أن فائدة الآيات إنما تعود عليهم حيث ينتفعون بها .

ولما أمر الله موسى بالتذكير حكى عنه أنه ذكرهم ولم يقل ههنا " يا قوم " كما ذكر في المائدة اقتصاراً على ما ذكره هناك . وقوله : ﴿ عليكم ﴾ إن كان صلة للنعمة بمعنى الإنعام فقوله : ﴿ إذ أنجاكم ﴾ ظرف للإنعام أيضاً ، وإن كان مستقراً بمعنى اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم جاز أن ينتصب ﴿ إذ أنجاكم ﴾ ب ﴿ عليكم ﴾ وفي الوجهين جاز أن يكون " إذ " بدلاً من النعمة أي اذكروا وقت إنجائكم وهو بدل الاشتمال ، وباقي الآية قد مر في أول البقرة . ومن جملة النعم قوله : ﴿ وإذ تأذن ﴾ أي واذكروا حين آذن ﴿ ربكم ﴾ إيذاناً بليغاً ينتفي عنده الشكوك وتنزاح معه الشبهات . وقد تقدم في أواخر " الأعراف " أن فيه معنى القسم ولذلك دخلت اللام الموطئة في الشرط والنون المؤكدة في الجزاء ، وقد سلف منا في هذا الكتاب أن الشكر بالحقيقة عبارة عن صرف العبد جميع أقسام ما أنعم الله تعالى به عليه فيما أعطاه لأجله . ولا شك أن المكلف إذا سلك هذا الطريق كان دائماً في مطالعة أقسام نعم الله وفي ملاحظة دقائق لطفه وصنعه وفي إعمال الجوارح في الأعمال الصالحة الكاسبة لأنوار الملكات الحميدة ، وشغل النفس بمطالعة النعم يوجب مزيد محبة المنعم ، وقد يترقى العبد من هذه الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن رؤية النعم ،

ويصدر منه الأعمال الصالحة بطريق الاعتياد حتى يصير التطبع طباعاً والتكلف خلقاً ، وهذا معنى اقتضاء الشكر مزيد الإنعام وقد يفيض عليه بحكم وعد الله الذي هو الحق والصدق سجال مواهبه الدينية والدنيوية لأنه مهما صار مطيعاً منقاداً لواجب الوجود سبحانه تجلى فيه نور الوجود ، فلا غرو – أي لا عجب – أن ينقاد لذلك النور كثير من الممكنات وينفتح عليه باب التصرف في الخلق بالحق للحق ، وإن كان حال المكلف بضد ما قلنا ظهر عليه أضداد تلك الآثار لا محالة وذلك قوله : ﴿ ولئن كفرتم ﴾ يعني كفران النعم ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ ثم بين أن منافع الشكر ومضار الكفران لا

(120/417)

---

تعود إلا إلى صاحبه أو عليه والله تعالى غني عن ذلك كله فقال : ﴿ إن تكفروا أنتم ﴾ الآية . وذلك أن واجب الوجود في ذاته واجب الوجود في جميع صفاته ولن يكون كذلك إلا إذا كان غنياً عن الحاجات متصفاً بكل الكمالات أهلاً للحمد وإن لم يكن حامداً .

وقوله : ﴿ ألم يأتكم ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً من موسى لقومه والغرض تخويفهم بمثل هلاك من تقدم من القرون فيكون داخلاً تحت التذكير بأيام الله ، واحتمل أن يكون مخاطبة

من الله على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى قاله أبو مسلم . والأكثرون على أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول صلى الله عليه وسلم تحذيراً لهم عن مخالفته .

(121/417)

---

وقوله : ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ إن كان جملة من مبتدأ وخبره فالمجموع اعتراض وإن كان قوله : ﴿ والذين من بعدهم ﴾ معطوفاً على قوم نوح فقوله : ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ وحده اعتراض . ثم إن عدم العلم إما أن يكون راجعاً إلى صفاتهم بأن تكون أحوالهم وأخلاقهم ومدد أعمارهم غير معلومة ، وإما أن يكون عائداً إلى ذواتهم بأن يكون فيما بين القرون أقوام ما بلغنا أخبارهم كما روي عن ابن عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون . وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفى الله علمها عن العباد . ونظير الآية قوله : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ [ الفرقان : 38 ] ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ [ غافر : 78 ] قال القاضي : وعلى هذا الوجه لا يمكن القطع بمقدار السنين من لدن آدم عليه السلام إلى هذا الوقت لأنه لو أمكن ذلك لم يبعد تحصيل العلم بالأنساب الموصولة . ثم إنه تعالى حكى عن هؤلاء الأقوام أنهم لما ﴿ جاءتهم رسلهم

بالبينات ﴾ أتوا بأمور أحدها ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ وفيه قولان : أحدهما أن المراد باليد والفم الجارحتان ، وعلى هذا فيه احمالان : الأول أن الكفار ردّوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل كقوله : ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ [آل عمران : 119 ] . قاله ابن عباس وابن مسعود وهو الأظهر ، أو وضعوا الأيدي على الأفواه ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك ، أو وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن قفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث قاله الكلبي ، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم ﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق ، وهذا قول قويّ لعطف قوله : ﴿ وقالوا ﴾ على قوله : ﴿ فردّوا ﴾ الاحتمال الثاني : أن تكون الضمائر راجعة إلى



---

الرسل والمراد أن الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم على أفواه أنفسهم أرادوا أنهم لا يعودون إلى ذلك الكلام ألبتة . أو يكون الضميران الأخيران راجعين إلى الرسل ، والمعنى أن الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوهم

ويقطعوا كلامهم ، أو يكون الضمير الأخير فقد عائداً على الرسل والمراد أن الكفار لما سمعوا وعظ الأنبياء ونصائحهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تكذيباً لهم ورداً عليهم ، أو وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء منعاً لهم من الكلام فهذه جملة الاحتمالات على القول الأول . القول الثاني : أن ذكر اليد والفم توسع ومجاز . عن أبي مسلم : أن المراد باليد ما نطقت به الرسل بأفواههم من الحجج لأن دلائل الوحي من أجل النعم لأنهم إذا كذبوا الآيات ولم يقبلوها فكأنهم ردّوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل .

ونقل محمد بن جرير عن بعضهم أنه يقال للرجل إذا أمسك عن الجواب ردّ يده في فيه . فمعنى الآية أنهم سكتوا عن الجواب ، وزيف بأنهم قد أجابوا بالتكذيب وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به . والمراد بما زعمتهم أن الله أرسلكم به وكأنهم في أوّل الأمر حاولوا إسكات الأنبياء ، وفي المرتبة الثانية صرحوا بتكذيبهم ، وفي الثالثة قالوا : ﴿ وإنا لفي شك ﴾ وقد مر مثله في سورة هود . فإن قلت : كيف صرحوا بالكفر ثم بنوا أمرهم على الشك ؟ قلنا : أرادوا إنا كافرون برسالتكم وإن نزلنا عن هذا المقام فلا أقل من أنا نشك في صحة نبوتكم ، ومع كمال الشك لا مطمع في الاعتراف بنبوتكم . ثم إنه سبحانه حكى جواب الرسل وذلك قولهم : ﴿ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ أدخل همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه وأن وجود الله لا يحتمل الشك .

قال الضعيف المذنب المفتقر إلى عفو ربه الكريم مؤلف الكتاب الحسن بن محمد المشتهر بنظام النيسابوري نظم الله أحواله في الدارين . إنه كان من عقيدتي أن العلم بوجود الواجب في الخارج من جملة البديهيات وكان يستبعد ذلك كثير من أقراني وأصحابي لما رأوا أن الأقدمين ما زالوا يبرهنون على ذلك في الكتب الكلامية والحكمية ، فكنت قد كتبت لأجلهم رسالة في الإلهيات مشتملة على دلائل تجري مجرى المنبهات على ذلك المعنى ، فإن الضروريات قد ينبه عليها وإن لم تحتج في الاقتناص إلى البراهين . والآن أرى أن أذكر بعض تلك المنبهات في هذا المقام لأنها مقررة لقوله سبحانه : ﴿ أفي الله شك ﴾ فأقول وبالله التوفيق : المفهوم بالنظر إلى ذاته وإلى الخارج إما أن يكون واجب الوجود فقط ، أو واجب العدم فقط ، أو ممكن الوجود والعدم معاً ، أو واجب العدم وممكن الوجود والعدم معاً ، أو واجب الوجود وواجب العدم وممكن الوجود والعدم جميعاً . فهذه أقسام سبعة والعقل الصريح لا يشك في استحالة خمسة أقسام منها في الخارج : الأول واجب العدم لذاته فقط ، الثاني واجب الوجود لذاته وواجب العدم في ذاته معاً ، الثالث واجب الوجود لذاته وممكن الوجود والعدم لذاته ، والرابع واجب العدم لذاته وممكن الوجود والعدم لذاته .

الخامس واجب الوجود لذاته وواجب العدم لذاته وممكن الوجود والعدم في ذاته. ثم نقول : إن العقل كما لا يشك في استحالة الوجود الخارجي لهذه الأقسام الخمسة ينبغي أن لا يشك في وجود الواجب لذاته فقط في الخارج، لأنه لو لم يكن موجوداً في الخارج كان معدوماً في الخارج. فإن كان عدمه لذاته كان من القسم الثاني من الممتنعات، وإن كان لغيره كان من القسم الثالث منها وكلاهما محال إذ المفروض خلاف ذلك فثبت كونه موجوداً في الخارج بالضرورة وهو المطلوب، فهذه طريقة عذراء تيسرت لنا من غير احتياج إلى دور وتسلسل يرد عليها المنوع المشهورة.



---

وجه ثانٍ : الموجود في الخارج إما واجب أو ممكن، وهذه قضية اتفقوا على ضروريتها لأنها إن كان مستغنياً عن المؤثر في وجوده الخارجي فواجب وإلا فممكن فنقول : إن كانت القمسة قسمة تنويع حتى يكون المعنى أن الموجود في الخارج هذان النوعان فقد ثبت وجود الواجب في الخارج بالضرورة وهو المطلوب، وإن كانت القسمة قسمة انفصال ولا محالة تكون مانعة الخلو فقط. أما كونها مانعة الخلو فلاستحالة العقل رفعهما معاً في الخارج ضرورة ثبوت موجود ما في الخارج بالضرورة، وأما أنها ليست بمانعة الجمع فلأن الممكن

موجود بالضرورة ولا منافاة بين وجود الواجب ووجود الممكن بالضرورة وإلا لم يستدل العقلاء من وجود الممكن على إثبات الواجب ، بل يستدلون منه على نفيه . وإذا كان الجمع بين الواجب والممكن ممكناً في الوجود والممكن موجود بالضرورة مع أنه مفتقر في وجوده إلى مؤثر موجود ، فلأن يكون الواجب موجوداً يكون أولى بالضرورة لاستغنائه عن المؤثر وكون ذاته كافية في إيجاب الوجو له وهذه مقدمة جلية مكشوفة لمن تأمل في مفهوم واجب الوجود إذا لا معنى لوجوب الوجود إلا أنه وجود يوجد ألبته من تلقاء نفسه ومع قطع النظر عما سواه ولهذا قال المحققون : إن الوجود يقع على الواجب وعلى الممكن بالتشكيك بمعنى أنه في الواجب أولى وأولى منه في الممكن .

وجه ثالث : طبيعة الواجب وطبيعة الممكن من حيث ذاتاهما يشتركان في صحة وجودهما الخارجي بالضرورة ، ويفترقان في أن الواجب ذاته كافية في إيجاب الوجود له ، والممكن لا يكفي فيه ذلك بل يحتاج في إيجاب وجوده الخارجي إلى الغير ، ولا ريب أن الأوّل أقرب إلى طبيعة الوجود من الثاني لأن الموقوف على مقدمات أكثر أعسر وجوداً والثاني واقع بالضرورة فالأولى أولى بكونه ضروري الوقوع .

وجه رابع : نسبة كل محمول إلى موضعه لا تخلو في نفس الأمر من أن تكون بالوجوب أو بالإمكان أو بالامتناع. فنسبة الوجود الخارجي إلى الماهيات الخارجية من حيث ذواتها لا تخلو من أحد الأمور الثلاثة ، لكن نسبته إليها بالامتناع ظاهرة الاستحالة ، فهي إما بالإمكان أو بالوجوب ، ولا شك أن نسبة الوجود إلى ذات الموجود أولى من نسبته إلى غيره إذ الأصل عدم الغير ، فكل ما دل البرهان على أن وجوده من غيره لتغير فيه أو نقص يحكم عليه بأنه ممكن الوجود ، وما لم يدل البرهان فيه على ذلك بل يدل على وجوب وجوده بجميع صفاته الكمالية فو واجب الوجود . ومن شك في وجود ما وجوده من تلقاء نفسه ويكون متصفاً بجميع الكمالات بعد مشاهدة ما وجوده من غيره وهو عرضة للنقائص والرذائل كان أهلاً لأن يهجر الحكمة .

وجه خامس : نفس الإمكان نقص لا نقص فوقه لاستتباعه العجز والافتقار وصحة العدم عليه الذي لا ضعف مثله ، والوجود المتصف به متحقق بالضرورة . فالوجود الذي يجوّزه العقل الصريح متصفاً بصفة الوجوب كيف لا يكون متحققاً ، ومن استبهم عليه مثل هذا الجلي فلا يلومن إلا نفسه .

وجه سادس : مقتضى ذات الشيء أقرب إيجاباً له عند العقل من مقتضى كل ما يغايره ، لكن الوجود الذي مقتضاه الإمكان ثابت في الخارج مع أن ثبوته في الخارج مقتضي الغير ، فالوجود ثابت بالطريقة الأولى .

وجه سابع : الوجود الممكن ثابت بالضرورة وليس ثبوت ذلك الوجود من تلقاء نفسه وإلا كان وجوداً واجباً لأنا لا نعني بالوجود الواجب إلا هذا . فإما أن يكون من وجود واجب وهو المطلوب ، أو من وجود مثله وحينئذ ما لم يكن ثابتاً في نفسه لم يتصوّر منه إفادة مثله ، فإذا حصل لنا وجود ممكن موصوف الثبوت في نفسه وموصوفاً بكونه مفيداً لوجود مثله . فإذا صح هذان الوصفان للوجود الممكن المفتقر فكيف لا يصحان للوجود الواجب الغني بل نسبتهما إلى الثاني أولى من نسبتهما إلى الأوّل بحكم الفهم الصحيح .

(126/417)

---

وجه ثامن : كون الشيء موجوداً في نفسه أقرب وأقبل عند العقل من كونه موجداً لغيره ، إذ ليس كل من له وجود في نفسه يكون موجداً لغيره ، وكل موجد لغيره موجود في نفسه . وإذا كان اتصاف الوجود الممكن مع ضعفه بأبعد الأمرين عن القبول واقعاً ، فكيف لا يكون اتصاف الوجود الواجب مع قوّته بأقربهما من القبول واقعاً ؟

وجه تاسع : انجذاب النفوس السليمة وغير السليمة من الأنبياء والأولياء والحكماء وسائر العقلاء من إخوان الصفاء وأخدان الوفاء وأرباب البدع والأهواء إلى وجود واجب متى رجعوا إلى أنفسهم وطالعوا ملكوت السموات والأرض وتأملوا في الأحوال الواردة عليهم من

كشف كرب أو هجوم نعمة ، أجلى دليل على وجود رب جليل منزه عن سمات النقص والأفول في حيز الإمكان ، مفيض للخيرات مدبر للممكنات ولهذا قال رب السموات والأرضين عن الظلمة والمعاندين ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [ لقمان : 25 ] ثم أخبر أنهم يعتذرون عن أصنامهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، إذ لم يكن جحدهم وعنادهم عن تحقيق وصدق وإنما كانوا مكابرين في الظاهر ابتلاء من الله وشقاء منهم فالحاصل أن المؤمن والمشرك والمقر والجاحد سيان في أنه تشهد فطرته بوجود صانع للعالم واجب في ذاته وصفاته ، ولا أدل من ذلك على أنه ضروري الوجود .

وجه عاشر : وهو الاستدلال بالآفاق كل موجود سوى الواجب فله ظهور في الخارج ، لكنه إذا اعتبر في نفسه لم يكن له ذلك من تلقاء نفسه فكان فقيراً في نفسه وذلك أفول له في أفق الإمكان ، وإذا كان ما مقتضى ذاته الأفول طالعاً فما مقتضى ذاته الطلوع أولى بأن يكون طالعاً .



---

وجه حادي عشر : وهو الاستدلال بالأنفس . من تأمل في ذاته وفرض شخصه في هواء طلق لا يحس فيه بمتضاد وأغفل الحواس عن أفعالها وجد شيئاً هو به هو ، وبذلك يصح

أنيته وهو نفسه الناطقة التي نسبتها إلى بدنه نسبة الملك إلى المدينة يتصرف فيها كيف يشاء . ومهما انقطعت علاقته عن البدن مات صاحبه وانخرط في سلك الجمادات ، فكما أن البدن لضعفه وخسته مفتقر في قوامه وقيامه إلى مدبر يديمه ويقيمه ، فجميع العالم الجسماني بل الممكنات بأسرها لخستها وفقرها تستند لا محالة إلى ما هو أشرف منها وذلك ما وجوده من تلقاء نفسه وهو الواجب الحق تعالى شأنه ، ولولاه لتبدد نظام العالم ولم يكن من الوجود عين ولا أثر .

(128/417)

---

وجه ثاني عشر : وهو أنور الوجوه وأظهرها وهو الاستدلال بالنور على النور . لا شك أنه نور ونعني به ما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره فنقول : إن كان ظهوره في نفسه بنفسه فهو المطلوب وإلا فيحتاج إلى ما يظهره ، وما يظهره لا يمكن أن لا يكون ظاهراً في نفسه لأن ما لا يكون له ظهور في نفسه لا يفيد ظهوراً لغيره فننقل الكلام إلى ذلك الظاهر بأن نقول : إن كان ظهوره في نفسه بنفسه فذاك وإلا احتاج إلى ما يظهره ، ولا بد أن ينتهي في طرف الصعود إلى ما يكون ظهوره في نفسه بنفسه وإلا لم ينته الأمر في طرف النزول إلى الظاهر المفروض أوّلاً . فنهاية ما لا نهاية له محال من أي جانب فرض ، ولا تنتهض العودة اليومية نقضاً علينا بناء

على أنها مسبوقة بعودات ما لا تتناهى ، فإن لا تناهيها في جانب الأزل محال عندنا . وكنا قد كتبنا في بعض كتبنا بيان استحالة ذلك ، فإن نقلت الكلام إلى فيض الواجب وقلت الفيض الواقع في زمان الحال مسبوق بإفاضات غير متناهية لا محالة ، قلنا : قلنا : لو سلمنا ذلك لكنه لا يتسحيل في الواجب لأن وجوده وأوصافه المعتبرة كلها مقتضيات ذاته ، ومقتضى ذات الشيء يدوم بدوام الشيء ومستحيل انفكاكه عنه ، فلا نهاية فيضانه تابعة للامسبوقة بغيره وكون وجوده من ذاته . ولا يلزم من كون مطلق الفيض أزلياً أن يكون الفيض المخصوص أزلياً ، وإذا ثبت وجوب انتهاء الظاهر المفروض إلى ما هو ظاهر في نفسه بنفسه ثبت المطلوب وهو وجود نور الأنوار تعالى شأنه وبهر برهانه ، وهو نهاية الممكنات في جانب الأزل وبدايتها في جانب الأبد ، فهو قديم أزلي ، ولأن وجوده مقتضى ذاته وما بالذات لا يزول فهو الباقي الدائم . هذا ما سنح من المنبهات لهذا الضعيف أثبتها في هذا الكتاب الشريف ليبقى إن شاء الله على وجه الدهر ، وينظر فيها من هو من أهلها في كل عصر والله المستعان .

قال بعض العقلاء : من لطم على وجه صبي فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار ، وعلى حصول التكليف ، وعلى ثبوت دار الجزاء ، وعلى ضرورة بعثه النبي . أما الأوّل فلأن الصبي يصيح ويقول : من الذي ضربني وما ذاك إلا بشهادة فطرته على أن هذه اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها لأجل فاعل مختار أدخلها في الوجود ، وإذا كان حال هذا الحادث مع حقارته هكذا فما ظنك بجميع الحوادث الكائنة في العالم العلوي والعالم السفلي ؟ ! وأما دلالتها على وجوب التكليف فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول : لم ضربني ذلك الضارب ؟ وفيه دلالة على أن الأفعال الإنسانية داخلة تحت التكليف ، وأن الإنسان ما خلق حتى يفعل أي شيء اشتهى . وأما دلالتها على الجزاء فلأنه يطلب الجزاء على تلك اللطمة ولا يتركه ما أمكنه . وإذا كان الحال في هذا العمل القليل كذلك فكيف يكون الحال في جميع الأعمال ؟ ! وأما وجوب النبوّة فلأنهم يحتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على ذلك القدر من الجناية كم هي ، ولا فائدة في بعثة النبي إلا تبيين الشرائع والأحكام ، ومما يدعو العاقل إلى الاعتراف بالمبدأ والمعاد أنه لو قرأ بهما ثم بان أن الأمر على خلافه فلا ضرر فيه ألبته ، أما إذا أنكر الصانع والتكليف والجزاء وكانت هذه الأمور في الخارج ثابتة حقة ففي إنكارها أعظم المضار ، فيلزم على العاقل أن يعترف بهذه الأمور أخذاً بالأحوط .

ثم إن الرسل بعد التنبيه على وجود الصانع ذكروا فائدة الدعوة وغايتها وذلك ثنتان :

الأولى قوله : ﴿ يدعوكم ﴾ أي إلى الإيمان ﴿ ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ استدل بالآية من جوّز زيادة " من " في الإثبات وذلك لقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ ﴿ الزمر : 53 ] . وأجيب بأنه لا يلزم من غفران جميع الذنوب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم غفران جميع الذنوب لغيرهم ، فالوجه أن تكون " من " للتبعيض تمييزاً بين الفريقين ، ويؤيد ما ذكرنا استقراء الآيات فإنها ما جاءت في خطاب الكافرين إلا مقرونة ب " من " كما في هذه الآية ، وفي سورة نوح وسورة الأحقاف . وقال في خطاب المؤمنين في سورة الصف ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ [الآية : 12 ] بغير " من " . وقيل : أراد أن يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم . وقيل : " من " للبدل أي لتكون المغفرة بدلاً من الذنوب . وضعف بأنه لم يوجد له في اللغة نظير . وعن الأصم : أنه أراد إذا تبتم يغفر لكم بعض الذنوب التي هي الكبائر . فأما الصغائر فلا حاجة إلى غفرانها لأنها في أنفسها مغفورة . وزيفه القاضي بأن الصغيرة إنما تكون مغفورة من الموحدين حيث يزيد ثوابهم على عقابهم ، فأما من لا ثواب له أصلاً فلا يكون شيء من ذنوبه صغيراً ولا كبيراً مغفوراً .

وقيل: المراد أن الكافر قد ينسى بعض ذنوبه في حال توبته وإيمانه فلا يكون المغفور منها إلا ما ذكره وتاب منه. وقال الإمام فخر الدين الرازي: في الآية دلالة على أنه تعالى قد يغفر ذنب أهل الإيمان من غير توبة لأنه وعد بغفران بعض الذنوب مطلقاً من غير اشتراط التوبة، وذلك البعض ليس هو الكفر لانعقاد الإجماع على أنه تعالى لا يغفر الكفر إلا بالتوبة عنه والدخول في الإيمان، فوجب أن يكون ذلك البعض هو ما عدا الكفر من الذنوب. ولقائل أن يقول: لا نسلم أنه لم يشترط التوبة في الآية، لأن قوله: ﴿ يدعوكم ﴾ أي إلى الإيمان معناه آمنوا ليغفر لكم فكأنه قيل: إن الإيمان شرط غفران بعض الذنب فلم لا يجوز أن يكون ذلك البعض هو الكفر؟. الغاية الثانية قوله: ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ عن ابن عباس: أي يمتعكم في الدنيا باللذات والطيبات إلى الموت الطبيعي وإلا عاجلكم بعذاب الاستئصال. وقد مر تحقيق الأجل في أوّل "الأنعام".

ثم شرع في حكاية شبه الكفار وأنها ثلاث : الأولى قولهم : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ وذلك لاعتقادهم أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية ، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بينهم إلى هذا الحد مع اشتراك الكل في الضروريات البشرية من الحاجة إلى الأكل والشرب والوقاع وغير ذلك . الثانية التمسك بطريقة التقليد وذلك قوله : ﴿ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ الثالثة إنكارهم دلالة المعجزة على الصدق . وعلى تقدير التسليم زعموا أنهم ما أتوا بحجة أصلاً لاعتقادهم أن معجزاتهم من جنس الأمور المعتادة ، فاقترحوا سلطاناً مبيناً أي برهاناً باهراً وحجة قاهرة . ثم إن الأنبياء سلموا أنهم بشر مثلهم ولكنهم وصفوا أنفسهم بمزية من عند الله بطريق المنة والعطية ، وبهذا استدل من جعل النبوّة محض العطاء من الله . أجاب المخالف بأنهم لم يذكروا فضائلهم النفسانية والجسمانية تواضعاً منهم ، ولأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لها لخصائص فيها . وأما الشبهة الثانية فإنما لم يذكروا الجواب عنها لأن صحة النبوّة تهدم قاعدة التقليد ، وأما الشبهة الثالثة فجوابها ﴿ وما كان لنا ﴾ أي ما صح منا ﴿ أن نأتي بآية ﴾ اقترحتموها من تلقاء أنفسنا وإنما ذلك أمر يتعلق بمشيئة الله . والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا عن شبهاتهم بما أجابوا فالقوم أخذوا في السفاهة والتخويف وعند ذلك قالت الأنبياء ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ إلى قوله : ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ قال علماء المعاني : الأول لاستحداث التوكل ، والثاني للسعي في إبقائه وإدامته . وقيل :

معنى الأول أن الذين يطلبون المعجزات يجب عليهم أن يتوكلوا في حصولها على الله لا علينا ، فإن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها .

(133/417)

---

ومعنى الثاني إبداء التوكل على الله في دفع شر الكفار وسفاهتهم . وفي قولهم : ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ إشارة إلى ما سهل الله عليهم من طريقة التكميل والإرشاد وتحمل أعباء الرسالة والصبر على متاعبها ، فإن تأثير نفوسهم في عالم الأرواح كتأثير الشمس في عالم الشمس في عالم الأجسام بالإضاءة والإنارة ، وقد عرفوا بالنفوس المشرقة والأنوار الإلهية أو بالوحي الصريح أنه تعالى يعصمهم من كيد الأعداء ومكر الحساد . وفي قولهم . ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ دليل على أن الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات ومثمر السعادات . أما قول الكفار للرسل : ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ فقد مر البحث عليه في سورة الأعراف في قصة شعيب . وقال صاحب الكشاف : العود ههنا بمعنى الصيرورة ، حلفوا أن يخرجوهم ألبتة إلا أن يصيروا كافرين مثلهم ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ أجرى الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه أو أضمر القول . عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من آذى جاره ورّثه الله داره "

﴿ ذلك ﴾ الذي قضى الله به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم حق ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ يريد موقف الله الذي يقف به عباده يوم القيامة وهو موقف الحساب ، أو المقام مصدر أي خاف قيامي عليه بالحفظ والمراقبة كقوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس ﴾ [ الرعد : 33 ] أو قيامي بالعدل والصواب مثل ﴿ قائماً بالقسط ﴾ [ آل عمران : 18 ] أو المقام مقحم أي خافني مثل سلام الله على المجلس العالي : ﴿ وخاف وعيد ﴾ قال الواحدي : هو اسم من الإيعاد وهو التهديد . قال المحققون : إن الخوف من الله مغاير للخوف من وعيد كما أن حب الله مغاير لحب ثواب الله ، وهذه فائدة عطف أحد الخوفين على الآخر . قوله : ﴿ واستفتحوا ﴾ الضمير إما للرسل والمعنى استنصروا الله على أعدائهم أو استحكموا الله وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة ، وإما للكفرة بناء على ظنهم أنهم على الحق والرسل على الباطل . وعلى الأول يكون في الكلام إضمار التقدير : فنصروا وفازوا بالمقصود . ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ معاند . وأصل العنود الميل من العند الناحية والجانب كأن كلاً من المتعاندين في جانب آخر . قيل : الجبار وهو المتكبر إشارة إلى أن فيه خلق الاستكبار ، والعنيد إشارة إلى الأثر

الصادر عن ذلك الخلق وهو كونه مجانباً للحق منحرفاً عنه وأصل الكلام على الأول : واستفتح الرسل وخاب الكفرة ، وعلى الثاني : استفتحوا وخابوا . فوضع الأعم موضع الأخص . والظاهر مقام الضمير تنصيصاً على الكفرة بأن سبب خيبتهم عن السعادة الحقيقية تجبرهم وعنادهم ﴿ من ورائه ﴾ أي من بين يديه . يقال : الموت وراء كل أحد . وذلك أن قدام وخلف كلاهما متوارٍ عن الشخص فصح إطلاق لفظ وراء على كل واحد منهما . وقال أبو عبيدة : هو من الأضداد لأن أحدهما ينقلب إلى الآخر .



---

وهذا وصف حاله في الدنيا أو في الآخرة حين يبعث ويوقف . قال جار الله : قوله : ﴿ ويسقى ﴾ معطوف على محذوف تقديره يلقى في جهنم ما يلقى ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي من ماء بيانه أو صفته هذا . والصديد ما يسيل من جلود أهل النار واشتقاقه من الصد لأنه يصد الناظر عن رؤيته أو تناوله . وقيل : يخلق الله في جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة . ﴿ يتجرعه ﴾ يتكلف جرعه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي لم يقارب الإساغة فضلاً عن الإساغة قيل : ليس المراد بالإساغة مجرد حصول المشروب في الجوف لأن هذا المعنى حاصل لأهل النار بدليل قوله : ﴿ يصهر به ما

في بطونهم ﴾ [الحج : 20] وإنما المراد جريان المشروب في الحلق في الاستطابة وقبول النفس لا بالكراهية والتأذي. قلت: يحتمل أن يراد بالإساغة مجرد الحصول، والآية – أعني قوله : ﴿ ويصهر ﴾ – لا تدل على الحصول لقوله قبله : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ [الحج : 19] . ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ من جسده حتى من إبهام رجله. وقيل : من أصل كل شعرة. وقيل : المراد أن موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات ومع ذلك فإنه لا يموت فيها ولا يحيا . ثم أخبر – والعياذ بالله – أن العذاب في كل وقت يفرض من الأوقات المستقبلة يكون أشد وأنكى مما قبله فقال : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ عن الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد . قال في الكشاف : يحتمل أن يكون أهل مكة استفتحوا أي استمطروا . والفتح المطر في سني القحط التي سلطت عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسقوا فذكر سبحانه ذلك، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء أحرّ وهو صديد أهل النار . وعلى هذا الفسير يكون قوله : ﴿ واستفتحوا ﴾ كلاماً مستأنفاً منقطعاً عن حديث الرسل وأممهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 170 . 183﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : بسم الله أي باسم الذات وهو الاسم الأعظم ابتدأت بخلق عالم الدنيا . إظهار الصفات الرحمانية التي هي للمبالغة لاشتراك الحيوان والجماد والمؤمن والكافر في الرحمة ، وبخلق عالم الآخرة إظهار الصفة الرحيمية لاختصاصها بالمؤمنين خاصة . قوله : ﴿ الر ﴾ أي بآلائي وبلطفي إن القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس بدلالة نوره من ظلمات عالم الطبيعة والكثرة إلى نور عالم الروح والوحدة . ﴿ بإذن ربهم ﴾ الذي يربيهم هو لا أنت . وفي قوله : ﴿ إلى صراط ﴾ إشارة إلى أن القرآن هو طريق الوصول إلى من احتجب بحجب العزة والمحمدة واستتر بأستار مظاهر القهر واللطف . وفي الاختتام بقوله : ﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ إشارة إلى أن من بقي في أفعاله وهي المكونات لم يصل إلى صفاته ، ومن بقي في صفاته لم يصل إلى ذاته ، ومن وصل إلى ذاته بالخروج عن أنانيته إلى هويته انتفع بصفاته وأفعاله .

﴿ وويل للكافرين ﴾ من شدة ألم الانقطاع عن الله . ثم أخبر أن الكافر الحقيقي هو الذي قنع بالإيمان التقليدي فأقبل على الدنيا وأعرض عن المولى فضل وأضل . ﴿ إلا بلسان قومه ﴾ أي يتكلم معهم بلسان عقولهم . ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ بواسطة جبريل الجذبة ﴿ موسى ﴾ القلب بآيات عصا الذكر واليد البيضاء من الصدق والإخلاص . ﴿ أن أخرج قومك ﴾ وهم الروح والسر والخفي من ظلمات الوجود المجازي إلى نور الوجود الحقيقي ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ التي كان الله ولم يكن معه شيء وهو يحبهم بلاهم ﴿ إن في ذلك ﴾ التذكير ﴿ لآيات ﴾ في نفي الوجود ﴿ لكل صبار ﴾ بالله مع الله من غير الله ﴿ شكور ﴾ لنعمة الوجود الحقيق ببذل الوجود المجازي ﴿ ولئن شكرتم ﴾ بالطاعة ﴿ لأزيدنكم ﴾ في تقربي إليكم ، لأزيدنكم في محبتي لكم ، ولئن شكرتم في محبتي لكم لأزيدنكم في الخدمة ، ولئن شكرتم في الخدمة لأزيدنكم في الوصول ، ولئن شكرتم في الوصول لأزيدنكم في التجلي ، ولئن شكرتم في التجلي لأزيدنكم في الفناء عنكم ، ولئن شكرتم في الفناء لأزيدنكم في البقاء ، ولئن شكرتم في البقاء لأزيدنكم في الوحدة ، ﴿ ولئن كفرتم ﴾ نعمتي في المعاملات كلها ﴿ إن عذابي ﴾ قطيعتي ﴿ لشديد ﴾ ﴿ وقال موسى ﴾ القلب ﴿ إن تكفروا أنتم ﴾ أيها الروح والسر والخفى بالإعراض عن الحق والإقبال على الدنيا بتبعية النفس ومن في أرض البشرية من النفس والهوى والطبيعة . ﴿ يدعوكم ﴾ من المكونات إلى الملكوت ﴿ ليغفر لكم ﴾ بصفة الغفارية ﴿ من ذنوبكم ﴾

التي أصابتكم من حجب عالم الخلق ﴿ ويؤخركم ﴾ في التخلق بأخلاقه ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ هو وقت الفناء في الذات ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ للتوكل مقامات: فتوكل المبتدىء قطع النظر عن الأسباب في طلب المرام ثقة بالمسبب، وتوكل المتوسط قطع تعلق الأسباب بالمسبب، وتوكل المنتهي قطع تعلق ما سوى الله والاعتصام ببابه. ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ وهو مقام الوصول إليّ فإن هذا مقام الأخص، وأما خوف

(138/417)

---

الخواص فعن مقام الجنة، وخوف العوام عن مقام النار ﴿ وخاف وعيد ﴾ القطيعة واستنصر القلب والروح من أمر الله على النفس والهوى. ﴿ من ورائه ﴾ أي قدام النفس في متابعة الهوى ﴿ جهنم ﴾ الصفات الذميمة ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ هو ما يتولد من الصفات والأخلاق من الأفعال الرذيلة، يسقى منه صاحب النفس الأمارة ﴿ يتجرعه ﴾ بالتكلف ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ لأنه ليس من شربه ﴿ يأتيه ﴾ أسباب ﴿ الموت من كل مكان ﴾ من كل فعل مذموم ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ هو عذاب القطيعة والبعد والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 183 184.﴾

(139/417)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر الآخرة في أول السورة ، ذكر ما هو ثابت لا نزاع فيه ، ثم جرّ الكلام إليه هنا على هذا الوجه الغريب ، وأتبعه مثل أعمال الكفار في الآخرة ، أتبع ذلك الدليل عليه وعلى أنه لا يسوغ في الحكمة في أعمال الضلال إلا الإبطال فقال : ﴿ ألم تر أن الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ خلق السماوات ﴾ على عظمها وارتفاعها

(140/417)

﴿ والأرض ﴾ على تباعد أقطارها واتساعها ﴿ بالحق ﴾ بالأمر الثابت من وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة لا بالخيال والتمويه كالسحر ، ومن المعلوم أنهما ظرف ، ولا يكون المظروف الذي هو المقصود بالذات إلا مثل ظرفه أو أعلى منه ، فكيف يظن أنه يخلق شيئاً فيهما سدى بأن يكون باطلاً فلا يبطله ، أو حقاً فلا يحقه ، أم كيف يتوهم أنه - مع القدرة على إخراجهما من العدم وهما أكبر خلقاً وأعظم شأناً - لا يقدر على إعادة من فيهما وهم أضعف أمراً وأصغر قدراً ، أو خلقهما بسبب الحق وهو إعادة الناس إعادة يثبتون بها ويبقون بقاء لا فناء بعده ، فتسبب عن ذلك أنه عظيم القدرة ، فهو بحيث ﴿ أن يشأ يذهبكم ﴾ أي بنوع من أنواع الإذهاب : الموت أو غيره ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ غيركم أو يأت بكم بعد أن فنيتم بحيث تعودون - كما أنتم - خلقاً جديداً ؛ والجديد : المقطوع عنه العمل في الابتداء ، وأصله القطع ، فالجد أب الأب ، انقطع عن الولادة بالأب ، والجد ضد الهزل ، يقطع به المسافة حساً أو معنى ﴿ وما ذلك ﴾ الإذهاب والإتيان على عظمه ﴿ على الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ بعزيز ﴾ وهو الممتنع بوجه من وجوه الامتناع لأنه ليس مثل خلق السماوات والأرض فضلاً عن أن يكون أعظم منه ، فلا وجه لقولكم ﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم ﴾ [ سبأ : 7 ] ، الآية لأن من قدر على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، فثبت بهذا إبعادهم في الضلال الموجب لهلاك أعمالهم - التي هي أسبابهم - الموجب لهلاكهم .

ولما ثبت بهذا البرهان قدرته على الإعادة بعد الموت ، عطف على قوله : ﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ [ إبراهيم : 18 ] قوله – بياناً لهو أن البعث عنده وسهولته عليه – : ﴿ وبرزوا ﴾ أي في ذلك اليوم ، عبر بصيغة المضي الذي وجد وتحقق ، لأن أخبار الملوك يجب تحققها لقدرتهم وغناهم عن الكذب ، فكيف بملك الملوك ! وفيه من هز النفس وروعتها ما ليس في العبارة بالمضارع لمن تأمل المعنى حق التأمل ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ جميعاً ﴾ فكانوا بحيث لا يخفى منهم خافية على ما هو متعارفهم ، لأنه لا ساتر لهم ، فإن البروز خروج لشيء عما كان ملتبساً به إلى حيث يقع عليه الحس في نفسه ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون من العذاب ، فتقطعت بهم الأسباب ﴿ فقال الضعفاء ﴾ أي الأتباع من أهل الضلال بسبب علمهم أنهم في القبضة لا ملجأ لهم ، تبكيتاً لرؤسائهم وتوبيخاً ، تصديقاً لقوله تعالى :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ] ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي طلبوا الكبر وادعوه فاستتبعوهم به حتى تكبروا على الرسل وأتباعهم ولم يكن لهم ذلك .

﴿ إنا كنا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ﴿ لكم تبعاً ﴾ أي تابعين أو ذوي تبع فكنتم سبب ضلالنا ، وقد جرت عادة الأكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم ﴿ فهل أنتم مغنون ﴾ أي دافعون ﴿ عنا من عذاب الله ﴾ أي الذي له العظمة كلها فلا يطاق انتقامه ، وأبلغوا بعد التبعيض ب " من " الأولى في التقليل ، فقالوا : ﴿ من شيء ﴾ كأن العذاب كان محتاجاً إلى أخذهم فأغنوه بشيء غيرهم حتى يجاوزهم لو دفعوه عنهم ، فكأنه قيل : إن ذلك لعادة الرؤساء ، فماذا قالوا ؟ فقيل : ﴿ قالوا ﴾ علماً منهم بأنه لا طاقة لهم على نوع من أنواع التصرف : لا نغني عنكم شيئاً ، بل كل مجزي بما فعل ، علينا إثم ضلالنا في أنفسنا وإضلالنا لكم ، وعليكم ضلالكم وذبكم عنا وتقويتكم لجانبنا حتى استكبرنا فاستغرقنا في الضلال ، ولو أن الله هداكم حتى تبعتم الأدلة التي سمعتموها كما سمعناها وتركتمونا ، لكسر ذلك من شدتنا وأوهى من شوكتنا ، فكان ربما يكون سبباً لهدايتنا كما أنه ﴿ لو هدانا الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ﴿ لهديناكم ﴾ فكان يكون لنا جزاء اهتدائنا وهدايتنا لكم ، ولكم جزاء اهتدائكم وتقويتكم لنا على ذلك ، ولكنه لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا تبعاً فأضللناكم .

ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع، قالوا: ﴿سواء علينا﴾ أي نحن وأنتم ﴿أجزعنا﴾ والجزع: انزعاج النفس بورود ما يغم ﴿أم صبرنا﴾ لا فائدة لنا في واحد منهما لأن الأمر أطم من ذلك فإنه ﴿ما لنا من محيص﴾ يصلح للمصدر والزمان والمكان، أي محيد وزوال عن المكروه على كلا التقديرين، فلم يبق في الجزاء إلا زيادة العذاب بسوء القالة وانتشار السبة، وهذا الاستفهام ليس على بابه، بل المراد به التنبيه على أنه حالهم مما ينبغي السؤال عنه وترديد الأمر فيه لينتهي عن مثله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 179.181﴾

(143/417)

---

" القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابورى رحمه الله:

القراءات: ﴿الرياح﴾ على الجمع: أبو جعفر ونافع. الباقون على التوحيد ﴿خالق السموات والأرض﴾ بلفظ اسم الفاعل: حمزة وعلي وخلف. الباقون بلفظ الفعل. ﴿سبلنا﴾ بإسكان الباء حيث كان: أبو عمرو ﴿لي عليكم﴾ بفتح الياء: حفص. ﴿بمصرخي﴾ بكسر الياء: حمزة. الآخرون بالفتح ﴿أشركتموني﴾ بالياء في الحالين:

سهل ويعقوب وابن شنبوذ عن قنبل ، وافق عمرو ويزيد وقتيبة وإسماعيل في الوصل ﴿ البوار ﴾ ممالة : أبو عمرو وعلي : ﴿ ليضلوا ﴾ بفتح الياء : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب . الباقون بضمها . ﴿ لعبادي الذين ﴾ مرسلة : الياء : ابن عامر وحمزة وعلي ويعقوب والأعشى . الباقون بالفتح . ﴿ من كل ﴾ بالتنوين : يزيد وعباس . الباقون بالإضافة .

(144/417)

---

الوقوف : ﴿ عاصف ﴾ ط بناء أن ما بعده مستأنف كأن سائلاً سأل هل يقدرون من أعمالهم ﴿ على شيء ﴾ ط ﴿ البعيد ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ جديد ﴾ 5 لا لأن ما بعده يتم معنى الكلام ﴿ بعزيز ﴾ 5 ﴿ من شيء ﴾ ط ﴿ لهديناكم ﴾ ط ﴿ محيص ﴾ 5 ﴿ فأخلفتكم ﴾ ط ﴿ فاستجبتم لي ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ أنفسكم ﴾ ط لابتداء النفي ﴿ بمصرخي ﴾ ط الحق أن من قال إن الابتداء بقوله : ﴿ إني كفرت ﴾ قبيح فجوابه أن الكفر بالإشراك واجب كالإيمان ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ 5 ﴿ بإذن ربهم ﴾ ط ﴿ سلام ﴾ 5 ﴿ في السماء ﴾ 5 لا ﴿ ربها ﴾ ط ﴿ يتذكرون ﴾ 5 ﴿ من قرار ﴾ ط ﴿ وفي الآخرة ﴾ ج لتكرار اسم الله تعالى في الفعلين

مع أن كليهما مستقل بخلاف قوله : ﴿ ويفعل الله ﴾ لأنه في المعنى بيان قوله : ﴿ ويضل الله ﴾ ﴿ وما يشاء ﴾ 5 ﴿ البوار ﴾ لا ﴿ جهنم ﴾ ج لأن ما بعده يصلح استئنافاً أو حالاً من فاعل ﴿ أحلوا ﴾ أو م مفعوله أو من كليهما ﴿ يصلونها ﴾ ط ﴿ القرار ﴾ 5 ﴿ عن سبيله ﴾ ط ﴿ إلى النار ﴾ 5 ﴿ ولا خلال ﴾ 5 ﴿ رزقاً لكم ﴾ ط ﴿ بأمره ﴾ ج ﴿ الأنهار ﴾ ج ﴿ دائبين ﴾ ج ﴿ والنهار ﴾ ج لحسن هذه الوقوف مع العطف لتفصيل النعم تنبيهاً على الشكر ﴿ سألتموه ﴾ ط لابتداء الشرط مع تمام الكلام ﴿ لا تحصوها ﴾ ط ﴿ كفار ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 186.185 ﴾

*(145/417)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) ﴾

اعلم أنه تعالى لما تمم هذا المثال قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

وجه النظم أنه تعالى لما بين أن أعمالهم تصير باطلة ضائعة ، بين أن ذلك البطلان والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ابتداء ، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لداعية الحكمة والصواب .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ خالق السموات والأرض ﴾ على اسم الفاعل على أنه خبر أن والسموات والأرض على الإضافة كقوله : ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ [ إبراهيم : 10 ] .

﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ [ الأنعام : 95 ] .

و ﴿ جَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ [ الأنعام : 96 ] والباقون خلق على فعل الماضي :

﴿ السموات والأرض ﴾ بالنصب لأنه مفعول .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ بالحق ﴾ نظير لقوله في سورة يونس : ﴿ وَمَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق ﴾ [ يونس : 5 ] ولقوله في آل عمران : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [ آل عمران : 191 ] ولقوله

في ص : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ [ ص : 27 ] أما أهل السنة فيقولون إلا بالحق وهو دلالتهما على وجود الصانع وعلمه وقدرته ، وأما المعتزلة فيقولون : إلا بالحق ، أي لم يخلق ذلك عبثاً بل لغرض صحيح .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ والمعنى : أن من كان قادراً على خلق السموات والأرض بالحق ، فبأن يقدر على إفناء قوم وإماتتهم وعلى إيجاد آخرين وإحيائهم كان أولى ، لأن القادر على الأصعب الأعظم بأن يكون قادراً على الأسهل الأضعف أولى .

(146/417)

---

قال ابن عباس : هذا الخطاب مع كفار مكة ، يريد أميتكم يا معشر الكفار ، وأخلق قوماً خيراً منكم وأطوع منكم .

ثم قال : ﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ أي ممتنع لما ذكرنا أن القادر على إفناء كل العالم وإيجاده بأن يكون قادراً على إفناء أشخاص مخصوصين وإيجاده أمثالهم أولى وأحرى ، والله أعلم .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا

مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف عذاب هؤلاء الكفار ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة، ذكر في هذه الآية كيفية خجالتهم عند تمسك أتباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم.

وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني الحاصل بسبب الفضيحة والخجالة، وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

برز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء.

ومنه يقال للمكان الواسع: البراز لظهوره، وقيل في قوله: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [ الكهف: 47 ] أي ظاهرة لا يسترها شيء، وامرأة برزة إذا كانت تظهر للناس.

ويقال: برز فلان على أقرانه إذا فاقهم وسبقهم، وأصله في الخيل إذا سبق أحدها.

قيل: برز عليها كأنه خرج من غمارها فظهر.

إذا عرفت هذا فنقول: ههنا أبحاث:

البحث الأول: قوله: ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله: ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ﴾ [ الأعراف: 50 ].

البحث الثاني: قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار وهذا في حق الله تعالى محال، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه: الأول: أنهم كانوا يستترون من العيون

عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية .

(147/417)

---

الثاني : أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه .

الثالث : وهو تأويل الحكماء أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله .

البحث الثالث : قال أبو بكر الأصم قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴾ هو المراد من قوله في الآية السابقة : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [ إبراهيم : 17 ] .

واعلم أن قوله : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴾ قريب من قوله : ﴿ يَوْمَ تبلى السرائر * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ [ الطارق : 9 ، 10 ] وذلك لأن البواطن تظهر في ذلك اليوم والأحوال الكامنة تنكشف فإن كانوا من السعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسية ، وأحوالهم العلوية ، ووجوههم المشرقة ، وأرواحهم الصافية المستنيرة فيتجلى لها نور الجلال ؛ ويعظم فيها إشراق عالم القدس ، فما أجل تلك الأحوال وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة ، ومنازل الكبرياء ذليلين مهينين خاضعين خاشعين واقعين في خزي الخجالة ،

ومذلة الفضيحة ، وموقف المهانة والفزع ، نعوذ بالله منها .

ثم حكى الله تعالى أن الضعفاء يقولون للرؤساء : هل تقدرون على دفع عذاب الله عنا ؟

والمعنى : أنه إنما اتبعناكم لهذا اليوم ، ثم إن الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذل .

قالوا : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ ومن المعلوم أن اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة والخزي الكامل التام ، فكان المقصود من ذكر هذه الآية : استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدم ذكره من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب نعوذ بالله منها ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

كتبوا الضعفاء بواو قبل الهمزة في بعض المصاحف ، والسبب فيه أنه كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ، ونظيره علماء بني إسرائيل .

المسألة الثالثة :

الضعفاء الأتباع والعوام، والذين استكبروا هم السادة والكبراء .

قال ابن عباس : المراد أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي في الدنيا .

قال الفراء وأكثر أهل اللغة : التبع تابع مثل خادم وخدم وباقر وبقر وحارس وحرس وراصد ورصد قال الزجاج : وجائز أن يكون مصدراً سمي به ، أي كنا ذوي تبع .

واعلم أن هذه التبعية يحتمل أن يقال : المراد منها التبعية في الكفر ، ويحتمل أن يكون المراد منها التبعية في أحوال الدنيا : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي هل يمكنكم دفع عذاب الله عنا .

فإن قيل : فما الفرق بين من في قوله : ﴿ مِّنْ عَذَابِ اللهِ ﴾ وبينه في قوله : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ .

قلنا : كلاهما للتبعيض بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو عذاب الله أي بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ وفيه وجوه الأول : قال ابن عباس : معناه لو أرشدنا الله لأرشدناكم ، قال الواحدي : معناه أنهم إنما دعوهم إلى الضلال ، لأن الله تعالى أضلهم ولم يهدهم فدعوا أتباعهم إلى الضلال ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى قال صاحب "الكشاف" : لعلهم قالوا ذلك مع أنهم كذبوا فيه ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً

فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [ المجادلة : 18 ] .

واعلم أن المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فكان هذا القول منه مخالفاً لأصول مشايخه فلا يقبل منه ، الثاني : قال صاحب "الكشاف" : يجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان .

وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بأن قال : لا يجوز حمل هذا على اللطف ، لأن ذلك قد فعله الله تعالى .

(149/417)

---

والثالث : أن يكون المعنى لو خلصنا الله من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم ، والدليل على أن المراد من الهدى هذا الذي ذكرناه أن هذا هو الذي التمسوه وطلبوه فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى .

ثم قال : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ أي مستو علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية ونظيره : ﴿ اصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ سَوَاء عَلَيْكُمْ ﴾ [ الطور : 16 ] ثم قالوا : ما لنا من محيص ، أي منجي ومهرب ، والمحيص قد يكون مصدراً كالمغيب والمشيب ، ومكاناً

كالمبيت والمضيق ، ويقال حاص عنه وحاض بمعنى واحد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 84.86 ﴾

*(150/417)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾

أي ظهروا بين يديه تعالى في القيامة . ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع .

﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم القادة المتبوعون .

﴿ إنا كُنّا لكم تبعاً ﴾ يعني في الكفر بالإجابة لكم .

﴿ فهل أنتم مغنون عَنّا مِن عذاب الله من شيء ﴾ أي دافعون عنا يقال أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع .

﴿ قالوا لو هَدانا الله لهديناكم ﴾ فيه ثلاثة أوجه

أحدها : لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه .

الثاني : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها .

الثالث : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه .

﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيصٍ ﴾ أي من منجى أو ملجأ ، قيل إن أهل النار يقولون : يا أهل النار إن قوماً جزعوا في الدنيا وبكوا ففازوا ، فيجزعون ويبكون . ثم يقولون : يا أهل النار إن قوماً صبروا في الدنيا ففازوا ، فيصبرون . فعند ذلك يقولون ﴿ سواءُ علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(151/417)

---

وقال ابن عطية :

وقرأ السلمي : " ألم تر " بسكون الراء ، بمعنى ألم تعلم من رؤية القلب . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر : " خلق السماوات " وقرأ حمزة والكسائي " خالق السماوات " فوجه الأولى : أنه فعل قد مضى ، فذكر كذلك ، ووجه الثانية : أنه ك ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 14 يوسف : 101 إبراهيم : 10 الزمر : 46 الشورى : 11 ] و ﴿ فالق الإصباح ﴾ [ الأنعام : 96 ] .

وقوله : ﴿ بالحق ﴾ أي بما يحق في جوده ، ومن جهة مصالح عباده ، وإنفاذ سابق قضائه ، ولتدل عليه وعلى قدرته . ثم توعد تبارك وتعالى بقوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي

يعدمكم ويطمس آثاركم . وقوله : ﴿ بخلق جديد ﴾ يصح أن يريد : من فرق بني آدم ، ويصح غير ذلك ، وقوله : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي بممتنع .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

﴿ برزوا ﴾ معناه ، صاروا بالبراز ، وهي الأرض المتسعة كالبراح والقواء والخبار فاستعير ذلك لجمع يوم القيامة .

وقولهم ﴿ تبعاً ﴾ يحتمل أن يكون مصدراً ، فيكون على نحو قولهم : قول عدل ، وقوم حرب ، ويحتمل أن يكون جمع تابع ، على غائب وغيب ، وهو تأويل الطبري .

(152/417)

---

وفسر الناس ﴿ الضعفاء ﴾ بالأتباع ، و" المستكبرين " بالقادة وأهل الرأي ، وقولهم ﴿ مغنون ﴾ من الغناء ، وهي المنفعة التي تكون من الإنسان للآخر في الدفاع وغيره ، وقوله : ﴿ أجزعنا ﴾ ألف التسوية ، وليست بألف استفهام ، بل هي كقوله : ﴿ آنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [ البقرة : 6 ] و" المحيص " المفر والملجأ ، مأخوذ من حاص يحيص إذا نفر وفر ومنه في حديث هرقل : فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، وروي عن ابن زيد

وعن محمد بن كعب : أن أهل النار يقولون : إنما نال أهل الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله ، فتعال فلنصبر ، فيصبرون خمسمائة سنة ، فلا ينتفعون ، فيقولون هلم فنجزع ، فيضجون ويصيحون ويبكون خمسمائة سنة أخرى ، فلا ينتفعون ، فحينئذ يقولون هذا القول الذي في الآية ، وظاهر الآية أنهم إنما يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تعالى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(153/417)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن معناه : ألم تُخْبَر ، قاله ابن السائب .

والثاني : ألم تعلم ، قاله مقاتل ، وأبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ قال المفسرون : أي : لم يخلقهن عبثاً ، وإنما خلقهن لأمر عظيم .

﴿ إِن يشأ يُذهبْكم ﴾ قال ابن عباس : يريد : يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم

خيراً منكم وأطوع ، وهذا خطاب لأهل مكة .

قوله تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي : بممتنع متعذِّر .

قوله تعالى : ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾

لفظه لفظ الماضي ، ومعناه المستقبل ، والمعنى : خرجوا من قبورهم يوم البعث ، واجتمع التابع والمتبوع ، ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم المتبوعون .

﴿ إنا كُنَّا لكم تَبَعاً ﴾ قال الزجاج : هو جمع تابع ، يقال : تابِع وتَبَع ، مِثْل : غائب وغَيَب ، والمعنى : تبعناكم فيما دعوتمونا إليه .

قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مُغْنون عنا ﴾ أي : دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شيء ﴾ .

قال القادة : ﴿ لو هدانا الله ﴾ أي : لو أرشدنا في الدنيا لأرشدناكم ، يريدون : أن الله أضلَّنا فدَعوناكم إلى الضلال ، ﴿ سواء علينا أجَزِعنا أم صَبَرنا ﴾ قال ابن زيد : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالَوْا نبكي ونضرع ، فإنما أدرك أهلُ الجنة الجنةَ ببكائهم وتضرُّعهم ، فَبَكَوْا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم ، قالوا : تعالَوْا نصبر ، فانما أدرك أهل الجنة الجنةَ بالصبر ، فصبروا صبراً لم يُرَ مثلُه قط ، فلم ينفعهم ذلك ، فعندها قالوا : "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص" وروى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم قال

: جَزِعوا مائة سنة ، وصبروا مائة سنة .

وقال مقاتل : جزعوا خمس مائة عام ، وصبروا خمس مائة عام .

وقد شرحنا معنى المحيص في سورة [ النساء : 121 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(154/417)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾

الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه ؟ .

وقرأ حمزة والكسائي "خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ" .

ومعنى "بِالْحَقّ" ليستدلّ بها على قدرته .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أيها الناس ؛ أي هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه ﴿ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة في الإبدال .

﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ أي منيع متعذر .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ للَّهِ جَمِيعاً ﴾

أي برزوا من قبورهم ، يعني يوم القيامة .

والبُرُوز الظّهور .

والبَرَاز المكان الواسع لظهوره ؛ ومنه امرأة بَرْزة أي تظهر للناس ؛ فمعنى ، "بَرَزُوا" ظهروا من قبورهم .

وجاء بلفظ ؛ الماضي ومعناه الاستقبال ، واتصل هذا بقوله : "وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ" أي وقاربوا لما استفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعاً لا يسترهم عنه ساتر .

"لِلَّهِ" لأجل أمر الله إيا هم بالبروز .

﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ وهم القادة .

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدراً ؛ التقدير : ذوي تبع .

ويجوز أن يكون جمع تابع ؛ مثل حارس وحَرَس ، وخادم وخَدَم ، وراصد ورَصَد ، وباقر وبَقَر .

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ ﴾ أي دافعون ﴿ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ ﴾ أي شيئاً ، و "مِن" صلة ؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع .

﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه .

وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهدينا كم إليها .

وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجينا كم منه .

(155/417)

---

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ ﴾ هذا ابتداء خبره "أَجَزِعْنَا" أي : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي من مهرب وملجأ .

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى الاسم ؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أي فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصاً وحُيُوصاً وحَيَصَاناً ؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا اشتد بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمَّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا "سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ" " .

وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ : ذُكِر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون ، فهلمّ فلنصبر ؛ فلعل الصّبر ينفعنا كما صبر أهل الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصّبر فصبروا ،

فطال صبرهم فجزعوا ، فنادوا : "سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيص" أي مَنجَى ، فقام إبليس عند ذلك فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ يقول : لست بمغنٍ عنكم شيئاً ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ الحديث بطوله ، وقد كتبناه في كتاب "التذكرة" بكماله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(156/417)

---

وقال الخازن :

﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ﴾

يعني لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً وإنما خلقها لأمر عظيم وغرض صحيح ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ يعني أيها الناس ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ يعني : سواكم أطوع لله منكم .

والمعنى : أن الذي قدر على خلق السموات والأرض ، قادر على إفناء قوم وإماتتهم وإيجاد خلق آخر سواهم لأن القادر لا يصعب عليه شيء .

وقيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يميتكم يا معشر الكفار ، ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم

وأطوع ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ يعني بممتنع لأن الأشياء كلها سهلة على الله ، وإن جلت وعظمت .

قوله ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ يعني خرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء ، وبرز حصل في البراز وذلك أن يظهر بذاته كلها والمعنى ، وخرجوا من قبورهم وظهروا إلى الفضاء وأورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله عنه ، فهو حق وصدق .

وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ﴿ فقال الضعفاء ﴾ يعني الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ ن كنا لكم تبعاً ﴾ يعني في الدين والاعتقاد ﴿ فهل أنتم ﴾ يعني في هذا اليوم ﴿ مغنون عنا ﴾ يعني دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شيء ﴾ من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على أن تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذي حل بنا ﴿ قالوا ﴾ يعني الرؤساء والقادة ، والمتبوعين للتابعين ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ يعني لو أرشدنا الله لأرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ يعني مستويان علينا الجزع والصبر .

والجزع ، أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه عنه ﴿ ما لنا من محيص ﴾ يعني من مهرب ، ولا مناجاة مما نحن فيه من العذاب .

قال مقاتل : يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون : تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص .

وقال محمد بن كعب القرظي : بلغني أن أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة ، نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله : إنكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض : تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا ، فلم ينفعهم عند ذلك قالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

الجزع : عدم احتمال الشدة ، وهو نقيض الصبر .

قال الشاعر :

جزعت ولم أجزع من البين مجزعاً . . .

وعذبت قلباً بالكواعب مولعا

﴿ ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز .

وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ : قرأ السلمي ألم تر بسكون الراء ، ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف .

وتوجيه آخر وهو أنْ ترى حذفت العرب ألفها في قولهم : قام القوم ولو تر ما زيد ، كما حذفت ياء لا أبالي في لا أبال ، فلما دخل الجازم تخيل أنّ الراء هي آخر الكلمة فسكنت للجازم كما قالوا في : لا أبالي لم أبل ، تخيلوا اللام آخر الكلمة .

والرؤية هنا بمعنى العلم ، فهي من رؤية القلب .

وقرأ الإخوان : خالق اسم فاعل ، والأرض بالخفض .

قرأ باقي السبعة : خلق فعلاً ماضياً ، والأرض بالفتح .

ومعنى بالحق قال الزمخشري : بالحكمة ، والغرض الصحيح ، والأمر العظيم ، ولم يخلقها عبثاً ولا شهوة .

وقال ابن عطية : بالحق أي بما يحق من جهة مصالح عباده ، وإنفاذ سابق قضائه ، وليدل عليه وعلى قدرته .

وقيل : بقوله وكلامه .

وقيل : بالحق حال أي محقاً ، والظاهر أن قوله : يذهبكم ، خطاب عام للناس .

وعن ابن عباس : خطاب للكفار .

ويأت بخلق جديد : يحتمل أن يكون المعنى : إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بناس آخرين من جنسكم آدميين ، ويحتمل من غير جنسكم .

والأول قول جمهور المفسرين ، وتقدم نحو هذين الاحتمالين للمفسرين في قوله في النساء : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ﴾ وبينا في ذلك أنه لا يحتمل إلا الوجه الأول .

وما ذلك أي : وما ذهابكم والإتيان بخلق جديد بممتنع ولا متعذر عليه تعالى ، لأنه تعالى هو القادر على ما يشاء .

وقال الزمخشري : لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، فإذا خلص له الداعي إلى شيء ، وانتفى الصارف ، تكون من غير توقف كتحريك أصبعك .

وإذا دعا إليه داع ولم يعترض من دونه صارف انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال لقوله : القادر ، لأنهم يثبتون القادرية وينفون القدرة ، ولتشبيه فعله تعالى بفعل العبد في قوله : كتحريك أصبعك .

وعندنا أن تحريك أصبعنا ليس إلا بقدرة الله تعالى ، وأنّ ما نسب إلينا من القدرة ليس مؤثراً في إيجاد شيء .

وقال الزمخشري أيضاً : وهذه الآية بيان لإبعادهم في الضلال ، وعظيم خطبهم في الكفر بالله ، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة ، وحكمته البالغة ، وأنه هو الحقيق بأن يعبد ويخاف عقابه ، ويرجى ثوابه في دار الجزاء انتهى .

وبرزوا : أي ظهروا من قبورهم إلى جزاء الله وحسابه .

وقال الزمخشري : ومعنى بروزهم لله ، والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ، ويظنون أنّ ذلك خافٍ على الله ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم ، وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية .

وقال ابن عطية : وبرزوا معناه صاروا بالبراز وهي الأرض المتسعة ، فاستعير ذلك لجميع يوم القيامة .

وقال أبو عبد الله الرازي : تأويل الحكماء أنّ النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها ، وذلك هو البروز لله تعالى .

وهذا الرجل كثيراً ما يورد كلام الفلاسفة وهم مباينون لأهل الشرائع في تفسير كلام الله تعالى المنزل بلغة العرب ، والعرب لا تفهم شيئاً من مفاهيم أهل الفلسفة ، فتفسيرهم كاللغز والأحاجي ، ويسميهم هذا الرجل حكماء ، وهم من أجهل الكفرة بالله تعالى وبأنبيائه .

(160/417)

---

والضمير في وبرزوا عائد على الخلق المحاسبين ، وعبر بلفظ الماضي لصدق المخبر به ، فكأنه قد وقع .

وقرأ زيد بن علي : وبرزوا مبنياً للمفعول ، وبتشديد الراء .

والضعفاء : الأتباع ، والعوام .

وكتب بواو في المصحف قبل الهمزة على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ، ومثله علمؤا بني إسرائيل .

والذين استكبروا : هم رؤساؤهم وقاداتهم ، استغووا الضعفاء واستتبعوهم .

واستكبروا وتكبروا ، وأظهروا تعظيم أنفسهم .

أو استكبروا عن اتباع الرسل وعبادة الله .

وتبعاً : يحتمل أن يكون اسم جمع لتابع ، كخادم وخدم ، وغائب وغيب .

ويحتمل أن يكون مصدراً كقوله : عدل ورضا .

وهل أنتم مغنون ؟ استفهام معناه توبيخهم إياهم وتقريعهم ، وقد علموا أنهم لن يغنوا والمعنى : إنا اتبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتمونا وما أغنيتم عنا شيئاً ، فلذلك جاء جوابهم : لو هدانا الله لهديناكم ، أجابوا بذلك على سبيل الاعتذار والخجل ورد الهداية لله تعالى ، وهو كلام حق في نفسه .

وقال الزمخشري : من الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله ؟ ويجوز أن يكونا للتبعيض معاً بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء ، هو بعض عذاب الله أي : بعض بعض عذاب الله انتهى .

وهذان التوجيهان اللذان وجههما الزمخشري في من في المكانين يقتضي أولهما التقديم في قوله : من شيء على قوله : من عذاب الله ، لأنه جعل من شيء هو المبين بقوله : من عذاب الله .

ومن التبيينية يتقدم عليها ما تبينه ، ولا يتأخروا لتوجيه لثاني ، وهو بعض شيء ، هو بعض

العذاب يقتضي أن يكون بدلاً ، فيكون بدل عام من خاص ، لأنّ من شيء أعم من قوله : من عذاب الله ، وإن عنى بشيء شيئاً من العذاب فيؤول المعنى إلى ما قدر ، وهو بعض بعض عذاب الله .

وهذا لا يقال ، لأنّ بعضية الشيء مطلقة ، فلا يكون لها بعض .

(161/417)

---

ونص الحوفي ، وأبو البقاء : على أنّ مِن في قوله : من شيء ، زائدة .

قال الحوفي : من عذاب الله متعلق بمغنون ، ومن في من شيء لاستغراق الجنس ، زائدة للتوكيد .

وقال أبو البقاء : ومِن زائدة أي : شيئاً كائناً من عذاب الله ، ويكون محمولاً على المعنى تقديره : هل تمنعون عنا شيئاً ؟ ويجوز أن يكون شيء واقعاً موقع المصدر أي : غنى فيكون من عذاب الله متعلقاً بمغنون انتهى .

ومسوغ الزيادة كون الخبر في سياق الاستفهام ، فكان الاستفهام دخل عليه وباشره ، وصارت الزيادة هنا كالزيادة في تركيب : فهل تغنون .

وقال الزمخشري : أجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم بأنّ الله لو هداهم إلى الإيمان

لهدوهم ، ولم يضلوهم إما مدركين الذنب في ضلالهم ، وإضلالهم على الله كما حكى الله عنهم .

وقالوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ، يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا ، ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ انتهى .

وحكى أبو عبد الله الرازي عن الزمخشري أنهم قالوا ذلك مع أنهم كذبوا فيه ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء .

قال أبو عبد الله الرازي : واعلم أنّ المعتزلة لا يجوزون صدور الكذب على أهل القيامة ، فكان هذا القول منه مخالفاً لأصول مشايخه ، لا يقبل منه .

وقال الزمخشري أيضاً : ويجوز أن يكون المعنى : لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا . واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان .

قال أبو عبد الله الرازي : وذكر القاضي هذا الوجه وزيفه بأنْ قال : لا يجوز حمل هذا على اللطف ، لأن ذلك قد فعله الله .

وقيل : لو خلصنا الله من العذاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم .

وقال الزمخشري في بسط هذا القول : لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهدينا كم أي : لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة ، كما سلكنا بكم سبيل الهلكة انتهى .

وقيل : ويدل على أنّ المراد بالهدى الهدى إلى طريق الجنة ، أنه هو الذي التمسوه وطلبوه ، فوجب أن يكون المراد .

وقال ابن عباس : لو أرشدنا الله لأرشدنا كم .

والظاهر أنّ قوله : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا إلى آخره ، داخل تحت قول المستكبرين ، وجاءت جملة بلا واو عطف ، كأن كل جملة أنشئت مستقلة غير معطوفة ، وإن كانت مرتبطاً بعضها ببعض من جهة المعنى لأنّ سؤالهم : هل أنتم مغنون عنا ؟ إنما كان لجزعهم مما هم فيه فقالوا ذلك : سوّوا بينهم ، وبينهم في ذلك لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها ، يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر .

ولما قالوا : لو هدانا الله ، أتبعوا ذلك بالإقناط من النجاة فقالوا : ما لنا من محيص : أي منجى ومهرب ، جزعنا أم صبرنا .

وقيل : سواء علينا من كلام الضعفاء والذين استكبروا والتقدير : قالوا جميعاً سواء علينا يخبرون عن حالهم .

وتقدم الكلام في مثل هذه التسوية في أول البقرة ، والظاهر أن هذه المحاورة بين الضعاء

والرؤساء هي في موضع العرض وقت البروز بين يدي الله .

وعن محمد بن كعب ، وابن زيد : أن قولهم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، بعد صبرهم في النار خمسمائة عام ، وبعد جزعهم مثلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(163/417)

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

خطابٌ للرسول صلى الله عليه وسلم والمرادُ به أمتُه ، وقيل : لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى : ﴿ يُذْهِبْكُمْ ﴾ والرؤية رؤيةُ القلب وقوله تعالى : ﴿ أَنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعوليها ، أي ألم تعلمْ أنه تعالى خلقهما ﴿ بالحق ﴾ ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحق أن تخلَقَ عليه ، وقرىء خالقُ السموات والأرض ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يُعدمْكم بالمرة ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي يخلُق بدلكم خلقاً آخرَ مستأنَفاً لا علاقة بينكم وبينهم ، رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والأرض على هذا النمط البديعِ إرشاداً إلى طريق الاستدلالِ فإن من قدَر على خلق مثلِ هاتيك الأجرامِ العظيمةِ كان على تبديل خلق آخرَ بهم أقدر ولذلك قال : ﴿

وَمَا ذلك ﴾ أي إذهابُكم والإتيانُ بخلق جديد مكانكم ﴿ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أم متعسر فإنه قادرٌ بذاته على الممكِنات لا اختصاصَ له بمقدورٍ دون مقدور ، ومَنْ هذا شأنُه حقيقٌ بأن يؤمَنَ به ويرجى ثوابُه ويُخشى عقابه .

(164/417)

---

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي يبرُزون يوم القيامة ، وإيثارُ صيغة الماضي للدّلالة على تحقق وقوعِه كما في قوله سبحانه : ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ أو لأنه لا مُضِيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه ، والمرادُ بروزُهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته ، أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابِهم الفواحشَ سراً أنها تخفى على الله سبحانه ، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسِهم ﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ الأتباعُ جمع ضعيف ، والمرادُ ضعفُ الرأي ، وإنما كُتب بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغوَوْهم ﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراضِ عن نصائحهم ، وهو جمعُ تابع كغيب في جمع غائب ، أو مصدر نُعت به مبالغةً ، أو على إضمار أي ذوي تبع ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ دافعون ﴿ عَنَّا ﴾ والفاء للدِلالة على سببية الاتباعِ للإغناء ، والمرادُ التوبيخ

والعتابُ والتقريعُ والتبكيت ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَىْء ﴾ من الأولى للبيان واقعةٌ موقعَ الحال ، والثانية للتبعيض واقعةٌ موقعَ المفعول ، أي بعضُ الشيء الذي هو عذابُ الله تعالى ويجوز كونُهما للتبعيض أي بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذاب الله والإعراب كما سبق ويجوز أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدراً أي فهل أنتم مغنون عنا بعضَ العذاب بعضَ الإغناء ، ويعضُد الأولَ قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ﴾ .

(165/417)

---

﴿ قَالُواْ ﴾ أي المستكبرون جواباً عن معاتبة الأتباعِ واعتذاراً عما فعلوا بهم ﴿ لَوْ هَدَانَا الله ﴾ أي للإيمان ووفّقنا له ﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن ضَلَلْنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، أو لو هدانا الله طريقَ النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرّضناكم له ، ولكن سُدّ دوننا طريقُ الخلاص ولاتَ حينَ مناص ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا ﴾ مما لقِينا ﴿ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ على ذلك أي مستوٍ علينا الجزَعُ والصبرُ في عدم الإنجاء ، والهمزةُ وأم لتأكيد التسويةِ كما في قوله تعالى : ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ وإنما أسندوهما ونسبوا استواءَهما إلى ضمير المتكلم المنتظِم للمخاطبين أيضاً مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنهم شركاءُ لهم فيها ابتُلوا به وتسليةً لهم ، ويجوز أن يكون قوله :

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ الخ ، من كلام الفريقين على مِنوال قوله تعالى : ﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ ﴾ ويؤيده ما روي ( أنهم يقولون : تعالَوا نجزَعْ فيجزعون خمسَمائة عام فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالَوا نصبِرْ فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ) ، ولما كان عتابُ الأتباع من باب الجزَعِ ذيّلوا جوابَهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا : ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ من منجى ومهرب من العذاب ، من حاص الحمارُ إذا عدل بالفرار ، وهو إما اسمُ مكان كالمبيت والمَصيف ، أو مصدرٌ كالمغيب والمشيب وهي جملةٌ مفسِّرة لإجمال ما فيه الاستواءُ فلا محل لها من الإعراب ، أو حالٌ مؤكدة ، أو بدلٌ منه . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(166/417)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته الذين بعث إليهم ، وقيل : خطاب لكل واحد من الكفرة لقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ والرؤية رؤية القلب ، وقوله تعالى : ﴿ أَنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ساد مسد مفعوليها أي ألم تعلم أنه تعالى

خلقهما ﴿ بالحق ﴾ أي ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذي يحق أن يخلق عليه .

وقرأ السلمي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ بسكون الراء ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، قال أبوحيان : وتوجيه آخر وهو أن ﴿ تَرَى ﴾ حذفت العرب ألفها في قولهم : قام القوم ولو تر ما زيد كما حذفت ياء لا أبالي وقالوا لا أبال فلما دخل الجازم تخيل أن الراء هي آخر الكلمة فسكنت للجازم كما قالوا في لا أبال لم أبل ، تخيلوا اللام آخر الكلمة ، والمشهور التوجيه الأول .

وقرأ الأخوان ﴿ خالق السموات والأرض ﴾ بصيغة اسم الفاعل والإضافة وجر ﴿ الأرض ﴾ .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يعدمكم أيها الناس كما قاله جماعة أو أيها الكفرة كما روى عن ابن عباس بالمرة ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي يخلق بدلكم خلقاً مستأنفاً لا علاقة بينكم وبينهم ، والجمهور على أنه من جنس الآدميين ، وذهب آخرون إلى أنه أعم من أن يكون من ذلك الجنس أو من غيره ، أورد سبحانه هذه الشرطية بعد أن ذكر خلقه السموات والأرض إرشاداً إلى طريق الاستدلال فإن من قدر على خلق مثل هاتيك الأجرام العظيم كان على إعدام المخاطبين وخلق آخرين بدلهم أقدر ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمَا ذلك ﴾ أي المذكور من إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ﴿ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ

﴿ بمتعذر أو متعسر فإنه سبحانه وتعالى قادر بذاته لا باستعانة وواسطة على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور .

*(167/417)*

---

وهذه الآية على ما في "الكشاف" بيان لإبعادهم في الضلال وعظم خطبهم في الكفر بالله تعالى لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه .

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

أي يبرزون يوم القيامة ، وإيثار الماضي لتحقق الوقوع أو لأنه لا مضي ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه ، والمراد ببروزهم لله ظهورهم من قبورهم للرائين لأجل حساب الله تعالى ، فاللام للتعليل وفي الكلام حذف مضاف ، وجوز أن تكون اللام صلة البروز وليس هناك حذف مضاف ، ويراد أنهم ظهروا له عز شأنه عند أنفسهم وعلى زعمهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سراً أنها تخفى على الله تعالى فإذا كان يوم القيامة انكشفوا له تعالى عند أنفسهم وعلموا أنه لا تخفى عليه جل شأنه خافية ، وقال ابن عطية : معنى برزوا صاروا بالبراز وهي الأرض المتسعة فاستعير ذلك لمجمع يوم القيامة ، وهذا ميل إلى

التعليل والحذف.

ونقل الإمام عن الحكماء في تأول البروز أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء وبقيت مجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها وذلك هو البروز لله تعالى وهو كلام تعده العرب من الأحاجي ولذا لم يلتفت إليه المحدثون.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ وَبُرِّزُوا ﴾ مبنياً للمفعول وبتشديد الراء، والمراد أظهرهم الله تعالى وأخرجهم من قبورهم لمحاسبته ﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ جمع ضعيف، والمراد بهم ضعاف الرأي وهم الاتباع، وكتب في المصحف العثماني بواو قبل الهمزة، ووجه ذلك بأنه على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو، ونظيره ﴿ عُلَمَاؤُا بني إسرائيل ﴾ [ الشعراء : 197 ].

(168/417)

---

ورد ذلك الجعبي قائلاً: إنه ليس من لغة العرب ولا حاجة للتوجيه بذلك لأن الرسم سنة متبعة، وزعم ابن قتيبة أنه لغة ضعيفة، ولو وجه بأنه اتباع للفظه في الوقف فإن من القراء من يقف في مثل ذلك بالواو كان حسناً صحيحاً كذا ذكر فليراجع.

ولعل من أنصف لا يرى أحسن من ترك التوجيه.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ أي لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم ﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾ في الدنيا ﴿ لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في تكذيب الرسل عليهم السلام والإعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كخادم وخدم وغايب وغيب أو اسم جمع لذلك ولم يذكر كونه جمعاً في "البحر" .

أو هو مصدر نعت به مبالغة أو بتأويل أو بتقدير مضاف أي تابعين أو ذوي تبع ؛ وبه على سائر الاحتمالات يتعلق الجار والمجرور ، والتقديم للحصر أي تبعاً لكم لا لغيركم .

وقيل : المعنى : إنا تبع لكم لا لرأينا ولذا سماهم الله تعالى ضعفاء ، ولا يلزم منه كون الرؤساء أقوياء الرأي حيث ضلوا وأضلوا ، ولو حمل الضعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسن وليس بذاك .

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ استفهام أريد به التوبيخ والتقريع ، والفاء للدلة على سببية الاتباع للإغناء ، وهو من الغناء بمعنى الفائدة وضمن معنى الدفع ولذا عدى بعن أي إنا اتبعناكم فميا كنتم فيه من الضلال فهل أنتم اليوم دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله تعالى بناء على ما قيل : إن ﴿ مِنْ ﴾ الثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول للوصف السابق والأولى للبيان وهي واقعة موقع الحال من مجرور الثانية لأنها لو تأخرت كانت صفة له وصفة النكرة إذا قدمت أعربت حالاً ، واعترض هذا الوجه بأن فيه تقديم من البيانية على ما تبينه وهو لا يجوز ، وكذا تقديم الحال على صاحبها المجرور .

وأجيب بأن في كل من هذين الأمرين اختلافاً ، وقد أجاز جماعة تقديم ﴿ مِنْ ﴾ البيانية وصحح ذلك لأنه إنما يفوت بالتقديم الوصفية لا البيانية ، وكذا أجاز كثير كابن كيسان وغيرهم تقديم الحال على صاحبها المجرور فلعل الذاهب إلى هذا الوجه في الآية يرى رأي المجوزين لكل من التقديمين .

وقال بعض المدققين : جاز تقديم هذه الحال لأنها في الحقيقة عما سد مسده من شيء أعني بعض لا عن المجرور وحده ، وفيه من البعد ما لا يخفى ، وجوز أن تكون الأولى والثانية للتبعيض ، والمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله تعالى ؛ والإعراب كما سبق ، واختار بعضهم على هذا كون الحال عما سد مسده من شيء إذ لو جعل حالاً عن المجرور لآل الكلام إلى هل أنتم مغنون عنا بعض بعض عذاب الله تعالى ولا معنى له ، وفيه أنه يفيد المبالغة في عدم الغناء كقولهم : أقل من القليل فنفي المعنى لا معنى له ، ولا يصح الإلغاء إذ لا يصح أن يتعلق بفعل ظرفان من جنس دون ملابسة بينهما تصحح التبعية ، وجعل الثاني بدلاً من الأول يأباه كما في "الكشف" اللفظ والمعنى ؛ وقد تعقب أبو حيان توجيه التبعيض في المكانين كما سمعت بأن ذلك يقتضي البدلية فيكون بدل عام

من خاص لأن ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أعم من قوله : ﴿ مِنْ عَذَابِ ﴾ وهذا لا يقال : لأن بعضية الشيء مطلقة فلا يكون لها بعض ، ومما ذكرنا يعلم ما فيه .

وجوز أن تكون الأولى مفعولاً والثانية صفة مصدر سادة مسده ، والشيء عبارة عن إغناء ما أي فهل أنتم مغنون عنا بعض عذاب الله بعض الإغناء .

وتعقب بأنه يلزم على هذا أن يتعلق بعامل ظرفان إلى آخر ما سمعت آنفاً ، وفيه نظر لأن لكون أحدهما في تأويل المفعول به والآخر في تأويل المفعول المطلق صح التعلق ولم يكونا من جنس واحد ، وقد يقال : إن تقييد الفعل بالثاني بعد اعتبار تقييده بالأول فليس العامل واحداً .

ونص الحوفي .

*(170/417)*

---

وأبو البقاء على أن ﴿ مِنْ ﴾ الثانية زائدة للتوكيد وسوغ زيادتها تقدم الاستفهام الذي هو هنا في معنى النفي ، و ﴿ عَذَابُ الله ﴾ أما متعلق بمغنون أو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً كائناً من عذاب الله تعالى أو مغنون من عذاب الله تعالى غناء ما ﴿ قَالُواْ ﴾ أي المستكبرون جواباً عن توبيخ الضعفاء وتقريعهم واعتذاراً عما فعلوا بهم :

﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ ﴾ إلى الايمان ووفقنا له ﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن ضللنا فضللناكم أي اهترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا ، وحاصله على ما قيل : إن ما كان منا في حكم هو النصح لكن قصرنا في رأينا ، وقال الزمخشري : إنهم وركوا الذنب في ضلالهم وإضلالهم على الله تعالى وكذبوا في ذلك ، ويدل على وقوع الكذب من أمثالهم يوم القيامة قوله تعالى حكاية عن المنافقين :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ [ المجادلة : 18 ] وقد خالف في ذلك أصول مشايخه لأنهم لا يجوزون صدور الكذب عن أهل القيامة فلا يقبل منه ، وجوز أن يكون المعنى لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الايمان ، ونقل ذلك القاضي وزيفه كما ذكره الإمام ، وقيل : المعنى لو هدانا الله تعالى إلى الرجعة إلى الدنيا فنصلح ما أفسدناه لهديناكم وهو كما ترى ، وقال الجياني .

وأبو مسلم : المراد لو هدانا الله تعالى إلى طريق الخلاص من العقاب والوصول إلى النعيم والثواب لهديناكم إلى ذلك ، وحاصله لو خلصنا لخلصناكم أيضاً لكن لا مطمع فيه لنا ولكم ، قال الإمام : والدليل على أن المراد من الهدي هو هذا أنه الذي طلبوه والتمسوه .

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا ﴾ مما لقينا ﴿ أَمْ صَبَرْنَا ﴾ على ذلك و﴿ سَوَآءٌ ﴾ اسم بمعنى الاستواء مرفوع على الخبرية للفعل المذكور بعده لأنه مجرد عن النسبة والزمان فحكمه حكم المصدر والهمزة و﴿ أَمْ ﴾ قد جردتا عن الاستفهام لمجرد التسوية ولذا صارت الجملة خبرية فكأنه قيل: جزعنا وصبرنا سواء علينا أي سيان، وإنما أفرد الخبر لأنه مصدر في الأصل، وقال الرضي في مثله: إن ﴿ سَوَآءٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمران سواء ثم بين الأمر أن بقولهم: ﴿ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ وما قيل: من أن ﴿ سَوَآءٌ ﴾ خبر مبتدأ والجملة جزاء للجملة المذكورة بعد لتضمنها معنى الشرط، وإفادة همزة الاستفهام معنى إن لاشتراكهما في الدلالة على عدم الجزم، والتقدير إن جزعنا أم صبرنا فالأمران سيان فتكلف كما لا يخفى، والجزع حزن يصرف عما يراد فهو حزن شديد.

وفي البحر هو عدم احتمال الشدة فهو نقيض الصبر، وإنما أسندوا كلاً من الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضاً مبالغة في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم.

وجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين فهو مردود إلى ما سيق له الكلام وهم الفريقان، ولا نظر إلى القرب كما قيل في قوله تعالى:

﴿ ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بالغيب ﴾ [يوسف: 52] وأيد ذلك بما أخرجه ابن أبي

حاتم .

والطبراني .

وابن مردويه عن كعب بن مالك رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يظن أنه قال :

"يقول أهل النار : هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا :

هلموا فلنجزع فيبكون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا

أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ الآية ، وإلى كون هذه المحاورة بين الضعفاء والمستكبرين في النار

ذهب بعضهم ميلاً لظواهر الأخبار .

(172/417)

---

واستظهر أبو حيان أنها في موضع العرض وقت البروز بين يدي الله تعال ، ى وقول الاتباع :

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ جزع منهم ، وكذا جواب الرؤساء باعترافهم بالضلال ،

واحتمال أنه من كلام الأولين فقط خلاف الظاهر جداً ، وقوله تعالى : ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ

﴾ جملة مفسرة لاجمال ما فيه الاستواء فلا محل لها من الإعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه

، والمحيص من حاص حاد وفر ، وهو إما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر ميمي

كالمغيب والمشيب ، والمعنى ليس لنا محل ننجوا فيه من عذابه أولاً نجاة لنا من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(173/417)

---

وقال القاسمى :

﴿ أَلَمْ ترَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والمراد به أمته . أو لكل أحد من الكفرة لقوله ( يذهبكم ) والرؤية رؤية القلب .

وفي الآية وجهان من التأويل : أحدهما : أنها سيقت لبيان قدرته تعالى على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس . أي : أفليس الذي قدر على هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبراري وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ الأحقاف : 33 ] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [ يس : 77 – 81 ] .

(174/417)

---

الوجه الثاني : ترهيب المشركين بأنهم غير معجزين ، أي : إن يشأ يهلككم إذا خالفتم أمره ويخلف قوماً خيراً منكم ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [ محمد : من الآية 38 ] ، وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ [ النساء : 133 ] .

وقوله تعالى : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالحكمة المنزهة عن العبث كقوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ [ آل عِمْرَان : من الآية 191 ] ، وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ [ ص : من الآية 27 ] ، وقوله : ﴿ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [ يونس : من الآية 5 ] ، وذلك ليتفكر في خلقها ويستدل بها على وجود بارئها وقدرته

ووحدته .

ثم أخبر تعالى عن تخاصم المجرمين في المحشر وتبرئهم من بعضهم ، بقوله سبحانه :

(175/417)

---

﴿ وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً ﴾ أي : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ، أو برزوا من قبورهم ، أي : ظهروا لذلك : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ وهم الأتباع : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ ﴾ أي : على الرسل وهم قادتهم - توبيخاً لهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ أي : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي : بعض الإغناء : ﴿ قَالُواْ ﴾ أي : المستكبرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ إحالة لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، أو لو هدانا باهتدائنا ، ولكن زغنا فأزاغنا ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [ الصف : من الآية 5 ] ، ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي : منجى ومهرب من العذاب . ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [ سبأ : من الآية 31 ] .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها لآية : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ ﴾ [ غافر : 47 ] .

(176/417)

---

ولا يخفى أن الآية في هذه السورة تصدق بالتخاصم في الموقف وفي النار ؛ لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها ؛ لكون ذلك في النار فقط ، كما ادّعاه . وربما كان قوله : ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ فِي النَّارِ ﴾ ويجوز أن يكون مرة واحدة . والمراد بـ ( النار ) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأي عذاب ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 10 ص 320.318 ﴾

(177/417)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

استئناف بياني ناشئ عن جملة ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال : كيف تهلك فئة مثل هؤلاء ؟ ؟ فيجاب بأن الله الذي قدر على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونها ، فمبدأ الاستئناف هو قوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ .

وموقع جملة ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ﴾ موقع التعليل لجملة الاستئناف ، قدم عليها كما تجعل النتيجة مقدمة في الخطابة والجِدال على دليلها .

وقد بيناه في كتاب "أصول الخطابة" .

ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرق الرماد في يوم عاصف .

والخطاب في ﴿ ألم تر ﴾ لكل من يصلح للخطاب غير معيّن ، وكل مَن يظن به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين .

والرؤية : مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتأمل ، لأن السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر ، وأما كونها مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمل لسهولة الانتقال من المشاهدة إلى العلم ، وأما كون ذلك ملتبساً بالحق فمحتاج إلى تأمل عميق .

فلمّا كان أصل ذلك كله رؤية المخلوقات المذكورة علق الاستدلال على الرؤية، كقوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ﴾ [سورة إبراهيم : 101].

والحق هنا : الحكمة، أي ضد العبث، بدليل مقابلته به في قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [سورة الدخان : 38، 39].

وقرأه حمزة، والكسائي، وخلَف خلق السموات والأرض ﴾ بصيغة اسم الفاعل مضاف إلى ﴿ السموات ﴾ وبخفض ﴿ والأرض ﴾.

والخطاب في ﴿ يذهبكم ﴾ لجماعة من جملتهم المخاطب بـ ﴿ ألم تر ﴾.

*(178/417)*

---

والمقصود : التعريض بالمشركين خاصة، تأكيداً لوعيدهم الذي اقتضاه قوله : ﴿ لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾، أي إن شاء أعدم الناس كلهم وخلق ناساً آخرين.

وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجاً للتعليم بالوعيد وإظهاراً لعظيم القدرة.

وفيه إيماء إلى أنه يذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض .

وجملة ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ عطف على جملة ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ مؤكد لمضمونها ، وإنما سلك بهذا التأكيد ملك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكد في الجملة بأنه يفيد أن هذا المَشيء سهل عليه هين ، كقوله : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [ سورة الروم : 27 ] .

والعزيز على أحدٍ : المتعاصي عليه الممتنع بقوته وأنصاره .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

عطف على جملة ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ [ إبراهيم : 20 ] باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب ، وفي الكلام محذوف ، إذ التقدير : فأذْهَبهم وبرزوا لله جميعاً ، أي يوم القيامة .

وكان مقتضى الظاهر أن يقول : ويبرزون لله ، فعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع ، مثل قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ [ سورة النحل : 1 ] .

والبروز : الخروج من مكان حاجب من بيت أو قرية .

والمعنى : حشروا من القبور .

وجميعاً ﴾ تأكيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيفٍ .

وقد جيء في هذه الآية بوصف حَال الفرق يوم القيامة ، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم ، ومجادلة الجميع للشيطان ، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنُزل الكرامة .

والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارك شأنهم قبل الفوات .

فالمقصود : التحذير مما يفضي إلى سوء المصير .

(179/417)

---

واللام الجارة لاسم الجلالة معدية فعل ﴿ برزوا ﴾ إلى المجرور .

يقال : برز لفلان ، إذا ظهر له ، أي حضر بين يديه ، كما يقال : ظهر له .

والضعفاء : عوامّ الناس والأتباع .

والذين استكبروا : السادة ، لأنهم يتكبرون على العموم وكان التكبر شعار السادة .

والسين والتاء للمبالغة في الكبر .

والتَبع : اسم جمع التابع مثل الخَدَم والخَوَل ، والفاء لتفريع الاستكبار على التبعية لأنها سبب يقتضي الشفاعة لهم .

وموجب تقديم المسند إليه على المسند في ﴿ فهل أنتم مغنون عنا ﴾ أن المستفهم عنه

كون المستكبرين يغنون عنهم لا أصل الغَناء عنهم ، لأنهم آيسون منه لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم .

كما تدلّ عليه حكاية قول المستكبرين ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ ، فعلموا أنهم قد غروهم في الدنيا ، فتعيّن أن الاستفهام مستعمل في التورّك والتوبيخ والتبكيت ، أي فأظهروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا .

فإيلاء المسند إليه حرف الاستفهام قرينة على أنه استفهام غير حقيقي ، وبينه ما في نظيره من سورة غافر ( 47 ، 48 ) ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد .

﴾ ومِنْ ﴾ في قوله : ﴿ من عذاب الله ﴾ بدلية ، أي غناء بدلاً عن عذاب الله .

.

و﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ من شيء ﴾ مزيدة لوقوع مدخولها في سياق الاستفهام بحرف هل .

و﴿ شيء ﴾ في معنى المصدر ، وحقه النصب على أنه مفعول مطلق فوقع جرّه بحرف الجر الزائد .

والمعنى : هل تغنون عنا شيئاً .

وجواب المستكبرين اعتذار عن تغريرهم بأنهم ما قصدوا به توريط أتباعهم كيف وقد ورّطوا أنفسهم أيضاً ، أي لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا .

(180/417)

---

وهذا الجواب جار على معنى الاستفهام التوبيخي العتابي إذ لم يجيبوهم بأنا لا نملك لكم غناء ولكن ابتدأوا بالاعتذار عما صدر منهم نحوهم في الدنيا علماً بأن الضعفاء عالمون بأنهم لا يملكون لهم غناء من العذاب .

وجملة ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ من كلام الذين استكبروا .

وهي مستأنفة تبيين عن سؤال من الضعفاء يستفتون المستكبرين أيصبرون أم يجزعون تطلباً للخلاص من العذاب ، فأرادوا تأييسهم من ذلك يقولون : لا يفيدنا جزع ولا صبر ، فلا نجاة من العذاب .

فضمير المتكلم المشارك شامل للمتكلمين والمجايين ، جمعوا أنفسهم إتماماً للاعتذار عن توريطهم .

والجزع : حزن مشوب باضطراب ، والصبر تقدم .

وجملة ﴿ ما لنا من محيص ﴾ واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء ، أي حيث لا محيص ولا

نجاة فسواء الجَزع والصبر .

والمحيص : مصدر ميمي كالمغيب والمشيب وهو النجاة .

يقال : حاص عنه ، أي نجا منه .

ويجوز أن يكون اسمَ مكان من حاص أيضاً ، أي ما لنا ملجأ ومكان نَنْجو فيه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(181/417)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) ﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحقّ ؛ فلا تأتي السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . ﴾ [ الحج : 65 ] .

وأنت كلما سِرْتَ وجدتَ الشمس من فوقك ، وهي مرفوعة بنظام هندسيّ دقيق .

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُؤكِّد قضية كونية مُحسَّة مشهودة ؛ وبدأ بقوله :

﴿ أَلَمْ ترَ . . . ﴾ [ إبراهيم : 19 ] .

رغم أنه لا يوجد مع العَيْن أيْن ؛ ذلك أن الشمس واضحة أمام كُلِّ البشر ، وهكذا نجد أن معنى ﴿ أَلَمْ ترَ ﴾ هنا تكون بمعنى " ألم تعلم " .

وجاء سبحانه ب ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلّنا على أن ما يُعلمنا الله به من حَقٍّ أصدق مما تُعلِمنا به العين ؛ فإذَا قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فاعلم أنه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض ؛ فكان لا بُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تَكُنْ لتُوجَد إلا بخَلْق الله لها ؛ وهو الذي أخبرنا أنها من خَلْقه ؛ ولم يدّعها أحدٌ لنفسه ؛ وبذلك تثبت له قضية خَلْقها إلى أنْ يقول آخر أنه خلقها ؛ ولم يَقُلْ لنا أحدٌ ذلك أبداً .

وسبق أن قال سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [ غافر : 57 ] .

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مِثْلما تعيش السماء ؛ فالفرد يموت ويُولَد غيره ؛ وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ، وكذلك الأرض .

ومن عجيب الخَلْق الرحماني أن الله خلق كُلّ ذلك تسخيراً لأمر الإنسان ؛ فلا يشذّ كائن من تلك المُسخرات عن أمر الإنسان . وما طُلِب منك أيُّها الإنسان تكليفاً مُخيَّر فيه إنْ شئْتَ آمنت ، وإنْ شئْتَ كَفرتَ ؛ وإنْ شئْتَ أطعتَ ، وإن شئْتَ عصيتَ .

ولكن المخلوق المُسخَّر لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [ الأحزاب : 72 ] .

وقد أعلمنا هذا القولُ الكريم بأن الرحمانية سبقتْ لنا نحن البشر من قبل خَلْقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مُهيَّأ لنا .

ومن العجيب أن الكونَ المخلوق لنا استبقاءً لحياتنا واستبقاءً لنوعنا يتركز في أشياء لا دَخْل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهي الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتي بدلاً منه شيء جديد ، كالنبات الذي يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التي نأكلها أو التي تموت .

وهناك خَلْق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإنْ تغيّرتْ مادته ، كالجمادات التي نراها – الجبال والأرض وعناصرها – ونكتشف منها كُلَّ يوم جديداً .

إذن : فالمخلوقات التي استقبلتْ الوجود الإنساني نوعان : نوع لا دَخْل للأغيار فيها ؛ ونوع آخر فيه دَخْل للأغيار مع بقاء مادتها وهي الجمادات ؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلُّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحقّ سبحانه وتعالى له صِفَتان .

صفة القدرة والقهر ؛ وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء ؛ ولا يتغير .

وصفة الاختيار التي أوجدها في الإنسان .

وأثبتت صفة القدرة التي سخَّر بها سبحانه الأشياء لخدمة الإنسان مُطْلق سلطانه سبحانه على كُلِّ ما خلق ؛ فلا شيء يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التي وهبها للإنسان أنْ يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليفه الإيمانية ، فالذي يطيع الله وهو قادر على أنْ يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبٌّ لله ؛ ويُثبِت له صفة المحبوبية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

(183/417)

---

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق . . . ﴾ [ إبراهيم : 19 ] .

ولنا أن نلحظ أن كلمة " بالحق " وردتْ في مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق . . . ﴾ [ الحجر : 85 ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [ الدخان : 38 ]

.

وهذا يدل على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارسَ الفلسفة تستقبل تلك القضية استقبالين ؛ استقبالَ مَنْ يريد أنْ يؤمن ؛ واستقبال مَنْ يريد أنْ يكفرَ . وانقسم مَنْ أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لايوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغيّر من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كُل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحْكمة .

والفريق الثاني مِمَّن أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ في الكون ووجود خَلَل وعيوب خَلقية في بعض من المخلوقات والأنواع ؛ دليلٌ على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إلهٌ مخلوقاً أعمى ؛ وآخر أعرجَ ؛ وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ في الكون كدليل على عدم وجود إله .

ومن العجيب أن الفريق الذي أراد التغيير في هيئة السماوات والأرض ؛ أراد ذلك كدليل على وجود خالق ، والفريق الذي رأى أن هناك شذوذاً في بعض المخلوقات أخذ ثبات الخَلْق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذاَ من قضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لَعلم كلٌّ منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لِفهْم هذا الكون على ثبات مَا فيه؛ وعلى وجود بعضٍ من الشذوذ فيه.

(184/417)

---

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً في الأكوان خُذْ ثبات آلية الحركة في السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر.

وأنت يا مَنْ تأخذ التغيُّر في الخلق دليلاً على وجود خالق؛ فها أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل في المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة.

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق السماوات والأرض لعبة؛ بل خلقهما بالحق، وهناك فارق بين اللعبة والحق، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعبث بشيء؛ فتخرج له صُدْفة يستخدمها هو أو غيره كلُعبة.

يقول الحق: ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 3].

أما الخلق بالحق؛ فهذا يعني أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحْكمة؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق.

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ؛ فإن الحق سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض ، وما دُمْتَ تريد ثباتاً في حركتك الاختيارية ؛ فخُذ المنهج الذي أنزله الله بالحق ؛ فتثبت قضاياك كما ثبتت القضايا العليا ؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألاَّ يوجد فساد في المجتمع من أيّ لَوْنٍ فابحث عن حكم الله الذي ضَيّعه الإنسان في مخالفة منهجه تجد أن ضياعه هو السبب في وجود الفساد ؛ واقرأ قوله الحق في سورة الرحمن : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان * وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ﴾ [ الرحمن : 1-9 ] .

وهكذا أنت ترى الشمس - على سبيل المثال - منضبطة في شروقها وغروبها وكُسُوفها ؛ وكذلك القمر في سُطوعه أو مَحاقه أو خسوفه .

*(185/417)*

---

وكما رفع الحق سبحانه السماء ووضع الميزان ؛ فعليكم أنْ تَزِنوا كُلَّ أمر بالميزان الصحيح لتنصلح أموركم ، فإن اعتدال الموازين المادية والمعنوية والقيمية هي استقرار لحركة الحياة .

أما إنْ ظللتُم على العِوَج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أن يُذهِبكم وأن يأتي بخَلْق جديد :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 19 ] .

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه ؛ لأن الله خلق الخَلْق ، ووهبهم الاختيار لِيُقبل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملّكهم ألاّ يُقبلوا عليه .

وفي موقع آخر يقول سبحانه : ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ [ محمد : 38 ] .

ويقول في قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن مريم : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وقالوا أآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبني إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلاَئِكَةً فِي الأرض يَخْلُفُونَ ﴾ [ الزخرف : 57-60 ] .

إذن : فطلاقة قدرة الله التي خلقته بلا أبٍ ، يمكن أن تفعل تلك القدرة المطلقة ما تشاء ، فلا شيء يتأبّى على مرادات الحق ولا على قدراته .

ويقول في موقع آخر : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب إِنَّا لَقَادِرُونَ * على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [ المعارج : 40-41 ] .

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المجيء بخلق جديد ليست مسألة مستحيلة :

﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) ﴾

والشيء العزيز هو الشيء المُمْتنع . والله سبحانه لا يُغْلَب . وقد بيَّن لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتي بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتي بحيوان آخر ؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتي بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً . . . ﴾ .

والبروز أن يظهر شيء كان خفياً . ويُال " رجل بارز " أي : مرموق وقَيْد الأبصار ، ولا تُفتَح الدنيا إلا عليه ، ويُقال " امرأة بارزة " أي : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستترة .

ويقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً . . ﴾ [ الكهف : 47 ] .

أي : سيرى كُلٌّ منا كُلّ الأرض في اليوم الآخر وهي مكتملة ؛ لا جزء منها فقط كما يحدث في حياتنا الدنيوية ؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ ق : 22 ] .

ويُقال أيضاً " فرس بارز " وهو ما يطلق على الحصان الذي يفوز عند التسابق مع غيره ؛ ولا يستطيع فرس آخر أنْ يسبقه ؛ لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيْلَ في لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً - أي : تراباً يُضبِّب المرئيات -

فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذي تجري فيه الخيول ؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميع فلا خيول أخرى قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً . . ﴾ [ إبراهيم : 21 ] .

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم برزت ؟

ونقول : إنه سبحانه مُنزَّه أن تَخْفي عنه خافية في الأرض أو السماء أو الكون كله ، ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

(187/417)

---

وهم مِنْ قَبْل كانوا : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الناس وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يرضى مِنَ القول وَكَانَ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴾ [ النساء : 108 ] .

وكانوا قد ظَنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ؛ ويُبيِّتون ويمكرون ؛ ونجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ؛ حُكْمهم في ذلك حُكْم كل الخَلْق .

أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخَلْق على لونين ؛ لون مقهور فيه الإنسان ، ولا إرادةَ له : ولَوْنٍ

مُخيّر فيه الإنسان ، ونسبة ما منع فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له في اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأنه علم أزلاً أن الإنسان الذي تعوّد على أنْ يتمرّد على الله ؛ فهو يُوضِّح له : أنت قد أَلِفْتَ التمرد وقَوْل "لا" ، وقد تُجاهِر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ؛ فَإنْ كنت صادقاً في أن هذا الخروج ذاتيّ فيك ؛ فتمرّد على القهريات التي تنتابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غَيْرُ قادر على ذلك ؛ فلا الفقيرَ يستطيع أن يثريَ دون مشيئة الله ؛ والمريض لا يستطيع أن يشفي دون مشيئة الله ؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ؛ وسيأتي يوم يسلب منك الاختيار .

﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ] .

وأنت تبرز بكُلِّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون بارزاً بكل تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الخَلْق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .

ولحظتها سنجد قوله الحق مُطبقاً .

﴿ فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا . . ﴾ [إبراهيم : 21] .

(188/417)

---

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر ؛ نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلقون أوامرهم ؛ لِيُنفِّذها الضِّعاف ، ثم يُفاجأ الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوتْ في اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجبابرة ؛ ويروْنَ ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ؛ فيسأل الضعاف أهلَ الجبروت :

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : 21] .

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضِّعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

وفي هذا القول استكبارٌ على الإيمان ، وكأنهم يُعدِّلون على الله - والعياذ بالله - مشيئته وواسع علمه الذي يختار به الرسل .

أو : أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا ؛ أو : أنهم قد استكبروا على الأتباع بما لهم

من جاه ونفوذ فلم يقدر الأتباع على مخالفتهم ؛ لذلك يقول لهم الأتباع لحظة تساوي الرؤوس :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [ إبراهيم : 21 ] .

وهذا تقريع وخِزْي وفضيحة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال في موقع آخر من القرآن على لسان التابعين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [ الأحزاب : 67-68 ] .

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك أن تتبع في أمر إلا إذا اقتنعتَ أنه يأتي . لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا يعطي زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بينة .

*(189/417)*

---

وليتذكر كل منا قوله الحق : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ إني أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العالمين ﴾ [ الحشر : 16 ] .

فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله ؛ عليك أن تُعْلي منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا

الحق سبحانه ذلك كي ننتبه جيداً فلا نُلْقي على شر ؛ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصابة بمكروه ؟

فليكنْ كُلٌّ مِنّا على بينة من أمره ، وقد قال الحق سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [ الرحمن : 16 ] .

والآلاء هي النعم ؛ ومن أَرْقى النعم هي تلك القيم التي أوضحها لنا الحق سبحانه لنسير على هُدَاها في الحياة الدنيا كي لا نُقبل على الحياة بجهالة ؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شيء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كي لا يقف في موقف الخزي المشترك بين الاثنين في يوم الحساب ؛ حيث يقول التابعون للمتبوعين :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ . . ﴾ [ إبراهيم : 21 ]
.

وهذا القَوْل القرآني يتكلم به ربُّ العالمين ؛ وكُلُّ حرف فيه لهدف ومعنى .

وقوله :

﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [ إبراهيم : 21 ] .

يعني أنهم لن يقدروا أنْ يُخفِّفوا ولو جزءاً بسيطاً من عذاب الله ، وكأنهم يُسهّلونها عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحمّلوا ؛ أو أنْ يُخففوا عنهم ولو جزءاً بسيطاً من العذاب .

والمَثَلُ على ذلك حين يطلب إنسان من آخر جنيهاً ؛ فيقول له : ليس معي غيره ، فيردُّ

الطالب : إذنْ أعطني بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعه أو عشرة قروش منه .

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبعوهم ؛ فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تأَبَّوْا على الله إيماناً به ؛ ها هم يردُّون على مَنْ سألوهم أنْ يُخفِّفوا ولو جزءاً قليلاً من العذاب :

(190/417)

---

﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [ إبراهيم : 21 ] .

وهكذا يتكشّف كذبهم ؛ فهم يدَّعُون أن معنى الهداية هو أنْ يهبهُم الله الإيمان ؛ مُتنَاسين أن معنى الهداية هو الدلالة المُوصّلة إلى الغاية .

ولنَا في قول الحق سبحانه ما يُوضِّح المعنى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى . . . ﴾ [ محمد : 17 ] .

فمَنْ يُقبِل على الإيمان بصدر مُنشرح يجد كُلّ سُبل الخير أمامه ؛ أما مَنْ كفر فكيف يهديه الله ، وهو قد استحبّ العمى على الهُدى ؟ لن يجد بطبيعة الحال أيَّة هداية .

ويقول الكافرون ذلك لِمَن اتبعوهم في يوم الحشر ؛ ذلك أنهم يروْنَ رَأْي العين أن الجنة حَقٌّ ؛ والنار حَقٌّ ، والحساب حَقٌّ ؛ لذلك يعترفون أمام مَنِ اتبعوهم في الدنيا بأن الحقّ سبحانه لو

أخذ بيدهم في الحياة الدنيا إلى الإيمان لَقُدْناكم إلى هذا الإيمان ؛ وهم في ذلك أصحاب رأي مغلوط .

وذلك قولهم :

﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 21] .

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع في مأزق أقوى من قدراته : ولا فجْوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقبالين ؛ الاستقبال الأول : أن يجزعَ ويتضرعَ ؛ والاستقبال الثاني : أنْ يصمدَ ويصبرَ .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : 21] .

أي : أنهم سواء جَزِعوا وتضرَّعوا أو صبروا وصمدوا فلن يُنجيهم الله مِمَّا هم فيه ؛ فلا مَهْرب ولا مَنْجى .

و" حاص " في المكان أي : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ؛ ونجد في تعبيرنا العاميّ ما يُصوِّر ذلك وهو قولنا " فلان حايص " أي : لا يجد مكاناً يرتاح فيه .

ولذلك يقال : " نَبَتْ بهم الأرض " ؛ أي : أن كُلَّ مكان في الأرض يرفضهم ؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ . . . ﴾ [التوبة : 118] .

وهكذا نرى مَن نَبت بهم الأرض ؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً بل تضيق عليهم ؛ ونسمع مِمَّنْ يُنكِّل بهم الحق في الحياة الدنيا مَنْ يقول : " أنا لا أطيق نفسي " .

وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس في لحظات الضيق ؛ فتضيق ذات أيٍّ منهم عن حَمْل ذاته ، وكأن الواحدَ منهم له ذاتان ؛ وكأن الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التي تُزيِّن الشهوة ؛ وحين تزيد عن الحَدِّ يعود إلى صورة كَارِه الشهوة ؛ وهو لا يسعَدُ في الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

(192/417)

---

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ [19] قال : خلق الأشياء كلها بقدرته ، وزينها بعلمه ، وحكمها بحكمته ؛ فالناظر من الخلق إلى الخالق تبين

له عجائب الخلقة ، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبليغ صنعته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التسترى صـ 86 ﴾

(193/417)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج – رضي الله عنه – في قوله ﴿ فقال الضعفاء ﴾ قال : الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ قال : للقادة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن زيد بن أسلم – رضي الله عنه – في قوله ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ قال : جزعوا مائة سنة ، وصبروا مائة سنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد – رضي الله عنه – في الآية قال : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا نبك ونتضرع إلى الله تعالى ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله . . . فبكوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا نصبر ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة

بالصبر . . . فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلما ينفعهم ذلك . فعند ذلك قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(194/417)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : قرأ أبو عبد الرحمن بسكون الراء وفيه وجهان ، أحدُهما : أنه أَجْرَى الوصلَ مُجْرى الوقف . والثاني : أنَّ العربَ حَذَفَتْ لامَ الكلمة عند عدمِ الجازم فقالوا : " ولو تَرَ ما الصبيانُ " فلما دخل الجازمُ تخيَّلوا أن الراءَ محلُّ الجزم ، ونظيرُه : لم أُبَلْ فإنَّ أصلَه أبالي ، ثم حذفوا لامَه رفعاً فلمَّا جزموه لم يَعْتَدُّوا بلامِه ، وتوهَّموا الجزمَ في اللام .

والرؤية هنا قلبيةٌ ف " أنَّ " في محلِّ المفعولَيْن أو أحدهما على الخلاف . وقرأ الأخوان هنا ﴿ خالقَ السماوات والأرض ﴾ " خالق " اسمُ فاعلٍ مضافاً لِما بعده ، فلذلك خفضوا ما عُطِفَ عليه وهو الأرض . وفي النور : ﴿ خَالِقُ كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [ الآية : 45 ] اسمُ فاعل

مضافاً لما بعده . والباقون " خَلَقَ " فعلاً ماضياً ، ولذلك نصبوا " الأرضَ " و ﴿ كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ ، فكسرُه " السماواتِ " في قراءة الأخوين خفضٌ ، وفي قراءةِ غيرِهما نصبٌ . / ولو قيل بأنه في قراءة الأخوين يجوز نُصْبُ " الأرضَ " على أحدِ وجهين : إمَّا على المحلِّ ، وإمَّا على حَذْفِ التنوين لالتقاء الساكنين ، فتكون " السماواتِ " منصوبةً لفظاً وموضعاً ، لم يمتنعْ ، ولكن لم يُقْرأْ به .

و" بالحقِّ : متعلِّقٌ ب " خلق " على أن الباءَ سببيةٌ ، وبمحذوفٍ على أنها حاليةٌ : إمَّا من الفاعلِ ، أي : مُحِقَّاً ، وإمَّا من المفعول ، أي : ملتبسةً بالحق .

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾

(195/417)

---

قوله تعالى : ﴿ تَبَعًا ﴾ : يجوز أن يكونَ جمع " تابع " كخادِم وخَدَم وغائِب وغَيَب ، ويجوز أُن يكونَ مصدرا نحو : قومٌ عَدْلٌ ، ففيه ثلاثةُ التأويلاتِ المشهورةِ .

قوله : ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ في " مِنْ " أوجهٌ : أحدُها : أنَّ : مِنْ " الأولى للتبيين ، والثانيةَ للتبعيض ، تقديرُه : مُغْنون عنا بعضَ الشيءِ الذي هو عذابُ الله ، قاله

الزمخشري . قال الشيخ : " هذا يقتضي التقديمَ في قوله " مِن شَيْءٍ " على قوله ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ ؛ لأنه جعَل ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ هو المُبَيِّنَ بقولِه من عذاب ، و " مِنْ " التبيينيةُ مقدمٌّ عليها ما تُبَيِّنه ولا يتأخَّر " . قلتُ : كلامُ الزمخشري صحيحٌ من حيث المعنى ، فإنَّ ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ لو تأخَّر عن " شيء " كان صفةً له ومُبَيِّناً ، فلمَّا تقدَّم انقلب إعرابُه من الصفة إلى الحال ، وأمَّا معناه وهو البيانُ فباقٍ لم يتغيَّرْ .

الثاني : أن تكونا للتبعيضِ معاً بمعنى : هل أنتم مُغْنُوْن عنا بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذابِ الله ؟ أي : بعض عذاب الله ، قاله الزمخشري . قال الشيخ : " وهذا يقتضي أن يكونَ بدلاً ، فيكونَ بدلَ عامٍّ مِنْ خاص ، وهذا لا يُقال ؛ فإنَّ بَعْضِيَّةَ الشيء مطلقةٌ ، فلا يكون لها بعضٌ " . قلت : لا نزاعَ أنه يقال : بعضُ البعض ، وهي عبارةٌ متداولةٌ ، وذلك البعضُ المُتَبَعِّضُ هو كلٌّ لأبعاضِه بعضٌ لكلِّه ، وهذا كالجنسِ المتوسط هو نوعٌ لما فوقَه ، جنسٌ لما تحته .



---

الثالث : أنَّ " مِنْ " في ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ مزيدةٌ ، و " مِنْ " في ﴿ مِنْ عَذَابِ ﴾ فيها وجهان ، أحدُهما : أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ لأنها في الأصل صفةٌ لشيء ، فلمَّا تقدَّمَتْ نُصِبت على

الحال . والثاني : أنها تتعلَّق بنفس "مُغْنُوْنَ" على أن يكون "من شيء " واقعاً موقعَ المصدر ، أي : غِنى . ويوضح هذا ما قاله أبو البقاء ، قال : " ومِنْ زائدةٌ ، أي : شيئاً كائناً من عذاب الله ، ويكون محمولاً على المعنى تقديره : هل تمنعون عنا شيئاً ؟ ويجوز أن يكونَ "شيء " واقعاً موقعَ المصدر ، أي : غِنَى ، فيكون ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ متعلقاً ب " مُغْنُوْن " . وقال الحوفيُّ أيضاً : ﴿ ومِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ متعلِّ ب "مُغْنُون " ، و " مِنْ " في ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ لاستغراقِ الجنسِ زائدةٌ للتوكيد " .

قوله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ ﴾ إلى آخرِه ، فيه قولان ، أحدُهما : أنه مِنْ كلام المستكبرين . والثاني : أنه من كلام المستكبرين والضعفاءِ معاً . وجاءَتْ كلُّ جملةٍ مستقلةٍ من غيرِ عاطف دلالةً على أنَّ كلاًّ من المعاني مستقلٌّ بنفسه كافٍ في الإِخبار . وقد تقدَّم الكلامُ في التسويةِ والهمزةِ بعده في أول البقرة .

والجَزَعُ : عدمُ احتمالِ الشِّدَّةِ . قال امرؤ القيس :

2876- جَزِعْتُ ولم أَجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزِعاً . . . وعَزَّيْتَ قلباً بالكواعب مُولَعا

وقال الراغب : " أصل الجَزَع : قَطْعُ الحَبْل مِنْ نصفه يقال : جَزَعْتُه فانْجزَعْ ، ولتصوُّرِ الانقطاع فيه قيل : جَزْعُ الوادي لِمُنْقَطَعِه ، ولانقطاعِ اللونِ بتغيُّره . قيل للخرزِ المتلوِّن : جَزْعٌ ، واللحمُ المُجزَّعِ ما كان ذا لونين ، والبُسْرَةُ المُجزَّعةُ أن يَبْلَغَ الإرطابُ نصفَها ، والجازِع خشبةٌ تُجعل في وسط البيت تلْقى عليها رؤوس الخشب من الجانبين ، وكأنه سُمّي بذلك تَصَوُّراً لِجَزَعِهِ لما حُمِل عليه من العِبْء أو لقطعِه وسطَ البيت " والجَزَعُ أخصُّ من الحزن ، فإنَّ الجَزَعَ حُزْنٌ يَصْرِفُ الإنسانَ عمَّا هو بصددِه .

والمَحيصُ : يكون مصدراً ويكون مكاناً . ويقال : جاض بالضاد المعجمة وجَيْضاً ، بها وبالجيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 84 . 88﴾

(198/417)

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) ﴾

خَلَقَ السمواتِ والأرض بالحُكْم الحق ، أي له ذلك بحقِ ملكه ، وخلقهما بقوله الحق ؛ فجعل

كلَّ جزءٍ منهما على وحدانيته دليلاً ، ولِمَنْ أراد الوصول إلى ربِّه سبيلاً .

ثم قال : إنْ يَشَأْ يذهبكم بالإفناء ، ويأتِ بخَلْقٍ جديدٍ في الإنشاء ، وليس ذلك عليه بعزيز . . . وأنَّى ذلك وهو على كل شيء قدير ؟ ! .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ . . . ﴾ .

لم يكونوا عن الحقِّ – سبحانه – متسترين حتى يظهروا له ، ولكن معناه صارت معارفهم ضرورية فحصلوا في مواطن لم يكن لغير الله فيها حكم ، فصاروا كأنهم ظهروا لله . فقال الضعفاء للذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ﴾ توهماً أن يرفعوا عنهم شيئاً من العناء ، فأجابهم المتكبرون : إنَّا جميعاً في العذاب مشتركون ، ولو أمكننا أَنْ ترفعَ عنكم من العذاب ، وقدرنا على أن نهديَكُم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكوتم ، وأجبناكم إلى ما سألتم ، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين ، ولا نحن لكم بمغيثين ، ولا لما تدعونا إليه بمستجيبين . . .

فلا تلومونا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ! إنما ينفع لومُ النَّفْس فيما تتعاطاه من الإساءة في زمان المُهْلَةِ وأوقات التكليف ؛ فإنَّ أبوابَ التوبةِ مفتوحة ، ولكن لمن لم ينزع روحَه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 246 . 247 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الشيطان أعظم المستكبرين ، خص بالإفراد بالجواب فقيل : ﴿ وقال ﴾ أول المتبوعين في الضلال ﴿ الشيطان ﴾ الذي هو رأس المضلين المستكبرين المقضي ببعده واحتراقه ﴿ لما قضي الأمر ﴾ بتعين قوم للجنة وقوم للنار ، جواباً لقول الأتباع مذعناً حيث لا ينفع الإذعان ، ومؤمناً حيث فات نفع الإيمان : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ وعدكم وعد الحق ﴾ بأن أرسل إليكم رسلاً وأنزل معهم براهين وكتباً أخبركم فيها بأنه ربكم الواحد القهار ، ودعاكم إليه بعد أن أخابتكم الشياطين ، وبشر من أجاب ، وحذر من أبى ، بما هو قادر أتم القدرة ، فكل ما قاله طابقه الواقع - كما ترون - فصدقكم فيه ووفى لكم ﴿ ووعدتكم ﴾ أنا بما زينت لكم به المعاصي من الوساوس وعد الباطل

﴿ فأخلفتكم ﴾ فلم أقل شيئاً إلا كان زيغاً ، فاتبعتموني مع كوني عدوكم ، وتركتم ربكم وهو ربكم ووليكم ؛ فالآية من الاحتباك : ذكر ﴿ وعد الحق ﴾ أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً ، و ﴿ أخلفتكم ﴾ ثانياً دليلاً على حذف " صدقكم " أولاً .

(200/417)

---

ولما بين غروره ، بين سهولة اغترارهم زيادة في تنديمهم فقال : ﴿ وما كان ﴾ لي إليكم في ذلك من ذنب لأنه ما كان ﴿ لي عليكم ﴾ وأبلغ في النفي فقال : ﴿ من سلطان ﴾ أي تسلط كبير أو صغير بشيء من الأشياء ﴿ إلا أن ﴾ أي بأن ﴿ دعوتكم ﴾ بالوسوسة التي كانت سبباً لتقوية دواعيكم إلى الشر ﴿ فاستجبتم ﴾ أي أوجدتم الإجابة إيجاد من هو طالب لها ، راغب فيها ﴿ لي ﴾ محكمين الشهوات ، معرضين عن مناهيج العقول ودعاء النصحاء ، ولو حكمتم عقولكم لتبعتم الهداة لما في سبيلهم من النور الداعي إليها وما في سبل غيرهم من الظلام السادّ لها ، والمهالك الزاجرة عنها دنيا وأخرى ، وساقه على صورة الاستثناء - وإن لم يكن دعاءه من السلطان في شيء - لأن السلطان أخص من البرهان إذ معناه برهان يتسلط به على إبطال مذهب الخصم إشارة إلى أنهم تبعوه ولا قدرة له على غير هذا الدعاء الذي لا سلطان فيه ، وتركوا دعاء من أنزل إليهم من كل

سلطان مبين ، مع تهديدهم بما هو قادر على عليه وضربهم ببعضه ، وفاعل مثل ذلك لا لوم له على غير نفسه ﴿ فلا ﴾ أي فاذ قد تقرر هذا تسبب عنه أني أقول لكم : لا ﴿ تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ لأنكم مؤاخذون بكسبكم ، لأنه كانت لكم قدرة واختيار فاخترتم الشر على الخير ، وعلم منه قطعاً أن كلاًّ منا مشغول عن صاحبه بما جزي به ، فعلم أني ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أي بمغيثكم فيما يخصكم من العذاب ، فآتيكم بما يزيل صراخكم منه ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ فيما يخصني منه لتقطع الأسباب ، بما دهى من العذاب ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إني كفرت ﴾ مستهيناً ﴿ بما أشركتمون ﴾ أي باتخاذكم لي شريكاً مع الله .

(201/417)

---

ولما كان إشراكهم لم يستغرق الزمان ، أتى بالجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ لأن ذلك ظلم عظيم ، ثم علل هذه العلة بقوله : ﴿ إن الظالمين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ مكتوب لكم منهم مقداره ، لا يغني أحد منهم عن الآخر شيئاً ، بل كل مقصور على ما قدر له ، وحكاية هذه المحاورة لتنبيه السامعين على النظر في العواقب والاستعداد لذلك اليوم قبل أن لا يكون إلا الندم وقرع السن وعض اليد .

ولما ذكر الظالمين.

أتبعه ذكر المؤمنين، فقال بانياً للمفعول لأن الدخول هو المقصود بالذات: ﴿ وأدخل ﴾ والإدخال: النقل إلى محيط - هذا أصله ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا الإيمان ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ جنات تجري ﴾ وبين أن الماء غير عام لجميع أرضها بإدخال الجار فقال: ﴿ من تحتها الأنهار ﴾ فهي لا تزال ريّاً، لا يسقط ورقها ولا ثمرها فداخلها لا يبغي بها بدلاً ﴿ خالدين فيها ﴾.

(202/417)

---

ولما كانت الإقامة لا تطيب إلا بإذن المالك قال: ﴿ بإذن ربهم ﴾ الذي أذن لهم - بتربيته وأحسانه - في الخروج من الظلمات إلى النور، وقرىء "وأدخل" على التكلم فيكون عدل عن أن يقول "بإذني" إلى ﴿ بإذن ربهم ﴾ للإعلام بالصفة المقتضية للرحمة كما قال تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك ﴾ [الكوثر: 1] ولم يقل: لنا - سواء، ومن شكله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ﴾ [الفتح: 1] فلا تنبغي المسارعة إلى إنكار شي يمكن توجيهه، بل يتعين إمعان النظر، فإن الأمر كما قال الإمام أبو الفتح بن جني في كتابه المحتسب في توجيه ﴿ لما يهبط من خشية الله ﴾ [البقرة: 74] أن كلام العرب لمن

عرفه – ومن الذي يعرفه ؟ – ألطف من السحر ، وأنقى ساحى من مشوف الفكر ، وأشد تساقطاً بعضاً على بعض ، وأمسّ تسانداً نفلاً إلى فرض ﴿ تحيتهم ﴾ أي فيما بينهم وتحية الملائكة لهم ؛ والتحية : التلقي بالكرامة في المخاطبة ، فهي إظهار شرف المخاطب ﴿ فيها سلام ﴾ أي عافية وسلامة وبقاء ، وقول من كل منهم للآخر : أدام الله سلامتك ، ونحو هذا من الإخبار بدوام العافية ، كما أن حال أهل الباطل في النار عطب وآلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 181.183 ﴾

(203/417)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس ، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ وفي المراد بقوله : ﴿ لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ وجوه :

القول الأول : قال المفسرون : إذا استقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، أخذ أهل

النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم في النار فيما بينهم خطيباً ويقول ما أخبر الله عنه بقوله :

﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِىَ الأمر ﴾ .

القول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ قُضِىَ الأمر ﴾ لما انقضت المحاسبة ، والقول الأول أولى ، لأن آخر أمر أهل القيامة استقرار المطيعين في الجنة واستقرار الكافرين في النار ، ثم يدوم الأمر بعد ذلك .

والقول الثالث : وهو أن مذهبنا أن الفساق من أهل الصلاة يخرجون من النار ويدخلون الجنة فلا يبعد أن يكون المراد من قوله : ﴿ لَمَّا قُضِىَ الأمر ﴾ ذلك الوقت ، لأن في ذلك الوقت تنقطع الأحوال المعتبرة ، ولا يحصل بعده إلا دوام ما حصل قبل ذلك ، وأما الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان لفظ مفرد فيتناول الواحد وإبليس رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه أولى ، لا سيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم يقول الكافر قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول "

أما قوله : ﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : المراد أن الله تعالى وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم ، وتقرير الكلام أن النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات النفسانية والله يدعو إليها ويرغب فيها كما قال : ﴿ والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [ الأعلى : 17 ] .

البحث الثاني : قوله : ﴿ وَعْدَ الحق ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نفسه كقوله : ﴿ حبَّ الحصيد ﴾ [ ق : 9 ] ومسجد الجامع على قول الكوفيين ، والمعنى : وعدكم الوعد الحق ، وعلى مذهب البصريين يكون التقدير وعد اليوم الحق أو الأمر الحق أو يكون التقدير وعدكم الحق .

ثم ذكر المصدر تأكيداً .

البحث الثالث : في الآية إضمار من وجهين : الأول : أن التقدير إن الله وعدكم وعد الحق فصدقكم ووعدتكم فأخلفتكم وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد ، لأنهم كانوا يشاهدونها وليس وراء العيان بيان ولأنه ذكر في وعد الشيطان الإخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى .

الثاني : أن في قوله : ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ الوعد يقتضي مفعولاً ثانياً وحذف ههنا للعلم به ، والتقدير : ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب .

أما قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سلطان ﴾ أي قدرة ومكنة وتسلط وقهر فاقهركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها ، إلا أن دعوتكم أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني قال النحويون : ليس الدعاء من جنس السلطان فقوله : ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ من جنس قولهم ما تحيتهم إلا الضرب ، وقال الواحدي : إنه استثناء منقطع ، أي لكن دعوتكم وعندي أنه يمكن أن يقال كلمة "إلا" ههنا استثناء حقيقي ، لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة يكون بالقهر والقسر ، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه ، فهذا نوع من أنواع التسلط ، ثم إن ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وجوارحه ، وعلى إزالة العقل عنه كما يقوله العوام والحشوية ، ثم قال : ﴿ فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء والوسوسة ، وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي ولا تلتفتوا إلي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا علي في هذا الباب .

وفي الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

قالت المعتزلة هذه الآية تدل على أشياء : الأول : أنه لو كان الكفر والمعصية من الله لوجب

أن يقال : فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه .

الثاني : ظاهر هذه الآية يدل على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه وعلى إزالة العقل عنه كما تقول الحشوية والعوام .

الثالث : أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يجوز ذمه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير ، وعند هذا يظهر أنه لا يجوز عقاب أولاد الكفار بسبب كفر آبائهم .

أجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأن هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسك به .

(206/417)

---

وأجاب الخصم عنه : بأنه لو كان هذا القول منه باطلاً لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره ، وأيضاً فلا فائدة في ذلك اليوم في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد .

ألا ترى أن قوله : ﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ كلام حق وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ قول حق بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [ الحجر : 42 ] .

المسألة الثانية :

هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس ، وذلك لأن الشيطان بين أنه ما أتى إلا

بالوسوسة ، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير ألبتة ، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس .

فإن قال قائل : بينوا لنا حقيقة الوسوسة .

قلنا : الفعل إنما يصدر عن الإنسان عند حصول أمور أربعة يترتب بعضها على البعض ترتيباً لازماً طبيعياً وبيانه أن أعضاء الإنسان بحكم السلامة الأصلية والصلاحية الطبيعية صالحة للفعل والترك ، والإقدام والإحجام ، فما لم يحصل في القلب ميل إلى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فإنه يمتنع صدور الفعل ، وذلك الميل هو الإرادة الجازمة ، والقصد الجازم .



---

ثم إن تلك الإرادة الجازمة لا تحصل إلا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر فإن لم يحصل فيه هذا الإعتقاد لم يحصل الميل لا إلى الفعل ولا إلى الترك ، فالحاصل أن الإنسان إذا أحس بشيء ترتب عليه شعوره بكونه ملائماً له أو بكونه منافراً له أو بكونه غير ملائم ولا منافر ، فإن حصل الشعور بكونه ملائماً له ترتب عليه الميل الجازم إلى الفعل وإن حصل الشعور بكونه منافراً له ترتب عليه الميل الجازم إلى

الترك ، وإن لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل الميل لا إلى ذلك الشيء ولا إلى ضده ، بل بقي الإنسان كما كان ، وعند حصول ذلك الميل الجازم تصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل .

إذا عرفت هذا فنقول : صدور الفعل عن مجموع القدرة والداعي الحاصل أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه وصدور الميل عن تصور كونه خيراً أو تصور كونه شراً أمر واجب فلا يكون للشيطان فيه مدخل وحصول كونه خيراً أو تصوراً كونه شراً عن مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه ، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلا في أن يذكره شيئاً بأن يلقي إليه حديثه مثل أن الإنسان كان غافلاً عن صورة امرأة فيلقي الشيطان حديثها في خاطره فالشيطان لا قدرة له إلا في هذا المقام ، وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنه قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سلطان إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى فَلَاَ تلُومُونِى ﴾ يعني ما كان مني إلا مجرد هذه الدعوة فأما بقية المراتب فما صدرت مني وما كان لي فيها أثر ألبتة .

بقي في هذا المقام سؤالان :

السؤال الأول : كيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه .

والجواب : للناس في الملائكة والشياطين قولان :

القول الأول : أن ما سوى الله بحسب القسمة العقلية على أقسام ثلاثة : المتحيز ، والحال في المتحيز ، والذي لا يكون متحيزاً ولا حالاً فيه ، وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل ألبتة على فساد القول به بل الدلائل الكثيرة قامت على صحة القول به ، وهذا هو المسمى بالأرواح فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدسة من عالم الروحانيات القدسية فهم الملائكة وإن كانت خبيثة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين .

إذا عرفت هذا فنقول : فعلى هذا التقدير الشيطان لا يكون جسماً يحتاج إلى الولوج في داخل البدن بل هو جوهر روحاني خبيث الفعل مجبول على الشر ، والنفس الإنسانية أيضاً كذلك فلا يبعد على هذا التقدير في أن يلقى شيء من تلك الأرواح أنواعاً من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الإنسانية ، وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالاً ثانياً ، وهو أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالنوع ، فهي طوائف ، وكل طائفة منها في تدبير روح من الأرواح السماوية بعينها ، فنوع من النفوس البشرية تكون حسنة الأخلاق كريمة الأفعال موصوفة بالفرح والبشر وسهولة الأمر ، وهي تكون منتسبة إلى روح معين من الأرواح السماوية ، وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدة والقوة والغلظة ،

وعدم المبالاة بأمر من الأمور ، وهي تكون منتسبة إلى روح آخر من الأرواح السماوية وهذه الأرواح البشرية كالأولاد لذلك الروح السماوي وكالنتائج الحاصلة ، وكالفروع المتفرعة عليها ، وذلك الروح السماوي هو الذي يتولى إرشادها إلى مصالحها ، وهو الذي يخصها بالإلهامات حالتي النوم واليقظة.

(209/417)

---

والقدماء كانوا يسمون ذلك الروح السماوي بالطباع التام ولا شك أن لذلك الروح السماوي الذي هو الأصل والينبوع شعباً كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الإنسان وهي لأجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضاً على الأعمال اللائقة بها والأفعال المناسبة لطبائعها ، ثم إنها إن كانت خيرة طاهرة طيبة كانت ملائكة وكانت تلك الإعانة مسماة بالإلهام.

وإن كانت شريرة خبيثة قبيحة الأعمال كانت شياطين وكانت تلك الإعانة مسماة بالوسوسة ، وذكر بعض العلماء أيضاً فيه احتمالاً ثالثاً ، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك

النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدناً لتلك النفس المفارقة ، فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن ، ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاماً وإن كان في باب الشر كان وسوسة فهذه وجوه محتملة تفريعاً على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية والتحيز ، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(210/417)

---

وأما القول الثاني : وهو أن الملائكة والشياطين لا بد وأن تكون أجساماً فنقول : إن على هذا التقدير يمتنع أن يقال إنها أجسام كثيفة ، بل لا بد من القول بأنها أجسام لطيفة والله سبحانه ركبها تركيباً عجيباً وهي أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرق والتمزق والفساد والبطلان ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد ألا ترى أن الروح الإنسانية جسم لطيف ، ثم إنه نفذ في داخل عمق البدن فإذا عقل ذلك فكيف يستبعد

نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن ، أليس أن جرم النار يسري في جرم الفحم ، وماء الورد يسري في ورق الورد ، ودهن السمسم يجري في جسم السمسم فكذا ههنا ، فظهر بما قررنا أن القول بإثبات الجن والشياطين أمر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل ، وأن الإصرار على الإنكار ليس إلا من نتيجة الجهل وقلة الفطنة ، ولما ثبت أن القول بالشياطين ممكن في الجملة فنقول : الأحق والأولى أن يقال : الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور ، والشياطين مخلوقون من الدخان واللهب ، كما قال الله تعالى :

﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ [ الحجر : 27 ] وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة ، فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم .

السؤال الثاني : لم قال الشيطان : ﴿ فَلاَ تَلُومُونِى وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ وهو أيضاً ملوم بسبب اقدامه على تلك الوسوسة الباطلة .

والجواب : أراد بذلك فلا تلوموني على ما فعلتم ولوموا أنفسكم عليه ، لأنكم عدلتم عما توجبه هداية الله تعالى لكم .

ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال : ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس : بمغيثكم ولا منقذكم ، قال ابن الأعرابي : الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث .

يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه وأصرحته أغثته .

(211/417)

---

المسألة الثانية :

قرأ حمزة : بمصرخي بكسر الياء .

قال الواحدي : وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب .

قال الفراء : ولعلها من وهم القراء فإنه قل من سلم منهم عن الوهم ولعله ظن أن الباء في قوله ﴿ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ خافضة لجملة هذه الكلمة وهذا خطأ لأن الياء من المتكلم خارجة من ذلك قال ، ومما نرى أنهم وهموا فيه قوله : ﴿ نُوَلِّهِ مَا تولى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ [ النساء : 115 ] بجزم الهاء ظنوا والله أعلم أن الجزم في الهاء وهو خطأ ، لأن الهاء في موضع نصب وقد انجزم الفعل قبلها بسقوط الياء منه ، ومن النحويين من تكلف في ذكر وجه لصحته إلا أن الأكثرين قالوا إنه لحن ، والله أعلم .

ثم قال تعالى حكاية عنه : ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

"ما" في قوله : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ فيه قولان : الأول : إنها مصدرية والمعنى : كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة ، والمعنى : أنه جحد ما كان يعتقده أولئك الأتباع من كون إبليس شريكاً لله تعالى في تدبير هذا العالم وكفر به ، أو يكون المعنى أنهم كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله في أعمال الخير وهذا هو المراد بالإشراك .

والثاني : وهو قول الفراء أن المعنى أن إبليس قال : إني كفرت بالله الذي أشركتموني به من قبل كفركم ، والمعنى : أنه كان كفره قبل كفر أولئك الأتباع ويكون المراد بقوله : ( ما ) في هذا الموضع "من" والقول هو الأول ، لأن الكلام إنما ينتظم بالتفسير الأول ، ويمكن أن يقال أيضاً الكلام منتظم على التفسير الثاني ، والتقدير كأنه يقول : لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت قبل أن وقعتم في الكفر وما كان كفري بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة ، وعلى هذا التقدير ينتظم الكلام .

أما قوله : ﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فالأظهر أنه كلام الله عز وجل وأن كلام إبليس تم قبل هذا الكلام ، ولا يبعد أيضاً أن يكون ذلك من بقية كلام إبليس قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة ، والله أعلم .

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح أحوال الأشقياء من الوجوه الكثيرة ، شرح أحوال السعداء ، وقد عرفت أن الثواب يجب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وكونها دائمة أشير إليه بقوله : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ والتعظيم حصل من وجهين : أحدهما : أن تلك المنافع إنما حصلت بإذن الله تعالى وأمره .

والثاني : قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ لأن بعضهم يحيي بعضاً بهذه الكلمة ، والملائكة يحيونهم بها كما قال : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [ الرعد : 23 ، 24 ] والرب الرحيم يحييهم أيضاً بهذه الكلمة كما قال : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مّن رَّبّ رَّحِيمٍ ﴾ [ يس : 58 ] .

واعلم أن السلام مشتق من السلامة والإلا ظهر أن المراد أنهم سلموا من آفات الدنيا

وحسراتها أو فنون آلامها وأسقامها ، وأنواع غمومها وهمومها ، وما أصدق ما قالوا ، فإن السلامة من محن عالم الأجسام الكائنة الفاسدة من أعظم النعم ، لا سيما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوز بالبهجة الروحانية والسعادة الملكية .

المسألة الثانية :

قرأ الحسن : ﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءامَنُواْ ﴾ على معنى وأدخلهم أنا ، وعلى هذه القراءة فقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبّهِمْ ﴾ متعلق بما بعده ، أي تحيتهم فيها سلام بإذن ربهم .

يعني : أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 92.87 ﴾

(213/417)

---

وقال الماوردى :

قوله عزوجل : ﴿ وقال الشيطان لمّا قضي الأمر ﴾

يعني إبليس .

قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً .

﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ يعني البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعذاب العاصي.

﴿ ووعدتكم ﴾ أن، لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب.

﴿ فأخلفتكم وما كان لي عليكم مِن سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيَّ ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: معناه ما أنا بمنجيكم وما أنتم بمنجيَّ، قاله الربيع بن أنس.

الثاني: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي، قاله مجاهد. والمصرخ: المغيث. والصارخ: المستغيث. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فلا تجزعوا إنّي لكم غير مُصْرِخٍ . . . فليس لكم عندي غناءٌ ولا صبر

﴿ إني كفرتُ بما أشركتمون مِن قبل ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إني كفرت اليوم بما كنتم في الدنيا تدعونه لي من الشرك بالله تعالى، قاله ابن بحر.

الثاني: إني كفرت قبلكم بما أشركتموني من بعد، لأن كفر إبليس قبل كفرهم.

قوله عز وجل: ﴿ . . . تحيّتُهم فيها سلامٌ ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أن تحية أهل الجنة إذا تلاقوا فيها السلامه، وهو قول الجمهور.

الثاني: أن التحية ها هنا الملك، ومعناه أن ملكهم فيها دائم السلام، مأخوذ من قولهم في التشهد: التحيات لله، أي الملك لله، ذكره ابن شجرة.

وفي المحيّي لهم بالسلام ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الله تعالى يحييهم بالسلام .

الثاني : أن الملائكة يحيونهم بالسلام .

الثالث : أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام .

وتشبيه الكلمة الطيبة بها لأنها ثابتة في القلب كثبوت أصل النخلة في الأرض ، فإذا ظهرت عرجت إلى السماء كما يعلو فرع النخلة نحو السماء فكلما ذكرت نفعت ، كما أن النخلة إذا أثمرت نفعت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(214/417)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

المراد هنا ب ﴿ الشيطان ﴾ إبليس الأَقْدَمُ نفسه ، وروي في حديث عن النبي عليه السلام - من طريق عقبة بن عامر - أنه قال : " يقوم يوم القيامة خطيبان : أحدهما إبليس يقوم في الكفرة بهذه الألفاظ ، والآخر عيسى ابن مريم يقوم بقوله : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴾ [ المائدة : 117 ] ، وقال بعض العلماء : يقوم إبليس خطيب السوء ،

الصادق بهذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله : ﴿ قضي الأمر ﴾ أي حصل أهل النار في النار ، وأهل الجنة في الجنة ، وهو تأويل الطبري .

قال القاضي أبو محمد : و﴿ قضي ﴾ قد يعبر عنها في الأمور عن فعل كقوله تعالى : ﴿ وقضي الأمر واستوت على الجودي ﴾ [ هود : 44 ] وقد يعبر بها عن عزم على أن يفعل ، كقوله : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ [ يوسف : 41 ] .

و﴿ الوعد ﴾ في هذه الآية على بابه في الخير ، أي إن الله وعدهم النعيم إن آمنوا ، ووعدهم إبليس الظفر والأمر إن كذبوا ، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده ، واتفق أن لم يتبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده ، وجاء من ذلك كأن إبليس أخلفهم . وال ﴿ سلطان ﴾ الحجة البينة ، وقوله : ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾ استثناء منقطع ، و﴿ أن ﴾ في موضع نصب ، ويصح أن تكون في موضع رفع على معنى : إلا أن النائب عن السلطان ، إن دعوتكم فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر : [ الوافر ]

تحية بينهم ضرب وجيع . . . ومعنى قوله : ﴿ فاستجبتم لي ﴾ أي رأيتم ما دعوتكم إليه ببصيرتكم واعتقدتموه الرأي وأتى نظركم عليه .

قال القاضي أبو محمد : وذكر بعض الناس أن هذا المكان يبطل منه التقليد ، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها ، والتقليد وإن كان باطلاً ففساده من غير هذا الموضع .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يريد ب " السلطان " في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك ، أي ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة مني ، بل عرضت عليكم شيئاً ، فأتى رأيكم عليه .

وقوله : ﴿ فلا تلوموني ﴾ يريد بزعمه إذ لا ذنب لي ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ في سوء نظركم وقلة تثبتكم فإنكم إنما أتيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسب . و" المصرخ " المغيث ، والصارخ : المستغيث . ومنه قول الشاعر : [ البسيط ]

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . . كان الصراخ له قطع الظنابيب

فيقال : صرخ الرجل ، وأصرخ غيره ، وأما الصريخ فهو مصدر بمنزلة البريح ، ويوصف به ، كما يقال : رجل عدل ونحوه .

وقرأ حمزة والأعمش وابن وثاب " بمصرخي " بكسر الياء تشبيهاً لياء الإضمار بهاء الإضمار في قوله : مصرخيه ، ورد الزجاج هذه القراءة ، وقال ردية مرذولة ، وقال فيها القاسم بن معن : إنها صواب ، ووجهها أبو علي وحكى أبو حاتم : أن أبا عمرو حسنها ، وأنكر أبو حاتم على أبي عمرو .

وقوله : ﴿ بما أشركتمون ﴾ أي مع الله تعالى في الطاعة لي التي ينبغي أن يفرد الله بها ، ف

" ما " مصدرية ، وكأنه يقول : إني الآن كافر بإشراككم أياي مع الله قبل هذا الوقت .

قال القاضي أبو محمد : فهذا تبر منه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ [ فاطر : 14 ] ويحتمل أن يكون اللفظ إقراراً على نفسه بكفره الأقدم ، فتكون " ما " بمعنى الذي ، يريد الله تعالى ، أي خطيئتي قبل خطيئتكم ، فلا إصراخ عندي ، وباقي الآية بين .

(216/417)

---

وقرأ الجمهور " وأُدخلَ " على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ الحسن : " وأُدخِلُ " على فعل المتكلم ، أي يقولها الله عز وجل ، وقوله : ﴿ من تحتها ﴾ أي من تحت ما علا منها ، كالغرف والمباني والأشجار وغيره . و" الخلود " في هذه الآية على بابه في الدوام ، و" الإذن " هنا عبارة عن القضاء والإمضاء ، وقوله : ﴿ تحيتهم ﴾ مصدر مضاف إلى الضمير ، فجائز أن يكون الضمير للمفعول أي تحييهم الملائكة ، وجائز أن يكون الضمير للفاعل ، أي يحيي بعضهم بعضاً .

و﴿ تحيتهم ﴾ رفع بالابتداء ، و﴿ سلام ﴾ ابتداء ثان ، وخبره محذوف تقديره عليكم

، والجملة خبر الأول ، والجميع في موضع الحال من المضمرين في ﴿ خالدين ﴾ أو يكون صفة ل ﴿ جنات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(217/417)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان ﴾

قال المفسرون : يعني به إِبليس ، ﴿ لما قُضي الأمر ﴾ أي : فُرِغ منه ، فدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فحينئذ يجتمع أهل النار باللَّوم على إِبليس ، فيقوم فيما بينهم خطيباً ويقول : ﴿ إِن الله وَعَدَكم وَعْد الحق ﴾ أي : وعدكم كَوْن هذا اليوم فَصَدَقكم ﴿ ووعدتكم ﴾ أنه لا يكون ﴿ فأخلفتكم ﴾ الوعد ﴿ وما كان لِيَ عليكم من سلطان ﴾ أي : ما أظهرت لكم حُجَّةً على ما ادَّعيت .

وقال بعضهم : ما كنت أملككم فأُكرهكم ﴿ إِلا أن دعوتكم ﴾ وهذا من الاستثناء المنقطع ، والمعنى : لكن دعوتكم ﴿ فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ حيث أجبتموني من غير برهان ، ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أي : بمغيثكم ﴿ وما أنتم بمصرخيَّ ﴾ أي : بمغيثيَّ .

قرأ حمزة "بمُصرِخيِّ" فحرك الياء إلى الكسر ، وحرّكها الباقون إلى الفتح .

قال قُطرب : هي لغة في بني يربوع ، يعني : قراءة حمزة .

قال اللغويون : يقال : استصرخني فلان فأصرخته ، أي : استغاثني فأغثته .

﴿ إنِي كفرت ﴾ اليوم بإشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة ، ﴿ إِن الظالمين ﴾ يعني : المشركين .

قوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي : بأمر ربهم .

وقوله : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ قد ذكرناه في [ يونس : 10 ] . انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(218/417)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾

قال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً .

ومعنى : "لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ" أي حُصِّل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، على ما يأتي

بيانه في "مريم" عليها السلام.

﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ يعني البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصي فصدَقكم وعدَه، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم.

وروى ابن المبارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة قال: " فيقول عيسى أدلّكم على النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فَيثُور مجلسي من أطيب ريح شمَّها أحدٌ حتى آتي ربي فيشفّعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيَثُور مجلسه من أنتن ريح شمَّها أحدٌ ثم يَعظُم نَحِيبُهم ويقول عند ذلك: ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ووَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ " الآية.

"وَعْدَ الحَقِّ" هو إضافة الشيء إلى نعته كقولهم: مسجد الجامع؛ قال الفرّاء قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحقّ فصدَقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال.

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة وبيان؛ أي ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم في الدنيا، ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ أي أغويتكم فتابعتموني.

وقيل : لم أقهركم على ما دعوتكم إليه .

"إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ" هو استثناء منقطع ؛ أي لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لي باختياركم ، ﴿ فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ ﴾ .

(219/417)

---

وقيل : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن دعوتكم فاستجبتم لي ؛ وهذا على أنه خطَب العاصيَ المؤمنَ والكافر الجاحد ؛ وفيه نظر ؛ لقوله : "لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ" فإنه يدلّ على أنه خَطَب الكفّار دون العاصين الموحّدِين ؛ والله أعلم .

﴿ فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ ﴾ إذا جِئتموني من غير حجة .

﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بمغيثكم .

﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي بمغيثيّ .

والصّارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النُّصرة والمعاونة ، والمُصْرِخ هو المغِيث .

قال سَلاَمَة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ . . .

كَانَ الصُّراخُ له قَرْعُ الظَّنَابِيب

وقال أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت :

ولا تَجزَعوا إنّي لكم غيرُ مُصْرِخٍ . . .

وليس لكم عندي غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال : صَرَخَ فلان أي استغاث يَصرُخُ صَرْخاً وصُرَاخاً وصَرْخة .

واصطرخ بمعنى صَرَخَ .

والتَّصرخ تَكلُّف الصُّراخ .

والمُصْرِخُ المُغيث ، والمستصرِخ المستغيث ؛ تقول منه : استصرخني فأصرخته .

والصَّرِيخ صوت المستصرِخ .

والصّرِيخ أيضاً الصارِخ ، وهو المغِيث والمستغِيث ، وهو من الأضداد ؛ قاله الجوهري .

وقراءة العامة "بِمُصْرِخِيَّ" بفتح الياء .

وقرأ الأعمش وحمزة "بِمصرِخيِ" بكسر الياء .

والأصل فيها بمصرخيين فذهبت النون للإضافة ، وأدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة ، فمن نصب فلأجل التضعيف ، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعيّن فيها الفتح مثل : هَوايَ وعَصايَ ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان ، مثل : غلامِيَ وغلامِيْ ، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر ، لأن الياء أخت الكسرة .

وقال الفرّاء : قراءة حمزة وَهَمٌ منه ، وقَلَّ مَن سَلِم منهم عن خطأ .

وقال الزجّاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف .

وقال قُطْرُب : هذه لغة بني يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء .



---

القُشَيْريّ : والذي يغني عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيحٌ أو رديءٌ ، بل هو في القرآن فصيح ، وفيه ما هو أفصح منه ، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذي قرأ به حمزة أفصح .

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ أي كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة ؛ ف "ما" بمعنى المصدر .

وقال ابن جريج : إني كفرت اليوم بما كنتم تدعونه في الدنيا من الشّرك بالله تعالى .

قتادة : إني عصيت الله .

الثوريّ : كفرت بطاعتكم إياي في الدنيا .

﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وفي هذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم ؛ انظر إلى قول

المتبوعين: ﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ وقول إبليس: ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ كيف اعترفوا بالحق في صفات الله تعالى وهم في دركات النار؛ كما قال في موضع آخر: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الملك: 8] إلى قوله: ﴿ فاعترفوا بِذَنبِهِمْ ﴾ واعترافهم في دَرَكات لَظًى بالحقّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبه في الدنيا؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: 102] و"عَسَى" من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿ وَأُدْخِلَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ ﴾

أي في جنات لأن دخلت لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدوي.

ولما أخبر تعالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة أيضاً.

وقراءة الجماعة "أُدْخِلَ" على أنه فعل مبني للمفعول.

وقرأ الحسن "وَأُدْخِلُ" على الاستقبال والاستئناف.

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بأمره.

وقيل: بمشيئته وتيسيره.

وقال : "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ" ولم يقل : بإذني تعظيماً وتفخيماً .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ تقدم في "يونس" . والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(222/417)

---

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وقال الشيطان ﴾

يعني إبليس ﴿ لما قضي الأمر ﴾ يعني لما فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

يأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه ، وتوبيخه ، فيقوم فيها خطيباً قال مقاتل : يوضع له منبر في النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم : ما أخبر الله عنه بقوله ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ فيه إضمار تقديره فصدق في وعده ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ يعني الوعد .

وقيل يقول : لهم إني قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان

﴾ يعني من ولاية وقهر ، وقيل : لم آتيكم بحجة فيما وعدتكم به ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾ هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم ﴿ فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ يعني ما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة ، وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفوا إليّ ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بأجابتي ، ومتابعتي من غير حجة ولا دليل ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ يعني بمغيثكم ولا منقذكم ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ يعني بمغيثيّ ولا منقذيّ مما أنا فيه ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ يعني كفرت بجعلكم إياي شريكاً كله في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى أن إبليس جحد ما يعتقده الكفار فيه ، من كونه شريكاً لله وتبرأ من ذلك ﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) في حديث الشفاعة ، وذكر الحديث إلى قوله " فيأتوني فيأذن الله في أن أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتى ربي فيشفعني ، ويجعل لي نوراً من رأسي إلى ظهر قدمي .

ثم يقول الكفار : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه ، فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم تعظم جهنم ، ويقول عند ذلك : إن الله وعدكم وعد الحق الآية " .

قوله تعالى : ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ لما شرح الله حال الكفار الأشقياء بما تقدم من الآيات الكثيرة ، شرح أحوال المؤمنين السعداء ، وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم الجزيل ، وذلك أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة إليها الإشارة دائمة بقوله : وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، وكونها دائمة أشير إليه بقوله ﴿ خالدين فيها ﴾ والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ لأن تلك المنافع إنما كانت تفضلاً من الله بإنعامه الثاني قوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ فيحتمل أن بعضهم يحيي بعضاً بهذا الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى يحييهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لأن السلام مشتق من السلامة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

المصرخ: المغيث.

قال الشاعر:

فلا تجزعوا إني لكم غير مصرخ . . .

وليس لكم عني غناء ولا نصر

والصارخ المستغيث، صرخ يصرخ صرخاً وصراخاً وصرخة.

قال سلامة بن جندل:

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . .

كان الصراخ له قرع الظنابيب

واصطرخ بمعنى صرخ، وتصرخ تكلف الصراخ، واستصرخ استغاث فقال: استصرخني فاصرخته والصريخ مصدر كالتريخ ويوصف به المغيث والمستغيث من الأضداد.

﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم

﴾ : مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر محاورة الاتباع لرؤسائهم الكفرة ، ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس ، وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبس بالإضلال .

والشيطان هنا إبليس ، وهو رأس الشياطين .

وفي حديث الشفاعة من حديث عقبة بن عامر : "أن الكافرين يقولون : وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، فيقولون : ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فقم أنت فاشفع لنا ، فإنّك أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمه أحد ويقول عند ذلك : إن الله قد وعدكم" الآية .

وعن الحسن : يقف إبليس خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً فيقول : إنّ الله وعدكم وعد الحق ، يعني : البعث ، والجنة ، والنار ، وثواب المطيع ، وعقاب العاصي ، فصدقكم وعده ، ووعدتكم أنْ لا بعث ولا جنة ولا نار ، ولا ثواب ولا عقاب ، فأخلفتكم .

(225/417)

---

قضي الأمر تعين قوم للجنة وقوم للنار ، وذلك كله في الموقف ، وعليه يدل حديث الشفاعة أو بعد حصول أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ويدل عليه ما ذكرناه عن الحسن ،

وهو تأويل الطبري .

وقيل : قضي الأمر قطع وفرغ منه ، وهو الحساب ، وتصادر الفريقين إلى مقربهما .

ووعد الحق يحتمل أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي : الوعد الحق ، وأن يكون الحق صفة الله أي : وعده ، وأن يكون الحق الشيء الثابت وهو البعث والجزاء على الأعمال أي : فوفى لكم بما وعدكم ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم ، وإلا أنّ دعوتكم الظاهر أنه استثناء منقطع ، لأنّ دعاءه إياهم إلى الضلالة ووسوسته ليس من جنس السلطان ، وهو الحجة البينة .

قيل : ويحتمل أن يريد بالسلطان الغلبة والتسليط والقدرة أي : ما اضطررتكم ولا خوفتكم بقوة مني ، بل عرضت عليكم شيئاً فأتى رأيكم عليه .

وقيل : هو استثناء متصل ، لأنّ القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة يكون بالقهر من الحامل ، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه وذلك بإلقاء الوسواس إليه ، فهذا نوع من أنواع التسليط .

وقيل : وظاهر هذا الكلام يدل على أنّ الشيطان لا قدرة له على صرع الإنسان وتعويج أعضائه وجوارحه ، وإزالة عقله ، فلا تلوموني .

وقرىء : فلا يلوموني بالياء على الغيبة ، وهو التفات يريد في ما آتيتموه من الضلال ، ولوموا أنفسكم في سوء نظركم واستجابتكم لدعائي من غير تثبت ولا حجة .

وقال الزمخشري : ولوموا أنفسكم حيث اغتررتم ، وأطعتموني إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم ، وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة والسعادة ويحصلها لنفسه ، وليس من الله إلا التمكين ، ولا من الشيطان إلا التزيين ، ولو كان الأمر كما يزعم المجبرة لقال : فلا تلوموني ولا أنفسكم ، فإنّ الله قد قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه انتهى .

وهو على طريق الاعتزال .

ما أنا بمصرخكم قال ابن عباس : بنافعكم .



---

وقال ابن جبير : بمنقذكم ، وقال الربيع : بمنجيكم ، وقال مجاهد : بمغيثكم ، وكلها أقوال متقاربة .

وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وحمزة : بمصرخي بكسر اللياء ، وطعن كثير من النحاة في هذه القراءة .

قال الفراء : لعلها من وهم القراء ، فإنه قل من سلم منهم من الوهم ، ولعله ظن أنّ الباء في بمصرخي خافضة للفظ كله ، والباء للمتكلم خارجة من ذلك .

وقال أبو عبيد : نراهم غلطوا ، ظنوا أنّ الباء تكسر لما بعدها .

وقال الأخفش : ما سمعت هذا من أحد من العرب ، ولا من النحويين .

وقال الزجاج : هذه القراءة عند جميع النحويين رديئة مرذولة ، ولا وجه لها إلا وجه ضعيف .

وقال النحاس : صار هذا إجماعاً ، ولا يجوز أن يحمل كتاب الله على الشذوذ .

وقال الزمخشري : هي ضعيفة ، واستشهدوا لها ببيت مجهول :

قال لها هل لك يا تافيّ . . .

قالت له ما أنت بالمرضي

وكأنه قدر ياء الإضافة ساكنة ، وقبلها ياء ساكنة فحركها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، ولكنه غير صحيح ، لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف نحو : عصاي فما بالها ، وقبلها باء .

( فإن قلت ) : جرت الياء الأولى مجرى الحر الصحيح لأجل الإدغام ، كأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن ، فحركت بالكسر على الأصل .

( قلت ) : هذا قياس حسن ، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات انتهى .

أما قوله : واستشهدوا لها ببيت مجهول ، قد ذكر غيره أنه للأغلب العجلى ، وهي لغة باقية

في أفواه كثير من الناس إلى اليوم ، يقول القائل : ما فيّ أفعل كذا بكسر الياء .

وأما التقدير الذي قال : فهو توجيه الفراء ، ذكره عنه الزجاج .

وأما قوله ، في غضون كلامه حيث قبلها ألف ، فلا أعلم حيث يضاف إلى الجملة المصدرة بالظرف نحو : قعد زيد حيث أمام عمرو وبكر ، فيحتاج هذا التركيب إلى سماع .

وأما قوله : لأن ياء الإضافة إلى آخره ، قد روى سكون الياء بعد الألف .

(227/417)

---

وقرأ بذلك القراء نحو : محياي ، وما ذهب إليه من ذكرنا من النحاة لا ينبغي أن يلتفت إليه .

واقتفى آثارهم فيها الخلف ، فلا يجوز أن يقال فيها : إنها خطأ ، أو قبيحة ، أو رديئة ، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة ، لكنه قلّ استعمالها .

ونص قطرب على أنها لغة في بني يرفوع .

وقال القاسم بن معن وهو من رؤساء النحويين الكوفيين : هي صواب ، وسأل حسين الجعفي أبا عمرو بن العلاء وذكر تلحين أهل النحو فقال : هي جائزة .

وقال أيضاً : لا تبالي إلى أسفل حركتها ، أو إلى فوق .

وعنه أنه قال : هي بالخفض حسنة .

وعنه أيضاً أنه قال : هي جائزة .

وليست عند الاعراب بذلك ، ولا التفات إلى إنكار أبي حاتم على أبي عمرو تحسينها ، فأبو عمرو إمام لغة ، وإمام نحو ، وإمام قراءة ، وعربي صريح ، وقد أجازها وحسنها ، وقد رووا بيت النابغة :

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة . . .

لوالده ليست بذات عقارب

بفخض الياء من عليّ .

وما في بما أشركتموني مصدرية ، ومن قبل متعلق بأشركتموني أي : كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي : في الدنيا ، كقوله : ﴿ إنا برءآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ وقال : ويوم القيامة يكفرون بشرككم .

وقيل : موصولة بمعنى الذي ، والتقدير : كفرت بالصنم الذي أشركتمونيه ، فحذف العائد .

وقيل : من قبل متعلق بكفرت ، وما بمعنى الذي أي : كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل .

تقول : شركت زيداً ، فإذا أدخلت همزة النقل قلت : أشركت زيداً عمراً ، أي جعلته له شريكاً .

إلا أن في هذا القول إطلاق ما على الله تعالى ، وما الأصح فيها أنها لا تطلق على آحاد من يعلم .

وقال الزمخشري : ونحو ما هذه يعني في إطلاقها على الله ما في قولهم : سبحان ما سخركن لنا انتهى .

ومن منع ذلك جعل سبحان علماً على معنى التسبيح ، كما جعل برة علماً للمبرة .

(228/417)

---

وما مصدرية ظرفية ، ويكون ذلك من إبليس إقراراً على نفسه بكفره الأقدم أي : خطيئتي قبل خطيئتكم .

فلا إصراخ عندي أنّ الظالمين لهم عذاب أليم ، الظاهر أنه من تمام كلام إبليس ، حكى الله عنه ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون تنبيهاً للسامعين على النظر في عاقبتهم ، والاستعداد لما لا بد منه .

وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول ، يخافوا ، ويعملوا ما يخلصهم منه ، وينجيهم .

وقيل : هو من كلام الخزنة يوم ذاك .

وقيل : من كلام الله تعالى .

ولأبي عبد الله الرازي كلام هنا في الشيطان والملائكة يوقف عليه من تفسيره .

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) ﴾

لما جمع الفريقين في قوله : ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ وذكر شيئاً من أحوال الكفار ، ذكر ما آل إليه أمر المؤمنين من إدخالهم الجنة .

وقرأ الجمهور : وأدخل ماضيا مبنياً للمفعول .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبيد : وأدخل بهمزة المتكلم مضارع أدخل أي : وأدخل أنا .

وعلى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون الفاعل الملائكة ، والظاهر تعلق بإذن ربهم بأدخل .

وقال الزمخشري : ( فإن قلت ) : فبم يتعلق يعني بإذن ربهم في القراءة الأخرى ، وقولك وأدخلهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم ؟ ( قلت ) : الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله بإذن ربهم بما بعده أي : تحيتهم فيها سلام .

بإذن ربهم يعني : أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم انتهى .

فظاهر كلامه أنّ بإذن ربهم معمول لقوله : تحيتهم ، ولذلك قال : يعني أنّ الملائكة يحيونهم بإذن ربهم ، وهذا لا يجوز ، لأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل بحرف مصدري والفعل عليه ، وهو غير جائز .

(229/417)

---

وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي الحسن : أدخل برفع اللام على الاستقبال بإخبار الله تعالى عن نفسه ، فيصير بذلك بإذن ربهم ألطف لهم وأحنى عليهم ، وتقدم تفسير ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ في أوائل سورة يونس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(230/417)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الشيطان ﴾

الذي أضل كِلا الفريقين واستتْبعَهما عندما عتَباه بما قاله الأتباعُ للمستكبرين ﴿ لَمَّا قُضِىَ الأمر ﴾ أي أُحكم وفُرغ منه ، وهو الحسابُ ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النار النارَ خطيباً في محفِل الأشقياء من الثقلين ﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ أي وعداً من حقه أن يُنجزَ فأنجزه ، أو وعداً أنجزه وهو الوعدُ بالبعث والجزاء ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ أي وعْدَ

الباطلِ وهو أن لا بعثَ ولا جزاء ، ولئن كان فالأصنامُ شفعاؤكم ولم يصرِّح ببطلانه لما دل عليه قولُه : ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي موعدي على حذف المفعولِ الثاني أي نقضتُه ، جَعل خُلفَ وعده كالإخلاف منه كأنه كان قادراً على إنجازه وأنى له ذلك ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ أي تسلّطٍ أو حجةٍ تدل على صدقي ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ إلا دعائي إياكم إليه وتسويلُه ، وهو وإن لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه في مبروزه على طريقة

(231/417)

---

تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيع . . . مبالغةً في نفي السلطان عن نفسه كأنه قال : إنما يكون لي عليكم سلطانٌ إذا كان مجردُ الدعاء من بابه ، ويجوز كونُ الاستثناء منقطعاً ﴿ فاستجبتم لِى ﴾ فأسرعتم إجابتي ﴿ فَلاَ تَلُومُونِى ﴾ بوعدي إياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والإلجاءِ كما يدل عليه الفاء ، وقرىء بالياء على وجه الالتفاتِ كما في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم حين دعوتكم بلا حجةٍ ولا دليل بمجرد تزيينٍ وتسويل ولم تستجيبوا ربكم إذْ دعاكم دعوةَ الحق المقرونةَ بالبينات والحجج ، وليس مرادُه التنصّلَ عن توجه

اللائمةِ إليه بالمرة بل بيانُ أنهم أحقُّ بها منه وليس فيه دَلالةٌ على استقلال العبدِ في أفعاله كما زعمت المعتزلة ، بل يكفي في ذلك أن يكون لقدرته الكاسبةِ التي عليها يدور فلكُ التكليف مدخلٌ فيه ، فإنه سبحانه إنما يخلُق أفعالَه حسبما يختاره وعليه تترتب السعادةُ والشقاوة ، وما قيل من أنه يستدعي أن يقال : فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفرَ وأجبركم عليه مبنيٌّ على عدم الفرق بين مذهب أهلِ الحقّ وبين مسلك الجبرية ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ ﴾ أي بمُغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ مما أنا فيه ، وإنما تعرّض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمالِ مبالغةً في بيان عدم إصراخِه إياهم وإيذاناً بأنه أيضاً مبتلىً بما ابتُلوا به ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف من إصراخِ الغير ، ولذلك آثَرَ الجملةَ الاسمية فكأن ما مضى كان جواباً منه عن توبيخهم وتقريعِهم ، وهذا جوابٌ عن استغاثتهم واستعانِتهم به في استدفاع ما دهِمهم من العذاب وقرىء بكسر الياء .

﴿ إِنِّي كَفَرۡتُ ﴾ اليوم ﴿ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾ أي بإشراككم إياي بمعنى تبرأتُ منه واستنكرتُه كقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ يعني أن إشراكَكم لي بالله سبحانه هو الذي يَطمِعكم في نُصرتي لكم بأن كان لكم عليّ حقٌّ حيث جعلتموني معبوداً وكنت أوَد ذلك وأرغب فيه ، فاليوم كفرتُ بذلك ولم أحمَدُه ولم أقبله منكم بل تبرأتُ منه ومنكم فلم يبقَ بيني وبينكم علاقةٌ ، أو كفرتُ من قبل حين أبيتُ السجودَ لآدَمَ بالذي أشركتمونيه وهو الله تعالى كما في قوله : سبحان ما سخرّكن لنا ، فيكون تعليلاً لعدم إصراخِه فإن الكافرَ بالله سبحانه بمعزل من الإغاثة والإعانة سواءٌ كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة ، وأما جعلُه تعليلاً لعدم إصراخِهم إياه فلا وجهَ له إذ لا احتمالَ له حتى يُحتاج إلى التعليل ، ولأن تعليلَ عدم إصراخِهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانعُ من جهته .

﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تتمةُ كلامِه ، أو ابتدءُ كلامٍ من جهة الله عز وجل وفي حكاية أمثالِه لطفٌ للسامعين وإيقاظٌ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدّبروا عواقبَهم .

﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا بِإِذْنِ رَبّهِمْ ﴾

أي بأمره أو بتوفيقه وهدايته ، وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهارُ مزيدِ اللطفِ بهم والمُدْخِلون هم الملائكةُ عليهم السلام ، وقرىء على صيغة المتكلم فيكون قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبّهِمْ ﴾ متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ أي يحيّيهم الملائكةُ بالسلام بإذن ربهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾

الذي أضل كلا الفريقين واستتبعهما عندما عتباه وقرعاه على نمط ما قاله الاتباع للرؤساء

﴿ لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ أي أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل

النار النار خطيباً في محفل الأشقياء من الثقلين .

أخرج ابن جرير .

وغيره عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال : ﴿ إِنَّ

الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ إلى آخره ، وعن مقاتل أن الكفار يجتمعون عليه في النار باللائمة

فيرقى منبراً من نار فيقول ذلك ، وفي بعض الآثار ما هو ظاهر في أن هذا في الموقف ، فقد

أخرج الطبراني .

وابن المبارك في الزهد .

وابن جرير .

وابن عساكر لكن بسند ضعيف من حديث عقبة بن عامر يرفعه إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم : " أن الكفار حين يروا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين يأتون إبليس فيقولون له قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد فيقول ما قص الله تعالى "

ومعنى ﴿ وَعْدَ الحق ﴾ وعداً من حقه أن ينجز أو وعداً نجز وهو الوعد بالبعث والجزاء ، وقيل : أراد بالحق ما هو صفته تعالى أي أن الله تعالى وعدكم وعده الذي لا يخلف ، والظاهر أنه صفة الوعد ، وفي الآية على الأول إيجاز أي أن الله سبحانه وعدكم وعد الحق فوفاكم وأنجزكم ذلك ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا حساب ولئن كانا فالأصنام تشفع لكم ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ موعدي أي لم يتحقق ما أخبرتكم به وظهر كذبه ، وقد استعير الإخلاف لذلك ولو جعل مشاكلة لصح ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ أي تسلط أو حجة تدل على صدقي ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة ، وهذا وإن لم يكن من جنس السلطان حقيقة لكنه أبرزه في مبرزه وجعله منه ادعاء فلذا كان الاستثناء متصلاً ، وهو من تأكيد الشيء بضده كقوله :

وخيل قد دلفت لها بخيل . . .

تحية بينهم ضرب وجيع

وهو من التهكم لا من باب الاستعارة أو التشبيه أو غيرهما على ما حقق في موضعه ، فإن لم يعتبر فيه التهكم والادعاء يكون الاستثناء منقطعاً على حد قوله :

وبلدة ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافير وإلا العيس

وإلى الانقطاع ذهب أبو حيان وقال : إنه الظاهر ، وجوز الإمام القول بالاتصال من غير اعتبار الادعاء ؛ ووجه ذلك بأن القدرة على حمل الإنسان على الشيء تارة تكون بالقهر من الحامل وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه وذلك بإلقاء الوسواس إليه وهذا نوع من أنواع التسلط فكأنه قال : ما كان لي تسلط عليكم إلا بالوسوسة لا بالضرب ونحوه ﴿ فاستجبتم لِى ﴾ أي أسرعتم إجابتي كما يؤذن بذلك الفاء ، وقيل : يستفاد الإسراع من السين لأن الاستجابة وإن كانت بمعنى الإجابة لكن عد ذلك من التجريد وأنهم كأنهم طلبوا ذلك من أنفسهم فيقتضي السرعة وفيه بعد ﴿ فَلاَ تَلُومُونِى ﴾ بوعدي إياكم حيث لم يكن على طريق القسر والإلجاء كما يدل عليه الفاء ، وقيل : بوسوستي فإن من صرح بالعداوة وقال :

﴿ لاقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ﴾ [ الأعراف : 16 ] لا يلام بأمثال ذلك .

وقرئ ﴿ فَلَا ﴾ بالياء على الالتفات ﴿ تَلُومُونِى وَلُومُوا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ حيث استجبتم لي باختياركم الناشيء عن سوء استعدادكم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا لربكم إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج ، وليس مراد اللعين التنصل عن توجه اللائمة إليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه .

(235/417)

---

وفي "الكشاف" أن في هذه الآية دليلاً على أن الإنسان هو الذي يختاره الشقاوة والسعادة ويحصلهما لنفسه وليس من الله تعالى إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال : فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله تعالى قد قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه ، وليس قوله المحكي باطلاً لا يصح التعلق به وإلا لبين الله سبحانه بطلانه وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل في النطق بالباطل في ذلك المقام ، ألا ترى كيف أتى بالصدق الذي لا ريب فيه في قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ ﴾ إلى آخره .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم ﴾ إلى آخره اه .

واعترض قوله : وإلا لبين سبحانه بطلانه بأنه ينقلب عليه في قول المستكبرين ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا

الله لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ [إبراهيم : 21 ] إذ لم يعقب بالبطلان على وجه التوريك الذي ادعاه ، وكذلك قوله : على أنه لا طائل إلى آخره .

*(236/417)*

---

والجواب أن الأول غير متعين لذلك الوجه كما سمعت ، ومع ذلك قد عقب بالبطلان في مواضع عديدة ، ويكفي حكاية الكذب عنهم في ذلك الموطن ، وذلك في الموطن على توهم أنه نافع كما حكى الله تعالى عنهم ، أما بعد قضاء الأمر ودخول أهل الجنة الجنة والنار النار فلا يتوهم لذلك طائل البتة ؛ لا سيما والشيطان لا غرض له في ذلك فافترقا قائلاً وموطناً وحكماً ، بل الجواب أن أهل الحق لا ينكرون توجه اللائمة عليهم وأن الله تعالى مقدس عن ذلك وحجته البالغة وقضاؤه سبحانه الحق ، حيث أثبتوا للعبد القدرة الكاسبة التي يدور عليها فلك التكليف وجعلوا لها مدخلاً في ذلك فإنه سبحانه إنما يخلق أفعاله حسبما يختاره ، وسلبهم التأثير الذاتي عن قدرته لا ينفي اللوم عنهم كما بين في محله ، وما ذكره من أنه لو كان الأمر إلى آخره مبني على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق الملقبين عنده بالمجبرة وبين مسلك المجبرة في الحقيقة والفرق مثل الصبح ظاهر ، هذا واستدل بظاهر الآية على أن الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان أو تعويج أعضائه وجوارحه أو على إزالة عقله

لأنه نفى أن يكون له تسلط إلا بالوسوسة .

وأجاب من زعم القدرة على نحو ذلك بأن المقصود في الآية نفى أن يكون له تسلط في أمر الإضلال إلا بمحض الوسوسة لا نفي أن يكون له تسلط أصلاً والسياق أدل قرينة على ذلك .

(237/417)

---

وانتزع بعضهم من الآية إبطال التقليد في الاعتقاد ، قال ابن الفرس : وهو انتزاع حسن لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه ولم يطلبوا منه برهاناً فحكى ذلك متضمناً لذمهم ، ثم الظاهر أن هذه الدعوة من الشيطان أعني إبليس بلا واسطة ، وهي إن كانت في وقت واحد لمتعددين مما يعسر تصوره ، ولا يبعد أن يقال : إن له أعواناً يفعلون كما يفعل لكن لما كان ذلك بأمره تصدى وحده لما تصدى ونسبت الدعوة إليه ، وللإمام الرازي في الآية كلام طويل ساقه لبيان كيفية الدعوة وإلقاء الشيطان الوسوسة في قلب الإنسان ، وأكثره عند المحدثين والسلف الصالحين أشبه شيء بوساوس الشياطين ، ولعل النوبة تفضي إن شاء الله تعالى إلى تحقيق ذلك بعون الله تعالى القادر المالك ﴿ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ، يقال : استصرخني فأصرخته أي استغاثني فأغثته ، وأصله من الصراخ

وهو مد الصوت ، والهمزة للسلب كأن المغيث يزيل صراخ المستغيث .

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ مما أنا فيه ، وفي تعرضه لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغة في بيان عدم إصراخه إياهم وإيذان بأنه أيضاً مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف له بإصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية ، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار ، وكذا يقال في التأكيد فكان ما مضى جواباً منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب استغاثتهم واستعانتهم به في دفع ما دهمهم من العذاب .

وقرأ يحيى بن وثاب .

والأعمش .

وحمزة ﴿ بِمُصْرِخِيِّ ﴾ بكسر الياء على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين ، وذلك أن الأصل بمصرخين لي فأضيف وحذفت نون الجمع للإضافة فالتقت ياء الجمع الساكنة وياء المتكلم والأصل فيها السكوت فكسرت لالتقاء الساكنين وأدغمت .

وطعن في هذه القراءة كثير من النحاة ، قال الفراء : لعلها من زعم القراء فإنه قل من سلم منهم من الوهم .

وقال أبو عبيد .

نراهم غلطوا ، وقال الأخفش : ما سمعت هذا الكسر من أحد من العرب ولا من أحد من النحويين ، وقال الزجاج : إنها عند الجميع رديئة مرذولة ولا وجه لها إلا وجيه ضعيف .

وقال الزمخشري : هي ضعيفة ، واستشهدوا لها ببيت مجهول :

قال لها هل لك يا تافي . . .

قالت له ما أنت بالمرضي

وكأنهم قدروا ياء الإضافة ساكنة فحركوها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، ولكنه غير صحيح لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف نحو عصاي فما بالها وقبلها ياء والقول بأنه جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن فحركت بالكسر على الأصل ذهاب إلى القياس وهو قياس حسن ، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات اه .

وقد قل هؤلاء الطاغين جماعة ، وقد وهموا طعناً وتقليداً فإن القراءة متواترة عن السلف والخلف فلا يجوز أن يقال فيها : إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة ، وقد نقل جماعة من العلماء أنها لغة لكنه قل استعمالها .

ونص قطرب على أنها لغة في بني يربوع فإنهم يكسرون ياء المتكلم إذا كان قبلها ياء أخرى

ويصلونها بها كعليه ولديه ، وقد يكتفون بالكسرة وذلك لغة أهل الموصل وكثير من الناس اليوم ، وقد حسنها أبو عمرو وهو إمام لغة وإمام نحو وإمام قراءة وعربيّ صحيح ، ورووا بيت النابغة :

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة . . .

لوالده ليست بذات عقارب



---

بكسر ياء على فيه ، وأنشدوا لذلك أيضاً البيت السابق وهو للأغلب العجلي ، وجهل الزمخشري به كالزجاج لا يلتفت إليه ، وقوله : إن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة إلى آخره مردود بأنه روى سكون الياء بعد الألف ، وقرأ به القراء في ﴿ محياي ﴾ [ الأنعام : 162 ] وما ذكره أيضاً قياس مع الفارق فإنه لا يلزم من كسرها مع الياء المجانسة للكسرة كسرها مع الألف الغير المجانسة لها ولذا فتحت بعدها للمجانسة وكون الأصل في هذه الياء الفتح في كل موضع غير مسلم كيف وهي من المبنيات والأصل في المبنى أن يبني على السكون .

ومن الناس من وجه القراءة بأنها على لغة من يزيد ياء على ياء الإضافة إجراءً لها مجرى

هاء الضمير وكافة ، فإن الهاء قد توصل بالواو إذا كانت مضمومة كهذا لهو وضربهو ، وبالياء إذا كانت مكسورة نحو بهى ، والكاف قد تلحقها الزيادة فيقال أعطيتكاه وأعطيتكيه إلا أنه حذفت الياء هنا اكتفاءً بالكسرة ، وقال البصير : كسر الياء ليكون طبقاً لكسر الهمزة في قوله : ﴿ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ ﴾ لأنه أراد الوصل دون الوقف والابتداء بذلك والكسر أدل على الوصل من الفتح وفيه نظر ، وبالجملة لا ريب في صحة تلك القراءة وهي لغة فصيحة ، وقد روي أنه تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث بدء الوحي وشرح حاله عليه الصلاة والسلام لورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه فإنكارها محض جهالة ، وأراد بقوله : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ ﴾ إني كفرت اليوم ﴿ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا اليوم يعني في الدنيا .



---

و﴿ مَا ﴾ مصدرية و﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بأشركتموني أي كفرت بإرشراككم إياي لله تعالى في الطاعة لأنهم كانوا يطيعونه في أعمال الشر كما يطاع الله تعالى أعمال الخير ، فالإشراك استعارة بتشبيه الطاعة به وتنزيلها منزلته أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنهم أشركوه ، والكفر مجاز عن التبري كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ القيامة

﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر : 14] ومراد اللعين أنه إن كان إشراككم لي بالله تعالى هو الذي أطمعكم في نصرتي لكم وخيل إليكم أن لكم حقاً علي فإني تبرأت من ذلك ولم أحمده فلم يبق بيني وبينكم علاقة، وإرادة اليوم حسبما ذكرنا هو الظاهر فيكون الكلام محمولاً على إنشاء التبري منهم يوم القيامة.

وجوز النسفي أن يكون إخباراً عن أنه تبرأ منهم في الدنيا فيكون ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلقاً بكفرت أو متنازعاً فيه.

وجوز غير واحد أن تكون ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى من كما قيل في قولهم: سبحانه ما سخر كن لنا، والعائد محذوف و﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلق بكفرت أي إني كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم عليه السلام بالذي أشركتمونيه أي جعلتموني شريكاً له بالطاعة وهو الله عز وجل، فأشرك منقول من شركت زيداً للتعدية إلى مفعول ثان، والكلام على هذا إقرار من اللعين بقدم كفره وبيان لأن خطيئته سابقة عليهم فلا إغاثة لهم منه فهو في المعنى تعليل لعدم إصراخه إياهم.

وزعم الإمام أنه لنفي تأثير الوسوسة كأنه يقول: لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت قبل أن وقعتم في الكفر بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة، وكان الظاهر على هذا تقديمه على قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ إلى آخره ولا يظهر لتأخيره نكتة يهش لها الخاطر.

ومنهم من جعله تعليلاً لعدم إصراخهم إياه وهو مما لا وجه له إذ لا احتمال لذلك حتى يحتاج إلى التعليل ، وقيل : لأن تعليل عدم إصراخهم بكفره يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته .

واعترض بأن نحو هذا الإيهام جار في الوجه الأول وهم الكفرة الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وتعقب في "البحر" القول بالموصولية بأن فيه إطلاق ﴿ مَا ﴾ على الله تعالى والأصح فيها أنها لا تطلق على آحاد من يعلم ، و﴿ مَا ﴾ في سبحان ما سخركن يجوز أن تكون مصدرية بتقدير مضاف أي سبحان موجد أو ميسر تسخيركن لنا .

وقال الطيبي : إن ﴿ مَا ﴾ لا تستعمل في ذي العلم إلا باعتبار الوصفية فيه وتعظيم شأنه والمثال على ذلك أي سبحان العظيم الشأن الذي سخركن للرجال مع مكركن وكيدكن ، وكون ﴿ مَا ﴾ موصولة عبارة عن الصنم أي إني كفرت بالصنم الذي إشركتمونيه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الظاهر أنه من تمام كلام إبليس قطعاً لأطماع الكفار من الإغاثة والإعانة ، وحكى الله تعالى عنه ما سيقوله في ذلك الوقت

ليكون تنبيهاً للسامعين وحثاً لهم على النظر في عاقبتهم والاستعداد لما لا بد منه وأن يتصوروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما ينفعهم هناك، وقيل: إنه من كلام الخزنة يوم ذاك، وقيل: إنه ابتداء كلام من جهته تعالى، وأيد بأنه قرأ الحسن.

وعمرو بن عبيد ﴿ ادخل ﴾ في قوله تعالى:

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بصيغة المضارع المسند إلى المتكلم.

(242/417)

---

وأنت تعلم أنه إذا اعتبرت هذه القراءة مؤيدة لهذا القول فلتعتبر قراءة الجمهور ﴿ ادخل ﴾ بصيغة الماضي المبني للمفعول مؤيدة لما قبله فإن المدخلين الملائكة عليهم السلام فتأمل، وكأن الله تعالى لما جمع الفريقين في قوله سبحانه: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [إبراهيم: 21] وذكر شيئاً من أحوال الكفار ذكر ما آل إليه أمر المؤمنين من إدخالهم الجنة ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي بأمره سبحانه أو بتوفيقه وهدايته جل شأنه، والجار والمجرور متعلق بأدخل على قراءة الجمهور.

وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد اللطف بهم ، وعلقه جماعة على القراءة الأخرى بقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ أي يحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم .

وتعقب ذلك أبو حيان بأن فيه تقديم معمول المصدر المنحل بحرف مصدري وفعل عليه وهو غير جائز لما أن ذلك في حكم تقديم جزء من الشيء المرتب الأجزاء عليه .

ورد بأن الظاهر أنه هنا غير منحل إليهما لأنه ليس المعنى المقصود منه أن يحيوا فيها بسلام ، ولو سلم فمراد القائل بالتعلق التعلق المعنوي فالعامل فيه فعل مقدر يدل عليه ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي يحيون بإذن ربهم .

وقال العلامة الثاني : الأظهر أن التقديم جائز إذا كان المعمول ظرفاً أو شبهه وهو في الكلام كثير ، والتقدير تكلف ، وليس كل مؤول بشيء حكمه حكم ما أول به ، مع أن الظرف مما يكفيه رائحة من الفعل لأن له شأناً ليس لغيره لتنزله من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه ، ولهذا اتسع في الظروف ما لم يتسع في غيرها اه ، وبالجواز أقول ، وإنما لم يجعله المحققون متعلقاً بأدخل على تلك القراءة مع أنه سالم من الاعتراض ومشتمل على الالتفات أو التجريد وهو من المحسنات لأن قولك : أدخلته بإذني ركيك لا يناسب بلاغة التنزيل ، والالتفات أو التجريد حاصل إذا علق بما بعده أيضاً .

وفي الانتصاف الصارف عن هذا الوجه هو أن ظاهر ﴿ ادخل ﴾ بلفظ المتكلم يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة بل من الله تعالى مباشرة وظاهر الإذن يشعر بإضافة الدخول إلى الواسطة فبينهما تنافر ، واستحسن أن يعلق بخالدين والخلود غير الدخول فلا تنافر ، وتعقبه في "الكشف" بأن ذلك لا يدفع الركاكة وكأنه لما أن الأذن للدخول لا للاستمرار بحسب الظاهر ، وكون المراد بمشيئتي وتيسيري لا يدفع ذلك عند التأمل الصادق ، فما ذهب إليه ابن جني واستطيبه الشيخ الطيبي وارتضاه ليس بشيء لمن سلم له ذوقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

*(244/417)*

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) ﴾

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ الرؤية هنا هي القلبية ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضاً لأمته ، أو الخطاب لكل من يصلح له .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ خالق السموات ﴾ ومعنى بالحقّ : بالوجه الصحيح الذي يحقّ أن يخلقها عليه ليستدلّ بها على كمال قدرته .

ثم بيّن كمال قدرته سبحانه واستغناءه عن كل واحد من خلقه فقال : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فيعدم الموجودين ويوجد المعدومين ، ويهلك العصاة ، ويأتي بمن يطيعه من خلقه ، والمقام يحتمل أن يكون هذا الخلق الجديد من نوع الإنسان ، ويحتمل أن يكون من نوع آخر ﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ أي : بممتنع ؛ لأنه سبحانه قادر على كل شيء ، وفيه أن الله تعالى هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخاف عقابه ؛ فلذلك أتبعه بذكر أحوال الآخرة فقال : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي : برزوا من قبورهم يوم القيامة ، والبروز : الظهور ، والبراز : المكان الواسع لظهوره ، ومنه امرأة برزة ، أي : تظهر للرجال ، فمعنى ﴿ برزوا ﴾ ظهروا من قبورهم .

وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما هو مقرّر في علم المعاني ، وإنما قال : ﴿ وبرزوا لله ﴾ مع كونه سبحانه عالماً بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا ؛ لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى ، فالكلام خارج على ما يعتقدونه .

﴿ فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ أي قال : الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء

المتكبرين لما هم فيه من الرياسة : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أي : في الدنيا ، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم .

(245/417)

---

والتبع جمع تابع ، أو مصدر وصف به للمبالغة ، أو على تقدير : ذوي تبع .

قال الزجاج : جمعهم في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع ، فقال الضعفاء للذين استكبروا من أكابرهم عن عبادة الله : إنا كنا لكم تبعاً .

جمع تابع ، مثل خادم وخدم ، وحارس وحرس ، وراصد ورصد ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا ﴾ أي : دافعون عنا ﴿ من عذاب الله من شيء ﴾ ، " من " الأولى للبيان ، والثانية للتبعيض ، أي : بعض الشيء الذي هو عذاب الله ؛ يقال : أغنى عنه : إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع .

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي : قال المستكبرون مجيبين عن قول المستضعفين ، والجملة مستأنفة بتقدير سؤال كأنه قيل : كيف أجابوا ؟ أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه .

وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها .

وقيل : لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه .

﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ما لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي : مستوٍ علينا الجزع والصبر ، والهمزة و " أم " لتأكيد التسوية في قوله :

﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ [ البقرة : 6 ] .

﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ أي : من منجى ومهرب من العذاب ، يقال : حاص فلان عن كذا ، أي : فرّ وزاغ ، يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً ، والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الفريقين ، وإن كان الظاهر أنه من كلام المستكبرين .

﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِىَ الأمر ﴾ أي : قال للفريقين هذه المقالة ، ومعنى ﴿ لما قضي الأمر ﴾ : لما دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار على ما يأتي بيانه في سورة مريم .

*(246/417)*

---

﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ وهو وعده سبحانه بالبعث والحساب ، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي : وعدتكم وعداً باطلاً ، بأنه لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ، فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك .

قال الفراء : وعد الحق هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم : مسجد الجامع .

وقال البصريون : وعدكم وعد اليوم الحق ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سلطان ﴾ أي : تسلط عليكم بإظهار حجة على ما وعدتكم به وزينته لكم ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ أي : إلا مجرّد دعائي لكم إلى الغواية والضلال بلا حجة ولا برهان ، ودعوته إياهم ليست من جنس السلطان حتى تستثنى منه ، بل الاستثناء منقطع ، أي : لكن دعوتكم فاستجبتم لي ، أي : فسارعتم إلى إجابتي .

وقيل : المراد بالسلطان هنا : القهر ، أي : ما كان لي عليكم من قهر يضطركم إلى إجابتي .

وقيل : هذا الاستثناء هو من باب : تحية بينهم ضرب وجيع .

مبالغة في نفيه للسلطان عن نفسه كأنه قال : إنما يكون لي عليكم سلطان إذا كان مجرّد الدعاء من السلطان ، وليس منه قطعاً .

(247/417)

---

﴿ فَلاَ تَلُومُونِى ﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ باستجابتكم لي بمجرّد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة ، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى ، ولمارنه قطع ، ولا سيما ودعوتي هذه الباطلة ، وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد الله لكم وعد

الحق ، ودعوته لكم إلى الدار السلام ، مع قيام الحجة التي لا تخفى على عاقل ، ولا تلتبس إلاّ على مخذول ، وقريب من هذا من يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب الله سبحانه ، ولما في سنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ويؤثرها على ما فيهما ، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقع عليه حجة ، ولا دلّ عليه برهان ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره ، كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم ، اللهم غفرا .

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ يقال : صرخ فلان : إذا استغاث يصرخ صراخاً وصرخاً ، واستصرخ بمعنى : صرخ ، والمصرخ : المغيث ، والمستصرخ : المستغيث .

يقال : استصرخني فأصرخته ، والصريخ : صوت المستصرخ ، والصريخ أيضاً : الصارخ ، وهو المغيث والمستغيث ، وهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح .

قال ابن الأعرابي : الصارخ : المستغيث ، والمصرخ : المغيث ، ومعنى الآية : ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه ، وفيه إرشاد لهم إلى أن الشيطان في تلك الحالة مبتلى بما ابتلوا به من العذاب ، محتاج إلى من يغيثه ويخلصه مما هو فيه ، فكيف يطمعون في إغاثة من هو محتاج إلى من يغيثه ؟ ومما ورد مورد هذه الأقوال من قول العرب قول أمية بن أبي الصلت :

فلا تجزعوا إني لكم غير مصرخ . . . وليس لكم عندي غناء ولا نفر

و ﴿ مصرخيّ ﴾ بفتح الياء في قراءة الجمهور ، وقرأ الأعمش وحمزة بكسر الياء على أصل التقاء الساكنين .

(248/417)

---

قال الفراء : قراءة حمزة وهم منه ، وقلّ من سلم عن خطأ .

وقال الزجاج : هي قراءة رديئة ولا وجه لها إلاّ وجه ضعيف يعني : ما ذكرناه من أنه كسرها على الأصل في التقاء الساكنين .

وقال قطرب : هذه لغة بني يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياء ، وأنشد الفراء فيما ورد على هذه القراءة قول الشاعر :

قلت لها يا تاء هل لك في . . . قالت له ما أنت بالمرضي

﴿ إِنّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغني عنهم من عذاب الله شيئاً ، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر ، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع الله في الرّبوبية ، من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة ، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكاً .

ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقاماً يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولاً

أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها ، ثم أوضح لهم ثانياً بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ، ولا يتفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بدّ للعاقل منها في قبول قول غيره ، ثم أوضح ثالثاً بأنه لم يكن منه إلاّ مجرّد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء ، ثم نعى عليهم رابعاً ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت ، الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل ، ثم أوضح لهم خامساً بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة ، ولا يستطيع لهم نفعاً ، ولا يدفع عنهم ضرّاً ، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة ، ثم صرح لهم سادساً بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له ، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب .



---

وإذا كان جملة ﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من تتمة كلامه كما ذهب إليه البعض فهو نوع سابع من كلامه الذي خاطبهم به ، فأثبت لهم الظلم ، ثم ذكر ما هو جزاؤهم عليه من العذاب الأليم ، لا على قول من قال : إنه ابتداء كلام من جهة الله سبحانه .

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن " ما " مصدرية في ﴿ ما أشركتمون ﴾ وقيل : يجوز أن تكون موصولة على معنى ﴿ إني كفرت ﴾ بالذي أشركتمونيه وهو الله ، عزّ وجلّ ، ويكون هذا حكاية لكفره بالله عند أن أمره بالسجود لآدم .

﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ لما أخبر سبحانه بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنة .

وقرأ الجمهور ﴿ أدخل ﴾ على البناء للمفعول ، وقرأ الحسن " وأدخل " على الاستقبال والبناء للفاعل ، أي : وأنا أدخل الذين آمنوا ، ثم ذكر سبحانه خلودهم في الجنات وعدم انقطاع نعيمهم ، ثم ذكر أن ذلك بإذن ربهم ، أي : بتوفيقه ولطفه وهدايته ، هذا على قراءة الجمهور ، وأما على قراءة الحسن فيكون ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ أي : تحية الملائكة في الجنة سلام بإذن ربهم ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة يونس .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ قال : بخلق آخر .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فقال الضعفاء ﴾ قال : الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ قال : للقادة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم في قوله : ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ قال زيد

بن أسلم : جزعوا مائة سنة .

وصبروا مائة سنة .



---

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن كعب بن مالك يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ الآية قال : " يقول أهل النار : هلموا فلنصبر ، فيصبرون خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : هلموا فلنجزع ، فبكوا خمسمائة عام ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ " والظاهر أن هذه المراجعة كانت بينهم بعد دخولهم النار ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النار فَيَقُولُ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار * قَالَ الذين استكبروا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ﴾ [ غافر : 47 - 48 ] .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن عقبة بن عامر يرفعه ، وذكر فيه حديث الشفاعة ، ثم قال : " ويقول الكافر عند ذلك : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلاّ إبليس فهو الذي

أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا ، فيقوم إبليس فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظمهم بجهنم ، ويقول عند ذلك ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ " الآية .

وضعف السيوطي إسناده ، ولعلّ سبب ذلك كون في إسناده رشدين ابن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن دجين الحجزي ، عن عقبة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ قال : بناصريّ ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قال : بطاعتكم إياي في الدنيا .



---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن الشعبي في هذه الآية قال : خطيبان يقومان يوم القيامة : إبليس ، وعيسى ، فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول : هذا القول يعني : المذكور في الآية ، وأما عيسى فيقول : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ

عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: 117].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ قال: ما أنا بنافعكم، وما أنتم بنافعيّ ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قال شركه: عبادته.

وأخرج عبد الرزاق، وابن المنذر عن قتادة ﴿ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ قال: ما أنا بمغيثكم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ قال: الملائكة يسلمون عليهم في الجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

*(252/417)*

---

وقال القاسمى:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ ﴾

وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء: ﴿ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ أي: على ألسنة رسله بأن في إتباعهم النجاة والسلامة، أي: فوفى به وأنجز: ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ أي: ووعدتكم وعد الباطل، وهو أن لا بعث ولا جزاء. ولئن كان، فالأصنام شفعاؤكم. ولم يصرح ببطلانه لدلالة قوله: ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ عليه. والإخلاف مستعار لعدم تحقق ما أخبر به وكذبه، أو مشاكلة. وفي الآية من الإيجاز البليغ شبه الاحتباك. حيث حذف أولاً (فوفى به) لدلالة قوله بعدُ: ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ عليه لأنه مقابله، وحذف ثانياً (وعد الباطل) لدلالة: ﴿ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أي: حجة وبرهان: ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي: أسرعتم لطاعتي بمجرد ذلك، أي: وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه: ﴿ فَلاَ تَلُومُونِي ﴾ أي: بوعدي إياكم، إذ لم يكن بطرق القسر: ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُم ﴾ أي: حيث استجبتم لي باختياركم، حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل. ولم تستجيبوا ربكم، إذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبراهين والحجج.



---

قال القاشاني: لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنوّر بنوره، أسلم وأطاع وصار محقاً، عالماً بأن الحجة لله في دعوته للخلق إلى الحق لا له. ودعوته إلى الباطل بتسويل

الحكام وتزيين الحياة الدنيا عليهم واهية فارغة من الحجة . وأقرّ بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث حقٌّ قد وفى به . ووعدي بأن ليس إلا الحياة الدنيا باطل اختلقته . فاستحقاق اللوم ليس إلا لمن قبل الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها . وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها . انتهى .

وحكي في " الإكليل " عن ابن الفرس : أن بعضهم انتزع من هذا إبطال التقليد في الاعتقاد . قال : وهو انتزاع حسن ؛ لأنهم اتبعوا الشيطان بمجرد دعواه ، ولم يطلبوا منه برهاناً . فحكى الله تقبيحاً لذلك الفعل منهم . انتهى .

﴿ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي : بمغيثكم ومنجيكم من العذاب : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي : مما أنا فيه . قال ابن الأعرابي : الصارخ : المستغيث ، والمصرخ : المغيث ، يقال : صرخ فلان إذا استغاث وقال : واغوثاه ! وأصرخته : أغثته . فالهمزة للسلب ، يعني أزلت صراخه ، وهو مدُّ الصوت ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ أي : كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم – أي : في الدنيا – يعني : جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وتبرأت منه ومنكم ، فلم يبق بيني وبينكم علاقة كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [ فاطر : من الآية 14 ] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 6 ] ، وقوله : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ

بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [ مريم : 82 ] ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ابتداء كلام منه تعالى ، أو تتمة كلام الشيطان .



---

قال الزمخشري : وإنما حكى الله عز وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت ؛ ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم .

ولما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء بقوله سبحانه :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي : بالله ورسوله وكتابه : ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : الطاعات : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ أي : من تحت مساكنها وشجرها ، أنهار الخمر والماء والعسل واللبن : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق بـ ( أدخل ) أي : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ أي : تحييهم وتكرمهم الملائكة بالسلام عليهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾ [ الزمر : من

الآية 73 ] ، وقوله : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سلامٌ عَلَيْكُم ﴾ [ الرعد : 23 - 24 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 320.322 ﴾

(255/417)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان ؛ إما لأنهم بعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان من الهدى علموا أن سبب إضلالهم هو الشيطان لأن نفي الاهتداء يرادفه الضلال ، وإما لأن المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم ، وكل ذلك بعلم يقع في نفوسهم كالوجدان .

على أن قوله : ﴿ فلا تلوموني ﴾ يظهر منه أنه توجه إليه ملام صريح ، ويحتمل أنه توقّعه فدفعه قبل وقوعه وأنه يتوجه إليه بطريقة التعريض ، فجملة ﴿ وقال الشيطان ﴾ عطف على جملة ﴿ فقال الضعفاء .

والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا

حذرهم بدفاع وسواسه لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشر لا لهم فيما وعدهم في الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم وسخريته بهم ، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قِبَله .

وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية .

ومعنى قضى الأمر ﴾ تُمّم الشأن ، أي إذن الله وحكمه .

ومعنى إتمامه : ظهوره ، وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية ، قال تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [ سورة يس : 59 ] ، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقره الذي استحقه بعمله ، فيتصدى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلهم معه في تبعة ضلالهم ، وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحق ، وشهادة عليهم بأن لهم كسباً في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحق .

فهذا شبيه شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقولها لهم : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ إظهاراً للحقيقة وتسجيلاً على أهل الضلالة وقمعاً لسفسطتهم .

وأخبر الله بها الناس استقصاء في الإبلاغ ليحيط الناس علماً بكل ما سيحل بهم ، وإيقاظاً لهم ليتأملوا الحقائق الخفية فتصبح بينة واضحة .

فقول الشيطان ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ إبطال لإفراده باللوم أو لابتداء توجيه الملام إليه في حين أنهم أجدر باللوم أو بابتداء توجيهه .

وأما وقع كلام الشيطان من نفوس الذين خاطبهم فهو موقع الحسرة من نفوسهم زيادة في عذاب النفس .

وإضافة ﴿ وعد ﴾ إلى ﴿ الحق ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف ، أي الوعد الحق الذي لا نقض له .

والحق : هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به .

وضده : الإخلاف ، ولذلك قال : ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ [ سورة إبراهيم : 22 ] ، أي كذبتُ موعدي .

وشمل وعد الحق جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام .

وشمل الخُلف جميعَ ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه وما يعدهم إلا غرورا .

والسلطان : اسم مصدر تسلط عليه ، أي غلبه وقهره ، أي لم أكن مجبراً لكم على اتباعي فيما أمرتكم .

والاستثناء في إلا أن دعوتكم ﴾ استثناء منقطع لأن ما بعد حرف الاستثناء ليس من

جنس ما قبله.

فالمعنى: لكني دعوتكم فاستجبتم لي.

وتفرع على ذلك ﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾.

والمقصود: لوموا أنفسكم، أي إذ قبلتم إشارتي ودعوتي.

وقد تقدم بيانه صدْرَ الكلام على الآية.

ومجموع الجملتين يفيد معنى القصر، كأنه قال: فلا تلوموا إلاّ أنفسكم، وهو في معنى قصر قلب بالنسبة إلى إفراده باللوم وحقهم التشريك فقلب اعتقادهم إفراده دون اعتبار الشركة، وهذا من نادر معاني القصر الإضافي، وهو مبني على اعتبار أجدر الطرفين بالرد، وهو طرف اعتقاد العكس بحيث صار التشريك كالملغى لأن الحظ الأوفر لأحد الشريكين.

وجملة ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ﴾، بيان لجملة النهي عن لَومه لأن لومه فيه تعريض بأنهم يتطلبون منه حيلة لنجاتهم، فنفي ذلك عن نفسه بعد أن نهاهم عن أن يلوموه.

والإصراخ: الإغاثة، اشتق من الصُراخ لأن المستغيث يصرخ بأعلى صوته، فقيل: أصرخه، إذا أجاب صُراخه، كما قالوا: أعتبه، إذا قبل استعتابه.

وأما عطف ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ فالمقصود منه استقصاء عدم غناء أحدهما عن الآخر.

وقرأ الجمهور ﴿ بِمُصرِخيَّ ﴾ بفتح التحتية مشددةً.

وأصله بمصرخِيِيَ بياءين أولاهما ياء جمع المذكر المجرور، وثانيتهما ياء المتكلم، وحقها السكون فلما التقت الياءان ساكنتين وقع التخلص من التقاء الساكنين بالفتحة لخفة الفتحة.

وقرأ حمزة وخلَف "بِمُصرِخيِّ" بكسر الياء تخلصاً من التقاء الساكنين بالكسرة لأن الكسر هو أصل التخلص من التقاء الساكنين.

قال الفراء: تحريك الياء بالكسر لأنه الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، إلا أن كسر ياء المتكلم في مثله نادر.

وأنشد في تنظير هذا التخلص بالكسر قول الأغلب العِجْلي:

قال لها هل لككِ يا تَا فيِّ

قالت له: ما أنتَ بالمرضيِّ...

أراد هل لككِ فيَّ يا هذه.

وقال أبو علي الفارسي : زعم قطرب أنها لغة بني يربوع .

وعن أبي عمرو بن العلاء أنه أجاز الكسر .

واتفق الجميع على أن التخلص بالفتحة في مثله أشهر من التخلص بالكسرة وإن كان التخلص بالكسرة هو القياس ، وقد أثبته سند قراءة حمزة .

وقد تحامل عليه الزجاج وتبعه الزمخشري وسبقهما في ذلك أبو عُبيد والأخفش بن سعيد وابن النحاس ولم يطلع الزجاج والزمخشري على نسبة ذلك البيت للأغلب العِجلي .

(258/417)

---

والذي يظهر لي أن هذه القراءة قرأ بها بنو يَربوع من تميم ، وبنو عِجل بن لُجيم من بكر بن وائل ، فقرأوا بلهجتهم أخذاً بالرخصة للقبائل أن يقرأوا القرآن بلهجاتهم وهي الرخصة التي أشار إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه "كما تقدم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير ، ثم نسخت تلك الرخصة بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم في الأعوام الأخيرة من حياته المباركة ولم يثبت مما ينسخها في هذه الآية .

واستقر الأمر على قبول كل قراءة صح سندها ووافقت وجهاً في العربية ولم تخالف رسم

المصحف الإمام.

وهذه الشروط متوفرة في قراءة حمزة هذه كما علمت آنفاً فقصارى أمرها أنها تتنزل منزلة ما ينطق به أحد فصحاء العرب على لغة بعض قبائلها بحيث لو قرىء بها في الصلاة لصحت عند مالك وأصحابه.

وجملة ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ استئنافٌ تَتَصُّلٍ آخر من تبعات عبادتهم إياه قصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى.

وأراد بقوله: ﴿ كفرتُ ﴾ شدة التبري من إشراكهم إياه في العبادة فإن أراد من مضي ﴿ كفرت ﴾ مضي الأزمنة كلها، أي كنت غير راضٍ بإشراككم إياي فهو كذب منه أظهر به التذلل؛ وإن كان مراده من المضي إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إياه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبل متاب.

و﴿ من قبل ﴾ على التقديرين متعلق بـ ﴿ أشركتمون ﴾.

والإشراك الذي كفر به إشراكهم إياه في العبادة بأن عبدوه مع الله لأن من المشركين من يعبدون الشياطين والجن، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته.

وجملة ﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ من الكلام المحكي عن الشيطان.

وهي في موقع التعليل لما تقدم من قوله : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ ، أي لأنه لا يدفع عنكم العذاب دَافع فهو واقع بكم .

(259/417)

---

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

عطف على جملة ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ ، وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذٍ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حال المؤمنين يومئذٍ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهاراً لتفاوت الأحوال ، فلم يدخل المؤمنون يومئذٍ في المنازعة والمجادلة تنزيهاً لهم عن الخوض في تلك الغمرة ، مع التنبيه على أنهم حينئذٍ في سلامة ودعة .

ويجوز جعل الواو للحال ، أي برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان إلخ وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ، فيكون إشارة إلى أنهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة .

وقوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ إشارة إلى العناية والاهتمام ، فهو إذن أخص من أمر القضاء العام .

وقوله : ﴿ تحيتهم فيها سلام تقدم نظيره في أول سورة يونس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(260/417)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ .

بين في هذه الآية أن الله وعدهم وعد الحق وأن الشيطان وعدهم فأخلفهم ما وعدهم وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله في وعد الله ﴿ وَعْدَ الله حَقّاً ﴾ [ النساء : 122 ] وقوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [ آل عمران : 9 ] وقوله في وعد الشيطان ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [ النساء : 120 ] ونحو ذلك من لآيات .

قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ .

بين في هذه الآية الكريمة أن تحية أهل الجنة في جنة سلام وبين في مواضع أخر أن الملائكة تحييهم بذلك وأن بعضهم يحيي بعضاً بذلك فقال في تحية الملائكة لهم : ﴿ والملائكة

يَدْخُلونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [ الرعد : 23 - 24 ] الآية وقال : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ [ الزمر : 73 ] الآية وقال : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً ﴾ [ الفرقان : 75 ] وقال في تحية بعضهم بعضاً : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [ يونس : 10 ] الآية كما تقدم إيضاحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(261/417)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

وهنا نجد تصعيداً للحوار ؛ فبعد أنْ كان من المتبوعين والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء في الحوار ليكون بين الشيطان وبين البشر . ونلحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذي يدور فيه الحوار وهو انقضاء الأمر ؛ حيث يقرِّر الوَضْع النهائي لكل شيء ؛ ولا نقاشَ في أيِّ أمر ، ولا فرصة للتراجع عما حدث .

وقضاءُ الأمر يعني أن يذهب كل إنسان إلى مصيره ، فمَنْ كان من أهل الجنة دخلها ؛ ومَنْ كان من أهل النار دخلها ؛ فقد وصلتْ الأمور الى حَدِّها النهائي الذي لا تغير من بعده .

ويفضح الشيطان نفسه فيقول :

﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

ووَعْد الله حَقٌّ ، لأنه وعْد مِمَّنْ يملك ؛ أما وَعْد الشيطان فقد اختلف ؛ لأنه وعْد بما لا يملكَ ؛ هو وعْد كاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذي لا يتغير .

وحين تَعِد أنت - الإنسان - إنساناً آخر بخير قادم ؛ فهل تضمن أنْ تواتيك ظروفك على أن تُحقِّق له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سبحانه أن نقول " إن شاء الله " وبذلك نردّ الوَعْد لله ؛ فهو وحده الذي يمكنه أنْ يَعِدَ ويُنفِّذ ما يعِد به .

وعلى الواحد منا أنْ يحمي نَفسه من الكذب ، وأن يقول " إن شاء الله " فإنْ لم تستطع أنْ تحقق ما وعدت به تكون قد حميت نَفسك من أنْ تُلقي اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول في الآخرة :

﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

ذلك أن وَعْده باطل ؛ والباطل لَجْلَج ، وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول: ﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [ الرعد: 17 ].

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبرّيء نفسه رغم عِلْمه أنه قد وعد، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به؛ ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بِمَنْ اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا: ﴿ لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ... ﴾ [ إبراهيم: 21 ].

فيقول الشيطان من بعد ذلك:

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [ إبراهيم: 22 ].

والسلطان - كما نعلم - إما سلطانَ قَهْر أو سلطانَ إقناع. وسلطان القَهْر يعني أن يملك أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أنْ يفعلَ ما يكره، بينما يكون كارهاً للفعل.

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل،

وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم؛ ويقول: أريد أنْ أناقشكم؛ هل كان لي سلطان قَهْريّ أقهركم به؟ هل كان لي سلطان إقناع أقعنكم به على اتباع طريقي؟

لم يكن لي في دنياكم هذه ولا تلك، فلا تتهموني ولا تجعلوني "شماعة" تُعلّقون عليّ أخطاءكم؛ فقد غويتُ من قبلكم وخالفتُ أمر ربي؛ ولم يكن لي عليكم سلطان سوى أن

دعوتُكم فاستجبتم لي .

وكل ما كان لي عندكم أنِّي حرَّكْتُ فيكم نوازع أنفسكم ، وتحرَّكت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقبلوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أنْ يُحرِّك نوازع النفس ؛ أو يترك النفس تتحرك بنوازعها إلى المعصية ؛ وهي كافية لذلك .

وسبق أنْ أوضحتُ كيف تُعْرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً ؛ فإنْ وقفتْ النفس عند معصية بعينها ؛ وكلما أبعدها الإنسان تُلِح عليه ؛ فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعَينها .

(263/417)

---

أما نَزْغ الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان ؛ إنْ وجده رافضاً لمعصية ما ؛ انتقل بالغواية إلى غيرها ؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أيِّ لَوْن ؛ فالمهم أنْ يعصي فقط ؛ لذلك يحاول أن يدخل الإنسان من نقطة ضعفه ؛ فإنْ وجده قوياً في ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس المَلُوم على ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

فالملُوم هنا هو مَنْ أقبل على المعصية ؛ لا مَنْ أغوى بها .

ويستمر الحق سبحانه في فَضْح ما يقوله الشيطان لمَنْ أغواهم في اليوم الآخر :

﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . . . ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

هذا هو قَوْل الشيطان الذي سبق وأنْ تعالى على آدم لحظة أنْ طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة ؛ ولكن الموقف هنا هو التساوي بين الذين أغواهم وبينه ؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصّراخ من صرخ ، وهو رَفْع الصوت بغرض أن يسمعه غيره ؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ ؛ بل يلتفّت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مأْرب طَلبِ المعونة ؛ وهذا لا يتأتّى إلا ممّنْ يخاف من مِفْزِع .

و" مُصرِخ " يدل على الفعل " أصرخ " ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمّى في اللغة " همزة الإزالة " . والمثل هو كلمة " معجم " أي : الذي يدلُّك على معنى للفظ ليُزيل إبهامه ؛ فيقال

" أعجم الكتاب " أي : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التي دخلت تُوضِّح إزالة العُجْمة عن الكلمة .

(264/417)

---

والمثل أيضاً على هذه الهمزة ؛ هو كلمة " عتب " أي : لامه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح " أعتب " أي : أزال ما به عَتَب .

ونجد في دعائه صلى الله عليه وسلم قوله الشريف : " لك العُتْبى حتى ترضى " .

أي : إذا كُنتَ يا ربّ تعتب عليَّ في أيِّ شيء ؛ فأنا أدعوك أن تُزيل هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتي مرة بإضافة الهمزة ؛ ومرة تأتي بالتضعيف ؛ مثل قولنا " مرَّض الطبيب مريضه " أي : أزال عنه - بإذن من الله - مرضه .

إذن : " مُصْرِخ " هو مَنْ يُزيل صراخ آخر ؛ فكأن هناك مَن استغاث ؛ فجاءه مَنْ يُغيثه .

وهكذا يلعن الشيطان في اليوم الآخر أنه ومَنْ أغواهم في مأزق ؛ وأنه غَيْر قادر على إزالة سبب هذا المأزق ؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه ؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر .

ويضيف :

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

فأنتم أشركتموني مع الله في الطاعة؛ حين استسلمتُم لغوايتي؛ ولم تكونوا من عباد الله المخْلَصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألاَّ أُغويهم؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به؛ فناديتكم واستجبتُم؛ وناداكم الله فعصيتُم أو كفرتم. وصِرْتم مِثْلي، فقد سبق لي أن أمرني الله وعصيتُ.

ويقول الحق سبحانه ما يجيء على لسان الشيطان لَمنْ كفر وعصى:

﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 22].

وهذه قضية عامة، قضية الكفر في القمة، فكمَا أطعتُم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله؛ فها هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف؛ بأنه شِرْك بالله؛ وهو يعلن الكفر بهذا؛ لأن يوم الحشر قد جاء؛ وتحقق فيه قول الله له: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ [الحجر: 37-38].



---

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم - وهو اليوم الآخر - يندسّ ويُوسوِس وينزغ؛ أما في ذلك اليوم فقد برز كل شيء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحد القهار، ولم يَعُدْ هناك ما يَخْفى عن العين.

وهذا ما خدعوا به أنفسهم، وظنُّوا أنهم قادرون على أن يُخفوا ما فعلوه عن أعْيُن الله؛

ولذلك نجد الحديث القدسي يقول:

"يا بني آدم، إنْ كنتم تعتقدون أنِّي لا أراكم، فالخَلل في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أنِّي أراكم فَلِم جَعَلْتموني أهونَ الناظرين إليكم".

وأنت في حياتك اليومية لا تجد مَنْ يسرق من آخر وجهاً لوجه: ولا أحد يحرق بيت أحدٍ أمام عينيه؛ فإنْ كنتم يا معشر البشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البعض؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم؛ فتعصونه.

وإنْ شككتُم أنه لا يراكم فالخلل في إيمانكم؛ وإنْ كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلوه أهونَ الناظرين إليكم، لأنه لو نظر إليك إنسان فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه.

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقِراً بأن الظالمين لهم عذاب أليم، والظلم في القمة هو الشرك بالله: ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: 13].

وحين نقرأ ذلك إما أنْ نأخذه على أنه إقرار من الشيطان؛ أو نفهمه على أن الشيطان قد قال:

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ.

.. ﴾ [إبراهيم: 22].

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة:

﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخَلْق والكائنات ؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة ؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية ؛ يأتي بالقضية النهائية في الحكم :

﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

والمناسبات توحي بمقابلاتها ؛ لتكون النفس مُتشوِّقة ومُتقبِّلة لهذا المقابل ؛ مثل قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [ الانفطار : 13 ] .

(266/417)

---

ويأتي بعدها بالمقابل لها : ﴿ وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [ الانفطار : 14 ] .

فكما جاء بمقابل الأشقياء ؛ لا بُدّ أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعِدوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأُدْخِلَ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ .

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث وجهاتٍ . ولكل جهة مَلْحظ ؛ فمرّة يُسنَد الفعل لله سبحانه ، ومرّة يُنسب الفعل للملائكة الذين يتلقوْن الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة ؛ ومرّة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذْناً ؛ والملائكة المُوكَّلون فتحوا أبواب الجنة لهم ؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل .

وهكذا يكون لكُلّ مَلْحظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

" وأُدْخِلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة " والمتكلم هنا هو الله . ونلحظ أن الله قال هنا :

﴿ وَأُدْخِلَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ . . . ﴾ [ إبراهيم : 23 ] .

لكي تضم كلمة " أدخل " أنه سبحانه أذن بدخولهم ؛ لأنه قال في نفس الآية :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [ إبراهيم : 23 ] .

وأن الملائكة المُكلّفين بذلك فتحوا لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلحظ أن كُلّ الكلام هنا عن الجنات ؛ فما هي الجنات ؟

ونقول : إن الجنة في أصل اللغة هي السّتْر ، ومنها الجنون أي : سَتْر العقل ، والمادة هي : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشي فيها لا يظهر ؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما في الدنيا أيضاً ؛ والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . ﴾ [ البقرة : 266 ] .

ولنا أن نعرف أن الجنةَ غَيْر المساكن التي في الجنة؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ . . . ﴾ [التوبة: 72] .

والجنة - ولله المثَل الأعلى - هي الحديقة الواسعة؛ وهذا الاتساع مُوزّع على كل مَرْأى عَيْن . والإنسان - بعجائب تكوينه - يُحِب أن يتخصص في مكان مرة؛ ويحب أن ينتشر في مكان مرة أخرى؛ فيستأجر شقة أو يبني لنفسه بيتاً مستقلاً "فيللا" وفي البيت أو الفيللا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقيّم الأشياء على هذا الأساس؛ فينظر مَنْ يرغب في شراء قطعة أرض ليبني عليها بيتاً؛ أهي تُطلّ على حارة أم على شارع؟ وهل سيستطيع أنْ يعلوَ بالبناء إلى عدة أدوار أم لا؟ وهل سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا؟

فإنْ كانت الأرض تُطِل على الفضاء، فحساب المترليس بالثمن المدفوع فيه؛ ولكن بقيمة ما يتيحه من اتساع أُفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً، حيث لن يتطفلَ عليك أحدٌ في هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبي؛ هي أماكن مُتسعة، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة،

تلك الجنات تجري من تحتها الأنهار . ومَنْ يدخلونها .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 23 ] .

ذلك أن الإنسان يحب التنعُّم ؛ ولكن كل تنعُّم في الدنيا هناك ما يُنغّصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل مِنّا رأى أناساً عاشت في نعيم ؛ ثم نُزِع منها بحكم الأغيار ؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتُك ولا تفوته ؛ لأنه على قَدْر إمكانات ربِّك .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا . . ﴾ [ إبراهيم : 23 ] .

يُوضِّح أن الخلودَ في الجنة دائمٌ بإذن من الله .

ويتابع سبحانه :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [ إبراهيم : 23 ] .

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلقائه ؛ ولذلك تأتي التحية على مقدار السرور ؛ فمرّة تكون التحية بمجرد رفْع اليد دون مُصَافحة ؛ وقد لا تكفي بذلك في حالة ازدياد المعزّة التي لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه في أحضانك ، وهكذا ترتقي في التحية ، وهي إعلان السرور باللقاء .

وتحية الجنة هي السلام لأن السلام أمن كل إنسان ؛ سلامٌ مع نفسك ؛ فلا تُكدّرِها بحديث النفس الذي يندم على ما فات ؛ أو الحُلْم بعمل قادم ، فالسلام في الجنة لن تجد فيه مُنغّصاتٍ من الماضي أو الحاضر أو المستقبل ؛ وتنسجم مع كل ما حولك في الكون ؛ الجماد ؛ النبات ؛ البشر ؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذييلاً لهذه الآية :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [ إبراهيم : 23 ] .

وهذه أفضل نُعمة ، وهي الحياة في سلامٍ وأمْن ، وبعد ذلك تدخُل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [ الرعد : 23-24 ] .

ثم يُلقَّون السلام الأعلى من الله ؛ وهو القائل : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ يس : 58 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

أخرج ابن المبارك في الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر بسند ضعيف ، عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين وقضى بينهم وفرغ من القضاء ، يقول المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا وفرغ من القضاء ، فمن يشفع لنا إلى ربنا ؟ فيقولون : آدم ، خلقه الله بيده وكلمه . فيأتونه فيقولون : قد قضى ربنا وفرغ من القضاء ، قم أنت فاشفع إلى ربنا . فيقول : ائتوا نوحاً ، فيأتون نوحاً عليه السلام فيدلهم على إبراهيم عليه السلام ، فيأتون إبراهيم عليه السلام فيدلهم على موسى عليه السلام ، فيأتون موسى عليه السلام فيدلهم على عيسى عليه السلام ، فيأتون عيسى عليه السلام فيقول : أدلكم على العربي الأمي ، فيأتوني ، فيأذن الله لي أن أقوم إليه ، فيثور مجلسي من أطيب ريح شمها أحد قط . . . حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي . ويقول الكافرون عند ذلك : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، ما هو إلا إبليس . . . فهو الذي أضلنا . فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم ، قم أنت فاشفع لنا فإنك أنت

أضللتنا ، فيقوم إبليس فيثور مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ، ثم يعظم لجهنم ويقول عند ذلك ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . . . ﴾ " الآية .



---

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي - رضي الله عنه - في قوله ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر . . . ﴾ الآية . قال : قام إبليس يخطبهم فقال ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . . . ﴾ إلى قوله ﴿ ما أنا بمصرخكم . . . ﴾ يقول : بمغن عنكم شيئاً ﴿ وما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ قال : فلما سمعوا مقالته ، مقتوا أنفسهم فنودوا ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ [ غافر : 10 ] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الحسن - رضي الله عنه - قال : إذا كان يوم القيامة ، قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق . . . ﴾ إلى قوله ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ قال : بناصري ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ قال : بطاعتكم إياي في الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الشعبي - رضي الله عنه - في هذه الآية ، قال :

خطيبان يقومان يوم القيامة ، إبليس وعيسى ابن مريم ، فاما إبليس ، فيقوم في حزبه فيقول هذا القول . وأما عيسى عليه السلام فيقول ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾

[المائدة : 117 ] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : إن من الناس ، من يذلله الشيطان كما يذلل أحدكم قعوده من الإبل .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ﴾ قال : ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ﴿ إني كفرت بما اشركتمون من قبل ﴾ قال : شركة عبادته .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ قال : ما أنا بمغيثكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد - رضي الله عنه - في قوله : ﴿ بمصرخيّ ﴾ قال : بمغيثي .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ يقول: عصيت الله فيكم.

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن جريج - رضي الله عنه - في قوله ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ قال: الملائكة يسلمون عليهم في الجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(272/417)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَعْدَ الحق ﴾ : يجوز أن يكونَ من إضافةِ الموصوفِ لصفتِه، أي: الوعد الحق، وأن يرادَ بالحق صفةُ الباري تعالى، أي: وَعَدكم اللهُ وَعْدَه، وأن يراد بالحقِ البعثُ

والجزاءُ على الإجمال، فتكونَ إضافةً صريحةً .

قوله : ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ فيه وجهان، أظهرُهما : أنه استثناءٌ منقطعٌ لأنَّ دعاءَه ليس من جنسِ السلطانِ وهو الحُجَّةُ البيِّنَةُ . والثاني : أنه متصلٌ، لأنَّ القدرةَ على حَمْلِ الإنسانِ على الشرِّ تارةً تكون بالقَهْرِ، وتارةً تكون بقوةِ الداعيةِ في قلبه، وذلك بالوسوسة إليه فهو نوعٌ من التسلُّطِ .

وقُرِئَ " فلا يَلُوْموني " بالياء من تحتُ على الالتفاتِ، كقوله : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [ يونس : 22 ] .

قوله : ﴿ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ العامَّةُ على فتحِ الياءِ ؛ لأنَّ الياءَ المدغَمَ فيها تُفْتَحُ أبداً لا سيما وقبلها كسرٌ ثانٍ . وقرأ حمزةُ بكسرِها، وهي لغةُ بني يَرْبوع . وقد اضطربت أقوالُ الناس في هذه القراءةِ اضطراباً شديداً : فمِنْ مُجْتَرِئٍ عليها مُلَحِّنٍ لقارئها، ومِنْ مُجَوِّزٍ لها من غيرِ ضعفٍ، ومِنْ مجوِّزٍ لها بضعفٍ .



---

قال حسين الجعفي : " سألتُ أبا عمروٍ عن كسرِ الياءِ فأجازه " . وهذه الحكايةُ تُحكى عنه بطرقٍ كثيرة، منها ما تقدَّم، ومنها : " سألت أبا عمروٍ وقلت : إن أصحابَ النحوِ

يُلْحِّنُوننا فيها فقال: هي جائزة أيضاً، إنما أراد تحريك الياء، فلستَ تبالي إذا حَرَّكْتَها إلى أسفلَ أم إلى فوقُ". وعنه: مَنْ شاء فتحَ، ومَنْ شاء كسر، ومنها أنه قال: إنها بالخفضِ حسنةٌ. وعنه قال: قَدِم علينا أبو عمرو بن العلاء فسألْتُه عن القرآن فوجدْتُه به عالماً، فسألْتُه عن شيء [مِنْ] قراءة الأعمش واستشعرته ﴿وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيِّ﴾ بالجرِّ فقال: هي جائزةٌ، فلما أجازها وقرأ بها الأعمشُ أَخَذْتُ بها.

وقد أنكر أبو حاتم على أبي عمروٍ تحسينَه لهذه القراءِة، ولا التفاتَ إليه لأنه عَلَمٌ من اعلامِ القرآن واللغةِ والنحوِ، واطَّلع على ما لم يطَّلع عليه [مَنْ فوقَ السجستاني]:

2877- وابنُ اللَّبُونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القناعيسِ

ثم ذكر العلماءُ في ذلك توجيهات: منها أنَّ الكسرَ على أصلِ التقاءِ الساكنين، وذلك أنَّ/ ياءَ الإِعرابِ ساكنةٌ، وياءَ المتكلمِ أصلُها السكونُ، فلمَّا التقيا كُسِرَتْ لالتقاء الساكنين.

الثاني: أنها تُشْبِهُ هاءَ الضميرِ في أنَّ كلاًّ منهما ضميرٌ على حرف واحد، وهاءُ الضميرِ تُوْصَلُ بواوٍ إذا كانت مضمومةً، وبياءٍ إذا كانت مكسورة، وتُكْسَرُ بعد الكسرةِ والياءِ الساكنة، فتُكْسَرُ كما تُكْسَرُ الهاءُ في "عليْهِ"، وبنو يربوعٍ يَصِلونها بياءٍ، كما يَصِل ابن كثير نحو: "عليهي" بياء، فحمزةُ كسرَ هذه الياءَ من غير صلةٍ، إذ أصلُه يقتضي عدمَها.

وزعم قطرب أيضاً أنها لغةُ بني يربوع، قال: يزيدون على ياء الإِضافة ياءً، وأنشد:

2878- ماضٍ إذا ما هَمَّ بالمُضِيِّ ... قال لها: هل لكِ يا تا فِيِّ

أنشده الفراء وقال : " فإنْ يَكُ ذلك صحيحاً فهو مِمَّا يلتقي من الساكنين " . وقال أبو عليّ : " قال الفراء في كتاب " التصريف " له : زعم القاسم بن معن أنه صوابٌ ، وكان ثقةً بصيراً " .

ومِمَّن طعن عليها أبو إسحاق قال : " هذه القراءةُ عند جميعِ النحويين رديئةٌ مَرْذُوْلَةٌ ولا وجهَ لها إلا وجهٌ ضعيفٌ " . وقال أبو جعفر : " صار هذا إدغاماً ، ولا يجوز أن يُحْمل كتابُ اللهِ تعالى على الشذوذ " . وقال الزمخشري : " هي ضعيفةٌ ، واستشهدوا لها ببيتٍ مجهول :

2879- قال لها : هل لكِ يا تا فِيَّ . . . قالت له : ما أنت بالمَرْضِيِّ

وكأنه قدَّر ياء الإِضافة ساكنةً ، وقبلها ياءٌ ساكنة ، فحرَّكها بالكسرِ لما عليه أصلُ التقاءِ الساكنين ، ولكنه غيرُ صحيحٍ ؛ لأنَّ ياءَ الإِضافةِ لا تكونُ إلا مفتوحةً حيث قَبْلها ألفٌ نحو : " عصايَ " فما بالُها وقبلَها ياءٌ ؟ فإن قلتَ : جَرَتِ الياءُ الأولى مَجْرى الحرفِ الصحيح لأجل الإِدغامِ فكأنها ياءٌ وقعَتْ [ ساكنةً " بعد حرفٍ صحيحٍ ساكنٍ فَحُرِّكَتْ بالكسرِ على الأصل . قلت : هذا قياسٌ حسنٌ ، ولكن الاستعمالَ المستفيضَ الذي هو بمنزلةِ

الخبرِ المتواترِ تتضاءلُ إليه القياساتُ " .

قال الشيخ : " أمَّا قولُه " واستشهدوا لها ببيتٍ مجهولٍ ، فقد ذكر غيرُهُ أنه للأغلبِ العجليّ ، وهي لغةٌ باقيةٌ في أفواهِ كثيرٍ من الناس إلى اليوم يقولون : " ما فِيَّ أفعلُ " بكسر الياء " .

قلت : الذي ذكر صاحبَ هذا الرجزِ هو الشيخُ أبو شامة ، قال : " ورأيتُه أنا في أول ديوانِه ، وأولُ هذا الرجز :

2880- أقبلَ في ثَوْبٍ مَعافِرِيِّ . . . عند اختلاطِ الليلِ والعَشيِّ

(275/417)

---

ثم قال الشيخ : " وأمَّا التوجيهُ الذي ذكره فهو توجيه الفراء نقله عنه الزجَّاج . وأمَّا قولُه في غضونِ كلامِه " حيث قبلها ألفٌ " فلا أعلم " حيث " تضاف إلى الجملةِ المصدرةِ بالظرف نحو : " قعد زيد حيث أمام عمروٍ بكر " فيحتاج هذا التركيب إلى سماعٍ " قلت : إطلاقُ النحاةِ قولَهم : إنها تضافُ إلى الجملِ كافٍ في هذا ، ولا يُحتاج [ إلى ] تَتَبُّع كلِّ فردٍ فردٍ ، مع إطلاقِهم القوانينَ الكلية .

ثم قال : وأمَّا قولُه " ياء الإِضافةِ إلا آخره " قد رُوي سكونُ الياءِ بعد الألف ، وقد قرأ بذلك القراءُ نحو " محيايْ " . قلت : مجيءُ السكون في هذه الياءِ لا يُفيده ههنا ، وإنما كان

يفيده لو جاء بها مكسورةً بعد الألف فإنه مَحَلُّ البحثِ . وأنشد النحاة بين الذبياني بالكسرِ والفتحِ ، وهو قوله :

2881- عليَّ لِعمروٍ نِعْمةٌ بعد نعمةٍ . . . لوالدِه ليسَتْ بذاتِ عَقارِبِ

وقال الفراء في كتاب " المعاني " له : " وقد خَفَضَ الياءَ مِنْ " بمُصْرِخِيّ " الأعمشُ ويحيى بنُ وثاب جميعاً ، حدَّثني بذلك القاسمُ بن مَعْن عن الأعمش ، ولعلها مِنْ وَهْم القرَّاء ، فإنه قَلَّ مَنْ سَلِمَ منهم مِنَ الوَهْمِ ، ولعله ظنَّ أن الباءَ في " بمُضْرِخِيَّ " خافضةٌ للفظِ كلِّه ، والياءُ للمتكلم خارجةٌ من ذلك " .

قال : " ومما نرى أنهم وَهِمُوا فيه قوله : { نُوَلِّهْ مَا تولى ونُصْلِهْ جَهَنَّمَ } بالجزم في الهاء " . ثم ذكر غيرَ ذلك .

وقال أبو عبيد : " أمَّا الخفضُ فإنَّا نراه غلطاً ، لأنهم ظنُّوا أن الباءَ تُكْسِرُ كلَّ ما بعدها ، وقد كان في القرَّاء مَنْ يجعله لحناً ، ولا أحبُّ أن أبلغ به هذا كلِّه ، ولكنَّ وجهَ القراءةِ عندنا غيرُها " .

قال الأخفش : " ما سَمِعْتُ بهذا مِنْ أحد من العرب ولا من أحدٍ من النحويين " . قال النحاس : " فصار هذا إجماعاً " .

قلت : ولا إجماعَ . فقد تقدَّم ما حكاه الناسُ من أنها لغةٌ ثانيةٌ لبعضِ العربِ . وقد انتدب لنُصرةِ هذه القراءة أبو عليٍّ الفارسيّ ، قال في " حُجَّته " . " وجهُ ذلك أن الياءَ ليسَتْ تخلُو مِنْ أَنْ تكونَ في موضعِ نصبٍ أو جرّ ، فالياءُ في النصبِ والجرِّ كالهاء فيهما ، وكالكاف في " أكرمتُك " و " هذا لك " ، فكما أنَّ الهاءَ قد لحقَتْها الزيادةُ في هذا : لهُوْ ، وضَرَبَهُوْ ، / ولحقَ الكافَ أيضاً الزيادةُ في قولِ مَنْ قال " أَعْطَيْتُكاه " و " أَعْطَيْتُكِيْه " فيما حكاه سيبويه ، وهما أختا الياء ، ولحقت التاءَ الزيادةُ في قولِ الشاعر :

2882- رَمَيْتِيهِ فَأَصْمَيْتِ . . . وما أَخْطَأْتِ [ في ] الرَّمْيَهْ

كذلك ألحقوا الياءَ الزيادةَ مِن المدِّ فقالوا : " فِيَّ " ، ثم حُذِفَتْ الياءُ الزائدةُ على الياءِ كما حُذِفَتِ الزيادةُ مِن الهاء في قولِ مَنْ قال :

2883- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . لَهْ أَرِقانِ

وزعم أبو الحسنِ أنها لغةٌ " .

قلت : مرادُ أبي عليٍّ بالتنظير بالبيت في قولِه : " لَهْ أَرِقان " حَذْفُ الصلةِ ، واتفق أن في البيت أيضاً حَذْفَ الحركةِ ، ولو مَثَّل بنحو " عليهِ " و " فيهِ " لكن أولى .

ثم قال الفارسيُّ : "كما حُذِفَتْ الزيادةُ من الكاف فقيل : أعطيتكهُ وأَعْطَيْتُكِهِ ، كذلك

حُذِفت الياءُ اللاحقةُ للياء كما حُذِفَتْ من أُخْتَيْها ، وأُقِرَّتْ الكسرةُ التي كانت تلي الياء المحذوفةَ فبقيت الياءُ على ما كانت عليه من الكسرِ " . قال : " فإذا كانت الكسرةُ في الياء على هذه اللغةِ - وإن كان غيرُها أَفْشى منها ، وعَضَدَه مِن القياس ما ذكرناه لم يَجُزْ لقائلٍ أن يقول : إن القراءةَ بذلك لحنٌ لاستقامةِ ذلك في السماعِ والقياسِ ، وما كان كذلك لا يكون لحناً " .



---

قلت : وهذا التوجيهُ هو توضيحٌ للتوجيه الثاني الذي قدَّمْتُ ذِكْرَه . وأما التوجيهُ الأولُ فأوضحه الفراءُ أيضاً ، قال الزجاج : " أجاز الفراء على وجهٍ ضعيفٍ الكسرَ لأنَّ أصلَ التقاءِ الساكنين الكسرُ " .

قال الفراء : " ألا ترى أنهم يقولون : مُذُ اليومِ ، ومُذِ اليوم ، والرفعُ في الذال هو الوجهُ ، لأنه أصلُ حركةِ " منذ " ، والخفضُ جائزٌ ، فكذلك الياءُ من " مُصْرِخيَّ " خُفِضَتْ ولها أصلٌ في النصب " .

قلت : تشبيهُ الفراءِ المسألةَ ب " مذ اليوم " فيه نظر ؛ لأنَّ الحرفَ الأولَ صحيحٌ ، ولم يتوالَ قبله كَسْرٌ بخلافِ ما نحن فيه ، وهذا هو الذي عناه الزمخشريُّ بقوله فيما قدَّمْتُه عنه : "

فكأنها وقعَتْ بعد حرفٍ صحيح " . وقد اضطرب النقلُ عن الفراء في هذه المسألةِ كما رأيتَ " مِنْ نَقْلِ بعضِهم عنه التخطئةَ مرةً ، والتصويبَ أخرى ، ولعل الأمرَ كذلك ، فإنَّ العلماءَ يُسأَلُون فيُجيبون بما يَحْضُرهم حالَ السؤالِ وهي مختلفةٌ .

التوجيهُ الثالث : أنَّ الكسرَ للإِتباعِ لما بعدها ، وهو كسرُ الهمزِ من " إنِّي " كقراءةِ " الحمدِ للهِ " ، وقولهم " بِعِير وشِعِير وشِهيد ، بكسرِ أوائِلها إتباعاً لما بعدها ، وهو ضعيفٌ جداً .

التوجيه الرابع : أنَّ المسوِّغ لهذا الكسرِ في الياء وإن كان مستثقلاً أنَّها لَمَّا أُدْغِمَتْ فيها التي قبلها قَوِيَتْ بالإِدغام ، فأشبهتِ الحروفَ الصِّحاحَ فاحتملتِ الكسرَ ؛ لأنه إنما يُسْتَثْقَلُ فيها إذا خَفَّتْ وانكسر ما قبلها ، ألا ترى أن حركاتِ الإِعرابِ تجري على المشدَّدِ وما ذاك إلاَّ لإِلحاقِه بالحروفِ الصِّحاح .

والمُصرِخُ : المُغيْثُ يُقال : استَصْرَخْتُه فأَصْرَخَني ، أي : أعانني ، وكأنَّ همزتَه للسَّلْب ، أي : أزال صُراخي . والصَّارِخ هو المستغيثُ . قال الشاعر :

2884- ولا تَجْزَعوا إني لكمْ غيرُ مُصْرِخٍ . . . وليس لكم عندي غَناءٌ ولا نَصْرُ

ويُقال: صَرَخَ يَصْرُخُ صَرْخاً وصُراخاً وصَرْخَة. قال:

2885- كنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ ... كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابيبِ

يريد: كان بدل الإصراخ، فحذف المضافَ، أقام مصدرَ الثلاثي مُقام مصدرِ الرباعي نحو: ﴿ واللهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح: 17].

والصَّرِيخُ: القومُ المُسْتَصْرِخُونَ قال:

2886- قومٌ إذا سَمِعُوا الصَّرِيخَ رأيتَهُمْ ... ما بين مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِعِ

والصَّرِيخُ أيضاً: المُغِيثُون فهو من الأضداد، وهو محتملٌ أَنْ يكون وَصْفاً على فَعِيْل كالخَليط، وأن يكونَ مصدراً في الأصل. وقال: ﴿ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ [يس: 43] فهذا يُحتمل أن يكونَ مصدراً، وأن يكونَ فعيلاً بمعنى المُفْعِل، أي: فلا مُصْرِخَ لهم، أي: ناصر، وتَصَرَّخ: تكلَّف الصُّراخ.

قوله: ﴿ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ﴾ يجوزُ في "ما" وجهان: أحدُهما: أَنْ تكونَ بمعنى الذي. ثم في المراد بهذا الموصولِ وجهان، أحدُهما: أنه الأصنامُ، تقديرُه: بالصنمِ الذي أطعتموني كما أَطَعْتُمُوه، كذا قال أبو البقاء، والعائدُ محذوفٌ، فقدَّره أبو البقاء: بما أشركتموني به، ثم حُذِفَ، يعني بعد حذف الجارِّ ووصولِ/ الفعلِ إليه، ولا حاجةَ إلى تقديرِه مجروراً بالباء؛ لأنَّ هذا الفعلَ متعدٍّ لواحدٍ نحو: شَرَكْتُ زيداً، فلمَّا دَخَلَتْ همزةُ النقل أَكْسَبته ثانياً هو العائد، تقول: أَشْرَكْتُ زيداً عمراً، جعلته شريكاً له.

الثاني : أنه الباري تعالى ، أي : بما أشركتموني ، أي : بالله تعالى ، والكلامُ في العائدِ كما تقدَّم ، إلا أنَّ فيه إيقاعَ " ما " على مَنْ يَعْلَمُ ، والمشهورُ فيها أنها لغير العاقل .

(279/417)

---

قال الزمخشريُّ : " ونحو : " ما " هذه " ما " في قولهم " سبحانَ ما سَخَّرَكُنَّ " ، ومعنى إشراكهم الشيطانَ بالله تعالى طاعتُهم له فيما كان يُزَيِّنُه لهم مِنْ عبادةِ الأوثان " . قال الشيخ : " ومن مَنَع ذلك جعَل " سبحان " عَلَماً للتسبيح كما جعل " بَرَّة " عَلَماً للمَبَرَّة ، و " ما " مصدرية ظرفية " ، أي : فيكون على حذفِ مضافٍ ، أي : سبحانَ صاحبِ تسخيرِكنَّ ؛ لأنَّ التسبيحَ لا يليقُ إلاَّ بالله .

الثاني من الوجهين الأولين : أنها مصدريةٌ ، أي : بإشراككم إياي .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلِّقٌ ب " كَفَرْتُ " على القولِ الأول ، أي : كفرتُ مِنْ قبلُ ، حين أَبَيْتُ السجودَ لآدمَ بالذي أشركتمونيه وهو اللهُ تعالى ، وب " أشركْتُ " على الثاني ، أي : كفرتُ اليومَ بإشراكِكم إيَّاي مِنْ قبلِ هذا اليوم ، أي في الدنيا ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [ فاطر : 14 ] هذا قولُ الزمخشريِّ . وأمَّا أبو البقاء فإنه جوَّز تعلُّقَه بكفرْتُ وبأشركتموني ، من غير ترتيبٍ على كون " ما " مصدريةً أو موصولية فقال : " ومِنْ

قبلُ : متعلِّقٌ بأشركتموني ، أي : كفرْتُ الآنَ أَشْرَكتموني مِنْ قبل . وقيل : وهي متعلِّقةٌ ب " كفرتُ " أي : كَفَرْتُ مِنْ قبلِ إشراكِكم فلا أنفعُكم شيئاً " .

وقرأ أبو عمرو وبإثباتِ الياء في " أشركتموني " وصْلاً وحَذْفِها وقفاً ، وحَذَفَها الباقون وصلاً ووقفاً .

وهنا تَمَّ كلامُ الشيطان . وقوله : ﴿ إنَّ الظالمين ﴾ مِنْ كلامِ الله تعالى ، ويجوز أن يكونَ مِنْ كلامِ الشيطان . و " عذاب " يجوز رَفْعُه بالجارِّ قبلَه على أنه الخبر ، وعلى الابتداءِ وخبرُه الجارُّ .

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) ﴾

(280/417)

---

قوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ ﴾ قرأ العامَّة " أُدْخِل " ماضياً مبنياً للمفعول ، والفاعلُ اللهُ أو الملائكة . والحسن وعمرو بن عبيد " وأُدْخِلُ " مضارعاً مسنداً للمتكلم وهو الله تعالى ، فمحَلُّ الموصولِ على الأول رفعٌ ، وعلى الثانية نصبٌ .

قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ في " [ قراءةِ ] العامَّةِ يتعلق بأُدْخِلَ ، أي : أُدْخِلوا بأمره وتيسيرِه .

ويجوز تعلُّقه بمحذوف على أنه حالٌ ، أي : ملتبسين بأمرِ ربهم ، وجوَّز أبو البقاء أن يكون من تمام " خالدين " يعني أنه متعلِّقٌ به ، وليس بممتنعٍ . وأمَّا على قراءة الشيخين فقال الزمخشري : " فيم تتعلَّق في القراءة الأخرى ، وقولُك " وأُدْخِلُ أنا بإذن ربِّهم " كلامٌ غير مُلتئمٍ ؟ قلت : الوجهُ في هذه القراءة أَنْ يتعلق بما بعده ، أي : تحيتُهم فيها سلامٌ بإذن ربهم " . ورَدَّ عليه الشيخ هذا بأنه لا يتقدَّم معمولُ المصدر عليه .

وقد عَلَّقه غيرُ الزمخشري بأُدْخِلُ ، ولا تنافرَ في ذلك ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أن المتكلم – في قوله : وأُدْخِلُ أنا – هو الربُّ تعالى . وأحسنُ من هذين أن تتعلَّقَ في هذه القراءة بمحذوفٍ على أنه حالٌ كما تقدَّم تقريرُه . و " تحيتُهم " مصدرٌ مضاف لمفعولِه ، أي : يُحَيِّيهم الله أو الملائكة . ويجوز أَنْ يكونَ مضافاً لفاعله ، أي : يُحَيِّي بعضُهم بعضاً . ويعضد الأولَ : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [ الرعد : 23 ] . و " فيها " متعلقٌ به . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 88. 99 ﴾

(281/417)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (23) ﴾

ذلك الذي مضى ذِكْرُ صفة الكفار والأعداء . وأمّا المؤمنون والأولياء ، فقال : ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ والإيمان هو التصديق ، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ تحقيق التصديق . ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قلَّ أو كَثُرَ من وجوه الخيرات حتى القَذَر تميطه عن الطريق .

و﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ - وكذلك قال تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ ﴾ [ الأنعام : 127 ] ، فالوصفُ العام والتحيةُ لهم من الله السلامُ .

ويقال إن أحوالهم متفاوتة في الرتبة ؛ فقومٌ سَلِمُوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من العذاب ثم من الحجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 247 ﴾

*(282/417)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الثامن عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 24 ﴾ من سورة إبراهيم عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 27 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر بما مضى أن الحق ما قاله الله أو فعله أو أذن فيه ، وأن الباطل ما كان على غير أمره مما ينسب إلى الشيطان أو غيره من قول أو فعل ، وأنه لا يصلح في الحكمة أن ينفي الحق ولا أن يبقى الباطل ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ [ يونس : 81 ] ، ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾ ، ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ [ الأنفال : 8 ] ، وقص سبحانه كلام أوليائه الذي هو من كلامه ، فهو أثبت الأشياء وأطيبها وأعظمها ثمرة ، وكلام أعدائه الذي هو من كلام الشيطان ، فهو أبطل الأشياء وأخبثها ، قرب سبحانه ذلك بمثل يتعارفه المخاطبون فقال : ﴿ ألم تر ﴾ أي يا من لا يفهم عنا هذا المثل حق الفهم سواه ! ﴿ كيف ضرب الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ مثلاً ﴾ أي سيره بحيث يعم نفعه ؛ والمثل : قول سائر

يشبه فيه حال الثاني بالأول ؛ ثم بينه بقوله : ﴿ كلمة طيبة ﴾ أي جمعت أنواع الكرم فليس فيها شيء من الخبث ، وتلك الكلمة ﴿ كشجرة طيبة ﴾ .

ولما كانت لا تسر إلا بالثبات ، قال : ﴿ أصلها ثابت ﴾ أي راسخ في الأرض آمن من الاجتثاث بالرياح ونحوها ﴿ وفرعها ﴾ عالٍ صاعد مهتز ﴿ في ﴾ جهة ﴿ السماء ﴾ لحسن منبتها وطيب عنصرها ؛ فالآية من الاحتباك : ذكر " ثابت " أولاً دال على عال صاعد ثانياً ، وذكر " السماء " ثانياً دال على الأرض أولاً .

ولما ذكر حالها ، ذكر ثمرتها فقال : ﴿ تؤتي أكلها ﴾ أي ثمرتها بحسن أرضها ودوام ريّها ﴿ كل حين ﴾ على أحسن ما يكون من الإيتاء ، لأن علوها منعها من عفونات الأرض وقاذورات الأبنية ، فكانت ثمرتها نقية من شوائب الأدناس .

(5/418)

---

ولما كان الشيء لا يكمل إلا بكمال مربيه قال : ﴿ بإذن ربها ﴾ فهي بحيث لا يستجيز عاقل أن يتسبب في إفسادها ، ومن سعى في ذلك منعه أهل العقول ولو وصلوا إلى بذل النفوس ؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : " كنا عند رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : أخبروني بشجرة كالرجل المسلم لا

يتحات ورقها [ . . . . ] ، تؤتي أكلها كل حين ، قال ابن عمر - رضى الله عنهما - : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : هي النخلة ، فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه ! والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، فقال : ما منعك أن تكلم ؟ قال : لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا " .

(6/418)

---

ثم نبه سبحانه على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم ، فقال : ﴿ ويضرب الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ الأمثال للناس ﴾ أي الذين يحتاجون إلى ذلك لاضطراب آرائهم ، لأن في ضربها زيادة إفهام وتصوير للمعاني ، لأن المعاني الصرفة إذا ذكر مناسبها من المحسوسات ارتسمت في الحس والخيال والوهم ، وتصورت فتركت هذه القوى المنازعة فيها ، فيحصل الفهم التام والوصول إلى المطلوب ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى له غاية التذكر - بما أشار إليه الإظهار ، فهذا مثل كلام الأولياء ، فكلمتهم الطيبة كلمة التوحيد التي لا أطيب منها ، وهي أصل كل سعادة راسخة في قلوبهم ، معرقة في كل عرق منهم أوجب إعراقها أن بسقت فروعها التي

هي الأعمال الدينية من أعمال القلوب والجوارح ، فصارت كلما هزت اجتنى الهاز ّثمراتها التي لا نهاية لها ، عالماً بأنها من فتح مولاه لا صنع له فيها بوجه ، بل له سبحانه المن عليه في جميع ذلك وكما أن الشجر لا تتم إلا بعرق راسخ وأصل قائم وفروع عالية ، فكذلك الإيمان لا يتم إلا بمعرفة القلب وقول اللسان وعمل الأركان ، ثم أتبعه مثل حال الأعداء فقال :

﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ أي عريقة في الخبث لا طيب فيها ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ .

ولما كان من أنفع الأمور إعدامها والراحة من وجودها على أيّ حالة كانت ، بنى للمفعول قوله : ﴿ اجتثت ﴾ أي استؤصلت بقلع جثتها من أصلها ﴿ من فوق الأرض ﴾ برأي كل من له رأي ؛ ثم علل ذلك لقوله : ﴿ ما لها ﴾ وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من قرار ﴾ أي عند من له أدنى لب ، لأنه لا نفع لها بل وجودها ضار ولو بشغل الأرض ، فكذلك الكلمة الخبيثة الباطلة لا بقاء لها أصلاً وإن علت وقتاً ، لأن حجتها داحضة فجنودها منهزمة .

*(7/418)*

---

فلما برز الكلام إلى هذين المثالين ، حصل التعجب ممن يترك ممثول الأول ويفعل ممثول الثاني ، فوقع التنبيه على أن ذلك بفعل القاهر ، فقال تعالى - جواباً لمن كأنه قال : إن هذا الصريح الحق ، ثم إنا نجد النفوس مائلة إلى الضلال ، وطائشة في أرجاء المحال ، فكيف لنا

بالامتثال ؟ ﴿ يثبت الله ﴾ أي الذي له الجلال والجمال ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أقل درجاتها ﴿ بالقول الثابت ﴾ أي الذي هو متابعة الدليل ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ بمثل ما تقدم من محاولات أنبيائه ﴿ وفي الآخرة ﴾ ويهديهم عند كل سؤال إلى أحسن الأقوال حيث تطيش العقول وتدهش الأفكار لشدة الأهوال ﴿ ويضل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿ الظالمين ﴾ أي العريقين في الظلم ، ويزلزلهم لتقلبهم في الظلمات التي من شأن صاحبها الضلال والخبط ، فيفعلون ما لا يرضاه عاقل ، فالآية من الاحتباك : ذكر الثبات أولاً دليلاً على ضده ثانياً ، والإضلال ثانياً دليلاً على الهدى أولاً ﴿ ويفعل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله ، فلا يسأل عما يفعل ﴿ ما يشاء ﴾ لأن الكل بحكمه وقضائه وهو القادر القاهر ، فلا يتعجب من شيء ، وفي هذا إرشاد إلى الإقبال عليه وإلقاء أزمّة الافتقار إليه ؛ روى البخاري في التفسير وغيره ومسلم في أواخر صفة الجنة والنار عن البراء ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " ، فذلك قوله تعالى ﴿ يثبت الله ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 183.186 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ، ذكر مثالاً يبين الحال في حكم هذين القسمين ، وهو هذا المثل .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة ثم شبه الكلمة الطيبة بها .

فالصفة الأولى : لتلك الشجرة كونها طيبة ، وذلك يحتمل أموراً .

أحدها : كونها طيبة المنظر والصورة والشكل .

وثانيها : كونها طيبة الرائحة .

وثالثها : كونها طيبة الثمرة يعني أن الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة .

ورابعها : كونها طيبة بحسب المنفعة يعني أنها كما يستلذ بأكلها فكذلك يعظم الانتفاع بها ، ويجب حمل قوله : شجرة طيبة ، على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي راسخ باق آمن الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء وذلك لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء ، فهو وإن كان يحصل الفرح بسبب وجدانه إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه ، أما إذا علم من حاله أنه باق دائم لا يزول ولا ينقضي فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَفَرْعُهَا فِى السمآء ﴾ وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين : الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق .

والثاني : أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب .

(9/418)

---

والصفة الرابعة : قوله : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ والمراد : أن الشجرة المذكورة كانت موصوفة بهذه الصفة ، وهي أن ثمرتها لا بد أن تكون حاضرة دائمة في كل الأوقات ، ولا تكون مثل الأشجار التي يكون ثمارها حاضراً في بعض الأوقات دون بعض ، فهذا شرح

هذه الشجرة التي ذكرها الله تعالى في هذا الكتاب الكريم ومن المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة ، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها وتملكها فإنه لايجوز له أن يتغافل عنها وأن يتساهل في الفوز بها .

إذا عرفت هذا فنقول : معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وفي خدمته وطاعته ، تشبه هذه الشجرة في هذه الصفات الأربع .

أما الصفة الأولى : وهي كونها طيبة فهي حاصلة ، بل نقول : لا طيب ولا لذيذ في الحقيقة إلا هذه المعرفة وذلك لأن اللذة الحاصلة بتناول الفاكهة المعينة إنما حصلت ، لأن إدراك تلك الفاكهة أمر ملائم لمزاج البدن ، فلأجل حصول تلك الملاءمة والمناسبة حصلت تلك اللذة العظيمة وههنا الملائم لجوهر النفس النطقية والروح القدسية ، ليس إلا معرفة الله تعالى ومحبته والاستغراق في الابتهاج به فوجب أن تكون هذه المعرفة لذيذة جداً ، بل نقول : اللذة الحاصلة من إدراك الفاكهة يجب أن تكون أقل حالاً من اللذة الحاصلة بسبب إشراق جوهر النفس بمعرفة الله وبيان هذا التفاوت من وجوه :

الوجه الأول : أن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة بسبب أن سطح الحاس يلاقي سطح المحسوس فقط ، فأما أن يقال إن جوهر المحسوس نفذ في جوهر الحاس فليس الأمر كذلك ، لأن الأجسام يمتنع تداخلها أما ههنا فمعرفة الله تعالى وذلك النور وذلك الإشراق

صار سارياً في جوهر النفس متحداً به وكأن النفس عند حصول ذلك الإشراق تصير غير النفس التي كانت قبل حصول ذلك الإشراق فهذا فرق عظيم بين البابين .



---

والوجه الثاني : في الفرق أن في الالتذاذ بالفاكهة المدرك هو القوة الذائقة ، والمحسوس هو الطعم المخصوص وههنا المدرك هو جوهر النفس القدسية ، والمعلوم والمشعور به هو ذات الحق جل جلاله ، وصفات جلاله وإكرامه ، فوجب أن تكون نسبة إحدى اللذتين إلى الأخرى كنسبة أحد المدركين إلى الآخر .

الوجه الثالث : في الفرق أن اللذات الحاصلة بتناول الفاكهة الطيبة كلما حصلت زالت في الحال ، لأنها كيفية سريعة الاستحالة شديدة التغير ، أما كمال الحق وجلاله فإنه ممتنع التغير والتبدل واستعداد جوهر النفس لقبول تلك السعادة أيضاً ممتنع التغير ، فظهر الفرق العظيم من هذا الوجه .

واعلم أن الفرق بين النوعين يقرب أن يكون من وجوه غير متناهية فليكتف بهذه الوجوه الثلاثة تنبيهاً للعقل السليم على سائرها .

وأما الصفة الثانية وهي كون هذه الشجرة ثابتة الأصل ، فهذه الصفة في شجرة معرفة الله

تعالى أقوى وأكمل ، وذلك لأن عروق هذه الشجرة راسخة في جوهر النفس القدسية ، وهذا الجوهر جوهر مجرد عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء ، وأيضاً مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلي جلال الله تعالى ، وهذا التجلي من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور ، وذلك مما يمتنع عقلاً زواله لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، وواجب الوجود في جميع صفاته والتغير والفناء والتبدل والزوال والبخل والمنع محال في حقه ، فثبت أن الشجرة الموصوفة بكونها ثابتة الأصل ليست إلا هذه الشجرة .

الصفة الثالثة : لهذه الشجرة كونها بحيث يكون فرعها في السماء .

واعلم أن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني .



---

وأما النوع الأول : فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام : " التعظيم لأمر الله " ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفة الله تعالى في عالم الأرواح ، وفي عالم الأجسام ، وفي أحوال عالم الأفلاك والكواكب ، وفي أحوال العالم السفلي ، ويدخل فيه محبة الله تعالى والشوق إلى الله تعالى والمواظبة على ذكر الله تعالى والاعتماد بالكلية على الله تعالى ، والانقطاع بالكلية

عما سوى الله تعالى والاستقصاء في ذكر هذه الأقسام غير مطموع فيه لأنها أحوال غير متناهية.

وأما النوع الثاني: فهي أقسام كثيرة ويجمعها قوله عليه السلام: "والشفقة على خلق الله" ويدخل فيه الرحمة والرأفة والصفح والتجاوز عن الذنوب، والسعي في إيصال الخير إليهم، ودفع الشر عنهم، ومقابلة الإساءة بالإحسان.

وهذه الأقسام أيضاً غير متناهية وهي فروع ثابتة من شجرة معرفة الله تعالى فإن الإنسان كلما كان أكثر توغلاً في معرفة الله تعالى كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى وأفضل.

(12/418)

---

وأما الصفة الرابعة: فهي قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فهذه الشجرة أولى بهذه الصفة من الأشجار الجسمانية، لأن شجرة المعرفة موجبة لهذه الأحوال ومؤثرة في حصولها والسبب لا ينفك عن المسبب فأثر رسوخ شجرة المعرفة في أرض القلب أن يكون نظره بالعبرة كما قال: ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر: 2] وأن يكون سماعه بالحكمة كما قال: ﴿ الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: 18] ونطقه بالصدق والصواب كما قال: ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ بالقسط شُهَدَاء لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى

أَنفُسِكُمْ ﴾ [ النساء : 135 ] وقال عليه السلام : " قولوا الحق ولو على أنفسكم " وهذا الإنسان كلما كان رسوخ شجرة المعرفة في أرض قلبه أقوى وأكمل ، كان ظهور هذه الآثار عنده أكثر ، وربما توغل في هذا الباب فيصير بحيث كلما لاحظ شيئاً لاحظ الحق فيه ، وربما عظم ترقيه فيه فيصير لا يرى شيئاً إلا وقد كان قد رأى الله تعالى قبله .

فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ وأيضاً فما ذكرناه إشارة إلى الإلهامات النفسانية والملكات الروحانية التي تحصل في جواهر الأرواح، ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة ولمحة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل ، كثمرة هذه الشجرة .

(13/418)

---

وأما قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ففيه دقيقة عجيبة ، وذلك لأن عند حصول هذه الأحوال السنية ، والدرجات العالية ، قد يفرح الإنسان بها من حيث هي هي ، وقد يترقى فلا يفرح بها من حيث هي هي ، وإنما يفرح بها من حيث إنها من المولى ، وعند ذلك فيكون فرحه في الحقيقة بالمولى لا بهذه الأحوال ، ولذلك قال بعض المحققين : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالفاني ، ومن آثر العرفان لا للعرفان ، بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول ، فقد ظهر

بهذا التقرير الذي شرحناه والبيان الذي فصلناه أن هذا المثال الذي ذكره الله تعالى في هذا الكتاب مثال هادٍ إلى عالم القدس ، وحضرة الجلال ، وسرادقات الكبرياء ، فنسأل الله تعالى مزيد الاهتداء والرحمة إنه سميع مجيب ، وذكر بعضهم في تقرير هذا المثال كلاماً لا بأس به ، فقال : إنما مثل الله سبحانه وتعالى الإيمان بالشجرة ، لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة ، إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل قائم ، وأغصان عالية .

كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة في القلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

قال صاحب الكشاف : في نصب قوله : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ وجهان : الأول : أنه منصوب بمضمر والتقدير : جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وهو تفسير لقوله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً ﴾ .

الثاني : قال ويجوز أن ينتصب مثلاً .

وكلمة بضرب ، أي ضرب كلمة طيبة مثلاً بمعنى جعلها مثلاً ، وقوله : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : هي كشجرة طيبة .

الثالث : قال صاحب "حل العقد" أظن أن الأوجه أن يجعل قوله : ﴿ كَلِمَةً ﴾ عطف بيان ، والكاف في قوله : ﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ في محل النصب بمعنى مثل شجرة طيبة .

المسألة الثالثة :

قال ابن عباس : الكلمة الطيبة هي قول لا إله إلا الله ، والشجرة الطيبة هي النخلة في قول الأكثرين .

(14/418)

---

وقال صاحب "الكشاف" : إنها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان ، وأراد بشجرة طيبة الثمرة ، إلا أنه لم يذكرها لدلالة الكلام عليها أصلها ، أي أصل هذه الشجرة الطيبة ثابت ، وفرعها أي أعلاها في السماء ، والمراد الهواء لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء ﴿ تُؤْتِى ﴾ أي هذه الشجرة ﴿ أُكُلَهَا ﴾ أي ثمرها وما يؤكل منها كل حين ، واختلفوا في تفسير هذا الحين فقال ابن عباس ستة أشهر ، لأن بين حملها إلى صرامها ستة أشهر ، جاء رجل إلى ابن عباس فقال : نذرت أن لا أكلم أخي حتى حين ، فقال : الحين ستة أشهر ، وتلا قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ وقال مجاهد وابن زيد : سنة ، لأن الشجرة من العام إلى العام تحمل الثمرة .

وقال سعيد بن المسيب : شهران ، لأن مدة إطعام النخلة شهران .

وقال الزجاج : جميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهبون إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح

لجميع الأزمان كلها طالت أم قصرت ، والمراد من قوله : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ أنه ينتفع بها في كل وقت وفي كل ساعة ليلاً أو نهاراً أو شتاء أو صيفاً .

قالوا : والسبب فيه أن النخلة إذا تركوا عليها الثمر من السنة إلى السنة انتفعوا بها في جميع أوقات السنة .

وأقول : هؤلاء وإن أصابوا في البحث عن مفردات ألفاظ الآية ، إلا أنهم بعدوا عن إدراك المقصود ، لأنه تعالى وصف هذه الشجرة بالصفات المذكورة ، ولا حاجة بنا إلى أن تلك الشجرة هي النخلة أم غيرها ، فإنا نعلم بالضرورة أن الشجرة الموصوفة بالصفات الأربع المذكورة شجرة شريفة ينبغي لكل عاقل أن يسعى في تحصيلها وتملكها لنفسه ، سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن ، لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل ، واختلافهم في تفسير الحين أيضاً من هذا الباب ، والله أعلم بالأمور .

(15/418)

---

ثم قال : ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ والمعنى : أن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ، وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم ، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك

المنازعة وانطبق المعقول على المحسوس وحصل به الفهم التام والوصول إلى المطلوب .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتثت مِن فَوْقِ الأَرض مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ .

فاعلم أن الشجرة الخبيثة هي الجهل بالله ، فإنه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس الشقاوات ثم إنه تعالى شبهها بشجرة موصوفة بصفات ثلاثة :

الصفة الأولى : أنها تكون خبيثة فمنهم من قال إنها الثوم ، لأنه صلى الله عليه وسلم وصف الثوم بأنها شجرة خبيثة ، وقيل : إنها الكراث .

وقيل : إنها شجرة الحنظل لكثرة ما فيها من المضار وقيل : إنها شجرة الشوك .

واعلم أن هذا التفصيل لا حاجة إليه ، فإن الشجرة قد تكون خبيثة بحسب الرائحة وقد تكون بحسب الطعم ، وقد تكون بحسب الصورة والمنظر وقد تكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة والشجرة الجامعة لكل هذه الصفات وإن لم تكن موجودة ، إلا أنها لما كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعاً في المطلوب .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأَرض ﴾ وهذه الصفة في مقابلة قوله : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الإجتثاث أخذ الجثة كلها ، وقوله : ﴿ مِن فَوْقِ الأَرض ﴾ معناه : ليس لها أصل ولا عرق ، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة .

والصفة الثالثة : قوله ما لها من قرار ، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية ، والمعنى أنه ليس لها استقرار .

يقال : قر الشيء قراراً كقولك : ثبت ثباتاً ، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت .

*(16/418)*

---

واعلم أن هذا المثال في صفة الكلمة الخبيثة في غاية الكمال ، وذلك لأنه تعالى بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة ، وخالية عن كل المنافع أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشارة بقوله : ﴿ خَبِيثَةٍ ﴾ وأما كونها خالية عن كل المنافع فإليه الإشارة بقوله : ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ والله أعلم .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتاً ، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة الله لهم ، وثبات ثوابه عليهم ، والمقصود :

بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى فقوله : ﴿ يُثَبِّتُ الله ﴾ أي على الثواب والكرامة ، وقوله : ﴿ بالقول الثابت فِى الحياة الدنيا وَفِى الأخرة ﴾ أي بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا .

ثم قال : ﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون يضلهم الله عن كراماته ويمنعهم عن الفوز بثوابه وفي الآية قول آخر وهو القول المشهور أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر ، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته إياه على الحق .

(17/418)

---

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت فِى الحياة الدنيا وَفِى الأخرة ﴾ قال : " حين يقال له في القبر من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبي محمد صلى الله عليه وسلم " والمراد في الباء في قوله : ﴿ بالقول الثابت ﴾ هو أن الله تعالى إنما ثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول ، ولهذا الكلام تقرير عقلي وهو أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى ، فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا الله

وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل .

قال ابن عباس : من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها وإنما فسر الآخرة ههنا بالقبر ، لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا ودخل في أحكام الآخرة وقوله : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ يعني أن الكفار إذا سئلوا في قبورهم قالوا : لا ندري وإنما قال ذلك لأن الله أضله وقوله : ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَآءُ ﴾ يعني إن شاء هدى وإن شاء أضل ولا اعتراض عليه في فعله ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 92.97 ﴾

*(18/418)*

---

وقال الجصاص :

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

رَوَى أَبُو ظَبْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " غُدْوَةً وَعَشِيَّةً " .

وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " هِيَ النَّخْلَةُ تُطْعَمُ فِي كُلِّ سِتَّةِ أَشْهُرٍ " ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعَامِرٍ وَعِكْرِمَةَ .

وروى اللَّيْثُ بْنُ سعْدٍ وسُلَيْمَانُ بْنُ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: "أَرى الْحِينَ سَنَةً"، وكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ الْحكمِ وحمَّادٍ مِنْ قَوْلِهِمَا، وكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي روايَةٍ مِنْ قَوْلِهِ وقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: "الْحِينُ شَهْرَانِ، مِنْ حِينِ تصْرَمُ النَّخْلُ إلَى أَنْ تَطْلُعَ"، ورُوِيَ عَنْهُ أَنَّ النَّخْلَةَ لَا تَكُونُ فِيهَا أُكُلُهَا إلَّا شَهْرَيْنِ، ورُوِيَ عَنْهُ أَنَّ الْحِينَ سِتَّةُ أَشْهُرٍ.

ورَوَى الْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الْحِينِ فَقَالَ: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾: سِتَّةُ أَشْهُرٍ، ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾: يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ورَوَى هِشَامُ بْنُ حَسَّانٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: إنْ فَعَلْت كَذَا وكَذَا إلَى حِينٍ فَغُلَامُهُ حُرٌّ، فَأَتَى عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَسَأَلَهُ، فَسَأَلَنِي عَنْهَا فَقُلْت: إنَّ مِنْ الْحِينِ حِينًا لَا يُدْرَكُ قَوْلُهُ: ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ومَتَاعٌ إلَى حِينٍ ﴾ فَأَرَى أَنْ يُمْسِكَ مَا بَيْنَ صِرَامِ النَّخْلِ إلَى حَمْلِهَا فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ.

(19/418)

---

ورَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الْحَسَنِ: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قَالَ: "مَا بَيْنَ سِتَّةِ الْأَشْهُرِ أَوْ السَّبْعَةِ".

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْحِينُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى وَقْتٍ مُبْهَمٍ ، وَجَائِزٌ أَنْ يُرَادَ بِهِ وَقْتٌ مُقَدَّرٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فَهَذَا عَلَى وَقْتِ

(20/418)

---

صَلَاةِ الْفَجْرِ وَوَقْتِ الظُّهْرِ وَوَقْتِ الْمَغْرِبِ عَلَى اخْتِلَافٍ فِيهِ لِأَنَّهُ قَدْ أُرِيدَ بِهِ فِعْلُ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، فَصَارَ " حِينَ " فِي هَذَا الْمَوْضِعِ اسْمًا لِأَوْقَاتِ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ .

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الرِّوَايَةِ الَّتِي رُوِيَتْ عَنْهُ فِي الْحِينِ أَنَّهُ غُدْوَةٌ وَعَشِيَّةٌ ذَهَبَ إلَى مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ أَقْصَرُ الْأَوْقَاتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ وَهَذَا عَلَى وَقْتِ الرُّؤْيَةِ وَهُوَ وَقْتٌ قَصِيرٌ غَيْرُ مُمْتَدٍّ .

وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً لِأَنَّهُ رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ ﴾ أَنَّهُ أَرَادَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَالسَّنَةُ وَالسِّتَّةُ الْأَشْهُرُ وَالثَّلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَالشَّهْرَانِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ تَأْوِيلِ السَّلَفِ لِلْآيَةِ كُلُّهُ مُحْتَمَلٌ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّ الْحِينَ اسْمٌ

يَقَعُ عَلَى وَقْتٍ مُبْهَمٍ وَعَلَى أَقْصَرِ الْأَوْقَاتِ وَعَلَى مُدَدٍ مَعْلُومَةٍ بِحَسَبِ قَصْدِ الْمُتَكَلِّمِ.

ثُمَّ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ حَلَفَ أَنْ لَا يُكَلِّمَ فُلَانًا حِينًا أَنَّهُ عَلَى سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ أَقْصَرَ الْأَوْقَاتِ، إِذْ كَانَ هَذَا الْقَدْرُ مِنْ الْأَوْقَاتِ لَا يُحْلَفُ عَلَيْهِ فِي الْعَادَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ الْحَلِفَ عَلَى أَرْبَعِينَ سَنَةً حَلَفَ عَلَى التَّأْبِيدِ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيتٍ.

(21/418)

---

ثُمَّ كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ لَمَّا اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِيهِ عَلَى مَا وَصَفْنَا كَانَ أَقْصَرُ الْأَوْقَاتِ فِيهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ لِأَنَّ مِنْ حِينِ الصِّرَامِ إِلَى وَقْتِ أَوَانِ الطَّلْعِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، وَهُوَ أَوْلَى مِنْ اعْتِبَارِ السَّنَةِ لِأَنَّ وَقْتَ الثَّمَرَةِ لَا يَمْتَدُّ سَنَةً بَلْ يَنْقَطِعُ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ،

(22/418)

---

وَإِذَا اعْتَبَرْنَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ كَانَ مُوَافِقًا لِظَاهِرِ اللَّفْظِ فِي أَنَّهَا تُطْعَمُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَتَنْقَطِعُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ .

وَأَمَّا الشَّهْرَانِ فَلَا مَعْنَى لِاعْتِبَارِ مَنْ اعْتَبَرَهُمَا لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ مِنْ وَقْتِ الصِّرَامِ إلَى وَقْتِ خُرُوجِ الطَّلْعِ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ ، فَإِنْ اُعْتُبِرَ بَقَاءُ الثَّمَرَةِ شَهْرَيْنِ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مِنْ وَقْتِ خُرُوجِ الطَّلْعِ إلَى وَقْتِ الصِّرَامِ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ أَيْضًا ، فَلَمَّا بَطَلَ اعْتِبَارُ السَّنَةِ وَاعْتِبَارُ الشَّهْرَيْنِ بِمَا وَصَفْنَا ثَبَتَ أَنَّ اعْتِبَارَ السِّتَّةِ الْأَشْهُرِ أَوْلَى آخِرُ سُورَةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(23/418)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

فِيهِ ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ نُزُولِهَا عَلَى مَعْنَاهَا : رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ الْحَبْحَابِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : ﴿ أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِنَاعٍ مِنْ

رُطَبٍ، فَقَالَ: مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ الْآيَةَ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ ﴾.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ، مَثَلُهَا كَمَثَلِ الْمُسْلِمِ، خَبِّرُونِي مَا هِيَ ﴾ الْحَدِيثَ، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ هِيَ النَّخْلَةُ ﴾، فَذَكَرَ خِصَالًا فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وَمِنْهَا أَنَّهَا تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: فِي تَفْسِيرِ الْحِينِ: وَفِيهِ عَشَرَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ سَاعَةٌ أَقَلُّ الزَّمَانِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ غُدْوَةٌ وَعَشِيَّةٌ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ شَهْرَانِ؛ قَالَهُ ابْنُ الْمُسَيِّبِ.

الْخَامِسُ: أَنَّهُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

السَّادِسُ: أَنَّهُ سَنَةٌ؛ قَالَهُ عَلِيٌّ.

السَّابِعُ: أَنَّهُ سَبْعَةُ أَعْوَامٍ.

الثَّامِنُ: أَنَّهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

الْعَاشِرُ : أَنَّهُ مَجْهُولٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي تَحْقِيقِ مَعْنَاهُ : اعْلَمُوا أَفَادَكُمُ اللَّهُ الْعِرْفَانَ أَنَّا قَدْ أَحْكَمْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي كِتَابِ مَلْجَئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ ؛ وَنَحْنُ الْآنَ نُشِيرُ إلَى مَا يُغْنِي فِي ذَلِكَ الْغَرَضِ ، وَيُشْرِفُ بِكُمْ عَلَى مَقْصُودِ الْفَتْوَى الْمُفْتَرَضِ ، فَنَقُولُ : إنَّ الْحِينَ ظَرْفُ زَمَانٍ ، وَهُوَ مُبْهَمٌ لَا تَخْصِيصَ فِيهِ ، وَلَا تَعْيِينَ فِي الْمُفَسِّرِ لَهُ ، وَهَذَا مُقَرَّرٌ لُغَةً ، مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مِنْ عُلَمَاءِ اللِّسَانِ ، وَإِنَّمَا يُفَسِّرُهُ مَا يَقْتَرِنُ بِهِ ، وَهُوَ يَحْتَمِلُ سَاعَةً لَحْظِيَّةً ، وَيَحْتَمِلُ يَوْمَ السَّاعَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، وَيَحْتَمِلُ حَالَ الْعَدَمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ ﴾ .

وَلِأَجْلِ إبْهَامِهِ عُلِّقَ الْوَعِيدُ بِهِ ، لِيَغْلِبَ الْخَوْفُ ، لِاسْتِغْرَاقِ مُدَّةِ الْعَذَابِ نِهَايَةَ الْأَبَدِ فِيهِ ، فَيَكُفَّ عَنْ الذَّنْبِ ، أَوْ يَرْجُوَ لِاقْتِضَاءِ الْوَعِيدِ أَقَلَّ مُدَّةِ احْتِمَالِهِ ؛ فَيَغْلِبَ الرَّجَاءُ ، وَلَا يَقَعُ الْيَأْسُ عَنْ الْمَغْفِرَةِ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْ الذَّنْبِ ، ثُمَّ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .

وَتَعَلَّقَ مَنْ قَالَ : إنَّ الْحِينَ غُدْوَةٌ وَعَشِيَّةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ نَزَعَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ ثَمُودَ : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ .

وَتَعَلَّقَ ابْنُ الْمُسَيِّبِ بِبَقَاءِ الثَّمَرِ فِي النَّخْلِ .

وَاسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ بِأَنَّهُ مُدَّةُ الثَّمَرِ مِنْ حِينِ الِابْتِدَاءِ إِلَى حِينِ الْجَنْيِ .

وَتَعَلَّقَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ .

وَتَعَلَّقَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ سَبْعُ سِنِينَ أَوْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً بِأَخْبَارٍ إِسْرَائِيلِيَّةٍ وَرَدَتْ فِي مُدَّةِ بَقَاءِ يُوسُفَ فِي السِّجْنِ بِاخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَةِ عَنْهُمْ وَمِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحٌ وَفَاسِدٌ ، وَقَوِيٌّ وَضَعِيفٌ ؛ وَأَظْهَرُهَا اللَّحْظَةُ ؛ لِأَنَّهُ

اللُّغَةُ وَالْمَجْهُولُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ مِقْدَارُهُ عَلَى التَّعْيِينِ ، وَالشَّهْرَانِ وَالسِّتَّةُ أَشْهُرٍ وَالسَّنَةُ [ لِأَنَّهَا ] كُلُّهَا تَخْرُجُ مِنْ ذِكْرِ الْحِينِ فِي ذِكْرِ النَّخْلَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ .

وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : مَنْ نَذَرَ أَنْ يَصُومَ حِينًا فَلْيَصُمْ سَنَةً .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ .

وَرَوَى أَشْهَبُ ، عَنْ مَالِكٍ قَالَ : الْحِينُ الَّذِي يُعْرَفُ مِنْ الثَّمَرَةِ إِلَى الثَّمَرَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ .

وَمِنْ الْحِينِ الَّذِي لَا يُعْرَفُ قَوْلُهُ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ ﴾ .

وَقَالَ أَشْهَبُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : الْحِينُ الَّذِي يُعْرَفُ قَوْلُهُ : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ فَهَذَا سَنَةٌ ، وَالْحِينُ الَّذِي لَا يُعْرَفُ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ ، فَهَذَا حِينٌ لَا يُعْرَفُ .

(26/418)

---

وَقَدْ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ : إِنَّ الْحِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ حِينِ تَطْلُعُ الثَّمَرَةُ إِلَى أَنْ تُرْطِبَ ، وَمِنْ حِينِ تُرْطِبُ إِلَى أَنْ تَطْلُعَ .

وَالْحِينُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ .

وَمِنْ الْحِينِ الْمَجْهُولِ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : الَّذِي اخْتَارَهُ مَالِكٌ فِي الصَّحِيحِ سَنَةٌ ، وَاخْتَارَ أَبُو حَنِيفَةَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَتَبَايَنَ الْعُلَمَاءُ وَالْأَصْحَابُ مِنْ كُلِّ بَابٍ عَلَى حَالِ احْتِمَالِ اللَّفْظِ .

وَأَصْلُ الْمَسْأَلَةِ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ أَنَّ الْحِينَ الْمَجْهُولَ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ حُكْمٌ ، وَالْحِينُ الْمَعْلُومُ هُوَ الَّذِي تَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَحْكَامُ ، وَيَرْتَبِطُ بِهِ التَّكْلِيفُ ، وَأَكْثَرُ الْمَعْلُومِ سَنَةٌ .

وَمَالِكٌ يَرَى فِي الْأَيْمَانِ وَالْأَحْكَامِ أَعَمَّ الْأَسْمَاءِ وَالْأَزْمِنَةِ ، وَأَكْثَرَهَا اسْتِظْهَارًا .

وَالشَّافِعِيُّ يَرَى الْأَقَلَّ ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَعَيِّنُ .

وَأَبُو حَنِيفَةَ تَوَسَّطَ ، فَقَالَ : سِتَّةُ أَشْهُرٍ .

وَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ ؛ لِأَنَّ الْمُقَدَّرَاتِ عِنْدَهُ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا ، وَلَيْسَ فِيهِ نَصٌّ عَنْ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ ؛ وَإِنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَى الْمَعْنَى بَعْدَ مَعْرِفَةِ مُقْتَضَى اللَّفْظِ لُغَةً ، وَهُوَ أَمْرٌ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَمْثِلَةِ ؛ وَنَحْنُ نَضْرِبُ فِي ذَلِكَ الْأَمْثِلَةَ مَا نُبَيِّنُ بِهِ الْمَقْصُودَ ، وَذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَمْثِلَةٍ : الْمِثَالُ الْأَوَّلُ : فَنَقُولُ : إذَا نَذَرَ أَنْ يُصَلِّيَ حِينًا فَيَحْتَمِلُ رَكْعَةً عِنْدَ الشَّافِعِيِّ ؛ لِأَنَّهُ أَقَلُّ النَّافِلَةِ ، وَرَكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُمَا أَقَلُّ النَّافِلَةِ فَيَتَقَدَّرُ الزَّمَانُ بِقَدْرِ الْفِعْلِ .

الْمِثَالُ الثَّانِي : إذَا نَذَرَ أَنْ يَصُومَ حِينًا فَيَحْتَمِلُ يَوْمًا لَا أَقَلَّ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مِعْيَارُ الصَّوْمِ [ الشَّرْعِيِّ ] ؛ إذْ هِيَ عِبَادَةٌ تَتَقَدَّرُ بِالزَّمَانِ ، لَا بِالْأَفْعَالِ ؛ لِأَنَّهُ تَرْكٌ فَلَا يَحُدُّهُ إلَّا الْوَقْتُ ، بِخِلَافِ الْفِعْلِ ، فَإِنَّهُ يَحُدُّ نَفْسَهُ .

وَيَحْتَمِلُ الدَّهْرَ ، وَيَحْتَمِلُ سَنَةً ، فَرَأَى الشَّافِعِيُّ يَوْمًا أَخْذًا بِالْأَقَلِّ ، وَأَلْزَمَ مَالِكٌ الدَّهْرَ ؛ لِأَنَّهُ الْأَكْثَرُ ، وَتَرَكَهُ مَالِكٌ لِلْعِلَّةِ الَّتِي أَشَارَ إلَيْهَا مِنْ أَنَّهُ مَجْهُولٌ ، وَيَلْزَمُهُ أَنْ يَقْضِيَ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ مَجْهُولًا ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَهُ أَنَّهُ لَوْ قَالَ : عَلَيَّ صَوْمُ الدَّهْرِ لَزِمَهُ وَتَوَسَّطَ ، فَقَالَ سَنَةً ، فَإِنَّهُ عَدْلٌ بَيْنَ الْأَقَلِّ وَالْأَكْثَرِ ، وَبَيَّنَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فِي ذِكْرِ النَّخْلَةِ ، وَيُعَارِضُهُ أَنَّ سِتَّةَ أَشْهُرٍ بَيِّنٌ أَيْضًا ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَ بِالْأَكْثَرِ فِي ذِكْرِ النَّخْلَةِ .

(28/418)

---

الْمِثَالُ الثَّالِثُ : إذَا حَلَفَ أَلَّا يَدْخُلَ الدَّارَ حِينًا : وَهِيَ مُتَرَكِّبَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا فِي تَحْدِيدِ الْحِينِ ، لَكِنَّهُ يَلْحَقُ الصَّلَاةَ فِي احْتِمَالِ أَقَلَّ مِنْ يَوْمٍ ، وَيَحْتَمِلُ سَائِرَ الْوُجُوهِ .

وَالْمُعَوَّلُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا عَلَى الْعُرْفِ فِي ذَلِكَ إنْ لَمْ تَكُنْ نِيَّةٌ وَلَا سَبَبٌ وَلَا بِسَاطُ حَالٍ ؛ فَيُرَكَّبُ الْبِرّ وَالْحِنْثُ عَلَى النِّيَّةِ

أَوَّلًا ، وَعَلَى السَّبَبِ ثَانِيًا ، وَعَلَى الْبِسَاطِ ثَالِثًا ، وَعَلَى اللُّغَةِ رَابِعًا ، وَعَلَى الْعُرْفِ خَامِسًا ، وَهُوَ أَوْلَى مِنْ اللُّغَةِ عِنْدَنَا ؛ وَسَيَأْتِي ذَلِكَ مُحَقَّقًا فِي سُورَةِ " ص " وَغَيْرِهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(29/418)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرةٍ طيبةٍ ﴾

في الكلمة الطيبة قولان :

أحدهما : أنها الإيمان ، قاله مجاهد وابن جريج .

الثاني : أنه عنى بها المؤمن نفسه ، قاله عطية العوفي والربيع بن أنس .

وفي الشجرة الطيبة قولان :

أحدهما : أنها النخلة ، وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر وأنس بن مالك .

الثاني : أنها شجرة في الجنة ، قاله ابن عباس .

وحكى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة : الإيمان ، والشجرة الطيبة : المؤمن .

﴿ أصلها ثابت ﴾ يعني في الأرض .

﴿ وفرعها في السماء ﴾ أي نحو السماء .

﴿ تؤتي أُكُلَها ﴾ يعني ثمرها .

﴿ كلَّ حين بإذن ربها ﴾ والحين عند أهل اللغة : الوقت . قال النابغة :

تناذرها الرّاقون من سُوءِ سُمِّها . . . تُطَلِّقُه حيناً وحيناً تُراجع

وفي ﴿ الحين ﴾ ها هنا ستة تأويلات :

أحدها : يعني كل سنة ، قاله مجاهد ، لأنها تحمل كل سنة .

الثاني : كل ثمانية أشهر ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لأنها مدة الحمل ظاهراً

وباطناً .

الثالث : كل ستة أشهر ، قاله الحسن وعكرمة ، لأنها مدة الحمل ظاهراً .

الرابع : كل أربعة أشهر ، قاله سعيد بن المسيب لأنها مدة يرونها من طلعها إلى جذاذها .

الخامس : كل شهرين ، لأنها مدة صلاحها إلى جفافها .

السادس : كل غدوة وعشية ، لأنه وقت اجتنائها ، قاله ابن عباس .

وفي قوله تعالى ﴿ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وجهان :

أحدهما : أن المراد بالحياة الدنيا زمان حياته فيها ، وبالآخرة المساءلة في القبر ، قاله طاوس وقتادة .

الثاني : أن المراد بالحياة الدنيا المساءلة في القبر أن يأتيه منكر ونكير فيقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول : إن اهتَدَى : ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ ويضلُّ اللهُ الظالمين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن حجتهم في قبورهم ، كما ضلوا في الحياة الدنيا بكفرهم .

الثاني : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا .

﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مِن إمهال وانتقام .

الثاني : من ضغطة القبر ومساءلة منكر ونكير .

وروى ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منه سعد بن معاذ ، ولقد ضم ضَمَّةً

" . وقال قتادة : ذكر لنا أنّ عذاب القبر من ثلاثة : ثلثٌ من البول . وثلثٌ من الغيبة ، وثلثٌ من النميمة . وسبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مساءَلة منكر ونكير وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أيكون معي عقلي ؟ قال : " نعم " قال . كُفيت إذن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله عز وجل : ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ فيها قولان : أحدهما : أنها الكفر .

الثاني : أنها الكافر نفسه .

﴿ كشجرة خبيثةٍ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها شجرة الحنظل ، قاله أنس بن مالك .

الثاني : أنها شجرة لم تخلف ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنها الكشوت .

﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ أي اقتلعت من أصلها ، ومنه قول لقيط :

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم . . . فمن رأى مِثل ذا يوماً ومَنْ سمعا

﴿ ما لها من قرار ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما لها من أصل .

الثاني : ما لها من ثبات . وتشبيه الكلمة الخبيثة بهذه الشجرة التي ليس لها أصل يبقى ، ولا ثمر يجتنى أن الكافر ليس له عمل في الأرض يبقى ، ولا ذكر في السماء يرقى .

قوله عز وجل : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يزيدهم الله أدلة على القول الثابت .

الثاني : يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة .

يُثبِّتُ الله ما آتاك من حسنٍ . . . تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نصِرا

وفي قوله : ﴿ بالقول الثابت ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه الشهادتان ، وهو قول ابن جرير .

الثاني : أنه العمل الصالح .

ويحتمل ثالثاً : أنه القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (24)

قوله : ﴿ ألم تر ﴾ بمعنى ألم تعلم ، و﴿ مثلاً ﴾ مفعول بضرب ، و﴿ كلمة ﴾ مفعول أول بها ، و﴿ ضرب ﴾ هذه تتعدى إلى مفعولين ، لأنها بمنزلة جعل ونحوه إذ معناها : جعل ضربها . وقال المهدوي : ﴿ مثلاً ﴾ مفعول ، و﴿ كلمة ﴾ بدل منه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا على أنها تتعدى إلى مفعول واحد ، وإنما أوهم في هذا قلة التحرير في ﴿ ضرب ﴾ هذه .

والكاف في قوله : ﴿ كشجرة ﴾ في موضع الحال ، أي مشبهة شجرة .

قال القاضي أبو محمد : وقال ابن عباس وغيره : " الكلمة الطيبة " هي لا إله إلا الله ، مثلها الله ب " الشجرة الطيبة " ، وهي النخلة في قول أكثر المتأولين ، فكأن هذه الكلمة ﴿ أصلها ثابت ﴾ في قلوب المؤمنين ، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والحسنة وما يتحصل من عفو الله ورحمته – هو فرعها يصعد إلى السماء من قبل العبد ، ويتنزل بها من قبل الله تعالى .

وقرأ أنس بن مالك " ثابت أصلها " وقالت فرقة : إنما مثل الله ب " الشجرة الطيبة " المؤمن

نفسه ، إذ " الكلمة الطيبة " لا تقع إلا منه ، فكأن الكلام كلمة طيبة وقائلها . وكأن المؤمن ثابت في الأرض وأفعاله وأقواله صاعدة ، فهو كشجرة فرعها في السماء ، وما يكون أبداً من المؤمن من الطاعة ، أو عن الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأكل الذي تأتي به كل حين .

وقوله عن الشجرة ﴿ وفرعها في السماء ﴾ أي في الهواء نحو السماء ، والعرب تقول عن المستطيل نحو الهواء ، وفي الحديث : " خلق الله آدم طوله في السماء ستون ذراعاً " ، وفي كتاب سيبويه : والقيدودة : الطويل في غير سماء .

قال القاضي أبو محمد : كأنه انقاد وامتد .

(32/418)

---

وقال أنس بن مالك وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : " الشجرة الطيبة " في هذه الآية هي النخلة ، وروي ذلك في أحاديث وقال ابن عباس أيضاً : هي شجرة في الجنة .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن تكون شجرة غير معينة إلا أنها كل ما اتصف بهذه الصفات فيدخل في ذلك النخلة وغيرها . وقد شبه الرسول عليه السلام المؤمن الذي يقرا

القرآن بالأترجة ، فلا يتعذر أيضاً أن يشبه بشجرتها .

و" الأكل " الثمر وقرأ عاصم وحده " أكُلها " بضم الكاف .

وقوله : ﴿ كل حين ﴾ : " الحين " في اللغة – القطيع من الزمن غير محدد كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين ﴾ [ الإنسان : 1 ] وكقوله : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ ص : 88 ] . وقد تقتضي لفظة الحين بقرينتها تحديداً ، كهذه الآية ، فإن ابن عباس وعكرمة ومجاهداً والحكم وحماداً وجماعة من الفقهاء قالوا : من حلف ألا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة ، واستشهدوا بهذه الآية ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ أي كل سنة ، وقال ابن عباس وعكرمة والحسن : أي كل ستة أشهر ، وقال ابن المسيب : الحين شهران لأن النخلة تدوم مثمرة شهرين ، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك والربيع بن أنس : ﴿ كل حين ﴾ أي غدوة وعشية ومتى أريد جناها .

(33/418)

---

قال القاضي أبو محمد : وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أيامه في عمل ، أو الكلمة التي أجرها والصادر عنها من الأعمال مستمر ، فيشبه أن قول الله تعالى إنما شبه المؤمن أو الكلمة بالشجرة في حال إثمارها إذ تلك أفضل أحوالها . وتأول الطبري في ذلك أن أكل

الطلح في الشتاء ، وإن أكل الثمر في كل وقت من أوقات العام ، وهو إتيان أكل ، وإن فارق النخل ، وإن فرضنا التشبيه بها على الإطلاق . وهي إنما تؤتي في وقت دون وقت ، فالمعنى كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإتيان بالأكل في الأوقات المعلومة ، فكذلك هذا المؤمن لا يخل بما يسر له من الأعمال الصالحة أو الكلمة التي لا تغب بركتها والأعمال الصادرة عنها بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم . وباقي الآية بين .

قال القاضي أبو محمد : ومن قال : " الحين " سنة – راعى أن ثمر النخلة وجناها إنما يأتي كل سنة ، ومن قال ستة أشهر – راعى من وقت جذاذ النخل إلى حملها من الوقت المقبل . وقيل إن التشبيه وقع بالنخل الذي يثمر مرتين في العام ، ومن قال شهرين . قال : هي مدة الجني في النخل . وكلهم أفتى بقوله في الإيمان على الحين .

وحكي الكسائي والفراء : أن في قراءة أبي بن كعب " وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة " ، و" الكلمة الخبيثة " هي كلمة الكفر وما قاربها من كلام السوء في الظلم ونحوه . و ﴿ الشجرة الخبيثة ﴾ قال أكثر المفسرين هي شجرة الحنظل –قاله أنس بن مالك ورواه عن النبي عليه السلام ، وهذا عندي على جهة المثال . وقالت فرقة : هي الثوم ، وقال الزجاج : قيل هي الكشوت .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هذه الأقوال من الاعتراض : أن هذه كلها من النجم وليست

من الشجر ، والله تعالى إنما مثل بالشجرة فلا تسمى هذه إلا بتجوز ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثوم والبصل : من أكل من هذه الشجرة ، وأيضاً فإن هذه كلها ضعيفة وإن لم تجتث ، اللهم إلا أن تقول : اجتثت بالخلقة .

(34/418)

---

وقال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض .

والظاهر عندي أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إذا وجدت فيها هذه الأوصاف .

فالخبث هو أن تكون كالعضاة ، أو كشجر السموم أو نحوها . إذا اجتثت – أي اقتلعت ، حيث جثتها بنزع الأصول وبقيت في غاية الوهاء والضعف – لتقلبها أقل ريح . فالكافر يرى أن بيده شيئاً وهو لا يستقر ولا يغني عنه ، كهذه الشجرة التي يظن بها على بعد أو للجهل بها أنها شيء نافع وهي خبيثة الجني غير باقية .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ ﴾

﴿ القول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ ، كلمة الإخلاص والنجاة من النار : لا إله إلا الله ، والإقرار بالنبوة .

وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ، وقال طاوس وقتادة وجمهور

العلماء : ﴿ الحياة الدنيا ﴾ هي مدة حياة الإنسان . ﴿ وفي الآخرة ﴾ هي وقت سؤاله في قبره . وقال البراء بن عازب وجماعة ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ هي وقت سؤاله في قبره – ورواه البراء عن النبي عليه السلام في لفظ متأول .

قال القاضي أبو محمد : ووجه القول لأن ذلك في مدة وجود الدنيا .

وقوله ﴿ في الآخرة ﴾ هو يوم القيامة عند العرض .

قال القاضي أبو محمد : والأول أحسن ، ورجحه الطبري .

و﴿ الظالمين ﴾ في هذه الآية ، الكافرين ، بدليل أنه عادل بهم المؤمنين ، وعادل التثبيت بالإضلال ، وقوله : ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم ، كأن امرأً رأى التقسيم فطلب في نفسه علته ، فقيل له : ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ بحق الملك .

وفي هذه الآية رد على القدرية .

(35/418)

---

وذكر الطبري في صفة مساءلة العبد في قبره أحاديث ، منها ما وقع في الصحيح . وهي من عقائد الدين ، وأنكرت ذلك المعتزلة . ولم تقل بأن العبد يسال في قبره ، وجماعة السنة تقول : إن الله يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلاً ، إما بحياة كالمتعارفة ، وإما بحضور النفس وإن

لم تتلبس بالجسد كالعرف ، كل هذا جائز في قدرة الله تعالى ، غير أن في الأحاديث : " إنه يسمع خفق النعال " ، ومنها : " إنه يرى الضوء كأن الشمس دنت للغروب " ، وفيها : " إنه ليراجع " ، وفيها : " فيعاد روحه إلى جسده " ، وهذا كله يتضمن الحياة - فسبحان رب هذه القدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

*(36/418)*

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ﴾

قال المفسرون : ألم تر بعين قلبك فتعلم باعلامي إياك كيف ضرب الله مثلاً ، أي : بيّن شَبَهاً ، ﴿ كلمة طيبة ﴾ قال ابن عباس : هي شهادة أن لا إله إلا الله .

﴿ كشجرة طيبة ﴾ أي : طيبة الثمرة ، فترك ذكر الثمرة اكتفاء بدلالة الكلام عليه .

وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها النخلة ، وهو في "الصحيحين" من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، وأنس بن مالك ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك في آخرين .

والثاني : أنها شجرة في الجنة ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

والثالث : أنها المؤمن ، وأصله الثابت أنه يعمل في الأرض ويبلغ عملُه السماء .

وقوله : ﴿ تُؤتي أُكُلَهَا كل حين ﴾ فالمؤمن يذكر الله كل ساعة من النهار ، رواه عطية عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ أصلها ثابت ﴾ أي : في الأرض ، ﴿ وفرعها ﴾ أعلاها عالٍ ﴿ في السماء ﴾ أي : نحو السماء ، وأُكُلُها : ثمرها .

وفي الحين هاهنا ستة أقوال :

أحدها : أنه ثمانية أشهر ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : ستة أشهر ، رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة .

والثالث : أنه بُكْرة وعشية ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

والرابع : أنه السنة ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد .

والخامس : أنه شهران ، قاله سعيد بن المسيب .

والسادس : أنه غُدوة وعشية وكلّ ساعة ، قاله ابن جرير .

فمن قال : ثمانية أشهر ، أشار إِلى مدّة حملها باطناً وظاهراً ، ومن قال : ستة أشهر ، فهي مدة حملها إِلى حين صِرامها ، ومن قال : بُكرة وعشية ، أشار إِلى الاجتناء منها ، ومن قال

: سنة ، أشار إلى أنها لاتحمل في السنة إلاّ مَرّة ، ومن قال : شهران ، فهو مدة صلاحها .

قال ابن المسيب : لا يكون في النخلة أُكُلُها إلا شهرين .

(37/418)

---

ومن قال : كل ساعة ، أشار إلى أن ثمرتها تؤكل دائماً .

قال قتادة : تؤكل ثمرتها في الشتاء والصيف .

قال ابن جرير : الطلع في الشتاء من أُكُلها ، والبلح والبُسر والرطب والتمر في الصيف .

فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة ، فمن أوجه :

أحدها : أنها شديدة الثبوت ، فشبّه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها .

والثاني : أنها شديدة الارتفاع ، فشُبّه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها .

والثالث : أن ثمرتها تأتي كل حين ، فشُبّه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها ، فالمؤمن كلما قال : لا إله إلا الله ، صَعِدَتْ إلى السماءِ ، ثم جاءه خيرها ومنفعتها .

والرابع : أنها أشبهُ الشجر بالإنسان ، فإن كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها ، إلا هي ، إذا قُطع رأسها يبست ، ولأنها لاتحمل حتى تلقّح ، ولأنها فضلة تربة

آدم عليه السلام فيما يُروى .

قوله تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾

قال ابن عباس هي الشِّرك .

وقوله : ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ فيها خمسة أقوال :

أحدها : أنها الحنظلة ، رواه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبه قال أنس ، ومجاهد .

والثاني : أنها الكافر ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وروى العوفي عنه أنه قال : الكافر لا يُقبل عمله ، ولا يصعد إِلى الله تعالى ، فليس له أصل في الأرض ثابت ، ولا فرع في السماء .

والثالث : أنها الكَشُوثَى رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : أنه مَثَل ، وليست بشجرة مخلوقة ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

والخامس : أنها الثوم ، روي عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ اجتثت ﴾ قال ابن قتيبة : استُؤصلت وقُطعت .

قال الزجاج : ومعنى اجتثثت الشي في اللغة : أخذت جُثته بكمالها .

وفي قوله : ﴿ مالها من قرار ﴾ قولان :

أحدهما : ما لها من أصل ، لم تَضرِب في الأرض عِرقاً .

والثاني : ما لها من ثبات .

(38/418)

---

ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح ، ولا قول طيب ، ولا لقوله أصل ثابت .

قوله تعالى : ﴿ يثبِّت الله الذين آمنوا ﴾

أي : يثبتهم على الحق بالقول الثابت ، وهو شهادة أن لا إِله إِلا الله .

قوله تعالى : ﴿ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الحياة الدنيا : زمان الحياة على وجه الأرض ، والآخرةُ : زمان المساءلة في القبر ، وإِلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب ، وفيه أحاديث تعضده .

والثاني : أن الحياة الدنيا : زمن السؤال في القبر ، والآخرةُ : السؤال في القيامة ، وإِلى هذا المعنى ذهب طاووس ، وقتادة .

قال المفسرون : هذه الآية وردت في فتنة القبر ، وسؤال الملَكين ، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال ، وتثبيته إِياه على الحق .

﴿ ويُضلُّ اللهُ الظالمين ﴾ يعنى : المشركين ، يضلهم عن هذه الكلمة ، ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ من هداية المؤمن وإضلال الكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(39/418)

---

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف ، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها ، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ الثّمر ، فحذف لدلالة الكلام عليه .

قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن .

وقال مجاهد وابن جريج : الكلمة الطيبة الإيمان .

عطية العَوْفيّ والرّبيع بن أَنَس : هي المؤمن نفسه .

وقال مجاهد أيضاً وعِكْرِمة : الشّجرة النّخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في

قلب المؤمن وهو الإيمان شبّهه بالنخلة في المْنبِت ، وشّبه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النّخلة ، وثواب الله له بالثّمر .

وروي من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتةٍ الإيمان عُروقها والصلاةُ أصلها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتّأذي في الله نباتُها وحسنُ الخُلقِ ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها " ويجوز أن يكون المعنى : أصل النّخلة ثابت في الأرض ؛ أي عروقُها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها ، فهي زاكية نامية .

وخرّج الترمذيّ من حديث أَنَس بن مالك قال : اتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بِقِناع فيه رُطَب ، فقال : " مَثَل كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَة طَيّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا قال هي النخلة وَمَثَل كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتثت مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ قال هي الحنظل " وروي عن أنس قوله ( وقال ) : وهو أصح .

(40/418)

---

وخرج الدّارقُطْنيّ " عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"أتدرون ما هي" فوقع في نفسي أنها النّخلة" قال السُّهَيليّ ولا يصح فيها ما روي عن عليّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند .

لِما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر : "إنّ من الشجرة شجرةً لا يسقط ورقها وهي مِثْلُ المؤمن خبّروني ما هي ثم قال هي النخلة" خرّجه مالك في "الموطأ" من رواية ابن القاسم وغيره إلاّ يحيى فإنه أسقطه من روايته .

وخرجه أهل الصحيح وزاد فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوي رِحلة ؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "وهي النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" .

فبيّن معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغَزْنَويّ عنه عليه السلام : "مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعَك وإن جالستَه نفعَك وإن شاورتَه نفعك كالنخلة كل شيء منها ينتفع به"

وقال : "كلُوا من عَمَّتكم" يعني النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام ، وكذلك أنها برأسها تَبقى ، وبقلبها تَحيا ، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى .

وقد قيل : إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به ؛ وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها ، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلاً ؛

ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان في الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم : "خير المال سِكّة مَأْبُورَة ومُهْرَة مأمورة" والإبّار اللقاح وسيأتي في سورة

"الحجر" بيانه.

ولأنها من فضلة طينة آدم.

ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها في جنّة عَدْن.

(41/418)

---

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: " "أكرموا عَمّتكم" قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: "النخلة" " ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قال الربيع: "كُلّ حِينٍ" غدوة وعِشية كذلك يصعد عمل المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس.

وعنه ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قال: هو شجرة (جوزة) الهند لا تعطل من ثمرة، تحمل في كل شهر، شبّه عمل المؤمن لله عز وجل في كل وقت بالنخلة التي تؤتي أكلها في أوقات مختلفة.

وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل في جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها.

وقال النحاس: وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من

شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعيّ بيت النّابغة :

تَنَاذَرها الرّاقُونَ مِن سُوءِ سمّها . . .

تُطَلّقُه حِيناً وحِيناً تُرَاجِعُ

فهذا يبيّن لك أن الحين بمعنى الوقت ، فالإيمان ثابت في قلب المؤمن ، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة ، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النّخلة في أوقات السنة كلها ، من الرطب والبُسْر والبلح والزّهْو والتّمر والطلع .

وفي رواية عن ابن عباس : إن الشجرة شجرة في الجنة تثمر في كل وقت .

و "مَثَلاً" مفعول ب "ضَرَبَ" ، "وكَلِمَةً" بدل منه ، والكاف في قوله : "كَشَجَرَةٍ" في موضع نصب على الحال من "كَلمة" التقدير : كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ لما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة كان في ذلك بيان حكم الحين ؛ ولهذا قلنا : من حلف ألاّ يكلّم فلاناً حيناً ، ولا يقول كذا حيناً إن الحين سنة .

وقد ورد الحين في موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى : ﴿ هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ [ الإنسان : 1 ] قيل في "التفسير" : أربعون عاماً .

وحكى عِكرمة أن رجلاً قال : إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ ، فأتى عمر بن عبد العزيز فسأله ، فسألني عنها فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك ، قوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [ الأنبياء : 111 ] فأرى أن تُمسك ما بين صِرام النّخلة إلى حَمْلها ، فكأنه أعجبه ؛ وهو قول أبي حنيفة في الحين أنه ستة أشهر اتباعاً لعكرمة وغيره .

وقد مضى ما للعلماء في الحين في "البقرة" مستوفى والحمد لله .

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ أي الأشباه ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون ؛ وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾

الكلمة الخبيثة كلمة الكفر .

وقيل : الكافر نفسه .

والشجرة الخبيثة شجرة الحَنْظَل كما في حديث أنس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وعن ابن عباس أيضاً : أنها شجرة لم تخلق على الأرض .

وقيل : هي شجرة الثّوم ؛ عن ابن عباس أيضاً .

وقيل : الكَمْأةُ أو الطّحلبة .

وقيل: الْكَشُوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض؛ قال الشاعر:

وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ . . .

﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض ﴾ اقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط:

هو الجلاءُ الذي يَجتثُّ أصلكَمُ . . .

فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَا

وقال المؤرج: أخِذَت جثّتها وهي نفسها، والجثّة شخص الإنسان قاعداً أو قائماً.

وَجَثّه قَلَعه، واجتثه اقتلعه من فوق الأرض؛ أي ليس لها أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض.

﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي من أصل في الأرض.

وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قولٌ طيّب ولا عملٌ صالح.

(43/418)

---

وروى معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ قال: لا إله إلا الله "كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ" قال: المؤمن؛ "أَصْلُهَا ثَابِتٌ" لا إله إلا الله ثابتة

في قلب المؤمن ؛ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ قال : الشرك ، "كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ" قال : المشرك ؛ ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي ليس للمشرك أصل يعمل عليه .

وقيل : يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان ، والدعاء إلى الشرك ؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشيء .

قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت ﴾

قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله .

وروى النسائي عن البَرَاء قال : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ نزلت في عذاب القبر ؛ يقال : مَن ربك ؟ فيقول : ربّيَ الله وديني دين محمد ، فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءَامَنُواْ بالقول الثابت فِى الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفاً في بعض طرق مسلم عن البَرَاء ( أنه ) قوله ، والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وكتاب النّسائي وأبي داود وابن ماجه وغيرهم ، عن البَرَاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وذكر البخاريّ ؛ حدّثنا جعفر بن عمر ، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أقعد المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله "يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ" وقد بيّنا هذا الباب في كتاب "التذكرة" وبَيّنّا هناك من يُفتَن في قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمّله هناك .

وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون في المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتاني في قبري مَلَكان فظَّان غليظان ، فقالا : ما دِينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت : ألمثلي يقال هذا وقد عَلَّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنة ؟! فذهبا وقالا : أَكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض ( عليا ) فأبغضه الله .

وقيل : معنى ، "يُثَبِّتُ اللَّهُ" يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن روَاحَة :

يُثَبِّتُ اللَّهُ ما آتاكَ مِن حَسَنٍ . . .

تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذي نُصِرَا

وقيل : يثبتهم في الدارين جزاء لهم على القول الثابت .

وقال القَفَّال وجماعة : ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ أي في القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا إلى أن يبعثوا ، "وَفِي الآخِرَةِ" أي عند الحساب ؛ وحكاه الماورديّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة في القبر ، وبالآخرة المُسَاءلة في القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ أي عن حجتهم في قبورهم كما ضَلّوا في الدنيا بكفرهم فلا يُلقّنهم كلمة الحق ، فإذا سُئلوا في

قبورهم قالوا : لا ندري ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ؛ وعند ذلك يُضرَب بالمقامِع على ما ثبت في الأخبار ؛ وقد ذكرنا ذلك في كتاب "التذكرة" .

وقيل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالاً في الدنيا .

﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ من عذاب قوم وإضلال قوم .

وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " لما وصف مُسَاءلة مُنْكَر ونكِير وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسول الله أيكون معي عقلي ؟ قال : "نعم" قال : كُفيتُ إذاً ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية " . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

*(45/418)*

---

وقال الخازن :

قوله ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ﴾

لما شرح الله أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ، ضرب مثلاً فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى : ألم تر أي بعين قلبك فتعلم علم يقين بإعلامي إياك فعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب في للنبي (صلى الله عليه وسلم) ويدخل معه غيره فيه ويحتمل أن يكون الخطاب

فيه لكل فرد من الناس ، فيكون المعنى ألم تر أيها الإنسان كيف ضرب الله مثلاً يعني يبين شبهاً ، والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر ، بينهما مشابهة ليتبين أحدهما من الآخر ويتصور .

وقيل : هو قول سائر لتشبيه شيء بشيء آخر ﴿ كلمة طيبة ﴾ هي قول لا إله إلا الله في قول ابن عباس وجمهور المفسرين : ﴿ كشجرة طيبة ﴾ يعني كشجرة طيبة الثمرة وقال ابن عباس : هي النخلة .

وبه قال ابن مسعود وأنس ومجاهد وعكرمة والضحاك ( ق ) عن ابن عمر قال : "كنا عند رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فقال : " أخبروني عن شجرة شبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتي أكلها كل حين " قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله صلى الله عليه سلم " هي النخلة " قال : فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة فقال ما منعك أن تكلم ؟ فقلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً فقال عمر لأن تكون قلته أحب إلي من كذا وكذا " وفي رواية : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله ابن عمر ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم ثم قالوا : حدثنا ما

هي يا رسول الله قال هي النخلة "

وفي رواية عن ابن عباس ، أنها شجرة في الجنة وفي رواية أخرى عنه أنها المؤمن .

(46/418)

---

قوله ﴿ أصلها ثابت ﴾ يعني في الأرض ﴿ وفرعها ﴾ يعني أعلاها ﴿ في السماء ﴾ يعني ذاهبة في السماء ﴿ تؤتي أكلها ﴾ يعني ثمرها ﴿ كل حين بإذن ربها ﴾ يعني بأمر ربها والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا في مقداره هذا وقال مجاهد وعكرمة : الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة واحدة .

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن : ستة أشهر يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها ، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً .

وقال علي بن أبي طالب : ثمانية أشهر يعني أن مدة حملها باطناً وظاهراً ثمانية أشهر .

وقيل : أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها .

وقال سعيد بن المسيب : شهران يعني من وقت أن يؤكل منها إلى صرامها .

وقال الربيع بن أنس : كل حين يعني غدوة وعشية ، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاءً ، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب ، وبعد ذلك

يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت .

وقال العلماء : ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه : أحدهما : أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض .

الوجه الثاني : أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء .

كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء .

الوجه الثالث : أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة ، فالمؤمن كلما قال : لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها .

الوجه الرابع : أن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر لأنها خلقت من فضله طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت ، وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر .

الوجه الخامس : في وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ ، وأصل ثابت ، وفرع قائم ، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ يعني أن في ضرب الأمثال زيادة في الأفهام وتصويراً للمعاني وتذكيراً ومواعظ لمن تذكر واتعظ .

قوله تعالى ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ وهو الشرك ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ يعني الحنظل قاله أنس بن مالك ومجاهد : وفي رواية عن ابن عباس إنها الكشوت وعنه أيضاً أنها الثوم وعنه أيضاً أنها الكافر لأنه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد إلى السماء ﴿ اجتثت ﴾ يعني استؤصلت وقطعت ﴿ من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ يعني ما لهذه الشجرة من ثبات في الأرض ، لأنها ليس لها أصل ثابت في الأرض ولا فرع صاعد إلى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له .

قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت ، فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة .

عن أنس قال أتى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بقناع عليه رطب فقال : " مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها قال : هي النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار قال هي

الحنظلة " أخرجه الترمذي .

مرفوعاً وموقوفاً ، وقال الموقوف أصح .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ والقول الثابت : هي الكلمة الطيبة وهي شهادة أن لا إله إلا الله ، في قول جمهور المفسرين .

(48/418)

---

ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال : في هذه الآية ويضل الله الظالمين يعني بالكلمة الخبيثة وهي كلمة الشرك في قول جميع المفسرين وقوله : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ يعني في القبر عند السؤال ﴿ وفي الآخرة ﴾ يعني يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ما روي عن البراء بن عازب .

قال سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقول : " إن المسلم إذا سئل في القبل يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال : نزلت في عذاب القبر زاد في رواية يقال له من ربك فيقول ربي الله ونبيي محمد ( صلى الله عليه وسلم ) " أخرجه البخاري ومسلم ( ق ) .

عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال : " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه

أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) : " فيراهما جميعاً " قال قتادة : ذكر لنا أنه يفسح له في قبره ثم رجع إلى حديث أنس وأما المنافق وفي رواية وأما الكافر فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه .

فيقال : لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين "



---

لفظ البخاري ولمسلم بمعناه زاد في رواية " أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون " وأخرجه أبو داود عن أنس قال : وهذا لفظه أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : " إن المؤمن إذا وضع قبره أتاه ملك فيقول : ماكنت تعبد ؟ فإن هداه الله ، قال : كنت أعبد الله فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسأل عن شيء بعدها فينطلق به إلى بيت كان له في النار ، فيقال له : هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتاً في الجنة فيراه ، فيقول : دعوني حتى أذهب

فأبشر أهلي .

فيقال له : اسكن .

وإن الكافر والمنافق إذا وضع في قبره ، أتاه ملك فينهضه فيقول ما كنت تعبد ؟ فيقول : لا أدري .

فيقال له : لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين "

وأخرجه النسائي .

أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : " إذا قبر الميت أو قال إذا قبر أحدكم آتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول : كنت أقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، ثم ينور له فيه ثم يقال له : ثم فيقول أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ، ذلك وإن كان منافقاً فيقول سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثلهم لا أدري فيقولان : قد كنا نعلم أنك كنت تقول ذلك .

فيقال للأرض : التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك " أخرجه الترمذي .

*(50/418)*

---

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في جنازة رجل من الأنصار فانتهت إلى القبر ، ولما يلحد بعد فجلس رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه ( صلى الله عليه وسلم ) فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً زاد في رواية قال : إن الميت ليسمع خفق نعالهم إذا ولو مدبرين حين يقال له : يا هذا من ربك وما دينك وما نبيك وفي رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله فيقولان له وما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت ، زاد في رواية فذلك قوله : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لقناه قال فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره وإن كان الكافر فذكر موته قال : فتعاد

روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول : هاه هاه لا أدري .

فيقولا ما دينك فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء قد كذب عبدي فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً في النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه في رواية ثم يقبض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد ، لو ضرب بها جبلاً لصار تراباً فيضربه بها ضربة ، يسمعها من بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير تراباً ثم تعاد فيه الروح " أخرجه أبو داود .

(51/418)

---

عن عثمان بن عفان قال : " كان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : " استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل " أخرجه أبو داود .

عن عبد الرحمن بن ثمامة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى بكاء طويلاً ، وحول وجهه إلى الجدر وجعل ابنه يقول : ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بكذا وكذا فأقبل بوجهه وقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا

إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذكر الحديث بطوله وفيه " فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ، ولا نار فإذا دفنتموني فسنوا علي التراب سنا ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ما أراجع به رسل ربي " أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو أن الله تعالى إنما يثبتهم في القبر بسبب كثرة مواظبتهم على شهادة الحق في الحياة الدينا وحبهم لها ، فمن كانت مواظبته على شهادة الإخلاص أكثر كان رسوخها في قلبه أعظم فينبغي للعبد المسلم أن يكثر من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله في جميع حالاته ، من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته ، فلعل الله أن يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الإخلاص التثبيت في القبر ، ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة ، نسأل الله التثبيت في القبر ، وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه وإحسانه ، إنه على كل شيء قدير وقوله تعالى : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ يعني أن الله تعالى لا يهدي المشركين إلى الجواب الصواب في القبر ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ يعني من التوفيق ، والخذلان والهداية والإضلال والتثبيت ، وتركة لا اعتراض عليه في جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسألون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (24)

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ، ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ، ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول : لا إله إلا الله في قلب المؤمن ، ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء .

وهكذا قال الضحاك ، وسعيد بن جُبَير ، وعِكْرِمة وقتادة وغير واحد : إن ذلك عبارة عن المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وإن المؤمن كالشجرة من النخل ، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت ، وصباح ومساء .

وهكذا رواه السُّدِّي ، عن مُرَّة ، عن ابن مسعود قال : هي النخلة .

وشعبة ، عن معاوية بن قُرَة ، عن أنس : هي النخلة .

وحماد بن سلمة، عن شعيب بن الحبحاب، عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بقناع بُسْر فقال: "ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة" قال: "هي النخلة" (1).

وروي من هذا الوجه ومن غيره، عن أنس موقوفا (2) وكذا نص عليه مسروق، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

وقال البخاري: حدثنا عُبَيدُ بن إسماعيل، عن أبي أسامة، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أخبروني عن شجرة تشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحات ورقها [ولا ولا ولا] تؤتي أكلها كل حين". قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئًا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هي النخلة". فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا (3).

وقال أحمد: حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثا واحدا - قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى بجمار. فقال: "من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم". فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم،

[فسكت] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هي النخلة" أخرجاه . (4)

وقال مالك وعبد العزيز ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه : "إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها ، مثل المؤمن" . قال : فوقع الناس في شجر البوادي ، ووقع في قلبي أنها النخلة [فاستحييت ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هي النخلة]" أخرجاه أيضا (5) .

---

(1) رواه الطبري في تفسيره (570/16) والترمذي في السنن برقم (3119) من طريق حماد بن سلمة به ، وقال الترمذي : "وروى غير واحد مثل هذا موقوفا ، ولا نعلم أحدا رفعه غير حماد بن سلمة ، ورواه معمر وحماد بن زيد وغير واحد ولم يرفعوه" .

(2) رواه أبو بكر بن شعيب بن الحبحاب ، عن أبيه ، عن أنس بن مالك نحوه موقوفا ، أخرجه الترمذي في السنن برقم (3119) ورواه حماد بن زيد ، عن شعيب بن الحبحاب ، عن أنس موقوفا ، أخرجه الترمذي في السنن برقم (3119) .

(3) صحيح البخاري برقم (4698) .

(4) المسند (12/2) وصحيح البخاري برقم (72) وصحيح مسلم برقم (2811) .

(5) صحيح البخاري برقم (131) وصحيح مسلم برقم (2811) .

---

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبان – يعني ابن زيد العطار – حدثنا قتادة : أن رجلا قال : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ! فقال : "أرأيت لو عمد إلى متاع



---

الدنيا ، فركب بعضها على بعض أكان يبلغ السماء ؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟" . قال : ما هو يا رسول الله ؟ قال : "تقول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله" ، عشر مرات في دبر كل صلاة ، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء" (1) .

وعن ابن عباس ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال : هي شجرة في الجنة .

وقوله : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قيل : غُدوة وعَشيا . وقيل : كل شهر . وقيل : كل شهرين .

وقيل : كل ستة أشهر . وقيل : كل سبعة أشهر . وقيل : كل سنة .

والظاهر من السياق : أن المؤمن مثله كمثل شجرة ، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء ، أو ليل أو نهار ، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين .

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أي : كاملا حسنا كثيرا طيبا ، ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وقوله : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هذا مثل كفر الكافر ، لا أصل له ولا ثبات ، وشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها : "الشريان" . [رواه شعبة ، عن معاوية بن قُرَّة ، عن أنس بن مالك : أنها شجرة الحنظل] .

وقال أبو بكر البزار الحافظ : حدثنا يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع ، حدثنا شعبة ، عن معاوية بن قرة ، عن أنس - أحسَبه رفعه - قال : "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة" ، قال : هي النخلة ، ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ قال : هي الشّرْيان (2) .

ثم رواه عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن معاوية ، عن أنس موقوفا (3) .

---

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور (22/5) وعزاه لابن أبي حاتم ، وهو مرسل .

(2) ورواه حماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس مرفوعا مثله رواه الطبري في

تفسيره (16/570 ، 585) .

(3) ورواه الطبري في تفسيره (16/583) عن محمد بن المثنى به موقوفا ، ورواه شبابة وعمرو بن الهيثم ، عن شعبة فأوقفوه . انظر : تفسير الطبري (16/583) .



---

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد - هو ابن سلمة - عن شعيب بن الحَبْحاب عن أنس بن مالك ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة" هي الحنظلة" . فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنا نسمع .

ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة ، به (1) ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال :

---

(1) تفسير الطبري (16/585) .



---

حدثنا غسان، عن حماد، عن شعيب، عن أنس؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بقناع عليه بُسْر، فقال: ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فقال: "هي النخلة" ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ قال: "هي الحنظل" قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع (1).

وقوله: ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ أي: استؤصلت ﴿ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ﴾

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مَرْثَد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب، رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ (2).

ورواه مسلم أيضا وبَقِيَّة الجماعة كلهم، من حديث شعبة، به (3).

---

(1) ورواه الترمذي في السنن برقم (3119) عن عبد بن حميد، عن أبي الوليد، عن

حماد بن سلمة به نحوه، وقد سبق الكلام عليه.

(2) صحيح البخاري برقم (4699).

(3) صحيح مسلم برقم (2871) وسنن أبي داود برقم (4750) وسنن الترمذي برقم (3120) وسنن النسائي (101/4) وسنن ابن ماجة برقم (4269).

*(58/418)*

---

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود يَنْكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: "استعيذوا بالله من عذاب القبر"، مرتين أو ثلاثا، ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنُوط من حَنُوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان". قال: "فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِي

السِّقَاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنُوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها ، فلا يمرون – يعني بها – على ملأ من الملائكة

(59/418)

---

إلا قالوا : ما هذا الروح [الطيب] ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي [كانوا] يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عِليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى" .

قال : "فتُعَاد روحه [في جسده] فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدقت . فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة – قال : فيأتيه من رَوْحِها وطيبها ، ويفسح له

في قبره مد بصره. ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة. رب، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي".

(60/418)

---

قال: "وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوح، فجلسوا منه مد البصر. ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله وغَضَب".

قال: "فتَفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح. ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على مَلأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا] فيستفتح له فلا يفتح له". ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ

فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : 40] ، فيقول الله : "اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا" . ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : 31] .

"فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فينادي مناد من السماء : أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل



---

قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : ومن أنت فوجهك [الوجه] يجيئ بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب ، لا تقم الساعة" .

ورواه أبو داود من حديث الأعمش ، والنسائي وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو ، به (1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن يونس بن خباب عن المِنْهَال بن عمرو ، عن زاذان ، عن البراء بن عازب ، رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة ، فذكر نحوه .

وفيه : "حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، [وكل ملك في السماء] وفتحت أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ، عز وجل ، أن يعرج بروحه من قبلهم" .

وفي آخره : "ثم يقيض له أعمى أصم أبكم ، وفي يده مرزبَّة لو ضرب بها جبل لكان ترابا ، فيضربه ضربة فيصير ترابا . ثم يعيده الله ، عز وجل ، كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين" . قال البراء : ثم يفتح له باب إلى النار ، ويمهد من فرش النار (2) .

وقال سفيان الثوري ، عن أبيه ، عن خَيْثَمَة ، عن البراء في قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال : عذاب القبر .

وقال المسعودي ، عن عبد الله بن مُخَارق ، عن أبيه ، عن عبد الله قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله ، فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ عبد الله : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ (3) .

---

(1) المسند (287/4) وسنن أبي داود برقم (4753) وسنن النسائي برقم (78/4) وسنن ابن ماجة برقم (1548) .

(2) المسند (295/4) .

(3) رواه الطبري في تفسيره (597/16) .

*(62/418)*

---

وقال الإمام عبد بن حميد ، رحمه الله ، في مسنده : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم" . قال : "فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟" قال : "فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله" . قال : "فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة" . قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : "فيراهما جميعا" .

*(63/418)*

---

قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ، ويملأ عليه خَضِرًا إلى يوم القيامة .

رواه مسلم عن عبد بن حميد ، به (1) وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب ، به (2) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جُرَيْج ، أخبرني أبو الزبير ، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّاني القبر فقال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه ، جاء ملك شديد الانتهار ، فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول المؤمن : أقول : إنه رسول الله وعبده . فيقول له الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار ، قد أنجاك الله منه ، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة ، فيراهما كليهما . فيقول المؤمن : دعوني أبشر أهلي . فيقال له : اسكن . وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، أقول كما يقول الناس . فيقال له : لا دريت ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة ، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار" .

قال جابر : فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "يبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه" .

إسناده صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه (3) .

---

(1) المنتخب لعبد بن حميد برقم (1178) وصحيح مسلم برقم (2870) .

(2) سنن النسائي (97/4) .

(3) الذي في المسند (346/3) : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي الزبير به ، وكذا في أطراف المسند لابن حجر (110/2) .

*(64/418)*

---

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا عباد بن راشد ، عن داود بن أبي هند ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : شَهِدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أيها الناس ، إن هذه الأمة تُبتَلى في قبورها ، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه ، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده ، قال : ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمنا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله فيقول له : صدقت . ثم يفتح له بابا إلى النار ، فيقول : هذا كان منزلك لو كفرت بربك ، فأما إذ آمنت فهذا منزلك . فيفتح له بابا إلى الجنة ، فيريد أن ينهض إليه ، فيقول له : اسكن . ويفسح له في قبره" . "وإن كان كافرا أو منافقا يقول له : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فيقول : لا دريت ولا تليت ولا اهتديت . ثم يفتح له بابا إلى الجنة ، فيقول له : هذا

منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذ كفرت به فإن الله ، عز وجل ، أبدلك به هذا . فيفتح له بابا إلى النار ، ثم يقمَعه قمعةً بالمطراق يسمعها خَلْقُ الله ، عز وجل ، كلهم غير الثقلين" . فقال بعض القوم : يا رسول الله ، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ (1) .

وهذا أيضا إسناد لا بأس به ، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقرونا ، ولكن ضعفه بعضهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، عن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان" . قال : "فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقولون : مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان" قال : فلا يزال يقال لها ذلك ، حتى ينتهى بها

إلى السماء التي فيها الله عز وجل .

وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغَسَّاق ، وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء . فيرسل من السماء ، ثم يصير إلى القبر" ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول .

---

(1) المسند (3/3) .

(66/418)

---

ورواه النسائي وابن ماجة ، من طريق ابن أبي ذئب بنحوه (1) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : إذا خرجت روح العبد المؤمن ، تلقاها ملكان يصعدان بها . قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك . قال : ويقول أهل السماء : روح طيبة جاءت من قِبَل الأرض ، صَلَّى الله عليك وعلى جَسَدَ كنت

تَعْمُرِينه ، فيُنطَلَقُ به إلى ربه عز وجل ، فيقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه . قال حماد : وذكر من

---

(1) المسند (364/2) وسنن ابن ماجة برقم (4262) وقال البوصيري في الزوائد (311/3) : "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" .

*(67/418)*

---

نَتْنها وذكر مقتا ، ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال أبو هريرة : فردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَيْطَةً كانت عليه على أنفه ، هكذا (1) .

وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا عمر بن محمد الهمداني ، حدثنا زيد بن أخزم ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي ، عن قتادة ، عن قسامة بن زهير ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن المؤمن إذا قُبض ، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي إلى روح الله . فتخرج كأطيب ريح مسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قِبل الأرض ؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فلَهُم أشدّ فرحًا

به من أهل الغائب بغائبهم ، فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فإنه كان في غمّ ! فيقول : قد مات ، أما أتاكم ؟ فيقولون : ذُهب به إلى أمه الهاوية . وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسْح فيقولون : اخرجي إلى غضب الله ، فتخرج كأنتن ريح جيفة ، فَيُذْهَب به إلى باب الأرض" (2) .

وقد روي أيضا من طريق هَمَّام بن يحيى ، عن قتادة ، عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه . قال : "فَيُسأل : ما فعل فلان ، ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟" قال : "وأما الكافر فإذا قُبضت نفسه ، وذُهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريحا أنتن من هذه . فَيُبْلَغُ بها الأرض السفلى" (3) .

قال قتادة : وحدثني رجل ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : أرواح المؤمنين تجمع بالجابية . وأرواح الكفار تجمع ببرهوت ، سبخة بحضرموت .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2872) .

(2) صحيح ابن حبان برقم (733) "موارد" .

(3) صحيح ابن حبان برقم (731) "موارد" ورواه الحاكم في المستدرك (351/1) من طريق همام به نحوه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي، رحمه الله: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بشر بن المفضل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقْبُرِي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا قبر الميت -أو قال: أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين. ثم ينوّر له فيه، ثم يقال له: نَمْ. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نَمْ نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحَبَّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك



تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك" (1).

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

وقال حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ قال : "ذاك إذا قيل له في القبر : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ، جاءنا بالبينات من عند الله ، فآمنت به وصدّقت . فيقال له : صَدَقْتَ ، على هذا عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث" (2) .

وقال ابن جرير : حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا حدثنا يزيد ، أنبأنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين ، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه ، والزكاة عن يمينه ، والصيام عن يساره ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، فيؤتى من عن يمينه فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل . فيؤتى عن يساره فيقول الصيام : ما قِبَلي مَدخَلٌ . فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات : ما قِبَلي مدخل . فيقال له اجلس .

---

(2) سنن الترمذي برقم (1071) .

(3) رواه الطبري في تفسيره (16/596) .

فيجلس، قد تَمثّلت له الشمس، قد دنت للغروب، فيقال له أخبرنا عما نسألك. فيقول: دعوني حتى أصلي. فيقال: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك. فيقول: وعَمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم. فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله، فصدقناه. فيقال له: على ذلك حَيِيتَ، وعلى ذلك متّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويُنَوَّر له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها. فيزداد غبطة [وسرورا] ثم يجعل نسمه في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ منه من التراب"، وذلك قول الله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (1).

ورواه ابن حبّان، من طريق المعتمر بن سليمان، عن محمد بن عمرو، وذكر جواب الكافر

---

(1) تفسير الطبري (16/596، 597).

وعذابه (1) .

وقال البزار : حدثنا سعيد بن بحر القراطيسي ، حدثنا الوليد بن القاسم ، حدثنا يزيد بن كَيْسان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة - أحسَبه رفعه - قال : "إن المؤمن ينزل به الموت ، ويعاين ما يعاين ، فيودّ لو خرجت - يعني نفسُه - والله يحب لقاءه ، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء ، فتأتيه أرواح المؤمنين ، فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض ، فإذا قال : تركت فلانا في الأرض أعجبهم ذلك . وإذا قال : إن فلانا قد مات ، قالوا : ما جيء به إلينا . وإن المؤمن يجلس في قبره ، فيسأل : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ويسأل : من نبيك ؟ فيقول : محمد نبيي فيقال : ماذا دينك ؟ قال : ديني الإسلام . فيفتح له باب في قبره ، فيقول - أو : يقال - انظر إلى مجلسك . ثم يرى القبر فكأنما كانت رَقْدَة . وإذا كان عَدُو الله نزل به الموت وعاين ما عاين ، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبدا ، والله يبغض لقاءه ، فإذا جلس في قبره - أو : أجلس - يقال له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري . فيقال : لا دريت . فيفتح له باب من جهنم ، ثم يضرب ضربة يسمعها كل دابة إلا الثقلين ، ثم يقال له : نم كما ينام المنهوش" . قلت لأبي هريرة : ما المنهوش ؟ قال : الذي تنهشه الدواب والحيات ، ثم يضيق عليه قبره .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا الوليد بن القاسم (2) .

(1) صحيح ابن حبان برقم (781) "موارد" .

(2) مسند البزار برقم (874) "كشف الأستار" وقال الهيثمي في المجمع (52/3) :

"في الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسى +فإني لم أعرفه" .

*(72/418)*

---

وقال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا حُجَين بن المثنى ، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ، عن محمد بن المُنكَدِر قال : كانت أسماء – يعني بنت الصديق – رضي الله عنها ، تحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قال : "إذا دخل الإنسان قبره ، فإن كان مؤمنا أحَفّ به عملُه : الصلاةُ والصيام" ، قال : "فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ، ومن نحو الصيام فيرده" ، قال : "فيناديه : اجلس . فيجلس . فيقول له : ماذا تقول في هذا الرجل ؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من ؟ قال : محمد . قال أشهد أنه رسول الله ، قال : يقول : وما يدريك ؟ أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله . قال : يقول : على ذلك عشتَ ، وعليه متّ ، وعليه تبعثُ . وإن كان فاجرًا أو كافرًا ، جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يَرُدّه ، فأجلسه يقول : اجلس ، ماذا تقول في هذا الرجل ؟ قال : أي رجل ؟

قال : محمد ؟ قال : يقول : والله ما أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته . قال له الملك : على ذلك عشتَ ، وعليه متَ ، وعليه

(73/418)

---

تبعثُ . قال : وتسلَّط عليه دابة في قبره ، معها سوط تَمْرته جَمرةٌ مثل غَرْب البعير ، تضربه ما شاء الله ، صماء لا تسمع صوته فترحَمه" (1) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في هذه الآية قال : إن المؤمن إذا حَضرَه الموت شهدته الملائكة ، فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مَشَوا مع جنازته ، ثم صَلَّوا عليه مع الناس ، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقال له : من رسولك ؟ فيقول : محمد صلى الله عليه وسلم . فيقال له : ما شهادتك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . فيوسَّع له في قبره مد بَصَرِه . وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة ، فيبسطون أيديهم - "والبسط" : هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت . فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : من ربك ؟ فلم يَرْجع إليهم شيئًا ، وأنساه الله ذكر ذلك . وإذا قيل : من الرسول الذي بُعثَ إليك ؟ لم يهتد له ، ولم يرجع إليه شيئًا ، كذلك يضل الله الظالمين .

(1) المسند (352/6) .

(74/418)

---

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي ، حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف ، عن أبيه ، عن أبي إسحاق ، عن عامر بن سعد البجلي ، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ الآية ، قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله . فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله . فيقال له في ذلك مرات . ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له : انظر إلى منزلك في النار لو زُغْتَ ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : انظر إلى منزلك [من الجنة إذ ثبت . وإذا مات الكافر أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ من نبيك ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أسمع الناس يقولون . فيقال له : لا دريت . ثم يفتح له باب إلى الجنة ، فيقال له : انظر إلى منزلك] لو ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار ، فيقال له : انظر إلى منزلك إذ زغت فذلك قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال : لا إله إلا الله ، ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ المسألة في القبر (1) .

وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ، ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ في القبر .

وكذا روي عن غير واحد من السلف .

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه "نوادر الأصول" : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله

بن

---

(1) تفسير عبد الرزاق (296/1) .

*(75/418)*

---

نافع ، عن ابن أبي فُدَيْك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، ونحن في مسجد المدينة ، فقال : "إني رأيت البارحة عجبًا ، رأيت رجلا من أمتي [جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه برُّه بوالديه فرد عنه . ورأيت رجلا من أمتي] قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وُضوءه فاستنقذه من ذلك . ورأيت رجلا من أمتي [قد] احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم . ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم . ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا ،

كلما ورد حوضا مُنع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه. ورأيت رجلا من أمتي والنبيون قعود حلَقا حلقا، وكلما دنا لحقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي. ورأيت رجلا من أمتي [من] بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها، فجاءته حجته وعمرته، فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلَة الرحم، فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه، فكلموه. ورأيت رجلا من أمتي يتقي وَهَج النّار أو شَرَرهَا بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على رأسه. ورأيت رجلا من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذاه من أيديهم، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة.

ورأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه، بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خُلُقه، فأخذ بيده فأدخله على الله، عز وجل. ورأيت رجلا من أمتي قد هَوت صحيفته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته، فجعلها في يمينه. [ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه، فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه] ورأيت رجلا من أمتي قائما

على شفير جهنم ، فجاءه وجَله من الله ، فاستنقذه من ذلك ومضى . ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار ، فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ، [ورأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط يُرعَد كما ترعد السَّعَفة ، فجاء حسن ظنه بالله ، فسكَّن رِعْدَته ، ومضى] ورأيت رجلا من أمتي على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا ، فجاءته صلاته عليَّ ، فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط . ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة ، فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة : أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة" (1) .

قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : هذا حديث عظيم ، ذكرَ فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة . أورده هكذا في كتابه "التذكرة" (2) .

---

(1) ذكره الزبيدي في الإتحاف وعزاه للحكيم في النوادر وضعفه ، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق برقم (49) من طريق سعيد بن عبد الله ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن سمرة مرفوعا بأخصر منه ، وذكر أن ابن تيمية كان يعظم شأن هذا الحديث ويقول : "شواهد الصحة عليه" .

(2) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص 240 - 242) .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثا غريبا مطولا فقال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النُّكْرِي ، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان ، حدثنا أبو عاصم الحبطي - وكان من خيار أهل البصرة ، وكان من أصحاب حزم ، وسلام بن أبي مطيع - حدثنا بكر بن خنيس ، عن ضرار بن عمرو ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك ، عن تميم الداري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله ، عز وجل ، لملك الموت : انطلق إلى وليي فأتني به ، فإني قد ضَربته بالسراء والضراء ، فوجدته حيث أحب . ائتني به فَلأريحنَّه .

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لونا ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر . فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحف به الملائكة . ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ويَبْسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفَر تحت ذقنه ، ويفتَح له بابٌ إلى الجنة ، فإن نفسه لَتَعَلَّلُ عند ذلك بطرف الجنة تارة ، وبأزواجها [مرة] ومرَّةً بكسواتها ومرة بثمارها ، كما يُعَلّل الصبي أهله إذا بكى" . قال : "وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشًا" .

قال : "وتنزو الروح" . قال البُرْسَاني : يريد أن تخرج من العَجَل إلى ما تحب . قال : "ويقول مَلَك الموت : اخرجي يا أيتها الروح الطيبة ، إلى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب" . قال : "ولَمَلَك الموت أشدّ به لطفا من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه ، فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه ، فتُسَلُّ روحه كما تسل الشعرة من العجين" . قال : "وقال الله ، عز وجل : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل : 32] ، وقال ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : 88 ، 89] ، قال : "روح من جهة الموت ، وريحان يتلقى به ، وجنة نعيم تقابله" . قال : "فإذا قَبض ملك الموت روحه ، قالت الروح للجسد : جزاك الله عني خيرا ، فقد كنت سريعا بي إلى طاعة الله ، بطيئًا بي عن معصية الله ، فقد نجيت وأنجيت" .

قال : "ويقول الجسد للروح مثل ذلك" .

قال : "وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها ، وكل باب من السماء يصعد منه عمله . وينزل منه رزقه أربعين ليلة" .

قال : "فإذا قَبَض ملك الموت روحه ، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده ، فلا

يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم ، وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم ، وحنوط قبل حنوط

(79/418)

---

بني آدم ، ويقوم من بين باب بيته إلى باب قبره صفّان من الملائكة ، يستقبلونه بالاستغفار ، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده" . قال : "ويقول لجنوده : الويل لكم . كيف خَلَص هذا العبد منكم ، فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما " .

قال : "فإذا صعد ملك الموت بروحه ، يستقبله جبريل في سبعين ألفا من الملائكة ، كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه" . قال : "فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش ، خَرّ الروح ساجدا" . قال : "يقول الله ، عز وجل ، لملك الموت : انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب" .

قال : "فإذا وضع في قبره ، جاءته الصلاة فكانت عن يمينه ، وجاءه الصيام فكان عن يساره ، وجاءه القرآن فكان عند رأسه ، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه ، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر" . قال : "فيبعث الله ، عز وجل ، عُنُقًا من العذاب" . قال : "فيأتيه عن يمينه" قال : "فتقول الصلاة : وراءك والله ما زال دائبا عمره كله وإنما استراح

الآن حين وضع في قبره" . قال : "فيأتيه عن يساره ، فيقول الصيام مثل ذلك" . قال : "ثم يأتيه من عند رأسه ، فيقول القرآن والذكر مثل ذلك" . قال : "ثم يأتيه من عند رجليه ، فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك . فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد مساغًا إلا وجَد ولي الله قد أخذ جنته" . قال : "فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج" . قال : "ويقول الصبر لسائر الأعمال : أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي إلا أني نظرت ما عندكم ، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه ، فأما إذ أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان" .

(80/418)

---

قال : "ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصي ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن في أشعارهما ، بين مَنْكِب كل واحد مسيرة كذا وكذا ، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة ، يقال لهما : منكر ونكير ، في يد كل واحد منهما مطرقة ، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يُقلّوها" . قال : "فيقولان له : اجلس" . قال : "فيجلس فيستوي جالسا" . قال : "وتقع أكفانه في حقويه" . قال : "فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟" .

قال : قالوا : يا رسول الله ، ومن يطيق الكلام عند ذلك ، وأنت تصف من المَلَكَين ما تصف

؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

قال : "فيقول : ربي الله وحده لا شريك له ، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكة ، ونبيي محمد خاتم النبيين" . قال : "فيقولان : صدقت" . قال : فيدفعان القبر ، فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا ، وعن يمينه أربعين ذراعا ، وعن شماله أربعين ذراعا ، ومن خلفه أربعين ذراعا ، ومن عند رأسه

*(81/418)*

---

أربعين ذراعا ، ومن عند رجليه أربعين ذراعا" . قال : "فيوسعان له مائتي ذراع" .

قال البرساني : فأحسبه : وأربعين ذراعا تحاط به .

قال : "ثم يقولان له : انظر فوقك ، فإذا باب مفتوح إلى الجنة" . قال : "فيقولان له : وليَّ الله ، هذا منزلك إذ أطعت الله" . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة ، ولا ترتد أبدًا ، ثم يقال له : انظر تحتك" . قال : "فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار قال : "فيقولان : ولي الله نجوت آخر ما عليك" . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد

أبدا" . قال : فقالت عائشة : يفتح له سبعة وسبعون بابا إلى الجنة ، يأتيه ريحها وبردها ، حتى يبعثه الله ، عز وجل .

وبالإسناد المتقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ويقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى عدوي فأتني به ، فإني قد بسطت له رزقي ، ويَسّرت له نعمتي ، فأبى إلا معصيتي ، فأتني به لأنتقم منه" .

(82/418)

---

قال : "فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة ما رآها أحد من الناس قَطّ ، له اثنتا عشرة عينا ، ومعه سَفُود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ، ومعهم سياط من نار ، لينها لين السياط وهي نار تأجج" . قال : "فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كُل أصل شوكة من ذلك السفّود في أصل كل شعرة وعرق وظفر" . قال : "ثم يلويه ليا شديدا" . قال : "فينزع روحه من أظفار قدميه" . قال : "فيلقيها" في عقبيه ثم يسكر عند ذلك عدو الله سكرة ، فيرفه ملك الموت عنه" . قال : "وتضرب الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط" . [قال : "فيشده ملك الموت شدة ، فينزع روحه من عقبيه ، فيلقيها في ركبتيه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة ، فيرفه ملك

الموت عنه" . قال : "فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط"] قال : "ثم ينتره ملك الموت نَتَرَة ، فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها في حقويه" . قال : "فيسكر عدو الله عند ذلك سكرة ، فيرفّه ملك الموت عنه" . قال : "وتضرب الملائكة وجهه ودُبُره بتلك السياط" .

قال : "كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه" . قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه" . قال : "ويقول ملك الموت : اخرجي أيتها الروح اللعينة الملعونة إلى سَمُوم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم" .

قال : "فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد : جزاك الله عني شرا ، فقد كنت سريعا بي



---

إلى معصية الله ، بطيئًا بي عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلكت" قال : "ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها ، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار" .

قال : فإذا وضع في قبره ضُيِّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، حتى تدخل اليمنى في اليسرى ، واليسرى في اليمنى" قال : "ويبعث الله إليه أفاعي دُهمًا كأعناق الإبل يأخذن

بأرنبته وإبهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه" .

قال : "ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصي ، وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما ، بين منكبي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما : منكر ونكير ، في يد كل واحد منهما مطرقة ، لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها" قال : "فيقولان له : اجلس" .

قال : "فيستوي جالسا" قال : "وتقع أكفانه في حقويه" قال : "فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان : لا دريت ولا تَليّت" . [قال] فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ، ثم يعودان" . قال : "فيقولان : انظر فوقك . فينظر ، فإذا باب مفتوح من الجنة ، فيقولان : هذا – عدو الله – منزلك لو أطعت الله" .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده ، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدًا" .

قال : "ويقولان له : انظر تحتك فينظر تحته ، فإذا باب مفتوح إلى النار ، فيقولان : عدو الله ، هذا منزلك إذ عصيت الله" .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده ، إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا" .

قال : وقالت عائشة : ويفتح له سبعة وسبعون بابًا إلى النار ، يأتيه [من] حرها وسمومها

حتى يبعثه الله إليها (1) .

---

(1) أورده ابن حجر في المطالب العالية (382/4) وعزاه لأبي يعلى قال : "هذا حديث عجيب السياق ، وهو شاهد لكثير مما ثبت في حديث البراء الطويل المشهور ، ولكن إسناده غريب وفيه ضعف" .

(84/418)

---

هذا حديث غريب جدًا ، وسياق عجيب ، ويزيد الرقاشي - راويه عن أنس - له غرائب ومنكرات ، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة ، والله أعلم .

ولهذا قال أبو داود : حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي ، حدثنا هشام - هو ابن يوسف - عن عبد الله بن بَحير ، عن هانئ مولى عثمان ، عن عثمان ، رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه فقال : "استغفروا لأخيكم ، واسألوا له بالتثبيت ، فإنه الآن يسأل" ، انفرد به أبو

(85/418)

---

داود (1) .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مَردُويه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية [الأنعام : 93] حديثا مطولا جدا ، من طريق غريب ، عن الضحاك ، عن ابن عباس مرفوعا ، وفيه غرائب أيضا (2) . انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 492 . 508 ﴾

---

(1) سنن أبي داود برقم (3221) .

(2) ذكره السيوطي في الدر المنثور (318/3) وقال : "أخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس فذكره" .

*(86/418)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

الفرع الغصن من الشجرة .

ويطلق على ما يولد من الشيء ، والفرع الشعر يقال : رجل أفرع وامرأة فرعاء لمن كثر

شعره .

وقال الشاعر : وهو امرؤ القيس بن حجر :

وفرع يغشى المتن أسواد فاحم . . .

اجتث الشيء اقتلعه ، وجث الشيء قلعه ، والجثة شخص الإنسان قاعداً وقائماً .

وقال لقيط الأياري :

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم . . .

فمن رأى مثل ذا آت ومن سمعا

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .

تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون .

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله

ما يشاء ﴾ : تقدم الكلام في ضرب مع المثل في أوائل البقرة ، فكان يغني ذلك عن الكلام فيه

هنا ، إلا أنّ المفسرين أبدوا هنا تقديرات ، فأعرب الحوفي والمهدوي وأبو البقاء مثلاً مفعولا

بضرب ، وكلمة بدل من مثلا .

وإعرابهم هذا تفريع ، على أنّ ضرب مثل لا يتعدى لا إلى مفعول واحد .

وقال ابن عطية : وأجازه الزمخشري مثلا مفعول بضرب ، وكلمة مفعول أول تفريعاً على

أنها مع المثل تتعدى إلى اثنين ، لأنها بمعنى جعل .

وعلى هذا تكون كشجرة خبر مبتدأ محذوف أي : جعل كلمة طيبة مثلاً هي أي : الكلمة كشجرة طيبة ، وعلى البدل تكون كشجرة نعتاً للكلمة .

وأجاز الزمخشري : وبدأ به أنْ تكون كلمة نصباً بمضمر أي : جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وهو تفسير لقوله : ضرب الله مثلاً ، كقولك : شرف الأمير زيداً كساه حلة ، وحمله على فرس انتهى .

وفيه تكلف إضمار لا ضرورة تدعو إليه .

وقرىء شاذاً كلمة طيبة بالرفع .

قال أبو البقاء : على الابتداء ، وكشجرة خبره انتهى .

*(87/418)*

---

ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير : هو أي المثل كلمة طيبة كشجرة ، وكشجرة نعت لكلمة ، والكلمة الطيبة هي : لا إله إلا الله قاله ان عباس ، أو الإيمان قاله مجاهد وابن جريج ، أو المؤمن نفسه قاله عطية العوفي والربيع ، أو جميع طاعاته أو القرآن قاله الأصم ، أو دعوة الإسلام قاله ابن بجر ، أو الثناء على الله أو التسبيح والتنزيه والشجرة الطيبة

المؤمن قاله ابن عباس ، أو جوزة الهند قاله علي وابن عباس ، أو شجرة في الجنة قاله ابن عباس أيضاً ، أو النخلة وعليه أكثر المتأولين وهو قول : ابن مسعود ، وابن عباس ، وأنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن زيد ، وجاء ذلك نصاً من حديث ابن عمر مما خرجه الدارقطني عنه قال : قرأ رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وذكر الآية فقال : "أتدرون ما هي فوقع في نفسي أنها النخلة" الحديث .

وقال أبو العالية : أتيت أنس بن مالك فجيء بطبق عليه رطب فقال أنس : كل يا أبا العالية ، فإنها الشجرة الطيبة التي ذكرها الله في كتابه ثم قال : أتى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بصاع بسر فتلا هذه الآية .

وفي الترمذي من حديث أنس نحو هذا .

وقال الزمخشري : كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة ، وشجرة التين ، والعنب ، والرمان ، وغير ذلك انتهى .

وقد شبه الرسول المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة ، فلا يبعد أن يشبه أيضاً بشجرتها .

أصلها ثابت أي : في الأرض ضارب بعروقه فيها .

وقرأ أنس بن مالك : كشجرة طيبة ثابت أصلها ، أجريت الصفة على الشجرة لفظاً وإن كانت في الحقيقة للسببي .

وقراءة الجماعة فيها إسناد الثبوت إلى السببي لفظاً ومعنى ، وفيها حسن التقسيم ، إذ

جاء أصلها ثابت وفرعها في السماء ، يريد بالفرع أعلاها ورأسها ، وإن كان المشبه به ذا فروع ، فيكون من باب الاكتفاء بلفظ الجنس .

ومعنى في السماء : جهة العلو والصعود لا المظلة .

(88/418)

---

وفي الحديث : " خلق الله آدم طوله في السماء ستون ذراعاً " ولما شبهت الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة كانت الكلمة أصلها ثابت في قلوب أهل الإيمان ، وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والأعمال الصالحة هو فرعها يصعد إلى السماء إلى الله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وما يترتب على ذلك العمل وهو ثواب الله هو جناها ، ووصف هذه الشجرة بأربعة أوصاف : الأول قوله : طيبة ، أي كريمة المنبت ، والأصل في الشجرة له لذة في المطعم .

قال الشاعر :

طيب الباءة سهل ولهم . . .

سبل إن شئت في وحش وعر

أي ساحتهم سهلة طيبة .

الثاني : رسوخ أصلها ، وذلك يدل على تمكنها ، وأنّ الرياح لا تقصفها ، فهي بطيئة الفناء ، وما كان كذلك حصل الفرح بوجدانه .

والثالث : علو فرعها ، وذلك يدل على تمكن الشجرة ورسوخ عروقها ، وعلى بعدها عن عفونات الأرض ، وعلى صفائها من الشوائب .

الرابع : ديمومة وجود ثمرتها وحضورها في كل الأوقات .

والحين في اللغة قطعة من الزمان قال الشاعر :

تناذرها الراقون من سوء سمها . . .

تطلقه حيناً وحيناً تراجع

والمعنى : تعطي جناها كل وقت وقته الله له .

وقال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، أي كل سنة ، ولذلك قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحكم ، وحماد ، وجماعة من الفقهاء : من حلف أنْ لا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة ، واستشهدوا بهذه الآية .

وقيل : ثمانية أشهر قاله علي ومجاهد ، ستة أشهر وهي مدة بقاء الثمر عليها .

وقال ابن المسيب : الحين شهران ، لأن النخلة تدوم مثمرة شهرين .

وقيل : لا تتعطل من ثمر تحمل في كل شهر ، وهي شجرة جوز الهند .

وقال ابن عباس أيضاً والضحاك ، والربيع : كل حين أي كل غدوة وعشية ، ومتى أريد جناها ويتخرج على أنها شجرة في الجنة .

(89/418)

---

والتذكر المرجو بضرب المثل هو التفهم والتصور للمعاني المدركة بالعقل ، فمتى أبرزت بالمحسوسات لم ينازع فيها الحس والخيال والوهم ، وانطبق المعقول على المحسوس ، فحصل الفهم والوصول إلى المطلوب .

والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر على قول الجمهور .

وقال مسروق : الكذب ، وقال : إن تجر دعوة الكفر وما يعزى إليه الكافر .

وقيل : كل كلام لا يرضاه الله تعالى .

وقرأ أبي : وضرب الله مثلاً كلمة خبيثة ، وقرىء : ومثل كلمة بنصب مثل عطفاً على كلمة طيبة .

والشجرة الخبيثة شجرة الحنظل قاله الأكثرون : ابن عباس ، ومجاهد ، وأنس بن مالك ، ورواه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الزجاج وفرقة : شجرة الثوم .

وقيل : شجرة الكشوت ، وهي شجرة لا ورق لها ولا أصل قال : وهي كشوت فلا أصل ولا ثمر .

وقال ابن عطية : ويرد على هذه الأقوال أن هذه كلها من النجم وليست من الشجر ، والله تعالى إنما مثل بالشجر فلا تسمى هذه شجرة إلا بتحوّز ، فقد قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) في الثوم والبصل "من أكل من هذه الشجرة" وقيل : الطحلبة .

وقيل : الكمأة .

وقيل : كل شجر لا يطيب له ثمر .

وعن ابن عباس : هي الكافر ، وعنه أيضاً : شجرة لم تخلق على الأرض .

وقال ابن عطية : والظاهر عندي أنّ التشبيه وقع بشجرة غير معينة ، إذا وجدت منها هذه الأوصاف هو أن يكون كالعضاة أو شجرة السموم ونحوها إذا اجتثت أي : اقتلعت جثها بنزع الأصول وبقيت في غاية الوهي والضعف ، فتقلبها أقل ريح .

فالكافر يرى أنّ بيده شيئاً وهو لا يستقر ولا يغني عنه كهذه الشجرة التي يظن بها على بعد الجاهل أنها شيء نافع ، وهي خبيثة الجني غير نافعة انتهى .

واجتثت من فوق الأرض مقابل لقوله : أصلها ثابت أي : لم يتمكن لها أصل ولا عرق في الأرض ، وإنما هي نابتة على وجه الأرض .

ما لها من قرار أي : استقرار .

يقال : أقر الشيء قراراً ثبت ثباتاً ، شبه بهذه الشجرة القول الذي لم يعضد بحجة ، فهو لا يثبت بل يضمحل عن قريب لبطلانه ، والقول الثابت هو الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه ، واطمأنت إليه نفسه .

وتثبيتهم به في الدنيا كونهم لو فتنوا عن دينهم في الدنيا لثبتوا عليه وما زلوا ، كما جرى لأصحاب الأخدود ، والذين نشروا بالمناشير ، وكشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، كما ثبت جرجيس وشمعون وبلال حتى كان يعذب بالرمضاء وهو يقول : أحد أحد .

وتثبيتهم في الآخرة كونهم إذا سئلوا عند توافق الإشهاد عن معتقدهم ولم يتلعثوا ، ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر .

والذين آمنوا عام من لدن آدم إلى يوم القيامة .

وقال طاووس وقتادة وجمهور من العلماء : أن تثبيتهم في الدنيا هو مدة حياة الإنسان ، وفي الآخرة هو وقت سؤاله في قبره ، ورجح هذا القول الطبري .

وقال البراء بن عازب وجماعة : في الحياة الدنيا هي وقت سؤاله في قبره ، ورواه البراء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفي الآخرة هو يوم القيامة عند العرض .

وقيل : معنى تثبيته في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو حياته على الإيمان ، وحشره عليه .

وقيل : التثبيت في الدنيا الفتح والنصر ، وفي الآخرة الجنة والثواب .

وما صح عن الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) في حديث البراء من تلاوته عند إعاد المؤمن في قبره ، وسئل وشهد شهادة الإخلاص قوله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا الآية ، لا يظهر منه يعني : أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان ، وأن الآخرة في القبر ، ولا أن الحياة الدنيا هي في القبر ، وأن الآخرة هي يوم القيامة ، بل اللفظ محتمل .

ومعنى يثبت : يديمهم عليه ، ويمنعهم من الزلل .

ومنه قول عبد الله بن رواحة :

فثبت الله ما آتاك من حسن . . .

تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

والظاهر أنّ بالقول الثابت متعلق بقوله : يثبت .

وقيل : يتعلق بآمنوا .

وسؤال العبد في قبره معتقد أهل السنة .

ويضل الله الظالمين أي : الكافرين لمقابلتهم بالمؤمنين ، وإضلالهم في الدنيا كونهم لا يثبتون في مواقف الفتن ، وتزل أقدامهم وهي الحيرة التي تلحقهم ، إذ ليسوا متمسكين بحجة .

وفي الآخرة هو اضطرابهم في جوابهم .

ولما تقدم تشبيه الكلمة الطيبة على تشبيه الكلمة الخبيثة ، تقدم في هذا الكلام من نسبت إليه الكلمة الطيبة وتلاه من نسبت إليه الكلمة الخبيثة .

ولما ذكر تعالى ما فعل بكل واحد من القسمين ذكر أنه لا يمكن اعتراض فيما خص به كل واحد منهما ، إذ ذاك راجع إلى مشيئته تعالى ، إنّ الله يفعل ما يشاء ، لا يسئل عما يفعل .

وقال الزمخشري : ويفعل الله ما يشاء أي : توجيه الحكمة ، لأنّ مشيئة الله تابعة للحكمة من تثبيت المؤمنين وتأييدهم وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم ، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم انتهى .

وفيه دسيسة الاعتزال . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(92/418)

---

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الأخرة ﴾ :

﴿ القول الثابت فِي الحياة الدنيا ﴾ : كلمةُ الإِخلاصِ والنجاةِ من النّار : «لا إله إلا اللَّه» ، والإِقرارُ بالنبوّة ، وهذه الآية تعمُّ العالَمِ مِنْ لدنْ آدم عليه السلام إلى يوم القيامةِ . قال طَاوُسٌ ، وقتادة ، وجمهور من العلماء : ﴿ الحياة الدنيا ﴾ هي مدّةَ حياةِ الإِنسان ، ﴿ وَفِي الأخرة ﴾ وَقْتُ سؤاله في قَبْرِه ، وقال البَرَاء بن عَازِبٍ وجماعة : ﴿ فِي الحياة الدنيا ﴾ : هي وقتُ سؤاله في قَبْره ، ورواه البَرَاءُ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في لفظ متأوّلٍ ، وفي الآخرة : هو يوم القيامة عندَ العَرْض ، والأول أُحسن ، ورجَّحه الطبريُّ .

(93/418)

---

* ت * : ولفظ البخاريِّ عن البراءِ بْنِ عازِبٍ أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " المُسلِمُ إذَا سُئِلَ فِي القَبْرِ ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الأخرة ﴾ " انتهى ، وحديثُ البَرَاءِ خَرَّجه البخاريُّ ومسلم وأبو داود والنسائيُّ وابنُ ماجه ، قال صاحب «التذكرة» : وقد رَوَى هذا الحديثَ أبو هريرة وابن مسعود وابنُ عباس وأبو سَعِيدٍ الخدريُّ قال أبو سعيدٍ الخُدْريُّ : كُنَّا في جنازةٍ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : "يَاأَيُّهَا النَّاسُ إنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا فإذَا الإِنْسَانُ دُفِنَ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، جَاءَهُ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ ،

فَأَقْعدَهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ... " الحديثَ، وفيه: فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «مَا أَحَدٌ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ إِلَّا هَبِلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الأخرة وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ انتهى.

(94/418)

---

قال أبو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ البَرِّ: وُرُوِّينا من طرق؛ أَنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ لِعُمَرَ: "كَيْفَ بِكَ يَا عُمَرُ، إِذَا جَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، إِذَا مُتَّ، وانطلق بِكَ قَوْمُكَ، فَقَاسُوا ثَلاَثَةَ أَذْرُعٍ وشِبْراً فِي ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ، ثُمَّ غَسَّلُوكَ، وَكَفَّنُوكَ، وَحَنَّطُوكَ، ثُمَّ احتملوك، فَوَضَعُوكَ فِيهِ، ثُمَّ أَهَالُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ، فَإِذَا انصرفوا عَنْكَ أَتَاكَ فَتَّانَا القَبْرِ: مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ القَاصِفِ، وَأَبْصَارُهُمَا كَالبَرْقِ الخَاطِفِ يَجُرَّانِ شُعُورَهُمَا مَعَهُمَا مِرْزَبَّةٌ، لَوْ اجتمع عَلَيْهَا أَهْلُ الأَرْضِ لَمْ يَقْلِبُوهَا، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إن فرقْنَا فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نفرقَ أَنُبْعَثُ عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: إِذَنْ أَكْفِيكَهُمَا "، انتهى، و«الظالمون»؛ في هذه الآية: الكافرون، ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾، أي: بحقِّ الملك؛ فلا رادَّ لأَمره، ولا معقِّب لِحُكْمه، وجاءتْ أحاديثُ صحيحةٌ في مُسَاءلة العبد في قبره،

وجماعة السُّنَّة تقولُ : إنَّ اللَّه سبْحَانه يَخْلُقُ للعَبْدِ في قَبْرِه إدراكاتٍ وتحصيلاً : إما بحياةٍ ؛ كالمتعارفة ، وإما بحضورِ النَّفْس ، وإن لم تتلبَّس بالجَسَدِ كالعُرْف ، كلُّ هذا جائزٌ في قُدْرة اللَّه تَبَارَكَ وتعالى غير أنَّ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ ؛ « أَنَّه يَسْمَعُ خَفْقَ النّعَالِ » ، ومنها : أنه يرى الضوء كأَنَّ الشمْسَ دَنَتْ للغروب ، وفيها أنه يُرَاجَعُ ، وفيها : « فَيُعَادُ رُوحُهُ إِلَى جَسَدِهِ » ، وهذا كلُّه يتضمَّن الحياة ، فسُبْحَانَ مَنْ له هذه القدرةُ العظيمةُ . انتهى ا . هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(95/418)

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

الخطابُ للرسول صلى الله عليه وسلم وقد عُلّق بما بعده من قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيّبَةً ﴾ منصوبٌ بمضمر أي جعل كلمةً طيبة هي كلمةُ التوحيد أو كلَّ كلمة حسنةٍ كالتسبيحة والتحميدة والاستغفارِ والتوبة والدعوة ﴿ كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ ﴾ أي حكَم بأنها مثلُها لا أنه تعالى صيّرها مثلَها في الخارج وهو تفسير لقوله : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ كقولك : شرّف الأميرُ زيداً كساه

حُلةً وحمله على فرس ، ويجوز أن يكون ( كلمة ) بدلاً من مثلاً وكشجرة صفتُها ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي هي كشجرة وأن يكون أولَ مفعوليْ ضرب إجراءً له مُجرى جعل قد أُخّر عن ثانيهما ، أعني مثلاً لئلا يبعُد عن صفته التي هي كشجرة ، وقد قرئت بالرفع على الابتداء ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي ضارب بعُروقه في الأرض ، وقرأ أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه كشجرة طيبة ثابتٍ أصلُها ، وقراءةُ الجماعة أقوى سبكاً وأنسبُ بقرينته أعني قوله تعالى : ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها ﴿ فِى السماء ﴾ في جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعُها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع .

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا ﴾

تعطي ثمرَها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ وقّته الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقِها ، والمرادُ بالشجرة المنعوتةِ إما النخلة كما رُوي مرفوعاً أو شجرة في الجنة ﴿ وَيَضْرِبُ الله الامثال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأن في ضربها زيادةَ إفهامٍ وتذكير ، فإنه تصويرٌ للمعاني بصور المحسوسات .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كلمةُ الكفر والدعاءِ إليه، أو تكذيبُ الحق، أو ما يعم الكل، أو كلُّ كلمةٍ قبيحة ﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ أي كمثل شجرة خبيثةٍ، قيل: هي كلُّ شجرةٍ لا يطيب ثمرُها كالحنظل والكشوث ونحوهما، وتغييرُ الأسلوب للإيذان بأن ذلك غيرُ مقصود الضرب والبيان وإنما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كل أحد ﴿ خَبِيثَةٍ اجتثت ﴾ استؤصِلت وأُخذت جثّتُها بالكلية ﴿ مِن فَوْقِ الأرض ﴾ لكون عروقها قريبةً منه ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ استقرارٍ عليها.

﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكّن في قلوبهم وهو الكلمةُ الطيبةُ التي ذُكرت صفتُها العجيبة ﴿ فِى الْحَيَاةِ الدُنيا ﴾ فلا يُزالون عنه إذا افتُتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحابُ الأخدود ﴿ وَفِي الأخرة ﴾ فلا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تُدهشُهم أهوالُ القيامة أو عند سؤال القبر. روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكَر قبضَ روحِ المؤمن فقال: " ثم يُعاد روحُه في جسده فيأتيه ملكان فيُجلسانه في قبره، فيقولان: مَنْ ربك وما دينُك ومن نبيُّك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلامُ ونبيّي محمد عليه الصلاة والسلام، فينادي منادٍ من السماء أنه صدق عبدي " فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت ﴾ وهذا مثالُ إيتاءِ الشجرةِ المذكورة أُكُلَها كل حين. قال الثعلبي في تفسيره: أخبرني أبو القاسم بن حبيب في سنة ستٍ وثمانين وثلاثمائة، قال: سمعت أبا الطيب محمدَ بنَ علي

الخياطَ يقول : سمعت ( سهلَ بنَ عمار العملي ) يقول : رأيت ( يزيدَ بن هارون ) في منامي بعد موته فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أتاني في قبري ملكان فظّان فقالا : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فأخذتُ بلحيتي البيضاءِ ، فقلت لهما : أَلِمثلي يقال هذا ، وقد علّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سنة ؟ فذهبا .

*(97/418)*

---

﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي يخلق فيهما الضلالَ عن الحق الذي ثبّت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارِهم ، والمرادُ بهم الكفرةُ بدليل ما يقابله ووصفُهم بالظلم إما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعِه وإما باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرةَ الله التي فطر الناسَ عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابتِ ، أو كلُّ من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والإعراضِ عن البينات الواضحة فلا يتثبّت في مواقف الفتن ولا يهتدي إلى الحق ، فالمرادُ بالذين آمنوا حينئذ المخلصون في الإيمان والراسخون في الإيقان كما ينبىء عنه التثبيتُ لكنه يوهم كونَ كلمة التوحيد إذا كانت لا عن إيقان داخلةً تحت ما لا قرارَ له من الشجرة المضروبة مثلاً ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من تثبيت بعضٍ وإضلالِ آخرين حسبما توجبه مشيئتُه التابعةُ للحِكم البالغة المقتضيةِ لذلك ، وفي إظهار الاسمِ الجليل في

الموضعين من الفخامة وتربيةِ المهابة ما لا يخفى ، مع ما فيه من الإيذان بالتفاوت في مبدأ التثبيتِ والإضلال فإن مبدأ صدورِ كلَ منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العُلا غيرُ ما هو مبدإ صدور الآخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(98/418)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لمن يصلح له والفعل معلق بما بعده من قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي كيف اعتمله ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيّبَةً ﴾ نصب على البدلية من ﴿ مَثَلاً ﴾ و﴿ ضُرِبَ ﴾ متعدية إلى مفعول واحد كما ذهب إلى ذلك الحوفي .

والمهدوي .

وأبو البقاء ، وهو على ما قيل : بدل اشتمال ولو جعل بدل كل من كل لم يبعد .

واعترض عليه بأنه لا معنى لقولك ضرب الله كلمة طيبة إلا بضم ﴿ مَثَلاً ﴾ إليه فمثلاً هو المقصود بالنسبة فكيف يبدل منه غيره ، ولا يخفى أن هذا بناءاً على ظاهر قول النحاة :

إن المبدل في نية الطرح وهو غير مسلم ، وقوله سبحانه : ﴿ كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ صفة ﴿ كَلِمَةً ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة ، وجوز أن يكون كلمة منصوباً بمضمر و﴿ ضَرَبَ ﴾ أيضاً متعدية لواحد أي جعل كلمة ظيبة كشجرة طيبة أي حكم بأنها مثلها والجملة تفسير لقوله سبحانه : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ كقولك : شرف الأمير زيداً كساه حلة وحمله على فرس .

وتعقب ذلك أبو حيان بأن فيه تكلف إضمار لا ضرورة تدعو إليه .

وأجاب عنه السمين بما فيه بحث ، وجوز أيضاً أن يكون ضرب المذكور متعدياً إلى مفعولين إما لكونه بمعنى جعل واتخذ أو لتضمينه معناه وكلمة أول مفعوليه قد أخر عن ثانيهما أعني ﴿ مَثَلاً ﴾ لئلا يبعد عن صفته التي هي ﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ قيل : ولا يرد على هذا بأن المعنى أنه تعالى ضرب لكلمة طيبة مثلاً لا كلمة طيبة مثلاً لأن المثل عليه بمعنى الممثل به والتقدير ذات مثل أولها مثلاً .

وقرىء ﴿ كَلِمَةَ ﴾ بالرفع على الابتداء لكونها نكرة موصوفة والخبر ﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف و﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ صفة أخرى ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي ضارب بعروقه في الأرض .

وقرأ أنس بن مالك ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٌ أَصْلُهَا ﴾ وقراءة الجماعة على الأصل وذكروا أنها أقوى معنى .

قال ابن جني : لأنك إذا قلت ثابت أصلها فقد أجريت الصفة على شجرة وليس الثبات لها إنما هو للأصل ، والصفة إذا كانت في المعنى لما هو من سبب الموصوف قد تجري عليه لكنها أخص بما هي له لفظاً ومعنى فالأحسن تقديم الأصل عناية به ، ومن ثم قالوا : زيد ضربته فقدموا المفعول عناية به حيث أن الغرض ليس ذكر الفاعل وإنما هو ذكر المفعول ، ثم لم يقنعوا بذلك حيث أزالوه عن لفظ الفضلة وجعلوه رب الجملة لفظاً فرفعوه بالابتداء وصار ضربته ذيلاً له وفضلة ملحقة به ، وكذلك قولك : مررت برجل أبوه قائم أقوى معنى من قولك : مررت برجل قائم أبوه لأن المخبر عنه بالقيام إنما هو الأب لا الرجل مع ما في التقديم هنا من حسن التقابل والتقسيم إلا أن لقراءة أنس وجهاً حسناً ، وهو أن ﴿ ثَابِتٌ أَصْلُهَا ﴾ صفة الشجرة وأصل الصفة أن تكون اسماً مفرداً لأن الجملة إذا وقعت صفة حكم على موضعها بإعراب المفرد وذاك لم يبلغ مبلغ الجملة بخلاف ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ فإنه جملة قطعاً ، وقال بعضهم : إنها أبلغ ولم يذكر وجه ذلك فزعم من زعم أنه ما أشير إليه من وجه الحسن وهو بمعزل عن الصواب .

وقال ابن تمجيد : هو أنه كوصف الشيء مرتين مرة صورة ومرة معنى مع ما فيه من الإجمال والتفصيل كما في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [ الشرح : 1 ] فإنه لما قيل : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثَابِتٌ ﴾ تبادر الذهن من جعل ﴿ ثَابِتٌ ﴾ صفة لشجرة صورة أن شيئاً من الشجرة متصف بالثبات ثم لما قيل : ﴿ أَصْلُهَا ﴾ علم صريحاً أن الثبات صفة أصل الشجرة وقيل : كونها أكثر مبالغة لجعل الشجرة بثبات أصولها ثابتة بجميع أغصانها فتدبر ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها من قولهم : فرع الجبل إذا علاه ، وسمى الأعلى فرعاً لتفرعه على الأصل ولهذا أفرد وإلا فكل شجرة لها فروع وأغصان ، ويجوز أن يراد به الفروع لأنه مضاف والإضافة حيث لا عهد ترد للاستغراق أو لأنه مصدر بحسب الأصل وإضافته على ما اشتهر تفيد العموم فكأنه قيل : وفروعها ﴿ فِى السماء ﴾ أي في جهة العلو .

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا ﴾

تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ وقت أقته الله تعالى لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها جل شأنه ، والمراد بالكلمة الطيبة شهادة أن لا إله إلا الله على ما أخرجه البيهقي .

وغيره عن ابن عباس ، وعن الأصم أنها القرآن ، وعن ابن بحر دعوة الإسلام ، وقيل :

التسبيح والتنزيه ، وقيل : الثناء على الله تعالى مطلقاً ، وقيل : كل كلمة حسنة ، وقيل : جميع الطاعات ، وقيل : المؤمن نفسه ، وأخرجه ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس وهو خلاف الظاهر ، وكأن إطلاق الكلمة عليه نظير إطلاقها على عيسى عليه السلام ، والمراد بالشجرة المشبه بها النخلة عند الأكثرين ، وروي ذلك عن ابن عباس .

وابن مسعود .

ومجاهد .

وعكرمة .

والضحاك .

وابن زيد .

وأخرج عبد الرزاق .

والترمذي .

وغيرهما عن شعيب بن الحبحاب قال : كنا عند أنس فأتينا بطبق عليه رطب فقال أنس لأبي العالية : كل يا أبا العالية فإن هذا من الشجرة التي ذكرها الله تعالى في كتابه ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ [ إبراهيم : 24 ] وأخرج الترمذي أيضاً .

والنسائي .

وابن حبان .

والحاكم وصححه عن أنس قال : "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع من بسر فقال : ﴿ مَثَلُ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ حتى بَلَغَ كُلَّ حِينٍ ﴾ قال : هي النخلة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند ، وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أيضاً أنها شجرة في الجنة ، وقيل : كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك .

وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل ما فيه على التمثيل لا ينبغي العدول عنه .

ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بمعنى شهادة أن لا إله إلا الله بهذه الشجرة المنعوتة بما ذكر أن أصل تلك الكلمة ومنشأها وهو الإيمان ثابت في قلوب المؤمنين وما يتفرع منها وينبني عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يصعد إلى السماء ، وما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرة التي تؤتيها كل حين ، ويقال نحو هذا على تقدير أن تكون الكلمة

بمعنى آخر فتأمل.

والذاهبون إلى تفسير الشجرة بالنخلة من السلف اختلفوا في مقدار الحين، فأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب أنه شهران قال: إن النخلة إنما يكون فيها حملها شهرين.

(102/418)

---

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنه سنة وقيل غير ذلك، واختلفت الروايات عن ابن عباس والأشهر أنه فسره بستة أشهر وقال: إن النخلة ما بين حملها إلى صرامها ستة أشهر، وأفتى رضي الله تعالى عنه لرجل حلف أن لا يكلم أخاه حيناً أنه لو كلمه قبل ستة أشهر حنث وهو الذي قال به الحنيفة، فقد ذكروا أن الحين والزمان معرفين أو منكرين واقعين في النفي أو في الإثبات ستة أشهر، وعللوا ذلك بأن الحين قد جاء بمعنى الساعة وبمعنى أربعين سنة وبمعنى الأبد وبمعنى ستة أشهر فعند عدم النية ينصرف إليه لأنه الوسط ولأن القليل لا يقصد بالمنع لوجود الامتناع فيه عادة والأربعون سنة لا تقصد بالحلف عادة لأنه في معنى الأبد، ولو سكت عن الحين تأبد فالظاهر أنه لم يقصد ذلك ولا الأبد ولا أربعين سنة فيحكم بالوسط في الاستعمال والزمان استعمل استعمال الحين ويعتبر ابتداء الستة أشهر من وقت اليمين في نحو لا أكلم فلاناً حيناً مثلاً، وهذا بخلاف لأصومن حيناً فإن له أن يعين

فيه أي ستة أشهر شاء كما بين في محله ، ومتى نوى الحالف مقداراً معيناً في الحين وأخيه صدق لأنه نوى حقيقة كلامه لأن كلاًّ منهما للقدر المشترك بين القليل والكثير والمتوسط واستعمل في كل كما لا يخفى على المتتبع فليتذكر ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير فإنه تصوير المعاني العقلية بصور المحسوسات وبه يرتفع التنازع بين الحس والخيال .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾

وهي كلمة الكفر أو الدعاء إليه أو الكذب أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى .

(103/418)

---

وقرىء ﴿ وَمَثَلُ ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ [ إبراهيم : 24 ] وقرأ أبي ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ولعل تغيير الأسلوب على قراءة الجماعة للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد ، وفي الكلام مضاف مقدر أي كمثل شجرة خبيثة ، والمثل بمعنى الصفة الغريبة ﴿ اجتثت ﴾ أي اقتلعت من أصلها ، وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة وهي شخص الشيء كلها ﴿ مِن فَوْقِ الأرض ﴾ لكون عروقها قريبة من الفوق فكأنها فوق ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ

﴾ أي استقرار على الأرض ، والمراد بهذه الشجرة المنعوتة الحنظلة .

وروي ذلك أيضاً مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الضحاك أنها الكشوث ، ويشبه به الرجل الذي لا حسب له ولا نسب كما قال الشاعر :

فهو الكشوث فلا أصل ولا ورق . . .

ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

وقال الزجاج وفرقه شجرة الثوم ، وقيل : شجرة الشوك ، وقيل : الطحلب ، وقيل : الكمأة وقيل : كل شجر لا يطيب له ثمر ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها شجرة لم تخلق على الأرض والمقصود التشبيه بما اعتبر فيه تلك النعوت ، وقال ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة جامعة لتلك الأوصاف وفي رواية عن الحبر أيضاً تفسير هذه الشجرة بالكافر .

وروى الإمامية وأنت تعرف حالهم عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه تفسيرها ببني أمية وتفسير السجرة الطيبة برسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلي كرم الله تعالى وجهه . وفاطمة رضي الله تعالى عنها وما تولد منهما ، وفي بعض روايات أهل السنة ما يعكر على تفسير الشجرة الخبيثة ببني أمية .

فقد أخرج ابن مردويه عن عدي بن أبي حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى قلب العباد ظهراً وبطناً فكان خير عباده العرب وقلب العرب ظهرا وبطناً فكان خير العرب قريشاً وهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى في كتابه : ﴿ مَثَلُ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [ إبراهيم : 24 ] " لأن بني أمية من قريش وأخبار الطائفتين في هذا الباب ركيكة وأحوال بني أمية التي يستحقون بها ما يستحقون غير خفية عند الموافق المخالف ، والذي عليه الأكثرون في هذه الشجرة الخبيثة أنها الحنظل ، وإطلاق الشجرة عليه للمشاكلة وإلا فهو نجم لا شجر ، وكذا يقال في إطلاقه على الكشوث ونحوه .

وللإمام الرازي قدس سره كلام في هذين المثلين لا بأس بذكره ملخصاً وهو أنه تعالى ذكر في المثل الأول شجرة موصوفة بأربع صفات ثم شبه الكلمة الطيبة بها .

الصفة الأولى : كونها ﴿ طَيِّبَةً ﴾ وذلك يحتمل كونها طيبة المنظر وكونها طيبة الرائحة وكونها طيبة الثمرة بمعنى كونها لذيذة مستطابة وكونها طيبة الثمرة بمعنى كثرة الانتفاع بها ، ويجب إرادة الجميع إذ به يحصل كمال الطيب .

والثانية : كون ﴿ أَصْلُهَا ﴾ وهو صفة كمال لها لأن الشيء الطيب إذا كان في معرض الزوال فهو وإن كان يحصل الفرح بوجدانه إلا أنه يعظم الحزن بالخوف من زواله وأما إذ لم يكن كذلك فإنه يعظم السرور به من غير ما ينغص ذلك .

والثالثة : كون ﴿ وَلاَفِى السماء ﴾ وهو أيضاً صفة كمال لها لأنها متى كانت مرتفعة كانت بعيدة عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمرتها نقية خالصة عن جميع الشوائب .

والرابعة : كونها ﴿ دائمة الثمر ﴾ لا أن ثمرها حاضر في بعض الأوقات دون بعض وهو صفة كمال أيضاً إذ الانتفاع بها غير منقطع حينئذٍ .

(105/418)

---

ثم إن من المعلوم بالضرورة أن الرغبة في تحصيل مثل هذه الشجرة يجب أن تكون عظيمة ، وأن العاقل متى أمكنه تحصيلها ينبغي أن يقوم له على ساق ولا يتساهل عنه ، والمراد من الكلمة المشبهة بذلك معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته سبحانه وطاعته ، وشبه ذلك للشجرة في صفاتها الأربعة ، أما في الأولى فظاهر بل لا لذة ولا طيب في الحقيقة إلا لهذه المعرفة لأنها ملائمة لجوهر النفس النطقية والروح القدسية ولا كذلك لذة الفواكه إذ هي أمر ملائم لمزاج البدن ، ومن تأمل أدنى تأمل ظهر له فروق لا تحصى بين اللذتين ، وأما في الصفة الثانية فثبوت الأصل في شجرة معرفة الله تعالى أقوى وأكمل لأن عروقها راسخة في جوهر النفس القدسية وهو جوهر مجرد آمن عن الكون والفساد بعيد عن التغير والفناء ، وأيضاً

مدد هذا الرسوخ إنما هو من تجلى جلال الله تعالى وهو من لوازم كونه سبحانه في ذاته نور النور ومبدأ الظهور وذلك مما يمتنع عقلاً زواله وأما في الصفة الثالثة فلأن شجرة المعرفة لها أغصان صاعدة في هواء العالم الإلهي وأغصان صاعدة في هواء العالم الجسماني ، والنوع الأول أقسامه كثيرة يجمعها قوله صلى الله عليه وسلم : " التعظيم لأمر الله تعالى " ويدخل فيه التأمل في دلائل معرفته سبحانه كأحوال العوالم العلوية والسفلية ، وكذا محبة الله تعالى والتشوق إليه سبحانه والمواظبة على ذكره جل شأنه والاعتماد عليه وقطع النظر عما سواه جل وعلا إلى غير ذلك ، والنوع الثاني أقسامه كذلك ويجمعها قوله عليه الصلاة والسلام ، " والشفقة على خلق الله تعالى " ويدخل فيه الرأفة والرحمة والصفح والتجاوز عن الإساءة والسعي في إيصال الخير إلى عباد الله تعالى ودفع الشرور عنهم ومقابلة الإساءة بالإحسان إلى ما لا يحصى ، وهي فروع من شجرة المعرفة فإن الإنسان كلما كان متوغلاً فيها كانت هذه الأحوال عنده أكمل وأقوى .



---

وأما في الصفة الرابعة فلأن شجرة المعرفة موجبة لما علمت من الأحوال ومؤثرة في حصولها والمسبب لا ينفك عن السبب ، فدوام أكل هذه الشجرة أتم من دوام أكل الشجرة المنعوتة

فهي أولى بهذه الصفة بل ربما توغل العبد في المعرفة فيصير بحيث كلما لاحظ شيئاً لاحظ الحق فيه وربما عظم ترقيه فيصير لا يرى شيئاً إلا يرى الله تعالى قبله ، وأيضاً قد يحصل للنفس من هذه المعرفة الهامات نفسانية وملكات روحانية ثم لا يزال يصعد منها في كل حين ولحظة كلام طيب وعمل صالح وخضوع وخشوع وبكاء وتذلل كثمرة هذه الشجرة ، وفي قوله سبحانه : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [ إبراهيم : 25 ] دقيقة عجيبة وذلك لأن الإنسان عند حصول هذه الأحوال السنية والدرجات العلية قد يفرح بها من حيث هي هي وقد يترقى فلا يفرح بها كذلك وإنما يفرح بها من حيث أنها من المولى جل جلاله وعند ذلك يكون فرحه في الحقيقة بالمولى تبارك وتعالى ولذلك قال بعض المحققين : من آثر العرفان للعرفان فقد وقف بالساحل ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة الوصول .

وذكر بعضهم في هذا المثال كلاماً لا يخلو عن حسن ، وهو أنه إنما مثل سبحانه الإيمان بالشجرة لأن الشجرة لا تستحق أن تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء : عرق راسخ .

وأصل قائم .

وأغصان عالية فكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء : معرفة في القلب .

وقول باللسان .

وعمل بالأركان ، ولم يرتض قدس سره تفسير الشجرة بالنخلة ولا الحين بما شاع فقال : بعد نقل كلام جماعة إن هؤلاء وإن أصابوا في البحث عن مفردات ألفاظ الآية ألا أنهم بعدوا عن إدراك المقصود لأنه تعالى وصف شجرة بالصفات المذكورة ولا حاجة بنا إلى أن تلك الشجرة هي النخلة أم غيرها ، فإنا نعلم بالضرورة أن الشجرة الكذائية يسعى في تحصيلها وادخارها لنفسه كل عاقل سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن لأن هذه الصفة أمر مطلوب التحصيل ، واختلافهم في تفسير الحين أيضاً من هذا الباب والله تعالى أعلم ، وذكر تبارك وتعالى في المثل الثاني شجرة أيضاً إلا أنه تعالى وصفها بثلاث صفات .

الصفة الأولى : كونها ﴿ خَبِيثَةٍ ﴾ وذلك يحتمل أن يكون بحسب الرائحة وأن يكون بحسب الطعم وأن يكون بحسب الصورة وأن يكون بحسب اشتمالها على المضار الكثيرة ولا حاجة إلى القول بأنها شجرة كذا أو كذا فإن الشجرة الجامعة لتلك الصفات وإن لم تكن موجودة إلا أنها إذا كانت معلومة الصفة كان التشبيه بها نافعاً في المطلوب .

والثانية : ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأَرض ﴾ وهذه في مقابلة أصلها ثابت في الأول .

والثالثة : نفي أن يكون لها قرار وهذه كالمتممة للصفة الثانية ، والمراد بالكلمة المشبهة بذلك الجهل بالله تعالى والإشراك به سبحانه فإنه أول الآفات وعنوان المخافات ورأس السقاوات فخبثه أظهر من أن يخفى وليس له حجة ولا ثبات ولا قوة بل هوداً حض غير

ثابت ا ه ، وهو كلام حسن لكن فيه مخالفة لظواهر كثير من الآثار فتأمل .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾

الذي ثبت عندهم وتمكن في قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة ، والظاهر أن الجار متعلق بيثبت وكذا قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ أي يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم فلا يزالون إذا قيض لهم من يفتنهم ويحاول زللهم عنه كما جرى لأصحاب الاخدود .

ولجرجيس .

(108/418)

---

وشمسون وكما جرى لبلال وكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ أي بعد الموت وذلك في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة وفي مواقف القيامة فلا يتعلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك ولا تدهشهم الأهوال .

وأخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية : التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا له : من ربك ؟ قال : ربي الله .

قالا .

وما دينك ؟ قال : ديني الإسلام : قال : ومن نبيك ؟ قال : نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالمراد من ﴿ الآخرة ﴾ يوم القيامة ، وأخرج الطبراني في الأوسط .

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هذه الآية : ﴿ يُثَبِّتُ الله ﴾ الخ في الآخرة القبر" وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء واختاره الطبري .

*(109/418)*

---

نعم اختار بعضهم أن الحياة الدنيا مدة حياتهم والآخرة يوم القيامة والعرض ؛ وكأن الداعي لذلك عموم ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ وشمولهم لمؤمني الأمم السابقة مع عدم عموم سؤال القبر ، وجوز تعلق الجار الأول بآمنوا على معنى آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عما لا يليق بجنابه سبحانه ، وكذا جوز تعلق الجار الثاني بالثابت ومن الناس من زعم أن التثبيت في الدنيا الفتح والنصر وفي الآخرة الجنة والثواب لا يخفى أن هذا مما لا يكاد يقال ، وأمر تعلق الجارين ما قدمنا وهذا عند بعضهم مثال إيتاء الشجرة أكلها كل حين ﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم

واختيارهم الناشئ عن سوء استعدادهم ، والمراد بهم الكفرة بدليل مقابلتهم بالذين آمنوا ووصفهم بالظلم إما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه ، وإما باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابت أو حيث قلدوا أهل الضلال وأعرضوا عن البينات الواضحة ، واضلالهم على ما قيل في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضل وأزل .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

(110/418)

---

والبيهقي من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره فإذا دخل قبره أقعد فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله تعالى ذكر ذلك ، وإذا قيل له : من الرسول الذي بعث إليكم ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ : ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاء ﴾ من تثبيت بعض واضلال بعض آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك ، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة

وتربية المهابة ما لا يخفى مع ما فيه كما قيل من الإيذان بالتفاوت في مبادىء التثبيت والإضلال فإن مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ما هو مبدأ صدور الآخر، وفي ظاهر الآية من الرد على المعتزلة ما فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(111/418)

---

وقال الشوكانى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾

لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار، وأنها كرماد اشتدّت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، وما جازاهم الله به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، وتحية الملائكة لهم ذكر تعالى ها هنا مثلاً للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام، أي : لا إله إلاّ الله، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلاً للكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشرّ، فقال مخاطباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو مخاطباً لمن يصلح للخطاب : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي : اختار مثلاً وضعه في موضعه اللائق به

، وانتصاب ﴿ مثلاً ﴾ على أنه مفعول ضرب ، و ﴿ كلمة ﴾ بدل منه ، ويجوز أن تنتصب الكلمة على أنها عطف بيان ل ﴿ مثلاً ﴾ ، ويجوز أن تنتصب الكلمة بفعل مقدّر ، أي : جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وحكم بأنها مثلها ، ومحل ﴿ كشجرة ﴾ النصب على أنها صفة لكلمة ، أو الرفع على تقدير مبتدأ ، أي : هي كشجرة ، ويجوز أن تكون ﴿ كلمة ﴾ أوّل مفعولي ﴿ ضرب ﴾ ، وأخرت عن المفعول الثاني ، وهو ﴿ مثلاً ﴾ لئلا تبعد عن صفتها ، والأوّل أولى ، و ﴿ كلمة ﴾ وما بعدها تفسير للمثل ، ثم وصف الشجرة بقوله : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي : راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿ فِى السماء ﴾ أي : أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء . ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ كل وقت ﴿ بِإِذْنِ رَبّهَا ﴾ بإرادته ومشيئته ، قيل : وهي النخلة .

وقيل غيرها .

وقيل : والمراد بكونها ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ أي : كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف .

وقيل : المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين ؛ وقيل : كل غدوة وعشية ، وقيل : كل شهر .

وقيل : كل ستة أشهر .

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ؛ لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلاّ من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره ، وأنشد الأصمعي قول النابغة :

تطلقه حيناً وحيناً تراجع . . . قال النحاس : وهذا يبين لك أن الحين بمعنى الوقت .

وقد ورد الحين في بعض المواضع يراد به : أكثر كقوله : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر ﴾ [ الإنسان : 1 ] .

وقد تقدّم بيان أقوال العلماء في الحين في سورة البقرة في قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِى الأرض مُسْتَقَرٌّ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ [ البقرة : 36 ] .

وقال الزجاج : الحين : الوقت طال أم قصر .

﴿ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد .

وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته ، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني .

﴿ وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ قد تقدّم تفسيرها .

وقيل : هي الكافر نفسه ، والكلمة الطيبة : المؤمن نفسه .

﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ أي : كمثل شجرة خبيثة ، قيل : هي شجرة الحنظل .

وقيل : هي شجرة الثوم .

وقيل : الكمأة ؛ وقيل : الطحلبة .

وقيل : هي الكشوث بالضم وآخره مثلثة ، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض .

قال الشاعر :

وهي كشوث فلا أصل ولا ثمر . . . وقرىء " ومثلاً كلمة " بالنصب عطفاً على كلمة طيبة

﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض ﴾ أي : استؤصلت واقتلعت من أصلها ، ومنه قول الشاعر :

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم . . . قال المؤرج : أخذت جثتها وهي نفسها ، والجثة :

شخص الإنسان ، يقال : جثّه : قلعه ، واجتثه : اقتلعه .

ومعنى ﴿ من فوق الأرض ﴾ : أنه ليس لها أصل راسخ ، وعروق متمكنة من الأرض

﴿ ما لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي : من استقرار على الأرض .



---

وقيل : من : ثبات على الأرض ، كما أن الكافر وكلمته لا حجة له ولا ثبات فيه ، ولا خير

يأتي منه أصلاً ، ولا يصعد له قول طيب ولا عمل طيب .

﴿ يُثَبّتُ الله الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت ﴾ أي : بالحجة الواضحة ، وهي الكلمة الطيبة

المتقدّم ذكرها ، وقد ثبت في الصحيح أنها كلمة الشهادة : "شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله" وذلك إذا قعد المؤمن في قبره .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فذلك قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت ﴾ " وقيل : معنى تثبيت الله لهم : هو أن يدوموا على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رواحة :

يثبت الله ما آتاك من حسن . . . تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا

ومعنى ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ أنهم يستمرّون على القول الثابت في الحياة الدنيا .

قال جماعة : المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية : القبر ؛ لأن الموتى في الدنيا حتى يبعثوا .

ومعنى ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ وقت الحساب .

وقيل : المراد بالحياة الدنيا : وقت المساءلة في القبر ، وفي الآخرة : وقت المساءلة يوم القيامة : والمراد : أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلعثم ولا تردّد ولا جهل ، كما يقول : من لم يوفق : لا أدري ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ أي : يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم ، ولا عند الحساب ، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا .

قيل : والمراد بالظالمين هنا : الكفرة .

وقيل : كل من ظلم نفسه ولو بمجرد الإعراض عن البينات الواضحة ، فإنه لا يثبت في

مواقف الفتن، ولا يهتدي إلى الحق.

ثم ذكر سبحانه أنه يفعل ما يشاء من التثبيت والخذلان لا رادّ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل.

قال الفراء: أي لا تنكر له قدرة ولا يسأل عما يفعل، والإظهار في محل الإضمار في الموضعين لتربية المهابة كما قيل: والله أعلم.

(114/418)

---

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلاّ الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول: لا إله إلاّ الله ثابت في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِى السماء ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

﴿ ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ وهي الشرك ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ يعني: الكافر ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً.

وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين ومن بعدهم.

وأخرج الترمذي، والنسائي، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن حبان، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس قال: "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع من بسر فقال: ﴿ مَثَلُ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ قال: "هي النخلة" ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ حتى بلغ: ﴿ ما لها مِن قَرَارٍ ﴾ قال: "هي الحنظلة".

وروي موقوفاً على أنس، قال الترمذي: الموقوف أصح.

وأخرج أحمد وابن مردويه.

قال السيوطي بسند جيد عن عمر، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ قال: "هي التي لا ينقص ورقها قال: هي النخلة" وأخرج البخاري وغيره من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: "إن شجرة من الشجر، لا يطرح ورقها مثل المؤمن" قال: فوقع الناس في شجر البوادي.

ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هي النخلة" وفي لفظ للبخاري قال: "أخبروني عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها وتؤتي أكلها كل حين" فذكر نحوه.

وفي لفظ لابن جرير وابن مردويه من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما الشجرة الطيبة ؟ " ، " ثم قال : هي النخلة " وروي نحو هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ قال : كل ساعة بالليل والنهار والشتاء والصيف ، وذلك مثل المؤمن يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء والصيف .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : يكون أخضر ثم يكون أصفر .

وأخرج عنه أيضاً في قوله : ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ قال : جذاذ النخل .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ قال : تطعم في كل ستة أشهر .

وأخرج أبو عبيد ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً قال : الحين هنا : سنة .

وأخرج البيهقي عنه أيضاً قال : الحين : قد يكون غدوة وعشية .

وقد روي عن جماعة من السلف في هذا أقوال كثيرة .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وأهل السنن ، وغيرهم عن البراء بن عازب ، أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : " المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت فِى الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ " وأخرج ابن أبي شيبة ، والبيهقي عن البراء بن عازب في قوله : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية قال : التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر فقالا : من ربك ؟ فقال : ربي الله ، قال : وما دينك ؟ قال : ديني الإسلام .

قال : ومن نبيك ؟ قال نبيي محمد صلى الله عليه وسلم .

فذلك التثبيت في الحياة الدنيا .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس نحوه .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه عن أبي سعيد في الآية قال : في الآخرة القبر .

(116/418)

---

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : " قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية .

قال : " هذا في القبر " وأخرج البيهقي من حديثها نحوه .

وأخرج البزار عنها أيضاً قالت : " قلت : يا رسول الله ، تبتلى هذه الأمة في قبورها ،

فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية" وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره، وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته، وليس هذا موضع بسطها، وهي معروفة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(117/418)

---

وقال القاسمى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يعني في الأرض ضارب بعروقه فيها: ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي: أعلاها ورأسها: ﴿ فِي السَّمَاء تُؤْتِي أُكُلَهَا ﴾ أي: ثمرها: ﴿ كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أي: بإرادته وتكوينه: ﴿ وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لأن فيها زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني المعقولة بالصور المحسوسة.

﴿ وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ ﴾ أي: استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية: ﴿ مِن فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ أي: لأن عروقها قريبة منه: ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ أي: استقرار.

تنبيه:

لحظ في الممثل به – أعني الشجرة – أوصاف جليلة لتلحظ في جانب الممثل له . فمنها : كونها طيبة ، أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح وطيب الثمرة وطيب المنفعة . وكون أصلها ثابتاً أي : راسخاً باقياً في أمن من الانقلاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور . وكون فرعها في السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها في التصاعد ، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب ، وكون ثمرتها تجتنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها . ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله . ولا تخفى مطابقة هذا الممثل به للممثل له – أعني الحق – وهو الإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء عليهم السلام .

ولما كان المثل مضروباً للحق والباطل في الثبات وعدمه ، والقصد أهلهما ؛ صرح بهما فذلك له ، فقال في أهل المثل الأول :



---

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ القول الثابت : هو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة وهو الحق . و ( بالقول ) جوزوا تعلقه بـ ( يثبت )

و ( آمنوا ) . والمعنى على الأول : ثبتهم بالبقاء على ذلك ، أو ثبتهم في سؤال القبر به ، وعلى الثاني فالباء سببية ، والمعنى : آمنوا بالتوحيد الخالص فوحدوه ونزهوه عما لا يليق بجنابه . و ( في الحياة ) متعلق بـ ( يثبت ) أو بـ ( الثابت ) كما قاله أبو البقاء . واقتصر الزمخشري وأتباعه على الأول حيث قال :

القول الثابت الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به في الدنيا ، أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزِلّوا ، كما ثبت أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل : معناه : الثبات عند سؤال القبر . فعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ > رواه الشيخان وأهل السنن .

وعليه ، فتفسير الآخرة بالقبر ؛ لكون الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا .

وقال في أصحاب المثل الثاني :

﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه حسب إرادتهم واختيارهم ، ووصفهم بالظلم لوضعهم الشيء في غير موضعه ، أو لظلمهم

أنفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها : ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاء ﴾ أي : من التثبيت والإضلال حسبما تقتضيه حكمته البالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 322.325 ﴾

(119/418)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله تعالى : ﴿ وبرزوا لله جميعاً إلى قوله تحيتهم فيها سلام ﴾ ، فضرب الله مثلاً لكلمة الإيمان وكلمة الشرك .

فقوله : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً إيقاظ للذهن ليترقب ما يرد بعد هذا الكلام ، وذلك مثل قولهم : ألم تعلم .

ولم يكن هذا المَثل مما سبق ضربه قبل نزول الآية بل الآية هي التي جاءت به ، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل .

وصوغ التشويق إليه في صيغة الزمن الماضي الدال عليها حرف لَمْ ﴿ التي هي لنفي الفعل في الزمن الماضي والدالّ عليها فعل ﴿ ضرب ﴾ بصيغة الماضي لقصد الزيادة في التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به .

والاستفهام في ﴿ ألم تر ﴾ إنكاري ، نُزل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم ، أو هو مستعمل في التعجيب من عدم العلم بذلك مع أنه مما تتوفر الدواعي على علمه ، أو هو للتقرير ، ومثله في التقرير كثير ، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك .

والخطاب لكل من يصلح للخطاب .

والرؤية علمية معلّق فعلها عن العمل بما وليها من الاستفهام بـ ﴿ كيف ﴾ .

وإيثار ﴿ كيف ﴾ هنا للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه .

وتقدم المَثل في قوله : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ في سورة البقرة ( 17 ) .

وضَرْب المثل : نَظْم تركيبه الدال على تشبيه الحالة .

وتقدم عند قوله : ﴿ أن يضرب مثلاً ما ﴾ في سورة البقرة ( 26 ) .

وإسناد ضرب ﴾ إلى اسم الجلالة لأن الله أوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام .

والمَثَل لما كان معنى متضمناً عدة أشياء صح الاقتصار في تعليق فعل ﴿ ضرب ﴾ به على وجه إجمال يفسره قوله : ﴿ كلمة طيبة كشجرة ﴾ إلى آخره ، فانتصب ﴿ كلمة ﴾ على البدلية من ﴿ مثلاً ﴾ بدلَ مفصّل من مجمل ، لأن المثل يتعلق بها لما تدل عليه الإضافة في نظيره في قوله : ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ .

والكلمة الطيبة قيل : هي كلمة الإسلام ، وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والكلمة الخبيثة : كلمة الشرك .

والطيبة : النافعة .

استعير الطيب للنفع لحُسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكية .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ وجرين بهم بريح طيبة ﴾ في سورة يونس ( 22 ) .

والفَرع : ما امتد من الشيء وعَلا ، مشتق من الافتراع وهو الاعتلاء .

وفرع الشجرة غصنها ، وأصل الشجرة : جذرها .

والسماء مستعمل في الارتفاع ، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر .

والأُكُل بضم الهمزة المأكول ، وإضافته إلى ضمير الشجرة على معنى اللام .

وتقدم عند قوله : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ في سورة الرعد ( 4 ) .

فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحس والفرح في النفس ، وازدياد أصول النفع

باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رُسوخ الأصل ، وجمال المنظر ، ونماء أغصان الأشجار .
ووفرة الثِمار ، ومتعة أكلها .

وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى ، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلاً لجمع التشبيه وتفريقه .

وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضد بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد ، وضيق الصدر ، وكدر التفكير ، والضر المتعاقب .

وقد اختصر فيها التمثيل اختصاراً اكتفاءً بالمضاد ، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيبة .



---

وفي جامع الترمذي ﴿ عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مثل كلمة طيبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها " قال : هي النخلة ، ﴾ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ قال : هي الحَنْظَل .

وجملة ﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ صفة ل ﴿ شجرة خبيثة ﴾ لأن الناس لا يتركونها

تلتف على الأشجار فتقتلها .

والاجتثاث : قطع الشيء كلّه ، مشتق من الجُثة وهي الذات .

و﴿ من فوق الأرض ﴾ تصوير ل ﴿ اجتثت ﴾ .

وهذا مقابل قوله في صفة الشجرة الطيبة ﴿ أصلها ثابت وفرعها في السماء .

وجملة ما لها من قرار ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن الاجتثاث من انعدام القرار .

والأظهر أن المراد بالكلمة الطيّبة القرآن وإرشاده ، وبالكلمة الخبيثة تعاليم أهل الشرك وعقائدهم ، ف ( الكلمة ) في الموضعين مطلقة على القول والكلام ، كما دل عليه قوله : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ .

والمقصود مَعَ التمثيل إظهارُ المقابلة بين الحالين إلا أن الغرض في هذا المقام بتمثيل كل حالة على حدة بخلاف ما يأتي عند قوله تعالى في سورة النحل ﴿ ضرب الله مثلا عبداً مملوكا إلى قوله ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ، فانظر بيانه هنالك .

وجملة ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ معترضة بين الجملتين المتعاطفتين .

والواو واو الاعتراض .

ومعنى ( لعل ) رجاء تذكرهم ، أي تهيئة التذكر لهم ، وقد مضت نظائرها .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾

جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عما أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الثابتة الأصل

بأن يسأل عن الثبات المشبه به : ما هو أثره في الحالة المشبهة فيجاب بأن ذلك الثبات ظهر في قلوب أصحاب الحالة المشبهة وهم الذين آمنوا إذ ثبتوا على الدين ولم يتزعزعوا فيه لأنهم استثمروا من شجرة أصلها ثابت .



---

والقول : الكلام .

والثابت الصادق الذي لا شك فيه .

والمراد به أقوال القرآن لأنها صادقة المعاني واضحة الدليل ، فالتعريف في ﴿ القول ﴾ لاستغراق الأقوال الثابتة .

والباء في ﴿ بالقول ﴾ للسببية .

ومعنى تثبيت الذين آمنوا بها أن الله يسر لهم فيهم الأقوال الإلهية على وجهها وإدراك دلائلها حتى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين وعاملين بها غير مترددين .

وذلك في الحياة الدنيا ظاهر ، وأما في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحو ما علموه في الدنيا ، فلم تعترهم ندامة ولا لهف .

ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يَظهر فيها ثباتهم بالحق قولاً وانسياقاً ، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها .

وتفسير ذلك بمقابلته بقوله : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ ، أي المشركين ، أي يجعلهم في حيرة وعَماية في الدنيا وفي الآخرة .

والضلال : اضطراب وارتباك ، فهو الأثر المناسب لسببه ، أعني الكلمة التي اجتثت من فوق الأرض كما دلت عليه المقابلة .

والظالمون : المشركون ، قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ سورة لقمان : 13 ] .

ومن مظاهر هذا التثبيت فيهما ما ورد من وصف فتنة سؤال القبر .

روى البخاري والترمذي عن البَرَاء بن عازب أن رسول الله قال : المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وجملة ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ كالتذليل لما قبلها .

وتحت إبهام ﴿ ما يشاء ﴾ وعمومه مطاوٍ كثيرة من ارتباط ذلك بمراتب النفوس ، وصفاء النيات في تطلب الإرشاد ، وتربية ذلك في النفوس بنمائه في الخير والشر حتى تبلغ بذور تيْنك الشجرتين منتهى أمدهما من ارتفاع في السماء واجتثاث من فوق الأرض المعبر

عنها بالتثبيت والإضلال .

وفي كل تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها .

(123/418)

---

وإظهار اسم الجلالة في ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ لِقصد أن تكون كل جملة من الجمل الثلاث مستقلة بدلالتها حتى تسير مسير المَثل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(124/418)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرْب والسعادة ، وأهل البُعْد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ * تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ

حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . . ﴾ .

والمَثَل هو الشيء الذي يوضح بالجلي الخفي . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيت فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أراه ؛ فتقول له : إنه يُشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِي عن مُخيلة صديقك بِمَنْ هو واضح في مُخيلته .

والحق – سبحانه وتعالى – يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة ، كي ينقل المعاني إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالمحُسِّ ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعاني بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . ﴾ [ البقرة : 26 ] .

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأيِّ كائن ؛ وتركيبها التشريحي يتشابه مع التركيب التشريحي لكل الأحياء في التفاصيل ؛ ويؤدي كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدَ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دمويّ فيها ؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها ؛ وهي حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة لِيُوضّح الأمر الخفيّ بأمر جَليّ . ومن بعد ذلك ينتشر المَثل بين الناس . ونقول : إن كلمة " ضرب " مثلها مثل " ضرب العملة " ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكّلونها بقدْر وشَكل مُحدّد لِتدُل على قيمة ما ، وتصير بذلك عُمْلة متداولة ، ويُقَال وشَكَلَ - أيضاً - " ضُرِب في مصر " أي : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذي يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿ كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ . . . ﴾ [ إبراهيم : 24 ] .

أي : تعطيك طِيباً تستريح له نفسُك ؛ إما منظراً أو رائحة أو ثماراً ؛ أو كُل ذلك مجتمعاً ؛ فقوله :

﴿ كَشَجَرةٍ طَيّبَةٍ . . ﴾ [ إبراهيم : 24 ] .

يُوحي بأن كُلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة " طيبة " مأخوذة من الطِّيب في جميع وسائل الإحساس .

فالخاصة الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهي أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها في السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهي أن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، أي : فيها عطاء المدد المدد الذي لا يعرف الحد ولا العدد ، وهي تدل على صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهي كائن نباتيّ لا بُدّ لها من أن تتغذّى لتحفظ مُقوِّمات حياتها .

ومُقوِّمات حياة النبات توجد في الأرض ، فإنْ كانت الشجرة مُخَلْخَلة وغير ثابتة فهي لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السمآء . . . ﴾ [ إبراهيم : 24 ] .

(126/418)

---

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عَبْر الجذور ؛ والباقي تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إنْ كانت البيئة غير نظيفة ومُلوّثة ؛ فالهواء يكون غير نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو المناسب ؛ فتمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء

المناسب، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ . . . ﴾ [إبراهيم : 24] .

يعني : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي السمآء . . ﴾ [إبراهيم : 24] .

يُبيِّن أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ . . . ﴾ [إبراهيم : 25] .

والأُكُل هو ما يُؤْكل ويُتمتَّع به، ولكنّا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤكَل بالفم فقط؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة؛ لأن مزاجَ الكون العام يتطلبها؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل في ذلك : الطفل البدويّ الذي شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبلح، ولكن النخلة التي يملكونها غير مثمرة، وتساءل : لماذا؟ وذهب ليقطعها، فلحقه والده ومنعه من ذلك، وقال له : إن نخلتنا هي الذكر الذي يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كي تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ . . . ﴾ [ إبراهيم : 24 ] .

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حَنْظل فهي طيبة بفائدتها التي أودعها الحق إياها ؛ فشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطَّعْم - لكنه يشفي بعضاً من الأمراض بإذن الله .

(127/418)

---

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيّبة في هذا الكون . وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ . . . ﴾ [ إبراهيم : 25 ] .

يدلُّنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبهنا العِلْم الحديث إلى أن كل خُضْرة إنما تُنقِّي الجو بما تأخذ منه من ثاني أوكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين ؛ وتستمر الخضرة في ذلك نهاراً ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثاني أوكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبَرْمجة على فَهْم أن النهار يقتضي الحركة .

ويحتاج الكائن الحي فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة

يستهلك كمية كبيرة من الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سُلّماً ينهج لأن رئتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قِبلَ الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ . . ﴾ [ إبراهيم : 25 ] .

فمنهم مَنْ قال : إن " الحين "يُطلْق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [ الواقعة : 83-84 ] .

وقال مُفسّر آخر : إن " الحين "يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [ الروم : 17 ] .

وأقول : فلننتبه إلى أن " الحين " هو الوقت الذي يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظة بلوغ الرُّوح إلى الحُلْقوم ؛ فهذه اللحظة هي المراد ب " الحين " هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس . . . ﴾ [ البقرة : 177 ] .

والبأس يعني الحرب ؛ ومُدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ [ الأعراف : 24 ] .

وهكذا يكون معنى " الحين " هنا هو الأجل غير المُسمّى الذي يمتد إلى أن تتبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى " حين " .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ إبراهيم : 25 ] .

وضَرْب المثل معناه إيقاع شيء صغير ليدل على شيء كبير ؛ أو بشيء جليّ ليدل على شيء خفيّ ؛ لِيُقرِّب المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهي مُدْركات الحِسِّ من سمع وبصر وبقية وسائل الإدراك .

وحين تأتي المعاني التي تناسب الطموح العقلي ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسِّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التي توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحي - كما قال - أنْ يضربَ مثلاً بالبعوضة وما فوقها . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يَقُلْ " وما تحتها " ؟

ونقول لِمَنْ يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالمَلَكة العربية ؛ ذلك أن المَثل يُضرَب بالشيء الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدقُّ .

*(129/418)*

---

والحق سبحانه يضرب لنا المَثل للحياة الدنيا ، وهي الحياة التي من لَدُن خَلْق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناسٌ قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمَثل ما يخص الحياة من لحظة خَلْق آدم إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهو يطويها - تلك الحياة الطويلة العريضة التي تستغرق أعمال أجيال - ويعطيها لنا في صورة مَثَل موجز ، فيقول لنا : ﴿ واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ [ الكهف : 45 ] .

وهكذا يطوي الحق سبحانه الحياة كلها في هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً . . ﴾

[الحديد : 20 ] .

وهكذا يطوي الحق سبحانه الحياة الدنيا بطُولها وعَرْضها في هذا المَثل البسيط لنرى ما يُوضِّح لنا المعاني الخفية في صورة مُحسَّة بحيث يستطيع العقل الفطري أن يُدرِك ما يريده الله منها .

ونعلم أن المُحسَّات تدرك أولاً بعض الأشياء ؛ ثم ترتقي إلى مرتبة التخيُّل ؛ ثم يأتي التوهُّم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هي الحِس أولاً ؛ ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود في الخارج ؛ وإنْ كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة في هذا الخارج . والمَثل على ذلك هو قول الشاعر الذي أراد أنْ يصف الوَشْم على يد حبيبته ، فقال :

خوض كأنَّ بَنانَها . . . في نَقْشِهِ الوَشْم المُزرد

سَمكٌ من البِلَّور في . . . شَبَكٍ تكوَّن من زبرجَدِ



وحين تبحث في الصورة الكلية لتلك الأبيات من الشعر ؛ لن تجدها موجودة في الواقع ؛ ولكن الشاعر أوجدها من مُكوِّنات ومُفْردات موجودة في الواقع ؛ فالسمك موجود

ومعروف ؛ والبِلَّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشَّبَك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير الموجودة من أشياء موجودة بالفعل ، وهذا هو الخيال الذي يُقرِّب المعنى .

والتوهمُّ يختلف عن الخيال ؛ فإذا كان التخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة في الواقع من مفردات موجودة في هذا الواقع ؛ فالتوهُّم هو صورة غير موجودة في الواقع ، ومُكوَّن من مفردات غير موجودة في الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين . . . ﴾ [ الزخرف : 71 ] .

ويشرح الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : " فيها مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطَر على قَلْب بشر " .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٍّ ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أو الوَهْم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ؛ لِيُوجِز لنا ما يشرح ويُوضِّح بأشياء قريبة من الفهم البشري .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبِّج رسالة طويلة ؛ ولكن إنْ كنتَ تملك وقتك فستحاول أن تُركِّز كل المعاني في كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول زعيم ثورة 1919 المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطَّر له رسالة في خمس صفحات ؛ وأنهاها : " إني أعتذر عن الإطالة في الخطاب ، فلم يكُنْ عندي وقت للإيجاز " وذلك لأن مَنْ يُوجز إنما يضع معاني كثيرة في كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُّصْرة من خالد بن الوليد ؛ وكان القائد الذي يطلب المساعدة مُحَاصَرًا ؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين " إياك أريد " ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

(131/418)

---

إذَا أَرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَة . . . طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُود

لَوْلاَ اشْتعالُ النَّار فيمَا جَاورَتْ . . . مَا كَانَ يُعْرَف طِيبُ عَرْفِ العُودِ

أي : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحقُّ سبحانه يتيح لها لسانَ حاسدٍ حاقد لِيثَرْثر ويُنقّب ؛ لتظهر وتنجلي ؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود - وهو من أَرْقَى ألوان البخور - في النار ، فينتشر عِطْره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل لِيُوضِّح أمراً ما للقارئ أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثل أيضاً :

وإذَا امْرؤٌ مدحَ امْرءاً لنَوالِه . . . وأَطَالَ فِيه فقدْ أطَالَ هِجَاءَهُ

لَوْلَمْ يُقدِّر فيه بُعْد المُسْتَقَى . . . عند الوُرودِ لَمَا أطَالَ رشَاءَهُ

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعني الرِّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجَّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً في البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إنْ كان الماء على بُعْد مسافة في البئر فهذا يقتضي حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعني أن طول المدح إنما يُعبِّر عن فظاظة الممدوح الذي لا يستجيب إلا بالثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين في مدحه .

وهكذا يكون ضَرْبُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ إبراهيم : 25 ] .

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ؛ ولكن الغفلة طرأتْ ؛ فيأتي المَثَل لِيُذكِّر بالأمر الفطريّ .

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل القُرْب من الله والود معه

واتباع منهجه، أراد أنْ يذكُرَلنا المقابل، وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله، وعن منهجه، فيقول سبحانه وتعالى:

(132/418)

---

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق الشاسع؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتثّة من فوق الأرض؛ والجُثّة كما نعلم هي الجسد الذي خرجتْ منه الروح، ومن بعد أن يصبح جُثة يصير رِمّة؛ ثم يتحلَّل إلى عناصره الأولى.

إذن: فالاجتثاث هو استئصال الشيء من أصله وقَلْعه من جذوره، أما المقابل في الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتثّة؛ وليس لها قَرار تستقر فيه.

وحين تكلَّم المفسِّرون عن الشجرة الطيبة منهم مَنْ قال إنها النخلة لأن كُلّ ما فيها خير؛ فورقها لا يسقط، ويبقى دائماً كَظِلٍّ وكل ما فيها يُنتفع به.

فنحن - على سبيل المثال - نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة في بيوت الرِّيف، وجريد النخل نصنع منه الكراسي؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال؛

والخوص نصنع منه القُفف .

والذين حاولوا أن يُفسِّروا " الشجرة الخبيثة " بأنها شجرة الحَنْظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَّات ؛ لكل هؤلاء أقول : لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة في ظروف احتياجنا لها ؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مِزَاجه مُتنوِّع ؛ ومُقوِّمات الحياة ليستْ هي الأكل والشرب فقط ؛ بل هناك توازن بيئيّ قد صمّمه الحق تعالى ، وهو الأعلم مِنّا جميعاً بما خلق ؛ ولم يخلق إلا طَيِّباً .

وكل شيء في الكون له عطاء مستمر يُشع في الجو ، والمَثَل هو تساقط أوراق الشجر التي تُعيد الخِصْب مرة أخرى إلى الأرض . وكلها أمور يُبديها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أي : يُظهرها بعد أنْ كانت موجودة أزلاً ومَخفية عَنّا .

وهو جَلَّ وعلاَ يرفع قوماً ويَخفِض قوماً ؛ وهو القائل عن ذاته : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [ الرحمن : 29 ] .



---

وكُلّنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ في توقيت مُعيّن ، وينتهي في توقيت مُعين ؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها بدايات أيِّ يوم من منطقة إلى أخرى ؛ فبعد لحظة من بداية

يومك يبدأ يوم آخر في منطقة أخرى ؛ وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها " .

فمعنى ذلك أن يَد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليلَ يبدأ في كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم في نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حَسْب دوران الشمس حول الأرض .

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحَنْظل ، أو أي شجرة من مخلوقات الله ونَصِفَها بأنها شجرة خبيثة ، فلا شيء خبيثٌ من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بثَنْي قطعة من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسيء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بِثَنْيها ليصنع منها مَا يفيده ؛ كخُطَّاف يشدُّ به شيئاً يلزمه .

وعمدة الكلمة الطيبة هي شهادة " لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " ومن هذه الشهادة يتفرّع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عُمْدة الكلمة الخبيثة هي الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصَدٍّ عن سبيل الله ؛ ومن تكذيبٍ

لمعجزات الرسل ؛ وإنكار لمنهج الله .

ولقائل أنْ يقول : ما دام الحق سبحانه قد قال إن هناك شجرةً خبيثة ؛ فلا بُدَّ أن تُوجَد تلك الشجرة ، وأقول : إن كُلَّ ما يضرُّ الإنسان في وقت ما هو خبيث ؛ فالسكر مثلاً يكون خبيثاً بالنسبة لمريض بالسكر ؛ وكل كائن فيه حسناتٌ مفيدة ؛ وله جانب ضَارّ في حالات معينة ؛ وعلى الإنسان المختار أن يُميّز ما يضرُّه وما ينفعه .

(134/418)

---

ونلحظ هنا في وَصْف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ؛ أن الحق سبحانه لم يَقُلْ إن تلك الشجرة الخبيثة لها فَرْع في السماء ؛ ذلك أنها مُجْتثة من الأرض ؛ مُخلْخلة الجذور ؛ فلا سَند لها من الأرض ؛ ولا مددَ لها من السماء .

ولذلك يَصِفها الحق سبحانه :

﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم : 26] .

أي : ما لها من ثبات أو قيام ، وكذلك الكُفْر بالله ؛ ومَنْ يكفر لا يصعد له عمل طيّب ، فلا أساسَ يصعد به العمل أو القول الطيب . ولهذا وصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث ، أولها : أنها شجرة خبيثة وثانيها : أنها عديمة الأصل بغير ثبات ، وثالثها : ما لها من قرار

لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى : أمن وأمان في الدنيا والآخرة .

والحالة الثانية : ظلم بضلال ، وقلق بضنك ، وفي الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ .

وتأتي هنا كلمة " التثبيت " طبيعية بعد قوله : ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [ إبراهيم : 26 ] .

لأن الذي يُجتثّ لا ثبوتَ له ولا استقرارَ ؛ فجاء بالمقابل بقوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 27 ] .

وتُوحي كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطرأ عليه الأحداث التي هي نتيجة لاختيار المُكلَّفين في نفاذ حُكْم أو إبطاله ، فالمُكلَّف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنفِّذه ، وقد لا ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المكلّف لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنفِّذ هذا المخالفُ تعاليم المنهج ؛ ويؤذي مَنْ يتبع التعاليم ، وهنا يثق المؤمن أن له إلهاً لن يخذله في مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إنْ قريبٌ أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 27 ] .

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثبّتهم بها مهما كانت جسامة الأحداث ؛ ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب ﴾ [ الرعد : 28 ] .

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بالإيمان وبالقول الثابت ؛ فهو لا يتعرّض لزيغ القلب ؛ ولا يتزعزع عن الحق .

والتثبيت يختلف في أعراف الناس باختلاف المُثبّت ؛ فحين يُخلْخَل عمود في جدار البيت ؛ فصاحب البيت يأتي بالمهندس الذي يقوم بعمل دعائمَ لتثبيت هذا العمود ؛ ويتبادل الناسُ الإعجابَ بقدرات هذا المهندس ، ويتحاكى الناس بقدرات هذا المهندس على التثبيت للأعمدة التي كادتْ أنْ تنهار ، وهذا ما يحدث في عُرْف البشر ؛ فما بَالُنا بما يمكن أنْ يفعله خالق البشر ؟

وقوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ . . ﴾ [ إبراهيم : 27 ] .

يردُّك إلى المُثبِّت الذي لَنْ يطرأ على تثبيته أدنى خَلَل . وكلمة " التثبيت " دلَّتْنَا على أن

الإنسان ابنُ أغيار ؛ وقد تحدثُ له أشياء غَيْر مطابقة لما يريده في الحياة ؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاّ يَخُور ؛ لأن له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثبّت الذين آمنوا :

﴿ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا . . . ﴾ [ إبراهيم : 27 ] .

والقول الثابت ؛ لأنه من الحَقّ الذي لا يتغيَّر ؛ وهذا القَوْل مُوجَّه للمؤمنين الذين يواجههم قَوْم أشرار اختاروا أنْ يكونوا على غير منهج الله .

وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا ؛ وأنْ يجعلوا أنفسهم في معيّة الله دائماً ، وأنْ يعلموا أنّ الظالمَ لو عَلِم ما أعدّه الله للمظلوم من ثواب وحُسْن جزاء لَضَنَّ الظالم بظُلْمه على المظلوم ولَقَال : ولماذا أجعل الله في جانبه ؟

(136/418)

---

والذين اضْطهِدوا في دينهم ؛ وقام الكفار بتعذيبهم ؛ لم يُفْتَنوا في الدين ؛ فكلما قَسا عليهم الكفار ضَرْباً وتعذيباً كلما تذكروا حنانَ الحقّ فتحمّلوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحُسْن الجزاء قد يكون في الدنيا التي يُثبّت فيها المؤمن بمشيئة الله ؛ وهي بنت الأغيار وبنت الأسباب ؛ فأنت في الدنيا تحوز على أيّ شيء بأن تتعبَ من أجل أنْ تحصلَ عليه ،

وتكِدّ لتتعلم؛ وتعثر على وظيفة أو مهنة؛ ثم تتزوج لِتُكوِّن أُسْرة؛ وتخدُم غيرك؛ ويخدُمك غيرك، وتزاول كل أسبابك بغيرك؛ فأنت تأكل مما تطبخ زوجتك، أو أمك أو مَنْ تستخدمه ليؤدي لك هذا العمل.

باختصار كلما ارتقيتَ؛ فأنت ترتقي بأثر مجهود ما. وكُلّ متعة تحصل عليها إنما هي نتيجة لمجهود جَادٍّ منك؛ وأنت تحاول دائماً أن تُقلِّل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك.

فَما بالُكَ بالآخرة التي لا تكليفَ ولا أسبابَ فيها؛ وكل ما فيها قد جهَّزه الحق تعالى مقدّماً للإنسان؛ ثواباً إنْ آمنَ، وعذاباً إنْ كفر وعصى، وإنْ كنتَ مؤمناً فالحق سبحانه يُجازيك بجنة عَرْضها السماوات والأرض؛ فيها كُلُّ ما تشتهي الأنفس.

وإذا كان الحق سبحانه يُثبِّت الذين آمنوا في الدنيا بالقول الثابت الحق فتثبيتُه لهم في الآخرة هو حياةٌ بدون أسباب.

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا: الحياة الآخرة، بل قال:

﴿ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة... ﴾ [إبراهيم: 27].

ذلك أن الارتقاءات الطُّموحية في الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها، ولكن الأمرَ في الآخرة يختلف تماماً؛ لأن الحق سبحانه هو الذي يُجازي على قَدْر طلاقة مشيئته، وهو يُثبِّتهم بداية من سؤال القبر ونهايةً إلى أن يَلْقوا الثواب على حُسْن ما فعلوا من خير في سبيل الله.

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيتَ في الحياة الدنيا والآخرة ؛ فلا بُدَّ أن يأتي بالمقابل ، ويقول :

(137/418)

---

﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [ إبراهيم : 27 ] .

وسبحانه يُضلّ الظالم لأنه اختار أنْ يظلم ؛ وهو سبحانه قد جعل للإنسان حَقّ الاختيار ، فَمنَ اختار أن يظلمَ ؛ لا بُدّ له من عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخَلْقَ وجعل الكون مُسخراً لهم ؛ وأعطى المؤمن والكافر من عطاء الربوبية ؛ فإن اختار الكافرُ كفره ؛ فهو لن يُنفّذ تكاليف الألوهية التي أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

والكافر إنما يظلم نفسه ؛ ذلك أنه ما دام قد أَنِسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه ؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ؛ وهو رَبُّ العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطي كل إنسان ما يريد ؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافراً ؛ فسبحانه يمدُّ له في أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ؛ كما يمدُّ اللهُ للمؤمنين كُلَّ أسباب الإيمان مِصْداقاً لقوله الحق : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [ الإسراء : 20 ] .

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ؛ حين يأخذ السيد خَيْر العبد ؛ وقد ذاقتْ البشرية الكثير من وَيْلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خَيْر السيد ؛ ويُغدِق السيد إحسانه على عباده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(138/418)

---

فائدة

قال التسترى :

وسئل سهل عن معنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [24] قال : حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يذكرون الشجرة الطيبة فقال : « ذلك المؤمن أصله في الأرض وفرعه في السماء » ، يعني عمله مرفوع إلى السماء مقبول .

فهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ [24] يعني كلمة الإخلاص ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [24] يعني النخلة ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [24]

] يعني أغصانها مرفوعة إلى السماء ، فكذلك أصل عمل المؤمن كلمة التوحيد ، وهو أصل ثابت ، وفرعه وهو عمله مرفوع إلى السماء مقبول .

إلا أن فيه خللاً وإحداثاً ، ولكن لا يزول أصل عمله ، وهو كلمة التوحيد ، كما أن الرياح تزعزع أغصان النخلة ، ولا يزول أصلها .

(139/418)

---

قوله تعالى : ﴿ تُؤتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [ 25 ] قال : كان ابن المسيب يقول : الحين ستة أشهر ، وقد سأله رجل فقال : إني حلفت أن لا تدخل امرأتي على أهلها حيناً ، فما الحين ؟ قال سعيد : الحين من حين أن تطلع النخلة إلى أن ترطب ، ومن أن ترطب إلى أن تطلع .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كل حين أراد به غدوة وعشية ، وهو على طريق سهل بن عبد الله ، فإنه قال : هذا مثل ضربه الله لأهل المعرفة في الله عليهم من إقامة فروضه بالليل والنهار .

(140/418)

وشبه عمل الكافر كشجرة خبيثة فقال : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ [ 26 ] يعني شجرة الحنظل أخبث ما فوق الأرض ليس لها أصل في الأرض ، كذلك الكفر والنفاق ليس له في الآخرة من ثبات ، وليس في خزائن الله أكبر من التوحيد .

وسئل عن تفسير : ﴿ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ ﴾ [ محمد : 19 ] فقال : لا نافع ولا دافع إلا الله تعالى .

وسئل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : الإسلام حكم ، والإيمان وصل ، والإحسان ثواب ؛ ولهذا الثواب ثواب .

فالإسلام الإقرار وهو الظاهر ، والإيمان هو الغيب ، والإحسان هو التعبد .

وربما قال : الإيمان يقين .

وسئل عن شرائع الإسلام فقال : قال العلماء فيه فأكثروا ، ولكن هي كلمتان : ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [ الحشر : 7 ] ثم قال : هي كلمة واحدة : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [ النساء : 80 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 86 ـ 87 ﴾

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى الآيات الكريمة

قال عليه الرحمة:

فصل: كلمة التوحيد وأثرها في نفس المؤمن:

ومنها قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: "الكلمة الطيبة هي



شهادة أن لا إله إلا الله" فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: "كلمة طيبة شهادة أن لا إله إلا الله كشجرة طيبة وهو المؤمن أصلها ثابت قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن وفرعها في السماء يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء" وقال الربيع بن أنس: "كلمة

طيبة هذا مثل الإيمان فالإيمان الشجرة الطيبة وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه وفرعه في السماء خشية الله" والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع في السماء علوا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحقوقها ومراعاتها حق رعايتها .

*(143/418)*

---

فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصدقها جوارحه ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل

الصالح الصاعد إلى الله كل وقت فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب كما قال تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

(144/418)

---

فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا متصفا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة بالسماء وهي مخرجة لثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: "إن الشجرة الطيبة هي النخلة" ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح ومنهم من قال: "هي المؤمن نفسه" كما قال محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة" يعني بالشجرة الطيبة المؤمن ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في

السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض وقال عطية العوفي في قوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: "ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله" وقال الربيع بن أنس: "أصلها ثابت وفرعها في السماء" قال: "ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له أصلها ثابت" قال: "أصل عمله ثابت في الأرض وفرعها في السماء" قال: "ذكره في السماء ولا اختلاف بين القولين والمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بها وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك" ومن قال من السلف: "إنها شجرة في الجنة فالنخلة من أشرف أشجار الجنة" .

حكمة تشبيه المؤمن بالشجرة:

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته .

فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر فكذلك

شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به فعروقها العلم والمعرفة واليقين وساقها الإخلاص وفروعها الأعمال وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدل المرضي فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

ومنها : أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعود بالتذكر على التفكر والتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب فجددوا إيمانكم" وبالجملة فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده بأن وظفها عليها

وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم .

ومنها : أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع ويكون الحكم له أو يضعف الأصل



---

ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به فإنه يفوته ربح كثير وهو لا يشعر فالمؤمن دائما سعيه في شيئين سقي هذه الشجرة وتنقية ما حولها فبسقيها تبقى وتدوم وبتنقية ما حولها تكمل وتتم والله المستعان وعليه التكلان .

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الوقفة وقلوبنا المخطئة وعلومنا القاصرة وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار وإلا فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان وزكت النفوس وخلصت الأعمال وتجرت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم وتتلاشى عنده معارف الخلق وبهذا تعرف قدر علوم

الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته.

فصل

ضرب المثل للكافر:

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار فلا عرق ثابت ولا فرع عال ولا ثمرة زاكية فلا ظل ولا جنى ولا ساق قائم ولا عرق في الأرض ثابت فلا أسفلها مغدق ولا أعلاها مونق ولا جنى لها ولا تعلو بل تعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم وجده كذلك فالخسران الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: "ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض



ما لها من قرار" يقول ليس لها أصل ولا فرع وليس لها ثمرة ولا فيها منفعة كذلك الكافر لا يعمل خيرا ولا يقوله ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: "ومثل كلمة خبيثة وهي الشرك كشجرة خبيثة يعني الكافر اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قرار يقول الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله مع الشرك عملا فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى الله فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء" يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: "مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء".

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: "إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرا ولا في السماء مصعدا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة".

وقوله ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ أي استؤصلت من فوق الأرض ثم أخبر سبحانه عن فضله وعدله في الفريقين أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت فأضل هؤلاء بعدله لظلمهم وثبت المؤمنين بفضله لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم ومن حرمه فقد حرم وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء

إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾

(148/418)

---

وقال تعالى لأكرم خلقه ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: "وهو يسألهم ويثبتهم" وقال تعالى لرسوله ﴿ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فالخلق كلهم قسمان موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت ومادة التثبيت أصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد فبهما يثبت الله عبده فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ﴾ فأثبت الناس قلبا أثبتهم قولا والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب فالقول نوعان: ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا وأقلهم ثباتا وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك ولا

يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به فقال: والله ما فهمت منه شيئًا إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل فما منح العبد أفضل من منحة القول الثابت ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر.

سؤال القبر:



---

وقد جاء هذا مبينا في أحاديث صحاح فمنها ما في المسند من حديث داود ابن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال: يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعده فقال: ما تقول في هذا



---

الرجل فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقال له هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذا آمنت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض له فيقال له اسكن ثم يفسح له في قبره وأما الكافر والمنافق فيقال له ما تقول في هذا الرجل فيقول لا أدري فيقال له لا دريت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذا كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين قال بعض أصحابه يا رسول الله ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء " .

وفي المسند نحوه من حديث البراء بن عازب وروى المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قبض روح المؤمن فقال: يأتيه آت يعني في قبره فيقول: من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم قال: فينتهره فيقول: ما ربك وما دينك وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حيث يقول الله ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد فيقال له: صدقت" وهذا حديث صحيح وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين قال: إذا قيل له في القبر: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي

(151/418)

---

محمد جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت فيقال له: صدقت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث" قال الأعمش عن المنهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قبض روح المؤمن قال: فترجع روحه في جسده ويبعث إليه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه ويقولان: من ربك؟ فيقول الله وما دينك؟ فيقول: الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل أو النبي الذي بعث فيكم؟ فيقول محمد رسول الله فيقولان له: وما يدريك؟ قال: فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ " رواه ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد وفي صحيحه أيضا من حديث أبي هريرة يرفعه قال: "إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه مدبرين فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه وكان الصيام عن

يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة ما قبلي مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلي مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس ما قبلي مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك عنه فيقول دعوني حتى أصلي فيقال إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألوني فيقال له أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه فيقول أمحمد صلى الله عليه وسلم فيقال نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه جاء بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفسح له قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ثم يفتح



---

له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدأ منه من التراب وذلك قوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ ﴾ " ولا تستطل هذا الفصل المعترض في المفتي والشاهد والحاكم بل وكل مسلم أشد ضرورة إليه من الطعام والشراب والنفس وبالله التوفيق .

أهـ ﴿ أعلام الموقعين جـ 1 صـ 171. 180 ﴾

(153/418)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ﴿ أصلها ثابت ﴾ يقول : لا إله إلا الله ﴿ ثابت ﴾ في قول المؤمن ﴿ وفرعها في السماء ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ وهي الشرك ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ وهي الكافر ﴿ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ يقول : الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ، ولا برهان له

ولا يقبل الله مع الشرك عملاً .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً . . . ﴾ الآية . قال : يعني بالشجرة الطيبة ، المؤمن . ويعني بالأصل الثابت في الأرض وبالفرع في السماء ، يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم ، فيبلغ عمله وقوله السماء وهو في الأرض ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ يقول : يذكر الله كل ساعة من الليل والنهار . وفي قوله ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ قال : ضرب الله مثل الشجرة الخبيثة كمثل الكافر ، يقول : إن الشجرة الخبيثة ﴿ اجتثت ﴾ من فوق الأرض ﴿ ما لها من قرار ﴾ يعني أن الكافر لا يقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى ، فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء ، يقول : ليس له عمل صالح في الدنيا ولا في الآخرة .



---

وأخرج ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت ﴾ في الأرض ، وكذلك كان يقرؤها . قال : ذلك المؤمن ضرب مثله . قال : الاخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ﴿ أصلها ثابت ﴾ قال : أصل عمله ثابت في الأرض ﴿ وفرعها في السماء ﴾ قال : ذكره في السماء ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : يصعد عمله

أوّل النهار وآخره ﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ قال : هذا الكافر ، ليس له عمل في الأرض ولا ذكر في السماء ﴿ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ قال : أعمالهم يحملون أوزارهم على ظهورهم .

وأخرج ابن جرير ، عن عطية العوفي في قوله ﴿ ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ قال : ذلك مثل المؤمن ، لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إليه ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ قال : ذلك مثل الكافر ، لا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك - رضي الله عنه - في قوله ﴿ كشجرة طيبة . . . ﴾ إلى قوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : تجتمع ثمرتها كل حين . وهذا مثل المؤمن ، يعمل كل حين وكل ساعة من النهار وكل ساعة من الليل ، وفي الشتاء وفي الصيف بطاعة الله .

قال : وضرب الله مثل الكافر ﴿ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ يقول : ليس لها أصل ولا فرع ، وليست لها ثمرة وليست فيها منفعة . كذلك الكافر ، ليس يعمل خيراً ولا يقوله ، ولم يجعل الله تعالى فيه بركة ولا منفعة له .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس – رضي الله عنه – قال : إن الله جعل طاعته نوراً ، ومعصيته ظلمة . إن الإيمان في الدنيا هو النور يوم القيامة ، ثم إنه لا خير في قول ولا عمل ليس له أصل ولا فرع ، وإنه قد ضرب مثل الإيمان فقال : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة . . . ﴾ إلى قوله ﴿ وفرعها في السماء ﴾ وإنما هي الأمثال في الإيمان والكفر . فذكر أن العبد المؤمن المخلص ، هو الشجرة . إنما ثبت أصله في الأرض وبلغ فرعه في السماء . إن الأصل الثابت ، الاخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له ، ثم إن الفرع ، هي الحسنة . ثم يصعد عمله أول النهار وآخره ، فهي ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ ثم هي أربعة أعمال إذا جمعها العبد : الاخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ، وخشيته وحبه وذكره . إذا جمع ذلك فلا تضره الفتن .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة – رضي الله عنه – أن رجلاً قال : "يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور . فقال : أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا ، فركب بعضها إلى بعض ، أكان يبلغ السماء ؟ . . . أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟ تقول : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله عشر مرات في دبر كل صلاة . فذلك أصله في الأرض وفرعه في السماء " .

وأخرج الترمذي النسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أنس – رضي الله عنه – قال : أتى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بقناع من بسر ، فقال : " ﴿ مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة . . . ﴾ حتى بلغ ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ قال : هي النخلة ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة . . . ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لها من قرار ﴾ قال : هي الحنظلة " .

*(156/418)*

---

وأخرج عبد الرزاق والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والرامهرمزي في الأمثال ، عن شعيب بن الحجاب – رضي الله عنه – قال : كنا عند أنس فأتينا بطبق عليه رطب ، فقال أنس – رضي الله عنه – لأبي العالية – رضي الله عنه – كل يا أبا العالية ، فإن هذا من الشجرة التي ذكر الله في كتابه " ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ثابت أصلها " قال : هكذا قرأها يومئذ أنس .

قال الترمذي – رضي الله عنه – : هذا الموقوف أصح .

وأخرج أحمد وابن مردويه بسند جيد ، عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : " هي التي لا ينقص ورقها . هي النخلة " .

وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " أخبروني بشجرة

مثل الرجل المسلم ، لا يتحات ورقها ولا ولا ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها " قال عبد الله – رضي الله عنه – : فوقع في نفسي أنها النخلة ، فأردت أن أقول : هي النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم . وثم أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – فلما لم يتكلما بشيء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هي النخلة " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون أي شجرة هذه ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هي النخلة . قال عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – فقلت : والذي أنزل عليك الكتاب بالحق لقد وقع في نفسي أنها النخلة ، ولكني كنت أصغر القوم ، لم أحب أن أتكلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك : ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير " .



---

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " هل تدرون ما الشجرة الطيبة ؟ قال ابن عمر – رضي الله عنهما – : فأردت أن أقول هي النخلة ، فمنعني مكان عمر . فقالوا : الله ورسوله أعلم . فقال :

رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي النخلة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن مسعود في قوله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : هي النخلة .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : هي النخلة ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : بكرة وعشية .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : هي النخلة . وقوله ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ قال : هي الحنظلة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والرامهرمزي ، عن عكرمة – رضي الله عنه – في قوله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : هي النخلة ، لا يزال فيها شيء ينتفع به ، إما ثمرة وإما حطب . قال : وكذلك الكلمة الطيبة ، تنفع صاحبها في الدنيا والآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : كل ساعة ، بالليل والنهار ، والشتاء والصيف .

وذلك مثل المؤمن ، يطيع ربه بالليل والنهار والشتاء والصيف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ تؤتي أكلها ﴾ قال : يكون أخضر ، ثم يكون أصفر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال جذاذ النخل .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : تطعم في كل ستة أشهر .

(158/418)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة - رضي الله عنه - أنه سئل عن رجل حلف أن لا يصنع كذا وكذا إلى حين ، فقال : إن من الحين حيناً يدرك ، ومن الحين حيناً لا يدرك . فالحين الذي لا يدرك ، قوله ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ ص : 88 ] والحين ، الذي يدرك ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ وذلك من حين تصرم النخلة إلى حين تطلع ، وذلك ستة أشهر .

وأخرج ابو عبيد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني حلفت أن لا أكلم أخي حيناً . فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : أوقتّ شيئاً . قال : لا . قال : فإن الله تعالى يقول ﴿ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ فالحين ، سنة .

وأخرج البيهقي في سننه ، عن علي – رضي الله عنه – قال : الحين ستة أشهر .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : الحين قد يكون غدوة وعشية .

وأخرج ابن جرير من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه سئل عن رجل حلف لا يكلم أخاه حيناً . قال : الحين ، ستة اشهر . ثم ذكر النخلة ما بين حملها إلى صرامها ستة أشهر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق عكرمة قال : قال ابن عباس – رضي الله عنهما – الحين ، حينان : حين يعرف ، وحين لا يعرف . فأما الحين الذي لا يعرف ، فقوله ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ ص : 88 ] وأما الحين الذي يعرف ، فقوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾

وأخرج ابن جرير عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله ﴿ كل حين ﴾ قال : كل سنة .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة – رضي الله عنه – قال : أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز فقال : يا مولى ابن عباس ، إني حلفت أن لا أفعل كذا وكذا حيناً ، فما الحين الذي يعرف به ؟ فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك ، ومن الحين حين يدرك . فأما الحين الذي لا يدرك ، فقول الله

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ [الإنسان : 1] والله ما ندري كم أتى له إلى أن خلق ، وأما الذي يدرك ، فقوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ فهو ما بين العام إلى العام المقبل ، فقال : أصبت يا مولى ابن عباس ، ما أحسن ما قلت ! . . .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي ، عن سعيد بن المسيب قال : الحين يكون شهرين والنخلة إنما يكون حملها شهرين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة - رضي الله عنه - ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : تؤكل ثمرتها في الشتاء والصيف .

وأخرج البيهقي عن قتادة - رضي الله عنه - في قوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : في كل سبعة أشهر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ قال : هو شجر جوز الهند ، لا يتعطل من ثمرة ، يحمل في كل شهر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ قال : هي شجرة في الجنة . وفي قوله ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله ، لم يخلق الله هذه الشجرة على وجه الأرض .

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قلب العباد ظهراً وبطناً ، فكان خير العرب قريشاً . وهي الشجرة المباركة التي قال الله في

كتابه ﴿ مثل كلمة طيبة ﴾ يعني القرآن ﴿ كشجرة طيبة ﴾ يعني بها قريشاً ﴿ أصلها ثابت ﴾ يقول: أصلها كبير ﴿ وفرعها في السماء ﴾ يقول: الشرف الذي شرفهم الله بالإِسلام الذي هداهم الله له وجعلهم من أهله".

وأخرج ابن مردويه من طريق حيان بن شعبة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ قال: الشريان. قلت لأنس: وما الشريان؟ قال: الحنظل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر حميد بن زياد الخراط في الآية قال: الشجرة الخبيثة، التي تجعل في المسكر.



---

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قعد ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا هذه الآية ﴿ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ فقالوا: "يا رسول الله، نراه الكمأة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين. والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم".

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ اجتثت من فوق الأرض ﴾ قال: استؤصلت من فوق الأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه قال: اعقلوا عن الله الأمثال.

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه: أن رجلاً لقي رجلاً من أهل العلم فقال: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها القيامة.

وأخرج ابن جرير من طريق قتادة رضي الله عنه، عن أبي العالية: "أن رجلاً خالجت الريح رداءه فلعنها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تلعنها؛ فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة على صاحبها" ".

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ﴾

أخرج الطيالسي والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فذلك قوله سبحانه ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ".

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : ذلك في القبر ، إن كان صالحاً وفق ، وإن كان لا خير فيه وجد أثلة .

(162/418)

---

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة في المصنف ، وأحمد بن حنبل وهناد بن السري في الزهد ، وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في كتاب عذاب القبر ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله – وكأن على رؤوسنا الطير – وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : " استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر . ثم يجيء ملك الموت ، ثم يجلس

عند رأسه فيقول : أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج . . . تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، وإن كنتم ترون غير ذلك ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ . . . فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى تنتهي به إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإِسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو

رسول الله . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت .

فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك . . . هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول له : أنا عملك الصالح .

فيقول : رب أقم الساعة . . . رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح . فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله وغضب .

فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها . فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح . ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها . . . فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة . إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ ! . . . فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا . حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ [ الأعراف : 40 ] فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى . فتطرح روحه طرحاً .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ [ الحج : 31 ] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه . . . هاه ؟ ! . . . لا أدري . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه . . . هاه ؟ ! . . . لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول : هاه . . . هاه . . . لا أدري . فينادي مناد من السماء ، أن كذب عبدي ، فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك . . . هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ ! . . . فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب رضي الله عنه ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ قال : التثبيت في الحياة الدنيا ، إذا جاء الملكان إلى الرجل والقبر فقالا له : من ربك ؟ قال : ربي الله .

قالا : وما دينك ؟ قال : ديني الإِسلام . قالا : ومن نبيك ؟ قال : نبيي محمد فذلك التثبيت في الحياة الدنيا .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هذه الآية ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : " ﴿ في الآخرة ﴾ القبر " .

وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : المخاطبة في القبر : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ . . .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : " قال النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : هذا في القبر " .



---

وأخرج البيهقي في عذاب القبر عن عائشة رضي الله عنها قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بي يفتن أهل القبور وفيه نزلت ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ " .

وأخرج البزار عن عائشة قالت : " قلت يا رسول الله ، تبتلى هذه الأمة في قبورها ، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة ؟ . . . قال : " ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، " وذكر قبض روح المؤمن : " فيأتيه آت فيقول : من ربك ؟ فيقول : الله . فيقول : وما دينك ؟ فيقول : الإسلام . فيقول : ومن نبيك ؟ فيقول : محمد . ثم يسأل الثانية فيقول مثل ذلك ، ثم يسأل الثالثة ويؤخذ أخذاً شديداً فيقول مثل ذلك . فذلك قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا الثابت ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في عذاب القبر ، عن ابن عباس قال : إن المؤمن إذا حضره الموت ، شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات ، مشوا معه في جنازته ثم صلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن ، أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقال له من رسولك ؟ فيقول : محمد . فيقال له : ما شهادتك ؟ فيقول : اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا . . . ﴾ الآية . فيوسع له في قبره مد بصره . وأما الكافر ، فتنزل الملائكة فيبسطون أيديهم – والبسط هو الضرب – يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت ، فإذا دخل قبره أقعد فقيل له من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه

الله ذكر ذلك . وإذا قيل له : من الرسول الذي بعث إليكم ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ، فذلك قوله ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ .

(166/418)

---

وأخرج ابن جرير والطبراني والبيهقي في عذاب القبر ، عن ابن مسعود قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الإِسلام ، ونبيي محمد .

فيوسع له في قبره ويفرج له فيه . ثم قرأ ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . . . ﴾ الآية .

وإن الكافر إذا دخل قبره أجلس فقيل له : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري . فيضيق عليه قبره ويعذب فيه . ثم قرأ ابن مسعود ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ﴾ [ طه : 124 ] .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن منده والطبراني في الأوسط ، عن أبي قتادة الأنصاري قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله . فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله . فيقال له ذلك ثلاث مرات ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له :

انظر إلى منزلك لو زغت . ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى منزلك في الجنة أن ثبتّ .

وأذا مات الكافر ، أجلس في قبر فيقال : من ربك ؟ من نبيك ؟ . . . فيقول : لا أدري . . . كنت أسمع الناس يقولون . فيقال له : لا دريت . ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى منزلك لو ثَبَتّ ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى منزلك إذ زغت . فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ وفي الآخرة ﴾ قال : المسألة في القبر .

(167/418)

---

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في ذكر الموت ، وابن أبي عاصم في السنة ، والبزار وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في عذاب القبر بسند صحيح ، عن أبي سعيد الخدري قال : " شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة فقال : " يا أيها الناس ، إن هذه الأمة تبتلى في قبورها . . . فإذا الإنسان دفن فتفرق عنه أصحابه ، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده قال : ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقول له : صدقت . ثم يفتح له باب إلى النار فيقول له : هذا كان

منزلك لو كفرت بربك ، فأما إذ آمنت فهذا منزلك . فيفتح له باب إلى الجنة ، فيريد أن ينهض إليه فيقول له : اسكن . ويفسح له في قبره .

وإن كان كافراً أو منافقاً ، قيل له : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري . . . سمعت الناس يقولون شيئاً . فيقول : لا دريت ولا تليت ولا اهتديت . ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول : هذا منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذ كفرت به ، فإن الله أبدلك منه هذا ، ويفتح له باب إلى النار ، ثم يقمعه مقمعة بالمطراق يسمعها خلق الله كلها غير الثقلين " . فقال بعض القوم : يا رسول الله ، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هبل عن ذلك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ " .

(168/418)

---

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : " شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ من دفنها وانصرف الناس قال : إنه الآن يسمع خفق نعالكم ، أتاه منكر ونكير . . . عيناهما مثل قدور النحاس ، وأنيابهما مثل صياصي البقر ، وأصواتهما مثل الرعد ، فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ، ومن نبيه . فإن كان ممن يعبد الله ، قال : كنت أعبد الله ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم . . . جاءنا بالبينات

والهدى فآمنا به واتبعناه . فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فيقال له : على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث . ثم يفتح له باب إلى الجنة ويوسع له في حفرته . وإن كان من أهل الشك ، قال : لا أدري . . . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فيقال له : على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث . ثم يفتح له باب إلى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين ، لو نفخ أحدهم في الدنيا ما أنبتت شيئاً تنهشه ، وتؤمر الأرض فتنضم عليه حتى تختلف أضلاعه " .

*(169/418)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبراني في الأوسط ، والحاكم وابن مردويه والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ، إن الميت إذا وضع في قبره ، إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإذا كان مؤمناً ، كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله . وفعل الخيرات والمعروف والاحسان إلى الناس من قبل رجليه . فيؤتى من قبل رأسه ، فتقول الصلاة : ليس قبلي مدخل . فيؤتى عن يمينه ، فتقول الزكاة : ليس قبلي مدخل . ويؤتى من قبل شماله ، فيقول الصوم : ليس قبلي مدخل . ثم يؤتى من قبل رجليه ، فيقول

فعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس : ليس قبلي مدخل فيقال له : اجلس . فيجلس . وقد مثلت له الشمس قد قربت للغروب ، فيقال : أخبرنا عما نسألك . فيقول : دعني حتى أصلي . فيقال : إنك ستفعل ، فأخبرنا عما نسألك . فيقول : عم تسألوني ؟ فيقال له : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - فيقول : أشهد أنه رسول الله ، جاءنا بالبينات من عند ربنا فصدقْنا واتبعْنا . فيقال له : صدقت ، على هذا حييت وعلى هذا مت وعليه تبعث إن شاء الله . ويفسح له في قبره مد بصره . فذلك قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ويقال : افتحوا له باباً إلى النار ، فيقال : هذا كان منزلك لو عصيت الله . فيزداد غبطة وسروراً ، فيعاد الجسد إلى ما بدا منه من التراب ويجعل روحه في النسيم الطيب ، وهي طير خضر تعلق في شجر الجنة .

*(170/418)*

---

وأما الكافر ، فيؤتى في قبره من قبل رأسه ، فلا يوجد شيء . فيؤتى من قبل رجليه ، فلا يوجد شيء . فيجلس خائفاً مرعوباً . فيقال له : ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ، وما تشهد به ؟ فلا يهتدي لاسمه . فيقال : محمد صلى الله عليه وسلم . فيقول : سمعت

الناس يقولون شيئاً فقلت كما قالوا : فيقال له : صدقت . على هذا حييت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله . ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . فذلك قوله تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ﴾ [ طه : 124 ] فيقال : افتحوا له باباً إلى الجنة . فيفتح له باب إلى الجنة . فيقال : هذا كان منزلك وما أعد الله لك لو كنت أطعته ، فيزداد حسرة وثبوراً . ثم يقال : افتحوا له باباً إلى النار فيفتح له بابٌ إليها فيقال له : هذا منزلك وما أعد الله لك ، فيزداد حسرة وثبوراً " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم " ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : ذاك إذا قيل في القبر : من ربك ، وما دينك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، جاءنا بالبينات والهدى من عند الله فآمنت به وصدقت . فيقال له : صدقت ، على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث " .

وأخرج ابن جرير عن طاوس في قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . . . ﴾ الآية . قال : هي فتنة القبر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن المسيب بن رافع رضي الله عنه في قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . . . . ﴾ الآية . قال : نزلت في صاحب القبر .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في الآية قال : نزلت في الميت الذي يسأل في

قبره عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد ﴿ يثبت الله الذين آمنوا . . . ﴾ الآية . قال : هذا في القبر ومخاطبته .

(171/418)

---

وأخرج ابن جرير وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن طاوس رضي الله عنه ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ وفي الآخرة ﴾ قال : المسألة في القبر .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : أما الحياة الدنيا ، فيثبتهم بالخير والعمل الصالح . وأما قوله ﴿ وفي الآخرة ﴾ ففي القبر .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ قال :

" هو المؤمن في قبره ، عند محنته يأتيه ممتحناه فيقولان : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ ؟ ؟ . . . فيقول : الله ربي وديني الإِسلام . فيقولان : ثبتك الله لما يحب ويرضى .

ويفسحان له في قبره مد البصر ، ويفتحان له باباً إلى الجنة ويقولان : نم قرير العين نومة الشاب النائم الآمن في خير مقيل . وفيه نزلت ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ أما الكافر ، فإنهما يقولان : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري . . . فيقولان : لا دريت ولا اهتديت . فيضربانه بسوط من النار يذعر لها كل دابة ما خلا الجن والإِنس ، ثم يفتحان له باباً إلى النار ويضيق عليه قبره حتى يخرج دماغه من بين أظفاره ولحمه " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا وضع الميت في قبره ، جاءه ملكان فسألاه فقالا : كيف تقول في هذا الرجل الذي كان بين أظهركم الذي يقال له محمد ؟ فلقنه الله الثبات ، وثبات القبر خمس : أن يقول العبد : ربي الله ، وديني الإِسلام . . . ونبيي محمد ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ثم قالا له : اسكن ، فإنك عشت مؤمناً ومت مؤمناً وتبعث مؤمناً . ثم أرياه منزله من الجنة يتلألأ بنور عرش الرحمن " .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن مردويه من طريق قتادة رضي الله عنه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه : إنه ليسمع قرع نعالهم ، يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ - زاد ابن مردويه : - الذي كان بين أظهركم الذي يقال له محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : اشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً " قال قتادة رضي الله عنه : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً . وأما المنافق والكافر ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول كما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت . ويضرب بمطراق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في عذاب القبر ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ؛ وإن المؤمن إذا وضع في قبره أتاه ملك فسأله : ما كنت تعبد ؟ فإن الله هداه قال : كنت أعبد الله . فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله . فما يسأل عن شيء بعدها ، فينطلق إلى بيت كان له في النار فيقال له : هذا بيتك كان لك في النار ، ولكن الله عصمك ورحمك فأبدلك بيتاً في الجنة . فيقول : دعوني حتى أذهب فابشر

أهلي ! . . . . فيقال له : اسكن . وإن الكافر إذا وضع في قبره ، أتاه ملك فينتهره فيقول له : ما كنت تعبد ؟ فيقول : لا أدري . فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : كنت أقول ما يقول الناس . فيضربونه بمطراق من حديد بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها الخلق إلا الثقلين " .



---

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط ، والبيهقي من طريق ابن الزبير رضي الله عنه ، أنه سأل جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن فتاني القبر ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه ، جاءه ملك شديد الانتهار فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول المؤمن : أقول أنه رسول الله وعبده . فيقول له الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان من النار ، قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة . فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن : دعوني أبشر أهلي . فيقال له : اسكن .

وأما المنافق ، فيقعد إذا تولى عند أهله ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري . . . أقول ما يقول الناس . فيقال له : لا دريت . . . هذا مقعدك الذي كان لك

من الجنة ، قد أبدلك الله مكانه مقعدك من النار " قال جابر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على ايمانه ، والمنافق على نفاقه" .

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة وابن مردويه والبيهقي من طريق أبي سفيان ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا وضع المؤمن في قبره ، أتاه ملكان فانتهراه ، فقام يهب كما يهب النائم ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي . فينادي مناد ، أن صدق عبدي . فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة فيقول : دعوني أخبر أهلي . فيقال له : اسكن" .

(174/418)

---

وأخرج البيهقي في كتاب عذاب القبر ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنت يا عمر إذا انتهى بك إلى الأرض ، فحفر لك ثلاثة أذرع وشبر في ذراع وشبر ، ثم أتاك منكر ونكير أسودان يجران شعرهما ، كأن أصواتهما الرعد القاصف ، وكأن أعينهما البرق الخاطف ، يحفران الأرض بأنيابهما فأجلساك فزعاً فتلتلاك وتوهلاك ؟ ؟ ؟ . . . فقال : يا رسول الله ، وأنا يومئذ على ما أنا عليه ؟ قال : نعم . قال :

أكفيكهما بإذن الله يا رسول الله " .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الميت ليسمع خفق نعالهم حين يولون ، ثم يجلس فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله ربي . ثم يقال له : ما دينك ؟ فيقول : الإِسلام . ثم يقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد . فيقال : وما علمك ؟ فيقول : عرفته وآمنت به وصدقت بما جاء به من الكتاب . ثم يفسح له في قبره مد البصر ، ويجعل روحه مع أرواح المؤمنين " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اسم الملكين اللذين يأتيان في القبر ، منكر ونكير .

وأخرج أحمد وابن الدنيا والطبراني والآجري في الشريعة وابن عدي ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتّاني القبر ، فقال عمر رضي الله عنه : أترد إلينا عقولنا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، كهيئتكم اليوم . فقال عمر بفيه الحجر " .

وأخرج ابن أبي داود في البعث والحاكم في التاريخ والبيهقي في عذاب القبر ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كيف أنت إذا كنت في أربعة أذرع في ذراعين ، ورأيت منكراً ونكيراً ؟ قلت : يا رسول الله ، وما منكر ونكير ؟ ! . . . قال : فتّانا القبر ، يبحثان الأرض بأنيابهما ، ويطآن في أشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف . . . . معهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يطيقوا رفعها ، هي أيسر عليهما من عصاي هذه ، فامتحناك ، فإن تعاييت أو تلويت ، ضرباك بها ضربة تصير بها رماداً . قلت : يا رسول الله ، وأنا على حالي هذه ؟ قال : نعم . قلت : إذاً أكفيكهما " .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن أبي الدنيا وابن أبي عاصم والآجري والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا قبر الميت ، أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر ، والآخر نكير . فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما يقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا . ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينور له فيه ، فيقال له : نم . فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم . فيقولون : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

فإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون فقلت مثله ، لا أدري . فيقولون : قد كنا نعلم ،

أنك كنت تقول ذلك . فيقال للأرض : التئمي عليه ، فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك " .

(176/418)

---

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه : "كيف أنت إذا رأيت منكراً ونكيراً ؟ قال : وما منكر ونكير ؟ ! قال : فتّانا القبر ، أصواتهما كالرعد القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، يطآن في أشعارهما ويحفران بأنيابهما . . . معهما عصاً من حديد ، لو اجتمع عليها أهل منى لم يقلوها

" . " وأخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنه قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور ، فيقال ما علمكم بهذا الرجل ؟ فاما المؤمن أو الموقن ، فيقول : هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتبعنا . فيقال له : قد علمنا إن كنت لمؤمناً ، ثم صالحاً .

وأما المنافق أو المرتاب ، فيقول : لا أدري . . . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت " .

وأخرج أحمد عن أسماء رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا ادخل

الإنساء قبره ، فإن كان مؤمناً أحف به عمله : الصلاة والصيام . فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ، ومن نحو الصيام فيرده فيناديه : اجلس . فيجلس ، فيقول له : ما تقول في هذا الرجل ؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم – قال من ؟ قال محمد ، قال أشهد أنه رسول الله . فيقول : وما يدريك . . . ؟ أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله . فيقول : على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث .

وإن كان فاجراً أو كافراً ، جاءه الملك وليس بينه وبينه شيء يرده ، فأجلسه وقال : ما تقول في هذا الرجل ؟ قال : أي رجل ؟ قال : محمد . فيقول : والله ما أدري . . . سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فيقول له الملك : على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث . ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل عرف البعير ، يضربه ما شاء الله . . . لا تسمع صوته فترحمه " .



---

وأخرج أحمد والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : " جاءت يهودية فاستطعمت على بابي ، فقالت : أطعموني أعاذكم الله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، فلم أزل أحبسها حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يا رسول الله ، ما تقول هذه

اليهودية . . . ! ؟ قال : وما تقول ؟ قلت : تقول أعاذكم الله من فتنة الدجال ، ومن فتنة عذاب القبر . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرفع يديه مداً يستعيذ بالله من فتنة الدجال ومن فتنة عذاب القبر ، ثم قال : أما فتنة الدجال ، فإنه لم يكن نبي إلا قد حذر أمته ، وسأحذركموه بحديث لم يحدثه نبي أمته ، إنه أعور والله ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن .

وأما فتنة القبر ، في تفتنون وعني تُسْألون ، فإذا كان الرجل الصالح أجلس في قبره غير فزع ولا مشغوف ، ثم يقال له : فيم كنت ؟ فيقول : في الإسلام ، فيقال : ما هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه . فيفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله . ثم يفرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال : هذا مقعدك منها . ويقال : على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله .

وإذا كان الرجل السوء ، جلس في قبره فزعاً مشغوفاً ، فيقال له : فيم كنت ؟ فيقول : لا أدري . فيقال : ما هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا ، فيفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال انظر إلى ما صرف الله عنك ، ثم يفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، ويقال : هذا مقعدك منها على الشك كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله " .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية، عن طاوس رضي الله عنه قال: إن الموتى يفتنون في قبورهم سبعاً، فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام.

(178/418)

---

وأخرج ابن جرير في مصنفه، عن الحارث بن أبي الحرث، عن عبيد بن عمير قال: يفتن رجلان: مؤمن ومنافق، فأما المؤمن، فيفتن سبعاً. وأما المنافق، فيفتن أربعين صباحاً.

وأخرج ابن شاهين في السنة، عن راشد بن سعد رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " تعلموا حجتكم فإنكم مسؤولون، حتى إنه كان أهل البيت من الأنصار يحضر الرجل منهم الموت فيوصونه، والغلام إذا عقل فيقولون له: إذا سألوك: من ربك؟ فقل: الله ربي. وما دينك؟ فقل: الإِسلام ديني. ومن نبيك؟ فقل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

وأخرج أبو نعيم عن أنس رضي الله عنه: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقف على قبر رجل من أصحابه حين فرغ منه فقال له: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم نزل بك وأنت خير منزل به، جافِ الأرض عن جنبيه، وافتح أبواب السماء لروحه، واقبله منك بقبول حسن، وثبّت عند المسائل منطقه ".

وأخرج أبو داود والحاكم والبيهقي ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة عند قبر ، وصاحبه يدفن فقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسْأل " .

وأخرج سعيد بن منصور ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على القبر بعد ما يسوّى عليه ، فيقول : " اللهم نزل بك صاحبنا وخلف الدنيا خلف ظهره ، اللهم ثبّت عند المسألة منطقه ولا تبتله في قبره بما لا طاقة به " .

*(179/418)*

---

وأخرج الطبراني وابن منده ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا مات أحد من اخوانكم فسوّيتم التراب عليه ، فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل : يا فلان ، ابن فلانة ، فإنه يسمعه ولا يجيب ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يستوي قاعداً ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة ، فإنه يقول : ارشدنا رحمك الله ، ولكن لا يشعرون ، فليقل : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن إماماً . فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول : انطلق بنا ما يقعدنا

عند من لقن حجته ، فيكون حجيجه دونهما . قال رجل : يا رسول الله ، فإن لم يعرف أمه قال : ينسبه إلى حواء ، يا فلان ابن حواء " .

وأخرج ابن منده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : إذا مت فدفنتموني ، فليقم إنسان عند رأسي فليقل : يا صدي بن عجلان ، اذكر ما كنت عليه في الدنيا ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وأخرج سعيد بن منصور عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب وحكيم بن عمير ، قالوا : إذا سوّي على الميت قبره وانصرف الناس عنه ، كان يستحب أن يقال للميت عند قبره ، يا فلان ، قل لا إله إلا الله ثلاث مرات يا فلان ، قل ربي الله وديني الإِسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ينصرف .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن عمرو بن مرة رضي الله عنه قال : كانوا يستحبون إذا وضع الميت في اللحد أن يقال : اللهم أعذه من الشيطان الرجيم .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن عمرو بن مرة رضي الله عنه قال : كانوا يستحبون إذا وضع الميت في اللحد أن يقال : اللهم أعذه من الشيطان الرجيم .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : إذا سئل الميت من ربك ، تراءى له الشيطان في صورة ، فيشير إلى نفسه أني أنا ربك .

وأخرج الحكيم الترمذي ، عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : إذا سئل الميت من ربك ، تراءى له الشيطان في صورة ، فيشير إلى نفسه أني أنا ربك .

وأخرج النسائي عن راشد بن سعد رضي الله عنه ، أن رجلاً قال : " يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد . . ! ؟ فقال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة " .

وأخرج ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه قال : " خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من الأشعريين سبع حجج ، فقال : إن لهذا علينا حقاً ، ادعوه فليرفع إلينا حاجته ، فدعوه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفع إلينا حاجتك . فقال : يا رسول الله ، دعني حتى أصبح فأستخير الله . فلما أصبح ، دعاه فقال : يا رسول الله ، أسألك الشفاعة يوم القيامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن ميمون بن أبي شبيب رضي الله عنه قال : أردت الجمعة في زمان الحجاج ، فتهيأت للذهاب وقلت : أين أذهب أصلي ؟ خلف هذا ؟ فقلت : مرة اذهب ومرة لا أذهب ، فناداني مناد من جهة البيت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا

نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [ الجمعة : 9 ] قال : وجلست مرة أكتب كتاباً ، فعرض لي شيء إن أنا كتبته زين كتابي وكنت قد كذبت ؛ وإن أنا تركته كان في كتابي بعض القبح وكنت قد صدقت . فقلت : مرة أكتبه ، وقلت : مرة لا أكتبه . فأجمع رأيي على تركه فتركته ، فناداني مناد من جانب البيت ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 ص ﴾

(181/418)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً ﴾ : فيه ثلاثة أوجهٍ ، أحدُها : أنَّ " ضَرَبَ " متعديةٌ لواحدٍ ، بمعنى : اعتمد مثلاً ، ووضَعَه ، و " كلمةً " على هذا منصوبةٌ بمضمرٍ ، أي : جعل كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبة ، وهو تفسيرٌ لقوله ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ كقولك : " شرَّفَ الأميرُ زيداً ساه حُلَّة ، وحمله على فرس " ، وبه بدأ الزمخشري . قال الشيخ : "

وفيه تكلُّفُ إضمار لا ضرورةَ تدعو إليه " . قلت : بل معناه إليه فيُضطرُّ إلى تقديرِه محافظةً على لَمْح هذا المعنى الخاصّ .

الثاني : أنَّ " ضَرَب " متعديةٌ لاثنين لأنها بمعنى " صَيَّر " ، لكنْ مع لفظ " المَثَل " خاصة ، وقد تقدَّم تقريرُ هذا أولَ هذا الموضوعِ ، فتكون "كلمةً " مفعولاً أولَ ، و " مَثَلاً " هو الثاني ، فيما تقدَّم .

الثالث : أنه متعدٍّ لواحدٍ وهو " مَثَلاً " و "كلمةً " بدلٌ منه ، و "كشجرةٍ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هي كشجرةٍ طيبةٍ ، وعلى الوجهين قبله تكون "كشجرةٍ " نعتاً ل "كلمة " .

وقُرِئ "كلمةٌ " بالرفع ، وفيها وجهان . أحدهما : أنها خبرُ مبتدأ مضمر ، أي : هو ، أي : المَثَلُ كلمةٌ طيبةٌ ، "كشجرةٍ " على هذا نعتاً لكلمة . والثاني : أنها مرفوعةٌ بالابتداء ، و " كشجرةٍ " خبرُه .

وقرأ أنس بن مالك " ثابتٍ أصلُها " . قال الزمخشري : " فإن قلت : أيُّ فرقٍ بين القراءتين ؟ قلت : قراءةُ الجماعةِ أقوى معنىً ؛ لأنَّ قراءةَ أنسٍ أُجْرِيَتِ الصفةُ على " الشجرة " / وإذا قلت : " مررتُ برجلٍ أبوه قائمٌ " فهو أقوى مِنْ " برجل قائمٍ أبوه " لأنَّ المُخْبَرَ عنه إنما هو الأبُ لا رجل " .

والجملةُ مِنْ قولِه " أصلُها ثابتٌ " في محلِ جرّ نعتاً لشجرة .

﴿ تُؤْتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بإِذْنِ رَبِّهَا ويَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) ﴾

﴿ تؤتي أُكُلَهَا ﴾ : ويجوز فيهما أَنْ تكونا مستأنفتين . وجوَّز أبو البقاء في " تُؤْتي " أن تكونَ حالاً من معنى الجملة التي قبلها ، أي : ترتفع مُؤْتِيَةً . وتقدَّم الخلاف في " أُكُلَها " بالنسبة إلى القرَّاء .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) ﴾

وقُرِئ " ومَثَلَ " بنصب " مثل " عطفاً على " مثلَ " الأول ، " واجْتُثَّتْ " صفةٌ لشجرة .

ومعنى " اجْتُثَّتْ " : بَلَغَتْ جُثَّتَها ، أي : شخصَها ، والجُثَّةُ : شَخْصُ الإِنسانِ قاعداً ونائماً يقال : اجْتَثَثْتُ الشيءَ ، أي : اقتَلَعْتُ ، فهو افتِعال من لفظ الجُثَّة ، وجَثَثْتُ الشيءَ : قَلَعْتُهُ . قال لقيط الإِيادي :

2887- هو الجَلاءُ الذي يَجْتَثُّ أصلكُمُ . . . فَمَنْ رَأَى مثلَ ذا يوماً ومَنْ سَمِعا

وقال الراغب : " جُثَّةُ الشيءِ شَخْصُه الناتِئُ ، والمَجَثَّةُ : ما يُجَثُّ به ، والجَثِيْثَة : لِما يأتي جُثَّته بعد طَحْنه ، والجَثْجاث نَبْتٌ " .

و" مِنْ قرار " يجوز أن يكونَ فاعلاً بالجارِّ قبلَه لاعتمادِه على النفي ، وأن يكونَ مبتدأً .

والجملةُ المنفيَّةُ : إمَّا نعتٌ لشجرة وإما حالٌ مِنْ ضميرِ " اجْتُثَّتْ " .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بالقول ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : تعلُّقه ب "يُثَبِّتُ" . والثاني "أنه متعلقٌ ب "آمنوا " .

قوله : "في الحياةِ" متعلِّقٌ ب "يُثَبِّتُ" ، ويجوز أن يتعلَّقَ بالثابتِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 99. 101 ﴾

(183/418)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) ﴾

هذا مثل ضربه الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتى أكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلُها كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحاً بالأدلة والبراهين . وفروعها الأعمال

الصالحة التي هي الفرائض ومجانبة المعاصي .

والواجب صيانة الشجرة مما يَضُرُّ بها مثل كشف القِشْر وقَطْع العِرْق وإملاق الغصن وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بآداب العبودية ، وأزهارها الأخلاق الجميلة ، وثمارها حلاوة الطاعة ولذة الخدمة .

وكما أن الثمار تختلف في الطّعم والطبع والرائحة والصورة . . كذلك ثمرات الطاعات ومعاني الأشياء التي يجدها العبدُ في قلبه تختلف من حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين ، والبسط الذي يجده العبدُ في وقته وهو صفة العارفين ، وراحةٍ في الضمير وهو صفة المريدين ، وأُنسٍ يناله في سِرّه وهو صفة المحبين . وقلقٍ واهتياجٍ يجدهما ولا يعرف سببهما ، ولا يجد سبيلاً إلا سكونه وهو صفة المشتاقين . . . إلى ما لا يفي بشرحه نطقٌ ، ولا يستوفيه تكلُّفُ قَوْلٍ . وذكرٍ من لوائح ولوامع ، وطوارق وشوارق ، كما قيل :

طوارق أنوار تلوح إذا بدت . . . فتُظْهِر كتمانا وتُخْبِرُ عن جمع

ثم إن ثمراتِ الأشجار في السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة . وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة : ﴿ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [ الواقعة : 33 ] كذا لطائف هذه الشجرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة ، ولا محجوبة ، وهي في كل وقت ونَفَسٍ تبدو لهم غيرَ محجوبة .

وثمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها ألطف وأظرف الأنوار ، وإشارات أهل هذه القصة وألفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والنَّوْر .

ويقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلهية ، وللرسول – صلى الله عليه وسلم – بالنبوة ، وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سرٍّ مخلص .

والشجرة الطيبة المعرفة ، وأصلها ثابت في أرضٍ غير سبخةٍ ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق ، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تنبت .

ثم لا بدَّ للشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام العناية ، وإنما تُورِق بالكفاية ، وتَتَوَرَّدُ بالهداية .

ويقال ماءُ هذه الشجرة ماءُ الندمِ والحياءِ والتلهفِ والحسرةِ والأمانة والخشوع وإسبال الدموع .

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ؛ فمنها التوكل والتفويض والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الوافية ، والأخلاق العالية الزكية .

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر ، وخبثُها ما صحبها من نجاسة الشِّرك ،

فَخُبْث الكلمة لصدورها عن قلب هو مُسْتَقَرُّ الشِّرْكِ ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هي الشِّرْكُ اجتُثَّ من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا علة مقتضية ، وإنما شُبَهٌ وأباطيل وضلال ، تقتضي وساوسَ وتسويلاتٍ ما لها من قرار ، لأنها حاصلة من شُبَهٍ واهية وأصول فاسدة .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (27) ﴾

بالقول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك العِوَج .

ويقال القول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة .

ويقال القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان .



---

ويقال القول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول فهو بالثبوت أَوْلَى من قول العبد ؛ لأن قول العبد أَثَرٌ ، والآثار لا يجوز عليها الثبوت والبقاء وإنما يكون باقياً حُكْماً ثباتُ العبد لقول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وأخباره أنه مؤمن وتسميته

بالإيمان . وقول الله لا يزول ؛ ففي الدنيا يثبته حتى لا بِدْعَة تعتريه ، وفي الآخرة يثبتُه برسله من الملائكة ، وفي القيام يثبته عند السؤال والمحاسبة وفي الجنة يثبتُه لأنه لا يزول حمد العبد لله ، ومعرفته به ، وإذا تنوعت عليه الخواطر ورفع إليه – سبحانه – دعاءَه ثَبَّتَه حتى لا يحيد عن النهج المستقيم والدين القويم .

ويقال إذا دَعَتْه الوساوسُ إلى متابعةِ الشيطان ، وصيَّرتْه الهواجسُ إلى موافقة النَّفْس فالحق يثبته على موافقة رضاه .

ويقال إذا دَعَتْه دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب والأموال والأحباب أعانه الحقُّ على اختيار النجاة منها ، فيترك الجميع ، ولا يَتحسَّسُ إلا دواعيَ الحقِّ – سبحانه – كما قيل :

إذا ما دَعَتْنا حاجةٌ كي تردَّنا . . . أبيْنا وقلنا : مطلبُ الحقِّ أوَّلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات جـ 2 صـ 248 . 250 ﴾

*(186/418)*

---

كلام نفيس للعلامة القرطبى

قال عليه الرحمة :

باب قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ الآية

مسلم عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال : نزلت في عذاب القبر . يقال له من ربك ؟ فيقول : الله ربي . ونبي محمد . فذلك محمد . قوله : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وفي رواية أنه قول البراء . ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا الطريق وإن كان موقوفاً فهو لا يقال من جهة الرأي فهو محمول على أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله كما في الرواية الأولى ، وكما خرجه النسائي وابن ماجه في سننهما والبخاري في صحيحه ، وهذا لفظ البخاري :

حدثنا جعفر بن عمر قال : حدثنا شعبة بن علقمة بن مرثد ، عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا أقعد العبد المؤمن في قبره . أتى ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الآية ، وخرجه أبو داود في سننه . فقال فيه البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن المسلم إذا سئل في القبر فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وقد مضى هذا المعنى في حديث البراء الطويل مرفوعاً والحمد الله .

قد روى هذا الخبر ، أبي هريرة وابن مسعود وابن عباس وأبو سعيد الخدري . قال أبو سعيد الخدري : كنا في جنازة مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها . فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك



---

بيده مطراق فأقعده فقال : ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقول له هذا منزلك لو كفرت بربك ، وأما الكافر والمنافق فيقول له : ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري . فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة . فيقال له هذا منزلك لو آمنت بربك . فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ، ثم يفتح له باب إلى النار ، ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين .

قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء .

فصل : صحت الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم في عذاب القبر على الجملة فلا

مطعن فيها ولا معارض لها . وجاء فيما تقدم من الآثار : أن الكافر يفتن في قبره ويسأل ويهان ويعذب . قال أبو محمد عبد الحق : واعلم أن عذاب القبر ليس مختصاً بالكافرين ولا موقوفاً على المنافقين ، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين ، وكل على حال من عمله وما استوجبه من خطيئته وزلله . وإن كانت تلك النصوص المتقدمة في عذاب القبر إنما جاءت في الكافر والمنافق ، قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب التمهيد : الآثار الثابتة تدل على : أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق ممن كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام من حقن دمه بظاهر الشهادة ، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه ، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام والله أعلم ، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ويرتاب المبطلون . قال ابن عبد البر وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه



---

وسلم أنه قال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ومنهم من يرويه تسأل . وعلى هذا الفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك ، وهذا أمر لا يقطع عليه ، والله أعلم .

وقال أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول : وإنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة . لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل ، واعتزلوا وعوجلوا بالعذاب

، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالرحمة وأماناً للخلق ، فقال : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ، ثم يرسخ في قلبه ، فأمهلوا ، فمن هنا ظهر أمر النفاق فكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان فكانوا بين المسلمين في ستر ، فلما ماتوا قيض الله لهم فتاني القبر ليستخرج سترهم بالسؤال ، وليميز الله الخبيث من الطيب فيثبت الثابت في الحياة الدنيا ويضل الله الظالمين .

قال المؤلف : قول أبي محمد عبد الحق أصوب ، والله أعلم ، فإن الأحاديث التي ذكرناها من قبل تدل على : أن الكافر يسأله الملكان ، ويختبرانه بالسؤال ويضرب بمطارق من حديد على ما تقدم ، والله أعلم .

باب ما ينجي المؤمن من أهوال القبر وفتنته وعذابه

وذلك خمسة أشياء : رباط . قتل . قول . بطن . زمان .



---

الأول : روى مسلم عن سلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامة ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى

عليه رزقه وأمن من الفتان فالرباط من أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة [ الحديث ] . وقد تقدم وهو حديث صحيح ، انفرد بإخراجه مسلم ، وكذلك ما أخرجه ابن ماجه وأبو نعيم من أنه يلحق الميت بعد موته ، فإن ذلك مما ينقطع بنفاده وذهابه ، كالصدقة بنفادها ، والعلم بذهابه ، والولد الصالح بموته ، والنخل بقطعه إلى غير ذلك مما ذكر ، والرباط يضاعف أجره لصاحبه إلى يوم القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام : وإن مات أجرى عليه عمله وقد جاء مفسراً مبيناً في كتاب الترمذي عن فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله ، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر . قال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه أبو داود بمعناه وقال : ويؤمن من فتاني القبر ولا معنى للنماء إلا المضاعفة وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه ، بل هي فضل دائم من الله تعالى لأن أعمال البر لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منهم بحراسته بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام ، وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة .

وخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من مات مرابطاً في سبيل الله أجرى الله عليه عمله الصالح الذي كان يعمل وأجرى عليه

وأمن من الفتان ويبعثه رزقه الله أميناً من الفزع الأكبر .

(190/418)

---

وخرج أبو نعيم الحافظ عن جبير بن بكير وكبير بن مرة وعمرو بن الأسود عن العرباض بن سارية رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات إلا المرابط في سبيل الله . فإنه ينمي عليه عمله يجري عليه رزقه إلى يوم الحساب .

وفي هذا الحديث وحديث فضالة بن عبيد قيد ثان . وهو : الموت حالة الرباط والله أعلم .

وروى عن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رابط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها .

وروي عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لرباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسباً من غير شهر رمضان أعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ، ورباط يوم في سبيل الله من وراء عورة المسلمين محتسباً من شهر رمضان

أفضل عند الله وأعظم أجراً . أراه قال : من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها ، فإن رده الله إلى أهله سالماً لم يكتب عليه سيئة ألف سنة . ويكتب له من الحسنات ويجري له أجر الرباط إلى يوم القيامة . فدل هذا الحديث على أن رباط يوم في شهر رمضان يحصل به الثواب الدائم وإن لم يمت مرابطاً والله أعلم .

أخرجه عن محمد بن إسماعيل بن سمرة ، حدثنا محمد بن يعلى السلمي ، حدثنا عمرو بن صبيح ، عن عبد الرحمن بن عمرو ، عن مكحول ، عن أبي بن كعب فذكره .

مسألة الرباط : هو الملازمة في سبيل الله . مأخوذ من ربط الخيل ثم سمي ملازم لثغر من ثغور المسلمين : مرابطاً . فارساً كان أو راجلاً ، واللفظة مأخوذة من الرباط ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في منتظري الصلاة : فذلكم الرباط إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله ، والرباط اللغوي هو الأول ، وهو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما ، فأما سكان الثغور دائماً بأهلهم الذي يعمرون ويكتسبون هناك ، فهم وإن كانوا حماة فليسوا

بمرابطين . قاله علماؤنا ، وقد بيناه في كتاب الجامع لأحكام القرآن من سورة آل عمران والحمد لله .

الثاني : روى النسائي عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : كفى ببارقة السيوف على رأس فتنة .

وخرج ابن ماجة في سننه والترمذي في جامعه وغيرهما عن المقدام بن معدي كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة . ويرى مقعده من الجنة . ويجار من عذاب القبر . ويأمن من الفزع الأكبر . ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها . ويزوج إثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع في سبعين من أقاربه لفظ الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح غريب ، وقال ابن ماجه : [ يغفر له في أول دفعه من دمه قال : ويحلى حلة الإيمان ] بدل : [ ويوضع على رأسه تاج الوقار ] قال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش قال : حدثني بجير بن سعد ، وقال الترمذي : حدثنا عيد الله بن عبد الرحمن قال : حدثنا نعيم بن حماد قال : حدثنا بقية بن الوليد ، عن بجير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن المقدام بن معدي كرب . فذكره .

قال المؤلف ووقع في جميع نسخ الترمذي وابن ماجه : [ ست خصال ] وهي في متن الحديث

: [ سبع ] وعلى ما ذكر ابن ماجه : [ ويحلى بحلة الإيمان ] تكون ثمانية ، وكذا ذكره أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد بسنده عن المقدام بن معدي كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للشهيد عند الله ثمانية خصال .

الثالث : روى الترمذي عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبره وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ضربت خبائي على قبر

(192/418)

---

وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا بقبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها . فقال صلى الله عليه وسلم : هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر . قال حديث حسن غريب .

وخرج أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم : أن من قرأها كل ليلة جاءت تجادل عن صاحبها . وروي أنها المجادلة تجادل عن صاحبها يعني قارئها في القبر ، وروي أن من قرأها كل ليلة لم يضره الفتان .

وأنبأنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي بثغر الإسكندرية حماه الله قال : حدثني الشيخ الصالح أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي

المعافري ابن أخي الشيخ الإمام أبي بكر قال : حدثني الشيخ الشريف أبو محمد يونس بن أبي الحسين بن أبي البركات الهاشمي البغدادي ، حدثنا أبو الوقت عن الداودي ، عن الحموي ، عن أبي إسحاق إبراهيم بن خزيم الشاشي ، عن عبد الله بن حميد الكشي ، عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال الرجل : بلى يا ابن عباس رحمك الله . قال : تبارك الذي بيده الملك احفظها وعلمها أهلك وجمع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت في جوفه وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي وأخبرناه عالياً الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأنصاري التلمساني بثغر الإسكندرية عن شيخه الشريف أبي محمد يونس عن أبي الوقت . وقد تقدم : أن قراءة الرجل قل هو الله أحد في مرض الموت تنجي من ذلك .

الرابع : روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات مريضاً مات شهيداً ، ووقى فتنة القبر ، وغدى وريح عليه برزقه من الجنة .

وخرج النسائي عن جامع بن

شداد قال : سمعت عبد الله بن يسار يقول : كنت جالساً عند سليمان بن صرد ، وخالد بن عرفطة فذكرا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جنازته . فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يقتله بطنه لم يعذب في قبره . أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده قال : حدثنا شعبة ، قال ، أخبرني جامع بن شداد فذكره وزاد فقال الآخر : بلى .

الخامس : روى الترمذي ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم يموت يوم الجمعة ، أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر ، قال هذا حديث حسن غريب ، وليس إسناده بمتصل ربيعة بن سيف إنما يروي عن عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو ، ولا نعرف لربيعة بن سيف سماعاً من عبد الله بن عمرو .

قلت : قد خرجه أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول متصلاً عن ربيعة بن سيف الإسكندري ، عن عياض بن عقبة الفهري ، عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقاه الله فتنة القبر وخرجه علي بن معبد عنه.أعني عبد الله بن عمرو الترمذي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر وأخرجه أبو

نعيم الحافظ من حديث محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء . غريب من حديث جابر ومحمد تفرد به عمر بن موسى الوجيهي وهو مدني فيه لين عن محمد بن جابر .

فصل : قلت : اعلم رحمك الله أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب ، بل يخصصها ويبين من لا يسأل في قبره ولا يفتن فيه ، ممن يجري عليه السؤال ، ويقاسي تلك الأهوال وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس ولا مجال للنظر فيه . وإنما فيه التسليم



---

والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد صلى الله عليه وسلم .

وقد روى ابن ماجه في سننه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل الميت في قبره مثلت له الشمس عند غروبها فيجلس فيمسح عينيه ويقول : دعوني أصلي ولعل هذا ممن وقى فتنة القبر فلا تعارض والحمد لله .

فصل : قوله عليه السلام في الشهيد كفي ببارقة السيوف على رأسه فتنة معناه : أنه لو كان في هؤلاء المقتولين نفاق كان إذا التقى الزحفان ، وبرقت السيوف فروا لأنه من شأن المنافق

: الفرار والروغان عند ذلك . ومن شأن المؤمن : البذل والتسليم لله نفساً وهيجان حمية الله ، والتعصب له ، لإعلاء كلمته . فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للحرب والقتل ، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر ؟ قاله الترمذي الحكيم .

قلت : وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً ، فهو أحرى أن لا يفتن لأنه المقدم ذكره في التنزيل على الشهداء في قوله تعالى : فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وقد جاء في المرابط الذي هو أقل مرتبة من الشهيد أنه لا يفتن ، فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه ومن الشهيد ؟ والله أعلم فتأمله .

فصل : قوله عليه السلام : من مات مريضاً مات شهيداً عام في جميع الأمراض لكن قيده قوله في الحديث الآخر : من يقتله بطنه وفيه قولان :

أحدهما : أنه الذي يصيبه الذرب وهو الإسهال تقول العرب أخذه البطن إذا أصابه الداء وذرب الجرح إذا لم يقبل الدواء وذربت معدته فسدت .

الثاني : أنه الاستسقاء وهو أظهر القولين فيه ، لأن العرب تنسب موته إلى بطنه تقول قتله بطنه يعنون الداء الذي أصابه في جوفه وصاحب الاستسقاء قل إن يموت إلا بالذرب فكأنه قد جمع الوصفين وغيرهما من الأمراض والوجود شاهد للميت بالبطن إن عقله لا يزال حاضراً ، وذهنه باقياً إلى حين مكوته ومثل ذلك صاحب السل إذ موت الآخر إنما يكون

بالذرب ، وليست حالة هؤلاء كحال من يموت فجأة أو من يموت بالسام والبرسام ، والحميات المطبقة أو القولنج أو الحصاة فتغيب عقولهم لشدة الآلام ، ولزوم أدمغتهم ، ولفساد أمزجتها ، فإذا كان الحال هكذا فالميت يموت وذهنه حاضر وهو عارف . والله أعلم .

باب منه

أبو نعيم قال : حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا ابن سعيد قال : حدثنا محمد بن حرب الواسطي قال : حدثنا نصر بن حماد قال : حدثنا همام قال : حدثنا محمد بن حجادة عن طلحة بن مصرف قال : سمعت خيثمة بن عبد الرحمن يحدث عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من وافق موته عند انقضاء رمضان ، دخل الجنة ، ومن وافق موته عند انقضاء عرفة ، دخل الجنة ، ومن وافق موته عند انقضاء صدقته ، دخل الجنة . غريب من حديث طلحة لم نكتبه إلا من حديث نصر عن همام

باب ما جاء أن الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي

البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أحدكم إذا مات

عرض عليه مقعدة بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة .

(196/418)

---

فصل : قوله : عرض عليه مقعده ويروى : عرض على مقعده قال علماؤنا : وهذا ضرب من العذاب كبير وعندنا المثال في الدنيا . وذلك كمن عرض عليه القتل أو غيره من آلات العذاب أو من يهدد به من غير أن يرى الآلة ، ونعوذ بالله من عذابه وعقابه بكرمه ورحمته .

وجاء في التنزيل في حق الكافرين النار يعرضون عليها غدواً وعشياً فأخبر تعالى أن الكافرين يعرضون على النار كما أن أهل السعادة يعرضون على الجنان بالخبر الصحيح في ذلك ، وهل كان مؤمن يعرض على الجنان ؟ فقيل ذلك مخصوص بالمؤمن الكامل الإيمان ، ومن أراد الله إنجاءه من النار ، وأما من أنفذ الله عليه وعيده من الخلطين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فله مقعدان يراهما جميعاً كما أنه يرى عمله شخصين في وقتين أو في وقت واحد قبيحاً وحسناً ، وقد يحتمل أن يراد بأهل الجنة كل من يدخلها كيفما كان والله أعلم .

ثم قيل هذا العرض إنما هو على الروح وحده ويجوز أن يكون مع جزء من البدن ، ويجوز أن

يكون عليه مع جميع الجسد فيرد إليه الروح كما ترد عند المسألة حين يقعده الملكان ، ويقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة وكيفما كان ، فإن العذاب محسوس ، والألم موجود ، والأمر شديد ، وقد ضرب بعض العلماء لتعذيب الروح مثلاً في النائم فإن روحه تعذب أو تنعم والجسد لا يحس بشيء من ذلك ، وقال عبد الله بن مسعود : أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين يقال لهم : هذه داركم فذلك قوله تعالى : النار يعرضون عليها غدواً وعشياً

وعنه أيضاً : أن أرواحهم في جوف طير سود تغدو وعلى جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها .

*(197/418)*

---

وروى شعبة عن يعلى بن عطاء قال : سمعت ميمون بن ميسرة يقول : كان أبو هريرة إذا أصبح ينادي : أصبحنا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار وإذا أمسى ينادي : أمسينا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار وقد قيل : إن أرواحهم في صخرة سوداء تحت الأرض السابعة على شفير جهنم في حواصل طير سود . والغداة والعشي إنما هو بالنسبة إلينا على ما اعتدناه لا لهم إذ الآخرة

ليس فيها مساء ولا صباح فإن قيل . فقد قال الله تعالى : ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً

قلنا : الجواب عنهما واحد وسيأتي له مزيد بيان في وصف الجنان إن شاء الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى حـ 1 صـ 174.165 ﴾

(198/418)

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾

يعني : هذا كتاب أنزلنا جبريل ليقرأه عليك ، وهو القرآن ﴿ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ أي : لتدعو الناس ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ يعني : من الكفر إلى الإيمان .

وسمى الكفر ظلمات ، لأن الكفر طريق الضلالة .

فمن وقع فيه ضلّ الطريق .

وسمى الإيمان نوراً ، لأنه طريق واضح مبين ﴿ بِإِذْنِ رَبّهِمْ ﴾ يقول : بأمر ربهم ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ يعني : دين الإسلام العزيز ، المنيع بالنقمة لمن عصاه ، ولم يجب الرسل .

الحميد لمن وحده .

ويقال : ﴿ الحميد ﴾ في فعاله .

ويقال : ﴿ الحميد ﴾ لأفعال الخلق .

يشكر لهم اليسير من أعمالهم ، ويعطي الجزيل .

ثم قال تعالى : ﴿ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض ﴾ من الخلق .

قرأ ابن عامر ونافع : ﴿ الله ﴾ بالضم على معنى الابتداء .

وقرأ الباقون ﴿ الله ﴾ بالكسر على معنى البناء .

ثم قال : ﴿ وَوَيْلٌ للكافرين ﴾ يعني : الكافرين بوحدانية الله تعالى ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أي : غليظ ، دائم .

والويل : الشدة من العذاب .

ويقال : الويل وادٍ في جهنم .

ثم نعتهم فقال : ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الآخرة ﴾ يعني : يستأثرون ، ويختارون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يعني : يصرفون الناس عن ملة الإسلام ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يعني : يريدون بملة الإسلام غيراً وزيغاً ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحق .

يعني : في خطأ طويل بعيد عن الحق .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ يعني : بلغة قومه ، ليفهموه وليكون أبينَ لهم .

(199/418)

---

يعني : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ طريق الهدى ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء ﴾ عن دين الإسلام من لم يكن أهلاً لذلك ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ إلى دينه الإسلام من كان أهلاً لذلك ، ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ في ملكه ، ﴿ الحكيم ﴾ في أمره ، وقضائه ، ويقال : ﴿ الحكيم ﴾ حكم بالضلالة والهدى لمن يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ يعني : باليد والعصا ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ يعني : ادع قومك ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ يعني : من الكفر إلى الإيمان ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ يعني : خوّفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ، ليؤمنوا .

وقال مجاهد : أيام نعمه .

وكذلك قال قتادة والسدي .

يعني : ذكرهم نعمائي ليؤمنوا بي .

وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن حببني إلى عبادي .

قال : يا رب كيف أحببك إلى عبادك ، والقلوب بيدك ؟ فأوحى الله إليه أن ذكرهم نعمائي .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يعني : في الذي فعلت بالأمم الخالية ، وما أعطيتهم من النعم لعلامات ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على طاعة الله ، والصبار هو البالغ في الصبر ﴿ شَكُورٍ ﴾ يعني : شكور لنعم الله تعالى ، وهو على ميزان فَعُول وهو المبالغة في الشكر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : من فرعون وآله .

كما قال في آية أخرى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [ الأنفال : 54 ] يعني : فرعون وآله .

*(200/418)*

---

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ يقول : يعذبونكم بأشد العذاب ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الصغار ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ يعني : يستخدمون نساءكم ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم ﴾ يعني : ذبح الأبناء ، واستخدام النساء ، ﴿ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ يعني : بلية عظيمة لكم من

خالقكم .

ويقال : في إنجاء الله نعمة عظيمة لكم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ يعني : قال .

ويقال : أعلم ربكم ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ نعمتي عليكم ﴿ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ من النعمة ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ بتوحيد الله وجحدتم نعمتي عليكم ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ في الآخرة .

قال الفقيه : حدثنا أبي رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة أنه قال : من رزق ستاً لم يحرم ستاً .

(201/418)

---

من رزق الشكر لم يحرم الزيادة لقوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب لقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا عباد الذين ءامَنُوا اتقوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هذه الدنيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ الله وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ الزمر : 10 ] ومن رزق التوبة لم يحرم القبول لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السيئات وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الشورى : 25 ] ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة لقوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ [ نوح : 10 ] ومن رزق الدعاء

لم يحرم الإجابة لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين ﴾ [ غافر : 60 ] ومن رزق النفقة لم يحرم الخلف لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ﴾ [ سبأ : 39 ] قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِى الأرض جَمِيعًا ﴾ يعني : إن جحدتم نعم الله ، ولم تؤمنوا به ﴿ فَإِنَّ الله لَغَنِىٌّ ﴾ يعني : عن إيمانكم وطاعتكم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ لمن عبده منكم بالمغفرة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يقول : ألم يأتكم في القرآن خبر الذين من قبلكم من الأمم الماضية ، كيف عذّبهم الله تعالى عند تكذيب رسلهم ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ كيف أهلكهم بالغرق ، ﴿ وَعَادٌ ﴾ كيف أهلكهم الله بالريح ، ﴿ وَثَمُودُ ﴾ كيف أهلكهم بالصيحة ، فهذا تهديد لأهل مكة ليعتبروا بهم .

*(202/418)*

---

قوله تعالى : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ ﴾ كيف عذبوا ﴿ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ يعني : لا يعلم عددهم إلا الله .

قال ابن مسعود : كذب النسابون وقرأ : ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ ﴾

جاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ يعني : جاء الرسل بالأمر والنهي ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قال مقاتل : وضع الكفار أيديهم على أفواههم .

فقالوا للرسل : اسكتوا فإنكم كذبة ، وإن العذاب غير نازل بنا .

وروى هبيرة بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قال : جعلوا أصابعهم في فيهم .

وقال القتبي : أي عضوا عليها حنقا وغيظاً .

قال مجاهد وقتادة : يعني : ردّوا عليهم قولهم وكذبوهم ويقال : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ يعني : نِعَم رسلهم ، لأن مجيئهم بالبينات نعم .

ومعنى قوله : ﴿ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي : بأفواههم .

أي : ردوا تلك النعمة بالنطق بالتكذيب ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ فهذا هو ردهم ﴿ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ يعني : بما تدعونا إليه ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ وهو المبالغة في الشك يعني : ظاهر الشك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ ﴾ يقول : أفي وحدانية الله شك ؟ وعلامات وحدانيته ظاهرة ﴿ فَاطِرَ السموات والأرض ﴾ يعني : تشكون في الله خالق السموات والأرض ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ يعني : يدعوكم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى ليتجاوز عنكم ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني : منتهى آجالكم ، فلا يصيبكم

فيه العذاب .

فأجابهم قومهم ﴿ قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يقول : ما أنتم إلا آدميون مثلنا ، لا فضل لكم علينا بشيء .

(203/418)

---

﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا ﴾ أي : تصرفونا ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ من الآلهة ﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ يعني : بحجة بيّنة ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ ﴾ يقول : ما نحن إلا آدميون مثلكم كما تقولون ﴿ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ويختاره للنبوة ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بسلطان ﴾ جواباً لقولهم : ﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ يعني : لا ينبغي أن نأتيكم بسُلْطَانٍ ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ لأن الأمر بيد الله تعالى ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ يعني : على المؤمنين أن يتوكلوا على الله .

قوله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ يعني : وفقنا لطريق الإسلام . ويقال : أكرمنا بالنبوة ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا ءاذَيْتُمُونَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ أي فليثق الواثقون .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾

يعني : لتدخلن في ديننا .

فهذا كله تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل ﴿ فَأَوحى إِلَيهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ يقول : أوحى الله تعالى إلى الرسل ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ فهذا لام القسم ، ويراد به التأكيد للكلام أن يهلك الكافرين من قومهم ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ يقول : لننزلنكم في الأرض من بعد هلاكهم .

فأهلك الله تعالى قومهم فسكن الرسل ، ومن آمن معهم من المؤمنين ديارهم ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ يعني : ذلك الثواب لمن خاف مقامه يوم القيامة بين يدي رب العالمين .

وروي عن أبي بن كعب أنه قال : يقومون ثلاثمائة عام ، لا يؤذن لهم فيقعدون .

أما المؤمنين فيهون عليهم ، كما يهون عليهم الصلاة المكتوبة .



---

وروي عن منصور عن خيثمة أنه قال : كنا عند عبد الله بن عمر فقلنا : إن عبد الله بن مسعود كان يقول : إن الرجل ليعرق حتى يسبح في عرقه ، ثم يرفعه العرق حتى يلجمه .

فقال ابن عمر : هذا للكفار ، فما للمؤمنين ؟ فقلنا : الله أعلم .

فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن ، حدثكم أول الحديث ، ولم يحدثكم آخره .

إن للمؤمنين كراسي يجلسون عليها ، ويظلل عليهم بالغمام ، ويكون يوم القيامة عليهم كساعة من نهاره .

ثم قال تعالى : ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي : وخشي عذابي عليه .

قرأ نافع في رواية : ورش "وَعِيدِي" بالياء يعني : عذاب الله .

وقرأ الباقون : بغير ياء ، لأن الكسرة تقوم مقامه وأصله الياء .

ثم قال : ﴿ واستفتحوا ﴾ يقول : واستنصروا .

قال قتادة : استنصرت الرسل على قومها .

وقال مقاتل : يعني : قومهم دعوا الله ، فقالوا : اللهم إن كانت رسلنا صادقين فعذبنا .

ويقال : استنصر كلا الفريقين ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ يقول : خسر عند الدعاء كل متكبر عن الإيمان ، معرض عن التوحيد .

وقال الزجاج : الجبار الذي يضرب عند الغضب ، ويقتل عند الغضب .

وقال مجاهد : ﴿ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي : معاند للحق ، مجانب .

ويقال : نزلت في أبي جهل .

قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ يقول : من قدامهم .

يعني : بعد الموت .

ويقال : من بعدهم جهنم .

ويقال: يعني: أمامه.

كقوله تعالى: ﴿ أَمَّا السفينة فكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف: 79] يعني: أمامهم.

ثم قال: ﴿ ويسقى مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴾ يعني: بما يسيل من جلودهم من القيح والدم.

ويقال: ماء كهيئة الصديد.

(205/418)

---

قوله تعالى: ﴿ وَيَتَجَرَّعُهُ ﴾ يعني: يرددن في حلقه ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ يقول ولا يقدر على ابتلاعه لكراهيته ويقال يجتره ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يعني: غم الموت، وألمه، وطعمه، من كل مكان من جسده.

ويقال: من كل ناحية، ومن كل عرق، ومن كل موضع شعرة يجد مرارة الموت ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ ﴾، يعني: لا يموت أبداً ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ يعني: من بعد الصديد ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ يعني: شديد لا يفتر عنه.

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ يعني: صفة الذين كفروا.

ويقال: مثل أعمال الذين كفروا بربهم يوم القيامة ﴿ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح ﴾ يقول:

ذرت به الريح ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ يعني: قاصف شديد الريح.

فكذلك أعمال الكفار أحبط الله ثواب أعمالهم، وهذا كقوله ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: 23] لأن أعمالهم كانت بغير إيمان، ولا تقبل الأعمال إلا بالإيمان، ولا ثواب لهم بها.

قرأ نافع ﴿ اشتدت بِهِ الرياح ﴾ بالألف.

وقرأ الباقون: بغير ألف.

﴿ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ يعني: لا يقدرون على ثواب أعمالهم ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ يعني: الخطأ البعيد عن الحق.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ﴾ يعني: ألم تعلم أن الله ﴿ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ خالق السموات والأرض ﴾ بكسر الضاد على معنى الإضافة.

وقرأ الباقون: ﴿ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ بنصب الضاد على معنى فعل الماضي.

وقوله: ﴿ بالحق ﴾ يعني: بالعدل.

ويقال: ببيان الحق ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يقول: يميتكم، ويهلككم إن عصيتموه ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يعني: قوماً غيركم، خيراً منكم، وأطوع لله تعالى.

فهذا تهديد من الله ليخافوه.

ثم قال: ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ يعني: إهلاككم ليس على الله بشديد .

قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ يقول: وخرجوا من قبورهم لأمر الله تعالى.

يعني: القادة، والأتباع اجتمعوا للحشر والحساب، وهذا كقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وحشرناهم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف: 47] ﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ يعني: الأتباع والسفلة ﴿ لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في الدنيا نطيعكم فيما أمرتمونا به ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ يقول: حاملون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَىْءٍ قَالُواْ ﴾ يعني: القادة للسفلة ﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ يعني: لو أكرمنا الله بالهدي، والتوحيد لهديناكم لدينه.

ويقال: معناه لو أدخلنا الله الجنة، لشفعنا لكم.

ثم قالت القادة للسفلة ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ العذاب ﴿ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ يعني: من مفر ولا ملجأ من العذاب.

وروى أسباط عن السدي أنه قال: يقول أهل النار: تعالوا فلنصبر، لعلّ الله يرحمنا بصبرنا، فيصبرون، فلا يرحمون.

فيقولون: تعالوا فلنجزع، لعل الله يرحمنا بجزعنا فيجزعون، فلا يغني عنهم شيئاً، فيقولون: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِىَ الأمر ﴾ روى سفيان ، عن رجل ، عن الحسن أنه قال : إذا كان يوم القيامة ، ودخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، قام إبليس خطيباً على منبر من نار ، فقال : ﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ الآية .

(207/418)

---

ويقال : إنهم لما دخلوا النار ، أقبلوا على إبليس ، وجعلوا يلومونه ، ويقولون : أنت الذي أضللتنا ، فيرد عليهم ، فبيّن الله تعالى ردّه عليهم ، لكيلا يغتروا به في الدنيا ، فذلك قوله : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِىَ الأمر ﴾ يعني : لما فرغ من الأمر حين دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فقال إبليس لأهل النار : ﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ يعني : البعث بعد الموت أو الجنة والنار ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ بأنه لا جنة ، ولا نار ، ولا بعث ، ولا حساب ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ فكذبتكم الوعد ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ يعني : لم يكن لي قدرة الإكراه والقهر .

ويقال : لم أكن ملكاً فقهرتكم على عبادتي .

ويقال : لم يكن لي حجة على ما قلت لكم ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ يعني : سوى أن دعوتكم إلى طاعتي ﴿ فاستجبتم لِى ﴾ يعني : أجبتم لي طوعاً اختياراً ﴿ فَلاَ تَلُومُونِى ﴾

بدعوتي إياكم ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ بالإجابة ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي: بمغيثكم، فأخرجكم من النار ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ يقول: ولا أنتم مغيثي، فتخرجوني من النار.

﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ قال الكلبي: فيه تقديم وتأخير.

يقول: إني كفرت من قبل ما عذلتموني وكنت كافراً قبل ذلك، فليس لكم عندي صراخ، ولا إجابة.

وقال مقاتل: معناه إني تبرأت اليوم مما أشركتموني مع الله في طاعتي من قبل في الدنيا.

(208/418)

---

وقال القتبي في قوله: إني كفرت، وتبرأت كقوله في سورة الممتحنة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصير ﴾ [الممتحنة: 4] أي: تبرأنا منكم.

وكقوله في العنكبوت: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أوثانا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الحياة الدنيا

ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن ناصرين ﴾ [ العنكبوت : 25 ] يعني : يتبرأ .

وهذا موافق لقوله تعالى : ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [ فاطر : 14 ] ثم قال : ﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني : الكافرين لهم عذاب دائم .

قرأ حمزة ﴿ بِمُصْرِخِىِّ ﴾ بكسر الياء ، وهي قراءة الأعمش .

وقرأ الباقون : بنصب الياء .

قال أبو عبيدة : النصب أحسن .

والأول ما نراه إلا غلطاً .

وهكذا قال الزجاج .

ويقال : هي لغة لبعض العرب .

والنصب هي اللغة الظاهرة .

قرأ أبو عمرو ﴿ أَشْرَكْتُمُونِي ﴾ بالياء عند الوصل .

وقرأ الباقون بغير ياء .

قوله تعالى : ﴿ أَلِيمٌ وَأُدْخِلَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : وحدوا الله ، وأدّوا الفرائض ، وانتهوا عن المحارم ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهار مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ للشاربين وأنهار مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالد فِى النار وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ] وهي الأنهار التي ذكرت في آية أُخرى ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون ﴾ الآية ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ مقيمين في الجنة لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بأمر سيدهم ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ يعني : يسلم بعضهم على بعض .

ويقال لهم : التحية من الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ يقول كيف بيّن الله شبهاً ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ وهي كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ، لا تكون في كلمة التوحيد زيادة ، ولا نقصان ، ولكن يكون لها مدد ، وهو التوفيق بالطاعات في الأوقات ﴿ كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي النخلة .

كما أنه ليس في الثمار شيء أحلى وأطيب من الرطب ، فكذلك ليس في الكلام شيء أطيب من كلمة الإخلاص .

ثم وصف النخلة فقال : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يعني : في الأرض ﴿ وَفَرْعُهَا فِى السماء ﴾

يعني : رأسها في الهواء فكذلك الإخلاص يثبت في قلب المؤمن ، كما تثبت النخلة في الأرض .

(210/418)

---

فإذا تكلم المؤمن بالإخلاص ، فإنها تصعد في السماء ، كما أن النخلة رأسها في السماء ، وكما أن النخلة لها فضل على سائر الشجر ، في الطول ، واللون ، والطيب والحسن ، فكذلك كلمة الإخلاص لها فضل على سائر الكلام ، فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن يقول : المعرفة في قلب المؤمن العارف ، ثابتة كالشجرة الثابتة في الأرض ، بل هي أثبت ، لأن الشجرة تقطع .

ومعرفة العارف لا يقدر أحد أن يخرجها من قلبه ، إلا المعرف الذي عرفه .

ويقال : ﴿ وَفَرْعُهَا فِى السماء ﴾ يعني : ترفع أعمال المؤمن المصدق إلى السماء ، لأن الأعمال لا تقبل بغير إيمان ، لأن الإيمان أصل ، والأعمال فروعه ، فترفع الأعمال ، ويقبل منه .

ثم قال : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ يعني : تخرج ثمارها في كل وقت ، وتخرج منها في كل وقت من ألوان المنفعة كل حين .

يعني : في كل وقت .

روى الأعمش ، عن أبي ظبيان ، عن ابن عباس أنه قال : ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ يعني : غدوة وعشية .

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال : النخلة يكون حملها شهرين .

فنرى أن الحين شهران .

وروى هشام بن حسان ، عن عكرمة ، أنه قال : حلف رجل فقال : إن فعلت كذا إلى حين ، فعليّ كذا .

فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى ناس من الفقهاء فسألهم ، فلم يقولوا شيئاً .

قال عكرمة .

فقلت : إن من الحين حيناً لا يدرك كقوله تعالى ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ ص : 88 ] ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [ يونس : 98 ] ومنها ما يدرك كقوله ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ فأراد ما بين خروج الثمرة إلى صرامها ، فأراد به ستة أشهر .

قال : فأعجب أي : فرح بذلك عمر بن عبد العزيز .

وروي عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن امرأة حلفت ألاّ تدخل على أهلها حيناً .

قال : الحين ما بين طلوع الطلع إلى أن يجد وبين أن يجد إلى أن يطلع الطلع .

يعني : ستة أشهر .

وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : الحين ما بين الثمرتين .

يعني : سنة .

وعن وهب بن منبه أنه قال : الحين السنة .

وعن مقاتل : سنة .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : الحين ستة أشهر .

وقال عكرمة : النخلة لا يزال فيها شيء ينتفع به إما ثمرة وإما حطبه .

فكذلك الكلمة الطيبة ينتفع بها صاحبها في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أي : بأمر ربها ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الامثال ﴾ يعني : يبيّن الأشباه ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : يتعظون ، ويتفكرون في الأمثال فيوحّدونه .

قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ يعني : كلمة الشرك ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ وهي الحنظلة ليس لها حلاوة ، ولا طهارة ، ولا رائحة طيبة .

فكذلك الشرك بالله خبيث .

ثم وصف الشجرة فقال : ﴿ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض ﴾ يقول : اقتلعت من فوق الأرض

﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ يعني : ليس لها أصل يجيء بها الريح ، ويذهب .

فكذلك الكفر ليس له أصل ، ولا حجة في الأرض ، ولا في السماء .

ثم قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت ﴾ بلا إله إلا الله ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ يعني : يثّبتهم على ذلك القول عند النزع ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ يعني : في القبر .

وقال البراء بن عازب : نزلت الآية في عذاب القبر .

يسأل من ربك ، ومن نبيك ، وما دينك ؟ يعني : إذا أجاب فقد ثبّته الله تعالى .

وقال الضحاك : إذا وضع المؤمن في قبره ، وانصرف عنه الناس ، دخل عليه ملكان ، فيجلسانه ، ويسألانه : من ربك ، ومن نبيك ، وما دينك ، وما كتابك ، وما قبلتك ؟ فيثبّته الله في القبر ، كما يثبته في الحياة الدنيا بالإقرار بالله تعالى ، وكتبه ، ورسله .

*(212/418)*

---

وروى ابن طاوس عن أبيه أنه قال : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ يعني : قول لا إله إلا الله ، يثّبتهم عليها في الدنيا ، وفي الآخرة عند المسألة في القبر .

وهكذا قال قتادة ، وقال الربيع بن أنس ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم ﴾ يعني : في القبر ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ يعني : يوم الحساب .

ويقال : ﴿ فِي الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ يعني : يموت على الإيمان ، ويبعث يوم القيامة مع الإيمان .

ثم قال : ﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ يعني : عن الحجة .

فلا يقولونها في القبر .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا دخل الكافر ، والمنافق قبره .

قالا له : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري .

فيقولان له : لا دريت ويضربانه بمرزبة ، فيصيح صيحة يسمعها ما بين الخافقين ، إلا الجن والإنس " .

وهو قوله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ ﴿ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاء ﴾ يعني : ما شاء للمؤمنين أن يثبتهم ، وللكافرين أن يضلهم عن الجواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 243.234 ﴾

(213/418)

---

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ الر ﴾ ابتدأ ﴿ كِتَابٌ ﴾ خبره وإن قلت هذا كتاب ﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد يعني

القرآن ﴿ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ لتدعوهم [ إليه ] ﴿ مِنَ الظلمات ﴾ الضلالة والجهالة ﴿ إِلَى النور ﴾ العلم والإيمان ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بتوفيق ربهم إياهم ولطفه بهم ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد * الله الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ .

قرأ أهل المدينة والشام : الله ، برفع الهاء على الاستئناف وخبره : "الذي" وقرأ الآخرون : بالخفض نعتاً للعزيز الحميد .

وقال أبو عمر : بالخفض على التقديم والتأخير ، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض . كقول القائل مررت بالظريف عبد الله

لو كنت ذا نبل وذا شريب . . . ما خفت شدات الخبيث الذيب

وكان يعقوب بن إسحاق الحضرمي إذا وقف على الحميد رفع قوله ﴿ الله ﴾ وإذا وصل خفض على النعت ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الذين يَسْتَحِبُّونَ ﴾ يختارون الحياة الدنيا ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ ويضربون ويميلون الناس عن دين الله ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ ويطلبونها زيغاً وقيلا ، والعوج بكسر العين في الدين والأمر والأرض كلا لم يكن قائماً .

والعوج بفتح العين في كل ما كان قائماً كالحائط والرمح ونحوهما ﴿ أولئك فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ بلغتهم ليفهموا لبنية ، بيانه قوله ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الحكيم * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ أَنْ

أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ بالدعوة ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ .

قال ابن عباس وأُبي بن كعب ومجاهد وقتادة : بنعم الله .

(214/418)

---

قال مقاتل : بوقائع الله في الأُمم السالفة وما كان في أيام الله الخالية من النقمة والمحنة فاجتزأ بذكر الأيام عنه ؛ لأنها كانت معلومة عندهم .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

قال أهل المعاني : أراد لكل مؤمن ؛ لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين وأفعالهم إلى قوله تعالى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ .

قال الفراء : العلّة الجالبة لهذه الواو إن الله تعالى أخبرهم إن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير الذبح والتذبيح وإن طرح الواو في قوله ويذبحون ويقتلون فإنه أراد تفسير صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ يتركونهن حبالى لأنفسهنّ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم " أي دعوا شبانهم أحياء ﴿ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي أعلم ودليله قراءة عبد الله بن مسعود وإذ قال ربكم به وأذن ويأذن بمعنى واحد مثل أوعد

وتوعد .

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ نعمتي وآمنتم وأطعتم ﴿ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ في النعمة قال ابن عيينة :

الشكر بقاء النعمة ومن الزيادة ومرضاة المؤمن ، وقيل الشكر قيد للموجود وقيد للمفقود .

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ نعمتي فصددتموها ولم تشكروها .

﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ محمود في أفعاله لأنه فيها سيفصل أو يعدل .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ ﴾ يعني من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود .

وكان ابن مسعود يقرأها : ﴿ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ ﴾ ثم يقول كذب النسابون ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فردوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ .

قال ابن مسعود : يعني عضوا على أيديهم غيظاً .



---

قال ابن زيد وقرأ : ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ﴾ [ آل عمران : 119 ] .

ابن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا فرجعوا بأيديهم إلى أفواههم .

مجاهد وقتادة : كذبوا الرسل وردّوا ما حلوا به .

الأخفش وأبو عبيدة : أي تركوا ما أُمروا به وكفوا عنه ولم يمضوه ولم يؤمنوا .

تقول العرب للرجل إذا أمسك عن الجواب فلم يجب وسكت : قد ردّ يده في فيه .

قال القيسي : إنا لم نسمع واحداً من العرب يقول ردّ يده في فيه إذا ترك ما أمر به وإنما المعنى إنهم عضوا على الأيدي حيفاً وغيظاً .

كقول الشاعر :

تردون في فيه غش الحسود . . . يعني أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أنامله العشر

وقال الهذلي :

قد أفنى أنامله أزمة . . . فأضحى يعض على الوظيفا

الوظيف يعني الذراع والساق ، واختار النحاس هذا القول ؛ لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ﴾ [ آل عمران : 119 ] .

وأنشد

لو أن سلمى أبصرت تخددي . . . ودقة في عظم ساقي ويدي

وبعد أهلي وجفاء عودي . . . عضت من الوجد بأطراف اليد

قال الكلبي : يعني من الأمم ردّوا بأيديهم إلى أفواههم أي في أفواه أنفسهم ؛ إشارة إلى الرسل إن اسكتوا .

مقاتل: فردوا أيديهم على أفواه الرسل حين يسكتونهم بذلك ﴿ وقالوا ﴾ يعني الأمم للرسل، ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ موجب الريبة موقع للتهمة ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ من تعجله ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني الموت فلا يعاجلكم بالعذاب والعقاب ﴿ قالوا ﴾ الرسل ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ في الصورة والهيئة ولستم بملائكة وإنما يريدون بقولكم ﴿ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بينة على صحة دعواكم، والسلطان في القرآن على وجهين وجه ملائكة ووجه بينة كقوله ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [ إبراهيم: 22 ] ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [ سبأ: 21 ] فصحة قوله ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ [ يونس: 68 ] بهذا وقوله: ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [ إبراهيم: 10 ].

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن اللهَ يَمُنُّ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالنبوة والحكمة إلى قوله ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ بيّن لنا الرشد وبصرنا طريق النجاة، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ اللام للقسم مجازه لنصبرن ﴿ على مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون

* وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ يعنون الآن ترجعوا وحتى ترجعوا إلى ديننا ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد هلاكهم ﴿ ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ أي مقامه وقيامه بين يدي، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما يقول يذهب على ضربك أي ضربي إياك، وسوف رويتك أي برويتي إياك.

(217/418)

---

قال الله ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [ الواقعة : 82 ] أي رزقي إليكم فإن شئت قلت ذلك لمن يخاف قيامي عليه ومراقبتي له، مثاله قوله ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [ الرعد : 33 ].

وقال الأخفش : ذلك لمن خاف مقامي أي عذابي.

﴿ وَخَافَ وَعِيدِ * واستفتحوا ﴾ واستنصروا الله عليها.

قال ابن عباس ومقاتل : يعني الأُمم، وذلك أنهم قالوا : اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا، نظيره قوله تعالى ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [ العنكبوت : 29 ] وقالوا ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [ الأنفال : 32 ] الآية.

وقال مجاهد وقتادة : يعني الرسل وذلك أنهم لما تبينوا من إيمان قومهم استنصروا عدوّهم ودعوا على قومهم بالعذاب .

بيانه قوله تعالى في قصة نوح ولوط وموسى ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

مجاهد : معاند للحق ويجانبه .

وقال إبراهيم : الناكب عن الحق .

ابن عباس : المعرض .

وقتادة : العنيد الذي لا يقول لا إله إلاّ الله .

مقاتل : المستكبر .

ابن كيسان : الشامخ بالحق .

ابن زيد : المخالف للحق .

والعرب تقول : شر الإبل العنيد الذي يخرج من الطريق خيره ، المريد العاصي ، ويقال عند العرب إذا لم يرقا دمه .

وقال أهل المعاني : المعاند والعنيد هو المعارض لك بالخلاف وأصله من العند وهو الناحية .

قال الشاعر :

إذا نزلت فاجعلوني وسطا . . . إني كبير لا أطيق العندا

﴿ مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ﴾ يعني أمامه وقدامه كما يقال: إن الموت من ورائك. قال الله ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ ﴾ [الكهف: 79].

قال الشاعر:

أتوعدني وراء بني رياح... كذبت لتقصرن يداك دوني

أي قدامهم.

أبو عبيدة: من الأضداد.

وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الآخر من ورائك أي سوف يأتيك وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه.

وقال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه... يكون وراءه فرج قريب



---

وقال بعضهم إنما يجوز هذا في الأوقات؛ لأن الوقت يمر عليك فيصير إن أخرته خلفك.

مقاتل: من ورائه جهنم يعني بعده.

وكان أُستاذنا أبو القاسم الحبيبي يقول: الأصل في هذا أنّ كل ما ورائي عندك شيء من

خلفك وقدام فهو [ . . . . ] ، ﴿ ويسقى مِن مَّآءٍ ﴾ ثم بين ذلك لنا فقال ﴿ صديد ﴾ وهو القيح والدم .

قتادة : هو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه .

محمد بن كعب والربيع بن أنس : هو غسالة أهل النار وذلك ما يسيل من ابن الزنا يسقى الكافر ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ يتحساه ويشربه ويجرع لا بمرة واحدة لمرارته وحرارته ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ لا يكاد أستقبله مجازه ولا يستسيغه كقوله ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [ النور : 40 ] أي لم يرها .

قال ابن عباس : لم يجبوه ، وقيل لا يحبّونه .

وروى أبو أُمامة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية يعطى إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فأذا شربه فقطع أمعاءه وحتى يخرج من دبره " يقول الله ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [ محمد : 15 ] وقال ﴿ يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب ﴾ [ الكهف : 29 ] ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من أعضائه فيجد ألم الموت وسقمه .

وقال إبراهيم التيمي : حتى من تحت كل شعرة في جسده .

الضحاك : حتى من إبهام رجله .

الأخفش : يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سمّاها موتاً .

﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ولا يخرج نفسه فيستريح .

وقال ابن جريج : تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا يرجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة ، نظيره قوله ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحيى ﴾ [ طه : 74 ] ﴿ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ شديد .

*(219/418)*

---

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [ إبراهيم : 18 ] اختلفت النحاة في رفع مثل ، قال الفراء : أضاف المثل إلى الكافرين والمثل للأعمال ؛ لأن العرب تقدم الأسماء ؛ لأنها أعرف ثم تأتي بالخبر الذي يخبر عنه مع صاحبه ، ومجاز الآية ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ ، قوله : ﴿ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [ السجدة : 7 ] أي أحسن خلق كل شيء وقوله ﴿ وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [ الزمر : 60 ] معناه يوم القيامة ترى وجوه الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة سيئة ، في الآية إضمار معناها ولا يمنّ عليك مثل الذين كفروا بربهم ، ثم ابتدأ وأخذ يفسره فقال : أعمالهم ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ وإن شئت جعلت المثل صفة فقلت الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ﴿ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ وصف اليوم بالعصوف وهو من صفة الريح

؛ لأن الريح تكون فيه كما يقال يوم بارد وحار ؛ لأن البرد والحر يكونان فيه ، وليل نائم ونهار صائم . قال الله ﴿ والنهار مُبْصِرا ً ﴾ [ يونس : 67 ] ويدلّ عليه الليل والنهار .

قال الشاعر :

يومين غيمين ويوما ً شمسا ً . . . وقال الفراء : إن شئت قلت : في يوم في عصوف وإن شئت قلت : في يوم عاصف الريح ، تحذف الريح ؛ لأنها قد ذكرت قبل ذلك .

كقول الشاعر :

إذا جاء يوم مظلم الشمس كاسف . . . أراد كاسف الشمس .

وقيل هو من نعت الريح غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل [ حجر ضب خرب ] ونحوه ، وهذا مثل ضربه الله لأعمال الكافر يعني هم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ؛ لأنهم أشركوا فيها كما أنّ الرماد الذي فرّقه الريح لا ينتفع به . فذلك قوله ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ يعني الكفار ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ْ ﴾ في الدنيا ﴿ على شَيْءٍ ﴾ في الآخرة ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ .

قرأ أهل الكوفة إلاّ عامر : خالق السماوات والأرض على التعظيم .

وقرأ الآخرون : خلق السماوات على الفصل ﴿ بالحق ﴾ قال المفسرون : لم يخلقهما باطلا وإنما خلقهما لأمر عظيم .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يبدلكم أحسن وأفضل وأطوع منكم ، ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ منيع متعذر ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ خرجوا من قبورهم وظهروا لله جميعاً ، الاستقبال ﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ يعني الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ يعني المتبوعين من القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع تابع مثل حارس وحرس ، وقيل : راصد ورصد ونافر ونفر ، ويجوز أن يكون تبع مصدراً سمي به أي كنا ذوي تبع .

﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي هل أنتم ودافعون عذاب الله عنا ، قال المتبوعين ﴿ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللهُ ﴾ إلى قوله ﴿ مِن مَّحِيصٍ ﴾ مهرب ولا منجى ، ويجوز أن يكون بمعنى المصدر وبمعنى الإسم .

يقال حاص فلان عن كذا أي فرّ وزاغ عنه يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً .

قال مقاتل : إنهم يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع .

يقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر فحينئذ يقولون ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشيطان ﴾ يعني إبليس ﴿ لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ فرغ من الأمر فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

قال مقاتل : يوضع له منبر من نار فيرقاه ويجتمع الكفار عليه بالأئمة ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ يوفى لكم ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ ولاية ومملكة وحجة وبصيرة ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ هذا من الاستثناء المنقطع مجازه لمن يدعونكم ﴿ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ ﴾ بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان وغير برهان ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ بمعينكم ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ بمغنيّ ومغيثي .

قرأه العامة : بمصرخي بفتح الياء .

وقرأ الأعمش وحمزة : بكسر الياء ، والأصل فيه بمصرخيين فذهبت النون لأجل الإضافة وأُدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة ، فمن نصب فلأجل التضعيف ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر ؛ لأن الياء أُخت الكسرة ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ أي لا يمكن أن أكون شريكاً لله فيما أشركتموني به من طاعتكم إياي واستهزأت من ذلك ﴿ إِنَّ الظالمين ﴾ الكافرين الواضعين للعباد الطاعة في غير موضعها ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

روى عتبة بن عامر " عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة قال : يقول عيسى (عليه السلام) : ذلكم النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي .

ثم يقول الكفار : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : ما هو غير إبليس هو الذي أضلنا فيأتون فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أضللتنا قال : فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ثم يعظم نحيبهم فيقول عند ذلك ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ " .

(222/418)

---

﴿ وَأُدْخِلَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ يسلم الله ويسلم الملائكة عليهم ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا محمد يعني فإن الله يعلم بإعلامي إياك ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ يعني ما بين الله شبهها ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة أن لا إله إلاّ الله ﴿ كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهي النخلة يدل عليه حديث عتيب الحجاب قال : كان أبو العالية أميني فأتاني يوماً في منزلي بعد ما صليت الفجر فانطلقت معه إلى أنس بن مالك فدخلت عليه فجيء بطبق عليه رطب .

فقال أنس : كل يا أبا العالية فإنّ هذه من الشجرة التي قال الله في كتابه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ كشجرة طيبة . ثم قال أنس أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع بُسر ، فقرأ هذه الآية ، ومعنى الآية : كشجرة طيبة الثمرة ، فترك ذكر الثمرة استغناءً بدلالة الطعام عليه .

وقال أبو ظبيان عن ابن عباس : هذه شجرة في الجنة أصلها ثابت في الأرض وفرعها عال في السماء كذلك أصل هذه الكلمة راجع في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق والإخلاص .

وإذا تكلم بالشهادة تذهب في السماء فلا يكتب حتى ينتهي إلى الله تعالى . قال الله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ [ فاطر : 10 ] .

وروى مقاتل بن حيان عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنّ لله عموداً من نور أسفله تحت الأرض السابعة ورأسه تحت العرش ، فإذا قال العبد أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله اهتز ذلك العمود ، فيقول الله عزّ وجلّ : اسكن ، فيقول : كيف أسكن ؟ ولم تغفر لقائلها فيقول الرب : قد غفرت له فيسكن عند ذلك

" . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكثروا من هز ذلك العمود " .

﴿ تؤتي أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ اختلفوا في الحين .

فقال مجاهد وعكرمة وابن زيد : كل سنة .

قال عكرمة : أرسلت إلى عمر بن عبد العزيز إني نذرت أن أقطع يد رجل من هكذا سنة وحيناً ، ما عندك فيه . قال ابن عباس : فقلت له : لا تقطع يده واحبسه سنة .

إنّ ابن عباس يقول : الحين حينان حين يعرف ويبدل وحين لا يعرف . فأما الحين الذي لا يعرف ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : 88 ] وأما الذي يعرف ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ فهو ما بين العام إلى العام المقبل .

فقال : أصبت يا مولى ابن عباس وأحسنت .

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن : كل ستة أشهر ما بين عرامها إلى حملها .

وروى طارق بن عبد الرحمن عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل عن رجل حلف ألاّ يكلم أخاه حيناً فقال : الحين سبعة أشهر ، وقرأ هذه الآية .

فقال سعيد بن المسيب : الحين شهران ؛ لأن النخلة لا يكون فيها أكلها إلاّ شهرين .

وقال الربيع بن أنس : كل حين كل غدوة وعشية ، كذلك يصعد عمل المؤمن عن أول النهار وآخره ، وهي رواية أبي ظبيان عن ابن عباس .

قال الضحاك : كل ساعة ليلا ونهاراً ، شتاءً وصيفاً يؤكل في جميع الأوقات . كذلك المؤمن

لا يخلو من الخير في الأوقات كلها .

وقرأ أبو الحكم في تمثيل الله الإيمان بالشجرة فهي أن الشجرة لا تكون شجرة إلاّ بثلاثة أشياء عود راسخ وأصل قائم وفرع عال . كذلك الإيمان لا يتم ولا يقوم إلاّ بثلاثة أشياء تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان .

يدل عليه ما روى جعفر بن محمد عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالإيمان " .



---

لحميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إن مثل هذا الدين مثل شجرة ثابتة ، الإيمان أصلها ، والزكاة فرعها ، والصيام عروقها ، والداعي في الله نباتها ، وحسن الخلق ورقها ، والكف عن محارم الله خضرتها ، فكما لا يكمل هذه الشجرة إلاّ بثمر طيبة ، لا يكمل الإيمان إلاّ بالكف عن محارم الله " .

والحكمة في تشبهها إياه بالنخلة من بين سائر الأشجار أنها لما كانت أشبه الأشجار بالانسان شبهت به وذلك أن كل شجرة إذا قطع رأسها تشعبت بالغصون عن جوانبها

والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهب أصلها ؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوانات في الإلقاح ؛ لأنها لا تحمل حتى يلقح .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " خير المال سكة مأبورة ومهدة مأمورة " .

ومنه " حديث ابن عمر : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه : إن شجرة من الشجر لا يطرح ورقها وهي مثل المؤمن فأخبرني ما هي ؟ " قال : فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم فاستحييت وسكت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هي النخلة" فذكرت ذلك لأبي فقال : يا بني لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليّ من فضلة ؛ لأنها من شجرة آدم " .

يروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " أكرموا عمتكم " فقيل ومن عمتنا يا رسول الله ؟ قال : " النخلة " وذلك أنّ الله تعالى لما خلق آدم فصلت من طينهِ فصلة فخلق منها النخلة قال الله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالِ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ وهي الشرك ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي الحنظلة .

قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض .

﴿ اجتثت ﴾ اقتلعت . قال ابن عباس ، والسدي : استرخت .

الضحاك : استوصلت . المؤرخ : أخذت حيث ما هي يقيناً ﴿ مِن فَوْقِ الأَرضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ بالقول الثابت ﴾ يحقق الله إيمانهم وأعمالهم بالقول والتثبيت ، وهو شهادة أن لا إله إلاّ الله ﴿ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ﴾ يعني في القبر ، وقيل : في الحياة في القبر عند الله تعالى وفي الآخرة إذا بعث .

مقاتل : ذلك أنّ المؤمن إذا مات بعث الله إليه ملكاً يقال له : رومان فيدخل قبره فيقول له : إنه يأتيك الآن ملكان أسودان فيسألانك من ربك ومن نبيك وقادتك فأجبهما بما كنت عليه في حياتك ، ثم يخرج فيدخل الملكان وهما منكر ونكير أسودان أزرقان فظان غليظان أعينهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالريح العاصف معهما مهزبة ، فيقعدان ويسألانه لا يشعران بدخول رومان فيقول ربي الله ونبيي محمد وديني الإسلام ، فيقولان له عند الله سعيد ثم يقولان : اللهم فأرضِه كما أرضاك ، ويفتح له في قبره باب من الجنة يأتيه منها التِحَف ، فإذا انصرفا عنه قال له : نَمْ نومة العروس ، فهذا هو التثبيت ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ يعني يلعنهم وذلك أنّ الكافر إذا دخل عليه الملكان قالا له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ قال : لا أدري .

قالا له : لا دريت ولا هديت عشت عصيا ومتّ شقياً ، ثم يقولان له نم نومة المنهوس ويفتح

من قبره باب من جهنم ويضربانه ضربة بتلك المرزبة فيشهق شهقة يسمعها كل حيوان إلاّ الثقلان ويعلنه كل من يسمع صوته فذلك قوله ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون ﴾ [ البقرة : 159 ] .

(226/418)

---

روى البراء بن عازب " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال : فيعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ، ويقولان من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ، وينتهرانه ويقولان الثانية من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ وهو آخر أسئلة الملكان فيثبته الله فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فينادي مناد في السماء أن ثبت عبدي " فنزل قوله تعالى ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ ﴾ الآية .

وقال ابن عباس في هذه الآية : إنّ المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة فإذا مات مشوا مع جنازته وصلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن جلس في قبره فيقال له من ربك ؟ فيقول ربي الله . فيقال له من رسولك ؟ فيقول محمد . فيقال له ما شهادتك ؟ فيقول أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله فيوسع له في قبره حد بصره ، وذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

(227/418)

---

وروى أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال : " " يا أيها الناس إنّ هذه الأُمة تبتلى في قبورها فإذا الإنسان دفن ويتفرق عنه أحباؤه جاءهُ ملك بيده مطراق فأقعده فقال : ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال : أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله . فيقول له : صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقال له : هذا منزلك كان لو كفرت بربك ، فأما إذا آمنت به فإنّ الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض له فيقال له اسكن ثم يفتح له في قبره ، وأما الكافر أو المنافق فيقال له ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : هذا كان منزلك لو آمنت بربك ، فأما إذا كفرت فإنّ الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلاّ الثقلين " .

قال بعض أصحابه : يا رسول الله ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلاّ هِيْل جزعاً لذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يثبت الله الذين آمنوا " الآية " .

(228/418)

وقال أبو هريرة : إن الميت يسمع خفق نعالهم حتى يولون عنه مدبرين وإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصيام عن يساره وفعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف فيصلي الناس عند رجليه فيؤتى من عند رأسه فيقول للصلاة : أقبلي فتدخل فيؤتى من يمينه فيقول الزكاة اقبلي فتدخل ، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام قبلي يدخل صوتي من عند رجليه فيقول فعل الخيرات اقبلي فتدخل ، فيقال له : اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دخل الغروب ، فيقال له : أخبرنا عما نسألك . فيقول : دعوني حتى أُصلي فيقال إنك ستفعل ، فأخبرنا عما نسألك عنه فيقول وعم تسألونني ؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا شهد عليه ، فيقول أمحمد ؟ فيقال : نعم ، فيقول : أشهد إنه لرسول الله قد جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح إليه في قبره سبعون ذراعاً وينوّر له فيه ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : أنظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى ما صرف الله عنك لو عصيته ، فيزداد غبطة وسروراً ، ثم يجعل نسمه في النسيم الطيب ، وهي طير [ خضر ] تعلق بشجر الجنة ويعاد جسده إلى ما بدئ منه من التراب ، وذلك قوله ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمَنُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ .

و" عن أبي نافع قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي بغدير وأنا أمشي خلفه فقال صلى الله عليه وسلم : لا هديت لا هديت ثلاثاً " .

قال أبو نافع قلت : يا رسول الله مالي ؟ قال : ليس إياك أُريد ، وإنما أُريد صاحب هذا القبر ، يُسأل عني فيزعم أنه لا يعرفني فإذا هو قبر قد رشّ عليه الماء حين دفن صاحبه " .

(229/418)

---

وأخبرنا أبو القاسم السلمي عن أبي الطيب محمد بن علي الخياط يقول : سمعت سهيل بن جابر العتكي يقول : رأيت يزيد بن عثمان بعد موته في المنام ، فقلت له ما فعل الله بك فقال : إنه أتاني في قبري ملكان فظان غليظان فقالا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فأخذت بلحيتي البيضاء وقلت لهما ألمثلي يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا وقالا أكتبت عن جريز بن عثمان ؟ قلت : نعم . قالا : إنه كان يبغض علياً فأبغضه الله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان جـ 5 صـ 304 . 318 ﴾

(230/418)

---

وقال الزمخشري :

سورة إبراهيم عليه السلام

(مكية ، [إلا آيتي 28 و29 فمدنيتان ] وآياتها 52 [نزلت بعد سورة نوح ]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3)

كِتابٌ هو كتاب ، يعنى السورة . وقرئ : ليخرج الناس . والظلمات والنور : استعارتان للضلال والهدى بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بتسهيله وتيسيره ، مستعار من الإذن الذي هو تسهيل للحجاب ، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ بدل من قوله إلى النور بتكرير العامل ، كقوله لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ويجوز أن يكون على وجه الاستئناف ، كأنه قيل : إلى أى نور ؟ فقيل : إلى صراط العزيز الحميد . وقوله اللَّهِ عطف بيان للعزيز الحميد ، لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود

الذي تحق له العبادة كما غلب النجم في الثريا . وقرئ بالرفع على : هو اللّه . الويل : نقيض الوأل ، وهو النجاة اسم معنى ، كالهلاك ، إلا أنه لا يشتق منه فعل ، إنما يقال : ويلا له ، فينصب نصب المصادر ، ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات ، فيقال : ويل له ، كقوله سلام عليك . ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل . فإن قلت : ما وجه اتصال قوله مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ بالويل ؟ قلت : لأنّ المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد ، ويضجون منه ، ويقولون :

يا ويلاه ، كقوله دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ مبتدأ خبره : أولئك في ضلال بعيد ويجوز أن يكون مجروراً صفة للكافرين ، ومنصوبا على الذمّ ، أو مرفوعا على أعنى الذين يستحبون أو هم الذين يستحبون . والاستحباب : الإيثار والاختيار ، وهو استفعال من المحبة ، لأنّ المؤثر



---

للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر .

وقرأ الحسن : ويصدّون ، بضم الياء وكسر الصاد . يقال : صدّه عن كذا ، وأصدّه . قال :

أُناسٌ اصَدُّوا النّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمُ «1»

والهمزة فيه داخلة على صدّ صدوداً ، لتنقله من غير التعدّى إلى التعدّى . وأما صدّه ، فموضوع على التعدية كمنعه ، وليست بفصيحة كأوقفه ، لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة وَيَبْغُونَها عِوَجاً ويطلبون لسبيل اللّه زيغاً واعوجاجاً ، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية ، والأصل : ويبغون لها ، فحذف الجار وأوصل الفعل فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ أى ضلوا عن طريق الحق ، ووقفوا دونه بمراحل . فإن قلت : فما معنى وصف الضلال بالبعد . قلت : هو من الإسناد المجازى ، والبعد في الحقيقة للضالّ ، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق ، فوصف به فعله ، كما تقول : جدّ جدّه . ويجوز أن يراد : في ضلال ذى بعد . أو فيه بعد ، لأنّ الضالّ قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً .

[سورة إبراهيم (14) : آية 4]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أى ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه ، فلا يكون لهم حجة على اللّه «2»

---

(1) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواني في أنوف الحوايم

لذي الرمة ، أنشده عنه الفراء ، يقال : صده عن كذا ، ولغة كلب : أصده عنه إذا منعه ،

فوضع الصدود موضع الأصداد . والسيافى - بالفاء - : الرياح ، لأنها تسفو التراب .

وقيل : هي بالقاف جمع ساق أو ساقية ، وهي فوق الجدول . والحوايم : الجمال العطاش ، لأنها تحوم حول الماء جمع حائم ، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء ، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه . وجمعه حوايم أيضا . ويجوز أن يراد هنا ، أو الجبال لأنها لارتفاعها تشرف من بعد كأنها حائمة ، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسبة الفعل إليها مجاز لأنها محله ، يقول : قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها في أنوف . الجمال ، أو في أعالى الجبال ، أو كمنع السقاة إبل غيرهم عن إبلهم في السقي ، أو كمنع الأنهار لبعد مائها الإبل العطاش أو الطيور العطاش عن الشرب ، لأن الطيور تخاف الغرق فيه .

ويروى : عن أنوف الحوايم . وفيه تشبيه الأعداء بالعطاش وأصحاب السيوف ، أو السيوف بالرياح ضمنا .

(2) . قال محمود : «أى ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة . . . الخ» قال أحمد : جميع الفصل مرضى ، لكن في هذه الخاتمة نظر ، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة العربية خاصة يتقاصر عن إعجازه ، لو قدر منزلا بكل لسان ، حتى إنه لو ينزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلجاء إلى الايمان به ، وهذا فيه نظر ، والقول به غير متعين ، لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده ، ومتى حصل

العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح ، فلو نزل القرآن بجميع اللغات ، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلغة واحدة ، هو العلم الحاصل منه ولو نزل بالجميع ، لا تفاوت ولا ترجيح بين العلمين ، هذا هو التحقيق ، والله أعلم . والزمخشري يبنى في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلى وأجلى ، وهو من الحق بمعزل ، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية ، والله الموفق .

*(232/418)*

---

ولا يقولوا : لم نفهم ما خوطبنا به ، كما قال وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ . فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعاً قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً بل إلى الثقلين ، وهم على ألسنة مختلفة ، فإن لم تكن للعرب حجه فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية ، لم تكن للعرب حجة أيضاً . قلت : لا يخلو إمّا أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه ، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر . قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها

من نيابة التراجم في كل أمّة من أمم العجم ، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأقطار المتنازحة ، «1» والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة ، على كتاب واحد ، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكدّ القرائح فيه ، من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف ، ولأنه لو نزل بألسنة الثقلين كلها - مع اختلافها وكثرتها ، وكان مستقلا بصفة الإعجاز في كل واحد منها ، وكلم الرسول العربىّ كل أمّة بلسانها كما كلم أمّته التي هو منها يتلوه عليهم معجزاً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء . ومعنى بِلِسانِ قَوْمِهِ بلغة قومه . وقرئ :

بلسن قومه . واللسن واللسان : كالريش والرياش ، بمعنى اللغة . وقرئ : «بلسن قومه» بضم اللام والسين مضمومة أو ساكنة ، وهو جمع لسان ، كعماد وعمد وعمد على التخفيف . وقيل : الضمير في قومه لمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، ورووه عن الضحاك . وأن الكتب كلها نزلت بالعربية ، ثم أدّاها كل نبىّ بلغة قومه ، وليس بصحيح ، لأنّ قوله لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ضمير القوم وهم العرب ، فيؤدّى إلى أن اللّه أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب ، وهذا معنى فاسد فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ كقوله فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ لأنّ اللّه لا يضلّ إلا من يعلم أنه لن يؤمن .

ولا يهدى إلا من يعلم أنه يؤمن . والمراد بالإضلال : التخلية ومنع الألطاف «2» ، وبالهداية

:

التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان وَهُوَ الْعَزِيزُ فلا يغلب على مشيئته الْحَكِيمُ فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف

---

(1). قوله «والأقطار المتنازحة» أى المتباعدة جداً. أفاده الصحاح. (ع)

(2). قوله «والمراد بالإضلال التخلية ومنع الألطاف» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب، لأن اللّه لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلقه كالخير عند أهل السنة. (ع)

(233/418)

---

[سورة إبراهيم (14): آية 5]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

أَنْ أَخْرِجْ بمعنى أى أخرج، لأنّ الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له أخرج. ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر، لأنّ الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر، وغيره سواء في الفعلية. والدليل

على جواز أن تكون الناصبة للفعل : قولهم أوعز إليه بأن افعل ، فأدخلوا عليها حرف الجر .

وكذلك التقدير بأن أخرج قومك وَذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ اللَّهِ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم : قوم نوح وعاد وثمود . ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، ويوم قضة وغيرها ، وهو الظاهر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نعماؤه وبلاؤه .

فإهلاك القرون لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه ، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم ، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر .

وقيل : أراد لكل مؤمن ، لأنّ الشكر والصبر من سجاياهم ، تنبيهاً عليهم .

[سورة إبراهيم (14) : آية 6]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)

إِذْ أَنْجاكُمْ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام ، أى إنعامه عليكم ذلك الوقت . فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب بعليكم ؟ قلت : لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام ، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية ، فإذا كان صلة لم يعمل فيه ، وإذا كان غير صلة بمعنى اذكروا نعمة

اللّه مستقرّة عليكم عمل فيه ، ويتبين «1» الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت : نعمة اللّه عليكم ، فإن جعلته صلة لم يكن كلاما حتى تقول فائضة أو نحوها ، وإلا كان كلاما . ويجوز أن يكون «إذ» بدلا من نعمة اللّه ، أى : اذكروا وقت إنجائكم ، وهو من بدل الاشتمال . فإن قلت : في سورة البقرة يُذَبِّحُونَ وفي الأعراف يُقَتِّلُونَ وها هنا وَيُذَبِّحُونَ مع الواو ، فما الفرق ؟ قلت : الفرق أنّ التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفي على

---

(1) . قوله «ويتبين» لعله : وتبيين . (ع)



---

جنس العذاب ، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر . فإن قلت : كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم ؟ قلت : تمكينهم وإمهالهم ، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من اللّه . ووجه آخر وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم ، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ، قال تعالى وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وقال زهير :

فَأَبْلَاهُمَا خيرَ البَلَاءِ الذِى يَبْلُوا «1»

[سورة إبراهيم (14) : آية 7]

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (7)

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ من جملة ما قال مومى لقومه، وانتصابه للعطف على قوله نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ كأنه قيل: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة اللّه عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم. ومعنى تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ: أذن ربكم. ونظير تأذن وأذن: توعد وأوعد، تفضل وأفضل. ولا بدّ في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل، كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه. والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال لَئِنْ شَكَرْتُمْ أو أجرى تَأَذَّنَ مجرى قال، لأنه ضرب من القول. وفي قراءة ابن مسعود: «وإذ قال ربكم لئن شكرتم»، أى لئن شكرتم يا بنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح لَأَزِيدَنَّكُمْ نعمة إلى نعمة، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ وغمطتم «2» ما أنعمت به عليكم إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ لمن كفر نعمتي.

[سورة إبراهيم (14): آية 8]

وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

وَقالَ مُوسى إن كفرتم أنتم يا بنى إسرائيل والناس كلهم، فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بدّ لكم منه وأنتم إليه محاويج، اللَّهَ لَغَنِيٌّ عن شكركم حَمِيدٌ مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه، وإن لم يحمده الحامدون.

[سورة إبراهيم (14): آية 9]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 208 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2) . قوله «و غمطتم ما أنعمت به عليكم» في الصحاح «غمط الشيء» بطره وحقره. (ع)

(235/418)

---

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جملة من مبتدإ وخبر، وقعت اعتراضا: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. ولا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ اعتراض. والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا اللّه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعنى أنهم يدّعون علم الأنساب، وقد نفى اللّه علمها عن العباد فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل «1» ، كقوله عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو وأشاروا بأيديهم إلى

ألسنتهم وما نطقت به من قولهم إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ أى هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقناطا لهم من التصديق. ألا ترى إلى قوله فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وهذا قول قوى. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون. وقيل:

الأيدى، جمع يد وهي النعمة بمعنى الأيادى، أى: ردوا نعم الأنبياء التي هي أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها في أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ من الإيمان بالله. وقرئ: «تدعونا»، بإدغام النون مُرِيبٍ موقع في الريبة أو ذى ريبة، من أرابه، وأراب «2» الرجل، وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

[سورة إبراهيم (14): آية 10]

قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (10)

أَفِي اللَّهِ شَكٌّ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس في الشك، إنما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ

ذُنُوبِكُمْ

---

(1) . قال محمود : «معناه عضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل . . . الخ» قال أحمد : وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذي نبه المصنف على اختصاصه بالقوة ، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الايمان قولا وفعلا بوضع اليد في الفم ، هو المناسب لحسدهم في الكفر . وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد وليس السياق بمناسب الضحك ولا الغيظ ولا لتصميت الرسل كمناسبته لاقناطهم من القبول . ألا ترى أنهم لما أعادوا للرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة ، دل على أنهم لم يسكتوهم أولا ، ولا كان غرضهم ذلك ، والله أعلم .

(2) . قوله «وأراب الرجل» لعله : أو أراب . (ع)

(236/418)

---

أى يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله : دعوته لينصرنى ، ودعوته ليأكل معى ، وقال :

دَعَوْتُ لِمَا نَابَنِى مِسْوَرًا فَلَبَّى فَلَبَّى يَدَىْ مِسْوَرِ «1»

فإن قلت : ما معنى التبعيض في قوله : من ذنوبكم ؟ قلت : ما علمته جاء هكذا إلا في

خطاب الكافرين ، كقوله وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وقال في خطاب المؤمنين : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ إلى أن قال يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد . وقيل : أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله ، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره ، يبلغكموه إن آمنتم ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت إِنْ أَنْتُمْ ما أنتم إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا لا فضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تخصون بالنبوّة «2» دوننا ، ولو أرسل الله إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة «3» بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة بينة ، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج ، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجا .

---

(1) . لأعرابى من بنى أسد . ولبى : بمعنى أجاب ، ورسمه ابن حبيب بالألف وإن كان يائيا للفرق بينه وبين المثنى بعده . ولبى من الأسماء اللازمة للاضافة إلى الضمير ، وشذ إضافته للظاهر كما هنا ، من لب بالمكان لبا أقام به والمراد ملازمة إجابته إجابة بعد إجابة لا اثنين فقط ، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف . هذا مذهب سيبويه . وزعم يونس أنه مفرد مقصور ، قلبت ألفه مع الضمير ياء كلدى وعلى ، فرد عليه سيبويه بأنه لو كان كذلك لم تنقلب ألفه مع الظاهر ياء كلدى وعلى ، لكنهم لما أضافوه للظاهر

قلبوها ياء كما في البيت . يقول : دعوت مسورا لما أصابني ، فأجابني فلبى يديه ، أى أجاب اللّه دعاءه بعد إجابة ، وأقحم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء ، فكأنهما المجابتان ، أو لأن نصره حصل بهما ، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه . وقيل : إنه دعاه ليغرم عنه الدية ، فأجابه ، فذكر يديه لأنه بذل بهما . قيل : وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه . وروى عن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم أنه قال . إذا دعا أحدكم أخاه فقال : لبيك ، فلا يقولن لبى يديك ، وليقل أجابك اللّه بما تحب .

(2) . عاد كلامه . قال : «وقولهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا : معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا ؟ ولو أرسل اللّه إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» ؟ قال أحمد : ومن تهالكه على الانتصار لاعتقاده تفضيل الملائكة على الرسل من البشر ، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كمعتقد القدرية في تفضيل الملك على الرسول ، لأنه يدعى ذلك أمراً مركوزاً في الطباع معلوما ضرورة ، واللّه الموفق . [ . . . . . ]

(3) . قوله «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة ، أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل . (ع)

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 11 إلى 12]

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم، واقتصروا على قولهم وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ بالنبوّة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجرى علينا منكم. ألا ترى إلى قوله وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ومعناه: وأىّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه وَقَدْ هَدانا وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين، فإن قلت: كيف كرّر الأمر بالتوكل «1» ؟ قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ معناه فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم

وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدّم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 12 إلى 14]

وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14)

لَنُخْرِجَنَّكُمْ، أَوْ لَتَعُودُنَّ ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين «2» على ذلك. فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت: معاذ اللّه، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون

---

(1) . قال محمود: «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . . . الخ» قال أحمد: وبهذا يخرج عن وادى «من قتل قتيلا فله سلبه» واللّه أعلم.

(2) . قوله «حالفين» حال من فاعل قال. وعبارة النسفي «وحلفوا» . (ع)

صار ، ولكن عاد ، ما عدت أراه عاد لا يكلمني ، ما عاد لفلان مال . أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به ، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ حكاية تقتضي إضمار القول ، أو إجراء الإيحاء مجرى القول ، لأنه ضرب منه . وقرأ أبو حيوة : «ليهلكنّ» ، و«ليسكننكم» بالياء اعتبارا لأوحى ، وأن لفظه لفظ الغيبة ، ونحوه قولك : أقسم زيد ليخرجن ولأخرجن .

والمراد بالأرض . أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا ، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من آذى جاره ورثه اللّه داره «1»» ولقد عاينت هذا في مدة قريبة : كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه ، فمات ذلك العظيم وملكني اللّه ضيعته ، فنظرت يوما إلى أبناء خالي يتردّدون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وحدّثتهم به ، وسجدنا شكراً للّه ذلِكَ إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين إسكان المؤمنين ديارهم ، أى ذلك الأمر حق لِمَنْ خافَ مَقامِي موقفي وهو موقف الحساب ، لأنه موقف اللّه الذي يقف «2» فيه عباده يوم القيامة ، أو على إقحام المقام . وقيل : خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله . والمعنى أنّ ذلك حق للمتقين ، كقوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 15 إلى 17]

وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17)

وَاسْتَفْتَحُوا واستنصروا اللّه على أعدائهم إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ أو استحكموا اللّه وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة، كقوله تعالى رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وهو معطوف على فَأَوْحى إِلَيْهِمْ وقرئ: «واستفتحوا»، بلفظ الأمر. وعطفه على لَنُهْلِكَنَّ أى: أوحى إليهم ربهم وقال لهم لنهلكنّ وقال لهم استفتحوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا، وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وهم قومهم. وقيل: واستفتح الكفار على الرسل، ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ منهم ولم يفلح باستفتاحه مِنْ وَرائِهِ من بين يديه. قال:

---

(1). لم أجده.

(2). قوله «يقف فيه عباده» في الصحاح: يتعدى ولا يتعدى. (ع)

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِى أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ «1»

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا ، لأنه مرصد لجهنم ، فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف . فان قلت : علام عطف وَيُسْقى ؟ قلت : على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد ، كأنه أشد عذابها فخصص بالذكر مع قوله وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ . فإن قلت : ما وجه قوله تعالى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ ؟ قلت : صديد عطف بيان لماء ، قال وَيُسْقى مِنْ ماءٍ فأبهمه إبهاما ثم بينه بقوله صَدِيدٍ وهو ما يسيل من جلود أهل النار يَتَجَرَّعُهُ يتكلف جرعه وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ دخل كاد للمبالغة . يعنى : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة ، كقوله لَمْ يَكَدْ يَراها أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ كأنّ أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألبت عليه «2» وأحاطت به من جميع الجهات ، تفظيعا لما يصيبه من الآلام . وقيل مِنْ كُلِّ مَكانٍ من جسده حتى من إبهام رجله . وقيل : من أصل كل شعرة وَمِنْ وَرائِهِ ومن بين يديه عَذابٌ غَلِيظٌ أى في كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشدّ مما قبله وأغلظ . وعن الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد . ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفتحوا أى استمطروا - والفتح المطر - في سنى القحط التي أرسلت عليهم بدعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى في جهنم بدل سقياه ماء آخر ، وهو صديد أهل النار .

وَاسْتَفْتَحُوا – على هذا التفسير – :

---

(1) يؤرقني اكتئاب أبي نمير فقلبي من كآبته كئيب

فقلت له هداك اللّه مهلا وخير القول ذو اللب المصيب

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

لهدبة بن خشرم العذرى. ويروى: خرشم. وكان مسجونا للقتل. والتأريق: التسهير، والاكتئاب: الانكسار وتغير اللون من الحزن، والكآبة كذلك. وأبو نمير كان صديقا له، فزاره لك السجن وحزن عليه. ومهلا: مصدر بدل من اللفظ بفعله. وخبر القول: جملة اعتراضية في أثناء مقول القول. واللب: العقل. وعسى الكرب: تتمة مقول القول. ويروى: أمسيت، بالضم والفتح. وقال الجوهري «وراء» يأتى بمعنى خلف، وقد يأتى بمعنى قدام، فهو من الأضداد اه، لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره، وموارانه عن نفسه لا يمكن إلا في الخلف، فكثر فيه. أو هو مكان المواراة مطلقا، وهو في الخلف أكثر. واسم «يكون» ضمير الكرب، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون، و«فرج» فاعل بالظرف. ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له، والجملة خبر ليكون، ويجب كون المحذوف كونا تاما لا ناقصا، لئلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضا، فيتسلسل التقدير، ولم يجعل «فرج» مرفوع بيكون، لأن خبر أفعال المقاربة لا يرفع الأجنبى عن أسمائها. وجملة «يكون» خبر ليس «و تجريد خبرها من «أن» قليل أى عسى أن

يحصل الفرج بعد الكرب.

(2) . قوله «قد تألبت عليه» أى تجمعت. أفاده الصحاح. (ع)

(240/418)

---

كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم.

[سورة إبراهيم (14) : آية 18]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (18)

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: وفيما يقص عليك مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد. ويجوز أن يكون المعنى: مثل أعمال الذين كفروا بربهم. أو هذه الجملة خبرا للمبتدإ، أى صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد، كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول، أو يكون أعمالهم بدلا من مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا على تقدير: مثل أعمالهم، وكرماد: الخبر. وقرئ: الرياح فِي يَوْمٍ عاصِفٍ جعل العصف لليوم، وهو لما فيه، وهو الريح أو الرياح، كقولك: يوم ماطر وليلة ساكرة. وإنما السكور

لريحها «1» وقرئ: في يوم عاصف، بالإضافة. وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم، من صلة الأرحام وعتق الرقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة، وغير ذلك من صنائعهم، شبهها في حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة اللّه والإيمان به، وكونها لوجهه: برماد طيرته الريح العاصف لا يَقْدِرُونَ يوم القيامة مِمَّا كَسَبُوا من أعمالهم عَلى شَيْءٍ أى لا يرون له أثرا من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب بِالْحَقِّ بالحكمة والغرض الصحيح «2» والأمر العظيم، ولم يخلقها عبثا ولا شهوة

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 19 إلى 20]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)

وقرئ: خالق السموات والأرض إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أى هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاما منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ بمتعذر،

---

(1) . قوله «وإنما السكور لريحها» في الصحاح: سكرت الريح، تسكر سكورا:

سكنت بعد الهبوب. (ع)

(2). قال محمود: «معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح... الخ» قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي وقد تقدمت أمثاله.

(241/418)

---

بل هو هين عليه يسير «1»، لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف، تكوّن من غير توقف: كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف. وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر باللّه، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يعبد، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء.

[سورة إبراهيم (14): آية 21]

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21)

وَبَرَزُوا لِلَّهِ ويبرزون يوم القيامة. وإنما جيء به بلفظ الماضي، لأنّ ما أخبر به عزّ وعلا

لصدقه كأنه قد كان ووجد ، ونحوه وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ ونظائر له . ومعنى بروزهم للّه - واللّه تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرز له - أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ، ويظنون أن ذلك خاف على اللّه ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا للّه عند أنفسهم وعلموا أنّ اللّه لا يخفى عليه خافية . أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب اللّه وحكمه . فإن قلت : لم كتب «الضعفؤا» بواو قبل الهمزة؟ قلت : كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو . ونظيره «علمؤا بنى إسرائيل» والضعفاء :

الأتباع والعوام . والذين استكبروا : ساداتهم وكبراؤهم ، الذين استتبعوهم واستغووهم وصدورهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم تَبَعاً تابعين : جمع تابع على تبع ، كقولهم : خادم وخدم وغائب وغيب «2» أو ذوى تبع . والتبع : الأتباع ، يقال : تبعه تبعا . فان قلت : أى فرق بين من في مِنْ عَذابِ اللَّهِ وبينه في مِنْ شَيْءٍ ؟ قلت : الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب اللّه . ويجوز أن تكونا للتبعيض معا ، بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب اللّه ، أى : بعض بعض عذاب اللّه

---

(1) . عاد كلامه . قال : معناه وما ذلك على اللّه بعزيز ، أى : هين عليه ، لأنه قادر بالذات الخ . . . قال أحمد : وهذا اعتزال صراح لهم يتقنع في إبرازه ، وما أبشع قوله عن

اللّه جل جلاله ، خلص له الداعي وأمضى الصارف ، وما أنباه عن سمع المحققين العارفين بآداب اللّه تعالى وبما يجب في حق جلاله ، وقد تقدم ما فيه كفاية .

(2) . قوله «خادم وخدم وغائب وغيب» في الصحاح : وإنما ثبتت فيه الياء في التحريك ، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعا ، وصيد مصدر قولك «بعير أصيد» لأنه يجوز أن ينوى به المصدر . (ع)

(242/418)

---

فإن قلت : فما معنى قوله لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ ؟ قلت الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم «1» وعتابا على استتباعهم واستغوائهم . وقولهم فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا من باب التبكيت ، لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ، فأجابوهم معتذرين عما كان منهم إليهم : بأن اللّه لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلوهم ، إما موركين الذنب «2» في ضلالهم وإضلالهم على الله ، كما حكى اللّه عنهم وقالوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا ، لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا . ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ . وإما أن يكون المعنى : لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا

ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان. وقيل: معناه لو هدانا اللّه طريق النجاة من العذاب لهديناكم، أي: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا مستويان علينا الجزع والصبر. والهمزة وأم للتسوية. ونحوه: فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ وروى أنهم يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون كذلك ثم يقولون: سواء علينا. فإن قلت: كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله؟ قلت: اتصاله به من حيث أنّ عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه، فقالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، يريدون أنفسهم وإياهم، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أطمّ. أو لما قالوا لو هدانا اللّه طريق النجاة لأغنينا عنكم وأنجيناكم، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ أى منجى ومهرب، جزعنا أم صبرنا. ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنه قيل: قالوا جميعا سواء علينا، كقوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

(1). قال محمود: «الذي قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم... الخ» قال أحمد: لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتملة على أن اللّه تعالى مهما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن هد آية المشركين مما لم يشأه، ولو شاءها لاهتدوا. وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء.

والمقصود من اقتصاصه : إنذار أمثالهم في الدنيا ، وتحذيرهم من الحسرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور ، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى ، فلما فطن الزمخشري لذلك شرع في تقرير تخطئتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا ، ليتم له اعتقاد أن اللّه يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، ومن ذلك هد آية الكفار فان اللّه تعالى يشاؤها في الدنيا ، لكنها لم تكن . وأنى له ذلك ، وسياق الآية يصوب الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا ، ويحذرهم من التورط فيما يؤدى إلى هذا الندم ، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة ، إذ لا ينجع ، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق ، وحيث لا ينفعه إيمانه ، فيقول : إن اللّه وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . . . الخ . وإنما سيق تحذيراً وإنذارا اتفاقا ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «موركين الذنب» في الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، أى : قرفه به اه ، أى : اتهمه به . (ع)

والمحيص يكون مصدراً ، كالمغيب والمشيب . ومكانا ، كالمبيت والمصيف . ويقال : حاص عنه وجاض ، بمعنى واحد .

[سورة إبراهيم (14) : آية 22]

وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22)

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ لما قطع الأمر وفرغ منه ، وهو الحساب ، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار . وروى أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً «1» في الأشقياء من الجنّ والإنس فيقول ذلك إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم وَوَعَدْتُكُمْ خلاف ذلك فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني ، وليس الدعاء من جنس السلطان ، ولكنه كقولك : ما تحيتهم إلا الضرب . فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ حيث اغتررتم بى وأطعتمونى إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم . وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ، «2» وليس من اللّه إلا التمكين ، ولا من الشيطان

إلا التزيين . ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال : فلا تلوموني ولا أنفسكم ، فإنّ اللّه قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه . فإن قلت :

---

(1) . قال محمود : «روى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا . . . الخ» قال أحمد : قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال ، لأنه لا يلائم معتقده ، واستشهد على أن الكذب حينئذ غير ممتنع ولا متعذر بقول تعالى فَيَحْلِفُونَ لَهُ كما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده ، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان ، كل ذلك منه اتباع للهوى حيثما توجه وأية سلك . ونحن معاشر أهل السنة الملقبين عنده بالمجبرة نقول : إن اللّه تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له ، ولا مخطئ فيه الشيطان ، كما اقتص كلام الكفار في الآية الأولى كذلك . ونحن نعتقد أن الملامة إنما تتوجه على المكلف وأما اللّه تعالى فمقدس عن ذلك .

وحجته البالغة ، وقضاؤه الحق . وذلك أنا نعترف بما خلقه اللّه تعالى للعبد من الاختيار الذي يجده من نفسه عند تجاذب طرفى الأفعال الارادية ضرورة ، وبذلك قامت الحجة له على خلقه ، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ، واللّه الموفق . [ . . . . . ]

(2) . قوله «يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه» هذا مذهب المعتزلة ، وقوله «المجبرة» يعنى أهل السنة ، ومذهبهم أن اللّه هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب

الشقاوة ، لكن العبد له فيها الكسب . ومن هذا يتوجه عليه اللوم ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن العبد هو الخالق لها ، وهو الذي يحصل لنفسه . وتحقيقه في علم التوحيد . (ع)

(244/418)

---

قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به . قلت : لو كان هذا القول منه باطلا لبين اللّه بطلانه وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام : ألا ترى إلى قوله إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ كيف أتى فيه بالحق والصدق ، وفي قوله وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ وهو مثل قول اللّه تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ ، ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب اللّه ولا يغيثه . والإصراخ : الإغاثة . وقرئ : بمصرخي ، بكسر الياء وهي ضعيفة ، واستشهدوا لها ببيت مجهول :

قَالَ لَهَا هَلْ لَكِ يَا تَا فِيّ قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالمَرْضِى «1»

وكأنه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة ، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، ولكنه غير صحيح ، لأنّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة ، حيث قبلها ألف في نحو عصاي ، فما بالها وقبلها ياء ؟ فإن قلت : جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح

لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. «ما» في بِما أَشْرَكْتُمُونِ مصدرية، ومِنْ قَبْلُ متعلقة بأشركتمونى، يعنى: كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم، أى في الدنيا، كقوله تعالى وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وقيل: مِنْ قَبْلُ يتعلق بكفرت. وما موصولة، أى: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو اللّه عز وجل، تقول: شركت زيداً، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أشركنيه فلان، أى: جعلني له شريكا.

ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا. ومعنى إشراكهم الشيطان باللّه: طاعتهم

---

(1) قال لها هل لك يا تافىّ قالت له ما أنت بالمرضى

ماض إذا ما هم بالمضي

قائله مجهول. وتا: اسم إشارة، أى: هل لك يا هذه المرأة رغبة في. وأصل ياء المتكلم السكون، فان حركت فبالفتح، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساغ كسرها،

على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين .

وقالت : استئناف ، كأنه قيل له : فما ذا قالت ؟ فقال : قالت له لست مرضيا ، فإنك رجل ماض في كل أمرتهمّ فيه ، فماض : خبر لمبتدإ محذوف . والجملة : استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا . وعبر بضمير الغيبة في قوله : هم نظراء للخير . ويجوز تقدير المبتدأ لفظ «هو» فيكون التفاتا من الخطاب إلى الغيبة ، دلالة على الاعراض عنه ، وذكر السبب لغيره .

(245/418)

---

له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها ، وهذا آخر قوله إبليس . وقوله إِنَّ الظَّالِمِينَ قول اللّه عزّ وجلّ . ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى اللّه عزّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت ، ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . وقرئ : فلا يلومونى ، بالياء على طريقة الالتفات ، كقوله تعالى حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ .

[سورة إبراهيم (14) : آية 23]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (23)

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا ، «1» على فعل المتكلم ، بمعنى : وأدخل أنا وهذا دليل على أنه من قول اللّه ، لا من قوله إبليس بِإِذْنِ رَبِّهِمْ متعلق بأدخل ، أى :

أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن اللّه وأمره. فإن قلت : فبهم يتعلق في القراءة الأخرى ، وقولك :

وأدخلهم أنا بإذن ربهم ، كلام غير ملتئم؟ قلت : الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله : بِإِذْنِ رَبِّهِمْ بما بعده ، أى تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ بإذن ربهم ، يعنى : أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 24 إلى 25]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)

قرئ أَلَمْ تَرَ ساكنة الراء ، كما قرئ : من يتق ، وفيه ضعف ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا اعتمد مثلا ووضعه. وكَلِمَةً طَيِّبَةً نصب بمضمر ، أى : جعل كلمة طيبة كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وهو

---

(1) . قال محمود : «و قرأ الحسن وعمرو بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم

. . . الخ» قال أحمد :

فان قلت : ما الذي صرف الزمخشري عن حمله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، وألجأه إلى تعليقه بما بعده ، وقد كانت له في ذلك مندوحة ، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض . ألا ترى إلى قوله تعالى طه ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى ثم قال تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ ولم يقل تنزيلا منا . قلت : لأمر ما صرف الكلام عن هذا الوجه ، وهو أن ظاهر أُدْخِلَ بلفظ المتكلم ، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة ، بل من اللّه تعالى مباشرة ، وظاهر الاذن يشعر باضافة الدخول إلى الواسطة ، فبينهما تنافر ، ولكن يحسن عندي أن يعلق بخالدين ، والخلود غير الدخول ، فلا تنافر ، واللّه أعلم .

(246/418)

---

تفسير لقوله ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كقولك : شرّف الأمير زيدا : كساه حلة ، وحمله على فرس . ويجوز أن ينتصب مَثَلًا وكَلِمَةً بضرب ، أى : ضرب كلمة طيبة مثلا ، بمعنى : جعلها مثلا ثم قال كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، بمعنى هي كشجرة طيبة أَصْلُها ثابِتٌ يعنى في الأرض ضارب بعروقه فيها وَفَرْعُها وأعلاها ورأسها فِي السَّماءِ ويجوز أن يريد : وفروعها ، على الاكتفاء بلفظ الجنس . وقرأ أنس بن مالك : كشجرة طيبة ثابت أصلها

فإن قلت : أىّ فرق بين القراءتين ؟ قلت : قراءة الجماعة أقوى معنى ، لأنّ في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ، وإذا قلت : مررت برجل أبوه قائم ، فهو أقوى معنى من قولك : مررت برجل قائم أبوه ، لأنّ المخبر عنه إنما هو الأب لا رجل . والكلمة الطيبة : كلمة التوحيد . وقيل :

كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة . وعن ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا اللّه . وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة الثمار ، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمّان وغير ذلك . وعن ابن عمر أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال ذات يوم : «إن اللّه ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي» «1» فوقع الناس في شجر البوادي ، وكنت صبيا ، فوقع في قلبي أنها النخلة ، فهبت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم . وروى : فمنعني مكان عمرو استحييت ، فقال لي عمر : يا بنىّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إلىّ من حمر النعم ، ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ألا إنها النخلة» وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : شجرة في الجنة وقوله فِي السَّماءِ معناه في جهة العلوّ والصعود ، ولم يرد المظلة ، كقولك في الجبل : طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ تعطى ثمرها كل وقت وقته اللّه لإثمارها بِإِذْنِ رَبِّها بتيسير خالقها وتكوينه لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني .

[سورة إبراهيم (14) : آية 26]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26)

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ كمثل شجرة خبيثة، أى: صفتها كصفتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب، عطفا على كلمة طيبة. والكلمة الخبيثة: كلمة الشرك. وقيل: كل كلمة قبيحة. وأمّا الشجرة الخبيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوث «2» ونحو ذلك. وقوله اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ في مقابلة قوله أَصْلُها ثابِتٌ ومعنى اجْتُثَّتْ استؤصلت. وحقيقة الاجتثاث

---

(1). متفق عليه وله ألفاظ.

(2). قوله «والكشوث» في الصحاح الكشوث نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض.

قال الشاعر:

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر (ع)



---

أخذ الجثة كلها ما لَها مِنْ قَرارٍ أى استقرار. يقال: قرّ الشيء قرارا، كقولك: ثبت ثباتا، شبه بها القول الذي لم يعضد بحجة، فهو داحض غير ثابت والذي لا يبقى إما يضمحل عن

قريب لبطلانه ، من قولهم : الباطل لجلج «1» . وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء : ما تقول في كلمة خبيثة ؟ فقال : ما أعلم لها في الأرض مستقراً ، ولا في السماء مصعداً ، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة .

[سورة إبراهيم (14) : آية 27]

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27)

بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ الذي ثبت بالحجة «2» والبرهان في قلب صاحبه وتمكن فيه ، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به في الدنيا : أنهم إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا ، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود ، والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وكما ثبت جرجيس وشمسون وغيرهما . وتثبيتهم في الآخرة . أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم ، لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل معناه الثبات عند سؤال القبر . وعن البراء ابن عازب رضى اللّه عنه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال «ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

فيقول : ربى اللّه ، ودينى الإسلام ، ونبيي محمد ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فذلك قوله : يثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت» «3» وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ الذين لم

يتمسكوا بحجة في دينهم ، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم ، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أوّل شيء ، وهم في الآخرة أضل وأذل وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ أي ما توجبه الحكمة ، لأن مشيئة اللّه تابعة

---

(1) . قوله «من قولهم الباطل لجلج» في الصحاح : الحق أبلج ، والباطل لجلج ، أى : يردد من غير أن ينفذ . (ع)

(2) . قوله «القول الثابت الذي ثبت بالحجة» لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبيثة بكلمة الشرك ، فالمتجه تفسير القول الثابت بقول «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» وإضلال الظالمين ببقائهم على كلمة الشرك ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق . وفيه رد على أهل السنة المكتفين بالتقليد في تحقق الايمان . (ع)

(3) . هذا طرف من حديث له طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبى شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخاري مرفوعا في قوله يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ قال : نزلت في عذاب القبر . يقال له : من ربك ومن نبيك ؟ فيقول : ربى اللّه . ونبى محمد صلى اللّه عليه وسلم . وذلك قوله تعالى يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا . . . الآية .

(248/418)

---

للحكمة ، من تثبيت المؤمنين وتأييدهم ، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم ، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم ، والتخلية بينهم وبين شأنهم عند زللهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 537.555 ﴾

(249/418)

---

وقال النسفى :

سورة إبراهيم عليه السلام مكية : اثنتان وخمسون آيه

﴿ الر كِتَابٌ ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب يعني السورة ، والجملة التي هي ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ ﴾ في موضع الرفع صفة للنكرة ﴿ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ بدعائك إياهم ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿ بِإِذْنِ رَبّهِمْ ﴾ بتيسيره وتسهيله مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق ﴿ إلى صراط ﴾ بدل من ﴿ النور ﴾ بتكرير العامل ﴿ العزيز ﴾ الغالب بالانتقام ﴿ الحميد ﴾ المحمود على

الإنعام ﴿ الله ﴾ بالرفع مدني وشامي على هو "الله" وبالجر غيرهما على أنه عطف بيان للعزيز الحميد ﴿ الذى لَهُ مَا فِى السماوات وَمَا فِى الأرض ﴾ خلقاً وملكاً .

ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال : ﴿ وَوَيْلٌ للكافرين مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وهو مبتدأ وخبر ، وصفة ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ ﴾ يختارون ويؤثرون ﴿ الحياة الدنيا عَلَى الأخرة وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ عن دينه ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجاً والأصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل .

﴿ الذين ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ عن الحق .

ووصف الضلال بالبعد من الإسناد والمجازي والبعد في الحقيقة للضال لأنه هو الذي يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده ، أو مجرور صفة للكافرين ، أو منصوب على الذم أو مرفوع على أعني الذين أو هم الذين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ إلا متكلماً بلغتهم ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له : لم نفهم ما خوطبنا به .

فإن قلت : إن رسولنا صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس جميعاً بقوله ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الناس إِنّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [ الأعراف : 158 ] بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت : لا يخلو ما إن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا

حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فتعين أن ينزل بلسان واحد ، وكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم أقرب إليه ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ﴿ فَيُضِلُّ الله مَن يَشَاء ﴾ من آثر سبب الضلالة ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ من آثر سبب الاهتداء ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿ الحكيم ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ التسع ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ بأن أخرج أو أي أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل : أرسلناه وقلنا له أخرج قومك ﴿ مِنَ الظلمات إِلَى النور وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها أو بأيام الإنعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّكُلّ صَبَّارٍ ﴾ على البلايا ﴿ شَكُورٍ ﴾ على العطايا كأنه قال لكل مؤمن إذ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر

.

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب ﴾ "إذ" ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أي إنعامه عليكم ذلك الوقت ، أو بدل اشتمال من نعمة الله أي اذكروا وقت إنجائكم ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ ﴾ ذكر في البقرة ﴿ يذبحون ﴾ [ البقرة : 49 ] وفي الأعراف ﴿ يقتلون ﴾ [ الأعراف : 141 ] بلا واو ، وهنا مع الواو .

(251/418)

---

والحاصل أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له ، وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث إنه زاد على جنس العذاب كأنه جنس آخر ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِى ذلكم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ الإشارة إلى العذاب والبلاء المحنة أو إلى الإنجاء والبلاء النعمة .

﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [ الأنبياء : 35 ] ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي آذن ونظير "تأذن" و"آذن" توعد وأوعد .

ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل كأنه قيل : وإذ آذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه ، وانتصابه للعطف على ﴿ نعمة

الله عليكم ﴾ كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها ﴿ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ نعمة إلى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقيل : إذا سمعت النعمة نغمة الشكر تأهبت للمزيد .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لئن شكرتم بالجد في الطاعة لأزيدنكم بالجد في المثوبة ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ لمن كفر نعمتي ، أما في الدنيا فسلب النعم وأما في العقبى فتوالى النقم .

(252/418)

---

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ والناس كلهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ ﴾ عن شكركم ﴿ حَمِيدٌ ﴾ وإن لم يحمده الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ من كلام موسى لقومه أو ابتداء خطاب لأهل عصر محمد عليه السلام ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت اعتراضاً ، أو عطف ﴿ الذين من بعدهم ﴾ على ﴿ قوم نوح ﴾ و ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ اعتراض ،

والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون .



---

ورُوى أنه عليه السلام قال عند نزول هذه الآية : كذب النسابون ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ﴾ بالمعجزات ﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ الضميران يعودان إلى الكفرة أي أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجباً أو عضوا عليها تغيظاً ، أو الثاني يعود إلى الأنبياء أي رد القوم أيديهم في أفواه الرسل كيلا يتكلموا بما أرسلوا به ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكّ مّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى الله شَكٌّ ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام ليس في الشك إنما هو في المشكوك فيه ، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وهو جواب قولهم ﴿ وإنا لفي شك ﴾ ﴿ فَاطِرِ السموات والأرض يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ إذا آمنتم ولم تجيء مع "من" إلا في خطاب الكافرين كقوله : ﴿ واتقوه وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [ نوح : 4 ، 3 ] ﴿ ياقومنا أَجِيبُواْ دَاعِىَ الله وَءامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [ الاحقاف : 31 ] وقال في خطاب المؤمنين : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على

تجارة ﴾ إلى أن قال : ﴿ يَغفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [ الصف : 11 ، 10 ] وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوي بين الفريقين في الميعاد ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت قد سماه وبين مقداره .

(254/418)

---

﴿ قَالُواْ ﴾ أي القوم ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ ما أنتم ﴿ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا ﴾ يعني الأصنام ﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجا

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ تسليم قولهم إنهم بشر مثلهم ﴿ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالإيمان والنبوة كما منّ علينا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بسلطان إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ جواب لقولهم : ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ والمعنى أن الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم

وإيذائكم ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ ﴾ معناه وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب : التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا .

(255/418)

---

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ﴾ ﴿ سبْلنا ﴾ ﴿ لرسْلهم ﴾ أبو عمرو ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ من ديارنا ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أي ليكونن أحد الأمرين إخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ القول مضمر أو أجرى الإيحاء مجرى القول لأنه ضرب منه ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي أرض الظالمين وديارهم .

في الحديث : " من آذى جاره ورثه الله داره " ﴿ ذلك ﴾ الإهلاك والإسكان أي ذلك الأمر حق ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ موقفي وهو موقف الحساب أو المقام مقحم أو خاف قيامي عليه بالعلم كقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ على كُلِّ نفسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [ الرعد : 33 ] والمعنى أن ذلك حق للمتقين ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ﴿ عذابي ﴾ وبالياء يعقوب ﴿ واستفتحوا ﴾ واستنصروا الله على أعدائهم وهو معطوف على أوحى إليهم ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ ﴾ وخسر كل متكبر بطر ﴿ عَنِيدٍ ﴾ مجانب للحق .

معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وقيل : الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه ﴿ مِّن وَرَآئِهِ ﴾ من بين يديه ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ وهذا وصف حاله وهو في الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف ﴿ ويسقى ﴾ معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى ﴿ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ ما يسيل من جلود أهل النار ، و ﴿ صديد ﴾ عطف بيان لماء لأنه مبهم فبين بقوله ﴿ صديد ﴾

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ يشربه جرعة جرعة ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة كقوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ [ النور : 40 ] أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكاً ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ لأنه لو مات لاستراح ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ ومن بين يديه ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ .

وعن الفضيل هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد .

(257/418)

---

﴿ مَثَلُ الذين ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين ﴿ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم فقيل أعمالهم كرماد ﴿ اشتدت بِهِ الريح ﴾ ﴿ الرياح ﴾ مدني ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح كقولك : "يوم ماطر" ، وأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسرى وعقر الإبل للأضياف وغير ذلك شبهها في حبوطها لبنائها على غير أساس وهو

الإيمان بالله تعالى برماد طيرته الريح العاصف ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من أعمالهم ﴿ على شَيْءٍ ﴾ أي لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ﴿ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تعلم الخطاب لكل أحد ﴿ أَنَّ الله خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ ﴿ خالق ﴾ مضافاً حمزة وعلي ﴿ بالحق ﴾ بالحكمة والأمر العظيم ولم يخلقها عبثاً ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم إعلاماً بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم

﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر .

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ويبرزون يوم القيامة وإنما جيء به بلفظ الماضي لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد .



---

ونحوه ﴿ وَنَادَى أصحاب الجنة ﴾ [ الأعراف : 44 ] ﴿ ونادى أصحاب النار ﴾ [ الأعراف : 50 ] وغير ذلك ، ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى

يبرز لهم أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف على الله ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية ، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه ﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ في الرأي وهم السفلة والأتباع وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ تابعين .

جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوي تبع والتبع الأتباع يقال : تبعه تبعاً ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه .

و"من" الأولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله أو هما للتبعيض أي فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخاً لهم وعتاباً على استغوائهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ﴿ قَالُوا ﴾ لهم مجيبين معتذرين ﴿ لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية .

(259/418)

روى أنهم يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر ثم يقولون ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ واتصاله بما قبله من حيث إن عتابهم لهم كان جزعاً مما هم فيه فقالوا لهم : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً .

﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ حكم بالجنة والنار لأهليهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ورُوي أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً .

(260/418)

على منبر من نار فيقول لأهل النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ كذبتكم ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سلطان ﴾ من تسلط واقتدار ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ لكني دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني والاستثناء منقطع لأن الدعاء ليس من جنس السلطان ﴿ فاستجبتم ﴾ فأسرعتم إجابتي ﴿ فَلاَ تَلُومُونِي ﴾ لأن من تجرد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح مع أن الرحمن قد قال لكم: ﴿ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة ﴾ [الأعراف: 27] ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين باطل لقوله: لو هدانا الله أي إلى الإيمان ﴿ لهديناكم ﴾ [إبراهيم: 21] كما مر ﴿ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغيثه.

والإصراخ الإغاثة ﴿ بمصرخيِّ ﴾ حمزة اتباعاً للخاء غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياءان بعد كسرتين وهو جمع مصرخ فالياء الأولى يا الجمع والثانية ضمير المتكلم ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ ﴾ وبالياء بصري و"ما" مصدرية ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق ب ﴿ أشركتموني ﴾ أي كفرت اليوم بإشراككم إياي مع الله من قبل هذا اليوم أي في الدنيا كقوله ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ [ فاطر : 14 ] ومعنى كفره بإشراكهم إياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله : ﴿ أَنَّا بُرَآءُ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ [ الممتحنة : 4 ] أو من قبل متعلق ﴿ بكفرت ﴾ و"ما" موصولة أي كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله عز وجل .

تقول : أشركني فلان أي جعلني له شريكاً ، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله : ﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قول الله عز وجل .

وقيل : هو من تمام إبليس وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفاً للسامعين .

﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ عطف على ﴿ برزوا ﴾ ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلق ب ﴿ أدخل ﴾ أي أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة أو تسليم الملائكة عليهم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ أي وصفه وبينه ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ نصب بمضمر أي جعل كلمة طيبة ﴿ كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو تفسير لقوله : ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ نحو شرف الأمير زيداً كساه حلة وحمله على فرس ، أو انتصب ﴿ مثلا ﴾ و ﴿ كلمة ﴾ ب ﴿ ضرب ﴾ أي ضرب كلمة طيبة مثلاً يعني جعلها مثلاً ثم قال ﴿ كشجرة طيبة ﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة طيبة ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ وأعلاها ورأسها ﴿ فِي السماء ﴾ والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان ، وفرعها إقرار باللسان ، وأكلها عمل الأركان ، وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملاً فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملاً ولكن الأشجار لا تراد إلا للثمار فما أقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الأثمار .

والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على أنها النخلة ، فعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم : " إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي ؟ " فوقع الناس في شجر البوادي ، وكنت

صبياً فوقع في قلبي أنها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إنها النخلة " فقال عمر : يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم

(263/418)

---

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ تعطي ثمرها كل وقت وقتها الله لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بتيسير خالقها وتكوينه ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كلمة الكفر ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كل شجرة لا يطيب ثمرها وفي الحديث : أنها شجرة الحنظل ﴿ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو في مقابلة ﴿ أصلها ثابت ﴾ ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أي استقرار يقال قر الشيء قراراً كقولك ثبت ثبوتاً ، شبه بها القول الذي لا يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي يديمهم عليه ﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ هو قول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ حتى إذا فتنوا في دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود وغير ذلك ﴿ وَفِي الآخرة ﴾

الجمهور على أن المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب ، فعن البراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال : " ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ ثم يقول الملكان : عشت سعيداً ومت حميداً نم نومة العروس " ﴿ وَيُضِلُّ الله الظالمين ﴾ فلا يثبتهم على القول الثابت في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضل وأزل ﴿ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاء ﴾ فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 254 262.﴾

(264/418)

---

وقال ابن جزى :

سورة إبراهيم عليه السلام :

﴿ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والظلمات الكفر والجهل ، والنور الإيمان والعلم ﴾

بإذن ربهم ﴾ أي بأمره وهو إرساله ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ بدل من إلى النور .

﴿ اللَّهُ ﴾ قرئ بالرفع وهو مبتدأ أو خبر مبتدأ مضمر ، وبالخفض بدل ﴿ يَسْتَحِبُّونَ ﴾ أي يؤثرون ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ قد ذكر ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي بلغتهم وكلامهم ﴿ أَنْ أَخْرِجْ ﴾ أن مفسرة أو مصدرية على تقدير بأن ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أي عقوباته للأمم المتقدمة ، وقيل : إنعامه على بني إسرائيل ، واللفظ يعم النعم والنقم ، وعبر عنها بالأيان لأنها كانت في بالأيام ، وفي ذلك تعظيم لها كقولهم يوم كذا ويوم كذا .

﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ذكر هنا بالواو ، ليدل على أن سوء العذاب غير الذبح أو أعم من ذلك ثم جر الذبح كقوله وملائكته وجبريل وميكال ، ذكر في البقرة بغير واو تفسير للعذاب ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ من كلام موسى ، وتأذن بمعنى أذن أي : أعلم كقولك : توعد وأوعد وإعلام الله مقترن بإنفاذ ما أعلم به ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ هذا معمول تأذن لأنه يتضمن معنى قال ، ويحتمل أن تكون الزيادة من خير الدنيا أو من الثواب في الآخرة أو منهما ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ يحتمل أن يريد كفر النعم أو الكفر بالإيمان والأول أرجح لمقابلته بالشكر .

﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ عبارة عن كثرتهم كقوله : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [ الفرقان : 38 ] ﴿ فردوا أَيْدِيَهُمْ في أفواههم ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن الضمائر لقوم الرسل ، والمعنى أنهم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم غيظاً من الرسل كقوله : عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، أو استهزاء وضحكا : كمن غلبه الضحك فوضع يده على فمه ، والثاني : أن الضمائر لهم ، والمعنى أنهم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم إشارة على الأنبياء بالسكوت ، والثالث : أنهم ردوا أيديهم في أفواه الأنبياء تسكيتاً لهم ، وردا لقولهم ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ المعنى أفي وجود الله شك أو في إلهيته شك ، وقيل : وحدانيته ، والهمزة للتقرير والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ، ولذلك وصفه بعد بقوله : ﴿ فَاطِرِ السماوات والأرض ﴾ ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ قيل : إن من زائدة ، ومنع سيبويه زيادتها في الواجب وهي عنده للتبعيض ، ومعناه أن يغفر للكافر إذا أسلم ما تقدم من ذنبه قبل الإسلام ، ويبقى ما يذنب بعده في المشيئة ، فوقعت المغفرة في البعض ولم يأت في القرآن غفران بعض الذنوب إلا للكافر كهذا الموضع ، والذي في الأحقاف وسورة نوح وجاء للمؤمنين بغير من كالذي في الصف ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قال الزمخشري وأهل مذهبه من المعتزلة : معناه يؤخركم إن آمنتم إلى آجالكم ، وإن لم تؤمنوا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ، وهذا بناء على قولهم بالأجلين ، وأهل السنة يأبون هذا ، فإن الأجل عندهم واحد محتوم . ﴿ قالوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يحتمل أن يكون قولهم استبعاداً لتفضيل بعض البشر على بعض بالنبوة

، أو يكون إحالة لنبوة البشر ، والأول أظهر لطلبهم البرهان في قولهم : فأتونا بسلطان مبين ولقول الرسل : ولكن الله يمن على من يشاء من عباده أي : بالتفضيل بالنبوة .



---

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ والمعنى أي شيء يمنعنا من التوكل على الله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ إن قيل لم كرر الأمر ؟ فالجواب عندي أن قوله : وعلى الله فليتوكل المؤمنون راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار بسلطان مبين أي حجة ظاهره ، فتوكل الرسل في ورودها على الله ، وأما قوله فليتوكل المتوكلون ؛ فهو راجع إلى قولهم : ولنصبرن على ما آذيتمونا أي : نتوكل على الله في دفع أذاكم .

وقال الزمخشري : إن هذا الثاني في معنى الثبوت على التوكل ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أو هنا بمعنى إلا أن ، أو على أصلها ، لوقوع أحد الشيئين ، والعود هنا بمعنى الصيرورة ، وهي كثير في كلام العرب ولا يقتضي أن الرسل ، كانوا في ملة الكفار قبل ذلك .

﴿ خَافَ مَقَامِي ﴾ فيه ثلاثة أوجه : هنا وفي ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ في [ الرحمن : 46 ] فالأول أن معناه مقام الحساب في القيامة والثاني : أن معناه قيام الله على عباده بأعمالهم والثالث : أن معناه خافني وخاف ربه ، على إقحام المقام أو على التعبير به عن

الذات .

﴿ واستفتحوا ﴾ الضمير للرسل أي استنصروا بالله وأصله طلب الفتح وهو الحكم ﴿ جَبَّارٍ ﴾ أي قاهر أو متكبر ﴿ عَنِيدٍ ﴾ مخالف للانقياد ﴿ مِّن وَرَآئِهِ ﴾ في الموضعين والوراء هنا بمعنى ما يستقبل من الزمان ، وقيل : معناه هنا أمامه وهو بعيد ﴿ ويسقى ﴾ معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ويسقى ، وإنما ذكر هذا السقي تجريداً بعد ذكر جهنم ، لأنه من أشد عذابها ﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يتكلف جرعه وتصعب عليه إساغته ، ونفي كاد يقتضي وقوع الإساغة بعد جهد ، ومعنى يسيغه يبتلعه ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي يجد الماء مثل ألم الموت وكربته من جميع الجهات ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي لا يراح بالموت .

(267/418)

---

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ ﴾ مذهب سيبويه والفراء فيه كقولهما في : مثل الجنة التي في الرعد والقتال ، والخبر عند سيبويه محذوف تقديره : فيما يتلى عليكم والخبر عند الفراء الجملة التي بعده ، والمثل هنا بمعنى الشبيه ﴿ أعمالهم كَرَمَادٍ ﴾ تشبيهاً بالرماد في ذهابها وتلاشيها ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أي شديد الريح والعصوف في الحقيقة من صفة الريح ﴿

﴿ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أي لا يرون له منفعة .

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴾ أي ظهروا ، ومعنى الظهور هنا خروجهم من القبور ، وقيل : معناه صاروا بالبراز ، وهي الأرض المتسعة ﴿ تَبَعًا ﴾ جمع تابع أو مصدر وصف به بالغة ، أو على حذف مضاف ﴿ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من الأولى للبيان ، والثانية للتبعيض ، ويجوز أن يكونا للتبعيض معاً قاله الزمخشري ، والأظهر أن الأولى للبيان ، والثانية زائدة ، والمعنى : هل أنتم دافعون أو متحملون عنا شيئاً من عذاب الله ﴿ مَّحِيصٍ ﴾ أي مهرب حيث وقع ، ويحتمل أن مصدراً أو اسم مكان .

﴿ وَقَالَ الشيطان ﴾ الكلام يوم القيامة أو في النار يقوله لأهلها ﴿ لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ إن كان كلام إبليس في القيامة بمعنى قُضي الأمر : تعيّن قومٌ للنار وقومٌ للجنة وإن كان في النار فمعنى قضي الأمر حصل أهل النار في النار وأهل الجنة في الجنة ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ استثناء منقطع ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي ما أنا بمغيثكم وما أنتم مغيثين لي ﴿ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ﴾ ما مصدريه : أي بإشراككم لي مع الله في الطاعة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يتعلق بأشركتمون ويحتمل أن يتعلق بكفرتم ، والأول أظهر وأرجح ﴿ إِنَّ الظالمين ﴾ استئناف من كلام الله تعالى ، ويحتمل أن يكون حكاية عن إبليس ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ يتعلق بأدخل أو بخالدين ، والأول أحسن .

﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ [ قال ] ابن عباس وغيره هي : لا إله إلا الله وقيل : كل حسنة ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ هي النخلة في قول الجمهور ، واختار ابن عطية أنها شجرة غير معينة ، إلا أنها كل ما اتصف بتلك الصفات ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السمآء ﴾ أي في الهواء ، وذلك عبارة عن طولها ﴿ تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ الحين في اللغة وقت غير محدود وقد تقترن به قرينة تحده ، وقيل : في كل حين كل سنة لأن النخلة تطعم في كل سنة ، وقيل : غير ذلك ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كلمة الكفر ، وقيل : كل كلمة قبيحة ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي الحنظلة عند الجمهور ، واختار ابن عطية غير معينة ﴿ اجتثت ﴾ أي اقتلعت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة ، وهذا في مقابلة قوله : أصلها ثابت ﴿ بالقول الثابت ﴾ هو لا إله إلا الله ، والإقرار بالنبوة ﴿ فِي الحياوة الدنيا ﴾ أي إذا فتنوا لم يزلوا ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ هو عند السؤال في القبر عند الجمهور . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 137 .

141﴾

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر كِتَابٌ ﴾ أي هو كتاب . ﴿ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنه . ﴿ مِنَ الظلمات ﴾ من أنواع الضلال . ﴿ إِلَى النور ﴾ إلى الهدى . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بتوفيقه وتسهيله مستعار من الاذن الذي هو تسهيل الحجاب ، وهو صلة ﴿ لِتُخْرِجَ ﴾ أو حال من فاعله أو مفعوله . ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ﴾ بدل من قوله : ﴿ إِلَى النور ﴾ بتكرير العامل أو استئناف على أنه جواب لمن يسأل عنه ، وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له وتخصيص الوصفين للتنبيه على أنه لا يذل سالكه ولا يخيب سابله .

﴿ الله الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الأرض ﴾ على قراءة نافع وابن عامر مبتدأ وخبر ، أو ﴿ الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف والذي صفته وعلى قراءة الباقين عطف بيان ل ﴿ العزيز ﴾ لأنه كالعلم لاختصاصه بالمعبود على الحق . ﴿ وَوَيْلٌ للكافرين مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور ، والويل نقيض الوأل وهو النجاة ، وأصله النصب لأنه مصدر إلا أنه لم يشتق منه فعل لكنه رفع لافادة الثبات .

﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الآخرة ﴾ يختارونها عليها فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره. ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان. وقرئ ﴿ ويصدون ﴾ من أصده وهو منقول من صد صدوداً إذا تنكب وليس فصيحاً، لأن في صده مندوحة عن تكلف التعدية بالهمزة. ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ويبغون لها زيغاً ونكوباً عن الحق ليقدحوا فيه، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير والموصول بصلته يحتمل الجر صفة للكافرين والنصب على الذم والرفع عليه أو على أنه مبتدأ خبره. ﴿ أُوْلَئِكَ فِى ضلال بَعِيدٍ ﴾ أي ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل، والبعد في الحقيقة للضال فوصف به فعله للمبالغة، أو للأمر الذي به الضلال فوصف به لملابسته.

*(271/418)*

---

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ إلا بلغة قومه الذي هو منهم وبعث فيهم. ﴿ لِيُبَيّنَ لَهُمْ ﴾ ما أمروا به فيفقهوه عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوه ويترجموه إلى غيرهم فإنهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم وأحق بأن ينذرهم، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم

بإنذار عشيرته أولاً ، ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على ألسنتهم استقل ذلك بنوع من الاعجاز ، لكن أدى إلى إختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها ، والعلوم المتشعبة منها وما في اتعاب القرائح وكد النفوس من القرب المقتضية لجزيل الثواب . وقرىء "بلسن" وهو لغة فيه كريش ورياش ، ولسن بضمتين وضمة وسكون على الجمع كعمد وعمد . وقيل الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم وأن الله تعالى أنزل الكتب كلها بالعربية ، ثم ترجمها جبريل عليه السلام أو كل نبي بلغة المنزل عليهم وذلك ليس بصحيح يرده قوله : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ فإنه ضمير القوم ، والتوراة والإنجيل ونحوهما لم تنزل لتبين للعرب . ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ ﴾ فيخذله عن الإيمان . ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ بالتوفيق له . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يغلب على مشيئته . ﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يضل ولا يهدي إلا لحكمه .

(272/418)

---

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا ﴾ يعني اليد والعصا وسائر معجزاته . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ بمعنى أي أخرج لأن في الإرسال معنى القول ، أو بأن أخرج فإن صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر فيصح أن توصل بها أن الناصبة . ﴿ وَذَكِّرْهُمْ

بِأَيَّامِ اللهِ ﴾ بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة وأيام العرب حروبها . وقيل بنعمائه وبلائه . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ يصبر على بلائه ويشكر على نعمائه ، فإنه إذا سمع بما أنزل على من قبل من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر . وقيل المراد لكل مؤمن وإنما عبر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن .

﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي اذكروا نعمته عليكم وقت إنجائه إياكم ، ويجوز أن ينتصب ب ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ إن جعلت مستقرة غير صلة للنعمة ، وذلك إذا أريد به العطية دون الأنعام ، ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ بدل الاشتمال . ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أحوال من آل فرعون ، أو من ضمير المخاطبين والمراد بالعذاب ها هنا غير المراد به في سورة "البقرة" و"الأعراف" لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة ومعطوف عليه التذبيح ها هنا ، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة .

﴿ وَفِى ذلكم ﴾ من حيث إنه بإقدار الله إياهم وإمهالهم فيه . ﴿ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ابتلاء منه ، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الانجاء والمراد بالبلاء النعمة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أيضاً من كلام موسى صلى الله عليه وسلم ، و﴿ تَأَذَّنَ ﴾ بمعنى آذن كتوعد وأوعد غير أنه أبلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم من الانجاء وغيره بالإيمان والعمل الصالح . ﴿ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ نعمة إلى نعمة . ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ ما أنعمت عليكم . ﴿ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيد ﴾ فلعلي أعذبكم على الكفران عذاباً شديداً ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ، والجملة مقول قول مقدر أو مفعول ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ على أنه جار مجرى "قَالَ" لأنه ضرب منه .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِى الأرض جَمِيعًا ﴾ من الثقلين . ﴿ فَإِنَّ الله لَغَنِىٌّ ﴾ عن شكركم . ﴿ حَمِيدٌ ﴾ مستحق للحمد في ذاته ، محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمته ذرات المخلوقات ، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الأنعام وعرضتموها للعذاب الشديد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام أو كلام مبتدأ من الله. ﴿ والذين مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ﴾ جملة وقعت اعتراضاً، أو الذين من بعدهم عطف على ما قبله ولا يعلمهم اعتراض، والمعنى أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كذب النسابون. ﴿ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ﴾ أو وضعوها عليها تعجباً منه أو استهزاء عليه كمن غلبه الضحك، أو إسكاتاً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمراً لهم باطباق الأفواه، أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا ﴾ تنبيهاً على أن لا جواب لهم سواه أو ردوها في أفواه الأنبياء يمنعونهم من التكلم، وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلاً.

وقيل الأيدي بمعنى الأيادي أي ردوا أيادي الأنبياء التي هي مواعظهم وما أوحى إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكأنهم ردوها إلى حيث جاءت منه. ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم. ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكّ مّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ ﴾ من الإِيمان وقرىء "تدعونا" بالادغام. ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشي.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام في المشكوك فيه لا في الشك . أي إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه . وأشاروا إلى ذلك بقولهم : ﴿ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ وهو صفة أو بدل ، و ﴿ شَكٌّ ﴾ مرتفع بالظرف . ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا . ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ أو يدعوكم إلى المغفرة كقولك : دعوته لينصرني ، على إقامة المفعول له مقام المفعول به . ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ بعض ذنوبكم وهو ما بينكم وبينه تعالى ، فإن الإسلام يجبه دون المظالم ، وقيل جيء بمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين ، ولعل المعنى فيه أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الإيمان وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فتتناول الخروج عن المظالم . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله آخر أعماركم . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل . ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ﴾ بهذه الدعوى . ﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية ، أو على صحة ادعائكم النبوة كأنهم لم يعتبروا ما جاءوا به من البينات والحجج واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً .

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ سلموا مشاركتهم في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومنه عليهم ، وفيه دليل على أن النبوة عطائية وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى .

﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَّأْتِيَكُمْ بسلطان إِلَّا بِإِذْنِ الله ﴾ أي ليس إلينا الإتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه ، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى فيخص كل نبي بنوع من الآيات . ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ فلنتوكل عليه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم ، عمموا الأمر للاشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً ألا ترى قوله تعالى :

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى الله ﴾ أي : أي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ التي بها نعرفه ونعلم أن الأمور كلها بيده . وقرأ أبو عمرو بالتخفيف ههنا وفي "العنكبوت" . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ على مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ جواب قسم محذوف أكدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم . ﴿ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد. ﴿ فأوحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي إلى رسلهم. ﴿ لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ﴾ على إضمار القول، أو إجراء الايحاء مجراه لأنه نوع منه.

(277/418)

---

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ﴾ أي أرضهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ وقرىء "ليهلكن" "وليسكننكم" بالياء اعتباراً لأوحى كقولك: أقسم زيد ليخرجن. ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين. ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ موقفي وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لا عمله وقيل المقام مقحم. ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار.

﴿ واستفتحوا ﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم من

الفاتحة كقوله : ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ﴾ وهو معطوف على ﴿ فأوحى ﴾ والضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل للكفرة وقيل للفريقين . فإن كلهم سألوه أن ينصر المحق ويهلك المبطل . وقرىء بلفظ الأمر عطفاً على "ليهلكن" . ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي ففتح لهم فأفلح المؤمنون وخاب كل جبار عات متكبر على الله معاند للحق فلم يفلح ، ومعنى الخيبة إذا كان الاستفتاح من الكفرة أو من القبيلين كان أوقع .

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي من بين يديه فإنه مرصد بها واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في الآخرة . وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك . ﴿ ويسقى مِن مَّاء ﴾ عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ﴿ ويسقى مِن مَّاء ﴾ . ﴿ صَدِيدٍ ﴾ عطف بيان ل ﴿ مَاء ﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار .

(278/418)

---

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ يتكلف جرعه وهو صفة لماء ، أو حال من الضمير في ﴿ يسقى ﴾ ﴿ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه بل يغص به فيطول عذابه ، والسوغ جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبول نفس . ﴿ وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي أسبابه من الشدائد فتحيط به من جميع الجهات . وقيل من كل مكان من جسده حتى من

أصول شعره وإبهام رجله . ﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ فيستريح . ﴿ وَمِن وَرَائِهِ ﴾ ومن بين يديه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أي يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه . وقيل هو الخلود في النار . وقيل حبس الأنفاس . وقيل الآية منقطعة عن قصة الرسل نازلة في أهل مكة طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنيهم التي أرسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله ، فخيب رجاءهم فلم يسقهم ووعد لهم أن يسقيهم في جهنم بدل سقياهم صديد أهل النار .

﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة ، أو قوله ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ وهو على الأول جملة مستأنفة لبيان مثلهم . وقيل ﴿ أعمالهم ﴾ بدل من ال ﴿ مَثَلُ ﴾ والخبر ﴿ كَرَمَادٍ ﴾ . ﴿ اشتدت بِهِ الريح ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به وقرأ نافع "الرياح" . ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، شبه صنائعهم من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حبوطها وذهابها هباء منثوراً ، لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه ، أو أعمالهم للأصنام برماد طيرته الريح العاصف . ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ يوم القيامة . ﴿ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ من أعمالهم . ﴿ على شَىْءٍ ﴾ لحبوطه فلا يرون له أثراً من الثواب وهو فذلكة

التمثيل . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون . ﴿ هُوَ الضلال البعيد ﴾ فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق .

(279/418)

---

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أمته . وقيل لكل واحد من الكفرة على التلوين . ﴿ أَنَّ الله خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ والحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه ، وقرأ حمزة والكسائي "خالق السموات" . ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ يعدمكم ويخلق خلقاً آخر مكانكم ، رتب ذلك على كونه خالقاً للسموات والأرض استدلالاً به عليه ، فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه ذلك كما قال : ﴿ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أو متعسر فإنه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه يوم الجزاء .

(280/418)

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله تعالى ومحاسبته ، أو ﴿ لِلَّهِ ﴾ على ظنهم فإنهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ويظنون أنها تخفى على الله تعالى ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم ، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه . ﴿ فَقَالَ الضعفاء ﴾ الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف الرأي ، وإنما كتبت بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو . ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ لرؤوسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم . ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ في تكذيب الرسل والاعراض عن نصائحهم ، وهو جمع تابع كغائب وغيب ، أو مصدر نعت به للمبالغة أو على إضمار مضاف . ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴾ دافعون عنا . ﴿ مِنْ عَذَابِ الله مِنْ شَىْءٍ ﴾ من الأولى للبيان واقعة موقع الحال ، والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله ، ويجوز أن تكونا للتبعيض أي بعض شيء هو بعض عذاب الله ، والإعراب ما سبق ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدراً ، أي فهل أنتم مغنون بعض العذاب بعض الإغناء . ﴿ قَالُواْ ﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم . ﴿ لَوْ هَدَانَا الله ﴾ للإيمان ووفقنا له . ﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرضناكم له ، لكن سد دوننا طريق الخلاص . ﴿

سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ﴾ مستويان علينا الجزع والصبر . ﴿ مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ منجى ومهرب من العذاب ، من الحيص وهو العدل على جهة الفرار ، وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالمبيت ومصدراً كالمغيب ، ويجوز أن يكون قوله ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا ﴾ من كلام الفريقين ويؤيده ما روي أنهم يقولون : تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم ،



---

فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك ثم يقولون ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا ﴾ .

﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر ﴾ أحكم وفرغ منه ودخل أهل الجنة الجنّة وأهل النار النار خطيباً في الأشقياء من الثقلين . ﴿ إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ وعداً من حقه أن ينجزه أو وعداً أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء . ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعد الباطل وهو أن ألا بعث ولا حساب وإن كانا فالأصنام تشفع لكم . ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ جعل تبين خلف وعده كالاخلاف منه . ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان ﴾ تسلط فألجئكم إلى الكفر والمعاصي . ﴿ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ﴾ إلا دعائي إياكم إليها بتسويلي وهو ليس من جنس السلطان ولكنه على طريقة قولهم :

تحية بينهم ضرب وجيع . . . ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً . ﴿ فاستجبتم لِى ﴾ أسرعتم إجابتي . ﴿ فَلاَ تَلُومُونِى ﴾ بوسوستي فإن من صرح العداوة لا يلام بأمثال ذلك . ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ حيث أطعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم ، واحتجت المعتزلة بأمثال ذلك على استقلال العبد بأفعاله وليس فيها ما يدل عليه ، إذ يكفي لصحتها أن يكون لقدرة العبد مدخل ما في فعله وهو الكسب الذي يقوله أصحابنا . ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ بمغيثكم من العذاب . ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ بمغيثي وقرأ حمزة بكسر الياء على الأصل في التقاء الساكنين ، وهو أصل مرفوض في مثله لما فيه . من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع أن حركة ياء الإضافة الفتح ، فإذا لم تكسر وقبلها ألف فبالحري أن لا تكسر وقبلها ياء ، أو على لغة من يزيد ياء على ياء الإضافة إجراء لها مجرى الهاء والكاف في : ضربته ، وأعطيتكه ، وحذف الياء اكتفاء بالكسرة . ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ "ما" إما مصدرية و﴿ مِنْ ﴾ متعلقة بأشركتموني أي كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي في الدنيا بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أو موصولة بمعنى من نحو ما في قولهم : سبحان ما سخركن لنا ، و﴿ مِنْ ﴾ متعلقة ب ﴿ كَفَرْتُ ﴾ أي كفرت بالذي أشركتمونيه وهو الله تعالى بطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم ، حين

رددت أمره بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام وأشرك منقول من شركت زيداً للتعدية إلى مفعول ثان . ﴿ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تتمة كلامه أو ابتداء كلام من الله تعالى وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم .

(283/418)

---

﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بإذن الله تعالى وأمره والمدخلون هم الملائكة . وقرىء ﴿ وَأُدْخِلَ ﴾ على التكلم فيكون قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ أي تحييهم الملائكة فيها بالسلام بإذن ربهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ كيف اعتمده ووضعه . ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، وهو تفسير لقوله ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً ﴾ ، ويجوز أن تكون ﴿ كَلِمَةَ ﴾ بدلاً من ﴿ مَثَلاً ﴾ و ﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي ﴿ كَشَجَرَةٍ ﴾ ، وأن تكون أول مفعولي ضرب إجراء له مجرى جعل وقد قرئت بالرفع على الابتداء . ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها . ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ وأعلاها . ﴿ فِى السماء ﴾ ويجوز أن يريد وفروعها أي أفنانها على

الاكتفاء بلفظ الجنس لاكتسابه الاستغراق من الإضافة. وقرىء "ثابت أصلها" والأول على أصله ولذلك قيل إنه أقوى ولعل الثاني أبلغ.

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها. ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ وقته الله تعالى لإثمارها. ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتكوينه. ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحس.



---

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ كمثل شجرة خبيثة ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية. ﴿ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ لأن عروقها قريبة منه. ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ استقرار. واختلف في الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة: بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالشرك بالله تعالى والدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق، ولعل المراد بهما ما يعم ذلك فالكلمة الطيبة ما أعرب عن حق أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة. وروي ذلك مرفوعاً وبشجرة في الجنة، والخبيثة بالحنظلة والكشوث، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك. ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في

قلوبهم ﴿ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فلا يزالون إذا فتنوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيس وشمعون والذين فتنهم أصحاب الأخدود . ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة . وروي ( " أنه صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال : ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي " فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين ءامَنُوا بالقول الثابت ﴾ . ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد فلا يهتدون إلى الحق ولا يثبتون في مواقف الفتن . ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 336 . 348 ﴾

*(285/418)*

---

وقال الخطيب الشربينى :

سورة إبراهيم عليه السلام مكية

إلا قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله ﴾ (إبراهيم ، ) الآيتين ، وهي اثنتان

وخمسون آية وعدد كلماتها وإحدى وثلاثون كلمة ، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعة وثلاثون حرفاً

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قوله تعالى:

﴿ الر ﴾ تقدّم الكلام عليها أول يونس وهود . وقوله تعالى : ﴿ كتاب ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هذا القرآن كتاب ، أو الر ، إن قلنا : إنها مبتدأ والجملة بعده صفة ، ويجوز أن يرتفع بالابتداء وخبره الجملة بعده وجاز الابتداء بالنكرة ؛ لأنها موصوفة تقديراً ، تقديره كتاب ، أي : كتاب يعني عظيماً من بين الكتب السماوية ﴿ أنزلناه إليك ﴾ يا أشرف الخلق عند الله تعالى ﴿ لتخرج الناس ﴾ ، أي : عامة قومك وغيرهم بدعائك إياهم ﴿ من الظلمات ﴾ ، أي : الكفر وأنواع الضلالة ﴿ إلى النور ﴾ ، أي : الإيمان والهدى . قال الرازي : والآية دالة على أنّ طرق الكفر والبدع كثيرة وأنّ طريق الحق ليس إلا واحداً ؛ لأنه تعالى قال : ﴿ لتخرج الناس من الظلمات ﴾ وهي صيغة جمع ، وعبر عن الإيمان والهدى بالنور ، وهو لفظ مفرد وذلك يدل على أنّ طرق الجهل والكفر كثيرة وأنّ طريق العلم والإيمان ليس إلا واحداً .

تنبيه : القائلون بأن معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها إلا من تعليم الرسول ، احتجوا بهذه الآية ، وذلك يدلّ على أنّ معرفة الله تعالى لا تحصل إلا من طريق التعليم . وأجيب : بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه وأمّا المعرفة فهي إنما تحصل من الدليل وقوله تعالى :

﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلق بالإخراج، أي: بتوفيقه وتسهيله، ويبدل من إلى النور ﴿ إلى صراط ﴾ ، أي: طريق ﴿ العزيز ﴾ ، أي: الغالب ﴿ الحميد ﴾ ، أي: المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد، وفي قوله:

(286/418)

---

﴿ الله ﴾ قراءتان، فقرأ نافع وابن عامر برفع الهاء وصلاً وابتداء على أنه مبتدأ خبره ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ، أي: ملكاً وخلقاً، وقرأ الباقون بالجرّ على أنه بدل أو عطف بيان وما بعده صفة.

تنبيه: ذهب جماعة من المحققين إلى أنّ قولنا: الله جار مجرى الاسم العلم لذات الله سبحانه وتعالى، وذهب قوم آخرون إلى أنه لفظ مشتق. قال الرازي: والحق عندنا هو الأوّل؛ لأنّ الأمّة لما اجتمعت على أنّ قولنا: لا إله إلا الله يوجب التوحيد المحض علمنا أنّ قولنا: الله جار مجرى الاسم العلم. وقد قال تعالى: ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ (مريم، ) ، أي: هل تعلم من اسمه الله غير الله، وذلك يدل على قولنا: الله اسم لذاته المخصوصة، ولذا استشكل قراءة الجرّ إذ الترتيب الحسن أن يذكر الاسم، ثم يذكر عقبه الصفات كقوله تعالى: ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ (الحشر، ) وأمّا الخالق الله فلا يحسن.

وأجيب عن ذلك بأنه لا يبعد أن تذكر الصفة أوّلاً ، ثم يذكر الاسم ثم تذكر الصفة مرّة أخرى كما يقال : مررت بالإمام الأجل محمد الفقيه ، وهو بعينه نظير قوله تعالى :

﴿ صراط العزيز الحميد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ والآية تفيد حصر ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره ، وذلك ليدلّ على أنه لا مالك إلا الله ، ولا حاكم إلا الله ، وأنه تعالى خالق لأعمال العباد ؛ لأنها حاصلة في السموات والأرض ، فوجب القول بأنّ أفعال العباد له بمعنى كونها مملوكة له ، والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله ، وإذا ثبت أنها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله ، وإلا لكان العبد قد منع الله تعالى من إيقاع مقدوره ، وذلك محال ، ثم إنه تعالى لما ذكر ذلك عطف على الكفار بالوعيد فقال تعالى : ﴿ وويل للكافرين ﴾ ، أي : الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وعبدوا من لا يملك شيئاً البتة ، بل هو مملوك لله تعالى ؛ لأنه من جملة ما في السموات وما في الأرض ، وويل مبتدأ ، وجاز الابتداء به ؛ لأنه دعاء كسلام عليكم وللكافرين خبره ، وقوله تعالى : ﴿ من عذاب شديد ﴾ ، أي : يعذبهم في الآخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ، ثم وصفهم بقوله تعالى:

﴿ الذين يستحبون ﴾ ، أي : يختارون ﴿ الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ ، أي : يؤثرونها عليها ﴿ ويصدّون عن سبيل الله ﴾ ، أي : يمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿ ويبغونها ﴾ ، أي : السبيل ﴿ عوجاً ﴾ ، أي : معوجة والأصل ويبغون لها زيغاً وميلاً ، فحذف الجار ، وأوصل الفعل إلى الضمير ﴿ أولئك ﴾ ، أي : الموصوفون بهذه الصفات ﴿ في ضلال بعيد ﴾ ، أي : عن الحق وإسناد البعد إلى الضلال إسناد مجازي ؛ لأنّ البعيد هم الضلال بميلهم عن الباقي إلى الفاني . ثم ذكر ما يجري مجرى تكميل النعمة والإحسان في الوجهين بقوله تعالى:



---

﴿ وما أرسلنا من رسول ﴾ ، أي : في زمن من الأزمان ﴿ إلا بلسان ﴾ ، أي : لغة ﴿ قومه ﴾ أمّا بالنسبة إلى الرسول ؛ فلأنه تعالى بين أنّ سائر الأنبياء كانوا مبعوثين إلى قومهم خاصة ، وأما أنت يا محمد فمبعوث إلى عامة البشر ، وكان هذا الإنعام في حقك أكمل وأفضل ، وأمّا بالنسبة إلى عامّة الخلق ، فهو أنه تعالى ذكر أنه ما بعث رسولاً إلا بلسان أولئك القوم ﴿ ليبين لهم ﴾ ما أمروا به فيفهموه عنه بيسر وسرعة ؛ لأنّ ذلك أسهل لفهم أسرار تلك الشريعة ، والوقوف على حقائقها وأبعد عن الغلط والخطأ .

تنبيه : تمسك طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية بهذه الآية على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل لغير العرب من وجهين:

الأوّل : أن القرآن لما كان نازلاً بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب ، وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا عليهم . الثاني : أنّ قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ (إبراهيم ، ) المراد بذلك اللسان لسان العرب ، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط .



---

وردّ عليهم بأنّ المراد بالقوم أهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (الأعراف ، ) بل إلى الثقلين ؛ لأنّ التحدي كما وقع مع الإنس وقع مع الجنّ بدليل قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء ، ) . ثم بيّن سبحانه وتعالى أنّ الإضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ﴾ إضلاله ﴿ ويهدي من يشاء ﴾ هدايته ، فإنه تعالى هو المضل الهادي ، وليس على الرسل إلا التبليغ والبيان والله تعالى هو الهادي المضل يفعل ما يشاء ﴿ وهو العزيز ﴾ في ملكه ، فلا رادّ له

عن مشيئته ﴿ الحكيم ﴾ في صنعه فلا يهدي ولا يضل إلا لحكمة . ولما بين تعالى أنه إنما أرسل محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه في ذلك الإرسال وفي تلك البعثة أتبع ذلك بشرح بعثة سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية معاملة أقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيراً له صلى الله عليه وسلم على أذى قومه وإرشاداً له إلى كيفية مكالمتهم ومعاملتهم ، فذكر تعالى على العادة المألوفة قصص بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فبدأ بذكر قصة موسى عليه السلام فقال:

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ ، أي : العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإظلال الجبل والمنّ والسلوى وسائر معجزاته ﴿ أن أخرج قومك ﴾ ، أي : بني إسرائيل ﴿ من الظلمات ﴾ ، أي : الكفر والضلال ﴿ إلى النور ﴾ ، أي : الإيمان والهدى .



---

تنبيه : يجوز أن تكون أن مصدرية ، أي : بأن أخرج ، والباء في بآياتنا للحال ، وهذه للتعدية ، ويجوز أن تكون مفسرة للرسالة بمعنى ، أي : ويكون المعنى ، أي : أخرج قومك من الظلمات ، أي : قلنا له أخرج قومك كقوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ (ص ،

) . ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال ابن عباس : بنعم الله . وقال مقاتل : بوقائع الله في الأمم السالفة ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أي : بوقائعهم ، وفي المثل من سرّ يوماً يره . قال الرازي : معناه من رأى في يوم سروره بمصرع غيره رآه غيره في يوم آخر بمصرع نفسه ، وقال تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ (آل عمران ، ) والمعنى : عظهم بالترغيب ، والترهيب ، والوعد والوعيد ، والترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الأيام ، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأمر الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من الأيام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا في الوعد ، فيصدّقوا ويحذروا من الوعيد ، فيتركوا التكذيب ، وقيل : بأيام الله في حق موسى أن يذكر قومه بأيام المحنة والبلاء حين كانوا تحت أيدي القبط يسومونهم سوء العذاب ، فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكاً بعد أن كانوا مملوكين ﴿ إنّ في ذلك ﴾ ، أي : التذكير العظيم ﴿ لآيات ﴾ على وحدانية الله تعالى وعظمته ﴿ لكل صبار ﴾ ، أي : كثير الصبر على الطاعة وعن المعصية ﴿ شكور ﴾ ، أي : كثير الشكر للنعم ، وإنما خص الصبور والشكور بالاعتبار بالآيات ، وإن كان فيها عبرة للكل ؛ لأنهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات ، فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ (البقرة ، ) فإنّ الانتفاع لا يمكن حصوله إلا لمن يكون صابراً شاكراً أما من لا

يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة . ولما أمر الله تعالى موسى أن يذكرهم بأيام الله حكى عنه أنه ذكرهم بها بقوله تعالى:



---

﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ وقوله : ﴿ إذ أنجاكم من آل فرعون ﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام ، أي : اذكروا إنعام الله عليكم في ذلك الوقت ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ بالاستعباد ﴿ ويذبحون ﴾ ، أي : تذبيحاً كثيراً ﴿ أبناءكم ﴾ ، أي : المولودين ﴿ ويستحيون ﴾ ، أي : يستبقون ﴿ نساءكم ﴾ أحياء وذلك كقول بعض الكهنة إنّ مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب زوال ملك فرعون .

فإن قيل : لم ذكر تعالى في سورة البقرة ﴿ يذبحون ﴾ بغير واو وذكره هنا مع الواو ؟

أجيب : بأنها إنما حذفت في سورة البقرة ؛ لأنها تفسير لقوله تعالى : ﴿ يسومونكم سوء العذاب ﴾ وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو ، وهنا أدخل الواو فيه ؛ لأنه نوع آخر لأنهم كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح فليس تفسيراً للعذاب ﴿ وفي ذلكم بلاء ﴾ ، أي : إنعام وابتلاء ﴿ من ربكم عظيم ﴾ لأنّ الابتلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة ﴾ (الأنبياء ، ) . فإن قيل : تذبيح الأبناء فيه

بلاء ، وأمّا استحياء النساء فكيف فيه ابتلاء ؟

أجيب : بأنهم كانوا يستحيونهن ويتركونهنّ تحت أيديهم كالإماء ، فكان ذلك ابتلاء وقوله تعالى:

﴿ وإذ ﴾ ، أي : واذكروا إذ ﴿ تأذن ربكم ﴾ فهو أيضاً من كلام موسى عليه السلام ، وتأذن بمعنى أذن كتوعد وأوعد غير أنه أبلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة ﴿ لئن شكرتم ﴾ .

(292/418)

---

يا بني اسرائيل نعمتي بالتوحيد والطاعة ﴿ لأزيدنكم ﴾ نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ، فإن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، والشكر عبارة عن الإعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة ، ثم قد يرتقي العبد عن تلك الحالة إلى أن يصير حبه للمنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة ، ولاشك أن منبع السعادات وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته ، وأما الزيادة في النعمة فهي على قسمين : روحانية وجسمانية ، فالأولى هي أن الشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعمة الله تعالى ، وأنواع فضله وكرمه ، وأما الثانية : فلأن الاستقراء دل على أنّ كل من كان اشتغاله بشكر

نعم الله أكثر كان وصول نعم الله إليه أكثر نسأل الله تعالى القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه وإحسانه، ويفعل ذلك بأهلينا وأحبابنا. ثم إنه تعالى لما ذكر ما يستحقه الشاكر ذكر ما يستحقه مقابله بقوله تعالى: ﴿ ولئن كفرتم ﴾، أي: جحدتم النعمة بالكفر والمعصية لأعذبنكم دل عليه ﴿ إن عذابي لشديد ﴾، أي: لمن كفر نعمتي ولا يشكرها، ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد، ولما بيّن موسى أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا والآخرة، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد وحصول الآفات في الدنيا والآخرة بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر، وصاحب الكفران، وأما المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران فلا جرم قال تعالى: ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ﴾ يا بني اسرائيل ﴿ ومن في الأرض ﴾ وأكده بقوله تعالى: ﴿ جميعاً ﴾، أي: من الثقلين فإنما ضرر ذلك يعود على أنفسكم وحرمتموها الخير كله ﴿ فإن الله لغني ﴾ عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين ولا ينقص بكفر الكافرين ﴿ حميد ﴾، أي: محمود في جميع أفعاله؛ لأنه فيها متفضل عادل وقوله تعالى:

﴿ ألم يأتكم ﴾ يا بني اسرائيل ﴿ نبأ ﴾ ، أي : خبر ﴿ الذين من قبلكم قوم نوح ﴾ وكانوا ملء الأرض ﴿ و ﴾ نبأ ﴿ عاد ﴾ قوم هود وكانوا أشد الناس أبداناً ﴿ و ﴾ نبأ ﴿ ثمود ﴾ قوم صالح وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور يحتمل أن يكون من كلام موسى ، أو كلام مبتدأ من الله تعالى لقوم محمد صلى الله عليه وسلم وهو استفهام تقرير وقوله تعالى : ﴿ والذين من بعدهم ﴾ ، أي : بعد هؤلاء الأمم الثلاثة ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ فيه قولان : الأول أن يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم إلا الله تعالى ؛ لأن المذكور في القرآن جملة ، فأما ذكر العدد والعمر والكيفية والكمية فغير حاصل ، والقول الثاني : إنّ المراد ذكر أقوام ما بلغنا أخبارهم أصلاً كذبوا رسلاً لم نعرفهم أصلاً ولا يعلمهم إلا الله ، ولذلك كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسابون يعني أنهم يدّعون علم الأنساب إلى آدم عليه السلام ، وقد نفى الله علمها عن العباد . وعن ابن عباس أنه قال بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ (الفرقان : ، ) وقوله تعالى : ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ (غافر ، ) . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان في انتسابه لا يجاوز معدّ بن عدنان بن أدر وقال : "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق" . قال الرازي : والقول الثاني أقرب . ولما ﴿ جاءتهم ﴾ ، أي : هؤلاء الأقوام الذين تقدم ذكرهم ﴿ رسلهم بالبينات ﴾

، أي: الدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات أتوا بأمور أوّلها ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿ فردّوا ﴾ ، أي: الأمم ﴿ أيديهم في أفواههم ﴾ وفي ذلك احتمالات: الأول: أن الكفار ردّوا أيديهم في أفواههم فعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل كقوله تعالى: ﴿ عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ (آل عمران، ) .

(294/418)

---

والثاني: أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فعند ذلك ردّوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك، فيضع يده على فيه.

والثالث: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام، واسكتوا عن ذكر هذا الحديث.

والرابع: أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وإلى ما تكلموا به من قولهم الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿ وقالوا إنّا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ أي: على زعمكم أي: أن هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطاً لهم من التصديق هذا هو الأمر الثاني الذي أتوا به، وقيل: الضمير في ردوا راجع للرسل عليهم السلام، وفيه وجهان:

أحدهما أنّ الكفار أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليسكتوا وليقطعوا

الكلام.

والثاني: أنّ الرسل لما أيسوا منهم سكتوا ووضعوا أيدي أنفسهم، على أفواه أنفسهم فإنّ من ذكر كلاماً عند قوم وأنكروه وخافهم، فذلك المتكلم ربما وضع يد نفسه على فم نفسه، وغرضه أن يعرّفهم أنه لا يعود إلى ذلك الكلام البتة، والأمر الثالث: قولهم: ﴿ وإنا لفي شك مما ﴾، أي: شيء ﴿ تدعوننا ﴾ أيها الرسل ﴿ إليه ﴾، أي: من الدين ﴿ مريب ﴾، أي: موجب الريبة، أي: موقع في الريبة والشبهة والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر الذي يشك فيه. فإن قيل: إنهم قالوا أولاً: إنّا كفرنا بما أرسلتم به، فكيف يقولون ثانياً (وإنا لفي شك) والشك دون الكفر؟

أجيب: بأنهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كلهم حصل لهم شبه توجب الشك لهم فقالوا: إن لم ندع الجزم واليقين في كفرنا فلا أقلّ من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم. ولما قال هؤلاء الكفار للرسل ذلك.



---

﴿ قالت ﴾ لهم ﴿ رسلهم ﴾ مجيبين ﴿ أفي الله شك ﴾، أي: هل تشكون في الله؟ وهو استفهام انكار، أي: لا شك في توحيده للدلائل الظاهرة عليه منها قوله تعالى:

﴿ فاطر ﴾ ، أي : خالق ﴿ السموات والأرض ﴾ ، أي : وما فيهما من الأنفس والأرواح والأرزاق ، وقرأ أبو عمرو رسلهم هنا وفيما مر في ﴿ جاءتهم رسلهم ﴾ بإسكان السين ، والباقون بالرفع . ولما أقاموا الدليل على وجود الله تعالى وصفوه بكمال الرحمة بقولهم :

﴿ يدعوكم ﴾ ، أي : إلى الإيمان ببعثنا وقولهم : ﴿ ليغفر لكم ﴾ اللام متعلقة بيدعو ، أي : لأجل غفران ذنوبكم كقوله:

*دعوت لما نالني مسورا

** فلبى فلبى يدي مسور

ويجوز أن تكون معدية كقوله : دعوتك لزيد ، والتقدير : يدعوكم إلى غفران ذنوبكم وقوله :

﴿ من ذنوبكم ﴾ قال السيوطي : من زائدة فإنّ الإسلام يغفر به ما قبله ، أو تبعيضية لإخراج حقوق العباد اه . أي : والمغفور لهم ما بينهم وبين الله تعالى . قال الرازي : والعاقل لا يجوز له المصير إلى كلمة من كلام الله تعالى بأنها زائدة من غير ضرورة اه .

وقال في "الكشاف" : ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله : ﴿ واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ (نوح : ، ) ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ (الأحقاف ، ) . وقال في خطاب المؤمنين : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ﴾ (الصف : ، )

وغير ذلك مما يوقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ، وأن لا يسوّى بين الفريقين في المعاد اه . قال الرازي : وأما قول "الكشاف" فهو من باب الظلمات ؛ لأنّ هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر هذا الجواب ، وإن لم يحصل كان هذا الكلام فاسداً .

﴿ ويؤخركم ﴾ ، أي : ولا يفعل بكم فعل من تعهدون من الملوك في المعاجلة في الإهلاك لمن خالفهم بل يؤخركم . ﴿ إلى أجل مسمى ﴾ ، أي : إلى وقت قد سماه وبين مقداره يبلغكموه إن أنتم آمنتم به ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت إن أنتم ما آمنتم . فإن قيل : أليس قال تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (الأعراف ، )

فكيف قال هنا : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ (إبراهيم ، )

؟

أجيب : بأنّ الأجل على قسمين : معلق ومبرم . Y

﴿ قالوا ﴾ ، أي : الأمم مجيبين للرسل . ﴿ إن ﴾ ، أي : ما ﴿ أنتم ﴾ أيها الرسل ﴿ إلا بشر مثلنا ﴾ ، أي : لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوّة دوننا ولو أرسل الله تعالى إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس ، أي : من البشر في زعم القائلين أفضل ، وقول "الكشاف" : وهم الملائكة جار على مذهبه . ﴿ تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ ، أي : ما

تريدون بقولكم هذا إلا صدّنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ ، أي : بحجة ظاهرة على صدقكم . ولما حكى الله تعالى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوّة حكى عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جوابهم عنها بقوله تعالى:

﴿ قالت لهم رسلهم ﴾ مجيبين لهم ﴿ إن ﴾ ، أي : ما ﴿ نحن إلا بشر مثلكم ﴾ كما قلتم ، فسلموا أنّ الأمر كذلك لكنهم بينوا أنّ التماثل في البشرية لا يمنع من اختصاص بعض بمنصب النبوّة بقولهم ﴿ ولكنّ الله يمنّ ﴾ أي : يتفضل ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ بالنبوّة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف ، كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (الأنعام ، )

*(297/418)*

---

. ﴿ وما كان ﴾ ، أي : ما صح واستقام ﴿ لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ ، أي : إلا بأمره ؛ لأنا عبيد مربوبون فليس إلينا الاتيان بالآيات ، ولا تستبد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه ، وإنما هو أمر متعلق بمشيئة الله تعالى فله أن يخص كل نبيّ بنوع من الآيات . ﴿ وعلى الله فليتوكل ﴾ بأمر حتم ﴿ المؤمنون ﴾ ، أي : يثقوا به فلا نخاف من تخويفكم ولا نلتفت إلى تهديدكم فإن توكلنا على الله ، واعتمادنا على فضل الله ، فإن

الروح متى كانت مشرقة بالمعارف الإلهية مشرقة بأضواء علم الغيب قلما تبالي بالأحوال الجسمانية، وقلما تقيم لها وزناً في حالتي السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله، وعوّلوا على فضله، وقطعوا أطماعهم عمن سواه، وعمموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّلياً ألا ترى إلى قولهم:

﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ ، أي: أيّ عذر لنا في أن لا نتوكل عليه ﴿ وقد هدانا سبلنا ﴾ ، أي: وقد عرّفنا طريق النجاة وبيّن لنا الرشد ، فإنّ من فاز بشرف العبودية ووصل إلى مقام الإخلاص والمكاشفة يقبح عليه أن يرجع في أمر من الأمور إلى غير الحق وفي هذه الآية دلالة على أنه تعالى يعصم أولياءه، والمخلصين في عبوديته عن كيد أعدائهم ومكرهم. وقرأ أبو عمرو بسكون الباء والباقون بالرفع، وكذلك لرسلهم سكن أبو عمرو السين ورفعها الباقون، ثم قالوا : ﴿ ولنصبرنّ على ما آذيتمونا ﴾ فإنّ الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والحق لا بدّ وأن يصير غالباً قاهراً، والباطل لا بدّ وأن يصير مغلوباً مقهوراً ثم قالوا : ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ . فإن قيل: ، أي: فرق بين التوكلين ؟

أجيب : بأنّ الأوّل لاستحداث التوكل والثاني طلب دوامه ، أي : فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن إيمانهم . ولما حكى الله تعالى عن الأنبياء عليهم السلام أنهم اكتفوا في دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته حكى عن الكفار أنهم بالغوا في السفاهة بقوله تعالى:

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم ﴾ مستهينين لمن قصروا التجاءهم عليه . ﴿ لنخرجنكم من أرضنا ﴾ ، أي : التي لنا الآن الغلبة عليها . ﴿ أو لتعودنّ في ملتنا ﴾ ، أي : حلفوا ليكونن أحد الأمرين إمّا إخراجكم أيها الرسل ، وإمّا عودكم إلى ملتنا ، أي : ديننا . فإن قيل : قد يفهم هذا بظاهره أنهم كانوا على ملتهم قبل ذلك ؟

أجيب : بأنّ العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية ، لا تكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد يقولون ما عدت أراه ، عاد لا يكلمني ، ما عاد لفلان مال . وقد أجمعت الأمّة على أنّ الرسل من أوّل الأمر إنما نشؤوا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه فغلبوا الجماعات على الواحد ، وقيل : ﴿ أو لتعودنّ في ملتنا ﴾ (الأعراف ، )

إلى ما كنتم عليه قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه وعدم التعرّض له بالطعن والقدح. ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ﴾ ، أي : الرسل ﴿ ربهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لنهلكنّ الظالمين ﴾ ، أي : الكافرين حكاية تقتضي إضمار

القول أو أجرى الايحاء مجرى القول ؛ لأنه ضرب منه .

﴿ ولنسكننكم الأرض ﴾ ، أي : أرضهم ﴿ من بعدهم ﴾ ، أي : بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ﴾ (الأعراف ، )

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم ﴾ (الأحزاب ، )



---

. قال الزمخشري : وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من آذى جاره ورثه الله داره" . قال : ولقد عاينت هذا في مدّة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا فيها ويؤذيني فيه فمات ذلك العظيم ، وملكني الله ضيعته ، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يتردّدون ، منها ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به وسجدنا شكراً لله تعالى . ﴿ ذلك ﴾ ، أي : النصر وإيراث الأرض ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ ، أي : موقفي وهو موقف الحساب ؛ لأنّ ذلك الموقف موقف الله الذي يوقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره ﴿ وأمّا من خاف مقام ربه ﴾ (النازعات ، )

وقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن ، )

وقيل : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي ﴾ (إبراهيم ، ) ، أي : خافني ، فالمقام مقحم مثل ما يقال : سلام على المجلس العالي والمراد السلام على فلان ﴿ وخاف وعيد ﴾ قال ابن عباس : ما أوعدت من العذاب ، وهذا يدل على أنّ الخوف من الله غير الخوف من وعيده ؛ لأنّ العطف يقتضي المغايرة ، وفي تفسير قوله تعالى:

﴿ واستفتحوا ﴾ قولان : أحدهما : طلب الفتح ، أي : واستنصروا الله تعالى على أعدائهم وهو كقوله تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ (الأنفال ، )

والثاني : الفتح الحكم والقضاء ، أي : واستحكموا الله وسألوه القضاء بينهم ، وهو مأخوذ من الفتاحة ، وهي الحكومة كقوله تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ (الأعراف ، )

. فعلى القول الأول المستفتح هم الرسل ؛ لأنهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب لما أيسوا من إيمانهم . قال نوح : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ (نوح ، )

وقال موسى : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ (يونس ، )

وقال لوط : ﴿ انصرني على القوم المفسدين ﴾ (العنكبوت ، )

. وعلى القول الثاني : قال الرازي : فالأولى أن يكون المستفتح هم الأمم وذلك أنهم قالوا :

اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين ، فعذبنا ، ومنه قول كفار ﴿ قريش : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (الأنفال ، )

. وكقول آخرين : ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ (العنكبوت ، )

. ﴿ وخاب ﴾ ، أي : خسر وهلك ﴿ كل جبار ﴾ ، أي : متكبر عن طاعة الله ، وقيل : هو الذي لا يرى فوقه أحداً ، وقيل : هو المتعظم في نفسه المتكبر على أقرانه ، واختلفوا في قوله تعالى : ﴿ عنيد ﴾ فقال مجاهد : معاند للحق ومجانبه . وقال ابن عباس : هو المعرض عن الحق . وقال مقاتل : هو المتكبر . وقال قتادة : هو الذي يأبى أن يقول لا إله إلا الله ، وقيل : هو المعجب بما عنده . ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ، ووصفه بكونه جباراً عنيداً وصف كيفية عذابه بأمور : الأوّل : قوله تعالى:

﴿ من ورائه ﴾ ، أي : أمامه ﴿ جهنم ﴾ ، أي : هو صائر إليها . قال أبو عبيدة : هو من الأضداد وقال الشاعر:

*عسى الكرب الذي أمسيت فيه

** يكون وراءه فرج قريب

ويقال أيضاً : الموت وراء كل أحد . وقال تعالى : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ (الكهف ، ) ، أي : أمامهم . وقال ثعلب : هو اسم لما توارى عنك سواء كان

خلفك أم قدامك ، فيصح إطلاق لفظ الوراء على خلف وقدّام . وقال ابن الأنباري : وراء بمعنى بعد . قال الشاعر : وليس وراء الله للخلق مهرب .

ومعنى الآية على هذا : أن الكافر بعد الخيبة يدخل جهنم .

الأمر الثاني : ما ذكره تعالى بقوله : ﴿ ويسقى ﴾ ، أي : في جهنم ﴿ من ماء صديد ﴾ وهو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطاً بالقيح والدم جعل ذلك شراب أهل النار . وقال محمد بن كعب : هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر . فإن قيل : علام عطف ﴿ ويسقى ﴾ ؟

أجيب : بأنه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء صديد .

*(301/418)*

---

﴿ يتجرّعه ﴾ ، أي : يتكلف أن يبتلعه مرّة بعد مرّة لمرارته وحرارته ونتنه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ ، أي : ولا يقدر على ابتلاعه . قال الزمخشري : دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساغة ؟ كقوله تعالى : ﴿ لم يكد يراها ﴾ (النو ، ) ، أي : لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ؟ فإن قيل : كيف الجمع على هذا الوجه بين

﴿ يتجرّعه ﴾ و ﴿ لا يكاد يسيغه ﴾ ؟

أجيب بجوابين : أحدهما : أنّ المعنى ولا يسيغ جميعه كأنه يتجرّع البعض وما أساغ الجميع .

والثاني : إنّ الدليل الذي ذكر إنما دل على وصول ذلك الشراب إلى جوف ذلك الكافر ؛ لأنّ ذلك ليس بإساغة ؛ لأنّ الإساغة في اللغة إجراء الشراب في الحلق واستطابة المشروب ، والكافر يتجرّع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه ، أي : لا يستطيبه ولا يشربه شرباً بمرة واحدة ، وعلى هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة .

الأمر الثالث : ما ذكره تعالى بقوله تعالى : ﴿ ويأتيه الموت ﴾ ، أي : أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب ﴿ من كل مكان ﴾ ، أي : من سائر الجهات ، وقيل : من كل مكان من جسده حتى أصول شعره وإبهام رجله . ﴿ وما هو بميت ﴾ فيستريح . وقال ابن جريج : تتعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكان من جوفه فتنفعه الحياة .

الأمر الرابع : ما ذكره تعالى بقوله تعالى : ﴿ ومن ورائه ﴾ ، أي : ومن بين يديه بعد ذلك العذاب ﴿ عذاب غليظ ﴾ ، أي : شديد كل وقت يستقبله أشدّ مما قبله ، وقيل : هو الخلود في النار ، وقيل : هو قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد . ولما ذكر تعالى أنواع عذابهم بين بعده أنّ سائر أعمالهم تصير باطلة ضائعة ، وذلك هو الخسران الشديد بقوله تعالى:

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾



﴿ مثل ﴾ ، أي : صفة ﴿ الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ ، أي : الصالحة كصدقة وصلة رحم وفك أسير ، وإقراء ضيف ، وبر والد في عدم الانتفاع بها ﴿ كرماد اشتدّت به الريح

في يوم عاصف ﴾ ، أي : شديد هبوب الريح ، فجعلته هباء منثوراً لا يقدر عليه كما قال تعالى : ﴿ لا يقدرون ﴾ ، أي : الكفار يوم الجزاء ﴿ مما كسبوا ﴾ ، أي : عملوا في الدنيا ﴿ على شيء ﴾ ، أي : لا يجدون لهم ثواباً لفقد شرطه وهو الإيمان . وقرأ نافع (الرياح) بالجمع ، والباقون بالإفراد . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ ، أي : الخسران الكبير لأنّ أعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها .

تنبيه : في ارتفاع قوله تعالى : ﴿ مثل ﴾ أوجه : أحدها : وهو مذهب سيبويه أنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله تعالى : ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم ؟ فقيل أعمالهم كرماد .

والثاني : وهو مذهب الفراء التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد ، فحذف المضاف اعتماداً على ذكره بعد المضاف إليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ أعمالهم ﴾ ومثله قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة ﴾ (الزمر ، )

المعنى : ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودّة .

الثالث : أن يكون التقدير : صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد كقوله : صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول .

الرابع : أن تكون أعمالهم بدلاً من قوله : ﴿ مثل الذين كفروا ﴾ ، والتقدير مثل أعمالهم وقوله تعالى : ﴿ كرماد ﴾ هو الخبر . وقيل : غير ذلك . وقوله تعالى:



---

﴿ ألم تر ﴾ ، أي : تنظر خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمّته ، وقيل : لكل واحد من الكفرة على الالتفات . ﴿ أنّ الله خلق السموات ﴾ على عظمها وارتفاعها ﴿ والأرض ﴾ على تباعد أقطارها واتساعها ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ ، أي : بالحكمة ، والوجه الذي يحق أن تخلق عليه متعلق بخلق . وقرأ حمزة والكسائي بألف بعد الخاء وكسر اللام ، ورفع القاف ، وخفض الأرض . والباقون بغير ألف بعد الخاء ، وفتح اللام والقاف ، ونصب الأرض . ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أيها الناس ﴿ ويأت ﴾ بدلكم ﴿ بخلق جديد ﴾ أطوع منكم ، رتب ذلك على كونه خالق السموات والأرض استدلالاً به عليه ، فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم قدر أن يبدلهم بخلق آخر ، ولم يمتنع عليه كما قال تعالى:

﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ ، أي : بممتنع ، فإنه تعالى قادر بذاته ، ولا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومن هذا شأنه كان حقيقاً أن يؤمن به ، ويعبد رجاء ثوابه وخوفاً من

عقابه يوم الجزاء . ولما ذكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفار ، وذكر عقبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند تمسك أتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى:

﴿ وبرزوا ﴾ ، أي : الخلائق من قبورهم ﴿ لله جميعاً ﴾ والتعبير فيه وفيما يأتي بالماضي ، وإن كان معناه الاستقبال لتحقق وقوعه ؛ لأنّ كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ، ونظيره : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ (الأعراف ، )

تنبيه : البروز في اللغة الظهور بعد الاستتار ، وهو في حق الله تعالى محال ، فلا بدّ من تأويله وهو من وجهين:

الأوّل : أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ، ويظنون أنّ ذلك خاف على الله تعالى ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عن أنفسهم ، وعلموا أنّ الله تعالى لا تخفى عليه خافية .

الثاني : أنهم خرجوا من قبورهم ، فبرزوا لحساب الله تعالى وحكمه . ثم حكى الله تعالى؟ عنهم أنّ الضعفاء يقولون للرؤوساء هل تقدرون على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى : ﴿ فقال الضعفاء ﴾ ، أي : الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعفاء الرأي ﴿ للذين استكبروا ﴾ ، أي : المتبوعين الذين طلبوا الكبر ، وادّعوه فاستغووهم به حتى تكبروا على الرسل ، وقوله تعالى : ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ يصح أن يكون مصدراً نعت به للمبالغة ، أو على إضمار مضاف وأن يكون جمع تابع ، أي : تابعين لكم في تكذيب الرسل ، فكنتم سبب ضلالنا ، وقد جرت عادة الأكابر بالدفع عن أتباعهم المساعدين لهم على أباطيلهم ﴿ فهل أنتم ﴾ ، أي : في هذا اليوم ﴿ مغنون ﴾ ، أي : دافعون ﴿ عنا من عذاب الله ﴾ ، أي : من انتقامه ﴿ من شيء ﴾ فإن قيل : فما الفرق بين من في عذاب الله وبين من في شيء ؟

أجيب : بأنّ الأولى للتبيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو من بعض عذاب الله ؟ ويجوز أن يكونا للتبعيض معاً بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ، وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين استكبروا أنهم قالوا : ﴿ لو هدانا الله ﴾ ، أي : الذي له صفات الكمال ﴿ لهديناكم ﴾ ، أي : لو أرشدنا الله تعالى لارشدناكم ، ودعوناكم إلى الهدى ، ولكنه لم يهدنا ، فضللنا وكنتم لنا تبعاً فأضللناكم ، ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا : ﴿ سواء علينا ﴾ ، أي : نحن وأنتم

﴿ أجزعنا أم صبرنا ﴾ ، أي : مستو علينا الجزع والصبر ، والجزع أبلغ من الحزن ؛ لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه ﴿ ما لنا من محيص ﴾ ، أي : منجى ومهرب مما نحن فيه من العقاب .

(306/418)

---

تنبيه : يحتمل أن يكون هذا من كلام المتبوعين ، وأن يكون كلام الفريقين ، ويؤيد الثاني ما روي أنهم يقولون في النار : تعالوا نجزع فيجزعون خمسمئة عام فلا ينفعهم الجزع ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون خمسمئة عام فلا ينفعهم الصبر ، فعند ذلك يقولون ذلك . وقال محمد بن كعب القرظي : بلغني أنّ أهل النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى : ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ (غافر ، ) فردّت الخزنة عليهم : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى ﴾ (غافر ، ) فردّت الخزنة عليهم : ﴿ ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (غافر ، ) فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا : ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ (الزخرف ، ) سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم ﴿ كألف سنة مما تعدون ﴾ (الحج ، )

ثم يجيبهم بقوله : ﴿ إنكم ما كثون ﴾ . فلما أيسوا مما عنده ، قال بعضهم لبعض ذلك . ولما ذكر تعالى المناظرة التي وقعت بين الرؤوساء والأتباع من كفرة الإنس أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه بقوله تعالى:

﴿ وقال الشيطان ﴾ الذي هو أوّل المتبوعين في الضلال ورأس المضلين والمستكبرين ﴿ لما قضي الأمر ﴾ ، أي : أحكم وفرغ منه ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه وتوبيخه ، فيقوم فيهم خطيباً . قال مقاتل : يوضع له منبر من نار ، فيجتمع أهل النار إليه يلومونه ، فيقول لهم ما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ إنّ الله وعدكم وعد الحق ﴾ ، أي : بالبعث والجزاء على الأعمال فصدقكم ﴿ ووعدتكم ﴾ أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب ﴿ فأخلفتكم ﴾ ، أي : الوعد ، فلم أقل شيئاً إلا كان زيفاً ، فاتبعتموني مع كوني عدوّكم ، وتركتم ربكم وهو وليكم .



---

تنبيه : في الآية إضمار من وجهين : الأوّل : أنّ التقدير : إنّ الله وعدكم الحق فصدقكم كما تقدّم تقريره ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لأنهم كانوا يشاهدونها ، وليس وراء العيان بيان ؛ ولأنه ذكر في وعد الشيطان

الإخلاف ، فدل ذلك على الصدق في وعد الله تعالى .

الثاني : أنّ قوله : ﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الوعد يقتضي مفعولاً ثانياً ، وحذف هذا للعلم به ، والتقدير : ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ، ولا حشر ولا حساب كما تقرّر ، ولما بين غروره بين سهولة اغترارهم زيادة في تنديمهم فقال : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ ، أي : سلطان ، فمن مزيدة ، أي : قوّة وقدرة أقهركم على الكفر والمعاصي ، وألجئكم على متابعتي وقوله : ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾ استثناء منقطع ، قال النحويون : لأنّ الدعاء ليس من جنس السلطان ، فمعناه : لكن دعوتكم ﴿ فاستجبتم لي ﴾ محكمين الشهوات ؛ لأنّ النفس تدعو إلى هذه الأحوال الدنيوية ، ولا يتصور كيفية السعادات الأخروية والكمالات النفسانية والله يدعو إليها يرغب فيها كما قال : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ .

قال الرازي : وعندي أنه يمكن أن يقال كلمة إلا ههنا استثناء حقيقي ، لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة تكون بالقهر والقسر ، وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه ، فهذا نوع من أنواع التسليط اه . ثم قال لهم : ﴿ فلا تلوموني ﴾ ، أي : لأنه ما كان مني إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ ؛ لأنكم سمعتم دلائل الله تعالى وجاءتكم الرسل ، فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا إليّ ، ولا تسمعوا قولي ، فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم أولى بإجابتي

ومتابعتي من غير حجة ولا دليل.

فإن قيل: لم قال الشيطان: ﴿فلا تلوموني﴾ وهو ملوم بسبب إقدامه على تلك الحالة والوسوسة الباطلة؟



---

أجيب: بأنه أراد لا تلوموني على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه؛ لأنكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم. ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿ما أنا بمصرخكم﴾، أي: بمغيثكم فيما يخصكم من العذاب، فأزيل صراخكم منه. ﴿وما أنتم بمصرخي﴾، أي: بمغيثيّ فيما يخصني منه. وقرأ ما عدا حمزة بفتح الياء مع التشديد، وقرأ حمزة بكسر الياء مع التشديد على الأصل في إلتقاء الساكنين؛ لأنّ ياء الإعراب ساكنة، وياء المتكلم أصلها السكون، فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين. ا

قال البيضاوي: وهو أصل مرفوض في مثله لما فيه من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع حركة ياء الإضافة اه. فقوله: أصل مرفوض، أي: متروك عند النحاة، وإلا فهو قراءة متواترة عند القراء، فيجب المصير إليها؛ لأنها وردت من رب العالمين على لسان سيد المرسلين.

وقول الفراء : ولعلها من وهم القراء ، فإنه قلّ من سلم منهم من الوهم ممنوع ، فقد قال أبو حيان : هي قراءة متواترة نقلها السلف ، واقتفى آثارهم فيها الخلف ، فلا يجوز أن يقال فيها : إنها خطأ أو قبيحة أو رديئة ، وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة لكن قلّ استعمالها ، ونص قطرب على أنها لغة في بني يربوع ، ونص على أنها صواب أبو عمرو بن العلاء ، لما سئل عنها ، والقاسم بن معن من رؤساء الكوفيين . قال الله تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال : ﴿ إني كفرت بما أشركتموني من قبل ﴾ ، أي : كفرت اليوم باشراككم إياي من قبل هذا اليوم ، أي : في الدنيا كقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ (فاطر ، ) ومعنى كفره بإشراكهم إياه تبرؤه منه واستنكاره له ، كقوله تعالى : ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ (الممتحنة ، )



---

. وروى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة "يقول : عيسى ذلك النبيّ الأمّي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور مجلسي من أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ، ويجعل فيّ نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون : ما هو غير

الشيطان هو الذي أضلنا فيأتونه فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم أنت فاشفع لنا فإنك أضللتنا ، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد ، ثم يعظم لهبهم ويقول عند ذلك : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ الآية" .

قال في "الكشاف" : وقوله ﴿ إن الظالمين ﴾ ، أي : الكافرين ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ ، أي : مؤلم من كلام الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى الله تعالى ما سيقوله في ذلك الوقت ؛ ليكون لطفاً للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . ولما بالغ سبحانه وتعالى في شرح حال الأشقياء من الوجوه الكثيرة شرح أحوال السعداء ، وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل ، وذلك أنّ الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فالمنفعة الخالصة إليها الإشارة بقوله تعالى:

﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وكونها دائمة أشير إليها بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ وهو حال مقدرة ، والتعظيم حصل لهم من وجهين : أحدهما : قوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ ؛ لأنّ تلك المنافع إنما كانت تفضلاً من الله تعالى وإنعاماً . والثاني : قوله تعالى : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ ؛ لأنّ بعضهم يحيى بعضاً

بهذه الكلمة والملائكة يحيونهم بها كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ (الرعد : ، )

(310/418)

---

والرب يحييهم أيضاً بهذه التحية كما قال تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ (يس ، ) ويحتمل أن يكون المراد أنهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع آفات الدنيا وحسراتها وفنون آلامها وأسقامها وأنواع همومها وغمومها ؛ لأنّ السلام مشتق من السلامة . ولما شرح سبحانه تعالى أحوال الأشقياء ، وأحوال السعداء ذكر مثلاً يبين الحال في حكم هذين القسمين بقوله تعالى:

(311/418)

---

﴿ ألم تر ﴾ ، أي : تنظر ، والخطاب يحتمل أن يكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره ، وأن يكون لكل فرد من الناس ، أي : ألم ترأيها الإنسان ﴿ كيف ضرب الله ﴾ ، أي : المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ مثلاً ﴾ سيره بحيث يعم نفعه ، والمثل قول سائر يشبه

فيه حال الثاني بالأوّل، ثم بينه بقوله تعالى: ﴿كلمة طيبة﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: هي لا إله إلا الله. ﴿كشجرة طيبة﴾ قال ابن مسعود وأنس: هي النخلة. وعن ابن عباس: هي شجرة في الجنة. وعن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: "إنّ الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي؟ قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبياً فوقع في قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا صغير القوم". وروي: فمنعني مكان عمر فاستحييت فقال له عمر: يا بنيّ لو كنت قلتها لكانت أحب إليّ من حمر النعم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا إنها النخلة". قيل: الحكمة في تشبيه الإنسان بالنخلة من بين سائر الأشجار أنّ النخلة أشبه به من حيث إنها إذا قطع رأسها يبست وسائر الأشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع رأسها، وأنها تشبه الإنسان بحيث أنها لا تحمل إلا باللقاح؛ لأنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "أكرموا عمتكم قيل: ومن عمتنا؟ قال: النخلة". ﴿أصلها ثابت﴾، أي: في الأرض ﴿وفرعها﴾، أي: غصنها ﴿في السماء﴾، أي: في جهة العلو والصعود ولم يرد المظلة كقولك في الجبل: طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه. ﴿تؤتي﴾، أي: تعطي. ﴿أكلها﴾، أي: ثمرها

﴿ كل حين بإذن ربها ﴾ ، أي : بإرادته ، والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير ، واختلفوا في مقدار هذا ، فقال مجاهد : الحين هنا سنة كاملة ؛ لأنّ النخلة تثمر في كل سنة مرّة. وقال قتادة : ستة أشهر يعني من حين طلعها إلى وقت صرامها . وقال الربيع : كل حين يعني كل غدوة وعشية ؛ لأنّ ثمر النخل يؤكل

ليلاً ونهاراً وصيفاً وشتاء ، فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب ، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب ، فأكلها دائم في كل وقت . قال العلماء : ووجه الحكمة في تمثيل كلمة الإخلاص بالشجرة ؛ لأنّ الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبوت أصل هذه الشجرة في الأرض ، وعمله يصعد إلى السماء كما قال تعالى :

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (فاطر ، )

فكذلك فرع هذه عال في السماء ، وتنال بركته وثوابه كل وقت ، والمؤمن كلما قال : لا إله إلا الله ، صعدت إلى السماء ، وجاءه بركتها وخيرها وثوابها ومنفعتها ؛ ولأنّ الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم ، وفرع عال ، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق القلب ، وقول اللسان ، وعمل الأبدان ، ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال : ﴿ ويضرب الله ﴾ ، أي : الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ ، أي : يتعظون ، فإنّ في ضرب

الأمثال زيادة إفهام، وتذكير وتصوير للمعاني العقلية، فيحصل الفهم التامّ والوصول إلى المطلوب. ولما ذكر مثل حال السعداء أتبعه بمثل حال الأعداء فقال:

﴿ ومثل كلمة خبيثة ﴾ هي كلمة الكفر ﴿ كشجرة خبيثة ﴾ هي الحنظل وقيل: الثوم، وقيل: الكشوث بمثلثة في آخره. قال الجوهري: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض قال الشاعر:

*هي الكشوث لا أصل ولا ورق

** ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

(313/418)

---

وقيل شجرة الشوك ﴿ اجتثت ﴾، أي: استؤصلت ﴿ من فوق الأرض ﴾، أي: عروقها قريبة منه ﴿ ما لها من قرار ﴾، أي: أصل ولا عرق، فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوّة. وعن عبادة أنه قيل لبعض العلماء: ما تقول في ﴿ كلمة خبيثة ﴾؟ فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقراً ولا في السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها يوم القيامة. ولما وصف الله سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة في الآية المتقدّمة أخبر بقوله تعالى:

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ أنه تعالى يثبتهم بها ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ ، أي : في القبر ، وقيل : قبل الموت ﴿ وفي الآخرة ﴾ ، أي : يوم القيامة عند البعث والحساب ، وقيل : في القبر على القول الثاني . ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدّمة أخبر بقوله تعالى : ﴿ ويضلّ الله الظالمين ﴾ ، أي : الكفار أنه تعالى لا يهديهم للجواب الصواب ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ ، أي : إن شاء هدى ، وإن شاء أضلّ لا اعتراض عليه . وروي عن البراء بن عازب انّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ " . وروي عن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ العبد إذا وضع في القبر وتولى عنه أصحابه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم فأمّا المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعاً" قال قتادة : ذكر لنا أنه يفسح له في قبره ثم رجع إلى حديث أنس . قال : "وأمّا المنافق أو الكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟

فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه . فيقال : ما دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين" . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا من دفنها وانصرف الناس قال : "إنه الآن يسمع خفق نعالكم أتاه منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر ، وأصواتهما مثل الرعد فيجلسانه فيسألانه ما كان يعبد ومن نبيه ؟ فإن كان ممن يعبد الله تعالى قال : كنت أعبد الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به



---

واتبعناه فذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فيقال له : على اليقين حييت وعليه مت وعليه تبعث ، ثم يفتح له باب إلى الجنة ويوسع له في حفرته ، وإن كان من أهل الشك قال : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته فيقال له : على الشك حييت وعليه مت وعليه تبعث ، ثم يفتح له باب إلى النار ويسلط عليه عقارب وتنانين لو نفخ أحدهم في الدنيا ما أنبتت شيئاً ، فتنهشه وتؤمر الأرض فتنضم عليه حتى تختلف أضلاعه" . فنسأل الله الثبات لنا ولوالدينا ولأحبابنا في

الدنيا والآخرة إنه كريم جواد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 244.

264 ﴾

(316/418)

---

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) ﴾

﴿ ألف لام . را . . كتاب أنزلناه إليك ﴾ . .

هذا الكتاب المؤلف من جنس هذه الأحرف كتاب أنزلناه إليك . لم تنشئه أنت . أنزلناه إليك لغاية :

﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ . .

لتخرج هذه البشرية من الظلمات . ظلمات الوهم والخرافة . وظلمات الأوضاع والتقاليد . وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة ، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين . . لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور . النور الذي يكشف هذه الظلمات . يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير . ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع

والتقاليد .

والإيمان بالله نور يشرق في القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشري ، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله . فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة ، وإذا ما طمست فيه هذه الإشراقة استحال طينة معتمة . طينة من لحم ودم كالبهيمة ، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها . لولا تلك الإشراقة التي تنتفض فيه من روح الله ، يرقرقها الإيمان ويجلوها ، ويطلقها تشف في هذا الكيان المعتم ، ويشف بها هذا الكيان المعتم .

والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق . ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب . غبش الأوهام وضباب الخرافات . أو غبش الشهوات وضباب الأطماع . ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار .

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة ، فإذا الناس كلهم عباد متساوون . تربط بينهم آصرتهم في الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة . وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة . معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه . فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه .

والإيمان بالله نور . نور العدل . ونور الحرية . ونور المعرفة . ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء . ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء .

والإيمان بالله وحده إلهاً ورباً . منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور . . منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ، والدينونة لربوبيته وحده ، والتخلص من ربوبيات العبيد ، والاستعلاء على حاكمية العبيد .

.

وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ، ما يملأ الحياة سعادة ونوراً وطمأنينة وراحة . كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصماً من التقلبات والتخبطات التي تتعرض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد ، وحاكمية العبيد ، ومناهج العبيد في السياسة والحكم وفي الاقتصاد والاجتماع ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العادات والتقاليد . . وذلك فوق صيانة هذا المنهج للطاقة البشرية أن تبذل في تأليه العبيد ، والطبل والزمر للطواغيت ! ! !

وإن وراء هذا التعبير القصير : ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . . ﴾ لآفاقاً بعيدة لحقائق ضخمة عميقة في عالم العقل والقلب . وفي عالم الحياة والواقع ، لا يبلغها التعبير

البشري ولكنه يشير!

﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور . . بإذن ربهم ﴾ . .

فليس في قدرة الرسول إلا البلاغ، وليس من وظيفته إلا البيان. أما إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فإنما يتحقق بإذن الله، وفق سنته التي ارتضتها مشيئته، وما الرسول إلا رسول!

﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ . . ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ . .

(318/418)

---

فالصراط بدل من النور. وصراط الله: طريقه، وسنته، وناموسه الذي يحكم الوجود وشريعته التي تحكم الحياة. والنور يهدي إلى هذا الصراط، أو النور هو الصراط. وهو أقوى في المعنى. فالنور المشرق في ذات النفس هو المشرق في ذات الكون. هو السنة. هو الناموس. هو الشريعة. والنفس التي تعيش في هذا النور لا تخطئ الإدراك ولا تخطئ التصور ولا تخطئ السلوك. فهي على صراط مستقيم. . ﴿ صراط العزيز الحميد ﴾ . . مالك القوة القاهر المسيطر المحمود المشكور.

والقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون ، والحمد يبرز لتذكير من يكفرون ، ثم يعقبها التعريف بالله سبحانه . إنه مالك ما في السماوات وما في الأرض ، الغني عن الناس ، المسيطر على الكون وما فيه ومن فيه :

﴿ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ . .

فمن خرج واهتدى فذاك . ولا يذكر عنه شيئاً هنا ، إنما يمضي السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد . جزاء كفرهم هذه النعمة . نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وهي النعمة الكبرى التي يقوم لها شكر إنسان . فكيف بالكفران :

﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ . .

ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التي يحملها رسوله الكريم :

﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ . . ﴿ ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً ، أولئك في ضلال بعيد ﴾ . .

فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان ؛ ويتعارض مع الاستقامة على الصراط . وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة ، لأنه عندئذ تصلح الدنيا ، ويصبح المتاع بها معتدلاً ، ويراعى فيه وجه الله . فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة .

إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا كما يقوم في الأخيلة المنحرفة فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا .

(319/418)

---

والإيمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض. وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها . إنه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظاراً للآخرة، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله، وتمهيداً للآخرة . . هذا هو الإسلام .

فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من الاستئثار بخيرات الأرض، ومن الكسب الحرام، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم . . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه في نور الإيمان بالله، وفي ظل الاستقامة على هداه. ومن ثم يصدون عن سبيل الله . يصدون أنفسهم ويصدون الناس، ويبغونها عوجاً لا استقامة فيها ولا عدالة. وحين يفلحون في صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها ، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغروا الناس بالفساد ، فيتم لهم الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض، والكسب الحرام، والمتاع المرذول، والكبرياء في

الأرض ، وتعبيد الناس بلا مقاومة ولا استنكار .

إن منهج الإيمان ضمانة للحياة وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، واستئثارهم بخيرات هذه الحياة .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ .

وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة . فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتتم الغاية من الرسالة .



---

وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بلسان قومه وإن كان رسولاً إلى الناس كافة لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر . وعمره صلى الله عليه وسلم محدود . وقد أمر ليدعو قومه أولاً حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام . ومن ثم تكون مهداً يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض . والذي حدث بالفعل وهو من تقدير الله العليم الخبير أن اختير الرسول إلى جوار ربه عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة ، وبعث جيش أسامة إلى أطراف الجزيرة ، الذي توفي الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يتحرك

بعد . . وحقيقة إن الرسول قد بعث برسائله إلى خارج الجزيرة يدعو إلى الإسلام ، تصديقاً لرسالته إلى الناس كافة . ولكن الذي قدره الله له ، والذي يتفق مع طبيعة العمر البشري المحدود ، أن يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم قومه بلسانهم ، وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة هذه الرسالة إلى الأصقاع . . وقد كان . . فلا تعارض بين رسالته للناس كافة ، ورسالته بلسان قومه ، في تقدير الله ، وفي واقع الحياة .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ . . ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ . .

إذ تنتهي مهمة الرسول كل رسول عند البيان . أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال ، فلا قدرة له عليه ، وليس خاضعاً لرغبته ، إنما هو من شأن الله . وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة . فمن سار على درب الضلال ضل ، ومن سار على درب الهدى وصل . . هذا وذلك يتبع مشيئة الله ، التي شرعت سنته في الحياة .

﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ . .

القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافاً بلا توجيه ولا تدبير .

وكذلك كانت رسالة موسى . بلسان قومه .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا : أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ . .

والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد عليهما صلاة الله وسلامه تمشياً مع نسق الأداء في السورة وقد تحدثنا عنه آنفاً فإذا الأمر هناك :

﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ . .

والأمر هنا :

﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ . .

الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة ، ولكن الغاية واحدة :

﴿ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ . . ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ . .

وكل الأيام أيام الله . ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة ؛ كما سيجيء في حكاية تذكير موسى لقومه .

وقد ذكرهم بأيام لهم، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم. فهذه هي الأيام.

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ..

ففي هذه الأيام ما هو بؤسى فهو آية للصبر، وفيها ما هو نعمى فهو آية للشكر. والصبار الشكور هو الذي يدرك هذه الآيات، ويدرك ما وراءها، ويجد فيها عبرة له وعظة؛ كما يجد فيها تسرية وتذكيراً.

وراح موسى يؤدي رسالته، ويذكر قومه:

﴿ وإذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ ..



---

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم. نعمة النجاة من سوء العذاب الذي كانوا يلقونه من آل فرعون، يسامونه سوماً، أي يوالون به ويتابعون، فلا يفترعنهم ولا ينقطع. ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث، منعاً لتكاثر القوة المانعة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم.

فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر. وتذكر لتشكر.

﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ . .

بلاء بالعذاب أولاً ، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له . فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى . ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية ، واستمرار العزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان . وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان . . وبلاء بالنجاة لامتحان الشكر ، والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى في مقابل النجاة .

ويمضي موسى في البيان لقومه . بعد ما ذكرهم بأيامه . ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة . وهي الصبر للعذاب والشكر للنجاة . . يمضي ليبين لهم ما رتبه الله جزاء على الشكر والكفران :

﴿ وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ . .

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر ، والعذاب الشديد على الكفر .

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق . فلا بد أن يتحقق على أية حال . . فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة ، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا ، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية . فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي ، في الفطرة المستقيمة . .

هذه واحدة . . والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته ، تراقبه في التصرف بهذه النعمة . بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد .

(323/418)

---

وهذه وتلك مما يزكي النفس ، ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها ؛ ويرضي الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عوناً ؛ ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان . إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة . وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن ، أدرك الأسباب أو لم يدركها ، فهو حق واقع لأنه وعد الله .

والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنكار أن الله واهبها ، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي ! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد . . وكله

كفر بنعمة الله . .

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة . عيناً بذهابها . أو سحق آثارها في الشعور . فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين ! وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا أو في الآخرة كما يشاء الله . ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء .

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته . وهذا الكفر لا يرجع على الله أثره .

فالله غني بذاته محمود بذاته ، لا بحمد الناس وشكرها على عطاياه .

﴿ وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ . .

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم ، فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسرات وراء ما ينفق أو يضيع منها . فالمنعم موجود ، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

ويستمر موسى في بيانه وتذكيره لقومه . ولكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الكبرى بين أمة الأنبياء والجاهليات المكذبة بالرسل والرسالات . وذلك من بدائع الأداء في القرآن ، لإحياء المشاهد ، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع ، وتتحرك فيه الشخوص ، وتتجلى فيه السمات والانفعالات . .

والآن إلى الساحة الكبرى التي يتلاشى فيها الزمان والمكان:

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟ جاءتهم رسلهم بالبينات، فردوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: إنا كفرنا بما أرسلتم به، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ ..

هذا التذكير من قول موسى. ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر في عرض قصة الرسل والرسالات في جميع أزمانها. قصة الرسل والرسالات وحقيقتها في مواجهة الجاهلية، وعاقبة المكذبين بها على اختلاف الزمان والمكان.. وكأن موسى "رواية" يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى. ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون.. وهي طريقة من طرق العرض للقصة في القرآن، تحول القصة المحكية إلى رواية حية كما أسلفنا. وهنا نشهد الرسل الكرام في موكب الإيمان، يواجهون البشرية متجمعة في جاهليتها. حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها. وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان، كما هي في حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان:

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟ ﴾ ..

فهم كثير إذن ، وهناك غير من جاء ذكرهم في القرآن . ما بين ثمود وقوم موسى . والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة في دعوة الرسل ووحدة فيما قوبلت به :

﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ . .

الواضحات التي لا يلتبس أمرها على الإدراك السليم .

﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ؛ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ . .

(325/418)

---

ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهاباً وإياباً فيتموج الصوت ويُسمع . يرسم السياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك ، وإفحاشهم في هذا الجهر ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعاناً منهم في الجهر بالكفر .

ولما كان الذي يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بألوهية الله وحده ، وربوبيته للبشر بلا شريك من عباده .

. فإن الشك في هذه الحقيقة الناطقة التي تدركها الفطرة ، وتدل عليها آيات الله المبثوثة في

ظاهر الكون المتجلية في صفحاته، يبدو مستنكراً قبيحاً. وقد استنكر الرسل هذا الشك. والسماوات والأرض شاهدان.

﴿ قالت رسلهم: أفي الله شك فاطر السماوات والأرض؟ ﴾ . .

أفي الله شك والسماوات والأرض تنطقان للفطرة بأن الله أبدعهما أبداعاً وأنشأهما إنشاء؟ قالت رسلهم هذا القول، لأن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان، فمجرد الإشارة إليهما يكفي، ويرد الشارد إلى الرشد سريعاً، ولم يزيدوا على الإشارة لأنها وحدها تكفي؛ ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر في دعوتهم إلى الإيمان، وفي إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيه ويتقون العذاب:

﴿ أفي الله شك فاطر السماوات والأرض. يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ .

والدعوة أصلاً دعوة إلى الإيمان، المؤدي إلى المغفرة. ولكن السياق يجعل الدعوة مباشرة للمغفرة، لتتجلى نعمة الله ومنته. وعندئذٍ يبدو عجيباً أن يدعى قوم إلى المغفرة فيكون هذا تلقيهم للدعوة!

﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ . . ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ . .

فهو سبحانه مع الدعوة للمغفرة لا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب . إنما يمن عليكم منة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى . إما في هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيه إلى نفوسكم ، وتتدبرون آيات الله وبيان رسلكم . وهي رحمة وسماحة تحسبان في باب النعم . . فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنان ؟ !

هنا يرجع القوم في جهالتهم إلى ذلك الاعتراض الجهول :

﴿ قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ . .

وبدلاً من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين ؛ ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم . ولا يسألون أنفسهم : لماذا يرغب الرسل في تحويلهم ؟ ! وبطبيعة الجمود العقلي الذي تطبعه الوثنيات في العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم : ما قيمته ؟ ما حقيقته ؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير ؟ ! وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق :

﴿ فأتوا بسلطان مبين ﴾ . .

ويرد الرسل . . لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله في اختيار رسل من البشر ، وفي منحهم ما يؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى :

﴿ قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ . .

ويذكر السياق لفظ ﴿ يمن ﴾ تنسيقاً للحوار مع جو السورة . جو الحديث عن نعم الله . ومنها هذه المنة على من يشاء من عباده . وهي منة ضخمة لا على أشخاص الرسل وحدهم .



---

ولكن كذلك على البشرية التي تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى . مهمة الاتصال والتلقي من الملأ الأعلى . وهي منة على البشرية بتذكير الفطرة التي ران عليها الركام لتخرج من الظلمات إلى النور ؛ ولتتحرك فيها أجهزة الاستقبال والتلقي فتخرج من الموت الراكد إلى الحياة المتفتحة . . ثم هي المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من الدينونة للعباد إلى الدينونة لله وحده بلا شريك ؛ واستنقاذ كرامتهم وطاقتهم من الذل والتبدد في الدينونة للعبيد . . الذل الذي يحني هامة إنسان لعبد مثله ! والتبدد الذي يسخر طاقة إنسان لتأليه عبد مثله !

فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين ، وقوة خارقة ، فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله .

ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية ، وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذي لا يلتبس بمشابهة في ذات ولا صفة ، وهي المتاهة التي تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات الكنسية في المسيحية عندما تلبست بالوثنيات الإغريقية والرومانية والمصرية والهندية . وكانت نقطة البدء في المتاهة هي نسبة الخوارق إلى عيسى عليه السلام بذاته واللبس بين ألوهية الله وعبودية عيسى عليه السلام !

﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ﴾ . .

وما نعتمد على قوة غير قوته :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . .

يطلقها الرسل حقيقة دائمة . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لا يتلفت قلبه إلى سواه ، ولا يرجو عوناً إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه .

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ؛ ويسألون للتقرير والتوكيد :

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ . .

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ . .

إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه . الممالئ يديه من وليه وناصره . المؤمن بأن الله الذي يهدي السبيل لا بد أن ينصر وأن يعين . وماذا يهم حتى ولو لم يتم في الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

والقلب الذي يحس أن يد الله سبحانه تقود خطاه ، وتهديه السبيل ، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بوجوده سبحانه وألوهيته القاهرة المسيطرة ؛ وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق ، أياً كانت العقبات في الطريق ، وأياً كانت قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق . ومن ثم هذا الربط في رد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ؛ ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد .

وهذه الحقيقة حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بديهية التوكل عليه لا تستشعرها إلا القلوب التي تزاول الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية ؛ والتي تستشعرها في أعماقها يد الله سبحانه وهي تفتح لها كوى النور فتبصر الآفاق المشرقة وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة ، وتحس الأنس والقربى .

. وحينئذ لا تحفل بما يتوعدها به طواغيت الأرض ؛ ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد ؛ وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل . وماذا

يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد ؟ !

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ . .

﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ .

لنصبرن ؛ لا نتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نهن ، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد . .

﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ . .

وهنا يسفر الطغيان عن وجهه . لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل ، لأنه يحس بهزيمته أمام انتصار العقيدة ، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التي لا يملك غيرها المتجبرون :

*(329/418)*

---

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ !

هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية . . إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها . فالإسلام لا بد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية . لذلك لا يطلب الذين

كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ؛ ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل . وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله ، وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى . .

وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ؛ ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية . .

إن التجمع الجاهلي بطبيعة تركيبه العضوي لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي ، ولتوطيد جاهليته ! والذين يخيل إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي ، والتميع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع . هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره . . لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . .

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل ، وإن كانوا طغاة متجبرين :

﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

ولا بد أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم إنما يكون دائماً بعد مفاصلة الرسل لقومهم . . بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها . . وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وبتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة فينقسم القوم الواحد إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً . . عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة ، ولتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، ولتمكن للمؤمنين في الأرض ، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين . . ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متميعون في المجتمع الجاهلي ، عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة . .

﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ . .

نون العظمة ونون التوكيد . . كلتاهما ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد . لنهلكن المتجبرين المهددين ، المشركين الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسول وللناس بهذا التهديد . .

﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ . .

لا محاباة ولا جزافاً ، إنما هي السنة الجارية العادلة :

﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ . .

ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامي ، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر . وخاف وعيد ، فحسب حسابه ، واتقى أسبابه ، فلم يفسد في الأرض ، ولم يظلم في الناس ، فهو من ثم يستحق الاستخلاف ، ويناله باستحقاق .

وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة قوة الطغاة الظالمين بالقوة الجبارة الطامة قوة الجبار المهيمن المتكبر فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين والمفاصلة التي تميز المؤمنين من المكذبين .

ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف ، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله سبحانه في صف . ودعا كلاهما بالنصر والفتح . . وكانت العاقبة كما يجب أن تكون :



﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ

﴾ . .

والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها ، وهو يُسقى من الصديد السائل من الجسوم . يُسقاه بعنف فيتجرعه غصباً وكرهاً ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتعزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات ! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه . ومن ورائه عذاب غليظ . . إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو المروّع الفظيع . وتشترك كلمة ﴿ غليظ ﴾ في تفظيع المشهد ، تنسيقاً له مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين .

وفي ظل هذا المصير يجيء التعقيب مثلاً مصوراً في مشهد يضرب الذين كفروا ؛ ولفتة إلى قدرة الله على أن يُذهب المكذبين ويأتي بخلق جديد .

. ذلك قبل أن يتابع مشاهد الرواية في الساحة الأخرى ، وقد أسدل الستار على فصلها الأخير في هذه الأرض ، مخايلاً بالساحة الأخرى :

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . لا يقدرون مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد ﴾ . .

ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع

الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ، ولا الانتفاع به أصلاً .

يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ في تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا ً .

(332/418)

---

هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار . فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله . . مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل . حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر . ويلتقي معهما التعقيب :

﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ . .

فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير في يوم عاصف . . إلى بعيد ! !

ثم يلتقي مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر في الآية التالية ، التي يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين إلى المكذبين من قريش ، يهددهم بإذهابهم والإتيان بخلق جديد

:

﴿ ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز ﴾ . .

والانتقال من حديث الإيمان والكفر ، ومن قضية الرسل والجاهلية إلى مشهد السماوات والأرض . . هو انتقال طبيعي في المنهج القرآني . .

إن بين فطرة الكائن الإنساني وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة ! . . إن فطرته تتلاقى مباشرة مع السر الكامن وراء هذا الكون بمجرد الاتجاه إليه والتقاط إيقاعاته ودلالاته !



---

والذين يرون هذا الكون ثم لا تسمع فطرتهم هذه الإيقاعات وهذه الإيحاءات هم أفراد معطلو الفطرة . في كيانهم خلل تعطلت به أجهزة الاستقبال الفطرية . كما تصاب الحواس بالتعطل نتيجة لآفة تصيبها . . كما تصاب العين بالعمى ، والأذن بالصمم ، واللسان بالبكم ! . . إنهم أجهزة تالفة لا تصلح للتلقي ؛ ومن باب أولى لا تصلح للقيادة والزعامة ! . . ومن هؤلاء كل أصحاب التفكير المادي الذي يسمونه " المذاهب العلمية " كذباً وافتراء . . إن العلم لا يتفق مع تعطل أجهزة الاستقبال الفطرية وفساد أجهزة الاتصال

الإنسانية بالكون كله ! إنهم الذين يسميهم القرآن بالعمْي . . وما يمكن أن تقام الحياة

الإنسانية على مذهب أو رأي أو نظام يراه أعمى ! ! !

إن خلق السماوات والأرض بالحق يوحي بالقدرة كما يوحي بالثبات .

فالوحي ثابت مستقر حتى في جرسه اللفظي . . ذلك في مقابل الرماد المتطاير إلى بعيد .

وفي مقابل الضلال البعيد .

وفي ضوء مصير المعاندين الجبارين في معركة الحق والباطل يجيء التهديد :

﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ . .

والقادر على خلق السماوات والأرض ، قادر على استخلاف جنس غير هذا الجنس في الأرض . واستخلاف قوم مكان قوم من أقوام هذا الجنس . وظل الذهاب بالقوم يتسق من بعيد مع ظل الرماد المتطاير الذاهب إلى الفناء .

﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ . .

وخلق السماوات والأرض شاهد . ومصارع المكذبين من قبل شاهدة . والرماد المتطاير شاهد من بعيد ! ألا إنه الإعجاز في تنسيق المشاهد والصور والظلال في هذا القرآن !

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق الإعجاز في التصوير والأداء والتنسيق . فلقد كنا منذ لحظة مع الجبارين المعاندين . ولقد خاب كل جبار عنيد . وكانت صورته في جهنم تخايل له من ورائه وهو بعد في الدنيا . فالآن نجدهم هناك ، حيث يتابع السياق خطواته بالرواية الكبرى رواية البشرية ورسلها في المشهد الأخير . وهو مشهد من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين . وبين الشيطان والجميع :

﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ؛ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بِمُصْرِخِكم وما أنتم بِمُصْرِخِيّ . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم . ﴾

﴿ وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام ﴾ .

لقد انتقلت الرواية . . رواية الدعوة والدعاة ، المكذبين والطغاة . . انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة :

﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ . .

الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين . ومعهم الشيطان . . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات . . برزوا ﴿ جميعاً ﴾ مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائماً . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار :

﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ ﴾ . .



---

والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة . ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله .

والضعف ليس عذراً ، بل هو الجريمة ؛ فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحريه التي هي ميزته ومناط تكريمه أو أن ينزل كارهاً . والقوة المادية كائنة ما كانت لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة

أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح. أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال !

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة ، وفي التفكير ، وفي السلوك ؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله ، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مقاماً . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان !

إن المستضعفين كثرة ، والطواغيت قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة ؟ وماذا الذي يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة ، وقلة النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان !

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير . فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت . فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان !

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء . . وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة ! ! والأذلاء هنا على مسرح الآخرة في ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم :

﴿ إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ ؟ . .

وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير الأليم ؟ !

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكي قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال !

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

﴿ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ! سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ! ﴾ . .

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق :

﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ . .

فعلام تلوموننا ونحن وإياكم في طريق واحد إلى مصير واحد ؟ إننا لم نهتد ونضللكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال ! وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حساباً لقدرة القاهر الجبار .

وهم إنما يتهربون من تبعة الضلال والإضلال برجع الأمر لله . . والله لا يأمر بالضلال كما قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ . . ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفي ، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذي كان الجزع فيه من العذاب يجدي فيرد الضالين إلى الهدى ؛ وكان الصبر فيه على الشدة يجدي فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شيء ، ولم يعد هنالك مفر ولا محيص :

﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ !



---

لقد قضي الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار . . وهنا نرى على المسرح عجباً . نرى الشيطان . . هاتف الغواية ، وحادي الغواة . . نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، او مسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب :

﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر - إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم .

ما أنا بِمُصْرِخِكم وما أنتم بمصرخيّ . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقاً لشيطان ! وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين في هذا الحوار . . .

إنه الشيطان الذي وسوس في الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة . . هو هو الذي يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لا يملكون أن يردوها عليه وقد قضي الأمر هو الذي يقول الآن ، وبعد فوات الأوان :

﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ !

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ، ونسوا ما بينهم وبين الشيطان من عداء قديم ، فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله :

﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ !

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! :

﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ !

ثم يخلي بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذي وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم ؛ فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ :

﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ﴾ . .

وما بيننا من صلة ولا ولاء !

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك :

﴿ إني كفرت بما اشركتمون من قبل ﴾ !

ثم ينهي خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه :



---

﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ !

فيا للشيطان ! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ؛ ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه !

وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة ، الأمة الفائزة ، الأمة الناجية :

﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام ﴾ .

.

ويسدل الستار . .

فيا له من مشهد ! ويا لها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة !

وفي ظل هذه القصة بفصولها جميعاً . في الدنيا حيث وقفت أمة الرسل في مواجهة الجاهلية الظالمة :

﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ . .

وفي الآخرة حيث شاهدنا ذلك المشهد الفريد : مشهد الذين استكبروا والضعفاء والشيطان ، مع ذلك الحوار العجيب . .

في ظل تلك القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، لتصوير سنته الجارية في الطيب والخبيث في هذه الحياة ؛ فتكون خاتمة كتعليق الراوية على الرواية بعد إسدال الستار :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ . .

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ ويضل الله الظالمين ؛ ويفعل الله ما يشاء ﴾ . .

إن مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . . والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . . هو مشهد مأخوذ من جو السياق ، ومن قصة النبيين والمكذبين ، ومصير هؤلاء وهؤلاء بوجه خاص . وشجرة النبوة هنا وظل إبراهيم أبي الأنبياء عليها واضح ، وهي تؤتي أكلها كل فترة ، أكلاً جنياً طيباً . . نبياً من الأنبياء . . يثمر إيماناً وخيراً وحيوية . .

ولكن المثل بعد تناسقه مع جو السورة وجو القصة أبعد من هذا آفاقاً ، وأعرض مساحة ، وأعمق حقيقة .

إن الكلمة الطيبة كلمة الحق لكالشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مثمرة . . ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ؛ ولا تقوى عليها معاول الطغيان وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحمها في الفضاء مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن . .

وإن الكلمة الخبيثة كلمة الباطل لكالشجرة الخبيثة ؛ قد تهيج وتتعالى وتتشابك ؛ ويخيل

إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى .

ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض . . وما هي إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء .

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع . إنما هو الواقع في الحياة ، ولو أبطأ تحققه في بعض الأحيان .

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوي مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق . . والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به فقلما يوجد الشر خالص وعندما يستهلك ما يلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية ، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال .

إن الخير بخير ! وإن الشر بشر !

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ . .



---

فهي أمثال مصداقها واقع في الأرض ، ولكن الناس كثيراً ما ينسونه في زحمة الحياة .

وفي ظل الشجرة الثابتة ، التي يشارك التعبير في تصوير معنى الثبات وجوه ، فيرسمها :

أصلها ثابت مستقر في الأرض ، وفرعها سامق ذاهب في الفضاء على مد البصر ، قائم

أمام العين يوحي بالقوة والثبات .

في ظل الشجرة الثابتة مثلاً للكلمة الطيبة : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ . .

وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا ثبات : ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ . . فتتناسق ظلال التعبير وظلال المعاني كلها في السياق !

يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر ، الثابتة في الفطر ، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة . ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ؛ وبوعده للحق بالنصر في الدنيا ، والفوز في الآخرة . . وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب .

ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم ( والظلم يكثر استعماله في السياق القرآني بمعنى الشرك ويغلب ) وبعدهم عن النور الهادي ، واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات واتباعهم مناهج وشرائع من الهوى لا من اختيار الله . . يضلهم وفق سنته التي تنتهي بمن يظلم ويعمى عن النور ويخضع للهوى إلى الضلال والتيه والشرود .

﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ . .

بإرادته المطلقة ، التي تختار الناموس ، فلا تتقيد به ولكنها ترضاه . حتى تقتضي الحكمة

تبديله فيتبدل في نطاق المشيئة التي لا تقف لها قوة ، ولا يقوم في طريقها عائق ؛ والتي يتم كل أمر في الوجود وفق ما تشاء .



---

وبهذه الخاتمة يتم التعقيب على القصة الكبرى للرسالات والدعوات . وقد استغرقت الشطر الأول والأكبر من السورة المسماة باسم إبراهيم أبي الأنبياء ، والشجرة الظليلة الوارفة المثمرة خير الثمرات ، والكلمة الطيبة المتجددة في الأجيال المتعاقبة ، تحتوي دائماً على الحقيقة الكبرى . . حقيقة الرسالة الواحدة التي لا تتبدل ، وحقيقة الدعوة الواحدة التي لا تتغير ، وحقيقة التوحيد لله الواحد القهار .

والآن نقف وقفات قصيرة أمام الحقائق البارزة التي تعرضها قصة الرسل مع الجاهلية . وهي الحقائق التي أشرنا إليها إشارات سريعة في أثناء استعراض السياق القرآني ، ونرى انها تحتاج إلى وقفات أخرى أمامها مسقلة :

* إننا نقف من هذه القصة على حقيقة أولية بارزة يقصها علينا الحكيم الخبير . . إن موكب الإيمان منذ فجر التاريخ الإنساني موكب واحد موصول ، يقوده رسل الله الكرام ، داعين بحقيقة واحدة ، جاهرين بدعوة واحدة ، سائرين على منهج واحد . . كلهم يدعو

إلى ألوهية واحدة ، وربوبية واحدة ، وكلهم لا يدعو مع الله أحداً ، ولا يتوكل على أحد غيره ، ولا يلجأ إلى ملجأ سواه ، ولا يعرف له سنداً إلا إياه .

وأمر الاعتقاد في الله الواحد إذن ليس كما يزعم " علماء الدين المقارن " أنه تطور وترقى من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ؛ ومن عبادة الطواطم والأرواح والنجوم والكواكب إلى عبادة الله الواحد ؛ وأنه تطور وترقى كذلك بتطور وترقي التجربة البشرية والعلم البشري ، وبتطور وترقي الأنظمة السياسية وانتهائها إلى الأوضاع الموحدة تحت سلطان واحد . .

إن الاعتقاد في الله الواحد جاءت به الرسالات منذ فجر التاريخ ؛ ولم تتغير هذه الحقيقة ولم تتبدل في رسالة واحدة من الرسالات ؛ ولا في دين واحد من الأديان السماوية . كما يقص علينا الحكيم الخبير .



---

ولو قال أولئك " العلماء " : إن قابلية البشرية لعقيدة التوحيد التي جاء بها الرسل كانت تترقى من عهد رسول إلى عهد رسول ؛ وإن الوثنيات الجاهلية كانت تتأثر بعقائد التوحيد المتوالية التي كان موكب الرسل الكرام يواجه بها هذه الوثنيات حيناً بعد حين . حتى جاء زمان كانت عقيدة التوحيد أكثر قبولاً لدى جماهير الناس مما كانت ، بفعل توالي رسالات

التوحيد ؛ وبفعل العوامل الأخرى التي يفردونها بالتأثير . . لو قال أولئك " العلماء " قولاً كهذا لساغ . . ولكنهم إنما يتأثرون بمنهج في البحث يقوم ابتداء على قاعدة من العداء الدفين القديم للكنيسة في أوروبا حتى ولو لم يلحظه العلماء المعاصرون ! ومن الرغبة الخفية الواعية أو غير الواعية في تحطيم المنهج الديني في التفكير ؛ وإثبات أن الدين لم يكن قط وحياً من عند الله ؛ إنما كان اجتهاداً من البشر ، ينطبق على تطورهم في التفكير والتجربة والمعرفة العلمية سواء بسواء . . ومن ذلك العداء القديم ومن هذه الرغبة الخفية ينبثق منهج علم الأديان المقارن ؛ ويسمى مع ذلك " علماً " ينخدع به الكثيرون !

وإذا جاز أن يخدع أحد بمثل هذا " العلم " فإنه لا ينبغي لمسلم يؤمن بدينه ، ويحترم منهج هذا الدين في تقرير مثل هذه الحقيقة أن يخدع لحظة واحدة ؛ وأن يدلي بقول يصطدم اصطداماً مباشراً مع مقررات دينه ، ومع منهجه الواضح في هذا الشان الخطير .

.

* هذا الموكب الكريم من الرسل واجه البشرية الضالة إذن بدعوة واحدة ، وعقيدة واحدة . وكذلك واجهت الجاهلية ذلك الموكب الكريم ، وهذه الدعوة الواحدة بالعقيدة الواحدة ، مواجهة واحدة كما يعرضها السياق القرآني مغضياً عن الزمان والمكان ، مبرزاً للحقيقة الواحدة الموصولة من وراء الزمان والمكان وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل ، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل !

إنها حقيقة تستوقف النظر حقاً ! . . إن الجاهلية هي الجاهلية على مدار الزمان . . إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ؛ ولكنها وضع واعتقاد وتصور وتجمع عضوي على أساس هذه المقومات . .

والجاهلية تقوم ابتداء على أساس من دينونة العباد للعباد ؛ ومن تأليه غير الله . أو من ربوبية غير الله وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية فسواء كان الاعتقاد قائماً على تعدد الآلهة ؛ أو كان قائماً على توحيد الإله مع تعدد الأرباب أي المتسلطين فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخرى !

ودعوة الرسل إنما تقوم على توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة ، وإخلاص الدين لله أي إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية ، أي الحاكمية والسلطان ومن ثم تصطدم اصطداماً مباشراً بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية ؛ وتصبح بذاتها خطراً على وجود الجاهلية . وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص ، يأخذ أفراده من التجمع الجاهلي ؛ وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية القيادة ، ومن ناحية الولاء . . الأمر الذي لا بد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان . .

وعندما يشعر التجمع الجاهلي بوصفه كياناً عضوياً واحداً متسانداً بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ؛ كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجهه له . . فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام !

إنها معركة بين وجودين لا يمكن أن يكون بينهما تعايش أو سلام ! المعركة بين تجمعين عضويين كل منهما يقوم على قاعدة مناقضة تماماً للقاعدة التي يقوم عليها التجمع الآخر . فالتجمع الجاهلي يقوم على قاعدة تعدد الآلهة ، أو تعدد الأرباب ، ومن ثم يدين فيه العباد للعباد . والتجمع الإسلامي يقوم على قاعدة وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ؛ ومن ثم لا يمكن فيه دينونة العباد للعباد . .



---

ولما كان التجمع الإسلامي إنما يأكل في كل يوم من جسم التجمع الجاهلي ، في أول الأمر وهو في دور التكوين ، ثم بعد ذلك لا بد له من مواجهة التجمع الجاهلي لتسليم القيادة منه ، وإخراج الناس كافة من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده . . لما كانت هذه كلها حتميات لا بد منها متى سارت الدعوة الإسلامية في طريقها الصحيح ، فإن الجاهلية لا

تطيق منذ البدء دعوة الإسلام.

ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة الجاهلية واحدة لدعوة الرسل الكرام! .. إنها مواجهة الدفاع عن النفس في وجه الاجتياح؛ ومواجهة الدفاع عن الحاكمية المغتصبة وهي من خصائص الألوهية التي يغتصبها في الجاهلية العباد!

* وإذ كان هذا هو شعور الجاهلية بخطر الدعوة الإسلامية عليها، فقد واجهت هذه الدعوة في معركة حياة أو موت، لا هوادة فيها ولا هدنة ولا تعايش ولا سلام! .. إن الجاهلية لم تخدع نفسها في حقيقة المعركة؛ وكذلك لم يخدع الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أنفسهم ولا المؤمنين بهم في حقيقة المعركة ..

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم: لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ ..

فهم لا يقبلون من الرسل والذين آمنوا معهم، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدتهم وبقيادتهم وبتجمعهم الخاص. إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم، ويندمجوا في تجمعهم، ويذوبوا في هذا التجمع. أو أن يطردوهم بعيداً وينفوهم من أرضهم ..

ولم يقبل الرسل الكرام أن يندمجوا في التجمع الجاهلي، ولا أن يذوبوا فيه، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص .. هذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي .. ولم يقولوا كما يقول ناس ممن لا يدركون حقيقة الإسلام .. ولا

حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات : حسناً ! فلنندمج في ملتهم كي نزاول دعوتنا ونخدم عقيدتنا من خلالهم ! ! !

(345/418)

---

إن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي ، لا بد ان يتبعه حتماً تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه . . وليس في ذلك اختيار . . إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات . . هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساساً بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده ؛ وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسطان . كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في الجاهلية خادماً للتجمع الجاهلي لا خادماً لإسلامه كما يظن الأغرار !

ثم تبقى الحقيقة القدرية التي ينبغي ألا يغفل عنها الدعاة إلى الله في جميع الأحوال . وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين ؛ والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة وتحيزهم ؛ وإلا بعد مفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم . . فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته . . وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير

وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين . . وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله ، وهم واعون مقدرون . .

* وأخيراً . . نقف أمام الجمال الباهر الذي يعرض فيه القرآن الكريم موكب الإيمان ، وهو يواجه الجاهلية الضالة على مدار الزمان . . جمال الحق الفطري البسيط الواضح العميق ، الواثق المطمئن ، الرصين المكين :

﴿ قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ . . .

﴿ قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . ما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ . .

(346/418)

---

وهذا الجمال الباهر إنما ينشأ من هذا العرض الذي يجعل الرسل موكباً موحداً في مواجهة الجاهلية الموحدة ؛ ويصور الحقيقة الباقية من وراء الملابسات المتغيرة ؛ ويبرز المعالم المميزة للدعوة التي يحملها الرسل وللجاهلية التي تواجههم ، من وراء الزمان والمكان ، ومن وراء

الأجناس والأقوام !

ثم يتجلى هذا الجمال في كشف الصلة بين الحق الذي تحمله دعوة الرسل الكرام ، والحق الكامن في كيان هذا الوجود :

﴿ قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ؟ ﴾ . .

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ ﴾ . .

﴿ ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز ﴾ . .

وهكذا تتجلى العلاقة العميقة بين الحق في هذه الدعوة ، والحق الكامن في الوجود كله .

ويبدو أنه حق واحد موصول بالله الحق ، ثابت وطيد عميق الجذور : ﴿ كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴾ . . وأن ما عداه هو الباطل الزائل ﴿ كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ . .

كذلك يتمثل ذلك الجمال في شعور الرسل بحقيقة الله ربهم ؛ وفي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب تلك العصبة المختارة من عباده :

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ . .

وكلها لمحات من ذلك الجمال الباهر لا يملك التعبير البشري إلا أن يشير إليها كما يشار إلى

النجم البعيد ، لا تبلغ الإشارة مداه ، ولكنها فقط تلفت العين إلى سناه . . . انتهى ا . هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2085. 2103 ﴾

(347/418)

---

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع عشر بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/419)

---

الجزء التاسع عشر بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 28 ﴾ من سورة إبراهيم عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 34 ﴾ من نفس السورة

(4/419)

---

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه أنه هو الفاعل وحده ، أتبعه الدليل عليه إضلال الذين بدلوا الكلمة الطيبة من التوحيد بالإشراك وزلزلتهم واجتثاث كلمتهم فقال : ﴿ ألم تر ﴾ وأشار إلى

بعدهم عن مقامه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله : ﴿ إلى الذين بدلوا ﴾ والتبديل : جعل الشيء مكان غيره ﴿ نعمت الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال التي أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ، وما أورثهم من دين أبيهم إسماعيل عليه السلام ومن جميع النعم الدنيوية من أمن البلد وتيسير الرزق وغير ذلك ، بأن جعلوا مكان شكرها ﴿ كفراً ﴾ وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان ، وأعلاهم همماً في الوفاء ، وأبعدهم عن الخناء ﴿ وأحلوا قومهم ﴾ بذلك ﴿ دار البوار ﴾ أي الهلاك ، مع ادعائهم أنهم أذب الناس عن الجار فضلاً عن الأهل ، روى البخاري في التفسير أنهم كفار أهل مكة .

والبوار : الهلاك الزائد ، والإحلال : جعل الشيء في محل ، فإن كان جوهراً فهو إحلال مجاورة .

وإن كان عرضاً فهو إحلال مداخلة .

ولما أفاد أنها مهلكة ، بينها بما يفهم أنها تلقاهم بالعبوسة كما كانوا يلقون أولياء الله من الرسل وغيرهم بذلك فقال : ﴿ جهنم ﴾ حال كونهم ﴿ يصلونها ﴾ أي يباشرون حرها مع انغماسهم فيها بانعطافها عليهم ؛ ولما كان التقدير : فبئس الإحلال أحلوه أنفسهم وقومهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وبئس القرار ﴾ ذلك المحل الذي أحلوهم به .

ولما كان هذا الفعل من لا عقل له ، بينه بقوله : ﴿ وجعلوا لله ﴾ الذي يعلمون أنه لا شريك له في خلقهم ولا في رزقهم لان له الكمال كله ﴿ أنداداً ﴾ وقال : ﴿ ليضلوا ﴾ أي بأنفسهم

على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، ويعموا غيرهم على قراءة الباقين ﴿ عن سبيله ﴾ لأنهم إن كانوا عقلاء فإنهم يعلمون أن هذا لازم لفعلهم فهم قاصدون له ، وإلا فلا عقول لهم ، لأنه لا يقدم على ما لا يعلم عاقبته إلا أبله ، وهم يقولون : إنهم أبصر الناس قوباً ، وأصفاهم عقولاً .

(5/419)

---

وأنفذهم أفكاراً ، وأمتنهم آراء ، فمن ألزم منهم بطريق النجاة ومن أحذر منهم لطرق الهلاك ؟ مع ما أوقعوا أنفسهم فيه من هذا الداء العضال .

ولما تقرر أنهم على الضد من جميع ما يدعونه فكانوا بذلك أهلاً للإعراض عنهم ، وكان صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمعرض أن يقول : فماذا أفعل بهم وقد أمرتني بإخراجهم إلى صراطك ؟ أمره أن يدق أعناقهم بإخبارهم أن ما أضلهم من النعم إنما هو استدراج ، فقال : ﴿ قل ﴾ أي تهديداً لهم فإنهم لا يشكون في قولك وإن عاندوا : ﴿ تمتعوا ﴾ وبالغوا في فعل البهائم مهما قدرتم ، فإن ذلك ضائركم غير نافعكم ﴿ فإن مصيركم ﴾ أي صيرورتكم ﴿ إلى النار ﴾ بسبب تمتعكم على هذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 187.186 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْرًا ﴾ نزل في أهل مكة حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن وجعل عيشهم في السعة وبعث فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنواعاً من الأعمال القبيحة .

النوع الأول : قوله : ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْرًا ﴾ وفيه وجوه : الأول : يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله كفراً ، لأنه لما وجب عليهم الشكر بسبب تلك النعمة أتوا بالكفر ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً .

والثاني : أنهم بدلوا نفس نعمة الله كفراً لأنهم لما كفروا سلب الله تلك النعمة عنهم فبقي الكفر معهم بدلاً من النعمة .

الثالث : أنه تعالى أنعم عليهم بالرسول والقرآن فاختاروا الكفر على الإيمان .

والنوع الثاني : ما حكى الله تعالى عنهم قوله : ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ وهو الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [ الفتح : 12 ] وأراد بدار البوار جهنم بدليل أنه فسرها بجهنم فقال : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القرار ﴾ أي المقر وهو مصدر سمي به .

النوع الثالث : من أعمالهم القبيحة قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَادًا لّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفراً ذكر أنهم بعد أن كفروا بالله جعلوا له أنداداً ، والمراد من هذا الجعل الحكم والاعتقاد والقول ، والمراد في الأنداد الأشباه والشركاء ، وهذا الشريك يحتمل وجوهاً : أحدها : أنهم جعلوا للأصنام حظاً فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم هذا لله وهذا لشركائنا .



وثانيها : أنهم شركوا بين الأصنام وبين خالق العالم في العبودية .

وثالثها : أنهم كانوا يصرحون بإثبات الشركاء لله وهو قولهم في الحج لبيك لا شريك لك إلا

شريك هو لك تملكه وما ملك .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ بفتح الياء من ضل يضل والباقون بضم الياء من أضل غيره يضل .

المسألة الثالثة :

اللام في قوله : ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ لام العاقبة لأن عبادة الأوثان سبب يؤدي إلى الضلال ويحتمل أن تكون لام كي ، أي الذين اتخذوا الوثن كي يضلوا غيرهم هذا إذا قرىء بالضم فإنه يحتمل الوجهين ، وإذا قرىء بالنصب فلا يحتمل إلا لام العاقبة لأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم .

وتحقيق القول في لام العاقبة أن المقصود من الشيء لا يحصل إلا في آخر المراتب كما قيل أول الفكر آخر العمل .

وكل ما حصل في العاقبة كان شبيهاً بالأمر المقصود في هذا المعنى ، والمشابهة أحد الأمور المصححة لحسن المجاز ، فلهذا السبب حسن ذكر اللام في العاقبة ، ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ والمراد أن حال الكافر في الدنيا كيف كانت ، فإنها بالنسبة إلى ما سيصل إليه من العقاب في الآخرة تمتع ونعيم ، فلهذا المعنى قال : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ وأيضاً إن

هذا الخطاب مع الذين حكى الله عنهم أنهم بدلوا نعمة الله كفراً ، فأولئك كانوا في الدنيا في نعم كثيرة فلا جرم حسن قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ وهذا الأمر يسمى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى :

﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [ فصلت : 40 ] وكقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أصحاب النار ﴾ [ الزمر : 8 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 97. 98 ﴾

(8/419)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾

فيهم خمسة أقاويل :

أحدهما : أنهم قريش بدلوا نعمة الله عليهم لما بعث رسوله منهم ، كفراً به وجحوداً له ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد .

الثاني : أنها نزلت في الأفجرين من قريش بني أميه وبني مخزوم فأما بنو أمية فمتعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر ، قاله عليٌّ ، ونحوه عن عمر رضي الله عنهما .

الثالث : أنهم قادة المشركين يوم بدر ، قاله قتادة .

الرابع : أنه جبلة من الأيهم حين لُطم ، فجعل له عمر رضي الله عنه القصاص بمثلها ، فلم يرض وأنف فارتد متنصراً ولحق بالروم في جماعة من قومه ، قاله ابن عباس . ولما صار إلى بلاد الروم ندم وقال :

تنصَّرت الأشْرافُ من عار لطمةٍ . . . وما كان فيها لو صبرت لها ضَرَرْ

تكنفني منها لجاجٌ ونخوةٌ . . . وبعث لها العين الصحيحة بالعور

فيا ليتني أرْعَى المخاض ببلدتي . . . ولم أنكِرِ القول الذي قاله عمر

الخامس : أنها عامة في جميع المشركين ، قاله الحسن .

ويحتمل تبديلهم نعمة الله كفراً وجهين :

أحدهما : أنهم بدلوا نعمة الله عليهم في الرسالة بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أنهم بدلوا نعم الدنيا بنقم الآخرة .

﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها جهنم ، قاله ابن زيد .

الثاني : أنها يوم بدر ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومجاهد . والبوار في كلامهم الهلاك ، ومنه قول الشاعر :

فلم أر مثلهم أبطال حربٍ . . . غداة الحرب إن خيف البَوارُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(9/419)

---

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ الآية ،

هذا تنبيه على مثال من ظالمين أضلوا ، والتقدير : بدلوا شكر نعمة الله كفراً ، وهذا كقوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ [ الواقعة : 82 ] .

و ﴿ نعمة الله ﴾ المشار إليها في هذه الآية هو محمد عليه السلام ودينه ، أنعم الله به على قريش ، فكفروا النعمة ولم يقبلوها ، وتبدلوا بها الكفر .

والمراد ب ﴿ الذين ﴾ كفرة قريش جملة - هذا بحسب ما اشتهر من حالهم - وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين . وروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب : أنها نزلت في الأفجرين من قريش : بني مخزوم وبني أمية . قال عمر : فأما بنو المغيرة فكفوا يوم بدر . وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين ، وقال ابن عباس : هذه الآية في جبلة بن الأيهم .

قال القاضي أبو محمد : ولم يرد ابن عباس أنها فيه نزلت لأن نزول الآية قبل قصته ، وإنما

أراد أنها تحصر من فعل جبلة إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وأحلوا قومهم ﴾ أي من أطاعهم ، وكان معهم في التبديل ، فكأن الإشارة والتعنيف إنما هي للرؤوس والأعلام ، و﴿ البوار ﴾ الهلاك ، ومنه قول أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

يا رسول المليك إن لساني . . . فاتقٌ ما رتقتَ إذ أنا بُور

قال الطبري : وقال هو وغيره : إنه يروى لابن الزبعرى ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ البوار ﴾ : الهلاك في الآخرة فسره حينئذ بقوله : ﴿ جهنم يصلونها ﴾ ، يحترقون في حرها ويحتملونه ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ البوار ﴾ : الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي فتكون " الدار " قليب بدر ونحوه . وقال عطاء : نزلت هذه الآية في قتلى بدر .

قال القاضي أبو محمد : فيكون قوله : ﴿ جهنم ﴾ نصباً ، على حد قولك : زيداً ضربته ، بإضمار فعل يقتضيه الظاهر .

و﴿ القرار ﴾ : موضع استقرار الإنسان ، و﴿ أنداداً ﴾ جمع ند وهو المثيل والمشبه المناوىء والمراد الأصنام .

واللام في قوله : ﴿ ليضلوا ﴾ – بضم الياء – لام كي ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " لَيَضلوا " بفتح الياء – أي هم أنفسهم – فاللام – على هذا – لام عاقبة وصيرورة وقرأ الباقون " لِيُضلوا " – بضم الياء – أي غيرهم .

وأمرهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حد قوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [ فصلت : 40 ] وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(11/419)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم ترِ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾

في المشا ر إِليهم سبعة أقوال :

أحدها : أنهم الأفجران من قريش : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، روي عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب .

والثاني : أنهم منافقو قريش ، رواه أبو الطُّفيل عن علي .

والثالث : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، ورؤساء أهل بدر الذين ساقوا أهل بدر إِلى بدر ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أهل مكة ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والخامس : المشركون من أهل بدر ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والسادس : أنهم الذين قُتلوا ببدر من كفار قريش ، قاله سعيد بن جبير ، وأبو مالك .

والسابع : أنها عامة في جميع المشركين ، قاله الحسن .

قال المفسرون : وتبديلهم نعمة الله كفراً ، أن الله أنعم عليهم برسوله ، وأسكنهم حَرَمه ، فكفروا بالله وبرسوله ، ودعَوْا قومهم إلى الكفر به ، فذلك قوله : ﴿ وأحلَّوا قومهم دار البوار ﴾ أي : الهلاك .

ثم فسر الدار بقوله : ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أي : يقاسون حَرَّها ﴿ وبئس القرار ﴾ أي : بئس المقرُّ هي .

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً ﴾

قد بينَّاه في سورة [ البقرة : 22 ] ، واللام في "ليَضِلُّوا" لام العاقبة ، وقد سبق شرحها [ يونس : 88 ] ، ومن قرأ "لِيُضِلوا" بضم الياء ، أراد : ليُضِلُّوا الناس عن دين الله .

قوله تعالى : ﴿ قل تمتعوا ﴾ أي : في حياتكم الدنيا ، وهذا وعيد لهم .

قال ابن عباس : لو كان الكافر مريضاً لا ينام ، جائعاً لا يأكل ولا يشرب ، لكان هذا نعيماً يتمتع به بالقياس إلى ما يصير إليه من العذاب ، ولو كان المؤمن في أنعم عيش ، لكان بؤساً عندما يصير إليه من نعيم الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً ﴾

أي جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعليّ وغيرهما .

وقيل : نزلت في المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليّاً رضي الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بدر .

وقيل : نزلت في الأفْجَرَيْن من قريش بني مخزوم وبني أمية ، فأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وقول رابع : أنهم مُتنصّرة العرب جَبَلَة بن الأيهَم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يرض وأَنِفَ فارتد مُتنصراً ولَحق بالروم في جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقتادة .

ولما صار إلى بلد الروم ندم فقال :

تَنصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ . . .

وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ

تَكنَّفني منها لَجَاجٌ ونَخْوةٌ . . .

وبِعتُ لها العينَ الصحيحة بالْعَوَرْ

فيا ليتني أَرعى المَخَاضَ ببلدةٍ . . .

ولم أنكر القولَ الذي قاله عُمرْ

وقال الحسن : إنها عامة في جميع المشركين .

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أي أنزلوهم .

قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بدر .

﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ أي الذين اتبعوهم .

﴿ دَارَ البوار ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد .

وقيل : يوم بدر ؛ قاله عليّ بن أبي طالب ومجاهد .

والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلَهمْ أبطالَ حَرْبٍ . . .

غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف على "دَارَ الْبَوَارِ" لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن "دَارَ الْبَوَارِ" فلو رفعها رافع بإضمار ، على معنى : هي جهنم ، أو بما عاد من الضمير في "يَصْلَوْنَهَا" لحسن الوقف على "دَارَ الْبَوَارِ" .

﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ أي المستقر .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ أي أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم في "البقرة" .

﴿ لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي عن دينه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك في الحج ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ الحج : 9 ] ومثله في "لقمان" و "الزمر" وضَمَّها الباقون على معنى لِيُضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم ، أي عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة .

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع .

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ أي مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(14/419)

---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾

(خ) عن ابن عباس في قوله : ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ؟ قال : هم كفار مكة وفي رواية هم والله كفار قريش .

قال عمر : هم قريش ونعمة الله هو محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال البوار : يوم بدر وعن علي قال هم كفار قريش فجروا يوم بدر ، وقال عمر بن الخطاب : الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فقد متعوا إلى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفراً معناه أن الله تعالى لما أنعم على قريش بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فأرسله إليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان اختاروا الكفر على الإيمان ، وغيروا نعمة الله عليهم .

وقيل : يجوز أن يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفراً لأنهم لما وجب عليهم الشكر بسبب

هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر ، وبدلوه بالكفر وأحلوا قومهم ، يعني ومن تبعهم على دينهم وكفرهم دار البوار يعني دار الهلاك ثم فسرها بقوله ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ يعني المستقر ﴿ وجعلوا لله أنداداً ﴾ يعني أمثالاً وأشباهاً من الأصنام ، وليس لله تعالى ند ولا شبيه ، ولا مثيل تعالى الله عن الند والتشبيه والمثيل علواً كبيراً ﴿ ليضلوا عن سبيله ﴾ يعني ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق ﴿ قل تمتعوا ﴾ أي قل : يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا في الدنيا أياماً قلائل ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ يعني في الآخرة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(15/419)

---

وقال أبو حيان :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

البوار : الهلاك.

قال الشاعر :

فلم أر مثلهم أبطال حرب . . .

غداة الحرب إذ خيف البوار

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

جهنم يصلونها وبئس القرار .

وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ : لم ذكر حال المؤمنين وهداهم ، وحال الكافرين وإضلالهم ، ذكر السبب في إضلالم .

والذين بدلوا ظاهره أنه عام في جميع المشركين قاله الحسن ، بدلوا بنعمة الإيمان الكفر .

وقال مجاهد : هم أهل مكة ، أنعم الله تعالى عليهم ببعثه رسولاً منهم يعلمهم أمر دينه وشرفهم به ، وأسكنهم حرمه ، وجعلهم قوام بيته ، فوضعوا مكان شكر هذه النعمة كفراً .

وسأل ابن عباس عمر عنهم فقال : هما الأعراب من قريش أخوالي أي : بني مخزوم ، واستؤصلوا ببدر .

وأعمامك أي : بني أمية ، ومتعوا إلى حين .

وعن علي نحو من ذلك .

وقال قتادة : هم قادة المشركين يوم بدر .

وعن علي : هم قريش الذين تحزبوا يوم بدر .

وعلى أنهم قريش جماعة من الصحابة والتابعين .

وعن علي أيضاً : هم منافقو قريش أنعم عليهم بإظهار علم الإسلام بأن صان دماءهم

وأموالهم وذراريهم ، ثم عادوا إلى الكفر .

وعن ابن عباس : في جبلة بن الأيهم ، ولا يريد أنها نزلت فيه ، لأن نزول الآية قبل قصته ، وقصته كانت في خلافة عمر ، وإنما يريد ابن عباس أنها تخص من فعل فعل جبلة إلى يوم القيامة .

ونعمة الله على حذف مضاف أي : بدلوا شكر نعمة الله كقوله : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أي شكر رزقكم ، كأنه وجب عليهم الشكر فوضعوا مكانه كفراً ، وجعلوا مكان شكرهم التكذيب .

(16/419)

---

قال الزمخشري : ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة بالكفر حاصلاً لهم الكفر بدل النعمة ، وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمة ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، فكفروا نعمة الله بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله بالنعمة والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم الله بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم انتهى .

ونعمة الله هو المفعول الثاني ، لأنه هو الذي يدخل عليه حرف الجر أي : بنعمة الله ، وكفراً

هو المفعول الأول كقوله : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ أي بسيئاتهم حسنات .

فالمنصوب هو الحاصل ، والمجرور بالباء أو المنصوب على إسقاطها هو الذاهب ، على هذا لسان العرب ، وهو على خلاف ما يفهمه العوام ، وكثير ممن ينتمي إلى العلم .

وقد أوضحنا هذه المسألة في قوله في البقرة : ﴿ ومن يتبدل الكفر بالإيمان ﴾ وإذا قدرت مضافاً محذوفاً وهو شكر نعمة الله ، فهو الذي دخلت عليه الباء ثم حذفت ، وإذا لم يقدر مضاف محذوف فالباء دخلت على نعمة ثم حذفت .

وأحلوا قومهم أي : من تابعهم على الكفر .

وزعم الحوفي وأبو البقاء أنّ كفراً هو مفعول ثان لبدلوا ، وليس بصحيح ، لأنّ بدل من أخوات اختار ، فالذي يباشره حرف الجر هو المفعول الثاني ، والذي يصل إليه الفعل بنفسه لا بواسطة حرف الجر هو المفعول الأول .

وأعرب الحوفي وأبو البقاء : جهنم بدلاً من دار البوار ، والزمخشري عطف بيان ، فعلى هذا يكون الإحلال في الآخرة .

ودار البوار جهنم ، وقاله : ابن زيد .

وقيل : عن علي يوم بدر ، وعن عطاء بن يسار : نزلت في قتلى بدر ، فيكون دار البوار أي : الهلاك في الدنيا كقليب بدر وغيره من المواضع التي قتلوا فيه .

وعلى هذا أعرب ابن عطية وأبو البقاء : جهنم منصوب على الاشتغال أي : يصلون جهنم يصلونها .

(17/419)

---

ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن أبي عبلة : جهنم بالرفع على أنه يحتمل أن يكون جهنم مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهذا التأويل أولى ، لأنّ النصب على الاشتغال مرجوح من حيث أنه لم يتقدم ما يرجحه ، ولا ما يكون مساوياً ، وجمهور القراء على النصب .

ولم يكونوا ليقرأوا بغير الراجح أو المساوي ، إذ زيد ضربته أفصح من زيداً ضربته ، فلذلك كان ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف في قراءة ابن أبي عبلة راجحاً ، وعلى تأويل الاشتغال يكون يصلونها لا موضع له من الإعراب ، وعلى التأويل الأول جوزوا أن يكون حالاً من جهنم ، أو حالاً من دار البوار ، أو حالاً من قومهم ، والمخصوص بالذم محذوف تقديره : وبئس القرار هي أي : جهنم .

وجعلوا لله أنداداً أي زادوا إلى كفرهم نعمته أن صيروا له أنداداً وهي الأصنام التي اتخذوا آلهة من دون الله .

وقرأ ابن كثير وأبو عمر : وليضلوا هذا ، و﴿ ليضل ﴾ في الحج ولقمان والروم بفتح الياء ،

وباقي السبعة بضمها .

والظاهر أنّ اللام لام الصيرورة والمآل .

لما كانت نتيجة جعل الأنداد آلهة الضلال أو الإضلال ، جرى مجرى لام العلة في قولك : جئتك لتكرمني ، على طريقة التشبيه .

وقيل : قراءة الفتح لا تحتمل أن تكون اللام لام العاقبة ، وأما بالضم فتحتمل العاقبة .

والعلة والأمر بالتمتع أمر تهديد ووعيد على حد قوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ قال الزمخشري : تمتعوا إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر ، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه ، مأمورون به ، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ، ولا يملكوه لأنفسهم أمراً دونه ، وهو آمر الشهوة والمعنى : إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة فإنّ مصيركم إلى النار .

ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ انتهى ومصيركم مصدر صار التامة بمعنى رجع .

وخبر إنّ هو قوله : إلى النار ، ولا يقال هنا صار بمعنى انتقل ، ولذلك تعدى بإلى أي : فإنّ انتقالكم إلى النار ، لأنه تبقى إنّ بلا خبر ، ولا ينبغي أن يدعي حذفه ، فيكون التقدير : فإن مصيركم إلى النار واقع لا محالة أو كائن ، لأنّ حذف الخبر في مثل هذا التركيب قليل ، وأكثر ما يحذف إذا كان اسم إنّ نكرة ، والخبر جار ومجرور .

وقد أجاز الحوفي : أن يكون إلى النار متعلقاً بمصيركم ، فعلى هذا يكون الخبر محذوفاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(19/419)

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

تعجيبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرةُ من الأباطيل التي لا تكاد تصدُر عمن له أدنى إدراك ، أي ألم تنظرُ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ ﴾ أي شكرَ نعمته تعالى بأن وضعوا موضعَه ﴿ كُفْراً ﴾ عظيماً وغمْطاً لها أو بدلوا نفسَ النعمة كفراً ، فإنهم لما كفروها سُلبوها فصاروا مستبدلين بها كفراً كأهل مكةَ حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمَه الآمنَ الذي يجبى إليه ثمراتُ كل شيء وجعلهم قِوامَ بيته وشرّفهم بمحمد

عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك ، فقُحطوا سبع سنين وقُتلوا وأُسروا يوم بدر ، فصاروا أذلاَّ مسلوبي النعمة باقين بالكفر بدلها . عن عمر وعلي رضي الله عنهما ( هم الأفجران من قريش : بنو المغيرةِ وبنو أمية أما بنو المغيرة فكُفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فَمُتّعوا إلى حين ) . كأنهما يتأولان ما سيتلى من قوله عز وجل : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ الآية ﴿ وَأَحَلُّوا ﴾ أي أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ بإرشادهم إياهم إلى طريقة الشرك والضلالِ ، وعدمُ التعرض لحلولهم لدلالة الإحلالِ عليه إذ هو فرْعُ الحلول كقوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ ﴿ دَارَ البوار ﴾ دارَ الهلاك الذي لا هلاكَ وراءه .

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطفُ بيان لها ، وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ حال منها أو من قومهم أي داخلين فيها مُقاسِين لحرّها ، أو استئنافٌ لبيان كيفيةِ الحلولِ أو مفسر لفعل يقدر ناصباً لجهنم ، فالمرادُ بالإحلال المذكورِ حينئذ تعريضُهم للهلاك بالقتل والأسرِ لكن قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ أنسبُ بالتفسير الأول ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ على حذف المخصوصِ بالذم أي بئس المقرُّ جهنمُّ أو بئس القرار قرارُهم فيها ، وفيه بيان أن حلولهم وصِلِيّهم على وجه الدوام والاستمرار .

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ عطفٌ على أحلوا وما عطف عليه داخلٌ معهما في حيز الصلة وحكمِ التعجيب أي جعلوا في اعتقادهم وحكمِهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ الفردِ الصمدِ الذي ليس كمثله شيءٌ وهو الواحد القهار ﴿ أَندَاداً ﴾ أشباهاً في التسمية أو في العبادة ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ قومَهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ القويمِ الذي هو التوحيدُ ويوقعوهم في ورطة الكفرِ والضلال ، ولعل تغييرَ الترتيب مع أن مقتضى ظاهرِ النظمِ أن يُذكر كفرانُهم نعمةَ الله تعالى ، ثم كفرُهم بذاته تعالى باتخاذ الأنداد ثم إضلالهم لقومهم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار ، لتثنية التعجيبِ وتكريرِه والإيذانِ بأن كل واحد من وضع الكفر موضعَ الشكر وإحلالِ القوم دارَ البوار ، واتخاذِ الأنداد للإضلال أمرٌ يقضي منه العجبَ ، ولو سيق النظمُ على نسق الوجود لربما فُهم التعجيب من مجموع الهَنات الثلاثِ كما في قصة البقرة ، وقرىء لَيضلوا بالفتح ، وأياً ما كان فليس ذلك غرضاً حقيقياً لهم من اتخاذ الأندادِ لكن لما كان ذلك نتيجةً له شُبّه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية .

(21/419)

---

﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لأولئك الضالين المُضلين ونعياً عليهم وإيذاناً بأنهم لشدة إبائِهم قبولَ الحق وفرْطِ إنهماكِهم في الباطل وعدمِ ارعوائهم عن ذلك بحال أحقاءُ بأن يُضرب عنهم صفحاً

ويُعطَفَ عنهم عِنانُ العِظة ويُخَلوا ويُخَلّوا وشأنَهم ولا يُنهَوْا عنه بل يؤمَروا بمباشرته مبالغةً في التخلية والخِذلان ومسارعةً إلى بيان عاقبته الوخيمة ويقال لهم : ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التي جملتها كفرانُ النعم العظامِ واستتباعُ الناسِ في عبادة الأصنام ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ ليس إلا ، فلابد لكم من تعاطي ما يوجب ذلك ويقتضيه من أحوالكم بل هي في الحقيقة صورةٌ لدخولها ومثالٌ له حسبما يلوح به قولُه سبحانه : ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ الخ ، فهو تعليلٌ للأمر المأمورِ ، وفيه من التهديد الشديدِ والوعيدِ الأكيد ما لا يوصف ، أو قل لهم تصويراً لحالهم وتعبيراً عما يُلجئهم إلى ذلك : تمتعوا ، إيذاناً بأنهم لفرْط انغماسِهم في التمتع بما هم فيه من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم مأمورون بذلك من قِبل آمر الشهوة مذعِنون لحكمه منقادون لأمره كدأب مأمورٍ ساعٍ في خدمة آمرٍ مُطاع ، فليس قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ حينئذٍ تعليلاً للأمر بل هو جوابُ شرطٍ ينسحب عليه الكلام ، كأنه قيل : هذه حالكم فإن دمتم عليه فإن مصيركم إلى النار وفيه التهديدُ والوعيد لا في الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(22/419)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل أي ألم تنظر ﴿ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله ﴾ أي شكر نعمته تعالى الواجب عليهم ووضعوا موضعه ﴿ كُفْراً ﴾ عظيماً وغمطاً لها ، فالكلام على تقدير مضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه وهو المفعول الثاني و ﴿ كُفْراً ﴾ المفعول الأول ، وتوهم بعضهم عكس ذلك ، وقد لا يحتاج إلى تقدير على معنى أنهم بدلوا النعمة نفسها كفراً لأنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبيها موصوفين بالكفر ، وقد ذكر هذا كالأول الزمخشري ، والوجهان كما في الكشف خلافاً لما قرره الطيبي وتابعه عليه غيره متفقان في أن التبديل ههنا تغيير في الذات إلا أنه واقع بين الشكر والكفر أو بين النعمة نفسها والكفر ، والمراد بهم أهل مكة فإن الله سبحانه أسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا نعمة الله تعالى بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله تعالى بالنعمة والسعة لإيلافهم الرحلتين فكفروا نعمته سبحانه فضربهم جل جلاله بالقحط سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فحصل لهم الكفر بدل النعمة وبقي ذلك طوقاً في أعناقهم .

وأخرج الحاكم وصححه .

وابن جرير .

والطبراني .

وغيرهم من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في هؤلاء المبدلين : هما إلا فجران

من قريش بنو أمية .

وبنوا المغيرة فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين .

وأخرج البخاري في تاريخه .

وابن المنذر .

وغيرهما عن عمر رضي الله تعالى عنه مثل ذلك .

وجاء في رواية كما في جامع الأصول هم والله كفار قريش .

*(23/419)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : هم جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ، ولعله رضي الله تعالى عنه لا يريد أنها نزلت في جبلة ومن معه لأن قصتهم كانت في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه وإنما يريد أنها تخص من فعل جبلة إلى يوم القيامة ﴿ وَأَحَلُّواْ ﴾ أي أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ بدعوتهم إياهم لما هم فيه من الضلال ، ولم يتعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه إذ هو فرع الحلول كما قالوا في قوله

تعالى في فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [ هود : 98 ] ﴿ دَارَ البوار

﴾ أي الهلاك من بار يبور بواراً وبوراً ، قال الشاعر :

فلم أر مثلهم أبطال حرب . . .

غداة الحرب إذ خيف البوار

وأصله كما قال الراغب فرط الكساد ، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد كما قيل

كسد حتى فسد عبر به عن الهلاك .

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) ﴾

(24/419)

---

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان للدار ، وفي الإبهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل ، وأعربه

الحوفي وأبو البقاء بدلاً منها ، وقوله تعالى : ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يقاسون حرها حال من

الدار أو من ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ أو من ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ [ إبراهيم : 28 ] أو استئناف لبيان كيفية

الحلول ، وجوز أبو البقاء كون ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ منصوباً على الاشتغال أي يصلون جهنم

يصلونها وإليه ذهب ابن عطية ، فالمراد بالاحلال حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر ،

وأيد بما روي عطاء أن الآية نزلت في قتلى بدر ، وبقراءة ابن أبي عبلة ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ بالرفع

على الابتداء ، ويحتمل أن يكون ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ على هذه القراءة خبر مبتدأ محذوف واختاره أبو حيان معللا بأن النصب على الاشتغال مرجوح من حيث أنه لم يتقدم ما يرجحه ولا ما يجعله مساوياً ، وجمهور القراء على النصب ولم يكونوا ليقرؤوا بغير الراجح أو المساوي ، إذ زيد ضربته بالرفع أرجح من زيداً ضربته فلذلك كان ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف في تلك القراءة راجحاً ، وأنت تعلم أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ [ إبراهيم : 30 ] يرجح التفسير السابق ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ على حذف المخصوص بالذم أي بئس القرار هي أن جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها ، وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار .

﴿ وَجَعَلُوا۟ ﴾ عطف على ﴿ أحلوا ﴾ [ إبراهيم : 28 ] أو ما عطف عليه داخل معه في حيز الصلة وحكم التعجيب أي جعلوا في اعتقادهم وحكمهم ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ الفرد الصمد الذي ليس كمثله شيء وهو الواحد القهار ﴿ أَندَاداً ﴾ أمثالاً في التسمية أو في العبادة ، وقال الراغب : ند الشيء مشاركة في جوهره وذلك ضرب من المماثلة فإن المثل يقال في أي مشاركة كانت فكل ند مثل وليس كل مثل ندا ، وليس كل مثل نداً ، ولعل المعول عليه هنا ما أشرنا إليه .

﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا ﴿ عَن سَبِيلِهِ ﴾ القويم الذي هو التوحيد ، وقيل : مقتضى ظاهر النظم الكريم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرانهم بذاته سبحانه باتخاذ الأنداد ثم إضلالهم لقومهم المؤدى إلى إحلالهم دار البوار ، ولعل تغيير الترتيب لتثنية التعجيب وتكريره والإيذان بأن كل واحد من هذه الهنات يقضي منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من الجموع ، وله نظائر في الكتاب الجليل ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

ورويس عن يعقوب ﴿ لِيَضِلُّوا ﴾ بفتح الياء ، والظاهر أن اللام في القراءتين مثلها في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] وذلك أنه لما كان الاضلال أو الضلال نتيجة للجعل المذكور شبه بالغرض والعلة الباعثة فاستعمل له حرفه على سبيل الاستعارة التبعية قاله غير واحد ؟ وقيل عليه : إن كون الضلال نتيجة للجعل لله سبحانه أنداداً غير ظاهر إذ هو متحد معه أو لازم لا ينفك عنه إلا أن يراد الحكم به أو دوامه .

ورد بأنهم مشركون لا يعتقدون أنه ضلال بل يزعمون أنه اهتداء فقد ترتب على اعتقادهم ضده ، على أن المراد بالنتيجة ما يترتب على الشيء أعم من أن يكون من لوازمه أولاً وفيه تأمل ﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الضلال المتعجب منهم ﴿ تَمَتَّعُواْ ﴾ بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها تبديل نعمة الله تعالى كفراً واستتباع الناس في الضلال ، وجعل ذلك متمتعاً به تشبيهاً له بالمشتهيات المعروفة لتلذذهم به كتلذذهم بها ، وفي التعبير بالأمر كما قال الزمخشري إيذان بأنهم لانغماسهم بالتمتع بما هم عليه وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورون به قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه وهو آمر الشهوة ؛ وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ﴾ جواب شرط ينسحب عليه الكلام على ما أشار إليه بقوله : والمعنى إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لآمر الشهوة فإن مصيركم إلى النار ، ويجوز أن يكون الأمر مجازاً عن التخلية والخذلان وأن ذلك الآمر متسخط إلى غاية ، ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الآباء والتصميم حردت عليه وقلت : أنت وشأنك فافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر ولكنك كأنك تقول : فإذ قد أبيت قبول النصيحة فأنت أهل ليقال لك افعل ما شئت وتبعث عليه ليتبين لك إذا فعلت صحة رأي الناصح وفساد رأيك انتهى .

قال صاحب الكشف : إن الوجهين مشتركان في إفادة التهديد لكن الاداء إلى مختلف ، والأول نظير ما إذا أطاع أحد عبيدك بعض من تنقم طريقته فتقول : اطع فلاناً ، وهذا صحيح صدر من المنقوم أمر ومن العبد طاعة أو كان منه موافقة لبعض ما يهواه والقسم الأخير هو ما نحن فيه والثاني ظاهر انتهى .

(27/419)

---

وظاهر هذا أن التهديد على الوجهين مفهوم من صيغة الأمر ، ويفهم من كلام بعض الأجلة أن ذلك على الوجه الأول من الشرطية وعلى الثاني من الأمر وما في حيز الفاء تعليل له ، ولعل النظر الدقيق قاض بما أفتى به ظاهر ما في الكشف ، وذكر غير واحد أن هذا كقول الطبيب لمريض يأمره بالاحتماء فلا يحتمي : كل ما تريد فإن مصيرك إلى الموت ؛ فإن المقصود كما قال صاحب الفرائد التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول .

وجعل الطيبي ما قرر في المثال هو المراد من قول الزمخشري ان في ﴿ لَهُمْ تَمَتَّعُوا ﴾ إيذاناً بأنهم لانغماسهم الخ ، وأنت تعلم أنه ظاهر في الوجه الثاني فافهم .

والمصير مصدر صار التامة بمعنى رجع وهو اسم إن و ﴿ إِلَى النار ﴾ في موضع الخبر ، ولا ينبغى أن يقال : إنه متعلق بمصير وهو من صار بمعنى انتقل ولذا عدى بإلى لأنه يدعو إلى

القول بحذف خبر إن وحذفه في مثل هذا التركيب قليل ، والكثير فيما إذا كان الاسم نكرة والخبر جار ومجرور .

والحوفي جوز هذا التعلق فالخبر عنده محذوف أي فإن مصيركم إلى النار واقع أو كائن لا محالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(28/419)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

أعقب تمثيل الدينين ببيان آثارهما في أصحابهما .

وابتُدىء بذكر أحوال المشركين لأنها أعجب والعبرة بها أولى والحذر منها مقدّم على التحلي بضدها ، ثم أعقب بذكر أحوال المؤمنين بقوله : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا ﴾ الخ .

والاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك .

والرؤية هنا بصرية لأن متعلقها مما يرى ، ولأن تعدية فعلها بـ ﴿ إلى ﴾ يرجح ذلك ، كما في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ [ سورة البقرة : 258 ] .

وقد نزل المخاطب منزلة من لم ير .

والخطاب لمن يصح منه النظر إلى حال هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله مع وضوح حالهم .

والكفر : كفران النعمة ، وهو ضد الشكر ، والإشراك بالله من كفران نعمته .

وفي قوله : بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ محسن الاحتباك .

وتقدير الكلام : بدلوا نعمة الله وشُكرَها كفراً بها ونقمةً منه ، كما دل عليه قوله : ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ الخ .

واستعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقه شيء آخر ، لأنه يشبه تبديل الذات بالذات .

والذين بدلوا هذا التبديل فريق معرفون ، بقرينة قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين ﴾ ، وهم الذين تلقوا الكلمة الخبيثة من الشيطان ، أي كلمة الشرك ، وهم الذين استكبروا من مشركي أهل مكة فكابروا دعوة الإسلام وكذّبوا النبي صلى الله عليه وسلم وشرّدوا من استطاعوا ، وتسببوا في إحلال قومهم دار البوار ، فإسناد فعل ﴿ أحلوا ﴾ إليهم على طريقة المجاز العقلي .

ونعمة الله التي بدلوها هي نعمة أن بوّأهُم حرمه ، وأمنهم في سفرهم وإقامتهم ، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان ، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة .

ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه صلى الله عليهم جميعاً وهداهم إلى الحق ، وهيّأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة ، فبدّلو شكر ذلك بالكفر به ، فنعمة الله الكبرى هي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة إبراهيم وبنيّته عليهم السلام .

وقومهم : هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتى ماتوا كفاراً ، فهم أحق بأن يضافوا إليهم .

والبوار : الهلاك والخسران .

وداره : محله الذي وقع فيه .

والإحلال بها الإنزال فيها ، والمراد بالإحلال التسبب فيه ، أي كانوا سبباً لحلول قومهم بدار البوار ، وهي جهنم في الآخرة ، ومواقع القتل والخزي في الدنيا مثل : موقع بدر ، فيجوز أن يكون ﴿ دار البوار ﴾ جهنم ، وبه فسر علي وابن عبّاس وكثير من العلماء ، ويجوز أن تكون أرض بدر وهو رواية عن علي وعن ابن عباس .

واستعمال صيغة المضي في ﴿ أحلوا ﴾ لقصد التحقيق لأن الإحلال متأخر زمنه فإن السورة مكية .

والمراد بـ ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ صناديد المشركين من قريش ، فعلى تفسير ﴿ دار البوار ﴾ بدار البوار في الآخرة يكون قوله ﴿ جهنم ﴾ بدلاً

من ﴿ دار البوار ﴾ وجملة ﴿ يصلونها ﴾ حالاً من ﴿ جهنم ﴾ ، فتخص ﴿ دار البوار ﴾ بأعظم أفرادها وهو النار ، ويجعل ذلك من ذكر بعض الأفراد لأهميته .

وعلى تفسير ﴿ دار البوار ﴾ بأرض بدر يكون قوله : ﴿ جهنم يصلونها ﴾ جملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

وانتصابُ جهنم على أنه مفعول لفعل محذوف يدل عليه فعل ﴿ يصلونها ﴾ على طريقة الاشتغال .

وما يروون عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن عليّ كرّم الله وجهه أن ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ هم الأفجران من قريش : بَنُو أمية وبنو المغيرة بن مخزوم ، قال : فأما بنو أمية فمُتّعوا إلى حين وأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر .

فلا أحسبه إلا من وضع بعض المغرضين المضادين لبني أمية .

(30/419)

---

وفي روايات عن عليّ كرّم الله وجهه أنه قال : هم كفار قريش ، ولا يريد عمر ولا علي رضي الله عنهما من أسلموا من بني أمية فإن ذلك لا يقوله مسلم فاحذروا الأفهام الخطئة .

وكذا ما روي عن ابن عباس : أنهم جَبلة بن الأيهم ومن اتبعه من العرب الذين تنصروا في

زمن عُمر وحلّوا ببلاد الروم ، فإذا صح عنه فكلامه على معنى التنظير والتمثيل وإلا فكيف يكون هو المراد من الآية وإنما حدث ذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وجملة ﴿ وبئس القرار ﴾ عطف على جملة ﴿ يصلونها ﴾ ، أو حال من ﴿ جهنم ﴾ .

والتقدير : وبئس القرار هي .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) ﴾

عطف على ﴿ بدلوا ﴾ و ﴿ أحلوا ﴾ ، فالضمير راجع إلى ﴿ الذين ﴾ وهم أئمة الشرك .

والجعل يصدق باختراع ذلك ما فعل عمرو بن لُحي وهو من خُزاعة .

ويصدق بتقرير ذلك ونشره والاحتجاج له ، مثل وضع أهل مكة الأصنام في الكعبة ووضع هُبل على سطحها .

والأنداد : جمع نِدّ بكسر النون ، وهو المماثل في مجد ورفعة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ في سورة البقرة ( 22 ) .

وقرأ الجمهور ليضلوا ﴾ بضم الياء التحتية من أضل غيره إذا جعله ضالاً ، فجعل الإضلال علة لجعلهم لله أنداداً ، وإن كانوا لم يقصدوا تضليل الناس وإنما قصدوا مقاصد هي

مساوية للتضليل لأنها أوقعت الناس في الضلال ، فعُبر على مساوي التضليل بالتضليل لأنه آيل إليه وإن لم يقصدوه ، فكأنه قيل : للضلال عن سبيله ، تشنيعاً عليهم بغاية فعلهم وهم ما أضلوا إلا وقد ضَلّوا ، فعلم أنهم ضلوا وأضلوا ، وذلك إيجاز .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ورُوْيس عن يعقوب ﴿ لِيَضلّو ﴾ بفتح الياء والمعنى : ليستمر ضلالهم فإنهم حين جعلوا الأنداد كان ضلالهم حاصلاً في زمن الحال .

ومعنى لام التعليل أن تكون مستقبلة لأنها بتقدير ﴿ أن ﴾ المصدرية بعد لام التعليل .

*(31/419)*

---

ويعلم أنهم أضلوا الناس من قوله : ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ .

وسبيل الله : كل عمل يجري على ما يرضي الله .

شبه العمل بالطريق الموصلة إلى المحلة ، وقد تقدم غير مرة .

وجملة ﴿ قل تمتعوا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن المخاطب بـ ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا ﴾ إذا عِلم هذه الأحوال يتساءل عن الجزاء المناسب لجرمهم وكيف تركهم الله يرفلون في النعيم ، فأجيب بأنهم يصيرون إلى النار ، أي يموتون فيصيرون إلى العذاب .

وأُمر بأن يبلغهم ذلك لأنهم كانوا يزدهون بأنهم في تنعم وسيادة ، وهذا كقوله : ﴿ لا يغرنك

تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ في سورة آل عمران ( 196 ، 197 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(32/419)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ .

هذا تهديد منه تعالى لهم بأن مصيرهم إلى النار وذلك المتاع القليل في الدنيا لا يجدي من مصيره إلى النار وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ [ الزمر : 8 ] وقوله : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [ لقمان : 24 ] وقوله ﴿ مَتَاعٌ فِي الدنيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [ يونس : 70 ] وقوله : ﴿ لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [ آل عمران : 196 - 197 ] الآية إلى ذلك من الآيات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(33/419)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى . . . ﴾ [ إبراهيم : 28 ] .

فهذا يعني أن المُخبِر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشيء فهو أصدق مِنْ أنْ تراه أعيننا .

وتشير الآية إلى عملية مُبادلة بين اعتراف بالنعمة ؛ ثم إنكارها . كأن هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتيْنا ببديل له . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ . . . ﴾ [ البقرة : 61 ] .

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقومَ بأيِّ تكليف إيمانيٍّ قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هي الأصل ، والتكليف إنما يأتي من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألاَّ يعصي العبد مَنْ أنعم عليه بكل النعم ، وأن يتجه إلى التكليف بمحبة ؛ كي لا يقلب نعمة الله كفراً .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء الله عليهم الخير ، وجعل لهم الحرم آمناً : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ القصص : 57 ] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبي الإسلام – الدين الخاتم – منهم ، وهو النبي الذي ستدين له الدنيا والعالم في كل زمان ومكان ؛ فلماذا يُبدِّلون تلك النعمة كفراً ؟

أمَا كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحُسْن العبادة ؟ فهذا النبي الذي قال الحق سبحانه عن رسالته : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [ الزخرف : 44 ] .

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصيف * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [ قريش : 1-4 ] .

(34/419)

---

فكيف يُبدِّلون نعمة الله كفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم وصَحْبه حتى قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف " .

وخرج لقتالهم في بدر ؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفراً ، ولماذا قَبِلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صِدْق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لَطلبوا من الأصنام أن تعطيهمَ ؛ أو

لِرفضوا أن يأخذوا خَيْر المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمُقوِّمات المادة ؛ وأضاف لذلك منهجه مُقوم الروح .

وحين نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ [ إبراهيم : 28 ] .

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حالٍّ في مَحَلٍّ . ونعلم أن الظَّرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان ؛ فإذا أحللْتَ حدثاً محلَّ حَدث ؛ فهذا يخصُّ ظرف الزمان ، وحين تحل شيئاً مكان شيء آخر ، فهذا أمر يخصُّ ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ [ إبراهيم : 28 ] .

وهذا يعني ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بَوَار ؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غَشّوهم وخدعوهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ؛ ولم يلتفتوا إلى أنّ قادتهم وأُولي الأمر منهم يسلكون السلوك السيء وعليهم ألاَّ يقلدوهم ؛ فَجرُّوا عليهم الفتن واحدة تِلْو أخرى ، وترين الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تكون بها مناعات من الفتن ؛ فتحثّ النفس اللوامة المؤمن ؛ فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس

اللوّامة إلى نفس أمّارة بالسوء وجدتْ في المجتمع المسلم مَنْ يزجرها .

وبهذا تصبح أمة محمد صلى الله عليه وسلم محصَّنة ضد الفتن التي تُذهِب الإيمان .

(35/419)

---

ويقول الحق سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ﴾ [ آل عمران : 110 ] .

ويُذكِّرنا الحق سبحانه بأن الرسولَ سيكون شهيداً علينا ، ونحن سنكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كُلُّ واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومِثْلما شهد الرسول أنه قد بلَّغ الرسالة ؛ سيكون على كل واحد من أمةَ محمد صلى الله عليه وسلم أنْ يشهدَ بأنه قد بلَّغ ما علم من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وكُلٌّ منا يعلم كيف حدثتْ الغفلة الأولى ؛ حيث حدثتْ الغفلة من الأُسْوة ؛ فزاحمتهم الشهوات وارتكبوا السيئاتِ ، فحين غفلت النفس ارتكبتْ المعصية ؛ وحين رأى الناسُ مَنْ يرتكب المعصية قلَّدوه .

وهكذا حمل مَنْ وقع في الغفلةوزره ووزْر مَنِ اتبعه بالأُسْوة السيئة ؛ فصار ضَالاً في ذاته ؛ ثم

تحمَّل وِزْر مَنْ أضله أيضاً .

وهكذا صار مَنْ فعل ذلك هو مَنْ أحلّ قومه دار البوار .

والبوار يعني الهلاك ؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرّفوا وسلكُوا بما يخالف المنهج أورثوا مَنِ اتبعوهم الهلاك .

ونحن في الريف نَصِفُ الأرض التي لا تصلح للزراعة بأنها الأرض البُور ؛ وكذلك يَقُال " قُمْنا بتبوير الأرض " أي : أهلكنا ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [ إبراهيم : 28 ] .

نجد في كلمة " قومهم " ما يُوحي بالخِسَّة لِمَنْ يرتكبون هذا الفعل الشائن ؛ فمَنْ يُهلك قومه لا بُد أن يكونَ خسيساً ؛ ولا بُد أن يكون محترف غِشٍّ وخديعة ؛ فالقوم هم مَنْ يقومون معهم ؛ وكان من اللائق أن تضرب على يد مَنْ يصيبهم بشرٍّ أو يغشّهم أو يخدعهم .

ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا . . . ﴾ .

وإذا قِسْنا جهنم بالمقرات ؛ فلن نجد مَنْ يرغب في أن تكون جهنم هي مقرَّه ؛ لأن الإنسان يجب أن يستقر في المكان الذي يجد فيه راحة ؛ ولو لم يجد في هذا المكان راحة ؛ فهو يتركه .

وجهنم التي يَصْلوْنها لن تكون المقرَّ الذي يجدون فيه أدنى راحة ؛ لأن العذاب مُقيم بها ؛ ولذلك يصفها الحق سبحانه بأنها :

﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ [ إبراهيم : 29 ] .

فكأنهم ممسوكون بكلاليب فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهي تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ ق : 30 ] .

وكأنهم قد عَشِقوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها وهي مربوطة بهم ؛ وهي بئس القرار ؛ لأن أحداً لن يخرج منها إلا أنْ يشاء الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ . . . ﴾ .

والنّد هو : المِثْل والمُشَابه . وهم قد اتخذوا لله شركاء ؛ وأيّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التي أسبغها عليهم ولم يُنزِل لهم منهجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه؟

ونعلم أن العبادة تقتضي أمراً وتقتضي نهياً ، ولم يُنزِل أيٌّ من هؤلاء الشركاء منهجاً كي يتبعه

مَنْ يعبدونهم ؛ ولا ثوابَ على العبادة ؛ ولا عقَاب على عدم العبادة .

ولذلك نجد أن مِثْل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء ؛ لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به .

ولذلك نجد الدجالين الذين يدَّعُون أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ويتصرفون مع مَنْ يُصدِّقونهم من الأتباع ، وكأنهم كائنات أرقى من النبي صلى الله عليه وسلم - والعياذ بالله منهم - .

*(37/419)*

---

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المثقفين وهم يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد يبتعد عنه بسطاء الناس ؛ ذلك أن النفس الفطرية تحب أن تعيش على فطرة الإيمان ؛ أما مَنْ يأتي لِيُخفِّف من أحكام الدين ؛ فيهواه بعض مِمَّنْ يتلمسون الفِكَاك من المنهج .

وبذلك يجعل هؤلاء الأتباع مَنْ يخفف عنهم المنهج نداً لله - والعياذ بالله - ويضلون بذلك عن الإيمان .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَجَعَلُواْ للهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ . . ﴾ [ إبراهيم : 30 ] .

أي : لِيُضِلوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى لنفس الآية "لِيَضلوا عن سبيل الله" ، وأنت ساعةَ تسمع حدثاً يوجد ليجيء حدث كنتيجة له ، فأنت تأتي ب "لام التعليل" كقولك "ذاكر الطالب لينجح" هنا أنت لم تَأْتِ بفعل ونقيضه . وهل كانوا يضلون أنفسهم ؟

لا ، بل كانوا يتصوَّرون أنهم على هُدىً واستقامة ، وهذه تُسمَّى "لام العاقبة" وهي تعني أنه قد يحدث بعد الفعل فِعْل آخر كان وارداً . وهذه تُسمَّى "لام تعليلة" .

ولكن قد يأتي فِعْل بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريده ؛ كما فعل فرعون حين التَقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ؛ ولكنها مشيئة الله التي أرادتْ ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكُّم في الأحداث ، بداية من ادعاء الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتي التقاطه لموسى ليكون قُرَّة عينٍ له ؛ فينشأ موسى ويكبر ليكون عدواً له ! !

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ [ إبراهيم : 30 ] .

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل

إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكميّ ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

*(38/419)*

---

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ [ إبراهيم : 30 ] .

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أنْ يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أنْ يُراد به الصَّد عن الطلب بأسلوب تهكميّ .

ونجد في قول الإمام علي – كرم الله وجهه – قولاً يشرح لنا هذا : " لا شرَّ في شر بعده الجنة ، ولا خير في خير بعده النار " .

فَمنْ يقول : إن التكاليف صعبة ؛ عليه أن يتذكَّر أن بعدها الجنة ، ومَنْ يرى المعاصي والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المُسبِّب أو المقدمة عن النتائج .

فالأب الذي يجد ابنه يُلاحِق المذاكرة في الليل والنهار ليبني مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كل لا يقع في المرض ؛ فيصبح كالمُنْبَتّ ؛ لا أرضاً قطع ، ولا ظهْراً أبقى ، ولكن الولد يرغب في مواصلة الجهد ليصلَ إلى مكانة مُشرِّفة

.

وهنا نجد أن كلاًّ من الأب والابن قد نظروا إلى الخير من زوايا مختلفة ؛ ولذلك قد يكون اختلاف النظر إلى الأحداث وسيلة لالتقاءات الخير في الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ [ إبراهيم : 30 ] .

قد يستبطئون الأحداث ؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتي هذا المصير : قد نجد حلاًّ له .

ونقول : فليتذكر كُلّ إنسان أن الأمر المُعلَّق على غير ميعاد مُحدّد ؛ قد يأتي فجأة ؛ فَمَنْ يعيش في معصية إلى عمر التسعين ؛ هل يظن أنه سيفِرّ من النار .

إنه واهِمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إبهام الله ليمعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتْعة في تلك الحياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(39/419)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

قوله تعالى: ﴿ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ﴾ فيه أوجهٌ:

أحدُها: أنَّ الأصل بَدَّلوا شكرَ نعمةِ [الله] كفراً، كقوله: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: 82] [أي]: شُكر رزقكم، وَجَبَ عليهم الشكرُ فوضَعُوا موضعَه الكفرَ.

الثاني: أنهم بدَّلوا نفسَ النعمةِ كفراً، على أنهم لَمَّا كَفَروها سُلِبوها، فبَقُوا مَسْلوبِي النعمةِ موصوفين بالكفر حاصلاً لهم. قالهما الزمخشري. قلت: وعلى هذا فلا يُحتاج إلى حَذْفِ مضاف على هذا، وقد تقدَّم أن "بَدَّلَ" يتعدَّى لاثنين، أَوَّلُهما من غير حرف، والثاني بالباء، وأن المجرورَ هو المتروكُ، والمنصوبَ هو الحاصلُ، ويجوز حَذْفُ الحرفِ، فيكونُ المجرورُ بالباءِ هنا هو "نعمة" لأنها المتروكةُ. وإذا عَرَفْتَ هذا عَرَفْتَ أنَّ قولَ الحوفيّ وأبي البقاء أنَّ "كفراً" هو المفعولُ الثاني ليس بجيدٍ؛ لأنه هو الذي يَصِل إليه الفعل بنفسِه لا بحرف الجر، وما كان كذا فهو المفعولُ الأول.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) ﴾

قوله تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ ﴾: فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنه بدلٌ من "دارَ". الثاني: أنه عطفُ بيانٍ لها. وعلى هذين الوجهين فالإِحلالُ يقع في الآخرة. الثالث: أَنْ يَنْتَصِبَ على الاشتغال بفعلٍ مقدَّر، وعلى هذا فالإِحلالُ يقع في الدنيا، لأنَّ قولَه ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ واقعٌ في الآخرة.

ويؤيِّد هذا التأويلَ قراءةُ ابن أبي عبلة " جهنمُ " بالرفع، على أنها مبتدأٌ، والجملةُ بعدها الخبرُ. وتحتمل قراءةُ ابن أبي عبلة وجهاً أخرَ: وهو أن يرتفعَ على خبرِ ابتداءٍ مضمر، و " يَصْلَوْنها " حالٌ: إمَّا مِنْ " قومَهم "، وإمَّا مِنْ " دارَ "، وإمَّا مِنْ " جهنمَ ". وهذا التوجيهُ أَوْلى من حيث إنه لم يتقدَّمْ ما يرجِّح النصبَ، ولا ما يَجْعله مساوياً، والقرَّاءُ الجماهيرُ على النصب، فلم يكونوا ليتركوا الأفصحَ، إلاَّ لأن المسألةَ ليستْ من الاشتغال في شيءٍ. وهذا الذي ذكرتُه أيضاً مُرَجِّح لنصبِه على البدليَّة أو البيانِ على انتصابه على الاشتغال.

والبَوارُ: الهَلاكُ، قال الشاعر:

2888- فلم أرَ مثلَهم أبطالَ حربٍ ... غداةَ الرَّوْعِ إذ خِيْفَ البوارُ

وأصلُه من الكَسادِ، كما قيل: كَسَدَ حتى فَسَدَ، ولَمَّا كان الكسادُ يؤدي إلى الفسادِ والهلاكِ أُطْلِقَ عليه البَوار. ويقال: بار يَبُور بَوارا وبُورا، ورجل حائرٌ بائرٌ، وقوله تعالى: { وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً } [الفتح: 12] يحتمل أن يكونَ مصدرا وُصِفَ به الجمعُ، وأن يكونَ جمع بائر في المعنى. ومِنْ وقوعِ " بُور " على الواحد قوله:

2889- يا رسولَ المَليكِ إنَّ لساني ... راتقٌ ما فَتَقْتُ إذ أنا بُوْرُ

أي : هالِكٌ .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) ﴾

(41/419)

---

قوله تعالى : ﴿ لِّيُضِلُّواْ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً لِّيَضِلُّواْ ﴾ بفتح الياء ، والباقون بضمِها ، مِنْ " أَضَلَّه " . واللامُ هي لامُ الجرِّ مضمرةً " أنْ " بعدها ، وهي لامُ العاقبةِ لَمَّا كان مآلُهم إلى كذلك . ويجوز أن تكونَ للتعليل . وقيل : هي مع فتحِ الياءِ للعاقبةِ فقط ، ومع ضمِّها محتملةٌ للوجهين ، كأنَّ هذا القائلَ تَوَهَّم أنهم لم يجعلوا الأندادَ لضلالِهم ، وليس كما زَعَم ؛ لأنَّ منهم مَنْ كفر عناداً ، واتخذ الآلهةَ ليضلَّ بنفسِه .

قوله : ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ " إلى النارِ " خبرُ " إنَّ " . و " المصير " مصدرُ صار التامة ، أي : فإنَّ مرجعَكم كائنٌ إلى النار . وأجاز الحوفيُّ أَنْ يتعلقَ " إلى النار " ب " مصيرِكم " . وقد ردَّ هذا بعضُهم بأنه لو جعلناه مصدراً صار بمعنى انتقل ، و " إلى النار " متعلقٌ به ، بقيَتْ " إنَّ " بلا خبر ، لا يقال : خبرُها حينئذ محذوفٌ ؛ لأنَّ حَذْفَه في مثل هذا يَقِلُّ ، وإنما يكثُرُ حَذْفُه إذا كان الاسمُ نكرةً : والخبرُ ظرفاً أو جاراًّ كقوله :

2890- إنّ مَحلاًّ وإنْ مُرْتَحلا . . . وإنّ في السَّفْرِ ما مَضى مَهَلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 104.101 ﴾

(42/419)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

وضعوا الكفران محل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر . واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة ، فأعضاءُ العبد كلها نِعَمٌ من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصي بَدَنَه في الزَّلة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بَدَلَّ النعمة كفراً ، وكذلك إذا أودع الغفلة قلبَه مكانَ المعرفة ، والعلاقَة فيه مكان الانقطاع إليه ، وعلَّقَ قلبه بالأغيار بَدَلَ الثقة به ، ولَطَّخَ لسانَه بذكر المخلوقين ومَدْحِهم بَدَلَ ذكرِ الله واشتغل بغير الله دون العناء في ذكره . . . كلُّ هذا تبديلِ نُعَمِ الله كفراً . وإذا كان العبدُ منقطعاً إلى الله ، مكفياً من قِبَلِ الله . . . وَجَدَ في فراغه مع الله راحةً عن الخَلْق ، ومن إقباله عليه - سبحانه - كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع في بحار

الاشتغال ومعاملة الخلْق ومدحهم وذمهم فقد أحلَّ قومه دار البوار ؛ على معنى إيقاعه قلبَه نفْسَه وجوارحَه في المذلة من الخلْق ، والمضرة في الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أرَ قَبْلي مَنْ يُفارِقُ جَنّةً . . . ويقرع بالتطفيل بابَ جهنمِ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (29) ﴾

وهي الجحيم المُعجَّل . . . وعذابُها بها الفُرْقَةُ لا الحُرْقَة .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) ﴾

رضوا بأن يكون معمولُهم معبودَهم ، ومنحوتُهم مقصودَهم ، فضلُّوا عن نَهْجِ الاستقامة ، ونأوا عن مقر الكرامة وسيلقون غِبَّ ما صنعوا يوم القيامة كما قيل :

قد تركناكَ والذي تريد . . . فعسى أن تَمَلَّهُم فتعودا

قل تمتعوا أياماً قليلة فأيام السرور قِصارٌ ، ومُتَعُ الغفلة سريعة الانقضاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 251 ﴾

(43/419)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر كفرهم وضلالهم عن السبيل وما أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأن يقول لهم ، وكان ذلك محركاً لنفس السامع إلى الوقوف على ما يقال لمن خلع الأنداد وكان أوثق عرى السبيل بعد الإيمان وأعمها الصلاة الناهية عن الفحشاء والمنكر ، والنفقة الشاملة لوجوه البر ، أمره تعالى أن يندب أولياءه إلى الإقبال إلى ما أعرض عنه أعداؤه ، والإعراض عما أقبلوا بالتمتع عليه من ذلك ، فقال ﴿ قل لعبادي ﴾ فوصفهم بأشرف أوصافهم ، وأضافهم إلى ضميره الشريف تحبيباً لهم فيه ، ثم أتبع هذا الوصف ما يناسبه من إذعانهم لسيدهم فقال : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف .

ولما كان قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحسن قول ، فهو جال لصدأ القلوب ، وموجب لتهذيب النفوس ، قال جازماً : ﴿ يقيموا الصلاة ﴾ التي هي زكاة القوة وصلة العبد بربه ﴿ وينفقوا ﴾ وخفف عنهم بقوله : ﴿مما رزقناهم ﴾ أي بعظمتنا ، فهو لنا دونهم ، من أنواع النفقات المقيمة لشرائعه من الصدقات وغيرها ، إتقاناً لما بينهم وبينه من الأسباب لينقذوا أنفسهم من النار ، واقتصر على هاتين الخلتين لأنه لم يكن فرض في مكة غيرهما مع ما تقدم من فضلهما وعمومهما ، ولعله سيق سياق الشرط تنبيهاً لهم على أن مجرد قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أقوى الأسباب فيجب عليهم ألا يتخلفوا عنه

أصلاً ؛ ثم أشار إلى المداومة على هاتين الخصلتين بقوله : ﴿ سراً وعلانية ﴾ ويجوز أن يراد بالسر النافلة ، وبالعلانية الفرض ؛ ثم رهب من تهاون في خدمته من اليوم الذي كان الإعراض عنه سبب الضلال ، فقال مشيراً بالجار إلى قصر مدة أعمالهم : ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ أي عظيم جداً ليس هو كشيء من الأيام التي تعرفونها ﴿ إلا بيع فيه ﴾ لأسير بفداء ﴿ ولا خلال ﴾ أي مخالات ومودات يكون عنها شفاعة أو نصر ، جمع خلة كقلة وقلال ، أو هو مصدر ، وذلك إشارة إلى أنه لا يكون شيء منهما سبباً لخلاص هالك.

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 187 ﴾

(44/419)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا ، أمر المؤمنين في هذه الآية بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ لِّعِبَادِيَ ﴾ بسكون الياء ، والباقون : بفتح الياء لالتقاء الساكنين فحرك إلى النصب .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ يُقِيمُواْ ﴾ وجهان : الأول : يجوز أن يكون جواباً لأمر محذوف هو المقول تقديره : قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا .

الثاني : يجوز أن يكون هو أمراً مقولاً محذوفاً منه لام الأمر ، أي ليقيموا كقولك : قل لزيد ليضرب عمراً وإنما جاز حذف اللام ، لأن قوله : ﴿ قُلْ ﴾ عوض منه ولو قيل ابتداء يقيموا الصلاة لم يجز .

المسألة الثالثة :

أن الإنسان بعد الفراغ من الإيمان لا قدرة له على التصرف في شيء إلا في نفسه أو في ماله .

أما النفس فيجب شغلها بخدمة المعبود في الصلاة وأما المال فيجب صرفه إلى البذل في طاعة الله تعالى .

فهذه الثلاثة هي الطاعات المعتبرة ، وهي الإيمان والصلاة والزكاة وتمام ما يجب أن يقال في هذه الأمور الثلاثة ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ [ البقرة : 3 ] .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة : الآية تدل على أن الرزق لا يكون حراماً ، لأن الآية دلت على أن الإنفاق من الرزق ممدوح ، ولا شيء من الإنفاق من الحرام بممدوح فينتج أن الرزق ليس بحرام .

وقد مر تقرير هذا الكلام مراراً .

المسألة الخامسة :

في انتصاب قوله : ﴿ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ وجوه : أحدها : أن يكون على الحال أي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين .

وثانيها : على الظرف أي وقت سر وعلانية .

(45/419)

---

وثالثها : على المصدر أي انفاق سر وانفاق علانية والمراد إخفاء التطوع وإعلان الواجب .

واعلم أنه تعالى لما أمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال : ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خلال ﴾ قال أبو عبيدة : البيع ههنا الفداء والخلال المخالة ، وهو مصدر من خاللت خلالاً ومخالة ، وهي المصادقة .

قال مقاتل : إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة ، فكأنه تعالى يقول : أنفقوا

أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق في مثل هذا اليوم الذي لا تحصل فيه مبايعة ولا مخالة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: 254].

فإن قيل: كيف نفى المخالة في هاتين الآيتين، مع أنه تعالى أثبتها في قوله: ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المتقين ﴾ [الزخرف: 67].

قلنا: الآية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبيعة ورغبة النفس، والآية الدالة على ثبوت المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 98.99﴾

*(46/419)*

---

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصّلاة وينفقوا مما رزقناهم سِرًّا وعلانية ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني بالسر ما خفي ، وبالعلانية ما ظهر ، وهو قول الأكثرين .

الثاني : أن السر التطوع ، والعلانية الفرض ، قاله القاسم بن يحيى .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن السر الصدقات ، والعلانية النفقات .

﴿ مِنْ قبل أن يأتي يومٌ ، لا بَيْعٌ فيه ولا خلالٌ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : معناه لا فِدية ولا شفاعة للكافر .

الثاني : أن معنى قوله ﴿ لا بيع ﴾ أي لا تباع الذنوب ولا تشتري الجنة . ومعنى قوله ﴿ ولا خِلال ﴾ أي لا مودة بين الكفار في القيامة لتقاطعهم .

ثم فيه وجهان :

أحدهما : أن الخلال جمع خلة ، مثل قِلال وقُلّة .

الثاني : أنه مصدر من خاللت خِلالاً ، مثل قاتلت قِتالاً . ومنه قول لبيد :

خالت البرقة شركاً في الهدى . . . خلة باقية دون الخلل . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(47/419)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

" العباد " جمع عبد ، وعرفه في التكرمة بخلاف العبيد . وقوله : ﴿ يقيموا ﴾ قالت فرقة من النحويين : جزمه بإضمار لام الأمر على حد قول الشاعر : [ الوافر ]

محمد تفد نفسك كل نفس . . . أنشده سيبويه – إلا أنه قال : إن هذا لا يجوز إلا في شعر .

وقالت فرقة : أبو علي وغيره – هو فعل مضارع بني لما كان في معنى فعل الأمر ، لأن المراد : أقيموا ، وهذا كما بني الاسم المتمكن في النداء في قولك : يا زيد لما شبه بقبل وبعد ، وقال سيبويه : هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية ، تقديره : إن تقل لهم أقيموا يقيموا .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يكون جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله : ﴿ قل ﴾ ، وذلك أن يجعل ﴿ قل ﴾ في هذه الآية بمعنى : بلغ وأد الشيعة يقيموا الصلاة ، وهذا كله على أن المقول هو : الأمر بالإقامة والإنفاق . وقيل إن المقول هو : الآية التي بعد ، أعني قوله : ﴿ الله الذي خلق السماوات ﴾ .

و" السر " : صدقة التنفل ، و" العلانية " المفروضة – وهذا هو مقتضى الأحاديث – وفسر ابن عباس هذه الآية بزكاة الأموال مجملاً ، وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس – وهذا منه – عندي – تقريب للمخاطب .

و﴿ خلال ﴾ مصدر من خلل : إذا واد وصافى ، ومنه الخلة والخليل وقال امرؤ القيس :

[الطويل]

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . . . ولست بمقلي الخلال ولا قال

وقال الأخفش : "الخلال" جمع خلة.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر : "لا بيع ولا خلال" بالرفع على إلغاء "لا"

وقرأ أبو عمرو والحسن وابن كثير : "ولا بيعَ ولا خلالَ" بالنصب على التبرية، وقد تقدم

هذا . والمراد بهذا اليوم يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(48/419)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا ﴾

أسكن ابن عامر، وحمزة، والكسائي ياء "عبادي".

قوله تعالى : ﴿ يقيموا الصلاة ﴾ قاله ابن الأنباري : معناه : قل لعبادي : أقيموا الصلاة

وأنفِقوا، يقيموا وينفقوا، فحُذف الأمران، وتُرك الجوابان، قال الشاعر :

فأيُّ امرىءٍ أَنْتَ أَيُّ امْرِىءٍ . . .

إِذا قِيْلَ فِي الحَرْبِ مَن يُقْدِمُ

أراد : إذا قيل : من يُقدم تقْدُمِ .

ويجوز أن يكون المعنى : قل لعبادي أقيموا الصلاة ، وأنفقوا ، فصُرف عن لفظ الأمر إلى لفظ الخبر .

ويجوز أن يكون المعنى : قل لهم ليُقيموا الصلاة ، وليُنفقوا ، فحذف لام الأمر ، لدلالة "قل" عليها .

قال ابن قتيبة : والخِلال مصدر خالَلْت فلاناً خلالاً ومُخالّة ، والاسم الخُلّة ، وهي الصداقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(49/419)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ ﴾

أي إن أهل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر ، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة ﴾ يعني الصلوات الخمس ، أي قل لهم أقيموا ، والأمر معه شرط مقدّر ، تقول : أطع الله يُدخلْك الجنة ؛ أي إن أطعته يدخلْك الجنة ؛ هذا قول الفراء .

وقال الزجّاج : "يُقِيمُوا" مجزوم بمعنى اللام ، أي ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على

الغائب ب "قل" .

قال : ويحتمل أن يقال : "يُقِيمُوا" جواب أمر محذوف ؛ أي قل لهم أقيموا الصلاة يقيموا الصلاة .

﴿ وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ يعني الزكاة ؛ عن ابن عباس وغيره .

وقال الجمهور : السرّ ما خفي والعلانية ما ظهر .

وقال القاسم بن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض ، وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مجوّداً عند قوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ [ البقرة : 271 ] .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ تقدم في "البقرة" أيضاً .

و"خِلاَلٌ" جمع خلة كقُلّة وقِلال .

قال :

فلست بمَقْليِّ الخِلاَلِ ولا قَالِي . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(50/419)

---

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾

يعني يقيموا الصلاة الواجبة ، وإقامتها إتمام أركانها ﴿ وينفقوا مما رزقناهم ﴾ قيل أراد بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة ، وقيل : أراد به جميع الإنفاق في جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه إخراج الزكاة ، والإنفاق في جميع وجوه البر ﴿ سراً وعلانية ﴾ يعني ينفقون أموالهم في حال السر وحال العلانية ، وقيل : أراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ﴾ قال أبو عبيدة : البيع هنا الفداء يعني لا فداء في ذلك اليوم ﴿ ولا خلال ﴾ يعني ولا خلة ، وهي المودة والصداقة التي تكون مخاللة بين اثنين .

وقال مقاتل : إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء مخاللة ولا قرابة ، إنما هي الأعمال إما أن يثاب بها أو يُعاقَب عليها .

فإن قلت كيف نفى الخلة في هذه الآية ، وفي الآية التي في سورة البقرة وأثبتها في قوله ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ قلت : الآية الدالة على نفي الخلة محمولة على نفي الخلة الحاصلة ، بسبب ميل الطبيعة ، ورعونة النفس ، والآية الدالة على حصول الخلة وثباتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ، ونفاها عن غيرهم .

وقيل : إن ليوم القيامة أحوالاً مختلفة ، ففي بعضها يشتغل كل خليله عن خليله وفي بعضها

يتعاطف الأخلاء بعضهم على بعض .

إذا كانت تلك المخالة لله في محبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(51/419)

---

وقال أبو حيان :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

لما ذكر تعالى حال الكفار وكفرهم نعمته ، وجعلهم له أنداداً ، وتهددهم أمر المؤمنين بلزوم الطاعة والتيقظ لأنفسهم ، وإلزام عمودي الإسلام الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة .

ومعمول قل ، محذوف تقديره : أقيموا الصلاة يقيموا .

ويقيموا مجزوم على جواب الأمر ، وهذا قول : الأخفش ، والمازني .

ورد بأنه لا يلزم من القول إنْ يقيموا ، ورد هذا الردّ بأنه أمر المؤمنين بالإقامة لا الكافرين ، والمؤمنون حتى أمرهم الرسول بشيء فعلوه لا محالة .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون يقيموا جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله : قل وذلك أن تجعل قل في هذه الآية بمعنى بلّغ وأدّ الشريعة يقيموا الصلاة انتهى .

وهذا قريب مما قبله ، إلا أن في ما قبله معمول القول : أقيموا ، وفي هذه الشريعة على تقدير

بلِّغ الشريعة .

وذهب الكسائي والزجاج وجماعة إلى أن معمول قل هو قوله : يقيموا ، وهو أمر مجزوم بلام الأمر محذوفة على حد قول الشاعر :

محمد تفد نفسك كل نفس . . .

أنشده سيبويه إلا أنه قال : إنّ هذا لا يجوز إلا في الشعر .

وقال الزمخشري في هذا القول : وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذي هو قل ، عوض منه .

ولو قيل : يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام ، لم يجز انتهى .

وذهب المبرد إلى أنّ التقدير : قل لهم أقيموا يقيموا ، فيقيموا المصرح به جواب أقيموا المحذوف قيل .

وهو فاسد لوجهين : أحدهما : أنّ جواب الشرط يخالف الشرط إما في الفعل ، أو في الفاعل ، أو فيهما .

فأما إذا كان مثله فيما فهو خطأ كقولك : قم يقم ، والتقدير على هذا الوجه : أن يقيموا يقيموا .

والوجه الثاني : أن الأمر المقدر للمواجهة ويقيموا على لفظ الغيبة وهو خطأ إذا كان الفاعل واحداً .

وقيل: التقدير أن تقل لهم أقيموا يقيموا قاله سيبويه فيما حكاه ابن عطية.

وقال الفراء: جواب الأمر معه شرط مقدر تقول: أطع الله يدخلك الجنة، أي إن تطعه يدخلك الجنة.

ومخالفة هذا القول للقول قبله أنَّ الشرط في هذا مقدر بعد فعل الأمر، وفي الذي قبله الأمر مضمن معنى الشرط.

وقيل: هو مضارع بلفظ الخبر صرف عن لفظ الأمر، والمعنى: أقيموا، قاله أبو علي فرقة.

ورد بأنه لو كان مضارعاً بلفظ الخبر ومعناه الأمر، لبقي على إعرابه بالنون كقوله: ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ ثم قال: ﴿ تؤمنون ﴾ والمعنى: آمنوا.

واعتل أبو علي لذلك بأنه لما كان بمعنى الأمر بني يعني: على حذف النون، لأن المراد أقيموا، وهذا كما بني الاسم المتمكن في النداء في قولك: يا زيد، يعني على الضمة لما شبه بقبل وبعد انتهى، ومتعلق القول الملفوظ به أو المقدر في هذه التخاريج هو الأمر بالإقامة والإنفاق، إلا في قول ابن عطية فمتعلقه الشريعة فهو أعم، إذ قدر قُلْ بمعنى بلِّغ وأدِّ الشريعة.

قال ابن عطية: ويظهر أن المقول هو الآية التي بعد أعني قوله: الله الذي خلق السموات والأرض انتهى.

وهذا الذي ذهب إليه من كون معمول القول هو قوله تعالى الله الذي الآية تفكيك للكلام ، يخالفه ترتيب التركيب ، ويكون قوله : يقيموا الصلاة كلاماً مفلتاً من القول ومعموله ، أو يكون جواباً فصل به بين القول ومعموله ، ولا يترتب أن يكون جواباً ، لأن قوله : الله الذي خلق السموات والأرض ، لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بتقدير بعيد جداً .

واحتمل الصلاة أنْ يراد بها العموم أي : كل صلاة فرض وتطوع ، وأن يراد بها الخمس ، وبذلك فسرها ابن عباس .

وفسر الإنفاق بزكاة الأموال .

وتقدم إعراب ﴿ سرا وعلانية ﴾ وشرحها في أواخر البقرة .

وقال أبو عبيدة : البيع هنا البذل ، والخلال المخالة ، وهو مصدر من خاللت خلالاً ومخالة وهي المصاحبة انتهى .

ويعني بالبذل مقابل شيء .



---

وقال امرؤ القيس :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . . .

ولست بمقلي الخلال ولا قال

وقال الأخفش : الخلال جمع خلة .

وتقدم الخلاف في قراءة ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ بالفتح أو بالرفع في البقرة ، والمراد بهذا اليوم يوم القيامة .

قال الزمخشري : ( فإن قلت ) : كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ ( قلت ) : من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات ، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستخرجوا بهداياهم أمثالها وخيراً منها ، وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً كقوله : وما لا حد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال أي : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة ، ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله انتهى . انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(54/419)

وقال أبو السعود :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ الذين ءامَنُواْ ﴾

خصهم بالإضافة إليه تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لوظائفِ العبودية الموفون بحقوقها ، وتركُ العاطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالِهما باعتبار المقول تهديداً وتشريفاً ، والمقولُ هاهنا محذوفٌ دل عليه الجوابُ أي قل لهم أقيموا وأنفقوا ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي يداوموا على ذلك ، وفيه إيذانٌ بكمال مطاوعتِهم الرسولَ صلى الله عليه وسلم وغايةِ مسارعتِهم إلى الامتثال بأوامره ، وقد جوّزوا أن يكون المقولُ يقيموا وينفقوا بحذف لام الأمرِ عنهما ، وإنما حسُن ذلك دون الحذف في قوله

محمدُ تَفدِ نفسَك كلُّ نفس . . . إذا ما خِفْتَ من أمر تَبالا

(55/419)

---

لدلالة قل عليه ، وقيل : هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مُقامهما وليس بذاك ﴿ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ منتصبان على المصدرية من الأمر المقدرِ لا من جواب الأمر المذكور أي أنفقوا إنفاق سرَ وعلانية ، والأحبُّ في الإنفاق إخفاءُ المتطوَّع به وإعلانُ الواجب ، والمرادُ حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والماليةِ وتركِ التمتعِ بمتاع الدنيا

والركونِ إليها كما هو صنيعُ الكفرة ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاعَ المقصّرِ ما يتلافى به تقصيرَه أو يفتدي به نفسَه ، والمقصودُ نفيُ عقدِ المعارضة بالمرة ، وتخصيصُ البيعِ بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقدِ إذ انتفاءُ البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغ وجهٍ ، وانتفاؤُه ربما يتصور مع تحقق الإيجابِ من قبل البائع ﴿ وَلَا خلال ﴾ ولا مخالّةٌ فيشفعَ له خليلٌ أو يسامحه بمال يفتدي به نفسه أو من قبل أن يأتي يومٌ لا أثرَ فيه لما لَهَجوا بتعاطيه من البيع والمخالّة ولا انتفاعَ بذلك ، وإنما الانتفاعُ والارتفاقُ فيه بالإنفاق لوجه الله سبحانه ، والظاهرُ أن من متعلقة بأنفقوا وتذكيرُ إتيانِ ذلك اليوم لتأكيد مضمونِه كما في سورة البقرة من حيث إن كلاًّ من فقدان الشفاعةِ وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرعاً ، وانقطاعُ آثار البيع والخِلالِ الواقعَيْن في الدنيا وعدمُ الانتفاع بهما من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائدُه وتدوم فوائدُه من الإنفاق في سبيل الله عز وجل ، أو من حيث أن ادخارَ المال وتركَ إنفاقِه إنما يقع غالباً للتجارات والمُهاداة فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجهَ لادّخاره إلى وقت الموت ، وتخصيصُ التأكيد بذلك لميل الطباعِ إلى المال وكونها مجبولةً على حبه والضِّنةِ به ، ولا يبعُد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمرِ بإقامة الصلاة أيضاً من حيث إن تركَها كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبياعات والمُخالّات كما

في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ وقرىء بالفتح فيهما على إرادة النفي العام ودَلالةِ الرفعِ على ذلك باعتبار خطابيَ هو وقوعُه في جواب هل فيه بيعٌ أو خلال ؟ . انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(57/419)

---

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى لما هدد الكفار وأشار إلى أنهما كهم في اللذة الفانية أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر خلص عباده بالعبادة البدنية والمالية فقال سبحانه :

﴿ قُل لّعِبَادِىَ الذين ءامَنُواْ ﴾

وخصهم بالإضافة إليه تعالى رفعاً لهم وتشريفاً وتنبيهاً على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها ، وترك العطف بين الأمرين للإيذان بتباين حالهم تهديداً وغيره ، ومقول القول على ما ذهب إليه المبرد .

والأخفش .

والمازني محذوف دل عليه ﴿ يُقِيمُواْ ﴾ أي قال لهم : أقيموا الصلاة وأنفقوا .

﴿ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ والفعل المذكور مجروم على أنه جواب ﴿ قلذ عندهم .

وأورد أنه لا يلزم من قوله عليه الصلاة والسلام : أقيموا وأنفقوا أن يفعلوا .

ورد بأن المقول لهم الخلص وهم متى أمروا امتثلوا ، ومن هنا قالوا : إن في ذلك إيذاناً بكمال مطاوعتهم يفعلوا .

ورد بأن المقول لهم الخلص وهم متى أمروا امتثلوا ، ومن هنا قالوا : إن في ذلك إيذاناً بكمال مطاوعتهم وغاية مسارعتهم إلى الامتثال ، ويشد عضد ذلك حذف المقول لما فيه من إيهام أنهم يفعلون من غير أمر ، على أن مبنى الإيراد على أنه يشترط في السببية التامة وقد منع .

وجعل ابن عطية قل بمعنى بلغ وأد الشريعة والجزم في جواب ذلك .

وهو قريب مما تقدم .

وحكى عن أبي علي .

وعزى للمبرد أن الجزم في جواب الأمر المقول المحذوف ، وتعقبه أبو البقاء بأنه فاسد لوجهين : الأول أن جواب الشرط لا بد أن يخالف فعل الشرط اما في الفعل أو في الفاعل أو فيهما فإذا اتحدا لا يصح كقولك : قم تقم إذا التقدير هنا إن يقيموا يقيموا .

والثاني أن الأمر المقدر للمواجهة والفعل المذكور على لفظ الغيبة وهو خطأ إذا كان الفاعل واحداً .

وقيل عليه : إن الوجه الأول قريب ، وأما الثاني فليس بشيء لأنه يجوز أن تقول : قل لعبدك أطعني يطعك وإن كان للغيبة بعد المواجهة باعتبار حكاية الحال .

(58/419)

---

وعن أبي علي .

وجماعة أن ﴿ يقيموا ﴾ خبر في معنى الأمر وهو مقول القول .

ورد بحذف النون وهي في مثل ذلك لا تحذف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنجِيكُم ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ [ الصف : 10 ، 11 ] إذ المراد منه آمنوا ، والقول بأنه لما كان بمعنى الأمر بني على حذف النون كما بنى الاسم التمكن في النداء على الضم في نحو يا زيد لما شبه بقبل وبعد وما لم يبن إنما لوحظ فيه لفظه مما لا يكاد يلتفت إليه ،

وذهب الكسائي .

والزجاج .

وجماعة إلى أنه مقول القول وهو مجزوم بلام أمر مقدرة أي ليقيموا وينفقوا على حد قول الأعشى :

محمد تفد نفسك كل نفس . . .

إذا ما خفت من أمر تبالا

وأنت تعلم أن اضمار الجازم أضعف من إضمار الجار إلا أن تقدم ﴿ قُلْ ﴾ نائب منابه ؛ كما أن كثرة الاستعمال في أمر المخاطب ينوب مناب ذلك ، والشيء إذا كثر في موضع أو تأكد الدلالة عليه جاز حذفه ، منه حذف الجار من أني إذا كانت بمعنى من أين ، وبما ذكرنا من النيابة فارق ما هنا ما في البيت فلا يضرنا تصريحهم فيه بكون الحذف ضرورة ، وعن ابن مالك أنه جعل حذف هذه اللام على أضرب .

قليل .

وكثير .

ومتوسط ، فالكثير أن يكون قبله قول بصيغة الأمر كما في الآية ، والمتوسط ما تقدمه قول غير أمر كقوله :

قلت لبواب لديه دارها . . .

تيذن فإني حمها وجارها

والقليل ما سوى ذلك .

وظاهر كلام الكشف اختيار هذا الوجه حيث قال المدقق فيه : والمعنى على هذا أظهر لكثرة ما يلزم من الإضمار ، وان تقييد الجواب بقوله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ ﴾ إلى ﴿ وَلاَ خلال ﴾ ليس فيه كثير طائل إنما المناسب تقييد الأمر به ، وقال ابن عطية : ويظهر أن مقول القول ﴿ الله الذى ﴾ [ إبراهيم : 32 ] الخ ولا يخفى ما في ذلك من التفكيك ، على أنه لا يصح حينئذ أن يكون ﴿ يُقِيمُواْ ﴾ مجزوماً في جواب الأمر لأن قول ﴿ الله الذى ﴾ [ إبراهيم : 32 ] الخ لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بتقدير بعيد جداً هذا ، والمراد بالصلاة قيل ما يعم كل صلاة فرضاً كانت أو تطوعاً ، وعن ابن عباس تفسيرها بالصلاة المفروضة وفسر الإنفاق بزكاة الأموال .



---

ولا يخفى عليك أن زكاة المال إنما فرضت في السنة الثانية من الهجرة بعد صدقة الفطر وان هذه السورة كلها مكية عند الجمهور ، والآيتين ليست هذه الآية إحداهن عند بعض ، ثم إن لم يكن هذا المأمور به في الآية مأموراً به من قبل فالأمر ظاهر وإن كان مأموراً به فالأمر للدوام فتحقق ذلك ولا تغفل ﴿ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ منتصبان على المصدرية لكن من الأمر المقدر أو من الفعل المذكور على ما ذهب إليه الكسائي ومن معه على ما قيل ، والأصل

إنفاق سر وإنفاق علانية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فانتصب انتصابه ، ويجوز أن يكون الأصل إنفاقاً سراً وإنفاقاً علانية فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه ، وجوز أن يكونا منتصبين على الحالية أما على التأويل بالمشتق أو على تقدير مضاف أي مسرين ومعلنين أو ذوي سر وعلانية أو على الظرفية أي في سر وعلانية ، وقد تقدم الكلام في حكم نفقة السر ونفقة العلانية ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصر فيه ما يتلافى به تقصيره أو يفتدي به نفسه ، والمقصود كما قال بعض المحققين نفى عقداً لمعاوضة بالمرة ، وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد إذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه ربما يتصور مع تحقق الإيجاب من البائع انتهى ، وقيل : إن البيع كما يستعمل في إعطاء المثمن وأخذ الثمن وهو المعنى الشائع يستعمل في إعطاء الثمن وأخذ المثمن وهو معنى الشراء ؛ وعلى هذا جاء قوله صلى الله عليه وسلم : "لا يبيعن أحدكم على بيع أخيه" ولا مانع من إرادة المعنيين هنا ، فإن قلنا بجواز استعمال المسترك في معنييه مطلقاً كما قال به الشافعية أو في النفي كما قال به ابن الهمام فذاك وإلا احتجنا إلى ارتكاب عموم المجاز فكأنه قيل : لا معاوضة فيه ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أي مخالة فهو كما قال أبو عبيدة وغيره مصدر خاللته كالخلال ، وقال الأخفش : هو جمع خليل كأخلاء وأخلة ،

والمراد واحد وهو نفي أن يكون هناك خليل ينتفع به بأن يشفع له أو يسامحه بما يفتدي به ، ويحتمل أن يكون المعنى من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وإنما الانتفاع والارتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى ، فعلى الأول المنفي البيع والخلال في الآخرة ، وعلى هذا المراد نفي البيع والخلال الذين كانا في الدنيا بمعنى نفي الانتفاع بهما ، و ﴿ فِيهِ ﴾ ظرف للانتفاع المقدر حسبما أشرنا إليه ، ولا يشكل ما هنا مع قوله تعالى :

﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ] حيث أثبت فيه المخالة وعدم العداوة بين المتقين لأن المراد هنا على ما قيل نفي المخالة النافعة بذاتها في تدارك ما فات ولم يذكر في تلك الآية أن المتقين يتدارك بعضهم لبعض ما فات .

وقيل : في التوفيق بين الآيتين : إن المراد لا مخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس وتلك المخالة الواقعة بين المتقين في الله تعالى ، مع أن الاستثناء من الإثبات لا يلزمه النفي وإن سلم لزومه فنفى العداوة لا يلزم منه املخالة وهو كما ترى ؛ ومثله ما قيل : إن الإثبات والنفي بحسب المواطن .

والظرف على ما استظهره غير واحد متعلق بالأمر المقدر ، وعلقه بالفعل المذكور من رأى رأي الكسائي ومن معه بل وبعض من رأى غير ذلك إلا أنه لا يخلو عن شيء ، وتذكيراتيان

ذلك اليوم على ما في إرشاد العقل السليم لتأكيد مضمون الأمر من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعاً وانقطاع آثار البيع والخلال والواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق في سبيل الله تعالى أو من حيث أن ادخار المال وترك انفاقه إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت.

(62/419)

---

وتخصيص أمر الإنفاق بذلك التأكيد لميل النفوس إلى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به.

وفيه أيضاً أنه لا يبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً من حيث أن تركها كثيراً ما يكون للاشتغال بالبياعات والمخاللات كما في قوله تعالى:

(63/419)

---

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ [ الجمعة : 11 ] وأنت تعلم بعده لفظاً بناء على تعلق ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ بالأمر بالإنفاق ، ثم إن ما ذكر من الوجهين في الآية هو الذي ذكره بعض المحققين ، واقتصر الزمخشري فيها على الوجه الثاني ، وكلامه في تقريره ظاهر في أن فائدة التقييد الحث على الإنفاق حسبما بينه في الكشف ، وفيه تقرير الحاصل أن قوله تعالى : ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أي لا انتفاع بهما كناية عن الانتفاع بما يقابلهما وهو ما أنفق لوجه الله تعالى فهو حث على الإنفاق لوجهه سبحانه كأنه قيل : لينفقوا له من قبل أن يأتي يوم ينتفع بانفاقهم المنفقون له ولا ينفع الندم لمن أمسك ، والعدول إلى ما في النظم الجليل ليفيد الحصر وإن ذلك وحده هو المنتفع به ، وليفيد المضادة بين ما ينفع عاجلياً وما ينفع آجلياً ، وذكر في آية البقرة ( 254 ) ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ أن المعنى من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه لا بيع حتى تبتاعوا ما تنفقونه ولا خلة حتى يسامحكم أخلاؤكم به ، وبين المدقق وجه اختصاص كل من المعنيين بموضعه مع صحة جريانهما جميعاً في كل من الموضعين بأن الأول خطاب عام فكان الحث فيه الإنفاق مطلقاً وتصوير أن الإنفاق نفسه هو المطلوب فليغتنم قبل أن يأتي يوم يفوت فيه ولا يدركه الطالب هو الموافق لمقتضى المقام وأن الثاني لما اختص بالخلص كان الموافق للمقام تحريضهم على ما هم عليه من الإنفاق ليدوموا عليه فقيل : دوموا عليه وتمسكوا به تغتبطوا يوم لا ينفع إلا من دام عليه ، ولو قيل : دوموا عليه قبل أن يفوتكم ولا

تدركوه لم يكن بتلك الوكادة لأن الأول بالحث على طلب أصل الفعل أشبه والثاني بطلب الدوام فتفطن له اه ولا يخلو عن دغدغة .

وقرأ أبو عمرو .

وابن كثير .

(64/419)

---

ويعقوب ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهَا وَلاَ خلال ﴾ بفتح الاسمين تنصيصاً على استغراق النفي ، ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو على ما قيل وقوعه في جواب هل فيه بيع أو خلال ؟ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(65/419)

---

وقال القاسمى :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾

وهو يوم القيامة : ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ أي : ليتدارك به التقصير ، أو يفتدى به : ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أي : مخالة . مصدر بمعنى المصاحبة ؛ أي : لا مفاداة فيه ولا خلة أحد بمغنية شيئاً من شفاعة أو مسامحة بمال يفتدي به ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ [ البقرة : 123 ] .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟ قلت : من قبل أن الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها ، أو خيراً منها . وأما الإنفاق لوجه الله خالصاً ، فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبُعثوا عليه ليأخذوا بدله في اليوم : ﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ أي : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله . انتهى .

*(66/419)*

---

قال أبو السعود : والظاهر أن ( من ) متعلقة بـ ( أنفقوا ) وتذكير إتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه ، من حيث أن كلاً من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير ؛ معاوضة وتبرعاً ، وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعي إلى

الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الإنفاق في سبيله تعالى . أو من حيث إن ادخار المال وترك إنفاقه ، إنما يقع غالباً للتجارات والمهاداة . فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة ، فلا وجه لادخاره إلى وقت الموت . وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع إلى المال ، وكونها مجبولة على حبه والفتنة به . ولا يبعد أن يكون تأكيداً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة أيضاً ، من حيث إن تركها ، كثيراً ما يكون بالاشتغال بالبيوع والمخالات . كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ [ الجمعة : من الآية 11 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 325.326 ﴾

(67/419)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله ، وهو الفريق الذي حقت عليه الكلمة الطيبة .

فلما ابتدىء بالفريق الأول لقصد الموعظة والتخلي ثُنّي بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام كما سيأتي في الآية عقبها .

ونظيره قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً قل كونوا حجارة إلى أن قال وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ [ سورة الإسراء : 50 ، 52 ] .

ولما كانوا متحلين بالكمال صِيغَ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان ، وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك ، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين .

ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعين أن المراد الاستزادة من ذلك ، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأن المضارع دال على التجدد ، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة ( افعل ) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبساً به ، فأصل يقيموا الصلاة ﴾ ليقيموا ، فحذفت لام الأمر تخفيفاً .

وهذه هي نكتة ورود مثل هذا التركيب في مواضع وروده ، كما في هذه الآية وفي قوله ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ في سورة الإسراء ( 52 ) ، أي قل لهم ليقيموا وليقولوا ، فحكي بالمعنى .

وعندي : أن منه قوله تعالى : ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون في سورة الحجر ( 3 ) ، أي ذرهم ليأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل .

فهو أمر مستعمل في الإملاء والتهديد ، ولذلك نوقن بأن الأفعال هذه معمولة للام أمر محذوفة .



---

وهذا قول الكسائي إذا وقع الفعل المجزوم بلام الأمر محذوفة بعد تقدم فعل قل ﴾ ، كما في "مغني اللبيب" ووافقه ابن مالك في "شرح الكافية" .

وقال بعضهم : جزم الفعل المضارع في جواب الأمر بـ ﴿ قل ﴾ على تقدير فعل محذوف هو المقول دل عليه ما بعده .

والتقدير : قل لعبادي أقيموا يقيموا وأنفقوا ينفقوا .

وقال الكسائي وابن مالك إن ذلك خاص بما يقع بعد الأمر بالقول كما في هذه الآية ، وفاتهم نحو آية ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا .

وزيادة مما رزقناهم ﴾ للتذكير بالنعمة تحريضاً على الإنفاق ليكون شكراً للنعمة .

و ﴿ سراً وعلانية ﴾ حالان من ضمير ﴿ ينفقوا ﴾ ، وهما مصدران .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ سراً وعلانية ﴾ في سورة البقرة ( 274 ) .

والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق لكيلا يظنوا أن الإعلان يجر إلى الرياء كما كان

حال الجاهلية ، أو أن الإنفاق سراً يفضي إلى إخفاء الغني نعمة الله فيجر إلى كفران النعمة ، فربما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل ، فبين الله للناس أن الإنفاق بِرّ لا يكدره ما يحف به من الأحوال ، وإنما الأعمال بالنيات .

وقد تقدم شيء من هذا عند قوله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ [ سورة التوبة : 79 ] الآية .

وقيل المقصود من السر الإنفاق المتطوع به ، ومن العلانية الإنفاق الواجب .

وتقديم السر على العلانية تنبيه على أنه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء ، ولأن فيه استبقاءً لبعض حياء المتصدق عليه .

وقوله : من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ﴾ الخ متعلق بفعل ﴿ يقيموا الصلوات وينفقوا ﴾ ، أي ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوضات والإنفاق .

(69/419)

---

وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلاً للاستزادة منهما ، إذ لا

بيع يومئذٍ فيشترى الثواب ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب .

فالمراد بالبيع المعاوضة وبالخلال الكناية عن التبرع .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ في سورة البقرة ( 254 ) .

وبهذا تبين أن المراد من الخلال هنا آثارها ، بقرينة المقام ، وليس المراد نفي الخلة ، أي الصحبة والمودّة لأن المودّة ثابتة بين المتقين ، قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ [ سورة الزخرف : 67 ] .

وقد كني بنفي البيع والخلال التي هي وسائل النوال والإرفاد عن انتفاء الاستزادة .

وإدخال حرف الجر على اسم الزمان وهو قبل ﴾ لتأكيد القبلية ليفهم معنى المبادرة .

وقرأ الجمهور ﴿ لا بيع ﴾ بالرفع .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب بالبناء على الفتح .

وهما وجهان في نفي النكرة بحرف ﴿ لا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

أمر تعالى في هذه الآية الكريمة بالمبادرة إلى الطاعات كالصلوات والصدقات من قبل إتيان يوم القيامة الذي هو اليوم الذي لا بيع فيه ولا مخالة بين خليلين فينتفع أحدهما بخلة الآخر فلا يمكن أحداً أن تباع له نفسه فيفديها ولا خليل ينفع خليله يومئذ وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ [ البقرة : 254 ] الآية . وقوله : ﴿ فاليوم لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ الحديد : 15 ] وقوله : ﴿ واتقوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [ البقرة : 123 ] الآية . ونحو ذلك من الآيات والخلال في هذه الآية قيل : جمع خلة كقلة وقلال والخلة : المصادقة وقيل : هو مصدر خاله على وزن فاعل مخالة وخلالاً ومعلوم أن فاعل ينقاس مصدرها على المفاعلة والفعال . وهذا هو الظاهر ومنه قول امرىء القيس :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . . . ولست بمقلي الخلال ولا قال

أي لست بمكروه المخالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

و﴿ قُلْ ﴾ من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وهل معنى هذا أن العباد الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة ؛ لقد سمعه بعضهم ولم يَقُم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطع الأمر هو مَنْ حقَّق شَرْط الإيمان ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتَنفات كلمة " عبادي " فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين يؤمنون فهم سيُعبِّرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفهم معنى الألفاظ لتستقيم معانيها في أساليبها .

وكل خَلْق الله عبيد له ؛ ذلك أن هناك أموراً قد أرادها الله قد طريقة خَلْقهم ، لا قدرةَ لهم على مخالفتها ؛ فهو سبحانه قد قهرهم في أشياء ؛ وخيَّرهم في أشياء .

ولذلك أقول دائماً للمُتمرِّدين على الإيمان بالله ؛ لقد أَلِفْتم التمرّد على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبْع واحد منكم على رفض التمرّد ، فإنْ كنتم صادقين مع أنفسكم عليكم أنْ تتمردوا على التنفس ؛ فهو أمر لا إرادي ، أو تمردوا – إن استطعتُم – على المرض وميعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم أَلِفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاختيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من " عباد الله " ، وإنْ لم يخضع للمنهج فيما له فيه اختيار فهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تستقرئ كلمة " عباد " وكلمة " عبيد " في القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾

[ الفرقان : 63 ] .

(72/419)

---

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العبيد وهي مُلْتصقة بمَنْ يتمردون على منهج الله ؛ ولن تجد وَصْفاً لهم بأنهم " عباد " إلا في آية واحدة ؛ حين يخاطب الحَقُّ جَلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤلاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ﴾ [ الفرقان : 17 ] .

ونلحظ أن زمن هذا الخطاب هو في اليوم الآخر ؛ حيث لا يوجد لأحد مُرْتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعنَ في أن كلمة " عباد " إنما تستخدم في وَصْف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه في الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَّموا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه في أوامره ونواهيه .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً . . ﴾ [ إبراهيم : 31 ] .

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن المؤمنين في انتظار هذا الأمر لِيُنفّذوه فورا ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفّذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفّذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله ( يقيموا ) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصعدون لتنفيذ الأمر فوْر سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في جَمْهرة آيات القرآن تأتيان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامة الصلاة تتطلب حركة ، تتطلب طاقة وتأخذ وقوداً ؛ والوقود يتطلب حركة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعني أن تُخرِج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة في الوقت .

(73/419)

---

ونجد الكسالى عن الصلاة يقولون : " إن العمل يأخذ كل الوقت والواحد منّا يحاول أن يجزع الصلوات إلى آخر النهار ، ويُؤدّيها جميعها قَضاءً " . وهم لا يلتفتون إلى أن كُلَّ فرض حين يُؤدَّي في ميعاده لن يأخذ الوقت الذي يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الحقيقة أنها تُعطي شحنة وطاقة تحفِز

النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبِل المصلي على العملَ بنفس راضية ؛ ذلك أنه بالصلاة قد وقف في حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مُطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ وذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أرحنا بها يا بلال " .

والصلاة في كل فرض ؛ لن تأخذ أكثر من ربع الساعة بالوضوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطي بأكثر مِمّا أخذت .

وكذلك الزكاة قد تأخذ منك بعضاً من ثمرة الوقت لتعطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصلاة مُرتبطة بالزكاة في آيات القرآن ببعضهما ، وإقامة الصلاة هي جِمَاع القيم كلها ؛ وإيتاء الزكاة جِمَاع قيام الحركات العضلية كلها .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلِح مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " وجُعِلَتْ قُرة عيني في الصلاة " .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما ؛ ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها صلى الله عليه وسلم في الأركان الخمس للدين ، وهي شهادة أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلا .

(74/419)

---

وعرفنا من قَبْل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة ؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛ وفيها صَوْم عن كل ما يلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصْلِحة لها بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه في هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق في أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق سِراً لا يقع الإنسان فريسة المُبَاهاة ؛ والإنفاق عَلَناً كي يعطي غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكي تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سِراً ، واجعلها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تعلم شمالك ما أعطتْ يمينك " .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلمَ الناس أنك تُؤدي ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة

لهم أُسْوة فعلية ، وعِظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عِظَة سلُوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أَدَّوْا فريضة الحج .

ونجد أن القادر الذي يبني مسجداً ؛ يعطي القادر غيره أُسْوة ليبني مسجداً آخر ، وما أنْ يأتيَ رمضان حتى يصومَ القادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ [ إبراهيم : 31 ] .

(75/419)

---

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التي لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتُنفِّذها على الفور ؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُزكّي أو يُصلّي ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به في الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هي ما أذن له الرحمن بها ، ولذلك يأتي الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة

وإيتاء الزكاة والإنفاق سِراً وعلانية من قبل أن يأتيَ اليوم الذي لا بَيْع فيه ولا خِلاَل .

والبيع – كما نعلم – هو مُعَارضة متقابلة ؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن ؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة . والخِلاَل هو المُخَالّة ؛ أي : الصديق الوفيّ الذي تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبيّن معنى كلمة " خليل " حين يقول :

لَمّا التقيْنَا قرّبَ الشّوْقُ جَهْده . . . خليلين ذَابَا لَوْعةً وعِتَابَا

كأنّ خليلاً في خِلاَل خَلِيلِه . . . تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالة تعني أن يتخلل كُلٌّ منهما الآخر .

وفي الآخرة لن تستطيع أن تشتري جنة أو تفتدي نفسك من النار ؛ ولا مُخالّة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ] .

وبعض السطحيين يريدون أنْ يأخذوا على القرآن أنه أثبت الخُلَّة ونفاها ؛ فهو القائل : ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ [ إبراهيم : 31 ] .

وهو القائل : ﴿ وَلاَ خُلَّةٌ . . . ﴾ [ البقرة : 254 ] .

ثم أثبت الخُلة للمتقين ؛ الذين لا يُزيّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحيون لا يُحسِنون تدبُّر القرآن ؛ ذلك أن الخُلَّة المَنْفية – أو الخِلاَل المنفية – في الآيات هي الخِلال التي تحضّ على المعاصي ؛ وهذه هي الخِلاَل السيئة .

(76/419)

---

ونعلم أن البيع في الحياة الدنيا يكون مقابلةَ سلعة بثمن ؛ أما المُخالّة ففيها تكرُّمٌ ممَّنْ يقدمها ؛ وهو أمرٌ ظاهريّ ؛ لأن في باطنه مُقايضة ؛ فإذا قدّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقتضي أنْ تردّ له الجميل ؛ أما التكرُّم المجرّد فهو الذي يكون بغير سابق أو لاحق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/419)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُل لّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ " يُقيموا " مجزومٌ بلامِ أمرٍ محذوفةٍ تقديرُه : ليقيموا ، فحُذِفَتْ وبقي عملُها ، كما يُحْذَفُ الجارُّ ويبقى عملُه ،

كقولِه :

2891- محمدُ تَفْدِ نفسَك كلُّ نفسٍ . . . إذا ما خِفْتَ مِنْ شيءٍ تَبالا

يريد : لِتَفْدِ . أنشده سيبويه ، إلا أنَّه خَصَّه بالشعر . قال الزمخشري : " ويجوز أُن يكونَ " يُقيموا " و " يُنْفِقوا " بمعنى : لِيُقيموا ولِيُنْفقوا ، ويكون هذا هو المَقُولَ . قالوا : وإنما جاز حَذْفُ اللامِ لأنَّ الأمرَ الذي هو " قُلْ " عِوَضٌ منها ، ولو قيل : يقيموا الصلاةَ ويُنفقوا ابتداءً بحذف اللام لم يَجُزْ " . قلت : وإلى قريبٍ من هذا نحا ابن مالك فإنه جَعَلَ حَذْفَ هذه اللامِ على أضربٍ : قليلٍ وكثيرٍ ومتوسطٍ . فالكثيرُ : أن يكونَ قبلَه قولٌ بصيغة الأمر كالآيةِ الكريمةِ ، والقليلُ : أن لا يتقدَّمَ قولٌ كقوله : " محمدُ تَفْدِ " البيت ، والمتوسط : أن يتقدَّمَ بغيرِ صيغةِ الأمرِ كقوله :

2892- قُلْتُ لبَوَّابٍ لديهِ دارُها . . . تِيْذَنْ فإني حَمْؤُها وجارُها

الثاني : أنَّ " يُقيموا " مجزوم على جوابِ " قُلْ " ، وإليه نحا الأخفش والمبرد . وقد رَدَّ الناسُ عليهما هذا بأنه لا يلزمُ مِنْ قوله لهم : أقيموا " أَنْ يَفْعلوا ، وكم مَنْ تَخَلَّف عن هذا الأمر . وقد أُجيب عن هذا : بأنَّ المرادَ بالعباد المؤمنون ، ولذلك أضافهم إليه تشريفاً ، والمؤمنون متى أَمَرَهم امْتَثَلُوا .

الثالث : أنه مجزومٌ على جوابِ المقولِ المحذوفِ تقديره : قل لعبادي : أقيموا وأَنفِقُوا ، يُقيموا وينفقوا . قال أبو البقاء : وعزاه للمبرد - "كذا ذكره جماعة ولم يتعرَّضوا لإفسادِه . وهو فاسد لوجهين ، أحدُهما : أنَّ جوابَ الشرطِ يُخالِفُ الشرطَ : إمَّا في الفعلِ أو في الفاعل أو فيهما ، فأمَّا إذا كان مثلَه في الفعلِ والفاعلِ فهو خطأٌ كقولِك : قم تقمْ ، والتقديرُ على ما ذُكِرَ في هذا الوجه : إنْ يُقيموا يُقيموا . والوجه الثاني : أنَّ الأمرَ المقدَّرَ للمواجهة ، و "يُقيموا" على لفظ الغَيْبَةِ وهو خطأٌ ، إذا كان الفاعل واحداً " . قلت : أمَّا الإِفسادُ الأولُ فقريبٌ ، وأمَّا الثاني فليس بشيء ؛ لأنه يجوز أن يقول : قل لعبدي أَطِعْني يُطِعْك ، وإن كان للغَيْبة بعد المواجهة باعتبارِ حكايةِ الحال .

الرابع : أنَّ التقديرَ : إن تَقُلْ لهم : أقيموا ، يُقيموا ، وهذا مَرْوِيٌّ عن سيبويه فيما حكاه ابن عطية . قلت : وهذا هو القولُ الثاني .

الخامس : قال ابن عطية : " ويحتمل أن يكونَ "يُقيموا" جوابَ الأمرِ الذي يعطينا معناه قولُه "قُلْ" ؛ وذلك أن تجعلَ قولَه "قُلْ" في هذه الآيةِ بمعنى بَلِّغْ وأَدِّ الشريعةَ يُقيموا " .

السادس : قال الفراء : " الأمرُ معه شرطٌ مقدَّرٌ تقول : "أَطِعِ اللهَ يُدْخِلْكَ الجَنَّةَ" .

والفرقُ بين هذا وبين ما قبله : أنَّ ما قبله ضُمِّن فيه الأمرُ نفسُه معنى الشرط ، وفي هذا قُدِر فعلُ الشرطِ بعد فعلِ الأمرِ مِنْ غيرِ تضمينٍ .

السابع : قال الفارسيُّ : " إنَّه مضارعٌ صُرِف عن الأمرِ إلى الخبرِ ومعناه : أقيموا " . وهذا مردودٌ ؛ لأنه كان ينبغي أن يُثْبِتَ نونَه الدالَّةَ على إعرابه . وأُجيبَ عن هذا بأنه بُني لوقوعِه موقعَ المبني ، كما بُني المنادى في نحو : " يا زيدُ " لوقوعِه موقعَ الضمير ، ولو قيل بأنه حُذِفَتْ نونُه تخفيفاً على حَدِّ حَذْفِها في قولِه : " لا تَدْخُلوا الجَنَّة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا " .

وفي معمول " قُلْ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : الأمرُ المقدَّرُ ، أي : قُلْ لهم : أقيموا ، يُقيموا ، الثاني : أنه نفسُ " يُقيموا " على ما قاله ابنُ عطية الثالث : أنَّه الجملةُ من قولِه ﴿ الله الذي خَلَقَ ﴾ إلى آخره ، قاله ابن عطية . وفيه تفكيكٌ للنَّظْم ، وجَعْلُ الجملةِ " يُقيموا الصلاة " إلى آخره مُفلتاً مَمَّا قبلَه وبعدَه ، أو يكونُ جواباً فَصَلَ بين القولِ ومعمولِه ، لكنه لا يترتَّبُ على قولِ ذلك إقامةُ الصلاةِ والإِنفاق ، إلا بتأويلٍ بعيدٍ جداً .

قوله : " سِرَّاً وعلانِيَةً " في نصبِهما ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُهما : أنهما حالان مَمَّا تقدَّم ، وفيهما ثلاثةُ التأويلاتِ في " زيد عَدْلٌ " ، أي : ذوي سر وعلانية أو مُسِرِّين ومُعْلِنين ، أو جُعِلوا نفسَ السِّرِّ والعَلانية مبالغةً . الثاني : أنهما منصوبان على الظرف ، أي : وَقْتَيْ سِرٍّ

وعلانية . الثالث : أنهما / منصوبان على المصدرِ ، أي إنفاق سرّ وإنفاق علانية .

قوله : " مِنْ قبل " متعلِّقٌ ب "يُقيموا " و "يُنْفِقوا " ، أي : يفعلون ذلك قبل هذا اليوم .

وقد تقدَّم خلاف القراء في ﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ ولاَ خِلاَلٌ ﴾ . والخِلال : المُخَالَّة وهي المصاحبة . يقال : خالَلْتُه خِلالاً ومُخَالَّةً . قال طرفة :

2893- كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُه . . . لا تَرَكَ اللهُ له واضِحَهْ

وقال امرؤ القيس :

(80/419)

---

2894- صَرَفْتُ الهَوَى عنهنَّ مِنْ خشيةِ الرَّدى . . . ولستُ بَمَقْلِيِّ الخِلالِ ولا قالِ

وقال الأخفش : " خِلال جمعاً لخُلَّة ، نحو : بُرْمَة وبِرام " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 104.108 ﴾

(81/419)

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (31) ﴾

جعل الله راحةَ العبدِ - اليومَ - بكمالها في الصلاة ؛ فإنَّها محلُّ المناجاة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " أَرِحنا يا بلال بالصلاة " والصلاة استفتاح باب الرزق ، قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ﴾ [ طه : 132 ] .

وفي الصلاة يبث العبد أسرارَه مع الحق ؛ فإذا كان لقاءُ الإخوان - كما قالوا - مَسْلاةً لهم كيف بمناجاتك مع الله ، ونشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :

قُلْ لي بألسنة التَنَفُّسِ . . . كيف أنت وكيف حالك ؟

﴿ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم ﴾ : أمرهم بإنفاق اللسان على ذكره ، وإنفاق البَدَنِ على طاعته ، والوقتَ على شكره ، والقلبَ على عرفانه ، والروح على حبه ، والسِرِّ على مشاهدته . . ولا يكلِّف الله نفساً إلا ما آتاها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط بالشاهد الذي آتاك . . يقول العبد المسكين : لو كان لي نَفْسٌ أطوع من هذه لأَتَيْتُ بها ، ولو كان لي قلبٌ أشدُّ وفاءً من هذا لَجُدْتُ به ، وكذلك بروحي وسِرِّي ، وقيل

:

يفديك بالروح صَبٌّ لو أنَّ له . . . أعز من روحه شيئاً فداك به

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴾ : وفي هذا المعنى أنشدوا :

قلتُ للنّفس إنْ أردتِ رجوعاً . . . فارجعي قبل أن يُسدَّ الطريق . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 252 ﴾

(82/419)

---

قوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما نفى جميع الأسباب النافعة في الدنيا في ذلك اليوم ، كان كأنه قيل : فمن الحكم فيه حتى أنه يسير سيرة لا نعرفها ؟ فقيل : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى المحيط بكل شيء ؛ ثم أتبعه بصفات تدل على ما دعا إليه الرسل من وحدانيته وما أخبروا به من قدرته على كل شيء

فلا يقدر أحد على مغالبته ، وعلى المعاد وعلى غناه فلا يبايع ، فقال : ﴿ الذي خلق السماوات والأرض ﴾ وهما أكبر خلقاً منكم وأعظم شأناً ، ثم عقبه بأدل الأمور على الإعادة مع ما فيه من عظيم المنة بأن به الحياة ، فقال : ﴿ وأنزل من السماء ماء ﴾ ولما كان ذلك سبب النمو قال : ﴿ فأخرج به ﴾ أي بالماء الذي جعل منه كل شيء حي ﴿ من الثمرات ﴾ أي الشجرية وغيرها ﴿ رزقاً لكم ﴾ بعد يبس الأرض وجفاف نباتها ، وليس ذلك بدون إحياء الموتى ؛ ثم أتبعه ما ادخره في الأرض من مياه البحار والأنهار ، وذكر أعم ما يظهر من البحار فقال : ﴿ وسخر لكم الفلك ﴾ وعلل ذلك بقوله : ﴿ لتجري في البحر ﴾ ولما كان ذلك أمراً باهراً للعقل ، بين عظمته بقوله : ﴿ بأمره ﴾ ولما كانت الأنهار من النعم الكبار بعد نعمة البحار ، قال : ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ ثم أتبعه ما جعله سبباً لكمال التصرف وإنضاج الثمار المسقيّة بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض فقال : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر ﴾ حال كونهما ﴿ دائبين ﴾ أي في سيرهما وإنارتهما وما ينشأ عنهما من الإصلاح بالطبخ والإنضاج في المعادن والنبات والحيوان ؛ قال الرماني : والدؤوب : مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه ؛ ثم ذكر تعالى ما ينشأ عن وجود الشمس وعدمها فقال : ﴿ وسخر لكم اللّيل ﴾ أي الذي القمر آيته ﴿ والنهار ﴾ أي الذي الشمس آيته ، يوجد كل منهما بعد تصرمه ، ولو كان أحدهما

سرمداً لاختل الحال بعدم النبات والحيوان كما هو كذلك حيث لا تغرب الشمس في الجنوب وحيث لا تطلع في الشمال ؛ ثم عم بعد أن خص فقال : ﴿ وآتاكم ﴾ .

(83/419)

---

ولما كان الكمال لا يكون إلا في الجنة قال : ﴿ من كل ما سألتموه ﴾ أي ما أنتم محتاجون إليه فأنتم سائلوه بالقوة ؛ ثم حقق وجه العظم بفرض ما يوجب العجز فقال : ﴿ وإن تعدوا ﴾ أيها الناس كلكم ﴿ نعمت الله ﴾ أي تروموا عد إنعام الملك الأعلى الذي له الكمال المطلق أو تأخذوا في عدّه ، وعبر عنه بالنعمة إرشاداً إلى الاستدلال بالأثر على المؤثر ﴿ لا تحصوها ﴾ أي لا تحيطوا بها ولا تعرفوا عد الحصى المقابلة لها إن عددتموها بها كما كانت عادة العرب ، أو لا تجدوا من الحصى ما يوفي بعددها ، هذا في النعمة الواحدة فكيف بما زاد ! فهذا شرح قوله أول السورة ﴿ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ وقد ظهر به أنه لا يوجد شيء إلا هو ملك الله فضلاً عن أن يوجد شيء يداينه فضلاً عن شيء يماثله ، فثبت أنه لا بيع ولا خلال يوم دينونة العباد ، وتقريب العجز عن العد للإفهام أن السلامة من كل داء ذكره الأطباء في كتبهم - على كثرتها وطولها - نعمة على العبد ، وذلك متعسر الحصر ، وكل ما ذكروه صريحاً في جنب ما دخل تحت كلياتهم تلويحاً - قليل

، فكيف بما لم يطلعهم الله عليه ولم يهدهم بوجه إليه ، هذا في الجسم ، وأما في العقل فالسلامة من كل عقد زائغ ، ودين باطل وضلال مائل ، وذلك لا يحصيه إلا خالق الفكر وفاطر الفطر سبحانه ، ما أعزه وأعظم شأنه ! .

*(84/419)*

---

ولما كان أكثر هذه السورة في بيان الكفرة وما لهم ، وبيان أن أكثر الخلق هالك معرض عما يأتيه من نعمة الهداية على أيدي الرسل الدعاة إلى من له جميع النعم للحياة الطيبة بسعادة الدارين ، ختم الآية ببيان ما اقتضى ذلك من صفات الإنسان فقال : ﴿ إن الإنسان ﴾ أي هذا النوع لما له من الأنس بنفسه ، والنسيان لما ينفعه ويضره ، والاضطراب بسبب ما يغمه ويسره ﴿ لظلوم كفار ﴾ أي بليغ الظلم والكفر حيث يهمل الشكر ، ويتعداه إلى الكفر ، وختم مثل ذلك في سورة النحل ب ﴿ غفور رحيم ﴾ لأن تلك سورة النعم ، بدئت بالنهي عن استعجال العذاب ، لأن الرحمة أسبق ، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع ، فالتقدير إذن هناك : ﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة لأنه غفور رحيم ، وأما هذه السورة فبدئت بأن الناس في الظلمات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 188. 189 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾

اعلم أنه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، وكان العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته ، وفي حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة ، لا جرم ختم الله تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته ، وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل .

أولها : خلق السموات .

وثانيها : خلق الأرض ، وإليهما الإشارة بقوله تعالى : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ .

وثالثها : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ .

ورابعها : قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلكَ لِتَجْرِيَ فِي البحرِ بِأَمْرِهِ ﴾ وخامسها : قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ .

وسادسها وسابعها : قوله : ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دائِبَيْنِ ﴾ .

وثامنها وتاسعها : قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ .

وعاشرها : قوله : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ وهذه الدلائل العشرة قد مر ذكرها في هذا الكتاب وتقريرها وتفسيرها مراراً وأطواراً ولا بأس بأن نذكر ههنا بعض الفوائد .

فاعلم أن قوله تعالى : ﴿ الله ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ الذي خَلَقَ ﴾ خبره .

ثم إنه تعالى بدأ بذكر خلق السموات والأرض ، وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن السماء والأرض من كم وجه تدل على وجود الصانع الحكيم ، وإنما بدأ بذكرهما ههنا لأنهما هما الأصلان اللذان يتفرع عليهما سائر الأدلة المذكورة بعد ذلك فإنه قال بعده : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ وفيه مباحث :

(86/419)

---

البحث الأول : لولا السماء لم يصح إنزال الماء منها ولولا الأرض لم يوجد ما يستقر الماء فيه ، فظهر أنه لا بد من وجودهما حتى يحصل هذا المقصود وهذا المطلوب .

البحث الثاني : قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً ﴾ وفيه قولان : الأول : أن الماء نزل من السحاب وسمي السحاب سماء اشتقاقاً من السمو ، وهو الارتفاع .

والثاني : أنه تعالى أنزله من نفس السماء وهذا بعيد ، لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قلة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطراً عليهم وإذا كان هذا أمراً مشاهداً بالبصر كان النزاع فيه باطلاً .

البحث الثالث : قال قوم : إنه تعالى أخرج هذه الثمرات بواسطة هذا الماء المنزل من السماء على سبيل العادة ، وذلك لأن في هذا المعنى مصلحة للمكلفين ، لأنهم إذا علموا أن هذه المنافع القليلة يجب أن تتحمل في تحصيلها المشاق والمتاعب ، فالمنافع العظيمة الدائمة في الدار الآخرة أولى أن تتحمل المشاق في طلبها ، وإذا كان المرء يترك الراحة واللذات طلباً لهذه الخيرات الحقيرة ، فبأن يترك اللذات الدنيوية ليفوز بثواب الله تعالى ويتخلص عن عقابه أولى .

ولهذا السبب لما زال التكليف في الآخرة أنال الله تعالى كل نفس مشتهاها من غير تعب ولا نصب ، هذا قول المتكلمين .

وقال قوم آخرون : إنه تعالى يحدث الثمار والزروع بواسطة هذا الماء النازل من السماء ، والمسألة كلامية محضة ، وقد ذكرناه في سورة البقرة .

البحث الرابع : قال أبو مسلم : لفظ ﴿ الثمرات ﴾ يقع في الأغلب على ما يحصل على

الأشجار ، ويقع أيضاً على الزروع والنبات ، كقوله تعالى : ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام : 141] .

(87/419)

---

البحث الخامس : قال تعالى : ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ﴾ والمراد أنه تعالى إنما أخرج هذه الثمرات لأجل أن تكون رزقاً لنا ، والمقصود أنه تعالى قصد بتخليق هذه الثمرات إيصال الخير والمنفعة إلى المكلفين ، لأن الإحسان لا يكون إحساناً إلا إذا قصد المحسن بفعله إيصال النفع إلى المحسن إليه .

البحث السادس : قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿مِنَ الثمرات﴾ بيان للرزق ، أي أخرج به رزقاً هو ثمرات ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ورزقاً حال من المفعول أو نصباً على المصدر من أخرج لأنه في معنى رزق ، والتقدير : ورزق من الثمرات رزقاً لكم .

فأما الحجة الرابعة : وهي قوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِىَ فِى البحر بِأَمْرِهِ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءاياته الجوار فِى البحر كالأعلام﴾ [الشورى : 32] ففيها مباحث :

البحث الأول : أن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجاري في البحر ، وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى أن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح في التجارات ، ثم إن هذا النقل لا يمكن إلا بسفن البر وهي الجمال أو بسفن البحر وهي الفلك المذكور في هذه الآية .

فإن قيل : ما معنى وسخر لكم الفلك مع أن تركيب السفينة من أعمال العباد ؟



---

قلنا ؛ أما على قولنا إن فعل العبد خلق الله تعالى فلا سؤال ، وأما على مذهب المعتزلة فقد أجاب القاضي عنه فقال : لولا أنه تعالى خلق الأشجار الصلبة التي منها يمكن تركيب السفن ولولا خلقه للحديد وسائر الآلات ولولا تعريفه العباد كيف يتخذوه ولولا أنه تعالى خلق الماء على صفة السيلان التي باعتبارها يصح جري السفينة ، ولولا خلقه تعالى الرياح وخلق الحركات القوية فيها ولولا أنه وسع الأنهار وجعل فيها من العمق ما يجوز جري السفن فيها لما وقع الانتفاع بالسفن فصار لأجل أنه تعالى هو الخالق لهذه الأحوال ، وهو المدبر لهذه الأمور والمسخر لها حسنت إضافة السفن إليه .

البحث الثاني : أنه تعالى أضاف ذلك التسخير إلى أمره لأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال فيه إنه أمر بكذا تعظيماً لشأنه ، ومنهم من حمله على ظاهر قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

[ النحل : 40 ] وتحقيق هذا الوجه راجع إلى ما ذكرناه .

البحث الثالث : الفلك من الجمادات فتسخيرها مجاز ، والمعنى أنه لما كان يجري على وجه الماء كما يشتهيه الملاح صار كأنه حيوان مسخر له .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ واعلم أن ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات لا جرم ذكر تعالى إنعامه على الخلق بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء منها إلى مواضع الزرع والنبات ، وأيضاً ماء البحر لا يصلح للشرب ، والصالح لهذا المهم هو مياه الأنهار .

الحجة السادسة والسابعة : قوله : ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينِ ﴾ .

(89/419)

---

واعلم أن الانتفاع بالشمس والقمر عظيم ، وقد ذكره الله تعالى في آيات منها قوله :

﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ﴾ [ نوح : 16 ] ومنها قوله :

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [ الرحمن : 5 ] ومنها قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [ الفرقان : 61 ] ومنها قوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاء والقمر نُوراً ﴾ [ يونس : 5 ] وقوله : ﴿ دَآئِبَينِ ﴾ معنى الدؤب في اللغة مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب يدأب دأباً ودؤباً وقد ذكرنا هذا في قوله : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ [ يوسف : 47 ] قال المفسرون : قوله : ﴿ دَآئِبَينِ ﴾ معناه يدأبان في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وفي إصلاح النبات والحيوان فإن الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل ولولا الشمس لما حصلت الفصول الأربعة ، ولولاها لاختلت مصالح العالم بالكلية وقد ذكرنا منافع الشمس والقمر بالاستقصاء في أول هذا الكتاب .

الحجة الثامنة والتاسعة : قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر ﴾ .

واعلم أن منافعهما مذكورة في القرآن كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [ النبأ : 10 ، 11 ] وقوله : ﴿ وهو الذى جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ [ يونس : 67 ] قال المتكلمون : تسخير الليل والنهار مجاز لأنهما عرضان ، والأعراض لا تسخر .

والحجة العاشرة : قوله : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر تلك النعمة العظيمة بين بعد ذلك أنه لم يقتصر عليها ، بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها التعديد والإحصاء فقال : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ والمفعول محذوف تقديره من كل مسؤول شيئاً ، وقرىء : ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ بالتنوين و ﴿ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ نفي ومحله نصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ويجوز أن تكون "ما" موصولة والتقدير : آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به ، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه النعم ختم الكلام بقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ قال الواحدي : النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر يقال : أنعم الله عليه ، ينعم إنعاماً ونعمة أقيم الاسم مقام الإنعام كقوله : أنفقت عليه إنفاقاً ونفقة بمعنى واحد ، ولذلك لم يجمع لأنه في معنى المصدر ، ومعنى قوله : ﴿ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ أي لا تقدرون على تعديد جميعها لكثرتها .

واعلم أن الإنسان إذا أراد أن يعرف أن الوقوف على أقسام نعم الله ممتنع ، فعليه أن يتأمل في شيء واحد ليعرف عجز نفسه عنه ونحن نذكر منه مثالين .

المثال الأول : أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان ، منها دماغية ومنها نخاعية .

أما الدماغية فإنها سبعة ثم أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحد من تلك الأرواح السبعة ، ثم مما لا شك فيه أن كل واحد من الأرواح السبعة تنقسم إلى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضاً إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية ، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جداً ، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة ، فإذا نظر الإنسان في هذا المعنى عرف أن الله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعاً أنه لا سبيل له إلى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة ، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والإنفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحراً لا ساحل له ، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان الواحد فاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه ، فإن عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجساد ثم لما اعتبرت حالة الحيوان الواحد فعند ذلك اعتبر أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والحيوان وعند هذا تعرف أن عقول جميع الخلائق لو ركبت

وجعلت عقلاً واحداً ثم بذلك العقل يتأمل الإنسان في عجائب حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل ، فسبحانه تقدس عن أوهام المتوهمين .

(92/419)

---

المثال الثاني : أنك إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها أما الأمور التي قبلها : فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائماً على الوجه الأصوب ، لأن الحنطة لا بد منها ، وأنها لا تنبت إلا معونة الفصول الأربعة ، وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار ، ولا يحصل شيء منها إلا بعد دوران الأفلاك ، واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة في الحركات ، وفي كيفيتها في الجهة والسرعة والبطء ثم بعد أن تكون الحنطة لا بد من آلات الطحن والخبز ، وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال ، ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها ، ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات ، فتأمل أنها كيف تكونت على الأشكال المخصوصة ، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر الأربعة ، وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق .

فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة .

وأما النظر فيما بعد حصولها : فتأمل في تركيب بدن الحيوان ، وهو أنه تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الانتفاع بتلك اللقمة ، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار ، ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية ، فظهر بما ذكرنا أن الانتفاع باللقمة الواحدة لا يمكن معرفته إلا بمعرفة جملة الأمور ، والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث ، فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ثم إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ قيل : يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد الكفران لها .



---

وقيل : ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع ، والمراد من الإنسان ههنا : الجنس ، يعني أن عادة هذا الجنس هو هذا الذي ذكرناه ، وههنا بحثان :

البحث الأول : أن الإنسان مجبول على النسيان وعلى الملالة ، فإذا وجد نعمة نسيها في الحال وظلمها بترك شكرها ، وإن لم ينسها فإنه في الحال يملها فيقع في كفران النعمة ، وأيضاً أن نعم الله كثيرة فمتى حاول التأمل في بعضها غفل عن الباقي .

البحث الثاني : أنه تعالى قال في هذا الموضع : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ وقال في سورة النحل : ﴿ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 18 ] ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : وهما كونك ظلوماً كفاراً ، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفوراً رحيماً ، والمقصود كأنه يقول : إن كنت ظلوماً فأنا غفور ، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء ، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 99. 103﴾

(94/419)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق السماوات ﴾ الآية ،

تذكير بآلاء الله ، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحجة من جهتين .

و﴿ الله ﴾ مبتدأ ، و﴿ الذي ﴾ خبره . ومن أخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمن وصلى وأنفق . و﴿ السماوات ﴾ هي الأرقعة السبعة والسماء في قوله ، ﴿ وأنزل من

السماء ﴾ [ البقرة : 22 ] السحاب .

وقوله : ﴿ من الثمرات ﴾ يجوز أن تكون ﴿ من ﴾ للتبعيض ، فيكون المراد بعض جني الأشجار ، ويسقط ما كان منها سماً أو مجرداً للمضرات ، ويجوز أن تكون ﴿ من ﴾ لبيان الجنس ، كأنه قال : فأخرج به رزقاً لكم من الثمرات ، وقال بعض الناس : ﴿ من ﴾ زائدة –وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الواجب ويجوز عند الأخفش .

و﴿ الفلك ﴾ جمع فلك – وقد تقدم القول فيه مراراً – وقوله : ﴿ بأمره ﴾ مصدر من أمر يأمر ، وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات ، كقول الله تعالى للبحار والأرض وسائر الأشياء ، كن – عند الإيجاد – إنما معناه : كن بحال كذا وعلى وتيرة كذا ، وفي هذا يندرج جريان الفلك وغيره .

وفي " تسخير الفلك " ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح ، وأما " تسخير الأنهار " فتفجرها في كل بلد ، وانقيادها للسقي وسائر المنافع . و﴿ دائبين ﴾ معناه : متماديين ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش عليه : " إن هذا الجمل شكى إلي أنك تجيعه وتدئبه " ، أي تديمه في الخدمة والعمل – وظاهر الآية أن معناه : دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تحصى كثرة . وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان يرفع إلى ابن عباس أنه قال : معناه : دائبين في طاعة الله – وهذا قول إن

كان يراد به – أن الطاعة انقياد منهما في التسخير ، فذلك موجود في قوله : ﴿ سخر ﴾ وإن كان يراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العبادة من البشر ، فهذا جيد ، والله أعلم .

(95/419)

---

وقوله : ﴿ وآتاكم ﴾ للجنس من البشر ، أي إن الإنسان بجملته قد أوتي من كل ما شأنه أن يسأل وينتفع به ، ولا يطرد هذا في واحد من الناس وإنما تفرقت هذه النعم في البشر ، فيقال – بحسب هذا – للجميع أُوتيتم كذا – على جهة التعديد للنعمة – وقيل المعنى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أن لو سألتموه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قريب من الأول .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما سألتموه ﴾ يصح أن تكون مصدرية ، ويكون الضمير في قوله : ﴿ سألتموه ﴾ عائداً على الله تعالى : ويصح أن يكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي ، ويكون الضمير عائداً على الذي .

وقرأ الضحاك بن مزاحم " من كلٍّ ما سألتموه " بتنوين ﴿ كل ﴾ وهي قراءة الحسن وقتادة وسلام ، ورويت عن نافع ، المعنى : وآتاكم من كل هذه المخلوقات المذكورات قبل . ما من شأنه أن يسأل لمعنى الانتفاع به . ف ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما سألتموه ﴾ مفعول ثان ب

﴿ آتاكم ﴾ وقال بعض الناس : ﴿ ما ﴾ نافية على هذه القراءة أي أعطاكم من كل شيء لم يعرض له .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تفسير الضحاك . وأما القراءة الأولى بإضافة ﴿ كل ﴾ إلى ﴿ ما ﴾ - فلا بد من تقدير المفعول الثاني جزءاً أو شيئاً ونحو هذا .

وقوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ أي لكثرتها وعظمها في الحواس والقوى والإيجاد بعد العدم والهداية للإيمان وغير ذلك . وقال طلق بن حبيب : إن حق الله تعالى أثقل من أن يقوم به العباد ، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد . ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين وقال أبو الدرداء : من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه .

وقوله : ﴿ إن الإنسان ﴾ يريد به النوع والجنس المعنى : توجد فيه هذه الخلال وهي الظلم والكفر ، فإن كانت هذه الخلال من جاحد فهي بصفة وإن كانت من عاص فهي بصفة أخرى . انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ وسخَّر لكم الأنهار ﴾

أي : ذلَّلها ، تجري حيث تريدون ، وتركبون فيها حيث تشاؤون .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما ﴿ دائبين ﴾ في إِصلاح ما يُصلحانه من النبات وغيره ، لا يفتران .

ومعنى الدؤوب : مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه .

﴿ وسخَّر لكم الليل ﴾ لتسكنوا فيه ، راحة لأبدانكم ، ﴿ والنهار ﴾ لتنتفعوا بمعاشكم ، ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ وفيه خمسة أقوال :

أحدها : أن المعنى : من كل الذي سألتموه ، قاله الحسن ، وعكرمة .

والثاني : من كل ما سألتموه ، لو سألتوه ، قاله الفراء .

والثالث : وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً ، فأضمر الشيء ، كقوله : ﴿ وأوتيتْ من كل شيء ﴾ [ النمل 23 ] أي ، من كل شيء في زمانها شيئاً ، قاله الأخفش .

والرابع : من كل ما سألتموه ، وما لم تسألوه ، لأنكم لم تسألوا شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من النِّعم التي ابتدأكم بها ، فاكتُفي بالأول من الثاني ، كقوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل 81 ] ، قاله ابن الأنباري .

والخامس : على قراءة ابن مسعود ، وأبي رزين ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، وأبان عن

عاصم، وأبي حاتم عن يعقوب: "من كلٍّ ما" بالتنوين من غير إِضافة، فالمعنى: آتاكم من كُلٍّ ما لم تسألوه، قاله قتادة، والضحاك.

قوله تعالى: ﴿ وإِن تعُدُّوا نعمة الله ﴾ أي: إِنعامه ﴿ لا تحصوها ﴾ لا تُطيقوا الإِتيان على جميعها بالعَدِّ لكثرتها.

﴿ إِن الإِنسان ﴾ قال ابن عباس: يريد أبا جهل.

وقال الزجاج: الإِنسان اسم للجنس يُقصَد به الكافر خاصة.

قوله تعالى: ﴿ لظَلوم كفّار ﴾ الظَّلوم هاهنا: الشاكرُ غيرَ مَن أنعم عليه، والكَفّار: الجحود لِنعم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ اجعل هذا البلد آمنا ﴾ قد سبق تفسيره في سورة [البقرة: 126].

(97/419)

---

قوله تعالى: ﴿ واجنبني وبَنيَّ ﴾ أي: جنِّبني وإِياهم، والمعنى: ثبِّتني على اجتناب عبادتها.

﴿ رب إِنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ يعني: الأصنام، وهي لا توصَف بالإِضلال ولا بالفعل، ولكنهم لما ضلّوا بسببها، كانت كأنها أضلَّتهم.

﴿ فمن تبعني ﴾ أي: على ديني التوحيد ﴿ فإنه مِنّي ﴾ أي: فهو على مِلَّتي، ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ومن عصاني ثم تاب فانك غفور رحيم، قاله السدي.

والثاني: ومن عصاني فيما دون الشرك، قاله مقاتل بن حيان.

والثالث: ومن عصاني فكفر فإنك غفور رحيم أن تتوب عليه فتهديه إلى التوحيد، قاله مقاتل بن سليمان.

وقال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون دعا بهذا قبل أن يُعلِمه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

*(98/419)*

---

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾

أي أبدعها واخترعها على غير مثال سبق.

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السمآء ﴾ أي من السّحاب.

﴿ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات ﴾ أي من الشجر ثمرات ﴿ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلكَ لِتَجْرِيَ فِي البحرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه في "البقرة" .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ يعني البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ ﴾ أي في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية .

وقيل : دائبين في السير امتثالاً لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ؛ روي معناه عن ابن عباس .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله في النهار ، كما قال : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ القصص : 73 ] .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً ؛ فحذف ؛ عن الأخفش .

وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه فحذف ، فلم نسأله شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه التي ابتدأنا بها .

وهذا كما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ على ما يأتي .

وقيل : "مِن" زائدة ؛ أي آتاكم كلّ ما سألتموه .

وقرأ ابن عباس والضحاك وغيرهما ﴿ وءاتاكم مِن كُلٍّ ﴾ بالتنوين "مَا سَأَلْتُمُوهُ" وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقَتَادة ؛ هي على النفي أي من كل ما لم تسألوه ؛ كالشمس والقمر وغيرهما .

وقيل : من كل شيء ما سألتموه أي الذي ما سألتموه .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ أي نعم الله .



---

﴿ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسّمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق ؛ ( نعم لا تحصى ) وهذه النّعم من الله ، فَلِمَ تبدلون نعمة الله بالكفر ؟ وهلا استعنتم بها على الطاعة ؟! ا ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص ؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل .

وقيل : جميع الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾



---

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج من الثمرات رزقاً لكم ﴾

اعلم أنه تقدم تفسير هذه الآية في مواضع كثيرة ، ونذكر ها هنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذي لا يعجزه شيء أراده ، فقوله تعالى : الله خلق السموات والارض ، إنما بدأ خلق السموات والأرض ، لأنها أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء يعني من السحاب سمي السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو ، وهو الارتفاع وقيل إن المطر ينزل من السماء إلى السحاب ومن السحاب الى الأرض فأخرج به أي بذلك الماء من الثمرات رزقاً لكم ، والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر .

وقد يقع على الزرع أيضاً بدليل قوله : كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله : من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقاً هو الثمرات ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى إنعامه بإنزال المطر ، وأخراج الثمر لأجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء ، لأجل الانتفاع بها في جلب ذلك الرزق الذي هو الثمرات ، وغيرها من بلد إلى بلد آخر .

فهي من تمام نعمة الله على عباده ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ يعني ذللها لكم تجرونها حيث

شئتم ، ولما كان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب أيضاً ذكر نعمته على عباده في تسخير الأنهار ، وتفجير العيون لأجل هذه الحاجة ، فهو من أعظم نعم الله على عباده ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ الدأب العادة المستمرة دائماً على حالة واحدة ودأب في السير دوام عليه ، والمعنى أن الله سخر الشمس والقمر ، يجريان دائماً فيما يعود إلى مصالح العباد لا يفتران إلى آخر الدهر ، وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها .

قال ابن عباس : دؤبها في طاعة الله .

(101/419)

---

وقال بعضهم : معناه يدأبان في طاعة الله أي في مسيرهما وتأثيرهما في إزالة الظلمة وإصلاح النبات والحيوان لأن الشمس سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل ، وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله ، وإنعامه على عباده وتسخيره لهم ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان ، والزيادة وذلك من إنعام الله على عباده وتسخيره لهم ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك ، أنه تعالى لم

يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر .

والمعنى : وآتاكم من كل ما سألتموه شيئاً فحذف شيئاً اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض ، وقيل : هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه ، وما لم تسألوه لأن نعمه علينا أكثر من أن تحصى ﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ يعني أن نعم الله كثيرة على عباده ، فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها ﴿ إن الإنسان ﴾ قال ابن عباس : يريد أبا جهل ، وقال الزجاج : هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر ﴿ لظلوم كفار ﴾ يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه ، وقيل : الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه .

وقيل : يظلم النعمة بإغفال شكرها كفار شديد الكفران لها ، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع بالنعمة يجمع ويمنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(102/419)

---

وقال أبو حيان :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

ولما أطال تعالى الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ، وكان حصول السعادة بمعرفة الله وصفاته ، والشقاوة بالجهل ، بذلك ختم وصفه بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته فقال : الله الذي خلق السموات والأرض وذكر عشرة أنواع من الدلائل فذكر أولاً إبداعه وإنشاء السموات والأرض ، ثم أعقب بباقي الدلائل ، وأبرزها في جمل مستقلة ليدل وينبّه على أنّ كل جملة منها مستقلة في الدلالة ، ولم يجعل متعلقاتها معطوفات عطف المفرد على المفرد ، والله مرفوع على الابتداء ، والذي خبره .

قال ابن عطية : ومن أخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمن وصلى وأنفق انتهى .

يشير إلى ما تقدم من قوله : إنّ معمول قل هو قوله تعالى الله الذي خلق السموات والأرض الآية .

فكأنه يقول : يقيموا الصلاة ، جواب لقوله : قل لعبادي الله الذي خلق السموات والأرض .

والظاهر أن مفعول أخرج هو رزقاً لكم ، ومِنْ للتبعيض .

ولما تقدّم على النكرة كان في موضع الحال ، ويكون المعنى : إن الرزق هو بعض جنى الأشجار ، ويخرج منها ما ليس برزق كالمجرد للمضرات .

ويجوز أن تكون مِن لبيان الجنس قاله ابن عطية والزمخشري ، وكأنه قال : فأخرج به رزقاً لكم هو الثمرات .

وهذا ليس بجيد ، لأنّ من التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي تبينه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون من الثمرات مفعول أخرج ، ورزقاً حالاً من المفعول ، أو نصباً على المصدر من أخرج ، لأنه في معنى رزق .

وقيل : من زائدة ، وهذا لا يجوز عند جمهور البصريين ، لأنّ ما قبلها واجب ، وبعدها معرفة ، ويجوز عند الأخفش .

والفلك هنا جمع فلك ، ولذلك قال : لتجري .

ومعنى بأمره : راجع إلى الأمر القائم بالذات .

وقال الزمخشري : لقوله ، كن .

وانطوى في تسخير الفلك تسخير البحار ، وتسخير الرياح .

وأما تسخير الأنهار فبجريانها وبتفجيرها للانتفاع بها .



---

وانتصب دائبين على الحال والمعنى : يدأبان في سيرهما وإنارتهما وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ، عن مقاتل بن حبان يرفعه إلى ابن عباس أنه قال : معناه دائبين في طاعة الله .

قال ابن عطية : وهذا قول إن كان يراد به أنّ الطاعة انقياد منهما في التسخير ، فذلك

موجود في قوله : سخر ، وإن كان يراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العبادة من البشر فهذا جيد ، والله أعلم انتهى .

وتسخير الليل والنهار كونهما يتعاقبان خلفةً للمنام والمعاش .

وقال المتكلمون : تسخير الليل والنهار مجاز ، لأنّهما عرضان ، والاعراض لا تسخر .

ولما ذكر تعالى تلك النعم العظيمة ، ذكر أنه لم يقتصر عليها فقال : وآتاكم من كل ما سألتموه ، والخطاب للجنس من البشر أي : أن الإنسان قد أوتي من كل ما شأن أنْ يسأل وينتفع به ، ولا يطرد هذا في كل واحد واحد من الناس ، وإنما تفرقت هذه النعم في البشر فيقال : بحسب هذا الجميع أوتيتم كذا على جهة التقرير للنعمة .

وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وعمرو بن قائد ، وقتادة ، وسلام ، ويعقوب ، ونافع في رواية : من كل بالتنوين ، أي : من كل هذه المخلوقات المذكورات .

وما موصولة مفعول ثان أي : ما شأنه أن يسأل بمعنى يطلب الانتفاع به .

وقيل : ما نافية ، والمفعول الثاني هو من كل كقوله : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي غير سائليه .

أخبر بسبوغ نعمته عليهم بما لم يسألوه من النعم ، ولم يعرض لما سألوه .

والجملة المنفية في موضع نصب على الحال ، وهذا القول بدأ به الزمخشري ، وثنى به ابن

عطية وقال: إنه تفسير الضحاك.

وهذا التفسير يظهر أنه مناف لقراءة الجمهور من كل ما سألتموه بالإضافة، لأنّ في تلك القراءة على ذلك التخريج تكون ما نافية، فيكونون لم يسألوه.

وفي هذه القراءة يكونون قد سألوه، وما بمعنى الذي.

وأجيز أن تكون مصدرية، ويكون المصدر بمعنى المفعول.

(104/419)

---

ولما أحس الزمخشري بظهور التنافي بين هذه القراءة وبين تلك على تقدير أنّ ما نافية قال:

ويجوز أن تكون ما موصولة على وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه، ولم تصلح أحوالكم ومعائشكم إلا به، فكأنكم سألتموه، أو طلبتموه بلسان الحال.

فتأول سألتموه بقوله: ما احتجتم إليه.

والضمير في سألتموه إن كانت ما مصدرية عائد على الله تعالى، ويكون المصدر يراد به المسؤول.

وإن كانت موصولة بمعنى الذي عاد عليها، والتقدير: من كل الذي سألتموه إياه.

ولا يجوز أن يكون عائداً على الله.

والرابط للصلة بالموصول محذوف، لأنك إن قدرته متصلاً فيكون التقدير : ما سألتموهوه، فلا يجوز.

أو منفصلاً فيكون التقدير : ما سألتموه إياه، فالمنفصل لا يجوز حذفه.

والنعمة هنا قال الواحدي : اسم أقيم مقام المصدر، يقال : أنعم إنعاماً ونعمة، أقيم الاسم مقام الانعام كقولك : أنفقت إنفاقاً ونفقة، ولذلك لم يجمع لأنه في معنى المصدر انتهى.

والذي يظهر أن النعمة هو المنعم به، وأنه هو اسم جنس لا يراد به الواحد بل يراد به الجمع، كأنه قيل : وإن تعدوا نعمة الله ومعنى لا تحصوها، لا تحصوها، لا تحصروها ولا تطيقوا عدها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال.

وأما التفصيل فلا يقدر عليه، ولا يعلمه إلا الله.

وقال أبو الدرداء : من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه، وحضر عذابه.

والمراد بالإنسان هنا الجنس أي : توجد فيه هذه الخلال وهي : الظلم، والكفر، يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بجحدها.

وقيل : ظلوم في الشدة فيشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع.

وفي النحل : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ والفرق بين الختمين : أنه هنا تقدم قوله : ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وبعده ، وجعلوا لله أنداداً ، فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك ، بجعل الأنداد ناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه ، فجاء إن الإنسان لظلوم كفار .

وأما في النحل فلما ذكر عدة تفضلات ، وأطنب فيها ، وقال : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ أي : من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق ولا على شيء منه ، ذكر من تفضلاته اتصافه بالعذاب والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه ، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما ، كما هو متصف بالخلق ، ففي ذلك إطماع لمن آمن به .

وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق أنه يغفر زلَله السابق ويرحمه ، وأيضاً فإنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان ، ذكر ما حصل من المنعم ، ومن جنس المنعم عليه ، فحصل من المنعم ما يناسبه حالة عطائه وهو الغفران والرحمة ، إذ لولاهما لما أنعم عليه .

وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسبه حالة الإنعام عليه ، وهو الظلم والكفران ، فكأنه قيل : إن صدر من الإنسان ظلم فالله غفور ، أو كفران نعمة فالله رحيم ، لعلمه بعجز الإنسان وقصوره .

ودعوى أن هذه الآية منسوخة بآية النحل لا يلتفت إليها ، ونقل ذلك السخاوي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(106/419)

---

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾

هذه الآيةُ تذكيرٌ بآلائه سُبْحانه ، وتنبيهٌ على قدرته التي فيها إِحْسَانٌ إلى البَشَر ؛ لتقوم الحُجَّة عليهم ، وقوله : ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ : مصدر أَمَرَ يَأْمُرُ ، وهذا راجعٌ إلى الكلامِ القديمِ القائمِ بالذاتِ ، و ﴿ دَآئِبَيْنَ ﴾ : معناه : متمادِيَيْن ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لصاحب الجَمَلِ الذي بَكَى وأَجْهَشَ إليه : « إِنَّ هَذَا الجمَلَ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه » ، أي : تديمه في الخِدْمَة والعَمَلِ ، وظاهرُ الآية أنَّ معناه : دائبَيْنِ في الطلوعِ والغروبِ وما بينهما من المَنَافِعِ للناسِ التي لا تحصَى كثْرةً ، وعن ابن عباس أَنَّه قال : معناه : دائِبَيْنِ في طاعة اللَّه ، وقوله سبحانه : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ المعنى : أنَّ جنس الإنسان بجملته قد أوتي من كلِّ ما شأنه أنْ يسأل وينتفع به ، وقرأ ابن عباس وغيره : « مِنْ كُلٍّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ » -

بتنوين كُلٍّ - ، ورويت عن نافع ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ ، أي : لكثرتها وعِظمها في الحَوَاس والقُوى ، والإيجادِ بعد العَدَمِ والهداية للإيمان وغيرِ ذلك ، وقال طَلْقُ بْنُ حَبِيب : إنَّ حقَّ اللَّه تعالى : أَثْقَلُ من أَنْ يَقُومَ به العُبَّادُ ، ونِعْمَهُ أَكْثرِ من أَنْ يحصيها العبَادُ ، ولكنْ أَصْبِحُوا توَّابين ، وأَمْسُوا توَّابين .

(107/419)

---

* ت * : ومِنْ «الكَلِمِ الفارقيَّة» : أيها الحَرِيصُ على نيلِ عَاجِلِ حظِّه ومراده ؛ الغافلُ عن الاستعداد لمعاده تنبَّه لعظمة مَنْ وجودُك بإيجادِهِ ؛ وبقاؤك بإرْفاده ؛ ودوامك بإمداده ، وأَنْتَ طفلٌ في حَجْر لُطْفه ؛ ومهد عَطْفه ؛ وحضانة حفظه ، يغذِّك بِلبَان برِّه ؛ ويقلّبك بأيدي أياديه وفضله ؛ وأنتَ غافلٌ عن تعظيم أمره ؛ جاهلٌ بما أولاَكَ من لَطِيف سِرِّه ؛ وفضَّلك به على كثيرٍ من خَلْقه ، واذكر عهد الإيجاد ، ودوام الإمْدَاد والإرفاد ؛ وحالَتَي الإِصْدَار والإِيراد ؛ وفاتحة المبدأ وخاتمة المَعَاد . انتهى .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ : يُرِيدُ به النوعَ والجنْسَ ، المعنَى : توجَدُ فيه هذه الخِلاَلُ ، وهي الظُّلْم والكُفْر ، فإن كانَتْ هذه الخِلاَلُ من جاحِدٍ ، فهي بصفةٍ ، وإِن كانَتْ من عاصٍ فهي بصفةٍ أُخرَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

﴿ الله ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿ الذى خَلَقَ السموات ﴾ وما فيها من الأجرام العلوية ﴿ والأرض ﴾ وما فيها من أنواع المخلوقاتِ . لمّا ذكرَ أحوالَ الكافرين لنعم الله تعالى وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعةِ شكراً لنعمه شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنامِ ، والمثابرةِ على الشكر والطاعة من النعم العِظام والمنن الجِسام حثّاً للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المُخلّين بها الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصيَ ، وفي جعل المبتدإ الاسمَ الجليلَ والخبرَ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيلِ العظيمة من خلق هذه الأجرامِ العظام وإنزال الأمطارِ وإخراجِ الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبةِ ما لا يخفى من تربية المهابةِ والدِلالة على قوة السلطان ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ أي السحابِ فإن كلَّ ما علاك سماءٌ ، أو من الفَلَكَ فإن المطر منه يبتدىء إلى السحاب ومنه إلى الأرضِ على ما دلت عليه ظواهرُ النصوص أو من أسباب سماويةٍ تثير الأجزاءَ الرطبةَ من أعماق الأرض إلى الجو فينعقد سحاباً ماطراً ، وأياً ما كان فمن ابتدائيةٌ ﴿ مَاء ﴾ أي نوعاً منه هو المطرُ ، وتقديمُ المجرورِ على المنصوب إما

باعتبار كونه مبدأ لنزوله أو لتشريفه كما في قولك : أعطاه السلطانُ من خزانته مالاً ، أو لما مرّ مراراً من التشويق إلى المؤخّر ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ مِنَ الثمرات ﴾ الفائتة للحصر ، إما لأن صيغَ الجموعِ يتعاور بعضُها موضعَ بعض ، وإما لأنه أريد بمفردها جماعةُ الثمرة التي في قولك : أدركت ثمرةُ بستان فلان ﴿ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شاملٌ للمطعوم والملبوس مفعولٌ لأخرج ومن للتبيين كقولك : أنفقت من الدراهم ألفاً ، ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولاً ورزقاً حالاً منه ، أو مصدراً من أخرج بمعنى رزَق ، أو للتبعيض بدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ ﴾ كأنه قيل : أنزل من السماء بعضَ الماء فأخرج به بعضَ الثمرات

(109/419)

---

ليكون بعضَ رزقكم إذ لم ينزل من السماء كلَّ الماء ولا أخرج بالمطر كلَّ الثمار ولا جعل كلَّ الرزق ثمراً ، وخروجُ الثمرات وإن كان بمشيئته عز وجل وقدرتِه لكن جرت عادتُه تعالى بإفاضة صورِها وكيفياتها على المواد الممتزجةِ من الماء والتراب وأودع في الماء قوةً فاعلةً وفي الأرض قوةً قابلةً يتولد من اجتماعهما أنواعُ الثمار ، وهو قادرٌ على إيجاد الأشياء بلا أسباب ( ولا ) موادّ كما أبدع نفوسَ الأسباب كذلك لما أن له تعالى في إنشائها مدرّجاً من

طَور إلى طور صنائعَ وحِكماً يجدّد فيها لأولي الأبصار عِبَراً وسكوناً إلى عظيم قدرتِه ليس ذلك في إبداعها دفعة ، وقوله : لكم ، صفةٌ لقوله : رزقاً ، إن أريد به المرزوق ، ومفعولٌ به إن أريد به المصدرُ كأنه قيل : رزقاً إياكم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك ﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالِها بما ألهمكم كيفيةَ ذلك ﴿ لِتَجْرِىَ فِى البحر ﴾ جرياً تابعاً لإرادتكم ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته التي نيط بها كلُّ شيء ، وتخصيصُه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمالِ واستعمالِ الآلاتِ كما يتراءى من ظاهر الحال ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ إن أريد بها المياهُ العظيمة الجاريةُ في الأنهار العظامِ كما يومىء إليه ذكرُها عند البحر فتسخيرُها جعلُها مُعدّةً لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداولَ يسقُون منها زروعَهم وجنانَهم وما أشبه ذلك ، وإن أريد بها نفسُ الأنهار فتسخيرُها تيسيرُها لهم .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَائِبَيْنَ ﴾

(110/419)

---

يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافةً وإصلاحِهما لما نيط بهما صلاحُه من المكوّنات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ يتعاقبان خِلْفةً لمنامكم ومعاشِكم ولعقد الثمار وإنضاجِها ، ذكر سبحانه وتعالى أنواعَ النعم الفائضةِ عليهم وأبرز كلَّ واحدة منها في جملة

مستقلةٍ تنويهاً لشأنها وتنبيهاً على رفعة مكانِها وتنصيصاً على كون كل منها نعمةً جليلةً مستوجبةً للشكر ، وفي التعبير عن التصريف المتعلّق بما ذُكر من الفلك والأنهارِ والشمسِ والقمر والليل والنهار بالتسخير من الإشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزةِ المنال والدِلالة على عِظَم السلطان وشدّة المِحال ما لا يخفى ، وتأخيرُ تسخيرِ الشمس والقمرِ عن تسخير ما تقدمه من الأمور المعدودةِ مع ما بينه وبين خلقِ السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرِها لذكر الأرض المستدعي لذكر إنزالِ الماءِ منها إليها الموجبِ لذكر إخراجِ الرزقِ الذي من جملته ما يحصُل بواسطة الفَلَك والأنهار أو للتفادي عن توهم كون الكل أعني خلقَ السمواتِ والأرض وتسخيرَ الشمس والقمر نعمةً واحدةً كما مر في سورة البقرة .

(111/419)

---

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي أعطاكم بعضَ جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئتُه التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ونيط به انتظامُ أحوالِكم على الوجه المقدّرِ فكأنكم سألتموه ، أو كلَّ ما طلبتموه بلسان الاستعدادِ أو كلَّ ما سألتموه ،

على أن ( من ) للبيان وكلمة كُل للتكثير ، كقولك : فلان يعلم كلَّ شيء وأتاه كلُّ الناس وعليه قوله عز وجل : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقيل : الأصلُ وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحُذف الثاني لدلالة ما أُبقي على ما أُلقيَ ، وقرىء بتنوين ( كلٍّ ) على أن ما نافيه ومحل سألتموه النصبُ على الحالية أي آتاكم من كلٍ غيرَ سائليه .

*(112/419)*

---

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ التي أنعم بها عليكم ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ لا تُطيقوا بحصرها ولو إجمالاً فإنها غيرُ متناهيةٍ ، وأصل الإحصاءِ أن الحاسبَ إذا بلغ عَقداً معيناً من عقود الأعدادِ وضع حصاةً ليحفظ بها ، إيذانٌ بعدم بلوغِ مرتبةٍ معتدَ بها من مراتبها فضلاً عن بلوغ غايتِها ، كيف لا وما من فرد من أفراد الناسِ وإن كان في أقصى مراتبِ الفقرِ والإفلاس مَمنوًّا بأصناف العنايا مبتلىً بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأملته ألفيتَه متقلّباً في نِعمَ لا تحدّ ومننٍ لا تحصى ولا تعدّ كأنه قد أعطيَ كلَّ ساعة وآنٍ من النعماء ما حواه حِيطةُ الإمكان ، وإن كنت في ريب من ذلك فقدّرْ أنه ملك مِلكُ أقطارَ العالم ، ودانت له كافةُ الأمم ، وأذعنت لطاعته السَّراةُ ، وخضعت لهيبته رُقابُ العُتاة ، وفاز بكل مرام ، ونال كل منالٍ ، وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الأموالِ من غيرِ ندّ يزاحمه ، ولا شريك يساهمُه ، بل

قدِّرْ أن جميع ما فيها من حجر ومدَرٍ يواقيتُ غاليةٌ ونفائسُ دُررٍ ، ثم قدِّر أنه قد وقع مِنْ فقْد مشروبٍ أو مطعومٍ في حالة بلغت نفسُه الحلقومَ ، فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع مالِه من الملك والمال لُقمةً تنجّيه عن رواه ، أو شربةً ترويه من ظمَاه ، أم يختار الهلاك فتذهبَ الأموالُ والأملاك بغير بذل يبقى عليه ولا نفعٍ يعود إليه ؟ كلا ، بل يبذُل لذلك كلَّ ما تحويه اليدان كائناً ما كان وليس في صفقته شائبةُ الخُسران ، فإذن تلك اللقمةُ والشَّرْبةُ خيرٌ مما في الدنيا بألف رتبةٍ مع أنهما في طرف الثمام ينالهما متى شاء من الليالي والأيام ، أو قدّر أنه قد احتبس عليه النفَسُ فلا دخلَ منه ما خرَجَ ولا خرَجَ منه ما ولَجَ ، والحينُ قد حان وأتاه الموتُ من كل مكان أما يعطي ذلك كلَّه بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لرأيه حامدٌ ، فإذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برُمّتها مع أنه قد أُبيح له كل آنٍ من



---

آنات الليالي والأيام حالَ اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء ، وإن رمت العثورَ على حقيقة الحقِّ والوقوفَ على كل ما جل من السرِّ ودق فاعلم أن الإنسانَ بمقتضى حقيقتِه الممكنةِ بمعزل عن استحقاق الوجودِ وما يتبعه من الكمالات اللائقةِ والملكاتِ الرائقةِ بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايةِ الإلهية من العلاقة لما

استقر له القَرار ولا اطمأنت به الدار إلا في مطمورة العدم والبوار ، ومهاوي الهلاك والدمار لكن يَفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدّس في كل زمان يمضي وكل آن يمرّ وينقضي من أنواع الفيوضِ المتعلقة بذاته ووجودِه وسائرِ صفاتِه الروحانيةِ والنفسانية والجُسمانية ما لا يحيط به نطاقُ التعبير ولا يعلمه إلا العليم الخبير ، وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجودَ ابتداءً لا يستحقه بقاءً وإنما ذلك من جانب المبدأ الأول عز وجل ، فكما لا يتصور وجودُه ابتداءً ما لم ينسدَّ عليه جميع أنحاءِ عدمِه الأصلي لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققِه بعلّته ما لم ينسدَّ عليه جميعُ أنحاءِ عدمه الطارىء لأن الاستمرار والدوامَ من خصائص الوجود الواجبي .

(114/419)

---

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجودُه من الأمور الوجودية التي هي عللُه وشرائطُه وإن وجب كونُها متناهيةً لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود لكن الأمور العدميةَ التي لها دخلٌ في وجوده ليست كذلك إذ لا استحالةَ في أن يكون لشيء واحد موانعُ غيرُ متناهية ، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود فارتفاعُ تلك الموانع التي لا تتناهى أعني بقاءَها على العدم مع إمكان وجودِها في أنفسها في كل آن من آنات وجودِه نعمٌ غيرُ متناهية حقيقة

لا ادعاءً وكذا الحال في وجودات علله وشرائطِه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً وكذا في كمالاته التابعةِ لوجوده فاتضح أنه يَفيض عليه كل آنٍ نعمٌ لا تتناهى من وجوه شتى ، فسبحانك سبحانك ما أعظمَ سلطانَك لا تلاحظك العيونُ بأنظارها ولا تطالعك العقولُ بأفكارها شأنُك لا يضاهى وإحسانُك لا يتناهى ونحن في معرفتك حائرون وفي إقامة مراسمِ شكرِك قاصرون نسألك الهدايةَ إلى مناهج معرفتِك والتوفيقَ لأداء حقوقِ نعمتك لا نحصي ثناءً عليك لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ ﴾ يظلِم النعمةَ بإغفال شكرِها أو بوضعه إياها في غير موضعِها أو يظلم نفسَه بتعريضها للحرمان ﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديدُ الكفران ، وقيل : ظلومٌ في الشدة يشكو ويجزع ، كفّارٌ في النعمة يجمع ويمنع ، واللام في الإنسان للجنس ومصداقُ الحكمِ بالظلم والكفران بعضُ مَنْ وُجد فيه من أفراده ويدخُل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفراً الخ دخولاً أولياً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(115/419)

---

وقال الآلوسى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

ثم إنه لما ذكر سبحانه أحوال الكافر لنعمه وأمر المؤمنين بإقامة مراسم الطاعة شكراً لها شرع جل وعلا في تفصيل ما يستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثاً للمؤمنين عليها وتقريعاً للكفرة المخلين أتم إخلال بها فقال عز قائلاً :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الخ ،

وهذا أولى مما قيل : إنه تعالى لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء وكان حصول السعادة بمعرفة الله تعالى وصفاته والشقاوة بالجهل بذلك ختم الوصف بالدلائل الدالة على وجوده جل شأنه وكمال علمه وقدرته فقال سبحانه ما قال لظهور اعتبار المذكورات في حيز الصلة نعماً لا دلائل ، والاسم الجليل مبتدأ والموصول خبره ولا يخفى ما في الكلام من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان ، والمراد خلق السموات وما فيها من الإجرام العلوية والأرض وما فيها من أنواع المخلوقات ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ أي السحاب ﴿ مَاء ﴾ أي نوعاً منه وهو المطر ، وسمى السحاب سماء لعلوه وكل ما علاك سماء ؛ وقيل : المراد بالسماء الفلك المعلوم فإن المطر منه يتبدى إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ، وعليه الكثير من المحدثين لظواهر الأخبار .

واستبعد ذلك الإمام لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قلة جبل عال ويرى السحاب أسفل منه فإذا نزل رآه ماطراً ، ثم قال : وإذا كان هذا أمراً مشاهداً بالبصر كان النزاع فيه باطلاً ، وأول بعضهم الظواهر لذلك بأن معنى نزول المطر من السماء نزوله بأسباب ناشئة منها ، وإياما كان ﴿ فَمَنْ ﴾ ابتدائية وهي متعلقة ﴿ بأنزل ﴾ وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبتدأ لنزوله أو لتشريفه كما في قولك : أعطاه السلطان من خزائنه مالاً أو لما مر غير مرة من التشويق إلى المؤخر ﴿ مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ تعيشون به وهو بمعنى المرزوق مراداً به المعنى اللغوي وهو كل ما ينتفع به فيشمل المطعوم والملبوس ، ونصبه على أنه مفعول ﴿ أَخْرَجَ ﴾ و ﴿ مِنَ الثمرات ﴾ بيان له فهو في موضع الحال منه ، وتقدم ﴿ مِنْ ﴾ البيانية على ما تبينه قد أجازه الكثير من النحاة وقد مر الكلام في ذلك ، واستظهر أبو حيان المانع لذلك كون ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ، والجار والمجرور في موضع الحال و ﴿ رِزْقاً ﴾ مفعول ﴿ أَخْرَجَ ﴾ أيضاً ، وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ بمعنى بعض مفعول أخرج و ﴿ رِزْقاً ﴾ بمعنى مرزوقاً حالاً منه فهو بيان للمراد من بعض الثمرات لأن منها ما ينتفع به فهو رزق ومنها ما ليس كذلك ، ويجوز أن يكون ﴿ رِزْقاً ﴾ باقياً على مصدريته ، ونصبه على أنه مفعول له أي أخرج به ذلك لأجل الرزق والانتفاع به أو مفعول مطلق لأخرج لأن أخرج بعض الثمرات في معنى رزق فيكون في معنى

قعدت جلوساً على المشهور ، وقيل : من زائدة ولا يرى جواز ذلك هنا إلا الأخفش و ﴿ لَكُمْ ﴾ صفة لرزقاً أن أريد به المرزوق ومفعول به إن أريد به المصدر كأنه قيل : رزقاً إياكم ، والباء للسببية .

(117/419)

---

ومعنى كون الإخراج بسببه أن الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة بإذنه في ذلك حسبما جرت به حكمته الباهرة مع غناه الذاتي سبحانه عن الاحتياج إليه في الإخراج ، وهذا هو رأي السلف الذي رجع إليه الأشعري كما حقق في موضعه ، وزعم من زعم أن المراد أخرج عنده والتزموا هذا التأويل في ألوف من المواضع وضللوا القائلين بأن الله تعالى أودع في بعض الأشياء قوة مؤثرة في شيء ما حتى قالوا : إنهم إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان ، وأولئك عندي أقرب إلى الجنون وسفاهة الرأي .

و ﴿ الثمرات ﴾ يراد بها ما يراد من جمع الكثرة لأن صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض أو لأنه أريد بالمفرد جماعة الثمرة التي في قولك : أكلت ثمرة بستان فلان ، وقد تقدم لك ما ينفعك تذكره في هذا المقام فتذكر ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك ﴾ السفن بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ، وقيل : بأن جعلها لا ترسب في الماء ﴿

﴿ لِتَجْرِىَ فِى البحر ﴾ حيث توجهتم ﴿ بِأَمْرِه ﴾ بمشيئته التي بها نيط كل شيء ، وتخصيصه بالذكر على ما ذكره بعض المحققين للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال ، ويندرج في تسخير الفلك كما في البحر تسخيره وكذا تسخير الرياح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ جعلها معدة لانتفاعكم حيث تشربون منها وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم وما أشبه ذلك ، هذا إذا أريد بالأنهار المياه العظيمة الجارية في المجاري المخصوصة وأما إذا أريد بها نفس المجاري فتسخيرها تيسيرها لهم لتجري فيها المياه .

﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَائِبَينَ ﴾

أي دائمين في الحركة لا يفتران إلى انقضاء عمر الدنيا .

أخرج ابن أبي حاتم .

(118/419)

---

وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : الشمس بمنزلة الساقية تجري بالنهار في السماء في فلكها فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض حتى الأرض حتى تطلع من مشرقها وكذلك القمر ، والقول بجريانهما إذا غربا تحت الأرض

مروى أيضاً عن الحسن البصري وهو الذي يشهر له العقل السليم وللأخباريين غير ذلك ، وظاهر الآية إثبات الحركة لهما أنفسهما .

والفلاسفة يثبتون لهما حركتين يسمون احداهما الحركة الأولى وهي الحركة اليومية من المشرق إلى المغرب الحاصلة لهما بقسر المحدد لفلكيهما ، والأخرى الحركة الثانية وهي الحركة على توالي البروج من المغرب إلى المشرق الحاصلة لهما بحركة فلكيهما حركة ذاتية ، ولا يثبتون لهما حركة في ثخن الفلك على نحو حركة السمكة في الماء لصلابة الفلك وعدم قبوله الخرق أصلا عندهم .

وأثبت الشيخ الأكبر قدس سره في فتوحاته حركتهما على ذلك النحو ، والفلك عنده مثل الماء والهواء .

ذكر بعض الأخباريين أنهما وسائر الكواكب معلقة بسلاسل من نور بأيدي ملائكة يسيرونها كيف شاء الله تعالى وحيث شاء سبحانه ، والافلاك ساكنة عند هذا البعض ، وكذا عند الشيخ قدس سره على ما يقتضيه ظاهر كلامه ، والأخبار في هذا الباب ليست بحيث تسد ثغر الخصم .

وذكر النسفي أنه ليس فيهما ما يعول عليه ، وكلام الفلاسفة ما لم يكن فيه مصادمة لما تحقق عن المخبر الصادق صلى الله عليه وسلم مما لا بأس به ، وفسر بعضهم ﴿ دَائِبَيْنَ ﴾ بمجدين تعبين وهو على التشبيه والاستعارة ، وأصل الدأب العادة المستمرة ، ونصب

الاسم على الحال ، وتسخير هذين الكوكبين العظيمين جعلهما منيرين مصلحين ما نيط بهما صلاحه من المكونات ، ولعمري أن الله سبحانه جعلهما أجدى من تفاريق العصا .

(119/419)

---

وفي كتاب "المشارع والمطارحات" للشيخ شهاب الدين السهروردي قتيل حلب أن تأثير الشمس والقمر أظهر الآثار السماوية ، وتأثير الشمس أظهر من تأثير القمر ، وأظهر الآثار بعد الشعاع التسخين الحاصل منه ولولا ذلك ما كان كون وفلا فساد ولا استحالة ولا ليل ولا نهار ولا فصول ولا مزاج ولا حيوانات ولا غيرها ، وأطال الكلام في بيان ذلك وما يتعلق به ، ولا ضرر عندي في اعتقاد أنهما مؤثران بإذن الله تعالى كسائر الأسباب عند السلف الصالح ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم ، وأرجع بعض المحققين التسخير في المواضع الأربعة إلى معنى التصريف ، وأصله سياقة الشيء إلى الغرض المختص به قهراً ، وذكر أن في التعبير عن ذلك به من الإشعار بما في ذلك من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى ، والظاهر أنه في المعنى المراد به هنا مجاز في تلك المواضع جميعاف ، ونقل أبو حيان عن المتكلمين أنه مجاز في الأخير منها قال : لأن الليل والنهار عرضان والأعراض لا تسخر وفيه قصور ، وفي إبراز كل

من هذه النعم في جملة مستقلة تنويه لشأنها وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيص على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر .

وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدم من الأمور مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة قيل : لاستتباع ذكرها لذكر الأرض المستدعى لذكر إنزال الماء منها إليها الموجب لذكر إخراج الرزق الذي من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والأنهار أو للتفادي عن توهم كون الكل أعني خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة ، وقد تقدم نظيره آنفاً ، وذكر بعضهم في وجه ذكر هذه المتعاطفات على هذا الأسلوب أنه بدأ بخلق السموات والأرض لأنهما أصلان يتفرع عليهما سائر ما يذكر بعد ، وثنى بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به لشدة تعلق النفوس بالرزق فيكون تقديمه من قبيل تعجيل السمرة .

(120/419)

---

ولما كان الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجواري في "البحر" وذلك لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع من ذلك وبالنقل يكثر الربح ذكر سبحانه تسخير الفلك التي ينقل عليها واقتصر عليها اعتناءً بشأنها ، ولما ذكر أمر الثمرات وما به

يكمل الانتفاع بها من حيث النقل ذكر تسخير الأنهار العذبة التي يشرب منها الناس في سائر الأحيان إتماماً لأمر الرزق وذكر تسخير الشمس والقمر بعد لأن الانتفاع بهما ليس بالمباشرة كالانتفاع بالفلك والانتفاع بالانهار ، وأخر تسخير الليل والنهار لأنهما عرضان وما تقدمهما جوهر والعرض من حيث هو بعد الجوهر اه ، وليس بشيء يعول عليه .

﴿ وءاتاكم مّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾

أي أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة فمن كل مفعول ثان لآتى و﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية ، وقال بعض الكاملين : إن ﴿ كُلّ ﴾ للتكثير والتفخيم لا للإحاطة والتعميم كما في قوله تعالى : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَىْء ﴾ [ الأنعام : 44 ] واعترض على حمل ﴿ مِنْ ﴾ على التبعيض دون ابتداء الغاية بأنه يفضي إلى إخلاء لفظ ﴿ كُلّ ﴾ عن فائدة زائدة لأن ﴿ مَا ﴾ نص في العموم بل يوهم إيتاء البعض من كل فرد متعلق به السؤال ولا وجه له .



ودفع بأنه بعد تسليم كون ﴿ مَا ﴾ نصاً في العموم هنا عمومان عموم الأفراد وعموم الأصناف بمعنى كل صنف وهما مقصودان هنا ، فالمعنى أعطاكم من جميع أفراد

كل صنف سألتموه ، فإن الاحتياج بالذات إلى النوع والصنف لا لفرد بخصوصه ، وفسر ﴿ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ بما من شأنه أن يسأل لاحتياج الناس إليه سواء سئل بالفعل أم لم يسأل ، فلا ينفي إيتاء ما لا حاجة إليه مما لا يخطر بالبال ، وجعلوا الاحتياج إلى الشيء سؤالاً له بلسان الحال وهو من باب التمثيل ، وسبيل هذا السؤال سبيل الجواب في رأي في قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ﴾ [ الأعراف : 172 ] وقيل : الأصل وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثاني لدلالة ما أبقى على ما ألقى ، ﴿ وَمَا ﴾ يحتمل أن تكون موصولة والضمير المنصوب في ﴿ سَأَلْتُمُوهُ ﴾ عائد عليها ، والتقدير من كل الذي سألتموه إياه ؛ ومنع أبو حيان جواز أن يكون راجعاً إليه تعالى ويكون العائد على الموصول محذوفاً مستنداً بأنه لو قدر متصلاً لزم اتصال ضميرين متحدي الرتبة من دون اختلاف وهو لا يجوز ولو قدر منفصلاً حسبما تقتضيه القاعدة في مثل ذلك لزم حذف العائد المنفصل وقد نصوا على عدم جوازه اه .

وذهب بعضهم إلى جواز كلا التقديرين مدعياً أن منع اتصال المتحدين رتبة خاص فيما إذا ذكرا معاً أما إذا ذكر أحدهما وحذف الآخر فلا منع إذ الاتصال حينئذٍ محض اعتبار وعلة المنع لا تجري فيه ، وأن منع حذف المنفصل خاص أيضاً فيما إذا كان الانفصال لغرض معنوي كالحصر في قولك : جاء الذي أباه ضربت إذ بالحذف حينئذٍ يفوت ذلك الغرض ، أما إذا كان لغرض لفظي كدفع اجتماع المثلين فلا منع إذ ليس هناك غرض يفوت ، ويحتمل

أن تكون موصوفة والكلام في الضمير كما تقدم ، وأن تكون مصدرية والضمير لله تعالى

والمصدر بمعنى المفعول أي مسؤولكم .

وقرأ ابن عباس .

والضحاك .

والحسن .

ومحمد بن علي .

وجعفر بن محمد .

وعمرو بن قائد .



---

وقتادة .

وسلام .

ويعقوب .

ونافع في رواية ﴿ مِن كُلّ ﴾ بالتنوين أي وآتاكم من كل شيء ما احتجتم إليه وسألتموه

بلسان الحال ، وجوز على هذه القراءة أن تكون ﴿ مَا ﴾ نافية والمفعول الثاني ﴿ مِن كُلّ

﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [ النمل : 23 ] والجملة المنفية في موضع الحال أي أتاكم من كل غير سائليه ، وهو إخبار منه تعالى بسبوغ نعمته سبحانه عليهم بما لم يسألوه من النعم ؛ وروي هذا عن الضحاك ، ولا يخفى أن الوجه هو الأول ما أن القراءة على هذا الوجه تخالف القراءة الأولى والأصل توافق القراءتين وإن فهم منها إيتاء ما سألوه بطريق الأول .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما أنعم به عليكم كما هو الظاهر .

وقال الواحدي : إن ﴿ نِعْمَتَ ﴾ هنا اسم أقيم مقام المصدر يقال : أنعم إنعاماً ونعمة كما يقال أنفقت إنفاقاً ونفقة فالنعمة بمعنى الإنعام ولذا لم تجمع ، والمعول عليه ما أشرنا إليه من أنها اسم جنس بمعنى المنعم به ، والمراد بها الجمع كأنه قيل : وإن تعدوا نعم الله ﴿ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ وقد نص بعضهم على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة وما قيل : إن الاستغراق ليس مأخوذاً من الإضافة بل من الشرط والجزاء المخصوصين فيه نظر لأن الحكم المذكور يقتضي صحة إرادته منه ولولاه تنافيا ، والمراد بلا تحصوها لا تطيقوا حصرها ولو إجمالاً فإنها غير متناهية ، وأصل الإحصاء العد بالحصى فإن العرب كانوا يعتمدونه في العد كاعتمادنا فيه على الأصابع ولذا قال الأعشى :

ولست بالأكثر منهم حصى . . .

وإنما العزة للكاثر

(123/419)

ثم استعمل لمطلق العد ، وقال بعض الأفاضل : إن أصله أن الحاسب إذا بلغ عقداً معيناً من عقود الأعداد وضع حصاة ليحفظه بها ففيه إيذان بعدم بلوغ مرتبة معتد بها من مراتبها فضلاً عن بلوغ غايتها وهو من الحسن بمكان إلا أنه ذهب إلى الأول الراغب وغيره ، وأول الإحصاء بالحصر لئلا يتنافى الشرط والجزاء إذا ثبت في الأول العد ونفي في الثاني ولو أول ﴿ إن تَعْدُواْ ﴾ بأن تريدوا العد يندفع السؤال على ما قيل أيضاً والأول أولى ، وقال بعض الفضلاء : إن المعنى أن تشرعوا في عد أفراد نعمة من نعمه تعالى لا تطيقوا عدها .

وإنما أتى بإن وعدم العد مقطوع به نظراً إلى توهم أنه يطاق ، قيل : والكلام عليه أبلغ منه على الأول لما فيه من الإشارة إلى أن النعمة الواحدة لا يمكن عد تفاصيلها ، لكن أنت تعلم أن الظاهر هو الأول .

وقد ذكر الإمام مثالين يستوضح بهما الوقوف على أن نعم الله تعالى لا تحصى ولا يمكن أن تستقصى فقال :

(124/419)

الأول : أن الأطباء ذكروا أن الأعصاب قسمان دماغية ونخاعية ، والدماغية سبعة وقد أتعبوا أنفسهم في معرفة الحكم الناشئة من كل واحدة منها ، ولا شك أن كل واحدة تنقسم إلى شعب كثيرة وكل واحدة من تلك الشعب تنقسم أيضاً إلى شعب أدق من الشعر ، ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ، ولو أن واحدة اختلت كيفاً أو وضعاً أو نحو ذلك لاختلت مصالح البنية ، ولكل منها على كثرتها حكم مخصوصة ، وكما اعتبرت هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة ، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحراً لا ساحل له ، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان فاعتبر في نفسه وروحه فإن عجائب عالم الأرواح أكثر من عجائب عالم الأجسام ؛ وإذا اعتبرت أحوال عالم الأفلاك والكواكب وطبقات العناصر وعجائب البر والبحر والنبات والمعدن والحيوان ظهر لك أن عقول جميع الخلائق لو ركبت وجعلت عقلاً واحداً وتأمل به الإنسان في حكمة الله تعالى في أقل الأشياء لما أدرك منها إلا القليل .

الثاني : أنه إذا أخذت لقمة من الخبز لتضعها في فمك فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها ، فأما الأول فأعرف أنها لا تتم إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائماً على الوجه الأصوب لأن الحنطة لا بد منها ولا تنبت إلا بمعونة الفصول وتركب الطبائع وظهور الأمطار والرياح ، ولا يحصل شيء من ذلك إلا بدور أن الأفلاك واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة ، ثم بعد أن تكون الحنطة لا بد لها من آلات الطحن ونحوه وهي لا تحصل إلا عند تولد الحديد في أرحام الجبال ؛ ثم تأمل كيف تكونت على الأشكال المخصوصة ، ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لا بد من اجتماع العناصر حتى يمكن الطبخ ، وأما الثاني فتأمل في تركيب بدن الحيوان وهو أنه تعالى كيف خلق ذلك حتى يمكنه الانتفاع بتلك اللقمة ، وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل ؛ وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار فلا يمكنك أن تعرف القليل إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب على الوجه الأكمل ، وأني للعقول بإدراك كل ذلك فظهر بالبرهان الباهر صحة هذه الشرطية اه .

(126/419)

---

وقال مولانا أبو السعود قدس سره بعد كلام : وإن رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على ما جل من السر ودق فاعلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق

الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لم انقطع ما بينه وبين العناية الإلهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار إلا في مطمورة العدم والبوار ومهاوي الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الأقدس تعالى شأنه وتقدس في كل زمان يمضي وكل آن يمر وينقضي من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر الصفات الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير ، وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداءً لا يستحقه بقاءً وإنما ذلك من جناب المبدىء الأول عز شأنه وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداءً ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بعلته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارىء لأن الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي .

*(127/419)*

---

وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود لكن الأمور العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك إذ لا استحالة في أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية ، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجود وارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى أعني بقاءها

على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كل آن من آنات وجوده ، نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء ، وكذا الحال في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً ، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده اه ، ويتراءى منه أنه قد ترك الإمام في تحقيق هذا المقام وراءه وأنه لو سمع ذلك لاقتدى به في ذكره ولعد من النعم اقتداءه وقريب منه ما يقال في بيان عدم تناهي النعم : إن الوجود نعمة نكذا كل ما يتبعه من الكمالات ، وذلك موقوف على وجوده تعالى في الأزمنة الموهومة الغير المتناهية ، وتحقق ما يتوقف عليه وجود النعمة نعمة فتحققه سبحانه في كل آن من تلك الآنات نعمة ، فالنعم غير متناهية ، ولك أن تقول في بيان ذلك : إنه ما من إنسان إلا وقد دفع الله تعالى عنه من البلايا ما لا يحيط به نطاق الحصر لأن البلايا الداخلة تحت حيطة الإمكان غير متناهية ، ولا شك أن دفع كل بلية نعمة فتكون النعم غير متناهية ، ومما يوضح عدم تناهي البلايا الممكنة أن أهل النار المخلدين فيها لا زال عذابهم بازدياد كما يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [ النبأ : 30 ] وقد ذكر غير واحد في ذلك أنهم كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد من ذلك ، فيكون كل مرتبة منه متناهياً في الشدة وإن كانت مراتبه غير متناهية بحسب العدد والمدة وعلى هذا نعم الله تعالى على المبتلي أيضاً لا تحصى .

وفي رواية ابن أبي الدنيا .

والبيهقي عن ابن مسعود قال : إن لله تعالى على أهل النار منة فلو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم .

ثم الظاهر أن المراد بالنعمة معناها اللغوي أعني الأمر الملائم لا المعنى الشرعي أعني الملائم الذي تحمد عاقبته إذ لا يتأتى عليه عموم الخطاب ، ولا يبعد إطلاق النعمة بذلك المعنى على نحو رفع الموانع وتحقق العلل والشرائط حسبما ذكر سابقاً ، وظاهر ما تقدم يقتضي أن النعم في حد ذاتها غير محصورة والآية ظاهرة في أن الإنسان لا يحصرها بالعد وفرق بين الأمرين فتدبر .

وبالجملة ليس للعبد إلا العجز عن الوقوف على نهاية نعمه سبحانه وتعالى وكذا العجز عن شكر ذلك ، وما أحسن ما قال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه : من لم يعرف نعمة الله تعالى عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه .

وأخرج البيهقي في الشعب .

وغيره عن سليمان التيمي قال : إن الله تعالى أنعم على العباد على قدره سبحانه وكلفهم الشكر على قدرهم ، وعن طلق بن حبيب قال : إن حق الله تعالى أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله سبحانه أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين .

وأفضل نعمه جل شأنه على عباده على ما روي عن سفيان بن عيينة أن عرفهم أن لا إله إلا الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا .

وغيره عن أبي أيوب القرشي مولى بني هاشم أن داود عليه السلام قال : رب أخبرني ما أدنى نعمتك علي ؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود تنفس فتنفس فقال تبارك وتعالى : هذا أدنى نعمتي عليك .

واشتهر أن أول النعم المقصودة لذاتها الوجود وأنه معدن كل كمال كما أن العدم معدن كل نقص .

ويدل على أنه نعمة لا يكاد يقاس بها غيرها عند كثير من الناس أن الإنسان منهم يفدي نفسه بملك الدنيا لو كان بيده وعلم أن الفداء ممكن إذا ألم به الألم وتحقق العدم .

ومن العجيب أن أبا علي الشبلي البغدادي ، وقيل : ابن سيناء لم يعد وجود الإنسان نعمة عليه فقد قال من أبيات :

ودهر ينثر الأعمار نثرا . . .

كما للغصن بالورق انتثار

ودنيا كلما وضعت جنينا . . .

غذاه من نوائبها ظؤار

إلى أن قال :

نعاقب في الظهور وما ولدنا . . .

ويذبح في حشا الأم الحوا

ر وننتظر البلايا والرزايا . . .

وبعد فللوعيد لنا انتظار

ونخرج كارهين كما دخلنا . . .

خروج الضب أخرجه الوجار

فماذا الامتنان على وجود . . .

لغير الموجدين به الخيار

فكانت أنعما لو أن كونا . . .

نخير قبله أو نستشار

فهذا الداء ليس له دواء . . .

وهذا الكسر ليس له انجبار

إلى آخر ما قال ، ولعمري لقد غمط نعمة الله تعالى عليه وظلمها ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها بالكلية أو بوضعه في غير موضعه أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان بترك الشكر ﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديد الكفران والجحود ، وقيل : ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع ، والأول أنسب بما قبله ، وأل في الإنسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم وأخيه بعض من وجدا من إفراده فيه ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله تعالى كفراً ، والظاهر أن الجملة استئناف بياني وقع جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل : لم لم يراعوا حقها ؟ أو لم حرمها بعضهم ؟ وقيل : إنها تعليل لعدم تناهي النعم ولذا أتى بصيغتي المبالغة فيها وهو كما ترى هذا ، وفي النحل ( 18 )

(130/419)

---

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفرق أبو حيان بين الختمين بأنه هنا لما تقدم قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْرًا ﴾ [ إبراهيم : 28 ] وبعده ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَادًا ﴾ [ إبراهيم : 30 ] فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من الظلم والكفران ناسب أن يختم بذم من وقع ذلك منه فختمت الآية بقوله سبحانه

: ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ وأما في النحل فلما ذكر عدة تفضلات وأطنب فيها وقال جل شأنه : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [ النحل : 17 ] أي من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق ذكر من تفضلاته تعالى اتصافه بالغفران والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه سبحانه وأن هاتين الصفتين هو جل وعلا متصف بهما كما هو متصف بالخلق ، ففي ذلك أطماع لمن آمن به تعالى وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق تبارك وتعالى أنه يغفر زلله السابق ويرحمه ، وأيضاً فإنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان ذكر ما حصل من المنعم ومن جنس المنعم عليه ، فحصل من المنعم ما يناسب حالة عطائه وهو الغفران والرحمة إذ لولاهما لما أنعم عليه ، وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسب حالة الإنعام عليه ويقع معها في الجملة وهو الظلم والكفران فكأنه قيل : إن صدر من الإنسان ظلم فالله تعالى غفور أو كفران فالله تعالى رحيم لعلمه بعجز الإنسان وقصوره .

وما نقل السخاوي عن عبد الرحمن بن أسلم من أن هذه الآية منسوخة بآية النحل مما لا يلتفت إليه انتهى كلامه .

وفيه بحث ، وقيل : إنما ختم سبحانه آية النحل بما ختم للإطناب هناك في ذكر النعم مع تقدم الدعوة إلى الشكر صريحاً فكان ذلك مظنة التقصير فيه ويناسب الإطناب في سرد النعم أن يذكر منها ما يتعلق بذلك وهو الغفران والرحمة فتأمل والله تعالى أعلم بأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(132/419)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له ، وهو تعجيب من حال الكفار حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر أي : بدل شكرها الكفر ، بها ، وذلك بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم ، وأنعم عليهم به ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم .

وقيل : نزلت في الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر .

وقيل : نزلت في بطنين من بطون قريش بني مخزوم ، وبني أمية .

وقيل : نزلت في متنصرة العرب .

وهم جبلة بن الأيهم وأصحابه ، وفيه نظر ، فإن جبلة وأصحابه لم يسلموا إلاّ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقيل : إنها عامة في جميع المشركين .

وقيل : المراد بتبديل نعمة الله كفراً أنهم لما كفروها سلبهم الله ذلك فصاروا متبدّلين بها الكفر ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ أي : أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار ، وهي جهنم ، والبوار : الهلاك .

وقيل : هم قادة قريش أحلوا قومهم يوم بدر دار البوار أي : الهلاك وهو القتل الذي أصيبوا به ، ومنه قول الشاعر :

فلم أرَ مثلهم أبطال حرب . . . غداة الحرب إذ خيف البوار

والأوّل أولى لقوله : ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ فإنه عطف بيان لدار البوار ، و ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ في محل نصب على الحال ، أو هو مستأنف لبيان كيفية حلولهم فيها ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ أي : بئس القرار قرارهم فيها ، أو بئس المقرّ جهنم ، فالمخصوص بالذمّ محذوف ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَادًا ﴾ معطوف على ﴿ وأحلوا ﴾ أي : جعلوا لله شركاء في الربوبية ، أو في التسمية وهي الأصنام .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو "ليضلوا" بفتح الياء أي: ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة، أي: ليتعقب جهلهم لله أنداداً ضلالهم، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، وحسن استعمال لام العاقبة هنا؛ لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب، والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز.

وقرأ الباقون بضم الياء ليوقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا هو الغرض من جعلهم لله أنداداً.

ثم هدّدهم سبحانه، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ ﴾ بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ أي: مردّكم ومرجعكم إليها ليس إلا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين، جعل الأمر بمباشرته مكان النهي قربانه إيضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار فلا بدّ لهم من تعاطي الأسباب المقتضية ذلك، فجملة: ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره.

ويجوز أن تكون هذه الجملة جواباً لمحذوف دلّ عليه سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأوّل أولى والنظم القرآني عليه أدلّ.

وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان : اصنع ما شئت من المخالفة ، فإن مصيرك إلى السيف .

(134/419)

---

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين ءامَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ لما أمره بأن يقول للمبدّلين نعمة الله كفراً الجاعلين لله أنداداً ما قاله لهم ، أمره سبحانه أن يقول للطائفة المقابلة لهم ، وهي طائفة المؤمنين ، هذا القول ، والمقول محذوف دلّ عليه المذكور ، أي : قل لعبادي : أقيموا وأنفقوا ويقيموا وينفقوا ، فجزم ﴿ يقيموا ﴾ على أنه جواب الأمر المحذوف ، وكذلك ﴿ ينفقوا ﴾ ، ذكر معنى هذا الفراء .

وقال الزجاج : إنّ يقيموا مجزوم بمعنى اللام ، أي : ليقيموا فأسقطت اللام ، ثم ذكر وجهاً آخر للجزم مثل ما ذكره الفراء .

وانتصاب ﴿ سرّا ﴾ و ﴿ علانية ﴾ ، إما على الحال ، أي : مسرين ومعلنين ، أو على المصدر ، أي : إنفاق سرّ وإنفاق علانية ، أو على الظرف ، أي : وقت سرّ ووقت علانية .

قال الجمهور : السرّ : ما خفي .

والعلانية : ما ظهر .

وقيل : السرّ : التطوّع ، والعلانية الفرض ، وقد تقدم بيان هذا عند تفسير قوله : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِىَ ﴾ [ البقرة : 271 ] .

﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خلال ﴾ قال أبو عبيدة : البيع ها هنا : الفداء ، والخلال : المخالة ، وهو مصدر .



---

قال الواحدي : هذا قول جميع أهل اللغة ، وقال أبو عليّ الفارسي : يجوز أن يكون جمع خلة مثل برمة وبرام وعلبة وعلاب ، والمعنى : أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب الله بدفع عوض عن ذلك ، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله ، وينقذه من العذاب ، فأمرهم سبحانه بالإنفاق في وجوه الخير مما رزقهم الله ، ما داموا في الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة ؛ فإنهم لا يقدرون على ذلك ، بل لا مال لهم إذ ذاك ، فالجملة ، أعني : ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خلال ﴾ ، لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم الله ، ويمكن أن يكون فيها أيضاً تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة ؛ وذلك لأن تركها كثيراً ما يكون سبب الاشتغال بالبيع ، ورعاية حقوق الأخلاء ، وقد تقدم في البقرة تفسير البيع والخلال .

﴿ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ أي : أبدعهما واخترعهما على غير مثال ، وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية ، والاسم الشريف مبتدأ ، وما بعده خبره ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ المراد بالسماء هنا جهة العلو ، فإنه يدخل في ذلك الفلك عند من قال : إن ابتداء المطر منه .

ويدخل فيه السحاب عند من قال : إن ابتداء المطر منها ، وتدخل فيه الأسباب التي تثير السحاب كالرياح.

وتنكير الماء هنا للنوعية أي : نوعاً من أنواع الماء ، وهو ماء المطر ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ أي : أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقاً لبني آدم يعيشون به ، و "من" في ﴿ من الثمرات ﴾ للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم ، وقيل : للتبعيض ؛ لأن الثمرات منها ما هو رزق لبني آدم ، ومنها ما ليس برزق لهم ، وهو ما لا يأكلونه ولا ينتفعون به ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك ﴾ فجرت على إرادتكم واستعملتموها في مصالحكم .

(136/419)

---

ولذا قال : ﴿ لِتَجْرِىَ فِى البحر ﴾ كما تريدون وعلى ما تطلبون ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : بأمر الله ومشيئته ، وقد تقدم تفسير هذا في البقرة ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ أي : ذللها لكم

بالركوب عليها ، والإجراء لها إلى حيث تريدون .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر ﴾ لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما .

وانتصاب ﴿ دائبين ﴾ على الحال ، والدؤوب : مرور الشيء في العمل على عادة جارية ، أي : دائبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره .

وقيل : ﴿ دائبين ﴾ في السير امتثالاً لأمر الله ، والمعنى : يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران ولا ينقطع سيرهما ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما تحتاجون إليه من أمور دنياكم .

والليل لتسكنوا كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ القصص : 73 ] ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قال الأخفش : أي أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً ، فحذف شيئاً .

وقيل : المعنى : وآتاكم من كل ما سألتموه ومن كل ما لم تسألوه ، فحذفت الجملة الأخرى قاله ابن الأنباري .

وقيل : " من " زائدة ، أي : آتاكم كل ما سألتموه .

وقيل : للتبعيض ، أي : آتاكم بعض كل ما سألتموه .

وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة " من كل " بتنوين كلّ ، وعلى هذه القراءة يجوز أن تكون "ما" نافية ، أي : آتاكم من جميع ذلك حال كونكم غير سائلين له ، ويجوز أن تكون موصولة أي : آتاكم من كل شيء الذي سألتموه ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ أي وإن تتعرّضوا لتعداد نعم الله التي أنعم بها عليكم إجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه ، ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال ، وأصل الإحصاء : أن الحاسب إذا بلغ عقداً معيناً من عقود الأعداد ، وضع حصاة ليحفظه بها ، ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم الله به عليه في خلق عضو من أعضائه ، أو حاسة من حواسه لم يقدر على ذلك قط ، ولا أمكنه أصلاً ، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه الله في بدنه ، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها ، واختلاف أجناسها ، اللهم إنا نشكرك على كلّ نعمة أنعمت بها علينا مما لا يعلمه إلاّ أنت ، ومما علمناه شكراً لا يحيط به حصر ، ولا يحصره عد ، وعدد ما شكرك الشاكرون بكل لسان في كل زمان ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان ، وقال الزجاج : إن الإنسان اسم جنس يقصد به الكافر خاصة كما قال :

﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [ العصر : 2 ] .

﴿ كَفَّارٌ ﴾ أي : شديد كفران نعم الله عليه جاحد لها ، غير شاكر لله سبحانه عليها ، كما ينبغي ويجب عليه .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، والبخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة .

(138/419)

---

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هما الأفجران من قريش : بنو المغيرة ، وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، عن عمر نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن عليّ في الآية نحوه أيضاً .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي الطفيل ، أن ابن الكوّاء سأل علياً عن

الذين بدلوا نعمة الله كفراً .

قال : هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر .

قال : فمن الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ؟ قال : منهم أهل حروراء .

وقد روي في تفسير هذه الآية عن عليّ من طرق نحو هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : هم جبلة بن الأيهم ، والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوۡمَهُمۡ دَارَ البوار ﴾ قال : الهلاك .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ قال : أشركوا بالله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ قال : بكل فائدة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَائِبَينَ ﴾ قال : دؤوبهما في طاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ قال : من كل شيء رغبتم إليه فيه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد مثله .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : من كل الذي سألتموه .



---

وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي في الشعب عن سليمان التيمي قال : إن الله أنعم على العباد على قدره ، وكلفهم الشكر على قدرهم .

وأخرجا أيضاً عن بكر بن عبد الله المزني قال : يا ابن آدم إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلاّ في مطعمه ومشربه ، فقد قلّ عمله وحضر عذابه .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، والبيهقي عن أبي أيوب القرشي مولى بني هاشم قال : قال داود عليه السلام : "ربّ أخبرني ما أدنى نعمتك عليّ ، فأوحى إليّ : يا داود تنفس فتنفس ، فقال هذا أدنى نعمتي عليك" .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم اغفر لي ظلمي وكفري .

فقال قائل : يا أمير المؤمنين ، هذا الظلم ، فما بال الكفر ؟ قال : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(140/419)

---

وقال القاسمى :

﴿ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : المزن : ﴿ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾

أي : تعيشون به : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ أي : السفن : ﴿ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : بإرادته : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾ أي : فتجري حيث تشاؤون من شرب وسقي وسواهما .

﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ ﴾ أي : يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : يتعاقبان خلفه ، لمعاشكم وسباتكم .

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي : ما تحتاجون إليه مما تصلح أحوالكم ومعايشكم به ، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال .

وقال القاشاني : ﴿ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ بألسنة استعداداتكم ، فإن كل شيء يسأله بلسان استعداده ، كما لا يفيض عليه مع السؤال بلا تخلف وتراخ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لعدم تناهيها : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ ﴾ أي : بوضع نور الاستعداد ومادة البقاء في ظلمة الطبيعة ومحل الفناء وصرفه فيها . أو بنقص حق الله أو حق نفسه بإبطال الاستعداد ﴿ كَفَّارٌ ﴾ أي : بتلك النعم التي لا تحصى ، باستعمالها في غير ما ينبغي أن تستعمل ، وغفلته عن المنعم عليه به ، واحتجابه بها عنه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 327 ﴾

*(141/419)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾

استئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمنته جملة ﴿ وجعلوا لله أنداداً ﴾ الآية .

وقد فصل بينه وبين المستدل عليه بجملة ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلوات ﴾ الآية .

وأدمج في الاستدلال تعدادهم لنعم تستحق الشكر عليها ليظهر حال الذين كفروها ، وبالضد حال الذين شكروا عليها ، وليزداد الشاكرون شكراً .

فالمقصود الأول هو الاستدلال على أهل الجاهلية ، كما يدل عليه تعقيبه بقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجْنُبْنِي وبني أن نعبد الأصنام ﴾ [ سورة إبراهيم : 35 ] .

فجيء في هذه الآية بِنعم عامة مشهودة محسوسة لا يستطاع إنكارها إلا أنها محتاجة للتذكير بأن المنعم بها وموجدها هو الله تعالى .

وافتُتح الكلام باسم الموجِد لأن تعيينه هو الغرض الأهم .

وأخبر عنه بالموصول لأن الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له ، إذ لا ينازع المشركون في أن الله هو صاحب الخلق ولا يدعون أن الأصنام تخلق شيئاً ، كما قال : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ [ سورة لقمان : 25 ] ، فخلق السماوات والأرض دليل على إلهية خالقهما وتمهيد للنعم المودعة فيهما ؛ فإنزال الماء من السماء إلى الأرض ، وإخراج الثمرات من الأرض ، والبحارُ والأنهارُ من الأرض .

والشمس والقمر من السماء ، والليل والنهار من السماء ومن الأرض ، وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت .

والرزق القوت .

والتسخير : حقيقته التذليل والتطويع ، وهو مجاز في جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ في سورة الأعراف ( 54 ) .

وقوله : لتجري في البحر ﴾ هو علة تسخير صنعها .

(142/419)

---

ومعنى تسخير الفلك : تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع .

وقوله : ﴿ بأمره ﴾ متعلق بـ ﴿ تجري ﴾ .

والأمر هنا الإذن ، أي تيسير جريها في البحر ، وذلك بكف العواصف عنها وبإعانتها بالريح الرخاء ، وهذا كقوله : ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ [ سورة الحج : 65 ] .

وعبر عن هذا الأمر بالنعمة في قوله : ﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ﴾ [ سورة لقمان : 31 ] ، وقد بينته آية ﴿ ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ الآية [ سورة الشورى : 32 33 ] .

وتسخير الأنهار : خلقها على كيفية تقتضي انتقال الماء من مكان إلى مكان وقراره في بعض المنخفضات فيستقى منه من تمر عليه وينزل على ضفافه حيث تستقر مياهه ، وخلق بعضها مستمرة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها .

وتسخير الشمس والقمر خلقهما بأحوال ناسبت انتفاع البشر بضيائهما ، وضبط أوقاتهم بسيرهما .

ومعنى دائبين ﴾ دائبين على حالات لا تختلف إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في حيرة وشك .

والفلك : جمع لفظه كلفظ مفرده .

وقد تقدم عند قوله تعالى:

﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ في سورة البقرة ( 164 ) .

ومعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أعطاكم بعضاً من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم بحيث شأنكم فيها أن تسألوا الله إياها ، وذلك مثل توالد الأنعام ، وإخراج الثمار والحب ، ودفع العوادي عن جميع ذلك : كدفع الأمراض عن الأنعام ، ودفع الجوائح عن الثمار والحب .

فجملة ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ تعميم بعد خصوص، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها لِحِكم يعلمها الله ولا يعلمونها ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ [ سورة الشورى : 27 ]، وأن الإنعام والامتنان يكون بمقدار البذل لا بمقدار الحرمان.

وبهذا يتبين تفسير الآية.

وجملة وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيهاً على أن ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكرونه عند إرادة تعداد النعم.

فمعنى ﴿ إن تعدوا ﴾ إن تحاولوا العد وتأخذوا فيه.

وذلك مثل النعم المعتاد بها التي ينسى الناس أنها من النعم، كنعمة التنفس، ونعمة الحواس، ونعمة هضم الطعام والشراب، ونعمة الدورة الدموية، ونعمة الصحة.

وللفخر هنا تقرير نفيس فانظره.

والإحصاء : ضبط العدد، وهو مشتق من الحَصَا اسماً للعدد، وهو منقول من الحصى، وهو صغار الحجارة لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنباً للغلط.

وجملة ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكاري المستعمل في تحقيق

تبديل النعمة كُفراً ، فلذلك فصلت عنها .

والمراد بـ ﴿ الإنسان ﴾ صنف منه ، وهو المتصف بمضمون الجملة المؤكدة وتأكيدها ، فالإنسان هو المشرك ، مثل الذي في قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ [ سورة مريم : 66 ] ، وهو استعمال كثير في القرآن .

وصيغتا المبالغة في ظلوم كفار ﴾ اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئاً ، فأما المؤمنون فلا يجحدون نعم الله ولا يعبدون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

*(144/419)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد أن بيَّن لنا الحق سبحانه السعداء وبيَّنَ الأشقياء ، وضرب المَثل بالكلمة الطيبة ، وضرب المثَل بالكلمة الخبيثة ، يأتي من بعد ذلك بما يهيج في المؤمن فرحةً في نفسه ؛ لأنه آمن بالله الذي صنع كل تلك النعم ، ويذكر نعماً لا يشترك فيها مع الله أحد أبداً ، فيقول : ﴿ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . . ﴾ .

والسماء والأرض – كما نعلم – هما ظَرْفَا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ﴾ [ غافر : 57 ] .

فإذا كان الله هو الذي خلق السماوات والأرض ؛ فهذا لَفْتٌ لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يَقُلْ لنا ما قاله في مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عَمَد ؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق في الأرض رواسي كي لا تميد بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قَدَّر في الأرض أقواتها ، واكتفى هنا بلمحة عن خَلق السماوات والأرض .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات يأتي بشيء لم يدَّعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم في الحجِة للخَصْم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يروْنَ أنهم كفروا نتيجة لَددٍ غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حُكْماً لا يوجد لا معارض ولا منازع ، فهذا يعني أن الحكم قد سلَم له سبحانه . ولم يجترئ أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر في رأسه ، وعلم أن أحداً لم يَدَّع لنفسه خَلْق السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفرّاً من التسليم بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . . ﴾ [ إبراهيم : 32 ] .

يُوضِّح لنا أن كلمة " الله " هنا ؛ لأنها مَناطُ الصعوبة في التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام

الشهوات ؛ وقد تغضبون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة .

(145/419)

---

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بكلمة " رب " هنا لأنها مناطُ العطاء الذي شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة " الله " تعني المعبود الذي يُنزل الأوامر والنواهي ؛ وتعني أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

ونحن حين نسمع كلمة " السماء " نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هي كُلُّ ما علاك فأظلَّك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيْم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [ النور : 43 ] .

وقد عرفنا بالعلم التجريبي أن الطائرة – على سبيل المثال – تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل ينزل ممَّا يعلونا من غَيْم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتي من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذي تحتضنه الجبال وينضج في داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [ الحديد : 25 ] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 32 ] .

والثمرات هي نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكنا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ . . . ﴾ [ إبراهيم : 32 ] .

والتسخير معناه قَهْر الشيء ليكون في خدمة شيء آخر . وتسخير الفُلْك قد يثير في الذهن سؤالاً : كيف يُسخِّر الله الفلك ، والإنسان هو الذي يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين نأتي بالأخشاب التي تصنع منها الألواح التي نصنع منها الفُلْك ؟ ثم مَنِ الذي جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومَنِ الذي سيَّر الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صُنْع الله سبحانه .

وكلمة " الفلك " تأتي مرة ويُراد بها الشيء الواحد ؛ وتأتي مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهي تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه : ﴿ والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس . . . ﴾ [ البقرة : 164 ] .

وكذلك قال في قصة نوح عليه السلام : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا . . . ﴾ [ هود : 37 ] .

وبعض العلماء يقولون : إذا عاد ضمير التأنيث عليه ؛ تكون جَمْعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكنِّي أقول : إن هذا القول غَيْر غالب ؛ فسبحانه قد قال عن سفينة نوح وهي مفرد : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . . ﴾ [ القمر : 14 ] .

ولم يَقُل : " يجري بأعيننا " ، وهكذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ . . . ﴾ [ إبراهيم : 32 ] .

ونفهم بطبيعة الحال أن النهر عَذْب الماء ؛ والبحر ماؤه مالح . وسبحانه قد سخَّر لنا كل شيء بأمره ، فهو الذي خلقَ النهار عَذْب الماء ، وجعل له عُمْقاً يسمح في بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقَ القاع لتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ . . . ﴾ [ الشورى : 33 ] .

أي : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياح ساكنة ؛ فتركد السفن في البحار والأنهار .

*(147/419)*

---

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التي تُسيِّر الفلك والسفن ؛ قال الشكليون والسطحيون " لم نعد نُسيِّر السفن بالرياح بل نُسيِّرها بالطاقة " .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق : ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . . . ﴾ [ الأنفال : 46 ] .

و﴿ رِيحُكُمْ ﴾ تعني: قوتكم وطاقتكم؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة؛ سواء جاءت من هواء، أو من بخار، أو من ماء.

وهذه الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين؛ والأشقياء الكافرين؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه؛ فلمَّا علموا بها آمنوا به سبحانه.

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التي لم تُضبَّب، وتكريم للعقل الذي فكّر في الكون، ونظر فيه نظرة اعتبار وتدبُّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً.

وفي الآية تقريع للكافر الذي استقبل هذه النعم، ولم يسمع من أحد أنه خلقها له؛ ولم يخلقها لنفسه، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربِّ هذه النعم.

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض؛ ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلْق السماوات والأرض؛ وشيء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء؛ مثل السحاب، وشيء متصل بالأرض مثل الثمرات التي تخرجها.

إذن: فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية.

ثم قال بعد ذلك:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ... ﴾ [إبراهيم: 32].

فما هي المناسبة التي جعلتْ هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين ؟ لأن الفُلْك طريقها هو البحار ومسارها في الماء .

(148/419)

---

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أميال اليابسة ؛ ورُقْعة الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب في الأرض . وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هي رِزْق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شيء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك في آيات أخرى ؛ وأوضح أنه سخَّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً ؛ وتلك مُقوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ؛ وذلك من تَرِف الحياة .

ونرى الفلك مواخر فيه لنبتغي من فضله سبحانه .

وبذلك يكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلي ؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ؛ فربما لم يكُنِ الناس قادرين في عصر نزول القرآن على أنْ يفهموا ويعرفوا كل ما في

البحار من خيرات ؛ ولا تزال الأبحاثُ العلمية تكشف لنا المزيدَ من خيرات البحار .

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التي فيه .

إذن : فقوله : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [ الإسراء : 66 ] .

هو قَوْل إجمالي يُلخِّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقاتِ أعماق البحار نتعجَّب من ذلك الخَلْق أكثر مما نتعجَّب من الخَلْق الذي على اليابسة ، ومن خَلْق ما في السماء .

وهكذا يكون قوله الحق : ﴿ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [ الإسراء : 66 ] .

من آيات الإجمال التي تُفصِّلها آيات الكون ؛ فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس - على عهد نزول القرآن - ذلك .

(149/419)

---

وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات ؛ قال : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] .

أدخل كُلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار؛ إنما يُوضِّح لنا ما يُكمِل الكلام عن الأرض .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ . . . ﴾ [إبراهيم: 32] .

ولو فَطِن الناس لقالوا عن السفن "جمال البحار"؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه "سفينة الصحراء"؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وإياك أن تقول: أنا الذي صنعتُ الشراع؛ وأنا الذي صنعتُ المركب من الألواح، ذلك أنك صنعتَ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله، وبالفكر الموهوب لك من الله؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله، فكلُّها أشياء جاءتْ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ [إبراهيم: 32] .

والنهر ماؤه عادة يكون عَذْباً ليروي الأشجار التي تُنتج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عَذْباً .

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزناً ضخماً للمياه؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية، وهي مساحة شاشعة تتيح فُرْصة لعمليات البَخْر؛ التي تُحوِّل الماء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحاباً؛ فيُسقط السحابُ منه

الأشجار التي تحتاجه ، وتنتج لنا الثمار التي نحتاجها ، وكأن الأملاح التي توجد في مياه البحار تكون لِحفْظها وصيانتها من العطب .

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون دورة الماء في الكون ؛ مياه في البحر تسطع عليها الشمس لِتُبخِّرها ؛ لتصير سحاباً ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذي الأنهار ؛ ويصب الزائد مرة أخرى في البحار .

(150/419)

---

ويتابع سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس . . . ﴾ .

والشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والماء له علاقة بالشمس والتي تُبخِّره من مياه البحار ؛ ونروي به أيضاً الأرض التي تنتج لنا الثمار ؛ أما البحار فحساب كُلِّ ما يجري فيها يتم حسب التقويم القمري .

وهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم كل ذلك وهو النبي الأمي ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ؛ يضمُّ حقائق الكون كلها .

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر " دائبين " من الدَّأب ، والدُّؤوب هو مرور الشيء في عمل رتيب ، ونقول " فلان دءُوب على المذاكرة " أي : أنه يبذل جَهْداً مُنظّماً رتيباً

لتحصيل مواده الدراسية ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .

وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار ؛ ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ . . . ﴾ [ الرحمن : 5 ] .

وقال أيضاً : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً . . . ﴾ [ الأنعام : 96 ] أي : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أيٍّ منهما حساباً .

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة في الحركة تيسِّر علينا أن نحسبَ بهما الزمن ، فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلٍّ منهما فَلَك خاص وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشْبِهان بطبيعة الحال الساعات التي نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .

وكلما ارتقينا في صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقرِّبنا من عُمْق الإيمان بالخالق الأعلى .

وفي نفس الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ [ إبراهيم : 33 ] .

وبما أن الشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل في الوجود بالنسبة لنا . كان مُقْتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية ؛ ويسطع في الليل ؛ والليل مخلوق للسكون ؛ لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض ؛ بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكِدّ ويكدح فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضَوْءَه منها ؛ ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكأن الله قد اكتنفَ هذه الآية بنورَيْن .

النور الأول : من الشمس . والنور الثاني : من القمر ، كي يعلَم الإنسانُ أن حياته مُغلفة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظنَنّ أيها الإنسانُ أن الأصل هو النوم ! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لترتاح ؛ ثم تصحو لتكدح .

ونلحظ أن كلمة " التسخير " تأتي للأشياء الجوهرية ، وتأتي للمُسخَّرات أيضاً ، فالحيوان مُسخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسخَّرة بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر ؛ هما الشمس والقمر ؛ والليل والنهار مُسبَّبان عن شيئَين مُباشرين هما : الشمس والقمر .

والتسخير - كما نعلم - هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتّى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسخّر هو الذي يتأتى فيه الاختلال ؛ ذلك أنه قد يسير على جَادَّة الصواب ، أو قد يُخطيء .

وفي مسألة التسخير والاختيار تَعِب الفلاسفة في دراستها ؛ وذهبت المذاهب الفلسفية -وخصوصاً في ألمانيا - إلى مذهبين اثنين ظاهرهما التعارض ؛ ولكنهما يسيرانِ إلى غايةٍ واحدة وهي تبرير الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبٌ يُبرر الإلحاد ، وأنْ يبررَ الآخرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أنْ يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة قادرة حكيمة ؛ وأن كُلّ ما فيه منضبط بتصرفات محسوبة ودقيقة .

(152/419)

---

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التي نراها في الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التي في الإنسان - على سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم ؛ وهناك الطويل أكثر من اللازم ؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة ؛ وهناك مَنْ يولد بذراع عاجز ؛ ولو أن القوة التي تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية قائلين : وإذا لم يكُنْ هناك إله ، أتستطيع أن تقول نال الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فأنت تدفع الحكمة عن الخالق الذي نؤمن به ؛

فهل تستطيع أنت إثباتَ الحكمة لغيره؟ طبعاً لن يستطيع أنْ يردَّ عليك؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتي للمدرسة المقابلة التي تقول: إن النظام الموجود بالكون يدل على أنه لا يوجد له خالق؛ فهو نظام ثابت آليّ؛ ولا يوجد إله قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين؛ ومتعارضتين؛ ولكنهما يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين: يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً على وجود إله؛ فهذا الثبات موجود في الكون الأعلى . ويا من تأخذ الشذوذ دليلاً على وجود خالق؛ فهو موجود في الكائنات الأدنى؛ ولو حدث الشذوذ في الكائنات الأعلى لَفسدت السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه في الأفراد؛ فواحد يكون شاذاً؛ والباقي الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ في الأفراد غيرَ مانع لقضية وجود خالق أعلى، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى؛ كي تعلم أنه لا يوجد للإنسان مَدْخل في هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخّر لنا الليل والنهار؛ وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر؛ وكلاًّ من الشمس والقمر دائبين، يمشي كل منهما في حركته مشياً لا تنقطع فيه رتابة العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق، فنحدد - على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة؛ ومواقيت الصلاة .

وإذا نظرتَ إلى أيِّ اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر ؛ فاعلم أن ذلك قد نشأ من تدخُّل الإنسان المُخْتار المُسْتخلَفَ في الأرض ؛ والمثال هو مشكلة ثُقْب طبقة الأوزون الموجودة في الغلاف الجوي ، والتي قد نشأت من تجاربنا التي نلهث فيها من أجل تحسين حياتنا على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجربة بأُفْق محدود ، ونفصل النظرة الجزئية عن النظرة الكلية المطلوب منا أنْ ننظرَ بها لكُل ما يحيط بنا في الكون ؛ فنتسبب بهذا اللهْث في التجارب في إفساد الكثير من أسرار حياتنا على الأرض ؛ حتى بِتْنَا نشكو من اضطراب الجو بَرْداً وصقيعاً ؛ وحراً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخّل الإنسان المختار فيما لا يجب أنْ يتدخلَ فيه إلا بعد أن يدرسَ كل جوانبه .

واقرأ إن شئْت قول الحق سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الفساد فِي البر والبحر بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس . . . ﴾ [الروم : 41] .

ولذلك لأبدَّ من دراسة المُقدّمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخِّم من تجاربنا التي قد تضر البشر ؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبية لكل اختراع علمي كي نحميَ

البشر من سيئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [ الإسراء : 36 ] .

ولعل ما نعيش فيه من مُشْكِلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخُّلنا بغير علم مكتمل ؛ وهذا يؤكد لنا حكمة الخالق الأعلى ؛ ذلك أننا لّما خرجنا بالمُخْترعات العلمية وانبهرنا بفائدتها السطحية ؛ ظننا أن في ذلك مكسباً كبيراً ؛ ولكنه كان وبالاً في بعض الأحيان نتيجة الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سبحانه : "بما اكتسبت أيدي الناس" بل قال : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاس . . . ﴾ [ الروم : 41 ] .

وفي الآية نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ [ إبراهيم : 33 ] .

*(154/419)*

---

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر ؛ يُسبِّب تعاقبَ مجيء الليل والنهار .

ولا يعني ظهور الشمس وسطوعها أن القمر غير موجود ؛ فهو موجود ، ولكن ضوء

الشمس المُبهِر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهار فهما يتتابعان كل منهما خَلْف الآخر . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً . . . ﴾ [ الفرقان : 62 ] .

أي : أنهما لا يأتيان معاً أبداً ؛ فالليل في بلد ما يقابله نهار في بلد آخر .

وهكذا أثبتَ لنا الدأبَ في الحركة ؛ فكُلٌّ منهما يأتي عَقِب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة في الخَلْق ؛ وكانا لحظة الوجود خِلْفة ، كل منهما يأتي من بعد الآخر ؛ فكأن الكون حين خلقه الله ؛ وجعل الشمس في مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ؛ ليأتي الجزء الذي كان غير مُواجِه للشمس ؛ في مواجهتها ؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذي كان في مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْف الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعضٍ من نعمة الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخَّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمَّى تعديد لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله " أَعد منها ولا أعددها " . فكأن الله ينبهنا إلى

أصول النظام الكوني الأعلى ، ثم فتح المجال لِنعَمٍ أخرى لن يستطيع أحد أنْ يُحصِيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . ﴾ .

(155/419)

---

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسأل وقبل أن نسأل ، وأعدّ الكون لنَا من قبل أنْ نوجد .

إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل أنْ نسألَ ؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدم ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

وإذا نظرتَ للفرد مِنّا ستجد أن نِعَم الله عليه قد سبقتْ من قبل أن نعرف كيف نسأله ، والمثل هو الجنين في بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . ﴾ [ إبراهيم : 34 ] .

يعني : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقت به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنك قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة في التحدي - ولله المثل الأعلى - نجد بعض البشر مِمَّنْ أفاء الله عليهم بجزيل نعمه ؛ ويقول الواحد منهم : قُلْ لي ماذا تطلب ؟

وقد حدث معي ذلك ونحن في ضيافة واحد مِمَّنْ أكرمهم الله بكريم عطائه، وكنا في رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية، وقال لي: أطلب أي شيء وستجده بإذن الله حاضراً. وفكرتُ في أن أطلب ما لا يمكن أن يوجدَ معه، وقلت: أريد خيطاً وإبرة، فما كان ردّه إلا " وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء؟ ".

وإذا كان هذا يحدث من البشر؛ فما بالُنَا بقدرة الله على العطاء؟ ومن حكمة الله سبحانه أنه قال:

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . ﴾ [إبراهيم: 34].

ذلك أن وراء كل عطاءٍ حكمةً، ووراء كل مَنْع حكمة أيضاً، فالمنع من الله عين العطاء، فالحقّ سبحانه مُنزَّه عن أن يكون مُوظّفاً عندك، كما أن الحق سبحانه قد قال: ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير . . . ﴾ [الإسراء: 11].

ولذلك قال:

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . . ﴾ [إبراهيم: 34].

أي : بعض مِمّا سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلة حمقاء لا يُجيبكم الله عليها ؛ مثل قول أي امرأة يعاندها ابنها " يسقيني نارك " هذه السيدة ؛ لو أذاقها الله نارَ افتقاد ابنها ؛ ماذا سوف تفعل .

إذن : فمِنْ عظمته سبحانه أنْ أعطانا ما هو مُطابق للحكمة ؛ ومنَع عنّا غَيْر المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمَنْع نعمة أيضاً ، ولو نظر كُلٌّ منا لعطاء السَّلْب ؛ لَوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [ الأنبياء : 37 ] .

لذلك فلا يقولن أحدٌ : " قد دعوتُ ربي ولم يَستجِب لي " وعلى الإنسان أن يتذكَّر قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [ الإسراء : 11 ] .

فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدَ مِنّا يستطيع أنْ يُعدّ نِعَم الله . والعَدُّ - كما نعلم - هو حَصْرٌ لمفردات جَمْع أو جزئيات كُلٍّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق - ونسميهم المَنَاطِقة - أن هناك " كُليّ " يقابله " جُزئيّ ، وهناك " كُل " يقابله " جزء .

والمَثل على " الكُليّ " الإنسان ؛ حيث إننا جميعاً مُكونّين من عناصر متشابهة ؛ ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ؛ أما ما يُسمَّى " كل " فالمثَل عليه هو الكُرسي ، وهو مُكّون من مواد مختلفة كالخشب والمسامير والغِرَاء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط

كلمة كرسي ؛ وكذلك لا نستطيع أن نُسمِّي "المسامير" بأنها كراسي .

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُلِّي أن مفرداته متطابقة ؛ وإن اختلفت أسماؤها ، لكن حقيقة الكُلِّ أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف في حقيقتها .

وإذا أردتَ أنْ تُحصِي الكُلِّيّ فأنت تنطق أسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلي ؛ وهذا ما يُسمى عداً ، وهكذا نفهم أن العَدَّ هو إحصاءُ جزئيات الكلي ، أو إحصاء أجزاء الكُلِّ .

(157/419)

---

ونعلم أنهم قد سَمَّوْا العَدَّ إحصاءً ؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصَى ؛ وأُطلِقت كلمة الإحصاء على مُطْلق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلي أو الكل .

وكان الإنسان في العصور القديمة يَعُد - على سبيل المثال - إلى رقم "مائة" ، ثم يحسب كل مائة بحصاة واحدة ؛ فإذا تجمّع لديه عَشْر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفي كثير من أمور عصرنا المتقدم ؛ ما زِلْنا نُسمّي بعض الأشياء بمُسمّيات قديمة ؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا . . . ﴾ [إبراهيم: 34].

ستجد الكثير من المعاني، ولكن مَنْ يحاولون التصيُّد للقرآن يقولون: إن هذا أمر غَيْر دقيق؛ فما دام قد حدث العَدّ؛ فكيف لا يتم الإحصاء؟ وهؤلاء ينسوْنَ أن المقصود هنا ليس العدّ في ذاته؛ ولكن المقصود هو إرادة العدّ.

ولو وُجدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله، ومن هنا لا نرى تعارضاً في آيات الله، وإنما هو نسق متكامل، فأنت لا تُقبل على عَدّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ على العَدّ، وذلك إذا كان في إمكان البشر، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر.

والمثَل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده في قوله الحق: ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . . ﴾ [المائدة: 6].

ونحن لا نغسل وجوهنا لحظة أن نقوم بالصلاة؛ ولكننا نغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يُؤذّن المؤذن ونمتلك إرادة الصلاة، فكأن القول هنا يعني: إذا أردتُم القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا.

ونعلم أن ذِكْر الشيء بسببه كأنه هو ؛ ولذلك يُقال : إذا كان الآذان قد أذّن في المسجد ؛ وأنت خارج من منزلك بقصد الصلاة ؛ فلا تجري لتلحق بالإمام وتُدرك الصلاة ؛ لأنك في صلاة من لحظة أنْ توضأْتَ وخرجتَ من بيتك للصلاة ؛ وإياك أنْ تفعلَ حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدي الصلاة مع الإمام .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا . . ﴾ [إبراهيم : 34] .

ستجد أن العادة في اللغة هي استعمال " إن " في حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المتُيقّن فنحن نستخدم " إذا " مثل قوله الحق : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ [النصر : 1] .

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا . . ﴾ [إبراهيم : 34] .

ذلك أن العاقل يعلم مُقدّماً أنه سيعجز عن إحصاء نِعَم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه " الإحصاء " وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلي " الكمبيوتر " لم يستطع أحدٌ ولم يُقبل أحدٌ على إحصاء نِعَم الله في الكون ، ذلك أن العدّ والإحصاء يقتضي كُلّياً له أفراد ، أو كُلاًّ له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أيّ نعمة من نعم الله ؛ قد تظنها نعمة واحدة ؛ ولكنك إنْ فصّلْتَ فيها

ستجدها نِعَماً مُتعدّدة وشتّى، وهكذا لا يوجد تناقض في قوله الحق:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا .. ﴾ [إبراهيم: 34].

وأنت إنْ أخذتَ نعمة المياه ستجدها نِعَماً متعددة؛ فهي مُكوّنة من عناصر، كل عنصر فيها نعمة؛ وإن أَخذتَ نعمة الأرض ستجد فيها نِعَماً كثيرة مطمورة، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نِعَم متعددة، ولا تُحْصَى.

وحين تنظر في قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا .. ﴾ [إبراهيم: 34].

*(159/419)*

---

تجد ثلاثة عناصر: هي المُنعِم؛ والنعمة التي حكَم الحق سبحانه أنك لن تحصيها، وأن خَلْقه لم يضعوا أنوفهم في أنْ يعدّوا تلك النعمة، فهي لا تحصى لأنها ليست مظنّة الإحصاء؛ ولا يقبل عاقل أن يحصيها.

والعنصر الثالث هو المُنْعَم عليه، وهو الإنسان الذي قد يعجز عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه – فما بالك بنعم الله التي لا تحصى، وكمالاته التي لا تُحدّ، وعطائه الذي لا ينفد؟ ولله المثل الأعلى، فهو المنزّه عن المثل.

ثم يأتي قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [ إبراهيم : 34 ] .

وهنا في سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه وكفره بالنعمة ، وفي كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القرار ﴾ [ إبراهيم : 28-29 ] .

وهؤلاء هم مَنِ ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان بالله ، والإنسان هو المُنْعَم عليه ؛ وما كان يصحّ أن يرى كل تلك النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطي الحق لصاحبه ، ولكن بعضاً من البشر بدّلوا نعمة الله كفراً ؛ وهكذا صاروا مِمَّنْ يُطلَق على كل منهم أنه ظلوم في الحكم ؛ وأنه كفّار ؛ لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق للمخلوق .

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه ؛ وإنْ لم تؤمن بالله تكون قد أخذتَ حق الإله في الوجود ، وإنْ كنتَ تؤمن بشركاء ؛ فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره وهذا ظلم القمة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه في سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 12-18 ] .

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصي عطاءات الله التي فوق العَدّ والحدّ ؟ ففي الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى .

إن بعضاً مِمَّنْ يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن مرة :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [ إبراهيم : 34 ] .

ثم يقول في آية أخرى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 18 ] .

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذي جاء في كل آية ، وعَمِيَتْ بصيرتكم عن معرفة أن سياقَ الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء فيها ذِكْر النِّعم وذكر الجحود والكفران بالنعم ؛ وهذا ناشىء عن ظُلْم الإنسان لنفسه بالظُّلْم العظيم .

وفي آية أخرى سورة النحل جاء بِذكْر النعم ، ورغم ظُلْمنا إلا أن رحمته سبحانه وَسِعَتْنا ، ولم يمنع عنّا ما أسبغه علينا من نعم ، وكأنه سبحانه يُوضّح لنا : إياكم أنْ تستحُوا أنْ تسألوني شيئاً ؛ وإنْ كنتم قد ظلمتُم وكفرتُم في أشياء ، فظُلْمكم يقابله غفران منّى ، وكافريتكم يقابلها منى رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارضٌ بين الآيتين ؛ بل كُل تذييل لكل آية مناسبٌ لها ، ففي الآية الأولى يعاملنا الله بعدله ، وفي الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [ إبراهيم : 34 ]

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِف الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلوم كفّار ؟

ونقول : إن كلمة " إنسان " إذا أُطلِقتْ من غير استثناء فهي تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير في الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضّح لنا ذلك قال : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [ العصر : 1-2 ] .

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال : ﴿ إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [ العصر : 3 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(162/419)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ( اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ) ( إبراهيم : 32 ) ، قال في سورة النمل : ( أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ ) ( النمل : 60 ) . . . الآية ، يسأل هنا عن تأخير ( لكم ) في سورة إبراهيم عن لفظ ( أنزل ) وإيلائه إياها مقدمة في آية النمل ما وجه ذلك ؟

والجواب : أن آية إبراهيم قد تقدمها قوله تعالى : ( قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ) ( إبراهيم : 31 ) ، وقد علم المؤمنون أن الله غني عن العالمين ، وأن المنزل من ماء السماء إنما هو رحمة للعباد وإحياء للأرض بعد موتها ، ليخرج ما بث فيها سبحانه من أنواع

الحبوب والثمرات وغير ذلك مما به صلاح أحوال العباد وتميم معائشهم ، ولم يغب عن المؤمنين المذكورين قبل أن ربهم غني عن ذلك كله ومنفرد بخلقه والإنعام به ، فلم يحتج هنا إلى تنبيههم بأن ذلك لهم إذ حالهم التذكر وموالاة الاعتبار لا الغفلة ، وأخر ذكر ذلك إلى ذكر الرزق ليجري مع قوله في الزينة والطيب من الرزق : ( قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) ( الأعراف : 32 ) .

(163/419)

---

أما آية النمل فقد تقدمها قوله تعالى : ( آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ) ( النمل : 59 ) ، فلما تضمنت تعنيفاً للمشركين على سوء مرتكبيهم وعماهم عن التفكير والاعتبار قصد تحريكهم وإيقاظهم من رقدة الغفلة ، فقيل : ( وَأَنْزَلَ لَكُمْ ) ( النمل : 60 ) ، فحصل تنبيههم وإعلامهم أن إنزال الماء من السماء إنما هو لهم وأنه لا حاجة به سبحانه إليه ، فاستجر الكلام تعنيفهم ، ويشهد لهذا قوله تعالى عقب الآية : ( مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ) ( النمل : 60 ) ( أي يعدلون ) بربهم غيره ويعدلون بعبادته إلى عبادة غيره ، وكل هذا شرك لا فلاح معه ، فلما قصد في الآية الثانية ما ذكرنا قدم المجرور ، وشأنه أبداً إذا قدم إحراز معنى التنبيه حيث يقصد التحريك والإيقاظ لذي غفلة ، أما إذا

تأخر فلا يحرز هذا المعنى على الصفة التي يحرزه متقدماً . وتأمل الوارد من هذا في نظائر هذه (الآية) كقوله تعالى : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (الزخرف : 12) خطاباً لمن تقدم ذكره في قوله : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (العنكبوت : 61 ، وقوله خطاباً لفرعون وملئه : (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) (طه : 53) وهذا بعد قول فرعون في إخبار الله تعالى عنه : (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى) (طه : 49) إلى قوله : (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) (طه : 51) ، وقد تقدم بيان هذا في قوله تعالى : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص : 4) وما أنشده سيبويه ، رحمة الله ، من قول الشاعر :

لتقربن قرباً جلديا ما دام فيهن فصيل حيا

*(164/419)*

---

قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم : 34) وفي سورة النحل : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل : 18) ، فأعقب في الأولى قوله تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) بغير ما أعقب في الثانية ، يسأل عن ذلك ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ } [ إبراهيم : 28 ] ، ثم قوله : { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ } [ إبراهيم : 30 ] ، ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ } [ إبراهيم : 32 ] إلى قوله : { وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ } [ إبراهيم : 34 ] ، فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار .

(165/419)

---

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه وعباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه ، وما ابتدأهم [ به ] من نعمة من لدن قوله : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ } [ النحل : 4 ] ، ثم توالت [ آيات ] الامتنان والإحسان فقال تعالى : { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ } [ النحل : 5 ] ، فذكر تعالى بعضاً وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان : { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [ النحل : 17 ] ، ثم أتبع بقوله سبحانه : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } [ النحل : 18 ] ، فناسب ختام هذا قوله :

(إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل : 18) فجاء كل على ما يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 286. 288﴾

(166/419)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبخاري والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم كفار أهل مكة .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هما الأفجران من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية . فأما بنو المغيرة ، فكفيتموهم يوم بدر . وأما بنو أمية ، فمتعوا إلى حين .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال لعمر رضي الله عنه : يا أمير

المؤمنين ، هذه الآية ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم الأفجران من قريش : أخوالي وأعمامك . فأما أخوالي ، فاستأصلهم الله يوم بدر . وأما أعمامك ، فأملى الله لهم إلى حين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه والحاكم وصححه من طرق ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هما الأفجران من قريش ، بنو أمية وبنو المغيرة . فأما بنو المغيرة ، فقطع الله دابرهم يوم بدر . وأما بنو أمية ، فمتعوا إلى حين .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف ، وابن مردويه والحاكم وصححه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أبي الطفيل رضي الله عنه ، أن ابن الكواء رضي الله عنه سأل علياً رضي الله عنه من ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر .

قال : فمن ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ [ الكهف : 104 ] قال : منهم أهل حروراء .

وأخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه، أنه سئل عن ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال: بنو أمية وبنو مخزوم، رهط أبي جهل.

وأخرج ابن مردويه عن ارطأة رضي الله عنه: سمعت علياً رضي الله عنه على المنبر يقول: ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾، الناس منها براآء غير قريش.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن أبي حسين رضي الله عنه قال: قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني، وإن كان من وراء البحور لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء رضي الله عنه فقال: مَنْ ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال: هم مشركو قريش، أتتهم نعمة الله الايمان فبدلوا قومهم دار البوار.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم في الكنى، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال: هم كفار قريش الذين نحروا يوم بدر.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال: هم المشركون من أهل بدر.

وأخرج مالك في تفسيره عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآية في الذين قتلوا من قريش يوم بدر

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم قريش . ومحمد النعمة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً . . . . ﴾ الآية . قال : كنا نحدث أنهم أهل مكة ، أبو جهل وأصحابه الذين قتلهم الله يوم بدر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هو جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم .

*(168/419)*

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال : أحلوا من أطاعهم من قومهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ دار البوار ﴾ قال : النار . قال : وقد بين الله ذلك وأخبرك به فقال ﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ جهنم يصلونها ﴾ قال : هي دارهم في الآخرة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعلوا لله أنداداً

﴾ قال : أشركوا بالله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي رزين في قوله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ قال : تمتعوا إلى أجلكم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ قال : إن الله تعالى قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا ، فلينظر رجل من يخالل ، وعلام يصاحب ، فإن كان لله فليداوم ، وإن كان لغير الله فليعلم أن كل خلة ستصير على أهلها عداوة يوم القيامة ، إلا خلة المتقين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ قال : بكل بلدة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ قال : دؤوبهما في طاعة الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في كتاب العظمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الشمس بمنزلة الساقية ، تجري بالنهار في السماء في فلكها ، فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها ، وكذلك القمر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾

قال : من كل شيء رغبتم إليه فيه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه مثله .

(169/419)

---

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ قال : من كل الذي سألتموني تفسيره ، أعطاكم أشياءً ما سألتموها ولم تلتمسوها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في الشعب ، عن طلق بن حبيب رضي الله عنه قال : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد ، ولكن أصبحوا توّابين وأمسوا توابين .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، وعن بكر بن عبد الله رضي الله عنه قال : ما قال عبد قط الحمد لله ، إلا وجبت عليه نعمة بقول الحمد لله ، فقيل : فما جزاء تلك النعمة ؟ قال : جزاؤها أن يقول الحمد لله ، فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب ، عن سليمان التيمي رضي الله عنه قال : إن الله أنعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن بكر بن عبد الله المزني رضي الله عنه قال : يا ابن آدم

، إذا أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه وحضر عذابه .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن سفيان بن عيينة رضي الله عنه قال : ما أنعم الله على العباد نعمة أعظم من أن عرّفهم لا إله إلا الله ، وأنّ لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن لله على أهل النار منة ، فلو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم .

(170/419)

---

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي ، عن محمد بن صالح قال : كان بعض العلماء إذا تلا ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ قال : سبحان من لم يجعل من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ، كما لم يجعل في أحد من ادراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه ، فجعل معرفة نعمه بالتقصير عن معرفتها شكراً ، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه ، فجعله إيماناً علماً منه أن العباد لا يجاوزون ذلك .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي، عن أبي أيوب القرشي مولى بني هاشم قال: قال داود عليه السلام: "رب أخبرني ما أدنى نعمتك عليّ.

. ؟ فأوحى الله: يا داود، تنفس. فتنفس، فقال: هذا أدنى نعمتي عليك".

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي، عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال، "عبد الله عابد خمسين عاماً، فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك. قال: يا رب، وما تغفر لي.. ؟ ولم أذنب.. ؟ فأذن الله تعالى لعرق في عنقه فضرب عليه، فلم ينم ولم يصلِّ، ثم سكن فنام تلك الليلة، فشكا إليه فقال: ما لقيت من ضربان العرق؟ قال الملك: إن ربك يقول إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون ذلك العرق".

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري. قال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم... فما بال الكفر... !؟ قال ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(171/419)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنَ السمآءِ ﴾ يجوز أن يتعلَّق بأنزل ، و " مِنْ " لابتداءِ الغاية ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ " ما " لأنه صفةٌ ، في الأصل ، وكذلك " مِن الثمرات " في الوجهين .

وجوَّز الزمخشريُّ وابنُ عطيةَ أن تكونَ " مِنْ " لبيان الجنسِ ، أي : رِزْقاً هو الثمرات . ويُرَدُّ عليهما : بأنَّ التي للبيان إنما تجيء بعد المبهم . وقد يُجاب عنهما : بأنهما أرادا ذلك من حيث المعنى لا الإِعراب . وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك في البقرة .

و" بأَمْرِهِ " يجوز ان يكونَ متعلِّقاً ب " تَجْرِي " ، أي : بسببه ، أو بمحذوفٍ على أنها للحالِ ، أي : ملتبسةً به .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) ﴾

قوله تعالى : و ﴿ دَآئِبَينَ ﴾ : حالٌ مِنَ الشمسِ والقمرِ ، وتقدَّم اشتقاقُ الدَّأْب .

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ : العامَّةُ على إضافةِ " كُلِّ " إلى " ما " وفي " مِنْ " قولان ، أحدُهما : أنها زائدةٌ في المفعولِ الثاني ، أي : كُلِّ ما سألمتموه ، وهذا إنما يتأتَّى على

قولِ الأخفش . والثاني : أن تكونَ تبعيضيَّةً ، أي : آتاكم بعضَ جميعِ ما سألتموه نظراً لكم ولمصالحكم ، وعلى هذا فالمفعول محذوفٌ ، تقديرُه ، وآتاكم شيئاً مِنْ كُلِّ ما سألتموه ، وهو رأيُ سيبويه .

(172/419)

---

و " ما " يجوز فيها أن تكونَ موصولةً اسميةً أو حرفيةً أو نكرةً موصوفةً ، والمصدرُ واقعٌ موقعَ المفعولِ ، أي : مَسْؤولكم . فإن كانت مصدريَّةً فالضميرُ في " سَأَلْتموه " عائدٌ على الله تعالى ، وإن كانتْ موصولةً أو موصوفةً كان عائداً عليها ، ولا يجوز أُن يكون عائداً على الله تعالى ، وعائدُ الموصولِ أو الموصوفِ محذوفٌ ؛ لأنه : إمَّا أن يُقَدَّر متصلاً : سألتموهوه أو منفصلاً : سألتموه إياه ، وكلاهما لا يجوز فيه الحَذْفُ لِما قدَّمْتُ لك أولَ البقرةِ في قوله ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

وقرأ ابنُ عباس ومحمد بن علي وجعفر بن محمد والحسن والضحّاك وعمرو بن فائد وقتادة وسلام ويعقوب ونافع في روايةٍ ، ﴿ مِّن كُلِّ ﴾ منونةً . وفي " ما " على هذه القراءة وجهان ، أحدُهما : أنها نافية ، وبه بدأ الزمخشري فقال : " وما سألتُموه نفيٌ ، ومحلُّه النصبُ على الحال ، أي : آتاكم من جميعِ ذلك غيرَ سائِلية " . قلت : ويكون المفعولُ الثاني هو الجارَّ مِنْ

قوله " مِنْ كُلٍ " ، كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ النمل : 23 ] .

والثاني : أنها موصولةٌ بمعنى الذي ، هي المفعول الثاني لآتاكم . وهذا التخريجُ الثاني أَوْلَى ، لأنَّ في الأول منافاةً في الظاهر لقراءةِ العامَّة . قال الشيخ : " ولما أحسَّ الزمخشريُّ بظهور التنافي بين هذه القراءةِ وبين تلك قال : " ويجوز أن تكونَ " ما " موصولةً على : وآتاكم مِنْ كُلِّ ذلك ما احتجتم إليه ، ولم تصلحْ أحوالُكم ولا معائِشُكم إلا به ، فكأنكم طلبتموه أو سألتموه بلسانِ الحال ، فتأوَّل " سَأَلْتموه " بمعنى ما احتجتم إليه " .

(173/419)

---

قول : " نعمةَ " في معنى المُنْعِم به ، وخُتِمَتْ هذه ب ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ ، ونظيرتُها في النحل ب ﴿ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 18 ] ، لأنَّ في هذه تقدَّمَ قولُه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً ﴾ [ إبراهيم : 28 ] ، وبعده ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً ﴾ [ إبراهيم : 30 ] ، فجاء قولُه ﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ شاهداً بقُبْحِ مَنْ فَعَلَ ذلك ، فناسَبَ خَتْمَها بذلك ، والتي في النحل ذكر فيها عدةَ تفصيلاتٍ وبالَغَ فيها ، وذكر قولَه ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [ النحل : 17 ] ، أي : مَنْ أوجَدَ هذه النِّعَمَ السابقَ ذكرُها كَمَنْ لم

يَقْدِرُ منها على شيءٍ ، فَذَكَرَ أيضاً أنَّ مِنْ جملة تَفَضُّلاتِه اتصافَه بهاتين الصفتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 108. 110﴾

*(174/419)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾

وفي الظاهر رفعَ السماءَ فأعلاها ، والأرض من تحتها دحاها ، وخلقَ فيها بحاراً ، وأجرى أنهاراً ، وأنبت أشجاراً ، وأثبت لها أنوار وأزهارا ، وأمطر من السماء ماء مدراراً . وأخرج من الثمرات أصنافاً ، ونوّعَ لها أوصافاً ، وأفرد لكلِّ منها طعماً مخصوصاً ، ولإدراكه وقتاً معلوماً .

وأمّا في الباطن فسماءُ القلوب زيَّنَها بمصابيح العقول ، وأطلع فيها شمس التوحيد ، وقمر العرفان . ومَرَج في القلوب بحري الخوف والرجاء ، وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان ؛ فلا الخوف يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف ، كما جاز في الخبر : " لو وزنا لاعتدلا " -

هذا لعوام المؤمنين ، فأمَّا للخواص فالقبض والبسط ، ولخاص الخاص فالهيبة والأُنس والبقاء والفناء .

وسَخَّر لهم الفُلْكَ في هذه البحار ليعبروها بالسلامة ، وهي فلك التوفيق والعصمة ، وسفينة الأنوار والحفظ ، وكذلك ليالي الطلب للمريدين ، وليالي الطرب لأهل الأُنس من المحبين ، وليالي الحرب للتائبين ، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند متوع نهار اليقين .

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) ﴾

ما سَمَتْ إليهِ هِمَمُكُم ، وتعلَّق به سؤالُكُم ، وخَطَر تحقيقُ ذلك ببالِكم ، أنلناكم فوق ما تُؤَمِّلون ، وأعطيناكم أكثر مما تَرْجُون ، قال تعالى :

﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [ غافر : 60 ] .

وقرأ بعض القراء : ﴿ مِّن كُلٍّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [ إبراهيم : 34 ] فَيُنَوِّنُ قوله : كلٍ ويجعل ما سألتموه ( ما ) للنفي أي كل شيء مما لم تسألوه .

كذلك جاز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني – وهذا لأرباب الطاعات ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني – وهذا لأصحاب الزلات . عَلِمَ قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكَّر ما عمله من الزلَّات ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشمةَ السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرتُ لكم قبل أن تستغفروني .

ولكن متى يخطر على قلب العبد ما أهَّلَه الحق – سبحانه– من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ . . . قَبْلَ أَنْ كان له إمكانٌ ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو عصيان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان العبد شيخاً أو عيناً أو أثراً . . لا بَلْ :

أتاني هواها قبل أَنْ أَعْرِفِ الهوى . . . فصادف قلباً خالياً فَتَمَكَّنَا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ .

كيف يكون شكركم كفاءَ نِعَمِه . . ؟ وشكرُكُم نَزْرٌ يسير ، وإنعامُه وافر غزير .

وكيف تكون قطرة الشكر بجوار بحار الإنعام ؟

إنَّ نعَمَه عُلُومُكم عن تفصيلها متقاصرةٌ ، وفُهُومُكم عن تحصيلها متأخِّرةٌ .

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له . . .

فكيف يأتي الحصر والإحصار على ما لا يتناهى ؟

وكما أن النَّفْعَ من نِعمَه فالدفعُ أيضاً من نعمه .

ويقال إن التوفيق للشكر من جملة ما ينعم به الحقُّ على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه إلا

بتوفيقٍ آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 252. 255﴾

*(176/419)*

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18) ﴾

التفسير : لما ذكر في الآيات المتقدمة أنواع عذاب الكفار أراد أن يبين غاية حسرتهم ونهاية خيبتهم. فقال : ﴿ مثل الذين ﴾ وارتفاعه عند سيبويه على الابتداء والخبر محذوف أي فيما يتلى أو يقص عليكم مثلهم. وقوله : ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم. وقال الفراء : المضاف محذوف أي مثل أعمال الذين كفروا . وإنما جاز حذفه استغناء بذكره ثانياً . وقيل : المثل صفة فيها غرابة فأخبر عنها بالجملة المراد صفة الذين كفروا ﴿ أعمالهم كرماد ﴾ كقولك " صفة زيد عرضه مصون وماله غير مخزون " ويجوز أن يكون ﴿ أعاملهم ﴾ بدلاً والخبر ﴿ كرماد ﴾ وحده.

والمراد بأعمال الكفرة المكارم التي كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسارى وعقر الإبل للأضياف وإغاثة الملهوفين وإعانة المظلومين ، شبهها في حبوطها - لبنائها على غير أساس التوحيد والإيمان - برماد طيرته الريح في يوم عاصف .

(177/419)

---

قال الزجاج : جعل العصف لليوم وهو لما فيه يعني الريح مجازاً كقولك " يوم ماطر " . قال الفراء : وإن شئت قلت في يوم ذي عصوف أو في يوم عاصف الريح فحذف لذكره مرة . وقيل : المراد من أعمالهم عباداتهم للأصنام . ووجه حسرتهم أنهم أتعبوا أبدانهم فيها دهراً طويلاً . ثم لم ينتفعوا بذلك بل استضروا به . وقوله : ﴿ مما كسبوا على شيء ﴾ القياس عكسه كما في " البقرة " لأن " على " من صلة القدرة ولأن مما كسبوا صفة لشيء ولكنه قدم في هذه السورة لأن الكسب - أعني العمل الذي ضرب له المثل - هو المقصود بالذكر ولهذا أشار إليه بقوله : ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي عن الحق والثواب . ثم كان لسائل أن يسأل : كيف يليق بحكمته إضاعة أفعال المكلفين ؟ فقال : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ﴾ مستتبعة للفوائد والحكم دالة على وجود الصانع القدير ، فحبوط الأعمال إنما يلزم من كفر المكلفين وكونها غير مبنية على قاعدة الإيمان

والإخلاص لا من أنه سبحانه يمكن أن يوجد في أفعاله عبث أو خلل أو سهو . ثم بين كمال قدرته واستغنائه عن الظلم والقبائح وعن عمل كل عامل فقال : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ وقد مر مثله في سورة النساء . ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ بمتعذر لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور . فإن قيل : الغرض من الآية إظهار القدرة وزجر المكلفين عن المعصية وذلك إنما يتم بقوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ فما فائدة قوله : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ وهل فيه دليل على أن الفياض لا يوجد بدون الفيض ؟ قلنا : على تقدير تسليمه لا تنحصر الفائدة فيه بل لعل الفائدة هي تأكيد التخويف فإن التألم من تصور العدم المجرد ليس كالتألم من تصور عدمه مع إقامة غيره مقامه ، على أن الإذهاب لا يلزم منه الإعدام فيكون شبيهاً بعزل شخص ونصب غيره مقامه . وللحكيم أن يستدل بقوله : ﴿ يذهبكم ﴾ على أن مادة الجوهر لا تعدم وإنما تنعدم الصور والأعراض . والجواب أن الإذهاب ههنا بمعنى الإعدام ، ولو سلم



---

فلا يلزم من عدم وقوع الإعدام ههنا امتناعه في جميع الصور . وفيه أنه الحقيق بأن يخشى عقابه ويرجى ثوابه فلذلك أتبعه أحوال الآخرة فقال : ﴿ وبرزوا ﴾ بلفظ الماضي تحقيقاً

للوقوع مثل ﴿ وسيق ﴾ [ الزمر : 73 ] ﴿ ونادى ﴾ [ الأعراف : 48 ] والتركيب يدل على الظهور بعد الخفاء ومنه " امرأة برزة " إذا كانت تظهر للناس " وبرز فلان على أقرانه " إذا فاقهم. ومعنى بروزهم لله وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء أنهم كانوا يستترون عن العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خافٍ على الله.

فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية، أو المضاف محذوف أي برزوا لحساب الله وحكمه. قال أبو بكر الأصم : قوله : ﴿ وبرزوا لله ﴾ هو المراد من قوله : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ وعلى قواعد الحكماء : النفس إذا فارقت الجسد زال الغطاء وكشف الوطاء وظهرت عليه آثار الملكات والهيئات التي كان يمنعها عن الشعور بها اشتغالها بعالم الحس فذلك هو البروز لله، فإن كانوا من السعداء برزوا لموقف الجمال بصفاتهم القدسية وهيئاتهم النورية، فما أجل تلك الأحوال ويا طوبى لأهل النوال. وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف الجلال بأوصافهم الذميمة وهيئاتهم المظلمة، فما أعظم تلك الفضيحة وما أشنع تلك المهانة.

كتب ﴿ الضعفواء ﴾ بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ومثله : ﴿ علمواء بني إسرائيل ﴾ [ الشعراء : 197 ] والضعفاء العوام الأراذل ، والذين استكبروا سادتهم وأشرافهم الذين استنكفوا عن عبادته تعالى فضلوا وأضلوا . قال الفراء : أكثر أهل اللغة على أن التبع جمع تابع كخدم وخادم وحرس وحارس . وجوز الزجاج أن يكون التبع مصدراً أي ذوي أتباع إما في الكفر أو في الأمور الدنيوية ﴿ فهل أنتم مغنون ﴾ هل يمكنكم دفع عذاب الله ﴿ عنا ﴾ ومن في ﴿ من عذاب الله ﴾ للتبيين وفي ﴿ من شيء ﴾ للتبعيض . والمعنى هل تدفعون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله أو كلاهما للتبعيض بمعنى هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ . عن ابن عباس : لو أرشدنا الله لأرشدناكم قال الواحدي : معناه أنهم إنما دعوهم إلى الضلال لأن الله أضلهم ولو هداهم لدعوهم إلى الهدى . وقال في الكشاف : لعلهم قالوا ذلك مع أنه كذبوا فيه كقوله : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ [ المجادلة : 18 ] واعترض عليه بأن هذا خلاف مذهبه لأنهم لا يجوّزون صدور الكذب عن أهل القيامة كما مر في أوائل " الأنعام " في قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [ الآية : 23 ] وجوز أيضاً أن يكون المراد لو كنا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهتدينا لهديناكم إلى الإيمان . وزيف بأن كل ما في مقدور الله تعالى من الألطاف فقد فعله . وقيل : لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق

النجاة ، ويؤكد هذا التفسير قوله : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ وإعرابه كقوله : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ [ البقرة : 6 ] أرادوا إقناطهم من دفع العذاب بالكلية ، أو أرادوا أن عتاب الضعفاء لهم وتوبيخهم إياهم نوع من الجزع ولا فائدة فيه ولا في الصبر . وجوز في الكشاف أن يكون قوله : ﴿ سواء علينا ﴾ الخ من كلام

(180/419)

---

الضعفاء والمستكبرين جميعاً نظيره في وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر ، قوله : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه ﴾ [ يوسف : 52 ] والمحيص المنجي والمهرب مصدر كالمغيب والمحيص ، أو مكان كالمبيت والمضيف .

ولما ذكر مناظرة شياطين الإنس أتبعها مناظرة شيطان الجن . ومعنى ﴿ قضي الأمر ﴾ قطع وفرغ منه وذلك حين انقضاء المحاسبة . والأكثرون على أنه بعد الحساب ودخول الأشقياء النار والسعداء الجنة . وعند أهل السنة هو بعد خروج الفساق من النار فليس بعد ذلك إلا الدوام في الجنة أو في النار . يروى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في النار فيقول : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ وعن النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم يقول الكافرون قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ما هو إلا

إبليس هو الذي أضلنا فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول " ووعد الحق من إضافة الموصوف إلى صفته مثل " مسجد الجامع " ، أو تأويله وعد اليوم الحق ، أو الأمر الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال . وفي الآية إضماران : الأول وعدكم وعد الحق فوفى لكم بما وعدكم . الثاني ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم الوعد . ووجه الإضمار الأول دلالة الحال عليه لأنهم كانوا يشاهدون وليس وراء العيان بيان ، ولأن ذكر نقيضه وهو إخلاف الوعد من الشيطان يغني عنه ، ووجه الثاني أيضاً مثل ذلك . ثم ذكر طريق وسوسته اعتذاراً منهم فقال : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾ قال النحويون : هذا الاستثناء منقطع لأن الدعاء ليس من جنس السطان فالمراد لكن دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوسة ، ويمكن أن يوجه الاستثناء بالاتصال لأن قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة تكون بالقسر وتارة بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه فهذا نوع من أنواع التسلط .



---

﴿ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ لأنكم ما سمعتم مني إلا الدعاء والتزيين وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبيائه فكان من الواجب عليكم أن لا تغتروا بقولي ولا تلتفتوا

إليّ . قالت المعتزلة : في الآية دلالة على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ، وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين ، ولو كان الأمر كما يزعم المجبرة لقال : " فلا تلوموني ولا أنفسكم " فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه ، وقول الشيطان وإن لم يصلح للحجة إلا عدم إنكار الله تعالى عليه حجة . هذا مع أن أول كلام اللعين مبني على الإنصاف والصدق فكذا ينبغي أن يكون آخره . قال المحققون : الشيطان الأصلي هو النفس وذلك أن الإنسان إذا أحس بشيء أو أدركه ترتب عليه شعوره بكونه ملائماً له ، أو بكونه منافراً له ويتبع هذا الشعور الميل الجازم إلى الفعل أو إلى الترك ، وكل هذه الأشياء من شأن النفس ولا مدخل للشيطان في شيء من هذه المقامات إلا بأن يذكره شيئاً من أن الإنسان كان غافلاً عن صورة امرأة فيلقى الشيطان حديثها في خاطره .

(182/419)

---

وكيف يعقل تمكن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه ؟ جوابه أن الشيطان إذا كان جسماً لطيفاً والله سبحانه ركبه تركيباً عجيباً لا يقبل التفرق والتمزق مع لطافته فلا يستبعد نفوذه في الأجرام الكثيفة كالنار تسري في الفحم وكالدهن في السمسم وإن كان جوهراً نورانياً مجبولاً على الشر ، والنفس الإنسانية أيضاً جوهر علوي

مجرد فلا يبعد وصول أثر أحدهما إلى الآخر . وذهب بعض الحكماء إلى أن كل روح من الأرواح البشرية فإنه ينتسب إلى روح معين من الأرواح السماوية ، وأنها تتولى إرشاد الأرواح الإنسانية إلى مصالحها بالإلهامات الحسنة في حالتي النوم واليقظة . هذا إذا كانت خيرة ، وأما إذا كانت شريرة فإنها توسوسها بالخواطر والأعمال القبيحة ، والقدماء كانوا يسمون كلاًّ من تلك الأرواح بالطباع التام . وذكر بعض العلماء احتمالاً آخر وهو أن النفوس البشرية إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها ، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلق ، فتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن وتعضدها على أحوالها وأفعالها ، فإذا كان هذا المعنى في أبواب الخير كان إلهاماً ، وإن كان في باب الشر كان وسوسة .

(183/419)

---

ثم حكى الله سبحانه عن الشيطان أنه قال : ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ قال ابن عباس : يريد بمعينكم ولا منقذكم . قال ابن الأعرابي : الصارخ المستغيث والمصرخ المغيث . صرخ فلان إذا استغاث . وقال واغوثاه ، وأصرخته أي أغثته . وعاب النحويون على حمزة أنه

قرأ : ﴿ وما أنتم بمصرخيّ ﴾ لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة حيث قبلها ألف في نحو " عصاي " فما بالها وقبلها ياء . وحاصل ما عابوا عليه أنه لم يوجد له نظير في استعمال العرب ، لكنك تعلم أن القرآن حجة على غيره . قوله : ﴿ إني كفرت بما أشركتموني ﴾ إن كانت " ما " مصدرية فالمعنى إني كفرت أي أنا جاحد وما كان لي رضا بإشراككم لي في الدنيا مع الله في الطاعة وفي أن لي تدبيراً وتصرفاً في هذا العالم ، وإن كانت موصولة على ما قاله الفراء من أن " ما " في معنى " من " كقوله : " سبحان ما سخركن لنا " فالمراد إني كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالله الذي أشركتمونيه . ووجه نظم الكلام على هذا التفسير أن إبليس كأنه يقول : لا تأثير لوسوستي في كفركم بدليل أني كفرت بالله قبل أن كفرتم ، وما كان كفري بسبب وسوسة أخرى وإلا لزم التسلسل فثبت بهذا أن سبب الوقوع في الكفر شيء آخر سوى الوسوسة ، وهذا التقرير يناسب أصول الأشاعرة .



---

أما قوله : ﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ فالأظهر أنه كلام الله ، ويشمل إبليس ومن تابعه من الثقلين وليس ببعيد أن يكون من بقية كلام إبليس قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن إغاثته . ثم شرع في أحوال السعداء وقال : ﴿ وأدخل ﴾ على لفظ الماضي تحقيقاً

للوقوع، وقوله: ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلق ب ﴿ أدخل ﴾ أي أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره. وقرأ الحسن ﴿ وأدخل ﴾ على لفظ المتكلم. قال في الكشاف: فعلى هذا يتعلق قوله: ﴿ بإذن ربهم ﴾ بما بعده يعني أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم. وقد تقدم معنى قوله: ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ في أول سورة يونس. ثم لما بين أحوال السعداء وكان قد ذكر أحوال أضدادهم، أراد أن يذكر لكل من الفريقين مثلاً. قال في الكشاف ﴿ كلمة طيبة ﴾ نصب بمضمر أي جعل كلمة طيبة ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو تفسير لقوله: ﴿ ضرب الله مثلاً ﴾ أو ضرب بمعنى جعل أي جعل الله كلمة طيبة مثلاً. ثم قال كشجرة طيبة أي هي كشجرة. وقال صاحب حل العقد: أظن أن الوجه أن يجعل قوله: ﴿ كلمة ﴾ عطف بيان، وقوله: ﴿ كشجرة ﴾ مفعول ثانٍ. عن ابن عباس: الكلمة الطيبة هي قول لا إله إلا الله محمد رسول الله. والشجرة الطيبة شجرة في الجنة. وعن ابن عمر: هي النخلة. وقيل: الكلمة الطيبة كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك. وقيل: لا حاجة بنا إلى تعيين تلك الشجرة، والمراد أن الشجرة الموصوفة ينبغي لكل عاقل يسعى في تحصيلها وادّخارها لنفسه سواء كان لها وجود في الدنيا أو لم يكن.

أما صفات الشجرة فالأولى كونها طيبة ويشمل طيب المنظر والشكل والرائحة وطيب الفاكهة المتولدة منها وطيب منافعها والثانية : ﴿ أصلها ثابت ﴾ راسخ آمن من الانقطاع . ولا شك أن الشيء الطيب إنما يكمل الفرح بحصوله إذا أمن انقراضه وزواله . والثالثة ﴿ وفرعها في السماء ﴾ أي في جهة العلو وهذا تأكيد لرسوخ أصله فإن الأصل كلما كان أقوى وأرسخ كان الفرع أعلى وأشمخ . ومن فوائد ارتفاع الأغصان بعدها عن عفونات الأرض ونقاؤها عن القاذورات . قال في الكشاف : فرعها أعلاها ورأسها ، ويجوز أن يريد وفروعها على الأكتفاء بلفظ الجنس . الصفة الرابعة ﴿ تؤتي أُكلها كل حين ﴾ أي تعطي ثمرها كل وقت وقّته الله لأثمارها . وعن ابن عباس : الحين ستة أشهر لأن من حملها إلى صرامها ستة أشهر . وقال مجاهد وابن زيد : سنة لأن الشجرة من العام إلى العام تحمل الثمرة ولا سيما النخلة إذا تركوا عليها التمر بقي من السنة إلى السنة . وقال الزجاج : الحين الوقت طال أم قصر . والمراد أنه ينتفع بها في وقت يفرض ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً ﴿ بإذن ربها ﴾ بتيسير خالقها وتكوينه .

قال المحققون : معرفة الله تعالى والاستغراق في محبته وطاعته هي الشجرة الطيبة بل لا طيب ولا لذيذ إلا هي ، لأن المدركات المحسوسة إنما تصير مدركة لملاقاة شيء من المحسوس شيئاً من الحاس . أما نور معرفة الله وإشراقها فإنما ينفذ ويسري في جميع جواهر النفس حتى إنه يكاد يتحد به . ثم إن سائر اللذات منقطعة متناهية ، ولذة المعرفة لا تكاد تنتهي إلى حد . وإن عروق هذه الشجرة ثابتة راسخة في جوهر النفس الناطقة ولها شعب وأغصان صاعدة في هواء العالم الروحاني يجمعها التعظيم لأمر الله ، ومنشؤها القوة النظرية ، وغايتها الحكمة العملية بأقسامها وأصولها وفروعها ، وأغصان نابتة في فضاء العالم الجسماني ومنبتها القوة العملية وفائدتها الحكمة الخلقية التي يجمعها الشفقة على خلق الله عموماً وخصوصاً . وأثر رسوخ شجرة المعرفة في القلب أن يكون نظره للاعتبار ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [ الحشر : 2 ] وسمعه للحكمة ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [ الزمر : 18 ] ونطقه بالصدق والصواب ﴿ وقولوا قولاً سديداً ﴾ [ الأحزاب : 70 ] وكذا الكلام في سائر القوى والأعضاء . وهنالك مراتب لا تكاد تنحصر بحسب مراتب الاستعدادات . وإذا صار جوهر النفس كاملاً بحسب هذه الفضائل فقد يكون مكملاً لغيره وذلك قوله : ﴿ تؤتي أكلها كل حين ﴾ .

وفي قوله : ﴿ بإذن ربها ﴾ إشارة إلى أن النظر في جميع هذه المراتب يجب ان يكون على المفيض لا على الفيض ، وعلى المنعم لا على النعمة . و ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ المبدأ وعرفانه والمعاد وإتيانه فيختار الكمال على النقصان . وأثر العرفان للمعروف لا للعرفان فيكون حينئذ جوهر النفي كلمة طيبة كما قال في حق عيسى ﴿ كلمة من الله ﴾ [ آل عمران : 39 ] . وإذا عرفت الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة سهل عليك معرفة ضديهما . فالكلمة الخبيثة كلمة الشرك أو كل كلمة قبيحة أو كل نفس شريرة ، والشجرة الخبيثة الباطل أو كل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والثوم ونحو ذلك . ومعنى اجتثت استؤصلت وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها ﴿ ما لها من قرار ﴾ أي من استقرار مصدر كالثبات والنبات . وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء ما تقول في كلمة خبيثة ؟ فقال : ما أعلم لها في الأرض مستقراً ولا في السماء مصعداً إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة . قلت : وذلك أن الباطل لا قائل به ولا يوافقه فيه من هو بصدد الاعتبار فهو مضمحل زائل . والحق نقيض ذلك بل الباطل لا يستقر صاحبه عليه ولا يحصل له منه برد مضمحل زائل . والحق نقيض ذلك بل الباطل لا يستقر صاحبه عليه ولا يحصل له منه برد اليقين . وكذا النفس الخبيثة لا تكون لها طمأنينة ولا وقار ، تراها أبداً تسعى في الطرق المضلة والسبل المنحرفة كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران .

ولما شبه حال الفريقين بما شبه بين مآل حالهما فقال : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ أي الذي ثبت بالحجة والبرهان وتمكن في قلب صاحبه بحيث لم يكن للتشكيك فيه مجال . هذا في الحياة الدنيا فلا جرم إذا فتنوا في دينهم لم يزالوا كأصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا في القبول لم يتلعثموا ، وإذا وقفوا بين يدي الجبار لم يبهتوا . عن ابن عباس : من دوام على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته الله عليها في قبره ويلقنه إياها . وقد ورد في حديث سؤال القبر عن البراء بن عازب مثل ذلك . والسبب العقلي فيه أن المواظبة على الفعل توجب رسوخ الملكة بحيث لا تزول بتبدل الأحوال وتقلب الأطوار . وإنما فسرت الآخرة ههنا بالقبر لأن الميت ينقطع بالموت عن أحكام الدنيا ويدخل في أحكام الآخرة . فمعنى الآية يثبت الله الذين آمنوا بالله وبما يجب الإيمان به على ما آمنوا به في الدارين ، أو يثبتهم الله فيهما بسبب القول الثابت على القول الثابت . وقيل : معنى الآية يثبتهم الله على الثواب والكرامة سبب القول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا ، وسيصدر عنهم حال ما يكونون في الآخرة . ويرد عليه أن الآخرة ليست دار عمل وإن كان

قوله : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ ويثبت ﴾ أي ثبتهم على الثواب في الدارين بسبب القول ، ورد عليه أن الدنيا ليست دار ثواب ، ويمكن أن يناقش في هذا الإيراد لقوله سبحانه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ [ النحل : 97 ] ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ الذين وضعوا الباطل موضع الحق والشرك بدل التوحيد في الدارين ، فلا جرم إذا سئلوا في قبورهم قالوا لا ندري . ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ من التثبيت والإضلال . ولا اعتراض لأحد عليه أو من منح الألطاف ومنعها كما تقتضيه الحكمة .

*(189/419)*

---

ثم عجب من ظالمي مكة بقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله ﴾ أي شكر نعمته ﴿ كفراً ﴾ أي وضعوا مكان الشكر الكفر أو بدلوا نفس النعمة كفراً أي سلبوا النعمة فلم يبق معهم إلا الكفر . وذلك أنه تعالى أسكنهم حرمه ووسع عليهم معايشهم وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فلم يقوموا بشكر تلك النعم فضربهم بالقحط سبع سنين وقتلوا يوم بدر وبقي الكفر طوقاً في أعناقهم وأعناق من تابعهم وذلك قوله : ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ أي الهلاك . وقوله ﴿ جهنم ﴾ عطف بيان ﴿ وبئس القرار ﴾ أي المقر

مصدر سمى به . قوله : ﴿ ليضلوا ﴾ من قرأ بضم الياء فاللام للغرض أو للعاقبة ، ومن قرأ بفتحها فاللام للعاقبة لأن العاقل لا يريد ضلال نسه ولكنه قد يريد إضلال الغير لمصلحة دنيوية . وإنما حسن استعمال اللام لأجل العاقبة من حيث إنها تشبه الغاية والغرض من قبل حصولها في آخر المراتب والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز .

*(190/419)*

---

﴿ قل تمتعوا ﴾ أمر وعيد وتهديد . قال جار الله : فيه إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر مأمورون به قد أمرهم آمر مطاع هو آمر الشهوة . والمعنى إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ وإنما سمى عيش الكفار تمتعاً لأن إمهالهم في الدنيا على أيّ وجه يفرض يكون أسهل مما أعد لهم في الآخرة من العقاب . ومن الذين نزل فيهم ؟ روي عن عمر أنه قال : هم الأفجران من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية . فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين . وقيل : هم متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه . ولما أمر الكافرين بالتمتع بنعيم الدنيا تهديداً أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بحث المؤمنين على خلاف ذلك وهو الإقبال على ما ينفعهم في الآخرة فقال : ﴿ قل لعبادي الذين ﴾ المقول محذوف لأن جواب " قل " يدل عليه التقدير

: قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا . وجوز بعضهم أن يكون المذكور هو المقول بناء على أنه أمر غائب محذوف اللام . وإنما حسن الحذف لأن الأمر الذي هو " قل " عوض منه ، ولو قيل : " يقيموا الصلاة وينفقوا " ابتداء بحذف اللام لم يجز . والخلال المخالة أراد أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق في هذا اليوم الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مصادقة ، وإنما ينتفع بالإنفاق لوجه الله . ونفي المخالة في هذه الآية وفي قوله في البقرة : ﴿ لا بيع فيه ولا خلة ﴾ [ الآية : 254 ] لا ينافي إثباتها في قوله : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ ولا المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ] لأن المنفية هي التي سببها ميل الطبيعة ورغبة النفس ، والمثبتة هي التي يوجبها الاشتراك في الإيمان العمل الصالح .

(191/419)

---

ولما ختم أحوال المعاد عاد الى المبدإ فقال : ﴿ الله ﴾ وهو مبتدأ خبره ﴿ الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ وقد مر في أول " البقرة " والمراد من السماء جهة العلو . وقيل : نفس السماء ، وزيف بأن الإنسان ربما كان واقفاً على قلة جبل عال ويرى الغيم أسفل منه ، وإذا نزل من ذلك الجبل يرى الغيم ماطراً عليه . ﴿ وسخر لكم الفلك ﴾ كقوله في أواسط البقرة ﴿ والفلك التي تجري في

البحر بما ينفع الناس ﴾ ﴿ الآية : 164 ] وقد مر . ومعنى ﴿ بأمره ﴾ بتيسيره وتسييره لأنه خلق موادها وألهم صنعتها وجعل الماء بحيث يسهل على وجهه جريها ، ولأن الملك العظيم قلما يوصف بأنه فعل وإنما يقال إنه أمر بكذا . ومنهم من حمل الأمر على الظاهر أي بقوله : "كن" . ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ وجه المنة فيها أن البحر قلما ينتفع به في العمارة والزراعة لعمقه ولملوحته ففجر الله الأنهار والعيون والآبار الصالحة للانتفاع بها كما لا يخفى ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر ﴾ أي صيرهما تحت تصرفه وتسخيره بحيث يعود انتفاع ذلك عليكم من التسخين والترطيب والإضاءة والإنارة لأنهما مذللان للإنس .

*(192/419)*

---

وقوله : ﴿ دائبين ﴾ نصب على الحال . والدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة مطردة أي يدأبان في مسيرهما وإنارتهما وسائر منافعهما وخواصهما ، وهكذا معنى التسخير في قوله : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ أي قدر هذين العرضين المتعاقبين لراحة الإنسان ولمعاشه . ولما فصل طرفاً من النعم أجمل الباقية منها بقوله : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أي بعض جميع ما سألتموه . ومن قرأ بالتنوين ف " ما " إما نافية والجملة

نصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه ، أو موصولة بمعنى وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه وطلبتموه بلسان الحال . ثم بين أن نعم الله على عبيده غير متناهية فقال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ أي لا تقدرون على تعدادها لكثرتها بل لعدم تناهيها . قال الواحدي : النعمة ههنا اسم أقيم مقام المصدر كالنفقة بمعنى الإنفاق ولهذا لم تجمع . ومن تأمل في تشريح الأبدان وفي أعضاء الحيوان وأجزائها من العروق الدقاق والأوردة والشرايين وفي كل واحد من الأعضاء البيسطة والمركبة ووقف على منافعها ، عرف بعض دقائق نعم الله تعالى على عباده . وإذا جاوز النفس إلى الآفاق وسير فكره في أحوال الأجسام السفلية والعلوية ، وقف من بديع صنعتها وعظيم منفعتها على ما يقضى منه العجب . وإذا عبر الملك إلى الملكوت تاه في أودية الحيرة والدهشة وتلاشى عقله عند أدنى سرادقات العزة والهيبة . قال الحكيم : إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها في الفم فانظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها . أما الذي قبلها فكالخبز والطحن والزرع وغير ذلك من الآلات المعينة والأسباب الفاعلية والقابلية حتى تنتهي إلى الأفلاك والعناصر ، وأما الذي بعده فكالقوى المعينة على الجذب والإمساك والهضم والدفع وكالأعضاء الحاملة لتلك القوى وكسائر الأمور النافعة في ذلك الباب خارجة من البدن أو داخلة فيه ، فإنها لا تكاد تنحصر . وإذا كانت نعم الله تعالى في تناول لقمة واحدة تبلغ هذا المبلغ فكيف

فيما جاوز ذلك؟ إذا كنت في عالم الأجساد ، فإذا تخطيت إلى عالم الأرواح وأجلت طرف عقلك في ميادين القدس وحظائر الأنس وصادفت بعض ما هنالك من الكرامات واللذات فلعلك تعرف حق النعمة إذ تغرق في لجة المنة أو تغرف من نهر المنحة والنعم هنالك على وفق الاستعداد وإدراك النعم بمقدار الفهم والرشاد ، فإن كنت أهلاً لها فذاك وإلا فلا تلم إلا نفسك ﴿ إن الإنسان ﴾ أي هذا الجنس ﴿ لظلوم ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿ كفار ﴾ شديد الكفران لها وذلك أنه مجبول على النسيان والملالة فلا بد أن يقع في إغفال شكر النعمة إن نسيها ، أو في كفران النعمة إذا ملها .

وقيل : ظلوم في الشدائد بالشكاية والجزع كفار في السعة يجمع ويمنع . واعلم أنه ختم الآية في هذه السورة بما ختم وختمها في النحل بقوله : ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ وكأنه قال : إن كنت ظلوماً فأنا غفور ، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ، ولا أجازي جفاك إلا بالوفاء ، تلك صفتك في الأخذ وهذه صفتي في الإعطاء . انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 186 . 195﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وبرزوا ﴾ من القشور الفانية ﴿ لله جميعاً ﴾ من القويّ والضعيف ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم المقلدة ﴿ للذين استكبروا ﴾ من المبتدعين ﴿ إني كفرت بما أشكرتموني ﴾ آمن اللعين حين لا ينفع نفساً إيمانها ﴿ وأدخل ﴾ فيه إشارة إلى أن الإنسان إذا خلى وطباعه لا يدخل الجنة لأنه خلق ظلوماً جهولاً سفلي الطبع ، وإنما يدخله الله بفضله وعنايته ﴿ جنات ﴾ القلوب ﴿ تجري من تحتها ﴾ أنهار الحكمة ﴿ خالدين فيها بإذن ربهم ﴾ أي بعنايته وإلا لم يبق فيها ساعة كما لم يبق آدم . تحية أهل القلوب على أهل القلوب لسلامة قلوبهم ، وتحيتهم على أهل النفوس لمرض قلوبهم ليسلموا من شر نفوسهم ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [ الفرقان : 63 ] ﴿ ألم تر ﴾ أي ألم تشاهد بنور النبوّة ﴿ كيف ضرب الله مثلاً ﴾ للاستعداد الإنساني القابل للفيض الإلهي دون سائر مخلوقاته ﴿ كلمة طيبة ﴾ هي كلمة التوحيد ﴿ كشجرة طيبة ﴾ عن لوث الحدوث مثمر إثمار شواهد أنوار القدم ﴿ أصلها ثابت ﴾ في الحضرة الإلهية فإنها صفة قائمة بذاتها ﴿ وفرعها ﴾ في سماء القلوب ﴿ تؤتي أكلها ﴾ من أنوار المشاهدات والمكاشفات ﴿ كل حين ﴾ يتقرب العبد إلى ربه يتقرب الرب تعالى إليه ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس ﴾ لمن نسي العهد الأوّل ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ الحالة الأولى فيسعون في

إدراكها ﴿ ومثل كلمة ﴾ تتولد من خباثة النفس ﴿ اجتثت من فوق ﴾ أرض البشرية ﴿ ما لها من قرار ﴾ لأنها من الأعمال الفانيات لا من الباقيات الصالحات. ﴿ يثبت الله الذين آمنوا ﴾ يمكنهم في مقام الإيمان بملازمة كلمة لا إله إلا الله والسير في حقائقها ﴿ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ لأن سير أصحاب الأعمال ينقطع بالموت وسير أرباب الأحوال لا ينقطع أبداً. ﴿ وأحلوا قومهم ﴾ أرواحهم وقلوبهم ونفوسهم وأبدانهم، أنزلوا أبدانهم جهنم البعد ونفوسهم الدركات وقلوبهم العمى والصمم والجهل، وأرواحهم العلوية أسفل سافلين الطبيعة فبدلوا نعم



---

الأخلاق الحميدة كفراً لأوصاف الذميمة ﴿ الله الذي خلق ﴾ سموات القلوب وأرض النفوس ﴿ وأنزل من ﴾ سماء القلوب ﴿ ماء ﴾ الحكمة ﴿ فأخرج به ﴾ ثمرات الطاعات ﴿ رزقاً ﴾ لأرواحكم ﴿ وسخر لكم ﴾ فلك الشريعة ﴿ لتجري في ﴾ بحر الطريقة بأمر الحق لا بالهوى والطبع. وكم لأرباب الطلب من سفن انكسرت بنكباء الهوى ﴿ وسخر لكم ﴾ أنهار العلوم الدينية وشمس الكشوف وقمر المشاهدات وليل البشرية ونهار الروحانية. ومعنى التسخير في الكل جعلها أسباباً لاستكمال النفس

الإنسانية ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ من سائر الأسباب المعينة على ذلك ، فجميع العالم بالحقيقة تبع لوجود الإنسان وسبب لكماليته وهو ثمرة شجرة المكونات فلذلك قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ لأن مخلوقاته غير منحصرة ولكها مخلوق لاستكماله ﴿ إن الإنسان لظلوم ﴾ بإفساد استعداده ﴿ كفار ﴾ لا يعرف قدر نعمة الله في حقه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 195 . 196 ﴾

(196/419)

---

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ الر كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ فيه احتمالات عندهم فقيل : من ظلمات الكثرة إلى نور الوحدة أو من ظلمات صفات النشأة إلى نور الفطرة ، أو من ظلمات حجب الأفعال والصفات إلى نور الذات ، وهو المراد بقولهم : النور البحت الخالص من شوب المادة والمدة .

وقال جعفر : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة ، ومن ظلمات النفوس إلى نور القلوب ، وقال أبو بكر بن طاهر : من ظلمات الظن إلى نور الحقيقة

وقيل غير ذلك ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بتيسيره بهبة الاستعداد وتهيئة أسباب الخروج إلى الفعل ﴿ إلى صِرَاطِ العزيز ﴾ الذي يقهر الظلمة بالنور

(197/419)

---

﴿ الحميد ﴾ [ إبراهيم : 1 ] بكمال ذاته أو بما يهب لعباده المستعدين من الفضائل والعلوم أو من الوجود الباقي أو نحو ذلك ﴿ وَوَيْلٌ للكافرين ﴾ المحجوبين ﴿ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [ إبراهيم : 2 ] وهو عذاب الحرمان ﴿ الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا ﴾ الحسية والصورية ﴿ على الآخرة ﴾ العقلية والمعنوية ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ المريدين ﴿ عَن سَبِيلِ الله ﴾ طريقه الموصل إليه سبحانه : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [ إبراهيم : 3 ] انحرافاً مع استقامتها ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أي بكلام يناسب حالهم واستعدادهم وقدر عقولهم والألم يفهموا فلا يحصل البيان ، وعن عمر رضي الله تعالى عنه كلموا الناس بما يفهمون أتريدون أن يكذب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ وفي أسرار التأويل لكل نبي وصديق اصطلاح في كلام المعرفة وطريق المحبة يخاطب به من يعرفه من أهل السلوك ، وعلى هذا لا ينبغي للصوفي أن يخاطب العامة باصطلاح الصوفية لأنهم لا يعرفونه ، وخطابهم بذلك مثل خطاب العربي بالعجمية أو

العجمى بالعربية ، ومنشأ ضلال كثير من الناس الناظرين في كتب القوم جهلهم باصطلاحاتهم فلا ينبغي للجاهل بذلك النظر فيها لأنها تأخذ بيده إلى الكفر الصريح بل توقعه في هوة كفر ، كفر أبي جهل إيمان بالنسبة إليه ، ومن هنا صدر الأمر السلطاني إذ كان الشرع معتنى به بالنهي عن مطالعة كتب الشيخ الأكبر قدس سره ومن انخرط في سلكه ﴿ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ ﴾ إضلاله لزوال استعداده بالهيئات الظلمانية ورسوخها والاعتقادات الباطلة واستقرارها ﴿ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [ إبراهيم : 4 ] هدايته ممن بقي على استعداده أو لم يرسخ فيه تلك الهيآت والاعتقادات ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بآياتنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ﴾ وهي أيام وصاله سبحانه حين كشف لعباده سجف

(198/419)

---

الربوبية في حضرة قدسية وأدناهم إلى جنابه ومن عليهم بلذيذ من خطابه :

سقياً لهم ولطيبها . . .

ولحسنها وبهائها

أيام لم يلج النوى . . .

يبن العصا ولحائها

وما أحسن ما قيل :

وكانت بالعراق لنا ليال . . .

سلبناهن من ريب الزمان

جعلناهن تاريخ الليالي . . .

وعنوان المسرة والأماني

وأمره عليه السلام بتذكير ذلك لبثور غرامهم ويأخذ بهم نحو الحبيب هيامهم فقد قيل :

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى . . .

يتوق ومن يعلق به الحب يصبه

وجوز أن يراد بأيام الله تعالى أيام تجليه جل جلاله بصفة الجلال وتذكيرهم بذلك ليخافوا فيمتثلوا ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [ إبراهيم : 5 ] أي لكل مؤمن بالإيمان الغيبي إذ الصبر والشكر على ما قيل مقامان للسالك قبل الوصول ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ﴾ [ إبراهيم : 7 ] قال الجوزجاني : أي لئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس ، ويعم ذلك كله ما قيل : لئن شكرتم نعمة لأزيدنكم نعمة خيراً منها ، وللشكر مراتب وأعلا مراتبه الإقرار بالعجز عنه .

وفي بعض الآثار أن داود عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك والشكر من آلائك ؟ فأوحى الله تعالى إليه الآن شكرتني يا داود ، وقال حمدون : شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ ﴾ أي أنه سبحانه لا شك فيه لأنه الظاهر في الآفاق والأنفس ﴿ فَاطِرِ السموات والأرض ﴾ موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ليستر بنوره سبحانه ظلمات حجب صفاتكم فلا تشكون فيه عند جلية اليقين ﴿ وَيُؤَخّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى غاية يقتضيها استعدادكم من السعادة ﴿ قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُنَا ﴾ [ إبراهيم : 10 ] منعهم ذلك عن اتباع الرسل عليهم السلام ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ ولكن الله يَمُنُّ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ سلموا لهم المشاركة في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة ما من الله تعالى به عليهم مما يرشحهم لذلك ، وكثيراً ما يقول المنكرون في حق أجلة المشايخ مثل ما قال هؤلاء الكفرة في حق رسلهم والجواب نحو هذا الجواب ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بسلطان إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [ إبراهيم : 11 ] جواب عن قول أولئك : ﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ [ إبراهيم : 10 ] ويقال نحو ذلك للمنكرين الطالبين من الولي الكرامة

تعنتاً ولجاجاً ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ [ إبراهيم : 11 ] لأن الإيمان يقتضي التوكل وهو الخمود تحت الموارد ، وفسره بعضهم بأنه طرح القلب في الربوبية والبدن في العبودية ، فالمتوكل لا يريد إلا ما يريده الله تعالى ، ومن هنا قيل : إن الكامل لا يحب إظهار الكرامة ، وفي المسألة تفصيل عندهم ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ذكر بعضهم أن البروز متعدد فبروز عند القيامة الصغرى بموت الجسد .

(200/419)

---

وبروز عند القيامة الوسطى بالموت الإرادي وهو الخروج عن حجاب صفات النفس إلى عرصة القلب .

وبروز عند القيامة الكبرى وهو الخروج عن حجاب الآنية إلى فضاء الوحدة الحقيقية ، وإن حدوث التقاول بين الضعفاء والمستكبرين المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا ﴾ [ إبراهيم : 21 ] الخ فهو بوجود المهدي القائم بالحق الفارق بين أهل الجنة والنار عند قضاء الأمر الإلهي بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء وفسروا الشيطان بالوهم ؛ وقد يفسرونه في بعض المواضع بالنفس الأمارة .

والقول المقصوص عنه في الآية عند ظهور سلطان الحق ، وبعضهم حمل الشيطان هنا على

الشيطان المعروف عند أهل الشرع وذكر أن قوله : ﴿ فَلاَ تَلُومُونِى وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [ إبراهيم : 22 ] دليل بقائه على الشرك حيث رأى الغير في البين وما ثم غير الله تعالى ، وإلى هذا يشير كلام الواسطي حيث قال : من لام نفسه فقد أشرك ، ويخالفه قول محمد بن حامد : النفس محل كل لائمة فمن لم يلم نفسه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال فقد أهلكها ، ويأباه ما صح في الحديث القدسي يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه فتأمل

﴿ وَأُدْخِلَ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا بِإِذْنِ رَبّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ [ إبراهيم : 23 ] لم يذكر من يحييهم ، وقد ذكروا أن منهم من يحييهم ربهم وهم أهل الصفة والقربة ، ومنهم من يحييهم الملائكة وهم أهل الطاعات والدرجات ، وما أطيب سلام المحبوب على محبه وما ألذه على قلبه :

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس . . .

تسيل من الآماق والاسم أدمع

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السماء تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [ إبراهيم : 24 ، 25 ] إشارة كما قيل إلى كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وجعل سبحانه أصلها هناك ثابتاً بالتوفيق وفرعها في سماء القربة وسقيها من سواقي العناية وساقها المعرفة وأغصانها المحبة وأوراقها الشوق وحارسها الرعاية تؤتي أكلها في جميع الأنفاس من لطائف العبودية وعرفان أنوار الربوبية ، وقال بعضهم : الكلمة الطيبة النفس الطيبة أصلها ثابت بالاطمئنان وثبات الاعتقاد بالبرهان وفرعها في سماء الروح تؤتي أكلها من ثمرات المعارف والحكم والحقائق وكل وقت بتسهيله تعالى ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجتثت مِن فَوْقِ الأرض مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [ إبراهيم : 26 ] إشارة إلى كلمة الكفر أو النفس الخبيثة ، وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : الشجرة الخبيثة الشهوات وأرضها النفوس وماؤها الأمل وأوراقها الكسل وثمارها المعاصي وغايتها النار ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين ءامَنُواْ بالقول الثابت فِى الحياة الدنيا وَفِى الآخرة ﴾ قال الصادق رضي الله تعالى عنه : يثبتهم في الحياة الدنيا على الإيمان وفي الآخرة على صدق جواب الرحمن ، وجعل بعضهم القول الثابت قوله سبحانه وحكمه الأزلي أي يثبتهم على ما فيه تبجيلهم وتوقيرهم في الدارين حيث حكم بذلك في الأزل وحكمه سبحاه الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظالمين ﴾ [ إبراهيم : 27 ] في الحياتين لسوء استعدادهم ﴿ الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللهِ ﴾ من الهداية

الأصلية والنور الفطري ﴿ كُفْرًا ﴾ احتجابًا وضلالًا ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ من تابعهم واقتدى بهم في ذلك ﴿ دَارَ البوار ﴾ [ إبراهيم : 28 ] الهلاك والحرمان ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ من متاع

(202/419)

---

الدنيا ومشتهياتها التي يحبونها كحب الله سبحانه ﴿ لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ﴾ [ إبراهيم : 30 ] كل من نظر إلى ذلك والتفت إليه ﴿ اللهُ الذى خَلَقَ السموات ﴾ أي سموات الأرواح ﴿ والأرض ﴾ أي أرض الأجساد ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء ﴾ أي سماء عالم القدس ﴿ مَاء ﴾ وهو ماء العلم ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ من أرض النفس ﴿ مِنَ الثمرات ﴾ وهي ثمرات الحكم والفضائل ﴿ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ في تقوى القلب بها ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك ﴾ أي فلك العقول ﴿ لِتَجْرِىَ فِى البحر ﴾ أي بحر آلائه وأسرار مخلوقاته الدالة على عظمته سبحانه

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ [ إبراهيم : 32 ] أي أنهار العلم التي تنتهي بكم إلى ذلك البحر العظيم ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس ﴾ شمس الروح ﴿ والقمر ﴾ قمر القلب ﴿ دَائِبَيْنَ ﴾ في السير بالمكاشفة والمشاهدة ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس ﴾ ليل ظلمة صفات النفس ﴾

والنهار ﴾ [إبراهيم : 33] نهار نور الروح لطلب المعاش والمعاد والراحة والاستنارة ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ بلسان الاستعداد فإن المسؤول بذلك لا يمنع ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ السابقة واللاحقة ﴿ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لعدم تناهيها ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ ينقص حق الله تعالى أو حق نفسه بإبطال الاستعداد أو يضع نور الاستعداد في ظلمة الطبيعة ومادة البقاء في محل الفناء ﴿ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] لتلك النعم التي لا تحصى لغفلته عن المنعم عليه بها ، وقيل : إن الإنسان لظلوم لنفسه حيث يظن أن شكره يقابل نعمه تعالى ، كفار محجوب عن رؤية الفضل عليه بداية ونهاية ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويكرمنا بالهداية والعناية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(203/419)

---

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء العشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 35 ﴾ من سورة إبراهيم عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 43 ﴾ من نفس السورة



---

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انقضى المأمور به من القول لكافر النعمة وشاكرها وسبب ذلك والدليل عليه ، وبان أنه خالق الموجودات كلها وربها ، فلا يصح أصلاً أن يكون شيء منها شريكاً .

أمره صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يذكرهم بأيام الله عند أبيهم إبراهيم عليه السلام للدلالة على تبديلهم النعمة ظلماً منهم وكفراً ، في أسلوب دال على البعث ، مشير إلى وجوب براءتهم من الأصنام حيث كان محط حالهم فيها تقليد الآباء وهو أعظم آبائهم ، وإلى ما سنه لهم من إقامتهم الصلاة وشكرهم لنعمه بالانفاق وغيره ، فقال ناعياً عليهم - مع المخالفة لصريح العقل وقاطع النقل عقوق أبيهم الأعظم ، عطفاً على ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا ﴾ أو على ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ : ﴿ وإذ ﴾ أي واذكر لهم مذكراً بأيام الله خبر إبراهيم إذ ﴿ قال إبراهيم رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بإجابة دعائي في جعل القفر الذي وضعت به ولدي بلداً عظيماً .

ولما كان السياق لإخراج الرسل من محالهم ، وكان ذلك مفهماً لأن المحل الذي يقع الإخراج منه بلد يسكن فيه ، واتبعه سبحانه بأن المتعرضين بدلوا نعمة الله - بما أسكن فيه من الأمن بعد جعله له بلداً - بما أحدثوا فيه من الإخافة لخير أهله ، ومن الإنذار لمن أنعم عليهم بكل ما فيه من الخير ، كان الأنسب تعريفه فقال : ﴿ اجعل هذا البلد ﴾ أي الذي يريدون إخراج الرسول منه ﴿ آمناً ﴾ أي ذا أمن بأمان أهله ، وكأن هذا الدعاء صدر منه بعد أن سكن الناس مكة وصارت مدينة ، والذي في البقرة كان حيث وضع ابنه مع أمه وهي خالية عن ساكن ، فدعا أن يجعلها الله بلداً ، وأن يجعلها بعد ذلك موصوفة بالأمن ، وهو سكون النفس إلى زوال الضر .

(5/420)

---

ولما دعا بالأمن من فساد الأموال والأبدان ، أتبعه بالدعاء بالأمن من فساد الأديان ، فقال : ﴿ واجنبني ﴾ أي اصرفني ﴿ وبني ﴾ أي لصلبي ، وأسقط البنات إشارة إلى الاستقلال ، وإنما هن تابعات دائماً ﴿ أن نعبد ﴾ أي عبادة مستمرة تكون موجبة للنار ﴿ الأصنام ﴾ أي اجعلنا في جانب غير جانب عبادتها ، والصنم : المنحوت على خلقة البشر ، وما كان منحوتاً على غير خلقة البشر فهو وثن - قاله الطبري عن مجاهد ؛ ثم بين

زيادة الاهتمام بأمر الأصنام بإعادة النداء ، وأسقط الأداة – زيادة في التملق بكونه من أهل القرب والانقطاع إليه سبحانه معللاً لما قبله – في قوله : ﴿ رب ﴾ بإفراد المضاف إليه ليكون الكلام الواحد على نظام واحد ﴿ إنهن أضللن ﴾ إسناد مجازي علاقته السببية ﴿ كثيراً من الناس فمن ﴾ أي فتسبب عن بغضي لهن أن أقول : من ﴿ تبعني ﴾ من جميع الناس في تجنبها ﴿ فإنه مني ﴾ أي من حزبي لكونه على طريقتي وديني ، فأتني ما وعدتني فيه من الفوز ﴿ ومن عصاني ﴾ فضل بها فقد استحق النار ، فإن عذبته فهو عبادك ، وإن غفرت له فأنت لذلك ، لأن لك أن تفعل ما تشاء ﴿ فإنك غفور ﴾ أي بليغ الستر ﴿ رحيم ﴾ أي بليغ الإكرام بعد ستر الذنوب ؛ وأكد للإعلام بزيادة رغبته في العفو لأنه لا ينقص به شيء من عزته سبحانه ولا حكمته – كما أشار إليه دعاء عيسى عليه السلام في المائدة .

(6/420)

---

ولما دعا بدرء المفاسد الناشئة من من نوعي الإنسان والشيطان بأمن البلد وإيمانه ذكر السبب الحامل له على تخصيصه بذلك مستجلباً للمصالح ، فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي يا رب وربَّ من قضيت أنه يتبعني بتربيتك لنا أحسن تربية ﴿ إني أسكنت ﴾ وكأن الله سبحانه

كان قد أخبره أنه يكثر نسله حتى يكونوا كالنجوم ، وذلك بعد البشارة بإسحاق عليه السلام فقال : ﴿ من ذريتي ﴾ وساقه مؤكداً تنبيهاً على أنه - لكونه على وجه لا يسمح به أحد - لا يكاد يصدق ، وللإعلام بأنه راغب فيه ﴿ بواد ﴾ هو مكة المشرفة لكونها في فضاء منخفض بين جبال تجري به السيول ﴿ غير ذي زرع ﴾ .

ولما نفى عنه الرفد الدنيوي ، أثبت له الأخروي ، إشارة إلى أن الدارين ضرتان لا تجتمعان ، وكأن هذا الدعاء كان بعد بنائه البيت - كما تقدمت الإشارة إليه أيضاً بتعريف البلد ، فقال : ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ أي الذي حرمت التعرض إليه ومنعته بالهيبة فلم يملكه أحد سواك ، وجُعل له حريم يأمن فيه الوحش والطير ؛ والكسنى : اتخاذ مأوى يسكن إليه متى شاء ، والوادي : سفح الجبل العظيم ، ومنه قيل للأنهار : أودية ، لأن حافاتها كالجبال لها ، والزرع : نبات ينفرش من غير ساق ؛ ثم بين غرضه من إسكانهم هناك فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ ليقيموا الصلاة ﴾ ما أسكنتهم في هذا الوادي الموصوف إلا لهذا الغرض المنافي لعبادة غيرك ، ولأن أولى الناس بإقامتها حاضرو البيت المتوجه بها إليه .

ولما كان اشتغالهم بالعبادة وكونهم في ذلك الوادي أمرين بعيدين عن أسباب المعاش ، تسبب عنه قوله : ﴿ فاجعل أفئدة ﴾ أي قلوباً محترقة بالأشواق ﴿ من الناس ﴾ أي من أفئدة الذين هم أهل للاضطراب ، بكون احتراقها بالشوق مانعاً من اضطرابها ﴿ تهوي ﴾ أي تقصدهم فتسرع نحوهم برغبة وشوق إسراع من ينزل من حالق ؛ وزاد المعنى وضوحاً وأكده بحرف الغاية الدال على بعد لأن الشيء كلما بعد مدى مرماه اشتد وقعه فقال :

﴿ إليهم ﴾ ولما دعا لهم بالدين ، دعا لهم بالرزق المتضمن للدعاء لجيرانهم فقال :

﴿ وارزقهم ﴾ أي على يد من يهوي إليهم ﴿ من الثمرات ﴾ أي التي أنبتها في بلادهم ؛ وبين العلة الصالحة بقوله : ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى شكرهم لما يرون من نعمك الخارقة للعوائد في ذلك الموضع البعيد عن الفضل لولا عنايتك فيشتغلوا بعبادتك لإغنائك لهم وإحسانك إليهم ، وقد أجاب الله دعوته ؛ فالآية لتذكير قريش بهذه النعم الجليلة عليهم ببركة أبيهم الأعظم الذي نهى عن عبادة الأوثان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 189 . 192 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إبراهام ﴾ بالألف : هشام والأخفش عن ابن ذكوان ﴿ إني أسكنت ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ ومن عصاني ﴾ بالإمالة : علي ﴿ دعائي ﴾ بالياء في الحالين : ابن كثير ويعقوب . وقرأ أبو عمرو ويزيد وورش وحمزة وسهل والبرجمي والخزاز عن هبيرة وأحمد بن فرج عن أبي عمرو عن إسماعيل بالياء في الوصل . والباقون والهاشمي عن ابن فليح بغير ياء في الحالين . ﴿ نؤخرهم ﴾ بالنون : عباس والمفضل في رواية أبي زيد . الآخرون بالياء . ﴿ لتزول ﴾ بفتح الأول ورفع الآخر : عليّ . الباقون بكسر الأول ونصب الآخر . ﴿ القهار ﴾ مثل ﴿ البوار ﴾ ﴿ قطر ﴾ بكسر القاف وسكون الطاء والراء مكسورة منونة . ﴿ آن ﴾ على أنه اسم فاعل : يزيد عن يعقوب والوقف على قراءته ﴿ آني ﴾ بالياء .

الوقوف : ﴿ الأصنام ﴾ ط ﴿ من الناس ﴾ ج ﴿ مني ﴾ ج فصلاً بين النقيضين مع اتحاد الكلام ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ المحرم ﴾ لا لأن قوله : ﴿ ليقيموا ﴾ يتعلق بقوله : ﴿ أسكنت ﴾ وكلمة ﴿ ربنا ﴾ تكرار ﴿ يشكرون ﴾ 5 ﴿ ما نعلن ﴾ ط ﴿ ولا في السماء ﴾ 5 لا ﴿ وإسحاق ﴾ ط ﴿ الدعاء ﴾ 5 ﴿ ومن ذريتي ﴾ ز قد قيل : ﴿ والوصل أولى للعطف ﴿ وربنا ﴾ تكرار ﴿ دعاء ﴾ 5 ﴿ الحساب ﴾ ط ﴿

الظالمون ﴾ 5 ط ﴿ الأبصار ﴾ 5 لا لأن ما بعده حال ﴿ طرفهم ﴾ ج لاحتمال أن قوله : ﴿ وأفئدتهم ﴾ يكون من صفات أهل المحشر وأن يكون من صفة الكفار في الدنيا ﴿ هواء ﴾ 5 ط ﴿ قريب ﴾ لا لأن قوله : ﴿ نجب ﴾ جواب ﴿ أخرنا ﴾ ﴿ الرسل ﴾ ط ﴿ زوال ﴾ 5 لا للعطف على ﴿ أقسمتم ﴾ ﴿ الأمثال ﴾ 5 ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ ط ﴿ الجبال ﴾ 5 ﴿ رسله ﴾ ط ﴿ انتقام ﴾ 5 ط فإن انتقامه لا يختص بوقت والتقدير اذكر يوم ﴿ القهار ﴾ 5 ﴿ في الأصفاد ﴾ 5 ج للآية ولأن الجملة بعد من صفات المجرمين ﴿ النار ﴾ 5 لا لتعلق لام كي ﴿ ما كسبت ﴾ ط ﴿ الحساب ﴾ 5 ﴿ الألباب ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 197 ﴾

*(9/420)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه وأنه لا يجوز عبادة غيره

تعالى أثبته حكى عن إبراهيم عليه السلام مبالغته في إنكار عبادة الأوثان .

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أشياء : أحدها : قوله :

﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِنًا ﴾ والمراد : مكة آمناً ذا أمن .

فإن قيل : أي فرق بين قوله : ﴿ اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ [ البقرة : 126 ] وبين قوله :

﴿ اجعل هذا البلد آمِنًا ﴾ .

قلنا : سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فلا يخافون ، وفي الثاني : أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها ، وهي الخوف ، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمناً ، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة .

وثانيها : قوله : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء ﴿ واجنبنى ﴾ وفيه ثلاث لغات جنبه واجنبه وجنبه .

قال الفراء : أهل الحجاز يقول جنبني يجنبني بالتخفيف .

وأهل نجد يقولون جنبني شره وأجنبني شره ، وأصله جعل الشيء عن غيره على جانب وناحية .

المسألة الثانية :

لقائل أن يقول : الإشكال على هذه الآية من وجوه : أحدها : أن إبراهيم عليه السلام دعا

ربه أن يجعل مكة آمناً ، وما قبل الله دعاءه ، لأن جماعة خربوا الكعبة وأغاروا على مكة .

وثانيها : أن الأنبياء عليهم السلام لا يعبدون الوثن ألبتة ، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله أجنبني عن عبادة الأصنام .

وثالثها : أنه طلب من الله تعالى أن لا يجعل أبناءه من عبدة الأصنام والله تعالى لم يقبل دعاءه ، ولأن كفار قريش كانوا من أولاده ، مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام .

(10/420)

---

فإن قالوا : إنهم ما كانوا أبناء إبراهيم وإنما كانوا أبناء أبنائه ، والدعاء مخصوص بالأبناء ، فنقول : فإذا كان المراد من أولئك الأبناء أبناءه من صلبه ، وهم ما كانوا إلا إسماعيل وإسحاق ، وهما كانا من أكابر الأنبياء وقد علم أن الأنبياء لا يعبدون الصنم ، فقد عاد السؤال في أنه ما الفائدة في ذلك الدعاء .

والجواب عن السؤال الأول من وجهين : الأول : أنه نقل أنه عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة ذكر هذا الدعاء ، والمراد منه : جعل تلك البلدة آمنة من الخراب .

والثاني : أن المراد جعل أهلها آمنين ، كقوله : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] أي أهل القرية ، وهذا الوجه عليه أكثر المفسرين ، وعلى هذا التقدير فالجواب من وجهين :

الوجه الأول : ما اختصت به مكة من حصول مزيد من الأمن ، وهو أن الخائف كان إذا التجأ إلى مكة أمن ، وكان الناس مع شدة العداوة بينهم يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضاً ، ومن ذلك أمن الوحش فإنهم يقربون من الناس إذا كانوا بمكة ، ويكونون مستوحشين عن الناس خارج مكة ، فهذا النوع من الأمن حاصل في مكة فوجب حمل الدعاء عليه .

والوجه الثاني : أن يكون المراد من قوله : ﴿ اجعل هذا البلد آمِنًا ﴾ أي بالأمر والحكم بجعله آمناً وذلك الأمر والحكم حاصل لا محالة .

والجواب : عن السؤال الثاني قال الزجاج : معناه ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال : ﴿ واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [ البقرة : 128 ] أي ثبتنا على الإسلام .

ولقائل أن يقول السؤال باق لأنه لما كان من المعلوم أنه تعالى يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب من عبادة الأصنام فما الفائدة في هذا السؤال والصحيح عندي في الجواب وجهان : الأول : أنه عليه السلام وإن كان يعلم أنه تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضماً للنفس وإظهاراً للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب .

والثاني : أن الصوفية يقولون : إن الشرك نوعان : شرك جلي وهو الذي يقول به المشركون ، وشرك خفي وهو تعليق القلب بالوسايط وبالأسباب الظاهرة والتوحيد المحض هو أن ينقطع نظره عن الوسايط ولا يرى متصرفاً سوى الحق سبحانه وتعالى فيحتمل أن يكون قوله : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ المراد منه أن يعصمه عن هذا الشرك الخفي والله أعلم بمراده .

والجواب عن السؤال الثالث من وجوه : الأول : قال صاحب "الكشاف" : قوله ﴿ وبني ﴾ أراد بنيه من صلبه والفائدة في هذا الدعاء عين الفائدة التي ذكرناها في قوله : ﴿ واجنبنى ﴾ .

والثاني : قال بعضهم أراد من أولاده وأولاد أولاده كل من كانوا موجودين حال الدعاء ولا شبهة أن دعوته مجابة فيهم .

الثالث : قال مجاهد : لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنماً ، والصنم هو التمثال المصور ما ليس بمصور فهو وثن .

وكفار قريش ما عبدوا التمثال وإنما كانوا يعبدون أحجاراً مخصوصة وأشجاراً مخصوصة ، وهذا الجواب ليس بقوي ، لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والحجر كالصنم في ذلك .

الرابع : أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى لنوح : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ [ هود : 46 ] .

والخامس : لعله وإن كان عمم في الدعاء إلا أن الله تعالى أجاب دعاءه في حق البعض دون البعض ، وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء عليهم السلام ، ونظيره قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّى جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] .

المسألة الثالثة :

(12/420)

---

احتج أصحابنا بقوله : ﴿ واجنبنى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ على أن الكفر والإيمان من الله تعالى ، وتقرير الدليل أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يجنبه ويجنب أولاده من الكفر فدل ذلك على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الإيمان ليس إلا من الله تعالى ، وقول المعتزلة إنه محمول على الألطاف فاسد ، لأنه عدول عن الظاهر ، ولأنا قد ذكرنا وجوهاً كثيرة في إفساد هذا التأويل .

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿ رَبّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مّنَ

الناس ﴾ واتفق كل الفرق على أن قوله : ﴿ أَضْلَلْنَ ﴾ مجاز لأنها جمادات ، والجماد لا يفعل شيئاً ألبتة ، إلا أنه لما حصل الإضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم ، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها .

ثم قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ يعني من تبعني في ديني واعتقادي فإنه مني ، أي جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني ومن عصاني في غير الدين فإنك غفور رحيم ، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة في حق أصحاب الكبائر من أمته ، والدليل عليه أن قوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة فنقول : أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك ، والأول باطل من وجهين : الأول : أنه عليه السلام بين في مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ وأيضاً قوله : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا يهتم باصلاح مهماته .

والثاني : أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة ، ولما بطل هذا ثبت أن قوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار .

وإذا ثبت هذا فنقول : تلك المعصية إما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو من الكبائر قبل التوبة ، والأول والثاني باطلان لأن قوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ اللفظ فيه مطلق فتخصيصه بالصغيرة عدول عن الظاهر ، وأيضاً فالصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفران عند الخصوم فلا يمكن حمل اللفظ عليه ، فثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة ، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لوجوه : الأول : أنه لا قائل بالفرق .

والثاني : وهو أن هذا المنصب أعلى المناصب فلو حصل لإبراهيم عليه السلام مع أنه غير حاصل لمحمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك نقصاناً في حق محمد عليه السلام .

والثالث : أن محمداً صلى الله عليه وسلم مأمور بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام لقوله تعالى :

﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [ الأنعام : 90 ] وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا ﴾ فهذا وجه قريب في إثبات الشفاعة لمحمد صلى الله عليه وسلم وفي إسقاط العقاب عن أصحاب الكبائر ، والله أعلم .

إذا عرفت هذا فلنذكر أقوال المفسرين : قال السدي معناه : ومن عصاني ثم تاب ، وقيل :

إن هذا الدعاء إنما كان قبل أن يعلم أن الله تعالى لا يغفر الشرك ، وقيل من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم ، يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام ، وقيل المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب بل يمهلهم حتى يتوبوا أو يكون المراد أن لا تعجل اخترامهم فتفوتهم التوبة .

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة .

أما الأول : وهو حمل هذه الشفاعة على المعصية بشرط التوبة فقد أبطلناه .

(14/420)

---

وأما الثاني : وهو قوله إن هذه الشفاعة إنما كانت قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك فنقول : هذا أيضاً بعيد ، لأنا بينا أن مقدمة هذه الآية تدل على أنه لا يجوز أن يكون مراد إبراهيم عليه السلام من هذا الدعاء هو الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر .

وأما الثالث : وهو قوله المراد من كونه : ﴿ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ أن ينقله من الكفر إلى الإيمان فهو أيضاً بعيد ، لأن المغفرة والرحمة مشعرة بإسقاط العقاب ولا إشعار فيهما بالنقل من صفة الكفر إلى صفة الإيمان ، والله أعلم .

وأما الرابع : وهو أن تحمل المغفرة والرحمة على تعجيل العقاب أو ترك تعجيل الإمانة فنقول

هذا باطل ، لأن كفار زماننا هذا أكثر منهم ولم يعاجلهم الله تعالى بالعقاب ولا بالموت مع أن أهل الإسلام متفقون على أنهم ليسوا مغفورين ولا مرحومين فبطل تفسير المغفرة والرحمة على ترك تعجيل العقاب بهذا الوجه وظهر بما ذكرنا صحة ما قررناه من الدليل ، والله أعلم .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع أنه طلب في دعائه أموراً سبعة .

المطلوب الأول : طلب من الله نعمة الأمان وهو قوله : ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِنًا ﴾ [ البقرة : 126 ] والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به ، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة ؟ فقال : الأمن أفضل ، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد .

والمطلوب الثاني : أن يرزقه الله التوحيد ، ويصونه عن الشرك ، وهو قوله : ﴿ واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] .

والمطلوب الثالث : قوله : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ فقوله : ﴿ من ذريتي ﴾ أي بعض ذريتي وهو إسمعيل ومن ولد منه ﴿ بواد ﴾ هو وادي مكة ﴿ غير ذى زرع ﴾ أي ليس فيه شيء من زرع ، كقوله : ﴿ قرءانا عربيا غير ذى عوج ﴾ [ الزمر : 28 ] بمعنى لا يحصل فيه اعوجاج عند بيتك المحرم ، وذكروا في تسميته المحرم وجوها : الأول : أن الله حرم التعرض له والتهاون به ، وجعل ما حوله حرماً لمكانه .

الثاني : أنه كان لم يزل ممتنعاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب .

الثالث : سمي محرماً لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه .

الرابع : أنه حرم على الطوفان أي امتنع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستعل عليه .

الخامس : أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل .

السادس : حرم موضع البيت حين خلق السموات والأرض وحفه بسبعة من الملائكة ، وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم ، فرفع إلى السماء السابعة .

السابع : حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها : روي أن هاجر كانت أمة

لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام ، فقالت سارة : كنت أرجو أن يهب الله لي ولداً من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي ، وقالت لإبراهيم : أبعدهما مني فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع ، ثم رجع فقالت هاجر : إلى من تكلنا ؟ فقال إلى الله .

ثم دعا الله تعالى بقوله : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ ﴾ إلى آخر الآية ثم إنها عطشت وعطش الصبي فانتهت بالصبي إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عيناً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(16/420)

---

" رحم الله أم إسمعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً " ثم إن إبراهيم عليه السلام عاد بعد كبر إسماعيل واشتغل هو مع إسماعيل برفع قواعد البيت .

قال القاضي : أكثر الأمور المذكورة في هذه الحكاية بعيدة لأنه لا يجوز لإبراهيم عليه السلام أن ينقل ولده إلى حيث لا طعام ولا ماء مع أنه كان يمكنه أن ينقلهما إلى بلدة أخرى من بلاد الشام لأجل قول سارة إلا إذا قلنا : إن الله أعلمه أنه يحصل هناك ماء وطعام ، وأقول : أما ظهور ماء زمزم فيحتمل أن يكون إرهاصاً لإسماعيل عليه السلام ، لأن ذلك عندنا جائز

خلافاً للمعتزلة وعند المعتزلة أنه معجزة لإبراهيم عليه السلام .

ثم قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَاةَ ﴾ واللام متعلقة بأسكنت أي أسكنت قوماً من ذريتي ، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا الصلاة .

ثم قال : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قال الأصمعي هوى يهوي هوياً بالفتح إذا سقط من علو إلى سفل .

وقيل : ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ تريدهم ، وقيل : تسرع إليهم .

وقيل : تنحط إليهم وتنحدر إليهم وتنزل ، يقال : هوى الحجر من رأس الجبل يهوي إذا انحدر وانصب ، وهوى الرجل إذا انحدر من رأس الجبل .

البحث الثاني : أن هذا الدعاء جامع للدين والدنيا .

أما الدين فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى الذهاب إلى تلك البلدة بسبب النسك والطاعة لله تعالى .

وأما الدنيا : فلأنه يدخل فيه ميل الناس إلى نقل المعاشات إليهم بسبب التجارات ، فلأجل هذا الميل يتسع عيشهم ، ويكثر طعامهم ولباسهم .

البحث الثالث : كلمة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ تفيد التبعيض ، والمعنى : فاجعل أفئدة بعض الناس مائلة إليهم .

قال مجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند .

(17/420)

وقال سعيد بن جبير : لو قال أفئدة الناس ، لحجت اليهود والنصارى المجوس ، ولكنه قال : ﴿ أَفْئِدَةً مِّنَ الناس ﴾ فهم المسلمون .

ثم قال : ﴿ وارزقهم مّنَ الثمرات ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أنه لم يقل : وارزقهم الثمرات ، بل قال : ﴿ وارزقهم مّنَ الثمرات ﴾ وذلك يدل على أن المطلوب بالدعاء اتصال بعض الثمرات إليهم .

البحث الثاني : يحتمل أن يكون المراد بإيصال الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات وإنما يكون المراد : عمارة القرى بالقرب منها لتحصيل الثمار منها .

ثم قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات ، فإن إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 103.109 ﴾

(18/420)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِهَا : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طُرُقٍ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ أُمُّ إسْمَاعِيلَ ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَجَرَّتْ الذَّيْلَ أُمُّ إسْمَاعِيلَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّتْ هَاجَرُ مِنْ سَارَةَ أَرْخَتْ ذَيْلَهَا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَلَ إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ : يَا إبْرَاهِيمُ ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنِيسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ قَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إلَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : آللَّهُ أَمَرَك بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَتْ : إذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا اللَّهُ .

ثُمَّ رَجَعَتْ .

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا ، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى ، أَوْ قَالَ : يَتَلَبَّطُ ؛ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ

اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا ، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ ، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ، وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا ، فَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا ، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ : صَهٍ ، تُرِيدُ نَفْسَهَا ، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا .

فَقَالَتْ : قَدْ أَسْمَعْتَ ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غُوَاثٌ ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا : هَكَذَا ، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بِقَدْرِ مَا تَغْرِفُ ﴾ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ مَاءَ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ عَيْنًا مَعِينًا».

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتُ اللَّهِ يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ.

وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، وَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا.

قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ.

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَلْفَتْ ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ

، وَشَبَّ الْغُلَامُ ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ أَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً فِيهِمْ ﴾ .

(21/420)

---

وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ ، فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ : نَحْنُ بِشَرٍّ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ ، وَشَكَتْ إِلَيْهِ .

فَقَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ .

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ : هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ : جَاءَنَا شَيْخٌ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا ، فَسَأَلَنَا عَنْكَ ، فَأَخْبَرْتُه ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا ؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ .

قَالَ : فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ .

قَالَ : ذَاكِ أَبِي ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ .

الْحَقِي بِأَهْلِكِ .

فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى ، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ ،

فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ ، فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا .

قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ ، فَقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ : اللَّحْمُ .

قَالَ : فَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : الْمَاءُ .

قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ .

﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ ﴾ .

(22/420)

---

قَالَ : فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ .

قَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثَبِّتُ عَتَبَةَ بَابِهِ .

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ : هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ؛ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا ؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ .

قَالَ : فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ؛ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ

بَابك .

قَالَ : ذَلِكَ أَبِي ، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ .

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ .

فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَلَدُ بِالْوَالِدِ وَالْوَالِدُ بِالْوَلَدِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ .

قَالَ : فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ .

قَالَ : وَتُعِينُنِي .

قَالَ : وَأُعِينُكَ .

قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا .

قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَبْنِي ، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ؛ وَهُمَا يَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قَالَ : فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى تَدَوَّرَ حَوْلَ الْبَيْتِ ، وَهُمَا يَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي قَوْلِه تَعَالَى ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْت مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ فِي طَرْحِ عِيَالِهِ وَوَلَدِهِ بِأَرْضٍ مَضْيَعَةٍ اتِّكَالًا عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، وَاقْتِدَاءً بِفِعْلِ إبْرَاهِيمَ ، كَمَا تَقُولُ الْغُلَاةُ مِنْ الصُّوفِيَّةِ فِي حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ ؛ فَإِنَّ إبْرَاهِيمَ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ ؛ لِقَوْلِهَا لَهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : آللَّهُ أَمَرَك بِهَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَلَمَّا كَانَ بِأَمْرٍ مِنْهُ أَرَادَ تَأْسِيسَ الْحَالِ وَتَمْهِيدَ الْمَقَامِ ، وَخَطَّ الْمَوْضِعَ لِلْبَيْتِ الْمُحَرَّمِ وَالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ ، أَرْسَلَ الْمَلَكَ فَبَحَثَ بِالْمَاءِ ، وَأَقَامَهُ مَقَامَ الْغِذَاءِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ تِلْكَ الْحَالِ إلَّا هَذَا الْمِقْدَارُ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ ﴾ .

(24/420)

---

وَقَدْ اجْتَزَأَ بِهِ أَبُو ذَرٍّ لَيَالِيَ أَقَامَ بِمَكَّةَ يَنْتَظِرُ لِقَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَمِعَ مِنْهُ قَالَ : حَتَّى سَمِنْت وَتَكَسَّرَتْ عُكَنُ بَطْنِي ، وَكَانَ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى السُّؤَالِ وَلَا يُمَكِّنُهُ الظُّهُورُ وَلَا التَّكَشُّفُ ، فَأَغْنَاهُ اللَّهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ عَنْ الْغِذَاءِ ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ فِيهِ إلَى يَوْمِهِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ يَكُونُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ ، وَسَلِمَتْ طَوِيَّتُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ بِهِ مُكَذِّبًا وَلَا شَرِبَهُ مُجَرِّبًا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَوَكِّلِينَ ، وَهُوَ يَفْضَحُ الْمُجَرِّبِينَ .

وَلَقَدْ كُنْت بِمَكَّةَ مُقِيمًا فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ ، وَكُنْت أَشْرَبُ مَاءَ زَمْزَمَ كَثِيرًا ، وَكُلَّمَا شَرِبْته نَوَيْت بِهِ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ لِي بَرَكَتَهُ فِي الْمِقْدَارِ الَّذِي يَسَّرَهُ لِي مِنْ الْعِلْمِ ، وَنَسِيت أَنْ أَشْرَبَهُ لِلْعَمَلِ ؛ وَيَا لَيْتَنِي شَرِبْته لَهُمَا ، حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهِمَا ، وَلَمْ يُقَدَّرْ

؛ فَكَانَ صَغْوِي إلَى الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْهُ إلَى الْعَمَلِ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْحِفْظَ وَالتَّوْفِيقَ بِرَحْمَتِهِ .

(25/420)

---

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : { لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ } : خَصَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الدِّينِ لِفَضْلِهَا فِيهِ وَمَكَانِهَا مِنْهُ ، وَهِيَ عَهْدُ اللَّهِ عِنْدَ الْعِبَادِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ } .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : { عِنْدَ بَيْتِك الْمُحَرَّمِ } قَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ فِي تَحْرِيمِ مَكَّةَ ، وَفَائِدَةُ حُرْمَتِهَا ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حِكْمَةٍ ، وَتَحْرِيمُهَا كَانَ بِالْعِلْمِ ، وَكَانَ بِقَوْلِهِ مُخْبِرًا عَنْهُ ؛

وَكُلُّ ذَلِكَ قَدِيمٌ لَا أَوَّلَ لَهُ ، وَحَرَّمَهَا بِالْكِتَابِ حِينَ خَلَقَ الْقَلَمَ ، وَهُوَ التَّحْرِيمُ الثَّالِثُ ، وَقَالَ لَهُ : اُكْتُبْ فَكَتَبَ مَا يَكُونُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(26/420)

---

وَمِنْ جُمْلَةِ مَا كَتَبَ أَنَّ مَكَّةَ بَيْتٌ مُحَرَّمٌ مُكَرَّمٌ مُعَظَّمٌ ؛ وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ آثَارٌ ، مِنْهَا أَنَّهُ كَانَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ لَيْسَ عَلَيْهِ جِدَارٌ مُحِيطٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَضَاقَ عَلَى النَّاسِ وَسَّعَ عُمَرُ الْمَسْجِدَ ، وَاشْتَرَى دُورًا فَهَدَمَهَا فِيهِ ، وَهَدَمَ عَلَى النَّاسِ مَا قَرُبَ مِنْ الْمَسْجِدِ ، حَتَّى أَبَوْا أَنْ يَبِيعُوا ، وَوَضَعَ الْأَثْمَانَ حَتَّى أَخَذُوهَا بَعْدُ ، ثُمَّ أَحَاطَ عَلَيْهِ بِجِدَارٍ قَصِيرٍ دُونَ الْقَامَةِ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ لَمَّا وَلِيَ وَسَّعَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَاشْتَرَى مِنْ قَوْمٍ ، وَأَبَى آخَرُونَ أَنْ يَبِيعُوا ، فَهَدَمَ عَلَيْهِمْ ، فَصَيَّحُوا فَأَمَرَ بِهِمْ إلَى الْحَبْسِ حَتَّى كَلَّمَهُ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدَ ، وَوُجِدَ فِي الْمَقَامِ كِتَابٌ ، فَجَعَلُوا يُخْرِجُونَهُ لِكُلِّ مَنْ أَتَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلَا يَعْلَمُونَهُ ، حَتَّى أَتَاهُمْ حَبْرٌ مِنْ الْيَمَنِ ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا فِيهِ : أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ صُغْتُهَا يَوْمَ صُغْتُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَبَارَكْتُ لِأَهْلِهَا فِي اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحِلُّهَا أَهْلُهَا ، وَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا خَرَّجَهُ جَمَاعَةٌ ، وَاللَّفْظُ لِلتِّرْمِذِيِّ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى جـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ربّنا إني أسكنت مِنْ ذُرِّيتي بوادٍ غير ذي زَرْعٍ ﴾

هذا قول إبراهيم عليه السلام . وقوله ﴿ مِن ذريتي ﴾ يريد بهم إسماعيل وهاجر أُمه .

﴿ بوادٍ غير ذي زرع ﴾ يعني مكة أسكنها في بطحائها ، ولم يكن بها ساكن ، ثقة بالله وتوكلاً عليه .

﴿ عند بيتك المحرم ﴾ لأنه قبلة الصلوات فلذلك أسكنهم عنده . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرَّم لأنه يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع واستحلال .

﴿ ربّنا ليقيموا الصلاة ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون سأل الله تعالى بذلك أن يهديهم إلى إقامة الصلاة .

الثاني : أن يكون ذكر سبب تركهم فيه أن يقيموا الصلاة .

﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ في ﴿ أفئدة ﴾ وجهان :

أحدهما : أن الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب ، وقد يعبر عن القلب بالفؤاد ، قال الشاعر :

وإنّ فؤاداً قادَني بصبابةٍ . . . إليك على طول الهوَى لصَبورُ

الثاني : أن الأفئدة جمع وفد ، فكأنه قال : فاجعل وفوداً من الأمم تهوي إليهم . وفي قوله : ﴿ تهوي إليهم ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنه بمعنى تحن إليهم ،

الثاني : أنه بمعنى تنزل إليهم ، لأن مكة في واد والقاصد إليها نازل إليها ،

الثالث : ترتفع إليهم ، لأن ما في القلوب بخروجه منها كالمرتفع عنها .

الرابع : تهواهم . وقد قرئ تَهْوَى .

وفي مسألة إبراهيم عليه السلام أن يجعل الله أُفئدةً من الناس تهوي إليهم قولان :

أحدهما : ليهووا السكنى بمكة فيصير بلداً محرّماً ، قاله ابن عباس .

الثاني : لينزعوا إلى مكة فيحجوا ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد .

قال ابن عباس : لولا أنه قال من الناس لحجه اليهود والنصارى وفارس والروم .

﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يريد ثمرات القلوب بأن تحببهم إلى قلوب الناس فيزوروهم .

الثاني : ومن الظاهر من ثمرات النخل والأشجار ، فأجابه بما في الطائف من الثمار ، وما يجلب إلهم من الأمصار .

﴿ لَعَلَّهُمْ يشكرون ﴾ أي لكي يشكروك .

قوله عز وجل : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديَّ وللمؤمنين ﴾ وفي استغفاره لوالديه مع شركهما ثلاثة أوجه :

أحدهما : كانا حيين فطمع في إيمانهما . فدعا لهما بالاستغفار ، فلما ماتا على الكفر لم يستغفر لهما .

الثاني : أنه أراد آدم وحوّاء .

الثالث : أنه أراد ولديه إسماعيل وإسحاق . وكان إبراهيم يقرأ : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ يعني ابنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يعمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(29/420)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

المعنى : واذكر إذ قال إبراهيم ، و﴿ البلد ﴾ : مكة ، و﴿ آمناً ﴾ معناه فيه أمن ،

فوصفه بالأمن تجوزاً - كما قال : ﴿ في يوم عاصف ﴾ [ إبراهيم : 18 ] ، وكما قال الشاعر :

وما ليل المطي بنائم . . . ﴿ واجنبني ﴾ معناه : وامنعني ، يقال : جنبه كذا وجنبه وأجنبه : إذا منعه من الأمر وحماه منه .

وقرأ الجحدري والثقفي " وأجنِبني " بقطع الألف وكسر النون .

وأراد إبراهيم بني صلبه ، وكذلك أجيبت دعوته فيهم ، وأما باقي نسله فعبدوا الأصنام ، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته ، فكيف يخاف أن يعبد صنماً ؟ ! لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة .

و ﴿ الأصنام ﴾ هي المنحوتة على خلقة البشر ، وما كان منحوتاً على غير خلقة البشر فهي أوثان ، قاله الطبري عن مجاهد .

ونسب إلى الأصنام أنها أضلت كثيراً من الناس - تجوز - إذ كانت عرضة الإضلال ، والأسباب المنصوبة للغيّ ، وعليها تنشأ الأغيار ، وحقيقة الإضلال إنما هي لمخترعه ، وقيل : أراد الأصنام هنا الدنانير والدراهم .

وقوله : ﴿ ومن عصاني ﴾ ظاهره بالكفر ، بمعادلة قوله : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ ، وإذا كان ذلك كذلك فقوله : ﴿ فإنك غفور رحيم ﴾ معناه : بتوبتك على الكفرة حتى يؤمنوا ، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر ، لكنه حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب – صلى الله عليه وسلم – قال قتادة : اسمعوا قول الخليل صلى الله عليه وسلم ، والله ما كانوا طعانين ولا لعانين ، وكذلك قال نبي الله عيسى ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [ المائدة : 118 ] وأسند الطبري عن عبد الله بن عمر حديثاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم : تلا هاتين الآيتين ثم دعا لأمته ، فبشر فيهم وكان إبراهيم التيمي يقول : من يأمن على نفسه بعد خوف إبراهيم الخليل على نفسه من عبادة الأصنام ؟ .

وقوله : ﴿ ومن ذريتي ﴾ يريد : إسماعيل عليه السلام ، وذلك أن سارة لما غارت بهاجر – بعد أن ولدت إسماعيل – تعذب إبراهيم عليه السلام ، بهما ، فروي أنه ركب البراق وهو وهاجر والطفل – فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، فنزل وترك ابنه وأمته هنالك ، وركب منصرفاً من يومه ذلك ، وكان هذا كله بوحي من الله تعالى فلما ولَّى دعا بمضمن هذه الآية ، وأما كيفية بقاء هاجر وما صنعت وسائر خبر إسماعيل ، ففي كتاب البخاري والسير وغيره .

و﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ ومن ذريتي ﴾ للتبعيض ، لأن إسحاق كان بالشام ، و" الوادي " : ما بين الجبلين ، وليس من شروطه أن يكون فيه ماء .

وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم عليه السلام قد كان علم من الله تعالى أنه لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي ، وأنه يرزقهما الماء ، وإنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال : ﴿ غير ذي زرع ﴾ ، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال : غير ذي ماء على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك .



---

وقوله : ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديماً - على ما روي قبل الطوفان ، وكان علمه عند إبراهيم - وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه الله تعالى أنه سيبني هنالك بيتاً لله تعالى ، فيكون محرماً . ومعنى ﴿ المحرم ﴾ على الجبابرة وأن تنتهك حرمته ويستخف بحقه - قاله قتادة وغيره .

وجمعه الضمير في قوله : ﴿ ليقيموا ﴾ يدل على أن الله قد أعلمه أن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل . واللام في قوله : ﴿ ليقيموا ﴾ هي لام كي هذا هو الظاهر فيها - على أنها متعلقة ب﴿ أسكنت ﴾ ، والنداء اعتراض ، ويصح أن تكون لام أمر ، كأن

رغب إلى الله أن يوفقهم بإقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إقامة الصلاة، وفي اللفظ على هذا التأويل بعض تجوز يربطه المعنى ويصلحه.

و ﴿ أفئدة ﴾ : القلوب، جمع فؤاد . سمي بذلك لإنفاده، مأخوذ من فأد ومنه المفتاد، وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم.

وقرأ ابن عامر بخلاف : ﴿ فاجعل أفئدة ﴾ بياء بعد الهمزة.

وقوله : ﴿ من الناس ﴾ تبعيض، ومراده المؤمنون، قال مجاهد : لو قال إبراهيم : أفئدة الناس – لازدحمت على البيت فارس والروم. وقال سعيد بن جبير : لحجته اليهود والنصارى. و ﴿ تهوي ﴾ معناه : تسير بجد وقصد مستعجل، ومنه قول الشاعر [ أبو كبير ] : [ الكامل ]

وإذا رميت به الفجاج رأيته . . . يهوي مخارمها هويَّ الأجدل

ومنه البيت المروي : [ السريع ]

تهوي إلى مكة تبغي الهدى . . . ما مؤمنو الجن كأنجاسها

وقرأ مسلمة بن عبد الله : " تُهوي " بضم التاء ، من أهوى ، وهو الفعل المذكور معدى بالهمزة ، وقرأ علي بن أبي طالب ومحمد بن علي ومجاهد " تَهوَى " بفتح التاء والواو . وتعدي هذا الفعل – وهو من الهوى – ب " إلى " ، لما كان مقترناً بسير وقصد . وروي عن مسلم بن محمد الطائفي : أنه لما دعا عليه السلام بأن يرزق سكان مكة من الثمرات بعث الله جبريل فاقتلع بجناحه قطعة من أرض فلسطين – وقيل من الأردن – فجاء بها وطاف حول البيت بها سبعاً ، ووضعها قريب مكة ، فهي الطائف ، وبهذه القصة سميت ، وهي موضع ثقيف ، وبها أشجار وثمرات وثم هي ركبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(33/420)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ربنا إِني أسكنت من ذريتي ﴾

في "مِنْ" قولان .

أحدهما : أنها للتبعيض ، قاله الأخفش ، والفراء .

والثاني : أنها للتوكيد ، والمعنى : أسكنت ذريتي ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى: ﴿ بوادٍ غير ذي زرع ﴾ يعني: مكة، ولم يكن فيها حرث ولا ماء.

عند ﴿ بيتك المحرَّم ﴾ إنما سمي محرَّماً، لأنه يحرم استحلال حرماته والاستخفاف بحقه.

فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿ عند بيتك المحرَّم ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمُدَّة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه.

أحدها: أن الله تعالى حرَّم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب.

والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرفَع أيام الطوفان.

والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا، ذكرهما ابن جرير.

وكان أبو سليمان الدمشقي يقول: ظاهر الكلام يدل على أن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بُني البيت وصارت مكة بلداً.

والمفسرون على خلاف ما قال.

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أن إبراهيم خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمّه هاجر ومعه جبريل حتى قدم مكة وبها ناس يقال لهم: العماليق، خارجاً من مكة، والبيت يومئذ ربوة حمراء، فقال إبراهيم لجبريل: أهاهنا أُمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم؛ فأنزلهما في مكانٍ من الحِجر، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً، ثم قال: ﴿ ربنا إني أسكنت من

ذريتي . . .

﴾ الآية .

وفتح أهل الحجاز ، وأبو عمرو ياء "إِني أَسكنت" .

قوله تعالى : ﴿ ربنا لِيُقيموا الصلاة ﴾ في متعلَّق هذه اللام قولان :

أحدهما : أنها تتعلق بقوله : ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ ، فالمعنى : جنِّبهم الأصنام ليُقيموا الصلاة ، هذا قول مقاتل .

والثاني : أنها تتعلق بقوله : ﴿ أسكنت ﴾ ، فالمعنى : أسكنتُهم عند بيتك ليُقيموا الصلاة ، لأن البيت قِبلة الصلوات ، ذكره الماوردي .

(34/420)

---

قوله تعالى : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس ﴾ أي : قلوب جماعة من الناس .

قال ابن الأنباري : وإِنما عبَّر عن القلوب بالأفئدة ، لقُرب القلب من الفؤاد ومجاورته ، قال امرؤ القيس :

رَمَتْني بسَهْمٍ أَصابَ الفُؤادَ . . .

غَداةَ الرَّحيلِ فلَمْ أَنْتَصِرِ

وقال آخر :

كَأَنَّ فؤادِي كُلمَّا مَرَّ رَاكِبٌ . . .

جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضاً إِلى وِكْرِ

وقال آخر :

وإِنَّ فؤادًا قَادَني لِصَبَابَةٍ . . .

إِلَيْكِ عَلَى طُوْلِ الهَوى لَصَبُورُ

يعنون بالفؤاد : القلب .

قوله تعالى : ﴿ تهوي إليهم ﴾ قال ابن عباس : تَحِنُّ إليهم .

وقال قتادة : تنزع إليهم وقال الفراء : تريدهم ، كما تقول : رأيت فلاناً يَهوي نحوك ، أي :

يريدك .

وقرأ بعضهم : "تهوَى إليهم" بمعنى : تهواهم ، كقوله : ﴿ ردفَ لكم ﴾ [ النمل 72 ] أي :

ردفكم .

"وإلى" توكيد للكلام .

وقال ابن الأنباري : "تَهوي إليهم" : تنحط إليهم وتنحدر .

وفي معنى هذا المَيل قولان :

أحدهما : أنه المَيل إلى الحج ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه حُبُّ سُكنى مكة ، رواه عطية عن ابن عباس .

وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : لو كان إبراهيم قال : فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، لحجَّه اليهود والنصارى ، ولكنه قال : من الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(35/420)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً ﴾

يعني مكة وقد مضى في "البقرة" .

﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ أي اجعلني جانباً عن عبادتها ، وأراد بقوله : "بنيّ" بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية ، فما عبد أحد منهم صنماً .

وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له .

وقرأ الْجَحْدَرِيّ وعيسى "وَأَجْنِبْنِي" بقطع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمر ؛ وأجنبته وجَنَّبته إياه فتجانبه واجتنبه أي تركه .

وكان إبراهيم التِّيمِيّ يقول في قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول ﴿ واجنبنى

وبَنِيَّ أن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ كما عبدها أبي وقومي .

قوله تعالى : ﴿ ربِّ إنهن أضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس ﴾ لما كانت سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً ؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعل .

﴿ فمَن تبعَنِي ﴾ في التوحيد .

﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي من أهل ديني .

﴿ ومَنْ عصَانِي ﴾ أي أصرَّ على الشّرك .

﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به .

وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت .

وقال مقاتل بن حيان : "وَمَنْ عَصَانِي" فيما دون الشرك .

﴿ ربَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

فيه ست مسائل :



---

الأولى : روى البخاري عن ابن عباس : أول ما اتخذ النّساء المِنْطَق من قِبل أم إسمعيل ؛ اتخذت مِنْطَقاً لتُعفِّي أَثَرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسمعيل وهي ترضعه ،

حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم في أعلى المسجد ؛ وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ؛ ووضع عندهما جِراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيمُ منطلقاً فتبعته أمّ إسمعيل ؛ فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آللَّهُ أمرك بهذا ؟ قال : نعم .

(37/420)

---

قالت إذا لا يُضيِّعنا ؛ ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : "ربّ إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ" حتى بلغ "يَشْكُرُونَ" وجعلت أمّ إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفِد ما في السّقاء عطِشت وعطِش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يَتَلوّى أو قال يَتَلَبّط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً ، فهبطت من الصَّفا ، حتى إذا بلغت الوادي ، رفعت طَرَف دِرْعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، ثم جاوزت الوادي ، ثم أتت الْمَرْوة فقامت عليه ، فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ،

ففعلت ذلك سبع مرات ؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فذلك سعي الناس بينهما " فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمَّعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غواث ! فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبَحَث بعَقِبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تُحَوّضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سِقائها وهو يفور بعد ما تغرف ؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا مَعِيناً " قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك : لا تخافي الضَّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يُضيّع أهله ؛ وذكر الحديث بطوله .

مسألة : لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مَضيعة اتكالاً على العزيز الرحيم ، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقول غُلاة الصُّوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم .

وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسمعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطّفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة ، وترك ابنه وأَمَته هنالك وركب منصرفاً من يومه ، فكان ذلك كله بِوحيٍ من الله تعالى ، فلما ولّى دعا بضمن هذه الآية .

الثانية : لما أراد الله تأسيس الحال ، وتمهيد المقام ، وخطّ الموضع للبيت المكرم ، والبلد المحرم ، أرسل المَلَك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء .

وفي الصحيح : أن أبا ذرّ رضي الله عنه اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة ، قال أبو ذرّ : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمِنت حتى تكَسّرت عُكَني ، وما أجد على كبدي سَخْفَة جوع ؛ وذكر الحديث .

وروى الدّارَقُطْني عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ماء زمزم لِما شُرِب له ، إن شربتَه تشتفي به شفاك الله ، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به ، وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه ، وهي هَزْمة جبريل ، وسُقْيا الله إسمعيل " وروي أيضاً عن عِكرمة قال : كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء .

قال ابن العربي : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته ، وسلمت طويته ، ولم يكن به مكذّباً ، ولا يشربه مجرِّباً ، فإن الله مع المتوكلين ، وهو يفضح المجرّبين .

وقال أبو عبد الله محمد بن عليّ الترمذي وحدثني أبي رحمه الله قال : دخلت الطّواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني ، فجعلت أعتصر حتى آذاني ، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام ، وذلك أيام الحج ؛ فذكرت هذا الحديث ، فدخلت زمزم فتَضَلَّعْتُ منه ، فذهب عني إلى الصباح .

وروي عن عبد الله بن عمرو : إن في زمزم عيناً في الجنة من قِبل الركن .

(39/420)

---

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ "مِنْ" في قوله تعالى : "مِنْ ذُرِّيَّتِي" للتبعيض أي أسكنت بعض ذريتي ؛ يعني إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام .

وقيل : هي صلة ؛ أي أسكنت ذريتي .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدلّ على أن البيت كان قديماً على ما روي قبل الطُّوفان ، وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" .

وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم ، أي يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع واستحلال .

وقيل : محرّم على الجبابرة ، وأن تنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقّه ؛ قاله قتادة وغيره .

وقد مضى القول في هذا في "المائدة" .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ خَصَّهَا من جملة الدِّين لفضلها فيه ، ومكانها منه ، وهي عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "خمس صلوات كتبهن الله على العباد "

الحديث .

واللام في "لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ" لام كي ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقة ب "أَسْكَنْتُ" ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رغِب إلى الله ( أن يأتمنهم و ) أن يوفقهم لإقامة الصلاة .

السادسة : تَضمَّنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى "رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ" أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه .

(40/420)

---

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما

سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة" قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هذا الحديث حبيبُ المعلّم عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله بن الزّبير وجوّده ، ولم يخلّط في لفظه ولا في معناه ، وكان ثقة .

قال ابن أبي خَيْثَمة سمعت يحيى بن مَعِين يقول : حبيبُ المعلّم ثقة .

وذكر عبد الله بن أحمد قال سمعت أبي يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثَه ! وسئل أبو زُرْعة الرازيّ عن حبيب المعلم فقال : بصري ثقة .

قلت : وقد خرج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رَبَاح عن عبد الله بن الزبير عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الحافظ أُبو حاتم محمد بن حاتم التميمي البُستِي في المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف .

والحمد لله .

قال أبو عمر : وقد روي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير ؛ رواه موسى الجُهَني عن نافع عن ابن عمر ؛ وموسى الجهني ( الكوفي ) ثقة ، أثنى عليه القَطّان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة والثّوريّ ويحيى بن سعيد .

وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة في

مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه " وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرِّقّة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازيّ، وأخذ عنه ابن وضّاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به.

(41/420)

---

فإن كان حفِظ فهُما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم.

وروى محمد بن وضّاح، حدثنا يوسف بن عديّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل " قال أبو عمر: وهذا كله نصٌّ في موضع الخلاف قاطع له عند من أُلْهِمَ رشدَه، ولم تَمل به عصبيّته.

وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم على ما في هذا الباب.

وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كل بلد إلا مكة فإنها

تُصلَّى في المسجد الحرام.

وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدَّرْدَاء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعي، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين، وروي مثله عن مالك؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال: يا ربّ هذه أحب إليك أن تُعبدَ فيها؟ قال: بل مكة.

والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك؛ فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة.

قوله تعالى: ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهي القلوب، وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر:

وإن فؤاداً قادني بصَبَابَةٍ . . .

إليكِ على طولِ المَدَى لَصَبُورُ

وقيل: جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هي، فكأنه قال: واجعل وفوداً من الناس تَهْوي إليهم؛ أي تنزع؛ يقال: هوِي نحوه إذا مال، وهوت الناقة تَهوِي هُوِياً فهي هاوية إذا عدَت عدْواً شديداً كأنها في هواء بئر، وقوله: ﴿ تهوي إِلَيْهِمْ ﴾ مأخوذ منه.

قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : "مِنَ النَّاسِ" فهم المسلمون ؛ فقوله : "تَهْوِي إِلَيْهِمْ" أي تحنّ إليهم ، وتحنّ إلى زيارة البيت .

وقرأ مجاهد "تَهْوَى إِليهِم" أي تهواهم وتجلّهم .

﴿ وارزقهم مِّنَ الثمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه ، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يجلب إليهم من الأمصار .

وفي صحيح البخاريّ عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : " فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألهم عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ ، نحن في ضيق وشدة ؛ فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عَتَبة بابه ، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحدا قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنّا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاكِ بشيء : قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غيّر عَتَبة بابك ؛ قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقي بأهلك ؛ فطلقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، ودخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا .

قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله .

قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم .

قال فما شرابكم ؟ قالت : الماء .

قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه" "

قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ؛ وذكر الحديث .

*(43/420)*

---

وقال ابن عباس : قول إبراهيم ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ ﴾ سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكْنى بمكة ، فيصير بيتاً محرّماً ، وكل ذلك كان والحمد لله .

وأول من سكنه جُرْهُم .

ففي البخاريّ بعد قوله : وإن الله لا يُضيّع أهْلَه وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كُدًا ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر ليَدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء ؛ فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّين فإذا هُم بالماء ، فأخبروهم بالماء

فأقبلوا .

قال : وأمّ إسمعيل عند الماء ؛ فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم في الماء .

قالوا : نعم .

قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ( فألفى ) ذلك أمّ إسمعيل وهي تحب الأنس " فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، شَبَّ الغلامُ ، وماتت أم إسمعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسماعيل يطالع تَرِكَته ؛ الحديث .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(44/420)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾

يعني ذا آمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة .

فإن قلت : أي فرق بين قوله اجعل هذا بلداً آمناً وبين قوله اجعل هذا البلد آمناً ؟ قلت : الفرق بينهما أنه سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون

وسأل في الثاني أن يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمناً ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ يعني أبعدني وبنيّ أن نعبد الأصنام .

فإن قلت قد توجه على هذه الآية إشكالات وهي من وجوه : الأول أن إبراهيم دعا ربه أن يجعل مكة آمنة ثم إن جماعة من الجبابرة وغيرهم ، قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها .

الوجه الثاني : أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام معصومون عن عبادة الأصنام ، وإذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها .

الوجه الثالث : أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أيضاً أن يجنب بنيه عن عبادة الأصنام ، وقد وجد كثير من بنيه عبد الأصنام مثل كفار قريش ، وغيرهم ممن ينسب إلى إبراهيم عليه السلام .

قلت : الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه : فالجواب على الوجه الأول : من وجهين أحدهما أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء ، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب ، وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر أحد على خراب مكة ، وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة " أخرجاه في الصحيحين .

وأجيب عنه بأن قوله : اجعل هذا البلد آمناً يعني إلى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل : هو عام مخصوص بقصة ذو السويقتين فلا تعارض بين النصين .

(45/420)

---

الوجه الثاني : أن يكون المراد اجعل هذا البلد آمنين ، وهذا الوجه عليه أكثر العلماء من المفسرين وغيرهم علو هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله سبحانه وتعالى بقوله : ويتخطف الناس من حولهم ، وأهل مكة آمنون من ذلك حتى إن من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وما له من ذلك ، وحتى إن الوحوش إذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فإذا دخلت الحرم أمنت واستأنست لعلمها أنها لا يهيجها أحد في الحرم وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها وأما الجواب عن الوجه الثاني : فمن وجوه أيضاً : الوجه الأول : أن دعاء إبراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة التثبيت ، فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك .

الوجه الثاني : أن إبراهيم عليه السلام ، وإن كان يعلم أن الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه دعا بهذا الدعاء ، هضماً للنفس وإظهاراً للعجز والحاجة والفاقة إلى فضل الله تعالى ورحمته ، وأن أحداً لا يقدر على نفع نفسه بشيء لم ينفعه الله به فلهذا

السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه ، وهو الوجه الثالث من الإشكالات فالجواب عنه من وجوه : الأول أن إبراهيم دعا لبنيه من صلبه ، ولم يعبد أحد منهم صنماً قط .

الوجه الثاني : أنه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك أن إبراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم .

الوجه الثالث قال الواحدي : دعا لمن أذن الله أن يدعو له فكأنه قال : وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم لأن دعاء الأنبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص .

الوجه الرابع : أن هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه أنه قال في آخر الآية : فمن تبعني فإنه مني ، وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فليس منه ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .



---

وقوله تعالى ﴿ رب إنهن ﴾ يعني الأصنام ﴿ أضللن كثيراً من الناس ﴾ وهذا مجاز لأن الأصنام جمادات ، وحجارة لا تعقل شيئاً حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الإضلال

بعبادتها أضيف إليها كما تقول : فتنتهم الدنيا وغرتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ يعني فمن تبعني على ديني واعتقادي ، فإنه مني يعني المتدينين بديني المتمسكين بحبلي كما قال الشاعر :

إذا حاولت في أسد فجوراً . . .

فإني لست منك ولست مني

أراد ولست من المتمسكين بحبلي ، وقيل : معناه أنه مني حكمه حكمي جار مجراي في القرب والاختصاص ﴿ ومن عصاني ﴾ يعني في غير الدين ﴿ فإنك غفور رحيم ﴾ قال السدي : ومن عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم .

وقال مقاتل : ومن عصاني فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم .

وشرح أبو بكر بن الأنباري هذا فقال : ومن عصاني فخالفني في بعض الشرائع وعقائد التوحيد فإنك غفور رحيم إن شئت أن تغفر له غفرت إذا كان مسلماً وذكر وجهين آخرين أحدهما أن هذا كان قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك كما استغفر لأبويه ، وهو يقول أن ذلك غير محظور فلما عرف أنهما غير مغفور لهما تبرأ منهما والوجه الآخر ومن عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان ، والإسلام وتهديه إلى الصواب .

قوله إخباراً عن إبراهيم ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ (خ) عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل ، وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم منطقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم قالت إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم فدعا بهذه الدعوات فرفع يديه ؛ فقال : رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال : يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفاء أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليها ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم ترى أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي ( صلى الله

عليه وسلم ) " فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت :

صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتاً أيضاً فقالت : قد أسمعت أن كان عندك

غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بقعبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء

فجعلت تخوضه ، وتقول : بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها ، وهو يفور

بعدما تغرف " وفي رواية قدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه سلم : "

يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من

*(48/420)*

---

الماء لكانت زمزم عيناً معيناً " قال : فشربت وأرضعت ولدها .

فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله تعالى ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا

يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن

شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من

طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً .

فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي ، وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو

جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا ، وأم إسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا

أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا : قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه سلم : " فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا أهليهم ، فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم وأنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته " أخرجه البخاري بأطول من هذا ، وقد تقدم الحديث بطوله في تفسير سورة البقرة ، وأما تفسير الآية فقوله ربنا إني أسكنت من ذريتي من للتبعيض أي بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع يعني ليس فيه زرع ، لأنه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل أجياد وهو واد بمكة عند بيتك المحرم سماه محرماً لأنه يحترم عنده ما لا يحترم عند غيره ، وقيل : لأن الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به ، وبحرمته وجعل ما حوله محرماً لمكانه ، وشرفه وقيل : لأنه حرم على الطوفان بمعنى امتنع منه وقيل : سمي محرماً لأن الزائرين له يحرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمي عتيقاً أيضاً لأنه أعتق من الجبابرة أو من الطوفان .

فإن قلت : كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ ، وإنما بناه إبراهيم بعد ذلك .

قلت : يحتمل أن الله أوحى إليه وأعلمه أن هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان ، وأنه سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم ، وقيل : يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي كان ثم رفع عند الطوفان وقيل : يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ اللام في ليقيموا متعلقة بأسكنت يعني أسكنت قوماً من ذريتي ، وهم إسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا أي لأجل أن يقيموا أو ليكي يقيموا الصلاة ﴿ فاجعل أفئدة من الناس ﴾ قال البغوي جمع الموفد ﴿ تهوي إليهم ﴾ تحن وتشتاق إليهم .

قال السدي رحمه الله : أمل قلوبهم إلى هذا الموضع وقال ابن الجوزي أفئدة من الناس أي قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الأنباري : وإنما عبر عن القلوب بالأفئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب والفؤاد جارحتين .

وقال الجوهري : الفؤاد القلب والجمع أفئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من في قوله من الناس للتبعيض ، قال مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند .

وقال سعيد بن جبير : لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوي إليهم قال الأصمعي : يقال هوى يهوي هوياً إذا سقط من علو إلى أسفل وقال

الفراء تهوي إليهم تريدهم كما تقول : رأيت فلاناً يهوي نحوك معناه يريدك وقال أيضاً تهوي تسرع إليهم ، وقال ابن الأنباري : معناه تنحط إليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف وأما أقوال المفسرين وقال ابن الأنباري : معناه تنحط إليهم وتنحدر وتنزل هذا قول أهل اللغة في هذا الحرف وأما أقوال المفسرين فقال ابن عباس : يريد تحن إليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع إليهم .

(50/420)

---

وفي هذا بيان أن حنين الناس إليهم ، إنما هو لطلب حج البيت لا لأعيانهم ، وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي إليهم من الناس الزيارة البيت فقد جمع إبراهيم عليه السلام في هذا الدعاء من أمر الدين ، والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركاته ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ يعني كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزرع فيكو المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار ، وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى إليه ثمرات كل شيء .

وقوله تعالى ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ يعني لعلهم يشكرون هذه النعم التي أنعمت بها عليهم ،

وقيل : معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا ، إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(51/420)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

جنب مخففاً ، وأجنب رباعياً لغة نجد ، وجنب مشدداً لغة الحجاز ، والمعنى : منع ، وأصله من الجانب .

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام .

رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ : مناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وجعلوا لله أنداداً وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة من دون الله ، وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمه ، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم ، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة ، ودعا بأنْ يجنب بنيه عبادة الأصنام ، وأنه

أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة وهي الصلاة ، لينظروا في دين أبيهم ، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام ، فيزدجروا ويرجعوا عنها .

وتقدم الكلام على قوله هنا هذا البلد معرفاً ، وفي البقرة منكراً .

وقال الزمخشري : هنا سأل في الأول أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف ، فاجعله آمناً انتهى .

ودعا إبراهيم أولاً بما هو على طاعة الله تعالى ، وهو كون محل العابد أمناً لا يخاف فيه ، إذ يتمكن من عبادة الله تعالى ، ثم دعا ثانياً بأن يجنب هو وبنوه من عبادة الأصنام .

ومعنى واجنبني وبني : أدمني وإياهم على اجتناب عبادة الأصنام .

وأراد بقوله : وبنيَّ أولاده ، من صلبه الأقرباء .

وأجابه الله تعالى فجعل الحرم آمناً ، ولم يعبد أحد من بنيه الأقرباء لصلبه صنماً .

قال سفيان بن عيينة : وقد سئل ، كيف عبدت العرب الأصنام ؟ قال : ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنماً وكانوا ثمانية ، إنما كانت لهم حجارة ينصبوها ويقولون : حجر ، فحيث ما نصبوا حجراً فهو بمعنى البيت ، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار انتهى .

قال ابن عطية : وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ، ومن حصل في رتبته فكيف يخاف أن يعبد صنماً ؟ لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدي بها في الخوف وطلب الخاتمة .

وكرر النداء استعطافاً لربه تعالى ، وذكر سبب طلبه : أن يجنب هو وبنوه عبادة الأصنام بقوله : إنهن أضللن كثيراً من الناس ، إذ قد شاهد أباه وقومه يعبدون الأصنام .

ومعنى أضللنا : كنا سبباً لإضلال كثير من الناس ، والمعنى : أنهم ضلوا بعبادتها ، كما تقول : فتنتهم الدنيا أي : افتتنوا بها ، واغتروا بسببها .

وقرأ الجحدري ، وعيسى الثقفي : وأجنبني من أجنب ، وأنث الأصنام لأنه جمع ما لا يعقل يخبر عنه أخبار المؤنث كما تقول : الأجذاع انكسرت .

والإخبار عنه أخبار جمع العاقل المذكر بالواو ومجاز نحو قوله : فقد ضلوا كثيراً .

فمن تبعني أي : على ديني وما أنا عليه ، فإنه مني .

جعله لفرط الاختصاص به وملابسته كقوله : "من غشنا فليس منا" أي ليس بعض المؤمنين

تنبيهاً على تعظيم الغش بحيث هو يسلب الغاش الإيمان ، والمعنى : أن الغش ليس من أوصاف أهل الإيمان .

ومن عصاني ، هذا فيه طباق معنوي ، لأن التبعية طاعة فقوله : فإنك غفور رحيم .

قال مقاتل : ومن عصاني فيحادون الشرك .

وقال الزمخشري : تغفر لي ما سلف من العصيان إذا بدا لي فيه واستحدث الطاعة .

قال ابن عطية : ومن عصاني ظاهره بالكفر لمعادلة قوله : فمن تبعني فإنه مني ، وإذا كان كذلك فقوله : فإنك غفور رحيم معناه حين يؤمنوا ، لأنه أراد أن الله يغفر لكل كافر ، لكنه حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب (صلى الله عليه وسلم) .

(53/420)

---

وكذلك قال نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

الهوى : الهبوط بسرعة ، قال الشاعر :

وإذا رميت به الفجاج رأيته . . .

تهوي مخارمها هوى الأجدل

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ : كرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل ، والالتجاء إلى الله تعالى .

وأتى بضمير جماعة المتكلمين ، لأنه تقدم ذكره .

وذكر بنيه في قوله : واجنبني وبنيَّ ، ومن ذريتي هو إسماعيل ومن ولد منه .

وذلك هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها سارة ، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل ، فجاء في يوم واحد من الشام إلى مكة ، فنزل وترك ابنه وأمته هنالك ، وركب منصرفاً من يومه ذلك ، وكان هذا كله بوحي من الله تعالى ، فلما ولي دعا بما في ضمن هذه الآية .

وأما كيفية بقاء هاجر وما جرى لها ولاسماعيل هناك ففي كتاب البخاري والسير وغيره .

ومِن للتبعيض ، لأنّ إسحاق كان في الشام ، والوادي ما بين الجبلين ، وليس من شرطه أن يكون فيه ماء ، وإنما قال : غير ذي زرع ، لأنه كان علم أن الله لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي ، وأنه يرزقها الماء ، وإنما نظر النظر البعيد فقال : غير ذي زرع ، ولو لم يعلم ذلك من الله تعالى لقال : غير ذي ماء ، على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك .

قال ابن عطية : وقد يقال إن انتفاء كونه ذا زرع مستلزم لانتفاء الماء الذي لا يمكن أن يوجد

زرع إلا حيث وجد الماء ، فنفى ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء سببه وهو الماء .

وقال الزمخشري : بواد هو وادي مكة ، غير ذي زرع : لا يكون فيه شيء من زرع قط كقوله : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ، ما فيه إلا استقامة لا غير انتهى .

(54/420)

---

واستعمل قط وهي ظرف لا يستعمل إلا مع الماضي معمولاً لقوله : لا يكون ، وليس هو ماضياً ، وهو مكان أبداً الذي يستعمل مع غير الماضي من المستقبلات .

والظاهر أن قوله : عند بيتك المحرم ، يقتضي وجود البيت حالة الدعاء ، وسبقه قبله وتقدم الكلام في البيت ومتى وضع في البقرة ، وفي آل عمران .

ووصف بالمحرم لكونه حرم على الطوفان أي : منع منه ، كما سمي بعتيق لأنه أعتق منه فلم يستول عليه ، أو لكونه لم يزل عزيزاً ممنعاً من الجبابرة ، أو لكونه محترماً لا يحل انتهاكه .

وليقيموا متعلق بأسكنت .

وربنا دعاء معترض ، والمعنى : إنه لا يخلو هذا البيت المعظم من العبادة .

وقيل : هي لام الأمر ، دعا لهم بإقامة الصلاة .

وقال أبو الفرج بن الجوزي : اللام متعلقة بقوله : واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ليقيموا الصلاة انتهى .

وهذا بعيد جداً .

وخصّ الصلاة دون سائر العبادات لأنها أفضلها ، أو لأنها سبب لكل خير .

وقوله : ليقيموا بضمير الجمع دلالة على أن الله أعلمه بأن هذا الطفل سيعقب هنالك ، ويكون له نسل .

وأفئدة : جمع فؤاد وهي القلوب ، سمي القلب فؤاد لإنفاده مأخوذ من فأد ، ومنه المفتأد ، وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم .

وقال مؤرج الافئدة : القطع من الناس بلغة قريش ، وإليه ذهب ابن بحر .

قال مجاهد : لو قال ابراهيم عليه السلام : أفئدة الناس ، لازدحمت على البيت فارس والروم .

وقال ابن جبير : لحجته اليهود والنصارى .

والظاهر أنّ من للتبعيض ، إذ التقدير : أفئدة من الناس .

قال الزمخشري : ويجوز أن تكون مِن للابتداء كقولك : القلب مني سقيم يريد قلبي ، فكأنه قيل : أفئدة ناس ، وإنما نكر المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة ، لأنها في الآية نكرة لتتناول بعض الأفئدة انتهى .

ولا يظهر كونها لابتداء الغاية ، لأنها ليس لنا فعل يبتدأ فيه لغاية ينتهي إليها ، إذ لا يصح ابتداء جعل الأفئدة من الناس ، وإنما الظاهر في من التبعيض .

(55/420)

---

وقرأ هشام : أفئدة بياء بعد الهمزة ، نص عليه الحلواني عنه وخرج ذلك على الإشباع ، ولما كان الإشباع لا يكون إلا في ضرورة الشعر حمل بعض العلماء هذه القراءة على أنّ هشاماً قرأ بتسهيل الهمزة كالياء ، فعبر الراوي عنها بالياء ، فظن من أخطأ فهمه أنها بياء بعد الهمزة ، والمراد بياء عوضاً من الهمزة ، قال : فيكون هذا التحريف من جنس التحريف المنسوب إلى من روى عن أبي عمرو : بارئكم ويأمركم ، ونحوه بإسكان حركة لإعراب ، وإنما كان ذلك اختلاساً .

قال أبو عمرو والداني الحافظ : ما ذكره صاحب هذا القول لا يعتمد عليه ، لأنّ النقلة عن هشام وأبي عمر وكانوا من أعلم الناس بالقراءة ووجوهها ، وليس يفضي بهم الجهل إلى أن يعتقد فيهم مثل هذا وقرىء آفدة : على وزن فاعلة ، فاحتمل أن يكون اسم فاعل للحذف من أفد أي دنا وقرب وعجل أي : جماعة آفدة ، أو جماعات آفدة ، وأن يكون جمع ذلك فؤاد ، ويكون من باب القلب ، وصار بالقلب أأفدة ، فأبدلت الهمزة الساكنة ألفاً كما

قالوا .

في ارآم أآرام ، فوزنه أعفلة .

وقرئ أفدة على وزن فعله ، فاحتمل أن يكون جمع فؤاد وذلك بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الساكن قبلها وهو الفاء ، وإن كان تسهيلها بين بين هو الوجه ، وأن يكون اسم فاعل من أفد كما تقول : فرح فهو فرح .

وقرأت أم الهيثم : أفودة بالواو المكسورة بدل الهمزة .

قال صاحب اللوامح : وهو جمع وفد ، والقراءة حسنة : لكني لا أعرف هذه المرأة ، بل ذكرها أبو حاتم انتهى .

أبدل الهمزة في فؤاد بعد الضمة كما أبدلت في جون ، ثم جمع فأقرها في الجمع إقرارها في المفرد .

أو هو جمع وفد كما قال صاحب اللوامح ، وقلب إذ الأصل أوفده .

وجمع فعل على أفعلة شاذ نحو : نجد وأنجدة ، ووهى وأوهية .

وأم الهيثم امرأة نقل عنها شيء من لغات العرب .

وقرأ زيد بن علي : إفادة على وزن إشارة .

ويظهر أن الهمزة بدل من الواو المكسورة كما قالوا : اشاح في وشاح ، فالوزن فعالة أي : فاجعل ذوي وفادة .

ويجوز أن يكون مصدر أفاد إفادة ، أو ذوي إفادة ، وهم الناس الذين يفيدون وينتفع بهم .

وقرأ الجمهور : تهوي إليهم أي تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً ، ولما ضمن تهوي معنى تميل عداه بإلى ، وأصله أن يتعدى باللام .

قال الشاعر :

حتى إذا ما هوت كف الوليد بها . . .

طارت وفي كفه من ريشها تبك

ومثال ما في الآية قول الشاعر :

تهوى إلى مكة تبغي الهدى . . .

ما مؤمن الجن ككفارها

وقرأ مسلمة بن عبد الله : تهوي بضم التاء مبنياً للمفعول من أهوى المنقولة بهمزة التعدية من هوى اللازمة ، كأنه قيل : يسرع بها إليهم .

وقرأ علي بن أبي طالب ، وزيد بن علي ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، ومجاهد : تهوى مضارع هوى بمعنى أحب ، ولما ضمن معنى النزوع والميل عدى بإلى .

وارزقهم من الثمرات مع سكانهم وادياً ما فيه شيء منها بأن يجلب إليهم من البلاد كقوله : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ وروي عن مسلم بن محمد الطائفي أنه لما دعا عليه السلام بأن يرزق سكان مكة الثمرات ، بعث الله جبريل عليه السلام فاقتلع بجناحه قطعه من فلسطين .

وقيل : من الأردن فجاء بها ، وطاف بها حول البيت سبعاً ، ووضعها قريب مكة فهي الطائف .

وبهذه القصة سميت وهي موضع ثقيف ، وبها أشجار وثمرات .

وروي نحو منه عن ابن عباس .

لعلهم يشكرون .

قال الزمخشري النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد بباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء ، لا جرم أنّ الله عز وجل أجاب دعوة إبراهيم فجعله حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف ، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً ، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها الله .

بواد غير ذي زرع وهي : اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية

والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(57/420)

---

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجعل هذا البلد آمِنًا ﴾ تقدَّم تفسيره .

وقوله : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ : و ﴿ واجنبني ﴾ : معناه : امنعني ، يقال : جَنَبَهُ كَذَا ، وأَجْنَبَهُ ؛ إذا مَنَعَهُ من الأَمْر وحَمَاهُ منْه .

* ت * : وكذا قال * ص * : و«اجنبني» : معناه : امنعني ، أصله من الجَانِبِ ، وعبارةُ المَهْدَوِيِّ : أي : اجعلني جانباً من عبادتها .

وقال الثعلبيُّ : ﴿ واجنبني ﴾ ، أي : بعّدني واجعلني منْها على جانِبٍ بعيدٍ . انتهى ، وهذه الألفاظ كلُّها متقاربة المعاني ، وأراد إبراهيم عليه السلام بَنِيَّ صُلْبه ، وأما باقي نَسْله ، فمنهم مَنْ عبد الأصنام ، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراطَ خَوْفه علَى نفسه ومَنْ حصل في رتبته ، فكيف يَخَافُ أنْ يعبد صَنَماً ، لكن هذه الآية ينبغي أنْ يُقْتَدَى بها في الخَوْفِ ، وطَلَبِ حُسْنِ الخاتمة ، و ﴿ الأصنام ﴾ : هي المنحوتةُ

على خَلْقَة البَشَر، وما كان منحوتاً على غَيْرِ خلْقَة البَشَرِ، فهي أوثانٌ، قاله الطبريُّ عن مجاهد، ونسب إلى الأصنام أنها أَضَلَّتْ كثيراً من الناس تجوُّزاً، وحقيقةُ الإضلال إنما هي لمخترعها سبحانه، وقيل: أراد ب ﴿ الأصنام ﴾ هنا: الدنانيرُ والدَّرَاهم.

(58/420)

---

وقوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾: ظاهره بالكُفْر؛ لمعادلة قوله: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾، وإذا كان ذلك كذلك، فقوله: ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: معناه: بتوبَتِكَ على الكَفَرَة؛ حتى يؤمنوا لا أنَّه أراد أنَّ اللَّه يغفر لكَافِرٍ، وحمله على هذه العبارة ما كَانَ يأخذ نَفْسَهُ به من القَوْلِ الجميلِ، والنُّطْقِ الحسنِ، وجميلِ الأَدَبِ صلى الله عليه وسلم، قال قتادة: اسمعوا قَوْلَ الخليلِ صلى الله عليه وسلم: واللَّه ما كانُوا طَعَّانين ولا لَعَّانِين، وكذلك قولُ نبيِّ اللَّه عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: 118]، وأسند الطبريُّ عن عبد اللَّهِ بْن عَمْرٍو حديثاً: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم، تلا هاتَيْن الآيَتَيْنِ، ثم دعا لأمته فبَشَّرَ فيهم، وكان إبراهيمُ التَّيْمِيُّ يقول: مَنْ يأمن على نفْسه بَعْدَ خوف إبراهيمَ الخليل على نَفْسِهِ مِنْ عبادة الأصْنام.

وقوله: و ﴿ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾: يريد: إسماعيل عليه السلام، وذلك أَنَّ سارَّةَ لَمَّا غارَتْ

بهاجرَ بَعْدَ أَنْ ولدتْ إسماعيل ، تشوّش قلبُ إبراهيم مِنْهُما ، فروي أَنَّه رَكِبَ البُرَاقَ هو وهَاجَر ، والطفلُ ، فجاء في يَوْمٍ واحدٍ من الشام إلى بَطْنِ مَكَّة ، فتركَهُما هناك ، ورَكِبَ منصرفاً من يومه ذلك ، وكان ذلك كلُّه بوحْيٍ من اللَّه تعالى ، فلمَّا ولى ، دعا بمضمَّن هذه الآية ، وأمَّا كيفيّة بقاء هَاجرَ ، وما صَنَعتْ ، وسائِرُ خبرِ إسماعيل ، ففي كتابِ البخاريِّ وغيره ، وفي السير ، ذُكِرَ ذلك كلُّه مستوْعَباً .

(59/420)

---

* ت * : وفي «صحيح البخاري» من حديثه الطويل في قصَّة إبراهِيمَ مع هَاجَرَ وولدِهَا ، لما حَمَلَهُما إلى مكَّة ، قال : ولَيْس بمكَّة يومَئِذٍ أَحَدٌ ، وليس فيها ماءٌ ، فوضعهما هنالِكَ ، ووضَعَ عندهما جراباً فيه تمْر ، وسقاءً فيه ماءٌ ، ثم قَفَّى إبراهيم منطلقاً ، فتبعَتْهُ أمُّ إسماعيل ، فقالَتْ : يا إبراهيم ، أينَ تَذْهَبُ ، وتَتْرُكُنَا بهذا الوادِي الذي لَيْسَ فيهِ أَنِيسٌ ، ولا شَيْء ، فقالَتْ له ذلك مِرَارا ، وجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إليها ، فقالَتْ لَهُ : آللَّه أمرَكَ بهذا ؟ قال : نعمْ ، قالت : إذَنْ لاَ يُضيّعُنَا ، ثم رجَعَتْ ، فانطلق إبراهيمُ حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ ، استقبل بوجهه الْبَيْتَ ، ثم دعا بهؤلاءِ الدعَواتِ ، ورَفَعَ يَدَيْه ، فقال : « رَبِّ ﴿

إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ، حتى بَلَغَ : ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ .

(60/420)

---

. . »الحديثَ بطوله وفي الطريقِ : «قالَتْ : يا إبراهيم إلى مَنْ تَتْرُكُنَا ؟ قال : إلى اللَّه عزَّ وَجَلَّ ، قَالَتْ : رَضِيتُ . انتهى . وفي هذا الحديثِ مِنَ الفوائِدِ لأرباب القلوب والمتوكِّلين وأهْلِ الثقة باللَّه سُبْحَانه ما يَطُول بنا سرْدُهَا ، فإليك استخراجها ، ولما انقطعَتْ هاجَرُ وابنها إلى اللَّه تعالى ، آواهما اللَّه ، وأَنْبَعَ لهما ماءَ زَمْزَمَ المباركَ الذي جعَله غذاءً ، قال ابنُ العربي : وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " مَاءُ زَمْزَمَ لمَا شُرِبَ لَهُ " . قال ابن العربيّ : ولقد كُنْتُ مقيماً بمكَّة سنةَ سَبْعٍ وثمانينَ وأربعمائة ، وكنتُ أَشْرَبُ ماءَ زَمْزَمَ كثيراً ، وكلَّما شربْتُ ، نَوَيْتُ بِهِ العِلْمَ والإيمانَ ، ونَسِيتُ أنْ أشربه للعمَلِ ، ففتح لي في العِلْم ، ويا لَيْتَنِي شرِبْتُه لهما معاً ؛ حتى يُفْتَحَ لي فيهما ، ولم يُقَدَّر ، فكان صَغْوِي إلى العلْمِ أَكْثَرَ منه إلى العمل ، انتهى من «الأحكام» .

و«من» ؛ في قوله : و ﴿ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ ؛ للتبعيضِ ؛ لأن إسحاق كان بالشَّام ، و«الوادِي» : ما بين الجبَلَيْن ، وليس مِنْ شرطه أَنْ يكون فيه ماءٌ ، وجَمْعُه الضميرَ في قوله : ﴿ لِيُقِيمُواْ

﴾ : يدلُّ على أن اللَّه قد أعلمه أنّ ذلك الطِّفْلَ سَيُعْقِبُ هناك ، ويكونُ له نسلٌ ، واللام في ﴿ لِيُقِيمُواْ ﴾ : لامُ كي ؛ هذا هو الظاهر ، ويصحُّ أَنْ تكون لام الأمر ؛ كأنه رَغِبَ إلى اللَّه سبحانه أَنْ يوفّقهم لإِقامة الصلاة ، و«الأَفئدة» القلوبُ جمْع فؤادٍ ، سمّي بذلك ، لاتّقَادِهِ ، مأخوذ من «فَأَدَ» ، ومنه : «المُفْتَأَدُ» ، وهو مستوقَدُ النَّار حيث يُشْوَى اللحْمُ .

وقوله : ﴿ مِّنَ النَّاسِ ﴾ : تبعيضٌ ، ومراده المؤمنون ، وباقي الآية بيِّن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(61/420)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾

أي واذكر وقتَ قوله عليه الصلاة والسلام ، والمقصودُ من تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل ، والمرادُ به تأكيدُ ما سلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فنٍ آخرَ من جناياتهم حيث كفروا بالنعم العامة وعصَوا أباهم إبراهيمَ عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لإقامة الصلاةِ والاجتنابِ عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى ، وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقَهم من الثمرات وتهوي قلوبُ

الناس إليهم من كل أَوب سحيقٍ فاستجاب الله تعالى دعاءَه وجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمراتُ كل شيء فكفروا بتلك النعم العظامِ واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أنداداً وفعلوا ما فعلوا ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد ﴾ يعني مكةَ شرفها الله سبحانه ﴿ مِنَ ﴾ أي ذا أمْنٍ أو آمناً أهلُه بحيث لا يُخاف فيه ، على ما مر في سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أن المسؤولَ هناك البلديةُ والأمنُ معها ، وها هنا الأمنُ فقط حيث جُعل هو المفعولَ الثانيَ للجعل وجُعل البلدَ صفةً للمفعول الأول ، فإن حُمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولاً كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخر الآخرُ إلى وقته المقدّر لما يقتضيه من الحكمة الداعيةِ إليه ، ثم كَرّر السؤالَ كما هو المعتاد في الدعاء والابتهالِ ، أو كان المسؤول أُولاً مجردَ الأمنِ المصحّحِ للسكن كما في سائر البلاد وقد أجيب إليه ، وثانياً الأمنَ المعهودَ أو كان هو المسؤولَ فيهما وقد أجيب إليه أيضاً لكن السؤالَ الثانيَ للاستدامة ، والاقتصارُ على ذلك لأنه المقصودُ الأصلي أو لأن المعتادَ في البلدية الاستمرارُ بعد التحقق بخلاف الأمن ، وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادرُ فالظاهرُ أن المسؤول كِلا الأمرين ، وقد حكي أولاً واقتُصر ها هنا على حكاية سؤال الأمنِ لا لمجرد أن نعمةَ

الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر فذِكرُه أنسبُ بمقام تقريعِ الكفرة على إغفاله كما قيل بل لأن سؤال البلدية قد حكي بقوله تعالى : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ إذ المسؤولُ هُوِيّتُها إليهم للمساكنة معهم لا للحج فقط وهو عينُ سؤال البلدية قد حكي بعبارة أخرى وكان ذلك أولَ ما قدِم عليه السلام مكةَ ، كما روى سعيدُ بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن إسماعيلَ وهاجرَ هناك وعاد متوجهاً إلى الشام تبِعتْه هاجرُ وجعلت تقول : إلى من تكِلُنا في هذا البلقع ؟ وهو لا يرد عليها جواباً حتى قالت : آللهُ أمرك بهذا ؟ فقال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيّعنا فرضِيَت ، ومضى حتى إذا استوى على ثنية كَداء أقبل على الوادي فقال :

﴿ رَّبَّنَا إِنَّى أَسْكَنتُ ﴾ الآية ، وإنما فصل ما بينهما تثنية للامتنان وإيذاناً بأن كلاًّ منهما نعمةٌ جليلةٌ مستتبعة لشكر كثير في قصة البقرة .

﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ ﴾ بعّدني وإياهم ﴿ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ واجعلنا منها في جانب بعيد أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام ، وقرىء وأجنِبْني من الإفعال ، وهما لغة أهلِ نجد ، يقولون : جنّبني شرّه وأجنبْني شرّه ، وأما أهلُ الحجاز فيقولون : جنّبني شره وفيه دليل على أن عصمةَ الأنبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى ، والظاهرُ أن المراد ببنيه أولادُ الصلبية فلا احتجاجَ به لابن عيينة رضي

الله عنه على أن أحداً من أولاد إسماعيلَ عليه السلام لم يعبُد الصنم وإنما كان لكل قومٍ حجرٌ نصبوه ، وقالوا : هو حجرٌ والبيتُ حجر ، فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار ، فاستُحب أن يقال : طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت ، وليت شعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم من قوارعَ تنعي على قريش عبادةَ الأصنام على أن فيما ذكره كرٌّ على ما فر منه .

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾

(63/420)

---

أي الأصنامَ ﴿ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي تسببن له كقوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ وهو تعليل لدعائه وإنما صدّره بالنداء إظهاراً لاعتنائه به ورغبةً في استجابته ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملةِ الإسلام ﴿ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ أي بعضي قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصِه به ، أو متصلٌ بي لا ينفك عني في أمر الدين ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ أي لم يتبعْني ، والتعبيرُ عنه بالعصيان للإيذان بأن عليه السلام مستمرُّ الدعوة وأن عدم اتباعِ من لم يتبعْه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلُغْه الدعوة ﴿ فَإِنَّكَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قادر على أن تغفِرَ له وترحَمه ابتداءً أو بعد توبته ، وفيه أن كل ذنبٍ فلَّله تعالى أن يغفرَه حتى الشركُ خلا أن الوعيدَ قضى بالفرق بينه وبين غيره .

(64/420)

---

﴿ رَبَّنَا ﴾ آثر عليه السلام ضمير الجماعةِ لا لما قيل من تقدم ذكرِه وذكرِ بنيه وإلا لراعاه في قوله : ربّ إنهن الخ ، لأن الدعاء المصدّرَ به وما أورده بصدد تمهيدِ مبادي إجابتِه من قوله : ﴿ إِنِّى أَسْكَنتُ ﴾ الآية ، متعلقٌ بذريته فالتعرضُ لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول وإجابةِ المسؤول ﴿ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي بعضهم أو ذريةً من ذريتي فحُذف المفعولُ وهو إسماعيلُ عليه السلام وما سيولد له فإن إسكانَه حيث كان على وجه الاطمئنانِ متضمّنٌ لإسكانهم . روي أن هاجرَ أمَّ إسماعيلَ عليه السلام كانت لسارة فوهبتْها من إبراهيمَ عليه السلام فلما ولدت له إسماعيلَ عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يُخرجَهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكةَ فأظهر الله تعالى عينَ زمزم ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ لا يكون فيه زرعٌ أصلاً وهو وادي مكةَ شرفها الله تعالى ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ﴾ ظرف لأسكنتُ ، كقولك : صليت بمكةَ عند الركنِ ، لا أنه صفةٌ لوادٍ أو بدل منه ، إذ

المقصودُ إظهارُ كونِ ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاءِ إلى جواره الكريم كما ينبىء عنه التعرّضُ لعنوان الحرمةِ المؤذِن بعزة الملتجأ وعصمتِه عن المكاره في قوله تعالى : ﴿ المحرم ﴾ حيث حُرّم التعرضُ له والتهاونُ به أو لم يزل معظّماً ممنّعاً يهابه الجبابرةُ في كل عصر ، أو مُنع منه الطوفان فلم يستولِ عليه ولذلك سمي عَتيقاً ، وتسميتُه إذ ذاك بيتاً ولم يكن له بناءٌ وإنما كان نشْزاً مثلَ الرَّابية تأتيه السيول فتأخذ ذاتَ اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما سيؤول إليه الأمرُ من بنائه عليه السلام فإنه ينزِع إلى اعتبار عنوانِ الحرمة أيضاً كذلك بل إنما هي باعتبار ما كان من قبل فإن تعدد بناءِ الكعبةِ المعظمةِ مما لا ريب فيه وإنما الاختلافُ في كمية عددِه وقد ذكرناها في سورة البقرة بفضل الله تعالى .

(65/420)

---

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ ﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به ، وهو متعلقٌ بأسكنتُ وتخصيصُها بالذكر من بين سائرِ شعائرِ الدينِ لفضلها ، وتكريرُ النداءِ وتوسيطُه لإظهار كمالِ العنايةِ بإقامة الصلاةِ والاهتمامِ بعرض أن الغرضَ من إسكانهم بذلك الوادي البلقعِ ذلك المقصدُ الأقصى والمطلب الأسنى ، وكلُّ ذلك لتمهيد مبادىء إجابة دعائِه وإعطاء مسؤولِه الذين

لا يتسنى ذلك المرامُ إلا به ، ولذلك أُدخل عليه الفاء فقال : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس ﴾ أي أفئدةً من أفئدتهم ، فمن للتبعيض ، ولذلك قيل : لو قال : أفئدةَ الناسِ لازدحمت عليهم فارسُ والروم ، وأما ما زيد عليه من قولهم : ولَحجّت اليهودُ والنصارى فغيرُ مناسب للمقام إذ المسؤول توجيهُ القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهُها إلى البيت للحج ، وإلا لقيل : تهوي إليه ، فإنه عينُ الدعاء بالبلدية قد حكي بعبارة أخرى كما مر ، أو لابتداء الغاية كقولك : القلبُ منّي سقيمٌ أي أفئدةَ ناسٍ ، وقرىء آفدةً على القلب كآدر في أدؤر أو على أنه اسم فاعل من أفدت الرحلة أي عجلت أي جماعةً من الناس وأَفِدةً بطرح الهمزة من الأفئدة أو على النعت من أفد ﴿ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً ، وقرىء على البناء للمفعول من أهواه غيرُه وتهوى من باب علم أي تحبّ ، وتعديته بإلى لتضمُّنه معنى الشوقِ والنزوعِ وأول آثارِ هذه الدعوة ما روي أنه مرت رِفقةٌ من جُرهُم تريد الشامَ فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل فقالوا : إن هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فإذا هم بهاجرَ ، فقالوا لها : إن شئت كنا معك وآنسناك والماءُ ماؤك فأذِنت لهم وكانوا معها إلى أن شبّ إسماعيلُ عليه السلام وماتت هاجرُ فتزوج إسماعيلُ منهم كما هو المشهور .

﴿ وارزقهم ﴾ أي ذريتي الذين أسكنتُهم هناك أو مع من ينحاز إليهم من الناس . وإنما لم يخصَّ الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله : ﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ ءامَنَ مِنْهُم بالله واليوم الأخر ﴾ اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة ﴿ مِنَ الثمرات ﴾ من أنواعها بأن يَجعلَ بقرب منه قُرىً يحصُل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطار الشاسعةِ وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يوم واحد ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الطائفَ كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيمُ عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقاً للحرَم . وعن الزهري رضي الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشامِ فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيمَ عليه السلام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاةِ وأداءِ سائر مراسمِ العبودية ، وقيل : اللامُ في ليقيموا لامُ الأمرِ والمرادُ أمرُهم بإقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء في قوله تعالى : ﴿ فاجعل ﴾ الخ ، وفي دعائه عليه السلام من مراعاة حسنِ الأدبِ والمحافظة على قوانين الضَّراعةِ وعرضِ الحاجة واستنزالِ الرحمةِ واستجلابِ الرأفة ما لا يخفى ، فإنه عليه السلام بذكر كونِ الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيّن كمالَ افتقارِهم إلى المسؤول ، وبذكر كونِ إسكانِهم عند البيت المحرم أشار إلى أن جوارَ الكريم يستوجب إفاضةَ النعيم ، وبعرض كونِ ذلك الإسكانِ مع كمالِ إعوازِ مرافقِ المعاش لمحض إقامةِ الصلاةِ وأداء حقوقِ البيت

مهّد جميعَ مبادي إجابةِ السؤال ، ولذلك قُرنت دعوتُه عليه السلام بحُسنِ القبول . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(67/420)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾

مفعول لفعل محذوف أي اذكر ذلك الوقت ، والمقصود تذكير ما وقع فيه على نهج ما قيل في أمثاله ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد ﴾ يعني مكة شرفها الله تعالى : ﴿ ءامَنًا ﴾ أي ذا أمن ، فصيغة فاعل للنسب كلابن وتامر لأن الآمن في الحقيقة أهل البلد ، ويجوز أن يكون الإسناد مجازياً من إسناد ما للحال إلى المحل كنهر جار ، والفرق بين ما هنا وما في البقرة ( 126 ) من قوله : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أنه عليه السلام سأل في الأول : أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني : أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمناً كذا في "الكشاف" ، وتحقيقه أنك إذا قلت : اجعل هذا خاتماً حسناً فقد أشرت إلى المادة طالباً أن يسبك منها خاتم حسن ؛ وإذا قلت : اجعل هذا الخاتم حسناً فقد قصدت الحسن دون الخاتمية ،

وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثاني لأنه بمنزلة الخبر ، وإلى هذا يرجع ما قيل في الفرق أن في الأول سؤال أمرين البلدية والأمن وههنا سئال أمر واحد وهو الأمن .

واستشكل هذا التفسير بأنه يقتضي أن يكون سؤال البلدية سابقاً على السؤال المحكي في هذه السورة وأنه يلزم أن تكون الدعوة الأولى غير مستجابة .

(68/420)

---

قال في الكشف : والتفصي عن ذلك إما بأن المسؤول أولاً : صلوحه للسكنى بأن يؤمن فيه أهله في أكثر الأحوال على المستمر في البلاد فقد كان غير صالح لها بوجه على ما هو المشهور في القصة ، وثانياً : إزالة خوف عرض كما يعتري البلاد الآمنة أحياناً ، وأما بالحمل على الاستدامة وتنزيله منزلة العاري عنه مبالغة أو بأن أحدهما أمن الدنيا والآخر أمن الآخرة أو أن الدعاء الثاني صدر قبل استجابة الأول ، وذكر بهذه العبارة إيماء إلى أن المسؤول الحقيقي هو الأمن والبلدية توطئة لا أنه بعد الاستجابة عراه خوف ، وكأنه بنى الكلام على الترقي فطلب أولاً أن يكون بلد آمناً من جملة البلاد التي هي كذلك ، ثم لتأكيد الطلب جعله مخوفاً حقيقة فطلب الأمن لأن دعاء المضطر أقرب إلى الإجابة ولذا ذيله عليه السلام بقوله : ﴿ إِنِّى أَسْكَنتُ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] الخ اه .

وهو مبني على تعدد السؤال وإن حمل على وحدته وتكرير الحكاية كما استظهره بعضهم ، واستظهر آخرون الأول لتغاير التعبير في المحلين ، فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين وقد حكى أولاً ، واقتصر ههنا على حكاية سؤال الأمن لأن سؤال البلدية قد حكى بقوله : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] إذ المسؤول هويها إليهم للمساكنة كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا للحج فقط وهو عين سؤال البلدية وقد حكى بعبارة أخرى على ما اختاره بعض الأجلة أو لأن نعمة الأمن أدخل في استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على إغفاله على ما قيل ، وهذه الآية وما تلاها أعني قصة إبراهيم عليه السلام على ما نص عليه صاحب الكشف واردة على سبيل الاعتراض مقررة لما حث عليه من الشكر بالإيمان والعمل الصالح وزجر عنه من مقابلهما مدمجاً فيها دعوة هؤلاء النافرين بلسان اللطف والتقريب مؤكدة لجميع ما سلف أشد التأكيد .

*(69/420)*

---

وفي إرشاد العقل السليم أن المراد منها تأكيد ما سلف من تعجيبه صلى الله عليه وسلم ببيان فن آخر من جنايات القوم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة

وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام حيث أسكنهم مكة زادها الله تعالى شرفاً فالإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات ويهوى قلوب الناس إليهم فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا دار البوار بالبلد الحرام وجعلوا لله تعالى أنداداً وفعلوا ما فعلوا من القبائح الجسام ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ ﴾ أي بعدني وإياهم ﴿ أَن نَّعْبُدَ الاصنام ﴾ أي عن عبادتها ، وقرأ الجحدري .

وعيسى الثقفي ﴿ واجنبنى ﴾ بقطع الهمزة وكسر النون بوزن أكرمني وهما لغة أهل نجد يقولون : جنبه مخففاً وأجنبه رباعياً وأما أهل الحجاز فيقولون : جنبه مشدداً ، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غير ما عليه غيره ثم استعمل بمعنى البعد ، والمراد هنا على ما قال الزجاج طلب الثبات والدوام على ذلك أي ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام وإلا فالأنبياء معصومون عن الكفر وعبادة غير الله تعالى .

وتعقب ذلك الإمام بأنه لما كان من المعلوم أنه سبحانه يثبت الأنبياء عليهم السلام على الاجتناب فما الفائدة في سؤال التثبيت ؟ ثم قال : والصحيح عندي في الجواب وجهان : الأول : أنه عليه السلاموإن كان يعلم أن الله تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضماً لنفسه وإظهاراً للحاجة والفاقة إلى فضل الله سبحانه وتعالى في كل المطالب ،

والثاني : أن الصوفية يقولون : الشرك نوعان .

ظاهر وهو الذي يقول به المشركون .

(70/420)

---

وخفي وهو تعلق القلب بالوسائط والأسباب الظاهرة والتوحيد المحض قطع النظر عما سوى الله تعالى ، فيحتمل أن يكون مراده عليه السلام من هذا الدعاء العصمة عن هذا الشرك انتهى ، ويرد على هذا الأخير أنه يعود السؤال عليه فيما أظن لأن النظر إلى السوي يحاكي الشرك الذي يقول به المشركون عند الصوفية فقد قال قائلهم :

ولو خطرت لي في سواك إرادة . . .

على خاطري سهواً حكمت بردتي

ولا أظن أنهم يجوزون ذلك للأنبياء عليهم السلام ، وحيث بنى الكلام على ما قرروه يقال : ما فائدة سؤال العصمة عن ذلك والأنبياء عليهم السلام معصومون عنه ؟ والجواب الصحيح عندي ما قيل : إن عصمة الأنبياء عليهم السلام ليست لأمر طبيعي فيهم بل بمحض توفيق الله تعالى إياهم وتفضله عليهم ، ولذلك صح طلبها وفي بعض الآثار أن الله سبحانه قال لموسى عليه السلام : يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوز الصراط .

وأنت تعلم أن المبشرين بالجنة على لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام كانوا كثيراً ما يسألون الله تعالى الجنة مع أنهم مقطوع لهم بها ، ولعل منشأ ذلك ما قيل لموسى عليه السلام فتدبر ، والمتبادر من بنيه عليه السلام من كان من صلبه ، فلا يتوهم أن الله تعالى لم يستجب دعاءه لعبادة قريش الأصنام وهم من ذريته عليه السلام حتى يجاب بما قاله بعضهم من أن المراد كل من كان موجوداً حال الدعاء من أبنائه ولا شك أن دعوته عليه السلام مجابة فيهم أو بأن دعاءه استجيب في بعض دون بعض ولا نقص فيه كما قال الإمام .

*(71/420)*

---

وقال سفيان بن عيينة : إن المراد ببنيه ما يشمل جميع ذريته عليه السلام وزعم أنه لم يعبد أحد من أولاد إسماعيل عليه السلام الصنم وإنما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هذا حجر والبيت حجر وكانوا يدورون به ويسمونه الدوار ولهذا كره غير واحد أن يقال دار بالبيت بل يقال طاف به ، وعلى ذلك أيضاً حمل مجاهد البنين وقال : لم يعبد أحد من ولد إبراهيم عليه السلام صنماً وإنما عبد بعضهم الوثن ، وفرق بينهما بأن الصنم هو التمثال المصور والوثن هو التمثال الغير المصور ، وليت شعري كيف ذهبت على هذين الجليلين ما في القرآن من قوارع تنعي على قريش عبادة الأصنام .

وقال الإمام بعد نقله كلام مجاهد : إن هذا ليس بقوي لأنه عليه السلام لم يرد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله تعالى والصنم كالوثن في ذلك ويرد مثله على ابن عيينة ، ومن هنا قيل عليه : إن فيما ذكره كراً على ما فر منه لأن ما كانوا يصنعونه عبادة لغير الله تعالى أيضاً : واستدل بعض أصحابنا بالآية على أن التبعيد من الكفر والتقريب من الايمان ليس إلا من الله تعالى لأنه عليه السلام إنما طلب التبعيد عن عبادة الأصنام منه تعالى ، وحمل ذلك على الألطاف فيه ما فيه .

(72/420)

---

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾ أي الأصنام ﴿ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَاس ﴾ أي تسببن له في الضلال فإسناد الإضلال إليهن مجازي لأنهن جماد لا يعقل منهن ذلك والمضل في الحقيقة هو الله تعالى ، وهذا تعليل لدعائه عليه السلام السابق ، وصدر بالنداء إظهاراً للاعتناء به ورغبة في استجابته ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام ﴿ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية على التشبيه أي فإنه كبعضي في عدم الانفكاك ، يحتمل ويحتمل أن تكون اتصالية كما في قوله صلى الله عليه وسلم لعليّ كرم الله تعالى وجهه : "أنت مني بمنزلة هرون من موسى" أي فإنه متصل بي لا ينفك عني في أمر

الدين ، وتسميتها اتصالية لأنه يفهم منها اتصال شيء بمجرورها وهي ابتدائية إلا أن ابتدائية باعتبار الاتصال كذا في "حواشي شرح المفتاح الشريفي" ، يعني أن مجرورها ليس مبدأً أو منشأً لنفس ما قبلها بل لاتصاله ، فإما أن يقدر متعلقها فعلاً خاصاً كما قاله الجلال السيوطي في بيان الخبر من أن ﴿ مِنّي ﴾ فيه خبر المبدأ ﴿ وَمَنْ ﴾ اتصالية ومتعلق الخبر خاص والباء زائدة بمعنى أنت متصل بي ونازل مني بمنزلة هرون من موسى ، وإما أن يقدر فعل عام كما ذهب إليه الشريف هناك أي منزلته بمنزلة كائنة وناشئة مني كمنزلة هرون من موسى عليهما السلام ، وتقديره خاصة هنا كما فعلنا على تقدير جعلها اتصالية مما يستطيبه الذوق السليم دون تقديره عاماً ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ أي لم يتبعني ، والتعبير عنه بالعصيان كما قيل للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأن الدعوة لم تبلغه .

(73/420)

---

وفي "البحر" أن بين الاتباع والعصيان طباقاً معنوياً لأن الاتباع طاعة ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي قادر على أن تغفر له وترحمه ، وفي الكلام على ما أشار إليه البعض حذف والتقدير ومن عصاني فلا أدعو عليه فإنك الخ ، وفي الآية دليل على أن الشرك يجوز أن يغفر ولا

إشكال في ذلك بناء على ما قال النووي في "شرح مسلم" من أن مغفرة الشرك كانت في الشرائع القديمة جائزة في أممهم وإنما امتنعت في شرعنا .

واختلف القائلون بأن مغفرة الشرك لم تكن جائزة في شريعة من الشرائع في توجيه الآية ، فمنهم من ذهب إلى أن المراد غفور رحيم بعد التوبة ونسب ذلك إلى السدي .

ومنهم من ذهب إلى تقييد العصيان بما دون الشرك وغفل عمل تقتضيه المعادلة .

وروى ذلك عن مقاتل .

وفي رواية أخرى عنه أنه قال : إن المعنى ومن عصاني بإقامته على الكفر فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان والإسلام وتهديه إلى الصواب .

ومنهم من قال : المعنى ومن لم يتبعني فيما أدعو إليه من التوحيد وأقام على الشرك فإنك قادر على أن تستره عليه وترحمه بعدم معاجلته بالعذاب ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ [ الرعد : 6 ] ومنهم من قال : إن الكلام على ظاهره وكان ذلك منه عليه السلام قبل أن يعلم أن الله سبحانه لا يغفر الشرك ، ولا نقص بجهل ذلك لأن مغفرة الشرك جائزة عقلاً كما تقرر في الأصول لكن الدليل السمعي منع منها ، ولا يلزم النبي أن يعلم جميع الأدلة السمعية في يوم واحد .

والإمام لم يرتض أكثر هذه الأوجه وجعل هذا الكلام منه عليه السلام شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة وأنه دليل لحصول ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم فقال : إن المعصية المفهومة من الآية إما أن تكون من الصغائر أو من الكبائر بعد التوبة أو قبلها ، والأول والثاني باطلان لأن ﴿ مِنْ عَصَانِى ﴾ مطلق فتخصيصه عدول عن الظاهر ، وأيضاً الصغائر والكبائر بعد التوبة واجبة الغفر إن عند الخصم فلا يمكن اللفظ عليه فثبت أن الآية شفاعة لأهل الكبائر قبل التوبة ، ومتى ثبتت منه عليه السلام ثبتت في حق نبينا عليه السلام والسلام لمكان ﴿ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ [ النحل : 123 ] ونحوه ، ولئلا يلزم النقص وهو كما ترى ، وقد مر لك ما ينفعك في هذا المقام فتذكر هداك الله تعالى .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

﴿ رَبَّنَا ﴾ قال في "البحر" كرر النداء رغبة في الإجابة والالتجاء إليه تعالى ، وأتى بضمير الجماعة لأنه تقدم ذكره عليه السلام وذكر بنيه في قوله : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ ﴾ [ إبراهيم : 35 ] وتعقب بأن ذلك يقتضي ضمير الجماعة في ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾ [ إبراهيم : 36 ] الخ مع أنه جيء فيه بضمير الواحد ، فالوجه إن ذلك لأن الدعاء المصدر به وما هو بصدد تمهيد مبادىء إجابته من قوله : ﴿ إِنِّى أَسْكَنتُ ﴾ الخ متعلق بذريته ، فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل في القبول وإجابة المسؤول ، والتأكيد لمزيد الاعتناء فيما قصده من

الخبر ﴿ وَمِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ بمعنى بعض وهي في تأويل المفعول به أي أسكنت بعض ذريتي ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً والجار والمجرور صفته سدت مسده أي أسكنت ذرية من ذريتي ﴿ وَمِنْ ﴾ تحتمل التبعيض والتبيين .

(75/420)

---

وزعم بعضهم أن ﴿ مِنْ ﴾ زائدة على مذهب الأخفش لا يرتضيه سليم البصيرة كما لا يخفى ، والمراد بالمسكن إسماعيل عليه السلام ومن سيولد له فإن إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لإسكانهم ، والداعي للتعميم على ما قيل قوله الآتي : ﴿ لِيُقِيمُواْ ﴾ الخ ، ولا يخفى أن الإسكان له حقيقة ولأولاده مجاز ، فمن لم يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز يرتكب لذلك عموم المجاز ، وهذا الإسكان بعد ما كان بينه عليه السلام وبين أهله ما كان .

(76/420)

---

وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها من إبراهيم عليه السلام فلما ولدت له إسماعيل غارت فلم تقاره على كونه معها فأخرجها وابنها إلى أرض مكة فوضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلا المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى منطلقاً فتبعته هاجر فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذن لا يضيعنا ثم رجعت ، وانطلق عليه السلام حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت وكان إذ ذاك مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ رَبَّ إِنِّي أَسْكَنتُ إلى لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ثم أنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما في السقاء حتى إذا نفد عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر فهبطت حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزته ثم أتت المروءة فقامت عليها ونظرت هل ترىء أحداً فلم تر ففعلت ذلك سبع مرات ولذلك سعى الناس بينهما سبعاً ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسه ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم

فبحث بعقبه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتغرف منه في سقائها وهو يفور فشربت وأرضعت ولدها وقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله سبحانه لا يضيع أهله ، ثم أن مرت بهما رفقة من جرهم فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : لا طير إلا على الماء فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده ، فقالوا :

(77/420)

---

أشركينا في مائك نشركك في ألبانا ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل عليه السلام زوجوه أمرأة منهم وتمام القصة في كتب السير .

﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ وهو وادي مكة شرفها الله تعالى ، ووصفه بذلك دون غير مزروع للمبالغة لأن المعنى ليس صالحاً للزرع ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قُرْءانًا عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [ الزمر : 28 ] وكان ذلك لحجريته ، قال ابن عطية : وإنما لم يصفه عليه السلام بالخلو عن الماء مع أنه حاله إذ ذاك لأنه كان علم أن الله تعالى لا يضيع إسماعيل عليه السلام وأمه في ذلك الوادي وأنه سبحانه يرزقهما الماء فنظر عليه السلام النظر البعيد ، وقال أبو حيان بعد نقله وقد يقال : إن انتفاء كونه ذا زرع مستلزم لانتفاء الماء إذ لا يمكن أن يوجد

زرع إلا حيث الماء فنفى ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء سببه وهو الماء اه، وقال بعضهم: إن طلب الماء لم يكن مهماً له عليه السلام لما أن الوادي مظنة السيول والمحتاج للماء يدخر منها ما يكفيه وكان المهم له طلب الثمرات فوصف ذلك بكونه غير صالح للزرع بياناً لكمال الافتقار إلى المسؤول فتأمل.

(78/420)

---

﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ظرف لأسكنت كقولك: صليت بمكة عند الركن، وزعم أبو البقاء أنه صفة ﴿ وَادٍ ﴾ أو بدل منه، واختار بعض الأجلة الأول إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملتجأ وعصمته عن المكاره، فإنهم قالوا: معنى كون البيت محرماً أن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به أو أنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه الجبابرة في كل عصر أو لأنه منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذا سمي عتيقاً على ما قيل، وأبعد من قال إنه سمي محرماً لأن الزائرين يحرمون على أنفسهم عند زيارته أشياء كانت حلالاً عليهم، وسماه عليه السلام بيتاً باعتبار ما كان فإنه كان مبنياً قبل، وقيل: باعتبار ما سيكون بعد وهو ينزع إلى اعتبار عنوان الحرمة كذلك.

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ أي لأن يقيموا ، فاللام جارة والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها ، والجار والمجرور متعلق بأسكنت المذكور ، وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فإنها عماد الدين ولذا خصها بالذكر من بين سائر شعائره ، والمعنى على ما يقتضيه كلام غير واحد على الحصر أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع الخالي من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين رحمتك التي آثرت بها سكان حرمك .



---

وهذا الحصر على ما ذكروا مستفاد من السياق فإنه عليه السلام لما قال : ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ نفى أن يكون إسكانهم للزراعة ولما قال : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ أثبت أنه مكان عبادة فلما قال : ﴿ لِيُقِيمُواْ ﴾ أثبت أن الإقامة عنده عبادة وقد نفى كونها للكسب فجاء الحصر مع ما في ﴿ رَبَّنَا ﴾ من الإشارة إلى أن ذلك هو المقصود .

وعن مالك أن التعليل يفيد الحصر ، فقد استدل بقوله تعالى : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [ النحل : 8 ] على حرمة أكلها وفي "الكشف" أن استفادة الحصر من تقدير محذوف مؤخر يتعلق به الجار والمجرور أي ليقوموا أسكنتهم هذا الإسكان ، أخبر أولاً أنه أسكنهم ، بواد قفر فأدمج فيه حاجتهم إلى الوافدين وذكر وجه الإيثار لشرف الجوار بقوله : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ ثم صر ثانياً بأنه إنما آثر ذلك ليعمروا حرمك المحرم وبنى عليه الدعاء الآتي ، ومن الدليل على أنه غير متعلق بالمذكور تخلل ﴿ رَبَّنَا ﴾ ثانياً بين الفعل ومتعلقه وهذا بين ولا وجه لاستفادة ذلك من تكرار ﴿ رَبَّنَا ﴾ إلا من هذا الوجه اه ، واختار بعضهم ما ذكرنا أولاً في وجه الاستفادة وقال : إنه معنى لطيف ولا ينافيه الفصل بالنداء لأنه اعتراض لتأكيد الأول وتذكيره فهو كالمنبه عليه فلا حاجة إلى تعلق الجار بمحذوف مؤخر واستفادة الحصر من ذلك ، وهو الذي ينبغي أن يعول عليه ، ويجعل النداء مؤكداً للأول يندفع ما قيل : إن النداء له صدر الكلام فلا يتعلق ما بعده بما قبله فلا بد من تقدير متعلق ، ووجه الاندفاع ظاهر ، وقيل : اللام لام الأمر والفعل مجزوم بها ، والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفقهم لها ولا يخفى بعده ، وأبعد منه ما قاله أبو الفرج بن الجوزي : أن اللام متعلقة بقوله : ﴿ اجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الاصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] وفي قوله : ﴿ لِيُقِيمُواْ ﴾ بضمير الجمع على ما في "البحر" دلالة على أن الله تعالى

أعلمه بأن ولده إسماعيل عليه السلام سيعقب هنالك ويكون له نسل ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس ﴾ أي أفئدة من أفئدتهم ﴿ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ أي تسرع إليهم شوقاً ووداداً فمن للتبعيض ، ولذا قيل : لو قال عليه السلام : أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم ، وهو مبني على الظاهر من إجابة دعائه عليه السلام وكون الجمع

(81/420)

---

المضاف يفيد الاستغراق .

وروى عن ابن جبير أنه قال : لو قال عليهم السلام : أفئدة الناس لحجت البيت اليهود والنصارى .

وتعقب بأنه غير مناسب للمقام إذ المسؤول توجيه القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهها إلى البيت للحج وإلا لقيل تهوى إليه فإنه عين الدعاء بالبلدية قد حكى بعبارة أخرى اه .

وأنت تعلم أنه لا منافاة بين الشرطية في المروى وكون المسؤول توجيه القلوب إليهم للمساكنة معهم ، وقد جاء نحو تلك الشرطية عن ابن عباس ، ومجاهد كما في "الدر المنثور" .

وغيره ، على أن بعضهم جعل هذا دعاء بتوجيه القلوب إلى البيت .

فقد أخرج ابن أبي شيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن الحكم قال : سألت عكرمة .

وطاوساً .

وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية ﴿ فاجعل ﴾ إلى آخره فقالوا : البيت تهوى إليه قلوبهم يأتونه ، وفي لفظ قالوا : هواهم إلى مكة أن يحجوا ؛ نعم هو خلاف الظاهر ، وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ للابتداء كما في قولك : القلب منه سقيم تريد قلبه فكأنه قيل : أفئدة ناس ، واعترضه أبو حيان بأنه لا يظهر كونها للابتداء لأنه لا فعل هنا يبتدأ فيه لغاية ينتهي إليها إذ لا يصح ابتداء جعل أفئدة من الناس .

وتعقبه بعض الأجلة بقوله : وفيه بحث فإن فعل الهوى للأفئدة يبتدأ به لغاية ينتهي إليها ، ألا يرى إلى قوله : ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ وفيه تأمل اه وكأن فيه إشارة إلى ما قيل : من أن الابتداء في ﴿ مِنْ ﴾ الإبتدائية إنما هو من متعلقها لا مطلقاً ، وإن جعلناها متعلقة بتهوى لا يظهر لتأخيره ولتوسيط الجار فائدة ، وذكر مولانا الشهاب في توجيه الابتداء وترجيحه على التبعيض كلاماً لا يخلو عن بحث فقال : اعلم أنه قال في الإيضاح أنه قد يكون القصد إلى الابتداء دون أن يقصد انهاء مخصوص إذ كان المعنى لا يقتضي إلا بالمبتدأ منه كأعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ، وزيد أفضل من عمرو .

وقد قيل : إن جميع معاني ﴿ مِنْ ﴾ دائرة على الابتداء ، والتبعيض هنا لا يظهر فيه فائدة كما في قوله : ﴿ وَهَنَ العظم مِنّى ﴾ [ مريم : 4 ] فإن كون قلب الشخص وعظمه بعضاً منه معنى مكشوف غير مقصود بالإفادة فلذا جعلت للإبتداء والظرف مستقر للتفخيم كأن ميل القلب نشأ من جملته مع أن ميل جملة كل شخص من جهة قلبه كما أن سقم قلب العاشق نشأ منه مع أنه إذا صلح صلح البدن كله ، وإلى هذا نحا المحققون من "شراح الكشاف" لكنه معنى غامض فتدبر ، والأفئدة مفعول أول لا جعل وهو جمع فؤاد وفسروه على ما في "البحر" .

وغيهر بالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي التوقد ، يقال : فأدت اللحم أي شويته ولحم فئيد أي مشوي ، وقيل : الأفئة هنا القطع من الناس بلغة قريش وإليه ذهب ابن بجر ، والمفعول الثاني جملة ﴿ تَهْوَى ﴾ وأصل الهوى الهبوط بسرعة وفي كلام بعضهم السرعة ، وكان حقه أن يعدي باللام كما في قوله :

حتى إذا ما هوت كف الوليد لها . . .

طارت وفي كفه من ريشها تبك

وإنما عدى بإلى لتضمينه معنى الميل كما في قوله :

تهوى إلى مكة تبغي الهدى . . .

ما مؤمن الجن كأنجاسها

ولما كان ما تقدم كالمبادى لإجابة دعائه عليه السلام وإعطاء مسؤوله جاء بالفاء في قوله :

﴿ فاجعل ﴾ إلى آخره وقرأ هشام ﴿ أفئيدة ﴾ بياء بعد الهمزة نص عليه الحلواني عنه

، وخرج ذلك على الإشباع كما في قوله :

أعوذ بالله من العقراب . . .

الشائلات عقد الأذناب

ولما كان ذلك لا يكون إلا في ضرورة الشعر عند بعضهم قالوا : إن هشاماً قرأ بتسهيل الهمزة

كالياء فعبر عنها الراوي بالياء فظن من أخطأ فهمه أنها بياء بعد الهمزة ، والمراد بياء

عوضاً من الهمزة .

وتعقب ذلك الحافظ أبو عمرو الداني بأن النقلة عن هشام كانوا من أعلم الناس بالقراءة

ووجوهها فهم أجل من أن يعتقد فيهم مثل ذلك .

وقرىء ﴿ آفدة ﴾ على وزن ضاربة وفيه احتمالان .

أحدهما : أن يكون قدمت فيه الهمزة على الفاء فاجتمع همزتان ثانيتهما : ساكنة فقبلت ألفاً فوزنه أعفلة كما قيل في أدور جمع دار قلبت فيه الواو المضمومة همزة ثم قدمت وقلبت ألفاً فصار آدر .

وثانيهما : أنه اسم فاعل من أفد يأفد بمعنى قرب ودنا ويكون بمعنى عجل ، وهو صفة لمحذوف أي جماعة أو جماعات آفدة .

وقرىء ﴿ أفدة ﴾ بفتح الهمزة من غير مد وكسر الفاء بعدها دال ، وهو أما صفة من أفد بوزن خشنة فكيون بمعنى إفدة في القراءة الأخرى أو أصله أفئدة فنقلت حركة الهمزة إلى ما قبلها ثم طرحت وهو وجه مشهور عند الصرفيين والقراء .

قال الأولون : إذا تحركت الهمزة بعد ساكن صحيح تبقى أو تنقل حركتها إلى ما قبلها وتحذف ، ولا يجوز جعلها بين بين لما فيه من شبه التقاء الساكنين ، وقال صاحب النشر من الآخرين : الهمزة المتحركة بعد حرف صحيح ساكن كمسؤول وأفئدة وقرآن وظمآنان فيها وجه واحد وهو النقل وحكى وجه ثان وهو بين بين وهو ضعيف جداً وكذا قال غيره منهم ، فما قيل : إن الوجه إخراجها بين بين ليس بالوجه .

وقرأت أم الهيثم ﴿ أفودة ﴾ بالواو المكسورة بدل الهمزة ، قال "صاحب اللوامح" : وهو جمع وفد ، والقراءة حسنة لكني لا أعرف هذه المرأة بل ذكرها أبو حاتم اه .

وقال أبو حيان : يحتمل أنه أبدل الهمزة في فؤاد ثم جمع وأقرت الواو في الجمع إقرارها في المفرد أو هو جمع وفد كما قال صاحب اللوامح وقلب إذ الأصل أوفدة ، وجمع فعل على أفعلة شاذ .

ونجد وأنجدة ووهى وأوهية ، وأم الهيثم امرأة نقل عنها شيء من لغات العرب .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ إفادة ﴾ على وزن إمارة ويظهر أن الهمزة بدل من الواو المكسورة كما قالوا : إشاح في وشاح فالوزن فعالة أي فاجعل ذوي وفادة ، ويجوز أن يكون مصدر أفاد إفادة أي ذوي إفادة وهم الناس الذين يفيدون وينتفع بهم .

(84/420)

---

وقرأ مسلمة بن عبد الله ﴿ وَمَا تُهْوَى ﴾ بضم التاء مبنياً للمفعول من أهوى المنقول بهمزة التعدية منهوى اللازم كأنه قيل : يسرع بها إليهم .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وجماعة من أهله .

ومجاهد ﴿ تَهْوَى ﴾ مضارع هو بمعنى أحب ، وعدى بإلى لما تقدم ﴿ وارزقهم ﴾ أي ذريتي الذين أسكنتهم هناك .

وجوز أن يريدهم والذين ينحازون إليهم من الناس ، وإنما لم يخص عليه السلام الدعاء بالمئمنين منهم كما في قوله : ﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ ءامَنَ مِنْهُم بالله واليوم الآخر ﴾ [ البقرة : 126 ] اكتفاء على ما قيل بذكر إقامة الصلاة .

﴿ مِنَ الثمرات ﴾ من أنواعها بأن تجعل بقربهم قرى يحصل فيها ذلك أو تجبى إليهم من الأقطار الشاسعة وقد حصل كلا الأمرين حتى أنه يجتمع في مكة المكرمة البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد .

أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي أن الطائفي كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقاً للحرم .

وفي رواية أن جبريل عليه السلام اقتلعها فجاء وطاف بها حول البيت سبعاً ولذا سميت الطائف ثم وضعها قريب مكة .

وروى نحو ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري أن الله تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم عليه السلام .

والظاهر أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مقصوده من هذا الدعاء نقل أرض منبتة من فلسطين أو قرية من قرى الشام وإنما مقصوده عليه السلام أن يرزقهم سبحانه من الثمرات وهو لا يتوقف على النقل ، فلينظر ما وجه الحكمة فيه ، وأنا لست على يقين من صحته ولا أنكر والعياذ بالله تعالى أن الله جل وعلا على كل شيء قدير وأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمة بإقامة الصلاة وإداء سائر مراسم العبودية واستدل به على أن تحصيل منافع الدنيا إنما هي ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات ، ولا يخفى ما في دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ، ولذا من عليه بحسن القبول وإعطاء المسؤول ، ولا بدع في ذلك من خليل الرحمن عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(86/420)

---

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾

واذكر وقت قول إبراهيم في مناجاته أي بعد الفراغ من بناء البيت رب اجعل هذا البلد آمنا أهله بحيث لا يخاف فيه من المخاوف والمكاره كالقتل والغارة والأمراض المنفرة من البرص والجذام ونحوهما فإسناد الأمن إلى البلد مجاز لوقوع الأمن فيه وإنما الآمن في الحقيقة أهل البلد واجنبني وبني يقال جنبه كنصره وأجنبته وجنبته أي أبعدته.

والمعنى بعدني وإياهم أن نعبد الأصنام واجعلنا منه في جانب بعيد ، أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام.

قال بعضهم : رأى القوم يعبدون الأصنام فخاف على بنيه فدعا .

يقول الفقير : الجمهور على أن العرب من عهد إبراهيم استمرت على دينه من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحي كبير خزاعة فهو أول من غير دين إبراهيم وشرع للعرب الضلالات وهو أول من نصب الأوثان في الكعبة وعبدها ، وأمر الناس بعبادتها وقد كان أكثر الناس في الأرض المقدسة عبدة الأصنام وكان إبراهيم يعرفه فخاف سرايته إلى كل بلد فيه واحد من أولاده فدعا فعصم أولاده الصلبية من ذلك ، وهي المرادة من قوله : وبنى فإنه لم يعبد أحد منهم الصنم لا هي وأحفاده وجميع ذريته وذلك لأن قريشاً مع كونهم من أولاد إسماعيل عبادتهم الأصنام مشهورة وأما قوله تعالى في حم الزخرف : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ (الزخرف : 28) فالصحيح أن هذا لا يستلزم تباعد جميع الأحفاد عن عبادة الأصنام بل يكفي في بقاء كلمة التوحيد في عقبه أن لا ينقرض قرن ولا

ينقضى زمان إلا وفي ذريته من هو من أهل التوحيد قلوا أو كثروا إلى زمان نبينا صلى الله عليه وسلّم وقد اشتهر في كتب السير أن بعض آحاد العرب لم يعبد الصنم قط ويدل عليه قوله عليه السلام : "لا تسبوا مضر فإنه كان على ملة إبراهيم" هذا ما لاح لي من التحقيق ومن الله التوفيق .

(87/420)

---

وإنما جمع الأصنام ليشتمل على كل صنم عبد من دون الله لأن الجمع المعرف باللام يشمل كل واحد من الأفراد كالمفرد باتفاق جمهور أئمة التفسير والأصول والنحو ، أي واجنبنا أن نعبد أحداً مما سمى بالصنم كما في "بحر العلوم"

وخصصها الامام الغزالي بالحجرين أي الذهب والفضة إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى فيها أن تعتقد الإلهية في شيء من الحجارة فاستعاذ إبراهيم من الاغترار بمتاع الدنيا .

يقول الفقير : الظاهر أن الإمام الغزالي خصص الحجرين بالذكر بناء على أنهما أعظم ما يضل الناس وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلّم طلاب الدراهم والدنانير بعبدة الحجارة فقال : "تعس عبد الدراهم تعس عبد الدنانير" وإلا فكل ما هو من قبيل الهوى فهو صنم ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ (الجاثية : 23)

ولذا قال في "التأويلات النجمية" .

صنم النفس الدنيا .

وصنم القلب العقبى .

وصنم الروح الدرجات العلى .

وصنم السر عرفان القربات .

وصنم الخفي الركون إلى المكاشفات والمشاهدات وأنواع الكرامات فلا بد من الفناء عن الكل .

قال شيخي وسندي روّح الله روحه في بعض المجالس ، معي أهل الدنيا كثير وأهل العقبى قليل ، وأهل المولى أقل من القليل وذلك كالسلاطين والملوك فإنهم بالنسبة إلى الوزراء أقل وهم بالنسبة إلى سائر أرباب الجاه كذلك ، وهم بالنسبة إلى الرعية كذلك فالرعايا كثيرون وأقل منهم أرباب الجاه وأقل منهم الوزراء وأقل منهم السلاطين فلا بد من ترك الأصنام مطلقاً وأعظم الحجب والأصنام الوجود

وفي الآية : دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحقيقة العصمة أن لا يخلق الله

تعالى في العبد ذنباً مع بقاء قدرته واختياره ولهذا قال الشيخ أبو منصور : العصمة لا تزيل المحنة أي التكليف فينبغي للمؤمن أن لا يأمن على إيمانه وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله ليثبته على الإيمان كما سأل إبراهيم لنفسه ولبنيه الثبات على الإيمان وروى عن يحيى بن معاذ أنه كان يقول : اللهم أن جميع سروري بهذا الايمان وأخاف أن تنزعه مني فما دام هذا الخوف معي رجوت أن لا تنزعه مني .

(89/420)

---

[يوسف : 33-51] ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ ﴾ أي : الأصنام أضللن كثيراً من الناس ولذلك سألت منك أن تعصمني وبني من إضلالهن ، واستعذت بك منه ، يقول : بهن ضل كثير من الناس ، فكان الأصنام سبباً لضلالتهم فنسب الاضلال إليهن وإن لم يكن منهن عمل في الحقيقة كقوله تعالى : وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ (الأنعام : 70) أي اغتروا بسببها وقال بعضهم كان الاضلال منهن لأن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام وتتكلم كما حكى أن واحداً من الشياطين دخل جوف صنم أبي جهل فأخذ يتحرك ويتكلم في حق النبي عليه السلام كلمات قبيحة فأمر الله واحداً من الجن فقتل ذلك الشيطان ثم لما كان الغد واجتمع الناس حول ذلك الصنم أخذ يتحرك ويقول لا إله إلا الله محمد رسول الله وأنا صنم لا ينفع ولا يضر

ويل لمن عبدني من دون الله فلما سمعوا ذلك قام أبو جهل وكسر صنمه وقال إن محمداً سحر الأصنام.

﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ منهم فيما أدعوا إليه من التوحيد وملة الإسلام

﴿ فإنه مني ﴾ من تبعيضية فالكلام على التشبيه أي كبعضي في عدم الانفكاك عني، وكذلك قوله: من غشنا فليس منا أي ليس بعض المؤمنين على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم ومن عصاني أي لم يتبعني فإنه في مقابلة تبعني كتفسير الكفر في مقابلة الشكر بترك الشكر.

فإنك غفور رحيم قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء وبعد توبته.

وفي دليل على أن كل ذنب فللّه تعالى أن يغفره حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره فالشرك لا يغفر بدليل السمع وهو قوله تعالى: إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ (النساء: 116) وإن جاز غفرانه عقلاً فإن العقاب حقه تعالى فيحسن إسقاطه مع أن فيه نفعاً للعبد من غير ضرر لأحد وهو مذهب الأشعري.

وفي "التأويلات النجمية" قد حفظ الأدب فيما قال ومن عصاني وما قال ومن عصاك لأنه بعصيان الله لا يستحق المغفرة والرحمة والإشارة فيه أن من عصاني لعلي لا أغفر له ولا أرحم عليه فإن المكافاة في الطبيعة واجبة ولكن من عصاني فتغفر له وترحم عليه فيكون من غاية كرمك وعواطف إحسانك فإنك غفور رحيم وفي الحديث : "ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أمّا ما كان لي من قبلكم فقد وهبت لكم" (يعني كناهى كه درميان من وشماست بخشيدم) "وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي" والتبعات جمع تبعة بكسر الباء ما اتبع به من الحق .

وذكر أن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله قال إلهي إن كان ثوابك للمطيعين فرحمتك للمذنبين إني وإن كنت لست بمطيع فأرجو ثوابك وأنا من المذنبين فأرجو رحمتك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح البيان حـ 4 صـ 545 ـ 547 ﴾

(91/420)

---

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾

أي : اذكر وقت قوله صلوات الله عليه .

قال أبو السعود : والمقصود من تذكيره ، تذكير ما وقع فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل . والمراد به : تأكيد ما سلف من تعجبه عليه السلام ببيان فنٍ آخر من جناياتهم ، حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم ، بعد ما كفروا بالنعم العامة . وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرَّفها الله تعالى لإقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى . وسأله تعالى أن يجعله بلداً آمناً ويرزقهم من الثمرات ، وتهوي قلوب الناس إليهم من كل أوب سحيق . فاستجاب الله دعاءه ، وجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء . فكفروا بتلك النعم العظام ، واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار . وجعلوا لله أنداداً وفعلوا ما فعلوا .

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ﴾ يعني البلد الحرام ، مكة المكرمة : ﴿ آمِناً ﴾ أي : ذا أمن . أو آمناً أهله ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ﴾ أي : بعدني وإياهم : ﴿ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ .

(92/420)

---

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي : كن سبباً في إضلالهم . كما يقال فتنتهم الدنيا وغرتهم ، إشارة إلى أنه افتتن بالأصنام خلائق لا تحصى . والجملة تعليل لدعائه . وإنما صدره بالنداء إظهاراً لاعتنائه به ، ورغبته في استجابته : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾ أي : على

ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي : ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أي : فخالف ملتي : ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : فإنك ذو الأسماء الحسنى ، والمجد الأسمى ، الغني عن الناس أجمعين . وتخصيص الاسمين إشارة إلى سبق الرحمة .

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أي : بعض أولادي . وهم إسماعيل ومن ولد منه : ﴿ بِوَادٍ ﴾ هو وادي مكة : ﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ أي : لا يكون فيه زرع : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ أي : الذي حرمت التعرض له والتهاون به : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ أي : لكي يأتوا بعبادتك مقوّمة في ذلك الموضع . وهو متعلق بـ : ﴿ أَسْكَنتُ ﴾ أي : ما أسكنتهم هذا الوادي إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك وحدك . وتكرير النداء وتوسيطه ؛ لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة .

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي : تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ، فيأنسوا ويتعارفوا فيتآلفوا ويعودوا على بعضهم بالمنافع : ﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : فتجلبها إليهم التجار : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ أي : نعمة إقامتهم عند بيتك المحرم بالصلاة فيها ، على كمال الإخلاص والتوحيد ، مع فراغ القلب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 328 . 329 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

عطف على جملة ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ [ إبراهيم : 28 ] فإنهم كما بدّلوا نعمة الله كفراً أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداءً بأسلافهم من أهل الضلالة ، وبدلوا دُعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفراً بمفيض تلك النّعَم .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التي يدخل تحت مِنتها أهل مكة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خص الله بها أهل مكة .

وغير الأسلوب في الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم عليه السلام والتعريض بذريته من المشركين .

( وإذا ) اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله ، تقديره : واذكر إذ قال إبراهيم ، زيادة في التعجيب من شأن المشركين الذي مر في قوله : ﴿ ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ﴾ ، فموقع العبرة من الحالين واحد .

و﴿ رب ﴾ منادى محذوف منه حرف النداء .

وأصله ( ربي ) ، حذفت ياء المتكلم تخفيفاً ، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء .

والبلد : المكان المعين من الأرض ، ويطلق على القرية .

والتعريف في ﴿ البلد ﴾ تعريف العهد لأنه معهود الحضور .

و﴿ البلد ﴾ بدل من اسم الإشارة .

وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله : ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ [ سورة إبراهيم : 37 ] ، أو هو حَوالة على ما في علم العرب من أنه مكة .

وقد مضى في سورة البقرة تفسير نظيره .

(94/420)

---

والتعريف هنا للعهد ، والتنكير في آية البقرة تنكير النوعية ، فهنا دَعَا للبلد بأن يكون آمنا ، وفي آية سورة البقرة دَعَا ِلمشار إليه أن يجعله الله من نوع البلاد الآمنة ، فمآل المفادين متحد .

واجنبني ﴾ أمر من الثلاثي المجرد ، يقال : جنبه الشيء ، إذا جعله جانباً عنه ، أي باعده عنه ، وهي لغة أهل نجد .

وأهلُ الحجاز يقولون : جنبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز .

وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنها أخف .

وأراد ببنيه أبناء صلبه ، وهم يومئذٍ إسماعيل وإسحاق ، فهو من استعمال الجمع في التثنية ، أو أراد جميع نسله تعميماً في الخير فاستجيب له في البعض .

والأصنام : جمع صنم ، وهو صورة أو حجارة أو بناء يتخذ معبوداً ويُدعى إلهاً .

وأراد إبراهيم عليه السلام مثل ودَ وسواعٍ ويغوثَ ويعوقَ ونَسْرٍ ، أصنام قوم نوح.

ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم .

وإعادة النداء في قوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ لإنشاء التحسر على ذلك .

وجملة ﴿ إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها بأنها ضلال راج بين كثير من الناس ، فحق للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها ، فافتتاح الجملة بحرف التوكيد لما يفيده حرف ( إنّ ) في هذا المقام من معنى التعليل .

وذلك أن إبراهيم عليه السلام خرج من بلده أُور الكلدانيين إنكاراً على عبدة الأصنام ، فقال : ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [ سورة الصافات : 99 ] وقال لقومه : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ [ سورة مريم : 48 ] .

فلما مر بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام ، ثم جاء عَرَبَةَ تهامة فأسكن بها زوجه فوجدها خالية ووجد حولها جُرْهمَ قوماً على الفطرة

والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام .

ثم أقام هنالك مَعلَم التوحيد .

وهو بيت الله الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل ، وأراد أن يكون مأوى التوحيد ، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد .

(95/420)

---

فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلداً آمناً حتى يسلم ساكنوه وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقنوه أصول التوحيد .

ففرع على ذلك قوله : فمن تبعني فإنه مني ﴾ ، أي فمن تبعني من الناس فتجنب عبادة الأصنام فهو مني ، فدخل في ذلك أبوه وقومه ، ويدخل فيه ذريته لأن الشرط يصلح للماضي والمستقبل .

و( من ) في قوله : ﴿ مِني ﴾ اتصالية .

وأصلها التبعيض المجازي ، أي فإنه متصل بي اتصال البعض بكله .

وقوله : ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ تأدب في مقام الدعاء ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه .

والمعنى ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك .

وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى .

وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم عليه السلام وخشية من استئصال عصاة ذريته .

ولذلك متعهم الله قليلاً في الحياة الدنيا ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ [ سورة البقرة : 126 ] وقوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ [ سورة الزخرف : 27 ] .

وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبروا بأبيهم إبراهيم عليه السلام .

وإذ كان قوله : فإنك غفور رحيم ﴾ تفويضاً لم يكن فيه دلالة على أن الله يغفر لمن يشرك به .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

جملة ﴿ إني أسكنت من ذريتي ﴾ مستأنفة لابتداء دعاء آخر .

وافتتحت بالنداء لزيادة التضرع .

وفي كون النداء تأكيداً لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل

بمثله .

وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافاً لسابقيه لأن الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه .

(96/420)

---

ولعل إسماعيل عليه السلام حاضر معه حين الدعاء كما تدل له الآية الأخرى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ إلى قوله ﴿ واجعلنا مسلمين لك ﴾ [ سورة البقرة : 127 ] .

وذلك من معنى الشكر المسؤول هنا .

ومِن ﴾ في قوله : ﴿ من ذريتي ﴾ بمعنى بعض ، يعني إسماعيل عليه السلام ، وهو بعض ذريته ، فكأن هذا الدعاء صدر من إبراهيم عليه السلام بعد زمان من بناء الكعبة وتقري مكة ، كما دل عليه قوله في دعائه هذا ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ [ سورة إبراهيم : 39 ] ، فذكر إسحاق عليه السلام .

والواد : الأرض بين الجبال ، وهو وادي مكة .

وغير ذي زرع ﴾ صفة ، أي بواد لا يصلح للنبت لأنه حجارة ، فإن كلمة ﴿ ذُو ﴾ تدلّ

على صَاحبِ ما أضيفت إليه وتمكنه منه ، فإذا قيل : ذو مال ، فالمال ثابت له ، وإذا أريد ضد ذلك قيل غير ذي كذا ، كقوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ [ سورة الزمر : 28 ] ، أي لا يعتريه شيء من العوج.

ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع أو لا زرع به .

وعند بيتك ﴾ صفة ثانية لوادٍ أو حال .

والمحرم : الممنع من تناول الأيدي إياه بما يفسده أو يضر أهله بما جعل الله له في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم ، وبما شاهدوه من هلكة من يريد فيه بإلحاد بظلم .

وما أصحاب الفيل منهم ببعيد .

وعلق ﴿ ليقيموا ﴾ بـ ﴿ أسكنت ﴾ ، أي علة الإسكان بذلك الوادي عند ذلك البيت أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معموراً أبداً .

وتوسيط النداء للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة .

وتهيّأ بذلك أن يفرع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، لأن همة الصالحين في إقامة الدين .

والأفئدة : جمع فؤاد ، وهو القلب .

والمراد به هنا النفس والعقل .

والمراد فاجعل أناساً يهوون إليهم .

فأقحم لفظ الأفئدة لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد فلما ذكر ﴿ أفئدة ﴾ لهذه النكتة حسن بيانه بأنهم ﴿ من الناس ﴾ ، ف ﴿ من ﴾ بيانية لا تبعيضية ، إذ لا طائل تحته .

والمعنى : فاجعل أناساً يقصدونهم بحبات قلوبهم .

وتهوي مضارع هوَى بفتح الواو : سقط .

وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة ، كقول امرىء القيس :

كجلمود صخْرٍ حَطّه السيلُ من عل

ولذلك عدّي باللام دون ﴿ على .

والإسراع : جُعل كناية عن المحبة والشوق إلى زيارتهم .

والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم .

والتنكير مطلقٌ يحمل على المتعارف في عمران المدن والأسواق بالواردين ، فلذلك لم يقيده في الدعاء بما يدل على الكثرة اكتفاء بما هو معروف .

ومحبة الناس إياهم يحصل معها محبة البلد وتكرير زيارته ، وذلك سبب لاستئناسهم به

ورغبتهم في إقامة شعائره ، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين .

ورجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنه جُعل تكملة له تعرضاً للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين .

والمقصود : توفر أسباب الانقطاع إلى العبادة وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنة الكدح للاكتساب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(98/420)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ .

لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا ولكنه بين في مواضع أخر أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض كقوله : ﴿ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [ الصافات : 113 ]

وقوله : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الزخرف : 28 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

(99/420)

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال : إن من تبعه فإنه منه وأنه رد من لم يتبعه إلى مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له لأنه هو الغفور الرحيم وذكر نحو هذا عن عيسى ابن مريم في قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [ المائدة : 118 ] وذكر عن نوح وموسى التشديد في الدعاء على قومهما فقال عن نوح إنه قال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافرين دَيَّاراً ﴾ [ نوح : 26 ] إلى قوله : ﴿ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [ نوح : 27 ] وقال عن موسى إنه قال : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [ يونس : 88 ] والظاهر أن نوحاً وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبداً ، أما نوح فقد صرح الله تعالى له بذلك في قوله : ﴿ وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [ هود : 36 ] وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأعراف : 132 ] فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في الأعراف وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ الآية .

يبن تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لذريته الذين أسكنهم بمكة المكرمة أن يرزقهم الله من الثمرات ، وبين في سورة البقرة أن إبراهيم خص بهذا الدعاء المؤمنين منهم ، وأن الله أخبره أنه رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم ثم يوم القيامة يعذب الكافر وذلك بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ [ البقرة : 126 ] الآية . قال بعض العلماء : سبب تخصيص إبراهيم المؤمنين في هذا الدعاء بالرزق أنه دعا لذريته اولاً ان يجعلهم الله أئمة ولم يخصص بالمؤمنين فأخبره الله أن الظالمين من ذريته لا يستحقون ذلك . قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] فلما أراد أن يدعو لهم بالرزق خص المؤمنين بسبب ذلك فقال : ﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر ﴾ فأخبره الله أن الرزق ليس كالإمامة فالله يرزق الكافر من الدنيا ولا يجعله إماماً . ولذا قال له في طلب الإمامة ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ ولما خص

المؤمنين بطلب الرزق قال له : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ [ البقرة : 126 ] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(101/420)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

وحين يقول سبحانه ( إذ ) أي " اذكر " ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم ( رَبّ ) ولم يَقُلْ " يا الله " ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربّي ، لذلك قال " ربّي " ولم يَقُل " يا الله " لأن عطاءَ الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير في أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة . . . ﴾ [ البقرة : 43 ] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلّين وغير المُصلّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً ؛ ولكنّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش ؛ الذين تمتَّعوا بالمهابَة والسيادة على الجزيرة العربية ؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها في رِحْلَتَيْ الشتاء والصيف ؛ لليمن والشام ؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أُذنه نداء الإسلام ؛

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التي تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً . . . ﴾ [ إبراهيم : 35 ] .

وقد وردتْ هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً . . . ﴾ [ البقرة : 126 ] .

والفرق بين " البلد " و " بلداً " يحتاج مِنّا أن نشرحه ، ف " بلداً " تعني أن المكان كان قَفْراً ؛ ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً أي : أن يجد مَن يقيمون فيه ، يُجدّدون حاجاتهم ومتُطلباتهم ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أي : ألا يوجد به ما يُهدّد طمأنينة الناس على يومهم العاديّ ووسائل رزقهم .

(102/420)

---

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً ؛ لأن الإنسان في أيّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مُقوّمات حياة ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن ملطوب لكل إنسان في أيّ أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان ، وكان وادياً غير ذي زرع ؛ ولا مُقوِّمات للحياة فيه ؛ فكان دعاؤه هذا الذي جاء ذِكْره في سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ؛ وكان الدعاء بالأمن لثاني مرة ؛ هي دعوة لأمن خاص ؛ ففي غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ؛ أو يصْطاد صَيْد ؛ ولكن في هذا المكان هناك أَمْنٌ خاصّ جداً ؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شيء يوجد فيه ؛ فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمَسّ .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثاني ؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثاني : هو دعاء بالأمن الخاص ؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقق فيه الأمن العام ؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَماً آمناً ؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس في الحرم؟

ونقول : وهل كان أمْن الحرم أمراً " كونياً " ، أم تكليفاً شرعياً ؟ إنه تكليف شرعي عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرضة أن يُعصي .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . ﴾ [ آل عمران : 97 ] .

يعني أن عليكم أيُّها المُتّبِعون لدين الله أنْ تؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم في أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفيّ والأمر الكونيّ .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ واجنبني وبَنِيَّ أن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] .

*(103/420)*

---

وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث في البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَيٍّ الذي أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أنْ يسأَلَ : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبي المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أن يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفي منه سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ . . . ﴾ [ النساء : 136 ] .

وهو أَمْرٌ بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب – عليه السلام – : ﴿ قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله رَبُّنَا . . . ﴾ [ الأعراف : 89 ] .

وفي هذا القول ضراعة إلى المُنعِم علينا بنعمة الإيما ؛ وفي هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] .

والصنم غير الوثن ، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحَجرِ فقد والتي خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أنْ يخرِج بنَا من هذا المأزِق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جَلي ؛ وشرك خفيّ . والشرك الجليّ أن يعبدَ الإنسانُ أي كائن غير الله ؛ والشرك الخفيّ أن يُقدّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضي مِنّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنية الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنية قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة " أبناء " أوضحه سبحانه في مواطن أخرى . ونبدأ من قوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . ﴾ [ البقرة : 124 ] . ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . ﴾ [ البقرة : 124 ] .

أي : أن حيثية الإمامة هي أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدِقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستورَ الله في الخَلْق ؛ فلا بُدّ لنا أن نتخلّقَ بأخلاق الله .

وعلينا ألا نختار أيّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا أنْ كان كُفْء لها ويُحسِن القيام بها .

ولنتذكر قوله صلى الله عليه وسلم :

" إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظِر الساعة " قال السائل له عن موعد قيام الساعة : وكيف إضاعتها ؟ قال : " إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة " .

ذلك أن إسناد أيّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد في الوجود ، لأن الأصل في إسناد أيّ أمر لأي إنسان أن يكون بهدف أن يقومَ بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أُسْوة في السوء ؛ وتنتقل منه عدوى عدم الإتقان إلى غيره ؛ ويتفشّى السوء في المجتمع ، أما إذا تولى الأمر مَنْ هو أَهْلٌ له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان في مكانه اللائق ، تعتدل به موازين العدل ، وفي اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَثَلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربَّوْا في السعودية ؛ ورأَوْا أن يد السارق تُقطع ؛ لم نجد منهم مَنْ يسرق ؛ لأنهم تربَّوْا على أن السارق تُقطع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أنْ

يضعَ عقوبة قاسية ؛ فليس هذا إذْنٌ بأن تقع الجريمة ؛ بل ألاَّ تقعَ الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعُون التحضرُّ : كيف يقول القرآن : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . . ﴾ [ البقرة : 256 ] .

وحين تجدون مَنْ يخرج عن الدين تقبضون عليه ، وينادي البعض بإعدامه ؟

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

(105/420)

---

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مِثْل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيِّب الناس أنْ يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدي لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقّ مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . . ﴾ [ فصلت : 53 ] .

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكلّفه حياته لو أراد أنْ يخرجَ منه ، لأنه خرج من اليقين الذي دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم – عليه السلام – ربه :

﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] .

كان قد نجح في اختبار الله له ، ونجح في أداء ما أُسنِد إليه تماماً ؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة في ذريته ؛ فقال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي . . . ﴾ [ البقرة : 124 ] .

فجاءه الجواب من الحق سبحانه : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] .

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بنوه الأنبياء ليست بنوة لَحْم ودم ؛ بل بُنُوة اتباع واقتداء ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال لنوح عن ابنه : ﴿ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . ﴾ [ هود : 46 ] .

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال عن سلمان الذي كان فارسياً : " سلمان منا آل البيت " .

وفي هذا تأكيد على أن بنُوّة الأنبياء هي بنُوّة اتباعٍ واقتداء .

ويستكمل الحق سبحانه دعاء إبراهيم عليه السلام ؛ فنجد وَعْي خليل الرحمن بما تفعله عبادة الأصنام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً . . . ﴾ .

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضِل أحداً ؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ؛ ولكن القائمين عليها بدعْوى أن لتلك الأصنام ألوهية ؛ ولا تكليفَ يصدر منها ، هم الذين يضِلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامي " على حَلِّ شعورهم " .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ إبراهيم : 36 ] .

وهذه تعقيباتٌ في مسألة الغُفران والرحمة بعد العصيان ؛ فمرّة يعقُبها الحق سبحانه : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [ المائدة : 118 ] .

ومرّة يعقبها : ﴿ الغفور الرحيم ﴾ [ الزمر : 53 ] .

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العُظْمى أو جريمة القِمّة ؛ مثل مَنْ يدّعي أنه إلهٌ ؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أنْ يقول لهم هو ذلك .

وقد قال عيسى - عليه السلام - بسؤال الحق له : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله . . . ﴾ [ المائدة : 116 ] .

فيأتي قَوْل عيسى عليه السلام : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [ المائدة : 116 ] .

ويتابع عيسى عليه السلام القَوْل : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [ المائدة : 118 ] .

وهكذا تأتي العزّة والمغفرة بعد ذِكْر العذاب ؛ فهناك مواقف تُناسِبها العِزّة والحكمة ؛

ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يردّ لله أَمْرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ ؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ .

وقوله الحق :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس . . . ﴾ [ إبراهيم : 36 ] .

يعكس صفات مناسبة للمُقدِّمات الصدرية في الآية ، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذي أوحى إلى عبده القرآن : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [ الأعلى : 6 ] .

فما الذي يجعله يقول في الآية : ﴿ الغفور الرحيم ﴾ [ الزمر : 53 ] .

(107/420)

---

وفي آية أخرى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [ المائدة : 118 ] .

مع أن السياق المعنويّ قد يُوحي من الظاهر بعكس ذلك ؟

وما الذي يجعله سبحانه يقول في آية بعد أن يُذكّرنا أن نِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [ إبراهيم : 34 ] .

ويقول في آية أخرى بعد أنْ يُذكِّرنا بنِعَم الله بنفس اللفظ : ﴿ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 18 ] .

وكذلك قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ [ عبس : 11-12 ] .

ثم قوله في آية أخرى : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [ الإنسان : 29 ] .

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة ، وتنزيلها يحمل أسرار المراد .

وكُلُّ ذلك يأتي تصديقاً لقوله الحق : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [ الأعلى : 6 ] .

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أنْ يُنزِل القرآن على رسوله ، ويضمن أنه سيحفظه ؛ ولن ينسى موقع أن مكان آيةٍ من الآيات أبداً ، ذلك أن الذي قال :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ الأعلى : 6 ]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي . . . ﴾ .

ونفهم من التعبير في هذه الآية أن المكانَ لا يصلح للزرع ؛ ذلك أنه أرض صَخْرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقَوْل إبراهيم – عليه السلام – :

﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

أي : لا أملَ في زراعتها بمجهود إنساني ، وليس أمام تواجد الرزق في هذا المكان إلا العطاء الرباني . ولم يكُنْ اختيار المكان نتيجة بَحْثٍ من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف

إلهيّ ، فسبحانه هو الذي أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

(108/420)

---

فهذا يعني حيثية الرِّضا بالتكليف ، وما دام هذا أمراً تكليفياً يجب أنْ يُنفّذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حُبّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المثل في حكاية الرجل الذي قابله الأصمعي عند البيت الحرام ، وكان يقول : " اللهم ، إنّي قد عصيتُك ، ولكني أحب مَنْ يطيعك ، فاجعلها قُرْبة لي " . فقال الأصمعي ما يعني أن الله لا بُدَّ أن يغفر لهذا الرجلِ لحُسْن مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعده .

فالتكليف عندما يقوم به أيُّ إنسان ؛ فذلك أمر في صالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلي ونقرأ الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [ الفاتحة : 5 ] .

أي : أن كُلاًّ مِنّا يحشر نفسه في زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبّل من واحد فندخل كلنا في

الصفقة ؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألا تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله ؛ بل افرح به ؛ لأن فرحَك بالمطيع لله ؛ دليلٌ على أنك تحبُّ التكليف ، رغم أنك لا تقدر على نفسك ، وفي هذا الحُبِّ كرامة لك .

وقد قال إبراهيم - عليه السلام - عن الوادي الذي أمره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذي زَرْع ، وقد جاء هو إلى هذا المكان ليُنفّذ تكليف الحق سبحانه له ؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار في هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : " إذنْ لن يضيعنا " .

ويُقدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة في هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

أي : أن مجيء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوة سياحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلا بُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أَخْذ الأمر بالوجود في مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقوِّماتها شيء ؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ؛ فلا بُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقوِّم الأول للحياة هو المأْكل والمَشْرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ . . ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

والأفئدة جمع " فؤاد " ، وتُطلَق على الطائفة ؛ وعلاقة الفؤاد بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى في الحجيج هوى قلوب ؛ لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة .

وكلمة " هوى " مُكوّنة من مادة " الهاء " و " الواو " و " الياء " ولها معانٍ متعددة ، فلك أنْ تقول " هَوَى " أو تقول " هَوِى " ، فإنْ قلت : " هَوَى يهوي " من السقوط من مكان عالٍ ؛ دون إرادة منه في السقوط ؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإنْ قُلْت : " هَوِى يهوىَ " فهذا يعني أحبّ ، وهو نتيجة لِميْل القلوب ، لا مَيْل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

فهم في مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبَّل الحق سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛

ووجدنا التطبيق العملي في قوله الحق: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا . . . ﴾ [القصص: 57] .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات . وكلمة "يُجْبَى" تدل على أن الأمرَ في هذا الرزق القادم من الله كأنه جِبَاية؛ وأمْر مفروض، فتكون في الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أنْ تشتريه؛ فتجد مَنْ يقول لك: إن هذا يخصُّ مكة المكرمة؛ إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك .

وتجد في كلمة: ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ [القصص: 57] .

*(110/420)*

---

ما يثير العجب والدهشة؛ فأنت في مكة تجد بالفعل ثمرات كل شيء من زراعة أو صناعة؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمة من كل البلاد؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفي عصرنا الحالي نجد ثمرات النموّ الحضاري والعقول المُفكِّرة وهي معروضة في سوق مكة أو جدة؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس في كل أَوْجُه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدي فريضة الحج ؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط ؛ ومِلْح الطعام ؛ ومن بعد أن توحَّدتْ غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صِرْنا نذهب إلى هناك ، ونأتي بكماليات الحياة .

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه :

﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

فكلمة " من " تُوضِّح أن مَنْ تهوي قلوبهم إلى المكان هم قطعةٌ من أفئدة الناس ، وقال بعضُ من العارفين بالله : لو أن النصَّ قد جاء " فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم " لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً في الحجيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

فاقتصر الحجيج على المسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(111/420)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ

إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) ﴾

أخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ قال: فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه السلام دعوته في ولده، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته، وجعل هذا البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماماً، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه، وأراه مناسكه وتاب عليه.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ قال: الأصنام ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ قال: اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم عليه السلام، لا والله ما كانوا لعانين ولا طعانين. قال: وكان يقال: إن من أشرار عباد الله كل لعان. قال: وقال نبي الله ابن مريم عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة: 118].

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني دعوت للعرب، فقلت: اللهم من لقيك منهم

مؤمناً موقناً بك مصدقاً بلقائك ، فاغفر له أيام حياته . وهي دعوة أبينا إبراهيم ، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ، ومن أقرب الناس إلى لوائي يومئذ العرب " .

(112/420)

---

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن عقيل بن أبي طالب ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أتاه الستة النفر من الأنصار ، جلس إليهم عند جمرة العقبة ، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمؤازرة على دينه ، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحيَ إليه ، فقرأ من سورة إبراهيم ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . . . ﴾ إلى آخر السورة . فرق القوم وأخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن إبراهيم التيمي قال : من يأمن البلاء بعد قول إبراهيم ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ ؟ .

وأخرج عن سفيان بن عيينة قال : لم يعبد أحد من ولد إسماعيل الأصنام لقوله ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ قيل : فكيف لم يدخل ولد إسحق وسائر ولد إبراهيم ؟ قال : لأنه دعا لأهل هذا البلد أن لا يعبدوا الأصنام ودعا لهم بالأمن . فقال ﴿ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ ولم يدع لجميع البلدان بذلك . وقال ﴿ واجنبني وبني أن نعبد

الأصنام ﴾ فيه وقد خص أهله وقال ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

(113/420)

---

أخرج الواقدي وابن عساكر من طريق عامر بن سعد ، عن أبيه قال : كانت سارة عليها السلام تحت إبراهيم عليه السلام ، فمكثت معه دهراً لا ترزق منه ولداً ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر ، أمة لها قبطية . فولدت له إسماعيل عليه السلام ، فغارت من ذلك سارة رضي الله عنها فوجدت في نفسها وعتبت على هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أشراف ، فقال لها إبراهيم عليه السلام : هل لك أن تبري يمينك ؟ فقالت : كيف أصنع ؟ قال : اثقبي أذنيها واخفضيها ، والخفض هو الختان . ففعلت ذلك بها ، فوضعت هاجر رضي الله عنها في أذنيها قرطين ، فازدادت بهما حسناً . فقالت سارة رضي الله عنها : أراني إنما زدتها جمالاً ، فلم تقاره على كونه معها وَوَجَدَ بها إبراهيم عليه السلام وجداً شديداً فنقلها إلى مكة ، فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ﴾ قال : اسكن إسماعيل وأمه مكة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن إبراهيم عليه السلام قال ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ لو قال : فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، لغلبتكم عليه الترك والروم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ قال : لو قال أفئدة الناس تهوي إليهم ، لازدحمت عليه فارس والروم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحكم قال : سألت عكرمة وطاوساً وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية فقالوا : البيت تهوي إليه قلوبهم يأتونه . وفي لفظ قالوا : هواهم إلى مكة أن يحجوا .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ قال : تنزع إليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن محمد بن مسلم الطائفي؛ أن إبراهيم عليه السلام لما دعا للحرم وارزق أهله من الثمرات، نقل الله الطائف من فلسطين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري رضي الله عنه قال: إن الله تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم عليه السلام.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة ﴿ بواد غير ذي زرع ﴾ قال: مكة. لم يكن بها زرع يومئذ.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ وأنه بيت طهره الله من السوء وجعله قبلة وجعله حرمه، اختاره نبي الله إبراهيم عليه السلام لولده.

وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في خطبته: إن هذا البيت أول من وليه، ناس من (طسم) فعصوا فيه واستخفوا بحقه واستحلوا حرمته، فأهلكهم الله. ثم وليه من جرهم فعصوا فيه واستخفوا بحقه واستحلوا حرمته، فأهلكهم الله، ثم وليتموه معاشر قريش... فلا تعصوا ولا تستخفوا بحقه ولا تستحلوا حرمته، وصلاة فيه أفضل من مائة صلاة بغيره، والمعاصي فيه على قدر ذلك.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عباس في قوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ قال: إن إبراهيم سأل الله أن يجعل أناساً من الناس يهوون سكنى

مكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ يقول : خذ بقلوب الناس إليهم ، فإنه حيث يهوي القلب يذهب الجسد ، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو أن إبراهيم عليه السلام حين دعا قال : اجعل افئدة الناس تهوي إليهم ، لازدحمت عليه اليهود والنصارى . ولكنه خص حين قال ﴿ أفئدة من الناس ﴾ فجعل ذلك أفئدة المؤمنين .

(115/420)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الشعب بسند حسن ، عن ابن عباس قال : لو كان إبراهيم عليه السلام قال : فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، لحجه اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال ﴿ أفئدة من الناس ﴾ فخص به المؤمنين .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة : " اللهم بارك لهم في صاعهم ومدهم ، واجعل أفئدة الناس تهوي إليهم " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هذا البلد آمِناً ﴾ : مفعولا الجَعْلِ التصييري ، وقد تقدَّم تحريرُه في البقرة .

قال الزمخشري : " فإن قلت : أيُّ فَرْقٍ بين قولِه ﴿ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ﴾ [ البقرة : 126 ] وبين قولِه ﴿ هذا البلد آمِناً ﴾ ؟ قلت : قد سأل في الأول أن يجعلَه مِنْ جملة البلادِ التي يأمَنُ أهلُها ولا يخافون ، وفي الثاني أن يُخْرجَه مِنْ صفةٍ كان عليها من الخوفِ إلى ضِدِّها من الأمنِ ، كأنه قال : هو بلدٌ مَخُوفٌ فاجْعَلْه آمِناً " .

قوله : ﴿ واجنبني ﴾ يُقال : جَنَبَه شرَّاً ، / وأَجْنَبَه إياه ، ثلاثياً ، ورباعياً ، وهي لغةُ نجدٍ ، وجَنَّبه إياه مشدداً ، وهي لغةُ الحجازِ ، وهو المَنْعُ ، وأصلُه مِنَ الجانب . وقال الراغب : " وقولُه تعالى : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ ﴾ مِنْ جَنَبْتُه عن كذا ، أي : أَبْعَدْتُه منه . وقيل : مِنْ جَنَبْتُ الفَرَسَ كأنما أن يقودَه عن جانب الشِّرْك بألطافٍ منه وأسبابٍ خفيَّةٍ " .

و ﴿ أَن نَّعْبُدَ ﴾ على حَذْفِ الحرف ، أي : عن أن . وقرأ الجحدريُّ وعيسى الثقفي "

وأَجْنِبْني " بقطعِ الهمزةِ مِنْ أَجْنَبَ .

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) ﴾

والضميرُ في " إنَّهُنَّ " و " أَضْلَلْنَ " عائدٌ على الأصنامِ لأنها جمعُ تكسيرٍ غيرُ عاقلٍ . وقوله " مني " ، أي : من أشياعي .

قوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ شرطٌ ، ومحلُّ " مَنْ " الرفعُ بالابتداءِ ، والجوابُ ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والعائدُ محذوفٌ ، اي : له .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾



---

قوله تعالى : ﴿ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ المفعولُ محذوفاً ، وهذا الجارُّ صفتُه ، أي : أسكنْتُ ذريةً مِنْ ذريتي . ويجوز أن تكونَ " مِنْ " مزيدةً عند الأخفش .

قوله : " بوادٍ " ، أي : في وادٍ ، نحو : هو بمكة .

قوله : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ ﴾ يجوز أن يكونَ صفةً ل " وادٍ " . وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكونَ بدلاً منه " ، يعني أنه يكونُ بدلَ بعضٍ مِنْ كُلّ ، لأنَّ الواديَ أعمُّ مِنْ حضرةِ البيت .

وفيه نظرٌ ، من حيث إنَّ " عند " لا تتصرَّف .

قوله : " لِيُقِيموا " يجوز أَنْ تكونَ هذه اللامُ لامَ أمرٍ ، وأن تكونَ لامَ علَّة . وفي متعلقها حينئذٍ وجهان ، أحدُهما : أنها متعلقةٌ بأَسْكَنْتُ وهو ظاهرٌ ، ويكون النداءُ معترضاً . الثاني : أنها متعلقةٌ باجْنُبْني ، أي : اجْنُبْهم الأصْنامَ ليُقيموا ، وفيه بُعْدٌ .

قوله : ﴿ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ العامَّةُ على " أَفْئِدة " جمع " فُؤاد " كغُراب وأَغْرِبة . وقرأ هشام عن ابن عامر بياءٍ بعد الهمزة ، فقيل : إشباع ، كقوله :

2895- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . يُحِبَّك عَظْمٌ

في التراب تَرِيبُ

أي : تَرِب ، وكقوله :

2896- أعوذُ باللهِ مِنَ العَقْرابِ . . . الشائلاتِ عُقَدَ الأَذْنابِ

وقد طعن جماعةٌ على هذه القراءةِ وقالوا : الإِشباعُ من ضرائرِ الشعر فكيف يُجْعَلُ في أفصحِ كلامٍ ؟ وزعم بعضُهم أنَّ هشاماً إنَّما قرأ بتسهيلِ الهمزةِ بين بين ، فظنَّها الراوي زيادةَ ياءٍ بعد الهمزة ، قال : " كما تُوُهِّم عن أبي عمروٍ واختلاسُه في " بارئكم " و " يَأْمُرُكم " أنه سَكَّن " . وهذا ليس بشيءٍ فإنَّ الرواةَ أجلُّ من هذا .

وقرأ زيدُ بن عليّ " إفادة " بزنة " رِفادة " ، وفيها وجهان ، أحدهما : أن يكونَ مصدراً لأفاد كأَقام إقامةً ، أي : ذوي إفادةٍ ، وهم الناسُ الذين يُنْتَفَعُ بهم . والثاني : أن يكون أصلُها " وِفادة " فأُبْدِلَتِ الواوُ همزةً نحو : إشاح وإعاء .

وقرأت أمُّ الهيثم " أَفْوِدَة " بواوٍ مكسورة ، وفيها وجهان ، أحدُهما : أن يكونَ جمع " فُوَاد " المُسَهَّل : وذلك أنَّ الهمزةَ المفتوحةَ المضمومَ ما قبلها يَطَّرِد قَلْبُها واواً نحو : جُوَن ، ففُعِل في " فُؤاد " المفرد ذلك ، فأُقِرَّت في الجمع على حالها . والثاني : قال صاحب " اللوامح " : " هي جمعُ وَفْد " . قلت : فكان ينبغي أن يكونَ اللفظ " أَوْفِدة " بتقديم الواو ، إلا أن يُقال : إنه جمَعَ " وَفْداً " على " أَوْفِدَة " ثم قلَبه فوزنه أَعْفِلَة ، كقولهم : آرام في أرْآم وبابه ، إلا أنه يَقِلُّ جمعُ فَعْل على أَفْعِلة نحو : نَجْد وأَنْجدة ، ووَهْي وأَوْهِيَة . وأمُّ الهيثمِ امرأةٌ نُقِلَ عنها شيءٌ من اللغة .

وقُرِىء " آفِدَة " بزِنَةِ ضاربة ، وهي تحتمل وجهين ، أحدُهما : أن تكونَ مقلوبةً مِنْ أَفْئدة بتقديم الهمزة على الفاء فقُلِبَتْ الهمزةُ ألفاً ، فوزنها أَعْفِلة كآرام في أرْآم .

والثاني : أنها اسمُ فاعلٍ مِنْ أَفِد يأْفَدُ ، أي : قَرُب ودَنا ، والمعنى : جماعةً آفِدَة ، أو جماعات آفِدة .

وقُرِئَ " أَفِدَة " بالقَصْرِ ، وفيها وجهان أيضاً ، أحدُهما : أن يكونَ اسمَ فاعلٍ على فَعِل

كفَرِحَ فهو فَرِح . [ والثاني ] : أن تكونَ مخففةً من " أَفْئِدة " . بنَقْلِ حركةِ الهمزةِ إلى الساكن قبلها ، وحَذْفِ الهمزة .

(119/420)

---

و " من الناس " في " مِنْ " وجهان ، أحدُهما : أنها لابتداءِ الغاية . قال الزمخشريُّ : " ويجوز أن تكونَ " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ كقولك : " القلبُ مني سقيم " تريد : قلبي ، كأنه قيل : أفئدةَ ناسٍ ، وإنما نَكَّرْتَ المضافَ في هذا التمثيلِ لتنكيرِ " أَفْئدة " لأنها في الآية نكرةٌ ، ليتناولَ بعضَ الأفئدةِ " . قال الشيخ : " ولا يَظْهر كونُها للغايةِ ؛ لأنه ليس لنا فِعْلٌ يُبتدأ فيه بغايةٍ ينتهي إليها ، إذ / لا يَصِحُّ جَعْلُ ابتداءِ الأفئدة من الناس " .

والثاني : أنها للتبعيضِ ، وفي التفسير : لو لم يقل " من الناس " لحجَّ الناسُ كلُّهم .

قوله : " تَهْوِي " هذا هو المفعولُ الثاني للجَعْل . والعامَّة " تَهْوِي " بكسرِ العين بمعنى : تُسْرِعُ وتَطيرُ شوقاً إليهم . قال :

2897- وإذا رَمَيْتَ به الفِجاجَ رَأَيْته . . . يَهْوي مخارمَها هُوِيَّ الأَجْدَلِ

وأصلُه أنْ يتعدَّى باللام ، كقوله :

2898- حتى إذا ما هَوَتْ كفُّ الغلامِ لها . . . طارَتْ وفي كَفِّه مِنْ ريشِها بتَكُ

وإنَّما عُدِّي ب " إلى " لأنه ضُمِّنَ معنى " تميل " ، كقوله :

2899- تَهْوِي إلى مكَّةَ تبْغي الهدى . . . ما مُؤْمِنُ الجِنِّ كأنْجاسِها

وقرأ أميرُ المؤمنين علي وزيد بن علي ومحمد بن علي وجعفر ابن محمد ومجاهد بفتح الواو ، وفيه قولان ، أحدُهما : أنَّ " إلى " زائدةٌ ، أي : تهواهم . والثاني : أنه ضُمِّنَ معنى تَنْزِعُ وتميل ، ومصدرُ الأول على " هُوِيّ " ، كقوله :

2900- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . يَهْوِي مخارِمَها هُوِيَّ الأَجْدَل

والثاني على " هَوَى " . وقال أبو البقاء : " معناهما متقاربان إلاَّ أنَّ هَوَى - يعني بفتح الواو - متعدٍّ بنفسه ، وإنما عُدِّيَ بإلى حَمْلاً على تميل " .

(120/420)

---

وقرأ مسلمة بن عبد الله : " تُهْوَى " بضم التاء وفتح الواو مبنياً للمفعول مِنْ " أهوى " المنقول مِنْ " هَوِيَ " اللازمِ ، أي : يُسْرَع بها إلى إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 116.111﴾

(121/420)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ .

كما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً ؛ أي لا يكون فيه شيءٌ إلا بالله . ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [ الجاثية : 23 ] فصنمُ كل أحدٍ ما يشغله عن الله تعالى من مالٍ وولَدٍ وجاهٍ وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لمَّا بنى البيتَ استعان بالله أن يجرِّدَه من ملاحظة نفسه وفعله . ويقال إنه – صلى الله عليه وسلم – كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق فسه ، فلما لقي من فضله وجوده قال قال من كمال بسطه : ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [ الشعراء : 86 ] . ولما نظر من حيث فقر نفسه قال : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ .

ويقال شاهد غيره فقال : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ ، وشاهد فضله ورحمته ولطفه فقال : ﴿ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [ الشعراء : 86 ] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ : أي موافق لي ومن أهل مِلَّتِي، ومن عصاني خالفني وعصاك.

قوله: ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : طلبٌ للرحمة بالإشارة، أي فارحمهم.

وقال: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ . . . ولم يَقُلْ: مَنْ عصاك، وإنْ كان من عصاه فقد عصى الله، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة.

(122/420)

---

ويقال إن قولَ نبينا صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أتمُّ في معنى العفو حيث قال: " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "، وإبراهيم - عليه السلام - عَرَّضَ وقال: ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويقال لم يجزم السؤال لأنه بدعاء الأدب فقال: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله: ﴿ إني أسكنت ﴾ وإنما رأى الرِّفقَ بهم في الجوارِ لا في المَبَارِّ قال: ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ثم قال: ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ : أي

أسكنتُم لإقامة حقِّكَ لطَلَبِ حظوظهم .

ويقال اكتفى أن يكونوا في ظلال عنايته عن أن يكونوا في ظلال نعمته .

ثم قال : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾ أي ليشتغلوا بعبادتك ، وأقم قومي – ما بقوا – بكفايتك ، ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ : فإنَّ مَنْ قام بحقِّ الله أقام اللَّهُ بحقِّه قَوْمَه ، واستجاب اللَّهُ دعاءَه فيهم ، وصارت القلوبُ من كل بَرٍ وبحرٍ كالمجبولة على محبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] : أي أسكنتُهم بهذا الوادي حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبُهم ، ولا تشتغل بشيءٍ أفكارهم وأسرارُهم ، فهم مطروحون ببابكَ ، مصونون بحضرتك ، مرتبطون بحُكْمِك ؛ إنْ راعيتَهم كَفَيْتَهم وكانوا أعزَّ خَلْقِ الله ، وإنْ أقصيتَهم ونفيتهم كانوا أضعفَ وأذلَّ خَلْقِ الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 257.255 ﴾

(123/420)

---

قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي

لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فرغ من الدعاء بالأهم من الإبقاء على الفطرة الأولى المشوقة للعزائم إلى العكوف في دارة الأنس ، ومن الكفاية لهم المعاش ، المنتج للشكر بإنفاق الفضل ، وتبين من ذلك أنهم خالفوا أعظم آبائهم في جميع ما قصده لهم من المصالح ، أتبعه ما يحث على الإخلاص في ذلك وغيره له ولغيره ليكون أنجح للمراد بضمان الإسعاد ولا سيما مع تكرير النداء الدال على مزيد التضرع فقال : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا المالك لجميع أمورنا ﴿ إنك تعلم ما ﴾ أي جميع ما ﴿ نخفي وما نعلن ﴾ ثم أشار إلى عموم علمه فقال : ﴿ وما يخفى على الله ﴾ أي الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلماً .

وبالغ في النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ من ذلك ولا غيره ﴿ في الأرض ﴾ ولما كان في سياق المبالغة ، أعاد النافي تأكيداً فقال : ﴿ ولا في السماء ﴾ أي فهو غير محتاج إلى التعريف بالدعاء ، فالدعاء إنما هو لإظهار العبودية ، واسم الجنس شامل لما فوق الواحد ، ومن فوائد التعبير بالإفراد الدلالة على أن من كان محيطاً بكل ما في المتقابلين من غير أن يحجبه أحدهما عن الآخر ، كان محيطاً بغيرهما كذلك من غير فرق .

ولما تم ما دعا به من النزاهة عن رجاسة الشرك وتبين بتقديمه أن أهم المهمات البراءة منه ، أتبعه الحمد على ما رزق من النعم وما تبع ذلك من الإشارة إلى وجوب الشكر فقال : ﴿ الحمد لله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ﴿ الذي وهب ﴾ والهبة : هبة تمليك من غير عقد ، منّاً منه ﴿ لي ﴾ حال كوني مستعلياً ﴿ على الكبر ﴾ ومتمكناً منه على يأس من الولد ﴿ إسماعيل ﴾ الذي أسكنته هنا ﴿ وإسحاق ﴾ وهذا يدل على ما تقدم فهمي له من أن هذا الدعاء كان بعد بناء البيت وطمأنينته بإسحاق عليه السلام ، عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أن سنه كان عند ولادة إسماعيل عليه السلام تسعاً وتسعين سنة ، وعند ولادة إسحاق عليه السلام كان مائة سنة واثنتي عشرة سنة .

(124/420)

---

ولما كان إتيان الولد له في سن لا يولد فيه لمثله ، وجميع ما دعا به من الخوارق فوجوده لا يكاد يصدق ، أشار إلى ذلك بتأكيد قوله : ﴿ إن ربي ﴾ أي المحسن إليّ ﴿ لسميع الدعاء ﴾ أي من شأنه إجابة الدعاء على الوجه الأبلغ تعريضاً بالأنداد وإشارة إلى ما تضمنه تأسفه على العقم ، فقد تقدم في سورة البقرة عن التوراة أنه لما خلّص ابن أخيه لوطاً من الأسر قال له الله : يا إبراهيم ! أنا أكانفك وأساعدك لأن ثوابك قد جزل ، فقال إبرم :

اللهم ربي ! ما الذي تنحلني وأنا خارج من الدنيا بلا نسل ويرثني اليعازر غلامي الدمشقي ؟ فقال له الرب : لا يرثك هذا ، بل ابنك الذي يخرج من صلبك فهو يرثك ، وقال له : انظر إلى السماء وأحص النجوم إن كنت تقدر أن تحصيها ، فكذلك تكون ذريتك ، فآمن إبرم بالله .

ولما تم الحمد على النعمة بعد الدعاء بالتخلي من منافي السعادة وختمه بالحمد على إجابة الدعاء ، انتهز الفرصة في إتباعه الدعاء بالتحلي بحلية العبادة التي أخبر أنها قصده بإسكانه من ذريته ثم إقامتها ، إشارة إلى صعوبتها على النفس إلا بمعونة الله فقال : ﴿ رب ﴾ أي أيها الموجد لي المالك لأمري ﴿ اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي هذا النوع الدال على غاية الخضوع ، دائم الإقامة لها ، وكأن الله تعالى أعلمه بأنه يكون من ذريته من يكفر فقال أدباً : ﴿ ومن ذريتي ﴾ .

ولما كانت أعظم الأركان بعد الإيمان ، أفراد الضمير للدعاء بها متملقاً لله تعالى بما عليه من النعم التي لم ينعمها على أحد كان في ذلك الزمان غيره ، كما أشار إلى ذلك باسم الرب ، ثم زاد في التضرع بقوله : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ، وجمع الضمير المضاف إليه بالنظر إلى من تبعه من ذريته لأن ما بعده كلام آخر ، أي رب ورب مَّن وفقته بتربيتك وإحسانك لإقامة الصلاة من ذريتي ﴿ وتقبل دعاء ﴾ كله بذلك وغيره ، بأن تجعله مقبولاً جعلَ من كأنه راغب فيه مفتن به .

*(125/420)*

---

ولما كان الإنسان ولو اجتهد كل الاجتهاد - محل العجز الموجب للتقصير المفتقر للستر ، قال مشيراً إلى ذلك : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المالك لأمورنا المدبر لنا ﴿ اغفر لي ﴾ ثم أشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره فقال : ﴿ ولوالدي ﴾ وقد كان استغفاره لهما قبل أن يعلم أن أباه مات كافراً ، وقد علم من السياق أنه إذا كان وحده أضاف إلى ضميره ، وإذا تقدم ما يحسن جمعه معه جمع إن كان ما بعده مستقلاً ، ثم كل من تبعه في الدين من ذريته وغيرهم فقال : ﴿ وللمؤمنين ﴾ أي العريقين في الوصف ﴿ يوم يقوم ﴾ أي يظهر ويتحقق على أعلى وجوهه ﴿ الحساب ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 192. 194﴾

*(126/420)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) ﴾

المطلوب الرابع : قوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ .

واعلم أنه عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل ، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها ، فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا ، قيل : ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل ، وما نعلن من البكاء ، وقيل : ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حيث قالت له عند الوداع إلى من تكلنا ؟ فقال إلى الله أكلكم ، قالت آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم : قالت إذن لا نخشى .

ثم قال : ﴿ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَىْء فَى الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : أنه كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام كقوله : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ [ النحل : 34 ] والثاني : أنه من كلام إبراهيم عليه السلام يعني وما يخفي على الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان ، ولفظ "من" يفيد الاستغراق كأنه قيل : وما يخفى عليه شيء ما .

ثم قال : ﴿ الحمد للهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : اعلم أن القرآن يدل على أنه تعالى إنما أعطى إبراهيم عليه السلام هذين الولدين أعني إسمعيل وإسحق على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعاً وتسعين سنة ، ولما ولد إسحق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة وقيل ولد له إسمعيل لأربع وستين سنة وولد إسحق لتسعين سنة ، وعن سعيد بن جبير : لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ، وإنما ذكر قوله : ﴿ عَلَى الكبر ﴾ لأن المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم ، من حيث إن هذا الزمان زمان وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة في وقت اليأس من أعظم النعم ، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم .

فإن قيل : إن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء عندما أسكن إسمعيل وهاجر أمه في ذلك الوادي ، وفي ذلك الوقت ما ولد له إسحق فكيف يمكنه أن يقول : ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ .

قلنا قال القاضي : هذا الدليل يقتضي أن إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام في زمان آخر لا عقيب ما تقدم من الدعاء .

ويمكن أيضاً أن يقال : إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسمعيل وظهور إسحق وإن كان ظاهر الروايات بخلافه .

البحث الثاني : على في قوله : ﴿ عَلَى الكبر ﴾ بمعنى مع كقول الشاعر :

إني على ما ترين من كبري . . أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو في موضع الحال ومعناه : وهب لي في حال الكبر .

(128/420)

---

البحث الثالث : في المناسبة بين قوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَىْءٍ فَى الأرض وَلاَ فِى السمآء ﴾ وبين قوله : ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ وذلك هو كأنه كان في قلبه أن يطلب من الله إعانتهما وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب ، بل قال : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أي إنك تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا ، ثم قال : ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ وذلك يدل ظاهراً على أنهما يبقيان بعد موته وأنه مشغول القلب بسببهما فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض وذلك يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء قال عليه

السلام حاكياً عن ربه أنه قال : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدعآء ﴾ .

واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ أي هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح وقوله : سميع الدعاء .

من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده .

المطلوب الخامس : قوله : ﴿ رَبِّ اجعلنى مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَتِى ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

احتج أصحابنا بهذا الآية على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى فقالوا إن قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ يدل على أن ترك المنهيات لا يحصل إلا من الله وقوله : ﴿ رَبِّ اجعلنى مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَتِى ﴾ يدل على أن فعل المأمورات لا يحصل إلا من الله ، وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصراً على أن الكل من الله .

المسألة الثانية :

تقدير الآية : رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي .

أي واجعل بعض ذريتي كذلك لأن كلمة "من" في قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ للتبعيض ، وإنما ذكر هذا التبعيض لأنه علم باعلام الله تعالى أنه يكون في ذريته جمع من الكفار وذلك قوله : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ .

المطلوب السادس : أنه عليه السلام لما دعا الله في المطالب المذكورة دعا الله تعالى في أن يقبل دعاءه فقال : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ وقال ابن عباس : يريد عبادتي بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ [ مريم : 48 ] .

المطلوب السابع : قوله : ﴿ رَبَّنَا اغفر لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب فهذا يدل على أنه كان قد صدر الذنب عنه وإن كان قاطعاً بأن الله يغفر له فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعاً بحصوله ؟

والجواب : المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته .

المسألة الثانية :

إن قال قائل كيف جاز أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين ؟

فالجواب عنه من وجوه : الأول : أن المنع منه لا يعلم إلا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعاً فظن كونه حائزاً .

الثاني : أراد بوالديه آدم وحواء .

الثالث : كان ذلك بشرط الإسلام .

(130/420)

---

ولقائل أن يقول : لو كان الأمر كذلك لما كان ذلك الاستغفار باطلاً ولو لم يكن لبطل قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [ الممتحنة : 4 ] وقال بعضهم : كانت أمه مؤمنة ، ولهذا السبب خص أباه بالذكر في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [ التوبة : 114 ] ، والله أعلم وفي قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ قولان : الأول : يقوم أي يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل ، والدليل عليه قولهم : قامت الحرب على ساقها ، ونظيره قوله ترجلت الشمس ، أي أشرقت وثبت ضوءها كأنها قامت على رجل .

الثاني : أن يسند إلى الحساب قيام أهله على سبيل المجاز مثل قوله : ﴿ واسئل القرية ﴾ [

يوسف : 82 ] أي أهلها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 111.109 ﴾

(131/420)

---

وقال ابن عطية :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) ﴾

مقصد إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ التنبيه على اختصاره في الدعاء ، وتفويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم وغير ذلك ، ثم انصرف إلى الثناء على الله تعالى بأنه علام الغيوب ، وإلى حمده على هباته ، وهذه من الآيات المعلمة أن علم الله تعالى بالأشياء هو على التفصيل التام .

وروي في قوله : ﴿ على الكبر ﴾ أنه لما ولد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً ، وروي أقل من هذا ، و﴿ إسماعيل ﴾ أسنّ من ﴿ إسحاق ﴾ ، فيما روي ، وبحسب ترتيب هذه الآية –وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : بشر إبراهيم وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً .

وقوله : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ ، دعا إبراهيم عليه السلام في أمر كان مثابراً عليه متمسكاً به ، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما القصد إدامة الأمر واستمراره .

(132/420)

---

وقرأ طلحة والأعمش " دعاء ربنا " بغير ياء . وقرأ أبو عمرو وابن كثير " دعائي " بياء ساكنة في الوصل ، وأثبتها بعضهم دون الوقف في الوصل . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي بغير ياء في وصل ولا وقف . وروى ورش عن نافع : إثبات الياء في الوصل ، وقرأت فرقة " ولوالديّ " واختلف في تأويل ذلك ، وقالت فرقة : كان هذا من إبراهيم قبل يأسه من إيمان أبيه وتبينه أنه عدو لله ، فأراد أباه وأمه ، لأنها كانت مؤمنة ، وقيل : أراد آدم ونوحاً عليهما السلام . وقرأ سعيد بن جبير " ولوالدي " بإفراد الأب وحده ، وهذا يدخله ما تقدم من التأويلات ، وقرأ الزهري وإبراهيم النخعي " ولولديّ " على أنه دعاء لإسماعيل وإسحاق ، وأنكرها عاصم الجحدري ، وقال إن في مصحف أبيّ بن كعب " ولأبوي " ، وقرأ يحيى بن يعمر " ولوُلْدي " بضم الواو وسكون اللام ، والولد لغة في الولد ، ومنه قول الشاعر - أنشده أبو علي وغيره : [ الطويل ]

فليت زياداً كان في بطن أمِّه . . . وليت زياداً كان وُلْدَ حمار

ويحتمل أن يكون الولد جمع ولد كأسد في جمع أسد .

وقوله : ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ معناه يوم يقوم الناس للحساب ، فأسند القيام للحساب إيجازاً ، إذ المعنى مفهوم .

قال القاضي أبو محمد : ويتوجه أن يريد قيام الحساب نفسه ، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتلبس العباد بين يدي الله به ، كما تقول : قامت السوق وقامت الصلاة ، وقامت الحرب على ساق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(133/420)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ربنا إِنك تعلم ما نخفي ﴾

قال أبو صالح عن ابن عباس : ما نخفي من الوَجد بمفارقة إِسماعيل ، وما نعلن من الحُبِّ له .

قال المفسرون : إِنما قال هذا لمّا نزل إِسماعيل الحرم ، وأراد فراقه .

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَر ﴾

أي : بعد الكبر ﴿ إِسماعيل وإِسحاق ﴾ قال ابن عباس : وُلد له إِسماعيل وهو ابن تسع

وتسعين ، ووُلد له إِسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ ربنا وتقبَّل دعائي ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وهبيرة عن حفص عن عاصم : "وتقبَّل دعائي" بياء في الوصل .

وقال البزي عن ابن كثير : يصل ويقف بياء .

وقال قنبل عن ابن كثير : يُشِمُّ الياء في الوصل ، ولا يثبتها ، ويقف عليها بالألف .

الباقون "دعاءِ" بغير ياء في الحالين .

قال أبو علي : الوقف والوصل بياء هو القياس ، والإِشمام جائز ، لدلالة الكسرة على الياء .

قوله تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديَّ ﴾

قال ابن الأنباري : استغفرَ لأبويه وهما حيّان ، طمعاً في أن يُهْدَيا إِلى الإِسلام .

وقيل : أراد بوالديه : آدم ، وحواء .

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ ، والنخعي ، والزهري : "ولِولَديَّ" يعني : إِسماعيل وإِسحاق ، يدل عليه ذِكرُهما قبل ذلك .

وقرأ مجاهد : "ولوالِدِي" على التوحيد .

وقرأ عاصم الجُحدري : "ولِوُلْدي" بضم الواو .

وقرأ يحيى بن يعمر ، والجَوني : "ولِولَدِي" بفتح الواو وكسر الدال على التوحيد .

﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي : يَظهر الجزاء على الأعمال .

وقيل : معناه : يوم يقوم الناس للحساب ، فاكتُفي بذِكر الحساب من ذِكر الناس إِذ كان المعنى مفهوماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(134/420)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾

أي ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا .

وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أُسْكِنَا بوادٍ غير ذي زرع .

﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم .

وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ قال الله : ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أي على كبر سني وسنّ امرأتي ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة .

وقال سعيد بن جُبَير : بُشِّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة ﴾ أي من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه .

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها .

﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ أي عبادتي كما قال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [ غافر : 60 ] .

وقال عليه السلام : " الدعاءُ مُخُّ العبادة " وقد تقدم في " البقرة " .

﴿ رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله .

قال القُشَيْرِيّ : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جبير ، ﴿ رَبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ يعني أباه .

وقيل : استغفر لهما طمعاً في إيمانهما .

وقيل : استغفر لهما بشرط أن يُسلما .

وقيل : أراد آدم وحوّاء .

وقد رُوِي أن العبد إذا قال : اللهم اغفر لي ولوالديّ وكان أبواه قد ماتا كافرين انصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع .

(135/420)

---

وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق .

وكان إبراهيم النخعي يقرأ : "وِلوَلَدَيّ" يعني ابنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدي والنحاس .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : "لِلْمُؤْمِنِينَ" كلهم وهو أظهر .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ أي يوم يقوم الناس للحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(136/420)

---

وقال الخازن:

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾

يعني إنك تعلم السر كما تعلم العلن عما لا تفاوت فيه؛ والمعنى أنك تعلم أحوالنا، وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا إلى الدعاء، والطلب إنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك وتذللاً لعزتك وافتقاراً إلى ما عندك وقيل: معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة إسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع وما نعلن يعني من البكاء وقيل: ما نخفي يعني من الحزن المتمكن في القلب، وما نعلن يعني ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لإبراهيم عليه السلام إلى من تكلنا قال: إلى الله قالت إذاً لا يضيعنا ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ فقيل: هذا من تتمة قول إبراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان وقال الأكثرون: إنه من قول الله تعالى تصديقاً لإبراهيم فيما قال: فهو كقوله وكذلك يفعلون ﴿ الحمد لله رب الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ قال ابن عباس: ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة وقال سعيد بن جبير: بشر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة، ومعنى قوله: على الكبر مع الكبر لأن هبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لأنه سن اليأس

من الولد لهذا شكر الله على هذه المنة .

فقال : الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق .

(137/420)

---

فإن قلت : كيف جمع بين إسماعيل وإسحاق في الدعاء في وقت واحد وإنما بشر باسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل ؟ قلت : يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عندما بشر باسحاق وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله ربنا إني أسكنت ذريتي إلى قوله لعلهم يشكرون إذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق في وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ كان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به ومن إجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله ﴿ ربِّ

اجعلني مقيم الصلاة ﴾ يعني ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة وإنما أدخل لفظة من التي هي للتبعيض في قوله ومن ذريتي لأنه أعلم بإعلام الله إياه أنه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتي وأراد بهم المؤمنين من ذريته ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يتقبل دعاءه فاستجاب الله لإبراهيم وقيل دعاءه بفضله ومنه كرمه ﴿ ربنا اغفر لي ﴾ فان قلت طلب المغفرة من الله إنما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبت عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له ؟ قلت : المقصود منه الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته ﴿



---

ولوالدي ﴾ .

فإن قلت : كيف استغفر إبراهيم لأبويه وكانا كافرين ؟ قلت : أراد أنهما إن أسلما وتابا وقيل إنما قال ذلك أن يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل إن أمه أسلمت فدعا لها

وقيل أراد بوالديه آدم وحواء ﴿ وللمؤمنين ﴾ يعني واغفر للمؤمنين كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ يعني يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم الناس للحساب فاكتفى بذلك أي بذكر الحساب لكونه مفهوماً عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله إبراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة.

انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(139/420)

---

وقال أبو حيان :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) ﴾

كرر النداء للتضرع والالتجاء ، ولا يظهر تفاوت بين إضافة رب إلى ياء المتكلم ، وبين إضافته إلى جمع المتكلم ، وما نخفي وما نعلن عام فيما يخفونه وما يعلنونه.

وقيل : ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة ، وما نعلن من البكاء والدعاء.

وقيل : ما نخفي من كآبة الافتراق ، وما نعلن مما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم.

قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم .

قالت : لا نخشى تركتنا إلى كافٍ .

والظاهر أنّ قوله : وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، من كلام إبراهيم لاكتناف ما قبله وما بعده بكلام إبراهيم .

لما ذكر أنه تعالى عمم ما يخفى هو ومن كنى عنه ، تمم جميع الأشياء ، وأنها غير خافية عنه تعالى .

وقيل : وما يخفى الآية من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام كقوله تعالى : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ والظاهر أنْ هذه الجمل التي تكلم بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم تقع منه في زمان واحد ، وإنما حكى الله عنه ما وقع في أزمان مختلفة ، يدل على ذلك أن إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه ، إذ ترك هاجر والطفل بمكة .

فالظاهر أنّ حمده الله تعالى على هبة ولديه له كان بعد وجود إسحاق ، وعلى الكبر يدل على مطلق الكبر ، ولم يتعرض لتعيين المدة التي وهب له فيها ولداه .

وروي أنه ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة .

وقيل : إسماعيل لأربع وستين ، وإسحاق لتسعين .

وعن ابن جبير : لم يولد له إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة .

وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة فيها بهبة الولد أعظم من حيث أنّ الكبر مظنة اليأس من الولد ، فإنّ مجيء الشيء بعد الإياس أحلى في النفس وأبهج لها .

(140/420)

---

وعلى الكبر في موضع الحال لأنه قال : وأنا كبير ، وعلى علي بابها من الاستعلاء لكنه مجاز ، إذ الكبر معنى لا جرم يتكون ، وكأنه لما أسنّ وكبر صار مستعلياً على الكبر .

وقال الزمخشري : على في قوله على الكبر بمعنى مع ، كقوله :

إني على ما ترين من كبري . . .

أعلم من حيث يؤكل الكتف

وكنى بسميع الدعاء عن الإجابة والتقبل ، وكان قد دعا الله أن يهبه ولداً بقوله : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ فحمد الله على ما وهبه من الولد وأكرمه به من إجابة دعائه .

والظاهر إضافة سميع إلى المفعول وهو من إضافة المثال الذي على وزن فعيل إلى المفعول ، فيكون إضافة من نصب ، ويكون ذلك حجة على إعمال فعيل الذي للمبالغة في المفعول على ما ذهب إليه سيبويه ، وقد خالف في ذلك جمهور البصريين ، وخالف الكوفيون فيه .

وفي إعمال باقي الخمسة الأمثلة فعول ، وفعال ، ومفعال ، وفعل ، وهذا مذكور في علم

النحو .

ويمكن أن يقال في هذا ليس ذلك إضافة من نصب فيلزم جواز إعماله ، بل هي إضافة كإضافة اسم الفاعل في نحو : هذا ضارب زيد أمس .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله ، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي ، والمراد : سماع الله انتهى .

وهو بعيد لاستلزامه أن يكون من باب الصفة المشبهة ، والصفة متعدية ، ولا يجوز ذلك إلا عند أبي علي الفارسي حيث لا يكون لبس .

وأما هنا فاللبس حاصل ، إذ الظاهر أنه من إضافة المثال للمفعول ، لا من إضافته إلى الفاعل .

وإنما أجاز ذلك الفارسي في مثل : زيد ظالم العبيد إذا علم أنّ له عبيداً ظالمين .

ودعاؤه بأنْ يجعله مقيم الصلاة وهو مقيمها ، إنما يريد بذلك الديمومة .

ومن ذريتي ، من للتبعيض ، لأنه أعلم أنّ من ذريته من يكون كافراً ، أو من يهمل إقامتها وإن كان مؤمناً .

وقرأ طلحة ، والأعمش : دعاء ربنا بغير ياء .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : بياء ساكنة في الوصل ، وأثبتها بعضهم في الوقف .

وروى ورش عن نافع : إثباتها في الوصل .

والظاهر أنّ إبراهيم سأل المغفرة لأبويه القريبين ، وكانت أمه مؤمنة ، وكان والده لم ييأس من إيمانه ولم تتبين له عداوة الله ، وهذا يتمشى إذا قلنا : إن هذه الأدعية كانت في أوقات مختلفة ، فجمع هنا أشياء مما كان دعا بها .

وقيل : أراد أمه ، ونوحاً عليه السلام .

وقيل : آدم وحواء .

والأظهر القول الأول .

وقد جاء نصاً دعاؤه لأبيه بالمغفرة في قوله : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ وقال الزمخشري : ( فإن قلت ) : كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين ؟ ( قلت ) : هو من تجويزات العقل ، لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف انتهى .

وهو في ذلك موافق لأهل السنة ، مخالف لمذهب الاعتزال .

وقرأ الحسين بن علي ، ومحمد ، وزيد : ربنا على الخبر .

وابن يعمر والزهري والنخعي : ولولديّ بغير ألف وبفتح اللام يعني : إسماعيل وإسحاق ، وأنكر عاصم الجحدري هذه القراءة ، وقال : إنّ في مصحف أبيّ بن كعب : ولأبوي ، وعن يحيى بن يعمر : ولولدي بضم الواو وسكون اللام ، فاحتمل أنْ يكون جمع ولد كأسد في

أسد ، ويكون قد دعا لذريته ، وأن يكون لغة في الولد .

وقال الشاعر :

فليت زياداً كان في بطن أمه . . .

وليت زياداً كان ولد حمار

كما قالوا : العدم والعدم .

وقرأ ابن جبير : ولوالدي بإسكان الياء على الإفراد كقوله : واغفر لأبي ، وقيام الحساب مجاز .

عن وقوعه وثبوته كما يقال : قامت الحرب على ساق ، أو على حذف مضاف أي : أهل الحساب كما قال : ﴿ يقوم الناس لرب العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(142/420)

---

وقال أبو السعود :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾

من الحاجات وغيرِها ، والمرادُ بما نُخفي ما يقابل ما نعلن سواءٌ تعلق به الإخفاءُ أو لا ، أي

تعلم ما نظهره وما لا نظهره فإن علمَه تعالى متعلّقٌ بما لا يخطُر بباله مما فيه من الأحوال الخفية فضلاً عن إخفائه ، وتقديمُ ما نخفي على ما نعلن لتحقيق المساواةِ بينهما في تعلق العلم بهما على أبلغ وجهٍ فكأن تعلقه بما يخفى أقدمُ منه بما يُعلن ، أو لأن مرتبة السرِّ والخفاءِ متقدمةٌ على مرتبة العلن إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو قبل ذلك خفيٌّ فتعلقُ علمِه سبحانه بحالته الأولى أقدمُ من تعلقه بحالته الثانية ، وقصدُه عليه السلام أن إظهارَ هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غيرَ معلومةٍ لك ، بل إنما هو لإظهار العبوديةِ والتخشّعِ لعظمتك ، والتذلّل لعزتك ، وعرضِ الافتقارِ إلى ما عندك ، والاستعجالِ لنيل أياديك . وتكريرُ النداءِ للمبالغة في الضراعة والابتهال ، وضميرُ الجماعة لأن المرادَ ليس مجردَ علمِه تعالى بسرِّه وعلنه بل بجميع خفايا المُلك والمَلكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض : ﴿ وَمَا يخفى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ لما أنه العالمُ بالذات فما من أمر يدخُل تحت الوجود كائناً ما كان في زمان من الأزمان إلا ووجودُه في ذاته علمٌ بالنسبة إليه سبحانه ، وإنما قال : وما يخفي على الله الخ ، دون أن يقول : ويعلم ما في السموات والأرض تحقيقاً لما عناه بقوله : تعلم ما نخفي من أن علمَه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبةُ خفاءٍ بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقاتِ ، وكلمةُ في متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لشيءٍ ، أي من شيء كائنٍ فيهما ، أعمُّ من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما ، أو على وجه الجزئيةِ منهما أو بيخفى ، وتقديمُ الأرض

على السماء مع توسيط لا بينهما باعتبار القربِ والبعدِ منا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا ، والالتفاتُ من الخطاب

(143/420)

---

إلى اسم الذاتِ المستجمعةِ للصفات لتربية المهابةِ والإشعارِ بعلة الحُكمِ على نهج قوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ والإيذانِ بعمومه لأنه ليس بشأنٍ يُختص به أو بمن يتعلق به ، بل شاملٌ لجميع الأشياء فالمناسبُ ذكرُه تعالى بعنوان مصحّحٍ لمبدإ الكلّ ، وقيل : هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ ومن للاستغراق على الوجهين .

﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر ﴾ أي مع كِبَري ويأسي عن الولد ، قيّد الهبةَ به استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ رُوي أنه وُلد له إسماعيلُ وهو ابنُ تسعٍ وتسعين سنة ، وولد له إسحاقُ وهو ابن مائةٍ واثنتي عشرة سنة أو مائة وسبعَ عشرة سنة .

﴿ إِنَّ رَبّى ﴾ ومالكَ أمري ﴿ لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ لمجيبُه ، من قولهم : سمِع الملكُ كلامَه إذا اعتدّ به ، وهي من أبنيةِ المبالغةِ العاملة عمَلَ الفعل أُضيف إلى مفعولِه أو فاعلِه بإسناد

السماعِ إلى دعاء الله تعالى مجازاً ، وهو مع كونه من تتمة الحمدِ والشكر إذ هو وصفٌ له تعالى بأن ذلك الجميلَ سنّته المستمرّةُ تعليلٌ على طريقة التذييل للهبة المذكورة ، وفيه إيذانٌ بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاءِ بقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ فاقترنت الهبةُ بقبول الدعوةِ ، وتوحيدُ ضمير المتكلم وإن كان عَقيبَ ذكرِ هبتهما لما أن نعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعَم عليهم .

﴿ رَبِّ اجعلنى مُقِيمَ الصلاة ﴾

(144/420)

---

مثابراً عليها معدّلاً لها ، وتوحيدُ ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضاً حيث قال : ﴿ وَمِن ذُرّيَتِى ﴾ أي بعضِهم من المذكورين ومن يسير سيرتَهما من أولادهما للإشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريّتُه أتباعٌ له وإن ذكرَهم بطريق الاستطراد ، لا كما في قوله : ﴿ رَّبَّنَا إِنَّى أَسْكَنتُ ﴾ الخ ، فإن إسكانَه مع عدم تحققِه بلا ملابسةٍ لمن أسكنه إنما هو مذكورٌ بطريق التمهيد للدعاء الذي هو مخصوصٌ بذريته وإنما خصّ هذا الدعاءَ ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضاً منهم لا يكون مقيمَ الصلاة كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴾ أي دعائيَ هذا المتعلِّقَ بجعلي

وجعلِ بعض ذرّيتي مقيمي الصلاةِ ثابتين على ذلك مجتنبين عن عبادة الأصنامِ ، ولذلك جيء بضمير الجماعة .

(145/420)

---

﴿ ربَّنَا اغفرلى ﴾ أي ما فرطَ مني من ترك الأَولى في باب الدين وغيرَ ذلك مما لا يسلم منه البشر ﴿ وِلوَالِدىَّ ﴾ وقرىء بالتوحيد ولأبوي ، وهذا الاستغفارُ منه عليه السلام إنما كان قبل تبيّن الأمرِ له عليه السلام ، وقيل : أراد بوالديه آدمَ وحواءَ ، وقيل : بشرط الإسلام ويردّه قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم ﴾ الآية ، وقد مر في سورة التوبة نوعُ تحقيقٍ للمقام سيأتي تمامه في سورة مريم بفضل الله تعالى ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كافة من ذريته وغيرهم وللإيذان باشتراك الكلِّ في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ أي يثْبت ويتحقق محاسبة أعمالِ المكلفين على وجه العدل ، استُعير له من ثبوت القائمِ على الرجل بالاستقامة ، ومنه قامت الحربُ على ساق ، والمرادُ تهويله ، وقيل : أسند إليه قيامُ أهلِه مجازاً أو حذف المضاف كما في ﴿ واسئل القرية ﴾ واعلم أن ما حكي عنه عليه السلام من الأدعية والأذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المَحْكيِّ ولا على وجه المعيّة ، بل صدر عنه في أزمنة متفرّقةٍ حُكي مرتباً للدِلالة على سوء حال

الكفرةِ بعد ظهور أمرِه في الملة وإرشادِ الناس إليها والتضرّعِ إلى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنيوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(146/420)

---

وقال الآلوسى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾

من الحاجات وغيرها ، وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي أن مراده عليه السلام ما نخفي من حب إسماعيل وأمه وما نعلن لسارة من الجفاء لهما ، وقيل : ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة وما نعلن من البكاء والدعاء ، وقيل : ما نخفى من كآبة الافتراق وما نعلن مما جرى بيننا وبين هاجر عند الوداع من قولها : إلى من تكلنا ؟ وقولي لها : إلى الله تعالى ، و﴿ مَا ﴾ في جميع هذه الأقوال موصولة والعائد محذوف ؛ والظاهر العموم وهو المختار ، والمراد بما نخفي على ما قيل ما يقابل ﴿ مَا نُعْلِنُ ﴾ سواء تعلق به الإخفاء أو لا أي تعلم ما نظهره وما لا نظهره فإن علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بباله عليه السلام من الأحوال الخفية ، وتقديم ﴿ مَا نُخْفِي ﴾ على ﴿ مَا نُعْلِنُ ﴾ لتحقيق المساواة بينهما في تعلق العلم على أبلغ وجه فكان تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أو لأن مرتبة السر والخفاء

متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفي فتعلق علمه تعالى بحاله الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية ، وجعل بعضهم ﴿ مَا ﴾ مصدرية والتقديم والتأخير لتحقيق المساواة أيضاً ، ومن هنا قيل : أي تعلم سرنا كما تعلم علننا .

والمقصود من فحوى كلامه عليه السلام أن إظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل إنما هو لإظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار لما عندك والاستعجال لنيل أياديك ، وقيل : أراد عليه السلام أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا من أنفسنا فلا حاجة لنا إلى الطلب لكن ندعوك لإظهار العبودية إلى آخره ، وقد أشار السهروردي إلى أن ظهور الحال يغني عن السؤال بقوله :

ويمنعني الشكوى إلى الناس أنني . . .

عليل ومن أشكو إليه عليل

ويمنعني الشكوى إلى الله أنه . . .

عليم بما أشكوه قبل أقول

وتكرير النداء للمبالغة في الضراعة والابتهال ، وضمير الجماعة كما قال بعض المحققين لأن المراد ليس مجرد علمه تعالى بما يخفى وما يعلن بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه عليه السلام بقوله على وجه الاعتراض : ﴿ وَمَا يخفى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الأَرضِ وَلاَ فِى السماء ﴾ لما أن علمه تعالى ذاتي فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلوم دون معلوم ، وقال أبو حيان : لا يظهر تفاوت بين إضافة رب إلى ياء المتكلم وبين إضافته إلى جمع المتكلم اه .

ومما نقلنا يعلم وجه إضافة ﴿ رَبّ ﴾ هنا إلى ضمير الجمع ، ولا أدري ماذا أراد أبو حيان بكلامه هذا ، وما يرد عليه أظهر من أن يخفى ، وإنما قال عليه السلام : ﴿ وَمَا يخفى ﴾ إلى آخره دون أن يقول : ويعلم ما في السموات والأرض تحقيقاً لما عناه بقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى ﴾ من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة إلى علوم المخلوقات .

وكلمة ﴿ فِى ﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أي لشيء كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما ، وجوز أن تتعلق بيخفى وهو كما ترى .

وتقديم الأرض على السماء مع توسيط ﴿ لا ﴾ بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستعدين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا .

والمراد من ﴿ السماء ﴾ ما يشمل السموات كلها ولو أريد من ﴿ الأرض ﴾ جهة السفل

ومن السماء جهة العلو كما قيل جاز ، والالتفات من الخطاب إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم والإيذان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الأشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدئية الكل ، وعن الجبائي أن هذا من كلام الله تعالى شأنه وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ [ النمل : 34 ] والأكثرون على الأول.

﴿ وَمَنْ ﴾ على الوجهين للاستغراق.

(148/420)

---

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾

أي مع كبر سني ويأسي عن الولد فعلى بمعنى مع كما في قوله :

إني على ما ترين من كبري . . .

أعرف من أين تؤكل الكتف

(149/420)

---

والجار والمجرور في موضع الحال ، والتقييد بذلك استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها ، ويصح جعل ﴿ عَلَىَّ ﴾ بمعناها الأصلي والاستعلاء مجازي كما في "البحر" ، ومعنى استعلائه على الكبر أنه وصل غايته فكأنه تجاوزه وعلا ظهره كما يقال : على رأس السنة ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى ، وقال بعضهم : لو كانت للاستعلاء لكان الأنسب جعل الكبر مستعلياً عليه كما في قولهم : على دين ، وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ ﴾ [ الشعراء : 14 ] بل الكبر أولى بالاستعلاء منهما حيث يظهر أثره في الرأس ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [ مريم : 4 ] نعم يمكن أن تجري على حقيقتها بجعلها متعلقة بالتمكن والاستمرار أي متمكناً مستمراً على الكبر ، وهو الأنسب لإظهار ما في الهيئة من الآية حيث لم يكن في أول الكبر اه وفيه غفلة عما ذكرنا ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه وهب له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، ووهب له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة ، وفي رواية أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين ، وإسحاق لسبعين ، وعن ابن جبير لم يولد لإبراهيم عليه السلام إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ﴿ إِنَّ رَبّى ﴾ ومالك أمري ﴿ لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ أي لمجيبه فالسمع بمعنى القبول والإجابة مجاز كما في سمع الله تعالى لمن حمده ، وقولهم : سمع الملك كلامه إذا اعتد به وقبله ، وهو فعيل من أمثلة المبالغة واعمله سيبويه وخالف في ذلك جمهور البصريين ، وخالف الكوفيون فيه وفي أعمال سائر أمثلتها ، وهو إذا قلنا بجواز عمله مضاف لمفعوله أن أريد به المستقبل ، وقيل : إنه غير

عامل لأنه قصد به الماضي أو الاستمرار ، وجوز الزمخشري أن يكون مضافاً لفاعله المجازي فالأصل سميع دعاؤه بجعل الدعاء نفسه سامعاً ، والمراد أن المدعو وهو الله تعالى سامع .



---

وتعقبه أبو حيان بأنه بعيد لاستلزامه أن يكون من باب الصفة المشبهة وهو متعد ولا يجوز ذلك إلا عند الفارسي حيث لا يكون لبس نحو زيد ظالم العبيد إذا علم أن له عبيداً ظالمين ، وههنا فيه إلباس لظهور أنه من إضافة المثال للمفعول انتهى ، وهو كلام متين .

والقول بأن اللبس منتف لأن المعنى على الإسناد المجازي كلام واه لأن المجاز خلاف الظاهر فاللبس فيه أشد ومثله القول بأن عدم اللبس إنما يشترط في إضافته إلى فاعله على القطع ، وهذا كما قال بعض الأجلة مع كونه من تتمة الحمد والشكر لما فيه من وصفه تعالى بأن قبول الدعاء عادته سبحانه المستمرة تعليل على طريق التذييل للهبة المذكورة ؛ وفيه إيذان بتضاعيف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله :

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصالحين ﴾ [ الصافات : 100 ] فاقترنت الهبة بقبول الدعوة ، وذكر بعضهم أن موقع قوله : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ وتذييله موقع الاعتراض بين أدعيته عليه

السلام في هذا المكان تأكيداً للطلب بتذكير ما عهد من الإجابة ، يتوسل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه كأنه عليه السلام يقول اللهم استجب دعائي في حق ذريتي في هذا المقام فإنك لم تزل سميع الدعاء وقد دعوتك على الكبر أن تهب لي ولداً فأجبت دعائي وهبت لي إسماعيل وإسحاق ولا يخفى أن إسحاق عليه السلام لم يكن مولوداً عند دعائه عليه السلام السابق فالوجه أن لا يجعل ذلك اعتراضاً بل يحمل على أن الله تعالى حكى جملاً مما قاله إبراهيم عليه السلام في أحايين مختلفة تشترك كلها فيما سيق له الكلام من كونه عليه السلام على الإيمان والعمل الصالح وطلب ذلك لذريته وأن ولده الحقيقي من تبعه على ذلك فترك العناد والكفر ، وقد ذكر هذا صاحب الكشف .

ومما يعضده ما أخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في قوله : ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ الخ :

قال .

هذا بعد ذلك بحين ، ووحد عليه السلام الضمير في ﴿ رَبِّ ﴾ وإن كان عقيب ذكر الولدين لما أن نعمة الهبة فائضة عليه عليه السلام خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم.

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾

معدلاً لها فهو مجاز من أقمت العود إذا قومته ، وأراد بهذا الدعاء الديمومة على ذلك ، وجوز بعضهم أن يكون المعنى مواظباً عليها ، وبعض عظماء العلماء أخذ الأمرين في تفسير ذلك على أن الثاني قيد للأول مأخوذ من صيغة الاسم والعدول عن الفعل كما أن الأول مأخوذ من موضوعه على ما قيل ، فلا يلزم استعمال اللفظ في معنيين مجازيين ، وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته عليه السلام لذريته أيضاً حيث قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ للإشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له فإن ذكرهم بطريق الاستطراد ﴿ وَمِنْ ﴾ للتبعيض ، والعطف كما قال أبو البقاء على مفعول ﴿ اجعل ﴾ [ إبراهيم : 35 ] الأول أي ومن ذريتي مقيم الصلاة .

وفي "الحواشي الشهابية" أن الجار والمجرور في الحقيقة صفة للمعطوف على ذلك أي وبعضاً من ذريتي ولولا هذا التقدير كان ركيكاً ، وإنما خص عليه السلام هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهته تعالى أن بعضاً منهم لا يكون مقيم الصلاة بأن يكون كافراً أو مؤمناً لا يصلي ، وجوز أن يكون علم من استقرائه عادة الله تعالى في الأمم الماضية أن يكون في ذريته من لا يقيمها وهذا كقوله : ﴿ واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [ البقرة :

128 ].

﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴾ ظاهره دعائي هذا المتعلق بجعلي وجعل بعض ذريتي مقيمي الصلاة ولذلك جيء بضمير الجماعة ، وقيل : الدعاء بمعنى العبادة أي تقبل عبادتي .

وتعقب بأن الأنسب أن يقال فيه دعاءنا حينئذٍ .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وهبيرة عن حفص ﴿ دُعَائِى ﴾ بياء ساكنة في الوصل ، وفي رواية البزي عن ابن كثير أنه يصل ويقف بياء .

(152/420)

---

وقال قنبل : إنه يشم الياء في الوصل ولا يثبتها ويقف عليها بالألف .

﴿ رَبَّنَا اغفرلى ﴾

أي ما فرط مني مما أعده ذنباً ﴿ وَلِوَالِدَىَّ ﴾ أي لأمي وأبي ، وكانت أمه على ما روي عن الحسن مؤمنة فلا إشكال في الاستغفار لها ، وأما استغفاره لأبيه فقد قيل في الاعتذار عنه إنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه والله تعالى قد حكى ما قاله عليه السلام في أحايين مختلفة ، وقيل : إنه عليه السلام نوى شرطية الإسلام والتوبة وإليه ذهب ابن الخازن ، وقيل : أراد بوالده نوحاً عليه السلام ، وقيل : أراد بوالده آدم وبوالدته حواء عليهما

السلام وإليه ذهب بعض من قال بكفر أمه والوجه ما تقدم .

وقالت الشيعة : إن والديه عليه السلام كانا مؤمنين ولذا دعا لهما ، وأما الكافر فأبوه والمراد به عمه أو جده لأمه ، واستدلوا على إيمان أبويه بهذه الآية ولم يرضوا ما قيل فيها حتى القول الأول بناءً على زعمهم أن هذا الدعاء كان بعد الكبر وهبة إسماعيل وإسحاق عليهما السلام له وقد كان تبين له في ذلك الوقت عداوة أبيه الكافر لله تعالى .

وقرأ الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما .

وأبو جعفر محمد .

وزيد ابنا علي .

وابن يعمر .

والزهري .

والنخعي ﴿ ولولدي ﴾ بغير ألف وبفتح اللام تثنية ولد يعني بهما إسماعيل وإسحاق .

وأنكر عاصم الجحدري هذه القراءة ونقل أن في مصحف أبي ﴿ ولأبوي ﴾ وفي بعض المصاحف ﴿ ولذريتي ﴾ وعن يحيى بن يعمر ﴿ ولولدي ﴾ بضم الواو وسكون اللام فاحتمل أن يكون جمع ولد كأسد في أسد ويكون قد دعا عليه السلام لذريته ، وأن يكون لغة في الولد كما في قول الشاعر :

فليت زياداً كان في بطن أمه . . .

وليت زياداً كان ولد حمار

(153/420)

---

ومثل ذلك العدم والعدم ، وقرأ ابن جبير ﴿ لِى وَلِوَالِدَىَّ ﴾ بإسكان الياء على الإفراد كقوله : ﴿ واغفر لأبي ﴾ [ الشعراء : 86 ] ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كافة من ذريته وغيرهم ، ومن هنا قال الشعبي فيما رواه عنه ابن أبي حاتم : ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم ، وللإيذان باشتراك الكل في الدعاء بالمغفرة جيء بضمير الجماعة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ أي يثبت ويتحقق ، واستعمال القيام فيما ذكر إما مجاز مرسل أو استعارة ، ومن ذلك قامت الحرب والسوق ، وجوز أن يكون قد شبه الحساب برجل قائم على الاستعارة المكنية وأثبت له القيام على التخييل ، وأن يكون المراد يقوم أهل الحساب فحذف المضاف أو أسند إلى الحساب ما لأهله مجازاً ، وجعل ذلك العلامة الثاني في شرح التلخيص مثل ضربه التأديب مما فيه الإسناد إلى السبب الغائي أي يقوم أهله لأجله ، وذكر السالكوتي إنه إنما قال مثله لأن الحساب ليس ما لأجله القيام

حقيقة لكنه شبيه به في ترتبه عليه وفيه وبحث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(154/420)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ متعلق بمحذوف ، أي : اذكر وقت قوله ، ولعل المراد بسياق ما قاله إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع بيان كفر قريش بالنعم الخاصة بهم ، وهي إسكانهم مكة بعد ما بين كفرهم بالنعم العامة .

وقيل : إن ذكر قصة إبراهيم ها هنا لمثال الكلمة الطيبة .

وقيل : لقصد الدعاء إلى التوحيد ، وإنكار عبادة الأصنام ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِنًا ﴾ المراد بالبلد هنا : مكة .

دعا إبراهيم ربه أن يجعله آمنا ، أي : ذا أمن ، وقدّم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده ، لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا .

وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في البقرة عند قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾

[ البقرة : 126 ] والفرق بين ما هنا وما هنالك أن المطلوب هنا مجرد الأمن للبلد ، والمطلوب هنالك البلدية والأمن ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ ، يقال : جنبته كذا ، وأجنبته وجنبته ، أي : باعدته عنه ، والمعنى : باعدني ، وباعد بنيّ عن عبادة الأصنام ، قيل : أراد بنيه من صلبه وكانوا ثمانية ، وقيل : أراد من كان موجوداً حال دعوته من بنيه وبني بنيه .

وقيل : أراد جميع ذريته ما تناسلوا ، ويؤيد ذلك ما قيل من أنه لم يعبد أحد من أولاد إبراهيم صنماً ، والصنم هو التمثال الذي كانت تصنعه أهل الجاهلية من الأحجار ونحوها فيعبدونه .

وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر : ﴿ وأجنبني ﴾ بقطع الهمزة على أن أصله أجنب .

(155/420)

---

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ الناس ﴾ أسند الإضلال إلى الأصنام مع كونها جمادات لا تعقل ؛ لأنها سبب لضلالهم فكأنها أضلتهم ، وهذه الجملة تعليل لدعائه لربه ، ثم قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ أي : من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً ﴿ فَإِنَّهُ مِنّى ﴾ أي : من أهل ديني ، جعل أهل ملته كنفسه مبالغة .

﴿ وَمَنۡ عَصَانِى ﴾ فلم يتابعني ويدخل في ملتي ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قادر على أن تغفر له .

قيل : قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به .

كما وقع منه الاستغفار لأبيه وهو مشرك ، كذا قال ابن الأنباري .

وقيل : المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك .

وقيل : إن هذه المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك .

ثم قال : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ قال الفراء : من للتبعيض ، أي : بعض ذرّيتي . وقال ابن الأنباري : إنها زائدة ، أي : أسكنت ذرّيتي ، والأوّل أولى ؛ لأنه إنما أسكن إسماعيل وهو بعض ولده ﴿ بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ ﴾ أي : لا زرع فيه ، وهو وادي مكة ﴿ عِندَ بَيۡتِكَ المحرم ﴾ أي : الذي يحرم فيه ما يستباح في غيره ؛ وقيل : إنه محرّم على الجبابرة . وقيل : محرم من أن تنتهك حرمته ، أو يستخفّ به ، وقد تقدم في سورة المائدة ما يغني عن الإعادة ، ثم قال : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ اللام متعلقة بأسكنت ، أي : أسكنتهم ليقيموا الصلاة فيه ، متوجهين إليه ، متبركين به ، وخصها دون سائر العبادات لمزيد فضلها ، ولعلّ تكرير النداء لإظهار العناية الكاملة بهذه العبادة ﴿ فاجعل أَفۡئِدَةً مِّنَ الناس تَهۡوِى إِلَيۡهِمۡ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد ، وهو القلب ، عبر به عن جميع البدن ؛ لأنه أشرف عضو فيه .

وقيل : هو جمع وفد والأصل أوفدة ، فقدّمت الفاء ، وقلبت الواو ياء ، فكأنه قال : وجعل وفوداً من الناس تهوي إليهم ، و "من" في ﴿ من الناس ﴾ للتبعيض .



---

وقيل : زائدة ، ولا يلزم منه أن يحج اليهود والنصارى بدخولهم تحت لفظ الناس ؛ لأن المطلوب توجيه قلوب الناس إليهم للسكون معهم والجلب إليهم ، لا توجيهها إلى الحجّ ، ولو كان هذا مراداً لقال تهوي إليه ، وقيل : من للابتداء كقولك : القلب مني سقيم ، يريد قلبي ، ومعنى ﴿ تهوي إليهم ﴾ : تنزع إليهم ، يقال : هوى نحوه : إذا مال ، وهوت الناقة تهوي هوياً فهي هاوية : إذا عدت عدواً شديداً كأنها تهوي في بئر ، ويحتمل أن يكون المعنى : تجيء إليهم أو تسرع إليهم ، والمعنى : متقارب ، ﴿ وارزقهم مّنَ الثمرات ﴾ أي : أرزق ذريتي الذين أسكنتهم هنالك ، أو هم ومن يساكنهم من الناس من أنواع الثمرات التي تنبت فيه ، أو تجلب إليه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمك التي أنعمت بها عليهم .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أي : ما نكتمه وما نظهره ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان .

قيل والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن ، فالمعنى : ما نظهره وما لا نظهره ، وقدّم ما نخفي

على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه .

وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك .

وقيل : المراد ما يخفيه إبراهيم من وجده بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنهما بوادٍ غير ذي زرع ، وما يعلنه من ذلك .

وقيل : ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء .

والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط ، بل أراد جميع العباد ، فكأن المعنى : أن الله سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه .

وأما قوله : ﴿ وَمَا يخفى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الأَرضِ وَلاَ فِى السماء ﴾ فقال جمهور المفسرين : هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه ، فقال سبحانه ﴿ وما يخفى على الله شيء ﴾ من الأشياء الموجودة كائناً ما كان .



---

وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد ، وإلاّ فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم ، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية .

قيل : ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقاً لقوله الأوّل ، وتعميماً بعد التخصيص .

ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال : ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ أي : وهب لي على كبر سني وسنّ امرأتي ، قيل : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة ، قيل : و "على" هنا بمعنى "مع" أي : وهو لي مع كبري ويأسي عن الولد ﴿ إِنَّ رَبّى لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ أي : لمجيب الدعاء ، من قولهم : سمع كلامه : إذا أجابه واعتدّ به وعمل بمقتضاه ، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول ، والمعنى : إنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك ، ثم سأل الله سبحانه بأن يجعله مقيم الصلاة محافظاً عليها غير مهمل لشيء منها ، ثم قال : ﴿ وَمِن ذُرّيَتِى ﴾ أي : بعض ذريتي ، أي : اجعلني واجعل بعض ذريتي مقيمين للصلاة ، وإنما خصّ البعض من ذريته ؛ لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي .

قال الزجاج : أي اجعل من ذرّيتي من يقيم الصلاة ، ثم سأل الله سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم ، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولاً أوّلياً .

قيل : والمراد بالدعاء هنا : العبادة ، فيكون المعنى : وتقبل عبادتي التي أعبدك بها ، ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه ، مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيراً ، لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر .

ثم طلب من الله سبحانه أن يغفر لوالديه ، وقد قيل : إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : 114 ] .

وقيل : كانت أمه مسلمة ، وقيل : أراد بوالديه : آدم وحوّاء .

وقرأ سعيد بن جبير : " ولوالدي " بالتوحيد على إرادة الأب وحده .

وقرأ إبراهيم النخعي : " ولولديّ " يعني : إسماعيل وإسحاق ، وكذا قرأ يحيى بن يعمر ، ثم استغفر للمؤمنين .

وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذرّيته أو لم يكن منهم .

وقيل : أراد المؤمنين من ذرّيته فقط .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ أي : يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر ، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقته في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة .

وقيل : إن المعنى : يوم يقوم الناس للحساب .

والأول أولى .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ الآية قال : فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده ، فلم يعبد أحد من ولده صنماً بعد دعوته .

واستجاب الله له ، وجعل هذا البلد آمناً ، ورزق أهله من الثمرات ، وجعله إماماً ، وجعل من ذريته من يقيم الصلاة ، وتقبل دعاءه فأراه مناسكه وتاب عليه .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن عقيل بن أبي طالب : "أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أتاه الستة النفر من الأنصار جلس إليهم عند جمرة العقبة ، فدعاهم إلى الله وإلى عبادته والمؤازرة على دينه ، فسألوه أن يعرض عليهم ما أوحي إليه ، فقرأ من سورة إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجعل هذا البلد آمِنًا واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ إلى آخر السورة ، فرّق القوم وأخبتوا حين سمعوا منه ما سمعوا وأجابوه .

(159/420)

---

وأخرج الواقدي ، وابن عساكر من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال : كانت سارّة تحت إبراهيم ، فمكثت تحته دهراً لا ترزق منه ولداً ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمة لها قبطية ، فولدت له إسماعيل ، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها ، وعتبت على هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أطراف ، فقال لها إبراهيم : هل لك أن تبرّي يمينك ؟

قالت : كيف أصنع ؟ قال : اثقبي أذنيها واخفضيها ، والخفض : هو الختان ، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أذنيها قرطين فازدادت بهما حسناً ، فقالت سارّة : أراني إنما زدتها جمالاً ، فلم تقارّه على كونه معها ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً ، فنقلها إلى مكة فكان يزورها في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ قال : أسكن إسماعيل وأمه مكة .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : إن إبراهيم حين قال : ﴿ فاجعل أَفۡئِدَةً مِّنَ الناس تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ لو قال : أفئدة الناس تهوي إليهم لازدحمت عليه فارس والروم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحكم قال : سألت عكرمة وطاوساً وعطاء بن أبي رباح عن هذه الآية : ﴿ فاجعل أَفۡئِدَةً مِّنَ الناس تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ فقالوا : البيت تهوي إليه قلوبهم يأتونه .

وفي لفظ قالوا : هواهم إلى مكة أن يحجوا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ قال : تنزع إليهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم الطائفي : أن إبراهيم لما دعا للحرم ﴿ وارزق أَهۡلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ نقل الله الطائف من فلسطين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الزهري قال : إن الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة إبراهيم .

(160/420)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في شعب الإيمان ، قال السيوطي : بسندٍ حسن ، عن ابن عباس قالوا : لو كان إبراهيم عليه السلام قال : فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لحجّ اليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكنه قال أفئدة من الناس فخصّ به المؤمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ قال : من الحزن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي في قوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى ﴾ قال : من حبّ إسماعيل وأمه ﴿ وَمَا نُعْلِنُ ﴾ قال : ما نظهر لسارّة من الجفاء لهما .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ قال : هذا بعد ذلك بحين .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بشر إبراهيم بعد سبع عشرة سنة ومائة سنة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(161/420)

وقال القاسمي :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء ﴾ لأن الكل خلقه : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [ الملك : من الآية 14 ] .

قال الزمخشري : المعنى : إنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا . وأنت أرحم بنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب . وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذللاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك ، واستعجالاً لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك . وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة .

وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح ، فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهماً للغفلة عن حوائج السائلين ، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . انتهى .

وجوّز في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ الخ ، أن يكون من كلامه تعالى ، تصديقاً لإبراهيم ، أو من كلامه عليه السلام .

﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ ﴾ أي : ليقوما مقامي في الدعوة إليه تعالى وبث الحنيفية وإقامة الصلاة بعد ذهابي : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾

أي : مجيبه .

قال الزمخشري : وإنما ذكر حال الكبر ، لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة على عقب اليأس ، من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ أي : عبادتي ، كذا في " التنوير " .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ أي : مجازاة العباد على أعمالهم . قرئ ( ولوالدِي ) بالإفراد ، وكأن هذا قبل تبين أمره له عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل جـ 10 صـ 329 . 330 ﴾

(162/420)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾

جاء بهذا التوجه إلى الله جامعاً لما في ضميره ، وفذلكةً للجمل الماضية لِما اشتملت عليه من ذكر ضلال كثير من الناس ، وذكر من اتبع دعوته ومن عصاه ، وذكر أنه أراد من إسكان

أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله ، وأن يقيموا الصلاة ، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم .

وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية إليه .

وجملة ﴿ وما يخفى على الله من شيء ﴾ تذييل لجملة ﴿ إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ ، أي تعلم أحوالنا وتعلم كل شيء .

ولكونها تذييلاً أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلاً بنفسه بمنزلة المَثل والكلام الجامع .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) ﴾

لما دعا الله لأَهَمّ ما يهمه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته وأن ذلك ليس بَعجبُ في أمر الله خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدَيْن في إبان الكِبَر وحين اليأس من الولادة فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء ، أي مجيب ، أي متصف بالإجابة وصفاً ذاتياً ، تمهيداً لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوتَه سلفاً .

فهذا مناسبة مَوقع هذه الجملة بعد ما قبلها بقرينة قوله : ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ .

واسم الموصول إيماء إلى وجه بناء الحمد .

و﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ على الكبر ﴾ للاستعلاء المجازي بمعنى ﴿ مع ﴾ ، أي وهب ذلك تعلياً على الحالة التي شأنها أن لا تسمح بذلك .

ولذلك يفسرون ﴿ على ﴾ هذه بمعنى ﴿ مع ﴾ ، أي مع الكِبَر الذي لا تحصل معه الولادة .

وكان عُمُر إبراهيم حين ولد له إسماعيل عليهما السلام ستا وثمانين سنة ( 86 ) .

وعمره حين ولد له إسحاق عليهما السلام مائة سنة ( 100 ) .

وكان لا يولد له من قبل .

*(163/420)*

---

وجملة ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ تعليل لجملة ﴿ وهب ﴾ ، أي وهب ذلك لأنه سميع الدعاء .

والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية ، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبهة ليدلّ على كثرة ذلك وأن ذلك شأنه ، فيفيد أنه وصف ذاتي لله تعالى .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) ﴾

جملة مستأنفة من تمام دعائه .

وفعل ﴿ اجعلني ﴾ مستعمل في التكوين ، كما تقدم آنفاً ، أي اجعلني في المستقبل مقيم الصلاة .

والإقامة : الإدامة ، وتقدم في صدر سورة البقرة .

﴿ ومن ذريتي ﴾ صفة لموصوف محذوف معطوف على ياء المتكلم .

والتقدير واجعل مقيمين للصلاة من ذريتي .

و﴿ من ﴾ ابتدائة وليست للتبعيض ، لأن إبراهيم عليه السلام لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته .

ويجُوز أن تكون ﴿ من ﴾ للتبعيض بناءً على أن الله أعلمه بأن يكون من ذريته فريق يقيمون الصلاة وفريق لا يقيمونها ، أي لا يؤمنون .

وهذا وجه ضعيف لأنه يقتضي أن يكون الدعاء تحصيلاً لحاصل ، وهو بعيد ، وكيف وقد قال : ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ [ سورة إبراهيم : 35 ] ولم يقل : ومن بَنيّ .

ودعاؤه بتَقَبل دعائه ضراعة بعد ضراعة .

وحُذفت ياء المتكلم في دعاءِ ﴾ في قراءة الجمهور تخفيفاً كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإليه

متاب ﴾ في سورة الرعد ( 30 ) .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة بإثبات الياء ساكنة .

ثم دعا بالمغفرة لنفسه وللمؤمنين ولوالديه ما تقدم منه ومن المؤمنين قبل نبوءته وما استمر عليه أُبوه بعد دعوته من الشرك ، أما أمه فلعلها توفيت قبل نبوءته .

وهذا الدعاء لأبويه قبل أن يتبين له أن أباه عدوّ لله كما في آية سورة براءة .

ومعنى يقوم الحساب ﴾ : يثبت .



---

استعير القيام للثبوت تبعاً لتشبيه الحساب بإنسان قائم ، لأن حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل .

ومنه قولهم : قامت الحرب على ساق ، إذا قويت واشتدت .

وقولهم : ترجلت الشمس ، إذا قوي ضوءها ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ في أول سورة البقرة ( 4 ) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اغفر لي ولوالديّ ﴾ الآية .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه وبين في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو الله فلما علم ذلك تبرأ منه كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [ التوبة : 114 ] ونحو ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(166/420)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) ﴾

وبعد أن اطمأن إبراهيم – عليه السلام – أن لهذا البلد أمناً عاماً وأمناً خاصاً ، واطمأن على مُقوِّمات الحياة ؛ وأن كل شيء من عند الله ، بعد كل ذلك عاودته المسألة التي كانت تشغله ، وهي مسألة تركه لهاجر وإسماعيل في هذا المكان .

وبعض المُفسِّرين قالوا : إن الضمير بالجمع في قوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ . . . ﴾ [إبراهيم : 38] .

مقصود به ما يُكِنّه من الحُبّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعلِنه من الجفاء الذي يُظهِره لهما أمام سارة ، وكأن المعاني النفسية عاودته لحظةَ أنْ بدأ في سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .

ونقول : لقد كانت هاجر هي الأخرى تعيش موقفاً صَعْباً ؛ ذلك أنها قد وُجدت في مكان ليس فيه زَرْع ولا ماء ، وكأنها كتمتْ نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرتْ .

ولحظة أنْ جاء إبراهيم لِيُودّعها ؛ قالت له : أين تتركنا ؟ وهل تتركنا مِنْ رأيك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل هو من أَمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالتْه قد تحقّق ؛ ولن يُضيّعهما الله ، وحين يعطش وحيدها تجري بين الصفا والمروة بَحْثاً عن مياه ؛ ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قَدَمَيْ ابنها في المكان الذي تركته فيه ؛ ويبدأ بئر زمزم في عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التي لا تنضب .

*(167/420)*

---

وهكذا يتحقق قول إبراهيم - عليه السلام - في أن الله يعلم ما نُسِرّ وما نُعلِن ؛ ذلك أن كل مُعْلَن لا يكون إلا بعد أن كل مَخْفياً ، وعلى الرغم من أن الله غَيْبٌ إلا أن صِلَته لا تقتصر

على الغيب ؛ بل تشمل العالم الظاهر والباطن ؛ وكل مظروف في السماء أو الأرض معلومٌ لله ؛ لأن ما تعتبره أنت غيباً في ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحرك ذهنك إليه .

ولذلك يقول سبحانه في موقع آخر : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [ طه : 7 ] .

فإذا كان السِّر هو ما أسررْت به لغيرك ؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألاّ يقوله ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت في نفسك ؛ فالله هو العَالِم به في الحالتين .

ويقول القرآن : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النبي إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً . . ﴾ [ التحريم : 3 ] .

أي : أن السِّرّ كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى بعضٍ من أزواجه .

والأَخْفى هو ما قبل أنْ تبوحَ بالسرِّ ؛ وكتمته ولم تَبُحْ به .

وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أي : السر الذي لم تَقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكونَ سراً .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم – عليه السلام – ضراعةَ وحَمْداً له سبحانه : ﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي . . . ﴾ .

والوَهْب هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل منك . وكل الذرية هِبَة ، لو لم تكُنْ هبة لكانت رتيبة بين الزوجين ؛ وأينما يوجد زوجان توجد . ولذلك قال الله : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً

وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [ الشورى : 49-50 ] .

*(168/420)*

---

والدليل على أن الذرية هِبَة هو ما شاءه سبحانه مع زكريا عليه السلام ؛ وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بغلام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغ من الكِبَر عِتياً وزوجه عاقر ؛ وقد تعجَّب زكريا من ذلك ؛ لأنه أنجب بقوة ، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [ مريم : 9 ] .

وهذا يعني ألاّ يدخل زكريا في الأسباب والمُسبّبات والقوانين .

وقد سمَّى الحق سبحانه الذرية هِبةً ؛ لذلك يجب أن نشكرَ الله لأن الذي يقبل هبة الله في إنجاب الإناث برضاً يرزقه الله بشباب يتزوجون البنات ؛ ويصبحون أطوعَ له من أبنائه ، رغم أنه لم يَشْقَ في تربيتهم .

وكل منّا يرى ذلك في مُحيطة ، فمَنْ أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمَنْ تخطفه وتجعله أطوعَ لغيره منه .

وإنْ وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أنْ تطلبَ من الله أن يكون ابنك

من الذرية الصالحة ، وإنْ وهبكَ ذُكْرنا وإناثاً فلكَ أن تشكره ، وتطلب من الله أن يُعينك على تربيتهم .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكر ربه ؛ لأن العُقْم أيضاً هبةٌ منه سبحانه ؛ فقد رأينا الابن الذي يقتل أباه وأمه ، ورأينا البنت التي تجحد أباها وأمها .

وإنْ قَبِل العاقر هبةَ الله في ذلك ؛ وأعلن لنفسه ولِمَنْ حوله هذا القبول ؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء لأب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له : " أتريد شيئاً يا عم فلان ؟ " ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم – عليه السلام – قد قال للحق سبحانه :

﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر . . . ﴾ [ إبراهيم : 39 ] .

والشكر على الهبة – كما عرفنا – يُشكِّل عطاءَ الذرية في الشباب ، أو في الشيخوخة .

وأهل التفسير يقولون في :

﴿ عَلَى الكبر . . . ﴾ [ إبراهيم : 39 ] .

أنه يشكر الحق سبحانه على وَهْبه إسماعيل وإسحق مع أنه كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه ( على ) وهي من ثلاثة حروف ؛ بدلاً من " مع " ولم يَقُل " الحمد لله الذي وهب لي مع الكِبَر إسماعيل وإسحاق " .

وأقول : إن ( على ) تفيد الاستعلاء ، فالكِبَر ضَعْف ، ولكن إرادة الله أقوى من الضعف ؛ ولو قال " مع الكبر " فالمعيّة هنا لا تقتضي قوة ، أما قوله :

﴿ وَهَبَ لِي عَلَى الكبر . . . ﴾ [ إبراهيم : 39 ] .

فيجعل قدرة الله في العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على استجابته لما قاله من قبل : ﴿ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

أي : أنه دعا أن تكونَ له ذرية .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء ﴾ [ إبراهيم : 39 ] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ رَبِّ اجعلني . . . ﴾ .

وكأن إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه قضية تخصُّ منهج الله ، وهو يسأل الله أنْ يقبلَ ، ذلك أن الطلبات الأخرى قد طلبها ببشريته ؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ؛ ولكن الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وذريته هو طَلَبٌ بالخير .

ويتتابع الدعاء في قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اغفر لي وَلِوَالِدَيَّ . . . ﴾ .

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)

ونعلم أن طلب الغُفْران من المعصوم إيذانٌ بطلاقة قدرة الله في الكون ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول أيّ رسول لا يُعفى الرسول المختار من الحذَر وطلب المغفرة ، وها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة " .



---

وطلب المغفرة من الله إن لم يَكُنْ لذنب كما في حال الرُّسل المعصومين فهو من الأدب مع الله ؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى يستحق منّا فوق ما كلَّفنا به ، فإذا لم نقدر على المندوبات وعلى التطوّعات ؛ فَلْندعُ الحق سبحانه أنْ يغفر َلنا .

ومِنّا مَنْ لا يقدر على الفرائض ؛ فلْيدعُ الله أنْ يغفر َله ؛ ولذلك يُقال : " حسنات الأبرار سيئات المقربين " .

والحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ [ الفتح : 2 ] .

ولذلك أقول دائماً ؛ إن الحق – جَلَّ جلالُ ذاته – يستحق أن يُعبَد بفوق ما كَلّف به ؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كَلَّف به سبحانه ؛ فكأننا لم نُؤدّ كامل الشُّكْر ؛ وما بالنا إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خَلْقه اصطفاءً ؛ أفلا يزيدنه شُكْراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ [إبراهيم : 41] .

والإنسان كما نعلم له وجود أصليّ من آدم عليه السلام ؛ وله وجود مباشر من أبوْيه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديْه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأُسْوة كانت منهما ؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ؛ لأنهم كانوا صُحْبة له وقُدْوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكأن إبراهيم – عليه السلام – صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمَنْ آمن ؛ ويرجو الحقَّ سبحانه أنْ يتقبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) ﴾

قوله تعالى : ﴿ عَلَى الكبر ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ " على " على بابها من الاستعلاءِ المجازيِّ . والثاني : أنها بمعنى مع كقوله :

2901- إنِّي على ما تَرَيْنَ من كِبَري . . . أعلمُ مِنْ تُؤْكَلُ الكَتِفَ

قاله الزمخشري . ومحلُّ هذا الجارِّ النصبُ على الحالِ من الباء في " هَبْ لي " .

قوله : ﴿ لَسَمِيعُ الدعآء ﴾ فيه أوجه ، أحدُها : أن يكون فعيل مثالَ مبالغةٍ مضافاً إلى مفعولِه ، وإضافتُه مِنْ نصبٍ ، وهذا دليلٌ لسيبويه على أن فَعِيلاً يعمل عملُ عملَ اسمِ الفاعل ، وإن كان قد خالف جمهور البصريين والكوفيين .

الثاني : انَّ الإِضافةَ ليسَتْ مِنْ نصبٍ ، وإنما هو كقولك : " هذا ضاربُ زيدٍ أمس " .

الثالث : أنَّ سميعاً مضافٌ لمرفوعه ويُجْعَلُ دعاءُ الله سميعاً على المجاز ، والمراد سماع الله ، قاله الزمخشري .

قال الشيخ : " وهو بعيدٌ لاستلزامِه أن يكونَ من الصفة المشبهة والصفةُ متعديةُ ، وهذا إنما يتأَّتى على قولِ الفارسيِّ فإنه يُجيز أن تكونَ الصفةُ المشبهةُ من الفعلِ المتعدِّي بشرطِ أَمْنِ

اللَّبْس نحو: " زيد ظالمُ العبيد " إذا عُلِم أن له عبيداً ظالمين، وأمّا هنا فالَّبْسُ حاصلٌ؛ إذ الظاهرُ أنه من إضافةِ المثالِ للمفعولِ لا للفاعل " .

قلت: واللَّبْسُ أيضاً هنا مُنْتَفٍ لأن المعنى على الإِسناد المجازي كما تقرَّر فانتفى اللَّبْسُ .

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ : عطفٌ على المفعولِ الأولِ " اجعلني "، أي: واجعل بعضَ ذرِّيَّتي مقيمَ الصلاة . وهذا الجارُّ في الحقيقة صفةٌ لذلك المحذوفِ، أي: وبعضاً من ذريتي .

(172/420)

---

قوله: ﴿ وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزةُ وورشٌ بإثبات الياء وصلاً وحَذْفِها وقفاً، والبزيُّ بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها وصلاً ووقفاً، وقد روي بعضُهم إثباتَها وقفاً أيضاً .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلِوَالِدَيَّ ﴾ : العامَّةُ على " والِدَيَّ " بألفٍ بعد الواو وتشديدِ الياء، وابن جبير كذلك، إلا أنه سكَّن الياءَ أراد والده وحدَه كقوله ﴿ واغفر لأبي ﴾ [ الشعراء :

. [ 86

وقرأ الحسين بن علي ومحمد وزيد ابنا علي بن الحسين وابن يعمر " ولولدي " دون ألف ، تثنية وَلَد ، ويعني بهما إسماعيل وإسحاق ، وأنكرها الجحدريُّ بأنَّ في مصحف أُبَيّ " ولأبويَّ " فهي مفسّرةٌ لقراءةِ العامّة .

ورُوِي عن ابنِ يعمر أنه قرأ " وِلوُلْدي " بضمّ الواو وسكونِ الياء ، وفيها تأويلان ، أحدُهما : أنه جمع " وَلَد " كأُسْد في " أَسَد " ، وأنْ يكونَ لغةً في الوَلَد كالحُزْن والحَزَن ، والعَدَم والعُدْم ، والبُخْل والبَخَل ، وعليه قول الشاعر :

2902- فليتَ زياداً كان في بَطْنِ أمِّه . . . وليت زياداً كان وُلْدَ حمارِ

وقد قُرِئَ بذلك في مريم والزخرف ونوح في السبعة ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى . و " يومَ " نصبٌ ب " اغفر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 116.118﴾

(173/420)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

السَّمَاءِ (38) ﴾

استأثرتَ بعلم الغيب فلا يعْزُبُ عن علمك معلومٌ، وحالي لا تخفى عليك، فهي كما عرفتَ، أنت تعلم سِرِّي وعَلَني . . . ومَنْ عرف هذه الجملة استراح من طوارق الأغيار، واستروح قلبُه عن تَزَحُّمِ الأفكار، والتَّقَسمِ في كون الحوادث من الأغيار.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) ﴾

أسعده بمنحه الولد على الكبر، ويلتحق ذلك بوجهٍ من المعجزات، ؛ فحمد عليه. ولمَّا كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدَّم من ذكر نعمته - سبحانه - عليه، وأكرامه بأنواره، وهذا يكون بمعنى الملَقِ، ويكون استدعاءَ نعمةٍ بنعمة، فكأنه قال: كما أكرمتني بِهبَةِ الوَلَدِ على الكِبَر؛ فأَكْرِمْني بهذه الأشياء التي سألتُها.

ويقال الإشارة في هذا أنه قال: كما مَنَنْتَ عليَّ فوهبتني على الكِبَر هذه الأولاد فأَجْنِبْنَا أن نعبد الأصنام لتكونَ النعمةُ كاملةً. وفي قوله: ﴿ إِنَّ رَبِى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [إبراهيم: 39] . . إشارة إلى هذه الجملة.

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) ﴾

في قوله: ﴿ ربِّ اجعلني مقيم الصلاة . . . ﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فمعناه

اجعل صلاتي ، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى ، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً .

وقوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي اجعل منهم قوماً يُصلُّون ، لأنه أخبره في موضع آخر بقوله : لا ينال عهدي الظالمين [ البقرة : 124 ] .



---

ثم قال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ ﴾ وهذا قيل أن يعلم أنه لا يُؤْمِن .

ويقال إن إجابة الدعاءِ ابتداءُ فضلٍ منه ولا ينبغي للعبد أن يَتَّكِلَ على دُعاءِ أحد وإن كانْ عَلِيَّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ؛ فلا دعاءَ أتمُّ منْ دعاءِ إبراهيم عليه السلام ، ولا عنايةَ أتمُّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .

ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطعَ رجاءَه في ألا يستجيبَ الله دعاءَه ، فإن إبراهيمَ الخليلَ عليه السلام دعا لأبويه فلم يُستَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حينما لم يُجبْ فيه . فلا غضاضةَ على العبد ولا تناله مَذَلَّةٌ إنْ لم يُجبْهُ مولاه في شيء ؛ فإنَّ الدعاءَ عبادةٌ لا بدَّ للعبد من فِعْلها ، والإجابةُ من الحقِّ فضل ، وله أن يفعل وله ألا يفعل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 257 . 258 ﴾

فصل فى قصة الخليل عليه السلام

قال ابن كثير:

قصة إبراهيم خليل الرحمن

هو إبراهيم بن تارخ ( 250 ) بن ناحور ( 148 ) بن ساروغ ( 230 ) بن راعو ( 239 ) ابن فالغ ( 439 ) بن عابر ( 464 ) بن شالح ( 433 ) بن أرفخشذ ( 438 ) بن سام ( 600 ) ابن نوح عليه السلام هذا نص أهل الكتاب في كتابهم وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكروه من المدد ( 1 ) وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته وحكى الحافظ

ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ أن اسم أم إبراهيم أميلة ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبي اسمها بونا بنت كربنا بن كرثى من بني أرفخشذ بن سام بن نوح

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان قالوا ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران وولد لهاران لوط وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط وان هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والاخبار وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روي من طريق هشام بن عمار عن الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول عن ابن عباس قال ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها برزة في جبل يقال له قاسيون ثم قال والصحيح أنه ولد ببابل وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينا للوط عليه السلام قالوا فتزوج إبراهيم سارة وناحور ملكا ابنه هاران يعنون بابنة أخيه قالوا وكانت سارة عاقرا لا تلد قالوا وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة وهذا يدل على أنه لم يولد بحران وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين وهي بلاد بيت المقدس فأقاموا بحران وهي ارض الكشدانيين في ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا وكانوا يعبدون الكواكب السبعة والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال ولهذا كان على كل

باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل بكوكب منها ويعلمون لها أعيادا وقرابين وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره



---

وابتعثه رسولا واتخذه خليلا في كبره قال تعالى ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين أي كان أهلا لذلك وقال تعالى وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وإن تكذبوا فقد كذب أمم من



---

قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين أولم يروا كيف يبديء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب اليم فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى وكان أول دعوته لأبيه وكان أبوه ممن يعبد الأصنام لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له كما قال تعالى واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إني إخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا قال أراغب أنت عن إلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا وأعتزلكم

وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه فكيف تغني عنه

(179/420)

---

شيئا أو تفعل به خيرا من رزق أو نصر ثم قال منبها على ما أعطاه الله من الهدي والعلم النافع وإن كان أصغر سنا من أبيه يا أبت إنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا أي مستقيما واضحا سهلا حنيفا يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ولا أخذها عنه بل تهدده وتوعده قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك قيل بالمقال وقيل بالفعال واهجرني مليا أي واقطعني وأطل هجراني فعندها قال له إبراهيم سلام عليك أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى بل أنت سالم من ناحيتي وزاده خيرا فقال سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا قال ابن عباس وغيره أي لطيفا يعني في أن هداني لعبادته والإخلاص له ولهذا قال وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون

بدعاء ربي شقيا وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له

أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم

وقال البخاري حدثنا إسمعيل ابن عبد الله حدثني أخي عبد الحميد عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذبح متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار هكذا رواه في قصة إبراهيم منفردا



وقال في التفسير وقال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن عبد الله عن أبيه عن إبراهيم بن

طهمان به وقد رواه البزار من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه وفي سياقه غرابة ورواه أيضا من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه و سلم بنحوه وقال تعالى وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر وجمهور اهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة فقيل إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر



---

وقال ابن جرير والصواب أن اسمه آزر ولعل له اسمان علمان أو أحدهما لقب والآخر علم وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم ثم قال تعالى وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن

يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم وهذا المقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه فبين لهم أولا عدم



---

صلاحية الكواكب قيل هو الزهرة لذلك ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ولهذا قال فلما رأى الشمس بازغة أي طالعة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما

تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا إن يشاء ربي شيئا أي لست أبالي في هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله فإنها لا تنفع شيئا ولا تسمع ولا تعقل بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجورة

(183/420)

---

والظاهر ان موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فإنهم كان يعبدونها وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن إسحاق وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق وأما اهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم واهانها وبين بطلانها كما قال تعالى وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين وقال في سورة الأنبياء ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا

على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا
كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى
يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا
بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم
فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون
من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون
قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم
وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين وقال في سورة الشعراء واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال
لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو
ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم
وآباؤكم الاقدمون



---

فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا
مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين

رب هب لي حما وألحقني بالصالحين وقال تعالى في سورة الصافات وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ائفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا إليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين يخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها فقال ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون أي معتكفون عندها وخاضعون لها قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد وما كانوا عليه من عبادة الأنداد قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين كما قال تعالى إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين قال قتادة فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره وقال لهم هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون سلموا له أنها لا تسمع داعيا ولا تنفع ولا تضر شيئا وإنما الحامل لهم على عبادتها الإقتداء بأسلافهم

ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال ولهذا قال لهم أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام لانه تبرأ منها وتنقص بها فلو كانت تضر لضرته أو تؤثر لأثرت فيه قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين يقولون هذا الكلام الذي تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آبائنا تقوله محقا جادا فيه أم لاعبا قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين يعني بل أقول لكم ذلك جادا محقا وإنما إلهكم الله الذي لا



---

إله إلا هو ربكم ورب كل شيء فاطر السموات والأرض الخالق لهما على غير مثال سبق فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين وقوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم قيل إنه قال هذا خفية في نفسه وقال ابن مسعود سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال إني سقيم كما قال تعالى فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق في بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق

أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم راغ إلى آلهتهم أي ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها في بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا إليها فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم في يده كما قال

تعالى فجعلهم جذاذا أي حطاما كسرها كلها إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون قيل إنه وضع القدوم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار فلما رجعوا من عبدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين



---

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والإزدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها وعلى قول ابن مسعود أي يذكرهم بقوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين قالوا فأتوا به على

أعين الناس لعلهم يشهدون أي في الملأ الأكبر على رؤس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الإقتصاص منه وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه كما قال موسى عليه السلام لفرعون موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فلما اجتمعوا وجاءا به كما ذكروا قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا قيل معناه هو الحامل لي على تكسيرها وإنما عرض لهم في القول فاسئلوهم إن كانوا ينطقون وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول أن هذه لا تنطق فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون أي فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ثم نكسوا على رؤسهم قال السدي أي ثم رجعوا إلى الفتنة فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون أي في عبادتها وقال قتادة أدركت القوم حيرة سوء اي فأطرقوا ثم قالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون كما قال فأقبلوا إليه يزفون قال مجاهد يسرعون قال أتعبدون ما تنحتون أي كيف تعبدون أصناما أنتم

تنحتونها من الخشب والحجارة وتصورونها وتشكلونها كما تريدون والله خلقكم وما تعملون وسواء كانت ما مصدرية أو بمعنى الذي فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة فكيف يعبد مخلوق لمخلوق مثله فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم وهذا باطل فالآخر باطل للتحكم إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب جل جلاله وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال

تعالى قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم ثم عمدوا إلى جوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطربت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له هزن وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ثم أخذوا

يقيدونه ويكتفونه وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد حين قيل له إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء الآية

(189/420)

---

وقال أبو يعلى حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا اسحق بن سليمان عن أبي جعفر الرازي عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم لما ألقى إبراهيم في النار قال اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد وأعبدك وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير انه قال جعل ملك المطر يقول متى أومر فأرسل المطر فكان أمر الله أسرع قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم قال علي بن أبي طالب أي لا تضريه وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله قال وسلاما على إبراهيم لأذى إبراهيم

بردها وقال كعب الأحبار لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه وقال الضحاك يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره وقال السدي كان معه أيضا ملك الظل وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الجوبة حوله النار وهو في روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم فعن أبي هريرة أنه قال أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا إبراهيم وروى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته يا بني إني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك فقال نعم فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت وعن المنهال بن عمرو أنه قال أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما وأنه قال ما كنت أياما وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها وودت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه



---

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا قال الله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين وفي الآية الأخرى الأسفلين ففازوا بالخسارة

والسفال هذا في الدنيا وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاما ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما بلى هي كما قال تعالى إنها ساءت مستقرا ومقاما

قال البخاري حدثنا عبد الله بن موسى أو ابن سلام عنه أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم أمر بقتل الوزغ وقال وكان ينفخ على إبراهيم ورواه مسلم من حديث ابن جريج وأخرجاه والنسائي وابن ماجة من حديث سفيان بن عيينة كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به وقال أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ابن جريج أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية أن نافعا مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم قال فكانت عائشة تقتلهن وقال أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت ما هذا الرمح فقالت نقتل به الأوزاغ ثم حدثت عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أن إبراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفيء عنه إلا الوزغ فإنه جعل ينفخها عليه تفرد به أحمد من هذين الوجهين

وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا جرير حدثنا نافع حدثتني سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة قالت دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا موضوعا فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح قالت هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول الله صلى الله عليه و سلم حدثنا

أن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفىء عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله صلى الله عليه و سلم بقتله ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به



---

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من ادعى

الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد

الذي أدعى لنفسه الربوبية فأبطل الخليل عليه السلام دليله وبين كثرة جهله وقلة عقله وألجمه الحجه وأوضح له طريق المحجة

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد وقال غيره نمرود بن فالح بن عابر بن

صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح قال مجاهد وغيره وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان والكافران النمرود وبختنصر وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية فلما قال الخليل ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت



---

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق يعني أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع في الحقيقة فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيونات وموتها على وجود فاعل ذلك الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيونات التي

توجد مشاهدة ثم إماتتها ولهذا قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت فقول هذا الملك الجاهل أنا أحي وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهداة فقد كابر وعاند وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئًا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة قال فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فات بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنصر منها فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب الخليل

به بل وسكت ولهذا قال فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شيء من الطعام فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلي إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت إمرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت منه طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال أنى لكم هذا قالت من الذي جئت به فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى عليه ثم الثالثة فأبى عليه وقال اجمع جموعك وأجمع جموعي فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودمائهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخرها أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها

هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثم الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة قال الله فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين وقال تعالى ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيارت وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين لما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم وكانت امرأته عاقرا لا يولد لها ولم يكن له من الولد أحد بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن

فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام وهي التي قال الله عز وجل إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم وروى العوفي عن ابن عباس قوله إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين مكة ألم

تسمع إلى قوله إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين

وزعم كعب الأحبار أنها حران وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط وأخوه ناحور وامرأة إبراهيم سارة وامرأة أخيه ملكا فنزلوا حران فمات تارح أبو إبراهيم بها

(195/420)

---

وقال السدي انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن لا يغيرها رواه ابن جرير وهو غريب والمشهور أنها ابنت عمه هاران الذي تنسب إليه حران ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش فقد أبعد النجعة وقال بلا علم وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعا فليس له على ذلك دليل ولو

فرض أن هذا كان مشروعا في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود فإن الأنبياء لا تتعاطاه والله أعلم ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرا من بلاده كما تقدم والله أعلم وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة

وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلا إلى التيمن وأنه كان جوع أي قحط وشدة وغلاء فارتحلوا إلى مصر وذكروا قصة سارة مع ملكها وإن إبراهيم قال لها قولي أنا أخته وذكروا خدام الملك اياها هاجر ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن يعني أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال

(196/420)

---

وقد قال البخاري حدثنا محمد بن محبوب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد عن أبي هريرة قال لم يكذب إبراهيم الا ثلاث كذبات ثنتان منهن في ذات الله قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقال بينا هو ذات يوم وسارة اذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل اليه وسأله عنها فقال من هذه قال أختي فأتى سارة فقال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعا بعض حجبته فقال إنك لم تأتني بإنسان وإنما أتيتني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم فقالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر

في نحره وأخدم هاجر قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السماء تفرد به من هذا الوجه موقوفا وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن علي الفلاس عن عبد الوهاب الثقفي عن هشام بن حسان عن محمد



---

ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلا فأتى الجبار فقيل له إنه قد نزل ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال إنها أختي فلما رجع إليها قال إن هذا سألني عنك فقلت إنك أختي وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك وانك أختي فلا تكذبيني عنده فانطلق بها فلما ذهب يتناولها أخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأرسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمه فقال إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان أخرجها وأعطها هاجر فجاءت وإبراهيم قائم يصلي فلما أحس بها انصرف فقال مهيم فقالت كفى

الله كيد الظالم وأخدمني هاجر وأخرجاه من حديث هشام ثم قال البزار لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة الا هشام ورواه غيره موقوفا

(198/420)

---

وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن حفص عن ورقاء هو ابن عمر اليشكري عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يكذب إبراهيم الا ثلاث كذبات قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة أنها أختي قال ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك قال أختي قال فأسل بها قال فأرسل بها إليه وقال لا تكذبي قولي فإني قد أخبرته أنك أختي إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت توضأ وتصلي وتقول اللهم ان كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي الا على زوجي فلا تسلط على الكافر قال فغط حتى ركض برجله قال أبو الزناد قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنها قالت اللهم ان يمت يقال هي قتلته قال فارسل قال ثم قام إليها قال فقامت توضأ وتصلي وتقول اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلى

على زوجي فلا تسلط على الكافر قال فغط حتى ركض برجله قال أبو الزناد وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنها قالت اللهم ان يمت يقال هي قتلته قال فأرسل قال ثم قام إليها قال فقامت توضأ وتصلي وتقول اللهم ان كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر قال فغط حتى ركظ برجله قال أبو الزناد وقال أبو سلمة عن أبي هريرة انها قالت اللهم ان يمت يقل هي قتلته قال فارسل قال فقال في الثالثة أو الرابعة ما أرسلتم إلي إلا شيطانا ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر قال فرجعت فقالت لإبراهيم أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط لصحيح وقد رواه البخاري عن أبي اليمان عن شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم به مختصرا وقال ابن أبي



---

حاتم حدثنا أبي حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال ما منها كلمة الا ما حل بها عن دين الله فقال إني سقيم وقال بل فعله كبيرهم هذا وقال للملك حين أراد

امرأته هي أختي فقوله في الحديث هي أختي أي في دين الله وقوله لها إنه ليس على وجه الأرض مؤمن

غيري وغيرك يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك ويتعين حمله على هذا لأن لوطا كان معهم وهو نبي عليه السلام وقوله لها لما رجعت إليه مهيم معناه ما الخبر فقالت إن الله رد كيد الكافرين وفي رواية الفاجر وهو الملك وأخدم جارية وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء وهكذا فعلت هي أيضا فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرا قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ولهذا قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلوة فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه السلام

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة سارة وأم موسى ومريم عليهن السلام والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهم وأرضاهن ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه وكان مشاهدا لها وهي عند الملك وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حبا شديدا لدينها وقرابتها

منه وحسنها الباهر فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها ولله الحمد والمنة

(200/420)

---

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم وكان عاملا لأخيه على مصر ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاود بن سام بن نوح وذكر ابن هشام في التيجان أن الذي أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون ( 1 ) بن سبأ وكان على مصر نقله السهيلي فالله أعلم
ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور بالمعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشرارا كفارا فجارا وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم

منها في هذه الأمة المحمدية يؤيد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها قالوا ثم أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شرقي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم

ثم رجع مؤيدا منصورا إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر



---

قال أهل الكتاب إن إبراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة قالت سارة لإبراهيم عليه السلام إن الرب قد أحرمني الولد فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقني منها ولدا فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام فحين دخل بها حملت منه قالوا فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت

على سيدتها فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها افعلي بها ما شئت

فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك فقال لها ملك من الملائكة لا تخافي فإن الله

جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيرا وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه

إسماعيل ويكون وحش الناس يده على الكل ويد الكل به ويملك جميع بلاد إخوته فشكرت

الله عز وجل على ذلك وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه

عليه فإنه الذي سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا وآتاها الله من العلم

النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر

الرسل وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض ولما

رجعت هاجر وضعت إسماعيل عليه السلام قالوا وولدته ولإبراهيم من العمر ست

وثمانون سنة قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم

يبشره بإسحق من سارة فخر لله ساجدا وقال له قد استجبت لك في إسماعيل وباركت

عليه وكثرته ونميته جدا كثيرا ويولد له اثنا عشر عظيما وأجعله رئيسا لشعب عظيم

وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة وهؤلاء الاثنا عشر عظيما هم الخلفاء الراشدون

الاثنا عشر المبشر بهم في حديثه عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال يكون اثنا عشر أميرا ثم قال كلمة لم أفهمها فسألت أبي ما قال قال كلهم من

قريش أخرجاه في الصحيحين وفي رواية لا يزال هذا الأمر قائما وفي رواية عزيزا حتى يكون اثنا عشر

(202/420)

---

خليفة كلهم من قريش فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضا ومنهم بعض بني العباس وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقا بل لا بد من وجودهم وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذي يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من

علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحروب بين المسلمين والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤس وهذيان في النفوس لا حقيقة له ولا عين ولا أثر

والمقصود أن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة

اليوم ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه

هاجر وتعلقت بثيابه وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا فلم

يجبها فلما أحلت عليه وهو لا يجيبها قالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت فإذا لا يضيعنا

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب النوادر أن سارة تغضبت على

هاجر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر

قسمها قال السهيل فكانت أول من اختتن من النساء وأول من ثقبت أذنها منهن وأول من

طولت ذيلها

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنة إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة وبنائه

البيت العتيق



---

قال البخاري قال عبد الله بن محمد هو أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرزاق حدثنا

معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على

الآخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم

إسماعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي

ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم قالت إذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند



---

بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يلتوي أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هلى ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت

عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه و سلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه و سلم يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم اسمعيل عند الماء فقالوا تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال عبد الله بن عباس قال النبي صلى الله عليه و سلم فألفى ذلك أم اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وأرسلوا إلى

أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم اسمعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج اسمعيل يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسأل امرأته فقالت خرج يبتغي لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه قال فإذا جاء زوجك أقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء اسمعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد فقالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة قال فهل أوصاك بشيء قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك قال ذاك أبي وأمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه و سلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد ( 1 ) بعين مكة الا لم يوافقاه قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبي وأمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسمعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد ثم قال يا اسمعيل إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك قال وتعينني قال وأعينك قال فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني واسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ثم قال حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا أبو عامر عبد الله بن عمرو حدثنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما كان من إبراهيم وأهله ما كان خرج باسمعيل وأم اسمعيل ومعهم شنة فيها ماء وذكر تمامه بنحو ما تقدم وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة وكأنه مما تلقاه

ابن عباس عن الإسرائيليات وفيه أن اسمعيل كان رضيعا إذ ذاك وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده اسمعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر اسمعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله فيدل على أنه



---

فعله على وجه الوجوب ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر في موضعه

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه و سلم اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم تابعه عبد الرحمن بن اسحق عن أبي الزناد وتابعه عجلان عن أبي هريرة ورواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به وفي بعض الألفاظ اختتن إبراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم والقدوم هو الآلة وقيل موضع وهذا

اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين والله أعلم لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته عن أبي

هريرة عن رسول الله صلى الله عليه و سلم أنه قال اختتن إبراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة رواه ابن حبان في صحيحه وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه اسمعيل ولم يذكر في قد مات إبراهيم عليه السلام الا ثلاث مرات أولاهن بعد أن تزوج اسمعيل بعد موت هاجر وكيف تركهم من حين صغر الولد على ما ذكر إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له وقيل إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة وكان بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ولم يذكر فيه قصة الذبيح وقد دللنا على أن الذبيح هو اسمعيل على الصحيح في سورة الصافات

قصة الذبيح



---

قال الله تعالى وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا

إبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح

عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا

المؤمنين وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن

وظالم لنفسه مبين يذكر تعالى عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب

له ولدا صالحا فبشره الله تعالى بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام لأنه أول من ولد على

رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل لأنه أول ولده

وبكره وقوله فلما بلغ معه السعي أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه قال مجاهد فلما

بلغ معه السعي أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل فلما كان هذا رئى

إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعا

رؤيا الأنبياء وحي قاله عبيد ابن عمير أيضا وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله في أن

يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر وقد طعن في السن بعد ما أمر بأن يسكنه هو

وأمه في بلاد قفر وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع فامتثل أمر الله في ذلك

وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا

يحتسبان ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره

ووحيده الذي ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على

ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر



---

ماذا ترى ) فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد قال الله تعالى فلما أسلما وتله للجبين قيل أسلما أي استسلما لأمر الله وعزما على ذلك وقيل هذا من المقدم والمؤخر والمعنى تله للجبين أي ألقاه على وجهه قيل أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وقيل بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقا بالأرض وأسلما أي سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت قال السدي وغيره أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ويقال جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس والله أعلم فعند ذلك نودي من الله عز وجل أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أي قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك وبذلك ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان ولهذا قال تعالى إن هذا لهو البلاء المبين أي الاختبار الظاهر البين وقوله وفديناه بذبح

عظيم أي وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة في ثبير قال الثوري عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا ( 1 ) وقال سعيد بن جبير كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن ابن عباس هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه رواه ابن أبي حاتم

(210/420)

---

قال مجاهد فذبحه بمنى وقال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا وعن الحسن أنه كان تيسا من الأروى واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما ثم غالب ما ههنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر وأنه فدى بذبح عظيم وقد رود في الحديث أنه كان كبشا قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثنا منصور عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني إمرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت أرسل رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى عثمان بن طلحة وقال مرة إنها سألت عثمان لم دعاك رسول الله صلى الله عليه و سلم قال إني

كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي قال سفيان لم تزل قرنا الكبش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسمعيل لأنه كان وهو المقيم بمكة واسحق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره والله أعلم

وهذا هو الظاهر من القرآن بل كأنه نص على أن الذبيح هو اسمعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال



---

بعده وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين ومن جعله حالا فقد تكلف ومستنده أنه اسحق إنما هو اسرائيليات وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعا لا محيد عنه فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة من المعربة بكره اسحق فلفظه اسحق ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر ذاك اسمعيل وإنما حملهم على هذا حسد العرب فإن اسمعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله صلى الله عليه و سلم واسحق والد يعقوب وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه فأرادوا أن يجروا هذا

الشرف إليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وقد قال بأنه اسحق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو صحف أهل الكتاب وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه اسمعيل وما أحسن ما استدل محمد بن كعب القرظي على أنه اسمعيل وليس باسحق من قوله فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحق يعقوب قال فكيف تقع البشارة باسحق وأنه سيولد له يعقوب ثم يؤمر بذبح اسحق وهو صغير قبل أن يولد له هذا لا يكون لأنه يناقض البشارة المتقدمة والله أعلم

(212/420)

---

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله فبشرناها بإسحاق جملة تامة وقوله ومن وراء إسحاق يعقوب جملة أخرى ليست في حيز البشارة قال لأنه لا يجوز من حيث العربية أني كون مخفوضا إلا أن يعاد معه حرف الجر فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو حتى يقال ومن بعده بعمر وقال فقوله ومن وراء إسحاق يعقوب منصوب بفعل مضمر تقديره ووهبنا لاسحق يعقوب وفي هذا الذي قاله نظر ورجح أنه إسحاق

واحتج بقوله فلما بلغ معه السعي قال واسماعيل لم يكن عنده إنما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي وهذا أيضا فيه نظر لأنه قد روى أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة يطلع على ولده وابنه ثم يرجع والله أعلم فمن حكى القول عنه بأنه اسحق كعب الأحبار وروى عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمر وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط وهو اختيار ابن جرير وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ولكن الصحيح عنه وعن أكثر هؤلاء أنه إسماعيل عليه السلام قال مجاهد وسعيد الشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس هو إسماعيل عليه السلام وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل وزعمت اليهود أنه اسحق وكذبت اليهود وقال عبد الله بن الامام أحمد

عن أبيه هو إسماعيل وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عن الذبيح فقال الصحيح أنه إسماعيل عليه السلام قال ابن أبي حاتم وروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا الذبيح هو إسماعيل عليه السلام وحكاه البغوي أيضا عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء قلت وروى عن معاوية وجاء عنه أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن اسحاق بن يسار وكان الحسن البصري يقول لا شك في هذا وقال محمد بن اسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذلك ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد العصمة فبشرناه بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب فقال له عمر إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم قال فسأله عمر بن عبد العزيز أي ابني إبراهيم أمر بذبحه فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه اسحق لأن اسحق أبوهم وقد

ذكرنا هذه المسئلة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة

مولد اسحاق

(214/420)

---

قال الله تعالى وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى قال الله تعالى ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد وقال تعالى ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا

تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون وقال تعالى هل أتاك حديث
ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله
فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه
بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال
ربك إنه هو الحكيم العليم يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل وميكائيل
واسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلا
سمينا من خيار بقره فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن
الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم وأوجس منهم خيفة قالوا لا
تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط أي لندمر عليهم فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم
وكانت قائمة على رؤس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما
ضحكت استبشارا بذلك قال الله تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب أي
بشرتها الملائكة بذلك فأقبلت امرأته في صرة أي في صرخة فصكت وجهها أي كما يفعل
النساء عند التعجب وقالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا أي كيف يلد مثلي

وأنا كبيرة وعقيم أيضا وهذا بعلي أي زوجي شيخا تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ولهذا قالت إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارا بهذه البشارة وتثبيتا لها وفرحا بها قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه فبشروهما بغلام عليم وهو اسحق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر وقال في الآية الأخرى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن



---

الذبيح هو إسماعيل وأن اسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ وهو المشوي رغيفا من مكة فيه ثلاثة اكيا وسمن ولبن وعندهم أنهم أكلوا وهذا غلط محض وقيل كانوا يودون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم أما سارا امرأتك فلا يدعى اسمها

سارا ولكن اسمها سارة وأبارك عليها وأعطيك منها ابنا وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر إبراهيم على وجهه يعني ساجدا وضحك قائلا في نفسه أبعد مائة سنة يولد لي غلام أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة وقال إبراهيم لله تعالى ليت إسماعيل يعيش قدامك فقال الله لإبراهيم بحقي إن امرأتك سارة

(217/420)

---

تلد لك غلاما وتدعو اسمه اسحق إلى مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقي إلى الدهر ولخلفه من بعده وقد استجبت لك في إسماعيل وباركت عليه وكبرته ونميته جدا كثيرا ويولد له اثنا عشر عظيما وأجعله رئيسا لشعب عظيم وقد تكلمنا على هذا بما تقدم والله أعلم فقوله تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها اسحق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل اسحق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنهم يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله وقال تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا وقال تعالى فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وهذا إن شاء الله ظاهر قوي ويؤيده ما ثبت في

الصحيحين من حديث سليمان بن مرهان الأعمش عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول قال المسجد الحرام قلت ثم أي قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون سنة قلت ثم أي قال ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد ايليا بيت المقدس شرفه الله وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو اسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود اسحق لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا إنك تعلم ما

نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي وكما سنورده في قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواع وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه

بناء البيت العتيق

*(219/420)*

---

قال الله تعالى وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وقال تعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا

ومن كفر فإن الله غني عن العالمين وقال تعالى وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلاة وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أي أرشده إليه ودله عليه وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره أنه أرشد إليه بوحي من الله عز وجل وقد قدمنا في صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال بعض السلف إن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الارض فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبني له بيتا يكون لأهل الأض كتلك المعابد

لملائكة السماء وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في الصحيحين أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له قد طفنا بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق فهي مردودة وقد قال الله إن أول بيت وضع

للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكة قيل مكة وقيل محل الكعبة فيه آيات بينات أي على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال مقام إبراهيم أي الحجر الذي كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم في حديث ابن عباس الطويل وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا فإنه قد وافقه ربه في أشياء منها في قوله لرسوله صلى الله عليه و سلم لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة . . . وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه . . . وراق لبر في حراء ونازل ( 1 ) . . . وبالبيت حق البيت من بطن مكة . . . وبالله إن الله ليس بغافل . . . وبالحجر المسود إذ يمسحونه . . . إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل . . .

وموطيء إبراهيم في الصخر رطبة . . . على قدميه حافيا غير ناعل . . .

يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متنعلة ولهذا قال تعالى

وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل أي في حال قولهما ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم

(222/420)

---

والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرما محرما وآمنا محتما فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ولبى دعوته وأتاه طلبته فقال تعالى أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم وقال تعالى أولم نمكن لهم حراما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أي من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة والاولى والأخرى وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا وأي رسول ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة

كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه وكمال ما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكريم محتده وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض ان يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذي هو كعبة اهل السماء السابعة المبارك المبرور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراده فليراجعه ثم ولله الحمد فمن ذلك ما قال السدي لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال له الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حين يقول تعالى وإذ بوأنا لإبراهيم مكان



---

البيت فلما بلغا القواعد بنيا الركن قال إبراهيم لإسماعيل يا بني اطلب لي الحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا

الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن فقال يا أبتي من جاءك بهذا قال جاء به من هو أنشط منك فبنيا وهما يدعوان الله ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجبل وأن ذا القرنين وكان ملك الإرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه فقال من أمركما بهذا فقال إبراهيم الله أمرنا به فقال وما يدريني بما تقول فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق

وذكر الأزرقي أنه طاف مع الخليل بالبيت وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم وفي الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر بن عمر عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال ألم ترى إلى قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم فقلت يا رسول



---

الله إلا تردها على قواعد إبراهيم فقال لولا حدثان قومك وفي رواية لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية أو قال بكفر لانفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما اشار إليه رسول الله

صلى الله عليه و سلم حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية كما هو مشاهد إلى اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له إني اخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم



---

قال الله وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهم قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين لما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس إماما يقتدون به ويأتمون بهديه وسأل الله أن تكون هذه الأمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه

وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون واختص بها من ذريته العلماء العاملون كما قال تعالى ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين وقال تعالى ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليبا وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته والله أعلم وقال تعالى ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب



---

الآية فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته وهذه خلعة سنية لا تضاهى ومرتبة عليه لا تباهى وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان إسمعيل من هاجر ثم إسحاق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل

الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جدا بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل وأما إسمعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني صلوات الله وسلامه عليه فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال سأقوم مقاما يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق



---

وقال البخاري حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعوذ الحسن والحسين

ويقول أن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ورواه أهل السنن من حديث منصور به وقال تعالى وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ثم ادعهم يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابا بسطناها في التفسير وقررناها بأتم تقرير والحاصل أن الله عز وجل أجابه إلى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا في تعينها على أقوال والمقصود حاصل على كل تقدير أمره أن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض ثم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهم جزأ ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه وكل ريشة تأتي إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا ويقال إنه أمر ان يأخذ رؤسهن في يده فجعل كل طائر يأتي فيلقي رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ولكن أحب ان يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله وقال تعالى يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة

والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم فبرأه الله منهم وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ولهذا قال أفلا تعقلون إلى أن قال ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين فبين أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد إلى الإخلاص والإنحراف وعمدا عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية كما قال تعالى ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد

إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن



---

له عابدون قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنه إنما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ولهذا قال تعالى إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه يعني الذين كانوا على ملته من اتباعه في زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم وهذا النبي يعني محمد صلى

الله عليه و سلم فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط نبيا ولا رسولا قبله كما قال تعالى قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين وقد قال تعالى إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه

في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين

(230/420)

---

وقال البخاري حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام عن معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و سلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسمعيل بأيديهما الأزلام فقال قاتلهم الله والله إن يستقسما بالأزلام قط ( 1 ) لم يخرجه مسلم وفي بعض الفاظ البخاري قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط فقوله أمة أي قدوة إماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدى به فيه قانتا لله أي خاشعا له في جميع حالاته وحركاته وسكناته حنيفا أي مخلصا على بصيرة ولم يك من

المشركين شاكرا لأنعمه أي قائما بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله اجتباه أي اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته واتخذه خليلا وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة وقال تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا يرغب تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال وإبراهيم الذي وفى ولهذا اتخذه الله خليلا والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم . . . وقد تخللت مسلك الروح مني . . . وبذا سمي الخليل خليلا . . . وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يا أيها الناس إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا وقال ايضا في آخر خطبة خطبها أيها الناس لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله أخرجاه من حديث أبي سعيد وثبت أيضا من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود وروى البخاري في صحيحه حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال إن معاذا لما قدم اليمن

صلى بهم الصبح فقرأ واتخذ الله إبراهيم خليلا فقال رجل من القوم لقد قرت عين أم إبراهيم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة حدثنا عبد الله الحنفي حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال جلس ناس من اصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول عجب أن الله اتخذ من خلقه خليلا فإبراهيم خليله وقال آخر ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليما وقال آخر فعيسى روح الله وكلمته وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو



كذلك وموسى كليمه وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وإني حبيب الله ولا فخر ألا وإني أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين وأنا أكرم الأولين

والآخرين يوم القيامة ولا فخر هذا حديث غريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه أخر والله أعلم وروى الحاكم في مستدركه من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال أتنكرون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد المسلمي حدثنا الوليد عن إسحاق بن بشار قال لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى في قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء وقال عبيد بن عمير كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوما يلتمس إنسانا يضيفه فلم يجد احدا يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما فقال يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني قال دخلتها بإذن ربها قال ومن أنت قال أنا ملك الموت أرسلني ربي إلى عبد من عباده أبشره بان الله قد اتخذه خليلا قال من هو فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت قال ذلك العبد أنت قال أنا قال نعم قال فيم اتخذني ربي خليلا قال بأنك تعطي الناس ولا تسألهم رواه ابن أبي حاتم وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيرا في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعا منها خمسة عشر في البقرة وحدها وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك

ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا وقوله شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم



---

وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه الآية ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد صلى الله عليه و سلم وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسندا ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم وما وقع في حديث شريك ابن أبي نمير عن أنس في حديث الإسراء من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة فمما انتقد على شريك في هذا الحديث والصحيح الأول وقال أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن تفرد به أحمد

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم رواه مسلم من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وهذا هو المقام المحمود

الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمد صلى الله عليه و سلم فيقول أنا لها أنا لها الحديث وهكذا رواه البخاري في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طريق عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به

(234/420)

---

قال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الله حدثني سعيد عن أبيه عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله من أكرم الناس قال أتقاهم قالوا ليس عن هذا نسألك قال فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله قالوا ليس عن هذا نسألك قال فعن معادن العرب تسألوني خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ثم قال البخاري قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قلت وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما وحديث عبدة بن سليمان والنسائي من حديث محمد بن بشر أربعتهم عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم وقال أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن

عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله تفرد به أحمد وقال البخاري حدثنا عبدة حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر به فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان حدثني مغيرة بن النعمان عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم يحشر الناس حفاة عراة غرلا فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام ثم قرأ كما بدأنا أول خلق نعيده فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وأما الحديث الآخر الذي قال الأمام أحمد حدثنا وكيع وأبو نعيم حدثنا سفيان

هو الثوري عن مختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يا خير البرية فقال ذاك إبراهيم فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله بن إدريس وعلي بن مسهر ومحمد بن فضيل أربعتهم عن المختار بن فلفل وقال الترمذي حسن صحيح وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال لا تفضلوني على الأنبياء وقال لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور وهذا كله لا ينافي في ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة وكذلك



---

حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلى أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك قال قولوا اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد

مجيد وقال تعالى وإبراهيم الذي وفى قالوا وفي جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد في الرأس قص الشارب والمضمضة والسواك والاستنشاق وفرق الرأس وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء رواه ابن أبي حاتم وقال وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك قلت وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وفي صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكع عن ذكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة العبدري المكي الحجبي عن طلق بن حبيب العتري عن عبد الله بن الزبير عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه و سلم عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء يعني الاستنجاء وسيأتي في ذكر مقدار عمره الكلام على الختان والمقصود أنه عليه الصلاة و السلام كان لا يشغله القيام

بالاخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة عن مراعات مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الاصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم وإبراهيم الذي وفى

قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ومحمد بن موسى القطان قالا حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في الجنة قصرا أحسبه قال من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهي أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا قال البزار وحدثناه أحمد بن جميل المروزي حدثنا النضر بن شميل حدثنا حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ثم قال وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فأسنده الا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهما يرويه موقوفا قلت لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه

صفة إبراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد حدثنا يونس وحجين قالا حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عرض علي الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ وقال أحمد حدثنا أسود بن عمر حدثنا إسرائيل عن عثمان يعني ابن المغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم قالوا له فإبراهيم قال انظروا إلى صاحبكم يعني نفسه وقال البخاري حدثنا بنان بن عمرو حدثنا النضر أنبأنا ابن عون عن مجاهد أنه سمع ابن عباس وذكروا له الدجال بين عينيه كافر و ك ف ر فقال لم أسمعه ولكنه قال صلى الله عليه وسلم أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبه كأني أنظر إليه أنحدر في الوادي ورواه البخاري أيضا ومسلم عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن عبد الله بن عون به وهكذا رواه البخاري أيضا في كتاب الحج وفي اللباس ومسلم جميعا عن محمد بن المثنى عن ابن أبي عدي عن عبد الله بن عون به

وفاة إبراهيم وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل الضحاك الملك المشهور الذي يقال إنه ملك ألف سنة وكان في غاية الغشم والظلم وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بعث إليهم نوح عليه السلام وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شبا با باهرا وأنبته الله نباتا حسنا حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل ببابل وقيل بالسواد من ناحية كوثى ( 1 ) وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق فلما

أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد ايليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل واسحق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم عليه السلام ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بني حيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك قالوا ثم خطب إبراهيم على ابنه اسحق فزوجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الإبل قالوا ثم تزوج إبراهيم عليه السلام قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخبارا كثيرة الله أعلم بصحتها وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك قالوا ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين وقيل وتسعين سنة ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي وتولى دفنه اسمعيل واسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتي سنة كما قاله ابن الكلبي وقال أبو حاتم بن حبان في صحيحه أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة حدثنا علي بن زياد اللخمي حدثنا أبو قرة عن ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن

المسيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة وقد رواه الحافظ بن عساكر من طريق عكرمة بن إبراهيم وجعفر بن عون العمري عن يحيى بن سعيد عن سعيد عن أبي هريرة موقوفا



---

ثم قال ابن حبان ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد نيست ( 1 ) حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال اختتن ابراهيم حين بلغ مائة وعشرين سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة واختتن بقدوم وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم وقد أتت

عليه ثمانون سنة ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق أنه قال القدوم اسم القرية قلت الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة وفي رواية وهو ابن ثمانين سنة وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم وقال محمد بن إسماعيل الحساني الواسطي زاد في

تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال كان إبراهيم أول من تسرول وأول من فرق وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة وأول من فرق وأول من استحد وأول من اختتن بالقدوم وهوابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة وأول من قرى الضيف أول من شاب هكذا رواه موقوفا وهو أشبه بالمرفوع خلافا لابن حبان والله أعلم



---

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال كان إبراهيم أو من أضاف الضيف وأول الناس اختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال يا رب ما هذا فقال الله وقار فقال يا رب زدني وقارا وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استحد وأول من لبس السراويل فقبره وقبر ولده اسحق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة وجيل بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقا فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعي تلك

المحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها وروى ابن عساكر بسنده إلى وهب بن منبه قال وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة . . . ألهى جهولا أمله . . . يموت من جا أجله . . . ومن دنا من حتفه . . . لم تغن عنه حيله . . . وكيف يبقى آخر . . . من مات عنه أوله . . . والمرء لا يصحبه . . . في القبر إلا عمله . . .

ذكر أولاد إبراهيم الخليل

أول من ولد له إسماعيل من هاجر القبطية المصرية ثم ولد له اسحق من سارة بنت عم الخليل ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية فولدت له ستة مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يسم السادس ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين فولدت له خمسة كيسان وسورج وأميم ولوطان ونافس هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والأعلام. انتهى انتهى . اهـ ﴿البداية والنهاية حـ 1 صـ 139. 175﴾

(243/420)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم دعاءه بيوم الحساب الموجب ذكره لكل سعادة ونسيانه لكل شقاوة ، ذكر بعض ما يتفق فيه رجوعاً إلى ما مضى من أحوال يوم القيامة على أحسن وجه ، فقال - عاطفاً على قوله ﴿ قل لعبادي ﴾ وجل المقصد تهديد أهل الظلم بالإشراك وغيره ، وخاطب الرأس الذي لا يمكن ذلك منه ليكون أوقع في قلب غيره - : ﴿ ولا تحسبن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي هو أحكم الحاكمين .

ولما كان اعتقاد ترك الحساب يلزم منه نسبة الحاكم إلى العجز أو السفه أو الغفلة ، وكان قد أثبت قدرته وحكمته في هذه السورة وغيرها نزهةً عن الغفلة لينتبه المنكرون للبعث من غفلتهم فقال : ﴿ غافلاً ﴾ والغفلة : ذهاب المعنى عن النفس ﴿ عما يعمل الظالمون ﴾ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، فكانوا عريقين في الظلم وإن كان مستند ظلمهم شبهاً علمية يقيمونها ، فكأنه قيل : فما الذي يفعل بهم ؟ فقال : ﴿ إنما يؤخرهم ﴾ أي يؤخر حسابهم على النقير والقطمير سواء عذبوا في الدنيا أو لا ﴿ ليوم تشخص ﴾ أي تفتح فتكون بحيث لا تطرف ﴿ فيه ﴾ منهم ﴿ الأبصار ﴾ أي حال كونهم ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين غاية الإسراع إلى حيث دعوا خوفاً وجزعاً ، مع الإقبال بالبصر نحو الداعي لا يلفتونه إلى غيره ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ أي رافعيها وناصبيها ناظرين في ذل وخشوع إلى جهة واحدة ،

وهي جهة الداعي ، لا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، وهذا كناية عن أشد الذل والصغار ، ثم أتبعه ما يؤكده فقال مصرحاً بمعنى الشخوص : ﴿ لا يرتد إليهم ﴾ ولما كانوا في هيئة الأعين في الطرف والسكون قريباً من السواء ، وحد فقال : ﴿ طرفهم ﴾ بل أعينهم شاخصة دائمة الفتح لا تطرف كالمحتضر لما بأصحابها من الهول ﴿ وأفئدتهم ﴾ جمع فؤاد ، وهو العضو الذي من شأنه أن يحمى بالغضب ؛ قال في القاموس : والتفؤد : التحرق والتوقد ، ومنه الفؤاد للقلب مذكر ، جمعه أفئدة .

﴿ هواء ﴾ أي عدم فارغة لا شيء فيها من الجرأة والأنفة التي يظهرونها الآن كما قال حسان بن ثابت .رضى الله عنهم .:

ألا أبلغ أبا سفيان عني . . .

فأنت مجوف نخب هواء

والهواء : الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ، والنخب : الجبان ، وكذا الهواء – قاله في القاموس .

فأنذرهم أهوال ذلك اليوم فإنه لا يبقى معهم فيه شيء مما هم فيه من الإباء والاستكبار .

انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 194.195 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

اعلم أنه لما بين دلائل التوحيد ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أن يصونه عن الشرك ، وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على وجود يوم القيامة ، وما يدل على صفة يوم القيامة ، أما الذي يدل على وجود القيامة فهو قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ فالمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم ، لزم أن يكون إما غافلاً عن ذلك الظالم أو عاجزاً عن الإنتقام ، أو كان راضياً بذلك الظلم ، ولما كانت الغفلة والعجز والرضا بالظلم محالاً على الله امتنع أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم .

فإن قيل : كيف يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفاً بالغفلة ؟

والجواب من وجوه : الأول : المراد به التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً ، كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ الله إلها ءَاخَرَ ﴾ [ القصص : 88 ] وكقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

والثاني : أن المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لكان عدم الإنتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم ،

ولما كان امتناع هذه الغفلة معلوماً لكل أحد لا جرم كان عدم الانتقام محالاً .

والثالث : أن المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير .

الرابع : أن يكون هذا الكلام وإن كان خطاباً مع النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ، إلا أنه يكون في الحقيقة خطاباً مع الأمة ، وعن سفيان بن عيينة : أنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، ثم بين تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بصفات .

الصفة الأولى : أنه تشخص فيه الأبصار .



---

يقال : شخص بصر الرجل إذا بقيت عينه مفتوحة لا يطرفها ، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة وسقوط القوة .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ وفي تفسير الإهطاع أقوال أربعة :

القول الأول : قال أبو عبيدة هو الإسراع .

يقال : أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع وعلى هذا الوجه ، فالمعنى : أن الغالب من حال من يبقى بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً ، فبين الله تعالى أن حالهم

بخلاف هذا المعتاد ، فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين ، أي مسرعين نحو ذلك البلاء .

القول الثاني : في الإهطاع قال أحمد بن يحيى : المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع .

والقول الثالث : المهطع الساكت .

والقول الرابع : قال الليث : يقال للرجل إذا قر وذل أهطع .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسِهِمْ ﴾ والإقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع ، فقوله : ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسِهِمْ ﴾ أي رافعي رؤوسهم والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه ، فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ والمراد من هذه الصفة دوام ذلك الشخوص ، فقوله : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ لا يفيد كون هذا الشخوص دائماً وقوله : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ يفيد دوام هذا الشخوص ، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ثم جعل وصفاً فقيل : قلب فلان هواء إذا كان خالياً لا قوة فيه ، والمراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور ، لكثرة ما فيه من الحزن ، إذا عرفت هذه الصفات الخمسة فقد اختلفوا في وقت حصولها فقيل : إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب ، وقيل : إنها تحصل عندما يتميز فريق عن فريق ، والسعداء يذهبون إلى الجنة ، والأشقياء إلى النار .

وقيل : بل يحصل عند إجابة الداعي والقيام من القبور ، والأول أولى للدليل الذي ذكرناه ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 111.112 ﴾

*(247/420)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾

قال ميمون بن مهران : وعيد للظالم وتعزية للمظلوم .

قوله عز وجل : ﴿ مهطعين ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : معناه مسرعين قاله سعيد بن جبير والحسن وقتادة ، مأخوذ من أهطع يهطع إهطاعاً إذا أسرع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أي مسرعين . قال الشاعر :

بدجلة دارُهُم ولقد أراهم . . . بدجلة مهطعين إلى السماع

الثاني : أنه الدائم النظر لا يطرف ، قاله ابن عباس والضحاك .

الثالث : أنه المطرِق الذي لا يرفع رأسه ، قاله ابن زيد .

﴿ مقنعي رءُوسهم ﴾ وإقناع الرأس فيه تأويلان :

أحدهما : ناكسي رؤوسهم بلغة قريش ، قاله مؤرج السدوسي وقتادة .

الثاني : رافعي رؤوسهم ، وإقناع الرأس رفْعُه ، قاله ابن عباس ومجاهد ، ومنه قول الشاعر :

أنغض رأسه نحوي وأقنعا . . . كأنما أبصرَ شيئاً أطمعَا

﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي لا يرجع إليهم طرفهم ، والطرف هو النظر وسميت العَيْن طرْفاً لأنها بها يكون ، قال جميل :

وأَقْصِرُ طَرْفي دُون جُمْل كرامةً . . . لجُمْلٍ وللطرْفِ الذي أنا قاصِر

﴿ وأفئدتهم هواءٌ ﴾ والمراد بالأفئدة مواضع القلوب ، وهي الصدور .

وقوله : ﴿ هواء ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أنها تتردد في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه فكأنها تهوي ، قاله سعيد بن جبير ومجاهد .

الثاني : أنها قد زالت عن أماكنها حتى بلغت الحناجر ، فلا تنفصل ولا تعود ، قاله قتادة .

الثالث : أنها المتخرمَة التي لا تعي شيئاً ، قاله مُرّة .

الرابع : أنها خالية من الخير ، وما كان خالياً فهو هواء ، قاله ابن عباس ومنه قول حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني . . . فأنتَ مُجوَّف نخب هواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(248/420)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين ، وتسلية للمظلومين ، والخطاب بقوله : ﴿ تحسبن ﴾ لمحمد عليه السلام ، والمراد بالنهي غيره ممن يليق به أن يحسب مثل هذا .

وقرأ طلحة بن مصرف " ولا تحسب الله غافلاً " بإسقاط النون ، وكذلك " ولا تحسب الله مخلف وعده " [ إبراهيم : 47 ] وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن والأعرج : " نؤخرهم "

بنون العظمة . وقرأ الجمهور : " يؤخرهم " بالياء ، أي الله تعالى .

و﴿ تشخص ﴾ معناه : تحد النظر لفزع ولفرط ذلك بشخص المحتضر ، و" المهطع "

المسرع في مشيه – قاله ابن جبير وقتادة .

قال القاضي أبو محمد : وذلك بذلة واستكانة ، كإسراع الأسير والخائف ونحوه – وهذا

هو أرجح الأقوال – وقد توصف الإبل بالإهطاع على معنى الإسراع وقلما يكون إسراعها

إلا مع خوف السوط ونحوه ، فمن ذلك قول الشاعر : [ الكامل ]

بمهطع سرج كأن عنانه . . . في رأس جذع من أوال مشذب

ومن ذلك قول عمران بن حطان : [ البسيط ]

إذا دعانا فأهطعنا لدعوته . . . داع سميع فلونا وساقونا

ومنه قول ابن مفرغ : [ الوافر ]

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . . بدجلة مهطعين إلى السماع

ومن ذلك قول الآخر : [ الطويل ]

بمستهطع رسل كأن جديله . . . بقيدوم رعد من صوام ممنع

وقال ابن عباس وأبو الضحى : الإهطاع شدة النظر من غير أن يطرف وقال ابن زيد "

المهطع " : الذي لا يرفع رأسه . قال أبو عبيدة : وقد يكون الإهطاع الوجهين جميعاً الإسراع

وإدامة النظر ، و" المقنع " هو الذي يرفع رأسه قدماً بوجهه نحو الشيء ، ومن ذلك قول

الشاعر : [ الشماخ ] [ الوافر ]

يباكرن العضاة بمقنعات . . . نواجذهن كالحدأ الوقيع

يصف الإبل بالإقناع عند رعيها أعالي الشجر .

(249/420)

---

وقال الحسن في تفسير هذه الآية : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد . وذكر المبرد – فيما حكي عن مكي – أن الإقناع يوجد في كلام العرب بمعنى خفض الرأس من الذلة .

قال القاضي أبو محمد : والأول أشهر .

وقوله : ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي لا يطوفون من الحذر والجزع وشدة الحال ، وقوله : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ تشبيه محض ، لأنها ليست بهواء حقيقة ، وجهة التشبيه يحتمل أن تكون في فرغ الأفئدة من الخير والرجاء والطمع في الرحمة ، فهي منخرقة مشبهة الهواء في تفرغه من الأشياء وانخراقه ، ويحتمل أن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في صدورهم وأنها تجيء وتذهب وتبلغ على ما روي – حناجرهم – فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب .

قال القاضي أبو محمد : وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أموره بالهواء ، فمن ذلك قول الشاعر : [ الطويل ]

ولا تكن من أخدان كل يراعه . . . هواء كسقب الناب جوفاً مكاسره

ومن ذلك قول حسان : [ الوافر ]

ألا أبلغ أبا سفيان عني . . . فأنت مجوف نخب هواء

ومن ذلك قول زهير : [ الوافر ]

كأن الرحل منه فوق صعل . . . من الظلمان جوجؤه هواء

فالمعنى : أنه في غاية الخفة في إجفاله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(250/420)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبَنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾

قال ابن عباس : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم .

قوله تعالى : ﴿ إنما يؤخِّرهم ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو رزين ، وقتادة : "نؤخِّرهم" بالنون ، أي : يؤخر جزاءهم ﴿ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي : تشخص

أبصار الخلائق لظهور الأحوال فلا تغتمض.

قوله تعالى: ﴿ مهطعين ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أن الإِهطاع: النظر من غير أن يَطْرِف الناظر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، والضحاك، وأبو الضُّحى.

والثاني: أنه الإِسراع، قاله الحسن، وسعيد بن جُبير، وقتادة، وأبو عبيدة.

وقال ابن قتيبة: يقال: أهطع البعير في سيره، واستهطع: إِذا أسرع.

وفي ما أسرعوا إِليه قولان.

أحدهما: إِلى الداعي، قاله قتادة.

والثاني: إِلى النار، قاله مقاتل.

والثالث: أن المُهطع: الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد.

وفي قوله: ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ قولان:

أحدهما: رافعي رؤوسهم، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وأبو عبيدة، وأنشد أبو عبيدة:

أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وأَقْنَعَا . . .
كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئًا أَطْمَعَا

وقال ابن قتيبة: المقنع رأسه: الذي رفعه وأقبل بطرْفه على ما بين يديه.

وقال الزجاج: رافعي رؤوسهم، ملتصقة بأعناقهم.

"ومهطعين مقنعي رؤوسهم" نصبٌ على الحال، المعنى: ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين.

والثاني: ناكسي رؤوسِهم، حكاه الماوردي عن المؤرِّج.

قوله تعالى: ﴿ لا يرتدُّ إِليهم طرفهم ﴾ أي: لا ترجع إِليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة.

قال ابن قتيبة: والمعنى: أن نظرهم إِلى شيء واحد.

قال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إِلى السماء، لا ينظر أحد إِلى أحد.

قوله تعالى: ﴿ وأفئدتهم هواءٌ ﴾ الأفئدة: مساكن القلوب.

وفي معنى الكلام أربعة أقوال:



---

أحدها: أن القلوب خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر، رواه عطاء عن ابن عباس.

وقال قتادة: خرجت من صدورهم فنَشِبَت في حلوقهم، فأفئدتهم هواءٌ ليس فيها

شيء .

والثاني : وأفئدتهم ليس فيها شيء من الخير ، فهي كالخِرْبة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : وأفئدتهم مُنخرِقة لا تعي شيئاً ، قاله مُرَّة بن شراحيل .

وقال الزجاج : متخرِّقة لا تعي شيئاً من الخوف .

والرابع : وأفئدتهم جُوْف لا عقول لها ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لحسَّان :

أَلا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنّي . . .

فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

فعلى هذا يكون المعنى : أن قلوبهم خلت عن العقول ، لِما رأوا من الهول .

والعرب تسمي كلَّ أجوفَ خاوٍ : هواءً .

قال ابن قتيبة : ويقال : أفئدتهم منخوبة من الخوف والجُبْن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(252/420)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾

وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أي اصبر كما صبر إبراهيم ، وأَعْلِم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنَّة الله إمهال العصاة مدة .

قال ميمون بن مِهْران : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم .

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعني مشركي مكة يمهلهم ويؤخر عذابهم .

وقراءة العامة "يُؤَخِّرُهُمْ" بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : "وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ" .

وقرأ الحسن والسُّلَمي وروي عن أبي عمرو أيضاً "نُؤَخِّرُهُمْ" بالنون للتعظيم .

﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ، قاله الفراء .

يقال : شَخَصَ الرجل بَصرَه وشَخَصَ البصرُ نفسُه أي سَمَا وطَمَح من هول مَا يرى .

قال ابن عباس : تَشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَرْمَضُون .

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين ؛ قاله الحسن وقَتَادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعاً إذا أسرع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ [ القمر : 8 ] أي مسرعين .

قال الشاعر :

بدجْلة دارُهُمْ ولقد أراهُمْ . . .

بدجْلةَ مُهطِعِينَ إلى السَّماعِ

وقيل : المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع ؛ أي ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ،

وقال مجاهد والضحّاك : "مُهْطِعِينَ" أي مديمي النظر .

وقال النحاس : والمعروف في اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعاً يعني الإسراع مع إدامة النظر .

وقال ابن زيد : المهطع الذي لا يرفع رأسه .

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رافعي رؤوسهم ينظرون في ذلّ .

وإقناع الرأس رفعه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد .

*(253/420)*

---

قال ابن عرفة والقُتَبِيّ وغيرهما : المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع في الصلاة وأقنع صوته إذا رفعه .

وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد .

وقيل : ناكسي رؤوسهم ؛ قال المهدويّ : ويقال أقنع إذا رفع رأسه ، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعاً ، والآية محتملة الوجهين ، وقاله المبرّد ، والقول الأول أعرف في اللغة ؛ قال الراجز :

أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْنَعَا . . .

كأنَّما أَبْصرَ شيئًا أَطْمَعَا

وقال الشَّمَّاخ يصف إبلاً :

يُبَاكِرْنَ العِضاهَ بِمُقْنَعَاتٍ . . .

نَوَاجِذهُنّ كالْحَدَإِ الْوَقِيعِ

يعني : برؤوس مرفوعات إليها لتتناولهن .

ومنه قيل : مِقْنَعة لارتفاعها .

ومنه قَنِع الرجل إذا رَضِي ؛ أي رفع رأسه عن السؤال .

وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منه ؛ عن النحاس .

وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل .

ورجل مُقَنَّع بالتشديد ؛ أي عليه بَيْضة قاله الجوهري .

﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر .

يقال : طَرَف الرجل يَطْرِف طَرْفاً إذا أطبق جَفْنه على الآخر ، فسمّي النظر طَرْفاً لأنه به يكون .

والطَّرْف العين .

قال عَنْتَرة :

وَأَغُضّ طَرْفِي ما بَدَتْ لِي جارَتي . . .

حتّى يُوَارِي جارِتي مَأْوَاهَا

وقال جَمِيل :

وَأَقْصِر طَرَفْي دُونَ جُمْل كَرَامةً . . .

لِجُمْل ولِلطّرْفِ الذي أَنَا قاصِرُهْ

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ أي لا تغني شيئاً من شدّة الخوف .

ابن عباس : خاليةٌ من كل خير .

السُّدِّيّ : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد

: خاوية خربة مُتخرقة ليس فيها خير ولا عقل ؛ كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء :

إنما هو هَوَاءٌ ؛ وقاله ابن عباس .

والهواء في اللغة المجوّف الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلاَ أَبلِغْ أبا سُفْيانَ عَنّي . . .

فأنت مُجوّف نَخِبٌ هَوَاءُ

وقال زهير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأن الرجل مِنها فوق صعلٍ . . .

من الظلمان جؤجؤه هواء

فارغ أي خال ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ [ القصص : 10 ] أي من كل شيء إلا من هم موسى .

وقيل : في الكلام إضمار ؛ أي ذات هواء وخلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(255/420)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾

الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله محال فلا بد من تأويل الآية فالمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم وإعلام له بأن لا

يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلاً قال سفيان بن عيينة : فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم .

فإن قلت : تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) غافلاً وهو أعلم الناس به أنه لم غافلاً حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .

قلت : إذا كان المخاطب به رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ففيه وجهان : أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً فهو كقوله ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾ وكقوله سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا ﴾ أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الإيمان .



---

الوجه الثاني أن المراد بالنهي عن حسابه غافلاً الإعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون ولا يخفى عليه شيء وأنه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى : ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وإن كان المخاطب غير النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فلا إشكال فيه ولا سؤال لأن أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز أن يحسبه

غافلاً فلجهله بصفاته ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ يقال : شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما ، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم ﴿ مهطعين ﴾ قال قتادة مسرعين وهذا قول أبي عبيدة فعلى هذا المعنى أن الغالب من حال من بقي بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً باهتاً فبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أن أحوال أهل الوقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فأخبر سبحانه وتعالى أنهم مع شخوص الأبصار يكونون مهطعين يعني مسرعين نحو الدعي وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ الاقناع رفع الرأس إلى فوق فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء وهذا بخلاف المعتاد لأن من يتوقع البلاء فإنه يطرق ببصره إلى الأرض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وهو قوله تعالى ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة الخوف فهي شاخصة لا ترتد إليهم قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أي خالية .

قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت في حناجرهم فلا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها ومعنى الآية أن أفئدتهم خالية فارغة لا تعي شيئاً ولا تعقل من شدة الخوف .

---

وقال سعيد بن جبير : وأفئدتهم هواء مترددة تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ومعنى الآية أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(258/420)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

شخص البصر أحد النظر ، ولم يستقرّ في مكانه .

المهطع : المسرع في مشيه .

قال الشاعر :

بمهطع سرح كأن عنانه . . .

في رأس جذع من أراك مشذب

وقال عمران بن حطان :

إذا دعانا فأهطعنا لدعوته . . .

داع سميع فلبونا وساقونا

وقال أبو عبيدة : قد يكون الأهطاع الإسراع وإدامة النظر .

المقنع : هو الرافع رأس المقبل ببصره على ما يين يديه ، قاله ابن عرفة والقتبي .

وقال الشاعر :

يباكرن العصاة بمقنعات . . .

نواجذهن كالحدإ الوقيع

يصف الإبل بالإقناع عند رعيها أعالي الشجر ، ويقال : أقنع رأسه نكسه وطأطأه ، فهو من الأضداد .

قال المبرد : وكونه بمعنى رفع أعرف في اللغة انتهى .

وقيل : منه قنع الرجل إذا رضي ، كأنه رفع رأسه عن السؤال .

وفم مقنع معطوفة أسنانه إليه داخلاً ، ورجل مقنع بالتشديد عليه بيضة الرأس معروف ، ويجمع في القلة على أرؤس .

الطرف : العين .

وقال الشاعر :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي . . .

حتى يواري جارتي مأواها

ويقال : طرف الرجل طبق جفنه على الآخر ، وسمي الجفن طرفاً لأنه يكون فيه ذلك .

الهواء : ما بين السماء والأرض ، وهو الخلاء الذي لم تشغله الأجرام الكثيفة ، واستعير للجبان فقيل : قلب فلان هواء .

وقال الشاعر :

كأن الرحل منها فوق صعل . . .

من الظلمات جؤجؤه هواء

﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءُوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ : الخطاب بقوله : ولا تحسبن ، للسامع الذي يمكن منه حسبان مثل هذا الجهله بصفات الله ، لا للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، فإنه مستحيل ذلك في حقه .

وفي هذه الآية وعيد عظيم للظالمين ، وتسلية للمظلومين .

وقرأ طلحة : ولا تحسب بغير نون التوكيد ، وكذا فلا تحسب الله مخلف وعده .

والمراد بالنهي عن حسبانه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون ، لا يخفى عليه منه شيء ، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ يريد الوعيد .

ويجوز أن يراد : ولا تحسبنه ، يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير .

وقرأ السلمي والحسن ، والأعرج ، والمفضل ، عن عاصم وعباس بن الفضل ، وهارون العتكي ، ويونس بن حبيب ، عن أبي عمر : ونؤخرهم بنون العظمة ، والجمهور بالياء أي : يؤخرهم الله .

مهطعين مسرعين ، قاله : ابن جبير وقتادة .

وذلك بذلة واستكانة كإسراع الأسير والخائف .

وقال ابن عباس ، وأبو الضحى : شديدي النظر من غير أنْ يطرقوا .

وقال ابن زيد : غير رافعي رؤوسهم .

وقال مجاهد : مد يمين النظر .

وقال الأخفش : مقبلين للإصغاء ، وأنشد :

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . .

بدجلة مهطعين إلى السماع

وقال الحسن : مقنعي رؤوسهم وجوه الناس يومئذ إلى السماء ، لا ينظر أحد إلى أحد انتهى .

وقال ابن جريج : هواء صفر من الخير خاوية منه .

وقال أبو عبيدة : جوف لا عقول لهم .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : خربة خاوية ليس فيها خير ولا عقل .

وقال سفيان : خالية إلا من فزع ذلك اليوم كقوله : وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، أي : إلا من هم موسى .

وهواء تشبيه محض ، لأنها ليست بهواء حقيقة ، ويحتمل أن يكون التشبيه في فراغها من الرجاء والطمع في الرحمة ، فهي منحرقة مشبهة الهواء في تفرغه من الأشياء وانخراقه ، وأن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في الصدور ، وأنها تجيء وتذهب وتبلغ على ما روي حناجرهم ، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب .

وحصول هذه الصفات الخمس للظالمين قبل المحاسبة بدليل ذكرها عقيب قوله : يوم يقوم الحساب .

وقيل : عند إجابة الداعي ، والقيام من القبور .

وقيل : عند ذهاب السعداء إلى الجنة ، والأشقياء إلى النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾

خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمرادُ تثبيتُه على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك ، نحو قوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ ونظائرِه ، مع ما فيه من الإيذان بكونه واجبَ الاحتراز عنه في الغاية حتى نُهي عنه من لا يمكن تعاطيه ، أو نهيُه عليه السلام عن حُسبانه تعالى تاركاً لعقابهم على طريقة العفو ، والتعبيرُ عنه بذلك للمبالغة في النهي والإيذان بأن ذلك الحسبانَ بمنزلة حسبانِه تعالى غافلاً عن أعمالهم إذ العلمُ بذلك مستوجبٌ لعقابهم لا محالة فتركُه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة ، وفيه تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدٌ له أكيدٌ ووعيد للكفرة وسائرِ الظالمين شديدٌ ، أو لكل أحدٍ ممن يستعجل عذابَهم أو يتوهّم إهمالَهم للجهل بصفاته تعالى والاغترارِ بإمهاله ، وقيل : معناه لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملةَ الغافل عما عمِلوا بل معاملةَ من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيراً وقِطْميراً ، والمرادُ بالظالمين أهلُ مكةَ ممن عُدّت مساويهم من تبديل نعمةِ الله تعالى كفراً وإحلالِ قومهم دارَ البوار واتخاذِ الأندادِ كما يؤذن به

التعرّضُ لحكمة التأخيرِ المنبىء عنه قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ ﴾ الآية ، أو جنسُ الظالمين وهم داخلون في الحكم دخولاً أولياً .

(261/420)

---

﴿ إِنَّمَا يُؤَخّرُهُمْ ﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهد ، وهو استئنافٌ وقع تعليلاً للنهي السابق أي دُم على ما كنت عليه من عدم حُسبانه تعالى غافلاً عن أعمالهم ولا تحزَنْ بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم ، إذ تأخيرُه للتشديد والتغليظ ، أو لا تحسبنّه تعالى تاركاً لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها إنما ذلك لأجل هذا ، أو لا تحسبنّه تعالى يعاملهم معاملةَ الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من التأخير ، إنما هو لهذه الحكمة وقرىء بالنون ، وإيقاعُ التأخيرِ عليهم مع أن المؤخرَ إنما هو عذابُهم لتهويل الخطْب وتفظيعِ الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مُرصَدون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم ، وللدّلالة على أن حقَّهم من العذاب هو الاستئصالُ بالمرة وألا يبقى منهم في الوجود عينٌ ولا أثرٌ ، وللإيذان بأن المؤخرَ له من جملة العذاب وعنوانُه ، ولو قيل : إنما يؤخر عذابَهم الخ لما فهم ذلك ﴿ لِيَوْمٍ ﴾ هائل ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ ترتفع أبصارُ أهلِ الموقف فيدخل في زمرتهم الكفرةُ المعهودون دخولاً أولياً ، أي تبقى مفتوحةً لا تتحرك

أجفانُهم من هول ما يرَونه ، واعتبارُ عدم قرارِها في أماكنها إما باعتبار الارتفاعِ الحسيِّ في جِرْمِ العين وإما بجعل الصيغةِ مِنْ شخَص من بلد إلى بلد وسار في ارتفاع .

(262/420)

---

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعي مُقبلين عليه بالخوف والذل والخشوعِ أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يُقلعون عنه ولا يطرِفون هيبة وخوفاً ، وحيث كان إدامةُ النظر ها هنا بالنظر إلى الداعي قيل : ﴿ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾ أي رافعيها مع إدامة النظر من غير التفاتٍ إلى شيء كذا قاله العتبي وابن عرفة ، أو ناكسيها ويقال : أقنع رأسَه أي طأطأها ونكَسها فهو من الأضداد وهما حالان مما دل عليه الأبصارُ من أصحابها ، أو الثاني حالٌ متداخلةٌ من الضمير في الأول ، وإضافتُه غير حقيقية فلا ينافي الحالية ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا يرجِع إليهم تحريكُ أجفانِهم حسبما كان يرجِع إليهم كلَّ لحظة بل تبقى أعينُهم مفتوحةً لا تطرِف أو لا ترجع إليهم أجفانُهم التي هي آلةُ الطرْفِ ، فيكون إسنادُ الرجوعِ إلى الطرف مجازياً أو هو نفسُ الجفن . قال الفيروزآبادي : الطرفُ العينُ لا يجمع لأنه مصدر في الأصل أو اسمٌ جامع للعين . أو لا يرجع نظرُهم إلى أنفسهم فضلاً عن أن يرجِع إلى شيء آخر فيبقَون مبهوتين ، وهو أيضاً حالٌ أو بدلٌ من مقنعي الخ ، أو استئناف والمعنى لا يزول ما

اعتزاهم من شخوص الأبصار ، وتأخيرُه عما هو تتمته من الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكورِ من المناسبة لتربية هذا المعنى ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ خاليةٌ من العقل والفهم لفرْط الحَيرة والدهَش ، كأنها نفسُ الهواءِ الخالي من كل شاغلٍ ، ومنه قيل للجبان والأحمق : قلبُه هواءٌ أي لا قوة ولا رأيَ فيه ، واعتبارُ خلوِّها عن كل خير لا يناسب المقام وهو إما حالٌ عاملُها لا يرتد مفيدةٌ لكون شخوص أبصارِهم وعدمِ ارتدادِ طرفِهم بلا فهمٍ ولا اختيار أو جملةٌ مستقلةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(263/420)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

خطاب لكل من توهم غفلته تعالى ، وقيل : للنبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر ، والمراد من النهي تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه من عدم ظن أن الغفلة تصدر منه عز شأنه كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ [ القصص : 88 ] ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] أي دم على ذلك ، وهو مجاز كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ ءامِنُواْ ﴾ [ النساء : 136 ] وفيه إيذان بكون ذلك الحسبان واجب

الاحتراز عنه في الغاية حتى نهى عنه من لا يمكن تعاطيه ، وجوز أن يكون المراد من ذلك على طريق الكناية أو المجاز بمرتبتين الوعيد والتهديد ، والمعنى لا تحسبن الله تعالى يترك عقابهم للطفه وكرمه بل هو معاقبهم على القليل والكثير ، وأن يكون ذلك استعارة تمثيلية أي لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب المحاسب على النقير والقطمير ، وإلى هذه الأوجه أشار الزمخشري .

وتعقب الوجه الأول بأنه غير مناسب لمقام النبوة لأنه عليه الصلاة والسلام لا يتوهم منه عدم الدوام على ما هو عليه من عدم الحسبان ليثبت ، وفيه نظر .

وفي "الكشف" الوجه هو الأول لأن في إطلاق الغافل عليه سبحانه وإن كان على المجاز ركة يصان كلام الله تعالى عنها ، وفي الكناية النظر إلى المجموع فلم يجسر العاقل عليه تعالى عنه ، ويجوز أن يكون الأول مجازاً في المرتبة الثانية بجعل عدم الغفلة مجازاً عن العلم ، ثم جعله مجازاً عن الوعيد غير سديد لعدم منافاة إرادة الحقيقة .



---

والأسلم من القيل والقال ما ذكرناه أولاً من كون الخطاب لكل من توهم غفلته سبحانه وتعالى لغير معين ، وهو الذي اختاره أبو حيان ، وعن ابن عيينة أن هذا تسلية للمظلوم

وتهديد للظالم فقيل له : من قال هذا ؟ فغضب وقال : إنما قاله من علمه ، وقد نقل ذلك في الكشاف فاستظهر صاحب الكشف كونه تأييداً لكون الخطاب لغير معين ، وجوز أن يكون جارياً على الأوجه إذ على تقدير اختصاص الخطاب به عليه الصلاة والسلام أيضاً لا يخلو عن التسلية للطائفتين فتأمل ، والمراد بالظالمين أهل مكة الذين عدت مساويهم فيما سبق أو جنس الظالمين وهم داخلون دخولاً أولياً ، والآية على ما قال الطيبي مردودة إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ [ إبراهيم : 30 ] ﴿ وَقُل لِّعِبَادِيَ ﴾ [ إبراهيم : 31 ] واختار جعلها تسلية له عليه الصلاة والسلام وتهديداً للظالمين على سبيل العموم .

وقرأ طلحة "ولا تحسب" بغير نون التوكيد ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم ، وهو استئناف وقع تعليلاً للنهي السابق أي لا تحسبن الله تعالى غافلاً عن عقوبة أعمالهم لما ترى من التأخير إنما ذلك لأجل هذه الحكمة ، وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم قيل : لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم ، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم في الوجود عين ولا أثر ، وللإيذان بأن المؤخر ليس من جملة العذاب وعنوانه ، ولو قيل : إنما يؤخر عذابهم لما فهم ذلك .

وقرأ السلمي .

والحسن .

والأعرج.

والمفضل عن عاصم، ويونس بن حبيب عن أبي عمرو.

(265/420)

---

وغيرهم ﴿ نؤخرهم ﴾ بنون العظمة وفيه التفات ﴿ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ﴾ هائل ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل في زمرتهم الظالمون المعهودون دخولاً أولياً أي تبقى مفتوحة لا تطرف كما قال الراغب من هول ما يرونه، وفي "البحر" شخص البصر أحد النظر ولم يستقر مكانه، والظاهر أن اعتبار عدم الاستقرار لجعل الصيغة من شخص الرجل من بلده إذا خرج منها فإنه يلزمه عدم القرار فيها أو من شخص بفلان إذا ورد عليه ما يقلقه كما في الأساس.

وحمل بعضهم الألف واللام على العهد أي أبصارهم لأنه المناسب لما بعده والظاهر مما روي عن قتادة فقد أخرج عبد بن حميد.

وغيره عنه أنه قال في الآية: شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد إليهم، واختار بعضهم حمل ﴿ ءال ﴾ على العموم قال: لأنه أبلغ في التهويل، ولا يلزم عليه التكرير مع بعض الصفات الآتية، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما قيل فيه.

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعي قاله ابن جبير .

وقتادة ، وقيده في "البحر" بقوله : بذلة واستكانة كإسراع الأسير والخائف ، وقال

الأخفش : مقبلين للإصغاء وأنشد :

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . .

بدجلة مهطعين إلى السماع

وقال مجاهد : مد يمين النظر لا يطرفون ، وقال أحمد بن يحيى : المهطع الذي ينظر في ذلك

وخشوع لا يقلع بصره ، وروى ابن الأنباري أن الإهطاع التجميح وهو قبض الرجل ما بين

عينيه ، وقيل : إن الإهطاع مد العنق والهطع طول العنق ، وذكر بعضهم أن أهطع وهطع

بمعنى وأن كل المعاني تدور على الإقبال ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسِهِمْ ﴾ رافعيها مع الإقبال

بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء ، قاله ابن عرفة .

والقتيبي .

وأنشد الزجاج قول الشماخ يصف إبلاً ترعى أعلا الشجر :

يباكرن العضاة بمقنعات . . .

نواجذهن كالحد الوقيع

وأنشده الجوهري لكون الإقناع انعطاف الإنسان إلى داخل الفم يقال : فم مقنع أي معطوفة أسنانه إلى داخله وهو الظاهر ، وفسر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المقنع بالرافع رأسه أيضاً وأنشد له قول زهير :

هجان وحمر مقنعات رؤسها . . .

وأصفر مشمول من الزهر فاقع

ويقال : أقنع رأسه نكسه وطأطأه فهو من الأضداد ، قال المبرد .

وكونه بمعنى رفع أعرف في اللغة اه ، وقيل : ومن المعنى الأول قنع الرجل إذا رضي بما هو فيه كأنه رفع رأسه عن السؤال : وقد يقال : إنه من الثاني كأنه طأطأ رأسه ولم يرفعه للسؤال ولم يستشرف إلى غير ما عنده ، ونصب الوصفين على أنهما حالان من مضاف محذوف أي أصحاب الأبصار بناءً على أنه يقال : شخص زيد ببصره أو الأبصار تدل على أصحابها فجاءت الحال من المدلول عليه ذكر ذلك أبو البقاء ، وجوز أن يكون ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ منصوباً بفعل مقدر أي تبصرهم مهطعين و ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسَهُمْ ﴾ على هذا قيل : حال من المستتر في ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ فهي حال متداخلة وإضافته غير حقيقية فلذا وقع حالاً ؛ وقال بعض الأفاضل : إن في اعتبار الحالية من أصحاب حسبما ذكر أولاً ما لا يخفى من البعد والتكلف ، والأولى والله تعالى أعلم جعل ذلك حالاً مقدرة من مفعول ﴿

يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ [ إبراهيم : 42 ] وقوله سبحانه : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] بيان حال عموم الخلائق .

(267/420)

---

ولذلك أوثر فيه الجملة الفعلية ، فإن المؤمنين المخلصين لا يستمرون على تلك الحال بخلاف الكفار حيث يستمرون عليها ولذلك عبر عن حالهم بما يدل على الدوام والثبات ، فلا يرد على هذا توهم التكرار بين ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ و ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] على بعض التفاسير ، وبنحو ذلك رفع التكرار بين الأول ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ طَرْفُهُمْ ﴾ بمعنى لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع إليهم كل لحظة ، فالطرف باق على أصل معناه وهو تحريك الجفن ، والكلام كناية عن بقاء العين مفتوحة على حالها .

وجوز أن يراد بالطرف نفس الجفن مجازاً لأنه يكون فيه ذلك أي لا ترجع إليهم أجفانهم التي يكون فيها الطرف ، وقال الجوهري : الطرف العين ولا يجمع لأنه في الأصل مصدر فيكون واحداً ويكون جمعاً وذكر الآية ، وفسره بذلك أبو حيان أيضاً وأنشد قول الشاعر :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي . . .

حتى يوارى جارتي مأواها

وليس ما ذكر متعيناً فيه وهو معنى مجازي له وكذا النظر ، وجوز إرادته على معنى لا يرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلاً عن شيء آخر بل يبقون مبهوتين ، ولا ينبغي كما في "الكشف" أن يتخيل تعلق ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ بما بعده على معنى لا يرجع نظرهم إلى أنفسهم أي لا يكون منهم نظر كذلك لأن صلة المصدر لا تتقدم ، والمسألة في مثل ما نحن فيه خلافية ، ودعوى عدم الجمع ادعاها جمع ، وادعى أبو البقاء أنه قد جاء مجموعاً هذا ، وأنت خبير بأن لزوم التكرار بين ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ و ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ على بعض التفاسير متحقق ولا يدفعه اعتبار الحالية من مفعول ﴿ يُؤَخِرُهُمْ ﴾ [ إبراهيم : 42 ] على أن بذلك لا يندفع عرق التكرار رأساً بين ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] وكل من الأمرين المذكورين كما لا يخفى على من صحت عين بصيرته .



---

وفي إرشاد العقل السليم أن جملة ﴿ لاَ يَرْتَدُّ ﴾ الخ حال أو بدل من ﴿ مُقْنِعِى ﴾ الخ أو استئناف ؛ والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الإبصار وتأخيره عما هو من تتمته من الإهطاع والإقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى ، وكأنه

أراد بذلك دفع التكرار ، وفي انفهام لا يزول الخ من ظاهر التركيب خفاء ، واعتبر بعضهم عدم الاستقرار في الشخوص وعدم الطرف هنا ، فاعترض عليه بلزوم المنافاة ، وأجيب بأن الثاني بيان حال آخر وأن أولئك الظالمين تارة لا تقر أعينهم وتارة يبهتون فلا تطرف أبصارهم ، وقد جعل الحالتان المتنافيتان لعدم الفاصل كأنهما في حال واحد كقول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا . . .

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهذا يحتاج إليه على تقدير اعتبار ما ذكر سواء اعتبر كون الشخوص وما بعده من أحوال الظالمين بخصوصهم أم لا ، والأولى أن لا يعتبر في الآية ما يحوج لهذا الجواب ، وأن يختار من التفاسير ما لا يلزمه صريح التكرار ، وأن يجعل شخوص الأبصار حال عموم الخلائق وما بعده حال الظالمين المؤخرين فتأمل .

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ومنه قيل للجبان ، والأحمق : قلبه هواء أي لا قوة ولا رأي فيه ، ومن ذلك قول زهير :

كأن الرحل منها فوق صعل . . .

من الظلمان جؤجؤه هواء

وقول حسان :

ألا بلغ أبا سفيان عني . . .

فأنت مجوف نخب هواء

وروي معنى ذلك عن أبي عبيدة .

وسفيان ، وقال ابن جريج : صفر من الخير خالية منه ، وتعقب بأنه لا يناسب المقام .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن ابن جبير أنه قال : أي تمور في أجوافهم إلى حلوقهم ليس لها مكان تستقر فيه ، والجملة في موضع الحال أيضاً والعامل فيها إما ﴿ يَرْتَدّ ﴾ أو ما قبله من العوامل الصالحة للعمل .

(269/420)

---

وجوز أن تكون جملة مستقلة ، وإلى الأول ذهب أبو البقاء وفسر ﴿ هَوَاء ﴾ بفارغة ، وذكر أنه إنما أفرد مع كونه خبراً لجمع لأنه بمعنى فارغة وهو يكون خبراً عن جمع كما يقال : أفئدة فارغة لأن تاء التأنيث فيه يدل على تأنيث الجمع الذي في أفئدتهم ، ومثل ذلك أحوال صعبة وأفعال فاسدة ، وقال مولانا الشهاب : الهواء مصدر ولذا أفرد ، وتفسيره باسم الفاعل كالخالي بيان للمعنى المراد منه المصحح للحمل فلا ينافي المبالغة في جعل ذلك عين

الخلاء ، والمتبادر من كلام غير واحد أن الهواء ليس بمعنى الخلاء بل بالمعنى الذي يهب على الذهن من غير أعمال مروحة الفكر ، ففي "البحر" بعد سرد أقوال لا يقضي ظاهرها بالمصدرية أن الكلام تشبيه محض لأن الأفئدة ليست بهواء حقيقة .

ويحتمل أن يكون التشبيه في فراغها من الرجاء والطمع في الرحمة .

وأن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في الصدور وإنها تجىء وتذهب وتبلغ الحناجر .

وهذا في معنى ما روي آنفاً عن ابن جبير .

وذكر في إرشاد العقل السليم ما هو ظاهر في أن الكلام على التشبيه أيضاً حيث قال بعد تفسير ذلك بما ذكرنا أولاً : كأنها نفس الهواء الخالي عن كل شاغل هذا ؛ ثم إنهم اختلفوا في وقت حدوث تلك الأحوال فقيل عند المحاسبة بدليل ذكرها عقيب قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ [ إبراهيم : 41 ] وقيل : عند إجابة الداعي والقيام من القبور .

وقيل عند ذهاب السعداء إلى الجنة والأشقياء إلى النار فتذكر ولا تغفل . انتهى . ا . هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

عطف على الجمل السابقة ، وله اتصال بجملة ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ [ سورة إبراهيم : 30 ] الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأن لا يغتروا بسلامتهم وأمنهم تنبيهاً لهم على أن ذلك متاع قليل زائل ، فأكد ذلك الوعيد بهذه الآية ، مع إدماج تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام على ما يتطاولون به من النعمة والدعة ، كما دل عليه التفريع في قوله ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ [ سورة إبراهيم : 47 ] .

وفي معنى الآية قوله : ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ﴾ [ سورة المزمل : 11 ] .

وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل .

وصيغة لا تحسبن ﴾ ظاهرها نهي عن حسبان ذلك .

وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه في المقام الذي من شأنه أن يثير للناس ظَنّ وقوع المنهي عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك .

وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم ، أي تحقق أن الله ليس بغافل ، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة ، فهو كناية بمرتبتين ، ذلك لأن

النهي عن الشيء يأذن بأن المنهي عنه بحيث يتلبس به المخاطب ، فنهيه عنه تحذير من التلبس به بقطع النظر عن تقدير تلبس المخاطب بذلك الحسبان .

وعلى هذا الاستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكل من يصح أن يخاطب فيدخل فيه النبي عليه الصلاة والسلام أم جعلناه للنبي ابتداء ويدخل فيه أمته .

ونفي الغفلة عن الله ليس جارياً على صريح معناه لأن ذلك لا يظنه مؤمن بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين .

ومنه جاء معنى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم

والغفلة : الذهول ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ في سورة الأنعام ( 156 ) .



---

والمراد بالظلم هنا الشرك ، لأنه ظلم للنفس بإيقاعها في سبب العذاب المؤلم ، وظلم لله بالاعتداء على ما يجب له من الاعتراف بالوحدانية .

ويشمل ذلك ما كان من الظلم دون الشرك مثل ظلم الناس بالاعتداء عليهم أو حرمانهم حقوقهم فإن الله غير غافل عن ذلك .

ولذلك قال سفيان بن عُيَيْنة هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم .

وقوله : ﴿ فيه الأبصار ﴾ مبنية لجملة ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ﴾ الخ .

وشخوص البصر : ارتفاعه كنظر المبهوت الخائف .

وأل في ﴿ الأبصار ﴾ للعموم ، أي تشخص فيه أبصار الناس من هول ما يرون .

ومن جملة ذلك مشاهدة هول أحوال الظالمين .

والإهطاع : إسراع المشي مع مد العنق كالمتختل ، وهي هيئة الخائف .

وإقناع الرأس : طأطأته من الذل ، وهو مشتق من قَنَع من باب مَنَع إذا تذلّل .

و ﴿ مهطعين مقنعي رؤوسهم ﴾ حالان .

وجملة ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ في موضع الحال أيضاً .

والطَّرْف : تحرك جفن العين .

ومعنى ﴿ لا يرتد إليهم ﴾ لا يرْجع إليهم ، أي لا يعود إلى معتاده ، أي لا يستطيعون تحويله .

فهو كناية عن هول ما شاهدوه بحيث يبقون ناظرين إليه لا تطرف أعينهم .

وقوله : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ تشبيه بليغ ، إذ هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدة الهول .

والهواء في كلام العرب : الخلاء .

وليس هو المعنى المصطلح عليه في علم الطب وعلم الهيئة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(272/420)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف وأوضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ الأنبياء : 97 ] الآية. ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ الآية.

الإهطاع في اللغة : الإسراع، وقد بين تعالى في مواضع أخر أنهم يوم القيامة يأتون مهطعين أي مسرعين إذا دعوا للحساب كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ﴾ [ القمر : 7- 8 ] الآية. وقوله ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [ المعارج : 43 ] وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ

سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ ق : 44 ] إلى غير ذلك من الآيات .

ومن إطلاق الإهطاع في اللغة بمعنى الإسراع قول الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . . بدجلة مهطعين إلى السماع

أي مسرعين إليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

*(273/420)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النِّعم العامة على الكون ، والنعم الخاصة التي أنعم بها سبحانه على مَنْ توطَّنوا مكة ، ومن نسلهم مَنْ وقف ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف العَنَت ، بعد ذلك جاء الحق سبحانه بهذه الآية تعزيةً وتسرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ولاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون . . ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

وأرضية التصوير التي سبقتْها تشتمل بداية التكوين لهذا المكان الذي وُجدوا به ، وكيفية مَجِيء النعم إلى مَنْ توطنوا هذا المكان ؛ حيث تجيء إليهم الثمرات ، ونعمة المَهابة لهم

حيث يعصف سبحانه بمَنْ يُعاديهم كأبرهة ومَنْ معه . ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [ الفيل : 5 ] .

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [ قريش : 1-4 ] .

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف الإنكار والتعنُّت والتصدِّي والجُحُود ، وحاولوا الاستعانة بكل خُصوم الإسلام ؛ ليحاربوا هذا الدين ؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريةً عن الرسول الكريم .

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون . . . ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

لماذا ؟ وتأتي الإجابة في النصف الثاني من الآية :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

وقوله الحق :

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ . . . ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

أي : لا تظننّ ؛ فَحَسِب هنا ليست من الحساب والعدّ ، ولكنها من " حسب " " يحسب " ؛ وقوله الحق الذي يوضح هذه المسألة : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [ العنكبوت : 2 ] .

أي : أَظَنَّ الناس . فحسِب يحسَب ليستْ - إذن - من العَدِّ ؛ ولكن من الظنِّ .

والحُسْبان نسبة كلامية غير مَجْزوم بها ؛ ولكنها راجحة .

والغفلة التي ينفيها سبحانه عنه ؛ هي السَّهْو عن أمر لعدم اليقظة أو الانتباه ، وطبعاً وبداهةً فهذا أَمْرٌ لا يكون منه سبحانه ، فهو القيُّوم الذي لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً ؛ فحين يخاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يخاطب في نفس الوقت كلَّ مَنْ آمن به .

ولكن ، أكانَ الرسول يظنُّ الله غافلاً ؟

لا ، ولنلحظْ أن الله حين يُوجِّه بشيء فقد يحمل التوجيه أمراً يُنفِّذه الإنسانُ فعلاً ؛ ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمَثَلُ : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر " لا تشرب الخمر " وهو لا يشرب الخمر ؛ فأنت تطالبه بقولك هذا أنْ يستمرَّ في عدم شُرْب الخمر ، أي : استمِرَ على ما أنت عليه ، فعلاً في الأَمْر ، أو امتناعاً في النهي .

وهل يمكن أن تأتي الغفلة لله ؟

وأقول : حين ترى صفةً توجد في البشر ؛ ولا توجد في الحق سبحانه فعليك أنْ تُفسِّر الأمر بالكمالات التي لله .

والذي يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رَأَوْا فِعْل الظُّلم فهم يتهامسون : تُرَى هل تَمَّ نسيان الظلم الذي ارتكبه فلان ؟ هل هناك غفلة في الأمر ؟ وهم في تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب الذنب ؛ وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

﴿ غَافِلاً ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

في هذه الآية بمعنى " مُؤجِّل العقوبة " .

(275/420)

---

ولمن يتساءلون عليهم أنْ يتذكَّروا قول الحق سبحانه : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [ الأعراف : 183 ] .

وعلى ذلك فليست هناك غفلة ؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين ؛ ذلك أن الظلم يعني أَخْذ حقٍّ من صاحبه وإعطاءه للغير ؛ أو أَخْذه للنفس .

وإذا كان الظلم في أمر عقديّ فهو الشرك ؛ وهو الجريمة العظمى ، وإنْ ظلمتَ في أمر كبيرة

من الكبائر فهذا هو الفِسْق ، وإنْ ظلمتَ في صغيرة فهو الظلم .

ولذلك نجد الحق – سبحانه وتعالى – يُورد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف ؛ فيقول عن الذي تغاضى عن تجريم الشرك : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الكافرون ﴾ [ المائدة : 44 ] .

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الفاسقون ﴾ [ المائدة : 47 ] .

ويقول عمَّنْ يتغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أنزَلَ اللهُ فأولئك هُمُ الظالمون ﴾ [ المائدة : 45 ] .

وإذا وُجِد محكوم عليه ، وهو واحد – بأحكام متعددة فالحكم مُتوقِّف على ما حكم به .

وحين ننظر في مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضي مظلوماً ، فإنْ كان الظُّلْم – والعياذ بالله – هو ظُلم القمة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم – عند العلماء – إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله وألوهيته دون أن ينسبها لأحد آخر ؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلْم في واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثاني : هو الاعتراف بألوهية الله وإشراك آخرين معه في الألوهية ، وهذا الشرك ظُلْم للحق في ذاتية وواحدية تفرُّده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوَّن من أجزاء ؛ وهذا ظُلْم لله في أحدية ذاته .

ويقول بعض العارفين : أن أول حقٍّ في الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذي قال :

وأوَّل حَقٍّ في الوُجُودِ وُجُوده . . . وكُلُّ حُقوقِ الكوْنِ منه استمدَّت



---

فَلا هُو جَمْعٌ كمَا قال مُشْرِكٌ . . . ولا هُوَ في الأَجْزاءِ يَا حُسْن مِلَّتي

والظلم الذي ورد في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، و ظلم القمة ؛ ظُلْم في العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول صلى الله عليه وسلم . ويُلخِّص الشاعر ظُلْمهم للرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

لَقَّبتُمُوه أَمِيناً في صِغَرٍ . . . ومَا الأمينُ على قَوْلٍ بمُتَّهمِ

وهم قد سَمَّوا الرسول من قبل الرسالة بالأمين ؛ وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصِفُونه قبل الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصِّدق والنطق بالحق ؛ والتحدث عن رجاحة قدرته في الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة ؛ وتنزعونها منه من بعد الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سلْب الكمال ، فقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم كما قبل أن يُرسل ؛ فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال ؛ وهو ظُلْم مُزْدَوج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة ؛ ولكن من بعد الرسالة أنكرتُم أمانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة ؛ وقلتم إنه غَيْر صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْص قبل الرسالة ؛ فجئتم أنتم له بصفة نقص ؛ كقولكم : ساحر ؛ كاهن ؛ مجنون ، وفي هذا ظُلْم للرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أيضاً ظُلْم للمجتمع الذي تعيشون فيه ، لأن مَنْ يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمرَّ في السيادة والاستغلال والتحكُّم في الغير ؛ فكُلّ ذلك ظُلْم للمجتمع ؛ وفوق ذلك ظُلْم للنفس ؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ؛ ويحرم نفسه من متعة كبيرة ؛ هي متعة الحياة في ظِلِّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [ النحل : 118 ] .

وفوق ظُلْم النفس وظُلْم المجتمع هناك ظُلْم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلِّه فيما دون الإنسان ؛ من جماد وحيوان ونبات ؛ ذلك أن الإنسانَ حين لا يكون على منهج خالقه ؛ والكون كله مُسخَّر لمنهج الخالق ؛ فلن يرعى الإنسانُ ذلك في تعامله مع الكون ، وسبحانه القائل : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . ﴾ [ الإسراء : 44 ] .

حين يُسبِّح كل ما في الكون يشذّ عن ذلك إنسانٌ لا يتبع منهج الله ؛ فالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنسان نفسه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عرفنا ظُلْم القمة في إنكار الألوهية ؛ أو الشرك به سبحانه ، أو توهُّم أنه من أجزاء ، وظُلْم نزع الكمال عن الرسول ؛ وهو الواسطة التي جاءت بخبر الإيمان ؛ وظُلْم الكون كله ؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسبّح لله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون . . ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

نجد فيه كلمة " يعمل " . ونعلم أن هناك فَرْقاً بين " عمل " و " فعل " ، والفعل هو أحداث كل الجوارح ، ما عدا اللسان الذي يقال عن حدثه " القول " .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً بمفرده ، ذلك أن الذي يكب الناس على مناخرهم في النار إنما هو حصائد ألسنتهم ، والفعل والقول يجمعهما كلمة " عمل " .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه " يعمل " ، ذلك أن المشركين الذين استقبلوا القرآن كانوا يُرْجِفون بالإسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم بالكلام ؛ وكل الأفعال التي قاموا بها نشأتْ عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتي هذه الآية الكريمة التي يُؤكّد فيها سبحانه أنه يُمكّن لهم الذنوب ليُمكِّن لهم العقوبة أيضاً ؛ ويأتي قوله :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .



---

ونعلم أنه قد حدثتْ لهم بعضٌ من الظواهر التي تؤكد قُرْب انتصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فَقُتِل صناديدهم وبعض من سادتهم في بدر ؛ وأُسِر كبراؤهم ، وهكذا شاء سبحانه أنْ يأتيَ بالوعد أو الوعيد ؛ جاء بالأمر الذي يدخل فيه كُلُّ السامعين ، وهو عذابُ الآخرة ؛ إنْ ظَلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

يعني : تفتح بصورة لا يتقلَّب بها يَمْنة أو يَسْرة من هَوْل ما يرى ؛ وقد يكون عدم تقلُّب البصر من فَرْط جمال ما يرى ، والذي يُفرِق بينهما سِيَال خاص بخَلْق الله فقط ؛ وهو سبحانه

الذي يخلقه .

فحين ترى إنساناً مذعوراً من فَرْط الخوف ؛ فسِحْنته تتشكَّل بشكل هذا الخوف ، أما مَنْ نظر إلى شيء جميل وشَخصتْ عيناه له ، يصبح لملامحه انسجامُ ارتواء النظر إلى الجمال ؛ ولذلك يقول الشاعر :

جَمَالُ الذي أهْواهُ قَيَّد نَاظِرِيّ . . . فَلْيتَ لِشَيءٍ غيرِهِ يتحوَّلِ

ويمكننا أن نفرق بين الخائف وبين المستمتع بملامح الوجه المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصر ابن للمرائي ؛ فساعة تتعدّد المرائي ؛ فالبصر يتنقّل بينها ؛ ولذلك فالشخص المُبصر مُشتَّت المرائي دائماً ؛ ويتنقل ذِهْنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعمة حَجْز أبصارهم - المكفوفين - فلا تشغله المرائي ؛ ولذلك نجدهم أحرصَ الناس على العِلْم ؛ فأذهانهم غير مشغولة بأيِّ شيء آخر ، وبُؤْرة شعور كل منهم تستقبل عن طريق الأذن ما يثبت فيها .

ولذلك يقال عنهم " صناديق العلم " إنْ أرادوا أنْ يعلموا ؛ فلا أحدَ من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ؛ مثَلة مِثْل الصندوق الذي لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم في العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله ؛ فأنت لا تقول لنفسك " أغضب " أو " أضحك " ؛ لأنه هو سبحانه الذي يملك ذلك ، وهو القائل : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ [ النجم : 43 ] .

والضحك والبكاء مسائل قَسْرية لا دخل لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر من القرآن : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار . . . ﴾ [ الأحزاب : 10 ] .

فمرّة تشخص الأبصار ، ويستولي الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المُرْعِب ، ومرَّة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن مَنْفذ أو مَهْرب فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ . . . ﴾ .

والمُهْطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأن رقبته قد طالتْ ، لأن المُهْطع هو مَنْ فيه طُول ، وكأن الجزاء بالعذاب يجذب المَجْزيّ ليقربه ، فيُدفَع في شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [ الطور : 13 ] .

وكأن هناك مَنْ يدفعهم دَفْعاً إلى مصيرهم المُؤْلم . وهم :

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ . . . ﴾ [ إبراهيم : 43 ] .

أي : رافعين رءوسهم من فَرْط الدهشة لِهوْل العذاب الذي ينتظرهم .

وفي موقع آخر يُصوِّرهم الحق سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ [يس: 8].

وهكذا تكون صورتهم مُفْزعة من فَرْط المهانة؛ فبصَرُ الواحد منهم شَاخِص إلى العذاب مُنجذب إليه بسرعة لا يتحكَّم فيها؛ ورأسه مرفوعة من فَرْط الهَوْل؛ ومُقْمَح بالأغلال.

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه، وكأنها مفتوحةٌ رَغْماً عنه؛ وفؤاده هواء بمعنى: أنْ لا شيءَ قادرٌ على أن يدخله.

ونحن نلحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة في قلب الماء؛ فتخرج فقاقيع الهواء مقابلَ دخولِ الماء من فُوهتها.

ونعلم أن قلْب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان؛ أما الكافر المُلْحد فهو في مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين؛ فلا يجد فيها شيئاً يُطمِئن، وهكذا يكتشف أن فؤاده خَالٍ فارغ؛ لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب.



---

ونجد بعضاً مِمَّنْ شاهدوا لحظات احتضار غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن "كان مُشرِق الوجه متلألئ الملامح". أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر؛ فهم يحكُونَ عن

بشاعة ملامحه في تلك اللحظة .

والسبب في هذا أن الأنسان في مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله ؛ فمَنْ قضي حياته وهو يُرضِى الله ؛ لا بُدّ أن يشعر بالراحة ، ومَنْ قضى حياته وهو كافر مُلْحد فلا بُدّ أن يشعرَ بالمصير المُرْعب الذي ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [ القيامة : 22-25 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(281/420)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي ﴾ من حب إسماعيل وأمه ﴿ وما نعلن ﴾ قال : وما نظهر من الجفاء لهما .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق ﴾ قال: هذا بعد ذاك بحين.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: بشر إبراهيم بعد سبع عشرة ومائة سنة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ﴾ قال: فلن يزال من ذرية إبراهيم عليه السلام ناس على الفطرة يعبدون الله تعالى حتى تقوم الساعة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه قال: ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق، عن ميمون بن مهران رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ قال: هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم.



---

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له ولد، فكان يخرج. . . فإذا رأى غلاماً من غلمان بني

إسرائيل عليه حلى ، يخدعه حتى يدخله فيقتله ويلقيه في مطمورة له . فبينما هو كذلك ، إذ لقي غلامين أخوين عليهما حلى لهما فأدخلهما فقتلهما وطرحهما في مطمورة له ، وكانت له امرأة مسلمة تنهاه عن ذلك فتقول له : إني أحذرك النقمة من الله تعالى . وكان يقول : لو أن الله آخذني على شيء آخذني يوم فعلت كذا وكذا . فتقول إن صاعك لم يمتلئ بعد ، ولو قد امتلأ صاعك أُخِذْت . فلما قتل الغلامين الأخوين ، خرج أبوهما يطلبهما فلم يجد أحداً يخبره عنهما ، فأتى نبياً من أنبياء بني إسرائيل فذكر ذلك له ، فقال له النبي عليه السلام : هل كانت لهما لعبة يلعبان بها ؟ قال : نعم . . . كان لهما جروٌ ، فأتى بالجرو فوضع النبي عليه السلام خاتمه بين عينيه ، ثم خلى سبيله وقال له : أول دار يدخلها من بني إسرائيل فيها تبيان ، فأقبل الجرو يتخلل الدور به حتى دخل داراً ، فدخلوا خلفه فوجدوا الغلامين مقتولين مع غلام قد قتله وطرحهم في المطمورة ، فانطلقوا به إلى النبي عليه السلام فأمر به أن يصلب . فلما وضع على خشبته أتته امرأته فقالت : يا فلان ، قد كنت أحذرك هذا اليوم وأخبرك أن الله تعالى غير تاركك ، وأنت تقول : لو أن الله آخذني على شيء آخذني يوم فعلت كذا وكذا ، فأخبرتك أن صاعك بعد لم يمتلئ .

. . ألا وإن صاعك هذا . . . ألا وأن امتلأ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في

قوله ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ قال : شخصت فيه والله أبصارهم ، فلا ترتد إليهم .

(283/420)

---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ مهطعين ﴾ قال : يعني بالاهطاع النظر من غير أن تطرف ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ قال : الاقناع رفع رؤوسهم ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ قال : شاخصة أبصارهم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ ليس فيها شيء من الخير فهي كالخربة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ مهطعين ﴾ قال : مديمي النظر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ مُهْطِعِين ﴾ قال : مسرعين .

وأخرج ابن الأنباري في الوقف ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ مُهْطِعِين ﴾ ما المهطع ؟ قال : الناظر . قال فيه الشاعر :

إذا دعانا فأهطعنا لدعوته . . . داع سميع فلفونا وساقونا

قال : فأخبرني عن قوله ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ ما المقنع ؟ قال : الرافع رأسه . قال فيه

كعب بن زهير :

هجان وحمر مقنعات رؤوسها . . . وأصفر مشمول من الزهر فاقع

وأخرج ابن الأنباري عن تميم بن حذام رضي الله عنه في قوله ﴿ مهطعين ﴾ قال : هو التجميح ، والعرب تقول للرجل إذا قبض ما بين عينيه : لقد جمح .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ قال : رافعي رؤوسهم ، يجيئون وهم ينظرون ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ تمور في أجوافهم إلى حلوقهم ، ليس لها مكان تستقر فيه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ قال : ليس فيها شيء ، خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مرة رضي الله عنه ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ قال : متخرقة لا تعي شيئاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي صالح رضي الله عنه قال : يحشر الناس هكذا ، ووضع رأسه وأمسك بيمينه على شماله عند صدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 ص ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَوْمٍ ﴾ : أي : لأَجْلِ يومٍ ، فاللامُ للعلَّة وقيل : بمعنى إلى ، أي : للغاية . وقرأ العامَّة "يُؤَخِّرُهم" بالياء لتقدُّم اسمِ اللهِ الكريم . وقرأ الحسن والسلميُّ والأعرج وخلائق -وتُروى عن أبي عمرو- "نُؤَخِّرُهم" بنون العظمة . و "تَشْخَصُ" صفةٌ ل "يوم"

ومعنى شُخُوصِ البصر حِدَّةُ النظرِ وعَدَمُ استقرارِه في مكانِه ، ويقال : شَخَص سَهْمُهُ وبَصَرُه وأشخصَهما صاحبُهما ، وشَخَصَ بصرُه : لم يَطْرِفْ جَفْنُه ، ويقال : شَخَص/مِنْ بلدِه ، أي : بَعُدَ ، والشَّخْص : سوادُ الإِنسانِ المَرْئِيّ من بعيد .

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ : حالان من المضافِ المحذوفِ؛ إذ التقديرُ : أصحاب الأبصار ، إذ يُقال : شَخَصَ زيدٌ بصرَه ، أو تكون الأبصارُ دلَّتْ على أربابِها فجاءت الحالُ مِن المدلولِ عليه ، قالهما أبو البقاء . وقيل : "مُهْطِعين" منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ ، اي : يُبْصِرُهم مُهْطِعين . ويجوز في "مُقْنِعي" أن يكونَ حالاً من الضميرِ في "مُهْطِعين"

فتكون حالاً متداخلة . وإضافة " مُقْنعي " غيرُ حقيقيةٍ فلذلك وَقَعَتْ حالاً .

والإهطاع : قيل : الإسراعُ في المشي قال :

2903- إذا دعانا فأَهْطَعْنا لدَعْوَته . . . داعٍ سميعٌ فَلَفُّونا وساقُوْنا

وقال :

2904- وبمُهْطِعٍ سُرُحٍ كأن عِنَانَه . . . في [ رأس ] جَذْعٍ . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . .

(285/420)

---

وقال أبو عبيدة : " قد يكون الإسراعَ وإدامةَ النظر " . وقال الراغب : " هَطَعَ الرجلُ ببصره إذا صَوَّبَه ، وبعيرٌ مُهْطِعٌ إذا صَوَّب عُنُقَه " . وقال الأخفش : " هو الإقبالُ على الإصغاء " وأنشد :

2905- بدِجْلَةَ دارُهُمْ ولقد أراهُمْ . . . بدِجْلَةَ مُهْطِعِيْنَ إلى السَّماعِ

والمعنى : مُقْبِلِيْن برؤوسهم إلى سَماع الدَّاعي . وقال ثعلب : " أَهْطِع الرجلُ إذا نظر بذُلٍّ وخُشُوعٍ ، لا يُقْلِعُ ببصره " ، وهذا موافِقٌ لقول أبي عبيدٍ فقد سُمِعَ فيه : أَهْطَعَ وهَطَعَ رباعياً وثلاثياً .

والإِقناع : رَفْعُ الرأسِ وإدامةُ النظر من غيرِ التفاتٍ إلى غيرِه ، قاله القتبيُّ وابنُ عرفة ، ومنه قولُه يَصِفُ إبلاً ترعى أعالي الشجر فترفع رؤوسها :

2906- يُباكِرْنَ العِضَاهَ بمُقْنَعاتٍ . . . نواجذُهُنَّ كالحَدَأ الوَقيع

ويقال : أَقْنَعَ رأسَه ، أي : طأطَأَها ونكَّسها فهو من الأضداد ، والقَناعَةُ : الاجتِزاءُ باليسير ، ومعنى قَنِع بكذا : ارتفع رأسُه عن السؤال ، وفَمٌ مُقَنَّع : مَعْطُوفُ الأسنان داخله ورجل مُقَنَّعٌ بالتشديد . ويقال : قَنِع يَقْنَعُ قَناعةً وقَنَعاً إذا رَضِيَ ، وقَنَعَ قُنُوعاً إذا سَأَل ، فوقع الفرقُ بالمصدر .

وقال الراغب : " قال بعضهم : " أصلُ هذه الكلمةِ مِن القِناع ، وهو ما يُغطِّي الرأسَ ، والقانِعُ مَنْ [ لا ] يُلِحُّ في السؤال فيَرْضَى بما يأتيه كقوله :

2907- لَمالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فيُغْني . . . مَفاقِرَه أعفُّ مِنَ القُنُوعِ

ورجل مَقْنَعٌ يُقْنَعُ به . قال :

2908- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . شُهُودِيْ

على لَيْلَى عُدُولٌ مَقانِعُ

والرُّؤوس : جمع رَأْس وهو مؤنث ، ويُجْمَع في القلة على أَرْؤُس ، وفي الكثرة على رُؤوس ، والأَرْأَسُ : العظيم الرأسِ ، ويُعَبَّر بها عن الرجل العظيم كالوجهِ ، والرئيس مشتق مِنْ ذلك ، ورِئاسُ السيفِ مَقْبَضُهُ ، وشاةٌ رَأْساء اسْوَدَّت رأسُها .

قوله : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ ﴾ في محلِّ نصب على الحال أيضاً من الضمير في " مُقْنِعي " . ويجوز أن يكونَ بدلاً من " مُقْنِعي " كذا قال أبو البقاء ، يعني أنه يَحُلُّ مَحَلَّه . ويجوز أن يكونَ استئنافاً .

والطَّرْفُ في الأصل مصدرٌ ، وأُطْلِقَ على الفاعلِ لقولِهم : " ما فيهم عَيْنٌ تَطْرِفُ " ، [ ولعلَّه ] هنا العينُ . قال :

2909- وأَغُضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارَتي . . . حتى يُواري جارَتي مَأْواها

والطَّرْفُ : الجَفْنُ أيضاً ، يقال : ما طَبَّق طَرْفَه -أي : جَفْنَه- على الآخر ، والطَّرْفُ أيضاً تحريكُ الجَفْن .

قوله : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ يجوز أن يكونَ استئنافاً ، وأن يكون حالاً ، والعاملُ فيه : إمَّا " يَرْتَدُّ " ، وإمَّا ما قبله من العوامل . وأفرد " هواء " وإن كان خبراً عن جمعٍ لأنه في معنى : فارغة متخرِّقة ، ولو لم يقصِدْ ذلك لقال : " أَهْوِيَة " ليُطابقَ الخبرُ مبتدأه .

والهواءُ : الخالي من الأجسام ، ويُعَبَّر به عن الجبن ، يقال : جَوْفُه هواءٌ ، أي : فارغ ، قال زهير :

2910- كأن ارَّحْلَ منها فوق صَعْلٍ . . . من الظَّلْمَانِ جُؤْجُؤه هَواءُ

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

2911- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . وأنت

مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ

النَّخِب : الذي أَخَذْتَ نُخْبَته ، أي : خِيارَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 123.118 ﴾

(287/420)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى طرف )

الطَرْف : العَين ، ولا يجمع لأَنَّه فى الأَصل مصدر ، فيكون واحدا ويكون جماعة .

قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ .

(وقال بان عبّاد : الطرْف : اسم جامع للبصر لا يثنىّ ولا يجمع ، وقيل : أَطراف ، ويردّ ذلك على قوله تعالى : ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ ، ولم يقل : الأَطراف .

وروى القُتَيبىّ فى حديث أُمِّ سَلَمَة رضى الله عنها : "وغضّ الأَطراف" ، ورُدّ عليه ذلك .

والصّواب : غضّ الإِطراق ، أَى يغضُضن من أَبصارهنّ مطرقات راميات بأَبصارهنّ إِلى الأَرض .

وإِن صحّت الرّواية بالفاءِ فالمعنى تسكين الأَطراف – وهى الأَعضاءُ – عن الحركة والسير .

وقوله تعالى : ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ، أَى لا يزال إِليك طرفهم وقوله تعالى : ﴿أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ .

قال الفرّاءُ معناه قبل أَن يأتيك الشىء زمن مدّ بصرك ، وقيل : بمقدار ما تفتح عينك ثم تطرِف ، وقيل : بمقدار / ما يبلغ البالغ إِلى نهاية نظرك .

وطَرَف الشىء : جانبه ، ويستعمل فى الأَجسام والأَوقات وغيرها .

وقيل : الطَرَف : الناحية من النّواحى ، والطائفة من الشىء .

قال تعالى : ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ، أَى قطعة من جملة الكَفَرة ، شبّه من قتل منهم بطرَف يُقطع من بدن الإِنسان .

وتخصيص الطرَف من حيث إِنّ ينقص طرَف الشىء يتوصّل إِلى توهينه وإِزالته .

وأَطراف الجسد : الرّأس واليدان والرِجْلان .

وقوله تعالى : ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ ، أَى الفجر والعصر .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ ، أَى نواحيها ناحيةً ناحية ؛ هذا على تفسير مَن جعل نقصها من أطرافها فُتُوح الأَرضِين ، ومن جعل نقصها موت علمائها فهو من غير هذا .

وأَطراف الأَرض : أَشرافها وعلماؤها ، الواحد طَرَف ، ويقال : طِرْف .

(288/420)

---

وقال ابن عرفة : (مِنْ أَطْرَافها ) ، أَى يُفتح ما حول مكة على النبىّ صلَّى الله عليه وسلم ، والمعنى : أَوَلم يروا أَنا فتحنا على المسلمين من الأَرض ما قد تبيّن لهم وضوح ما وعدْنا النبىّ صلَّى الله عليه وسلم .

وفلان كريم الطَّرفين ، يراد بذلك نسب أَبيه ونسب أُمّه ، وأَطرافه : أَبواه وإِخوته وأَعمامه ، وكلّ قريب له مَحْرَم .

وقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ ، أَى السّاعة الثانية من أَوّل النّهار ومن آخِره .

وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ ، أَى الغداة والعَشِىّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 501 . 503 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (43) ﴾

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

هذا وعيدٌ للظالمين وتسلية للمظومين ؛ فالمظلوم إذا تحقَّق بأنه - سبحانه - عالِمٌ بما يلاقيه من البلاء هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه تحمله .

والظلم على وجوه ؛ ظلمٌ على النَّفْس بوضع الزَّلَّةِ مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الردية منه ، وظلم على الروح بجعلها لمحبة المخلوقين .

ويقال من جملة الظالمين الشيطانُ ، فالعبدُ المؤمنُ مظلومٌ من جهته ، والحقّ - سبحانه - ينتصف له منه غداً ، وذلك إنْ لم يَتَّبِعْهُ اليومَ ، وَدَفَعَه عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى . . . ﴾ .

وهذا للعوام من المؤمنين ، علَّق قلوبهم بالانتقام منهم في المستأنف ، وأمّا الخواص فإذ علموا

أنه – سبحانه – عالِمٌ بهم وبحالهم فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأَمَّا خواص الخواص فإذ علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن ظُلْمِهم حتى يستغفرَ لهم ، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " ، وفي معناه أنشدوا :

وما رضوا بالعفو عن ذي زلة . . . حتى أنالوا كفَّه وازدادوا

وأمَّا أصحاب التوحيد فإذا عَلِمُوا أنه المنشئُ ، وألا مخترعَ سواه فليس بينهم وبين أحدٍ محاسبة ، ولا مَعَ أحدٍ مُعَاتَبَة ، ولا منه مطالبة ، لأنهم يَعُدُّون إثباتَ الغيرِ في الظن والحسبان شِرْكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 258 . 259 ﴾

(290/420)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/421)

---

الجزء الحادى والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 44 ﴾ من سورة إبراهيم عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 52 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/421)

---

قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ

فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) ﴾

" فصل "

قال البقاعى

﴿ وأنذر ﴾ أي يا محمد ﴿ الناس ﴾ جميعاً ، ما يحل بهم ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ وينكشف عنهم الغطاء بالموت أو البعث .

ولما كانوا عند إتيان العذاب قبل الموت لا ينكسرون بالكلية ، بين أنهم إذ ذاك على غير هذا ، فقال عاطفاً على " يأتيهم " : ﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف ولو على أدنى الوجوه منهم ومن غيرهم بسبب إتيانه من غير تمهل ، وقد زال عنهم ما يفتخرون به من الأنفة والحمية والشماخة والكبر لما رأوا من الأهوال التي لا قبل لهم بها ولا صبر عليها : ﴿ ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا بالخلق والرزق والتربية ﴿ أخرنا ﴾ أي أمهلنا ﴿ إلى أجل قريب ﴾ فإنك إن تؤخرنا إليه ﴿ نجب دعوتك ﴾ أي استدراكاً لما فرطنا فيه ؛ والإجابة : القطع على موافقة الداعي بالإرادة ﴿ ونتبع ﴾ أي بغاية الرغبة ﴿ الرسل ﴾ فيقال لهم : إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، أولم تكونوا تقولون : إن عرى صبركم لا تنحل ، وحد عزائمكم لا يفل ؟ ﴿ أولم تكونوا ﴾ أي كوناً أنتم فيه في غاية المكنة ﴿ أقسمتم ﴾ أي جهلاً وسفهاً أو أشراً وبطراً .

ولما لم يكن وقت إقسامهم مستغرقاً للزمان قال : ﴿ من قبل ﴾ وبين الجواب المقسم عليه بقوله - حاكياً معنى قولهم لا لفظه - ليكون صريحاً في المراد من غير احتمال لتعنت لو قيل : ما لنا ؟ : ﴿ ما لكم ﴾ وأكد النفي فقال : ﴿ من زوال ﴾ عما أنتم عليه من الكفران وعدم الإذعان للإيمان ، أو من هذه الدار إلى الدار الآخرة ، أو من منازلكم التي أنتم بها ، كناية عن ثبات الأمر وعدم المبالاة بالمخالف كائناً من كان ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ سكنتم ﴾ أي في الدنيا ﴿ في مساكن الذين ظلموا ﴾ أي بوضع الأشياء في غير مواضعها كما فعلتم أنتم ﴿ أنفسهم ﴾ فأحلوا قومهم مثلكم دار البور ﴿ وتبين ﴾ أي غاية البيان ﴿ لكم ﴾ بالخبر والمشاهدة .

ولما كان حال أحدهم في غاية العجب ، بنه بالاستفهام على أنه أهل لأن يسأل عنه فقال : ﴿ كيف فعلنا ﴾ أي على عظمتنا ﴿ بهم ﴾ حين انتقمنا منهم فلم تعتبروا بأحوالهم ﴿ وضربنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ لكم الأمثال ﴾ المبينة أن سنة الله جرت - ولن تجد لسنة الله تبديلاً - أن الظالمين كما جمعهم اسم الظلم يجمعهم ميسم الهلاك ، فجمعنا لكم بين طريقي الاعتبار : السمع والبصر ، ثم لم تنتفعوا بشيء منهما ﴿ و ﴾ الحال

أنه بان لكم أنهم حين فعلنا بهم ما فعلنا ﴿ قد مكروا مكرهم ﴾ أي الشديد العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم بحيث لم يبق لهم مكر غيره في تأييد الكفر وإبطال الحق ؛ والمكر : الفتل إلى الضرر على وجه الحيلة ﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ عند الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ مكرهم ﴾ هو وحده به عالم من جميع وجوهه وإن دق ، وعلى إبطاله قادر وإن جل ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ من القوة والضخامة ﴿ لتزول ﴾ أي لأجل أن تزول ﴿ منه الجبال ﴾ والتقدير على قراءة فتح اللام الأولى ورفع الثانية : وإن كان بحيث إنه تزول منه الجبال ، والمعنيان متقاربان ، وقيل : " إن " نافية ، واللام لتأكيد النفي ؛ والجبال : الآيات والشرائع ، بل هي أثبت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 195 . 196 ﴾

*(6/421)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ فيه أبحاث :

البحث الأول : قال صاحب "الكشاف" : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ مفعول ثان لقوله : ﴿ وَأَنذِرِ ﴾ وهو يوم القيامة .

البحث الثاني : الألف واللام في لفظ ﴿ العذاب ﴾ للمعهود السابق ، يعني : وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب الذي تقدم ذكره وهو شخوص أبصارهم ، وكونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم .

البحث الثالث : الإنذار هو التخويف بذكر المضار ، والمفسرون مجمعون على أن قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ هو يوم القيامة ، وحمله أبو مسلم على أنه حال المعاينة ، والظاهر يشهد بخلافه ، لأنه تعالى وصف اليوم بأن عذابهم يأتي فيه وأنهم يسألون الرجعة ، ويقال لهم : ﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ ولا يليق ذلك إلا بيوم القيامة .

(7/421)

---

وحجة أبي مسلم : أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ﴾ [ المنافقون : 10 ] ثم حكى الله سبحانه ما يقول الكفار في ذلك اليوم ، فقال : ﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ واختلفوا في المراد بقوله : ﴿ أَخِّرْنَا إلى

أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ فقال بعضهم : طلبوا الرجعة إلى الدنيا ليتلافوا ما فرطوا فيه ، وقال : بل طلبوا الرجوع إلى حال التكليف بدليل قولهم : نجب دعوتك ونتبع الرسل ، وأما على قول أبي مسلم فتأويل هذه الآية ظاهر فقال تعالى مجيباً لهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ ومعناه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] إلى غير ذلك مما كانوا يذكرونه من إنكار المعاد فقرعهم الله تعالى بهذا القول لأن التقريع بهذا الجنس أقوى ، ومعنى : ما لكم من زوال ، لا شبهة في أنهم كانوا يقولون لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى ، ومن هذه الدار إلى دار المجازاة ، لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت أو عن شباب إلى هرم أو عن فقر إلى غنى ، ثم إنه تعالى زادهم تقريعاً آخر بقوله : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني سكنتم في مساكن الذين كفروا قبلكم ، وهم قوم نوح وعاد وثمود ، وظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية ، لأن من شاهد هذه الأحوال وجب عليه أن يعتبر ، فإذا لم يعتبر كان مستوجباً للذم والتقريع .

ثم قال : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ وظهر لكم أن عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزي والنكال .

فإن قيل: ولماذا قيل: ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ ولم يكن القوم يقرون بأنه تعالى أهلكهم لأجل تكذيبهم؟

قلنا: إنهم علموا أن أولئك المتقدمين كانوا طالبين للدنيا ثم إنهم فنوا وانقرضوا فعند هذا يعلمون أنه لا فائدة في طلب الدنيا، والواجب الجد والاجتهاد في طلب الدين، والواجب على من عرف هذا أن يكون خائفاً وجلاً فيكون ذلك زجراً له هذا إذا قرىء بالتاء أما إذا قرىء بالنون فلا شبهة فيه لأن التقدير كأنه تعالى قال: أولم نبين لكم كيف فعلنا بهم، وليس كل ما بين لهم تبينوه.

أما قوله: ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ فالمراد ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على الإعادة كما قدر على الإبتداء وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل، وذلك في كتاب الله كثير، والله أعلم.

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفة عقابهم أتبعها بذكر كيفية مكرهم فقال: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ إلى ماذا يعود؟ على وجوه: الأول: أن

يكون الضمير عائداً إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول الصحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات .

والثاني : أن يكون المراد به قوم محمد صلى الله عليه وسلم والدليل عليه قوله : ﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾ [ إبراهيم : 45 ] يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] وقوله : ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم .

(9/421)

---

الثالث : أن المراد من هذا المكر ما نقل أن نمروذ حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور ، وكان قد جوعها ورفع فوق الجوانب الأربعة من التابوت عصياً أربعاً وعلق على كل واحدة منهن قطعة لحم ثم إنه جلس مع حاجبه في ذلك التابوت فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الدنيا عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها فنكس تلك العصي التي علق عليها اللحم فسفلت النسور وهبطت إلى الأرض ، فهذا هو المراد من مكرهم .

قال القاضي : وهذا بعيد جداً لأن الخطر فيه عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه وما جاء

فيه خبر صحيح معتمد ولا حجة في تأويل الآية ألبتة.

المسألة الثانية:

قوله: ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فيه وجهان: الأول: أن يكون المكر مضافاً إلى الفاعل كالأول.

والمعنى: ومكتوب عند الله مكرهم فهو يجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه.

والثاني: أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول، والمعنى: وعند الله مكرهم الذي يمكر بهم وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال﴾ فاعلم أنه قرأ الكسائي وحده ﴿لِتَزُولَ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع اللام الأخرى منه، والباقون بكسر الأولى ونصب الثانية.

أما القراءة الأولى: فمعناها أن مكرهم كان معداً لأن تزول منه الجبال، وليس المقصود من هذا الكلام الإخبار عن وقوعه، بل التعظيم والتهويل وهو كقوله: ﴿تَكَادُ السموات يتفطرن الكتاب مِنْهُ﴾ [مريم: 90].

وأما القراءة الثانية: فالمعنى: أن لفظ "إن" في قوله؛ ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ بمعنى "ما" واللام المكسورة بعدها يعني بها الجحد ومن سبيلها نصب الفعل المستقبل.

والنحويون يسمونها لام الجحد ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب ﴾ [آل عمران : 179 ] .

(10/421)

---

﴿ مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤمنين ﴾ [آل عمران : 179 ] والجبال ههنا مثل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ولأمر دين الإسلام وإعلامه ودلالته على معنى أن ثبوتها كثبوت الجبال الراسية لأن الله تعالى وعد نبيه إظهار دينه على كل الأديان .

ويدل على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [إبراهيم : 47 ] أي قد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم .

والمعنى : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، أي وكان مكرهم أوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودلائل شريعته ، وقرأ علي وعمرو : ﴿ إِن كَانَ مَكْرِهِمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 112. 114﴾

(11/421)

وقال الماوردي :

قوله عز وجل : ﴿ وأنذر النّاس يَوْمَ يأتيهم العذاب ﴾

معناه وأنذرهم باليوم الذي يأتيهم فيه العذاب ، يعني يوم القيامة . وإنما خصه بيوم العذاب وإن كان يوم الثواب أيضاً لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي وإن تضمن ترغيباً للمطيع .

﴿ فيقول الذين ظلَموا ربّنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرُّسل ﴾ طلبوا رجوعاً إلى الدنيا حين ظهر لهم الحق في الآخرة ليستدركوا فارط ذنوبهم ، وليست الآخرة دار توبة فتقبل توبتهم ، كما ليست بدار تكليف فيستأنف تكليفهم . فأجابهم الله تعالى عن هذا الطلب فقال :

﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوالٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ، قاله مجاهد .

الثاني : ما لكم من زوال عن العذاب ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه عنى بالمكر الشرك ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه عنى به العتو والتجبّر ، وهي فيمن تجبر في ملكه وصعد مع النسرين في الهواء ،

قاله علي رضي الله عنه . وقال ابن عباس : هو النمرود بن كنعان بن سنحاريب بن حام بن نوح بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً وصعد منه مع النسور ، فلما علم أنه لا سبيل إلى السماء اتخذه حصناً وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصرح عليهم ، فهلكوا جميعاً ، فهذا معنى قوله ﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ .

﴿ وعند الله مكرهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وعند الله مكرهم عالماً به لا يخفى عليه ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : وعند الله مكرهم محفوظاً عليهم حتى يجازيهم عليه ، قاله الحسن وقتادة .

﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ فيه قراءتان .

إحداهما : بكسر اللام الأولى وفتح الثانية ، ومعناها وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، احتقاراً له ، قاله ابن عباس والحسن .

الثانية : بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، ومعناها وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال استعظاماً له . قرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبيّ بن كعب رضي الله عنهم ﴿ وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ .

وفي ﴿ الجبال ﴾ التي عنى زوالها بمكرهم قولان : أحدهما : جبال الأرض .

الثاني : الإسلام والقرآن ، لأنه لثبوته ، ورسوخه كالجبال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(13/421)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وأنذر الناس ﴾ الآية ،

المراد ب ﴿ يوم ﴾ يوم القيامة ونصبه على أنه مفعول ب ﴿ أنذر ﴾ ولا يجوز أن يكون ظرفاً ، لأن القيامة ليست بموطن إنذار ، وقوله : ﴿ فيقول ﴾ رفع عطفاً على قوله : ﴿ يأتيهم ﴾ وقوله : ﴿ ولم تكونوا ﴾ إلى آخر الآية ، معناه : يقال لهم ، فحذف ذلك إيجازاً ، إذ المعنى يدل عليه ، وقوله : ﴿ ما لكم من زوال ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى ، و ﴿ من زوال ﴾ معناه من الأرض بعد الموت . أي لا بعث من القبور ، وهذه الآية ناظرة إلى ما

حكى عنهم في قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [ النحل : 38 ] .

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾

يقول عز وجل : ﴿ وسكنتم ﴾ أيها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم ﴿ في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر من الأمم السالفة ، فنزلت بهم المثلات ، فكان نولكم الاعتبار والاتعاظ .

وقرأ الجمهور " وتبين " بتاء . وقرأ السلمي – فيما حكى المهدوي – " ونُبين " بنون عظمة مضمومة وجزم ، على معنى : أو لم يبين ، عطف على ﴿ أو لم تكونوا ﴾ [ إبراهيم : 44 ] قال أبو عمرو : وقرأ أبو عبد الرحمن : بضم النون ورفع النون الأخيرة .

وقوله : ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ هو على حذف مضاف تقديره : وعند الله عقاب مكرهم أو جزاء مكرهم ، ويحتمل قوله تعالى : ﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ أن يكون خطاباً لمحمد عليه السلام ، والضمير لمعاصريه ، ويحتمل أن يكون مما يقال للظلمة يوم القيامة والضمير للذين سكن في منازلهم .

وقرأ السبعة سوى الكسائي : " وإن كان مكرهم لِتزولَ منه الجبال " بكسر اللام من ﴿ لتزول ﴾ وفتح الأخيرة ، وهي قراءة علي بن أبي طالب وجماعة سكنوا وهذا على أن تكون " إن " نافية بمعنى ما ، ومعنى الآية : تحقير مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها ، هذا تأويل الحسن وجماعة من المفسرين ، وتحتمل عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تعظيم مكرهم ، أي وإن كان شديداً إنما يفعل لتذهب به عظام الأمور .

وقرأ الكسائي : " وإن كان مكرهم لَتزولُ منه الجبال " بفتح اللام الأولى من ﴿ لتزول ﴾ وضم الأخيرة ، وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وابن وثاب ، وهذا على أن تكون " إن " مخففة من الثقيلة ، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته ، أي أنه مما يشقى به ويزيل الجبال عن مستقراتها لقوته ، ولكن الله تعالى أبطله ونصر أولياءه ، وهذا أشد في العبرة .

وقرأ علي بن أبي طالب وابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبي بن كعب " وإن كاد مكرهم " ، ويترتب مع هذه القراءة في ﴿ لتزول ﴾ ما تقدم . وذكر أبو حاتم أن في قراءة أبي بن كعب " ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال " . وحكى الطبري عن بعض المفسرين أنهم جعلوا هذه الآية إشارة إلى ما فعل نمرود إذ علق التابوت من الأنسر ، ورفع لها اللحم في أطراف الرماح بعد ان أجاعها ودخل هو وحاجبه في التابوت ، فعلت بهما الأنسر حتى قال له نمرود : ماذا ترى ؟ قال : أرى بحراً وجزيرة – يريد الدنيا المعمورة – ثم قال : ماذا ترى ؟

قال : أرى غماماً ولا أرى جبلاً ، فكأن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر ، وذكر ذلك عن علي بن أبي طالب . وذلك عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه ، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى ، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف ، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه في مثل هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(15/421)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأنذر الناس ﴾

أي : خوِّفهم ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ يعني به : يوم القيامة ؛ وإِنما خصه بذِكر العذاب ، وإِن كان فيه ثواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعُصاة ، قال ابن عباس : يريد بالناس هاهنا : أهل مكة .

قوله تعالى : ﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ أي : أشركوا ﴿ ربنا أخِّرنا إِلى أجل قريب ﴾ أي : أمهلنا مُدَّة يسيرة .

وقال مقاتل : سألوا الرجوع إِلى الدنيا ، لأن الخروج من الدنيا قريب .

﴿ نُجِبْ دعوتك ﴾ يعني : التوحيد ، فيقال لهم : ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ ﴾ أي

: حلفتم في الدنيا أنكم لا تُبعَثُون ولا تنتقلون من الدنيا إِلى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾

أي : نزلتم في أماكنهم وقراهم ، كالحِجر ومَدين ، والقُرى التي عُذِّب أهلها .

ومعنى "ظلموا أنفسهم" أي : ضرُّوها بالكفر والمعصية .

﴿ وتَبَيَّن لكم ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو المتوكل الناجي "وتُبُيِّن" بضم التاء .

﴿ كيف فعلنا بهم ﴾ يعني : كيف عذَّبناهم ، يقول : فكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن المخالفة اعتباراً بمساكنهم بعدما علمتم فِعلنا بهم ، ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ قال ابن عباس : يريد الأمثال التي في القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾

في المشار إِليهم أربعة أقوال :

أحدها : أنه نمرود الذي حاجَّ إِبراهيم في ربه ، قال : لا أنتهي حتى أنظر إِلى السماء ، فأمر بفرخي نسر فرُبِّيا حتى سمنا واستعلجا ، ثم أمر بتابوت فنُحت ، ثم جعل في وسطه خشبة ، وجعل على رأس الخشبة لحماً شديد الحُمرة ، ثم جوَّعهما وربط أرجلهما بأوتار إِلى قوائم التابوت .

ودخل هو وصاحب له في التابوت وأغلق بابه ، ثم أرسلهما ، فجعلا يريدان اللحم ، فصَعِدا في السماء ما شاء الله ، ثم قال لصاحبه : افتح وانظر ماذا ترى ؟ ففتح ، فقال : أرى الأرض كأنها الدخان ، فقال له : أغلِق ، ثم صَعِد ما شاء الله ، ثم قال : افتح فانظر ، ففتح ، فقال : ما أرى إلا السماء ، وما نزداد منها إلا بُعداً ، قال : فصوِّب خشبتك ، فصوَّبَها ، فانقضَّت النسور تريد اللحم ، فسمعت الجبال هدَّتها ، فكادت تزول عن مراتبها .

هذا قول علي ابن أبي طالب .

وفي رواية عنه : كانت النسور أربعة .

وروى السُّدِّي عن أشياخه : أنه مازال يصعد إلى أن رأى الأرض يحيط بها بحر ، فكأنها فَلْكة في ماءٍ ، ثم صَعِدَ حتى وقع في ظُلمة ، فلم ير ما فوقه ولم ير ما تحته ، ففزع ، فصوب اللحم ، فانقضَّت النسور ، فلما نزل أخذ في بناء الصرح .

وروي عن ابن عباس أنه بنى الصرح ، ثم صَعِدَ منه مع النسور ، فلما لم يقدر على السماء ، اتخذه حِصناً ، فأتى الله بنيانَه من القواعد ، وقال عكرمة : كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنُّشَّاب ، فرمى بسهم فعاد إليه ملطَّخاً بالدم ، فقال : كُفيتَ إله السماء ، وذلك من دم سمكة في بحر معلَّق في الهواء ، فلما هاله الارتفاع ، قال لصاحبه : صوِّب

الخشبة ، فصوّبَها ، فانحطت النسور ، فظنت الجبال أنه أمرٌ نزل من السماء فزالت عن مواضعها .

وقال غيره : لما رأت الجبال ذلك ، ظنت أنه قيام الساعة ، فكادت تزول ، وإِلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وأبو مالك .

والقول الثاني : أنه بختنصر ، وأن هذه القصة له جرت ، وأن النسور لما ارتفعت تطلب اللحم إِلى حيث شاء الله ، نودي : يا أيها الطاغية ، أين تريد ؟ ففرِق ، ثم سمع الصوت فوقه ، فنزل ، فلما رأت الجبال ذلك ، ظنت أنه قيام الساعة فكادت تزول ، وهذا قول مجاهد .

والثالث : أن المشار إِليهم الأمم المتقدمة .

قال ابن عباس ، وعكرمة : مكرهم : شركهم .

(17/421)

---

والرابع : أنهم الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين همُّوا بقتله وإِخراجه .

وفي قوله : ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ قولان :

أحدهما : أنه محفوظ عنده حتى يجازَيهم به ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : وعند الله جزاء مكرهم .

قوله تعالى : ﴿ وإِن كان مكرهم ﴾ وقرأ أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأُبيّ ، وابن عباس ، وعكرمة ، وأبو العالية : "وإِن كاد مكرهم" بالدال .

﴿ لتزول منه الجبال ﴾ .

وقرأ الأكثرون "لِتزولَ" بكسر اللام الأولى من "لتزول" وفتح الثانية .

أراد : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، أي : هو أضعف وأوهن ، كذلك فسرها الحسن البصري .

وقرأ الكسائي "لَتزولُ" بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، أراد : قد كادت الجبال تزول من مكرهم ، كذلك فسرها ابن الأنباري .

وفي المراد بالجبال قولان :

أحدهما : أنها الجبال المعروفة ، قاله الجمهور .

والثاني : أنها ضُربت مثلاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وثبوتُ دينه كثبوت الجبال الراسية والمعنى : لو بلغ كيدهم إِلى إِزالة الجبال ، لَمَا زال أمر الإِسلام ، قاله الزجاج .

قال أبو علي : ويدل على صحة هذا قوله : ﴿ فلا تحسَبَنَّ الله مُخلِفَ وَعْدِهِ رسلَه ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾

قال ابن عباس : أراد أهل مكة .

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أي خوفهم ذلك اليوم .

وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثّواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعاصي .

﴿ فَيَقُولُ الذين ظلموا ﴾ أي في ذلك اليوم ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ ﴾ أي أمهلنا .

﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق في الآخرة .

﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي إلى الإسلام .

﴿ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ .

فيجابوا : ﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ يعني في دار الدنيا .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ قال مجاهد : هو قسم قريش أنهم لا يبعثون .

ابن جريج : هو ما حكاه عنهم في قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أي لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد .

الثاني ﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ أي من العذاب .

وذكر البَيْهَقِيّ عن محمد بن كعب القُرَظيّ قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله في أربعة ، فإذا كان في الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [ غافر : 11 ] فيجيبهم الله ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [ غافر : 12 ] .

*(19/421)*

---

ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [ السجدة : 12 ] فيجيبهم الله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ السجدة : 14 ] ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ فيجيبهم الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [ إبراهيم : 44 ] فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [ فاطر : 37 ] فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [ فاطر : 37 ] .

ويقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ﴾ [المؤمنون : 106] فيجيبهم الله تعالى : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] فلا يتكلمون بعدها أبداً ؛ خرجه ابن المبارك في "دقائقه" بأطول من هذا وقد كتبناه في كتاب "التذكرة" وزاد في الحديث ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾ ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ قال هذه الثالثة ، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء ، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجه بعض ، وأطبقت عليهم ؛ قال : فحدّثني الأزهر بن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله ﴿ هذا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35].

(20/421)

---

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾

أي في بلاد ثَمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم ، بعد ما تبيّن لكم ما فعلنا بهم ، وبعد أن

ضربنا لكم الأمثال في القرآن .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ "وَنُبَيِّنْ لَكُمْ" بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي ؛ وليناسب قوله : "كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ" .

وقراءة الجماعة ، "وَتَبَيَّنَ" وهي مثلها في المعنى ؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أي بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة ؛ عن ابن عباس وغيره .

﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ "إن" بمعنى "ما" أي ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووهنه ؛ "وإن" بمعنى "ما" في القرآن في مواضع خمسة :

أحدها هذا .

الثاني ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [ يونس : 94 ] .

الثالث ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا ﴾ [ الأنبياء : 17 ] أي ما كنا .

الرابع ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ [ الزخرف : 81 ] .

الخامس : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ [ الأحقاف : 26 ] .

وقرأ الجماعة "وإن كان" بالنون .

وقرأ عمرو بن عليّ وابن مسعود وأُبيّ "وإن كاد" بالدال .

والعامة على كسر اللام في "لتزول" على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصباً .

وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائيّ "لَتَزُولُ" بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية "وإن" مخفّفة من الثّقيلة ، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم ؛ أي ولقد عظم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطَّبَرِيّ : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة ؛ قال أبو بكر الأنباريّ : ولا حجة على مصحف المسلمين في الحديث الذي حدّثناه أحمد بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبي شيبة حدّثنا وكيع بن الجرّاح عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : إن جبّاراً من الجبابرة قال لا أنتهي حتى أعلم من في السموات ، فعمَدَ إلى فراخ نُسُور ، فأمر أن تطعم اللحم ، حتى اشتدت وعَضَلَتْ واستعلجت أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين ؛ وأن يجعل فيه عصا في رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النسور بالأوتاد ؛ وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له في التابوت وأَثَارَ النّسورَ ، فلما رأت اللحم طلبته ، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله ؛ فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب ، فقال : أغلق الباب ؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد ؛ فقال الجبّار

لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْداً ، فقال : نَكِّس العصا فنكسها ، فانقضت النّسور .

فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن مراتبها منها ؛ قال : فسمعت عليّاً رضي الله عنه يقرأ "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ" بفتح اللام الأولى من "لتزول" وضم الثانية .

(22/421)

---

وقد ذكر الثّعلبيّ هذا الخبر بمعناه ، وأن الجبّار هو النّمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربّه ، وقال عِكرمة : كان معه في التابوت غلام أمرد ، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخاً بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَكَ إلهَ السّماء .

قال عِكرِمة : تلطّخ بدم سمكة من السماء ، قذفت نفسها إليه من بحر في الهواء معلّق .

وقيل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم ، فهبطت النّسور بالتابوت ، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت ، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأنّ الساعة قد قامت ، فذلك قوله : "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ" .

قال القُشَيري : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة في الجبال .

وذكر الماورديّ عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح في قرية الرسِّ من سواد الكوفة ، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعاً ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً ، وصعد منه مع النّسور ، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصناً ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد ، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعاً ، فهذا معنى "وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ" وفي الجبال التي عَنَى زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما جبال الأرض .

الثاني الإسلام والقرآن ؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال .

وقال القُشَيري : "وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ" أي هو عالم بذلك فيجازيهم ، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف .

"وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" بكسر اللام ؛ أي ما كان مكرهم مكراً يكون له أثر وخطر عند الله تعالى ، فالجبال مَثَل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : "وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ" في تقديرهم "لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ" وتؤثر في إبطال الإسلام .

وقرىء "لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبَالُ" بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أي كان مكراً عظيماً تزول منه الجبال ، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ﴾ [ نوح : 22 ] والجبال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

*(24/421)*

---

وقال الخازن :

﴿ وأنذر الناس ﴾

يعني وخوف الناس يا محمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ﴾ يعني ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب ﴾ يعني أمهلنا مدة يسيرة قال بعضهم : طلبوا الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى ﴿ نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فأجيبوا بقوله ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ يعني في دار الدنيا ﴿ مالكم من زوال ﴾ يعني ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور .

﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ يعني بالكفر والمعاصي ممن كان قبلكم من

كفار الأمم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ يعني وقد عرفتم كيف كان عقوبتنا إياهم ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ يعني الأمثال التي ضربها الله في القرآن ليتدبروها ، ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الأمم الخالية ، والقرون الماضية وعلم ما جرى لهم وكيف أهلكوا أن يعتبر بهم ويعمل في خلاص نفسه من العقاب والهلاك .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ اختلفوا في الضمير إلى من يعود في قوله ، وقد مكروا فقيل يعود إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وهذا القول صحيح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور وقيل : إن المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صل الله عليه وسلم ومكرهم ما ذكره الله تعالى بقوله تعالى ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ الآية والمعنى وأنذر الناس يا محمد ، يوم يأتيهم العذاب يعني بسبب مكرهم بك .

(25/421)

---

وقوله تعالى ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ يعني جزاء مكرهم وقيل إن مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ يعني وإن كان مكرهم

لأضعف من أن تزول منه الجبال وقيل : معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ( صلى الله عليه وسلم ) الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قولاً آخر : وهو أنها نزلت في نمرود الجبار الذي حاجّ إبراهيم في ربه فقال نمرو : إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد إلى السماء فأعلم ما فيها فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت ، واتخذ تابوتاً من خشب وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربعاً في أطراف التابوت وجعل على رؤوس تلك الخشبات لحماً أحمر وقعد هو في التابوت ، وأقعد معه رجلاً آخر ، وأمر بالنسور فربطت في أطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه ، وطارت إليه فطارت النسور يوماً أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه : افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له إن السماء كهيئتها فقال له : افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل فقال : أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان .

قال : فطارت النسور يوماً آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه : افتح الباب الأعلى ففعل فإذا السماء كهيئتها ، وفتح الباب الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد ؟ قال عكرمة : وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس ، ورمى بسهم فعاد إليهم السهم ملطخاً بدم سمكة قذفت بنفسها من بحر في الهواء وقيل إن طائراً أصابه السهم فلما رجع إليهم السهم مطلخاً بالدم قال كفيت إله السماء ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوب الخشبات إلى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت ، وظنت أنه قد حدث حدث من السماء إن الساعة قد قامت فكادت تزول عن أماكنها ، فذلك قوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد العلماء هذه الحكاية وقال : إن الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل أن يقدم على مثل هذا الأمر العظيم وليس فيه خير صحيح يعتمد عليه ، ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية ألبتة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ وَأَنذِرِ الناس يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾

المراد باليَوْمِ : يومُ القيامةِ ، ونصبُهُ على أنه مفعولٌ ب «أَنْذِر» ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً ، لأن القيامة لَيْسَتْ بموطنِ إنذار ، قال الشيخُ العارفُ باللَّهِ عبْدُ اللَّهِ بْنُ أبي جَمْرَة : يجبُ التصْدِيقُ بكُلِّ ما أخبر اللَّه ورسُولُهُ به ، ولا يتعرَّض إلى الكيفيَّة في كلِّ ما جاء من أمْرِ الساعة وأَحْوَالِ يومِ القيامةِ ، فإنه أمْرٌ لا تسعه العُقُولُ ، وطَلَبُ الكيفيَّة فيه ضعْفٌ في الإيمانِ ، وإنما يجبُ الجَزْم بالتصديقِ بجميعِ مَا أخبر اللَّه بهِ ، انتهى .

قال الغزَّالِيُّ : فَأَعلمُ العلماءِ وأعْرَفُ الحكماءِ ينكشفُ له عقِيبَ الموْتِ مِنَ العجائبِ والآياتِ ما لَمْ يَخْطُرْ قطُّ بباله ، ولا اختلج به ضميره ، فلو لم يكُنْ للعاقل هَمٌّ ولا غَمٌّ ، إلا التفكُّرُ في خَطَرِ تلك الأحوال ، وما الذي ينكشفُ عَنْه الغِطَاء من شقاوةٍ لازمةٍ ، أو سعادة دائمةٍ لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العُمُر ، والعَجَبُ من غَفْلَتنا ، وهذه العظَائِمُ بَيْنَ أيدينا . انتهى من «الإحياء» .

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ . . . ﴾ الآية : معناه : يقال لهم ، وقوله : ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ : هو المُقْسَمُ عليه ، وهذه الآية ناظرةٌ إلى ما حكَى اللَّه سبحانه عنهم في قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَسَكَنتُمْ... ﴾ الآية: المعنى: بقول الله عزّ وجلّ: وسكنْتُم أيها المُعْرِضُون عَنْ آيات الله مِنْ جميع العالم في مَسَاكِنِ الذين ظَلَمُوا أنفسهم بالكُفْر من الأمم السَّالفة، فنزلَتْ بهم المَثُلاَتُ، فكان حَقُّكُم الاعتبار والاتعاظ. وقوله: ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾: أي: جزاء مكرهم، وقرأ السبعة سوى الكسائِيّ: «وإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ» - بكسر اللام من «لِتَزُولَ» وفتح الأخيرة -؛ وهذا على أن تكون «إِنْ» نافيةً بمعنى «مَا»، ومعنى الآية تحقيرُ مَكْرِهم، وأنه مَا كَانَ لِتَزُولَ منه الشرائعُ والنبوّاتُ وإقدارُ الله بها التي هي كالْجِبَالِ في ثبوتها وقوّتها، هذا تأويلُ الحَسَن وجماعة المفسّرين وتحتملُ عندي هذه القراءةُ أنْ تكونَ بمعنى تَعْظِيمِ مَكْرِهم، أي: وإن كان شديداً، وقرأ الكسائيّ: «وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبَالُ» - بفتح اللام الأولى من لَتَزُولُ، وضمّ الأخيرة -، وهي قراءة ابن عبّاس وغيره، ومعنى الآية: تعظيمُ مكرِهِمْ وشدّتُه، أي: أنه مما يشقى به، ويزيلُ الجبالَ عن مستقرّاتها، لقوّته، ولكنّ الله تعالى أبطله ونَصَرَ أولياءه، وهذا أشَدُّ في العبرة، وقرأ علي وابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبيٌّ: «وإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ»، وذكر أبو حاتم أنّ في قراءة أبيٍّ: «وَلَوْلاَ كَلِمَةُ اللَّهِ لَزَالَ مِنْ مَكْرِهِمُ الجِبَالُ». انتهى انتهى. اهـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾

خطابٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إعلامِه أن تأخيرَهم لماذا ، وأمرٌ له بإنذارهم وتخويفِهم منه ، والمرادُ بالناس الكفارُ المعبّرُ عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهرُ إتيانِ العذاب ، والعدولُ إليه من الإضمار للإشعار بأن المرادَ بالإنذار هو الزجرُ عما هم عليه من الظلم شفقةً عليهم لا التخويفُ للانزعاج والإيذاء ، فالمناسبُ عدمُ ذكرِهم بعنوان الظلمِ ، أو الناسُ جميعاً فإن الإنذارَ عام للفريقين كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ والإتيانُ يُعمّهما من حيث كونُهما في الموقف وإن كان لحوقُه بالكفار خاصةً ، أي أنذِرهم وخوّفِهم ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ المعهودُ وهو اليوم الذي وُصف بما لا يوصف من الأوصاف الهائلةِ أعني يومَ القيامة ، وقيل : هو يومُ موتِهم معذّبين بالسكَرات ولقاءِ الملائكة بلا بشرى ، أو يومُ هلاكِهم بالعذاب العاجلِ ، ويأباه القصرُ السابق ﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي فيقولون ، والعدولُ عنه إلى ما عليه النظمُ الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللإشعار بأن ما لقُوه من الشدة إنما هو لظلمهم ، وإيثارُه على صيغة الفاعل حسبما ذكر ، أو لا للإيذان بأن

الظلمَ في الجملة كافٍ في الإفضاء إلى ما ذكر من الأهوال من غير حاجةٍ إلى الاستمرار عليه كما ينبئ عنه صيغةُ الفاعلِ ، وعلى تقدير كونِ المرادِ بالناس مَنْ يعمّ المسلمين أيضاً فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفارُ ، أو يقول : كلُّ من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذَرين وغيرِهم من الأمم الخاليةِ فإن إتيانَ العذاب يعُمهم كما يشعر بذلك وعدُهم باتباع الرسل .

(30/421)

---

﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ رُدَّنَا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ إلى أمد وحدَ من الزمان قريب ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي الدعوةَ إليك وإلى توحيدك أو دعوتَك لنا على ألسنة الرسلِ ، ففيه إيماءٌ إلى أنه صدّقوهم في أنهم مرسَلون من عند الله تعالى ﴿ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ فيما جاءونا به أي نتدارك ما فرّطنا فيه من إجابة الدعوةِ واتّباع الرسل ، والجمعُ إما باعتبار اتفاقِ الجميعِ على التوحيد وكونِ عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعاً ، وإما باعتبار أن المحْكيَّ ظالمو الأمم جميعاً والمقصودُ بيانُ وعدِ كل أمة باتباع رسولِها ، ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ ﴾ على إضمار القولِ معطوفاً على ( فيقول ) أي فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : ألم تؤخّروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطراً

وأشراً وجهلاً وسفهاً ﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مَشيداً وأمّلتم بعيداً ولم تحدّثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة ، وفيه إشعارٌ بامتداد زمانِ التأخير وبُعد مداه أو ما لكم من زوال من هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى :

(31/421)

---

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ وصيغةُ الخطاب في جواب القسم لمراعاة حالِ الخطاب في أقسمتم كما في قوله : حلف بالله ليخرُجَن ، وهو أدخلُ في التوبيخ من أن يقال : ما لنا مراعاةً لحال المُقسِم . ذكر البيهقيُّ عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : لأهل النار خمسُ دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع منها فإذا كانت الخامسةُ لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ فالحكم للَّهِ العلى الكبير ﴾ ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صالحا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ الآية ، ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿

أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ ﴾ الآية ، ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تذكَّرَ وَجَاءكُمُ النذير فَذُوقُواْ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالّينَ ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلّمُونِ ﴾ فلا يتكلمون بعدها أبداً ، إن هو إلا زفيرٌ وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنمُ ، اللهم إنا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارُك وجل ثناؤُك ولا إله غيرُك .

(32/421)

---

﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ من السُّكنى بمعنى التبوّؤ والإيطان ، وإنما استُعمل بكلمة في حيث قيل : ﴿ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ جرياً على الأصل لأنه منقولٌ عن مطلق السكون الذي حقُّه التعدية بها أو من السكون واللُّبث ، أي قررْتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتَهم في الظلم بالكفر والمعاصي غيرَ محدّثين لأنفسكم بما لقُوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات ، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقِه فيما سلفه إيذانٌ بأن غائلةَ الظلم آئلةٌ إلى صاحبه ، والمرادُ بهم إما جميعُ مَنْ تقدّم من الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاصِ الاستمهال والخطابُ السابقُ بالمنذرين ، وإما أوائلُهم من قوم نوحٍ وهود على تقدير عمومِهما للكل ،

وهذا الخطابُ وما يتلوه باعتبار حالِ أواخرهم ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بمشاهدة الآثار وتواترِ الأخبار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ، وكيف منصوبٌ بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلاً لتبيّن كما قاله بعضُ الكوفيين ، بل فاعله ما دلت هي عليه دلالةً واضحةً أي فعلنا العجيبَ بهم ، وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال : ما فعلنا بهم كما مر في قوله تعالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ وقرىء وبُيِّن ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال ﴾ أي بينا لكم في القرآن العظيم على تقدير اختصاصِ الخطاب بالمنذَرين أو على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام على تقدير عمومِه لجميع الظالمين صفاتِ ما فعلوا وما فُعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لكل ظالم ، لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالَكم على أعمالهم ومآلَكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجلِ إلى حلول العذابِ الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي ، أو بيّنا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاقِ العذاب ، والجملُ الثلاثُ في موقع الحال من ضمير أقسمتم ، أي أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكن المهلَكين

بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيبُ بهم ونبهنا كم على جلية الحال بضرب الأمثالِ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾

(34/421)

---

حال من الضمير الأول في فعلنا بهم أو من الثاني أو منهما جميعاً ، وإنما قُدّم عليه قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال ﴾ لشدة ارتباطِه بما قبله أي فعلنا ، والحالُ أنهم قد مكروا في إبطال الحقِ وتقديرِ الباطل مكرَهم العظيمَ الذي استفرغوا في عمله المجهودَ وجاوزوا فيه كل حد معهود ، بحيث لا يقدِر عليه غيرُهم ، فالمرادُ بيانُ تناهيهم في استحقاق ما فُعل بهم أو قد مكروا مكرَهم المذكورَ في ترتيب مبادىءِ البقاءِ ومدافعةِ أسبابِ الزوالِ ، فالمقصودُ إظهارُ عجزهم واضمحلالُ قدرتِهم وحقارتُها عند قدرة الله تعالى ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاءُ مكرِهم الذي فعلوه ، على أن المكرَ مضافٌ إلى فاعله ، أو أخذُه تعالى بهم على أنه مضاف إلى مفعوله ، وتسميتُه مكراً لكونه بمقابلة مكرِهم وجوداً وذِكراً أو لكونه في صورة المكرِ في الإتيان من حيث لا يشعرون ، وعلى التقديرين فالمرادُ به ما أفاده قوله عز وجل : ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ لا أنه وعيدٌ مستأنفٌ ، والجملةُ حالٌ من الضمير في مكروا أي مكروا مكرَهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظمُ منه ، والمقصودُ بيانُ فسادِ رأيِهم

حيث باشروا فعلاً مع تحقق ما يوجب تركه ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ في العِظَم والشدة ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ أي وإن كان مكرُهم في غاية المتانةِ والشدةِ ، وعبّر عن ذلك بكونه مسوًّى ومُعدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها لكونه مثلاً في ذلك ، والجملةُ المصدرةُ بأن الوصليةِ معطوفةٌ على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاءُ مكرهم أو المكرُ الذي يحيق بهم إن لم يكن مكرُهم لتزولَ منه الجبال وإن كان الخ ، وقد حُذف ذلك حذفاً مطرداً لدِلالة المذكور عليه دَلالةً واضحةً فإن الشيء إذا تحقق عند وجودِ المانعِ القويّ فلأن يتحققَ عند عدمِه أولى ، وعلى هذه النُكتة يدور ما في أن الوصليةِ من التأكيد المعنوي ، والجواب محذوفٌ دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى

(35/421)

---

: ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ وقيل : إنْ نافية واللامُ لتأكيدها كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذّبَهُمْ ﴾ وينصره قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكرُهم ، فالجملة حينئذ حالٌ من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ أي مكروا مكرَهم والحالُ أن مكرهم لم يكن لتزولَ منه الجبال على أنها عبارةٌ عن آيات الله تعالى وشرائعِه ومعجزاتِه الظاهرة على أيدي الرسلِ السالفةِ عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبالِ الراسياتِ

في الرسوخ، وأما كونُها عبارةً عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمرِ القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له إذ الماكرون هم المهلَكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين وإن خُصّ الخطاب بالمنذرين، وقيل: هي مخففةٌ من إنّ، والمعنى إنه كان مكرُهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات مما ذكر في الآيات والشرائعِ والمعجزات والجملةُ كما هي حال من ضمير مكروا أي مكروا مكرَهم المعهودَ وإنّ الشأنَ كان مكرُهم لإزالة الآياتِ والشرائعِ على أنه لم يكن يصحّ أن يكون منهم مكرٌ كذلك، وكان شأنُ الآياتِ والشرائعِ مانعاً من مباشرة المكرِ لإزالته، وقد قرأ الكسائي لَتزولُ بفتح اللام على أنها الفارقة، والمعنى تعظيمُ مكرِهم فالجملةُ حالٌ من قوله تعالى: ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي عنده تعالى جزاءُ مكرهم أو المكرُ بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أُي في غاية الشدة، وقرىء بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي وقرىء (وإن كاد مكرهم) هذا هو الذي يقتضيه النظمُ الكريم وينساق إليه الطبعُ السليم.

(36/421)

---

وقد قيل إن الضمير في مكروا للمنذَرين والمرادُ بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآية، وغيرُه من أنواع مكرهم

برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل الوجهَ حينئذ أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ ﴾ الخ ، حالاً من القول المقدر أي فيقال لهم ما يقال والحالُ أنهم مع ما فعلوا من الإقسام المذكورِ ، مع ما ينافيه من السكون في مساكن المهلَكين وتبيّن أحوالِهم وضرْبُ الأمثال قد مكروا مكرَهم العظيم أي لم يكن الصادر عنهم مجردَ الإقسام الذي وُبّخوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة ، وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ حالٌ من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ مسوقٌ لبيان عدم تفاوتِ الحال في تحقيق الجزاءِ بين كون مكرِهم قوياً أو ضعيفاً كما مر هناك وعلى تقدير كون إنْ نافيةً فهو حال من ضمير مكروا ، والجبالُ عبارةٌ عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أي وقد مكروا ، والحالُ أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائعُ والآياتُ التي هي في القوة كالجبال ، وعلى تقدير كونها مخففةً من الثقيلة واللامُ مكسورةٌ يكون حالاً منه أيضاً على معنى أن ذلك المكرَ العظيم منهم كان لهذا الغرض ، على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكرٌ كذلك المكرِ لما أن شأنَ الشرائعِ أعظم من أن يمكُرَ بها ماكرٌ ، وعلى تقدير فتح اللام فهو حالٌ من قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ كما ذكرنا من قبل فليُتأمل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ ﴾

خطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم بعد إعلامه أن تأخير عذابهم لماذا وأمر له بإنذارهم وتخويفهم منه فالمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر إتيان العذاب وإلى ذلك ذهب أبو حيان وغيره .

ونكتة العدول إليه من الإضمار على ما قاله شيخ الإسلام الإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم ، وقال الجبائي : وأبو مسلم : المراد بالناس ما يشتمل أولئك الظالمين وغيرهم من المكلفين ، والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ [يس : 11] والإتيان يعم الفريقين من كونهما في الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة ، وأياً ما كان فالناس مفعول أول لأنذر وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ مفعوله الثاني على معنى أنذرهم هوله وما فيه .

فالإيقاع عليه مجازي أو هو بتقدير مضاف ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً للإنذار لأنه في الدنيا ، والمراد بهذا اليوم اليوم المعهود وهو اليوم الذي وصف بما يذهب الألباب وهو يوم القيامة ، وقيل : هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة عليهم السلام بلا بشرى .

وروي ذلك عن أبي مسلم ، أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، وتعقب بأنه يأباه القصر السابق ، وأجيب بما فيه ما فيه .

(38/421)

---

﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي فيقولون ، والعدول عنه إلى ما في "النظم الجليل" للتسجيل عليهم بالظلم والإشعار بعليته لما ينالهم من الشدة المنبىء عنها القول ؛ وفي العدول عن الظالمين المتكفل بما ذكر مع اختصاره وسبق الوصف به للإيذان على ما قيل بأن الظلم في الجملة كاف في الإفضاء إلى ما أفضوا إليه من غير حاجة إلى الاستمرار عليه كما ينبىء عنه صيغة اسم الفاعل ، والمعنى على ما قال الجبائي وأبو مسلم الذين ظلموا منهم وهم الكفار ، وقيل : يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الأمم الخالية : ﴿ رَبَّنَا أَخّرْنَا ﴾ أي عن العذاب أو أخر عذابنا ، ففي الكلام تقدير مضاف أو تجوز في النسبة ، قال الضحاك .

ومجاهد : أنهم طلبوا الرد إلى الدنيا والإمهال ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي أمد وحد من الزمان قريب ، وقيل : إنهم طلبوا رفع العذاب والرجوع إلى حال التكليف مدة يسيرة يعملون فيها ما يرضيه سبحانه .

والمعنى على ما روي عن أبي مسلم أخر آجالنا وابقنا أياماً ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي الدعوة إليك وإلى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل عليهم السلام، ففيه إيماء إلى أنهم صدقوهم في أنهم رسل الله سبحانه وتعالى.

﴿ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ فيما جاؤا به أي نتدارك ما فرطنا به من إجابة الدعوة واتباع الرسل عليهم السلام، ولا يخلو ذكر الجملتين عن تأكيد والمقام حري به، وجمع إما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصياناً لهم جميعاً عليهم السلام، وأما باعتبار أن المحكي كلام ظالمي الأمم جميعاً والمقصود بيان وعد كل أمة بالتوحيد واتباع رسولها على ما قيل.

(39/421)

---

﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ ﴾ على تقدير القول معطوفاً على "فيقول" والمعطوف عليه هذه الجملة أي فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا حلفتم إذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وسفهاً وجهلاً ﴿ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ ﴾ مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية أو بألسنة الحال ودلالة الأفعال حيث بنيتم مشيداً وأملتم بعيداً ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال، وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير

وبعد مداه أو مالكم من زوال وانتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] وروي هذا عن مجاهد ، وأياً ما كان ﴿ فمالكم ﴾ الخ جواب القسم ، و ﴿ صَلَحَ مِنْ ﴾ صلة لتأكيد النفي ، وصيغة الخطاب فيه لمراعاة حال الخطاب في ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾ كما في حلف بالله تعالى ليخرجن وهو أدخل في التوبيخ من أن يقال ما لنا مراعاة لحال المحكي الواقع في جواب قسمهم ، وقيل هو ابتداء كلام من قبل الله تعالى جواباً لقولهم : ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أي مالكم من زوال عن هذه الحال وجواب القسم لا يبعث الله من في القبور محذوفاً وهو خلاف المتبادر .

وهذا أحد أجوبة يجاب بها أهل النار على ما في بعض الآثار .

(40/421)

---

فقد ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع منها فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مّن سَبِيلٍ ﴾ [ غافر : 11 ] فيجيبهم الله عز وجل ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ فالحكم للَّهِ العلى

الكبير ﴾ [ غافر : 12 ] ثم يقولون : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ [ السجدة : 12 ] فيجيبهم جل شأنه ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ [ السجدة : 14 ] الآية ، ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ فيجيبهم تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ الآية ، ثم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [ فاطر : 37 ] فيجيبهم جل جلاله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النذير فَذُوقُواْ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ [ فاطر : 37 ] فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ﴾ [ المؤمنون : 106 ] فيجيبهم جل وعلا : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [ المؤمنون : 108 ] فلا يتكلمون بعدها أن هو إلا زفير وشهيق ، وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم ، اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ونلوذ بكنفك من عذابك ونسألك التوفيق للعمل الصالح في يومنا لغدنا والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن يخرج الأمر من يدنا .

﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾

من السكنى بمعنى التبوء والاستيطان وهو بهذا المعنى مما يتعدى بنفسه تقول سكنت الدار واستوطنتها إلا أنه عدي هنا بفي حيث قيل : ﴿ فِى مساكن الذين ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ جرياً على أصل معناه فإنه منقول عن سكن بمعنى قر وثبت وحق ذلك التعدية بفي ، وجوز أن يكون المعنى وقررتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدثين أنفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات ، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقه فيما سلف إيذان بأن غائلة الظلم آيلة إلى صاحبه ، والمراد بهم كما قال بعض المحققين إما جميع من تقدم من الأمم المهلكة على تقدير اختصاص الاستمهال والخطاب السابق بالمنذرين ، وإما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومها للكل ، وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم .

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ أي ظهر لكم على أتم وجه بمعاينة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ، وفاعل ﴿ تَّبَيَّنَ ﴾ مضمر يعود على ما دل عليه الكلام أي فعلنا العجب بهم أو حالهم أو خبرهم أو نحو ذلك ، وكيف في محل نصب بفعلنا وجملة الاستفهام ليست معمولة لتبين لأنه لا يعلق ، وقيل : الجملة فاعل ﴿ تَّبَيَّنَ ﴾ بناء على جواز كونه جملة وهو قول ضعيف للكوفيين .

وذهب أبو حيان إلى ما ذهب إليه الجماعة ثم ذكر أنه لا يجوز أن يكون الفاعل ﴿ كَيْفَ

﴿ لأنه لا يعمل فيها ما قبلها إلا فيما شذ من قولهم : على كيف تبيع الأحمرين وقولهم :

انظر إلى كيف تصنع .

(42/421)

---

وقرأ السلمي فيما حكاه عنه أبو عمرو الداني ﴿ ونبين ﴾ بنون العظمة ورفع الفعل ، وحكى ذلك أضاً "صاحب اللوامح" عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وذلك على إضمار مبتدأ أي ونحن نبين والجملة حالية ، وقال المهدوي عن السلمي أنه قرأ بنون العظمة إلا أنه جزم الفعل عطفاً على ﴿ تكونوا ﴾ [ إبراهيم : 44 ] أي أو لم نبين لكم ﴿ بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ﴾ أي في القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين .

﴿ الامثال ﴾ أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لتعتبروا وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم وما لكم على مالهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى العذاب الآجل فتردعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي ، وجوز أن يراد من الأمثال ما هو جمع مثل بمعنى الشبيه أي بينا لكم أنهم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب : وروى هذا عن مجاهد ، والجمل الثلاث في موقع الحال من ضمير ﴿ أَقْسَمْتُمْ ﴾

[ إبراهيم : 44 ] أي أقسمتم أن ليس لكم زوال والحال أنكم سكنتم في مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله سبحانه :

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾

(43/421)

---

حال من الضمير الأول في ﴿ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [ إبراهيم : 45 ] أو من الثاني أو منهما جميعاً ، وقدم عليه قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال ﴾ [ إبراهيم : 45 ] لشدة ارتباطه على ما قيل بما قبله أي فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم ، والمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم ، أو وقد مكروا مكرهم المذكور في ترتيب مبادىء البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود إظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله سبحانه قاله شيخ الإسلام ، وهو ظاهر في أن هذا من تتمة ما يقال لأولئك الذين ظلموا ، وهو المروي عن محمد بن كعب القرظي ، فقد أخرج عنه ابن جرير أنه قال : بلغني أن أهل النار ينادون ﴿ رَبَّنَا أَخّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ

﴾ [ إبراهيم : 44 ] الخ فيرد عليهم بقوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم ﴾ [ إبراهيم : 44 ] إلى قوله تعالى : ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ وذكره ابن عطية احتمالاً ، وقيل غير ذلك مما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً .

وظاهر كلام غير واحد أن استفادة المبالغة في ﴿ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ من الإضافة

(44/421)

---

وفي "الحواشي الشهابية" أن ﴿ مَكْرِهِمْ ﴾ منصوب على أنه مفعول مطلق لأنه لازم فدلالته على المبالغة لقوله تعالى الآتي : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ الخ لا لأن إضافة المصدر تفيد العموم أي أظهروا كل مكر لهم أو لأن إضافته وأصله التنكير لإفادة أنهم معروفون بذلك وللبحث فيه مجال ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم على أن الكلام على حذف مضاف ، وجوز أن لا يكون هناك مضاف محذوف ، والمعنى مكتوب عنده تعالى مكرهم ومعلوم له سبحانه وذلك كناية عن مجازاته تعالى لهم عليه ، وأياً ما كان فإضافة ﴿ مَكْرَ ﴾ إلى الفاعل وهو الظاهر المتبادر ، وقيل : إنه مضاف إلى مفعوله على معنى عنده تعالى مكرهم الذي يمكرهم به وتعقبه أبو حيان بأن المحفوظ أن مكر لازم ولم يسمع متعدياً ، وأجيب بأنه يجوز أن يكون المكر متجوزاً به أو مضمناً معنى الكيد أو الجزاء ،

والكلام في نسبة المكر إليه تعالى وأنه إما باعتبار المشاكلة أو الاستعارة مشهور ، وذكر بعض المحققين أن المراد بهذا المكر ما أفاده قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [ إبراهيم : 45 ] لا أنه وعيد مستأنف .

والجملة حال من الضمير في ﴿ مَكَرُواْ ﴾ أي مكروا مكرهم وعند الله تعالى جزاؤه أو هو ما أعظم منه .

والمقصود ببيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلاً مع تحقق ما يوجب تركه ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ أي وإن كان مكرهم ف يغاية الشدة والمتانة ، وعبر عن ذلك بكونه معدي لإزالة الجبال عن مقارها لكونه مثلاً ف ذلك .

﴿ وَأَنْ ﴾ شرطية وصلية عند جمع ، والمراد أنه سبحانه مجازيهم على مكرهم ومبطله إن لم يكن في هذه الشدة وإن كان فيها ، ولا بد على هذا الوجه من ملاحظة الإبطال وإلا فالجزاء المجرد عن ذلك لا يكاد يتأتى معه النكتة التي يدور عليها ما في إن الوصلية من التأكيد المعنوي .

وجوز أن يكون المعنى أنه تعالى يقابلهم بمكرهم ، ولا يمنع من ذلك كون مكرهم في غاية الشدة فهو سبحانه وتعالى أشد مكراً ، ولا حاجة حينئذ إلى ملاحظة الإبطال فتدبر .

وعن الحسن وجماعة أن ﴿ إن ﴾ نافية واللام لام الجحود ﴿ وَكَانَ ﴾ تامة ، والمراد بالجبال آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي كالجبال في الرسوخ والثبات والقصد إلى تحقير مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات .

وجوز أن تكون ﴿ كَانَ ﴾ ناقصة وخبرها إما محذوف أو الفعل الذي دخلت عليه اللام على الخلاف الذي بين البصريين والكوفيين .

وأيد هذا الوجه بما روى عن ابن مسعود من أنه قرأ ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ بما النافية ، وتعقب بأن فيه معارضة للقراءة الدالة على عظم مكرهم كقراءة الجمهور ، وأجيب بأن الجبال في تلك القراءة يشار بها إلى ما راموا إبطاله من الحق كما أشرنا إليه وفي هذه على حقيقتها فلا تعارض إذ لم يتواردا على محل واحد نفياً وإثباتاً .

ورد بأنه إذا جعل الحق شبيهاً بالجبال في الثبات كان مثلها بل أدون منها في هذا المعنى ، فإذا نفى إزالته إياه انتفى إزالته جبال الدنيا وحينئذ يجيء الإشكال .

وتعقبه الشهاب بأن هذا غير وارد لأن المشبه لا يلزم أن يكون أدون من المشبه به في وجه الشبه بل قد يكون بخلافه ولو سلم فقد يقدر على إزالة الأقوى دون الآخر لمانع كالشجاع

يقدر على قتل أسد ولا يقدر على قتل رجل مشبه به لامتناعه بعدة أو حصن ولا حصن أحصن وأحمى من تأييد الله تعالى شأنه للحق بحيث تزول الجبال يوم تنسف نسفاً ولا يزول انتهى ، وإلى تفسير ﴿ الجبال ﴾ على هذه القراءة بما ذكرنا ذهب شيخ الإسلام ثم قال : وأما كونها عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما قيل فلا مجال له إذ الماكرون هم المهلكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين .

(46/421)

---

وإن خص الخطاب بالمنذرين وسيظهر لك قريباً إن شاء الله تعالى جواز ذلك على بعض الأقوال في الآية ، والجملة حال من الضمي في ﴿ مَكَرُواْ ﴾ لا من قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ وجوز أبو البقاء .

وغيره أن تكون مخففة من الثقيلة والمعنى إن كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات من الآيات والشرائع والمعجزات ، والجملة أيضاً حال من الضمير المذكور أي مكروا مكرهم المعهود وأن الشأن كان مكرهم لإزالة الحق من الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الحق مانعاً من مباشرة المكر لإزالته .

وقرأ ابن عباس .

ومجاهد .

وابن وثاب .

والكسائي ﴿ لِتَزُولَ ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الفعل فإن على ذلك عند البصريين مخففة واللام هي الفارقة ، وعند الكوفيين نافية واللام بمعنى إلا ، والقصد إلى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي في غاية الشدة .

وقرىء ﴿ لِتَزُولَ ﴾ بالفتح والنصب ، وخرج ذلك على لغة جاءت في فتاح لام كي .

وقرأ عمر .

وعلى .

وأبي .

وعبد الله .

وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وأبو إسحاق السبيعي .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم ورحمهم ﴿ وَإِن كَادُواْ ﴾ بدال مكان النون و ﴿ لِتَزُولَ ﴾ بالفتح والرفع ، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ونقل أبو حاتم عن أبي رضي الله تعالى عنه أنه قرأ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ اللهِ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ وحمل ذلك بعضهم على التفسير لمخالفته لسواد المصحف مخالفة ظاهرة ؛ هذا ومن الناس من قال : إن الضمير في ﴿ مَكَرُواْ ﴾ للمنذرين ، والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [ الأنفال : 30 ] وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال شيخ الإسلام : ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ ﴾ الخ حالاً من القول المقدر أي فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الأقسام المذكورة مع ما ينافيه قد مكروا مكرهم العظيم أي لم يكن الصادر عنهم مجرد الأقسام الذي وبخوا به بل اجترؤا على مثل هذه العظيمة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿ مَكَرُواْ ﴾ حسبما ذكر من قبل .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ إلى آخره مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قوياً أو ضعيفاً كما مرت الإشارة إليه ، وعلى تقدير كون ﴿ إن ﴾ نافية فهو حال من ضمير ﴿ مَكَرُواْ ﴾ والجبال عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أي وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التي هي

كالجبال في القوة ، وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالاً منه أيضاً ، على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض ، والقصد إلى أنه لم يصح أن يكون منهم مكر كذلك لما أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها .

وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ كما ذكر سابقاً

اه .

(48/421)

---

ويجوز أن يراد بمكرهم شركهم كما أخبرجه ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس ، والجبال على حقيقتها وأمر الجملة على ما قال .

وحاصل المعنى لم يكن الصادر عنهم مجرد الأقسام مع ما ينافيه بل اجترؤا على الشرك وقالوا : ﴿ اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [ مريم : 88-90 ] وقد روى عن الضحاك أنه صرح بأن ما نحن فيه كهذه الآية ، ثم إن القول بجعل الضمير للمنذرين قول بعدهم دخول هذا الكلام في حيز ما يقال ، وهو الظاهر كما قيل ، وكذا حمل الجبال على معناها الحقيقي .

وفي "البحر" الذي يظهر أن زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لمكر قريش وعظمه والجبال لا

تزول ، وفيه من المبالغة في ذم مكرهم ما لا يخفى .

وأما ما روى أن جبلاً زال بحلف امرأة اتهمها زوجها وكان ذلك الجبل من حلف عليه كاذباً مات فحملها للحلف فمكرت بأن رمت نفسها من الدابة وكانت وعدت من اتهمت به أن يكون في المكان الذي وقعت فيه من الدابة فاركبها زوجها وذلك الرجل وحلفت على الجبل أنها ما مسها غيرهما فنزلت سالمة وأصبح الجبل قد اندك وكانت المرأة من عدنان .

وما روى من قصة نمروذ بن كوش بن كنعان أو بخت نصر واتخاذ الأنسر وصعودهما إلى قرب السماء في قصة طويلة مشهورة ، وما فعل بعضهم من حمل الجبال على دين الإسلام والقرآن وحمل المكر على اختلافهم فيه من قولهم : هذا سحر ، هذا شعر ، هذا إفك فأقول ينبو عنها ظاهر اللفظ ، وبعيد جداً قصة الأنسر اه .

واستبعد ذلك أيضاً كما نقل الإمام القاضي وقال : إن الخطر في ذلك عظيم ولا يكاد العاقل يقدم عليه ، وما جاء خبر صحيح معتمد ولا حاجة في تأويل الآية إليه ، ونعم ما قال في خبر النسور فإنه وإن جاء عن علي كرم الله تعالى وجهه .

وعن مجاهد .

وابن جبير .

وأبي عبيدة .

والسدي .

وغيرهم إلا أن في الأسانيد ما لا يخفى على من نقر .

(49/421)

---

وقد شاع ذلك من أخبار القصاص وخبرهم واقع عن درجة القبول ولو طاروا إلى النسر الطائر ، ومثل ذلك فيما أرى خبر المتهمة فافهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(50/421)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) ﴾

قوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

وهو تعريض لأمته ، فكأنه قال : ولا تحسب أمتك يا محمد ، ويجوز أن يكون خطاباً لكل من

يصلح له من المكلفين ، وإن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من غير تعريض لأمته ، فمعناه : التثبيت على ما كان عليه من عدم الحسبان كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : 14 ] ونحوه .

وقيل : المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، أو يكون المراد بالنهي عن الحسبان الإيذان بأنه عالم بذلك لا تخفى عليه منه خافية ، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله سبحانه في إمهال العصاة ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي : يؤخر جزاءهم ، ولا يؤاخذهم بظلمهم .

وهذه الجملة تعليل للنهي السابق .

وقرأ الحسن والسلمي وهو رواية عن أبي عمرو بالنون في " نؤخرهم " .

وقرأ الباقون بالتحتية .

واختارها أبو عبيد ، وأبو حاتم لقوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ ﴾ ومعنى ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي : ترفع فيه أبصار أهل الموقف ، ولا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ، هكذا قال الفراء ، يقال : شخص الرجل بصره ، وشخص البصر نفسه إلى السماء من هول ما يرى ، والمراد : أن الأبصار بقيت مفتوحة لا تتحرّك من شدة الحيرة والدهشة .

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي : مسرعين من أهطع يهطع إهطاعاً : إذا أسرع .

وقيل : المهطع : الذي ينظر في ذلّ وخشوع ، ومنه :

بدجلة دارهم ولقد أراهم . . . بدجلة مهطعين إلى السماع

وقيل : المهطع : الذي يديم النظر .

(51/421)

---

قال أبو عبيدة : قد يكون الوجهان جميعاً ، يعني : الإسراع مع إدامة النظر ؛ وقيل : المهطع الذي لا يرفع رأسه .

وقال ثعلب : المهطع الذي ينظر في ذلّ وخضوع .

وقيل : هو الساكت .

قال النحاس : والمعروف في اللغة أهطع : إذا أسرع ﴿ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾ أي : رافعي رؤوسهم ، وإقناع الرأس : رفعه ، وأقنع صوته : إذا رفعه ، والمعنى : أنهم يومئذٍ رافعون رؤوسهم إلى السماء ينظرون إليها نظر فزع وذلّ ، ولا ينظر بعضهم إلى بعض .

وقيل : إن إقناع الرأس نكسه ؛ وقيل : يقال : أقنع : إذا رفع رأسه ، وأقنع : إذا طأطأ ذلة وخضوعاً ، والآية محتملة للوجهين .

قال المبرد : والقول الأوّل أعرف في اللغة .

قال الشاعر :

أنغض نحوي رأسه وأقنعا . . . كأنما أبصر شيئاً أطمعا

﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي : لا ترجع إليهم أبصارهم ، وأصل الطرف : تحريك الأجفان ، وسميت العين طرفاً ، لأنه يكون بها ، ومن إطلاق الطرف على العين قول عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي . . . حتى يُوارِي جارتي مأواها

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ الهواء في اللغة : المجوف الخالي الذي لم تشغله الأجرام .

والمعنى : أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم ، لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش ، وجعلها نفس الهوى مبالغة ، ومنه قيل للأحمق والجبان : قلبه هواء ، أي : لا رأي فيه ولا قوّة .

وقيل : معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر .

وقيل : المعنى : أن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير .

وقيل : المعنى : أفئدتهم ذات هواء ، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ [ القصص : 10 ] ، أي : خالياً من كل شيء إلاّ من همّ موسى .

﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾ هذا رجوع إلى خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمره الله سبحانه بأن ينذر الناس .

والمراد : الناس على العموم ؛ وقيل : المراد : كفار مكة .

وقيل : الكفار على العموم .

(52/421)

---

والأوّل أولى لأن الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضاً للمسلم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ﴾ [ ياس : 11 ] .

ومعنى ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ يوم القيامة ، أي : خوّفهم هذا اليوم ، وهو يوم إتيان العذاب ، وإنما اقتصر على ذكر إتيان العذاب فيه مع كونه يوم إتيان الثواب ؛ لأن المقام مقام تهديد .

وقيل : المراد : به : يوم موتهم ؛ فإنه أوّل أوقات إتيان العذاب ؛ وقيل المراد يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، وانتصاب يوم على أنه مفعول ثانٍ لأنذر ﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ المراد بالذين ظلموا ها هنا : هم الناس ، أي : فيقولون .

والعدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم ، هذا إذا كان المراد بالناس : هم الكفار .

وعلى تقدير كون المراد بهم : من يعمّ المسلمين ، فالمعنى : فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ﴿ ربنا أخرنا ﴾ أمهلنا ﴿ إلى أجل قريب ﴾ إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد

﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي : دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك ﴿ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، وتدارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل؛ لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة؛ فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: 28].

ثم حكى سبحانه ما يجاب به عنهم عند أن يقولوا هذه المقالة، فقال: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ أي: فيقال لهم هذا القول توبيخاً وتقريعاً، أي: أولم تكونوا أقسمتم من قبل هذا اليوم مالكم من زوال من دار الدنيا.

وقيل: إنه لا قسم منهم حقيقة.

وإنما كان لسان حالهم ذلك لاستغراقهم في الشهوات، وإخلادهم إلى الحياة الدنيا.

(53/421)

---

وقيل: قسمهم هذا هو ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [النحل: 38]، وجواب القسم ﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ وإنما جاء بلفظ الخطاب في ﴿ مالكم من زوال ﴾ لمراعاة ﴿ أقسمتم ﴾ ولولا ذلك لقال: مالنا من

زوال.

﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: استقررتم، يقال: سكن الدار وسكن فيها، وهي بلاد ثمود ونحوهم من الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله، والعصيان له ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ قرأ عبد الرحمن السلمي "نبين" بالنون والفعل المضارع، وقرأ من عداه بالتاء الفوقية والفعل الماضي، أي: تبين لكم بمشاهدة الآثار كيف فعلنا بهم من العقوبة والعذاب الشديد بما فعلوه من الذنوب، وفاعل تبين ما دلت عليه الجملة المذكورة بعده، أي: تبين لكم فعلنا العجيب بهم ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ في كتب الله وعلى ألسن رسله إيضاحاً لكم وتقريراً وتكميلاً للحجة عليكم.

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: فعلنا بهم ما فعلنا، والحال أنهم قد مكروا في ردّ الحق وإثبات الباطل مكرهم العظيم، الذي استفرغوا فيه وسعهم ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي: وعند الله جزاء مكرهم، أو وعند الله مكتوب مكرهم فهو مجازيهم، أو وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، على أن يكون المكر مضافاً إلى المفعول، قيل: والمراد بهم: قوم محمد صلى الله عليه وسلم مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم حين هموا بقتله أو نفيه.

وقيل: المراد ما وقع من النمروذ حيث حاول الصعود إلى السماء، فاتخذ لنفسه تابوتاً، وربط قوائمه بأربعة نسور.

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ قرأ عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبي "وإن كاد مكرهم" بالدال المهملة مكان النون.

وقرأ غيرهم من القراء (وإن كان) بالنون.

(54/421)

---

وقرأ ابن محيص، وابن جريج، والكسائي "لتزول" بفتح اللام على أنها لام الابتداء، وقرأ الجمهور بكسرها على أنها لام الجحود.

قال ابن جرير: الاختيار هذه القراءة، يعني: قراءة الجمهور؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة، فعلى قراءة الكسائي ومن معه تكون إن هي المخففة من الثقيلة.

واللام هي الفارقة، وزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدّته، أي: وإن الشأن كان مكرهم معدًّا لذلك.

قال الزجاج: وإن كان مكرهم يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينه.

وعلى قراءة الجمهور يحتمل وجهين: أحدهما أن تكون "إن" هي المخففة من الثقيلة، والمعنى كما مرّ.

والثاني: أن تكون نافية، واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ

إيمانكم ﴾ [ البقرة : 143 ] والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم ، على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها مدى الدهر ، فالجملة على هذا حال من الضمير في ﴿ مكروا ﴾ لا من قوله : ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي : والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والخرائطي في مساوئ الأخلاق عن ميمون بن مهران في قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ قال : هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ قال : شخصت فيه والله أبصارهم فلا ترتد إليهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : يعني بالإهطاع النظر من غير أن يطرف ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسَهُمْ ﴾ قال : الإقناع رفع رؤوسهم ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ قال : شاخصة أبصارهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ ليس فيها شيء من الخير ، فهي كالخربة .

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ مهطعين ﴾ قال: مديمي النظر.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة ﴿ مهطعين ﴾ قال: مسرعين.

وأخرج هؤلاء عن قتادة في قوله: ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ قال: ليس فيها شيء، خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ وَأَنذِرِ الناس يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ يقول: أنذرهم في الدنيا من قبل أن يأتيهم العذاب.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ هو يوم القيامة.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ ﴾ قال: عما أنتم فيه إلى ما تقولون.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي في قوله: ﴿ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ ﴾ قال: بعث بعد الموت.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن الحسن في قوله: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ قال: عملتم بمثل أعمالهم.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ يقول: ما كان مكرهم ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً ﴾ [مريم: 90].

وأخرج عبد بن حميد ، ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري عن عليّ ابن أبي طالب ، أنه قرأ هذه الآية : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ثم فسرها فقال : إن جباراً من الجبابرة قال : لا أنتهي حتى أنظر إلى ما في السماء ، فأمر بفراخ النسور تعلف اللحم حتى شبت وغلظت ، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين ، ثم جعل في وسطه خشبة ، ثم ربط أرجلهنّ بأوتاد ، ثم جوّعهنّ ، ثم جعل على رأس الخشبة لحماً ، ثم دخل هو وصاحبه في التابوت ، ثم ربطهنّ إلى قوائم التابوت ، ثم خلي عنهنّ يردن اللحم ، فذهبن به ما شاء الله ، ثم قال لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى ، ففتح فقال : انظر إلى الجبال كأنها الذباب ، قال : أغلق فأغلق ، فطرن به ما شاء الله ، ثم قال : افتح ففتح ، فقال : انظر ماذا ترى ، فقال : ما أرى إلاّ السماء ، وما أراها تزداد إلاّ بعداً ، قال : صوّب الخشبة فصوّبها فانقضت تريد اللحم ، فسمع الجبال هدّتها فكادت تزول عن مراتبها .

وقد روي نحو هذه القصة لبختنصر وللنمروذ من طرق ذكرها في الدرّ المنثور . انتهى

انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

وقال القاسمي :

قوله : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾

يعني يوم القيامة : ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أي : رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا : ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي : أمد من الزمان قريب : ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي : إلى الإقرار بتوحيدك وأسمائك الحسنى : ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ أي : [ إلى ما ] دعونا إليه من الشرائع .

﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم ﴾ على إضمار القول . أي : فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً [ ألم تكونوا تحلفون : ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ يعني في الدنيا : ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي : من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . كقوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : من الآية 38 ] .

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ كعاد وثمود : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ أي : بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم ، وما تواتر عندكم من أخبارهم : ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ أي : صفات ما فعلوا وما فعل بهم . أي : ومع ذلك فلم يكن لكم فيهم معتبر ولا مزدجر .

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ ﴾ أي: بالنبي صلوات الله عليه: ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ أي: العظيم، أي: الذي استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل: ﴿ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي: جزاء مكرهم: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ أي: في العظم والشدة: ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ أي: مُسَوًّى ومُعَدًّا لإزالة الجبال عن مقارّها، لتناهي شدته.

وجوّز في (إن) كونها نافية واللام مؤكدة له. والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أن الجبال مَثَلٌ (أي: استعارة تمثيلية) لآيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً. وينصره قراءة ابن مسعود: (وَمَا كَانَ مَكْرُهُم) وقرئ (لَتَزُولُ) بلام الابتداء أي: هو من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها. انتهى انتهى. اهـ

﴿ محاسن التأويل جـ 10 صـ 332. 333 ﴾

(59/421)

---

وقال ابن عاشور:

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾.

عطف على جملة ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ [ إبراهيم : 42 ] ، أي تَسَلَّ عنهم ولاتملل من دعوتهم وأنذرهم .

والناس يعم جميع البشر .

والمقصود : الكافرون ، بقرينة قوله : يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ﴾ .

ولك أن تجعل الناس ناساً معهودين وهم المشركون .

و ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ .

منصوب على أنه مفعول ثانٍ ل ﴿ أنذر ﴾ ، وهو مضاف إلى الجملة .

وفعل الإنذار يتعدى إلى مفعول ثانٍ على التوسع لتضمينه معنى التحذير ، كما في الحديث "ما من نبي إلا أنذر قومه الدجال" .

وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازاً مرسلاً .

والعذاب : عذاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا الذي هُدّد به المشركون .

و ﴿ الذين ظلموا ﴾ : المشركون .

وطلب تأخير العذاب إن كان مراداً به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب ، أي يقول الذين ظلموا : أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك .

وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ [ سورة المؤمنون : 99 ، 100 ] ، فالتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازاً مرسلاً

بعلاقة الأول .

والرسل جميع الرسل الذي جاءُوهم بدعوة الله .

وإن حمل على عذاب الدنيا فالمعنى : أن المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم .

فالتأخير على هذا حقيقة .

والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازاً ، والمراد به محمد .

والقريب : القليل الزمن .

شبه الزمان بالمسافة ، أي أخّرنا مقدار ما نجيب به دعوتك .

أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَال ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾

(60/421)

---

لما ذُكر قبل هذه الجملة طلب الذين ظلموا من ربهم تعين أن الكلام الواقع بعدها يتضمن الجواب عن طلبهم فهو بتقدير قول محذوف ، أي يقال لهم .

وقد عُدل عن الجواب بالإجابة أو الرفض إلى التقرير والتوبيخ لأن ذلك يستلزم رفض ما

سألوه .

وافتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيهاً على معطوف عليه مقدر هو رفض ما سَألوه ، حُذف إيجازاً لأن شأن مستحق التوبيخ أن لا يعطى سؤله .

التقدير كلا وألَم تكونوا أقسمتم . . الخ .

والزوال : الانتقال من المكان .

وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب .

وحذف متعلق ﴿ زوال ﴾ لظهور المراد ، قال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهَد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [ سورة النحل : 38 ] .

وجملة ما لكم من زوال ﴾ بيان لجملة ﴿ أقسمتم ﴾ .

وليست على تقدير قول محذوف ولذلك لم يسرع فيها طريق ضمير المتكلم فلم يقل : ما لنا من زوال ، بل جيء بضمير الخطاب المناسب لقوله : ﴿ أولم تكونوا أقسمتم ﴾ .

وهذا القسم قد يكون صادر من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنهم كانوا يتلقون تعاليم واحدة في الشرك يتلقاها الخلف عن سلفهم .

ويجوز أن يكون ذلك صادراً من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيتهم مضمرون لمعنى هذا القسم .

وكذلك الخطاب في قوله : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ فإنه يعم جميع

أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم.

وهذا من تخصيص العموم بالعقل إذ لا بد أن تكون الأمة الأولى من أهل الشرك لم تسكن في مساكن مشركين.

والمراد بالسكنى: الحلول، ولذلك عُدّي بحرف الظرفية خلافاً لأصل فعله المتعدي بنفسه.

وكان العرب يمرون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ويحطون الرحال هنالك، ويمرون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن.

وتبيّنُ ما فعل الله بهم من العقاب حاصل من مشاهدة آثار العذاب من خسف وفناء استئصال.

وضَرب الأمثال بأقوال المواعظ على ألسنة الرسل عليهم السلام، ووصف الأحوال الخفية.

(61/421)

---

وقد جمع لهم في إقامة الحجة بين دلائل الآثار والمشاهدة ودلائل الموعظة..

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) ﴾

يجوز أن يكون عطفَ خبر على خبر ، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ الناس ﴾ في قوله : ﴿ وأنذر الناس ﴾ ، أي أنذرهم في حال وقوع مكرهم .

والمكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضمارُهُ .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ في سورة آل عمران ( 54 ) ، وفي قوله : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ في سورة الأعراف ( 99 ) .

وانتصب مكرهم ﴾ الأول على أنه مفعول مطلق لفعل ﴿ مكروا ﴾ لبيان النوع ، أي المكر الذي اشتهروا به ، فإضافة ﴿ مكر ﴾ إلى ضمير ﴿ هم ﴾ من إضافة المصدر إلى فاعله .

وكذلك إضافة ﴿ مكر ﴾ الثاني إلى ضمير ﴿ هم ﴾ .

والعندية إما عندية عِلم ، أي وفي علم الله مكرهم ، فهو تعري بالوعيد والتهديد بالمؤاخذة بسوء فعلهم ، وإما عندية تكوين ما سُمي بمكر الله وتقديره في إرادة الله فيكون وعيداً بالجزاء على مكرهم .

وقرأ الجمهور ﴿ لتزول ﴾ بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها فتكون ( إن ) نافية ولام ﴿ لتزول ﴾ لام الجحود ، أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال ، وهو استخفاف بهم ، أي ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم ، وما هو بالذي تزول منه الجبال .

وفي هذا تعريض بأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذين يريد المشركون المكر

بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنهم كالجبال الرواسي .

وقرأ الكسائي وحده بفتح اللام الأولى من ﴿ لَتزولُ ﴾ ورفع اللام الثانية على أن تكون ﴿ إنْ ﴾ مخففة من ﴿ إنْ ﴾ المؤكدة وقد أكمل إعمالها ، واللام فارقة بينها وبين النافية ، فيكون الكلام إثباتاً لزوال الجبال من مكرهم ، أي هو مكر عظيم لَتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول ، أي جديرة ، فهو مستعمل في معنى الجدارة والتأهل للزوال لو كانت زائلة .

(62/421)

---

وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى : ﴿ يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ [ سورة مريم : 90 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(63/421)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ

دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يُنذِرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة، وأنه قادمٌ لا محالةَ .

وكلمة " يوم " هي ظَرْف زمان، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حَدثٍ يقع فيه، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير؛ لأن الإنذار أو البشارة لا بُدّ أنْ يكونا في وقت التكليف في الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنْذر به هو تخويفهم مِمّا يحدث لهم في هذا اليوم، فما سوف يحدث لهم هو العذاب؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتي يوم القيامة حتى تنفجر في وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلْم القمة في العقيدة، وظُلْم الرسالة بمقاومتها؛ وظلم الكون المُسبِّح لله :

﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل . . . ﴾ [ إبراهيم : 44 ] .

وهم يطلبون تأجيل العذاب لِمُهْلة بسيطة، يُثبتون فيها أنهم سيُجيبون الدعوة ويطيعون الرسول، وهم يطلبون بذلك تأجيل قيامتهم .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [ إبراهيم : 44 ] .

فأنتم قد سبق وأنْ أقسمتُم بأن الله لا يبعث مَنْ يموت؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . ﴾ [ النحل : 38 ] .

وساعة ترى كلمة " بلى " بعد نَدْب ، فهذا يعني تكذيب ما جاء قبلها ، وهم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ظَنُّوا أنهم لن يُبعثوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون ترابا ً ؛ وهم الذين قالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [ المؤمنون : 37 ] .

(64/421)

---

وهكذا أكَّدوا لأنفسهم أنه لا بَعْث من بَعْد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم : ﴿ ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [ النبأ : 40 ] .

أو : أنهم ظَنُّوا أن الذين أنعم الله عليهم في الدنيا ؛ لن يحرمهم في الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثل ، في قوله تعالى : ﴿ واضرب لَهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً * كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [ الكهف : 32-36 ]

.

والذي يقول ذلك فَهِم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهّم أن جنته تلك ستظل على ما هي عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : " حتى لو قامت الساعة ، ورُدِدتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتي تلك " .

وهو يدعي ذلك وهو لم يُقدّم إيمانا بالله ليجده في الآخرة ، فهو إذن مِمَّنْ أنكروا الزوال أي البعث من جديد ، ووقع في دائرة مَنْ لم يُصدّقوا البعث ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ السجدة : 10 ] .

والذين أنكروا البعث يُورِد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالُواْ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين فاعترفنا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [ غافر : 11 ] .

(65/421)

---

فيرد الحق سبحانه عليهم : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُواْ فالحكم للَّهِ العلي الكبير ﴾ [ غافر : 12 ] .

وفي موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله ؛ يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً . . . ﴾ [السجدة : 12] .

ويأتي رَدُّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هاذآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ . . .

﴾ [السجدة : 14] .

وفي موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت : ﴿ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً

فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون : 99-100] .

فيأتي ردّ الحق سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . . ﴾ [المؤمنون : 100] .

وبعد دخولهم النار يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون :

107] .

فيقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] .

وفي موضع آخر يقولون عند اصطراخهم في النار : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ

الذي كُنَّا نَعْمَلُ . . . ﴾ [فاطر : 37] .

فيأتي الرد من الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : 37] .

ونلحظ أنهم في كل آيات التوسُّل لله كي يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون ( ربنا ) ، وتناسَوْا

أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم في الدنيا

، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أي : لا بَعْث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم :

(66/421)

---

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾

والسكون هو الاطمئنان إلى الشيء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن المرأة في الزواج تعتبر سكناً ، والبيت سكن ، وهنا يتكلم الحق سبحانه عن مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، أي : أنكم لم تتعِظُوا بالسوابق التي ما كان يجب أن تغيبَ عنكم ، فأنتم تمرون في رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف ؛ وترون ماذا حاقَ بقوم عاد .

وكُلُّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيحة ؛ أو : أغرقهم كآل فرعون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وَعْده في عذاب الدنيا ؛ فلماذا لم تأخذوا عِبْرة من ذلك ؛ وأنه سبحانه وتعالى

صادق حين تحدَّث عن عذاب الآخرة؟

وهنا قال الحق سبحانه:

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ [إبراهيم: 45].

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: 137-138].

أي: أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التي أقامها بعضٌ مِمَّنْ سبقوكم وظلمُوا أنفسهم بالكفر؛ وأنزل الحق سبحانه عليهم العقَاب؛ ولذلك يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾ [إبراهيم: 45].

نعم؛ فحين تمشي في أرض قوم عاد، وترى حضارتهم التي قال عنها الحق سبحانه: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر: 7-8].

وهي حضارة لم نكشف آثارها بعد؛ وما زالت في المطمورات وكل مطمور في الأرض بفعل من غضب السماء؛ تضع السماءُ ميعادَ كشف له ليتعظ أهلُ الأرض؛ ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى.

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ؛ وهي الحضارة التي سبقتْ كل الحضارات في العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذي شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجّلة في خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك ؟

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾ [ إبراهيم : 45 ] .

أي : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته في إنزال العقاب قد وَضُحَتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في مساكن الأقوام التي سبقتهم ؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمَثل إنما يضربه الله لِيُقرِّب بالشيء الحسي ما يُقرِب إلى الأذهانِ الشيءَ المعنوي .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾

والمكْر - كما نعلم - هو تبييت الكَيْد في خفاءٍ مستورٍ ، ومأخوذ من الشجرة المكمورة ؛ أي : الشجرة التي تُداري نفسها . ونحن نرى في البساتين الكبيرة شجرةً في حجم الإصْبع ؛ وهي مجدولةٌ على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ، أو أن

تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أيّ فرع في الشجرة المُلْتفة إلا إذا نزعتها من حول الشجرة التي تلتفّ من حولها .

ومَنْ يُبيِّت إنما يشهد على نفسه بالجُبْن والضعف وعدم القدرة على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيِّت مُسَاوِلك ؛ أما أنْ تُبيِّت على الحي القيوم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ؛ فتلك هي الخيبة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه في مواجهة ذلك : ﴿ والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54 ] .

(68/421)

---

وقال عن مَكْر هؤلاء : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [ فاطر : 43 ] .

ونعلم أننا حين ننسب صِفةً لله فنحن نأخذها في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11 ] .

وعادة ما ننسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ﴾ [ الأنبياء : 89 ] . ﴿ والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54 ] .

وقوله هنا : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ . . . . ﴾ [إبراهيم : 46 ] .

أي : قاموا بالتبييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم ؛ فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك ؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة ، وهو سبحانه قد علم أزلاً بما سوف يمكرونه ، وتركهم في مَكْرهم .

فانتصارات الرسالات مرهونٌ بقوة المُرْسَل وأتباعه ، وهم يقابلون خصوماً هُم حيثية وجود الرسالة ؛ ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذي يحفظ لهم السلطة ؛ والدين الجديد سيدُكّ سيادتهم ويُزلزلها ؛ لذلك لا بُدَّ ألاّ يدخروا وُسْعاً في محاولة الكَيْد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أنْ كان الإسلام في بدايته ؛ فأخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدءوا في تعذيبهم ؛ ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب ؛ فنصر الله الذين آمنوا ، ولم يَبْق لهم إلا المكْر ، وسبحانه القائل : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [ الأنفال : 30 ] .

وحاولوا أن يفسدوا خليّة الإيمان الأولى ، وهي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وظنّوا أنهم إنْ نجحوا في ذلك ؛ فسوف تنفضّ الرسالة . فحاولوا أن يشتروه بالمال ؛ فلم يُفلحوا .

وحاولوا أن يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا ، وقال قولته المشهورة : " والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته " .

ثم قرروا أن يقتلوه وأن يُوزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً صلى الله عليه وسلم بالسيوف ضَرْبة رجلٍ واحد ولكنه صلى الله عليه وسلم يهاجر في تلك الليلة ، وهكذا لم ينجح تبييتهم :

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ .

. . ﴾ [ إبراهيم : 46 ] .

أي : أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلاً :

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ [ إبراهيم : 46 ] .

أي : اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيل الجبال فلنْ ينالوك ، والجبال كانت أشد الكائنات بالنسبة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً تزول به الجبال ، فلن يُفلِحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزَحزِحوك عن هدفك ومهمتك .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ

اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الحشر : 21 ] .

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال ؛ فاعلم أن الله أشدُّ بأْسًا . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(70/421)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ﴾ : مفعولٌ ثانٍ لـ " أَنْذِرْ " ، أي : خَوِّفْهم عذابَ يومٍ ، كذا قدَّره أبو البقاء ، وفيه نظرٌ ؛ إذ يَؤُول إلى قولِك : أَنْذِرْ عذابَ يومِ يأتيهم العذابُ ، فلا حاجةَ إلى ذلك . ولا جائزٌ أن يكونَ ظرفاً له ، لأنَّ ذلك اليومَ لا إنذارَ فيه ، سواءً قيل : إنه يومُ القيامةِ ، أو يومُ هلاكهم ، أو يوم يلقاهم الملائكةُ . وقوله : " نُجِبْ " جوابُ الأمر .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ تكونوا ﴾ قال الزمخشريُّ : " على إرادةِ القول ، وفيه وجهان : أن يقولوا ذلك بَطَراً وأَشَراً ، وأَنْ يقولوه بلسان الحالِ حيث بَنَوْا شديداً وأمَّلوا بعيداً " .

و" مالكم " جوابُ القسمِ ، وإنما جاء بلفظِ الخطابِ ، لقوله : " أَقْسَمْتُمْ " ولو جاء بلفظِ المُقْسِمين لقيل : ما لنا . وقدَّر الشيخ ذلك القولَ من قولِ الله تعالى أو الملائكةِ ، أي : فيقال لهم : أو لم تكونوا . وهو عندي أظهرُ مِن الأول ، أعني جَرَيانَ القولِ مِنْ غيرهم لا منهم .

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) ﴾

(71/421)

---

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مساكن ﴾ : أصلُ " سَكَنَ " التعدّي ب " في " كما في هذه الآيةِ ، وقد يتعدّى بنفسه . قال الزمخشريُّ : " السُّكْنَى مِن السكونِ الذي هو اللُّبْث ، وأصلُ تَعَدّيه ب " في " كقولك : قَرَّ في الدارِ ، وأقامَ فيها ، وغَنِي فيها ، ولكنه لَمَّا نُقِل إلى سكونٍ خاص تصرَّفَ فيه ، فقيل : " سَكَنَ الدارَ " كما قيل : تبوَّأها وأَوْطَنها ، ويجوز ان يكونَ مِن السُّكون ، اي : قَرُّوا فيها واطمأنُّوا " .

قوله : " وتَبَيَّنَ " فاعلُه مضمرٌ لدلالةِ الكلامِ عليه ، [ أي ] : حالُهم وخبرُهم وهلاكُهم . و" كيف " نَصْبٌ بفَعَلْنا ، وجملةُ الاستفهامِ ليست معمولةً ل " تَبَيَّنَ " ؛ لأنه من الأفعال التي لا تُعَلَّق ، ولا جائزٌ أن يكونَ " كيف " فاعلاً ، ؛ لأنها : إمَّا شرطيةٌ أو استفهاميةٌ ، وكلاهما لا

يعمل فيه ما تقدَّمه ، والفاعلُ لا يتقدَّم عندنا .

وقال بعض الكوفيين : " إنَّ جملةَ "كيف فَعَلْنا " هو الفاعلُ " ، وهم يُجيزون أن تكونَ الجملةُ فاعلاً ، وقد تقدم هذا قريباً في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ [ يوسف : 35 ] .

والعامَّةُ على " تَبَيَّنَ " فعلاً ماضياً . وقرأ عمر لن الخطاب والسُّلَمي في روايةٍ عنه : " ونُبَيِّنَ " بضمِّ النونِ الأولى والثانية ، مضارع " بَيَّن " ، وهو خبرُ مبتدأ مضمر ، والجملةُ حالٌ ، أي : ونحن نُبيِّن . وقرأ السُّلَميُّ - فيما نقل المهدويُّ - كذلك إلاَّ أنه سكَّن النونَ للجزمِ نَسَقاً على " تكونوا " ، فيكونُ داخلاً في حيِّز التقدير .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) ﴾

(72/421)

---

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ﴾ : يجوز أن يكونَ هذا المصدرُ مضافاً لفاله كالأول بمعنى : أنَّ مكْرَهُمْ الذي مكروه جزاؤُه عند الله تعالى ، أو للمفعول ، بمعنى : أنَّ عند الله مَكْرَهم الذي يَمْكُرُهم به ، أي : يُعَذِّبهم . قالهما الزمخشري . قال الشيخ : " وهذا لا يَصِحُّ إلا إنْ كان " مَكَرَ " يتعدَّى بنفسِه كما قال هو ، إذ قدَّر : يمكرهم به ، والمحفوظ أنَّ "

مَكَرَ "لا يتعدَّى إلى مفعولٍ به بنفسِه . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ الأنفال : 30 ] ، وتقول : زيدٌ ممكورٌ به ، ولا يُحْفظ " زيدٌ ممكورٌ " بسبب كذا " .

قوله "لِتَزُولَ" قرأ العامَّة بكسر اللام ، والكسائيُّ بفتحِها فأمَّا القراءةُ الأولى ففيها ثلاثة أوجه ، أحدُها : أنها نافيةٌ واللامُ لامُ الجحودِ ؛ لأنها بعد كونٍ منفيّ ، وفي "كان " حينئذٍ قولان ، أحدُهما : أنها تامَّةٌ ، والمعنى : تحقيرُ مَكْرِهم ، أنه ما كان لتزولَ منه الشرائع التي كالجبالِ في ثبوتِها وقوتها . ويؤيد كونَها نافيةً قراءةُ عبد الله : " وما كان مَكْرُهم " . القول الثاني : أنها ناقصةٌ ، وفي خبرِها القولان المشهوران بين البصريين والكوفيين : هل هو محذوفٌ واللامُ متعلقةٌ به ، وإليه ذهب البصريون ، أو هذه اللام وما جَرَّتْه ، كما هو مذهبُ الكوفيين ، وقد تقرَّر هذا في آخر آل عمران .

الوجه الثاني : أن تكونَ المخففةَ من الثقيلة . قال الزمخشري : " وإنْ عَظُمَ مكرُهم وتبالَغَ في الشدَّةِ ، فضرب زوالَ الجبالِ منه مثلاً لشدّته ، أي : وإنْ كان مَكْرُهم مُعَدّاً لذلك " . وقال ابن عطية : " ويحتمل عندي أن يكون معنى هذه القراءةِ : تَعْظيمَ مَكْرِهم ، أي : وإن كان شديداً ، إنما يفعل لتذهب به عظامُ الأمور " فمفهومُ هذين الكلامين أنها مخففةٌ لأنه إثباتٌ .

والثالث : أنها شرطيةٌ ، وجوابُها محذوف ، أي : وإنْ كان مكرُهم مُعَدّاً لإزالةِ أشباهِ الجبال الرواسي ، وهي المعجزات والآيات ، فالله مجازِيْهم بمكرٍ هو أعظمُ منه . وقد رُجِّح الوجهان الأخيران على الأول وهو أنها نافيةٌ ؛ لأن فيه معارضةً لقراءة الكسائي ، وذلك أن قراءَته تُؤْذِنُ بالإثباتِ ، وقراءةَ غيره تُؤْذن بالنفي .

وقد أجاب بعضُهم عن ذلك بأنَّ الحالَ في قراءة الكسائي مُشارٌ بها إلى أمورٍ عظام غيرِ الإسلامِ ومُعجزاتِه كمكرهم صلاحيةَ إزالتها ، وفي قراءةِ الجماعةِ مُشارٌ بها إلى ما جاء به النبيُّ صلى الله عليه وسلم من الدين الحق ، فلا تعارُضَ ، إذ لم يتواردا على معنى واحدٍ نفياً وإثباتاً .

وأمَّا قراءةُ الكسائي ففي "إنْ" وجهان : مذهبُ البصريين ، أنها المخففةُ واللام فارقة ، ومذهبُ الكوفيين : أنها نافيةٌ واللامُ بمعنى "إلا" ، وقد تقدَّم تحقيقُ المذهبين .

وقرأ عمرُ وعليٌّ وعبد الله وزيد بن علي وأبو سلمة وجماعة "وإن كاد مكرهم لَتزول" كقراءةِ الكسائي إلا أنهم جعلوا مكان نون "كان" دالاً فعلَ مقاربة ، وتخريجها كما تقدَّم ، ولكن الزوالَ غيرُ واقعٍ .

وقُرِئ "لَتَزُوْلَ" بفتح اللامين . وتخريجهما على إشكالها أنها جاءَتْ على لغةِ مَنْ يفتح لام "كي" . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 123.127﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) ﴾

أفسدوا في أول أُمورهم، وقصّروا في الواجب عليهم، ولم يكن للخَلَلِ في أحوالهم جبران، ولا لعذرهم قبول لتصحَّ الحجة عليهم، فافتضح المجرم منهم، وخاب الكافر، وحُقَّ الحكمُ عليهم.

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) ﴾

أحللنا بهم العقوبة، وأشهدناكم ذلك مما اعتبرتم، وجريتم على منهاجهم، وفعلتم مثلَ فِعْلِهم، وبإمهالنا لكم اغتررتم... فانْتَظِروا منّا ما عاملناكم به جزاءً لكم على ما أسلفتم.

ويقال إن معاشرةَ أهل الهوى والفسق ومجاورتَهم مُشَاركَةٌ لهم في فِعْلِهم، فيستقبلُ فاعلُ ذلك استقبالَهم، ومَنْ سَلَكَهُم ينخرط في التردّي نحو وَهْدَةِ هلاكِهِ مثْلَهم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 259. 260 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تقرر ذلك من علمه سبحانه وقدرته ، تسبب عنه أن يقال وهو كما تقدم في أن المراد الأمة لبلوغ الأمر كل مبلغ ، خوطب به الرأس ليكون أوقع في قلوبهم : ﴿ فلا تحسبن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ، فإن من ظن ذلك كان ناقص العقل ﴿ مخلف وعده رسله ﴾ في أنه يعز أوليائه ويذل أعداءه ويهلكهم بظلمهم ، ويسكن أولياءه الأرض من بعدهم ؛ ثم علل ذلك بقوله – مؤكداً لأن كثرة المخالفين وقوتهم على تمادي الأيام تعرّض السامع للإنكار :

﴿ إن الله ﴾ أي ذا الجلال والإكرام ﴿ عزيز ﴾ أي يقدر ولا يقدر عليه ﴿ ذو انتقام ﴾ ممن يخالف أمره .

*(76/421)*

---

ولما تقررت عظمة ذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ، وكان أعظم يوم يظهر فيه الانتقام ، بينه بقوله : ﴿ يوم تبدل ﴾ أي تبديلاً غريباً عظيماً ﴿ الأرض ﴾ أي هذا الجنس ﴿ غير الأرض ﴾ أي التي تعرفونها ﴿ والسماوات ﴾ بعد انتشار كواكبها وانفطارها وغير ذلك من شؤونها ؛ والتبديل : تغيير الشيء أو صفته إلى بدل ﴿ وبرزوا ﴾ أي الظالمون الذين كانوا يقولون : إنهم لا يعرضون على الله للحساب ؛ والبروز : ظهور الشخص مما كان ملتبساً به ﴿ لله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ الواحد ﴾ الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ الذي لا يدافعه شيء عن مراده ، فصاروا بذلك البروز بحيث لا يشكون أنه لا يخفى منهم خافية ، وأما المؤمنون فلم يزالوا يعلمون ذلك : روى مسلم والترمذي عن عائشة ـ رضى الله عنهما ـ قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن قوله تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض ﴾ الآية قلت : يا رسول الله فأين يكون للناس يومئذ ؟ قال : على الصراط .

ولما ذكر بروزهم له ذكر حالهم في ذلك البروز فقال : ﴿ وترى المجرمين ﴾ أي وتراهم ، ولكنه أظهر لتعدد صفاتهم التي أوجبت لهم الخزي ؛ والإجرام : قطع ما يجوز من العمل بفعل ما لا يجوز ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كانت هذه الأمور العظام ﴿ مقرنين ﴾ أي مجموعاً كل منهم إلى نظيره ، أو مجموعة أيديهم إلى أعناقهم جمعاً فيه شدة وضيق ﴿ في الأصفاد ﴾ أي القيود ، والمراد هنا الأغلال ، أي السلاسل التي تجمع الأيدي فيها إلى الأعناق ويقرنون فيها مع أشكالهم ؛ ثم بين لباسهم بقوله : ﴿ سرابيلهم ﴾ أي قمصهم السابغة ﴿ من قطران ﴾ وهو ما يهنأ به الإبل ، ومن شأنه أنه سرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح .

(77/421)

---

ولما كان هذا اللباس مع نتنه وفظاعته شديد الانفعال بالنار ، بين أنه يسلطها عليهم فقال : ﴿ وتغشى ﴾ ولما كان الوجه أشرف ما في الحيوان ، فإهانته إهانة عظيمة لصاحبه ، ذكره وقدمه تعجيلاً لإفهام الإهانة فقال : ﴿ وجوههم النار ﴾ أي تعلوها باشتعالها ، فعلم أنه يلزم من غشيانها لها اضطرامها فيما ضمخ بالقطران من باب الأولى ؛ ثم بين علة هذه الأفعال في ذلك اليوم ، فقال معبراً بالجزاء والكسب الذي هو محط التكليف وظن النفع ،

لاقتضاء سياق القهر لهما : ب ﴿ ليجزي الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ كل نفس ﴾ طائعة أو عاصية .

ولما عظم الأمر بإسناد الجزاء إلى الاسم الأعظم الجامع لجميع صفات الكمال ، اقتضى ذلك أن يكون نفس الكسب هو الجزاء ، لأن ذلك أبدع وأدق في الصنع وأبرع بأن يصور بما يحق من الصور المليحة عند إرادة الثواب ، والقبيحة عند إرادة العقاب ، فلذلك أسقط الباء - التي ستذكر في "حم المؤمن" وقال : ﴿ ما كسبت ﴾ والجزاء : مقابلة العمل بما يقتضيه من خير أو شر ؛ والكسب : فعل ما يستجلب به نفع أو يستدفع به ضر ، ومن جزاء المؤمن عقوبة من عاداه في الله .

ولما كان حساب كل نفس جديراً بأن يستعظم ، قال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة المطلقة ﴿ سريع الحساب ﴾ أي لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى ولا شأن عن شأن .

ولما اشتملت هذه السورة على ما قرع سمعك من هذه المواعظ والأمثال والحكم التي أبكمت البلغاء ، وأخرست الفصحاء ، وبهرت العقول ، ترجمها سبحانه بما يصلح عنواناً لجميع القرآن فقال : ﴿ هذا ﴾ أي الكتاب الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴿ بلاغ ﴾ أي كافٍ غاية الكفاية في الإيصال ﴿ للناس ﴾ ليصلوا به إلى الله بما يتحلون به

من المزايا في سلوك صراطه القويم ، فإن مادة " بلغ " بأي ترتيب كان - تدور على الوصول ، وتارة تلزمها القوة وتارة الإعياء الناشىء عن الضعف :

(78/421)

---

بلغ المكان بلوغاً : وصل إليه ؛ وبُلغ الرجل - كعني : جهد ، والبليغ : الفصيح يبلغ بعبارته كنه ضميره ، والبلاغ - كسحاب : الكفاية ، لأنها توصل إلى القصد ، وبالغ مبالغة - إذا اجتهد ولم يقصر ، وتبلغت به العلة : اشتدت .

والغلباء : الحديقة المتكاثفة ، ومن القبائل : العزيزة الممتنعة ، والأغلب : الأسد .

ولغب : أعيا - لاجتهاده في البلوغ ، واللغب : ما بين الثنايا من اللحم ، واللغب - ككتف : الكلام الفاسد - يرجع إلى الإعياء ، وكذا الضعيف الأحمق ، والسهم الذي لم يحسن بريه كاللغاب - بالضم ، والتغلب : طول الطرد .

والبغل من أشد الحيوان وأبلغها للقصد ، وبغل تبغيلاً : بلّد وأعيا ، والإبل : مشت بين الهملجة والعنق .

ولما كان متعلق البلاغ الذي قدرته بالوصول يتضمن البشارة ، عطف عليه النذارة بانياً للمفعول ، لأن النافع مطلق النذارة ، وكل أحد متأهل لأن يكون واعظاً به مقبولاً ، لأن من

سمعه فكأنما سمعه من الله لتميزه بإعجازه عن كل كلام ، فقال : ﴿ ولينذروا ﴾ أي من أي منذر كان فيقوم عليهم الحجة ﴿ به ﴾ فيحذروا عقاب الله فيتخلوا عن الدنايا .

ولما أشار إلى جميع الفروع فعلاً وتركاً ، مع إشارته إلى أصل التوحيد لأنه أول الوصول ، صرح به على حدته لجلالته في قوله : ﴿ وليعلموا أنما هو ﴾ أي الإله ﴿ إله واحد ﴾ فيكون همهم واحداً .

ولما تمت الإشارة إلى الدين أصلاً وفرعاً ، نبه على المواعظ والأمثال بتذكر ما له من الآيات والمصنوعات ، والبطش بمن خالفه من الأمم ، وأشار إلى أن أدلة الوحدانية والحشر لا تحتاج إلى كبير تذكر ، لأنها في غاية الوضوح ولا سيما بعد تنبيه الرسل ، فأدغم تاء التفعل ، فقال : ﴿ وليذكر ﴾ أي منهم ﴿ أولوا الألباب ﴾ أي الصافية ، والعقول الوافية ، فيفتحوا عيون بصائرهم فيعلموا أنه لا وصول لهم مع الغفلة فيلزموا المراقبة فلا يزالوا في رياض المقاربة .



---

ويعلموا - بما ركز في طبائعهم وجرى من عوائدهم - أن أقل حكامهم لا يرضى بأن يدع رعيته يتهارجون لا ينصف بينهم ولا يجزى أحداً منهم بما كسب ، فيكون ذلك منه

انسلاخاً من رتبة الحكم التي هي خاصته ، فكيف يدعون ذلك في أحكم الحاكمين ، فقد تكفلت هذه الآية على وجازتها بجميع علم الشريعة أصولاً وفروعاً ، وعلم الحقيقة نهايات وشروعاً ، على سبيل الإجمال وقد انطبق آخر السورة على أولها ، لأن هذا عين الخروج من الظلمات إلى النور بهذا الكتاب الحامل على كل صواب - والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب وحسن المآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 196. 198﴾

(80/421)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) ﴾

اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ [ إبراهيم : 42 ] وقال في هذه الآية : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى لو لم يقم القيامة ولم ينتقم للمظلومين من الظالمين ، لزم إما كونه غافلاً وإما كونه مخلفاً في الوعد ، ولما تقرر في العقول السليمة أن كل ذلك محال كان القول بأنه لا يقيم القيامة باطلاً وقوله : ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ يعني قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [ غافر

: 51 ] وقوله : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [ المجادلة : 21 ] .

فإن قيل : هلا قيل مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثاني على الأول ؟

قلنا : ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً ، إن الله لا يخلف الميعاد ، ثم قال : ﴿ رُسُلَهُ ﴾ ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلاف المواعيد فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ، وقرىء : ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ بجر الرسل ونصب الوعد ، والتقدير : مخلف رسله وعده ، وهذه القراءة في الضعف ، كمن قرأ قتل أولادهم شركائهم ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزاً ﴾ أي غالب لا يماكر ذو انتقام لأوليائه .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) ﴾

اعلم أن الله تعالى لما قال : ﴿ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ بين وقت انتقامه فقال : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ وعظم من حال ذلك اليوم ، لأنه لا أمر أعظم من العقول والنفوس من تغيير السموات والأرض وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكر الزجاج في نصب يوم وجهين ، إما على الظرف لانتقام أو على البدل من قوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ .

المسألة الثانية :

اعلم أن التبديل يحتمل وجهين : أحدهما : أن تكون الذات باقية وتتبدل صفتها بصفة أخرى .

والثاني : أن تفنى الذات الأولى وتحدث ذات أخرى ، والدليل على أن ذكر لفظ التبدل لإرادة التغير في الصفة جائز ، أنه يقال بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ [ الفرقان : 70 ] ويقال : بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى ، ويقال : تبدل زيد إذا تغيرت أحواله ، وأما ذكر لفظ التبديل عند وقوع التبدل في الذوات فكقولك بدلت الدراهم دنانير ، ومنه قوله : ﴿ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [ النساء : 56 ] وقوله : ﴿ بدلناهم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ [ سبأ : 16 ] إذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان :

القول الأول : أن المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي تلك الأرض إلا أنها تغيرت في صفاتها ، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يبدل الله الأرض

غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العاكظي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً " وقوله : ﴿ والسموات ﴾ أي تبدل السموات غير السموات ، وهو كقوله عليه السلام : " لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده " والمعنى : ولا ذو عهد في عهده بكافر ، وتبديل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها ، وتكوير شمسها ، وخسوف قمرها ، وكونها أبواباً ، وأنها تارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان .

والقول الثاني : أن المراد تبديل الذات .

(82/421)

---

قال ابن مسعود : تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك عليها دم ولم تعمل عليها خطيئة ، فهذا شرح هذين القولين ، ومن الناس من رجح القول الأول قال لأن قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض ﴾ المراد هذه الأرض ، والتبدل صفة مضافة إليها ، وعند حصول الصفة لا بد وأن يكون الموصوف موجوداً ، فلما كان الموصوف بالتبدل هو هذه الأرض وجب كون هذه الأرض باقية عند حصول ذلك التبدل ، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض باقية مع صفاتها عند حصول ذلك التبدل ، وإلا لامتنع حصول التبدل ، فوجب أن يكون الباقي هو الذات .

فثبت أن هذه الآية تقتضي كون الذات باقية ، والقائلون بهذا القول هم الذين يقولون : إن عند قيام القيامة لا يعدم الله الذوات والأجسام ، وإنما يعدم صفاتها وأحوالها .

واعلم أنه لا يبعد أن يقال : المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم ، ويجعل السموات الجنة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ [ المطففين : 18 ] وقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجّينٍ ﴾ [ المطففين : 7 ] ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ فنقول أما البروز لله فقد فسرناه في قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ وإنما ذكر الواحد القهار ههنا ، لأن الملك إذا كان لمالك واحد غلاب لا يغالب قهار لا يقهر فلا مستغاث لأحد إلى غيره فكان الأمر في غاية الصعوبة ، ونظيره قوله : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ] ولما وصف نفسه سبحانه بكونه قهاراً بين عجزهم وذلتهم ، فقال : ﴿ وَتَرَى المجرمين يَوْمَئِذٍ ﴾ .

واعلم أنه تعالى ذكر في صفات عجزهم وذلتهم أموراً :

فالصفة الأولى : كونهم مقرنين في الأصفاد .

يقال : قرنت الشيء بالشيء إذا شددته به ووصلته .

والقرآن اسم للحبل الذي يشد به شيئان .

وجاء ههنا على التكثير لكثرة أولئك القوم والأصفاد جمع صفد وهو القيد .

إذا عرفت هذا فنقول : في قوله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ ثلاثة أوجه : أحدها : قال الكلبي : مقرنين كل كافر مع شيطان في غل ، وقال عطاء : هو معنى قوله : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ [ التكوير : 70 ] أي قرنت فيقرن الله تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين ، وأقول حظ البحث العقلي منه أن الإنسان إذا فارق الدنيا ، فإما أن يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها إلى معرفة الله تعالى وطاعته ومحبته ، أو ما فعل ذلك ، بل تركها متوغلة في اللذات الجسدانية مقبلة على الأحوال الوهمية والخيالية ، فإن كان الأول فتلك النفس تفارق مع تلك الجهة بالحضرة الإلهية ، والسعادة بالعناية الصمدانية ، وإن كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الأسف والحزن والبلاء الشديد ، بسبب الميل إلى عالم الجسم ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة ، والحوادث الفاسدة ، وهو المراد من قول عطاء : إن كل كافر مع شيطانه يكون مقروناً في الأصفاد .

والقول الثاني : في تفسير قوله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ هو قرن بعض الكفار ببعض ، والمراد أن تلك النفوس الشقية والأرواح المكدرة الظلمانية ، لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها إلى بعض ، وتنادي ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى ، فانحدار كل واحدة

منها إلى الأخرى في تلك الظلمات ، والخسارات هي المراد بقوله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى الأَصفاد ﴾ .

والقول الثالث : قال زيد بن أرقم : قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال ، وحظ العقل من ذلك أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء ، فإذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة ، صارت في المثال كأن أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها .

(84/421)

---

وأما قوله : ﴿ فِى الأصفاد ﴾ ففيه وجهان : أحدها : أن يكون ذلك متعلقاً بمقرنين ، والمعنى : يقربون بالأصفاد .

والثاني : أن لا يكون متعلقاً به ، والمعنى : أنهم مقرنون مقيدون ، وحظ العقل معلوم مما سلفت الإشارة إليه .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُم مّن قَطِرَانٍ ﴾ السرابيل جمع سربال وهو القميص ، والقطران فيه ثلاث لغات : قطران وقطران وقطرن ، بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء وبفتح القاف وكسر الطاء ، وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ

ويطلى به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحرارته وحدته ، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف ، ومن شأنه أن يتسارع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلي كالسرابيل ، وهي القمص فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب ، لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح ، وأيضاً التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين ، وأقول حظ العقل من هذا أن جوهر الروح جوهر مشرق لامع من عالم القدس وغيبة الجلال ، وهذا البدن جارٍ مجرى السربال والقميص له ، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم ، فإنما يحصل بسبب هذا البدن ، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس ، لأن الشهوة والحرص والغضب إنما تتسارع إلى جوهر الروح بسببه ، وكونه للكثافة والكدورة والظلمة هو الذي يخفي لمعان الروح وضوءه وهو سبب لحصول النتن والعفونة ، فتشبه هذا الجسد بسرابيل من القطران والقطر ، وقرأ بعضهم ﴿ مّن قَطِرآن ﴾ والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره .

قال أبو بكر بن الأنباري : وتلك النار لا تبطل ذلك القطران ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغلال التي كانت عليهم .

الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ [ الزمر : 24 ] وقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ [ القمر : 48 ] .

واعلم أن موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب ، وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس .

وأثر هذه الأحوال إنما تظهر في الوجه ، فلهذا السبب خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب : ﴿ نَارُ الله الموقدة * التى تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ [ الهمزة : 6 ، 7 ] وقال في الوجه : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ بمعنى تتغشى ، ولما ذكر تعالى هذه الصفات الثلاثة قال : ﴿ لِيَجْزِىَ الله كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ قال الواحدي : المراد منه أنفس الكفار لأن ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان ، وأقول يمكن إجراء اللفظ على عمومه ، لأن لفظ الآية يدل على أنه تعالى يجزي كل شخص بما يليق بعمله وكسبه ولما كان كسب هؤلاء الكفار الكفر والمعصية ، كان جزاؤهم هو هذا العقاب المذكور ، ولما كان كسب المؤمنين الأيمان والطاعة ، كان اللائق بهم هو الثواب وأيضاً أنه تعالى لما عاقب المجرمين بجرمهم فلأن يثيب المطيعين على طاعتهم كان أولى .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ والمراد أنه تعالى لا يظلمهم ولا يزيد على عقابهم

الذي يستحقونه .

وحظ العقل منه أن الأخلاق الظلمانية هي المبادي لحصول الآلام الروحانية وحصول تلك الأخلاق في النفس على قدر صدور تلك الأعمال منهم في الحياة الدنيا ، فإن الملكات النفسانية إنما تحصل في جوهر النفس بسبب الأفعال المتكررة ، وعلى هذا التقدير فتلك الآلام تتفاوت بحسب تلك الأفعال في كثرتها وقلتها وشدتها وضعفها وذلك يشبه الحساب .

*(86/421)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ هذا بلاغ لّلنَّاسِ ﴾ أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس ، أي كفاية في الموعظة ثم اختلفوا فقيل : إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن ، وقيل : بل إشارة إلى كل هذه السورة ، وقيل : بل إشارة إلى المذكور من قوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ وأما قوله : ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ فهو معطوف على محذوف أي لينتصحوا : ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ أي بهذا البلاغ .

ثم قال : ﴿ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قد ذكرنا في هذا الكتاب مراراً أن النفس الإنسانية لها شعبتان : القوة النظرية وكمال حالها في معرفة الموجودات بأقسامها وأجناسها وأنواعها حتى تصير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها قدس الملكوت ويظهر فيها جلال اللاهوت ورئيس هذه المعارف والجلاء ، معرفة توحيد الله بحسب ذاته وصفاته وأفعاله .

والشعبة الثانية : القوة العملية وسعادتها في أن تصير موصوفة بالأخلاق الفاضلة التي تصير مبادي لصدور الأفعال الكاملة عنها ، ورئيس سعادات هذه القوة طاعة الله وخدمته .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة النظرية وقوله : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ إشارة إلى ما يجري مجرى الرئيس لكمال حال القوة العملية فإن الفائدة في هذا التذكر ، إنما هو الإعراض عن الأعمال الباطلة والإقبال على الأعمال الصالحة ، وهذه الخاتمة كالدليل القاطع في أنه لا سعادة للإنسان إلا من هاتين الجهتين .

المسألة الثانية :

هذه الآيات مشعرة بأن التذكير بهذه المواعظ والنصائح يوجب الوقوف على التوحيد والإقبال على العمل الصالح ، والوجه فيه أن المرء إذا سمع هذه التخويفات والتحذيرات عظم خوفه واشتغل بالنظر والتأمل ، فوصل إلى معرفة التوحيد والنبوة واشتغل بالأعمال الصالحة .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : أول هذه السورة وآخرها يدل على أن العبد مستقل بفعله ، إن شاء أطاع وإن شاء عصى ، أما أول هذه السورة فهو قوله تعالى :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ إبراهيم : 1 ] فإنا قد ذكرنا هناك أن هذا يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية ، وأما آخر السورة فلأن قوله : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذه السورة ، وإنما ذكر هذه النصائح والمواعظ لأجل أن ينتفع الخلق بها فيصيروا مؤمنين مطيعين ويتركوا الكفر والمعصية ، فظهر أن أول هذه السورة وآخرها متطابقان في إفادة هذا المعنى .

واعلم أن الجواب المستقصى عنه مذكور في أول السورة فلا فائدة في الإعادة .

المسألة الرابعة :

هذه الآية دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله ، لأنه تعالى بين أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل لتذكير أولى الألباب ، فلولا الشرف العظيم والمرتبة

العالية لأولى الألباب لما كان الأمر كذلك .

قال المصنف رحمه الله تعالى ورضي عنه : تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة ختم بالخير والغفران في صحراء بغداد ، ونسأل الله الخلاص من الغموم والأحزان والفوز بدرجات الجنان والخلاص من دركات النيران ، إنه الملك المنان ، الرحيم الديان ، بحمد الله وحسن توفيقه وصلاته وسلامه على خاتم النبيين محمد وآله وسلم . انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 115.119 ﴾

*(88/421)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة ، لم تعمل عليها خطيئة ، قاله ابن مسعود . وقال ابن عباس : تبدل الأرض من فضة بيضاء .

الثاني : أنها هي هذه الأرض ، وإنما تبدل صورتها ويطهر دنسها ، قاله الحسن .

﴿ السمواتُ ﴾ فيها ستة أقاويل :

أحدها : أن السموات تبدل بغيرها كالأرض فتجعل السماء من ذهب ، والأرض من فضة ، قاله علي بن أبي طالب .

الثاني : أن السموات تبدل بغيرها كالأرض ، فتصير السموات جناناً والبحار نيراناً وتبدل الأرض بغيرها ، قاله كعب الأحبار .

الثالث : أن تبديل السموات تكوير شمسها وتكاثر نجومها ، قاله ابن عيسى .

الرابع : أن تبديلها أن تطوى كطي السجل للكتب ، قاله القاسم بن يحيى .

الخامس : أن تبديلها أن تنشق فلا تظل ، قاله ابن شجرة .

السادس : أن تبديلها اختلاف أحوالها ، تكون في حال كالمهل ، وفي حال كالوردة ، وفي حال كالدهان ، حكاه ابن الأنباري .

﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ أي صاروا إلى حكم الله تعالى وأمره فروى الحسن قال : قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله يوم تبدَّل الأرض غير الأرض أين الناس يومئذٍ ؟ قال " إن هذا الشيء ما سألني عنه أحد ثم قال على الصراط يا عايشة " .

قوله عز وجل : ﴿ وترى المجرمين يومئذٍ مقرنين في الأصفاد ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أن الأصفاد الأغلال ، واحدها صفد ، ومنه قول حسان :

ما بين مأسورٍ يشد صِفادُهُ . . . صقرٍ إذا لاقى الكريهة حامي

الثاني : أنها القيود ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا . . . وأُبنا بالملوكِ مُصَفّدينا

أي مقيّدين . وأما قول النابغة الذبياني :

هذا الثناء فإن تسمع لقائله . . . فلم أعرض ، أبيت اللعن ، بالصفدِ

فأراد بالصفد العطية ، وقيل لها صف لأنها تقيد المودة .

وفي المجرمين المقرنين في الأصفاد قولان :



---

أحدهما : أنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي .

الثاني : أنه يجمع بين الكافر والشيطان في الأصفاد .

قوله عز وجل : ﴿ سرابيلهم مِن قطرانٍ ﴾ السرابيل : القمص ، واحدها سربال ، ومنه قول الأعشى :

عهدي بها في الحي قد سربلت . . . صفراء مثل المهرة الضامر

وفي القطران ها هنا قولان :

أحدهما : أنه القطران الذي تهنأ به الجمال ، قاله الحسن ، وإنما جعلت سرابيلهم من قطران لإسراع النار إليها .

الثاني : أنه النحاس الحامي ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

وقرأ عكرمة وسعيد بن جبير ﴿ من قطران ﴾ بكسر القاف وتنوين الراء وهمزآن لأن القطر النحاس ، ومنه قوله تعالى ﴿ آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ [ الكهف : 96 ] والآني : الحامي ، ومنه قوله تعالى ﴿ وبين حَمِيمٍ آن ﴾ [ الرحمن : 44 ] .

قوله عز وجل : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾

فيه قولان :

أحدهما : هذا الإنذار كاف للناس ، قاله ابن شجرة .

الثاني : هذا القرآن كافٍ للناس ، قاله ابن زيد .

﴿ ولينذروا به ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالرسول .

الثاني : بالقرآن .

﴿ وليعلموا أنما هو إله واحدٌ ﴾ لما فيه من الدلائل على توحيده .

﴿ وليذكّرَ أولوا الألباب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وليتعظ ، قاله الكلبي .

الثاني : ليسترجع يعني بما سمع من المواعظ . أولو الألباب ، أي ذوو العقول . وروى يمان بن رئاب أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(90/421)

---

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ فلا تحسبن الله ﴾ الآية ،

تثبيت للنبي عليه السلام ولغيره من أمته ، ولم يكن النبي عليه السلام ممن يحسب مثل هذا ، ولكن خرجت العبارة هكذا ، والمراد بما فيها من الزجر من شارك النبي عليه السلام في أن قصد تثبيته .

وقرأ جمهور الناس " مخلف وعده " بالإضافة ، " رسلَه " بالنصب ، وإضافة " مخلف " إلى الوعد ، إذ للإخلاف تعلق بالوعد على تجوز ، وإنما حقيقة تعلقه بالرسل ، وهذا نحو قول الشاعر : [ الطويل ]

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه . . . وسائره باد إلى الشمس أجمع

وكقولك : هذا معطي درهم زيداً . وقرأت فرقة : " مخلف وعدَه رسِله " بنصب الوعد

وخفض الرسل ، على الإضافة ، وهذه القراءة ذكرها الزجاج وضعفها ، وهي تحول بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، وهي كقول الشاعر : [ مجزوء الكامل ]

فزججتها بمزجّة . . . زج القلوص أبي مزادة

وأما إذا حيل في نحو هذا بالظرف فهو أشهر في الكلام كما قال الشاعر :

لله در اليوم من لامها . . . وقال آخر : [ الوافر ]

كما خط الكتاب بكفِّ يوماً . . . يهوديٍّ يقارب أو يزيل

والمعنى : لا تحسب يا محمد – أنت ومن اعتبر بالأمر من أمتك وغيرهم – أن الله لا ينجز ميعاده في نصره رسله ، وإظهارهم ، ومعاقبة من كفر بهم ، في الدنيا أو في الآخرة ، فإن الله عزيز لا يمتنع منه شيء ، ذو انتقام من الكفرة لا سبيل إلى عفوه عنهم .

وقوله : ﴿ يوم تبدل الأرض ﴾ الآية ، ﴿ يوم ﴾ ظرف للانتقام المذكور قبله . ورويت في " تبديل الأرض " أقوال ، منها في الصحيح : أن الله يبدل هذه الأرض بأرض عفراء بيضاء كأنها قرصة نقي ، وفي الصحيح : أن الله يبدلها خبزة يأكل المؤمن منها من تحت قدميه . وروي أنها تبدل أرضاً من فضة . وروي : أنها أرض كالفضة من بياضها . وروي أنها تبدل من نار . وقال بعض المفسرين : تبديل الأرض : هو نسف جبالها وتفجير بحارها وتغييرها حتى لا يرى فيها عوج ولا أمت : فهذه حال غير الأولى ، وبهذا وقع التبديل .

قال القاضي أبو محمد : وسمعت من أبي رضي الله عنه : أنه روي : أن التبديل يقع في الأرض ، ولكن يبدل لكل فريق بما تقتضيه حاله ، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته إليه ، وفريق يكون على فضة - إن صح السند بها - وفريق الكفرة يكونون على نار . ونحو هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالى .

وأكثر المفسرين على أن التبديل يكون بأرض بيضاء عفراء لم يعص الله فيها . ولا سفك فيها دم ، وليس فيها معلم لأحد ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " المؤمنون وقت التبديل في ظل العرش " ، وروي عنه أنه قال : " الناس وقت التبديل على الصراط " ، وروي أنه قال " الناس حينئذ أضياف الله فلا يعجزهم ما لديه " .

و ﴿ برزوا ﴾ مأخوذ من البراز ، أي ظهروا بين يديه لا يواريهم بناء ولا حصن . وقوله : ﴿ الواحد القهار ﴾ صفتان لائقتان بذكر هذه الحال .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) ﴾

﴿ المجرمين ﴾ هم الكفار ، و ﴿ مقرنين ﴾ مربوطين في قرن ، وهو الحبل الذي تشد به رؤوس الإبل والبقر ، ومنه قول الشاعر : [ البسيط ] .

وابن اللبون إذا ما لز في قرن . . . لم يستطع صولة البزل القناعيس

و ﴿ الأصفاد ﴾ الأغلال ، واحدها : صفد ، يقال : صفده وأصفده وصفده : إذا غلله

، والاسم : الصفاد ، ومنه قول سلامة بن جندل : [ الوافر ]

وزيد الخيل قد لاقى صفاداً . . . يعض بساعد وبعظم ساق

وكذلك يقال في العطاء ، و" الصفد " العطاء ، ومنه قول النابغة .

فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد . . . و" السرابيل " : القمص ، و" القطران " هو الذي تهنأ به الإبل ، وللنار فيه اشتعال شديد ، فلذلك جعل الله قمص أهل النار منه ، ويقال : " قَطِران " بفتح القاف وكسر الطاء ، ويقال : " قِطْران " بكسر القاف وسكون الطاء ، ويقال : " قَطْران " بفتح القاف وسكون الطاء .

(92/421)

---

وقرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والحسن بخلاف ، وابن عباس وأبو هريرة وعلقمة وسنان بن سلمة وعكرمة وابن سيرين وابن جبير والكلبي وقتادة وعمرو بن عبيد " من قطر آن " و" القطر " : القصدير ، وقيل : النحاس . وروي عن عمر أنه قال : ليس بالقطران ولكنه النحاس يسر بلونه . و" آن " وهو الطائب الحار الذي قد تناهى حره ؛ قال الحسن : قد سعرت عليه جهنم منذ خلقت فتناهى حره . وقال ابن عباس المعنى : أنى أن يعذبوا به .

وقرأ جمهور الناس " وجوهَهم " بالنصب ، " النارُ " بالرفع . وقرأ ابن مسعود " وجوهُهم " بالرفع . " النارَ " بالنصب . فالأولى على نحو قوله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [ الليل : 1 ] فهي حقيقة الغشيان ، والثانية على نحو قول الشاعر : [ الكامل ]

يغشون حتى ما تهر كلابهم . . . لا يسألون عن السواد المقبل

فهي بتجوز في الغشيان ، كأن ورود الوجوه على النار غشيان .

وقوله : ﴿ ليجزي ﴾ أي لكي يجزي ، واللام متعلقة بفعل مضمر ، تقديره : فعل هذا ، وأنفذ هذا العقاب على المجرمين ليكون في ذلك جزاء المسيء على إساءته . وجاء من لفظة الكسب بما يعم المسيء والمحسن ، لينبه على أن المحسن أيضاً يجازى بإحسانه خيراً .

وقوله : ﴿ سريع الحساب ﴾ أي فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أمرهم وجليلها . لا إله غيره ، وقيل لعلي بن أبي طالب : كيف يحاسب الله العباد في وقت واحد مع كثرتهم ؟ قال : كما يرزقهم في وقت واحد .

وقوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ الآية ، إشارة إلى القرآن والوعيد الذي يتضمنه ووصفه بالمصدر في قوله : ﴿ بلاغ ﴾ والمعنى : هذا بلاغ للناس وهو لينذروا به .

وقرأ جمهور الناس " ولينذَروا " بالياء وفتح الذال على بناء الفعل للمفعول. وقرأ يحيى بن عمارة وأحمد بن يزيد بن أسيد : " ليَنذَروا به " بفتح الياء والذال كقول العرب : نذرت بالشيء إذا أشعرت وتحرزت منه وأعددت وروي أن قوله : ﴿ وليذكر أولو الألباب ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(94/421)

---

وقال ابن الجوزى :

قوْله : ﴿ فلا تحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وَعْدِهِ رسلَه ﴾ .

أي : فقد وعدك الظهورَ عليهم.

قال ابن عباس : يريد بوعده : النصر والفتح وإِظهار الدين.

﴿ إِن الله عزيز ﴾ أي : منيع ﴿ ذو انتقام ﴾ من الكافرين، وهو أن يجازَيهم بالعقوبة على كفرهم.

﴿ يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض ﴾

وروى أبان "يوم نُبدِّل" بالنون وكسر الدال "الأرضَ" بالنصب ، "والسمواتِ" بخفض التاء ، ولا خلاف في نصب "غير" .

وفي معنى تبديل الأرض قولان :

أحدهما : أنها تلك الأرض ، وإنما يُزاد فيها ويُنقص منها ، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها ، وتُمد مَدَّ الأديم ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " يوم تبدل الأرض غير الأرض ، قال : ببسطها ويمدها مَدَّ الأديم " .

والثاني : أنها تبدَّل بغيرها .

ثم فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنها تُبدَّل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمل عليها خطيئة ، رواه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود ، وعطاء عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : أنها تُبدَّل ناراً ، قاله أُبيّ بن كعب .

والثالث : أنها تُبدَّل بأرض من فضة ، قاله أنس بن مالك .

والرابع : تُبدَّل بخبزة بيضاء ، فيأكل المؤمن من تحت قدميه ، قاله أبو هريرة ، وسعيد بن جبير ، والقرظي .

وقال غيرهم : يأكل منها أهل الإسلام حتى يُفرغ من حسابهم .

فأما تبديل السموات ، ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنها تُجعَل من ذهب ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : أنها تصير جِناناً ، قاله أُبيّ بن كعب .

والثالث : أن تبديلها : تكوير شمسها وتناثر نجومها ، قاله ابن عباس .

والرابع : أن تبديلها : اختلاف أحوالها ، فَمرة كالمُهْل ، ومَرَّة تكون كالدِّهان ، قاله ابن الأنباري .

والخامس : أن تبديلها أن تُطوى كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتاب .

والسادس : أن تنشقّ فلا تُظِلُّ ، ذكرهما الماوردي .

(95/421)

---

قوله تعالى : ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ أي : خرجوا من القبور .

قوله تعالى : ﴿ وترى المجرمين ﴾

يعني : الكفار ﴿ مُقرَّنين ﴾ يقال : قرنتُ الشيء إِلى الشيء : إِذا وصلتَه به .

وفي معنى "مُقرَّنين" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم يُقرَّنون مع الشياطين ، قاله ابن عباس .

والثاني: أن أيديَهم وأرجلَهم قُرنت إِلى رقابهم، قاله ابن زيد.

والثالث: يُقرَّن بعضهم إِلى بعض، قاله ابن قتيبة.

وفي الأصفاد ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الأغلال، قاله ابن عباس، وابن زيد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والزجاج، وابن الأنباري.

والثاني: القيود والأغلال، قاله قتادة.

والثالث: القيود، قاله أبو سليمان الدمشقي.

فأما السرابيل، فقال أبو عبيدة: هي القُمُص، واحدها سِربال.

وقال الزجاج: السِّربال: كل ما لُبس.

وفي القَطِرَانِ ثلاث لغات: فتح القاف وكسر الطاء، وفتح القاف مع تسكين الطاء، وكسر القاف مع تسكين الطاء.

وفي معناه قولان:

أحدهما: أنه النحاس المذاب، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنه قَطِران الإِبل، قاله الحسن، وهو شيء يَتَحلَّب من شجر تُهْنَأ به الإِبل.

قال الزجاج: وإِنما جُعل لهم القَطِرَان، لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود، ولو أراد الله تعالى المبالغة في إِحراقهم بغير ذلك لقَدَرَ، ولكنه حذَّرهم ما يعرفون حقيقته.

وقرأ ابن عباس، وأبو رزين، وأبو مجلز، وعِكرمة، وقتادة، وابن أبي عبلة، وأبو حاتم عن يعقوب: "مِنْ قِطْرٍ" بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين "آنٍ" بقطع الهمزة وفتحها ومدها.

والقِطْر: النحاس، وآن: قد انتهى حَرُّه.

قوله تعالى: ﴿ وتغشى وجوهَهم النار ﴾ أي: تعلوها.

واللام في ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ وبرزوا ﴾

قوله تعالى: ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾

في المشار إِليه قولان:

أحدهما: أنه القرآن.

والثاني: الإِنذار.

والبلاغ: الكفاية.

قال مقاتل: والمراد بالناس: أهل مكة.

قوله تعالى : ﴿ ولينذَروا به ﴾ أي : أُنزل لِيُنذَروا به ، وليعلموا بما فيه من الحُجج ﴿ أنما هو إله واحد وليذَّكر ﴾ أي : وليتعظ ﴿ أولو الألباب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(97/421)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

اسم الله تعالى و "مخلف" مفعولا تحسب ؛ و "رُسُلَهُ" مفعول "وَعْدِهِ" وهو على الاتساع ، والمعنى : مخلف وعدِه رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ . . .

وسائِرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ

قال القُتَبِيّ : هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير ، والمؤخّر الذي يوضحه التقديم ، وسواء في قولك : مخلف وعدِه رسلَه ، ومخلف رسلِه وعدَه .

﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ أي من أعدائه .

ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه في "الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾

أي اذكر يوم تبدّل الأرض ، فتكون متعلقة بما قبله .

وقيل : هو صفة لقوله : "يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ" .

واختلف في كيفية تبديل الأرض ، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومدّ أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضي الله عنه ؛ خرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب ، قال حدّثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض مدّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث .

وروي مرفوعاً من حديث أبي هُريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " تبدّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكَاظيّ لا ترى فيها عِوجاً ولا أَمْتاً ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى ( من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها " ذكره الغَزْنَويّ .

وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها ، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : اختلاف أحوالها ، فمرّة كالمهل ومرة كالدّهان ؛ حكاه ابن الأنباريّ ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّناً في كتاب "التذكرة" وذكرنا ما للعلماء في ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

روى مسلم " عن ثَوْبان مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهوديّ أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في الظُّلمة دون الجِسر" " وذكر الحديث .

وخرّج عن عائشة قالت : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : "يَوْم تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ" فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : "على الصراط" " خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذيّ عن عائشة وأنها هي السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدّل وتُزال ، ويخلق الله أرضاً أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسْر .

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْراء كقُرْصَة النّقيّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد " وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عن قول الله عز وجل : "يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ" قال : تُبدّل خُبْزة يأكل منها الخلق يوم القيامة ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام

﴾ [الأنبياء : 8] وقال ابن مسعود : إنها تبدّل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَلْ عليها خطيئة.

وقال ابن عباس : بأرض من فضّة بيضاء .

وقال عليّ رضي الله عنه : تبدّل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل للعين ، وحسبك .

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ أي من قبورهم ، وقد تقدّم .

(99/421)

---

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى المجرمين ﴾ وهم المشركون .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾ أي مشدودين ﴿ فِي الأصفاد ﴾ وهي الأغلال والقيود ، واحدها صَفْد وصَفَد .

ويقال : صَفَدته صَفْداً أي قيّدته والاسم الصَّفَد ، فإذا أردت التكثير قلت : صَفَّدته تصفِيداً ؛ قال عمرو بن كُلْثوم :

فآبُوا بالنِّهَاب وبالسَّبَايَا . . .

وأُبْنَا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

أي مقيّدينا .

وقال حسان :

مِن كلِّ مَأْسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ . . .

صَقْرٍ إذَا لاَقَى الْكَرِيهَةَ حَامِ

أي غلُّهُ ، وأصفدته إصفاداً أعطيته .

وقيل : صَفَدته وأَصْفَدته جاريان في القيد والإعطاء جميعاً ؛ قال النابغة :

فَلَمْ أُعَرِّض أَبَيْتَ اللّعن بالصَّفَدِ . . .

فالصَّفَد العطاء ؛ لأنه يُقيّد ويُعْبد ؛ قال أبو الطيب :

وقَيَّدتُ نفسِي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً . . .

ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقَيَّدَا

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان في غُلّ ، بيانه قوله : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [ الصافات : 22 ] يعني قرناءهم من الشياطين .

وقيل : إنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي .

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي قمصهم ، عن ابن دُرَيد وغيره ، واحدها سِربال ، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيري ؛ قال كعب بن مالك :

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ . . .

مِنْ نَسْجِ دَاوِدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

"مِن قَطِرَانٍ" يعني قطران الإبل الذي تُهْنَأ به ؛ قاله الحسن .

وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم .

وفي الصحيح : أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربال من قطران

ودِرْع من جَرَب .

وروي عن حماد أنهم قالوا : هو النُّحاس .

وقرأ عيسى بن عمر : "قَطْرَانٍ" بفتح القاف وتسكين الطاء .

وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء ؛ ومنه قول أبي النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَرَقَ الْمَنْتُوحَا . . .

(100/421)

---

لَبَّسَهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُوحَا

وقراءة رابعة : "مِنْ قِطْرآنٍ" رويت عن ابن عباس وأبي هُريرة وعِكْرمة وسعيد بن جُبير

ويعقوب ؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً

﴾ [الكهف: 96].

والآن: الذي قد انتهى إلى حرِّه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: 44].

﴿ وتغشى ﴾ أي تضرب ﴿ وُجُوهَهُمْ النار ﴾ فَتُغَشِّيها.

﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي بما كسبت.

﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ﴾ تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي هذا الذي أنزلنا إليك بلاغ؛ أي تبليغ وعظة.

﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ أي ليخوّفوا عقاب الله عز وجل، وقرىء.

"وَلِيَنْذَرُوا" بفتح الياء والذال، يقال: نَذِرت بالشيء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددت له، ولم يستعملوا منه مصدراً كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم استغنوا بأن والفعل كقولك: سَرَّني أن نَذِرتُ بالشيء.

﴿ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ أي وليعلموا وحدانية الله بما أقام من الحجج والبراهين.

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي وليتّعظ أصحاب العقول.

وهذه اللامات في "وَلِيُنْذَرُوا" "وَلِيَعْلَمُوا" "وَلِيَذَّكَّرَ" متعلقة بمحذوف؛ التقدير: ولذلك أنزلناه.

وروى يَمَان بن رِئَاب أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟

فقال : نعم ؛ قيل : وأين هو ؟

قال قوله تعالى : ﴿ هذا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ إلى آخرها . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 9 صـ ﴾

(101/421)

---

وقال الخازن :

﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾

يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر وإعلاء الكلمة ، وإظهار الدين فإنه ناصر رسله وأوليائه ومهلك أعدائه ، وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي غالب ﴿ ذو انتقام ﴾ يعني من أعدائه قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما أنه تبدل صفة الأرض والسماء لا ذاتهما فأما تبديل الأرض فبتغيير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها ، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب ، وتمد مد الأديم

وأما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها ، وقمرها ويكوران كونها تارة كالدهان ، وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء : ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل بن سعيد قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )

" يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس بها علم لأحد "

أخرجاه في الصحيحين العفراء بالعين المهملة ، وهي البيضاء إلى الحمرة ولهذا شبهها بقرصة النقى ، وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل إلى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها إلى الحمرة وقوله : ليس به علم لأحد يعني ليس فيها علامة لأحد بتبديل هيئتها ، وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها أثر يستدل به والقول الثاني : هو تبديل ذوات الأرض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ، ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال : تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : الأرض من فضة والسماء من ذهب .

وقال أبيّ بن كعب في معنى التبديل : بأن تصير الأرض نيراناً والسماء جناناً وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه عن أبي سعيد الخدري قال .

قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة " أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه .

قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث : أما النزل فبضم النون والزاي ويجوز إسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء .

وقال أهل اللغة : هي الظلمة التي توضع في الملة يتكفؤها بالهمزة بيده أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتسوى لأنها ليست منبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شيء ، ومعنى الحديث أن الله سبحانه وتعالى ، يجعل الأرض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعاماً نزلاً لأهل الجنة والله على كل شيء قدير .

فإن قلت : إذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ وهو أن تحدث أخبارها وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها ، قلت : وجه الجمع بين الآيتين أن الأرض تبدل أولاً صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث أخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلاً ثانياً ، وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضاً ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه سلم عن قوله تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال : " على الصراط " أخرجه مسلم وروى ثوبان بأن حبراً من اليهود سأل رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض قال : " هم في الظلمة دون الجسر " ذكره البغوي بغير سند ، ففي هذين الحديثين دليل على أن تبديل الأرض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

وقوله تعالى ﴿ وبرزوا ﴾ يعني وخرجوا من قبورهم ﴿ لله ﴾ يعني لحكم الله ، والوقوف بين يديه للحساب ﴿ الواحد القهار ﴾ صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الذي يقهر عباده على ما يريد ، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

قوله تعالى : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين ﴾

يعني مشدودين بعضهم إلى بعض يقال : قرنت الشيء بالشيء إذا شددته معه في رباط

واحد ﴿ في الأصفاد ﴾ يعني في القيود والأغلال .

قال ابن عباس : يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة .

قال أبو زيد : تقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي القيود .

(104/421)

---

وقال ابن قتيبة : يقرن بعضهم إلى بعض ﴿ سرابيلهم ﴾ يعني قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس ﴿ من قطران ﴾ القطران دهن يتحلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت ، وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنؤه بالهناء وهو القطران قال الزجاج : وإنما جعل لهم القطران سرابيل لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ولو أراد الله المبالغة في إحراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم مما يعرفون وقرأ عكرمة ، ويعقوب من قطران على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب والآن الذي انتهى حره ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ يعني تعلوها وتجللها ﴿ ليجزي الله كل نفس بما كسبت ﴾ يعني من خير أو شر ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يعني إذا حاسب عباده يوم القيامة ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ يعني هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس ﴿ ولينذروا ﴾ يعني وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ يعني وليستدلوا

بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى ﴿ وليذكر أولو الألباب ﴾ يعني وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ ، أولو العقول والأفهام الصحيحة ، فإنه موعظة لمن اتعظ والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(105/421)

---

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾

هذا خطاب للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .

ويوم منصوب على أنه مفعول ثان لأنذر ، ولا يصح أن يكون ظرفاً ، لأنّ ذلك اليوم ليس بزمان للإنذار ، وهذا اليوم هو يوم القيامة والمعنى : وأنذر الناس الظالمين ، ويبين ذلك قوله : فيقول الذين ظلموا ، لأن المؤمنين يبشرون ولا ينذرون .

وقيل : اليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ، ولقاء الملائكة بلا بشرى كقوله : ﴿ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدّق ﴾ ومعنى التأخر إلى أجل قريب الرد إلى الدنيا قاله الضحاك ، إذ الإمهال إلى أمد وحد من الزمان قريب قاله

السدي ، أي : لتدارك ما فرطوا من إجابة الدعوة ، واتباع الرسل .

أو لم تكونوا هو على إضمار القول والظاهر أنّ التقدير فيقال لهم ، والقائل الملائكة ، أو القائل الله تعالى .

يوبخون بذلك ، ويذكرون مقالتهم في إنكار البعث ، وإقسامهم على ذلك كما قال تعالى : ﴿ واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ ومعنى ما لكم من زوال ، من الأرض بعد الموت أي : لا نبعث من القبور .

وقال محمد بن كعب : إنّ هذا القول يكون منهم وهم في النار ، ويرد عليهم : أو لم تكونوا ، ومعناه التوبيخ والتقريع .

وقال الزمخشري أو لم تكونوا أقسمتم على إرادة القول ، وفيه وجهان : أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً ، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه .

وأن يقولوا بلسان الحال حيث بنوا شديداً ، وأملوا بعيداً .

وما لكم جواب القسم ، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله : أقسمتم ، ولو حكى لفظ المقسمين لقيل : ما لنا من زوال ، والمعنى : أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزولون بالموت والفناء ، وقيل : لا تنتقلون إلى دار أخرى انتهى .

فجعل الزمخشري أو لم تكونوا محكياً بقولهم ، وهو مخالف لما قد بيناه من أنه يقال لهم ذلك ، وقوله : لا يزولون بالموت والفناء ليس بجيد ، لأنهم مقرون بالموت والفناء .

وقوله هو قول مجاهد .

وسكنتم إن كان من السكون ، فالمعنى : أنهم قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين بسيرة من قبلهم في الظلم والفساد ، لا يحدثونها بما لقي الظالمون قبلهم .

وإن كان من السكنى ، فإنّ السكنى من السكون الذي هو اللبث ، والأصل تعديته بفي كما يقال : أقام في الدار وقر فيها ، ولكنه لما أطلق على سكون خاص تصرف فيه ، فقيل : سكن الدار كما قيل : تبوأها ، وتبين لكم بالخبر وبالمشاهدة ما فعلنا بهم من الهلاك والانتقام .

وقرأ الجمهور : وتبين فعلاً ماضياً ، وفاعله مضمر يدل عليه الكلام أي : وتبين لكم هو أي حالهم ، ولا يجوز أن يكون الفاعل كيف ، لأنّ كيف إنما تأتي اسم استفهام أو شرط ، وكلاهما لا يعمل فيه ما قبله ، إلا ما روي شاذاً من دخول على علي كيف في قولهم : على كيف تبيع الأحمرين ، وإلى في قولهم : أنظر إلى كيف تصنع ، وإنما كيف هنا سؤال عن حال في موضع نصب بفعلنا .

وقرأ السلمي فيما حكى عنه أبو عمرو الداني : ونبين بضم النون ، ورفع النون الأخيرة

مضارع يبين ، وحكاها صاحب اللوامح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك على إضمار ونحن نبين ، والجملة حالية .

وقال المهدوي عن السلمي : إنه قرأ كذلك ، إلا أنه جزم النون عطفاً على أو لم تكونوا أي : ولم نبين فهو مشارك في التقرير .

وضربنا لكم الأمثال أي : صفات ما فعلوا وما فعل بهم ، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) ﴾

المقرّن : المشدود في القرن ، وهو الحبل .

الصفد : الغل ، والقيد يقال : صفده صفداً قيده ، والاسم الصفد ، وفي التكثير صفده مشدداً .

قال الشاعر :



---

وأبقى بالملوك مصفدينا . . .

وأصفدته : أعطيته .

وقيل : صفد وأصفد معاً في القيد والإعطاء .

قال الشاعر :

فلم أعرض أبيت اللعن بالصفد . . .

أي : بالعطاء .

وسمي العطاء صفداً لأنه يقيده ويعبد .

السربال : القميص ، يقال : سربلته فتسربل .

القطران : ما يحلب من شجر الابهل فيطبخ ، وتهنأ به الإبل الجربى ، فيحرق الجرب بحره وحدته ، وهو أقبل الأشياء اشتعالاً ، ويقال فيه قطران بوزن سكران ، وقطران بوزن سرحان .

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار .

وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد .

سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار .

ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب .

هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ : الظاهر

أنّ الضمير في مكروا عائد على المخاطبين في قوله : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ أي مكروا بالشرك بالله ، وتكذيب الرسل .

وقيل : الضمير عائد على قوم الرسول كقوله : ﴿ وأنذر الناس ﴾ أي : وقد مكر قومك يا محمد ، وهو الذي في قوله : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ الآية ومعنى مكرهم أي : المكر العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم ، والظاهر أنّ هذا إخبار من الله لنبيه بما صدر منهم في الدنيا ، وليس مقولاً في الآخرة .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة للظلمة الذين سكن في منازلهم .

وعند الله مكرهم أي : علم مكرهم فهو مطلع عليه ، فلا ينفذ لهم فيه قصداً ، ولا يبلغهم فيه أملاً أو جزاء مكرهم ، وهو عذابه لهم .

والظاهر إضافة مكر وهو المصدر إلى الفاعل ، كما هو مضاف في الأول إليه كأنه قيل : وعند الله ما مكروا أي مكرهم .

(108/421)

---

وقال الزمخشري : أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى : وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به ، وهو عذابهم الذي يستحقونه ، يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون

انتهى .

وهذا لا يصح إلا إن كان مكر يتعدى بنفسه كما قال هو ، إذ قدر يمكرهم به ، والمحفوظ أنّ مكر لا يتعدى إلى مفعول به بنفسه .

قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ وتقول : زيد ممكور به ، ولا يحفظ زيد ممكور بسبب كذا .

وقرأ الجمهور : وإن كان بالنون .

وقرأ عمرو ، وعلي ، وعبد الله ، وأبيّ ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو إسحاق السبيعي ، وزيد بن علي : وإن كاد بدال مكان النون لتزول بفتح اللام الأولى ورفع الثانية ، وروي كذلك عن ابن عباس .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وابن وثاب ، والكسائي كذلك ، إلا أنهم قرأُوا وإن كان بالنون ، فعلى هاتين القراءتين تكون إنْ هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة ، وذلك على مذهب البصريين .

وأما على مذهب الكوفيين فإن نافية ، واللام بمعنى إلا .

فمن قرأ كاد بالدال فالمعنى : أنه يقرب زوال الجبال بمكرهم ، ولا يقع الزوال .

وعلى قراءة كان بالنون ، يكون زوال الجبال قد وقع ، ويكون في ذلك تعظيم مكرهم وشدته ، وهو بحيث يزول منه الجبال وتنقطع عن أماكنها .

ويحتمل أن يكون معنى لتزول ليقرب زوالها ، فيصير المعنى كمعنى قراءة كاد .

ويؤيد هذا التأويل ما ذكره أبو حاتم من أنّ في قراءة أبيّ : ولولا كلمة الله لزال من مكرهم الجبال ، وينبغي أن تحمل هذه القراءة على التفسير لمخالفتها لسواد المصحف المجمع عليه .

وقرأ الجمهور وباقي السبعة : وإن كان بالنون مكرهم لتزول بكسر اللام ، ونصب الأخيرة .

ورويت هذه القراءة عن علي ، واختلف في تخريجها .

(109/421)

---

فعن الحسن وجماعة أنّ إنْ نافية ، وكان تامة ، والمعنى : وتحقير مكرهم ، وأنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوات وأقدار الله التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها ، ويؤيد هذا التأويل ما روي عن ابن مسعود أنه قرأ : وما كان بما النافية : لكنّ هذا التأويل ، وما روي عن ابن مسعود من قراءة وما بالنفي ، يعارض ما تقدم من القراءات ، لأنّ فيها تعظيم مكرهم ، وفي هذا تحقيره .

ويحتمل على تقدير أنها نافية أن تكون كان ناقصة ، واللام لام الجحود ، وخبر كان على الخلاف الذي بين البصريين والكوفيين : أهو محذوف ؟ أو هو الفعل الذي دخلت عليه

اللام؟ وعلى أنّ إنْ نافية وكان ناقصة ، واللام في لتزول متعلقة بفعل في موضع خبر كان ، خرجه الحوفي .

وقال الزمخشري : وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وإن عظم مكرهم وتتابع في الشدة بضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته أي : وإن كان مكرهم مستوٍ لإزالة الجبال معداً لذلك .

وقال ابن عطية : ويحتمل عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تعظيم مكرهم أي : وإن كان شديداً بما يفعل ليذهب به عظام الأمور انتهى .

وعلى تخريج هذين تكون إن هي المخففة من الثقيلة ، وكان هي الناقصة .

وعلى هذا التخريج تتفق معاني القراءات أو تتقارب ، وعلى تخريج النفي تتعارض كما ذكرنا .

وقرىء لتزول بفتح اللام الأولى ونصب الثانية ، وذلك على لغة من فتح لام كي .

والذي يظهر أنّ زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لمكر قريش ، وعظمه والجبال لا تزول ، وهذا من باب الغلو والإيغال والمبالغة في ذم مكرهم .

وأما ما روي أن جبلاً زال بحلف امرأة اتهمها زوجها وكان ذلك الجبل من حلف عليه كاذباً مات ، فحملها للحلف ، فمكرت بأن رمت نفسها عن الدابة وكانت وعدت من اتهمت به أن يكون في المكان الذي وقعت فيه عن الدابة ، فأركبها زوجها وذلك الرجل ،

وحلفت على الجبل أنها ما مسها غيرهما ، فنزلت سالمة ، وأصبح الجبل قد اندك ، وكانت المرأة من عدنان .

(110/421)

---

وما روي من قصة النمرود أو بخت نصّر ، واتخاذ الأنسر وصعودهما عليها إلى قرب السماء في قصة طويلة .

وما تأول بعضهم أنه عبر بالجبال عن الإسلام ، والقرآن لثبوته ورسوخه ، وعبر بمكرهم عن اختلافهم فيه من قولهم : هذا سحر هذا شعر هذا إفك ، فأقوال ينبو عنها ظاهر اللفظ ، وبعيد جداً قصة الأنسر .

والنهي عن الحسبان كهو في قوله : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ﴾ وأطلق الحسبان على الأمر المتحقق هنا كما قال الشاعر :

فلا تحسبن أني أضل منيتي . . .

فكل امرىء كأس الحِمام يذوق

وهذا الوعد كقوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾

وقرأ الجمهور بإضافة مخلف إلى وعده ، ونصب رسله .

واختلف في إعرابه فقال الجمهور .

الفراء ، وقطرب ، والحوفي ، والزمخشري ، وابن عطية ، وأبو البقاء : إنه مما أضيف فيه اسم الفاعل إلى المفعول الثاني كقولهم : هذا معطي درهم زيداً ، لما كان يتعدى إلى اثنين جازت إضافته إلى كل واحد منهما ، فينتصب ما تأخر .

وأنشد بعضهم نظيراً له قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه . . .

وسائره باد إلى الشمس أجمع

وقال أبو البقاء : هو قريب من قولهم : يا سارق الليلة أهل الدار .

وقال الفراء وقطرب : لما تعدى الفعل إليهما جميعاً لم يبال بالتقديم والتأخير .

وقال الزمخشري : ( فإن قلت ) : هلا قيل مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثاني على الأول ؟ ( قلت ) : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً لقوله : ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ ثم قال : رسله ، ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ؟ انتهى .

وهو جواب على طريقة الاعتزال في أنّ وعد الله واقع لا محالة ، فمن وعده بالنار من العصاة لا يجوز أن يغفر له أصلاً .

ومذهب أهل السنة أنّ كل ما وعد من العذاب للعصاة المؤمنين هو مشروط إنفاذه بالمشيئة .

(111/421)

---

وقيل : مخلف هنا متعد إلى واحد كقوله : ﴿ لا يخلف الميعاد ﴾ فأضيف إليه ، وانتصب رسله بوعده إذ هو مصدر ينحل بحرف مصدري والفعل كأنه قال : مخلف ما وعد رسله ، وما مصدرية ، لا بمعنى الذي .

وقرأت فرقة : مخلف وعده رسله بنصب وعده ، وإضافة مخلف إلى رسله ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، وهو كقراءة .

قتل أولادهم شركائهم ، وتقدم الكلام عليه مشبعاً في الأنعام .

وهذه القراءة تؤيد إعراب الجمهور في القراءة الأولى ، وأنه مما تعدى فيه مخلف إلى مفعولين .

إنّ الله عزيز لا يمتنع عليه شيء ولا يغالب ذو انتقام من الكفرة لا يعفو عنهم .

والتبديل يكون في الذات أي : تزول ذات وتجيء أخرى .

ومنه : ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ ويكون في الصفات كقولك : بدلت الحلقة خاتماً ، فالذات لم تفقد لكنها انتقلت من شكل إلى شكل .

واختلفوا في التبديل هنا ، أهو في الذات ، أو في الصفات ، فقال ابن عباس : تمد كما يمد الأديم ، وتزال عنها جبالها وآكامها وشجرها ، وجميع ما فيها حتى تصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، وتبدل السموات بتكوير شمسها ، وانتثار كواكبها ، وانشقاقها ، وخسوف قمرها .

وقال ابن مسعود : تبدل الأرض بأرض كالفضة نقية لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل فيها خطيئة .

وقال على تلك الأرض من فضة والجنة من ذهب .

وقال محمد بن كعب وابن جبير : هي أرض من خبز يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم ، وجاء هذا مرفوعاً .

وقيل : تصير ناراً والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها .

وقال أبي : تصير السموات حقاباً .

وقيل : تبديلها طيها .

وقيل : مرة كالمهل ، ومرة وردة كالدهان ، قاله ابن الأنباري .

وقيل : بانشقاقها فلا تظل .

وفي الحديث : " إنّ الله يبدل الأرض بأرض عفراء بيضاء كأنها قرصة نقي " وفي كتاب

الزمخشري وعن علي : تبدل أرضاً من فضة ، وسموات من ذهب .

وعن الضحاك : أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف .

(112/421)

---

وعن ابن عباس : هي تلك الأرض وإنما تغير ، وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم . . .

ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

قال ابن عطية : وسمعت من أبي رضي الله عنه روى أن التبديل يقع في الأرض ، ولكنْ تبدل لكل فريق بما يقتضيه حاله ، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته إليه ، وفريق يكونون على فضة إن صح السند بها ، وفريق الكفرة يكونون على نار ونحو هذا ، وكله واقع تحت قدرة الله تعالى .

وفي الحديث : " المؤمنون وقت التبديل في ظل العرش ، وفيه أنهم ذلك الوقت على الصراط " وقال أبو عبد الله الرازي : المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم ، ويجعل السموات الجنة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ وقوله : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ انتهى .

وكلامه هذا يدل على أنّ الجنة والنار غير مخلوقتين ، وظاهر القرآن والحديث أنهما قد خلقتا ، وصح في الحديث أنّ رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) اطلع عليهما ، ولا يمكن أن يطلع عليهما حقيقة إلا بعد خلقهما .

وبرزوا : أي ظهروا .

وألا يواريهم بناء ولا حصن ، وانتصاب يوم على أنه بدل من يوم يأتيهم قاله الزمخشري ، أو معمولا لمخلف وعده .

وإن وما بعدها اعتراض قاله الحوفي .

وقال أبو البقاء : لا يجوز أن يكون ظرفاً فالمخلف ولا لوعده ، لأنّ ما قبل أنْ لا يعمل فيما بعدها ، ولكن جوز أن يلحق من معنى الكلام ما يعمل في الظرف أي : لا يخلف وعده يوم تبدل انتهى .

وإذا كان إن وما بعدها اعتراضاً ، لم يبال أنه فصلاً بين العامل والمعمول ، أو معمولاً لانتقام قاله : الزمخشري ، والحوفي ، وأبو البقاء ، أولاً ذكر قاله أبو البقاء .

وقرىء : نبدل بالنون الأرض بالنصب ، والسموات معطوف على الأرض ، وثم محذوف أي : غير السموات ، حذف لدلالة ما قبله عليه .

والظاهر استئناف .

وبرزوا .

وقال أبو البقاء يجوز أن يكون حالاً من الأرض ، وقد معه مزادة .

(113/421)

---

ومعنى لله : لحكم الله ، أو لموعوده من الجنة والنار .

وقرأ زيد بن علي : وبرزوا بضم الباء وكسر الراء مشددة جعله مبنياً للمفعول على سبيل التكثير بالنسبة إلى العالم وكثرتهم ، لا بالنسبة إلى تكرير الفعل .

وجيء بهذين الوصفين وهما : الواحد وهو الواحد الذي لا يشركه أحد في ألوهيته ، ونبه به على أنّ آلهتهم في ذلك اليوم لا تنفع .

والقهار وهو الغالب لكل شيء ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وترى المجرمين يومئذ يوم إذ تبدل ، وبرزوا مقرنين مشدودين في القرن أي : مقرون بعضهم مع بعض في القيود والأغلال ، أو مع شياطينهم ، كل كافر مع شيطانه في غل أو تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغللين .

والظاهر تعلق في الأصفاد بقوله : مقرنين أي : يقرنون في الأصفاد .

ويجوز أن يكون في موضع الصفة لمقرنين ، وفي موضع الحال ، فيتعلق بمحذوف كأنه قيل :

مستقرين في الأصفاد .

وقال الحسن : ما في جهنم واد ، ولا مفازة ، ولا قيد ، ولا سلسلة ، إلا اسم صاحبه مكتوب عليه .

وقرأ علي ، وأبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وابن جبير ، وابن سيرين ، والحسن ، بخلاف عنه .

وسنان بن سلمة بن المحنق ، وزيد بن علي ، وقتادة ، وأبو صالح ، والكلبي ، وعيسى الهمداني ، وعمرو بن فائد ، وعمرو بن عبيد من قطر بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء ، أنّ اسم فاعل من أني صفة لقطر .

قيل : وهو القصدير ، وقيل : النحاس .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : ليس بالقطران ، ولكنه النحاس يصير بلونه .

والآني الذائب الحار الذي قد تناهى حره .

قال الحسن : قد سعرت عليه جهنم منذ خلقت ، فتناهى حره .

وقال ابن عباس : أي آن أن يعذبوا به يعني : حان تعذيبهم به .

وقال الزمخشري : ومن شأنه .

أي : القطران ، أن يسرع فيه اشتعال النار ، وقد يستسرج به ، وهو أسود اللون منتن الريح ، فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص ، لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أنّ التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين .

وكل ما وعده الله ، أو أوعد به في الآخرة ، فبينه وبين ما يشاهده من جنسه ما لا يقادر قدره ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة ، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه انتهى .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وعليّ بن أبي طالب : من قطران بفتح القاف وإسكان الطاء ، وهو في شعر أبي النجم قال : لبسنه القطران والمسوحا .

وقرأ الجمهور : وتغشى وجوههم بالنصب ، وقرىء بالرفع ، فالأول على نحو قوله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ فهي على حقيقة الغشيان ، والثانية على التجوز ، جعل ورود الوجه على النار غشياناً .

وقرىء : وتغشى وجوههم بمعنى تتغشى ، وخص الوجوه هنا .

وفي قوله : ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ، ويوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه كالقلب في باطنه ، ولذلك قال

: ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ وليجزي متعلق بمحذوف تقديره : يفعل بالمجرمين ما يفعل ، ليجزي كل نفس أي : مجرمة بما كسبت ، أو كل نفس من مجرمة ومطيعة : لأنه إذا عاقبت المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم ، قاله الزمخشري .

ويظهر أنها تتعلق بقوله : وبرزوا أي : الخلق كلهم ، ويكون كل نفس عاماً أي : مطيعة ومجرمة ، والجملة من قوله : وترى ، معترضة .

وقال ابن عطية : اللام متعلقة بفعل مضمر تقديره : فعل هذا ، أو أنفذ هذا العقاب على المجرمين ليجزي في ذلك المسيء على إساءته انتهى .

*(115/421)*

---

والإشارة بهذا إلى ما ذكر به تعالى من قوله : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ﴾ إلى قوله : ﴿ سريع الحساب ﴾ وقيل : الإشارة إلى القرآن ، وقيل : إلى السورة .

ومعنى بلاغ كفاية في الوعظ والتذكير ، ولينذروا به .

قال الماوردي : الواو زائدة ، وعن المبرد : هو عطف مفرد أي : هذا بلاغ وإنذار انتهى .

وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب .

وقيل : هو محمول على المعنى أي : ليبلغوا ولينذروا .

وقيل : اللام لام الأمر .

قال بعضهم : وهو حسن لولا قوله : وليذكر ، فإنه منصوب لا غير انتهى .

ولا يخدش ذلك ، إذ يكون وليذكر ليس معطوفاً على الأمر ، بل يضمر له فعل يتعلق به .

وقال ابن عطية : المعنى هذا بلاغ للناس ، وهو لينذروا به انتهى .

فجعله في موضع رفع خبراً لهو المحذوفة .

وقال الزمخشري : ولينذروا معطوف على محذوف أي : لينصحوا ولينذروا به بهذا البلاغ انتهى .

وقرأ مجاهد ، وحميد : بتاء مضمومة وكسر الذال ، كان البلاغ العموم ، والإنذار للمخاطبين .

وقرأ يحيى بن عمارة : الذراع عن أبيه ، وأحمد بن زيد بن أسيد السلمي : ولينذروا بفتح الياء والذال ، مضارع نذر بالشيء إذا علم به فاستعد له .

قالوا : ولم يعرف لهذا الفعل مصدر ، فهو مثل عسى وغيره مما استعمل من الأفعال ولم يعرف له أصل .

وليعلموا لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعاهم ذلك إلى النظر ، فيتوصلون إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ، إذ الخشية أصل الخير .

وليذكر أي : يتعظ ويراجع نفسه بما سمع من المواعظ .

وأسند التذكر والاتعاظ إلى من له لب، لأنهم هم الذين يجدي فيهم التذكر.

وقيل: هي في أبي بكر الصديق.

وناسب مختتم هذه السورة مفتتحها، وكثيراً ما جاء في سور القرآن، حتى أنّ بعضهم زعم أن قوله: ولينذروا به معطوف على قوله: لتخرج الناس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(116/421)

---

وقال أبو السعود:

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

لم يرِدْ به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ الآية، وقوله: ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ كما قيل فإنه لا اختصاصَ له بالتعذيب لا سيما الأخرويُّ، بل ما سلف آنفاً من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ الآية، كما يُفصح عنه الفاءُ الداخلة على النهي الذي أريد به تثبيتُه عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقّن بإنجاز وعدِه المذكور المقرونِ بالأمر بإنذارهم يوم إتيانِ العذاب المتضمّنِ لذكر تعذيبِ الأممِ السالفة، بسبب كفرِهم وعصيانِهم رسلَهم

بعد ما وعدهم بذلك كما فُصّلت قصةُ كل منهم في القرآن العظيم ، فكأنه قيل : وإذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة ، وأخبرناك بما يلقَوْنه من الشدائد ، وبما يسألونه من الرد إلى الدنيا ، وبما أجَبْناهم به وقرَعناهم بعدم تأملِهم في أحوال من سبَقهم من الأمم الذين أهلكناهم بظلمهم بعد ما وعدنا رسلَهم بإهلاكهم ، فدُمْ على ما كنت عليه من اليقين بعدم إخلافِنا رسلَنا وعدَنا ﴿ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالبٌ لا يماكَر وقادرٌ لا يقادَر ﴿ ذُو انتقام ﴾ لأوليائه من أعدائه ، والجملةُ تعليلٌ للنهي المذكور وتذييلٌ له ، وحيث كان الوعدُ عبارةً عما ذكرنا من تعذيبهم خاصة لم يذيَّل بأن يقال : إن الله لا يخلف الميعاد ، بل تعرض لوصف العزة والانتقامِ المُشعِرَين بذلك ، والمرادُ بالانتقام ما أشير إليه بالفعل وعبّر عنه بالمكر .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾

(117/421)

---

ظرفٌ لمضمر مستأنفٌ ينسحب عليه النهيُ المذكور أي ينجزه يوم الخ ، أو معطوفٌ عليه نحوُ وارتقب يومَ تبدّل الأرض غيرَ الأرض ، أو الانتقام وهو يوم يأتيهم العذابُ بعينه ولكن له أحوالٌ جمّةٌ يُذكر كلَّ مرة بعنوان مخصوص ، والتقييدُ به مع عموم انتقامِه للأوقات كلها للإفصاح عما هو المقصودُ من تعذيب الكفرة المؤخرِ إلى ذلك اليوم بموجب الحكمةِ الداعيةِ

إليه ، وقيل : بدلٌ من ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ أو نُصب باذكرْ أو إضمارِ لا يخلف وعده يوم تبدل الخ ، وفيه أيضاً ما في الوجه الثالث من الحاجة إلى الاعتذار ، ولا يجوز أن ينتصب بقوله : مخلفَ وعدِه لأن ما قبل إنّ لا يعمل فيما بعده ، وقيل : هو غيرُ مانع لأن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ جملةٌ اعتراضية فلا يبالى بها فاصلاً .

واعلم أن التبديلَ قد يكون في الذات كما في : بدلتُ الدراهمَ دنانيرَ وعليه قوله عز وجل : ﴿ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ وقد يكون في الصفات كما في قولك : بدلتُ الحلْقةَ خاتماً إذا غيّرتَ شكلها ومنه قوله تعالى : ﴿ يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ على بعض الأقوال ، والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين . فعن علي رضي الله عنه : " تبدل أرضاً من فضة وسمواتٍ من ذهب " وعن ابن مسعود رضي الله عنه : " تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاءَ نقيةٍ لم يُسفك فيها دمٌ ولم يعملْ عليها خطيئة " وعن ابن عباس رضي الله عنهما : " هي تلك الأرضُ وإنما تُغيّر صفاتها " وأنشد

وما الناسُ بالناس الذين عهِدتهم . . . وما الدارُ بالدار التي كنت تعلمُ

وتبدّلُ السموات بانتثار كواكبها وكسوفِ شمسِها وخسوفِ قمرِها وانشقاقها وكونها أبواباً ، ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : " تبدل الأرضُ غيرَ الأرض فتبسط وتُمد مدّ الأديمِ العُكاظِيّ لا ترى فيها عِوجاً ولا أمْتاً " ﴿ والسماوات ﴾ أي وتبدل السمواتُ غيرَ السموات حسبما مر من التفصيل ، وتقديمُ تبديلِ الأرض لقربها منا ولكون تبديلها أعظمَ أثراً بالنسبة إلينا .

﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ أي الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السباق ، والمرادُ بروزُهم من أجداثهم التي في بطون الأرضِ أو ظهورُهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرًّا ويزعُمون أنها لا تظهر ، أو يعملون عمل من يزعمُ ذلك ، ولعل إسنادَ البروز إليهم مع أنه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكال تناسبها ، وهو معطوفٌ على تبدل ، والعدولُ إلى صيغة الماضي للدِلالة على تحقق وقوعِه ، أو حالٌ من الأرض بتقدير قد والرابطُ بينها وبين صاحِبها الواو ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ للحساب والجزاء ، والتعرُّضُ للوصفين لتهويل الخطبِ وتربيةِ المهابة وإظهار بطلانِ الشركِ ، وتحقيقُ الانتقامِ في ذلك اليوم على تقدير كونِه ظرفاً له ، وتحقيقُ إتيان العذاب الموعودِ على تقدير كونِه بدلاً من يوم يأتيهم العذاب فإن الأمرَ إذا كان لواحد غلاّبٍ لا يعار وقادر لا يُضارّ ولا يغار كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾ عطف على برزوا ، والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار ، وأما البروز فهو دفعي لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم إذ برزوا له عز وجل أو يوم إذ تبدل الأرض أو يوم ينجز وعده ﴿ مُقْرَنِينَ ﴾ قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر ، أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الرديّة والأعمال السيئة غِبّ تصور كل منها وتشكلهما بما يناسبهما من الصور الموحشة والأشكال الهائلة ، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم وهو حال من المجرمين ﴿ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ في القيود أو الأغلال ، وهو إما متعلق بقوله تعالى : ﴿ مُقْرَنِينَ ﴾ أو حال من ضميره أي مصفّدين .



﴿ سَرَابِيلُهُمْ ﴾ أي قمصانهم ﴿ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ جملة من مبتدإ وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها الضمير فقط كما في كلمته فوه إلى فيّ ، أو مستأنفة ، والقطران ما ينحلب من الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بما

فيه من الحِدّة الشديدة ، وقد تصل حرارتُه إلى الجوف وهو أسودُ منتِنٌ يسرع فيه اشتعالُ النار يطلى به جلودُ أهل النار حتى يعودَ طلاؤُه لهم كالسراويل ليجتمع عليهم الألوانُ الأربعة من العذاب لذعُه وحرقتُه وإسراعُ النار في جلودهم واللونُ الموحش والنَتَنُ على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادَر قدرُه فكأن ما نشاهده منهما أسماءُ مسمَّياتِها في الآخرة ، فبِكَرمه العميمِ نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلاً لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديةِ والهَنات الوحشية فتجلُب إليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطِرانُ المذكور عينَ ما لابسوه في هذه النشأة وجعلوا شعاراً لهم من العقائد الباطلة والأعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعةِ لاشتداد العذاب عصَمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولُطفه ، وقرىء قطرآنٍ أي نحاس مُذابٍ مُتناهٍ حرُّه .

*(121/421)*

---

﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النارُ التي تمس جسدَهم المسَرْبلَ بالقطِران ، وتخصيصُ الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائِهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرة وأشرفَها كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوء العذاب ﴾ الخ ،

ولكونها مجمعَ المشاعرِ والحواسّ التي خُلقت لإدراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره ، كما أن الفؤادَ أشرفُ الأعضاء الباطنةِ ومحلُّ المعرفة وقد ملؤوها بالجهالات ، ولذلك قيل : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ أو لخلوّها عن القطِران المغني عن ذكر غشيانِ النار لها ، ولعل تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشافِ اللهب أحياناً ويتضاعف عذابُهم بالخزي على رؤوس الأشهاد ، وقرئ تَغَشَّى أي تتغشى بحذف إحدى التاءين ، والجملةُ نصبٌ على الحالية لا على أن الواو حاليةٌ لأنه مضارعٌ مثبَتٌ بل على أنها معطوفةٌ على الحال قاله أبو البقاء .

﴿ لِّيَجْزِىَ الله ﴾ متعلقٌ بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزِيَ ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ مجرمةٍ ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من أنواع الكفرِ والمعاصي جزاءً موافقاً لعملها ، وفيه إيذانٌ بأن جزاءَهم مناسبٌ لأعمالهم ، أو بقوله : برزوا على تقدير كونِه معطوفاً على تُبدّل ، والضمير للخلق ، وقوله : وترى المجرمين الخ ، اعتراضٌ بين المتعلّق والمتعلَّق به أي برزوا للحساب ليجزيَ الله كلَّ نفس مطيعةٍ أو عاصية ما كسبت من خير أو شر ، وقد اكتُفي بذكر عقاب العُصاة تعويلاً على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة سبق الرحمةِ الواسعة ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ إذ لا يشغَله شأنٌ عن شأن فيُتمّه في أعجل ما يكون من الزمان فيوفّي الجزاءَ بحسبه ، أو سريعُ المجيء يأتي عن قريب ، أو سريعُ الانتقام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب . ﴾

(122/421)

﴿ هذا ﴾ أي ما ذكر من قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا ﴾ إلى قوله : ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ ﴿ بَلاَغٌ ﴾ كفايةٌ في العظة والتذكيرِ من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورةُ الكريمةُ أو كلُّ القرآنِ المجيدِ من فنون العظات والقوارعِ ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ للكفار خاصةً على تقدير اختصاصِ الإنذار بهم في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾ أو لهم وللمؤمنين كافةً على تقدير شمولِه لهم أيضاً وإن كان ما شرح مختصاً بالظالمين ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ عطفٌ على مقدر واللامُ متعلقةٌ بالبلاغ أي كفاية لهم في أن يُنصَحوا أو ينذروا به ، أو هذا بلاغٌ لهم ليفهموه ولينذَروا به ، على أن البلاغَ بمعنى الإبلاغ كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرسولِ إلاَّ البلاغ ﴾ أو متعلقة بمحذوف أي ولينذَروا به أُنزل أو تُليَ ، وقرىء لينذروا به من نذر بالشيء إذا علِمه وحذِره واستعدّ له .

(123/421)

﴿ وَلِيَعْلَمُواْ ﴾ بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحةِ هي إهلاكُ الأمم وإسكانُ آخرين ( في ) مساكنهم ، وغيرُهما مما سبق ولحق ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ لا شريكَ له ، وتقديمُ الإنذار لأنه الداعي إلى التأمل المؤدّي إلى ما هو غايةٌ له من العلم المذكور والتذكر في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي ليتذكروا ما كانوا يعلمونه من قبلُ من التوحيد وغيرِه من شؤون الله عز وجل ومعاملتِه مع عباده فيرتدعوا عما يُرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفارُ ويتدرعوا بما يُحظيهم من العقائد الحقةِ والأعمال الصالحةِ ، وفي تخصيص التذكرِ بأولي الألباب تلويحٌ باختصاص العلمِ بالكفار ودلالةٌ على أن المشارَ إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المَسوقةِ لشأنهم لا كلُّ السورةِ المشتملةِ عليها على ما سيق للمؤمنين أيضاً ، فإن فيه ما يفيدهم فائدةً جديدةً ، وحيث كان ما يفيده البلاغُ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمراً حادثاً وبالنسبة إلى أولي الألباب الثباتَ على ذلك حسبما أُشير إليه عن الأول بالعلم وعن الثاني بالتذكر ، ورُوعيَ ترتيبُ الوجودِ مع ما فيه من الختم بالحسنى والله سبحانه أعلم . . ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز بمرضاته في الأولى والعقبى آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

تثبيت له صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه من الثقة بالله سبحانه والتيقن بانجاز وعده تعالى بتعذيب الظالمين المقرون بالأمر بانذارهم كما يفصح عنه الفاء ، وقال الطيبي : واستحسنه التلميذ أنه يجوز أن يحمل الوعد على المفاد بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ [ إبراهيم : 46 ] وقد جعله وجهاً آخر لما ذكره الزمخشري من تفسير له بقوله تعالى : ﴿ أَنَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ [ غافر : 51 ] و ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [ المجادلة : 21 ] وفيه نظر لأنه لا اختصاص لذلك كما قيل بالعذيب لا سيما الأخروي ، وإضافة ﴿ مُخْلِفَ ﴾ إلى الوعد عند الجمهور من إضافة اسم الفاعل إلى المفعول الثاني كقولهم : هذا معطى درهم زيداً ، وهو لما كان يتعدى إلى اثنين جازت إضافته إلى كل منهما فينصب ما تأخر ، وأنشد بعضهم نظيراً لذلك قوله :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه . . .

وسائره باد إلى الشمس أجمع

وذكر أبو البقاء أن هذا قريب من قولهم : يا سارق الليلة أهل الدار .

وفي "الكشاف" أن تقديم الوعد ليعلم أنه تعالى لا يخلف الوعد أصلاً كقوله سبحانه : ﴿ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [ آل عمران : 9 ] ثم قال جل شأنه : ﴿ رُسُلَهُ ﴾ ليؤذن أنه إذا لم

يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلاف المواعيد كيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته .

ونظير فيه ابن المنير بأن الفعل إذا تقيد بمفعول انقطع احتمال إطلاقه وهو هنا كذلك فليس تقديم الوعد دالاً على إطلاق الوعد بل على العناية والاهتمام به لأن الآية سيقت لتهديد الظالمين بما وعد سبحانه على ألسنة رسله عليهم السلام فالمهم ذكر الوعد وكونه على ألسنة الرسل عليهم السلام لا يتوقف عليه التهديد والتخويف .

(125/421)

---

وقال "صاحب الإنصاف" : أن هذا النظر قوى إلا أن ما اعترض عليه هو القاعدة عند أهل البيان ، كما قال الشيخ عبد القاهر في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] أنه قدم ﴿ شُرَكَاء ﴾ للإيذان بأنه لا ينبغي أن يتخذ الله تعالى شركاء مطلقاً ثم ذكر ﴿ الجن ﴾ تحقيراً أي إذا لم يتخذ من غير الجن فالجن أحق بأن لا يتخذوا . وتعقب بأنه لا يدفع السؤال بل يؤيده ، وكذا ما ذكره الفاضل الطيبي فإنه مع تطويله لم يأت بطائل فالوجه ما في "الكشف" من أن ذلك الإعلام إنما نشأ من جعل الاهتمام بشأن الوعد فهو ما سيق له الكلام وما عداه تبع ، وإفادة هذا الأسلوب الترقي كإفادة ﴿ اشرح لِى

صَدْرِى ﴾ [طه: 5] الإجمال والتفصيل.

نعم أن الظاهر من حال "صاحب الكشاف" أنه أضمر فيما قرره اعتزالاً وهذه مسألة أخرى، وقيل: ﴿ مُخْلِفَ ﴾ هنا متعد إلى واحد كقوله تعالى: ﴿ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [آل عمران: 9] فأضيف إليه وانتصب ﴿ رُسُلَهُ ﴾ بوعده إذ هو مصدر ينحل إلى أن والفعل وقرأت فرقة ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ بنسب ﴿ وَعْدَهُ ﴾ وإضافة ﴿ مُخْلِفَ ﴾ إلى ﴿ رُسُلَهُ ﴾ ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهذه القراءة تؤيد إعراب الجمهور في القراءة الأولى وأنه مما يتعدى ﴿ مُخْلِفَ ﴾ هنا إلى مفعولين ﴿ أَنَّ الله عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يماكر وقادر لا يقادر ﴿ ذُو انتقام ﴾ من أعدائه لأوليائه فالجملة تعليل للنهي المذكور وتذييل له، وحيث كان الوعد عبارة عن تعذيبهم خاصة كما مرت إليه الإشارة لم يذيل كما قال بعض المحققين بأن يقال: ﴿ إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [آل عمران: 9] بل تعرض لوصف العز والانتقام المشعرين بذلك؛ والمراد بالانتقام ما أشير إليه بالفعل وعبر عنه بالمكر.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾

(126/421)

ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهي المذكور أي ينجزه يوم إلى آخره أو معطوف عليه نحو ﴿ فارتقب يَوْمَ ﴾ [الدخان : 10 ] إلى آخره ، وجعله بعض الفضلاء معمولاً لا ذكر محذوفاً كما قيل في شأن نظائره ، وقيل : ظرف للانتقام وهو ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ [ إبراهيم : 44 ] بعينه ولكن له أحوال جمة يذكر كل مرة بعنوان مخصوص ، والتقييد مع عموم انتقامه سبحانه للأوقات كلها للإفصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر إلى ذلك اليوم بموجب الحكمة المقتضية له .

وجوز أبو البقاء تعلقه بلا يخلف الوعد مقدراً بقرينة السابق ، وفيه الوجه قبله من الحاجة إلى الاعتذار .

وقال الحوفي : هو متعلق بمخلف و﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ [إبراهيم : 47 ] جملة اعتراضية ، وفيه رد لما قيل : لا يجوز تعلقه بذلك لأن ما قبل إنّ لا يعمل فيما بعدها لأن لها الصدارة ، ووجهه أنها لكونها وما بعدها اعتراضاً لا يبالي بها فاصلاً .

وجوز الزمخشري انتصابه على البدلية من ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ﴾ [إبراهيم : 44 ] وهو بدل كل من كل ، وتبعه بعض من منع تعلقه بمخلف لمكان ماله الصدر .

والعجب أن العامل فيه حينئذ أنذر فيلزم عليه ما لزم القائل بتعلقه بما ذكر فكأنه ذهب إلى البدل له عامل مقدر وهو ضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ عطف على المرفوع أي وتبدل السموات غير السموات ، والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم دنانير ومنه قوله تعالى : ﴿ جُلُودُهُمْ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [ النساء : 56 ] وقد يكون في الصفات كما في قولك : بدلت الحلقة خاتماً إذا غيرت شكلها ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ يُبَدّلُ الله سَيّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ [ الفرقان : 70 ] والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين نص ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال تبدل الأرض يزاد فيها وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وما فيها وتمد مد الأديم العكاظي وتصير مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

وتبدل السموات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها وحاصله يغير كل عما هو عليه في الدنيا .

وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم . . .

ولا الدار بالدار التي كنت أعلم

وقال ابن الأنباري : تبدل السموات بطيها وجعلها مرة كالمهل ومرة وردة كالدهان .

وأخرج ابن أبي الدنيا .

وابن جرير .

وغيرهما عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه تكون الأرض كالفضة والسموات كذلك .

وصح عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال : تبدل الأرض أرضاً بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة .

وروى ذلك مرفوعاً أيضاً ، والموقوف على ما قيل البيهقي أصح .

وقد يحمل قول الإمام كرم الله تعالى وجهه على التشبيه .

(128/421)

---

وقال الإمام : لا يبعد أن يقال المراد بتبديل الأرض جعلها جهنم وبتبديل السموات جعلها الجنة ، وتعقب بأنه بعيد لأنه يلزم أن تكون الجنة والنار غير مخلوقتين الآن والثابت في الكلام والحديث خلافه ، وأجيب بأن الثابت خلقهما مطلقاً لا خلق كلهما فيجوز أن يكون الموجود الآن بعضهما ثم تصير السموات والأرض بعضاً منهما ، وفيه أن هذا وإن صححه لا يقربه ، والاستدلال على ذلك بقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الأبرار لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [ المطففين : 18 ] وقوله سبحانه : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِى سِجِّينٍ ﴾ [ المطففين : 7

] في غاية الغرابة من الإمام فإن في إشعار ذلك بالمقصود نظراً فضلاً عن كونه دالاً عليه.

نعم جاء في بعض الآثار ما يؤيد ما قاله، فقد أخرج ابن جرير.

وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب أنه قال في الآية: تصير السموات جناناً ويصير مكان البحر نار أو تبدل الأرض غيرها.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود أنه قال: الأرض كلها نار يوم القيامة؛ وجاء في تبديل الأرض روايات آخر.

فقد أخرج ابن جرير عن ابن جبير أنه قال: تبدل الأرض خبزة بيضاء فيأكل المؤمن تحد قدميه.

وأخرج عن محمد بن كعب القرظي مثله.

وأخرج البيهقي في البعث عن عكرمة كذلك.

وأخرج ابن مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب أن رجلاً من يهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما الذي تبدل به الأرض؟ فقال: خبزة فقال اليهودي: در مكة بأبي أنت فضحك صلى الله عليه وسلم ثم قال: قاتل الله تعالى يهود هل تدرون ما الدر مكة؟ لباب الخبز.

وقد تقدم خبر أن الأرض تكون يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة وهو في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى بعضهم أن التبديل يقع في الأرض ولكن تبدل لكل فريق بما يقتضيه حاله ، ففريق من المؤمنين يكونون على خبز يأكلون منه وفريق يكونون على فضة ؛ وفريق الكفرة يكونون على نار ، وليس تبديلها بأي شيء كان بأعظم من خلقها بعد إن لم تكن .

وذكر بعضهم أنها تبدل أولاً صفتها على النحو المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ثم تبدل ذاتها ويكون هذا الأخير بعد أن تحدث أخبارها ، ولا مانع من أن يكون هنا تبديلات على أنحاء شتى .

وفي "صحيح مسلم" من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها مرفوعاً أن الناس يوم تبدل على الصراط ، وفيه من حديث ثوبان : " أن يهودياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هم في الظلمة دون الجسر "

ولعل المراد من هذا التبديل نحو خاص منه ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وتقديم تبديل الأرض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أمراً بالنسبة إلينا .

﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ أي الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السياق كما قيل ، والمراد بروزهم من أجداثهم التي في بطون الأرض .

وجوز أن يكون المراد ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سراً ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون عمل من يزهم ذلك ، ووجه إسناد البروز إليهم مع أنه على هذا لأعمالهم بأنه للإيذان بتشكلهم بأشكال تناسبها .

وأنت تعلم أن الظاهر ظهورهم من أجداثهم ، والعطف على ﴿ تُبَدَّلُ ﴾ والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع .

وجوز أبو البقاء أن تكون الجملة مستأنفة وأن تكون حالاً من ﴿ الأرض ﴾ بتقدير قد والرابط الواو .

(130/421)

---

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ بضم الباء وكسر الراء مشددة ، جعله مبنياً للمفعول على سبيل التكثير باعتبار المفعول لكثرة المخرجين ﴿ لِلَّهِ ﴾ أي لحكمه سبحانه ومجازاته ﴿ الواحد ﴾ الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ الغالب على كل شيء ، والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة لأنهم إذا كانوا واقفين عند ملك عظيم قهار

لا يشاركه غيره كانوا على خطر إذ لا مقاوم له ولا مغيث سواه وفي ذلك أيضاً تحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كون ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ﴾ بدلاً من ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ [ إبراهيم : 44 ] .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ ﴾

عطف على ﴿ بَرَزُوا ﴾ [ إبراهيم : 48 ] .

والعدول إلى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار ، وأما البروز فهو دفعي لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية ﴿ بَرَزُوا ﴾ فهو معطوف على ﴿ تُبَدَّلُ ﴾ [ إبراهيم : 48 ] وجوز عطف على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه ينجزه مثلاً ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم إذ برزوا لله تعالى أو يوم إذ تبدل الأرض أو يوم إذ ينجز وعده ، والرؤية إذا كانت بصرية فالمجرمين مفعولها وقوله تعالى : ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ حال منه ، وإن كانت علمية فالمجرمين مفعولها الأول ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ مفعولها الثاني .

(131/421)

---

والمراد قرن بعضهم مع بعض وضم كل لمشاركه في كفره وعمله كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ﴾ [ التكوير : 7 ] على قول ، وفي المثل إن الطيور على أشباهها تقع ، أو

قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ﴾ [ مريم : 68 ] الخ أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الرديئة والأعمال اليئة غب تصورها وتشكلها بما يناسبها من الصور الموحشة والأشكال الهائلة ، أو قرنوا مع جزاء ذلك أو كتابه فلا حاجة إلى حديث التصور بالصور ، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم وجاء ذلك في بعض الآثار والظاهر أنه على حقيقته .

ويحتمل على ما قيل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما تقرفته أيديهم وأرجلهم ، وأصل المقرن بالتشديد من جمع في قرن بالتحريك وهو الوثاق الذي يربط به ﴿ فِى الاصفاد ﴾ جمع صفد ويقال فيه صفاد وهو القيد الذي يوضع في الرجل أو الغل الذي يكون في اليد والعنق أو ما يضم به اليد والرجل إلى العنق ويسمى هذا جامعة ؛ ومن هذا قول سلامة بن جندل :

وزيد الخيل قد لاقى صفادا . . .

يعض بساعد وبعظم ساق

وجاء صفد بالتخفيف وصفد بالتشديد للتكثير وتقول : أصفدته إذا أعطيته فتأتي بالهمزة في هذا المعنى ، وقيل : صفد وأصفد معاً في القيد والإعطاء ، ويسمى العطاء صفداً لأنه يقيد .

ومن وجد الإحسان قيدا تقيداً .

والجار والمجرور متعلق بمقرنين أو بمحذوف وقع حالاً من ضميره أي مصفدين ، وجوز أبو حيان كونه في موضع الصفة لمقرنين :

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ أي قمصانهم سربال ﴿ مّن قَطِرَانٍ ﴾ هو ما يحلب من شجر الأبهل فيطبخ وتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته إلى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار حتى قيل : إنه أسرع الأشياء اشتعالاً .

(132/421)

---

وفي التذكرة أنه نوعان غليظ براق حاد الرائحة ويعرف بالبرقى ، ورقيق كمد ويعرف بالسائل والأول من الشربين خاصة والثاني من الأرز والسدر ونحوهما والأول أجود وهو حار يابس في الثالثة أو الثانية ، وذكر في الزفت أنه من أشجار كالأرز وغيره ، وأنه إن سال بنفسه يقال زفت وإن كان بالصناعة فقطران ، ويقال فيه : قطران بوزن سكران .

وروى عن عمر .

(133/421)

---

وعلى رضي الله تعالى عنهما أنهما قرآبه ، وقطران بوزن سرحان ولم نقف على من قرأ بذلك ، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ [ إبراهيم : 49 ] أو من ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ نفسه على ما قيل رابطها الضمير فقط كما في كلمته فوه إلى في أو مستأنفه ، وأياً ما كان ففي ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ تشبيه بليغ وذلك أن المقصود أنه تطلى جلود أهل النار بالقطران حتى يعود طلاؤه كالسرابيل وكأن ذلك ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب لذعه وحرقه وإسراع النار في جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بين ذلك القطران وما نشاهده كالتفاوت بين النارين فكان ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ، وجوز أن تكون في الكلام استعارة تمثيلية بأن تشبه النفس الملتبسة بالملكات الرديئة كالكفر والجهل والعناد والغباوة بشخص لبس ثياباً من زفت وقطران ، ووجه الشبه تحلى كل منهما بأمر قبيح مؤذ لصاحبه يستكره عند مشاهدته ، ويستعار لفظ أحدهما للآخر ، ولا يخفى ما في توجيه الاستعارة التمثيلية بهذا من المساهلة وهو ظاهر ، على أن القول بهذه الاستعارة هنا أقرب ما يكون إلى كلام الصوفية ، وقال بعضهم : يحتمل أن يكون القطران المذكور عين ما لابسوه في هذه النشأة وجعلوه شعاراً لهم من العقائد الباطلة والأعمال السيئة المستجلبة لفنون العذاب قد تجسدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستبعة لاشتداد العذاب ، عصمنا الله تعالى من ذلك بلطفه

وكرمه .

وأنت تعلم أن التشبيه البليغ على هذا على حاله .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وابن عباس .

وأبو هريرة .

وعكرمة .

وقتادة .

وجماعة من ﴿ قَرْءانَ ﴾ على أنهما كلمتان منونتان أولاهما ﴿ قطر ﴾ بفتح القاف وكسر الطاء وهي النحاس مطلقاً أو المذاب منه وثانيتهما ﴿ إن ﴾ بوزن عان بمعنى شديد الحرارة .

(134/421)

---

قال الحسن : قد سعرت عليه جنهم منذ خلقت فتناهى حره ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار التي تسعر بأجسادهم المسربلة بالقطران ، وتخصيص الوجوه بالحكم المذكورة مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها

كقوله تعالى :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [ الزمر : 24 ] ولكونها مجمع الحواس والمشاعر التي لم يستعملوها فيما خلقت له من إدراك الحق وتدبره ، وهذا كما تطلع على أفئدتهم لأنها أسرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات أو لخلوها كما قيل : عن القطران المغني عن ذكر غشيان النار ، ووجه تخليتها عنه بأن ذلك لعله ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحياناً ويتضاعف عذابهم بالخزي على رؤوس الأشهاد .

وقرىء برفع الوجوه ونصب ﴿ النار ﴾ كأنه جعل ورود الوجوه على النار غشياناً لها مجازاً .

وقرىء ﴿ تغشى ﴾ أي تتغشى بحذف إحدى التاءين ، والجملة كما قال أبو البقاء نصب على الحال كالجملة السابقة .

وفي الكشف وأفاد العلامة الطيبي أن مقرنين سرابيلهم من قطران تغشى أحوال من مفعول ﴿ تَرَى ﴾ [ إبراهيم : 49 ] جيء بها كذلك للترقي ؛ ولهذا جيء بالثانية جملة اسمية لأن سرابيل القطران الجامعة بين الأنواع الأربعة أفظع من الصفد ، ، وأما تغشى فلتجديد الاستحضار المقصود في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ﴾ لأن الثاني أهول ؛ والظاهر أن الثانيين منقطعان من حكم الرؤية لأن الأول في بيان حالهم في الموقف إلى أن يكب بهم في النار ، والأخيرين لبيان حالهم بعد دخولها ، وكأن الأول حرك من السامع أن يقول : وإذا كان هذا

شأنهم وهم في الموقف فكيف بهم وهم في جهنم خالدون ؟ فأجيب بقوله سبحانه : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ وأوثر الفعل المضارع في الثانية لاستحضار الحال وتجدد الغشيان حالاً فحالاً ، وأكثر المعربين على عدم الانقطاع .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾

(135/421)

---

متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزي سبحانه ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ أي مجرمة بقرينة المقام ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي جزاءاً وفاقاً ، وفيه إيذان بأن جزاءهم مناسب لأعمالهم ، وجوز على هذا الوجه كون النفس أعم من المجرمة والمطيعة لأنه إذا خص المجرمون بالعقاب علم اختصاص المطيعين بالثواب ، مع أن عقاب المجرمين وهم أعداؤهم جزاء لهم أيضاً كما قيل :

من عاش بعد عدوه . . .

يوماً فقد بلغ المنا

ويجوز على اعتبار العموم تعلق اللام ببرزوا على تقدير كونه معطوفاً على ﴿ تُبَدَّلُ ﴾ [ إبراهيم : 48 ] والضمير للخلق ويكون ما بينهما اعتراضاً فلا اعتراض أي برزوا

للحساب ليجزي الله تعالى كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ﴾ لأنه لا يشغله سبحانه فيه تأمل وتتبع ولا يمنعه حساب عن حساب حتى يستريح بعضهم عند الاشتغال بمحاسبة الآخرين فيتأخر عنهم العذاب ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد سريع الانتقام ، وذكر المرتضى في درره وجوهاً أخر في ذلك .

﴿ هَذَا بَلَاغٌ ﴾



---

أي ما ذكر من قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا ﴾ [ إبراهيم : 42 ] إلى هنا ، وجوز أن يكون الإشارة إلى القرآن وهو المروى عن ابن زيد أو إلى السورة والتذكير باعتبار الخبر وهو ﴿ بَلَاغٌ ﴾ والكلام على الأول أبلغ فكأنه قيل : هذا المذكور آنفاً كفاية في العظة والتذكير من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع ، وأصل البلاغ مصدر بمعنى التبليغ وبهذا فسره الراغب في الآية ، وذكر مجيئه بمعنى الكفاية في آية أخرى ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ للكفار خاصة على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرِ الناس ﴾ [ إبراهيم : 44 ] أو لهم وللمؤمنين كافة

على تقدير شمولهم أيضاً وإن كان ما شرح مختصاً بالظالمين على ما قيل : ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ عطف على محذوف أي لينصحوا أو لينذروا به أو نحو ذلك فتكون اللام متعلقة بالبلاغ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف وتقديره ولينذروا به أنزل أو تلى ، وقال الماوردي : الواو زائدة ، وعن المبرد هو عطف مفرد على مفرد أي هذا بلاغ وإنذار ، ولعله تفسير معنى لا إعراب .

وقال ابن عطية : أي هذا بلاغ للناس وهو لينذروا به فجعل ذلك خبراً لهو محذوفاً ، وقيل . اللام لام الأمر ، قال بعضهم : وهو حسن لولا قوله سبحانه : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ ﴾ فإنه منصوب لا غير ، وارتضى ذلك أبو حيان وقال : إن ما ذكر لا يخدشه إذ لا يتعين عطف ﴿ ليذكر ﴾ على الأمر بل يجوز أن يضمر له فعل يتعلق به ، ولا يخفى أنه تكلف .

وقرأ يحيى بن عمارة الذراع عن أبيه .



---

وأحمد بن يزيد السلمي ﴿ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ ﴾ بفتح الياء والذال مضارع نذر بالشيء إذا علم به فاستعد له قالوا : ولم يعرف لنذر بمعنى علم مصدر فهو كعسى وغيرها من الأفعال التي لا مصادر لها ، وقيل : إنهم استغنوا بأن والفعل عن صريح المصدر ، وفي القاموس نذر

بالشيء كفرح علمه فحذره وأنذره بالأمر إنذاراً ونذراً ونذيراً أعلمه وحذره .

وقرأ مجاهد .

وحميد بتاء مضمومة وكسر الذال ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓاْ ﴾ بالنظر والتأمل بما فيه من الدلائل الواضحة التي هي اهلاك الأمم وإسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما تضمنه ما أشار إليه ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلٰه وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له أصلاً ، وتقديم الإنذار لأنه داع إلى التأمل المستتبع للعلم المذكور ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي ليتذكروا شؤون الله تعالى ومعاملته مع عباده ونحو ذلك فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم لديه عز وجل من العقائد الحقة والأعمال الصالحة .

وفي تخصيص التذكر بأولي الألباب اعلاء لشأنهم .

وفي إرشاد العقل السليم أن في ذلك تلويحاً باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار إليه بهذا القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضاً فإن فيه ما يفيدهم فائدة جديدة ، وللبحث فيه مجال ، وفيه أيضاً أنه حيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمراً حادثاً وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك عبر عن الأول بالعلم وعن الثاني بالتذكر وروعي ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى .

وذكر القاضي بيض الله تاعلى غرة أحواله أنه سبحانه ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي

الغاية والحكمة في إنزال الكتب .

تكميل الرسل عليهم السلام للناس المشار إليه بالانذار .

(138/421)

---

واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كما لها ما يتعلق بمعرفة الله تعالى المشار إليه بالعلم ، واستصلاح القوة التي هي التدرع بلباس التقوى المشار إليه بالتذكر ، والظاهر أن المراد بأولي الألباب أصحاب العقول الخالصة من شوائب الوهم مطلقاً ، ولا يقدح في ذلك ما قيل : إن الآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، وقد ناسب مختتم هذه السورة مفتتحها وكثيراً ما جاء ذلك في سور القرآن حتى زعم بعضهم أن قوله تعالى : ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ معطوف على قوله سبحانه : ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ [ إبراهيم : 1 ] وهو من البعد بمكان ، نسأله سبحانه عز وجل أن يمن علينا بشآبيب العفو والغفران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(139/421)

---

وقال الشوكاني :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) ﴾

﴿ مُخْلِفَ ﴾ منتصب على أنه مفعول ﴿ تحسبنّ ﴾ ، وانتصاب ﴿ رسله ﴾ على أنه مفعول ﴿ وعده ﴾ ، قيل : وذلك على الاتساع ، والمعنى : مخلف رسله وعده .

قال القتيبي : هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير .

والمؤخر الذي يوضحه التقديم ، وسواء في ذلك مخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده ، ومثل ما في الآية قول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظلّ رأسه . . . وسائره باد إلى الشمس أجمع

وقال الزمخشري : قدّم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ [ آل عمران : 9 ] .

ثم قال ﴿ رسله ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته .

والمراد بالوعد هنا : هو ما وعدهم سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [ غافر : 51 ] و ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [ المجادلة : 21 ] .

وقرىء " مخلف وعدهَ رسِله " بجرّ ﴿ رسله ﴾ ونصب ﴿ وعده ﴾ .

قال الزمخشري : وهذه القراءة في الضعف كمن قرأ : ﴿ قتل أولادهم شركائهم ﴾ [ الأنعام

: 137 ] .

﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يغالبه أحد ﴿ ذُو انتقام ﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه والجملة تعليل للنهي ، وقد مرّ تفسيره في أوّل آل عمران .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ قال الزجاج : انتصاب ﴿ يوم ﴾ على البدل من ﴿ يوم يأتيهم ﴾ ، أو على الظرف للانتقام .

انتهى .

ويجوز أن ينتصب بمقدّر يدل عليه الكلام ، أي : واذكر ، أو وارتقب ، والتبديل قد يكون في الذات ، كما في : بدّلت الدراهم دنانير ، وقد يكون في الصفات كما في : بدّلت الحلقة خاتماً .

والآية تحتمل الأمرين .

وقد قيل : المراد : تغير صفاتها .



---

وبه قال الأكثر ، وقيل تغير ذاتها ، ومعنى ﴿ *والسموات ﴾ أي : وتبدّل السموات غير السموات على الاختلاف الذي مرّ ﴿ والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ أي : برز

العباد لله ، أو الظالمون كما يفيده السياق ، أي : ظهروا من قبورهم ، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتمونه .

والتعبير على المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه كما في قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ [ يس : 51 ، الزمر : 68 ، ق : 20 ] و ﴿ الواحد القهار ﴾ المتفرد بالألوهية الكثير القهر لمن عانده .

﴿ وَتَرَى المجرمين يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ معطوف على ﴿ برزوا ﴾ أو على ﴿ تبدّل ﴾ ، والمجيء بالمضارع لاستحضار الصورة ، والمجرمون هم : المشركون ، و ﴿ يومئذٍ ﴾ يعني : يوم القيامة ، و ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أي : مشدودين إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض ، أو قرنوا مع الشياطين ، كما في قوله : ﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [ الزخرف : 36 ] .

أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم ، والأصفاد : الأغلال ، والقيود .

والجار والمجرور متعلق بمقرّنين ، أو حال من ضميره .

يقال : صفدته صفداً ، أي : قيدته ، والاسم : الصفد ، فإذا أردت التكثير ، قلت صَفَّدته .

قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا . . . وأبنا بالملوك مصفدينا

وقال حسان بن ثابت :

من بين مأسور يشدّ صفاده . . . صقر إذا لاقى الكريهة حامي

ويقال : صفدته وأصفدته : إذا أعطيته .

ومنه قول النابغة :

ولم أعرّض أبيت اللعن بالصفد . . . ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ السرابيل : القُمص ، واحدها سربال .

ومنه قول كعب بن مالك :

تلقاكم عصب حول النبيّ لهم . . . من نسج داود في الهيجا سرابيل

والقطران : هو قطران الإبل الذي تهنأ ، به أي : قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم ، حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل .

وخصّ القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته .



---

وقال جماعة : هو النحاس ، أي : قمصانهم من نحاس .

وقرأ عيسى بن عمر " من قطران " بفتح القاف ، وتسكين الطاء .

وقرئ بكسر القاف وسكون الطاء .

وقرئ بفتح القاف والطاء .

رويت هذه القراءة عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ويعقوب وهذه الجملة في محل نصب على الحال ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ أي : تعلو وجوههم وتضربها ؛ وخص الوجوه ؛ لأنها أشرف ما في البدن ، وفيها الحواس المدركة ، والجملة في محل نصب على الحال أيضاً ، و ﴿ لِّيَجْزِىَ الله ﴾ متعلق بمحذوف ، أي : يفعل ذلك بهم ليجزي ﴿ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من المعاصي ، أي : جزاء موافقاً لما كسبت من خير أو شرّ ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ لا يشغله عنه شيء .

وقد تقدّم تفسيره .

﴿ هذا بلاغ ﴾ أي : هذا الذي أنزل إليك بلاغ ، أي : تبليغ وكفاية في الموعظة والتذكير .

قيل : إن الإشارة إلى ما ذكره سبحانه هنا من قوله : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا ﴾ إلى ﴿ سَرِيعُ الحساب ﴾ أي : هذا فيه كفاية من غير ما انطوت عليه السورة .

وقيل : الإشارة إلى جميع السورة .

وقيل : إلى القرآن .

ومعنى : ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ للكفار ، أو لجميع الناس على ما قيل في قوله : ﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾ ، ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ معطوف على محذوف ، أي : لينصحوا ولينذروا به ، والمعنى :

وليخوفوا به ، وقرىء ( ولينذروا ) بفتح الياء التحتية والذال المعجمة .

يقال : نذرت بالشيء أنذر : إذا علمت به فاستعددت له .

﴿ وِلَيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِله وَاحِدٌ ﴾ أي : ليعلموا بالأدلة التكوينية المذكورة سابقاً وحدانية الله سبحانه ، وأنه لا شريك له ﴿ وِلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي : وليتعظ أصحاب العقول .

(142/421)

---

وهذه اللامات متعلقة بمحذوف ، والتقدير : وكذلك أنزلنا ، أو متعلقة بالبلاغ المذكور ، أي : كفاية لهم في أن ينصحوا وينذروا ويعلموا بما أقام الله من الحجج والبراهين وحدانيته سبحانه ، وأنه لا شريك له ، وليتعظ بذلك أصحاب العقول التي تعقل وتدرك .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ قال : عزيز والله في أمره ، يملي وكيده متين ، ثم إذا انتقم انتقم بقدرة .

وأخرج مسلم وغيره من حديث ثوبان ، قال : "جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في " الظلمة دون الجسر " .

وأخرج مسلم أيضاً وغيره من حديث عائشة ، قالت : أنا أوّل من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ قالت : أين الناس يومئذٍ ؟ قال : " على الصراط " وأخرج البزار ، وابن المنذر ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قول الله ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ قال : " أرض بيضاء ، كأنها فضة لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل بها خطيئة " وأخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عنه موقوفاً نحوه ، قال البيهقي : والموقوف أصح .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أتى اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " جاءوني يسألونني وسأخبرهم قبل أن يسألوني ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ قال : أرض بيضاء كالفضة ، فسألهم فقالوا : أرض بيضاء كالنقيّ " وأخرج ابن مردويه مرفوعاً عن عليّ نحو ما تقدّم عن ابن مسعود .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن أنس موقوفاً نحوه ، وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة ، وثبت في الصحيحين من حديث سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقي " وفيهما أيضاً من حديث أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده .

. .

" الحديث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُّقَرَّنِينَ فِى الأصفاد ﴾ قال : الكبول .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن قتادة في ﴿ الأصفاد ﴾ قال : القيود والأغلال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : في السلاسل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فِى الأصفاد ﴾ يقول : في وثاق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قال : قمصهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ مّن قَطِرَانٍ ﴾ قال : قطران الإبل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية قال : هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هو النحاس المذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قرأ ﴿ مّن قَطِرَانٍ ﴾ فقال : القطر : الصفر ، والآن : الحارّ .

وأخرج أبو عبيد ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر عن عكرمة نحوه .

وأخرج مسلم وغيره عن أبي مالك الأشعري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ هذا بلاغ لّلنَّاسِ ﴾ قال : القرآن ، ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ قال : القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(144/421)

---

وقال القاسمى :

﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

أي : من نصرهم المبين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [ غافر : من الآية 51 ] ، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [ المجادلة : من الآية 21 ] ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [ النور : من الآية 55 ] الآية .

واستظهر أبو السعود : أن المعنى بالوعد هنا عذابهم الأخروي المتقدم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ ﴾ الخ [ إبراهيم : من الآية 42 ] ، ولا يخفى أن الوعد قد بين في مثل الآية الأخيرة والأوليين في معناها . والبيان يرفع اللبس . وإنما أوثر تقديم المفعول الثاني ، أعني ( وعده ) على الأول وهو ( رسله ) للإيذان بالعناية به . فإن الآية في سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله به على ألسنة الرسل . فالمهم في التهديد ذكر الوعيد . كذا في " الانتصاف " .

وفي " الكشف " تقديمه للاعتناء به وكونه المقصود بالإفادة . وما ذكره ممن وقع الوعد على لسانه ، إنما ذكر بطريق التبع للإيضاح ، والتفصيل بعد الإجمال . وهو من أسلوب الترقي كما في قوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [ طه : من الآية 25 ] . و : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أي : غالب لا يُماكَرُ : ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ من أعدائه ، نصراً لأوليائه .



---

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوّى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وتبدل السماوات بانتثار كواكبها ،

وكسوف شمسها ، وخسوف قمرها ، وانشقاقها ، وكونها أبواباً و ( يوم ) بدل من ( يوم يأتيهم ) أو ظرف للانتقام أو مقدر بـ ( اذكر ) أو ( لا يخلف وعده ) .

﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ أي : الخلائق أو الظالمون من أجداثهم : ﴿ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أي : لحسابه وجزائه .

قال أبو السعود : والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة وإظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له . وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من ( يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ) فإن الأمر إذا كان لواحد غلاّب ؛ كان في غاية الشدة والصعوبة .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ جمع ( مقرَّن ) وهو من جمع في قَرَن ( بفتحتين ) الوثاق الذي يربط به . أي : قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والفساد . فيجمع بين النظراء والأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف . كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [ الصافات : 22 ] . وقال : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [ التكوير : 7 ] ، أو : قرنوا مع الشياطين ، لقوله تعالى : ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ [ مريم : 68 ] ، أو قرنت أيدهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وقوله تعالى : ﴿ فِي الأَصْفَادِ ﴾ أي : القيود أو الأغلال ، جمع صَفَد ( بفتحتين ) بمعنى القيد أو الغل . والقيد هو الذي يوضع في الرجل . والغُل ( بالضم ) ما في اليد والعنق وما يضم به

اليد والرجل إلى العنق . والجار متعلق بـ : ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ أو حال من ضميره أي : مصفدين ، وقوله تعالى :

(146/421)

---

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ تشبيه لهم بأكره ما يوجد منظراً عند العرب ، وهو الإبل الجربى التي تطلى بالقطران . وإعلام بأن لهم أعظم ما ينال الجلد داء وهو تقرحه بالجرب . وأخبث ما يكون دواء لقبحه لوناً وريحاً ، وهو القطران ، فإنه أسود منتن الريح .

قال الزمخشري : تطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ، وهي القمص لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران ، وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح ، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين . وكل ما وعده الله وأوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنسه ما لا يقادَرُ قدره ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة . فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه . ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه . انتهى .

ويؤيد ما بيناه من أن في الآية إشارة إلى ابتلائهم بجرب جهنم : ما رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : > أربع في

أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب > .

(147/421)

---

وقد وقفت على رسالة لشمس البلغاء الخوارزمي أنفذها لمن شكا إليه داء الجرب ، جاء منها قوله : الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ، ووقود والتهاب ، وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة ، كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة ، وعلة تدل على تضييع واجب النفس من التعهد ، وعلى التفريط في العلاج والتفقد ، تنطق بأن صاحبها ضعيف المُنَّة في التوقي ، أسير في يد الحرص والتشهي ، غاش لنفسه ، قليل البقيا على روحه . وهذه العلة تكسب صاحبها خزياً وحياءً ، وتورثه خجلاً واسترخاءً ، ينظر إلى الناس بعين المريب ، ويتستر عنهم كتستر المعيب . تنفر عنه الطباع ، وتستقذره النفوس ، وتنبو عن مواكلته العيون . وأقل ما يصيبه أنه يحرم آلة المطاعم وهي يداه ، وآلة اللقاء والزيارة وهي رجلاه . ولو لم يكن من دقائق آفاتها ومن عجيب هباتها . إلا أنها تشيخ الفتيان ، وتمسخ الإنسان ، وتجعله أمِياً بعد أن كان غير أمِي ، وأعجمياً وليس بأعجمِي . تنفر عن نفسه نفسُه ، وتهرب من

فراشه عرسُه ، ويتباعد عنه أقرب الناس منه . ثم هي رُبع من أرباع الخذلان وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

~أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والإفلاس والجرب

وما الظن بداء قد سارت به الأمثال وقيلت فيه دون سائر الأدواء الأقوال .

قال أبو تمام :

~لما رأت أُختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

وقال لَبِيد :

~ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

فجعله رأس الأدواء ، ووصفه بأنه غاية البلاء . انتهى . وقوله تعالى :

(148/421)

---

﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ ﴾ أي : تعلوها وتحيط بها النار التي تمس جسدهم المسربل بالقطران . وتخصيص الوجوه ؛ لكونها أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب في باطنه ، ولذلك قال : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ [ الهمزة : 7 ] ، ولكونها مجمع الحواس التي خلقت لإدراك الحق . وقد أعرضوا عنه ، ولم يستعملوها في تدبره . كما أن الفؤاد أشرف

الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة، قد ملؤوها بالجهالات . أفاده الزمخشري وأبو السعود .

﴿ لِيَجْزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ الجار متعلق بمحذوف . أي: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي، الخ . و ( النفس ) مخصوصة بالنفس المجرمة بقرينة المقام . أو عام للبرة والفاجرة . وعليه فيجوز تعلقه بقوله: ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ وما بينهما اعتراض أو بـ ( ترى ) :

﴿ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي: محاسبة الخلائق يوم القيامة؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن . وجميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [ لقمان: 28 ]، أو المعنى: سريع حسابه، أي: مجيئه كقوله: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [ الأنبياء: 1 ] وقوله تعالى:

*(149/421)*

---

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى القرآن أو السورة وقوله: ﴿ بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: كفاية لهم لما فيه من العظة والتذكير . وقوله: ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ أي: ليخوّفوا وليوعظوا به عن الجرائم التي أخذ بها الأولون: ﴿ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو . وإنما قدم إنذارهم؛ لأنهم إذا خافوا ما أُنذروا به؛ دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أمّ الخير كله . أفاده الزمخشري :

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي : ليتعظ به ذوو العقول ، فيقبلوا على ما فيه نجاتهم وسعادتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 333 .338 ﴾

(150/421)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) ﴾

تفريع على جميع ما تقدم من قوله : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ [ إبراهيم : 42 ] .

وهذا محل التسلية .

والخطاب للنبيء .

وتقدم نظيره آنفاً عند قوله : ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، لأن تأخير ما وعد الله رسوله عليه الصلاة والسلام من إنزال العقاب بأعدائه يشبه حال المخلف وعده ، فلذلك نهي عن حُسبانه .

وأضيف مخلف ﴾ إلى مفعوله الثاني وهو ﴿ وعده ﴾ وإن كان المفعول الأول هو الأصل في التقديم والإضافة إليه لأن الاهتمام بنفي إخلاف الوعد أشد ، فلذلك قدم ﴿ وعده

﴿ على ﴾ ﴿ رسله ﴾ .

و﴿ رسله ﴾ جمع مراد به النبي صلى الله عليه وسلم لا محالة ، فهو جمع مستعمل في الواحد مجازاً .

وهذا تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين به .

فأما وعده للرسل السابقين فذلك أمر قد تحقق فلا يناسب أن يكون مراداً من ظاهر جمع ﴿ رسله ﴾ .

وجملة ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ تعليل للنهي عن حُسبانه مُخلف وعده .

والعزة : القدرة .

والمعنى : أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى لأن إخلاف الوعد يكون إما عن عَجز وإما عن عدم اعتياد الموعود به ، فالعزة تنفي الأول وكونُه صاحب انتقام ينفي الثاني .

وهذه الجملة تذييل أيضاً وبها تمّ الكلام .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) ﴾

استئناف لزيادة الإنذار بيوم الحساب ، لأن في هذا تبيين بعض ما في ذلك اليوم من الأهوال ؛ فلك أن تجعل ﴿ يوم تبدل الأرض ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ سريع الحساب ﴾ قُدّم عليه

للاهتمام بوصف ما يحصل فيه ، فجاء على هذا النظم ليحصل من التشويق إلى وصف هذا اليوم لما فيه من التهويل .

(151/421)

---

ولك أن تجعله متعلقاً بفعل محذوف تقديره : اذكُرْ يوم تبدل الأرض ، وتجعل جملة ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ على هذا تذييلاً .

ولك أن تجعله متعلقاً بفعل محذوف دل عليه قوله : ﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴾ .

والتقدير يجزي اللّهُ كلّ نفس بما كسبت يومَ تبدل الأرض .

.

الخ .

وجملة ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ تذييل أيضاً .

والتبديل : التغيير في شيء إما بتغيير صفاته ، كقوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ [ سورة الفرقان : 70 ] ، وقولك : بدلتُ الحَلقة خاتماً وإما بتغيير ذاته وإزالتها بذات أخرى ، كقوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ [ سورة النساء : 56

] ، وقوله : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ﴾ [ سورة سبأ : 16 ] .

وتبديل الأرض والسماوات يوم القيامة : إما بتغيير الأوصاف التي كانت لها وإبطال النُظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا ، وإما بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي .

وحاصل المعنى استبدال العالم المعهود بعالم جديد .

ومعنى وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ مثل ما ذكر في قوله : ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ [ سورة إبراهيم : 21 ] .

والوصف بالواحد القهار ﴾ للرد على المشركين الذين أثبتوا له شركاء وزعموا أنهم يدافعون عن أتباعهم .

وضمير ﴿ برزوا ﴾ عائد إلى معلوم من السياق ، أي وبرز الناس أو برز المشركون .

والتقرين : وضع اثنين في قرن ، أي حبل .

والأصفاد جمع صِفاد بوزن كتاب ، وهو القيد والغل .

والسرابيل : جمع سِربال وهو القميص .

وجملة ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ حال من ﴿ المجرمين ﴾ .

والقطران : دهن من تركيب كيمياوي قديم عند البشر يصنعونه من إغلاء شَجر الأرز وشجر السرو وشجر الأبهل بضم الهمزة والهاء وبينهما موحدة ساكنة وهو شجر من

فصيلة العرعر .

ومن شجر العرعر بأن تقطع الأخشاب وتجعل في قبة مبنية على بلاط سَوِي وفي القبة قناة إلى خارج .

(152/421)

---

وتُوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها ويسري ماء البخار في القناة فتصب في إناء آخر موضوع تحت القناة فيتجمع منهما ماء أسود يعلوه زبد خاثر أسود .

فالماء يعرف بالسائل والزّبد يعرف بالبرقي .

ويتخذ للتداوي من الجرب للإبل ولغير ذلك مما هو موصوف في كتب الطب وعلم الأَقْرَبَاذين .

وجعلت سرابيلهم من قطران لأنه شديد الحرارة فيؤلم الجِلدَ الواقعَ هو عليه ، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار .

وجملة ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ مستأنفة ، إما لتحقيق أن ذلك واقع كقوله : ﴿ إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع ﴾ [ سورة الذاريات : 5 ، 6 ] ، وإما استئناف ابتدائي .

وأخرت إلى آخر الكلام لتقديم يوم تبدل الأرض ﴾ إذا قُدر معمولاً لها كما ذكرناه آنفاً .

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)

الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلها من أينَ ابتدأتهُ أصبت مراد الإشارة ، والأحسن أن يكون للسورة كلها .

والبلاغ اسم مصدر التبليغ ، أي هذا المقدار من القرآن في هذه السورة تبليغ للناس كلهم .

واللام في ﴿ للناس ﴾ هي المعروفة بلام التبليغ ، وهي التي تدخل على اسم من يَسمع قولاً أو ما في معناه .

وعطف ﴿ ولينذروا ﴾ على ﴿ بلاغ ﴾ عطف على كلام مقدر يدل عليه لفظ ﴿ بلاغ ﴾ ، إذ ليس في الجملة التي قبله ما يصلح لأن يعطف هذا عليه فإن وجود لام الجر مع وجود واو العطف مانع من جعله عطفاً على الخبر ، لأن المجرور إذا وقع خبر عن المبتدإ اتصل به مباشرة دون عطف إذ هو بتقدير كائِن أو مستَقر ، وإنما تعطف الأخبار إذا كانت أوصافاً .

والتقدير هذا بلاغ للناس ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا به .

واللام في ﴿ ولينذروا ﴾ لام كي .

وقد تقدم قريب من نظم هذه الآية في قوله تعالى ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ في سورة الأنعام ( 92 ) .

والمعنى وليعلموا مِما ذكر فيه من الأدلة مَا الله إلا إلهٌ واحد ، أي مقصور على الإلهية الموحدة .

وهذا قصر موصوف على صفة وهو إضافي ، أي أنه تعالى لا يتجاوز تلك الصفة إلى صفة التعدد بالكثرة أو التثليث ، كقوله : ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ [ سورة النساء : 171 ] .

والتذكر : النظر في أدلة صدق الرسول عليه الصلاة والسلام ووجوب اتباعه ، ولذلك خص بذوي الألباب تنزيلاً لغيرهم منزلة من لا عقول لهم ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ [ سورة الفرقان : 44 ] .

وقد رتبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض ، فابتدىء بالصفة العامة وهي حصول التبليغ .

ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل .

ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل .

وهذه المراتب هي جامع حكمة مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم موزعة على من بَلّغ إليهم .

ويختص المسلمون بمضمون قوله : وليذكروا أولوا الألباب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 12 صـ ﴾

(154/421)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن المجرمين وهو الكفار يوم القيامة يقرنون في الأصفاد وبين تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ﴾ [ الفرقان : 13 ] ونحو ذلك من الآيات .

والأصفاد : هي الأغلال والقيود ، واحدها : صفد بالسكون وصفد بالتحريك . ومنه قول عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا . . . وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى : ﴿ والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأصفاد ﴾ [ ص : 37

- 38 ].

قوله تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ .

بين في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة تغشى وجوه الكفار فتحرقها ، وأوضح ذلك في مواضع أخر كقوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ [ المؤمنون : 104 ] وقوله : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [ الأنبياء : 39 ] الآية . إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاس ﴾ الآية .

بين في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس وأوضح هذا المعنى في قوله : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [ الأنعام : 19 ] وبين أن من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار كائناً من كان في قوله : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [ هود : 17 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الألباب ﴾ .

يبين في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم العم بأنه تعالى إله واحد ، وأن من حكمه أن يتعظ أصحاب العقول . ويبين هذا في مواضع أخر فذكر الحكمة الأولى في أول سورة هود في قوله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تعبدوا إِلاَّ اللهَ ﴾ [ هود : 1-2 ] الآية ، كما تقدم أيضاحه ، وذكر الحكمة الثانية في قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ [ ص : 29 ] وهو أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال ، واحد الألباب لب بالضم ، والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(156/421)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

ويُقدّم سبحانه من بعد ذلك حيثية عدم فاعلية مَكْرهم ، فيقول :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لَمَا قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخْلفَ ، ولكن مكرَهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحانه هو القائل : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [ الصافات : 171-

. [ 173

إذن : فوَعْد الله لرُسله لا يمكن أن يُخْلفَ .

الوعود في القرآن كثيرة ؛ فهناك وَعْد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء والله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً . . . ﴾ [ البقرة : 168 ]

وهناك وَعْد من الله للمؤمنين : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض . . . ﴾ [ النور : 55 ] .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلِف وَعْده لأتباع الرسول ؛ أيُخلِف وَعْده للرسول ؟

طبعاً لا ؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله ؛ مُوفّى ؛ فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ﴾ [ غافر : 51 ] والنصر يقتضي هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه ؛ والصفة المناسبة هي صدوره من عزيز لا يُغلب ؛ والهزيمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة ؛ والصفة المناسبة هي تحقُّق الهزيمة بأمر مُنتقِم جبّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض . . . ﴾ .

ويُخوّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صَوّر لهم ما سوف يدّعونه ، بأن يُؤخّر الحق حسابهم ، وأنْ يُعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذي خلقه الله سبحانه ، وطرأ عليه آدم وخلفْته من بعده ذريته ؛ قد أعدّه سبحانه وسخّره في خدمة آدم وذريته من بعده ؛ وهم يعيشون في الكون بأسباب الله المَمْدودة في أنفسهم ، والمنثورة في هذا الكون لكل مخلوق لله ، مؤمنهم وكافرهم ؛ فمَنْ يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [ الشورى : 20 ] .

وهكذا شاء الله أنْ يهبَ عباده الارتقاء في الدنيا بالأسباب ؛ أما حياة الآخرة فنحن نحياها بالمُسبِّب ؛ وبمجرد أنْ تخطرَ على بال المؤمن رغبةٌ في شيء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قدَّر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسي ؛ وأنزل عليها من السماء ماء ، إذن : فهي أرض غير الأرض ؛ وسماء غير السماء ؛ لأن الأرض التي نعرفها هي أرض أسباب ؛ والسماء التي نعرفها هي سماء أسباب .

وفي جنة الآخرة لا أسبابَ هناك ؛ لذلك لا بُدّ أن تتبدّل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [ إبراهيم : 48 ] .

فهو يعني ألا يكون هناك أحد معهم سوى ربهم ؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب في دُنْياه ؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

*(158/421)*

---

وكلنا يذكر " حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أحد أصحابه حين سأله الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحتَ ؟ فقال الصحابي : أصبحت مؤمناً بالله حقاً .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : لكل حق حقيقة ؛ فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابي : عزفتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها - أي : تساوي الذهب بالتراب - وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون . فقال له الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : " عرفت فالزم " .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذي أنكره ، وهي مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه في وَصْف ذاته هنا :

﴿ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [ إبراهيم : 48 ] .

وليس هناك إله آخر سيقول له " اتركهم من أجل خاطري " .

وفي آية أخرى يقول عن هؤلاء : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَاءً حتى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ . . . ﴾ [ النور : 39 ] .

أي : أنه يُفَاجأ بمثل هذا الموقف الذي لم يستعِد له .

وقوله :

﴿ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [ إبراهيم : 48 ] .

أي : القادر على قَهْر المخلوق على غير مُرَاده .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَتَرَى المجرمين . . . . ﴾ .

والمجرم هو مَن ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَنِ ارتكب ذنب القِمّة . وهو الكفر بالله ، ومن بعده مَنِ ارتكب الذنوب اليت دون الكفر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض في " قرنٍ " وهو الحبل أو اليْد الذي يُقيّدون .

والأصفاد جمع صَفَد ، وهو القيد الذي يوضع في الرِّجلْ ؛ وهو مِثْل الخُلْخال ؛ وهناك مَنْ يُقيّدون في الأصفاد أي : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقيد بالأغلال . أي : أنْ توضع أيديهم في سلاسل ، وتُعلَّق تلك السلاسل في رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا - في الغالب - مودّة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافرين ، وعلى عداء ، ويلعن كل منهم الآخر ؛ وكل منهم يناكف الآخر ويضايقه ، ويعلن ضِيقة منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ] .

وكأن كلاًّ منهم يُعذّب الآخر من قبل أنْ يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك نجدهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [ فصلت : 29 ] .

ويقولون : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً ﴾ [ الأحزاب : 67-68 ] .

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المُذْنبين : فيقول : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ . . . . ﴾ .

و" السرابيل " جمع " سِرْبال " وهو ما يلي الجسد ، وهو ما نسميه في عصرنا " قميص " .

وإذا كان السِّرْبال من قطران ؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال ؛ وتلك صفات القطران ، وهو شيء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذِّهن من التي يراها العربي في بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار ﴾ [ إبراهيم : 50 ] .

والإنسان إذا ما تعرّض لأمر يصيبه بالعطب ، فأوّل ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شيء في الإنسان ، فما بالنا حين تغشى وجوه الكفرةِ النارُ ؟ إن مجرد تخيُّل ذلك أمر مؤلم .

وسبحانه يقول في آية اخرى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب يَوْمَ القيامة . . . ﴾ [ الزمر : 24 ] .

(160/421)

---

وكأن الواحد منهم من فَرْط شدة العذاب يحاول أن يدفَع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيس شَتَّى لهذا العذاب ؛ وهو مُؤلِم أشدّ الألم .

ويقول سبحانه في موقع آخر : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ . . . ﴾ [ القمر : 48 ] .

وهكذا نجد أن الوجه قد جاء في أكثر من صورة؛ من صور هذا العذاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ . . . ﴾ .

والجزاء أمر طبيعي في الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله؛ ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يَضَعْ الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب؛ لَنال كل مُفسدٍ بُغْيته من فساده؛ ولأحسّ أهل القيم أنهم قد خُدِعُوا في هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً؛ فلا ظُلْم فيه إذن؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال : ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم . . . ﴾ [غافر : 17] .

ولا يجازي الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة :

وقوله سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ . . . ﴾ [إبراهيم : 51] .

يعني أن المؤمن أو الكافر سَيلْقي جزاء ما فعل؛ إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب - كما نعلم - هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شيء في الدنيا؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

ومَنْ كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقَال "كسب السيئة" ولا يقال "اكتسبها" ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية ؛ ويفرح بارتكابها ، ولا بُدَّ إذن من الجزاء ؛ والجزاء يحتاج حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

*(161/421)*

---

وقد يقول المؤمن : إنِّي أُصدِّق ربي ، ولن يظلم ربِّي أحداً . ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [ القارعة : 6-7 ] .

ويقول أيضاً : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [ القارعة : 8-9 ] .

ونجد القسمة العقلية في الميزان واضحة فهي مرة "ثَقُلَت" ومرة "خَفَّت" . أما مَنْ تساوت كِفَّتا ميزانه ؛ ففسرت حالته سورة الأعراف التي قال فيها الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ . . . ﴾ [ الأعراف : 46 ] .

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْس بما كسبتْ ؛ فقد يظنُّ البعض أن ذلك سيستغرق وقتاً ؛ ولذلك يتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ [ إبراهيم : 51 ] .

ليبين لنا أنه سبحانه سيُحاسِب كل الخَلْق من لَدُن آدم إلى أنْ تقومَ الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام - علياً - كرّمَ الله وجهه - : كيف سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة؟ أجاب الإجابة الدّالة الشافية ، وقال : "كما يرزقهم جميعاً " .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ . . . . ﴾ .

وهذه الآية هي مِسْك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركَّزَتْ الدعوة ؛ بلاغاً صدر عن الله ليبلغه لرسوله الذي أُيِّد بالمعجزة ؛ لِيحمِلَ منهج الحياة للإنسان الخليفة في الأرض .

وإذا ما صدرتْ قوانينُ حركة الحياة للإنسان الخليفة في الأرض المخلوق لله ، وجب ألاَّ يتزيّد عليها أحدٌ بإكمال ولا بإتمام ؛ لأن الذي خلق هو الذي شرَّع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذِكْر من بَال كل إنسان مُكلَّف .

وحين تقرأ هذا القَوْل الحكيم :

﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . ﴾ [إبراهيم : 52] .

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شيء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

قد أعطانا ما يعطيه النص القانوني الحديث ، ذلك أن النصَّ القانوني الحديث يوضح أنه لا عقوبةَ إلا بنصٍّ يُجرِّم الفعل ، ولا بُدَّ من إعلان النصِّ لكافَّة الناس ؛ ولذلك تُنشَر القوانين في الجريدة الرسمية للدولة ، كي لا يقولَ أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] .

فمهمة الرسول - إذنْ - هي البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذي يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [ الرعد : 40 ] .

ويقول سبحانه : ﴿ الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله . . . ﴾ [ الأحزاب : 39 ] .

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي . . . ﴾ [ الأعراف : 93 ] .

ويقول أيضاً : ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ . . . ﴾ [ هود : 57 ] .

وهكذا لا توجد حُجّة لقائل : إني أُخِذْتُ بذنب لم أعرف أنه ذنبٌ وقْتَ التكليف . لا

حُجّة لقائلٍ هذا القول ؛ لأن الحق سبحانه يقول في نفس الآية :

﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

والإنذار : تخويف بشرٍّ سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يَأْتِ أوانه كي تستعدّ لاستقباله .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

يتضمن البشارة أيضاً ؛ ولكنه يرتكز ويؤكد من بعد ذلك في قوله :

﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ . . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

*(163/421)*

---

وأقول : إن الإنذار هنا هو نعمة ؛ لأنه يُذكّر الإنسان فلا يُقدِم على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعة تَقدُم للإنسان مغبة العمل السيء ؛ فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدي إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

﴿ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

وهذه هي القضية العقدية الأولى ، والتي تأتي في قِمّة كل القضايا ؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمر الهام في هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ؛ لا أن تتعاند . ولا يرتقي بنيان ، ما إذا كنتَ أنت تبني يوماً ليأتي غيرك فيهدم ما بنيتَ .

ومهمة حركة الحياة أن نُؤدِّي مهمتنا كخلفاء لله في الأرض ؛ بأن تتعاضدَ مواهبنا ، لا أن تتعارضَ ، فيتحرك المجتمع الإنساني كله في اتجاه واحد ؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ . . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

فهو يحدد لنا قِوَام الدين بعد تلقّيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُبلِّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " نضَّر الله امْرءاً سمع مقالتي فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها " .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلّغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فَمنْ يعلم حكماً من أحكام الدين ؛ فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ؛ مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس

وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . ﴾ [ البقرة : 143 ] .

وهكذا شهد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه بلَّغكم وبَقِي على كل مسلم يعلم حُكْماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لِمَنْ لا يعرفه ؛ فقد ينتفع به أكثر منه ؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به .

(164/421)

---

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع " .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخلط بين المعلومة التي تُقَال لك : وبين سلوك مَنْ قالها لك ،

ولنسمع الشاعر الذي قال :

خُذْ عِلْمي ولاَ تركَنْ إلى عَمِلي . . . وَأجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للحطبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا عِلْمَ لهم بها ؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ﴾ [ آل عمران : 110 ] .

أي : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، والرسول أمين في تبليغه ؛

لذلك لا يمكن أنْ يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآخر ؛ أو من عدم حكمة الآمر ، ولْنُدقّق جيداً في قول الحق سبحانه :

﴿ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ . . . ﴾ [ إبراهيم : 52 ] .

فكلمة " واحد " جاءت لتمنع مجرّد تصوُّر الشراكة ؛ فلا أحدَ مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء ؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ؛ فلو كان له أجهزة لَكانَ في ذاته يحتاجُ لأبعاضه ، وهذا لا يصِحُّ ولا يمكن تخيُّله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هي القضية الأساسية التي يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هي جمع ، ومفرد " ألباب " هو " لُبّ " ، ولُبّ الشيء هو حقيقة جوهره ؛ لأن القشرةَ توجد لتحفظَ هذا اللُّب ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشيء الذي يُغلّفه لِيحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ؛ ويُحرّكِون عقولهم ليتذكروها دائماً ؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تَصْرِف الإنسان عن المنهج ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم: 52].

أي: يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد؛ فلا إلهَ إلا هو؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أنْ يشهدَ له أيّ كائن آخر، وقال: ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [آل عمران: 18].

وهذه شهادةُ الذات للذاتِ، ويُضيف سبحانه: ﴿ والملائكة وَأُولُوا العلم ﴾ [آل عمران: 18].

وشهادة الملائكة هي شهادة المُواجهة التي عايشوها، وشهادة أُولي الألبابِ هي شهادة الاستدلال.

وشهد الحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول: وكذلك شهد الرسول لنفسه، فهو يقول مثلنا جميعاً: "أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله".

وهكذا فعَلى أُولي الألباب مهمة. أنْ يتذكَّروا ويُذكِّروا بأنه إله واحد أحدٌ. انتهى انتهى.

اهـ ﴿ تفسير الشعراوى ص ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ( هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ) ( إبراهيم : 52 ) ، وفي سورة ص : ( كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ) ( ص : 29 ) ، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية إبراهيم بقوله : ( ليذكر ) وآية ص بقوله : ( ليتذكر ) بتاء التفعيل ؟

والجواب ، والله أعلم : أن كلا الموضعين حاصل فيه التناسب ، أما آية ص ففي قوله ( ليدبروا ) حرفان من الحروف الشديدة وهما الباء والدال وثانيهما مضعف فنسق عليهما قوله : ( وليتذكر ) وفيه أيضاً حرفان من حروف الشدة وهما الكاف والتاء وثانيهما مضعف ، والتناسب بهذا واضح . وأما آية إبراهيم فورد فيها : ( وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا ) ، وقد عربت الكلمتان من حروف الشدة وإنما جميعها من الرخوة وهي ضد الشديدة ، فناسبها عطفاً عليها قوله : ( وليذكر ) إذ ليس فيه من الحروف الشديدة غير الكاف ، وأيضاً فإن يذكر ويتذكر معناهما واحد ، والأصل للمدغم مفكوكة ، فلفظ يذكر ثان عن يتذكر ، وهو أكثر استعمالاً وأخف لفظاً ، فقدم في سورة إبراهيم وأخر الأثقل في سورة ص على الترتيب المتقرر ، على ما تقدم في قوله تعالى : ( هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ) ( البقرة : 38 ) في البقرة وقوله : ( فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ) ( طه : 123 ) في سورة طه . وقد تقدم من هذا

نظائر ، وسيأتي أمثالها ، واطراد ذلك شاهد برعيه ، فحصل التناسب اللفظي من هذين الوجهين ، وإن عكس الوارد لا يناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 288 ﴾

*(167/421)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ الآية .

هذه الآية الكريمة فيها التصريح بتبديل الأرض يوم القيامة .

وقد جاء في آية آخرى ما يُتوهم منه أنها تبقي ولا تتغيرُ ، وهي قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا مع على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ فإنه تعالى في هذه الآية صرح بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ؛ لابتلاء الخلق ، ثم بين أنه يجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً ، ولم يذكر أنه يتغير نفس الأرض ؛ فيتوهم منه أن التغيير حاصل في ما عليها دون نفسها .

والجواب : هو أن حكمة ذكر ما عليها دونها ، لأن ما على الأرض من الزينة والزخارف

ومتاع الدنيا ، هو سبب الفتنة والطغيان ومعصية تعالى .

فالإخبار عنه بأنه فإن زائل ؛ فيه أكبُر واعظٍ وأعظمُ زاجرٍ عن الافتتان به ، ولهذه الحكمة خصّ بالذكر ؛ فلا ينافي تبديل الأرض المصرح به في الآية الآخرى ، كما هو ظاهر ، مع أن مفهوم قوله : ﴿ ما عليها ﴾ مفهومُ لقبٍ ؛ لأن الموصول الذي هو " ما " واقع على جميع الأجناس الكائنة على الأرض زينة لها .

ومفهوم اللقب لا يُعتبر عند الجمهور ، وإذا كان لا اعتبار به لم تظهر منافات أصلاً .

والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 169.170 ﴾

*(168/421)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (44) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ يقول : أنذرهم في الدنيا من قبل أن يأتيهم

العذاب .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ قال : يوم القيامة ﴿ فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب ﴾ قال : مدة يعملون فيها من الدنيا ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ لقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [ النحل : 38 ] ﴿ ما لكم من زوال ﴾ قال : الانتقال من الدنيا إلى الآخرة .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال : بلغني أن أهل النار ينادون ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ فرد عليهم ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ إلى قوله ﴿ لتزول منه الجبال ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ ما لكم من زوال ﴾ عما أنتم فيه إلى ما تقولون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ما لكم من زوال ﴾ قال : بعث بعد الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ قال : سكن الناس في مساكن قوم نوح وعاد وثمود . وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ قال : قد والله بعث الله رسله وأنزل كتبه وضرب لكم الأمثال فلا يصم فيها إلا الأصمّ ولا يخيب فيها إلا الخائب ، فاعقلوا عن الله أمره .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ قال: عملتم بمثل أعمالهم.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ قال: الأشباه.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال.

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف، عن الحسن رضي الله عنه قال: أربعة أحرف في القرآن ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ ما مكرهم وقوله ﴿ لتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء: 17] ما كنا فاعلين. وقوله ﴿ إن كان للرحمن ولد ﴾ ما كان للرحمن من ولد وقوله ﴿ ولقد مكناهم في ما إن مكناهم فيه ﴾ ما مكناكم فيه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ يقول شركهم. كقوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ [مريم: 90

.[

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ قال: هو كقوله

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ [ مريم : 88-90 ] .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه، أن الحسن كان يقول: كان أهون على الله وأصغر من أن تزول منه الجبال، يصفهم بذلك. قال قتادة رضي الله عنه: وفي مصحف عبد الله بن مسعود ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وكان قتادة رضي الله عنه يقول عند ذلك ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ أي لكلامهم ذلك.

وأخرج ابن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر: كان يقرأ ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ بالنون ﴿ لتزول ﴾ برفع اللام الثانية وفتح الأولى.

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف، عن عمر بن الخطاب أنه قرأ " وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال " يعني بالدال.

وأخرج ابن المنذر وابن الأنباري، عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ ﴿ وإن كان مكرهم ﴾

وأخرج ابن الأنباري عن أبي بن كعب، أنه قرأ ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس، أنه قرأ " وإن كاد مكرهم " . قال : وتفسيره عنده ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال ﴾ هذا ﴿ أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ [ مريم : 91 ] .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد، أنه كان يقرأ ﴿ لتزول ﴾ بفتح اللام الأولى، ورفع الثانية .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ ثم فسرها فقال : إن جباراً من الجبابرة قال : لا أنتهي حتى أنظر إلى ما في السماء، فأمر بفراخ النسور تعلف اللحم حتى شبت وغلظت، وأمر بتابوت فنجر يسع رجلين، ثم جعل في وسطه خشبة، ثم ربط أرجلهن بأوتاد، ثم جوّعهن، ثم جعل على رأس الخشبة لحماً ثم دخل هو وصاحبه في التابوت، ثم ربطهن إلى قوائم التابوت، ثم خلى عنهن يردهن اللحم، فذهبن به ما شاء الله تعالى. ثم قال لصاحبه : افتح فانظر ماذا ترى. ففتح فقال : أنظر إلى الجبال . . . . كأنها الذباب . . ! قال : أغلق. فأغلق، فطرن به ما شاء الله، ثم قال :

افتح . . . ففتح . فقال : انظر ماذا ترى . فقال : ما أرى إلا السماء ، وما أراها تزداد إلا بعداً . قال : صوّب الخشبة . فصوّبها فانقضت تريد اللحم ، فسمع الجبال هدتها فكادت تزول عن مراتبها .

وأخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أخذ الذي حاجّ إبراهيم عليه السلام في ربه نسرين صغيرين ، فربّاهما حتى استغلظا واستعلجا وشبّا ، فأوثق رجل كل واحد منهما بوتر إلى تابوت . وجوّعهما وقعد هو ورجل آخر في التابوت ، ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم فطارا وجعل يقول لصاحبه : انظر ماذا ترى ؟ قال : أرى كذا وكذا .

(171/421)

---

حتى قال : أرى الدنيا كأنها ذباب . قال : صوّب العصا . فَصَوَّبَها فهبطا . قال : فهو قول الله تعالى ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وكذلك هي في قراءة ابن مسعود ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ، أن بخت نصر جوّع نسوراً ، ثم جعل عليهن تابوتاً ، ثم دخله وجعل رماحاً في أطرافها واللحم فوقها ، فَعَلَتْ تذهب نحو

اللحم حتى انقطع بصره من الأرض وأهلها ، فنودي : أيها الطاغية ، أين تريد ؟ ففرق ، ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح فقوضت النسور ، ففزعت الجبال من هدّتها ، وكادت الجبال أن تزول من حسّ ذلك . فذلك قوله ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ كذا قرأها مجاهد .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في الآية قال : إن نمرود صاحب النسور لعنه الله ، أمر بتابوت فجعل وجعل معه رجلاً ، ثم أمر بالنسور فاحتمل ، فلما صعد قال لصاحبه : أي شيء ترى؟ قال : أرى الماء وجزيرة - يعني الدنيا - ثم صعد فقال لصاحبه : أي شيء ترى؟ قال : ما نزداد من السماء إلا بعداً . قال : اهبط .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي عبيدة ، أن جبّاراً من الجبابرة قال : لا أنتهي حتى أنظر إلى من في السماء . فسلط عليه أضعف خلقه ، فدخلت بعوضة في أنفه فأخذه الموت ، فقال : اضربوا رأسي . فضربوه حتى نثروا دماغه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم ، عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ قال : انطلق ناس وأخذوا هذه النسور ، فعلقوا عليها كهيئة التوابيت ثم أرسلوها في السماء ، فرأتها الجبال فظنت أنه شيء نزل من المساء ، فتحركت لذلك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : أمر الذي حاجّ إبراهيم في ربه بإبراهيم ، فأخرج من مدينته فلقي لوطاً على باب المدينة وهو ابن أخيه ، فدعاه فآمن به وقال : إني مهاجر إلى ربي . وحلف نمرود أن يطلب إله إبراهيم ، فأخذ أربعة فراخ من فراخ النسور ، فربّاهن بالخبز واللحم . . . حتى إذا كبرن وغلظن واستعلجن ، قرنهنّ بتابوت وقعد في ذلك التابوت ، ثم رفع رجلاً من لحم لهن ، فطرن حتى إذا دهم في السماء أشرف فنظر إلى الأرض وإلى الجبال تدب كدبيب النمل ، ثم رفع لهن اللحم ثم نظر ، فرأى الأرض محيطاً بها بحر كأنها فلكة في ماء ، ثم رفع طويلاً فوقع في ظلمة ، فلم ير ما فوقه ولم ير ما تحته ، فألقى اللحم فأتبعته منقضات ، فلما نظرت الجبال إليهن قد أقبلن منقضات وسمعت حفيفهن ، فزعت الجبال وكادت أن تزول من أمكنتها ، ولم يفعلن .

فذلك قوله ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وهي في قراءة عبد الله بن مسعود " وإن كاد مكرهم " فكان طيورهن به من بيت المقدس ، ووقوعهن في جبال الدخان . فلما رأى أنه لا يطيق شيئاً ، أخذ في بنيان الصرح فبناه حتى أسنده إلى السماء ، ارتقى فوقه ينظر يزعم إلى إله إبراهيم ، فأحدث ولم يكن يحدث ، وأخذ الله بنيانه من القواعد ﴿ فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ [ النحل : 26 ] يقول : من مأمنهم وأخذهم من أساس الصرح ،

فانتقض بهم . . . . وسقط فتبلبلت ألسنة الناس يومئذ من الفزع ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً ، فلذلك سميت بابل وكان قبل ذلك بالسريانية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ قال : عزيز والله في أمره يملي وكيده متين ، ثم إذا انتقم انتقم بقدره .

(173/421)

---

وأخرج مسلم وابن جرير والحاكم والبيهقي في الدلائل ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : جاء حبر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم في الظلمة دون الجسر " .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والحاكم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : " أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قلت : أين الناس يومئذ ؟ قال على الصراط " .

وأخرج البزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿ يوم تبدل الأرض

غير الأرض ﴾ قال : " أرض بيضاء كأنها فضة ، لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه والبيهقي في البعث ، عن ابن مسعود في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال : تبدل الأرض أرضاً بيضاء ، كأنها سبيكة فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة . قال البيهقي : الموقوف أصح .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن زيد بن ثابت قال : أتى اليهود النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه فقال : " جاؤوني . . . سأخبرهم قبل أن يسألوني ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال : أرض بيضاء كالفضة ، فسألهم فقالوا : أرض بيضاء كالنقي " .

وأخرج ابن مردويه عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قال :

" أرض بيضاء ، لم يعمل عليها خطيئة ولم يسفك عليها دم " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، عن أنس بن مالك أنه تلا هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قال : يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة ، لم يعمل عليها الخطايا ، ثم ينزل الجبار عز وجل عليها .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب في الآية قال : تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ زعم أنها تكون فضة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قال : أرض كأنها فضة والسماوات كذلك .

وأخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قال : يزاد فيها وينقص منها ، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وما فيها ، وتمد مدّ الأديم العكاظي ، أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها .

وأخرج البخاري ومسلم وابن جرير وابن مردويه ، عن سهل بن سعد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقرصة نقي ليس فيها معلم لأحد " .

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفرة ، نزلاً لأهل الجنة . قال : فأتاه رجل من اليهود فقال : بارك الله عليك أبا القاسم . . . ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : تكون الأرض خبزة واحدة يوم القيامة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا أخبرك بإدامهم ؟ قال : بلى . قال : إدامهم ثور . قالوا : ما هذا ؟ قال هذا ثور بالأم ، يأكل من زيادة كبدها سبعون ألفاً " .

وأخرج ابن مردويه عن أفلح مولى أبي أيوب رضي الله عنه ، " أن رجلاً من يهود سأل النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ ما الذي تبدل به ؟ فقال : خبزة . فقال اليهودي : درمكة بأبي أنت . قال : فضحك ثم قال : قاتل الله يهود ، هل تدرون ما الدرمكة ؟ لباب الخبز " .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير

الأرض ﴾ قال : تبدل الأرض خبزة بيضاء ، يأكل المؤمن ومن تحت قدميه .

وأخرج البيهقي في البعث عن عكرمة رضي الله عنه قال : تبدل الأرض بيضاء مثل الخبزة ، يأكل منها أهل الإسلام حتى يفرغوا من الحساب .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ قال : خبز يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل ، عن أبي أيوب الأنصاري قال : " أتى النبي صلى الله عليه وسلم حبر من اليهود وقال : أرأيت إذ يقول الله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟ قال : " أضياف الله ، لن يعجزهم ما لديه " . "

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في الآية . قال : بلغنا أن هذه الأرض تطوى وإلى جنبها أخرى ، يحشر الناس منها إليها .



---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن أبي بن كعب في الآية قال : تغير السموات جناناً ويصير مكان البحر ناراً ، وتبدل الأرض غيرها .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال: الأرض كلها نار يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ الآية. قال: هذا يوم القيامة، خلق سوى الخلق الأوّل.

وأخرج البخاري في تاريخه، عن عائشة رضي الله عنها: أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم: "أين الأرض يوم القيامة؟ قال: هي رخام من الجنة".

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ مقرنين في الأصفاد ﴾ قال: الكبول.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ مقرنين في الأصفاد ﴾ قال: في القيود والاغلال.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ في الأصفاد ﴾ قال: في السلاسل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ في الأصفاد ﴾ يقول: في وثاق.

﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ سرابيلهم ﴾ قال: قمصهم.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه قال ﴿ السرابيل ﴾ القمص.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ من قطران ﴾ قال: قطران الابل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ من قطران ﴾ قال: هذا القطران يطلى به حتى يشتعل ناراً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من قطران ﴾ قال: هو النحاس المذاب.

(177/421)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله " سرابيلهم من قطر آن " قال: من نحاس آن قال: قد أنى لهم أن يعذبوا به.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه قرأ " من قطر آن " قال: القطر الصفر والآن الحار.

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر، عن عكرمة رضي الله عنه أنه كان يقرؤها " من قطر " قال: من صفر يحمي عليه " آن ". قال: قد انتهى حره.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ قال تلفحهم فتحرقهم.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من حرب ".

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " النائحة إذ لم تتب قبل موتها، توقف في طريق بين الجنة والنار، سرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار ".

أما قوله تعالى: ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ قال القرآن ﴿ ولينذروا به ﴾ قال بالقرآن. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) ﴾

قوله تعالى: ﴿ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ﴾: العامَّةُ على إضافة "مُخْلِف" إلى "وعدِه" وفيها وجهان، أظهرهما: أن "مُخْلف" يَتَعدَّى لاثنين كفعلِه، فقدَّم المفعولَ الثاني، وأُضيف إليه اسمُ الفاعل تخفيفاً نحو: "هذا كاسِيْ جُبَّةٍ زيداً" قال الفراء وقطرب: "لَمَّا تعدَّى/ إليهما جميعاً لم يُبَالَ بالتقديمِ والتأخير". وقال الزمخشري: "فإن قلت: هلا قيل: مُخْلِفَ رسلِه وعدَه، ولِمَ قَدَّم المفعولَ الثاني على الأول؟ قلت: قَدَّمَ الوعدَ ليُعْلِمَ أنه لا يُخْلِفُ الوعدَ ثم قال "رسله" ليُؤْذِنَ أنه إذا لم يُخْلِفْ وعدَه أحداً - وليس من شأنِه إخلافُ المواعيد - كيف يُخلِفُه رُسلَهُ".

وقال أبو البقاء: "هو قريب من قولهم:

2912- يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدارِ ... وأنشد بعضُهم نظيرَ الآيةِ الكريمة قولَ الشاعر:

2913- ترى الثورَ فيها مُدخِلَ الظلِ رأسَهُ ... وسائرُه بادٍ إلى الشمسِ أجمعُ

والحُسبان هنا: الأمر المنتفي، كقوله:

2914- فلا تَحسَبَنْ أني أَضِلُ مَنِيَّتي ... فكلُّ امرئٍ كأسَ الحِمام يذوقُ

الثاني: أنه متعدٍّ لواحدٍ، وهو "وعدِه"، وأمَّا "رُسُلَه" فمنصوبٌ بالمصدر، فإنه يَنْحَلُّ

لحرفٍ مصدريّ وفعلٍ تقديرُه : مُخْلِفُ ما وعدَ رُسُلَه ، ف " ما " مصدريةٌ لا بمعنى الذي .

وقرأت جماعةٌ ﴿ مُخْلِفَ وَعْدَ رُسُلَهُ ﴾ بنصب " وعدَه " وجرّ " رسلِه " فَصْلاً بالمفعولِ بين المتضايفين ، وهي كقراءةِ ابن عامر ﴿ قَتْلُ أَوْلاَدَهُمْ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ قال الزمخشري جرأةً منه : " وهذه في الضَّعْفِ كمَنْ قرأ ﴿ قَتْلُ أَوْلاَدَهُمْ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ .

(179/421)

---

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ﴾ : يجوز فيه عدةُ أوجهٍ ، أحدُها : أن يكونَ منصوباً ب " انتقام " ، أي : يقع انتقامُه في ذلك اليوم . الثاني : أن ينتصبَ ب " اذكُر " . الثالث : ان ينتصبَ بما يتلخَّص مِنْ معنى ﴿ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . الرابع : أن يكونَ بدلاً من ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ﴾ [ إبراهيم : 44 ] . الخامس : أن ينتصبَ ب " مُخْلِف " . السادس : أن ينتصبَ ب " وَعْدِه " ، و " إنَّ " وما بعدها اعتراضٌ . ومنع أبو البقاء هذين الأخيرين ، قال " لأنَّ ما قبل " إنَّ " لا يعمل فيما بعدها " . وهذا غيرُ مانعٍ لأنه كما تقدَّم اعتراضٌ فلا يُبالَى به فاصلاً .

وقوله : " والسماواتُ " تقديرُه : وتُبَدَّل السماواتُ غيرَ السماواتِ . وفي التبديلِ قولان :

هل هو متعلِّقٌ بالذات أو بالصفة؟ وإلى الثاني مَيْلُ ابنِ عباس، وأنشد:

2915- فما الناسُ بالناسِ الذين عَهِدْتُهُمْ ... ولا الدارُ التي كنتُ تَعْلَمُ

وقرئ "نُبَدِّل" بالنون، "الأرضَ" نصباً، و"السماواتِ" نَسَقٌ عليه.

قوله: "وبَرَزوا" فيه وجهان: أحدُهما أنها جملةٌ مستأنفةٌ، أي: ويَبْرُزُون، كذا قدَّره أبو البقاء، يعني أنه ماضٍ يُراد به الاستقبال، والأحسنُ أنه مِثْلُ ﴿ ونادى أَصْحَابُ النار ﴾ [الأعراف: 50] ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة ﴾ [الأعراف: 44] ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الحجر: 2] ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل: 1] لتحقُّقِ ذلك.

والثاني: أنها حالٌ من الأرض، و"قد" معها مُرادةٌ، قاله أبو البقاء، ويكون الضميرُ في "بَرَزوا" للخَلْق دَلَّ عليهم السياقُ، والرابطُ بين الحالِ وصاحِبها الواوُ.

وقرأ زيدُ بنُ علي "وبُرِّزوا" بضم الباءِ وكسر الراء مشددةً على التكثيرِ في الفعلِ ومفعوله.

(180/421)

---

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) ﴾

قوله تعالى: ﴿ مُّقَرَّنِينَ ﴾: يجوز أن يكونَ حالاً على أنها بَصَرية، وأن يكونَ مفعولاً ثانياً

على أنها عِلْمية . و ﴿ فِي الأصفاد ﴾ متعلّقٌ به . وقيل : بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ أو صفةٌ ل " مُقَرّنِين " . والمُقَرَّنُ : مَنْ جُمِعَ في القَرَن ، وهو الحبلُ الذي يُرْبط به ، قال :

2916- وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ . . . لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القناعِيسِ

وقال آخر :

2917- والخيرُ والشرُّ مَلْزُوْزان في قَرَنْ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

وفي التفسير : أنَّ كل كافرٍ يُقْرَنُ مع شيطانِه في سلسلة .

والأَصْفاد : جمع صَفَد وهو الغِلُّ والقيد ، يُقال : صَفَده يَصْفِدُه صَفْداً : قَيَّده ، والاسمُ : الصَّفَد ، وصَفَّده مشدداً للتكثير . قال :

2981- فآبُوا بالنِّهَائِبِ والسَّبَايا . . . وأُبْنا بالملوكِ مُصَفَّدينا

والصِّفاد مثلُ الصَّفَدِ ، وأَصْفَده ، أي : أعطاه ، فَفَرَّقوا بين فَعَل وأَفْعل . وقيل : بل يُستعملان في القَيْد وفي العطاء .

قال النابغة :

2919- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . فلم أُعَرِّض -أبيتَ اللَّعْنَ- بالصَّفَد

أي : بالإعطاءِ ، وسُمِّي العَطاءُ صَفَداً لأنه يُقَيِّدُ مَنْ يعطيه ومنه " أنا مَغْلولُ أيادِيك ،

وأَسِيْرُ نعْمَتِك " .

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ : مبتدأ وخبرٌ في محلِّ نصبٍ على الحال : إمَّا من " المجرمين " ، وإمَّا من " مُقَرَّنين " ، وإمَّا مِنْ ضميره . ويجوز أن تكونَ مستأنفةً ، وهو الظاهر .

والسَّرابيلُ : الثياب . وسَرْبَلْتُه ، أي : أَلْبَسْتَه السِّربال . قال :

(181/421)

---

2920- أَوْدَى بنَعْلَيَّ وسِرْبالِيَهْ . . . ويُطلقُ على ما يُحَصِّنُ في الحَرْب ، من الدِّرْعِ وشبهه ، قال تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [ النحل : 81 ] .

والقَطِران : ما يُسْتَخْرجِ مِنْ شجرٍ ، فيُطبخ وتُطْلَى به الإِبلُ الجُرُبُ لِيَذْهَبَ جَرَبُها بحِدَّته ، وهو أفضلُ الأشياءِ للاشتعال به . وفيه لغاتٌ : قَطِران بفتح/ القاف وكسر الطاء ، وهي قراءةُ العامَّة . وقَطْران بزنة سَكْران وبها قرأ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب . وقال أبو النجم :

2921- لَبَّسَه القَطْرانَ والمُسُوحَا . . . وقِطْران بكسر القافِ وسكونِ الطاء بزنة

سِرْحان ، ولم يُقْرأ بها فيما عَلِمْت .

وقرأ جماعةٌ كثيرة منهم عليُّ بن أبي طالب وابن عباس وأبو هريرة والحسن "بَقَطِرٍ" بفتح القافِ وكسرِ الطاءِ وتنوينِ الراء ، "آنٍ" بوزن عانٍ ، جعلوهما كلمتين والقَطِر : النحاس ، والآني : اسمُ فاعلٍ مِنْ أَنَى يَأْني ، أي : تناهى في الحرارةِ كقوله : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [ الرحمن : 44 ] ، وعن عمرَ رضي الله عنه "ليس بالقَطْران ، ولكنه النحاسُ الذي يَصير بلَوْنِه" .

وقرىء : "وتَغَشَّى" بتشديدِ الشينِ ، أي : وتتَغَشَّى ، فحذف إحدى التاءين .

وقُرِئ برفعِ "وجوهُهم" ونصبِ "النار" على سبيلِ المجاز ، جعَلَ ورودَ الوجوهِ النارَ غِشْياناً .

والجملةُ من قوله "وتَغْشى" قال أبو البقاء : "حالٌ أيضاً" ، يعني أنها معطوفةٌ على الحال ، ولا يَعْني أنها حالٌ ، والواوُ للحال ؛ لأنه مضارعٌ مثبتٌ .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ ﴾ : في هذه الآيةِ وجهان . أولاهما : أن يتعلَّق ب " بَرَزُوا " ، وعلى هذا فقولُه " وَتَرَى " جملةٌ معترضةٌ بين المتعلِّق والمتعلِّق به . والثاني : أنها تتعلَّقُ بمحذوفٍ ، أي : فَعَلْنا بالمجرمين ذلك ليَجْزِيَ كلَّ نفس ؛ لأنه إذا عاقب المجرمَ أثاب الطائعَ .

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ هذا ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم مِن قوله : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ ﴾ [ إبراهيم : 47 ] إلى هنا ، أو إلى كلِّ القرآن نزِّل مَنْزِلةَ الحاضر .

قوله : " وَلِيُنْذَرُوا " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ ، أي : ولِيُنْذِرُوا به أَنْزَلْنا عليك .

الثاني : أنه معطوفٌ على محذوفٍ ، ذلك المحذوفُ متعلقٌ ب " بلاغ " ، تقديره : ليُنْصَحوا ولِيُنْذَروا . الثالث : أن الواوَ مزيدةٌ و " لِيُنْذَروا " متعلقٌ ب " بلاغ " ، وهو رأيُ الأخفش ، نقله الماوردي . الرابع : أنه محمولٌ على المعنى ، أي : ليُبَلَّغُوا ولِيُنْذَرُوا . الخامس : أن اللامَ لامُ الأمر . قال بعضُهم : وهو حسنٌ لولا قولُه " وِلِيَذَّكَّر " فإنه منصوبٌ فقط . قلت : لا محذورَ في ذلك فإنَّ قولَه " ولِيَذَّكَّرَ " ليس معطوفاً على ما تقدَّمه ، بل متعلِّقٌ بفعلٍ مقدر ، أي : ولِيَذَّكَّر أَنْزَلْناه وأَوْحيناه . السادس : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ . التقدير : هذا بلاغٌ وهو ليذَّكَّر ، قاله ابن عطية . السابع : أنه عطفُ مفردٍ على مفردٍ ، أي : هذا بلاغٌ وإنذار ، قاله المبرد ، وهو تفسيرُ معنى لا إعرابٍ .

الثامن : أنه معطوفٌ على قوله ﴿ لِتُخْرِجَ الناس ﴾ [ إبراهيم : 1 ] في أولِ السورة . وهذا غريبٌ جداً . التاسع : قاله أبو البقاء : " المعنى : هذا بلاغٌ للناسِ وللإِنذار ، فتعلَّق بالبلاغ أو بمحذوف إذا جَعَلْتَ " الناس " صفةً ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ تقديره : ولِيُنْذَروا به أُنْزِل وتُلِي " . قلت : فيؤدي التقدير إلى أَنْ يَبْقى التركيبُ : هذا بلاغٌ للإِنذار ، والإِنذارُ لا يتأَتَّى فيه ذلك .

وقرأ العامَّة : " لِيُنْذَرُوا " مبنياً للمفعول ، وقرأ مجاهد وحميد بن قيس : " ولِتُنْذِرُوا " بتاءٍ مضمومة وكسرِ الذال ، كأنَّ البلاغَ للعموم والإِنذار للمخاطبين .

وقرأ يحيى بن عُمارة الذارع عن أبيه ، وأحمد بن يزيد بن أسيد السلمي . " ولِيُنْذَرُوا " بفتح الياء والذال مِنْ نَذَر بالشيء ، أي : عَلِم به فاستعدَّ له ، قالوا : ولم يُعرف له مصدرٌ فهو كَعَسَى وغيرِها من الأفعالِ التي لا مصادرَ لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 135.127 ﴾

فصل

قال القرطبى :

باب أين يكون الناس ؟ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات

مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد وذكر الحديث وفيه فقال اليهودي أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم في الظلمة دون الجسر الحديث بطوله وسيأتي .

وخرج مسلم أيضاً وابن ماجه جميعاً قالا : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا علي بن مسهر ، عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : على الصراط .

وأخرجه الترمذي قال : حدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا سفيان عن داود بن هند ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : يا رسول الله والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه فأين يكون المؤمنون يومئذ ؟ قال : على الصراط يا عائشة قال : هذا حديث حسن صحيح .

وخرج عن مجاهد قال : قال ابن عباس : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا . قال : أجل

والله ما تدري . حدثني عائشة أنه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه قال : فقلت : فأين الناس يا رسول الله ؟ قال : على جسر جهنم قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فصل : هذه الأحاديث نص في أن الأرض والسموات تبدل وتزال ويخلق الله أرضاً أخرى يكون عليها الناس بعد كونهم على الجسر وهو الصراط . لا كما قال كثير من الناس أن تبدل الأرض عبارة عن تغيير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ومد أرضها ، ورواه ابن مسعود رضي الله عنه . خرجه ابن ماجه وسيأتي ذكره في الاشتراط إن شاء الله .

وذكر ابن المبارك من حديث شهر بن حوشب



---

قال : حدثني ابن عباس قال : [ إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا ] وذكر الحديث . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تبدل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم ذكره الثعلبي في تفسيره .

وروى علي بن الحسين رضي الله عنهما قال : [ إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدميه ] ذكره الماوردي ، وما بدأنا بذكره أصح لأنه نص ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . فإن قائل : إن بدل في كلام العرب معناه : تغيير الشيء ، ومنه قوله تعالى : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها وقال : فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ، ولا يقتضي هذا إزالة العين وإنما معناه تغيير الصفة . ولو كان المعنى لإزالة لقال يوم تبدل الأرض مخففاً من أبدلت الشيء إذا أزالت عنه وشخصه قيل له : ما ذكرته صحيح ، ولكن قد قرئ قوله عز وجل عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد . قال : وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً وقال : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكذا ذكر تاج اللغة أبو نصر الجوهري في الصحاح ، وأبدلت الشيء بغيره وبدله الله من الخوف أمناً وتبديل الشيء أيضاً تغييره ، فقد دل القرآن وكلام العرب على أن بدل وأبدل بمعنى واحد ، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم أحد المعنيين ، فهو أعلى ولا كلام معه .

قال ابن عباس وابن مسعود : تبدل الأرض أرضاً بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة قط . وقال ابن مسعود أيضاً تبدل الأرض ناراً والجنة من ورائها يرى أكوابها وكواعبها . وقال أبو الجلد حيان بن فروة : إني لأجد فيما أقرأ من كتب الله أن

الأرض تشعل ناراً يوم القيامة . وقال علي رضي الله عنه : تبدل الأرض فضة ، والسماء ذهباً ، وقال جابر : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قول الله تعالى : يوم تبدل



---

الأرض غير الأرض قال تبدل خبزة يأكل منها الخلق يوم القيامة . ثم قرأ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه .

قلت : وهذا المعنى الذي قاله سعيد بن جبير ومحمد بن كعب مروي في الصحيح وسيأتي . وإليه ذهب ابن برحان في كتاب الإرشاد له . وأن المؤمن يطعم يومئذ من بين رجليه ويشرب من الحوض ، فهذه أقوال الصحابة والتابعين دالة على ما ذكرنا .

وأما تبديل السماء فقيل تكوير شمسها وقمرها وتناثر نجومها . قاله ابن عباس وقيل : اختلاف أحوالها فتارة كالمهل ، وتارة كالدهان . حكاه ابن الأنباري . وقال كعب : تصير السماء دخاناً ، وتصير البحار نيراناً ، وقيل تبديلها : أن تطوي كطي السجل للكتاب ، وذكر أبو الحسن شبيب بن إبراهيم بن حيدرة في كتاب الإفصاح له : أنه لا يعارض بين هذه الآثار ، وأن الأرض والسماوات تبدل كرتين إحداهما هذه الأولى وأنه سبحانه يغير

صفاتها قبل نفخة الصعق فتنتثر أولاً كواكبها ، وتكسف شمسها وقمرها وتصير كالمهل ، ثم تكشط عن رؤوسهم ، ثم تسير الجبال ثم تموج الأرض ، ثم تصير البحار نيراناً ، ثم تنشق الأرض من قطر إلى قطر فتصير الهيئة غير الهيئة ، والبنية غير البنية ، ثم إذا نفخ في الصور نفخة الصعق طويت السماء ودحيت الأرض ، وبدلت السماء سماء أخرى ، وهو قوله تعالى وأشرقت الأرض بنور ربها وبدلت الأرض : تمد مد الأديم العكاظي . وأعيدت كما كانت فيها القبور . والبشر على ظهرها وفي بطنها . وتبدل أيضاً تبديلاً ثانياً . وذلك إذا وقفوا في المحشر فتبدل لهم الأرض التي يقال لها [ الساهرة ] يجلسون عليه وهو أرض عفراء وهي البيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام قط ، ولا جرى عليه ظلم قط ، وحينئذ يقوم الناس على الصراط ، وهو لا يسع جميع الخلائق وإن كان قد روي أن مسافته ألف سنة صعوداً وألف سنة هبوطاً و



---

ألف سنة استواء ، ولكن الخلق أكثر من ذلك فيقوم من فضل على الصراط ، على متن جهنم ، وهي كإهالة جامدة وهي الأرض التي قال عبد الله إنها أرض من نار يعرق فيها البشر ، فإذا حوسب عليها أعين الأرض المسماة بالساهرة وجاوزوا الصراط وجعل أهل

الجنان من وراء الصراط ، وأهل النيران في النار وقام الناس على حياض الأنبياء يشربون بدلت الأرض كقرصة النقي ، فأكلوا من تحت أرجلهم ، وعند دخولهم الجنة كانت خبزة واحدة أي قرصاً واحداً يأكل منه جميع الخلق ممن دخل الجنة وإدامهم زيادة كبد ثور في الجنة وزيادة كبد النون على ما يأتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التذكرة فى أحوال الموتى صـ 218.215﴾

(188/421)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) ﴾

أي لا تحسبنّه يخلف رسله وعده ؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله ، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقّه في مُلْكِه ، وهو ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يصل إليه أحد ، وإن كان ولياً . ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ لا يفوته أحد وإن كان ( . . . ) .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) ﴾

لا يختلف عَيْنُها وإنما تختلف صورتها ، وكذلك إذا انكدرت النجوم ، وانشقت السماء

يقال ما بدّل عينها وإنما بدَّل الأزمانَ والمكانَ على الناس باختلافهم أحوالهم في السرور والمحن؛ كَمَنْ صار من الرخاء إلى البلاء يقول: تغيَّر الزمانُ والوقتُ... وكذلك من صار من البلاء إلى الرخاء.

ويقال إن آدم لما قتل أحدُ ابنيه الآخرَ قال:

تغيرت البلادُ ومَنْ عليها... فوجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قبيحُ

وفي هذه القصة من كان صاحب بسطٍ فَرُدَّ إلى حال القبض، ومن كان صاحب أُنسٍ فصار صاحب حجاب -يصحُّ أن يقال بدل له الأرض، قال بعضهم:

ما الناس بالناس الذي عهدي بهم... ولا البلاد بتلك التي كنت أعرفها

وكذلك العبد المريد إذا وقعت له وقفة أو فترة كانت الشمس له كاشفة، وكانت الأرض به راجفة، وكان النهار له ليلاً، وكان الليل له ويلا، وكما قيل:

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا... بِطَلْقٍ ولا ماءُ الحياة ببارد

(189/421)

---

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) ﴾

الأصفاد الأغلال . الأصفاد تجمعهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سرابيلهم ، والحميم شُرْبُهم ، والنارُ محيطةٌ بهم . . وذلك جزاء مَنْ خَالَف إلهه .

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52) ﴾

الحجج ظاهرة ، والأمارات لائحة ، والدواعي واضحة ، والمهلة متسعة ، والرسول عليه السلام مُبَلِّغ ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد . ولكنَّ القسمةَ سابقةٌ ، والتوفيقَ عن القيام ممنوعٌ ، والربُّ - سبحانه - فعّالٌ لما يريد ، فَمَنْ اعتبر نجا ، ومن غفل تردَّى . ولله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 261.260 ﴾

*(190/421)*

---

( كلام في معنى الانتقام ونسبته إليه تعالى )

قال صاحب الميزان :

الانتقام هو العقوبة لكن لا كل عقوبة بل عقوبة خاصة وهى ان تذيق غيرك من الشر ما يعادل ما اذاقك منه أو تزيد عليه قال تعالى : " ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله " .

وهو أصل حيوى معمول به عند الإنسان وربما يشاهد من بعض الحيوان أيضا اعمال يشبه ان تكون منه وايا ما كان يختلف الغرض الذى يبعث الإنسان إليه فالداعي إليه في الانتقام الفردى هو التشفي غالبا فإذا سلب الواحد من الإنسان غيره شيئًا من الخير أو اذاقه شيئًا من الشر وجد الذى فعل به ذلك في نفسه من الاسى والاسف ما لا تسكن فورته ولا تخمد ناره الا بأن يذيقه من الشر ما يعادل ما ذاق منه أو يزيد عليه فالعامل الذى يدعو إليه هو الاحساس الباطني واما العقل فربما اجازه وانفذه وربما استنكف .

والانتقام الاجتماعي ونعنى به القصاصات وانواع المؤاخذات التى نعثر عليها في السنن والقوانين الدائرة في المجتمعات اعم من الراقية والهمجية الغالب فيه أن يكون الغرض الداعي إليه غاية فكرية ومطلوبا عقليا وهو حفظ النظام عن الاختلال وسد طريق الهرج والمرج فلو لا أصل الانتقام ومؤاخذة المجرم الجاني بما اجرم وجنى اختل الأمن العام وارتحل السلام من بين الناس .

ولذا كان هذا النوع من الانتقام حقا من حقوق المجتمع وان كان ربما استصحب حقا فرديا كمن ظلم غيره بما فيه مؤاخذة قانونية فربما يؤاخذ الظالم استيفاء لحق المجتمع وان ابطل المظلوم حقه بالعفو .

فقد تبين ان من الانتقام ما يبتنى على الاحساس وهو الانتقام الفردى الذى غايته التشفي ومنه ما يبتنى على العقل وهو الانتقام الاجتماعي الذى غايته حفظ النظام وهو من حقوق المجتمع وان شئت قلت من حقوق السنة أو القانون الجارى في المجتمع فان استقامة الأحكام المعدلة لحياة الناس وسلامتها في نفسها تقتضي مؤاخذة المجرم المتخلف عنها واذاقته جزاء سيئته المر فهو من حقوق السنة والقانون كما انه من حقوق المجتمع .

إذا عرفت هذا علمت ان ما ينسب إليه تعالى في الكتاب والسنة من الانتقام هو ما كان حقا من حقوق الدين الإلهى والشريعة السماوية وان شئت فقل من حقوق المجتمع الاسلامي وان كان ربما استصحب الحق الفردى فيما إذا انتصف سبحانه للمظلوم من ظالمه فهو الولى الحميد .

واما الانتقام الفردى المبنى على الاحساس لغايه التشفي فساحته المقدسة اعز من أن يتضرر بإجرام المجرمين ومعصية المسيئين أو ينتفع بطاعة المحسنين .

ومن هنا يظهر سقوط ما ربما استشكله بعضهم ان الانتقام انما يكون لتشفى القلب واذ كان تعالى لا ينتفع ولا يتضرر بشئ من اعمال عباده خيرا أو شرا طاعة أو معصية فلا وجه لنسبة الانتقام إليه كما ان رحمته غير المتناهية تأبى ان يعذبهم بعذاب خالد غير متناه كيف لا ؟ والواحد من ارباب الرحمة يرحم المجرم المقدم على أي معصية إذا كان عن جهالة منه

وهو تعالى يصف الإنسان وهو مخلوقه المعلوم له حاله بذلك إذ يقول : " إنه كان ظلوما جهولا " الاحزاب 72 .

(192/421)

---

وجه السقوط ان فيه خلطا بين الانتقام الفردى والاجتماعي والذى يثبت فيه تعالى هو الاجتماعي منه دون الفردى كما توهم كما ان فيه خلطا بين الرحمة النفسانية التى هي تأثر وانفعال قلبى من الإنسان وبين الرحمة العقلية التى هي تتميم نقص الناقص المستعد لذلك والتى تثبت فيه تعالى هي الرحمة العقلية دون الرحمة النفسانية ولم يثبت الخلود في العذاب الا فيما إذا بطل استعداد الرحمة وامكان الافاضة قال تعالى : " بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون " البقرة : 81 .

وههنا نكتة يجب ان تتنبه لها وهى إن الذى تقدم من معنى الانتقام المنسوب إليه تعالى انما يتأتى على مسلك المجازاة والثواب والعقاب واما على مسلك نتائج الأعمال فترجع حقيقته إلى لحوق الصور السيئه المؤلمه بالنفس الإنسانية عن الملكات الرديئة التى اكتسبتها في الحياة الدنيا بعد الموت وقد تقدم البحث في الجزء الأول من الكتاب في ذيل قوله تعالى : " ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما " الآية البقرة 26 في جزاء الاعمال .

قوله تعالى : " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد . انتهى انتهى ا .

هـ ﴿ الميزان حـ 11 صـ 86 . 87 ﴾

(193/421)

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْرًا ﴾ قال مقاتل : كانت النعمة أن الله

أطعمهم من جوع ، يعني : قريشاً .

وآمنهم من خوف ، يعني : من القتل .

ثم بعث فيهم رسولاً منهم ، فكفروا بهذه النعمة ، وبدّلوها ، وهم بنو أمية ، وبنو المغيرة ﴿

وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ يعني : وأنزلوا سائر قريش دار البوار .

يعني : دار الهلاك بلغة عمان .

أهلكوا قومهم ، ثم يصيرون بعد القتل إلى جهنم يوم القيامة .

فذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْرًا ﴾ أي : غيّروا نعمة الله عليهم

بالكفر ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ يعني : دار الهلاك ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ هي دارهم

في الآخرة .

قال الكلبي : ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ﴾ يعني : مصرعهم ببدر .

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يعني : يدخلونها يوم القيامة ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ يعني : بئس المستقر جهنم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ يعني : أي شركاء ﴿ لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِ ﴾ يعني : ليصرفوا الناس من دين الإسلام .

قرأ أبو عمرو وابن كثير : ﴿ لِيَضِلُّوا۟ ﴾ بنصب الياء .

يعني : إنهم أخطأوا الطريق ، وضلوا .

وقرأ الباقون : بالضم .

يعني : ليصرفوا الناس عن الهدى .

قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ ﴾ يعني : عيشوا في الدنيا ، وتمتعوا بها .

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ يعني : مرجعكم يوم القيامة إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ الذين ءامَنُوا۟ ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ﴾ بغير ياء .

وقرأ الباقون : ﴿ لِعِبَادِىَ ﴾ بالياء مع النصب ، وأصله الياء ، إلا أن الكسرة تغني عن الياء .

(194/421)

---

وقال بعض الحكماء : شرف الله تعالى عباده بهذه الياء ، وهي خير لهم من الدنيا ، وما فيها ، لأن فيه إضافة إلى نفسه ، والإضافة تدل على العتق ، لأن رجلاً لو قال لعبده : يا ابن ، أو يا ولد لا يعتق ، ولو قال يا ولدي أو يا ابني يعتق بالإضافة إلى نفسه .

فكذلك إذا أضاف الله العباد إلى نفسه ، فيه دليل على أن يعتقهم من النار ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة ﴾ يعني : يتمونها بركوعها ، وسجودها ، ومواقيتها ، ﴿ وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الأموال ﴿ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ يعني : سراً على المتعففين ، وعلانية على السائلين ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ ﴾ يعني : لا فداء فيه ﴿ وَلاَ خلال ﴾ يعني : لا مخالة تنفعه ، وهي الصداقة "لأنه" إذا نزل بهم شدة في الدنيا ، يعادون ، ويشفع خليلهم ، وليس في الآخرة شيء من ذلك ، وإنما هي أعمالهم .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لاَّ بَيْعٌ وَلاَ خلال ﴾ بنصب العين واللام .

وقرأ الباقون : بالرفع والتنوين فيهما .

وهذا الاختلاف مثل قوله ﴿ يا أيها الذين ءامنوا أَنفِقُواْ مِمَّا رزقناكم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شفاعة والكافرون هُمُ الظالمون ﴾

[ البقرة : 254 ] .

ثم بيّن دلائل وحدانيته فقال تعالى : ﴿ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ وهو المطر ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ يعني : فأنبت بالمطر ﴿ لِتَجْرِىَ فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ يقول بإذنه ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَائِبَينَ ﴾ يعني : دائمين ، مطيعين .

(195/421)

---

يعني : ذلّل لكم ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر ﴾ يعني : لبني آدم ، يلتمسون فيها المعيشة ، وينتشرون في النهار إلى حوائجهم ، وفي الليل مستقرهم ومنامهم ، ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يعني : أعطاكم من كل شيء لم تحسنوا أن تسألوا ، فأعطيتكم برحمتي .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة أنه قال : لم تسألوه بكل الذي أعطاكم .

وقال معمر والحسن : آتاكم من كل الذي سألتموه .

قال مجاهد : كل ما رغبتم إليه ، قرأ بعضهم ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ بالتنوين يعني : أعطاكم من كل شيء .

ثم قال ﴿ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يعني : لم تسألوه ، ولا طلبتموه ، ولكن أعطيتكم برحمتي .

يعني : ما ذكر مما سُخِّر للناس في هذه الآيات .

وقرءاة العامة ﴿ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ من غير تنوين على معنى الإضافة .

يعني : من جميع ما سألتموه .

ثم قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ يعني : لا تقدروا على أداء شكرها .

ويقال : ﴿ تُحْصُوهَا ﴾ يعني : لا تحفظوها ﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ يعني : الكافر ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ يعني : يظلم نفسه بالكفر بنعم الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجعل هذا البلد اٰمِنًا ﴾ يعني : مكة آمناً من القتل والغارة .

ويقال : من الجذام والبرص ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ ﴾ وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء البيت ، سأل ربه أن يجعل البلد آمناً ، وخاف على بنيه .

لأنه رأى القوم يعبدون الأصنام ، والأوثان .

فسأل ربه أن يجنبهم عن عبادة الأوثان فقال : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ ﴾ يقول : احفظني وبنيّ ﴿ أَن نَّعْبُدَ الاصنام ﴾ يعني : لكي لا نعبد ، وفيه دليل أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن على

إيمانه ، وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله .

ليثبّته على الإيمان ، كما سأله إبراهيم لنفسه ولبنيه بهذا الإسلام .

وأخاف أن تنزعه مني فما دام هذا الخوف معي ، رجوت ألا تنزعه مني .

(196/421)

---

ثم قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ يقول : بهن ضل كثير من الناس .

فكأن الأصنام سبب لضلالتهم .

فنسب الإضلال إليهن ، وإن لم يكن منهن عمل في الحقيقة .

وقال بعضهم : كان الإضلال منهن ، لأن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام ، وتتكلم

، فذلك الإضلال منهن .

ثم قال : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ يعني : من آمن بي فهو معي على ديني .

ويقال : فهو من أمتي ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ يعني : لم يطعني ، ولم يوحدك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمن تاب .

ثم قال تعالى : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ يعني : أنزلت بعض ذريتي ، وهو

إسماعيل عليه السلام ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ يعني : بأرض مكة ، وذلك أن لسارة كانت

جارية يقال لها : هاجر ، فوهبتها من إبراهيم ، فولدت منه إسماعيل ، فغارت سارة ، وناشدته أن يخرجها من أرض الشام ، فأخرجهما إبراهيم عليه السلام إلى أرض مكة ، ثم رجع إلى سارة .

فلما كبر إسماعيل ، رجع إبراهيم إليه ، وبنى معه البيت .

فذلك قوله : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ يعني : بأرض ليس فيها زرع ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمحرم ﴾ يعني : حرم فيه القتال والاصطياد ، وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام وغير ذلك ، ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ ﴾ يعني : ليتموا الصلاة ، وإنما ذكر الصلاة خاصة ، لأنها أولى العبادات وأفضلها ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ يعني : تشتاق إليهم .

قال مجاهد : لو قال إبراهيم : أفئدة الناس لزاحمتكم الروم وفارس .

ولكنه قال : ﴿ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاس ﴾ وقال سعيد بن جبير : لو قال إبراهيم أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى ، ولكن قال : ﴿ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاس ﴾ ﴿ وارزقهم ﴾ يعني : أطعمهم ﴿ مِّنَ الثمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ يعني : لكي يشكروا .

ثم قال تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى ﴾ من الوجد بإسماعيل، وهاجر، والحب لهما، ﴿ وَمَا نُعْلِنُ ﴾ عند سارة من الصبر عنهما ﴿ وَمَا يخفى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ ﴾ يعني: لا يذهب على الله شيء ﴿ فِي الأَرض وَلاَ فِى السماء ﴾ يعني: من عمل أهل السماء وأهل الأرض.

قال بعضهم: هذا كلام إبراهيم.

وقال بعضهم: هذا كلام الله تعالى والله أعلم بالصواب.

ثم رجع إلى كلام إبراهيم فقال: ﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر ﴾ يعني: بعد الكبر، وهو ابن تسع وتسعين سنة في رواية الكلبي، وفي رواية الضحاك: ابن مائة وعشرين سنة.

﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ وكان إسماعيل أكبرهما بثلاث عشرة سنة ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ يعني: لمجيب الدعاء.

قوله تعالى: ﴿ رَبّ اجعلنى مُقِيمَ الصلاة ﴾ يعني: أكرمني بإتمام الصلاة ﴿ وَمِن ذُرّيَتِى ﴾ يعني: فأكرمهم أيضاً لإتمام الصلاة ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴾ أي: استجب دعائي.

ويقال: معناه تقبل عملي.

واستجب دعائي ﴿ رَبَّنَا اغفر لِى وَلِوَالِدَىَّ ﴾ قرأ بعضهم: ﴿ ولوالدتي ﴾.

لأن أمه كانت مسلمة.

وقرأ بعضهم: ﴿ ولولَدَيّ ﴾ يعني: إسماعيل وإسحاق، وقراءة العامة ﴿ لِى وَلِوَالِدَىَّ ﴾ لأنه كان يستغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني: اغفر لجميع المؤمنين ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ يعني: يوم القيامة.

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الله غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ بنصب السين.

وقرأ الباقون: بالكسر، ومعناهما واحد.

يعني: لا تظن يا محمد أن الله غافل عما يعمل الظالمون.

يعني: المشركون.

يعني: إن أعمالهم لا تخفى على الله، ولو شئت لعجلت عقوبتهم في الدنيا.

قال ميمون بن مهران إن هذه الآية تعزية للمظلوم، ووعيد الظالم ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعني: يمهلهم، ويؤجلهم.

(198/421)

---

قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ نُؤخِرهُمْ ﴾ بالنون وقرأ الباقون: بالياء.

﴿ يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الابصار ﴾ يعني: تذهب فيه أبصار الكافرين.

وذلك حين عاينوا النار تشخص أبصارهم .

قوله ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي : مسرعين يقال : أهطع البعير في السير .

إذا أسرع .

ويقال : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي ناظرين ، قاصدين نحو الداعي .

وقال قتادة : يعني : مسرعين ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسَهُمْ ﴾ المقنع الذي يرفع رأسه ، شاخصاً بصره ، لا يطرق .

وقال مجاهد : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مديمي النظر ، ﴿ مُقْنِعِى رُؤُوسَهُمْ ﴾ ، رافعيها .

وقال الخليل بن أحمد : المهطع الذي قد أقبل إلى الشيء ينظره ، ولا يرفع عينه عنه ﴿ مُقْنِعِى ﴾ يعني : رافعي رؤوسهم ، مادي أعناقهم ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ يعني : لا يرجع إلى الكفار بصرهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءَ ﴾ يعني : خالية من كل خير .

كالهواء ما بين السماء والأرض .

وقال السدي : ﴿ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ ﴾ بين موضعها ، وبين الحنجرة .

فلم ترجع إلى موضعها .

ولم تخرج كقوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الازفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كاظمين مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [ غافر : 18 ] وهكذا قال مقاتل ، وقال أبو عبيدة ، هواء أي مجوفة لا عقول فيها .

ثم قال : ﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾ يعني : خوف أهل مكة ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني : أشركوا ﴿ رَبَّنَا أَخّرْنَا ﴾ أي : أجلنا ﴿ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ لنرجع إلى الدنيا ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ يعني : الإسلام ﴿ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ على دينهم .

يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ ﴾ يقول : حلفتم ، وأنتم في الدنيا من قبل هذا اليوم ﴿ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ ﴾ أي : لا تزولون عن الدنيا ، ولا تبعثون .

(199/421)

---

قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ يعني : نزلتم ﴿ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ يعني : منازل قوم عاد وثمود ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ يقول : كيف عاقبناهم عند التكذيب ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الامثال ﴾ يقول : بيّنا ، ووصفنا لكم عصيانهم ، وجحودهم ، والعذاب الذي نزل بهم .

يعني : إنكم سمعتم هذا كله في الدنيا ، فلم تعتبروا .

فلو رجعتم بعد هذا اليوم ، لا تنفعكم الموعظة أيضاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ يعني : صنعوا صنيعهم .

يعني : الأمم الخالية ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ يعني : علم الله مكرهم ، ولا يخفى عليه ، قال علي بن أبي طالب : ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ التابوت ، والنسور ، وهم نمرود بن كنعان وقومه .

وروى وكيع بإسناده عن عليّ رضي الله عنه قال : إن جباراً من الجبابرة قال : لا انتهي حتى أعلم ما في السماء ، فاتخذ أفراخ نسور ، ثم أمر بها ، فأطعمت اللحم حتى اشتدت ، وغلظت ، واستفحلت ، فاتخذ تابوتاً يسع فيه رجلان ، ثم أمر بالنسور ، فجوعت ، ثم ربط أرجلها بالأوتاد ، وشدت بقوائم التابوت ، وجعل في وسط التابوت اللحم ، ثم جلس في التابوت ، هو ورجل معه ، ثم أرسل النسور ، وجعل اللحم على رأس خشبة على التابوت ، فطارت النسور إلى السماء ما شاء الله .

ثم قال لصاحبه انظر ماذا ترى ؟ فنظر فقال : أرى الجبال كأنها الدخان .

ثم سار ما شاء الله .

ثم قال : انظر فنظر ، فقال : ما أرى إلا السماء ، وما نزداد منها إلا بعداً .

قال : نكس الخشبة ، فانقضت النسور ، حتى سقطت إلى الأرض ، فسمع هزة الجبال ، فكادت الجبال أن تزول من أماكنها .

ثم قرأ عليّ رضي الله عنه ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ أي : وقد كان مكرهم ليزيل الجبال عن أماكنها .

ويقال: إن نمرود بن كنعان هو أول من تجبر، وقهر، وسن سنن السوء، وأول من لبس التاج، فأهلكه الله تعالى ببعوضة في خياشمه، فعذب بها أربعين يوماً ثم مات.

وقال قتادة: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ يعني: الكفار ادعوا لله تعالى ولداً. فكاد أن تزول الجبال.

ويقال: يعني: أهل مكة مكروا في دار الندوة، وقد كاد مكرهم أن يزول منهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر دين الإسلام.

إذ ثبوته كثبوت الجبال، لأن الله تعالى وعد لنبيه صلى الله عليه وسلم إظهار دين الإسلام بدليل ما قال بعد هذا ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ قرأ الكسائي ﴿ لَتَزُولَ ﴾ بنصب اللام الأولى، ورفع الثانية.

وقرأ الباقون: بكسر الأولى، ونصب الثانية ﴿ لِتَزُولَ ﴾ ومعناه: ما كان مكرهم ليزول به أمر دين الإسلام، إذ ثبوته كثبوت الجبال.

ومن قرأ ﴿ لَيَزُولُ ﴾ فمعناه: وإن كان مكر الكفار ليبلغ إلى إزالة الجبال، فإن الله ينصر دينه.

وروي عن ابن مسعود أن قرأ ﴿ وَإِن كَادُواْ مَكْرِهِمْ ﴾ قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ يعني : في نزول العذاب بكفار مكة ، إن شاء عجل لهم العقوبة في الدنيا .

﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتقام ﴾ ذو النقم من الكفار .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأرض ﴾ قال عليّ بن أبي طالب يعني : غير هذه الأرض التي عليها بنو آدم ، أرض بيضاء نقية لم يعمل فيها بالمعاصي ، ولا سفك عليها الدماء .

وهكذا قال ابن مسعود .

قال : حدثنا الخليل بن أحمد ، قال : حدثنا أبو يعقوب .

قال : حدثنا محمد بن يونس العامري .

قال : حدثنا مسلم بن إبراهيم .



---

قال : حدثنا القاسم بن الفضل عن الحسن عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة ؟ قال : " أَمَّا عِنْدَ مَوَاطِنَ ثَلاَثَةٍ فَلاَ : عِنْدَ الصِّرَاطِ

، والكِتَابِ ، والمِيزَانِ " .

قالت : قلت : ألم يقل الله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ أي : الناس يومئذٍ ؟

قال : " سَأَلْتِني عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكِ " .

فقال : " النَّاسُ يَوْمَئِذٍ عَلَى الصِّرَاطِ " .

وروي عن ابن عباس أنه قال : تمد الأرض مد الأديم ، ويزاد في سعتها .

ثم قال : ﴿ والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ ﴾ يعني : خرجوا من قبورهم ، وظهروا ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ لخلقه .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى المجرمين ﴾ يعني : المشركين ﴿ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ مسلسلين ﴿ فِى الاصفاد ﴾ يعني : في الأغلال ، يقرن كل كافر مع شيطان ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ يعني : قمصهم ﴿ مّن قَطِرَانٍ ﴾ قال قتادة : هو النحاس المذاب .

وقال الحسن البصري : ﴿ قَطِرَانٍ ﴾ الإبل الآنك .

وقال عكرمة : هو القطران الذي يطلى به الأشياء ، حتى يشتعل ناراً .

وقال الضحاك : من صفر حار قد انتهى حرّه .

وقال القتبي : ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أي : قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال .

وروي عن أبي هريرة أنه كان يقرأ من ﴿ قَطِرَانٍ ﴾ .

يقول : القطر النحاس والآنك الذي انتهى حره .

ثم قال تعالى : ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار ﴾ يعني : تعلو لوجوههم النار ، لا يمتنعون منها .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نفسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من خير أو شر ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ﴾ إذا حاسب ، فحسابه سريع .

قوله : ﴿ هذا بلاغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ يعني : هذا القرآن إرسال وبيان من الله تعالى .

ويقال : أبلغكم عن الله تعالى .

(202/421)

---

﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ يعني : ليخوفوا بالقرآن عن معصية الله تعالى ﴿ وَلِيَعْلَمُواْ ﴾ يعني : لكي يعلموا ﴿ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ صادق ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ ﴾ أي ليتعظ بما أنزل من التخويف في القرآن ﴿ أُوْلُو الألباب ﴾ يعني : ذوو العقول من الناس . والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 243 . 249 ﴾

(203/421)

---

وقال الثعلبى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً ﴾

يعني غيّروا نعمة الله عليهم في تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا به وكذبوه فيصيروا نعمة الله عليهم كفراً ﴿ وَأَحَلُّواْ ﴾ وأنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ ممن تابعهم على كفرهم ﴿ دَارَ البوار ﴾ الهلاك ثم [ ترجم ] عن دار البوار ما هي .

فقال : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ المستقر .

عامر بن واثلة سمعت علي بن أبي طالب ح يقول في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ ﴾ الآية قال : هم كفار قريش الذين نحروا يوم بدر .

قال عمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) : هما الأفجران من قريش بني أُمية ، فأما بنو أُمية فمتعوا إلى حين ، وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر .

ابن عباس : هم متنصرة العرب جبلة بن الأيهم وأصحابه .

﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ ﴾ قرأ الكوفيون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس عن سبيله ، وقرأ الباقون بفتح الياء على اللزوم ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ ﴾ عيشوا متاع الدنيا .

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ وهذا وعيد .

قوله : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة ﴾ . قال الفراء : جزم : يقيموا بتأويل الجزاء ومعناه الأمر .

﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً ﴾ إلى قوله ﴿ وَلا خِلالٌ ﴾ مخالة فيقال خلت فلاناً فأنا أخاله مخالة وخلال وخلّة .

قال امرؤ القيس :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . . . وخلت بمقليّ الخلال ولا قالي

﴿ اللهُ الذي خَلَقَ السماوات ﴾ إلى قوله ﴿ الشمس والقمر دَآئِبَيْنَ ﴾ .

قال ابن عباس : دووبهما في طاعة الله .

*(204/421)*

---

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ متعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً فحذف الشيء الثاني اكتفاءً بدلالة الكلام على التبعيض كقوله ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ النمل : 23 ] يعني وأُوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً وقيل هو التكثير نحو قولك : فلان يعلم كل شيء وأتاه كل الناس ، وأنت تعني بعضهم نظيره قوله ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 44 ] .

وقال بعض المفسرين : معناه وآتاه من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ، وهذه قراءة العامة

بالإضافة [ . . . . . . . . . ] .

وقرأ الحسن والضحاك وسلام : من كل ، بالتنوين على النفي يعني من كل ما لم تسألوه فيكون ما يجد .

قال الضحاك : أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها ، صدق الله لكم من شيء أعطاناه الله ما سألناه إياه ولا خطرنا ببال .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لا تطيقوا ذكرها ولا القيام بشكرها لا بالجنان ولا باللسان ولا بالبيان ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ لشاكر غير من أنعم عليه واضع الشكر في غير موضعه ﴿ كَفَّارٌ ﴾ جحود لنعم الله ، وقيل ظلمه لنفسه بمعصيته كفار لربه في نعمته ، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً ﴾ يعني الحرم مأموناً فيه ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ ﴾ .

﴿ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ ويقال جنبته أجنبه جنباً وأجنبته إجناباً بمعنى وأجنبّك وجنّبته تجنيباً .

قال الشاعر : وهو أُمية بن الأشكر الليثي :

وتنفض مهده شفقاً عليه . . . وتجنّبه قلا يصعي الصّعابا

والأصنام جمع صنم وهو التمثال المصور

قال الشاعر :

وهنانة كالزون يجلي ضمه . . . تضحك عن أشنب عذب ملثمه

(205/421)

---

وقال إبراهيم التيمي في قصصه : من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم (عليه السلام) حين يقول : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس ﴾ يعني ضل بهن كثير من الناس عن طريق الهدى حتى عبدوهن وهذا من المغلوب . نظيره قوله ﴿ الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران : 175] أي يخوفكم بأوليائه .

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ على ديني وملتي ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال السدي : معناه ومن عصاني فتاب .

مقاتل بن حيان : ومن عصاني فيما دون الشرك .

روى عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم (عليه السلام) ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقول عيسى (عليه السلام) ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] الآية ،

فرفع يداه ثم قال : اللهم أُمتي اللهم أُمتي وبكى ، فقال الله : يا جبرئيل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسأله ما بك ، فأتى جبرئيل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال الله : يا جبرئيل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أُمتك ولا يسؤك " .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ إنما أدخل : "من" للتبعيض ومجاز الآية أسكنت من ذريتي ولداً ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ وهو مكة ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

قتادة : المحرم من المسجد محرم الله فيه ، والاستخفاف بحقه ، فإن قيل ما وجه قول إبراهيم عند بيتك وإنما بنى إبراهيم البيت بعد ذلك بمدة ، وقيل معناه عند بيتك المحرم الذي كان قبل أن يرفعه من الأرض حتى رفعته في أيام الطوفان .

وقيل عند بيتك المحرم الذي قد مضى في علملك أنه يحدث في هذا البلد .

(206/421)

---

وكانت قصة الآية على ما ذكره سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إنّ أول من سعى بالصفا والمروة هاجر أُم إسماعيل ، وإنّ أول ما أحدثت جرّ الذيول لهي وذلك أنها لما فرت من ساره فأرخت من ذيلها ليعفى أثرها فجاء بها إبراهيم ومعها ابنها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت فوضعهما ثم رجع فأثبتته فقالت : إلى من تكلنا ، فجعل لا يرد عليها

شيئًا ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا ، فرجعت ومضى [ إبراهيم ] حتى إذا كان على ثنية كداء أقبل على الوادي .

فقال : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ الآية .

قال : ومع الإنسانة شنّة فيها ماء فنفذ الماء فعطشت فانقطع لبنها فعطش الصبي ، فنظرت إلى الجبال أدنى من الأرض فصعدت الصفا فتسمّعت هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً فلم تسمع شيئًا فانحدرت فلما نزلت على الوادي سعت وما تريد السعي كالإنسان المجهود الذي يسعى وما يريد بذلك السعي ، فنظرت أيُّ الجبال أدنى من الأرض فصعدت المروة فتسمّعت هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً ، فسمعت صوتاً ، فقالت : كالإنسان الذي يكذب سمعه : صه حتى استيقنت ، فقالت : قد أسمعتني صوتك فأغثني فقد هلكت وهلك من معي ، فإذا هو الملك فجاء بها حتى انتهى بها إلى موضع زمزم فضرب بقدمه ففارت عيناً فعجلت الإنسانة فجعلت تفرغ في شنتها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أُم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً " ، وقال لها الملك : لا تخافي الضمأ على أهل هذا البلد فإنما هي عين لشرب ضيفان الله وقال : إن أبا هذا الغلام سيجيء فيبنيان لله بيتاً هذا موضعه .

قال : ومرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير على الجبل وقال : إن هذا الطير لعائف على ماء فأشرفوا فاذا هم بالإنسانة فأتوا هاجر وقالوا إن شئت كنا معك وآنسناكِ والماء ماؤك فأذنت لهم فنزلوا معها وكانوا هناك حتى شبّ إسماعيل وماتت هاجر فتزوج إسماعيل امرأة من جرهم فاستأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل ، وذكر الحديث في صفة مقام إبراهيم وقد مضت هذه القصة في سورة آل عمران .

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تَهْوِي ﴾ تفزع وقيل تشتاق ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا دعاء منه ( عليه السلام ) لهم بأن يرزقهم حجّ بيته الحرام .

قال سعيد بن جبير : ويقال أفئدة الناس تهوى إليهم لحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال أفئدة من الناس منهم المسلمون .

وقال مجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند ولكنه أفئدة من الناس ﴿ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ ما رزقت سكّان القرى ذوات المياه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ من جميع أُمورنا .

وقال ابن عباس ومقاتل من الوجد إسماعيل وأمه حيث أسكنها بواد غير ذي زرع ﴿ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَيْءٍ فَي الأرض وَلاَ فِي السمآء ﴾ .

قال بعضهم : هذه صلة فولد إبراهيم ( عليه السلام ) .

وقال الآخرون : قال الله عزّ وجلّ وما يخفى على الله وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي ﴾ أعطاني ﴿ عَلَى الكبرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآءِ ﴾ .

قرأ ابن عباس : ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة .

وقال سعيد بن جبير : بشر إبراهيم بإسحاق بعد اثنتي عشرة ومائة سنة .

﴿ رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَتِي ﴾ أيضاً واجعلهم مقيمي الصلاة ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ .

(208/421)

---

قال المفسرون : أي عبادتي . نظيره قول النبي صلى الله عليه وسلم : " الدعاء مخ العبادة " ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [ غافر : 60 ] فسمى الدعاء عبادة .

﴿ رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ إن آمنا وتابا ، وقد أخبر الله عن عذر خليله في استغفاره

لأبيه في سورة التوبة .

﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كلهم .

قال ابن عباس : من أمة محمّد ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ أي يبدو ويظهر . قال أهل المعاني : أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب عن ذكر الناس إذ كان مفهوماً .

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ . قال ميمون بن مهران : فهذا وعيد للظالم وتعزية المظلوم ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يمهلهم ويؤخر عذابهم .

وقرأه العامة : بالتاء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ ﴾ ، وقرأ الحسن والسّلمي : بالنون .

﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي لاتغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم قاله الفراء .

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ قال قتادة : مسرعين . سعيد بن جبير عنه : منطلقين .

عابد بن الأوزاعي وسعيد بن جبير : الإهطاع سيلان كعدو الذئب .

مجاهد : مديمي النظر .

الضحاك : شدّة النظر من غير أن يطرف ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، الكلبي : ناظرين . مقاتل : مقبلين إلى النار .

ابن زيد : المهطع الذي لا يرفع رأسه ، وأصل الإهطاع في كلام العرب البدار والإسراع ، يقال : أهطع البعير في سيره واستهطع إذا أسرع .

قال الشاعر :

ويمهطع سرح كأنَّ زمامَهُ . . . في رأسِ جذع من أراك مشذبِ

وقال آخر :

بمستهطع رسل كأن جديلَهُ . . . بقدوم رعن من صوام ممنع

وقال آخر :

تعبدني نمرُ بن سعد ، وقد أرى . . . ونمر بن سعد لي معيع ومهطعُ

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعيها .

قال القتيبي : المقنع الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه ، ومنه الإقناع في الصلاة .

(209/421)

---

قال الحسن : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد وأصل الإقناع في

كلام العرب رفع الرأس .

قال الشماخ

يباكرن العضاه بمقنعات . . . نواجذهن كالجدا الوقيع

يعني برؤوس مرفوعات إليها ليتناولها .

قال الراجز :

أنغض نحوي رأسه وأقنعا . . . كأنما أبصر شيئاً أطمعا

﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ لا يرجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ قال ابن عباس : خالية من كل خير .

مجاهد ومرة بن شرحبيل وابن زيد : منخرقة خربة ليس فيها خير ولا عقل ، كقولك في البيت الذي ليس فيه شيء : إنما هو هواء . هذه رواية العوفي عن ابن عباس .

سعيد بن جبير : تمور في أجوافهم ليس لها مكان يستقر فيه .

قتادة : انتزعت حتى صارت في حناجرهم لا تخرج من فواههم ولا تعود إلى أمكنتها .

الأخفش : جوفاء لا عقول لها .

والعرب تسمي كلّ أجوف نخباً وهواء ، ومنه أهواء وهو الخط الذي بين الأرض والسماء .

قال زهير يصف ناقه :

كان الرجل منها فوق صعل . . . من الظلمان جؤجؤه هواء

وقال حبان

ألا أبلغ أبا سفيان عنّى . . . فأنت مجوف نخب هواء

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ فَيَقُولُ ﴾ عطف على يوم يأتيهم وليس بجواب فلذلك وقع ﴿ الذين ظلموا ﴾ أشركوا ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أمهلنا ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ وهو الدنيا يعني أرجعنا إليها ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ فيجابون ﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ ﴾ حلفتم ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ في دار الدنيا ﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ فيها أي لا يبعثون، وهو قوله ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] ، ﴿ وَسَكَنتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعصية قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال * وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾

.

قرأه العامة : بالنون .

وقرأ عمر وعلي وأبن مسعود : وأُبيّ : وإن كاد مكرهم ما يزال .

﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ . قرأه العامة : بكسر اللام الأول وفتح الثانية .

وقرأ ابن جريج والكسائي : بفتح الميم الأُولى وضم الثانية بمعنى قراءة العامة الزجاج في قوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ ، أي ما كان مكرهم لتزول .

أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمر الإسلام وثبوته كثبوت الجبال الراسخة ؛ لأن الله وعده إظهار دينه على الأديان كلّها ، وقيل معناه : كان مكرهم .

(211/421)

---

قال الحسن : إن كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن يزول منه الجبال ، وقال خمس مواضع في القرآن ( إن ) بمعنى ( ما ) قوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [ الأنبياء : 17 ] وقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ﴾ [ الزخرف : 81 ] ﴿ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ [ الأحقاف : 26 ] وقوله ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ [ يونس : 94 ] ومن فتح اللام الأُولى فعلى استعظام مكرهم .

قال ابن جرير : الاختيار القراءة الأُولى ؛ لأنها لو كانت قالت لم يكن ثابتة وكان مكرهم ما ذكره علي بن أبي طالب ( رضي الله عنه ) وغيره قالوا : نمرود الجبار الذي حاج إبراهيم في ربه قال : إن كان ما يقوله إبراهيم حقاً فلا انتهي حتى أعلم ما في السماء ، فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور وعلفها اللحم وربّاها حتى شبت واستعلجت ثم قعد في تابوت وجعل معه رجلاً آخر ، وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل وربط التابوت بأرجل النسور وعلق

اللحم فوق التابوت على عصا ثم خلى النسور فطرن وصعدن طمعاً في اللحم حتى بعدن في الهواء .

قال نمرود لصاحبه افتح الباب الأول وانظر في السماء هل ترى منه شيئًا ففتح ونظر ، فقال : إن السماء كهيئتها ثم قال : افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل ذلك فقال أرى الأرض مثل اللجة البيضاء ، والجبال مثل الدخان ، وطارت النسور وارتفعت حتى حالت بينها وبين التابوت فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة ، ونودي : أيها الطاغية أين تريد .

قال عكرمة : كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى عليهم فعاد إليه السهم متلطخاً بدم . فقال : كفيت نفسك إله السماء

واختلفوا في ذلك السهم من أي شيء تلطخ .

قال عكرمة : سمكة فدت نفسها لله من بحر في الهواء معلق .



وقال بعضهم : من طائر من الطيور أصابه السهم .

قالوا : ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن ينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النسور

بالتابوت فسمعت الجبال حفيف التابوت في النسور ففزعت وظنت أن قد حدث بها حدث في السماء أو أن القيامة قد قامت فذلك قوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ .

﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره : ولا يحسبن الله مخلف رسله وعده ؛ لأن الخلف يقع بالوعد .

يقول الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه . . . وسائر باد إلى الشمس أجمع

وقال القتيبي : هو من المقدم الذي يوضحه التأخير والمؤخر الذي يوضحه التقديم ، وهو قولك يخلف وعده رسله ، ومخلف رسله وعده ؛ لأنه الخلف يقع بالوعد كما يقع بالرسل .

﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انتقام يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ﴾ وروى عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية قال : البدل عرض كالفضة نبضاً نقية لم يسل فيها دم ولم يعمل عليها خطيئه .

وقال علي ( رضي الله عنه ) في هذه الآية : الأرض من فضة والسماء من ذهب .

وروى سهل بن سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد " .

فقال سعيد بن جبير ونجد ومحمد بن كعب القرظي : تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل

المؤمن من تحت قدميه .

روى خيثمة عن ابن مسعود قال : تبدل الأرض ناراً يصير الأرض كلها يوم القيامة ناراً والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها وتلجم الناس العرق ولم يبلغوا الحساب بعد .

قال كعب : يصير السماوات جناناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها .

ابن عباس : الأرض هي تلك الأرض وإنما تبدل كلها وجبالها وأنهارها .

ثم أنشد :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم . . . ولا بالدار الدار التي كنت أعرف



---

وتصديق قول ابن عباس ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تبدل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجاً وأمتا ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأُولى من كان في بطنها كان في بطنها وما كان على ظهرها كان على ظهرها " .

وقيل : تبدل الأرض غير الأرض بأرض [ بيضاء كالفضة ] .

الشعبي عن مسروق " عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى :

﴿ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ أين يكون الناس يومئذ قال : على الصراط " .

وروى يحيى بن أبي كثير عن أبي أسماء عن ثوبان قال : " سأل نفر من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟

قال : هم في الظلمة دون الحشر " .

وروى حيكم بن ثوبان الكلابي عن أبي أيوب الأنصاري قال : " أتى النبي صلى الله عليه وسلم خبر من اليهود فقال : أرأيت إذ يقول الله عزّ وجلّ في كتابه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض والسماوات ﴾ فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال : أضياف الله فلم يعجزهم ما لديه "

.

﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ ظهروا وخرجوا من قبورهم ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ الغلاب الذي يفعل ما يشاء وقهر العباد بالموت ﴿ وَتَرَى المجرمين ﴾ المشركين ﴿ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ مشدودين بعضهم ببعض ، وقيل مقرنين بالشياطين . بيانه قوله ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [ الصافات : 22 ] وهم الشياطين ، فقال ابن زيد : مقرّنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم في الأصفاد بالقيود والأغلال ، واحدها صفد والصفاد أيضاً القيد وجمعه صفد يقال : صفدته صفداً وأصفاداً التكثر ، قلت : صفدته تصفيداً .

قال عمرو بن كلثوم :

فأتوا بالنهاب وبالسبايا . . . وأبناء الملوك مصفدينا

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصهم واحدها سربال والفعل منه تسربلت وسربلت غيري ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ وهو الذي تهنأ به الإبل ويقال له الخضخاض .

قال الحسن وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ قَطرَانٍ ﴾ بفتح القاف وتسكين الطاء ، وفيه لغة ثالثة قِطران بكسر القاف وجزم الطاء ، ومنه قول أبي النجم :

جون كأن العرق المنتوحا . . . لبسه القطران والمسوحا

وقرأ عكرمة : برواية زيد : قطران على كلمتين منونتين ﴿ قَطِرَانٍ ﴾ والقطر النحاس الصفر المذاب . قال الله ﴿ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ [ الكهف : 96 ] والآن الذي انتهى خبره قال الله تعالى ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [ الرحمن : 44 ] ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار ﴾ إلى قوله ﴿ هذا ﴾ أي هذا القرآن ﴿ بَلاَغٌ ﴾ تبليغ وعظة ﴿ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وليعلموا ﴾ حجج الله التي أقامها فيه ﴿ أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 318 . 329 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) ﴾

بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ أى شكر نعمة اللّه كُفْراً لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا ، ونحوه وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ أى شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه . ووجه آخر : وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبي النعمة موصوفين بالكفر ، حاصلا لهم الكفر بدل النعمة . وهم أهل مكة : أسكنهم اللّه حرمه ، وجعلهم قوّام بيته ، وأكرمهم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، فكفروا نعمة اللّه بدل ما لزمهم من الشكر العظيم . أو أصابهم اللّه بالنعمة في الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقا في أعناقهم . وعن عمر رضى اللّه عنه : هم الأفجران من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر . وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين .

وقيل : هم متنصرة العرب : جبلة بن الأيهم وأصحابه وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ممن تابعهم على الكفر دارَ الْبَوارِ دار الهلاك . وعطف جَهَنَّمَ على دار البوار عطف بيان . قرئ لِيُضِلُّوا بفتح الياء

وضمها . فإن قلت : الضلال والإضلال لم يكن غرضهم في اتخاذ الأنداد ، فما معنى اللام ؟ قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام في قولك : جئتك لتكرمنى ، نتيجة المجيء ، دخلته اللام وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب تَمَتَّعُوا إيذان بأنهم لانغماسهم في التمتع بالحاضر ، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه ، مأمورون به ، قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه ، وهو أمر الشهوة .

والمعنى : إن دمتم على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ .

[سورة إبراهيم (14) : آية 31]

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (31)



---

المقول محذوف ، «1» لأن جواب قُلْ يدل عليه ، وتقديره قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أقيموا الصلاة وأنفقوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا ، بمعنى :

ليقيموا ولينفقوا ، ويكون هذا هو المقول ، قالوا : وإنما جاز حذف اللام ، لأنّ الأمر الذي هو قُلْ عوض منه ، ولو قيل : يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام ، لم يجز .

فإن قلت : علام انتصب سِرًّا وَعَلانِيَةً ؟ قلت : على الحال ، أى : ذوى سرّ وعلانية ، بمعنى :

مسرين ومعلنين . أو على الظرف ، أى وقتى سر وعلانية ، أو على المصدر ، أى : إنفاق سر وإنفاق علانية ، المعنى : إخفاء المتطوع به من الصدقات والإعلان بالواجب : والخلال : المخالة .

فإن قلت : كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ؟ «2» قلت : من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات ، فيعطون بدلا ليأخذوا مثله ، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أَمثالها أو خيراً منها . وأمّا الإنفاق لوجه اللّه خالصا كقوله وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص ، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال ، أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ، ولا بما ينفقون به أَموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه اللّه . وقرئ : لا بيع فيه ولا خلال ، بالرفع .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 32 إلى 33]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ

وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33)

---

(1) . قال محمود : «المقول محذوف . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا الإعراب نظر ، لأن الجواب حينئذ يكون خبراً من اللّه تعالى ، بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا ، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم ، وخبر اللّه تعالى يجل عن الخلف ، وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب من تبادره فيما ذكر بادى الرأى ، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ، ويقوى بوجهين لطيفين ، أحدهما : أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالايمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر ، كهذه الآية وكقوله وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ الثاني : تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد اللّه المشرفون باضافتهم إلى اسم اللّه ، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين ، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف ، فالحاصل من ذلك أن المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة للطاعة ، فالخبر في أمثالهم حق وصدق ، إما على العموم إن أريد ، أو على الغالب ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «بأنه لا بيع فيه ولا خلال» هذه القراءة بالبناء على الفتح . (ع)

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 32 إلى 34]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

اللَّهُ مبتدأ، والَّذِي خَلَقَ خبره، ومِنَ الثَّمَراتِ بيان للرزق، أى: أخرج به رزقا هو ثمرات. ويجوز أن يكون مِنَ الثَّمَراتِ مفعول أخرج، ورِزْقاً حالا من المفعول، أو نصبا على المصدر من أخرج، لأنه في معنى رزق بِأَمْرِهِ بقوله كن دائِبَيْنِ يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم «1» وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ من للتبعيض، أى آتاكم بعض جميع ما سألتموه، نظرا في مصالحكم. وقرئ من كلّ بالتنوين، وما سألتموه نفى ومحله النصب على الحال أى: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون ما موصولة، على: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم

سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال لا تُحْصُوها لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أَرادوا أَن يعدوها على الإجمال. وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا اللّه لَظَلُومٌ يظلم النعمة بإغفال شكرها كَفَّارٌ شديد الكفران لها. وقيل ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 35 إلى 36]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)

هَذَا الْبَلَدَ يعنى البلد الحرام، زاده اللّه أمناً، وكفاه كل باغ وظالم، أَجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام آمِناً ذا أمن. فإن قلت: أى فرق بين قوله اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وبين قوله اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً؟ قلت: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً وَاجْنُبْنِي وقرئ: وأجنبنى، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه، فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد

---

(1) . قوله «وسباتكم» في الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً. (ع)

جنبني وأجنبنى ، والمعنى : ثبتنا وأدمنا على اجتناب عبادتها وَبَنِيَّ أراد بنيه من صلبه .

وسئل ابن عيينة : كيف عبدت العرب الأصنام ؟ فقال : ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنما ، واحتج بقوله وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم ، قالوا :

البيت حجر ، فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت ، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار ، فاستحب أن يقال : طاف بالبيت ، ولا يقال : دار بالبيت إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فأعوذ بك أن تعصمني « 1 » وبنىّ من ذلك ، وإنما جعلن مضلات ، لأنّ الناس ضلوا بسببهنّ ، فكأنهنّ أضللنهم ، كما تقول : فتنتهم الدنيا وغرّتهم ، أى افتتنوا بها واغتروا بسببها فَمَنْ تَبِعَنِي على ملتي وكان حنيفا مسلما مثلي فَإِنَّهُ مِنِّي أى هو بعضى لفرط اختصاصه بى وملابسته لي ، وكذلك قوله «من غشنا فليس منا » « 2 » أى ليس بعض المؤمنين ، على أنّ الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لي . وقيل : معناه ومن عصاني فيما دون الشرك .

[سورة إبراهيم (14) : آية 37]

رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)

مِنْ ذُرِّيَّتِي بعض أولادى وهم إسماعيل ومن ولد منه بِوادٍ هو وادى مكة غَيْرِ ذِي زَرْعٍ لا يكون فيه شيء من زرع قط، كقوله قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم، لأنّ الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرما لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعا عزيزا يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه، أو لأنه حرّم على الطوفان أى منع منه، كما سمى عتيقا لأنه أعتق منه فلم يستول عليه لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ اللام متعلقة بأسكنت، أى: ما أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق، إلا ليقيموا

---

(1). قوله «فأعوذ بك أن تعصمني» لعله أن لا تعصمني. (ع)

(2). أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وابن حبان من حديث ابن مسعود وإسحاق والبزار من حديث ابن عمر. والبخاري في التاريخ. والطبراني في الأوسط من حديث البراء. والبزار من حديث عائشة. وابن أبى شيبة من حديث أبى الحمراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبى شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة والطبراني من حديث أبى موسى والبيهقي في الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن

ضمرة عن أبيه عن جده عن على بن أبى طالب رضى اللّه عنه ، كذلك أخرجه البيهقي في الشعب ، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه . فلم يذكر عليا . وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد اللّه بن أبى ربيعة عن جده به .

(219/421)

---

الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك ، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع ، مستسعدين بجوارك الكريم ، متقربين إليك بالعكوف عند بيتك ، والطواف به ، والركوع والسجود حوله ، مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ أفئدة من أفئدة الناس ، ومن للتبعيض ، ويدل عليه ما روى عن مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم ، وقيل : لو لم يقل مِنْ لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند . ويجوز أن يكون مِنْ للابتداء ، كقولك : القلب منى سقيم ، تريد قلبي ، فكأنه قيل : أفئدة ناس ، وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة ، لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة . وقرى : آفدة ، بوزن عاقدة . وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من القلب كقولك : آدر ، في أدؤر . والثاني : أن يكون اسم فاعلة من أفدت الرحلة إذا عجلت ، أى ، جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم

ويعجلون نحوهم. وقرئ: أفدة، وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين بين. وأن يكون من أفد تَهْوِي إِلَيْهِمْ تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقا ونزاعا من قوله:

يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ الأَجْدَلِ «1»

وقرئ: تهوى إليهم، على البناء للمفعول، من هوى إليه وأهواه غيره. وتهوى إليهم، من هوى يهوى إذا أحب، ضمن معنى تنزع فعدّى تعديته وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ مع سكناهم

---

(1) فإذا نبذت له الحصاة رأيته ينزو لوقعتها طمور الأخبل

وإذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزمل

وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هوى الأجدل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتبلل

لأبى كبير الهذلي، يصف تأبط شرا بالتيقظ والشجاعة، يقول: إذا رميت له الحصاة مجربا له هل هو نائم أو صاح، ينزو: أى يثب بسرعة، طمور الأخيل: أى وثوب الأخيل، أى ينهض كنهوضه: وهو طير تتشاءم منه العرب، وأصله من التخيل، وقيل من الخيلاء. ورتب رتوبا: انتصب انتصابا وارتفع ارتفاعا، أى: رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق. والزمل والزمال والزميل - بتشديد الميم فيها -: هو الضعيف الملتف بثيابه، ثم قال:

وإذا قذفته في نواحي الأمكنة المتسعة ، رأيته يهوى مخارمها ، أى : يسرع في سلوك مسالكها الضيقة ، كهوى الأجدل وهو الصقر ، أى كاسراعه في الطيران . ويروى : الجندل وهو الحجر . والأسرة : خطوط الجبهة جمع سرار . والعارض : السحاب المعترض في الأفق . والمتهلل : اللامع ، أو المرتفع الذي سيمطر . وروى عن عائشة رضى اللّه عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يخصف نعله ، فتحضر جبينه عرفا ، فتولد في عينى نورا ، فجعلت أنظر إليه فقال : ما تنظرين ؟ فقلت له ذلك ، وقلت : أما واللّه لو رآك الهذلي لعلم أنك أحق بشعره ، فقال : وما قال : قلت : وإذا نظرت . . . البيت . فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عينى وقال :

جزاك اللّه خيرا ، ما سررت كسرورى بكلامك . [ . . . . . ]



---

واديا ما فيه شيء منها ، بأن تجلب إليهم من البلاد لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم «1» ولا شجر ولا ماء لا جرم أن اللّه عز وجلّ أجاب دعوته فجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا ، وفي أى بلد

من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها اللّه بواد غير ذى زرع ، وهي اجتماع البواكير والفواكه «2» المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب ، متعنا اللّه بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه ، وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام ، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 38 إلى 39]

رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39)

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى اللّه تعالى إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ تعلم السرّ كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه ، لأنّ غيبا من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا ، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب ، وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك ، وتخشعا لعظمتك ، وتذللا لعزتك ، وافتقارا إلى ما عندك ، واستعجالا لنيل أياديك ، وولها إلى رحمتك ، وكما يتملق العبد بين يدي سيده ، ورغبة في إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن الملكة. وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح ، فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر

استقصارا ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين ، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . وقيل : ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة ، وما نعلن من البكاء والدعاء . وقيل : ما نخفى من كآبة الافتراق ، وما نعلن :

يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى اللّه أكلكم . قالت : آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا نخشى ، تركتنا إلى كاف وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ من كلام اللّه عز وجل تصديقا لإبراهيم عليه السلام ، كقوله وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ أو من كلام إبراهيم ، يعنى :

وما يخفى على اللّه الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان . «ومن» للاستغراق ، كأنه قيل : وما يخفى عليه

---

(1) . قوله «في واد بباب ليس فيه نجم» أى خراب . والنجم : نبات لا ساق له ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «وهي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة : أول الفاكهة ، كما في الصحاح . (ع)

شيء ما . عَلَى في قوله عَلَى الْكِبَرِ بمعنى مع ، كقوله :

إِنّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ «1»

وهو في موضع الحال ، معناه : وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر . روى أنّ إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتى عشرة سنة ، وقد روى أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين . وإسحاق لتسعين . وعن سعيد بن جبير : لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ، وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة بهبة الولد فيها أعظم ، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر ، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ كان قد دعا ربه وسأله الولد ، فقال : رب هب لي من الصالحين ، فشكر للّه ما أكرمه به من إجابته فإن قلت : اللّه تعالى يسمع كل دعاء ، أجابه أو لم يجبه . قلت : هو من قولك : سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله . ومنه : سمع اللّه لمن حمده . وفي الحديث «2» «ما أذن اللّه لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن «3»» فإن قلت : ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء ؟ قلت : إضافة الصفة إلى مفعولها ، وأصله لسميع الدعاء . وقد ذكر سيبويه فعيلا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل ، كقولك : هذا ضروب زيداً ، وضراب أخاه ، ومنحار إبله ، وحذر أموراً ، ورحيم أباه ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله ، ويجعل دعاء اللّه سميعا على الإسناد المجازى .

والمراد سماع اللّه.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 40 إلى 41]

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41)

وَمِنْ ذُرِّيَّتِي وبعض ذريّتى، عطفا على المنصوب في اجعلنى، وإنما بعض لأنه علم بإعلام اللّه أنه يكون في ذريّته كفار، وذلك قوله لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وَتَقَبَّلْ دُعاءِ أى

---

(1) . ترين: أصله ترأيين كتفعلين، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها. يقول. إنى مع ما تنظرينه من كبرى وهرمى الموجب للخرف عادة، عارف بالأمور متيقظ لها. وكنى عن ذلك بقوله: أعرف من أين تؤكل الكتف، أى: أعرف جواب هذا الاستفهام، ويروى:
من حيث، فلعل من زائدة. قال بعضهم: تؤكل الكتف من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها، وهو مثل يضرب للجرب المتفطن للأمور.

(2) . متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(3) . قوله «كاذنه لنبي يتغنى بالقرآن» في الصحاح: كاذنه لمن يتغنى... الخ. (ع)

عبادتي وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ في قراءة أبىّ : ولأبوىّ. وقرأ سعيد بن جبير : ولوالدي ، على الإفراد ، يعنى أباه. وقرأ الحسن بن على رضى اللّه عنهما : ولولدىّ ، يعنى إسماعيل وإسحاق. وقرئ : لولدي ، بضم الواو. والولد بمعنى الولد ، كالعدم والعدم. وقيل : جمع ولد ، كأسد في أسد. وفي بعض المصاحف : ولذرّيتى. فإن قلت : كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت : هو من مجوّزات العقل «1» لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف. وقيل : أراد بوالديه آدم وحواء. وقيل : بشرط الإسلام. ويأباه قوله إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحا لا مقال فيه ، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أى يثبت ، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل ، والدليل عليه قولهم : قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم : ترجلت الشمس : إذا أشرقت وثبت ضوؤها ، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازيا ، أو يكون مثل وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ وعن مجاهد : قد استجاب اللّه له فيما سأل ، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته ، وجعل البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماما ، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة ، وأراه مناسكه ، وتاب عليه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه قال : كانت الطائف من أرض فلسطين ، فلما قال إبراهيم رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ الآية ، رفعها اللّه

فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 42 إلى 43]

وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42)
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43)

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به غافلا حتى قيل وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا؟ قلت: إن كان خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان. أحدهما التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا، كقوله وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ، كما جاء في الأمر يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ والثاني: أنّ المراد بالنهى عن حسبانه غافلا، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ يريد الوعيد. ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة

---

(1) . قوله «هو من مجوزات العقل» يعنى على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لا حكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فافهم. (ع)

الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، المحاسب على النقير والقطمير ، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلا ، لجهله بصفاته ، فلا سؤال فيه . وعن ابن عيينة : تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، فقيل له . من قال هذا ؟ فغضب وقال : إنما قاله من علمه . وقرئ : يؤخرهم ، بالنون والياء تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ أى أبصارهم لا تقرّ في أماكنها من هول ما ترى مُهْطِعِينَ مسرعين إلى الداعي . وقيل : الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ رافعيها لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم ، أى :

لا يطرفون ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان . أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم . الهواء : الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جبانا لا قوّة في قلبه ولا جرأة . ويقال للأحمق أيضا : قلبه هواء .

قال زهير :

مِنَ الظُّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ «1»

لأنّ النعام مثل في الجبن والحمق . وقال حسان :

فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخْبٌ هَوَاءُ «2»

---

(1) كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء

أصك مصلم الأذنين أجنى له بالسن تنوم وآء

لزهير بن أبى سلمى يصف ناقته. والصعل: المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس. والظلمان: جمع ظليم وهو ولد النعام، والجؤجؤ: الصدر. والهواء: الخالي الفارغ، وجعل صدره فارغا ليكون أسرع في السير إلى طعامه. والأصك: الذي تصطك ركبتاه عند المشي لطول رجليه. وصلمه: قطعه. والتصليم: مبالغة. ويقال: أجنى الثمر إذا أدرك، وأجنت الأرض: كثر كلؤها وخصيها. والسن، المكان المستوى واسم موضع بعينه. والتنوم – وزن تنور –: شجر تنفلق كمامه عن حب صغير تأكله أهل البادية، يغلب على لونه السواد. قيل: وهو شجر الشهدانج. والآء: جنس من الشجر واحده آءة. وقيل: ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت: والتنوم: فاعل أجنى، أى كثر له في ذلك المكان هذان النوعان.

(2) ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء

بأن سيوفنا تركت عبيداً وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند اللّه في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

أمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

فان أبى ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه . وألا التنبيه ، والمأمور بالابلاغ غير معين ، وكان الظن أن يقول : فانه ، أى : أبا سفيان ، لكن خاطبه بالذم لأنه أغيظ . ويجوز أن المأمور أبو سفيان ، فهو منادى بحذف حرف النداء .

والمجوف والنخب والهواء : خالي الجوف ، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة . وروى بدل هذا الشطر «مغلغلة فقد برح الخفاء» والمغلغلة : الحارة من الغلة بالضم ، وهي شدة العطش والحرارة . وقيل . المنقولة من مكان لآخر ، وبرح كسمع : ذهب وزال . وقيل : ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها ، فالخفا بمعنى التستر أو السر .

وإسناد الترك للسيوف مجاز عقلى ، لأنها آلة للفعل . وعبيد بالتصغير قبيلة ، وكذلك عبد الدار ، وسادتها مبتدأ .

والإماء خبره ، والجملة في محل المفعول الثاني لتركت ، أى صيرت عبيداً لا سادة لها إلا النساء ، وصيرت عبد الدار كذلك ، يعنى : أننا أفنينا رجالهما الرؤساء الأشراف ، فأشرافهما النساء لا غير ، بل يجوز أنهم سواء الحرائر أيضاً ، فلم يبق إلا الرقائق . وأتهجوه : استفهام توبيخي ، والواو بعده للحال ، أى : لا ينبغي ذلك شر وخير ، من قبيل أفعل التفضيل ، واختصا بحذف همزتهما تخفيفاً لكثرة استعمالهما ، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان ، والجملة دعائية ، دعا عليه بأن يكون فداء

الرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الانصاف في الكلام ، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا : هذا نصف بيت قالته العرب ، فعليك بالانصاف وأمن يهجو : استفهام إنكارى ، أى ليس من يهجوه منكم ومن يمدحه وينصره منا مستويين . ويحتمل أن الهمزة للتنبيه ، أو للنداء ، والمنادى محذوف ، أى : يا قوم أبى سفيان إن الذي يهجو رسول اللّه منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكتراث بهما وروى : فمن ، ولا بد من تقدير ، أى : من يهجوه ويخذله منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح ، ثم إن في هذا دليلا على جواز حذف الموصول ، وقد أجازه الكوفيون والأخفش ، وتبعهم أبو مالك ، وشرط كونه معطوفا على موصول آخر كما هنا . وقوله : ووالده ، أى والد أمى . ويروى :

ووالدتي . والوقاء : ما يتوقى به المكروه ، كالترس وزن الحزام والرباط للمفعول به الفعل ، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة ، ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول . وفي الهمع ما يفيد أنه جاء شاذا من أوزان الآلة ، كأراث لما تؤرث به النار ، أى تضرم به ، وسراد لما يسرد به ، أى يخرز به . ولما سمع صلى اللّه عليه وسلم قوله «وعند اللّه في ذلك الجزاء» قال : جزاك اللّه الجنة بإحسان . ولما سمع قوله «فان أبى» قال : وقال اللّه حر النار بإحسان . وتقريره صلى اللّه عليه وسلم على المكافأة بالذم ، يدل على الجواز .

(224/421)

وعن ابن جريج أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ صفر من الخير خاوية منه. وقال أبو عبيدة: جوف لا عقول لهم.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 44 إلى 47]

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (47)

يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ مفعول ثان لأنذر وهو يوم القيامة. ومعنى أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ردّنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة

(225/421)

دعوتك واتباع رسلك. أو أريد باليوم: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدّة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب، كقوله لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ. أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطرا وأشرا، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديدا وأمّلوا بعيداً. وما لَكُمْ جواب القسم، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله أَقْسَمْتُمْ ولو حكى لفظ المقسمين لقيل: ما لنا مِنْ زَوالٍ والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء. وقيل. لا تنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرهم بالبعث، كقوله وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ يقال: سكن الدار وسكن فيها. ومنه قوله تعالى وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لأنّ السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل تعدّيه بفي، كقولك: قرّ في الدار وغنى فيها وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّأها وأوطنها. ويجوز أن يكون: سكنوا «1»، من السكون، أى: قرّوا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقى الأوّلون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا وَتَبَيَّنَ لَكُمْ بالإخبار والمشاهدة كَيْفَ أهلكناهم وانتقمنا منهم.

وقرئ: ونبين لكم، بالنون وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهي في

الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ لا يخلوا إمّا أن يكون مضافا إلى الفاعل كالأوّل، على معنى: ومكتوب عند اللّه مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافا إلى المفعول على معنى: وعند اللّه مكرهم الذي يمكرهم «2» به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلا لتفاقمه وشدته، أى: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال. معداً لذلك، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها، كقوله تعالى وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ والمعنى: ومحال أن تزول الجبال بمكرهم، على أنّ الجبال مثل لآيات اللّه وشرائعه، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً. وتنصره قراءة ابن

---

(1). قوله «ويجوز أن يكون سكنوا» لعله: سكنتم. (ع)

(2). قوله «وعند اللّه مكرهم الذي يمكرهم به» الذي في الصحاح المكر: الاحتيال والخديعة، وقد مكر به.

والمكر أيضاً: المغرة، وقد مكره فامتكر، أي خضبه فاختضب اه، وهو يفيد أن المكر بمعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه، فتدبر. (ع)

مسعود : وما كان مكرهم. وقرئ : لتزول ، بلام الابتداء ، على : وإن كان مكرهم من الشدّة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها . وقرأ على وعمر رضى اللّه عنهما : وإن كاد مكرهم مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ يعنى قوله إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا ، كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . فإن قلت : هلا قيل : مخلف رسله وعده ؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأوّل «1» ؟ قلت : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا ، كقوله إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ثم قال رُسُلَهُ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ؟

وقرئ : مخلف وعده رسله ، بجرّ الرسل ونصب الوعد . وهذه في الضعف كمن قرأ «قتل أولادهم شركائهم» . عَزِيزٌ غالب لا يماكر ذُو انْتِقامٍ لأوليائه من أعدائه .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 48 إلى 51]

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (49) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51)

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ انتصابه على البدل من يوم يأتيهم . أو على الظرف للانتقام .

والمعنى : يوم تبدّل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة ، وكذلك

السموات . والتبديل : التغيير ، وقد يكون في الذوات كقولك : بدّلت الدراهم دنانير . ومنه بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها وبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ وفي الأوصاف ، كقولك : بدلت الحلقة خاتماً ، إذا أذبتها وسويتها خاتماً ، فنقلتها من شكل إلى شكل . ومنه قوله تعالى فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ واختلف في تبديل الأرض والسموات ، فقيل : تبدّل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها . وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وعن ابن عباس : هي تلك الأرض وإنما تغير ، وأنشد :

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم قدم المفعول الثاني على الأول . . . الخ» ؟ قال أحمد : وفيما قاله نظر ، لأن الفعل متى تقيد بمفعول انقطع إطلاقه ، فليس تقديم الوعد في الآية دليلا على إطلاق الفعل باعتبار الموعود ، حتى يكون ذكر الرسل بائناً كالأجنبى من الإطلاق الأول ، ولا فرق في المعنى الذي ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيره ولا يفيد تقديم المفعول الثاني إلا الإيذان بالعناية في مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة في الآية ، لأنها وردت في سياق الانذار والتهديد للظالمين بما توعدهم اللّه تعالى به على ألسنة الرسل ، فالمهم في التهديد ذكر الوعيد . وأما كونه على ألسنة الرسل فذلك أمر لا يقف التخويف عليه ولا بد ، حتى لو فرض التوعد من اللّه تعالى على غير لسان رسول ، لكان الخوف منه حسبياً كافياً ، واللّه أعلم .

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِى كُنْتَ تَعْلَمُ «1»

وتبدّل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبوابا.

وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخر. وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن على رضى اللّه عنه: تبدّل أرضا من فضة، وسموات من ذهب.

وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وقرئ: يوم نبدّل الأرض، بالنون «2».

فإن قلت: كيف قال الْواحِدِ الْقَهَّارِ؟ قلت: هو كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ لأنّ الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعازّ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار، كان الأمر في غاية الصعوبة والشدّة مُقَرَّنِينَ قرن بعضهم مع بعض. أو مع الشياطين.

أو قرنت أيديهم ألى أرجلهم مغللين. وقوله فِي الْأَصْفادِ إمّا أن يتعلق بمقرّنين، أى: يقرنون في الأصفاد. وإمّا أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرّنين مصفدين. والأصفاد:

القيود : وقيل الأغلال ، وأنشد لسلامة بن جندل :

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لاقَى صِفَادا يَعَضُّ بِسَاعِدٍ وبِعَظْمِ سَاقِ «3»

القطران : فيه ثلاثة لغات : قطران ، وقطران ، وقطران : بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء ، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ ، فتهنأ به الإبل الجربي ، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته ، والجلد ، وقد تبلغ حرارته الجوف ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وقد يستسرج به ، وهو أسود اللون منتن الريح ، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص ، لتجتمع عليهم الأربع : لذع القطران . وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ، وكل ما وعده اللّه أو وعد به في الآخرة ، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه من لا يقادر قدره ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة ، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه ، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه .

وقرئ : من قطران ، والقطر : النحاس أو الصفر المذاب . والآنى : المتناهي حرّه وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ كقوله تعالى أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ

---

(1) . يقول : ليس الناس اليوم هم الناس الذين عهدتهم سابقا ، لفناء الأحياء من بينهم ، وليست الدار اليوم هي الدار التي كنت تعلمها ، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها .

(2) . قوله «و قرئ نبدل الأرض بالنون» لعله ونصب الأرض والسماوات ، فلتحرر .

القراءة. (ع)

(3) . لسلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذي سماه النبي صلى اللّه عليه وسلم زيد الخير. قد لاقى: أى نال من أعدائه صفادا ، أى قيدا وغلا. واستعار العض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التصريحية ، والباء للإلصاق ، وأقحم لفظ العظم للمبالغة في العض حتى وصل العظم. [. . . . . ]

*(228/421)*

---

لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه ، كالقلب في باطنه ، ولذلك قال تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ وقرئ: وتغشى وجوههم ، بمعنى تتغشى: أى يفعل بالمجرمين ما يفعل لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مجرمة ما كَسَبَتْ أو كل نفس من مجرمة ومطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم على أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

[سورة إبراهيم (14) : آية 52]

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (52)

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ كفاية في التذكير والمواعظة ، يعنى بهذا ما وصفه من قوله فَلا تَحْسَبَنَّ إلى

قوله سَرِيعُ الْحِسابِ. وَلِيُنْذَرُوا معطوف على محذوف، أى لينصحوا ولينذروا بِهِ بهذا البلاغ. وقرئ: ولينذروا، بفتح الياء، من نذر به إذا علمه «1» واستعدّ له وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد، لأنّ الخشية أمّ الخير كله.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة إبراهيم أُعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد» «2». انتهى انتهى. ا هـ

﴿الكشاف حـ 2 صـ 555.568﴾

---

(1). قوله «من نذر به إذا علمه» في الصحاح: نذر القوم بالعدو – بكسر الذال – إذا علموا. (ع)

(2). يأتى إسناده في آخر الكتاب.

(229/421)

---

وقال النسفى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله ﴾

أي شكر نعمة الله ﴿ كُفْرًا ﴾ لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ،

فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً وهم أهل مكة ، كرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿ دَارَ البوار ﴾ دار الهلاك ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ وبئس المقر جهنم ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَادًا ﴾ أمثالاً في العبادة أو في التسمية ﴿ لّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ وبفتح الياء : مكي وأبو عمرو ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ ﴾ في الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية .

وقال ذو النون : التمتع أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ مرجعكم إليها .

﴿ قُل لّعِبَادِيَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ خصهم بالإضافة إليه تشريفاً .

وبسكون الياء شامي وحمزة وعلي والأعشى ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ المقول محذوف لأن ﴿ قل ﴾ تقتضي مقولاً وهو أقيموا وتقديره : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا .

وقيل إنه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا ولينفقوا ، فحذف اللام لدلالة قل عليه ، ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز ﴿ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ انتصبا على الحال أي ذوي سر وعلانية يعني مسرين ومعلنين ، أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية ، أو على المصدر أي إنفاق سر وإنفاق علانية ، والمعنى إخفاء التطوع وإعلان الواجب ﴿ مّن قَبْلِ

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خلال ﴾ أي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة والخلال المخالة، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله.

بفتحهما: مكي وبصري، والباقون بالرفع والتنوين

(230/421)

---

﴿ الله ﴾ مبتدأ ﴿ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ خبره ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً ﴾ من السحاب مطراً ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ من الثمرات بيان للرزق أي أخرج به رزقاً هو ثمرات أو ﴿ من الثمرات ﴾ مفعول ﴿ أخرج ﴾ و ﴿ رزقاً ﴾ حال من المفعول ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِى البحر بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَائِبَينِ ﴾ دائمين وهو حال من الشمس والقمر أي يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ "من" للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه ف ﴿ ما ﴾ موصولة والجملة صفة لها، وحذفت الجملة الثانية لأن الباقي يدل على المحذوف كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل: 81 ] ﴿ من كلّ

﴿ عن أبي عمرو ﴾ وما سألتموه ﴿ نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه أو "ما" موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ بظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والإنسان للجنس فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه .

*(231/421)*

---

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ واذكر إذ قال إبراهيم ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد ﴾ أي البلد الحرام ﴿ آمِناً ﴾ ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة أنه قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها ، وفي الثاني أن يخرجه من صفة الخوف إلى الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمناً ﴿ واجنبني ﴾ وبعدني أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها كما قال ﴿ واجعلنا مسلمين لك ﴾ [ البقرة : 128 ] أي ثبتنا على الإسلام ﴿ وَبَنِيَّ ﴾ أراد بنيه من صلبه ﴿ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ من أن نعبد الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا

مِّنَ النَّاسِ ﴾ جعلن مضلات على طريق التسبيب لأن الناس ضلوا بسببهن فكأنهم أضللنهم ﴿ فَمَن تَبِعَنِي ﴾ على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ فيما دون الشرك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أو ومن عصاني عصيان شرك فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ بعض أولادي وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿ بِوَادٍ ﴾ هو واد مكة ﴿ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ هو بيت الله سمي به لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممنعاً يهابه كل جبار ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها ، أو لأنه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ اللام متعلقة ب ﴿ أسكنت ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ أفئدة من أفئدة الناس و"من" للتبعيض لما روي عن مجاهد : لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند .

أو للابتداء كقولك : "القلب مني سقيم" تريد قلبي فكأنه قيل أفئدة ناس ، ونكرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ تسرع إليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقاً ﴿ وارزقهم مّنَ الثمرات ﴾ مع سكناهم وادياً ما فيه شيء منها بأن تجلب إليهم من البلاد الشاسعة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء .

﴿ رَبَّنَا ﴾ النداء المكرر دليل التضرع واللجإ إلى الله ﴿ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ تعلم السر كما تعلم العلن ﴿ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَيْءٍ فَى الأرض وَلاَ فِي السماء ﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام ، أو من كلام إبراهيم و"من" للاستغراق كأنه قيل : وما يخفى على الله شيء ما ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر ﴾ "على" بمعنى "مع" وهو في موضع الحال أي وهب لي وأنا كبير ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة .

ورُوي أنه ولد له إسمعيل لأربع وستين ، وإسحاق لتسعين ، وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم لأنها حال وقوع اليأس من الولادة ، والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ مجيب الدعاء من قولك "سمع الملك كلام فلان" إذا تلقاه بالإجابة والقبول ،

ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ﴾ فشكر الله ما أكرمه به من إجابته .

وإضافة السميع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها وأصله "لسميع الدعاء" وقد ذكر سيبويه فعيلاً في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك "هذا رحيم أباه"

(233/421)

---

﴿ رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَتِي ﴾ وبعض ذريتي عطفاً على المنصوب في اجعلني وإنما بعض لأنه علم بأعلام الله أنه يكون في ذريته كفار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ بالياء في الوصل والوقف : مكي ، وافقه أبو عمرو وحمزة في الوصل .

(234/421)

---

الباقون بلا ياء أي استجب دعائي أو عبادتي ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ [ مريم : 48 ] ﴿ رَبَّنَا اغفر لي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ أي آدم وحواء أو قاله قبل النهي واليأس عن

إيمان أبويه ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ أي يثبت أو أسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً مثل ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، والخطاب لغير الرسول عليه السلام وإن كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ [ القصص : 88 ] وكما جاء في الأمر ﴿ يأيُّها الذين ءَامَنُوا آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ [ النساء : 136 ] وقيل : المراد به الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شيء ، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله : ﴿ والله بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [ البقرة : 283 ] ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ أي عقوبتهم ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعي ﴿ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾ رافعيها ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ صفر من الخير لا تعي شيئاً من الخوف ، والهواء الذي لم تشغله الأجرام فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة .

وقيل : جوف لا عقول لهم

﴿ وَأَنذِرِ الناس يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ أي يوم القيامة .

و ﴿ يوم ﴾ مفعول ثان ل ﴿ أنذر ﴾ لا ظرف إذ الإنذار لا يكون في ذلك اليوم ﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي الكفار ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ أي ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ ﴾ أي حلفتم في الدنيا أنكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون إلى دار أخرى يعني كفرتم بالبعث كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] و ﴿ ما لكم ﴾ جواب القسم .

وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله : ﴿ أقسمتم ﴾ ولو حكى لفظ المقسمين لقيل ما لنا من زوال ، أو أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فإنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب .



يقال : سكن الدار وسكن فيها ومنه ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر لأن السكنى من السكون وهو اللبث والأصل تعديته ب "في" نحو "قر في الدار وأقام

فيها" ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقيل : "سكن الدار" كما قيل "تبوأها" ، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله ، وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بالأخبار أو المشاهدة وفاعل ﴿ تبين ﴾ مضمر دل عليه الكلام أي تبين لكم حالهم و ﴿ كَيْفَ ﴾ ليس بفاعل لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإنما نصب ﴿ كيف ﴾ بقوله ﴿ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ أي أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾ أي صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبطلان الإسلام ﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ وهو مضاف إلى الفاعل كالأول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه أو إلى المفعول أي عند الله مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ بكسر اللام الأولى ونصب الثانية والتقدير : وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبي صلى الله عليه وسلم فعبر عن النبي عليه السلام بالجبال لعظم شأنه ، و"كان تامة" و"إن" نافية واللام مؤكدة لها كقوله ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 33 ] والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً دليله قراءة ابن مسعود ﴿

وما كان مكرهم ﴿ وبفتح اللام الأولى ورفع الثانية عليٌّ ، أي وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول

(237/421)

---

منه الجبال وتنقطع عن أماكنها ف "إن" مخففة من "إن" واللام مؤكدة .

﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ يعني قوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [ غافر : 51 ] ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي ﴾ [ المجادلة : 21 ] ﴿ مخلف ﴾ مفعول ثان ل ﴿ تحسبن ﴾ وأضاف ﴿ مخلف ﴾ إلى ﴿ وعده ﴾ وهو المفعول الثاني له والأول ﴿ رسله ﴾ والتقدير مخلف رسله وعده وإنما قدم المفعول الثاني على الأول ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله : ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ [ آل عمران : 9 ] ثم قال ﴿ رسله ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يماكر ﴿ ذُو انتقام ﴾ لأوليائه من أعدائه وانتصاب ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرض والسماوات ﴾ على الظرف للانتقام أو على إضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة وتبدل السماوات غير السماوات وإنما حذف لدلالة ما قبله عليه والتبديل التغيير وقد يكون في الذوات كقولك

"بدلت الدراهم دنانير" وفي الأوصاف كقولك "بدلت الحلقة خاتماً" إذا أذبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل واختلف في تبديل الأرض والسماوات فقيل تبدل أوصافها وتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي تلك الأرض وإنما تغير .

وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً .

وقيل : تخلق بدلها أرض وسماوات أخر .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة .

(238/421)

---

وعن علي رضي الله عنه : تبدل أرضاً من فضة وسماوات من ذهب ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ هو كقوله : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ] لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره كان الأمر في غاية الشدة

﴿ وَتَرَى المجرمين ﴾ الكافرين ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ مُقْرَّنِينَ ﴾ قرن بعضهم مع

بعض أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين ﴿ فِي الأَصفاد ﴾ متعلق ب ﴿ مقرنين ﴾ أي يقرنون في الأصفاد أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين ، والأصفاد القيود أو الأغلال ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصهم ﴿ مّن قَطِرَانٍ ﴾ هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ فيهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين ، وكل ما وعده الله أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره ، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه من "قِطرٍ آن" زيد عن يعقوب نحاس مذاب بلغ حره إناه ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار ﴾ تعلوها باشتعالها وخص الوجه لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ولذا قال ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ [ الهمزة : 7 ]



---

﴿ لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أي يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس من مجرمة أو مطيعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب

المؤمنين بطاعتهم ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ﴾ يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر ﴿ هذا ﴾ أي ما وصفه في قوله : ﴿ ولا تحسبن ﴾ إلى قوله : ﴿ سريع الحساب ﴾ ﴿ بلاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ كفاية في التذكير والموعظة ﴿ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ ﴾ بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا ﴿ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد لأن الخشية أم الخير كله ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ ذوو العقول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 268.262 ﴾

*(240/421)*

---

قال ابن جزى :

﴿ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً ﴾

نعمة الله هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم ودينه : أنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها والتقدير بدلوا شكر نعمة الله كفرا ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أي من أطاعهم واتبعهم ﴿ دَارَ البوار ﴾ فسرها بقوله جهنم ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة ﴾ هي جواب شرط فقد يتضمنه قوله قل : تقديره إن تقل لهم أقيموا يقيموا ، ومعمول القول على هذا محذوف ، وقيل : جزم

بإضمار لام الأمر تقديره ليقيموا ﴿ وَلَا خِلَالٌ ﴾ من الخلة وهي المودة ﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ يريد الجنس .

﴿ البلد آمِناً ﴾ ذكر في [ البقرة : 125 ] ﴿ واجنبني ﴾ أي امنعني ، والماضي منه جنب ، يقال جنب وجنب بالتشديد ، وأجنب بمعنى واحد ﴿ وَبَنِيَّ ﴾ يعني بنيّ من صلبي وفيهم أجيبت دعوته ، وأما أعقاب بنيه فعبدوا الأصنام ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ يعني من عصاه بغير الكفر وبالكفر ثم تاب منه ، فهو الذي يصح أن يدعى له بالمغفرة ولكنه ذكر اللفظ بالعموم لما كان عليه السلام من الرحمة للخلق وحسن الخلق .

(241/421)

---

﴿ ا أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾ يعني ابنه إسماعيل عليه السلام ، لما ولدته أمه هاجر غارت منها سارة زوجة إبراهيم فحمله مع أمه من الشام إلى مكة ﴿ بوَادٍ ﴾ يعني مكة ، والوادي ما بين جبلين وإن لم يكن فيه ماء ﴿ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ يعني الكعبة ، فإما أن يكون البيت أقدم من إبراهيم على ما جاء في بعض الروايات ، وإما أن يكون إبراهيم قد علم أنه سيبني هناك بيتاً ﴿ لِيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ اللام يحتمل أن تكون لام الأمر بمعنى الدعاء ، أو لام كي وتتعلق بأسكنت وجمع الضمير يدل على أنه كان علم أنه ابنه يعقب هناك نسلا و ﴿ تهوى

إِلَيْهِمْ ﴾ أي تسير بجد وإسراع ، ولهذه الدعوة حبب الله حج البيت إلى الناس ، على أنه قال من الناس بالتبعيض ، قال بعضهم : لو قال أفئدة الناس لحجته فارس والروم ﴿ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ أي ارزقهم في ذلك الوادي مع أنه غير ذي زرع ، وأجاب الله دعوته فجعل مكة يُجبى إليها ثمرات كل شيء ﴿ وَمَا يخفى عَلَى الله ﴾ الآية : يحتمل أن تكون من كلام الله تعالى ، أو حكاية عن إبراهيم .

﴿ وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ روي أنه ولد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبع عشر عاماً ، وروي أقل من هذا ، وإسماعيل أسن من إسحاق ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ إن أراد بالدعاء الطلب والرغبة فمعنى القبول : الاستجابة ، وإن أراد بالدعاء العبادة ، فالقبول على حقيقته .

(242/421)

---

﴿ رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ قيل إنما دعا بالمغفرة لأبويه الكافرين بشرط إسلامهما ، والصحيح أنه دعا لهما قبل أن يتبين له أن أباه عدوّ لله حسبما ورد في براءة ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا ﴾ هذا وعيد للظالمين وهم الكفار على الأظهر ، فإن قيل : لمن هذا الخطاب هنا وفي قوله : ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله ؟ فالجواب أنه يحتمل أن يكون خطاباً

للنبي صلى الله عليه وسلم أو لغيره ، فإن كان لغيره فلا إشكال ، وإن كان له فهو مشكل لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسب أن الله غافلاً ، وتأويل ذلك بوجهين : أحدهما أن المراد الثبوت على علمه بأن الله غير غافل وغير مخلف وعده ، والآخر أن المراد إعلامه بعقوبة الظالمين فمقصد الكلام الوعيد لهم ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي تحد النظر من الخوف ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ قيل : الإهطاع الإسراع ، وقيل : شدّة النظر من غير أن يطرف ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ قيل : الإقناع هو رفع الرأس ، وقيل خفضه من الذلة ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا يطرفون بعيونهم من الحذر والجزع .

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ أي منحرفة لا تعي شيئاً من شدّة الجزع فشبهها بالهواء في تعريفه من الأشياء ، ويحتمل أن يريد مضطربة في صدورهم .

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ يعني يوم القيامة ، وانتصاب يوم على أنه مفعول ثان لأنذر ، ولا يجوز أن يكون ظرفاً ﴿ أَوَلَمْ تكونوا ﴾ تقديره : يقال لهم أو لم تكونوا الآية ﴿ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ هو المقسم عليه ، ومعنى من زوال ، أي من الأرض بعد الموت أي حلفتم أنكم لا تبعثون .

﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ أي جزاء مكرهم ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ إن هنا نافية ، واللام لام الجحود ، والجبال يراد بها الشرائع والنبوات ، شبهت بالجبال في ثبوتها ، والمعنى مكرهم لأنه لا تزول منه تلك الجبال الثابتة الراسخة ؛ وقرأ الكسائي لتزول بفتح اللام ورفع تزول وإن على هذه القراءة مخففة من الثقيلة ، واللام للتأكيد ، والمعنى تعظيم مكرهم أي أن مكرهم من شدته تزول منه الجبال ، ولكن الله عصم ووقى منه ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ يعني وعد النصر على الكفار ، فإن قيل : هلا قال : مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثاني على الأول ؟ فالجواب أنه قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً على الإطلاق ، ثم قال : رسله ، ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس ، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه فقدم الوعد أولاً بقصد الإطلاق ، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض ﴾ العامل في الظرف ذو انتقام أو محذوف ، وتبديل الأرض بأن تكون يوم القيامة بيضاء عفراء كقرصة النقي هكذا ورد في الحديث الصحيح ﴿ والسماوات ﴾ تبديلها بانشقاقها وانتشار كواكبها ، وخسوف شمسها وقمرها وقيل : تبدل أرضاً من فضة ، وسماء من ذهب وهذا ضعيف .

﴿ وَتَرَى المجرمين ﴾ يعني الكفار ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الأصفاد ﴾ أي مربوطين في الأغلال ﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ أي قمصهم والسربال القميص ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ متعلق بمحذوف أي جعل الله فيه ذلك وهو الذي تهنأ به الإبل وللنار فيه اشتعال شديد ، فلذلك جعل الله قمص أهل النار منه ﴿ لِيَجْزِىَ ﴾ يتعلق بمحذوف أي فعل الله ذلك ليجزي ﴿ هذا بلاغ ﴾ إشارة إلى القرآن أو إلى ما تضمنه هذه السورة ﴿ وَلِيُنذَرُواْ ﴾ معطوف على محذوف تقديره لينصحوا به ولينذروا ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ﴾ أي هذا الذكر لأولي العقول ، وهم أهل العلم رضي الله عنهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 141 . 143 ﴾

(245/421)

---

وقال البيضاوى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَتَ الله كُفْرًا ﴾

أي شكر نعمته كفراً بأن وضعوه مكانه ، أو بدلوا نفس النعمة كفراً ، فإنهم لما كفروها سلبت منهم فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدلها كأهل مكة ، خلقهم الله تعالى وأسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته ووسع عليهم أبواب رزقه وشرفهم بمحمد صلى الله

عليه وسلم ، فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وأسروا وقتلوا يوم بدر وصاروا أذلاء ، فبقوا مسلوبي النعمة وموصوفين بالكفر ، وعن عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما : هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين . ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين شايعوهم في الكفر . ﴿ دَارَ البوار ﴾ دار الهلاك بحملهم على الكفر .

﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان لها . ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ حال منها أو من القوم ، أي داخلين فيها مقاسين لحرها ، أو مفسر لفعل مقدر ناصب لجهنم . ﴿ وَبِئْسَ القرار ﴾ أي وبئس المقر جهنم .

﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَادًا لّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الذي هو التوحيد . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بفتح الياء ، وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ ﴾ بشهواتكم أو بعبادة الأوثان فإنها من قبيل الشهوات التي يتمتع بها ، وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه كالمطلوب لافضائه إلى المهدد به ، وأن الأمرين كائنان لا محالة ولذلك علله بقوله : ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من آمر مطاع .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين ءَامَنُواْ ﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية ، ومفعول ﴿ قُلْ ﴾ محذوف يدل عليه جوابه : أي قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا . ﴿ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ فيكون إيذاناً بأنهم لفرط مطاوعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره ، وأنه كالسبب الموجب له ، ويجوز أن يقدرا بلام الأمر ليصح تعلق القول بهما وإنما حسن ذلك ها هنا ولم يحسن في قوله :

مُحَمَّدُ تفد نَفْسَكَ كُلُّ نَفْس . . . إِذَا مَا خفت مِنْ أَمْرٍ تَبَالاَ

لدلالة قل عليه . وقيل هما جواباً أقيموا وأنفقوا مقامين مقامهما ، وهو ضعيف لأنه لا بد من مخالفة ما بين الشرط وجوابه ولأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً . ﴿ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ منتصبان على المصدر أي إنفاق سر وعلانية ، أو على الحال أي ذوي سر وعلانية ، أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية ، والأحب إعلان الواجب وإخفاء المتطوع به . ﴿ مّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدى به نفسه . ﴿ وَلاَ خلال ﴾ ولا مخالة فيشفع لك خليل ، أو من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة وإنما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله تعالى . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما على النفي العام .

﴿ اللهُ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس مفعول لأخرج و ﴿ مِنَ الثمرات ﴾ بيان له وحال منه ويحتمل عكس ذلك ويجوز أن يراد به المصدر فينتصب بالعلة ، أو المصدر لأن أخرج في معنى رزق . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِىَ فِى البحر بِأَمْرِهِ ﴾ بمشيئته إلى حيث توجهتم . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأنهار ﴾ فجعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم وقيل تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَائِبَين ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما وإصلاح ما يصلحانه من المكونات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اليل والنهار ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم .

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أي بعض جميع ما سألتموه يعني من كل شيء سألتموه شيئاً ، فإن الموجود من كل صنف بعض ما في قدرة الله تعالى ، ولعل المراد ب ﴿ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ ما كان حقيقاً بأن يسأل لاحتياج الناس إليه سئل أو لم يسأل ، وما يحتمل أن تكون موصولة وموصوفة ومصدرية ويكون المصدر بمعنى المفعول . وقرىء ﴿ مِن كُلٍّ ﴾ بالتنوين أي وآتاكم من كل شيء ما احتجتم إليه وسألتموه بلسان الحال ، ويجوز أن تكون

"ما" نافية في موقع الحال أي وآتاكم من كل شيء غير سائليه.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ لا تحصروها ولا تطيقوا عد أنواعها فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية. وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو يظلم نفسه بأن يعرضها للحرمان. ﴿ كَفَّارٌ ﴾ شديد الكفران. وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع.

(248/421)

---

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجعل هذا البلد ﴾ بلدة مكة. ﴿ آمِناً ﴾ ذا أمن لمن فيها، والفرق بينه وبين قوله: ﴿ اجعل هذا بَلَدًا آمِنًا ﴾ أن المسؤول في الأول إزالة الخوف عنه وتصييره آمناً، وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة. ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ ﴾ بعدني وإياهم، ﴿ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ واجعلنا منها في جانب وقرىء ﴿ واجنبنى ﴾ وهما على لغة نجد وأما أهل الحجاز فيقولون جنبني شره. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم وهو بظاهره، لا يتناول أحفاده وجميع ذريته. وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يعبدوا الصنم محتجاً به وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدوار ويقولون البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلته.

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾ فلذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من إضلالهن، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية كقوله تعالى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾. ﴿ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ على ديني. ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ أي بعضي لا ينفك في أمر الدين. ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فلِلِّهِ أن يغفره حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره.

(249/421)

---

﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى ﴾ أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول وهم إسماعيل ومن ولد منه قال إسكانه متضمن لإسكانهم. ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ يعني وادي مكة فإنها حجرية لا تنبت. ﴿ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ الذي حرمت التعرض له والتهاون به، أو لم يزل معظماً ممنعاً يهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقاً أي أعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أول ما قدم فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. روي أن هاجر كانت لسارة رضي الله عنها فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل عليه السلام، فغارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من

عندها فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله عين زمزم ، ثم إن جرهم رأوا ثم طيوراً فقالوا لا طير إلا على الماء ، فقصدوه فرأوهما وعندهما عين فقالوا أشركينا في مائك نشركك في ألباننا ففعلت . ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ اللام لام كي وهي متعلقة ب ﴿ أَسْكَنتُ ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كل مرتفق ومرتزق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم . وتكرير النداء وتوسيطه للاشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمة ، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها .

(250/421)

---

وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفقهم لها . ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مّنَ الناس ﴾ أي أفئدة من أفئدة الناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم ولحجت اليهود والنصارى ، أو للابتداء كقولك : القلب مني سقيم أي أفئدة ناس . وقرأ هشام "أفئيدة" بخلف عنه بياء بعد الهمزة . وقرىء "آفدة" وهو يحتمل أن يكون مقلوب "أفئدة" كآدر في أدؤر وأن يكون اسم فاعل من أفدت الرحلة إذا عجلت أي جماعة يعجلون نحوهم "وأفدة" بطرح الهمزة للتخفيف ، وإن كان الوجه فيه إخراجها بين بين ويجوز أن يكون من

أفد . ﴿ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً . وقرىء ﴿ تهوى ﴾ على البناء للمفعول من أهوى إليه غيره و﴿ تهوى ﴾ من هوى يهوي إذا أحب ، وتعديته بإلى لتضمنه معنى النزوع . ﴿ وارزقهم مّنَ الثمرات ﴾ مع سكناهم وادياً لا نبات فيه . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمة ، فأجاب الله عز وجل دعوته فجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ﴾ تعلم سرنا كما تعلم علننا ، والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا منا بأنفسنا ، فلا حاجة لنا إلى الطلب لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندك . وقيل ما نخفي من وجد الفرقة وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك ، وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجأ إلى الله تعالى . ﴿ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَىْءٍ فَى الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ لأنه العالم بعلم ذاتي يستوي نسبته إلى كل معلوم ، ومن للاستغراق .



﴿ الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر ﴾ أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد ، قيد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لما فيها من آلائه . ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ .

روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة . ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدعاء ﴾ أي لمجيبه من قولك سمع الملك كلامي إذا اعتد به ، وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله تعالى على المجاز ، وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلاها .

﴿ رَبِّ اجعلنى مُقِيمَ الصلاة ﴾ معدلاً لها مواظباً عليها . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ عطف على المنصوب في ﴿ اجعلنى ﴾ ، والتبعيض لعلمه بإعلام الله أو استقراء عادته في الأمم الماضية أن يكون في ذريته كفار . ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴾ واستجب دعائي أو وتقبل عبادتي .

﴿ رَبَّنَا اغفر لِى وَلِوَالِدَىَّ ﴾ وقرىء "ولأبويّ" ، وقد تقدم عذر استغفاره لهما . وقيل أراد بهما آدم وحواء . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ يثبت مستعار من القيام على الرجل كقولهم : قامت الحرب على ساق ، أو يقوم إليه أهله فحذف المضاف أو أسند إليه قيامهم مجازاً .

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد به تثبيته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية ، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة ، أو لكل من توهم غفلته جهلاً

بصفاته واغتراراً بإمهاله. وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يؤخر عذابهم وعن أبي عمرو بالنون. ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم فلا تقر في أماكنها من هول ما ترى.

(252/421)

---

﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، أو مقبلين بأبصارهم لا يطرفون هيبة وخوفاً، وأصل الكلمة هو الإقبال على الشيء. ﴿ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾ رافعيها. ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ بل تثبت عيونهم شاخصة لا تطرف، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ خلاء أي خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبه هواء أي لا رأي فيه ولا قوة قال زهير:

(253/421)

---

من الظلمان جؤجؤه هواء . . . وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق. ﴿ وَأَنذِرِ الناس ﴾ يا محمد. ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب ﴾ يعني يوم القيامة، أو يوم الموت فإنه أول أيام عذابهم،

وهو مفعول ثان ل ﴿ أنذر ﴾ . ﴿ فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ بالشرك والتكذيب . ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أخر العذاب عنا أو ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب ، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونجيب دعوتك . ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ جواب للأمر ونظيره ﴿ لَوْلا أَخَّرْتَنِى إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مّنَ الصالحين ﴾ ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ ﴾ على إرادة القول و ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ جواب القسم جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية ، والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت ، ولعلهم أقسموا بطراً وغروراً أو دل عليه حالهم حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً . وقيل أقسموا أنهم لا ينتقلون إلى دار أخرى وأنهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالة إلى حالة أخرى كقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مساكن الذين ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي كعاد وثمود ، وأصل سكن أن يعدى بفي كقر وغني وأقام ، وقد يستعمل بمعنى التبوء فيجري مجراه كقولك سكنت الدار . ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم . ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ﴾ من أحوالهم أي بينا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب ، أو صفات ما فعلوا وفعل بهم التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة .

﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ المستفرغ فيه جهدهم إبطال الحق وتقرير الباطل .

﴿ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ومكتوب عنده فعلهم فهو مجازيهم عليه ، أو عنده ما يمكرهم به جزاء لمكرهم وإبطالاً له . ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ في العظم والشدة . ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ﴾ مسوى لإزالة الجبال . وقيل إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ على أن الجبال مثل لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ونحوه . وقيل مخففة من الثقيلة والمعنى أنهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً من آيات الله تعالى وشرائعه . وقرأ الكسائي ﴿ لَتَزُولَ ﴾ بالفتح والرفع على أنها المخففة واللام هي الفاصلة ، ومعناه تعظيم مكرهم . وقرىء بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي وقرىء و"إن كاد مكرهم" .

﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ مثل قوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي ﴾ وأصله مخلف رسله وعده فقدم المفعول الثاني إيذاناً بأنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الميعاد ﴾ وإذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلف رسله . ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يماكر قادر لا يدافع . ﴿ ذُو انتقام ﴾ لأوليائه من أعدائه .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ﴾ أو ظرف للانتقام ، أو مقدر باذكر أو لا يخلف وعده . ولا يجوز أن ينتصب بمخلف لأن ما قبل أن لا يعمل فيما بعده .

﴿ وَالسَّمَوَاتِ ﴾ عطف على الأرض وتقديره والسموات غير السموات ، والتبديل يكون في الذات كقولك : بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله : ﴿ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ وفي الصفة كقولك بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وغيرت شكلها ، وعليه قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ والآية تحتملهما ، فعن علي رضي الله تعالى عنه : تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب ، وعن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى عنهما : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها . ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : " تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الأديم العكاظي "

﴿ لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ اعلم أنه لا يلزم على الوجه الأول أن يكون الحاصل بالتبديل أرضاً وسماء على الحقيقة ، ولا يبعد على الثاني أن يجعل الله الأرض جهنم والسموات الجنة على ما أشعر به قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كتاب الأبرار لَفِى عِلّيِّينَ ﴾ وقوله

: ﴿ إِنَّ كتاب الفجار لَفِى سِجّينٍ ﴾ ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ من أجداثهم ﴿ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ لمحاسبته ومجازاته ، وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة كقوله : ﴿ لمنِ الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فإن الأمر إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار .



---

﴿ وَتَرَى المجرمين يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ ﴾ قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال كقوله : ﴿ وَإِذَا النفوس زُوّجَتْ ﴾ أو قرنوا مع الشياطين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائغة والملكات الباطلة ، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال ، وهو يحتمل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم وأرجلهم . ﴿ فِى الأصفاد ﴾ متعلق ب ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾ أو حال من ضميره ، والصفد القيد . وقيل الغل قال سلامة بن جندل :

وَزَيْدُ الخَيْل قَدْ لاَقَى صِفَاداً . . . يَعضُّ بِسَاعِدٍ وَبِعَظْمٍ سَاقَ

وأصله الشد

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ قمصانهم. ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ وجاء قطران لغتين فيه، وهو ما يتحلب من الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحد ته، وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة تطلى به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع إسراع النار في جلودهم، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، ويحتمل أن يكون تمثيلاً لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديئة والهيئات الوحشية فيجلب إليها أنواعاً من الغموم والآلام، وعن يعقوب ﴿ قطرآن ﴾ والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره، والجملة حال ثانية أو حال من الضمير في ﴿ مُقْرِنِينَ ﴾. ﴿ وتغشى وُجُوهَهُمُ النار ﴾ وتتغشاها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة عن المعرفة مملوءة بالجهالات ونظيره قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ العذاب يَوْمَ القيامة ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النار على وُجُوهِهِمْ ﴾ ﴿ لِيَجْزِىَ الله كُلَّ نَفْسٍ ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي كل نفس مجرمة. ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أو كل نفس من مجرمة أو مطيعة لأنه إذا بين أن المجرمين يعاقبون لإجرامهم علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم، ويتعين ذلك أن علق اللام ب ﴿ بَرَزُواْ ﴾. ﴿ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ﴾ لأنه لا يشغله حساب عن حساب.

﴿ هذا ﴾ إشارة إلى القرآن أو السورة أو ما فيه العظة والتذكير أو ما وصفه من قوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ ﴿ بلاغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ كفاية لهم في الموعظة . ﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ عطف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا بهذا البلاغ ، فتكون اللام متعلقة بالبلاغ ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره : ولينذروا به أنزل أو تلي . وقرىء بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعد له .

(258/421)

---

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة عليه أو المبهة على ما يدل عليه ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ فيرتدعوا عما يرديهم ويتدرعوا بما يحظيهم ، واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب ، تكميل الرسل للناس ، واستكمال القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد ، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى ، جعلنا الله تعالى من الفائزين بهما . وعن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وعدد من لم يعبدها " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 359.348 ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) ﴾

التفسير : إن قصة إبراهيم صلى الله عليه وسلم يحتمل أن تكون مثالاً للكلمة الطيبة وأن تكون دعاء إلى التوحيد وإنكار لعبادة الأصنام ، وأن تكون تعديداً لبعض نعمه على عبيده فإن وجود الصالحين ولا سيما الأنبياء والمرسلين رحمة فيما بين العالمين كما قال : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً ﴾ [ آل عمران : 164 ] . وذلك بدعاء إبراهيم ومن نسله صلى الله عليه وسلم نبينا صلى الله عليه وسلم . حكى الله سبحانه عنه طلب أمور منها : قوله : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ وقد مر في " البقرة " الفرق بين هذه العبارة وبين ما هنالك . ولا ريب أن في مكة مزيد أمن ببركة دعائه حتى إن الناس مع شدة العداوة بينهم كانوا يتلاقون بمكة فلا يخاف بعضهم بعضاً ، وكان الخائف إذا التجأ بمكة أمن ، وللوحوش هناك استئناس ليس في غيرها ، وإنما قدم طلب الأمن على سائر المطالب لأنه لولاه لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من مهمات الدين والدنيا ومن هنا جاز التلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه .

وسئل بعض الحكماء أن الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن دليله أن شاء لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل وإنها لو ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناول شيئاً إلى أن تموت، فدل ذلك على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الألم الحاصل للجسد. ومنها قوله: ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ قال جار الله: أهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد. وأهل نجد: جنبني وأجنبني. وفائدة الطلب - والاجتناب حاصل - التثبت والإدامة ولا أقل من هضم النفس وإظهار الفقر والحاجة والتماس العصمة من الشرك الخفي. أما قوله: ﴿ وبني ﴾ فقيل: أراد بنيه من صلبه وأنهم ما عبدوا صنماً ببركة دعائه. وقيل: أولاده وأولاد أولاده ممن كانوا موجودين حال دعوته. وقال مجاهد وابن عيينة: لم يعبد أحد من ولد إبراهيم صنماً وهو التمثال المصور، وإنما عبدت العرب الأوثان يعني أحجاراً مخصوصة كانت لكل قوم زعموا أن البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار ولذلك استحب أن يقال: طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت. وضعف هذا الجواب بأنه إذا عبد غير الله

فالوثن والصنم سيان ، على أنه سبحانه وصف آلهتهم بما ينبىء عن كونهم مصورين كقوله : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ [ الأعراف : 198 ] الآيات إلى قوله : ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ [ الأعراف : 198 ] . وقيل : إن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده بدليل قوله : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ أي من أهلي فإنه يفهم منه أن من لم يتبعه في دينه فإنه ليس من أهله كقوله لابن نوح ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ [ هود : 46 ] وقيل : إنه وإن عمم الدعاء إلا أنه أجيب في البعض كقوله : ﴿ ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] . قالت الأشاعرة : لو لم يكن الإيمان والكفر بخلق الله تعالى لم يكن لالتماس



---

التبعيد عن الكفر معنى . وحمله المعتزلة على منح الألطاف .

أما قوله : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً ﴾ فاتفقوا على أن نسبة الإضلال إليهن مجاز لأنهن جمادات فهو كقولهم " فتنتهم الدنيا وغرتهم " أي صارت سبباً للفتنة والاغترار بها ﴿ فمن تبعني ﴾ بقي على الملة الحنيفة ﴿ فإنه مني ﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ قال السدي : معناه ومن عصاني ثم تاب . وقيل : إن

هذا الدعاء كان قبل أن يعلم أن الله لا يغفر الشرك . وقيل : المراد أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإسلام . وقيل : أراد أن يمهلهم حتى يتوبوا وقيل : ومن عصاني فيما دون الشرك فاستدل الأشاعرة بإطلاقه من غير اشتراط التوبة على أنه شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر ، وإذا ثبت هذا في حق إبراهيم صلى الله عليه وسلم ثبت في حق نبينا بالطريق الأولى .



---

ثم أراد أن يعطف الله بدعائه قلوب الناس كلهم أو جلهم على إسماعيل ومن ولد منه بمكة وأن يرزقهم من الثمرات فمهد لذلك مقدمة فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ أي بعضهم ﴿ بواد غير ذي زرع ﴾ أي لم يكن فيه شيء من زرع قط كقوله : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ [ الزمر : 28 ] أي لا اعوجاج فيه أصلاً ولم يوجد ذلك فيه في زمن من الأزمان . وقد سبق في سورة البقرة قصة مجيء إبراهيم صلى الله عليه وسلم بإسماعيل وأمه هاجر إلى هنالك . وفي قوله : ﴿ عند بيتك الحرام ﴾ دليل على أنه دعا هذه الدعوة بعد بناء البيت لا في حين مجيئه بهما . ومعنى كون البيت محرماً أن الله حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرماً لأجل حرمته ، وأنه لم يزل ممتنعاً عزيزاً يهابه كل جبار

كالشيء المحرم الذي حقه أن يجتنب . وقيل : سمي محرماً لأنه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستول عليه ، أو حرم على المكلفين أن يقربوه بالدماء والأقذار ، أو لأنه أمر الصائرون إليه يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي القفر إلا لإقامة الصلاة عند البيت وعمارته بالذكر والطواف . ﴿ فاجعل أفئدة من الناس ﴾ " من " للتبعيض أي أفئدة من أفئدة الناس . قال مجاهد . لو قال أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند . وعن سعيد بن جبير : لو قال أفئدة الناس لحجة اليهود والنصارى والمجوس ولكنه أراد أفئدة المسلمين . وجوز في الكشاف أن يكون " من " للابتداء كقولك " القلب مني سقيم " . وعلى هذا فإنما يحصل التبعيض من تنكير أفئدة فكأنه قيل : أفئدة ناس . ومعنى ﴿ تهوي ﴾ تسرع ﴿ إليهم ﴾ وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً . وقيل : تنحط وتنحدر . الأصمعي : هوى يهوي هوياً بفتح الهاء إذا سقط من علو إلى سفل وفي هذا الدعاء فائدتان : إحداهما ميل الناس إلى تلك البلدة للنسك والطاعة ، والأخرى نقل الأقمشة إليه للتجارة ،

وفي ضمن ذلك تتسع معايشهم وتكثر أرزاقهم ومع ذلك قد صرح بها فقال : ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ فلا جرم أجاب الله دعاءه فجعله حراما آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء .

وقيل : أراد أن يحصل حواليها القرى والمزارع والبساتين . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ لعلهم يشركون ﴾ ليعلم أن المقصود الأصلي من منافع الدنيا وسعة الرزق هو التفرغ لأداء العبادات وإقامة والوظائف الشرعية .

ثم أثنى على الله سبحانه تمهيداً لدعوة أخرى وتعريضاً ببقية الحاجات فقال : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ على الإطلاق لأن الغيب والشهادة بالإضافة إلى العالم بالذات سيان .



---

وقيل : ما نخفي من الوجد بسبب الفرقة بيني وبين إسماعيل ، وما نعلن من البكاء والدعاء ، أو أراد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم . قال المفسررون : ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم ، ويحتمل أن يكون من كلام إبراهيم . و " من " للاستغراق أي لا يخفى على الذين يستحق العبادة لذاته شيء ما في أيّ مكان يفرض . ﴿

الحمد لله الذي وهب لي على الكبر ﴾ أي مع كبر السن وفي حال الشيخوخة ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ ذكر أولاً كونه تعالى عالماً بالضمائر والسرائر ، ثم حمده على هذه الموهبة لأن المنة بهبة الولد في حال وقوع اليأس من الولادة أعظم لأنها تنتهي إلى حد الخوارق فكأنه رمز إلى أنه يطلب من الله سبحانه أن يبقيهما بعده ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أي مجيب الدعاء ، أو إلى فاعلها بأن يجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي ، والمراد سماع الله تعالى ، ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ رمزاً إلى ما كان قد دعا ربه وسأله الولد بقوله : ﴿ رب هب لي من الصالحين ﴾ [ الصافات : 100 ] روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة . وقيل : إسماعيل لأربع وستين ، وإسحق لتسعين . وعن سعيد بن جبير : لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة .

(265/421)

---

ثم ختم الأدعية بقوله : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي مديمها ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعل بعض ذريتي كذلك لم يدع للكل لأنه علم بإعلام والله تعالى أنه يكون في ذريته كفار

وذلك قوله سبحانه ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] ﴿ ربنا وتقبل دعائي ﴾ عن ابن عباس : أي عبادتي ، وحمله على تقبله الأدعية السابقة في الآية غير بعيد ﴿ ربنا اغفر لي ﴾ طلب المغفرة لا يوجب سابقة الذنب لأن مثل هذا إنما يصدر عن الأنبياء والأولياء في مقام الخوف والدهشة على أن ترك الأولى لا يمتنع منهم وحسنات الأبرار سيئات المقربين . أما قوله : ﴿ ولوالدي ﴾ فاعترض عليه بأنه كيف استغفر لأبويه وهما كافران ؟ وأجيب بأنه قال ذلك بشرط الإسلام ، وزيف بأن قوله تعالى : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ [ الممتحنة : 4 ] مستثنى من الأشياء التي يؤتسى فيها بإبراهيم ، ولو كان استغفاره مشروطاً بإسلام أبيه لكان استغفاراً صحيحاً فلم يحتج إلى الاستثناء . وقيل : أراد بوالديه آدم وحواء والصحيح في الجواب أنه استغفر له بناء على الجواز العقلي والمنع التوفيقي بعد ذلك لا ينافيه ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي يثبت مستعار من قيام القائم على الرجل ومثله قولهم " قامت الحرب على ساقها " أو أسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً ، أو المضاف محذوف مثل

﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] . ثم عاد إلى بيان الجزاء والمعاد لأن دعاء إبراهيم صلى الله عليه وسلم قد انجر إلى ذكر الحساب فقال : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ﴾ إن كان الخطاب لكل مكلف أو للنبي والمراد أمته فلا إشكال ، وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فمعناه التثبت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله إلا عالماً بجميع المعلومات ، أو المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يقولون ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير . وعن ابن عيينة : تسلية للمظلوم وتهديد للظالم . قالت : لأنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لزم أن يكون غافلاً عن الظلم أو عاجزاً عن الانتقام أو راضياً بالظلم وكل ذلك مناف لوجوب الوجود المستلزم لجميع الكمالات ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي أبصارهم كقوله : ﴿ واشتعل الرأس ﴾ [ مريم : 4 ] شخص بصر الرجل إذا بقيت عينه مفتوحة لا تطرف وذلك إنما يكون عند غاية الحيرة وسقوط القوة ﴿ مهطعين ﴾ مسرعين قاله أبو عبيدة . والغالب من حال من يبقى بصره شاخصاً من شدة الخوف أن يبقى واقفاً ، فبين الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد لأنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مسرعين نحو ذلك البلاء . وقال أحمد بن يحيى : المهطع الذي ينظر في ذل وخضوع . وقيل : هو الساكت ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ رافعيها وهذا أيضاً بخلاف المعتاد لأن الغالب ممن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه لكيلا يراه ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ الطرف تحريك الأجفان على الوجه الذي خلق وجبل عليه . وسمى العين بالطرف تسمية بفعلها

أي لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم . والمراد دوام الشخوص المذكور . وقيل : أي لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ والهواء الخلاء الذي يشغله الأجرام . وصف قلب الجبان به لأنه لا قوة فيه ، ويقال للأحمق أيضاً قلبه هواء . والمعنى . أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخوطر والأفكار لعظم ما نالهم ، وعن كل



---

رجاء وأمل لما تحققوه من العذاب . والأظهر أن هذه الحالة لهم عند المحاسبة لتقدم قوله : ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ وقيل : هي عندما يتميز السعداء من الأشقياء . وقيل : عند إجابة الداعي والقيام من القبور . وعن ابن جريج : أراد أن أفئدة الكفار في الدنيا صفر من الخير خاوية منه . قال أبو عبيدة : جوف لا عقول لهم ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ مفعول ثان لأنذروا اليوم يوم القيامة ، واللام في العذاب للمعهود السابق من شخوص الأبصار وغيره ، أو للمعلوم وهو عذاب النار . ومعنى ﴿ أخرنا ﴾ أمهلنا ﴿ إلى ﴾ أمد وحد من الزمان ﴿ قريب ﴾ أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى ﴿ أو لم تكونوا ﴾ على إضمار القول أي فيقال لهم ذلك .

وأقسامهم إما بلسان الحال حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً ، وإما بلسان المقال أشراً وبطراً وجهلاً وسفهاً . و ﴿ ما لكم من زوال ﴾ جواب القسم . ولو قيل " ما لنا من زوال " على حكاية لفظ المقسمين لجاز من حيث العربية . والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت والفناء أو لا تنتقلون إلى دار أخرى هي دار الجزاء كقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ [ النحل : 38 ] .

*(268/421)*

---

ثم زادهم توبيخاً بقوله : ﴿ وسكنتم ﴾ استقررتم ﴿ في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر والمعاصي وهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿ وتبين لكم ﴾ بالأخبار والمشاهدة والبيان والعيان ﴿ كيف فعلنا بهم ﴾ من أصناف العقوبات ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ قال جار الله : أراد صفات ما فعلوا وما فعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم . وقال غير : المراد ما أورد في القرآن من دلائل القدرة على الإعادة والإبداء وعلى العذاب المعجل والمؤجل . ثم حكى مكر أولئك الظلمة فقال : ﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ أي مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم . وقيل : الضمير عائد إلى قوم محمد صلى الله عليه وسلم كما قال : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك ﴾ [

الأنفال : 30 ] وقيل : أراد ما نقل أن نمروذ حاول الصعود إلى السماء فاتخذ لنفسه تابوتاً وربط قوائمه الأربع بأربع نسور ، وكان قد جوعها ورفع من الجوانب الأربعة على التابوت عصياً أربعاً وعلق على كل واحدة منها قطعة من اللحم ، ثم إنه جلس مع صاحبه في ذلك التابوت . فلما أبصرت النسور ذلك اللحم تصاعدت في جو الهواء ثلاثة أيام وغابت الأرض عن عين نمروذ ورأى السماء بحالها ، فعكس تلك العصيّ التي عليها اللحوم فهبطت النسور إلى الأرض . وضعفت هذه الرواية لأنه لا يكاد يقدم عاقل على مثل هذا الخطر . ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ إن كان مضافاً إلى الفاعل فالمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فيجازيهم عليه بأعظم من ذلك ، وإن كان مضافاً إلى المفعول فمعناه وعنده مكرهم الذي يمكرهم به وهو عذابهم الذي يستحقونه فيأتيهم به من حيث لا يشعرون . أما قوله : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول ﴾ من قرأ بكسر اللام الأولى ونصب الثانية فوجهان : أحدهما أن تكون " إن " مخففة من الثقيلة فزوال الجبال مثل لعظم مكرهم وشدته أي وإن الشأن كان مكرهم معداً لذلك . وثانيهما أن تكون " إن " نافية واللام المكسورة لتأكيد النفي كقوله : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ [

البقرة : 143 ] والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه الثابتة على حالها أبد الدهر . ومن قرأ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية فإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة ، والمعنى كما مر .

*(270/421)*

---

ثم إنه سبحانه أكد كونه مجازياً لأهل المكر على مكرهم بقوله : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ قال جار الله : قدم المفعول الثاني – وهو الوعد – على المفعول الأول ليعلم أنه غير مخلف الوعد على الإطلاق . ثم قال : ﴿ رسله ﴾ تنبيهاً على أنه إذا لم يكن من شأنه إخلاف الوعد فكيف يخلفه رسله الذين هم صفوته . والمراد بالوعد قوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ [ غافر : 51 ] ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ [ المجادلة : 21 ] ونحوهما من الآيات . قوله : ﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ قد مر في أول " آل عمران " ﴿ يوم تبدل الأرض ﴾ قال الزجاج : انتصاب يوم على البدل من ﴿ يوم يأتيهم ﴾ أو على الظرف للانتقام . والأظهر انتصابه باذكر كما مر في الوقوف . ومعنى قوله : ﴿ والسموات ﴾ أي وتبدل السموات قال أهل اللغة : التبديل التغيير وقد يكون في الذوات كقولك " بدلت الدراهم دنانير " وفي الأوصاف كقولك " بدلت الحلقة خاتماً " إذا أذبتها وسوّيتها

خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل . وتفسير ابن عباس يناسب الوجه الثاني قال : هي تلك الأرض وإنما تغير فتسير عنها جبالها وتفجر بحارها وتسوّى فلا يرى فيها عوج ولا أمت ، وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً . وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يبدل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العكاظي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً " وهذا القول يناسب مذهب الحكماء في أن الذوات لا يتطرق إليها العدم وإنما تعدم صفاتها وأحوالها . نعم جوزوا انعدام الصور مع أنها جواهر عندهم . وتفسير ابن مسعود يناسب الوجه الأول قال : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة . وعن علي كرم الله وجهه : تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب وعن الضحاك : أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف . وقيل : لا يبعد أن يجعل الله الأرض جهنم والسموات الجنة . ﴿ وبرزوا لله ﴾ قد ذكرناه في أول



---

السورة . وتخصيص ﴿ الواحد القهار ﴾ بالموضع تعظيم وتهويل وأنه لا مستغاث وقتئذ إلى غيره ولا حكم يومئذ لأحد إلا له يتفرد في حكمه ويقهر ما سواه .

ومن نتائج قهره قوله : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين ﴾ قرن بعضهم مع بعض لأن الجنسية علة الضم أو مع الشياطين الذين أضلوهم . قالت الحكماء : هي الملكات الذميمة والعقائد الفاسدة التي اكتسبوها في تعلق الأبدان . وقوله : ﴿ في الأصفاد ﴾ أي القيود إما أن يتعلق بمقرنين وإما أن يكون وصفاً مستقلاً أي مقرنين مصفدين . وقيل : الأصفاد الأغلال . والمعنى قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال . وحظ العقل فيه أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء . ﴿ سرابيلهم ﴾ جمع سربال وهو القميص ﴿ من قطران ﴾ هو ما يتحلب أي يسيل من شجر يسمى الأبهل فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحره وحدّته ، وقد تبلغ حرارته الجوف ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وقد يستسرج به وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل فيجمع عليهم اللذع والحرقة والاشتعال والسواد والنتن ، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين والوجه العقلي فيه أن البدن بمنزلة القميص للنفس ، وكل ما يحصل للنفس من الآلام والغموم فإنما يحصل بسبب هذا البدن ، فلهذا البدن لذع وحرقة في جوهر النفس بنفوذ الشهوة والحرص والغضب وسائر آثار الملكات الردية فيه .

ومن قرأ ﴿ من قطرآن ﴾ فالقطر النحاس والصفر المذاب والآني المتناهي حره . قال ابن الأنباري : وتلك النار لا تبطل ذلك السربال ولا تفنيه كما لا تهلك النار أجسادهم والأغلال التي كانت عليهم ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه فعبر به عن الكل . قوله : ﴿ ليجزي ﴾ اللام متعلقة ب ﴿ تغشى ﴾ أو بجميع ما ذكر كأنه قيل : يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي ﴿ الله كل نفس ما كسبت ﴾ قال الواحدي : أراد نفوس الكفار لأن ما سبق لا يليق إلا بهم . ويحتمل أن يراد كل نفس مجرمة ومطيعة لأنه تعالى إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم . ثم أشار إلى القرآن إلى ما في السورة أو إلى ما مر من قوله : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ﴾ إلى ههنا فقال ﴿ هذا بلاغ ﴾ كفاية ﴿ للناس ﴾ في التذكير والموعظة لينصحوا ﴿ ولينذروا به ﴾ بهذا البلاغ . ثم رمز إلى استكمال القوّة النظرية بقوله : ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ وإلى استكمال القوة العملية بقوله : ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى استكمال النفس بحسب القوتين والله ولي التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 198 . 204﴾

وقال الخطيب الشربيني :

ثم إنه تعالى عاد إلى وصف الكافرين فقال:

﴿ ألم تر ﴾ ، أي : تنظر ، وفي المخاطب ما تقدّم ﴿ إلى الذين بدّلوا ﴾ والتبديل جعل الشيء مكان غيره ﴿ نعمة الله ﴾ ، أي : التي أسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق وغير ذلك بأن جعلوا مكان شكرها ﴿ كفراً ﴾ وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان ، وأعلاهم همماً في الوفاء وأبعدهم عن الجفاء ﴿ وأحلوا ﴾ ، أي : أنزلوا ﴿ قومهم ﴾ ، أي : الذين تابعوهم في الكفر بإضلالهم إياهم ﴿ دار البوار ﴾ ، أي : الهلاك مع إدعائهم أنهم أذب الناس عن الجار فضلاً عن الأهل . روى البخاري في التفسير أنهم كفار أهل مكة ، وقوله تعالى:

﴿ جهنم ﴾ عطف بيان ﴿ يصلونها ﴾ ، أي : يدخلونها ﴿ وبئس القرار ﴾ ، أي : المقر هي .

﴿ وجعلوا لله ﴾ ، أي : الذين يعلمون أنه لا شريك له في خلقهم ولا رزقهم ؛ لأنّ له الكمال كله ﴿ أنداداً ﴾ ، أي : شركاء ، وقوله تعالى : ﴿ ليضلوا عن سبيله ﴾ ، أي : دين الإسلام ، فيه قراءتان : قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من ضلّ ، يضلّ والباقون بضم الياء من أضل يضل ، وليس الضلال ولا الإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد لكن لما كان

نتيجته جعل كالغرض . ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأنواع الثلاثة من الأعمال القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل ﴾ ، أي : تهديداً لهم ، فإنهم لا يشكون في قولك وإن عاندوا ﴿ تمتعوا ﴾ بدنياكم قليلاً ﴿ فإن مصيركم ﴾ ، أي : مرجعكم ﴿ إلى النار ﴾ في الآخرة ، ولما أمر الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا ، أمر المؤمنين بترك التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى:



---

﴿ قل لعبادي ﴾ فوصفهم بأشرف أوصافهم ، وأضافهم إلى ضميره الشريف تحبباً لهم فيه ، ثم أتبع هذا الوصف ما يناسبه من إذعانهم لسيدهم بقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، أي : أوجدوا هذا الوصف ﴿ يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يصح أن يكون جواباً بالأمر محذوف تقديره قل لعبادي الذين آمنوا : أقيموا الصلاة وأنفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا . والثاني : يصح أن يكون هو أمراً مقولاً محذوفاً منه اللام ، أي : ليقيموا ليصح تعلق القول بهما ، وإنما حسن ذلك هاهنا ولم يحسن في قوله:

*محمد تفد نفسك كل نفس

** إذا ما خفت من شيء تبالا

أي تبالى به ، أي : تكثرت به لدلالة قل عليه : ﴿ سراً وعلانية ﴾ ، أي : ينفقون أموالهم في حال السر والعلانية ، وقيل : المراد بالسر صدقة التطوع ، وبالعلانية إخراج الزكاة الواجبة .

تنبيه : في انتصاب سرّاً وعلانية وجوه : أحدها : أن يكون على الحال ، أي : ذوي سر وعلانية بمعنى مسرّين ومعلنين . والثاني : على الظرف ، أي : وقت سر وعلانية . وثالثها : على المصدر ، أي : إنفاق سر وإنفاق علانية . ولما أمرهم الله تعالى بإقامة الصلاة والإنفاق أشار إلى عدم التهاون بذلك بقوله عز وجل : ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ ، أي : عظيم جدّاً ليس كشيء من الأيام التي تعرفونها ﴿ لا بيع فيه ﴾ ، أي : فيشتري المقصر ما يتدارك به تقصيره ، أو يفدي به نفسه ﴿ ولا خلال ﴾ ، أي : مخالة ، أي : صداقة تنفع في ذلك اليوم .

قال مقاتل : إنما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة ولا قرابة ، فكأنه تعالى يقول : أنفقوا أموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الإنفاق في مثل هذا اليوم الذي لا يحصل فيه مبايعة ولا مخالة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ (البقرة ، )

. فإن قيل : كيف نفى الله تعالى المخالة في هاتين الآيتين مع أنه تعالى أثبتها في قوله تعالى :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ﴾ (الزخرف ، )

؟

*(275/421)*

---

أجيب : بأن الآية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس ، والآية الدالة على حصول المخالة محمولة على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى . ولما طال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، وكانت العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته ، وفي حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم تعالى أحوال الفريقين بقوله تعالى: ﴿ الله ﴾ ، أي : الملك الأعلى المحيط بكل شيء ، ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته ، وذكر هنا عشرة أنواع من الدلائل : أوّلها : قوله تعالى : ﴿ الذي خلق السموات ﴾ وثانيها : قوله تعالى : ﴿ والأرض ﴾ وهما أكبر خلقاً منكم وأعظم شأناً . وثالثها قوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس .

تنبيه : الله مبتدأ ، وخبره الذي خلق ، ورزقاً مفعول لأخرج ، ومن الثمرات بيان له حال

منه ، ويصح أن يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقاً من السمو والارتفاع ، وأن يكون الجرم المعهود فينزل من السماء إلى السحاب ، ومن السحاب إلى الأرض ، وقد ذكرت ذلك في سورة البقرة ، وفي غيرها ، ورابعها قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الفلك ﴾ ، أي : السفن ﴿ لتجري في البحر ﴾ ، أي : بالركوب والحمل ﴿ بأمره ﴾ ، أي : بمشيئته وإرادته ، وخامسها : قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ ، أي : ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ؛ لأنّ ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب فكان ذلك نعمة من الله تعالى ، وسادسها وسابعها : قوله تعالى:



---

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر ﴾ حال كونهما ﴿ دائبين ﴾ ، أي : جاريين في فلكهما لا يفتران في سيرهما وإنارتهما وتأثيرهما في إنارة الظلمة ، وإصلاح النبات والحيوان إلى آخر الدهر ، وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها ، والشمس سلطانها النهار ، وبها تعرف فصول السنة ، وهي أفضل من القمر لكثرة نفعها ، والقمر سلطانه الليل ، وبه يعرف انقضاء الشهور ، وكل ذلك بتسخير الله تعالى وإنعامه ، وثامنها وتاسعها : قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة ، والزيادة والنقصان ، وذلك من نعم

الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتغوا فيه من فضله .

وعاشرها : قوله تعالى:

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ ، أي : مما أنتم محتاجون إليه على حسب مصالحكم ، فأنتم سألتموه بالقوّة . ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما أنعم به على عباده بين أنّ العبد عاجز عن حصرها وعدّها بقوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، أي : لا تحيطوا بها ولا تطيقوا عدّها وبلوغ آخرها هذا إذا أرادوا أن يعدّوها على الإجمال ، وأمّا على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله تعالى . ﴿ إنّ الإنسان ﴾ ، أي : الكافر ، وقال ابن عباس : يريد أبا جهل . ﴿ لظلوم ﴾ ، أي : كثير الظلم لنفسه ﴿ كفار ﴾ ، أي : كفور لنعم ربه ، وقيل : ظلوم في الشدّة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع . فإن قيل : لم قال تعالى هنا ﴿ إنّ الإنسان لظلوم كفار ﴾ وفي النحل : ﴿ إنّ الله لغفور رحيم ﴾ (النحل

، )

؟

أجيب : بأنه تعالى يقول للعبد : إذا حصلت لك النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها فحصل لك عند أخذها وصفان ، وهما كونك ظلوماً كفاراً ، ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفوراً رحيماً ، والمقصود كأنه يقول : إن كنت ظلوماً فأنا غفور وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وتقصيرك فلا أقابل تقصيرك ، إلا بالتوقير ولا أجازي جزاءك إلا بالوفاء ، ونسأل الله حسن العاقبة والرحمة . ولما بين الله تعالى بالدلائل المتقدّمة لأن لا معبود إلا الله سبحانه وتعالى وأنه لا تجوز عبادة غير الله البتة ، حكي عن إبراهيم عليه السلام مبالغة في إنكاره عبادة الأوثان بقوله تعالى:

﴿ وإذ ﴾ ، أي : واذكر لهم مذكراً بأيام الله خبر إبراهيم إذ ﴿ قال إبراهيم رب ﴾ ، أي : المحسن إليّ بإجابة دعائي ﴿ اجعل هذا البلد ﴾ ، أي : مكة ﴿ آمناً ﴾ ، أي : ذا أمن ، وقد أجاب الله تعالى دعاءه ، فجعله حرماً لا يسفك فيه دم إنسان ، ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه . فإن قيل: ، أي : فرق بين قوله : ﴿ اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ (البقرة ، )

وبين قوله : ﴿ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ (إبراهيم ، )

؟ بأنّ المسؤول في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون ، وفي الثاني : أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها ، وهي الخوف ويجعل لها تلك الصفة ، وهي الأمن كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمناً .

فإن قيل : كيف أجاب الله تعالى دعاءه مع أنّ جماعة من الجبابرة قد أغاروا عليها وأخافوا أهلها ؟

أجيب : بجوابين : أحدهما : أنّ إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء ، والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب ، وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر أحد على إخراب مكة . فإن قيل : يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة" ؟

أجيب : بأنّ قوله تعالى : ﴿ اجعل هذا البلد ﴾ (إبراهيم ، )

(278/421)

---

يعني إلى قرب يوم القيامة وخراب الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين ، فلا تعارض بين النصين ، والجواب الثاني : أنّ المراد جعل أهلها آمنين كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ (يوسف : ) ، أي : أهلها وهذا الجواب عليه أكثر المفسرين ، وعلى هذا فقد اختص أهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ (العنكبوت ، )

وأهل مكة آمنون من ذلك حتى أنّ من التجأ إلى مكة أمن على نفسه وماله ، وحتى أنّ

الوحوش إذا كانت خارجة الحرم استوحشت ، وإذا كانت داخلة الحرم استأنست ؛ لعلمها أنه لا يهجيها أحد في الحرم ، وهذا القدر من الأمن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها ﴿ واجنبني ﴾ ، أي : بعدني ﴿ وبنيّ أن ﴾ ، أي : عن أن ﴿ نعبد الأصنام ﴾ ، أي : اجعلنا في جانب غير جانب عبادتها .

فإن قيل : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة في قوله : ﴿ واجنبني ﴾ عن عبادة الأصنام ؟

أجيب : بأنه عليه الصلاة والسلام إنما سأل ذلك هضماً لنفسه ، وإظهاراً للحاجة والفاقة إلى فضل الله في كل المطالب ، وفي ذلك دليل على أنّ عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم . فإن قيل : كان كفار قريش من أبنائه مع أنهم كانوا يعبدون الأصنام فكيف أجيب دعاؤه ؟

أجيب : بأنّ المراد من كان موجوداً حال الدعاء ، ولا شبهة أنّ دعوته كانت مجابة فيهم ، أو أنّ هذا الدعاء مخصوص بالمؤمنين من أولاده ، والدليل عليه أنه قال عليه السلام في آخر الآية : ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ (إبراهيم ، )

وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ (هود ، ) ، والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتاً على غير خلقة البشر فهو وثن ، قاله الطبري . ولذا لما سئل ابن عيينة كيف عبدت العرب

الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من بني إسماعيل صنماً، واحتج بقوله تعالى: ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم، ]



---

وإنما كانت أنصاب الحجارة لكل قوم قالوا: البيت حجر فحينما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت فكانوا يدورون بذلك الحجر، أي: يطوفون به أسابيع تشبيهاً بالكعبة، ويسمونه الدوّار بضم الدال مشدّدة، وقد تفتح، قال الجوهري: دوّار بالضم صنم وقد تفتح فاستحب أن يقال طاف بالبيت، ولا يقال دار بالبيت. قال الرازي: وهذا الجواب ليس بقوي؛ لأنه عليه السلام لا يجوز أن يريد بهذا الدعاء إلا عبادة غير الله، والحجر كالصنم في ذلك. ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم أنه قال:

﴿ رب إنهن ﴾، أي: الأصنام ﴿ أضللن كثيراً من الناس ﴾ بعبادتهم لها.

تنبيه: اتفق كل الفرق على أن قوله: أضللن مجاز؛ لأنها جمادات، والجماد لا يفعل شيئًا البتة إلا أنه لما حصل عند عبادتها أضيف إليها كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرّتهم، أي: افتتنوا بها واغتروا بسببها ثم قال: ﴿ فمن تبعني ﴾، أي: على التوحيد ﴿ فإنه مني ﴾، أي: فإنه جار مجرى بعضي لفرط اختصاصه وقربه مني ﴿ ومن عصاني ﴾، أي: في غير

الدين ﴿ فإنك غفور رحيم ﴾ وهذا صريح في طلب الرحمة والمغفرة لأولئك العصاة ، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم لأنه مأمور بالإقتداء به كما قال تعالى : ﴿ واتبع ملة إبراهيم ﴾ (النساء ، )

وقيل : إنّ هذا الدعاء كان قبل أن يعلم إبراهيم أنّ الله لا يغفر الشرك ، وقيل : إنك قادر أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإسلام ، وقيل : المراد من هذه المغفرة أن لا يعاجلهم بالعقاب ، فلا يمهلهم حتى يتوبوا ، قال الرازي : واعلم أنّ هذه الأوجه ضعيفة ، وارتضى ما تقرّر أولاً .



---

تنبيه : حكى الله سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام في هذا الموضع أنه طلب من الله تعالى سبعة أمور : الأوّل : طلب من الله تعالى نعمة الأمان ، وهو (رب اجعل هذا البلد آمناً) المطلوب الثاني : أن يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه عن الشرك وهو قوله :

﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ المطلوب الثالث قوله:

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ (إبراهيم ، ) ، أي : بعض ذريتي أو ذرّية من ذريتي ،

فحذف المفعول على هذا القول ، وهم إسماعيل ومن ولد منه فإن إسكانه متضمن لإسكانهم ﴿ بواد ﴾ هو وادي مكة المشرفة لكونه في فضاء منخفض بين جبال تجري فيه السيول ﴿ غير ذي زرع ﴾ ، أي : لايكون فيه من الزرع قط ، فإنه حجري لا ينبت كقوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ (الزمر ، )

*(281/421)*

---

بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ ، أي : الذي حرمت التعرض له ، والتهاون به ، وجعلت ما حوله حرماً لمكانه ؛ أو لأنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه كل جبار كالشيء المحرّم الذي حقه أن يجتنب ؛ أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه ؛ أو لأنه حرّم على الطوفان ، أي : منع منه كما سمي عتيقاً ؛ لأنه أعتق منه فلم يستول عليه ، أو لأنه أمر الصائرين إليه أن يحرموا على أنفسهم أشياء كانت تحل لهم من قبل ، أو لأنه حرم موضع البيت حين خلق السموات والأرض ، وحفه بسبعة أملاك ، وهو مثل البيت المعمور الذي بناه آدم فرفع إلى السماء السادسة ، وروي أن هاجر كانت أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل ، فقالت سارة : كنت أريد أن يهب الله لي ولداً من خليله فمنعنيه ورزقه خادمتي ، وغارت عليهما ، وقالت لإبراهيم : بعدهما مني وناشدته بالله

أن يخرجهما من عندها ، فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وهو لا يلتفت إليها فقالت له آللّٰه أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذاً لا يضيعنا ، ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه وقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾ (إبراهيم ، )

*(282/421)*

---

حتى بلغ (يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يلتوي ، أو قال : يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى من أحد ، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرّات قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما " فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت :

صه ، تريد نفسها ثم تسمعت ، فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال : بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم "يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً" قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال الملك : لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وأنّ الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ، فنزلوا في أسفل مكة ، فنظروا طائراً : فقالوا إنّ هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا : نعم قال ابن عباس : قالت ذلك أمّ إسماعيل وهي تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم فشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وألفهم وأعجبهم حتى شب ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوّج إسماعيل وتقدّم تمام هذه القصة في سورة البقرة .

ثم قال : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ اللام لام كي متعلقة بأسكنت ، أي : ما أسكنتهم بهذا الوادي المقفر الذي لا شيء فيه إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرّم ، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبرّكين بالبقعة التي شرفتها على البقاع مستعبدين بجوارك الكريم متقرّبين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك ، وتكرير النداء وتوسطه للإشعار بأنهما المقصود بالذات من إسكانهم هناك ، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها ﴿ فاجعل أفئدة ﴾ ، أي : قلوباً محترقة بالأشواق ﴿ من الناس ﴾ ومن للتبعيض ، والمعنى : واجعل أفئدة بعض الناس ﴿ تهوي ﴾ ، أي : تميل ﴿ إليهم ﴾ ويدلّ عليه ما روي عن مجاهد لو قال : أفئدة الناس لزحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند . وقال سعيد بن جبير : لو قال أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى والمجوس ، ولكنه قال : ﴿ أفئدة من الناس ﴾ فهم المسلمون . وقال ابن عباس : لو قال : أفئدة الناس لحنت إليه فارس والروم والناس كلهم . ولما دعا لهم بالدين دعا لهم بالرزق فقال : ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ ولم يقل : وارزقهم الثمرات ، وذلك يدل على أنّ المطلوب بالدعاء إيصال بعض الثمرات إليهم ، ويحتمل أن يكون المراد بإيصال بعض الثمرات إليهم إيصالها إليهم على سبيل التجارات كما قال تعالى : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ (القصص ، )

حتى توجد فيه الفواكه الصيفية والربيعية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجب ، وأن يكون المراد عمارة القرى بالقرب منها لتحصل تلك الثمار . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كانت الطائف من أرض فلسطين ، فلما قال إبراهيم ذلك رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقاً للحرم . ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ يدلّ على أنّ المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرّغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات ، فإنّ إبراهيم عليه السلام بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرّغوا لإقامة الطاعات وأداء الواجبات . ولما طلب عليه السلام من الله تعالى تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهاية الأمور في المستقبل ، فإنه تعالى هو العالم بها والمحيط بأسرارها فقال : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي ﴾ ، أي : نسر ﴿ وما نعلن ﴾ وهذا هو المطلوب الرابع : والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ومفاسدنا منا ، قيل : ما نخفي من الوجد بسبب حصول الفرقة بيني وبين إسماعيل ، وما نعلن من البكاء ، وقيل : ما نخفي من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قال ، ت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم قالت : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً

لا يضيعنا . واختلف في قوله تعالى : ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ فقيل : من تتمة قول إبراهيم عليه السلام يعني : وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في ، أي : مكان ، والأكثرون على أنه قول الله تعالى تصديقاً لإبراهيم فيما قال ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ (النمل ، )

ولفظة من تفيد الاستغراق ، كأنه قيل وما يخفى عليه شيء ما . ولما تم إبراهيم عليه السلام ما دعا به أتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله تعالى:



---

﴿ الحمد لله ﴾ ، أي : المستجمع لصفات الكمال ﴿ الذي وهب لي ﴾ ، أي : أعطاني ﴿ على الكبر ﴾ ، أي : وهب لي وأنا كبير آيس من الولد ، قيد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لما فيه من المعجزة ﴿ إسماعيل وإسحاق ﴾ ومقدار ذلك السنّ غير معلوم من القرآن وإنما يرجع فيه إلى الروايات ، فقال ابن عباس : ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحاق وهو ابن مئة واثنتي عشرة سنة .

فإن قيل : إنّ إبراهيم عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء عندما أسكن إسماعيل وأمّه في ذلك الوادي ، وفي ذلك الوقت ما ولد إسحاق ، فكيف يمكنه أن يقول ذلك ؟

أجيب : بأن هذا يقتضي أنّ إبراهيم إنما ذكر هذا الكلام في زمن آخر لا عقب ما تقدّم من الدعاء . قال الرازي : ويمكن أيضاً أن يقال : إنه عليه السلام إنما ذكر هذا الدعاء بعد كبر إسماعيل وظهور إسحاق ، وإن كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى . تنبيه : قوله (على الكبر) بمعنى مع كقوله:

*إني على ما ترين من كبري

** أعلم من حيث يؤكل الكتف

وهو في موضع الحال . ولما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإفصاح والتصريح قال : ﴿ إنّ ربي ﴾ ، أي : المحسن إليّ ﴿ لسميع الدعاء ﴾ ، أي : لمجيبه . فإن قيل : الله تعالى يسمع كل دعاء أجابه أو لم يجبه ؟

أجيب : بأن هذا من قولك : سمع الملك كلامي إذا اعتدّ به وقبله ، ومنه سمع الله لمن حمده . المطلوب الخامس : قوله : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ ، أي : معدّلاً لها مواظباً عليها .

تنبيه : في الآية دليل على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ؛ لأنّ قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ (إبراهيم ، )

يدل على أنّ ترك المنهيات لا يحصل إلا من الله تعالى . وقوله : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ يدل على أنّ فعل المأمورات لا يحصل إلا من الله تعالى ، وذلك تصريح بأنّ إبراهيم عليه السلام كان مصراً على أنّ الكل من الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ ومن ذرّيتي ﴾ عطف على المنصوب في اجعلني ، أي : واجعل بعض ذريتي كذلك ؛ لأن كلمة من في قوله (ومن ذرّيتي) للتبعيض ، وأما ذكر هذا التبعيض ، فلأنه علم بإعلام الله تعالى أنه يكون في ذرّيته جمع من الكفار وذلك قوله تعالى : ﴿ ولا ينال عهدي الظالمين ﴾ (البقرة ، )

. المطلوب السادس : أنه عليه السلام لما دعا الله تعالى في المطالب المذكورة دعا الله تعالى في أن يقبل دعاءه فقال : ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ . قال ابن عباس : يريد عبادتي بدليل قوله تعالى : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ﴾ (مريم ، )

. وقيل : دعائي المذكور المطلوب السابع قوله:

﴿ ربنا ﴾ ، أي : أيها المالك لأمورنا المدبر لنا ﴿ اغفر لي ﴾ فإن قيل : إنّ طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة ذنب أجيب : بأن المقصود من ذلك الالتجاء إلى الله تعالى ، وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته ، ثم أشرك معه أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره فقال :

﴿ ولوالديّ ﴾ فإن قيل : كيف جاز أن يستغفر لوالديه وكانا كافرين ؟

أجيب بوجوه : الأول : أنّ المنع منه لا يعلم إلا بتوقيف ، فلعله لم يجد منه منعاً و ظنّ كونه

جائزاً ، الثاني : أراد بوالديه آدم وحواء ، الثالث : كان ذلك بشرط الإسلام ، وقال بعضهم : كانت أمّه مؤمنة ولذلك خص أباه بالذكر في قوله : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ (التوبة ، )

(287/421)

---

. ثم دعا لمن تبعه في الدين من ذريته وغيرهم بقوله ﴿ وللمؤمنين ﴾ ، أي : العريقين في هذا الوصف ﴿ يوم يقوم ﴾ ، أي : يبدو ويظهر ﴿ الحساب ﴾ وقيل : أراد يوم يقوم الناس فيه للحساب ، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً عند السامع ، وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة ، والله تعالى لا يردّ دعاء خليله إبراهيم عليه السلام ، وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة ، فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولأحبابنا ولمن نظر في هذا التفسير ، ودعا لمن كان سبباً فيه بالمغفرة . ولما بيّن تعالى دلائل التوحيد ، ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله تعالى أن يصونه عن الشرك ، وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة ، وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة عقبه بقوله تعالى مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ ؛ لأنّ الغفلة معنى يمنع الإنسان عن الوقوف

على حقائق الأمور ، وقيل : حقيقة الغفلة سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ، وهذا في حق الله تعالى محال ، والمقصود من ذلك التنبيه على أنه ينتقم للمظلوم من الظالم ، ففيه وعيد وتهديد للظالم ، وإعلام له بأنه لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلاً عنه ، وعن سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، فقيل له : من قال هذا ؟ فغضب ، وقال : إنما قاله من علمه .

فإن قيل : كيف يليق به صلى الله عليه وسلم أن يحسب الله موصوفاً بالغفلة وهو أعلم الناس به ؟

أجيب : بوجوه : الأوّل : أنّ المراد به التثبت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله : ﴿لا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ (القصص ، )



---

. والثاني : أنّ المقصود منه بيان أنه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لأجل غفلته عن ذلك الظلم . والثالث : أنّ المراد ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم المحاسب على النقير والقطمير . والرابع : أن يكون هذا الكلام وإن كان خطاباً مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في الظاهر إلا أنه يكون في الحقيقة خطاباً مع الأمّة . ثم

بيّن تعالى أنه ﴿ إنما يؤخرهم ﴾ ، أي : عذابهم ﴿ ليوم ﴾ موصوف بخمس صفات الصفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ تشخص فيه الأبصار ﴾ ، أي : أبصارهم لا تقرّ مكانها من هول ما ترى في ذلك اليوم . الصفة الثانية : قوله تعالى :

﴿ مهطعين ﴾ ، أي : مسرعين إلى الداعي أو مقبلين بأبصارهم لا يطرقون هيبة وخوفاً . وقيل : المهطع الخاضع الذليل الساكن . الصفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ ، أي : رافعيها إذ الإقناع : رفع الرأس إلى فوق ، فأهل الموقف من صفتهم أنهم رافعو رؤوسهم إلى السماء ، وهذا بخلاف المعتاد ؛ لأنّ من يتوقع البلاء يطرق بصره إلى الأرض . وقال الحسن : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد . الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لا يرتدّ إليهم طرفهم ﴾ ، أي : بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون بعيونهم ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان قد شغلهم ما بين أيديهم . الصفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وأفئدتهم ﴾ ، أي : قلوبهم ﴿ هوٰء ﴾ ، أي : خالية من العقل لفرط الحيرة والدهشة . وقال قتادة : خرجت قلوبهم عن صدورهم ، فصارت في حناجرهم ، فلا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها .

تنبيه : اختلفوا في وقت حصول هذه الصفات ، فقيل : إنها عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك بأنه يقوم الحساب ، وقيل : إنها تحصل عندما

يتميز فريق عن فريق ، فالسعداء يذهبون إلى الجنة والأشقياء إلى النار . وقيل : يحصل عند إجابة الداعي والقيام من القبور . قال الرازي : والأوّل أولى .



---

﴿ وأنذر الناس ﴾ يا محمد ، أي : خوّفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى : ﴿ يوم يأتيهم العذاب ﴾ ، أي : الذي تقدّم ذكره ، وهو شخوص أبصارهم وكونهم مهطعين مقنعي رؤوسهم . ﴿ فيقول الذين ظلموا ﴾ ، أي : كفروا ﴿ ربنا أخرنا ﴾ ، أي : بأن تردّنا إلى الدنيا ﴿ إلى أجل قريب ﴾ إلى أمد واحد من الزمان قريب ﴿ نجب دعوتك ﴾ ، أي : بالتوحيد ونتدارك ما فرّطنا فيه ﴿ ونتبع الرسل ﴾ فيما يدعوننا إليه ، فيقال لهم توبيخاً : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم ﴾ ، أي : حلفتم ﴿ من قبل ﴾ في الدنيا ﴿ ما لكم ﴾ وأكد النفي بقوله : ﴿ من زوال ﴾ ، أي : ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال في آية أخرى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ (النمل ، )

وكانوا يقولون : لا زوال لنا من هذه الحياة إلى حياة أخرى ، ومن هذه الدار إلى دار المجازاة ، لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت ، أو عن شباب إلى هرم ، أو عن غنى إلى فقر ، ثم إنه تعالى زادهم توبيخاً آخر بقوله تعالى:

﴿ وسكنتم ﴾ في الدنيا ﴿ في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾ بالكفر من الأمم السابقة ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ ، أي : وظهر لكم بما تشاهدون في منازلهم من آثار ما نزل بهم ، وما تواتر عندكم من أخبارهم ﴿ وضربنا ﴾ ، أي : وبينا ﴿ لكم الأمثال ﴾ في القرآن أنّ عاقبتهم عادت إلى الوبال والخزي والنكال ، مما يعلم به أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل ، وذلك في كتاب الله تعالى كثير . ولما ذكر تعالى صفة عقابهم أتبعه بذكر كيفية مكرهم بقوله تعالى :

(290/421)

---

﴿ وقد مكروا مكرهم ﴾ ، أي : الشديد العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم ، واختلف في عود الضمير في مكروا على وجوه : الأوّل : أن يعود إلى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ؛ لأنّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور . والثاني : إلى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى : ﴿ وأنذر ﴾ ، أي : يا محمد الناس وقد مكر قومك مكرهم ، وذلك المكر هو الذي ذكر الله تعالى في قوله : ﴿ إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ (الأنفال ، )

. ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ ، أي : ومكتوب عند الله فعلهم ، فهو مجازيهم عليه بمكر عو

أعظم منه .

وقيل : إنّ مكرهم لا يزيل أمر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال .



---

وقد حكي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قول آخر وهو أنها نزلت في نمروذ الجبار الذي حاج إبراهيم في ربه فقال نمروذ : إن كان ما يقوله إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد إلى السماء ، فأعلم ما فيها ، ثم أمر نمروذ صاحبه فاتخذ لنفسه تابوتاً ، وجعل له باباً من أعلاه وباباً من أسفله ، وربط قوائمه الأربع بأربعة نسور ، وكان قد جوّعها ، ورفع فوق الجوانب الأربع من التابوت عصياً أربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة لحم ، ثم إنه جلس مع صاحبه في ذلك التابوت ، فلما أبصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت في جوّ الهواء ، فطارت يوماً حتى أبعدت في الهواء ، فقال نمروذ لصاحبه : افتح الباب الأسفل ، وانظر إلى الأرض كيف تراها ؟ ففعل فقال : أرى الأرض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال : فطارت النسور ، يوماً آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران ، فقال نمروذ لصاحبه : افتح الباب الأعلى ، ففتح فإذا السماء كهيئتها ، وفتح الباب الأسفل ، فإذا الأرض سوداء مظلمة ، ونودي أيها الطاغي أين تريد ؟ قال عكرمة : كان معه في

التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب ، فرمى بسهم فعاد إليه السهم ملطخاً بالدم بدم

سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء ، وقيل : طائر أصابه السهم فقال : كفيت إله السماء

، فنكس تلك العصيّ التي علق عليها اللحوم ، فتسفلت النسور ، وهبطت إلى الأرض ،

فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور ، ففزعت وظنت أن قد حدث في السماء

حدث وأن القيامة قد قامت ، فكادت تزول عن أماكنها فذلك قوله تعالى : ﴿ وإن كان

مكرهم ﴾ ، أي : من القوة والضخامة ﴿ لتزول منه الجبال ﴾ قال الرازي : ولا حاجة في

تأويل الآية إلى هذا ، فإنه لم يجيء فيه خبر صحيح معتمد انتهى . والمراد بالجبال هنا قيل :

حقيقتها وقيل شرائع الإسلام المشبهة بها في القرار والثبات . وقرأ الكسائيّ بفتح اللام

الأولى ورفع الأخيرة ، والباقون بكسر الأولى وفتح الثانية ، والتقدير على القراءة الأولى :

وإن كان بحيث



---

أنه تزول منه

الجبال ، وقيل : أن نافية واللام لتأكيد النفي .

﴿ فلا تحسبنّ الله ﴾ الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد منه أمّته ﴿ مخلف وعده

رسله ﴾ من النصر وإعلاء الكلمة ، وإظهار الدين كما قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ (غافر ، )

. وقال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي ﴾ (المجادلة ، )

. فإن قيل : هلا قال مخلف رسله وعده ولم قدّم المفعول الثاني على الأوّل ؟

أجيب : بأنه تعالى قدّم ذلك ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يخلف الميعاد ﴾ (آل عمران ، )

ثم قال : رسله ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحداً ، وليس من شأنه إخلاف المواعيد ، فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته ؟ ﴿ إنّ الله ﴾ ، أي : ذو الجلال والإكرام ﴿ عزيز ﴾ ، أي : غالب يقدر ولا يقدر عليه ﴿ ذو انتقام ﴾ ، أي : ممن عصاه

وقوله تعالى:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ارْضُ غَيْرَ ارْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى اصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَاذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ اله وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْبَابِ ﴾

بدل من يوم يأتيهم ، أو ظرف للانتقام ، والمعنى : يوم تبدل هذه الأرض التي تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة ، وقوله تعالى : ﴿ والسموات ﴾ عطف على الأرض وتقديره

والسموات غير السموات ، والتبديل التغيير ، وقد يكون في الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير ، ومنه ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ (النساء ، )

﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ (سبأ ، )

. وفي الأوصاف كقولك : بدلت الحلقة خاتماً ، إذا أذبتها وسويتها خاتماً فنقلتها من شكل إلى شكل آخر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ (الفرقان ، )

(293/421)

---

والآية محتملة لكل واحد من هذين المفهومين ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هي تلك الأرض ، وإنما تغير أوصافها ، وأنشد :

*وما الناس بالناس الذين عهدتهم ** ولا الدار بالدار التي كنت تعلم*

فتتبدّل أوصافها فتسير عن الأرض جبالها ، وتفجر بحارها ، وتستوي فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، وتبدل السماء بانتثار كواكبها ، وكسوف شمسها ، وخسوف قمرها ، وانشقاقها وكونها أبواباً ، ويدلّ لذلك قوله صلى الله عليه وسلم "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقاء ليس فيها علم لأحد" أخرجاه في الصحيحين ، العفراء بالعين المهملة ، وهي البيضاء إلى حمرة ، ولهذا شبهها بقرصة النقاء ، وهو الجير الأبيض الجيد

الفائق المائل إلى الحمرة. كأن النار ميلت بياض وجهه إلى الحمرة، وقوله: ليس فيها علم لأحد يعني: ليس فيها علامة لأحد لتبديل هيئتها وصفتها وزوال جبالها وجميع بنائها، فلا يبقى فيها أثر يستدل به. وعن ابن مسعود أنه قال: تبدل الأرض بأرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم، ولم تعمل عليها خطيئة. وقال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: الأرض من فضة والسماء من ذهب. وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه. وعن الضحاك أيضاً: من فضة كالصحائف. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فأين يكون الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ فقال: "على الصراط". أخرجه مسلم. وروى ثوبان أنّ حبراً من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض؟ قال: "هم في الظلمة دون الجسر". قال الرازي: واعلم أنه لا يبعد أن يقال: المراد من تبديل الأرض والسموات هو أنه تعالى يجعل الأرض جهنم والسموات الجنة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كلا إنّ كتاب الأبرار لفي عليين﴾ (المصطففين، )

. وقوله تعالى : ﴿ كلا إنّ كتاب الفجار لفي سجين ﴾ (المصطففين ، )

. ﴿ وبرزوا ﴾ ، أي : خرجوا من قبورهم ﴿ لله ﴾ ، أي : لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب ﴿ الواحد ﴾ ، أي : الذي لا شريك له ﴿ القهار ﴾ ، أي : الذي لا يدافعه شيء عن مراده كما قال تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ (غافر ، )

. ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهاراً بين عجزهم وذلتهم بقوله تعالى:

﴿ وترى ﴾ يا محمد ، أي : تبصر ﴿ المجرمين ﴾ ، أي : الكافرين ﴿ يومئذٍ ﴾ ، أي : يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى من صفات عجزهم وذلتهم أموراً : الصفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ مقرّنين ﴾ ، أي : مشدودين ﴿ في الأصفاد ﴾ جمع صفد وهو القيد . قال الكلبي : كل كافر مع شيطان في غل . وقال عطاء : وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ (التكوير ، ) ، أي : قرنت فتقرن نفوس المؤمنين الحور العين ، ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين ، وقيل : هو قرن بعض ، الكفار ببعض فتضم تلك النفوس الشقية والأرواح الكدرة الظلمانية بعضها إلى بعض لكونها متشاكلة متجانسة ، وتنادى ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى . وقال ابن زيد : قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ سرابيلهم ﴾ ، أي : قمصهم جمع سربال وهو القميص ﴿ من قطران ﴾ وهو شيء يتحالب من شجر يسمى الأبهل ، فيطبخ وتطلى به الإبل الجربى ، فيحرق الجرب بحرارته وحدته ، وقد تصل حرارته إلى داخل الجوف ، ومن شأنه أنه

يتسارع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون منتن الريح ، فتطلى به جلود أهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالسرابيل ، فيحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب : لذع القطران ، وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح ، وأيضاً التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين .

الصفة الثالثة قوله تعالى : ﴿ وتغشى ﴾ ، أي : تعلو ﴿ وجوههم النار ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب ﴾ (الزمر ، )

(295/421)

---

. وقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ (القمر ، )

. ولما كان موضع العلم والجهل هو القلب ، وموضع الكفر والوهم هو الرأس ، وأثر هذه الأحوال يظهر في الوجه فلهذا خص الله تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيها فقال في القلب : ﴿ نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾ (الهمزة : ، )

. وقال في الوجه : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ (إبراهيم ، )

. وقوله تعالى:

﴿ ليجزي الله ﴾ متعلق ببرزوا ﴿ كل نفس ما كسبت ﴾ ، أي : من خير أو شرّ وهذا

أولى من قول الواحدي: المراد منه أنفس الكفار؛ لأنّ ما سبق ذكره لا يليق أن يكون جزاء لأهل الإيمان. ولما كان حساب كل نفس جديراً بأن يستعظم قال: ﴿إنّ الله سريع الحساب﴾، أي: لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى، ولا شأن عن شأن قوله تعالى:

﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور، نزل منزلة الحاضر وقيل: إلى السورة ﴿بلاغ﴾، أي: كان غاية الكفاية في الإيصال ﴿للناس﴾ والموعظة لهم، وقوله تعالى: ﴿ولينذروا﴾، أي: وليخوّفوا ﴿به﴾ عطف على محذوف ذلك المحذوف متعلق ببلاغ تقديره، أي: لينصحوا ولينذروا، وقيل: الواو مزيدة، ولينذروا متعلق ببلاغ ﴿وليعلموا﴾، أي: بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى. ﴿أنّما هو﴾، أي: الله ﴿إله واحد﴾ فيستدلوا بذلك على أنّ الله واحد لا شريك له ﴿وليذكر﴾ بإدغام التاء في الأصل في الذال، أي: يتعظّ ﴿أولو الألباب﴾، أي: أصحاب العقول الصافية من الأكدار، والأفهام الصحيحة، فإنه موعظة لمن اتعظ. تنبيه: ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوائد مستفادة من قوله تعالى: ﴿ولينذروا به﴾ وتاليبه والحكمة في إنزال الكتب تكميل الرسل للناس، واستكمالهم القوّة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد، واستصلاح القوّة العملية التي هي التدرع بلباس التقوى، جعلنا الله تعالى من الفائزين بها بمحمد وآله، وفعل ذلك بوالدينا وأحبابنا.

(296/421)

وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد" حديث موضوع. قال العلامة ابن جماعة في "شرح منظومة ابن فرج" التي أولها غرامي صحيح فرع من غرائب الجويني يكفر واضع الحديث، أي: والمشهور عدم تكفيره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿السراج المنير حـ 3 صـ 264. 280﴾

(297/421)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (28) ﴾

يبدأ هذا الشوط الثاني من نهاية الشوط الأول، قائماً عليه، متناسقاً معه، مستمداً منه. لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول صلى الله عليه سلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. . ورسالة موسى عليه السلام – لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور،

ويذكرهم بأيام الله . فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأعلن لهم ما تأذن الله به : لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . . ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين . بدأها ثم توارى عن السياق ؛ وتابعت القصة أدوارها ومشاهدها حتى انتهت بالكافرين إلى ذلك الموقف ، الذي يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة ! حيث لا تنفع العظات !

فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما عرض عليهم ذلك الشريط الطويل أولئك الذين أنعم الله عليهم فيما أنعم برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويدعوهم ليغفر الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ، ويردونها ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بالتعجيب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفراً ، ويقودون قومهم إلى دار البوار ، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار . في قصة الرسل والكفار .

ثم يستطرد إلى بيان نعم الله على البشر في أضخم المشاهد الكونية البارزة . ويقدم نموذجاً لشكر النعمة : إبراهيم الخليل بعد أن يأمر الذين آمنوا بلون من ألوان الشكر هو الصلاة والبر بعباد الله قبل ان يأتي يوم لا تربو فيه الأموال . يوم لا بيع فيه ولا خِلال .

فأما الذين كفروا فليسوا بمتروكين عن غفلة ولا إهمال ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه

الأبصار . . وأما وعد الله لرسله فهو واقع مهما يمكر الذين كفروا وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . .

(298/421)

---

وهكذا يتماسك الشوط الثاني مع الشوط الأول ويتناسق .

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار ؟ ! ﴾

﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ . .

ألم تر إلى هذا الحال العجيب . حال الذين وهبوا نعمة الله ، ممثلة في رسول وفي دعوة إلى الإيمان ، وفي قيادة إلى المغفرة ، وإلى مصير في الجنة . . فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله ﴿ كفراً ﴾ ! أولئك هم السادة القادة من كبراء قومك مثلهم مثل السادة القادة من كل قوم وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم ، وأنزلوهم بها كما شاهدنا منذ قليل في الأقوام من قبل ! وبئس ما أحلوهم من مستقر ، وبئس القرار فيها من قرار !

ألم تر إلى تصرف القوم العجيب ، بعد ما رأوا ما حل بمن قبلهم وقد عرضه القرآن عليهم عرض رؤية في مشاهد تلك القصة التي مضى بها الشوط الأول من السورة .

عرضه كأنه وقع فعلاً . وإنه لواقع . وما يزيد النسق القرآني على أن يعرض ما تقرر وقوعه في صورة الواقع المشهود .

لقد استبدلوا بنعمة الرسول ودعوته كفراً . وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها :

﴿ وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله ﴾ . .

جعلوا لله أقراناً مماثلين يعبدونهم كعبادته ، ويدينون لسلطانهم كما يدينون لسلطانه ، ويعترفون لهم بما هو من خصائص ألوهيته سبحانه !

جعلوا لله هذه الأنداد لِيضِلُّوا الناس عن سبيل الله الواحد الذي لا يتعدد ولا تتفرق به السبل .

(299/421)

---

والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمداً إلى تضليل قومهم عن سبيل الله ، باتخاذ هذه الأنداد من دون الله . فعقيدة التوحيد خطر على سلطان الطواغيت ومصالحهم في كل زمان . لا في زمن الجاهلية الأولى ، ولكن في زمن كل جاهلية ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق ، في أية صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادتهم إلى كبرائهم ، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من

أهواء هؤلاء الكبراء لا من وحي الله . . عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطراً على الكبراء يتقونه بكل وسيلة . ومنها كان اتخاذ الآلهة أنداداً لله في زمن الجاهلية الأولى . .

ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر ، تأمر بما لم يأمر الله به ، وتنهى عما لم ينه عنه الله .

فإذا واضِعوها في مكان الند لله في النفوس المضلة عن سبيل الله ، وفي واقع الحياة !

فيا أيها الرسول ﴿ قل ﴾ للقوم : ﴿ تمتعوا ﴾ . . تمتعوا قليلاً في هذه الحياة إلى الأجل الذي قدره الله . والعاقبة معروفة : ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ . .

ودعهم . وانصرف عنهم إلى ﴿ عبادي الذين آمنوا ﴾ . انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدي فيهم الموعظة . الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الكفر .

انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والطاعة والبر بعباد الله :

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ . .

قل لعبادي الذي آمنوا : يشكروا ربهم بإقامة الصلاة . فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله . وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق سراً وعلانية . سراً حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخراً وتظاهراً ومباهاة . وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة في المجتمع . وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال .

قل لهم : ينفقوا ليربو رصيد هم المدخر من قبل أن يأتي يوم لا تنمو فيه الأموال بتجارة ، ولا تنفع كذلك فيه صداقة ، إنما ينفع المدخر من الأعمال :

﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ .

.

وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر : السماوات والأرض . الشمس والقمر . الليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجري فيه الفلك ، والأنهار تجري بالأرزاق . . هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون : إن الإنسان لظلوم كفار . يبدل نعمة الله كفراً ، ويجعل لله أنداداً ، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان :

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم

الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . . .

إنها حملة . إنها سياط تلذع الوجدان . . حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار . . وسياط ذات إيقاع ، وذات رنين ، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار !

(301/421)

---

إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد . ويحول كل ومضة في صفحة الكون أو في ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء . . وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضاً لآيات الله ، تبدع فيه يد القدرة ، وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر ، وفي كل صورة فيه وظل . . إنه لا يعرض قضية الألوهية والعبودية في جدل ذهني ولا في لاهوت تجريدي ولا في فلسفة "ميتافيزيقية" ذلك العرض الميت الجاف الذي لا يمس القلب البشري ولا يؤثر فيه ولا يوحي إليه . . إنما هو يعرض هذه القضية في مجال المؤثرات والموحيات الواقعية من مشاهد الكون ، ومجالي الخلق ، ولمسات الفطرة ، وبديهيات الإدراك . في جمال وروعة واتساق .

والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيادي الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى الإنسان : خط السماوات والأرض . يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمرات النابته من الأرض بهذا الماء . فخط البحر تجري فيه الفلك والأنهار تجري بالأرزاق . . ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد . خط الشمس والقمر . فخط آخر في لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر : خط الليل والنهار . . ثم الخط الشامل الأخير الذي يلون الصفحة كلها ويظللها :

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

إنه الإعجاز الذي تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل . في مشهد الكون ومعرض الآلاء .

أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السماوات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ، والثمرات تخرج من بينهما . والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة . والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان . والشمس والقمر مسخران دائبان لا يفتران . والليل والنهار يتعاقبان . . أفكل أولئك للإنسان ؟ ثم لا يشكر ولا يذكر ؟

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ !

﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض ﴾ . .

وبعد ذلك يجعلون لله أنداداً ، فكيف يكون الظلم في التقدير ، والظلم في عبادة خلق من خلقه في السماوات أو في الأرض ؟

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ . .

والزرع مورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر . والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التي فطر الله عليها هذا الكون ، ويتبع الناموس الذي يسمح بنزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر ، وموافقة هذا كله للإنسان . وإنبات حبة واحدة يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء . . والناس يسمعون كلمة " الرزق " فلا يتبادر إلى أذهانهم إلا صورة الكسب للمال . ولكن مدلول " الرزق " أوسع من ذلك كثيراً ، وأعمق من ذلك كثيراً . . إن أقل " رزق " يرزقه الكائن الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ؛ ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد . ويكفي ما ذكر في هذه الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله .

﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴾ . .

بما أودع في العناصر من خصائص تُجري الفلك على سطح الماء ؛ وبما اودع في الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء ؛ وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان .

﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ . .

تجري فتجري الحياة ، وتفيض فيفيض الخير ، وتحمل ما تحمل في جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات . . كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان . .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ . .

لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار . . ولكنه ينتفع بآثارهما ، ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها . فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه بل في تركيب خلاياه وتجديدها .



---

﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ . .

سخرهما كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه ، وما يناسب نشاطه وراحته ، ولو كان

نهار دائم او ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان ؛ فضلاً على فساد ما حوله كله ، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه .

وليست هذه سوى الخطوط العريضة في صفحة الآلاء المديدة . ففي كل خط من النقط ما لا يحصى .

ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال المناسب للوحة المعروضة وللجو الشامل :

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ . .

من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع . .

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ . .

فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر ، أو كل البشر . وكلهم محدودون بين حدين من الزمان : بدء ونهاية . وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان . ونعم الله مطلقة فوق كثرتها فلا يحيط بها إدراك إنسان :

وبعد ذلك كله تجعلون لله أنداداً ، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفراً . .

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ! ! !

وحين يستيقظ ضمير الإنسان ، ويتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له ، إما مباشرة ، وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم ؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له برحمة الله ، معين بقدرة الله ، ذلول له بتسخير الله . . حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع

ويتأمل ويتدبر . لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع دائماً إلى ربه المنعم : حين يكون في الشدة ليبدله منها يسراً ، وحين يكون في الرخاء ليحفظ عليه النعماء .

والنموذج الكامل للإنسان الذاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم . الذي يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران او كفران . . ومن ثم يأتي به السياق في مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ، ويتجاوب فيه الدعاء ، في نغمة رخية متموجة ، ذاهبة في السماء .

(304/421)

---

﴿ وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام . ربّ إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه مني ؛ ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ . .

إن السياق يصور إبراهيم عليه السلام إلى جوار بيت الله الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش، فإذا بها تكفر فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة الله! فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون.

ويبدأ إبراهيم دعاءه:

﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾..

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسه، متعلقة بحرصه على نفسه. والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمناً، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم، فكفروا النعمة، وجعلوا لله أنداداً، وصدوا عن سبيل الله. ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن:

﴿ واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام ﴾..

ويبدو في دعوة إبراهيم الثانية تسليم إبراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه في أخص مشاعر قلبه . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه . ثم ليبرز أن هذه نعمة أخرى من نعم الله . وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود ، إلى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الأرباب ، إلى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد . . إنها لنعمة يدعو إبراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .

يدعو إبراهيم دعوته هذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله ؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير :

﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ . .

ثم يتابع الدعاء . . فأما من تبع طريقي فلم يفتتن بها فهو مني ، ينتسب إلي ويلتقي معي في الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة :

﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ . .

وأما من عصاني منهم فأفوض أمره إليك :

﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ . .

وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه

من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ؛ بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقي على الجو ظلال المغفرة والرحمة ؛ وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية ؛ فلا يكشف عنه إبراهيم الرحيم الحليم !

ويمضي إبراهيم في دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادي الجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التي اسكنهم في هذا القفر الجدب ليقوموا بها :

﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ . .

لماذا ؟

﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ . .

فهذا هو الذي من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذي من أجله يحتملون الجدب والحرمان .

﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ . .



---

وفي التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب . إنه تعبير نديّ يندّي الجدب برقة القلوب . .

﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ . .

عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج . . لماذا ؟ أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا . ؟ نعم ! ولكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور :

﴿ لعلهم يشكرون ﴾ .

وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام .

. إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله . ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض . . إنه شكر الله المنعم الوهاب .

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم . . فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهويّ القلوب والثمرات !

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله . . يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء . فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله الذي يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء :

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن : وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ . .

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح

يذكر فيشكر :

﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي لسميع الدعاء ﴾ . .

وهبة الذرية على الكبر أوقع في النفس . فالذرية امتداد . وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع في رحمته :

﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ . .

(307/421)

---

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديماً للشكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه :

﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة . ومن ذريتي . ربنا وتقبل دعاء ﴾ .

وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى في موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم

ينأون عنها ويعرضون، ويكذبون الرسول الذي يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده!

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً، يوم يقوم الحساب، فلا ينفع إنساناً إلا عمله؛ ثم مغفرة الله في تقصيره:

﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ . .

وينتهي المشهد الطويل: مشهد الدعاء الخاشع الضارع. ومشهد تعداد النعم والشكر عليها . . في إيقاع موسيقي متموج رخي . . ينتهي بعد أن يخلع على الموقف كله ظلاً وديعاً لطيفاً، تهفو القلوب معه إلى جوار الله، وتذكر القلوب فيه نعم الله. ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء نموذجاً للعبد الصالح الذاكر الشاكر، كما ينبغي أن يكون عباد الله، الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء . .

ولا يفوتنا أن نلمح تكرار إبراهيم عليه السلام في كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة: ﴿ ربنا ﴾ أو ﴿ ربِّ ﴾ .

فإن لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى . . إنه لا يذكر الله سبحانه بصفة الألوهية ، إنما يذكره بصفة الربوبية . فالألوهية قلما كانت موضع جدال في معظم الجاهليات – وبخاصة في الجاهلية العربية – إنما الذي كان دائماً موضع جدل هو قضية الربوبية . قضية الدينونة في واقع الحياة الأرضية . وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان . والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك في عالم الواقع . . فإما أن يدين الناس لله فيكون ربهم وإما أن يدينوا لغير الله فيكون غيره ربهم . . وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة .

والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء !

ثم يكمل السياق الشوط مع ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ . . وهم ما يزالون بعد في ظلمهم لم يأخذهم العذاب . والذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : ﴿ تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ . . وأن ينصرف إلى عباد الله المؤمنين يأمرهم بالصلاة والإنفاق سراً وعلانية ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ . .

يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله ؛ ومتى يلقون مصيرهم المحتوم ؛ وذلك في مشاهد متعاقبة من مشاهد القيامة ، تزلزل الأقدام والقلوب :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء ﴾ . .

(309/421)

---

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون . ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا . فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخير ، التي لا إمهال بعدها . ولا فكاك منها . أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول . . مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء ، ولا يلتفتون إلى شيء . رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ، فهي هواء خواء . .

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه . حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب . الذي يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلاً آخذاً بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق

الرعيب :

﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء ﴾ .

.

فالسرعة المهرولة المدفوعة ، في الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة ، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي ومن كل إدراك . . كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار . .

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك . . وهنا يرسم مشهداً آخر لليوم الرعيب المنظور :

﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ ! وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ؟ ﴾ . .

أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفاً ، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء ، يقولون :

﴿ ربنا ﴾ . .

الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أنداداً !

﴿ أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ . .

وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب . كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون . وكأننا في الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها . فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة :

﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ ! ﴾ . .

فكيف ترون الآن ؟ ! زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟ ! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلاً بارزاً للظالمين ومصيرهم المحتوم :

﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ . .

فكان عجيباً أن تروا مساكن الظالمين أمامكم ، خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك :

﴿ ما لكم من زوال ﴾ !

وعند هذا التبكيت ينتهي المشهد ، وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين . فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم . وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ؛ ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها ، والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصور مصائرهم للناظرين . ثم يؤخذون إخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلوا منهم الديار بعد حين !

ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك ، إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين ، وتدبيرهم الشر في كل نواحي الحياة . فيلقي في الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير :

﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ . .



---

إن الله محيط بهم وبمكرهم ، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ، أثقل شيء وأصلب شيء ، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال .

فإن مكرهم هذا ليس مجهولاً وليس خافياً وليس بعيداً عن متناول القدرة . بل إنه لحاضر ﴿ عند الله ﴾ يفعل به كيفما يشاء .

﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ . .

فما لهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر :

﴿ إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ . .

لا يدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكر ينجو . . وكلمة الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر ، فالظالم الماكر يستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم ، تحقيقاً لعدل الله في الجزاء .

وسيكون ذلك لا محالة :

﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ . .

ولا ندري نحن كيف يتم هذا ، ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات ، ولا مكانها ؛ ولكن النص يلقي ظلال القدرة التي تبدل الأرض وتبدل السماوات ؛ في مقابل المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير .

وفجأة نرى ذلك قد تحقق :

﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ . .

وأحسوا أنهم مكشوفون لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم . إنما هم في العراء أمام الواحد القهار . . ولفظة ﴿ القهار ﴾ هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجبابرة . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت :

﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد سرابيلهم من قَطران وتَغشى وجوههم النار ﴾ . .

(312/421)

---

فمشهد المجرمين : اثنين اثنين مقرونين في الوثاق ، يمرون صفاً وراء صف . . مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار . ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهي في ذات الوقت قذرة سوداء . . ﴿ من قطران ﴾ . . ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار !

﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ . .

فهو مشهد العذاب المذل المتلظي المشتعل جزاء المكر والاستكبار . .

﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب ﴾ . .

ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل . إن الله سريع الحساب . فالسرعة في الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذي كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ، ويعوق انتصار أحد عليهم . فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ذلاً وألماً وسرعة حساب !

وفي النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن في إعلان عام جهير الصوت ، عالي الصدى ، لتبليغ البشرية كلها في كل مكان :

﴿ هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار ، هي أن يعلم الناس ﴿ أنما هو إله واحد ﴾ .

. فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة .

(313/421)

---

وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم ، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم . . المقصود هو الدينونة لله وحده ، ما دام أنه لا إله غيره . فالإله هو الذي يستحق أن يكون رباً أي حاكماً وسيداً ومتصرفاً ومشرعاً وموجهاً وقيام الحياة البشرية على هذه

القاعدة يجعلها تختلف اختلافاً جوهرياً عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد وهو اختلاف يتناول الاعتقاد والتصور ، ويتناول الشعائر والمناسك ؛ كما يتناول الأخلاق والسلوك ، والقيم والموازين ؛ وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء .

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل ؛ وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر . وحدود العقيدة أبعد كثيراً من مجرد الاعتقاد الساكن . . إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة . . وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة . كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة . فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم ؛ كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء . .

ونحن لا ندرك مرامي هذا القرآن قبل أن ندرك حدود العقيدة في هذا الدين ، وقبل أن ندرك مدلولات : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " على هذا المستوى الواسع البعيد الآماد . وقبل أن نفهم مدلول : العبادة لله وحده ؛ ونحدده بأنه الدينونة لله وحده ؛ لا في لحظات الصلاة ، ولكن في كل شأن من شؤون الحياة !

إن عبادة الأصنام التي دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجنبه هو وبنيه إياها ، لا تتمثل فقط

في تلك الصورة الساذجة التي كان يزاولها العرب في جاهليتهم، أو التي كانت تزاولها شتى الوثنيات في صور شتى، مجسمة في أحجار أو أشجار، أو حيوان أو طير، أو نجم أو نار، أو أرواح أو أشباح..

(314/421)

---

إن هذه الصور الساذجة كلها لا تستغرق كل صور الشرك بالله، ولا تستغرق كل صور العبادة للاصنام من دون الله. والوقوف بمدلول الشرك عند هذه الصور الساذجة يمنعنا من رؤية صور الشرك الأخرى التي لا نهاية لها؛ ويمنعنا من الرؤية الصحيحة لحقيقة ما يعتور البشرية من صور الشرك والجاهلية الجديدة!

ولا بد من التعمق في إدراك طبيعة الشرك وعلاقة الأصنام بها؛ كما أنه لا بد من التعمق في معنى الأصنام، وتمثل صورها المتجددة مع الجاهليات المستحدثة!

إن الشرك بالله المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده.

ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته، بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله، حتى تتحقق صورة الشرك وحقيقته.. وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور

الدينونة الكثيرة . . والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته . . إن العبد الذي يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ؛ ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر . بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله . ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات ، من صنع غير الله . ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والتقاليد والعادات والأزياء مخالفة لشرع الله وأمره إن هذا العبد يزاول الشرك في أخص حقيقته ؛ ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أخص حقيقتها . . وهذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في ترخص وتميع ، وهم لا يحسبونه الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان !



---

والأصنام . . ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصور الأولية الساذجة . . فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، يتخفى وراءها لتعبيد الناس باسمها ، وضمان دينونتهم له من خلالها . .

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر . . إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم يقوم من ورائها ؛ يتمتم حولها بالتعاويذ والرقى . . ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق لتعبيد الجماهير وتذليلها !

فإذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان ، ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازين والتصرفات والأعمال . . فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها !

إذا رفعت " القومية " شعاراً ، أو رفع " الوطن " شعاراً ، أو رفع " الشعب " شعاراً ، أو رفعت " الطبقة " شعاراً . . . ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله ؛ وعلى التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نحيت شريعة الله وقوانينه وتوجيهاته وتعاليمه ، ونفذت إرادة تلك الشعارات أو بالتعبير الصحيح الدقيق : إرادة الطواغيت الواقفة وراء هذه الشعارات كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون الله . . فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة ؛ ولقد يكون الصنم مذهباً أو شعاراً !

إن الإسلام لم يجئ لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ! ولم تبذل فيه تلك الجهود الموصولة ، من موكب الرسل الموصول ؛ ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك

العذابات والآلام، لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب!

إنما جاء الإسلام ليقيم مفرق الطريق بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن؛ وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة.

(316/421)

---

. ولا بد من تتبع الهيئات والصور في كل وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة، وتقرير ما إذا كانت توحيداً أم شركاً؟ دينونة لله وحده أم دينونة لشتى الطواغيت والأرباب والأصنام!

والذين يظنون أنفسهم في "دين الله" لأنهم يقولون بأفواههم "نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله"، ويدينون لله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث.. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن الضيق لغير الله؛ ويخضعون لشرائع لم يأذن بها الله وكثرتها مما يخالف مخالفة صريحة شريعة الله ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم أرادوا أم لم يريدوا ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة. فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام، نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام..

الذين يظنون أنفسهم " مسلمين " وفي " دين الله " وهذا حالهم . . عليهم أن يستفيقوا لما هم فيه من الشرك العظيم ! ! !

إن دين الله ليس بهذا الهزال الذي يتصوره من يزعمون أنفسهم " مسلمين " في مشارق الأرض ومغاربها ! إن دين الله منهج شامل لجزيئات الحياة اليومية وتفصيلاتها . والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزيئات الحياة اليومية وتفصيلاتها فضلاً على أصولها وكلياتها هي دين الله ، وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .

وإن الشرك بالله لا يتمثل فحسب في الاعتقاد بألوهية غيره معه ؛ ولكنه يتمثل ابتداء في تحكيم أرباب غيره معه . .

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب ؛ بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات !

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع والامتثال ؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله . وإن كان لغير الله معه أو من دونه فهم في دين الطواغيت والأصنام . . والعياذ بالله . . . !

﴿ هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به . وليعلموا أنما هو إله واحد ، وَلِيَذَّكَّرَ أولوا الألباب ﴾ . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال جـ 4 صـ 2116.2104 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ الروح ﴿ رب اجعل ﴾ بلد القلب ﴿ آمناً ﴾ من وسوسة الشيطان وهواجس النفس وآفات الهوى ﴿ واجنبني وبني ﴾ هم الفؤاد والسر والخفى ﴿ أن نعبد الأصنام ﴾ وهو كل ما سوى الله. فصنم النفس الدنيا ، وصنم القلب العقبى ، وصنم الروح الدرجات العلى ، وصنم السر العرفان والقربات ، وصنم الخفى الركون إلى المكاشفات والمشاهدات وأنواع الكرامات ﴿ ومن عصاني فإنك غفور ﴾ فيه نكتتان : إحداهما لم يقل " ومن عصاك " إشارة إلى أن عصيان الله لا يستحق المغفرة والرحمة ، والثانية لم يقل " فأنا أغفره وأرحم عليه " لأن عالم الطبيعة البشرية يقتضي المكافأة وإنما المغفرة والرحمة من شأن الغني المطلق ﴿ أسكنت من ذريتي ﴾ هم صفات الروح والعقل والسر والخفى ﴿ بواد غير ذي زرع ﴾ وهو وادي النفس ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ على ما سواك وهو كعبة القلب حرام أن يكون بيتاً لغير الله " لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن " .

وفيه أنه توسل في أجابة الدعاء بمحمد صلى الله عليه وسلم وكأنه قال : إن ضيعت هاجر وإسماعيل فقد ضيعت محمداً . وفي قوله : ﴿ ليقيموا الصلاة ﴾ إشارة إلى أنه لولا تعلق الروح بالجسد وحلوله بأرض القالب لم يمكن استكمال الروح بالأعمال البدنية ، وأنه لولا غرض هذا الاستكمال لم يحصل ذلك التعلق ﴿ فاجعل أفئدة ﴾ الفات الناسوتية ﴿ تهوي ﴾ إلى الصفات الروحانية ﴿ وارزقهم من ﴾ ثمرات الصفات اللاهوتية ﴿ لعلهم يشكرون ﴾ هذه النعمة الجسيمة التي ليس ينالها الملائكة المقربون ، وفي هذا سر عظيم لا يمكن إنشاؤه ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي ﴾ من حقائق الدعاء ﴿ وما نعلن ﴾ من ظاهر القصة ﴿ وما يخفى على الله من شيء ﴾ في أرض المعاملات الصورية ولا في سماء القلوب من الغيوب ﴿ على الكبر ﴾ أي بعد تعلق الروح بالقالب ﴿ إسماعيل ﴾ السر ﴿ وإسحق ﴾ الخفي ﴿ مقيم الصلاة ﴾ دائم العروج فإن الصلاة معراج المؤمن ﴿ ربنا اغفر لي ﴾ استرني وامنحني بصفة معرفتك ﴿ ولوالدي ﴾ من الآباء العلوية والأمهات السفلية لئلا يحجبوني عن رؤيتك يوم يقوم حسابك بكمالية كل نفس ونقصانها لأكون في حساب الكاملين لا في حساب الناقصين . ﴿ ولا تحسبن ﴾ أي لم يكن ﴿ الله غافلاً ﴾ في الأزل بل الكل بقضائه وقدره ﴿ وإنما يؤخرهم ﴾ ليبلغوا إلى ما قدر لهم من الأعمال فإنها مودعة في الأعمار ، وبذلك يصل كل من أهل السعادة والشقاوة إلى منازلهم ﴿ ما

لكم من زوال ﴾ فيه من إبطال مذهب التناسخية . زعموا أن نفوسهم لا تزال تتعلق بالأبدان ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا ﴾ تعلقتم بأبدان مثل أبدانهم منهمكين في ظلمات الأخلاق الذميمة ﴿ وعند الله ﴾ مقدار ﴿ مكرهم وإن كان مكرهم ﴾ بحيث يؤثر في إزالة الجبال عن أماكنها ولكنه لا تحرك شعرة إلا بإذن الله بقضائه ﴿ يوم تبدل ﴾ أرض البشرية بأرض القلوب فتضمحل ظلماتها بأنوار القلوب ، وتبدل سموات الأسرار بسموات الأرواح فإن شموس الأرواح إذا تجلت لكواكب الأسرار

(319/421)

---

انمحت أنوار كواكبها بسطوة أشعة شموسها ، بل تبدل أرض الوجود المجازي عن إشراق تجلي أنوار هويته بحقائق أنوار الوجود الحقيقي كما قال : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ [ الزمر : 69 ] وحينئذ ﴿ برزوا لله الواحد القهار ﴾ فإن شموس الأرواح تصير مقهورة في تجلي نور الألوهية . ﴿ وترى المجرمين ﴾ يوم التجلي ﴿ مقرنين ﴾ في قيود الصفات الذميمة لا يستطيعون البروز لله . ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ المعاصي وظلمات النفوس فهم محجوبون بهما عن الله ﴿ وتغشى وجوههم ﴾ نار الحسرة والقطيعة ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ الذين نسوا عالم الوحدة ﴿ وليذروا به ﴾ قبل المفارقة فإن الانتباه بالموت

لا ينفع ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ فيعبدوه ولا يتخذوا إلهاً غيره من الدنيا والهوى والشيطان ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ علام الشهود فيخرجوا من قشر الوجود ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 205 . 206 ﴾

(320/421)

---

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبّ اجعل هذا البلد امِنًا ﴾

قال ابن عطاء : أراد عليه السلام أن يجعل سبحانه قلبه آمناً من الفراق والحجاب ، وقيل : اجعل بلد قلبي ذا أمن بك عنك ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] من المغويات الدنية والمشتهيات الحسية .

وقال جعفر رضي الله تعالى عنه : أراد عليه السلام لا تردني إلى مشاهدة الخلة ولا ترد أولادي إلى مشاهدة النبوة ، وعنه أنه قال : أصنام الخلة خطرات الغفلة ولحظات المحبة ، وفي رواية أخرى أنه عليه السلام كان آمناً من عبادة الأصنام في كبره وقد كسرها في صغره لكنه علم أن هوى كل إنسان ضمنه فاستعاذ من ذلك .

وقال الجنيد قدس سره : أي امنعني وبنى أن نرى لأنفسنا وسيلة إليك غير الافتقار ، وقيل

: كل ما وقف العارف عليه غير الحق سبحانه فهو صنمه ، وجاء النفس هو الصنم الأكبر

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ نَعْبُدَ الاصنام رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى ﴾ في طريق المجاهدة والخلة ببذل الروح بين يديك ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّى ﴾ طينته من طينتي وقلبه من قلبي وروحه من روحي وسره من سري ومشربه في الخلة من مشربي ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ وفعل ما يقتضي الحجاب عنك ﴿ فإنك غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ إبراهيم : 36 ]

فلا أدعو عليه وأفوض أمره إليك .

قيل : إن هذا منه عليه السلام دعاء للعاصي بستر ظلمته بنوره تعالى ورحمته جل شأنه إياه بإفاضة الكمال عليه بعد المغفرة .

ومن كلام نبينا صلى الله عليه وسلم : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون "

*(321/421)*

---

وفي أسرار التأويل أنه عليه السلام أشار بقوله : ﴿ وَمَنْ عَصَانِى ﴾ إلى مقام الجمع ولذا لم يقل : "ومن عصاك" ويجوز أن يقال : إنما أضاف عصيانهم إلى نفسه لأن عصيان الخلق للخالق غير ممكن ، وما من دابة الأوربي آخذ بناصيتها فهم في كل أحوالهم مجيبون لداعي ألسنة مشيئته سبحانه وإرادته القديمة ، وسئل عبد العزيز المكي لم لم يقل الخليل ومن

عصاك ؟ فقال لأنه عظم ربه عز وجل وأجله من أن يثبت أن أحداً يجترىء على معصيته سبحانه وكذا أجله سبحانه من أن يبلغ أحد مبلغ ما يليق بشأنه عز شأنه من طاعته حيث قال ﴿ فمن تبعني ﴾ ﴿ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ قيل : إن من عادة الله تعالى أن يبتلى خليله بالعظائم لينزعه عن نفسه وعن جميع الخليقة لئلا يبقى بينه وبينه حجاب من الحدثان ، فلذا أمر جل شأنه هذا الخليل أن يسكن من ذريته في وادي الحرم بلا ماء ولا زاد لينقطع إليه ولا يعتمد إلا عليه عز وجل ، وناداه باسم الرب طمعا في تربية عياله وأهله بألطافه وايوائهم إلى جوار كرامته ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ التي يصل العبد بها إليك ويكون مرآة تجليك ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ تميل بوصف الإرادة والمحبة ليسلكوهم إليك ويدلوهم عليك ، قال ابن عطاء من انقطاع عن الخلق بالكلية صرف الله تعالى إليه وجوه الخلق وجعل مودته في صدورهم ومحبته في قلوبهم ، وذلك من دعاء الخليل عليه السلام لم قطع أهله عن الخلق والأسباب قال : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ قيل : أي ثمرات طاعتك وهي المقامات الرفيعة والدرجات الشريفة .

وقال الواسطي : ثمرات القلوب وهو أنواع الحكمة ورئيس الحكمة رؤية المنة والعجز عن الشكر على النعمة وهو الشكر الحقيقي ولذلك قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] أي يعلمون أنه لا يتهيأ لأحد أن يقوم بشكرك وثمرة الحكمة تزيل الأمراض عن القلوب كما أن ثمرة الاشجار تزيل أمراض النفوس .

وقيل : أي أرزقهم الأولاد الأنبياء والصلحاء ، وفيه إشارة إلى دعوته بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم المعنى له بقوله : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً ﴾ [ البقرة : 129 ] وأي الثمرات أشهى من أصفى الأصفياء وأتقى الأتقياء وأفضل أهل الأرض والسماء وحبيب ذي العظمة والكبرياء فهو عليه الصلاة والسلام ثمرة الشجرة الإبراهيمية وزهرة رياض الدعوة الخليلية بل هو صلى الله عليه وسلم ثمرة شجرة الوجود .

ونور حديقة الكرم واجلود .

ونور حدقة كل موجود صلى الله عليه وسلم عليه إلى اليوم المشهود ﴿ ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ قال الخواص : ما نخفي من حبك وما نعلن من شكرك .

وقال ابن عطاء : ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الآداب ، وقيل : ما نخفي من التضرع في عبوديتك وما نعلن من ظاهر طاعتك في شريعتك ، وأيضاً ما نخفى من أسرار معرفتك وما نعلن من وظائف عبادتك ، وأيضاً ما نخفى من حقائق الشوق إليك في قلوبنا وما نعلن في غلبة مواجيدنا بإجراء العبرات وتصعيد الزفرات :

وارحمتا للعاشقين تكلفوا . . .

ستر المحبة والهوى فضاح

بالسر إن باحوا تباح دمائهم . . .

وكذا دماء البائحين تباح

وإن هموكتموا تحدث عنهم . . .

عند الوشاة المدمع السحاح

وقال السيد على البندنيجي قدس سره :

كتمت هوى حبيه خوف إذاعة . . .

فلله كم صب أضربه الذيع

ولكن بدت آثاره من تأوهى . . .

إذا فاح مسك كيف يخفى له ضوع



---

﴿ وَمَا يخفى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الأرض وَلاَ فِى السماء ﴾ [إبراهيم : 38] فيعلم ما خفى وما علن ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] قيل : الظالم من تجاوز طوره وتبختر على بساط الأنانية زاعماً أنه قد تضلع من ماء زمزم المحبة واستغرق في لجي بحر الفناء ، توعده الله تعالى بتأخير فضيحته إلى يوم تشخص فيه أبصار سكارى المعرفة والتوحيد وهو يوم الكشف الأكبر حين تبدو أنوار سطوات العزة فيستغرقون في عظمته بحيث لا يقدرون على الالتفات إلى غيره فهناك يتبين الصادق من الكاذب :

إذا اشتبكت دموع في خدود . . .

تبين من بكى ممن تباكى

وقوله سبحانه : ﴿ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ [ إبراهيم : 43 ] شرح لأحوال أصحاب الأبصار الشاخصة وهم سكارى المبحة على الحقيقة ، قال ابن عطاء في : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ هذه صفة قلوب أهل الحق متعلقة بالله تعالى لا تقر إلا معه سبحانه ولا تسكن إلا إليه وليس فيها محل لغيره ﴿ وَأَنذِرِ الناس يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب فَيَقُولُ الذين ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ طلبوا تدارك ما فات وذلك بتهذيب الباطن والظاهر والانتظام في سلوك الصادقين وهيهات ثم هيهات ، ثم أجيبوا بما يقصم الظهر ويفصم عرى الصبر وهو قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ ﴾ [ إبراهيم : 44 ] الآية ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض

والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [ إبراهيم : 48 ] وذلك عند انكشاف أنوار حقيقة الوجود فيظهر هلاك كل شيء إلا وجهه .

(324/421)

---

وقيل : الإشارة في الآية إلى تبدل أرض قلوب العارفين من صفات البشرية إلى الصفات الروحانية المقدسة بنور شهود جمال الحق وتبدل سموات الأرواح من عجز صفات الحدوث وضعفها عن أنوار العظمة بإفاضة الصفات الحقة ، وقيل : تبدل أرض الطبيعة بأرض النفس عند الوصول إلى مقام القلب ، وسماء القلب بسماء السر ، وكذا تبدل أرض النفس بارض القلب ، وسماء السر بسماء الروح ، وكذا كل مقام يعبره السالك يتبدل ما فوقه وما تحته كتبدل سماء التوكل في توحيد الأفعال بسماء الرضا في توحيد الصفات ، ثم سماء الرضا بسماء التوحيد عند كشف الذات

﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد ﴾ [ إبراهيم : 49 ] بسلاسل السهوات ﴿ سَرَابِيلُهُم مّن قَطِرَانٍ ﴾ وهو قطران أعمالهم النتنة ﴿ وتغشى ﴾ تستر ﴿ وُجُوهَهُمْ النار ﴾ [ إبراهيم : 50 ] في جهنم الحرمان وسعير الإذلال والاحتجاب عن رب الارباب .

﴿ هذا بلاغٌ للنَّاسِ ولِيُنذَرُوا بِهِ ولِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إله واحِدٌ ولِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الألباب ﴾ [ إبراهيم : 52 ] وهم علماء الحقيقة وأساطين المعرفة وعشاق الحضرة وأمناء خزائن المملكة ، جعلنا الله تعالى وإياكم ممن ذكر فتذكر وتحقق في مقر التوحيد وتقرر بمنه سبحانه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 13 صـ ﴾

(325/421)

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)

الإعراب :

(الر) حروف مقطّعة لا محلّ لها من الإعراب " 1 " ، (كتاب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا (أنزلناه) فعل ماض مبني على السكون . . و (نا) ضمير في محلّ رفع فاعل ، و (الهاء) ضمير في محلّ نصب مفعول به (إلى) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(أنزلناه) ، (اللام) لام التعليل (تخرج) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الناس) مفعول به منصوب (من الظلمات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تخرج) ، (إلى النور) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تخرج) ، (بإذن) جار ومجرور متعلّق بحال من فاعل تخرج أي ملتبسا بإذن ربّهم (ربّهم) مضاف إليه مجرور . . و (هم) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (إلى صراط) بدل من (إلى

---

(1) انظر الآية الأولى من سورة البقرة.



---

النور) بإعادة الجارّ (العزيز) مضاف إليه مجرور (الحميد) بدل من العزيز مجرور - أو نعت له - جملة: "(هذا) كتاب . . . "لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: "أنزلناه . . . "في محلّ رفع نعت لكتاب.

وجملة: "تخرج . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

والمصدر المؤوّل (أن تخرج . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أنزلناه) .

البلاغة

1 - الاستعارة: في قوله تعالى لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ.



---

وفي الكلام ثلاث استعارات. إحداهما في الإذن، والأخيرات في (الظلمات) و (النور).

ويجوز أن تكون كلها استعارة مركبة تمثيلية بتصوير الهدى بالنور والضلال بالظلمة، وقوله " بإذن ربهم " أي بتيسيره وتوفيقه تعالى، وهو مستعار من الإذن الذي يوجب تسهيل الحجاب.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 2 إلى 3]

اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3)

الإعراب:

(الله) لفظ الجلالة بدل من الحميد - أو من العزيز - " 1 "،

---

(1) في الآية السابقة (1) .. ويجوز أن يكون عطف بيان ..

(الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (اللام) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (ما في الأرض) مثل ما في السموات ومعطوف عليه (الواو) عاطفة ويل مبتدأ مرفوع " 1 " ، (للكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ ويل (من عذاب) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (ويل) " 2 " ، (شديد) نعت لعذاب مجرور .

جملة : " له ما في السموات . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الذي .

وجملة : " ويل للكافرين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (هذا) كتاب في الآية السابقة .

(الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 3 " ، (يستحبّون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . و (الواو) فاعل (الحياة) مفعول به منصوب (الدّنيا) نعت للحياة منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (على الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يستحبّون) بتضمينه معنى يفضّلون (الواو) عاطفة (يصدّون) مثل يستحبّون (عن سبيل)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (يصدّون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يبغونها) مثل يستحبّون و (ها) ضمير في محلّ نصب مفعول به (عوجا) مصدر في موضع الحال أي معوجّة "4" ، (أولئك) اسم إشارة مبنيّ على الكسر في محلّ رفع

---

(1) الذي سوّغ الابتداء بالنكرة كونها دالّة على دعاء .

(2) أو متعلّق بمحذوف تقديره يضجّون أو يولون ، ولا يجوز التعليق بويل لوجود الفاصل وهو الخبر (للكافرين) .

(3) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . أو في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره أذمّ . . أو في محلّ جرّ بدل من الكافرين . هذا وقد ردّ أبو حيّان رأي الزمخشري وأبي البقاء العكبريّ بكونه صفة للكافرين لوجود الفاصل .

(4) أو هو مفعول به لفعل يبغون إذا جعل الضمير الغائب في (يبغونها) منصوبا على نزع الخافض أي يبغون لها عوجا . . وانظر الآية (99) من سورة آل عمران . [ . . . . . ]



---

مبتدأ . . و (الكاف) حرف خطاب (في ضلال) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ أولئك (بعيد) نعت لضلال مجرور مثله .

جملة : " الذين يستحبّون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستحبّون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " يصدّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يبغونها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك في ضلال . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الّذين) .

البلاغة

(330/421)

---

1 - المجاز العقلي : في قوله تعالى فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ وصف الضلال بالبعد هو من الاسناد المجازي ، والبعد في الحقيقة للضالّ ، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق ، فوصف به فعله ، كما تقول جدّ جدّه . وداهية دهياء .

2 - وفي جعل الضلال ظرفا مجاز أيضا ، كأنه قد أحاط بهم وجلبهم بسواده ، فهم منغمسون فيه إلى الأذقان ، يتخبطون في متاهاته ويتعسفون في ظلماته .

الفوائد

- الويل كلمة تفيد التهديد والوعيد ومعناها الهلاك ، ويقال : ويلا لفلان فينصب ، ويقال

أيضا ويل له كما يقال سلام عليه.

[سورة إبراهيم (14) : آية 4]

وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (أرسلنا) مثل أنزلنا " 1 "، (من) حرف جرّ زائد (رسول) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إلّا) أداة حصر (بلسان) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من رسول " 2 "، أي ناطقا أو ملتبسا (قومه) مضاف إليه مجرور.. و (الهاء) ضمير مضاف إليه (اللام) للتعليل (يبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبيّن).

والمصدر المؤوّل (أن يبيّن..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أرسلنا) " 3 ".

(الفاء) استئنافيّة (يضلّ) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مثل يضلّ (الواو) عاطفة (يهدي) مثل يضلّ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل هو (من يشاء) مثل الأولى (الواو) استئنافيّة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (العزيز) خبر مرفوع (الحكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "ما أرسلنا ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يبيّن ... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "يضلّ الله ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يشاء ... "لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول.

وجملة: "يهدي ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة يضلّ.

وجملة: "يشاء (الثانية) ... "لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة: "هو العزيز ... "لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة.

(2) جاز أن يكون صاحب الحال نكرة وهو (رسول) لأن اللفظ يدلّ على عموم.

(3) هذا الفعل مقيّد مفعوله بكون لسانه من لسان قومه.

(331/421)

---

البلاغة

- المجاز: في قوله تعالى: إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ أي متكلما بلغة من أرسل إليهم من الأمم، والعلاقة السببية، لأن اللسان آلة النطق.

الفوائد

- يشترط في تعدّد الخبر أن يكون لكل من الخبرين أو الثلاثة معنى مستقلّ كما في هذه الآية

وإذا كان الخبران يشكلان صفة واحدة فلا يكون من تعدد الخبر، فإذا قلنا: "الرمّان حلو

حامض" فليس هذا من تعدد الخبر، لأن الرمان في هذه الحالة "يكون مزّا" أي "لفّانا".

فتبصّر قبل أن تحكم.

[سورة إبراهيم (14): آية 5]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) مثل أنزلنا "1"، (موسى) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (بآياتنا) جارّ ومجرور حال من موسى.. و(نا) ضمير مضاف إليه (أن) تفسيريّة "2"، (أخرج) فعل أمر، والفاعل أنت (قومك) مفعول به منصوب.. و(الكاف) مضاف إليه (من الظلمات إلى النور) جارّ ومجرور مكرّر متعلّقان بـ (أخرج)، (الواو) عاطفة (ذكّرهم) مثل أخرج..

و(هم) ضمير مفعول به (بأيّام) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ذكّر)، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف

إليه مجرور (إنّ) حرف توكيد ونصب (في) حرف جرّ (ذلك)

---

(1) في الآية (1) من هذه السورة.

(2) أو حرف مصدريّ، والمصدر المؤوّل مجرور بباء مقدّرة للتعدية.

(332/421)

---

اسم إشارة مبنيّ في محل جرّ متعلّق بخبر مقدّم.. و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (اللام) للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لآيات، (صبّار) مضاف إليه مجرور (شكور) نعت لصبّار مجرور.

جملة: "أرسلنا... " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر.

وجملة: "أخرج... " لا محلّ لها تفسيريّة " 1 ".

وجملة: "ذكّرهم... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخرج.

وجملة: "إنّ في ذلك لآيات... " لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(صبّار)، من صيغ المبالغة على وزن فعّال بفتح الفاء والعين المشدّدة، من فعل صبر الثلاثيّ.

(شكور) ، من صيغ المبالغة على وزن فعول بفتح الفاء من فعل شكر الثلاثيّ .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 6 إلى 8]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)

" 2 "

---

(1) أو هي صلة الموصول الحرفي (ان)

(2) وانظر الاية (49) من سورة البقرة فهي نظير الاية أعلاه



---

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، (قال) فعل ماض (موسى) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (لقومه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال) . .

و(الهاء) ضمير مفعول به (اذكروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

و(الواو) فاعل (نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعمة " 2 " ، (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (نعمة) " 3 " ، (أنجاكم) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف . . و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (من آل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنجى) ، (فرعون) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (يسومونكم) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل ، و (كم) مثل الأخير (سوء) مفعول به ثان منصوب (العذاب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (يذبّحون) مثل يسومون (أبناءكم) مفعول به منصوب . . و (كم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يستحيون نساءكم) مثل يذبّحون أبناءكم (الواو) عاطفة (في) حرف جرّ (ذلكم) مثل ذلك " 4 " - إعرابا وتعليقا - (بلاء) مبتدأ مؤخّر مرفوع (من ربّكم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لبلاء . . و (كم) ضمير مضاف إليه (عظيم) نعت ثان لبلاء مرفوع.

---

(1) أبو حيّان يرفض إخراج (إذ) عن الظرفيّة المحضة ، ويعلّق الظرف بمحذوف يقتضيه سياق الكلام .

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من نعمة .

(3) أو في محلّ نصب بدل اشتمال من نعمة.

(4) في الآية السابقة (5) .

(334/421)

---

جملة: " (اذكر) إذ قال موسى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " قال موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " اذكروا . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أنجاكم . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة: " يسومونكم . . . " في محلّ نصب حال من (آل فرعون) ، أو من ضمير الخطاب في (أنجاكم) .

وجملة: " يذبّحون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يسومونكم.

وجملة: " يستحيون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يسومونكم.

وجملة: " في ذلك بلاء . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

(الواو) عاطفة (إذ تأذّن) مثل إذ أنجى ومعطوف عليه " 1 " ، (ربّكم) فاعل مرفوع، و (كم) مضاف إليه (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (شكرتم) فعل ماض مبنيّ

على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و (تم) ضمير فاعل (اللام) لام القسم (أزيدنّكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و (النون) نون التوكيد ، و (كم) ضمير مفعول به والفاعل أنا (الواو) عاطفة (لئن كفرتم) مثل لئن شكرتم (إنّ) حرف توكيد ونصب (عذابي) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و (الياء) ضمير مضاف إليه (اللام) للتوكيد - لام القسم أو المزحلقة - (شديد) خبر إنّ مرفوع .

---

(1) فهو من كلام موسى عليه السلام ، ومن حيث المعنى مفعول اذكروا .



---

وجملة : " تأذّن ربّكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إن شكرتم . . . " في محلّ نصب مقول القول لفعل محذوف تقديره يقول " 1 " .

وجملة : " أزيدنّكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : "كفرتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة شكرتم .

وجملة : " إنّ عذابي لشديد . . . " لا محلّ لها جواب القسم الثاني . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

(الواو) عاطفة (قال موسى) مثل الأولى (إن) حرف شرط جازم (تكفروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون و (الواو) فاعل (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد لفاعل تكفروا (الواو) عاطفة (من) اسم موصول معطوف على الواو في (تكفروا) في محلّ رفع (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة من (جميعا) حال منصوبة من الموصول من (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ اللّه لغنيّ) مثل إنّ عذابي لشديد (حميد) خبر ثان مرفوع.

وجملة: "قال موسى ... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قال موسى الأولى.

وجملة: "تكفروا ... " في محلّ نصب مقول القول.. وجواب الشرط محذوف تقديره فقد آذيتم أنفسكم.. أو فإنّما ضرر كفركم لاحق بكم.

وجملة: "إنّ اللّه لغنيّ ... " لا محلّ لها تعليل للجواب المحذوف.

---

(1) وإذا أجرى (تأذن) مجرى قال كانت الجملة تفسيريّة.



---

الفوائد

- ولادة موسى:

حفظ لنا التاريخ أن كاهنا من كهنة فرعون تقدم إليه بأنه سيولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكه على يده، فثارت ثائرته وسدر في بهتانه، وأمعن في غيّه، فأمر بأن يذبح أبناؤهم، وتستحيي نساؤهم. ولكن قدرة الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبير ظالم، فقدّر في أزله أن يخرج من أوساط هؤلاء المستضعفين من يتزلزل على يديه ملك الجبابرة، ويقضى بواسطته على أعظم الفراعنة.

[سورة إبراهيم (14) : آية 9]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9)

الإعراب:



(الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم (يأتكم) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة.. و (كم) ضمير مفعول به (نبأ) فاعل مرفوع (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (من قبلكم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول.. و (كم)

مضاف إليه (قوم) بدل من الموصول مجرور (نوح) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة في المواضع الآتية (عاد، ثمود، الذين) أسماء معطوفة على قوم بحروف العطف " 1 "، (من بعدهم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة الموصول.. و (هم) مضاف إليه (لا) نافية (يعلمهم) مضارع مرفوع.. و (هم) ضمير مفعول به (إلّا) أداة حصر (اللّه)

(1) يجوز إعراب (الذّين) الأخير مبتدأ خبره جملة: لا يعلمهم إلّا اللّه، والجملة الاسميّة معطوفة على الاستئنافيّة. [.....]

*(338/421)*

---

لفظ الجلالة فاعل مرفوع (جاءت) فعل ماض، و (التاء) للتأنيث و (هم) ضمير مفعول به (رسلهم) فاعل مرفوع، و (هم) مضاف إليه (بالبيّنات) جارّ ومجرور متعلّق بحال من رسلهم (الفاء) عاطفة (ردّوا) فعل ماض وفاعله (أيديهم) مفعول به منصوب و (هم) مضاف إليه (في أفواههم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ردّوا) بتضمينه معنى وضعوا و (هم) مثل الأخير (الواو) عاطفة (قالوا) مثل ردّوا (إنّا) حرف مشبّه بالفعل.. و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (كفرنا) فعل ماض وفاعله (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (كفرنا)، (أرسلتم) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون.. و

(تم) ضمير نائب الفاعل (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفعل أرسلتم

(إنّا) مثل الأول (اللام) المزحلقة (في شكّ) جار ومجرور متعلّق بخبر إنّ (ممّا) مثل بما متعلّق

بشكّ " 1 " ، (إليه) مثل به متعلّق بـ (تدعوننا) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت

النون . . و (الواو) فاعل ، و (نا) ضمير مفعول به (مريب) نعت لشكّ مجرور مثله .

جملة : " لم يأتكم نبأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمهم إلّا الله . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " جاءتهم رسلهم . . . " لا محلّ لها تفسير للنبأ " 3 " .

وجملة : " ردّوا أيديهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاءتهم رسلهم .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ردّوا . . .

وجملة : " إنّا كفرنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو بمحذوف نعت لشك .

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير المستكن في الصلة التي تعلّق بها من بعدهم .

(3) أو استئنافيّة .

وجملة : " كفرنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أرسلتم به . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة : " إنّا لفي شك . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " تدعوننا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

البلاغة

- الكناية : في قوله تعالى فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ المراد أنهم عضوا أيديهم غيظا من شدة نفرتهم من رؤية الرسل وسماع كلامهم ، واليد والفم على حقيقتهما ، والرد كناية عن العض . والكلام يحتمل أن يكون حقيقة ، ويحتمل أن يكون استعارة تمثيلية ، بأن يراد برد أيدي القوم إلى أفواه الرسل عليهم السلام عدم قبول كلامهم واستماعه مشبها بوضع اليد على فم المتكلم لإسكاته .

الفوائد

- فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ :

اختلف المفسرون في تحقيق معنى هذه الجملة على وجوه . قال أبو عبيدة العرب تقول للرجل إذا أضرب عن الجواب وسكت : قد ردّ يده في فيه كناية عن الغيظ والضجر فهو ضرب من المثل أي لم يؤمنوا ولم يستجيبوا لدعوته .

[سورة إبراهيم (14) : آية 10]

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10)

الإعراب:

(قالت) فعل ماض، و (التاء) للتأنيث (رسلهم) فاعل مرفوع.. و (هم) مضاف إليه

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (في الله) جارّ ومجرور خبر مقدّم (شكّ) مبتدأ مؤخّر مرفوع

(فاطر) نعت للفظ الجلالة - أو بدل مجرور (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بالواو مجرور (يدعوكم) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو، و (كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (اللام) للتعليل (يغفر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والفاعل هو (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يغفر)، (من ذنوبكم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت للمفعول المحذوف "1"، و (كم) مضاف إليه.

والمصدر المؤوّل (أن يغفر..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يدعوكم).

(الواو) عاطفة (يؤخّركم) مثل يغفر ومعطوف عليه ، و (كم) ضمير مفعول به (إلى أجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤخّر) (مسمّى) نعت لأجل مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (قالوا) فعل ماض وفاعله (إن) حرف نفي (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إلّا) حرف للحصر (بشر) خبر مرفوع (مثلنا) نعت لبشر مرفوع ، و (نا) مضاف إليه (تريدون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل (أن) حرف مصدريّ (تصدّونا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون ، و (الواو) فاعل و (نا) ضمير مفعول به (عن) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تصدّونا) ، (كان) فعل ماض ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (يعبد) مثل يدعو (آباؤنا) فاعل مرفوع ، و (نا) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ائتوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الواو) فاعل (بسلطان) جارّ

---

(1) و (من) تبعيضيّة أي يغفر لكم شيئا من ذنوبكم أو متعلّق بالفعل بتضمينه معنى يخلّص .

ومجرور متعلّق بـ (ائتوا) ، (مبين) نعت لسلطان مجرور مثله .

والمصدر المؤوّل (أن تصدّونا . .) في محلّ نصب مفعول به عامله تريدون .

جملة : " قالت رسلهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أفي اللّه شكّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يدعوكم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يؤخّركم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يغفر .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إن أنتم إلّا بشر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تريدون . . . " في محلّ رفع نعت ثان لبشر " 1 " .

وجملة : " تصدّونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : "كان يعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يعبد آباؤنا . . . " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " ائتوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم رسلا فأتوا بسلطان .

[سورة إبراهيم (14) : آية 11]

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11)

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(343/421)

---

الإعراب :

(قالت . . رسلهم) مرّ إعرابها " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (قالت) ، (إن نحن إلّا بشر مثلكم) كمثل إن أنتم إلّا بشر مثلنا " 2 " ، (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف استدراك ونصب - ناسخ - (اللّه) لفظ الجلالة اسم لكنّ منصوب (يمنّ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (على) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (يمنّ) ، (يشاء) مثل يمنّ (من عباده) جارّ ومجرور متعلّق بحال من مفعول يشاء المقدّر أي يشاء تكليفه بالرسالة كائنا من عباده ، و (الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) نافية (كان) ماض ناقص (اللام) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (أن) حرف مصدريّ (نأتيكم) مضارع منصوب ، و (كم) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن (بسلطان) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل نأتيكم (إلّا) للحصر (بإذن) جارّ

ومجرور حال من الفاعل " 3 " (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن نأتيكم . . ) في محلّ رفع اسم كان .

(الواو) عاطفة (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوكّل) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (يتوكّل) مضارع مجزوم ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (المؤمنون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قالت . . رسلهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن نحن إلّا بشر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لكنّ اللّه يمنّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) في الآية (10) السابقة .

(2) في الآية (10) السابقة .

(3) يجوز أن يكون (بإذن اللّه) خبرا لكان ، و (لنا) متعلّق بحال من إذن اللّه .



---

وجملة : " يمنّ . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: " ما كان . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة: " نأتيكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: " يتوكّل المؤمنون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن عزم المؤمنون على أمر فليتوكّلوا على اللّه . . وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب معطوفة على مقول القول.

[سورة إبراهيم (14) : آية 12]

وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (لنا) مثل السابق " 1 " ، متعلّق بخبر ما (ألّا نتوكّل) مثل أن نأتيكم " 2 " ، و (لا) حرف نفي (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نتوكّل) ، (الواو) واو الحال (قد) حرفت تحقيق (هدانا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف . . و (نا) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (سبلنا) مفعول به ثان منصوب . . و (نا) مضاف إليه.

والمصدر المؤوّل (ألّا نتوكّل . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره في . . والجارّ متعلّق بمحذوف حال ، والتقدير: ما لنا ساعين في ترك التوكّل . .

أو أيّ عذر لنا ممعنين في ترك التوكّل .

---

(1) في الآية السابقة (11) .

(2) في الآية السابقة (11) .

(345/421)

---

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نصبرنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . و (النون) نون التوكيد ، والفاعل نحن (على) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (آذيتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير فاعل و (الواو) زائدة حركة إشباع الميم و (نا) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (على اللّه . . . المتوكّلون) مرّ إعراب نظيرها " 2 " .

جملة : " ما لنا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " نتوكّل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " قد هدانا . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " نصبرنّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " آذيتمونا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: "يتوكّل المتوكّلون . . . "جواب شرط مقدّر.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 13 إلى 17]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (17)

---

(1) أو موصول في محلّ جرّ، والجملة صلة، والعائد محذوف أي آذيتمونا به.

(2) في الآية السابقة (11).

(346/421)

---

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قال) فعل ماض (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض وفاعله (لرسلهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال)، و (هم) ضمير مضاف إليه (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نخرجنّ) مثل نصبرنّ " 1 "، و (كم) ضمير مفعول به (من

أرضنا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نخرجنّ) ، و (نا) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (لتعودنّ) لام القسم ومضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتوالي الأمثال ، و (الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، و (النون) للتوكيد (في ملّتنا) مثل من أرضنا متعلّق بـ (تعودنّ) ، (الفاء) عاطفة (أوحى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوحى) ، (ربّهم) فاعل مرفوع ، و (هم) مضاف إليه (لنهلكنّ) مثل لنخرجنّ (الظّالمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : "قال الّذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : "نخرجنّكم . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّر مقول القول في محلّ نصب .

وجملة : "تعودنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : "أوحى . . ربّهم" لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : "نهلكنّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّرة وجوابها تفسير للإيحاء .

(الواو) عاطفة (لنسكننّكم) مثل لنخرجنّكم (الأرض) مفعول به منصوب (من بعدهم)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (نسكن) و (هم) ضمير مضاف

(1) في الآية السابقة (12) .

(347/421)

---

إليه (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ، والإشارة إلى النصر وإيراث الأرض . . و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (اللام) حرف جرّ (من) موصول في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ (خاف) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (مقامي) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (خاف وعيد) مثل خاف مقامي . . وحذف ضمير المتكلّم تخفيفا لمناسبة الفاصلة.

وجملة: "نسكننّكم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر، وجملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة القسم المقدّرة السابقة.

وجملة: "ذلك لمن خاف . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "خاف . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "خاف (الثانية) . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثانية.

(الواو) عاطفة (استفتحوا) فعل ماض وفاعله، والضمير يعود على الأنبياء (الواو) عاطفة (خاب) فعل ماض (كلّ) فاعل مرفوع (جبّار) مضاف إليه مجرور (عنيد) نعت لجبّار مجرور.

وجملة: " استفتحوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوحى.

وجملة: " خاب كلّ جبّار . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي فنصروا وخاب كلّ جبّار . . .

(من ورائه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم . . و (الهاء) مضاف إليه (جهنّم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (يسقى) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الجبّار (من ماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يسقى)، (صديد) بدل من ماء مجرور.

وجملة: " من ورائه جهنّم . . . " في محلّ رفع نعت لـ (كلّ جبّار)، أو في محلّ جرّ نعت لجبّار " 1 ".

وجملة: " يسقى . . . " معطوفة على جملة من ورائه جهنّم تأخذ إعرابها.

(يتجرّعه) مضارع مرفوع ، و (الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (لا) نافية (يكاد) مضارع ناقص مرفوع ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (يسيغه) مثل يتجرّعه (الواو) عاطفة (يأتيه) مثل يتجرّعه ، والضمّة مقدّرة (الموت) فاعل مرفوع (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأتيه) ، (مكان) مضاف إليه مجرور (الواو) حاليّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (الباء) ، حرف جرّ زائد (ميّت) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (الواو) عاطفة (من ورائه عذاب) مثل من ورائه جهنّم (غليظ) نعت لعذاب مرفوع مثله .

وجملة : " يتجرّعه . . . " في محلّ جرّ نعت لماء " 2 " .

وجملة : " لا يكاد يسيغه . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يتجرّعه " 3 " .

وجملة : " يسيغه . . . " في محلّ نصب خبر يكاد .

وجملة : " يأتيه الموت . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة لا يكاد . . .

وجملة : " ما هو بميّت . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " من ورائه عذاب . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يأتيه الموت . .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من كلّ جبّار . [ . . . . . ]

(2) أو حال من ضمير (يسقى) . . أو استئنافيّة لا محلّ لها .

(3) ولا سيّما في توجيه الحال ، ويجوز أن تكون حالا من فاعل يتجرّعه أو من مفعوله .

(349/421)

الصرف :

(مقامي) ، اسم مكان من قام الثلاثيّ - وهو عند الفرّاء مصدر ميميّ - وفيه إعلال بالقلب ، قلبت الواو ألفا لسكونها وانفتاح ما قبلها ، وزنه مفعل وأصله مقوم - بسكون القاف وفتح الواو - .

(وعيد ) ، مصدر وعد يعد السماعيّ إذا وعده الشرّ ، وزنه فعيل .

(صديد ) ، اسم لما يسيل من قيح ودم من الجرح أو الدمّل ، وزنه فعيل .

البلاغة

1 - المبالغة : في قوله تعالى وَلا يَكادُ فدخول فعل يكاد للمبالغة ، يعني ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة ، كقوله " لم يكد يراها " أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها .

(350/421)

2 – المجاز : في قوله تعالى وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ أي أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب ، فالكلام على المجاز ، أو بتقدير مضاف .

3 – الكناية : في قوله تعالى عَذابٌ غَلِيظٌ فوصف العذاب بالغلظة ، كناية عن قوته واتصاله ، لأن الغلظة تستوجب القوة وتستدعي أن يكون متصلا تتصل به الأزمنة كلها فلا انفصال بينها .

4 – الغلو : بذكر "كاد" وهذا يطرد في كل كلام تستعمل فيه أداة المقاربة .

5 – التتميم : وهو أنواع ثلاثة : تتميم النقص ، وتتميم الاحتياط ، تتميم المبالغة ، فقد قال يتجرعه ، ولو قال جرعه لما أفاد المعنى الذي أراده ، لأن جرع الماء لا يشير إلى معنى الكراهية ، ولكنه عند ما أتى بالتاء على صيغة التفعل أفهم أنه يتكلف شربه تكلفا ، وأنه يعاني من جراء شربه مالا يأتي الوصف عليه من تقزز وكراهية ، ثم احتاط للأمر لأنه قد يوهم بأنه تكلف شربه ثم هان عليه الأمر بعد ذلك ، فأتى بالكيدودة ، أي أنه تكلف شربه وهو لا يكاد يشربه ، ولو اكتفى بالكيدودة لصلح المعنى دون مبالغة ، ولكن عند ما جاءت يسيغه أفهم أنه لا يسيغه بل

يغص به فيشربه بعد اللتيا والتي ، جرعة غب جرعة ، فيطول عذابه تارة بالحرارة وتارة بالعطش .

الفوائد

- لحرف العطف " أو " عدة معان نوجزها بما يلي :

الشك ، والإبهام ، والإباحة ، والتخيير ، وللجمع بين شيئين مثل الواو ، والإضراب مثل " بل " ، والتقسيم ، وأن تكون بمعنى " إلا " وبمعنى " إلى " وتأتي للتقريب ، والشرطية ، والتبعيض .

وجملتها اثنا عشر معنى تجد شرحها في المطولات ، وكذلك التمثيل عليها . . !

[سورة إبراهيم (14) : آية 18]

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (18)

الإعراب :



---

(مثل) مبتدأ مرفوع (الّذين) موصول مضاف إليه في محلّ جرّ (كفروا) فعل ماض وفاعله (بربّهم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) ، و (هم) مضاف إليه ، وخبر المبتدأ محذوف تقديره : فيما يتلى عليكم ، ومكانه قبل المبتدأ (أعمالهم) مبتدأ مرفوع " 1 " . . . و (هم) مضاف إليه (كرماد) جارّ ومجرور خبر المبتدأ أعمالهم (اشتدّت) فعل ماض . . .

و (التاء) للتأنيث (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اشتدّت) بتضمينه معنى طارت (الريح)

(1) يجوز أن يكون بدلا من المبتدأ (مثل) . . والجارّ (كرماد) خبر المبتدأ .

(352/421)

---

فاعل مرفوع (في يوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اشتدّت) ، عاصف نعت ليوم مجرور (لا) نافية (يقدرون) مضارع مرفوع . . . و (الواو) فاعل (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بحال من شيء (كسبوا) مثل كفروا (على شيء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقدرون) ، (ذلك) اسم إشارة في محلّ رفع مبتدأ . . . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب ، والإشارة إلى التمثيل عن أعمالهم (هو) ضمير فصل (الضلال) خبر المبتدأ ذلك مرفوع (البعيد) نعت للضلال مرفوع .

جملة : " مثل الّذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الوصول (الّذين) .

وجملة : " أعمالهم كرماد . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اشتدّت به الريح . . . " في محلّ جرّ نعت لرماد .

وجملة: "لا يقدرون . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة: "كسبوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: " ذلك . . الضلال . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف:

(رماد) ، اسم جامد وزنه فعال بفتح الفاء .

البلاغة

1 - التشبيه التمثيلي: بقوله مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ .

(353/421)

---

حاصل التمثيل: تشبيه أعمالهم، في حبوطها وذهابها هباء منثورا لابتغائها على غير أساس من معرفته الله تعالى والايمان به وكونها لوجهه، برماد طيرته الريح العاصف وفرقته ، فالمشبه مركب وهم الذين كفروا وأعمالهم، والمشبه به الرماد، ووجه الشبه أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه، كما أن الكفر يحبط الأعمال .

2 - المجاز العقلي: في اسناد العصف لليوم في قوله تعالى " في يوم عاصف " العصف اشتداد الريح، وصف به زمان هبوبها على الاسناد المجازي، كنهاره صائم وليله قائم

للمبالغة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 19 إلى 20]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم (تر) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة، والفاعل أنت (أنّ) حرف توكيد ونصب (الله) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (خلق) فعل ماض، والفاعل هو (السّموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الأرض) معطوف على السموات بالواو منصوب (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل خلق أو مفعوله (إن) حرف شرط جازم (يشأ) مضارع مجزوم فعل الشرط (يذهبكم) مضارع مجزوم جواب الشرط... و(كم) ضمير مفعول به، والفاعل للفعلين ضمير تقديره هو (يأت) مضارع مجزوم معطوف على الفعل يذهبكم، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة، والفاعل هو (بخلق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأت)، (جديد) نعت لخلق مجرور.

جملة: "لم تر..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "خلق..." في محلّ رفع خبر أنّ.

والمصدر المؤوّل (أنّ الله خلق...) في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي تر وجملة: "يشأ

. . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يذهبكم . . . "لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

(354/421)

---

وجملة: "يأت . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يذهبكم .

(الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع اسم ما

. . . و (اللام) للبعد و (الكاف) للخطاب (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بعزيز (الباء)

حرف جرّ زائد (عزيز) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما .

وجملة: " ما ذلك . . بعزيز "لا محلّ لها معطوفة على جملة إن يشأ . . .

الفوائد

- وما ذلك على الله بعزيز:

الباء حرف جرّ زائد وقد سبقت بنفي .

وسبق وتحدثنا عن أنواع الباء ومنها الزائدة وتفيد التوكيد ، ومحلّ (عزيز) من الإعراب

يختلف باختلاف اعتبارنا لـ" ما " فإن كانت حجازية فـ" عزيز " في محل نصب خبر " ما "

وإن كانت تميميّة فهي في محلّ رفع خبر و " ما " مهملة لا عمل لها . وقوله " من محيص " على

شاكلة " بعزيز " .

[سورة إبراهيم (14) : آية 21]

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (برزوا) فعل ماض وفاعله (للّه) جار ومجرور متعلّق بـ (برزوا) وهو على حذف مضاف أي جزاء اللّه - أو حساب اللّه -

(355/421)

---

(جميعا) حال منصوبة فاعل برزوا (الفاء) عاطفة (قال) فعل ماض (الضعفاء) فاعل مرفوع (اللام) حرف جرّ (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (قال) ، (استكبروا) مثل برزوا (إنّا) حرف توكيد ونصب . . . و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (كنّا) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون . . و (نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (اللام) حرف جرّ وك (م) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (تبعا) - نعت تقدّم على المنعوت -

(تبعا) خبر كنّا منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (هل) حرف استفهام للتوبيخ (أنتم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (مغنون) خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة الرفع الواو (عن) حرف جرّ و (نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (مغنون)، (من عذاب) جارّ ومجرور متعلّق بحال من شيء (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ زائد "1"، (شيء) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به عامله مغنون (قالوا) مثل برزوا (لو) حرف شرط غير جازم (هدانا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف، و (نا) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (اللام) واقعة في جواب لو (هديناكم) فعل ماض مبنيّ على السكون... و (نا) ضمير فاعل، و (كم) ضمير مفعول به (سواء) خبر مقدّم مرفوع (علينا) مثل عنّا متعلّق بسواء (الهمزة) حرف مصدري للتسوية (جزعنا) مثل هدينا (أم) حرف عطف (صبرنا) مثل هدينا (ما) نافية مهملة (لنا) مثل لكم متعلّق بخبر مقدم (من محيص) مثل من شيء، والاسم مرفوع محلّا مبتدأ.

جملة: "برزوا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قال الضعفاء..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

---

(1) أو هو حرف جرّ أصلي للتبعيض، فيتعلّق مع مجروره بـ (مغنون).

وجملة: "استكبروا ... "لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين).

وجملة: "إنّا كنّا ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "كنّا .. تبعا ... "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "هل أنتم مغنون ... "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن جاءنا العذاب، فهل أنتم ...

وجملة: "قالوا ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "لو هدانا الله ... "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "هديناكم ... "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو).

وجملة: "سواء علينا أجزعنا ... "لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

والمصدر المؤوّل (أجزعنا ...) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر.

وجملة: "جزعنا ... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (الهمزة).

وجملة: "صبرنا ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة جزعنا.

وجملة: "ما لنا من محيص ... "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

الصرف:

(تبعا)، إمّا أن يكون جمعا لتابع مثل خدم وخادم .. فهو اسم فاعل من تبع الثلاثيّ وزنه

فاعل . . وإما أن يكون مصدرا سماعيّا لفعل تبع استعمل استعمال اسم الفاعل ، ووزن تبع فعل بفتحتين .

(مغنون) ، جمع المغني ، اسم فاعل من (أغنى) الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفي (مغنون) إعلال بالحذف ، حذفت الياء بعد تسكينها ونقل حركتها إلى النون بسبب التقاء الساكنين ووزن مغنون مفعون - بضمّ الميم والعين - .

[سورة إبراهيم (14) : آية 22]

وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22)

الإعراب :



---

(الواو) استئنافيّة (قال الشيطان) مثل قال الضعفاء " 1 " ، (لمّا) ظرف متضمّن معنى الشرط بمعنى حين مبني في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (قضي) فعل ماض مبنيّ

للمجهول (الأمر) نائب الفاعل (إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (وعدكم) فعل ماض، و (كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (وعد) مفعول به ثان منصوب (الحقّ) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (وعدتكم) فعل، وفاعل، ومفعول به (الفاء) عاطفة (أخلفتكم) مثل وعدتكم والمفعول الثاني محذوف أي أخلفتكم الوعد (الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (كان) فعل ماض ناقص (اللام) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر كان (على) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلق بحال من سلطان (من) حرف جرّ زائد (سلطان) مجرور لفظا مرفوع محلّا اسم كان (إلّا) أداة استثناء (أن) حرف مصدريّ (دعوتكم) مثل وعدتكم (الفاء) عاطفة (استجبتم) فعل ماض وفاعله (لي) مثل الأول متعلّق بـ (استجبتم).

(1) في الآية السابقة (21).

(358/421)

---

والمصدر المؤوّل (أن دعوتكم..) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع.

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تلوموني) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون... و (الواو) فاعل و (النون) للوقاية، و (الياء) ضمير مفعول به

(الواو) عاطفة (لوموا) فعل أمر مبنيّ على حذف (النون) . . و (الواو) فاعل (أنفسكم) مفعول به منصوب . . و (كم) مضاف إليه (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (الباء) حرف جرّ زائد (مصرخكم) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما . .

(359/421)

---

و (كم) مثل الأخير (الواو) عاطفة (ما أنتم بمصرخيّ) مثل ما أنا بصرخكم، وعلامة الجرّ الياء لأنّه جمع مذكّر سالم، وحذفت النون للإضافة و (الياء) الثانية مضاف إليه (إنّ) مثل الأول و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (كفرت) مثل استجبتم (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (أشركتم) مثل استجبتم، و (الواو) زائدة إشباع حركة الميم و (النون) للوقاية، و (الياء) المحذوفة للتخفيف ضمير مفعول به (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أشركتم) " 1 "، (إنّ الظالمين) مثل إنّ الله، وعلامة النصب الياء (لهم) مثل لي متعلّق بخبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع.

جملة: " قال الشيطان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " قضي الأمر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبل أي : قال الشيطان . . والشرط فعله وجوابه لا محلّ لها اعتراضيّة .

---

(1) أو متعلّق بـ (كفرت) .



---

وجملة : " إنّ اللّه وعدكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " وعدكم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " وعدتكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّ اللّه .

وجملة : " أخلفتكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة وعدكم .

وجملة : " ما كان لي . . سلطان " في محلّ نصب معطوفة على جملة قول القول .

وجملة : " دعوتكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " استجبتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دعوتكم .

وجملة : " لا تلوموني . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردتم الحقّ فلا تلوموني . . .

وجملة : " لوموا . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تلوموني . .

وجملة: " ما أنا بمصرخكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " ما أنتم بمصرخيّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف.

(361/421)

---

وجملة: " إنّي كفرت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

وجملة: " كفرت . . . " في محلّ خبر إنّ.

وجملة: " أشركتموني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ.

والمصدر المؤوّل (ما أشركتموني . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (كفرت).

وجملة: " إنّ الظّالمين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 ".

وجملة: " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

الصرف:

(مصرخ)، اسم فاعل من الرباعيّ أصرخ بمعنى أغاث، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين.

---

(1) هذه الجملة قد تكون من كلام اللّه تعالى - وهو الظاهر - أو من تمام قول الشيطان المتقدّم.

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ فالاشراك استعارة بتشبيه الطاعة به ، وتنزيلها منزلته أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنهم أشركوه ، والكفر مجاز عن التبري وكما في قوله تعالى وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ والمراد : إن كان إشراككم لي بالله تعالى هو الذي أطمعكم في نصرتي لكم ، وخيل إليكم أن لكم حقا علي ، فإني تبرأت من ذلك ولم أحمده ، فلم يبق بيني وبينكم علاقة ، وقد حذف المشبه وأبقى المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

الفوائد

1 - الحوار ، هو أحد الأساليب القرآنية المعتمدة ، ورغم أن الحوار عنصر من عناصر القصة ، إلّا انه في كثير من مواطن القرآن الكريم يرد لتقرير حقيقة أو عرض صورة ، فهو والمثل صنوان ، فنحن نرى في هذه الآيات صورة شاخصة تمثل المستضعفين ، والمستكبرين وثالثهم الشيطان ، وقد قاموا يتحاورون بين يدي الله ، وكل يلقي اللوم على

الآخر ولكن ذلك لم يغن عنهم أمام الله شيئا . . !

[سورة إبراهيم (14) : آية 23]

(363/421)

---

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (23)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أدخل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (الّذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نائب الفاعل (آمنوا) فعل ماض وفاعله (عملوا) مثل آمنوا (الصّالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (جنّات) مفعول به عامله أدخل منصوب وعلامة النصب الكسرة

(تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحتها) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 1 " ، وهو على حذف مضاف أي تحت أشجارها أو بيوتها ، و (ها) ضمير مضاف إليه (الأنهار) فاعل مرفوع (خالدين) حال من الموصول (في) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخالدين (بإذن) جارّ ومجرور حال ثانية من الموصول " 2 " ،

(ربّهم) مضاف إليه مجرور . . و (هم) ضمير مضاف إليه (تحيّتهم) ، مبتدأ مرفوع . . و (هم) مثل الأخير (فيها) مثل الأول متعلّق بـ (تحيتهم) ، (سلام) مبتدأ ثان مرفوع وخبره محذوف تقديره عليكم . .

والجملة الاسميّة خبر التحيّة.

جملة : " أدخل الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمنوا .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " تحيّتهم . . . سلام " في محلّ نصب حال من الموصول .

وجملة : " سلام (عليكم) . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ تحيّتهم .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 24 إلى 25]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)

---

(1) أو بمحذوف حال من الأنهار .

(2) أو حال من الضمير المستكنّ في خالدين .

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم (تر) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال (ضرب) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (مثلا) مفعول به منصوب (كلمة) بدل من المفعول منصوب " 1 " ، (طيّبة) نعت لكلمة منصوبة (كشجرة) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لكلمة " 2 " ، (أصلها) مبتدأ مرفوع . . و (ها) مضاف إليه (ثابت) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (فرعها في السماء) مثل أصلها ثابت ، والخبر جاء شبه جملة - جار ومجرور - .

جملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ضرب اللّه . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل الرؤية المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " أصلها ثابت . . . " في محلّ جرّ نعت لشجرة " 3 " .

وجملة : " فرعها في السماء . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة أصلها ثابت .

(تؤتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل هي أي الشجرة (أكلها) مفعول به منصوب . . و (ها) مضاف إليه (كلّ) اسم نائب عن الظرف منصوب

متعلّق بـ (تؤتي) ، (حين) مضاف إليه مجرور (بإذن ربّها) مثل بإذن ربّهم " 4 " ، والجار والمجرور حال من فاعل تؤتي (الواو) استئنافيّة (يضرب) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الأمثال) مفعول به منصوب (للناس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يضرب) بتضمينه معنى يبيّن (لعلّهم)

---

(1) وبعضهم - كالزمخشريّ - يعدّي (ضرب) إلى مفعولين . . (كلمة) المفعول الأول و (مثلا) المفعول الثاني .

(2) يجوز أن يكون الجارّ متعلّقا بمحذوف خبر لمبتدأ مقدّر أي هي كشجرة .

(3) أو في محلّ نصب حال من شجرة لأنها وصفت .

(4) في الآية (23) من هذه السورة .



---

حرف ترجّ ونصب . . و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يتذكّرون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل .

جملة : " تؤتي . . . " في محلّ نصب حال من شجرة " 1 " .

وجملة : " يضرب اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: "لعلّهم يتذكّرون . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يتذكّرون . . . "في محلّ رفع خبر لعلّ.

الصرف:

(ثابت)، اسم فاعل من الثلاثي ثبت، وزنه فاعل.

(فرعها) اسم هو مصدر في الأصل وزنه فعل بفتح فسكون ثم انتقل إلى معنى اسم الفاعل بمعنى المتفرع من الأصل.

البلاغة

- التشبيه التمثيلي: في قوله تعالى ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ فقد ذكر تعالى في هذا التشبيه شجرة موصوفة بأربع صفات، ثم شبه الكلمة الطيبة بها، الصفة الأولى كونها (طيبة) والثانية كون (أصلها ثابت) والثالثة كون (فرعها في السماء) والرابعة كونها (دائمة الثمر). ووجه الشبه في تمثيل الإيمان بالشجرة أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال، كذلك الإيمان، لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان، فوجود الصفات الثلاث في جانب المشبه به حسية بينما هي في جانب المشبه معنوية.

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت لشجرة. [. . . . .]

[سورة إبراهيم (14) : آية 26]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (مثل) مبتدأ مرفوع (كلمة) مضاف إليه مجرور (خبيثة) نعت لكلمة مجرور (كشجرة) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ ، على حذف مضاف أي كمثل شجرة (خبيثة) نعت لشجرة مجرور (اجتثّت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) للتأنيث ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هي (من فوق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اجتثّت) (الأرض) مضاف إليه مجرور (ما لها من قرار) مثل ما لها من محيص " 1 " .

جملة : " مثل كلمة . . . كشجرة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اجتثّت . . . " في محلّ جرّ نعت لشجرة .

وجملة : " ما لها من قرار " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

الصرف :

(قرار) ، مصدر سماعيّ لفعل قرّ الثلاثيّ ، وزنه فعال بفتح الفاء . وثمّة مصادر أخرى للفعل

هي : قرور بضمّ القاف ، وقرّ بفتح القاف ، وتقرار ، وتقرة بفتح التاء وكسر القاف .

البلاغة

1 - التشبيه التمثيلي : أيضا في تشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة غير الثابتة كأنها اجتثت أو كأنها ملقاة على وجه الأرض ، فلا تغوص إلى الأرض بل عروقها في وجه الأرض ، ولا غصون لها تمتد صعدا إلى السماء . وهذا معنى قوله ما لَها مِنْ قَرارٍ .

---

(1) في الآية (21) من هذه السورة.

(2) أو في محلّ جرّ نعت ثان لشجرة . . أو في محلّ نصب حال من الضمير في (اجتثّت) .



---

البلاغة 2 - المجاز العقلي في قوله تُؤْتِي أُكُلَها . ففعل الإيتاء مسند إلى غير فاعله الحقيقي ، لأن النخلة لا تؤتي أكلها .

الفوائد

- تقريظ الكلمة :

مهما عظّم أولو الفكر من مقام الكلمة وطلبوا لها من الحرية والتقديس لم يبلغوا في تقييمها ما أراد لها اللّه من التقدير والتقديس ، وبيان عظيم خطرها في المجتمعات .

فالكلمة الطيبة مثلها مثل الشجرة الطيبة، جذورها ضاربة في الأرض، وفروعها سابحة في السماء. أما الكلمة الخبيثة، فشأنها شأن الشجرة الخبيثة التي استؤصلت عن سطح الأرض ليس لها قرار أو استقرار.

[سورة إبراهيم (14) : آية 27]

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27)

الإعراب:

(يثّبت) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آمنوا) فعل ماض وفاعله (بالقول) جارّ ومجرور ومتعلّق بـ (يثّبت)، (الثابت) نعت للقول مجرور (في الحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يثّبت)، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به المجرور الأول فهو معطوف عليه (الواو) عاطفة (يضلّ اللّه الظالمين) مثل يثّبت اللّه الذين.. وعلامة نصب المفعول الياء (الواو) عاطفة (يفعل اللّه ما يشاء) مثل يثّبت اللّه الذين آمنوا، وفاعل يشاء ضمير مستتر تقديره هو.

جملة: "يثّبت اللّه..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمنوا..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذّين).

وجملة: "يضلّ اللّه... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يفعل اللّه... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "يشاء... " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 28 إلى 30]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30)

الإعراب:



---

(لم تر) مرّ إعرابها " 1 "، (إلى) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تر) بتضمينه معنى تنظر (بدّلوا) فعل ماض وفاعله (نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (كفرا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (أحلّوا قومهم دار) مثل بدّلوا نعمة اللّه كفرا... و (هم) ضمير مضاف إليه (البوار) مضاف إليه مجرور.

جملة: "لم تر... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "بدّلوا... " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين).

وجملة: "أحلّوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

(جهنّم) بدل من (دار البوار) "2"، منصوب (يصلونها) مضارع مرفوع . .

---

(1) في الآية (24) من هذه السورة.

(2) أو عطف بيان . . . أو مفعول به لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده والجملة بعده تفسيريّة.



---

و(الواو) فاعل، و(ها) ضمير مفعول به (الواو) واو الحال (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (القرار) فاعل مرفوع، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي.

وجملة: "يصلونها . . . "في محلّ نصب حال من جهنّم.

وجملة: "بئس القرار . . . "في محلّ نصب حال من ضمير الغائب "1".

(الواو) عاطفة (جعلوا) مثل بدّلوا (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمفعول ثان (أندادا) مفعول به منصوب (اللام) لام العاقبة (يضلّوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، وعلامة النصب حذف النون . . و(الواو) فاعل (عن سبيله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يضلّوا) بتضمينه معنى يبعدوا، و(الهاء) مضاف إليه (قل) فعل أمر، والفاعل أنت (تمتّعوا) فعل

أمر مبني على حذف النون . .

و(الواو) فاعل (الفاء ) تعليليّة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (مصيركم) اسم إنّ منصوب ، و (كم) ضمير مضاف إليه (إلى النار) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ .

والمصدر المؤوّل (أن يضلّوا . . ) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلوا) .

وجملة : " جعلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة : بدّلوا . .

وجملة : " يضلّوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تمتّعوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ مصيركم إلى النار . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 2 " .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(2) أو هي تعليل لمقدّر أي : لن يفيدكم التمتّع لأنّ مصيركم إلى النار .



---

الصرف :

(البوار) ، مصدر بار يبور ، وزنه فعال بفتح الفاء ، وثمّة مصدر آخر هو بور بضمّ الباء

بمعنى الهلاك ، والبوار في الأصل الكساد ثمّ أستعير للهلاك لأنه إذا كسد صار غير منتفع به ، فأشبه الهلاك من هذا الوجه .

البلاغة

1 - التعجب الوارد بصيغة الاستفهام : في قوله تعالى أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً تعجيب لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له أدنى إدراك أي ألم تنظر إلى الذين بدلوا نعمة اللّه أي شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه "كفرا " عظيما وغمطا لها .

1 - الاستعارة التصريحية التبعية : في قوله تعالى لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . . لما كان الإضلال أو الضلال نتيجة للجعل المذكور ، شبه بالغرض والعلة الباعثة فاستعمل له حرفة على سبيل الاستعارة التبعية .

[سورة إبراهيم (14) : آية 31]

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (31)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (لعبادي) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قل) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت لعباد (آمنوا) مثل بدّلوا " 2 " . . ومفعول

---

(1 ، 2) في الآية السابقة (30) .

*(372/421)*

---

قلّ محذوف تقديره أقيموا الصلاة (يقيموا) مضارع مجزوم بجواب الطلب للفعل المقدّر أقيموا ، وعلامة الجزم حذف النون و (الواو) فاعل (الصلاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (ينفقوا) مثل يقيموا ومعطوف عليه (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينفقوا) ، والعائد محذوف أي رزقناهم إيّاه (رزقناهم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل ، و (هم) مفعول به (سرّا) مصدر في موضع الحال منصوب " 1 " ، (علانية) معطوف على (سرّا) بالواو منصوب (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقيموا) أو (ينفقوا) ، (أن) حرف مصدريّ (يأتي) مضارع منصوب (يوم) فاعل مرفوع (لا) نافية

(بيع) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بالخبر

(الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (خلال) معطوف على بيع مرفوع مثله .

والمصدر المؤوّل (أن يأتي . . . ) في محلّ جرّ مضاف إليه .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " يقيموا . . . " لا محل لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء ، أي : إن يؤمروا بإقامة الصلاة يقيموها .

وجملة : " ينفقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقيموا .

وجملة : " رزقناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يأتي يوم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " لا بيع فيه . . . " في محلّ رفع نعت ليوم .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه نوعه أي إنفاق السرّ .

(2) أو اسم (لا) العاملة عمل ليس ، وخبر لا هو الجار والمجرور فيه .

الصرف :

(خلال) ، مصدر سماعيّ للرباعي خالّه أي صادقة ، وزنه فعال بكسر الفاء ، وهو مفرد . . أو هو جمع خلة بكسر الخاء بمعنى المصادقة والإخاء .

البلاغة

- حذف المقول :

من قوله تعالى قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا . . إلخ اتفق أكثر المعربين على أن مقول القول محذوف ، يدل عليه جوابه ، أي قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا . وقد رد الحذاق على هذا الإعراب بقوله " وفي هذا الإعراب نظر ، لأن الجواب حينئذ يكون خبرا ، فإنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا ، لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم ، وخبر اللّه يجل عن الخلف . وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الاعراب ، مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي . ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق . ويقوى بوجهين لطيفين : أحدهما أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالايمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر ، كهذه الآية وغيرها ، مثل قوله تعالى قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . والثاني تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد اللّه المشرفون بإضافتهم إلا اسم اللّه تعالى . وقد قالوا : إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين ، وخصوصا إذا انضاف إليه تعالى إضافة

التشريف. والحاصل أن المأمور في هذه الآية من هو بصدد الامتثال وفي حيّز المسارعة للطاعة، فالخبر في امتثالهم حق وصدق، إما على العموم إن أريد، أو على الغالب.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 32 إلى 34]

(374/421)

---

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

الإعراب:

(اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (خلق) فعل ماض، والفاعل هو (السموات) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الكسرة (الأرض) معطوف على السموات بالواو منصوب (الواو) عاطفة (أنزل) مثل خلق (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) " 1 "، (ماء) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أخرج) مثل خلق (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أخرج)، (من الثمرات) جارّ

ومجرور متعلّق بمحذوف حال من (رزقا) - نعت تقدّم على المنعوت، ومن تبعيضيّة - (رزقا) مفعول به منصوب عامله أخرج (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (رزقا) "2"، (الواو) عاطفة (سخّر) مثل خلق (لكم) مثل الأول متعلّق بـ (سخّر)، (الفلك) مفعول به منصوب (اللام) للتعليل (تجري) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام، والفاعل هي (في البحر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري)، (بأمره) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل تجري.. و (الهاء) مضاف إليه. والمصدر المؤوّل (أن تجري) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (سخّر).

(الواو) عاطفة (سخّر لكم الأنهار) مثل سخّر لكم الفلك.

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من ماء.

(2) انظر الآية (22) من سورة البقرة.



---

جملة: "اللّه الذي..." لا محلّ لها من الإعراب استئنافيّة.

وجملة: "خلق..." لا محلّ لها من الإعراب صلة الموصول (الّذين).

وجملة: "أنزل..." لا محلّ لها من الإعراب معطوفة على جملة الصّلة.

وجملة: "أخرج ... "لا محلّ لها من الإعراب معطوفة على جملة أنزل.

وجملة: "سخّر ... "لا محلّ لها من الإعراب معطوفة على جملة الصّلة.

وجملة: "تجري ... "لا محلّ لها من الإعراب صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة: "سخّر ... (الثانية) "لا محلّ لها من الإعراب معطوفة على جملة خلق.

(الواو) عاطفة (سخّر لكم الشّمس) مثل سخّر لكم الفلك (القمر) معطوف على الشمس بالواو ومنصوب (دائبين) حال منصوبة من الشمس والقمر، وعلامة النصب الياء (الواو) عاطفة (سخّر لكم الليل) مثل سخّر لكم الفلك (النهار) معطوف على الليل بالواو منصوب.

وجملة: "سخّر لكم الشّمس ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق، أو سخّر.

وجملة: "سخّر لكم اللّيل ... "لا محلّ لها معطوفة على جملة خلق، أو سخّر.

(الواو) عاطفة (آتاكم) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف، و (كم) ضمير مفعول به، والفاعل هو (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتاكم) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه "1 "، (سألتم) فعل

---

(1) أجاز بعضهم جعله حرفا مصدريّا، فالضمير الغائب يعود على الموصول.

ماض وفاعله و (الواو) زائدة إشباع حركة الميم و (الهاء) ضمير مفعول به ، ويعود على اللّه

(الواو) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (تعدّوا) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون . . و (الواو) فاعل (نعمة) مفعول به منصوب (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (لا) نافية (تحصوها) مضارع مجزوم جواب الشرط ، ومثل تعدّوا . . و (ها) ضمير مفعول به (إنّ) حرف توكيد ونصب (الإنسان) اسم إنّ منصوب (اللام) المزحلقة للتوكيد (ظلوم) خبر إنّ مرفوع (كفّار) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " آتاكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة المتقدّمة " 1 " .

وجملة : " سألتموه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعدّوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تحصوها . . . " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّ الإنسان لظلوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(دائبين) ، مثنّى دائب ، اسم فاعل من دأب الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(نعمة) ، اسم بمعنى المنعم به ، وهو اسم جنس لا يراد به الواحد بل الجمع ، وزنه فعلة بكسر الفاء .

(ظلوم) مبالغة اسم الفاعل من ظلم الثلاثيّ، وزنه فعول.

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة بعد واو الاستئناف.

(377/421)

---

البلاغة

- التأكيد الذي جعل الخبر إنكاريا: بقوله إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ فقد اشتملت هذه الآية على أربعة تأكيدات أولها "إن" وثانيها "اللام المزحلقة أو لام التأكيد" وصيغة "ظلوم" وصيغة "كفّار".

[سورة إبراهيم (14): الآيات 35 إلى 38]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ
أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنا
إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ
أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما
نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (38)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قال) فعل ماض (إبراهيم) فاعل مرفوع، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . و (الياء) المحذوفة مضاف إليه (اجعل) فعل أمر دعائيّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (البلد) بدل من ذا - أو عطف بيان - منصوب (آمنا) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (اجنب) مثل اجعل و (النون) للوقاية

و(الياء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (بنيّ) معطوف على ضمير المتكلّم المفعول منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم . .

و(الياء) مضاف إليه (أن) حرف مصدريّ ونصب (نعبد) مضارع منصوب، والفاعل نحن (الأصنام) مفعول به منصوب.

والمصدر المؤوّل (أنّ نعبد . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي عن أن نعبد . . متعلّق بـ (أجنبي) .

جملة: "قال إبراهيم . . ." في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "(يا) ربّ . . . وجوابها . . ." في محلّ نصب مقول القول.

(378/421)

وجملة : " اجعل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اجنبي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء .

وجملة : " نعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(ربّ) مثل الأول (إنّهنّ) حرف مشبّه بالفعل . . وهنّ ضمير في محلّ نصب اسم أنّ أي الأصنام (أضللن) فعل ماض مبنيّ على السكون . .

و(النون) فاعل (كثيرا) مفعول به منصوب (من الناس) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (كثيرا) ، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (تبعني) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط . . .

و(النون) للوقاية ، و (الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّه) مثل إنّهنّ (من) حرف جرّ و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر إنّ (الواو) عاطفة (من عصاني فإنّك) مثل من تبعني فإنّه . . (غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع.

وجملة : " (يا) ربّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام .

وجملة : " إنّهنّ أضللن . . . " لا محلّ لها تعليل لطلب الاجتناب . . .

وجملة : " أضللن . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: " من تبعني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهنّ أضللن.

وجملة: " تبعني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة: " إنّه منّي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة: " من عصاني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من تبعني .

وجملة: " عصاني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني " 2 " .



---

وجملة: " إنّك غفور . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنه بالفاء " 3 " (ربنا) منادى مضاف منصوب . . و (نا) ضمير مضاف إليه (إنّي أسكنت) مثل إنّهنّ أضللن (من ذريتيّ) جارّ ومجرور متعلّق بنعت للمفعول المحذوف أي بعضا من ذريتيّ . . و (الياء) ضمير مضاف إليه (بواد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسكن) وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو اسم منقوص (غير) نعت لواد مجرور (ذي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (زرع) مضاف إليه مجرور (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بنعت لواد (بيتك) مضاف إليه مجرور . . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (المحرّم) نعت لبيتك مجرور (ربّنا) مثل الأول (اللام) للتعليل (يقيموا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام

وعلامة النصب حذف النون . . و (الواو) فاعل (الصّلاة) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اجعل) فعل أمر دعائي، والفاعل أنت (أفئدة) مفعول به منصوب (من الناس) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لأفئدة (تهوي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، وجملة: " النداء ربّنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول.

---

(1، 2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا. [. . . . . .]

(3) يجوز أن تكون الجملة تعليلا للجواب المقدّر . . .

(380/421)

---

والفاعل هي (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تهوي) (الواو) عاطفة (ارزقهم) مثل اجعل . . و (هم) ضمير مفعول به (من الثمرات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ارزق)، (لعلّهم) حرف ترجّ ونصب . .

و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يشكرون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل.

وجملة: " إنّي أسكنت . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "أسكنت ... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "ربّنا (الثانية) ... " لا محلّ لها اعتراضيّة لتأكيد الدعاء.

وجملة: "اجعل ... " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن تكرمهم فاجعل ...



---

وجملة: "تهوي ... " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل اجعل.

وجملة: "ارزقهم ... " في محلّ جزم معطوفة على جملة اجعل.

وجملة: "لعلّهم يشكرون ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يشكرون ... " في محلّ رفع خبر لعلّ.

والمصدر المؤوّل (أن يقيموا ..) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أسكنت) .. وجملة يقيموا صلة الموصول الحرفيّ.

(ربّنا) مثل الأول (إنّك) مثل إنّهنّ .. (تعلم) مضارع مرفوع، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (نخفي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء، والفاعل نحن (الواو) عاطفة (ما نعلن) مثل ما نخفي (الواو) واو الحال " 1 "، (ما) نافية (يخفى) مضارع مرفوع،

---

(1) أو اعتراضيّة إن كانت الجملة بعدها من كلامه تعالى . . . ويحتمل كون (الواو) استئنافيّة والجملة بعدها من قول إبراهيم .

(382/421)

---

وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يخفى) ، (من) حرف جرّ زائد (شيء) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يخفى (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لشيء (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (في السماء) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (في الأرض) لأنه معطوف عليه .

وجملة : " النداء . . ربّنا " لا محلّ لها استئناف لتأكيد التضرّع .

وجملة : " إنّك تعلم . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تعلم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نخفي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف .

وجملة : " نعلن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني والعائد محذوف .

وجملة : " ما يخفى . . . من شيء " في محلّ نصب حال .

البلاغة

1 - المجاز العقلي : في اسناد الإضلال للأصنام في قوله أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ أي تسببن له في الضلال ، فاسناد الإضلال إليهن مجازي لأنهن جماد لا يعقل منهن ذلك ، والمضل في الحقيقة هو الله تعالى وقد يكون مجاز مرسل والعلاقة هي السببية لأنهن سبب الإضلال .

2 - الطباق : بصورة متعددة كقوله تعالى رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ .

الفوائد

1 - " ربّ " منادى مضاف إلى ياء المتكلم .

والمنادي بحسب الإعراب قسمان :

1 - مبني على الضم في محلّ نصب . وهو المفرد العلم والنكرة المقصودة .

2 - معرب منصوب ، وهو النكرة غير المقصودة ، والمضاف ، والشبيه بالمضاف .

وهكذا تكون أقسام المنادي خمسة : مفرد علم ، ونكرة مقصودة ، ونكرة غير مقصودة ، ومضاف ، وشبيه بالمضاف ، وقد حذف المضاف إليه وهو الياء .

وقد جرت معالجة نظير له فعد إليه في مظانه .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 39 إلى 41]

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41)

الإعراب :

(الحمد) مبتدأ مرفوع (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (الّذي) موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (وهب) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (اللام) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (وهب) (على الكبر) جارّ ومجرور حال من الياء (إسماعيل) مفعول به منصوب، ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (إسحاق) معطوف على إسماعيل بالواو منصوب مثله (إنّ) حرف توكيد ونصب (ربّي) اسم إنّ منصوب وعلامة



النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء.. و (الياء) مضاف إليه (اللام) المزحلقة للتوكيد (سميع) خبر إنّ مرفوع (الدّعاء) مضاف إليه مجرور.

جملة: " الحمد للّه... " لا محلّ لها استئناف في حيّز دعاء إبراهيم.

وجملة: " وهب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذي) .

وجملة: " إنّ ربي لسميع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

(ربّ) مرّ إعرابه " 1 " ، (اجعلني) مثل اجنبي " 2 " ، (مقيم) مفعول به ثان منصوب (الصّلاة) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (من ذرّيّتي) مرّ إعرابها " 3 " . متعلّق بنعت مقدّر معطوف على ضمير المتكلّم في (اجعلني) أي: اجعلني مقيم الصلاة وبعضا من ذرّيّتي " 4 " ، (ربّنا) مرّ إعرابه " 5 " ، (الواو) عاطفة (تقبّل) فعل أمر دعائيّ، والفاعل أنت (دعاء) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف - أو لمناسبة رؤوس الآي - و (الياء) المحذوفة ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " النداء وجوابها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " اجعلني . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: " ربّنا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة.

وجملة: " تقبّل دعاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء الأول.

(ربّنا) مثل السابقة " 6 " ، (اغفر) مثل تقبّل (لي) مثل الأول متعلّق

---

(1 ، 2) في الآية (35) من هذه السورة.

(3) في الآية (37) من هذه السورة.

(4) قال أبو حيّان في البحر : " و (من) للتبعيض لأنه أعلم أنّ من ذرّيّته من يكون كافرا أو من يهمل إقامتها وإن كان مؤمنا " .

(5، 6) في الآية (37) من هذه السورة.

*(385/421)*

---

ب (اغفر) ، (الواو) عاطفة (لوالديّ) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (لي) فهو معطوف عليه ، وعلامة الجرّ الياء ، و (الياء) الثانية مضاف إليه (الواو) عاطفة (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (لي) فهو معطوف عليه ، وعلامة الجرّ الياء ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق به (اغفر) ، (يقوم) مضارع مرفوع (الحساب) فاعل مرفوع.

وجملة : " ربّنا اغفر لي . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز الدعاء الجاري.

وجملة : " اغفر . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يقوم الحساب . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

الصرف :

(مقيم) ، اسم فاعل في أقام الرباعي ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفيه إعلال بالتسكين وإعلال بالقلب ، أصله مقوم - بسكون القاف وكسر الواو - ثمّ سكّنت (الواو)

ونقلت الحركة إلى القاف - إعلال بالتسكين - فلمّا كسر ما قبل (الواو) الساكنة قلبت ياء .

البلاغة

- الاستعارة : في قوله تعالى يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ أي يثبت ويتحقق ، واستعمال القيام فيما ذكر إما مجاز مرسل أو استعارة ، ومن ذلك قامت الحرب ، وجوز أن يكون قد شبه الحساب برجل قائم على الاستعارة المكنية وأثبت له القيام على التخييل ، وأن يكون المراد يقوم أهل الحساب فحذف المضاف أو أسند إلى الحساب ما لأهله مجازا .

الفوائد

بناء الكعبة :

أفضى إبراهيم إلى ابنه إسماعيل بسر رهيب وأمر عجيب قال له : يا بنيّ ان الله أمرني أن أبني هنا بيتا . .

وأشار إلى مكان الكعبة ، وأخذا يرفعان القواعد من البيت وهما يسألان الله قائلين : رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

وقد جعل إسماعيل يهيئ الأدوات ويأتي بالحجارة وإبراهيم يرفع بالبناء ، ثم قال إبراهيم يا بني انشد لي حجرا أضعه تحت قدميّ لعلي أستطيع إتمام ما بدأت وأشرف على ما بنيت . عثر إسماعيل على الحجر الأسود فقدمه إلى أبيه حيث أقام عليه بيني وإسماعيل يناوله وينتقل حول البناء حتى تم بناء البيت الذي أصبح مثابة للناس واستجاب الله دعوة إبراهيم : فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ سورة إبراهيم الآية 38 .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 42 إلى 43]

وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (تحسبنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم ، والفاعل أنت و (النون) للتوكيد (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به أول منصوب (غافلا) مفعول به ثان منصوب (عن) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " (يعمل) مضارع مرفوع (الظالمون) فاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو (إنّما) كافّة ومكفوفة (يؤخّرهم) مثل يعمل ... و (هم) ضمير

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ، والجملة بعده صلة، والعائد محذوف أي يعمله الظالمون.

(387/421)

---

مفعول به، والفاعل هو (ليوم) جارّ ومجرور متعلّق به (يؤخّر)، (تشخص..

الأبصار) مثل يعمل الظالمون (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلق بـ

(تشخص).

جملة: "لا تحسبنّ..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يعمل الظّالمون..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) والمصدر المؤوّل (ما

يعمل...) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق بـ (غافلا) وجملة: "يؤخّرهم..." لا محلّ لها

استئناف بيانيّ.

(388/421)

---

وجملة : " تشخص فيه الأبصار . . . " في محلّ جرّ نعت ليوم .

(مهطعين) حال منصوبة من الأبصار لأنها دالّة على أصحابها وعلامة النصب الياء " 1 " ، (مقنعي) حال ثانية منصوبة مثل معطهين (رؤوسهم) مضاف إليه مجرور و (هم) مضاف إليه (لا) حرف للنفي (يرتدّ) مثل يعمل (إلى) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق - (يرتدّ) ، (طرفهم) فاعل مرفوع ، و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (أفئده) مبتدأ مرفوع و (هم) مثل الأخير (هواء) خبر مرفوع .

وجملة : " لا يرتدّ إليهم طرفهم . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في مقنعي " 2 " .

وجملة : " أفئدتهم هواء . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يرتدّ . . . " 3 " .

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف تقديره تراهم ، فالرؤية قلبية ، أو حال من الضمير في (تراهم) ، فالرؤية بصرية .

(2) أو هي بدل من مقنعي .

(3) أو هي حال من غير عطف ، والعامل فيها ما عمل في الحال قبلها ، أو هي استئنافيّة لا محلّ لها .

الصرف :

(مهطعين) ، جمع مهطع ، اسم فاعل من أهطع بمعنى أسرع .

وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(مقنعي) ، جمع مقنع ، حذفت نونه للإضافة ، اسم فاعل مثل مهطع ، وزنه مفعل .

(طرف) ، هو في الأصل مصدر ، ثم أطلق على الباصرة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(هواء) ، اسم جامد في الأصل ، واستعمل هنا كصفة بمعنى فارغة أو خاوية ، ولهذا قدّر فيه معنى التاء الدالّة على الجمع فبقي مفردا ، وزنه فعال بفتح الفاء . . والهمزة المتطرّفة منقلبة عن ياء لأنه يجمع على أهوية ، فلمّا تطرّفت الياء بعد ألف ساكنة قلبت همزة .

الفوائد

1 - عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ : إذا دخل " حرف الجر عن " على " ما " الموصولية كتبت بالألف ، كما هي في هذه الآية . وإذا دخل على " اسم استفهام " حذفت الألف وكتبت بالميم فحسب ، كقوله تعالى : عَمَّ يَتَساءَلُونَ؟ . .

2 - (مهطعين) : حال ، والحال : اسم نكرة منصوب يبين هيئة الفاعل أو المفعول به ، أو هما معا عند وقوع الفعل .

مثال الحال التي تبين هيئة الفاعل ، مثل : (سأزحف ثائرا متمردا) ، وهيئة المفعول مثل : (ركب عليّ السيارة مسرعة) .

أنواع الحال : آ - الحال المفردة : وهي ما ليست جملة ولا شبه جملة ، وتطابق صاحبها في النوع (التذكير والتأنيث) وفي العدد (الإفراد أو التثنية والجمع) مثل : (واجه الصّعاب قويا) ، (واجها الصّعاب قويين) ، (واجهوا الصّعاب أقوياء) .

ب - الحال شبه الجملة ، وهي التي تأتي متعلق (ظرف أو جار ومجرور) ،

نحو : (الصيف على الجبال أجمل منه على الشاطئ) .

ج - الحال جملة (اسمية أو فعلية) ، نحو : رأيت زيدا وهو خارج ، ورأيت زيدا يخرج.

يشترط في الجملة التي تقع حالا أن تشتمل على رابط يربطها بصاحب الحال وهذا الرابط قد يكون :

(1) الواو فقط ، مثل : (لن نفعل والعدوّ متربص) .

(2) أو الضمير فقط ، مثل : (جئت وقد هبط الظلام) .

(3) أو الضمير والواو معا ، مثل : لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 44 إلى 45]

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45)

الإعراب :



---

(الواو) استئنافيّة (أنذر) فعل أمر ، والفاعل أنت (الناس) مفعول به منصوب (يوم) مفعول به ثان منصوب وهو على حذف مضاف أي أنذرهم أهواله (يأتيهم) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، و (هم) ضمير مفعول به ، (العذاب) فاعل مرفوع (الفاء) عاطفة (يقول) مثل يأتي (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (ظلموا) فعل ماض وفاعله (ربّنا) مرّ إعرابها " 1 " ، (أخّرنا) ، مثل انذر . . و (نا) ضمير مفعول به (إلى أجل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أخّرنا) ، (قريب) نعت لأجل مجرور

---

(1) في الآية (37) من هذه السورة .

(نجب) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل نحن (دعوتك) مفعول به منصوب . . و (الكاف) مضاف إليه (الواو) عاطفة (نتّبع الرسل) مثل نجب دعوتك وحرّك آخر الفعل بالكسر لالتقاء الساكنين (الهمزة) للاستفهام (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (تكونوا) مضارع ناقص مجزوم ، وعلامة الجزم حذف النون . . . و (الواو) اسم تكون (أقسمتم) فعل ماضي مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير فاعل (ما) نافية (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (من) حرف جرّ زائد (زوال) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخر .

جملة : " أنذر الناس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يأتيهم العذاب . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقول الذين . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يأتيهم العذاب .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : " النّداء وجوابها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أخّرنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " نجب . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة: " تتّبع ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجب ..

وجملة: " لم تكونوا ... " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر ..

(393/421)

---

وجملة: " القول المقدّرة معطوفة على جملة يقول الذين ظلموا.

وجملة: " أقسمتم ... " في محلّ نصب خبر تكونوا.

وجملة: " ما لكم من زوال ... " لا محلّ لها جواب القسم.

(الواو) عاطفة (سكنتم) مثل أقسمتم (في مساكن) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سكنتم)،

(الّذين) موصول مضاف إليه (ظلموا) مثل الأول (أنفسهم) مفعول به منصوب .. و (هم)

مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (تبيّن) فعل ماض

والفاعل محذوف مفهوم من سياق الكلام أي تبيّن حالهم (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ

نصب حال عاملها (فعلنا) وهو فعل وفاعل (الباء) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بـ (فعلنا)، (الواو) استئنافيّة (ضربنا) مثل فعلنا (لكم) مثل الأول متعلّق بـ

(ضربنا)، (الأمثال) مفعول به منصوب.

وجملة: " سكنتم ... " في محلّ نصب معطوفة على جملة أقسمتم " 1 ".

وجملة: " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة: " تبيّن لكم (الحال) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " فعلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّ .

وجملة: " ضربنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف:

(زوال) مصدر الثلاثي زال وزنه فعال بفتح الفاء وثمّة مصادر أخرى منها زول بفتح وسكون وزوالان زنة فعلان بفتحتين .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 46 إلى 48]

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قد) حرف تحقيق (مكروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . و (الواو) فاعل (مكرهم) مفعول مطلق منصوب " 2 " . (هم)

---

(1) يجوز أن تكون حالا بتقدير قد .

(2) قال أبو حيّان : " المحفوظ أن مكر لا يتعدّى إلى مفعول به بنفسه ، قال تعالى : وإذ يمكر بك الذين كفروا ، ولا يحفظ زيد ممكور وإنّما يقال ممكور به " اه .

مضاف إليه (الواو) عاطفة (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (مكرهم) مبتدأ مؤخّر مرفوع ، وهو على حذف مضاف أي جزاء مكرهم أو علم مكرهم . . و (هم) مثل الأوّل (الواو) استئنافيّة (إن) نافية " 1 " ، (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ " 2 " - (مكرهم) اسم كان مرفوع ، و (هم) مثل الأول (اللام) لام التعليل " 3 " ، (تزول) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تزول) ومن سببيّة (الجبال) فاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أن تزول) في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر كان " 4 " .

جملة : " قد مكروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عند اللّه مكرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " كان مكرهم . . " لا محلّ لها استئنافيّة . " 5 "

وجملة : " تزول منه الجبال . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

(1) أو مخفّفة من (إنّ) ، أي إنّهم مكروا لإزالة ما يوازي الجبال ثبوتا ولكنّهم عجزوا عن ذلك . وهي شرطيّة على رأي ابن هشام . [ . . . . . ]

(2) أو هي تامّ أي : ما وجد مكرهم لتزول منه الشرائع والنبوّات التي هي كالجبال في رسوخها .

(3) رفض ابن هشام أن تكون اللام للجحود وقال مختصرا : " في هذا القول نظر لأنّ حرف النفي هو غير (ما) أو (لم) كما أنّ فاعلي (كان) و (تزول) مختلفان . . والظاهر أنّها لام كي و (إن) شرطيّة أي : وعند اللّه جزاء مكرهم وهو مكر أعظم منه ، وإن كان مكرهم لشدّته معدّا لأجل زوال الأمور العظيمة المشبّهة في عظمتها بالجبال " اه ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي فعند اللّه جزاء مكرهم .

(4) أو متعلّق بـ (كان) التامّ .

(5) وتقرير المعنى : ما كان مكرهم معدّا لإزالة الجبال ، وهو تمثيل لأمر الرسول صلى اللّه عليه وسلّم .

(الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب " 1 " ، (لا تحسبنّ اللّه مخلف) مثل ولا تحسبنّ اللّه غافلا " 2 " ، (وعده) مضاف إليه مجرور . . و (الهاء) مضاف إليه (رسله) مفعول به أول لاسم الفاعل مخلف المضاف إلى مفعوله الثاني وعد " 3 " و (الهاء) مثل الأخير (إنّ) حرف توكيد ونصب (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ (عزيز) خبر إنّ مرفوع (ذو) خبر ثان مرفوع ، وعلامة الرفع الواو (انتقام) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " لا تحسبنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي تنبّه فلا تحسبنّ . . أو معطوفة على الاستئناف المتقدّم قد مكروا . . . " 4 " .

وجملة : " إنّ اللّه عزيز . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

(يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بانتقام " 5 " ، (تبدّل) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (الأرض) نائب الفاعل مرفوع (غير) مفعول به منصوب " 6 " ، (الأرض) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (السموات) معطوف على نائب الفاعل مرفوع (الواو) استئنافيّة (برزوا) مثل مكروا (للّه) جارّ ومجرور ومتعلّق بـ (برزوا) على حذف مضاف أي لجزاء اللّه (الواحد) نعت للفظ الجلالة مجرور (القهّار) نعت ثان مجرور .

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر .

(2) في الآية (42) من هذه السورة .

(3) إذا تعدّى (مخلف) إلى واحد فإنّ (رسل) يكون مفعولا للمصدر وعد .

(4) أو هي جواب شرط مقدّر أي: إن كان حال الظالمين كذلك من المكر فلا تحسبنّ اللّه ...

(5) أو متعلّق بمخلف وعده رسله.. وإنّ وما بعدها اعتراض. أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر.

(6) وهو في الأصل نعت لمحذوف أي أرضا غير الأرض.



---

وجملة: " تبدّل الأرض ... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " برزوا ... " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 "، أو حال بتقدير قد.

الصرف:

(مخلف)، اسم فاعل من أخلف الرباعيّ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين.

البلاغة

- الاستعارة التصريحية: في قوله تعالى وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ فقد شبه بقوله لتزول منه الجبال مكرهم لتفاقمه وشدته، وافتتانهم فيه وبلوغهم الغاية منه، وشبه شريعته وآياته وما أنزله على نبيه من تعاليم سامية، وحجج بينة، شبهها بالجبال في

رسوخها وتمكنها من نفوس المؤمنين .

الفوائد

1 - مُخْلِفَ وَعْدِهِ :

مخلف مفعول به ثان للفعل " تحسبنّ " وهو مضاف . ولو قرئ منقطعا عن الإضافة منونا " مخلفا وعده " لكان عمل عمل اسم الفاعل ، وأصبح وعده مفعولا به لاسم الفاعل . ولهذا البحث تتمة سنوفيه حقه فيما سيأتي .

(2) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ .

ذهب المفسرون والمفكرون مذاهب في التبديل أهمها مذهبان :

الأول أن التبديل من حال إلى حال مع بقاء الأصل كما هو .

والثاني أن التبديل هو الذهاب بالشيء واستبداله بآخر .

---

(1) والجمل يجيز عطفها على جملة تبدّل ، ويجعل الماضي في حكم المضارع أي ويوم يبرزون للّه . . .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 49 إلى 51]

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (49) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (ترى) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف، والفاعل أنت (المجرمين) مفعول به منصوب، وعلامة النصب الياء (يومئذ) ظرف منصوب "1" متعلّق بـ (ترى).. إذ ظرف مبنيّ على السكون في محلّ جرّ مضاف إليه، والتنوين عوض من جملة محذوفة (مقرّنين) حال منصوبة من المجرمين، وعلامة النصب الياء (في الأصفاد) جار ومجرور متعلّق بمقرّنين "2".

جملة: "ترى..." لا محلّ لها استئنافيّة "3".

(سرابيلهم) مبتدأ مرفوع و (هم) ضمير مضاف إليه (من قطران) جار ومجرور متعلّق بخبر المبتدأ (الواو) عاطفة (تغشى) مثل ترى (وجوههم) مفعول به منصوب، و (هم) مثل الأول (النار) فاعل تغشى مرفوع.

وجملة: "سرابيلهم من قطران..." في محلّ نصب حال من المجرمين "4".

وجملة: "تغشى... النار" في محلّ نصب معطوفة على الجملة الحاليّة.

(اللام) للتعليل (يجزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (اللّه) لفظ الجلالة فاعل

مرفوع (كلّ) مفعول به منصوب (نفس) مضاف إليه مجرور

---

(1) أو مبنيّ ركّب مع إذ كالمركّبات الظرفيّة المبنيّة.

(2) أو متعلّق بحال ثانية من المجرمين.

(3) أو معطوفة على جملة برزوا في حال الاستئناف. [. . . . . ]

(4) أو استئنافيّة.



---

(ما) موصول مفعول به، والعائد محذوف (كسبت) فعل ماض، و (التاء) للتأنيث، والفاعل هي.

والمصدر المؤوّل (أن يجزي) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره فعل ذلك.

(إنّ الله سريع) مثل إنّ الله عزيز " 1 "، (الحساب) مضاف إليه مجرور.

وجملة: " يجزي الله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " كسبت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: " إنّ الله سريع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(مقرّنين) ، جمع مقرّن ، اسم مفعول من قرّن الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة.

(الأصفاد) ، جمع صفد اسم للقيد والغلّ - بضمّ الغين - وزنه فعل بفتحتين ، ووزن الجمع أفعال.

(سرابيل) ، جمع سربال ، اسم للثوب ، وزنه فعلال بكسر الفاء وسكون العين.

(قطران) ، اسم للمادّة التي تطلي بها الإبل من الجرب ، وزنه فعلان بفتح فكسر - وقد تسكّن الطاء "2".

[سورة إبراهيم (14) : آية 52]

---

(1) في الآية (27) من هذه السورة.

(2) وقيل : إنّها مكونة من كلمتين : قطر أي نحاس وآن اسم فاعل من أنى يأنى بمعنى تناهي في الحرارة..



---

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (52)

الإعراب :

(ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بلاغ) خبر مرفوع (للناس) جارّ ومجرور متعلّق ببلاغ " 1 " ، (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (ينذروا) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب ، وعلامة النصب حذف النون . . و (الواو) نائب الفاعل (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينذروا) والباء سببيّة .

والمصدر المؤوّل (أن ينذروا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بفعل محذوف تقديره أنزل ذلك " 2 " معطوفا على مقدّر أي : أنزل ذلك لينصحوا ولينذروا . . .

(الواو) عاطفة (ليعلموا) مثل لينذروا في البناء للمعلوم (أنّما) كافّة ومكفوفة (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (إله) خبر مرفوع (واحد) نعت لإله مرفوع (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يذّكّر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (أولو) فاعل مرفوع وعلامة الرفع (الواو) ، فهو ملحق بجمع المذكّر (الألباب) مضاف إليه مجرور .

جملة : " هذا بلاغ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينذروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يعلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

والمصدر المؤوّل (أن يعلموا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بما تعلّق به المصدر المؤوّل (لينذروا) لأنه معطوف عليه .

---

(1) أو بمحذوف نعت لبلاغ.

(2) أو متعلّق ببلاغ إذا كان الجارّ (للناس) نعتا.

*(400/421)*

---

والمصدر المؤول (أنّما هو إله واحد) في محلّ نصب سدّ سدّ مفعولي يعلموا ولا عبرة بـ (ما) الكافة إذ يبقى (أنّ) على مصدريته.

وجملة: "يذّكّر أولو الألباب... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الثالث.

والمصدر المؤوّل (أن يذّكّر) في محلّ جرّ باللام متعلّق بما تعلّق به المصدر المؤوّل (لينذروا) لأنه معطوف عليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 13 صـ 151. 216﴾

*(401/421)*

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(14) سورة ابراهيم

مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (2) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (3) وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

الإعراب:

(الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) الر تقدم إعرابها وكتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب وجملة أنزلناه صفة وإليك متعلقان بأنزلناه واللام لام التعليل وتخرج فعل



مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والناس مفعول به ومن الظلمات متعلقان بتخرج والى النور متعلقان بتخرج أيضا. (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى

صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) بإذن متعلقان بمحذوف حال أي حال كونك مأذونا من ربك وربهم مضاف اليه والى صراط بدل من قوله إلى النور باعادة العامل والعزيز مضاف اليه والحميد صفة. (اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) الله بالجر بدل أو عطف بيان للعزيز الحميد وقرىء بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو الله المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض، والذي صفته وله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر والجملة صلة الذي وفي السموات صلة ما وما في الأرض عطف على ما في السموات. (وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ) ويل مبتدأ سوغ الابتداء به قصد الدعاء على الكافرين وسيأتي مزيد بحث عن هذه الكلمة في باب الفوائد والجملة دعائية لا محل لها وللكافرين خبر ومن عذاب نعت لويل أو متعلقان بويل فعلى الأول تكون من بيانية وعلى الثاني تكون للتعدية وشديد صفة وفي تفسير أبي السعود: ومن عذاب شديد متعلقان بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين يا ويلاه كقوله دعوا هنالك ثبورا، ومنع أبو حيان تعليقها بويل قال: " ومن عذاب شديد في موضع الصفة لويل ولا يضير الفصل بالخبر بين الصفة والموصوف ولا يجوز أن يكون متعلقا بويل لأنه مصدر ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلق به الخبر. (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ) الذين نعت للكافرين أو مبتدأ خبره جملة أولئك في ضلال بعيد الآتية أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين يستحبون وجميع هذه الأوجه متساوية في

الأرجحية فلذلك ذكرناها وجملة يستحبون صلة و

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً)

(403/421)

---

ويصدون عطف على يستحبون وعن سبيل اللّه جار ومجرور متعلقان بيصدون ويبغونها عطف على يصدون ويبغون فعل وفاعل والهاء نصب بنزع الخافض أي يبغون لها وعوجا مفعول به . (أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) اسم الاشارة مبتدأ وفي ضلال خبره وبعيد صفة لضلال وفي جعل الضلال ظرفا فن بلاغي سنعرض له في باب البلاغة . (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لبيان وسيلة المخاطبة التي يظطلع بها كل رسول لأمته وما نافية وأرسلنا فعل وفاعل ومن زائدة ورسول مجرور لفظا منصوب على المفعولية محلا وإلا أداة حصر وبلسان قومه حال أي ملتبسا بلسان قومه فهو استثناء من أعم الأحوال وليبين اللام للتعليل ويبين مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ولهم متعلقان بيبين . (فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ) الفاء استئنافية ويضل مرفوع على الاستئناف ولا يجوز عطفه على يبين كما يتوهم لأن المعطوف كالمعطوف عليه في المعنى والرسل أرسلت للبيان لا للإضلال ، قال الفراء : إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر

فإن لم يكن النسق مشاكلا للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه ، على أن الزجاج قال : " ولو قرىء بنصبه على أن اللام لام العاقبة جاز " ويضل اللّه فعل مضارع وفاعل ومن مفعول به ويشاء صلة ويهدي من يشاء عطف على يضل اللّه من يشاء . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) هو مبتدأ والعزيز خبر أول والحكيم خبر ثان .

البلاغة :

انطوت هذه الآيات الأربع على فنون من البلاغة نوجزها فيما يلي :

1- الظلمات والنور استعارتان تصريحيتان للضلال والهدى وقد تقدم نظائرها فلا حاجة للاعادة .

2- في اسناد البعد إلى الضلال مجاز عقلي لأن البعد في الحقيقة الضال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق فوصف به فعله كما تقول جد جده وداهية دهياء .



---

3- في جعل الضلال ظرفا مجاز أيضا كأنه قد أحاط بهم وجلببهم بسوادة فهم منغمسون فيه إلى الأذقان يتخبطون في متاهاته ويتعسفون في ظلماته .

4- في جعل اللسان لغة مجاز علاقته السببية لأنه آلة النطق لأن معنى بلسان قومه : بلغة

قومه واللسن واللسان كالريش والرياش وسيأتي في باب الفوائد تفصيل مسهب عن لغة القرآن واللهجات السبع التي قرىء بها . ووحد اللسان لأن المراد اللغة ، وقد قيل في هذه الآية إشكال لأن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس جميعا ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة وأجيب بأنه إن كان صلى الله عليه وسلم مرسلا إلى الناس كافة لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب اليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهما له كفهمهم إياه ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع على

مصراعيه لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها مالا يعرفه غيرها ، وربما كان أيضا مفضيا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون .

5- الطباق بين يضل ويهدي وجميع هذه الفنون تقدم بحثها في مظانها .

الفوائد :

في هذه الآيات من الفوائد ما يستوعب الاجلاد ولكننا جريا على نهج الكتاب سنجتزىء بما لا بد من ذكره فيما يلي :

1- (وَيْلٌ) :

كلمة وعيد وتهديد وهو نقيض الوأل أي النجاة اسم بمعنى الهلاك إلا أنه لا يشتق منه فعل

إنما يقال ويلا له فينصب نصب المصادر ثم يرفع رفعها لإفادة معنى الثبات فيقال ويل له كسلام عليك وفي المختار الوائل الملجأ وقد وأل اليه أي لجأ وبابه وعد وءولا بوزن وجود ، وويل زيد وويحه منصوبان على المصدرية وقيل ويل كلمة عذاب وويح كلمة ترحّم .

2- لغة القرآن ورأي الدكتور طه حسين :

لغة القرآن :



---

علم قائم بذاته ويظهر أن الحديث الشريف " نزل القرآن على سبعة أحرف " كان سببا في نشوء هذا العلم من علوم القرآن وأحدث الدراسات فيه وأقومها ما قرره الدكتور طه جسين في كتابه الأدب

الجاهلي وفيما يلي خلاصة هذا البحث القيم : يثبت الدكتور طه أن هنالك خلافا جوهريا بين اللغة التي يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية واللغة التي كانوا يصطنعها في شمال هذه البلاد وينتهي من إثبات ذلك إلى القول بأن القدماء المحدثين مضطربون في تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ العرب وفي تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ اللغة العربية وهذا الاضطراب ليس من شأنه أن يعين على التحقيق العلمي ثم يمضي الأستاذ في ذكر الفروق

بين لغة عرب الجنوب وعرب الشمال ويورد بعض النصوص التي كشفها الأستاذ جويدي من اللغة الحميرية وكيف أنها تختلف اختلافات كثيرة جدا عن اللغة الحجازية القرشية التي نعرفها ومثال هذا النص الذي يقول : " وهبم واخهو بنو كلبت هقنيو إلى مقه ذهرن ذن فرندن حجن وقههمو بمسألهو لو فيهمو وسعد همو نعمتم " ومعناها : " وهاب (اسم رجل) وأخوه بنو كلب أعطوا المقة (اسم إله في هران) هذا اللوح لأنه أجابهم عن سؤالهم وسلمهم وساعدهم بنعمته " ويمضي في هذا البحث الطويل إلى أن يقول : " إن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينا كثيرا حيّر القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه وأقاموا له علما أو علوما خاصة ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التي تختلف فيما بينها اختلافا كثيرا في ضبط الحركات سواء أكانت حركة بنية أو حركة إعراب ، لسنا نشير إلى اختلاف القراء في نصب الطير في الآية : " يا جبال أوّبي معه والطير " أو رفعها ولا إلى اختلافهم

في ضم الفاء أو فتحها في الآية " لقد جاءكم رسول من أنفسكم " انما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي

لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش فقرأته كما كانت تتكلم فأمالت حيث لم تكن تميل ، وقصرت حيث لم تكن تقصر وسكنت حيث لم تكن تسكن وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفي ولا تنقل .

وقفة لا بد منها :

وهنا وقفة لا بد منها ذلك أن قوما من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي نزل بها جبريل على قلبه فمنكرها كافر في غير شك ولا ريبة ولم يوفقوا إلى دليل يستدلون به على ما يقولون سوى ما روي في الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، والحق أن هذه القراءات السبع ليست من الوحي في قليل ولا كثير وليس منكرها كافرا ولا فاسقا ولا مغتمزا في دينه وإنما قراءات مصدرها اللهجات واختلافها ، للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها وقد جادلوا فيها بالفعل وتماروا وخطأ فيها بعضهم بعضا ولم نعرف أن أحدا من المسلمين كفّر أحدا لشيء من هذا ، وليست هذا القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها وانما هي شيء

وهذه الأحرف شيء آخر فالأحرف جمع حرف والحرف : اللغة فمعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف أنه أنزل على سبع لغات مختلفة في لفظها ومادتها يفسر ذلك قول ابن مسعود : إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل ويفسر ذلك قول أنس في الآية : " إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأصوب قيلا " أصوب وأقوم وأهدى واحد ويفسر ذلك قراءة ابن مسعود " ما ينظرون إلا زقية واحدة " مكان " ما ينظرون إلا صيحة واحدة " .

الأحرف غير القراءات :



---

الأحرف إذن اللغات التي تختلف فيما بينها لفظا ومادة فأما هذه القراءات التي تختلف في القصر والمد وفي الحركة والسكون وفي النقل والإثبات وفي حركات الاعراب فليست من الأحرف في شيء لأنها اختلاف في الصورة والشكل لا في المادة واللفظ وقد اتفق المسلمون على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف أي على سبع لغات مختلفة في ألفاظها ومادتها ، واتفق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف السبعة كل يقرأ على الحرف الذي سمعه من النبي فاشتد الخلاف والمراء في ذلك حتى كادت الفتنة تقع بين الناس ولا سيما في جيوش المسلمين التي كانت تغزو وترابط في الثغور بعيدة عن مهبط الوحي ومستقر

الخلافة فرفع الأمر إلى الخيفة عثمان رضي اللّه عنه فجزع له وأشفق على المسلمين أن يقع بينهم مثل ما وقع بين النصارى من الاختلاف في نص القرآن كما اختلفوا في نص الإنجيل فجمع لهم المصحف وأذاعه في الأمصار وأمر بما عداه من المصاحف فمحي محوا وعلى هذا محيت الأحرف الستة ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الحرف الذي نقرؤه في مصحف عثمان وهو حرف قريش وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه فمدّ بعضهم وقصر بعضهم وفخّم فريق ورقّق فريق ونقلت طائفة وأثبتت طائفة ثم أورد الدكتور طه ما ورد في الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبري لتأييد رأيه .

خلاصة قول الطبري :

قال ابن جرير ما ملخصه : إن قوما من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هي سبعة معان جملتها : الأمر والنهي والوعد والوعيد



---

والجدل والقصص والمثل ، ولكنه يعارض هذا ويقول : إن الأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات احياء من قبائل العرب مختلفة الألسن وذكر أن أصحاب رسول اللّه تماروا في تلاوة بعض القرآن فاختلفوا في قراءته دون تأويله وأنكر بعض قراءة بعض مع دعوى كل قارئ

منهم قراءة منها أن رسول اللّه أقرأه ما قرأه بالصفة التي قرأ ثم احتكموا إلى رسول اللّه فكان من حكم رسول اللّه بينهم أن صوّب قراءة كل قارئ منهم على خلاف قراءة أصحابه الذين نازعوه فيها وأمر كل امرئ منهم أن يقرأ كما علم حتى خالط قلب بعضهم الشك في الإسلام لما رأى من تصويب رسول اللّه قراءة كل منهم على اختلافها ثم جلاه اللّه ببيان رسول اللّه له أن القرآن على سبعة أحرف .

وعرض الطبري لنقطة هامة وهي الرد على سؤال المستفسرين :

فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ، وقد أقرأهن رسول اللّه أصحابه وأمر بالقراءة بهن وأنزلهن اللّه من عنده على نبيه ؟ أنسخت فرفعت ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتهن الأمة ؟ فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه أم ما القصة في ذلك ؟

وأجاب ابن جرير على هذه الأسئلة المحرجة جوابا بارعا فقال : لم تنسخ الأحرف الستة فترفع ولا ضيّعتها الأمة وهي مأمور بحفظها ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت وضرب لها مثلا في الفقه : إذا حنث موسر في يمين فله أن يختار كفارة من ثلاث كفارات : اما بعتق أو اطعام أو كسوة ، فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته وخيرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت قرأت ، ولعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد قراءته بحرف واحد ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته

به .

رأي السيوطي في الإتقان :



أما السيوطي فقد أكد في كتابه " الإتقان " صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابيا ذكروه ثم أراد عثمان بن عفان أن يستوثق من صحته فطلب من المسلمين وهم مجتمعون في المسجد أن يقف منهم من سمع هذا الحديث فوقف من في المسجد كلهم ، فقال وأنا أشهد معهم ، وانتقل السيوطي إلى بحث الأقوال التي قيلت في هذا الحديث فإذا هي نحو أربعين قولا وبدأ فأضاف إشكالا إلى الإشكالات الموجودة في هذا الموضوع فقال : انه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة ولفظ السبعة يطلق على ارادة الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات ولكنه ردّ هذا القول بأن في القرآن آيات كثيرة تقرأ على أكثر من سبعة أوجه ومنها ما يقرأ على أقل ومنها ما تغيرت حركته ولم يتغير معناه ولا صورته (مادة اللفظ) ومنها ما ذكره الطبري من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني وذكر الطحاوي أن ذلك كان رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الخط ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة

والحفظ وضرب مثلا لهذا أن عبد اللّه بن مسعود كان يعلّم رجلا القرآن فتلا عليه (طَعامُ الْأَثِيمِ) فقال الرجل : طعام اليثيم فردّها عليه فلم يستقم لسانه بها فقال : أتستطيع أن تقول طعام الفاجر ؟ قال :

نعم ، قال : فافعل .

وقول آخر ذهب اليه الكثير من العلماء مثل أبي عبيد وثعلب والزهري وهو : ان الأحرف السبعة هي لغات سبع فلما قيل لهم إن لغات العرب أكثر من سبع أجابوا أن المراد هو أفصحها .

ولأبي عبيد رأي قيم وهو أن في القرآن سبع لغات متفرقة فيه فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وغيرهم أي أن في القرآن ألفاظا وجملا مما كانت تعرف هذه القبيلة وهذه القبيلة .

(410/421)

---

و مضى السيوطي يعرض طائفة أخرى من الأقوال لا أهمية لها ثم أنهى كلامه بقوله : لقد ظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع وهو جهل قبيح .

خلاصة وافية :

ويطول بنا البحث إن رحنا نتقصى ما قيل في هذا الصدد أو نبحث الأصول التي تمتد إليها اللغة العربية فبا مكان القارئ أن يرجع إليها في الكتب المؤلفة بهذا الشأن وحسبنا أن نقول الآن : ان القرآن نزل باللغة العربية القرشية التي ذابت فيها اللغات الأخرى ولغات القبائل المجاورة بنوع خاص وقد فهم الصحابة القرآن إجمالا ولكن ألفاظا غير قليلة استغلقت عليهم بل ان بعضها لا يزال مستغلقا علينا اليوم بالرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا وقد روي أن عمر بن الخطاب لم يفهم كلمة " أبا " من قوله " وفاكهة وأبا " وله العذر فهي كلمة حبشية وروي عن ابن عباس أن اعرابيين اختصما لديه في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها وعارضه الثاني ، قال ابن عباس :

ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى " فاطر السموات والأرض " وروي عن ابن عباس أيضا انه لم يكن يفهم معنى الآية " ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق " حتى سمع فتاة من اليمن " بنت ذي يزن " تنادي زوجها :

أنا تحك تقصد أحاكمك .

وقد ذكر ابن النقيب في خصائص القرآن أن القرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير وقد سبق أن أوردنا هذا القول ومن الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون إلى وجودها في القرآن ما يأتي :

ل 1 إستبرق : يونانية ابلعي ماءك : هندية أو حبشية الأرائك : حبشية إصر / اي / عهد :

نبطية أواب : المسيح بالحبشية بطائنها : أي ظواهرها بالقبطية تنور : فارسية جهنم : يونانية أو فارسية حواريون : أي غسالون بالحبشية دري : أي مضيء بالحبشية السجل : الكتاب بالحبشية الرس : أي البئر باليونانية سريا : قيل سريانية أو نبطية أو يونانية

(411/421)

---

الصراط : الطريق بلغة الروم عدن : الكروم بالسريانية غيض : أي نقص بالحبشية القسط : العدل بالفارسية قسورة : الأسد بالحبشية كفلين : ضعفين بالحبشية ل 2 مشكاة : الكوة بالحبشية منسأة : عصا بالنبطية اب : حبشية أخلد : عبرية أسفار : سريانية أو نبطية أليم : موجع قالوا زنجية أو عبرية الاداة : الموقن بالحبشية حصب : بمعنى حطب في الزنجية دينار : فارسية .

رهوا : سهلا بالسريانية .

سجيل : فارسية سندس : فارسية وهندية الطاغوت : الكاهن بالحبشية غساق : المنتن البارد بالتركية الفردوس : البستان بالرومية القسطاس : الميزان بالفارسية كافور : بالفارسية اليم : البحر بالسريانية والقبطية ناشئة الليل : بالحبشية وزر : الملجأ بالنبطية

ل 1 كوّرت : أي غورت بالفارسية مرقوم : مكتوب بالعربية مناص : فرار بالنبطية المهل : الزيت بلسان البربر هونا : بالسريانية ل 2 هيت لك : بالقبطية ياقوت : بالفارسية يحور : يرجع بالحبشية يعهد : أي ينضج بالبربرية الفوم : الحنطة بالعبرية وقد أورد السيوطي في الإتقان هذه الألفاظ وغيرها كما أورد مئات الألفاظ وردت في القرآن بغير لغة الحجاز ومنها لغات اليمن وقد نص على كثير من الألفاظ الحميرية بالذات فقد ذكر مثلا أن أسطورا بلغة حمير تعني الكتاب وعلى هذا يفهم قوله : " وكتاب مسطور " وذكر أن اللهو تعني المرأة بلغة اليمن وعلى هذا تفهم الآية " لو أردنا أن نتخذ لهوا " ترى ما الذي يمنع وقد صح لدينا أن أمر الألفاظ القرآنية والمصادر العديد التي جاءت منها أن تكون الأحرف السبعة هي هذه اللغات العديدة التي ذابت في لغة قريش والتي علم النبي بعضها والتي تضمنتها ألفاظ القرآن .



---

اننا نرجح مبدئيا وليس لدينا وسائل الجزم النهائي أن هذا هو الصواب في شأن الأحرف السبعة فهي تشير إلى ألفاظ كثيرة من لغات عدة استعملها القرآن منها الفارسية واليونانية والآرامية والكلدانية والحبشية والحميرية والعبرية والسريانية والمصرية وكلها أضيفت إلى

لغة قريش ففوت من شأنها وأزالت الركاكة والغثاثة التي كانت موجودة في لغة القبائل الأخرى التي كانت تفد إلى الحج وهي التي تلتزم حروفا بدل حروف مثل ابدال كاف المؤنث شيئًا فيقولون كتابش بدل كتابك وعليه قوله :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقيق

وأصله :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

وهي قبيلة قيس ومثل الذين لا يستطيعون النطق بالسين فيستبدلون بها تاء فالناس عندهم النات وهم قبيلة تميم .

خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة والتزم الاعراب في أواخر الكلمات جميعا ولم يكن ملتزما في كثير من اللغات الاخرى وعرف النبي وهو متلقي الوحي ومعلم القرآن الأول تفسير ما أنزل عليه كله وما سأله عنه أصحابه كان يخبرهم به ولعلهم كانوا يتحاشون سؤاله في كثير من الألفاظ بدليل جهلهم بها بعد وفاته ونهيهم عن التكلف والتعمق أي البحث في معنى كل لفظ والتنقيب وراءه وليس هذا الذي نقوله في أمر ألفاظ القرآن وإنما هي الأحرف السبعة قولا شاذا لم يقل به أحد وانما قال به كثيرون منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب وأبو حاتم السجستاني وغيرهم .

واذن فمن الخطأ كل الخطأ أن نقول أن قرآنا نزل ليكون معجزة نبي ثم نقول : إنا قادرون على أن نبدل لفظا مكان لفظ لأن لدينا الكثير من الألفاظ أي المترادفات . استمع إلى هذه الآية : " للذين آمنوا انظرونا " ثم نقرؤها على الأحرف التي يقولون عنها هكذا " للذين آمنوا امهلونا " أو " للذين آمنوا ارقبونا " ولنترك للقارىء أن يدقق النظر قليلا ويطيل التفكير ليرى هل يتفق معنى هذه التعابير كلها وهل يبقى لها مكانها من الاعجاز وهي بهذه الصورة واسمع إلى الآية الأخرى :

" كلما أضاء لهم مشوا فيه " و " كلما أضاء لهم مروا فيه " و " كلما أضاء لهم سعوا فيه " من يقل أن مشى وسعى ومر متساوية في الاستعمال فهو جاهل كل الجهل خابط في عشواء من الضلال .

الأحرف السبعة ، إذن ، شيء آخر غير هذه التعديلات والتبديلات وأدنى إلى الصواب في توضيحها ما ذكرناه من تضمن القرآن الكثير من الألفاظ الأعجمية التي دخلت اليه والى لغة قريش من الشعوب المحيطة بشبه الجزيرة وسيأتي مزيد بيان لهذا البحث الجليل الذي طال قليلا ولم يكن من شرط الكتاب .

ونذكر بهذه المناسبة أن المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد وضع كتابيه : " أبو الأنبياء : الخليل ابراهيم " و " الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين " وتصدى فيهما لقضية

لغة خليل الرحمن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ورد على المنحرفين الذين يريدون أن ينحرفوا ببحوثهم في اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسلخ بسببه العرب عن صلتهم بالخليل وأثبت صلة ابراهيم الوثيقة بالعروبة في وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ونرى تتميما لبحثه الرفيع أن نورد حديثا ساقه الامام البخاري في صحيحه ورواه بسنده عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وقد استوعب هذا الحديث صفحات عدة من هذا السفر العظيم نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما يأتي :



---

1- تحدّث عن الشخصيات الطاهرة التي نزلت بمكة وقت كان ليس بها أحد ولا ماء وهم : الخليل ابراهيم وهاجر وابنها الرضيعإسماعيل .

2- نبع زمزم لهاجر وولدها .

3- قدوم بطن عربي جرهمي واستئذانه هاجر في السماح له بالإقامة في مكة راضين بشرطها " أن لا حق لهم في الماء " واستقدموا أهلا لهم وقد شب إسماعيل عليه السلام بينهم وتزوج منهم مرتين .

4- زيارات ثلاث للخليل إلى مكة لوديعته عدا الأولى التي قدم فيها بأهله إليها ، وكان

آخرها تلك الزورة مع ولده وأمر فأذن في الناس بالحج.

وهذا الحديث يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ في منهجه الحديث.

أولها: بيانه الواضح عن مبدأ تاريخ العمران في مكة.

ثانيها: يوضح حلقة مفقودة لدى المؤرخين عن ممالك الاسماعيليين في شمال الجزيرة العربية.

ثالثهما: لغة الخليل فقد زار الخليل مكة أربع زيارات وتزوج إسماعيل امرأتين من جرهم وكان يخاطبهما ويحاورهما بالعربية حتما دون مترجم، فصحّ ما قاله العقاد ولسنا نقول أنه تحدث بالعربية التي هي عربيتنا أعني لغة القرآن الكريم لكنها عربية زمانه الوثيقة الصلة أصولا وفروعا بعربية القرآن الكريم.

[سورة إبراهيم (14): الآيات 5 إلى 6]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (6)

اللغة:

)

يَسُومُونَكُمْ) يذيقونكم وأصله من سام السلعة يسوم سوما وسواما عرضها وذكر ثمنها ،

وسام المشتري السلعة طلب بيعها أو ثمنها وسامت الماشية خرجت إلى المرعى وسامه

الأمر كلفه إياه وسامه خسفا أذله ، قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا

وسام الطير على الشيء حام عليه وسامت الريح مرّت واستمرّت وسام ناقته على الحوض

: عرضها عليه .

ومن المجاز سمت المرأة المعانقة : أردتها منها وعرضتها عليها وللسين مع الواو فاء وعينا

خاصة عجيبة انهما تفيدان الكلمة معنى الإحاطة بالشيء والهيمنة عليه وشموله

وتغطيته لأن المحيط بالأشياء شامل لها مهيمن عليها فالسوء القبح وهو يحيط بصاحبه

ويلفه ، كما يحيط بمن يمتد إليهم ويصيبهم وقال تعالى " عليهم دائرة السوء " وفلان يحيط

الحسنى بالسوأى ، وهذا مما ساءك وناءك ومما يسوءك وينوءك قال الجاحظ : هو من السوء

: البرص وقال أبو زبيد :

لم يهب حرمة النديم وحقّت يا لقومي للسوءة السواء

وسوّج وسيّج الكرم ونحوه أو على الكرم عمل عليه سياجا يحوطه ويصونه والسياج بكسر السين الحائط وما أحيط به على كرم ونحوه وجمع السياج سياجات وأسوجة وسوج وعملت سفينة نوح من ساج وهي خشب سود رزان لا تكاد الأرض تبليها ، ولبسوا السيجان وهي الطيالسة المدورة الواسعة ، والساحة فضاء بين دور الحي يحيط بها لا بناء فيه ولا سقف وجمعه ساح وسوح وساحات ويقولون : احمر اللّوح واغبرّت السوح إذا وقع الجدب وقال أبو ذؤيب :

وكان سيّان أن لا يسرحوا نعما أو يسرحوه بها واغبرت السّوح



---

وساخت قوائم الدابة في الأرض وهذه أرض تسوخ بها الأقدام وساخت بهم الأرض ، وساد قومه يسودهم كأنما أحاطهم بنعمته وغلبته وساده أي غلبه عند المغالبة والسواد خلاف البياض وهو لون يحيط بالجسم أو بالشيء والسواد الشخص سواد البلدة ما حولها من الريف والقرى ومنه سواد العراق لما بين البصرة والكوفة ولما حولهما من القرى وقد أبدع شوقي في قوله :

قف تمهل وخذ أمانا لقلبي من عيون المها وراء السواد

والأسود معروف والأسود الحية العظيمة السوداء وهي المعروفة بالحنش وفلان أسود الكبد أي عدو وهم سود الأكباد أي أعداء والسوداء والسويداء عند الأطباء خلط مقره في الطحال مرض المالیخوليا وهو فساد الفكر في حزن وسوداء القلب وسويداؤه حبته ، وساوره

وثب عليه وله سورة في الحرب وتسورت الحائط والسور حائط يطوف بالمدينة ويحيط بها وسورة الخمر وسوارها حدتها والسوار حلية كالطوق تلبسه المرأة في زندها وهو بكسر السين وضمها ويقال الإسوار ، والوالي يسوس الرعية ويسوس أمرهم وسوس فلان أمر قومه بالبناء للمجهول قال الحطيئة :

لقد سوّست أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين

والسياسة استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل أو الآجل ولا جرم من يسوس القوم يحيط بأمورهم ، وساطه يسوطه سوطا ضربه بالسوط ولا يضرب إلا من هيمن على الآخر وعليه ، والساعة الوقت المعلوم وهو يحيط بالموجودات جميعها فلا يندّ عنها شيء ، وساغ الشراب سهل فكأنه غالب لا يقف شيء في طريقه ، وساف الشيء شمّه وفيه معنى الإحاطة والهيمنة وسوّفه مطّله وقال له مرة بعد مرة وكم مسافة هذه الأرض والمسافة تحيط بما يمتلكه صاحب الأرض وبينهم مساوف جمع مسافة ، قال ذو

الرمة :

فقام إلى حرف طواها بطية بها كل لمّاع بعيد المساوف



---

و ساق النعم فانساقت والسوق معروفة تحيط بما يعرض فيها من شخوص وبضائع وأمتعة

، وساك يسوك سوكا دلك ، وسوّل الشيطان له أمرا غلبه على أمره فزين له الشر ، وسوّى

بين الناس ساوى بينهم وسويت المعوج فاستوى والرحمن على العرش استوى أي استولى

ورآه في سواء المكان : في وسطه وسوي الرجل استقام أمره ولا يستقيم الأمر إلا لمن غلب

وهما سواء وهم سواسية في الشر وهذا من عجيب أمر هذه اللغة .

(يَسْتَحْيُونَ) : يستبقون .

الاعراب :

)



---

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في تفصيل ما أجمله عن الرسل في قوله تعالى " وما أرسلنا من رسول " واللام جواب قسم محذوف ، وأرسلنا فعل وفاعل وموسى مفعول به وبآياتنا متعلقان بمحذوف حال أي مصحوبا بآياتنا ومعززا بها . (أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ) ان مفسرة والضابط لها موجود وهو أن يتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه وأرسلنا فيه معنى قلنا أي قلنا له أخرج ويجوز أن تكون أن المصدرية الناصبة للفعل وانما صلح أن توصل بفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر وغيره سواء في الفعلية وتكون مع مدخولها منصوبة بنزع الخافض والتقدير بأن اخرج قومك والجار والمجرور متعلقان بمحذوف منصوب على الحال أي قائلين له اخرج قومك وعلى هذا يكون اعرابها تفسيرية أقل عناء ما دام التقديران يرتدان إلى أصل واحد . وقومك مفعول به لأخرج ومن الظلمات إلى النور متعلقان بأخرج. (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) الواو عاطفة وذكرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبأيام الله متعلقان بذكرهم وسترى بحثا مفيدا عن قوله أيام الله في باب الفوائد . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة للتوكيد وآيات اسم ان المؤخر ولكل صفة وصبار مضاف اليه وشكور صفة لصبار . (وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) الظرف متعلق بمحذوف يفسره ما بعده وهو اذكروا

أي اذكر وجملة قال موسى مضاف إليها الظرف ولقومه متعلقان بقال واذكروا فعل أمر والواو

(419/421)

---

فاعل ونعمة اللّه مفعول به وعليكم متعلقان بمحذوف حال أي كائنة عليكم. (إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) الظرف متعلق بنعمة اللّه إذا كانت بمعنى الإنعام أي إنعامه ذلك الوقت ويجوز أن تكون بدلا من النعمة لأن النعمة تشتمل على النجاة فيكون بدل اشتمال ومن آل فرعون جار ومجرور متعلقان بأنجاكم. (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ) أحوال ثلاثة من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين. (وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) الواو عاطفة وفي ذلكم خبر مقدم وبلاء مبتدأ مؤخر ومن ربكم صفة بلاء وعظيم صفة ثانية.

الفوائد:

(أيام اللّه) في- كما في القاموس- نعمه، ويوم أيوم: شديد، وآخر يوم في الشهر وفي المختار: وربما عبروا عن الشدة باليوم. وهذا من باب المجاز العقلي ووجهه أن العرب تتجوز بنسبة الحدث إلى الزمان مجازا فتضيفه اليه كقولهم نهاره صائم وليله قائم ومكر الليل ويترجح

تفسير أيام الله ببلائه ونعمائه وجنح الزمخشري إلى تفسير أيام الله بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود . قال ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار وغيرها وقد عبر عنها عمر بن كلثوم بقوله :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 7 إلى 12]

(420/421)

---

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (9) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (10) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

(11)

وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (12)

اللغة :

(تَأَذَّنَ) : أذن ونظير تأذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ولا بد في تفعل زيادة معنى ليس في أفعل لما في التفعل من التكلف والمبالغة .

الاعراب :

)

(421/421)

---

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) وإذ عطف على نعمة اللّه عليكم كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة اللّه عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ويجوز عطفه على إذ أنجاكم وجملة تأذن مضاف إليها الظرف وربكم فاعل تأذن وجملة لئن شكرتم مقول قول محذوف أو أجري تأذن مجرى قال لأنه ضرب من القول فلا حاجة لتقدير القول واللام موطئة للقسم وإن شرطية وشكرتم فعل الشرط ولأزيدنكم اللام جواب القسم وجملة لأزيدنكم لا محل

لها لأنها جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم وفاقا للقاعدة .

(وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) جملة معطوفة على نظيرتها وجواب القسم محذوف ولكنه مدلول عليه ضمنا بقوله : إن عذابي لشديد أي لأعذبنكم وانما حذفه هنا وأظهره في مقام الشكران لأن من عادة الله وهو الكريم أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ، وإن واسمها وخبرها .

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) وقال موسى فعل وفاعل وجملة إن تكفروا مقول القول وان شرطية وتكفروا فعل الشرط والواو فاعل وأنتم تأكيد للواو ومن عطف على الواو وفي الأرض صلة من وجميعا حال والفاء رابطة وان واسمها واللام المزحلقة وحميد خبرها . (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأت فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والكاف مفعول به ونبأ فاعل والذين مضاف اليه ومن قبلكم صفة . (قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) قوم بدل من الذين ونوح مضاف اليه وعاد وثمود معطوفان والذين من بعدهم

*(422/421)*

مبتدأ وجملة لا يعلمهم إلا اللّه خبر والجملة الاسمية معترضة بن المفسر وهو نبأ الذين من قبلكم وتفسيره وهو جاءتهم عليهم بالبينات ويجوز أن تكون والذين من بعدهم عطف على ما قبله وهو قوم نوح أو الذين من قبلكم وقوله لا يعلمهم إلا اللّه معترضة . (جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ) جملة مستأنفة أو خبر ثان للذين ورسلهم فاعل وبالبينات متعلقان بجاءتهم . (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا : إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ) الفاء عاطفة وردوا فعل وفاعل وأيديهم مفعول به وفي أفواههم متعلقان بردوا أو بمحذوف حال وسيأتي بحث عن هذا التعبير في باب البلاغة وقالوا عطف على ردوا وان واسمها وجملة كفرنا خبر وبما متعلقان بكفرنا وجملة أرسلتم صلة وبه متعلقان بأرسلتم (وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) وإنا عطف على إنا السابقة وان واسمها واللام المزحلقة وفي شك خبر ومما متعلقان بشك أو صفة له وجملة تدعوننا صلة وإليه متعلقان بتدعوننا ومريب صفة لشك . (قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ) جملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فماذا قالت رسلهم فأجيب بأنهم قالوا منكرين فالهمزة الاستفهامية للانكار من مقالتهم الحمقاء وفي اللّه خبر مقدم وشك مبتدأ مؤخر وقيل شك فاعل أفي اللّه لاعتماده على الاستفهام ورجحه النحاة القدامى وجميع المعربين لئلا يلزم على الوجه الاول الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي وهو المبتدأ بخلاف الفاعل الذي هو كالجزء من رافعه والحق ان هذا

كله لا أساس له والوجه هو الاول .

)

(423/421)

---

فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) فاطر صفة لله أو بدل منه وجملة يدعوكم حالية أي حالة كونه يدعوكم إلى الايمان بإرساله إيانا واللام للتعليل ويغفر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بيدعوكم ومن ذنوبكم متعلقان بيغفر وهي بمعنى التبعيض قال في الكشاف : " فإن قلت ما معنى التبعيض في قوله من ذنوبكم قلت : ما علمته جاء إلا هكذا في خطاب الكافرين " لئلا يسوي بينهم وبين المؤمنين وقال الرازي : " أما قول صاحب الكشاف المراد تمييز خطاب المؤمن من خطاب الكافر فهو من باب الطامات لأن هذا التبعيض إن حصل فلا حاجة إلى ذكر الجواب وإن لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا " . وقال بعضهم هي للبدل أي بدل عقوبة ذنوبكم ويحتمل أن يضمن يغفر معنى يخلص أي يخلصكم من ذنوبكم واختار أبو عبيدة زيادتها تبعا للأخفش الذي يجيز زيادتها في الموجب . (وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) ويؤخركم عطف على يغفر والى أجل متعلقان بيؤخركم ومسمى نعت لأجل . (قالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا )

إن نافية وأنتم مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر ومثلنا صفة .

)

(424/421)

---

تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) جملة تريدون صفة ثانية لبشر أو تكون مستأنفة وتريدون فعل وفاعل وأن وما في حيزها مفعول تريدون وعما متعلقان بتصدونا وجملة كان صلة وجملة يعبد خبر كان وآباؤنا فاعل يعبد . (فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) الفاء الفصيحة وائتونا فعل أمر وفاعل ومفعول به وبسلطان متعلقان بأتونا ومبين صفة . (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) قالت لهم رسلهم فعل وفاعل ولهم متعلقان بقالت وإن نافية ونحن مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر ومثلكم صفة . (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) الواو حالية أو عاطفة ولكن واسمها وجملة يمن خبرها وعلى من متعلقان بيمن وجملة يشاء صلة ومن عباده حال . (وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) الواو عاطفة وكان فعل ماض ناقص ولنا خبر كان المقدم وأن ومدخولها في تأويل مصدر اسم كان المؤخر وبسلطان متعلقان بنأتيكم وإلا أداة حصر وبإذن الله حال أي ملتبسا بإذن الله . (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) الواو عاطفة

وعلى الله متعلقان بيتوكل والفاء عاطفة أيضا واللام لام الأمر ويتوكل فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والمؤمنون فاعل يتوكل . (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ) الواو عاطفة وما استفهامية والاستفهام هنا معناه النفي أي لا مانع لنا ولا عذر نتشبث بأهدابه ، وهو في محل رفع مبتدأ ولنا الخبر وان وما في حيزها في موضع نصب على الحال أي الجار والمجرور فهو منصوب بنزع الخافض والواو للحال وقد حرف تحقيق وهدانا فعل وفاعل مستتر ومفعول به وسبلنا نصب بنزع الخافض والمعنى : والحال أنه قد هدانا وفعل بنا ما يوجب التوكل ويستدعيه حيث هدانا سبلنا أي ارشد كلامنا سبيله ومنهاجه .

(وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ) الواو عاطفة واللام جواب قسم محذوف ونصبرن فعل مضارع مبني على الفتح ، وعلى ما : على حرف جر وما مصدرية وآذيتمونا فعل وفاعل ومفعول والواو للاشباع ويجوز أن تكون ما موصولة أي على الذي آذيتمونا به . (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) تقدم اعرابها وكرر الأمر بالتوكل لأن الأول لاستحداث التوكل والثاني لاثباته .

البلاغة :

رد الأيدي في الأفواه بقوله تعالى : " فردوا أيديهم في أفواههم " وعض الأنامل وحرق الارم

كناية عن الغيظ والضجر عند حدوث ما لا تهواه النفس وتريده. قال أبو عبيدة: هو ضرب مثل أي لم يؤمنوا ولم يجيبوا والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت: قد ردّ يده في فيه وهكذا قال الأخفش واعترض ذلك القتيبي فقال لم يسمع أحد من العرب يقول رد يده في فيه إذا ترك ما أمر به. وقيل:

المراد برد الأيدي في الأفواه هنا الضحك والاستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه وقيل ان المراد بالأيدي والأفواه غير الجارحتين

فقيل المراد بالأيدي النعم ومعناه ردوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال:

(426/421)

---

لفلان عندي يد أي نعمة والمراد بالأفواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوا بأفواههم وردوا قولهم، وهناك أقوال أخرى ضربنا عنها صفحا لأن أقوى الوجوه هو الأول لأن اقناطهم الرسل من الايمان قولا وفعلا بوضع اليد في الفم هو المناسب لحسدهم في الكفر وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمير الخطاب وإعادة ذلك مبالغة في التأكيد دل على قنوطهم بالمرة.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 13 إلى 18]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ (14) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (15) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ
صَدِيدٍ (16) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (17)

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا
كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (18)

اللغة :

(عادٍ) : لها معان كثيرة وهي هنا بمعنى صار فتلحق بها وتعمل عملها ويقال : عاد إليّ من فلان مكروه أي صار منه إلي ومن معانيها عاده يعوده عودا : صرفه وعاد السائل : رده وعاد فلانا بالمعروف صنعه معه ومن معانيها عاده عودا : صيره عادة وكذلك عاد يعود عودا وعيادا وعيادة وعوادة المريض زاره فهو عائد . وفي القاموس : عاد يعود الشيء عودا وعيادا بدأه وباشره ثانيا ، قيل ومنه المثل :

" العود أحمد " .

)

(اسْتَفْتَحُوا) : استنصروا اللّه على أعدائهم كقوله تعالى : "إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح" وقيل استحكموا اللّه وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهو الحكومة كقوله تعالى : "ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق" وفي القاموس : والفتح كالفتاحة بضم الفاء وكسرها : الحكم بين الخصمين .

(صَدِيدٍ) : هو ما يسيل من جلود أهل النار .

(يَتَجَرَّعُهُ) : يتكلف جرعه أي ابتلاعه وفي الأساس : "جرعت الماء واجترعته بمرة وتجرعته شيئا بعد شيء وما سقاني إلا جرعة وجريعة وجرعا وبتنا بالأجرع وبالجرعاء ونزلوا بالأجارع وهي أرضون حزنة يعلوها رمل .

(يُسِيغُهُ) : من أساغ الطعام أو الشراب سهل دخوله في الحلق .

الاعراب :

(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا) قال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة ولرسلهم جار ومجرور متعلقان بقال واللام موطئة للقسم ونخرجنكم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومن أرضنا متعلقان بنخرجنكم والجملة مقول القول . (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا) أو حرف عطف بمعنى إلا وسيأتي مزيد بحث عن أو في باب الفوائد .

ولتعودن عطف على نخرجنكم غير أن الفعل هنا معروب لعدم مباشرة نون التوكيد له وهو مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل والنون المشددة نون التوكيد الثقيلة وقد تقدم له نظائر وفي ملتنا متعلقان بتعودن أو خبرها . (فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة وأوحى إليهم ربهم فعل وفاعل ولنهلكن اللام جواب للقسم المحذوف ونهلكن الظالمين فعل مضارع مبني على الفتح وفاعل مستتر ومفعول به والجملة لا محل لها من الاعراب لأنها مفسرة . .

(وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) الواو عاطفة ونسكننكم فعل مضارع مبني على الفتح وفاعل ومفعول به والأرض نصب بنزع الخافض أو مفعول به على السعة وقد تقدم القول في دخل وسكن ونحوهما ومن بعدهم حال . (ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ) ذلك مبتدأ ولمن خبر وجملة خاف صلة وفاعله مستتر تقديره هو ومقامي مفعول به وهو مصدر مضاف للفاعل أي قيامي عليه بالحفظ أو اسم مكان قال الزجاج مكان وقوفه بين يدي للحساب ، وخاف فعل ماض أيضا ووعيد مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لمراعاة الفواصل .

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) واستفتحوا فعل ماض والواو

فاعل والضمير يعود على الرسل أي واستنصروا اللّه على أعدائهم وقيل يعود على الكفار

أي واستفتح الكفار على الرسل والأولى انه يعود على كلا الفريقين لأن كلّا من الجانبين

يلتمس النصر على صاحبه فالواو استئنافية والجملة مستأنفة وخاب كل جبار فعل

وفاعل وعنيد صفة لجبار ومعنى خاب هلك أو خسر ، والعنيد : المعاند للحق والمجانب

له وهو مأخوذ من العند وهو الناحية أي أخذ في ناحيته معرضا قال الشاعر :

إذا نزلت فاجعلوني وسطا إني كبير لا أطيق الغدا

(429/421)

---

و قال الزجاج : العنيد الذي يعدل عن القصد . (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)

لصديد وقال الزمخشري : صديد عطف بيان لماء قال ويسقى من ماء فابهمه إبهاما ثم بينه

بقوله صديد " والبصريون لا يجيزون عطف البيان

في النكرات وأجازه الكوفيون وتبعهم الفارسي فأعرب زيتونة عطف بيان لشجرة مباركة "

. وجملة يسقى معطوفة على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى من ماء

شديد يتميز عن عذابها بما هو أشدّ وأبلغ في الإيلام . (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) الجملة

صفة لماء ويتجرعه فعل وفاعل مستتر ومفعول به ولا بأس بجعل الجملة مستأنفة مسوقة للرد على سؤال كأنه قيل فماذا يفعل به؟ فقيل يتجرعه أي يتكلف جرعه مرة بعد مرة إطفاء لسورة العطش وحرارة الغليل، ولا الواو عاطفة ولا نافية ويكاد من أفعال المقاربة واسمها مستتر تقديره هو وجملة يسيغه خبر وسيأتي المزيد من بحث هذا التركيب العجيب في باب البلاغة. (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) الواو عاطفة ويأتيه الموت فعل وفاعل مؤخر ومفعول مقدم أي أسباب الموت كأنها تظاهرت عليه فهي تأتيه من كل مكان والجار والمجرور في موضع نصب على الحال أي تأتيه محيطة به من جميع جهاته. (وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) الواو للحال وما نافية حجازية وهو اسمها والباء حرف جر زائد وميت مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما ومن ورائه خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وغليظ صفة لعذاب. )

(430/421)

---

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) مثل الذين مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره وفيما يقص عليكم مثل وقد تقدمت نظائره وجملة كفروا بربهم صلة وأعمالهم مبتدأ والكاف بمعنى مثل خبر أو هي حرف مع مجرورها في محل رفع

خبر والجملة مستأنفة للاجابة على سؤال مقدر نشأ عن تقدير المثل كأنه قال وما ذلك المثل فقيل أعمالهم كرماد ويجوز أن يكون مثل مبتدأ وأعمالهم مبتدأ ثانيا وكرماد خبر الثاني والثاني وخبره خبر الأول وقد رد أبو حيان هذا الوجه بقوله " وهو لا يجوز لأن الجملة الواقعة خبرا عن المبتدأ الذي هو

مثل عارية من رابط يعود على المثل وليست نفس المبتدأ في المعنى فلا تحتاج إلى رابط " ، ويجوز – وهو وجه جميل – أن يكون مثل مبتدأ وأعمالهم بدل اشتمال منه وكرماد خبر مثل وأعمالهم معا وجملة اشتدت به الريح صفة لرماد وفي يوم عاصف حال من الريح . (لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) الجملة حالية من فاعل كفروا ويقدرون فعل وفاعل ومما كسبوا حال لأنه كان في الأصل صفة لشيء وقد تقدم عليه وعلى شيء متعلقان بيقدرون وجملة كسبوا صلة وذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والضلال خبر الثاني والثاني وخبره خبر الاول والبعيد صفة .

البلاغة :

في هذه الآيات أفانين متعددة من البلاغة نوردها فيما يلي :

1 – في ألفاظ الآيات الواردة مورد التهديد والوعيد مراعاة النظير وقد تقدم بحثه فجميع ألفاظها متضافرة على التعبير عن المخيف القارع للقلوب .

2 – في قوله تعالى : (يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ) فنون عديدة فيما يلي أهمها :

آ- الاستقصاء وهو أن يتناول المتكلم معنى فيستقصيه أي يأتي بجميع عوارضه ولوازمه بعد أن يستقصي جميع أوصافه الذاتية بحيث لا يترك لمن يتناوله بعده فيه مقالا يقوله فقد استقصى المعنى الذي أراده في الآية وهو كراهية الصديد الذي يشربه بأنه يتجرعه وفيه احتمالات أولها انه مطاوع جرعته بالتشديد نحو علمته فتعلم وثانيها انه للتكلف وقد اخترناه في الاعراب أي يتكلف جرعه ولم يذكر الزمخشري غيره وثالثها انه دال على المهلة نحو تفهمته أي يتناوله شيئا فشيئا بالجرع كما يتفهم شيئا فشيئا بالتفهيم ورابعها انه بمعنى جرعه المجرد وفي جميع هذه الأحوال استقصى غاية ما يمكن أن يتناوله شارب الماء .

ب- المبالغة في قوله " ولا يكاد " فدخول فعل يكاد للمبالغة ، يعني : ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة ؟ كقوله " لم يكد يراها " أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها .

ج- ذكر الموت وأراد أسبابه وهذا مجاز .

د- وصف العذاب بالغلظة كناية عن قوته واتصاله لأن الغلظة تستوجب القوة وتستدعي أن يكون متصلا تتصل به الأزمنة كلها فلا انفصال بينها .

هـ- الغلو : بذكر كاد وهذا يطرد في كل كلام تستعمل فيه أداة المقاربة كقول الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

وقد أفرط أبو العلاء في استعمالها قال :

تكاد قسيه من غير رام تمكن في سيوفهم النبالا

تكاد سوابق حملته تغني تجد إلى رقابهم انسلالا

تكاد سوابق حملته تغني عن الأقدار صونا وابتذالا

سرى برق المعرة بعد وهن فبات براحة يصف الكلالا

شجا ركبا وأفراسا وإبلا وزاد فكاد أن يشجو الرحالا

ولا بن خفاجة الاندلسي . وكاد هنا مرقصة :

وأهيف قام يسعى والسكر يعطف قده

وقد ترنح غصنا وحمر الكأس ورده

وألهب السكر خدا أورى به الوجد زنده

فكاد يشرب نفسي وكدت أشرب خدّه

وكل هذا من الغلو المقبول لأنه مقترن بالأداة ويزداد حسنه إذا تضمن نوعا حسنا من التخييل كقول المتنبي :

عقدت سنابكها عليه عثيرا لو تبتغي عنقا عليه أمكنا

ولأبي العلاء في صفة السيف :

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

وقال في وصف الخيل :

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

أما الغلو غير المقبول فهو نوعان نوع يستسيغه الفن كقول المتنبي :

ولو قلم ألقيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

وقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

و- التتميم : وقد تحدثنا عنه أيضا ونبينه هنا فنقول التتميم أنواع ثلاثة تتميم النقص وتتميم الاحتياط وتتميم المبالغة فقد قال يتجرعه ولو قال جرعه لما أفاد المعنى الذي أراده لأن جرع الماء لا يشير إلى معنى الكراهية ولكنه عند ما أتي بالتاء على صيغة التفعل أفهم أنه يتكلف شربه تكلفا وانه يعاني من جراء شربه مالا يأتي الوصف عليه من تقزز وكراهية ثم احتاط للأمر لأنه قد يوهم بأنه تكلف شربه ثم هان عليه الأمر بعد ذلك فأتي بالكيدودة

أي أنه تكلف شربه وهو لا يكاد يشربه ولو اكتفى بالكيد ودة لصح المعنى دون مبالغة ولكن عند ما جاءت يسيغه افهم انه لا يسيغه بل يغص به فيشربه بعد اللتيا والتي جرعة غب جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة وتارة بالعطش .

3- التشبيه التمثيلي بقوله " والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف " فالمشبه مركب وهو الذين كفروا وأعمالهم الصالحة التي يقومون بها في حياتهم كصلة يرفدون بها المحتاج وصدقة يجبرون بها المكسور وعلم يعم نفعه العباد والمشبه به الرماد وهو ما سحقته النار من الاجرام واشتداد الريح واليوم العاصف ووجه الشبه ان الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى له أثر فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لا يبقى لها أثر .

(433/421)

---

4- المجاز العقلي في اسناد العصف لليوم كقولهم نهاره صائم وليله قائم شبهت صنائعهم الحميدة ومكارمهم المجيدة وما كانوا ينتدبون له من إغاثة الملهوف وعتق الرقاب وفك العاني وافتداء الأسارى وعقر الإبل للأضياف وغير ذلك شبهت هذه الصنائع في حبوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة اللّه والايمان به برماد

طيرته الريح في اليوم الذي أسند اليه العصف .

5- وصف الضلال بالبعد تقدم القول فيه قريبا فجدد به عهدا .

الفوائد :

" أو " حرف عطف وله معان نوردها فيما يلي :

آ- الشك نحو " لبثنا يوما أو بعض يوم " .

ب- الإبهام نحو " وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين " والشاهد في أو الأولى .

ج- الإباحة وهي الواقعة قبل ما يجوز فيه الجمع نحو : جالس العلماء أو الزهاد .

د- التخيير وهي الواقعة قبل ما يمتنع فيه الجمع نحو : تزوج هندا أو أختها وسر ماشيا أو راكبا .

ه- مطلق الجمع كالواو كقوله :

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقد أنكرها بعضهم هنا وقال هي للابهام أي انها تعلم اتصافها بالأمرين وقصدت الإبهام على السامع وهذا مردود لأن كون التقى للنفس والفجور عليها أمران مجتمعان في الواقع كما قال تعالى : " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " ومن ورودها لمطلق الجمع قول جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

وقول النابغة المشهور في معلقته :

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

وعلى هذا المعنى حمل بعض العلماء أو في قوله تعالى " وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون "

وفيها أقوال أخرى سترد في مكانها إن شاء اللّه .

*(434/421)*

---

و- الإضراب ك " بل " واشترط سيبويه لاجازة ذلك شرطين تقدم نفي أو نهي وإعادة

العامل نحو ما قام زيدا وما قام عمرو واستشهد بقوله تعالى : " ولا تطع منهما آثما أو كفورا "

ولم يشترط غير سيبويه هذين الشرطين واستشهدوا بقول جرير :

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

وقيل هي المقصودة بقوله تعالى " وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون " فقال الفراء الاخبار

الاول بحسب ما يظهر للناس ليندفع الاعتراض بأنه كيف يجوز الاضراب مع كونه عالما

بعددهم وأنهم يزيدون فهو إخبار منه تعالى بناء على ما يحزر الناس من غير تحقيق ثم أخذ

في التحقيق مضربا عما يغلط فيه الناس بناء على ظاهر الحزر وسيأتي المزيد من هذا

البحث القيم عند الكلام على هذه الآية .

ز- التقسيم نحو : الكلمة اسم أو فعل أو حرف وسماه بعضهم التفريق نحو قوله تعالى : "

وقالوا كونوا هودا أو نصارى " وهو أولى من التعبير بالتقسيم لأن استعمال الواو في التقسيم أجود .

ح- أن تكون بمعنى إلا في الاستثناء وهذه ينتصب المضارع بعدها بإضمار أن كقول زياد الأعجم :

وكنت إذا غمزت قناة قوم كسرت كعوبها أو تستقيما

وهذه الآية منها ولكن امتنع النصب لدخول اللام الدالة على الحال فيمتنع تقدير ان الدالة على الاستقبال لئلا تحصل المنافاة .

ط- أن تكون بمعنى إلى وهي كالتي قبلها في انتصاب المضارع بعدها بأن مضمرة كقوله :

لأستسهلنّ الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

ي- أن تكون للتقريب نحو ما أدري أسلّم أو ودع قال الحريري في درة لغواص : " انهم لا يفرقون بين قولهم : لا أدري أينا أقام أو أذن وقولهم أدري أقام أم أذن والفرق بينهما انك إذا نطقت بأم كنت شاكاً فيما أتى به من الإقامة والأذان وإذا أتيت بأو فقد حققت أنه أتى بالأمرين إلا انه لسرعة وقرب ما بينهما صار بمنزلة من لم يقم ولم يؤذن " .

ك- الشرطية نحو: لأضربنه عاش أو مات أي إن عاش بعد الضرب وإن مات.

ل- التبعيض ذكره بعضهم واستشهد بقوله تعالى: " وقالوا كونوا هودا أو نصارى " وهذا محض تكلف.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 19 إلى 22]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19)

وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20) وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (21) وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (22)

اللغة:

(مَحِيصٍ) : منجى ومهرب والمحيص يجوز أن يكون مصدرا كالمغيب والمشيب ومكانا كالمبيت والمصيف وفي المختار حاص عنه عدل وحاد وبابه باع وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا بفتح الياء، يقال ما عنه محيص أي محيد ومهرب والانحياص مثله. ومن أقوالهم: وقع في حيص بيص أي في اختلاط لا مخرج منه وفتنة تموج بأهلها وهما

اسمان ركبا اسما واحدا وبنيا بناء خمسة عشر والذي أوجب بناءها تقدير الواو فيهما فالحيص التأخر والهرب والبوص مأخوذ من قولهم باص يبوص أي فات وسبق لأنه إذا وقع الاختلاط والفتنة فمنهم فائت ومنهم هارب وكان القياس يقضي أن يقال حيص بوص إلا أنهم أتبعوا الثاني الاول وفيها لغات كثيرة أشهرها حيص بيص بفتح الحاء والباء وفتح آخرهما على البناء كما تقدم، أنشد الأصمعي لأمية بن عائذ الهذلي :

قد كنت خراجا ولوجا صرفا لم تلتحصني حيص بيص لحاص

وقالوا : حيص بيص بكسر أولهما وفتح آخرهما وبعضهم يبنيهما على الكسر كما تكسر الأصوات نحو غاق غاق وهناك لغات أخرى أضربنا عن ذكرها .

(بِمُصْرِخِكُمْ) : بمغيثكم وفي المصباح : " صرخ يصرخ من باب قتل صراخا فهو صارخ وصريخ إذا صاح وصرخ فهو صارخ إذا استغاث واستصرخته فأصرخني استغثت به فأغاثني فهو صريخ أي مغيث ومصرخ على القياس " وهو المغيث والمستغيث فهو من أسماء الأضداد كما في الصحاح. قال ابن الاعرابي المستغيث والمصرخ المغيث .

الاعراب :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي تر ، والسموات مفعول خلق وقيل مفعول مطلق وسترى بحثا شيقا في باب الفوائد وبالحق متعلقان بخلق

أو بمحذوف حال فالباء للسببية على الأول وللمصاحبة على الثاني .

)

(437/421)

---

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) إن شرطية ويشأ فعل الشرط ويذهبكم جواب الشرط والكاف مفعول به ويأت عطف على يذهبكم وبخلق متعلقان بيأت وجديد صفة (وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) الواو عاطفة أو حالية وما نافية حجازية وذلك اسمها وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بعزيز والباء حرف جر زائد وعزيز مجرور لفظا منصوب محلا على انه خبر ما . (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً) الواو استئنافية والجملة مستأنفة لتقرير بعثهم من القبور وعبر عنه بصيغة الماضي وان كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر اللّه عنه فهو حق وصدق كائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل في حيز الوجود وبرزوا فعل وفاعل وللّه

متعلقان ببرزوا وجميعا حال . (فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) الفاء عاطفة وقال الضعفاء فعل وفاعل وللذين متعلقان بقال وجملة استكبروا صلة وجملة إنا مقول القول وان واسمها وجملة كنا خبرها وكان واسمها ولكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة له ثم تقدمت وتبعا خبر كنا وهو جمع تابع كقولهم خادم وخدم .

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) الفاء عاطفة وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومغنون خبر وعنا متعلقان بمغنون ومن عذاب اللّه حال ومن الثانية زائدة وشيء مفعول به محلا مجرور بمن لفظا وهذا أولى الأعاريب الكثيرة . (قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا) قالوا فعل وفاعل ولو حرف امتناع وهدانا اللّه : فعل ومفعول به وفاعل ، لهديناكم : اللام واقعة في جواب الشرط وهديناكم :

فعل وفاعل ومفعول به ، سواء خبر مقدم وأجزعنا مبتدأ مؤخر لأنه في تأويل مصدر لأن الهمزة للتسوية والفعل بعدها يؤول بمصدر وأم حرف عطف متصلة وصبرنا عطف على جزعنا . (ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ) ما

نافية حجازية ولنا خبر مقدم ومن حرف جر زائد ومحيص مجرور لفظا اسم ما محلا .

(وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) الواو عاطفة وقال الشيطان فعل وفاعل ولما ظرفية حينية أو رابطة وقضي الأمر فعل ونائب فاعل والجملة مضافة للما أو لا محل لها وإن واسمها وجملة وعدكم خبرها ووعد مفعول مطلق والحق مضاف اليه وجملة إن اللّه مقول القول وهو من كلام إبليس قاله ردا على أهل النار الذين أخذوا يلومونه ويقرعونه. (وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) لا بد من تقدير محذوف أي فصدقكم ، ووعدتكم عطف على وعدكم ، فأخلفتكم عطف على وعدتكم وهو فعل وفاعل ومفعول به .

(وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) الواو عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولي خبرها المقدم وعليكم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لسلطان ومن حرف جر وسلطان مجرور لفظا واسم كان محلا وإلا أداة استثناء وأن وما في حيزها مستثنى لأن الاستثناء المنقطع يجب نصبه ولو كان الكلام غير موجب ولأن الدعاء ليس من جنس السلطان فاستجبتم عطف على دعوتكم ولي متعلقان باستجبتم .

(

فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) الفاء الفصيحة كأنه قيل إن علمتم انكم أسرعتم في اجابتي فأنتم الملومون ولا ناهية وتلوموني مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل والنون للوقاية

والياء مفعول به ولوموا فعل أمر وفاعل وأنفسكم مفعول به . ﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ ما نافية حجازية وأنا اسمها وبمصرخكم الباء حرف جر زائد ومصرخكم خبر ما محلا وما أنتم بمصرخي عطف على مثيلتها وأصل بمصرخي بمصرخين لي جمع مصرخ فياء الجمع ساكنة وياء الاضافة ساكنة كذلك فحذفت اللام للتخفيف والنون للاضافة فالتقى ساكنان وهما الياء ان فأدغمت ياء الجمع في ياء الاضافة ثم حركت ياء الاضافة

*(439/421)*

---

بالفتح طلبا للخفة وتخلصا من توالي ثلاث كسرات . ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ إن واسمها وجملة كفرت خبرها والباء حرف جر وما مصدرية مؤولة مع أشركتموني بمصدر مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بكفرت أي كفرت باشراككم إياي ويجوز أن تكون موصولة والأول أولى كما قررنا والياء مفعول أشركتموني ومن قبل متعلقان بأشركتموني وسيأتي في باب البلاغة معنى اشراكهم إياه مع اللّه تعالى . ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ان واسمها ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفة والجملة الاسمية خبر ان .

البلاغة :

في قوله تعالى : " إني كفرت بما أشركتموني " استعارة تصريحية شبه الطاعة بالاشراك ونزلها منزلته لأنهم كانوا يطيعونه في أعمال الشر كما يطاع اللّه في أعمال الخير أو لأنهم لما أشركوا الأصنام ونحوها باتباعهم له في ذلك فكأنهم أشركوه لأنه هو الذي كان يزين لهم عبادة الأوثان ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

وبوضوح هذه الاستعارة يتضح أن الشيطان قام لهم في هذا اليوم مقاما يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم فقد أوضح لهم :

أولا - ان مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة ومعارضة لوعد الحق من اللّه سبحانه .

ثانيا - انه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها .

ثالثا - أوضح لهم أنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بد للعاقل منها في قبول قبول غيره .

رابعا - أوضح لهم انه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان الخالية من أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء .

خامسا - ثم نعى عليهم ما وقعوا فيه ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى مسكة من عقل .

سادسا – أوضح لهم انه لا نصر عنده ولا إغاثة ولا يستطيع لهم نفعا ولا يدفع عنهم ضرا بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص من هذه المحنة .

سابعا : ثم صرح لهم بأنه قد كفر بما اعتقدوه وأثبتوه له فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب .

وإذا كانت جملة " ان الظالمين لهم عذاب أليم " من تتمة كلامه كما ذهب اليه بعض المفسرين فهو نوع ثامن من كلامه الذي خاطبهم به .

الفوائد :

إعراب خلق اللّه السموات :

هذا بحث شيق وإن يكن لا حقيقة له فقد اعترض عبد القاهر الجرجاني على إعراب خلق اللّه السموات والعالم ونحوهما إذ قال :

" العالم هنا مصدر لا مفعول به لأن المفعول به هو الذي كان موجودا

أو أثر فيه الفاعل شيئًا آخر بفعله والمصدر هو الذي لم يكن موجودا بل كان عدما محضا والفاعل موجده ومخرجه من العدم إلى الوجود بفعله والعالم في قولنا خلق اللّه العالم كذلك فكان مصدرا " واعترض عليه بأنه لو كان مصدرا لكان نفس الخلق ولا يجوز أن يكون ذلك لوجهين أحدهما انا نعلم العالم مع الشك في كونه مخلوقا للّه تعالى إلى أن نعلم ذلك بدليل منفصل فالعالم على هذا معلوم وكونه مخلوقا له تعالى غير معلوم لتوقفه على الدليل والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم فكان الخلق غير العالم والوجه الثاني ان اللّه تعالى يوصف بالخلق فلو كان الخلق العالم لكان اللّه موصوفا بالعالم وهو لا يجوز لأنه يلزم من ذلك وصف القديم بالحادث أو قدم العالم وهذه حذلقة لا طائل تحتها والحق ان الذي أورده عبد القاهر الجرجاني طائح من أساسه لأن الكلام إنما هو في اصطلاح النحاة وهذا المصطلح إنما هو فيما يعرض لأواخر الكلم من الرفع والنصب والجر لا تصاف الكلمة بالفاعلية تارة وبالمفعولية تارة وبالإضافة تارة أخرى إلى غير ذلك فإذا قلنا خلق اللّه السموات والأرض قلنا : هذه الكلمات المركبة المسموعة نسميها في اصطلاحنا فعلا وفاعلا ومفعولا به فرفعنا اسم اللّه تعالى على أنه فاعل ونصبنا السموات والأرض على المفعولية لوقوع فعل الفاعل عليها ولا يلزمنا من هذه العبارة التي أوقعناها على هذه الألفاظ أن يكون المعنى في الأصل قد وقع وتجدّد لأن الألفاظ أدلة على المعاني والدليل غير المدلول ولأن الاسم غير المسمى وإلا لزم احتراق فم من تلفّظ بالنار ولزم إذا قلنا أعدم اللّه العالم وأقام القيامة وأمات

زيدا أن يكون هذا كله قد وقع الآن وتجدّد ونحن نجد هذا باطلا .

ونعتقد أن الامام عبد القاهر كان يعتقد بطلان ما أورده وإنما أورده مغالطة وإظهارا لصناعة البحث ليس غير .

ناصب المفعول به :

*(442/421)*

---

و هنا لا بد من إيراد بحث دقيق وهو : ما هو ناصب المفعول به ؟

مذهب سيبويه أنه الفعل ولذلك تعددت المفاعيل بحسب اقتضاء الفعل لأن الفعل إن اقتضى مفعولا نصبه أو اثنين نصبهما أو ثلاثة نصبها ، وقال ابن هشام : إنه الفاعل لأنه الذي أثر فيه في المعنى فيؤثر فيه في اللفظ .

أقول : وهذا ليس بشيء لأن الفاعل يضمر والمضمر لا يعمل في المظهر ولأنهم قسموا الفعل إلى لازم ومتعدّ فدل على أن العمل له .

أما الفراء فاختار أن يكون الفعل والفاعل هما اللذين نصبا المفعول قياسا على الابتداء والخبر ، وهو خلاف لا طائل تحته وانما أوردنا هذه المباحث النظرية لأنها مصقلة للذهن ، ورياضة له ، ويرد على الجميع قوله تعالى : " أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما . . . " إذ لا

فاعل ولا فعل هنا والكلام في هذا لا يتسع له هذا المقام .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 23 إلى 27]

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (23) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (26) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (27)

الاعراب :

)

*(443/421)*

---

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ) بعد أن شرح أحوال الكفار الأشقياء شرع في شرح أحوال المؤمنين السعداء . وأدخل فعل ماض مبني للمجهول والذين نائب فاعل وجملة آمنوا صلة وعملوا عطف على آمنوا وهي

فعل وفاعل والصالحات مفعول به وجنات مفعول به ثان على السعة وجملة تجري من تحتها الأنهار صفة لجنات . (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ) بإذن جار ومجرور متعلقان بأدخل وربهم مضاف لإذن وتحيتهم مبتدأ وفيها حال وسلام خبر تحيتهم . (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال وضرب الله مثلا فعل وفاعل ومفعول به والحال من المفعول به . (كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ) كلمة بدل من مثلا أو منصوبة بفعل محذوف أي جعل كلمة طيبة أو بتضمين ضرب معنى جعل فيكون مفعولا به ثانيا وكشجرة خبر لمبتدأ محذوف بمعنى هي كشجرة طيبة وطيبة صفة لشجرة وأصلها مبتدأ وثابت خبر والجملة صفة ثانية لشجرة وفرعها في السماء عطف على

أصلها ثابت ويجوز أن يكون قوله كشجرة صفة ثانية لكلمة طيبة .

(تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ) الجملة صفة ثالثة لشجرة وتؤتي فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره هي وأكلها مفعول به وكلّ حين ظرف متعلق بتؤتي وسيأتي حديث عن الشجرة الطيبة وبإذن ربها متعلقان بتؤتي أو بمحذوف حال أي ملتبسة بإذن ربها .

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) ويضرب اللّه الأمثال فعل مضارع وفاعل

ومفعول به وللناس متعلقان بيضرب ولعل واسمها وجملة يتذكرون خبرها .

)

(444/421)

---

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ) ومثل مبتدأ وكلمة مضاف اليه وخبيثة صفة وكشجرة خبر مثل وخبيثة صفة وجملة اجتثت من فوق الأرض صفة ثانية لشجرة وجملة مالها من قرار صفة ثالثة لشجرة وما نافية حجازية أو تميمية ولها خبر مقدم ومن زائدة وقرار مبتدأ مؤخر أو اسم ما مؤخر . (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير حالة كل من المرادين بالمثلين المتقدمين ويثبت فعل مضارع والله فاعل والذين مفعول به وجملة آمنوا صلة وبالقول متعلقان بيثبت والثابت نعت للقول وفي الحياة الدنيا حال . (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ) ويضل الله الظالمين فعل وفاعل ومفعول به ويفعل الله ما يشاء فعل وفاعل ومفعول به وجملة يشاء صلة .

البلاغة :

1- التشبيه التمثيلي في تشبيه الكلمة الطيبة الموصوفة بثلاث صفات وهي إيتاء الاكل كل

حين أي من وقت أن تؤكل إلى حين انصرامها قال الربيع بن أنس هي النخلة لأن ثمرها يؤكل أبدا ليلا

(445/421)

---

و نهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت وعن ابن عمر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال ذات يوم : إن اللّه ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي وكنت صبيا فوقع في قلبي أنها النخلة فهبت رسول اللّه أن أقولها وأنا أصغر القوم وروي فمنعني منها مكان عمر واستحييت فقال لي عمر : يا بني لو كنت قلتها لكانت أحب إليّ من حمر النعم . ووجه الشبه في تمثيل الايمان بالشجرة أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الايمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان فوجود الصفات الثلاث في جانب المشبه به حسية بينما هي في جانب المشبه معنوية .

2- التشبيه التمثيلي أيضا في تشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة غير الثابتة كأنها اجتثت أو كأنها ملقاة على وجه الأرض فلا تغوص إلى الأرض بل عروقها في وجه الأرض

ولا غصون لها تمتد صعدا إلى السماء وهذا معنى قوله ما لها من قرار.

3- المجاز العقلي في قوله " تؤتي أكلها " ففعل الإيتاء مسند إلى غير فاعله الحقيقي لأن النخلة لا تؤتي الأكل على حد قول الصلتان العبدي.

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومرّ العشي فالمجاز وقع في اثبات الشيب فعلا لكر الغداة ومر العشي وهو في الحقيقة فعل اللّه تعالى.

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 28 إلى 34]

(446/421)

---

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (28) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (29) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (30) قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (31) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (32)

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (33) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما

سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)

اللغة :

(الْبَوارِ) : الهلاك وفي المصباح : " بار الشيء يبور بورا بالضم هلك وبار الشيء بوارا كسد على الاستعارة لأنه إذا ترك صار غير منتفع به فأشبه الهالك من هذا الوجه " وفي القاموس والتاج : " البور بفتح الباء :

الأرض قبل أن تصلح للزرع أو التي تجم سنة لتزرع من قابل ، والاختبار كالابتيار والهلاك ، وأباره اللّه ، وكساد السوق كالبوار فيهما

وجمع بائر وبالضم الرجل الفاسد والهالك لا خير فيه يستوي فيه الاثنان والجمع والمؤنث ، وما بار من الأرض فلم يعمّر كالبائر والبائرة " وفي الأساس : " فلان له نوره وعليك بوره أي هلاكه وقوم بور وأحلوا دار البوار ونزلت بوار على الكفار قال أبو مكعت الأسدي :

قتلت فكان تظالما وتباغيا إن التظالم في الصديق بوار

(447/421)

---

لو كان أول ما أتيت تهارشت أولاد عرج عليك عند وجار

جعلها علما للضباع فاجتمع التعريف والتأنيث ومن المجاز : بارت البياعات كسدت

وسوق بائرة وبارت الأيم إذا لم يرغب فيها وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يتعوذ من بوار الأيم وبارت الأرض إذا لم تزرع وأرض بوار وأرضون بور " .

(يَصْلَوْنَها) : يدخلونها وفي المصباح صلي بالنار وصليها صليا من باب تعب وجد حرّها والصلاء وزان كتاب حرّ النار وصليت اللحم أصليه من باب رمى إذا شويته " .

(خِلالٌ) مخالّة أي صداقة كذا فسرها الزمخشري والجلال وغيرها وهو يقتضي أنها مفرد وفي القرطبي : انه جمع خلة بالضم مثله قلة وقلال وفي الأساس ما يؤيد انه مفرد قال : " هو خليلي وخلّي وخلتي وهم أخلائي وخلّاني وبيننا خلة قديمة ، وخاللته مخالّة وخلالا " وما يؤيد أنه جمع قال : " وهذه خلة صالحة وفيه خلال حسنة " .

الاعراب :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ)

(448/421)

---

الهمزة للاستفهام التعجبي أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء الكفرة الذي لا يصدر عمن له أدنى إدراك . ولم حرف نفي وقلب وجزم وإلى الذين متعلقان بتر وجملة بدلوا صلة ونعمة اللّه مفعول به ثان لأنه هو الذي يدخل عليه حرف الجر أي بنعمة اللّه وكفرا هو المفعول الأول

قال أبو حيان : " وزعم الحوفي وأبو البقاء ان كفرا هو مفعول ثان لبدلوا وليس بصحيح لأن "

بدّل " من أخوات " اختار " فالذي يباشره حرف الجر هو المفعول الثاني والذي يصل اليه

الفعل بنفسه لا بواسطة حرف الجر هو المفعول الاول " وأحلوا عطف على بدلوا وقومهم

مفعول به أول ودار البوار مفعول به ثان . (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ) جهنم بدل أو

عطف بيان من دار البوار أو بنصبه بفعل محذوف يفسره ما بعده أي يصلون جهنم وجملة

يصلونها حالية على الأول وتفسيرية على الثانية والواو حالية وبئس القرار فعل وفاعل

والمخصوص بالذم محذوف أي هي . (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) الواو عاطفة

وجعلوا فعل وفاعل ولله في محل نصب مفعول به ثان لجعلوا وأندادا مفعول به أول ولك أن

تعلق لله بمحذوف حال وليضلوا قيل اللام للعاقبة أو الصيرورة وقيل هي على بابها من

التعليل ولكن ليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الأنداد ولكن لما كان ذلك نتيجة له

شبه بالغرض وأدخل عليه اللام بطريق الاستعارة التبعية ويضلوا منصوب بأن مضمرة بعد

لام العاقبة أو لام التعليل والواو فاعل وعن سبيله متعلقان بيضلوا . (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ

إِلَى النَّارِ) قل فعل أمر وجملة تمتعوا مقول القول وتمتعوا فعل أمر وفاعله ، فإن : الفاء للتعليل

وان واسمها والى النار خبرها . (

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) اتفق أكثر المعربين على أن مقول القول محذوف يدل

عليه جوابه أي قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا وسيرد على هذا القول

ما اعترض به بعضهم وذلك في باب البلاغة والذين صفة لعبادي وجملة آمنوا صلة ويقيموا مجزوم في جواب الأمر أي إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا إلخ يقيموا الصلاة وينفقوا وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا بمعنى ليقيموا ولينفقوا فهما مجزومان بلام الأمر ويكون هذا هو المقول وسيرد في باب البلاغة بحث طريف بهذا الصدد والصلاة مفعول به .

وعبارة ابن هشام في المغني : " والجمهور على أن الجزم في الآية- أي قل لعبادي- مثله في قولك ائتني أكرمك وقد اختلف في ذلك على ثلاثة أقوال :

1- أحدها للخليل وسيبويه انه بنفس الطلب لما تضمنه من معنى ان الشرطية كما أن أسماء الشرط انما جزمت لذلك .

2- والثاني للسيرافي والفارسي انه بالطلب لنيابته مناب الجازم الذي هو الشرط المقدر كما أن النصب بضربا في قولك ضربا زيدا لنيابته عن أضرب لا لتضمنه معناه .

3- والثالث للجمهور انه بشرط مقدر بعد الطلب وهذا أرجح من الأول لأن الحذف والتضمين وان اشتركا في أنهما خلاف الأصل لكن في التضمين تغيير معنى الأصل ولا كذلك الحذف وأيضا فإن تضمين الفعل معنى الحرف إما غير واقع أو غير كثير ومن الثاني

لأن نائب الشيء يؤدي معناه والطلب لا يؤدي معنى الشرط ، وأبطل ابن مالك بالآية أن يكون الجزم في جواب شرط مقدر لأن تقديره يستلزم أن لا يتخلف أحد من المقول له ذلك عن الامتثال لكن التخلف واقع وأجاب ابنه بأن الحكم مسند إليهم على سبيل الإجمال لا إلى كل فرد فيحتمل

(450/421)

---

أن الأصل يقيم أكثرهم ثم حذف المضاف وأنيب عنه المضاف اليه فارتفع واتصل بالفعل وباحتمال انه ليس المراد بالعباد الموصوفين بالإيمان مطلقا بل المخلصين منهم وكل مؤمن مخلص قال له الرسول أقم الصلاة أقامها ، وقال المبرد : التقدير قل لهم أقيموا يقيموا والجزم في جواب أقيموا المقدر لا في جواب قل ويرده أن الجواب لا بد أن يخالف المجاب إما في الفعل والفاعل نحو ائتني أكرمك أو في الفعل نحو أسلم تدخل الجنة أو في الفاعل نحو قم أقم ولا يجوز أن يتوافقا فيهما وأيضا فإن الأمر المقدر للمواجهة ويقيموا للغيبة وقيل يقيموا مبني لحلوله محل أقيموا وهو مبني وليس بشيء وزعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذفت حذفا مستمرا في نحو قم واقعد وان الأصل لتقم ولتقعد فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة وبقولهم أقول لأن الأمر معنى فحقه أن يؤدى بالحرف ولأنه أخو النهي ولم يدل

عليه إلا بالحرف ولأن الفعل إنما وضع لتقييد الحدث بالزمان المحصل وكونه أمرا أو خبرا خارج عن مقصوده ولأنهم قد نطقوا بذلك الأصل كقوله " لتقم أنت يا ابن خير قريش " .

(وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً) وينفقوا عطف على يقيموا ومما رزقناهم متعلقان بينفقوا وسرا وعلانية منصوبان على الحال أي ذوي سر وذوي علانية بمعنى مسرين ومعلنين أو على المصدر أي انفاق سر وعلانية أو على الظرفية أي وقتي سر وعلانية أو بنزع الخافض أي في سر وعلانية . (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ) من قبل متعلقان بينفقوا وان وما في حيزها مصدر مضاف لقبل ويوم فاعل يأتي ولا نافية للجنس أهملت لتكرارها كما في لا حول ولا قوة وقد تقدمت الأوجه فيها وبيع مبتدأ وفيه خبر ولا خلال عطف على لا بيع . (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(451/421)

---

الله مبتدأ والذي خبره وخلق صلة والسموات والأرض مفعوله . (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) وأنزل عطف على خلق والفاعل مستتر هو الله ومن السماء متعلقان بأنزل وماء مفعول به فأخرج عطف على أنزل وبه جار ومجرور متعلقان بأخرج ومن الثمرات حال لأنه تقدم على موصوفه وهو رزقا ، ورزقا مفعول به ولكم صفة

لرزقا . (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) وسخر لكم الفلك عطف على ما تقدم ولتجري اللام للتعليل وتجري منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفي البحر متعلقان بتجري وبأمره حال. (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ) عطف على ما تقدم. (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ) عطف أيضا ودائبين حال من الشمس والقمر فلما اتفقا لفظا ومعنى ثنيا ولا يضر اختلافهما في التذكير والتأنيث. (وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ) وآتاكم عطف أيضا وهو فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومن كل متعلقان بآتاكم وما موصول مضاف لكل وسألتموه صلة ويجوز أن تكون ما مصدرية. (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها) الواو عاطفة وان شرطية وتعدوا فعل الشرط والواو فاعل ونعمة الله مفعول تعدوا ولا نافية وتحصوها جواب ان. (إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) جملة مستأنفة مسوقة للتأكيد على جحود الإنسان الظالم لآلاء الله ونعمه متغافل عن شكرها وان واسمها واللام المزحلقة وظلوم خبر ان الأول وكفار خبر إن الثاني.

البلاغة:

في هذه الآيات من التهديد والوعيد والارعاد والابراق ما فيها، وسنورد خصائصها بصورة متعاقبة:

فأولها: التعجب الوارد بصيغة الاستفهام من أعمالهم التي لا تمت إلى الحلم بصلة فقد بدلوا نفس النعمة كفرا وجنوا على أنفسهم وعلى قومهم.

وثانيهما : الاستعارة في قوله ليضلوا عن سبيل اللّه ولم يكن ذلك غرضا لهم ولكنه شبيه به لأنه نتيجة محتومة لاتخاذ الأنداد فهي استعارة تصريحية تبعية .

وثالثهما : حذف المقول من قوله " قل لعبادي الذين آمنوا إلخ" وقد رد الحذاق على هذا الاعراب بقوله " وفي هذا الاعراب نظر لأن الجواب حينئذ يكون خبرا من اللّه تعالى بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم وخبر اللّه يجل عن الحلف وهذه النكتة هي الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الاعراب مع تبادره فيما ذكر بادي الرأي ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ويقوى بوجهين لطيفين أحدهما ان هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالايمان الحق المنوه بايمانه عند الأمر كهذه الآية وغيرها مثل قوله تعالى " قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن " و" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم " والثاني تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد اللّه المشرفون باضافتهم إلى اسم اللّه تعالى وقد قالوا : إن لفظ العباد لم يرد في الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين وخصوصا إذا انضاف اليه تعالى اضافة التشريف والحاصل ان المأمور في هذه الآي من هو بصدد الامتثال وفي حيز المسارعة

للطاعة فالخبر في أمثالهم حق وصدق اما على العموم إن أريد أو على الغالب .

ورابعها : التأكيد الذي جعل الخبر إنكاريا بقوله "إن الإنسان لظلوم كفار" فقد اشتملت هذه الآية على أربعة تأكيدات أولها "ان" وثانيها "اللام المزحلقة أو لام التأكيد" وصيغة "ظلوم" وصيغة "كفار" .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 35 إلى 41]



---

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (41)

اللغة :

(وَاجْنُبْنِي) : أهل الحجاز يقولون : جنبني شره بالتشديد وأهل نجد جنبني وأجنبني والمعنى أدمنا وثبتنا على اجتناب عبادتها ، ويقال جنبه الشر وأجنبه إياه ثلاثيا ورباعيا وهي لغة نجد وجنّبه إياه مشددا وهي لغة الحجاز وهو المنع وأصله من الجانب ، وقال الراغب : " وقوله تعالى وأجنبني وبني من جنبته عن كذا أي أبعدته منه وقيل من جنبت الفرس وكأنه سأله أن يبعده عن جانب الشرك بألطاف منه وأسباب خفية وأن نعبد على حذف حرف الجر أي عن أن نعبد " وفي القاموس :

"

(454/421)

---

والجنب محركة أن يجنب فرسا إلى فرسه في السباق فاذا فتر المركوب تحول إلى المجنوب " وفي المصباح : " وجنبت الرجل الشر جنوبا من باب قعد أبعدته عنه وجنبته بالثقيل مبالغة " وفي المختار : وجنبه الشيء من باب نصر وجنّبة الشيء تجنيبا بمعنى أي نحاه عنه ومنه قوله تعالى :

" واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام " وقال أبو علي : ويقال جنبت فلانا الخير ، أي نحيته عنه

وجنبته أيضا بالتثقيل . قال أبو نصر : والتخفيف أجود قال الس :

وهوى إلى الجبل وهوى الجبل صعده هويا قال أبو بكر الهذلي يصف تأبط شرا :

وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هوي الأجدل

أي إذا قذفته في نواحي الأمكنة المتشعبة رأيته يهوى مخارمها أي يسرع في سلوك مسالكها الضيقة كهوي الأجدل وهو الصقر أي كاسراعه في الطيران " .

الاعراب :

)

(455/421)

---

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً ) إذ ظرف زمان لما مضى متعلق باذكر وجملة قال مضاف إليها الظرف وابراهيم فاعل ورب منادى محذوف منه حرف النداء مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة واجعل فعل دعاء وفاعله مستتر تقديره أنت وهذا مفعوله الأول والبلد بدل من اسم الاشارة وآمنا مفعول به ثان . (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ) واجنبني فعل دعاء والنون للوقاية والياء مفعوله وبني عطف على الياء أو مفعول معه وان نعبد ان وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض كما قال الراغب أي عن أن نعبد

والجار والمجرور متعلقان باجنبني والأصنام مفعول به لنعبد . (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ) رب منادى محذوف منه حرف النداء وقد تقدم نظيره وان واسمها وجملة أضللن خبر إن والضمير يعود على الأصنام والمراد بالدعاء طلب الثبات والدوام على ذلك وكثيرا مفعول به ومن الناس صفة لكثيرا وجملة إنهن تعليلية لقوله واجنبني . (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) الفاء عاطفة ومن اسم شرط جازم مبتدأ وتبعني فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والنون للوقاية والياء مفعول به فانه الفاء رابطة لجواب الشرط وان واسمها ومني خبرها والجملة في محل جزم جواب الشرط والفعل وجوابه خبر من .

(وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) جملة معطوفة على نظيرتها . (رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) تكرر النداء لتأكيد الابتهال والتضرع وان واسمها وجملة أسكنت خبرها ومن ذريتي متعلقان بمحذوف صفة لمفعول أسكنت المحذوف أي أسكنت ذرية من ذريتي ومن للتبعيض ، بواد جار ومجرور متعلقان بأسكنت



وغير صفة لواد وذي مضاف لغير وزرع مضاف لذي وعند بيتك الظرف صفة لواد والمحرم صفة لبيتك وسيأتي تفصيل هذا الإسكان في باب الفوائد (رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ)

كرر نداء ربنا تأكيدا للابتهال .

وليقيموا اللام لام التعليل وهي متعلقة بأسكنت أي أسكنتهم هذا الوادي الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتزق ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم أي العظيم الحرمة ويعمروه بذكراك وعبادتك . (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) الفاء الفصيحة واجعل أفئدة فعل دعاء ومفعول به ومن الناس صفة لأفئدة أي قلوبا وجملة تهوي مفعول به ثان لا جعل وإليهم متعلقان بتهوي . (وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) وارزقهم عطف على اجعل ومن الثمرات متعلقان بارزقهم أي بعض الثمرات فمن للتبعيض ولعل واسمها وجملة يشكرون خبرها . (رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ) تكرير النداء لتكرير الابتهال ودليل التضرع واللياذ بالّله تعالى . وان واسمها وجملة تعلم خبرها وما مفعول تعلم وجملة نخفي صلة وما نعلن عطف على ما نخفي . (وَما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ) يحتمل أن يكون من كلام الّله تعالى تصديقا لابراهيم أو من كلام ابراهيم . وما نافية ويخفى فعل مضارع وعلى الله جار ومجرور متعلقان بيخفى ومن زائدة وشيء مجرور بمن لفظا فاعل محلا وفي الأرض صفة لشيء ولا في السماء عطف على في الأرض . (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ) الحمد مبتدأ ولّله خبر والذي نعت لّله وجملة وهب صلة ولي متعلقان بوهب وعلى الكبر في محل نصب حال وعلى بمعنى مع

كقول الشاعر :

إني على ما ترين من كبري أعلم من حيث تؤكل الكتف

(457/421)

---

و إسماعيل مفعول به واسحق عطف عليه . (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ) إن واسمها واللام المزحلقة وسميع الدعاء خبرها والجملة تعليل لقوله وهب لي على الكبر . (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ) اجعلني فعل دعاء والياء مفعوله الأول ومقيم الصلاة مفعوله الثاني أي مستمرا عليها .

(وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ) ومن ذريتي عطف على ياء المتكلم أي واجعل بعض ذريتي مقيم الصلاة وهذا الجار في الحقيقة صفة لذلك المفعول المحذوف أي وبعضا من ذريتي ، وربنا منادى وتقبل عطف على ما تقدم ودعائي مفعول به وحذفت الياء مراعاة للفواصل . (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ) اغفر فعل دعاء ولي متعلقان باغفر ولوالدي وللمؤمنين عطف على لي ويوم ظرف زمان متعلق بمحذوف حال أي حال كون الغفران في ذلك اليوم العصيب وسيأتي مزيد بحث حول قيام الحساب في باب البلاغة .

البلاغة :

هذه الآيات مجموعة رائعة من الابتهالات التي تغرق نفس المؤمن في سبحاتها وتذوب في بحرانها الجميل ، وقد انطوت على مجموعة من الفنون البلاغية نوجزها فيما يلي :

1- المجاز العقلي في اسناد الإضلال للاصنام وهي جمادات أو مجاز مرسل والعلاقة هي السببية لأنها سبب الإضلال .

2- الطباق بصورة متعددة كقوله تعالى " ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن " و" وما يخفى عليه من شيء في الأرض ولا في السماء " .

3- الاستعارة في قوله " يوم يقوم الحساب " أي يثبت وهو مستعار من قيام القائم على الرجل والدليل عليه قولهم : قامت الحرب على ساقها ونحوه ولك أن تجعله مجازا مرسلا علاقته المحلية مثل واسأل القرية .

الفوائد :

قصة اسكان ابراهيم ذريته :

روى التاريخ أن هاجر كانت جارية لسارة فوهبتها لابراهيم فولدت منه إسماعيل فغارت سارة منهما لأنها لم تكن قد ولدت قط فأنشد ته اللّه أن يخرجها من عندها فأمره اللّه تعالى بالوحي أن ينقلها إلى أرض مكة فأتى من الشام ووضعها في مكة ورجع من يومه فتبعته هاجر فقالت أين تذهب وتتركني بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولا شيء فلم يلتفت فقالت : آللّه أمرك بذلك ؟ قال : نعم ، فقالت : إذن لا يضيعني ثم رجعت فانطلق ابراهيم ثم رفع يديه إلى السماء وتلا الابتهالات التي عبر اللّه عنها بآياته الرائعة وترك عندها جرابا من تمر وسقاء من ماء فلما نفد الماء عطشت هي وابنها فجاء جبريل وضرب موضع زمزم بعقبه أو جناحه فخرج الماء فجعلت تشرب منه فمكثوا كذلك حتى مرت بهم قبيلة من جرهم كانوا ذاهبين إلى الشام فعطشوا فرأوا الماء عندها فقالوا لها : تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم فلما شب إسماعيل تعلم منهم العربية وكان أنفسهم وأعجبهم فزوجوه امرأة منهم وماتت أمه بعد ما تزوج إلى آخر هذه القصة التي تحتاج إلى القلم المبدع ليحيك منها المسرحية الخالدة .

[سورة إبراهيم (14) : الآيات 42 إلى 52]

وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (46)

فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (49) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (51)

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (52)

اللغة :

(مُهْطِعِينَ) : مسرعين إلى الداعي وقيل : الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف وفي المختار : " اهطع الرجل إذا مدّ عنقه وصوب رأسه ، وأهطع في عدوه أسرع " وفي الأساس : " بعير مهطع : في عنقه تصويب وقيل : هو المسرع وقد أهطع في

سيره واستهطع وقال :

تعبّدني نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

(460/421)

---

وقال آخر يصف ثورا :

بمستهطع رسل كأنّ زمامه بقيدوم رعن من رضام ممتّع

(مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ) : الإقناع رفع الرأس وإدامة النظر من غير التفات إلى غيره . وفي القاموس " وأقنعه أرضاه ورأسه نصبه ورفعه أو لا يلتفت يمينا ولا شمالا وجعل طرفه موازيا " وقيل الاقناع من الاضداد يكون رفعا وخفضا ، " مقنعي رءوسهم " رافعيها .

(الطرف) : في الأصل مصدر والطرف أيضا : تحريك الجفن قال جرير :

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك وهنّ أضعف خلق اللّه إنسانا

(مُقَرَّنِينَ) : قرن بعضهم مع بعض أقرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين .

(الْأَصْفادِ) : القيود وقيل الأغلال وانشد لسلامة بن جندل :

وزيد الخيل قد لاقى صفادا يعضّ بساعد وبعظم ساق

وهو جمع صفد يقال صفده يصفده صفدا من باب ضرب قيده وصفّده مشددا للتكثير

ومن أقوالهم " الصّفد صفد " أي العطاء قيد ومن المجاز صفّدته بكلامي تصفيدا إذا

غلبته ، وقال عمرو ابن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفّدينا

(قَطِرانٍ) : القطران فيه ثلاث لغات : قطران بفتح القاف وكسر الطاء وقطران بزنة سكران

وقطران بكسر القاف وسكون الطاء بزنة سرحان وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل

فيطبخ فتهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحره وحدته ، والجلد وقد تبلغ حرارته الجوف

ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار وقد يستسرج به وهو أسود اللون منتن الريح فتطلى به

جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص ليجتمع عليهم لذع القطران

وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح وفي المنجد : " القطران

والقطران والقطران : سيال دهني يتخذ من بعض الأشجار كالصنوبر والأرز " .

الاعراب :

)

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الواو استئنافية ولا ناهية وتحسبن فعل مضارع مبني على الفتح لا تصاله بنون التوكيد

الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ولفظ الجلالة مفعول به أول وغافلا مفعول به ثان وعما متعلقان بغافلا وجملة يعمل الظالمون صلة. ﴿إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾ الجملة مستأنفة أيضا مسوقة لتعليل النهي السابق وانما كافة ومكفوفة ويؤخرهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وليوم متعلق بيؤخرهم وجملة تشخص صفة ليوم وفيه متعلقان بتشخص والأبصار فاعل والمعنى لا تستقر في أماكنها من هول ما ترى. ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ مهطعين ومقنعي رءوسهم حالان من المضاف المحذوف إذ التقدير أصحاب الأبصار أو تكون الأبصار دلت على أصحابها فجاءت الحال من المدلول عليه وجملة لا يرتد إليهم طرفهم حال ثالثة من الضمير في مقنعي رءوسهم ويجوز أن تكون مستأنفة وأفئدتهم الواو للحال أيضا ، وأفئدتهم هواء مبتدأ وخبر والجملة حال رابعة ويجوز أن تكون الواو استئنافية والجملة مستأنفة.

)

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) وأنذر عطف على قوله ولا تحسبن والناس مفعول به أول ويوم مفعول به ثان لا مفعول فيه كما يتوهم للوهلة الاولى على حذف المضاف أي أنذرهم أهواله وعظائمه إذ لا إنذار في ذلك اليوم وإنما الانذار يقع في الدنيا وجملة يأتيهم العذاب مضافة للظرف ويأتيهم فعل ومفعول به والعذاب فاعل مؤخر. (فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) الفاء عاطفة ويقول عطف على يأتيهم والذين فاعل وجملة ظلموا صلة وربنا منادى مضاف وأخرنا فعل وفاعل مستتر ومفعول به والى أجل متعلقان بأخرنا وقريب صفة ونجب جزم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر تقديره نحن ودعوتك مفعول به. (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ) الهمزة للاستفهام التوبيخي التقريري والواو عاطفة ولم حرف نفي وقلب



وجزم وتكونوا مضارع ناقص مجزوم بلم والواو اسمها والجملة مقول القول محذوف أي فيقال لهم هذا القول توبيخا وتقريعا ، وجملة أقسمتم خبر تكونوا وما نافية حجازية أو تميمية ولكم خبر مقدم ومن حرف جر زائد وزوال اسم ما أو مبتدأ مؤخر محلا مجرور بمن لفظا

والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وجاءت بلفظ الخطاب مراعاة لقوله أقسمتم .

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) وسكنتم عطف على أقسمتم وهو فعل وفاعل وفي مساكن جار ومجرور متعلقان بسكنتم والذين مضاف لمساكن وجملة ظلموا صلة وأنفسهم مفعول به . (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) وتبين عطف على ما تقدم والفاعل مقدر على منطوق الجملة أي حالهم وذلك بالأخبار والمشاهدة ولكم متعلقان بتبين وكيف مفعول مطلق أي أيّ فعل فعلنا بهم ولك أن تعربها حالا ولا يصح أن تكون فاعلا لتبين لأن اسم الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وله الصدارة وفعلنا فعل وفاعل وبهم متعلقان بفعلنا ، وضربنا : لك أن تعطفه على تبين ولك أن تجعله مستأنفا وضربنا فعل وفاعل والأمثال مفعول به ولكم متعلقان بضربنا . (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) الواو عاطفة وقد حرف تحقيق ومكروا فعل وفاعل ومكرهم مفعول مطلق والواو حالية وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ومكرهم مبتدأ مؤخر والهاء مضاف اليه وهي إما هاء الفاعل فيكون المعنى ومكتوب عند اللّه مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر أعظم ويجوز وإن نافية وكان فعل ماض ناقص ومكرهم اسمها واللام لام الجحود الذي يستحقونه يأتيهم من حيث لا يشعرون والأول أولى لتلاؤمه مع هاء مكرهم الأولى . (وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ) الواو عاطفة وإن نافية وكان فعل ماض ناقص مكرهم اسمها واللام لام الجحود وتزول فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود والجار

والمجرور خبر كان ومنه متعلقان بتزول والجبال فاعل والمعنى ولن تزول الجبال بمكرهم وسيأتي معنى ضرب المثل بالجبال في باب البلاغة.

(فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) عطف تفريعي على ولا تحسبن ولا ناهية وتحسبن مجزوم محلا بلا الناهية ولفظ الجلالة مفعول به ومخلف مفعول ثان لتحسبن وهو اسم فاعل ووعده مضاف إلى مخلف وهو المفعول الثاني لمخلف ورسله هو المفعول الاول لمخلف والأصل مخلف رسله وعده ولكنه قدم الوعد لأهميته وإيذانا منه بأنه لا يخلف الوعد أصلا. (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ) ان واسمها وخبرها وذو انتقام خبر ثان لها. (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ) يوم الظرف بدل من يوم يأتيهم العذاب أو متعلق بمحذوف أي اذكر يوم وجملة تبدل مضاف إليها الظرف وتبدل فعل مضارع مبني للمجهول والأرض نائب فاعل وغير الأرض مفعول تبدل الثاني والسموات عطف على الأرض أي تتغير معالمهما على حد قوله:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعلم

وفي المطولات أحاديث وأقوال عن تبدل الأرض والسموات لا بأس بالرجوع إليها. (وَبَرَزُوا

لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ) عطف على تبدل فهو ماض بمعنى المضارع ولله متعلقان ببرزوا والواحد القهار صفتان لله . (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ) عطف على تبدل أيضا والمجرمين مفعول به والرؤية هنا بصرية أي تراهم رؤية العين ويومئذ ظرف أضيف اليه ظرف وهو متعلق بتراهم ومقرنين حال من المجرمين وفي الأصفاد جار ومجرور متعلقان بمقرنين أو بمحذوف حال (سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ) الجملة حال ثانية أو جملة مستأنفة وسرابيلهم مبتدأ ومن قطران خبره

(465/421)

---

(وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النّارُ) عطف على الجملة الحالية وتغشى فعل مضارع ووجوهم مفعول به مقدم والنار فاعل مؤخر . (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ) اللام لام التعليل ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان ببرزوا والله فاعل وكل نفس مفعول به وما كسبت ما مفعول به ثان وجملة كسبت صلة . (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ) ان واسمها وخبرها والجملة تعليلية لا محل لها . (هذا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ) هذا مبتدأ وبلاغ خبر وللناس صفة ولينذروا معطوف على محذوف أي لينصحوا ويحذروا وبه متعلقان بينذروا .

(وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ) وليعلموا عطف على لينذروا وإنما كافة ومكفوفة وقد سدت مسد مفعولي يعلموا وهو مبتدأ وإله خبر وواحد صفة وليذكر عطف على ما تقدم وأولو الألباب فاعل .

البلاغة :

الاستعارة التمثيلية في قوله " وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال " فقد شبه بقوله لتزول منه الجبال مكرهم لتفاقمه وشدته ، وافتنانهم فيه . وبلوغهم الغاية منه وشبه شريعته وآياته وما أنزله على نبيه من تعاليم سامية ، وحجج بينة شبهها بالجبال في رسوخها وتمكنها من نفوس المؤمنين بها المتشبثين بأهدابها وهي من أرقى الاستعارات وأجملها وتزداد روعتها بأن صدور المكر المعدّ لإزالة الجبال صادر عن قوم جوف لا جدوى فيه ولا قوة لهم ، وهم في تقلبهم وخفتهم أشبه بالهواء إذ قال قبل ذلك " وأفئدتهم هواء " والهواء الخلاء والخواء الذي لم تشغله الاجرام فوصف به القلب فقيل قلب هواء إذا كان

قزوقة جبانا لا قوة في قلبه ولا جرأة ويقال للأحمق أيضا قلبه هواء ، قال زهير بن أبي سلمى يصف ناقته :

كأن الرجل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء

الصعل : المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس والظلمان جمع ظليم وهو ذكر النعام ، والجؤجؤ الصدر وجعل صدره فارغا ليكون أسرع في السير إلى طعامه ، والنعام مثل في الجبن والخوف والحمق .

وقال حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان قبل إسلامه :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوف نخب هواء

بأن سيوفنا تركت عبيدا وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند اللّه في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

أمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد فيكم وقاء

والمجوف والنخب والهواء : خالي الجوف أو فارغ القلب من العقل والشجاعة ، وقد رمق شوقي في العصر الحديث هذا المعنى فاقتبسه لوصف الغيد العذارى بقوله :

فاتقوا اللّه في قلوب العذارى فالعذارى قلوبهن هواء

الفوائد :

معنى تبدل الأرض غير الأرض :

ننقل لك خلاصة كلام الامام الرازي في قوله تعالى " يوم تبدل الأرض غير الأرض " إلى آخر الآية لأهميته ثم نعقب على هذا الكلام بكلمات لا تقل عنه أهمية . قال الرازي :

" اعلم أن التبديل يحتمل وجهين أحدهما : أن تكون الأرض باقية وتبدل صفتها بصفة أخرى والثاني أن تفنى الذات وتحدث ذات ثانية والدليل على أن اطلاق التبديل لإرادة التغيير في الصفة جائز انه يقال بدلت الحلقة خاتما إذا أنت سويتها خاتما فنقلتها من شكل إلى شكل ومنه قوله تعالى " فأولئك يبدل اللّه سيئاتهم حسنات " ويقال بدلت قميصي جبة أي نقلت العين من صفة إلى صفة أخرى ويقال تبدل زيد إذا تغيرت أحواله ، أما ذكر التبديل عند وقوع المبدل في الذات فكقولك بدلت الدرهم دنانير ومنه قوله تعالى " بدلناهم جلودا غيرها " وقوله : " وبدلناهم بجنتيهم جنتين " فإذا عرفت أن اللفظ محتمل لكل واحد من هذين المفهومين ففي الآية قولان :



---

الاول : المراد تبديل الصفة لا تبديل الذات . . . . وقوله والسموات أي وتبدل السموات بانتثار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها وكورها فتارة تكون كالمهل وتارة تكون كالدهان .

القول الثاني : ان المراد تبديل الذات قال ابن مسعود تبدل بأرض كالفضة البيضاء النقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة " انتهى كلام الرازي .

وقد علل الفيلسوف الشيخ علاء الدين بن النفيس في رسالته التي عارض بها رسالة حي بن يقظان لا بن الطفيل خراب هذه الدار وفساد هذا العالم وظهور الآيات فقال ما معناه ملخصا : وإذ قد ثبت أن ميل الشمس إلى الشمال والجنوب يتناقص دائما فإذا بطل هذا الميل أو قرب منه صارت الشمس دائمة المسامتة لخط الاستواء أو ما يقرب منه فلذلك تحدث حرارة شديدة جدا ويحدث في البقاع التي لها عرض بعيد برد مفرط فتفسد الأمزجة وتضعف القلوب ويكثر موت الفجأة وتسوء الأخلاق فتفسد المعاملات وتكثر الشرور والمخاصمات وتكثر الحروب والفتن ويتقدم الأشرار وتفسد الأذهان ، وبفسادها تبعد الناس عن قبول العلوم والحكمة " إلى أن يقول : " وإذا دام فقدان ميل الشمس مدة أفرط الخروج عن الاعتدال حتى أفسد الأمزجة الحيوانية والنباتية وكان من ذلك القيامة " انتهى كلام ابن النفيس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 211.140 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الثانى والعشرون بعد الأربعمائة

( سورة الحجر )

(4/422)

---

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الحجر)

(5/422)

---

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

زمرة لأَحاديث واهية .

منها : مَن قرأَ سورة الحِجْر كان له من الأَجْر عشرُ حسنات بعدد المهاجرين ، والأَنصار ، والمستهزئين ، بمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم .

وعن جعفر أَنَّه قال : من قرأ سورة الحِجْر لا يصيبه عطش يوم القيامة .

ومَنْ قرأها فى ركعتى كلِّ جمعة لم يصبه فقر أَبداً ، ولا جنون ، ولا بَلْوَى .

وحديثُ علىّ : يا علىّ مَن قرأَ سورة الحِجْر لا يُنصبِ له ميزان ، ولا يُنشَر له دِيوان ، وقيل

له : ادخل الجنَّة بغير حساب .

وله بكلِ آية قرأَها مثل ثُواب أَصحاب البلاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 277 ﴾

(6/422)

---

فصل

قال الآلوسى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

15 - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم أنها نزلت بمكة وروي ذلك عن قتادة ومجاهد وفي مجمع البيان عن الحسن أنها مكية إلا قوله تعالى : ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم وقوله سبحانه : كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين وذكر الجلال السيوطي في الإتقان عن بعضهم استثناء الآية الأولى فقط ثم قال قلت : وينبغي استثناء قوله تعالى : ولقد علمنا المستقدمين الآية لما أخرجه الترمذي وغيره في سبب نزولها وإنها في صفوف الصلاة وعلى هذا فقول أبي حيان ومثله

في تفسير الخازن أنها مكية بلا خلاف الظاهر في عدم الاستثناء ظاهر في قلة التتبع وهي تسع وتسعون آية قال الداني : وكذا الطبرسي بالإجماع وتحتوي على ما قيل على خمس آيات نسختها آية السيف ووجه مناسبتها لما قبلها أنها مفتتحة بنحو ما افتتح به السورة السابقة ومشتملة أيضا على شرح أحوال الكفرة يوم القيامة وودادتهم لو كانوا مسلمين وقد اشتملت الأولى على نحو ذلك وأيضا ذكر في الأولى طرف من أحوال المجرمين في الآخرة وذكر هنا طرف مما نال بعضا منهم في الدنيا وأيضا قد ذكر سبحانه في كل مما يتعلق بأمر السماوات والأرض ما ذكر وأيضا فعل سبحانه نحو ذلك فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام وأيضا في كل من تسلية نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ما فيه إلى غير ذلك مما لا يحصى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ 2 ﴾

(7/422)

---

فصل فى مقصود السورة الكريمة

قال البقاعى :

سورة الحجر

مقصودها وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للمعاني الواضحة للحق من غير

اختلاف أصلا ، وأشكل ما فيها وأمثلة في هذا المعنى قصة أصحاب الحجر ، فإن وضوح آيتهم عندهم وعند كل من شاهدها أو سمع بها كوضوح ما دل عليه مقصود هذه السورة في أمر الكتاب عند جميع العرب لا سيما قريش ، وأيضا آيتهم في غاية الإيضاح للحق والجمع لمعانيه الدائرة على التوحيد المقتضي للاجتماع على الداعي ، ومن يتضح ويتأيد ما اخترته من الإعراب لقوله تعالى ( كما أنزلنا على المقتسمين ) ، ومن هنا تعليقي له ب ( كانوا عنها معرضين ) المقتضي لشدة الملابسة بين شأنهم في كفرهم وشأن قريش في مثل ذلك - كما ستراه ، على أن لفظ الحجر يدل على مادل عليه مقصود السورة من الجمع والاستدارة التي روحها الإحاطة المميزة للمحاط به من غيره بلا لبس أصلا - والله أعلم . انتهى ا . هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 199 ﴾

*(8/422)*

---

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى . . الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين )

السّورة مكِّيّة إِجماعاً .

وعدد آياتها تسع وتسعون بلا خلاف.

وكلماتها ستّمائة وأَربع وخمسون.

وحروفها أَلفان وسبعمائة وستون.

ومجموع فواصل آياتها (ملْن) على اللاَّم منها آيتان: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.

وتسمّى سورة الحِجْر؛ لاشتمالها على قصّتهم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(9/422)

---

مقصود السّورة إِجمالاً: بيان حقيقة القرآن، وحفظ الحقِ وبرهان النبوّة وحفظ الحقّ كتابَه العزيز من التغيير والتبديل، وتزيين السّموات بمواكب الكواكب وحفظهما برُجوم النجوم من استراق الشَّياطين السّمع، وتقديره تعالى الماء والسّحاب من خزائن برّه، ولُطْفه، وعلمه تعالى بأَحوال المتقدّمين فى الطَّاعة والمتأَخّرِين عنها، وبيان الحكمة فى تخليق آدم، وأَمر الملائكة المقرّبين بسجوده، وتعيير إِبليس، وملامته على تأَبِّيه واستكباره وجحوده، واستحقاقه اللَّعننة من الله بعصيانه وطغيانه، وجراءَته بالمناظرة لخالقه ومعبوده، وبيان

قَسْم الدّركات (على أَهل اللذات) والضَّلالات، وذكر المستوجبى الجنَّة من المؤمنين، وإِخبار الله تعالى عبادَه بالرحمة والغفران، وتهديدهم بالعذاب والعقاب، والإِشارة إِلى ذكر أَضياف الخليل عليه السّلام، والنَّهى عن القنُوط من الرّحمة، وذكر آل لوط، وسكرتهم فى طريق العَماية والضَّلالة، وتسلية النَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم عن جفاءِ الكفَّار، وبذىءِ أَقوالهم، والمَنّ عليه صَلَّى الله عليه وسلَّم بنزول السّبع المثانى، ومشون القرآن العظيم، والشكوى عن الطَّاعنين فى القرآن، وذكر القَسَم بوقوع السّؤال فى القيامة، وأَمر الرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بإِظهار الدّعوة، والمنّ عليه بإِهلاك أَعداءِ دينه، ووصيّته بالعبادة إِلى يوم الحقِ واليقين فى قوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .

النّاسخ والمنسوخ:

فيها من المنسوخ أَربع آيات

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ م آية السّيف ن ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ م آية السّيف ن ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ م آية السّيف ن ﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ آية السّيف ن. انتهى

انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 272. 274﴾

(10/422)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الحجر

222 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ) وفى الزخرف :

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ) ؟ .

جوابه :

أن في الحجر : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) فذكر الرسالة فقط فناسب :

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ) .

وفى الزخرف : تقدم ذكر النبوة في قوله تعالى : (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) .

فناسب : (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ) والله أعلم .

223 - مسألة :

قوله تعالى لإبليس : (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35)

وفى ص : (لعنتى) ؟ .

جوابه :

لما أضاف خلق آدم إليه تشريفا له بقوله : (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)

أضاف طرد عدوه إليه أيضا زيادة في كرامته .

224 - مسألة :

قوله تعالى : (لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

وقال (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ) (1)

225 - مسألة :

قوله تعالى : (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73)

وقال فى هود : (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) :

جوابه :

تقدم في هود .

226 - مسألة :

ضشئيرفئبن (6) وقال في

قول تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) ) وقال

---

(1) جوابها فى سورة الزمر المسألة (375)

بعد : (لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)) ؟ .

جوابه :

أن قصة إبراهيم ولوط اتفق فيها آيات متعددة من إرسال الملائكة إليهما وما جرى بينهم من المحاورة وبين لوط وقومه ، وكيفية هلاكهم ، فلذلك جمع . وقصة هود وهلاكهم هنا آية واحدة فلم يذكر سواه فأفرد الآية .

227 - مسألة :

قوله تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) وقال في القصص : (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)) وفى الرحمن قال تعالى : (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)) .

جوابه :

قيل : في القيامة مواقف عدة ، ففي بعضها يسأل ، وفى بعضها لا يسأل .

وقيل : (لَنَسْأَلَنَّهُمْ) لما عملوا ، "ولايسألون" ماذا عملوا لأنه أعلم بذلك .

وقيل : (لَنَسْأَلَنَّهُمْ) سؤال توبيخ ، و(لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ) سؤال استعلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 222 . 224﴾

(12/422)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات

قوله : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا ﴾ وفى غيرها : (لولا) ؛ لأَنَّ (لولا) يأْتى على وجهين : أَحدهما امتناع الشىء لوجود غيره ؛ وهو الأَكثر .

والثانى بمعنى (هَلاَّ) وهو التَّحضيض .

ويختصّ بالفعل ، و (لوما) بمعناه .

وخُصّت هذه السّورة بـ لوما ؛ موافقةً لقوله : (رُبما) فإِنَّها أَيضاً مّما خُصّت به هذه السّورة .

قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً ﴾ ، وفى البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ﴾ ولا ثالث لهما ؛ لأَن (جَعَل) إِذا كان بمعنى (خَلَقَ) يُستعمل فى الشىء يتجدّد ويتكرّر ؛ كقوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ، لأَنَّهما يتجدّدان زماناً بعد زمان .

وكذلك الخليفة يدلّ لفظه على أَنَّ بعضهم يخلف بعضاً إِلى يوم القيامة .

وخُصّت هذه السّورة بقوله : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ ﴾ إِذ ليس فى لفظ البَشَر ما يدلّ على التجدّد والتكرار ، فجاءَ فى كلٍّ واحدة من السّورتين ما اقتضاه ما بعدهما من الأَلفاظ .

قوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فى هذه السّورة ، وفى ص ؛ لأَنّه لمّا بالغ فى السّورتين فى الأَمر بالسّجود وهو قوله : ﴿ ﴾ ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فى السّورتين بالغ فى الامتثال فيهما فقال : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ليقع الموافقة بين أُولاها وأُخراها .

وتمام قصّة آدم وإِبليس سبق .

قوله هنا لإِبليس : ﴿ اللَّعْنَةُ ﴾ وقال فى ص ﴿ لَعْنَتِي ﴾ لأَنّ الكلام فى هذه السّورة جَرَى على الجنس فى أَوّل القصّة فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ ﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ ﴾ ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ لذلك قال : ﴿ اللَّعْنَةُ ﴾ وفى ص تقدّم ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فختم بقوله ﴿ لَعْنَتِي ﴾ .

(13/422)

---

قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وزاد فى هذه السّورة ﴿ إِخْوَانًا ﴾ لأَنّها نزلت فى أَصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وما سواها عامّ فى المؤمنين .

قوله فى قصّة إِبراهيم : ﴿ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ لأَن هذه السّورة متأَخرة ، فاكْتُفى بما فى هود ؛ لأَنّ التّقدير : فقالوا : سلاماً ، قال : سلام ، فما لبث أَن جاءَ بعجل

حنيذ ، فلما رأَى أَيديَهم لاتصل إِليه نكِرهم وأَوجس منهم خيفة ، قال : إِنا منكم وجلون .

فحذف للدّلالة عليه .

قوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ وفى غيرها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ قال بعض المفسّرين :

(عليهم) أَى على أَهلها ، وقال بعضهم : على من شَذّ من القرية منهم .

وقال تاج القراء : ليس فى القولين ما يوجب تخصيص هذه السّورة بقوله : (عليهم) بل هو

يعود إِلى أَوّل القصّة ، وهو ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ ثمّ قال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال : وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ بالجمع وبعدها ﴿ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على

التَّوحيد .

قال الإِمام : الأُولى إِشارة إِلى ما تقدّم من قصّة لوط [وضيف إِبراهيم ، وتعرّض قوم لوط

لهم] طمعاً فيهم ، وقلب القرية على من فيها ، وإِمطار الحجارة عليها ، وعلى من غاب

منهم .

فختم بقوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أَى لمَن يتدبّر السِّمَة ، وهى ما وَسَم الله به قوم لوط

وغيرهم ، قال : والثانية تعود إِلى القرية : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ وهى واحدة ، فوحّد

الآية .

وقيل : ما جاءَ فى القرآن من الآيات فلجمع الدّلائل ، وما جاءَ من الآية فلوحدانيّة المدلول

عليه .

فلمّا ذكر عِقِبه المؤمنين ، وهم مُقِرُّون بوحدانية الله تعالى ، وحّد الآية .

(14/422)

---

وليس لها نظير إلاَّ فى العنكبوت ، وهو قوله تعالى ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فوحّد بعد ذكر الجمع لِمَا ذكرت والله أَعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 274 . 277 ﴾

(15/422)

---

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة الحجر

249 - قوله لو ما تأتينا 7 وفي غيرها لولا 34 3 لأن لولا تأتي على وجهين أحدهما امتناع الشيء لوجود غيره وهو الأكثر والثاني بمعنى هلا وهو للتحضيض ويختص بالفعل ولولا بمعناه وخصت هذه السورة بلوما موافقة لقوله تعالى ربما يود 2 فإنها أيضا مما خصت

به هذه السورة

250 - قوله وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا 28 هنا وفي ص 71 وفي البقرة وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل 30 ولا ثالث لهما لأن جعل إذا كان بمعنى خلق يستعمل في الشيء يتجدد ويتكرر كقوله خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور 1 6 لأنهما يتجددان زمانا بعد زمان وكذلك الخليفة يدل لفظه على أن بعضهم يخلف بعضا إلى يوم القيامة وخصت هذه السورة بقوله إني خالق بشرا 28 إذ ليس في لفظ البشر ما يدل على التجدد والتكرار فجاء في كل واحدة من السورتين ما اقتضاه ما بعده من الألفاظ

251 - قوله فسجد الملائكة كلهم أجمعون 30 في هذه وفي ص 73 لأنه لما بالغ في السورتين في الأمر بالسجود وهو قوله فقعوا له ساجدين في السورتين بالغ في الامتثال فيهما فقال فسجد الملائكة كلهم أجمعون لتقع الموافقة بين أولاها وأخراها وباقي قصة آدم وإبليس سبق

252 - قوله في هذه السورة لإبليس وإن عليك اللعنة 35 بالألف واللام وفي ص وإن عليك لعنتي 78 بالإضافة لأن الكلام في هذه السورة جرى على الجنس من أول القصة في قوله ولقد خلقنا الإنسان 26 والجان خلقناه 27 فسجد الملائكة كلهم 30 كذلك قال عليك اللعنة وفي ص تقدم لما خلقت بيدي 75 فختم بقوله عليك لعنتي 78

253 - قوله ونزعنا ما في صدورهم من غل 47 وزاد في هذه السورة إخوانا لأنها نزلت في أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم وما سواها عام في المؤمنين

(16/422)

---

254 - قوله في قصة إبراهيم فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون 52 لأن هذه السورة متأخرة فاكتفى بها عما في هود لأن التقدير فقالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قال إنا منكم وجلون فحذف للدلالة عليه

255 - قوله واتبع أدبارهم قد سبق

256 - قوله وأمطرنا عليهم 74 وفي غيرها فأمطرنا عليها 1 80 قال بعض المفسرين عليهم أي على أهلها وقال بعضهم على من شذ من القرية منهم

قلت وليس في القولين ما يوجب تخصيص هذه السورة بقوله عليهم بل هو يعود على أول القصة وهو إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين 58 ثم قال وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل 74 فهذه لطيفة فاحفظها

257 - قوله إن في ذلك لآيات للمتوسمين 75 بالجمع وبعدها لآية للمؤمنين 77 على

التوحيد

قال الخطيب الأولى إشارة إلى ما تقدم من قصة لوط وضيف إبراهيم وتعرض قوم لوط لهم طمعا فيهم وقلب القرية على من فيها وإمطار الحجارة عليها وعلى من غاب منهم فختم بقوله لآيات للمتوسمين أي لمن تدبر السمة وهي ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم قال والثانية تعود إلى القرية وإنها لسبيل مقيم وهي واحدة فوحد الآية

قلت ما جاء من الآيات فلجمع الدلائل وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه فلما ذكر عقيبه المؤمنون وهم المقرون بوحدانية الله تعالى وحد الآية وليس لها نظير في القرآن إلا في العنكبوت وهو قوله تعالى خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين 44 فوحد بعد ذكر الجمع لما ذكرت والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ ﴾

(17/422)

---

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة الحجر

أول الجزء الرابع عشر ، وأوله سورة الحجر ، وهى سورة مكية إلا ما قيل :

إنه يستثنى مكيته وهى الآية السابعة والثمانين ، وعدد آياتها 99 .

وقد ابتدئت بالحروف المفردة ( الر ) ، وذكر بعدها القرآن الكريم (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (1)

وقد أخبر سبحانه أنه (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ولكن غلب عليهم الهوى ، ( ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ،

وإن بين أيديهم العبر ( وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ) ومن لهوهم وعبثهم قولهم لنبيهم : ( وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7 ) ،

وإن الملائكة لا تنزل ، وإذا نزلوا لا يؤجلهم ( مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ (8)

وذلك شأن الكافرين يتوارثون ذلك الفكر السقيم جيلا بعد جيل ، وإن القرآن باق ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (10 ) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (11 ) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12 ) لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (13) .

وإن الآيات لا تخزيهم ، لأن قلوبهم أغلقت عن الحق ( وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (15)

(18/422)

---

. . بعد ذلك أخذ ينبههم سبحانه إلى خلق السموات والأرض وما فيها من عجيب التكوين ( وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (18) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20)

وبعد هذا الخلق ، وذاك التكوين كان كل شىء فى السموات والأرض بامر الله وفى قبضة يده ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) .

وإن الله تعالى ترى آثاره فى خلقه من إماتة وإحياء ( وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) .

وإذا كنتم ترون بالعيان الإحياء والإماتة فقد كان ذلك فيمن تقدم ، وفيمن تأخر ، ( وَلَقَدْ

عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) .

بعد ذلك أخذ سبحانه يذكر فى هذه السورة خلق الإنسان من طين فقال : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم .

(19/422)

---

بعد ذلك أشار سبحانه إلى خلق آدم وسجود الملائكة له ، وامتناع إبليس أن يكون من الساجدين ، وغروره بأنه من نار وادم من طين ، وقد طرده الله سبحانه من جنته وقال له : (وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، وأنظره الله إلى يوم يبعثون (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) .

بعد ذلك ذكر تعالت كلماته جزاء الذين يغويهم إبليس

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (44)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ (50)

بعد ذلك جاءت العبر فى القرآن الكريم ، وابتدأت العبر بمن هو أقرب إلى العرب نسبا ، ويعيشون فى رحاب بيت الله الذى بناه إبراهيم ، فقال فى قصة إبراهيم : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما .



---

ولأنهم ملائكة ، لم يعهد فى الأرض لقاء مثلهم – وجل منهم ، وقال : ( قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) .

هذا تذكير بالخلق والتكوين ، وأنه يجرى على حكم إرادة الله تعالى الفاعل المختار ، لا بالأسباب والمسببات ، كما يقول الجاهلون ، وإن الأسباب لا تسيطر على فعل الله تعالى ،

فالأسباب تجعل الرجل لا ينجب وهو كبير فلم ينجب وهو شاب ، ولكن بإرادة الله ينجب إبراهيم ، وامرأته عجوز عاقر .

(21/422)

---

بعد هذا ذكر القرآن الكريم ما يكون تهديدا للفاسقين الخارجين عن أمر الله تعالى ، وهم قوم لوط ، قالت رسل الله تعالى لإبراهيم : (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (60) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) .

أنزل بهم العذاب الأليم فى الدنيا ، أخذتهم الصيحة فى الصباح فجعل الله تعالى عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا

لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) .

بعد هذا يرينا الله تعالى من عجائب قدرته ليعتبر العرب فى قصة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ، وتكذيبهم الرسل ، (فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

ولقد أخذ سبحانه وتعالى يشير إلى العبر فى تكوين هذا الوجود ، (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل .

(22/422)

---

وإذا كان خلق الله السموات والأرض وما فيه من نعم للكافة ، فقد أعطاك الله نعمة القرآن : (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقران العظيم ولا تلتفت إلى ما عند غيرك ، فما عندك هو الأعظم وهو الجليل : (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) .

ولقد أمر الله نبيه بأن يصدع بما يؤمر به فقال : (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

(94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ
(98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير ص 4063.4060 ﴾

(23/422)

---

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

سميت هذه السورة الحجر ، ولا يعرف لها اسم غيره .

ووجه التسمية أن اسم الحجر لم يذكر في غيرها .

والحجر اسم البلاد المعروفة به وهو حجر ثمود .

وثمود هم أصحاب الحجر .

وسيأتي الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾ والمكتبون في كتاتيب تونس يدعونها سورة ﴿ رُبَمَا ﴾ لأن كلمة " ربما " لم تقع في القرآن كله إلا في أول

هذه السورة.

وهي مكية كلها وحكي الاتفاق عليه.

وعن الحسن استثناء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ بناء على أن سبعا من المثاني هي سورة الفاتحة وعلى أنها مدنية.

وهذا لا يصح لأن الأصح أن الفاتحة مكية.

واستثناء قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ بناء على تفسيرهم ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أنهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب.

ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة، وهذا لا نصححه كما نبينه عند الكلام على تلك الآية.

ولو سلم هذا التفسير من جهتيه فقد يكون لأن اليهود سمعوا القرآن قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بقليل فقالوا ذلك حينئذ، على أنه قد روي أن قريشا لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا في أمره يهود المدينة.

وقال في "الإتقان" ينبغي استثناء قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ لما أخرجه الترمذي وغيره في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاة اهـ.

وهو يشير بذلك إلى ما رواه الترمذي من طريق نوح بن قيس الجذامي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر (أي من صفوف الرجال) فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ .

قال الترمذي ورواه جعفر بن سليمان ولم يذكر ابن عباس .

وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح اه .

وهذا توهين لطريق نوح.

قال ابن كثير في تفسيره : " وهذا الحديث فيه نكارة شديدة .

والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر ، فلا اعتماد إلا على حديث جعفر بن سليمان وهو مقطوع .

وعلى تصحيح أنها مكية فقد عدت الرابعة والخمسين في عدد نزول السور ؛ نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام .

ومن العجيب اختلافهم في وقت نزول هذه السورة وهي مشتملة على آية ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ وقد نزلت عند خروج النبي صلى الله عليه وسلم من دار الأرقم في آخر السنة

الرابعة من بعثته .

وعدد آيها تسع وتسعون باتفاق العادين .

مقاصد هذه السورة

افتتحت بالحروف المقطعة التي فيها تعريض بالتحدي بأعجاز القرآن .

وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه .

وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم .

وتوبيخهم بأنهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم .

وإنذارهم بالهلاك عند حلول إبان الوعيد الذي عينه الله في علمه .

وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم إيمان من لم يؤمنوا ، وما يقولونه في شأنه وما يتوركون بطلبه منه ، وأن تلك عادة المكذبين مع رسلهم .

وأنهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأن الله حافظ كتابه من كيدهم .

ثم إقامة الحجة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم .

وذكر البعث ودلائل إمكانه .

وانتقل إلى خلق نوع الإنسان وما شرف الله به هذا النوع .

وقصة كفر الشيطان .

ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط – عليهما السلام – وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر .

وختمت بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم وانتظار ساعة النصر ، وأن يصفح عن الذين يؤذونه ، ويكل أمرهم إلى الله ، ويشتغل بالمؤمنين ، وأن الله كافيه أعداءه .

مع ما تخلل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجن ، واستراقهم السمع ، ووصف أحوال المتقين ، والترغيب في المغفرة ، والترهيب من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ 7.5﴾

(26/422)

---

وقال الشيخ سيد قطب :

التعريف بسورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه السورة مكية بجملتها , نزلت بعد سورة يوسف , في الفترة الحرجة , ما بين "عام الحزن"

وعام الهجرة . . تلك الفترة التي تحدثنا عن طبيعتها وملابساتها ومعالمها من قبل في تقديم سورة يونس وفي تقديم سورة هود وفي تقديم سورة يوسف بما فيه الكفاية . .

وهذه السورة عليها طابع هذه الفترة , وحاجاتها ومقتضياتها الحركية . . إنها تواجه واقع تلك الفترة مواجهة حركية ; وتوجه الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) والجماعة المسلمة معه , توجيها واقعيا مباشرا وتجاهد المكذبين جهادا كبيرا . كما هي طبيعة هذا القرآن ووظيفته .

ولما كانت حركة الدعوة في تلك الفترة تكاد تكون قد تجمدت , بسبب موقف قريش العنيد منها ومن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) والعصبة المؤمنة معه ; حيث اجترأت قريش على رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) بما لم تكن تجترئ عليه في حياة أبي طالب . واشتد استهزاؤها بدعوته ; كما اشتد إيذاؤها لصحابته . . فقد جاء القرآن الكريم في هذه الفترة يهدد المشركين المكذبين ويتوعدهم ; ويعرض عليهم مصارع المكذبين الغابرين ومصائرهم ; ويكشف للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) عن علة تكذيبهم وعنادهم ; وهي لا تتعلق به ولا بالحق الذي معه , لكنها ترجع إلى العناد الذي لا تجدي معه الآيات البينات . ومن ثم يسلي الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ويواسيه ; ويوجهه إلى الإصرار على الحق الذي معه ; والصدع به بقوة في مواجهة الشرك وأهله ; والصبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة , وطول الطريق !

ومن هنا تلتقي هذه السورة في وجهتها وفي موضوعها وفي ملامحها مع بقية السور التي نزلت في تلك الفترة ; وتواجه مثلها مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية . أي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملابساتها الواقعية . ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة , وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان .

ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن . . سمة الواقعية الحركية . . لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه . .

إنه لا بد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني . . لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته ; ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي ; ويواجه حالة واقعة ; كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها ; كما هي ضرورية

للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية , وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية .

(28/422)

---

نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة ; ومن ثم يواجهون أحوالا وملابسات وظروفا وأحداثا كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى - صلوات الله وسلامه عليه - والعصبة المسلمة معه . . من الإعراض والتولي عن هذا الدين في حقيقته الكبيرة الشاملة ; التي لا تتحقق إلا بالدينونة الكاملة لله وحده في كل شأن من شؤون الحياة الاعتقادية والأخلاقية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية . . وما يلقونه كذلك من الإيذاء والمطاردة والتعذيب والتقتيل كالذي كانت تلك العصبة المختارة الأولى تبتلى - في سبيل الله - به . .

إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين في مواجهة الجاهلية ; ويواجهون به ما كانت تواجهه الجماعة المسلمة الأولى . . هم وحدهم الذين يرون تلك الرؤية . . وهم وحدهم الذين يفقهون هذا القرآن ; ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه . على النحو الذي

أسلفنا . . وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق , في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة !

وبمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة . حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور , ومن الجاهلية إلى الإسلام ; ومن الدينونة للعباد إلى الدينونة لرب العباد ; كما كانت الحركة الأولى - على عهد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) - تواجه جاهلية العرب بمثل هذه المحاولة ; قبل أن تقوم الدولة في المدينة ; وقبل أن يكون للإسلام سلطان على أرض وعلى أمة من الناس .

(29/422)

---

نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله , وذلك لاختلاف بعض الظروف والملابسات الخارجية . . نحن نستهدف دعوة إلى الإسلام ناشئة في مواجهة جاهلية شاملة . . ولكن مع اختلاف في الملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية للحركة . . وهذا الاختلاف هو الذي يقتضي "اجتهادا" جديدا في "فقه الحركة" يوائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلا أو

كثيرا . .

هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة . . أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة, وشرائع المجتمع المنظم المستقر, فهذا ليس أوانه . . . إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم, قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي ! . . هذا النوع من الفقه يأتي في حينه ; وتفصل أحكامه على قد المجتمع المسلم حين يوجد ; ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك ! إن الفقه الإسلامي لا ينشأ في فراغ ولا تستنبت بذوره في الهواء !

ونعود إلى استكمال الحديث عن موضوعات السورة:

محور هذه السورة الأول: هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصيلة للتكذيب, وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين . . وحول هذا المحور يدور السياق في عدة جولات, متنوعة الموضوع والمجال, ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل . سواء في ذلك القصة, ومشاهد الكون, ومشاهد القيامة, والتوجيهات والتعقيبات التي تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام . فإن جو هذه السورة - الحجر - يذكر بجو سورة الأعراف . - وابتداؤها كان بالإنذار, وسياقها كله جاء مصداقا للإنذار -

فهنا كذلك في سورة الحجر يتشابه البدء والسياق, مع اختلاف في الطعم والمذاق!

إن الإنذار في مطلع سورة الأعراف صريح:

(30/422)

---

كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه, لتنذر به وذكرى للمؤمنين. اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء, قليلا ما تذكرون. وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون. فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا: إنا كنا ظالمين..

ثم ترد فيها قصة آدم وابليس ويتابعها السياق حتى تنتهي الحياة الدنيا, ويعود الجميع إلى ربهم, فيجدوا مصداق النذير.. ويلي القصة عرض لبعض مشاهد الكون: السماوات والأرض, والليل والنهار, والشمس والقمر, والنجوم مسخرات بأمره, والرياح والسحاب والماء والثمرات.. ويلي ذلك قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى: وكلها تصدق النذير..

وهنا في سورة الحجر يجيء الإنذار كذلك في مطلعها, ولكن ملفعا بظل من التهويل والغموض يزيد جوها رهبة وتوقعا للمصير:

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) . .

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون: السماء وما فيها من بروج , والأرض الممدودة والرواسي الراسخة , والنبت الموزون , والرياح اللواقح , والماء والسقيا , والحياة والموت والحشر للجميع . . يلي ذلك قصة آدم وإبليس , منتهية بمصير أتباعه ومصير المؤمنين . . ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظورا فيها إلى مصائر المكذبين , وملحوظا فيها أن مشركي العرب يعرفون الآثار الدارسة لهذه الأقوام , وهم يمرون عليها في طريقهم إلى الشام .

فالمحور في السورتين واحد , ولكن شخصية كل منهما متميزة ; وإيقاعهما يتشابه ولا يتماثل , على عادة القرآن الكريم في تناوله لموضوعاته الموحدة , بطرق شتى , تختلف وتتشابه , ولكنها لا تتكرر أبدا ولا تتماثل !

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى خمس جولات , أو خمسة مقاطع , يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا:

تتضمن الجولة الأولى بيان سنة الله التي لا تتخلف في الرسالة والإيمان بها والتكذيب .

مبدوءة بذلك الإنذار الضمني الملفع بالتهويل:

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) . .

ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص في دلائل الإيمان:

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون !) . . وأنهم جميعا من طراز واحد:

ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . .

وتعرض الجولة الثانية بعض آيات الله في الكون: في السماء وفي الأرض وما بينهما . وقد قدرت بحكمة , وأنزلت بقدر:

(ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح , فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) . .

وإلى الله مرجع كل شيء وكل أحد في الوقت المقدر المعلوم: (وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) . .

أما الجولة الثالثة فتعرض قصة البشرية وأصل الهدى والغواية في تركيبها وأسبابها الأصيلة , ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين . وذلك في خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون والنفخ من روح الله في هذا الطين . ثم في غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

(32/422)

---

والجولة الرابعة في مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح , مبدوءة بقول الله: نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ثم يتتابع القصص , يجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط , وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح . . ملحوظا في هذا القصص أنه يعرض على قريش مصارع أقوام يمرون على أرضهم في طريقهم إلى الشام ويرون آثارهم: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم) . .

أما الجولة الخامسة والأخيرة فتكشف عن الحق الكامن في خلق السماوات والأرض

المتلبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب , المتصل بدعوة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله , وللبدء والمصير : (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق , وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . . ) إلى آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2121.2124 ﴾

(33/422)

---

قال الشيخ الصابونى :

سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون آية

بين يدي السورة

سورة الحجر من السور المكية ، التي تستهدت المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية (الوحدانية ، النبوة ، البعث والجزاء ) ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة ، والمكذبين لرسل الله ، في شتى الأزمان والعصور ، ولهذ ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد ، ملفعا بظل من التهويل والوعيد [ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم

الأهل فسوف يعلمون ] .

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء ، وبينت موقف أُهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام ، فما من نبى إلا سخر منه قومه الضالون ، من لدن بعثة شيخ الأنبياء " نوح" عليه السلام ، إلى بعثة خاتم المرسلين ، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين ، في كل زمان وحين [ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . ] الآيات .

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات ، المبدعة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينطق بأثار اليد المبدعة ، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير ، بدءا بمشهد السماء ، فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد الحشر والنشر ، وكلها ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وشاهدة بوحدانيته وقدرته

[ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم . . ] الآيات . " وعرضت السورة إلى قصة (البشرية الكبرى) قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام ، وعدوه اللدود (إبليس ) اللعين ، وما جرى من سجود الملائكة لآدم ، واستكبار إبليس عن السجود ، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم [ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . . ] الآيات .

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء ، تسلية لرسول الله عليه السلام ، وتثبيتاً لقلبه الشريف ، لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط ، فتذكر قصة (لوط ، وشعيب ، وصالح ) عليهم السلام ، وما حل بأقوامهم المكذبين .

* وتختم السورة الكريمة بتذكير الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بالنعمة العظمى عليه ، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز ، وتأمره بالصبر والسلوان ، على ما يلقاه من أذى المشركين ، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين [ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم . . ] إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية :

سميت السورة الكريمة (سورة الحِجر) لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح ، وهم (قبيلة ثمود) وديارهم في الحِجر بين المدينة والشام ، فقد كانوا أشداء ، ينحتون الجبال ليسكنوها ، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعتريهم موت ولا فناء ، فبينا هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح [ فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 104 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الحجر

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يلههم : أي يشغلهم من قولهم : لهيت عن الشيء ألهى لهيا إذا أعرضت عنه ، ما تسبق : أي ما يتقدم زمان أجلها الذكر : هو القرآن ، و(لوما ) مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحضّ على فعل ما يقع بعدها ، منظرين : أي مؤخرين ، والشيع : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أي ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أي أدخلته فيها ، يعرجون : يصعدون ، سكّرت :

سددت ومنعت من الإبصار ، مسحورون : أي سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات البروج : واحدها برج وهى النجوم العظام ، ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة فى علم الفلك ، للناظرين : أي المفكّرين المستدلين بذلك على قدرة مقدّرها وحكمة مدبّرها ، وحفظناها : أي منعناها ، والرجيم : أي المرجوم المرمى بالرّجام : أي الحجارة ، والمراد بالرجيم هنا المرمىّ بالنجوم ، واسترق : من السرقة ، وهى أخذ الشيء خفية شبه به

خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى ، والسمع : المراد به ما يسمع ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو وتبعث القوم تبعا وتباعة بالفتح : أي مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم ، مددناها : أي بسطناها ، والرواسي : واحدها راسية وهى الجبال الثوابت .

موزون : أي مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

(36/422)

---

الخزائن : واحدها خزانة وهى المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال ، واللواقح : واحدها لاقح أي ذات لقاح وحمل ، وأسقيناكموه : أي جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أو لبنا سقيته ، وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أو أسقيت أرضه أو ماشيته . والمستقدمين :

من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

صلصال : أي طين يابس يصلصل ويصوّت إذا نقر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخّار ، وحما : أي طين تغير واسودّ من مجاورة الماء له واحدته حمأة ، ومسنون : أي مصوّر مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التي تصب فى القوالب . والجانّ :

أي هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن ، ونار السموم : هى النار الشديدة الحرارة التي تقتل وتنفذ فى المسامّ ، بشرا : أي إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أي ظاهر جلده ، سويته : أي أتممت خلقه وهيّاته لنفخ الروح فيه ، والنفخ : إجراء الريح من الفم أو غيره فى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها ، ورجيم : أي مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط يوم الدين : أي يوم الجزاء ، فأنظرنى : أي أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى ، ويوم الوقت المعلوم : هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس ، والإغواء : الإضلال ، هذا صراط علىّ : أي هذا صراط حق لا بد أن أراعيه مستقيم أي لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والسلطان : التسلط والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب : أي سبع طبقات ، جزء مقسوم : أي فريق معين مفروز من غيره

(37/422)

---

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، جنات : أي بساتين ، وعيون : أي أنهار جارية ، بسلام : أي بسلامة من الآفات

، وأمن من المخافات ، والغل : الحقد الكامن فى القلب ، والسرر : واحدها سرير وهو

مجلس رفيع مهيأ للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

تقول : أنبأت القوم إنباء ونبّأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح فى كلمة الضيف :

ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ،

والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أي ذى علم كثير ،

بالحق : أي بالأمر المحقق الذي لا شك فى وقوعه ، وقنط من كذا :

أي يئس من حصوله والضالون : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ،

وخطبكم : أي أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم ، قدرنا : أي قضينا وكتبنا يقال قضى

اللّه عليه كذا وقدّره عليه : أي جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر اللّه

الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أي الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ،

وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضّرع ، منكرون : أي لا أعرفكم ولا أعرف من أىّ

الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم علىّ ؟ ويمترون :

أي يشكّون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أي اذهب بهم ليلا ، والقطع من الليل :

الطائفة منه كما قال :

افتحي الباب وانظري فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

اتبع أدبارهم : أي كن على إثرهم لتسرع بهم وتطّلع على أحوالهم ، وقضينا : أي أوحينا ، ودابر : آخر ، ومقطوع : أي مهلك مستأصل ، مصبحين : أي فى وقت الصباح ، والمدينة : هى سذوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، والاستبشار : إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزي : الذل والهوان ، والعمر والعمر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لا غير ، سكرتهم : غوايتهم : يعمهون أي يتحيرون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، مشرقين : أي داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو معرّب لا عربى فى المشهور ، للمتوسمين .

أي المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشيء وعلامته ، يقال توسمت فى فلان خيرا : أي ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد اللّه بن رواحة يمدح النبي صلى اللّه عليه وسلم :

إنى توسمت فيك الخير أعرفه واللّه يعلم أنى ثابت البصر

لبسبيل مقيم : أي لبطريق واضح معلم ليس بخفي ولا زائل ، وأصحاب الأيكة : قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، لبإمام مبين : أي لبطريق واضح وأصل الإمام

ما يؤتم به سمى به الطريق لأنه يؤتم ويتّبع ، وأصحاب الحجر : هم ثمود ، والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجرا ومنه حجر الكعبة ، وآياتنا : هى الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها ، وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك .

بالحق : أي بالحكمة والمصلحة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

(39/422)

---

المثاني : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى حال فلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصّنف ، وخفض الجناح : إذ به التواضع واللين ، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحه له ، والجناحان من الإنسان : جانباه ، والنذير : المخوّف بعقاب اللّه من لم يؤمن به ، وعضين : أي أجزاء واحدها غضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساما ، فاصدع بما تؤمر : أي اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا ، يضيق صدرك : أي ينقبض من الحسرة

والحزن ، والساجدين : أي للمصلّين ، واليقين : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا شك فيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 14 صـ 44.4 ﴾ . باختصار .

(40/422)

---

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة الحجر

مكية وآياتها 99 آية

سورة الحجر وهي مكية 1 - من ذلك قوله جل وعز ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين

روى سفيان عن خصيف عن مجاهد عن حماد عن إبراهيم قال يدخل قوم من الموحدين

النار فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم إسلامكم وإيمانكم وأنتم معنا في النار فيخرجهم

الله جل وعز منها فعند ذلك يود الذين كفروا لو كانو مسلمين وروى ابن أبي نجيح عن

مجاهد قال ذلك يوم القيامة وروى عن ابن عباس قال يقول المشركون لمن أدخل النار من

الموحدين ما نفعكم ما كنتم فيه وأنتم في النار فيغضب الله

جل وعز لهم فيخرجون إلى نهر يقال له نهر الحياة فينبتون فيه ثم تبقى على وجوههم علامة

يعرفون بها يقال هؤلاء الجهنميون فيسألون الله جل وعز أن يزيل ذلك عنهم فيزيله عنهم

ويدخلهم الجنة فيتمنى المشركون أن لو كانوا مسلمين وقيل إذا عاين المشركون تمنوا الإسلام

فاما معنى رب ها هنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل وأن فيها معنى التهديد وهذا

تستعمله العرب كثيرا لمن

تتوعده وتتخدده أخبرنا يقول الرجل للآخر ربما ندمت على ما تفعل ويشكون في تندمه ولا

يقصدون تقليله بل حقيقة المعنى أنه

يقول لو كان هذا مما يقل أو يكون مرة واحدة لكان ينبغي أن لا تفعله وأما قول من قال أن رب

تقع للتكثير فلا يعرف في كلام العرب وقيل إن هذا إنما يكون يوم القيامة إذا أفاقوا من الأهوال

التي هم فيها فإنما يكون في بعض المواطن والقول الأول أصحها والدليل على أنه وعيد

وتهدد قوله بعد ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون 2 - ثم قال تعالى وما

أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم أي لا يتقدمه ولا يتأخره 3 - وقوله جل وعز لو ما تأتينا

بالملائكة إن كنت من الصادقين

معنى لو ما ولولا وهلا واحد وأنشد أهل اللغة * تعدون عقر النيب أفضل مجدكم * بنى

ضوطرى لولا الكمي المقنعا *

أي هلا تعدون الكمي المقنعا وروى حجاج عن ابن جريج قال في هذا تقديم وتأخير يذهب ال أن جوابه قوله تعالى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون يذهب إلى أن هذا متصل بقوله تعالى لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين

4 – ثم قال تعالى ما ننزل الملائكة إلا بالحق قال مجاهد أي بالأرسال والعذاب 5 – ثم قال تعالى وما كانوا إذا منظرين أي لو نزلت الملائكة ما أمهلوا ولا قبلت توبتهم كما قال تعالى ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر 6 – وقوله جل وعز إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون قال ثابت وقتادة حفظه الله من أن تزيد الشياطين فيه باطلا أو تبطل منه حقا وقال مجاهد هو عندنا 7 – وقوله جل وعز ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين أي فرق الأولين 8 – وقوله جل وعز كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به روى سفيان عن حميد عن الحسين قال كذلك نسلك

الشرك وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن أبن جريج عن مجاهد قال نسلك التكذيب قال أبو جعفر وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير وأهل اللغة إلا من شذ منهم فإن بعضهم قال المعنى كذلك نسلك القرآن واحتج بأن النبي (صلع) لما تلا القرآن عليهم وأسمعهم إياه ووصل إلى قلوبهم وكان ذلك بأمر الله وقوته كان الله عز وجل هو الذي يسلكه في قلوبهم على هذا المعنى

وقيل لما خلقهم خلقة يفهمون بها ما يأتيهم من الوحي فإذا خلقهم خلقه يفهمون بها ما يسلك

ذلك في قلوبهم فكأنه سلكه 9 - ثم قال جل وعز وقد خلت سنة الأولين أي قد تقدمت سنتهم في التكذيب بالآيات والبراهين وكفرهم فهؤلاء يقتفون آثارهم 10 - ثم قال جل وعز ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون قال عبد الله بن عباس أي فظلوا الملائكة فيه يعرجون أي يذهبون ويجيئون قال أهل اللغة عرج يعرج إذا صعد وارتفع ومنه قول العامة عرج بروح فلان

*(42/422)*

---

11 - ثم قال تعالى لقالوا إنما سكرت أبصارنا قال ابن عباس أخذت قال أبو جعفر والمعروف من قراءة مجاهد والحسن سكرت بالتخفيف قال الحسن أي سحرت وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال سكرت أبصارهم أذا غشيها سمادير حتى لا يبصروا وقال الفراء من قرأ سكرت أخذه من سكون الريح قال أبو جعفر وهذه الأقوال متقاربه والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء يرحمه الله قال هو من السكر في الشراب وهذا قول حسن أي غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشى السكران ما غطى عقله وسكور الريح سكونها وفتورها وهو يرجع إلى معنى التخيير 12 - وقوله جل وعز ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين قال مجاهد يعني الكواكب قال أبو جعفر ومن قال

أنها إثنا عشر برجا فقوله يرجع إلى هذا لأنها كواكب عظام ومعروف في اللغة أن يقال برج يبرج إذا ظهر وارتفع

فقيل لهذا الكواكب بروج لظهروها وثباتها وراتفاعها يا والبرج كبر العين

13 - ثم قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم أي لا يصل إليها ولا يسمع شيئا من الوحي إلا مسارقة وكان هذا من علامة نبوة محمد (صلع) ولا نعلم أحدا من الشعراء شبه شيئا بسرعة الكواكب إلا في الإسلام ولو كان هذا قبله لشبهوا به قال ابن جريج الرجيم الملعون قال الكسائي كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتيم وقيل رجيم بمعنى مرجوم أي يرجم بالكواكب

14 - وقوله جل وعز وأنبتنا فيها من كل شئ موزون روى معاويه بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وأنبتنا فيها من كل شئ موزون قال أي معلوم وكذلك روى علي بن الحكم عن الضحاك وقال أبو صالح وعكرمة أي مقدور وقال مجاهد أي مقدر بقدر معناه مقدر لا يزيد على قدر الله ولا ينقص فكأنه موزون

وقيل أراد بموزون ما يوزن من الذهب والفضة والحديد والرصاص وشبهه

والمعنى على هذا وأنبتنا في الجبال من كل شئ موزون 15 - ثم قال تعالى وجعلنا لكم فيها معايش أي في الأرض 16 - ثم قال تعالى ومن لستم له برازقين قال مجاهد يعني الدواب والأنعام وقال غيره يعني المماليك والدواب قال أبو جعفر وهذا أولى لأن من لا تكون لما لا يعقل إلا أن يختلط معه من يعقل والمعنى وجعلنا لكم المماليك والدواب والأنعام ويجوز أن يكون المعنى أعشناكم وأعشنا من لستم له برازقين

17 - وقوله تعالى وإن من شئ إلا عندنا خزائنه أخبر أن خزائن الأشياء بيده أي أنه جل وعز حافظها والمتولي تدبيرها 18 - وقوله جل وعز وأرسلنا الرياح لواقح قال عبد الله بن مسعود تحمل الرياح الماء فتلقح السحاب وتمريه لو فيدر كما تدر اللقحة ثم يمطر وقال ابن عباس تلقح الرياح الشجر والسحاب

وتمرية يكون وقال أبو رجاء قلت للحسن وأرسلنا الرياح لواقح فقال تلقح الشجر قلت والسحاب قال والسحاب وقال أبو عبيدة لواقح أي ملاقح يذهب إلى أنه جمع ملقحة وملقح ثم حذفت منه الزوائد

قال أبو جعفر وهذا بعيد وإنما يجوز حذف الزوائد من مثل هذا في الشعر ولكنه جمع لاقحة ولاقح على الحقيقة بلا حذف هو على أحد معنيين يجوز أن يقال لها لاقح على النسب أي ذات القاح كأنها تلقح السحاب والشجر كما جاء في التفسير وهو قول أبي عمرو ويجوز أن يقال لها لاقح أي حامل والعرب تقول للجنوب لاقح وحامل وللشمال حائل وعقيم وقال الله

عز وجل حتى إذا أقلت سحابا ثقالا فأقلت وحملت واحد 19 - وقوله جل وعز ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال المستقدمون القرون

الأولى والمستأخرون أمه محمد (صلع) وروى سفيان عن أبيه عن عكرمة قال المستقدمون كل من خرج والمستأخرون كل من خرج المستأخرون كل من كان في أصلاب الرجال وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال المستقدمون مان مات

(44/422)

---

والمستأخرون الأحياء وروى سفيان عن أبان بن أبي عياش عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ولقد علمنا المستقدمين منكم الصف الأول ولقد علمنا المستأخرين الصف الأخر حدثنا محمد بن إدريس قال نا إبراهيم بن مرزوق قال نا مسلم بن ابراهيم قال نا نوح بن قيس قال نا عمرو بن

مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس في قول الله تبارك وتعالى ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين قال كانت امرأة جميله تصلي مع النبي (صلع) فكان رجال يتقدمون حتى لا يروها وكان رجال يتأخرون فإذا ركع النبي (صلع) وضع أحدهم يده على ركبته

ونظر إليها من تحت ضبعه فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين

20 - وقوله تعالى عز وجل ولقد خلقنا الانسان من صلصال فيه قولان أحدهما رواه

معاوية بن صالح عن على بن أبي طلحة

عن ابن عباس قال الصلصال الطين اليابس وروى معمر عن قتادة هو الطين ييبس فتصير له

صلصلة وقال الضحاك هو الطين الصلب والقول الآخر رواه ابن نجيح وابن جريج عن

مجاهد

قال الصلصال المنتن وقال أبو جعفر والقولان يحتملان وإن كان الأول ابين القول الله جل وعز

خلق الأنسان من صلصال كالفخار وحكى أبو عبيدة أنه يقال للطين اليابس صلصال ما لم

تأخذه النار فإذا أخذته النار فهو فخار وأنشد أهل اللغة * كعدو المصلصل الجوال *

والصلصلة الصوت

وقال الفراء هو طين حر يخلط برمل فيسمع له صلصلة وأما القول الثاني فالأصل فيه صلال

ثم أبدل من إحدى اللامين صاد وحكى الكسائي أنه يقال صل اللحم وأصل إذا أنتن 21

- ثم قال جل وعز من حما مسنون فالحمأ مع والحمأة الطين الأسود المتغير وفي المسنون

أربعة أقوال روى سفيان عن الأعمش عن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال

المسنون المنتن وكذلك روى قيس بن الربيع عن الأعمش عن مسلم عن سعيد ابن جبير قال

خلق الإنسان من صلصال من طين لازب وهو الجيد ومن حما مسنون وهو المنتن وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال هو المنتن

(45/422)

---

وذهب إلى هذا القول من أهل اللغة الكسائي وأبو عمرو الشيباني وزعم أبو عمرو الشيباني أن قول الله لم يتسنه من هذا وأن الأصل فيه لم يتسنن فأبدل من إحدى النونين هاء فهذا قول والقول الآخر وهو مذهب أبي عبيدة أن المسنون المصبوب وروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال المسنون الرطب فهذا بمعنى المصبوب لأنه لا يكون مصبوبا إلا وهو رطب وهذا قول حسن لأنه يقال سننت الشئ أي صببته وفي الحديث ان الحسن كان يسن الماء على وجهه سنا ولو كان هذا من
أسن الماء لكان مؤسنا سعيد والقول الثالث قول الفراء وهو المحكوك ولا يكون إلا متغيرا من سننت الحديد والقول الرابع أنه المصبوب على مثال وصورة من سنة الوجه 22 - وقوله جل وعز قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال سفيان بلغني أن الوقت المعلوم النفخة الأولى 23 - وقوله جل وعز قال هذا صراط علي مستقيم
أحدهما وهو مذهب مجاهد قال الحق طريقة علي وهو يرجع إلى كما يقال في التوعد

طريقك على فاعمل ما شئت

وكما قال تعالى إن ربك لبالمرصاد والقول الآخر إن هذا صراط على أمري وتحت إرادتي

وقرأ قيس بن عبادة قال هذا صراط على مستقيم وقال أي رفيع ومعناه رفيع في الدين

والحق 24 - وقوله جل وعز إلا من اتبعك من الغاوين أي الضالين 25 - وقوله جل وعز

وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم أي لكل منزل منهم

من العذاب على قدر منزلته في الذنب وروى مالك بن مغول عن حميد عن ابن عمران

رسول الله (ص) قال لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل سيفه على أمتي أو قال على أمة

محمد

26 - وقوله جل وعز ونزعنا ما في صدورهم من غل الغل عند أهل اللغة الشحناء

والسخيمة والعداوة يقال منه غل يغل ويقال من الغلول وهو السرقة من المغنم غل يغل



ويغال بكر من الخيانة أغل يغل كما قال الشاعر * جزى الله عنا جمرة ابنة نوفل * جزاء

مغل بالأمانة كاذب * 27 - ثم قال جل وعز إخوانا على سرر متقابلين روى سفيان عن

ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى متقابلين قال لا ينظر أحدهم إلى قفا صاحبه

28 - ثم قال جل وعز لا يمسهم فيها نصب أي تعب 29 - وقوله جل وعز نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم أي أخبر وروى ان النبي (ص) خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار فشق ذلك عليهم فأنزل الله نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم 30 - وقوله جل وعز قالوا لا توجل معناه لا تفزع والقانطون قد اليائسون وفي

31 - قوله جل وعز إلا إمرأته قدرنا إنها لمن الغابرين قيل قدرنا بمعنى علمنا وقدرنا على بابه أي هو في

تقديرنا وفيما أخبرناه به هكذا والغابر الباقي وقد يستعمل للذاهب والمعنى إنها لمن الباقين في الهلاك وأنشد أهل اللغة * لا تكسع الشول بأغبارها * إنك لا تدري من الناتج * الأغبار بقايا اللبن 32 - وقوله جل وعز قال إنكم قوم منكرون قال مجاهد أنكرهم لوط (ص) وقيل أنكرهم إبراهيم (ص) لأنهم لم يأكلوا من

طعامه وكانوا ينكرون أمر الضيف إذا لم يأكل 33 - ثم قال جل وعز قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون قال مجاهد بالعذاب قال أبو جعفر المعنى بل جئناك بما كانوا يشكون من نزول العذاب بهم 34 - وقوله تعالى فأسر بأهلك بقطع من الليل السرى لا يكون إلا بالليل إلا ان قوله تعالى بقطع يدل على ذهاب كثير من الليل 35 - ثم قال تعالى ولا يلتفت منكم أحد

قيل نهى عن الإلتفات إلى ما في المنازل لئلا يقع الشغل به عن المضي 36 - وقوله جل وعز وقضينا إليه ذلك الأمر أي أخبرناه به ثم بينه فقال تعالى أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين أي أن آخرهم مستأصل وقال الفراء الدابر الأصل 37 - وقوله تعالى قالوا أولم ننهك عن العالمين يروى أنهم كانوا نهوه أن يضيف أحد 38 - ثم قال جل وعز قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين

هذا الجواب محمول على المعنى والمعنى أنهم أرادوهم للفساد فقال لهم لوط (ص) هؤلاء بناتي فتزوجوا وأحسن ما قيل في هذا أن أزواج كل نبي بمنزلة أمهات أمته وأولاد أمته بمنزلة أولاده 39 - وقوله جل عز لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون روى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال لعمرك لعيشك وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس قال لحياتك وروى أن إبراهيم النخعي كره أن يقول الرجل لعمري قال لأن معناه وحياتي وكذلك هو عند أهل اللغة

قال سيبوية العمر والعمر واحد ولا يستعملون في القسم إلا الفتح لخفته وحكى لعمري وكله بمعنى العمر وهذه فضيلة للنبي (ص) أقسم الله جل وعز بحياته قال أبو الجوزاء ما سمعت

الله جل وعز حلف بحياة أحد غيره (صلى) قال سفيان سألت الأعمش عن قوله تعالى

لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون فقال أقسم بالنبي إنهم لفي غفلتهم يترددون 40 - وقوله

جل وعز فأخذتهم الصيحة مشرقين

أي فأخذتهم الصيحة بالعذاب وقت إشراق الشمس 41 - وقوله جل وعز إن في ذلك

لآيات للمتوسمين قال مجاهد أي للمتفرسين قال الضحاك أي للناظرين قال أبو جعفر

وحقيقته توسمت الشئ نظرت نظر متثبت حتى تثبت حقيقة سمة الشئ 42 - وقوله عز

وجل وإنها لبسبيل مقيم يجوز أن يكون المعنى وإن الآيات ويجوز أن يكون المعنى وإن مدينة

قوم لوط

قال مجاهد لبسبيل مقيم لبطريق معلم أي واضح

*(48/422)*

---

43 - وقوله جل وعز وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين قال الضحاك الأيكة كل الغيضة

ذات الشجر قال أبو جعفر وكذلك هو في اللغة يقال للشجرة أيكة وجمعها أيك ويروى أن

شجرهم كان دوما وأما رواية من روى أن ليكة أسم القرية التي كانوا فيها والأيكة البلاد

كلها فلا يعرف في اللغة ولا يصح 44 - وقوله جل وعز فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين

قال الضحاك أي لبطريق مستبين أي يمرون عليها في أسفارهم قال أبو جعفر ومعروف في اللغة أن يقال للطريق إمام لأنه يؤتم به ويتبع 45 – وقوله جل وعز ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وروى معمر عن قتادة قال الحجر الوادي يذهب إلى انه اسم له 46 – وقوله عز وجل وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين أي آمنين أن تسقط 47 – وقوله جل وعز فاصفح الصفح الجميل قال مجاهد هذا قبل أن يؤمر بالقتال

48 – وقوله جل وعز ولقد آتيناك سبعا من المثاني روى عبد خير عن علي بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني يعني فاتحة الكتاب وكذلك قال أبو هريرة هي فاتحة الكتاب وليس فيها بسم الله الرحمن الرحيم وكذلك روى أبو يحيى عن مجاهد وكذلك روى معمر عن قتادة وروى سفيان بن منصور عن مجاهد عن أبن عباس قال آتيناك سبعا من المثاني قال السبع الطول وكذلك روى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير ولقد آتيناك سبعا من المثاني قال السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس

كذلك في الحديث وكذلك قال الضحاك هي السبع الطول وكذلك روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال السبع المثاني والقرآن العظيم أم القرآن قال الضحاك القرآن العظيم سائره وقد صح عن علي بن أبى طالب انه قال السبع المثاني الحمد وقال به قتادة وفسر معناه قال لأن فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة فريضة

أو نافلة والمعنى على هذا القول ولقد آتيناك سبع آيات مما يثنى في الصلاة ومن ها هنا لبيان الجنس على هذا القول كما قال

(49/422)

---

تعالى فاجتنبوا الرجس من الأوثان ويجوز ان يكون المعنى مما يثنى به على الله لأن في الحمد ثناء على الله وذكر توحيده وملكه يوم الدين وتكون من على هذا القول لبيان الجنس أيضا ويجوز أن تكون للتبعيض ويكون المعنى ولقد آتيناك سبع آيات من المثاني أي من القرآن الذي يثنى فيه الآيات والقصص ويثنى فيه على الله وهذا أحسن وهو مذهب أبي مالك لأنه قال المثاني القرآن وأما من قال هي السبع الطول فقد فسر سعيد بن جبير مذهبه فقال لأنه تثنى فيها الحدود والفرائض فتكون من على هذا لبيان الجنس

ويجوز ان تكون للتبعيض على ما تقدم وروى أبو عبيد أن سفيان بن عيينة كان يتلو هذه الآية يتأولها على حديث النبي (ص) ليس منا من لم يتغن بالقرآن قال أي يستغني به قال فأمر الله جل وعز النبي (ص) أن يستغني بالقرآن عن المال فقال تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم 49 - ثم قال جل وعز لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم وروى عن عبد الله بن عمر أنه قال من حفظ القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما

أعطى فلقد صغر عظيما وعظم صغيرا

قال مجاهد في قوله تعالى لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم قال الأغنياء الأشباه أي أمثال في النعم والأزواج في اللغة الأصناف 50 - وقوله جل وعز وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين في الكلام حذف والمعنى وقل إني أنا النذير المبين عقابا كما أنزلنا على المقتسمين وفي المقتسمين أقوال أحدها إنهم قوم تحالفوا على عضه النبي (صلع) والقول الآخر أنه روى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس في قوله تعالى كما أنزلنا على المقتسمين فقال اليهود

(50/422)

---

والنصارى الذين جعلوا القرآن عضين قال آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه وقال الضحاك المقتسمين أهل الكتاب مزقوا الكتب وفرحوا بما عندهم منها وقال مجاهد المقتسمين أهل الملل قال ابن جريج وقال عطاء هم المشركون من قريش مزقوا القول في القرآن فقال بعضهم هو شعر وقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو أساطير الأولين فذلك العضون وقال عكرمة عضين سحر وكان أبو عبيدة يذهب إلى ان عضين مأخوذ من الأعضاء قال أبو جعفر وهو قول حسن أي فرقوا القول وأنشد

* وليس دين الله بالمعضى * أي المفرق وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العضاة وهي شجر وكان الكسائي يذهب إلى أنه يجوز أن يكون مأخوذا منهما 51 - وقوله جل وعز فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين قال مجاهد أي اجهر بالقرآن في الصلاة قال ومنه تصدع القوم إذا افترقوا قال ومنه الصداع لأنه انفراق قبائل الرأس

قال أبو جعفر ومعروف عند أهل اللغة انه يقال صدع بالحق إذا أبانه وأظهره وكأنه أبن وأظهر وأنشد أبو عبيدة لأبي ذؤيب يصف عيرا وأتنا وأنه يحكم فيها * وكأنهن ربابه وكأنه * يسر يفيض على القداح ويصدع * ومن هذا قيل للصبح صديع كما قال كأن بياض لبته صديع * وأبو العباس يذهب إلى أن المعنى فاصدع الباطل بما تؤمر به أي افرق 52 - وقوله جل وعز إنا كفيناك المستهزئين حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن نافع قال نا سلمة بن شعيب بن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة وعثمان الجزري عن مقسم عن ابن عباس في قوله تعالى إنا كفيناك المستهزئين قالا المستهزءون الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب مروا رجلا رجلا على النبي (ص) ومعه جبريل عليه السلام فإذا رجل منهم قال له جبريل كيف تجد هذا فيقول بئس عبد الله فيقول جبريل كفيناكه فاما الوليد ابن المغيرة فتردى فتعلق سهم بردائه فذهب يجلس

فقطع أكحله فنزف فمات وأما الأسود بن عبد يغوث فأتى بغصن فيه شوك فضرب به وجهه فسالت حدقتاه على وجهه وكان يقول دعوت على محمد دعوة ودعى علي دعوة فاستجيب لي واستجيب له دعا علي أن أعمى فعميت ودعوت عليه أن يكون وحيدا طريدا في أهل يثرب فكان كذلك وأما العاص بن وائل فوطئ على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك وأما الأسود بن المطلب وعدي بن قيس فإن أحدهما قام في الليل وهو مطمئن ليشرب من جرة فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات وأما الآخر فلدغته حبة فمات 53 - وقوله جل وعز فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين أي كن من المصلين 54 - وقوله جل وعز واعبد ربك حتى يأتيك اليقين قال سالم بن عبد الله ومجاهد أي الموت

قال أبو جعفر ونظير هذا وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا والفائدة في هذا أنه لو قال واعبد ربك مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا وإذا قال ما دمت حيا أو أبدا أو حتى يأتيك اليقين كان معناه لا تفارق هذا تمت سورة الحجر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معاني القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 48.5 ﴾

وقال الفراء :

ومن سورة الحجر

قوله عزّ وجلّ : رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ [4] يقال : كيف دخلت (رب) على فعل لم يكن لأن مودّة الذين كفروا إنما تكون فى الآخرة ؟ فيقال : إن القرآن نزل وعده ووعيده وما كان فيه ، حقّا فإنه عيان ، فجرى الكلام فيما لم يكن منه كمجراه فى الكائن . ألا ترى قوله عز وجل : (وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقوله : (وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا) كأنه ماض وهو منتظر لصدقه فى المعنى ، وأن القائل يقول إذا نهى أو أمر فعصاه المأمور :

أما واللّه لربّ ندامة لك تذكر قولى فيها ، لعلمه أنه سيندم ويقول : فقول اللّه عز وجل أصدق من قول المخلوقين .

(53/422)

---

وقوله : وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ [4] لو لم يكن فيه الواو كان صوابا كما قال فى موضع آخر : (وَما أَهْلَكْنا «1» مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ) وهو كما تقول فى الكلام :

ما رأيت أحدا إلّا وعليه ثياب وإن شئت : إلّا عليه ثياب . وكذلك كل اسم نكرة جاء خبره بعد إلّا ، والكلام فى النكرة تامّ فافعل ذلك بصلتها بعد إلّا . فإن كان الذي وقع على النكرة ناقصا فلا يكون إلا بطرح الواو . من ذلك ، ما أظن درهما إلّا كافيك ولا يجوز إلا وهو كافيك ، لأن الظنّ يحتاج إلى شيئين ، فلا تعترض بالواو فيصير الظنّ كالمكتفى من الأفعال باسم واحد . وكذلك أخوات ظننت وكان وأشباهها وإنّ وأخواتها (وإنّ «2») إذا جاء الفعل بعد (إلّا) لم يكن فيه الواو . فخطأ أن تقول : إن رجلا وهو قائم ، أو أظنّ رجلا وهو قائم ، أو ما كان رجل إلّا وهو قائم .

ويجوز فى ليس خاصّة أن تقول : ليس أحد إلّا وهو هكذا «3» ، لأن الكلام قد يتوهّم تمامه بليس وبحرف نكرة ألا ترى أنك تقول : ليس أحد ، وما من أحد فجاز ذلك فيها ولم يجز فى أظنّ ، ألا ترى أنك لا تقول ما أظنّ أحدا . وقال الشاعر :

إذا ما ستور البيت أرخين لم يكن سراج لنا إلّا ووجهك أنور

فلو قيل : إلّا وجهك أنور كان صوابا .

وقال آخر :

وما مسّ كفّى من يد طاب ريحها من الناس إلّا ريح كفّيك أطيب

فجاء بالواو وبغير الواو . ومثله قوله : (وَما «4» أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ)

(1) الآية 208 سورة الشعراء .

(2) كذا فى الأصول . ويظهر أنها زيادة من الناسخ .

(3) ش : «كهذا» .

(4) الآية 20 سورة الفرقان .

(54/422)

---

فهذا الموضع لو كان فيه الواو صلح ذلك . وإذا أدخلت فى (كان) جحدا صلح ما بعد (إلّا) فيها بالواو وبغير الواو . وإذا أدخلت الاستفهام وأنت تنوى به الجحد صلح فيها بعد (إلّا) الواو وطرح الواو . كقولك : وهل كان أحد إلّا وله حرص على الدنيا ، وإلّا له حرص على الدنيا .

فأمّا أصبح وأمسى ورأيت فإنّ الواو فيهنّ أسهل ، لأنهن/ 191 توامّ (يعنى «1» تامّات) فى حال ، وكان وليس وأظن بنين على النقص . ويجوز أن تقول : ليس أحد إلّا وله معاش : وإن ألقيت الواو فصواب ، لأنك تقول : ليس أحد فتقف فيكون كلاما . وكذلك لا فى التبرئة وغيرها . تقول :

لا رجل ولا من رجل يجوز فيما يعود بذكره بعد إلّا الواو وغير الواو فى التمام ولا يجوز ذلك

فى أظنّ من قبل أن الظنّ خلقته الإلغاء : ألا ترى أنك تقول : زيد قائم أظنّ ، فدخول (أظن) للشك فكأنه مستغنى عنه ، وليس بنفي ولا يكون عن النفي مستغنيا لأنك إنما تخبر بالخبر على أنه كائن أو غير كائن ، فلا يقال للجحد : إنه فضل من الكلام كما يقال للظنّ .

وقوله : ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ [5] ولم يقل (تستأخر) لأن الأمّة لفظها لفظ مؤنّث ، فأخرج أوّل الكلام على تأنيثها ، وآخره على معنى الرجال . ومثلها (كُلَّ ما جاءَ «2» أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ) ولو قيل : كذّبته كان صوابا وهو كثير .

وقوله : لَوْ ما تَأْتِينا [7] ولو لا ولو ما لغتان فى الخبر والاستفهام فأمّا الخبر فقوله (لَوْ لا «3» أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) .

وقال الشاعر :

لو ما هوى عرس كميت لم أبل

---

(1) سقط ما بين القوسين فى ا .

(2) الآية 44 سورة المؤمنين .

(3) الآية 31 سورة سبأ .

وهما ترفعان ما بعدهما .

وأما الاستفهام فقوله : (لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ) وقوله (لَوْ لا أَخَّرْتَنِي «1» إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ)

والمعنى - والله أعلم - : هلّا أخّرتنى .

وقد استعملت العرب (لولا) فى الخبر وكثر بها الكلام حتى استجازوا أن يقولوا : لولاك ولولاى ، والمعنى فيهما كالمعنى فى قولك : لولا أنا ولولا أنت فقد توضع الكاف على أنها خفض والرفع فيها الصّواب . وذلك أنا لم نجد فيها حرفا ظاهرا خفض ، فلو كان ممّا يخفض لأوشكّت أن ترى ذلك فى الشعر فإنه الذي يأتى بالمستجاز : وإنما دعاهم إلى أن يقولوا : لولاك فى موضع الرفع لأنهم يجدون المكنّى يستوى لفظه فى الخفض والنصب ، فيقال : ضربتك ومررت بك ويجدونه يستوى أيضا فى الرفع والنصب والخفض ، فيقال ضربنا ومرّبنا ، فيكون الخفض والنصب بالنون ثم يقال قمنا ففعلنا فيكون الرفع بالنون . فلمّا كان ذلك استجازوا أن يكون الكاف فى موضع (أنت) رفعا إذ كان إعراب المكنّى بالدلالات لا بالحركات .

قال الشاعر :

أيطمع فينا من أراق دماءنا ولولاك لم يعرض لأحسابنا حسم

وقال آخر :

ومنزلة لولاى طحت كما هوى بأجرامه من قلّة النّيق منهوى «2»

وقوله : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ [9] يقال : إن الهاء التي فى (له) يراد بها القرآن (حافظون) أي راعون : ويقال : إن الهاء لمحمد صلى اللّه عليه وسلم : وإنا لمحمّد لحافظون .

وقوله : كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ [12] الهاء فى (نَسْلُكُهُ) للتكذيب أي كذلك نسلك التكذيب . يقول : نجعله فى قلوبهم ألّا يؤمنوا .

---

(1) الآية 10 سورة المنافقين .

(2) من قصيدة ليزيد بن الحكم الثقفي يعاتب فيها ابن عمه عبد الرحمن بن عثمان . وانظر كتاب سيبويه 1/ 388 .

(56/422)

---

وقوله : وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا [14] يعنى الملائكة فظلّت تصعد من ذلك الباب وتنزل (لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا) ويقال (سكرت «1») ومعناهما متقارب . فأما سكّرت فحبست ، العرب : تقول : قد سكرت الريح إذا سكنت وركدت . ويقال : أغشيت ، فالغشاء والحيس قريب من السّواء .

وقوله : فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ [18] يقول : لا يخطئه ، إمّا قتله وإمّا خبّله .

وقوله: وَالْأَرْضَ مَدَدْناها [19] أي دحوناها وهو البسط (وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها) أي فى الجبال (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) يقول: من الذهب والفضّة والرّصاص والنحاس والحديد فذلك الموزون.

وقوله: وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ [20] أراد الأرض (وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ) فمن فى موضع نصب يقول: جعلنا لكم فيها المعايش والعبيد والإماء.

قد جاء أنهم الوحوش والبهائم و(من) لا يفرد بها البهائم ولا ما سوى الناس. فإن يكن ذلك على ما روى فنرى أنهم أدخل فيهم المماليك، على أنا ملّكنا كم العبيد والإبل والغنم وما أشبه ذلك، فجاز ذلك.

وقد يقال: إن (من) فى موضع خفض يراد: جعلنا لكم فيها معايش ولمن. وما أقلّ ما ترد العرب مخفوضا على مخفوض قد كنى عنه. وقد قال الشاعر «2»:

تعلّق فى مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب غوط نفانف

فردّ الكعب على (بينها) وقال آخر:

هلّا سألت بذي الجماجم عنهم وأبى نعيم ذى اللّواء المحرق

---

(1) هى قراءة بن كثير.

(2) هو مسكين الدارمي كما فى الحيوان. والسواري جمع سارية وهى الأسطوانة يريد

أنهم طوال القامات. والغوط:

المتخنض من الأرض. والنفانف جمع نفنف وهو الهواء بين الجبلين.

(57/422)

---

فردّ (أبى نعيم) على الهاء فى (عنهم).

وقوله: وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ [22] وتقرأ (الريح) قرأها حمزة «1». فمن قال الرّيح

لواقح) فجمع اللواقح والريح واحدة لأن الريح فى معنى جمع ألا ترى أنك تقول: جاءت

الريح من كلّ مكان، فقيل: لواقح لذلك. كما قيل: تركته فى أرض أغفال وسباسب

«2» (قال «3» الفراء: أغفال: لا علم فيها) ومهارق «4» وثوب أخلاق. ومنه قول

الشاعر:

جاء الشتاء وقميصى أخلاق شراذم يضحك منه التّواق «5»

وأمّا من قال (الرياح لواقح) فهو بيّن. ولكن يقال: إنما الريح ملقحة تلقح الشجر.

فكيف قيل: لواقح؟ ففى ذلك معنيان أحدهما أن تجعل الريح هى التي تلقح بمرورها على

التراب والماء فيكون فيها اللّقاح، فيقال: ريح لاقح. كما يقال: ناقه لاقح. ويشهد على

ذلك أنّه وصف ريح العذاب فقال:

﴿عليهم «6» الريح العقيم﴾ فجعلها عقيما إذ لم تلقح. والوجه الآخر أن يكون وصفها باللّقح وإن كانت تلقح كما قيل: ليل نائم والنوم فيه، وسرّ كاتم وكما قيل:

الناطق المبروز والمختوم «7»

---

(1) وهى أيضا قراءة خلف. [.....]

(2) جمع سبسب. وهى المفازة أو الأرض البعيدة المستوية.

(3) سقط ما بين القوسين فى ش.

(4) جمع مهرق. وهو هنا: الصحراء الملساء.

(5) فى اللسان (خلق) أن التواق ابن الراجز.

(6) الآية 41 سورة الذاريات.

(7) هذا عجز بيت للبيد وصدره:

أو مذهب جدد على ألواحه

وقبله:

فكأن معروف الديار بقادم براق غول فالرجام وشوم

فقوله: «أو مذهب» عطف على قوله: «وشوم» فقد شبه معروف الديار فى دقته بالوشوم أو بالمذهب أي لوح كتابة مطلى بالذهب عليه خط بارز أو مبرز، وخط مختوم: غير واضح. وانظر الخصائص 1/ 193.

فجعله مبروزا على غير «1» فعل، أي إن ذلك من صفاته فجاز مفعول لمفعل، كما جاز فاعل لمفعول إذ لم «2» يردّ البناء على الفعل.

وقوله: وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [24] وذلك أن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم قال: إن اللّه وملائكته يصلّون على الصفوف الأول فى الصّلاة، فابتدرها الناس وأراد بعض المسلمين أن يبيع داره النّائية ليدنو من المسجد فيدرك الصفّ الأوّل فأنزل اللّه - عزّ وجلّ - (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) «3» فإنّا نجزيهم على نيّاتهم فقرّ الناس.

[قوله: مِنْ صَلْصالٍ [26]].

ويقال: إن الصلصال طين حرّ خلط برمل فصار يصلصل كالفخّار والمسنون: المتغيّر واللّه أعلم أخذ من سننت الحجر على الحجر، والذي يخرج مما بينهما يقال له: السّنين.

وقوله: مِنْ نارِ السَّمُومِ [27].

يقال: إنها نار دونها الحجاب. قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى حبّان عن رجل عن الحسن قال: خلق اللّه عزّ وجلّ - الجانّ أبا الجنّ من نار السّموم وهى نار دونها

الحجاب (وهذا الصوت الذي تسمعونه عند الصواعق من انعطاط «4» الحجاب) .

وقوله : فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ [29] .

سجود تحيّة وطاعة لا لربوبيّة وهو مثل قوله فى يوسف (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً) «5» .

---

(1) ولو جاء على الفعل لقال : «مبرز» من أبرزه ، ولا يقال : برزه .

(2) هذا الضبط من ا ، وهو من الرد . ولو ضبط «يرد» من الإرادة كان له وجه .

(3) ا : «وإنا» .

(4) سقط ما بين القوسين فى ش . والانعطاط : الانشقاق .

(5) الآية 100 سورة يوسف

(59/422)

---

وقوله : إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [40] ويقرأ (المخلصين) «1» فمن كسر اللام جعل الفعل لهم كقوله تبارك وتعالى (وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ) «2» ومن فتح فالله أخلصهم كقوله : (إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ «3» بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) وقوله : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [41] .

يقول : مرجعهم إلىّ فأجازيهم . وهو كقوله تبارك وتعالى (إِنَّ رَبَّكَ «4» لَبِالْمِرْصادِ) فى الفجر .

فيجوز فى مثله من الكلام أن تقول لمن أوعدته : طريقك علىّ وأنا على طريقك : ألا ترى أنه قال (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ) فهذا كقولك : أنا على طريقك . (صِراطٌ عَلَيَّ) أي هذا طريق علىّ وطريقك علىّ . وقرأ بعضهم «5» (هذا صراط علىّ) رفع يجعله نعتا للصراط كقولك : صراط مرتفع مستقيم .

وقوله : لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ [44] يعنى : من الكفّار (جُزْءٌ مَقْسُومٌ) يقول : نصيب معروف . والسّبعة الأبواب أطباق بعضها فوق بعض . فأسفلها الهاوية ، وأعلاها جهنّم .

وقوله : أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ [54] لو لم يكن فيها (على) لكان صوابا أيضا . ومثله (حَقِيقٌ «6» عَلى أَنْ لا أَقُولَ) وفى قراءة عبد اللّه (حقيق بأن لا أقول) ومثله فى الكلام أتيتك أنك تعطى فلم أجدك تعطى ، تريد : أتيتك على أنك تعطى فلا أراك كذلك .

وقوله : (فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) النون منصوبة لأنه فعل لهم لم يذكر مفعول «7» . وهو جائز فى الكلام .

---

(1) كسر اللام لغير نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبى جعفر وخلف كما فى الإتحاف

(2) الآية 146 سورة النساء .

(3) الآية 46 سورة ص . [. . . . .]

(4) الآية 14 .

(5) هى قراءة يعقوب والحسن كما فى الإتحاف.

(6) الآية 105 سورة الأعراف.

(7) كذا. والأولى: «مفعوله» أو سقط «له» والأصل: «له مفعول».

(60/422)

---

وقد كسر أهل «1» المدينة يريدون أن يجعلوا النون مفعولا بها. وكأنهم شدّدوا النون

فقالوا (فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قالُوا) ثم خفّفوها والنّيّة على تثقيلها كقول عمرو بن معدى كرب:

رأته كالثّغام يعلّ مسكا يسوء الفاليات إذا فلينى «2»

فأقسم لو جعلت علىّ نذرا بطعنة فارس لقضيت دينى

وقد خففت العرب النون من أنّ الناصبة ثم أنفذوا لها نصبها، وهى أشدّ من ذا. قال

الشاعر:

فلو أنك فى يوم الرخاء سألتنى فراقك لم أبخل وأنت صديق

فما ردّ تزويج عليه شهادة وما ردّ من بعد الحرار عتيق «3»

وقال آخر «4»:

لقد علم الضّيف والمرملون إذا اغبرّ أفق وهبّت شمالا

بأنك الربيع وغيث مريع وقدما هناك تكون الثّمالا

وقوله: وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ [66] أنّ مفتوحة على أن تردّ على الأمر فتكون فى موضع نصب بوقوع القضاء عليها. وتكون نصبا آخر بسقوط الخافض منها أي قضينا ذلك الأمر بهذا. وهى فى قراءة عبد اللّه (وقلنا إنّ دابر) فعلى هذا لو قرئ بالكسر لكان وجها.

وأما (مُصْبِحِينَ) إذا أصبحوا، ومشرقين إذا أشرقوا. وذلك إذا شرقت الشمس.

والدابر: الأصل.

شرقت: طلعت، وأشرقت: أضاءت.

---

(1) يريد نافعا.

(2) الهاء فى (رأته) لشعره، الثغام نبت له نور أبيض شبه به الشيب. ويعل: يطيب شيئا بعد شىء. وانظر سيبويه 2/ 154، والخزانة 2/ 445.

(3) مخاطب أو أنه وقد سألته الطلاق. ويريد بيوم الرخاء، ما قبل إحكام عقد لنكاح والحرار الحرقة والخلوص من الرق. وانظر الخزانة 2/ 465.

(4) أي شخص آخر وهو جنوب أخت عمرو ذى الكلب ترثيه. والمرملون: الذين نفدت أزوادهم ويقال:

أرمل ، واغبرار الأفق يكون فى الشتاء لكثرة الأمطار وهو زمن الجدب . والمريع الخصيب . والشمال الغياث . وانظر الخزانة 4/ 352 .

(61/422)

---

وقوله : إِنَّ فِي ذِلكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [85] يقال : للمتفكرين . ويقال للناظرين المتفرسين .

قوله : الأيكة [78] قرأها الأعمش وعاصم والحسن البصرىّ : (الأيكة) بالهمز فى كل القرآن . وقرأها أهل المدينة كذلك إلا فى الشعراء وفى ص فإنهم جعلوها بغير ألف ولام ولم يجروها .

ونرى - والله أعلم - أنها كتبت فى هذين الموضعين على ترك الهمز فسقطت الألف لتحرك اللام .

فينبغى أن تكون القراءة فيها بالألف واللام لأنها موضع واحد فى قول الفريقين ، والأيكة : الغيضة .

وقوله : وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ [79] يقول : بطريق لهم يمرون عليها فى أسفارهم . فجعل الطريق إماما لأنه يؤمّ ويتّبع .

وقوله تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمنين [82] أن تخرّ عليهم . ويقال : آمنين للموت .

وقوله : وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي [87] يعنى فاتحة الكتاب وهى سبع آيات فى قول أهل المدينة وأهل العراق . أهل المدينة يعدون «1» (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) آية . حدّثنا محمد قال حدثنا الفراء قال : وحدثنى حبّان عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس قال : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم آية من الحمد . وكان حمزة يعدّها آية وآتيناك (الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) .

وقوله : إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ [89] كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ [90] يقول : أنذرتكم ما أنزل بالمقتسمين . والمقتسمون رجال من أهل مكّة بعثهم أهل مكّة على عقابها «2» أيام الحجّ فقالوا : إذا سألكم الناس عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم فقولوا : كاهن . وقالوا لبعضهم قولوا : ساحر ، ولبعضهم : يفرق

---

(1) أي لما لم يعدوا البسملة آية من الفاتحة عدوا أنعمت عليهم آية وبذلك كانت الآيات سبعا أما من عد البسملة آية فلا يعد (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) آية .

(2) العقاب جمع عقبة وهى المرقى فى الجبل أو الطريق فيه .

(62/422)

---

بين الإثنين ولبعضهم قولوا : مجنون ، فأنزل اللّه تبارك وتعالى بهم خزيا فماتوا أو خمسة منهم شرّ ميتة فسمّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا طرق مكّة .

وقوله : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [91] يقول : فرّقوه إذ جعلوه سحرا وكذبا وأساطير الأولين. والعضون فى كلام العرب : السحر بعينه. ويقال : عضّوه أي فرّقوه كما تعضّى الشاة والجزور. وواحدة العضين عضة رفعها عضون ونصبها وخفضها عضين. ومن العرب من يجعلها بالياء على كل حال ويعرب نونها فيقول : عضينك ، ومررت بعضينك وسنينك وهى كثيرة فى أسد وتميم. وعامر. أنشدنى بعض بنى عامر :

ذرانى من نجد فإن سنينه لعبن بنا شيبا وشيّبننا مردا

متى ننج حبوا من سنين ملحّة نشمّر لأخرى تنزل الأعصم الفردا «1»

وأنشدنى فى بعض بنى أسد :

مثل المقالى ضربت قلينها «2»

من القلة وهى لعبة للصبيان ، وبعضهم :

إلى برين الصفر الملويات «3»

وواحد البرين برة. ومثل ذلك الثّبين «4» وعزين «5» يجوز فيه ما جاز فى العضين والسنين.

---

(1) الشعر للصمة بن عبد اللّه القشيري كما فى شواهد العيني فى مبحث الإعراب 1/ 170 على هامش الخزانة. والأعصم من الظباء والوعول : ما فى ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر. والعصم تسكن أعالى الجبال.

(2) المقالى جمع المقلى أو المقلاء ، والقلون جمع القلة . والقلة والمقلاء عودان يلعب بهما الصبيان . فالقلة خشبة قدر ذراع تنصب والمقلاء يضرب به القلة . وفى شفاء العليل فى حرف الناف أنها كات تسمى فى أيام المؤلف عقلة .

(3) البرون جمع البرة وهى الحلقة من صفر أو غيره تجعل فى أنف البعير والصفر النحاس .

(4) جمع ثبة وهى الجماعة والعصبة من الفرسان . وتجمع الثبة أيضا على ثبات .

[. . . . . .]

(5) العزون جمع العزة وهى العصبة من الناس .

(63/422)

---

وإنما جاز ذلك فى هذا المنقوص الذي كان على ثلاثة أحرف فنقصت لامه ، فلمّا جمعوه بالنون توهّموا انه فعول إذ جاءت الواو وهى واو جماع ، فوقعت فى موضع الناقص ، فتوهّموا أنها الواو الأصليّة وأن الحرف على فعول ألا ترى أنهم لا يقولون ذلك فى الصالحين والمسلمين وما أشبهه .

وكذلك قولهم الثبات واللغات ، وربما «1» عرّبوا التاء منها بالنصب والخفض وهى تاء جماع ينبغى أن تكون خفضا فى النصب والخفض ، فيتوهّمون أنها هاء ، وأن الألف قبلها

من الفعل. وأنشدنى بعضهم:

إذا ما جلاها بالأيام تحيرت ثبا تا عليها ذلّها واكتئابها «2»

وقال أبو الجراح فى كلامه: ما من قوم إلا وقد سمعنا لغاتهم - قال قال الفراء: رجع أبو الجراح فى كلامه عن قول لغاتهم - ولا يجوز ذلك فى الصالحات والأخوات لأنها تامّة لم ينقص من واحدها شىء، وما كان من حرف نقص من أوّله مثل زنة ولدة ودية فإنه لا يقاس على هذا لأن نقصه من أوّله لا من لامه فما كان منه مؤنّثا أو مذكّرا فأجره على التامّ مثل الصالحين والصالحات تقول رأيت لداتك ولديك ولا تقل لدينك ولا لداتك إلا أن يغلط بها الشاعر فإنه ربما شبّه الشيء بالشيء إذا خرج عن لفظه، كما لم يجر «3» بعضهم أبو سمّان والنون من أصله من السمن لشبهه بلفظ ريّان وشبهه.

وقوله: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ [94] ولم يقل: بما تؤمر به - واللّه اعلم - أراد: فاصدع بالأمر. ولو كان مكان (ما) من أو ما مما يراد به البهائم لأدخلت بعدها الباء كما تقول: اذهب إلى من تؤمر به واركب ما تؤمر به، ولكنه فى المعنى بمنزلة المصدر ألا ترى أنك تقول: ما أحسن

---

(1) الأسوغ حذف الواو.

(2) من قصيدة لأبى ذؤيب الهزلى. والبيت فى الحديث عن مشتار العسل. يقول: إنه اجتلى النحل بالأيام وهو الدخان أي أبرزها وأظهرها حين دخن عليها، وحينئذ تجمعت

وتحيرت عصبا وفرقا وهى ذليلة إذ أحست أن المشتار غلبها وانظر ديوان الهذليين 1/ 79.

(3) أي يصرف وينون.

(64/422)

---

ما تنطلق لأنك تريد: ما أحسن انطلاقك، وما أحسن ما تأمر إذا أمرت لأنك تريد ما أحسن أمرك. ومثله قوله «1» (يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ) كأنه قيل له: افعل الأمر الذي تؤمر. ولو أريد به إنسان أو غيره لجاز وإن لم يظهر الباء لأن العرب قد تقول: إنى لآمرك وآمر بك وأكفرك وأكفر بك فى معنى واحد. ومثله كثير، منه قولهم:

إذا قالت حذام فأنصتوها فإنّ القول ما قالت حذام «2»

يريد: فانصتوا لها، وقال الله تبارك وتعالى (أَلا إِنَّ «3» ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ) وهى فى موضع (يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ) و(كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) واصدع: أظهر دينك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن/ للفراء حـ 2 صـ 82. 94﴾

(1) الآية 102 سورة الصافات.

(2) سبق هذا البيت فى ص 215 من الجزء الأول .

(3) الآية 68 سورة هود .

(65/422)

---

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة الحجر

(آيات الكتاب وقرآن مبين) [1] جمع بين الكتاب والقرآن ، لأنهما وصفان مختلفان معنى ، وإن كان الموصوف واحداً . (لوما تأتينا) [7] أي: لولا . وقيل: هلا . (شيع الأولين) [10] فرق الأولين . (كذلك نسلكه) [12] ندخله ، أي: التكذيب والاستهزاء عن قتادة .

والذكر: القرآن ، وإن لم يؤمنوا به عن الحسن . (سكرت أبصارنا) [15] سدت من سكر البثق . (من كل شيء موزون) [19] مقدر: أي: بمقدار لا ينقص عن الحاجة ، ولا يزيد زيادة تخرج عن الفائدة . وذهب ابن بحر: أن المراد هو الأشياء/الموزونة . ثم قال: إنما ذكرها دون المكيلة ، لأن غاية المكيل [ينتهي] إلى الوزن .

والصحيح: هو القول الأول ، ونظائره في كلامهم كثيرة . قال ذو الرمة: 650- لها بشر مثل

الحرير ومنطق رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر . أي: قليل . وقال مالك الفزاري: 651- وحديث ألذه هومما ينعت الناعتون يوزن وزنا 652- منطق صائب ويلحن أحيانا وخير الكلام ما كان لحنا

أي: كناية ، لا [أ]نه أراد ما هو ضد الصواب ، كقوله: (ولتعرفنهم في لحن القول) ، وكما قيل: 653- ولقد وحيت لكم لكيما تفطنوا ولحنت لحناً ليس [بـ]ـالمرتاب . (وجعلنا [لكم] فيها معايش ومن لستم له برازقين) [20] ولمن لستم له برازقين من سائر الحيوانات ناطقها وعجمها . وقيل: إنه من علينا بالخول ، كما من بالمعاش

أي: كما جعلنا لكم فيها معايش ، جعلنا لكم خولاً من الخدم ، والدواب ، فإنا جعلناها لكم ، ولم نجعل رزقها عليكم . فـ(من) على هذا القول منصوب ، وعلى القول الأول مجرور . والمعايش: ما يتعيش به الإنسان من المطاعم والمشارب والملابس . قال جرير: 654- تكلفني معيشة آل زيد ومن لي بالمرقق والصناب 655- وقالت لا تضم كضم زيد وما ضمي ليس معي شباب . (لواقح) [22] بمعنى ملاقح ، على تقدير ذوات لقاح.

والرياح، لا سيما الصبا والجنوب ملقحة السحاب، كالفحل للناقة. وقيل: الصبا تثير وتلقح، والجنوب: تدر، والشمال: تمنع، والدبور: تقشع. وقد جاء كل ذلك في أشعار العرب/ ، قال الهذلي

656- [[فسائل] سبرة الشجعي عنا غداة تخالنا [نجواً جنيبا] . وقال الأعشى:

657- وما عنده فضل تليد ولا له من الريح فضل لا الجنوب ولا الصبا . وقال الهذبي في الشمال: 658- هل هاجك الليل كليل على أسماء من ذي صبر مخيل

659- حار وعقت مزنه الريح وانقار به العرض ولم يشمل. وقال آخر في الدبور:

660- يا عارضاً قد أورد البحر ذوده فلما تروت سار شوقاً إلى نجد 661- سما نحوه ملك الدبور بجنده فمزقه دون الإرادة والود . (فأسقيناكموه) [22] يقال: سقاه وإذا دعا له بالسقيا أيضاً . (المستقدمين) [24] الذين كانوا وماتوا .

وقيل: أراد المستقدمين في الخير، و(المستئخرين) عنه. والصلصال: الطين اليابس، الذي يصل بالنقر كالفخار، والحمأ: جمع حمأة، وهو الطين المسود. والمسنون: [المتغير] وقيل: المصبوب، وقيل: المصور، من سنة الوجه وصورته. (والجان) [27] أبو الجن.

(خلقناه من قبل من نار السموم) [27] نار السموم: نار تناهى في الغليان، وهي بالإضافة إلى النار التي جعلها الله متاعاً لنا، كالجمد إلى الماء، والحجر إلى التراب. وكان خلق الجان من تلك الأجزاء النارية المطيفة في أفق الهواء بكثرة الغليان، وإذا جاز خلق الحي العاقل

من الأجزاء الأرضية العالية عليه ، فمن لطافة الأجزاء النارية أجوز ، فبطل مطعن الملحدة: أن خلق الحيوان كيف يكون من النار ، وعلى أن الخلق ليس على وزن واحد ، ألا ترى إلى الظليم الذي يلتقم الجمر المضطرم ، ثم يميعه ويذيبه بحر قانصته ، حتى يصير كالماء الجاري [فيغذوه] ويقيمه/ . (بقطع من الليل) [65] بظلمة . وقيل: بآخر الليل .

*(67/422)*

---

(واتبع أدبارهم) [65] مر خلفهم . (دابر هؤلاء) [66] أصلهم ، وقيل: آخرهم .

(مشرقين) [73] داخلين في وقت الإشراق ، وهو إضاءة الشمس ، والشروق: طلوعها ، كما فصله بعضهم –وليس بشاهد ولكنه لحفظ الفرق–: 662– عيني عليها –أو أراك– غشاوة فكأن شمسي من جبينك تشرق 663– ويلحظ عينك عن لقاء نبوة فكأن شمسك من جبيني تشرق .

(وإنها لبسبيل مقيم) [76] أي: بطريق واضح ، كقوله: (لبإمام مبين) و(أصبحت الأيكة) [78] قوم شعيب ، فإنه بعث إلى أصحاب الأيكة ، وإلى أهل مدين ، فأهلك الله مدين بالصيحة ، والأيكة بالظلة ، فاحترقوا بنارها . و(الحجر) [80] ديار ثمود . (فاصفح الصفح الجميل) [85] يعني الإعراض من غير احتفال ، كأنه تولية

صفحة الوجه . (سبعاً من المثاني) [87] يعني الفاتحة ، لأنها سبع آيات ، وثنيت في الإنزال ، وتثنى قراءتها في كل صلاة ، والذكر فيها مثنى مقسوم بين الرب والعبد . وقيل: المثاني: القرآن ، لأن الأنباء والقصص ثنيت فيها

فتكون الواو على هذا مقحمة ، كأنه: سبعاً من المثاني القرآن العظيم . وسبعاً من قوله عليه السلام: "[أنزل] القرآن على سبعة أحرف" . (أزواجاً منهم) [88] أصنافاً وأشكالاً . (المقتسمين) [90] كفار قريش ، اقتسموا طرقات مكة ، فإذا مر بهم مار إلى النبي عليه السلام ، قال بعضهم: هو ساحر ، وقال بعضهم: شاعر ، وآخر: مجنون ، وآخر: كاهن

وكانوا مقتسمين: إما على اقتسام طرق مكة ، وإما على اقتسام القول في رسول الله .

وقيل: المقتسمين: قوم تقاسموا أو تحالفوا على أن لا يؤمنوا /برسول الله . (الذين جعلوا القرآن عضين) [91] هذا يؤكد أن المراد بالمقتسمين ، اقتسام القول ، أي: جعلوا القرآن فرقاً من شعر وسحر وكهانة ، وأساطير ، كأنهم عضوه ، كما يعضى [الجزورٍ] ، قال رؤبة:

664- [نشذب] من خندف حتى ترضى 665- وليس دين الله بالمعضى

وأصل هذه الكلمة من "عضة" منقوصة ، وكانت عضوة كعزة وعزين ، وبرة وبرين ، ولهذا قال: تجمع على عضوات . والتوفيق بين قوله تعالى: (لنسئلنهم أجمعين) [92] وقوله: (لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) ، ما قاله ابن عباس: إنه لا يسأل هل أذنبتم ؟ [لعلمه] بذلك ، ولكن لم أذنبتم ؟ . وذكر عكرمة: أن المواقف مختلفة يسأل في بعضها ، أو يسأل في بعض اليوم ، ولا يسأل في بعضه ، كقوله: (هذا يوم لا ينطقون) ، ثم قال: (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) ، إلا أن جميع أوقات اليوم [ومواقفه] داخل تحت اللفظ ، لا سيما عندنا ، فإن العموم لا يقتضي الخصوص ، وكذلك إذا ورد خاص عندنا في حادثة بعد عام ، لا يكون ذلك بياناً ، ولكن نسخاً ، والنسخ في الأحكام لا في الأخبار ، فأولى أن المراد: هو النطق المسموع المقبول ، الذي تقوم به حجة ، وتظهر معذرة ، فإذا لم يكن عندهم [ذلك] ، كأن لم [ينطقوا] ، ولا يسألوا على مجاز قول الدارمي: 666- أعمى إذا ما جارتي خرجت حتى يواري جارتي الخدر 667- [و]يصم عما كان بينهما أذني وما بي غيره وقر/

وقول حاتم: 668- بعيني عن عوراء جاري نبوة وبالأذن عما لا يلائمني وقر . وقال آخر: 669- وقد طال كتمانيك حتى كأنني برد جواب السائلي عنك أعجم . والأول أولى (فاصدع بما تؤمر) [94] احكم بأمرنا . وقيل: افرق بين الحق والباطل ، كقول الهذلي: 670- فكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع . (واعبد ربك حتى يأتيك

اليقين) [99] أي: النصر الموعود ، وقيل: الموت الذي هو موقن به .

[تمت سورة الحجر] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 772 . 790 ﴾

*(69/422)*

---

وقال الأخفش :

سورة (الحجر)

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾

قال ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وأدخل مع "رُبَّ" (ما) ليتكلم بالفعل بعدها . وان شئت جعلت (ما) بمنزلة "شَيْءٍ" فكأنك قلت: "ورُبَّ شَيْءٍ [142 ب] يَوَدُّ" أي: "رُبَّ وُدٍّ يَوَدُّهُ الذينَ كَفَرُوا" .

﴿ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾ استثناء خارج كما قال "ما أَشْتَكِي إِلاَّ خَيْراً" يريد "أَذْكُرُ خَيْراً" .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾

[وقال] ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ فجعلها على "لاقِحٍ" كأن الرياح لَقِحَتْ لأَنَ فيها خيرا

فقد لَقِحت بخير. وقال بعضهم "الرِّياحُ تُلْقِحُ السَّحابَ" فقد يدل على ذلك المعنى لانها اذا أنشأته وفيها خير وصل ذلك اليه.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وقال ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ يقول: "بإغوائِكَ إِيّايَ" ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ على القسم كما تقول: "بِاللهِ لأَفْعَلَنَّ".

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾

وقال ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ يقول: عَلَيَّ دِلالَتُه. نحو قول العرب "عَلَيَّ الطريقُ الليلة" أي: عليّ دِلالَتُه.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

وقال ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ لأَنَّه من "جَزَّأْتُهُ" و(مِنْهُمْ) يعني: من الناس.

﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾



---

وقال ﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ ﴾ لانه من "وَجِلَ" "يَوْجَلُ". وما كان على "فَعِلَ" فـ"هو يَفْعَلُ" تظهر فيه الواو ولا تذهب كما تذهب من "يَزِنُ" لأَنَّ "وَزَنَ" "فَعَلَ" وأَمّا بنو تميم فيقولون (تِيْجَلُ)

لأنّهم يقولون في "فَعِلَ" "تِفْعَل" فيكسرون التاء في "تَفْعَل" والالف من "أفْعَلُ" والنون من "نْفَعَلُ" ولا يكسرون الياء لأنّ الكسر من الياء فاستثقلوا اجتماع ذلك . وقد كسروا الياء في باب "وَجِلَ" لأن الواو قد تحولت الى الياء مع التاء والنون والالف . فلو فتحوها استنكروا الواو ولو فتحوا الياء لجاءت الواو ، فكسروا الياء فقالوا "يِيجَلُ" ليكون الذي بعدها [143] ياء [إذ]* كانت الياء أخف مع الياء من الواو مع الياء لانه يفر الى الياء من الواو ولا يفر الى الواو من الياء . قال بعضهم (يَيْجَلُ) فقلبها ياء وترك التي قبلها مفتوحة كراهة اجتماع السكرة والياءين .

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ لانها من "قَنَطَ" "يَقْنِطُ" وقال بعضهم (يَقْنُطُ) مثل "يَقْتُلُ" و "يقنَطُ" مثل "عَلِمَ" "يَعْلَمُ" .

﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وقال ﴿ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ [58] إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ استثناء من المجرمين أي: لا يدخلون في الاجرام .

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

وقال ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ ﴾ لأن قوله ﴿ أَنَّ دَابِرَ ﴾ بدل من (الامر)

.

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

وقال ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي ﴾ و (لَعَمْرُكَ) - والله اعلم - و"وَعَيْشِكَ" انما يريد به العُمْر.

و"العُمْرُ" و"العَمْرُ" لغتان.

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾

وقال ﴿ عِضِينَ ﴾ وهو من "الأَعْضاء" وواحِدُهُ "العِضَةُ" مثل "العِزِينَ" واحده "العِزَةُ".

انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 411.413 ﴾

(71/422)

---

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الحجر

مكية كلها

4 - إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ أي أجل مؤقت.

7 - لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ أي هلا تأتينا بالملائكة. «ولولا» مثلها أيضا: إذا لم يكن يحتاج [إلى جواب. وقد ذكرناها في المشكل].

10 - فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ أي أصحابهم.

13 - لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أي تقدمت سيرة الأولين في تكذيب الأنبياء .

14 - فِيهِ يَعْرُجُونَ أي يصعدون . يقال : عرج إلى السماء ، أي صعد . ومنه تقول العامة : عرج بروح فلان . والمعارج : الدّرج .

15 - سُكِّرَتْ أَبْصارُنا : غشيت . ومنه يقال : سكر النهر ، إذا سدّ . والسّكر : اسم ما سكرت [به] . وسكر الشّراب منه ، إنما هو الغطاء على العقل والعين .

وقرأ الحسن : سكرت - بالتخفيف - وقال : سحرت . والعامة تقول

(72/422)

---

في مثل هذا : فلان يأخذ بالعين .

16 - جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً يقال : هي اثنا عشر برجا . وأصل البرج : القصر والحصن .

17 و18 - وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ . إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ يقول : حفظناها من أن يصل إليها شيطان ، أو يعلم من أمرها شيئا إلّا استراقا ، ثم يتبعه شِهابٌ مُبِينٌ أي كوكب مضيء .

19 - مَوْزُونٍ : مقدّر . كأنه وزن .

20 - وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ مثل الوحش والطير والسباع.

وأشباه ذلك: مما لا يرزقه ابن آدم.

22 - وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ قال أبو عبيدة: «لواقح» إنما هي ملاقح، جمع ملقحة. يريد

أنها تلقح الشجر وتلقح السحاب. كأنها تنتجه. ولست أدري ما اضطره إلى هذا

التفسير بهذا الاستكراه. وهو يجد العرب تسمي الرياح لواقح، والريح لاقحا. قال

الطّرمّاح وذكر بردا مدّه على أصحابه في الشمس يستظلون به:

قلق لأفنان الرياح للاقح منها وحائل

فاللاقح: الجنوب. والحائل: الشمال. ويسمون الشمال أيضا:

عقيما. والعقيم التي لا تحمل. كما سموا الجنوب لاقحا. قال كثير:

ومرّ بسفساف التراب عقيمها يعني الشمال. وإنما جعلوا الريح لاقحا - أي حاملا - لأنها

تحمل السحاب وتقلبه وتصرّفه، ثم تحمله فينزل. [فهي] على هذا الحامل.

وقال أبو وجزة يذكر حميرا وردت [ماء]:

حتى رعين الشّوى منهن في مسك من نسل جوّبة الآفاق مهداج

ويروى : «سلكن الشوى» ، أي أدخلن قوائمهن في الماء حتى صار الماء لها كالمسك .

وهي الأسورة . ثم ذكر أن الماء من نسل ريح تجوب البلاد . فجعل الماء للريح كالولد : لأنها حملته وهو سحاب وحلّته . ومما يوضح هذا قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً [سورة الأعراف آية : 57] أي حملت .

36 - (الصّلصال) : الطين اليابس لم تصبه نار . فإذا نقرته صوّت ، فإذا مسته النار فهو فخّار . ومنه قيل للحمار : مصلصل . قال الأعشى :

كعدو المصلصل الجوّال ويقال : سمعت صلصلة اللجام ، إذا سمعت صوت حلقه .

مِنْ حَمَإٍ جمع حمأة . وتقديرها : حلقة وحلق . وبكرة الدّلو وبكر . وهذا جمع قليل .

و(المسنون) : المتغير الرائحة .

وقوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ في قول بعض أصحاب اللغة منه . وقد ذكرناه في سورة البقرة .

و(المسنون) [أيضا] : المصبوب . يقال : سننت الشيء ، إذا صببته صبا سهلا . وسنّ الماء على وجهك .

47 - (الغلّ) : العداوة والشحناء .

55 - فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ أي اليائسين .

66 - وَقَضَيْنا إِلَيْهِ : أخبرناه .

70 - قالُوا : أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ أي [أو] لم ننهك [عن] أن تضيف أحدا ؟ ! . وكانوا نهوه عن ذلك .

(74/422)

---

75 - لِلْمُتَوَسِّمِينَ «1» المتفرّسين . يقال : توسمت في فلان الخير ، أي تبينته .

79 - وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ أي لبطريق واضح بين . وقيل للطريق : إمام ، لأن المسافر يأتم به ، حتى يصير إلى الموضع الذي يريده .

82 - وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ يريد : أمنوا أن تقع عليهم .

88 - لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أي أصنافا منهم .

90 - الْمُقْتَسِمِينَ : قوم تحالفوا على عضه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأن يذيعوا ذلك بكل طريق ، ويخبروا به النّزاع إليهم .

91 - الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ أي فرّقوه وعضّوه . قال رؤبة :

وليس دين اللّه بالمعضى ويقال : فرّقوا القول فيه . فقالوا : شعر . وقالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين .

وقال عكرمة : العضه : السحر ، بلسان قريش . يقولون للساحرة :

عاضهة.

وفي [الحديث] : «لعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم العاضهة والمستعضهة».

94 - فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ أي أظهر ذلك. وأصله الفرق والفتح.

يريد : أصدع الباطل بحقّك.

99 - حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أي الموت. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تأويل مشكل القرآن ص 201.

204 ﴾

---

(1) للناظرين : ذكره البخاري.

(75/422)

---

وقال الغزنوى :

ومن سورة الحجر

2 رُبَما «1» يَوَدُّ : ربّ للتقليل «2»، فيكون معناه هنا أنّه يكفي قليل النّدم فكيف كثيره؟ أو العذاب يشغلهم عن تمنّي ذلك إلّا في القليل، أو يقينهم أنه لا يغني عنهم التمني أقل تمنيهم.

12 كَذلِكَ نَسْلُكُهُ : ندخله، أي : الكذب أو الاستهزاء، عن قتادة «3»،

(1) بتشديد الباء قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي وبالتخفيف قراءة عاصم ونافع.

ينظر السبعة لابن مجاهد: 366، وحجة القراءات: 380، والتبصرة لمكي: 238.

وفي حجة القراءات عن الكسائي أنه قال: «هما لغتان والأصل التشديد، لأنك لو صغّرت «ربّ» لقلت: «ربيب»، فرددت إلى أصله».

(2) ذكره الزجاج في معانيه: 3/ 173، ورد قول من قال إنها للتكثير فقال: «فأما من قال إن «ربّ» يعنى بها الكثير فهذا ضد ما يعرفه أهل اللغة لأن الحروف التي جاءت لمعنى تكون على ما وضعت العرب، ف «رب» موضوعة للتقليل، و«كم» موضوعة للتكثير، وإنما خوطبوا بما يعقلون ويستفيدون».

وقال الفخر الرازي في تفسيره: 19/ 156: «اتفقوا على أن «رب» موضوعة للتقليل ...».

وقيل: إن «ربّ» وضعت في الأصل للتقليل ولكنها في هذا الموضع جاءت للتكثير، ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 358، والبغوي في تفسيره: 3/ 43، وابن الأنباري في البيان:

2/ 64، والقرطبي في تفسيره: (10/ 1، 2)، وأبو حيان في البحر المحيط: 5/ 442، وقال: «ودعوى أبي عبد الله الرازي الاتفاق على أنها موضوعة للتقليل باطلة،

وقول الزجاج أن «ربّ» للكثرة ضد ما يعرفه أهل اللغة ليس بصحيح، وفيها لغات وأحكامها كثيرة ذكرت في كتب النحو، ولم تقع في القرآن إلا في هذه السورة على كثرة وقوعها في لسان العرب».

(3) أخرج الطبري في تفسيره: 14/ 9 عن قتادة قال: «إذا كذبوا سلك اللّه في قلوبهم أن لا يؤمنوا به».

وينظر تفسير البغوي: 3/ 45، والمحرر الوجيز: 8/ 287، وتفسير الفخر الرازي: 19/ 166 - ، وتفسير القرطبي: 10/ 7.



---

ويكون ذلك بالإخطار بالبال ليجتنب.

وقال الحسن «1»: هو الذكر وإن لم يؤمنوا به.

15 سُكِّرَتْ أَبْصارُنا: سدّت. من سكر الشق «2»، وليلة ساكرة: مكفوفة الريح والبرد «3».

19 مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ: مقدّر، بمقدار لا ينقص عن الحاجة ولا يزيد زيادة تخرج عن الفائدة، ولو كان المراد الأشياء الموزونة فذكرها دون الكيل، لانتهاء الكيل إلى الوزن.

20 وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ: أي: ولمن لستم ترزقونه، أو هو منّة بالخول كما منّ ب المعايش.

21 خَزائِنُهُ: مقدوراته، لأنّ اللّه يقدر أن يوجد ما شاء من جميع الأجناس «4».

22 لَواقِحَ: بمعنى ملاقح «5» على تقدير: ذوات لقاح أو لقحة «6».

---

(1) أورده القرطبي في تفسيره: 10/ 7، وقال: «ذكره الغزنوي». [. . . . .]

(2) في تفسير الفخر الرازي: 19/ 171: «وأصله من «السكر»، وهو سد الشق لئلا ينفجر الماء».

وفي اللسان: 4/ 375 (سكر): «وسكر النهر يسكره سكرا: سدّ فاه. وكل شق سدّ فقد سكر، والسّكر ما سدّ به، والسّكر: سد الشق ومنفجر الماء».

(3) ينظر الصحاح: 2/ 688، واللسان: 4/ 375 (سكر).

(4) المحرر الوجيز: 8/ 295.

(5) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن: 1/ 348، ونص كلامه: «مجازها مجاز «ملاقح»، لأن الريح ملقحة للسّحاب، والعرب قد تفعل هذا فتلقي الميم لأنها تعيده إلى أصل الكلام. . .».

قال الجوهري في الصحاح: 1/ 401 (لقح): «ورياح لواقح، ولا يقال ملاقح، وهو من النوادر».

وأورد ابن قتيبة قول أبي عبيدة ثم قال: «ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير بهذا الاستكراه. وهو يجد العرب تسمى لواقح، والريح لاقحا . . . .» .

راجع تفسير غريب القرآن: 236 .

(6) ينظر كتاب الريح لابن خالويه: (79، 80) ، وتفسير الفخر الرازي: 19/ 180 .

(77/422)

---

والرّياح - ولا سيما - الصّبا «1» ملقحة للسّحاب .

وفي الحديث «2» : «الرياح أربعة: الأولى تقمّ الأرض قما «3» ، والثانية تثير السّحاب فتبسطه في السّماء وتجعله كسفا «4» ، والثالثة تؤلف بينه فتجعله ركاما ، والرابعة اللّواقح» .

فَأَسْقَيْناكُمُوهُ: أسقاه، إذا جعل لأرضه سقيا «5» وإذا دعا له بالسّقيا .

24 الْمُسْتَقْدِمِينَ: الذين كانوا وماتوا «6» . أو أراد المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه «7» .

---

(1) قال المبرد في الكامل: 2/ 953: «إذا هبت من تلقاء الفجر فهي «الصّبا» تقابل

القبلة، فالعرب تسميها القبول».

وفي اللسان: 14/ 451 (صبا): «الصّبا ريح معروفة تقابل الدبور».

وفي الحديث المرفوع: «نصرت بالصّبا وأهلكت عادٌ بالدّبور».

صحيح البخاري: 4/ 76، كتاب بدء الخلق، باب «ما جاء في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ.

وصحيح مسلم: 2/ 617، كتاب الاستسقاء، باب «في ريح الصبا والدبور».

(2) أخرج - نحوه - الطبري في تفسيره: 14/ 21 عن عبيد بن عمير.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 73، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن عبيد بن عمير أيضا.

(3) في اللسان: 12/ 493 (قمم): «قمّم الشيء قما: كنسه».

(4) بمعنى: قطعا.

ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 261، والمفردات للراغب: 431، وتحفة الأريب: 272.

(5) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 350، وتفسير الطبري: 14/ 22، والمفردات للراغب:

236، وتهذيب اللغة: 9/ 228، واللسان: 14/ 391 (سقي).

(6) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: (14/ 23، 24) عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 366 عن الضحاك.

وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 396 عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والضحاك، والقرظي.

(7) أخرجه الطبري في تفسيره: 14/ 25 عن الحسن.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 366 عن قتادة. والبغوي في تفسيره: 3/ 48 عن الحسن.

وابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 397 عن قتادة، والحسن.

*(78/422)*

---

و«الصّلصال» «1»: الطين اليابس الذي يصلّ بالنّقر كالفخّار «2».

[51/أ] والحمأ: الطين الأسود «3»/.

و«المسنون»: المصبوب، سننت الماء: صببته «4»، أو المصوّر، من سنّة الوجه: صورته «5»، أو المتغيّر، من سننت الحديدة على المسنّ فتغيّر بالتحديد «6».

27 وَالْجَانَّ: أبو الجنّ إبليس «7».

---

(1) من قوله تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [آية: 26].

(2) في مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 350: «الصلصال: الطين اليابس الذي لم تصبه نار فإذا نقرته صلّ فسمعت له صلصلة، فإذا طبخ بالنار فهو فخّار، وكل شيء له صلصلة صوت فهو صلصال سوى الطين».

ومعنى: يصلّ يصوت كما في معاني القرآن للزجاج: 3/ 178.

وانظر غريب القرآن لليزيدي: 200، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 237، وتفسير الطبري: 14/ 27، والمفردات للراغب: 284. [.....]

(3) تفسير الطبري: 14/ 28، وتفسير الماوردي: 2/ 367، والمفردات: 133.

(4) مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 351، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 238، وتفسير الطبري: 14/ 29، والمحرر الوجيز: 8/ 306، وتفسير القرطبي: 10/ 22.

(5) ذكره الفخر الرازي في تفسيره: 19/ 184، وعزاه إلى سيبويه، وكذا القرطبي في تفسيره:

10/ 22. وانظر تفسير الطبري: 14/ 29، والكشاف: 2/ 390، وزاد المسير: 4/ 398، والبحر المحيط: 5/ 453.

(6) ذكره الفراء في معاني القرآن: 2/ 88. وانظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة:

238، وتفسير الطبري: 14/ 29، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 179، والمحرر الوجيز: 8/ 305، وزاد المسير: 4/ 398، وتفسير القرطبي: 10/ 22، والبحر المحيط: 5/ 453.

(7) أخرجه الطبري في تفسيره: 14/ 30 عن قتادة.

وفرّق بعضهم بين أبي الجن، وإبليس.

فنقل الماوردي في تفسيره: 2/ 368 عن الحسن أنه قال إنه إبليس.

وذكره ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 399 وزاد نسبته إلى عطاء، وقتادة، ومقاتل.

أما أبو الجن، فذكره ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 399، وقال: «قاله أبو صالح عن ابن عباس.

ونقله الفخر الرازي في تفسيره: 19/ 184 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما وقال: وهو قول الأكثرين».



---

خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ: نار لطيفة «1» تناهت في العليّان «2» في أفق الهواء، وهي بالإضافة إلى النّار - التي جعلها اللّه متاعا - كالجمد إلى الماء والحجر إلى التراب.

32 ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ: موضع «أن» نصب بإسقاط «في»، أي: أيّ شيء لك في أن لا تكون «3».

47 إِخْواناً: حال «4».

مُتَقابِلِينَ: لا ينظر بعضهم في قفا بعض «5».

---

(1) وفي صحيح مسلم: 4/ 2294، كتاب الزهد والرقائق، باب «في أحاديث متفرقة» عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار...».

(2) العليّان كصليّان، والمراد بالعليان الطول والارتفاع.

اللسان: 15/ 92 (علا).

(3) عن معاني القرآن للزجاج: 3/ 179، وانظر تفسير الطبري: 14/ 32، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 380، والبيان لابن الأنباري: 2/ 69، والبحر المحيط: 5/ 453.

(4) معاني القرآن للزجاج: 3/ 180، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 382، والمحرر الوجيز: 8/ 320.

قال العكبري في التبيان: 2/ 783: «هو حال من الضمير في الظرف في قوله تعالى:

جَنَّاتٍ ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل في ادْخُلُوها مقدرة ، أو من الضمير في آمِنِينَ وقيل : هو حال من الضمير المجرور بالإضافة ، والعامل فيها معنى الإلصاق والملازمة» .

وانظر تفسير القرطبي : (10/ 33 ، 34) ، والبحر المحيط : 5/ 457 .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 14/ 38 عن مجاهد . ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز : 8/ 320 عن مجاهد أيضا .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 3/ 180 ، وتفسير البغوي : 3/ 52 .



---

65 بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ : بظلمة «1» ، وقيل «2» : بآخر الليل .

وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ : سر خلفهم .

66 دابِرَ هؤُلاءِ : آخرهم «3» .

72 لَعَمْرُكَ : وحياتك «4» . وقيل «5» : مدة بقائك .

لَفِي سَكْرَتِهِمْ : سكرة الجهل غمورة «6» النّفس .

73 مُشْرِقِينَ : داخلين في وقت الإشراق وهو إضاءة الشمس ، والشروق : طلوعها .

75 لِلْمُتَوَسِّمِينَ : للمتفكرين «7» .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 373 عن قطرب.

(2) نقله ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 142 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والماوردي في تفسيره: 2/ 373 عن الكلبي.

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 353، وتفسير الطبري: 14/ 42، وتفسير الماوردي:

2/ 373، والمفردات للراغب: 164.

(4) أخرج الطبري في تفسيره: 14/ 44 عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد صلّى الله عليه وسلّم، قال: وحياتك يا محمد وبقائك في الدنيا ...».

وأخرج نحوه أبو نعيم في دلائل النبوة: 1/ 70، والبيهقي في الدلائل: 5/ 488 عن ابن عباس.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 89، وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة، والحارث بن أبي أسامة، وأبي يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأشار الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 49 إلى رواية أبي يعلى وقال: «وإسناده جيد».

[.....]

(5) تفسير الطبري: 14/ 44.

(6) في «ح»: غمرة.

(7) هذا قول الفراء في معانيه: 2/ 91، ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 374 عن ابن زيد، والبغوي في تفسيره: 3/ 55 عن مقاتل، وعزاه القرطبي في تفسيره: 10/ 43 إلى ابن زيد، ومقاتل.

قال الزجاج في معاني القرآن: 3/ 184: «وحقيقته في اللغة المتوسمون النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، تقول: توسّمت في فلان كذا وكذا، أي: عرفت وسم ذلك فيه».

(81/422)

---

76 لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ: طريق واضح، كقوله «1»: لَبِإِمامٍ مُبِينٍ، ومعناه: أنّ الاعتبار بها ممكن، لأنّ آثارها ثابتة مقيمة، وهي قرية «سدوم» «2».

و «أصحاب الأيكة» «3»: قوم شعيب «4»، بعث إليهم وإلى أهل مدين، فأهلك اللّه مدين بالصّيحة «5» والأيكة بالظّلّة فاحترقوا بنارها «6».

79 وَإِنَّهُما: مدينة قوم لوط وأصحاب الأيكة «7»، لَبِإِمامٍ مُبِينٍ:

طريق يؤمّ ويتّبع «8» .

80 الْحِجْرِ : ديار ثمود «9» .

---

(1) آية : 79 من سورة الحجر .

(2) سدوم : بفتح أوله وضم ثانيه : مدينة من مدائن قوم لوط .

وفي معجم البلدان : 3/ 200 عن أبي حاتم الرازي في كتاب «المزال والمفسد» قال : إنما هو «سذوم» بالذال المعجمة ، قال : والدال خطأ» .

قال الأزهري : «وهو الصحيح ، وهو أعجمي» .

وانظر تهذيب اللّغة : 12/ 374 ، ومعجم ما استعجم : 3/ 729 ، والروض المعطار :

308 .

(3) من قوله تعالى : وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ [آية : 78] .

(4) تفسير الطبري : 14/ 48 ، وتفسير البغوي : 3/ 55 ، والمحرر الوجيز : 8/ 344 .

(5) وقال اللّه تعالى فيهم : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ [هود : 94] .

(6) قال تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الشعراء :

آية:

189].

وانظر تفسير الماوردي: 2/ 537، والمحرر الوجيز: 8/ 345.

(7) تفسير الطبري: 14/ 49، وتفسير الماوردي: 2/ 375، وتفسير البغوي: 3/ 55.

(8) ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 91، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 239، وتفسير الطبري: 14/ 49.

(9) ذكره الطبري في تفسيره: 14/ 50، ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 375 عن ابن شهاب.

وينظر تفسير البغوي: 3/ 55، والتعريف والإعلام للسهيلي: 90.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 8/ 347: «وهي ما بين المدينة وتبوك».

(82/422)

---

85 فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ: الإعراض من غير احتفال، كأنّه يولّيه صفحة الوجه «1».

وعند من لا يرى النّسخ «2» هو فيما بينه وبينهم لا فيما أمر من جهادهم.

87 سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي : الفاتحة «3» ، لأنّها سبع آيات والذكر فيها مثنى مقسوم بين الرّبّ والعبد «4» . وقيل «5» : هي السّبع الطّول من أول القرآن .

---

(1) تفسير الطبري : 14/ 51 ، والمفردات للراغب : 282 ، وتفسير القرطبي : 10/ 54 .

(2) ذكره القرطبي في تفسيره : 10/ 54 فقال : «ليس بمنسوخ ، وإنه أمر بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم» .

وذكر الفخر الرازي في تفسيره : 19/ 210 قول من قال إن الآية منسوخة بآية السيف ثم رده بقوله : «وهو بعيد لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخا ؟» . [. . . . .]

(3) يدل عليه الحديث المرفوع الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 146 ، كتاب التفسير ، باب «ما جاء في فاتحة الكتاب» بلفظ : «الحمد للّه رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» .

وانظر تفسير الطبري : (14/ 54 - 57) ، وزاد المسير : 4/ 413 ، وتفسير الفخر الرازي :

19/ 212 ، وتفسير ابن كثير : 4/ 465 .

(4) وفي الحديث القدسي : «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ،

فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي . وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدني عبدي . . . » الحديث .

وهو في صحيح مسلم : 1/ 296 ، كتاب الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : (14/ 51 - 54) عن ابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك .

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير : 11/ 59 ، والحاكم في المستدرك : 2/ 355 ، كتاب التفسير ، «تفسير سورة الحجر» ، وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأشار الهيثمي في مجمع الزوائد : 7/ 49 إلى رواية الطبراني عن ابن عباس ، ثم قال : «ورجاله رجال الصحيح» .

وقيل «1» : بل [هي ] «2» السّور التي تقصر عن المئين وتزيد على المفصّل ، لأنّها مثاني المئين ، والمئين كالمبادي فإذا جعلت السّبع المثاني ف «من» للتبيين ، وإذا جعلت القرآن مثاني لتثنية الأخبار والأمثال ف «من» للتبعيض «3» .

88 أَزْواجاً مِنْهُمْ : أصنافا وأشكالا «4» .

90 الْمُقْتَسِمِينَ : أي : أنزلنا عليك الكتاب/ كما أنزلنا على أهل [51/ ب ] الكتاب فاقتسموه ، آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه»

.

وقيل «6» : هم كفار قريش اقتسموا طرقات مكّة فإذا مرّ بهم مارّ إلى

---

(1) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : 19/ 213 ، وقال : «واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إن اللّه تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني المثاني مكان الزبور ، وفضلني ربي بالمفصّل» .

ثم قال الفخر الرازي رحمه اللّه : وأقول إن صحّ هذا التفسير عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فلا غبار عليه ، وإن لم يصح فهذا القول مشكل ، لأنا قد بينا أن المسمى بالسبع المثاني يجب أن يكون أفضل من سائر السور ، وأجمعوا على أن هذه السور التي سموها بالمثاني ليست أفضل من غيرها ، فيمتنع حمل السبع المثاني على تلك السور» .

والسور المئون سميت بذلك لأن آيات كل سورة منها لا تزيد على المائة أو تقاربها ، والمفصّل لقصر أعداد سوره من الآي ، أو لكثرة الفصول التي بين السور ببسم اللّه الرحمن الرحيم.

انظر البرهان للزركشي : (1/ 244 ، 245) ، والإتقان : (1/ 179 ، 180) ، واللسان :

11/ 524 (فصل) .

(2) في الأصل : «هو» ، والمثبت في النص من «ك» .

(3) ينظر ما سبق في معاني الزجاج : 3/ 185 ، وزاد المسير : 4/ 415 ، وتفسير الفخر الرازي :

19/ 214 .

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 239 ، وتفسير الماوردي : 2/ 377 ، والكشاف : 2/ 397 .

(5) أخرج الإمام البخاري في صحيحه : 5/ 222 ، كتاب التفسير ، باب قوله : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : «هم أهل الكتاب جزّءوه أجزاء وآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه» .

وانظر تفسير الطبري : (14/ 61 ، 62) ، ومفحمات الأقران : 130 ، والدر المنثور : 5/ 98 .

(6) ذكره الفراء في معانيه: (2/ 91، 92)، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 239، وأخرجه الطبري في تفسيره: 14/ 63 عن قتادة. ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 378 عن الفراء.

(84/422)

---

النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال بعضهم: هو ساحر، وقال آخر: هو شاعر، وآخر: مجنون وكاهن، فكانوا مقتسمين إمّا طرق مكة، أو القول في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وقوله: عِضِينَ يدلّ على اقتسام القول، أي: جعلوا القول في القرآن [فرقا] «1» من شعر وكهانة وأساطير كأنّهم عضوه أعضاء كما يعضّى الجزور، والأصل «عضة» منقوصة فكانت «عضوة» ك «عزة» و«عزين» «2» و«برة» و«برين» «3».

وقال الفراء «4»: «العضة»: السّحر، والجمع «العضون».

وفي الحديث «5»: «لعن اللّه العاضهة والمستعضهة»، أي: السّاحرة والمستسحرة «6».

ويقال: ينتجب غير عضاهة: ينتحل شعر غيره «7».

---

(1) ما بين معقوفين عن «ك» و«ج».

(2) عزون : جمع «عزه» ، وهي الجماعة من الناس .

مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 270 ، والمفردات : 334 .

(3) عن معاني القرآن للفراء : (2/ 92 ، 93) قال : «و واحد البرين برة . ومثل ذلك «الثبين» و«عزين» . ويجوز فيه ما جاز في العضين والسنين ، وإنما جاز ذلك في هذا المنقوص الذي كان على ثلاثة أحرف فنقصت لامه ، فلما جمعوه بالنون توهموا أنه «فعول» إذ جاءت الواو وهي واو جماع ، فوقعت في موقع الناقص ، فتوهموا أنها الواو الأصلية وأن الحرف على فعول . . . » .

(4) معاني القرآن : 2/ 92 .

(5) ذكره مرفوعا الماوردي في تفسيره : 2/ 379 ، والزمخشري في الكشاف : 2/ 399 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 419 ، والقرطبي في تفسيره : 10/ 59 .

قال الحافظ ابن حجر في الكافي الكشاف : 94 : «رواه أبو يعلى ، وابن عدي ، من حديث ابن عباس ، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان ، وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء» . [ . . . . . ]

(6) تهذيب اللغة : 1/ 130 ، والنهاية : 3/ 255 .

(7) هذا من أقوال العرب كما في تهذيب اللغة للأزهري : 1/ 132 ، واللسان : 13/ 518 (عضه) .

والتوفيق بين قوله «1» : لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، وقوله «2» : لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ أنّه لا يسأل هل أذنبتم ؟ للعلم به ، ولكن لم أذنبتم ؟ «3» ، أو المواقف مختلفة يسأل في بعضها أو في بعض اليوم «4» .

وقوله «5» : هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ، مع قوله «6» : عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ فالمراد هو النّطق المسموع المقبول .

94 فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ : احكم بأمرنا .

95 إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ : هم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأبو زمعة «7» ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن [الطلاطلة] «8» ، وطيء الحارث شبرقة «9» فلم يزل يحك بدنه حتى مات .

وقال العاص : لدغت لدغت ، فلم يجدوا شيئًا فمات مكانه .

---

(1) الحجر : آية : 92 .

(2) سورة الرحمن : آية : 39 .

(3) ذكره البغوي في تفسيره : (3/ 58 ، 59) ، ثم قال : «واعتمده قطرب فقال :

السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ يعني: استعلاما، وقوله: لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ يعني توبيخا وتقريعا» اهـ.

وانظر هذا القول في المحرر الوجيز: 8/ 358، وزاد المسير: (4/ 419، 420)، وتفسير الفخر الرازي: 19/ 218، وتفسير القرطبي: 10/ 61.

(4) ذكره البغوي في تفسيره: 3/ 59، وعزاه إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 420.

وانظر تفسير الفخر الرازي: 19/ 219، وتفسير القرطبي: 10/ 61.

(5) سورة المرسلات: آية: 35.

(6) سورة الزمر: آية: 31.

(7) هو الأسود بن المطلب بن أسد.

(8) في الأصل و«ك» و«ج»: «حنظلة»، والمثبت في النص عن المصادر التي ذكرت هذه الرواية.

(9) الشّبرق: نبت حجازي يؤكل وله شوك، وإذا يبس يسمّى الضّريع.

النهاية لابن الأثير: 2/ 440، واللسان: 10/ 172 (شبرق).

وعمي أبو زمعة، وأصابت الأسود الآكلة «1»، وتعلقت بالوليد سروة - أي دودة «2»
- فخدشته فلم يبرح مريضا حتى مات «3».
99 وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ: النّصر الموعود «4»، أو الموت «5»

---

(1) الآكلة جمع أكلة، ويقال فيها أواكل، والأواكل قروح إذا ظهرت أكلت ما حولها من اللحم وقشرت العظم الذي يليها لحريفية المادة، وربما أبطلت العضو، وقد تدعو الحاجة إلى قطع ما فوقها لسلامة باقي البدن.
ينظر تذكرة أولي الألباب: 2/ 12.
(2) اللسان: 14/ 381 (سرا).
(3) ورد نحو هذه الرواية في السيرة لابن هشام: (1/ 409، 410)، وتفسير الطبري:
(14/ 69، 72)، ودلائل النبوة لأبي نعيم: (1/ 355، 356)، ودلائل النبوة للبيهقي:
(2/ 316 - 318)، ومجمع الزوائد: (7/ 49، 50) عن الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال: «وفيه محمد بن عبد الملك النيسابوري» ولم أعرفه

، وبقية رجاله ثقات، وبين هذه الروايات اختلاف كثير.

قال الفخر الرازي في تفسيره: 19/ 220: «واعلم أن المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين في أسمائهم وفي كيفية طريق استهزائهم، ولا حاجة إلى شيء منها. والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورئاسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في علو قدره وعظيم منصبه، ودل القرآن على أن اللّه تعالى أبادهم وأزال كيدهم. واللّه أعلم» اهـ. [.....]

(4) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 381 عن ابن شجرة، وكذا القرطبي في تفسيره: 10/ 64، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 424، وقال: «حكاه الماوردي»، ونقله أبو حيان في البحر المحيط: 5/ 471 عن ابن بحر.

(5) أخرجه الطبري في تفسيره: 14/ 74 عن سالم بن عبد اللّه بن عمر، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وابن زيد.

وأورده الإمام البخاري في صحيحه: 5/ 222 عن سالم تعليقا.

ويدل على هذا القول ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: 2/ 71، كتاب الجنائز، باب «الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه» أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم دخل على عثمان بن مظعون - رضي اللّه عنه - وقد مات، فقالت أم العلاء الأنصارية: رحمة اللّه عليك يا أبا السائب (كنية عثمان بن مظعون) فشهادتي عليك لقد

أكرمك الّله.

فقال النبي صلّى الّله عليه وسلّم: «وما يدريك أنّ الّله أكرمه؟ فقلت (أم العلاء): بأبي أنت يا رسول الّله فمن يكرمه الّله؟ فقال عليه السلام: أما هو فقد جاءه اليقين، والّله إني لأرجو له الخير والّله ما أدري وأنا رسول الّله ما يفعل بي، قالت: فوالّله لا أزكي أحدا بعده أبدا».

(87/422)

---

الذي هو موقن به.

قال عليه السلام «1»: «ما أوحي إليّ أن اجمع المال فأكون من التاجرين، ولكن أوحي إليّ أن سبّح بحمد ربك...» الآيتان. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 1 صـ 477.465﴾

---

(1) أخرج ابن عدي في الكامل: 5/ 1897 هذا الحديث وعدة أحاديث غيره من طريق أبي طيبة عيسى بن سليمان عن كرز بن وبرة، ثم قال: «وهي كلها غير محفوظة، وأبو طيبة هذا كان رجلا صالحا ولا أظن أنه كان يتعمد الكذب».

ورواه أيضا السّهمي في تاريخ جرجان: 342، وأبو نعيم في حلية الأولياء: 2/ 231،

عن ابن مسعود مرفوعا .

وأخرجه البغوي في تفسيره : 3/ 60 عن جبير بن نفير مرفوعا .

وعزاه القرطبي في تفسيره : 10/ 64 إلى أبي مسلم الخولاني مرفوعا .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 105 ، ونسب إخراجه إلى سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والحاكم في «التاريخ» ، وابن مردويه ، والديلمي - كلهم - عن أبي مسلم الخولاني مرفوعا .

(88/422)

---

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الحجر

عدد 4 - 54 - 15

نزلت بمكة بعد سورة يوسف إلا الآية 85 فإنها نزلت بالمدينة وهي تسع وتسعون آية ، وستمئة وأربع وخمسون كلمة ، وألفان وسبعمئة وستون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى الر 1 " تقدم ما فيه ، واللّه أعلم بما فيه ، راجع ما قبلها وما تدلك إليه تجد ما

يتعلق في معناه مفصلا "تِلْكَ" إشارة إلى أن ما تضمنته هذه السورة من الآيات بأنها هي "آيَاتُ الْكِتَابِ" المعهود الذي وعد اللّه به حبيبه محمدا صلّى اللّه عليه وسلم بإنزاله عليه "وَقُرْآنٍ مُبِينٍ 1" لكل شيء في الدنيا والآخرة، والتنكير يشعر بالتفخيم والتعظيم لشأن ذلك الكتاب الذي هو القرآن المدون في اللوح المحفوظ، ومن قال إن المراد بالكتاب التوراة أو الإنجيل لأن القرآن عطف عليه والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه لا دليل له على ذلك إذ لم يرد ذكر لهما بعد حتى يشار إليها به، وأن مجيئه بوصفين كان زيادة في إجلاله واحترامه لما فيه من الآيات والأحكام الهامة لهذا المجتمع الإنساني، أما اقتضاء المغايرة فليس على إطلاقه.

مطلب كلمة لوما ولولا في ربما وفي كلمات التهكم وعهد اللّه في حفظ القرآن دون سائر الكتب:

(89/422)

---

"رُبَما" بالتخفيف وتقرأ بالتشديد وهما لغتان في ربّ، وتكون للتقليل والتكثير وهي هنا للتكثير، وزيد عليها ما يليها الفعل لأنها من حروف الجر فلا تدخل وحدها على الأفعال كأن وأخواتها فإنها لا تدخل على الأفعال بدون ما، ولك أن تجعل ما هنا بمعنى شيء

فتقول رب شيء ، وتختص بالنكرات وتكون ما كافة لها عن العمل ، وهي تختص أيضا بالماضي من الأفعال ، ودخلت هنا على المضارع لأنه بمنزلة المحقق وقوعه ، لأن كل ما هو مترقب من أخبار اللّه تعالى مقطوع في وقوعه لتحققه فيكون بمنزلة الماضي ، وكأنما قيل هنا ربما ودّ "يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا" يوم الجزاء والحساب في ذلك الموقف المهيب الذي ترتعد له الفرائض وتتفطّر له القلوب أي أن الكافرين يتمنون في ذلك اليوم "لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ 2" مؤمنين باللّه في الدنيا وذلك حين يشاهدون أهوال أحوال الآخرة أو حين يحل بهم الموت ، إذ تتراءي لهم منازلهم ويعلمون أنهم كانوا في ضلال ، لهذا يتمنون كثيرا أنهم كانوا مسلمين ، ولكن لا فائدة من ذلك التمنّي إذ لا يقبل الإيمان حال اليأس من الحياة ، فلئلا يقبل في الآخرة من باب أولى

(90/422)

---

فيكثر ندمهم حينذاك ولات حين مندم ، ولهذا كانت ربما هنا للتكثير لأنهم كلما شاهدوا هولا من أهوال القيامة وكلما رأوا شفاعة الأنبياء لأتباعهم والمؤمنين بعضهم لبعض وكلما عاينوا رحمة اللّه بالمسلمين ونكاله في الكافرين والعاصين أمثالهم يتمنون أنهم كانوا مسلمين ، ويكونون أكثر أسفا وحسرة وندما على ما فاتهم وخاصة حينما يدخل المؤمنون الجنة

والكافرون النار ، أجارنا اللّه منها ، ومن قال إنها هنا للتقليل أراد أنه أبلغ في التهديد والزجر ، أي قليل التمني والندم كافيك في كونه زاجرا لك عما كنت فيه ، فكيف بكثيره ؟ ولأن أهوال القيامة تشغلهم عن كثرة التمني وانغماسهم بالعذاب ينسيهم الندم ، وإنما يخطر ببالهم عند الأفاقة من سكراته ، والأول أنسب بالمقام ، إذ لكل مقام مقال .

*(91/422)*

---

قال تعالى "ذَرْهُمْ" يا أكمل الرسل "يَأْكُلُوا" كما تأكل الأنعام ويتمتعوا بحطام الدنيا البالية "وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ" بكثرة الأموال والأولاد والنعم عن الإيمان بنا ويغويهم الشيطان بالانهماك في الكفر والشهوات والإعراض عن الطاعة لك "فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ 3" سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه وذاقوا وباله ، وفيه تهديد عظيم لمن أخذ حظه من الدنيا وترك نصيبه من الآخرة لأنه صدر الآية بكلمة ذرهم وهي للتهديد أيضا ، فمتى يهدأ العيش لمن هو بين تهديدين تضمنا وعيدين إذا كان له قلب لين أو عين رطبة وفكر يقرّب له ما يستعبده غيرة ؟ هذا ، ولما كان طول الأمل ينسى الآخرة واتباع الهوى يبعد عن الحق والعياذ باللّه وهما ليسا من أخلاق المؤمنين قال تعالى "وَما أَهْلَكْنا مِنْ" أهل "قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ 4" أجل مضروب ووقت معين لإهلاكها لا يتقدم ولا يتأخر ، ولهذا قال ذرهم إذ لم تنزل آية القتال ولم

يؤمر حضرة الرسول بقتالهم وقسرهم على الإيمان ، وما قاله بعض المفسرين إن هذه الآية منسوخة بآية السيف لا عبرة في قوله ، بل هي محكمة جاءت تقوية للقتال وتمهيدا له وتبيينا لأسبابه ، لأن من أراد أن يبطش بعدوه المخالف له وهو قوي لا يفاجئه ببطشه بل يتقدم له بالإنذار حتى إذا أيس من القبول لما يأمره به وينهاه عنه بطش به ، فيكون معذورا ، لأن من أنذر فقد أعذر ، وهذا من هذا ، قال تعالى "ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها" المحتم

(92/422)

---

لها في أم الكتاب بل تنتظره حتما "وَما يَسْتَأْخِرُونَ 5" عنه لحظة واحدة إذا حل أجله وقد أنث أولا وذكر ثانيا باعتبار اللفظ والمعنى "وَقالُوا" كفار مكة لرسولهم محمد صلّى اللّه عليه وسلم "يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ" القرآن المذكر للرشد والهدى والحق والصواب "إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ 6" وصموه بما هو براء منه لما يرونه حال نزول الوحي عليه كالمغشي عليه من ثقل ما يلاقي من الهيبة الإلهية ورزانة المنزل مما لا تطيقه الجبال الراسيات ، راجع قوله تعالى (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) الآية 6 من سورة المزمل المارة في ج 1 وقوله تعالى (لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) الآية 22 من سورة

الحشر في ج 3 ، وقولهم له هذا على طريق الاستهزاء إذ يقولون (يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ) إلخ فيعترفون أنه ذكره وينسبونه إلى الجنون ، ، والتعكيس في كلامهم

(93/422)

---

للاستهزاء والتهكم جار شائع ، وقد جاء القرآن على ذلك المنوال الذي ألهمه لهم منزله لما هو معلوم في سابق علمه ، قال تعالى (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) الآية 27 من سورة آل عمران ج 3 ، ومثلها فيالقرآن كثير ، وقال تعالى (إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) الآية 87 من سورة هود المارة وقال تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الآية 49 من سورة الدخان الآتية ، وقد جاءت هذه الآية على حد قوله تعالى حكاية عن فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) الآية 27 من سورة الشعراء المارة في ج 1 والمعنى أنك تقول قول المجانين بادعائك أن اللّه نزل عليك الذكر قال تعالى "لَوْما" هي لو ركب معها ما ، وهي لامتناع الشيء لوجود غيره مثل لو لا ، فتحتاج للشرط والجواب ، ولكنها لا تجزم وإخوانها كذلك وراجع الآية 115 من سورة هود المارة ومعناها هلا ، وهذه أصلها هل ركبت مع لا ، وتفيد التحضيض وهو طلب الشيء بحث وإزعاج ، فعند إرادة المعنى الأخير لا يليها إلا فعل ظاهر أو مضمر كما في الآية ، وعند إرادة معنى امتناع الشيء لوجود غيره لا يليها إلا

اسم ظاهر أو مقدّر عند البصريين وعليه قول ابن مقبل :

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

(94/422)

---

و هذه بخلاف ربما إذ لا تدخل على الأسماء كما بيناه آنفا في الآية الثانية "تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ" ليشهدوا على دعواك رسالة اللّه لنا كي نصدّقك "إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ 7" بها قال تعالى ردا عليهم "ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ" على طلبكم الواهي وما ننزلهم "إِلَّا بِالْحَقِّ" عند إرادتنا إنزال العذاب بأحد ، وعند قبض الروح ، وعند إنزال الوحي ، وعند اقتضاء أمر تقتضيه حكمتنا "وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ 8" ممهلين بل لأوقعنا بهم العذاب حالا مع نزول الملائكة ، نزلت هذه الآية في كفار مكة القائلين إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم أنزل علينا ملائكة ربك الذين تزعم ليشهدوا أنك صادق بوعدك ووعيدك كي نصدقك ، قال تعالى "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ" عليك يا سيد الرسل أصدّقوا أم كذبوا "وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ 9" من كل ما يقدح فيه كالتحريف والتغيير والزيادة والنقص ، بحيث لو أن أكبر رجل قرأه بزيادة حرف أو نقصه أو تبديل حركة منه لردّ عليه الصبيان ، إذ لا يراعى في لحنه كبير لكبريائه ، وهو الموجود بين الدفتين الآن كما كان قبل يكون بعد المتواترة قراءته كما هي فيه ، كيف لا وهذا العهد من

اللّه تعالى بحفظه له على الصورة التي أنزلت عليها ، وبقائه معمولا به إلى آخر الزمان فلا يقدر أحد على إحداث شيء فيه أو إزالة شيء منه البتة بمقتضى عهده هذا ، وهذا من خصائصه ، لأن غيره من الكتب السماوية تطرقت إليها الأيدي بالزيادة والنقصان من تحريف وتبديل ، وأدخل فيها من ما ليس منها بسبب تسلط بعض الملوك على القسوس والرهبان وأهل العلم من أهل الكتابين ، وبسبب الترجمة وأسباب دنيوية وقسرية ، لأن التوراة حرفت مرارا وتداولتها أيدي الملوك وعلماء السوء ، والإنجيل لم ينزل دفعة واحدة ولم يجمع على عهد المسيح ولم يعلم بصورة صحيحة الذي نقله من السريانية إلى العربية ، وأن الأناجيل الأربعة المعمول بها



---

الآن وإن كانت من حيث المعنى على توافق غالبا فإنها مختلفة من حيث اللفظ ، وكلام اللّه لا بدّ وأن يكون موافقا بعضه لبعض حرفيا في اللفظ والمعنى ، وكلها مخالفة لإنجيل برنابا الذي هو موافق من حيث المعنى للقرآن العظيم بشأن صون سيدنا عيسى من الصلب وعدم توصل أيدي اليهود القذرة إلى طهارته وقدسيته ، وأن المصلوب هو يهوذا الأسخريوطي المنافق الذي دلهم عليه ليمسكوه ويقتلوه ، فألقى اللّه شبهه عليه جزاء

وفاقا كما سيأتي تفصيله في الآية 187 من سورة النساء في ج 3 ، وقال اللّه تعالى في حق هذا القرآن (مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ) الآية 50 من آل عمران في ج 3 ، بما يعم التوراة والإنجيل وغيرهما ، ولذلك تعهد اللّه بحفظه ولم يشر إلى مثل تلك الآية فيها لعلمه أن يقع فيها ما يقع من التغيير والتبديل ، وقد ولى حفظها إلى الرّبانيين والأحبار فاختلفوا وذهب كل منهم مذهبا في تأويلها ، ففسر كل منها على ما تهواه نفسه ، أما القرآن فقد أنزله اللّه تعالى على النبي العربي الأمي بلغته ولغة قومه وأبقاه كما أنزله وسيبقى على حاله إلى يوم القيامة إذ جعله معجزا مباينا لكلام البشر لا يقدر أحد أن يعارضه في إعجازه وفصاحته وبلاغته ولو زيد فيه حرف أو أنقص منه حرف لتغيّر نظمه ومبناه ، ولو غيرت منه كلمة أو بدلت ذهب رونقه ومعناه ، ولو قدم أو أخر منه شيء لاختلف المراد من مغزاه ، ولو حرف حرف منه لتبدلت أحكامه وقضاياه ، فيظهر لكل عاقل بالضرورة أنه ليس من القرآن ويخرج عن كونه كلام الملك الديان ، وقد سخر اللّه تعالى عبادا من خلص عباده يذبّون عنه دواعي المبتدعة والملاحدة وأهل الكتابين المتعصبين بغير الحق ، وأبقاهم كذلك إلى اليوم الذي قدر فيه رفعه ممن ليس بأهله ، فصانه على هذه الصورة من كل إفساد وإبطال ، وأبقاه كما أنزله صادعا بالحرام والحلال والأخبار والأمثال والحمد للّه رب العالمين .

وقدمنا ما يتعلق بهذا في المقدمة من بحث حفظ القرآن ما به كفاية فراجعه .

هذا وما جرينا عليه من عود الضمير في له إلى القرآن أولى وأليق وأحسن من عوده إلى محمد صلّى اللّه عليه وسلم بداعي أن اللّه تعالى ذكر الإنزال والمنزل وكنى به عن المنزل عليه بعود الضمير له وهو محمد صلّى اللّه

عليه وسلم مع أن هذا معلوم بالبداهة ، وإن سياق الآية يأبى عود الضمير إليه بل عوده لأقرب مذكور ، وهو الذكر أوجب وأصح وأشهر .

قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ" يا محمد رسلا كثيرة "فِي شِيَعِ" فرق "الْأَوَّلِينَ 10" السابقين

"وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ 11" فكذلك قومك قد أساءوا الأدب معك مثلهم ، راجع الآية 30 من سورة يس المارة في ج 1 ، والآية 9 من الزخرف الآتية .

أنزل اللّه هذه

الآية تسلية لحضرة الرسول عند ما تجرّأ عليه قومه وسلطوا عليه السفهاء والعبيد بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي اللّه عنها يخبره فيها أن عادة الكفار قديما التعدي على أنبيائهم وإساءة الأدب معهم ، فلك أسوة بهم وعليك أن تصبر على أذاهم وجفاهم كما صبر من قبلك "كَذلِكَ" مثل ما سلكنا الضلال والكفر والتكذيب للرسل والاستهزاء

بالذكر في قلوب فرق الأولين ، فإنا أيضا "نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ 12" من قومك لأنهم أشر وأكفر من غيرهم ، والشيعة أتباع الرجل وفرقته إذا اتفقوا على مذهب واحد وطريقة واحدة .

ومعنى السلك النفاذ وهو إدخال الشيء بالشيء كالخيط بالإبرة .

مطلب عدم وجوب الصلاح على الله والبروج ومواقعها ومعانيها :

وهذه الآية حجة على المعتزلة القائلين في وجوب خلق الأصلح للعبد على الله تعالى خلافا لاعتقاد أهل السنة والجماعة ، قال في جوهرة التوحيد :

وما قيل إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

وقال في بدء الأمالي :

(97/422)

---

وما ان فعل أصلح ذو افتراض على الهادي المقدس ذي التعالي

وقال الواحدي : قال أصحابنا أضاف الله سبحانه إلى نفسه إدخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه ، فمن آمن بالقرآن فليستحسنه ، ومن قال إنه لم يجر للضلال والكفر ذكر في هذا اللفظ ، فكيف تضيفون الضمير في نسلكه إليه ، هو قول مردود لأنه تعالى قال (وَما

يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) فالضمير في به عائد إلى الرسول والضمير في نسلكه عائد إلى الاستهزاء ، والاستهزاء بالرسول كفر وضلال ، فثبت صحة للقول بأن الذي يسلك في قلوب المجرمين هو الكفر والضلال ، وقد بينّا في الآية 12 من سورة يونس والآية 100 من سورة يوسف المارتين ما يتعلق في هذا البحث فراجعهما ، وإنما نسلكه في قلوبهم لأنهم "لا يُؤْمِنُونَ" أولئك الكفرة "بِهِ" بالذكر المنزل عليك ، وهو القرآن "وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ 13" التي سنها اللّه لعباده في عدم إيمان الكافرين الذين سبق في علمه أنّا أنهم يموتون كفارا وأنهم يهلكون بعذاب منه ، لأنهم

(98/422)

---

يصرّون على الكفر ، وفيه وعيد وتهديد لأهل مكة بأنهم إذا لم يؤمنوا يكون مصيرهم الهلاك كالأمم السابقة ، قال تعالى "وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ" على خلاف العادة ليؤمنوا بك "فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ 14" يصعدون وينظرون ما فيها من العجائب العظيمة ، والمعارج المصاعد وهي قواطع السلم الذي يصعد عليه بها كالدرج ، "لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا" حبست عن النظر وتحيّرت وأغشيت بما يمنعها من حقيقة المرأى ، أي لأنكروا ما شاهدوه فيها وجعلوه خيالا ولم يتعظوا بشيء من ذلك ولقالوا "بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ

15" من قبل محمد ، إذ موّه وخيل لنا أشياء لا حقيقة لها ، والمعنى أن اللّه تعالى يقول لو جعل لهم ذلك على سبيل الفرض وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا قد سدت أبصارنا عن الحقيقة أو سحرنا محمد ، وأصروا على كفرهم ، وهؤلاء الذين هم في أزل اللّه يموتون على كفرهم لا ينتفعون بما آتاهم الله من الهدى والرشد .

(99/422)

---

قال تعالى "وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً" عظاما كالقصور العالية الفخمة في الأرض ، من حيث الاسم وإلا فلا يقاس بعظمتها ما في الدنيا كلها ، وصيرناها منازل للشمس في سيرها وهي بروج الفلك الاثني عشر ، ولكل برج منها ثلاثون درجة ، فمجموعها ثلاثمائة وستون درجة وتقطعها الشمس في كل سنة مرة واحدة كل برج في شهر ، وبها تتم دورة الفلك ، ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما ، وتنقسم على المواسم الأربعة ، ونظير هذه الآية الآية 60 من سورة الفرقان المارة في ج 1 ، وقد ذكرنا فيهما بعض ما يتعلق في هذا البحث فراجعه ، وقد أوضحنا ما هية البروج في سورة البروج المارة في ج 1 أيضا ، ولهذا البحث صلة في أوائل سورة تبارك الملك الآتية ، أما منازل القمر فهي ثمانية وعشرون منزلة لكل برج منزلتان وثلث ، إذ ينزل كل ليلة منزلة وتقيم الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما ،

وهي مواقع النجوم التي أقسم اللّه بها في الآية 75 من سورة الواقعة المارة في ج 1 كما أشرنا إليه في الآية 40 من سورة يس المارة في ج 1 أيضا فراجعها تجد ما تريد وما يخطر ببالك، وقد نسبت العرب إليها الأنواء الممطرة التي وعدنا ببيانها قبل في الآية 21 من سورة يونس المارة، وها نحن أولاء نبينها على التفصيل فنقول وباللّه التوفيق وهو الملك الجليل:

المنزلة الأولى الشرطان بفتح الشين والراء مثنى شرط بفتحتين، وهما كوكبان نيّران من القدر الثالث على قرني الحمل معترضان بين الشمال والجنوب، بينهما ثلاثة أشبار بالنسبة لما نراه ويقرب الجدي منهما كوكب صغير، قد سمتها العرب كلها أشراطا ويقولون بسقوطها علامات المطر والريح والقمر يحاذيهما ويقرب الشمال منهما كوكب صغير نيّر وهما الشرطان عند بعض، ويقال الشرطين الناطح أيضا.

(100/422)

---

وأما السرطان بالسين فهو ورم سوداوي يبتدىء مثل اللوزة وأصغر، فإذا كبر ظهر عليه عروق حمر وخضر شبيهة بأرجل السرطان لا مطمع من برئه، وإنما يعالج لئلا ينمو ويزداد، أو داء في رسغ الدابة، أو دابة نهرية كثيرة النفع لنهش الكلب، وبحرية تحرق وتوضع بالأكحال راجع القاموس المحيط في تفاصيلها، ويطلق على البرج السماوي.

الثانية البطين تصغير بطن ، وهي ثلاثة كواكب صغار كأنهن أثافي خفية من القدر .

الخامس على شكل مثلث حاد الزوايا على فخذي الحمل بينه وبين الشرطين قيد رمح بالنسبة لرؤيتها ، وهكذا فيما بعده ، والقمر يجتاز بها أحيانا .

الثالثة الثّريا تصغير ثروى من الثراء وهو الكثرة وتسمى النجم ، وهي ستة كواكب مجتمعة كشكل المروحة مقبضها نحو المشرق فيه انحناء من جانب الشمال ، وقد شبهها قيس بن الأسلت بعنقود عنب ، قال أحيحة بن الجلاح :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نوّرا

والمرصود من كواكبها أربعة من القدر الخامس وموضعها سنام الثور ، ويليه الحمل وقد يكسفها القمر .

الرابع الدبران بفتحتين سمي به لأنه دبر الثريا وخلفها وهو كوكب أحمر نير من القدر الأول على طرف صورة السبعة من رقوم ، ويسمى المجدع وموقعه عين الثور ، والذي على طرفه الآخر من القدر الثالث على عينه الأخرى ، والثلاثة الباقية وهي من القدر الثالث أيضا على وجهه وزاوية هذا الرقم على خطم النور ، وقد بسمى بقلب الثور ، وقد يكسفه القمر أيضا .

الخامس الهقعة بفتح الهاء وسكون القاف وفتح العين المهملة ، وهي ثلاثة كواكب خفقفة

من القدر الخامس مجتمعة شبيهة بنقط الثاء كأنها لطخة سحابية شبهت بالدائرة التي تكون في عرض زور الفرس أو بحيث تصيب رجل الفارس أو بلمعة بياض



---

تكون في جنب الفرس الأيسر ، وتسمى الأثافي جمع أثفية ، وهي الأحجار الثلاثة التي يركب عليها القدر حين توضع تحته النار ، وهي على رأس الجبار المسمى بالجوزاء والقمر يجافيها ولا يقاربها .

السادسة الهنعة بالنون على وزن الهقعة ، وهي كوكبان من القدر الرابع والثالث شبهت بسمة في منخفض عنق الفرس وهما على رجل التوأمين مما يلي الشمال بمنكب الجوزاء الأيسر والقمر يمر بهما .

السابعة الذراع وهو كوكبان زهراويان من القدر الثاني على رأس التوأمين ويقال لهما ذراع الأسد المبسوطة ، لأن المقبوضة هي الشعرى الشامية مع فروعها والقمر يقارب المبسوطة .

الثامنة النثرة وهي الفرجة بين الشاربين حيال وثرة الأنف وهو أنف الأسد وهما كوكبان خفيان من القدر الرابع بينهما قدر ذراع ولطخة سحابية وهي على وسط السرطان

وبقربهما كوكبان يسميان بالجمارين واللطخة بينهما بالمعلف تشبيها لها بالتبن وبمحنطة الأسد أي موضع استاره ويكسف القمر كلا منهما .

التاسعة الطرف من القوس وهو ما بين السبّة والأنهرين أي قريب من الذراع من كبدها ، والأنهران العوا والسماك ، وسمي الأنهران لكثرة ما بهما من النجم ، وهي كوكبان صغيران من القدر الرابع أيضا أحدهما على رأس الأسد قدام عينيه ، والأخر قدام يده المقدمة ، والقمر يحاذي أشملهما ، ويكسف أجنبهما ، ويعنون بالطرف عين الأسد .

العاشرة الجبهية أي جبهة الأسد وهي أربعة كواكب على سطر فيه تعريج آخذ من الشمال إلى الجنوب أعظمها على طرف السطر مما يلي الجنوب ، وتظهر للرائي واحدة منفردة وثلاثة كالأثافي ويسمى قلب الأسد لكونه في موضعه ، ويسمى الملكي أيضا وهو من القدر الأول والقمر يمرّ به وبالذي يليه .



---

الحادية عشرة الزبرة بضم الزاي وسكرن الباء وهي كوكبان نيّران على أثر الجبهية بينهما أرجح من ذراع وهما على زبرة الأسد أي كاهله عند العرب وعند المنجمين عند مؤخره ، فزبرة الأسد شعره الذي يزبر عند الغضب في قفاه أجنبهما من القدر الثالث وأشملهما من

الثاني ، وتسمى ظهر الأسد ، والقمر يحاذيهما من جهة الجنوب حتى كأنه نزلهما رأي العين .

الثانية عشرة الصرفة سميت بذلك لأن البرد ينصرف عند سقوطه ، وهو كوكب واحد على طرف ذنب الأسد ، وتسمى ذنب الأسد ، والقمر محاذبه من جهة الجنوب .

الثالثة عشرة العوّي بالقصر وقد تمد وهي خمسة كواكب من القدر الثالث على هيئة لام في الخط العربي تشبه القنا ثلاثة منها آخذة نحو من منكب العذراء الأيسر إلى تحت ثديها الأيسر وهي على سطر جنوبي من الصرفة ، وينعطف اثنان منها على سطر يحيط مع الأول بزاوية منفرجة ، زعمت العرب أنها كلاب تعوي خلف الأسد ، ولذلك سميت العواء ، وقيل كأنها تعوي فى أثر البرد ، ولذلك تسمى طاروده البرد أو مأخوذة من الانعطاف تقول عوى الشيء إذا عطفه ، وتطلق على سافلة الإنسان ، وتسمى ورك الأسد ، والقمر يخرقها .

الرابعة عشرة السماك الأعزل وهو كوكب نيّر من القدر الأول من حيث الضياء وهو يتفاوت ما بين الواحد والواحد والعشرين ، إلا أن البشر لا يدرك أكثر من ذوي القدر الخامس ، لأن السادس هو السها وقل من يدركه من البشر ، لأن بصره لا يتعداه ، وهو على كتف العذراء الأبسر ، قريب من المنطقة ، والقمر يمر به ويكسفه ، ويقابله السماك الرامح

الذي لم يعد من المنازل ، وسمي رامحا لكوكب يقدم كأنه رمحه ، وسمي سماكا لأنه سمك أي ارتفع ، ومن قال إنه كوكبان نظر إليهما معا تسامحا والصواب ما ذكرناه .

(103/422)

---

الخامسة عشرة الغفر وهي ثلاثة كواكب من الرابع على ذيل العذراء ، ورجلها المؤخرة على سطر معوج حدبته إلى الشمال ، وقيل أيضا كوكبان والقمر يمر بجنوبهما وقد يحاذي الشمال وهو منزل خير بعد عن شرين مقدم الأسد ومؤخر العقرب ، ويقال إنه طالع الأنبياء والصالحين وسميت غفرا لسترها ونقصان نورها ، وقيل هي من كواكب الميزان .

السادسة عشرة الذّبانا بالضم وهي كوكبان نيران من الثاني متباعدان من الشمال والجنوب بينهما قيد رمح على كفتي الميزان ، وقيل إنهما قرنا العقرب والقمر قد يكسف جنوبهما .

السابعة عشرة الإكليل وهو ثلاثة كواكب خفية معترضة من الشمال إلى الجنوب على سطر مقوس يشبه شكلهما شكل المغفر ، الأوسط منها متقدم والاثنان تاليان ، وهي من الرابع والقمر يمر بجميعها ، وقيل هي أربعة كواكب برأس العقرب ، ولذلك سميت إكليلا الذي معناه في الأصل تاج الملك .

الثامنة عشرة القلب وهو قلب العقرب كوكب أحمر ونهر وسط الثلاثة التي على بدن

العقرب ، على استقامة من الغرب إلى الشرق ، وهو من الثاني واللذان قبله وبعده من الثالث ، ويسميان بناطين ، والقمر يمرّ به ويكسفه من المنطقة .

التاسعة عشرة الشولة بفتح الشين واللام وتسمى ابرة العقرب عند الحجازيين ، وهي كوكبان من الثاني وزهران متقاربان على طرف ذنب العقرب في موضع السحمة والقمر يحاذيهما .

العشرون النّعائم وهي أربعة كواكب من الثالث على منحرف تابع للشولة وتسمى النعائم الواردة إلى المجرّة ، والقمر يمر باثنين منها ويحاذي الباقية ، ويقرب منها أربعة أخرى من الثالث على منحرف ، وهي النعائم الصادرة من المجرة وكلها من صورة الرامي ، وسميت نعائم تشبيها بالخشبات التي تكون على البئر .

(104/422)

---

الحادية والعشرون البلدة وهي قطعة من السماء خالية من الكواكب مستديرة تقع بين النعائم وبين سعد الذابح فينزلها القمر وقد يعدل عنها فينزل بالقلادة وهي ستة كواكب صغار في برج القوس تنزلها الشمس في أنصر أيام السنة ، شبهت ببلدة الثعلب وهي ما يكنّه بذنبه ، وتسمى المفازة والفرجة أيضا تشبيها بالفرجة الكائنة بين الحاجبين وموضعها

خلف الكواكب التي تسمى بالقلادة ، وهي عصابة الرامي .

الثانية والعشرون سعد الذابح وهو كوكبان على قرن الجدي بينهما قدر باع بالنظر لما نرى جنوبيهما من الثالث والقمر يقاربه ولا يكسفه ، وبقرب الشمال كوكب صغير يكاد يلتصق به يقال إنه شاته التي يريد أن يذبحها ، وقيل إنه في مذبحه ولذلك سمي بالذابح .

الثالثة والعشرون سعد بلع على وزن زفر وهو كوكبان على كف ساكب الماء اليسرى فوق ظهر الجدي بينهما قدر باع غربيهما من الثالث وشرقيهما من الرابع ، وبقرب مقدمهما كوكب صغير كأنه ابتلعه ، فلهذا سمي به .

وقيل هو كوكبان مستويان في المجرة أحدهما خفي والآخر مضيء يطلعان في آخر ليلة من كانون الثاني ويسقطان بأول ليلة من آب .

وسمي بلع لأنه حين يرى أحدهما كأنه يبلع الآخر ، وجاء في

القاموس أنهما طلعا حين قال الله (يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ) الآية 44 من سورة هود المارة ، ولهذا تقول العامة إن الأمطار فيه لا تمكث على سطح الأرض والقمر يقارب اجنبيهما ولا يكسفه .

الرابعة والعشرون سعد السعود وهو كوكبان وقيل ثلاثة على خط مقوس بين الشمال والجنوب حدبته إلى المغرب أجبنهما من القدر الخامس على طرف ذنب الجنوبي

والقمر يقرب منه وأشملهما من الثالث وهو مع الآخر في قول آخر من كواكب القوس ، وسمي بذلك لأنه في وقت طلوعه ابتداء ما به يعيش الناس ومواشيهم .

(105/422)

---

الخامس والعشرون سعد الأخبية وهي أربعة كواكب من القدر الثالث ومن كواكب الرامي على يد ساكب الماء اليمنى ثلاثة منها على شكل مثلث حاد الزوايا ، والرابع وسطه وهو السعد والثلاثة خباؤه ، ولذلك سمي بذلك ، وقيل لأنه يطلع قبل الدفء فيخرج فيه من الهوام ما كان مخبأ والقمر يقاربها من ناحية الجنوب وما قيل إنه عبارة عن كواكب مستديره فيه تسامح ، قال في القاموس سعود النجوم عشرة الأربعة المذكورة في منازل القمر وستة ليست بمنازل وهي سعد ناشرة وسعد الملك وسعد العليم وسعد الغمام وسعد البارح وسعد مطر ، وكل منها كوكبان بينهما نحو ذراع .

السادسة والعشرون فرع الدلو المقدم ، ويقال الأعلى ، وهو كوكبان نيّران من الثاني بينهما قيد رمح أجنبيهما على متن الفرس الأكبر المجنح ، أي ذي الجناحين ، وأشملهما على منكبه ، والقمر يمرّ بالبعيد منها .

السابعة والعشرون فرع الدلو المؤخر ويسمى الأسفل وهو كوكبان نيّران من الثاني بينهما

قيد رمح أيضا أجنبيهما على جناح الفرس وأشمليهما مشترك بين سرّته ورأس السلسلة شبهت العرب هذه النجوم الأربعة فيهما بقرع الدلو بفتح الفاء وسكون الراء وهو مصب الماء منه لكثرة الأمطار فيهما .

الثامنة والعشرون بطن الحوت وتسمى الرشا بكسر الراء أي رشا الدلو وهو حبله ، ويقال له قلب الحوت أيضا ، وهو كوكب نير من الثالث على جنب المرأة المسلسلة ، يحاذي القمر ولا يقاربه ، وسمي به لوقوعه في بطن سمكة عظيمة تحت نحر الناقة تصورها في العرب في سطرين عليهما كواكب خفية بعضها من السلسلة وبعضها من إحدى سكن الحوت .

(106/422)

---

هذا وإن الأربعة عشر الأولى أي من الشرطين إلى السماك تسمى شامية ، الأربعة عشر الأخيرة من الغفر إلى بطن الحوت تسمى يمانية والسنّة القمرية عبارة عن اجتماع القمر مع الشمس اثنى عشر مرة ، ويتم زمانها في ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما وثماني ساعات وثمان وأربعين دقيقة ، ولا يوجد شهر أقل من تسعة وعشرين يوما ولا أكثر من ثلاثين ، ولا سنة أقل مما ذكر أعلاه ولا أكثر من ثلاثمائة وخمس وخمسين يوما ، وقدمنا ما يتعلق بهذا ، وفي السنة الشمسية أيضا في سورة البروج بصورة مفصلة في ج 1 فراجعها .

ولما ذكر اللّه تعالى حال منكري النبوة وكانت متفرعة على التوحيد وقال جلّ شأنه لو رأوا الآية المطلوبة من السماء لما آمنوا ولبقوا مصرين على كفرهم عقب ذلك بذكر الدلائل السماوية والأرضية ، فقال وأن في السماء لعبرا منصوبة غير هذه ، فقال "وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً" هي عبارة عن أجزاء الفلك الأعظم المحدد المسمى بالفلك الأطلس وفلك الأفلاك وسماه الشيخ الأكبر قدس سره فلك البروج ويسمونه الفلك الثامن وفلك التوايت ، وقد أوضحنا ما يتعلق فيها أول سورة البروج أيضا في ج 1 فراجعها .

قال تعالى "وَزَيَّنَّاها" أي السماء بالشمس والقمر والميزان والثريا والكواكب السبعة والمحيرة وغيرها زينة بديعة "لِلنَّاظِرِينَ 16" حديدي النظر في ملكوت اللّه يستدلون بها على قدرة مكونها ليؤمنوا بخالقها ويرشدوا أقوامهم إلى الإسلام والإيمان "وَحَفِظْناها" أي النجوم ، وإنما أعيد الضمير إلى السماء لكون النجوم فيها من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه ، فالسماء المحل والنجوم حالة فيها "مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ 17" مرجوم بالشهب ملعون مطرود عنها ، كما هو مطرود من رحمة اللّه "إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ" منها استثناء منقطع أي الذي يقع منه الاستراق يعرض نفسه للهلاك .

مطلب استراق السمع والرمي بالنجوم وماهية الأرض وأن كل ما فيها له وزن خاص :

لأنه إذا تصدى ذلك فيتبعه ما يحرقه وجاء بالماضي "فَأَتْبَعَهُ" راجع الآية 172 من الأعراف المارة في ج 1 تجد معنى هذا الفعل "شِهابٌ مُبِينٌ 18" أو شعلة ساطعة من نار سمي الكوكب شهابا لما فيه من البريق كشهاب النار .

واعلم أن قوله تعالى وزيّناها يعود إلى السماء باعتبار أل فيها للجنس فتشتمل السموات السبع ، لأن الكواكب ليست بسماء الدنيا فقط بل فيها كلها يدل على هذا قوله :

زحل شرى مرّيخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

لأن زحل في السابعة والقمر في الأولى والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والزهرة في الثالثة وعطارد في الثانية ، وكل منها معها نجوم لا تعد ولا تحصى ، وإن قالوا إنهم أحصوها ، وأن قوله تعالى (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ) الآية 5 من سورة تبارك الملك الآتية بالنسبة لما يبدو لنا وإلا فالتزيين لكل السموات ، والمراد بحفظها من الشياطين عدم قربانهم لها كما يحفظ الإنسان داره من العيون والجواسيس ، وإلا فهي محفوظة بحفظ اللّه لا قدرة للشيطان على هدمها وإفساد ما فيها وإنما يحفظها من استراقهم ما يقع فيها من الكلام الذي تتلقاه الملائكة من رب العزّة ، راجع تفسير أول سورة الجن المارة في ج 1 وما يأتي عليك الآن روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال إن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إذا قضى اللّه الأمر في السما حتى ضربت الملائكة أجنحتها خفقانا لقوله كالسلسلة على

صفوان إذا فزّع عن قلوبهم ﴿قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا﴾ للذي قال ﴿قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الآية 22 من سورة سبأ الآتية ، فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض .

(108/422)

---

ووصف سفيان بكفيه فحدقهما ومدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مئة كذبة ، فيقال له أليس قد قال لنا كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء .

قال ابن عباس لما ولد عيسى عليه السلام منعت الشياطين من ثلاث سموات ، ثم منعوا من الكل عند ولادة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، والرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعثه وإنما زاد وشدد بعده .

وقد جاء له ذكر في الشعر الجاهلي قال بشر بن أبي خازم :

فالعير يرهقها الغبار وجحشها ينقض خلفها انقضاض الكواكب

وقدمنا في بحث أولاد الحيوانات في الآية 148 من الأعراف المارة في ج 1 أن الجحش ولد

الحمار فراجعه.

وقال أويس بن حجر الجاهلي:

فانقض كالدرّي يتبعه نقع يثور تخاله طينا

بما يدل على أن الانقضاض لم يكن قبل بمجرد كوفه غير جاهلي، وإذ كنا

(109/422)

---

أوضحنا ما يتعلق بهذا أول سورة الجن المارة في ج 1 وأوردنا الحديث الذي رواه ابن عباس وغيره فلا حاجة للإطالة في هذا البحث هنا، وستأتي له صلة في سورة الصافات الآتية الآية 6 فما بعدها وفي سورة سبأ الآية 24 أيضا ان شاء اللّه "مَدَدْناها" على وجه الماء أو بسطناها بالنسبة لما نراه، لأن النّملة إذا مشت على البيضة تحسبها مفروشة ممهدة مبسوطة وقال أهل الهيئة بعضها في الماء وبعضها خارج عنه وهو الجزء المعمور، ولعظمها يكون بالنظر كل جزء منها ممدودا مبسوطا، ولا منافاة بين الآية على ما قاله المفسرون وبين قولهم هذا من حيث المعنى كما ذكرنا، لأن الكرة إذا كانت عظيمة كان كل جزء منها سطحا عظيما بالنسبة لمن فوقه "وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ" أراد وهو أعلم بالرواسي الجبال العظام الثوابت حيث ثقلها بها لئلا تتحرك قال تعالى في الآية 16 من سورة النمل الآتية

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)" والآية 22 من سورة الأنبياء الآتية أيضا بمعناها

مما يدل على أنها طائفة والقرآن يفسر بعضه فلولا تثقيلها بالجبال لبقيت مضطربة لا يستفاد

منها قال ابن عباس أن اللّه لما بسط الأرض على الماء مالت كالسفينة فأرساها بالجبال

الثقال لئلا تميل بأهلها ، وما قاله الإمام الرازي في أنه يجوز أن يكون المراد أنه تعالى فعل ذلك

لتكون الجبال دالة على طرق الأرض ونواحيها فلا تحيد الناس عن الجادة المستقيمة ، ولا

يقعون في الضلال ، لا يسوغ الذهاب إليه ، لأن الأخبار تأباه ، وكان هو رحمه اللّه لم يرض به

لتصدير قوله بيجوز ، لأن العالم إذا تردد في شيء صدره

(110/422)

---

بكلمة يجوز إعلاما بعدم تحققه لديه لعدم العثور على ما يجزم به فيه "وَأَنْبَتْنَا فِيهَا" أي الأرض

بما فيها الجبال لأنها منها ، وإن أحسن النبات يكون فيها فضلا عن أن أكثر المعادن تكون

فيها ، وقد يوجد فيها ما لا يوجد في غيرها ، كيف لا وهي مخازن المياه ، لهذا فإن من قصر

عود الضمير على الأرض فقد قصر كما أن تخصيص عود الضمير للجبال فقط غير جائز ،

ولهذا فإن عود الضمير لكليهما أولى وأوفى بالمرام "مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ 19" بميزان

الحكمة معلوم القدر والثقل ، فكل ما ينبت أو يكون في الأرض والجبال والأودية له وزن

خاص به سواء

كان نباتا أو معدنا ، لأن المعادن كلها موزونة ، ولا يقال إن موزون لا يعود إلى النبات ، لأن النبات لا بوزن بل يعود إليه أيضا ، ولأن ما يحصل من النبات منه ما هو موزون ، وفيه ما هو مكيل والكيل يرجع إلى الوزن .

(111/422)

---

واعلم أن هذه الآية تشير إلى ما يسميه علماء هذا العصر بالثقل النوعي ، فالإخبار به في عصر نزول القرآن من المعجزات العظام إذ لا يوجد من يعرف إذ ذاك ممن عاصر حضرة الرسول محمد صلّى اللّه عليه وسلم في مكة وحواليها بأن كل شيء يخرج من الأرض والجبال والأودية مائع أو جامد له ثقل مختص به لا يشاركه غيره فيه ، فثقل الذهب النوعي 19/5 والفضة 10/5 والنكل 28/9 والزئبق 59/12 والراديوم الذي عنصره مثل عنصر الزئبق يشبه ملح الطعام ، ولا يوجد منه في العالم كله (كما يزعمون) إلا بضع أوقيات ، وقد اهتم العلماء به لأنه يشع حرارة وضوءا لا ينطفىء ولا يبرد مهما مضى عليه من السنين ، فكأنه شمس تحتوي على كمية كبيرة منه ، ويستخرج من مادة تدعى بنسيلند توجد في مناجم الرصاص والفضة والقصدير ، وهلم جرا في بقية الأجسام والمائعات

المختلفة في الوزن كما هي مختلفة بالنوع والصفة ، وهذا برهان قاطع على علائم نبوته صلّى اللّه عليه وسلم وكما يطلق لفظ موزون على ذلك يطلق على الكلام المتناسب .

قال عمرو بن ربيعة في هذا :

وحديث النوى وهو مما تشتهيه النفوس بوزن وزنا

وأبواب الشعر لها أوزان مخصوصة أبلغوها إلى ستة عشر عدا الرجز كما هو مبين في علم العروض "وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ" تنمون بها حياتكم "وَمَنْ" ولمن على تقدير الجار ، لأنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار ، وعليه فلا يكون محل من مجرورا بالعطف على الكاف من لكم فيكون المعنى ومعايش لمن "لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ 20" من العيال والخدم والعبيد والدواب والطيور والحيتان والوحوش والديدان وغيرها .

مطلب كل شيء من عند اللّه وبسط الرزق وقبضه لحكمة أرادها ومعنى الريح والرياح :

فإن اللّه تعالى يرزق خلقه كافة ، وأنتم تنتفعون من مخلوقاته تلك من غير أن ترزقوها ، لأن اللّه يرزقكم وإياها ، فلا تظنوا أنكم الرازقون لها ولما خولكم منها .

وكلمة معايش لم تكرر إلا في الآية 9 من سورة الأعراف المارة في ج 1 ،

"وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ" من كل ما يطلق عليه لفظ شيء وتخصيص بعض المفسرين كلمة شيء هنا بالمطر تحكم وتقيبد لا معنى لهما ، أي لا يوجد في الكون شيء "إِلَّا عِنْدَنا" نحن إله الكل وخالق الكون بما فيه ورازقه "خَزائِنُهُ" من كل ما يحتاجه البشر والحيوان والطير والحوت والدود وهو جمع خزانة بكسر الخاء ، ومن نوادر ما قالوا لا تفتح الخزانة ولا تكسر القصعة وهي اسم للمكان والمحل الذي يحفظ فيه نفائس الأموال والحلي "وَما نُنَزِّلُهُ" من تلك الخزائن الموجودة في علمنا "إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ 21" معين لكل شيء مما خلقناه لكل منها ما يناسبها بقدر كفايته حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة وتريده المشيئة مع إمكان إنزال ما يزيد على الحاجة ، لأن خزائنه تعالى لا تنفد وإمكان ما ينقص عن الحاجة لأمر يريده ، راجع الآية 26 من سورة الرعد الآتية .

هذا وان ما يرى من كثرة الرزق عند بعض الناس فهو عبارة عن حفظه لديهم لغيرهم ، لأنهم لا يرزقون منه إلا بقدر ما قدر لهم منه مما تستوجبه المصلحة ، وما يرى من قلته على أناس فهو أيضا بتقديره تعالى لأمر يريده بهم ، لأنه يعلم أنه لو نقص على الأول وزاد للآخر لضرّ بهما ، قال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) الآية 27 من سورة الشورى ، وكذلك لو قتّر على بعض عباده لبغى بعضهم على بعض ، فقد جاء في الحديث القدسي : ومنهم من إن أغنيته لبغى ، ومنهم من إن أفقرته لكفر .

ولهذا فإنه تعالى يعطي كلا ما يناسبه كي لا يبغي الفقير ولا يكفر الغني المترتب على الحكمة فقرهم وغناهم ، وما قيل إن المراد بالخزائن هنا المطر لأنه سبب الأرزاق لجميع المخلوقات ينفيه لفظ الآية ، والمطر داخل فيه لأنه مما يحتاجه الخلق ، وقد ضرب اللّه الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور ، وتطلق الخزانة على الصّندوق الحديدي الذي يخزن فيه الذهب والفضة وغيرها ، وعلى الخزانة الخشبية التي تحفظ فيها الألبسة وغيرها ، قال تعالى "وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ" حوامل بالسحاب ضد العقيمة لأنها تحمل السحاب في جوفها من بخار الماء ثم تدرّه كما تدر

اللقحة ثم تمطر ، وهو معنى قوله تعالى "فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ" بأن جعلناه لكم ولأنعامكم وأراضيكم ، ويدخل فيه جميع مخلوقاته سقيا من نتاج الرياح المذكورة "وَما أَنْتُمْ لَهُ" لهذا الماء أيها الناس "بِخازِنِينَ 22" في ذلك الفضاء الواسع بل نحن نخزنه فيه ونمنعه من الهبوط إلا على المكان الذي نريده ، وفي الزمان الذي نشاؤه ، وبالقدر الذي خصصناه ، ولو لا إمساك اللّه إياه لهبط كما ارتفع ، لأن الماء ثقيل ومن طبع الثقيل الهبوط إلى الأسفل ، وهذا هو معنى خزنه وادخاره لوقت الحاجة ، وهذا من معجزات القرآن العظيم ، لأنه

يوم نزوله ما كان بشر يعلم أن الرياح تهب حبالى من بخار المياه ، وتلد السحاب في جو السماء ، وتسقينا من نتاجها الذي تخزنه يد القدرة الإلهية .

قال ابن عباس : لواقح للثمر والنبات ، فتكون كالفحل .

ولم يأت لفظ الرياح في القرآن إلا في الخير ، ولا لفظ الريح إلا في الشر حالة الإطلاق ، ولكن إذا قيدت تتبع قيدها ، قال تعالى (وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) الآية 22 من سورة يونس المارة ، يدل على هذا ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم كان إذا عصفت الريح قال :

(114/422)

---

اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به .

وروى البغوي بسنده إلى الشافعي أن ابن عباس رضي اللّه عنهم قال : ما هبت ريح قط إلا جثى النبي صلّى اللّه عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا ، اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا .

وقال تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً) الآية 20 من سورة القمر المارة في ج 1 ، وقال

جل قوله (أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) الآية 42 من الذاريات الآتية .

وقال عزّ قوله (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) الآية 57 من الأعراف المارة في ج 1 ، والرياح اللواقح هي ريح الجنوب لما جاء في بعض الأخبار ما هبت رياح الجنوب إلا وانبعت عينا غدقة ، وأخرج بن جرير عن عبيد بن عمير قال : يبعث اللّه تعالى المبشرة فتقم الأرض قمّا ثم يبعث المثيرة فتنثر السحاب فيجعله كسفا ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فتجعله ركاما ، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر .

ولهذا البحث صلة في الآية 16 من سورة النور في ج 3 ، وقد مرّ له بحث في الآيات المنوه بها أعلاه .

قال تعالى "وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي" الأجسام القابلة للحياة بإيجاد الحياة فيها "وَنُمِيتُ" من نحييه عند انقضاء أجله المقدر له بإزالة تلك الحياة التي جعلناها فيه فالحياة صفة وجودية تقتضي الحس والحركة الإرادية ، والموت زوال تلك الصفات المادية عنها "وَنَحْنُ الْوارِثُونَ 23" لما نخلق ، الباقون بعد فناء ما نخلق قاطبة ، المالكون للملك الحقيقي عند زوال الملك المجازي الذي هو في قبضتنا أيضا لأنا نحن الحاكمون في الكل أولا وآخرا .

وتفسير الوارث بالباقي نصا على حد قوله صلّى اللّه عليه وسلم اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منّا لأن الذهن يصرف معنى الوارث للمتأخر من المتقدم واللّه تعالى هو الأول والآخر قال تعالى "وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ" ولادة وموتا "مِنْكُمْ" أيها المخلوقون "وَلَقَدْ عَلِمْنَا" أيضا "الْمُسْتَأْخِرِينَ به 24" كذلك إلى النهاية من جميع مخلوقاتنا النامية والجامدة ، ونعلم أيضا طائعهم وعاصيهم لا يخفى علينا شيء من أمرهم ، والآية عامة ، فما روي عن حمزة أنها نزلت في القتال قول لا يصح ، لأن الجهاد لم يفرض بعد ، وكذلك ما قاله الربيع أنس من أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم حرّض على الصف الأول في الصلاة فازدحم الناس عليه ، وكان بنو عذرة دورهم قاصية عن المسجد ، فقالوا نبيع دورنا ونشتري دورا قريبة من المسجد ، فأنزل اللّه هذه الآية ، لا يصح أيضا ، لأن هذه الآية مكية قولا واحدا ، وليس في مكة إذ ذاك إلا الكعبة المشرفة ، والمسجد لم يتخذ إلا في المدينة ، وكذلك القتال للكفرة لم يؤمر به إلا بالمدينة .

هذا وأن ما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنه من أنه كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من أحسن الناس فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون بالصف الأول لئلا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت أبطيه ، فأنزل اللّه هذه الآية لا يصح أيضا للسبب نفسه ، وأن شمولها لما يتعلق بالجهاد وصفوف الصلاة وغيرها بعد نزولها لا يعني أنها سبب للنزول البتة ، لأن اللفظ عام ولا

يوجد ما يقيده من شيء ، ولم يسبق ذكر للجهاد والصلاة ، والعبرة دائما لعموم اللفظ إذا كان هناك سبب ، فلأن تكون العبرة لعموم اللفظ بلا سبب

*(116/422)*

---

من باب أولى ، وفي تكرير لفظ (لَقَدْ عَلِمْنَا ) دلالة على تأكيد إحاطة علمه تعالى بالعباد وأحوالهم أولا وآخرا ، وأن علمه بالأولين كعلمه بالآخرين لأن الكل مدون في لوحه داخل في علمه قبل إبرازه لخلقه .

قال تعالى "وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ" يوم القيامة كلهم على ما ماتوا عليه كما أماتهم على ما عاشوا عليه .

ويجازيهم بحسب أعمالهم الدنيوية والأخروية ، روى مسلم عن جابر قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يبعث كل عبد على ما مات عليه .

وتوسيط الضمير في الآية يفيد الحصر ، أي أن اللّه تعالى هو وحده يحشرهم ، وفي إضافة لفظ الرب إلى الضمير العائد لحضرة الرسول دليل على اللطف به والعطف عليه ، وقريء يحشرهم بكسر الشين من الباب السادس والأفصح الفتح على أنه من الباب الأول على ما هو في المصاحف "إِنَّهُ حَكِيمٌ" باهر الحكم بالغ منتهى الإتقان في أفعاله "عَلِيمٌ 25" واسع

العلم كثيره يعلم ما يستحقه كل منهم من الثواب والعقاب.

مطلب خلق الإنسان والجان ونشأة الكون وعمران الأرض:

قال تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ"

آدم عليه السلام الذي هو أصل الخليقة بدليل قوله "مِنْ صَلْصالٍ" طين يابس تسمع له صوت إذا ضربته كالصلصلة "مِنْ حَمَإٍ" ضارب للسواد وهو صفة الصلصال "مَسْنُونٍ 26" متغير قال تعالى فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه الآية 260 من البقرة في ج 3، أي لم يتغير وهو صفة لحمأة، فهذه القيود تعين أن المراد بالإنسان هنا أبو البشر آدم عليه السلام لا مطلق انسان لأنه خلق من الماء المعبر عنه بالنطفة الحاصلة من الزوجين وما قيل إن معناه مصور استدلالا بقول حمزة رضي اللّه عنه في مدح ابن أخيه محمد صلّى اللّه عليه وسلم:

أغرّ كأن البدر سنّة وجهه جلا النعيم عنه ضوءه فتبددا

وقول ذي الرّمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

لا يستقيم هنا واللّه أعلم.

قال اللّه تعالى "وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ" أي أبا الجن "مِنْ قَبْلُ"

خلق آدم "مِنْ نَارِ السَّمُومِ" شديد الحرارة تنفذ في المسام ، أجارنا اللّه منها ، تؤيد هذه الآية أن الجن كان في الأرض قبل آدم وهو كذلك ولكن لا نعلم مبدأ خلقهم ، مما يدل على أن الأرض قديمة قبل آدم بكثير ، وقد جاء في الأخبار أنهم لما أفسدوا فيها – كما يدل عليه قوله تعالى (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ) الآية 20 من سورة البقرة في ج 3 – قرضهم اللّه تعالى ، ولم يبق منهم إلا إبليس لما كان عليه من العبادة والزهد فيما يبدو للملائكة ، فألحقه بهم مع علمه بنتيجة حاله ليقع عليه اللوم .

(118/422)

---

ثم أعلم رعاك اللّه أن هذه الأرض التي خلق اللّه أصلنا منها وقضى بعودتنا إليها وإخراجنا منها ثانيا كما مر في الآية 64 من سورة الأعراف الآية 55 من سورة طه المارتين في ج 1 قد مرّ عليها قرون كثيرة وهلك فيها أقوام لا عداد لهم ، وقد شاهدت بعيني حالها من صنوف الحياة العجائب المدهشات ، ومهما تاق الإنسان لمعرفة عمرها فلا يقدر أن يتوصل إليه ، ولا يزال عاجزا مهما بالغ في التنقيب ، لذلك لجأ الكلدانيون أولا لتقدير عمرها بحسب التخمين ، فقدروه بمليون سنة ، ثم ظهر العالم بطبقاتها زور ولستر سنة 1950 وقال إن

عمرها لا يزيد على سبعة آلاف سنة ، وجاء بعده آثر فقال إن عمرها قبل المسيح بأربعة آلاف سنة أي تكون الآن قريبا من ستة آلاف سنة ، فانظر إلى هذه المباينة ، واعلم أن كل قول فيها مصدره الحدس وهو لا يغني عن الحق شيئا ، لأن هذين القولين لا يمكن أن ينطبقا على عمر الأرض بل قد ينطبقان على نشأة آدم عليه السلام فقط ، وبعد أن مضى عمر هذين العالمين وضعت على بساط البحث بين الأثريين فقدر علماؤهم أن تحسب المدة اللازمة لترسب سمك خاص من الطبقات الأرضية المنتظمة كالأرض الزراعية ، إذ يترسب فيها سنويا مقدار من الغرين بقدر سمك (ميليمتر) واحد ، فإذا كان سمك الطبقة مترا فمعنى ذلك أن هذه الطبقة استغرقت على الأقل ألف عام في تكوينها ، وقد استخدمت هذه الطريقة في أمريكا الشمالية ولوحظ أن الترسب فيها يقرب من الترسب في أجزاء كثيرة من الكرة الأرضية فقدروا عمرها على ذلك بعشرين مليونا من السنين ، ثم عيب على هذه الطريقة عدم انتظام الترسب واختلاف الحبيبات والبواعث الموجبة



---

للترسب مما يؤدي إلى خطأ كبير في التقدير ، وهو كذلك ، ثم انبعثت طريقة أخرى تتوقف على تقدير الأملاح في المحيطات ، إذ أن ماء المحيطات بخار كان غلافا للكرة الأرضية أيام

انصهارها ، فلما بردت تكاثفت تلك الأبخرة وكون ماء المحيطات ولم يكن إذ ذاك ملحا بل أتاه الملح من (الصوديوم) الذي هو مادة الملح ، إذ حملته الأنهار من الأرض إلى البحر ، فإذا قررت كميّة الملح التي تضاف إلى مياه المحيطات سنويا وقدرت كمية الملح الموجودة فعلا يمكن تقدير عمر الأرض ، لأن انتفاء الشرط يؤذن بانتفاء المشروط ، وقد تعددت الأبحاث في مختلف بقاع الأرض على طرق اتفقوا عليها فظهر أن عمرها ما يين ثمانين وتسعين مليونا ، ثم اكتشف الراديوم سنة 1902 فتبين أن هذا العنصر يشع في نفسه باستمرار منتظم من غير تدافع أجزائه وتساقطها نحو المركز ، وإن هذه الأجزاء تنحل وتتحول إلى جسم آخر وهو الرصاص ، وباستخدام هذه الطريقة قدر عمر الأرض بألف وأربعمائة ألف سنة ، ولا زالت الآراء متضاربة ، ولا يزال أهلها يحاولون عبثا إدراك مبدأ الكون أي تجمد الأرض ، وقال الأستاذ رضوان بن محمد رضوان عند ما تمثل بقوله تعالى (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) الآية 4 من سورة تبارك الملك الآتية بأن عمر الأرض لا يقل عن مائة مليون سنة ، وانتقل إلى تاريخ حياة الأرض مستدلا بما كتبه الدهر على صفحات الصخور ، أو في أعماق الأرض من بقايا الكائنات الحية ، معترفا بأنه دون الحقيقة بالنظر للحوادث التي تعاقبت فبدلت آثارها ، ولمرور مصور كثيرة من غير أن تترك أثرا على سطحها ، ثم قال يعتقد الأكثرون أن الأرض كانت كتلة غازية بردت تدريجيّا فتصلّبت ثم أحاط بها نطاق من الهواء تكشف ما به من البخار ، فهطلت أمطار عزيرة كونت مياه البحار والمحيطات ،

ثم بدأت الرياح والأمطار تعمل عملها في تغيير معالم اليابس باستمرار ، فكثيرا ما ارتفعت سلاسل جبال شامخات ثم تعود الرياح فتفتتها

(120/422)

---

و

تفذفها في البحر ، وكانت القارات أعظم اتساعا مما هي

عليه الآن ، إذ كانت تمتد شرقا وغربا أكثر منها شمالا وجنوبا أما الآن فقد تبدل الحال إذ

أنمار المحيط على جوانبها فأنقصها .

وللعلماء في أصل الأرض نظريات فقد وضع العالم الألماني سنة 1755

نظريته السديمية فقال إن الكون نشأ من كتلة لا شكل لها ، وأن الفضاء كان يشغله سديم

(هو تركيب في بعض الأجرام السماوية على شكل سحابة صغيرة) عظيم أي سحابة كبيرة

مكون من مواد غازية مرتفعة الحرارة (راجع الآية 6 من سورة هود المارة حيث سمي هذا

السديم عماء وتدبر معناه وقسه مع هذا) ثم انقشعت هذه السحابة تدريجيا بتركيز هذه

الغارات بالجاذبية حول نقطة معينة أكثر كثافة من أجزاء السديم ، فكانت هذه النقطة

فيما بعد النجوم الحارة والشموس المختلفة وتعتبر شمسنا هذه أصغرها حجما ، وقد

اشتق من هذه النظرية المجملة العالم الأفرنسي لابلاس نظرية في أصل الأرض سنة 1842 فقال إن المجموعة الشمسية كانت كتلة غازية مضيئة تشغل فراغا عظيما ثم انكمشت تدريجا بسبب تشعّع حرارتها فتركت حلقات غازية انفصلت عنها الواحدة تلو الأخرى، ثم تركزت كل حلقة منها حول نقطة معيّنة أصبحت فيما بعد كوكبا من الكواكب وبذا تكونت الكواكب الثمانية السيارة التي منها الأرض والسيارات السبع وهي زحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة والقمر، فكل واحدة من هؤلاء في طبقة أعلى من الأخرى على هذا الترتيب، أدناها الأرض، وأعلاها زحل، كما مر في الآية 18 من هذه السورة، قالوا وانفصل منها كذلك ما يقرب من ألف كوكب صغير، فتكون الأرض إذا بحسب هذه النظرية مثلها مثل باقي الكواكب الأخرى بدأت حياتها سحابة غازية ثم بردت وتحولت مادة سائلة فتصلّبت قشرتها الخارجية، وأنها تزداد برودة يوما فيوما وتزداد قشرتها سمكا، وقد بقيت هذه النظرية مقبولة مدة طويلة حتى أن التحقيق العلي والمشاهدات الحسية أقاما

البرهان على عدم صحتها ، لأن قبولها يقتضي أن تكون حرارة الكرة الأرضية في تناقص مستمر والواقع يخالف هذا إذ تبين أن أقدم أنواع الكائنات التي عاشت على سطح الأرض في الأزمان السحيقة لم تكن تتحمل حرارة أكثر مما تتحمله الأحياء الحالية كما أنه ثبت أن أجزاء من الكرة الأرضية كانت تغطيها الجليد .

ولما ظهر بطلان نظرية (لابلاس) السديمية ظهرت نظرية (تشجرلن) المسماة الذرات الكوكبية أو الأرض الباردة ، فقال أن الشمس كانت أول أمرها سديما أيضا فدنت من نجم أكبر منها فحدث من تأثير الجاذبية بينهما أن تفككت الأجزاء الخارجية للشمس واندلعت منها ألسنة نارية حلزونية طويلة مركبة من ذرات معدنية بينها كتل حارة كبيرة ، ثم انقشع السديم تدريجيا باجتماع الأجزاء الصغيرة حول الأجزاء الكبيرة بالجاذبية فكانت الكواكب ومنها الأرض ، ثم ظهرت نظرية الكوكبيات (لبرل) وهي تشبه النظرية السابقة إلا أن الذرات استبدلت بكوكبات صغيرة لا يزيد قطر الواحدة منها على 485 ميلا ، فهذه الكوكبيات سقطت على نواة الأرض فنشأ من الاصطدام حرارة فتكونت أرض حارة ذات قشرة منصهرة ، وبعد ذلك قل الاصطدام وبدأت الأرض تبرد بالتدريج .

ثم اعلم أن كثيرا من العلماء ينسب أصل الجوّ إلى غازات حارة أغلبها بخار الماء ثم قليل من أول وثان أكسيد الكربون وحمض الكلوروديك وبعض الآزوت ، أما الأكسجين فلم يكن حرا ، ويرجح العلماء أن انطلاق الهواء في الجو يعود إلى عوامل بركانية ، أي أن أصل الهواء

عبارة عن غازات أو أبخرة لفظتها البراكين والينابيع الحارة من الأعماق البعيدة في باطن الأرض ، إذ كانت مكتومة تحت ضغط جبار في المنصهرات الباطنية ، فلما خفّ الضغط انطلقت هذه الغازات وملأت الجو وعليه قول القائل :

فبطنها محشوة بالنار وقشرها قد شق بالبخار



---

و لما كان سطح الأرض تعلوه سجف كثيفة مستديمة بدأت الأمطار تهطل بغزارة شديدة ولكنها قبل ما تصل إلى سطح الأرض تستحيل إلى بخار بسبب الحرارة الشديدة المنبعثة من سطح الأرض فينطلق إلى الجو ويكون سحبا يتراكم بعضها فوق بعض فتهطل الأمطار ثم تعود فتدخر دون أن تصل إلى الأرض وهكذا دواليك فلما بردت الأرض أمكن للأمطار أن تصل إلى سطحها ولكنها لم تمكث بل تتبخر ثانية وقد ظللت الحال كذلك زمنا وجيزا لا يزيد على بضع آلاف من السنين (ان الأزمان الجولوجية تعني ملايين السنين وتعد مليون سنة فترة قصيرة من الوجهة الجولوجية) ثم بدأ يتكون محيط هائل يطم الأرض بأجمعها وكانت مياهه عميقة وهنا بدأت الشمس تمد الأرض بالحرارة وترسل أشعتها خلال السحب و بقيت البراكين على حالها في الثوران فتسبب عن إطلاقها المعادن المنصهرة بقوة عظيمة

ومقادير هائلة أن غيرت من استواء سطح الأرض فهبطت أجزاء تجمعت فيها المياه فيما بعد وبذا تكونت أحواض المحيطات وأما الأجزاء التي لم تتراكم فوقها الحمم فكونت القارات وعلى هذا فلربما كانت الكائنات المائية هي أولى الكائنات التي ظهرت على وجه البسيطة عند ما تهيأت أسباب الحياة فنشأت في المحيطات أنواع كثيرة من الحيوانات اللافقرية البحرية وقد هاجر بعضها إلى الأنهار وتطورت مع الزمن إلى سمك المياه العذبة ولما كان الجفاف الذي كثيرا ما تتعرض له الأنهار يهدد حياتها بالخطر ، لذلك قد أخذت تهيء نفسها للعيش على اليابس فكانت منها الحيوانات الضفدعية وهذه تطورت إلى أنواع أرقى حتى ظهرت الحيوانات الندية ثم خلق اللّه تبارك وتعالى الإنسان فاستخلفه في الأرض قال تعالى (وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً الآية 30 من البقرة ج 3 .

(123/422)

---

فظهر مما تقدم أن كل ذلك لم يخرج عن الظن والتخمين كما ذكرنا آنفا لأن أهم الوسائل التي يستندون عليها في عمر الدنيا ومبدأ الحياة فيها هو الحفريات وهي عبارة عن العثور على بقايا حيوانات أو نباتات عاشت في الأزمنه الجولوجية القديمة التي لا توجد في الصخور وليس من الضرورة أن تكون هي البقايا الأصلية للكائنات .

وعلى الطبقات المترسبة في الأرض وهي تختلف باختلاف الهواء والمكان والزمان كما علمت فلا تدل على حقيقة راهنة وأن ما يوجد من الصور والتماثيل المنقوشة على الصخر لا يمكن أن يعرف منها الزمن بصورة يثق فيها الإنسان إذ لا يوجد تاريخ قبل التوراة بإجماع أهل العلم الحديث والقديم وعليه فان النقوش وحدها وإن أثبتت وجود ناقشيها ومهارتهم فأنها لا تثبت زمانهم والعبرة في معرفة التاريخ للزمن فضلا عن أنهم قالوا لا يوجد من الكائنات الحية التي اندثرت أجسامها إلا نحو واحد بالمائة لأن جسم الحي يتحلل بتأثير الباكتريا والفطر والديدان فيزول من الوجود وإذا لم يكن محنطا لا يتجاوز محق ومحو هيكله الصلب السبعين سنة أما الأعضاء الرخوة التي لا هيكل لها فتندثر بسرعة بحسب مادة الأرض ولا يبقى لها أثر ما وأنسب الأماكن لحفظ الحفريات هي المحيطات والبحار وأصلح الرواسب هي المواد الجيرية الموجودة في البحار .

(124/422)

---

هذا بعض ما يقوله أهل العلم الظاهري في نشأة الكون وأنه قد يكون له نصيب من الصحة وقد لا يكون أما العلماء الرومانيون فلا يعتقدون صحتها اعتقادا جازما لأن الأمور التي تستند إلى الدين الحق لا يطبق عليها نظريات فرضت فرضا مصدرها الظن والتقدير

والوهم لأنها لا تستند على شيء حقيقي ثابت ولا على دليل قاطع ولذلك يمكن لكل أحد أن يجادل فيها وينكرها أو يحاول على عدم إثباتها ، وكذلك القياس فيها منتف إذ لا يقاس على أقوال لم ترتكز على حقيقة واضحة فضلا عن أصحاب هذه الأقوال فإنك لو سألتهم عنها لا يجيبونك عن أنها صحيحة بضمير مطمئن لمضاربة كل نظرية منها الأخرى وتباينها بعضها مع بعض ، وعدم إجماع قائليها على مبدأ واحد كما علمت ، أما ما جاء من الإشارة إلى مبدأ لكون بالقرآن العظيم وهو قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الآية 70 من سورة الأنبياء الآتية وما بعدها وشبهها من الآيات الدالة على ذلك وعلى أصل الخلقة إجمالا ، وما جاء في الأخبار والأحاديث الواردة عن حضرة الرسول التي ذكرنا قسما منها في الآية 6 من سورة هود المارة و

أشرنا فيها إلى المواقع الأخرى منها فلا يستطيع أن ينكره إلا من ختم اللّه على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة.

مطلب أقوال الأجانب في بدء الكون ونهايته وشيء من المخترعات الجديدة ونبذة في الروح :

وانظر ما يقوله العلامة اسحق نيوتن الفلكي الشهير صاحب القوانين المعروف (في صدد حركات الفلك) : المؤكد أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تأتي مع محض الجاذبية

لان هذه القوة تدفع الاجرام نحو الشمس فقط وعليه وجب أن توجد قوة إلهية خارقة لتديرها في مداراتها .

(125/422)

---

وإلى ما يقوله اللورد (كلفن) العالم الشهير الطبيعي : (ولا بد أن يكون للأرض مبدأ وسوف يكون لها نهاية ، وهناك قوة إلهية تدبر هذا الكون وهو الخالق الأوحد ، هذا ولعل المخترعات الحديثة تظهر لنا غير هذا مما يسوق الناس قهرا إلى الاعتراف بالإله الواحد ، و قد بدأت قديما وستتابع إن شاء اللّه ، فقد اخترع الترياق سنة 100 والسوائل سنة 410 ودود القز سنة 500 وطواحين الماء سنة 600 والورق سنة 700 واستخراج السكر سنة 800 وصناعة الطباعة سنة 939 وعلامات الأصوات الموسيقية سنة 1000 والمرائي من الزجاج سنة 1204 ونظارات العيون سنة 1270 والبارود والساعات الدقاقة سنة 1280 والإبر المغنطيسية سنة 1312 وآلة ضغط الهواء سنة 1340 وساعات الجيب سنة 1500 وميزان الهواء سنة 1643 وميزان السوائل سنة 1692 وغيرها كثير ، وفي عصرنا هذا اخترعت السيارات والطائرات والدبابات والراديو والهاتف واللاسلكي والقنابل والصواريخ والنفاثات والذرة والأقمار

الاصطناعية وللركبات الهوائية وغيرها ، وما نعلم ماذا يلهم اللّه تعالى خلقه من المخترعات الأخرى حتى يتم مراده في قوله عز قوله (حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) الآية 23 من سورة يونس المارة .

أللهم إنا نسألك اللطف فيما جرت فيه المقادير والستر والعافية ، إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

*(126/422)*

---

قال تعالى "وَ" اذكر يا محمد لقومك "إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ 28" تقدم تفسيره في الآية 26 المارة ، وما قيل إن مسنون بمعنى مصور أو مصبوب لا قيمة له في هذا المقام ، راجع الآية 26 المارة ولا يعد هذا تكرارا لأن الآية الأولى جاءت بمجرى الاخبار ، وهذه مخاطب بها حضرة الرسول ليعلمه كيفية بدأ الخلق لأجله ، وما نجم عن مخالفة بعض مخلوقاته لأمره والثالثة الآتية حكاية عن قول إبليس يبين فيها بماذا قابل ربه تجاه إنعامه عليه ، تدبر .

"فَإِذا سَوَّيْتُهُ" عدلته وأتممت خلقه على ما هو في سبق علمي الأزلي "وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

رُوحِي" وهذا معنى قوله تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ) الآية 60 من آل عمران في ج 3 ، والنفخ في العرف إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، والمراد هنا والله أعلم تمثيل إفاضة مادية الحياة بالفعل على المادة المقابلة لها ، وليس هناك نفخ حقيقية بالمعنى الذي نعرفه ، وهذا الروح هو جوهر مجرد ليس داخل البدن ولا خارجه ، ولا متصل

به ولا منفصل عنه ، وليس بجسم يحل بالبدن حلول الماء في الإناء ، ولا هو عرض يحل بالقلب أو الدماغ حلول السّواد في الأسود والعلم في العالم ، وقد تقدم هذا البحث مستوفيا في الآية 85 من سورة الإسراء في ج 1 "فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ 29" سجود تحية لا سجود عبادة والخطاب للملائكة أو أن السجود للّه تعالى يجعل آدم عليه السلام بمنزلة القبلة لهم لما ظهر فيه من أعاجيب آثار قدرة اللّه تعالى وحكمته ، وعليه قول حسان رضي اللّه عنه :

أليس أول من صلى لقبلتكم وأعلم الناس بالقرآن والسنن



---

وفي هذه الآية دليل على جواز تقدم الأمر على وقت الفعل ، فيكون حد الأمر بكونه ملابسا للفعل به ليس على إطلاقه "فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ 30" تأكيد لعدم

تخلف أحد منهم

"إِلَّا إِبْلِيسَ" لأنه في الأصل لم يكن من الملائكة ، ولهذا كان الاستثناء منقطعا ، ومن قال إنه متصل لم يقل إنه من جنس الملائكة كما هو الشرط في تعريف الاستثناء المتصل ، بل لأنه كان حين الأمر الإلهي معهم ، وقد أمرهم كلهم بالسجود فسجدوا ولم يسجد هو لسابق سقائه ، فاستثني منهم على طريق التغليب ، لأن أصله من الجن ، راجع الآية 53 من سورة الكهف الآتية ، أي أنه خرج عن طاعته لأنه "أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ 31" من الملائكة الذين كان معهم حين الأمر "قال" تعالى موبخا له ومؤنبا سوء صنيعه على امتناعه "يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ 32" أخالفت أمري "قال" عليه اللعنة متقدما في حجته الواهية معتذرا عن السجود بعذره السخيف "لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ 33" تقدم تفسيره أي وقد خلقتني قبله من النار والنار أفضل من الطين ، وهو قياس مغلوط ، لأن الفاضل من فضله اللّه ، وليس لأصل الخلقة أو أصل المخلوق دخل في التفضيل ، ولو أراد اللّه هداه لامتثل وما عليه أن يسجد بأمر اللّه لآدم أو غيره ، لأن القصد الامتثال لا غير.

راجع مقاييس إبليس في الآية 12 من الأعراف المارة في ج 1 ، "قال" تعالى لإبليس بعد أن أظهر عناده وعتوه وحسده لآدم أمام الملائكة كما هو ثابت في علم اللّه

"فَاخْرُجْ مِنْها" أي الجنة ويستلزم الخروج منها الخروج من السماء أيضا ، والخروج من زمرة الملائكة الذين كانوا يغبطونه على ما هو عليه من العبادة للّه والعلوم والمعارف التي أنتجت ذلك الغلو وانبثقت عن الجهل المفرط الراسخ في قلبه ، إذ ظن أن الفضل باعتبار المادة ، وما درى أن يكون باعتبار التحلي بالمعارف الرّبانية ، قال :

فشمال والكأس فيها يمين ويمين لا كأس فيها شمال

وما عرف أن الأدب هو المقدم الأول في الفضائل كلها وللّه در القائل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب

ولما فضح اللّه سريرته على ملأ من الملائكة الذين كانوا يحترمونه ويفضلونه على أنفسهم وأبان لهم قريطه ، وعلموا أن عبادته ونشر علمه بينهم في مخالطته لهم رياء لنشر السمعة والصيت بينهم بقصد التعاظم عليهم أمره بالخروج من بين الطائعين الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون به من قبله .

قال جل جلاله مبينا جزاءه الدنيوي على مخالفته هذه واحتجاجه الواهي ومقابلة عظمة ربه بما فاه به على رؤوس الأشهاد وبيّن العلّة في ذلك بقوله عزّ قوله "فَإِنَّكَ" بامتناعك هذا "رَجِيمٌ 34" طريد من الرحمة والكرامة بعيد من العطف واللطف "وأنّ عليك اللّعنة" عقوبة لك في الدنيا مني ومن خلقي مستمرة "إِلَى يَوْمِ الدِّينِ 35" يوم الجزاء الذي يكون عليك فيه العذاب المهين الدائم، ولم يجعل اللّه حدّ ابعاده عن فيض رحمته بضرب هذا الأجل كما يفهمه البعض من معنى إلى النائية، بل جعله غاية في البعد لأنه أي يوم القيامة أبعد ما يضرب الناس المثل في كلامهم إليه من الآجال البعيدة لا أنها أي اللعنة تنقطع عنه بعد ذلك اليوم، كلّا بل تكون في الدنيا مستمرة بلا عذاب حسّي من اللّه والناس أجمعين، وفي الآخرة دائمة عليه أيضا مع العذاب الأكبر الباقي، ولما عرف الخبيث أن سقط في يده ولم يبق له بدّ من تلافي عصيانه لربه ولا أمل في فيض رحمته، أراد بحسب طويته النجسة أن يتمادى في الضلال والإضلال "قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 36" أي كافة مخلوقاتك، لأنه عارف بالبعث بعد الموت، وأنه لا موت بعد البعث، يقصد أن لا يموت أبدا، فينجو من العذاب الأخروي، لأنه إذا بقي يوم البعث يكون حاله حال الخلق بعد البعث لا يموتون أبدا، لأن هذه الحياة حياة موقته مهما طال أجلها وتلك حياة دائمة ما بعدها إلا الخلود في الجنة رزقنا اللّه إياها، أو الخلود في النار أجارنا اللّه منها.

"قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ 37" المؤخرين ولكن "إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ 38" أي موت جميع الخلق السابق علمه بأنه سيموت على كفره قال تعالى (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) الآية 88 من القصص المارة في ج 1 وإجابته تعالى له بتأخير أجله لا إكراما له ولا لميزته على غيره، بل زيادة في شقائه، ولو أراد به خيرا لوفقه لطلب العفو عن جرمه وقبول توبته، ولكن حق قوله عليه في الأزل بشقائه، ولا راد لما قدره وقضاه.

ولما عرف عدم إجابة طلبه كما أراد وأنه تعالى سيميته على كفره الذي عاش عليه ويبعثه على ما مات عليه وانقطع أمله مما توخّاه، صرح بما أكنه في قلبه من الغلّ والحقد لعباد اللّه، مطلب جهل إبليس وأن المزين في الحقيقة هو اللّه، وأن مبنى الأيمان على العرف وخلق الأفعال:

"قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ" أي آدم وذريته ما داموا "فِي الْأَرْضِ" وقدمنا في آيات متعددة أن المزيّن في الحقيقة هو اللّه تعالى لأنه هو أقدر إبليس عليه أي أنه يزين حب الدنيا لهم مدة حياتهم وبقائهم على أرضها، وأحبذ لهم معصيتك "وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ" في زخارفها وشهواتها حتى يضلوا طريقك السوي "أَجْمَعِينَ 39" بحيث لا أترك منهم أحدا إلا صددته عن الهدى، وقد حدى بالملعون سائق الانتقام فأقسم على أن يجتهد في إغواء آدم وذريته من بعده لأنه السبب الظاهري في طرده وعنائه وقد جاء القسم في الآية 82 من

سورة ص بلفظ ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لأن الحلف على ما قاله العراقيون بصفات الذات كالعزّة والعظمة والقدرة يمين ، والحلف بصفات الفعل كالرحمة والسخط والعذاب ليس بيمين ، وقد حلف الخبيث بكليهما ، على أن الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا ، وما لا فلا ، وهذه الآية حجة على القائلين في خلق الأفعال وأن حملهم إياها على التسبّب عدول عن الظاهر .

(131/422)

---

وليعلم أن في تمكين إبليس من الإغواء ردّ على القائلين بوجوب رعاية الأصلح من المعتزلة ، وردّ على زعم من قال إن حكيما أو غيره يحصر قوما في دار ويرسل فيها النار العظيمة والأفاعي القاتلة الكثيرة ولم يرد أدنى أحد منهم فقد خرج عن الفطرة البشرية ، فحينئذ الذي تحكم به الفطرة هو أن الله تعالى أراد بالأنظار إضلال بعض الناس ، فسبحانه من إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقول هذا الزاعم على حد قول قائلهم :

ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي

ألقاه في اليم مكتوبا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

الذي رد عليه أهل السنة والجماعة بقوله :

إن حفه اللطف لم يمسسه في بلل ولم يبال بتكتيف وإلقاء

وإن يكن قدر المولى بغرفته فهو الغريق وإن أضحى بصحراء

والسبب الذي حدى بأهل الاعتزال على هذه الأقوال هو عدم اعترافهم بأن للإنسان جزء اختياريا وهو إقدام العاصي على المعصية عن رغبة ورضى ، وأن قولهم أن ما يقع منه مقدر عليه ، ولكنه فيما يفعله طائعا مختارا لا يعلم أنه مقدر عليه ، وأنه إنما يفعله تبعا لتقدير اللّه ، فلو أن إبليس حينما امتنع عن السجود كان امتناعه تبعا لما هو في علم اللّه وقد علم ذلك وامتنع لما طرده ربه ، ولكن امتناعه كان حسدا لآدم ، لأنه بالسجود له يصير مفضلا عليه ، وأن نفسه الخبيثة تأبى أن يفضل أحد عليه ، وكذلك مقترف المعاصي لو أنه إنما يقترفها لعلمه بأن اللّه قدرها عليه أو أنه إنما فعلها تنفيذا لأمره لا لشيء آخر لما عذبه اللّه ، ولكن إنما يفعل المعصية لمجرد شهوة نفسه الخبيثة ، مع علمه أن اللّه حرّمها عليه ، فلذلك يعاقب ويعذب ، تدبر .

وهذا الملعون غلط غلطة لا تلافي لها ، إذ يجب على المحب امتثال أمر المحبوب مهما كان ، أعجز الخبيث أن يكون مثل ابن الفارض الصادق في محبته إذ يقول :

لو قال تيها قف على حجر الفضى لوقفت ممتثلا ولم أتوقف

أو عجز أن يكون مثل أحد غواته يزيد حيث قال :

قال خلفته لو مات من ظمأ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

هذا ومن وقف على معنى قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ، الآية 113 من سورة الأنعام الآتية ، وقف يراعه عن البحث ولسانه عن الكلام وقلبه عن التخطر ، راجع الآيتين 12 - 18 من سورة يونس المارة والآية 108 من سورة هود والآية 100 من سورة يوسف المارات والآية 12 من هذه السورة وما ترشدك إليه في هذا البحث تجد ما يكفيك ، علما بأن المزين في الحقيقة هو اللّه تعالى لمن قدر شقاءه في الأزل ، وما إبليس وغيره إلا أسباب ظاهرة جعلها اللّه تعالى ، فأعتقد بهذا أيها المؤمن لا تحد عنه .

ثم استثنى الملعون من هو عاجز عن إغوائه لسابق سعادته في علم اللّه فقال "إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 40" بفتح اللام وكسرها وتقدم معناها في الآية 26 من سورة يوسف المارة ولها صلة في الآية 4 من سورة الصافات وفي غيرهما .

مطلب عهد اللّه لأوليائه ودرجات الجنة ودركات النار وإرضاء اللّه أصحاب الحقوق بالعفو والعطاء الواسع وعزل خالد :

"قال" تعالى قاطعا أمله منهم "هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ 41" حق عليّ مراعاته "إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ" فلا تصل إليهم قوتك ولا تنالهم وسوستك ولا يقدر عليهم إغواءك ولا يميلون إلى تزينك ، لأن الخبيث عارف عدم تأثيره في المخلصين الذي أخلصوا للّه واستخلصهم لنفسه ، ولكنه توهم أن له سبيلا على غيرهم من عباده العارفين وأوليائه الكاملين ، فبين له جل شأنه أن ليس له سبيل على عباده أيضا الذين هم من هذا الصنف غير الأنبياء وفي هذا العهد الجليل من الرب الجليل بشارة عظيمة لعباد اللّه الذين يعبدونه عبادة حقيقة خالصة لوجهه ، أما من يعبده سمعة ورياء وجهلا أو لطلب حاجة أو دفع مضرة فقد استثناهم اللّه تعالى من هذا العهد بقوله عز قوله "إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ 42" المنهمكين في الغواية اختيارا منهم المنقادين لإضلالك بطوعهم ورضاهم ، فلك عليهم سلطان لأنهم أتباعك الآن وأحباؤك ، ولكنك ستتبرأ منهم في الآخرة وتوبخهم على اتباعك راجع الآية 22 من سورة إبراهيم الآتية .

قال تعالى "وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ 43" التابعين والمتبوعين من الناس وإبليس وجنوده ثم وصف جهنّم بأنها "لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ" واحد تحت الآخر لأنها دركات كما أن أبواب الجنة الواحد فوق الآخر لأنها درجات "لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ 44" أي لكل دركة قوم أسفلها للمنافقين لقوله تعالى إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، الآية 145

من النساء في ج 3 والتي فوقها للمشركين مع اللّه إلها آخر والتي فوقها للمجوس عابدي النار ، والتي فوقها للصابئين لأنهم منهم ، والتي فوقها لكفرة اليهود ، والتي فوقها لكفرة النصارى والسابعة لعصاة الأمة المحمدية وهي الطبقة الأولى أجارنا اللّه منها ، وبين كل طبقة ما لا يعلمه إلا اللّه ، وكذلك ما بين درجات الجنة .

(134/422)

---

ثم بين اللّه تعالى للمتقين عنده المؤمنين به ، فقال (إِنَّ الْمُتَّقِينَ) الشرك والنفاق وعبادة الأوثان المتباعدين عن الكفر والمعاصي يكونون في الآخرة الباقية دائمة النعيم "فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ 45" ماء عذبة غير أنهار الجنة ، لأن اللّه يتفضّل عليهم بأشياء خاصة ، لأن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي مقابلة الفرد بالفرد وأن ذلك يكون لهم بحسب مراتبهم ، ويقال لهم يوم الجزاء "ادْخُلُوها" أي الجنان المذكورة "بِسَلامٍ" من الآفات والمنغصات مسلمين بعضكم على بعض ، والملائكة تسلم عليكم أيضا "آمِنِينَ 46" من الخروج منها ومن كل منغص أو مكدر للصفاء ، لأنها دائمة لا موت فيها ولا فناء لها .

ثم وصف اللّه طهارتهم بقوله "وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ" كان بينهم في الدنيا وما هو بمعناه من حقد وحسد من أثر عداوة أو شحناء أو تطاول ، فتنقي قلوبهم من كل ما يؤدي

إلى البغضاء قبل دخول الجنة ، لأن اللّه تعالى يحاسبهم عليها ويسترضي بعضهم مع بعض بعطائه الواسع وفضله العميم حتى تطيب أنفسهم ، بعضهم على بعض فيكونون بالجنّة "إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ 48" بوجوههم ينظر بعضهم إلى بعض ، لان النظر إلى القفا أو إلى الجانب ممن يخاطب جفاء واستهتارا به ، وهم هنا منزهون عنها مطهرة قلوبهم من التحاسد على

علو الدرجات بحيث يوقع اللّه تعالى الرضاء في قلب كل منهم على ما هو فيه من المنزلة ، بحيث يرى نفسه راضية مطمئنة فيها فرحة مسرورة .

(135/422)

---

وما قيل إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي بسبب ما كان بينهم في الجاهلية من الضغائن فغير سديد ، لأن الإسلام طهرهم فلم يبق في قلوبهم شيئا ، على أن عليا كرم اللّه وجهه أسلم صغيرا ولم تستول عليه خصلة من خصال الجاهلية ، مما يدل على عدم الوثوق بنزولها فيهم ، وهم رضي اللّه عنهم أولى بمن ينزل فيهم القرآن ويشملهم مضمون آياته كهذه وغيرها من كل ما فيها خير ، إلا أن الآية عامة في كل مؤمن ومؤمنة ، وفيها ردّ على من بهت سيدنا عمر رضي اللّه عنه بأنه عزل السيد خالد ابن الوليد رضي اللّه عنه بسائق العداوة

التي كانت بينهما حال الصغر ، وهي أن خالدا رمى عمر على الأرض أو أنه خاف منه على الملك أن يتولاه هو فعزله عن أمارة الجيش في فتح الشام ، وحاشا عمر من ذلك ، على أن حادثة رميه كانت في الجاهلية فمحاها الإسلام إن كان لها من صحة ، وحادثة عزله عن الإمارة ما هو إلا ليعلم الناس أن النصر من الله تعالى يجريه على يد من شاء من عباده لا على يد خالد فقط ، لأن الناس صاروا يتقولون فتح خالد وفعل خالد ولو لا خالد لما كان كذا ، فأراد أن يريهم خلاف ما وقر في صدورهم ، فضلا عن أن عزله كان طبقا لمراد الله لأن فتح الشام كان مقدرا على عبيدة بن الجراح وكان ذلك فيكون عمله هذا كرامة له من الله تعالى إذ توسم ذلك فيه ، وقال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) الآية 75 الآتية ولو كان في عزله شيء مما ذكره هؤلاء المعزولون عن رحمة الله لما بقي في الجيش ورضي أن يكون من جملة جنوده حتى تم الفتح على يده ، فتح الله له أبواب الجنة .

(136/422)

---

قال تعالى في وصفهم أيضا "لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ" ولا تعب ولا إعياء كما في جنات الدنيا التي لا تخلو من ذلك ، وأن لكل مؤمن جنّة لا يعادلها جنان الدنيا ، لأن أقل حظ أقل رجل من أهل الجنة أكثر من ملك أكبر ملك من ملوك الدنيا "وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ 48" أبدا

وهذا النص قاطع بالخلود في الجنة ، ثم صدع جل شأنه بالبشارة العظيمة بقوله "نَبِّئْ عِبادِي" يا سيد الرسل "أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ"

لمن عصاني فندم وأناب إلي ، فإن مغفرتي الكبيرة تسع ذنوبه مهما كانت وأنا "الرَّحِيمُ 49" بمن أطاعني وتوكل علي ، فإن رحمتي تغمره وإن عظمتي تستصغر خطاياه مهما كانت "وَأَنَّ عَذابِي" لمن كفر بي وجحد نعمتي ولم يرجع إليّ "هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ 50" الذي لا تطيقه قوى المعذبين .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول إن اللّه سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل في خلقه كلهم رحمة واحدة .

فلو يعلم الكافر بكل الذي عند اللّه من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند اللّه من العذاب لم يأمن النار ، ولم يقل جل شأنه أنا المعذب كما قال أنا الغفور ترجيحا لجانب الوعد على الوعيد ، وذلك من عظيم فضله .

ويقوي هذا الترجيح الإتيان بالوصفين الكريمين بصيغة المبالغة ، وما أخرجه ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : اطلع علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الباب الذي منه بنو شيبة فقال : ألا أراكم تضحكون ، ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر ، رجع إلينا القهقرى فقال : إني لما

خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن اللّه تعالى يقول لم تقنط عبادي اني أنا الغفور الرحيم.

(137/422)

---

وتقديم الوعد يؤيد ذلك، وفيه إشارة إلى الحديث القدسي الذي فيه (سبقت رحمتي غضبي) وقدمنا في الآية 20 من سورة يوسف ما يتعلق بهذا وفيها ما يرشدك لمراجعة المواقع التي فيها هذا البحث فراجعها.

مطلب بشارة إبراهيم وقصة قوم لوط:

قال تعالى "وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ 51" الضيف الميل مأخوذ من مال إليك لينزل بك، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث والمذكر ويجمع على ضيوف وأضياف، وهؤلاء هم الملائكة المار ذكرهم في الآية 69 من سورة هود المارة، وقد ألمعنا إلى إقراء الضيف وآداب الضيافة فيها أيضا فراجعها "إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً" عليك يا إبراهيم "قالَ" بعد أن رد عليهم السلام وقدم لهم الطعام كما مر في سورة هود المارة أيضا ورآهم لا يأكلون "إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ 52" خائفون لأن أكل الضيف طعام المضيف دليل على الأمان، والامتناع

منه علامة على أنهم أعداء وهي عادة مطّردة حتى الآن عند عرب البادية ، ولديهم عادة أخرى وهي أنهم إذا جاءوا بحاجة لا يأكلون قبل قضائها أو أن يتعهد لهم بخلافها ، وثالثة وهي أن المضيف عند ما يقدم الطعام يأكل منه قبل الضيوف لقيمات ثم يقوم ويأمرهم بالأكل حتى لا يظن أن في الأكل شيئا ضارا ولمعرفة نضجه ولذته "قَالُوا لا تَوْجَلْ" من شيء ولا تخف بل افرح وطب نفسا "إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ 53 كثير العلم يأتيك من زوجتك العقيم سارة على ما هي عليه من الكبر واسمه إسحاق "قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ" والهرم "فَبِمَ تُبَشِّرُونَ 54" بعد هذه الشيخوخة ، على طريق الاستفهام التعجبي ، أي أن بشارتكم لي على ما أنا عليه وزوجتي من الحال أعجوبة "قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقّ" الصدق الواضح لأنه من أمر اللّه ولا عجب فيه "فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ 55" لأن ذلك من قضاء اللّه وهو يقين فلا تيأس "قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ 56" عن طريق الهدى ، وإلا لا أحد يقنط منها البتة لأن الكل محتاجون إليها .

هذا وانه عليه السلام لم يستبعد ذلك بالنسبة لعظيم قدرة اللّه ، وإنما استبعده بالنسبة لواقع ، لأن مثله ومثلها لا يتصور أن يولد لهما ، وأن العقم وحده كاف للاستبعاد فكيف إذا ضم إليه الكبر ؟ ثم لما عرفهم أنهم ملائكة "قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ 57" غير بشارتي هذه "قَالُوا" إن الخطب الذي جئنا به هو "إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ 58" لنهلكهم بجرمهم القبيح ولذلك عبر بالخطب لعظمته ثم استثنى فقال "إِلَّا آلَ لُوطٍ" أهله وشيعته وأتباعه المؤمنين "إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ 59" من الإهلاك ثم استثنى من أهله الناجين ما يتصور دخوله فيهم فقال "إِلَّا امْرَأَتَهُ" فهي هالكة معهم لأنا "قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ 60" الباقين في العذاب معهم في علمنا الأزلي ، هذا وقد أسندوا الفعل لأنفسهم مع أنه للّه تعالى لاختصاصهم به وقربهم منه كما تقول خاصة الملك أمرنا وقضينا وفعلنا مع أنه بأمر الملك ،

قال تعالى "فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ 61 قَالَ" لهم لوط حينما دخلوا عليه "إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ 62" لا أعرفكم إذ جاءوا بزي شباب حسان وكان مثلهم

يتحاشى عن المجيء إلى قريته لما شاع عنهم أنهم يفعلون المنكر فيمن يأتي إليهم وكان دخولهم بيت لوط دون استئذان فلهذا أنكر مجيئهم وخاف عليهم من شناعة قومه "قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ 63" يشكون به من العذاب الذي كنت تهددهم به فيكذبوك لنرقعه فيهم ، أما نحن فلا تخف علينا منهم فإنا جئناهم لهذه الغاية "وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ" اليقين الذي لا مرية فيه "وَإِنَّا لَصَادِقُونَ 64" فيما أخبرناك به من أن إرسالنا لإنزال العذاب عليهم ، أما أنت "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ" سر خلفهم على أثرهم لئلا يفلت منهم أحد "وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ" يا آل لوط "أَحَدٌ" فيصيبه بعض ما ينزل عليهم من العذاب ، قالوا إنما نهاهم لئلا ترق قلوبهم على المعذبين حين ينزل بهم العذاب فيرتاعون لمشاهدته ويدهشون لشدة هوله "وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ 65" وقد أمرهم جبريل بالذهاب إلى قرية لم تعمل عمل قومه "وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ" أوحينا إلى لوط "ذَلِكَ الْأَمْرَ" الذي هو "أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ 66" أبهم جل شأنه هذا الأمر ثم فسره تفخيما له وتعظيما لشأنه ثم طفق جل جلاله يقص حال قوم لوط مع ضيوفه وما وقع منهم فقال عز قوله "وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ 67" يبشر بعضهم بعضا بضيوف لوط الحسان وأتوا مهرولين إلى بيته طمعا بالنيل منهم فاستقبلهم عليه السلام "قَالَ" لهم يا قوم اتقوا الله "إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ 68" بالتعدي عليهم "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ 69" فيهم ويظهر الأمر لأهالي القرى الأخرى فيصيبكم الخزي والعار لأن الضيف في حمى المضيف "قَالُوا أَ

وَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ" بأن لا تضيف أحدا منهم ولا تقبل غريبا في بيتك ولا تكلمنا فيما نريد أن نفعل بالناس ، وقد علموا ذلك إذ شاع أمرنا بأن نفعل

(141/422)

---

فيمن يقدم على قرانا مهما كان له من مكانة بقصد قطع أملهم من الدخول فيها "قالَ" يا قوم إذا كنتم لا تسمعون قولي ولا تجيبون دعوتي وأصررتم على اخزائي فيضيفي فاتركوهم و"هؤُلاءِ بَناتِي" اللاتي كنتم تريدون الزواج بهن ولم أفعل ، فإني أزوجهن لكم الآن "إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ 71" ما تريدونه بأضيافي وقد تقدمت القصة مفصلة في الآية 78 من سورة هود المارة ، وقال عليه السلام (إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) على طريق الشك في قبولهم ، فكأنه قال إن فعلتم ما أقوله لكم وأظنكم فاعلين ، فلم يقبلوا منه وتزاحموا على الباب ، فلما رأت الملائكة أن قومه ضايقوه قالوا له إنا رسل ربك ، وأنزل فيهم العذاب كما مر في القصة هناك وفي الآية 84 من سورة الأعراف المارة في ج 1 .

مطلب في كلمة عمرك والفراسة والفأل وتعبير الرؤيا :

قال تعالى "لَعَمْرُكَ" وحياتك يا حبيبي "إِنَّهُمْ" كفار قومك "لَفِي سَكْرَتِهِمْ" وغفلتهم هذه وغوايتهم وبغيهم "يَعْمَهُونَ 72" يترددون بالحيرة ويتحيرون في النيه ويخورون في الضلال ، لا

يسمعون قولك ولا يقبلون نصحك ، وكيف يقبلونه وقد اعتراهم ما أزال عقولهم ، لأن العمه عمى القلب ، لهذا لم يميزوا بين الخطأ والصواب .

وقد جاءت هذه الآية معترضة بين قصة لوط عليه السلام ، وقيل إن الضمائر فيها لأهل المدينة من قوم لوط فلا تكون اعتراضية ، والخطاب في لعمرك من الملائكة إلى لوط ، ولكن أكثر المفسرين على الأول بطريق الالتفات والسياق ، والسياق يؤيد الثاني واللّه أعلم .

وما قيل إن عمرك بمعنى دينك مستدلا بقول القائل :

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك اللّه كيف يلتقيان

فالثريا شامية ما استهلت وسهيل إذا استهل يمان

لا يستقيم هنا وجاز إضافة عمرو إليه تعالى لقوله :

إذا رضيت عليّ بنو تشير لعمرو اللّه أعجبني رضاها

وقول الأعشى :

ولعمرو من جعل الشهور علامة منها يبين نقصها وكمالها

فمن زعم عدم جوازه لأن الله ازلي أبدي توهم أنه لا يضاف إلا فيما له انقطاع وليس كذلك .

وكلمة عمرو هذه إذا أضيفت إلى الضمير تكتب بلا واو كعمرو في حالة النصب للفرق بينها وبين عمر ، قال تعالى "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ 73" عند بزوغ الشمس "فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ" على أهل قرى لوط ، والضميران الأولان عائدان على القرى نفسها لأنها هي التي جعل أسفلها أعلاها وهم الذين ألقى عليهم "حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ 74" طين متحجر مرّ تفسيره في القصة المذكورة في سورة هود "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الإهلاك الفظيع "لَآيَاتٍ" عظيمة وعبرة جليلة وعظة كبيرة "لِلْمُتَوَسِّمِينَ 75" أي المتفرسين الذين يعرفون بواطن الأشياء بسمة ظواهرها .

والفراسة على نوعين : نوع يوقعه الله تبارك وتعالى في قلوب أوليائه فيعلمون به من أحوال الناس ما خفي على غيرهم بإلهام من الله تعالى ، وهو من باب الكرامة التي خص بها بعض أوليائه ، وهي شبيهة بالمعجزة عدا دعوى التحدي الذي هو من خصائص الأنبياء ولا يجوز لأحد القول به .

أخرج البغوي في حديث غريب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله .

والفراسة بكسر الفاء ، تقول توسمت في فلان كذا ، أي عرفت وسم ذلك فيه .

والثاني من إصابة الحدس والظن والتثبت وقوة التفكير والتأمل وما يحصل بدلائل التجارب والنظر في الخلق والخلق والأخلاق مما يعرف به أحوال الناس ، فهو من باب الحذق والفطانة فيكون هذا النوع لكل من يتصف بما ذكر ، ولذلك قالوا التوسم هو النظر من اقدم إلى الفرق واستقصاء وجوه التعريف ، قال الشاعر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إليّ عريفهم يتوسم

ويقال إني توسمت بفلان خيرا وعليه قول ابن رواحة في حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم :



---

إني توسمت فيك الخير أعرفه واللّه يعلم أني ثابت البصر

ومن هذا القبيل الفال الذي يشتغل به بعض الناس من رجال ونساء لأنه من قبيل التوسم في أحوال الناس والأخذ مما يسألونهم عنه ، ومن هذا القبيل تعبير الرؤيا ، فإنها تحتاج للفطنة والحذق ومعرفة القياس ، راجع ما بيناه في الآية 5 من يوسف المارة ، ومن هذا السحر الذي ألمعنا إليه في الآية 52 من الشعراء المارة في ج 1 ، ومنه أيضا الإصابة بالعين التي ألمعنا إليها آخر سورة المزمل في ج 1 وفي الآية 66 من سورة يوسف المارة أيضا .

قال تعالى "وَإِنَّهَا" القرى المهلكة وهي سدوم وعاموراء ودومة وساعوراء وصفرة وهي التي رحل إليها ، لأن أهلها لا يعملون عمل القرى الأربع المذكورة التي وقع فيها الهلاك وتسمى في التوراة

(صوغره ، وبالع ، وعمودة ، وأدمة وجويم) كما هو في الاصحاح 14 من التكوين وجاء في الاصحاح 13 أنه ترك هذه المدينة خوفا من نزول العذاب فيها وصعد هو وبناته إلى الجبل وسكنوا في مغارة فيه ، وفيه أن هذه المدينة لم تقلب ، ويطلق على هذه القرى المؤتفكات أي المنقلبات "لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ 76" أي واقعة على طريق واضح لم يندرس بعد أثرها يراها الذاهب إلى الشام والآتي منها إلى الحجاز "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الأثر الباقي لهؤلاء الطغاة "لَآيَةً" عظيمة "لِلْمُؤْمِنِينَ 77" المصدقين بما ذكرنا لأنهم المنتفعون بالآيات المتعظون بالعبر "وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ" الغيضة وهي الأشجار الملتفة كالغابة وتسمى حرشا ، وفي لغة أهالي دير الزور (زور) ولهذا تسمى البلدة دير الزور لأنها كانت محاطة بالغابات ، وهؤلاء قوم شعيب عليه السلام "لَظالِمِينَ 78" جاحدين نعم اللّه لا يشكرونه على ما خصهم به من الأشجار المحيطة ببلدتهم فضلا عن النعم الأخرى من أموال وأولاد "فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ" لتكذيبهم إياه ، راجع قصتهم في الآية 84 من سورة هود المارة .

"وَإِنَّهُما" أي أهل الأيكة وأهل مدين لأنه عليه السلام أرسل إليها ولم يرسل نبي إلى قومين قبله مرة بعد أخرى ، وإن هاتين المدينتين باق أثرهما مثل قرى قوم لوط "لَبِإِمامٍ مُبِينٍ 79" ظاهر على طريق مستقيم ، وسمي الطريق إماما لأن المارة تسلكه فكأنها تتبعه كالإمام الذي يتبعه الناس "وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ 80" صالحا فمن قبله لأن الحجر كانت تسكنه ثمود قوم صالح

"وَآتَيْناهُمْ آياتِنا" التي من جملتها الناقة "فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ 81 لا يلتفتون إليها "وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ 82" من خوف خرابها لقوتها ، فكذبوه أيضا وعقروا الناقة "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ 83" مع الصباح حال غفلتهم "فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ 84" من الأموال والأملاك من اللّه شيئا لإصرارهم على الكفر ، وإن قراهم موجودة الآن آثارها ظاهرة للعيان بين المدينة والشام .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال لما مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي .

وتقدمت القصة أيضا في الآية 62 فما بعدها من سورة هود المارة ، قال تعالى "وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما" من المخلوقات الأخرى من نام وجامد "إِلَّا بِالْحَقِّ" لا عبثا ولا باطلا ولا لهوا بل للاعتبار والتفكر ليصدق المؤمن ويجحد الكافر ، فيثاب الأول ويعذب الثاني يوم الجزاء المعين لإبادتها "وَإِنَّ السَّاعَةَ" التي يكون فيها خرابها "لَآتِيَةٌ" حقا لا محالة ، فيا أكرم الرسل تحمل أذى قومك في هذه الدنيا الفانية ، ولا تستعجل عذابهم فهو آتيهم حتما ، وإن كل ما يلبثون فيها فهو قليل "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ 85" أي أعرض عنهم مع الحلم عليهم والصبر على أذاهم والإغضاء مع العفو عن مساوئهم معك ، وما ذكره بعض المفسرين بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف لا وجه له ، لأنها عبارة عن أن اللّه تعالى أمر نبيه صلّى اللّه عليه وسلم بأن يعامل قومه بالعفو والصفح الخاليين من الجزع والخوف وأن يظهر لهم مكارم أخلاقه الحسنة ، وهذه المعاملات اللينة تكون مقدمة للمعاملات القسرية عادة عند اصرار المفترح لهم على كفرهم فأي نسخ فيها رعاك اللّه ، راجع معنى الجميل في في الآية 85 من سورة يوسف المارة "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ 86" بك وبهم فلا يخفى عليه ما يجري بينك وبينهم ، لأنه خلق الخلق وعلم ما هم عليه وما هم فاعلون إلى يوم القيامة ، قال تعالى (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) الآية 14 من سورة الملك الآتية ، وهذه الآية المدنية من هذه السورة ، قال تعالى "وَلَقَدْ آتَيْناكَ" يا سيد الرسل "سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي" قبل هي

الحواميم السبع ، وقيل الصحف السبعة التي أنزلت على الأنبياء قبله ، وقيل الأمر والنهي والبشارة والنذارة والأمثال والأخبار وتعداد النعم ، والذي عليه أكثر المفسرين هو آيات سورة الفاتحة السبع كما أشرنا



---

إليه في تفسيرها في ج 1 "وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ 87" المشتمل عليها بدليل ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد بن المعلى قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الحمد للّه رب العالمين هي السبع الثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيه ، وبه قال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وعطاء ، وناهيك بهم قدوة .

هذا وإن السبب في تسميتها سبعا لأنها سبع



---

آيات ، وتسميتها بالمثاني لأنها تثنى أي تكرر في كل ركعة من الصلاة ، وسميت قرآنا لإطلاق القرآن على بعض السورة فضلا عن السورة الكاملة ، قال تعالى (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) الآية من أول سورة يوسف المارة أي هذه السورة ، وقال تعالى أول هذه السورة (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) ولم ينزل القرآن كلّه فقد عبّر بالآية الأولى بالسورة عن القرآن ، وفي الثانية بالآيات عنه بما يدل على جواز تسمية السورة والآية قرآنا ، وما قاله البعض بأن المراد من السبع الفاتحة ومن المثاني القرآن أو أن المراد بالسبع السور السبع الطوال البقرة فما بعدها حتى براءة باعتبارها مع الأنفال سورة واحدة لعدم ذكر التسمية بينهما ، أو أن المراد بها القرآن كله أقوال ضعيفة لا يعتمد عليها ، والسبب في تسميتها بالمثاني لما ذكرنا ولأنها تكرر في الأدعية أيضا ، وما قيل لأنها نزلت مرتين قيل لا قيمة له ، وقد مرّ تنيده في تفسيرها في ج 1 ، والعطف من عطف الكل على الجزء إذا أريد بالقرآن مجموع ما يين الدفتين ، وأريد بالسبع المثاني الفاتحة فقط أو من عطف العام على الخاص إذا أريد به المعنى المشترك بين الكل والبعض ، وفيه دلالة على امتياز الخاص حتى كأنه غيره كما في عكسه ، وإن أريد بها الإشباع فهو من عطف أحد الموضعين على الآخر ، قال ابن الجوزي : وسبب نزول هذه الآية أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع البرّ والطيب والجواهر ، فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا

بها وأنفقناها في سبيل اللّه ، فنزلت .

أي اللّه أعطاكم سبع آيات خير من هذه القوافل السبع .

(148/422)

---

ويدل على صحة هذا القول قوله تعالى "لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ" ولا تطمح بصرك أيها الإنسان الكامل "إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ" أي هذا الذي هو من حطام الدنيا الزائل أصنافا "أَزْواجاً مِنْهُمْ" من أولئك الذين جاء منهم تلك القوافل ، وقد فرحوا بها حتى تماها بعض قومك فتتمنى شيئا منه أو مما أوتوا من غيرها من الأموال والأولاد والأملاك لأنك أوتيت النعمة الكبرى التي هي فوق كل نعمة ، فاستغن بما أوتيت عما أوتوه فكل شيء دونه ، وهذا وإن كان خطابا لحضرة الرسول فإن المراد به قومه الذين تمنوا ذلك ، لأنه عليه السلام أبعد عن أن يمد بصره إلى الدنيا و ما فيها لذاتها استحسانا لها وقد يلتفت إليها بالنسبة لكفرهم باللّه مع كثرة انعامه عليهم ، وقد تأول سفيان بن عيينة قوله صلّى اللّه عليه وسلم من لم يتغنّ بالقرآن فليس منا ، أو ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ، فقال أي لم يستغن به عن غيره من كل ما في الدنيا ، هذا من ضعف سبب النزول المذكور أعلاه واحتج بأن السورة كلها مكية ، وهذه الحادثة وقعت بالمدينة والحال أن هذه الآية مستثناة منها ، وقد نزلت بالمدينة كما أشرنا

إليه أول السورة ، ويضاهي أول هذه الآية الآية 132 من سورة طه المارة في ج 1 "وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ" على كفار قومك لتأخرهم عن قبول هداك أو لعدم شكرهم نعم اللّه ، فقد وقع من اتباع الرسل قبلك ما هو مثله وأكثر .

روى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا تغبطنّ فاجرا نعمته فإنك لا تدري ما هو لاقيه بعد موته إن له قاتلا لا يموت ، قيل عند اللّه وما هو قال النار .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه .



---

ولمسلم أنظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزوروا نعمة اللّه عليكم ، وجل هذا في المال الذي لا يجمع إلا بخمس خصال :

التعب في كسبه ، والشغل عن الآخرة في إصلاحه ، والخوف من سلبه ، واحتمال اسم البخل دون مفارقته ، ومقاطعة الإخوان بسببه وهو مفارقه لا محالة ، قال تعالى "وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ 88" ألن جانبك لهم وأرفق بهم ، ولا تعنّفهم على كل شيء ، ومن

جملته تمنّيهم ذلك وإطماح بصرهم إليه ، لأنه من طبع محبي الدنيا "وَقُلْ" لهم يا رسولي "إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ" لكم من عذاب اللّه "الْمُبِينُ 89" لكم وقوعه إذا لم تؤمنوا باللّه إيمانا خالصا ، والموضح لكم كل ما تحتاجونه من أمر دينكم ودنياكم "كَما أَنْزَلْنا" أي أنذركم من نزول عذاب عظيم كالعذاب الذي أنزلناه "عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ 90" الذين آمنوا ببعض ما أنزل عليهم وكفروا ببعضه ، قال تعالى (فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) الآية 85 من البقرة ومثلها الآية 149 من النساء في ج 3 ، أي أنهم يؤمنون بقسم من القرآن مما يوافق ما عندهم ويكفرون بما يخالفه .

مطلب معنى المقتسمين ومواقف القيامة وأعلال العبارة :

وهذا القول أولى من القول إن هذه نزلت بحق الذين اقتسموا القرآن من الكفرة بقولهم سورة كذا لك وسورة كذا لي وهلم جرا على طريق الاستهزاء والسخرية ، وأوفق من القول بأن هذا الاقتسام عبارة عن قول الكفرة سحر وكهانة وشعر وأساطير الأولين ، وأنسب من القول بأنها في حق الكفار الذين اقتسموا عقاب مكة أي طرقها ووقفوا عليها ليخبروا المارة بأن محمدا كاهن ساحر أو شاعر متعلم وغير ذلك ، ومما يؤيد الاول

قوله تعالى "الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ 91" جمع عضضة تقول عضت الشيء إذا فرقته ، وقيل جمع عضة وهي الكذب والبهتان والسحر أي جعلوه فرقا واجزاء ، روى البخاري عن ابن عباس في هذه الآية قال هم اليهود والنصارى جزّءوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قال تعالى "فَوَرَبِّكَ" يا حبيبي "لَنَسْأَلَنَّهُمْ" أي هؤلاء المتجاسرين على الكفر بالقرآن الذين يصدقون ببعضه ويكفرون ببعضه "أَجْمَعِينَ 92 عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ 93" في هذه الدنيا من هذا وغيره من جميع ما يقولونه فيك وفيّ وفي القرآن ، كما أنا نسألهم عما كانوا يقولون في الكتب الأخرى ، قال ابن عباس لا يقول اللّه لهم هل عملتم هذا لانه أعلم به منهم بل يقول لهم لم عملتم ، وقد قدمنا أن القيامة أحوالا ومواقف مختلفة متباينة منها ما يسأل فيها ويجاوب ، ومنها ما يحاجج ، ومنها ما لا سؤال ولا جواب ، ومنها سؤال بلا جواب ، ومنها سكوت مطلق ، ومنها ما يصار فيها إلى الاستنطاق من اللسان ، ومنها من الأعضاء ، ومنها ومنها ، أجارنا اللّه منها ، راجع الآية 54 من سورة يونس المارة والآية 82 من سورة النحل في ج 1 ، قال تعالى "فَاصْدَعْ" الصدع الشق والفصل قال ابن السكّيت لجرير :

هذا الخليفة فارضوا ما قضى لكم بالحق يصدع ما في قوله حيف

وعليه يكون المعنى فرق يا أكرم الرسل بين الحق والباطل ويأتي بمعنى انفطر وانفلق وظهر أي اجهر واظهر وامض "بِما تُؤْمَرُ" به من تبليغ دعوة ربك إلى خلقه وأعلن رسالتك إليهم "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ 94" لا تلتفت إليهم ولا تبال بلومهم ، يحكى أن بعض العرب سمع

قارئا يقرأ هذه الآية فسجد ،

فقيل له في ذلك فقال سجدت لبلاغتها .



---

وكان صلّى اللّه عليه وسلم يعبد ربه وأصحابه المؤمنين خفية تحاشيا من أذى المشركين ، فلما نزلت هذه الآية خرج هو وأصحابه وأعلنوا عبادة اللّه ، ذكره عبد اللّه بن عبيدة وعبد اللّه بن مسعود ، وكان هذا بعد إسلام عمر رضي اللّه عنه الكائن في السنة السادسة من البعثة بأربع سنين تقريبا ، وما قيل إن هذه الآية منسوخة بآية السيف فليس بشيء ، والمعول عليه أنها محكمة لأنها لا تتضمن الإقرار على ما هم عليه أو السكوت بل طلب الإعراض فقط إلى أن يأتي اليوم الذي قدر في أزل اللّه لقتالهم ، وإذا تتبعنا أقوال هكذا بالنسخ نجد أن آية السيف وغيرها نسخت مائتي آية من القرآن العظيم ، كما ذكره السيد محمد بن أحمد الجزّي بمقدمة تفسيره ، ولكنها أقوال مجرّدة لا يعبأ بها تناقلها أناس عن آخرين دون مستند يطمئن إليه الضمير إذ لم يتكلم أحد في بحث النسخ زمن الرسول ولم يتطرق أحد لتفسير القرآن زمن الخلفاء الأربعة ولذلك وقع ما وقع من مثل هذه الأقوال التي مصدرها قبل وقال ، قال تعالى "إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ 95" فلا تخف أحدا منهم ، ومن

كان اللّه كافيه لا يخشى أحدا ، نزلت هذه الآية في خمسة من كفار قريش ، وهم المبالغون في إيذاء حضرة الرسول فأهلكهم اللّه جميعا وكفاه شرهم ، وهم الوليد بن المغيرة المخزومي مرّ بنبال فعلقت شظية من النبل بإزاره فمنعه الكبرياء أن يطأطئ رأسه فينزعها ، فصارت تضرب ساقه فخدسته فمرض فمات ، والعاص بن وائل دخلت في أخمصه شوكة فقال لدغت وانفخت رجله فمات ، والأسود ابن عبد المطلب عمي بدعوة الرسول عليه ، والأسود بن عبد يغوث أصابه خبال فصار يضرب رأسه بالشجر ووجهه بالشّوك حتى مات ، والحارث بن قيس صار يتمخط قيحا ولم يزل حتى مات ، وهؤلاء الخمسة الذين تفانوا في الاستهزاء والسخرية ، وقد أهلكهم اللّه في الدنيا هم "الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً

(152/422)

---

آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ 96" عاقبة أمرهم الوخيمة ، وفيها تهديد عظيم لشؤم حالهم في الآخرة على كفرهم واستهزائهم بأفظع ممّا جوزوا عليه في الدنيا .

قال تعالى "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ 97" من الفحش فيك وفي ربك و كتابك مما تأباه الجبلة البشرية ، فلا تلق لهم بالا وأعرض عنهم واشتغل بما يفرج انقباضك ويشرح صدرك من عبادة ربك المطلوب فعلها دائما من عباده ، قال تعالى (فَإِذا فَرَغْتَ

فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) آخر سورة الإنشراح في ج 1 ، "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ" أيها الرسول واستمر على تمجيده وذكره وتنزيهه وأفزع إليه فيما ينوبك بأسباب التقرب إليه "وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ 98" المتواضعين المخبتين له أي كن من المصلين المداومين على الصلاة وعبر بالجزء الذي هو السجود عن الكل الذي هو الصلاة وهو من محسنات البديع ، كما عبر بالكل عن الجزء في قوله تعالى (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) أي رءوسها كما سيأتي في الآية 18 من سورة البقرة في ج 3 ، وذلك لأن الصلاة تنور الباطن فيشرق القلب وينكشف له المغيبات وينفسح الصدر فيزول ما فيه من هم وغم وكدر ، وهذا تعليم من اللّه تعالى لعباده بأن كل من أصابه حزن أو جزع من أمر ما أن يسرع للتسبيح والصلاة ، وهكذا كانت عادته صلّى اللّه عليه وسلم وهذا الأمر بهما من اللّه له مع أنه لا يفتر عنهما لاستدامة استمراره عليهما وليعلم بهما أمته .

*(153/422)*

---

هذا وقد صح عنه صلّى اللّه عليه وسلم أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة "وَاعْبُدْ رَبَّكَ" وأدم عبادته لا تتركها بحال من الأحوال "حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ 99" الذي لا شك فيه وهو الموت ، وهذه على حدّ قوله تعالى (وَأَوْصانِي

بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ما دُمْتُ حَيًّا ) الآية 32 من سورة مريم المارة في ج 1 ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة ولا مثلها في

عدد الآي وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلّى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى من اللطف به عليه السلام والإشعار بعلة الحكم أي وهي الأمور المذكورة ضيق الصدر والتسبيح والتحميد والسجود والعبادة والموت .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 271 .

317 ﴾

(154/422)

---

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الحجر

مكية

الر تقدم الكلام عليه مبين تام وكذا مسلمين والامل ويعلمون وكتاب معلوم وما يستأخرون

لمجنون جائز من الصادقين تام إلا بالحق صالح منظرين تام إنا نحن نزلنا الذكر كاف عند

بعضهم لحافظون تام شيع الاولين حسن يستهزئون كاف وكذا في قلوب المجرمين عند بعضهم

ولا يؤمنون بع وسنة الأولين مسحورون تام شهاب مبين كاف برازقين تام خزائنه جائز بقدر

معلوم كاف وكذا بخازنين والوارثون والمستأخرين يحشرهم جائز عليم تام مسنون مفهوم

السموم حسن ساجدين كاف وكذا الساجدين في الموضعين ومسنون ويوم الدين ويوم

يبعثون والمعلوم المخلصين حسن وكذا مستقيم من الغاوين كاف أجمعين صالح أبواب مفهوم

مقسوم تام آمنين حسن متقابلين كاف بمخرجين تام الأليم كاف وكذا وجلون وبغلام عليم

وتبشرون ومن القانطين والضالون والمرسلون قدرنا صالح لمن الغابرين كاف وكذا منكرون

يمترون جائز لصادقون كاف تؤمرون حسن وكذا مصبحين يستبشرون كاف فلا تفضحون

جائز ولا تخزنون كاف وكذا العالمين فاعلين يعمهون كاف وكذا من سجيل للمتوسمين جائز

مقيم كاف لآية للمؤمنين حسن مبين تام مفهوم معرضين صالح يكسبون تام وكذا إلا بالحق

الجميل حسن العليم تام وكذا العظيم أزوجا منهم صالح وكذا ولا تحزن عليهم جناحك

للمؤمنين كاف عضين حسن وكذا يعملون وعن المشركين المستهزئين تام إن جعل ما بعده

مبتدأ خبره فسوف يعلمون فأن جعل صفة له فليس وقفا بل الوقف على إلها آخر فسوف

يعلمون تام من الساجدين جائز آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 422. 428 ﴾

(155/422)

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الحجر

مكية تسع وتسعون آية إجماعاً وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل وكلمها ستمائة وأربع وخمسون كلمة وحروفها ألفان وسبعمائة واحد وسبعون حرفاً

(الر) تقدم الكلام عليها

مبين (تام)

مسلمين (كاف) للأمر بعده

الأمل (جائز) للابتداء بالتهديد لأنه يبتدأ به الكلام لتأكيد الواقع وقيل ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب لما قبله

يعلمون (تام) للابتداء بالنفي

معلوم (كاف)

وما يستأخرون (تام)

لمجنون (جائز) لأنَّ لوما بمعنى لولا والاستفهام له الصدارة وجواب لوما في سورة ن ما أنت بنعمة ربك بمجنون ولا مانع من تعلق آية بآية ليست من السورة وإنَّما صح ذلك لأنَّ القرآن كله كسورة واحدة كما صرّحوا من أنَّ لئلاف قريش متعلق بقوله فجعلهم كعصف مأكول

الملائكة ليس بوقف لأنَّ ما بعده شرط قد قام ما قبله مقام جوابه

من الصادقين (تام) لأنَّه آخر كلام المستهزئين

إلاَّ بالحق (حسن) للابتداء بالنفي

منظرين (تام)

الذكر (جائز) إن جعل الضمير في له للنّبي صلّى الله عليه وسلّم ويتم المعنى وهو قول شاذ لأنَّه لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير عليه أي يحفظ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم أن يناله سوء أي وإنَّ لمحمّد لحافظون له من الشياطين تكفل بحفظه وقيل تقدم له ذكر في قوله يا أيها الذي نزل عليه الذكر وفي لوما تأتينا بالملائكة وإن جعل الضمير في له للقرآن وهو الذكر أي وإنا للقرآن لحافظون له من الشياطين فهو تكفل بحفظه فلا يعتريه زيادة ولا نقص ولا تحريف ولا تبديل بخلاف غيره من الكتب المتقدمة فإنَّه تعالى لم يتكفل بحفظها ولذلك وقع فيها الاختلاف وعلى هذا فلا يحسن الوقف عليه كحسنه في الوجه الأوّل لأنَّ الكلام يكون متصلاً

لحافظون (تام)

في شيع الأولين (كاف) ومثله يستهزؤن

(156/422)

---

المجرمين (حسن) إن جعل الضمير في نسلكه عائداً على التكذيب المفهوم من قوله يستهزؤن

وليس بوقف إن جعل الضمير في نسلكه للذكر وقوله لا يؤمنون به تفسير له فلا يفصل بين

المفسر والمفسر بالوقف

لا يؤمنون به (حسن) عند بعضهم لأنَّ ما بعده متصل بما قبله إذ هو تخويف وتهديد لمشركي

قريش في تكذيبهم واستهزائهم

سنة الأولين (كاف)

يعرجون ليس بوقف لأنَّ قوله لقالوا جواب لو وإن كان رأس آية

أبصارنا (جائز)

مسحورون (تام)

للناظرين (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على ما

قبله

شيطان رجيم ليس بوقف للاستثناء بعده ولجواز الوقف مدخل لقوم

شهاب مبين (كاف)

رواسي (حسن) ومثله موزون

برازقين (تام)

خزائنه (حسن) لاتفاق الجملتين مع الفصل

بقدر معلوم (كاف) ومثله فأسقيناكموه وقيل (جائز) لأنَّ الواو بعده تصلح للابتداء وللحال

وبخازنين ونحيي ونميت والوارثون والمستأخرين ويحشرهم كلها وقوف كافية

حكيم عليم (تام)

مسنون (جائز)

السموم (كاف) ومثله مسنون وساجدين

أجمعون ليس بوقف للاستثناء بعده

إلَّا إبليس (جائز)

الساجدين (كاف) ثم ابتدأ قال يا إبليس ومثله مع الساجدين الثاني إلى قوله مسنون

فإنَّك رجيم (جائز)

الدين (كاف) وكذا يبعثون

من المنظرين ليس بوقف لتعلق إلى بما قبلها

المعلوم (كاف) وهي النفخة الأولى وبها تموت الخلق كلهم

أجمعين ليس بوقف وإن كان رأس آية للاستثناء بعده ولا يفصل بين المستثنى والمستثنى منه

المخلصين (حسن)

مستقيم (كاف) للابتداء بإن ومثله من الغاوين

أجمعين (كاف) على استئناف ما بعده

أبواب (جائز)

مقسوم (تام) فصلاً بين ما أعدّ لأهل النار وما أعدّ لأهل الجنة

وعيون (حسن) لأنَّ التقدير يقال لهم ادخلوها

آمنين (كاف) ومثله متقابلين وكذا نصب

بمخرجين (تام)

الغفور الرحيم ليس بوقف لأنَّ قوله وإنَّ عذابي معطوف على أنِّي

الأليم (تام)

عن ضيف إبراهيم (حسن)

لأنَّه لو وصله بما بعده لصار إذ ظرفاً لقوله ونبئهم وذلك غير ممكن

فقالوا سلاماً (حسن) وهو مقتطع من جملة محكية بقالوا فليس منصوباً به لأنَّ القول لا ينصب المفردات وإنَّما ينصب ثلاثة أشياء الجمل نحو قال إنِّي عبد الله والمفرد المراد به لفظه نحو يقال له إبراهيم أو قلت زيداً أي قلت هذا اللفظ والمفرد المراد به الجملة نحو قلت قصيدة وشعراً أو اقتطع من جملة كقوله

إذا ذقت فاها قلت طعم مدامة معتقة مما تجيء به التجر

أو كان المفرد مصدراً نحو قلت قولاً أو صفة نحو حقاً أو باطلاً فإنَّه يتسلط عليه القول وسليم ينصبون بالقول مطلقاً أي بلا شرط تقول قلت عمراً منطلقاً وقل ذا مشفقاً ونحو ذك وأما غيرهم فلا يجري القول مجرى الظن إلا بشروط أن يكون مضارعاً مبدوأً بتاء بعد أداة الاستفهام غير مفصول عنها بغير ظرف أو مجروراً أو معمول وذلك نحو أتقول زيداً منطلقاً واغتفر الفصل بالحرف نحو أعندك تقول عمراً مقيماً وبالمجرور نحو أفي الدار تقول زيداً جالساً وبالمفعول نحو أزيداً تقول منطلقاً فسلاماً منصوب بمقدر تقديره سلمت سلاماً من السلامة أو سلمنا سلاماً من التحية وقيل سلاماً نعت لمصدر محذوف تقديره فقالوا قولاً سلاماً

إنَّا منكم وجلون (كاف) ومثله بغلام عليم وكذا الكبر وتبشرون بالحق (جائز)

القانطين (كاف) ومثله الضالون والمرسلون ،

مجرمين ليس بوقف للاستثناء ولجواز الوقف مدخل لقوم

إلاَّ آل لوط (حسن)

إنَّا لمنجوهم أجمعين ليس بوقف للاستثناء

قدرنا (جائز) وقيل ليس بوقف لأنَّ إنَّها اسمها وخبرها في محل نصب مفعول قدرنا وإنَّما

كسرت الهمزة من إنَّها لدخول اللام في خبرها

الغابرين (كاف)

فلما جاء آل لوط المرسلون ليس بوقف لأنَّ قال بعده جواب لما

منكرون (كاف)

يمترون (جائز) ومثله وأتيناك بالحق

وإنَّا لصادقون (كاف)



---

بقطع من الليل (جائز) ومثله واتبع أدبارهم ومثله منكم أحد وهذا مخالف لما في سورة هود

لأنَّ ذاك بعده استثناء وهذا ليس كذلك

حيث تؤمرون (حسن)

ذلك الأمر ليس بوقف لأنَّ ما بعده وهو أنَّ دابر بدل من ذلك إذا قلنا الأمر عطف بيان أو بدل من لفظ الأمر سواء قلنا أنَّه بيان أو بدل مما قبله أو حذف منه الجار أي بأن دابر وحينئذ ففيه الخلاف المشهور بين الخليل وسيبويه هل هو في محل نصب أو جر

مصبحين (حسن)

يستبشرون (جائز) ومثله تفضحون

ولا تخزون (حسن) ومثله العالمين

فاعلين (تام) للابتداء بلام القسم وعمرك مبتدأ خبره محذوف وجوباً تقديره لعمرك قسمي والوقف على لعمرك قبيح لأنَّ ما بعده جواب له

يعمهون (كاف) على استئناف ما بعده

مشرقين (جائز) أي كان الهلاك حين أشرقت الشمس

فجعلنا عاليها سافلها (جائز) على استئناف ما بعده

من سجيل (كاف)

للمتوسمين (جائز)

مقيم (كاف)

للمؤمنين (تام) لتمام القصة

لظالمين ليس بوقف للعطف بالفاء

فانتقمنا منهم (جائز)

مبين (تام)

المرسلين (جائز) ومثله معرضين وكذا آمنين

مصبحين ليس بوقف لاتصال المعنى

يكسبون (تام) لتمام القصة

إلّا بالحق (حسن) ومثله لآتية

الصفح الجميل (كاف) وهو العفو من غير عتاب

الخلاق العليم (تام)

العظيم (كاف)

أزواجاً منهم (حسن) على استئناف النهي وليس بوقف إن جعل النهي الثاني معطوفاً على النهي الذي قبله

ولا تحزن عليهم (أحسن) مما قبله لاستئناف الأمر وإن جعل النهي الثالث معطوفاً على الأوّل لم يفصل بينهما بوقف

للمؤمنين (كاف)

المبين (حسن) إن علقت الكاف بمصدر محذوف تقديره آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً كما أنزلنا أو إنزالاً كما أنزلنا كما أنزلنا أو أنزلنا عليهم العذاب كما أنزلنا لأنَّ آتيناك بمعنى أنزلنا عليك أو علقت بمصدر محذوف العامل فيه مقدر تقديره متعناهم تمتيعاً كما أنزلنا وليس بوقف إن نصب بالنذير أي النذير عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين وهم قوم صالح لأنَّهم قالوا لنبيتنه وأهله فأقسموا على ذلك

المقتسمين ليس بوقف لأنَّ الذين من نعتهم أو بدل المقتسمين هم عظماء كفار قريش أقسموا على طريق مكة يصدون عن النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من يقول الذي جاء به محمد سحر ومنهم من يقول أساطير الأولين ومنهم من يقول هو كهانة فأنزل الله بهم خزياً وأنزل وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين أو هم اليهود فقد جرى على بني قريظة وبني النضير ما جرى وجعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو من الإعجاز لأنَّه إخبار بما سيكون وقد كان

عضين (كاف)

أجمعين ليس بوقف لأنَّ ما بعده مفعول ثان لقوله لنسألهم

يعملون (تام) وكذا المشركين ومثله المستهزئين إن جعل الذي مبتدأ خبره فسوف يعلمون يعلمون (تام) وليس بوقف إن جعل صفة للمستهزئين ويكون الوقف على إلهاً آخر وكذا لا

يوقف على المستهزئين إن جعل الذين بدلاً من المستهزئين

إلهاً آخر (حسن) للابتداء بالتهديد والوعيد على استهزائهم وجعلهم إلهاً مع الله

بما يقولون (جائز) ومثله بحمد ربك

من الساجدين (كاف) للابتداء بالأمر

واعبد ربك ليس بوقف لاتصال ما بعده بما قبله لأنَّ العبادة وقتت بالموت أي دم على

التسبيح والعبادة حتى يأتيك الموت

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ 422.428 ﴾

(160/422)

---

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة الحجر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ الزهري - بخلاف : "سَكِرَتْ1" .

قال أبو الفتح : أي جرت مجرى السكران في عدم تحصيله ، فلذلك قال : "سَكِرَتْ أَبْصارُنَا

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" . والسُّكْر عندنا من سَكْر العربة2 ونحوها . وذلك أنه يعترض على الماء ، ويسد عليه مذهبه ومتسربه ، وكذلك حال السكران في وقوف فكره ، والاعتراض عليه بما ينغصه3 ويحيره ؛ فلا يجد مذهبا ، وينكفئ مضطربا .

ومن ذلك قراءة أبي رجاء وابن سيرين وقيس بن عبادة4 وقتادة والضحاك ويعقوب وابن شرف ومجاهد وحميد وعمرو بن ميمون5 وعمارة بن أبي حفصة6 : "صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ7"

قال أبو الفتح : "عَلِيٌّ" -هنا- كقولهم : كريم ، وشريف . وليس المراد به علو الشخوص والنصبة8 .

قال أبو الحسن9 في قراءة الجماعة : ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ : هو كقولك :

---

1 سورة الحجر : 15 .

2 السكر : مصدر سكر النهر ، كنصر : جعل له سداًّ ، والعَرَبَة : النهر الشديد الجري .

3 ينغصه : يمنعه أن يتم مراده .

4 ذكره في الإصابة "3 : 244" ، ونقل أنه لم تصح له صحبة .

5 لعله عمرو بن ميمون بن حماد بن طلحة ، أبو عثمان الكوفي القناد السكري . أخذ القراءة عن حمزة ، وعرض عليه أحمد بن جبير ورويم بن يزيد . طبقات القراء : 1 : 603 .

6 هو عمارة بن أبي حفصة الأزدي العتكي مولاهم ، أبو روح البصري . روى عن أبي مجلز وأبي عثمان النهدي ، وروى عنه شعبة وابن علية ، وثقه أحمد . مات سنة 132 . واسم أبي حفصة أبيه نابت – بنون في أوله ، وقيل : ثاء . تهذيب التهذيب 415 ، وخلاصة تذهيب الكمال : 137 .

7 سورة الحجر : 41

8 النصبة : هيئة نصب الشيء ، أي إقامته .

9 في ك : وقال .

(161/422)

---

الدلالة اليوم عَلَيَّ ، أي : هذا صراط في ذمتي وتحت ضماني ، كقولك : صحة هذا المال عَلَيَّ ، وتوفية عِدَتِهِ عَلَيَّ . وليس معناه عنده أنه مستقيم عَلَيَّ ، كقولنا : قد استقام عَلَيَّ الطريق ، واستقر عَلَيَّ كذا . وما أحسن ما ذهب إليه أبو الحسن فيه !

ومن ذلك قراءة الزهري : "لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزٌّ مَقْسُومٌ1" .

قال أبو الفتح : هذه لغة مصنوعة ، وليست على أصل الوضع . وأصلها "جُزْء" فُعْل من جزأت الشيء ، وهو قراءة الجماعة إلا أنه خفف الهمزة ، فصارت "جُزُ" ، لأنه حذفها

وألقى حركتها على الزاي قبلها ، ثم إنه نوى الوقف على لغة من شدد نحو ذلك في الوقف ، فقال : هذا خالدّ وهو يجعلّ ، فصارت في الوقف "جُزّ" ، ثم أطلق وهو يريد نية الوقف وأقر2 التشديد بحاله فقال : "جُزّ" كما قالوا في الوصل : سبسبّا ، وكلكلّا3 .

وقد أنشدنا شواهد نحو ذلك فيما مضى . ومثله الخبّ فيمن وقف عليه بالتشديد ، ويريد تخفيف الخبْء4 ، وهو مشروح في باب الهمز ؟

ومن ذلك قراءة الحسن : "لَا تُوجَلْ"5 .

قال أبو الفتح : هذا منقول من وَجِل يَوْجَلُ ، وَجِل وأَوْجَلْتُه ، كفَزِعَ وأَفْزَعْتُه ، وَرَهِبَ وأَرْهَبْتُه .

ومن ذلك قراءة يحيى والأعمش وطلحة بن مصرف ، ورويت عن أبي عمرو : "من القَنِطِين6"

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون في الأصل "القانِطِين" كقراءة الجماعة ؛ إلا أن العرب قد تحذف ألف فاعل في نحو هذا تخفيفا .

---

1 سورة الحجر : 44

2 في ك : فأقر .

3 انظر المحتسب : 1 : 148 ، 149

4 الخبء : ما خبئ وغاب ، ومن الأرض النبات ، ومن السماء القطر .

5 سورة الحجر : 53

6 من قوله تعالى : في سورة الحجر الآية : 55 ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ .

(162/422)

---

قال الراجز :

أصبح قلبي صردا لا يشتهي أن يردا

إلا عرادا عردا وصليانا بردا

وعنكثا ملتبدا 1

يريد عاردا وباردا ، فحذف الألف تخفيفا . ألا ترى أن أبا النجم قال :

كأنَّ في الفرش القتادَ العارِدا 1

أي القوي الخشن ، وقد ذكرنا نحو هذا .

وقد يجوز في "الْقَنِطِينَ" غير هذا ، وذلك أنهم قد قالوا : قَنِطَ يقنَط ، فقد يكون "الْقَنِطِينَ" من قَنِطَ يقنَطُ هذه ، ويكون القانِطُون من قَنَطَ .

ومن ذلك قراءة الأشهب : "ومَن يقنُط 2" ، بضم النون .

قال أبو الفتح : فيه لغات : قَنَط يَقنِط ، وقَنِط يَقنَط ، وقَنَط يَقنُط . وقد حكيت أيضا : قَنَط يَقنط ، ومثله من فعَل يفعَل : ركَن يركَن ، وأبي يأَبى ، وغسَا 3 الليل يغسَا ، وجبَا 4 يجبَا ، وقالوا : عَضَضْتَ تعضُّ . قال ابن يحيى : قد قالوا في شمِمتُ وصببتُ ونحوه بفتح الثاني هربًا من الكسر 5 من التضعيف .

ومن ذلك قراءة الحسن "يَنْحَتُونَ 6" ؛ بفتح الحاء .

قال أبو الفتح : أجود اللغتين نَحَتَ يَنحِت ، بكسر الحاء ، وفتحها لأجل حرف الحلق الذي فيها ، كسَحَرَ يسحَر . وينبغي أن ينظر إلى ما أورده ليكون إلى نحوه طريقًا وسُلَّمًا .

---

1 انظر المحتسب : 1 : 171 .

2 سورة الحجر : 56 .

3 غسا الليل : أظلم .

4 جبا الماء في الحوض : جمعه . وفي ك : حباء بالحاء ، وهو تحريف .

5 في ك : الكسرة .

6 سورة الحجر : 82 .

اعلم أن العرب تقارب بين الألفاظ والمعاني إذ كانت عليها أدلة ، وبها محيطة . فمن ذلك ما نحن عليه ، وهو نَحَتَ يَنحِتُ ، والتاء أخت الطاء ، وقد قالوا : نَحَطَ ينحِطُ ، إذا زفر في بكائه ، فكأن ذلك الضغط الذي يصحَب الصوت ينال من آلة النفس ، ويحتها ويسفنها 1 ؛ فيكون كالنحت لما ينحت . لأنه تحيُّفٌ له وأخذ منه .

ونحو من ذلك [89ظ] قولهم في تركيب ع ص ر : ع س ر : ع ز ر . فالعصر شدة تلحق المعصور .

والعسر شدة الخلق والتعزير للضرب ، وذلك شدة لا محالة ؛ فالشدة جامعة لأحرف الثلاثة . ومنه تركيب ج ب ر ، ج ب ل ، ج ب ن ، المعنى الجامع لها اجتماع الأجزاء وتراجعها . من ذلك جبرت العظم ، أي : وصلت ما تفرق من أجزائه ، ومنه الجبل لاجتماع أجزائه ، ومنه جبن الإنسان ، أي : تراجع بعضه إلى بعض واجتمع . وإنما نبذت هنا طرفا من هذا الأمر تنبيها على أمثاله ، حتى إذا هي اجتازت بك أحسست بها ، ولم تطوك غير حافل بمعانيها وأوضاعها .

ومن ذلك قراءة مالك بن دينار والجحدري والأعمش : "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَالِقُ2" .

قال أبو الفتح : في هذه القراءة دليل على أن فعَل الخفيفة فيها معنى الكثرة كفعَّل الثقيلة ، ألا ترى إلى قراءة الجماعة : "الخلاق" ؟ وهذا للكثرة لا محالة . نعم ، وقد قرن به العليم ، وفعيل للكثرة . وكأن الخلاق الموضوع للكثرة أشبه بعليم ؛ لأنه موضوع لها ، فلولا أن في

خلق معنى الكثرة لما عبر لخالق عن معنى خلاق. ومنه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ3﴾. ألا تراها في معنى غفار وقبال؟ وعليه ما أنشده أبو الحسن:

أنت الفداء لقبلة هدمتها ونقرتها بيديك كل منقر4

فوضع "نقرت" موضع نفرت، وعليه جاء بالمصدر فقال: كل منقر. وعلة هذا هو ما تعلم من وقع المصدر دالا على الجنس، وإذا أفضت بك الحال إلى عموم الجنسية فقد اغترقت5 وتجاوزت حد الشياع والكثرة. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 2. 5﴾

---

1 يريد يعركها ويهيجها، من سفنه: إذا قشره.

2 سورة الحجر: 86.

3 سورة غافر: 3

4 انظر المحتسب: 1: 81.

5 اغترق النفس "بفتح الفاء" استوعبه في الزفير، والمراد: بلغت غاية الكثرة، كما يستوعب الزافر غاية نفسه.

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الحجر

مكية وآيها تسع وتسعون مشبه الفاصلة موضع الر القراآت سبق السكت على الر لأبي جعفر كإمالة الراء وتقليلها ونقل قران لابن كثير كوقف حمزة والسكت له وصلا على الراء بخلفه كابن ذكوان وحفص وإدريس عن خلف

واختلف في ( ربما ) الآية 2 فنافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء الموحدة والباقون بتشديدها لغتان

وقرأ ( ويلههم الأمل ) الآية 3 بضم الهاء الثانية رويس بخلفه وتقدم حكم ضم الميم وصلا وحدها أو مع الهاء غير مرة

واختلف في ﴿ ما تنزل الملائكة ﴾ الآية 8 فأبو بكر بضم التاء وفتح النون والزاي مشددة مبنيا للمفعول ( الملائكة ) بالرفع نائب الفاعل وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بنونين الأولى مضمومة والأخرى مفتوحة وكسر الزاي مشددة مبنيا للفاعل ( الملائكة ) بالنصب مفعولا به وافقهم الأعمش وعن ابن محيصن بنونين مضمومة فساكنة مع كسر الزاي مخففة والباقون بفتح التاء والنون والزاي مشددة مبنيا للفاعل مسند للملائكة وأصله تتنزل حذفت إحداهما تخفيفا الملائكة بالرفع فاعله وقرأ بتشديد تائه موصولة بما البزي بخلفه أدغم التاء المحذوفة لغيره في تاليها بعد أن نزلها منزلة الجزء من الكلمة السابقة لتوقف

الإدغام على تسكين المدغم وتعذر التسكين في المبدوء به واتفقوا على تشديد وما ننزله إلا بقدر وأدغم تاء وقد خلت سنة أبو عمرو وهشام من طريق الداجوني وابن عبدان عن الحلواني وحمزة والكسائي وخلف وعن المطوعي يعرجون بكسر الراء لغة هذيل

واختلف في (سكرت) الآية 15 فابن كثير بالبناء للمفعول مع تخفيف الكاف من سكرت الماء في مجاريه إذا منعته من الجري فهو متعد فلا يشكل بأن المشهور أن سكر لازم فكيف يبنى للمفعول لأن اللازم من سكر الشراب أو الريح فقط وافقه ابن محيصن والحسن والباقون كذلك إلا أنهم شددوا الكاف



---

وقرأ بل نحن بإدغام اللام في النون الكسائي وأدغم دال ولقد جعلنا أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وتقدم اتفاقهم على قراءة معايش بالياء بالأعراف

وقرأ الريح لواقح بالأفراد حمزة وخلف وغلظ الأزرق لام صلصال بخلف عنه والأصح ترقيقها كما في النشر لسكون اللام

وأمال أبي حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وعن الحسن والجان بهمزة مفتوحة بعد الجيم بلا ألف حيث وقع وفتح لام المخلصين نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر

وخلف كما مر بيوسف

وقرأ ( صراط ) بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وأشمها خلف عن حمزة

واختلف في ( علي مستقيم ) الآية 41 فيعقوب بكسر اللام وضم الياء منونة من علو

الشرف وافقه الحسن والباقون بفتح اللام والياء بلا تنوين أي من مر عليه مر علي والمعنى أنه

أي المشار إليه بهذا طريق على يؤدي إلى الوصول إلي ويجوز أن يكون المراد حق علي أن

أراعيه نحو وكان حقا علينا نصر المؤمنين

وقرأ ( جزء ) الآية 44 بضم الزاي أبو بكر وحذف أبو جعفر الهمز وشدد الزاي وكأنه

ألقى حركة الهمزة على الزاي ووقف عليها فشددها على حد قولهم خالد بتشديد الدال

ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ويوقف عليها لحمزة وهشام بخلفه بالنقل مع الإسكان والروم

والإشمام فهي ثلاثة كما في النشر وأما التشديد فشاذ

وقرأ ( وعيون ) الآية 45 بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي

وكسر تنوينه أبو عمرو وقنبل وابن ذكوان بخلفهما وعاصم وحمزة وروح

وقرأ رويس فيما رواه القاضي وابن العلاف والكارزيني ثلاثتهم عن النخاس بالمعجمة وأبو الطيب والشنبوذي عن التمار عنه بضم تنوين عيون وكسر خاء ادخلوها مبنيا للمفعول من أدخل رباعيا فالهمزة للقطع نقلت حركتها إلى التنوين ثم حذفت وروى السعيدي والحمامي كلاهما عن التمار عن النخاس وهبة الله كلاهما عن رويس بضم الخاء فعل أمر وكذلك قرأ الباقون ولا خلاف في الابتداء في القراءتين بضم الهمزة وأبدل همز نبيء أبو جعفر في الحالين كوقف حمزة وأما نبئهم فلم يبدلها أبو جعفر كأنبئهم ووقف حمزة عليها بالبدل واختلف عنه في الهاء كما مر فكسرها ابن مجاهد وابن غلبون وضمها الجمهور ومال إليه في النشر وفتح ياء الإضافة من عبادي ومن إني أنا نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر وأدغم ذال إذ دخلوا أبو عمرو وهشام وابن ذكوان من طريق الأخفش وحمزة والكسائي وخلف وعن الحسن لا توجل بضم التاء مبنيا للمفعول

وقرأ ﴿ يبشرك ﴾ الآية 53 بالتخفيف حمزة واختلف في تبشرون فنافع بكسر النون مخففة والأصل تبشرونني الأولى للرفع والثانية للوقاية حذفت نون الوقاية للثقل ثم حذفت الياء على حد أكرمني مجتزيا عنها بالكسرة المنقولة إلى النون الأولى وقيل المحذوف الأولى وعليه سيبويه وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة أدغم الأولى في الثانية تخفيفا وحذف ياء الإضافة اكتفاء بالكسرة وافقه ابن محيصن والباقون بفتحها مخففة

تنبيه في النشر إذا وقف على المشدد بالسكون نحو صواف ودواب وتبشرون عند من

شدد النون فمقتضى إطلاقهم لا فرق في قدر هذا المد وقفا ووصلا ولو قيل بزيادة في الوقف على قدره في الوصل لم يكن بعيدا فقد قال كثير منهم بزيادة ما شدد على غير المشدد وزادوا مد لام من ألم على مد ميم من أجل التشديد فهذا أولى لاجتماع ثلاث سواكن انتهى وعن الحسن القانطين بغير ألف كفرحين

(167/422)

---

واختلف في ( ومن يقنط ) الآية 56 هنا و ( يقنطون ) بالروم الآية 36 ( لا تقنطوا ) بالزمر الآية 53 فأبو عمرو والكسائي وكذا يعقوب وخلف بكسر النون وافقهم اليزيدي والحسن والأعمش والباقون بفتحها كعلم يعلم لغة فيه والأول كضرب يضرب لغة أهل الحجاز وأسد وهي الأكثر ولذا أجمعوا على الفتح في الماضي في قوله تعالى من بعد ما قنطوا

وقرأ ( لمنجوهم ) الآية 59 بالتخفيف حمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما مر بالأنعام

واختلف في ( قدرنا ) الآية 60 هنا والنمل الآية 57 فأبو بكر بتخفيف الدال والباقون بتشديدها وهما لغتان بمعنى التقدير لا القدرة أي كتبنا وأسقط الهمزة الأولى من جاء آل قالون والبزي وأبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب وقنبل من طريق ابن شنبوذ وسهل الثانية بين بين ورش وأبو جعفر وقنبل ورويس من غير طريقهما المذكورين وللأزرق وجه

ثان وهو إبدالها ألفا وكذا قنبل في وجهه الثالث لكن سبق في باب الهمزتين من كلمتين عن النشر أن بعضهم اقتصر على التسهيل لهما ومنع البدل في ذلك ونظيره وهو جاء آل فرعون وذلك لأن بعدها ألفا فيجتمع ألفان حالة البدل وإجتماعهما متعذر وقيل تبدل فيهما كسائر الباب ثم فيهما بعد البدل وجهان أحدهما أن تحذف الألف للساكنين والثاني أن لا تحذف ويزاد في المد فتفصل تلك الزيادة بين الساكنين قال وقد أجاز بعضهم على وجه الحذف الزيادة في المد على مذهب من روى المد عن الأزرق لوقوع حرف المد بعد همز ثابت فحكى فيه المد والتوسط والقصر وفيه نظر وحينئذ فالمعول عليه حالة البدل وجهان القصر على تقدير حذف الألف والمد على

عدم الحذف للفصل بين الساكنين ويمتنع التوسط للأزرق وأما على وجه التسهيل فالثلاثة جارية له كما تقدم وتقدم الخلاف عن أبي عمرو في إدغام آل لوط وكذا يعقوب



---

وقرأ فأسر ) الآية 65 بهمزة وصل نافع وابن كثير وأبو جعفر والباقون بهمزة قطع مفتوحة وتقدم نظير جاء أهل المدينة وأثبت الياء تفضحون وفي تخزون في الحالين يعقوب وفتح ياء الإضافة من بناتي أن نافع وأبو جعفر وعن المطوعي سكرتهم بضم السين وعن الحسن

ينحتون هنا والشعراء بفتح الحاء ورويت عن أبي حيوة وقرأ بيوتا بضم الباء ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب وأمال أغنى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وعن المطوعي هو الخالق بكسر اللام والجمهور الخلاق بالفتح والتشديد ومر نقل القرآن لابن كثير وفتح ياء الإضافة من أني أنا نافع وابن كثير وأبو جعفر

وقرأ ( فاصدع ) الآية 94 بإشمام الصاد الزاي حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلفه المرسوم اختلف في حذف الألف من الريح لواقح واتفقوا على إثباتها في كتاب وكتبوا بالياء أبشرتموني والمثاني ياآت الإضافة أربع ( عبادي ) الآية 49 ﴿ أني أنا ﴾ الآية 49 ( بناتي إن ) الآية 71 ( إني أنا ) الآية 89 ومن الزوائد ثنتان ( فلا تفضحون ) الآية 68 ( ولا تخزون ) الآية 69 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 345 . 348 ﴾

(169/422)

---

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الحجر "

" الر " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة .

" وقرآن " يأكلوا ، يستأخرون ، الذكر ، يأتيهم ، يستهزءون ، عليهم ، لبشر خلقته صراط ،

من غل ، سبق مثله مرارا .

" ربما " قرأ المدنيان وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها .

" ويلههم الأمل " قرأ البصري وروح بكسر الهاء والميم وصلا . والأخوان ورويس وخلف بضمهما وصلا والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلا . أما عند الوقف فرويس وحده بضم الهاء وسكون الميم والباقون بالكسر وسكون الميم .

" ما ننزل " قرأ حفص والأخوان وخلف بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة وقرأ شعبة بتاء مضمومة ونون مفتوحة وزاي مفتوحة كذلك ورفع الملائكة وقرأ الباقون مثل شعبة ولكنهم يفتحون التاء وشدد البزي التاء وصلا وخففها الباقون .

" فتحنا " لا خلاف بينهم في تخفيف التاء .

" سكرت " خفف الكاف المكي وشددها غيره ورقق ورش الراء .

" وما ننزله " لا خلاف ، بين القراء العشرة في قراءته بالتشديد .

" الرياح " قرأ حمزة وخلف بإسكان الياء وحذف الآلف بعدها على التوحيد والباقون بفتح الياء وإثبات الألف بعدها على الجمع .

" من صلصال " رقق الجميع اللام لسكونها .

" حمأ " لحمزة وهشام وقفا الإبدال ألفا والتسهيل مع الروم .

فأنظرني إلى . أجمعوا على إسكان الياء .

المخلصين . فتح اللام المدنيان والكوفيون وكسرها غيرهم .

على مستقيم قرأ يعقوب بكسر اللام ورفع الياء مشددة منونة والباقون بفتح اللام وفتح الياء مشددة غير تنوين . جزء . قرأ شعبة بضم الزاي والباقون بإسكانها وأبو جعفر بحذف الهمزة وتشديد الزاي فكأنه ألقى حركة الهمزة على الزاي ووقف عليها فشددها ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ولحمزة وهشام عند الوقف نقل حركة الهمزة إلى الزاي مع حذف الهمزة فتصير الزاي مرفوعة ثم تسكن للوقف مع السكون المحض والإشمام والروم .

(170/422)

---

وعيون ادخلوها . قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة والأخوان بكسر العين والباقون بضمها . وكسر التنوين وصلا البصريان وابن ذكوان وعاصم وحمزة وضمه غيرهم .

بمخرجين . آخر الربع .

الممال

الر بالإمالة للبصري والشامي وشعبة والأخوين وخلف وبالتقليل لورش . نار للبصري والدوري بالإمالة ولورش بالتقليل أبى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " خلت سنة للبصري والأخوين ، وخلف بل نحن للكسائي ، ولقد جعلنا للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " نحن نزلنا ، لنحن نحيى ، قال ربك ، قال لم ، قال رب معا ، بمخرجين نبئ .

" نبئ " أبدل همزة مطلقا أبو جعفر وفي الوقف فقط هشام وحمزة .

" عبادي أني أنا " فتح الياءين المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنهما غيرهم .

" ونبئهم " لا يبدل همزه أحد من العشرة إلا حمزة عند الوقف وله حينئذ ضم الهاء وكسرها .

" إنا نبشرك " قرأ حمزة بفتح النون وإسكان الباء وضم الشين مخففة . والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة .

" تبشرون " قرأ نافع بكسر النون مخففة وابن كثير بكسرها مشددة والباقون بفتحها مخففة ولا يخفى أن لابن كثير المد المشبع للساكنين في الحالين .

" يقنط " كسر النون البصريان وخلف العاشر والكسائي وفتحها غيرهم .

" لمنجوهم " قرأ الأخوان وخلف ويعقوب بالتخفيف والباقون بالتشديد .

" قدرنا " خفف الدال شعبة وشددها سواه .

" جاء آل " قرأ قالون والبزي والبصري بإسقاط الهمزة الأولى مع القصر والمد وتحقيق

الثانية وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية بين بين مع تحقيق الأولى ولورش وقنبل إبدال الثانية حرف مد . وإذا سهل ورش يكون له ثلاثة أوجه في البدل المغير: القصر والتوسط والطول . وإذا أبدل يكون له وجهان القصر والمد . وحينئذ يكون له خمسة أوجه .

أما قنبل فله حين التسهيل القصر فقط كغيره من المسلمين وله حين الإبدال القصر والمد كورش فيكون له حينئذ ثلاثة أوجه والباقون بتحقيقهما .

(171/422)

---

وإذا نظرت إليها مع بدل قبلها وهو الآن كان لورش فيها تسعة أوجه: قصر البدل الأول وتوسطه ومده ، وعلى كل من الأوجه الثلاثة تسهيل الهمزة بين بين وإبدالها ألفا مع القصر والمد ، ويراعى في حال التسهيل البدلين المحقق وهو الأول والمغير ، وهو الثاني في القصر والتوسط والمد .

" فأسر " قرأ المدنيان والمكي بهمزة وصل فتسقط في الدرج وحينئذ يصير النطق بالسين الساكنة بعد الفاء ، والباقون بهمزة قطع مفتوحة .

" تؤمرون " دابر: يستبشرون ، عليهم ، بيوتا ، اقلرآن ، النذير . جلي .

" وجاء أهل " قرأ البصري والبزي وقالون بإسقاط الأولى مع القصر والمد وتحقيق الثانية .

وورش وقنبل وابو جعفر ورويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ولورش وقنبل إبدالها ألفا

مع المد المشبع للساكنين ، والباقون بالتحقيق فيهما .

" تفضحون ، تخزون " أثبت الياء فيهما يعقوب في الحالين وحذفها غيره كذلك .

" بناتي إن " فتح الياء المدنيان وأسكنها سواهما .

" إني أنا " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها سواهم .

" لنسألهم " لحمزة فيه وقفا نقل حركة الهمزة إلى السين مع حذف الهمزة .

" فاصدع " قرأ بإشمام الصاد الزاي الأخوان وخلف ورويس والباقون بالصاد الخالصة .

" المستهزئين " لأبي جعفر الحذف في الحالين ، ولحمزة وقفا الحذف والتسهيل ولا يخفى ما

فيه لورش .

" اليقين " آخر السورة ، وآخر الربع .

الممال

جاء معا لابن ذكوان وحمزة ، أغنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " إذ دخلوا للبصري والشامي والأخوين وخلف .

"الكبير" آل لوط معا ، حيث تؤمرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البدور الزاهرة صـ 178 . 181﴾

(172/422)

---

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الحجر

قوله تعالى ﴿ ربما يود ﴾ يقرأ بتخفيف الباء وتشديدها فالحجة لمن خفف أن الأصل عنده في التشديد باءان أدغمت إحداهما في الأخرى فأسقط واحدة تخفيفا والحجة لمن شدد أنه أتى بلفظها على الأصل وهو الاختيار قال الشاعر يا رب سار بات لن يوسدا تحت ذراع العنس أو كف اليدا اختلف النحويون في نصب اليد ها هنا فقال قوم موضعها خفض ولكن الشاعر أتى بها على الأصل واصلها يدي ثم قلب من الياء ألفا فقال اليدا كما قالوا الرحا والعصا والعرب تقلب الألف عند الضرورة ياء ذكر ذلك سيبويه وأنشد قواطنا مكة من ورق الحمى أراد الحمام فأسقط الميم الأخيرة ثم قلب الألف ياء فلما قلبوا ها هنا من الألف ياء قلبوا هناك الياء ألفا وقال الأصمعي معنى كف ها هنا قبض وهو

فعل ماض والبد منصوبة بتعدي الفعل إليها فإن قيل رب موضوعة للتقليل كما وضعت كم للتكثير فما وجه الإتيان بها ها هنا فقل إن العرب استعملت إحداهما في موضع الآخرى ومنه قولهم إذا أنكروا على أحدهم حالا فنهوه فلم ينته ربما نهيت فلانا فأبى فإن قيل فما موضع ما بعد رب فقل في ذلك أجوبة منها أن تكون نائبة عن اسم منكور فهي في موضع خفض أو تكون كافة لعمل رب ليقع بعدها الفعل لأنها من عوامل الأسماء أو تكون ما وما وصلت به بمعنى المصدر يريد رب وداد الذين كفروا فأما قوله لو كانوا مسلمين فقيل عند معاينة الموت وقيل عند معاينة أهوال يوم القيامة عند إخراج أمة محمد عليه السلام من النار بشفاعته لهم قوله تعالى ما تنزل الملائكة يقرأ بفتح التاء وضمها وبالتشديد والرفع وبالنون وكسر الزاي والتشديد والنصب فالحجة لمن فتح التاء أنه أراد تتنزل فأسقط

(173/422)

---

إحدى التائين ورفع الملائكة بفعلهم والحجة لمن ضم التاء أنه دل بذلك على نقل الفعل عن بنائه للفاعل إلى ما لم يسم فاعله ورفع به الملائكة لأن الفعل صار حديثا عنهم لما اختزل الفاعل وكل من حدثت عنه بحديث رفعته بذلك الحديث والحجة لمن قرأ بالنون أنه أخبر بذلك عن إخبار الله بالفعل عن نفسه ونصب الملائكة بتعدي الفعل إليهم قوله تعالى

سكرت أبصارنا يقرأ بتشديد الكاف وتخفيفها فالحجة لمن شدد أنه أراد سدت وغطيت والحجة لمن خفف أنه أراد سحرت ووقفت كما تقول سكرت الماء في النهر إذا وقفته وقال الكسائي هما لغتان وإن اختلف تفسيرهما قوله تعالى فبم تبشرون يقرأ بتشديد النون وتخفيفها مع الكسر وبتخفيفها مع الفتح فالحجة لمن شدد أنه أراد تبشرونني بنونين الأولى علامة الرفع والثانية مع الياء اسم المفعول به فأسكن الأولى وأدغمها في الثانية تخفيفا ودل بالكسرة على الياء فكفت منها والحجة لمن خفف النون وكسرها أنه حذف إحدى النونين تخفيفا من غير إدغام واجتزأ بالكسرة من الياء ويستشهد له بقول الشاعر رأته كالثغام يعل مسكا يسوء الفاليات إذا فليني قال البصريون أراد فلينني فحذف إحدى النونين وقال الكوفيون أدغم النون ثم حذفها واحتجوا بقوله تعالى وكادوا يقتلونني وأتعدانني قالوا لما ظهرت

(174/422)

---

النونات لم يحذفها وإنما الحذف في المدغمات كقوله تعالى تأمروني وأتحاجوني والحجة لمن فتح النون وخففها أنه أراد نون الإعراب الدالة على الرفع ولم نضفها إلى نفسه قوله تعالى ومن يقنط يقرأ بفتح النون وكسرها فالحجة لمن فتح النون أن بنية الماضي عنده بكسرها كقولك

علم يعلم والحجة لمن كسر النون أن بنية الماضي عنده بفتحها كقولك ضرب يضرب وهذا قياس مطرد في الأفعال والاختيار فيه ها هنا كسر النون لإجماعهم على الفتح في ماضيه عند قوله تعالى من بعد ما قنطوا قوله تعالى إنا لمنجوهم أجمعين يقرأ بالتشديد والتخفيف وقد تقدم القول في علته آنفا وأصله لمنجوهم بكسر الجيم وواين بعدها الأولى لام الفعل والثانية واو الجمع فانقلبت الأولى ياء لانكسار ما قبلها كما انقلبت في نجا ألفا لانفتاح ما قبلها فصار لمنجيوهم فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت عنها فبقيت ساكنة والواو ساكنة فحذفت الياء لالتقاء الساكنين وضمت الجيم لمجاورة الواو قوله تعالى إلا امرأته قدرنا يقرأ بالتشديد والتخفيف على ما تقدم القول في أمثاله فأما قدر بالتخفيف فيكون من التقدير والتقتير كقوله في التقدير فقدرنا فنعم القادرون وكقوله في التقتير ومن قدر عليه رزقه



---

قوله تعالى أصحاب الأيكة يقرأ بإسكان اللام وتحقيق الهمزة وبفتح اللام وتشديدها وطرح الهمزة ها هنا وفي الشعراء وصاد وقاف فالحجة لمن أثبت الهمزة أن الأصل عنده في النكرة أيكة ثم أدخل عليها الألف واللام للتعريف فبقى الهمزة على أصل ما كانت عليه

والحجة لمن ترك الهمز أن أصلها عنده ليكة على وزن فعلة ثم أدخل الألف واللام فالتقى لامان الأولى ساكنة فأدغم الساكنة في المتحركة فصارت لاما مشددة وقد قرأها بعضهم على أصلها ليكة المرسلين وترك صرفها للتعريف والتأنيث أو لأنها معدولة عن وجه التعريف الجاري بالألف واللام وقد فرق بعض القراء بين الهمز وتركه فقال الأيكة اسم البلد وليكة اسم القرية وقيل هي الغيضة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 208.204﴾

(176/422)

---

وقال ابن زنجلة :

15 - سورة الحجر

ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين 2

قرأ نافع وعاصم ربما يود الذين كفروا بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد

قال الكسائي هما لغتان والأصل التشديد لأنك لو صغرت رب لقلت ربيب فرددت إلى أصله فإن قال قائل فما موضع ما في ربما قيل فيه وجهان أحدهما أن تكون ما نائبة عن اسم منكور في موضع جر بمعنى شيء وذلك كقوله الشاعر ... ربما تكره النفوس من الأم

. . . ر له فرجة كحل العقال . . .

ف ما في هذا البيت اسم لما تقدم من عود الذكر إليه من الصفة المعنى رب شيء تكرهه النفوس

قال البصري تقديره رب ود يود الذين كفروا والوجه الآخر أن تدخل كافة نحو هذه الآية وذلك أن إن و رب لا يليهما إلا الأسماء فإذا وليتهما الأفعال وصلوهما ب ما كقوله إنما يخشى الله من عباده العلماء

ما ننزل الملئكة إلا بالحق 8

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ما تنزل بضم التاء مفتوحة الزاي الملائكة رفع على ما لم يسم فاعله حجته قوله ونزل الملائكة تنزيلا

قرأ حمزة والكسائي وحفص ما ننزل بالنون الملائكة نصب يخبر الله عن نفسه وحجتهم قوله ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة فلما كانت الملائكة مفعولين منزلين بإجماع رد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه

وقرأ الباقون تنزل بالتاء مفتوحة الملائكة رفع وحجتهم إجماعهم على قوله تنزل الملائكة والروح فيها وما نتنزل إلا بأمر ربك على أن التنزيل مسند إليهم والمعنيان يتداخلان لأن الله لما أنزل الملائكة نزلت وإذا نزلت الملائكة فبإنزال الله نزلت وتنزل

لقالوا إنما سكرت أبصرنا بل نحن قوم مسحورون 15

قرأ ابن كثير لقالوا إنما سكرت أي سحرت وحبست والعرب تقول سكرت الريح إذا سكنت فكأنها حبست فكأن معنى سكرت أبصارنا لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقيقتها فكأنها حبست

وقرأ الباقون سكرت بالتشديد أي غشيت فغطيت كذا قال أبو عمرو والغشاء الحبس أيضا

(177/422)

---

وقال قتادة سدت وحجتهم في التشديد أن الفعل مسند إلا جماعة وهو قوله سكرت أبصارنا والتشديد مع الجمع أولى

وأرسلنا الريح لواقح 2

قرأ حمزة وأرسلنا الريح لواقح بغير ألف وجته أن الريح في معنى جمع ألا ترى أنك تقول قد جاءت الريح من كل مكان تريد الرياح وكما تقول ثوب أخلاق قال الشاعر . . . جاء الشتاء وقميصي أخلاق . . .

وقرأ الباقون الرياح على الجمع وحجتهم قوله لواقح ولم يقل لاقحا

فبم تبشرون 54

قرأ ابن كثير فبم تبشرون مشددة النون مكسورة الأصل

تبشرونني النون الأولى علامة الرفع و الثانية مع الياء في موضع النصب وإنما دخلت لتمنع

الفعل من أن ينكسر ثم أدغم النون في النون وحذف الياء اجتزاء بالكسرة لأنها نابت عن

الياء

وقرأ نافع تبشرون بكسر النون مع التخفيف والأل فبم تبشرونني كما ذكرنا فاستثقل النونين

فحذف إحداهما وهي الثانية لأن التكرير بها وقع ولم يحذف الأولى قال الشاعر في حذف

النون . . . تراه كالثغام يعل مسكا . . . يسوء الفاليات إذا فليني . . .

وقرأ الباقون فبم تبشرون بفتح النون خفيفة لم يريدوا الإضافة إلى النفس فتجتمع نونان

قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون 56

قرأ أبو عمرو والكسائي ومن يقنط بكسر النون من قنط يقنط وحجتهما قوله من بعد ما

قنطوا

وقرا الباقون بفتح النون من قنط يقنط و قنط يقنط لغتان ومثله نقم ينقم ونقم ينقم

إنا لمنجوهم أجمعين 59

وقرأ حمزة والكسائي إنا لمنجوهم خفيفة من أنجى ينجي وحجتهما قوله فأنجاه الله من النار

والأصل لمنجوونهم بواوين الأولى لام الفعل من نجا ينجو والثانية واو الجمع فانقلبت الأولى

ياء لانكسار الجيم فصارت لمنجوونهم فاستثقلوا الضمة على الياء فحذفت فالتقى

ساكنان فحذفوا الياء وضموا الجيم لمجاورة الواو وحذفوا النون للإضافة وكذلك قوله تعالى إنا منجوك والأصل منجونك

وقرأ الباقون إنا لمنجوهم بالتشديد من نجى ينجي وحجتهم قوله ونجينا الذين آمنوا وهما لغتان مثل أكرم وكرم

(178/422)

---

إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغبرين 60

قرأ أبو بكر قدرنا إنها بالتخفيف من قدر يقدر وحجته قوله قد جعل الله لكل شيء قدرا

وقرأ الباقون بالتشديد من قدر يقدر تقديرا فكان الفعل على لفظ مصدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 384.380﴾

(179/422)

---

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة الحجر

122 الآية الأولى منها

قوله عز وجل : (فاخرج منها فإنك رجيم* وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) الحجر : 34-35 .

وقال في سورة ص 78 : (عليك لعنتي إلى يوم الدين) .

للسائل أن يسأل فيقول : إكان المراد ب اللعنة ولعنتي شيئًا واحدا ، فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام ، وفي سورة ص مضافا ، وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر ؟

والجواب أن يقال : إن القصة في سورة الحجر ابتدءت في المعتمد بالذكر ، وهو خلق الانس والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله : (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون* والجان خلقناه من قبل من نار السموم) الحجر : 26-27 ثم قال : (ما لك ألا تكون من الساجدين) الحجر : 32 فكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدءت بمثله القصة ، وهو اسم الجنس المعرف واللام .

وكان الأمر في سورة ص بخلاف ذلك ، لأن أول الآية : (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين* فسجد الملائكة كلهم أجمعون* إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين* قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما

خلقت بيدي أستكبرت أم كنا من العالين) سورة ص : 71-75 فلم تفتتح الآية بذكر الصنفين من الإنس والجن باللفظ المعرف بالألف واللام كما أن في سورة الحجر .

ولما كان موضع (ما لك ألا تكون مع الساجدين) الحجر : 32 جاء بدله : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت) سورة ص : 75 فجعل بدل الساجدين أن تسجد ثم قال : (لما خلقت بيدي) فخصصه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بقلعه ، أجري لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ

الإضافة ، كما قال : (بيدي) فقال : (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) فكان الإختيار في التوفقة بين الألفاظ التي افتتحت بها الآية واستمرت إلى آخرها هذا .

123 الآية الثانية منها

(180/422)

---

قوله تعالى : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) الحجر : 75 .

وقال في الآية التي بعدها : (وإنها للبسبيل مقيم* إن في ذلك لآية للمؤمنين) الحجر : 76-77 .

للسائل أن يسأل عن جمع الآيات أولا ، وتوحيدها آخرا فيقول : لم اختصت الأولى ب الآية

على التوحيد ، وهل كانت الآيات لو ذكرت في الثانية ، والآية لو ذكرت في الأولى ، فما يكون في اختيار الكلام ؟

والجواب أن يقال : ذلك في قوله : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) إشارة إلى ما قص من حديث لوط وضيف إبراهيم ، وتعرض قوم لهم طمعا فيهم ، وما كان من أمرهم آخرا من إهلاك الكفار وقلب المدينة على من فيها وإمطار الحجارة على من غاب عنها .

وهذه أشياء كثيرة ، في كل واحدة منها آية ، وفي جميعها آيات لمن يتوسم ، أي يتدبر السمة ، وهي ما وسم الله تعالى به العاصين من عباده ليستدلوا بها على حال من عند عن عبادته فيتجنبها ، فكان ذكر الآيات ها هنا أولى وأشبه بالمعنى .

وأما قوله : (لآية للمؤمنين) فلأن قبلها : (وإنها لبسبيل مقيم ) أي تلك المدينة المقلوبة ثابتة الآثار ، مقيمة للنظار ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها ، وهذه واحدة من تلك الآيات ، فلذلك جاء عقيبها : (إن في ذلك لآية للمؤمنين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل ص 180.179 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الحجر

مكية

ونظيرتها في المدني الأخير والمكي مريم والواقعة وفي المدني الأول والشامي الواقعة فقط ولا نظير لها في الكوفي والبصري

وكلمها ست مئة وأربعة وخمسون كلمة

وحروفها ألفان وسبع مئة وأحد وسبعون حرفا

وهي تسع وتسعون آية وليس فيها اختلاف ولا فيها شيء مما يشبه الفواصل ورؤوس الآي

مبين

1 مسلمين

2 يعلمون

3 معلوم

4 يستأخرون

5 لمجنون

6 الصادقين

7 منظرين

8 لحافظون

9 الأولين

10 يستهزئون

11 المجرمين

12 الأولين

13 يعرجون

14 مسحورون

15 للناظرين

16 رجيم

17 مبين

18 موزون

19 برازقين

20 معلوم

21 بخازنين

22 الوارثون

23 المتسأخرين

24 عليم

25 مسنون

26 السموم

27 مسنون

28 ساجدين

29 أجمعون

30 الساجدين

31 الساجدين

32 مسنون

33 رجيم

34 الدين

35 يبعثون

36 المنظرين

37 المعلوم

38 أجمعين

39 المخلصين

40 مستقيم

41 الغاوين

42 أجمعين

43 مقسوم

44 وعيون

45 آمنين

46 متقابلين

47 بمخرجين

48 الرحيم

49 الأليم

50 إبراهيم

51 وجلون

52 عليم

53 تبشرون

54 القانطين

55 الضالون

56 المرسلون

57 مجرمين

58 أجمعين

59 الغابرين

60 المرسلون

61 منكرون

62 يمترون

63 لصادقون

64 تؤمرون

65 مصبحين

66 يستبشرون

67 تفضحون

68 ولا تخزون

69 العالمين

70 فاعلين

71 يعمهون

72 مشرقين

73 سجيل

74 للمتوسمين

75 مقيم

76 للمؤمنين

77 لظالمين

78 مبين

79 المرسلين

80 معرضين

81 آمنين

82 مصبحين

83 يكسبون

84 الجميل

85 العليم

86 العظيم

87 للمؤمنين

88 المبين

89 المقتسمين

90 عضين

91 أجمعين

92 يعملون

93 المشركين

94 المستهزئين

95 يعلمون

96 يقولون

97 الساجدين

98 اليقين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 175.173 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (الر تلك آيات الكتاب) قد ذكر في أول الرعد .

قوله تعالى (ربما ) يقرأ بالتشديد والتخفيف وهما لغتان ، وفى " رب " ثمان لغات: منها المذكورتان ، والثالثة والرابعة كذلك ، إلا أن الراء مفتوحة ، والأربع الأخر مع تاء التأنيث " ربت " ففيها التشديد والتخفيف وضم الراء وفتحها .

وفى " ما "

وجهان: أحدهما هي كافة لرب حتى يقع الفعل بعدها ، وهى حرف جر .

والثانى هي نكرة موصوفة: أي رب شئ يوده الذين ، ورب حرف جر لا يعمل فيه إلا ما بعده ، والعامل هنا محذوف تقديره: رب كافر يود الإسلام يوم القيامة أنذرت أو نحو ذلك ، وأصل رب أن يقع للتقليل ، وهى هنا للتكثير والتحقيق ، وقد جاءت على هذا المعنى في الشعر كثيرا ، وأكثر ما يأتي بعدها الفعل الماضي ، ولكن المستقبل هنا لكونه صدقا قطعا بمنزلة الماضي .

قوله تعالى (إلا ولها كتاب) الجملة نعت لقرية ، كقولك: ما لقيت رجلا إلا عالما ، وقد ذكرنا حال الواو في مثل هذا في البقرة في قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم " .

قوله تعالى (لو ما تأتينا ) هي بمعنى لولا وهلا وألا ، وكلها للتحضيض .

قوله تعالى (ما ننزل الملائكة) فيها قراءات كثيرة كلها ظاهرة (إلا بالحق) في موضع الحال فيتعلق بمحذوف ، ويجوز أن يتعلق بننزل وتكون بمعنى الاستعانة .

قوله تعالى (نحن نزلنا ) نحن هنا ليست فصلا ، لأنها لم تقع بين اسمين بل هو إما مبتدأ أو تأكيد لاسم إن .

قوله تعالى (إلا كانوا به يستهزئون) الجملة حال من ضمير المفعول في يأتيهم ، وهي حال مقدرة ، ويجوز أن تكون صفة لرسول على اللفظ أو الموضع .

(184/422)

---

قوله تعالى (كذلك) أي الأمر كذلك ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي سلوكا مثل استهزائهم ، والهاء في (نسلكه) تعود على الاستهزاء ، والهاء في (به) للرسول أو للقرآن ، وقيل للاستهزاء أيضا ، والمعنى: لا يؤمنون بسبب الاستهزاء فحذف المضاف ، ويجوز أن يكون حالا: أي لا يؤمنون مستهزئين .

قوله تعالى (فظلوا) الضمير للملائكة ، وقيل للمشركين ، فأما الضمير في (قالوا) فللمشركين ألبتة (سكرت) يقرأ بالتشديد والضم وهو منقول بالتضعيف يقال: سكر بصره وسكرته ، ويقرأ بالتخفيف وفيه وجهان: أحدهما أنه متعد مخففا ومثقلا .

والثانى أنه مثل سعد ، وقد ذكر في هود ، ويقرأ بفتح السين وكسر الكاف أي سدت وغطيت كما يغطى السكر على العقل ، وقيل هو مطاوع أسكرت الشئ فسكر: أي انسد .

قوله تعالى (إلا من استرق السمع) في موضعه ثلاثة أوجه: نصب على الاستثناء المنقطع .

والثانى جر على البدل: أي إلا ممن استرق .

والثالث رفع على الابتداء ، و (فأتبعه) الخبر ، وجاز دخول الفاء فيه من أجل أن من بمعنى الذى أو شرط .

قوله تعالى (والأرض) منصوب بفعل محذوف: أي ومددنا الأرض ، وهو أحسن من الرفع لأنه معطوف على البروج ، وقد عمل فيها الفعل (وأنبتنا فيها من كل شئ) أي وأنبتنا فيها ضروبا ، وعند الأخفش من زائدة .

قوله تعالى (ومن لستم) في موضعها وجهان: أحدهما ما نصب لجعلنا ، والمراد بمن العبيد والإماء والبهائم فإنها مخلوقة لمنافعنا .

وقال الزجاج: هو منصوب بفعل محذوف تقديره: وأعشنا من لستم له، لأن المعنى: أعشناكم وأعشنا من لستم.

والثانى موضعه جر: أي لكم ولمن لستم، وهذا يجوز عند الكوفيين.

قوله تعالى (إلا عندنا خزائنه) الجملة، موضع رفع على الخبر "ومن شئ" مبتدأ، ولايجوز أن يكون صفة إذ لاخبر هنا، وخزائنه مرفوع بالظرف لأنه قوى بكونه خبرا، ويجوز أن يكون مبتدأ، والظرف خبره (بقدر) في موضع الحال.

(185/422)

---

قوله تعالى (الرياح) الجمهور على الجمع، وهو ملائم لما بعده لفظا ومعنى، ويقرأ على لفظ الواحد وهو جنس.

وفى اللواقح ثلاثة أوجه: أحدها أصلها ملاقح، لأنه يقال: ألقح الريح السحاب، كما يقال: ألقح الفحل الأنثى: أي أحبلها، وحذفت الميم لظهور المعنى، ومثله الطوائح والأصل المطاوح، لأنه من أطاح الشئ.

والوجه الثاني أنه على النسب: أي ذوات لقاح كما يقال طالق وطامس.

والثالث أنه على حقيقته، يقال: لقحت الريح إذا حملت الماء، وألقحت الريح السحاب

إذا حملتها الماء ، كما تقول ألقح الفحل الأنثى فلقحت ، وانتصابه على الحال المقدر

(فأسقيناكموه) يقال سقاه وأسقاه لغتان ، ومنهم من يفرق ، فيقول: سقاه لشفته إذا أعطاه ما يشربه في الحال أو صبه في حلقه ، وأسقاه إذا جعل له ما يشربه زمانا ، ويقال أسقاه إذا دعا له بالسقيا .

قوله تعالى (وإنا لنحن) نحن هنا لا تكون فصلا لوجهين: أحدهما أن بعدها فعلا .

والثانى أن اللام معها .

قوله تعالى (من حمأ) في موضع جر صفة لصلصال ، ويجوز أن يكون بدلا من صلصال بإعادة الجار .

قوله تعالى (والجان) منصوب بفعل محذوف لتشاكل المعطوف عليه ، ولو قرئ بالرفع جاز .

قوله تعالى (فقعوا له) يجوز أن تتعلق اللام بقعوا ، وب (ساجدين) و (أجمعون) توكيد ثان عند الجمهور ، وزعم بعضهم أنها أفادت ما لم تفده كلهم .

وهو أنها دلت على أن الجميع سجدوا في حال واحدة .

وهذا بعيد لأنك تقول: جاء القوم كلهم أجمعون وإن سبق بعضهم بعضا ، ولأنه لو كان كما زعم لكان حالا لا توكيدا (إلا إبليس) قد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (إلى يوم الدين) يجوز أن يكون معمول اللعنة ، وأن يكون حالا منها ، والعامل

الاستقرار في عليك .

قوله تعالى (بما أغويتني) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (إلا عبادك) استثناء من الجنس ، وهل المستثنى أكثر من النصف أو أقل ؟ فيه اختلاف ، والصحيح أنه أقل .

(186/422)

---

قوله تعالى (على مستقيم) قيل على بمعنى إلى ، فيتعلق بمستقيم أو يكون وصفا لصراط ، وقيل هو محمول على المعنى ، والمعنى استقامته على ، ويقرأ " على " أي على القدر ، والمراد بالصراط الدين .

قوله تعالى (إلا من اتبعك) قيل هو استثناء من غير الجنس ، لأن المراد بعبادي الموحدون ، ومتبع الشيطان غير موحد ، وقيل هو من الجنس لأن عبادي جميع المكلفين ، وقيل إلا من اتبعك استثناء ليس من الجنس ، لأن جميع العباد ليس للشيطان عليهم سلطان أي حجة ، ومن اتبعه لا يضلهم بالحجة بل بالتزيين .

قوله تعالى (أجمعين) هو توكيد للضمير المجرور ، وقيل هو حال من الضمير المجرور ، والعامل فيه معنى الإضافة .

فأما الموعد إذا جعلته نفس المكان فلا يعمل ، وإن قدرت هنا حذف مضاف صح أن يعمل الموعد ، والتقدير: وإن جهنم مكان موعدهم .

قوله تعالى (لها سبعة أبواب) يجوز أن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون مستأنفا ، ولايجوز أن يكون حالا من جهنم لأن " أن " لاتعمل في الحال (منهم) في موضع حال من الضمير الكائن في الظرف ، وهو قوله تعالى " لكل باب " ويجوز أن يكون حالا من (جزء) هو صفة له ثانية قدمت عليه ، ولايجوز أن يكون حالا

من الضمير في (مقسوم) لأن الصفة لاتعمل في الموصوف ولا فيما قبله ، ولايكون صفة لباب لأن الباب ليس من الناس .

قوله تعالى (وعيون ادخلوها) يقرأ على لفظ الأمر ، ويجوز كسر التنوين وضمه ، وقطع الهمزة على هذا لا يجوز ، ويقرأ بضم الهمزة وكسر الخاء على أنه ماض ، فعلى هذا لا يجوز كسر التنوين لأنه لم يلتق ساكنان ، بل يجوز ضمه على إلقاء ضمة الهمزة عليه ، ويجوز قطع الهمزة (بسلام) حال: أي سالمين أو مسلما عليهم ، و (آمنين) حال أخرى بدل من الأولى .

قوله تعالى (إخوانا) هو حال من الضمير في الظرف في قوله تعالى " جنات " ويجوز أن يكون حالا من الفاعل في ادخلوها مقدرة أو من الضمير في آمنين ، وقيل هو حال من الضمير المجرور بالأضافة ، والعامل فيها معنى الإلصاق والملازمة (متقابلين) يجوز أن يكون صفة لإخوان ، فتتعلق " على " بها ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في الجار فيتعلق الجار بمحذوف وهو صفة لإخوان ، ويجوز أن يتعلق بنفس إخوان لأن معناه متصافين ، فعلى هذا ينتصب متقابلين على الحال من الضمير في إخوان .

قوله تعالى (لا يمسهم) يجوز أن يكون حالا من الضمير في متقابلين ، وأن يكون مستأنفا ، و (منها ) يتعلق بمخرجين .

قوله تعالى (أنا الغفور) يجوز أن يكون توكيدا للمنصوب ومبتدأ وفصلا ،

فأما قوله (هو العذاب) فجوز فيها الفصل والابتداء ، ولايجوز التوكيد لأن العذاب مظهر والمظهر لايؤكد بالمضمر .

قوله تعالى (إذ دخلوا ) في " إذ " وجهان أحدهما هو مفعول: أي اذكر إذ دخلوا .

والثانى أن يكون ظرفا .

وفى العامل وجهان: أحدهما نفس ضيف فإنه مصدر .

وفى توجيه ذلك وجهان: أحدهما أن يكون عاملا بنفسه وإن كان وصفا ، لأن كونه وصفا لا يسلبه أحكام المصادر ، ألا ترى أنه لا يجمع ولا يثنى ولا يؤنث كما لو لم يوصف به ؟

ويقوى ذلك أن الوصف الذى قام المصدر مقامه يجوز أن يعمل والوجه الثاني أن يكون في الكلام حذف مضاف تقديره: نبئهم عن ذوى ضيف إبراهيم: أي أصحاب ضيافته، والمصدر على هذا مضاف إلى المفعول.

والوجه الثاني من وجهى الظرف أن يكون العامل محذوفا تقديره: عن خبر ضيف (فقالوا سلاما) قد ذكر في هود.

قوله (على أن مسنى) هو في موضع الحال: أي بشرتموني كبيرا (فبم تبشرون) يقرأ بفتح النون وهو الوجه، والنون علامة الرفع، ويقرأ بكسرها وبالإضافة محذوفة.

(188/422)

---

وفى النون وجهان: أحدهما هي نون الوقاية، ونون الرفع محذوفة لثقل المثلين، وكانت الأولى أحق بالحذف إذ لو بقيت لكسرت، ونون الإعراب لا تكسر لئلا تصير تابعة، وقد جاء ذلك في الشعر.

والثانى أن نون الوقاية محذوفة، والباقية نون الرفع لأن الفعل مرفوع، فأبقيت علامته، والقراءة بالتشديد أوجه.

قوله تعالى (ومن يقنط) من مبتدأ، ويقنط خبره، واللفظ استفهام ومعناه النفى، فلذلك

جاءت بعده إلا ، وفى يقنط لغتان: كسر النون وماضيه بفتحها ، وفتحها وماضيه بكسرها ، وقد قرئ بهما ، والكسر أجود لقوله " من القانطين " ويجوز قانط وقنط .

قوله تعالى (إلا آل لوط) هو استثناء من غير الجنس ، لأنهم لم يكونوا مجرمين (إلا امرأته) فيه وجهان: أحدهما هو مستثنى من آل لوط والاستثناء إذا جاء بعد الاستثناء كان الاستثناء الثاني مضافا إلى المبتدأ ، كقولك له عندي عشرة إلا أربعة إلا درهما ، فإن الدرهم يستثنى من الأربعة فهو مضاف إلى العشرة ، فكأنك قلت: أحد عشر إلا أربعة أو عشرة إلا ثلاثة .

والوجه الثاني أن يكون مستثنى من ضمير المفعول في منجوهم (قدرنا ) يقرأ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان (إنها ) كسرت إن ها هنا من أجل اللام في خبرها ، ولولا اللام لفتحت .

قوله تعالى (ذلك الأمر) في الأمر وجهان: أحدهما هو بدل .

والثانى عطف بيان (أن دابر) هو بدل من ذلك ، أو من الأمر إذا جعلته بيانا ، وقيل تقديره: بأن فحذف حرف الجر (مقطوع) خبر أن دابر ، و (مصبحين) حال من هؤلاء ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في مقطوع ، وتأويله أن دابر هنا في معنى مدبري هؤلاء ، فأفرده وأفرد مقطوعا لأنه خبره ، وجاء مصبحين على المعنى .

قوله تعالى (عن العالمين) أي عن ضيافة العالمين .

قوله تعالى (هؤلاء بناتى) يجوز أن يكون مبتدأ ، وبناتي خبره ، وفى الكلام حذف: أي فتزوجوهن ، ويجوز أن يكون بناتى بدلا أو بيانا والخبر محذوف: أي أطهر لكم ، كما جاء في الآية الأخرى ، ويجوز أن يكون هؤلاء في موضع نصب بفعل محذوف: أي قال تزوجوا هؤلاء .

قوله تعالى (أنهم لفى سكرتهم) الجمهور على كسر إن من أجل اللام .

وقرئ بفتحها على تقدير زيادة اللام ، ومثله قراءة سعيد بن جبير رضى الله عنه " إلا أنهم ليأكلون الطعام " بالفتح ، و (يعمهون) حال من الضمير في الجار أو من الضمير المجرور في سكرتهم ، والعامل السكرة أو معنى الإضافة .

قوله تعالى (كما أنزلنا ) الكاف في موضع نصب نعتا لمصدر محذوف تقديره: آتيناك سبعا من المثانى إيتاء كما أنزلنا أو إنزالا كما أنزلنا لأن آتيناك بمعنى أنزلنا عليك ، وقيل التقدير: متعناهم تمتيعا كما أنزلنا ، والمعنى: نعمنا بعضهم كما عذبنا بعضهم ، وقيل التقدير: إنزالا مثل ما أنزلنا ، فيكون وصفا لمصدر ، وقيل هو وصف لمفعول تقديره: إنى أنذركم عذابا مثل العذاب المنزل على المقتسمين ، والمراد بالمقتسمين قوم صالح الذين اقتسموا على تبييته

وتبييت أهله ، وقيل هم الذين قسموا القرآن إلى شعر وإلى سحر وكهانة ، وقيل تقديره: لنسألنهم أجمعين مثل ما أنزلنا ، وواحد (عضين) عضة ، ولامها محذوفة والأصل عضوة ، وقيل المحذوف هاء ، وهو من عضه يعضه وهو من العضيهة وهى الإفك أو الداهية.

قوله تعالى (بما تؤمر) ما مصدرية فلا محذوف إذا ، ويجوز أن تكون بمعنى الذى ، والعائد محذوف: أي بما تؤمر به ، والأصل بما تؤمر بالصدع به ثم حذف للعلم به.

قوله تعالى (الذين يجعلون) صفة للمستهزئين ، أو منصوب بإضمار فعل ، أو مرفوع على تقديرهم. انتهى. ا هـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 71. 77﴾

(190/422)

---

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الحجر

[سورة الحجر (15) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ

(4)

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5)

(191/422)

---

"الر" هذه الحروف لا إعراب لها "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "آياتُ" خبر والجملة ابتدائية "الْكِتابِ" مضاف إليه "وَقُرْآنٍ" معطوف على الكتاب "مُبِينٍ" صفة "رُبَما" كافة ومكفوفة "يَوَدُّ" مضارع مرفوع "الَّذِينَ" موصول فاعل والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَوْ" حرف مصدري "كانُوا" كان واسمها "مُسْلِمِينَ" خبر ولو وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب مفعول به ليود "ذَرْهُمْ" أمر فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة مستأنفة "يَأْكُلُوا" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل هو الواو والجملة لا محل لها "وَيَتَمَتَّعُوا" معطوف على يأكلوا وإعرابه مثله "وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ" مضارع وفاعله والهاء مفعول به "فَسَوْفَ" الفاء استئنافية وسوف حرف استقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "مِنْ" حرف جر زائد "قَرْيَةٍ" مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا "إِلَّا" أداة حصر "وَلَها كِتابٌ" الواو حالية وكتاب مبتدأ مؤخر

والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم "مَعْلُومٌ" صفة "ما تَسْبِقُ" ما نافية ومضارع مرفوع "مِنْ" حرف جر زائد "أُمَّةٍ" فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا "أَجَلَها" مفعول به والجملة مستأنفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "يَسْتَأْخِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة.

[سورة الحجر (15) : الآيات 6 الى 10]

(192/422)

---

وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10)

"وَقالُوا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "يا أَيُّهَا" يا أداة نداء أي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب وها للتنبيه "الَّذِي" موصول بدل من أي أو عطف بيان والجملة مقول القول "نُزِّلَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بنزل "الذِّكْرُ" نائب فاعل والجملة صلة "إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ" إن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة مقول القول "لَوْ ما" حرف امتناع لوجود وهي للتحضيض "تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ" مضارع ومفعوله

والجار والمجرور متعلقان بتأتينا والجملة لا محل لها استئنافية "إِنْ" شرطية "كُنْتَ" كان واسمها "مِنَ الصَّادِقِينَ" متعلقان بالخبر وجواب إن محذوف "ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ"

*(193/422)*

---

ما نافية ومضارع فاعله مستتر والملائكة مفعوله "إِلَّا" أداة حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال والجملة مستأنفة "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانُوا" كان واسمها "إِذاً" حرف جواب لا محل له "مُنْظَرِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "إِنَّا" إن واسمها "نَحْنُ" ضمير فصل لا محل له والجملة مستأنفة "نَزَّلْنَا" ماض وفاعله "الذِّكْرَ" مفعول به "وَإِنَّا" إن واسمها والجملة معطوفة "لَهُ" متعلقان بحافظون "لَحافِظُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة جواب قسم لا محل لها "مِنْ قَبْلِكَ" صفة لمفعول به محذوف تقديره رسلا من قبلك والكاف مضاف إليه "فِي شِيَعِ" متعلقان بصفة ثانية "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 11 الى 15]

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12)

لا يُؤْمِنونَ بِهِ وقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

(194/422)

---

"وَما" الواو استئنافية وما النافية "يَأْتِيهِمْ" مضارع ومفعوله "مِنْ" حرف جر زائد "رَسُولٍ" فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "كانُوا" كان والواو اسمها "بِهِ" متعلقان بيستهزئون والجملة حالية "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كان "كَذلِكَ" ذا اسم إشارة وهو مجرور بالكاف متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق "نَسْلُكُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة مستأنفة "فِي قُلُوبِ" متعلقان بنسلكه "الْمُجْرِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية "بِهِ" متعلقان بيؤمنون "وَقَدْ" الواو استئنافية وقد حرف تحقيق "خَلَتْ سُنَّةُ" ماض وفاعله والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "وَلَوْ" الواو عاطفة ولو حرف شرط غير جازم "فَتَحْنا" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بفتحنا "باباً" مفعول به "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بمحذوف صفة لبابا والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "فَظَلُّوا" الفاء

عاطفة وظل واسمها والجملة معطوفة "فِيهِ" متعلقان بيعرجون "يَعْرُجُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر ظلوا "لَقالُوا" اللام واقعة في جواب لو وماض وفاعله والجملة جواب لو لا محل لها "إِنَّما" كافة ومكفوفة "سُكِّرَتْ أَبْصارُنا" ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث وأبصارنا نائب فاعل ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "بَلْ" حرف إضراب "نَحْنُ قَوْمٌ" مبتدأ وخبر "مَسْحُورُونَ" صفة لقوم والجملة مع ما سبق مقول القول.

[سورة الحجر (15) : الآيات 16 الى 20]

(195/422)

---

وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20)

"وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "جَعَلْنا" ماض وفاعله "فِي السَّماءِ" متعلقان بجعلنا "بُرُوجاً" مفعول به والجملة معطوفة على ما سبق "وَزَيَّنَّاها" ماض وفاعله ومفعول به والجملة معطوفة "لِلنَّاظِرِينَ" متعلقان بزيناها

"وَحَفِظْنَاهَا" ماض وفاعله ومفعول به والجملة معطوفة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بحفظناها "شَيْطَانٍ" مضاف إليه "رَجِيمٍ" صفة "إِلَّا" أداة استثناء "مَنِ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "اسْتَرَقَ السَّمْعَ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "فَأَتْبَعَهُ" الفاء عاطفة وماض ومفعوله المقدم "شِهَابٌ" فاعل والجملة معطوفة "مُبِينٌ" صفة "وَالْأَرْضَ" الواو عاطفة والأرض مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور "مَدَدْنَاهَا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مفسرة للجملة المحذوفة لا محل لها "وَأَلْقَيْنَا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "فِيهَا" متعلقان بألقينا "رَوَاسِيَ" مفعول به منصوب "وَأَنْبَتْنَا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "فِيهَا" متعلقان بأنبتنا "مِنْ كُلِّ" متعلقان بأنبتنا "شَيْءٍ" مضاف إليه "مَوْزُونٍ" صفة "وَجَعَلْنَا" معطوف على ما سبق "لَكُمْ" متعلقان بجعلنا "فِيهَا" متعلقان بمحذوف حال "مَعَايِشَ" مفعول به "وَمَنْ" معطوف على معايش "لَسْتُمْ" ليس واسمها "لَهُ" متعلقان برازقين "بِرَازِقِينَ" الباء حرف جر زائد رازقين اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر لستم والجملة صلة من لا محل لها من الإعراب.

[سورة الحجر (15) : الآيات 21 الى 24]

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24)

"وَإِنْ" الواو استئنافية وإن نافية "مِنْ" زائدة "شَيْءٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا والجملة استئنافية "إِلَّا" أداة حصر "عِنْدَنا" ظرف مكان متعلق بالخبر المقدم ونا مضاف إليه "خَزائِنُهُ" مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة خبر شيء "وَما" الواو عاطفة وما نافية "نُنَزِّلُهُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة حصر "بِقَدَرٍ" متعلقان بننزله "مَعْلُومٍ" صفة "وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله "لَواقِحَ" حال والجملة معطوفة "فَأَنْزَلْنا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزلنا "ماءً" مفعول به "فَأَسْقَيْناكُمُوهُ" الفاء عاطفة وأسقينا ماض وفاعله والكاف مفعوله الأول والميم للجمع والواو للإشباع والهاء مفعوله الثاني والجملة معطوفة "وَما" الواو حالية وما نافية تعمل عمل ليس "أَنْتُمْ" اسمها "لَهُ" متعلقان بالخبر "بِخازِنِينَ" الباء زائدة

و خازنين خبر مجرور لفظا منصوب محلا "وَإِنَّا" الواو استئنافية وإن واسمها "لَنَحْنُ" اللام المزحلقة ونحن مبتدأ "نُحْيِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله نحن والجملة خبر إن "وَنُمِيتُ" معطوف على نحيي "وَنَحْنُ الْوارِثُونَ" مبتدأ وخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "عَلِمْنَا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب جواب القسم "الْمُسْتَقْدِمِينَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "مِنْكُمْ" متعلقان بالمستقدمين "وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ" انظر إعراب لقد علمنا المستقدمين.

[سورة الحجر (15) : الآيات 25 الى 29]

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (29)

"وَإِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "هُوَ" مبتدأ "يَحْشُرُهُمْ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله والجملة خبر هو وجملة هو يحشرهم خبر إن "إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق "خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ" ماض وفاعله ومفعوله "مِنْ صَلْصَالٍ" متعلقان بخلقنا "مِنْ حَمَإٍ" متعلقان بصفة لصلصال "مَسْنُونٍ" صفة لحمأ والجملة لا محل لها لأنها مستأنفة "وَالْجَانَّ" الواو عاطفة والجان مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور "خَلَقْنَاهُ" ماض وفاعله ومفعول به والجملة مفسرة للجملة المحذوفة لا محل لها "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بخلقنا "مِنْ نَارِ" متعلقان بخلقناه "السَّمُومِ" مضاف إليه "وَإِذْ" ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "قَالَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة مضاف إليه "لِلْمَلَائِكَةِ" متعلقان بقال "إِنِّي خَالِقٌ" إن واسمها وخبرها "بَشَرًا" مفعوله به لخالق "مِنْ صَلْصَالٍ" متعلقان بمحذوف صفة لبشر "مِنْ حَمَإٍ" متعلقان بمحذوف صفة لصلصال "مَسْنُونٍ" صفة "فَإِذَا" الفاء استئنافية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "سَوَّيْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مضاف إليه "وَنَفَخْتُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على سويته "فِيهِ" متعلقان بنفخت "مِنْ رُوحِي" متعلقان بصفة لمفعول به محذوف تقديره ونفخت فيه روحا من روحي "فَقَعُوا" الفاء واقعة بجواب إذا وأمر مبني على حذف النون من آخره والواو فاعله "لَهُ" متعلقان بقعوا "سَاجِدِينَ" حال

وجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب.

[سورة الحجر (15) : الآيات 30 الى 35]

(199/422)

---

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34)

وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (35)

"فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ" الفاء استئنافية وماض وفاعله "كُلُّهُمْ" توكيد والهاء مضاف إليه

"أَجْمَعُونَ" توكيد

(200/422)

---

ثان مرفوع بالواو "إِلَّا" أداة استثناء "إِبْلِيسَ" مستثنى بإلا منصوب "أَبى" ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر والجملة حالية "أَنْ" ناصبة "يَكُونَ" مضارع ناقص

منصوب واسمها محذوف تقديره هو "مَعَ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "السَّاجِدِينَ" مضاف إليه "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "إِبْلِيسُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب والجملة مقول القول "ما" اسم استفهام مبتدأ "لَكَ" متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "أن" ناصبة "لا" نافية "تَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن واسم تكون محذوف "مَعَ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "السَّاجِدِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَمْ" جازمة "أَكُنْ" مضارع ناقص واسمها محذوف "لِأَسْجُدَ" اللام لام الجحود ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بالخبر المحذوف "لِبَشَرٍ" متعلقان بأسجد "خَلَقْتَهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة لبشر "مِنْ صَلْصالٍ" متعلقان بخلقته "مِنْ حَمَإٍ" متعلقان بمحذوف صفة لصلصال "مَسْنُونٍ" صفة "قالَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "فَاخْرُجْ" الفاء زائدة وأمر فاعله مستتر "مِنْها" متعلقان باخرج "فَإِنَّكَ رَجِيمٌ" إن واسمها وخبرها والجملة تعليل لا محل لها "وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ" إن واللعنة اسمها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "إِلى يَوْمِ" متعلقان بمحذوف حال "الدِّينِ" مضاف إليه.

[سورة الحجر (15) : الآيات 36 الى 41]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41)

"قالَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة "فَأَنْظِرْنِي" الفاء زائدة أنظرني فعل دعاء مبني على السكون والنون للوقاية وفاعله مستتر والياء مفعول به والجملة مقول القول "إِلى يَوْمِ" متعلقان بأنظرني "يُبْعَثُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة في محل جر مضاف إليه. "قالَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ" الفاء زائدة وإن واسمها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "إِلى يَوْمِ" متعلقان بالمنظرين "الْوَقْتِ" مضاف إليه "الْمَعْلُومِ" صفة "قالَ رَبِّ" انظر إعرابها في صدر الآية "بِما" ما مصدرية "أَغْوَيْتَنِي" ماض وفاعله والنون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به وهو في تأويل المصدر في محل جر ومتعلقان بفعل أقسم المحذوف والجملة مقول القول "لَأُزَيِّنَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بأزينن

"فِي الْأَرْضِ" متعلقان بأزينن "وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ" إعرابها مثل لأزينن والهاء مفعول به "أَجْمَعِينَ" توكيد للهاء وهو منصوب بالياء "إِلَّا" أداة استثناء "عِبادَكَ" مستثنى بإلا منصوب



---

والكاف مضاف إليه "مِنْهُمُ" متعلقان بالمخلصين "الْمُخْلَصِينَ" صفة عبادك منصوبة بالياء "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "صِراطٌ" خبر والجملة مقول القول "عَلَيَّ" متعلقان بمحذوف صفة "مُسْتَقِيمٌ" صفة ثانية لصراط.

[سورة الحجر (15) : الآيات 42 الى 47]

إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (46)
وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47)

"إِنَّ عِبادِي" إن وعبادي اسمها المنصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة تفسيرية "لَيْسَ" فعل ماض ناقص "لَكَ" متعلقان بمحذوف خبر ليس المقدم "عَلَيْهِمْ" متعلقان بخبر ليس المحذوف "سُلْطانٌ" اسم ليس والجملة خبر إن "إِلَّا" أداة استثناء "مَنِ" موصول في محل نصب على الاستثناء "اتَّبَعَكَ" ماض وفاعله مستتر والكاف مفعوله "مِنَ الْغاوِينَ" متعلقان باتبعك والجملة صلة "وَإِنَّ جَهَنَّمَ" إن واسمها والجملة معطوفة "لَمَوْعِدُهُمْ" خبر واللام المزحلقة والهاء مضاف إليه "أَجْمَعِينَ" توكيد مجرورة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "لَها" متعلقان بالخبر المقدم "سَبْعَةُ" مبتدأ "أَبْوابٍ" مضاف إليه "لِكُلِّ" متعلقان بالخبر المقدم "بابٍ" مضاف إليه "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "جُزْءٌ" مبتدأ مؤخر "مَقْسُومٌ" صفة والجملة مستأنفة "إِنَّ الْمُتَّقِينَ" إن واسمها المنصوب بالياء "فِي جَنَّاتٍ" متعلقان بالخبر "وَعُيُونٍ" معطوف على جنات والجملة مستأنفة "ادْخُلُوها" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره يقال لهم ادخلوها "بِسَلامٍ" متعلقان بحال محذوف "آمِنِينَ" حال منصوبة بالياء "وَنَزَعْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة استئنافية "ما" موصولية مفعول به "فِي صُدُورِهِمْ" متعلقان بصلة محذوفة "مِنْ غِلٍّ" متعلقان بحال محذوفة "إِخْواناً" حال "عَلى سُرُرٍ" متعلقان بمتقابلين "مُتَقابِلِينَ" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر

سالم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 48 الى 52]

(204/422)

---

لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52)

"لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ" لا نافية ومضارع ومفعوله وفاعله المؤخر والجار والمجرور متعلقان بيمسهم والجملة مستأنفة "وَما" الواو عاطفة وما تعمل عمل ليس "هُمْ" اسمها "مِنْها" متعلقان بمخرجين "بِمُخْرَجِينَ" الباء زائدة ومخرجين مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما والجملة معطوفة "نَبِّئْ" أمر فاعله مستتر "عِبادِي" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه "أَنِّي" أن واسمها والمصدر المؤول سد مسد فاعل نبىء "أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" مبتدأ وخبراه والجملة خبر أن "وَأَنَّ عَذابِي" أن واسمها وإعرابها مثل إعراب عبادي والجملة معطوفة "هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ" مبتدأ وخبر والأليم صفة والجملة خبر أن "وَنَبِّئْهُمْ" أمر فاعله مستتر

والهاء مفعول به والجملة معطوفة "عَنْ ضَيْفِ" متعلقان بنبئهم "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف "إِذْ" ظرف زمان متعلق بنبئهم "دَخَلُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "عَلَيْهِ" متعلقان بدخلوا "فَقالُوا سَلاماً" الفاء عاطفة ماض وفاعله والجملة معطوفة وسلاما مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره سلم سلاما "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ" إن واسمها وخبرها ومنكم متعلقان بوجلون والجملة مقول القول.

[سورة الحجر (15) : الآيات 53 الى 57]

(205/422)

---

قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55) قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57)

(206/422)

---

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "لا" ناهية "تَوْجَلْ" مضارع مجزوم بلا الناهية فاعله مستتر والجملة مقول القول "إِنَّا" إن واسمها "نُبَشِّرُكَ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر "بِغُلامٍ" متعلقان بنبشرك "عَلِيمٍ" صفة "قالَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَبَشَّرْتُمُونِي" الهمزة للاستفهام ماض وفاعله ومفعوله والواو للإشباع والنون للوقاية والجملة مقول القول "عَلى " حرف جر "أَنْ" حرف مصدري "مَسَّنِيَ" ماض والنون للوقاية والياء مفعول به "الْكِبَرُ" فاعل وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر بعلى ومتعلقان ببشرتموني "فَبِمَ" الفاء الفصيحة وما اسم استفهام مجرور بالباء وحذفت الألف لدخول حرف الجر عليها متعلقان بتبشرون "تُبَشِّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "بَشَّرْناكَ" ماض فاعله ومفعوله والجملة مقول القول "بِالْحَقِّ" متعلقان ببشرناك "فَلا" الفاء عاطفة ولا ناهية "تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم واسمها محذوف "مِنَ الْقانِطِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن اسم استفهام مبتدأ والجملة معطوفة "يَقْنَطُ" مضارع مرفوع والجملة خبر "مِنْ رَحْمَةِ" متعلقان بيقنط "رَبِّهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "الضَّالُّونَ" فاعل مؤخر "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فَما" الفاء زائدة وما اسم استفهام مبتدأ "خَطْبُكُمْ" خبر والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "أَيُّهَا" أي منادى نكرة

مقصودة مبني على الضم في محل نصب وأداة النداء محذوفة والهاء للتنبيه "الْمُرْسَلُونَ" بدل من أي أو عطف بيان مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 58 الى 62]

(207/422)

---

قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60) فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة مقول القول "أُرْسِلْنا" ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل والجملة خبر إنا "إِلى قَوْمٍ" متعلقان بأرسلنا "مُجْرِمِينَ" صفة قوم مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "إِلَّا" أداة حصر "آلَ" منصوب على الاستثناء المنقطع من قوم "لُوطٍ" مضاف إليه "إِنَّا" إن ونا اسمها والجملة مستأنفة "لَمُنَجُّوهُمْ" اللام المزحلقة منجوهم خبر مرفوع بالواو والهاء مضاف إليه والميم للجمع "أَجْمَعِينَ" حال "إِلَّا" أداة استثناء "امْرَأَتَهُ" مستثنى بإلا من آل لوط والهاء مضاف إليه "قَدَّرْنا" ماض وفاعله والجملة حالية "إِنَّها" إن واسمها "لَمِنَ الْغابِرِينَ" اللام لام المزحلقة والجار والمجرور متعلقان

بخبر إن والجملة في محل نصب مفعول به "فَلَمَّا" الفاء استئنافية لما ظرف بمعنى حين "جاءَ" ماض "آلَ" مفعول به مقدم "لُوطٍ" مضاف إليه "الْمُرْسَلُونَ" فاعل مؤخر والجملة مضاف إليه "قالَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنَّكُمْ" إن واسمها "قَوْمٌ" خبر "مُنْكَرُونَ" صفة لقوم والجملة مقول القول.

[سورة الحجر (15) : الآيات 63 الى 65]

قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65)

*(208/422)*

---

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "جِئْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "بِما" ما موصولة وهما متعلقان بجئناك "كانُوا" ماض ناقص والواو اسمها والجملة صلة ما لا محل لها "فِيهِ" متعلقان بيمترون "يَمْتَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة خبر كانوا "وَأَتَيْناكَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال من الفاعل "وَإِنَّا" الواو حالية وإن ونا اسمها "لَصادِقُونَ" اللام المزحلقة صادقون خبر والجملة حالية "فَأَسْرِ" الفاء الفصيحة وأسر أمر

فاعله مستتر "بِأَهْلِكَ" متعلقان بحال محذوفة "بِقِطْعٍ" متعلقان بأسر "مِنَ اللَّيْلِ" متعلقان بمحذوف صفة لقطع "وَاتَّبِعْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر وهو معطوف على أسر "أَدْبارَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "وَلا يَلْتَفِتْ" الواو عاطفة ولا ناهية والمضارع مجزوم بلا الناهية والجملة معطوفة "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف حال "أَحَدٌ" فاعل يلتفت "وَامْضُوا" الواو عاطفة وفعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "حَيْثُ" ظرف مكان متعلق بامضوا "تُؤْمَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة في محل جر مضاف إليه.

[سورة الحجر (15) : الآيات 66 الى 70]

وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (69) قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (70)



---

"وَقَضَيْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِلَيْهِ" متعلقان بقضينا "ذلِكَ" ذا اسم إشارة مفعول به واللام للبعد والكاف للخطاب "الْأَمْرَ" بدل "أَنَّ دابِرَ" أن واسمها

"هؤُلاءِ" الهاء للتنبيه أولاء اسم إشارة في محل جر بالإضافة "مَقْطُوعٌ" خبر أن والجملة في محل نصب بدل من الأمر "مُصْبِحِينَ" حال منصوبة بالياء "وَجاءَ أَهْلُ" الواو عاطفة وماض وفاعله "الْمَدِينَةِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "يَسْتَبْشِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية "قالَ" ماض وفاعله "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "هؤُلاءِ" الها للتنبيه وأولاء اسم إشارة في محل نصب اسم إن "ضَيْفِي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة مقول للقول "فَلا" الفاء عاطفة ولا ناهية "تَفْضَحُونِ" مضارع مجزوم بلا الناهية بحذف النون والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة للتخفيف مفعول به والجملة معطوفة "وَاتَّقُوا" أمر والواو فاعل والجملة معطوفة "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "وَلا تُخْزُونِ" الواو عاطفة ومضارع مجزوم بلا الناهية بحذف النون والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعول به "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَوَلَمْ" الهمزة للاستفهام والواو عاطفة ولم جازمة "نَنْهَكَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والكاف مفعول به وفاعله مستتر تقديره نحن والجملة مقول القول "عَنِ الْعالَمِينَ" متعلقان بننهك.

[سورة الحجر (15) : الآيات 71 الى 77]

قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ

الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75)

(210/422)

---

وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

"قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "هؤُلاءِ" الها للتنبيه وأولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "بَناتِي" خبر مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة لا محل لها "فاعِلِينَ" خبر منصوب بالياء وجواب إن محذوف تقديره فتزوجوهن "لَعَمْرُكَ" اللام لام الابتداء وعمرك مبتدأ والكاف مضاف إليه والخبر محذوف تقديره قسمي "إِنَّهُمْ" إن واسمها "لَفِي سَكْرَتِهِمْ" متعلقان بيعمهون والها مضاف إليه واللام المزحلقة "يَعْمَهُونَ" مضارع والواو فاعله "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ" الفاء استئنافية وماض ومفعوله وفاعله المؤخر والتاء للتأنيث والجملة مستأنفة "مُشْرِقِينَ" حال "فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها" ماض وفاعله ومفعولاه والهاء في المفعولين في محل جر بالإضافة والجملة معطوفة "وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً" ماض وفاعله ومفعوله وعليهم متعلقان بأمطرنا "مِنْ سِجِّيلٍ"

متعلقان بمحذوف صفة حجارة والجملة معطوفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذَلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب ومتعلقان بآيات والجملة مستأنفة "لَآيَاتٍ" اللام المزحلقة آيات اسم إن المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "لِلْمُتَوَسِّمِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "وَإِنَّهَا" إن واسمها والجملة حالية "لَبِسَبِيلٍ" اللام المزحلقة ومتعلقان بخبر إن "مُقِيمٍ" صفة "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ" إعرابها مثل إعراب إن في ذلك لآيات للمتوسمين ومعنى المتوسمين أي أهل الفكر والفراسة.

[سورة الحجر (15) : الآيات 78 الى 83]

(211/422)

---

وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (79) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81)
وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82)
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83)

"وَإِنْ" الواو استئنافية وإن مخففة من إن واسمها ضمير الشأن محذوف والجملة مستأنفة "كانَ أَصْحابُ" كان واسمها "الْأَيْكَةِ" مضاف إليه والأيكة الشجر "لَظالِمِينَ" اللام الفارقة

وخبر كان منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم وجملة كان خبر إن. "فَانْتَقَمْنَا" الفاء عاطفة وفعل ماض وفاعله والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديرها أسرفوا بالإثم فانتقمنا "مِنْهُمْ" متعلقان بانتقمنا "وَإِنَّهُما" الواو حالية وإن واسمها "لَبِإِمامٍ" اللام المزحلقة بإمام متعلقان بالخبر "مُبِينٍ" صفة لإمام والجملة حالية "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق "كَذَّبَ أَصْحابُ" ماض وفاعله "الْحِجْرِ" مضاف إليه "الْمُرْسَلِينَ" مفعول به منصوب بالياء والجملة معطوفة على ما سبق "وَآتَيْناهُمْ" الواو عاطفة آتيناهم ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة "آياتِنا" مفعول به ثان ونا مضاف إليه "فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ" الفاء عاطفة وكان واسمها وخبرها والجار والمجرور متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "وَكانُوا" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "يَنْحِتُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "مِنَ الْجِبالِ" متعلقان بحال محذوفة "بُيُوتاً" مفعول به "آمِنِينَ" حال "فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ" الفاء عاطفة وماض ومفعوله المقدم والصيحة فاعله المؤخر ومصبحين حال منصوبة بالياء.

[سورة الحجر (15) : الآيات 84 الى 85]

فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)

"فَما" الفاء استئنافية ما نافية "أَغْنى" ماض مبنى على الفتح المقدر على الألف للتعذر "عَنْهُمْ" متعلقان بأغنى "ما" اسم موصول في محل رفع فاعل والجملة مستأنفة "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة لا محل لها من الإعراب "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا "وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "خَلَقْنَا السَّماواتِ" فعل ماض وفاعله ومفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة استئنافية "وَالْأَرْضَ" معطوفة على السموات "وَما" الواو عاطفة وما اسم موصول معطوف على ما سبق

وهو منصوب "بَيْنَهُما" ظرف مكان متعلق بصلة الموصول المحذوفة والهاء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال من السموات "وَإِنَّ السَّاعَةَ" الواو استئنافية وإن واسمها والجملة استئنافية "لَآتِيَةٌ" اللام المزحلقة آتية خبر إن "فَاصْفَحِ" الفاء الفصيحة اصفح فعل أمر وفاعله مستتر "الصَّفْحَ" مفعول مطلق "الْجَمِيلَ" صفة والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 86 الى 91]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) لا

تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)



---

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والجملة مستأنفة والكاف مضاف إليه "هُوَ الْخَلَّاقُ" مبتدأ وخبر والجملة خبر إن "الْعَلِيمُ" صفة "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "آتَيْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "سَبْعاً" مفعول به ثان والجملة جواب القسم والقسم كلام مستأنف "مِنَ الْمَثانِي" متعلقان بمحذوف صفة لسبعا "وَالْقُرْآنَ" عطف على ما سبق "الْعَظِيمَ" صفة "لا تَمُدَّنَّ" لا ناهية ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفعل في محل جزم بلا الناهية وفاعله مستتر "عَيْنَيْكَ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِلى ما" ما موصولية متعلقان بتمدن "مَتَّعْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بمتعنا "أَزْواجاً" مفعول به "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لأزواجا "وَلا تَحْزَنْ" الواو عاطفة ولا ناهية ومضارع مجزوم بلا الناهية وفاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتحزن "وَاخْفِضْ جَناحَكَ"

أمر ومفعوله وفاعله مستتر والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بأخفض "وَقُلْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أَنَا النَّذِيرُ" مبتدأ وخبر والجملة خبر إن "الْمُبِينُ" صفة "كَما" الكاف حرف جر وما موصولية متعلقان بآتيناك "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ" متعلقان بأنزلنا "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر صفة للمقتسمين "جَعَلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "الْقُرْآنَ" مفعول به أول "عِضِينَ" مفعول به ثان.

[سورة الحجر (15) : الآيات 92 الى 99]

(214/422)

---

فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

"فَوَرَبِّكَ" الفاء استئنافية والواو للقسم ورب مجرور متعلقان بفعل أقسم والجملة لا محل لها

والكلام مستأنفة والكاف مضاف إليه "لَنَسْأَلَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ونسألنهم

مضارع مبني على

(215/422)

---

الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به وفاعله مستتر وجملة جواب القسم لا محل

لها "أَجْمَعِينَ" توكيد للهاء في لنسألهم منصوب بالياء "عَمَّا" عن حرف جر وما موصولية

"كَانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة

خبر كان "فَاصْدَعْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب

شرط غير جازم "بِمَا تُؤْمَرُ" ما موصولية والجار والمجرور متعلقان باصدع وتؤمر مضارع

مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة ما "وَأَعْرِضْ" الواو عاطفة وأمر فاعله

مستتر والجملة معطوفة على اصدع "عَنِ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بأعرض "إِنَّا" إن واسمها

"كَفَيْنَاكَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة مستأنفة "الْمُسْتَهْزِئِينَ" مفعول به ثان

منصوب بالياء "الَّذِينَ" موصول في محل جر صفة للمستهزئين "يَجْعَلُونَ" مضارع مرفوع

بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "مَعَ" ظرف زمان متعلق بمحذوف مفعول به ثان

ليجعلون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلَهاً" مفعول به أول "آخَرَ" صفة "فَسَوْفَ" الفاء

استئنافية وسوف حرف استقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق "نَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم المقدر والكلام مستأنف "أَنَّكَ" أن واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي نعلم "يَضِيقُ" مضارع مرفوع "صَدْرُكَ" فاعل والكاف مضاف إليه "بِما" متعلقان بيضيق وجملة يضيق خبر "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "فَسَبِّحْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة لا محل لها "بِحَمْدِ" متعلقان بسبح "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "وَكُنْ" الواو عاطفة وكن أمر ناقص واسمها محذوف تقديره أنت "مِنَ السَّاجِدِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف

(216/422)

---

والجملة معطوفة "وَاعْبُدْ" الواو عاطفة وأمر فاعله أنت ضمير مستتر "رَبَّكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَأْتِيَكَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والكاف مفعول به مقدم "الْيَقِينُ" فاعل مؤخر وأن والفعل في تأويل

مصدر في محل جر بحتى متعلقان باعبد ومعنى اليقين الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 139. 150 ﴾

(217/422)

---

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْحجر

ذكر فِيهَا تِسْعَة أَحَادِيث

661 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَائِهِ ( واجعله الْوَارِث منا )

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي الدَّعْوَات وَالنَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث ابْن الْمُبَارك حَدثنَا يَحْيَى بن أَيُّوب عَن عبيد الله بن زحر عَن خَالِد بن أبي عمرَان عَن ابْن عمر قَالَ قلما كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم من مجْلِس حَتَّى يَدْعُو بهَذِهِ الدَّعْوَات لأَصْحَابه ( اللَّهُمَّ اقْسمْ لنا من خشيتك مَا تحول بِهِ بَيْننَا وَبَين مَعَاصِيك وَمن طَاعَتك مَا تبلغنَا بِهِ جنتك وَمن الْيَقِين مَا تهون علينا مصائب الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَبْصَارِنَا وَأَسْمَاعِنَا وَقُوَّتنَا

مَا أَحْيَيْتَنَا واجعله الْوَارِث منا وَاجعَل ثأْرنَا عَلَى من ظلمنَا وَانْصُرْنَا عَلَى من عَادَانَا وَلَا تجْعَل مُصِيبتَنَا فِي ديننَا وَلَا تجْعَل الدُّنْيَا أكبر همنَا وَلَا مبلغ علمنَا وَلَا تسلط علينا من لَا يَرْحمنَا )

انْتَهى

قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن وَقد رَوَاهُ بَعضهم عَن خَالِد بن أبي عمرَان عَن نَافِع عَن ابْن عمر

انْتَهى

قيل وَصَححهُ الْحَاكِم من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة أَيْضا

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي كتاب الدُّعَاء من الْمُسْتَدْرك من حَدِيث مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ كَانَ من دُعَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (اللَّهُمَّ متعني بسمعي وبصري واجعلهما الْوَارِث مني وَانْصُرْنِي عَلَى من ظَلَمَنِي وَأَرِنِي فِيهِ ثأْرِي )

انْتَهى

وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ من حَدِيث اللَّيْث بن سعد أَن خَالِد بن أبي عمرَان حدث عَن نَافِع عَن ابْن عمر . . . فَذكره بِلَفْظ السّنَن وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط البُخَارِيّ وَلم يخرجَاهُ وَلَعَلَّ هَذَا السَّنَد هُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ التِّرْمِذِيّ

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا مَحْمُود بن مُحَمَّد الْمروزِي حَدثنَا دَاوُد بن رشيد حَدثنَا عبد الله بن جَعْفَر عَن مُوسَى بن عقبَة عَن الْحسن بن مُحَمَّد ابْن عَلّي عَن أَبِيه عَن عَلّي قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَدْعُو ( اللَّهُمَّ متعني بسمعي وبصري حَتَّى تجْعَلهُ الْوَارِث مني وَعَافنِي فِي ديني وانْصُرْنِي عَلَى من ظَلَمَنِي )

مُخْتَصر

وَهَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة وَالْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث عبد الله بن الحكم أَنا بكر عَن عبيد الله بن زحر عَن خَالِد بن أبي عمرَان عَن ابْن عمر . . . فَذكره قَالَ الْبَزَّار وَعبيد الله بن زحر لين الحَدِيث وَقد تفرد

وَرَوَاهُ الْبَزَّار أَيْضا من حَدِيث حَمْزَة الزيات عَن حبيب بن أبي ثَابت عَن عُرْوَة عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول ( اللَّهُمَّ عَافنِي فِي جَسَدِي وَعَافنِي فِي بَصرِي واجعله الْوَارِث مني لَا إِلَه إِلَّا الله الْحَلِيم الْكَرِيم سُبْحَانَ الله رب الْعَرْش الْعَظِيم وَالْحَمْد لله رب الْعَالمين )

انْتَهى وَقَالَ لَا نعلم رَوَاهُ عَن حبيب إِلَّا حَمْزَة

وَبِالسَّنَدِ والمتن الْمَذْكُورين رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده

(219/422)

---

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ أَيْضا فِي أخر الدَّعْوَات حَدثنَا يَحْيَى بن مُوسَى حَدثنَا جَابر بن نوح حَدثنَا مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا بِلَفْظ الْحَاكِم إِلَّا أَنه قَالَ (وَخذ مِنْهُ بثأري) وَقَالَ حسن غَرِيب من هَذَا الْوَجْه

انْتَهى

662 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن امْرَأَة حسناء كَانَت فِي الْمُصَليَات خلف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَكَانَ بعض الْقَوْم يسْتَقْدم لِئَلَّا ينظر إِلَيْهَا وَبَعض الْقَوْم يسْتَأْخر لينْظر إِلَيْهَا فنزلت وَلَقَد علمنَا الْمُسْتَقْدِمينَ مِنْكُم الْآيَة

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة فِي الصَّلَاة من حَدِيث نوح بن قيس الْحدانِي عَن عَمْرو بن مَالك عَن أبي الجوزاء أَوْس بن عبد الله الربعِي عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَت امْرَأَة حسناء من أحسن النَّاس تصلي خلف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ

بعض الْقَوْم يتَقَدَّم حَتَّى يكون فِي الصَّفّ الأول لِأَن لَا يَرَاهَا وَيسْتَأْخِر بَعْضهم حَتَّى يكون فِي الصَّفّ الْمُؤخر فَإِذا ركع نظر من تَحت إبطه فَأنْزل الله تَعَالَى وَلَقَد علمنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُم وَلَقَد علمنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع التَّاسِع وَالْخمسين من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي السَّادِس وَالثَّلَاثِينَ

(220/422)

---

وَرَوَاهُ أَحْمد وَالْبَزَّار وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مسانيدهم والطبري وَابْن أبي حَاتِم فِي تفسيريهما وَكَذَلِكَ أَبُو يعلي الْموصِلِي وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه قَالَ الْبَزَّار لَا نعلم رَوَاهُ إِلَّا ابْن عَبَّاس وَلَا طَرِيقا إِلَّا هَذِه الطَّرِيق

انْتَهَى

وَالتِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه سكت عَنهُ لم يُصَحِّحهُ وَلم يُحسنهُ وَإِنَّمَا قَالَ وَقد رَوَى هَذَا الحَدِيث جَعْفَر بن سُلَيْمَان عَن عَمْرو بن مَالك فَلم يذكر فِيهِ ابْن عَبَّاس وَهُوَ أشبه أَن يكون أصح من

حَدِيث نوح

انْتَهى

وَهَذَا الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره عَن جَعْفَر بن سُلَيْمَان عَن عَمْرو بن مَالك بِهِ مُرْسلا

663

- قَوْله عَن الْحَارِث الْأَعْوَر قَالَ كنت جاسا عِنْد عَلّي بن أبي طَالب إِذْ جَاءَ ابْن طَلْحَة فَقَالَ لَهُ عَلّي مرْحَبًا بك يَا ابْن أخي أما وَالله إِنِّي لأرجو أَن أكون أَنا وَأَبُوك مِمَّن قَالَ الله تَعَالَى فيهم وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورهمْ من غل فَقَالَ لَهُ قَائِل كلا الله أعدل من أَن يجْمعك وَطَلْحَة فِي مَكَان وَاحِد قَالَ فَلمن هَذِه الْآيَة لَا أم لَك

قلت رُوِيَ من حَدِيث الْحَارِث وَمن حَدِيث غَيره

فَحَدِيث الْحَارِث عِنْد الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط وَعند الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَائِهِ وَابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره وَابْن سعد فِي الطَّبَقَات قَالَ كنت عِنْد عَلّي بن أبي طَالب إِذْ جَاءَ عمرَان بن طَلْحَة فَقَالَ لَهُ عَلّي مرْحَبًا بك يَا ابْن أخي وَأَدْنَاهُ وَأَجْلسهُ مَعَه ثمَّ قَالَ وَالله إِنِّي لأرجو أَن أكون أَنا وَأَبُوك مِمَّن قَالَ الله تَعَالَى وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورهمْ من غل إخْوَانًا عَلَى سرر مُتَقَابلين قَالَ الْحَارِث الله أجل وَأَعْدل من ذَلِك فَقَالَ عَلّي فَمن هم إِذا لَا أم لَك

انْتَهى

وَأَطْنَبَ الْعقيليّ فِي تَكْذِيب الْحَارِث

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْفَضَائِل والطبري فِي تَفْسِيره عَن أبي حَبِيبَة مولى لطلْحَة قَالَ دخل عمرَان بن طَلْحَة عَلى عَلّي . . . فَذكره نَحوه وَصَححهُ

وَرَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضا من حَدِيث ربعي بن حِرَاش قَالَ إِنّي لعِنْد عَلّي جَالس إِذْ جَاءَهُ ابْن طَلْحَة فَسلم عَلَيْهِ فَرَحّبَ بِهِ فَقَالَ ترحب بِي يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ وَقد قتلت وَالِدي وَأخذت مَالِي قَالَ أما مَالك فَهُوَ مَعْزُول فِي بَيت المَال اغْدُ إِلَيْهِ فَخذه وَأما أَبوك فَإِنّي أَرْجُو أَن أكون أَنا وَأَبوك من الَّذين قَالَ الله عَزّ وَجل وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورهمْ من غل إِخْوَانًا عَلى سرر مُتَقَابلين فَقَالَ رجل من هَمدَان الله أعدل من ذَلِك قَالَ فَمن إِذا إِن لم نَكُنْ أُولَئِكَ

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

664 - الحَدِيث الثَّالث

عَن جَابر قَالَ مَرَرْنَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحجر فَقَالَ لنا (لَا تدْخلُوا مسَاكِن الَّذين ظلمُوا أنفسهم إِلَّا أَن تَكُونُوا بَاكِينَ حذرا من أَن يُصِيبكُم مثل مَا أَصَابَهُم) ثمَّ

زجر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نَاقَته فأسرع حَتَّى خلفهَا

قلت غَرِيب من حَدِيث جَابر وَلَكِن الثَّعْلَبِيّ قَالَ رَوَى ابْن عمر وَجَابِر قَالَا مَرَرْنَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْحجر . . . فَذكره إِلَى آخِره

وَكَذَلِكَ قَالَ الْبَغَوِيّ فِي سُورَة الْأَعْرَاف رَوَى أَبُو الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ لما مر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْحجر . . . إِلَى آخِره

(222/422)

---

والْحَدِيث فِي الصَّحِيحَيْنِ من رِوَايَة ابْن عمر رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي غير مَوضِع وَمُسلم فِي آخر الْكتاب من حَدِيث سَالم بن عبد الله بن عمر عَن أَبِيه قَالَ مَرَرْنَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى الْحجر فَقَالَ لنا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تدْخلُوا مسَاكِن الَّذين ظلمُوا أنفسهم إِلَّا أَن تَكُونُوا باكين حذرا أَن يُصِيبكُم مثل مَا أَصَابَهُم) ثمَّ زجر فأسرع حَتَّى خلفهَا

انْتَهَى

وَلَيْسَ فِي الحَدِيث ذكر النَّاقة قَالَ النَّوَوِيّ حذف للْعلم بِهِ قَالَ وَخَلفهَا بتَشْدِيد اللَّام

انْتَهَى

وزَاد فِي طَرِيق آخر وكَانَ ذَلِك فِي غَزْوَة تَبُوك

665 - الحَدِيث الرَّابِع

فِي الحَدِيث (لَيْسَ منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب التَّوْحِيد من حَدِيث أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَيْسَ منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سنَنه فِي الصَّلَاة من حَدِيث سعد بن أبي وَقاص . . . بِنَحْوِهِ سَوَاء

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث أبي لبَابَة . . . بِنَحْوِهِ وزَاد فِي آخِره فَقلت لِابْنِ أبي مليكَة أَرَأَيْت إِذا لم يكن حسن الصَّوْت قَالَ يُحسنهُ مَا اسْتَطَاعَ

انْتَهَى

وزَاد فِي حَدِيث سعد قَالَ وَكِيع وَابْن عُيَيْنَة يَعْنِي يَسْتَغْنِي بِهِ

انْتَهَى

وَذهل النَّوَوِيّ فِي كتاب التِّبْيَان فَعَزاهُ لأبي دَاوُد فَقَط وَقَالَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد بِإِسْنَادَيْنِ جيدين

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ الطَّيِّبِيّ عزاهُ لأبي دَاوُد فَقَط وَلم يعزه الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره لِلْبُخَارِيِّ

وَغلط الْقُرْطُبِيّ فِي كِتَابه التذْكَار فَعَزاهُ لمُسلم وَلم يعزه لِلْبُخَارِيِّ وَلَا لأبي دَاوُد

وَلم يذكرهُ صَاحب جَامع الْأُصُول فِي كِتَابه أصلا

وَوهم الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه أَيْضا فَقَالَ بعد أَن رَوَاهُ من حَدِيث سعد وَقد رَوَاهُ الشَّيْخَانِ

عَن أبي هُرَيْرَة بِغَيْر هَذَا الْمَتْن (مَا أذن الله لشَيْء كإذنه لنَبِيّ يتغنى الْقُرْآن)

انْتَهَى

ذكره فِي فَضَائِل الْقُرْآن

وَاعْلَم أَن الْعلمَاء مُخْتَلفُونَ فِي هَذَا الحَدِيث عَلَى قَوْلَيْنِ

فَمنهمْ من حمله عَلَى الْغناء الْمَمْدُود وَهُوَ رفع الصَّوْت بِهِ وَمِنْهُم من حمله عَلَى الْغناء

الْمَقْصُور وَهُوَ الْيَسَار وَقد اخْتلف فهم الروَاة فِيهِ كَذَلِك كَمَا تقدم عِنْد أبي دَاوُد وَالْأَكْثَر

عَلَى الأول وَاحْتَجُّوا بِحَدِيث أبي هُرَيْرَة (مَا أذن الله لشَيْء كإذنه لنَبِيّ تغنى بِالْقُرْآنِ يجْهر بِهِ

) أَخْرجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِي رِوَايَة لَهما النَّبِي حسن الصَّوْت بِالْقُرْآنِ يجْهر بِهِ وَبِحَدِيث

الْبَراء بن عَازِب زينوا الْقُرْآن بِأَصْوَاتِكُمْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سنَنه زَاد الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه

فَإِن حسن الصَّوْت يزِيد الْقُرْآن حسنا

انْتَهَى

وَهَذِه الزِّيَادَة تدفع قَول من يَجعله عَلَى الْقلب أَي زينوا أصواتكم بِالْقُرْآنِ

مَعَ أَنه ورد بِهَذَا اللَّفْظ رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من طَرِيق عبد الرَّزَّاق عَن معمر عَن

الْأَعْمَش عَن طَلْحَة بن مصرف عَن عبد الرَّحْمَن بن عَوْسَجَة عَن الْبَراء بن عَازِب عَن

النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (زينوا أَصْوَاتكُم بِالْقُرْآنِ)

انْتَهَى

(224/422)

---

وَسكت عَنهُ فَثَبت أَن كلا من الْمَعْنيين صَحِيح عَلَى حَاله وَيشْهد لَهُ أَيْضا حَدِيث رَوَاهُ

الْحَاكِم أَيْضا من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن أبي الْمُهَاجِر عَن فضَالة بن عبيد أَن رَسُول الله صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لله أَشد أذنا إِلَى الرجل الْحسن الصَّوْت بِالْقُرْآنِ من صَاحب الْقَيْنَة

إِلَى قَيْنَته)

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ

انْتَهَى

وَاحْتَجُّوا أَيْضا بِأَن تغنى مَبْنِيّ من الْمَمْدُود لَا من الْمَقْصُور

وَأجَاب عَنهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث مُخْتَارًا لِلْقَوْلِ الثَّانِي وَمُرَجِّحًا لَهُ فَقَالَ وَقد وَجَدْنَاهُ مَبْنِيا من الْمَقْصُور فَفِي الصَّحِيح وَأما الَّتِي هِيَ سَتر فَرجل يَظُنهَا تغَنّيا وَتَعَفُّفًا وتَغَنّيًا من الْمَقْصُور مصدر تغنى قَالَ وَهُوَ فَاش فِي لُغَة الْعَرَب وَأَشْعَارهَا يَقُولُونَ تَغَنَّيْت تغنّيا وَتَغَانَيْت تَغَانِيًا بِمَعْنى اسْتَغْنَيْت قَالَ الْمُغيرَة يُعَاتب أَخَاهُ

(كِلَانَا غَنِي عَن أَخِيه حَيَاته . . . وَنحن إِذا متْنا أَشد تغَنّيا )

أَي أَشد اسْتغْنَاء قَالَ وَأَيْضًا فَلَو كَانَ المُرَاد بِهِ تَحْسِين الصَّوْت كَمَا فهم أُولَئِكَ لَا سْتَحَقَّ تَاركه الْعقُوبَة وَدخل فِي الْوَعيد لقَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لَيْسَ منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ ) قَالَ وَيدل عَلَى صِحَة مَا قُلْنَاهُ مَا حدثنَا وَأسْندَ إِلَى عَابس الْغِفَارِيّ أَنه سمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقد ذكر أَشْرَاط السَّاعَة فَقَالَ ( بيع الحكم وَقَطِيعَة الرَّحِم وَالِاسْتِخْفَاف بِالدَّمِ وَأَن يتَّخذ النَّاس الْقُرْآن مَزَامِير يقدمُونَ الرجل بَينهم لَيْسَ بأفقههم وَلَا بأعلمهم وَلَكِن لِيُغَنِّيَهُمْ بِهِ غناء )

انْتهى

وَهَذَا الحَدِيث رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَغَيرهمَا وَلَيْسَ فِيهِ حجَّة فَإِن التَّغَنِّي كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتاب فَضَائِل

الْقُرْآن على نَوْعَيْنِ وَكِلَاهُمَا فِيهِ تَحْسِين الصَّوْت وَلَكِن أَحدهمَا يحزن وَيذكر الْآخِرَة وَلَا يَصْحَبهُ طرب وَلَا لَهو فَهَذَا هُوَ الْمَنْدُوب إِلَيْهِ وَالْآخر يَصْحَبهُ الطَّرب واللهو الَّذِي يبسط النَّفس وَتَشَوُّقِ الْمُنْكَرَات فَهَذَا هُوَ الْمنْهِي عَنهُ وَعَلِيهِ يحمل حَدِيث عَابس

قَالَ وَقد ورد مَا يدل عَلَى ذَلِك روى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث بَقِيَّة بن الْوَلِيد عَن حَفْص بن مَالك الْفَزارِيّ قَالَ شيخ يُسمى أَبَا مُحَمَّد يحدث عَن حُذَيْفَة بن الْيَمَان أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (اقْرَءُوا الْقُرْآن بلحون الْعَرَب وَأَصْوَاتهَا وَإِيَّاكُم ولحون أهل الْعِشْق وَالْفِسْق وَأهل الْكِتَابَيْنِ وَسَيَأْتِي قوم يرجعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيع الْغناء والنوح لَا يُجَاوز حَنَاجِرهمْ قُلُوبهم مفتونة وَقُلُوب من يُعجبهُ شَأْنهمْ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو عبيد حَدثنَا نعيم بن حَمَّاد عَن بَقِيَّة عَن حَفْص بن مَالك الْفَزارِيّ بِهِ وَهُوَ وَإِن كَانَ حَدِيثا ضَعِيفا لَكِن يسْتَأْنس بِهِ فَإِن بَقِيَّة يُدَلس عَن الضُّعَفَاء وَأَبُو مُحَمَّد مَجْهُول قَالَه ابْن عدي

وَقد سمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قِرَاءَة أبي مُوسَى وَقَالَ (لقد أُوتِيَ مِزْمَارًا من مَزَامِير دَاوُد)

وَقَوله لَا سْتَحق تَاركه الْعقُوبَة قلت لَا يلْزم وَلَيْسَ المُرَاد نفي الدّين وَالْملَّة وَإِنَّمَا المُرَاد نفي الْكَمَال أَو نفي مَا كَانَت عَلَيْهِ الْعَرَب



---

قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي الْمعرفَة فِي كتاب الشَّهَادَات أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ قَالَ سَمِعت الرّبيع يَقُول سَمِعت الشَّافِعِي يَقُول لَيْسَ منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ لَهُ رجل يَسْتَغْنِي بِهِ قَالَ لَيْسَ هَذَا مَعْنَاهُ إِنَّمَا مَعْنَاهُ يقرؤه تحزينا

قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَيُؤَيِّد مَا قَالَ الشَّافِعِي قَول النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (زينوا الْقُرْآن بِأَصْوَاتِكُمْ) وَحَدِيث أبي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ فِي الصَّحِيحَيْنِ (لقد أعطي هَذَا مِزْمَارًا من مَزَامِير آل وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضا من حَدِيث أبي هُرَيْرَة مَا أذن الله لشَيْء كَإِذْنِهِ لنَبِيّ يتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يجْهر بِهِ قَالَ وروى أنس قَالَ كَانَ أَنْجَشَة يَحْدُو بِالنسَاء وَكَانَ الْبَراء بن مَالك يَحْدُو بِالرِّجَالِ وَكَانَ أَنْجَشَة إِذا حدا أعنقت الْإِبِل فَقَالَ

لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (وَيحك يَا أَنْجَشَة ارْفُقْ بِالْقَوَارِيرِ) وَعَن عِكْرِمَة قَالَ سمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ يسير إِلَى الشَّام حاديا يَحْدُو فَقَالَ (أَسْرعُوا بِنَا إِلَى هَذَا الْحَادِي) وَسمع النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حاديا فِي ركب من بني تَمِيم فَأمره أَن يَحْدُو

وَقَالَ لَهُ ( إِن حادينا وَنى من آخر اللَّيْل )

وَمِمَّا يدل لِلْجُمْهُورِ مَا رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا عبد الله بن الْمُحَرر عَن قَتَادَة عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( إِن لكل شَيْء حلية وَحلية الْقُرْآن الصَّوْت الْحسن )

انْتَهَى

وَهُوَ ضَعِيف

وَفِي الفردوس من حَدِيث سعد بن أبي وَقاص غنوا بِالْقُرْآنِ

(227/422)

---

وَرَوَى ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا مُسلم بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا سعيد بن رزين حَدثنَا حَمَّاد عَن إِبْرَاهِيم عَن عَلْقَمَة بن قيس قَالَ كنت رجلا قد أَعْطَانِي الله حسن الصَّوْت فِي الْقُرْآن وَكَانَ عبد الله يستقرئني وَيَقُول اقْرَأ فَإِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول ( حسن الصَّوْت تَزْيِين لِلْقُرْآنِ )

انْتَهَى

وروى الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب مَنَاقِب الشَّافِعِي بِإِسْنَادِهِ إِلَى الشَّافِعِي أَنه قَالَ فِي قَوْله عَلَيْهِ

السَّلَام (لَيْسَ منا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ) مَعْنَاهُ حسن الصَّوْت لَا بِمَعْنى يَسْتَغْنِي بِهِ فَذكر لَهُ كَلَام ابْن عُيَيْنَة فَقَالَ لَو أَرَادَ الِاسْتِغْنَاء لقَالَ لَيْسَ منا من لم يسْتَغْن فعلمنَا أَنه إِنَّمَا أَرَادَ التَّغَنِّي انْتَهَى

666 - الحَدِيث الْخَامِس

حَدِيث أبي بكر من أُوتِيَ الْقُرْآن فَرَأَى أَن أحدا أُوتِيَ من الدُّنْيَا أفضل مِمَّا أُوتِيَ فقد صغر عَظِيما وَعظم صَغِيرا

قلت غَرِيب من حَدِيث أبي بكر

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده حَدثنَا عِيسَى بن يُونُس عَن إِسْمَاعِيل ابْن رَافع عَن إِسْمَاعِيل بن عبيد الله بن الْمُهَاجِر عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من أعْطى الْقُرْآن فَرَأَى أَن أحدا قد أعطي أفضل مِمَّا أعطي فقد عظم مَا صغر الله وَصغر مَا عظم الله وَمن قَرَأَ الْقُرْآن فَكَأَنَّمَا استدرجت النُّبُوَّة بَين جَنْبَيْهِ غير أَنه لَا يُوحى إِلَيْهِ)

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَرَوَى ابْن عدي فِي كَامِله عَن حَمْزَة بن أبي حَمْزَة النصيبي عَن زيد بن رفيع عَن أبي عُبَيْدَة عَن عبد الله بن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من تعلم الْقُرْآن فَظن أَن أحدا أُغنى مِنْهُ فقد حقر عَظِيما وَعظم صَغِيرا)

انْتَهَى

وأعله بِحَمْزَة هَذَا وَقَالَ إِنَّه يضع الحَدِيث

انْتَهَى

667 - الحَدِيث السَّادِس

ولعن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْعَاصِفَة والمستعصفة

قَالَ المُصَنّف يَقُولُونَ للساحِرَة عاضة

قلت رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل من حَدِيث سَلمَة بن وهرام عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لعن الْعَاصِفَة والمستعصفة

انْتَهَى

وَضعف سَلمَة ابْن وهرام عَن أَحْمد وَرَاوِيه عَن سَلمَة زَمعَة بن صَالح وَهُوَ أَيْضا فِيهِ مقَال قَالَ ابْن عدي وَأَرْجُو أَنه لَا بَأْس بِهَذِهِ الْأَحَادِيث الَّتِي يَرْوِيهَا عَنهُ زَمعَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث زَمعَة بن صَالح عَن سَلمَة بِهِ سَوَاء

وَرَوَى عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي كتاب الصَّلَاة أخبرنَا ابْن جريج قَالَ سَأَلت عَطاء عَن الشّعْر الَّذِي يُوصل فِي الرَّأْس فَقَالَ أما الْوَصْل فَإِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن الْوَاصِلَة وَالْمسْتَوْصِلَة فَقَالَ أنس حِينَئِذٍ وآكل الرِّبَا وموكله وَالشَّاهِد وَالْمكَاتب والعاصفة والمستعصفة

فَقَالَ عَطاء قد سمعنَا ذَلِك

مُخْتَصر

668 - الحَدِيث السَّابِع

(229/422)

---

عَن عُرْوَة بن الزُّبَيْر فِي قَوْله تَعَالَى {إِنَّا كفيناك الْمُسْتَهْزِئِينَ} قَالَ هم خَمْسَة نفر ذُوُو أَسْنَان وَشرف الْوَلِيد بن الْمُغيرَة وَالْعَاص بن وَائِل وَالْأسود بن عبد يَغُوث وَالْأسود بن الْمطلب وَالْحَارث بن الطُّلَاطِلَة

وَعَن ابْن عَبَّاس قَالَ مَاتُوا كلهم قبل بدر قَالَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرت أَن أكفيكهم فَأَوْمأ إِلَى سَاق الْوَلِيد فَمر بِنَبَالٍ فَتعلق بِثَوْبِهِ سهم فَلم يَنْعَطِف

تَعَظُّمًا لأَخذه فَأصَاب عرقا فِي عقبه فَقَطعه فَمَات وَأَوْمَأ إِلَى أَخْمص الْعَاص بن وَائِل فَدخلت فِيهَا شَوْكَة فَقَالَ لدغت لدغت وانتفخت رجله حَتَّى صَارَت كالرحا وَمَات وَأَشَارَ إِلَى عَيْني الْأسود بن الْمطلب فَعمي وَأَشَارَ إِلَى أنف الْحَارِث ابْن قيس فامتخط قَيْحا فَمَات وَإِلَى الْأسود بن عبد يَغُوث وَهُوَ قَاعد فِي أصل شَجَرَة فَجعل ينطح رَأسه بِالشَّجَرَةِ وَضرب وَجهه بالشوكة حَتَّى مَات

(230/422)

---

قلت حَدِيث عُرْوَة أخرجه ابْن هِشَام فِي سيرته عَن ابْن إِسْحَاق حَدثنِي يزِيد بن رُومَان عَن عُرْوَة بن الزبير قَالَ كَانَ عُظَمَاء الْمُسْتَهْزِئِينَ خَمْسَة نفر من قومه وَكَانُوا ذَوي أَسْنَان وَشرف فِي قَومهمْ الْأسود بن الْمطلب وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام دَعَا عَلَيْهِ لما يbلغهُ من أَذَاهُ فَقَالَ ( اللَّهُمَّ اعم بَصَره وأثكله وَلَده ) وَالْأسود بن عبد يَغُوث والوليد بن الْمُغيرَة وَالْعَاص بن وَائِل وَالْحَارِث بن الطلاطلة قَالَ فَلَمَّا تَمَادَوْا فِي الشَّرّ وَأَكْثرُوا برَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الِاسْتِهْزَاء أنزل الله تَعَالَى فَاصْدَعْ بِمَا تُؤمر الْآيَة ثمَّ إِن جِبْرِيل أَتَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يطوفون بِالْبَيْتِ فَقَامَ وَقَامَ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى جنبه فَمر بِهِ الْأسود بن الْمطلب فَرمى فِي وَجهه بورقة خضراء فَعمي وَمر بِهِ الْأسود بن عبد يَغُوث فَأَشَارَ إِلَى بَطْنه

فَاسْتَسْقَى بَطْنه فَمَاتَ مِنْهُ وَمر بِهِ الْوَلِيد بن الْمُغيرَة فَأَشَارَ إِلَى أثر جرح كَانَ بأسفل كَعبه أَصَابَهُ قبل ذَلِك بسنين وَذَلِكَ أَنه مر بِرَجُل من خُزَاعَة يريش نبْلًا لَهُ فَتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله فانتقض بِهِ فَقتله وَمر بِهِ الْعَاصِ بن وَائِل فَأَشَارَ إِلَى أَخْمص رجله فَخرج عَلَى حمَار لَهُ يُرِيد الطَّائِف فربض بِهِ عَلَى شبرقة فَدخلت فِي أَخْمص رجله شَوْكَة فَقتلته وَمر بِهِ الْحَارِث بن الطلاطلة فَأَشَارَ إِلَى رَأسه فامتخط قَيْحا فَقتله

مُخْتَصر

وَمن طَرِيق ابْن إِسْحَاق أَيْضا رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي دَلَائِل النُّبُوَّة بِسَنَدِهِ وَمَتنه فِي الْبَاب التَّاسِع وَالْعِشْرين

(231/422)

---

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو نعيم وَالْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة لَهما عَن جَعْفَر بن إِيَاس عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى إِنَّا كَفَيْنَاك الْمُسْتَهْزِئِينَ قَالَ هم الْوَلِيد بن الْمُغيرَة وَالْعَاص بن وَائِل وَالْأسود بن عبد يَغُوث وَالْأسود بن الْمطلب أَبُو زَمعَة وَالْحَارِث بن عيطل السَّهْمِي قَالَ أَتَاهُ جِبْرِيل فشكاهم إِلَيْهِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأرَاهُ الْوَلِيد بن الْمُغيرَة فَأَوْمَأَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام إِلَى أبجله قَالَ (مَا صنعت) قَالَ

كفيته ثمَّ أرَاهُ الْأسود بن عبد يَغُوث فَأَوْمَى إِلَى رَأسه فَقَالَ (مَا صنعت) قَالَ كفيته ثمَّ أرَاهُ الْحَارِث بن العطيل السَّهْمِي فَأَوْمَى إِلَى رَأسه أَو قَالَ بَطْنه قَالَ مَا صنعت) قَالَ كفيته فَمر بِهِ الْعَاصِ بن وَائِل فَأَوْمأ إِلَى أَخْمُصُهُ فَقَالَ مَا صنعت) قَالَ كفيته فَأَما الْوَلِيد بن الْمُغيرَة فَمر بِرَجُل من خُزَاعَة هُوَ يريش نبْلًا لَهُ فَأصَاب أكحله فقطعها وَأما الْأسود بن الْمطلب فَعَمى وَأما الْأسود ابْن عبد يَغُوث فَخرج فِي رَأسه قُرُوح فَمَات مِنْهَا وَأما الْحَارِث بن العطيل فَأَخذه المَاء الْأَصْفَر فِي بَطْنه حَتَّى خرج قرؤه من فِيهِ فَمَات مِنْهَا وَأما الْعَاصِ بن وَائِل فَركب إِلَى الطَّائِف عَلَى حمَار فَربض بِهِ عَلَى شبْرقَة يَعْنِي شَوْكَة فَدخلت فِي أَخْمص قدمه فقتلته

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل البُخَارِيّ حَدثنَا حُسَيْن بن مَنْصُور حَدثنَا مُبشر بن عبد الله حَدثنَا سُفْيَان بن حُسَيْن عَن جَعْفَر بن إِيَاس سندا ومتنا وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط عَن مُبشر بن عبد الله بِهِ سَوَاء

669 - الحَدِيث الثَّامِن

يُوجد فِي بعض نسخ هُنَا وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه كَانَ إِذا حزبه أَمر فزع إِلَى الصَّلَاة وَهَذَا تقدم فِي أَوَائِل الْبَقَرَة

670 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من قَرَأَ سُورَة الْحجر كَانَ لَهُ من الْأجر عشر حَسَنَات بِعَدَد الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار والْمُسْتَهْزِئِين بِمُحَمد )

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق يَحْيَى بن سعيد الْقطَّان حَدثنَا أَبُو الْخَلِيل عَن عَلّي ابْن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انْتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 209 . 221 ﴾

(233/422)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الحجر

قوله تعالى : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) ، الآية/ 72 .

قال المفسرون : معناه : حياتك ، فقوله : لعمرك : لغة .

وكره قوم أن يحلفوا بغير اللّه تعالى ، وورد فيه خبر ، وإن لم يقو إسناده «1» وكرهوا أيضا أن يقول : وحق الكعبة ، وحق الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فهذا ما فيه من الحكم «2» .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 239 ﴾

---

(1) والخبر الذي ورد في هذا المعنى ، هو قوله صلى الله عليه وسلم :

«من كان منكم حالفا ، فليحلف بالله أو ليذر» .

(2) انظر تفسير القرطبي .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الحجر (65)

«إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ» (4) أي أجل ومدّة ، معلوم : موقّت معروف . «1»

«لَوْ ما تَأْتِينا» (7) مجازه : لو ما فعلت كذا ، وهلّا ولو لا وألّا ، معناهن واحد ، هلّا تأتينا ، «2» وقال الأشهب بن عبلة ، وقال فى غير هذا الموضع : ابن رميلة :

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بنى ضوطرى لولا الكمىّ المقنّعا (63)

«3» أي هلّا تعدون قتل الكماة «لوما» : مجازها ومجاز «لولا» واحد ، قال ابن مقبل :

لو ما الحياء ولو ما الدّين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عورى «4»

---

(1) «إلا . . . معروف» : رواه ابن حجر (8/ 287) عن أبى عبيدة أثناء شرحه قول البخاري «كتاب معلوم أجل» وقال : كذا لأبى ذر ، فأوهم أنه من تفسير مجاهد ولغيره ، وقال غيره : كتاب معلوم أجل ، وهو تفسير أبى عبيدة إلخ .

(2) «مجازه . . . تأتينا» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 287 .

(3) : البيت لجرير وقد مر تخريجه ، وقد كان نسبه أبو عبيدة إلى الأشهب ابن رميلة فى استشهاده الأول مع أنه روى البيت لجرير فى النقائض 833 .

(4) لعله من كلمة أولها فى الحماسة 4/ 113 وهو فى القرطبي 10/ 4.

والبحر لأبى حيان 5/ 442، وشواهد الكشاف 126.

(235/422)

---

«فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ» (10) فى أمم الأولين واحدتها شيعة والأولياء أيضا شيع. «1»

«كَذلِكَ نَسْلُكُهُ» (12) يقال: سلكه، وأسلكه لغتان.

«فِيهِ يَعْرُجُونَ» (14) أي يصعدون والمعارج الدّرج.

«لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا» (15) أي غشيت «2» سمادير «3»، فذهبت وخبا نظرها، قال:

---

(1) «شيع... شيع»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 287.

(2) «سكرت غشيت»: كذا فى البخاري: قال ابن حجر: كذا لأبى ذر، فأوهم أنه من تفسير مجاهد، وغيره يوهم أنه من تفسير ابن عباس. لكنه قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 287).

(3) «سمادير» ضعف البصر، وقد اسمدر بصره، وقيل هو الشيء الذي يترائى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب، وغشى النعاس والدوار (اللسان).

جاء الشتاء واجثألّ القنبر واستخفت الأفعى وكانت تظهر «1»

وطلعت شمس عليها مغفر وجعلت عين الحرور تسكر

أي يذهب حرها ويخبو.

«وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً» (16) أي منازل للشمس والقمر.

«مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ» (17) أي مرجوم بالنجوم، خرج مخرج قتيل فى موضع مقتول.

«وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ» (19) أي جعلنا وأرسينا، ورست هى أي ثبتت.

«مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ» (19) بقدر.

«وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ» (22) مجازها مجاز ملاقح لأن الريح ملقحة للسحاب، والعرب قد تفعل هذا فتلقى الميم لأنها تعيده إلى أصل الكلام، كقول نهشل بن حرىّ يرثى أخاه:

---

(1): أنشد الطبري (14/ 9) هذه الأشطار دون الثالث، ونسبها للمثنى بن جندل الطهوي، ولعله مصحف عن جندل بن المثنى، والأول مع الرابع فى اللسان والتاج (سكر قبر) وذكرهما صاحب اللسان (قبر) على أنهما من إنشاد أبى عبيدة والثالث مع الرابع فى

القرطبي 10/ 8 . - اجثأل : اجتمع وتقبض (اللسان - سكر) والقنبر : والقبر والقبرة
والقنبرة والقنبراء : طائر (اللسان) .

(237/422)

---

ليبك يزيد بائس لضراعة وأشعث ممن طوّحته الطّوائح «1»

فحذف الميم لأنها المطاوح ، وقال رؤبة :

يخرجن من أجواز ليل غاض

«2» أي مغضى ، وقال [العجّاج ، ] :

تكشف عن جماته دلو الدّال

«3» «ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ» (22) وكل ماء كان من السماء ، ففيه لغتان : أسقاه اللّه

وسقاه اللّه [قال الصّقر بن حكيم الرّبعىّ ] يا ابن رقيع هل لها من غبق [ما شربت بعد طوىّ

المرق «4» من قطرة غير النّجاء الدّفق ] هل أنت ساقيها سقاك المسقى

---

(1) : نهشل بن حرى : من المخضرمين ، وبقي إلى أيام معاوية ، ترجمة له فى الشعراء

405 والخزانة 1/ 153 . - والبيت قد اختلفوا فى عزوه ، ونسبوه إلى غير واحد من

الشعراء ، راجع الاختلاف فى الخزانة (1/ 147) وصوب البغدادي نسبة البيت إلى

نهشل. هو فى الكتاب 1/ 121، والطبري 14/ 13، والشنتمرى 1/ 145،

والأساس واللسان والتاج (طيح) والعيني 443. والمعاهد 95، وشواهد الكشاف

.65

(2) : ديوانه 83. - واللسان والتاج (غضا).

(3) : ديوانه 86. - واللسان والتاج (دلا). [.....]

(4) «الصقر... الربعي»: هو الصقر بن حكيم بن معية الربعي هكذا ورد اسمه فى

اللسان والتاج (قريق) ولم أقف على ترجمته. الرجز فى الصحاح واللسان والتاج ومعجم

ما استعجم ومعجم البلدان (قريق). والجمهرة 2/ 383 وأنظر الخلاف فى رواية هذا

الرجز وفى قائله فى المراجع المذكورة.

(238/422)

---

فجعله باللغتين جميعا. وقال لبيد:

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال «1»

فجاء باللغتين، ويقال: سقيت الرجل ماء وشرابا من لبن وغير ذلك وليس فيه إلّا لغة

واحدة بغير ألف إذا كان فى الشّفة. وإذا جعلت له شربا فهو أسقيته وأسقيت أرضه

وإبله ، لا يكون غير هذا ، وكذلك استسقيت له كقول ذى الرمّة :

وقفت على رسم لميّة ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخاطبه «2»

وأسقيه حتى كاد مما أبثّه تكلّمنى أحجاره وملاعبه

وإذا وهبت له إهابا ليجعله سقاء فقد أسقيته إيّاه .

«مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (26) الصلصال : [الطّين] اليابس لذى لم تصبه نار فإذا نقرته صلّ فسمعت له صلصلة فإذا طبخ بالنار فهو فخّار «3» وكل شىء له [صلصلة] ، صوت فهو صلصال [سوى الطين ، قال الأعشى :

---

(1) ديوانه 1/ 128 . - ونوادر أبى زيد 213 ، والشنتمرى 2/ 235 ، واللسان والتاج (سقى) .

(2) ديوانه 38 ونوادر أبى زيد 213 ، المحاسن للجاحظ 335 ، والطبري 14/ 14 ، واللسان والتاج (سقى) .

(3) «فاذا . . . فخار» : روى القرطبي (10/ 10) هذا الكلام عنه .

عنتريس تعدو إذا حرّك السّوط كعدو المصلصل الجوال ] «1»

«مِنْ حَمَإٍ» (62) أي من طين متغير وهو جميع حمأة، «مسنون» أي مصبوب.

«قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي» (39) مجازه مجاز القسم: بالذي أغويتنى.

«ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ» (47) أي من عداوة وشحناء.

«سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ» (47) مضمومة السين والراء الأولى وهذا الأصل، وبعضهم يضمّ السين ويفتح الراء الأولى، وكل مجرى فعيل من باب المضاعف فإن فى جميعه لغة نحو سرير والجميع سرر وسرر وجرير والجميع جرر وجرر.

«وَجِلُونَ» (52) أي خائفون.

«قالُوا لا تَوْجَلْ» (52). ويقال: لا تيجل، ولا تأجل بغير همز، ولا تأجل يهمز يجتلبون فيها همزة وكذلك كل ما كان من قبيل وجل يوجل ووحل يوحل، ووسخ يوسخ.

---

(1): ديوانه 8 - والكامل 489، واللسان والتاج (صلصل). وقال ثعلب: روى أبو عبيدة السوط وروى «إذا حرك الصوت» (شرح الديوان).

«فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» (54) «1» قال: قوم يكسرون النون، وكان أبو عمرو يفتحها ويقول: إنها إن أضيفت لم تكن إلّا بنونين لأنها فى موضع رفع، فاحتج من أضافها بغير أن يلحق فيها نونا أخرى بالحذف حذف أحد الحرفين إذا كانا من لفظ واحد، قال [أبو حيّة النّميرىّ].

أبالموت الذي لا بدّ أنى ملاق لا أباك تخوّفينى «2»

ولم يقل تخوفيننى [لا أباك: أي لا أبا لك، فجاء بقول أهل المدينة].

وقال [عمرو بن معديكرب]:

تراه كالثّغام يعلّ مسكا يسوء الفاليات إذا فلينى «3»

---

(1) «فبم تبشرون»: قرأ نافع بكسر النون مخففة وابن كثير بكسرها مشددة والباقون بفتحها (الداني 136).

(2) أبو حية: هو الهيثم بن الربيع بن كثير النمري من شعراء الدولتين الأموية والعباسية أنظر ترجمته فى المؤتلف 103، والأغانى 15/ 61 والسمط 97، والإصابة 6/ 50 - والبيت فى اللسان والتاج (فلا، أبو) وابن يعيش 1/ 391.

(3) من أبيات لعمرو بن معد يكرب قالها فى امرأة لأبيه تزوجها - بعده فى الجاهلية، وهو فى الكتاب 2/ 67، والإنصاف 277، وشرح المفضليات 78، والشنتمرى 2/ 154، وابن يعيش 1/ 412، والعيني 1/ 379، والخزانة 2/ 445.

أراد فليننى فحذف إحدى النونين .

«قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ «1» مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ» (56) أي ييأس ، يقال : قنط يقنط وقنط يقنط قنوطا .

«أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ» (66) أي آخرهم مجتذّ مقطوع مستأصل .

«إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي» (68) اللفظ لفظ الواحد والمعنى على الجميع كما قال لبيد :

وخصم كنادى الجنّ أسقطت شأوهم بمستحصد ذى مرّة وصدوع «2»

[شأوهم : ما تقدموا وفاقوا به من كل شىء ، المستحصد المحكم الشديد ، وأمر محكم ، وصدوع ألوان ، يقال ذو صدعين : ذو أمرين ] .

«يَعْمَهُونَ» (72) أي يجورون ويضلّون ، قال رؤبة .

ومهمه أطرافه فى مهمه أعمى الهدى بالجاهلين العمّه (37)

---

(1) «و من يقنط» : قرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها (الداني 136) .

(2) : ديوانه 1/ 50 ، وفى اللسان (حصد) .

«لِلْمُتَوَسِّمِينَ» (75) أي المتبصرين «1» المتثبّتين.

«وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ» (76) أي بطريق.

«وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ» (79) الإمام كلما ائتممت واهتديت به. »

«فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ» (83) أي الهلكة، ويقال صيح بهم، أي أهلكوا.

«وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» (87) مجازها:

سبع آيات من المثاني، والمثاني هى الآيات فكأن مجازها: ولقد آتيناك سبع آيات من آيات القرآن، والمعنى وقع على أم الكتاب وهى سبع آيات، وإنما سميت آيات القرآن مثانى لأنها تتلو بعضها بعضا فثنيت الأخيرة على الأولى، ولها مقاطع تفصّل الآية بعد الآية حتى تنقضى السورة وهى كذا وكذا آية، وفى آية أخرى من «الزّمر» تصديق ذلك: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ» (39/ 23) مجازه مجاز آيات من القرآن يشبه بعضها بعضا قال:

نشدتكم بمنزل الفرقان أمّ الكتاب السّبع من مثانى (5)

ثنين من آي من القرآن والسبع سبع الطول الدّوانى

---

(1) «المستبصرين» : روى القرطبي (10/ 43) هذا التفسير عنه.

(2) «لبإمام . . . واهتديت به» : كذا فى البخاري، قال ابن حجر (8/ 288) :

هو تفسير أبى عبيدة.

*(243/422)*

---

وهى البقرة (2) وآل عمران (3) والنساء (4) والمائدة (5) والأنعام (6) والأعراف (7) والأنفال (8) ومجاز قول من نصب «وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» على إعمال وآتيناك القرآن العظيم، ومعناه ولقد آتيناك أم الكتاب وآتيناك سائر القرآن أيضا مع أم الكتاب ومجاز قول من جرّ القرآن العظيم» مجاز قولك، من المثاني ومن القرآن العظيم أيضا وسبع آيات من المثاني ومن القرآن.

«كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ» (90) أي على الذين اقتسموا.

«جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ» (91) أي عضوه أعضاء، أي فرّقوه فرقا، قال رؤبة:

وليس دين اللّه بالمعضّى «1»

«فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ» (94) أي افرق وامضه، قال أبو ذؤيب:

وكأنهن ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع «2»

أي يفرّق على القداح أي بالقداح. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 1 صـ 346. 355﴾

---

(1) : ديوانه 81، والطبري 14/ 41، واللسان (عضا).

(2) : ديوان الهذليين 1/ 6، والطبري 14/ 43، والاقتضاب 450، والقرطبي 10/ 61، واللسان والتاج (ريب، صدع، يسر). [.....]

(244/422)

---

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها الحجر

[سورة الحجر (15) : آية 72]

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72)

. . . وقوله سبحانه : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [72]. وهذه استعارة. والمراد بها صفتهم بالتردد فى غيّهم، والتسكع فى ضلالهم. فشبه تعالى المتلدد «1» فى غمرات الغى، بالمتردد فى غمرات السكر.

[سورة الحجر (15) : آية 88]

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88)

وقوله سبحانه : وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ [88] وهذه استعارة . والمراد بها . ألن كنفك لهم ، ودم على لطفك بهم . وجعل سبحانه خفض الجناح هاهنا فى مقابلة قول العرب إذا وصفوا الرجل بالحدة عند الغضب : قد طار طيرة ، وقد هفا حلمه ، وقد طاش وقاره . فإذا قيل : قد خفض جناحه ، فإنما المراد به وصف الإنسان بلين الكنف ، والكظم عند الغضب . وذلك ضد وصفه بطيرة المغضب ، ونزوة المتوثب .

[سورة الحجر (15) : آية 91]

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)

وقوله سبحانه : الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ [91] . وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون المعنى أنهم جعلوا القرآن أقساما مجزأة ، كالأعضاء المعضّاة «2» ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض . وقيل : جعلوه أقساما ، بأن قالوا : هو سحر وكهانة ، وكذب وإحالة .

وأما التأويل الآخر فى معنى (عضين) فيخرج به اللفظ عن أن يكون مستعارا «3» ، وذلك

---

(1) المتلدد فى المكان: المتلبث به. أو المتحير المتلفت يمينا وشمالا.

(2) المعضاة: أي المجزأة المقسمة.

(3) فى الأصل: مستعار، بالرفع وهو تحريف من الناسخ.



---

أن يكون معناها على ما قاله بعض المفسرين معنى الكذب. قال: وهو جمع عضة، كما كان فى القول الأول، إلا أن العضة هاهنا معناها الكذب والزور، وفى القول الأول معناها التجزئة والتقسيم. وقد ذكر ثقات أهل اللغة فى العضة وجوها. فقالوا: العضة النميمة، والعضة الكذب، وجمعه عضون. مثل عزة وعزون، والعضة السّحر، والعاضه الساحر.

وقد يجوز أن يكون جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ جمع عضة، من السحر. أي جعلوه سحرا وكهانة، كما قال سبحانه حاكيا عنهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ «1».

وإِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «2».

[سورة الحجر (15): آية 94]

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)

وقوله سبحانه : فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [94] . وهذه استعارة . لأن الصّدع على الحقيقة إنما يصح فى الأجسام لا فى الخطاب والكلام . والفرق ، والصّدع ، والفصل فى كلامهم بمعنى واحد . ومن ذلك قولهم للمصيب فى كلامه : قد طبّق المفصل . ويقولون : فلان يفصل الخطاب . أي يصيب حقائقه ، ويوضح غوامضه .

فكأن المعنى فى قوله سبحانه : فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ أي : أظهر القول وبينه فى الفرق بين الحق والباطل . من قولهم صدع الرداء . إذا شقه شقا بينا ظاهرا . ومن ذلك صدع الزجاجة . إذا استطار فيها الشق ، واستبان فيها الكسر . وإنما قال سبحانه :

---

(1) سورة المدثر . الآية رقم 24 .

(2) سورة الأنعام . الآية رقم 7 . وسورة هود . الآية رقم 7 . وسورة سبأ . الآية رقم 43 . وسورة الصافات . الآية رقم 15 .



---

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ ولم يقل : فبلغ ما تؤمر ، لأن الصدع ها هنا أعم ظهورا ، وأشد تأثيرا .

وقد يجوز أيضا أن يكون المراد بذلك - واللّه أعلم - أن بالغ فى إظهار أمرك ، والدعاء إلى ربك ، حتى يكون الدين فى وضوح الصبح ، لا يشكك نهجه ، ولا يظلم فجه . مأخوذا

ذلك من «1» «الصّديع» ، لشأنه ووضوح إعلانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 189.187 ﴾

---

(1) الصديع : الصبح . سمي بذلك لانصداعه عن ظلمات الليل .

(247/422)

---

فصل في التفسير الموضوعي للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالي :

سورة الحجر

" الر . . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين" الوحي الأعلى من حيث هو كلمات مسطورة: كتاب ، ومن حيث هو آيات متلوة : قرآن . وكلا اللفظين كتاب وقرآن علم على ما في المصحف الشريف . " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين" وربما يود الذين قصروا لو كانوا مجدين ، وربما يود الذين عصوا لو كانوا مطيعين ، وعندما تنكشف الخدعة الكبرى يندم الذين أضاعوا أيامهم سدى ، ولم يستعدوا للمستقبل الباقي " ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون" . عبادة الدنيا والاستغراق في متعها شأن الناس من قديم ، ولكنها عبادة اجتاحت الناس في هذا العصر حتى لتكاد الآخرة تكون وهما . وفي مواجهة ذلك

يقول الله لنبيه: "لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم . . . " . وقد لاحظنا أن آخر هذه السورة يؤكد أولها ويتجاوب معه ، فعندما يتحدى عبيد الحياة أنبياءهم ، ويعترضون طريقهم ، ويظنون الدولة خالدة لهم ، يجىء فى أول السورة قوله تعالى: " وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون" وهذا قول موجز تفسره أواخر السورة عندما تقص كيف هلك قوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم صالح ! ! . إن الإناء يستقبل الأخطاء حتى إذا طفح بدأ العقاب ، وربما فعل المجرمون الفعلة التى يجىء بعدها الهلاك . يقول الله تعالى فى وصف قوم لوط وهم يريدون الفسق بضيوفه: " لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين" المتأملين فى الأسباب والنتائج – "وإنها لبسبيل مقيم"

(248/422)

---

أى أن القرية الهالكة فى طريقهم وهم يغدون ويروحون ! ! . ويقول جل شأنه فى قوم شعيب: " وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين" : طريق واضح . ويقول فى أصحاب الحجر . وبهم سميت السورة . : " ولقد كذب أصحاب الحجر

المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون" . وأصحاب الحجر هم ثمود ، ويسمى العرب أرضهم بمدائن صالح . وهم يمرون عليها ليلا ونهارا ، فهلا اتعظوا ! ! . إن هذا كله تفصيل لما ورد أول السورة عن القرى الهالكة: " ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين * وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . " . وقد كان عرب الجاهلية يستهزئون بالقرآن وبمن نزل عليه " وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين " والجاهليون ليسوا بدعا فى طلب نزول الملائكة ، فقد سبقهم قوم نوح وهود وصالح ، ولكن الله لا يستجيب لعبث أولئك الذين يستكثرون الرسالة على بشر منهم ! . إنهم أدعياء يكرهون الفضل فى غيرهم ، ويحسبون الأمر مسابقة فى الصدارة ينجح فيها الأكثر صفاقة ! " ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين " . وينبه سبحانه إلى أن هذا الوحى الخاتم خالد مادامت السموات والأرض ، وأن أعداء الحقيقة مهما بلغت ضراوتهم لن يطمسوا أنواره " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ويقول جل شأنه ممتنا على رسوله بهذا القرآن: "ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم " . وكُفْر بعض الناس بالكتاب الكريم ليس لقصور به ، إنه لتعصب فيهم وعناد ! ولو سيقت إليهم المعجزات كلها ما ازدادوا إلا جحودا " ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون" والأدلة

مهما قويت لا تجدى مع هؤلاء . . . وفى أول سورة الحجر وآخرها حديث شائق عن

الكون وأسراره وقواه

(249/422)

---

الدالة على صاحبه ! . إذا نظر المرء إلى أعلى لم ينقض عجبه من شروق الأفلاك وغروبها

فى فضائها المديد إلى

غير نهاية ! وإذا نظر إلى الأرض وما أودع فى برها وبحرها من بركات عجب كيف ضمن

الله الرزق لكائنات لا حصر لها ، وردد مع الرسول الكريم قوله: "اللهم لك الحمد أنت قيم

السموات والأرض ومن فيهن " . يقول تعالى: "ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها

للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين

* والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون * وجعلنا لكم

فيها معايش ومن لستم له برازقين" . لقد فصل أول السورة بركات الكون وخيراته وعجائبه

، ولكنه أجمل فى آخر السورة وأوجز عندما قال: "وما خلقنا السماوات والأرض وما

بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل * إن ربك هو الخلاق العليم" .

لقد ثبت أن عناصر الجسم البشرى هى عناصر هذه التربة الأرضية ، فكيف يتحول

اللحم والعظم إلى تراب ؟ ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم وعظم ؟ . هل الخصيتان هما اللتان تهندسان خصائص الوراثة ؟ وتحملان الطبائع المادية والمعنوية للإنسان ؟ . هل هذه الدريهمات من اللحم تصنع قدر الإنسان ؟ إنها غدد عبقرية . إذن ، إنها .عند النظر الصائب.غطاء للقدرة العليا يخترقه العقل السليم فيرى أن الله وحده هو المحيى المميت ، وأنه بحكمته وإبداعه خالق كل شئ " وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم " . العلم الإلهى صفحة واحدة ، يقترب فيها الأزل من الأبد ، والأرض من السموات ، والدقيق من الجليل ، وعالم الحشرات والجراثيم بعالم الإنس والجن والطير ! ! . كنت فى الطائرة فرمقت قطعة من الصحراء خيِّل إلى أنها تصلح للزراعة ، فتساءلت: أتزرع هذه غدا ؟ ثم أجبت نفسى: إن كانت ستزرع فإن الله وحده يعلم أيان يجيئها المطر ، ويلتف حولها البشر ، ويلتقطون منها الثمر " ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا



---

المستأخرين * وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم" إننى أتابع برامج عالم الحيوان وعالم البحار ، وأعجب كيف تتكاثر الأحياء وكيف تتفانى ، وكيف يجعل الله طعام طير سارح

من دودة ملصقة بظهر حيوان ضخم يستريح حين يأكلها هذا الطير ! ! .

وعالم الإنسان نفسه مثار تفكير عميق ، لقد خلق من طينة منتنة " من صلصال من حمإ مسنون" وعندما يعود إلى التراب بعد انقضاء رحلة العمر ويدفن تحته تكون رائحته أشد إزعاجا . كأن الناس يتدافنون حتى لا يشمئز بعضهم من بعض ! . بم زكا الإنسان وسما ؟ بم كرم ونغم ؟ بهذه اللطيفة الربانية التى نفخت فيه ، والتى طالما جار عليها وضاق بأوْجها ! ! . إن فى الإنسان قبسا من نور الله الأسنى حسده عليه إبليس ، وكره الاعتراف به ، وقرر الانتقام من آدم وبنيه: " قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين " . وقد تكررت قصة آدم وعدوه فى القرآن الكريم ، وتميزت القصة هنا بتكرار المعدن الذى نشأ منه آدم ، وأنه صلصال من حمأ مسنون ، أى: طين متغير الرائحة ! . إنه مسكن مؤقت على أية حال ، أو جسر يعبر عليه الإنسان إلى مصيره الباقى وفق ما قدم من عمل فى فترة الحياة الأولى . والمخدوع من نسى ربه ومبدأه ومعاده . وإبليس ليس له سلطان على بشر ، والقانون. كما قيل. لا يحمى المغفلين ! إن الشيطان لا يملك إلا الإغواء والخداع ! وتزيين السم للآكلين ، فمن الملوم بعد التحذير المستمر ؟ . على أبناء آدم اليقظة والانتباه والشعور بأن الله عندما يرضى يغفر الهنات ، ويرفع الدرجات ، وعندما يغضب لا ينجو من بطشه أحد " نبئ عبادي أني أنا

الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم " . ثم أعقب هذا الوعد والوعيد نبأ إبراهيم مع ضيوفه ، ومن ضيوف إبراهيم ؟ إنهم الملائكة الذين جاءوا يبشرونه بغلام عليم ، ويبشرونه فى الوقت نفسه بهلاك المدينة التى



---

كانت تفعل المنكر ! ! . ولم يتعرض القرآن بالنفى للخرافة التى أوردها العهد القديم بأن الله تغدى أو تعشى فى حفل أقامه له إبراهيم ! وكان على المائدة عجل سمين ! إن الله لا يأكل ! . والسكوت عن هذه القصة أبلغ فى ردها من إيرادها ثم تكذيبها . . ويكفى ما امتلأ القرآن به من آيات التسبيح والتحميد . .

أما قوم لوط فقد كانوا أهل سوء ودنس ، وقد عانى لوط فى تحذيرهم ، وفشل فى تطهيرهم ، فدمر الله مدينتهم وجعل عاليها سافلها . واللواط مرض يظهر مع الإسراف الجنسى والحرمان الجنسى على سواء ، وقد كان أصحابه يتوارون به استخذاء ، حتى جاء الأوربيون والأمريكيون ، فأقروه ، ثم شرعوه ! ! . وكم من جماح شهوانى أقرته هذه الحضارة ؟ ولكن العقاب الإلهى بالمرصاد . . . أشرنا إلى الروابط التى تصل بين أول السورة وآخرها ، وقد فصلت بينهما هذه القصص المسوقة للعظة والعبرة ، ثم قيل للرسول

الكريم: إن الله شرفك بهذا الوحى ، فأدب الأمم به: "لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إني أنا النذير المبين" .

والذى نراه أن المقتسمين هم أهل الكتاب الأولون الذين جعلوا القرآن أقساما يصدقون بعضها ويكذبون بعضها ، فقال تعالى "كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين" . أى: أعضاء أو أجزاء مقطعة يقبلون منها ما يشتهون ، ويرفضون ما يكرهون .

والمعنى العام: أن الله خص المسلمين بالوحى الخاتم المهيمن على ما قبله ، كما منح أهل الكتاب الوحى السابق ، فغيروا وبدلوا : " فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون" .

ثم بشر الله نبيه بأن رجال الوثنية الذين يقاومون رسالته لن يطول بهم أمد حتى يصرعوا جميعا . "إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون" . وقد كان أهل مكة قد أعلنوا حربا من السخرية والاستهزاء على الرسول. صلى الله عليه وسلم. وعلى ما ينزل عليه من وحى ، ونشروا سخريتهم وتهمهم على نطاق واسع ،

(252/422)

---

ورصدوا الوفود القادمة إلى مكة كى يحذروها من اتباع الرسول ، والانخداع بما يقول .

وطبيعى أن يتألم النبى من هذه الحملات الجائرة ، ولكن الله أمره ألا يلقى إليها بالا ، وألا

يحزن لتهافت المشركين عليها . " ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" . وقد صدق الله وعده فارتفع لواء الإيمان ، وذهب الشرك وأتباعه فى خبر كان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 199 . 203 ﴾

(253/422)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/423)

---

الجزء الثالث والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 15 ﴾ من نفس السورة

(4/423)

---

(في رياض آيات السورة الكريمة)

(5/423)

---

"فصل"

قال السيوطى :

سورة الحجر

أقول: تقدمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة وإنما أُخرت عنها اقصرها بالنسبة إليها ، وهذا القسم من سور القرآن للمئين ، فناسب تقديم الأطول ، مع مناسبة ما ختمت به لبراعة الختام ، وهو قوله: (واعبُد ربَكَ حتى يأَتيكَ اليقين) فإنه مفسر بالموت ، وذلك مقطع في غاية البراعة

وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة ففي آخر آل عمران: ( واتقوا اللهَ لعلكُم تُفلِحون) وفي آخر الطواسين: (كل شيء هالك إلا وجهه ألاله الحكم وإليه تُرجَعون) وفي آخر ذوات (الر) : (وانتَظِر إنَهُم مُنتَظرون) وفي آخر الحواميم (كأَنَهُم يومَ يرونَ ما يوعدونَ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ) ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى لما قال هناك في وصف يوم القيامة: (وبرزوا للهِ الواحدِ القَهّار وتَرى المجرمين يومئذٍ مقرنين في الأَصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) قال هنا : (رُبما يود الذينَ كفروا لو كانوا مسلمين) فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أخرجوا منها ، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين وذلك وجه حسن في

الربط ، مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به ، وذلك من تشابه الأطراف . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 111 ﴾

(6/423)

---

قوله تعالى ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ بسم الله ﴾ الواحد الأحد الجامع لما شتت من بدد ﴿ الرحمن ﴾ الذي جمع خلقه في رحمة البيان ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص الأبرار بما أباحهم الرضوان .

لما ختم التي قبلها بعنوان الكتاب ، ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوان ، وأوله وصفه بأنه جامع والخير كله في الجمع والشر كله في الفرقة ، فقال تعالى : ﴿ الر تلك ﴾ أي هذه الآيات العالية المقام ، النفسية المرام ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي الكامل غاية الكمال الذي لا كتاب على الحقيقة غيره ، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات ، القاطع في قضائه من غير شك

ولا تردد ، الغالب بأحكامه القاهرة في وعده ووعيده وأحكامه في إعجازه لجميع من يعانده .

(7/423)

---

ولما كان الغالب في هذه السورة القطع الذي هو من لوازم الكتاب قدمه ، وذلك أنه قطع بأمر الأجل والملائكة ، وحفظ الكتاب والرمي بالشهب ، وكفاية المستهزئين ، فكان كما قال سبحانه ﴿ و ﴾ آيات ﴿ قرآن ﴾ أي قرآن جامع ناشر مفصل واصل ، إذ التنوين للتعظيم ﴿ مبين ﴾ لجميع ما يجمع الهمم على الله فيوصل إلى السعادة ، وهذه الإبانة - التي لم تدع لبساً - هو متصف بها ، مع كونه جامعاً للأصول ناشراً للفروع لا خلل فيه يدخل منه عليه ، ولا فصم يؤتى منه إليه ، فأعجب لأمر حاوٍ لجميع وفرق وفصل ووصل : والإبانة : إظهار المعنى للنفس بما يميزه عن غيره ، لأن أصل الإبانة الفصل : فهذا شرح كونه بلاغاً ، فمقصود هذه السورة اعتقاد كون القرآن بلاغاً جامعاً للأمور الموصلة إلى الله ، مغنياً عن جميع الأسباب ، فلا ينبغي الالتفات إلى شيء سواه ﴿ ذرهم يأكلوا ﴾ ، ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وكان الجمع بين الوصفين الدال كل منهما على الجمع إشارة إلى الرد عليهم في جعلهم القرآن عضين ، وأن قولهم شديد المباعدة لمعناه .

مع أن المفهومين – مع تصادقهما على شيء واحد – متغايران ، فالكتاب : ما يدون في الطروس ، والقرآن : ما يقرأ باللسان ، فكأن الأول إشارة إلى حفظه في الطروس بالكتابة ، والثاني إلى حفظه في الصدور بالدراسة ، وسيأتي قوله ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ مؤيداً لذلك ، وكل من مادتي كتب وقرأ بجميع التقاليب تدور على الجمع .

أما "كتب " – وتنقلب إلى كبت وتبك وبكت وبتك – فقال في المجمل : كتبت الكتاب أكتبه وهو من الجمع ، والكتاب أيضاً : الدواة – تسمية للشيء باسم ما هو آلته ، والمكتب – كمعظم : العنقود أكل بعض ما فيه – تشبيهاً له بالمكتوب ، والكتيبة : الجيش والجماعة المستحيزة من الخيل إذا أغارت من المائة إلى الألف – انتهى .

(8/423)

---

وكتبت البغلة – إذا جمعت بين شفري رحمها بحلقة ؛ وقال القزاز : وأصله – أي الكتاب – ضمك الشيء إلى الشيء ، فكأنه سمي بذلك لضم الحروف بعضها إلى بعض ، كتبت المزادة – إذا خرزتها ، يعني : فضممت بعضها إلى بعض .

والكتبة – بالضم : السير يخرز به ، وما يكتب به حياء الناقة لئلا ينزي عليها ، والإكتاب : شد رأس القربة ، والكتيبة : جماعة تكتبوا ، أي تجمعوا ، وتكتب الرجل – بتقديم

الموحدة – إذا تقبض ، ومنه الكتاب – بضم الكاف وتخفيف التاء الفوقانية لسهم صغير يتعلم به الصبيان الرمي – كذا قال القزاز إنه مخفف ، وفي القاموس : وزنه كرمان – وزاد أنه مدور الرأس ، وكتبت الناقة تكتيباً : صررتها ، واكتتب بطنه : أمسك ، والمكتوتب : الممتلىء والمنتفخ ؛ ويلزم الجمع القطع والغلبة التي هي من لوازم القدرة ، فمن القطع : الكتاب بمعنى الفرض والحكم والقدر ؛ والبتك : القطع ولذلك قيل للسيف : باتك ، أي قاطع ، ومن الغلبة والقدرة : الكتاب بمعنى القدر ، قال ابن الأعرابي : والكاتب عندهم العالم ، وقال القزاز : والكاتب : الحافظ ، وهذان يرجعان أيضاً إلى نفس الجمع – لجمع الحافظ المحفوظ والعالم المعلوم ؛ وكبت الله العدو – بتقديم الموحدة : صرفه ذليلاً ، وهو من تكبت الرجل – إذا تقبض ، وعبارة القزاز : كبت أعداءه : ردهم بغيظهم ، أي فانقمعوا وانجمعوا عما كانوا انتشروا له ، وكبت الرجل – إذا صرعه على وجهه ، وبكته تبكيتاً – إذا أنبّه أو ضربه بعصى أو سيف ونحوهما ، لما يلزمه من تصاغر نفسه وتقبضها .

(9/423)

---

وأما قرأ ، مهموزاً – وينقلب إلى رقأ ، وأرق ، وأقر ، وغير مهموز يائياً وتراكيبه خمسة : قري ، وقير ، ورقي ، وريق ، وواوياً وتراكيبه ستة : قرو ، وقور ، ورقو ، وروق ، ووقر ،

وورق – فهو للجمع أيضاً ، ويلزمه الإمساك ، وربما كان عنه الانتشار ، فمن الجمع : قرأت القرآن ، أي تلوته فجعلت بعض حروفه وكلماته وآياته تالياً لبعض متصلاً به مجموعاً معه ، ويلزم القراءة النسك ، ومنه القارىء والمتقرىء والقراء – كرمان .
أي الناسك ، ويلزم عنه الفقه ، ولذا قيل : تقرأ – إذا تفقه ، وهو من الجمع نفسه أيضاً لأن الناسك جمع النسك إلى القراءة وانجمع همه ، والفقيه جمع الفقه إليها ؛ قال في المجمل : والقرآن من القرء وهو الجمع ، أي وزناً ومعنى ، وفي القاموس : وقرأ عليه السلام : أبلغه كأقرأه ، ولا يقال : أقرأه ، إلا إذا كان السلام مكتوباً ؛ وقال الزبيدي في مختصر العين : وقرأت المرأة قرءاً ، إذا رأت دماً ، وأقرأت – إذا حاضت فهي مقرىء – انتهى .

*(10/423)*

---

فكأنه عبر بذلك عند رؤية الدم لأنه لا يعرف أن المرأة جمعته إلا برؤيته ، وهو من الانتشار الذي قد يلزم الجمع ، أو يكون فعل هنا للإزالة ، فمعناه : أزالت إمساك الدم كما أن هذا معنى أقرأت فإن فعل – لخفته وكثرة دوره – يتصرف في معاني جميع الأبواب ، وقال في المجمل : وأقرأت المرأة : خرجت من طهر إلى حيض أو حيض إلى طهر ، قلت : فالأول يكون فيه أفعل للإزالة ، والثاني للدخول في الشيء كما تقول : انهم الرجل وأنجد – إذا

دخل في تهامة أو نجد ، قال : والقرء : وقت يكون للطهر مرة وللحيض مرة ، قلت : فالأول للجمع نفسه ، والثاني لأنه دليل الجمع ، قال : والجمع قروء ، ويقال : ﴿ القروء ﴾ هو الطهر ، وذلك أن المرأة الطاهرة كان الدم اجتمع وامتسك في بدنها فهو من : قريت الماء ، وقرى الأكل الطعام في شدقه ، وقد يختلف اللفظان فيهمز أحدهما ولا يهمز الآخر ، والمعنى واحد إذا كان الأصل واحداً ، وقوم يذهبون إلى أن القرء : الحيض ، وفي القاموس : والقرء - ويضم : الحيض والطهر ضد - وقد تقدم تخريج ذلك ، والوقت - لأنه جامع لما فيه ، والقافية - لأنها جامعة لشمل الأبيات ، جمعه أقرؤ وقروء ، وجمع الحيض أقراء ، وكأن العلة في ذلك أنه لما كان جمع الكثرة هو الأصل في الجمع ، لأن المراد بالجمع نفسه الكثرة ، فكلما كان أكثر كان به أجدر ، لمّا كان الأصل كذلك ، وكان القرء بمعنى الطهر هو الأصل في مدلول الجمع ، كان أحق بجمع الكثرة الذي هو أعرق في الجمع ، ولما كان القرء بمعنى الحيض فرعاً ، كان له جمع القلة الذي هو فرع في باب الجمع ؛ وأقرأت : حاضت وطهرت ، وأقرأت الرياح : هبت لوقتها - لأن هبوبها دال على اجتماعها كظهور دم الحيض ، وقرأ الشيء : جمعه وضمه ، والحامل : ولدت - لأن ظهور الولد هو المحقق لجمعها إياه في بطنها ، وأقرأ : رجع ودنا وأخر واستأخر وغاب وانصرف وتنسك كتقرأ ، بعضه للإيجاب وبعضه للسلب ، والمقرأة - كمعظمة : التي ينتظر بها انقضاء

أقرائها ، وقد قرئت : حبست لذلك ، وأقراء الشعر : أنواعه وانحاؤه - لأنها جامعة للأجزاء ، والقرءة - بالكسر : الوباء - لجمعه الهم ، واستقرأ الجمل الناقة : تاركها لينظر ألقحت أم لا - من التتبع والسبر ، وهو بمعنى جمع الأدلة ، وقرأت الناقة - إذا حملت ، فهي قارىء ، أي جمعت في بطنها ولداً ، وأقرأت - إذا استقر الماء في رحمها ؛ ومن الإمساك : رقأ الدم والدمع رقوءاً - إذا انقطعا ، قال أبو زيد : والرَّقوء - أي بالفتح : ما يوضع على الدم فيسكن ، ورقأ بينهم : أصلح وأفسد ، وفي الدرجة : صعد ، وهي المرقاة وتكسر ، ورقأ العرق : ارتفع - منه ما هو بمعنى الجمع ومنه ما هو بمعنى الانتشار والعلو الذي ربما لزماه ، ومن الإمساك : الأرق ، وهو السهر لأنه يمسك النوم ، والإرقان : دود يكون في الزرع - فكأنه يوجب الهم الذي يكون عنه الأرق ، ويمكن أن يكون من الانتشار الذي ربما يلزم الجمع ، ويمكن أن يكون من الجمع نفسه ، لأنه يجمع الهم - والله أعلم ؛ وفي القاموس : والإرقان بالكسر : شجر أحمر ، والحناء ، والزعفران ، ودم الأخوين - كأنه سبب للعكوف عليه بالاستروح إليه ، أو أنه يجمع بصبغه لوناً إلى لون ، والإرقان أيضاً : آفة تصيب الزرع والناس كالأرقان محركة وبكسرتين وبفتح الهمزة وضم الراء ، والأرق والأرقان - بفتحهما ، والأراق - كغراب ، واليرقان - محركة ، وهذه أشهر داء يتغير منه لون البدن فاحشاً إلى صفرة أو سواد - كأن ذلك لمّا كان سبب الأرق كان هو الأرق البليغ

، وزرع مأروق وميروق : مؤوف ، والأقر - بضمتين : واد واسع مملوء حمضاً ومياهاً ، وهو واضح في معنى الجمع ، قد مضى من هذه المادة جملة في آخر سورة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى

﴿ إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ [ يوسف : 109 ] وتأتي بقيتها إن شاء الله تعالى في سورة سبحان عند قوله ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ [ الكهف : 57 ] .

(12/423)

---

ولما وصف سبحانه هذا القرآن بما وصفه من العظمة والإبانة لجميع المقاصد التي منها سؤال الكفرة عند رؤية العذاب التأخير للطاعة في قوله تعالى ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ كان كأنه قيل : ما له لم يبين للكفرة سوء عاقبتهم بياناً يردهم ؟ فقال سبحانه باسطاً لقوله ﴿ ولينذروا به ﴾ ﴿ ربما يود ﴾ أشار تعالى بكونه مضارعاً إلى أن ودهم لذلك يكون كثيراً جداً متكرراً ، وإيلاءه لربما - وإنما يليها في الأغلب الماضي - معلم بأنه مقطوع به كما يقطع بالماضي الذي تحقق ووقع ﴿ الذين كفروا ﴾ أي ولو وقتاً ما والود : التمني وهو تقدير المعنى في النفس للاستمتاع ، وإظهار ميل الطباع له إليه ، وفيه اشتراك بين التمني والحب - قال الرماني ، وهو هنا للتمني فإنه بين مودودهم بقوله : ﴿ لو كانوا ﴾ أي

كوناً جبلياً ﴿ مسلمين ﴾ أي عريقين في وصف الإسلام من أول أمرهم إلى آخره ؛ قال الرماني : والإسلام : إعطاء الشيء على حال سلامة كإسلام الثوب إلى من يقصره ، وإسلام الصبي إلى من يعلمه ، فالإسلام الذي هو الإيمان - إعطاء معنى الحق في الدين بالإقرار والعمل به - انتهى .

(13/423)

---

وقد كان ما أخبر الله به فقد ندم كل من أسلم من الصحابة على تأخير إسلامه لما علموا فضل الإسلام ورأوا فضائل السابقين - كما هو مذكور في السير وفتوح البلدان وسيكون ما شاء من ذلك في القيامة وما قبلها ، فالمعنى أنكم إن كذبتم في القطع - في نحو قوله ﴿ فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا ﴾ [ إبراهيم : 44 ] ، الآية - بأنكم ترجعون عن هذا الشمم وتتبرؤون من هذه السجايا والهمم فتسألون الله تعالى في الطاعة ، وقد فات الفوت بحلول حادث الموت إلى غيره ، فلا أقل من أن يكون عندكم شك في الأمور التي يجوز كونها ، ولا ينبغي حينئذ للعاقل ترك الاهتمام بالاستعداد على تقدير هذا الاحتمال ، هذا - أعني التقليل - مدلول " رب " ، وقال بعضهم : إنها قد ترد للتكثير ، وقال الجمال ابن هشام في كتاب المغني : إنه أغلب أحوالها ، واستدل بشواهد لا تدل عند التأمل .

ولا يصح قول من نسب إلى الكشاف ذلك ، فإن كلامه مأخوذ من الزجاج ، وعبارة الزجاج - كما نقلها الإمام جمال الدين محمد بن المكرم في كتابه لسان العرب ومن خطه نقلت : من قال : إن رب يعني بها التكثير فهو ضد ما تعرفه العرب ، فإن قال قائل : فلم جازت في قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ و ﴿ رب ﴾ للتقليل ؟ فالجواب أن العرب خوطبت بما تعلمه في التهدد ، والرجل يتهدد الرجل فيقول : لعلك ستندم على فعلك ؟ وهو لا يشك أنه يندم ، ويقول : ربما ندم الإنسان على ما صنعت ، وهو يعلم أن الإنسان يندم كثيراً ، ولكن مجازه أن هذا لو كان مما يود في حال واحدة من أحوال العذاب ، أو كان الإنسان يخاف أن يندم على الشيء لوجب عليه اجتنابه ، والدليل عل أنه معنى التهدد قوله تعالى ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ انتهى .

(14/423)

---

فقد علم من هذا أنهم يطلقونها بمعنى القلة فيما يعلمون أنه كثير إرخاء للعنان وتنبيهاً على وجوب الأخذ بالأحوط ، وذلك واقع في التهديد ، وفرق كبير بين ما يعلم أنه كثير من أمر خارج عن العبارة المخبر بها عنه وبين ما تعرف كثرته من تلك العبارة ، وزيدت ما فيها تأكيداً من حيث إنها تفهم أن الأمر لا يكون إلا كذلك ، ولتهيئتها لمجيء الفعل بعدها ؛ قال

الإمام أبو حيان : والظاهر أن ما في رب ، مهيئة ، وذلك أنها من حيث هي حرف جر - على خلاف فيه - لا يليها إلا الأسماء ، فجيء بها مهيئة لمجيء الفعل بعدها ، وعلى كثرة مجيء رب في كلام العرب لم تجىء في القرآن إلا في هذا الموضع - انتهى .

ودخلت ههنا على المضارع - وهي للماضي - لأنه لصدق الوعد كأنه عيان قد كان ، أو لأن " ما " إذا لحقتها سوغت دخولها على المستقبل كما تدخل على المعرفة - قال الرماني .

ولما طرق لهم سبحانه الاحتمال ، كان كأنه قيل : هل جوزوه فأخذوا في الاستعداد له ؟ فقيل : بل استمروا على عنادهم ، فقال - مستأنفاً ملتفتاً إلى ما أشار إليه في أول سورة ابراهيم في قوله ﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ [ إبراهيم : 3 ] من المانع لهم عن الإذعان - : ﴿ ذرهم ﴾ يا أعز الخلق عندنا ! كالبهائم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ والتمتع : التلذذ ، وهو طلب اللذة حالاً بعد حال كالتقرب في أنه طلب القرب حالاً بعد حال ﴿ ويلههم ﴾ أي يشغلهم عن أخذ حظهم من السعادة ﴿ الأمل ﴾ أي رجاءهم طول العمر وبلوغ ما يقدره الوهم من الملاذ من غير سبب مهيىء لذلك

ولما كان هذا امراً لا يشتغل به إلا أحمق ، سبب عنه التهديد بقوله : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي ما يحل بهم بعد ما فسحنا لهم من زمن التمتع .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه : لما تقدم من وعيد الكفار ما تضمنه الآي المختتم بها سورة ابراهيم من لدن قوله سبحانه

(15/423)

---

﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ [ إبراهيم : 42 ] إلى خاتمتها ، أعقب ذلك بقوله : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ أي عند مشاهدة تلك الأحوال الجلائل ، ثم قال تعالى تأكيداً لذلك الوعيد ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ ثم أعقب تعالى : هذا ببيان ما جعله سنة في عباده من ارتباط الثواب والعقاب معجلة ومؤجلة بأوقات وأحيان ، لا انفكاك لها عنها ولا تقدم ولا تأخر ، إذ استعجال البطش في الغالب إنما يكون ممن يخاف الفوت ، والعالم بجملتهم لله تعالى وفي قبضته لا يفوته أحد منهم ولا يعجزه ، وقال تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ وكان هذا يزيد إيضاحاً قوله عز وجل : ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ [ إبراهيم : 42 ] وقوله : [ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ وقوله : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [ إبراهيم : 48 ] الآية ؛ وتأمل نزول قوله : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ على هذا وعظيم موقعه في اتصاله به ووضوح ذلك كله ، وأما افتتاح السورة بقوله : ﴿ الر تلك

آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ فإحالة على أمرين واضحين : أحدهما ما نبه به سبحانه من الدلائل والآيات كما يفسر ، والثاني ما بينه القرآن المجيد وأوضحه وانطوى عليه من الدلائل والغيوب والوعد والوعيد وتصديق بعض ذلك بعضاً ، فكيف لا يكون المتوعد به في قوة الواقع المشاهد ، لشدة البيان في صحة الوقوع فالعجب من التوقف والتكذيب ! ثم أعقب هذا بقوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 199.205 ﴾

(16/423)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ربما ﴾ بفتح الباء مخففة : أبو جعفر ونافع وعاصم غير الشموني . و ﴿ ربما ﴾ بضم الباء خفيفة : الشموني . الباقون بالفتح والتشديد ﴿ ما ننزل ﴾ بالنون ﴿ الملائكة ﴾ بالنصب : حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد . ﴿ ما تنزل ﴾ بضم التاء وفتح الزاي المشددة ﴿ الملائكة ﴾ بالرفع : أبو بكر وحماد الباقون مثله ، ولكن بفتح التاء ﴿ ما تنزل ﴾ بالإدغام : البزي وابن فليح ﴿ سكرت ﴾ خفيفة : ابن كثير

﴿ فتحنا ﴾ بالتشديد : يزيد ﴿ الريح ﴾ على التوحيد : حمزة وخلف ﴿ صراط على ﴾ بكسر اللام ورفع الياء على النعت : يعقوب الآخرون ﴿ عليّ ﴾ جاراً ومجروراً ﴿ وعيون ﴾ بكسر العين : حمزة وعلي وابن كثير وابن ذكوان والأعشى ويحيى وحماد . الباقون بضمها ﴿ نبىء عبادي ﴾ مثل نبئنا عبادي أني بالفتح فيهما : ﴿ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . والآخرون بالإسكان .

(17/423)

---

الوقوف ﴿ آلر ﴾ قف كوفي ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ مسلمين ﴾ ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ معلوم ﴾ 5 ﴿ وما يستأخرون ﴾ 5 ﴿ لمجنون ﴾ 5 ط لأن التحضيض له صدر الكلام ﴿ الصادقين ﴾ 5 ﴿ منظرين ﴾ 5 ﴿ لحافظون ﴾ 5 ﴿ الأولين ﴾ 5 ﴿ يستهزءُون ﴾ 5 ﴿ المجرمين ﴾ 5 ﴿ الأولين ﴾ 5 ﴿ يعرجون ﴾ 5 ﴿ مسحورون ﴾ 5 ﴿ للناظرين ﴾ لا ﴿ رجيم ﴾ لا 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ موزون ﴾ 5 ﴿ برازقين ﴾ 5 ﴿ خزائنه ﴾ ز لاتفاق الجملتين مع الفصل بي معنيي الجمع في التقدير والتفريق في التنزيل . ﴿ فأسقيناكموه ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف أو الحال ﴿ بخازنين ﴾ 5 ﴿ الوارثون ﴾ 5 ﴿ المستأخرين ﴾ 5 ﴿ يحشرهم ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ مسنون

﴿ 5 ج لاتفاق الجملتين مع تقدم المفعول في الثانية ﴿ السموم ﴾ 5 ﴿ مسنون ﴾ 5 ﴿ ساجدين ﴾ 5 ﴿ أجمعون ﴾ 5 لا ﴿ إلا إبليس ﴾ ط ﴿ الساجدين ﴾ 5 ﴿ مسنون ﴾ 5 ﴿ رجيم ﴾ 5 ﴿ الدين ﴾ 5 ﴿ يبعثون ﴾ 5 ﴿ من المنظرين ﴾ لا 5 ﴿ المعلوم ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ لا 5 ﴿ المخلصين ﴾ 5 ﴿ مستقيم ﴾ 5 ﴿ الغاوين ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ أبواب ﴾ ط ﴿ مقسوم ﴾ 5 ﴿ وعيون ﴾ 5 لإرادة القول بعده ﴿ آمنين ﴾ 5 ﴿ متقابلين ﴾ 5 ﴿ بمخرجين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ لا ﴿ الأليم ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 208 . 209 ﴾

(18/423)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات .

والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم ، والمعنى : تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتاباً وفي

كونه قرآناً مفيداً للبيان .

أما قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وعاصم ﴿ رُبَمَا ﴾ خفيفة الباء والباقون مشددة قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما ، وقيس وبكر يثقلونها ، وأقول في هذه اللفظة لغات ، وذلك لأن الراء من رب وردت مضمومة ومفتوحة ، أما إذا كانت مضمومة فالباء قد وردت مشددة ومخففة وساكنة وعلى كل التقديرات تارة مع حرف ما ، وتارة بدونها وأيضاً تارة مع التاء وتارة بدونها وأنشدوا :

أسمى ما يدريك أن رب فتية . . باكرت لذتهم بأذكر مسرع

ورب بتسكين الباء وأنشدوا بيت الهذلي :

أزهير أن يشب القذال فإنني . . رب هيضل مرس كفقت بهيضل

والهيضل جماعة متسلحة ، وأيضاً هذه الكلمة قد تجيء حالتي تشديد الباء وتخفيفها مع حرف "ما" كقولك : ربما وربما وتارة مع التاء ، وحرف "ما" كقولك : ربتما وربتما هذا كله إذا كانت الراء من رب مضمومة وقد تكون مفتوحة ، فيقال : رب وربما وربتما حكاه قطرب قال أبو علي : من الحروف ما دخل عليه حرف التأنيث ، نحو : ثم وثمت ، ورب وربت ، ولا ولات ، فهذه اللغات بأسرها رواها الواحدي في "البسيط" .

المسألة الثانية :

رب حرف جر عند سيبويه ، ويلحقها "ما" على وجهين : أحدهما : أن تكون نكرة بمعنى شيء ، وذلك كقوله :

رب ما تكره النفوس من الأم . . ر له فرجة كحل العقال

(19/423)

---

فما في هذا البيت اسم والدليل عليه عود الضمير إليه من الصفة ، فإن المعنى رب شيء تكرهه النفوس وإذا عاد الضمير إليه كان اسماً ولم يكن حرفاً ، كما أن قوله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ [ المؤمنون : 55 ] لما عاد الضمير إليه علمنا بذلك أنه اسم ، ومما يدل على أن "ماء" قد يكون اسماً إذا وقعت بعد رب وقوع من بعدها في قول الشاعر :

يا رب من ينقص أزوادنا . . رحن على نقصانه واغتدين

فكما دخلت رب على كلمة "من" وكانت نكرة ، فكذلك تدخل على كلمة ( ما ) فهذا ضرب والضرب الآخر أن تدخل ما كافة كما في هذه الآية والنحويون يسمون ما هذه الكافة يريدون أنها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذي كان له ، وإذا حصل هذا الكف

فحينئذ تتهيأ للدخول على ما لم تكن تدخل عليه ، ألا ترى أن رب إنما تدخل على الاسم المفرد نحو رب رجل يقول ذاك ولا تدخل على الفعل ، فلما دخلت "ما" عليها هيأتها للدخول على الفعل كهذه الآية ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

اتفقوا على أن رب موضوعة للتقليل ، وهي في التقليل نظيرة كم في التكثير ، فإذا قال الرجل : ربما زارنا فلان ، دل ربما على تقليله الزيارة .

قال الزجاج : ومن قال إن رب يعني بها الكثرة ، فهو ضد ما يعرفه أهل اللغة ، وعلى هذا التقدير : فههنا سؤال ، وهو أن تمني الكافر الإسلام مقطوع به ، وكلما رب تفيد الظن ، وأيضاً أن ذلك التمني يكثر ويتصل ، فلا يليق به لفظة ﴿ رُبَّمَا ﴾ مع أنها تفيد التقليل .

والجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن من عادة العرب أنهم إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظاً وضع للتقليل ، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظاً وضع للشك ، والمقصود منه : إظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض ، فيقولون : ربما ندمت على ما فعلت ، ولعلك تندم على فعلك ، وإن كان العلم حاصلاً بكثرة الندم ووجوده بغير شك ، ومنه قول القائل :

قد أترك القرن مصفراً أنامله . . والوجه الثاني : في الجواب أن هذا التقليل أبلغ في التهديد ، ومعناه : أنه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً عن هذا الفعل فكيف كثيره ؟

والوجه الثالث : في الجواب أن يشغلهم العذاب عن تمني ذاك إلا في القليل .

المسألة الرابعة :

اتفقوا على أن كلمة "رب" مختصة بالدخول على الماضي كما يقال : ربما قصدني عبد الله ، ولا يكاد يستعمل المستقبل بعدها .

وقال بعضهم : ليس الأمر كذلك والدليل عليه قول الشاعر :

ربما تكره النفوس من الأمر . . وهذا الاستدلال ضعيف ، لأنا بينا أن كلمة "رب" في هذا البيت داخلة على الاسم وكلامنا في أنها إذا دخلت على الفعل وجب كون ذلك الفعل ماضياً ، فأين أحدهما من الآخر ؟ إلا أني أقول قول هؤلاء الأدباء إنه لا يجوز دخول هذه الكلمة على الفعل المستقبل لا يمكن تصحيحه بالدليل العقلي ، وإنما الرجوع فيه إلى النقل والاستعمال ، ولو أنهم وجدوا بيتاً مشتملاً على هذا الاستعمال لقالوا إنه جائز صحيح وكلام الله أقوى وأجل وأشرف ، فلم لم يتمسكوا بوروده في هذه الآية على جوازه وصحته .

ثم نقول إن الأدباء أجابوا عن هذا السؤال من وجهين : الأول : قالوا : إن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه ، فكأنه قيل : ربما ودوا .

الثاني : أن كلمة "ما" في قوله : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ اسم و ﴿ يَوَدُّ ﴾ صفة له ، والتقدير : رب شيء يوده الذين كفروا .

قال الزجاج : ومن زعم أن الآية على إضمار كان وتقديره ربما يود الذين كفروا فقد خرج بذلك عن قول سيبويه ألا ترى أن كان لا تضمر عنده ولم يجز عبد الله المقبول وأنت تريد كان عبد الله المقبول .

المسألة الخامسة :

(21/423)

---

في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين فإن كل أحد حمل قوله : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ على محمل آخر ، والأصح ما قاله الزجاج فإنه قال : الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلماً ، وهذا الوجه هو الأصح .

وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوهاً .

قال الضحاك : المراد منه ما يكون عند الموت ، فإن الكافر إذا شاهد علامات العقاب ود لو كان مسلماً .

وقيل : إن هذه الحالة تحصل إذا اسودت وجوههم ، وقيل : بل عند دخولهم النار ونزول

العذاب ، فإنهم يقولون : ﴿ أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ﴾ [ إبراهيم : 44 ] وروى أبو موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لهم : ألستم مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم ، وقد صرتم معنا في النار ، فيتفضل الله تعالى بفضل رحمته ، فيأمر بإخراج كل من كان من أهل القبلة من النار ، فيخرجون منها ، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية .

وعلى هذا القول أكثر المفسرين ، وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما يزال الله يرحم المؤمنين ، ويخرجهم من النار ، ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة ، حتى أنه تعالى في آخر الأمر يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة .

قال : فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .



---

قال القاضي : هذه الروايات مبنية على أنه تعالى يخرج أصحاب الكبائر من النار ، وعلى أن شفاعة الرسول مقبولة في إسقاط العقاب ، وهذان الأصلان عنده مردودان ، فعند

هذا حمل هذا الخبر على وجه يطابق قوله ويوافق مذهبه وهو أنه تعالى يؤخر إدخال طائفة من المؤمنين الجنة بحيث يغلب على ظن هؤلاء الكفرة أنه تعالى لا يدخلهم الجنة ، ثم إنه تعالى يدخلهم الجنة فيزداد غم الكفرة وحسرتهم وهناك يودون لو كانوا مسلمين ، قال فبهذه الطريق تصحح هذه الأخبار ، والله أعلم .

فإن قيل : إذا كان أهل القيامة قد يتمنون أمثال هذه الأحوال وجب أن يتمنى المؤمن الذي يقل ثوابه درجة المؤمن الذي يكثر ثوابه ، والمتمني لما لم يجده يكون في الغصة وتألم القلب وهذا يقضي أن يكون أكثر المؤمنين في الغصة وتألم القلب .

قلنا : أحوال أهل الآخرة لا تقاس بأحوال أهل الدنيا ، فالله سبحانه أرضى كل أحد بما فيه ونزع عن قلوبهم طلب الزيادات كما قال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [ الحجر : 47 ] ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

المعنى : دع الكفار يأخذوا حظوظهم من دنياهم فتلك أخلاقهم ولا خلاق لهم في الآخرة وقوله : ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأمل ﴾ يقال : لهيت عن الشيء ألهي لهياً ، وجاء في الحديث أن ابن الزبير كان إذا سمع صوت الرعد لهى عن حديثه .

قال الكسائي والأصمعي : كل شيء تركته فقد لهيت عنه وأنشد :

صرمت حبالك فاله عنها زينب . . ولقد أطلت عتابها لو تعتب

فقوله فاله عنها أي اتركها وأعرض عنها .

قال المفسرون : شغلهم الأمل عند الأخذ بحظهم عن الإيمان والطاعة فسوف يعلمون .

المسألة الثانية :

(23/423)

---

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى قد يصد عن الإيمان ويفعل بالمكلف ما يكون له مفسدة في الدين ، والدليل عليه أنه تعالى قال لرسوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل ﴾ فحكم بأن إقبالهم على التمتع واستغراقهم في طول الأمل يلهيهم عن الإيمان والطاعة ثم إنه تعالى أذن لهم فيها ، وذلك يدل على المقصود .

قالت المعتزلة : ليس هذا إذناً وتجويزاً بل هذا تهديد ووعيد .

قلنا ظاهر قوله : ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ إذن أقصى ما في الباب أنه تعالى نبه على أن إقبالهم على هذه الأعمال يضرهم في دينهم ، وهذا عين ما ذكرناه من أنه تعالى أذن في شيء مع أنه نص على كون ذلك الشيء مفسدة لهم في الدين .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين، والأخبار في ذم الأمل كثيرة فمنها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان: الحرص على المال وطول الأمل" وعنه صلى الله عليه وسلم أنه نقط ثلاث وقال: "هذا ابن آدم، وهذا الأمل، وهذا الأجل، ودون الأمل تسع وتسعون منية فإن أخذته إحداهن، وإلا فالهرم من ورائه" وعن علي عليه السلام أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل واتباع الهوى، فإن طول الأمل ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق، والله أعلم. انتهى ا. هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 120. 123﴾

(24/423)

---

وقال الماوردى:

﴿الر تلك أيات الكتاب وقرآن مبين﴾

فيه تأويلان:

أحدهما: أن الكتاب هو القرآن، جمع له بين الاسمين.

الثاني: أن الكتاب هو التوراة والانجيل، ثم قرنها بالقرآن بالقرآن المبين. وفي المراد بالمبين

ثلاثة أوجه :

أحدها : المبين إعجازه حتى لا يعارض .

الثاني : المبين الحق من الباطل حتى لا يشكلا .

الثالث : المبين الحلال من الحرام حتى لا يشتبها .

قوله عز وجل : ﴿ رُبَما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ وفي زمان هذا التمني ثلاثة أقاويل :

أحدها : عند المعاينة في الدنيا حين يتبين لهم الهدى من الضلالة ، قاله الضحاك .

الثاني : في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

الثالث : إذا دخل المؤمن الجنة ، والكافر النار .

وقال الحسن : إذا رأى المشركون المؤمنين وقد دخلوا الجنة وصاروا هم إلى النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين .

وربما مستعملة في هذا الموضع للكثير ، وإن كانت في الأصل موضوعة للتقليل ، كما قال الشاعر :

ألا ربّما أهدت لك العينُ نظرة . . . قصاراكِ مِنْها أنها عنك لا تجدي

وقال بعضهم هي للتقليل أيضاً في هذا الموضع ، لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها .

قوله عز وجل : ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾

يعني من أهل قرية .

﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أجل مقدر .

الثاني : فرض محتوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(25/423)

---

وقال ابن عطية :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور . و ﴿ تلك ﴾ يمكن أن تكون إشارة إلى حروف المعجم – بحسب بعض الأقوال – ويمكن أن تكون إشارة إلى الحكم والعبر ونحوها التي تضمنتها آيات التوراة والإنجيل ، وعطف القرآن عليه . قال مجاهد وقتادة : ﴿ الكتاب ﴾ في الآية ، ما نزل من الكتب قبل القرآن ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ الكتاب ﴾ القرآن ، ثم تعطف الصفة عليه .

وقرأ نافع وعاصم " ربَما " بتخفيف الباء . وقرأ الباقون بشدها ، إلا أن أبا عمرو قرأها على الوجهين ، وهما لغتان ، وروي عن عاصم " رُبما " بضم الراء والباء مخففة ، وقرأ

طلحة بن مصرف " ربتما " بزيادة تاء ، وهي لغة . و﴿ ربما ﴾ للتقليل وقد تجيء شاذة للتكثير ، وقال قوم : إن هذه من ذلك ، ومنه : رب رفد هرقته . ومنه :

رب كأس هرقت يا ابن لؤي . . . . وأنكر الزجاج أن تجيء " رب " للتكثير . و" ما " التي تدخل عليها " رب " قد تكون اسماً نكرة بمنزلة شيء ، وذلك إذا كان في الضمير عائد عليه ، كقول الشاعر : [ الخفيف ]

ربما تكره النفوس من الأم . . . ر له فرجة كحل العقال

التقدير : رب شيء ، وقد تكون حرفاً كافاً لرب وموطئاً لها لتدخل على الفعل إذ ليس من شأنها أن تدخل إلا على الأسماء ، وذلك إذا لم يكن ثم ضمير عائد كقول الشاعر : [ جذيمة الأبرش ] [ المديد ]

ربما أوفيت في علم . . . ترفعن ثوبي شمالات

قال القاضي أبو محمد : وكذلك دخلت " ما " على " من " كافة ، في نحو قوله : وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مما يحرك شفتيه . ونحو قول الشاعر : [ الطويل ]

وإنا لمما نضرب الكبش ضربة . . . على رأسه تلقي اللسان من الفم

قال الكسائي والفراء : الباب في " ربما " أن تدخل على الفعل الماضي ، ودخلت هنا على المستقبل إذ هذه الأفعال المستقبلة من كلام الله تعالى لما كانت صادقة حاصلة ولا بد جرت مجرى الماضي الواقع .

قال القاضي أبو محمد : وقد تدخل رب على الماضي الذي يراد به الاستقبال ، وتدخل على العكس . والظاهر في ﴿ ربما ﴾ في هذه الآية أن " ما " حرف كاف – هكذا قال أبو علي ، قال : ويحتمل أن تكون اسماً ، ويكون في ﴿ يود ﴾ ضمير عائد عليه ، التقدير : رب ود أو شيء يوده ﴿ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : ويكون ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ بدلاً من " ما " .

وقالت فرقة : تقدير الآية : ربما كان يود الذين كفروا . قال أبو علي : وهذا لا يجيزه سيبويه ، لأن كان لا تضمر عنده .

واختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الكفار أن لو كانوا مسلمين ، فقالت فرقة : هو عند معاينة الموت في الدنيا – حكى ذلك الضحاك – وفيه نظر ، لأنه لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين ، وقالت فرقة : هو عند معاينة أهوال يوم القيامة – قاله مجاهد – وهذا بين ، لأن حسن حال المسلمين ظاهر ، فتود ، وقال ابن عباس وأنس بن مالك : هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة ، واحتج لهذا القول بحديث روي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري وهو : أن الله إذا أدخل عصاة المسلمين النار نظر إليهم

الكفار فقالوا : ليس هؤلاء من المسلمين فماذا أغنت عنهم لا إله إلا الله ؟ قال : فيغضب الله تعالى لقولهم ، فيقول : أخرجوا من النار كل مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" فحينئذ يود الذين كفروا أن لو كانوا مسلمين " .

قال القاضي أبو محمد : ومن العبر في هذه الآية حديث الوابصي الذي في صدر ذيل الأمالي ، ومقتضاه أنه ارتد ونسي القرآن إلا هذه الآية .

وقوله : ﴿ ذرهم يأكلوا ﴾ الآية وعيد وتهديد ، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف .

وقوله : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ وعيد ثان ، وحكى الطبري عن بعض العلماء أنه قال : الأول في الدنيا ، والثاني في الآخرة ، فكيف تطيب حياة بين هذين الوعيدين ؟

ومعنى قوله : ﴿ ويلههم ﴾ أي يشغلهم أملهم في الدنيا والتزيد منها عن النظر والإيمان بالله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(27/423)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب ﴾

قد سبق بيانه [ يونس : 1 ] .

قوله تعالى : ﴿ وقرآن مبين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن القرآن هو الكتاب ، جُمع له بين الاسمين .

والثاني : أن الكتاب : هو التوراة والإنجيل ، والقرآن : كتابُنا .

وقد ذكرنا في أول ( يوسف ) معنى المبين .

قوله تعالى : ﴿ ربما ﴾ وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة والكسائي "رُبَّما" مشددة .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وعبد الوارث "رُبَما" بالتخفيف .

قال الفراء : أسَد وتميم يقولون : "رُبَّما" بالتشديد ، وأهل الحجاز وكثير من قيس يقولون : "رُبَما" بالتخفيف .

وتَيْم الرِّباب يقولون : "رَبَّما" بفتح الراء .

وقيل : إنما قرئت بالتخفيف ، لِما فيها من التضعيف والحروف ، المضاعَفة قد تحذف ، نحو "إنّ" و "لكنّ" فإنهم قد خفَّفوها .

قال الزجاج : يقولون : رُبَّ رُجل جاءني ، ورُبَ رُجل جاءني ، وأنشد :

أزهيرُ إنْ يَشِبِ القَذالُ فإنني . . .

رُبَ هَيْضَلٍ مَرِسٍ لفَفْتُ بِهيضَلِ

هذا البيت لأبي كبير الهذلي ، وفي ديوانه :

رُبَ هَيْضَلٍ لجَبٍ لففْتُ بِهَيْضَلِ . . .

والهَيْضَل : جمع هَيْضلة ، وهي الجماعة يُغزى بهم يقول : لففتهم بأعدائهم في القتال .

و"رُبَّ" كلمة موضوعة للتقليل ، كما أن "كم" للتكثير ، وإنما زيدت "ما" مع "رُبَّ" ليليَها الفعل ، تقول : رُبَّ رجل جاءني ، وربما جاءني زيد .

وقال الأخفش : أُدخل مع "رُبَّ" ما ، ليُتكلم بالفعل بعدها ، وإن شئت جعلت "ما" بمنزلة "شيء" ، فكأنك قلت : رُبَّ شيء ، أي : رُبَّ وَدٍّ يَوَدُّه الذين كفروا .

وقال أبو سليمان الدمشقي : "ما" هاهنا بمعنى "حين" ، فالمعنى : رُبَّ حين يَوَدُّون فيه .

واختلف المفسرون متى يقع هذا من الكفار ، على قولين : أحدهما : أنه في الآخرة .

ومتى يكون ذلك ؟ فيه أربعة أقوال .



---

أحدها : أنه إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله من أهل القِبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها ؛ فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان في

النار من أهل القِبلة فأُخرجوا فلما رأى ذلك الكفار ، قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنُخرَج كما أُخرجوا ، رواه أبو موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهب إليه ابن عباس في رواية وأنس بن مالك ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو العالية ، وإبراهيم .

والثاني : أنه ما يزال الله يرحم ويشفِّع حتى يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة ، فذلك حين يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثالث : أن الكفار إذا عاينوا القيامة ، وَدُّوا لو كانوا مسلمين ، ذكره الزجاج .

والرابع : أنه كلما رأى أهل الكفر حالاً من أحوال القيامة يعذَّب فيها الكافر ويَسلم من مكروهها المؤمن ، وَدُّوا ذلك ، ذكره ابن الأنباري .

والقول الثاني : أنه في الدنيا إذا عاينوا وتبين لهم الضلال من الهدى وعلموا مصيرهم ، وَدُّوا ذلك ، قاله الضحاك .

فإن قيل : إذا قلتم : إن "رُبَّ" للتقليل ، وهذه الآية خارجة مخرج الوعيد ، فإنما يناسب الوعيدَ تكثيرُ ما يُتواعَد به ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري : أحدهن : أن "ربما" تقع على التقليل والتكثير ، كما يقع الناهل على العطشان والريّان ، والجَوْن على الأسود والأبيض .

والثاني : أن أهوال القيامة وما يقع بهم من الأهوال تكثُر عليهم ، فإذا عادت إليهم عقولهم ، وَدُّوا ذلك .

والثالث : أن هذا الذي خُوِّفوا به ، لو كان مما يُوَدُّ في حال واحدة من أحوال العذاب ، أو كان الإِنسان يخاف الندم إِذا حصل فيه ولا يتيقّنه ، لوجب عليه اجتنابه .

(29/423)

---

فإن قيل : كيف جاء بعد "ربما" مستقبَل ، وسبيلها أن يأتي بعدها الماضي ، تقول : ربما لقيت عبد الله ؟ فالجواب : أن ما وَعَدَ الله حَقٌّ ، فمستقبَلُه بمنزلة الماضي ، يدل عليه قوله : ﴿ وإِذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ [ المائدة 116 ] وقوله : ﴿ ونادى أصحابُ الجنة ﴾ [ الأعراف : 44 ] ﴿ ولو ترى إِذ فزعوا فلا فوت ﴾ [ سبأ 51 ] ، على أن الكسائي والفراء حكيا عن العرب أنهم يقولون : ربما يندم فلان ، قال الشاعر :

رُبَّما تجزَعُ النفوس من الأم . . .

ر له فُرجَةٌ كَحَلِّ العِقالِ

قوله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ﴾ أي : دع الكفار يأخذوا حظوظهم في الدنيا ، ﴿ ويلههم الأَمَل ﴾ أي : ويشغلهم ما يأملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإِيمان والطاعة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ إِذا وردوا القيامة وبالَ ما صنعوا ، وهذا وعيد وتهديد ، وهذه الآية عند المفسرين منسوخه بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

تقدّم معناه .

و"الكتاب" قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل ، ثم قرنهما

بالكتاب المبين .

وقيل : الكتاب هو القرآن ، جمع له بين الاسمين .

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ﴾

"رُبّ" لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها "ما" هيّأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد

، وربما يقوم زيد .

ويجوز أن تكون "ما" نكرة بمعنى شيء ، و"يود" صفة له ؛ أي رب شيء يودّ الكافر .

وقرأ نافع وعاصم "ربما" مخفّف الباء .

الباقون مشدّدة ، وهما لغتان .

قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربّما ؛ قال الشاعر :

رُبَما ضربةٍ بسيف صقيلٍ . . .

بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاء

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها .

وحكي فيها : رُبَّمَا ورُبَمَا ، ورُبَّتَمَا ورُبَتَمَا ، بتخفيف الباء وتشديدها أيضاً .

وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير ؛ أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ؛ قاله الكوفيون .

ومنه قول الشاعر :

ألا ربّما أهدت لك العين نظرةً . . .

قُصاراك منها أنها عنك لا تُجدِي

وقال بعضهم : هي للتقليل في هذا الموضع ؛ لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها ؛ لشَغْلهم بالعذاب ، والله أعلم .

وقال : "رُبَمَا يَوَدُّ" وهي إنما تكون لما وقع ؛ لأنه لصدق الوعد كأنه عِيان قد كان .

وخرّج الطبرانيّ أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن ناساً من أمتي يدخلون النار بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم

نَفَعَكم فلا يبقى موحّد إلا أخرجه الله من النار " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ رُبَّمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ .

(31/423)

---

قال الحسن : إذا رأى المشركون المسلمين وقد دخلوا الجنة وما رأواهم في النار تمنّوا أنهم كانوا مسلمين .

وقال الضحاك : هذا التمني إنما هو عند المعاينة في الدنيا حين تبيّن لهم الهدى من الضلالة .

وقيل : في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ تهديد لهم .

﴿ وَيُلْهِهِمُ الأمل ﴾ أي يشغلهم عن الطاعة .

يقال : ألهاه عن كذا أي شغله .

ولِهِيَ هو عن الشيء يَلْهَى .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا .

وهذه الآية منسوخة بالسيف .

الثانية : في مسند البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " وطولُ الأمل داء عضال ومرض مزمن ، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه ، ولم يفارقه داء ولا نجع فيه دواء ، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء .

وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها ، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل " ويروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : يا أهل دمشق ، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنّ من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون مشيّداً ويأملون بعيدا ، فأصبح جمعهم بُوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً .

هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً ، فمن يشتري مني اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد :

يا ذا المؤمل آمالا وإن بَعُدت . . .

منه ويزعم أن يحظى بأقصاها

أَنَّى تفوز بما ترجوه وَيْكَ وما . . .

أصبحت في ثقة من نَيْل أدناها

(32/423)

---

وقال الحسن : ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل .

وصدق رضي الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخي والتواني ، ويعقب التشاغل والتقاعس ، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى .

وهذا أمر قد شوهد بالعِيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان ؛ كما أن قصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة ، ويحثّ على المسابقة . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(33/423)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾

تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين : الكتاب الذي وعد به الله محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) ، وتنكير القرآن للتفخيم ، والتعظيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً ، وفي كونه قرآناً وأي قرآن كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان وقيل : أراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، لأن عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوي ، لأنه لم يجر للتوراة والإنجيل ذكر حتى يشار إليهما .

وقيل : المراد بالكتاب القرآن وإنما جمعهما بوصفين وإن كان الموصوف واحداً لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم ، والمبين الذي يبين الحلال من الحرام ، والحق من الباطل ﴿ ربما ﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير ، وإنما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وإن شئت جعلت ما بمنزلة شيء كأنك قلت رب شيء فتكون المعنى رب شيء ﴿ يود الذين كفروا ﴾ وقيل : ما في ربما بمعنى حين أي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا لأن التمني هو : تشهي حصول ما يوده ، واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذي كفروا ﴿ لو كانو مسلمين ﴾ على قولين أحدهما : أن ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر أنه كان على الضلال ، فيتمنى لو كان مسلماً ، وذلك حين لا ينفعه ذلك التمني .

قال الضحاك : هو عند حالة المعاينة والقول الثاني : إن هذا التمني يكون في الآخرة ، وذلك

حين يعاينون أهوال يوم القيامة وشدائده وما يصيرون عليه من العذاب فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

(34/423)

---

وقال الزجاج : أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلماً وقيل إذا رأى الكافر أن الله تعالى يرحم المسلمين ، ويشفع بعضهم في بعض حين يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور أن ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى الأشعري عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) " قال إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين ؟ قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار .

قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة في النار ، فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " ذكره البغوي بغير سند ، وكذا ذكره ابن الجوزي وقال : وإليه ذهب ابن عباس في رواية عنه عن أنس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وإبراهيم يعني النخعي .

فإن قلت : رب إنما وضعت للتقليل ، وتمني الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال : ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

قلت : قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على فعله ، ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ، ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو كان قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغمِّ المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره إن هذا القليل أبلغ في التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجراً لك عن هذا الفعل .

فيكف بكثيره ؟ وقيل : إن شغلهم بالعذاب لا يقرعهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم .

(35/423)

---

فإن قلت : رب لا تدخل إلا على الماضي فكيف قال : ربما يود وهو في المستقبل قلت لأن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه كأنه قال : ربما ود .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ يعني دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا في دنياهم ويتمتعوا بلذاتها ﴿ ويلههم الأمل ﴾ يعني ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والأخذ

بطاعة الله تعالى ﴿ فسوف يعلمون ﴾ يعني إذا وردوا القيامة ، وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ، ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله ، وقال بعض أهل العلم : ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال ، وفي الآية دليل على أن إيثار التلذذ ، والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين .

قال علي بن أبي طالب : إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى فإن طول الأمل ، ينسي الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(36/423)

---

وقال أبو السعود :

﴿ الر ﴾ قد مر الكلام فيه وفي محله في مطلع سورة الرعدِ وأخواتِها ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إليه أي تلك السورةُ العظيمةُ الشأن ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ الكاملِ المعهود الغنيِّ عن الوصف به المشهورُ بذلك من بين الكتب الحقيقُ باختصاص اسمِ الكتاب به على الإطلاق ، أي بعضٌ منه مترجمٌ مستقلٌّ باسم خاصَ فهو عبارةٌ عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزلِ

إذ ذاك إذ هو المتسارعُ إلى الفهم حينئذ عند الإطلاق وعليه يترتب فائدةُ وصف الآياتِ بنعت ما أُضيفت إليه من نعوت الكمالِ لا على جعله عبارةً عن السورة ، إذ هي في الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبةِ من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارةٌ عن جميع آياتها ، فلا بد من جعل ( تلك ) إشارةً إلى كل واحد منها ، وفيه من التكلف ما لا يخفى كما ذكر في سورة الرعد ﴿ وَقُرْءانَ ﴾ أي قرآنٍ عظيمِ الشأن ﴿ مُّبِينٌ ﴾ مظهر لما في تضاعيفه من الحِكَم والأحكام أو لسبيل الرشدِ والغيِّ أو فارقٍ بين الحق والباطل والحلالِ والحرام ، ولقد فُخّم شأنه العظيم مع ما جُمع فيه من وصفي الكتابية والقرآنية على الطريقتين ، إحداهما اشتمالُه على صفات كمالِ جنس الكتبِ الإلهية فكأنه كلُّها ، والثانية طريقةُ كونِه ممتازاً عن غيره نسيجَ وحدِه بديعاً في بابه خارجاً عن دائرة البيانِ ، وأُخّرت الثانية لما أن الإشارةَ إلى امتيازه عن سائر الكتبِ بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه من الكتب أدخل في المدح كيلا يُتوهّم من أول الأمرِ أن امتيازَه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصةٍ به من غير اشتمالٍ على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة ، وهكذا الكلامُ في فاتحة سورةِ النمل خلا أنه قُدّم فيها القرآنُ على الكتاب لما سيذكر هناك . ولمّا بيّن كونُ السورة الكريمةِ بعضاً من الكتاب والقرآنِ لتوجيه المخاطَبين إلى حُسن تلقّي ما فيها من الأحكام والقِصص والمواعظ شرُع في بيان ما تضمّنه فقيل :

(37/423)

﴿ رُبَمَا ﴾ بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحةِ ، وقرىء بالتشديد وبفتح الراء مخففاً وبزيادة التاء مشدداً ، وفيه ثماني لغات : فتح الراء وضمها مشدداً ومخففاً وبزيادة التاء أيضاً مشدداً ومخففاً ، ورُبَّ حرفُ جر لا يدخُل إلا على الاسم ، وما كافةٌ مصحّحةٌ لدخوله على الفعل وحقُّه الدخولُ على الماضي ، ودخولُه على قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ لما أن المترقَّب في أخباره تعالى كالماضي المقطوعِ في تحقيق الوقوع ، فكأنه قيل : ربما وَد الذين كفروا ، والمرادُ كفرُهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى ﴿ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لحكمه ومذعِنين لأمره ، وفيه إيذانٌ بأن كفرَهم إنما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه من عند الله تعالى ، وتلك الوَدادةُ يومَ القيامة أو عند موتهم أو عند معاينةِ حالِهم وحال المسلمين ، أو عند رؤيتهم خروجَ عصاةِ المسلمين من النار .

(38/423)

روى أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة واجتمع أهلُ النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله تعالى من أهل القِبلة قال لهم الكفارُ : ألستم مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامُكم وقد صِرتم معنا إلى النار ؟

قالوا : كانت لنا ذنوبٌ فأُخِذْنا بها ، فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمُر بكل من كان من أهل القِبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يوَدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين " وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا يزال الربُّ يرحم ويُشفع إليه حتى يقول مَنْ كان من المسلمين فليدخُل الجنة ، فعند ذلك يتمنَّوْن الإسلام . والحقُّ أن ذلك محمولٌ على شدة وَدادِتهم وأما نفسُ الودادِة فليست بمختصة بوقت دون وقت بل هي مقرَّرة مستمرّةٌ في كل آن يمر عليهم ، وأن المراد بيانُ ذلك على ما هو عليه من الكثرة وإنما جيء بصيغة التقليلِ جرياً على سنن العرب فيما يقصِدون به الإفراط فيما يعكسون عنه ، تقول لبعض قوادِ العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : ربَّ فارسٍ عندي ، أو لا تعدمُ عندي فارساً وعنده مناقبُ جمّةٌ من الكتائب ، وقصدُه في ذلك التماري في تكثير فرسانه ولكنه يريد إظهارَ براءته من التزيد وإبرازَ أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثيرَ ما عنده فضلاً عن تكثير القليل ، وهذه طريقةٌ إنما تسلك إذا كان الأمر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبةُ ريب فيُصار إليه هضماً للحق ، فدل النظمُ الكريم على وَدادةِ الكافرين للإسلام في كل آن من آنات اليومِ الآخر ، وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جيء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادةَ مع كثرتها في نفسها مما يُستقل بالنسبة إلى جناب الكبرياءِ ، وهذا هو الموافقُ لمقام بيانِ حقارةِ شأنِ الكفار وعدمِ الاعتدادِ بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ ﴾ الآية ،

(39/423)

أو ذهاباً إلى الإشعار بأن من شأن العاقلِ إذا عنّ له أمرٌ يكون مظنونَ الحمد ، أو قليلاً ما يكون كذلك أن لا يفارقَه ولا يقارِفَ ضدّه ، فكيف إذا كان متيقن الحمد ؟ كما في قولهم : لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندِم الإنسان على ما فعل ، فإن المقصودَ ليس بيانَ كونِ الندم مرجوّ الوجود بلا تيقن به ، أو قليلَ الوقوع بل التنبيهُ على أن العاقلَ لا يباشر ما يرجى فيه الندم أو يقِلّ وقوعُه فيه ، فكيف بقطعيّ الوقوع ؟ وأنه يكفي قليلُ الندم في كونه حاجزاً عن ذلك الفعلِ ، فكيف كثيرُه ؟ والمقصودُ من سلوك هذه الطريقة إظهارُ الترفع والاستغناءِ عن التصريح بالغرض بناءً على ادعاء ظهورِه فالمعنى لو كانوا يودون الإسلامَ مرة واحدة لوجب عليهم أن يفارقوه ، فكيف وهم يودّونه كل آن ؟ وهذا أوفقُ بمقام استنزِالهم عما هم عليه من الكفر ، وهذان طريقان متمايزانِ ذاتاً ومقاماً فمن ظنّهما واحداً فقد نأى عن توفية المقام حقَّه .

(40/423)

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ دعْهم عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة إذ لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك ، وبالِغْ في تخليتهم وشأنَهم بل مُرْهم بتعاطي ما يتعاطَوْنه ﴿ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بدنياهم ، وفي تقديم الأكل إيذانٌ بأن تمتعَهم إنما هو من قبيل تمتعِ البهائم بالمآكل والمشارب ، والمرادُ دوامُهم على ذلك لا إحداثُه ، فإنهم كانوا كذلك ، أو تمتُّعُهم بلا استماعِ ما ينغص عيشَهم من القوارع والزواجر ، فإن التمتعَ على ذلك الوجه أمرٌ حادث يصلُح أن يكون مترتباً على تخليتهم وشأنَهم ﴿ وَيُلْهِهِمُ ﴾ ويَشْغَلْهم عن اتباعك أو عن التفكر فيما هم يصيرون إليه أو عن الإيمان والطاعة ، فإن الأكلَ والتمتعُ يفضيان إلى ذلك ﴿ الأمل ﴾ والتوقعُ لطول الأعمارِ وبلوغِ الأوطار واستقامةِ الأحوال وألا يلْقَوا في العاقبة والمآل إلا خيراً ، فالأفعالُ الثلاثة مجزومةٌ على الجوابية للأمر حسبما عرفتَ من تضمن الأمرِ بالترك للأمر بها على طريقة المجاز ، أو على أن يكون المرادُ بالأفعال المرقومة مباشرتَهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غيرَ سامعين لسوء مَغَبَّتها أصلاً ولا ريب في ترتب ذلك على الأمر بالترك فإن النهيَ عما هم عليه من ارتكاب القبائحِ مما يشوّش عليهم تمتعَهم وينغّص عليهم عيشَهم فأُمر عليه السلام بتركه ليتمرّغوا فيما هم فيه من حظوظهم فيدَهَمَهم وهم عنه غافلون ﴿ فَسَوفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوءَ صنيعهم أو وخامةَ عاقبته أو حقيقةَ الحال التي ألجأتْهم إلى التمني المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك ، وهو مع كونه وعيداً أيَّما وعيدٍ وتهديداً غِبَّ تهديدٍ ، تعليلٌ للأمر بالترك فإن علمَهم ذلك علةٌ لترك النهي والنصيحةِ لهم ، وفيه إلزامٌ

للحجة ومبالغةٌ في الإنذار إذ لا يتحقق الأمرُ بالصد إلا بعد تكررِ الإنذارِ وتقرّرِ الجحود والإنكار ، وكذلك ما ترتب عليه من الأكل والتمتع والإلهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(41/423)

---

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم الر ﴾

قد تقدم الكلام فيه ﴿ تِلْكَ ﴾ اختار غير واحد أنه إشارة إلى السورة أي تلك السورة العظيمة الشأن ﴿ ءايات الكتاب ﴾ الكامل الحقيقي باختصاص اسم الكتاب به على الإطلاق كما يشعر به التعريف أي بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فالمراد به جميع القرآن أو جميع المنزل إذ ذاك ﴿ وَقُرْءانَ ﴾ عظيم الشأن كما يشعر به التنكير ﴿ مُّبِينٌ ﴾ مظهر في تضاعيفه من الحكم والأحكام أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر معانيه أو أمر إعجازه ، فالمبين إما من المتعدي أو اللازم ، وفي جمع وصفي الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها ، وبالثاني إلى كونه ممتازاً عن

غيره نسيج وحده بديعاً في بابه خارجاً عن دائرة البيان قرآناً غير ذي عوج ونحو هذا فاتحة سورة النمل خلا أنه أخر ههنا الوصف بالقرآنية عن الوصف بالكتابية لما أن الإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره منها أدخل في المدح لئلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وعكس هناك نظراً إلى حال تقدم القرآنية على حال الكتابية قاله بعض المحققين.

وجوز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ؛ وذكر أن تقديمه هنا باعتبار الوجود وتأخيره هناك باعتبار تعلق علمنا لأنا إنما نعلم ثبوت ذلك من القرآن.

وتعقب بأن إضافة الآيات إليه تعكر على ذلك إذ لا عهد باشتماله على الآيات.

والزمخشري جعل هنا الإشارة إلى ما تضمنته السورة والكتاب وما عطف عليه عبارة عن اسورة.

وذكر هناك أن الكتاب إما اللوح وإما السورة.

وإما القرآن فآثر ههنا أحد إلا وجه هناك.

قال في الكشف : لأن الكتاب المطلق على غير اللوح أظهر ، والحمل على السورة أوجه مبالغة كما دل عليه أسلوب قوله تعالى : ﴿ والذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ﴾ [ الرعد : 1 ] وليطابق المشار إليه فإنه إشارة إلى آيات السورة ثم قال : وإيثار الحمل على اتحاد المعطوف والمعطوف عليه في الصدق لأن الظاهر من إضافة الآيات ذلك .

ولما كان في التعريف نوع من الفخامة وفي التنكير نوع آخر وكان الغرض الجمع عرف الكتاب ونكر القرآن ههنا وعكس في النمل وقدم المعرف في الموضعين لزيادة التنويه ولما عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص هنالك قدم كونه قرآناً لأنه أدل على خصوص المنزلة على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز ، وتعقب تفسير ذلك بالسورة دون جميع القرآن أو المنزل إذ ذاك بأنه غير متسارع إلى الفهم والمتسارع إليه عند الإطلاق ما ذكر وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت إليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة إذ هي في الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغني عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك إشارة إلى كل واحدة منها ، وفيه من التكلف ما لا يخفى .

ثم إن الزمخشري بعد أن فسر المتعاطفين بالسورة أشار إلى وجه التغاير بينهما بقوله كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان ورمز إلى أنه لما جعل مستقلاً في الكمال والغرابة

قصد قصدهما فعطف أحدهما على الآخر فالغرض من ذكر الذات في الموضعين الوصفان ، وهذه فائدة إيثار هذا الأسلوب ، ومن هذا عده من عده من التجريد قاله في الكشف .

(43/423)

---

وقال الطيبي بعد أن نقل عن البغوي توجيه التغاير بين المتعاطفين بأن الكتاب ما يكتب والقرآن ما يجمع بعضه إلى بعض ، فإن قلت : رجع المآل إلى أن ﴿ الكتاب وَقُرْءان ﴾ وصفان لموصوف واحد أقيما مقامه فما ذلك الموصوف وكيف تقديره ؟ فإن قدرته معرفة رفعه ﴿ الرَتلْكَ ﴾ وإن ذهبت إلى أنه نكرة أباه لفظ ﴿ الكتاب ﴾ قلت : أقدره معرفة ﴿ الرَتلْكَ ﴾ في تأويل المعرفة لأن معناه البالغ في الغرابة إلى حد الإعجاز فهو إذاً محدود بل محصور إلى آخر ما قاله ، وهو كلام خال عن التحقيق كما لا يخفى على أربابه ، وقيل : المراد بالكتاب التوراة والإنجيل وبالقرآن الكتاب المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم ، وأخرج ذلك ابن جرير عن مجاهد .

وقتادة ، وأمر العطف على هطا ططاهر جداً إلا أن ذلك نفسه غير ظاهر ، والمراد بالإشارة عليه خفاء أيضاً .

وفي "البحر" أن الإشارة على هذا القول إلى آيات الكتاب وهو كما ترى ثم إنه سبحانه لما

بين شأن الآيات لتوجيه المخاطبين إلى حسن تلقي ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ

شرع جل شأنه في بيان المتضمن

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ بما يجب الايمان به ﴿ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ مؤمنين بذلك ،

وقيل : المراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى وودادتهم الانقياد لحكمه

والإذعان لأمره ، وفيه إيذان بأن كفرهم إنما كان بالجحود ، وفيه نظر ، وهذه الودادة يوم

القيامة عند رؤيتهم خروج العصاة من النار .

أخرج ابن المبارك .

وابن أبي شيبة .

والبيهقي .

وغيرهم عن ابن عباس .

وأنس رضي الله تعالى عنهم أنهما تذاكرا هذه الآية فقالا : هذا حيث يجمع الله تعالى بين

أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار فيقول المشركون : ما أغنى عنكم ما كنتم

تعبدون فيغضب الله تعالى لهم فيخرجهم بفضل رحمته .

وأخرج الطبراني .

وابن مردويه .

بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: ﴿ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله تعالى أن يكونوا ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله تعالى من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ﴾

وأخرج غير واحد عن علي كرم الله تعالى وجهه.

وأبي موسى الأشعري.

وأبي سعيد الخدري نحو ذلك يرفعه كل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وروى ذلك عن كثير من السلف الصالح، فقول الزمخشري: إن القول به باب من الودادة بيت من السفاهة قعيدته عقيدته الشوهاء، وقال الضحاك: إن ذلك في الدنيا عند الموت وانكشاف وخامة الكفر لهم، وعن ابن مسعود أن الآية في كفار قريش ودوا ذلك يوم بدر حين رأوا الغلبة للمسلمين، وفي رواية عنه وعن أناس من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن ذلك حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار.

وذكر ابن الأنباري أن هذه الودادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكافر ويسلم المسلم، ﴿ وَرَبَّ ﴾ على كثرة وقوعها في كلام العرب لم تقع في القرآن إلا في هذه الآية، ويقال فيها رب بضم الراء وتشديد الباء وفتحها ورب بفتح الراء ورب بضمهما وربت

بالضم وفتح الباء والتاء وربت بسكون التاء وربت بفتح الثلاثة وربت بفتح الأولين

وسكون التاء وتخفيف الباء من هذه السبعة وربتا بالضم وفتح الباء المشددة ورب بالضم

والسكون ورب بالفتح والسكون فهذه سبع عشرة لغة حكاها ما عدا ربتا ابن هشام في

"المغنى" وحكى أبو حيان إحدى عشر منها ربتا وإذا اعتبر ضم الاتصال بما والتجرد منها

بلغت اللغات ما لا يخفى ، وزعم ابن فضالة في الهوامل والعوامل أنها ثنائية الوضع كقد وأن

فتح الباء مخففة دون التاء ضرورة وأن فتح الراء مطلقاً شاذ ، وهي حرف جر خلافاً

للكوفية .

والأخفش في أحد قوليه .

(45/423)

---

وابن الطراوة زعموا أنها اسم مبني ككم واستدلوا على اسميتها بالأخبار عنها في قوله :

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن . . .

عاراً عليك ورب قتل عار

فرب عندهم مبتدا وعار خبره ، وتقع عندهم مصدراً كرب ضربة ضربت ، وظرفاً كرب

يوم سرت ، ومفعولاً به كرب رجل ضربت ، واختار الرضى أسميتها إلا أن إعرابها عنده

رفع أبداً على أنها مبتدأ لا خبر له كما اختار ذلك في قولهم : أقل رجل يقول ذلك إلا زيداً ، وقال : إنها إن كفت بما فلا محل لها حينئذ لكونها كحرف النفي الداخل على الجملة ومنع ذلك البصريون بأنها لو كانت اسماً لجاز أن يتعدى إليها الفعل بحرف الجر فيقال برب رجل عالم مررت ، وأن يعود عليها الضمير ويضاف إليها وجميع علامات الاسم منتفية عنها ، وأجيب عن البيت بأن المعروف وبعض بدل رب ، وإن صحت تلك الرواية فعار خبر مبتدأ محذوف أي هو عار كما صرح به في قوله :

يا رب هيجا هي خير من دعه . . .

والجملة صفة المجرور أو خبره إذ هو في موضع مبتدأ ، ويردّ قياسها على كم كما قال أبو علي : إنهم لم يفصلوا بينها وبين المجرور كما فصلوا بين كم وما تعمل فهي وفي مفادها أقوال .

أحدها : أنها للتقليل دائماً وهو قول الأكثرين ، وعد في البسيط منهم الخليل .

وسيبويه ، والأخفش .

والمازني .

والفارسي .

والمبرد .

والكسائي .

والفراء .

وهشام .

وخلق آخرون .

ثانيها : أنها للتكثير دائماً وعليه صاحب العين .

وابن درستويه .

وجماعة ، وروى عن الخليل .

ثالثها : واختاره الجلال السيوطي وفاقاً للفارابي وطائفة أنها للتقليل غالباً والتكثير نادراً .

رابعها : عكسه جزم به في التسهيل واختاره ابن هشام في "المغنى" .

وخامسها : أنها لهما من غير غلبة لأحدهما نقله أبو حيان عن بعض المتأخرين .

سادسها : أنها لم توضع لواحد منهما بل هي حرف إثبات لا يدل على تكثير ولا تقليل وإنما يفهم ذلك من خارج واختاره أبو حيان .

سابعها : أنها للتكثير في المباهاة وللتقليل فيما عداه وهو قول لا علم .

وابن السيد .

ثامنها : أنها لمبهم العدد وهو قول ابن الباذش وابن طاهر وتصدر وجوباً غالباً ، ونحو قوله :

تيقنت أن رب امرئ خيل خائنا . . .

أمين وخوان يخال أمينا

وقوله :

ولو علم الأقوام كيف خلفتهم . . .

لرب مفد في القبور وحامد

يحتمل أن يكون كما قال الشمني ضرورة ، وقال أبو حيان : المراد تصدرها على ما تتعلق به

فلا يقال : لقيت رب رجل عالم ، وذكروا أنها قد تسبق بألا كقوله :

ألا رب مأخوذ باجرام غيره . . .

فلا تسأمن هجران من كان أجرما

وبيا صدر جواب شرط غالباً كقوله :

فإن أمس مكروباً فيا رب فتية . . .

ومن غير الغالب يا رب كاسية الحديث ولا تجر غير نكرة وأجاز بعضهم جرها المعروف

بأل احتجاجاً بقوله :

ربما الجامل المؤبل فيهم . . .

وعناجيج بينهن المهار

وأجاب الجمهور بأن الرواية بالرفع وإن صح الجر فأل زائدة ، وفي وجوب نعت مجرورها

خلف فقال المبرد .

وابن السراج.

والفارسي .

وأكثر المتأخرين وعزى للبصريين يجب لإجرائها مجرى حرف النفي حيث لا تقع إلا صدراً

ولا يقدم عليها ما يعمل في الاسم بعدها ، وحكم حرف النفي أن يدخل على جملة

فالأقيس في مجرورها أن يوصف بجملة لذلك ، وقد يوصف بما يجري مجراها من ظرف أو

مجرور أو اسم فاعل أو مفعول وجزم به ابن هشام في "المغني" وارتضاه الرضى ، وقال

الأخفش .

والفراء .

والزجاج.

وابن طاهر .

وابن خروف .

وغيرهم لا يجب وتضمنها القلة أو الكثرة يقوم مقام الوصف واختاره ابن مالك وتبعه أبو حيان ونظر في الاستدلال المذكور بما لا يخفى ، وتجر مضافاً إلى ضمير مجرورها معطوفاً بالواو كرب رجل وأخيه ولا يقاس على ذلك عند سيبويه ، وما حكاه الأصمعي من مباشرة رب للمضاف إلى الضمير حيث قال لأعرابية ألفلان أب أو أخ؟ فقالت : رب أبيه رب أخيه تريد رب أب له رب أخ له تقديراً للانفصال لكون أب وأخ من الأسماء التي يجوز الوصف بها فلا يقاس عليه اتفاقاً ، وتجر ضميراً مفرداً مذكراً يفسره نكرة منصوبة مطابقة للمعنى الذي يقصده المتكلم غير مفصولة عنه ؛ وسمع جره في قوله :

وربه عطب أنقذت من عطبه . . .

على نية من وهو شاذ ، وجوز الكوفية مطابقة الضمير للنكرة المفسرة تثنية وجمعاً وتأنيثاً كما في قوله :

ربها فتية دعوت إلى ما . . .

يورث الحمد دائماً فأجابوا

والأصح أن هذا الضمير معرفة جرى مجرى النكرة ، واختار ابن عصفور تبعاً لجماعة أنه نكرة وإن جرها إياه ليس قليلاً ولا شاذاً خلافاً لابن مالك ، وإنها زائدة في الإعراب لا المعنى ، وإن محل مجرورها على حسب العامل لا لازم النصب بالفعل الذي بعد أو بعامل محذوف خلافاً للزجاج ومتابعيه في قولهم : بذلك لما يلزم عليه من تعدي الفعل المتعدي

بنفسه إلى مفعوله بالواسطة وهو لا يحتاج إليها فيعطف على محله كما يعطف على لفظه كقوله :

وسن كسنيق سناء وسنما . . .

ذعرت بمد لاح الهجير نهوض

وأنها تتعلق كسائر حروف الجر وقال الرماني وابن طاهر لا تتعلق كالحرف الزائدة وأن التعلق بالعامل الذي يكون خبر لمجرورها أو عاملاً في موضعه أو مفسراً له قاله أبو حيان ، وقال ابن هشام قول الجمهور أنها معدية للعامل أن أرادوا المذكور فخطأ إنه يتعدى بنفسه أو محذوفاً يقدر بحصل ونحوه كما صرح به جماعة ففيه تقدير ما معنى الكلام مستغنى عنه ولم يلفظ به في وقت ، ثم على التعليق قال لكذة : حذفه لحن ، والخليل وسيبويه نادر كقوله :



---

ودوية قفر تمشي نعامها . . .

كمشي النصارى في خفاف اليرندج

أي قطعتها ويرد ليكذة هذا وقولهم : رب رجل قائم ورب ابنة خير من ابن ، وقوله :

ألا رب من تغتشه لك ناصح . . .

ومؤتمن بالغيب غير أمين

والفارسي .

والجزولي كثير وبه جزم ابن الحاجب .

ورابعها : واجب كما نقله صاحب البسيط عن بعضهم وخامسها : ونقل عن ابن أبي الربيع يجب حذفه إن قامت الصفة مقامه وإلا جاز الأمر أن سواء كان دليل أم لا ؟ ويجب عند المبرد .

والفارسي .

وابن عصفور ، وهو المشهور كما قال أبو حيان : ورأى الأكثرين كونه ماضياً معنى ، وقال ابن السراج : يأتي حالاً ، وابن مالك يأتي مستقبلاً واختاره في "البحر" إلا أنه قال بقلته وكثرة وقوع الماضي ، وأنشد له قول سليم القشيري :

ومعتصم بالجبن من خشية الردى . . .

سيردى وغاز مشفق سيؤب

وقول هند :

يا رب قائلة غدا . . .

يا لهف أم معاوية

وجعل كابن مالك الآية من ذلك وتأولها الأكثرون بأنه وضع فيها المضارع موضع الماضي على حد ﴿ ونفخ في الصور ﴾ [ الكهف : 99 ] وتعقبه ابن هشام بأن فيه تكلفاً لاقتضائه أن الفعل المستقبل عبر به عن ماض متجوز به عن المستقبل ، وأجاب الشمني بأنه لا تكلف فيه لأنهم قالوا : إن هذه الحالة المستقبلة جعلت بمنزلة الماضي المتحقق فاستعمل معها ربما المختصة بالماضي وعدل إلى لفظ المضارع لأنه كلام من لا خلاف في اخباره فالمضارع عنده بمنزلة الماضي فهو مستقبل في التحقيق ماض بحسب التأويل وهو كما ترى ، وعن أبي حيان أنه أجاب عن بيت هند بأنه من باب الوصف بالمستقبل لا من باب تعلق ربما بما بعدها وهو نظير قولك ، رب مسيء اليوم يحسن غداً أي رب رجل يوصف بهذا الوصف وتأول الكوفيون كما في المطول الآية بأنها بتقدير كان أي ربما كان يود الذين كفروا فحذف لكثرة استعمال كان بعد ربما ، وضعف ذلك أبو حيان بأن هذا ليس من مواضع إضمار كان ، وفي "جمع الجوامع" وشرحه أن ما تزاد بعد رب فالغالب الكف وإيلائها حينئذ الفعل الماضي لأن التكثير أو التقليل إنما يكون فيما عرف حده والمستقبل مجهول كقوله :

ربما أوفيت في علم . . .

ترفعن ثوبي شمالات

وقد يليها المضارع ﴿ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ ﴾ الآية وقد يليها الجملة الاسمية نحو :

ربما الجامل المؤبل فيهم . . .

وقد لا تكف نحو :

ربما ضربة بسيف صقيل . . .

بين بصري وطعنة نجلاء

وقيل : يتعين بعدها الفعلية إذا كفت وإليه ذهب الفارسي وأول البيت على أن ما نكرة موصوفة بجملة حذف مبتدأها أي رب شيء هو الجامل ، وقد يحذف الفعل بعدها كقوله :

فذلك أن يلق الكريهة يلقها . . .

حميداً وأن يستغن يوماً فربما

وقد تلحق بها ما ولا تكف كقوله :

ماوى يا ربتما غارة . . .

شعواء كاللكية بالميسم

انتهى .

وبنحو تأويل الفارسي البيت أول بعضهم الآية فقال: إن ﴿ مَا ﴾ نكرة موصوفة بجملة ﴿ يَوَدُّ ﴾ إلى آخره والعائد محذوف، والفعل المتعلق به رب محذوف أي رب شيء يوده الذين كفروا تحقق وثبت ونحوه قول ابن أبي الصلت:

ربما تجزع النفوس من الأمر . . .

له فرجة كحل العقال

والتزم كون المتعلق محذوفاً لأنها حينئذ لا يجوز تعلقا بيود ولا بد لها من فعل تتعلق به على ما صححه جمع، وأما على ما اختاره الرضى من كونها مبتدأ لا خبر هل والمعنى قليل أو كثير وداد الذين كفروا فلا حاجة إليه، وهذا التأويل على ما قال السمرقندي أحد قولي البصريين، وتعقبه العلامة التفتازاني بأنه لا يخفى ما فيه من التعسف وبتر النظ الكريم أي قطع ﴿ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ عما قبله، ووجه التعسف أن المعنى على تقليل أو تكثير ودادهم لا على تقليل أو تكثير شيء إلا أن يراد رب شيء يودونه من حيث إنهم يودونه، والمختر عندي ما اختاره أبو حيان وكذا صاحب اللب من أن رب تدخل على الماضي والمضارع إلا أن دخولها على الماضي أكثر، ومن تتبع أشعار العرب رأى فيها مما دخلت فيه على المضارع ما يبعد ارتكاب التأويل معه كما لا يخفى على المنصف المتتبع واختلفوا في مفادها هنا فذهب جمع كثير إلى أنه التقليل وهو ظاهر أكثر الآثار حيث دلت على أن

ودادهم ذلك عند خروج عصاة المسلمين من جهنم وبقائهم فيها .

نعم زعم بعضهم أن الحق أن ما فيها محمول على شدة ودادهم إذ ذاك وأن نفس الوداد ليس مختصاً بوقت دون وقت بل هو متقرر مستمر في كل آن يمر عليهم .

(51/423)

---

ووجه الزمخشري الإتيان بأداة التقليل على هذا بأنه وارد على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الإنسان على ما فعل ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكاً فيه أو قليلاً لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون كما يتحرزون من التعرض للغم المتيقن ومن القليل منه كما من الكثير ، وكذلك المعنى في الآية لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة بالبحري أن يسارعوا إليه فكيف وهم يودونه في كل ساعة اه .

والكلام عليه على ما قيل من الكناية الإيمامية وفي لك من المبالغة ما لا يخفى ، قال ابن المنير : لا شك أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً ، ومنه والله تعالى أعلم ﴿ قَدْ تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [ الصف : 5 ] المقصود منه توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر علمهم برسالته ومناصحته لهم ، وقوله :

قد أترك القرن مصفراً أنامله . . .

فإنه إنما يتمدح بالإكثار من ذلك وقد عبر بقد المفيدة للتقليل ، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك فمنهم من وجهه بما ذكر عن الزمخشري من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد وذلك شأن كل ما بغل نهايته أن يعود إلى عكسه ، وقد أفصح المتنبي عن ذلك بقوله :

ولجدت حتى كدت تبخل حائلا . . .

للمنتهى ومن السرور بكاء



---

وكلا الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها ، والعمدة في ذلك على سياق الكلام لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع لأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين ، وقال في الكشف : الأصل في هذا الباب أن استعارة أحد الضدين للآخر تفيد المبالغة للتعكيس ولا تختص بالتهكم والتمليح على ما يوهمه ظاهر لفظ صاحب المفتاح في موضع فهو الذي عد المفازة من هذا القبيل لقصد التفاؤل ثم قد يختص موقعها بفائدة زائدة كما ذكره الزمخشري في هذا المقام ،

وليس في ذلك كناية إيمائية وإنما ذلك من فوائد هذه الاستعارة وسيجيء إن شاء الله تعالى فيه كلام أتم بسطاً في سورة التكوير اه.

والحق أنه لا مانع من القول بالكناية الإيمائية كما لا يخفى، وقيل: إن التقليل بالنسبة إلى زمان ذهاب عقلهم من الدهشة بمعنى أنه تدهشهم أهوال القيامة فيبهتون فإن وجدت منهم إفاقة ما تمنوا ذلك، وظاهر صنيع العلامة التفتازاني في المطول اختياره، وجوز أن تكو مستعارة للتكثير والقول بالاستعارة له لا يحتاج إليه على القول المحكي عن صاحب العين ومن معه حسبما سمعت، وذكر ابن الحاجب أنها نقلت من التقليل إلى التحقيق كما نقلوا قد إذا دخلت على المضارع منه إليه.

ومفعول ﴿ يَوَدُّ ﴾ محذوف أي الإسلام بدلالة ﴿ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ بناءاً على أن ﴿ لَوْ ﴾ للتمني والجملة في موقع الحال أي قائلين لو كانوا مسلمين، وتقدير المفعول ما ذكرنا هو الذي ذهب إليه غير واحد، وقال الشهاب: تقديره النجاة ولا ينبغي تقديره الإسلام لأنه يصير تقديره يودوا الإسلام لو كانوا مسلمين وهو حشو وفيه نظر.

وقال صاحب الفرائد: إن ﴿ لَّوْ كَانُواْ ﴾ إلى آخره منزل منزلة المفعول.

وتعقب بأنه غير ظاهر إذ ليس ذلك مما يعمل في الجمل إلا أن يكون بمعنى ذكروا التمني ويجري مجرى القول على مذهب بعض النحاة.

والغيبة في حكاية ودادتهم كالغيبة في قولك : حلف بالله تعالى ليفعلن ولو قلت لأفعلن لجاز ، وعلى ذلك جاز قوله تعالى : ﴿ تَقَاسَمُواْ بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ [ النمل : 49 ] بالنون والياء وإيثار الغيبة أكثر لئلا يلبس والتعليل بقلة التقدير ليس بشيء كما كشف ذلك في الكشف ، وأنكر قوم ورود ﴿ لَوْ ﴾ للتمني ، وقالوا ليست قسماً برأسها وإنما هي الشرطية أشربت معنى التمني وعلى الأول الأصح لا جواب لها على الأصح .

وقد نص على ذلك ابن الضائع وابن هشام الخضراوي ، ونقل أنهما قالا تحتاج إلى جواب كجواب الشرط سهو ؛ وذكر أبو حيان أن الذي يظهر أنها لا بد لها من جواب لكنه التزم حذفه لإشرابها معنى التمني لأنه متى أمكن تقليل القواعد وجعل الشيء من باب المجاز كان أولى من تكثير القواعد وادعاء الاشتراك لأنه يحتاج إلى وضعين والمجاز ليس فيه إلا وضع واحد وهو الحقيقة ، وقيل : إنها هنا امتناعية شرطية والجواب محذوف تقديره لفازوا ومفعول ﴿ يَوَدُّ ﴾ ما علمت ، وزعم بعضهم مصدريتها فيما إذا وقعت بعدما يدل على التمني فالمصدر حينئذٍ هو المفعول وهو على القول بأن ﴿ مَا ﴾ نكرة موصوفة بدل منها كما في "البحر" .

وقرأ عاصم .

ونافع ﴿ رُبَمَا ﴾ بتخفيف الباء وعن أبي عمرو التخفيف والتشديد ، وقرأ طلحة بن

مصرف وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ربتما بزيادة تاء هذا ، وإنما أطنبت الكلام في هذه الآية لا سيما فيما يتعلق بربب لما أنه قد جرى لي بحث في ذلك مع بعض العظاميين فأبان عن جهل عظيم وحمق جسيم ، ورأيته ورب الكعبة أجهل من رأيت من صغار الطلبة بربب نعم له من العظاميين أمثال أصمهم الله تعالى وأعمى بالهم وقللهم ولا أكثر أمثالهم .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

(54/423)

---

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أي اتركهم وقد استغنى غالباً عن ماضيه بماضيه وجاء قليلاً وذر ، وفي الحديث " ذروا الحبشة ما وذروكم " والمراد من الأمر التخلية بينهم وبين شهواتهم إذ لم تنفعهم النصيحة والأنذار كأنه قيل : خلهم وشأنهم ﴿ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بدنياهم ، وفي تقديم الأكل إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب ، والفعل وما عطف عليه مجزوم في جواب الأمر ، وأشار في الكشاف أن المراد المبالغة في تخليتهم حتى كأنه عليه السلام أمر أن يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندماً ، ووجهه المدقق صاحب الكشف فقال : أريد الأمر من حيث المعنى لأنه جعل أكلهم وتمتعهم الغاية المطلوبة من الأمر بالتخلية ، والغايات المطلوبة إن صح الأمر بها كانت مأموراً بها بنفس الأمر وأبلغ من صريحه فإذا

قلت : لازم سدة العالم تعلم منه ما ينجيك في الآخرة كان أبلغ من قولك : لازم وتعلم لأنك جعلت الأمر وسيلة الثاني فهو أشد مطلوبية وإن لم يصح جعلت مأموراً بها مجازاً كقولك : اسلم تدخل الجنة ، وما نحن فيه لما جعل غاية الأمر على التجوز صار مأموراً به على ما أرشدت إليه اه ، وهو من النفاسة بمكان ، وظن أن انفهام الأمر من تقدير لامه قبل الفعل من بعض الأمر ، وما في "البحر" من أنه إذا جعل ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أمراً بترك نصيحتهم وشغل باله صلى الله عليه وسلم بهم لا يترتب عليه الجواب لأنهم يأكلون ويتمعون سواء ترك نصيحتهم أم لا وقوف في ساحل التحقيق كما لا يخفى على من غاص في لجة المعاني فاستخرج درر الأسرار واستظهر أنه أمر بترك قتالهم وتخلية سبيلهم وموادعتهم ثم قال : ولذلك صح أن يكون المذكور جواباً لأنه عليه الصلاة والسلام لو شغلهم بالقتال ومصالتة السيوف وإيقاع الحروب ما هنأهم أكل ولا تمتع ويدل على ذلك أن السورة مكية وهو كما ترى .

(55/423)

---

ثم المراد على ما قيل دوامهم على ما هم عليه لا إحداث ما ذكر أو تمتعهم بلا استمتاع ما ينغص عيشهم والتمتع كذلك أمر حادث يصلح أن يكون مرتباً على تخليتهم وشأنهم فتأمل ﴿ وَيُلْهِهِمُ الامل ﴾ ويشغلهم التوقع لطول الأعمار وبلوغ الأوطار واستقامة الأحوال وأن لا

يلقوا إلا خيراً في العاقبة والمآل عن الإيمان والطاعة أو عن التفكر فيما يصيرون إليه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التي ألجأتهم إلى التمني .

وظاهر كلام الأكثرين أن المراد علم ذلك في الآخرة ، وقيل : المراد سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدنيا من الذل والقتل والسبي وفي الآخرة من العذاب السرمدي ، وهذا كما قيل مع كونه وعيداً أيما وعيد وتهديد غب تهديد تعليل للأمر بالترك ، وفيه إلزام الحجة ومبالغة في الإنذار إذ لا يتحقق الأمر بالضد حسبما علمت إلا بعد تكرر الإنذار وتقرر الجحود والإنكار ومن أنذر فقد أعذر ، وكذلك ما ترتب عليه من الأكل وما بعده ، وفي الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها ليس من أخلاق من يطلب النجاة ، وجاء عن الحسن ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

وأخرج أحمد في الزهد .

والطبراني في الأوسط .

والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا أعلمه إلا رفعه قال : صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل .

وفي بعض الآثار عن علي كرم الله تعالى وجهه إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمر واتباع

الهوى فإن طول الأمل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(56/423)

---

وقال القاسمى :

﴿ الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ الَرَ ﴾ تقدم الكلام في مثله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ الإشارة إلى : ﴿ الَرَ ﴾ لأنه اسم للسورة ، أي : تلك السورة العظيمة آيات الكتاب الكامل وآيات قرآن عظيم الشأن ، مبين للحكم والأحكام ولسبيل الرشد والغي . من ( أَبان ) المتعدي . أو الظاهر معانيه أو أمر إعجازه ، وكونه آية قاهرة من ( أَبان ) اللازم . أو الإشارة إلى آيات السورة ، أو إلى جميع آيات القرآن . وتعريف الكتاب للتعظيم والتفخيم ، كتنكير ( قرآن ) . وقوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ تبشير للنبي صلى الله عليه وسلم بظهور دينه . وأنه سوف يأتي أيام يتمنى الكافرون بها أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين ؛ لما يرون من إعلاء كلمة الدين وظهوره على رغم الملحدين ؛ لأن من تأخر إسلامه منهم ، وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى ، ولكن لا يلحق السابقين : ﴿ لاَ يَسْتَوِي مِنكُمْ مَنْ أَنفَقَ

مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ [الحديد : 10 ] ، وفيه تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم على الصدع بالدعوة والصبر عليها ؛ ، لما أن العاقبة له . وإنما جيء بصيغة التقليل جرياً على مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، ترفعاً واستغناءً عن التصريح بالغرض بناءً على ادعاء ظهوره .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ أي : بدنياهم وتنفيذ شهواتهم : ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ أي : يشغلهم عن التوبة والتذكير ، أملَ استقامة الحال . وأن لا يلقوا إلا خيراً في المآل : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لمن تكون له العقبى .

قال الزمخشري : فيه تنبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿محاسن التأويل حـ 10 صـ 340. 341﴾

(57/423)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ﴾

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر تمنوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين ، وندموا على كفرهم ، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ

عَلَى النار فَقَالُوا ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [ الأنعام : 27 ] وقوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ [ الأنعام : 31 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ [ الفرقان : 27 ] إلى غير ذلك من الآيات ، وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد . لأن من يقول إن الكافر إذا احتضر وعاين الحقيقة تمنى أنه كان مسلماً ، ومن يقول إنه إذا عاين النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلماً ، ومن يقول إنهم إذا عاينوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين ، كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين .

وقرأ نافع وعاصم ﴿ ربمَا ﴾ بتخفيف الباء ، وقرأ الباقون بتشديدها ، والتخفيف لغة أهل الحجاز ، والتثقيل لغة تميم وقيس وربيعة ، ومن الأول قول عدي بن الرعلاء الغساني :

ربما ضربة بسيف صقيل . . . بين بصري وطعنة نجلاء

والثاني كثير جداً ومنه قول الآخر :

ألا ربما أهدت لك العيم نظرة . . . قصاراك منها أنها عنك لا تجدى

ورب في هذا الموضع قال بعض العلماء للتكثير أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين . ونقل القرطبي هذا القول عن الكوفيين قال ومنه قول الشاعر .

إلا ربما أهدت لك العين البيت . . . وقال بعض العلماء هي هنا للتقليل لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لثقلهم بالعذاب . فإن قيل : ربما لا تدخل إلا على الماضي فما وجه دخولها على المضارع في هذا الموضع ؟ فالجواب أن الله تعالى لما وعد بوقوع ذلك صار ذلك الوعد للجزم بتحقيق وقوعه كالواقع بالفعل ونظيره قوله تعالى ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [ النحل : 1 ] الآية ونحوها من الآيات ، فعبر بالماضي تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتركهم يأكلون ويتمتعون ، فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم . وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر كقوله ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ﴾ [ إبراهيم : 30 ] وقوله : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ [ المرسلات : 46 ] وقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ﴾ [ الزمر : 8 ] وقوله ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 83 ] وقوله ﴿ فَذَرْهُمْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [ الطور : 45 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد تقرر في فن المعاني وفي مبحث الأمر عند الأصوليين أن من المعاني التي تأتي لها صيغة أفعل التهديد كما في الآية المذكورة وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ يعني اتركهم ، وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا الأمر والمضارع ، فماضيه ترك ، ومصدره الترك ، واسم الفاعل منه تارك ، واسم المفعول منه متروك . وقال بعض العلماء : هذه الآية منسوخة بآيات السيف ، والعلم عند اللهتعالى . قال القرطبي : " والأمل الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن الآخرة " ، وعن الحسن رحمه الله أنه قال : " ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل " ، وقد قدمنا علاج طول الأمل في سورة البقرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾



وقال ابن عاشور :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

﴿ الر ﴾ .

تقدم الكلام على نظير فاتحة هذه السورة في أول سورة يونس .

وتقدم في أول سورة البقرة ما في مثل هذه الفواتح من إعلان التحديد بإعجاز القرآن .

الإشارة إلى ما هو معروف قبل هذه السورة من مقدار ما نزل بالقرآن ، أي الآيات المعروفة عندكم المتميزة لديكم تميزاً كتميز الشيء الذي تمكن الإشارة إليه هي آيات الكتاب .

وهذه الإشارة لتنزيل آيات القرآن منزلة الحاضر المشاهد .

و﴿ الكتاب ﴾ علم بالغلبة على القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للهدى والإرشاد إلى الشريعة .

وسمي كتاباً لأنهم مأمورون بكتابة ما ينزل منه لحفظه ومُراجعته ؛ فقد سمي القرآن كتاباً قبل أن يُكتب ويجمع لأنه بحيث يكون كتاباً .

ووقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنظر في دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وحقية دينه .

ولمّا كان أصل التعريف باللام في الاسم المجعول علماً بالغلبة جائياً من التوسل بحرف التعريف إلى الدلالة على معنى كمالِ الجنس في المعرف به لم ينقطع عن العلَم بالغلَبة أنه فائق في جنسه بمعونة المقام ، فاقتضى أن تلك الآيات هي آيات كتاب بالغ منتهى كمال جنسه ، أي من كتب الشرائع .

وعطف ﴿ وقرآن ﴾ على ﴿ الكتاب ﴾ لأن اسم القرآن جعل علماً على ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز والتشريع ، فهو الاسم العلَم لكتاب الإسلام مثل اسم التوراة والإنجيل والزبور للكتب المشتهرة بتلك الأسماء .

فاسم القرآن أرسخ في التعريف به من الكتاب لأن العلَم الأصلي أدخل في تعريف المسمى من العلَم بالغلبة ، فسواء نكّر لفظ القرآن أو عرف باللام فهو علم على كتاب الإسلام .

(61/423)

---

فإن نكّر فتنكيره على أصل الأعلام ، وإن عُرّف فتعريفه لِلَمْح الأصل قبل العلمية كتعريف الأعلام المنقولة من أسماء الفاعلين لأن "القرآن" منقول من المصدر الدال على القراءة ، أي المقروء الذي إذا قرىء فهو منتهى القراءة .

وفي التسمية بالمصدر من معنى قوة الاتصاف بمادة المصدر ما هو معلوم .

وللإشارة إلى ما في كل من العلمين من معنى ليس في العلم الآخر حسن الجمع بينهما بطريق العطف ، وهو من عطف ما يعبر عنه بعطف التفسير لأن "قرآن" بمنزلة عطف البيان من "كتاب" وهو شبيه بعطف الصفة على الموصوف ومَا هو منه ، ولكنه أشبهه لأن المعطوف متبوع بوصف وهو ﴿ مبين ﴾ .

وهذا كله اعتبار بالمعنى .

وابتُدئ بالمعرّف باللام لما في التعريف من إيذان بالشهرة والوضوح وما فيه من الدلالة على معنى الكمال ، ولأن المعرّف هو أصل الإخبار والأوصاف .

ثم جيء بالمنكر لأنه أريد وصفه بالمبين ، والمنكّر أنسب بإجراء الأوصاف عليه ، ولأن التنكير يدل على التفخيم والتعظيم ، فوزعت الدلالتان على نكتة التعريف ونكتة التنكير .

فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنهم سيجيء وقت يتمنون فيه أن لو كانوا مؤمنين .

فلما كان الكلام موجهاً إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزّل على محمد صلى الله عليه وسلم بعنوانه الأعم وهو كونه كتاباً ، لأنهم حين جادلوا ما جالوا إلا في كتاب فقالوا : ﴿ لَوْ أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ [ الأنعام : 157 ] ولأنهم يعرفون ما عند الأمم الآخرين بعنوان كتاب ، ويعرفونهم بعنوان أهل الكتاب .

فأما عنوان القرآن فهو مناسب لكون الكتاب مقروءاً مدروساً وإنما يقرأه ويدرسه المؤمنون به .

ولذلك قدم عنوان القرآن في سورة النمل كما سيأتي .

والمبين : اسم فاعل من أبان القاصر الذي هو بمعنى بَان مبالغة في ظهوره ، أي ظهور قُرآنيته العظيمة ، أي ظهور إعجازه الذي تحققه المعاندون وغيرهم .

(62/423)

---

وإنما لم نجعل المبين بمعنى أبان المتعدي لأن كونه بيّنا في نفسه أشد في توبيخ منكريه من وصفه بأنه مظهر لما اشتمل عليه .

وسيجيء قريب من هذه الآية في أول سورة النمل .

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ﴾

استئناف ابتدائي وهو مفتتح الغرض وما قبله كالتنبيه والإنذار .

و﴿ ربما ﴾ مركبة من ( رب ) .

وهو حرف يدل على تنكير مدخوله ويجر ويختص بالأسماء .

وهو بتخفيف الباء وتشديدها في جميع الأحوال .

وفيها عدة لغات .

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء .

وقرأ الباقون بتشديدها .

واقترنت بها ( ما ) الكافة ل ( ربّ ) عن العمل .

ودخول ( ما ) بعد ( رب ) يكُف عملها غالباً .

وبذلك يصح دخولها على الأفعال .

فإذا دخلت على الفعل فالغالب أن يراد بها التقليل .

والأكثر أن يكون فعلاً ماضياً ، وقد يكون مضارعاً للدلالة على الاستقبال كما هنا .

ولا حاجة إلى تأويله بالماضي في التحقق .

ومن النحويين من أوجب دخولها على الماضي ، وتأول نحو الآية بأنه منزّل منزلة الماضي لتحققه .

ومعنى الاستقبال هنا واضح لأن الكفار لم يَودّوا أن يكونوا مسلمين قبل ظهور قوة الإسلام من وقت الهجرة .

والكلام خبر مستعمل في التهديد والتهويل في عدم اتباعهم دين الإسلام .

والمعنى : قد يود الذين كفروا لو كانوا أسلموا .

والتقليل هنا مستعمل في التهكم والتخويف ، أي احذروا وَدادتكم أن تكونوا مسلمين ، فلعلها أن تقع نادراً كما يقول العرب في التوبيخ : لعلك ستندم على فعلك ، وهم لا يشكون في تندمه ، وإنما يريدون أنه لو كان الندم مشكوكاً فيه لكان حقاً عليك أن تفعل ما قد تندم

على التفريط فيه لكي لا تندم ، لأن العاقل يتحرز من الضُر المظنون كما يتحرز من المتيقن .

والمعنى أنهم قد يودّون أن يكونوا أسلموا ولكن بعد الفوات .

*(63/423)*

---

والإتيان بفعل الكون الماضي للدلالة على أنهم يودون الإسلام بعد مضي وقت التمكن من إيقاعه ، وذلك عندما يقتلون بأيدي المسلمين ، وعند حضور يوم الجزاء ، وقد ودّ المشركون ذلك غير مرة في الحياة الدنيا حين شاهدوا نصر المسلمين .

وعن ابن مسعود : ودّ كفارُ قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر المسلمين .

ويتمنّون ذلك في الآخرة حين يساقون إلى النار لكفرهم ، قال تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا ﴾ [ سورة الفرقان : 27 ] .

وكذلك إذا أخرج عصاة المسلمين من النار ودّ الذين كفروا في النار لو كانوا مسلمين ، على أنهم قد ودُّوا ذلك غير مرة وكتموه في نفوسهم عناداً وكفراً .

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ [ سورة الأنعام : 27 ، 28 ] ، أي فلا يصرحون به .

ولو ﴾ في ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ مستعملة في التمني لأن أصلها الشرطية إذ هي حرف امتناع لامتناع، فهي مناسبة لمعنى التمني الذي هو طلب الأمر الممتنع الحصول، فإذا وقعت بعد ما يدل على التمني استعملت في ذلك كأنها على تقدير قول محذوف يقوله المتمني، ولما حذف فعل القول عدل في حكاية المقول إلى حكايته بالمعنى.

فأصل ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ لو كُنّا مسلمين.

والتزم حذف جواب ﴿ لو ﴾ اكتفاء بدلالة المقام عليه ثم شاع حذف القول، فأفادت ﴿ لو ﴾ معنى المصدرية فصار المعنى: يودّ الذين كفروا كونهم مسلمين، ولذلك عَدُّوها من حروف المصدرية وإنما المصدر معنى عارض في الكلام وليس مدلولها بالوضع.

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

(64/423)

---

لما دلّت (رُبّ) على التقليل اقتضت أن استمرارهم على غلوائهم هو أكثر حالهم، وهو الإعراض عما يدعوهم إليه الإسلام من الكمال النفسي، فبإعراضهم عنه رضوا لأنفسهم بحياة الأنعام، وهي الاقتصار على اللذات الجسدية، فخوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بما يُعرّض لهم بذلك من أن حياتهم حياة أكل وشرب.

وذلك مما يتعيّرون به في مجاري أقوالهم كما في قول الحطيئة:

دَعِ المكارم لا تنهض لبُغيتها . . .

واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعم الكاسي

وهم منغمسون فيما يتعيّرون به في أعمالهم قال تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [ سورة محمد : 12 ] .

و﴿ ذر ﴾ أمر لم يسمع له ماض في كلامهم .

وهو بمعنى الترك .

وتقدم في قوله : ﴿ وذر الذين اتّخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ في سورة الأنعام ( 70 ) .

والأمر بتركهم مستعمل في لازمه وهو قلة جدوى الحرص على إصلاحهم .

وليس مستعملاً في الإذن بمتاركتهم لأن النبي مأمور بالدوام على دعائهم .

قال تعالى : وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً إلى قوله : ﴿ وذكّر به أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ [ سورة الأنعام : 70 ] .

فما أمره بتركهم إلا وقد أعقبه بأمره بالتذكير بالقرآن ؛ فعلم أن الترك مستعمل في عدم الرجاء في صلاحهم .

وهذا كقول كبشة أُخت عمرو بن معد يكرب في قتل أخيها عبد الله تستنهض أخاها عمراً للأخذ بثأره:

وَدَعْ عنك عمرا إن عَمْرا مُسالِم . . .

وهل بَطن عَمرو غيرُ شِبر لمَطْعَم

وقد يستعمل هذا الفعل وما يراد به كناية عن عدم الاحتياج إلى الإعانة أو عن عدم قبول الوساطة كقوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا ﴾ [ سورة المدثر : 11 ] ، وقوله : ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ [ سورة المزمل : 11 ] .

وقد يستعمل في الترك المجازي بتنزيل المخاطب منزلة المتلبّس بالضدّ كقول أبي تمام:

دعوني أنُحْ من قبل نوح الحمائم . . .

ولا تجعلوني عُرضة للوائم

إذ مثل هذا يقال عند اليأس والقنوط عن صلاح المرء .

*(65/423)*

---

وقد حذف متعلق الترك لأن الفعل نزل منزلة ما لا يحتاج إلى متعلق ، إذ المعني به ترك الاشتغال بهم والبعد عنهم ، فلذلك عدّي فعل الترك إلى ذواتهم ليدل على اليأس منهم .

ويأكلوا ﴾ مجزوم بلام الأمر محذوفة كما تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ في سورة إبراهيم ( 31 ) .

وهو أمر للتوبيخ والتوعد والإنذار بقرينة قوله : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ .

وهو كقوله : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ سورة المرسلات ( 46 ) .

ولا يحسن جعله مجزوماً في جواب ذرهم ﴾ لأنهم يأكلون ويتمتعون سواء ترك الرسول صلى الله عليه وسلم دعوتهم أم دعاهم .

والتمتع : الانتفاع بالمتاع .

وقد تقدم غير مرة ، منها قوله : ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ في سورة الأعراف ( 24 ) .

وإلهاء الأمل إياهم : هو إنساؤه إياهم ما حقهم أن يتذكروه ؛ بأن يصرفهم تطلب ما لا ينالون عن التفكير في البعث والحياة الآخرة .

و﴿ الأَمَلُ ﴾ : مصدر .

وهو ظن حصول أمر مرغوب في حصوله مع استبعاد حصوله .

فهو واسطة بين الرجاء والطمع .

ألا ترى إلى قول كعب:

أرجو وآمُل أن تدنو مودتها . . .

وما إخال لدينا منك تنويل

وتفرع على التعريض التصريح بالوعيد بقوله : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ بأنه مما يستعمل في الوعيد كثيراً حتى صار كالحقيقة .

وفيه إشارة إلى أن لإمهالهم أجلاً معلوماً كقوله : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب ﴾ [ سورة الفرقان : 42 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(66/423)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآَنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

السورة التي نبدأ خواطرنا عنها هي سورة الحجر تبدأ بالكلام عن جامع البلاغ ، ومنهج لحياة الحياة وهو القرآن الكريم الذي قد جاء بالخبر اليقين في قضية الألوهية الواحدة ، والتي ذكرنا في آخر السورة السابقة بأن أُولِي الألباب يستقبلونها بتعقولهم .

ويقول الحق سبحانه في مُسْتهل السورة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الحجر : 1 ]

والسورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التوفيقية ؛ والتي قلنا : إن جبريل عليه السلام نزل وقرأها هكذا ؛ وحفظها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلغها لنا هكذا ؛ وهي نزلتْ أوّلَ ما نزلت على قوم برعوا في اللغة ؛ وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها .

وهي حروف مُقطّعة تنطَق بأسماء الحروف لا مُسمَّياتها ، ونعلم أن لكل حرف اسماً ، وله مسمى ؛ فحين نقول أو نكتب كلمة "كتب" ؛ فنحن نضع حروفاً هي الكاف والباء والتاء بجانب بعضها البعض ، لتكون الكلمة كما ننطقها أو نقرؤها .

ويقال عن ذلك إنها مُسمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف ؛ فهي "كاف" و "باء" و "تاء" . ولا يعرف أسماء الحروف إلا المُتعلّم ؛ ولذلك حين تريد أن تختبر واحداً في القراءة والكتابة تقول له : تَهَجَّ حروف الكلمة التي تكتبها ، فإن نطق أسماءَ الحروف ؛ عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القرآن كما نعلم نزل مُعجِزاً للعرب الذين نبغوا في اللغة ، وكانوا يقيمون لها أسواقاً ؛ مثل المعارض التي نقيمها نحن لصناعاتنا المتقدمة .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي معجزة القرآن من نفس الجنس الذي نبغوا فيه ، فلو كانت المعجزة من جنسٍ غير ما نبغوا فيه ولم يَألفوه لَقَالوا : لو تعلمنا هذا الأمر لَصنعْنَا ما يفوقه .

وجاءتهم معجزة القرآن من نفس الجنس الذي نبغُوا فيه ؛ وباللغة العربية وبنفس المُفْردات المُكوّنة من الحروف التي تكوِّنون منها كلماتكم ، والذي جعل القرآن مُعْجزاً أن المُتكلّم به خالق وليس مخلوقاً . وفي " الر " نفس الخامات التي تصنعون منها لُغَتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتقطه العلماء من فواتح السور . علينا أن نعلم أن الله في كلماته أسراراً ؛ فهو سبحانه : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . . ﴾ [ آل عمران : 7 ]

أي : أن القرآن به آيات مُحْكمات ، هي آيات الأحكام التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، أما الآيات المتشابهات فهي مثل تلك الآيات التي تبدأ بها فواتح بعض السور ؛ ومَنْ في قلوبهم زَيْغ يتساءلون : ما معناها ؟

وهم يقولون ذلك لا بَحْثاً عن معنى ؛ ولكن رغبةً للفتنة .

ولهؤلاء نقول : أتريدون أنْ تفهموا كل شيء بعقولكم ؟ إن العقل ليس إلا وسيلةَ إدراك ؛ مِثْله مِثْل العين ، ومِثْل الأذن .

فهل ترى عيناك كل ما يمكن أن يُرَى ؟ طبعاً لا ؛ لأن للرؤية بالعين قوانينَ وحدوداً ، فإنْ كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشيء فلن تراه ؛ ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق .

وكل إنسان يختلف أُفْقه حسب قوة بصره ؛ فهناك مَنْ أنعم الله عليه ببصر قوي وحادٍّ ؛ وهناك مَنْ هو ضعيفُ البصرِ ؛ ويحتاج إلى نظارة طبية تساعده على دِقّة الإبصار .

(68/423)

---

فإذا كانت للعين وهي وسيلة إدراك المرائي حدود ، وإذا كانت للأذن ، وهي وسيلة إدراك الأصوات بحد المسافة الموجية للصوت ؛ فلابُدّ أن تكون هناك حدود للعقل ، فهناك ما يمكن أن تفهمه ؛ وهناك مَا لا يمكن أن تفهمه .

والرسول صلى الله عليه وسلم قال عن آيات القرآن : " ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به " .

وذلك حفاظاً على مواقيت ومواعيد ميلاد أيّ سِرٍّ من الأسرار المكنونة في القرآن الكريم ، فلو أن القرآن قد أعطى كل أسراره في أول قَرْن نزل فيه ؛ فكيف يستقبل القرونَ الأخرى بدون سِرّ جديد ؟

إذن : فكلّما ارتقى العقل البشري ؛ كلما أَذِن الله بكشف سِرٍّ من أسرار القرآن . ولا أحد بقادر على أن يجادل في آيات الأحكام .

ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم

يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . . . ﴾ [آل عمران : 7]

وهناك مَنْ يقرأ هذه الآية كالآتي : " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم " وتناسى مَنْ يقرأ تلك القراءة أن مُنْتهى الرسوخ في العلم أن تؤمن بتلك الآيات كما هي .

والحق سبحانه يقول : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1]

و( تلك ) إشارة لما سبق ولِمَا هو قادم من الكتاب ، و( آيات ) جمع " آية " . وهي : الشيء العجيب الذي يُلْتفت إليه . والآيات إما أنْ تكونَ كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى ، وإما أنْ تكونَ الآيات المُعْجزة الدالة على صِدْق البلاغ عن الله وهي معجزات الرسل ، وإما أن تكونَ آيات القرآن التي تحمل المنهج للناس كافّة .

ويضيف الحق سبحانه : ﴿ . . . قُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1]

*(69/423)*

---

فهل الكتاب هو شيء غير القرآن ؟ ونقول : إن الكتاب إذا أُطِلق ؛ فهو ينصرف إلى كل ما نزل من الله على الرسل ؛ كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ؛ وكل تلك كتب ، ولذلك يسمونهم " أهل الكتاب " .

أما إذا جاءت كلمة " الكتاب " مُعرَّفة بالألف واللام ؛ فلا ينصرف إلا للقرآن ، لأنه نزل كتاباً

خاتماً ، ومُهيْمناً على الكتب الأخرى .

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو ( قرآن ) ، وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عامٍّ ، فالكتاب هو القرآن ، ودلَّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل في اللوح المحفوظ .

وإن قيل : إن الكتب السابقة قد كُتِبت أيضاً ؛ فالردّ هو أن تلك الكتب قد كُتِبت بعد أن نزلتْ بفترة طويلة ، ولم تكتب مِثْل القرآن ساعة التلقِّي من جبريل عليه السلام ، فالقرآن يتميز بأنه قد كُتب في نفس زمن نُزوله ، ولم يُترك لقرون كبقية الكتب ثم بُدئ في كتابته .

والقرآن يُوصف بأنه مُبين في ذاته وبين لغيره ؛ وهو أيضاً مُحيط بكل شيء .

وسبحانه القائل : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . . ﴾ [ الأنعام : 38 ]

وأيُّ أمر يحتاج لحكم ؛ فإما أن تجده مُفصّلاً في القرآن ، أو نسأل فيه أهل الذكر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ . . . فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنبياء : 7 ]

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ . . . ﴾

و" رُبَّ " حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على حَسْب ما يأتي من بعده ، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد . ونحن نقول " رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك " وذلك للتقليل ، مثلما نقول " ربما ينجح الكسول " .

ولكن لو قُلْنا " ربما ينجح الذكي " فهذا للتكثير ، وفي هذا استعمال للشيء في نقيضه ،

إيقاظاً للعقل كي ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

(70/423)

---

ب " رُب " ومعها حرف " ما " ومن بعدهما فعل . ومن العيب أن تقول : إن " ما " هنا زائدة ؛ ذلك أن المتكلم هو ربّ كل العباد .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [ الحجر : 2 ]

فهل سيأتي وقت يتمنى فيه أهل الكفر أنْ يُسلموا ؟ إن " يودّ " تعني " يحب " و " يميل " و " يتمنى " ، وكل شيء تميل إليه وتتمناه يسمى " طلب " .

ويقال في اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألاّ يتحقق ؛ فإنْ قُلْتَ : " يا ليت الشباب يعود يوماً " فهذا طلبٌ لا يمكن أن يتحققَ ؛ لذلك يُقال إنه " تمنٍ " . وإنْ قلت " لعلّي أزور فلاناً " فهذا يُسمّى رجاء ؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : " كم عندك ؟ " بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لَمنْ يجلس إليه مَنْ تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمّى استفهاماً .

وهكذا إنْ كنت قد طلبتَ عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ ؛ وإن كنت قد طلبتَ ما يمكن أن يُنَال فهو

الترجي ، وإن كنتَ قد طلبتَ صورته لا حقيقته فهو استفهام ، ولكن إنْ طلبت حقيقة الشيء ؛ فأنت تطلبه كي لا تفعل الفعل .

والطلب هنا في هذه الآية ؛ يقول : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [ الحجر : 2 ]

فهل يتأَّتى هذا الطلب ؟

ولَنر متى يودُّون ذلك . إن ذلك التمنِّي سوف يحدث إنْ وقعتْ لهم أحداثٌ تنزع منهم العناد ؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . . . ﴾ [ النمل : 14 ]

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون الغنائم أنْ قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم .

أي : أن هذا التمنِّي قد حدث في الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ حتى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ . . . ﴾ [المؤمنون : 100]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . . ﴾ [المؤمنون : 100]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12]

إذن : فسيأتي وقت يتمنى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذَا مَا عاينوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة التي كنتم تتمسّكون بها فانية ؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين وقت أنْ زال التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفي المسلمين فَخْراً أن كانوا على دين الله ، واستمسكوا بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أنْ خَسِرْتم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا على أنكم لم تكونوا مسلمين .

وفي اليوم الآخر يُعذِّب الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممَّنْ لم يغفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم ؛ لعدم إخلاص النية وحُسْن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل في ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . ﴾ [التوبة : 80]

فيدخلون النار ليأخذوا قدراً من العذاب على قدر ما عَصَوْا وينظر لهم الكفار قائلين : ما أغنتْ عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا في النار .

ويطلع الحق سبحانه على ذلك فيغار على كل مَنْ قال لا إله إلا الله ؛ فيقول : أخرجوهم وطهِّروهم وعُودوا بهم إلى الجنة ، وحينئذ يقول الكافرون : يا ليتنا كنا مسلمين ، لنخرج من النار ، ونلحق بأهل الجنة .

(72/423)

---

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾

و ( ذرهم ) أمْر بأن يدعهم ويتركهم . وسبحانه قال مرة ( ذرهم ) ، ومرة قال : ﴿ وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة . . . ﴾ [ المزمل : 11 ]

أي : اتركهم لي ، فأنا الذي أعاقبهم ، وأنا الذي أعلم أجلَ الإمهال ، وأجل العقوبة .

ويستعمل من " ذَرْهم " فعل مضارع هو " يَذَر " ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ . . . ﴾ [ الأعراف : 127 ]

ولم يستعمل منها في اللغة فِعْل ماضٍ ، إلا فيما رُوِى من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " ذروا اليمن ما ذروكم " ، أي : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك في هذا الفعل فعل آخر هو " دَعْ " بمعنى " اترك " . وقيل : أهملت العرب ماضي " يدع " و " يذر " إلا في قراءةٍ في قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [ الضحى : 3 ]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [ الحجر : 3 ]

ونحن أيضاً نأكل ، وهناك فرْق بين الأكل كوقود للحركة وبين الأكل كلذّة وتمتُّع ، والحيوانات تأكل لتأخذ الطاقة بدليل أنها حين تشبع ؛ لا يستطيع أحد أنْ يُجبرها على أكل عود برسيم زائد .

أما الإنسان فبعد أن يأكل ويغسل يديه ؛ ثم يرى صِنْفاً جديداً من الطعام فهو يمدُّ يده ليأكلَ منه ؛ ذلك أن الإنسان يأكل شهوةً ومتعةً ، بجانب أنه يأكل كوقود للحركة .

والفرق بيننا وبينهم أننا نأكل لتتكوَّن عندنا الطاقة ، فإنْ جاءت اللذة مع الطعام فأهلاً بها ؛ ذلك أننا في بعض الأحيان نأكل ونتلذذ ، لكن الطعام لا يمري علينا ؛ بل يُتعِبنا ؛ فنطلب المُهْضِمات من مياه غازية وأدوية .

ولذلك نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه " .

أي : أنه صلى الله عليه وسلم ينهانا عن أن نأكل بالشهوة واللذة فقط .

ولنلحظ الفارق بين طعام الدنيا وطعام الجنة في الآخرة؛ فهناك سوف نأكل الطعام الذي نستلذّ به ويَمْري علينا؛ بينما نحن نُضطر في الدنيا في بعض الأحيان أن نأكلَ الطعام بدون مِلْح ومسلوقاً كي يحفظ لنا الصحة؛ ولا يُتعِبنا؛ وهو أكل مَرِيء وليس طعاماً هنيئاً، ولكن طعام الآخرة هَنِيءٌ ومَرِيءٌ .

وعلى ذلك نفهم قول الحق سبحانه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾ [الحجر: 3]

أي: أن يأكلوا أكْلاً مقصوداً لذات اللذّة فقط .

ويقول الحق سبحانه متابعاً: ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأمل . . . ﴾ [الحجر: 3]

أي: أن يَنصبوا لأنفسهم غايات سعيدة؛ تُلهيهم عن وسيلة ينتفعون بها؛ ولذلك يقول المثل العربي: "الأمل بدون عمل تلصُّص" فما دُمْت تأمل أملاً؛ فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل لتحققه .

ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان مَنْ غَرَّتْه النعمة، فقال: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً * وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً . . . ﴾ [الكهف: 3536]

ولكن الساعة ستقوم رَغْماً عن أنْف الآمال الكاذبة، والسراب المخادع .

ويقول الحق سبحانه: ﴿ . . . وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: 3]

وكلمة ( سوف ) تدل على أن الزمن مُتراخٍ قليلاً ؛ فالأفعال مثل " يعلم " تعني أن الإنسان قد يعلم الآن ؛ ويعلم من بَعْد الآن بوقت قصير ، أما حين نقول " سوف يعلم " فتشمل كل الأزمنة .

فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً ؛ أما غير المؤمنين فلسوف يتمنَّوْنَ الإيمان ؛ كما قُلْنا وأوضحنا من قبل .

وهكذا نرى أن قوله : ﴿ . . . فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الحجر : 3 ]

(74/423)

---

يشمل كُلّ الأزمنة . وقد صنع الحق سبحانه في الدنيا أشياء تُؤْذِن بصِدْق وَعْده ، والذين يظُنُّون أنهم يسيطرون على كُلِّ الحياة يُفاجِئهم زلزال ؛ فيهدم كل شيء ، على الرغم من التقدُّم فيما يُسمّى " الاستشعار عن بعد " وغير ذلك من فروع العلم التطبيقي .

وفي نفس الوقت نرى الحمير التي نتهمها بأنها لا تفهم شيئاً تَهُبُّ وهي الماشية من قبل الزلزال لتخرج إلى الخلاء بعيداً عن الحظائر التي قد تتهدم عليها ، وفي مثل هذا التصرُّف الغريزي عند الحيوانات تحطيمٌ وأدبَ للغرور الإنساني ، فمهما قاده الغرور ، وادعى أنه مالك لناصية العلم ، فهو ما زال جاهلاً وجهولاً .

وكذلك نجد مَنْ يقول عن البلاد المُمطرة : إنها بلاد لا ينقطع ماؤها ، لذلك لا تنقطع خُضْرتها . ثم يصيب تلك البلاد جفافٌ لا تعرف له سبباً ، وفي كل ذلك تنبيهٌ للبشر كي لا يقعوا أسْرى للغرور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(75/423)

---

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ 3 ] قال : إذا اجتمعت أربعة في عبد قيل له : إنك لن تنال شيئاً من هذا الأمر ، إذا أحب أن يأكل شيئاً طيباً ، ويلبس ثوباً ليناً ، وينفذ أمره ، ويكثر شيئه يقال : هيهات هذا الذي قطع الخلق عن الله تعالى .

وقد حكي أن الله أوحى إلى داود عليه السلام : حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة .

وقال سهل : الأمل أرض كل معصية ، والحرص بذر كل معصية ، والتسويف ماء كل معصية ، والقدرة أرض كل طاعة ، واليقين بذر كل طاعة ، والعمل ماء كل طاعة .

قال : وكان سهل يقوى على الوجد سبعين يوماً لا يأكل فيها طعاماً ، وكان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم في كل جمعة مرة ، كيلا يضعفوا عن العبادة ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوي ، وكان يعرق في البرد الشديد في الشتاء وعليه قميص واحد ، وكان إذا سألوه عن شيء من العلم يقول : لا تسألوني فإنكم لا تنتفعون في هذا الوقت بكلامي .

وفد عباس بن عصام يوماً وهو يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله ، والناس يتوهمون أني أكلمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 88 ﴾

(76/423)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآَنٍ مُبِينٍ (1) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ﴾

أخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ الر ﴾ و ﴿ الم ﴾ قال : فواتح يفتتح بها كلامه ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال التوراة والإنجيل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ الر تلك آيات الكتاب ﴾ قال : الكتب التي كانت قبل القرآن ﴿ وقرآن مبين ﴾

قال : مبين ، والله هداه ورشده وخيره .

قوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي ، عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة ، عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قالوا : ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ قال : ذلك يوم القيامة ، يتمنى الذين كفروا ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ قال : موحدين .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قال : هذا في الجهنميين ، إذا رأوهم يخرجون من النار .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد بن السري في الزهد ، وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث والنشور ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما زال الله يشفع ويدخل الجنة ويشفع ويرحم ، حتى يقول : من كان مسلماً فليدخل الجنة . فذلك قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث ، عن ابن عباس وأنس رضي الله عنهما ، أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ فقالا : هذا حيث يجمع الله بين أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار ، فيقول المشركون : ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون . . . ! فيغضب الله لهم ، فيخرجهم بفضل رحمته .

وأخرج سعيد بن منصور وهناد والبيهقي ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قال : إذا خرج من النار من قال لا إله إلا الله .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند صحيح ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم . فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله تعالى من النار ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من

أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى . قالوا : فما أغنى عنكم الإِسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها . فسمع الله ما قالوا ، فأمر بكل من كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ " .

(78/423)

---

وأخرج إسحاق ابن راهويه وابن حبان والطبراني وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري أنه سئل : هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية شيئاً ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : "يُخْرِج الله أناساً من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم لما أدخلهم الله النار مع المشركين ، قال لهم المشركون : ألستم كنتم تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا ، فما بالكم معنا في النار ؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فاذا رأى المشركون ذلك قالوا : يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم . فذلك قول الله ﴿

ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قال : فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم ، فيقولون : يا ربنا ، أذهب عنا هذا الاسم ، يأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم " .

وأخرج هناد بن السري والطبراني في الأوسط وأبو نعيم ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قول لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة ، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أول من يأذن الله عز وجل له يوم القيامة في الكلام والشفاعة ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال له : " قلْ تسمعْ وسلْ تُعْطَه .

(79/423)

---

قال : فَيَخرُّ ساجداً فيثني على الله ثناء لم يُثْنِ عليه أحدٌ ، فيقال : ارفع رأسك . فيرفع رأسه فيقول : أي رب ، أمتي . . أمتي . . فيخرج له ثلث من في النار من أمته ، ثم يقال : قل

تسمع ، وسل تعط . فيخرّ ساجداً فيثني على الله ثناء لم يثنه أحد . فيقال : ارفع رأسك . فيرفع رأسه ويقول : أي رب ، أمتي . . أمتي . . فيخرج له ثلث آخر من أمته ، ثم يقال له : قل تسمع ، وسل تعط . فيخرّ ساجداً فيثني على الله ثناء لم يثنه أحد . فيقال : ارفع رأسك . فيرفع رأسه ويقول : رب ، أمتي . . أمتي . . فيخرج له الثلث الباقي " . فقيل للحسن : أن أبا حمزة يحدث بكذا وكذا . فقال : يرحم الله أبا حمزة ، نسي الرابعة . قيل : وما الرابعة ؟ قال : من ليست له حسنة إلا لا إله إلا الله . فيقول : رب ، أمتي . . أمتي . . فيقال له : يا محمد ، هؤلاء ينجيهم الله برحمته حتى لا يبقى أحد ممن قال لا إله إلا الله ، فعند ذلك يقول أهل جهنم ﴿ ما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾ وقوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يقوم نبيكم رابع أربعة ، فيشفع فلا يبقى في النار إلا من شاء الله من المشركين ، فذلك قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين في السنة ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أصحاب الكبائر من موحّدي الأمم كلها ، الذين ماتوا على كبائرهم غير نادمين ولا تائبين ، من دخل منهم جهنم لا تزرقّ أعينهم ولا تسودّ وجوههم ، ولا يقرنون بالشياطين ولا يغلون بالسلاسل ، ولا يجرعون الحميم ولا يلبسون القطران ، حرم الله أجسادهم على الخلود من أجل التوحيد ، وصورهم على النار من أجل السجود ، فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه النار إلى عقبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى فخذيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها ، قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان ، لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله ، فنحن وأنتم اليوم في النار سواء . فيغضب الله لهم غَضَباً لم يغضَبْه لشيء فيما مضى ، فيخرجهم إلى عين بين الجنة والصراط فينبتون فيها نبات الطراثيث في حميل السيل ، ثم يدخلون الجنة . . . مكتوب في جباههم : هؤلاء الجهنميون عتقاء الرحمن . فيمكثون في الجنة ما شاء الله أن يمكثوا ، ثم يسألون الله تعالى أن يمحو ذلك الاسم عنهم ، فيبعث الله ملكاً فيمحوه ، ثم يبعث الله ملائكة معهم مسامير من نار فيطبقونها على من بقي فيها ، يسمرونها بتلك

المسامير فينساهم الله على عرشه ويشتغل عنهم أهل الجنة بنعيمهم ولذاتهم . وذلك قوله ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ " .

(81/423)

---

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، عن زكريا بن يحيى صاحب القضيب قال : سألت أبا غالب رضي الله عنه عن هذه الآية ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ فقال : حدثني أبو أمامة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انها نزلت في الخوارج حين رأوا تجاوز الله عن المسلمين وعن الأمة والجماعة ، قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين " .

وأخرج الحاكم في الكنى ، عن حماد رضي الله عنه قال : سألت إبراهيم عن هذه الآية ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قال : حدثت أن أهل الشرك قالوا لمن دخل النار من أهل الإِسلام : ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون . . . ؟ فيغضب الله لهم فيقول للملائكة والنبيين : اشفعوا لهم . فيشفعون لهم فيخرجون ، حتى ان إبليس ليتطاول رجاء أن يدخل معهم ، فعند ذلك ﴿ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ الآية. قال: هؤلاء الكفرة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ ذرهم ﴾ قال: خل عنهم.

وأخرج أحمد في الزهد والطبراني في الأوسط، وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا أعلمه إلا رفعه. قال: صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل.

وأخرج أحمد وابن مردويه، عن أبي سعيد رضي الله عنه "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غرس عوداً بين يديه وآخر إلى جنبه وآخر بعده. قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن هذا الإنسان وهذا أجله وهذا أمله، فيتعاطى الأمل فيختلجه الأجل دون ذلك".

(82/423)

---

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الأمل وابن مردويه، عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مُثّل الإنسان والأمل والأجل، فمثّل الأجل إلى جانبه، والأمل أمامه، فبينما هو يطلب الأمل إذ أتاه الأجل فاختلجه".

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه : " أن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطوطاً وخط خطاً منها ناحية ، فقال : أتدرون ما هذا . . . ؟ هذا مثل ابن آدم ، وذاك الخط الأمل ، فبينما هو يؤمل إذ جاءه الموت " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(83/423)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ تقدَّم نظيرُها في أولِ الرعد . والإِشارة ب " تلك " إلى ما تضمَّنته السورةُ ، ولم يذكرْ الزمخشري غيرَه . وقيل : إشارةٌ إلى الكتب السالفة . وتنكيرُ القرآنِ للتفخيم .

قوله تعالى : ﴿ رُّبَمَا ﴾ ﴿ رُبَ ﴾ : فيها قولان ، أحدُهما : أنها حرفُ جرٍّ ، وزعم الكوفيون وأبو الحسن وابن الطَّراوة أنها اسم . ومعناها التقليلُ على المشهور . وقيل : تفيد التكثير . وقيل : تفيد التكثير في مواضعِ الافتخار كقوله :

29220- فيا رُبَّ يومٍ قد لَهَوْتُ وليلةٍ . . . بآنسةٍ كأنها خطُّ تِمْثالِ

وقد أُجيب عن ذلك: بأنها لتقليل النظير . ودلائلُ هذه الأقوال في النحو . وفيها لغاتٌ كثيرةٌ أشهرها : " رُبَ" بالضم والتشديد ، أو التخفيف ، وبالثانية قرأ نافع وعاصم . و " رَبَ" بالفتح مع/ التشديد والتخفيف ، ورُبْ ورَبْ بالضم والفتح مع السكون فيهما .

وتتصل تاءُ التأنيث بكلِّ ذلك ، وبالتاء قرأ طلحةُ بن مصرف وزيدُ بن علي : رُبَّتَما . وإذا اتصلت بها التاء جاز فيها الإِسكانُ والفتح كثُمَّت ولات ، فتكثر الألفاظ ، ولها أحكامٌ كثيرةٌ منها : لزومُ تصديرِها ، ومنها تنكيرُ مجرورِها وقوله :

2923- رُبَّما الجامِلِ المُؤَبَّلِ فيهمُ . . . وعَنَاجيجُ بينهنَّ المَهَارى

ضرورةٌ في روايةِ مَنْ جَرَّ " الجامِلِ " . وتَجُرُّ ضميرا لازمَ التفسيرِ بنكرةٍ بعده ، يُستغنى بتثنيتِها وجمعِها وتانيثِها عن تثنيةِ الضميرِ وجمعِه وتأنيثِه كقولِه "

2924- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

ورُبَّه عَطِباً أَنْقَذْتُ مِنْ عَطَبِه

(84/423)

---

والمطابقةُ نحو : : رُبَّهما رجلين " نادرةٌ . وقد يُعطف على مجرورِها ما أُضيف إلى ضميرِه نحو : " رُبَّ رجلٍ وأخيه " . وها يلزم وَصْفُ مجرورِها ، ومُضِيُّ ما يتعلَّق به؟ خلاف ،

والصحيحُ عدمُ ذلك . فمِنْ مجيئه غيرَ موصوفٍ قولُ هندٍ :

2925- يا رُبَّ قائلةٍ غداً . . . يا لهفَ أمِّ مُعاويهْ

ومن مجيء المستقبلِ قولُه :

2926- فإنْ أَهْلَكْ فربَّ فتىً سيبكي . . . عليَّ مهذَّبٍ رَخْصِ البَنانِ

وقولُها : " يا رُبَّ قائلةٍ غداً " البيت ، وقول سليم :

2927- ومعتصمٍ بالحيِّ من خشيةِ الرَّدى . . . سيُرْدى وغازٍ مُشْفِقٍ سَيَؤُوب

فإنَّ حرف التنفيس و " غداً " خَلَّصاه للاستقبال .

و " ما " في " رُبما " تحتمل وجهين ، أظهرُهما : أنها المهيِّئَةُ ، بمعنى : أن " رُبَّ " مختصةٌ بالأسماء ، فلمَّا جاءت " ما " هَيَّأت دخولَها على الأفعال . وقد تقدَّم نظيرُ ذلك في " إنَّ " وأخواتها ، وتكفُّها أيضاً عن العمل كقولِه :

2928- رُبَّما الجامِلُ المُؤَبَّلُ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . .

في روايةِ مَنْ رفَعه ، كما جرَى ذلك في كاف التشبيه . والثاني : أنَّ " ما " نكرةٌ موصوفةٌ بالجملةِ الواقعة بعدها ، والعائدُ على " ما " محذوفٌ ، تقديره : رُبَّ شيءٍ يَوَدُّه الذين كفروا .

وقوله : ﴿ يودُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ مَنْ لم يلتزمْ مُضِيَّ متعلِّقِها لم يَحْتَجْ إلى تأويلٍ ، ومَنْ التَزَم ذلك

قال : لأن المُتَرَقَّب في أخبار الله تعالى واقعٌ لا محالةَ ، فعبَّر عنه بالماضي تحقيقاً لوقوعِه ، كقوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [ النحل : 1 ] ونحوه .

(85/423)

---

قوله : ﴿ لَوْ كَانُواْ ﴾ يجوز في " لو " أن تكونَ الامتناعية ، وحينئذٍ يكون جوابُها محذوفاً . تقديره : لو كانوا مسلمين لسُرُّوا بذلك ، أو لَخَلَصوا مِمَّا هم فيه . ومفعول " يَوَدُّ " محذوفٌ على هذا التقديرِ : أي : رُبَّما يودُّ الذين كفروا النجاةَ ، دَلَّ عليه الجملةُ الامتناعية .

والثاني : أنها مصدرية عند مَنْ يرى ذلك كما تقدَّم تقريرُه في البقرة . وحينئذٍ يكون هذا المصدرُ هو المفعولَ للوَدادة ، أي : يَوَدُّون كونَهم مسلمين ، إنْ جعلنا " ما " كافةً ، وإنْ جعلناها نكرةً كانت " لو " وما في حَيِّزها بدلاً مِنْ " ما " .

قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ : هذا لا يُستعمل له ماضٍ إلا قليلاً استغناءً عنه ب " تَرَكَ " بل يُستعمل منه المضارعُ نحو : ﴿ وَيَذَرُهُمْ ﴾ [ الأعراف : 186 ] . ومن مجيء الماضي قولُه عليه السلام : " ذَرُوا الحبشة ما وَذَرْتكم " ، ومثله : دَعْ ويدَعُ ، ولا يقال " وَدَعَ " إلاَّ نادراً ، وقد قرئ " ما وَدَعك " مخفَّفاً ، وأنشدوا قوله :

2929- سَلْ أميري ما الذي غيَّرَهْ . . . عن وِصالي اليومَ حتى وَدَعَهْ

و﴿ يَأْكُلُواْ ﴾ مجزومٌ على جوابِ الأمر ، وقد تقدَّمَ أنَّ " تَرَكَ " و " ذَرْ " يكونان بمعنى صَيَّر ، فعلى هذا يكون المفعولُ الثاني محذوفاً ، أي : ذَرْهُمْ مُهْمِلين ، ولا يكونوا هو الثاني ولا حالاً ؛ إذ كان يجبُ رفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 137 . 141 ﴾

*(86/423)*

---

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعَةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب ، فأعرضوا عن كل شيءٍ وسمعوا لها . ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابُهم ، واستعدت لسماع ما يقول آذانُهم : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ووصف القرآن بأنه مبين ؛ لأنه يُبَيِّنُ للمؤمنين ما يسكِّن قلوبهم ، وللمريدين ما يقوي رجاءَهم ، وللمحسنين ما يهيج اشتياقهم ، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم ، ويبيِّن للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - تحقيقَ ما منَعَ غَيْرِه بعد سؤاله . . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه

السلام : " لن تراني " بعد سؤاله : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [ الأعراف : 143 ] .

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (2) ﴾

إذا عرفوا حالهم وحال المسلمين يوم القيامة لعلموا كيف شقوا ، وأي كأس رشفوا . ويقال إذا صارت المعارف ضرورية أحرقت نفوس أقوامٍ العقوبة ، وقطَّعت قلوبهم الحَسْرَةُ .

ويقال لو عرفوا حالَهم وحال المؤمنين لَعلِمُوا أن العقوبةَ بإهلاكهم حاصلةٌ .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) ﴾

قيمة كل امرئٍ على حسب هِمَّتِه ؛ فإذا كانت الهمةُ مقصورةً على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يُحَاسَبُ ، وعلى العقل لا يُطَالَبُ : فالتَّكليفُ يتبعه التشريف ! وغداً سوف يعلمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 262 . 263 ﴾

*(87/423)*

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما هددوا بآية التمتع وإلهاء الأمل ، وكان من المعلوم جداً من أحوالهم الاستعجال بالعذاب تكذيباً واستهزاء ، كان الكلام في قوة أن يقال : فقالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ! عجل لنا ما تتوعدنا به ، وكان هذا غائظاً موجعاً حاملاً على تمني سرعة الإيقاع بهم ، فقيل في الجواب : إن لهم أجلاً بكتاب معلوم لا بد من بلوغهم له ، لأن المتوعد لا يخاف الفوت فهو يمهل ولا يهمل ، لأنه لا يبدل القول لديه ، فليستعدوا فإن الأمر غيب ، فما من لحظة إلا وهي صالحة لأن يتوقع فيه العذاب ، فإنا لا نهلكهم إلا إذا بلغوا كتابهم المعلوم ﴿ وما ﴾ جعلنا هذا خاصاً بهم ، بل هو عادتنا ، ما ﴿ أهلكنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ، وأكد النفي فقال : ﴿ من قرية ﴾ أي من القرى .

ولما كان السياق للإهلاك واستعجالهم واستهزائهم به ، وكان تقديره سبحانه وكُتُبه من عالم الغيب ، اقتضى الحال التأكيد بما يدل على أنه محتوم مفروغ منه سابق تقديره على زمن الإهلاك ، فأتى بالواو لأن الحال بدون الواو كالجزء من سابقها كالخبر والنعت الذي لا يتم المعنى بدونه ، والتي بالواو هي زيادة في الخبر السابق ، ولذلك احتيج إلى الربط بالواو كما يربط بها في العطف ، فقال : ﴿ إلا ولها ﴾ أي والحال أنه لها في الإهلاك أو لإهلاكها ﴿ كتاب معلوم ﴾ أي أجل مضروب مكتوب في اللوح المحفوظ ، أو يكون التقدير : فسوف يعلمون إذا جاءهم العذاب في الأجل الذي كتبناه لهم : هل يودون الإسلام أم لا ؟ ثم بين الآية

السابقة بقوله : ﴿ ما تسبق ﴾ وأكد الاستغراق بقوله : ﴿ من أمة ﴾ وبين أن المراد بالكتاب الأجل بقوله : ﴿ أجلها ﴾ أي الذي قدرناه لها ﴿ وما يستأخرون ﴾ أي عنه شيئاً من الأشياء ، ولم يقل : تستأخر - حملاً على اللفظ كالماضي ، لئلا يصرفوه إلى خطابه صلى الله عليه وعلى آله وسلم تعنتاً .

*(88/423)*

---

ثم لما أجابهم بهذا الجواب الدال على تمام القدرة وكمال العلم الدالين على الوحدانية ، عطف على ما تقدم أنه في قوة الملفوظ قوله دالاً على تركهم الجواب إلى التعنت والسفه : ﴿ وقالوا ﴾ أي لم يجوزوا أنهم يودون ذلك ، بل استمروا على العناد وقالوا : ﴿ يأيها الذي ﴾ ولما كان تكذيبهم بالتنزيل نفسه ، بني للمفعول قوله : ﴿ نزل عليه ﴾ أي بزعمه ﴿ الذكر ﴾ وبينوا أنهم ما سموه تنزيلاً إلا تهكماً ، فقالوا مؤكدين لمعرفتهم بأن قولهم منكر : ﴿ إنك لمجنون ﴾ أي بسبب ادعائك أن الله أنزل عليك ذكراً والذي تراه جني يلقى إليك تخليطاً ، فكان هذا دليلاً على عنادهم ، فإنهم أقاموا الشتم مقام الجواب عما مضى صنعه المغلوب المقطوع في المناظرة ، ثم أتبعوه ما زعموا أنه دليل على قولهم فقالوا : ﴿ لو ما ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ دليلاً على صدقك إما للشهادة لك وإما لإهلاك

من خالفك ﴿ إن كنت ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ من الصادقين ﴾ فيما تقول ، أي ما وجه اختصاصك عنا بنزول الملائكة عليك ورؤيتك إياهم وأنت مثلنا في الإنسانية والنسب والبلد ؟ هذا بعد أن قامت على صدقه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي أعظمها القرآن الداعي لهم إلى المبارزة كل حين المبكت لهم بالعجز عن المساجلة كل وقت .

(89/423)

---

ولما كان في قولهم أمران ، أجاب عن كل منهما على طريق الاستئناف على تقدير سؤال من كأنه قال : ربما إذا أجابهم ؟ فقيل : أجاب عن الثاني لأنه أقرب بقوله : ﴿ ما نُنزل الملائكة ﴾ أي هذا النوع ﴿ إلا ﴾ تنزلاً ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ أي بسبب عمل الأمر الثابت ، وهو معنى ما قال البخاري في كتاب التوحيد : قال مجاهد : بالرسالة والعذاب ، وأما على الرسل فبالحق من الأقوال ، وأما على المنذرين فبالحق من الأفعال من الهلاك والنجاة ، فلو نزلوا عليهم كما اقترحوا لقضي الأمر بينك وبينهم فهلكوا ﴿ وما كانوا ﴾ أي الكفار ﴿ إذاً ﴾ أي إذ تأتيهم الملائكة ﴿ منظرين ﴾ أي حاصلاً لهم الإنظار على تقدير من التقادير ، لأن الأمر الثابت يلزمه نجاة الطائع وهلاك العاصي في الحال من غير إمهال ، وكان حينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم ، وأجاب

سبحانه عن الأول بقوله مؤكداً لتكذيبهم : ﴿ إنا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 205 . 207 ﴾

(90/423)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى : اعلم أنه تعالى لما توعد من قبل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أتبعه بما يؤكد الزجر وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كتاب مَّعْلُومٌ ﴾ في الهلاك والعذاب وإنما يقع فيه التقديم والتأخير فالذين تقدموا كان وقت هلاكهم في الكتاب معجلاً ، والذين تأخروا كان وقت هلاكهم في الكتاب مؤخراً وذلك نهاية في الزجر والتحذير .

المسألة الثانية : قال قوم المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذي كان الله ينزله بالمكذبين

المعاندين كما بينه في قوم نوح وقوم هود وغيرهم ، وقال آخرون : المراد بهذا الهلاك الموت .

قال القاضي : والأقرب ما تقدم ، لأنه في الزجر أبلغ ، فبين تعالى أن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العاقل لأن العذاب مدخر ، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وقال قوم آخرون : المراد بهذا الهلاك مجموع الأمرين وهو نزول عذاب الاستئصال ونزول الموت ، لأن كل واحد منهما يشارك الآخر في كونه هلاكاً ، فوجب حمل اللفظ على القدر المشترك الذي يدخل فيه القسمان معاً .

المسألة الثالثة : قال الفراء : لو لم تكن الواو مذكورة في قوله : ﴿ وَلَهَا كِتَابٌ ﴾ كان صواباً كما في آية أخرى وهي قوله : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [ الشعراء : 208 ] وهو كما تقول : ما رأيت أحداً إلا وعليه ثياب وإن شئت قلت : إلا عليه ثياب .

أما قوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ﴾ ففيه مسائل :

(91/423)

---

المسألة الأولى : قال الواحدي : من في قوله : ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ زائدة مؤكدة كقولك : ما جاءني من أحد ، وقال آخرون : إنها ليست بزائدة لأنها تفيد التبعيض أي هذا الحكم لم يحصل في بعض من أبعاض هذه الحقيقة فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد .

المسألة الثانية : قال صاحب "النظم" معنى سبق إذا كان واقعاً على شخص كان معناه أنه جاز وخلف كقولك سبق زيد عمراً ، أي جازه وخلفه وراءه ، ومعناه أنه قصر عنه وما بلغه ، وإذا كان واقعاً على زمان كان بالعكس في ذلك ، كقولك : سبق فلان عام كذا معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه فقوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ﴾ معناه أنه لا يحصل ذلك الأجل قبل ذلك الوقت ولا بعده ، بل إنما يحصل في ذلك الوقت بعينه ، والسبب فيه أن اختصاص كل حادث بوقته المعين دون الوقت الذي قبله أو بعده ليس على سبيل الاتفاق الواقع ، لا عن مرجح ولا عن مخصص فإن رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح محال ، وإنما اختص حدوثه بذلك الوقت المعين لأن إله العالم خصصه به بعينه ، وإذا كان كذلك ، فقدرة الإله وإرادته اقتضتا ذلك التخصيص ، وعلمه وحكمته تعلقا بذلك الاختصاص بعينه ، ولما كان تغير صفات الله تعالى أعني القدرة والإرادة والعلم والحكمة ممتنعاً كان تغير ذلك الاختصاص ممتنعاً .

إذا عرفت هذا فنقول : هذا الدليل بعينه قائم في أفعال العباد أعني أن الصادر من زيد هو الإيمان والطاعة ومن عمرو هو الكفر والمعصية فوجب أن يمتنع دخول التغير فيهما .

فإن قالوا : هذا إنما يلزم لو كان المقتضي لحدوث الكفر والإيمان من زيد وعمرو هو قدرة الله تعالى ومشيئته .

أما إذا قلنا : المقتضى لذلك هو قدرة زيد وعمرو ومشيئتهما سقط ذلك .

قلنا : قدرة زيد وعمرو مشيئتهما إن كانتا موجبتين لذلك الفعل المعين فخالق تلك القدرة والمشيئة الموجبتين لذلك الفعل هو الذي قدر ذلك الفعل بعينه فيعود الإلزام ، وإن لم تكونا موجبتين لذلك الفعل بل كانتا صالحتين له ولضده ، كان رجحان أحد الطرفين على الآخر لم يكن لمرجح ، فقد عاد الأمر إلى أنه حصل ذلك الاختصاص لا لمخصص وهو باطل ، وإن كان لمخصص فذلك المخصص إن كان هو العبد عاد البحث ولزم التسلسل ، وإن كان هو الله تعالى فحينئذ يعود البحث إلى أن فعل العبد إنما تعين وتقدر بتخصيص الله تعالى ، وحينئذ لا يعود الإلزام .

المسألة الثالثة :

دلت الآية على أن كل من مات أو قتل فإنما مات بأجله ، وأن من قال : يجوز أن يموت قبل أجله فمخطىء .

فإن قالوا : هذا الاستدلال إنما يتم إذا حملنا قوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ على الموت أما إذا حملناه على عذاب الاستئصال فكيف يلزم .

قلنا : قوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ إما أن يدخل تحته الموت أو لا يدخل ، فإن دخل الاستدلال

ظاهر لازم وإن لم يدخل فنقول : إن ما لأجله وجب في عذاب الاستئصال أن لا يتقدم ولا يتأخر عن وقته المعين قائم في الموت ، فوجب أن يكون الحكم ههنا كذلك ، والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تهديد الكفار ذكر بعده شبههم في إنكار نبوته .

فالشبهة الأولى : أنهم كانوا يحكمون عليه بالجنون ، وفيه احتمالات : الأول : أنه عليه السلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا أنها جنون ، والدليل عليه قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ القلم : 51 ، 52 ] وأيضاً قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [ الأعراف : 184 ] .

(93/423)

---

والثاني : أنهم كانوا يستبعدون كونه رسولاً حقاً من عند الله تعالى ، فالرجل إذا سمع كلاماً مستبعداً من غيره فربما قال له هذا جنون وأنت مجنون لبعد ما يذكره من طريقة العقل ، وقوله : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ في هذه الآية يحتمل الوجهين .

أما قوله : ﴿ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنهم ذكروه على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [

الشعراء : 27 ] وكما قال قوم شعيب : ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [ هود : 87 ]

وكما قال تعالى : ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ آل عمران : 21 ] لأن البشارة بالعذاب ممتنعة .

والثاني : ﴿ يا أيها الذي نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ في زعمه واعتقاده ، وعند أصحابه وأتباعه .

ثم حكى عنهم أنهم قالوا في تقرير شبههم : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملئكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

*(94/423)*

---

المراد لو كنت صادقاً في ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا بصدقك فيما تدعيه من الرسالة ، لأن المرسل الحكيم إذا حاول تحصيل أمر ، وله طريق يفضي إلى تحصيل ذلك المقصود قطعاً ، وطريق آخر قد يفضي وقد لا يفضي ، ويكون في محل الشكوك والشبهات ، فإن كان ذلك الحكيم أراد تحصيل ذلك المقصود ، فإنه يحاول تحصيله بالطريق الأول لا بالطريق الثاني ، وإنزال الملائكة الذين يصدقونك ، ويقررون قولك طريق يفضي إلى حصول هذا المقصود قطعاً ، والطريق الذي تقرر به صحة نبوتك طريق في محل الشكوك والشبهات

، فلو كنت صادقاً في ادعاء النبوة لوجب في حكمة الله تعالى إنزال الملائكة الذين يصرحون بتصديقك وحيث لم تفعل ذلك علمنا أنك لست من النبوة في شيء ، فهذا تقرير هذه الشبهة ، ونظيرها قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْكَ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِىَ الأمر ﴾ [ الأنعام : 8 ] وفيه احتمال آخر : وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا به ، فالقوم طالبوه بنزول العذاب وقالوا له : ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب الموعود ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءهُمُ العذاب ﴾ [ العنكبوت : 53 ] ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ فنقول : إن كان المراد من قولهم : ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ هو الوجه الأول ، كان تقرير هذا الجواب أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وعند حصول الفائدة ، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل عليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم ، وعلى هذا التقرير فيصير إنزالهم عبثاً باطلاً ، ولا يكون حقاً ، فلهذا السبب ما أنزلهم الله تعالى ، وقال المفسرون

: المراد بالحق ههنا الموت ، والمعنى : أنهم لا ينزلون إلا بالموت ، وإلا بعذاب الاستئصال ، ولم يبق بعد نزولهم إنظار ولا إمهال ، ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة ، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة ، وأما إن كان المراد من قوله تعالى : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ استعجالهم في نزول العذاب الذي كان الرسول عليه السلام يتوعدهم به ، فتقرير الجواب أن الملائكة لا تنزل إلا بعذاب الاستئصال ، وحكمنا في أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نفعل بهم ذلك ، وأن نمهلهم لما علمنا من إيمان بعضهم ، ومن إيمان أولاد الباقين .

المسألة الثانية :

قال الفراء والزجاج : لولا ولوما لغتان : معناهما : هلا ويستعملان في الخبر والاستفهام ، فالخبر مثل قولك لولا أنت لفعلت كذا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [ سبأ : 31 ] والاستفهام كقولهم : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [ الأنعام : 8 ] وكهذه الآية .

وقال الفراء : لوما الميم فيه بدل عن اللام في لولا ، ومثله استولى على الشيء واستومى عليه ، وحكى الأصمعي : خاللته وخالمته إذا صادقته ، وهو خلى وخلمي أي صديقي .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ﴾ بالنون وبكسر الزاي والتشديد ، والملائكة بالنصب لوقوع الإنزال عليها .

والمنزل هو الله تعالى ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : ﴿ مَا تُنَزَّلَ ﴾ عن فعل ما لم يسمى فاعله ،

والملائكة بالرفع .

والباقون : ما تنزل الملائكة على إسناد فعل النزول إلى الملائكة ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ يعني : لو نزلت الملائكة لم ينظروا أي يمهلوا فإن التكليف يزول عند نزول الملائكة .

قال صاحب "النظم" : لفظ اذن مركبة من كلمتين : من إذ وهو اسم بمنزلة حين ألا ترى أنك تقول : أتيتك إذ جئتني أي حين جئتني .



---

ثم ضم إليها أن ، فصار إذ أن .

ثم استثقلوا الهمزة ، فحذفوها فصار إذن ، ومجيء لفظة إذن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير : وما كانوا منظرين إذ كان ما طلبوا وهذا تأويل حسن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 123 . 127 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ما تسبق من أمةٍ أجَلَها وما يَستأخرون ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يتقدم هلاكهم عن أجله ولا يتأخر عنه .

الثاني : لا يموتون قبل العذاب فيستريحوا ، ولا يتأخر عنهم فيسلموا .

وقال الحسن فيه تأويلاً ثالثاً : ما سبق من أمة رسولها وكتابها فتعذب قبلهما ولا يستأخر الرسول والكتاب عنها .

قوله عز وجل : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : إلا بالقرآن ، قاله القاسم .

الثاني : إلا بالرسالة ، قاله مجاهد .

الثالث : إلا بالقضاء عند الموت لقبض أرواحهم ، قاله الكلبي .

الرابع : إلا بالعذاب إذا لم يؤمنوا ، قاله الحسن .

﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ أي مؤخَّرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ومعنى قوله : ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ الآية ، أي لا تستبطئن هلاكهم فليس قرية مهلكة إلا بأجل وكتاب معلوم محدود . والواو في قوله : ﴿ ولها ﴾ هو واو الحال .

وقرأ ابن أبي عبلة " إلا لها " بغير واو . وقال منذر بن سعيد : هذه الواو هي التي تعطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو ، ومنه قوله : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ [ الزمر : 73 ] وباقي الآية بين .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾

الضمير في ﴿ قالوا ﴾ يراد به كفار قريش . ويروى أن القائلين كانوا : عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، وأشباههما .

وقرأ الأعمش : " يا أيها الذي ألقي إليه الذكر " .

وقولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ كلام على جهة الاستخفاف ، أي بزعمك ودعواك ، وهذه المخاطبة كما تقول لرجل جاهل أراد أن يتكلم فيما لا يحسن : يا أيها العالم لا تحسن تتوضأ .

و﴿ لوما ﴾ بمعنى لولا، فتكون تحضيضاً -كما في هذه الآية- وقد تكون دالة على امتناع الشيء لوجود غيره، كما قال ابن مقبل: [البسيط]

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ... ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: "ما تنزل الملائكة" بفتح التاء والرفع وقرأ عاصم -في رواية أبي بكر- "ما تُنزلُ" بضم التاء والرفع، وهي قراءة يحيى بن وثاب، وقرأ حمزة والكسائي وحفص "ما ننزلُ بنون العظمة- "الملائكةَ بالنصب، وهي قراءة طلحة بن مصرف.

وقوله: ﴿ إلا بالحق ﴾ قال مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب.

قال القاضي أبو محمد: والظاهر أن معناه: كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي رآها الله لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض.

(99/423)

---

ثم ذكر عادة الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا.

فكأن الكلام: ما تنزل الملائكة إلا بالحق وواجب، لا باقتراحكم؛ وأيضاً فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب، أي تؤخروا، و"النظرة": التأخير، المعنى: فهذا لا يكون، إذ

كان في علم الله أن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(100/423)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾

أي : ما عذَّبنا من أهل قرية ﴿ إِلا ولها كتاب معلوم ﴾ أي أجَل مؤقَّت لا يُتقدم ولا يُتأخر عنه .

﴿ ما تسبق من أُمَّة أَجلها ﴾ "من" صِلة ، والمعنى : ما تتقدم وقتها الذي قدِّر لها بلوغه ، ولا تستأخر عنه .

قال الفراء : إِنما قال : "أَجَلها" لأن الأمَّة لفظُها مؤنث ، وإِنما قال : "يستأخرون" إِخراجاً له على معنى الرجال .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذِّكر ﴾

قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة ، قال ابن عباس : والذِّكر : القرآن .

وإنما قالوا هذا استهزاءً ، لو أيقنوا أنه نُزِّل عليه الذِّكْر ، ما قالوا : ﴿ إنك لمجنون ﴾ .

قال أبو علي الفارسي : وجواب هذه الآية في سورة أخرى في قوله : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [ القلم 2 ] .

قوله تعالى : ﴿ لوما تأتينا ﴾ قال الفراء : "لوما" و"لولا" لغتان معناهما : هلاّ ، وكذلك قال أبو عبيدة : هما بمعنى واحد ، وأنشد لابن مُقبل :

لَوْمَا الحَيَاءُ ولَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا . . .

ببَعْضِ مَا فِيكُمَا إذْ عِبْتُمَا عَوَرِي

قال المفسرون : إنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه ، وأن الله أرسله ، فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ ما تُنَزَّلُ الملائكة إلا بالحق ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر "ما تَنَزَّلُ" بالتاء المفتوحة "الملائكةُ" بالرفع .

وروى أبو بكر عن عاصم "ما تُنَزَّل" بضم التاء على ما لم يُسم فاعله .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخَلَف "ما نُنَزِّل" بالنون والزاي المشددة "الملائكةَ" نصباً .

وفي المراد بالحق أربعة أقوال :

أحدها : أنه العذاب إن لم يؤمنوا ، قاله الحسن .

والثاني : الرساله ، قاله مجاهد .

والثالث : قبض الأرواح عند الموت ، قاله ابن السائب .

والرابع : أنه القرآن ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وما كانوا ﴾ يعني : المشركين ﴿ إِذاً مُنظَرِين ﴾ أي : عند نزول الملائكة إِذا نزلت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(101/423)

---

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) ﴾

أي أجل مؤقت كتب لهم في اللوح المحفوظ.

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) ﴾

"من" صلة ؛ كقولك : ما جاءني من أحد .

أي لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه ، ولا تتقدّم قبله .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ] .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ (7) ﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم على جهة الاستهزاء ، ثم طلبوا منه إتيان الملائكة دلالة على صدقه .

و﴿ لَّوْمَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهلا .

وقال الفراء : الميم في "لوما" بدل من اللام في لولا .

ومثله استولى على الشيء واستوْمَى عليه ، ومثله خالمته وخاللته ، فهو خِلْمي وخِلي ؛ أي صديقي .

وعلى هذا يجوز "لوما" بمعنى الخبر ، تقول : لوما زيد لضرب عمرو .

قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام .

قال ابن مُقْبل :

لَوْمَا الحياء ولوما الدِّين عبتكما . . .

ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِي

يريد لولا الحياء .

وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد .

وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعدّون عَقْر النِّيب أفضل مَجْدِكم . . .

بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنّعا

أي هلا تعدون الكمِيّ المقنعا .

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) ﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿ مَا نُنَزِلُ الملائكة إلاّ بالحق ﴾ واختاره أبو عبيد .

*(102/423)*

---

وقرأ أبو بكر والمفضل "ما تُنَزَّل الملائكةُ" ، الباقون "ما تَنَزَّلُ الملائكةُ" وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفاً ، وقد شدّد التاء البَزِّي ، واختاره أبو حاتم اعتباراً بقوله :

﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح ﴾ [ القدر : 4 ] .

ومعنى ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ إلا بالقرآن .

وقيل بالرسالة ؛ عن مجاهد .

وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا .

﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لما أمهلوا ولا قبلت لهم توبة .

وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا بعد ذلك لم ينظَرُوا .

وأصل "إذاً" إذْ أن ومعناه حينئذ فضم إليها أن ، واستثقلوا الهمزة فحذفوها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(103/423)

---

وقال الخازن :

﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾

يعني من أهل قرية وأراد إهلاك الاستئصال ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ أي أجل مضروب ، ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه ، ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم إلا في الوقت الذي حدد لهم في اللوح المحفوظ ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ من زائدة في قوله : من أمة كقولك ما جاءني من أحد .

وقيل : هي على أصلها لأنها تفيد التبعيض إلى هذا الحكم فيكون ذلك في إفادة عموم النفي آكد ، ومعنى الآية أن الأجل المضروب لهم وهو وقت الموت ، أو نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما يستأخرون ﴾ وإنما أدخل الهاء في أجلها لإرادة الأمة ، وإخراجها من قوله وما يستأخرون لإرادته الرجال .

(104/423)

قوله ﴿ وقالوا ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ يعني القرآن وأرادوا به محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) ﴿ إنك لمجنون ﴾ إنما نسبوه إلى الجنون لأنه ( صلى الله عليه وسلم ) ، كان يظهر عند نزول الوحي عليه ما يشبه الغشي فظنوا أن ذلك جنون فلهذا السبب نسبوه إلى الجنون ، وقيل : إن الرجل إذا سمع كلاماً مستغرباً من غيره فربما نسبه إلى الجنون ، ولما كانوا يستبعدون كونه رسولاً من عند الله ، وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه إلى الجنون ، وإنما قالوا : يا أيها الذي نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل : معناه يا أيها الذي نزل عليه الذكر في زعمه ، واعتقاده واعتقاد أصحابه وأتباعه إنك لمجنون في ادعائك الرسالة ﴿ لو ما ﴾ قال الزجاج والفراء : لو ما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعني هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ يعني يشهدون لك بأنك رسول من عند الله حقاً ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ يعني في قولك وادعائك الرسالة ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ يعني بالعذاب أو وقت الموت ، وهو قوله تعالى ﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ يعني لو نزلت الملائكة إليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك أن كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله بهذا ، والمعنى لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال إن لم يؤمنوا ويصدقوا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الخازن جـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

هذه السورة مكية بلا خلاف ، ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لما ذكر في آخر السورة قبلها أشياء من أحوال القيامة من تبديل السموات والأرض ، وأحوال الكفار في ذلك اليوم ، وأنّ ما أتى به هو على حسب التبليغ والإنذار ، ابتدأ في هذه السورة بذكر القرآن الذي هو بلاغ للناس ، وأحوال الكفرة ، ووداذتهم لو كانوا مسلمين .

قال مجاهد وقتادة : الكتاب هنا ما نزل من الكتب قبل القرآن ، فعلى قولهما تكون تلك إشارة إلى آيات الكتاب .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يراد بالكتاب القرآن ، وعطفت الصفة عليه ، ولم يذكر الزمخشري إلا أن تلك الإشارة لما تضمنته السورة من الآيات قال : والكتاب والقرآن المبين السورة ، وتنكير القرآن للتفخيم ، والمعنى : تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً ، وأي قرآن مبين كأنه قيل : والكتاب الجامع للكمال والغرابة في الشأن ، والظاهر أنّ ما في ربما مهيئة ، وذلك أنها من حيث هي حرف جر لا يليها إلا الأسماء ، فجيء بما مهيئة لمجيء

الفعل بعدها .

وجوزوا في ما أنْ تكون نكرة موصوفة ، ورب جارة لها ، والعائد من جملة الصفة محذوف تقديره : رب شيء يوده الذين كفروا .

ولو كانوا مسلمين بدل من ما على أنّ لو مصدرية .

وعلى القول الأول تكون في موضع نصب على المفعول ليود ، ومن لا يرى أنْ لو تأتي مصدرية جعل مفعول يود محذوفاً .

ولو في لو كانوا مسلمين حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، وجواب لو محذوف أي : ربما يود الذين كفروا الإسلام لو كانوا مسلمين لسروا بذلك وخلصوا من العذاب ، ولما كانت رب عند الأكثرين لا تدخل على مستقبل تأولوا يود في معنى ودّ ، لما كان المستقبل في إخبار الله لتحقق وقوعه كالماضي ، فكأنه قيل : ود ، وليس ذلك بلازم ، بل قد تدخل على المستقبل لكنه قليل بالنسبة إلى دخولها على الماضي .

ومما وردت فيه للمستقبل قول سليم القشيري :

ومعتصم بالجبن من خشية الردى . . .

سيردي وغاز مشفق سيؤب

وقول هند أم معاوية :

يا رب قائلة غداً . . .

يا لهف أم معاوية

وقول جحدر :

فإن أهلك فرب فتى سيبكي . . .

عليّ مهذب رخص البنان

في عدة أبيات .

وقول أبي عبد الله الرازي : أنهم اتفقوا على أنّ كلمة رب مختصة بالدخول على الماضي لا يصح ، فعلى هذا لا يكون يودّ محتاجاً إلى تأويل .

وأما من تأول ذلك على إضمار كان أي : ربما كان يودّ فقوله ضعيف ، وليس هذا من مواضع إضمار كان .

ولما كان عند الزمخشري وغيره أنّ رب للتقليل احتاجوا إلى تأويل مجيء رب هنا ، وطول الزمخشري في تأويل ذلك .

ومن قال : إنها للتكثير ، فالتكثير فيها هنا ظاهر ، لأنّ ودادتهم ذلك كثيرة .

ومن قال : إنّ التقليل والتكثير إنما يفهم من سياق الكلام لا من موضوع رب ، قال : دل سياق الكلام على الكثرة .

وقيل : تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين ، فإن كانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكرتهم تمنوا ، فلذلك قلل .

وقرأ عاصم ، ونافع : ربما بتخفيف الباء ، وباقي السبعة بتشديدها .

وعن أبي عمر : والوجهان .

وقرأ طلحة بن مصرف ، وزيد بن علي ، ربتما بزيادة تاء .

ومتى يودون ذلك ؟ قيل : في الدنيا .

فقال الضحاك : عند معاينة الموت .

وقال ابن مسعود : هم كفار قريش ودّوا ذلك في يوم بدر حين رأوا الغلبة للمسلمين .

وقيل : حين حل بهم ما حل من تملك المسلمين أرضهم وأموالهم ونساءهم ، ودُّوا ذلك قبل أن يحل بهم ما حل .

وقيل : ودوا ذلك في الآخرة إذا أخرج عصاة المسلمين من النار قاله : ابن عباس ، وأنس بن مالك ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو العالية ، وإبراهيم ، ورواه أبو موسى عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) .

وقرأ الرسول هذه الآية ، وقيل : حين يشفع الرسول ويشفع حتى يقول : من كان من المسلمين

فليدخل الجنة ، ورواه مجاهد عن ابن عباس .

وقيل : إذا عاينوا القيامة ذكره الزجاج .

(107/423)

---

وقيل : عند كل حالة يعذب فيها الكافر ويسلم المؤمن ، ذكره ابن الأنباري .

ثم أمر تعالى نبيه بأن ينذرهم ، وهو أمر وعيد لهم وتهديد أي : ليسوا ممن يرعوي عن ما هو فيه من الكفر والتكذيب ، ولا ممن تنفعه النصيحة والتذكير ، فهم إنما حظهم حظ البهائم من الأكل والتمتع بالحياة الدنيا والأمل في تحصيلها ، هو الذي يلهيهم ويشغلهم عن الإيمان بالله ورسوله .

وفي قوله : يأكلوا ويتمتعوا ، إشارة إلى أنّ التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للموت والتأهب له ليس من أخلاق من يطلب النجاة من عذاب الله في الآخرة ، وعن بعض العلماء : التمتع في الدنيا من أخلاق الهالكين .

وقال الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل .

والجزم يأكلوا ، وما عطف عليه جواباً للأمر .

ويظهر أنه أمر بترك قتالهم وتخلية سبيلهم وبمهادنتهم وموادعتهم ، ولذلك ترتب أن يكون

جواباً ، لأنه لو شغلهم بالقتال ومصالتة السيوف وإيقاع الحرب ما هنا هم أكل ولا تمتع ، ويدل على ذلك أنّ السورة مكية ، وإذا جعلت ذرهم أمراً بترك نصيحتهم وشغل باله بهم ، فلا يترتب عليه الجواب ، لأنهم يأكلون ويتمتعون سواء ترك نصيحتهم ، أم لم يتركها .

فسوف يعلمون : تهديد ووعيد أي : فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وما يؤولون إليه في الدنيا من الذل والقتل والسبي ، وفي الآخرة من العذاب السرمدي .

ولما توعدهم بما يحل بهم أردف ذلك بما يشعر بهلاكهم ، وأنه لا يستبطأ ، فإنّ له أجلاً يتعداه ، والمعنى : من أهل قرية كافرين .

والظاهر أن المراد بالهلاك هلاك الاستئصال لمكذبي الرسل ، وهو أبلغ في الزجر .

وقيل : المراد الإهلاك بالموت ، والواو في قوله : ولها ، واو الحال .

وقال بعضهم : مقحمة أي زائدة ، وليس بشيء .



---

وقرأ ابن أبي عبلة : بإسقاطها وقال الزمخشري : الجملة واقعة صفة لقرية ، والقياس أنْ لا تتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال : جاءني زيد عليه ثوب ،

وجاءني وعليه ثوب انتهى .

ووافقه على ذلك أبو البقاء فقال : الجملة نعت لقرية كقولك : ما لقيت رجلاً إلا عالماً قال :

وقد ذكرنا حال الواو في مثل هذا في البقرة في قوله : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ انتهى .

وهذا الذي قاله الزمخشري وتبعه فيه أبو البقاء لا نعلم أحداً قاله من النحويين ، وهو مبني على أنّ ما بعداً لا يجوز أن يكون صفة ، وقد منعوا ذلك .

قال : الأخفش لا يفصل بين الصفة والموصوف بالإثم ، قال : ونحو ما جاءني رجل إلا راكب تقديره : إلا رجل راكب ، وفيه قبح بجعلك الصفة كالإسم .

وقال أبو علي الفارسي : تقول ما مررت بأحد إلا قائماً ، فقائماً حال من أحد ، ولا يجوز إلا قائم ، لأنّ إلا لا تعترض بين الصفة والموصوف .

وقال ابن مالك : وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري من قوله : في نحو ما مررت بأحد إلا زيد خير منه ، أنّ الجملة بعد إلا صفة لأحد ، أنه مذهب لم يعرف لبصري ولا كوفي ، فلا يلتفت إليه .

وأبطل ابن مالك قول الزمخشري أنّ الواو توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف .

وقال القاضي منذر بن سعيد : هذه الواو هي التي تعطي أنّ الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إذا جاءُوها وفتحت أبوابها ﴾

انتهى .

والظاهر أنّ الكتاب المعلوم هو الأجل الذي كتب في اللوح وبين ، ويدل على ذلك ما بعده .

وقيل : مكتوب فيه أعمالهم وأعمارهم وآجال هلاكهم .

وذكر الماوردي : كتاب معلوم أي : فرض محتوم ، ومن زائدة تفيد استغراق الجنس أي : ما تسبق أمة ، وأنث أجلها على لفظ أمة وجمع وذكر في وما يستأخرون حملاً على المعنى ، وحذف عنه لدلالة الكلام عليه .

(109/423)

---

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾

قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحرث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة .

وقرأ زيد بن علي : نزل عليه الذكر ماضيا مخففاً مبنياً للفاعل .

وقرأ : يا أيها الذي ألقي إليه الذكر ، وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسيراً ، لأنها مخالفة لسواد المصحف .

وهذا الوصف بأنه الذي نزل عليه الذكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف ، لأنهم لا

يقرون بتنزيل الذكر عليه ، وينسبونه إلى الجنون ، إذ لو كان مؤمناً برسالة موسى وما أخبر عنه بالجنون .

ثم اقترحوا عليه أن يأتيهم بالملائكة شاهدين لصدقك وبصحة دعواك وإنذارك كما قال : ﴿ لولا أنزل إليه ملك ﴾ فيكون معه نذيراً أو معاقبين على تكذيبك ، كما كانت تأتي الأمم المكذبة .

وقرأ الحرميان والعربيان : ما تنزل مضارع تنزل أي : ما تتنزل الملائكة بالرفع .

وقرأ أبو بكر ، ويحيى بن وثاب : ما تنزل بضم التاء وفتح النون والزاي الملائكة بالرفع .

وقرأ الأخوان ، وحفص ، وابن مصرف : ما ننزل بضم النون الأولى ، وفتح الثانية ، وكسر الزاي الملائكة بالنصب .

وقرأ زيد بن علي : ما نزل ماضياً مخففاً مبنياً للفاعل الملائكة بالرفع .

والحق هنا العذاب قاله الحسن ، أو الرسالة قاله مجاهد ، أو قبض الأرواح عند الموت قاله ابن السائب ، أو القرآن ذكره الماوردي .

وقال الزمخشري : ألا تنزلا ملتبساً بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة في أنْ تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار .

وقال ابن عطية : والظاهر أنّ معناها : كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده ، لا على اقتراح كافر ، ولا باختيار معترض .

(110/423)

---

ثم ذكر عادة الله في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح إلا ومعها العذاب في أثرها إنْ لم يؤمنوا ، فكان الكلام ما تنزل الملائكة إلا بحق واجب لا باقتراحكم .

وأيضاً فلو نزلت لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب أي : تؤخروا والمعنى ، وهذا لا يكون إذ كان في علم الله أنّ منهم من يؤمن ، أو يلد من يؤمن .

وقال الزمخشري : وإذن جواب وجزاء ، لأنه جواب لهم ، وجزاء بالشرط مقدر تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(111/423)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) ﴾

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ شروعٌ في بيان سرّ تأخيرِ عذابهم إلى يوم القيامة وعدمِ نظمِهم في سلك الأمم الدارجةِ في تعجيل العذاب أي ما أهلكنا ﴿ مِن قَرْيَةٍ ﴾ من القرى بالخَسف بها وبأهلها كما فُعل ببعضها أو بإخلائها عن أهلها غِبَّ إهلاكِهم كما فُعل بآخرين ﴿ إِلاَّ وَلَهَا ﴾ في ذلك الشأن ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي أجلٌ مقدرٌ مكتوبٌ في اللوح واجبُ المراعاة بحيث لا يمكن تبديلُه لوقوعه حسب الحكمةِ المقتضيةِ له ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ لا يُنسى ولا يُغفل عنه حتى يُتصورَ التخلفُ عنه بالتقدم والتأخر ، فكتابٌ مبتدأٌ خبرُه الظرفُ ، والجملةُ حالٌ من ( قرية ) فإنها لعمومها لا سيما بعد تأكدِه بكلمة مِنْ في حكم الموصوفة كما أشير إليه ، والمعنى ما أهلكنا قريةً من القرى في حال من الأحوال إلا حال أن يكون لها كتابٌ أي أجلٌ موقتٌ لمهلكها قد كتبناه لا نُهلكها قبل بلوغِه ، معلومٌ لا يُغفل عنه حتى يمكنَ مخالفتُه بالتقدم والتأخر ، أو مرتفعٌ بالظرف والجملة كما هي حال ، أي ما أهلكنا قريةً من القرى في حال من الأحوال إلا وقد كان لها في حق هلاكِها كتابٌ أي أجلٌ مقدرٌ مكتوبٌ في اللوح معلومٌ لا يُغفل عنه ، أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التي هي بدلٌ من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونِه صفةً للمذكورة ، أي ما أهلكنا قريةً من القرى إلا قريةً لها كتابٌ معلوم كما في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَّ يُسْمِنُ ﴾ فإن قوله تعالى :

﴿ لاَّ يُسْمِنُ ﴾ صفةٌ لكن لا للطعام المذكورِ لأنه إنما يدلّ على انحصار طعامِهم الذي لا يُسمن في الضريع ، وليس المرادُ ذلك بل للطعام المقدر بعد إلا ، أي ليس لهم طعامٌ من شيء من الأشياء إلا طعامٌ لا يُسمن ، فليس فيه فصلٌ بين الموصوف والصفة بكلمة إلا كما تُوُهم ، وأما توسيطُ الواو بينهما وإن كان القياسُ عدمَه فللإيذان بكمال الالتصاقِ بينهما من حيث إن الواوَ شأنُها



---

الجمعُ والربطُ ، فإن ما نحن فيه من الصفة أقوى لُصوقاً بالموصوف منها به في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ فإن امتناعَ الانفكاك والإهلاكِ عن الأجل المقدرِ عقليٌّ ، وعن الإنذار عاديٌّ ، جرى عليه السنةُ الإلهية .

ولما بيّن أن الأممَ المهلَكة كان لكل منهم وقتٌ معين لهلاكهم وأن هلاكَهم لم يكن إلا حسبما كان مكتوباً في اللوح ، بيّن أن كلَّ أمةٍ من الأمم منهم ومن غيرهم لها كتابٌ لا يمكن التقدمُ عليه ولا التأخر عنه فقيل :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المهلَكة وغيرِهم ﴿ أَجَلَهَا ﴾ المكتوبَ في كتابها ، أي لا يجيء هلاكُها قبل مجيءِ كتابِها ، أو لا تمضي أمةٌ قبل مُضيِّ أجلها ، فإن السبْقَ إذا كان واقعاً على زمانيّ فمعناه المجاوزةُ والتخليف ، فإذا قلت : سبق زيدٌ عمْراً ، فمعناه أنه جاوزه وخلّفه وراءه ، وإذا كان واقعاً على زمان كان الأمرُ بالعكس ، والسرُّ في ذلك أن الزمانَ يعتبر فيه الحركةُ والتوجّه إلى المتكلم فما سبقَه يتحقق قبل تحققِه ، وأما الزمانيُّ فإنما يعتبر فيه الحركةُ والتوجّه إلى ما سيأتي من الزمان ، فالسابقُ ما تقدم إلى المقصِد ، وإيرادُه بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن إيرادَه بعنوان الكتابِ المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك ﴿ وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ﴾ أي وما يتأخرون ، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ، وإيثارُ صيغةِ المضارع في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي ، لأن المقصودَ بيانُ دوامِهما واستمرارِهما فيما بين الأمم الماضية والباقية ، وإسنادُهما إلى الأمة بعد إسنادِ الإهلاكِ إلى القرية لما أن السبقَ والاستئخارَ حالُ الأمةِ دون القرية مع ما في الأمة من العموم لأهل تلك القرى وغيرِهم ممن أُخّرت عقوباتُهم إلى الآخرة ، وتأخيرُ ذكر عدمِ سبقِهم مع كون المقام مقامَ المبالغةِ في بيان تحققِ عذابِهم ، إما باعتبار تقدّمِ السبقِ في الوجود وإما باعتبار أن المرادَ بيانُ سرِّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم لذلك ، وإيرادُ الفعل على صيغة جمع المذكرِ للحمل على المعنى مع التغليب

ولرعاية الفواصلِ ، ولذلك حُذف الجار والمجرور ، والجملةُ مبينة لما سبق والمعنى أن تأخيرَ عذابِهم إلى يوم القيامة حسبما أشير إليه ببيان وَدادِتهم للإسلام إذ ذاك ، وبالأمر بتركهم وشأنهم إلى أن يعلموا حقيقةَ الحال إنما هو لتأخّر أجلِهم المقدرِ لما يقتضيه من الحِكَم البالغةِ

(114/423)

---

، ومن جملتها ما علم الله تعالى من إيمان بعضِ من يخرُجُ منهم إلى يوم القيامة .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ شروعٌ في بيان كفرِهم بمن أنزل عليه الكتابُ بعد بيانِ كفرهم بالكتاب وما يؤول إليه حالُهم ، والقائلون مشركو مكةَ لغاية تماديهم في العتوّ والغي ﴿ يا أَيُّهَا الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ خاطبوا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لا تسليماً لذلك واعتقاداً له ، بل استهزاءً به عليه الصلاة والسلام وإشعاراً بعلة حكمِهم الباطل في قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ كدأب فرعونَ إذ قال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ يعنون يا من يدّعي مثل هذا الأمر البديعِ الخارقِ للعادات ، إنك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عندما تدّعي أنه ينزل عليك لمجنون ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على القائم مَقامَ الفاعل لأن إنكارهم متوجِّهٌ إلى كون النازل ذِكْراً من الله تعالى ، لا إلى كون المنزَّلِ عليه رسولَ الله

بعد تسليم كون النازلِ منه تعالى كما في قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ فإن الإنكارَ هناك متوجهٌ إلى كون المنزَّلِ عليه رسولَ الله تعالى ، وإيرادُ الفعل على صيغة المجهولِ لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعلٌ أو لتوجيه الإنكارِ إلى كون التنزيلِ عليه لا إلى استناده إلى الفاعل .

(115/423)

---

﴿ لَوْمَا تَأْتِينَا ﴾ كلمة لو عند تركّبها مع ( ما ) تفيد ما تفيده عند تركبها مع ( لا ) من معنى امتناعِ الشيء لوجود غيرِه ومعنى التحضيض ، خلا أنه عند إرادتِه لا يليها إلا فعلٌ ظاهرٌ أو مضمرٌ ، وعند إرادةِ المعنى الأول لا يليها إلا اسمٌ ظاهرٌ أو مقدر عند البصريين ، والمرادُ هاهنا هو الثاني أي هلا تأتينا ﴿ بالملائكة ﴾ يشهدون بصحة نبوتك ويعضدونك في الإنذار كقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ * فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ أو يعاقبونا على التكذيب كما تأتي الأممُ المكذّبة لرسلهم ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك ، فإن قدرةَ الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه ، وكذا احتياجُك إليه في تمشية أمرِك فإنا لا نصدقك بدون ذلك ، أو كنت من جملة تلك الرسلِ الصادقين الذين عُذّبت أممهم المكذبة لهم .

﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل ، وقرىء من الإنزال ، وقرىء تُنَزِّل مضارعاً من التنزيل على صيغة البناء للمفعول ، ومن التنزّل بحذف إحدى التاءين ، وماضياً منه ومن التنزيل ومن الثلاثي ، وهو كلامٌ مسوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم جواباً لهم عن مقالتهم المَحْكية ورداً لاقتراحهم الباطل ، ولشدة استدعاءِ ذلك للجواب قُدّم ردُّه على ما هو جوابٌ عن أولها أعني قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ الآية ، كما فُعل في قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله ﴾ فإنه مع كونه جواباً عن قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ قُدّم على قوله : ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي ﴾ الآية ، مع كونه جواباً عن أول كلامِهم الذي هو قولُهم : ﴿ قَالُواْ يا نوح قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ لِما ذُكر من شدة اقتضائِه للجواب وليكونَ أحدُ الجوابين متصلاً بالسؤال ، وفي العكس يلزَم انفصال كُلَ من الجوابين عن سؤاله ، والعدولُ عن تطبيقه لظاهر كلامِهم بصدد الاقتراحِ وهو أن يقال : ما تأتيهم بهم للإيذان بأنهم قد أخطأوا في التعبير حسبما أخطأوا في الاقتراح ، وأن الملائكةَ لعلوّ رتبتهم أعلى من أن يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشاملِ للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها ، بل من الأسفل إلى الأعلى وأن يكون مقصِدُ حركاتهم أولئك الكفرةَ وأن يدخلوا تحت

ملكوتِ أحدٍ من البشر ، وإنما الذي يليق بشأنهم النزولُ من مقامهم العالي وكونُ ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي ملتبساً بالوجه الذي يحق ملابسةُ التنزيل به مما تقتضيه الحكمةُ وتجري به السنةُ الإلهية كقوله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ والذي اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هُمْ ومنزلتُهم في الحقارة والهوانِ منزلتُهم ، مما لا يكاد يدخل تحت الصِّحة

(117/423)

---

والحِكمة أصلاً ، فإن ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يُفتح على غير الأنبياء الكرام من أفراد كُمّلِ المؤمنين ، فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئامِ ؟ وإنما الذي يدخُل في حقهم تحت الحكمةِ في الجملة هو التنزيلُ للتعذيب والاستئصالِ كما فُعل بأضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة .

(118/423)

---

﴿ وَمَا كَانُوا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ جزاءُ الشرط مقدّرٌ وفيه إيذانٌ بإنتاج مقدّماتهم لنقيض مطلوبهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال صاحب النظم : لفظةُ إذن مركبةٌ من إذ وهو اسمٌ بمعنى الحين ، تقول : أتيتُك إذ جئتني أي حين جئتني ثم ضُمّ إليه أنْ فصار إذْ أن ثم استثقلوا الهمزةَ فحذفوها ، فمجيءُ لفظة أن دليلٌ على إضمار فعلٍ بعدها والتقدير وما كانوا إذ أنْ كان ما طلبوه منظَرين ، والمعنى لو نزّلناهم ما كانوا مؤخّرين كدأب سائرِ الأممِ المكذبة المستهزِئة ، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلمُ القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أُجمل في قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ الخ ، وحال حائلُ الحكمةِ بينهم وبين استئصالِهم لتعلق العلمِ والإرادة بازديادهم عذاباً بإيمانِ بعضِ ذراريهم ، وأما نظمُ إيمانِ بعضهم في سِمْط الحكمةِ فيأباه مقامُ بيانِ تماديهم في الكفر والفساد ولَجاجهم في المكابرة والعِناد ، هذا هو الذي يستدعيه إعجازُ التنزيلِ الجليل ، وأما ما قيل في تعليل عدمِ موافقةِ التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدّقين عن اضطرار ، أو أنه لا حكمةَ في أن تأتيَكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لَبساً ، أو أن إنزالَ الملائكة لا يكون إلا بالحق وحصولِ الفائدةِ بإنزالهم ، وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفارِ أنه لو أَنزل إليهم الملائكةَ لبقُوا مُصرّين على كفرهم فيصير إنزالُهم عبثاً باطلاً ولا يكون حقًّا ، فمع إخلالِ كلَ من ذلك بقطعية الباقي لا يلزم من فرض وقوعِ شيءٍ من ذلك تعجيلُ العذاب الذي يفيده قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ

﴿ هذا على تقدير كونِ اقتراحِهم لإتيان الملائكة لأجل الشهادة ، أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى إنا ما نُنزل الملائكةَ للتعذيب إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق



---

الذي تقتضيه الحِكمةُ وتستدعيه المصلحة حتماً ، بحيث لا محيد عنه ، ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك التنزيلُ ملتبساً بمقتضى الحِكمة الموجبةِ لتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة ، لا رفقاً بهم بل تشديداً عليهم كما مر من قبل ، وحيث كان في نسبة تنزيلِهم للتعذيب إلى عدم موافقتِه الحكمةَ نوعُ إيهامٍ لعدم استحقاقِهم التعذيب عُدِل عما يقتضيه الظاهرُ إلى ما عليه النظم الكريم ، فكأنه قيل : لو نزلناهم ما كانوا منظَرين وذلك غيرُ موافقٍ للحكمة الموجِّهة لتأخير عذابِهم لتشديد عقابِهم ، وقيل : المرادُ بالحق الوحيُ ، وقيل : العذاب فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 5 صـ ﴾



---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾

أي قرية من القرى بالخسف بها وبأهلها الكافرين كما فعل ببعضها أو بإخلائها عن أهلها بعد إهلاكهم كما فعل بآخرين ﴿ إِلاَّ وَلَهَا ﴾ في ذلك الشأن ﴿ كِتَابٌ ﴾ أجل مقدر مكتوب في اللوح ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ لا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر ، وهذا شرع في بيان سر تأخير عذابهم .

و ﴿ كِتَابٌ ﴾ مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ ولا يلزم تقدمها لكون صاحبها نكرة لأنها واقعة بعد النفي وهو مسوغ لمجيء الحال لأنه في معنى الوصف لا سيما وقد تأكد بكلمة ﴿ مِنْ ﴾ والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال إلا حال أن يكون لها كتاب معلوم لا نهلكها قبل بلوغه ولا نغفل عنه ليمكن مخالفته ، أو مرتفع بالظرف والجملة كما هي حال أيضاً أي ما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال إلا وقد كان لها في حق إهلاكها أجل مقدر لا يغفل عنه .

وقال الزمخشري الجملة صفة لقرية والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [ الشعراء : 208 ] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال : جاءني زيد عليه ثوب وجاءني وعليه ثوب ، ووافقه على ذلك أبو البقاء ، وتعقبه في "البحر" بأنا لا نعلم أحداً قاله من النحاة ، وهو مبني على أن

ما بعد إلا يجوز أن يكون صفة ، وقد صرح الأخفش .

والفارسي بمنع ذلك ، وقال ابن مالك : إن جعل ما بعد إلا صفة لما قبلها مذهب لم يعرف لبصري ولا كوفي فلا يلتفت إليه وأبطل القول بأن الواو توسطت لتأكيد اللصوق .

(121/423)

---

ونقل عن منذر بن سعيد أن هذه الواو هي التي تعطي أن الحالة التي بعدها في اللفظ هي في الزمن قبل الحالة التي قبل الواو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [ الزمر : 73 ] واعتذر السكاكي بأن ذلك سهو ولا عيب فيه ، ولم يرض بذلك صاحب الكشف وانتصر للزمخشري فقال : قد تكرر هذا المعنى منهم في هذا الكتاب فلا سهو كما اعتذر صاحب المفتاح ، وإذا ثبت إقحام الواو كما عليه الكوفيون والقياس لا يدفعه لثبوته في الحال وفيما أضمر بعده الجار في نحو بعت الشاء شاة ودرهما وكم وكم ، وهذه تدل على أن الاستعارة شائعة في الواو نوعية بل جنسية فلا نعتبر النقل الخصوصي ولا يكون من إثبات اللغة بالقياس لثبوت النقل عن نحارير الكوفة واعتضاده بالقياس ، والمعنى ولا يبعد من صاحب المعاني ترجيح المذهب الكوفي إذا اقتضاه المقام كما رجحوا المذهب التميمي على الحجازي في باب الاستثناء عنده ، ولا خفاء أن المعنى على

الوصف أبلغ وأن هذا الوصف ألصق بالموصوف منه في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء : 208] لأنه لازم عقلي وذلك عادي جرى عليه سنة الله تعالى اه.

وفي "الدر المصون" أنه قد سبق الزمخشري إلى ما قاله ابن جني وناهيك به من مقتدي.

(122/423)

---

قال بعض المحققين : إن الموصوف ليس القرية المذكورة وإنما هو قرية مقدرة وقعت بدلاً من المذكورة على المختار فيكون ذلك بمنزلة كون الصفة لها أي ما أهلكنا قرية من القرى إلا قرية لها كتاب معلوم كما في قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية : 6، 7] فإن ﴿ لَّا يُسْمِنُ ﴾ الخ صفة لكن لا للطعام المذكور لأنه إنما يدل على انحصار طعامهم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع في الضريع ، وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد ﴿ إِلا ﴾ أي ليس لهم طعام من شيء من الأشياء إلا طعام لا يسمن الخ فليس هناك الفصل بين الموصوف والصفة بإلا ، وأما توسيط الواو وإن كان القياس عدمه فللإيذان بكمال الاتصال انتهى.

ولا يخفى أنه لم يأت في أمر التوسيط بما يدفع عنه القال والقيل ، وما ذكره من تقدير

الموصوف بعد إلا يدفع حديث الفصل لكن نقل أبو حيان عن الأخفش أنه قال بعد منع الفصل بين الصفة والموصوف بإلا : ونحو ما جاءني رجل إلا راكب تقديره إلا رجل راكب ، وفيه قبح لجعلك الصفة كالاسم ، ولعل الجواب عن هذا سهل .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ إِلاَّ لَهَا ﴾ بإسقاط الواو ، وهو على ما قيل يؤيد القول بزيادتها ، ولما بين سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأنه لم يكن إلا حسبما كان مكتوباً في اللوح بين جل شأنه أن كل أمة من الأمم منهم ومن غيرهم لهم كتاب لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال عز قائلاً :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾



---

من الأمم المهلكة وغيرهم فمن مزيدة للاستغراق ، وقيل : إنها للتبعيض وليس بذاك ﴿ أَجَلَهَا ﴾ المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها أو لا تمضي أمة قبل مضي أجلها ، فإن السبق كما نقل الإمام عن الخليل إذا كان واقعاً على زماني فمعناه المجاوزة والتخليف فإذا قلت : سبق زيد عمراً فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه وإن عمراً قصرا عنه ولم يبلغه وإذا كان واقعاً على زمان كان على عكس ذلك فإذا قلت سبق فلان

عام كذا كان معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه ؛ والسر في ذلك على ما في إرشاد العقل السليم أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزماني فإنما يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى ما سيأتي من الزمان فالسابق ما تقدم إلى المقصد ، وإيراده بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن إيراده بعنوان الكتاب باعتبار ما يوجبه من الإهلاك ﴿ وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴾ أي وما يتأخرون .

(124/423)

---

وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له ، وإيثار صيغة المضارع في الفعلين بعدما ذكر نفي الإهلاك بصيغة الماضي لأن المقصود بيان دوامهما فيما بين الأمم الماضية والباقية ، وله نظائر في كتاب الكريم وإسنادهما إلى الأمة بعد إسناد الإهلاك إلى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الأمة بدون القرية مع ما في الأمة من العموم لأهل تلك القرى وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم إلى الآخرة ، وتأخير عدم سبقهم مع كون المقام مقام المبالغة في بيان تحقق عذابهم إما باعتبار تقدم السبق في الوجود وإما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك ، وأورد الفعل على صيغة جمع المذكر رعاية لمعنى ﴿ أُمَّةٍ ﴾ مع التغليب كما روعي لفظها أولاً مع رعاية الفواصل ولهذا حذف الجار

والمجرور ، والجملة مبينة لما سبق ولذا فصلت ، والمعنى أن تأخير عذابهم إلى يوم الودادة حسبما أشير إليه إنما هو لتأخير أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم ومن جملة ذلك ما علم الله تعالى من إيمان بعض من يخرج منهم قاله شيخ الإسلام .

واستدل بالآية على أن كل من مات أو قتل فإنما هو ميت بأجله وقد بين ذلك الإمام .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾

﴿ وَقَالُواْ ﴾ شروع في بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب المتضمن للكفر به وبيان ما يؤول إليه حالهم ، والقائل أهل مكة قال مقاتل : نزلت الآية في عبد الله بن أمية .

والنضر بن الحرث .

ونوفل بن خويلد .



والوليد بن المغيرة وهم الذين قالوا له صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ أي القرآن ، وخاطبوه عليه الصلاة والسلام بذلك مع أنهم الكفرة الذين لا يعتقدون نزول شيء استهزاءً وتهكماً وإشعاراً بعلة حكمهم الباطل في قولهم : ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ يعنون يا من يدعي مثل هذا الأمر العظيم الخارق للعادة إنك بسبب تلك

الدعوى متحقق جنونك على أتم وجه ، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاماً يستبعده : أنت مجنون ، وقيل : حكمهم هذا لما يظهر عليه عليه الصلاة والسلام من شبه الغشي حين ينزل عليه الوحي بالقرآن ، والأول على ما قيل هو الأنسب بالمقام ، وذهب بعضهم إلى أن المقول الجملة المؤكدة دون النداء أما هو فمن كلام الله تعالى تبرئة له عليه الصلاة والسلام عما نسبوه إليه من أول الأمر .

وتعقب بأنه لا يناسب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [ الحجر : 9 ] الخ فإنه كما سيأتي إن شاء الله تعالى رد لإنكارهم واستهزائهم ، وقد يجاب بأن ذلك على هذا رد لما عنوه في ضمن قولهم المذكور لكن الظاهر كون الكل كلامهم .

وقد سبقهم إلى نظيره فرعون عليه اللعنة بقوله في حق موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : 27 ] وتقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل كما قيل لأن إنكارهم متوجه إلى كون النازل ذكراً من الله تعالى لا إلى كون المنزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما في قوله سبحانه : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ] فإن الإنكار هناك متوجه إلى كون المنزل عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وإيراد الفعل على صيغة المجهول لإيهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل أو لتوجيه الإنكار إلى كون التنزيل عليه لا إلى إسناده إلى الفاعل .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما نزل عليه الذكر بتخفيف ﴿ نَزَّلَ ﴾ مبنياً للفاعل ورفع ﴿ الذكر ﴾ على الفاعلية ، وقرىء ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ .

قال أبو حيان : وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسيراً لمخالفتها سواد المصحف .

﴿ لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ﴾

﴿ لوما تَأْتِينَا ﴾ كلمة ﴿ لوما ﴾ كلولا تستعمل في أحد معنيين امتناع الشيء لوجود غيره والتحضيض وعند إرادة الثاني منها لا يليها إلا فعل ظاهر أو مضمر وعند إرادة الأول لا يليها إلا اسم ظاهر أو مقدر عند البصريين ، ومنه قول ابن مقبل :

لوما الحياة ولوما الدين عبتكما . . .

ببعض ما فيكما إذ عبتما عورى

وعن بعضهم أن الميم في ﴿ لوما ﴾ بدل من اللام في لولا ، ومثله استولى واستومى وخاللته وخالمته فهو خلي وخلمي أي صديقي .

وذكر الزمخشري أن ﴿ عَلَيْهِمْ لَوْ ﴾ تركب مع لا وما لمعنيين وهل لا تركب إلا مع لا وحدها للتحضيض ، واختار أبو حيان فيهما البساطة وأن الميم ليست بدلاً من اللام ، وقال المالقي

: أن ﴿ لوما ﴾ لا ترد إلا للتحضيض وهو محجوج بالبيت السابق ، وأياً ما كان فالمراد هنا التحضيض أي هلا تأتينا ﴿ بالملئكة ﴾ يشهدون لك ويعضدونك في الإنذار كقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [ الفرقان : 7 ] أو يعاقبون على تكذيبك كما كانت تأتي الأمم المكذبة لرسلهم ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك أن قدرة الله تعالى على ذلك مما لا ريب فيه وكذا احتياجك إليه في تمشية أمرك إذ لا نصدقك في ذلك الأمر الخطير بدونه أو إن كنت من جملة تلك الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم .

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) ﴾

(127/423)

---

﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل ، وهي قراءة حفص .

والأخوين .

وابن مصرف ، وقرأ أبو بكر عن عاصم .

ويحيى بن وثاب ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ بضم التاء وفتح النون والزاي مبنياً للمفعول ورفع ﴿

الملائكة ﴾ على النيابة عن الفاعل وقرأ الحرميان وباقي السبعة ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ بفتح التاء والزاي على أن الأصل ﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ بتاءين فحذفت إحداهما تخفيفاً ورفع الملائكة على الفاعلية وإبقاء الفعل على ظاهره أولى من جعله بمعنى تنزل الثلاثي .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ مَّا نَزَّلَ ﴾ ماضياً مخففاً مبنياً للفاعل ورفع الملائكة على الفاعلية .

والبيضاوي بنى تفسيره على أن الفعل ينزل بالياء التحتية مبنياً للفاعل وهو ضمير الله تعالى و ﴿ الملائكة ﴾ بالنصب على أنه مفعوله ، واعترض عليه أنه لم يقرأ بذلك أحد من العشرة بل لم توجد هذه القراءة في الشواذ وهو خلاف ما سلكه في تفسيره ، ولعله رحمه الله تعالى قدسها .

وهذا الكلام مسوق منه سبحانه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم جواباً لهم عن مقالتهم المحكية ورداً لاقتراحهم الباطل الصادر عن محض التعصب والعناد ، ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن أولها أعني قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ [ الحجر : 9 ] الخ والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح بأن يقال مثلاً ما تأتيهم بهم للإيذان بأنهم قد أخطأوا في الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب إليهم مطلق الإتيان الشامل للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها بل من الأسفل إلى الأعلا وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر

وإنما الذي يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالي وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل قاله شيخ الإسلام.

(128/423)

---

وقيل: لعل هذا جواب لما عسى أن يخطر بخاطره الشريف عليه الصلاة والسلام حين طلبوا منه الإتيان بالملائكة من سؤال التنزيل رغبة في إسلامهم فيكون وجه ذكر التنزيل ظاهراً وهو غير ظاهر كما لا يخفى.

﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ أي إلا تنزيلاً ملتبساً بالوجه الذي اقتضته الحكمة فالباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الصفة للمصدر المحذوف مستثنى استثناءً مفرغاً، وجوز فيه الحالية من الفاعل والمفعول.

وجوز أبو البقاء أن تكون الباء للسببية متعلقة بننزل وإليه يشير كلام ابن عطية الآتي إن شاء الله تعالى والأول أولى ومقتضى الحكمة التشريعية والتكوينية على ما قيل أن تكون الملائكة المنزلون بصور البشر وتنزيلهم كذلك يوجب اللبس كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [ الأنعام: 9 ] وهذا إشارة إلى نفي ترتب الغرض وعدم النفع في ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ إشارة

إلى حصول الضرر وترتب نقيض المطلوب وكأنه عطف على مقدر يقتضيه الكلام السابق كأنه قيل : ما ننزل الملائكة عليهم إلا بصور الرجال لأنه الذي تقتضيه الحكمة فيحصل اللبس فلا ينتفعون وما كانوا إذا أنزلناهم منظرين أي ويتضررون بتنزيلهم لأنها نهلكهم لا محالة ولا نؤخرهم لأنه قد جرت عادتنا في الأمم قبلهم أنا لم نأتهم بآية اقترحوها إلا والعذاب في أثرها إن لم يؤمنوا وقد علمنا منهم ذلك ؛ والمقصود نفى أن يكون لاقتراحهم الإتيان بهم وجه على أتم وجه بالإشارة إلى عدم نفعه أولاً والتصريح بضرره ثانياً ، وقيل : يقدر المعطوف عليه لا يؤمنون كأنه قيل : ما ننزل الملائكة إلا بصور البشر لاقتضاء الحكمة ذلك فلا يؤمنون وما كانوا إذاً منظرين ، وفي النفس من هذا ومما قبله شيء .

(129/423)

---

وقال بعض المحققين : إن المعنى ما ننزل الملائكة إلا ملتبساً بالوجه الذي يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجري به السنة الإلهية ، والذي اقترحوه من التنزيل لأجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم في الحقائق منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلاً فإن ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يفتح على غير الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام من أفراد كل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام ، وإنما الذي يدخل في

حقهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل بأضرابهم من الأمم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة وما كانوا إذاً مؤخرين كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة ، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة حسبما أجمل في الآيات قبل ، وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم بازديادهم عذاباً وبإيمان بعض ذراريهم ، ونظم إيمان بعضهم في سمط الحكمة يأباه تماديهم في الكفر والعناد فما كانوا الخ جواب لشرط مقدر أي ولو أنزلنا هم ما كانوا الخ .

واعترض بأن الأوفق بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [ الأنعام : 9 ] أن يكون الوجه الذي يحق ملابسة التنزيل به لمثل غرضهم كونهم بصور الرجال وذلك ليس من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يكون لهم أصلاً فلا يتم كلامه ، وفيه بحث كما لا يخفى ، وقد أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .



وغيرهما عن مجاهد تفسير ﴿ الحق ﴾ هنا بالرسالة والعذاب ، ووجهت الآية على ذلك نحو هذا التوجيه فقيل : المعنى ما ننزل الملائكة إلا بالرسالة والعذاب ولو نزلناهم عليهم ما

كانوا منظرين لأن التنزيل عليهم بالرسالة مما لا يكاد فتعين أن يكون التنزيل بالعذاب ، وذكر الماوردي الاقتصار على الرسالة ، وروي عن الحسن الاقتصار على العذاب ، وفي معنى ذلك ما روي عن ابن عباس من أن المعنى ما ننزل الملائكة إلا بالحق الذي هو الموت الذي لا يقع فيه تقديم ولا تأخير .

وقال ابن عطية : الحق ما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده ، والمعنى ما ننزل الملائكة إلا بحق واجب من وحي ومنفعة لا باقتراحكم ، وأيضاً لو نزلنا لم تنظروا بعد ذلك بالعذاب لأن عادتنا إهلاك الأمم المقترحة إذا آتيناهم ما اقترحوه ، وفيه ما فيه ، وقال الزمخشري .

المعنى إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن تأتيكم عيناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لأنكم حينئذٍ مصدقون عن اضطرار ، وهو مبني على أن الإنزال بصورهم الحقيقية ، ومنه أخذ صاحب القيل المذكور أولاً قيله .

والبيضاوي جعل المنافي للحكمة إنزالهم بصور البشر حيث قال : لا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لبساً .

وقال بعضهم : أريد أن إنزال الملائكة لا يكون إلا بالحق وحصول الفائدة بإنزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفرة أنه لو أنزل إليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير إنزالهم عبثاً باطلاً ولا يكون حقاً ، وتعقب الأقوال الثلاثة البعض من المحققين بأنه مع إخلال كل من ذلك بفظيعة الآتي لا يلزم من فرض وقوع شيء من ذلك تعجيل العذاب الذي يفيده قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانُوا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ ومن الناس من تكلف لتوجيه اللزوم على بعض هذه الأقوال بما تكلف ، واختار بعضهم كون المراد من ﴿ الحق ﴾ الهلاك والجملة بعد جواب سؤال مقدر فكأنه لما قيل : ما ننزل الملائكة إلا بالهلاك إذ هو الذي يحق لأمثالهم من المعاندين قيل : فليكن ذلك فأجيب بأنه لو فعلنا ما كانوا منظرين أي وهم قد كانوا منظرين كما أجمل فيما قبل من قوله سبحانه : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ الامل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الحجر : 3 ] وحاصل الجواب حينئذٍ على ما قيل أن ما طلبوه من الإتيان بالملائكة ليشهدوا بصدق النبي صلى الله عليه وسلم مما لا يكون لهم لأن ما اقتضته حكمتنا وجرت به عادتنا مع أمثالهم ليس إلا التنزيل بالهلاك دون الشهادة فإن الحكمة لا تقتضيه والعادة لم تجر فيه لأنه إن كان والملائكة بصورهم الحقيقية لم يحصل الإيمان بالغيب ولم يتحقق الاختيار الذي هو مدار التكليف وإن كان وهم بصور البشر حصل اللبس فكان وجوده كعدمه ولزم التسلسل ، ويمنع من التنزيل بالهلاك كما فعل مع أضرابهم من المعاندين أنا جعلناهم منظرين فلو نزلنا الملائكة وأهلكناهم عاد ذلك بالنقض لما أبرمناه حسبما نعلم فيه من الحكم ،

وقيل : في توجيه الآية على تقدير كون اقتراحهم لإتيان الملائكة لتعذيبهم : إن المعنى إنا ما ننزل الملائكة للتعذيب إلا تنزيلاً ملتبساً بما تقتضيه الحكمة ولو نزلناهم حسبما اقترحوا ما كان ذلك ملتبساً بما تقتضيه لأنها اقتضت تأخير



---

عذابهم إلى يوم القيامة ، وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقة الحكمة نوع إيهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر إلى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل : لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق للحكمة ، فتدبر جميع ذاك والله تعالى يتولى هداك ، هذا ولفظة ﴿ إِذًا ﴾ قال في "الكشاف" : جواب وجزاء لأن الكلام جواب لهم وجزاء لشرط مقدر أي ولو نزلنا ، وصرح بإفادتها هذا المعنى سيبويه إلا أن الشلوبين حمل ذلك على الدوام وتكلف له ، وأبو علي على الغالب ، وقد تتمحض للجواب عنده ، وهي حرف بسيط عند الجمهور ، وذهب قوم إلى أنها اسم ظرف وأصلها إذاً الظرفية لحقها التنوين عوضاً من الجملة المضاف إليها ونقلت إلى الجزائية فبقي فيها معنى الربط والسبب ؛ وذهب الخليل إلى أنها حرف تركب من إذ وإن غلب عليها حكم الحرفية

ونقلت حركة الهمزة إلى الذال ثم حذفت والتزم هذا النقل فكان المعنى إذا قال القائل أزورك فقلت إذا أزورك قلت حينئذٍ زيارتي واقعة ولا يتكلم بهذا .



---

وذهب أبو علي عمر بن عبد المجيد الزيدي إلى أنها مركبة من إذا وإن وكلاهما يعطي ما يعطي كل واحدة منهما فيعطي الربط كإذا والنصب كان ثم حذفت همزة إن ثم ألف إذا لالتقاء الساكنين ، والظاهر أنه لو قدر في الكلام شرط كانت لمجرد التأكيد ، وجعلوا من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذَاً ﴾ [ البقرة : 145 ] الخ ، ونقل عن الكافيجي أنه قال في مثل ذلك : ليست إذاً هذه الكلمة المعهودة وإنما هي إذاً الشرطية حذفت جملتها التي تضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذٍ ، وله سلف في ذلك فقد قال الزركشي في البرهان بعد ذكره : لإذا معنيين وذكر لها بعض المتأخرين معنى ثالثاً وهو أن تكون مركبة من إذا التي هي ظرف زمان ماض ومن جملة بعدها تحقيقاً أو تقديراً لكنها حذفت تخفيفاً وأبدل منها التنوين كما في قولهم حينئذٍ ، وليست هذه الناصبة للمضارع لأن تلك تختص به وهذه لا بل تدخل على الماضي نحو ﴿ إِذاً لأَمْسَكْتُمْ ﴾ [ الإسراء : 100 ] وعلى الاسم نحو ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ﴾ [

الشعراء : 42 ] ثم قال : وهذا المعنى لم يذكره النحويون لكنه قياس ما قالوه في إذ ، وفي التذكرة لأبي حيان ذكر لي علم الدين أن القاضي تقي الدين بن رزين كان يذهب إلى أن تنوين إذاً عوض من الجملة المحذوفة وليس قول نحوي ، وقال الجوني : وأنا أظن أنه يجوز أن تقول لمن قال : أنا آتيك إذا أكرمك بالرفع على معنى إذا أتيتني أكرمك فحذفت أتيتني وعوضت التنوين فسقطت الألف لالتقاء الساكنين والنصب الذي اتفق عليه النحاة لحملها على غير هذا المعنى وهو لا ينفي الرفع إذا أريد بها ما ذكر .



---

وذكر الجلال السيوطي أن الإجماع في القرآن على كتابتها بالألف والوقف عليه دليل على أنها اسم منون لا حرف آخره نون خصوصاً إذا لم تقع ناصبة للمضارع ، فالصواب إثبات هذا المعنى لها كما جنح إليه شيخنا الكافيجي ومن سبق النقل عنه ، وعلى هذا فالأولى حملها في الآية على ما ذكر ، وقد ذكرنا فيما مضى بعضاً من هذا الكلام فتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ قد تقدّم الكلام في محله مستوفي ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات ، والتعريف في ﴿ الكتاب ﴾ .

قيل : هو للجنس ، والمراد جنس الكتب المتقدّمة .

وقيل : المراد به القرآن ، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب ، فقد قيل : إنه جمع له بين الإسمين ، وقيل : المراد بالكتاب : هذه السورة ، وتنكير القرآن للتفخيم ، أي : القرآن الكامل ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من ﴿ ربما ﴾ .

وقرأ الباقون بتشديدها ، وهما لغتان .

قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ، ومنه قول الشاعر :

ربما ضربة سيف صقيل . . . بين بصرى وطعنة نجلاء

وتميم وربيعة يثقلونها .

وقد تزاد التاء الفوقية ، وأصلها أن تستعمل في القليل .

وقد تستعمل في الكثير .

قال الكوفيون : أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

ومنه قول الشاعر :

رب رفد هرقته ذلك اليو . . . م وأسرى من معشر أقيال

وقيل : هي هنا للتقليل ؛ لأنهم ودّوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب .

قيل : و " ما " هنا لحقت ربّ لتهيئها للدخول على الفعل .

وقيل : هي نكرة بمعنى شيء ، وإنما دخلت " ربّ " هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلاّ على الماضي ؛ لأن المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق ، فكأنه قيل : ربما ودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، أي : منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله .

وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة .

والمراد : أنه لما انكشف لهم الأمر ، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره ، حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرّطت في جنب الله .

وقيل : كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين .

وقيل : عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ هذا تهديد لهم أي : دعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهي ، فهم لا يرعوون أبداً ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون في حق ، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا ، فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلاّ بذلك ، ولا تشتغل بغيره ، والمعنى : اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم .

وفي هذا من التهديد والزجر ما لا يقدر قدره ، يقال : ألهاه كذا أي : شغله ، ولهى هو عن الشيء يلهى ، أي : شغلهم الأمل عن اتباع الحق ، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين ، وانكشف الأمر ورأوا العذاب يوم القيامة ، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا .

والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كتاب مَّعْلُومٌ ﴾ أي : وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿ إِلاَّ وَلَهَا ﴾ أي : لتلك القرية ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي أجل مقدّر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ غير مجهول ولا منسيّ ، فلا يتصوّر التخلف عنه بوجه من

الوجوه .

وجملة ﴿ لَهَا كِتَابٌ ﴾ في محل نصب على الحال من ﴿ قرية ﴾ وإن كانت نكرة ؛ لأنها قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة ، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً ، أو صفة فإنها تعينها للحالية كقولك : حالي رجل على كتفه سيف .

وقيل : إن الجملة صفة ﴿ لقرية ﴾ .

والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف .

(137/423)

---

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ أي : ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها ، المكتوب في اللوح المحفوظ ؛ والمعنى : أنه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها ﴿ وما يستأخرون ﴾ أي : وما يتأخرون عنه ، فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له ، وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ، ولرعاية الفواصل ، ولذلك حذف الجار والمجرور ، والجملة مبينة لما قبلها ، فكأنه قيل : إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغترّ به العقلاء ، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدّم ولا يتأخر .

وقد تقدم تفسير الأجل في أول سورة الأنعام .

ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوّهم في الكفر ، وتماديهم في الغيّ مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ، فقال ﴿ وَقَالُواْ يَأَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ أي قال : كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشدّ إنكار ، ونفيهم له أبلغ نفي ، أو أرادوا : ب ﴿ يأيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ في زعمه ، وعلى وفق ما يدعيه ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : إنك بسبب هذه الدعوى التي تدّعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون ، فإنه لا يدّعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً ، فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو كقول فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : 27 ] .

﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ ﴿ لوما ﴾ حرف تحضيض مركب من " لو " المفيدة للتمني ، ومن " ما " المزيدة ، فأفاد المجموع الحثّ على الفعل الداخلة هي عليه ، والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ .

قال الفراء : الميم في ﴿ لوما ﴾ بدل من اللام في " لولا " .

وقال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام .

قال النحاس : لوما ولولا وهلا واحد .

وقيل : المعنى : لوما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك .

﴿ ما ننزل الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ قرىء ( ما ننزل ) بالنون مبنياً للفاعل ، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل ، والمعنى على هذه القراءة : قال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم : ما ننزل نحن ﴿ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ أي : تنزيلاً متلبساً بالحق الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية ، وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وقرىء " ننزل " مخففاً من الإنزال ، أي : ما ننزل نحن الملائكة إلاّ بالحق ، وقرىء " ما تنزل " بالمثناة من فرق مضارعاً مثقلاً مبنياً للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين ، أي : تتنزل ، وقرىء أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول .

وقيل : معنى ﴿ إلا بالحق ﴾ إلا بالقرآن .

وقيل : بالرسالة ، وقيل : بالعذاب ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين .

فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة .

ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم : ﴿ يأَيُّهَا الذى

نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ فقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ أي : نحن نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك .

وفيه وعيد شديد للمكذبين به ، المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الضمير في ﴿ له ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أولى بالمقام .

*(139/423)*

---

ثم ذكر سبحانه أنه عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ أي : رسلاً ، وحذف لدلالة الإرسال عليه ، أي : رسلاً كائنة من قبلك ﴿ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم .

قال الفراء : الشيع : الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجتمعون عليه ، وأصله من شاعه : إذا تبعه .

وإضافته إلى ﴿ الأوّلين ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: ما يأتي رسول من الرسل شيعته إلّا كانوا به يستهزءون، كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد صلى الله عليه وسلم، وجملة ﴿ إلّا كانوا به يستهزءون ﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها صفة ﴿ رسول ﴾ أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل.

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ أي: الذكر.

﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾، فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء.

والسلك: إدخال الشيء في الشيء، كالخيط في المخيط، قاله الزجاج، قال: والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين.

وجملة ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿ نسلكه ﴾ أي: لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها، وقيل: إن الضمير في ﴿ نسلكه ﴾ للاستهزاء، وفي: ﴿ لا يؤمنون ﴾ به للذكر، وهو بعيد، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ أي مضت طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء.

وقال الزجاج : وقد مضت سنّة الله في الأوّلين بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم .

ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء ، فقال : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي : على هؤلاء المعاندين لمحمد صلى الله عليه وسلم المكذبين له المستهزئين به ﴿ بَاباً مِنَ السماء ﴾ أي : من أبوابها المعهودة ، ومكناهم من الصعود إليه ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ ﴾ أي : في ذلك الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون بآلة ، أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ، ولا يعاند عند مشاهدتها معاند .

وقيل : الضمير في ﴿ فظلوا ﴾ للملائكة ، أي : فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب ، والكفار يشاهدونهم ، وينظرون صعودهم من ذلك الباب ﴿ لَقَالُواْ ﴾ أي : الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوّهم : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ قرأ ابن كثير " سكرت " بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وهو من سكر الشراب ، أو من السكر ، وهو سدّها عن الإحساس ، يقال : سكر النهر : إذا سدّه وحبسه عن الجري .

ورجح الثاني بقراءة التخفيف ، وقال أبو عمرو بن العلاء : سكرت : غشيت وغطت ، ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر . . . وجعلت عين الجزور تسكر

وبه قال أبو عبيد ، وأبو عبيدة ، وروي عن أبي عمرو أيضاً أنه من سكر الشراب ، أي : غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله ، وقيل : معنى سكرت : حبست ، كما تقدم ، ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليلة ساهره . . . فليست بطلق ولا ساكره

(141/423)

---

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ أضربوا عن قولهم ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ ثم ادّعوا أنهم مسحورون ، أي : سحرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارض السكر ، أو أن عقولهم قد سحرت ، فصار إدراكهم غير صحيح .

ومن بلغ في التعنت إلى هذا الحدّ فلا تنفع فيه موعظة ، ولا يهتدي بآية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ قال : التوراة والإنجيل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ قال : الكتب التي كانت قبل القرآن و ﴿ قرآن مبين ﴾ قال : مبين ، والله هداه ورشده وخيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قال : ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال : هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار .

وأخرج سعيد بن منصور ، وهناد بن السريّ في الزهد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال : ما يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول : من كان مسلماً فليدخل الجنة ، فذلك قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث عن ابن عباس وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ فقالا : هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار ، فيقول المشركون : ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون ، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، وابن مردويه بسند ، قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم ، فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى موحد إلاّ أخرجه الله من النار " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي عاصم في السنّة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه .

وأخرج إسحاق بن راهويه ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه أيضاً .

وأخرج هناد بن السريّ ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً .

وفي الباب أحاديث في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ الآية قال : هؤلاء الكفرة .

وأخرج أيضاً عن أبي مالك في قوله : ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ قال : خلّ عنهم .

وأخرج ابن جرير عن الزهري في قوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ قال : نرى أنه إذا حضره أجله ، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدّم ، وأما ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدّم ما شاء .

قلت : وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه .

(143/423)

---

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ يأَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ قال : بالرسالة والعذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ قال : وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَإِنَّا لَهُ

لحافظون ﴾ قال : عندنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ قال : أمم الأوّلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ قال : الشرك نسلكه في قلوب المشركين .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن الحسن مثله أيضاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ قال : وقائع الله فيمن خلا من الأمم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ قال ابن جريج : قال ابن عباس : فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لقالوا : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ قال : قريش تقوله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس أيضاً يقول : ولو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين وجائين لقال أهل الشرك : إنما أخذ أبصارنا ، وشبه علينا ، وإنما سحرنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ قال :

سدّت ، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال : ومن قرأ " سكرت " مخففة ، فإنه يعني : سحرت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(144/423)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾

قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك

والجواب أن قولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر يعنون في زعمه تهكماً منهم به ، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهكمين بالرسل عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع أخر كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال : ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : 27 ] وقوله عن قوم شعيب ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [ هود : 87 ] .

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ﴾

(145/423)

---

﴿ لَّوْمَا ﴾ في هذه الآية الكريمة للتخصيص وهو طلب الفعل طلباً حثيثاً . ومعنى الآية : أن الكفار طلبوا من النَّبي صلى الله عليه وسلم طلب تخصيص أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلاً على صدقه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين طلب الكفار هذا في آيات أخر كقوله عن فرعون مع موسى : ﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة مُقْتَرِنِينَ ﴾ [ الزخرف : 53 ] وقوله : ﴿ وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا لَقَدِ استكبروا في أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ﴾ [ الفرقان : 21 ] ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ﴾ [ الأنعام : 8 ] الآية وقوله : ﴿ لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [ الفرقان : 7 ] وقوله ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 92 ] إلى غير ذلك من الآيات .

واعلم أن لو تركب مع لا وما لمعنيين الأول منهما التخصيص ومثاله في لوما في هذه الآية الكريمة ومثاله في لولا قول جرير :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم . . . بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا

يعني فهلا تعدون الكمي المقنع ، المعنى الثاني هو امتناع شيء لوجود غيره وهو في لولا كثير جداً كقول عامر بن الأكوع رضي الله عنه .

تالله لولا الله ما اهتدينا . . . ولا تصدقنا ولا صلينا

ومثاله في لوما قول ابن مقبل :

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما . . . ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

وأما هل فلم تركب إلا مع لا وحدها للتخصيص .

تنبيه



---

قد ترد أدوات التخصيص والتنديم ، فتخص بالماضي أو ما في تأويله نحو ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [ يونس : 98 ] الآية وقوله : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [ النور : 13 ] وقوله : ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ﴾ [ الأحقاف : 28 ] الآية ، وجعل بعضهم منه قول جرير :

تعدون عقر النيب : . . . البيت المتقدم آنفا

قائلاً إن مراده توبيخهم على ترك عد الكمي المقنع في الماضي .

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) ﴾



---

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق اي بالوحي وقيل بالعذاب ، وقال الزمخشري : " إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النّبي صلى الله عليه وسلم لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار " قال : " ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ [ الحجر : 85 ] وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لو نزلت عليهم الملائكة ، ما كانوا منظرين وذلك في قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ لأن التنوين في قوله إذاً عوض عن جملة ، ففيه شرط وجزاء ، وتقدير المعنى ولو نزلت عليكم الملائكة ما كانوا منظرين أي ممهلين بتأخير العذاب عنهم وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [ الفرقان : 22 ] الآية وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 8 ] إلى غير ذلك من الآيات . وقوله ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي : ننزل بونين ، الأولى مضمومة الثانية مفتوحة مع كسر الزاي المشددة ، والملائكة بالنصب مفعول به لننزل . وقرأ شعبة : تنزل بتاء مضمومة ونون مفتوحة مع تشديد الزاي مفتوحة بالبناء للمفعول ، والملائكة بالرفع نائب فاعل تنزل . وقرأ الباقون : تنزل بفتح التاء والنون والزاي المشددة أصله تتنزل فحذفت إحدى التاءين ، والملائكة بالرفع فاعل تنزل كقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح ﴾ [ القدر : 4 ] الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) ﴾

اعتراض تذييلي لأن في هذه الجملة حكماً يشملهم وهو حكم إمهال الأمم التي حق عليها الهلاك ، أي ما أهلكنا أمّة إلا وقد متّعناها زمناً وكان لهلاكها أجل ووقت محدود ، فهي ممتعة قبل حلوله ، وهي مأخوذة عند إبانه .

وهذا تعريض لتهديد ووعيد مؤيدٌ بتنظيرهم بالمكذبين السالفين .

وإنما ذكر حال القرى التي أهلكت من قبل لتذكير هؤلاء بسنّة الله في إمهال الظالمين لئلا يغرّهم ما هم فيه من التمتع فيحسبوا أنهم أفلتوا من الوعيد .

وهذا تهديد لا يقتضي أن المشركين قدر الله أجلاً لهلاكهم ، فإن الله لم يستأصلهم ولكن هدى كثيراً منهم إلى الإسلام بالسيف وأهلك سادتهم يوم بدر .

والقَرْية : المدينة .

وتقدمت عند قوله تعالى : ﴿ أو كالذي مرّ على قرية ﴾ في سورة البقرة ( 259 ) .

والكتاب : القَدَر المحدود عند الله .

شبّه بالكتاب في أنه لا يقبل الزيادة والنقص .

وهو معلوم عند الله ، لا يضلّ ربي ولا ينسى .

وجملة ولها كتاب معلوم ﴾ في موضع الحال ، وكفاك علماً على ذلك اقترانها بالواو فهي

استثناء من عموم أحوال ، وصاحب الحال هو ﴿ قرية ﴾ وهو وإن كان نكرة فإن وقوعها

في سياق النفي سوّغ مجيء الحال منه كما سوّغ العموم صحة الإخبار عن النكرة .

وجملة ﴿ ما تسبق من أمةٍ أجلها ﴾ بيان لجملة ﴿ ولها كتاب معلوم ﴾ لبيان فائدة

التحديد : أنه عدم المجاوزة بدءاً ونهاية .

ومعنى ( تسبق أجلها ) تفوته ، أي تُعْدم قبل حلوله ، شبّه ذلك بالسبق .

و ﴿ يستأخرون ﴾ : يتأخرون .

فالسين والتاء للتأكيد .

وأنّث مفرداً ضمير الأمّة مرة مراعاة للفظ ، وجُمع مذكراً مراعاة للمعنى .

وحذف متعلق ﴿ يستأخرون ﴾ للعلم به ، أي وما يستأخرون عنه .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ﴾

عطف على جملة ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ [ سورة الحجر : 3 ] .

والمناسبة أن المعطوف عليها تضمنّت انهماكهم في الملذّات والآمال ، وهذه تضمّنت توغّلهم في الكفر وتكذيبهم الرسالة المحمّدية .

والمعنى : ذرهم يكذبون ويقولون شتى القول من التكذيب والاستهزاء .

والجملة كلها من مقولهم .

والنداء في يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ للتشهير بالوصف المنادى به ، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكّم .

وقرينة التهكّم قولهم : ﴿ إنك لمجنون ﴾ .

وقد أرادوا الاستهزاء بوصفه فأنطقهم الله بالحق فيه صرفاً لألسنتهم عن الشتم .

وهذا كما كانوا إذا شتموا النبي صلى الله عليه وسلم أو هجوه يدعونه مذمماً ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة : " أَلَمْ تَرَيْ كيف صرف الله عني أذى المُشركين وسبّهم ، يسبون مُذمماً وأنا محمد " .

وفي هذا إسناد الصلة إلى الموصول بحسب ما يدعيه صاحب اسم الموصول ، لا بحسب اعتقاد المتكلم على طريقة التهكّم .

و﴿ الذكر ﴾ : مصدر ذكر ، إذا تلفظ .

ومصدر ذكر إذا خطر بباله شيء .

فالذكر الكلام الموحَى به ليتلَى ويكرر ، فهو للتلاوة لأنه يُذكر ويعاد ؛ إما لأن فيه التذكير بالله واليوم الآخر ، وإما بمعنى أن به ذكرهم في الآخرين ، وقد شملها قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ [ سورة الأنبياء : 10 ] وقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [ سورة الزخرف : 44 ] والمراد به هنا القرآن .

فتسمية القرآن ذكرا تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها من قبل أن تَرد في القرآن .

*(150/423)*

---

وكذلك تسميته قُرآناً لأنه قصد من إنزاله أن يقرأ ، فصار الذكر والقرآن صنفين من أصناف الكلام الذي يلقى للناس لقصد وعيه وتلاوته ، كما كان من أنواع الكلام الشعر والخطبة والقصة والأسطورة .

ويدلك لهذا قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرءان مبين ﴾ [ سورة يس : 69 ] ، فنفى أن يكون الكتاب المنزل على محمد شعراً ، ووصفه بأنه ذكر وقرآن ، ولا يخفى أن وصفه بذلك يقتضي مغايرة بين الموصوف والصفة ، وهي مغايرة

باعتبار ما في الصفتين من المعنى الذي أشرنا إليه .

فالمراد : أنه من صنف الذكر ومن صنف القرآن ، لا من صنف الشعر ولا من صنف الأساطير .

ثم صار القرآن بالتعريف باللام عَلَماً بالغلبة على الكتاب المنزّل على محمد كما علمت آنفاً .

وإنما وصفوه بالجنون لتوهّمهم أن ادعاء نزول الوحي عليه لا يصدر من عاقل ، لأن ذلك عندهم مخالف للواقع توهّماً منهم بأن ما لا تقبله عقولهم التي عليها غشاوة ليس من شأنه أن يقبله العقلاء ، فالداعي به غير عاقل .

والمجنون : الذي جُنّ ، أي أصابه فساد في العقل من أثر مسّ الجنّ إياه في اعتقادهم ، فالمجنون اسم مفعول مشتق من الفعل المبني للمجهول وهو من الأفعال التي لم ترد إلا مسندة للمجهول .

وتأكيد الجملة بـ ( إن ) واللام لقصدهم تحقيق ذلك له لعلّه يرتدع عن الاستمرار فيه أو لقصدهم تحقيقه للسامعين حاضري مجالسهم .

وجملة لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ استدلال على ما اقتضته الجملة قبلها باعتبار أن المقصود منها تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام لأن ما يصدر من المجنون من الكلام لا يكون جارياً على مطابقة الواقع فأكثره كذب .

و﴿ لو ما ﴾ حرف تحضيض بمنزلة لولا التحضيضية.

ويلزم دخولها الجملة الفعلية.

والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبرهم بصدقه في الرسالة.

وهذا كما حكى الله في الآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ﴾ [سورة الإسراء: 92].

(151/423)

---

ومن الصادقين ﴾ أي من الناس الذين صفتهم الصدق، وهو أقوى من (إن كنت صادقاً)، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ في سورة براءة (219)، وفي قوله: ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلي ﴾ في سورة البقرة (67).

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (8) ﴾

مستأنفة ابتدائية جواباً لكلامهم وشبهاتهم ومقترحاتهم.

وابتدىء في الجواب بإزالة شبهتهم إذ قالوا: ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ [سورة الحجر: 7].

أريد منه إزالة جهالتهم إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق لأنهم وإن طلبوا ذلك

بقصد التهكم فهم مع ذلك معتقدون أن نزول الملائكة هو آية صدق الرسول ، فكان جوابهم مشوباً بطرف من الأسلوب الحكيم ، وهو صرفهم إلى تعليمهم الميز بين آيات الرسل وبين آيات العذاب ، فأراد الله أن لا يدخرهم هدياً وإلا فهم أحرياء بأن لا يجابوا .

والنزول : التدلي من علو إلى سفل .

والمراد به هنا انتقال الملائكة من العالم العلوي إلى العالم الأرضي نزولاً مخصوصاً .

وهو نزولهم لتنفيذ أمر الله بعذاب يرسله على الكافرين ، كما أنزلوا إلى مدائن لوط عليه السلام .

وليس مثل نزول جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة إلى الرسل عليهم السلام بالشرائع أو بالوحي .

قال تعالى في ذكر زكرياء عليه السلام ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشّرك بيحيى ﴾ [ سورة آل عمران : 39 ] .

والمراد بالحق هنا الشيء الحاقّ ، أي المقضي ، مثل إطلاق القضاء بمعنى المقضيّ .

وهو هنا صفة لمحذوف يعلم من المقام ، أي العذاب الحاقّ .

قال تعالى : ﴿ وكثير حقّ عليه العذاب ﴾ [ سورة الحج : 18 ] وبقرينة قوله : وما كانوا إذا منظرين ﴾ ، أي لا تنزل الملائكة للناس غير الرسل والأنبياء .

عليهم الصلاة والسلام إلا مصاحبين للعذاب الحاقّ على الناس كما تنزلت الملائكة على قوم لوط وهو عذاب الاستئصال .

(152/423)

---

ولو تنزلت الملائكة لعجل للمنزل عليهم ولما أمهلوا .

ويفهم من هذا أن الله منظرهم ، لأنه لم يُرد استئصالهم ، لأنه أراد أن يكون نشر الدين بواسطتهم فأمهلهم حتى اهتدوا ، ولكنه أهلك كبراءهم ومدبريهم .

ونظير هذا قوله تعالى في سورة الأنعام ( 8 ) : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ وقد نزلت الملائكة عليهم يوم بدر يقطعون رؤوس المشركين .

والإنظار : التأخير والتأجيل .

وإذاً ﴿ حرف جواب وجزاء .

وقد وسطت هنا بين جزأي جوابها رعياً لمناسبة عطف جوابها على قول : ﴿ ما تنزل الملائكة ﴾ .

وكان شأن ( إذن ) أن تكون في صدر جوابها .

وجملتها هي الجواب المقصود لقولهم : ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ [ سورة الحجر : 7 ] .

وجملة ما تنزل الملائكة إلا بالحق مقدمة من تأخير لأنها تعليل للجواب ، فقدم لأنه أوقع في الرد ، ولأنه أسعد بإيجاز الجواب .

وتقدير الكلام لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين إذن ما كنتم مُنظرين بالحياة ولعجل لكم الاستئصال إذ ما تنزل الملائكة إلا مصحوبين بالعذاب الحاقّ .

وهذا المعنى وارد في قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ [ سورة العنكبوت : 53 ] .

وقرأ الجمهور ﴿ ما تنزل ﴾ بفتح التاء على أن أصله ( تتنزّل ) .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بضم التاء وفتح الزاي على البناء للمجهول ورفع الملائكة على النيابة .

وقرأ الكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف ﴿ ما ننزل الملائكة ﴾ بنون في أوله وكسر الزاي ونصب الملائكة على المفعولية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

هذا المقطع الأول في سياق السورة ، يتحدث عن طبيعة الكتاب الذي يكذب به المشركون . . ويهددهم بيوم يتمنون فيه لو كانوا مسلمين ! كما يكشف لهم عن سبب إرجاء هذا اليوم عنهم ، فهو موقوت بأجل معلوم . . ويذكر تحدياتهم واستهزاءهم وطلبهم الملائكة ، ثم يهددهم بأن نزول الملائكة يكون معه الهلاك والتدمير ! وأخيراً يكشف عن العلة الحقيقية للتكذيب . . إنها ليست نقص الدليل ولكنه العناد الأصيل ! . .

ألف . لام . را . . ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ . .

هذه الأحرف ونظائرها هي الكتاب وهي القرآن . هذه الأحرف التي في متناول الجميع ، هي ﴿ تلك ﴾ الآيات العالية الأفق البعيدة المتناول ، المعجزة التنسيق . هذه الأحرف التي لا مدلول لها في ذاتها هي القرآن الواضح الكاشف المبين .

فإذا كان قوم يكفرون بآيات الكتاب المعجز ويكذبون بهذا القرآن المبين فسيأتي يوم يودون فيه لو كانوا غير ما كانوا ؛ ويتمنون فيه لو آمنوا واستقاموا :

﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ . .

ربما . . ولكن حيث لا ينفع التمني ولا تجدي الودادة . . ربما . . وفيها التهديد الخفي ، والاستهزاء الملفوف ؛ وفيها كذلك الحث على انتهاز الفرصة المعروضة للإسلام والنجاة

قبل أن تضيع ، ويأتي اليوم الذي يودون فيه لو كانوا مسلمين ؛ فما ينفعهم يومئذ أنهم يودون !

وتهديد آخر ملفوف :

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ . .

(154/423)

---

ذرهم فيما فيه من حياة حيوانية محضة للأكل والمتاع . لا تأمل فيها ولا تدبر ولا استطلاع . ذرهم في تلك الدوامة : الأمل يلهي والمطامع تغر ، والعمر يمضي والفرصة تضيع . ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين ، الذين ضلوا في متاهة الأمل والغرور ، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع ، ويملي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود ، وأنهم محصلون ما يطمعون لا يردهم عنه راد ، ولا يمنعهم منه مانع . وأن ليس وراءهم حسيب ؛ وأنهم ناجون في النهاية بما ينالون مما يطعمون !

وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية . فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان ، وهو يجري وراءه ، وينشغل به ، ويستغرق فيه ، حتى يجاوز المنطقة المأمونة ؛ وحتى يغفل عن الله ، وعن القدر ، وعن الأجل ؛ وحتى ينسى أن هنالك واجباً ، وأن هنالك محظوراً ؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلهاً ، وأن هنالك موتاً ، وأن هناك نشوراً .

وهذا هو الأمل القاتل الذي يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعهم له . . ﴿ فسوف يعلمون ﴾ . . حيث لا ينفع العلم بعد فوات الأوان . . وهو أمر فيه تهديد لهم ، وفيه كذلك لمسة عنيفة لعلهم يصحون من الأمل الخادع الذي يلهيهم عن المصير المحتوم .

وإن سنة الله لماضية لا تتخلف ؛ وهلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها ؛ مترتب على سلوكها الذي تنفذ به سنة الله ومشيئته :

﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم .

ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ . .

فلا يغرنهم تخلف العذاب عنهم فترة من الوقت ، فإنما هي سنة الله تمضي في طريقها المعلوم . ولسوف يعلمون .

وذلك الكتاب المعلوم والأجل المقسوم ، يمنحه الله للقرى والأمم ، لتعمل ، وعلى حسب العمل يكون المصير . فإذا هي آمنت وأحسنت وأصلحت وعدلت مد الله في أجلها ، حتى تنحرف عن هذه الأسس كلها ، ولا تبقى فيها بقية من خير يرجى ، عندئذ تبلغ أجلها ، وينتهي وجودها ، إما نهائياً بالهلاك والدثور ، وإما وقتياً بالضعف والذبول .

ولقد يقال : إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهي مع ذلك قوية ثرية باقية . وهذا وهم . فلا بد من بقية من خير في هذه الأمم . ولو كان هو خير العمارة للأرض ، وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادي والإحسان المحدود بحدودها . فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها فلا تبقى فيها من الخير بقية . ثم تنتهي حتماً إلى المصير المعلوم .

إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم :

﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ . .

ويحكي السياق سوء أدبهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم وقد جاءهم بالكتاب والقرآن المبين ، يوقظهم من الأمل الملهي ، ويذكرهم بسنة الله ، فإذا هم يسخرون منه ويتوقحون :

﴿ وقالوا : يأيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ! ﴾ . .

وتبدو السخرية في ندائهم :

﴿ يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر ﴾ . .

فهم ينكرون الوحي والرسالة ؛ ولكنهم يتهكمون على الرسول الكريم بهذا الذي يقولون .

ويبدو سوء الأدب في وصفهم للرسول الأمين :

﴿ إنك لمجنون ﴾ . .

جزاء على دعوته لهم بالقرآن المبين .

وهم يتمحكون فيطلبون الملائكة مصدقين :

﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ! ﴾ .

وطلب نزول الملائكة يتكرر في هذه السورة وفي غيرها ، مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع غيره من الرسل قبله : وهو كما قلنا ظاهرة من ظواهر الجهل بقيمة هذا الكائن الإنساني الذي كرمه الله ، فجعل النبوة في جنسه ، ممثلة في أفراده المختارين .

والرد على ذلك التهكم وتلك الوقاحة وهذا الجهل هو ذكر القاعدة التي تشهد بها مصارع السالفين : أن الملائكة لا تنزل على الرسول إلا لهلاك المكذبين من قومه حين ينتهي الأجل المعلوم ؛ وعندئذ فلا إمهال ولا تأجيل :

﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ، وما كانوا إذن منظَرين ﴾ . .

فهل هو ما يريدون وما يتطلبون ؟ !

ثم يردهم السياق إلى الهدى والتدبر . . إن الله لا ينزل الملائكة إلا بالحق ، ليحقوه وينفذوه . والحق عند التكذيب هو الهلاك .

فهم يستحقونه فيحق عليهم . فهو حق تنزل به الملائكة لتنفذه بلا تأخير . وقد أراد الله لهم خيراً مما يريدون بأنفسهم ، فنزل لهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به ، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير ! لو كانوا يفقهون :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ . .

فخير لهم أن يقبلوا عليه . فهو باق محفوظ لا يندثر ولا يتبدل . ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه ، إن كانوا يريدون الحق ، وإن كانوا يطلبون الملائكة للتثبيت . . إن الله لا يريد أن ينزل عليهم الملائكة ، لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ ، لا ملائكة الهلاك والتدمير .

وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر ؛ فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوناً محفوظاً لا تتبدل فيه كلمة ، ولا تحرف فيه جملة ، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر ، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل ، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل ، وتصونه من العبث والتحريف .

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأولى كثرت فيه الفرق ، وكثر فيه النزاع ، وطمت فيه الفتن ، وتماوجت فيه الأحداث . وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود خاصة ثم من " القوميين " دعاة " القومية " الذين تسمّوا بالشعوبيين !



---

ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين .

كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تؤول معاني النصوص القرآنية ، وأن تحاول أن تلوي هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات . .

ولكنها عجزت جميعاً وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا أن تحدث حدثاً واحداً في نصوص هذا الكتاب المحفوظ ؛ وبقيت نصوصه كما أنزلها الله ؛ حجة باقية على كل محرف وكل مؤول ؛ وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ .

ثم جاء على المسلمين زمان ما نزال نعانيه ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم ، وعن حماية عقيدتهم ، وعن حماية نظامهم ، وعن حماية أرضهم ، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم . وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم ! وغيّر عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم ، وأحلوا مكانه كل منكر فيهم .

. كل منكر من العقائد والتصورات ، ومن القيم والموازين ، ومن الأخلاق والعادات ، ومن الأنظمة والقوانين . . . وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص " الإنسان " وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان . . وأحياناً إلى حياة يشمئز منها الحيوان . . ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقة من " التقدم " و " التطور " و " العلمانية " و " العلمية " و " الانطلاق " و " التحرر " و " تحطيم الأغلال " و " الثورية " و " التجديد " . . إلى آخر تلك الشعارات والعناوين . . وأصبح " المسلمون " بالأسماء وحدها مسلمين . ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير . وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع ، ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقوداً للنار . . وهو وقود هزيل ! . .

ولكن أعداء هذا الدين بعد هذا كله لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها . ولم يكونوا في هذا من الزاهدين . فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال !

ولقد بذل أعداء هذا الدين وفي مقدمتهم اليهود رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله . وقدروا على أشياء كثيرة . . قدروا على الدس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى تاريخ الأمة المسلمة . وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون . وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين . وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون ، وبخاصة في العصر الحديث :

ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد والظروف الظاهرية كلها مهيأة له . . لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه ؛ وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع ؛ فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب ، وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقاً تنزيل من عزيز حكيم .

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد وعد . أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام ؛ ومن وراء كل تلك القرون الطوال . فهو المعجزة

الشاهدة بربانية هذا الكتاب ، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون ﴾ . . وصدق الله العظيم . .

ويعزي الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فيخبره أنه ليس بدعاً من الرسل الذين لقوا الاستهزاء والتكذيب ، فهكذا المكذبون دائماً في عنادهم الذميم :

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين .

وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ . .

(159/423)

---

وعلى هذا النحو الذي تلقى به المكذبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم ، يتلقى المكذبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به . وعلى هذا النحو نجري هذا التكذيب في قلوبهم التي لا تدبر ولا تحسن الاستقبال ، جزاء ما أعرضت وأجرمت في حق الرسل المختارين :

﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾ . .

نَسلُكه في قلوبهم مكذّباً بما فيه مستهزأ به ؛ لأن هذه القلوب لا تحسن أن تتلقاه إلا على هذا النحو . سواء في هذا الجيل أم في الأجيال الخالية أم في الأجيال اللاحقة ؛ فالمكذبون أمة

واحدة ، من طينة واحدة :

﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ . .

وليس الذي ينقصهم هو توافر دلائل الإيمان ، فهم معاندون ومكابرون ، مهما تأتهم من آية بينة فهم في عنادهم ومكابرتهم سادرون .

وهنا يرسم السياق نموذجاً باهراً للمكابرة المرذولة والعناد البغيض :

﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ﴾ . .

ويكفي تصورهم يصعدون في السماء من باب يفتح لهم فيها . يصعدون بأجسامهم ، ويرون الباب المفتوح أمامهم ، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها . . ثم هم بعد ذلك يكابرون فيقولون : لا . لا . ليست هذه حقيقة . إنما أحد سكّر أبصارنا وخدّرها فهي لا ترى إنما تتخيل :

﴿ إنما سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ . .

سكر أبصارنا مسكر وسحرنا ساحر ، فكل ما نراه وما نتحركه تهيؤات مسكّر مسحور !

يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة ويتجلى العناد المزري . ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء . ويثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان . وليس الذي يمنعهم أن الملائكة لا تنزل . فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة .

إنما هم قوم مكابرون . مكابرون بلا حياء وبلا تحرج وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف !
إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس يرسمه التعبير ، مثيراً لشعور الاشمئزاز والتحقير . .

(160/423)

---

وهذا النموذج ليس محلياً ولا وقتياً ، ولا هو وليد بيئة معينة في زمان معين . . إنه نموذج للإنسان حين تفسد فطرته ، وتستغلق بصيرته ، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي ، وينقطع عن الوجود الحي من حوله ، وعن إيقاعاته وإيحاءاته .

هذا النموذج يتمثل في هذا الزمان في الملحدين وأصحاب المذاهب المادية التي يسمونها " المذاهب العلمية ! " وهي أبعد ما تكون عن العلم ؛ بل أبعد ما تكون عن الإلهام والبصيرة . .

إن أصحاب المذاهب المادية يلحدون في الله ؛ ويجادلون في وجوده سبحانه وينكرون هذا الوجود .

. ثم يقيمون على أساس إنكار وجود الله ، والزعم بأن هذا الكون موجود هكذا بذاته ، بلا خالق ، وبلا مدبر ، وبلا موجه . . يقيمون على أساس هذا الزعم وذلك الإنكار

مذاهب اجتماعية وسياسية واقتصادية و " أخلاقية ! "كذلك . ويزعمون أن هذه المذاهب القائمة على ذلك الأساس ، والتي لا تنفصل عنه بحال . . "علمية" . . هي وحدها " العلمية " !

وعدم الشعور بوجود الله سبحانه ، مع وجود تلك الشواهد والدلائل الكونية ، هو دلالة لا تنكر على تعطل أجهزة الاستقبال والتلقي في تلك الجبلات النّكدة . كما أن اللجاجة في هذا الإنكار لا تقل تبجحاً عن تبجح ذلك النموذج الذي ترسمه النصوص القرآنية السابقة :

﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ! ﴾ . .

فالشواهد الكونية أظهر وأوضح من عروجهم إلى السماء . وهي تخاطب كل فطرة غير معطلة خطاباً هامساً وجاهراً ، باطناً وظاهراً ، بما لا تملك هذه الفطرة معه إلا المعرفة والإقرار .



---

إن القول بأن هذا الكون موجود بذاته ؛ وفيه كل تلك النواميس المتوافقة لحفظه وتحريكه وتدبيره ؛ كما أن فيه كل تلك الموافقات لنشأة الحياة في بعض أجزائه . . وهي موافقات لا

تحصى . . إن هذا القول بذاته يرفضه العقل البشري ، كما ترفضه الفطرة من أعماقها .

وكلما توغل " العلم " في المعرفة بطبيعة هذا الكون وأسراره وموافقاته ؛ رفض فكرة التلقائية في وجود هذا الكون وفي حركته بعد وجوده ؛ واضطر اضطرارا إلى رؤية اليد الخالقة المدبرة من ورائه . . هذه الرؤية التي تتم للفطرة السوية بمجرد تلقي إيقاعات هذا الكون وإيحاءاته . قبل جميع البحوث العلمية التي لم تجئ إلا أخيرا !

إن الكون لا يملك أن يخلق ذاته ، ثم يخلق في الوقت نفسه قوانينه التي تصرف وجوده . كما أن نشأة الحياة لا يفسرها وجود الكون الخالي من الحياة . وتفسير نشأة الكون ونشأة الحياة بدون وجود خالق مدبر تفسير متعسف ترفضه الفطرة كما يرفضه العقل أيضا : كما أخذ يرفضه العلم المادي نفسه أخيرا :

يقول عالم الأحياء والنبات " رسل تشارلز إرنست " الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا : " لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع

على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية .



---

وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذي خلق الأشياء ودبرها .

" إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيماناً راسخا "

وهذا الذي يكتب هذا التقرير لم يبدأ بحثه من التقريرات الدينية عن نشأة الحياة . إنما بدأ بحثه من النظر الموضوعي لنواميس الحياة . والمنطق السائد في بحثه هو منطق " العلم الحديث " بكل خصائصه لا منطق الإلهام الفطري ، ولا منطق الحس الديني . ومع ذلك فقد انتهى إلى الحقيقة التي يقررها الإلهام الفطري ، كما يقررها الحس الديني . ذلك أن الحقيقة متى كان لها وجود ، اعترض وجودها كل سالك إليها من أي طريق يسلكه إليها :

أما الذين لا يجدون هذه الحقيقة فهم الذين تعطلت فيهم أجهزة الإدراك جميعا !

والذين يجادلون في الله مخالفين عن منطق الفطرة وعن منطق العقل، وعن منطق الكون . . أولئك كائنات تعطلت فيها أجهزة الاستقبال والتلقي جميعا . . إنهم العُمْي الذين يقول الله تعالى فيهم ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ وإذا كانت هذه حقيقتهم؛ فإن ما ينشئونه من مذاهب "علمية!" اجتماعية وسياسية واقتصادية؛ وما ينشئون من نظريات عن الكون والحياة والإنسان والحياة والإنسانية والتاريخ الإنساني؛ يجب أن ينظر إليها المسلم كما ينظر إلى كل تخبط، صادر عن أعمى، معطل الحواس الأخرى، محجوباً عن الرؤية وعن الحس وعن الإدراك جميعاً على الأقل فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وتفسيرها وتنظيمها . وما ينبغي لمسلم أن يتلقى عن هؤلاء شيئاً؛ فضلاً على أن يكيف نظرته، ويقيم منهج حياته، على شيء مقتبس من أولئك العمي أصلاً !

(163/423)

---

إن هذه قضية إيمانية اعتقادية، وليست قضية رأي وفكر ! إن الذي يقيم تفكيره، ويقيم مذهبه في الحياة، ويقيم نظام حياته كذلك، على أساس أن هذا الكون المادي هو منشئ ذاته، ومنشئ الإنسان أيضا . . إنما يخطئ في قاعدة الفكرة والمذهب والنظام؛ فكل

التشكيلات والتنظيمات والإجراءات القائمة على هذه القاعدة لا يمكن أن تجيء بخير ؛ ولا يمكن أن تلتحم في جزيئة واحدة مع حياة مسلم ، يقيم اعتقاده وتصوره ، ويجب أن يقيم نظامه وحياته على قاعدة ألوهية الله للكون وخلقه وتدبيره .

ومن ثم يصبح القول بأن ما يسمى " الاشتراكية العلمية " منهج مستقل عن المذهب المادي مجرد جهالة أو هراء ! ويصبح الأخذ بما يسمى " الاشتراكية العلمية " وتلك قاعدتها ونشأتها ومنهج تفكيرها وبناء انظمتها عدولاً جذرياً عن الإسلام : اعتقاداً وتصوراً ثم منهجا ونظاما .

. حيث لا يمكن الجمع بين الأخذ بتلك " الاشتراكية العلمية " واحترام العقيدة في الله بتاتاً . ومحاولة الجمع بينهما هي محاولة الجمع بين الكفر والاسلام . . وهذه هي الحقيقة التي لا محيص عنها . .

إن الناس في أي أرض وفي أي زمان ؛ إما أن يتخذوا الإسلام ديناً ، وإما ان يتخذوا المادية ديناً . فإذا اتخذوا الإسلام دينا امتنع عليهم أن يتخذوا " الاشتراكية العلمية " المنبثقة من " الفلسفة المادية " ، والتي لا يمكن فصلها عن الأصل الذي انبثقت منه ، نظاما . . وعلى الناس أن تختار . . إما الإسلام ، وإما المادية ، منذ الابتداء !

إن الإسلام ليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمير . إنما هو نظام قائم على عقيدة . . كما أن " الاشتراكية العلمية " بهذا الاصطلاح ليست قائمة على هواء ، إنما هي منبثقة انبثاقاً

طبيعيا من "المذهب المادي" الذي يقوم بدوره على قاعدة مادية الكون وإنكار وجود الخالق المدبر اصلا ، ولا يمكن الفصل بين هذا التركيب العضوي . . ومن ثَمَّ ذلك التناقض الجذري بين الإسلام وما يسمى "الاشتراكية العلمية" بكل تطبيقاتها !

ولا بد من الاختيار بينهما . . ولكل أن يختار وأن يتحمل عند الله تبعة ما يختار ! ! ! .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 4 صـ 2132.2125﴾

*(164/423)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) ﴾

أي : أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أيّ قرية إلا في الأجل المكتوب لها . ويجعلها من المُثُل التي يراها مَنْ يأتي بعدها لعله يتعظ ويتعرَّف على حقيقة الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [ النحل : 112 ]

والمثل القريب من الذاكرة "لبنان" التي عاشت إلى ما قبل الخمسينات كبلد لا تجد فيه

فندقاً لائقاً ، ثم ازدهرتْ وانتعشتْ في الستينات والسبعينات ؛ واستشرى فيها الفساد ؛ فقال أهل المعرفة بالله : " لابدَّ أن يصيبها ما يصيب القرى الكافرة بأنعُمِ الله " .

وقد حدث ذلك وقامت فيها الحرب الأهلية ، وانطبق عليها قول الحق سبحانه : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ . . . ﴾ [الأنعام : 65]

وهذا ما يحدث في الدنيا ، وهي مُقدّمات تؤكّد صدْق ما سوف يحدث في الآخرة .

وسبحان القائل : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُوراً ﴾ [الإسراء : 58]

وبطبيعة الحال ؛ فهذا ما يحدث لأيِّ قرية ظالم أهلها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم مِثْقال ذرة .

وأذكر أن تفسير النسفي قد صُودِر في عصر سابق ؛ لأن صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية : " حدثني فلان عن فلان أن البلد الفلاني سيحصل فيه كذا ؛ والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنص : ويدخل مصر رجل من جهينة ، فويْل لأهلها ، وويْل لأهل سوريا ، وويْل لأهل الرَّمْلة ، وويْل لأهل فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس " .

وما دام الحق سبحانه قد قال : ﴿ . . . كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُورا ﴾ [ الإسراء : 58 ]

فهو يُعلّم بعضاً من خلقه بعضاً من أسراره ، فلا مانعَ من أن نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم . وحين ذاعت تلك الحكاية ، وقالوها للرئيس الذي كان موجوداً ، وقالوا له : أنت من جهينة وهم يقصدونك . صُودِر تفسير النسفي .

إذن : فقد ترك الحق سبحانه لنا في الدنيا مثلاً يؤكد صِدْقه فيما يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصدّق ما يمكن أن يكون بعد يوم القيامة . وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الحجر : 4 ]

فليس لأحد أن يقول : " إن ذلك لم يحدث للبلد الفلاني " لأن كُلَّ أَمْر له أجَل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾

أي : أنه سبحانه قد جعل لكل أمة أجلاً ، وغاية ، فإذا ما انتهى الأجل المعلوم جاءتْ نهايتها ؛ فلا كائنَ يتقدّم على أجله ، ولا أحدَ يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذي نُزِّلَ . . . ﴾

وهم هنا يسخرون من الرسول ومن القرآن ؛ ذلك أنهم لو كانوا يؤمنون بالقرآن وبالرسول ؛ لَمَا وصفوه صلى الله عليه وسلم بالجنون . والذين قالوا ذلك هم أربعة من كبار الكفار :

عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . وقيل عن ابن عباس : إنهم الوليد بن المغيرة المخزومي ؛ وحبيب بن عمرو الثقفي . وقيل عن مجاهد : إنهم عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضح ؛ فَهُمْ شاءوا أم أَبَوْا يعترفون بالقرآن بأنه " ذِكْر " ، والذِّكْر في اللغة له عدة مَعَانٍ ، منها الشرف ، وقد أُطلِق على القرآن ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [ الزخرف : 44 ]

*(166/423)*

---

وسبق لهم أن تلمّسُوا في هذا القرآن هناتٍ ؛ فلم يجدوا ، فكيف يَصِفون مَنْ نُزِّل عليه هذا القرآن بالجنون ؛ وهم الذين شهدوا له من قَبْل بالصدق والأمانة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يُنصِف رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [ القلم : 4 ]

وهم في اتهامهم للرسول صلى الله عليه وسلم لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم : ( يا أيها ) ، وهو خطاب يتطابق مع نفس الخطاب الذي يخاطبه به الله ؛ وهكذا أجرى الحق سبحانه على ألسنتهم توقيراً واحتراماً للرسول صلى الله عليه وسلم دون أنْ يشعروا ،

وذلك من مشيئته سبحانه حين يُنطِق أهل العناد بالحق دون أن يشعروا .

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين أنهم قالوا : ﴿ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ . . . ﴾ [ المنافقون : 7 ]

أي : لا تنفقوا على مَنْ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يجوعوا ، فينفضوا من حوله . وهم يقولون عنه " رسول الله " ، فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غلبة الحق ؟

ويتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملائكة . . . ﴾

ونعلم أن في اللغة ألفاظاً تدل على الحَثّ وعلى رغبة المُتكلِّم في أن يُوجد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ " لولا " و " لوما " . و " لولا " تجئ للتمنِّي ورغبة ما يكون بعدها ، وإن كان ما بعدها نفياً فهو رغبة منك ألا يكون ، مثل قولك " لو جاء زيد لأكرمته " لكن المجيء لم يحدث ، وكذلك الإكرام .

وقد قال الكفار هنا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملائكة . . . ﴾ [ الحجر : 7 ]

وسبق لهم أنْ قالوا : ﴿ . . . لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ [ الفرقان : 7 ]

وكأنهم يطلبون نزول ملَك مع الرسول ليُؤنسه ولِيُصدّقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المُعلَّق على هذا الشرط ؛ تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للملك ؟

وسبق أن تناول القرآنُ هذا الأمر في قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [ الإسراء : 94 ]

وكأنهم علقوا الإيمان بالرسول على شرط أنه ليس ملكاً ؛ بل من صنف البشر ، وجاء الرد عليهم : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [ الإسراء : 95 ]

إذن : فلو نزل رسول من السماء ملَكاً ؛ لَمَا استطاع أن يمشي في الأرض مطمئناً ؛ فضلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أُسْوة وقدوة للبشر ؛ لأنه من جنس آخر غير البشر .

ولو نزل عليهم ملك كما زعموا ، وقال لهم : افعل ولا تفعل ، واستقيموا واستغفروا ، وسبِّحوه بُكْرة وأصيلا ، لردُّوا عليه قائلين أنت ملَكَ ينطبق عليك قول الحق : ﴿ . . . لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [ التحريم : 6 ]

وأنت لا تصلح أُسْوة لنا . ثم كيف تتكلمون مع ملَك وهو من طبيعة مختلفة ، ولن يستطيع البشر أن يرتفعوا إلى مُسْتواه ليأخذوا منه ، وهو لن يستطيع أن ينزل إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه ؛ ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجّتهم في عدم الإيمان بالرسول ؛ لأنه لم يأْتِ من جنس الملائكة ؛ وأبطل حُجّتهم في طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة ؛ لِيُؤيِّدوه في صِدْق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق . . . ﴾

وهكذا يُعلِّمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزّل الملائكة إلا بمشيئة حكمته سبحانه ، ولو نزل المَلَك كما طلبوا لمساعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله ، فالمَلَك إما أن يكون على هيئة البشر ؛ فلن يستطيعوا تمييز المَلَك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة الملك ، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه ؛ وإلاَّ هلكوا .

(168/423)

---

ذلك أن البشر لا تستطيع تحمُّل التواصل مع القوة التي أودعها الله في الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ . . . وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 8 ]

ولو جعله الحق سبحانه في هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر ، ولَظنّوا أن المَلَك بشرٌ مثلهم .

وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [ الأنعام : 9 ]

لم يُنزِل الحق سبحانه الملائكة ؛ لأنه لم يَشَأْ أن يُهلِكهم ورسولُ الله فيهم ، فالحق سبحانه قد

قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [ الأنفال : 33 ] وقد آمن معظمهم ودخلوا في دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله .

وحين ننظر إلى صَدْر الآية نجد أنه سبحانه قال : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق . . . ﴾ [ الحجر : 8 ]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ﴾ [ الإسراء : 59 ]

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التي طلبوها ؛ لأن السابقين لهم ، كذّبوا بها قبل ذلك ، وهم يريدون أن يُكذّبوا أيضاً ، فحتى لو نزلت الآية فسيكذبونها ، وحين يكذبون في آية مقترحة من عندهم ، فلا بُدّ أن نهلكهم . أما لو كذبوا في آية مُنزّلة من عند الله فإن الله يمهلهم .

إذن : فلو نزلنا الملائكة كما يريدون فسننزلهم بالحق ، والحق هو أن نهلكهم إذا كذَّبوا .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ . . . وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ [ الحجر : 8 ]

أي : ما كان أجَلُ المشركين قد حان َليُنزل الله لهم الملائكة لإهلاكهم ، كما سبق وأهلك الأمم السابقة التي طلبتْ الآيات ، فنزلت لهم كما طلبوها ، ولَمّا لم يُصدّقِوا ويؤمنوا أهلكهم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/423)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ قال : أجل معلوم ، وفي قوله ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ قال : لا مستأخر بعده .

وأخرج ابن جرير عن الزهري رضي الله عنه في قوله ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ قال : نرى أنه إذا حضر أجله ، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدم . وأما ما لم

يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدم ما شاء .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾ إِذًا مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)

أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ قال : القرآن .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن جرير في قوله : ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ قال : ما بين ذلك إلى قوله : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ﴾ قال وهذا من التقديم والتأخير ﴿ فظلوا فيه يعرجون ﴾ أي فظلت الملائكة تعرج ، فنظروا إليه ﴿ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ قال بالرسالة والعذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ قال : وما كانوا لو تنزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 ص ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إلاَّ ولَهَا كِتَابٌ ﴾ :

فيه أوجه ، أحدُها : - وهو الظاهرُ - أنها واوُ الحالِ ، ثم لك اعتباران ، أحدُهما : أن تجعلَ الحالَ وحدَها الجارَّ ، ويرتفع "كتابٌ" به فاعلاً . والثاني : أن تجعلَ الجارَّ خبراً مقدماً ، و "كتاب" مبتدأ والجملةُ حالٌ ، وهذه الحالُ لازمةٌ .

الثاني : أنَّ الواوَ مزيدةٌ ، وأيَّد هذا قولَه بقراءة ابن أبي عبلة "إلا لها" بإسقاطِها . والزيادةُ ليسَتْ بالسهلةِ .

الثالث : أنَّ الواوَ داخِلةٌ على الجملةِ الواقعة صفةً تأكيداً ، قال الزمخشري : " /والجملةُ واقعةٌ صفةً لقرية ، والقياسُ أن لا تتوسطَ هذه الواوُ بينهما كما في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء : 208] وإنما توسَّطَتْ لتأكيدِ لصوق الصفة بالموصوف ، كما تقول : "وجاءني زيد عليه يوبُه ، وجاءني وعليه ثوبُه" . وقد تَبِعَ الزمخشريَّ في ذلك أبو البقاء تعالى : وقد سبق له ذلك أيضاً في البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [الآية : 216] .

(172/423)

قال الشيخ : " ولا نَعْلَمُ أحداً قاله من النحويين ، وفي محفوظي أنَّ ابن جني سَبَقهما إلى ذلك " . ثم قال الشيخ : " وهو مبنيٌّ على جوازِ أنَّ ما بعد " إلا " يكون صفةً ، وقد مَنَعُوا ذلك . قال الأخفش : " لا يُفْصَل بين الصفةِ والموصوفِ ب " إلا " . ثم قال : وأمَّا نحوُ : " ما جاءني رجلٌ إلا راكبٌ " على تقدير : إلا رجل راكب ، وفيه قُبْحٌ لجَعْلِكَ الصفةَ كالاسم " . وقال أبو عليّ : " تقول : ما مررتُ بأحدٍ إلا قائماً ، " قائماً " حال ، ولا تقول : إلا قائمٍ ، لأنَّ " إلاَّ " لا تعترضُ بين الصفةِ والموصوفِ " . وقال ابنُ مالك -وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشريُّ في قوله " ما مررت بأحدٍ إلا زيدٌ خيرٌ منه " : إنَّ الجملة بعد " إلا " صفةٌ ل " أحد " : " إنه مذهبٌ لا يُعرف لبصريٍّ ولا كوفيٍّ ، فلا يُلتفتُ إليه ، وأَبْطَلَ قولَه : إن الواوَ توسَّطت لتأكيدِ لُصوقِ الصفةِ بالموصوف .

قلت : قولُ الزمخشريِّ قويٌّ من حيث القياسُ ، فإنَّ الصفةَ كالحال في المعنى ، وإن كان بينهما فرقٌ مِنْ بعضِ الوجوهِ ، فكما أن الواوُ تدخلُ على الجملةِ الواقعةِ حالاً كذلك تَدْخلُ عليها واقعةً صفةً . ويقوِّيه أيضاً ما نظَّره به من الآيةِ الأخرى في قوله ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ ويُقَوِّيه أيضاً قراءةُ ابن أبي عبلة المتقدمةُ .

وقال منذر بن سعيد : " هذه الواوُ هي التي تعطي أنَّ الحالةَ التي بعدها في اللفظ هي في الزمنِ قبل الحالةِ التي قبل الواوِ ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾

[الزمر : 73 ] .

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) ﴾

(173/423)

---

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ فاعل " تَسْبِقُ " ، و " مِنْ " مزيدةٌ للتأكيد ، وحُمِل على لفظِ " أمّة " في قوله " أجلَها " فأفردَ وأنَّثَ . وعلى معناها في قولِه ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ فَجَمَعَ وذَكَّرَ . وحَذَفَ متعلّق " يستأخِرون " ، تقديرُه : " عنه " للدلالةِ عليه ، ولوقوعِه فاصلةً .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) ﴾

قوله تعالى : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ العامَّةُ على " نُزِّل " مشدَّدًا مبنيًّا للمفعول ، وزيدُ بنُ علي " نَزَلَ " مخففاً مبنياً للفاعل .

قوله تعالى : ﴿ لَّوْمَا ﴾ حرفُ تحضيضٍ كهَلاَّ ، وتكون أيضاً حرفَ امتناعٍ لوجود ، وذلك كما أنَّ " لولا " مترددةٌ بين هذين المعنيين ، وقد عُرِف الفرقُ بينهما : وهو أنَّ التحضيضيَّةَ لا يليها إلا الفعلُ ظاهراً أو مضمراً كقولِه :

2930- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . لولا الكَمِيَّ

المُقَنَّعَا

والامتناعية لا يليها إلا الأسماءُ لفظاً أو تقديراً عند البصريين . وقولُه :

2931- ولولا يَحْسَبُون الحِلْمَ عَجْزاً . . . لَمَا عَدِمَ المُسِيْئُون احتمالي

مؤولٌ خلافاً للكوفيين . فمِنْ مجئ " لَوْما " حرفَ امتناعٍ قولُه :

2932- لَوْما الحياءُ ولوما الدينُ عِبْتُكما . . . ببعضِ ما فيكما إذ عِبْتُما عَوَري

واخْتُلِف فيها : هل هي بسيطةٌ أم مركبةٌ؟ فقال الزمخشري : " لو " رُكِّبَتْ مع " لا " ومع " ما " لمعنيين ، وأمَّا " هل " فلم تُركَّب إلا مع " لا " وحدَها للتحضيض . واخْتُلِف أيضاً في " لوما " : هل هي أصلٌ بنفسِها أو فرعٌ على " لولا " ؟ وأن الميمَ مبدلةٌ من اللامِ كقولهم : خالَلْتُه وخالَمْتُه فهو خِلِّي وخِلْمي ، أي : صديقي . وقالوا : استولى عليَّ كذا ، واستومَى عليه بمعنى؟ خلاف مشهور . وهذه الجملةُ من التحضيضِ دالَّةٌ على جوابِ الشرطِ بعدَها .



---

قوله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ قرأ أبو بكر : " ما نُنَزِّل " بضمِّ التاء وفتحِ النونِ والزايِ مشددةً مبنياً للمفعول ، " الملائكةُ " مرفوعاً لقيامِه مَقامَ فاعِله ، وهو موافقٌ لقوله : ﴿ وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [ الفرقان : 25 ] ، ولأنها لا تُنَزَّلُ إلا بأمرٍ من الله ، فغيرُها هو

المُنَزِّل لها وهو الله تعالى .

وقرأ الأخوان وحفصٌ بضم النون وفتح الثانية وكَسْرِ الزاي مشددةً مبنياً للفاعل المعَظَّم ، وهو الباري تعالى ، " الملائكةَ " نصباً مفعولاً بها ، وهو موافِقٌ لقولِه تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ [ الأنعام : 111 ] ، ويناسِبُ قولَه قبل ذلك ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا ﴾ [ الحجر : 4 ] ، وقولُه بعده ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ [ الحجر : 9 ] وما بعده من ألفاظِ التعظيمِ .

والباقون من السبعةِ " ما تَنَزَّلُ " بفتح التاء والنون والزايِ / مشددةً ، و " الملائكةُ " مرفوعةً على الفاعلية ، والأصل : تَتَنَزَّل بتاءين ، فَحُذِفت إحداهما ، وقد تقدَّم تقريرُه في ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام : 152 ] ونحوه ، وهو موافقٌ لقولِه ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ [ القدر : 4 ] .

وقرأ زيدُ بنُ عليّ " ما نَزَلَ " مخفَّفاً مبنياً للفاعل ، " الملائكة " مرفوعةً بالفاعلية ، وهو كقولِه ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [ الشعراء : 193 ] .

قوله : ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ يجوز تعلُّق بالفعلِ قبله ، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنَ الفاعلِ أو المفعولِ ، أي : ملتبسين بالحق . وجعله الزمخشريُّ نعتاً لمصدر محذوف ، أي : تَنَزُّلاً ملتبساً بالحقّ .

قوله : " إِذَنْ " قال الزمخشري : " إذن " حرفُ جوابٍ وجزاءٍ ؛ لأنَّها جوابٌ لهم ، وجزاءُ

الشرطِ مقدرٌ ، تقديرُه : ولو نزَّلْنا الملائكة ما كانوا مُنْظرين ومات أُخِّر عذابُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 145.141 ﴾

*(175/423)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5) ﴾

الآجال معلومة ، والأحوال مقسومة ؛ والمشيئة في الكائنات ماضية ، ولا تخفى على الحق خافيه .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6)

الجنون معنى يوجب إسناد ما ينكشف للعقلاء من التحصيل على صاحبه ، فلمَّا كانوا بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أَوْلى بما وصوفه به ، فهم كان في المَثَل : رمَتْني بدائِها وانْسَلَّت .

﴿ لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا

مُنْظَرِينَ (8) ﴾

اقترحوا عليه الإتيان بالملائكة بعد ما أزيحت العلة عليهم بما أَيَّد به معجزاته، فيتوجب اللَّوْمُ عليهم لسوءِ أَدَبهم. وأخبر الحقُّ - سبحانه - أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر الملائكة لأبصارِ بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم؛ لأنه تصير المعرفة ضرورية. وفي المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقتُ أَوانَ هلاكِهم؛ لِعِلْمِه أنَّ في أصلابهم مَنْ يُؤْمِنُ بالله سبحانه في المستأنف. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 263. 264﴾

*(176/423)*

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ أي على ما لنا من العظمة لا غيرنا من جن ولا إنس ﴿ نزلنا ﴾ أي بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام ﴿ الذكر ﴾ أي الموعظة والشرف ﴿ وإنا له ﴾ أي بعظمتنا وإن رغمت أنوف الحاسدين ﴿ لحافظون ﴾ أي دائماً ، بقدرتنا وعلمنا ، لما في سورة هود من أن ذلك لازم للحفظ فانتفى حينئذ جواز أن ينزل على مجنون مخلط لا سيما وهو على هذه الأساليب البديعة والمناهيج الرفيعة ، فكأن المعنى : أرسلناك به حال كونك بشراً لا ملكاً قوياً سوياً ، يعلمون أنك أكملهم عقلاً ، وأعلاهم همة ، وأيقنهم فكراً ، وأتقنهم أمراً وأوثقهم رأياً ، وأصلبهم عزيمة ؛ روى البخاري في التفسير والفتن عن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنهم ـ قال : أرسل إليّ أبو بكر ـ رضى الله عنهم ـ مقتل أهل اليمامة وعنده عمر ـ رضى الله عنهم ـ ، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس – وفي رواية : بقراء القرآن – وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، إلا أن تجمعوه ، وإني لأرى أن تجمع القرآن ، قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقال عمر : هو والله خير ! فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ، ورأيت الذي رأى عمر .

قال زيد بين ثابت : وعمر جالس عنده لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال أبو بكر : هو والله خير ! فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر ، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة – أو أبي خزيمة – الأنصاري ، لم أجدهما – أي مكتوبتين – عند أحد غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ – إلى آخرها ، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم حفصة بنت عمر – .رضى الله عنهم.م .

(178/423)

وساق هذا الأثر أيضاً في فضائل القرآن ، وروي بعده عن أنس.رضى الله عنهم.أن حذيفة بن اليمان.رضى الله عنهم.قدم على عثمان.رضى الله عنهم. ، وكان يغازي أهل الشام

في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة ـ رضى الله عنهم ـ اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان ـ رضى الله عنهما ـ : يا أمير المؤمنين ! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة – رضى الله عنهما ـ أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ـ رضى الله عنهم ـ ، فنسخوها في المصاحف ؛ وقال عثمان ـ رضى الله عنهم ـ للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وله عن خارجه بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت ـ رضى الله عنهم ـ قال : لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت كثيراً أسمع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقرأها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري – وفي رواية : فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة – الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شهادته شهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [ الأحزاب : 23 ] فألحقناها في سورتها في المصحف .

وفي الأثر الأول دلالة على أنه كان – لما أمره الصديق ـ رضى الله عنهم ـ – لا يكتب شيئاً إلا إذا وجد ما كان قد كتب منه بحضرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأمره ، وقابله مع ذلك على المحفوظ في صدور الرجال ؛ وفي الأخير دليل من قوله : نسخنا المصحف في المصاحف – إلى آخره ، أنه أعاد التتبع كما فعل أولاً ليصح قوله : فقدت آية من سورة الأحزاب .

لأن افتقادها فرع العلم بها ، ومن أبعد البعيد أن يكون سمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً يقرأها ولا يحفظها ، ولا سيما وهو مذكور فيمن جمع القرآن في حياة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما رواه البخاري من غير وجه عن أنس ـ رضى الله عنهم ـ .

والظاهر من مثل هذا التتبع الذي لا يجوِز لمن مارس أمثال هذه الهمم أن يفهم غيره أن يكون لا ينقل آية إلا إذا وجد من حفاظها على حسب ما هي مكتوبة عدد التواتر والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام الذي قالوه عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم شاقاً وله غائظاً موجعاً ، قال تعالى تسلية له على وجه راد عليهم : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة والجلال والهيبة ؛ ولما كان الإرسال بالفعل غير عام للزمان كله ، قال : ﴿ من قبلك ﴾ أي كثيراً من الرسل ﴿ في شيع ﴾ أي فرق ، سموا شيعاً لمتابعة بعضهم بعضاً في الأحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد من مملكة أو عمارة أو ديانة أو نحو ذلك من الأمور الجارية في العادة ﴿ الأولين ﴾ كلهم ، فما أرسلنا إلا رجالاً من أهل القرى مثلك يوحى إليهم ، ولم نرسل مع أحد منهم ملائكة تراها أممهم ، بل جعلنا مكاشفة الملائكة أمراً خاصاً بالرسل ، فكذبوا رسلهم ﴿ وما يأتيهم ﴾ عبر بالمضارع تصويراً للحال ، إيذاناً بما يوجب من الغضب ، فإن ما تجعل المضارع حالاً والماضي قريباً منه ، وأكد النفي فقال : ﴿ من رسول ﴾ أي على أي وجه كان ﴿ إلا كانوا به ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يستهزئون ﴾ مكررين لذلك دائماً ، فكأنهم تواصوا بمثل هذا ، ولم ينقص هذا من عظمتنا شيئاً ، فلا تبتئس بما يفعلون بك ؛ والاستهزاء في الأصل : طلب الهزوء ، والمراد به هنا – والله أعلم – الهزء ، وهو إظهار ما يقصد به العيب على إيهام المدح كاللعب والسخرية ، ولعله عبر عنه بالسين المفهمة للطلب إشارة إلى أن رغبتهم فيه لا تنقضي كما هو شأن الطالب للشيء ، مع أنهم لا يقعون على مرادهم في حق أهل الله أصلاً ، لأنهم لا يفعلون من ذلك فعلاً إلا كان ظاهر البعد عما يريدون ، لظهور ما يدعو إليه حزب الله وثباته ، فكانوا لذلك

كطالب ما لم يقع ، وإنما كان الناس إلى ما يوجبه الجهل من الاستهزاء ونحوه أسرع منهم إلى ما يوجبه العلم من الأخذ بالحزم والنظر في العواقب ، لما في ذلك من تعجل الراحة واللذة وإسقاط الكلفة بإلزام النفس الانتقال من حال إلى حال - قاله الرماني .

(181/423)

---

ولما كانت قلوب أهل الضلال موصوفة بالضيق والحرج ، كان الداخل إليها لا يدخل إلا بغاية العسر ، فلذلك قال جواباً لمن كأنه قال : أهذا خاص بهؤلاء ؟ فقيل : لا ، بل ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا السلك العجيب الشأن ، وعبر بالمضارع الدال مع التجدد على الاستمرار ، لاقتضاء المقام له كما تقدم في أولها فقال : ﴿ نسلكه ﴾ أي الذكر ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ أي العريقين في الإجرام في كل زمن كما يسلك الخيط والرمح ونحوه فيما ينظر فيه من مخيط وغيره بغاية العسر ، فلا يتسع له المحل فلا ينفع ، حال كونهم ﴿ لا يؤمنون به ﴾ لشيء من الأشياء ، لأن صدورهم لا تنشرح له كما رأيت سنتنا بذلك في قومك ﴿ وقد خلت ﴾ أي مضت من قبل هذا ﴿ سنة ﴾ أي طريقة ﴿ الأولين ﴾ بذلك ، ونحن قادرون على فعل ما نريد من تلك السنة بهذه الأمة من إهلاك وتيسير إيمان وغير ذلك ، فهو ناظر إلى قوله

﴿ وقرآن مبين ﴾ والغرض بيان أنه تعالى يعمي بعض الأبصار على الجلي ، ويبصر بعضها بالخفي ، إظهاراً للقدرة والاختيار بإنفاذ الأمر على خلاف القياس .

(182/423)

---

ولما أخبره بهذه الأسرار منبئة عن أحوالهم ، وكانت النفس أشد شيء طلباً لقطع حجة المتعنت بإجابة سؤله ، قال تعالى مخبراً بتحقيق ما ختم به من أنهم لا يؤمنون للخوارق ولو رأوا أعجب من الإتيان بالملائكة : ﴿ ولو فتحنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليهم ﴾ أي على من قال : لو ما تأتينا بالملائكة ﴿ باباً ﴾ يناسب عظمتنا ﴿ من السماء ﴾ وأشار إلى أن ذلك حالهم - ولو كانوا في أجلى الأوقات وهو النهار - بقوله : ﴿ فظلوا ﴾ أي الكفار ﴿ فيه ﴾ أي ذلك الباب العالي ﴿ يعرجون ﴾ أي يصعدون ماشين في الصعود مشية الفرح ﴿ لقالوا ﴾ عناداً وإبعاداً عن الإيمان : ﴿ إنما سكرت ﴾ أي سدت وغشيت ﴿ أبصارنا ﴾ أي حتى ظننا ما ليس بواقع واقعاً ﴿ بل نحن قوم ﴾ أي وإن كان لنا غاية القوة على ما نريد محاولته ﴿ مسحورون ﴾ أي ثابت وقوع السحر علينا حتى صرنا نرى الأشياء على خلاف ما هي عليه ونثبت ما لا حقيقة له ؛ والسكر : السد بإدخال اللطيف في المسام فيمنع الشيء كمال ما كان عليه ، ومنه السكر بالشراب ،

والسحر : حيلة خفية توهم معنى المعجزة من غير حقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 207. 210 ﴾

(183/423)

---

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن القوم إنما قالوا : ﴿ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ [ الحجر : 6 ] لأجل أنهم سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول :

" إن الله تعالى نزل الذكر علي " ثم إنه تعالى حقق قوله في هذه الآية فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ .

فأما قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ فهذه الصيغة وإن كانت للجمع إلا أن هذا من كلام الملوك عند إظهار التعظيم فإن الواحد منهم إذا فعل فعلاً أو قال قولاً قال : إنا فعلنا كذا

وقلنا كذا فكذا ههنا .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿ لَهُ لحافظون ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان :

القول الأول : أنه عائد إلى الذكر يعني : وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان ، ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [ فصلت : 42 ] وقال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [ النساء : 82 ] .

فإن قيل : فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله فلا خوف عليه .

والجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه فإنه تعالى لما أن حفظه قيضهم لذلك قال أصحابنا : وفي هذه الآية دلالة قوية على كون التسمية آية من أول كل سورة لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن ، والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان ، فلو لم تكن التسمية من القرآن لما كان القرآن مصوناً عن التغيير ، ولما كان محفوظاً عن الزيادة ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أيضاً أن يظن بهم النقصان ، وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة .

والقول الثاني : أن الكناية في قوله : ﴿ لَهُ ﴾ راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وإنا لمحمد لحافظون وهو قول الفراء ، وقوى ابن الأنباري هذا القول فقال : لما ذكر الله الإنزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه فحسنت الكناية عنه ، لكونه أمراً معلوماً كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [ القدر : 1 ] فإن هذه الكناية عائدة إلى القرآن مع أنه لم يتقدم ذكره وإنما حسنت الكناية للسبب المعلوم فكذا ههنا ، إلا أن القول الأول أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

إذا قلنا الكناية عائدة إلى القرآن فاختلفوا في أنه تعالى كيف يحفظ القرآن قال بعضهم : حفظه بأن جعله معجزاً مبايناً لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن فصار كونه معجزاً كإحاطة السور بالمدينة لأنه يحصنها ويحفظها ، وقال آخرون : إنه تعالى صانه وحفظه من أن يقدر أحد من الخلق على معارضته ، وقال آخرون : أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف ، وقال آخرون : المراد بالحفظ هو أن أحداً لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا : هذا كذب وتغيير لكلام الله تعالى حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو

هفوة في حرف من كتاب الله تعالى لقال له كل الصبيان : أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا وكذا ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحافظون ﴾ .

(185/423)

---

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير ، إما في الكثير منه أو في القليل ، وبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات وأيضاً أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف ، وانقضى الآن قريباً من ستمائة سنة فكان هذا إخباراً عن الغيب ، فكان ذلك أيضاً معجزاً قاهراً .

المسألة الرابعة :

احتج القاضي بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحافظون ﴾ على فساد قول بعض الإمامية في أن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان قال : لأنه لو كان الأمر كذلك لما بقي القرآن محفوظاً ، وهذا الاستدلال ضعيف ، لأنه يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه ، فالإمامية الذين يقولون إن القرآن قد دخله التغيير والزيادة والنقصان ، لعلهم يقولون إن هذه الآية من جملة الزوائد التي ألحقت بالقرآن ، فثبت أن إثبات هذا المطلوب بهذه الآية يجري

مجرى إثبات الشيء نفسه وأنه باطل والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) ﴾

اعلم أن القوم لما أساؤوا في الأدب وخاطبوه بالسفاهة وقالوا : إنك لمجنون ، فالله تعالى ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء هكذا كانت .

ولك أسوة في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم بجميع الأنبياء عليهم السلام ، فهذا هو الكلام في نظم الآية وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الآية محذوف والتقدير : ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه .

وقوله : ﴿ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ أي في أمم الأولين وأتباعهم .



---

قال الفراء : الشيع الأتباع واحدهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه ، والشيعة الأمة سموا بذلك ، لأن بعضهم شايع بعضاً وشاكله ، وذكرنا الكلام في هذا الحرف عند قوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ [ الأنعام : 65 ] قال الفراء : وقوله : ﴿ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ من إضافة

الصفة إلى الموصوف كقوله : ﴿ حق اليقين ﴾ [ الواقعة : 95 ] وقوله : ﴿ بِجَانِبِ الغربي ﴾ [ القصص : 44 ] وقوله : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ [ البينة : 5 ] أما قوله : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء والرسل ذلك الاستهزاء بهم كما فعلوا بك ذكره تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور .

الأول : أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات والاحتراز عن الطيبات واللذات .

والثاني : أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من أديانهم الخبيثة ومذاهبهم الباطلة ، وذلك شاق شديد على الطباع .

والثالث : أن الرسول متبوع مخدوم والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته وذلك أيضاً في غاية المشقة .

والرابع : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون فقيراً ولا يكون له أعوان وأنصار ولا مال ولا جاه فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة .

والخامس : خذلان الله لهم وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم ، وهذا هو السبب الأصلي ؛ فلهذه الأسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام في هذه الأعمال القبيحة والأفعال المنكرة .

أما قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

السلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط والرمح في المطعون ، وقيل : في قوله : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [ المدثر : 42 ] أي أدخلكم في جهنم .

وذكر أبو عبيدة وأبو عبيد : سلكته وأسلكته بمعنى واحد .

*(187/423)*

---

المسألة الثانية : احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار ، فقالوا : قوله ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين ، قالت المعتزلة : لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ ، فلا يمكن أن يكون الضمير عائداً إليه لا يقال : إنه تعالى قال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وقوله : ﴿ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يدل على الاستهزاء ، فالضمير في قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ عائد إليه ، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال ، فثبت صحة قولنا المراد من قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ هو أنه كذلك نسلك الكفر والضلال والاستهزاء بأنبياء الله تعالى ورسله في قلوب المجرمين ، لأنا نقول : إن كان الضمير في قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ عائداً إلى الاستهزاء وجب أن يكون الضمير في قوله : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ عائداً أيضاً إلى الاستهزاء

لأنهما ضميران تعاقبا وتلاصقا ، فوجب عودهما إلى شيء واحد فوجب أن لا يكونوا مؤمنين بذلك الاستهزاء ، وذلك يوجب التناقض ، لأن الكافر لا بد وأن يكون مؤمناً بكفره ، والذي لا يكون كذلك هو المسلم العالم ببطلان الكفر فلا يصدق به ، وأيضاً فلو كان تعالى هو الذي يسلك الكفر في قلب الكافر ويخلقه فيه فما أحد أولى بالعذر من هؤلاء الكفار ، ولكان على هذا التقدير يمتنع أن يذمهم في الدنيا وأن يعاقبهم في الآخرة عليه ، فثبت أنه لا يمكن حمل هذه الآية على هذ الوجه فنقول : التأويل الصحيح أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ عائد إلى الذكر الذي هو القرآن فإنه تعالى قال قبل هذه الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ وقال بعده : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أي هكذا نسلك القرآن في قلوب المجرمين ، والمراد من هذا السلك هو أنه تعالى يسمعهم هذا القرآن ويخلق في قلوبهم حفظ هذا القرآن ويخلق فيها العلم



---

بمعانيه ويبن أنهم لجهلهم وإصرارهم لا يؤمنون به مع هذه الأحوال عناداً وجهلاً ، فكان هذا موجباً للحوق الذم الشديد بهم ، ويدل على صحة هذا التأويل وجهان : الأول : أن الضمير في قوله : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ عائد إلى القرآن بالإجماع فوجب أن يكون الضمير في

قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ عائداً إليه أيضاً لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شيء واحد .

والثاني : أن قوله : ﴿ كذلك ﴾ معناه : مثل ما عملنا كذا وكذا نعمل هذا السلك فيكون هذا تشبيهاً لهذا السلك بعمل آخر ذكره الله تعالى قبل هذه الآية من أعمال نفسه ، ولم يجر لعمل من أعمال الله ذكر في سابقة هذه الآية إلا قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ فوجب أن يكون هذا معطوفاً عليه ومشبهاً به ، ومتى كان الأمر كذلك كان الضمير في قوله :

﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ عائداً إلى الذكر وهذا تمام تقرير كلام القوم .

والجواب : لا يجوز أن يكون الضمير في قوله : ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ عائداً على الذكر ، ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول : أن قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ مذكور بحرف النون ، والمراد منه إظهار نهاية التعظيم والجلالة ، ومثل هذا التعظيم إنما يحسن ذكره إذا فعل فعلاً يظهر له أثر قوي كامل بحيث صار المنازع والمدافع له مغلوباً مقهوراً .

فأما إذا فعل فعلاً ولم يظهر له أثر ألبتة ، صار المنازع والمدافع غالباً قاهراً ، فإن ذكر اللفظ المشعر بنهاية العظمة والجلالة يكون مستقبحاً في هذا المقام ، والأمر ههنا كذلك لأنه تعالى سلك أسماع القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لأجل أن يؤمن به ، ثم إنه لم يلتفت إليه ولم يؤمن به فصار فعل الله تعالى كالهدر الضائع ، وصار الكافر والشيطان كالغالب الدافع ،

وإذا كان كذلك كان ذكر النون المشعر بالعظمة والجلالة في قوله : ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ غير لائق بهذا المقام ، فثبت بهذا التأويل الذي ذكروه فاسد .



---

والوجه الثاني : أنه لو كان المراد ما ذكروه لوجب أن يقال : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ ولا يؤمنون به ، أي ومع هذا السعي العظيم في تحصيل إيمانهم لا يؤمنون أما لم يذكر الواو فعلمنا أن قوله : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ كالتفسير ، والبيان لقوله : ﴿ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ وهذا إنما يصح إذا كان المراد أنا نسلك الكفر والضلال في قلوبهم .

والوجه الثالث : أن قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [ الحجر : 9 ] بعيد ، وقوله : ﴿ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ قريب ، وعود الضمير إلى أقرب المذكورات هو الواجب .

أما قوله : لو كان الضمير في قوله : ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ عائداً إلى الاستهزاء لكان في قوله ؛ ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ عائداً إليه ، وحينئذ يلزم التناقض .

قلنا : الجواب عنه من وجوه :

الوجه الأول : أن مقضتى الدليل عود الضمير إلى أقرب المذكورات ، ولا مانع من اعتبار هذا الدليل في الضمير الأول وحصل المانع من اعتباره في الضمير الثاني فلا جرم قلنا : الضمير الأول عائد إلى الاستهزاء ، والضمير الثاني عائد إلى الذكر ، وتفريق الضمائر المتعاقبة على الأشياء المختلفة ليس بقليل في القرآن ، أليس أن الجبائي والكعبي والقاضي قالوا في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ واحدة وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا ءاتاهما فتعالى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ الأعراف : 189 ، 190 ] فقالوا هذه الضمائر من أول الآية إلى قوله : ﴿ جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء ﴾ عائدة إلى آدم وحواء ، وأما في قوله : ﴿ جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا ءاتاهما فتعالى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عائدة إلى غيرهما ، فهذا ما اتفقوا عليه في تفاسيرهم ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لا يلزم من تعاقب الضمائر عودها إلى شيء واحد بل الأمر فيه موقوف على الدليل فكذا ههنا ، والله أعلم .

والوجه الثاني : في الجواب قال بعض الأدباء من أصحابنا قوله : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ تفسير للكناية في قوله : ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ والتقدير : كذلك نسلك في قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به والمعنى نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به .

والوجه الثالث : وهو أنا بينا بالبراهين العقلية القاهرة أن حصول الإيمان والكفر يمتنع أن يكون بالعبد ، وذلك لأن كل أحد إنما يريد الإيمان والصدق ، والعلم والحق ، وأن أحداً لا يقصد تحصيل الكفر والجهل والكذب فلما كان كل أحد لا يقصد إلا الإيمان والحق ثم إنه لايحصل ذلك ، وإنما يحصل الكفر والباطل ، علمنا أن حصول ذلك الكفر ليس منه .

(191/423)

---

فإن قالوا : إنما حصل ذلك الكفر لأنه ظن أنه هو الإيمان : فنقول : فعلى هذا التقدير إنما رضي بتحصيل ذلك الجهل لأجل جهل آخر سابق عليه فينقل الكلام إلى ذلك الجهل السابق فإن كان ذلك لأجل جهل آخر لزم التسلسل وهو محال ، وإلا وجب انتهاء كل الجهالات إلى جهل أول سابق حصل في قلبه لا بتحصيله بل بتخليق الله تعالى ، وذلك هو الذي قلناه : أن المراد من قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ والمعنى : نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به ، وهو أنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها ، وأيضاً قدماء المفسرين مثل ابن عباس وتلامذته أطبقوا على تفسير هذه الآية بأنه تعالى يخلق الكفر والضلال فيها ، والتأويل الذي ذكره المعتزلة تأويل مستحدث لم يقل به أحد من المتقدمين ، فكان مردوداً ، وروى القاضي عن عكرمة أن المراد كذلك نسلك القسوة في قلوب المجرمين

، ثم قال القاضي : إن القسوة لا تحصل إلا من قبل الكافر بأن يستمر على كفره ويعاند ، فلا يصح إضافته إلى الله تعالى ، فيقال للقاضي : إن هذا يجري مجرى المكابرة ، وذلك لأن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ونبوة عظيمة عنه حتى أنه كلما رآه تغير لونه واصفر وجهه ، وربما ارتعدت أعضاؤه ولا يقدر على الالتفات إليه والاصغاء لقوله ، فحصول هذه الأحوال في قلبه أمر اضطراري لا يمكنه دفعها عن نفسه ، فكيف يقال : إنها حصلت بفعله واختياره ؟

(192/423)

---

فإن قالوا : إنه يمكنه ترك هذه الأحوال ، والرجوع إلى الانقياد والقبول فنقول هذا مغالطة محضة ، لأنك إن أردت أنه مع حصول هذه النفرة الشديدة في القلب ، والنبوة العظيمة في النفس يمكنه أن يعود إلى الإنقياد والقبول والطاعة والرضا فهذا مكابرة ، وإن أردت أن عند زوال هذه الأحوال النفسانية يمكنه العود إلى القبول والتسليم فهذا حق ، إلا أنه لا يمكنه إزالة هذه الدواعي والصوارف عن القلب فإنه إن كان الفاعل لها هو الإنسان لافتقر في تحصيل هذه الدواعي والصوارف إلى دواعي سابقة عليها ولزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال ، وإن كان الفاعل لها هو الله تعالى فحينئذ يصح أنه تعالى هو الذي يسلك

هذه الدواعي والصوارف في القلوب وذلك عين ما ذكرناه ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ ففيه قولان : الأول : أنه تهديد لكفار مكة يقول قد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل في القرون الماضية .

الثاني : وهو قول الزجاج : وقد مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم ، وهذا أليق بظاهر اللفظ .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كتابا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ الأنعام : 7 ]

والحاصل : أن القوم لما طلبوا نزول ملائكة يصرحون بتصديق الرسول عليه السلام في كونه رسولاً من عند الله تعالى بين الله تعالى في هذه الآية أن بتقدير أن يحصل هذا المعنى لقال الذين كفروا هذا من باب السحر وهؤلاء الذين يظن أنا نراهم فنحن في الحقيقة لا نراهم .

والحاصل : أنه لما علم الله تعالى أنه لا فائدة في نزول الملائكة فلهذا السبب ما أنزلهم .

فإن قيل : كيف يجوز من الجماعة العظيمة أن يصيروا شاكرين في وجود ما يشاهدونه بالعين السليمة في النهار الواضح ، ولو جاز حصول الشك في ذلك كانت السفسطة لازمة ، ولا يبقى حينئذ اعتماد على الحس والمشاهدة .

أجاب القاضي عنه : بأنه تعالى ما وصفهم بالشك فيما يبصرون ، وإنما وصفهم بأنهم يقولون هذا القول ، وقد يجوز أن يقدم الإنسان على الكذب على سبيل العناد والمكابرة ، ثم سأل نفسه وقال : أفيصح من الجمع العظيم أن يظهروا الشك في المشاهدات .

وأجاب بأنه يصح ذلك إذا جمعهم عليه غرض صحيح معتبر من مواطأة على دفع حجة أو غلبة خصم ، وأيضاً فهذه الحكاية إنما وقعت عن قوم مخصومين ، سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم إنزال الملائكة ، وهذا السؤال ما كان إلا من رؤساء القوم ، وكانوا قليلي العدد ، وإقدام العدد القليل على ما يجري مجرى المكابرة جائز .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله بالنهار ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل ، والمصدر الظلول ، وقوله : ﴿ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ يقال : عرج يعرج عروجاً ، ومنه المعارج ، وهي المصاعد التي يصعد فيها ، وللمفسرين في هذه الآية قولان :

القول الأول: أن قوله: ﴿ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ من صفة المشركين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله.



---

القول الثاني: أن هذه العروج للملائكة، والمعنى: أنه تعالى لو جعل هؤلاء الكفار بحيث يروا أبواباً من السماء مفتوحة وتصعد منها الملائكة وتنزل لصرفوا ذلك عن وجهه، ولقالوا: إن السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الأباطيل التي لا حقيقة لها وقوله: ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى:

قرأ ابن كثير ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ بالتخفيف، والباقون مشددة الكاف قال الواحدي سكرت غشيت وسددت بالسحر هذا قول أهل اللغة قالوا: وأصله من السكر وهو سد الشق

لئلا ينفجر الماء ، فكأن هذه الأبصار منعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجري ، والتشديد يوجب زيادة وتكثيراً وقال أبو عمرو بن العلاء : هو مأخوذ من سكر الشراب يعني أن الأبصار حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغير العقل فإذا كان هذا معنى التخفيف فسكرت بالتشديد يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد أخرى ، وقال أبو عبيدة : ﴿ سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ أي غشيت أبصارنا فوجب سكونها وبطلانها ، وعلى هذا القول أصله من السكون يقال : سكرت الريح سكراً إذا سكنت وسكر الحر يسكر وليلة ساكرة لا ريح فيها وقال أوس :

جذلت على ليلة ساهرة . . فليست بطلق ولا ساكره

ويقال : سكرت عينه سكراً إذا تحيرت وسكنت عن النظر وعلى هذا معنى سكرت أبصارنا ، أي سكنت عن النظر وهذا القول اختيار الزجاج .

وقال أبو علي الفارسي : سكرت صارت بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها ، وكان معنى السكر قطع الشيء عن سننه الجاري ، فمن ذلك تسكير الماء وهو رده عن سننه في الجرية ، والسكر في الشراب هو أن ينقطع عما كان عليه من المضاء في حال الصحو فلا ينفذ رأيه على حد نفاذه في الصحو ، فهذه أقوال أربعة في تفسير ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ وهي في الحقيقة متقاربة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(195/423)

---

قال الجبائي : من جوز قدرة السحرة على أن يأخذوا بأعين الناس حتى يروهم الشيء على خلاف ما هو عليه لم يصح إيمانه بالأنبياء والرسل ، وذلك لأنهم إذا جوزوا ذلك فلعل هذا الذي يرى أنه محمد بن عبد الله ليس هو ذلك الرجل وإنما هو شيطان ، ولعل هذه المعجزات التي نشاهدها ليس لها حقائق ، بل هي تكون من باب الآراء الباطلة من ذلك الساحر ، وإذا حصل هذا التجويز بطل الكل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 127.133 ﴾

(196/423)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾

قال الحسن والضحاك يعني القرآن .

﴿ وإنا له لحافظون ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه ، حكاه ابن جرير .

الثاني : وإنا للقرآن لحافظون .

وفي هذا الحفظ ثلاثة أوجه :

أحدها : حفظه حتى يجزى به يوم القيامة ، قاله الحسن .

الثاني : حفظه من أن يزيد فيه الشيطان باطلاً ، أو يزيل منه حقاً ، قاله قتادة .

الثالث : إنا له لحافظون في قلوب من أردنا به خيراً ، وذاهبوان به من قلوب من أردنا به شراً .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الشيع الأمم ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : أن الشيع جمع شيعة ، والشيعة الفرقة المتآلفة المتفقة الكلمة ، فكأن الشيع الفرق ، ومنه قوله تعالى ﴿ أو يلبسكم شيَعاً ﴾ [ الأنعام : 65 ] أي فرقاً ، وأصله مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار ، فهو عون النار .

الثالث : أن الشيع القبائل ، قاله الكلبي .

قوله عز وجل : ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : كذلك نسلك الاستهزاء في قلوب المجرمين ، وإن لم يعرفوا ، قاله قتادة .

الثاني : كذلك نسلك التكذيب في قلوب المجرمين ، قاله ابن جريج .

الثالث : كذلك نسلك القرآن في قلوب المجرمين ، وإن لم يؤمنوا ، قاله الحسن .

الرابع : كذلك إذا كذب به المجرمون نسلك في قلوبهم أن لا يؤمنوا به .

قوله عز وجل : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بالقرآن أنه من عند الله .

الثاني : بالعذاب أن يأتيهم .

﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ السنة : الطريقة ، قال عمر بن أبي ربيعة :

لها من الريم عيناه وسُنّتُهُ . . . ونحرُه السابق المختال إذ صهَلا

فيه وجهان :

أحدهما : قد خلت سنة الأولين بالعذاب لمن أقام على تكذيب الرسل .

الثاني : بأن لا يؤمنوا برسلهم إذا عاندوا .

ويحتمل ثالثاً : بأن منهم مؤمناً وكافراً .

كما يحتمل رابعاً : من أقام على الكفر بالمعجزات بعد مجيء ما طلب من الآيات .

قوله عز وجل : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : فظل هؤلاء المشركون يعرجون فيه ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : فظلت الملائكة فيه يعرجون وهم يرونهم ، قاله ابن عباس والضحاك .

قوله عز وجل : ﴿ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ في ﴿ سكرت ﴾ قراءتان :

إحداهما بتشديد الكاف ، والثانية بتخفيفها ، وفي اختلافهما وجهان :

أحدهما : معناهما واحد ، فعلى هذا ستة تأويلات :

أحدها : سُدّت ، قاله الضحاك .

الثاني : عميت ، قاله الكلبي .

الثالث : أخذت ، قاله قتادة .

الرابع : خدعت ، قاله جويبر .

الخامس : غشيت وغطيت ، قاله أبو عمرو بن العلاء ، ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمسٌ عليها مغفر . . . وجَعَلَتْ عين الحرور تسكر

السادس : معناه حبست ، قاله مجاهد . ومنه قول أوس بن حجر :

فصرن على ليلة ساهرة . . . فليست بطلقٍ ولا ساكرة

والوجه الثاني : أن معنى سكرت بالتشديد والتخفيف مختلف ، وفي اختلافهما وجهان :

أحدهما : أن معناه بالتخفيف سُحِرَتْ ، وبالتشديد : أخذت .

الثاني : أنه بالتخفيف من سُكر الشراب ، وبالتشديد مأخوذ من سكرت الماء .

﴿ بل نحن مسحورون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أي سحرنا فلا نبصر .

الثاني : مضللون ، حكاه ثعلب .

الثالث : مفسدون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

*(198/423)*

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾

رد على المستخفين في قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ . وهذا كما يقول لك رجل على جهة الاستخفاف : يا عظم القدر ، فتقول له - على جهة الرد والنجة : نعم أنا عظيم القدر . ثم تأخذ في قولك - فتأمله .

وقوله : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ قالت فرقة : الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على محمد صلى

الله عليه وسلم ، أي يحفظه من أذاكم ويحوطه من مكركم وغيره ، ذكر الطبري هذا القول ولم ينسبه ؛ وفي ضمن هذه العدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أظهر الله به الشرع وحان أجله . وقالت فرقة – وهي الأكثر – الضمير في ﴿ له ﴾ عائد على القرآن وقاله مجاهد وقتادة ، والمعنى : ﴿ لحافظون ﴾ من أن يبدل أو يغير ، كما جرى في سائر الكتب المنزلة ، وفي آخر ورقة من البخاري عن ابن عباس : أن التبديل فيها إنما كان في التأويل وأما في اللفظ فلا ؛ وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا اللفظ ، ووضع اليد في آية الرجم هو في معنى تبديل الألفاظ .

وقيل : ﴿ لحافظون ﴾ باختزانه في صدور الرجال .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى متقارب ، وقال قتادة : هذه الآية نحو قوله تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [ فصلت : 42 ] .

قال القاضي أبو محمد : وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴾ الآية ، تسلية للنبي عليه السلام وعرض أسوة ، أي لا يضيق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ وغير ذلك ، فقد تقدم منا إرسال الرسل في شيع الأولين ، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاء بالرسل . و﴿ شيع ﴾ جمع شيعة ، وهي الفرقة التابعة لرأس ما : مذهب أو رجل أو نحوه وهي مأخوذة من قولهم : شيعت النار : إذا استدمت وقدها بحطب أو غيره ، فكأن الشيعة تصل أمر رأسها وتظهره وتمده

بمعونة. وقوله: ﴿ أرسلنا ﴾ يقتضي رسلاً، ثم أوجز باختصار ذكرهم لدلالة الظاهر من القول على ذلك.

(199/423)

---

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) ﴾

يحتمل أن يكون الضمير في ﴿ نسلكه ﴾ يعود على الاستهزاء والشرك ونحوه – وهو قول الحسن وقتادة وابن جرير وابن زيد – ويكون الضمير في ﴿ به ﴾ يعود أيضاً على ذلك بعينه، وتكون باء السبب، أي لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿ لا يؤمنون به ﴾ في موضع الحال.

ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ نسلكه ﴾ عائداً على الذكر المحفوظ المتقدم الذكر وهو القرآن، أي مكذباً به مردوداً مستهزأ به ندخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في ﴿ به ﴾ عائداً عليه أيضاً أي لا يصدقون به.

ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ نسلكه ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في ﴿ به ﴾ يعود على القرآن، فيختلف – على هذا – عود الضميرين.

والمعنى في ذلك كله ينظر بعضه إلى بعض.

و﴿ نسلكه ﴾ معناه : ندخله ، يقال : سلكت الرجل في الأمر ، أي أدخلته فيه ، ومن هذا قول الشاعر [ عدي بن زيد ] : [ الوافر ] .

وكنت لزاز خصمك لم أعرد . . . وقد سلكوك في يوم عصيب

ومنه قول الآخر [ عبد مناف بن ربع الهذلي ] : [ البسيط ]

حتى إذا سلكوهم في قتايدة . . . شلاكما تطرد الجمالة الشردا

ومنه قول أبي وجزة يصف حمر وحش : [ البسيط ]

حتى سلكن الشوى منهن في مسك . . . من نسل جوابة الآفاق مهداج

قال الزجاج : ويقرأ : "نُسلِكه" بضم النون وكسر اللام ، و﴿ المجرمين ﴾ في هذه الآية يراد بهم كفار قريش ومعاصري محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم عليه . وقوله : ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ أي على هذه الوتيرة .

وتقول : سلكت الرجل في الأمر ، وأسلكته ، بمعنى واحد . ويروى : حتى إذا أسلكوهم في قتايدة ؛ البيت .

وقوله : ﴿ ولو فتحنا عليهم ﴾ ، الضمير في ﴿ عليهم ﴾ عائد على قريش وكفرة العصر المحتوم عليهم. والضمير في قوله : ﴿ فظلوا ﴾ يحتمل أن يعود عليهم – وهو أبلغ في إصرارهم – وهذا تأويل الحسن : و ﴿ يعرجون ﴾ معناه : يصعدون.

وقرأ الأعمش وأبو حيوة " يعرِجون " بكسر الراء ، والمعارج الأدراج ، ومنه : المعراج ، ومنه قول كثير : [ الطويل ].

إلى حسب عود بني المر قبله . . . أبوه له فيه معارج سلم

ويحتمل أن يعود على ﴿ الملائكة ﴾ [ الحجر : 7 ] لقولهم : ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ [ الحجر : 7 ] ، فقال الله تعالى : " ولو رأوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماء ، لما آمنوا " : وهذا تأويل ابن عباس.

وقرأ السبعة سوى ابن كثير : " سُكّرت " بضم السين وشد الكاف ، وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف ، وهي قراءة مجاهد . وقرأ ابن الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف ، على بناء الفعل لفاعل. وقرأ أبان بن تغلب " سحرت أبصارنا " ، ويجيء قوله : ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ انتقالاً إلى درجة عظمى من سحر العقل والجملة.

وتقول العرب : سكرت الريح تسكر سكوراً : إذا ركدت ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً ، وتقول سكر الرجل من الشراب سكراً : إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإنسان أن

ينفذ فيه ، ومن هذا المعنى : سكران لا يبت - أي لا يقطع أمراً ، وتقول العرب : سكرت الفتق في مجاري الماء سكراً : إذا طمسته وصرفت الماء عنه ، فلم ينفذ لوجهه .

(201/423)

---

قال القاضي أبو محمد : فهذه اللفظة " سكّرت " - بشد الكاف - إذا كانت من سكر الشراب أو من سكور الريح فهي فعل عدي بالتضعيف ، وإن كانت من سكر مجاري الماء فتضعيفها للمبالغة ، لا للتعدية ، لأن المخفف من فعله متعد . ورجح أبو حاتم هذه القراءة ، لأن " الأبصار " جمع ، والتثقيل مع الجمع أمثل ، كما قال : ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ [ ص : 50 ] ومن قرأ " سُكرت " - بضم السين وتخفيف الكاف ، فإن كانت اللفظة من سكر الماء فهو فعل متعد ؛ وإن كانت من سكر الشراب أو من سكور الريح ، فيضمنا أن الفعل بني للمفعول إلى أن ننزله متعدياً ، ويكون هذا الفعل من قبيل : رجح زيد ورجحه غيره ، وغارت ، وغارت العين وغارها الرجل : فتقول - على هذا - سكر الرجل ، وسكره غيره ، وسكرت الريح ، وسكرها شيء غيرها .

ومعنى هذه المقالة منهم : أي غيرت أبصارنا عما كانت عليه ، فهي لا تنفذ وتعطينا حقائق الشياء كما كانت تفعل .

قال القاضي أبو محمد : وعبر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله : غشي على أبصارنا وقال بعضهم عميت أبصارنا ، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ .

ولقال أيضاً هؤلاء المبصرون عروج الملائكة ، أو عروج أنفسهم ، بعد قولهم : ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ بل سحرنا حتى ما نعقل الأشياء كما يجب ، أي صرف فينا السحر . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(202/423)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنا نحن نزّلنا الذِّكر ﴾

من عادة الملوك إِذا فعلوا شيئاً ، قال أحدهم : نحن فعلنا ، يريد نفسه وأتباعه ، ثم صار هذا عادة للملك في خطابه ، وإِن انفرد بفعل الشيء ، فخوطبت العرب بما تعقل من كلامها .

والذِّكْر : القرآن ، في قول جميع المفسرين .

وفي هاء "له" قولان :

أحدهما : أنها ترجع إِلى الذِّكْر ، قاله الأكثرون .

قال قتادة : أنزله الله ثم حفظه ، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ، ولا ينقص منه حقاً .

والثاني : أنها ترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من الشياطين والأعداء ، لقولهم : "إنك لمجنون" ، هذا قول ابن السائب ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴾

يعني : رسلاً ، فحُذف المفعول ، لدلالة الإرسال عليه .

والشِّيَع : الفِرَق ، وحكي عن الفراء أنه قال : الشيعة .

الأُمَّة المتابعة بعضها بعضاً فيما يجتمعون عليه من أمر .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن ﴾

هذا تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : إنّ كل نبيٍّ قبلك كان مبتلىً بقومه كما ابتُليتَ .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نسلكه ﴾

في المشار إليه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الشِّرك ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

والثاني : أنه الاستهزاء ، قاله قتادة .

والثالث : التكذيب ، قاله ابن جريج ، والفراء .

ومعنى الآية : كما سلكنا في قلوب شِيَع الأولين ، نُدخل في قلوب هؤلاء التكذيبَ فلا

يؤمنوا .

ثم أخبر عن هؤلاء المشركين ، فقال : ﴿ لايؤمنون به ﴾ .

وفي المشار إِليه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الرسول .

والثاني : القرآن .

والثالث : العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وقد خلت سُنَّة الأولين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : مضت سُنَّة الله في إِهلاك المكذِّبين .

والثاني : مضت سُنَّتهم بتكذيب الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ﴾



يعني : كفار مكة ﴿ فظلُّوا فيه يعرُجون ﴾ أي : يصعدون ، يقال : ظل يفعل كذا : إِذا فعله بالنهار .

وفي المشار إِليهم بهذا الصعود قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، فالمعنى : لو كُشف عن أبصار هؤلاء فرأوا باباً مفتوحاً في السماء والملائكة تصعد فيه ، لما آمنوا به .

والثاني : أنهم المشركون ، قاله الحسن ، وقتادة ، فيكون المعنى : لو وصَّلناهم إلى صعود السماء ، لم يستشعروا إلا الكفر ، لعنادهم .

قوله تعالى : ﴿ لقالوا إنما سُكرت أبصارنا ﴾ قرأ الأكثرون بتشديد الكاف .

وقرأ ابن كثير ، وعبد الوارث بتخفيفها .

قال الفراء : ومعنى القراءتين متقارب ، والمعنى : حُبستْ ، من قولهم : سَكَرَت الريح ، إذا سكنت وركدت .

وقال أبو عمرو بن العلاء : معنى "سُكِرَتْ" بالتخفيف ، مأخوذ من سُكْر الشراب ، يعني : أن الأبصار حارت ، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرجل السكران من تغيُّر العقل .

قال ابن الأنباري : إذا كان هذا كان معنى التخفيف ، فسُكِّرت ، بالتشديد ، يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد مرة .

وقال أبو عبيد : "سُكِّرت" بالتشديد ، من السُّكور التي تمنع الماءَ الجِرْيَةَ ، فكأن هذه الأبصار مُنعت من النظر كما يمنع السِّكرُ الماءَ من الجري .

وقال الزجاج : "سُكِّرت" بالتشديد ، فسروها : أُغشيت ، "وسُكِرَتْ" بالتخفيف : تحيَّرتْ وسكنتْ عن أن تنظر ، والعرب تقول : سَكِرَتِ الريحُ تَسْكَرُ : إذا سكنت .

وروى العوفي عن ابن عباس : "إِنما سُكرت أبصارنا" قال : أُخذ بأبصارنا وشبِّه علينا ، وإِنما سُحِرْنا .

وقال مجاهد : "سُكِّرت" سُدَّت بالسِّحر ، فيتماثل لأبصارنا غيرُما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(204/423)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ يعني القرآن .

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه .

قال قتادة وثابت البُنَانيّ : حفِظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلاً أو تنقُص منه حقاً ؛ فتولّى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً ، وقال في غيره : ﴿ بِمَا استحفظوا ﴾ [ المائدة : 44 ] ، فوكَل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا .

أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكومي التِّلْمِساني قال : قرىء على الشيخة العالمة فخر النساء شُهْدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج الدِّينَوَرِيّ وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر

جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طرّاد بن محمد الزّينبي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة ، أخبرنا عليّ بن عبد الله بن إبراهيم حدّثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطُّوْمَارِيّ حدّثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون وهو أمير إذ ذاك مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما أن تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلي ؟ قال نعم .

قال له : أسلِم حتى أفعلَ بك وأصنع ، ووعده .

فقال : ديني ودين آبائي ! وانصرف .

قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مُسْلماً ، قال : فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى .



---

قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت ( مع ما ) تراني حسن الخط ، فعمَدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت

فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُرِيت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البِيعة فاشتُرِيت مني ، وعمَدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها ، فلما أن أوجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سببَ إسلامي .

قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنةَ فلقِيت سفيان بن عُيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل .

قال قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : ﴿ بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله ﴾ [ المائدة : 44 ] ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : "إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافِظون" فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضِع .

وقيل : "وإنا له لحافظون" أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه .

أو "وإنا له لحافظون" من أن يكاد أو يقتل .

نظيره ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] .

و"نحن" يجوز أن يكون موضعه رفعاً بالابتداء و"نزلنا" الخبر .

والجملة خبر "إنّ" .

ويجوز أن يكون "نحن" تأكيداً لاسم "إن" في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذي

بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة ، والجمل تكون نعوتاً للنكرات فحكمها حكم النكرات .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) ﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً ، فحذف .

والشّيَع جمع شيعة وهي الأُمَّة ، أي في أممهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة .

الحسن : في فرقهم .

والشّيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة .

فكأن الشّيَع الفِرَق ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ [ الأنعام : 65 ] .

*(206/423)*

---

وأصله مأخوذ من الشِّياع وهو الحطب الصغار يوقد به الكبار كما تقدم في "الأنعام" .

وقال الكلبي : إن الشيَع هنا القرى .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) ﴾

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعِل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أي الضلال والكفر والاستهزاء والشرك .

﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما .

أي كما سلكناه في قلوب من تقدم من شِيَع الأولين كذلك نسلكه في قلوب مشركي قومك حتى لا يؤمنوا بك ، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم .

وروى ابن جُرَيج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب .

والسَّلْك : إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في الْمِخْيَط .

يقال : سَلَكه يَسْلُكه سَلْكاً وسُلوكاً ، وأسلكه إسلاكاً .

وسَلَكَ الطريق سُلوكاً وسَلْكاً وأسلكه دخله ، والشيءُ في غيره مثله ، والشيءَ كذلك والرُّمْحَ ، والخيط في الجوهر ؛ كلُّه فعَل وأفعل .

وقال عَدِيّ بن زيد :

وقد سلكوك في يوم عَصيب . . .

والسِّلك ( بالكسر ) الخيط .

وفي الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة .

وقيل : المعنى نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به .

وقال الحسن ومجاهد وقتادة القولَ الذي عليه أكثر أهل التفسير ، وهو ألزم حجة على المعتزلة .

وعن الحسن أيضاً : نسلك الذكر إلزاماً للحجة ؛ ذكره الغَزْنَوِيّ .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ أي مضت سنة الله بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك .

وقيل : "خلت سنة الأولين" بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر ، فهم يقتدون بأولئك .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

يقال : ظلّ يفعل كذا ، أي يفعله بالنهار .

والمصدر الظُّلول .

(207/423)

---

أي لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّلوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقرآن المعجز : إنه سحر .

﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ من عَرَج يَعْرُج أي صعِد .

والمعارج المصاعد .

أي لو صعِدوا إلى السماء وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر ؛ عن الحسن

وغيره.

وقيل: الضمير في "عليهِم" للمشركين.

وفي "فظَلّوا" للملائكة، تذهب وتجيء.

أي لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبواباً في السماء تصعَد فيها الملائكة وتنزل لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له؛ عن ابن عباس وقتادة.

ومعنى ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ سُدّت بالسحر؛ قاله ابن عباس والضحاك.

وقال الحسن: سُحرت.

الكلبي: أغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضاً عَمِيت.

قتادة: أخذت.

وقال المؤَرِّج: دِيرَ بنا من الدوران؛ أي صارت أبصارنا سكرى.

جُوَيْبِر: خُدعت.

وقال أبو عمرو بن العلاء: "سكرت" غُشِّيت وغُطّيت.

ومنه قول الشاعر:

وطلعت شمس عليها مِغْفَر . . .

وجعلت عين الحَرور تَسْكُرُ

وقال مجاهد: "سُكِّرت" حبست.

ومنه قول أوْس بن حَجر :

فصرت على ليلة ساهرهْ . . .

فليست بطَلْقٍ ولا سَاكِرَهْ

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعت .

قال ابن عُزَيْز : "سُكِّرت أبصارنا" سُدّت أبصارنا ؛ هو من قولك : سَكَرت النهرَ إذا سددته .

ويقال : هو من سُكْر الشراب ، كأن العين يلحقها ما يلحق الشارب إذا سكِر .

وقرأ ابن كَثير "سَكِرت" بالتخفيف .

والباقون بالتشديد .

قال ابن الأعرابي : سُكِرت ملئت .

قال المهدَوِيّ : والتخفيف والتشديد في "سكرت" ظاهران ، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّي عن معناه .

والمعروف أن "سكر" لا يتعدى .

قال أبو علي : يجوز أن يكون سُمع متعدياً في البصر .

ومن قرأ "سَكِرت" فإنه شبه ما عرض لأبصارهم بحال السكران ، كأنها جرت مجرى

السكران لعدم تحصيله .

وقد قيل : إنه بالتخفيف ( من ) سكر الشراب ، وبالتشديد أُخِذت ، ذكرهما الماوردي .

(208/423)

---

وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهد والحسن "سُكِرت" بالتخفيف .

قال الحسن : أي سُحرت .

وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال : سُكّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمادِير حتى لا يبصروا .

وقال الفراء : من قرأ "سَكَرت" أخذه من سكور الريح .

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة .

والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى ، قال : هو من السكر في الشراب .

وهذا قول حسن ؛ أي غشيهم ما غطّى أبصارهم كما غشي السكرانَ ما غطى عقله .

وسُكور الريح سكونها وفتورها ؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(209/423)

وقال الخازن :

﴿ إنّا حن نزلنا الذكر ﴾

يعني القرآن أنزلناه عليك يا محمد ، وإنما قال سبحانه وتعالى : إنا نحن نزلنا الذكر جواباً لقولهم : يا أيها الذين نزل عليه الذكر فأخبر الله هو الذي نزل الذكر على محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ الضمير في له يرجع إلى الذكر يعني ، وإنا للذكر الذي أنزلناه على محمد لحافظون يعني من الزيادة فيه ، والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف ، فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لايقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه ، أو ينقص منه حرفاً واحداً أو كلمة واحدة ، وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف ، والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله حفظ هذا الكتاب بقي مصوناً على الأبد محروساً من الزيادة والنقصان ، وقال ابن السائب ومقاتل : الكناية في له راجعة إلى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) يعني وإنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء فهو كقوله تعالى

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ووجه هذا القول أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر الإنزال ، والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد ( صلى الله عليه وسلم ) فحسن صرف الكناية إليه لكونه أمراً معلوماً إلا أن القول الأول أصح ، وأشهر وهو قول الأكثرين لأنه أشبه

بظاهر التنزيل ورد الكناية إلى أقرب مذكور أولى ، وهو الذكر وإذا قلنا : إن الكناية عائدة إلى القرآن ، وهو الأصح فاختلفوا في كيفية حفظ الله للقرآن فقال بعضهم : حفظه بأن جعله معجزاً باقياً مبايناً لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه ، والنقصان منه لأنهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغيير نظمه ، وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة أن ذلك ليس بقرآن ، وقال آخرون : إن الله حفظه وصانه من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه .

*(210/423)*

---

وقال آخرون : بل أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ، ويذبون عنه إلى آخر الدهر لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴾ لما تجرأ كفار مكة على رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم : إنك لمجنون وأساؤوا الأدب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) أن عادة الكفار في قديم الزمان مع أنبيائهم ، كذلك فلك يا محمد أسوة في الصبر على أذى قومك بجميع الأنبياء ففيه

تسلية للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، وفي الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد ، فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه ، وقوله تعالى في شيع الأولين : الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء : الشيعة هم الأتباع وشيعة الرجل أتباعه .

وقيل : الشيعة من يتقوى بهم الإنسان .

(211/423)

---

وقوله من شيع الأولين من باب إضافة الصفة إلى الموصوف ﴿ وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ السلوك النفاذ في الطريق ، والدخول فيه والسلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط ، ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين ، كذلك نسلكه أي ندخله في قلوب المجرمين يعني مشركي مكة ، وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين آية في ثبوت القدر لمن أذعن للحق ، ولم يعاند قال الواحدي قال أصحابنا : أضاف الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إدخال الكفر في قلوب الكفار ، وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه ، وقال الإمام فخر الدين الرازي : احتجّ أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل ، والضلال

في قلوب الكفار فقالوا قوله : كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل ، والضلال في قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال ، والكفر ذكر فيما قيل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائد إليه ، وأجيب عنه بأنه سبحانه وتعالى قال : ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد إليه ، والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا : إن المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، أنه الكفر والضلال .

قوله تعالى ﴿ لا يؤمنون به ﴾ بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) وقيل بالقرآن ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ فيه وعيد وتهديد لكفار مكة ، يخوفهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة للرسل ، والمعنى وقد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل من الأمم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ يعني ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا : لو ما تأتينا بالملائكة باباً من السماء فظلوا .

(212/423)

---

يقال : ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار ، كما يقل بات يفعل كذا إذا فعله بالليل فيه يعني في ذلك الباب يعرجون يعني يصعدون ، والمعارج المصاعد وفي المشار إليه بقوله : فظلوا به

يعرجون قولان : أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك ، والمعنى : لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار قرأوا باباً من السماء مفتوحاً والملائكة تصعد فيه لما آمنوا .

والقول الثاني : أنهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى : فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات ، وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ، ولقالوا إنا سحرنا وهو قوله تعالى ﴿ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ قال ابن عباس : سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر إذا حبس ، ومنع من الجري وقيل : هو من سكر الشراب والمعنى أن أبصارهم حارت ، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغيير العقل ، وفساد النظر وقيل سكرت يعني غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر ، وأصله من السكور يقال سكرت عينه إذا تحيرت ، وسكنت عن النظر ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ يعني سحرنا محمد ، وعمل فينا سحره .

وحاصل الآية أن الكفار لما طلبوا من رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عياناً ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عياناً لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾

ولما قالوا على سبيل الاستهزاء : يا أيها الذي نزل عليه الذكر ، رد عليهم بأنه هو المنزل عليه ، فليس من قبله ولا قبل أحد ، بل هو الله تعالى الذي بعث به جبريل عليه السلام إلى رسوله ، وأكد ذلك بقوله : إنا نحن ، بدخول إنّ وبلفظ نحن .

ونحن مبتدأ ، أو تأكيد لاسم إنّ ثم قال : وإنا له لحافظون أي : حافظون له من الشياطين .

وفي كل وقت تكفل تعالى بحفظه ، فلا يعتريه زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة ، فإنه تعالى لم يتكفل حفظها بل قال تعالى : إن الربانيين والأحبار استحفظوا ولذلك وقع فيها الاختلاف .

وحفظه إياه دليل على أنه من عنده تعالى ، إذ لو كان من قول البشر لتطرق إليه ما تطرق لكلام البشر .

وقال الحسن : حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة .

وقيل : يحفظه في قلوب من أراد بهم خيراً حتى لو غير أحد نقطة لقال له الصبيان : كذبت ، وصوابه كذا ، ولم يتفق هذا لشيء من الكتب سواه .

وعلى هذا فالظاهر أنّ الضمير في له عائد على الذكر ، لأنه المصرح به في الآية ، وهو قول

الأكثر: مجاهد، وقتادة، وغيرهما.

وقالت فرقة: الضمير في له عائد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أي: يحفظه من أذاكم، ويحوطه من مكركم كما قال تعالى: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وفي ضمن هذه الآية التبشير بحياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى يظهر الله به الدين.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) ﴾

لما ذكر تعالى استهزاء الكفار به عليه السلام، ونسبته إلى الجنون، واقتراح نزول الملائكة، سلاه تعالى بأن من أرسل من قبلك كان ديدن الرسل إليهم مثل ديدن هؤلاء معك.

وتقدم تفسير الشيع في أواخر الأنعام.

ومفعول أرسلنا محذوف أي: رسلاً من قبلك.

(214/423)

---

وقال الفراء: في شيع الأولين هو من إضافة الشيء إلى صفته كقوله: حق اليقين، وبجانب الغربي أي الشيع الموصوف، أي: في شيع الأمم الأولين، والأولون هم الأقدمون.

وقال الزمخشري: وما يأتيهم حكاية ماضية، لأنّ ما لا تدخل على مضارع، إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال انتهى.

وهذا الذي ذكره هو قول الأكثر من أنّ ما تخلص المضارع للحال وتعينه له ، وذهب غيره إلى أنّ ما يكثر دخولها على المضارع مراداً به الحال ، وتدخل عليه مراداً به الاستقبال ،

وأنشد على ذلك قول أبي ذؤيب :

أودي بني وأودعوني حسرة . . .

عند الرقاد وعبرة ما تقلع

وقول الأعشى يمدح الرسول عليه السلام :

له نافلات ما يغب نوالها . . .

وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وقال تعالى : ﴿ ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ﴾ والضمير في نسلكه عائد على الذكر قاله الزمخشري ، قال : والضمير للذكر أي : مثل ذلك السلك . ونحوه : نسلك الذكر في قلوب المجرمين على معنى أنه يلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزأ به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام يعني : مثل هذا الإنزال أنزلها بهم ، مردودة غير مقضية .

ومحل قوله : لا يؤمنون النصب على الحال أي : غير مؤمن به ، أو هو بيان لقوله : كذلك نسلكه انتهى .

وما ذهب إليه من أنّ الضمير عائد على الذكر ذكره الغزنوي عن الحسن .

قال الحسن : معناه نسلك الذكر إلزاماً للحجة .

وقال ابن عطية : الضمير في نسلكه عائد على الاستهزاء والشرك ونحوه ، وهو قول : الحسن ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد .

(215/423)

---

ويكون الضمير في به يعود أيضاً على ذلك نفسه ، وتكون باء السبب أي : لا يؤمنون بسبب شركهم واستهزائهم ، ويكون قوله : لا يؤمنون به في موضع الحال ، ويحتمل أن يكون الضمير في نسلكه عائداً على الذكر المحفوظ المتقدم الذكر وهو القرآن أي : مكذباً به مردوداً مستهزأً به ، يدخله في قلوب المجرمين .

ويكون الضمير في به عائداً عليه ، ويحتمل أن يكون الضمير في نسلكه عائداً على الاستهزاء والشرك ، والضمير في به يعود على القرآن ، فيختلف على هذا عود الضميرين انتهى .

وروى ابن جريج عن مجاهد بذلك التكذيب ، فعلى هذا تكون الباء في به للسبب .

والذي يظهر عوده على الاستهزاء المفهوم من قوله : يستهزؤون ، والباء في به للسبب .

والمجرمون هنا كفار قريش ، ومن دعاهم الرسول إلى الإيمان .

ولا يؤمنون إن كان إخباراً مستأنفاً فهو من العام المراد به الخصوص فيمن ختم عليه ، إذ قد

آمن عالم ممن كذب الرسول .

وقد خلت سنة الأولين في تكذيبهم رسلهم ، أو في إهلاكهم حين كذبوا رسلهم ، واستهزأوا بهم ، وهو تهديد لمشركي قريش .

والضمير في عليهم عائد على المشركين ، وذلك لفرط تكذيبهم وبعدهم عن الإيمان حتى ينكروا ما هو محسوس مشاهد بالأعين مماس بالأجساد بالحركة والانتقال ، وهذا بحسب المبالغة التامة في إنكار الحق .

والظاهر أنّ الضمير في فظلوا عائد على من عاد عليه في قوله : عليهم ، أي : لو فتح لهم باب من السماء ، وجعل لهم معراج يصعدون فيه لقالوا : هو شيء تتخيله لا حقيقة له ، وقد سخرنا بذلك .

وجاء لفظ فظلوا مشعراً بحصول ذلك في النهار ليكونوا مستوضحين لما عاينوا ، على أنّ ظل يأتي بمعنى صار أيضاً .

وعن ابن عباس أنّ الضمير في فظلوا يعود على الملائكة لقولهم : ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ أي : ولو رأوا الملائكة تصعد وتنصرف في باب مفتوح في السماء لما آمنوا .

وقرأ الأعمش ، وأبو حيوة : يعرجون بكسر الراء ، وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود .

وجاء لفظ إنما مشعراً بالحصر ، كأنه قال : ليس ذلك إلا تسكيراً للأبصار .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وابن كثير : سكرت بتخفيف الكاف مبنياً للمفعول ، وقرأ باقي السبعة : بشدها مبنياً للمفعول .

وقرأ الزهري : بفتح السين وكسر الكاف مخففة مبنياً للفاعل ، شبهوا رؤية أبصارهم برؤية السكران لقلة تصوره ما يراه .

فأما قراءة التشديد فعن ابن عباس وقتادة منعت عن رؤية الحقيقة من السكر ، بكسر السين وهو الشد والحبس .

وعن الضحاك شدّت ، وعن جوهر جدعت ، وعن مجاهد حبست ، وعن الكلبي عميت ، وعن أبي عمرو غطيت ، وعن قتادة أيضاً أخذت ، وعن أبي عبيد غشيت .

وأما قراءة التخفيف فقيل : بالتشديد ، إلا أنه للتكثير ، والتخفيف يؤدي عن معناه .

وقيل : معنى التشديد أخذت ، ومعنى التخفيف سحرت .

والمشهور أن سكر لا يتعدى .

قال أبو علي : ويجوز أن يكون سمع متعدياً في البصر .

وحكى أبو عبيد عن أبي عبيدة أنه يقال : سكرت أبصارهم إذا غشيها سهاد حتى لا يبصروا .

وقيل : التشديد من سكر الماء ، والتخفيف من سكر الشراب ، وتقول العرب : سكرت الريح تسكر سكراً إذا ركدت ولم تنفذ لما انتفت بسبيله ، أولاً وسكراً الرجل من الشراب سكراً إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما كان للإنسان أن ينفذ فيه .

ومن هذا المعنى سكران لا يبت أي : لا يقطع أمراً .

وتقول العرب : سكرت في مجاري الماء إذا طمست ، وصرفت الماء فلم ينفذ لوجهه .

فإن كان من سكر الشراب ، أو من سكر الريح ، فالتضعيف للتعدية .

أو من سكر مجاري الماء فللتكثير ، لأنّ مخففة متعد .

وأما سكرت بالتخفيف فإن كان من سكر الماء ففعله متعد ، أو من سكر الشراب أو الريح فيكون من باب وجع زيد ووجعه غيره ، فتقول : سكر الرجل وسكره غيره ، وسكرت الريح وسكرها غيرها ، كما جاء سعد زيد وسعده غيره .

ولخص الزمخشري في هذا فقال : وسكرت خيرت أو حبست من السكر ، أو السكر .

وقرىء بالتخفيف أي : حبست كما يحبس النهر عن الجري انتهى .

وقرأ ابان بن ثعلب : سحرت أبصارنا .

ويجيء قوله : بل نحن قوم مسحورون ، انتقالاً إلى درجة عظمى من سحر العقل .

وينبغي أن تجعل هذه القراءة تفسير معنى لا تلاوة ، لمخالفتها سواد المصحف .

وجاء جواب ولو ، قوله : لقالوا أي أنهم يشاهدون ما يشاهدون ، ولا يشكون في رؤية المحسوس ، ولكنهم يقولون ما لا يعتقدون مواطأة على العناد ، ودفع الحجة ، ومكابرة وإيثاراً للغلبة كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(218/423)

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ ردٌّ لإنكارهم التنزيلَ واستهزائِهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسليةٌ له ، أي نحن بِعظَم شأنِنا وعلوّ جنابنا نزلنا ذلك الذكرَ الذي أنكروه وأنكروا نزولَه عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعَمَّوا مُنزّله ، حيث بنوا الفعلَ للمفعول إيماءً إلى أنه أمرٌ لا مصدرَ له وفعلٌ لا فاعلَ له ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ من كل ما لا يليق به ، فيدخل فيه تكذيبُهم له واستهزاؤُهم به دخولاً أولياً فيكون وعيداً للمستهزئين ، وأما

الحفظُ عن مجرد التحريفِ والزيادة والنقصِ وأمثالِها فليس بمقتضى المقام ، فالوجهُ الحملُ على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلةِ في حقّيته ، ويجوزُ أن يراد حفظُه بالإعجاز دليلاً على التنزيل من عنده تعالى إذ لو كان من عند غير الله لتطرّق عليه الزيادةُ والنقصُ والاختلاف ، وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياءِ والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل ما لا يخفى ، وفي إيراد الثانيةِ بالجملة الاسمية دلالةٌ على دوام الحفظِ والله سبحانه أعلم ، وقيل : الضمير المجرورُ للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ وتأخيرُ هذا الكلام وإن كان جواباً عن أول كلامِهم الباطلِ ، ورداً له لما ذكر آنفاً ولارتباطه بما يعقُبه من قوله تعالى :

(219/423)

---

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أي رسلاً ، وإنما لم يُذكر لدلالة ما بعده عليه ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ متعلقٌ بأرسلنا أو بمحذوف هو نعتٌ للمفعول المحذوفِ أي رسلاً كائنةً من قبلك ﴿ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ أي فِرَقِهم وأحزابهم جمع شيعة ، وهي الفِرقةُ المتّفقة على طريقة ومذهب ، من شاعه إذا تبعه ، وإضافتُه إلى الأولين من إضافة الموصوفِ إلى صفته عند الفرّاء ، ومن حذف الموصوف عند البصريين أي شيعِ الأممِ الأولين ، ومعنى إرسالِهم فيهم جعلُ كل

منهم رسولاً فيما بين طائفةٍ منهم ليتابعوه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ المرادُ نفيُ إتيانِ كل رسولٍ لشيعته الخاصة به لا نفيُ إتيان كل رسولٍ لكل واحدة من تلك الشيعِ جميعاً ، أو على سبيل البدلِ ، وصيغةُ الاستقبال لاستحضار الصورةِ على طريقة حكايةِ الحالِ الماضية ، فإن ( ما ) لا تدخل في الأغلب على مضارعٍ إلا وهو في معنى الحال ، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال ، أي ما أتى شيعةً من تلك الشيعِ رسولٌ خاصٌّ بها ﴿ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرةُ ، والجملة في محل النصب على أنها حال مقدّرة من ضمير المفعول في يأتيهم إذا كان المرادُ بالإتيان حدوثَه ، أو في محل الرفع على أنها صفةُ رسول فإنه محلَّه الرفعُ على الفاعلية ، أي إلا رسولٌ كانوا به يستهزؤون ، وأما الجرُّ على أنها صفةٌ باعتبار لفظِه فيُفضي إلى زيادة ( من ) الاستغراقيةِ في الإثبات ويجوز أن يكون منصوباً على الوصفية بأن يقدَّر الموصوفُ منصوباً على الاستثناء وإن كان المختارُ الرفعَ على البدلية .

(220/423)

---

وهذا كما ترى تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادةُ الجهال مع الأنبياء عليهم السلام ، وحيث كان الرسول مُصحوباً بكتاب من عند الله تعالى تضمّن ذكرُ

استهزائهم بالرسول استهزاءَهم بالكتاب ولذلك قيل : ﴿ كذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما دل عليه الكلام السابقُ من إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء ، أي مثلَ ذلك السَّلْكِ الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاءوا به من الكتب ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ أي الذكرَ ﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ أي أهل مكةَ أو جنسُ المجرمين ، فيدخلون فيه دخولاً أولياً ، ومحلُّه النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أو حالٌ منه ، أي نسلكه سَلْكاً مثلَ السلك أو نسلك السّلكَ حال كونِه مثلَه أي مقروناً بالاستهزاء ، غيرَ مقبول لما تقتضيه الحكمةُ فإنهم من أهل الخِذلان ليس لهم استحقاقٌ لقبول الحقِّ ، وصيغةُ المضارع لكون المشبَّه به مقدماً في الوجود وهو السّلك الواقعُ في الأمم السالفة ، أو للدِلالة على استحضار الصورةِ ، والسَّلْكُ إدخالُ الشيء في آخرَ ، يقال : سَلكتُ الخيطَ في الإبرة والرمحَ في المطعون .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي بالذكر ، حالٌ من ضمير نسلكه أي غيرَ مؤمَن به ، أو بيانٌ للجملة السابقة فلا محل لها ، وقد جُعل الضميرُ للاستهزاء فيتعين البيانيةُ إلا أن يُجعل الضميرُ المجرورُ أيضاً له ، على أن الباء للملابسة أي نسلك الاستهزاءَ في قلوبهم حال كونِهم غيرَ مؤمنين بملابسته ، والحالُ إما مقدّرةٌ أو مقارنة للإيذان بأن كفرَهم مقارنٌ للإلقاء كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ أي قد مضت طريقتهم التي سنها الله تعالى في إهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاءِ ، وهو استئنافٌ جيء به تكملةً للتسلية وتصريحاً بالوعيد والتهديد .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي على هؤلاء المقترِحين المعاندين ﴿ بَاباً مِنَ السماء ﴾ أي باباً ما ، لا باباً من أبوابها المعهودة كما قيل ، ويسرنا لهم الرُّقيَّ والصعودَ إليه ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ ﴾ في ذلك الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عِياناً كما يفيده الظلول ، أو فظل الملائكةُ الذين اقترحوا إتيانَهم يعرُجون في ذلك الباب وهم يرَونه عياناً مستوضحين طولَ نهارهم .

﴿ لَقَالُواْ ﴾ لفرط عنادِهم وغلوِّهم في المكابرة وتفاديهم عن قَبول الحق ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ أي سُدّت من الإحساس من السُكر كما يدل عليه القراءةُ بالتخفيف ، أو حُيِّرت كما يعضُده قراءة من قرأ سكرت أي حارت .

﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحَرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائرِ الآياتِ الباهرة ، وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالةٌ على أنهم يبتون القولَ بذلك ، وأن ما يرونه لا حقيقةَ له وإنما هو أمر خُيِّل إليهم بالسحر ، وفي اسميةِ الجملة الثانيةِ دَلالةٌ على دوام مضمونِها ، وإيرادُها بعد تسكير الأبصارِ لبيان إنكارِهم لغير ما يرونه بعيونهم ، فإن عروجَ كل منهم إلى السماء وإن كان مرئياً لغيره فهو معلوم بطريق الوجدانِ مع قطع النظرِ

عن الأبصار ، فهم يدعون أن ذلك نوعٌ آخرُ من السحر غيرُ تسكير الأبصار . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(222/423)

---

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى رد إنكارهم التنزيل واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاه عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾

أي نحن بعظم شأننا وعلو جانبنا نزلنا الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك وقالوا فيك لادعائه ما قالوا وعملوا منزله حيث بنو الفعل للمفعول إيماءً إلى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ أي من أكل ما يقدح فيه كالتحريف والزيادة والنقصان وغير ذلك حتى أن الشيخ المهيب لو غير نقطة يرد عليه الصبيان ويقول له من كان : الصواب كذا ويدخل في ذلك استهزاء أولئك المستهزئين وتكذيبهم إياه دخولاً أولياً ، ومعنى حفظه من ذلك عدم تأثيره فيه وذبه عنه ، وقال الحسن : حفظه بإبقاء شريعته إلى يوم القيامة ، وجوز غير واحد أن يراد حفظه بالإعجاز في كل وقت كما يدل عليه الجملة

الإسمية من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، ولم يحفظ سبحانه كتاباً من الكتب كذلك بل استحفظها جل وعلا الربانيين والأحبار فوقع فيها ما وقع وتولى حفظ القرآن بنفسه سبحانه فلم يزل محفوظاً أولاً وآخراً ، وإلى هذا أشار في "الكشاف" ثم سأل بما حاصله أن الكلام لما كان مسوقاً لردهم وقد تم الجواب بالأول فما فائدة التذييل بالثاني ؟ وإنما يحسن إذا كان الكلام مسوقاً لإثبات محفوظية الذكر أولاً وآخراً ، وأجاب بأنه جيءَ به لغرض صحيح وأدمج فيه المعنى المذكور أما ما هو أن يكون دليلاً على أنه منزل من عند الله تعالى آية ، فالأول وإن كان رداً كان كمجرد دعوى فقيل ولولا أن الذكر من عندنا لما بقي محفوظاً عن الزيادة والنقصان كما سواه من الكلام ، وذلك لأنه نظمه لما كان معجزاً لم يمكن زيادة عليه ولا نقص للإخلال بالإعجاز كذا في "الكشف" : ، وفيه إشارة إلى وجه العطف وهو ظاهر .

(223/423)

---

وأنت تعلم أن الإعجاز لا يكون سبباً لحفظه عن إسقاط بعض السور لأن ذلك لا يخل بالإعجاز كما لا يخفى ، فالمختار أن حفظ القرآن وإبقاءه كما نزل حتى يأتي أمر الله تعالى بالإعجاز وغيره مما شاء الله عز وجل ، ومن ذلك توفيق الصحابة رضي الله تعالى عنهم

لجمعه حسبما علمته أول الكتاب.

واحتج القاضي بالآية على فساد قول بعض من الإمامية لا يعبأ بهم إن القرآن قد دخله الزيادة والنقصان، وضعفه الإمام بأنه يجري مجرى إثبات الشيء بنفسه لأن للقائلين بذلك أن يقولوا: إن هذه الآية من جملة الزوائد ودعوى الإعجاز في هذا المقدار لا بد لها من دليل.

واحتج بها القائلون بحدوث الكلام اللفظي وهي ظاهرة فيه ومن العجيب ما نقله عن أصحابه حيث قال: قال أصحابنا في هذه الآية دلالة على كون البسملة آية من كل سورة لأن الله تعالى قد وعد حفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصوناً عن التغيير ولما كان محفوظاً عن الزيادة، ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لجاز أن يظن بهم أنهم نقصوا وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة اه، ولعمري أن تسمية مثل هذا بالخبال أولى من تسميته بالاستدلال، ولا يخفى ما في سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل، وقد اشتملتا على عدة من وجوه التأكيد ﴿وَنَحْنُ﴾ ليس فصلاً لأنه لم يقع بين اسمين وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم إن، ويعلم مما قررنا أن ضمير ﴿لَهُ﴾ للذكر وإليه ذهب مجاهد.

وقتادة.

والأكثرون وهو الظاهر ، وجوز الفراء وذهب إليه النزر أن يكون راجعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي وأنا للنبي الذي أنزل عليه الذكر لحافظون من مكر المستهزئين كقوله تعالى : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] والمعول عليه الأول ، وأخر هذا الجواب مع أنه رد لأول كلامهم الباطل لما أشرنا إليه فيما مر ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلَنَا ﴾ أي رسلاً كما روي عن ابن عباس وإنما لم يذكر لظهور الدلالة عليه ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ متعلق بأرسلنا أو بمحذوف وقع نعتاً لمفعوله المحذوف أي رسلاً كائنة من قبلك ﴿ فِى شِيَعِ الاولين ﴾ أي فرقهم كما قال الحسن .

والكلبي ، وإليه ذهب الزجاج ، وهو وكذا أشياع جمع شيعة وهي والفرقة الجماعة المتفقة على طريقة ومذهب مأخوذ من شاع المتعدي بمعنى تبع لأن بعضهم يشايع بعضاً ويتابعه ، وتطلق الشيعة على الأعوان والأنصار ، وأصل ذلك على ما قيل من الشياع بالكسر والفتح صغار الحطب يوقد به الكبار ، والمناسبة في ذلك نظراً للإطلاق الثاني ظاهرة وللإطلاق الأول أن التابع من حيث أنه تابع أصغر ممن يتبعه ، وإضافته إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أي شيع الأمم الأولين ، والجار

والمجرور متعلق بأرسلنا .

ومعنى إرسال الرسل في الشيع جعل كل منهم رسولاً فيما بين طائفة منهم ليتا بعوه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين وكأنه لو قيل إلى بدل ﴿ فِى ﴾ لم يظهر إرادة هذا المعنى ، وقيل : إنما عدل عن إلى إليها للإعلام بمزيد التمكين ، وزعم بعضهم أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول المقدر أو حال ولا يخفى بعده .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾

(225/423)

---

حكاية حال ماضية كما قال الزمخشري لأن ﴿ مَا ﴾ لا تدخل على مضارع إلا وهو في موضع الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال وهو قول الأكثرين ، وقال بعضهم : إن الأكثر دخول ﴿ مَا ﴾ على المضارع مراداً به الحال وقد تدخل عليه مراداً به الاستقبال ، وأنشد قول أبي ذؤيب :

أودي بني وأودعوني حسرة . . .

عند الرقاد وعبرة ما تقلع

وقول الأعشى يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

له نافلات ما يغب نوالها . . .

وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وقال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ [ يونس : 15 ] ولعله المختار وان كان ماهنا على الحكاية ، والمراد نفي أتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفي اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعاً أو على سبيل البدل أي ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة ، والجملة كما قال أبو البقاء في محل النصب على أنها حال من ضمير المفعول في يأتيهم إن كان المراد بالإتيان حدوثه أو في محل الرفع أو الجر على أنها صفة رسول على لفظه أو موضعه لأنه فاعل ، وتعقب جعلها صفة له باعتبار لفظه بأنه يفضي إلى زيادة من الاستغراقية في الإثبات لمكان ﴿ إلا ﴾ وتقدير العمل في النعت بعدها .

وجوز أن تكون نصباً على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية ، وهذا كما ترى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه شنشنة جهال الأمم مع المرسلين عليهم السلام قبل ، وحيث كان الرسول مصحوباً بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قال سبحانه :

﴿ كذلك ﴾ أي مثل السلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤوا به ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ أي ندخله يقال : سلكت الخيط في الإبرة والسنان في المطعون أي أدخلت : وقرىء ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ وسلك وأسلك كما ذكر أبو عبيدة بمعنى واحد ، والضمير عند جمع ومنهم الحسن على ما ذكره الغزنوي للذكر ﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ أي أهل مكة أو جنس المجرمين فيدخلون فيه دخولاً أولياً ، ومعنى المثلية كونه مقروناً بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة ، وحاصلة انه تعالى يلقي القرآن في قلوب المجرمين مستهزأ به غير مقبول لأنهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق كما ألقى سبحانه كتب الرسل عليهم السلام في قلوب شيعهم مستهزأ بها غير مقبولة لذلك ، وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدماً في الوجود وهو السلك الواقع في شيع الأولين .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ الضمير للذكر أيضاً ، والجملة في موضع الحال من مفعول ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ [ الحجر : 12 ] أي غير مؤمن به ، وهي إما مقدرة وإما مقارنة على معنى أن الالقاء وقع بعده الكفر من غير توقف فهما في زمان واحد عرفا ، ويجوز أن تكون بياناً للجملة السابقة فلا محل لها من الإعراب ، قال في الكشف : وهو الأوجه لأن في طريقة الإبهام والتفسير لا سيما في هذا المقام ما يجل موقع الكلام .

وفي إرشاد العقل السليم أنه قد جعل ضمير ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ [ الحجر : 12 ] للاستهزاء

المفهوم من ﴿ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [ الحجر : 11 ] فتعين البيانية إلا أن يجعل ضمير ﴿ بِهِ ﴾ له أيضاً على أن الباء للملابسة أي يسلك الاستهزاء في قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسة الاستهزاء ، وقد ذهب إلى جواز ارجاع الضميرين إلى الاستهزاء ابن عطية إلا أنه جعل الباء للسببية ، وكذا الفاضل الجلبي ، ولا يخفى أن بعد ذلك يغنى عن رده .

(227/423)

---

وذهب البيضاوي إلى كون الضمير الأول للاستهزاء وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للذكر وتفريق الضمائر المتعاقبة على الأشياء المختلفة إذا دل الدليل عليه ليس ببدع في القرآن ، وجوز على هذا كون الجملة حالاً من ﴿ المجرمين ﴾ [ الحجر : 12 ] ولا يتعين كونها حالاً من الضمير ليتعين رجوعه للذكر ، وذكر أن عوده على الاستهزاء لا ينافي كونها مفسرة بل يقويه إذ عدم الإيمان بالذكر أنسب بتمكن الاستهزاء في قلوبهم ، وجعل الآية دليلاً على أنه تعالى يوجد الباطل في قلوبهم ففيها رد على المعتزلة في قولهم : إنه قبيح فلا يصدر منه سبحانه ، وكأنه رحمه الله تعالى ظن أن ما فعله الزمخشري من جعل الضميرين للذكر كان رعاية لمذهبه ففعل ما فعل ، ولا يخفى أنه لم يصب المحز وغفل عن قولهم : الدليل إذا طرقه الاحتمال بطل به الاستدلال .

وفي الكشف بعد كلام ان رجع الضمير إلى الاستهزاء أو الكفر مع ما فيه من تنافر النظم لا ينكره أهل الاعتزال إلا كإنكار سلك الذكر بصفة التكذيب والتأويل ، وكأنهم غفلوا عما ذكره جار الله في الشعراء حيث أجاب عن سؤال إسناد سلك الذكر بتلك الصفة إلى نفسه جل وعلا بأن المراد تمكنه مكذوباً في قلوبهم أشد التمكن كشيء جبلوا عليه ؛ ولخص المعنى ههنا بأنه تعالى يلقيه في قلوبهم مكذباً لا أن التكذيب فعله سبحانه .

نعم أخرج ابن أبي حاتم عن أنس .

والحسن تفسير ضمير ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ [ الحجر : 12 ] إلى الشرك ، وإخراج هو .

وابن جرير عن ابن زيد أنه قال في الآية : هم كما قال الله تعالى هو أضلهم ومنعهم الإيمان لكن هذا أمر وما نحن فيه آخر ، واعترض بعضهم رجوع الضمير إلى ﴿ الذكر ﴾ [ الحجر : 9 ] بأن نون العظمة لا تناسب ذلك فإنها إنما تحسن إذا كان فعل المعظم نفسه فعلاً يظهر له أثر قوي وليس كذلك هنا فإنه تدافع وتنازع فيه .

وأجاب بأن المقام إذا كان للتوبيخ يحسن ذلك ، ولا يلزم أن تكون العظمة باعتبار القهر والغلبة فقد تكون باعتبار اللطف والإحسان .

وتعقب ذلك الشهاب بقوله : لا يخفى أنه باعتبار القهر والغلبة يقتضي أن يؤثر ذلك في قلوبهم وليس كذلك لعدم إيمانهم به ، وكذا باعتبار اللطف والإحسان يقتضي أن يكون سلكه في قلوبهم إنعاماً عليهم فأي إنعام عليهم بما يقتضي الغضب فلا وجه لما ذكر ، وأنت تعلم أنه إذا كان المراد سلك ذلك وتمكينه في قلوبهم مكذباً به غير مقبول فكون الإسناد باعتبار القهر والغلبة مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ، والأثر الظاهر القوي لذلك بقاؤهم على الكفر والإصرار على الضلال ولو جاءتهم كل آية ، ولا يخفى ما في ﴿ كذلك ﴾ [الحجر : 12 ]مما يناسب نون العظمة أيضاً وقد مر التنبيه عليه غير مرة .

(229/423)

---

﴿ وَقَدْ خَلَتِ ﴾ مضت ﴿ سَنَةٍ ﴾ طريقة ﴿ الاولين ﴾ والمراد عادة الله تعالى فيهم على أن الإضافة لأدنى ملابسة لا على الإضافة بمعنى في ، والمراد بتلك العادة على تقدير أن يكون ضمير ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ [الحجر : 12 ] للاستهزاء الخذلان وسلك الكفر في قلوبهم أي قد مضت عادته سبحانه وتعالى في الأولين ممن بعث إليهم الرسل عليهم السلام أن يخذلهم ويسلك الكفر والاستهزاء في قلوبهم ، وعلى تقدير أن يكون للذكر الإهلاك ، وعلى هذا قول الزمخشري أي مضت طريقتهم التي سنها الله تعالى في اهلاكهم حين كذبوا

برسلهم والمنزل عليهم ، وذكر أنه وعيد لأهل مكة على تكذيبهم ، وإلى الأول ذهب الزجاج ، وادعى الإمام أنه الاليق بظاهر اللفظ ؛ وبين ذلك الطيبي قائلاً : ان التعريف في ﴿ المجرمين ﴾ [ الحجر : 12 ] للعهد ، والمراد بهم المكذبون من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم المذكورون بعد أي مثل ذلك السلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين المكذبين للرسل الماضين نسلكه في قلوب هؤلاء المجرمين فلك أسوة بالرسل الماضية مع أممهم المكذبة ، ولست بأوحدى في ذلك وقد خلت سنة الأولين ، والمقام يقتضي التقرير والتأكيد فيكون في هذا مزيد تسلية للرسول عليه السلاة والسلام ، والوعيد بعيد لأنه لم يسبق لإهلاك الأمم ذكر ، وإيثار ذلك لأنه أقرب إلى مذهب الاعتزال اه .



---

وفيه غفلة عن نغزى الزمخشري ، وقد تفطن لذلك صاحب الكشف ولله تعالى دره حيث قال : أراد أن موقع ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ إلى آخره موقع الغاية في الشعراء ( 201 ) أعني قوله تعالى هنالك ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ فانهم لما شبهوا بهم قيل : لا يؤمنون وقد هلك من قبلهم ولم يؤمنوا فكذلك هؤلاء ، ومنه يظهر أن الكلام على هذا الوجه شديد الملاءمة ، وأما أن الوعيد بعيد لعدم سبق ذكر لإهلاك الأمم ففيه أن لفظ السنة مضافاً إلى ما أضيف

إليه ينبىء عن ذلك أشد الأنباء ، ثم إنه ليس المقصود منه الوعيد على ما قررناه ، وقد صرح أيضاً بعض الأجلة أن الجملة استئنافية جيء بها تكملة للتسلية وتصريحاً بالوعيد والتهديد ، ثم ما ذهب إليه الزمخشري منالمراد بالسنة مروى عن قتادة .

فقد أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهما عنه أنه قال في الآية : قد خلت وقائع الله تعالى فيمن خلا من الأمم .

وعن ابن عباس أن المراد سنتهم في التكذيب ، ولعل الإضافة على هذا على ظاهرها .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾

أي على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ بَاباً مِنَ السماء ﴾ ظاهره بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل : ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ ﴾ أي في ذلك الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون حسبما نيسره لهم فيرون ما فيها من الملائكة والعجائب طول نهارهم مستوضحين لما يرونه كما يفيده ظلوا لأنه يقال ظل يعمل كذا إذا فعله في النهار حيث يكون للشخص ظل ، وجوز في البحر كون ظل بمعنى صار وهو مع كونه خلاف الأصل مما لا داعي إليه ، وأياماً كان فضمير الجمع للمقترحين ، وهو الظاهر المروى عن الحسن وإليه ذهب الجبائي .

وأبو مسلم ، وأخرج ابن جريج عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه للملائكة وروى ذلك عن قتادة أيضاً أي فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون في ذلك الباب وهم

يرونهم على أتم وجه.

وقرأ الأعمش.

وأبو حيوة ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ بكسر الراء وهي لغة هذيل في العروج بمعنى الصعود.

(231/423)

---

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

﴿ لَقَالُواْ ﴾ لفرط عنادهم وغلوهم في المكابرة وتفاديهم عن قبول الحق: ﴿ إِنَّمَا سُكّرَتْ أبصارنا ﴾ أي سدت ومنعت من الأبصار حقيقة وما نراه تخيل لا حقيقة له، أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن مجاهد، وروى أيضاً عن ابن عباس.

وقتادة فهو من السكر بالفتح، وقال أبو حيان: بالكسر السد والحبس، وقال ابن السيد: السكر بالفتح سد الباب والنهر وبالكسر السد نفسه ويجمع على سكور، قال الرفاء:

غناؤنا فيه ألحان السكور إذا . . .

قل الغناء ورنات النواعير

ويشهد لهذا المعنى قراءة ابن كثير.

والحسن.

ومجاهد ﴿ سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ بتخفيف الكاف مبنياً للمفعول لأن سكر المخفف المتعدي اشتهر في معنى السد ، وعن عمرو بن العلاء أن المراد حيرت فهو من السكر بالضمر ضد الصحو ، وفسروه بأنه حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشراب وقد يعتري من الغضب والعشق ، ولذا قال الشاعر :

سكران سكر هوى وسكر مدامة . . .

أني يفيق فتى به سكران

والتشديد في ذلك للتعدية لأن سكر كفرح لازم في الأشهر وقد حكى تعديه فيكون للتكثير والمبالغة ، وأرادوا بذلك أنه فسدت أبصارنا واعتراها خلل في احساسها كما يعتري عقل السكران ذلك فيختل إدراكه ففي الكلام على هذا استعارة وكذا على الأول عند بعض ويشهد لهذا المعنى قراءة الزهري ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ بفتح السين وكسر الكاف مخففة مبنياً للفاعل لأن الثلاثي اللازم مشهور فيه ولأن سكر بمعنى سد المعروف ففيه فتح الكاف .

واختار الزجاج أن المعنى سكنت عن أبصار الحقائق من سكرت الريح تسكر سكراً إذا ركدت ويقال : ليلة ساكرة لا ريح فيها والتضعيف للتعدية ولهم أقوال أخر متقاربة في المعنى .

وقرأ أبان بن تغلب وحملت لمخالفتها سواد المصحف على التفسير سحرت أبصارنا ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوا ذلك عند ظهور سائر الآيات الباهرة ، والظاهر على ما قال القطب انهم أرادوا أولا سكرت أبصارنا لا عقولنا فنحن وأن تخيلنا هذه الأشياء بأبصارنا لكن نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه ثم أضربوا عن الحصر في الأبصار وقالوا : بل تجاوز ذلك إلى عقولنا ، وفسر الزمخشري الحصر بأن ذلك ليس إلا تسكيراً فأورد عليه بأن ﴿ إِنَّمَا ﴾ إنما تفيد الحصر في المذكور آخراً وحينئذ يكون المعنى ما تقدم وهو مبني على أن تقديم المقصور على المقصور عليه لازم وخلافه ممتنع ، وقد قال المحقق في شرح التخليص انه يجوز إذا كان نفس التقديم يفيد الحصر كما في قولنا : إنما زيداً ضربت فإنه لقصر الضرب على زيد ، وقال أبو الطيب :

صفاته لم تزده معرفة . . .

لكنها لذة ذكرناها

أي ما ذكرناها إلا لذة إلا أن هذا لا ينفع فيما نحن فيه .

نعم نقل عن عروس الأفراح أن حكم أهل المعاني غير مسلم فإن قولك : إنما قمت معناه لم يقع إلا القيام فهو لحصر الفعل وليس بآخر ولو قصد حصر الفاعل لانفصل ، ثم أورد عدة أمثلة من كلام المفسرين تدل على ما ذكروه في المسألة ، فالظاهر أن الزمخشري لا يرى ما

قالوه مذرداً وهم قد غفلوا عن مراده هنا قاله الشهاب ، وما نقله عن عروس الأفراح في إنما قمت من أنه لحصر الفعل ولو كان لحصر الفاعل لانفصل يخالفه ما في شرح المفتاح الشريفي من أنه إذا أريد حصر الفعل في الفاعل المضمر فإن ذكر بعد الفعل شيء من متعلقاته وجب انفصال الفاعل وتأخيره كما في قولك : إنما ضرب اليوم أنا ، وكما في قول الفرزدق :

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما . . .

يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي



---

وان لم يذكر احتمل الوجوب طرداً للباب وعدمه بأن يجوز الانفصال نظراً إلى المعنى والاتصال نظراً إلى اللفظ إذ لا فاصل لفظياً اه فإنه صريح في أن إنما قمت لحصر الفاعل وان لم يجب الانفصال لكن اختار السعد في شرحه وجوب الانفصال مطلقاً وحكم بأن الظاهر أن معنى إنما أقوم ما أنا إلا أقوم كما نقله السمرقندي .

وأبو حيان مع طائفة يسيرة من النحاة أنكروا إفادة إنما للحصر أصلا وليس بالمعول عليه عند المحققين لكنهم قالوا : إنها قد تأتي لمجرد التأكيد وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله .

ووجه الشهاب الاضراب بعد أن قال هو جعل الأول في حكم المسكوت عنه دون النفي ويحتمل الثاني بأنه اضراب لأن هذا ليس بواقع في نفس الأمر بل بطريق السحر أو هو باعتبار ما تفيده الجملة من الاستمرار الذي دلت عليه الاسمية أي مسحوريتنا لا تختص بهذه الحالة بل نحن ستزون عليها في كل ما يرينا من الآيات ، هذا وفي هذه الآية من وصفهم بالعناد وتواطئهم على ما هم فيه من التكذيب والفساد ما لا يخفى ، وفي ذلك تأكيد لما يفهم من الآية الأولى ، وقد ذكر بن المنير في المراد منها وجهاً بعيداً جداً فيما أرى فقال : المراد والله تعالى أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها كما سلك في قلوب المؤمنين المصدقين فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولئلا يكون للكفار على الله تعالى حجة بأنهم ما فهموا وجه الاعجاز كما فهمها من آمن فأعلمهم الله تعالى وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين ولذلك عقبه سبحانه بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ الخ أي هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك في قلوبهم ووقر ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسمتهم اللداد حتى لو سلك بهم أوضح

السبل وأدعاها إلى الإيمان لقالوا بعد الإيضاح العظيم : إنما سكرت أبصارنا وسحرنا وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها فأسجل سبحانه عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم بالتكذيب من عدم سماع ووعى ووصول إلى القلوب وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كان حاصلاً لهم وليس بهم إلا العناد والإصرار لا غيراه فليتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(235/423)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ قد تقدّم الكلام في محله مستوفي ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى ما تضمنته السورة من الآيات ، والتعريف في ﴿ الكتاب ﴾ .

قيل : هو للجنس ، والمراد جنس الكتب المتقدّمة .

وقيل : المراد به القرآن ، ولا يقدح في هذا ذكر القرآن بعد الكتاب ، فقد قيل : إنه جمع له بين الإسمين ، وقيل : المراد بالكتاب : هذه السورة ، وتنكير القرآن للتفخيم ، أي : القرآن الكامل ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قرأ نافع وعاصم بتخفيف الباء من

﴿ ربما ﴾ .

وقرأ الباقون بتشديدها ، وهما لغتان .

قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ، ومنه قول الشاعر :

ربما ضربة سيف صقيل . . . بين بصرى وطعنة نجلاء

وتميم وربيعة يثقلونها .

وقد تزاد التاء الفوقية ، وأصلها أن تستعمل في القليل .

وقد تستعمل في الكثير .

قال الكوفيون : أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين .

ومنه قول الشاعر :

رب رفد هرقته ذلك اليو . . . م وأسرى من معشر أقيال

وقيل : هي هنا للتقليل ؛ لأنهم ودّوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب .

قيل : و " ما " هنا لحقت ربّ لتهيئها للدخول على الفعل .

وقيل : هي نكرة بمعنى شيء ، وإنما دخلت " ربّ " هنا على المستقبل مع كونها لا تدخل إلاّ على الماضي ؛ لأن المترقب في أخباره سبحانه كالواقع المتحقق ، فكأنه قيل : ربما ودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، أي : منقادين لحكمه مذعنين له من جملة أهله .

وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة .

والمراد : أنه لما انكشف لهم الأمر ، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره ، حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرّطت في جنب الله .



---

وقيل : كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين .

وقيل : عند خروج عصاة الموحدين من النار ، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم .

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ هذا تهديد لهم أي : دعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهي ، فهم لا يرعوون أبداً ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون في حق ، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا ، فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلاّ بذلك ، ولا تشتغل بغيره ، والمعنى : اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن اتباعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم .

وفي هذا من التهديد والزجر ما لا يقدر قدره ، يقال : ألهاه كذا أي : شغله ، ولهى هو عن الشيء يلهى ، أي : شغلهم الأمل عن اتباع الحق ، وما زالوا في الآمال الفارغة والتمنيات

الباطلة حتى أسفر الصبح لذي عينين ، وانكشف الأمر ورأوا العذاب يوم القيامة ، فعند ذلك يذوقون وبال ما صنعوا .

والأفعال الثلاثة مجزومة على أنها جواب الأمر ، وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي : وما أهلكنا قرية من القرى بنوع من أنواع العذاب ﴿ إِلَّا وَلَهَا ﴾ أي : لتلك القرية ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي أجل مقدّر لا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه ﴿ مَّعْلُومٌ ﴾ غير مجهول ولا منسيّ ، فلا يتصوّر التخلف عنه بوجه من الوجوه .

وجملة ﴿ لَهَا كِتَابٌ ﴾ في محل نصب على الحال من ﴿ قرية ﴾ وإن كانت نكرة ؛ لأنها قد صارت بما فيها من العموم في حكم الموصوفة ، والواو للفرق بين كون هذه الجملة حالاً ، أو صفة فإنها تعينها للحالية كقولك : حالي رجل على كتفه سيف .

وقيل : إن الجملة صفة ﴿ لقرية ﴾ .

والواو لتأكيد اللصوق بين الصفة والموصوف .

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ أي : ما تسبق أمة من الأمم أجلها المضروب لها ، المكتوب في اللوح المحفوظ ؛ والمعنى : أنه لا يأتي هلاكها قبل مجيء أجلها ﴿ وما يستأخرون ﴾ أي : وما يتأخرون عنه ، فيكون مجيء هلاكهم بعد مضي الأجل المضروب له ، وإيراد الفعل على صيغة جمع المذكر للحمل على المعنى مع التغليب ، ولرعاية الفواصل ، ولذلك حذف الجار والمجرور ، والجملة مبينة لما قبلها ، فكأنه قيل : إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغترّ به العقلاء ، فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدّم ولا يتأخر .

وقد تقدم تفسير الأجل في أوّل سورة الأنعام .

ثم لما فرغ من تهديد الكفار شرع في بيان بعض عتوّهم في الكفر ، وتماديهم في الغيّ مع تضمنه لبيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب ، فقال ﴿ وَقَالُواْ يأيها الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ أي قال : كفار مكة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشدّ إنكار ، ونفيهم له أبلغ نفي ، أو أرادوا : ب ﴿ يأيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ في زعمه ، وعلى وفق ما يدعيه ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي : إنك بسبب هذه الدعوى التي تدّعيها من كونك رسولاً لله مأموراً بتبليغ أحكامه لمجنون ، فإنه لا يدّعي مثل هذه الدعوى العظيمة عندهم من كان عاقلاً ، فقولهم هذا لمحمد صلى الله عليه وسلم هو كقول فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : 27 ] .

﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالمَلَٰئِكَةِ ﴾ ﴿ لو ما ﴾ حرف تحضيض مركب من " لو " المفيدة للتمني ، ومن " ما " المزيدة ، فأفاد المجموع الحثّ على الفعل الداخلة هي عليه ، والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ .

قال الفراء : الميم في ﴿ لو ما ﴾ بدل من اللام في " لولا " .

(238/423)

---

وقال الكسائي : لولا ولو ما سواء في الخبر والاستفهام .

قال النحاس : لو ما ولولا وهلا واحد .

وقيل : المعنى : لو ما تأتينا بالملائكة فيعاقبونا على تكذيبنا لك .

﴿ ما ننزل الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ قرىء ( ما ننزل ) بالنون مبنياً للفاعل ، وهو الله سبحانه فهو على هذا من التنزيل ، والمعنى على هذه القراءة : قال الله سبحانه مجيباً على الكفار لما طلبوا إتيان الملائكة إليهم : ما ننزل نحن ﴿ الملائكة إِلا بالحق ﴾ أي : تنزيلاً متلبساً بالحق الذي يحق عنده تنزيلنا لهم فيما تقتضيه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية ، وليس هذا الذي اقترحتموه مما يحق عنده تنزيل الملائكة ، وقرىء " ننزل " مخففاً من الإنزال ، أي : ما ننزل نحن الملائكة إلاّ بالحق ، وقرىء " ما تنزل " بالمثناة من فرق مضارعاً مثقلاً مبنياً

للفاعل من التنزيل بحذف إحدى التاءين ، أي : تتنزل ، وقرىء أيضاً بالفوقية مضارعاً مبنياً للمفعول .

وقيل : معنى ﴿ إلا بالحق ﴾ إلا بالقرآن .

وقيل : بالرسالة ، وقيل : بالعذاب ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين .

فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة .

ثم أنكر على الكفار استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم : ﴿ يأَيُّهَا الذى نُزّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ فقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ أي : نحن نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه ونسبوك بسببه إلى الجنون ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك .

وفيه وعيد شديد للمكذبين به ، المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الضمير في ﴿ له ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأول أولى بالمقام .

ثم ذكر سبحانه أنه عادة أمثال هؤلاء الكفار مع أنبيائهم كذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ أي: رسلاً، وحذف لدلالة الإرسال عليه، أي: رسلاً كائنة من قبلك ﴿ فِى شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴾ في أممهم وأتباعهم وسائر فرقهم وطوائفهم.

قال الفراء: الشيع: الأمة التابعة بعضهم بعضاً فيما يجتمعون عليه، وأصله من شاعه: إذا تبعه.

وإضافته إلى ﴿ الأوّلين ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف عند بعض النحاة، أو من حذف الموصوف عند آخرين منهم.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ أي: ما يأتي رسول من الرسل شيعته إلاّ كانوا به يستهزءون، كما يفعله هؤلاء الكفار مع محمد صلى الله عليه وسلم، وجملة ﴿ إلاّ كانوا به يستهزءون ﴾ في محل نصب على الحال، أو في محل رفع على أنها صفة ﴿ رسول ﴾ أو في محل جر على أنها صفة له على اللفظ لا على المحل.

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ أي: مثل ذلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ أي: الذكر.

﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾، فالإشارة إلى ما دلّ عليه الكلام السابق من إلقاء الوحي مقروناً بالاستهزاء.

والسلك : إدخال الشيء في الشيء ، كالخيط في المخيط ، قاله الزجاج ، قال : والمعنى كما فعل بالمجرمين الذين استهزءوا نسلك الضلال في قلوب المجرمين .

وجملة ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿ نسلكه ﴾ أي : لا يؤمنون بالذكر الذي أنزلناه ، ويجوز أن تكون مستأنفة لبيان ما قبلها فلا محل لها ، وقيل : إن الضمير في ﴿ نسلكه ﴾ للاستهزاء ، وفي : ﴿ لا يؤمنون ﴾ به للذكر ، وهو بعيد ، والأولى أن الضميرين للذكر ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ أي مضت طريقتهم التي سنّها الله في إهلاكهم ، حيث فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء .

(240/423)

---

وقال الزجاج : وقد مضت سنّة الله في الأوّلين بأن سلك الكفر والضلال في قلوبهم .

ثم حكى الله سبحانه إصرارهم على الكفر وتصميمهم على التكذيب والاستهزاء ، فقال : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي : على هؤلاء المعاندين لمحمد صلى الله عليه وسلم المكذبين له المستهزئين به ﴿ بَاباً مِنَ السماء ﴾ أي : من أبوابها المعهودة ، ومكناهم من الصعود إليه ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ ﴾ أي : في ذلك الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون بآلة ، أو بغير آلة حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب الملكوت التي لا يجحدها جاحد ، ولا يعاند عند

مشاهدتها معاند .

وقيل : الضمير في ﴿ فظلوا ﴾ للملائكة ، أي : فظل الملائكة يعرجون في ذلك الباب ، والكفار يشاهدونهم ، وينظرون صعودهم من ذلك الباب ﴿ لَقَالُوا ﴾ أي : الكفار لفرط عنادهم وزيادة عتوّهم : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ قرأ ابن كثير "سكرت" بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، وهو من سكر الشراب ، أو من السكر ، وهو سدّها عن الإحساس ، يقال : سكر النهر : إذا سدّه وحبسه عن الجري .

ورجح الثاني بقراءة التخفيف ، وقال أبو عمرو بن العلاء : سكرت : غشيت وغطت ، ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر . . . وجعلت عين الجزور تسكر

وبه قال أبو عبيد ، وأبو عبيدة ، وروي عن أبي عمرو أيضاً أنه من سكر الشراب ، أي : غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله ، وقيل : معنى سكرت : حبست ، كما تقدم ، ومنه قول أوس بن حجر :

فصرت على ليلة ساهره . . . فليست بطلق ولا ساكره

قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ أضربوا عن قولهم ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ ثم ادّعوا أنهم مسحورون ، أي : سحرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان ، فإنهم إذا رأوا آية توجب عليم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارض السكر ، أو أن عقولهم قد سحرت ، فصار إدراكهم غير صحيح .

ومن بلغ في التعنت إلى هذا الحدّ فلا تنفع فيه موعظة ، ولا يهتدي بآية .

وقد أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ قال : التوراة والإنجيل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ قال : الكتب التي كانت قبل القرآن و ﴿ قرآن مبين ﴾ قال : مبين ، والله هداه ورشده وخيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قال : ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم فعرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في الآية قال: هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار.

وأخرج سعيد بن منصور، وهناد بن السريّ في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث والنشور عن ابن عباس قال: ما يزال الله يشفع ويدخل ويشفع ويرحم حتى يقول: من كان مسلماً فليدخل الجنة، فذلك قوله: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾.

(242/423)

---

وأخرج ابن المبارك في الزهد، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في البعث عن ابن عباس وأنس أنهما تذاكرا هذه الآية ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ فقالا: هذا حيث يجمع الله من أهل الخطايا من المسلمين والمشركين في النار، فيقول المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، فيغضب الله لهم فيخرجهم بفضله ورحمته.

وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه بسند، قال السيوطي صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم،

فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا ، ثم يعيرهم أهل الشرك فيقولون : ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم ، فلا يبقى موحد إلاّ أخرجه الله من النار " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي عاصم في السنّة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً نحوه .

وأخرج إسحاق بن راهويه ، وابن حبان ، والطبراني ، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً نحوه أيضاً .

وأخرج هناد بن السريّ ، والطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم عن أنس مرفوعاً نحوه أيضاً .

وفي الباب أحاديث في تعيين هذا السبب في نزول هذه الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ الآية قال : هؤلاء الكفرة .

وأخرج أيضاً عن أبي مالك في قوله : ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ قال : خلّ عنهم .

وأخرج ابن جرير عن الزهري في قوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ قال : نرى أنه إذا حضره أجله ، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدّم ، وأما ما لم يحضر أجله ، فإن الله يؤخر ما شاء ويقدّم ما شاء .

قلت : وكلام الزهري هذا لا حاصل له ولا مفاد فيه .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله : ﴿ يأَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ قال : بالرسالة والعذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله : ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ قال : وما كانوا لو نزلت الملائكة بمنظرين من أن يعذبوا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ قال : عندنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ قال : أمم الأوّلين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ قال : الشرك نسلكه في قلوب المشركين .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر عن الحسن مثله أيضاً .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ قال : وقائع الله فيمن خلا من الأمم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ قال ابن جريج : قال ابن عباس : فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم لقالوا : ﴿ إِنَّمَا سُكّرَتْ أبصارنا ﴾ قال : قريش تقوله .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم في الآية عن ابن عباس أيضاً يقول : ولو فتحنا عليهم باباً من أبواب السماء فظلت الملائكة تعرج فيه يختلفون فيه ذاهبين وجائين لقال أهل الشرك : إنما أخذ أبصارنا ، وشبه علينا ، وإنما سحرنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ قال : سدّت ، وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه قال : ومن قرأ " سكرت " مخففة ، فإنه يعني : سحرت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

*(244/423)*

---

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

أي : من كل من بغى له كيداً . فلا يزال نور ذكره يسري ، وبحر هداه يجري ، وظلال حقيّته في علومه تمتد على الآفاق ، ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق ، رغماً عن كيد الكائدين ، وإفساد المفسدين : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [ الصف : 8 ] ، وفي إيراد الجملة الثانية اسمية ؛ دلالة على دوام الحفظ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أي : رسلاً : ﴿ مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : فرقهم وطوائفهم . جمع ( شيعة ) وهي الفرقة المتفقة على مذهب وطريقة . و ( الأولين ) نعت لمحذوف . أي : الأمم . أو الكلام من إضافة الصفة للموصوف .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ أي : كما يفعله هؤلاء المشركون .

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ أي : الذكر المنزل : ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : الكافرين وقوله : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : بالذكر . حال من ضمير ( نسلكه ) أي : مكذَّباً مستهزأ به غير مقبول .

قال الزمخشري : كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام . تعني مثل هذا الإنزال أنزلها بهم ، مردودة غير مقضية . وقيل الجملة بيان لما قبلها . وجوز في ضمير ( نسلكه ) أن يعود إلى الاستهزاء والتكذيب المعلوم . وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ استئناف جيء به تكملة للتسلية ، وتصريحاً بالوعيد والتهديد . أي : قد مضت السنة فيهم من هلاكهم ، وزهوق باطلهم ، ونصر الرسل وغلبة جنود

المؤمنين عليهم واستعمارهم ديارهم ، ثم بيّن تعالى أنهم لا يتركون الاستهزاء بالرسل وإن أتتهم الآيات التي تشبه الملجئة لقوة عنادهم وبغيهم ، بقوله تعالى :

(245/423)

---

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي : على هؤلاء المستهزئين : ﴿ بَاباً مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ ﴾ أي : فصاروا طول نهارهم : ﴿ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أي : يصعدون مستوضحين لما يرونه فيها من العجائب .

﴿ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ أي : حيرت أو حبست من الإبصار ، وما نراه شيء نتخايله لا حقيقة له : ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

قال الناصر في " الانتصاف " : المراد ، والله أعلم ، يعني من الآيتين : إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين . فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء ، كلٌّ على علم وفهمٍ : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [ الأنفال : 42 ] ، ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . فأعلمهم الله تعالى من الآن ، وهم في مهلة وإمكان ؛ أنهم ما كفروا إلا على علم ، معاندين باغين غير معذورين ،

والله أعلم . ولذلك عقبه تعالى بقوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ الآية ، أي : هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه ، وولج ذلك في قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وسيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يُفتح لهم باب في السماء ، ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منها نهاراً .

وإلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿ فَظَلُّوا ﴾ لأن الظلول إنما يكون نهاراً ؛ لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف : ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ وسحرنا محمد . وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها . فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب ، من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم ، كما فهم غيرهم من المصدقين ؛ لأن ذلك كله حاصل لهم . وإنما بهم العناد واللدد والإصرار لا غيره . والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 342 . 343 ﴾

(246/423)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم وأنه حافظ له من أن يزاد فيه أة

ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل ، ويبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [ فصلت : 41-42 ] وقوله : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [ القيامة : 16-17 ] إلى قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [ القيامة : 19 ] وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن . وقيل الضمير راجع إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم كقوله : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق . انتهى . ا . هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(247/423)

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ »

هو ردّ على هؤلاء المشركين الذين سخروا من النبىّ بقولهم : « يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » فجاء قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » كبتا لهؤلاء المشركين ، وردعا لهم ، وإعلانا بما يملأ صدورهم حسدا وحسرة . . فقد أبوا إلا أن يجهلوا الجهة التي يقول النبىّ إنه تلقّى

الذّكر منها ، فقالوا « نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ » ولم يقولوا ـ ولو على سبيل الاستهزاء ـ نزّل اللّه عليه الذكر . . فجاءهم قول الحق جلّ وعلا : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » بهذا التوكيد القاطع . . ثم جاء قوله تعالى « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » مؤكدا لهذا التوكيد . . إذ أنه سبحانه هو الذي يتولى حفظه من كل عبث ، وصيانته من كل سوء . . وهذا هو الدليل القاطع على أنه منزّل من عند اللّه . . فليحاولوا أن يبدّلوا من صورته ، أو يدسّوا عليه ما ليس منه . . فإنهم لو فعلوا ، لكان لهم من ذلك حجة على أن ليس من عند اللّه ! وقد حفظ اللّه القرآن الكريم ، هذا الحفظ الربانىّ ، الذي أبعد كل ريبة أو شكّ فى هذا الكتاب ، فلم تمسسه يد بسوء ، على كثرة الأيدى التي حاولت التحريف والتعديل ، فردّها اللّه ، وأبطل كيدها وتدبيرها . . وهكذا ظلّ القرآن الكريم ، وسيظل إلى يوم البعث ، حمى اللّه الذي تحرسه عنايته ، وتحفظه قدرته ، فلم تنخرم منه كلمة ، أو يتبدل منه حرف . . وتلك حقيقة يعلمها أولو العلم من خصوم الإسلام ، كما يؤكدها تاريخ القرآن الكريم ، الذي تولّى النبىّ الأمى كتابته فى الصحف ، كما تولّى غرسه فى صدور المؤمنين . . كلمة كلمة ، وآية آية . .

سئل بعض العلماء : لم جاز التحريف والتبديل على الكتب السماوية السابقة ، ولم يجز هذا على القرآن الكريم ؟ فقال : « إن الكتب السماوية السابقة قد وكل اللّه حفظها إلى أهلها ، كما يقول اللّه تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » (44 : المائدة) . فأهل الكتاب هم الذين « استحفظوا » أي وكّلوا بحفظ كتبهم . . ومن هنا جاز أن يفرطوا فى هذه الأمانة التي فى أيديهم ، وأن يدخل عليها ما دخل من تبديل وتحريف . . أما القرآن الكريم فقد تولّى اللّه سبحانه وتعالى حفظه ، ولم يكله إلى أهله . . فقال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . .

ومن ثمّ كان من المستحيل أن يدخل على القرآن الكريم ـ وهو فى حراسة اللّه ـ تغيير كلمة ، أو تبديل حرف ! ! .

والسؤال هنا : لم وكل اللّه سبحانه وتعالى حفظ الكتب السماوية السابقة إلى أهلها ، ولم يتولّ سبحانه وتعالى حفظها ، وهى من كلماته ، كما تولّى ذلك سبحانه ، بالنسبة للقرآن الكريم ؟ .

والجواب على هذا ، واللّه أعلم :

أولا : أن الكتب السماوية السابقة مرادة لغاية محدودة ، ولوقت محدود ، وذلك إلى أن يأتى القرآن الكريم ، الذي هو مجمع هذه الكتب ، والمهيمن عليها . . وهو بهذا التقدير الرسالة

السماوية إلى الإنسانية كلها فى جميع أوطانها وأزمانها . .

فلو أن الكتب السماوية السابقة ، كان لها هذا الحفظ من اللّه سبحانه ، لما دخلها هذا التحريف والتبديل ، ومن ثمّ لم يكن للقرآن الكريم هيمنة عليها ، ولم يكن ناسخا لها . . الأمر الذي أراد اللّه سبحانه وتعالى للقرآن الكريم أن يجىء له .



---

وثانيا : هذا التبديل والتحريف الذي أدخله أهل الكتب السابقة على كتبهم ، لا يدخل منه شىء على آيات اللّه وكلماته . . كما لم يدخل شىء من ذلك على آياته الكونية ، التي يغوى بها الغاوون ، وينحرف بها المنحرفون . .

وكما لا يدخل شىء من النقص على ذاته الكريمة ، أو صفاته وكمالاته ، إذا جدّف المجدفون على اللّه ، ونظروا إلى ذاته وصفاته بعيون مريضة ، وقلوب فاسدة ، وعقول سقيمة .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ، وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ » .

الشّيع : جمع شيعة . . وشيعة المرء ، من يجتمعون إليه من أهل وعشير . .

.وفى قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ » .إشارة إلى أن كل رسول أرسل من عند اللّه ، كان مبعوثا إلى قومه الذين يعرفهم ويعرفونه . . كما يقول سبحانه : « وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » (4 : إبراهيم) . .

.وفى قوله سبحانه : « وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ » مواساة كريمة للنبىّ ، وتخفيف عليه ، مما يلقى من قومه من عنت ومكروه . .

فتلك هى سبيل الرسل مع أقوامهم . . كلها أشوك ، يزرعها السفهاء والحمقى فى طريق رسل اللّه إليهم . . فليس الرسول إذا بدعا من الرسل ، فيما لقى من قومه ، من سفاهات وحماقات ، فلقد كان إخوانه الذين سبقوه من رسل اللّه ، يلقون مثل ما لقى ، من استهزاء وتكذيب . . بل ومنهم من رجم وقتل ، ولم يشفع لهم فى ذلك ، ما بأيديهم من هدى ، ولا ما بينهم وبين أقوامهم من آصرة النسب والقرابة .

قوله تعالى : « كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » .

(250/423)

---

يقال سلك الطريق : أي سار فيه ، ومنه قوله تعالى : « فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا » (69 : النحل) . . وسلك الشيء فى الشيء : إدخاله فيه ، ومنه قوله تعالى : « اسْلُكْ يَدَكَ فِي

جَيْبِكَ » (32 : القصص) . . وقوله تعالى :

« فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » (27 : المؤمنون) ومنه السلك ، وهو الخيط الذي تنتظم فيه حبات العقد .

.وفى قوله تعالى : « كَذلِكَ » إشارة إلى أن ما كان من الأقوام السابقين من تكذيب لرسل اللّه ، واستهزاء بهم ، هو الذي كان من هؤلاء المجرمين الذين وقفوا من « محمد » هذا الموقف اللئيم ، فكذبوه ، وسخروا منه ، وآذوه بكل ما قدروا عليه من ألوان الأذى . . فكأن هذا الضلال المستولى على بعض النفوس الخبيثة والطبائع المنكرة ، هو داء متنقل ، وميراث موروث ، يأخذه الخلف عن السلف : « كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » . . أي أن الضلال القديم ، ينغرس فى قلوب هؤلاء المجرمين من مشركى قريش ، فيكونون أشبه بحبة من حبات هذا العقد الذي ينتظم المقابح والمساويء ، ويجمع الأشرار إلى الأشرار . .

قوله تعالى : « لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » .

الضمير فى قوله تعالى : « لا يُؤْمِنُونَ » يرجع إلى هؤلاء المجرمين ، وهم مشركو قريش ، والضمير « به » يعود إلى النبىّ الكريم ، الذي جاء ذكره فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ » . . والحديث عنه بضمير الغائب ، تنويه بقدر النبي وتكريم له ، وإشعار بأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى الدفاع عنه ، ومحاسبة المجرمين على

استهزائهم به . . ويجوز أن يكون هذا الضمير عائدا إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله تعالى : «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» .

*(251/423)*

---

.وفى قوله تعالى : «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» . . تهديد ووعيد لهؤلاء المجرمين من كفار قريش ، وأن سنّة اللّه التي مضت فى السابقين ، كانت الهلاك والبلاء للمكذبين ، والنصر ، والعافية للمرسلين وأتباع المرسلين . . ولن تتبدل سنة اللّه مع هؤلاء المشركين من قريش ومن معهم ! قوله تعالى : «وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» .

عرج إلى المكان : صعد إليه ، والعروج ، هو الصعود من أسفل إلى أعلى . .

وسكّرت الأبصار : عميت وعشيت ، وزاغت ، شأن من تستولى عليه الخمر ، ويصيبه دوار السّكر .

وفى الآيتين الكريمتين ، ما يكشف عن الضلال الكثيف المنعقد على قلوب هؤلاء المجرمين ، وأنهم ـ وهم فى هذا الضلال ـ لا يرون لمعة من لمعات الهدى أبدا ، ولو جاءتهم كل آية مبصرة . .

فلو أن اللّه سبحانه فتح لهم بابا من السماء ، فظلوا فيه يعرجون ويرتفعون صعدا ، حتى يشهدوا الملأ الأعلى ، وما فيه من آيات ، تدعوهم إلى الإيمان باللّه. لأنكروا ما تشهده حواسّهم ، ولاّتهموا أعينهم بأنها قد وقعت تحت حدث من الأحداث ، فذهب بقدرتها على الإبصار . . أو لقالوا إن قوة خفية سحرتهم ، وخيّلت إليهم هذا الذي يرونه . وهذا يعنى أنهم لن يؤمنوا أبدا ، ولو جاءتهم تلك الآيات التي يقترحونها على النبىّ . إذ أن لهم ، من ضلالهم ، مع كل آية مكر ، وفى كل معجزة قاهرة قول . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 7 صـ 218. 223 ﴾

(252/423)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلامهم المستهزئين به ، إذ قالوا : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ [ سورة الحجر : 6 ] ، بعد أن عجل كشف شبهتهم في قولهم : ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ [ سورة الحجر : 7 ] .

جاء نشر الجوابين على عكس لفّ المقالين اهتماما ً بالابتداء بردّ المقال الثاني بما فيه من

الشبهة بالتعجيز والإفحام ، ثم ثُني العنان إلى ردّ تعريضهم بالاستهزاء وسؤال رؤية الملائكة .

وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر على الرسول مجاراة لظاهر كلامهم .

والمقصود الردّ عليهم في استهزائهم ، فأكد الخبر بإنا ﴾ وضمير الفصل مع موافقته لما في الواقع كقوله : ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [ سورة المنافقون : 1 ] .

ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأن منزل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء ؛ فجملة وإنا له لحافظون ﴾ معترضة ، والواو اعتراضية .

والضمير المجرور باللام عائد إلى ﴿ الذكر ﴾ ، واللام لتقوية عمل العامل لضعفه بالتأخير عن معموله .

وشمل حفظه الحفظ من التلاشي ، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه ، بأن يسّر تواتره وأسباب ذلك ، وسلّمه من التبديل والتغيير حتى حفظته الأمّة عن ظهور قلوبها من حياة النبي صلى الله عليه وسلم فاستقرّ بين الأمّة بمسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وصار حفّاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر .

وقد حكى عياض في "المدارك" : أن القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي

البصري سئل عن السرّ في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من طرق التغيير له.

فأجاب بأن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال: ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ [ سورة المائدة: 44 ] وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

(253/423)

---

قال أبو الحسن بن المُنْتَاب ذكرت هذا الكلام للمَحَامِلي فقال لي: لا أحسنَ من هذا الكلام.

وفي تفسير "القرطبي" في خبر رواه عن يحيى بن أكثم: أنه ذكر قصة إسلام رجل يهودي في زمن المأمون، وحدث بها سفيان بن عيينة فقال سفيان: قال الله في التوراة والإنجيل ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ فجعل حفظه إليهم فضاع.

وقال عز وجل: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فحفظه الله تعالى علينا فلم يضع" اهـ.

ولعل هذا من توارد الخواطر.

وفي هذا مع التنويه بشأن القرآن إغاظة للمشركين بأن أمر هذا الدين سيتم وينتشر القرآن ويبقى على ممرّ الأزمان .

وهذا من التحدّي ليكون هذا الكلام كالدليل على أن القرآن منزّل من عند الله آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لو كان من قول البشر أو لم يكن آية لتطرّقت إليه الزيادة والنقصان ولاشتمل على الاختلاف ، قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [ سورة النساء : 82 ] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) ﴾

عطف على جملة ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [ الحجر : 9 ] باعتبار أن تلك جواب عن استهزائهم في قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [ الحجر : 6 ] فإن جملة ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ قَول بموجَب قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ .

وجملة ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴾ إبطال لاستهزائهم على طريقة التمثيل بنظرائهم من الأمم السالفة .

وفي هذا التنظير تحقيق لكفرهم لأن كفر أولئك السالفين مقرّر عند الأمم ومتحدّث به بينهم .

وفيه أيضاً تعريض بوعيد أمثالهم وإدماج بالكناية عن تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام .

(254/423)

---

والتأكيد بلام القسم و ( قَد ) لتحقيق سبق الإرسال من الله ، مثل الإرسال الذي جحدوه واستعجبوه كقوله : { أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم } [ سورة يونس : 2 ] .

وذلك مقتضى موقع قوله : { من قبلك } .

والشِيَع جمع شيعة وهي الفرقة التي أمرها واحد ، وتقدم ذلك عند قوله تعالى : { أو يلبسكم شيعا } في سورة الأنعام ( 65 ) .

ويأتي في قوله تعالى : { ثم لننزعن من كل شيعة } في سورة مريم ( 69 ) ، أي في أمم الأولين ، أي القرون الأولى فإن من الأمم من أرسل إليهم ومن الأمم من لم يرسل إليهم .

فهذا وجه إضافة شيع } إلى { الأولين } .

و { كانوا به يستهزءون } يدلّ على تكرر ذلك منهم وأنه سنتهم ، ف ( كان ) دلّت على أنه سجية لهم ، والمضارع دل على تكرره منهم .

ومفعول ﴿ أرسلنا ﴾ محذوف دلت عليه صيغة الفعل، أي رُسلاً، ودلّ عليه قوله: ﴿ من رسول ﴾.

وتقديم المجرور على ﴿ يستهزءون ﴾ يفيد القصر للمبالغة، لأنهم لما كانوا يكثرون الاستهزاء برسولهم وصار ذلك سجية لهم نزلوا منزلة من ليس له عمل إلا الاستهزاء بالرسول.

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) ﴾

استئناف بياني ناشىء عن سؤال يخطر ببال السامع لقوله ﴿ وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ [سورة الحجر: 11] فيتساءل كيف تواردت هذه الأمم على طريق واحد من الضلال فلم تفدهم دعوة الرسل عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [سورة الذاريات: 53].

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن جملة ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [سورة الحجر: 9]؛ إذ قد يخطر بالبال أن حفظ الذكر يقتضي أن لا يكفر به من كفر.

فأجيب بأن ذلك عقاب من الله لهم لإجرامهم وتلقّيهم الحق بالسخرية وعدم التدبر ، ولأجل هذا اختير لهم وصف المجرمين دون الكافرين لأن وصف الكفر صار لهم كاللقب لا يشعر بمعنى التعليل .

ونظيره قوله في الآية الأخرى ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ [ سورة التوبة : 125 ] .

والتعبير بصيغة المضارع في نسلكه ﴾ للدلالة على أن المقصود إسلاك في زمن الحال ، أي زمن نزول القرآن ، ليعلم أن المقصود بيان تلقي المشركين للقرآن ، فلا يتوهم أن المراد بالمجرمين شيع الأولين مع ما يفيده المضارع من الدلالة على التجديد المناسب لقوله : ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ ، أي تجدد لهؤلاء إبلاغ القرآن على سنة إبلاغ الرسالات لمن قبلهم .

وفيه تعريض بأن ذلك إعذار لهم ليحل بهم العذاب كما حل بمن قبلهم .

والمشار إليه بقوله : ﴿ كذلك ﴾ هو السلك المأخوذ من ﴿ نسلكه ﴾ على طريقة أمثالها المقررة في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ في سورة البقرة ( 143 ) .

والسلك : الإدخال .

قال الأعشى:

كما سَلَكَ السّكّي في الباب فَيْتَق . . .

أي مثل السلك الذي سنصفه نسلك الذكر في قلوب المجرمين ، أي هكذا نولج القرآن في عقول المشركين ، فإنهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم ويدركون خصائصه ؛ ولكنه لا يستقر في عقولهم استقرار تصديق به بل هم مكذبون به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [ سورة التوبة : 124 125 ] .

وبهذا السلوك تقوم الحجة عليهم بتبليغ القرآن إليهم ويعاد إسماعهُم إياه المرة بعد المرة لتقوم الحجة .

فضمير نسلكه ﴿ و ﴾ به ﴿ عائدان إلى ﴾ الذكر ﴿ في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ [ سورة الحجر : 9 ] أي القرآن .

والمجرمون هم كفار قريش .

وجملة لا يؤمنون به ﴾ بيان للسلك المشبه به أو حال من المجرمين، أي تعيه عقولهم ولا يؤمنون به.

وهذا عام مراد به من ماتوا على الكفر منهم.

والمراد أنهم لا يؤمنون وقتاً ما.

وجملة ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ معترضة بين جملة ﴿ لا يؤمنون به ﴾ وجملة ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ﴾ [ الحجر: 14 ] الخ.

والكلام تعريض بالتهديد بأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية معاملة للنظير بنظيره، لأن كون سنة الأولين مضت أمر معلوم غير مفيد ذكره، فكان الخبر مستعملاً في لازمه بقرينة تعذر الحمل على أصل الخبرية.

والسنّة: العادة المألوفة.

وتقدم في قوله تعالى: ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ في سورة آل عمران ( 137 ).

وإضافتها إلى الأولين ﴾ باعتبار تعلقها بهم، وإنما هي سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا، والإضافة لأدنى ملابسة.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

عطف على جملة ﴿ لا يؤمنون به ﴾ [ سورة الحجر: 13 ] وهو كلام جامع لإبطال جميع

معاذيرهم من قولهم : ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ سورة الحجر ( 7 ) وقولهم ؛ ﴿ إنك لمجنون ﴾ [ سورة الحجر : 6 ] بأنهم لا يطلبون الدلالة على صدقه ، لأن دلائل الصدق بيّنة ، ولكنهم ينتحلون المعاذير المختلفة .

والكلامُ الجامعُ لإبطال معاذيرهم : أنهم لو فتح الله باباً من السماء حين سألوا آيةً على صدق الرسول ، أي بطلب من الرسول فاتصلوا بعالم القدس والنفوس الملكية ورأوا ذلك رأي العين لاعتذروا بأنها تخيّلات وأنهم سُحِروا فرأوا ما ليس بشيء شيئاً .

ونظيره قوله : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ [ سورة الأنعام : 7 ] .

و( ظلّ ) تدل على الكون في النهار ، أي وكان ذلك في وضح النهار وتبين الأشباح وعدم التردد في المرئي .

(257/423)

---

والعُروج : الصعود .

ويجوز في مضارعه ضمّ الراء وبه القراءة وكسرها ، أي فكانوا يصعدون في ذلك الباب نهاراً .

وسكرت ﴾ بضم السين وتشديد الكاف في قراءة الجمهور ، وبتخفيف الكاف في قراءة ابن كثير .

وهو مبني للمجهول على القراءتين ، أي سدّت .

يقال : سكر البابَ بالتشديد وسكره بالتخفيف إذا سدّه .

والمعنى : لجحدوا أن يكونوا رأوا شيئاً .

وأتوا بصيغة الحصر للدلالة على أنهم قد بتّوا القول في ذلك .

وردّ بعضهم على بعض ظن أن يكونوا رأوا أبواب السماء وعرجوا فيها ، وزعموا أنهم ما كانوا يبصرون ، ثم أضربوا عن ذلك إضراب المتردّد المتحيّر ينتقل من فرض إلى فرض فقالوا : ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ ، أي ما رأيناه هو تخيلات المسحور ، أي فعادوا إلى إلقاء تبعة ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سحرهم حين سأل لهم الله أن يفتح باباً من السماء ففتحه لهم .

وقد تقدم الكلام على السحر وأحواله عند قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ في سورة البقرة ( 102 ) .

وإقحام كلمة قوم ﴾ هنا دون أن يقولوا : بل نحن مسحورون ، لأن ذكرها يقتضي أن السحر قد تمكن منهم واستوى فيه جميعهم حتى صار من خصائص قوميتهم كما تقدم

تبيينه عند قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة ( 164 ) .

وتكرر ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(258/423)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

والقرآن قد جاء بعد كُتُب متعددة ، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله ؛ إلا أن أيّ كتاب منها لم يَكُنْ معجزة ؛ بل كانت المُعْجزة تنزل مع أيِّ رسول سبق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادة ما تكون المعجزة من صنف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم .

وما دام المنهج مفصولاً عن المعجزة ؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أنْ يحافظوا عليها ، وكان هذا تكليفاً من الحق سبحانه لهم . والتكليف كما نعلم عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ، ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكُتب المنزّلة إليهم .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله . . . ﴾ [

المائدة : 44 ]

أي : أن الحق سبحانه وتعالى قد كلّفهم وطلب منهم أنْ يحفظوا كتبهم التي تحمل منهجه ؛ وهذا التكليف عُرْضة أنْ يطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ وهم قد عَصَوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير .

وقال الحق سبحانه عنهم : ﴿ . . . وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [ البقرة : 146 ]

بل وأضافوا من عندهم كلاماً وقالوا : هو من عند الله ؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [ البقرة : 79 ]

(259/423)

---

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك لم يَشَأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر ؛ لأن التكليف عُرْضة أن يطاع وعُرْضة أنْ يُعصى ، فضلاً عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة في أنه

يحمل المنهج ، وهو المعجزة الدالة على صِدْق بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفس الوقت .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : 9 ]

والذِّكْر إذا أُطلِق انصرف المعنى إلى القرآن ؛ وهو الكتاب الذي يحمل المنهج ؛ وسبحانه قد شاء حِفْظه ؛ لأنه المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان الصحابة يكتبون القرآن فَوْراً أن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن ؛ ولكنهم يتفنّنون في وسائل حفْظه ؛ فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحة واحدة ؛ وسخَّر لذلك مواهب أُناسٍ غير مؤمنين بالقرآن .

وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة . وفي ألمانيا على سبيل المثال توجد مكتبة يتم حِفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعيّن مُحدّد .

وفي بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُنهي حِفْظه وعمره سبع سنوات ؛ وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض مِمَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة ؛ فهو لا يستطيع أن يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقَارب لها ؛ إلى أنْ يردّه حافظ آخر للقرآن .

ولكي نعرف دِقّة حِفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم ؛ نجد أن البعض قد حاول أن يُدخِل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، يروْنَ أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقير الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [ الفتح : 29 ]

وأدخلوا في هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها " محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم "

وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا : " إن به شيئاً زائداً " ، فردَّ مَنْ طبع المصحف " ولكنها زيادة تحبونها وتُوقّرونها " ، فردَّ العلماء : " إن القرآن توقيفيّ ؛ نقرؤه ونطبعه كما نزل " . وقامت ضَجَّة ؛ وحسمها العلماء بأن أيّ زيادة حتى ولو كانت في توقير رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبته لا تجوز في القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ . . . ﴾

وهنا يُسلِّي الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بدِعاً ، بل حدث له من إنكار ليس بدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو

تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء ؛ فلابُدّ أن تكون مشقتك على قَدْر مهمتك ، ولأبدّ أن يكون تعبُك على قَدْر جسامة الرسالة الخاتمة .

و﴿ شِيَعِ . . . ﴾ [ الحجر : 10 ]

تعني الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد ؛ سواء كان ضلالاً أم حقاً . والمثَل على مَن اجتمعوا على باطل هو قوله الحق : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً . . . ﴾ [ الأنعام : 65 ]

(261/423)

---

والمثَل على مَنْ اجتمعوا على الحق قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴾ [ الصافات : 83 ]

وهكذا تكون كلمة ( شِيع ) تعني الجماعة التي اجتمعت على الحق أو الباطل .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين ﴾ [ الحجر : 10 ]

يعني أنك لن تكون أقلّ من الرُّسل السابقين عليك ، بل قد تكون رحلتك في الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسل وختامك للأنبياء .

ويُكمِل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فيقول :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) ﴾

ونجد كلمة : ﴿ . . . يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [ الحجر : 11 ]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا : ﴿ . . . يا أيُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الحجر : 6 ]

وكأن الحق سبحانه يُوضّح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليلٌ على أنك قد بلغتَ منهم مَبْلغ الكَيْد ، ولو كان كيدُك قليلاً لخفّفوا كَيْدهم ؛ ولكنك جئتَ بأمر قاس عليهم ، وهدمت لهم مذاهبهم ، وهدمت حتى سيادتهم وكذلك سطوتهم ، ولم يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به .

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك ؛ ويحاولون بالاستهزاء أن يحققوا لك الخور لتضعف ؛ معتمدين في ذلك على أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً في قومه ومعززاً مكرماً .

وهنا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطِّن نفسه على أنه سيُستهزأ به وسيُحارب ؛ وسيُؤْذَى ؛ لأن المهمة صعبة وشاقّة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيذاؤك ، فاعلم أن هذه من حيثيات ضرورة مهمتك .

ولذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يتأكد من مهمته ؛ أخذته زوْجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها عند ورقة بن نوفل ؛ وعرف ورقة أنه سَيُؤذَى ، وقال ورقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ليتني أكون حياً حين يُخرِجك قومك . فتساءل الرسول صلى الله عليه وسلم : أمُخرِجيّ هُم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصِّنه ضد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التي تقابل الأحداث ؛ فما دام سيصير رسولاً ، فليعلم أن الطريق مَحْفوف بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود مَنْ يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة في مكان به وباء يحتاج إلى مَصْل مضاد من هذا الوباء ؛ لِيقيَ نفسه منه ، وهذا ما يحدث في الماديات ، وكذلك الحال في المعنويات .

ولهذا يُوضِّح سبحانه هذا الأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولتزداد ثقته في الحق الذي بعثه به ربُّه ، ويشتدّ في المحافظة على تنفيذ منهجه .

والاستهزاء كما نعلم لَوْنٌ من الحرب السلبية ؛ فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجد ، ولا أنْ يردّوا منهجه الراقي ؛ لذلك لجئوا إلى السُّخْرية من

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تنفعهم سخريتهم في النَّيْل من الرسول ، أو النَّيْل من الإسلام وفي هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) ﴾

و" سلك الشيء " أي : أدخله ، كما نُدخِل الخيط في ثقب الإبرة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمصلين ﴾ [ المدثر : 42-43 ]

أي : ما أدخلكم في النار ؛ فتأتي إجابتهم : ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمصلين ﴾ [ المدثر : 43 ]

(263/423)

---

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ [ الحجر : 12 ]

أي : كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين ، كذلك نُدخِله في قلوب المجرمين .

يعني : مشركي مكّة ، لأنهم أدخلوا أنفسهم في دائرة الشرك التي دعتهم إلى هذا الفعل ، فنالوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من أقوام مثلهم ؛ وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً

يكذبونه بألسنتهم، مثلما قال الحق سبحانه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ . . .
﴾ [النمل: 14]

فهم أمة بلاغة ولغةٍ وبيانٍ؛ وقد أثّر فيهم القرآن بحلاوته وطلاوته؛ ولكنه العناد، وها هو واحد منهم يقول:

"إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمِر، وإن أسفله لمغدق".

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة.

ونعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان؛ والحق سبحانه هو القائل عن أحدهما: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: 16]

أي: أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع، فقال الحق سبحانه رداً عليهم: ﴿ . . . قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: 44]

وهي مسألة كما أقول دائماً تتعلق بالقابل الذي يستقبل الحدث؛ إما أنْ يُصفِّي قلبه ليستقبل القرآن؛ وإما أنْ يكون قلبه والعياذ بالله مُمْتلِئاً بالكفر، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق.

وقد حدث أن ادخل الحق سبحانه كتبه السماوية في قلوب الأقوام السابقة على رسول الله

، ولكنهم لفساد ضمائرهم وظُلْمة عقولهم ؛ سخروا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها .

ويَصِف الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ . . . ﴾



---

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكفرة لا تلين بالإيمان ؛ ولا تُحسِن استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ، تماماً كما حدث من الأقوام السابقة ، فتلك سُنة مَنْ سبقوهم إلى الكفر .

والسُّنة هي الطريقة التي تأتي عليها قضايا النتائج للمُقدّمات وهي أولاً وأخيراً قضايا واحدة .

ومرة نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾ [ الأحزاب : 62 ]

ونعلم أن الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التعبير . ف ( سنة الأولين ) تعني الأمور الكونية التي قدرها الله لعباده . و ( سنة الله ) تعني سُنّة منسوبة لله ، ومن سنن الحق سبحانه أن يُهلك المُكذّبين للرسل إنْ طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء . . . ﴾

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم مَلَكٌ من السماء ؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى مِمَّا طلبوا ، ذلك أن نزول مَلَك من السماء هو أسهل بكثير من أن يُنزِلَ من السماء سُلَّماً يصعدون عليه ، وفي هذا ارتقاء في الدليل ؛ لكنهم يرتقون أيضاً في الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فَلَسوفَ يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لَسحرهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مِثْل هذا الأمر كان يجب أن يكون بديهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادوْنَ في الكفر ، ويقولون : إنه لو نزّل سُلَّماً من السماء وصعدوا عليه ؛ لَكانَ ذلك بفعل السحر ؛ ولكانَ رسول الله هو الذي سحرهم ؛ وأعمى أبصارهم ، ولَجعلهم يتوهمون ذلك .

(265/423)

---

وكأن معنى هذا القول الكريم : لو ارتقينا في مطلبهم ، وأنزلنا لهم سُلَّماً يصعدون به إلى أعلى ؛ ليقولوا : إن الحق هو الذي بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم ؛ لَمَا آمنوا بل لقالوا : إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم . وهكذا يرتقون في العناد والجحود .

ولأبدَّ أن نلحظ أن الحق سبحانه قد جاء هنا بكلمة : ﴿ فَظَلُّواْ . . . ﴾ [ الحجر :

[14

ولم يقل " وكانوا " ، ذلك أن " كان " تُستخدم لمُطْلق الزمن ، و " ظل " للعمل نهاراً ، و " أمسى " للعمل ليلاً ، أي : أن كل كلمة لها وَقْت مكتوب ، والمقصود من " ظَلُّوا " هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السُّلَّم الذي يعرجُون عليه إلا في منتصف النهار ، ولكنهم أصرُّوا على الكفر .

لذلك قال سبحانه : ﴿ . . . فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ [الحجر : 14]

أي : لن نأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون في وضح النهار . أي : أن الله حتى لو فتح باباً في السماء يصعدون منه إلى الملأ الأعلى في وضح النهار لكذَّبوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

(266/423)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الحجر : 10-11) ، وفي سورة الزخرف (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ

* وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) ( الزخرف : 6-7 ) ، للسائل أن يسأل عن تخصيص آية الحجر بقوله : ( ( من الرسل ) ) وآية الزخرف بقوله : ( ( من نبي ) ) ؟

والجواب ، والله أعلم : أنه لما تقدم في آية الزخرف لفظ الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك ذكر من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل ، فورد هنا ما يعم الصنفين ، عليهم السلام . أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب بالتكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه ، عليه السلام ، وتسليته ، فخصت بالتعبير باسم الرسالة تسلية له عن قولهم : ( إنك لمجنون ) بما جرى للرسل قبل ، عليهم السلام ، من مثل ذلك ، ومن البين أن موقع الرسل هنا أمكن في تسليته ، عليه السلام ، فجاء كل على ما يجب من المناسبة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ( كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ) ( الحجر : 12 ) ، وفي سورة الشعراء : ( كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ) ( الشعراء : 200 ) ، فللسائل أن يسأل عن وجه ورود : ( نسلكه ) في سورة الحجر ، وورود : ( سلكناه ) في سورة الشعراء ؟



---

ووجه ذلك ، والله أعلم : أنه تقدم في آية الحجر قوله تعالى : ( وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ) ( الحجر : 6 ) ، وهو قول العتاة من كفار قريش وغيرهم الذين عُنوا

بقوله ( تعالى ) تهديداً ووعيداً : ( ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) ( الحجر : 3 ) ولم يتقدم في هذه السورة إخبار بحال غيرهم من مكذبي الأمم سوى التعريف بأن كل قرية أهلكت فبأجل معلوم وكتاب سابق لا يتأخر عنه ولا يتقدم ، فحال

(268/423)

---

هؤلاء كحال من تقدمهم ، كما قال تعالى : ( فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ) ( فاطر : 43 ) وقوله : ( كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ) ، الضمير للمذكر المتقدم وهو هنا القرآن ، والمراد بسلوكه في قلوبهم ما تحصل عندهم وقطعوا به من معرفتهم بباهر نظمه ، ورفيع إيجازه ، وعلى تناسبه ، وأنه يفوق كل كلام مع أنه بلسانهم ، وقد علموا مع هذا عجزهم عن معارضته مع أنه لم يرد بغير لسانهم ولا بما لا يعرفونه في محاوراتهم ، فهذا المراد بسلوكه في قلوبهم ، فقد كانوا متيقنين أنه ليس من كلام البشر وبهذا أخبر سبحانه عنهم تسلية لنبيه عليه السلام فقال : ( فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ) ( الأنعام : 33 ) وبعجزهم عن معارضته قامت الحجة عليهم ، ثم امتنعوا من الإيمان بما سبق لهم في الأول ( إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ) ( يونس : 96-97 ) ، فورد هنا ( نسلكه ) بلفظ المبهم لأن الإخبار عن كفار قريش ممن استمر على كفره فهو حالهم

وقت نزول القرآن وبعده . وقوله : ( ( نسلكه ) ) مشعر باستمرار حالهم وموافاتهم على ذلك ، وقد تأكد هذا بوصفه بالإجرام وتسجيل حالهم السيء بقوله : ( ( لايؤمنون ) ) ، وأداة لا نافية للمستقبل فناسب هذا لفظ المبهم المضارع .

أما آية الشعراء فقد تقدمها ذكر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم المكذبين ، بعد سلوك ما ذكره سبحانه أنه زبر الأولين في قلوبهم ، فلما تقدم أمرها أولاً ، وانقطعت أومانها ، وقعت العبارة بالماضي ، فقال تعالى : ( كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ) ، ولم يناسب هنا غير الماضي ، فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يناسب ، ولم يناسب عكس الوارد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 289.290 ﴾

*(269/423)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ قال : عندنا .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقال في آية آخرى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [ فصلت: 42 ] والباطل إبليس. قال: فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ولا ينقص منه حقاً، حفظه الله من ذلك والله أعلم بالصواب.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ﴾ قال: أمم الأولين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس في قوله ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به ﴾ قال: الشرك نسلكه في قلوب المشركين.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله ﴿ كذلك نسلكه ﴾ قال: الشرك نسلكه في قلوبهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به ﴾ قال: إذا كذبوا سلك الله في قلوبهم أن لا يؤمنوا به ﴿ وقد خلت سُنّة الأولين ﴾ قال: وقائع الله فيمن خلا من الأمم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ كذلك نسلكه ﴾ قال: هم كما قال الله هو أضلهم ومنعهم الإيمان.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

(270/423)

---

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ يقول : ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلت الملائكة تعرج فيه ، يختلفون فيه ذاهبين وجائين لقال أهل الشرك : إنما أخذت أبصارنا وشبه علينا وسحرنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج في قوله ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ قال : رجع إلى قوله ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة . . . ﴾ ما بين ذلك قال ابن جريج : قال ابن عباس : لظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم ﴿ لقالوا إنما سكرت ﴾ سدت ﴿ أبصارنا ﴾ قال : قريش تقوله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ قال : سدت .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنه قرأ ﴿ سكرت أبصارنا ﴾ خفيفة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: من قرأ ﴿ سكرت ﴾ مشددة، يعني سدّت؛ ومن قرأ ﴿ سكرت ﴾ مخففة، فإنه يعني سحرت. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(271/423)

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ ﴾: إمَّا مبتدأ، وإمَّا تأكيدٌ، ولا يكون فصلاً لأنه لم يقع بين اسمين.

والضمير في "له" للذِّكْر، وهو الظاهرُ. وقيل: للرسولِ عليه السلام.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) ﴾

قوله تعالى: ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾: مفعولُه محذوفٌ، أي: أرسلنا رسلاً من قبلك، ف "مِنْ قبلك" يجوز أن يتعلَّقَ ب "أَرْسَلْنَا"، وأن يتعلَّق بمحذوفٍ، على أنه نعتٌ للمفعولِ المحذوفِ.

و﴿ شِيَعِ الأولين ﴾ قال الفراء: "هو من إضافةِ الموصوفِ لصفتِه، والأصلُ: في الشِّيَع

الأولين كصلاة الأُولى ، وجانب الغربيّ " . والبصريون يُؤَوّلُونه على حذفِ الموصوفِ ، اي : في شِيَعِ الأممِ الأوّلين ، وجانب المكانِ الغربي ، وصلاة الساعةِ الأولى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ قال الزمخشري " حكايةُ حالٍ ماضيةٍ ؛ لأنَّ " ما " لا تدخُل على مضارعٍ إلا وهو في موضع الحال ، ولا على ماضٍ إلا وهو قريبٌ من الحال " . وهذا الذي ذكرَه هو الأكثرُ في لسانِهم ، لكنه قد جاءَتْ مقارِنَةً للمضارعِ المرادِ به الاستقبال كقولِه تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي ﴾ [ يونس : 15 ] ، وأنشدوا للأعشى يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

2933- له صَدَقاتٌ ما يَغِبُّ نَوالُها . . . وليس عطاءُ اليومِ مانِعَه غَدا

وقولَ أبي ذؤيب :

2934- أودى بَنِيّ وأَوْدَعُوني حَسْرة . . . عند الرُّقَادِ وعَبْرةً ما تُقْلَعُ

قوله : ﴿ إِلاَّ كَانُواْ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أن تكونَ حالاً من مفعول " يَأْتِيهِمْ " . ويجوزُ أن تكونَ صفةً ل " رسول " فيكونَ في محلِّها وجهان : الجرُّ باعتبارِ اللفظ ، والرفعُ باعتبارِ الموضعِ ، وإذا كانت حالاً فهي حالٌ مقدرةٌ .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ يجوز في الكافِ أن تكونَ مرفوعةَ المحلِّ على أنها خبرُ مبتدأ مضمر ، أي : الأمرُ كذلك ، و " نَسْلُكه " مستأنفٌ . ويجوز أن تكونَ منصوبةَ المحلِّ : إمَّا نعتاً لمصدرٍ محذوف ، أي : مثلَ ذلك السَّلْكِ ونحوِه نَسْلُكه ، أي : نَسْلُكُ الذِّكْرَ ، وإمَّا حالاً من المصدرِ المقدَّرِ .

والهاءُ في " نَسْلُكُه " يجوز عَوْدُها للذكْرِ ، وهو الظاهر . وقيل : يعودُ للاستهزاء . وقيل : على الشِّرك . !

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) ﴾

والهاء في : ﴿ بِهِ ﴾ يجوز عَوْدُها على ما تقدَّم من الثلاثة ، ويكون تأويلُ عَوْدِها على الاستهزاءِ والشِّرْكِ ، أي : لا يؤمنون بسببِه . وقيل : للرسولِ ، وقيل : للقرآن . وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكونَ حالاً ، أي : لا يؤمنون مُسْتهزئين " قلت : كأنه جعل " به " متعلقاً بالحالِ المحذوفةِ قائماً مَقامَها ، وهو مردودٌ ؛ لأن الجارَّ إذا وقع حالاً أو نعتاً أو صلةً أو خبراً تعلَّق بكونٍ مطلقٍ لا خاصٍ ، وكذا الظرفُ .

ومحلُّ ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ النصبُ على الحال ، ويجوز أَنْ لا يكونَ لها محلٌّ ، لأنها بيانٌ لقوله ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ .

وقوله ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ استئناف .

والسَّلْكُ : الإِدخال . يقال : سَلَكْتُ الخيطَ في الإِبرة ، ومنه ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [

المدثر : 42 ]يُقال : سَلَكَه وأَسْلكه ، أي : نَظَمَه ، قال الشاعر :

2935- وكنتُ لِزازَ خَصْمِك لم أُعَرِّدْ . . . وقد سَلَكُوكَ في أَمْرٍ عَصِيْبِ

وقال الآخر في " أَسْلَكَ " :

2936- حتى إذا أَسْلَكُوهمْ في قُتَائِدَةٍ . . . شَلاًّ كما تَطْرُدُ الجَمَّالةُ الشُّرُدا

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) ﴾

(273/423)

---

قوله تعالى : ﴿ فَظَلُّوْا ﴾ : هي الناقصة ، والضميرُ في " فظلُّوا " عائدٌ على الكفارِ المُفَتَّحِ لهم البابُ . وقيل : يعودُ على الملائكة . وقرأ الأعمشُ وأبو حَيْوة " يَعْرِجون " بكسر الراء ، وهي في لغة هُذَيْلٍ في عَرَجَ يَعْرِج ، أي : صَعِد .

﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

قوله تعالى : ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ : قرأ ابن كثير " سُكِرَتْ " مبنياً للمفعول مخففَ الكاف ، وباقي السبعة كذلك ، إلا أنهم شدَّدُوا الكاف . والزهري " سَكِرَتْ " بفتح السين وكسرِ الكاف خفيفةً مبنياً للفاعل .

فأمَّا القراءةُ الأولى فيجوز أن تكونَ بمعنى المشددة ، فإنَّ التخفيف يَصْلُح للقليلِ والكثير ،

وهما مأخوذتان من "السِّكْر" بكسرِ السينِ وهو السَّدُّ ، فالمعنى : حُبِسَتْ أبصارنا وسُدَّت . وقيل : بمعنى عُطِبَتْ . وقيل : بمعنى أُخِذَتْ . وقيل : بمعنى سُحِرَتْ . وقيل : المشدَّدُ مِنْ سِكْرِ الماء ، والمخفَّفُ بمعنى سُحِرَتْ . / وقيل : المشدَّدُ مِنْ سِكْرِ الماءِ بالكسرِ ، والمخفَّفُ مِنْ سُكْرِ الشَّراب بالضم .

والمشهورُ أنَّ "سَكَر" لا يتعدَّى فكيف بُني للمفعول . فقال أبو علي : "ويجوز أن يكونَ سُمِع متعدِّيًا في البصر" والذي قاله المحققون مِنْ أهل اللغة أنَّ "سَكَرَ" : إنْ كان مَنْ سَكَرَ الشرابِ ، أو مِنْ سَكَرِ الريح ، فالتضعيفُ فيه للتعدية ، وإن كان مِنْ سَكَرِ الماءِ فالتضعيفُ للتكثيرِ لأنه متعدٍّ مخففاً ، وذلك أنه يُقال : سَكَرَتْ الريح تَسْكُرُ سَكَرًا إذا رَكَدَتْ ، وسَكِر الرجلُ من الشراب سَكَرًا إذا رَكَد ولم يَنْفُذْ لحاجته ، فهذان قاصران ، فالتضعيفُ فيهما للتعدية . ويقال : سَكَرْتُ الماءَ في مجاريه : إذا مَنَعْتَه من الجَرْيِ ، فهذا متعدٍّ ، فالتضعيفُ فيه للتكثير .



---

وأمَّا قراءةُ ابنِ كثير فإن كانت مِنْ سَكَرِ الماءِ فواضحةٌ لأنه متعدٍّ ، وإن كانَتْ مِنْ سَكَرِ الشَّرابِ أو سَكَرِ الريحِ فيجوز أن يكون الفعلُ استُعْمل لازماً تارةً ومتعدياً أخرى ، نحو :

رَجَعَ زيدٌ ، ورَجَعَه غيرُه ، وسَعَدَ وسَعَدَه غيرُه .

وقال الزمخشري : " وسُكِّرت : حُيِّرَتْ ، أو حُبِسَتْ من السَّكَرِ أو السِّكْر ، وقُرِئ " سُكِرَتْ " بالتخفيف ، أي : حُبِسَتْ كما يُحْبَسُ النهرُ مِنَ الجَرْيِ " فجعل قراءةَ التشديدِ محتملةً لمعنيين ، وقراءةَ التخفيفِ لمعنىً واحدٍ .

وأمَّا قراءةُ الزُّهريِّ فواضِحَةٌ ، أي : عُطِبَتْ . وقيل : هي مطاوعُ أَسْكَرْتُ المكانَ فسَكِرَ ، أي : سَدَدْتُه فانْسَدَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 145 ـ 150 ﴾

(275/423)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9) ﴾

أنزل التوراة وقد وكَلَ حفظها إلى بني إسرائيل بم استحفظوا من كتاب الله ، فحرّفوا وبدّلوا ، وأنزل الفرقان وأخبر أنه حافظة ، وإنما يحفظه بقرائه ؛ فقلوبُ القُرَّاءِ خزائنُ كتابه ، وهو لا يضيع كتابه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

(11) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) ﴾

أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سُنَّته معهم في التعذيب. ثم قال: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ : وهم لا يؤمنون به لأنه أزاح قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسَدَّ بالحرمان عليهم سلوكَ الطريقة، وبيَّن أنه لو أراهم الآياتِ عياناً ما ازدادوا إلا عتواً وطغياناً، وأن مَنْ سَبَقَ له الحُكْمُ بالشقاء فلا يزداد على ممر الأيام إلا ما سَبَقَ به القضاء.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) ﴾

مَنْ عليه التقدير كان بأمر التكليف مدعوا، وبأمر التكوين مقضياً. فمتى ينفع فيه النصح؟ ومتى يكون للوعظ فيه مساغ؟ كلا.. إن البصيرةَ له مسدودةٌ، و (...) الخذلان بِقَدَمِه مشدودة، فهو يحمل النصيحة له على الوقيعة، والحقيقة على الخديعة.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 264. 265 ﴾

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

بقلم الدكتور : زغلول النجار

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية (11) ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون, لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون

هاتان الآيتان الكريمتان وردتا في سياق الحديث عن عناد ومكابرة كفار قريش لخاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله عليه وسلم) . وتكذيبهم ببعثته, وتشكيكهم في الوحي الذي أنزل إليه من ربه, واتهامهم له بالجنون, وهم أعرف الناس بأنه (صلي لله عليه وسلم) كان أرجح الناس عقلا, وأعظمهم خلقا, وأشرفهم نسبا, ولذلك نزلت الآيات في مطلع سورة الحجر لتشيد بالقرآن الكريم, ولتهدد هؤلاء الجاحدين بمشهد يوم عظيم يعانون فيه أهوال الآخرة فيتمنون لو كانوا في الدنيا قد أسلموا لرب العالمين, وآمنوا ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين, وبآيات هذا الكتاب المبين, وبيوم البعث الذي كانوا به ينذرون .

وليهون القرآن الكريم علي هذا النبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم) صلف هؤلاء المتكبرين تطلب منه الآيات القرآنية أن يدعهم في غيهم يأكلون ويتمتعون, ويشغلهم الأمل

بطول الأجل عن التفكير فيما سوف يلقونه من عذاب مهين في الدنيا قبل الآخرة , وذلك جزاء كفرهم وعنادهم وكبرهم . . . ! ! !

وهذا التهديد والوعيد من الله ( تعالي ) لهؤلاء المجرمين من الكفار والمشركين , يتبعه تذكير بمصائر غيرهم من الأمم السابقة عليهم , وبأن الله ( تعالي ) لم يهلك أيا من تلك القري الظالمة التي كذبت بآياته ورسله إلا وجعل لهلاكها أجلا محددا .

وتذكر الآيات تحديات كفار قريش لرسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) , واستهزائهم به , وإستنكارهم لشرف بعثته حتي طلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة ليشهدوا له بصدق نبوته , فيرد الحق (

(277/423)

---

تبارك وتعالي ) عليهم بأن الملائكة لاتنزل إلا بالحق , وأن من هذا الحق أن يدمر المكذبون بآيات الله ورسله بعد أن جاءتهم نذر ربهم . . . ! !

ثم تؤكد تلك الآيات الكريمات علي أن الله تعالي هو الذي أنزل القرآن العظيم , وأنه تعالي قد تعهد بحفظه فحفظ , فلايمكن لمحاولة تحريف أن تطوله , ولا لمؤامرة تبديل أن تصيبه , مهما حاول المحرفون , وتضافر المتآمرون . وهذا الحفظ الرباني لآخر الكتب السماوية وأتمها

وأكملها , لهو بحق أعظم المعجزات المبهرة لهذا الكتاب الخالد , وعلي الرغم من ذلك كله فقد كذب به هؤلاء المعاندون , كما يكذب به نفر من كفار هذا الزمان الرديء ومشركيه وملاحدته .

ومن قبيل تهوين الأمر علي خاتم الأنبياء والمرسلين ( صلي الله عليه وسلم ) وعلي أتباعه الصالحين في زماننا وفي كل زمان تذكره الآيات وتذكرهم أنه ( صلي الله عليه وسلم ) لم يكن متفردا بجحود قومه , وتكذيبهم , ومكابرتهم , وعنادهم , واستهزائهم , فقد سبقه من الأنبياء والمرسلين من تعرضوا لذلك وأشد منه , فاستحقت أقوامهم المكذبة عقاب الله في الدنيا قبل الآخرة . . . ! ! ومن الغريب أن الجاحدين من الخلق , الذين أشركوا بالله , أو كفروا به ( سبحانه ) وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر في كل زمان ومكان , لم يكن لينقصهم الدليل المنطقي علي قبول وحي السماء , وما فيه من آيات بينات ولكنه الصلف والعناد والمكابرة في مقابلة الحق , ومواجهة كل حجة أتتهم , وكل بينة جاءتهم , تماما بتمام , كما كان موقف كفار قريش من خاتم الأنبياء والمرسلين ( صلي الله عليه وسلم ) , ومما أنزل إليه من قرآن كريم , فتصور لنا الآيات في مطلع سورة الحجر نموذجا صارخا لمكابرة أهل الباطل وعنادهم في مواجهة الحق , وذلك بقول ربنا ( تبارك وتعالي ) : ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون * بمعني أنه

حتي لو فتح الله (تعالي) علي هؤلاء المكابرين بابا من السماء , وأعانهم علي الاستمرار بالعروج فيه بأجسادهم وكامل حواسهم , حتي يطلعوا علي بديع صنع الله في ملكوته , وعلي عظيم قدرته في إبداع خلقه , وعلي اتساع سلطانه وملكه , وعلي حشود الخاضعين له بالعبادة والطاعة والتسبيح في خشية وإشفاق بالغين , لشكوا في تلك الرؤية المباشرة , ولكذبوا أبصارهم وعقولهم وباقي حواسهم , ولاتهموا أنفسهم بالعجز التام عن الرؤية تارة , وبالوقوع تحت تأثير السحر تارة أخري , وذلك في محاولة لإنكار الحق من فرط مكابرتهم وصلفهم وعنادهم . . . ! !

وعلي الرغم من كون لو حرف امتناع لامتناع , وكون هاتين الآيتين الكريمتين قد وردتا في مقام التشبيه والتصوير لحال المكابرين من الكفار والمشركين وعنادهم وصلفهم , إلا أن صياغتهما قد جاءت. كما تجيء صياغة كل آيات القرآن الكريم. علي قدر مذهل من الدقة العلمية والشمول للحقيقة الكونية والكمال المطلق مما يشهد بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته , وأن خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله (صلوات الله وسلامه عليه) كان موصولا بالوحي , ومعلما من

قبل خالق السماوات والأرض ( سبحانه وتعالي ) .

وأحاول في هذا المقال عرض عدد مما استطعت إدراكه من ملامح الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين الكريمتين علي النحو التالي :

(1) اللمحة الإعجازية الأولي :

صورة من سفينة الفضاء جاليليو توضح طبقة النهار على كل من كوكب الأرض والقمر ويرى نصف كل منهما المواجه للشمس منيرا فى ظلمة الكون . . والصورة الثانية مأخوذة من مكوك الفضاء تشالينجر لرائد الفضاء بروس ماكاندليس يدور حول كوكب الأرض فيرى نور النهار خيطا أزرق دقيقا فى ظلمة الكون

وقد وردت في قول الحق ( تبارك وتعالي ) :



---

ولو فتحنا عليهم بابا من السماء . . مما يؤكد أن السماء ليست فراغا كما كان يعتقد الناس إلي عهد قريب , حتي ثبت لنا أنها بنيان محكم , يتعذر دخوله إلا عن طريق أبواب تفتح للداخل فيه , والسماء لغة , هي : كل ما علاك فأظلك , وإصطلاحا , هي : ذلك العالم العلوي الذي نراه فوق رؤوسنا بكل مافيه من أجرام .

وعلميا هي كل ما يحيط بالأرض من مختلف صور المادة والطاقة بدءا من غلافها الغازي , وانتهاء بحدود الكون , والذي أدرك العلماء منه مساحة يبلغ قطرها 24 ألف مليون سنة ضوئية علي الأقل أي حوالي 228*2110 كيلو متر ) , وحصوا فيه أكثر من مائتي ألف مليون مجرة من أمثال مجرتنا المعروفة بإسم سكة التبانة ( أو درب اللبانة ) والتي حصي العلماء فيها حوالي مليون مليون نجم كشمسنا , والكون فوق ذلك دائم الاتساع إلي نهاية لايعلمها إلا الله ( سبحانه وتعالي ) .

وقد ثبت مؤخرا أن السماء مليئة بمختلف صور المادة والطاقة التي انتشرت بعد انفجار الجرم الكوني الأول ( والذي كان يضم كل مادة الكون , ومختلف صور الطاقة المنبثة في أرجائه اليوم ) وذلك عند تحوله من مرحلة الرتق إلي مرحلة الفتق كما يصفهما القرآن الكريم , ويقدر علماء الكون أن ذلك قد حدث منذ فترة تقدر بحوالي العشرة بلايين من السنين علي أقل تقدير .

وعند انفجار ذلك الجرم الكوني الأول تحولت مادته ومختلف صور الطاقة المخزونة فيه إلي سحابة هائلة من الدخان ملأت فسحة الكون , ثم أخذت في التبرد والتكثف بالتدريج حتي وصلت الي حالة من التوازن الحراري بين جسيمات المادة وفوتونات الطاقة , وهنا تشكلت بعض نوي الإيدروجين المزدوج ( الديوتريوم ) , وتبع ذلك تخلق النوي الذرية لأخف عنصرين معروفين لنا وهما الأيدروجين والهيليوم , ثم تخلق نسب ضئيلة من

العناصر الأثقل وزنا .

وبواسطة دوامات الطاقة التي إنتشرت في سحابة الدخان التي

ملأت أرجاء الكون تشكلت السدم

(280/423)

---

وهي أجسام غازية في غالبيتها , تتناثر بين غازاتها بعض الهباءات الصلبة , وتدور المادة

فيها في دوامات شديدة تساعد علي المزيد من تكثفها في سلسلة من العمليات المنضبطة

حتي تصل إلي مرحلة الإندماج النووي التي تكون النجوم بمختلف أحجامها , وهيئاتها ,

ودرجات حرارتها , وكثافة المادة فيها , ومنها النجوم العادية أو نجوم النسق الأساسي

المفردة والمزدوجة , والمستعرات الشديدة الحرارة ( العمالقة الحمر والعمالقة الكبار )

والنجوم البيضاء القزمة , ومنها النجوم النيوترونية النابضات

منها وغير النابضات

( التي تصل كثافة المادة فيها إلي خمسين بليون طن للسنتيمتر المكعب ) , وأشباه النجوم (

التي تقل كثافة المادة فيها عنها في شمسنا ومنها الثقوب السود التي تصل كثافة المادة فيها إلي

مائتي بليون طن للسنتيمتر المكعب ) , والثقوب الدافئة وغير ذلك من أجرام السماء مما

يشكل المجرات والتجمعات المجرية , وغيرها من نظم الكون المبهرة .

ومن أشلاء النجوم تكونت الكواكب والكويكبات , والأقمار والمذنبات , والشهب والنيازك , والأشعات الكونية التي تملأ فسحة الكون بأشكالها المتعددة , وغير ذلك مما لانعلم من أسرار هذا الوجود .

وقبل سنوات قليلة لم يكن أحد من الناس يعلم أن السماء علي إتساعها ليست فراغا , ولكنها مليئة بالمادة علي هيئة رقيقة للغاية , تشكلها غازات مخلخلة يغلب علي تركيبها غازا الإيدروجين والهيليوم , مع نسب ضئيلة جدا من الأوكسيجين , والنيتروجين , والنيون , وبخار الماء , وهباءات نادرة من المواد الصلبة , مع إنتشار هائل للأشعات الكونية بمختلف صورها في مختلف جنبات الكون . ولقد كان السبب الرئيسي لتصور أن الكون فراغ تام هو التناقص التدريجي لضغط الغلاف الغازي للأرض مع الأرتفاع عن سطحها حتي لايكاد يدرك بعد ألف كيلو متر فوق سطح البحر , ومن أسباب زيادة كثافة الغلاف



---

الغازي للأرض بالقرب من سطحها هو إنطلاق كميات هائلة من بخار الماء وغازات عديدة أغلبها أكاسيد الكربون والنتروجين من جوفها أثناء تبرد قشرتها , وعبر فوهات البراكين

التي نشطت ولاتزال تنشط علي سطحها وقد إختلطت تلك الغازات الأرضية بالسحابة الغازية الكونية , وساعدت جاذبية الأرض علي الإحتفاظ بالغلاف الغازي للأرض بكثافته التي تتناقص بإستمرار بالبعد عنها حتي تتساوي مع كثافة الغلالة الغازية الاولية التي تملأ أرجاء الكون وتندمج فيها .

وعلي ذلك فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن السماء بناء محكم , تملأه المادة والطاقة , ولايمكن إختراقه إلا عن طريق أبواب تفتح فيه , وهو ما أكده القرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة سنة في أكثر من آية صريحة , ومنها الآية الكريمة التي نحن بصددها ولو فتحنا عليهم بابا من السماء .. وهي شهادة صدق علي أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته , وأنزل القرآن الكريم بعلمه الحق .

(2) اللمحة الإعجازية الثانية :

وتتضح من وصف الحركة في السماء بالعروج : فظلوا فيه يعرجون , والعروج لغة هو سير الجسم في خط منعطف منحن , فقد ثبت علميا أن حركة الأجسام في الكون لايمكن أن تكون في خطوط مستقيمة , بل لابد لها من الإنحناء نظرا لإنتشار المادة والطاقة في كل الكون , وتأثير كل من جاذبية المادة ( بأشكالها المختلفة ) والمجالات المغناطيسية للطاقة ( بتعدد صورها ) , علي حركة الأجسام في الكون , فأي جسم مادي مهما عظمت كتلته أو تضاءلت لايمكنه التحرك في الكون إلا في خطوط منحنية وحتي الأشعة الكونية علي

تناهي دقائقها في الصغر ( وهي تتكون من اللبنات الأولية للمادة مثل البروتونات والنيوترونات والإليكترونات ) , فإنها إذا عبرت خطوط أي مجال مغناطيسي فإن هذا المجال يحني مسار الشعاع بزاوية قائمة علي مساره . فإنتشار كل من المادة والطاقة في الكون عبر عملية



---

الفتق وما صاحبها من إنفجار عظيم كانت من أسباب تكوره , وكذلك كان إنتشار قوي الجاذبية في أرجاء الكون من أسباب تكور كل أجرامه , وكان التوازن الدقيق الذي أوجده الخالق العظيم بين كل من قوي الجاذبية والقوي الدافعة الناتجة عن عملية الفتق هو الذي حدد المدارات التي تتحرك فيها كل أجرام السماء , والسرعات التي تجري بها في تلك المدارات والتي يدور بها كل منهم حول محوره .

فعند إنفجار الجرم الكوني الأول

إنطلق كل ما كان به من مخزون المادة والطاقة بالقوة الدافعة الناتجة عن ذلك الانفجار العظيم ( عملية الفتق ) والتي أكسبت كل صور المادة والطاقة المنطلقة إلي فسحة الكون طاقة حركة هائلة , وجعلتها بذلك واقعة تحت تأثير قوتين متعارضتين هما قوة التجاذب الرابطة

بينها , والقوة الطاردة الناتجة عن ذلك الإنفجار الكوني , والتوازن الدقيق بين ها تين القوتين المتعارضتين هو الذي يحفظ أجرام السماء في مداراتها , ويجعلها تتحرك فيها حركة دائرية بخطوط منحنية بإستمرار , كما جعلها تدور حول محاورها بسرعات محددة .

ودوران الأجرام السماوية حول محاورها وفي مداراتها تخضع لقانون يعرف باسم قانون بقاء التحرك الزاوي أو قانون العروج

وينص هذا القانون علي أن كمية التحرك الزاوي لأي جرم سماوي تقدر علي أساس نسبة سرعة دورانه حول محوره إلي نصف قطره علي محور الدوران , وتبقي كمية التحرك الزاوي تلك محفوظة في حالة إنعدام مؤثرات أخري , ولكن إذا تعرض الجرم السماوي إلي مؤثرات خارجية أو داخلية فإنه سرعان ما يكيف حركته الزاوية في ضوء التغيرات الطارئة .

فعلي سبيل المثال تزداد سرعة التحرك الزاوي للجرم كلما إنكمش حجمه , وكما سبق وأن ذكرنا فإن جميع الأجرام الأولية قد تكثفت مادتها علي مراحل متتالية من سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن إنفجار الجرم الابتدائي الذي حوي كل مادة وطاقة الكون , تاركة كميات هائلة من الغازات والغبار والأشعات

الكونية , وعلي ذلك فقد كانت الكواكب الإبتدائية. علي سبيل المثال أكبر حجما بمئات المرات من الكواكب الحالية , وكانت أرضنا الإبتدائية مائتي ضعف حجم الأرض الحالية ( علي الأقل ) , وهذه الكواكب الابتدائية أخذت في التكثف علي مراحل متتالية حتي وصلت إلي صورتها الحالية .

ويمثل عملية نشأة الكون تماما وبالقوانين التي تحكم دوران أجرامه حول محاورها , وفي مدارات لكل منها حول جرم أكبر منه تتم عملية اطلاق الأقمار الصنعية ومراكب الفضاء من الأرض إلي مدارات محددة حولها , أو حول أي من أجرام مجموعتنا الشمسية , أو حتي إلي خارج حدود المجموعة الشمسية , وذلك بواسطة قوي دافعة كبيرة تعينها علي الإفلات من جاذبية الأرض , من مثل صواريخ دافعة تتزايد سرعتها بالجسم المراد دفعه إلي قدر معين من السرعة , ولما كانت الجاذبية الأرضية تتناقص بزيادة الارتفاع عن سطح الأرض , فإن سرعة الجسم المرفوع إلي الفضاء تتغير بتغير ارتفاعه فوق سطح ذلك الكوكب , وبضبط العلاقة بين قوة جذب الأرض للجسم المنطلق منها إلي الفضاء والقوة الدافعة لذلك الجسم ( أي سرعته ) يمكن ضبط المستوي الذي يدور فيه الجسم حول الأرض , أو حول غيرها من أجرام المجموعة الشمسية أو حتي إرساله إلي خارج المجموعة الشمسية تماما , ليدخل في أسر جرم أكبر يدور في فلكه .

وأقل سرعة يمكن التغلب بها علي الجاذبية الأرضية في اطلاق جرم من فوق سطحها إلي

فسحة الكون تسمي باسم سرعة الإفلات من الجاذبية الأرضية , وحركة أي جسم مندفع من الأرض إلي السماء لابد وأن تكون في خطوط منحنية وذلك تأثرا بكل من الجاذبية الأرضية , والقوة الدافعة له إلي السماء , وكلتاهما تعتمد علي كتلة الجسم المتحرك , وعندما تتكافأ هاتان القوتان المتعارضتان يبدأ الجسم في الدوران في مدار حول الأرض مدفوعا بسرعة أفقية تعرف باسم سرعة التحرك الزاوي أو سرعة العروج والقوة الطاردة اللازمة لوضع جرم

(284/423)

---

ما في مدار حول الأرض تساوي كتلة ذلك الجرم مضروبة في مربع سرعته الأفقية ( المماسة للمدار ) مقسومة علي نصف قطر المدار ( المساوي للمسافة بين مركزي الأرض والجرم الذي يدور حولها ) , ولولا معرفة حقيقة عروج الأجسام في السماء لما تمكن الإنسان من اطلاق الأقمار الصنعية , ولا استطاع ريادة الفضاء . فقد أصبح من الثابت أن كل جرم متحرك في السماء . مهما كانت كتلته . محكوم بكل من القوي الدافعة له وبالجاذبية مما يضطره إلي التحرك في خط منحن يمثل محصلة كل من قوي الجذب والطرد المؤثرة فيه , وهذا ما يصفه القرآن الكريم بالعروج ,

وهو وصف التزم به هذا الكتاب الخالد في وصفه لحركة الأجسام في السماء في خمس آيات متفرقات وذلك قبل ألف وأربعمائة سنة من اكتشاف الإنسان لتلك الحقيقة الكونية المبهرة علي النحو التالي:

(1) ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون (الحجر: 14)

(2) يدبر الأمر من السماء إلي الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون

(السجدة: 5)

(3) يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور

(سبأ: 2)

(4) ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون

(الزخرف: 33)

(5) .. يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير

[الحديد: 4]

(6) من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة

( المعارج :4,3 )

(3) اللمحة الإعجازية الثالثة :

وقد وردت في قول الحق ( تبارك وتعالي ) :

لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون

ومعني سكرت أبصارنا أغلقت عيوننا وسدت , أو غشيت وغطيت لتمنع من الإبصار ,

وحينئذ لا يري الإنسان إلا الظلام , ويعجب الإنسان لهذا التشبيه القرآني



---

المعجز الذي يمثل حقيقة كونية لم يعرفها الإنسان إلا بعد نجاحه في ريادة الفضاء منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين حين فوجيء بحقيقة أن الكون يغشاه الظلام الدامس في غالبية أجزائه , وأن حزام النهار في نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس لا يتعدي سمكه مائتي كيلو متر فوق مستوي سطح البحر , وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك فإنه يري الشمس قرصا أزرق في صفحة سوداء حالكة السواد , لا يقطع حلوكة سوادها إلا بعض البقع الباهتة الضوء في مواقع للنجوم .

وإذا كان الجزء الذي يتجلي فيه النهار علي الأرض محدودا في طوله وعرضه بنصف

مساحة الكرة الأرضية , وفي سمكه بمائتي كيلو متر , وكان في حركة دائبة دائمة مرتبطة بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس , وكانت المسافة بين الأرض والشمس في حدود المائة وخمسين مليون كيلو متر , وكان نصف قطر الجزء المدرك من الكون يقدر باثني عشر بليون سنة ضوئية ( أي ما يساوي 114*2110 كيلو متر ) اتضحت لنا ضآلة سمك الطبقة التي يعمها نور النهار , وعدم استقرارها لانتقالها بإستمرار من نقطة إلي أخري علي سطح الأرض مع دوران الأرض حول محورها , واتضح لنا أن تلك الطبقة الرقيقة تحجب عنا ظلام الكون , خارج حدود أرضنا ونحن في وضح النهار , فإذا جن الليل انسلخ منه النهار , واتصلت ظلمة ليلنا بظلمة الكون , وتحركت تلك الطبقة الرقيقة من النور لتفصل نصف الأرض المقابل عن تلك الظلمة الشاملة التي تعم الكون كله .

وتجلي النهار علي الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض ( بسمك مائتي كيلو متر فوق سطح البحر ) بهذا اللون الأبيض المبهج هو نعمة كبري من نعم الله علي العباد . وتفسر بأن الهواء في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض له كثافة عالية نسبيا , وأن كثافته تتناقص بالارتفاع حتي لا تكاد تدرك , وأنه مشبع ببخار الماء وبهباءات الغبار التي تثيرها الرياح من فوق سطح الأرض فتعلق بالهواء , وتقوم كل من

جزيئات الهواء الكثيف نسبيا , وجزيئات بخار الماء , والجسيمات الدقيقة من الغبار بالعديد من عمليات تشتيت ضوء الشمس وعكسه حتي يظهر باللون الأبيض الذي يميز النهار كظاهرة نورانية مقصورة علي النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس .

وبعد تجاوز المائتي كيلو متر فوق سطح البحر يبدأ الهواء في التخلخل لتضاؤل تركيزه , وقلة كثافته باستمرار مع الارتفاع , ولندرة كل من بخار الماء وجسيمات الغبار فيه لأن نسبها تتضاءل كذلك بالارتفاع حتي تكاد تتلاشي , ولذلك تبدو الشمس وغيرها من نجوم السماء بقعا زرقاء باهتة في بحر غامر من ظلمة الكون لأن أضواءها لا تكاد تجد ما يشتته أو يعكسه في فسحة الكون .

فسبحان الذي أخبرنا بهذه الحقيقة الكونية قبل اكتشاف الإنسان لها بألف وأربعمائه سنة , فشبه الذي يعرج في السماء بمن سكرت أبصاره فلم يعد يري غير ظلام الكون الشامل , أو بمن أعتراه شيء من السحر فلم يعد يدرك شيئا مما حواليه , وكلا التشبيهين تعبير دقيق عما أصاب رواد الفضاء الأوائل حين عبروا نطاق النهار إلي ظلمة الكون فنطقوا بما يكاد أن يكون تعبير الآية القرآنية دون علم بها :

إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون

(4) اللمحة الإعجازية الرابعة :

وتتضح في قوله تعالي : فظلوا فيه يعرجون

فالتعبير اللغوي ظلوا يشير إلي عموم الإظلام وشموله وديمومته بعد تجاوز طبقة النهار إلي نهاية الكون , بمعني أن الإنسان إذا عرج به إلي السماء في وضح النهار فإنه يفاجأ بظلمة الكون الشاملة تحيط به من كل جانب مما يفقده النطق أحيانا أو يجعله يهذي بما لا يعلم أحيانا أخري من هول المفاجأة .

ومن الأمور التي تؤكد ظلمة الكون الشاملة أن باطن الشمس مظلم تماما علي الرغم من أن درجات الحرارة فيه تصل إلي خمسة عشر مليون درجة مئوية أو يزيد , وذلك لأنه لا ينتج فيه سوي الاشعاعات غير المرئية من مثل أشعة جاما , والأشعات فوق البنفسجية والسينية .



---

أما ضوء الشمس فلا يصدر إلا عن نطاقها الخارجي فقط والذي يعرف باسم النطاق المضيء

ولا يري بهذا النور إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض , وفي نصف الكرة

الأرضية المواجه للشمس , فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة من السنين قوله الحق :

والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * (

الشمس : 1.4)

(5) اللمحة الإعجازية الخامسة :

وتتضح في إشارة الآيتين الكريمتين إلي الرقة الشديدة لغلالة النهار وذلك في قول الحق تبارك وتعالي ) ولو فتحنا . . لقالوا . . ) بمعني أن القول بتسكير العيون , وظلمة الكون الشاملة تتم بمجرد العروج لفترة قصيرة في السماء , ثم تظل تلك الظلمة إلي نهاية الكون , وقد أثبت العلم الحديث ذلك بدقة شديدة , فإذا نسبنا سمك طبقة النهار إلي مجرد المسافة بين الأرض والشمس لاتضح لنا أنها تساوي 200 كيلو متر\150,000,000 كيلو متر =1\750,000 تقريبا فإذا نسبناها إلي نصف قطر الجزء المدرك من الكون اتضح انها لا تساوي شيئا البتة , وهنا تتضح روعة التشبيه القرآني في مقام آخر يقول فيه الحق ( تبارك وتعالي )

وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون *

(يس : 37)

حيث شبه انحسار طبقة النهار البالغة الرقة من ظلمة كل من ليل الأرض وليل السماء

بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها , مما يؤكد أن الظلام هو الأصل في الكون , وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية , عارضة , رقيقة جدا , لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض , وفي نصفها المواجه للشمس في دورة الأرض حول نفسها أمام ذلك النجم , وبتلك الدورة ينسلخ النهار تدريجيا من ظلمة كل من ليل الأرض وحلكة السماء كما ينسلخ جلد الذبيحة عن جسدها .

وفي تأكيد ظلمة السماء يقرر القرآن الكريم في مقام آخر قول الحق ( تبارك وتعالي ) :

أءنتم أشد خلقا أم السماء

بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ( النازعات :27.29)

*(288/423)*

---

والضمير في أغطش ليلها عائد علي السماء , بمعني أن الله تعالي قد جعل ليل السماء حالك السواد من شدة اظلامه , فهو دائم الاظلام سواء اتصل بظلمة ليل الأرض ( في نصف الكرة الأرضية الذي يعمه الليل ) أو انفصل عن الأرض بتلك الطبقة الرقيقة التي يعمها نور النهار ( في نصف الأرض المواجه للشمس ) فيصفه ربنا ( تبارك وتعالي ) بقوله : وأخرج ضحاها أي أظهر ضوء شمس السماء لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض بالنور

والدفء معا في أثناء نهار الأرض , والضحي هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر ضوؤها جليا للناس , بينما يبقي معظم الكون غارقا في ظلمة السماء .

ويؤكد هذا المعني قسم الحق ( تبارك وتعالي وهو الغني عن القسم ) بالنهار إذ يجلي الشمس أي يكشفها ويوضحها فيقول ( عز من قائل ) :

والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * ( الشمس :1ـ4)

أي أن النهار هو الذي يجعل الشمس واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض , وهذه لمحة أخري من لمحات الإعجاز العلمي في كتاب الله تقرر أن ضوء الشمس لا يري إلا علي هيئة النور في نهار الأرض .

وأن الكون خارج نطاق نهار الأرض ظلام دامس , وأن هذا النطاق النهاري لابد أن به من الصفات ما يعينه علي إظهار وتجلية ضوء الشمس للذين يشهدونه من أحياء الأرض .

فسبحان الذي أنزل القرآن بالحق , أنزله بعلمه , وجعله معجزة خاتم أنبيائه ورسله , في كل أمر من أموره , وفي كل آية من آياته , وفي كل اشارة من اشاراته , وفي كل معني من معانيه , وجعله معجزة أبدية خالدة علي مر العصور , لا تنتهي عجائبه , ولا يخلق علي كثرة الرد إلي أن يرث الله تعالي الأرض ومن عليها وصلي الله وسلم وبارك علي خاتم الأنبياء والمرسلين الذي شرفه ربه ( تبارك وتعالي ) بوصفه أنه لا

ينطق عن الهوي فقال ( عز من قائل ) :

وما ينطق عن الهوي * إن هو إلا وحي يوحي * علمه شديد القوي * ( النجم :3.5)

. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(289/423)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

ويُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/424)

---

الجزء الرابع والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 16 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 25 ﴾ من نفس السورة

(4/424)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ذكر هذه الآية السماوية على سبيل الفرض في الجواب عن إنكارهم النبوة ، دليلاً على مرودهم على الكفر ، وكان من المعلوم أن ثبوت النبوة مترتب على ثبوت الوحدانية ، توقع السامع الفَهِم الإخبارَ عما له تعالى من الآيات المحققة الوجود المشاهدة الدالة على قدرته ، فأتبعها بذلك استدلالاً على وحدانيته بما له من المصنوعات شرحاً لقوله ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ [ إبراهيم : 52 ] ودليلاً على عدم إيمانهم بالخوارق ، وابتدأ بالسماويات لظهورها لكل أحد وشرفها وظهور أنها من الخوارق بعدم ملابستها والوصول إليها ، فقال مفتتحاً بحرف التوقع : ﴿ ولقد جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة التي لا يقدر عليها سوانا مما هو مغنٍ عن فتح باب ونحوه ﴿ في السماء بروجاً ﴾ أي منازل للقمر ، جمع برج ، وهو في الأصل القصر العالي أولها الحمل وآخرها الحوت ، سميت بذلك لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها ، وهي مختلفة الطبائع ، فسير الشمس والقمر بكل منها يؤثر ما لا يؤثره الآخر ، فاختلافها في ذلك - مع أن نسبتها إلى السماء واحدة - دليل على الفاعل المختار الواحد ، والعرب أعرف الناس بها وباختلافها .

ومادة " برج " بكل تقليب تدور على الظهور الملزوم للعلو الملزوم للقوة ، وقد يفرط فيلزمه الضعف ، فمن مطلق الظهور : بروج السماء ، قال القزاز : سميت بروجاً لأنها بيوت الكواكب ، فكأنها بمنزلة الحصون لها ، وقيل : سميت لارتفاعها ، وكل حصن مرتفع فهو برج ، والبرج - أي محركاً : سعة بياض العين وصفاء سوادها ، وقيل : البرج في العين هو أن يكون البياض محدقاً بالسواد ، يظهر في نظر الإنسان فلا يغيب من سواد العين شيء ، وتبرجت المرأة : أبدت محاسنها ، والجربياء : الشمال - لعلوها ، والجريب : الوادي - لظهوره ، والجريب : مكيال أربعة أقفزة ، وجريب الأرض معروف ، وهو ساحة مربعة كل جانب منها ستون ذراعاً ، ومنه الجراب - لوعاء من جلود ، والجورب - للفافة الرجل ، لأنهما ظاهران بالنسبة إلى ما فيهما ، وكذا الجربان - لغلاف السيف ، وجرب البئر : جوفها ؛ والأرجاب : الأمعاء - شبهاً بالجراب ؛ والبارجة : سفينة من سفن البحر تتخذ للقتال ، والبجرة : كل عقدة في البطن ، والعجرة : كل عقدة في الجسد ، والبجرة : السرة الناتئة ، وسرة البعير عظمت أولاً ، والبجر والبجري : الأمر العظيم ، وجاء فلان بالبجارة ، وهي الداهية : وفيه ما جمع إلى الظهور القوة ؛ ومن ذلك رجب : اسم شهر ، ورجبت الرجل : عظمته ، والرجبة من وصف الأدوية ، والرجب : الحياء والعفو ، والرجب : الهيبة ؛ والمجرب : الذي بلي بالشدائد ؛ ورجبت النخل ترجيباً : بنيت من جانبها بناء لئلا يسقط ؛ والجبر : خلاف الكسر ، والملك - لوجود الجبر به لقوته ، وجبرت العظم ،

والجبارة : ما يوضع على الكسر لينجبر ، وجبرت الرجل : أحسنت إليه ، وأجبرته : ضممته إلى ما يريد ، وأجبرته على كذا : قهرته عليه ، أي أزلت جبره ، والجبرية : العانة من الحمير ، وهي أيضاً الأقوياء من الناس ، والجبار من النخل : الطويل الفتي ، والجبار اسم من أسماء الله تعالى ، والجبار : كل عات ، وكل ما فات اليد ، والعظيم القوي

(6/424)

---

الطويل ، والمتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً والمتجبر : الأسد ، وجبار بالضم مخففاً : يوم الثلاثاء – لأن الله تعالى خلق المكروه فيه – كما في الصحيح ، ومن الضعف : الجبار – بالضم مخففاً ، وهو الهدر من الدماء والحروب وغيرها ، وقد يكون من جبر الكسر ، لأنه جبر به المهدر عنه وقوي به وأحسن إليه ، وكل ما أفسد وأهلك فهو جبار – كأنه شبه بالجبيرة التي تفسد لإصلاح الكسر ، والجبر : العبد – لضعفه واحتياجه إلى التقوية ؛ ومن الضعف أيضاً الجرب بالنسبة إلى من يحل به ، وهو من القوة بالنسبة إلى نفسه ، ومن الظهور والانتشار أيضاً ، والجرباء : السماء – تشبيهاً بالأجرب ، وأرض جرباء : مقحوطة ؛ والتربج : التجبر ، والرويبج : درهم صغير ؛ قال الزبيدي : وهو دخيل ، ومادة " جبر " منها

بخصوص ترتيبها تدور على النفع ، وتارة تنظر إلى ما يلزمه من عدم الضر مثل الجبار بالضم مخففاً لما هدر ، وتارة تنظر إلى ما يلزم النفع من التكبر والقهر .

(7/424)

---

ولما ذكر البروج ، وصف سبحانه السماء المشتملة عليها فقال : ﴿ وزيناها ﴾ أي السماء لأنها المحدث عنها بالكواكب ﴿ للناظرين ﴾ أي لكل من له أهبة النظر ، في دلائل الوحدانية ، لا عائق له عن معرفة ذلك إلا عدم صرفه النظر إليه بالبصر أو بالبصيرة ﴿ وحفظناها ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ من كل شيطان ﴾ أي بعيد من الخير محترق ﴿ رجيم ﴾ مستحق للرجم وهو رمي الشيء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للإصابة كالقوس فإنها للرمي لا للرجم ومستحق للشتم ، لأنه قوال بالظن وما لا حقيقة له ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ منهم فإنا لم نرد تمام الحفظ منه ﴿ فأتبعه ﴾ أي تبعه تبع من هو حاث لنفسه سائق لها ﴿ شهاب ﴾ وهو عمود من نور يمتد بشدة ضيائه كالنار ﴿ مبين ﴾ يراه من فيه أهلية الرؤية حين يرجم به ؛ روى البخاري في التفسير عن أبي هريرة -رضى الله عنهم- يبلغ به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " إذا قضي الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ينفذه ذلك ، فإذا فزع

عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقي السمع ومسترقو السمع ، هكذا واحد فوق آخر – ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابعه اليمنى ، نصبها بعضها فوق بعض – فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى بلغوها إلى الأرض "

،

وربما قال سفيان : حتى ينتهي إلى الأرض ، فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبه فيصدق فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء .

(8/424)

---

قال المفسرون ـ رضى الله عنهم ـ : كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات فيلقون ما يسمعون منها إلى الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم منعوا من السماوات كلها هكذا رأيت ولد ولعله " بعث " فإن في الصحيح أن الذي منعهم نزول القرآن .

ولما ذكر آية السماء ، ثنى بآية الأرض فقال : ﴿ والأرض مددناها ﴾ أي بما لنا من العظمة ، في الأبعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، على الماء ﴿ وألقينا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ فيها ﴾ أي الأرض ، جبالاً ﴿ رواسي ﴾ أي ثوابت ، لئلا تميل بأهلها وليكون لهم علامات ؛ ثم بنه على إحياء الموتى بما أنعم به في الأرض بقياس جلي بقوله : ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ أي الأرض ولا سيما الجبال بقوتنا الباهرة ﴿ من كل شيء موزون ﴾ أي مقدر على مقتضى الحكمة من المعادن والنبات ﴿ وجعلنا لكم ﴾ أي إنعاماً منا عليكم ﴿ فيها معايش ﴾ وهي بياء صريحة من غير مد ، جمع معيشة ، وهي ما يحصل به العيش من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها ﴿ ومن لستم ﴾ أي أيها الأقوياء الرؤساء ﴿ له برازقين ﴾ مثلكم في ذلك ، جعلنا له فها معايش من العيال والخدم وسائر الحيوانات التي تنتفعون بها وإن ظننتم أنكم ترزقونهم ، فإن ذلك باطل لأنكم لا تقدرون على رزق أنفسكم فكيف بغيركم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 210.213 ﴾

*(9/424)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهة منكري النبوة ، وكان قد ثبت أن القول بالنبوة مفرع على القول بالتوحيد أتبعه تعالى بدلائل التوحيد .

ولما كانت دلائل التوحيد منها سماوية ، ومنها أرضية ، بدأ منها بذكر الدلائل السماوية ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا وزيناها للناظرين ﴾ قال الليث : البرج واحد من بروج الفلك ، والبروج جمع وهي اثنا عشر برجاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ [ الفرقان : 61 ] وقال : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ [ البروج : 1 ] ووجه دلالتها على وجود الصانع المختار ، هو أن طبائع هذه البروج مختلفة على ما هو متفق عليه بين أرباب الأحكام ، وإذا كان الأمر كذلك فالفلك مركب من هذه الأجزاء المختلفة في الماهية والأبعاض المختلفة في الحقيقة ، وكل مركب فلا بد له من مركب يركب تلك الأجزاء والأبعاض بحسب الاختيار والحكمة ، فثبت أن كون السماء مركبة من البروج يدل على وجود الفاعل المختار ، وهو المطلوب ، وأما قوله : ﴿ وزيناها للناظرين * وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] فلا نعيد ههنا إلا القدر الذي لا بد منه قوله : ﴿ وزيناها ﴾ أي بالشمس والقمر والنجوم ﴿ للناظرين ﴾ أي للمعتبرين بها

والمستدلين بها على توحيد صانعها وقوله : ﴿ وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ .

فإن قيل : ما معنى وحفظناها من كل شيطان رجيم ، والشيطان لا قدرة له على هدم السماء فأي حاجة إلى حفظ السماء منه .

(10/424)

---

قلنا : لما منعه من القرب منها ، فقد حفظ السماء من مقاربة الشيطان فحفظ الله السماء منهم كما قد يحفظ منازلنا عن متجسس يخشى منه الفساد ثم نقول : معنى الرجم في اللغة الرمي بالحجارة .

ثم قيل للقتل رجم تشبيهاً له بالرجم بالحجارة ، والرجم أيضاً السب والشتم لأنه رمي بالقول القبيح ومنه قوله : ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي لأسبنك ، والرجم اسم لكل ما يرمى به ، ومنه قوله : ﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] أي مرامي لهم ، والرجم القول بالظن ، ومنه قوله : ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾ [ الكهف : 22 ] لأنه يرميه بذلك الظن والرجم أيضاً اللعن والطرد ، وقوله الشيطان الرجيم ، قد فسروه بكل هذه الوجوه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كانت الشياطين لا تحجب عن السموات ، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها إلى الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه

السلام منعوا من ثلاثة سموات ، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رمى بشهاب .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنِ استرق السمع ﴾ لا يمكن حمل لفظة ﴿ إلا ﴾ ههنا على الاستثناء ، بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها ، وإنما يحاولون القرب منها ، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق ، فوجب أن يكون معناه : لكن من استرق السمع .

قال الزجاج : موضع ﴿ مِن ﴾ نصب على هذا التقدير .

قال : وجائز أن يكون في موضع خفض ، والتقدير : إلا ممن .

قال ابن عباس : في قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ استرق السمع ﴾ يريد الخطفة اليسيرة ، وذلك لأن المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيحرقه ولا يقتله ، ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري .

(11/424)

---

وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ ذكرنا معناه في سورة الأعراف في قصة بلعم بن باعورا في قوله : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشيطان ﴾ [ الأعراف : 175 ] معناه لحقه ، والشهاب شعلة نار ساطع ، ثم

يسمى الكواكب شهاباً ، والسنان شهاباً لأجل أنهما لما فيهما من البريق يشبهان النار .

واعلم أن في هذا الموضع أبحاثاً دقيقة ذكرناها في سورة الملك وفي سورة الجن ، ونذكر منها ههنا إشكالاً واحداً ، وهو أن لقائل أن يقول : إذا جوزتم في الجملة أن يصعد الشيطان إلى السموات ويختلط بالملائكة ويسمع أخبار الغيوب عنهم ، ثم إنها تنزل وتلقي تلك الغيوب على الكهنة فعلى هذا التقدير وجب أن يخرج الأخبار عن المغيبات عن كونه معجزاً لأن كل غيب يخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم قام فيه هذا الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزاً دليلاً على الصدق ، لا يقال إن الله تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم لأنا نقول هذا العجز لا يمكن إثباته إلا بعد القطع بكون محمد رسولاً وكون القرآن حقاً ، والقطع بهذا لا يمكن إلا بواسطة المعجز ، وكون الإخبار عن الغيب معجزاً لا يثبت إلا بعد إبطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو باطل محال ، ويمكن أن يجاب عنه بأنا نثبت كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بسائر المعجزات ، ثم بعد العلم بنبوته نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق ، وعند ذلك يصير الإخبار عن الغيوب معجز ، وبهذا الطريق يندفع الدور ، والله أعلم .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) ﴾

علم أنه تعالى لما شرح الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، وهي أنواع :

---

النوع الأول : قوله تعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء ، وفيه احتمال آخر ، وذلك لأن الأرض جسم ، والجسم هو الذي يكون ممتداً في الجهات الثلاثة ، وهي الطول والعرض والثخن ، وإذا كان كذلك ، فتمدد جسم الأرض في هذه الجهات الثلاثة مختص بمقدار معين لما ثبت أن كل جسم فإنه يجب أن يكون متناهياً وإذا كان كذلك كان تمدد جسم الأرض مختصاً بمقدار معين مع أن الإزدياد عليه معقول ، والانتقاص عنه أيضاً معقول ، وإذا كان كذلك كان اختصاص ذلك التمدد بذلك القدر المقدر مع جواز حصول الأزيد والأنقص اختصاصاً بأمر جائز وذلك يجب أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر ، وهو الله سبحانه وتعالى .

فإن قيل : هل يدل قوله : ﴿ والأرض مددناها ﴾ على أنها بسيطة ؟

قلنا : نعم لأن الأرض بتقدير كونها كرة ، فهي كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها ، إذا نظر إليها فإنها ترى كالسطح المستوي ، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ والجبال أَوْتَاداً ﴾ [ النبأ : 7 ] سماها أوتاداً مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية ، فكذا ههنا .

النوع الثاني : من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ وهي الجبال الثوابت ، واحدها راسي ، والجمع راسية ، وجمع الجمع رواسي ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [ النحل : 15 ] وفي تفسيره وجهان :

الوجه الأول : قال ابن عباس : لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكيلا تميل بأهلها .

فإن قيل : أتقولون إنه تعالى خلق الأرض بدون الجبال فمالت بأهلها فخلق فيها الجبال بعد ذلك أو تقولون إن الله خلق الأرض والجبال معاً .

قلنا : كلا الوجهين محتمل .

(13/424)

---

والوجه الثاني : في تفسير قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال وهذا الوجه ظاهر الاحتمال .

النوع الثالث : من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْء مَّوْزُونٍ ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن الضمير في قوله : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى الأرض وأن يكون راجعاً إلى الجبال الرواسي ، إلا أن رجوعه إلى الأرض أولى لأن أنواع النبات المنتفع بها إنما تتولد في الأراضي ، فأما الفواكه الجبلية فقليلة النفع ، ومنهم من قال : رجوع ذلك الضمير إلى الجبال أولى ، لأن المعادن إنما تتولد في الجبال ، والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات .

البحث الثاني : اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه :

الوجه الأول : أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة .

قال القاضي : وهذا الوجه أقرب لأنه تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج إليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى في الأرض ذلك المقدار ، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ لأن ذلك الرزق الذي يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين : الأول : بحسب الأكل والانتفاع بعينه .

والثاني : أن ينتفع بالتجارة فيه ، والقائلون بهذا القول قالوا : الوزن إنما يراد لمعرفة المقدار فكان إطلاق لفظ الوزن لإرادة معرفة المقدار من باب اطلاق اسم السبب على المسبب قالوا : ويتأكد ذلك أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وكُلُّ شَىْء عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [ الرعد : 8 ] وقوله : ﴿ وَإِن مّن شَىْء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 21 ] .

والوجه الثاني : في تفسير هذا اللفظ أن هذا العالم عالم الأسباب والله تعالى إنما يخلق المعادن والنبات والحيوان بواسطة تركيب طبائع هذا العالم ، فلا بد وأن يحصل من الأرض قدر مخصوص ومن الماء والهواء كذلك ، ومن تأثير الشمس والكواكب في الحر والبرد مقدار مخصوص ، ولو قدرنا حصول الزيادة على ذلك القدر المخصوص ، أو النقصان عنه لم تتولد المعادن والنبات والحيوان فالله سبحانه وتعالى قدرها على وجه مخصوص بقدرته وعلمه وحكمته فكأنه تعالى وزنها بميزان الحكمة حتى حصلت هذه الأنواع .

والوجه الثالث : في تفسير هذا اللفظ أن أهل العرف يقولون : فلان موزون الحركات أي حركات متناسبة حسنة مطابقة للحكمة ، وهذا الكلام كلام موزون إذا كان متناسباً حسناً بعيداً عن اللغو والسخف فكان المراد منه أنه موزون بميزان الحكمة والعقل ، وبالجملة فقد جعلوا لفظ الموزون كناية عن الحسن والتناسب ، فقوله : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي متناسب محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة ومطابقة المصلحة .

والوجه الرابع : في تفسير هذا اللفظ أن الشيء الذي ينبت من الأرض نوعان : المعادن والنبات : أما المعادن فهي بأسرها موزونة وهي الأجساد السبعة والأحجار والأملاح والزاجات وغيرها .

وأما النبات فيرجع عاقبتها إلى الوزن ، لأن الحبوب توزن ، وكذلك الفواكه في الأكثر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكرنا الكلام في المعايش في سورة الأعراف وقوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ فيه قولان :

القول الأول : أنه معطوف على محل لكم ، والتقدير : وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين .

والقول الثاني : أنه عطف على قوله : ﴿ معايش ﴾ والتقدير : وجعلنا لكم معايش ومن لستم له برازقين ، وعلى هذا القول ففيه احتمالات ثلاثة :

(15/424)

---

الاحتمال الأول : أن كلمة "من" مختصة بالعقلاء فوجب أن يكون المراد من قوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ العقلاء وهم العيال والمماليك والخدم والعبيد ، وتقرير الكلام أن الناس يظنون في أكثر الأمر أنهم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد ، وذلك خطأ فإن الله هو الرزاق يرزق الخادم والمخدوم ، والمملوك والمالك فإنه لولا أنه تعالى خلق الأطعمة والأشربة

، وأعطى القوة الغاذية والهاضمة ، وإلا لم يحصل لأحد رزق .

والاحتمال الثاني : وهو قول الكلبي قال : المراد بقوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ الوحش والطير .

فإن قيل : كيف يصح هذا التأويل مع أن صيغة من مختصة بمن يعقل ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين : الأول : أن صيغة من قد وردت في غير العقلاء ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ والله خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاء فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى على أَرْبَعٍ ﴾ [ النور : 45 ] .



---

والثاني : أنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقاً على الله حيث قال : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [ هود : 6 ] فكأنها عند الحاجة تطلب أرزاقها من خالقها فصارت شبيهة بمن يعقل من هذه الجهة ، فلم يبعد ذكرها بصيغة من يعقل ، ألا ترى أنه قال : ﴿ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [ النمل : 18 ] فذكرها بصيغة جمع العقلاء ، وقال في الأصنام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى ﴾ [ الشعراء : 77 ] وقال : ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ الأنبياء : 33 ] فكذا ههنا لا يبعد إطلاق اللفظة

المختصة بالعقلاء على الوحش والطير لكونها شبيهة بالعقلاء من هذه الجهة وسمعت في بطن الحكايات أنه قلت المياه في الأودية والجبال واشتد الحر في عام من الأعوام فحكى عن بعضهم أنه رأى بعض الوحش رافعاً رأسه إلى السماء عند اشتداد عطشه قال : فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت بحيث امتلأت الأودية منها .

والاحتمال الثالث : أنا نحمل قوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ على الإماء والعبيد ، وعلى الوحش والطير ، وإنما أطلق عليها صيغة من تغليباً لجانب العقلاء على غيرهم .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ لا يجوز أن يكون مجروراً عطفاً على الضمير المجرور في لكم ، لأنه لا يعطف على الضمير المجرور ، لا يقال أخذت منك وزيد إلا بإعادة الخافض كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [ الأحزاب : 7 ] .

واعلم أن هذا المعنى جائز على قراءة من قرأ : ﴿ تَسَاءلُونَ بِهِ والأرحام ﴾ [ النساء : 1 ] بالخفض وقد ذكرنا هذه المسألة هنالك .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 133 ـ 138 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنها قصور في السماء فيها الحرس ، قاله عطية .

الثاني : أنها منازل الشمس والقمر ، قاله علي بن عيسى .

الثالث : أنها الكواكب العظام ، قاله أبو صالح ، يعني السبعة السيارة .

الرابع : أنها النجوم ، قاله الحسن وقتادة .

الخامس : أنها البروج الاثنا عشر .

وأصل البروج الظهور ، ومنه تبرجت المرأة إذا أظهرت نفسها .

﴿ وزيناها للناظرين ﴾ أي حسنّاها .

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ يعني السماء . وفي الرجيم ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه الملعون ، قاله قتادة .

الثاني : المرجوم بقول أو فعل ، ومنه قول الأعشى :

يظل رجيماً لريب المنون . . . والسقم في أهله والحزن

الثالث : أنه الشتيم . زعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات ، إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه

وسلم فحفظ جميعها بعد بعثه وحرسها منهم بالشهب .

قوله عز وجل : ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ ومسترق السمع من الشياطين يسترقه من أخبار الأرض دون الوحي ، لأن الله تعالى قد حفظ وحيه منهم .

ومن استراقهم له قولان :

أحدهما : أنهم يسترقونه من الملائكة في السماء .

الثاني : في الهواء عند نزول الملائكة من السماء . وفي حصول السمع قبل أخذهم بالشهاب قولان :

أحدهما : أن الشهاب يأخذهم قبل وصولهم إلى السمع ، فيصرفون عنه .

الثاني : أنه يأخذهم بعد وصول السمع إليهم .

وفي أخذهم بالشهاب قولان :

أحدهما : أنه يخرج ويحرق ولا يقتل ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه يقتل ، قاله الحسن وطائفة .

فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان :

أحدهما : أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ، فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ، قاله ابن عباس : ولذلك انقطعت الكهانة .

الثاني : أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن ، ولذلك ما يعودون إلى استراقه ، ولو لم يصل لانقطع الإستراق وانقطع الإحراق .

وفي الشهب التي يرجمون بها قولان :

أحدهما : أنها نور يمتد بشدة ضيائه فيحرقهم ولا يعود ، كما إذا أحرقت النار لم تعد .

الثاني : أنها نجوم يرجمون بها وتعود إلى أماكنها ، قال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثر عفريةٍ . . . مُسَوَّمٌ في سوادِ الليل منقضبُ

قوله عز وجل : ﴿ والأرض مددناها ﴾ أي بسطناها . قال قتادة . بسطت من مكة لأنها أم القرى . ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهي الجبال .

﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني مقدر معلوم ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . وإنما قيل ﴿ موزون ﴾ لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قاله الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّةٍ . . . عندي لكل مُخاصِمٍ ميزانُه

الثاني : يعني به الأشياء التي توزن في أسواقها ، قاله الحسن وابن زيد .

الثالث : معناه مقسوم ، قاله قتادة .

الرابع : معناه معدود ، قاله مجاهد .

ويحتمل خامساً : أنه ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدراً وأعم نفعاً مما لا ثمن له .

قوله عز وجل : ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنها الملابس ، قاله الحسن .

الثاني : أنها المطاعم والمشارب التي يعيشون فيها ، ومنه قول جرير :

تكلفني معيشة آل زيدٍ . . . ومَن لي بالمرقق والصنابِ

الثالث : أنها التصرف في أسباب الرزق مدة أيام الحياة ، وهو الظاهر .

﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها الدواب والأنعام ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها الوحوش ، قاله منصور .

الثالث : العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ [ الإسراء : 31 ]

قاله ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(19/424)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

لما ذكر تعالى أنهم لو رأوا الآية المذكورة في السماء لعاندوا فيها – عقب ذلك بهذه الآية – فكأنه قال : وإن في السماء لعبراً منصوبة غير هذه المذكورة ، وكفرهم بها ، وإعراضهم عنها إصرار منهم وعتو .

و" البروج " : المنازل ، واحدها برج ، وسمي بذلك لظهوره ، ووضوحه ، ومنه تبرج المرأة : ظهورها وبدوها ، والعرب تقول : برج الشيء : إذا ظهر وارتفع .

و" حفظ السماء " هو بالرجم بالشهب " على ما تضمنته الأحاديث الصحاح . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشياطين تقرب من السماء أفواجاً " ، قال : فينفرد المارد منها ، فيعلو فيسمع ، فيرمى بالشهاب . فيقول لأصحابه – وهو يلتهب – إنه من الأمر كذا وكذا – فيزيد الشياطين في ذلك ويلقون إلى الكهنة ، فيزيدون مع الكلمة مائة ونحو هذا . . . الحديث . وقال ابن عباس : إن الشهب تجرح وتؤذي ولا تقتل ، وقال الحسن : تقتل .

قال القاضي أبو محمد : وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية ولكنه اشتد في وقت الإسلام وحفظ السماء حفظاً تاماً . وقال الزجاج : لم يكن إلا بعد النبي عليه السلام ، بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام . وذكر الزهراوي عن أبي رجاء العطاردي أنه قال : كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام .

و﴿ رجيم ﴾ فعيل بمعنى مفعول . فإما من رجم الشهب ، وإما من الرجم الذي هو

الشتم والذم . ويقال : تبعت الرجل واتبعته بمعنى واحد . و﴿ إلا ﴾ بمعنى : لكن .

قال القاضي أبو محمد : هذا قول ، والظاهر أن الاستثناء من الحفظ ، وقال محمد بن يحيى عن أبيه : ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ ، فإنها لم تحفظ منه - ذكره الزهراوي .

وقوله تعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ روي في الحديث : " أن الأرض كانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة فثبتها الله بالجبال " يقال : رسا الشيء يرسو : إذا رسخ وثبت .

(20/424)

---

وقوله : ﴿ موزون ﴾ قال الجمهور : معناه مقدر محرر بقصد وإرادة ، فالوزن - على هذا - مستعار . وقال ابن زيد : المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة والفلز كله وغير ذلك مما يوزن .

قال القاضي أبو محمد : الأول أعم وأحسن .

و﴿ معايش ﴾ جمع معيشة . وقرأها الأعمش بالهمز وكذلك روى خارجة عن نافع . والوجه ترك الهمز لأن أصل ياء معيشة الحركة . فيردها إلى الأصل الجمع ، بخلاف : مدينة ومدائن .

وقوله : ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ من ﴾ في موضع نصب وذلك

على ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يكون عطفاً على ﴿ معايش ﴾ ، كأن الله تعالى عدد النعم في المعايش ، وهي ما يؤكل ويلبس ، ثم عدد النعم في الحيوان والعبيد والصناع وغير ذلك مما ينتفع به الناس وليس عليهم رزقهم .

والوجه الثاني : أن تكون ﴿ من ﴾ معطوفة على موضع الضمير في ﴿ لكم ﴾ وذلك أن التقدير : وأنعشناكم وأنعشنا أمماً غيركم من الحيوان . فكأن الآية – على هذا – فيها اعتبار وعرض آية .

والوجه الثالث : أن تكون ﴿ من ﴾ منصوبة بفعل مضمر يقتضيه الظاهر ، تقديره : وأنعشنا من لستم له برازقين .

ويحتمل أن تكون ﴿ من ﴾ في موضع خفض عطفاً على الضمير في ﴿ لكم ﴾ وهذا قلق في النحو لأن العطف على الضمير المجرور ، وفيه قبح ، فكأنه قال : ولمن لستم له برازقين ، وأنتم تنتفعون به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾

في البروج ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها بروج الشمس والقمر ، أي : منازلهما ، قاله ابن عباس ، وأبو عبيدة في آخرين .

قال ابن قتيبة : وأسماؤها : الحَمَل ، والثَّور ، والجَوْزاء ، والسَّرَطان ، والأسد ، والسُّنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجَدْي ، والدلو ، والحوت .

والثاني : أنها قصور ، روي عن ابن عباس أيضاً .

وقال عطية : هي قصور في السماء فيها الحرس .

وقال ابن قتيبة : أصل البروج : الحصون .

والثالث : أنها الكواكب ، قاله مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل .

قال أبو صالح : هي النجوم العِظام .

قال قتادة : سُميت بروجاً ، لظهورها .

قوله تعالى : ﴿ وزيّنّاها ﴾ أي : حسّنّاها بالكواكب .

وفي المراد بالناظرين قولان .

أحدهما : أنهم المبصرون .

والثاني : المعتبِرون .

قوله تعالى : ﴿ وحفِظناها من كل شيطان رجيم ﴾ أي : حفِظناها أن يصل إليها شيطان أو يعلم من أمرها شيئاً إلا استراقاً ، ثم يتبعه الشهاب .

والرجيم مشروح في [ آل عمران : 36 ] .

واختلف العلماء : هل كانت الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم ، أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنها لم تُرْمَ حتى بُعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا المعنى : مذكور في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس .

وقد أخرج في "الصحيحين" من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأُرسلت عليهم الشهب" ، وظاهر هذا الحديث أنها لم تكن قبل ذلك .

قال الزجاج : ويدل على أنها إنما كانت بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شعراء العرب الذين يمثّلون بالبرق والأشياء المسرعة ، لم يوجد في أشعارها ذِكر الكواكب المنقضَّة ، فلما حدثت بعد مولد نبينا صلى الله عليه وسلم ، استعملت الشعراء ذِكرها ، فقال ذو الرُّمَّة :

كأنه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ . . .

مُسَوَّمٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

والثاني : أنه قد كان ذلك قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فروى مسلم في "صحيحه" من حديث علي بن الحسين عن ابن عباس قال : " بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه ، إذ رمي بنجم ، فاستنار ، فقال : "ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية" ؟ قالوا كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، قال : "فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكنْ ربُّنا إذا قضى أمراً ، سبَّح حملة العرش ، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهلَ هذه السماء ، ثم يستخبر أهل السماء السابعة حملةَ العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهل كُل سماءٍ أهل سَماءٍ ، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن ويُرمَون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرِفون فيه ويزيدون" "

وروي عن ابن عباس أن الشاطين كانت لا تُحجب عن السموات ، فلما وُلد عيسى ، مُنعتْ من ثلاث سموات ، فلما وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مُنعوا من السموات

كلِّها .

وقال الزهري : قد كان يرمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله ، ولكنها غُلِّظت حين بُعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا مذهب ابن قتيبة ، قال : وعلى هذا وجدنا الشعر القديم ، قال بشر بن أبي خازم ، وهو جاهلي :

والعَيْرُ يُرْهَقُها الغُبارُ وجَحْشُها . . .

يَنْقَضُّ خلفهما انقضاضَ الكوكبِ

وقال أوس بن حَجَر ، وهو جاهلي :

فانقض كالدِّرِّيِّء يتبعه . . .

نقع يثور تخالُه طُنُبا

قوله تعالى : ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ أي : اختطف ما سمعه من كلام الملائكة .

قال ابن فارس : استرق السمع : إِذا سمع مستخفياً .

﴿ فأتبعه ﴾ أي : لحقه ﴿ شهاب مبين ﴾ قال ابن قتيبة : كوكب مضيء .

وقيل : "مبين" بمعنى : ظاهر يراه أهل الأرض .

وإِنما يسترق الشيطان ما يكون من أخبار الأرض ، فأما وحي الله عز وجل ، فقد صانه عنهم .

واختلفوا ، هل يَقتل الشهاب ، أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يُحرق ويخبِّل ولا يقتُل ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنه يقتُل ، قاله الحسن .

فعلى هذا القول ، هل يُقتَل الشيطان قبل أن يخبِر بما سمع ، فيه قولان :

أحدهما : أنه يُقْتَل قبل ذلك ، فعلى هذا ، لاتصل أخبار السماء إِلى غير الأنبياء .

قال ابن عباس : ولذلك انقطعت الكِهانة .

والثاني : أنه يُقتَل بعد إِلقائه ما سمع إِلى غيره من الجن ، ولذلك يعودون إِلى الاستراق ، ولو لم يصِل ، لقطعوا الاستراق .

قوله تعالى : ﴿ والأرضَ مددناها ﴾

أي : بسطناها على وجه الماء ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهي الجبال الثوابت ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ في المشار إِليها قولان :

أحدهما : أنها الأرض ، قاله الأكثرون .

والثاني : الجبال ، قاله الفراء .

وفي قوله : ﴿ ومن كل شيء موزون ﴾ قولان :

أحدهما : أن الموزون : المعلوم ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد ابن جبير ،

والضحاك.

وقال مجاهد، وعكرمة في آخرين: الموزون: المقدور.

فعلى هذا يكون المعنى: معلومَ القَدْر كأنه قد وُزن، لأن أهل الدنيا لمَّا كانوا يعلمون قدر الشيء بوزنه، أخبر الله تعالى عن هذا أنه معلوم القَدْر عنده بأنه موزون.

وقال الزجاج: المعنى: أنه جرى على وَزْن من قَدَر الله تعالى، لا يجاوز ما قدَّره الله تعالى عليه، ولا يستطيع خَلْقٌ زيادةً فيه ولا نُقصاناً.

والثاني: أنه عنى به الشيء الذي يُوزن كالذهب، والفضة، والرصاص، والحديد، والكُحل، ونحو ذلك، وهذا المعنى مروي عن الحسن، وعكرمة، وابن زيد، وابن السائب، واختاره الفراء.

قوله تعالى: ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ في المشار إليها قولان:

أحدهما: أنها الأرض.

والثاني: أنها الأشياء التي أَنبتت.

والمعايش جمع معيشة.

والمعنى: جعلنا لكم فيها أرزاقاً تعيشون بها.

وفي قوله تعالى: ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ أربعة أقوال:

أحدها : أنه الدواب والأنعام ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثاني : الوحوش ، رواه منصور عن مجاهد .

وقال ابن قتيبة : الوحش ، والطير ، والسباع ، وأشباه ذلك مما لا يرزقه ابن آدم .

والثالث : العبيد والإِماء ، قاله الفراء .

والرابع : العبيد ، والأنعام ، والدواب ، قاله الزجاج.

قال الفراء : و "مَنْ" في موضع نصب ، فالمعنى : جعلنا لكم فيها المعايش ، والعبيد ، والإِماء .

ويقال : إِنها في موضع خفض ، فالمعنى : جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين .

وقال الزجاج : المعنى : جعلنا لكم الدواب ، والعبيد ، وكُفيتم مؤونة أرزاقها .

فإن قيل : كيف قلتم : إن "مَنْ" هاهنا للوحوش والدواب ، وإِنما تكون لمن يعقل ؟ فالجواب : أنه لما وُصفت الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصَف به الناسُ ، فيقال : للآدمي معاش ، ولا يقال : للفرس معاش ، جرت مجرى الناس ، كما قال : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [ النمل 18 ] ، وقال : ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ [ يوسف 4 ] ، وقال : ﴿ كلٌّ في فلكٍ يسبَحون ﴾ [ الأنبياء : 33 ] ، وإِن قلنا : أُريدَ به العبيد ،

والوحوش ، فإنه إذا اجتمع الناس وغيرهم ، غُلِّب الناس على غيرهم ، لفضيلة العقل والتمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(25/424)

---

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

لما ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيته .

والبروج : القصور والمنازل .

قال ابن عباس : أي جعلنا في السماء بروج الشمس والقمر ؛ أي منازلهما .

وأسماء هذه البروج : الحَمَل ، والثَّوْر ، والجَوْزاء ، والسَّرطان ، والأَسَد ، والسُّنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجَدْي ، والدّلو ، والحوت .

والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجَلّ العلوم ، ويستدلّون بها على الطرقات والأوقات والخِصب والجَدْب .

وقالوا : الفَلَك اثنا عشر برجاً ، كلّ برج مِيلان ونصف .

وأصل البروج الظهور ؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها .

وقد تقدّم هذا المعنى في النساء .

وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها .

وقيل : الكواكب العظام ؛ قاله أبو صالح ، يعني السبعة السيارة .

وقال قوم : "بروجاً" ؛ أي قصوراً وبيوتاً فيها الحرَس ، خلقها الله في السماء .

فالله أعلم .

﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ يعني السماء ؛ كما قال في سورة المُلْك : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ [ الملك : 5 ] .

﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ للمعتبرين والمتفكرين .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) ﴾

أي مرجوم .

والرجم الرمي بالحجارة .

وقيل : الرجم اللعن والطرد .

وقد تقدّم .

وقال الكسائي : كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم .

وزعم الكلبي أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحفظ

جميعها بعد بعثه وحُرِست منهم بالشُّهُب .

وقاله ابن عباس رضي الله عنه .

(26/424)

---

قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لا يحجبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعاً فيحدّثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتسع باطل ؛ فإذا رأوا شيئاً مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى ابن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِيَ بشهاب ؛ على ما يأتي .

﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) ﴾

أي لكن من استرق السمع ، أي الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع .

وقيل ، هو متصل ، أي إلا ممن استرق السمع .

أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره ؛ إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي ، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً ؛ لقوله : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] .

وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم ؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه .

وشِهاب : كوكب مضيء .

وكذلك شِهاب ثاقب .

وقوله : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [ النمل : 7 ] بشعلة نار في رأس عود ؛ قاله ابن عُزَير .

وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثْر عِفْرية . . .

مسوَّمٌ في سواد الليل مُنْقَضِب

وسمي الكوكب شهاباً لبريقه ، بشبه النار .

وقيل : شهاب لشعلة من نار ، قبس لأهل الأرض ، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فإنه إذا أحرق عاد إلى مكانه .

(27/424)

قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجاً تسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو ، فَيُرْمى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ما شاء الله فيلتهب ، فيأتي أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعاً ، فيحدّثون بها أهل الأرض ؛ الكلمة حق والتسع باطل .

فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان صدّقوهم بكل ما جاءوا به من كذبهم .

وسيأتي هذا المعنى مرفوعاً في سورة "سبأ" إن شاء الله تعالى .

واختلف في الشهاب هل يقتل أم لا .

فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويُحرق ويخبِل ولا يقتل .

وقال الحسن وطائفة : يَقتل ؛ فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما : أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم ؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء ، ولذلك انقطعت الكَهانة .

والثاني : أنهم يُقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن ؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه ، ولو لم يصل لانقطع الإستراق وانقطع الإحراق ؛ ذكره الماورديّ .

قلت : والقول الأوّل أصحّ على ما يأتي بيانه في "الصافات" .

واختلف هل كان رميٌ بالشهب قبل المبعث ؛ فقال الأكثرون نعم .

وقيل لا ، وإنما ذلك بعد المبعث .

وسيأتي بيان هذه المسألة في سورة "الجن" إن شاء الله تعالى.

وفي "الصافات" أيضاً.

قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسّيل.

ولا يبعد أن يقال: انقضاض الكواكب كان في قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوماً للشياطين، ثم صار رجوماً حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقال العلماء: نحن نرى انقضاض الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصير ناراً إذ أدرك الشيطان.

(28/424)

---

ويجوز أن يقال: يُرمَوْن بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى.

والشّهاب في اللغة النار الساطعة.

وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال: لما بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبل، فأتوا عبد يالِيل بن عمرو الثقفي فقالوا: إن الناس قد فزِعوا

وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهم لما رأوا في النجوم .

فقال لهم وكان رجلاً أعمى : لا تعجلوا ، وانظروا فإن كانت النجوم التي تُعرف فهي عند فناء الناس ، وإن كانت لا تعرف فهي من حَدَث .

فنظروا فإذا هي نجوم لا تُعرف ، فقالوا : هذا من حدث .

فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا ﴾

هذا من نعمه أيضاً ، ومما يدل على كمال قدرته .

قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء ؛ كما قال : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [ النازعات : 30 ] أي بسطها .

وقال : ﴿ والأرض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الماهدون ﴾ [ الذاريات : 48 ] .

وهو يرد على من زعم أنها كالكرة .

وقد تقدّم .

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً ثابتة لئلا تتحرك بأهلها .

﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي مقدّر معلوم ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير .

وإنما قال "موزون" لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء .

قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة . . .

عندي لكل مُخاصِمٍ مِيزانُه

وقال قتادة : موزون يعني مقسوم .

وقال مجاهد : موزون معدود .

ويقال : هذا كلام موزون ؛ أي منظوم غير منتثر .

فعلى هذا أي أنبتنا في الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن .

وقد قال الله عز وجل في الحيوان : ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ [ آل عمران : 37 ] .

والمقصود من الإنبات الإنشاءُ والإيجاد .

(29/424)

---

وقيل : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الجبال ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير ، حتى الزِّرنيخ والكحل ، كل ذلك يوزن وزناً .

رُوي معناه عن الحسن وابن زيد .

وقيل : أنبتنا في الأرض الثمار مما يكال ويوزن .

وقيل : ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجلّ قدراً وأعم نفعاً مما لا ثمن له .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ يعني المطاعم والمشارب التي يعيشون بها ؛ واحدها معيشة ( بسكون الياء ) .

ومنه قول جرير :

تكلّفني مَعِيشةَ آلِ زيدٍ . . .

ومَن لي بالمرقّق والصِّناب

والأصل مُعْيِشة على مَفْعِلة ( بتحريك الياء ) .

وقد تقدّم في الأعراف .

وقيل : إنها الملابس ؛ قاله الحسن .

وقيل : إنها التصرف في أسباب الرزق مدة الحياة .

قال الماورديّ : وهو الظاهر .

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يريد الدواب والأنعام ؛ قاله مجاهد .

وعنده أيضاً هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ [ الإسراء : 31 ] ولفظ "من" يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل ، غُلّب من يعقل .

أي جعلنا لكم فيها معايش وعبيداً وإماء ودواب وأولاداً نرزقهم ولا ترزقونهم .

ف"من" على هذا التأويل في موضع نصب ؛ قال معناه مجاهد وغيره .

وقيل : أراد به الوحش .

قال سعيد : قرأ علينا منصور "وَمَنْ لستم له برازِقين" قال : الوحش .

ف"من" على هذا تكون لما لا يعقل ؛ مثل ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ [ النور : 45 ] الآية .

وهي في محل خفض عطفاً على الكاف والميم في قوله : "لكم" .

وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عندهم عطف الظاهر على المضمر إلا بإعادة حرف الجر ؛ مثل مررت به وبزيد .

ولا يجوز مررت به وزيد إلا في الشعر .

كما قال :

فاليوم قرّبت تهجونا وتشتِمنا . . .

فاذهب فما بك والأيامِ من عَجَب

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" وسورة "النساء" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد جعلنا من السماء بروجاً ﴾

يعني البروج التي تنزلها الشمس في مسيرها واحدها برج ، وهي بروج الفلك الاثنا عشر برجاً هي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلوا والحوت .

وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلاً لكل برج منزلان وثلث منزل ، وقد تقدم ذكر منازل القمر في تفسير سورة يونس ، وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة ، وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً ، قال ابن عباس في هذه الآية يريد بروج الشمس والقمر ، يعني منازلهما وقال ابن عطية : هي قصور في السماء عليها الحرس .

وقال الحسن ومجاهد وقتادة : هي النجوم العظام .

قال أبو إسحاق يريدون نجوم هذه البروج ، وهي نجوم على ما صورت به .

وسميت وأصل هذا كله من الظهور ﴿ وزيناها ﴾ يعني السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿ للناظرين ﴾ يعني المعتبرين المستدلين بها على وحيد خالقها ، وصانعها وهو الله الذي أوجد كل شيء وخلقه وصوره ﴿ وحفظناها ﴾ يعني السماء ﴿ من كل شيطان رجيم

﴿ أي مرجوم فعيل بمعنى مفعول، وقيل: ملعون مطرود من رحمة الله.

قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها إلى الكهنة فيلقونها إليهم، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد (صلى الله عليه وسلم)، منعوا من السموات أجمع فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع إلا رمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا لإبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتلو القرآن فقالوا: هذا والله حدث.

﴿ إلا من استرق السمع ﴾



---

هذا استثناء منقطع، معناه لكن من استرق السمع ﴿ فأتبعه ﴾ أي لحقه ﴿ شهاب مبين ﴾ والشهاب شعلة من نار ساطع سمي الكوكب شهاباً لأجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار، قال ابن عباس في قوله إلا من استرق السمع: يريد الخطفة اليسيرة، وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب، فلا تخطىء أبداً فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده، أو حيث يشاء

الله ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضل الناس في البوادي (خ) عن أبي هريرة أن النبي صل الله عليه وسلم قال : " إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ، ووصف سفيان بكفه فحذفها ، وبدد أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب ، قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال له : أليس قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء "

اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أم لا على قولين : أحدهما أنها لم تكن ترمى بالنجوم ، قبل مبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإنما ظهر ذلك في بدء أمره فكان ذلك أساساً لنبوته (صلى الله عليه وسلم) ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال : انطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين ، وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب .

أخرجاه في الصحيحين .

فظاهر هذا الحديث يدل على أن هذا الرمي بالشهب لم يكن قبل مبعثه ( صلى الله عليه وسلم ) فلما بعث حدث هذا الرمي .

(32/424)

---

ويعضده ما روي أن يعقوب بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال : أو من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف ، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له : عمرو بن أمية أحد بني علاج وكان أهدى العرب فقالوا له : ألم تر ما حدث في السماء من القذف بالنجوم ؟ فقال : بلى . ولكن انظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله من الخلق قال الزجاج : ويدل على أنها كانت بعد مولد النبي ( صلى الله عليه وسلم ) أن شعراء العرب الذين ذكروا البرق ، والأشياء المسرعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فما حدثت بعد مولده ( صلى الله عليه وسلم ) ، استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة :

كأنه كوكب في أثر عفرية . . .

مسوم في سواد الليل منقضب

والقول الثاني : إن ذلك كان موجوداً قبل مبعث النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم .

قال معمر : قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم .

(33/424)

---

قلت : أفرأيت قوله وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ابن عباس قال أخبرني رجل من أصحاب النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من الأنصار أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إذ رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا ، قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : فإنها لا يرمى بها لموت أحد ، ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى أهل هذه السماء ، ثم قال : الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ، ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال ، فيستخبر بعض

أهل السماء بعضاً حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا ، فتخطف الجن السمع فيقذفونه إلى أوليائهم ، ويرمون فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون " أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة : أن الرجم كان قبل مبعثه ، ولكن لم يكن في شدة الحراسة مثل بعد مبعثه ، قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي حازم وهو جاهلي :

فالعير يرهقها الغبار وجحشها . . .

ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي :

فانقض كالدر يتبعه . . .

نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين : أن الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب والله أعلم .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال : إنها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول أهل التفسير ، وزعم أرباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء ، وبعضها خارج عن الماء ، وهو الجزء المغمور منها واعتذروا عن قوله تعالى : والأرض مددناها بأن الكرة إذا كانت عظيمة كان كل جزء منها ، كالسطح العظيم فثبت بهذا الأمر أن الأرض ممدودة مبسوطة وأنها كرة ، ورد هذا أصحاب التفسير بأن الله أخبر في كتابه بأنها ممدودة ، وأنها مبسوطة ولو كانت كرة لأخبر بذلك والله أعلم بمراده ، وكيف مد الأرض ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ يعني جبالاً ثوابت وذلك أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الأرض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ أي في الأرض ، لأن أنواع النبات المنتفع به تكون في الأرض ، وقيل : الضمير يرجع إلى الجبال لأنها أقرب مذكور لقوله تعالى ﴿ من كل شيء موزون ﴾ وإنما يوزن ما تولد في الجبال من المعادن ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : موزون أي معلوم ، وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لأن الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج إليه الناس في معايشهم وأرزاقهم فيكون إطلاق الوزن عليه مجازاً ، لأن الناس لا يعرفون مقادير الأشياء إلا بالوزن ، وقال الحسن وعكرمة وابن زيد : أنه عنى به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن ، لأن هذه الأشياء كلها توزن وقيل : معنى موزون متناسب في الحسن

والهيئة والشكل ، تقول العرب فلان موزون الحركات إذا كانت حركاته متناسبة حسنة ، وكلام موزون إذا كانت متناسباً حسناً بعيداً من الخطأ والسخف وقيل إن جميع ما ينبت في الأرض والجبال نوعان : أحدهما ما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون .

(35/424)

---

والثاني النبات وبعضه موزون أيضاً : وبعضه مكيل وهو يرجع إلى الوزن لأن الصاع والمدّ مقدران بالوزن ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ جمع معيشة .

وهو ما يعيش به الإنسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ يعني الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ، ولستم لها برازقين لأن رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وتكون في قوله تعالى : ومن لستم بمعنى ما لأن من لمن يعقل وما لمن لا يعقل ، وقيل : يجوز إطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى : ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على أصلها ، ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(36/424)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجًا ﴾

قصوراً ينزلها السيارات ، وهي البروجُ الاثنا عشر المشهورةُ المختلفةُ الهيئاتِ والخواصّ حسبما يدل عليه الرصْدُ والتجرِبة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء ، والجعلُ إن جُعل بمعنى الخلق والإبداعِ وهو الظاهرُ فالجار متعلقٌ به ، وإن جعل بمعنى التصييرِ فهو مفعولٌ ثانٍ له متعلقٌ بمحذوف أي جعلنا بروجاً كائنة في السماء ﴿ وزيناها ﴾ أي السماء بتلك البروجِ المختلفةِ الأشكال والكواكب سياراتٍ كانت أو ثوابتَ ﴿ للناظرين ﴾ إليها ، فمعنى التزيينِ ظاهرٌ ، أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدّرها وحكمةِ مدبرّها ، فتزيينُها بترتيبها على نظام بديع مستتبعٍ للآثار الحسنة .

﴿ وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ مَرْميَ بالنجوم فلا يقدر أن يصعدَ إليها ويوسوسَ في أهلها ويتصرّفَ فيها ويقفَ على أحوالها .

﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾

محلُّه النصبُ على الاستثناء المتصل إنْ فسّر الحِفظُ بمنع الشياطين عن التعرّضِ لها على الإطلاق والوقوفِ على ما فيها في الجملة ، أو المنقطعِ إن فُسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها . عن ابن عباس رضي الله عنهما : " أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات ، فلما وُلد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سموات ، ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم مُنعوا من السموات كلِّها " واستراقُ السمعِ اختلاسُه سرًّا ، شُبّه به خَطفتُهم اليسيرةُ من قُطّان السمواتِ بما بينهم من المناسبة في الجوهر ، أو بالاستدلال من الأوضاع ﴿ فَأَتۡبَعَهُۥ ﴾ أي تبعه ولحِقه ﴿ شِهَابٌ ﴾ لهبٌ محروقٌ وهو شعلةُ نارٍ ساطعةٌ ، وقد يطلق على الكواكب والسِّنان لما فيهما من البريق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرٌ أمرُه للمبصرين . قال معمر : قلت لابن شهاب الزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية ؟ قال : نعم ، وإن النجم ينقضّ ويرمى به الشيطانُ فيقتلُه أو يخبلُه لئلا يعود إلى استراق السمع ، ثم يعود إلى مكانه ، قال : أفرأيت قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مقاعد ﴾ الآية ، قال : غُلّظت وشُدّد أمرُها حين بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن قتيبة : إن الرجمَ كان قبل مبعثِه عليه الصلاة والسلام ، ولكن لم يكن في شدة الحِراسة كما بعدَ مبعثِه عليه الصلاة والسلام ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إن الشياطينَ يركَبُ بعضُهم بعضاً إلى السماء الدنيا يسترقون السمعَ من الملائكة ، فيُرمَون بالكواكب فلا يخطِىء أبداً ، فمنهم من يُحرق وجهُه وجنبُه ويدُه حيث يشاء الله تعالى ، ومنهم من يخبِلُه فيصير غُولاً فيُضل الناس في البوادي .

قال القرطبي : اختلفوا في أن الشهاب هل يقتُل أم لا ؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يجرَح ويحرِق ويخبِل ولا يقتُل ، وقال الحسن وطائفةٌ : يقتل ، قال : والأول أصح .

(38/424)

---

﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها ، وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ، ولم يُقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية ، أعني قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا ﴾ الخ ، وليوافِقَ ما بعده ، أعني قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابتَ ، وقد مر بيانه في أول الرعد ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض أو فيها وفي رواسيها ﴿ مِن كُلّ شَىْء مَّوْزُونٍ ﴾ بميزان الحِكمة ذاتاً وصفةً ومقداراً ، وقيل : ما يوزن من الذهب والفضة وغيرِهما أو من كل شيءٍ مستحسَنٍ مناسب ، أو ما يوزن ويُقدَّر من أبواب النعمة .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والملابسِ وغيرِهما مما يتعلق به البقاءُ ، وهي بياء صريحة ، وقرىء بالهمزة تشبيهاً له بالشمائل ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ عطف على معايش أو على محل لكم ، كأنه قيل : جعلنا لكم معايشَ وجعلنا لكم مَنْ لستم برازقيه من العِيال والمماليك والخدَم والدوابِّ وما أشبهها على طريقة التغليب ،

وذِكرُهم بهذا العنوان لرد حسبانُهم أنهم يَكْفُون مؤنا تِهم ، ولتحقيق أن الله تعالى هو الذي يرزقهم وإياهم ، أو وجعلنا لكم فيها معايشَ ولمن لستم له برازقين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(39/424)

---

وقال الآلوسى :

ثم إنه تعالى لما ذكر حال منكري النبوة وكانت مفرعة على التوحيد ذكر دلائله السماوية والأرضية فقال عز قائلاً :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا ﴾ الخ

وإلى هذا ذهب الإمام وغيره في وجه الربط .

وق ابن عطية : انه سبحانه لما ذكر أنهم لو رأوا الآية المطلوبة في السماء لعاندوا وبقوا على ما هم فيه من الضلال عقب ذلك بهذه الآية كأنه جل شأنه قال : وإن في السماء لعبرا منصوبة غير هذه المذكورة وكفرهم بها وإعراضهم عنها اصرار منهم وعتواه ؛ والظاهر أن الجعل بمعنى الخلق والإبداع فالجار والمجرور متعلق به ، وجوز أن يكون بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف على أنه مفعول ثان له وبروجاً مفعوله الأول ، والبروج جمع برج وهو لغة

القصر والحصن وبذلك فسره هنا عطية ، فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم أنه قال : جعلنا قصوراً في السماء فيها الحرس ، وأخرج عن أبي صالح أن المراد بالبروج الكواكب العظام . وفي البحر عنه الكواكب السيارة وروى غير واحد عن مجاهد .

(40/424)

---

وقتادة أنها الكواكب من غير قيد ، وروي عن ابن عباس تفسير ذلك بالبروج الأثنى عشر المشهورة وهي ستة شمالية ثلاثة ربيعية وثلاثة صيفية وأولها الحمل وستة جنوبية ثلاثة خريفية وثلاثة شتائية وأولها الميزان وطول كل برج عندهم لدرجة وعرضه قف درجة ص منها في جهة الشمال ومثلها في جهة الجنوب وكأنها إنما سميت بذلك لأنها كالحصن أو القصر للكوكب الحال فيها وهي في الحقيقة أجزاء الفلك الأعظم وهو المحدد المسمى بلسانهم الفلك الأطلسي وفلك الأفلاك وبلسان الشرع بعكسه ولهذا يسمى الشيخ الأكبر قدس سره الفلك الأطلس بفلك البروج والمشهور تسمية الفلك الثامن وهو فلك الثوابت به لاعتبارهم الانقسام فيه وكأن ذلك لظهور ما تتعين به الأجزاء من الصور فيه وان كان كل منها منتقلاً عما عينه إلى آخر منها لثبوت الحركة الذاتية للثوابت على خلاف التوالي وان لم يثبتها لها لعدم الإحساس بها قدماء الفلاسفة كما لم يثبت الأكثرون حركتها على نفسها

وأثبتها الشيخ أبو علي ومن تبعه من المحققين ، وقد صرحوا بأن هذه الصور المسماة بالأسماء المعلومة توهمت على المنطقة وما يقرب منها من الجانبين من كواكب ثابتة تنظمها خطوط موهومة وقعت وقت القسمة في تلك الأقسام ونقل ذلك في الكفاية عن عامة المنجمين وانهم إنما توهموا لكل قسم صورة ليحصل التفهيم والتعليم بأن يقال : الدبران مثلا عين الأسد .

وتعقب ذلك بقوله : وهذا ليس بسديد عندي لأن تلك الصور لو كانت وهمية لم يكن لها أثر في أمثالها من العالم السفلى مع أن الأمر ليس كذلك فقد قال بطليموس في الثمرة .

الصور التي في عالم التركيب مطيعة للصور الفلكية إذ هي في ذواتها على تلك الصور فأدركتها الأوهام على ما هي عليه وفيه بحث ثم هذه البروج مختلفة الآثار والخواص بل لكل جزء من كل منها وإن كان أقل من عاشرة بل أقل الأقل آثار تخالف آثار الجزء الآخر وكل ذلك آثار حكمة الله تعالى وقدرته عز وجل .



---

وقد ذكر الشيخ الأكبر قدس سره في بعض كتبه أن آثار النجوم وأحكامها مفاضة عليها من تلك البروج المعتبرة في المحدد .

وفي الفصل الثالث من الباب الحادي والسبعين والثلثمائة من فتوحاته ما منه إن الله تعالى قسم الفلك الأصلس اثنى عشر قسماً سماها بروجاً وأسكن كل برج منها ملكاً وهؤلاء الملائكة أئمة العالم وجعل لكل منهم ثلاثين خزانة تحتوي كل منها على علوم شتى يهبون منها للنازل بهم قدر ما تعطيه رتبته وهي الخزائن التي قال الله تعالى فيها : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 21 ] وتسمى عند أهل التعاليم بدرجات الفلك والنازلون بها هم الجوارى والمنازل وعيوقاتها من الثوابت والعلوم الحاصلة من تلك الخزائن الإلهية هي ما يظهر في عام الأركان من التأثيرات بل ما يظهر في مقعر فلك الثوابت إلى الأرض إلى آخر ما قال ، وقد قدس سره الكلام في هذا الباب وهو بمعزل عن اعتقاد المحدثين نقلة الدين عليهم الرحمة ، ثم إن في اختلاف خواص البروج حسبما تشهد به التجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء أدل دليل على وجود الصانع المختار جل جلاله .

﴿ وزيناها ﴾ أي السماء بما فيها من الكواكب السيارات وغيرها وهي كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى .

نعم المرصود منها ألف ونيف وعشرون ورتبوها على ست مراتب وسموها اقداراً متزايدة سدساً حتى كان قطر ما في القدر الأول ستة أمثال ما في القدر السادس وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب وما دون السادس لم يثبتوه في المراتب بل إن كان كقطعة السحاب

يسمونه سحابياً وإلا فمظلماً ، وذكر في الكفاية إن ما كان منها في القدر الأول فجرمه مائة وستة وخمسون مرة ونصف عشر الأرض .

*(42/424)*

---

وجاء في بعض الآثار أن أصغر النجوم كالجبل العظيم واستظهر أبو حيان عود الضمير للبروج لأنها المحدث عنها والأقرب في اللفظ والجمهور على ما ذكرنا حذراً من انتشار الضمائر ﴿ للناظرين ﴾ أي بأبصارهم إليها كما قاله بعضهم لأنه المناسب للتزيين ، وجوز أن يراد بالتزيين ترتيبها على نظام بديع مستتبعاً للآثار الحسنة فيراد بالناظرين المتفكرون المستدلون بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها جل شأنه .

﴿ وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾

مطرود عن الخيرات ، ويطلق الرجم على الرمي بالرجام وهي الحجارة ، فالمراد بالرجيم المرمي بالنجوم ، ويطلق أيضاً على الإهلاك والقتل الشنيع ، والمراد بحفظها من الشيطان اما منعه عن التعرض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة فالاستثناء في قوله تعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ استرق السمع ﴾

متصل ، وإما المنع عن دخولها والاختلاط مع أهلها على نحو الاختلاط مع أهل الأرض فهو حينئذ منقطع ، وعلى التقديرين محل ﴿ مِنْ ﴾ النصب على الاستثناء ، وجوز أبو البقاء .

والحوفي كونه في محل جر على أنه بدل ﴿ مِن كُلِّ شيطان ﴾ [ الحجر : 17 ] بدل بعض من كل واستغنى عن الضمير الرابط بالا .

واعترض بأنه يشترط في البدلية أن تكون في كلام غير موجب وهذا الكلام مثبت .

ودفع بأنه في تأويل المنفى أي لم نمكن منها كل شيطان أو نحوه وأورد أن تأويل المثبت في غير أبي ومتصرفاته غير مقيس ولا حسن فلا يقال مات القوم إلا زيد بمعنى لم يعيشوا ، ولعل القائل بالبدلية لا يسلم ذلك ، وقد أولوا بالمنفي قوله تعالى : ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [ البقرة : 249 ] وقوله عليه الصلاة والسلام : " الناس هلكى إلا العالمون " والخبر وغير ذلك مما ليس فيه أبى ولا شيء من متصرفاته لكن "الانصاف" ضعف هذه البدلية كما لا يخفى .

وجوز أبو البقاء أيضاً أن يكون في محل رفع على الابتداء والخبر جملة قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ وذكر أن الفاء من أجل أن ﴿ مِنْ ﴾ موصول أو شرط والاستراق افتعال من السرقة وهو أخذ الشيء بخفية شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ [الصافات: 10] والمراد بالسمع المسموع، والشهاب على ما قال الراغب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو ويطلق على الكوكب لبريقه كشعلة النار.

وأصله من الشهبة وهي بياض مختلط بسواد وليست البياض الصافي كما يغلط فيه العامة فيقولون فرس أشهب للقرطاسي، والمراد بمبين ظاهر أمره للمبصرين ومعنى اتبعه تبعه عند الأخفش نحو ردفته وأردفته فليست الهمزة فيه للتعدية، وقيل: اتبعه أخص من تبعه لما قال الجوهري تبعت القوم تبعاً وتباعة بالفتح إذا مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم على أفعلت إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم واستحسن الفرق بينهما الشهاب، ولما كان الاتباع محتملاً للاهلاك وغيره اختلف العلماء في ذلك فحكى القرطبي عن ابن عباس أن الشهاب يجرح ويحرق ولا يقتل، وعن الحسن وطائفة أنه يقتل، وادعى أن الأول أصح، ونقل غير واحد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة عليهم السلام فيرمون بالكواكب فلا تخطىء أبداً فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث

يشاء الله تعالى ومنهم من تخبله فيصير غولاً فيضل الناس في البراري، ومما لا يعول عليه ما يروى من أن منهم من يقع في البحر فيكون تمساحاً؛ ومن الناس من طعن كما قال الإمام في أمر هذا الاستراق والرمي من وجوه.

(44/424)

---

أحدها أن انقضاص الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة وذكروا فيه أن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس فإذا بلغ كرة النار التي دون الفلك احترق بها فتلك الشعلة هي الشهاب.

وقد يبقى زماناً مشتعلاً إذا كان كثيفاً وربما حميت الأدخنة في برد الهواء للتعاقب فانضغط مشتعلة، وجاء أيضاً في شعر الجاهلية قال بشر بن أبي حازم:

والعير يلحقها الغبار وجحشها . . .

ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالدرى يتبعه . . .

نقع يثور تخاله طنبا

إلى غير ذلك .

وثانيها ان هؤلاء الشياطين كيف يجوز فيهم أن يشاهدوا ألوفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ثم انهم مع ذلك يعودون لصنيعهم فإن من له أدنى عقل إذا رأى هلاك أبناء جنسه من تعاطى شيء مراراً امتنع منه .

وثالثها أن يقال : إن ثخن السماء خمسمائة عام فهؤلاء الشياطين إن نفذوا في جرمها وخرقوها فهو باطل لنفي أن يكون لها فطور على ما قال سبحانه : ﴿ فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ﴾ [ الملك : 3 ] وإن كانوا لا ينفذون فكيف يمكنهم سماع أسرار الملائكة عليهم السلام مع هذا البعد العظيم .

ورابعها ان الملائكم عليهم السلام إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلة إما لأنهم طالعوها من اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقفوها بالوحي ، وعلى التقديرين لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا تتمكن الشياطين من الوقوف عليها ؟

وخامسها أن الشياطين مخلوقون من النار والنار لا تحرق النار بل تقويها فكيف يعقل زجرهم بهذه الشهب ؟

وسادسها أنكم قلتم : إن هذا القذف لأجل النبوة فلم دام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ؟

وسابعها أن هذه الشهب إنما تحدث بقرب الأرض بدليل أنا نشاهد حركاتها ولو كانت

قريبة من الفلك لما شاهدناها كما لم نشاهد حركات الأفلاك والكواكب ، وإذا ثبت أنها تحدث بالقرب من الأرض فكيف يقال : إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك ؟

(45/424)

---

وثامنها أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة عليهم السلام عن المغيبات إلى الكهنة فلم لم ينقلوا أسرار المؤمنين إلى الكفار حتى يتوصلوا بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى الحلق الضرر بهم ؟

وتاسعها لم لم يمنعهم الله تعالى من الصعود ابتداء حتى لا يحتاج في دفعهم إلى هذه الشهب ؟

وقال بعضهم : أيضاً : أن السماع إنما يفيدهم إذا عرفوا لغة الملائكة فلم لم يجعلهم الله سبحانه جاهلين بلغتهم لئلا يفيدهم السماع شيئاً ، وأيضاً ان انقطع الهواء دون مقعر فلك القمر لم يحدث هناك صوت إذ هو من تموج الهواء والمفروض عدمه وإن لم ينقطع كان دون ذلك أصوات هائلة من تموج الهواء بحركة الأجرام العظيمة وهي تمنع من سماع أصوات الملائكة عليهم السلام في محاوراتهم ولا يكاد يظن أن أصواتهم في المحاورات تغلب هاتيك الأصوات لتسمع معها ، وأيضاً ليس في السماء الدنيا إلا القمر ولا نراه يرمي به وسائر السيارات فوق

﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ الأنبياء : 33 ] والثوابت في الفلك الثامن والرمي بشيء من ذلك يستدعي خرق السماء وتشققها ليصل الشهاب إلى الشيطان وهو مما لا يكاد يقال .

وأجاب الإمام عن الأول .

أولا بأن الشهب لم تكن موجودة قبل البعثة وهذا قول ابن عباس ، فقد روى عنه أنه قال : "كان الجن يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها أشياء من عند أنفسهم فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ولم يكن النجوم يرمي بها قبل ذلك فقال لهم إبليس : ما هذا إلا لأمر حدث" الخبر .

*(46/424)*

---

وروى عن أبي كعب أنه قال : "لم يرم بنجم منذ رفع عيسى عليه السلام حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى بها فرأت قريش ما لم تر قبل فجعلوا يسيبون أنعامهم ويعتقون رقابهم يظنون أنه الفناء فبلغ ذلك كبيرهم فقال : لم تفعلون ؟ فقالوا : رمى بالنجوم فقال : اعتبروا فإن تكن نجوم معروفة فهو وقت فناء الناس وإلا فهو أمر حدث فنظروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال : في الأمر مهلة وهذا عند ظهور نبي" الخبر ، وكتب الأوائل قد

توالت عليها التحريفات فلعل المتأخرين ألحقوا هذه المسألة بها طعناً في هذه المعجزة ، وكذا الأشعار المنسوبة إلى أهل الجاهلية لعلها مختلفة عليهم .

وثانياً : وهو الحق بأنها كانت موجودة قبل البعثة لأسباب أخر ولا ننكر ذلك إلا أنه لا ينافي أنها بعد البعثة قد توجد بسبب دفع الشياطين وزجرهم .

يروى أنه قيل للزهري : أكان يرمي في الجاهلية ؟ قال : نعم قيل : أفرأيت قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الان يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [ الجن : 9 ] قال : غلظ وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى نحو هذا يخرج ما روى عن ابن عباس .

وأبى رضي الله تعالى عنهم إن صح .

وعن الثاني : بأنه إذا جاء القدر عمى البصر فإذا قضى الله تعالى على طائفة منهم الحرق لطغيانهم وضلالهم قيض لها من الدواعي ما تقدم معه على الفعل المفضي إلى الهلاك .

وعن الثالث : بأن البعد بين الأرض والسماء خمسمائة عام فأما ثخن الفلك فإنه لا يكون عظيماً .

وعن الرابع : بأنه روى عن الزهري عن علي بن الحسين بن عليّ كرم الله تعالى وجهه عن ابن عباس قال : بينا النبي صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار فقال عليه الصلاة والسلام : " ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث مثل هذا ؟ "

قالوا : كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم قال عليه الصلاة والسلام : " فإنها لا ترمي لموت أحد ولا لحيات ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبحت حملة العرش ثم سبح أهل السماء وسبح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ولا يزال ينتهي الخبر إلى هذه السماء فيتخطفه الجن فيرمون فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه "

وعن الخامس : بأن النار قد تكون أقوى من نار أخرى فالأقول تبطل ما دونها .

وعن السادس : بأنه إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطلان الكهانة فلو لم يدم هذا القذف لعادت الكهانة وذلك يقدح في خبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن بطلانها .

وعن السابع : بأن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع فلعله سبحانه وتعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقفوا في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة عليهم السلام .

وعن الثامن : بأنه لعل الله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب من الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكفار .

وعن التاسع : بأنه عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وبهذا يجاب عن الأول فيما قيل.

وأجيب عن الثاني : بأنا نختار انقطاع الهواء والسماع عندنا بخلق الله تعالى ولا يتوقف على وجود الهواء وتموجه، وقد يختار عدم الانقطاع ويقال : إنه تعالى شأنه قادر على منع الهواء من التموج بحركة هاتيك الإجرام ، وكذا هو سبحانه قادر على أسماعهم مع هاتيك الأصوات الهائلة السر وأخفى.



---

وعن الثالث : بأن كون الثوابت في الفلك الثامن هو الذي ذهب إليه الفلاسفة واحتجوا عليه بأن بعضها فيه فيجب أن يكون كلها كذلك ، أما الأول : فلأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة تنكسف بالسيارات فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة ؛ وأما الثاني : فلأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة أو أقل على الخلاف درجة فلا بد أن تكون مركوزة في كرة واحدة ، وهو احتجاج ضعيف لأنه لا يلزم من كون بعض الثواب فوق السيارات كون كلها هناك لأنه لا يبعد وجود كرة تحت كرة القمر وتكون في البطء مساوية لكرة الثوابت وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارب القطبين

مركوزة في هذه الكرة السفلية إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة ، وعلى هذا لا يمتنع أن تكون هذه النجوم في السماء الدنيا ، وقد ذكر الجلال السيوطي وغيره أنه جاء في بعض الآثار أن الكواكب معلقة بسلاسل من نور بأيدي ملائكة في السماء الدنيا يسيرونها حيث شاء الله تعالى وكيف شاء إلا أن في صحة ذلك ما فيه ، على أن ما ذكر في السؤال من أن ذلك يستلزم الخرق وهو مما لا يكاد يقال إما أن يكون مبنياً على القول بامتناع الخرق والالتئام على الفلك المحدد وغيره فقد تقرر فساد ذلك وحقق إمكان الخرق والالتئام بما لا مزيد عليه في غير كتاب من كتب الكلام ، وإما أن يكون مبنياً على مجرد الاستبعاد فهو مما لا يفيد شيئاً لأن أكثر الممكنات مستبعدة وهي واقعة ولا أظنك في مرية من ذلك بل قد يقال : نحن لا نلتزم أن الكوكب نفسه يتبع الشيطان فيحرقه ، والشهاب ليس نصاً في الكوكب لما علمت ما قيل في معناه وإن قيل : إنه بنفسه ينقض ويرمي الشيطان ثم يعود إلى مكانه لظاهر إطلاق الرجوم على النجوم وقولهم رمى بالنجم مثلاً .

وكذا لا نلتزم القول بأنه ينفصل عن الكوكب شعلة كالقبس الذي يؤخذ من النار فيرمي بها كما قاله غير واحد لنحتاج في الجواب عن السؤال بما تقدم إذ يجوز أن يقال: إنه يؤثر حيث كان بإذن الله تعالى هذه الشعلة المسماة بالشهاب ويحرق بها من شاء الله تعالى من الشياطين، وإطلاق الرجوم على النجوم وقولهم: رمى بالنجم يحتمل أن يكون مبنياً على الظاهر للرائي كما في قوله تعالى في الشمس: ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف: 86 ] وقال الإمام: إن هذه الشهب ليست هي الثوابت المركوزة في الفلك وإلا لظهر نقصان كثير في أعدادها مع أنه لم يوجد نقصان أصلاً.

وأيضاً إن في جعلها رجوماً ما يوجب النقصان في زينة السماء بل هي جنس آخر غيرها يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوماً للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ حيث أفاد أن تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها لأنا نقول: كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض إلا أن المصابيح منها باقية على وجه الدهر أمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك والشهب من هذا القسم وحينئذ يزول الإشكال انتهى.

والجرح والتعديل بين القولين مفوضا ن إلى شهاب ذهنك الثاقب ، وفي أجوبته السابقة رحمه الله تعالى ما لا يخفى ضعفه ، وكذا شاهدة عليه بقلة الإطلاع على الأخبار الصحيحة المشهورة ، ألا ترى قوله في الجواب عن ثالث الأسئلة التسعة : إن البعد بين السماء والأرض خمسمائة عام وأما ثخن الفلك فإنه لا يكون عظيماً فإنه مخالف لما نطقت به الشريعة وهذت به الفلسفة ، أما مخالفته للأول فلأنه قد صح أن سمك كل سماء خمسمائة عام كما صح أن بين السماء والأرض كذلك ، وأما مخالفته للثاني فلأنه لم يقل أحد من الفلاسفة : أن بين السماء والأرض هذه المسافة التي ذكرها ، والأفلاك عندهم مختلفة في الثخن ، وقد بينوا ثخن كل بالفراسخ حسبما ذكر في كتب الأجرام والأبعاد ، وذكروا في ثخن المحدد ما يشهد بمزيد عظمة الله جل جلاله لكن لا مستند لهم قطعي في ذلك بل إن قولهم : لا فضل في الفلكيات مع كونه أشبه شيء بالخطابيات يعكر عليه .

وقوله في الجواب عن السادس : إنه إنما دام لئلا يقدح انقطاعه في خبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن بطلان الكهانة فإنه مستلزم للدور إذ الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام إنما أخبر بذلك لعلمه بدوام القذف المانع من تحقق ما تتوقف عليه الكهانة .

وقوله في الجواب عن الخامس : إن النار قد تكون أقوى من نار أخرى فتبطلها ظاهر في أن الشياطين نار صرفة وليس كذلك بل الحق أنهم يغلب عليهم العنصر الناري وقد حصل لهم بالتركيب ولو مع غلبة هذا العنصر ما ليس للنار الصرفة وهو ظاهر .

هذا ثم أعلم أنه يجوز أن يكون استراق السمع من الملائكة الذي عند السماء لا من الملائكة الذين بين كل سماء وسماء ليجيء حديث الثخن واستبعاد السماع معه ، ويشهد لهذا ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله تعالى عنهم قالت : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون مع الكلمة مائة كذبة من عند أنفسهم" ولا ينافيه ما رواه أيضاً عن عكرمة أنه قال : "سمعت أبا هريرة يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضعاناً لقوله سبحانه كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع" الخبر ، إذ ليس فيه أكثر من سماع المسترق الكلمة بعد قول الملائكة عليهم السلام بعضهم لبعض ، وعدم منافاة هذا لذلك ظاهر عند من ألقى السمع وهو شعيد ، وأنه ليس في الآيات ما هو نص في أن ما نراه من الشهب لا يكون إلا لرمي شيطان يسترق بل غاية ما فيها أنه إذا استرق شيطان أتبعه شهاب ورمى بنجم وأين هذا من ذاك؟ نعم في خبر الزخري ما يحتاج معه إلى

تأمل ، وعلى هذا فيجوز أن يكون حدوث بعض ما نراه من الشهب لتصاعد البخار حسبما تقدم عن الفلاسفة ، وكذا يجوز أن يكون صعود الشياطين للاستراق في كل سنة مثلاً مرة ، ولا يخفى نفع هذا في الجواب عن السؤال الثاني .

ومن الناس من أجاب عنه بأنه لا يبعد أن يكون المسترقون صنفاً من الشياطين تقتضي ذواتهم التصاعد نظير تصاعد الأبخرة ، بل يجوز أن يكون أولئك الشياطين أبخرة تعلقت بها أنفس خبيثة على نحو ما ذكر الفلاسفة من أنه قد يتعلق بذوات الأذناب نفس فتغيب وتطلع بنفسها وفيه بحث .

(52/424)

---

ونقل الإمام عن الجبائي أنه قال في الجواب عن ذلك : إن الحالة التي تعتريهم ليس لها موضع معين وإلا لم يذهبوا إليه وإنما يمنعون من المضير إلى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا إلى موضع فتصيبهم الشهب وربما صاروا إلى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا يصيبهم شيء فلما هلكوا في بعض الأوقات وسلموا في بعضها جاز أن يصيروا إلى موضع يغلب على ظنونهم أنها لا تصيبهم فيه كما يجوز فيمن يسلك البحر إن يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة فيه .

وتعقبه بقوله : ولقائل أن يقول : إنهم إن صعدوا فإما أن يصلوا إلى مواضع الملائكة أو إلى غيرها فإن وصلوا إلى الأول احترقوا وأن إلى الثاني لم يظفروا بمقصود أصلاً ، فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل فإذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء أن الفوز بالمقصود محقق وجب أن يمتنعوا ، وهذا بخلاف حال المسافر في "البحر" فإن الغالب على المسافرين فيه الفوز بالمقصود ، ثم قال : فالأقرب في الجواب أن نقول : هذه الواقعة إنما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة فيما بين الشياطين اه .

وأنت تعلم أن هذا لا يكاد يتم إلا مع القول بأنه ليس كل ما نراه من الشهب يحرق به الشياطين والأمر مع هذا القول سهل كما لا يخفى .

وذكر البيضاوي أن استراق السمع خطفتهم اليسيرة من قطان السموات لما بينهم من المناسبة في الجوهر .

(53/424)

---

أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها ، وذكر عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] أن السمع مشروط بمشاركتهم في صفات الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصورة الملكوتية ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل

ذلك، ولا يخفى ما فيه، فإنه ظاهر في أن الاستراق يقتضي مناسبة الجوهر والسمع التام يقتضي المشارع المذكورة وهو لا يتمشى على أصول الشرع، وفي أن تلقيهم يكون من الأوضاع الفلكية وهو مخالف لصريح النظم والأحاديث مع أنه يقتضي أن يكون قطان السماء بمعنى الكواكب وشموال ﴿ مِنْ ﴾ شياطين الإنس من المنجمين وهو كما ترى.

وذكرهو.

وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها اه.

ومن الناس من ذهب أخذاً ببعض الظواهر إلى أن المنع عند البعثة والله تعالى أعلم بقي ههنا إشكال: ذكره الإمام مع جوابه فقال: ولقائل أن يقول: إذا جوزتم في الجملة أن يصعد الشيطان إلى السماء ويسمع أخبار الغيوب من الملائكة عليهم السلام ثم يلقيها إلى الكهنة وجب أن يخرج الأخبار عن المغيبات عن كونه معجزاً دالاً على الصدق لأن كل غيب يخبر عنه الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم فيه هذا الاحتمال، ولا يقال: إن الله تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولده صلى الله عليه وسلم لأنا نقول: هذا المعجز لا يمكن إثباته إلا بعد القطع بكونه عليه الصلاة والسلام رسولاً وبكون القرآن حقاً والقطع بهذا لا

يمكن إلا بواسطة المعجز، وكون الأخبار عن الغيوب معجزاً لا يثبت إلا بعد إبطال هذا الاحتمال وحينئذ يلزم الدور وهو محال.

(54/424)

---

ويمكن أن يجاب عنه بأنا نثبت كونه صلى الله عليه وسلم رسولاً بسائر المعجزات ثم بعد العلم بثبوت ذلك نقطع بأن الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الاخبار عن الغيوب معجزاً ولا يلزم الدور اه فتدبر والله سبحانه ولي التوفيق وبيده أزمة التحقيق.

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) ﴾

﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها، قال الحسن: أخذ الله تعالى طينة فقال لها: انبسطي فانبسطت، وعن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن أم القرى مكة ونها دحيت الأرض وبسطت، وعن ابن عباس أنه قال: بسطناها على وجه الماء، وقيل: يحتمل أن يكون المراد جعلناها ممتدة في الجهات الثلاث الطول والعرض والعمق، والظاهر أن المراد بسطها وتوسعتها ليحصل بها الانتفاع لمن حلها ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها لما أن الكرة العظيمة لعظمها ترى كالسطح المستوي، ونصب ﴿ الأرض ﴾ على الحذف على شرطية

التفسير وهو في مثل ذلك أرجح من الرفع على الابتداء للعطف على الجملة الفعلية أعني قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا ﴾ [الحجر: 16] الخ وليوافق ما بعده أعني قوله سبحانه: ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت جمع راسية جمع رأس على ما قيل، وقد بين حكمة إلقاء ذلك فيها في قوله سبحانه: ﴿ وألقى فِى الأرض رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: 15].

قال ابن عباس: إن الله تعالى لما بسط الأرض على الماء مالت كالسفينة فأرساها بالجبال الثقال لئلا تميل بأهلها، وقد تقدم الكلام في ذلك.

وزعم بعضهم أنه يجوز أن يكون المراد أنه تعاى فعل ذلك لتكون الجبال دالة على طرق الأرض ونواحيها فلا تميد الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال، ثم قال؛ وهذا الوجه ظاهر الاحتمال.

(55/424)

---

وأنت تعلم أنه لا يسوغ الذهاب إليه مع وجود أخبار تأباه كالجبال ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض، وهي إما شاملة للجبال لأنها تعد منها أو خاصة بغيرها لأن أكثر النبات وأحسنه في ذلك.

وجوز أن يكون الضمير للجبال والأرض بتأويل المذكورات مثلاً أو للأرض بمعنى ما يقابل السماء بطريق الاستخدام ، وعوده على الرواسي لقربها وحمل الانبات على إخراج المعادن بعيد ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة فهو مجاز مستعمل في لازم معناه أو كناية أو من كل شيء مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون ، وأنشد المرتضى في درره لهذا المعنى قول عمر بن أبي ربيعة .

وحديث ألذه وهو مما . . .

تشتهيه النفوس يوزن وزناً

وقد شاع استعمال ذلك في كلام العجم والمولدين فيقولون : قوام موزون أي متناسب معتدل ، أو ما له قدر واعتبار عند الناس في أبواب النعمة والمنفعة ، وقال ابن زيد : المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة وغيرهما ، و﴿ مِنْ ﴾ كما في البحر للتبعيض ، وقال الأخفش : هي زائدة أي كل شيء .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ ما تعيشون به من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها مما يتعلق به البقاء وهي بياء صريحة .

وقرأ الأعرج.

وخارجة عن نافع بالهمز ، قال ابن عطية : والوجه تركه لأن الياء في ذلك عين الكلمة ، والقياس في مثله أن لا يبدل همزة وإنما يبدل إذا كان زائداً كياء شمائل وخبائث .

(56/424)

---

لكن لما كان الياء هنا مشابهاً للياء هناك في وقوعه بعد مدة زائدة في الجمع عومل معاملته على خلاف القياس ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ عطف على معايش أي وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب كما قال الفراء وغيره ، وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبان بعض الجهلة أنهم يرتزقون منهم أو لتحقيق أن الله تعالى يرزقهم وإياهم مع ما في ذلك من عظيم الامتنان ، ويجوز عطفه على محل ﴿ لَكُمْ ﴾ وجوز الكوفيون ويونس .

والأخفش .

وصحح أبو حيان العطف على الضمير المجرور إن لم يعد الجار ، والمعنى على التقديرين سواء أي وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين ، وقال الزجاج : إن ﴿ مِنْ ﴾ في محل نصب بفعل محذوف والتقدير وأعشنا من لستم الخ أي أمما غيركم لأن المعنى أعشناكم ، وقيل : إنه في محل رفع على الابتداء وخبره محذوف لدلالة المعنى عليه أي ومن لستم له

برازقين جعلنا له فيها معايش وهو خلاف الظاهر ، وقال أبو حيان : لا بأس به فقد أجازوا ضربت زيداً وعمرو بالرفع على الابتداء أي وعمرو ضربته فحذف الخبر لدلالة ما قبله عليه .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن مجاهد أن المراد ﴿ بِمَن لَّسْتُمْ ﴾ الخ الدواب والأنعام ، وعن منصور الوحش ، وعن بعضهم ذاك والطير فمن على هذه الأقوال لما لا يعقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(57/424)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

لما جرى الكلام السابق في شأن تكذيب المشركين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وما توركوا به في ذلك ، وكان الأصلُ الأصيل الذي بَنوا عليه صَرْحَ التكذيب أصلين هما إبطاله إلهية أصنامهم ، وإثباته البعث ، انبرى القرآن يبيّن لهم دلائل تفرد الله تعالى بالإلهية ، فذكر الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض ، ثم أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق

الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى في قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ [ سورة الحجر : 23 ] الآية .

وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السماء في تصوير غلوائهم بعنادهم ، فكان الانتقال إليه تخلصاً بديعاً .

وفيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم فإنهم لو أرادوا الحق لكان لهم في دلالة ما هو منهم غنية عن تطلب خوارق العادات .

والخبر مستعمل في التذكير والاستدلال لأن مدلول هذه الأخبار معلوم لديهم .

وافتتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلاً للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردّد فأكّد لهم الكلام بمؤكدين .

ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك .

والبروج : جمع بُرج بضم الباء .

وحقيقته البناء الكبير المتّخذ للسكنى أو للتحصّن .

وهو يرادف القصر ، قال تعالى : ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ في سورة النساء ( 78 )

.

وأطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم غير السيارة ( وتسمى النجوم الثوابت ) متجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يُشاهد من الجو ، فتلك

الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطاً لو خططت بينها خطوطاً لخرج منها شِبه صورة حَيوان أو آلة سموا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس.

وقد سماها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان.

(58/424)

---

وسماها العرب بُروجاً ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سبباً لوضع الاسم؛ تخيّلوا أنها منازل للشمس لأنهم وقتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قُبة الجو نهاراً فيما يخيل للناظر أن الشمس تسير في شبه قوس الدائرة.

وجعلوها اثني عشر مكاناً بعدد شهور السنة الشمسية وما هي في الحقيقة إلا سُموت لجهاتٍ تُقابل كُل جهة منها الأرضَ من جهة وراءِ الشمس مدة معينة.

ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة تغير الجهة المقابلة لها.

فبما كان لها من النظام تَسنّى أن تجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الاثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدوداً وَهمية عينوا مكانها في اللّيل من جهة موقع الشمس في النهار وأعادوا رصدها يوماً فيوماً، وكلما مضت مدة شهر من السنة ضبطوا للشهر الذي يليه علامات في الجهة المقابلة لموقع الشمس في تلك المدة.

وهكذا ، حتى رأوا بعد اثني عشر شهراً أنهم قد رجعوا إلى مقابلة الجهة التي ابتدأوا منها فجعلوا ذلك حولاً كاملاً .

وتلك المسافة التي تخال الشمس قد اجتازتها في مدة السّنة سموها دائرة البروج أو مِنْطقة البروج.

وللتمييز يين تلك الطوائف من النجوم جعلوا لها أسماء الأشياء التي شبهوها بها وأضافوا البرج إليها .

وهي على هذا الترتيب ابتداء من برج مدخل فصل الربيع : الحمَل ، الثور ، الجوزاء ، ( مشتقة من الجوز بفتح فسكون الوسط لأنها معترضة في وسط السماء ) ، السَرَطان ، الأسَد ، السُنبلة ، الميزان ، العَقرب ، القوْس ، الجَدْي ، الدلْو ، الحوت .

فاعتبروا لبرج الحمل شهر ( أبرير ) وهكذا ، وذلك بمصادفة أن كانت الشمس يومئذٍ في سَمتِ شكلٍ نجمي شبهوه بنُقَط خطوط صورة كبش .

وبذلك يعتقد أن الأقدمين ضبطوا السنة الشمسية وقسموها إلى الفصول الأربعة ، وإلى الأشهر الاثني عشر قبل أن يضبطوا البروج.

وإنما ضبطوا البروج لقصد توقيت ابتداء الفصول بالضبط ليعرفوا ما مضى من مدتها وما بقي .

وأول من رسم هذه الرسوم الكلدانيون ، ثم انتقل علمهم إلى بقية الأمم ؛ ومنهم العرب فعرفوها وضبطوها وسموها بلغتهم .

ولذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده بالخلق لأنهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذي تهيأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تُخلف ملاحظة راصدها .

وما خلقها الله بتلك الحالة إلا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت كما قال تعالى : ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ [ سورة يونس : 5 ] .

ثم ارتقى في الاستدلال بكون هذه البروج العظيمة الصنع قد جُعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة .

وأما قوله : ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ فهو إدماج للتعليم في أثناء الاستدلال .

وفيه التنويه بعصمة الوحي من أن يتطرقه الزيادة والنقص ، بأن العوالم التي يصدر منها الوحي وينتقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة .

فهو يرتبط بقوله : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [ سورة الحجر : 9 ] .

وكانوا يقولون : محمد كاهن ؛ ولذلك قال الوليد بن المغيرة لما حاورهم فيما أعدوا من الاعتذار لوفود العرب في موسم الحجّ إذا سألوهم عن هذا الرجل الذي ادّعى النبوءة .

وقد عرضوا عليه أن يقولوا هو كاهن ، فكان من كلام الوليد أن قال .

.

ولا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزة الكاهن ولا سجعه ، قال تعالى : ﴿ ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ [ سورة الحاقة : 42 ] .

وكان الكهان يزعمون أن لهم شياطين تأتيهم بخبر السماء ، وهم كاذبون ويتفاوتون في الكذب .

والمراد بالحفظ من الشياطين الحفظ من استقرارها وتمكنها من السماوات .

والشيطان تقدم في سورة البقرة .

والرجيم : المحقر ؛ لأن العرب كانوا إذا احتقروا أحداً حصبوه بالحصباء ، كقوله تعالى : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم ﴾ [ سورة الحجر : 34 ] ، أي ذميم محقر .

والرّجام بضم الراء الحجارة .

قيل وهي أصل الاشتقاق .

ويحتمل العكس .

وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغال الثقفي الذي كان دليل جيش الحبشة إلى مكة .

قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه . . .

كما تَرمون قبر أبي رِغال

والرجم عادة قديمة حكاها القرآن عن قوم نوح ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ [ سورة الشعراء : 116 ] .

وعن أبي إبراهيم ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ [ سورة مريم : 46 ] .

وقال قوم شعيب : ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ [ سورة هود : 91 ] .

وليس المراد به الرجم المذكور عقبه في قوله : فأتبعه شهاب مبين ﴾ لأن الاستثناء يمنع من ذلك في قوله : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ .

واستراق السمع : سرقتُه .

صيغ وزن الافتعال للتكلف .

ومعنى استراقه الاستماع بخفية من المتحدث كأن المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذي يخفيه عنه .

و"أتبعه" بمعنى تَبعه .

والهمزة زائدة مثل همزة أبان بمعنى بان .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ في سورة الأعراف ( 175 ) .

والمبين : الظاهر البين .

وفيه تعليم لهم بأن الشهب التي يشاهدونها متساقطةً في السماء هي رجوم للشياطين المسترِقة طرداً لها عن استراق السمع كاملاً ، فقد عرفوا ذلك من عهد الجاهلية ولم يعرفوا سببه .

والمقصود من منع الشياطين من ذلك منعهم الاطلاع على ما أراد الله عدمَ اطلاعهم عليه من أمر التكوين ونحوه ؛ مما لو ألقته الشياطين في علم أوليائهم لكان ذلك فساداً في الأرض .

وربما استدرج الله الشياطين وأولياءهم فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهان ، فلما أراد الله عصمة الوحي منعهم من ذلك بتاتاً فجعل للشهب قوة خرق التموجات التي تتلقى منها الشياطين المسترقون السمعَ وتمزيقِ تلك التدرجات الموصوفة في الحديث الصحيح .

ثم إن ظاهر الآية لا يقتضي أكثر من تحكك مسترق السمع على السماوات لتحصيل انكشافات جبل المسترق على الحرص على تحصيلها .

وفي آية الشعراء ما يقتضي أن هذا المسترق يلقي ما تَلقاه من الانكشافات إلى غيره لقوله :

﴿ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ [ سورة الشعراء : 223 ] .

ومقتضى تكوين الشهب للرجم أن هذا الاستراق قد مُنع عن الشياطين .

وفي سورة الجن دلالة على أنه منع بعد البعثة ونزول القرآن إحكاماً لحفظ الوحي من أن يلتبس على الناس بالكهانة ، فيكون ما اقتضاه حديث عائشة وأبي هُريرة رضي الله عنهم من استراق الجن السمع وصفاً للكهانة السابقة .

ويكون قوله : ﴿ ليسوا بشيء ﴾ وصفاً لآخر أمرهم .

وقد ثبت بالكتاب والسنّة وجود مخلوقات تسمى بالجن وبالشياطين مع قوله : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ [ سورة ص : 37 ] الآية .

والأكثر أن يخص باسم الجن نوع لا يخالط خواطر البشر ، ويخص باسم الشياطين نوع دأبه الوسوسة في عقول البشر بإلقاء الخواطر الفاسدة .

وظواهر الأخبار الصحيحة من الكتاب والسنة تدل على أن هذه المخلوقات أصناف ، وأنها سابحة في الأجواء وفي طبقات مما وراء الهواء وتتصل بالأرض ، وأن منها أصنافاً لها اتصَال بالنفوس البشرية دون الأجسام وهو الوسواس ولا يخلو منه البشر .

وبعضُ ظواهر الأخبار من السنة تقتضي أن صنفاً له اتصال بنفوس ذات استعداد خاص

لاستفادة معرفة الواقعات قبل وقوعها أو الواقعات التي يبعد في مجاري العادات بلوغ وقوعها ، فتسبق بعضُ النفوس بمعرفتها قبل بلوغها المعتاد .

وهذه النفوس هي نفوس الكهان وأهل الشعوذة ، وهذا الصنف من المخلوقات من الجن أو الشياطين هو المسمى بمسترق السمع وهو المستثنى بقوله تعالى : إلا من استرق السمع ﴾ .

(62/424)

---

فهذا الصنف إذا اتصل بتلك النفوس المستعدة للاختلاط به حجز بعض قواها العقلية عن بعض فأكسب البعض المحجوز عنه ازدياد تأثير في وظائفه بما يرتد عليه من جرّاء تفرغ القوة الذهنية من الاشتغال بمزاحمه إلى التوجه إليه وحده ، فتكسبه قدرة على تجاوز الحد المعتاد لأمثاله ، فيخترق الحدود المتعارفة لأمثاله اختراقاً ما ، فربما خلصت إليه تموجات هي أوساط بين تموجات كرة الهواء وتموجات الطبقات العليا المجاورة لها ، مما وراء الكرة الهوائية .

ولنفرض أن هذه الطبقة هي المسماة بالسماء الدنيا وأن هذه التموجات هي تموجات الأثير فإنها تحفظ الأصوات مثلاً .

ثم هذه التموجات التي تخلُص إلى عقول أهل هذه النفوس المستعدة لها تخلص إليها مقطّعة مُجملة فيستعين أصحاب تلك النّفوس على تأليفها وتأويلها بما في طباعهم من ذكاء وزكانة ، ويخبرون بحاصل ما استخلصوه من بين ما تلقفوه وما ألّفوه وما أولوه .

وهم في مصادفة بعض الصدق متفاوتون على مقدار تفاوتهم في حدة الذكاء وصفاء الفهم والمقارنة بين الأشياء ، وعلى مقدار دُربتهم ورسوخهم في معالجة مهنتهم وتقادم عهدهم فيها .

فهؤلاء هم الكهان ، وكانوا كثيرين بين قبائل العرب .

وتختلف سمعتهم بين أقوامهم بمقدار مصادفتهم لما في عقول أقوامهم .

ولا شك أن لسذاجة عقول القوم أثراً ما ، وكان أقوامهم يعُدون المعمّرين منهم أقرب إلى الإصابة فيما ينبئون به ، وهم بفرط فطنتهم واستغفالهم البله من مريديهم لا يصدرون إلاّ كلاماً مجملاً موجهاً قابلاً للتأويل بعدة احتمالات ، بحيث لا يؤخذون بالتكذيب الصريح ، فيكلون تأويل كلماتهم إلى ما يحدث للنّاس في مثل الأغراض الصادرة فيها تلك الكلماتُ ، وكلامهم خلو من الإرشاد والحقائق الصالحة .

وهم بحيلتهم واطلاعهم على ميادين النفوس ومؤثراتها التزموا أن يصوغوا كلامهم الذي يخبرون به في صيغة خاصة ملتزماً فيها فقرات قصيرة مختتمة بأسجاع ، لأن الناس يحسبون مزاوجة الفقرة لأختها دليلاً على مصادفتها الحق والواقع ، وأنها أمارة صدق .

وكانوا في الغالب يلوذون بالعزلة ، ويكثرون النظر في النجوم ليلاً لتتفرغ أذهانهم .

فهذا حال الكهان وهو قائم على أسس الدجل والحيلة والشعوذة مع الاستعانة باستعداد خاص في النفس وقوة تخترق الحواجز المألوفة .

وهذا يفسره ما في كتاب الأدب من "صحيح البخاري" عن عائشة : أن ناساً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال : " ليسوا بشيء (أي لا وجود لما يزعمونه) .

فقيل : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيّ فيَقرُّها في أذن وليّه قَرّ الدجاجة فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " .

وما في تفسير سورة الحجر من "صحيح البخاري" من حديث سفيان عن أبي هُريرة قال نبي الله صلى الله عليه وسلم " إذا قضى الله الأمر في السماء (أي أمر أو أوحى) وضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله "فإنهم المأمورون كل في وظيفته" كالسلسلة على صَفوانٍ ينفُذُهم ذلك (أي يحصل العلم لهم .

وتقريبها حركات آلة تلقي الرسائل البرقية تلغراف) . . .

فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر ( أي هي طبقات مفاوتة في العلو ) .

ووصف سفيان بيده فحرّفها وفَرّج بين أصابع يده اليمنى نَصَبها بعضَها فوق بعض ( فيسمع المسترق الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخَر إلى من تحته حتّى يلقيها على لسان الكاهن أو الساحر ) ، فربّما أدرك الشّهاب المستمع قبل أن يلقيها ، وربّما ألقاها قبل أن يدركها فيكذب معها مائة كَذبة .

فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سُمعت من السماء " .

*(64/424)*

---

أما أخبار الكهان وقصصهم فأكثرها موضوعات وتكاذيب .

وأصحها حديث سواد بن قارب في قصة إسلام عُمر رضي الله عنه من "صحيح البخاري" .

وهذه الظواهر كلها لا تقتضي إلا إدراك المسموعات من كلام الملائكة .

ولا محالة أنها مقرّبة بالمسموعات ، لأنها دلالة على عزائم النّفوس الملكية وتوجهاتها نحو

مسخراتها .

وعبر عنه بالسمع لأنه يؤول إلى الخبر ، فالذي يحصل لمسترق السمع شعور ما تتوجه الملائكة لتسخيره ، والذي يحصل للكاهن كذلك .

والمآل أن الكاهن يخبر به فيؤول إلى مسموع .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) ﴾

انتقال من الاستدلال بالآيات السماوية إلى الاستدلال بالآيات الأرضية لمناسبة المضادة .

وتقدم الكلام على معنى ﴿ مددناها ﴾ وعلى ( الرواسي ) في سورة الرعد .

والموزون : مستعار للمقدّر المضبوط .

و﴿ معايش ﴾ : جمع معيشة .

وبعد الألف ياء تحتية لا همزة كما تقدم في صدر سورة الأعراف .

﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ عطف على الضمير المجرور في ﴿ لكم ﴾ ، إذ لا يلزم للعطف على الضمير المجرور المنفصل الفصْل بضمير منفصل على التحقيق ، أي جعلنا لكم أيها المخاطبين في الأرض معايش ، وجعلنا في الأرض معايش لمن لستم له برازقين ، أي لمن لستم له بمطعمين .

وما صدق ﴿ مَنْ ﴾ الذي يأكل طعامه مما في الأرض ، وهي الموجودات التي تقتات من نبات الأرض ولا يعقلها النّاس .

والإتيان بـ ﴿ مَن ﴾ التي الغالب استعمالها للعاقل للتغليب .

ومعنى ﴿ لستم له برازقين ﴾ نفي أن يكونوا رازقيه لأن الرزق الإطعام .

ومصدر رَزَقه الرّزق بفتح الراء .

وأما الرِّزق بكسر الراء فهو الاسم وهو القوت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(65/424)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الزين )

الزِّينة : ما يُتزَيَّن به .

وكذلك الزِّيان .

والزَّين : ضدّ الشَيْن ، والجمع أَزيان .

وزانة وأَزانه وأَزْيَنه بمعنى ، فتزَيّن هو وازدان وازَّيّنَ وازْيَانَّ وازْيَنّ .

وقمرٌ زَيَانٌ : حَسَنٌ ، وامرأَةٌ زائن : متزيّنة .

والزِّينة فى الحقيقة : ما لا يَشين الإنسانَ فى شىءٍ من أَحواله ، لا فى الدُّنيا ولا فى الآخرة .

فأَمّا ما يزينه فى حالة دون حالة فهو من وجهٍ شَيْن .

والزِّينة بالقول المجمل ثلاث : زينة نفسيّة ؛ كالعلم والاعتقادات الحسنة ، وزينة بدنيَّة ، كالقوّة وطول القامة وتناسب الأَعضاءِ .

وزينة خارجيّة ؛ كالمال والجاه .

وقوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ هو من الزينة النفسيّة .

وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ حُمِل على الزِّينة الخارجيَّة ، وذلك أَنَّه قد رُوى أَنَّ أَقواماً كانوا يطوفون بالبيت عُراةً ، فنُهوا عن ذلك بهذا الآية .

وقيل : بل زينة الله فى هذه الآية هى الكَرَم المذكور فى قوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ هى الزينة الدّنيوية : من الأَثاث والمال والجاه .

وقد نسب الله – تعالى – تزيين الأَشياءِ إِلى نفسه فى مواضع ، وإِلى الشيطان فى مواضع ، وفى أَماكن ذكره عن مُسَمًّى فاعلُه .

قال – تعالى – فى الإِيمان : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ، وفى الكفر : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

ومّما نسبه إِلى الشيطان : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

ممّا لم يسمَّ فاعله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ ، ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ أى زَيّنه شركاؤهم .

(66/424)

---

وقوله : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ، ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ ، ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ إشارة إلى الزّينة المدركة بالبصر للخاصّة والعامّة ، وإلى الزينة المعقولة الّتى تعرفها الخاصّة ، وذلك إحكامها وسيرها .

وتزيين الله تعالى للأَشياءِ قد يكون بإِداعها مزَيَّنة كذلك .

قال الشاعر :

*الرّوض يزدان بالأَنوار فاغمة * والحُرّ بالبرّ والإِحسان يزدانُ*

وقال آخر :

*وإِذا الدُرّ زان حُسْنَ وجوهٍ * كان للدُرّ حسنُ وجهك زينا *

وقال :

*لكلّ شيى حسن زينة * وزينة العاقل حسن الأَدب*

*قد يشرّف المرءُ بآدابه * يوماً وإِن كان وضيع النّسب*

وقد وردت الزّينة فى القرآن على عشرين وجها :

الأَول : زينة الدّنيا : ﴿ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ .

الثَّانى : زينة بالملابس : ﴿ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ أَى ثيابها .

الثالث : زينة ستر العورة : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

الرّابع : زينة قارُون بماله ورجاله : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ .

الخامس : زينة النّساء بالْحِلَى : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ ، ﴿ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ .

السادس : زينة العجائز بالثياب الفاخرة : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتِ بِزِينَةٍ ﴾ .

السابع : زينة العيد : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ .

الثامن : زينة عاريّة القِبْط : ﴿ حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ .

التاسع : زينة آل فرعون : ﴿ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً ﴾ .

العاشر : زينة أَهل الدّنيا فيها : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

الحادى عشر : زينة المسافرين بالمراكب : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ .

الثانى عشر : زينة حبّ الشّهوات : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ , أَى حُسِّنَ فى أَعينهم وقلوبهم .

الثانى عشر أيضا : زينة العصيان فى أعين ذو الخذلان : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ .

الثالث عشر : زينة قتل الولدان : ﴿ وَكَذلكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ .

الرابع عشر : زينة الحياة لذوي الطغيان : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ .

الخامس عشر : زينة أَحوال الماضين والباقين فى عيون الكفَّار استدراجاً لهم : ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

السادس عشر : زينة الشَّيطان الضلال لمتَّبعيه : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ .

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

السابع عشر : زينة الله لأَعدائه خذلانهم : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

الثامن عشر : زينة السّماء لأُولى الأَبصار : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

التاسع عشر : زينة الأَرض بالنَّبات والرياحين : ﴿ أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ أَى تلوّنت بالأَلوان .

العشرون : زينة الفَلَك بالكواكب : ﴿ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ .

الحادى والعشرون : زينة الأَفلاك السّبع بالسّيّارات السّبع : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحَ ﴾ .

[الثانى والعشرون] : زينة الإيمان فى قلوب العارفين : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ .

أُنشِدنا لبعض المحدَثين :

*سبحان مَنْ زيّن الأَفلاك بالقمر * وزيّن الأَرض بالأَنهار والشجَرَ*

*لا كالسّراج والا كالشّمس زاهرة * لا كالجواهر والياقوت والدُرر*

*وجَنَّة الخلد بالأَنوار زيَّنها * والقصرُ زيَّنه بالحُور والسُرُور*

*وزيَّن النفس بالأَعضاءِ مستويا * والرأْس زيَّنه بالسمع والبصر*

*وزيَّن القلبَ بالأَنوار نوّره * لا كالنجوم ولا كالشمس والقمر* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 155 . 161 ﴾

(68/424)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما ظهر كالشمس كمال قدرته وأنه واحد لا شريك له ، بين أنه - كما كانت هذه الأشياء عنده بحساب قدره على حكمة دبّرها - كان غيرها كذلك ، فذلك هو المانع من معاجلتهم بما يهزؤون به من العذاب ، فقال : ﴿ وإن ﴾ أي وما ﴿ من شيء ﴾ أي مما ذكر وغيره من الأشياء الممكنة ، وهي لا نهاية لها ﴿ إلا عندنا ﴾ أي لما لنا من القدرة الغالبة ﴿ خزائنه ﴾ أي كما هو مقرر عندكم ، لا تنازعون فيه ، قال في الكشاف : ذكر الخزائن تمثيل ﴿ وما ننزله ﴾ أي مطلق ذلك الشيء لا بقيد عدم التناهي ، فإن كل ما يبرز إلى الوجود متناه ، فهو استخدام ﴿ إلا بقدر معلوم ﴾ على حسب التدريج كما ترونه ؛ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : ليس عام بأمطر من عام ، ولكن الله يقسمه ويقدره في الأرض كيف يشاء ، عاماً ههنا وعاماً ههنا ، وربما كان في البحر .

فهذا دليل قطعي على أن الفاعل المخصص له بوقت دون وقت وأرض دون أخرى فاعل واحد مختار .

*(69/424)*

---

فلما تم ما أراد من آيتي السماء والأرض ، وختمه بشمول قدرته لكل شيء ، أتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعاً في خزائن قدرته فقال : ﴿ وأرسلنا ﴾ أي بما لنا من التصريف

الباهر ﴿ الرياح ﴾ جمع ريح ، وهي جسم لطف منبث في الجو سريع المر ﴿ لواقح ﴾ أي حوامل تحمل الندى ثم تمجه في السحاب التي تنشئها ، فهي حوامل للماء ، لواحق بالجو ، قوته على ذلك عالية حساً ومعنى ؛ والريح : هواء متحرك ، وحركته بعد أن كان ساكناً لا بد لها من سبب ، وليس هو نفس كونه هواء ولا شيئاً من لوازم ذاته ، وإلا دامت حركته. فليست إلا بتحريك الفاعل الواحد المختار ﴿ فأنزلنا ﴾ أي بعظمتنا بسبب تلك السحائب التي حملتها الرياح ﴿ من السماء ﴾ أي الحقيقية أو جهتها أو السحاب ، لأن الأسباب المتراقية بسند الشيء تارة إلى القريب منها وتارة إلى البعيد وأخرى إلى الأبعد ﴿ ماء ﴾ وهو جسم مائع سيال ، به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء ﴿ فأسقيناكموه ﴾ جعلناه لكم سقياً ، يقال : سقيته ماء أي ليشربه ، وأسقيته أي مكنته منه ليسقي به ماشيته ومن يريد .

ونفى سبحانه عن غيره ما أثبته أولاً لنفسه فقال ﴿ وما أنتم له ﴾ أي ذلك الماء ﴿ بخازنين ﴾ والخزن : وضع الشيء في مكان مهيأ للحفظ ، فثبت أن القادر عليه واحد مختار .

ومادة " لقح " بتقاليبها الست تدور على اللحاق ، وتلزمه القوة والعلو حساً أو معنى ، فاللقاح اسم ماء الفحل - لأنه يلحق الأنثى فتحمله ، وقد ألقح الفحل الناقة ، ولقحت لقاحاً : حملت ، والملقوح : ما لقحته من الفحل ، أي أخذته ، وهي الملاقيح - يعني الأجنة

، واللقحة : الناقة الحلوب - لأنها أهل لأن يلحقها جائع ، وألقح القوم النخل ولقحوها - إذا ألحقوها بالفحالة فعلقوها عليها .

والقاحل : اليابس من الجلود ، لأن أجزاءه تلاحق بعضها ببعض فضمرت ، ومنه شيخ قاحل .

(70/424)

---

واللحق : كل شيء لحق شيئاً أي أدركه ، والملحق : الدعي - لأنه متهيىء لأنه يستلحقه كل من يريده ، والملحاق : الناقة التي لا يفوتها الإبل : قال الزبيدي في مختصر العين : وفي القنوت : إن عذابك بالكفار ملحق - بالكسر ، أي لاحق - لغة .

والحقل : القراح الطيب - لتهيئها لمن يلحق بها ، وقيل : هو الزرع إذا تشعب ورقة ، وهو من ذلك أيضاً ومن لحوقه بالحصاد فيصير كالمحلوق ، والحقيل : نبت ، والحقيلة : الماء الرطب ، أي الأخضر من البقل والشجر في الأمعاء منه ، والحقيلة : حشافة التمر - للحاق كل من أرداه به ، والحوقلة : الغرمول اللين - كأنه مشبه بالنبت الأخضر ، أو لإمكان تثنيه كل وقت ولحوق بعض أجزائه ببعض ، والحوقل : الشيخ الضعيف النكاح - كأنه منه ،

والحوقلة : سرعة المشي ، وحقل الفرس – إذا وجع من أكل التراب – كأنه مأخوذ من الحقل ، وحوقل الشيخ : اعتمد بيديه على خصره إذا تمشى – كأنه للحاق يديه خصره .

(71/424)

---

والحلق مساغ الطعام والشراب ، وحلوق الأرض : أوديتها ومجاريها – للحاق المياه بها ، ولشبيهها بالحلوق ، والحلق : حلق الشعر بالموسى ، من اللحاق والقوة ، والمحالق : الأكسية الخشنة التي تحلق الشعر من خشونتها ، والحالق : المشؤوم الذي يحلق قومه ؛ والحلق : ضرب من النبات ، لورقه حموضة – كأنه لسرعة لحاق الماشية به لأنه كالفاكهة لها ، والحلقة : الخاتم بلا فص – لتلاحق أجزائها بعضها ببعض ، ومنه حلقة القوم ، والحلقة : السلاح كله ، إما من هذا لأن منها الدروع ذات الحلق ، تسمية للشيء باسم جزئه ، وإما من القوة والعلو المعنوي لما يلزم عنها ، والحلق : المال الكثير ، إما من ذلك وإما من لحاق صاحبه بمراده ، والحالق : الجبل المنيف – لظهوره وعلوه ولحاقه بالجو ، والحوقلة : القارورة الطويلة العنق ، وحلق الطائر : ارتفع في الهواء ، من هذا ؛ واللقحة : الغراب ؛ والحالق من الكرم والشرى : ما تعلق منه بالقضبان ، فهو ظاهر في اللحاق ، وحلق الضرع – إذا ارتفع إلى البطن وانضم ، فهو من العلو واللحاق ، وقيل : إذا كثر لبنه فهو إذاً من اللحاق ، وتحلق القمر

: صارت حوله دارة ، وحلق قضيب الفرس حلقاً – إذا تقشر ، كأنه شبه بما حلق شعره ، وحي لقاح : لم يملكوا قط كأنه من القوة والعلو المعنوي ؛ والقلح : صفرة تعلو الأسنان ، فهو من اللحاق مع العلو ، ويسمى الجعل أقلح من هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 215.213 ﴾

*(72/424)*

---

وقال الفخر :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه أنبت في الأرض كل شيء موزون وجعل فيها معايش أتبعه بذكر ما هو كالسبب لذلك فقال : ﴿ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ .

وهذا هو النوع الرابع من الدلائل المذكورة في هذه السورة على تقرير التوحيد ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي رحمه الله : الخزائن جمع الخزانة ، وهو اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ والخزانة أيضاً عمل الخازن ، ويقال : خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في خزانة ، وعامة

المفسرين على أن المراد بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ﴾ هو المطر، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده، أي في أمره وحكمه وتدبيره، وقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال ابن عباس رحمهما الله: يريد قدر الكفاية، وقال الحكم: ما من عام بأكثر مطراً من عام آخر، ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون، وربما كان في البحر، يعني أن الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم، غير أنه يصرفه إلى من يشاء حيث شاء كما شاء.

ولقائل أن يقول: لفظ الآية لا يدل على هذا المعنى، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لا يدل على أنه تعالى ينزله في جميع الأعوام على قدر واحد، وإذا كان كذلك كان تفسير الآية بهذا المعنى تحكماً من غير دليل.

وأقول أيضاً: تخصيص قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ بالمطر تحكم محض، لأن قوله: ﴿وَإِن مِّن شيْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء إلا ما خصه الدليل، وهو الموجود القديم الواجب لذاته، وقوله: ﴿إلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ إشارة إلى كون تلك الأشياء مقدورة له تعالى.

وحاصل الأمر فيه أن المراد أن جميع الممكنات مقدورة له ، ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء إلا أنه تعالى وإن كانت مقدوراته غير متناهية إلا أن الذي يخرجه منها إلى الوجود يجب أن يكون متناهياً لأن دخول ما لا نهاية له في الوجود محال فقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ إشارة إلى كون مقدوراته غير متناهية وقوله : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ إشارة إلى أن كل ما يدخل منها في الوجود فهو متناه ، ومتى كان الخارج منها إلى الوجود متناهياً كان لا محالة مختصاً في الحدوث بوقت مقدر مع جواز حصوله قبل ذلك الوقت أو بعده بدلاً عنه ، وكان مختصاً بحيز معين مع جواز حصوله في سائر الأحياز بدلاً عن ذلك الحيز ، وكان مختصاً بصفات معينة ، مع أنه كان يجوز في العقل حصول سائر الصفات بدلاً عن تلك الصفات ، وإذا كان كذلك كان اختصاص تلك الأشياء المتناهية بذلك الوقت المعين والحيز المعين ، والصفات المعينة بدلاً عن أضدادها لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ والمعنى : أنه لولا القادر المختار الذي خصص تلك الأشياء بتلك الأحوال الجائزة لامتنع اختصاصها بتلك الصفات الجائزة ، والمراد من الإنزال الإحداث والإنشاء والإبداع كقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [ الزمر : 6 ] وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد ﴾ [

الحديد : 25 ] ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(74/424)

---

تمسك بعض المعتزلة بهذه الآية في إثبات أن المعدوم شيء قال لأن قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ يقتضي أن يكون لجميع الأشياء خزائن ، وأن تكون تلك الخزائن حاصلة عند الله تعالى ، ولا جائز أن يكون المراد من تلك الخزائن الموجودة عند الله تعالى هي تلك الموجودات من حيث إنها موجودة ، لأنا بينا أن المراد من قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ الإحداث والإبداع والإنشاء والتكوين ، وهذا يقتضي أن يكون حصول تلك الخزائن عند الله متقدماً على حدوثها ودخولها في الوجود ، وإذا بطل هذا وجب أن يكون المراد أن تلك الذوات والحقائق والماهيات كانت متقررة عند الله تعالى ، بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث إنها حقائق وماهيات ، ثم إنه تعالى أنزل بعضها أي أخرج بعضها من العدم إلى الوجود .

ولقائل أن يجيب عن ذلك بقوله : لا شك أن لفظ الخزائن إنما ورد ههنا على سبيل التمثيل والتخييل ، فلم لا يجوز أن يكون المراد منه مجرد كونه تعالى قادراً على إيجاد تلك الأشياء

وتكوينها وإخراجها من العدم إلى الوجود ؟ وعلى هذا التقدير يسقط الإستدلال ،

والمباحثات الدقيقة باقية ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ فاعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل

التوحيد ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في وصف الرياح بأنها لواقح .

أقوال :

القول الأول : قال ابن عباس : الرياح لواقح للشجر وللسحاب ، وهو قول الحسن وقتادة

والضحاك وأصل هذا من قولهم : لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى الماء فيها فحملت

، فكذلك الرياح جارية مجرى الفحل للسحاب .

قال ابن مسعود في تفسير هذه الآية : يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء وتمجه في

السحاب ، ثم إنه يعصر السحاب ويدره كما تدر اللقحة فهذا هو تفسير إلقاحها للسحاب

، وأما تفسير إلقاحها للشجر فما ذكروه .

فإن قيل : كيف قال ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ وهي ملقحة ؟

والجواب : ما ذهب إليه أبو عبيدة أن ( لواقح ) ههنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة وأنشد لسهيل يرثي أخاه :

لبيك يزيد يائس ذو ضراعة . . وأشعث مما طوحته الطوائح

أراد المطوحات وقرر ابن الأنباري ذلك فقال : تقول العرب أبقل النبت فهل باقل يريدون هو مبقل وهذا يدل على جواز ورود لاقح عبارة عن ملقح .

والوجه الثاني : في الجواب قال الزجاج : يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألحقت غيرها لأن معناها النسبة وهو كما يقال : درهم وازن ، أي ذو وزن ، ورامح وسائف ، أي ذو رمح وذو سيف قال الواحدي : هذا الجواب ليس بمغن ، لأنه كان يجب أن يصح اللاقح . بمعنى ذات اللقاح وهذا ليس بشيء ، لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة ، ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة إلى اللقحة فصح هذا الجواب ، والله أعلم .

والوجه الثالث : في الجواب أن الريح في نفسها لاقح وتقريره بطريقين :

الطريق الأول : أن الريح حاصلة للسحاب ، والدليل عليه قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أي حملت فعلى هذا المعنى تكون الريح لاقحة بمعنى أنها حاملة تحمل السحاب والماء .

والطريق الثاني : قال الزجاج : يجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير ، كما قيل لها عقيم

إذا لم تأت بالخير ، وهذا كما تقول العرب : قد لقحت الحرب وقد نتجت ولداً أنكد يشبهون ما تشتمل عليه من ضروب الشر بما تحمله الناقة فكذا ههنا ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(76/424)

---

الريح هواء متحرك وحركة الهواء بعد أن لم يكن متحركاً لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس نفس كونه هواء ولا شيئاً من لوازم ذاته ، وإلا لدامت حركة الهواء بدوام ذاته وذلك محال ، فلم يبق إلا أن يقال : إنه يتحرك بتحريك الفاعل المختار ، والأحوال التي تذكرها الفلاسفة في سبب حركة الهواء عند حدوث الريح قد حكيناها في هذا الكتاب مراراً فأبطلناها وبينا أنه لا يمكن أن يكون شيء منها سبباً لحدوث الرياح ، فبقي أن يكون محركها هو الله سبحانه .

وأما قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ ففيه مباحث :

الأول : أن ماء المطر هل ينزل من السماء أو ينزل من ماء السحاب ؟ وبتقدير أن يقال إنه ينزل من السحاب كيف أطلق الله على السحاب لفظ السماء ؟ وثانيها : أنه ليس السبب في حدوث المطر ما يذكره الفلاسفة بل السبب فيه أن الفاعل المختار ينزله من السحاب إلى

الأرض لغرض الإحسان إلى العباد كما قال ههنا : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ قال الأزهري : تقول العرب لكل ما كان في بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجري أسقيته أي جعلته شرباً له ، وجعلت له منها مسقى ، فإذا كانت السقيا لسقيه قالوا سقاه ، ولم يقولوا أسقاه .

والذي يؤكد هذا اختلاف القراء في قوله : ﴿ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ ﴾ [ النحل : 66 ] فقرؤا باللغتين ، ولم يختلفوا في قوله : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ [ الإنسان : 21 ] وفي قوله :

﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ [ الشعراء : 79 ] قال أبو علي : سقيته حتى روي وأسقيته نهراً ، أي جعلته شرباً له وقوله : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي جعلناه سقياً لكم وربما قالوا في أسقى سقى كقول لبيد يصف سحاباً :

أقول وصوبه مني بعيد . . يحط السيب من قلل الجبال

سقى قومي بني نجد وأسقى . . نميرا والقبائل من هلال

(77/424)

---

فقوله : سقى قومي ليس يريد به ما يروي عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقياً لبلادهم يخصبون بها ، وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى العطاش وليغرهم ما يخصبون به .

وأما سقيا السقية فلا يقال فيها أسقاه ، وأما قول ذي الرمة :

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . تكلمني أحجاره وملاعبه

فمعنى أسقيه أدعو له بالسقاء ، وأقول سقاه الله وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ يعني به ذلك الماء المنزل من السماء يعني لستم له بحافظين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 138.141 ﴾

(78/424)

---

وقال ابن العربى :

قَوْلُهُ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : تُلْقِحُ الشَّجَرَ وَالسَّحَابَ ، وَجُمِعَتْ عَلَى حَذْفِ الزَّائِدِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ مَوْضُوعٌ عَلَى النَّسَبِ ، أَيْ ذَاتُ لَقْحٍ وَلِقَاحٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّ ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ جَمْعُ لَاقِحٍ ، أَيْ حَامِلٍ ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ السَّحَابَ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْجَنُوبِ لَاقِحٌ وَحَامِلٌ ، وَلِلشَّمَالِ حَائِلٌ وَعَقِيمٌ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى إذَا

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ مَعْنَاهُ : حَمَلَتْ .

وَأَقْوَى الْوَجْهِ فِيهِ النِّسْبَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ ، وَأَشْهَبُ ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ ، وَاللَّفْظُ لِأَشْهَبَ قَالَ مَالِكٌ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ ، فَلِقَاحُ الْقَمْحِ عِنْدِي أَنْ يُحَبَّبَ وَيُسَنْبِلَ ، وَلَا أَدْرِي مَا يَيْبَسُ فِي أَكْمَامِهِ ، وَلَكِنْ يُحَبَّبُ حَتَّى يَكُونَ لَوْ يَبِسَ حِينَئِذٍ لَمْ يَكُنْ فَسَادًا لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَلِقَاحُ الشَّجَرِ كُلِّهَا أَنْ يُثْمِرَ الشَّجَرُ وَيَسْقُطَ مِنْهُ مَا يَسْقُطُ ، وَيَثْبُتَ مَا يَثْبُتُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَنْ تَوَرَّدَ الشَّجَرُ .

(79/424)

---

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : إنَّمَا عَوَّلَ مَالِكٌ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ عَلَى تَشْبِيهِ لِقَاحِ الشَّجَرِ بِلِقَاحِ الْحَمْلِ ، وَأَنَّ الْوَلَدَ إذَا عُقِدَ وَخُلِقَ وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ تَحَبُّبِ الثَّمَرِ وَسَنْبَلَتِهِ ، وَلِأَنَّهُ سُمِّيَ بِاسْمٍ تَشْتَرِكُ فِيهِ كُلُّ حَامِلَةٍ ، وَهُوَ اللِّقَاحُ ، وَعَلَيْهِ جَاءَ الْحَدِيثُ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ الْحَبِّ حَتَّى يَشْتَدَّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(80/424)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾

يعني وإن من شيء من أرزاق الخلق إلا عندنا خزائنه وفيه وجهان :

أحدهما : يعني مفاتيحه لأن في السماء مفاتيح الأرزاق ، وهو معنى قول الكلبي .

الثاني : أنها الخزائن التي هي مجتمع الأرزاق . وفيها وجهان :

أحدهما : ما كتبه الله تعالى وقدره من أرزاق عباده .

الثاني : يعني المطر المنزل من السماء ، لأنه نبات كل شيء ، قال الحسن : المطر خزائن كل شيء .

﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ قال ابن مسعود : ما كان عامٌ بأمطر من عام ولكن الله يقسمه حيث يشاء ، فيمطر قوماً ويحرم آخرين .

قوله عز وجل : ﴿ وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : لواقح السحاب حتى يمطر ، قاله الحسن وقتادة ، وكل الرياح لواقح . غير أن الجنوب ألقح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما هبت ريح جنوب إلا أنبع الله تعالى بها عيناً غدقة

" . الثاني : لواقح للشجر حتى يثمر ، قاله ابن عباس .

وقال أبو عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح . وقال عبيد بن عمير : يرسل الله تعالى المبشرة فتقم الأرض قمّاً ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه ، ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر .

قوله عز وجل : ﴿ فأنزلنا من السماء ماءً ﴾ يعني من السحاب مطراً .

﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي مكناكم منه ، والفرق بين السقي والشرب أن السقي بذل المشروب ، والشرب : استعمال المشروب ، فصار الساقي باذلاً ، والشارب مستعملاً .

﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بخازني الماء الذي أنزلناه .

الثاني : بمانعي الماء الذي أنزلناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(81/424)

---

وقال ابن عطية :

وقوله : ﴿ وإن من شيء ﴾ قال ابن جريج : وهو المطر خاصة .

قال القاضي أبو محمد : وينبغي أن تكون أعم من هذا في كثير من المخلوقات .

و" الخزائن " المواضع الحاوية ، وظاهر هذا أن الماء والريح ونحو ذلك موجود مخلوق ، وهو ظاهر في قولهم في الريح : عتت على الخزان وانفتح منها قدر حلقة الخاتم ، ولو كان قدر منخر الثور لأهلك الأرض ؛ إلى غير هذا من الشواهد . وذهب قوم إلى أن كونها في القدرة هو خزنها ، فإذا شاء الله أوجدها .

(82/424)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا أيضاً ظاهر في أشياء كثيرة. وهو لازم في الاعتراض إذا عممنا لفظة ﴿ شيء ﴾ وكيفما كان الأمر فالقدرة تسعه وتتقنه .

وقوله : ﴿ ننزله ﴾ ما كان من المطر ونحوه : فالإنزال فيه متمكن ، وما كان من غير ذلك فإيجاده والتمكين من الانتفاع به ، إنزال على تجوز .

وقرأ الأعمش : " وما نرسله " .

وقوله : ﴿ بقدر معلوم ﴾ روي فيه عن ابن مسعود وغيره : أنه ليس عام أكثر مطراً من عام ، ولكن الله تعالى ينزله في مواضع دون مواضع .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) ﴾

يقال : لقحت الناقة والشجرة فهي لاقحة : إذا حملت ، والرياح تلقح الشجر والسحاب ، فالوجه في الريح أنها ملقحة لا لاقحة ، وتتجه صفة ﴿ الرياح ﴾ ب ﴿ لواقح ﴾ على أربعة أوجه :

أولها وأولاها : أن نجعلها لاقحة حقيقية ، وذلك أن الرياح منها ما فيها عذاب أو حر ونار ، ومنها ما فيه رحمة ومطر أو نصر أو غير ذلك ، فإذا بها تحمل ما حملتها القدرة ، أو ما علقته من الهواء أو التراب أو الماء الذي مرت عليه ، فهي لاقحة بهذا الوجه ، وإن كانت أيضاً تلقح غيرها وتصير إليه نفعها . والعرب تسمي الجنوب الحامل واللاقحة ، وتسمي الشمال الحايل والعقيم ومحوة ، لأنها تمحو السحاب . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الريح الجنوب من الجنة ، وهي اللواقح التي ذكر الله ، وفيها منافع للناس " ؛ ومن هذا قول الطرماح :

قلق لا فبان الريا . . . ح للاقح منها وحائل

ومن قول أبي وجزة :

من نسل جوابة الآفاق . . . فجعلها حاملاً تنسل .

قال القاضي أبو محمد : ويخرج هذا على أنها ملقحة فلا حجة فيه .

والثاني : أن يكون وصفها ب ﴿ لواقح ﴾ من باب قولهم : ليل نائم ، أي فيه نوم ومعه ، ويوم عاصف ونحوه : فهذا على طريق المجاز .

والثالث: أن توصف الرياح ب ﴿ لواقح ﴾ على جهة النسب، أي ذات لقح، كقول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب. . . أي ذي نصب.

والرابع: أن تكون ﴿ لواقح ﴾ جمع ملقحة على حذف زوائدة، فكأنه لقحة، فجمعها كما تجمع لاقحة، ومثله قول الشاعر [ سيبويه ]: [ الطويل ]

ليبك يزيد ضارع لخصومة. . . وأشعث ممن طوحته الطوائح

وإنما طوحته المطاوح، وعلى هذا النحو فسرها أبو عبيدة في قوله: ﴿ لواقح ﴾ ملاقح، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري: لواقح ملاقح ملقحة.

وقرأ الجمهور "الرياح" بالجمع، وقرأ الكوفيون - حمزة وطلحة بن مصرف والأعمش ويحيى بن وثاب - "الريح" بالإفراد، وهي للجنس، فهي في معنى الجمع، ومثلها الطبري بقولهم: "قميص أخلاق وأرض أغفال".

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله من حيث هو أجزاء كثيرة تجمع صفته، فكذلك ريح لواقع لأنها متفرقة الهبوب، وكذلك: دار بلاقع، أي كل موضع منها بلقع.

وقال الأعمش : إن في قراءة عبد الله " وأرسلنا الرياح يلقحن " ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الريح من نفس الرحمن " ، ومعنى الإضافة هنا هي من إضافة خلق إلى خالق ، كما قال : ﴿ من روحي ﴾ [ الحجر : 29 ] ومعنى نفس الرحمن : أي من تنفيسه وإزالته الكرائب والشدائد . فمن التنفس بالريح النصر بالصبا وذرو الأرزاق بها ، وما لها من الخدمة في الأرزاق وجلب الأمطار وغير ذلك مما يكثر عده .

ولقد حدثت أن ابن أبي قحافة رحمه الله فسر هذا الحديث بنحو هذا وأنشد في تفسيره :

[ الطويل ]

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت . . . على نفس محزون تجلت همومها

وهذا من جملة التنفيس والعرب تقول : أسقى وسقى بمعنى واحد ، وقال لبيد : [ الوافر ]

سقى قومي بني مجد واسقى . . . نميراً ، والقبائل من هلال



---

فجاء باللغتين ، وقال أبو عبيدة : أما إذا كان من سقي الشفة خاصة فلا يقال إلا سقى ، وأما إذا كان لسقي الأرض والثمار وجملة الأشياء فيقال : أسقى ، وأما الداعي لأرض أو غيرها بالسقي ، فإنما يقال فيه : أسقى ، ومنه قول ذي الرمة : [ الطويل ]

وقفت على رسم لمية ناقتي . . . فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . . تكلمني أحجاره وملاعبه

قال القاضي أبو محمد : على أن بيت لبيد دعاء ، وفيه اللغتان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(85/424)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِن من شيء ﴾

أي : وما من شيء ﴿ إِلا عندنا خزائنه ﴾ وهذا الكلام عامّ في كل شيء .

وذهب قوم من المفسرين إِلى أن المراد به المطر خاصة ، فالمعنى عندهم : وما من شيء من المطرِ إلا عندنا خزائنه ، أي : في حُكمنا وتدبيرنا ، ﴿ وما ننزِّله ﴾ كل عام ﴿ إِلا بقَدَر معلوم ﴾ لا يزيد ولا ينقص ، فما من عام أكثرُ مطراً من عام ، غير أن الله تعالى يصرفه إِلى من يشاء ، ويمنعه من يشاء .

قوله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾

وقرأ حمزة ؛ وخلف : "الريح" .

وكان أبو عبيدة يذهب إلى أن "لواقح" بمعنى مَلاقح ، فسقطت الميم منه ، قال الشاعر :

لِيُبْكَ يَزِيدُ بائِسٌ لِضَرَاعَةٍ . . .

(86/424)

---

وَأَشْعَثُ مِمَّنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ

أراد : المَطاوِح ، فحذف الميم ، فمعنى الآية عنده : وأرسلنا الرياح مُلقِحة ، فيكون هاهنا فاعلٌ بمعنى مفْعِل ، كما أتى فاعل بمعنى مفعول ، كقوله : ﴿ ماءٍ دافق ﴾ [ الطارق 6 ]

أي : مدفوق ، و ﴿ عيشة راضية ﴾ [ الحاقة 21 والقارعة 7 ] أي : مَرضيَّة وكقولهم :

ليل نائم ، أي : مَنُوم فيه ، ويقولون : أبقل النبت ، فهو باقل ، أي : مُبقِل .

قال ابن قتيبة : يريد أبو عبيدة أنها تُلْقِح الشجر ، وتُلْقِح السحاب كأنها تُنتجه .

ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير بهذا الاستكراه وهو يجد العرب تسمي الرياحَ

لواقحَ ، والريحَ لاقحاً ، قال الطِرِمّاح ، وذكر بُرْداً مَدَّه على أصحابه في الشمس يستظُّلون به

:

قَلِقٌ لأفنان الريا . . .

حِ للاَقحٍ منها وحائل

فاللاقح : الجنوب ، والحائل : الشمال ، ويسمون الشمال أيضاً : عقيماً ، والعقيم : التي لا تحمل ، كما سمَّوا الجنوب لاقحاً ، قال كثيِّر :

ومرَّ بسفساف التراب عقيمها . . .

يعني : الشمال .

وإنما جعلوا الريح لاقحاً ، أي : حاملاً ، لأنها تحمل السحاب وتقلِّبه وتصرِّفه ، ثم تحُلّه فينزل ، فهي على هذا حامل ، ويدل على هذا قوله : ﴿ حتى إذا أقلَّت سحاباً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أي : حملت .

قال ابن الأنباري : شبّه ما تحمله الريح من الماء وغيره ، بالولد التي تشتمل عليه الناقة ، وكذلك يقولون : حرب لاقح ، لِما تشتمل عليه من الشر ، فعلى قول أبي عبيدة ، يكون معنى "لواقح" : أنها مُلقحة لغيرها ، وعلى قول ابن قتيبة : أنها لاقحة نفسها ، وأكثر الأحاديث تدل على القول الأول .

قال عبد الله ابن مسعود : يبعث الله الرياح لتلقح السحاب ، فتحمل الماء ، فتمجُّه ثم تَمريه ، فيدرُّ كما تدرُّ اللقحة .

وقال الضحاك : يبعث الله الرياح على السحاب فتُلقِحه فيمتلىء ماءً .

قال النخعي : تُلْقِح السحاب ولا تُلْقِح الشجر .

وقال الحسن في آخرين : تُلْقح السحاب والشجر ، يعنون أنها تُلْقح السحاب حتى يُمطر والشجر حتى يُثمر .

قوله تعالى : ﴿ فأنزلنا من السماء ﴾ يعني السحاب ﴿ ماءً ﴾ يعني المطر ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي : جعلناه سُقْيا لكم .

قال الفراء : العرب مجتمعون على أن يقولوا : سقيت الرجل ، فأنا أسقيه : إذا سقيته لِشَفَتِه ، فإذا أجرَوا للرجل نهراً قالوا : أسقيته وسقيته ، وكذلك السُّقيا من الغيث ، قالوا فيها : سقيت وأسقيت .

وقال أبو عبيدة : كل ما كان من السماء ، ففيه لغتان : أسقاه الله ، وسقاه الله ، قال لبيد :

سَقَى قَوْمي بَني مَجْدٍ وَأَسْقَى . . .

نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ

فجاء باللغتين .

وتقول : سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغيره ، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف ، إذا كان في الشَّفه ؛ وإذا جعلت له شِرْباً ، فهو : أسقيته ، وأسقيت أرضه ، وإبله ، ولا يكون غير هذا ، وكذلك إذا استسقيت له ، كقول ذي الرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي . . .

فَما زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وأُخَاطِبُهْ

وأُسْقِيه حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ . . .

تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ ومَلاَعِبُهْ

فإذا وهبت له إهاباً ليجعله سقاءً ، فقد أسقيته إياه .

قوله تعالى : ﴿ وما أنتم له ﴾ يعني : الماء المُنزَل ﴿ بخازنين ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : بحافظين ، أي : ليست خزائنه بأيديكم ، قاله مقاتل .

والثاني : بمانعين ، قاله سفيان الثوري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(88/424)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾

أي وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ؛ يعني المطر المنزل من السماء ، لأن به نبات كل شيء .

قال الحسن : المطر خزائن كل شيء .

وقيل : الخزائن المفاتيح ، أي في السماء مفاتيح الأرزاق ؛ قاله الكلبي .

والمعنى واحد .

﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه ؛ كما قال : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [ الشورى : 27 ] .

وروي عن ابن مسعود والحكم بن عُتيبة وغيرِهما أنه ليس عام أكثر مطراً من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيُمْطَر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان المطر في البحار والقِفار .

والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذي يستر فيه الإنسان ماله .

والخِزانة أيضاً مصدر خَزَنَ يَخْزُن .

وما كان في خِزانة الإنسان كان مُعَدّاً له .

فكذلك ما يقدر عليه الرب فكأنه مُعَدٌّ عنده ؛ قاله القشيري .

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه أنه قال : في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر .

وهو تأويل قوله تعالى : "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ" .

والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد ؛ كقوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأَنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [ الزمر : 6 ] وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيد ﴾ [ الحديد : 25 ] .

وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء ، وسماه إنزالاً لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) ﴾

فيه خمس مسائل :

(89/424)

---

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ [ الحجر : 15 ] قراءة العامة "الرياح" بالجمع .

وقرأ حمزة بالتوحيد ؛ لأن معنى الريح الجمع أيضاً وإن كان لفظها لفظ الواحد .

كما يقال : جاءت الريح من كل جانب .

كما يقال : أرضٌ سبَاسِب وثوبٌ أخْلاق .

وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسع .

وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها ب"لواقح" وهي جمع .

ومعنى لواقح حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسَّحاب والخير والنفع .

قال الأزهري : وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ؛ أي تُقِلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه فتستَدِرّه ، أي تنزله ؛ قال الله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أي حملت .

وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة في بطونها .

وقيل : لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل ، ولكنها لا تُلقح إلا وهي في نفسها لاقح ، كأن الرياح لَقِحت بخير .

وقيل : ذوات لَقْح ، وكل ذلك صحيح ؛ أي منها ما يُلقح الشجر ؛ كقولهم : عيشة راضية ؛ أي فيها رضاً ، وليل نائم ؛ أي فيه نوم .

ومنها ما تأتي بالسحاب .

يقال : لَقِحت الناقة ( بالكسر ) لَقَحا ولَقاحا ( بالفتح ) فهي لاقح .

وألقحها الفحل أي ألقى إليها الماء فحملته ؛ فالرياح كالفحل للسحاب .

قال الجوهري : ورياح لواقح ولا يقال ملاَقح ، وهو من النوادر .

وحكى المهدوي عن أبي عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح ، ذهب إلى أنه جمع مُلْقِحة ومُلْقِح ، ثم حذفت زوائده .

وقيل : هو جمع لاقحة ولاقح ، على معنى ذات اللّقاح على النسب .

ويجوز أن يكون معنى لاقح حاملاً .

والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل ، وللشّمال حائل وعقيم .

وقال عبيد بن عُمير : يرسل الله المبشِّرة فتقم الأرض قَمّا ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ،

ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه ، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر .

وقيل : الريح الملاقح التي تحمل الندى فتمجّه في السحاب ، فإذا اجتمع فيه صار مطراً .

(90/424)

---

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح الجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح التي ذكرها الله في كتابه وفيها منافع للناس " .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : " ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدقة " .

وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيها ؛ فالصَّبا تهيّجه ، والدَّبور تلقحه ، والجنوب تُدِرّه ، والشمال تفرّقه .

الثانية : روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك واللفظ لأشهب قال مالك : قال الله تعالى : "وأرسلنا الرياح لواقِح" فلقاح القمح عندي أن يحبب ويُسَنْبِل ، ولا أدري ما ييبَس في أكمامه ، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساداً لا خير فيه .

ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت ، وليس ذلك بأن تورّد .

قال ابن العربي : إنما عوّل مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمي باسم تشترك فيه كل حاملة وهو اللقاح ، وعليه جاء الحديث : " نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد " قال ابن عبد البر : الإبَار عند أهل العلم في النخل التلقيح ، وهو أن يؤخذ شيء من طلع ( ذكور ) النخل فيُدْخَل بين ظهراني طلع الإناث .

ومعنى ذلك في سائر الثمار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظوراً إليها .

والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكّر من الثمار التذكير ، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نوّاره ما يثبت ويسقط ما يسقط .

وحدّ ذلك في الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك .

وقد روي عنه أن إباره أن يحبّب .

ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخِّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها في الحبّ .

فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعاً له .

كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعاً لذلك الصلاح في جواز بيعه .

الثالثة : روى الأئمّة كلّهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" من ابتاع نخلاً بعد أن تؤبر فثمرتها للذي باعها إلا أن يَشترط المبتاع .

ومن ابتاع عبداً فماله للذي باعه إلا أن يشترط المبتاع " قال علماؤنا : إنما لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصول في البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بها أمن سقوطها غالباً .

بخلاف التي لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأموناً فلم يتحقق لها وجود ، فلم يجز للبائع اشتراطها ولا استثناؤها ؛ لأنها كالجنين .

وهذا هو المشهور من مذهب مالك .

وقيل : يجوز استثناؤها ؛ وهو قول الشافعي .

الرابعة : لو اشتُرِي النخل وبقي الثمر للبائع جاز لمشتري الأصل شراء الثمرة قبل طِيبها على مشهور قول مالك ، ويرى لها حكم التبعية وإن أفردت بالعقد .

وعنه في رواية : لا يجوز .

وبذلك قال الشافعي وأبو حنيفة والثوري وأهل الظاهر وفقهاء الحديث .

وهو الأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها .

الخامسة : ومما يتعلق بهذا الباب النهي عن بيع الملاقح ؛ والملاقح الفحول من الإبل ، الواحد مُلقح .

والملاقح أيضاً الإناث التي في بطونها أولادُها ، الواحدة ملقَحة ( بفتح القاف ) .

والملاقيح ما في بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوحة ؛ ومن قولهم : لُقِحت ؛ كالمحموم من حُمّ ، والمجنون من جُنّ .

وفي هذا جاء النهي .

وقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه : نهى عن المَجْر وهو بيع ما في بطون الإناث .

ونهى عن المضامين والملاقيح .

قال أبو عبيد : المضامين ما في البطون ، وهي الأجنة .

والملاقيح ما في أصلاب الفحول .

وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره .

وقيل بالعكس : إن المضامين ما في بطون الجمال ، والملاقيح ما في بطون الإناث .

وهو قول ابن حبيب وغيرِه .

وأيّ الأمرين كان، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز.

وذكر المزني عن ابن هشام شاهداً بأن الملاقيح ما في البطون لبعض الأعراب:

مَنيّتي مَلاقِحاً في الأبطُنِ . . .

تُنْتَج ما تَلْقَحُ بعد أزْمُنِ

وذكر الجوهريّ على ذلك شاهداً قول الراجز:

إنّا وجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ . . .

خيراً من التّأنان والمسائِل

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابلِ . . .

مَلقوحةً في بطن نابٍ حائلِ

قوله تعالى: ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآءِ ﴾ أي من السحاب.

وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء.

وقيل: من جهة السماء.

﴿ مَاءً ﴾ أي قطراً.

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي جعلنا ذلك المطر لسقياكم وللشرب مواشيكم وأرضكم.

وقيل: سَقى وأسقى بمعنىً.

وقيل بالفرق، وقد تقدّم.

﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أي ليست خزائنه عندكم ؛ أي نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا .

ومثله ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً طَهُوراً ﴾ [ الفرقان : 48 ] ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [ المؤمنون : 18 ] .

وقال سفيان : لستم بمانعين المطر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(93/424)

---

وقال الخازن :

﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ الخزائن جمع خزانة هي أسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء للحفظ يقال : خزن الشيء إذا أحرزه .

فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل : أراد بالخزائن المطر لأنه سبب الأرزاق والمعايش لبني آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا أنه في حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى :

﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ يعني بقدر الكفاية .

وقيل : إن لكل أرض حداً ومقدار من المطر .

يقال : لا تنزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله تعالى .

وقيل : إن المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوماً ، ويحرم آخرين وقيل : إذا أراد الله بقوم خيراً أنزل عليهم المطر والرحمة وإذا أراد بقوم شراً صرف المطر عنهم إلى حيث لا ينتفع به ، كالبراري والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك .

وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده أنه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البر والبحر .

(94/424)

---

وهو تأويل قوله وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال ابن عباس يعني للشجر ، وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم : لقحت الناقة وألقحها الفحل إذا ألقى إليها الماء ، فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود في تفسير هذه الآية يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ، وقال عبيد بن عمير : يرسل الله الريح المبشرة فتقم الأرض قماً ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ، ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً ، ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والأظهر في هذه الآية إلقاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السماء إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع

فيها فالصبا تهيج السحاب ، والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه .

وقال أبو عبيد : لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت إلى الأصل .

وقال الزجاج : يجوز أن يقال لها لواقح وإن ألقحت غيرها ، لأن معناها النسبة كما يقال :

درهم وازن أي ذو وزن واعترض الواحدي على هذا .

فقال هذا ليس بمغن لأنه كان يجب أن يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين

، وأجاب الرازي عنه بأن قال : هذا ليس بشيء .

لأن اللاقح هو المنسوب إلى اللقحة ، ومن أفاد غير اللقحة فله نسبة إلى اللقحة وقال

صاحب المفردات لواقح أي ذات لقاح وقيل إن الريح في نفسها لاقح لأنها حاملة للسحاب

والدليل عليه قوله تعالى ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ﴾ ثقالاً ، أي حملت فعلى هذا تكون

الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب .



---

وقال الزجاج : ويجوز أن يقال للريح لقحت إذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم إذا لم تأت بخير

وورد في بعض الأخبار أن الملقح الرياح الجنوب ، وفي بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب إلا

واتبعت عيناً غدقة ( ق ) عن عائشة أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) كان إذا عصفت

الريح قال : " اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ما أرسلت به " وروى البغوي بسنده إلى الشافعي إلى ابن عباس قال : ما هبت ريح قط إلا جثا النبي ( صلى الله عليه وسلم ) على ركبتيه ، وقال :

" اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " قال ابن عباس في كتاب الله ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ ﴿ فأرسلنا عليه الريح العقيم ﴾ وقال : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقال ﴿ يرسل الرياح مبشرات ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فأنزلنا من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴿ فأسقيناكموه ﴾ يعني جعلنا لكم المطر سقياً يقال أسقى فلان فلاناً إذا جعل له سقياً ، وسقاه إذا أعطاه ما يشرب ، وتقول العرب : سقيت الرجل ماء ، ولبناً إذا كان لسقيه فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته يقال : أسقيناه ﴿ وما أنتم له ﴾ يعني للمطر ﴿ بخازنين ﴾ يعني : إن المطر في خزائننا لا في خزائنكم .

وقيل : وما أنتم له بمانعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

لما ذكر حال منكري النبوة وكانت مفرعة على التوحيد ، ذكر دلائله السماوية ، وبدأ بها ثم أتبعها بالدلائل الأرضية .

وقال ابن عطية : لما ذكر تعالى أنهم لو رأوا الآية المذكورة في السماء لعاندوا فيها ، عقب ذلك بهذه الآية كأنه قال : وإنّ في السماء لعبراً منصوبة عبر عن هذه المذكورة ، وكفرهم بها ، وإعراضهم عنها إصرار منهم وعتو انتهى .

والظاهر أن جعلنا بمعنى خلقنا ، وفي السماء متعلق بجعلنا .

ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا ، وفي السماء المفعول الثاني ، فيتعلق بمحذوف .

والبروج جمع برج ، وتقدم شرحه لغة .

قال الحسن وقتادة : هي النجوم .

وقال أبو صالح : الكواكب السيارة .

وقال علي بن عيسى : اثنا عشر برجاً : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ، وهي منازل الشمس والقمر .

وقال ابن عطية : قصور في السماء فيها الحرس ، وهي المذكورة في قوله : ﴿ ملئت حرساً

شديداً وشهباً ﴾ وقيل: الفلك اثنا عشر برجاً، كل برج ميلان ونصف.

والظاهر أن الضمير في وزيناها عائد على البروج لأنها المحدث عنها، والأقرب في اللفظ.

وقيل: على السماء، وهو قول الجمهور.

وخص بالناظرين لأنها من المحسوسات التي لا تدرك إلا بنظر العين.

ويجوز أن يكون من نظر القلب لما فيها من الزينة المعنوية، وهو ما فيها من حسن الحكم وبدائع الصنع وغرائب القدرة.

والضمير في حفظناها عائد على السماء، ولذلك قال الجمهور: إن الضمير في وزيناها عائد على السماء حتى لا تختلف الضمائر، وحفظ السماء هو بالرجم بالشهب على ما تضمنته الأحاديث الصحاح قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن الشياطين تقرب من السماء أفواجاً فينفرد المارد منها فيستمع، فيرمي بالشهاب فيقول لأصحابه.



---

وهو يلتهب: إنه الأمر كذا وكذا، فتزيد الشياطين في ذلك ويلقون إلى الكهنة فيزيدون على الكلمة مائة كلمة" ونحو هذا الحديث.

وقال ابن عباس: إن الشهب تخرج وتؤذي، ولا تقتل.

وقال الحسن : تقتل .

وفي الأحاديث ما يدل على أنّ الرجم كان في الجاهلية ولكنه اشتد في وقت الإسلام .

وحفظت السماء حفظاً تاماً .

وعن ابن عباس : كانوا لا يحجبون عن السموات ، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) منعوا من السموات كلها .

والظاهر أنّ قوله : إلا من استرق ، استثناء متصل والمعنى : فإنها لم تحفظ منه ، ذكره الزهراوي وغيره والمعنى : أنه سمع من خبرها شيئاً وألقاه إلى الشياطين .

وقيل : هو استثناء منقطع والمعنى : أنها حفظت منه ، وعلى كلا التقديرين فمِن في موضع نصب .

وقال الحوفي : من بدل من كل شيطان ، وكذا قال أبو البقاء : حر على البدل أي : إلامن استرق السمع .

وهذا الإعراب غير سائغ ، لأن ما قبله موجب ، فلا يمكن التفريغ ، فلا يكون بدلاً ، لكنه يجوز أن يكون إلا من استرق نعتاً على خلاف في ذلك .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون من في موضع رفع على الابتداء ، وفأتبعه الخبر .

وجاز دخول الفاء من أجل أنّ مِن بمعنى الذي ، أو شرط انتهى .

والاستراق افتعال من السرقة ، وهي أخذ الشيء بخفية ، وهو أن يخطف الكلام خطفة

يسيرة .

والسمع المسموع ، ومعنى مبين : ظاهر للمبصرين .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) ﴾

مددناها بسطناها ليحصل بها الانتفاع لمن حلها .

قال الحسن : أخذ الله طينة فقال لها : انبسطي فانبسطت .

وقيل : بسطت من تحت الكعبة .

ولما كانت هذه الجملة بعدها جملة فعلية ، كان النصب على الاشتغال أرجح من الرفع على الابتداء ، فلذلك نصب والأرض .

(98/424)

---

والرواسي : الجبال ، وفي الحديث : " إن الأرض كانت تتكفأ بأهلها كما تتكفأ السفينة فثبتها الله بالجبال " ومن في من كل للتبعيض ، وعند الأخفش هي زائدة أي كل شيء .

والظاهر أنّ الضمير في فيها يعود على الأرض الممدودة ، وقيل : يعود على الجبال ، وقيل : عليها وعلى الأرض معاً .

قال ابن عباس ، وابن جبير : موزون مقدر بقدر .

وقال الزمخشري قريباً منه قال : وزن بميزان الحكمة ، وقدر بمقدار يقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان .

وقال ابن عطية : قال الجمهور : معناه مقدر محرر بقصد وإرادة ، فالوزن على هذا مستعار .

وقال ابن زيد : المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والفضة ، وغير ذلك مما يوزن .

وقال قتادة : موزون مقسوم .

وقال مجاهد : معدود ، وقال الزمخشري : أوله وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة .

وبسطه غيره فقال : ما له منزلة ، كما تقول : ليس له وزن أي : قدر ومنزلة .

ويقال : هذا كلام موزون ، أي منظوم غير منتثر .

فعلى هذا أي : أنبتنا فيها ، ما يوزن من الجواهر والمعادن والحيوان .

وقال تعالى : ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ والمقصود بالإنبات الإنشاء والإيجاد .

وقرأ الأعرج وخارجة عن نافع : معائش بالهمز .

قال ابن عطية : والوجه ترك الهمز ، وعلل ذلك بما هو معروف في النحو .

وقال الزمخشري : معايش بياء صريحة بخلاف الشمائل والخبائث ، فإنّ تصريح الياء فيها خطأ ، والصواب الهمزة ، أو إخراج الياء بين بين .

وتقدم تفسير المعايش أول الأعراف والظاهر أنّ من لمن يعقل ويراد به العيال والمماليك

والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون ، فإن الله هو الرزاق يرزقكم وإياهم .

وقال معناه الفراء ، ويدخل معهم ما لا يعقل بحكم التغليب كالأنعام والدواب ، وما بتلك المثابة مما الله رازقه ، وقد سبق إلى ظنهم أنهم الرازقون ، وقال معناه الزجاج .

وقال مجاهد : الدواب والأنعام والبهائم .

وقيل : الوحوش والسباع والطير .

فعلى هذين القولين يكون من لما لا يعقل .



---

والظاهر أنّ مِن في موضع جر عطفاً على الضمير المجرور في لكم ، وهو مذهب الكوفيين ويونس والأخفش .

وقد استدل القائل على صحة هذا المذهب في البقرة في قوله : ﴿ وكفر به والمسجد الحرام ﴾ وقال الزجاج : من منصوب بفعل محذوف تقديره : وأعشنا من لستم أي : أمماً غيركم ، لأنّ المعنى أعشناكم .

وقيل : عطفاً على معايش أي : وجعلنا لكم من لستم له برازقين من العبيد والصناع .

وقيل : والحيوان .

وقيل : عطفاً على محل لكم .

وقيل : من مبتدأ خبره محذوف لدلالة المعنى عليه أي : ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش .

وهذا لا بأس به ، فقد أجازوا ضربت زيداً وعمرو بالرفع على الابتداء أي : وعمرو ضربته ، فحذف الخبر لدلالة ما قبله عليه .

وتقدم شرح الخزائن .

وإنْ نافية ، ومن زائدة ، والظاهر أنّ المعنى : وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والأنعام به ، فتكون الخزائن وهي ما يحفظ فيه الأشياء مستعارة من المحسوس الذي هو الجسم إلى المعقول .

وقال قوم : المراد الخزائن حقيقة ، وهي التي تحفظ فيها الأشياء ، وأن للريح مكاناً ، وللمطر مكاناً ، ولكل مكان ملك وحفظه ، فإذا أمر الله بإخراج شيء منه أخرجته الحفظة .

وقيل : المراد بالشيء هنا المطر ، قاله ابن جريج .

وقرأ الأعمش : وما نرسله مكان وما ننزله ، والإرسال أعم ، وهي قراءة تفسير معنى لا أنها لفظ قرآن ، لمخالفتها سواد المصحف .

وعن ابن عباس ، والحكم بن عيينة : أنه ليس عام أكثر مطراً من عام ، ولكنّ الله تعالى ينزله في مواضع دون مواضع .

ولواقح جمع لاقح ، يقال : ريح لاقح جائيات بخير من إنشاء سحاب ماطر ، كما قيل للتي لا تأتي بخير بل بشر ريح عقيم ، أو ملاقح أي : حاملات للمطر .

وفي صحيح البخاري : لواقح ملاقح ملقحة .

وقال عبيد بن عمير : يرسل الله المبشرة تقم الأرض قمائم المثيرة ، فتثير السحاب .

ثم المؤلفة فتؤلفه ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر .



---

ومن قرأ بإفراد الريح فعلى تأويل الجنس كما قالوا : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض ، وسقى وأسقى قد يكونان بمعنى واحد .

وقال أبو عبيدة : من سقى الشفة سقى فقط ، أو الأرض والثمار أسقى ، وللداعي لأرض وغيرها بالسقيا أسقى فقط .

وقال الأزهري : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ، ومن السماء ، أو نهر يجري : أسقيته ، أي جعلته شرباً له ، وجعلت له منه مسقى .

فإذا كان للشفة قالوا : سقى ، ولم يقولوا أسقى .

وقال أبو علي : سقيته حتى روي ، وأسقيته نهراً جعلته شرباً له .

وجاء الضمير هنا متصلاً بعد ضمير متصل كما تقدم في قوله : ﴿ أنلزمكموها ﴾ وتقدم أنّ مذهب سيبويه فيه وجوب الاتصال .

وما أنتم له بخازنين أي : بقادرين على إيجاده ، تنبيهاً على عظيم قدرته ، وإظهار العجز .

هم أي : لستم بقادرين عليه حين احتياجكم إليه .

وقال سفيان : بخازنين أي بمانعين المطر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(101/424)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن مّن شَىْء ﴾

إن للنفي ومن مزيدة للتأكيد وشيءٍ في محل الرفع على الابتداء ، أي ما من شيء من الأشياء الممكنةِ ، فيدخُل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ﴿ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ الظرفُ خبرٌ للمبتدأ ، وخزائنُه مرتفعٌ به على أنه فاعله لاعتماده ، أو خبر له ، والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والخزائنُ جمع الخِزانة وهي ما يحفظ فيه نفائسُ الأموال لا غيرُ ، غلَب في العرف على ما للملوك والسلاطينِ من خزائن أرزاقِ الناس ، شُبِّهت مقدوراتُه تعالى الفائتةُ للحصر المندرجةُ تحت قدرِته الشاملة في كونها مستورةً عن علوم العالمين ومصونةً عن وصول

أيديهم مع كمال افتقارِهم إليها ورغبتِهم فيها ، وكونِها مهيأةً متأتّيةً لإيجاده وتكوينه ، بحيث متى تعلقت الإرادةُ بوجودها وُجدت بلا تأخر بنفائس الأموالِ المخزونةِ في الخزائن السلطانيةِ فذكرُ الخزائن على طريقة الاستعارةِ التخييلية ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ أي ما نُوجِد وما نكوّن شيئاً من تلك الأشياء ملتبساً بشيء من الأشياء ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي إلا ملتبساً بمقدار معينٍ تقتضيه الحِكمةُ وتستدعيه المشيئةُ التابعة لها ، لا بما تقتضيه القدرةُ فإن ذلك غيرُ متناهٍ ، فإن تخصيصَ كل شيء بصفة معينةٍ وقدرٍ معين ووقتٍ محدود دون ما عدا ذلك ، مع استواء الكلِّ في الإمكان واستحقاقِ تعلّقِ القدرة به ، لا بد له من حكمة تقتضي اختصاصَ كلٍ من ذلك بما اختص به ، وهذا البيانُ سرُّ عدمِ تكوينِ الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في خزائن القدرة ، وهو إما عطفٌ على مقدر أي ننزله وما ننزله الخ ، أو حالٌ مما سبق أي عندنا خزائنُ كل شيءٍ ، والحال أنا ما ننزّله إلا بقدر معلوم ، فالأول لبيان سعةِ القدرةِ والثاني لبيان بالغِ الحِكمة ، وحيث كان إنشاءُ ذلك بطريق التفضّل من العالم العلويِّ إلى العالم السفلي كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ وكان ذلك بطريق

التدريج عبّر عنه بالتنزيل ، وصيغة المُضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ عطفٌ على جعلنا لكم فيها معايشَ ، وما بينها اعتراضٌ لتحقيق ما سبق وترشيحِ ما لِحق أي أرسلنا الرياح ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ أي حوامل ، شُبّهت الريحُ التي تجيء بالخير من إنشاء سحابٍ ماطرٍ بالحامل كما شُبّه بالعقيم ما لا يكون كذلك ، أو ملقّحاتٍ بالشجر والسحاب ، ونظيره الطوائحُ بمعنى المُطيحات في قوله

ومختبطٍ مما تُطيح الطوائحُ . . . أي المهلكات ، وقرىء وأرسلنا الريحَ على إرادة الجنس ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياحِ سحاباً ماطراً ﴿ مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي جعلناه لكم سُقياً وهو أبلغُ من سقيناكموه ، لما فيه من الدِلالة على جعل الماءِ معداً لهم ينتفعون به متى شاءوا ﴿ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ نفى عنهم ما أثبته لجنابه بقوله : ﴿ وَإِن مّن شَيْء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ كأنه قيل : نحن القادرون على إيجاده وخزْنه في السحاب وإنزاله وما أنتم على ذلك بقادرين ، وقيل : ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه في الغُدران والآبارِ والعيون ، بل نحن نخزُنه فيها لنجعلَها سقياً لكم مع أن طبيعةَ الماء تقتضي الغَوْر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) ﴾

﴿ وَإِن مّن شَىْء ﴾ ﴿ إن ﴾ نافية و﴿ مِنْ ﴾ مزيدة للتأكيد و﴿ شَىْء ﴾ في محل الرفع على الابتداء أي ما شيء من الأشياء الممكنة فيدخل فيها ما ذكر دخولاً أولياً والاقتصار عليه قصور .

وزعم ابن جريج .

وغيره أن الشيء هنا المطر خاصة .

﴿ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ الظرف خبر للمبتدأ و﴿ خَزَائِنُهُ ﴾ مرتفع به على أنه فاعل لاعتماده أو مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول ، والخزائن جمع خزانة ولا تفتح وهي اسم للمكان الذي يحفظ فيه نفاس الأموال لا غير غلبت على ما قيل في العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس ، شبهت مقدوراته تعالى الغائبة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة في كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع وفور رغبتهم فيها وكونها متهيأة متأتية لإيجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الإرادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية قاله غير واحد ، وجوز أن يكون قد شبه اقتداره تعالى على كل شيء وإيجاده لما يشاء بالخزائن المودعة فيها الأشياء المعدة لأن يخرج منها ما شاء

فذكر ذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والمراد ما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه ، وقيل : الأنسب أنه مثل لعلمه تعالى بكل معلوم ، ووجه على ما قيل أنه يبقى ﴿ شَىْء ﴾ على عمومه لشموله الواجب والممكن بخلاف القدرة ولأن ﴿ عِندَ ﴾ أنسب بالعلم لأن المقدور ليس عنده إلا بعد الوجود .

(104/424)

---

وتعقب بأن كون المقدورات في خزان القدرة ليس باعتبار الوجود الخارجي بل الوجود العلمي ، وقال قوم : الخزائن على حقيقتها وهي الأماكن التي تحفظ فيها الأشياء وإن للريح مكاناً وللمطر مكاناً ولكل مكان حفظة من الملائكة عليهم السلام ، ولا يخفى أنه لا يمكن مع تعميم الشيء ﴿ وَمَا نُنَزّلُهُ ﴾ أي نوجد وما نكون شيئاً من تلك الأشياء ملتبساً بشيء من الأشياء ﴿ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي إلا ملتبساً بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها من بين المقدورات الغير المتناهية فإن تخيص كل شيء بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ما عدا ذلك مع استواء الكل في الأشكال وصحة تعلق القدرة به لا بد له من حكمة تقتضي اختصاص كل من ذلك بما اختص به .

وهذا لبيان سر عدم تكون الأشياء على وجه الكثرة حسبما هو في الخزائن ، وهو إما

عطف على مقدر أي ننزله وما ننزله إلا بقدر إلى آخره أو حال مما سبق أي عندنا خزائن كل شيء والحال إنا ما ننزله إلا بقدر إلى آخره ، فالأول : لبيان سعة القدرة ، والثاني : لبيان بالغ الحكمة قاله مولانا شيخ الإسلام .

وقرأ الأعمش ﴿ وَمَا مُّجْرِمِينَ إِلا ﴾ إلى رخره ، وهي على ما في "البحر" قراءة تفيسر لمخالفتها لسواد المصحف ، والأولى في التفسير ما ذكرنا ، وإنما عبر عن إيجاد ذلك وإنشائه بالتنزيل لما أنه بطريق التفضل من العالم العلوي إلى العالم السفلي وقيل : لما أن فيه إخراج الشيء مما تميل إليه ذاته من العدم إلى ما لا تميل إليه ذاته من الوجود ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [ الزمر : 6 ] وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [ الحديد : 25 ] وكأن من حمل الشيء على المطر غره ظاهر التنزيل فارتكب خلاف ظاهره جداً ، وكأنه لما كان ذلك بطريق التدريج عبر عنه بالتنزيل ، وجيء بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .



---

واستدل بعض القائلين بشيئية المعدوم على ذلك بهذه الآية ، وقد بين وجهه والجواب عنه الإمام ونحن مع القائلين بالشيئية .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ عطف على ﴿ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق وترشيح ما لحق ، واللواقح جمع لاقح بمعنى حامل يقال : ناقة لاقح أي حامل ، ووصف الرياح بذلك على التشبيه البليغ ، شبهت الريح التي بالسحاب الماطر بالناقة الحامل لأنها حاملة لذلك السحاب أو للماء الذي فيه ، وقال الفراء : إنها جمع لاقح على النسب كلابن وتامر أي ذات لقاح وحمل ، وذهب إليه الراغب ، ويقال لضدها ريح عقيم ، وقال أبو عبيدة : ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ أي ملاقح جمع ملقحة كالطوائح في قوله :

ليبك يزيد ضارع لخصومة مختبط مما تطيح الطوائح . . .

أي المطاوح جمع مطيحة ، وهو من ألقح الفحل الناقة إذا ألقى ماءه فيها لتحمل ، والمراد ملقحات للسحاب أو الشجر فيكون قد استعير اللقح لصب المطر في السحاب أو الشجر ، وإسناده إليها على الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز إذ الملقى في الشجر ، وإسناده إليها على الأول حقيقة وعلى الثاني مجاز إذ الملقى في الشجر السحاب لا الريح والرياح اللواقح هي ريح الجنوب كما رواه ابن أبي الدنيا عن قتادة مرفوعاً ، وروى الديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة نحوه ، وأخرج ابن جرير وغيره عن عبيد بن عمير قال : يبعث الله تعالى المبشرة فتقم الأرض قما ثم يبعث المثيرة السحاب فتجعله كسفاً ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر .

وقرأ حمزة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الريح ﴾ بالإفراد على تأويل الجنس فتكون في معنى الجمع فلذا صح جعل ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ حالاً منها وذلك كقولهم : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض ، ولا تخالف هذه القراءة ما قالوه في حديث [ اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً ] من أن الرياح تستعمل للخير والريح للشر لما قال الشهاب من أن ذلك ليس من الوضع وإنما هو من الاستعمال وهو أمر أغلبي لا كلي فقد استعملت الريح في الخير أيضاً نحو قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيّبَةٍ ﴾ [ يونس : 22 ] أو هو محمول على الإطلاق بأن لا يكون معه قرينة كالصفة والحال ، وأما كون المراد بالخير الدعاء بطول العمر ليرى رياحاً كثيرة فلا وجه له .

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السماء ﴾ بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحاباً ماطراً ﴿ مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ جعلناه لكم سقيا تسقون به مزارعكم ومواشيكم وهو على ما قيل أبلغ من سقيناكم لما فيه من الدلالة على جعل الماء معداً لهم ينتفعون به متى شاؤا ، وقد فرق بين اسقي وسقى غير واحد فقد قال الأزهري : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار اسقيته أي جعلت شرباً له وجعلت له منه مسقى فإذا كان للشفة

قالوا سقى ولم يقولوا أسقى ، وقال أبو علي : يقال سقيته حتى روى وأسقيته نهراً جعلته شرباً له ، وربما استعملوا سقى بلا همزة كأسقى كما في قول لبيد يصف سحاباً :

أقول وصوته مني بعيد . . .

يحط اللث من قلل الجبال سقى قومي بني نجد وأسقى

نميراً والقبائل من هلال . . .

فإنه لا يريد بسقي قومي ما يروى عطاشهم ولكن يريد رزقهم سقياً لبلادهم يخصبون بها وبعيد أن يسأل لقومه ما يروى ولغيرهم ما يخصبون به ، ولا يرد على قول الأزهري أنه لا يقال أسقى في سقيا الشفعة قول ذي الرمة :

وأسقيه حتى كاد مما أبثه . . .

يكلمني أحجاره وملاعبه

(107/424)

---

قال الإمام : لأنه أراد بأسقيه أدعو له بالسقيا ولا يقال في ذلك كما قال أبو عبيد سوى أسقى ، هذا وقد جاء الضمير هنا متصلاً بعد ضمير منصوب متصل أعرف منه ومذهب سيبويه في مثلك ذلك وجوب الاتصال .

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ نفي سبحانه عنهم ما أثبته لجنابه بقوله جل جلاله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [ الحجر : 21 ] قيل : نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين ، وقيل : المراد نفي حفظه أي وما أنتم له بحافظين في مجاريه عن أن يغور فلا تنتفعون به وعن سفيان أن المعنى وما أنتم له بمانعين لإنزاله من السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(108/424)

---

وقال القاسمى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ﴾

جمع ( برج ) يطلق على القصر والحصن وعلى المنازل الاثني عشر التي تنتقل فيها الشمس في ظاهر الرؤية .

وقد فسرت البروج في الآية بالنجوم وبالمنازل المذكورة وبالقصور ، على التشبيه بحصون الأرض وقصورها . فإن النجوم هيا كل فخيمة عظيمة : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ أي : السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء المرئية : ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أي : إلى حركاتها وأضوائها . أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بها على قدرة موجدها ووحدانيته .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾

﴿ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ ﴾ أي : اختلس : ﴿ السَّمْعَ ﴾ أي : من الملائكة السماوية : ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ أي : تبعه ولحقه : ﴿ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : لهب محرق ظاهر ، فيرجع أو فيحترق .

﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ أي : بسطناها : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالاً ثوابت : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي : وزن بميزان الحكمة ، وقدر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان ، أو بمعنى مستحسن متناسب ، من قولهم : كلام موزون . وقد ذكر الشريف المرتضى في " الدرر " أن العرب استعملته بهذا المعنى ، كقول عمر ابن أبي ربيعة .

~وحديث ألذه هو مما تشتهيه النفوس يوزن وزنا



---

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ أي : ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما ، مما تقتضيه ضرورة الحياة : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ أي : من الأنعام والدواب وما أشبهها . قال القاضي : وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين ،

مختلفة الأجزاء في الوضع ، محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا يكون كذلك ، على كمال قدرته وتناهي حكمته ، والتفرد في الألوهية والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ؛ ليوحدوه ويعبدوه . ثم بالغ في ذلك وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي : وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه . شبه اقتداره على كل شيء وإيجاده بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدّة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجه إلا بقدر معلوم ، استعارة تمثيلية . أو شبّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد ، استعارة مكنية ، ومعنى : ﴿ نُنَزِّلُهُ ﴾ أي : نوجده ونخرجه في عالم الشهادة . والقدر المعلوم : الأجل المعين له ، حسبما تقتضيه الحكمة ،

(110/424)

---

وقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ أي : تلقح السحاب ، أي : تجعلها حوامل بالماء ، وذلك أن السحاب بخار يصير ، بإصابته الهواء البارد حوامل للماء . قاله المهايمي . فاللواقح عليه جمع ( ملقح ) بحذف الزوائد . أو تلقح الشجر بجري مائها فيه ، أو تنيمته ليثمر ويزهو . وجوّز كون اللواقح جمع ( لاقح ) وهي الناقة الحامل . فشبهت الريح التي

تجيء بالمزن الممطرة بها ، كما يشبه ما لا تكون كذلك بـ ( العقيم ) فقيل : ريح عقيم ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أي : بقادرين على إيجاده وإنزاله . و ( الخزن ) اتخاذ الخزائن يستعار للقدرة ، كما مرّ ، أو بحافظين له في أمكنة ينابيعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذي حفظه وسلكه ينابيع في الأرض وجعله عذباً ورحم بسقياه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 343. 347 ﴾

(111/424)

---

وقال الشيخ الشنقيطى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل في السماء بروجاً ذكر هذا أيضاً في مواضع أخر كقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً ﴾ [ الفرقان : 61 ] الآية وقوله تعالى : ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ [ البروج : 1 ] الآية ، والبروج جمع برج.

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة وقال بعضهم : البروج الكواكب ، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة . وعن أبي صالح : انها الكواكب العظام ، وقيل : هي

قصور في السماء عليها الحرس . وممن قال به : عطية ، وقيل : هي منازل الشمس والقمر قاله ابن عباس . وأسماء هذه البروج الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت .

قال مقيده عفا الله عنه : أطلق تعالى في سورة النساء البروج على القصور الحصينة في قوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [ النساء : 78 ] ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد . لأن أصل البروج في اللغة الظهور ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها فالكواكب ظاهرة والقصور ظاهرة ومنازل القمر والشمس كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

صرح تعلى في هذه الآية الكريمة أنه زين السماء للناظرين وبين في مواضع أخر أنه زينها بالنجوم ، وأنها السماء الدنيا كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآءَ الدنيا بِمَصَابِيحَ ﴾ [ الملك : 5 ] الآية ، وقوله : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السمآءَ الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [ الصافات : 6 ] .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) ﴾

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [ الصافات : 7 ] وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [ الملك : 5 ] وقوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [ الجن : 9 ] وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الطور : 38 ] إلى غير ذلك من الآيات . والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [ الحجر : 18 ] . قال بعض العلماء هو استثناء منقطع وجزم به الفخر الرازي أي لكن من استرق السمع اي الخطفة اليسيرة فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى : ﴿ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [ الصافات : 8-10 ] وقيل الاستثناء متصل أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها من أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي ، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] قاله القرطبي ، ونظيره ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ ﴾ [ الصافات : 10 ] الآية فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى : ﴿ لاَّ

يَسَّمَّعُونَ إلى الملإ ﴾ [ الصافات : 8 ] الآية .

تنبيه



---

يؤخذ من هذه الآيات التي ذكرنا أن كل ما يتمشدق به اصحاب الأقمار الصناعية من أنهم سيصلون إلى السماء ويبنون على القمر ، كله كذب وشقشقة لا طائل تحتها ومن اليقين الذي لا شك فيه أنهم سيقفون عند حدهم ويرجعون خاسئين أذلاء عاجزين ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصرَ كرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [ الملك : 4 ] ووجه دلالة الآيات المذكورة على ذلك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن يطلق اسم الشيطان على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الذين آمَنُوا قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [ البقرة : 14 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ [ الأنعام : 112 ] ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " الكلب الأسود شيطان " وقول جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلي . . . وكن يهوينني إذ كنت شيطانا

ولا شك أن أصحاب الأقمار الصناعية يدخلون في اسم الشياطين دخولاً أولياً لعتوهم وتمردهم . وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح بحفظ السماء من كل شيطان كائناً من كان في عدة آيات من كتابه كقوله هنا : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [ فصلت : 12 ] إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح بأن من أراد استراق السمع أتبعه شهاب راصد له في مواضع أخر كقوله : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [ الجن : 9 ] وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [ الحجر : 18 ] وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

(114/424)

---

[ الصافات : 10 ] وقال ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [ الشعراء : 212 ] وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الطور : 38 ] وهو تعجيز دال على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً ، وقال : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّن الأحزاب ﴾ [ ص : 10-11 ] فقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ﴾ ، أي فليصعدوا في

أسباب السموات التي توصل إليها . وصيغة الأمر في قوله : ﴿ فَلْيَرْتَقُوا ﴾ للتعجيز وإيرادها للتعجيز دليل على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً . وقوله جل وعلا بعد ذلك التعجيز : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ يفهم منه أنه لو تستطيع جند من الأحزاب للارتقاء في اسباب السماء أنه يرجع مهزوماً صاغراً داخراً ذليلاً ، ومما يدل على أن الآية الكريمة يشار فيها إلى شيء ما كان يظنه الناس وقت نزولها إبهامه جل وعلا لذلك الجند بلفظة ما في قوله : ﴿ جُندٌ مَّا ﴾ وإشارته إلى مكان ذلك الجند أو مكان انهزامه إشارة البعيد في قوله : ﴿ هُنَالِكَ ﴾ ولم يتقدم في الآية ما يظهر رجوع الإشارة إليه إلا الارتقاء في أسباب السموات .

*(115/424)*

---

فالآية الكريمة يفهم منها ما ذكرنا ، ومعلوم أنها لم يفسرها بذلك أحد من العلماء ، بل عبارات المفسرين تدور على أن الجند المذكور الكفار الذين كذبوه صلى الله عليه وسلم ، وأنه صلى الله عليه وسلم سوف يهزمهم ، وأن ذلك تحقق يوم بدر أو يوم فتح مكة ، ولكن كتاب الله لا تزال تظهر غرائبه وعجائبه متجددة على مر الليالي والأيام ، ففي كل حين تفهم منه أشياء لم تكت مفهومة من قبل ، ويدل لذلك حديث أبي جحيفة الثابت في الصحيح أنه

لما سال علياً رضي الله عنه هل خصهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ؟ قال له علي رضي الله عنه : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطيه الله رجلاً في كتاب الله وما في هذه الصحيفة الحديث فقوله رضي الله عنه : إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله يدل على أن فهم كتاب الله تتجدد به العلوم والمعارف التي لم تكن عند عامة الناس ، ولا مانع من حمل الآية على ما حملها عليه المفسرون .

وا ذكرنا ايضاً أنه يفهم منها لما تقرر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتمل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع كما حققه بأدلته الشيخ تقي الدين أبو العباس بن تيمية رحمه الله في رسالته في علوم القرآن .

وصرح تعالى بأن العمر في السبع الطباق في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القمرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [ نوح : 15-16 ] فعلم من الآيات أن القمر في السبع الطباق ، وأن الله حفظها من كل شيطان رجيم ، فلم يبق شك ولا لبس في أن الشياطين اصحاب الأقمار الصناعية سيرجعون داخرين صاغرين عاجزين عن الوصول إلى القمر والوصول إلى السماء ، ولم يبق لبس في أن السماء التي فيها القمر ليس يراد بها مطلق ما علاك ، وإن كان لفظ السماء قد يطلق لغة على كل ما علاك ، كسقف البيت ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السمآءِ ﴾ [ الحج : 15 ] الآية . وقد قال الشاعر :

وقد يسمى سماء لكل مرتفع . . . وإنما الفضل حيث الشمس والقمر لتصريحه تعالى بأن القمر في السبع الطباق . لأن الميز في قوله : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ ﴾ [ نوح : 16 ] راجع إلى السبع الطباق وإطلاق المجموع مراداً بعضه كثير في القرآن وفي كلام العرب .

ومن أصرح أدلته : قراءة حمزة والكسائي ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ﴾ [ البقرة : 191 ] من القتل في الفعلين . لأن من قتل بالبناء للمفعول لا يمكن أن يؤمر بعد موته بأن يقتل قاتله ، ولكن المراد : فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر ، كما هو ظاهر . وقال أبو حيان في البحر المحيط في تفسير قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [ نوح : 16 ] . وصح كون السموات ظرفاً للقمر . لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف . تقول . تقول : زيد في المدينة ، وهو في جزء منها .

واعلم أن لفظ الآية صريح في أن نفس القمر في السبع الطباق . لأن لفظة ﴿ جَعَلَ ﴾ في الآية هي التي بمعنى صير ، وهي تنصب المبتدأ والخبر ، والمعبر عنه بالمبتدأ هو المعبر عنه بالخبر بعينه لا شيء آخر ، فقولك : جعلت الطين خزفاً ، والحديد خاتماً ، لا يخفى فيه أن الطين هو الخزف بعينه ، والحديد هو الخاتم ، وكذلك قوله ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ فالنور المجعول فيهن هو القمر بعينه ، فلا يفهم من الآية بحسب الوضع اللغوي احتمال خروج نفس القمر عن السبع الطباق ، وكون المجعول فيها مطلق نوره ، لأنه لو أريد ذلك لقيل : وجعل نور القمر فيهن أما قوله : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ فهو صريح في أن النور المجعول فيهن هو عين القمر ، ولا يجوز صرف القرآن عن معناه المتبادر بلا دليل يجب الرجوع إليه ، ويوضح ذلك أنه تعالى صرح في سورة الفرقان بأن القمر في خصوص السماء ذات البروج بقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ [ الفرقان : 61 ] وصرح في سورة الحجر بأن ذات البروج المنصوص على أن القمر فيها هي بعينها المحفوظة من كل شيطان رجيم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [ الحجر : 16-17 ] وما يزعمه بعض الناس من أنه جل وعلا أشار غلى الاتصال بين أهل السماء والأرض في قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [ الشورى : 29 ] يقال فيه : إن المراد جمعهم يوم القيامة في المحشر ، كما أطبق

عليه المفسرون . ويدل له قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى

(118/424)

---

رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

[ الأنعام : 38 ] .

ويوضح ذلك تسمية يوم القيامة يوم الجمع في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ﴾ [ التغابن : 9 ] الآية . وكثرة الآيات الدالة على أن جمع جميع الخلائق كائن يوم القيامة ، كقوله : ﴿ ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الناس وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [ هود : 103 ] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الواقعة : 49-50 ] وقوله : ﴿ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [ النساء : 87 ] وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ﴾ [ الفرقان : 25 ] وقوله ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [ الفجر : 22 ] وقوله ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [ الكهف : 47 ] .

مع أن بعض العلماء قال : المراد ما بث من الداوب في الأرض فقط ، فيكون من إطلاق

المجموع مراداً بعضه ، وهو كثير في القرآن وفي لسان العرب ، وبعضهم قال : الرماد بدواب السماء الملائكة زاعماً أن الدبيب يطلق على كل حركة .

(119/424)

---

قال مقيده – عفا الله عنه : ظاهر الآية الكريمة أن الله بث في السماء دواب كما بث في الأرض دواب . ولا شك أن الله قادر على جمع أهل السموات وأهل الأرض وعلى كل شيء ، ولكن الآيات القرآنية التي ذكرنا بينت أن المراد بجمعهم حشرهم جميعاً يوم القيامة ، وقد اطبق على ذلك المفسرون ولو سلمنا تسليماً جدلياً أنها تقول على جمعهم في الدنيا فلا يلزم من ذلك بلوغ أهل الأرض إلى أهل السماء بل يجوز عقلاً أن يتحدر من في السماء إلى من في الأرض لأن الهبوط أهون من الصعود وما يزعمه من لا علم عنده بكتاب الله تعالى من أن قوله جل وعلا : ﴿ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ [ الرحمن : 33 ] يشير إلى الوصول إلى السماء بدعوى أن المراد بالسلطان في الآية هو هذا العلم الحاث الذي من نتائجه الصواريخ والأقمار الصناعية . وإذاً فإن الآية قد تكون فيها دلالة على أنهم ينفذون بذلك العلم من أقطار السموات والأرض مردود من أوجه :

الأول : ان معنى الآية الكريمة هو إعلام الله جل وعلا أنهم لا محيص لهم ولا مفر عن قضائه ونفوذ مشيئته فيهم وذلك عندما تحف بهم صفوف الملائكة يوم القيامة . فكلما فروا إلى جهة وجودا صفوف الملائكة أمامهم ، ويقال لهم في ذلك الوقت ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ الآية والسلطان : قيل الحجة والبينة ، وقيل الملك والسلطنة وكل ذلك معدوم عندهم يوم القيامة فلا نفوذ لهم كما قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً ﴾ [ الفجر : 22 ] وقال : ﴿ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [ غافر : 32-33 ] .

الوجه الثاني : أن الجن أعطاهم الله القدرة على الطيران والنفوذ في أقطار السموات والأرض وكانوا يسترقون السمع من السماء كما صرح به تعالى في قوله عنهم



---

﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ [ الجن : 9 ] الآية وإنما منعوا من ذلك حين بعث صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [ الجن : 9 ] فالجن كانوا قادرين على بلوغ السماء من غير حاجة إلى صاروخ ولا قمر صناعي فلو كان معنى الآية هو ما يزعمه أولئك الذين لا علم لهم بكتاب الله لم يقل جل وعلا يا معشر

الجن لأنهم كانوا ينفذون إلى السماء قبل حدوث السلطان المزعوم .

الوجه الثالث : أن العلم المذكور الذي لا يجاوز صناعة يدوية على الله جل وعلا من أن يطلق عليه اسم السلطان . لأنه لا يجاوز أغراض هذه الحياة الدنيا ولا نظر فيه ألبتة لما بعد الموت . ولأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة . وقد نص تعالى على كمال حقارتها عنده في قوله جل وعلا : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [ الزخرف : 33 ] إلى قوله ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ الزخرف : 35 ] وعمله هؤلاء الكفار نفي الله عنه اسم العلم الحقيقي وأثبت له أنه علم ظاهر من الحياة الدنيا وذلك في قوله : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [ الروم : 6-7 ] فحذق الكفار في الصناعات اليدوية كحذق بعض الحيوانات في صناعتها بإلهام الله لها ذلك ، فالنحل تبني بيت عسلها على صورة شكل مسدس يحار فيه حذاق المهندسين . ولما أرادوا أن يتعلموا منها كيفية ذلك البناء وجعلوها في أجباح زجاج لينظروا إلى كيفية بنائها أبت أن تعلمهم فطلت الزجاج بالعسل قبل البناء كيلا يروا كيفية بنائها ، كما أخبرتنا الثقة بذلك .

الوجه الرابع : أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن أن ذلك المعنى المزعون كذبا هو معنى الآية فإن الله أتبع ذلك بقوله ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [ الرحمن : 35 ] الآية فهو يدل على ذلك التقرير على أنهم لو أرادوا النفوذ من أقطارها حرقهم ذلك الشواظ والنحاس والشواظ اللهب الخالص والنحاس الدخان ومنه قول النابغة :

يضيء كضوء سراج السليط . . . لم يجعل الله فيه نحاسا

وكذلك ما يزعمه بعض من لا علم له بمعنى كتاب الله من أن الله أشار إلى اتصال أهل السموات وأهل الأرض بقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السمآء والأرض ﴾ [ الأنبياء : 4 ] الآية بصيغة الأمر في لفظة قل على قراءة الجمهور وبصيغة الماضي ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ﴾ الآية في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم فإن الآية الكريمة لا تدل على ذلك لا بدلالة المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام لأن غاية ما تفيده الآية الكريمة أن الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول إن ربه يعلم كل ما يقوله أهل السماء وأهل الأرض على قراءة الجمهور وعلى قراءة الأخوين وحفص فمعنى الآية أنه صلى الله عليه وسلم أخبر قائلاً إن ربه جل وعلا يعلم ما يقال في السماء والأرض وهذا واضح لا إشكال فيه ولا شك أنه جل وعلا عالم لكل أسرار السماء والأرض وعلانياتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

وكذلك ما يزعمه من لا علم عنده بمعنى كتاب الله جل وعلا من أنه تعالى أشار إلى أهل

الأرض سيصعدون إلى السموات واحدة بعد أخرى بقوله : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبقٍ ﴾ [ الانشقاق : 19 ] زاعماً أن معنى الآية الكريمة لتركبن أيها الناس طبقاً أي سماء عن طبق أي بعد سماء حتى تصعدوا فوق السموات فهو أيضاً جهل بكتاب الله وحمل له على غير ما يراد به .



---

اعلم أولاً أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتيع مشهورتين إحداهما لتركبن بفتح الباء وبها قرأ من السبعة ابن كثير وحمزة والكسائي وعلى هذه القراءة ففي فاعل لتركبن ثلاثة أوجه معروفة عند العلماء الأول وهو أشهرها أن الفاعل ضمير الخطاب الواقع على النّبي أي لتركبن أنت يا نبيَّ الله طبقاً عن طبق أي بعد طبق حالاً بعد حال أي فترتقي في الدرجات درجة بعد درجة والطبق في لغة العرب الحال ومنه قول الأقرع بن حابس التميمي .

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره . . . وساقني طبق منها إلى طبق

وقول الآخر :

كذلك المرء إن ينسأ له أجل . . . يركب على طبق من بعده طبق

أي : حال بعد حال في البيتين وقال ابن مسعود والشعبي ومجاهد وابن عباس في إحدى الروايتين والكبي وغيرهم لتركبن طبقاً عن طبق أي لتصعدن يا محمد سماء بعد سماء وقد وقع ذلك ليلة الإسراء والثاني أن الفاعل ضمير السماء أي لتركبن هي أي سماء طبقاً أي لتنتقلن السماء من حال إلى حال أي تصير تارة كالدهان وتارة كالمهل وتارة تتشقق بالغمام وتارة تطوى كطي السجل للكتب ، والثالث أن الفاعل ضمير يعود إلى الإنسان المذكور في قوله ﴿ يا أيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ﴾ [ الانشقاق : 6 ] الآية لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من صغر إلى كبر ومن صحة إلى سقم كالعكس ومن غنى إلى فقر كالعكس ومن موت إلى حياة كالعكس ومن هو من أهوال القيامة إلى آخر وهكذا ، والقراءة الثانية وبها قرأ من السبعة نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم لتركبن بضم الباء وهو خطاب عام للناس المذكورين في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [ الانشقاق : 7 ] إلى قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ ﴾ [ الانشقاق : 10 ] الآية ومعنى الآية لتركبن أيها الناس حالاً بعد حال فتنتقلون في دار الدنيا من طور إل طور وفي الآخرة من هول إلى هول فإن قيل يجوز بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن على قراءة ضم الباء أن يكون المعنى لتركبن أيها الناس طبقاً بعد طبق أي سماء بعد سماء حتى تصعدوا فوق

السماء السابعة كما تقدم نظيره في قراءة فتح الباء خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم وإذا كان هذا جائزاً في لغة القرآن فما المانع من حمل الآية عليه فالجواب من ثلاثة أوجه :



---

الأول : أن ظاهر القرآن يدل على أن المراد بالطبق الحال المتنقل إليها من موت ونحوه وهول القيامة بدليل قوله بعده مرتباً له عليه بالفاء ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ [ الانشقاق : 20-21 ] فهو قرينة ظاهرة على أن المراد إذا كانوا ينتقلون من حال إلى حال ومن هول إلى هول فما المانع لهم من ان يؤمنوا ويستعدوا لتلك الشدائد ويؤيده أن العرب تسمي الدواهي بنات طبق كما هو معروف في لغتهم .

الوجه الثاني : أن الصحابة رضي الله عنهم هم المخاطبون الأولون بهذا الخطاب وهو أولى الناس بالدخول فيه بحسب الوضع العربي ولم يركب أحد منهم سماء بعد سماء بإجماع المسلمين فدل ذلك على أن ذلك ليس معنى الآية ولو كان لما خرج منه المخاطبون الأولون بلا قرينة على ذلك .

الوجه الثالث : هو ما قدمنا من الآيات القرآنية المصرحة بحفظ السماء وحراستها من كل شيطان رجيم كائناً من كان ، فبهذا يتضح أن الآية الكريمة ليس فيها دليل على صعود أصحاب الأقمار الصناعية فوق السبع الطباق . والواقع المستقبل سيكشف حقيقة تلك الأكاذيب والمزاعم الباطلة ، وكذلك ما يزعمه بعض من ليس له علم بمعنى كتاب الله جل وعلا من أن اللع تعالى أشار إلى بلوغ أهل الأرض إلى السموات بقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [ الجاثية : 13 ] الآية فقالوا تسخيره جل وعلا ما في السموات لأهل الأرض دليل على أنهم سيبلغون السموات والآية الكريمة لا تدل على ذلك الذي زعموا أنها تدل عليه لأن القرآن بين في آيات كثيرة كيفية تسخير ما في السماء لأهل الأرض فبين أن تسخير الشمس والقمر لمنافعهم وانتشار الضوء عليهم ولكي يعلموا عدد السنين والحساب كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ [ إبراهيم : 33 ] الآية ومنافع الشمس والقمر الذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيها إلا الله كما هو وقال تعالى : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [ يونس : 5 ] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الليل وَجَعَلْنَا آيَةَ النهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [ الإسراء : 12 ] إلى غير ذلك من الآيات المبينة لذلك

التسخير لأهل الأرض. وكذلك سخر لأهل الأرض النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿ والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف: 54] الآية وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ [الأنعام: 97] الآية

*(126/424)*

---

وقال:

﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل: 16] إلى غير ذلك من الآيات. فهذا هو تسخير ما في السماء لأهل الأرض وخير ما يفسر به القرآن. ومما وسوضح ما ذكرنا أن المخاطبين الأولين بقوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: 105]، فإن معنى مرورهم على ما في السموات من الآيات نظرهم إليها كما بينه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض ﴾ [الأعراف: 185] الآية وقوله: ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِي السماوات والأرض ﴾ [يونس: 101] الآية وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت: 53] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم وفقني الله وإياك أن التلاعب بكتاب الله جل وعلا وتفسيره بغير معناه لمحاولة توفيقه مع آراء كفرة الإفرنج ليس فيه شيء البتة من مصلحة الدنيا ولا الآخرة وإنما فيه فساد الدارين ، ونحن إذا نمنع التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه نحض جميع المسلمين على بذل الوسع في تعليم ما ينفعهم من هذه العلوم الدنيوية مع تمسكهم بدينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [ الأنفال : 60 ] كما سترى بسطه إن شاء اله في سورة بني إسرائيل .

فإن قيل . هذه الآيات التي استدللتم بها على حفظ السماء من الشياطين واردة في حفظها من استراق السمع وذلك إنما يكون من شياطين الجن فدل على اختصاص الآيات المذكورة بشياطين الجن ؟

فالجواب :

أن الآيات المذكورة تشمل بدلالتها اللغوية شياطين الإنس من الكفار . قال في لسان العرب : والشيطان معروف وكل عات متمرد من لإنس والجن والدواب شيطان . وقال في القاموس والشيطان معروف وكل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة اه .

ولا شك أن من أشد الكفار تمرداً وعتواً الذين يحاولون بلوغ السماء فدخولهم في اسم الشطان لغة لا شك فيه وإذا لفظ الشيطان يعم كل متمرد عات فقوله تعالى : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [ الحجر : 17 ] صريح في حفظ السماء من كل متمرد عات كائناً من كان ، وحمل نصوص الوحي على مدلولاتها اللغوية واجب إلا لدليل يدل على تخصيصها أو صرفها عن ظاهرها المتبادر منها كما هو مقرر في الأصول .

وحفظ السماء من الشيطين معناه حراستها منهم ، قال الوهري في صحاحه : حفظت الشيء حفظاً أي حرسته اه . وقال صاحب لسان العرب : وحفظت الشيء حفظاً أي حرسته اه . وهذا معروف في كلام العرب ، فيكن مدلول هذه الآية بدلالة المطابقة ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [ الحجر : 17 ] أي وحرسناها أي السماء من كل عات متمرد .

ولا مفهوم مخالفة لقوله ﴿ رَّجِيمٍ ﴾ وقوله ﴿ مَّارِدٍ ﴾ [ الصافات : 7 ] لأن مثل ذلك من الصفات الكاشفة فكل شيطان يوصف بأنه رجيم وبأنه مارد وإن كان بعضهم أقوى تمراداً من بعض وما حرسه الله جل وعلا من كل عات متمرد لا شك أنه لا يصل إليه عات متمرد كائناً من كان ﴿ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [ الملك : 4 ] والعلم عند الله تعالى اه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ .

اللواقح لاقح وأصل اللاقح التي قبلت فحملت الجنين ، ومنه قول ذي الرمة :

إذا قلت عاج أو تفتيت أبرقت . . . بمثل الخوافي لاقحاً أو تلقح

(128/424)

---

وأصل تلقح تتلقح حذفت إحدى التاءين أي توهم أنها لاقح وليس كذلك ووصف الرياح بكونها لواقح لأنها حوامل تحمل المطر كما قال تعالى ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابا ً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أي حملت سحاباً ثقالاً فاللواقح من الإبل حوامل الأجنة واللواقح من الريح حوامل المطر فالجميع يأتي بخير ولذا كانت الناقة التي لا تلد يقال لها عقيم كما أن الريح التي لا خير فيها يقال لها عقيم كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم ﴾ [ الذاريات : 41 ] الآية ، وقال بعض العلماء اللواقح بمعنى الملاقح أي التي تلقح غيرها من السحاب والشجر وعلى هذا ففيه وجهان :

أحدهما : أن المراد النسبة فقوله لواقح أي ذوات لقاح كما يقال سائف ورامح أي ذو سيف ورومح ومن هذا قول الشاعر :

وغررتني وزعمت أنك لابن في الحي تامر . . . أي ذو لبن وتمر ، وعلى هذا فمعنى لواقح أي ذوات لقاح لأنها تلقح السحاب والشجر .

الوجه الثاني : أن لواقح بمعنى لاقح جمع ملقحة وملقح اسم فاعل ألقحت السحاب والشجر كما يلقح الفحل الأنثى وغاية ما في هذا القول إطلاق لواقح وإرادة ملاقح ونظيره قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره :

لبيك يزيد ضارع لخصومة . . . ومختبط مما تطيح الطوائح

(129/424)

---

فإن الرواية تطيح بضم التاء من أطاح الرباعي والمناسب لذلك المطيحات لا الطوائح ولكن الشاعر أطلق الطوائح وأراد المطيحات ، كما قيل هنا بإطلاق اللواقح وإرادة الملاقح أي الملقحات باسم الفاعل ومعنى إلقاح الرياح السحاب والشجر أن الله يجعلها لهما كما يجعل الذكر للأنثى فكما أن الأنثى تحمل بسبب ضارب الفحل فكذلك السحاب يمتلىء ماء بسبب مري الرياح له والشجر ينفتق عن أكمامه وأوراقه بسبب إلقاح الريح له . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمه ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتنفتح عن أوراقها وأكمامها وقال السيوطي في الدر المنثور : " وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء

فتلحق به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم يمطر " . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء من السحاب فتمري به السحاب فيدر كما تدر اللقحة . وأخرج أبو عبيدة وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ [ الحجر : 22 ] ، قال : تلقح الشجرة وتمري السحاب : وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن وأبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رجاء رضي الله عنه قال قلت للحسن رضي الله عنه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ قال : لواقح للشجر ، قلت : أو السحاب ، قال : وللسحاب تمر به حتى يمطر .

(130/424)

---

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ قال : تلقح الماء في السحاب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ قال : الريح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلىء ماء . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب ، وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مرديه والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " ريح الجنوب من الجنة " وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه

وفيها منافع للناس والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نفخة منها فبردها هذا من ذلك . وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور والجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح " .

(131/424)

---

هذا حاصل معنى كلام العلماء في الرياح اللواقح وقد قدمنا قول من قال ن اللواقح هي حوامل المطر وأن ذلك القول يدل له قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أي حملتها وقد قدمت في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيا ن التي تضمنها أن يكون للشيء أوصاف فيذكر بعضها في موضع فإنا نبين بقية تلك الأوصاف المذكورة في مواضع آخر ومثلنا لذلك لذلك بظل أهل الجنة فإنه تعالى وصفه في سورة النساء بأنه ظليل في قوله : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [ النساء : 57 ] وقد وصفه بأوصاف آخر في مواضع أخر وقد بينا صفات ظل أهل الجنة المذكورة في غير ذلك الموضع كقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا ﴾ [ الرعد : 35 ] وقوله : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [ الواقعة : 30 ] إلى غير ذلك من أوصافه وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى وصف الرياح في هذه الآية بكونها لواقح وقد بينا معنى ذلك آنفاً ووصفها في مواضع أخر بأوصاف أخر من ذلك

وصفه لها بأنها تبشر بالسحاب في قوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ [الروم: 46] وقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الأعراف: 57] على قراءة من قرأها بالباء ومن ذلك وصفه لها بإثارة السحاب كقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً ﴾ [الروم: 48] الآية وقال صاحب الدر المنثور وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عبيد بن عمير قال "يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قماً ثم يبعث المبشرة فتثير السحاب فيجعله كسفاً ثم يبعث المؤلفة فتؤل بينه فيجعله ركاماً ثم يبعث اللواقح فتلحقه فيمطر" وأخرج ابن المنذر عن عبيد بن عمير قال: "الأرواح أربعة ريح تقم وريح تثير تجعله كسفاً وريح تجعله ركاماً وريح تمطر" اه.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة

(132/424)

---

المسألة الأولى: أخذ مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن لقاح القمح أن يحبب ويسنبل. قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك واللفظ لأشهب. قال مالك: قال الله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ فلقاح القمح عند أن يحبب ويسنبل ولا أدري ما ييبس في أكمامه ولكن يحبب

حتى يكون لو يبس لم يكن فساداً لا خير فيه ولقاح الشج كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت منها ما يثبت وليس ذلك بأن تورد . قال ابن العربي : إنما عول مالك في هذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله لأنه سمي باسم تشترك فيه كل حاملة وعليه جاء الحديث : " نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن بيع الحب حتى يشتد " اه من القرطبي .

قال مقيد عفا الله عنه : استنباط الإمام مالك المذكور من هذه الآية ، لأن لقاح القمح أن يحبب ويسنبل ، واستدلال ابن العربي له بالحديث المذكور ليس بظاهر عندي كل الظهور .

المسألة الثانية : اعلم أن تلقيح الثمار هو أبارها ، وهو أن يؤخذ شيء من طلع ذكور النخل فيدخل بين ظهراني طلع الإناث ، ومعنى ذلك في سائر الثمار طلع الثمرة من التيس وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظوراً إليها . والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكر من الثمار التذكير ، وفيما لا يذكر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسقط ما يسقط ، وحد تلك في الزرع ظهوره من الأرض ، قاله مالك . وقد روي عنه أن إباره أن يحبب اه ، قاله القرطبي . وقال أيضاً : لم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخر إباره وقد أبر غيه مما حاله مثل حاله أن حكمة حكم ما أبر ، فإن أبر بعض الحائط كان ما لم يؤبر تبعاً له ، كما أن الحائط إذا بدا صلاح بعضه كان سائر الحائط تبعاً لذلك الصلاح في جواز بيعهاه . وسيأتي لهذا إن شاء الله زيادة إيضاح .

المسألة الثالثة : إذا بيع حائط نخل بعد أن أبر فثمرته للبائع إلا أن يشترطها المبتاع ، فإن اشترطها المبتاع فهي له ، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " من ابتاع نخلاً بعد أن تؤبلا فثمرتها للبائع الذي باعها إلا أن يشترطها المبتاع" متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . فإن بيعت النخل قبل التأبير فلاثمرة للمشتري ، واختلف في استثناء البائع لها ، فمشهور مذهب مالك أنها كالجنين لا يجوز للبائع اشتراطها ولا ستثناؤها بناء على أن المستثني مشتري خلافاً لتصحيح اللخمي جواز استثناء البائع لها بناء على أن المستثنى مبقى وجواز استثنائها هو مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة رحمهم الله تعالى .



قال مقيده عفا الله عنه : وهو أظهر عندي لأن كون المستثني مبقي أظهر من كونه مشتري لأنه كان مملوكاً لبائع ، ولم يزل على ملكه لأن البيع لم يتناوله لاستثنائه من جملة المبيع كما

ترى . وهذا الذي ذكرنا في هذه المسألة هو الحق إن شاء الله تعالى ، فما أبر فهو للبائع إلا بشرط ، وما لم يؤبر فهو للمشتري إلا بشرط خلافاً لابن أبي ليلى القائل : هي للمشتري في الحالين لأنها متصلة بالأصل اتصال خلقه فكانت تابعة له كالأغصان . وهذا الاستدلال فاسد الاعتبار لمخالفته لحديث ابن عمر المتفق عليه المذكور آنفاً ، فقد صرح فيه النَّبي صلى الله عليه وسلم بأن البيع إن كان وقع بعد التأبير فالثمرة للبائع ، وخلافاً للإمام ابي حنيفة والأوزاعي رحمهما الله تعالى في قولهما : إنها للبائع في الحالين . والحديث المذكور يرد عليهما بدليل خطابه أعني مفهوم مخالفته لأن قوله صلى الله عليه وسلم " من ابتاع نخلاً قد أبرت " الحديث يفهم منه أنها إن كانت غير مؤبرة فليس الحكم كذلك وإلا كان قوله " قد أبرت " وقوله " بعد أن تؤبر " في بعض الروايات لغواً لا فائدة فيه فيتعين أن ذكر وصف التأبير ليحترز به عن غيره ، ومعلوم أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله لا يقول بحجته مفهوم المخالفة ، فالجاري على أصوله أن النَّبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المذكور نص على حكم الثمرة المؤبرة وسكت عن غير المؤبرة فلم يتعرض لها أصلاً . وإن أبر بعض الثمرة التي بيعت أصولها وبعضها الآخر لم يؤبر فمذهب مالك أنه إن كان أحدهما أكثر فالأقل تابع له ، وإن استويا فلكل حكمه ، فالمؤبر للبائع وغيره للمشتري . ومذهب الإمام أحمد أن لكل واحد من المؤبر وغيره حكمه ، وأبو حنيفة لا فرق عنده بين المؤبر وغيره فالجميع عنده للبائع إلا

إذا اشترطه المبتاع ، ومذهب الشافعي رحمه الله الصحيح من الخلاف أن ما لم يؤبر تبع للمؤبر فيبقى الجميع للبائع دفعاً لضرر اختلاف الأيدي . واعلم أن استثناء بعض

(135/424)

---

الثمرة دون بعض يجوز في قوله جمهور العلماء وفاقاً لأشهب من أصحاب مالك وخالف ابن القاسم فقال : لا يجوز استثناء بعض المؤبرة . وحجة الجمهور أن ما جاز استثناء جميعه جاز استثناء بعضه ، وحجة ابن القاسم أن النص إنما ورد في اشتراط الجميع .

واعلم أن أكثر العلماء على أن الثمرة المؤبرة التي هي للبائع 'ن لم يستثنها المشتري فإنها تبقى إلى وقت الانتفاع المعتاد بها ولا يكلفه المشتري بقطعها في الحال ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد .

وخالف في ذلك أبو حنيفة قائلاً : يلزم قطعها في الحال وتفريغ النخل بأن النقل والتفريغ للمبيع على حسب العرف والعادة كما لو باع داراً فيها طعام لم يجب نقله على حسب العادة في ذلك وهو أن ينقله نهاراً شيئاً بعد شيء ولا يلزمه النقل ليلاً ولا جمع دواب البلد لنقله ، كذلك ها هنا يفرغ النخل من الثمرة في أوان وهو وقت الجذاذ ، قاله ابن قدامة في المغني .

المسألة الرابعة : لو اشتريت النخل وبقيت الثمرة للبائع فهل لشتري الأصل أن يشتري الثمرة

قبل بدو صلاحها ؟

أولاً : اختلف العلماء في ذلك ، فمشهور مذهب مالك جواز ذلك لأن لها عنده حكم التبعية وإن أفردت بالعقد ، وعنه في رواية أخرى : لا يجوز ذلك . وللشافعية والحنابلة وجهان بالمنع والجواز . قال ابن قدامة في المغني ، ونسب القرطبي للشافعي وأبي حنيفة والثوري وأهل الظاهر وفقهاء الحديث القول بمنع ذلك ثم قال : وهو الأظهر من أحاديث النهي عن بيع الثمرة قبل بدو صلاحها .

المسألة الخامسة : إذا اشتريت الثمرة وحدها دون الأصل قبل بدو صلاحها فلها ثلاث حالات :

الأولى : أن يبيعها بشرط التبقية إلى وقت الجذاذ ، وفي هذه الحالة لا يصح البيع إجماعاً .

الثانية : أن يبيعها بشرط قطعها في الحال ، وفي هذه الحالة يصح البيع إجماعاً .



---

الثالثة : أن يبيعها من غير شرط تبقية ولا قطع بل سكتا عن ذلك وعقدا البيع مطالقاً دون شرط ، وفي هذه الحالة لا يصح البيع عند جمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى . وأجاز أبو حنيفة رحمه الله البيع في هذه الحالة وأوجب قطع الثمرة حالاً

، قال : لأن إطلاق العقد يقتضي القطع فهو كما لو اشترطه ، وحجة الجمهور إطلاق النصوص الواردة بذلك عنه صلى الله عليه وسلم . من ذلك ما أخرجه الشيخان والإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الثمار حتى يبدو صلاحها نهى البائع والمبتاع ، وفي لفظ نهى عن بيع النخل حتى تزهو وعن بيع السنبل حتى يبيض ويأمن العاهة رواه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن إلا ابن ماجه . ومن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عن أنس رضي الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع ثماء حتى تزهى ، قيل وما زهوّها ؟ قال " تحمار وتصفار " ومن ذلك ايضاً ما رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تبايعوا الثمار حتى يبدو صلاحها " ومن ذلك ما رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححاه عن أنس رضي الله عنه " أن النّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع العنب حتى يسود وعن بيع الحب حتى يشتد " .

فإطلاقات هذه النصوص ونحوها تدل على منع بيع الثمرة قبل بدو صلاحها في حالة الإطلاق وعدم الاشتراط كما تقدم .

وقرأ هذه الآية الكريمة جماهير القراء ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ بصفة الجمع وقرأها حمزة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ بالإفراد والألف واللام على قراءة حمزة للجنس ولذلك صح الجمع في

قوله ﴿ لواقح ﴾ قال أبو حيان في البحر المحيط ومن قرأ بإفراد الريح فعلى تأويل الجنس كما قالوا أهلك الناس الدينا الصفر والدرهم البيض اه . والعلم عند الله تعالى .

*(137/424)*

---

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوه ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة عظيم منته بإنزال الماء من السماء وجعله إياه عذباً صالحاً للسقيا وبين ذلك أيضاً في مواضع أخر كقوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ [ الواقعة : 68-70 ] وقوله : ﴿ هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَاءً لَّكُم مَّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ [ النحل : 10-11 ] وقوله ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ [ الفرقان : 48-49 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والتحقيق أن أسقى وسقي لغتان معناهما واحد كاسرى وسرى والدليل على ذلك القراءتان السبعيتان في قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ [ النحل : 66 ] فإنه قرأه بعض السبعة بضم النون من أسقى الرباعي وقرأه بعضهم بفتحها

من سقى الثلاثي ويدل على ذلك أيضاً قول للبيد :

سقى قومي بني مجد وأسقى . . . نميرا والقبائل من هلال

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ .

(138/424)

---

فيه للعلماء وجهان من التفسير كلاهما يشهد له قرآن الأول : أن معنى ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أي ليست خزائنه عندكم بل نحن الخازنون له ننزله مى شئنا وهذا الوجه تدل عليه آيات كقوله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 21 ] وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السماوات والأرض ﴾ [ المنافقون : 7 ] الآية ونحو ذلك من الآيات ، والوجه الثاني : أن معنى ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ بعد أن أنزلناه عليكم لا تقدرون على حفظه في الآبار والعيون والغدران بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [ المؤمنون : 18 ] وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَعِينٍ ﴾ [ الملك : 30 ] وقوله : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ [ الكهف : 41 ] وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً

فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ﴾ [ الزمر : 21 ] الآية إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(139/424)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) ﴾

هذا اعتراض ناشىء عن قوله ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ [ سورة الحجر : 19 ] الآية.

وفي الكلام حذف الصفة كقوله تعالى ﴿ يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [ سورة الكهف : 79 ] أي سفينةٍ صالحةٍ.

والخزائن تمثيل لصلوحية القدرة الإلهية لتكوين الأشياء النافعة.

شبهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيلية المكَنية ، ورُمز إلى الهيئة المشبّه بها بما هو من لوازمها وهو الخزائن.

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ في سورة الأنعام ( 50 )

.

وشمل ذلك الأشياء المتفرقة في العالم التي تصل إلى الناس بدوافع وأسباب تستتب في أحوال مخصوصة ، أو بتركيب شيء مع شيء مثل نزول البَرد من السحاب وانفجار العيون من الأرض بقصد أو على وجه المصادفة .

وقوله وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ أطلق الإنزال على تمكين الناس من الأمور التي خلقها الله لنفعهم ، قال تعالى ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ في سورة البقرة ( 29 ) ، إطلاقاً مجازياً لأن ما خلقه الله لمّا كان من أثر أمر التكوين الإلهي شبّه تمكين الناس منه بإنزال شيء من علو باعتبار أنه من العالم اللدني ، وهو علو معنوي ، أو باعتبار أن تصاريف الأمور كائن في العوالم العلوية ، وهذا كقوله تعالى ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج في سورة الزمر ( 6 ) ، وقوله تعالى يتنزل الأمر بينهن ﴾ في سورة الطلاق ( 12 ) .

والقَدر بفتح الدال : التقدير .

وتقدم عند قوله تعالى ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ في سورة الرعد ( 17 ) .

والمراد ﴿ بمعلوم ﴾ أنه معلوم تقديره عند الله تعالى .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) ﴾

انتقال من الاستدلال بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء

الواقعة بين السماء والأرض ، وذلك للاستدلال بفعل الرياح والمنة بما فيها من الفوائد .

والإرسال : مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان .

(140/424)

---

وهذا يدل على أن الرياح مستمرة الهبوب في الكرة الهوائية .

وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا . . .

.

و﴿ لواقح ﴾ حال من ﴿ الرياح ﴾ .

وقع هذا الحال إدماجاً لإفادة معنيين كما سيأتي عن مالك رحمه الله .

و﴿ لواقح ﴾ صالح لأن يكون جمع لاَقح وهي الناقة الحبلى .

واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سبباً في نزول المطر ، كما

استعمل في ضدها العقيم ضد اللاقح في قوله تعالى ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ [ سورة الذاريات : 41 ] .

وصالح لأن يكون جمع مُلقح وهو الذي يجعل غيره لاقحاً ، أي الفحل إذا ألقح الناقة ، فإن

فواعل يجيء جمعَ مُفعل مذكرٍ نادراً كقول الحارث أو ضرار النهشلي :

لبيك يزيد ضارع لخصومة . . .

ومختبط مما تطيحُ الطوايح

روعي فيه جواز تأنيث المشبه به .

وهي جمع الفحول لأن جمع ما لا يعقل يجوز تأنيثه .

ومعنى الإلقاح أن الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين فينشأ عن ذلك البخار الذي يصير ماء في الجو ثم ينزل مطراً على الأرض ؛ وأنها تلقح الشجر ذي الثمرة بأن تنقُل إلى نَوْره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت ، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح .

وهذا هو الإبّار .

وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة .

وبعضه يكتفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر .

ومن بلاغة الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العمليْن اللّذين تعملهما الرياح ، وقد فُسرت الآية بهما .

واقتصر جمهور المفسرين على أنها لواقح السحاب بالمطر .

وروى أبو بكر بن العربي عن مالك أنه قال : قال الله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ فلقاح القمح عندي أن يحبب ويسنبل ولا أريد ما ييبس في أكمامه ولكن يحبب حتى يكون لو

يبس حينئذٍ لم يكن فساداً لا خير فيه.

ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت.

وفرع قوله ﴿ فأنزلنا من السماء ماء ﴾ على قوله ﴿ وأرسلنا الرياح ﴾.



---

وقرأ حمزة ﴿ وأرسلنا الريح لواقح ﴾ بإفراد "الريح" وجمع "لواقح" على إرادة الجنس والجنس له عدة أفراد.

و ﴿ أسقيناكموه ﴾ بمعنى جعلناه لكم سقياً، فالهمزة فيه للجعل.

وكثر إطلاق أسقى بمعنى سقى.

واستعمل الخزن هنا في معنى الخزن في قوله آنفاً ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ [ سورة الحجر: 21 ] أي وما أنتم له بحافظين ومنشئين عندما تريدون. انتهى انتهى. اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾



---

وقال الشيخ الشعراوى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

والبروج تعني المباني العالية ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ . . . ﴾ [ النساء : 78 ]

وهو سبحانه القائل : ﴿ والسمآء ذَاتِ البروج ﴾ [ البروج : 1 ]

والمعنى الجامع لكل هذا هو الزينة المُلْفتة بجِرْمها العالي ؛ وقد تكون مُلْفِتة بجمالها الأخّاذ .

والبروج هي جمع بُرْج ؛ وهي منازل الشمس والقمر ؛ فكلما تحركت الشمس في السماء تنتقل من برج إلى آخر ؛ وكذلك القمر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ . . . كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ الأنبياء : 33 ]

وهو سبحانه القائل : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . . ﴾ [ يونس : 5 ]

أي : لنضبط كل التوقيتات على ضَوْء تلك الحركة لكل من الشمس والقمر ، ونحن حين نفتح أيّ جريدة نقرأ ما يُسمَّى بأبواب الطالع ، وفيه أسماء الأبراج : برج الحَمَل ، وبرج الجدي ، وبرج العذراء ؛ وغيرها ، وهي أسماء سريانية للمنازل التي تنزلها أبراج النجوم . ويقول الشاعر :

حَملَ الثورُ جوْزَةَ السرطَانِ . . . ورعَى الليْثُ سُنبل المِيزَانِ

عقربَ القوس جَدي دَلْو . . . وحُوت ما عرفنَا من أُمة السّريّانِ .

وهم اثنا عشر برجاً ، ولكل برج مقاييس في الجو والطقس . وحين نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه : ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [ النحل : 16 ]

*(143/424)*

---

والبعض يحاول أن يجد تأثيراً لكل برج على المواليد الذين يُولدون أثناء ظهور هذا البرج ، ولعل مَنْ يقول ذلك يصل إلى فَهْم لبعض من أسرار الله في كونه ؛ ذلك أنه سبحانه قد أقسم بمواقع النجوم ، وقال : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [ الواقعة : 75-76 ]

وهناك مَنْ يقول : إن لكل إنسان نجماً يُولَد معه ويموت معه ؛ لذلك يُقَال " هوى نجم فلان " ، ونحن لا نجزم بصِحة أو عدم صِحّة مثل هذه الأمور ؛ لأنه لم تثبُت علمياً ، والحق سبحانه أعلم بأسراره ، وقد يُعلمها لبعضٍ من خَلْقه .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً . . . ﴾ [ الحجر : 16 ]

أي : أن هناك تأكيداً لوجود تلك البروج في السماء ، وليس هذا الجَعْل لتأثيرها في الجو ، أو

لأنها علامات نهتدي بها ، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدي مُهمة جمالية كبيرة ، وهي أن تكون زينة لكل مَنْ ينظر إليها .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [ الحجر : 16 ]

ذلك أن الشيء قد يكون نافعاً ؛ لكن ليس له قيمة جمالية ؛ وشاء الحق سبحانه أن يجعل للنجوم قيمة جمالية ، ذلك أنه قد خلق الإنسان ، ويعلم أن لنفسه مَلكاتٍ مُتعددة ، وكُلّ مَلَكةٍ لها غذاء .

فغذاءُ العين المنظر الجميل ؛ والأذن غذاؤها الصوت الجميل ، والأنف غذاؤه الرائحة الطيبة ؛ واللسان يعجبه المذاق الطيب ، واليد يعجبها المْلمَس الناعم ؛ وهذا ما نعرفه من غذاء المَلَكات للحواس الخمس التي نعرفها .

وهناك مَلَكات أخرى في النفس الإنسانية ؛ تحتاج كل منها إلى غذاء معين ، وقد يُسبّب أخذ مَلَكة من مَلَكات النفس لأكثر المطلوب لها من غذاء أن تَفْسد تلك المَلَكة ؛ وكذلك قد يُسبّب الحرمان لِملكة ما فساداً تكوينياً في النفس البشرية .

والإنسان المتوازن هو مَنْ يُغذّي مَلَكاته بشكل مُتوازن ، ويظهر المرض النفسي في بعض الأحيان نتيجةً لنقص غذاء مَلَكة ما من المَلَكات النفسية ، ويتطلب علاجُ هذا المرض رحلةً من البحث عن المَلَكة الجائعة في النفس البشرية .

وهكذا نجد في النفس الإنسانية مَلَكة لرؤية الزينة ، وكيف تستميل الزينة النفس البشرية ؟

ونجد المَثَل الواضح على ذلك هو وجود مهندسي ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة في البيوت بأشكال فنية مختلفة .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم : ﴿ . . . وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [ الحجر : 16 ]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نِعَمه التي أنعم بها علينا : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . . . ﴾ [ النحل : 8 ]

وهكذا يمتنُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخَّره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هي في خدمة الإنسان في أمور أخرى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 7 ]

وهو سبحانه وتعالى الذي جعل تلك الدواب لها منظر جميل ؛ فهو سبحانه القائل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [ النحل : 6 ]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط في أغراضها المتاحة ؛ ولكن بعضاً منها يروي

أحاسيس الجمال التي خلقها فينا سبحانه . وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفي توحيده تفريد لجلاله .

ويقول سبحانه عن السماء والبروج : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ . . . ﴾

(145/424)

---

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون السمع لبعض من منهج الله الذي نزل على الرسل السابقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكانوا يحاولون أن يُضيفوا لها من عندهم ما يُفسِد معناها ، وما أنْ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه ، ويقول جل عُلاَه : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . . ﴾ [ الأنعام : 121 ]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم في كتابه العزيز : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً * وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ [ الجن : 8-10 ]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع ؛ ويأخذون بِضْعاً من كلمات المنهج ويزيدون

عليها ؛ فتبدو بها حقيقة واحدة وألف كذبة . وشاء الحق سبحانه أن يُكّذِب ذلك ؛ فقال : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [ الحجر : 17 ]

والشيطان كما نعلم هو عاصي الجن .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق . . . ﴾

وكلمة : ﴿ استرق . . . ﴾ [ الحجر : 18 ]

تُحدِّد المعنى بدقة ، فهناك مَنْ سرق ؛ وهناك مَنْ استرق ؛ فالذي سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال ، وأخذ يُعبِّئ ما فيه في حقائب ، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد .

لكن إنْ كان هناك أحد في المنزل ؛ فاللص يتحرك في استخفاء ؛ خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد في المنزل ليحفظه ؛ وهكذا يكون معنى " استرقَ " الحصول على السرقة مقرونة بالخوف .



---

وقد كان العاصون من الجِنّ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترقون السمع للمنهج المُنزّل على الرُّسُل السابقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ واختلف الأمر بعد رسالته

الكريمة؛ حيث شاء الحق سبحانه أنْ يحرسَ السماء؛ وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب .

والشهاب هو النار المرتفعة؛ وهو عبارة عن جَذْوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة؛ ويخرج منه اللهب . وهو ما يُسمّى بالشهاب .

أما إذا كان اللهب بلا ذؤابة من دخان؛ فهذا اسمه "السَّمُوم" . وإنْ كان الدخان مُلْتوياً ، ويخرج منه اللهب ، ويموج في الجو فيُسمى "مارج" حيث قال الحق سبحانه : ﴿ . . . مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : "15]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب والسَّمُوم ومارج من نار .

ويقول سبحان من بعد ذلك : ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا . . . ﴾

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أَين .

والمدُّ هو الامتداد الطبيعي لِمَا نسير عليه من أيِّ مكان في الأرض .

وهذه هي اللفتة التي يلفتنا لها الحق سبحانه؛ فلو كانت الأرض مُربعة؛ أو مستطيلة؛ أو مُثلثة؛ لوجدنا لها نهاية وحَافّة ، لكِنّا حين نسير في الأرض نجدها مُمْتدة ، ولذلك فهي لأبد وأن تكون مُدوَّرة .

وهم يستدلون في العلم التجريبي على أن الأرض كُروية بأن الإنسان إذا ما سار في خط مستقيم؛ فلسوف يعود إلى النقطة التي بدأ منها ، ذلك أن مُنْحنى الأرض مصنوعٌ بدقة

شديدة قد لا تدرك العين مقدار الانحناء فيه ويبدو مستقيماً .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ . . . ﴾ [ الحجر : 19 ]

يعني أشياء تثبتها . ولقائل أنْ يتساءل : مادامت الأرض مخلوقةً على هيئة الثبات فهل كانت تحتاج إلى مثبتات ؟

(147/424)

---

ونقول : لابد أن الحق سبحانه قد خلقها مُتحركة وعُرْضة لأنْ تضطربَ ؛ فخلق لها المُثقّلات ، وهكذا نكون قد أخذنا من هذه الآية حقيقتين ؛ التكوير والدوران .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب . . . ﴾ [ النمل : 88 ]

ونفهم من هذا القول الكريم أن حركة الجبال ليست ذاتيةً بل تابعة لحركة الأرض ؛ كما يتحرك الحساب تبعاً لحركة الرياح .

وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسي مُثبّتات للأرض كي لا تميدَ بنا ؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ . . . وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [ الحجر : 19 ]

وأنبت سبحانه من الأرض كُلَّ شيء موزون بدقّة تناسب الجو والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ . . . ﴾

في هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا في الأرض وسائل للعيش ؛ ولم يكتفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه نحن من الكائنات التي تخدمنا ؛ ومن نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة ؛ وفوق ذلك أعطانا الذرية التي تَقَرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا . . . ﴾

وقوله الحق : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ . . . ﴾ [الحجر : 21]

أي : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائنُ عند الله سبحانه ، فالشيء الذي قد تعتبره تافهاً له خزائن ؛ وكذلك الشيء النفيس ، وهو سبحانه يُنزل كل شيء بقدَرٍ ؛ حتى الأكتشافات العلمية يُنزِلها بقدَرٍ .

وحين نحتاج إلى أيِّ شيء مخزون في أسرار الكون ؛ فنحن نُعمِل عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشيء . والمثل هو الوقود وكُنا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب

.

وسبحانه هو القائل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنشئون ﴾ [الواقعة: 71-72]

واتسعت احتياجات البشر فاكتشفوا الفحم الذي كان أصله نباتاً مطموراً أو حيواناً مطموراً في الأرض؛ ثم اكْتُشِف البترول، وهكذا.

أي: أنه سبحانه لن يُنشِئ فيها جديداً، بل أعدّ سبحانه كل شيء في الأرض، وقدّر فيها الأقوات من قبل أنْ ينزِل آدم عليه السلام إلى الأرض من جنة التدريب لِيعمُرَ الأرض، ويكون خليفة لله فيها، هو وذريته كلها إلى أن تقومَ الساعة.

فإذا شكوْنَا من شيء فهذا مَرْجعه إلى التكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله لنا وقدَّره من أرزاقنا في الأرض. ونرى التعاسة في كوكب الأرض رغم التقدُّم العلمي والتِّقني؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا في الحروب والتنافر.

ولو أن ما يُصرف على الحروب؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع في وفرة حقيقية. ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذي نقوم به نحن البشر هو المُسبِّب الأول لتعاسة الإنسان في الأرض؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام، فمن يجد ضيقاً في موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر.

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل في أماكن في الأرض؛

رجالاً بلا عمل ؛ وتجعل في أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ؛ وتجاهل قوله سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ . . . ﴾ [الحجر : 21]

فلكل شيء في الأرض خزائن ؛ والخزينة هي المكان الذي تُدّخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدّر في الأرض أقواتاً لكل الكائنات من لَدُن آدم إلى أن تقومَ الساعة .

(149/424)

---

فإنْ حدث تضييق في الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيِّع ، إما لأنكم أهملتم استصلاحَ الأرض وإحياء مواتها بقدر ما يزيد تعداد السكان في الأرض ، وإما أنكم قد كنزتُم ما أخذتُم من الأرض ، وضننتُم بِمَا اكتنزتموه على سواكم .

فإنْ رأيت فقيراً مُضيّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضَنّ عليه بما أفاض الله على الغني من رزق ، وإنْ رأيت عاجزاً عن إدراك أسباب حياته فاعلم أن واحداً آخر قد ضَنّ عليه بقُوته .

وإنْ رأيت جاهلاً فاعلم أن عالماً قد ضَنّ عليه بعلمه . وإنْ رأيت أخْرقَ فاعلم أن حكيماً قد ضَنّ عليه بحكمته ؛ فكُلّ شيء مخزون في الحياة ؛ حتى تسلم حركة الحياة ؛ سلامةً تؤدي إلى التساندُ والتعاضد ؛ لا إلى التعاندُ والتضارب .

ونعلم أنه سبحانه قد أَعدّ لنا الكون بكُل ما فيه قبل أنْ يخلقنا ؛ ولم يُكلّفنا قبل البلوغ ؛ ذلك أنه عَلِمَ ألاَّ أن التكليف يُحدّد اختيار الإنسان لكثير من الأشياء التي تتعلق بكل ملَكاتِ النفس ؛ قُوتاً ومَشْرباً ومَلْبساً ومسكناً وضَبْطاً للأهواء ، كي لا ننساق في إرضاء الغرائز على حساب القِيمَ .

وشاء سبحانه ألاَّ يكون التكليف إلا بعد البلوغ ؛ حتى يستوفي ملكاتُ النفس القوةَ والاقتدارَ ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكي يكون هذا التكليف حُجَّة على الإنسان ، هذا الذي طمَرَ له الحق سبحانه كل شيء إمَّا في الأرض ؛ أو كان طمراً في النوع ، أو في الجنس .

وكُلُّ شيء في الكون موزون ، إما أن يكون جِنْساً ، أو نَوْعاً ، أو أفراداً ؛ والميزان الذي توجد به كل تلك العطاءات ؛ إنما شاء به الحق سبحانه أن يهبَ الرب للكل ؛ وليوافق الكثرة ؛ وليعيش الإنسان في حضْن الإيمان . وهكذا يكون عطاء الله لنا عطاءَ ربوبيةٍ ، وعطاءَ ألوهيةٍ ، والذكيّ حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياته .

والحق سبحانه هو القائل: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُوراً ﴾ [الإسراء: 100]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هي الأصل، وأن نفعيته هي الأصل، وحتى في قضايا الدين؛ قد يتبع العبد قوله الحق: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ﴾ [الحشر: 9]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعل في ظاهر الأمر أنه يُؤْثِر الغيرَ على نفسه؛ ولكن الواقع الحقيقي أنه يطمع فيما أعدَّه الله له من حُسْن جزاء في الدنيا وفي الآخرة.

إذن: فأَصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات؛ ولذلك نجد مَنْ يقول: أنا أُحِب الإيمان؛ لأن فيه الخيرية، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: 8]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أَخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة؛ لأنها انانية باقية، ولها عائد إيماني.

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء؛ ولم يجعل يداً عليا ويداً سفلي، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ ليجعل الإنسان ابْنَ أغيار؛ ويعدل فيه ميزان الإيمان، ولِيدُكّ غرور الذات على الذات، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربِّه لن ينال من الله شيئاً، ولن يأتي للإنسان بأي شيء.

وكل مظاهر القوة في الإنسان ليست من عند الإنسان، وليست ذاتية فيه، بل هي موهوبة

له من الله ؛ وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يُهذِّب الناس لِيُحسِنوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائنَ كل شيء ، ولو شاء لألقى ما فيها عليهم مرة واحدة ؛ ولكنه لم يُرِد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابْنُ أغيارٍ ؛ ولِيلفتَهم إلى مُعْطي كل النعم .

*(151/424)*

---

كما أن رتابة النعمة قد تُنسِي الإنسانَ حلاوة الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجد إنساناً يتذكّر عَيْنه إلا إذا آلمتْه ؛ وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فَقْد النعمة هو المُلفِت للنعمة ، وذلك لكي لا ينسي أحد أنه سبحانه هو المُنعِم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . ﴾

والإرسال هو الدَّفْع للشيء من حَيِّز إلى حَيِّز آخر ، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح ؛ نجد أنها مُرْسلَة من كُلّ مكان إلى كُلّ مكان ؛ فهي مُرْسَلة من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

وهكذا يكون كل مكان ؛ هو موقع لإرسال الرياح ؛ وكل مكان هو موقع لاستقبالهم ؛ ولذلك نجد الرياح وهي تسير في دَوْرة مستمرة ؛ ولو سكنتْ لَمَا تحرّك الهواء ، ولأُصِيبتْ

البشرية بالكثير من الأرض ؛ ذلك أن الرياح تُجدّد الهواء ، وتُنظِّف الأمكنة من الرُّكود الذي يُمكِن أن تصيرَ إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن خير ، والمثل هو قول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ . . . ﴾ [ الأعراف : 57 ]

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة " ريح " فهي للعذاب ، مثل قوله : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [ الحاقة : 6 ]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . ﴾ [ الحجر : 22 ]

ولواقح جمع لاقحة ، وتُطلَق في اللغة مرَّة على الناقة التي في بطنها جنين ؛ ومرة تُطلَق على اللاقح الذي يلقح الغير ليصير فيه جنين ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما في الكون ؛ وجعل من كُلٍّ زوجين اثنين ؛ إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة ؛ كالسالب والموجب في الكهرباء .

وهو القائل سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا . . . ﴾ [ يس : 36 ]

ثم عَدَّد لنا فقال : ﴿ . . . مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ يس : 22 ]

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الجُمَّيز ؛ التي لا يعلم الشخص الذي لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنبت وتُثمِر ، ويعلم العالِم أن هناك شجرةَ جُميز تلعب دور الأنثى ، وشجرةً أخرى تلعب دور الذَّكَر .

وكذلك شجرة التوت ؛ وهناك شجرة لا تُعرَف فيه الأنثى من الذَّكر ؛ لأنه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر ، وقد لا تعرف أنت ذلك ؛ لأن الحق سبحانه جعل اللُّقاحة خفيفةً للغاية ؛ لتحملَها الريحُ من مكان إلى مكان .

ونحن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الزيتون ؛ أو شجرة المانجو ، أو شجرة الجوافة ، وذلك لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه .

والمثَل الذي أضربه دائماً هو المياه التي تسقط على جبلٍ ما ؛ وبعد أيام قليلة تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء ؛ ومعنى هذا أن الجبل كانت توجد به بذور تلك الحشائش التي انتظرتْ الماء لِتُنبت .

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج في النبات فهي تنكشف وتنتظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان .

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهي خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر ؛ ذلك أن

حبوب اللقاح انتقلت بالرياح، وجاء المطر لتجد النباتات فرصةً للنمو.

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جدْب؛ لأن الرياحَ نقلتْ للنصف الأخضر حبوبَ اللقاح، ولم تنقل الحبوب للنصف الثاني من الجبل؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورةً تنتقل بها من مكان لمكان، وتدور فيها بكل الأماكن.

ويتابع سبحانه في نفس الآية: ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السمآءِ مَاءً ... ﴾ [الحجر: 22]

وقد تبيّن لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح؛ وبه ذكورة وأنوثة.

(153/424)

---

وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه: ﴿ ... فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر: 22]

أي: أنكم لن تخزنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخزنَ المياه، فذلك من عطاء الله؛ فلا يقولنّ أحد: لقد بنينا السدود؛ بل قُلْ: هدانا اللهِ لنبنيها؛ بعد أن يسقطَ المطر؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه.

وعلى هذا يكون سبحانه هو الذي خزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أنْ هدانا لنبنيَ السدود.

وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقطّر ؛ تذهب إلى الصيدلي لِيُسخّن الماء في جهاز مُعيّن ؛ ويُحوّله إلى بخار ، ثم يُكثّف هذا البخار لِيصِيرَ ماء مُقطّراً ، وكل ذلك يتمّ في الكون ، وأنت لا تدري به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(154/424)

---

فائدة

قال ابن القيم :

قوله الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾

متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه وقوله ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله في قوله وإن من شيء إلا عندنا

خزائنه واجتمع ما يراد له كله في قوله ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى .

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد .

العبد دائما متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر وإلى اللطف عند النوازل وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرا وباطنا ناله اللطف



---

ظاهرا وباطنا وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن . فإن قلت وما اللطف الباطن فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من

السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع فيستخذى بين يدي سيّده ذليلا له مستكينا ناظرا إليه بقلبه ساكنا إليه بروحه وسره قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم وقد غيّبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض يجري عليه سيّده أحكامه رضي أو سخط فإن رضي نال الرضوان وإن سخط فحظه السخط فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الفوائد صـ 202 . 203 ﴾

(156/424)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ قال : كواكب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ قال : الكواكب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ قال: الكواكب العظام.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ قال: قصوراً في السماء فيها الحرس.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ قال: الرجيم، الملعون.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ فأراد أن يخطف السمع كقوله ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ [الصافات: 10].

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ قال: هو كقوله ﴿ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب مبين ﴾ قال: كان ابن عباس يقول: إن الشهب لا تَقْتُل، ولكن تحرُق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال جرير بن عبد الله " حدثني يا رسول الله عن السماء الدنيا والأرض السفلى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما السماء الدنيا، فإن الله خلقها من دخان، ثم رفعها وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وزينها بمصابيح النجوم وجعلنا رجوماً للشياطين، وحفظها من كل شيطان رجيم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والأرض مددناها ﴾ قال: قال عز وجل في آية أخرى ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ [النازعات: 30] قال: ذكر لنا أن أم القرى مكة، ومنها دحيت الأرض. قال قتادة رضي الله عنه، وكان الحسن يقول: أخذ طينة فقال لها انبسطي. وفي قوله ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ قال: رواسيها جبالها ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ يقول: معلوم مقسوم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ قال: معلوم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من كل شيء موزون ﴾ قال: مقدر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من كل شيء موزون ﴾ قال: مقدر بقدر.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن زيد في قوله ﴿ من كل شيء موزون ﴾ قال:

الأشياء التي توزن.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ من كل شيء موزون ﴾ قال: ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ قال: الدواب والأنعام.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن منصور في قوله ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ قال: الوحش.

وأخرج البزار وابن مردويه في العظمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان".

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ قال: المطر خاصّة.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ قال: المطر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن الحكم بن عتيبة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ قال : ما من عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل ، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان في البحر . قال : وبلغنا أنه ينزل مع القطر من الملائكة أكثر من عدد ولدِ إبليس وولد آدم ، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت ومن يرزق ذلك النبات .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما نقص المطر منذ أنزله الله ، ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر الأخرى ، ثم قرأ ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث شاء ، ثم قرأ ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد بأكسب من أحد ولا عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث شاء " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء من البلدان ، وما نزلت قطرة من السماء ولا خرجت من ريح إلا بمكيال أو بميزان " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما نزل قطر إلا بميزان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن معاوية رضي الله عنه ، أنه قال : ألستم تعلمون أن كتاب الله حق ؟ قالوا : بلى . قال : فاقرؤوا هذه الآية ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ ألستم تؤمنون بهذا وتعلمون أنه حق ؟ قالوا : بلى .

(159/424)

---

. ! قال : فكيف تلومونني بعد هذا ! ؟ فقام الأحنف فقال : يا معاوية ، والله ما نلومك على ما في خزائن الله ؛ ولكن إنما نلومك على ما أنزله الله من خزائنه فجعلته أنت في خزائنك وأغلقت عليه بابك . فسكت معاوية .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب ، وابن جرير وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ريح الجنوب من الجنة ، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كابه ، وفيها منافع للناس . والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نفحة منها ، فبردها هذا من ذلك " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدبور ، والجنوب من الجنة وهي الريح اللواقح " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء ، فتلقح به السحاب فيدرّ كما تدر اللقحة ثم تمطر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء من السحاب ، فتمر به السحاب فيدرّ كما تدر اللقحة .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال : تلقح الشجر وتمري السحاب .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، عن أبي رجاء رضي الله عنه قال : قلت للحسن رضي الله عنه ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال : لواقح للشجر قلت : أو للسحاب ؟ قال : وللسحاب ، تمر به حتى تمطر .

وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال : تلقح الماء في السحاب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ قال : الرياح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء الخراساني قال : الرياح اللواقح تخرج من تحت صخرة بيت المقدس .

وأخرج ابن حبان وابن السني في عمل يوم وليلة ، والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه ، عن سلمة بن الأكوع قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتدت الريح يقول : " اللهم لقحاً لا عقيماً " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن عبيد بن عمير قال : يبعث الله المبشرة ، فتعم الأرض بماء ، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فيجعله كسفاً ، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً ، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر .

وأخرج ابن المنذر عن عبيد بن عمير قال : الأرواح أربعة : ريح تعم وريح تثير تجعله كسفاً ، وريح تجعله ركاماً وريح تمطر .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم في قوله ﴿ لواقح ﴾ قال : تلقح السحاب ، تجمعه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ قال : بمانعين . وفي قوله ﴿ ونحن الوارثون ﴾ قال : الوارث ، الباقي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور جـ 5 صـ ﴾

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا ﴾: يجوز أن يكونَ بمعنى خَلَقْنا، فيتعلَّقَ به الجارُّ، وأن يكونَ بمعنى صَيَّرنا، فيكون مفعولُه الأول "بُروجاً"، ومفعولُه الثاني الجارَّ، فيتعلَّقُ بمحذوف. و"للناظرين" متعلِّقٌ ب "زَيَّنَاها". والضميرُ للسماء. وقيل: للبروجِ، وهي الكواكبُ، زَيَّنها بالضوء. والنظر عينيٌّ. وقيل: قلبيٌّ. وحُذِف متعلَّقُه لِيَعُمَّ.

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق ﴾: فيه خمسةُ أوجهٍ، أحدُها: في محلِّ نصب على الاستثناءِ المتصلِ، والمعنى: فإنها لم تُحْفَظْ منه، قاله غيرُ واحدٍ. والثاني: منقطع، ومحلُّه النصبُ أيضاً. الثالث: أنه بدلٌ مِنْ ﴿ كُلِّ شَيْطَانٍ ﴾ فيكون محلُّه الجرَّ، قاله الحوفي وأبو البقاء. وفيه نظر؛ لأن الكلامَ موجَبٌ. الرابع: أنه نعتٌ ل ﴿ كُلِّ شَيْطَانٍ ﴾، فيكونُ محلُّه الجرَّ على خلافٍ في هذه المسألة. الخامس: أنه في محلِّ رفعٍ بالابتداء، وخبرُه الجملةُ مِنْ قولِه "فأَتْبعه". وإنما دَخَلَتِ الفاءُ لأنَّ "مَنْ": إمَّا شرطيةٌ، وإمَّا

موصولةٌ مُشَبَّهَةٌ بالشرطية ، قاله أبو البقاء ، وحينئذ يكونُ من بابِ الاستثناء المنقطع .

والشِّهاب : الشُّعْلَةُ من النار ، وسُمِّي بها الكوكبُ لِشدَّة ضوئِه وبَرِيْقِهِ ، ويُجمع على شُهُب في الكثْرة ، وأَشْهِبَة . والشُّهْبَة : بياضٌ مختلِط بسوادٍ تشبيهاً بالشهاب لاختلاطِه بالدخان ، ومنه كتيبةٌ شَهْباءُ لسوادِ القوم وبياضِ الحديد ، ومِنْ ثَمَّ غَلِط الناسُ في إطلاقهم الشُّهْبَةَ على البياضِ الخالِص .

(162/424)

---

قوله تعالى : ﴿ والأرض مَدَدْنَاها ﴾ : " الأرض " نصبٌ على الاشتغال ، ولم يُقرأ بغيرِه ؛ لأنه راجحٌ مِنْ حيث العطفُ على جملةٍ فعليةٍ قبلها ، وهي قوله ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً ﴾ [ الحجر : 16 ] .

قال الشيخ : " ولَمَّا كانَتْ هذه الجملةُ بعدها جملةً فعليةً كان النصبُ ارجحَ مِنَ الرفع " قلت : لم يَعُدُّوا هذا من القرائن المرجِّحة للنصب ، إنما عَدُّوا عطفَها على جملةٍ فعليةٍ قبلَها لا عطفَ جملةٍ فعليةٍ عليها ، ولكنه القياسُ ، إذ تُعْطَفُ فيه فعليةٌ على مِثْلِها بخلافِ ما لو رَفَعْتَ ، إذ تَعْطِفُ فعليةً على اسميةٍ ، لكنهم لم يعتبروا ذلك والضميرُ في " فيها " للأرض .

وقيل : للرواسي . وقيل : لهما .

قوله: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يجوز في "مَنْ" أن تكونَ تبعيضيةً وهو الصحيحُ، وأن تكونَ مزيدةً عند الكوفيين والأخفش.

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ ﴾: يجوز في "مَنْ" خمسةُ أوجهٍ، أحدُها: - وهو قول الزجاج - أنه منصوبٌ بفعلٍ مقدرٍ تقديرُه: وأَعَشْنا مَنْ لستم لهم برازقين، كالعبيد والدوابِّ/ والوحوشِ. الثاني: أنه منصوبٌ عطفاً على "معايش"، أي: وجعلنا لكم فيها مَنْ لستم له برازقين من الدوابِّ المنتفعِ بها. الثالث: أنه منصوبٌ عطفاً على محلِّ "لكم. الرابع: أنه مجرورٌ عطفاً على "كم" المجرورِ باللام، وجاز ذلك مِنْ غيرِ إعادةِ الجارِّ على رأيِ الكوفيين وبعضِ البصريين، وقد تقدَّم تحقيقُه في سورة البقرة، عند قوله ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد ﴾ [البقرة: 217]. الخامس: أنه مرفوعٌ بالابتداء، وخبرُه محذوفٌ. أي: ومَنْ لستم له برازقين جَعَلْنا له فيها معايشَ، وسُمع من العرب "ضربْتُ زيداً وعمروٌ" برفع "عمروٌ" مبتدأً، محذوفَ الخبر، أي: وعمروٌ ضربْتُه.

و " مَنْ " يجوز أن يُرادَ بها العقلاءُ ، أي : ومَنْ لستُمْ له برازقين مِنْ مواليكم الذين تزعمون أنَّكم ترزقونه من وأن يُرادَ بها غيرُهم ، أي : ومَنْ لَسْتُمْ له برازقين من الدوابِّ ، وإن كنتم تزعمون أنكم ترزقونهم ، وإليه ذهب جماعةٌ من المفسِّرين . ويجوز أن يُراد بها النوعان ، وهو حَسَنٌ لفظاً ومعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ : " إنْ " نافيةٌ ، و " مِنْ " مزيدةٌ في المبتدأ ، و " عندنا " خبرُه ، و " خزائنُه " فاعلٌ به لاعتماده ، ويجوز أن يكونَ " عندنا " خبراً لما بعده ، والجملةُ خبرُ الأولِ ، والأول أَوْلى لقُرْبِ الجارِّ من المفرد .

قوله : ﴿ إِلاَّ بِقَدَرٍ ﴾ يجوز أن يتعلَّق بالفعلِ قبلَه ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من المفعولِ ، أي : إلاَّ ملتبساً بقَدَرٍ .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (22) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ حالٌ مقدرةٌ من " الرياح " . وفي اللواقح أقوال ، أحدها : أنه جمع " مُلْقِح " لأنه مِنْ أَلْقَحَ يُلْقِحُ فهو مُلْقِحٌ ، فحقُّه مَلاقِح ، فَحُذِفَتِ الميمُ تخفيفاً . يقال : أَلْقَحتِ الريحُ السحابَ ، كما يقال : أَلقح الفحلُ الأنثى . ومثله الطوائح ، وأصلُه " المَطاوِح " لأنه مِنْ أطاح يُطيح قال :

2937 - لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ . . . ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطيح الطَّوائحُ

وهذا قول أبي عبيدة .

والثاني : أنها جمع لاقِح يُقال : لَقِحَتِ الريحُ : إذا حَمَلَتِ الماءَ . وقال الأزهري : " حوامِلُ تحمل السَّحاب كقولك : أَلْقَحَتِ الناقة فلَقِحَتْ ، إذا حَمَلَتِ الجنين في بطنِها ، فشُبِّهَتْ الريحُ بها ، ومنه قوله :

2938- إذا لَقِحَتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ . . . ضَروسٌ تَهِرُّ الناسَ أنيابُها عُصْلُ

(164/424)

---

والثالث : أنها جمعُ " لاقِح " على النَسب كـ لابِنٍ وتامرٍ ، أي : ذاتُ لِقاح ؛ لأنَّ الريحَ إذا مَرَّتْ على الماء ، ثم مَرَّتْ على السحابِ والماءِ كان فيها لِقاحٌ ، قاله الفراء . وقد تقدَّم الخلافُ في " معايش " في الأعراف ، وفي " يُنَزِّل " ، وفي " الريح " في البقرة . ولم يَبْقَ هنا إلا مَنْ أفردَ " الريح " ، فإنه يُقال : كيف نصبَ الحال مجموعةً عن مفردٍ ؟ وقد تقدم أن المرادَ به الجنسُ وهو جمعٌ في المعنى فلا محذورَ .

قوله : { فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ } يقال : أَسْقاه وسَقاه وسيأتي بيانُهما في السورة بعدها فإنه قُرِئ بهما . واتصل الضميران هنا لاختلافِهما رتبةً ، ولو فُصِل ثانيهما لجاز عند غير سيبويه ، وهذا كما تقدَّم في قوله { أَنُلْزِمُكُمُوهَا } [ هود : 28 ] .

قوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ جملةٌ مستأنفة و " له " متعلّقٌ ب " خازنين " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 150 . 154 ﴾

*(165/424)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات السابقة :

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

بروجاً أي نجوماً هي لها زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم .

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18) ﴾

إذا رام الشياطينُ أن يسترقوا السمع كانت النجومُ لها رجوماً .

كذلك للقلوب نجومٌ وهي المعارف وهي في الوقت ذاته رجوم على الشياطين ؛ فلو دنا إبليسُ وجنودُه من قلب وليّ من الأولياء أحرقتْه بل محقّتْه نجومُ عقلِه وأقمارُ علمِه وشموسُ توحيده .

وكما أنّ نجومَ السماءِ زينةٌ للناظرين إذا لاحظوها فقلوبُ العارفين إذا نظر إليها ملائكة

السماءِ لهي زينة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ ﴾ .

النفوس أرض عبادة العابدين ، وقلوبُ العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة ، والخوف ، والرجاء لها رواسٍ . وكذلك الرغبة والرهبة .

ويقال من الرواسي التي أثبتها في الأرض الأولياءُ فَبِهِمْ يثبت الناس إذا وَقَعَ بهم الفزعُ ومن الرواسي العلماءُ الذين بهم قِوَامُ الشريعة ؛ فعلماءُ الأصول هم قِوامُ أصلِ الدِّين ، والفقهاء بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتا من فراق قوم . . . هم المصابيحُ والأمنُ والمُزُنُ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ .

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار ، منها نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد . . . إلى غير ذلك من الأنوار .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) ﴾

سببُ عيشِ كلِّ مختلفٍ ؛ فعَيْشُ المريدين من إقباله ، وعيش العارفين التجمل بأفضاله .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) ﴾

خزائنه في الحقيقة مقدوراته ، وهو - سبحانه - قادر على كل ما هو مرسوم بالحدوث .

ويقال خزائنه في الأرض قلوبُ العارفين بالله ، وفي الخزانة جواهر في كل صنف ؛ فحقائقُ العقل جواهر وضعها في قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار العارفين مواضع سِرِّه ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزانة ذِكْرِه .

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خُطَاه عن التردد على منازل الناس في طَلَبِ الإرفاق منهم ، وسعى في الآفاق في طلب الأرازق منها ، قاطعاً أَمَلَه عن الخَلْق ، مُفرِداً قلبَه لله متجرّداً عن التعلُّق بغير الله .

قوله ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ : عرَفَ القِسْمَةَ منْ استراح عن كدِّ الطلب ؛ فإنَّ المعلومَ لا يتغير ، والمقسوم لا يزيد ولا ينقص ، وإذا لم يَجِبْ عليه شيءٌ لأحد فبقدرته على إجابة العبد إلى طلبته لا يتوجب عليه شيء .

ويقال أراح قلوب الفقراء مِنْ تَحمُّل المِنَّةِ من الأغنياء مما يعطونهم ، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً ، فليس للفقير صَرْفُ القلب عن الله سبحانه إلى مخلوق واعتقادُ مِنَّةٍ لأحد ، إذ المُلْكُ كله لله ، والأمر بيد الله ، ولا قادر على الإبداع إلا الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ .

كما أن الرياحَ في الآفاق مُقَدِّمَاتُ المطر كذلك الآمال في القلوب ، وما يقرب العبد مما يتوارد

على قلبه من مبشرات الخواطر ، ونسيم النجاة في الطلب يحصل ، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ .

(167/424)

---

أسفاه إذا جعل له السُّقيا ؛ كذلك يجعل الحق - سبحانه - لأوليائه ألطافاً معلومة في أوقات محدودة ! كما قال في وصف أهل الجنة : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [ مريم : 62 ] .

كذلك يجعل من شراب القلوب لِكُلّ ورداً معلوماً ، ثم قضايا ذلك تختلف : فمِنْ شراب يُسْكِر ، ومن شراب يُحْضِر ، ومن شراب يزيل الإحساس ، كما قيل :

فصحوك من لفظي هو الصحو كله . . . وسُكْرُكَ من لحظي يبيح لك الشُّرْبا

ويقال إذا هبَّت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ، ولا عن الخلائق لهم خبر .

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عَطَّرَتْها بنفخات الأنس ، فيَسْقَوْن في نسيمها على الدوام ، وفي معناه أنشدوا :

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرَّةٌ . . . ولا ثوبَ إلا بُرْدَةَ وردائيا

وما زال بُرِدي لينا من ردائها . . . إلى الحوْلِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبد عادت مَسَاوِيه مناقِبَه ومثالبُه محاسنه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 265. 268﴾

(168/424)

---

من الإعجاز العلمى فى القرآن

للدكتور زغلول النجار

بحث بعنوان :

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية

(46) ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾

بقلم الدكتور : زغلول النجار

هذة الآية الكريمة جاءت في بداية الخمس الثاني من سورة الحجر وهي سورة مكية , نزلت

بين عام الحزن وعام الهجرة , ولذلك فقد جاءت السورة الكريمة بروح التثبيت لرسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) في مواجهة عناد ومكابرة كفار قريش له , وتكذيبهم ببعثته الشريفة , وتشكيكهم في الوحي الذي جاءه من ربه , واتهامهم له زورا بالجنون , وهم أعرف الناس برجاحة عقله , وعظيم خلقه , وشرف نسبه . . ولذلك فإن محور السورة الرئيسي يدور حول إبراز طبيعة المكذبين بدين الله الحق ( الإسلام ) , ودوافعهم لتكذيبه , وحول التأكيد علي سنن الله التي لا تتخلف ولا تتوقف عن عقاب المكذبين , في كل زمان وفي كل مكان , واستعراض مصارع عدد من هؤلاء الطغاة الكافرين , والمشركين , والمكذبين , المفسدين في الأرض بغير حق , والمتجبرين علي الخلق , لعله يكون في ذلك عبرة للمعتبرين في كل وقت وفي كل حين . . . ! ! وعدد آيات سورة الحجر تسع وتسعون ; وقد سميت بهذا الاسم لذكر الحجر في الآية الثمانين منها , وهي مدائن صالح , ديار قبيلة ثمود , وهي عبارة عن بيوت منحوتة في الصخر الثابت علي جانبي الوادي , أو المجلوب إلي بطن الوادي , وهي الآن خربة , تقع إلي الشمال الغربي من المدينة المنورة علي الطريق القديم بينها وبين مدينة تبوك .

وتستهدف سورة الحجر التذكير بالمقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية , وقد استهلت بثلاثة من الحروف المقطعة وهي الر , والحروف المقطعة المعروفة باسم الفواتح الهجائية تتكون من أربعة عشر حرفا , أي تضم نصف حروف الهجاء الثمانية

والعشرين , وقد وردت في أربع عشرة صيغة , افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم , وقد جمعها بعض علماء السلف في عبارة مبهرة تقول : نص حكيم قاطع له سر وهو وصف للقرآن الكريم , وقد حاول عدد غير قليل من علماء المسلمين استجلاء كنه هذه الفواتح الهجائية , وتوقف العدد الأكبر عن الخوض فيها , واكتفي بتفويض أمرها إلي الله ( سبحانه وتعالي ) , معتبرا إياها سرا من أسرار القرآن الكريم لم يتم اكتشافه بعد .

وتنتقل السورة الكريمة إلي الإشادة بكتاب الله وآياته , وروعة بيانه , ووضوح دلالاته , وتتابع بتهديد جازم للجاحدين من الكفار والمشركين بمشهد الآخرة , وهم يعانون أهوالها , وقد استبان لهم الحق فيتمنون لو كانوا في الدنيا من المسلمين . . . ! !

ومن قبيل التهوين من صلف هؤلاء الجاحدين تطلب الآيات من رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) أن يدعهم في غيهم يأكلون ويتمتعون , ويشغلهم الأمل بطول الأجل عن التفكير فيما سوف يلقونه من شقاء في الدنيا , وعذاب مهين في الآخرة جزاء كفرهم وعنادهم وكبرهم . . . ! !

وهذا التهديد والوعيد من الله ( تعالي ) لهؤلاء الكفار والمشركين ولأمثالهم من التابعين لهم

يليه مباشرة تذكير بمصائر غيرهم من الأمم الظالمة , البائدة , التي لم يهلك الله ( تعالي ) أيا منها إلا وجعل لهلاكها أجلا محددا .

وتذكر الآيات في سورة الحجر تحديات كفار قريش لرسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) , واستهزاءهم به , واستنكارهم لبعثته الشريفة حتي طلبوا منه أن يأتيهم بالملائكة , ليشهدوا علي صدق نبوته , وترد الآيات عليهم بأن الملائكة لا تنزل إلا بالحق , وأن من هذا الحق أن يدمر الله ( سبحانه وتعالي ) المكذبين بآياته ورسله بعد أن جاءتهم نذره . . . ! !

وتؤكد سورة الحجر أن الله ( تعالي ) هو الذي أنزل القرآن العظيم , وهو ( سبحانه ) الذي تعهد بحفظه فحفظ بصفائه الرباني , ولغة وحيه



---

العربية علي مدي يزيد علي الأربعة عشر قرنا , وإلي أن يرث الله ( تعالي ) الأرض ومن عليها , فلا يمكن لتحريف أن يطوله , ولا لتبديل حرف واحد أن يصيبه , ولا لضياع أن يغيبه . . . , وهذا الحفظ الرباني لآخر الكتب السماوية وأتمها وأكملها لهو بحق من أعظم المعجزات لهذا الكتاب الرباني الخالد الذي كذب به كفار قريش , كما يكذب به كفار هذا الزمن ومشركوه وملاحدته . . . ! !

ومن قبيل تثبيت رسول الله (صلي الله عليه وسلم ) , وتهوين الأمر عليه وعلي أتباعه الصالحين في كل زمان ومكان , تذكر الآيات أن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم (عليه أفضل الصلاة وأزكي التسليم ) لم يكن منفردا دون غيره من رسل الله بجحود قومه وتكذيبهم ومكابرتهم , وعنادهم واستهزائهم , فما من نبي ولا من رسول سبقه إلا وتعرض لذلك وأشد منه , فاستحقت أقوامهم المكذبة عقاب الله في الدنيا , ولعذاب الآخرة أشد وأنكي . . . ! ! وذلك لأنهم لم يكن ينقصهم الدليل المنطقي علي صدق الوحي , وعلي ضرورة الإيمان به , ولكنه الصلف , والعناد , والمكابرة في مقابلة الحق . . . ! !

وتصور لنا الآيات في أول سورة الحجر نموذجا صارخا لمكابرة أهل الباطل , وعنادهم في مواجهة الحق , وفي ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالي ) :

ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون

(الحجر :15,14) .

وفي وصف سورة الحجر بطبيعة المكذبين بهذا الدين , ودوافعهم لتكذيبه عن عناد لا عن نقص في أدلة الإيمان , وتصوير مصارعهم ومصائرهم المروعة , تؤكد سنن الله التي لا توقف ولا تتخلف أبدا في جزاء المؤمنين وعقاب المكذبين ; وتستعرض عددا من آيات الله في الكون , وفي الحياة والموت لدحض دعاوي المكذبين ; وتذكر بخلق آدم (عليه السلام ,

وسجود الملائكة له , وبقصة الشيطان الرجيم معه , ومحاولة غوايته له , وللغافلين من ذرية آدم من بعده إلي



يوم الدين , كما تعرض لأصل الهدي والضلال في هذه الحياة الدنيا وجزاء كل منهما . ثم تستعرض بشيء من التفصيل مصارع المكذبين من أقوام كل من أنبياء الله : لوط وشعيب وصالح ( علي رسولنا وعليهم من الله السلام ) , وتعرض لشيء من رحمات الله مع كل من نبييه إبراهيم ولوط ( علي نبينا وعليهما الصلاة والسلام ) .

وتتحدث سورة الحجر في خواتيمها عن خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق , وتؤكد أن الساعة آتية لا ريب فيها . . . , وأن الله ( تعالي ) هو الخلاق العليم , وتوصي بعدد من الوصايا لرسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) منها أن يعلن أنه ( صلي الله عليه وسلم ) هو النذير المبين , وأن يصدع بما يؤمر , وأن يعرض عن المشركين , فإن الله ( تعالي ) قد كفاه سفه المستهزئين من الكفار والمشركين الذين كانت سفاهتهم تؤذي مشاعره وتؤلمه ( صلي الله عليه وسلم ) فيضيق صدره , وتوصيه الآيات أن يفزع إلي الله ( تعالي ) كلما أصابه شيء من ذلك , وأن يعبد الله ( تعالي ) حتي يأتيه اليقين . . . ! !

وسورة الحجر في خطابها إلي رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) هي خطاب للقائمين علي الدعوة الإسلامية في كل زمان ومكان . . . خاصة في زماننا الحالي . . . زمن الغطرسة والكبر لأهل الكفر والشرك والضلال وفي مقدمتهم الأمريكيون والبريطانيون , وضيعتهم الحركة الصهيونية العالمية . . . وشياطينها المحتلون لأرض فلسطين العربية المسلمة , فملأوها ظلما وجورا وفسادا علي مدي نصف قرن أو يزيد قليلا , والذين ندعو الله ( تعالي ) أن يطهر الأرض من رجسهم ودنسهم في أقرب وقت ممكن إن شاء الله رب العالمين آمين آمين آمين يارب العالمين . وكما هددت سورة الحجر المكذبين من الكفار والمشركين في زمن الوحي , وتوعدتهم بمصارع الغابرين . . . فإنها تتهدد كفار ومشركي اليوم وإلي قيام الساعة بمثل عقاب الغابرين الهالكين . . . . ! ! !

والآيات الكونية والتاريخية

التي استشهدت بها سورة الحجر تشمل ما يلي :



---

(1) إثبات أن السماء بناء محكم شاسع الاتساع .

(2) تسمية الحركة في السماء بالعروج .

(3) إثبات أن الكون يغشاه الظلام الدامس في أغلب أجزائه وأن طبقة نور النهار طبقة رقيقة للغاية .

(4) الإشارة إلي بروج السماء , وإلي حفظها من كل شيطان رجيم .

(5) الإشارة إلي شيء من وظائف الشهب .

(6) الإشارة إلي كروية الأرض بذكر مدها لأن المد إلي ما لا نهاية هو قمة التكوير .

(7) ذكر إرساء الأرض بالجبال .

(8) إثبات كل شيء موزون في الأرض .

(9) إعداد المعايش للإنسان والحيوان والنبات علي الأرض بمعني تهيئة الأرض لاستقبال الحياة بمختلف صورها .

(10) إثبات أن خزائن كل شيء عند الله وما ينزله إلا بقدر معلوم .

(11) إرسال الرياح لواقح للسحب من أجل إنزال ما بها من بخار الماء علي هيئة ماء المطر لسقيا الإنسان والحيوان والنبات وتخزين جزء من ماء المطر في صخور الأرض .

(12) إثبات الإحياء من العدم والإماتة والبعث لله الحي الذي لا يموت .

(13) خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون , وخلق الجان من نار السموم .

(14) خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق .

(15) نسبة الخلق كله إلي الله الخلاق العليم .

(16) الإنباء بطرف من قصص كل من آدم , وإبراهيم , وأقوام عدد من أنبياء الله منهم لوط , وشعيب , وصالح ( علي نبينا وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكي التسليم ) .

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلي تفصيل لا يتسع له المقال ولذلك فسوف أقتصر هنا علي قضية إرسال الرياح لواقح للسحب من أجل إنزال ما بها من بخار الماء علي هيئة ماء المطر لسقيا كل من الإنسان والحيوان والنبات , وهي قضية لم يتوصل الإنسان إلي فهمها إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين , وسبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل اثني عشر قرنا هو من آيات الإعجاز العلمي فيه , وقبل

الدخول إلي ذلك أوجز أقوال عدد من المفسرين في شرح دلالة هذه الآية الكريمة .

من أقوال المفسرين



---

دورة الماء حول الأرض

في تفسير قوله ( تعالي ) :

وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ( الحجر :22) .

ذكر ابن كثير ( يرحمه الله ) ما نصه : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) أي تلقح السحاب فتدر ماء , وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها , وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم , فإن أفردها وصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج , وقال أعمش , عن عبد الله بن مسعود في قوله ( تعالي ) : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) قال : ترسل الريح فتحمل الماء من السماء , ثم تمر مر السحاب حتي تدر كما تدر اللقحة , وقال الضحاك : يبعثها الله علي السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء , وقال عبيد بن عمير الليثي : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قما , ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب , ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر , ثم تلا : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) .

وقوله تعالي ( فأسقيناكموه ) أي أنزلناه لكم عذبا يمكنكم أن تشربوا منه . . . وقوله : ( وما أنتم له بخازنين ) , قال سفيان الثوري : بما نعين ; ويحتمل أن المراد : وما أنتم له بحافظين , بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معينا وينابيع في الأرض , ولو شاء الله ( تعالي ) لأغاره وذهب به , ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا وحفظه في العيون والآبار والأنهار , ليبقي لهم طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم . . . .

وذكر صاحبا تفسير الجلالين ( رحمهما الله ) ما نصه : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) تلقح السحاب فيمتلئ ماء ( فأنزلنا من السماء ) السحاب ( ماء ) مطرا ( فأسقيناكموه وما أنتم

له بخازنين ) أي : ليست خزائنه بأيديكم [ أو لستم أنتم الخازنين له ] . . .

وجاء في الظلال ( علي كاتبها من الله الرضوان ) ما نصه : . . .

*(174/424)*

---

أرسلنا الرياح لواقح بالماء , كما تلقح الناقة بالنتاج ; فأنزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح , فأسقيناكموه فعشتم به : ( وما أنتم له بخازنين ) . . . فما من خزائنكم جاء , إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم .

والرياح تنطلق وفق نواميس كونية , وتحمل الماء وفقا لهذه النواميس ; وتسقط الماء كذلك بحسبها ولكن من الذي قدر هذا كله من الأساس ؟ لقد قدره الخالق , ووضع الناموس الكلي الذي تنشأ عنه كل الظواهر . . . .

وجاء في الهامش : أراد بعضهم أن يفسر لواقح هنا بالمعني العلمي الذي كشف وهو أن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلي شجرة , ولكن السياق هنا يشير إلي أنها لواقح بالماء دون سواه . . . .

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ( رحم الله كاتبه رحمة واسعة ) ما نصه : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) حوامل , جمع لاقح بمعني حامل ; لحملها الماء والتراب بمرورها عليهما ,

وحملها السحاب وسوقه واستدراره . وهي ملقحة تلقح السحاب بما تمجه فيها من بخار الماء . . . .

وذكر كتاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ( جزاهم الله خيرا ) ما نصه : قد أرسلنا الرياح حاملة بالأمطار وحاملة بذور الإنبات , وأنزلنا منها الماء وجعلناه سقيا لكم , وأن ذلك خاضع لإرادتنا ولا يتمكن أحد من التحكم فيه حتي يصير عنده كالخزائن .

وجاء في الهامش هذا التعليق : سبقت هذه الآية ما وصل إليه العلم من أن الرياح عامل مهم في نقل حبوب اللقاح إلي الأعضاء المؤنثة في النبات ليتم بذلك عقد الثمار , كما أنه لم يعرف إلا في أوائل القرن الماضي ( القرن العشرين ) أن الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر إذ إن نويات التكاثف أو النويات التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطا من الماء نامية داخل السحب هي المكونات الأولي من المطر تحملها الرياح إلي مناطق إشارة السحاب وقوام هذه النويات أملاح البحار وما تذروه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة ونحوها كلها لازمة للإمطار .

لقد ثبت في العلم حديثا أن للمطر دورة مائية , تبدأ بتبخر المياه من سطح الأرض والبحر ثم تعود إليه مرة ثانية علي نحو ما سلف ذكره , فإذا ما نزل المطر استقي منه كل حي علي الأرض كما تستقي منه الأرض نفسها , ولا يمكن التحكم فيه لأنه بعد ذلك يتسرب من الأحياء ومن الأرض إلي التبخر , ثم تبدأ الدورة ثانية بالتبخر وهكذا دواليك . ومن هذا يستبين معني الآية في قوله تعالي ( وما أنتم له بخازنين ) أي : ما نعيه من النزول من السماء ولا التسرب إليها علي صورة البخار . . . .

وجاء في صفوة التفاسير ( جزي الله كاتبه خيرا ) ما نصه : ( وأرسلنا الرياح لواقح ) أي تلقح السحاب فيدر ماء , وتلقح الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه , فالريح كالفحل للسحاب والشجر ( فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ) أي فأنزلنا من السحاب ماء عذبا , جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ( وما أنتم له بخازنين ) أي لستم بقادرين علي خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار , ولو شئنا لجعلناه غائرا في الأرض فهلكتم عطشا . . . .

إرسال الرياح لواقح

في منظور العلوم المكتسبة

تعرف الرياح بأنها الهواء المتحرك بالنسبة لبقية الغلاف الغازي المحيط بالأرض ; وهذا الغلاف الغازي أخرجه الله ( تعالي ) أصلا من داخل الأرض ولا يزال يخرجه عبر فوهات

البراكين في أثناء ثوراتها , وعندما أخرج هذا الغاز اختلط بالدخان الكوني الناتج عن عملية الانفجار العظيم , وعن التفاعلات النووية داخل النجوم , وعن انفجار بعض الأجرام السماوية فتكون الغلاف الغازي للأرض من خليط بعضه من الأرض والبعض الآخر من السماء ولذلك يصفه القرآن الكريم بالبينية التي يقول فيها :

وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق . . .

(الحجر :85) .

وقد ذكر هذه البينية الفاصلة بين السماوات والأرض في إحدي وعشرين آية قرآنية ,

*(176/424)*

---

وأكد تعريفها قول الحق ( تبارك وتعالي ) : . . . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ( البقرة :164) .

والغلاف الغازي للأرض يمتد إلي عدة آلاف من الكيلو مترات في السمك وتقدر كتلته بنحو ستة آلاف مليون مليون طن , ولكن بما أن 99% من كتلته تقع دون ارتفاع خمسين كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر (أي دون مستوي الركود الطبقي المعروف في اللغة الإنجليزية باسم

(Stratopause

فإن دراسة حركة الرياح تكاد تتركز أساسا في هذا الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض .

وتقسم الرياح علي أساس من ارتفاعها فوق مستوي سطح البحر إلي ثلاثة مستويات علي النحو التالي :

(1) الرياح السطحية : تمتد من مستوي سطح البحر إلي بضعة كيلو مترات قليلة فوقه , وهي من أهم العوامل في تشكيل سطح الأرض حيث تباشر عملية تآكل صخور ورسوبيات وتربة سطح الأرض , وتوزيعها حيثما وجدت تلك المواد غير مغطاة بوقاء من النبات أو غيره فهي من أقوي عوامل التعرية خاصة في الصحاري والقفار , وتأتي في المقام الثاني بعد الماء في أشكاله المختلفة كعامل رئيسي من عوامل تعرية الأرض .

والرياح السطحية إذ تعصف علي سطح الصحاري تحمل معها كميات كبيرة من فتات الصخور السائبة والمفروطة لآلاف الكيلو مترات في الاتجاه الأفقي , وترتفع ببعضها من الدقائق الناعمة ضد الجاذبية الأرضية لعدة كيلو مترات .

كذلك فإن حركة هذه الرياح السطحية تضبط الظروف المناخية , وذلك بتوزيع درجات كل من الحرارة والرطوبة علي سطح الأرض , وهذه تلعب دورا مهما في توزيع مناطق الضغط المرتفع والمنخفض علي سطح الأرض , ومن ثم حركة الرياح .

هذا بالإضافة إلي أن تكثف الرطوبة في الهواء يؤدي إلي تكون السحاب, وانتشار نوي التكثف في السحاب يعين علي نمو قطيرات الماء المتكثفة إلي أحجام تفوق قدرة حمل الهواء لها فتسقط بإذن الله (تعالي) مطرا, أو بردا, أو ثلجا . وهذه



---

كلها تلعب دورا مهما في تجوية الصخور وتفتيتها . وفي غمار ذلك كله لا يمكن نسيان دور الرياح في إثارة الأمواج البحرية وتياراتها, وأثر ذلك في تآكل الصخور علي طول الشواطئ البحرية, وفي استقبال ما يصل البحر من رواسب البر .

ودور الرياح السطحية في نقل ما تفكك وانفرط من الغطاء الصخري المكون لأديم الأرض كالرمل والغرين والغبار, والتحرك به إلي مسافات بعيدة وإلي ارتفاعات شاهقة ثابت علميا, ويبلغ ذلك مداه إذا ما تناهت الحبيبات دقة, وجفت وتعرت أي لم يكن يحميها غطاء من نبات أو غيره, وتتوقف المسافة التي يحمل إليها هذا الفتات أفقيا ورأسيا علي تضاريس موضعه الأصلي, وحجم ووزن حبيباته, وقوة الريح وعدد ساعات هبوبها, واستمرارية ذلك .

والمواد المنقولة بواسطة الرياح إما أن تحمل معلقة بين طبقات الهواء إذا كانت خفيفة, وإما

أن تدفعها الرياح علي سطح الأرض , وهي في انتقالها هذا يسبق خفيفها ثقيلها في الانتقال

, وبذلك تصنف مكوناتها , وقد تتراكم في مجموعات علي أساس من كتلها وأحجامها ,

وكثافتها , وربما تركيبها المعدني .

وفي مقدور الرياح السطحية أن تحمل الغبار مرتفعة به ضد الجاذبية الأرضية لعدة كيلو

مترات فوق كل من اليابسة والمساحات الشاسعة من الماء , خاصة في المناطق الجافة

الدافئة حيث يسخن الهواء بملامسته سطح الأرض فيتمدد , وتقل كثافته حتي يرتفع إلي

أعلي علي هيئة أعاصير

(Whirls) ,

ودوارات

(Eddies)

حاملا معه دقائق الغبار في أعمدة طويلة تتحرك عبر السهول والوديان .

وكثيرا ما تشاهد عواصف الغبار وهي تظلم السماء في وضح النهار ; وتحيل الهواء إلي

هبوب خانق , وتحمل كميات هائلة من هذا الغبار إلي مسافات بعيدة , ويشاهد ذلك علي

وجه الخصوص في المساحات الصحراوية الجافة مثل الصحراء الكبري التي كثيرا ما تحمل

عواصفها الغبار الأحمر لتسقطه علي بعد مئات من الكيلو مترات شمالا في كل من جزر

الكناري , وإيطاليا وألمانيا , والمساحات المائية التي مرت بها , والبواخر العابرة فيها .

وتسبب عمليات تذرية الرياح للتربة في خفض مستوي سطح الأرض بصفة عامة لعدة عشرات من المليمترات في كل قرن من الزمان , وفي بعض الحالات الاستثنائية يمكن أن يزال إلي عمق متر كامل من التربة الناعمة من مثل التربة الصلصالية والغرينية الجافة في سنوات قليلة , وقد يتسبب ذلك في تكوين حفر أرضية يتراوح عمقها بين 50,30 مترا , وتصل مساحتها إلي عدة كيلو مترات مربعة .

ومن نتائج تعرية الرياح للصخور وتذرية ما تفكك منها تكون السهول الواسعة , والأحواض المنخفضة خاصة في المناطق المكونة من صخور رخوة كالصلصال والطفال ; التي تستمر فيها عمليات التعرية حتي تنتهي عند مستوي الماء تحت سطح الأرض فيتوقف عمل الرياح لأنها لا تقوي علي حمل الفتات الصخري الرطب .

وقد هبت عاصفة هوائية لمدة أربع وعشرين ساعة علي أحد الأودية في كاليفورنيا (SanJoaguinValley)

وذلك في 12/12/1977 م كانت سرعتها في حدود 300 كيلو متر في الساعة , ويقدر ما حملته من غبار التربة العلوية في مساحة قدرها ألفان من الكيلو مترات المربعة بنحو مائة مليون طن .

والدقائق الخفيفة من الغريق والصلصال ( أقل من 0.15 من المليمتر ) وهباءات الرماد الناتج عن الحرائق , وبعض حبوب اللقاح الدقيقة , وفتات دقيق جدا من بعض حطام النباتات , وبلورات متناهية الصغر في الحجم من أملاح البحر والمحيطات حملتها الأبخرة المتصاعدة منها , ودقائق من الرماد البركاني , وبعض الأبخرة والمواد المتطايرة , وحتي بعض البكتيريا الدقيقة , وبعض المركبات الكيميائية المتعددة , كل ذلك إذا انتشر في جسم السحابة شكل نوي للتكثف يعين بخار الماء الموجود في السحابة علي مزيد من التكثف فوق قطيرات الماء أو بللورات الثلج المتكونة داخل السحابة , حتي تصل كتلة قطرات الماء إلي الحد الذي لا يقوي

(179/424)

---

الهواء علي حملها فتسقط بإرادة الله ( تعالي ) حيث يشاء مطرا أو بردا أو ثلجا أو خليطا من كل ذلك , ومن هنا كان دور الرياح في تلقيح السحاب بنوي التكثف المختلفة .

ومن سنن الله ( تعالي ) المتحكمة في حركات الرياح السطحية الجاذبية الأرضية , وقدر الاحتكاك بتضاريس سطح الأرض , وتدرج معدلات الضغط الجوي وهي مرتبطة ارتباطا مباشرا بتوزيع درجات الحرارة علي سطح الأرض .

وتظل هذه العوامل سائدة حتي ارتفاع 65 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر حيث تبدأ عوامل أخري في التحكم بحركة الرياح .

وأعلي سرعة للرياح السطحية تحدث عند حدود نطاق الرجع

(TheStratopause)

الذي يتراوح سمكه من 16.7 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر .

(2) الرياح المتوسطة : وتمتد من فوق الرياح السطحية ( أي من فوق الحدود العليا لنطاق الرجع ) إلي مستوي 35 كيلو مترا فوق سطح البحر وهنا تستمر سنن الله الحاكمة لحركة الرياح السطحية , وقد تتدخل بعض العوامل الأخري وأهمها خلخلة الهواء .

(3) الرياح المرتفعة : وتمتد في المستوي من 35 كم إلي 65 كم فوق مستوي سطح البحر , وتستمر سنن الله الحاكمة لحركة الرياح السطحية مع تدخل عدد من العوامل الأخري وأهمها قلة الضغط , والجفاف الشديد .

أما فوق مستوي 65 كيلو مترا من سطح البحر فتبدأ سنن إلهية جديدة في التحكم بحركة الرياح وأهمها الكهربية الجوية , والمغناطيسية , وعمليات المد والجزر الهوائيين .

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن تصريف الرياح بمشيئة الله تثير السحاب بتزويد الهواء بالرطوبة اللازمة , وأن إرسال الرياح بنوي التكثف المختلفة يعين بخار الماء الذي بالسحاب علي التكثف كما يعين قطيرات الماء المتكثفة في السحاب علي مزيد من النمو حتي تصل

إلي الكتلة التي تسمح لها بالنزول مطرا أو ثلجا أو بردا بإذن الله, كما أن الرياح تدفع بهذه المزن الممطرة بإذن الله ( تعالي ) إلي حيث يشاء ,

(180/424)

---

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في أوائل القرن العشرين , وورودها في كتاب الله بهذه الدقة والوضوح والكمال العلمي مما يقطع بأن مصدرها الرئيسي هو الله الخالق , ويجزم بأن القرآن الكريم هو كلامه ( سبحانه وتعالي ) , كما يجزم بالنبوة والرسالة لهذا النبي الخاتم الرسول الخاتم ( صلي الله عليه وسلم ) فلم يكن لأحد من الخلق أدني إلمام بدور الرياح في حمل دقائق المادة إلي السحاب حتي تعين علي تكثف هذا البخار فينزل بإرادة الله مطرا في زمن تنزل الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده فسبحان منزل القرآن الذي أنزل فيه قوله الحق :

وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين

(الحجر :22) .

وذلك لأن خزن الماء في الأرض هو أيضا من آيات الله الكبري التي أعدها إعدادا ينطق بطلاقة القدرة الإلهية وعظيم الحكمة الربانية , وقد تعرضنا لذلك في مقال سابق , ولا أري

ضرورة لإعادة شرحه هنا مرة أخري .

كذلك فقد كررنا مرارا أنه لولا دورة الماء حول الأرض لأسن هذا الماء وتعفن لأن بلايين الكائنات الحية تحيا وتموت فيه في كل لحظة , ولهذا يمن علينا ربنا ( تبارك وتعالي ) بقوله ( فأسقيناكموه ) فتبارك الذي أنزل القرآن العظيم ( أنزله بعلمه ) وصلي الله وسلم وبارك علي النبي الخاتم الذي تلقاه والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية .

بقلم الدكتور : زغلول النجار ﴾ .

(181/424)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تقرر تفصيل الخبر عما هو سبب للاحياء في الجملة ، فتهيأت النفس للانتقال منه إلى الإحياء الحقيقي قياساً ، قال تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ﴾ أي لنا هذه الصفة على وجه

العظمة ، فنحيي بها ما نشاء من الحيوان بروح البدن ، ومن الروح بالمعارف ، ومن النبات بالنمو ، وإن كان أحدها حقيقة ، والآخران مجاز إلا أن الجمع بينهما جائز ﴿ ونميت ﴾ أي لنا هذه الصفة ، فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء ﴿ ونحن الوارثون ﴾ أي الإرث التام إذا مات الخلائق ، الباقون بعد كل شيء كما كنا ولا شيء ، ليس لأحد فينا تصرف بإماتة ولا إحياء ، فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار ، فلما ثبت بهذا كمال قدرته ، وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة إلا بالعلم ، قال تعالى : ﴿ ولقد علمنا ﴾ أي بما لنا من الإحاطة المعجزة ﴿ المستقدمين منكم ﴾ وهم من قضينا بموته أولاً ، فيكون في موته كأنه يسارع إلى التقدم وإن كان هو وكل من أهله مجتهداً بالعلاج في تأخيره ﴿ ولقد علمنا ﴾ بعظمتنا ﴿ المستأخرين ﴾ أي الذين نمد في أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون إلى ذلك وإن عالجوا الموت بشرب سم وغيره ، أو عالجه لهم غيرهم بضربهم بالسيف أو غيره ، فعرف بذلك قطعاً أن الفاعل واحد مختار ، وكذا كل متقدم ومتأخر في وصف من الأوصاف غير الموت ، والمعنى على الأول : فنحن لا نميت أحداً قبل أجله فلا تستعجلونا بالوعيد وتهيؤوا لدفاعه إن كنتم رجالاً ، فإنه لا بد أن يأتي لأنه لا يبدل القول لديّ .

ولما تم الدليل على تمام القدرة وشمول العلم ، ثبت قطعاً إحياء الموتى لانتفاء المانع من جهة القدرة ، واقتضاء الحكمة له من جهة العلم للعدل بين العباد بالمقابلة على الصلاح والفساد ، فقال تعالى مؤكداً لإنكارهم : ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بالانتقام لك ممن يعاديك ، وإقرار عينك من مخالفيك ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ يحشرهم ﴾ أي يجمعهم إلى أرض القيامة بعد إعادتهم ؛ قال الرماني : وأصله جمع الحيوان إلى مكان ؛ ثم علل ذلك فقال مؤكداً لأجل اعتقادهم ما يستلزم الإنكار : ﴿ إنه حكيم ﴾ أي يفعل الأشياء في أتم مواضعها بحيث لا يقدر أحد على نقضها ﴿ عليم ﴾ بالغ العلم فلا يخفى عليه شيء ، وهو يريد أن ترى حكمته بكشف الغطاء عند تمييز أهل السعادة والشقاء ؛ والحكمة : العلم الذي يصرف عما لا ينبغي ، وأصلها المنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 216.215 ﴾

(183/424)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) ﴾

اعلم أن هذا هو النوع السادس من دلائل التوحيد وهو الاستدلال بحصول الإحياء والإماتة لهذه الحيوانات على وجود الإله القادر المختار .

أما قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ ففيه قولان : منهم من حمله على القدر المشترك بين إحياء النبات والحيوان ومنهم من يقول : وصف النبات بالإحياء مجاز فوجب تخصيصه بإحياء الحيوان ولما ثبت بالدلائل العقلية أنه لا قدرة على خلق الحياة إلا للحق سبحانه كان حصول الحياة للحيوان دليلاً قاطعاً على وجود الإله الفاعل المختار ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ يفيد الحصر أي لا قدرة على الإحياء ولا على الإماتة إلا لنا ، وقوله : ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ معناه : أنه إذا مات جميع الخلائق ، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته ، ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيهاً بالإرث فكان وارثاً من هذا الوجه .

وأما قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستئخرين ﴾ ففيه وجوه :

الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء : المستقدمين يريد أهل طاعة الله تعالى والمستأخرين يريد المتخلفين عن طاعة الله .

الثاني : أراد بالمستقدمين الصف الأول من أهل الصلاة ، وبالمستأخرين الصف الآخر ، روي أنه صلى الله عليه وسلم رغب في الصف الأول في الصلاة ، فازدحم الناس عليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمعنى : أنا نجزيهم على قدر نياتهم .

الثالث : قال الضحاك ومقاتل : يعني في وصف القتال .

الرابع : قال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول لئلا يروها وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها وإذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فأنزل الله تعالى هذه الآية .



---

الخامس : قيل المستقدمون هم الأموات والمستأخرون هم الأحياء .

وقيل المستقدمون هم الأمم السالفة ، والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال عكرمة : المستقدمون من خلق والمستأخرون من لم يخلق .

واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ أتبعه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَئْخِرِينَ ﴾ تنبيهاً على أنه لا يخفى على الله شيء من أحوالهم فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة .

وأما قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ فالمراد منه التنبيه على أن الحشر والنشر والبعث

والقيامة أمر واجب وقوله : ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ معناه : أن الحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر على ما قررناه بالدلائل الكثيرة في أول سورة يونس عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 141.142 ﴾

(185/424)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كَانَتْ امْرَأَةٌ تُصَلِّي خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا وَاَللَّهِ مَا رَأَيْت قَطُّ مِثْلَهَا .

قَالَ : فَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ إذَا صَلَّوْا تَقَدَّمُوا ، وَبَعْضُهُمْ يَسْتَأْخِرُ ، فَإِذَا سَجَدُوا نَظَرُوا إلَيْهَا مِنْ تَحْتِ أَيْدِيهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي شَرْحِ الْمُرَادِ بِهَا : فِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الْمُتَقَدِّمِينَ فِي الْخَلْقِ إلَى الْيَوْمِ ، وَالْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بَعْدُ ؛ بَيَانًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ الْمَوْجُودَ وَالْمَعْدُومَ ؛ قَالَهُ

قَتَادَةُ وَجَمَاعَةٌ .

الثَّانِي : مَنْ مَاتَ ، وَمَنْ بَقِيَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

الثَّالِثُ : الْمُسْتَقْدِمِينَ [ مِنْ ] سَائِرِ الْأُمَمِ ، وَالْمُسْتَأْخِرِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الرَّابِعُ : قَالَ الْحَسَنُ : مَعْنَاهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ فِي الطَّاعَةِ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ فِي الْمَعْصِيَةِ .

(186/424)

---

الْخَامِسُ : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا أَنَّ مَعْنَاهُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ فِي الصُّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ بِهَا حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ ؛ وَكُلُّ هَذَا مَعْلُومٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ مَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ ، وَبِمَا كَانَ [ وَبِمَا ] يَكُونُ وَبِمَا لَا يَكُونُ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ [ كَانَ ] يَكُونُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ أَوَّلِ الْوَقْتِ فِي الصَّلَاةِ خَاصَّةً ، وَعَلَى فَضْلِ الْمُبَادَرَةِ إلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالْمُسَارَعَةِ إلَيْهَا عَامَّةً ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى فَضْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِي الصَّلَاةِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا لَاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ } .

فَإِذَا جَاءَ الرَّجُلُ الْمَسْجِدَ عِنْدَ الزَّوَالِ فَنَزَلَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِمَّا يَلِي الْإِمَامَ ، فَقَدْ حَازَ ثَلَاثَ مَرَاتِبَ فِي الْفَضْلِ : أَوَّلَ الْوَقْتِ ، وَالصَّفَّ الْأَوَّلَ ، وَمُجَاوَرَةَ الْإِمَامِ .

فَإِنْ جَاءَ عِنْدَ الزَّوَالِ وَنَزَلَ فِي الصَّفِّ الْآخِرِ أَوْ فِيمَا نَزَلَ عَنْ الْأَوَّلِ فَقَدْ حَازَ فَضْلَ أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَفَاتَهُ فَضْلُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَالْمُجَاوَرَةِ.

فَإِنْ جَاءَ وَقْتُ الزَّوَالِ وَنَزَلَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ دُونَ مَا يَلِي الْإِمَامَ فَقَدْ حَازَ فَضْلَ أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَفَضْلَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَفَاتَهُ مُجَاوَرَةُ الْإِمَامِ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.



---

وَمُجَاوَرَةُ الْإِمَامِ لَا تَكُونُ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا هِيَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لِيَلِيَنِّي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ﴾.

فَمَا يَلِي الْإِمَامَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ، فَإِنْ نَزَلَهَا غَيْرُهُ أُخِّرَ لَهُ وَتَقَدَّمَ هُوَ إلَى هَذَا الْمَوْضِعِ؛ لِأَنَّهُ حَقُّهُ بِأَمْرِ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ، كَالْمِحْرَابِ هُوَ مَوْضِعُ الْإِمَامِ تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ: وَكَمَا تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى فَضْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِي الصَّلَاةِ، فَكَذَلِكَ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِي الْقِتَالِ؛ فَإِنَّ الْقِيَامَ فِي نَحْرِ الْعَدُوِّ، وَبَيْعَ النَّفْسِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُوَازِنُهُ عَمَلٌ فَالتَّقَدُّمُ إلَيْهِ أَفْضَلُ.

وَلَا خِلَافَ فِيهِ وَلَا خَفَاءَ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَقَدَّمُ فِي الْحَرْبِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَشْجَعَ النَّاس .

قَالَ الْبَرَاءُ : ﴿ كُنَّا إذَا حَمِيَ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(188/424)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد عَلِمنا المستأخرين ﴾

فيه ثمانية تأويلات :

أحدها : أن المستقدمين الذين خلقوا ، والمستأخرين الذين لم يخلقوا ، قاله عكرمة .

الثاني : المستقدمين الذين ماتوا ، والمستأخرين الذين هم أحياء لم يموتوا ، قاله الضحاك .

الثالث : المستقدمين أول الخلق ، والمستأخرين آخر الخلق ، قاله الشعبي .

الرابع : المستقدمين أول الخلق ممن تقدم على أمة محمد ، والمستأخرين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله مجاهد .

الخامس : المستقدمين في الخير ، والمستأخرين في الشر ، قاله قتادة .

السادس : المستقدمين في صفوف الحرب ، والمستأخرين فيها ، قاله سعيد بن المسيب .

السابع : المستقدمين من قتل في الجهاد ، والمستأخرين من لم يقتل ، قاله القرطي .

الثامن : المستقدمين في صفوف الصلاة ، والمستأخرين فيها .

روى عمر بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من أحسن الناس ، لا والله ما رأيت مثلها قط ، فكان بعض الناس يستقدم في الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه في الصف ، فأنزل الله تعالى في شأنها هذه الآية . انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(189/424)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ الآيات ،

هذه الآيات مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى وما يوجب توحيده وعبادته ، فمعنى هذه : وإنا لنحن نحيي من نشاء بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة ، وبرده عند البعث من مرقده ميتاً ، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حياً ، ﴿ ونحن الوارثون ﴾ ، أي لا يبقى شيء سوانا ، وكل شيء هالك إلا وجهه لا رب غيره .

ثم أخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأمم ، بمن تأخر في الزمن من لدن أهبط آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة ، وأعلم أنه هو الحاشر لهم الجامع لعرض القيامة على تباعدهم في الأزمان والأقطار ، وأن حكمته وعلمه يأتيان بهذا كله على أتم غاياته التي قدرها وأرادها .

وقرأ الأعرج " يحشِرهم " بكسر الشين .

قال القاضي أبو محمد : بهذا سياق معنى الآية ، وهو قول جمهور المفسرين : وقال الحسن : معنى قوله : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين ﴾ أي في الطاعة ، والبدار إلى الإيمان والخيرات ، و ﴿ المستأخرين ﴾ بالمعاصي .

قال القاضي أبو محمد : وإن كان اللفظ يتناول كل تقدم وتأخر على جميع وجوهه فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمنا ، وقال ابن عباس ومروان بن الحكم وأبو الجوزاء : نزل قوله : ﴿ ولقد علمنا ﴾ الآية ، في قوم كانوا يصلون مع النبي صلى الله عليه وسلم وكانت تصلي وراءه امرأة جميلة ، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف لئلا تفتنه ، وكان بعضهم يتأخر ليسرق النظر إليها في الصلاة ، فنزلت الآية فيهم .

قال القاضي أبو محمد : وما تقدم الآية من قوله : ﴿ ونحن الوارثون ﴾ وما تأخر من قوله : ﴿ وإن ربك يحشرهم ﴾ ، يضعف هذه التأويلات ، لأنها تذهب اتصال المعنى ، وقد

ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(190/424)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾

يقال : استقدم الرجل ، بمعنى : تقدم ، واستأخر ، بمعنى : تأخر .

وفي سبب نزولها قولان :

أحدهما : أن امرأةً حسناءَ كانت تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان بعضهم يستقدم حتى يكون في أول الصفّ لِئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في آخر صف ، فإذا ركع نظر من تحت إِبطه ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم حرَّض على الصف الأول ، فازدحموا عليه ، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المدينة : لنبيعنَّ دُورنا ، ولنشترينَّ دوراً قريبة من المسجد حتى ندركَ الصف المتقدم ، فنزلت هذه الأية ؛ ومعناها : إِنما تُجْزَون على النيات ، فاطمأَنوا وسكنوا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وللمفسرين في معنى المستقدمين والمستأخِرين ثمانية أقوال .

أحدها : التقدم في الصف الأول ، والتأخر عنه ، وهذا على القولين المذكورين في سبب نزولها ، فعلى الأول : هو التقدُّم للتقوى ، والتأخُّر للخيانة بالنظر ، وعلى الثاني : هو التقدم لطلب الفضيلة ، والتأخر للعذر .

والثاني : أن المستقدمين : من مات ، والمستأخرين ، من هو حي لم يمت ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وخُصَيف عن مجاهد ، وبه قال عطاء ، والضحاك ، والقرظي .

والثالث : أن المستقدمين : من خرج من الخلق وكان .

والمستأخرين : الذين في أصلاب الرجال ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والرابع : أن المستقدمين : من مضى من الأمم ، والمستأخرين : أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والخامس : أن المستقدمين : المتقدِّمون في الخير ، والمستأخرون : المبْطِئون عنه ، قاله الحسن ، وقتادة .

والسادس : أن المستقدمين في صفوف القتال ، والمستأخرين عنها ، قاله الضحاك .

والسابع : أن المستقدمين : من قُتل في الجهاد ، والمستأخرين : من لم يُقتَل ، قاله القرظي .

والثامن : أن المستقدمين : أول الخلق ، والمستأخرين آخر الخلق ، قاله الشعبي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

*(191/424)*

---

وقال القرطبى :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) ﴾

أي الأرض ومن عليها ، ولا يبقى شيء سوانا .

نظيره .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [ مريم : 40 ] .

فملك كلّ شيء لله تعالى .

ولكن ملك عباده أملاكاً فإذا ماتوا انقطعت الدّعاوى ، فكان الله وارثاً من هذا الوجه .

وقيل : الإحياء في هذه الآية إحياء النطفة في الأرحام .

فأما البعث فقد ذكره بعد هذا في قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ [ الحجر : 25 ] .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ فيه ثمان تأويلات: الأوّل: "المستقدمين" في الخلق إلى اليوم، ولا المستأخرين، الذين لم يخلقوا بعد، قاله قتادة وعكرمة وغيرهما.

الثاني: "المستقدمين" الأموات، و"المستأخرين" الأحياء؛ قاله ابن عباس والضحاك.

الثالث: "المستقدمين" من تقدّم أمة محمد، و"المستأخرين" أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد.

الرابع: "المستقدمين" في الطاعة والخير، و"المستأخرين" في المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتادة أيضاً.

الخامس: "المستقدمين" في صفوف الحرب، و"المستأخرين" فيها؛ قاله سعيد بن المسيّب.

السادس: "المستقدمين" من قتل في الجهاد، و"المستأخرين" من لم يقتل؛ قاله القرظي.

السابع: "المستقدمين" أوّل الخلق، و"المستأخرين" آخر الخلق؛ قاله الشعبيّ.

الثامن: "المستقدمين" في صفوف الصلاة، و"المستأخرين" فيها بسبب النساء.

وكل هذا معلوم لله تعالى؛ فإنه عالم بكل موجود ومعدوم، وعالم بمن خلق وما هو خالقه إلى يوم القيامة.

إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية ؛ لما رواه النَّسائي والترمذيّ عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون في الصف الأوّل لئلا يراها ، ويتأخرّ بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ .

وروي عن أبي الجوزاء ولم يُذكر ابن عباس .

وهو أصح .

الثانية : هذا يدل على فضل أوّل الوقت في الصلاة وعلى فضل الصفّ الأوّل ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأوّل ثم لم يجِدوا إلا أن يستَهِموا عليه لاستهموا " فإذا جاء الرجل عند الزوال فنزل في الصف الأوّل مجاور الإمام ، حاز ثلاث مراتب في الفضل : أوّل الوقت ، والصف الأوّل ، ومجاورة الإمام .

فإن جاء عند الزوال فنزل في الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل ، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضل الصف الأوّل والمجاورة .

فإن جاء وقت الزوال ونزل في الصف الأوّل دون ما يلي الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل ، وفاته مجاورة الإمام .

فإن جاء بعد الزوال ونزل في الصف الأوّل فقد فاته فضيلة أوّل الوقت ، وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام .

وهكذا .

ومجاورة الإمام لا تكون لكل أحد ، وإنما هي كما قال صلى الله عليه وسلم : "لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهى" الحديث .

فما يلي الإمام ينبغي أن يكون لمن كانت هذه صفته ، فإن نزلها غيره أخِّر وتقدّم هو إلى الموضع ؛ لأنه حقّه بأمر صاحب الشرع ، كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخّر ؛ قاله ابن العربي .

قلت : وعليه يحمل قول عمر رضي الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر .

وقد روي عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليَخِرّ ساجداً فيغفر لمن خلفه .

(193/424)

---

وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك في التوراة .

ذكره الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول .

وسيأتي في سورة "الصافات" زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثة : وكما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل في القتال ؛ فإن القيام في نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل ؛ فالتقدّم إليه أفضل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به .

ولم يكن أحد يتقدّم الحرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان أشجع الناس .

قال البَرَاء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقي به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذِي به ، يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي للحساب والجزاء .

﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(194/424)

---

وقال الخازن :

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾

يعني بيدنا إحياء الخلق وإماتتهم لا يقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى ، لأن قوله تعالى : وإنا لنحن يفيد الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا ﴿ ونحن الوارثون ﴾ وذلك بأن نميت جميع الخلق ، فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لأن وجود الخلق .

وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى فإذا في جميع الخلائق رجع الذي كانوا يملكونه في الدنيا على المجاز إلى مالكه على الحقيقة ، وهو الله تعالى .

وقيل مصير الخلق إليه .

قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) من أحسن الناس فكان بعض الناس يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها .

ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت أبطيه فأنزل الله ولقد علمنا المستقدمين منكم ، ولقد علمنا المستأخرين أخرجه النسائي وأخرجه الترمذي وقال فيه وقد روي عن ابن الجوزي نحوه .

ولم يذكر فيه عن ابن عباس وهذا أشبه أن يكون أصح قال البغوي وذلك أن النساء كن

يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صف الرجال ، ومن النساء من في قلبها ريبه فتتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه سلم : " خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها .

وشرها أولها " أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

وقال ابن عباس : أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق الله تعالى بعد .

وقال مجاهد : المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .



---

وقال الحسن : المستقدمون يعني في الطاعة والخير والمستأخرون يعني فيهما .

وقال الأوزاعي : أراد بالمستقدمين المصلين في أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها إلى آخره .

وقال مقاتل : أراد بالمستقدمين وبالمستأخرين في صف القتال .

وقال ابن عيينة : أراد من يسلم أولاً ومن يسلم آخراً .

وقال ابن عباس في رواية أخرى عنه أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) حرض على الصف الأول فازدحموا عليه ، وقال قوم كانت بيوتهم قاصة عن المسجد : لنبيعن دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم .

فنزلت هذه الآية ، ومعناها إنما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الأول المستقدم للتقوى والمستأخر للنظر ، وعلى القول الأخير المستقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر ، ومعنى الآية أن علمه سبحانه وتعالى محيط بجميع خلقه مقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم ، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ يعني على ما علم منهم ، وقيل : إن الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم الأولين والآخرين على ما ماتوا عليه ( م ) عن جابر قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم )

"يبعث كل عبد على ما مات عليه" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(196/424)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ﴾

نحيي : نخرجه من العدم الصرف إلى الحياة .

ونميت : نزيل حياته .

ونحن الوارثون الباقون بعد فناء الخلق .

والمستقدمين قال ابن عباس والضحاك : الأموات ، والمستأخرين الأحياء .

وقال قتادة وعكرمة وغيرهما : المستقدمين في الخلق والمستأخرين الذين لم يخلقوا بعد .

وقال مجاهد : المستقدمين من الأمم والمستأخرين أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

وقال الحسن وقتادة أيضاً : في الطاعة والخير ، والمستأخرين بالمعصية والشر .

وقال ابن جبير : في صفوف الحرب ، والمستأخرين فيها .

وقيل : من قتل في الجهاد ، والمستأخرين من لم يقتل .

وقيل : في صفوف الصلاة ، والمستأخرين بسبب النساء لينظروا إليهن .

وقال قتادة أيضاً : السابقين إلى الإسلام والمتقاعسين عنه .

والأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر ، والمعنى : أنه تعالى محيط علمه بمن تقدم وبمن تأخر وبأحوالهم ، ثم أعلم تعالى أنه يحشرهم .

وقرأ الأعمش : يحشرهم بكسر الشين .

وقال ابن عباس ومروان بن الحكم ، وأبو الحوراء : كانت تصلي وراء الرسول امرأة جميلة ، فبعض يتقدم لئلا تفتنه وبعض يتأخر ليسرق النظر إليها في الصلاة ، فنزلت الآية فيهم .

وفصل هذه الآية بهاتين الصفتين من الحكمة والعلم في غاية المناسبة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(197/424)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِى ﴾

بإيجاد الحياةِ في بعض الأجسام القابلةِ لها ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ بإزالتها عنها ، وقد يُعمّم الإحياءُ والإماتة لما يشمل الحيوانَ والنباتَ ، وتقديمُ الضميرِ للحصر ، وهو إما تأكيدٌ للأول أو مبتدأٌ خبرُه الفعلُ ، والجملةُ خبرٌ لإنا ، ولا يجوز كونُه ضميرَ الفصل لا لأن اللام مانعةٌ من ذلك كما قيل ، فإن النحاة جوزوا دخولَ لام التأكيدِ على ضمير الفصل كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ القصص الحق ﴾ بل لأنه لم يقع بين اسمين ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ أي الباقون بعد فناءِ الخلقِ قاطبةً ، المالكون للملك عند انقضاءِ زمان المُلك المجازيِّ ، الحاكمون الكلَّ أولاً وآخراً ، وليس لهم إلا التصرفُ الصُّوريُّ والملكُ المجازي ، وفيه تنبيهٌ على أن المتأخّرَ ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾

مَنْ تقدّم منكم ولادةً وموتاً ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ من تأخر ولادةً وموتاً أو من خرج من أصلاب الآباءِ ومن لم يخرُجْ بعدُ ، أو مَنْ تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ومن تأخر في ذلك ، لا يخفى علينا شيء من أحوالكم ، وهو بيانٌ لكمال علمِه بعد الاحتجاج على كمال قدرتِه ، فإن ما يدل عليها دليلٌ عليه ، وفي تكرير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ﴾ ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيدِ ، وقيل : رغّب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت ، وقيل : إن امرأةً حسناءَ كانت تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم بعضُ الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليرَوْها فنزلت ، والأول هو المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى :

(198/424)

---

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي للجزاء ، وتوسيطُ ضميرِ العظمةِ للدلالة على أنه هو القادرُ على حشرهم والمتولِّي له لا غيرُ ، لأنهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون : مَنْ يحيي العظامَ وهي رميم ، أي هو يحشرهم لا غير ، وفي الالتفات والتعرض لعنوان الربوبيةِ إشعارٌ بعلة الحكم ، وفي الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دَلالةٌ على اللطف به عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ بالغُ الحكمة متقِنٌ في أفعاله ، فإنها عبارةٌ

عن العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه ، والإتيانِ بالأفعال على ما ينبغي ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسِع علمُه كل شيء ، ولعل تقديمَ صفةِ الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(199/424)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ﴾

بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ بإزالتها عنها فالحياة صفة وجودية وهي كما قيل صفة تقتضي الحس والحركة الإرادية والموت زوال تلك الصفة ، وقال بعضهم : إنه صفة وجودية تضاد الحياة لظاهر قوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ الموت ﴾ [ الملك : 2 ] وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك ، وقد يعمم الأحياء والإماتة بحيث يشمل الحيوان والنبات مثل أن يقال : المراد إعطاء قوة النماء وسلبها ، وتقديم الضمير للحصر ، وهو إما توكيد للأول ومبتدأ خبره الجملة بعده والمجموع خبر لأنا ، وجوز كونه ضمير فصل ورده أبو البقاء بوجهين :

أحدهما : أنه لا يدخل على الخبر الفعلي والثاني : أن اللام لا تدخل عليه ، وتعقب ذلك في

"الدر المصون" بأن الثاني غلط فإنه ورد دخول اللام عليه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ القصص الحق ﴾ [آل عمران : 62] ودخوله على المضارع مما ذهب إليه الجرجاني وبعض النحاة ، وجعلوا من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىء وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : 13] ولعل ذلك المجوز ممن يرى هذا الرأي والعجب من أبي البقاء فإنه رد ذلك هنا وجوزه في قوله تعالى : ﴿ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : 10] كما نقله في "المغني" .

﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ أي الباقون بعد فناء الخلق قاطبة لما لكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازي ، الحاكمون في الكل أولاً وآخراً وليس لأحد إلا التصرف الصوري والملك المجازي وفي هذا تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراآى من ظاهر الحال ، وتفسير الوارث بالباقي مروي عن سفيان وغيره ، وفسر بذلك في قوله عليه الصلاة والسلام : " اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا " وهو من باب الاستعارة .



---

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ من مات ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ من هو حي لم يمت بعد أخرجه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه المستقدمين

آدم عليه السلام ومن مضى من ذريته والمستأخرين من في أصلاب الرجال ، وروى مثله عن قتادة ، وعن مجاهد المستقدمين من مضي من الأمم و ﴿ المستخرين ﴾ أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر كذلك مطلقاً وهو من المناسبة بمكان وروى عن الحسن أنه قال : من سبق إلى الطاعة ومن تأخر فيها ، وروى عن معتمر أنه قال : بلغنا أن الآية في القتال فحدثت أبي فقال لقد نزلت قبل أن يفرض القتال ، فعلى هذا أخذ الجهاد في عموم الطاعة ليس بشيء ، على أه ليس في تفسير ذلك بالمستقدمين والمستأخرين فيها كمال مناسبة ، والمراد من علمه تعالى بهؤلاء علمه سبحانه بأحوالهم ، والآية لبيان كمال علمه جل وعلا بعد الاحتجاج على كمال قدرته تعالى فإن ما يدل عليها دليل عليه ضرورة أن القادرة على كل شيء لا بد من علمه بما يصنعه وفي تكرير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ﴾ ما لا يخفى من الدلالة على التأكيد .

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي في "سننه" .



---

وجماعة من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في

الصف الأول لئلا يراها ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى الآية ، وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن أبي الجوزاء أنه قال في الآية ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة ولم يذكر من حديث المرأة شيئاً ، قال الترمذي : هذا أشبه أن يكون أصح ، وقال الربيع بن أنس : حرض النبي صلى الله عليه وسلم على الصف الأول في الصلاة فازدحم الناس عليه وكان بنو عذرة دورهم قاصية عن المسجد فقالوا : نبيع دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد فأنزل الله تعالى الآية ، وأنت تعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن هنا قال بعضهم : الأولى الحمل على العموم أي علمنا من اتصف بالتقدم والتأخر في الولادة والموت والإسلام وصفوف الصلاة وغير ذلك .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

للجزاء ، وتوسيط الضمير قيل للحصر أي هو سبحانه يحشرهم لا غير ، وقيل عليه : إنه في مثل ذلك يكون الفعل مسلم الثبوت والنزاع في الفاعل وههنا ليس كذلك فالوجه جعله لإفادة التقوى .

وتعقب بأن هذا في القصر الحقيقي غير مسلم وتصدير الجملة بإن لتحقيق الوعد والتنبيه على ما سبق يدل على صحة الحكم ، وفي الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية إشعار بعلته ، وفي الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم دلالة على اللطف به عليه الصلاة والسلام .

وقرأ الأعمش ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ بكسر الشين ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ بالغ الحكمة متقن في أفعاله.

والحكمة عندهم عبارة عن العلم بالأشياء على ما هي عليه والإتيان بالأفعال على ما ينبغي ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شيء، ولعل تقديم وصف الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء، وقد نص بعضهم على أن الجملة مستأنفة للتعليل. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

*(202/424)*

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

لما ذكر سبحانه كفر الكافرين وعجزهم وعجز أصنامهم، ذكر قدرته الباهرة وخلقه البديع ليستدل بذلك على وحدانيته، فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا ﴾ الجعل إن كان بمعنى الخلق، ففي السماء متعلق به، وإن كان بمعنى التصيير، ففي السماء خبره، والبروج في اللغة : القصور والمنازل، والمراد بها هنا : منازل الشمس والقمر والنجوم السيارة، وهي : الاثنا عشر المشهورة كما تدل على ذلك التجربة، والعرب تعدّ المعرفة

بمواقع النجوم ومنازلها من أجل العلوم .

ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب .

وقالوا : الفلك إثنا عشر برجاً ، وأسماء هذه البروج : الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدي ، الدلو ، الحوت .

كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة المشتغلين بهذا العلم ، ويسمون الحمل والأسد والقوس : مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي : مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو : مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت : مثلثة مائية .

وأصل البروج : الظهور ، ومنه : تبرج المرأة : بإظهار زينتها .

وقال الحسن وقتادة : البروج : النجوم ، وسميت بذلك ، لظهورها وارتفاعها .

وقيل : السبعة السيارة منها ، قاله أبو صالح .

وقيل : هي قصور وبيوت في السماء فيها حرس .

والضمير في ﴿ وزيناها ﴾ راجع إلى السماء ، أي : وزينا السماء بالشمس والقمر والنجوم والبروج للناظرين إليها ، أو للمتفكرين المعتبرين ، المستدلين إذا كان من النظر ، وهو الاستدلال .

﴿ وحفظناها ﴾ أي: السماء ﴿ مِن كُلِّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ قال أبو عبيدة: الرجيم: المرجوم بالنجوم، كما في قوله: ﴿ رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك: 5 ] والرجم في اللغة: هو الرمي بالحجارة، ثم قيل: للعن والطرد والإبعاد: رجم.

لأن الرامي بالحجارة يوجب هذه المعاني.

﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ استثناء متصل، أي: إلاّ من استرق السمع، ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: ولكن من استرق السمع ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ والمعنى: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلاّ من استرق السمع، فإنها تتبعه الشهب فتقتله أو تخبله، ومعنى ﴿ فأتبعه ﴾: تبعه ولحقه أو أدركه.

والشهاب: الكوكب أو النار المشتعلة الساطعة كما في قوله: ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [ النمل: 7 ] قال ذو الرمة:

كأنه كوكب في إثر عفريت... وسمي الكوكب شهاباً، لبريقه شبه النار، والمبين: الظاهر للمبصرين يرونه لا يلتبس عليهم.

قال القرطبي: واختلف في الشهاب، هل يقتل أم لا؟ فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل، وقال الحسن وطائفة: يقتل، فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجنّ قولان: أحدهما: أنهم يقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى

غيرهم، فلا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.

والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجنّ.

قال ذكره الماوردي، ثم قال: والقول الأوّل أصح.

قال: واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث؟ فقال الأكثرون: نعم، وقيل: لا، وإنما ذلك بعد المبعث، قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم.

قال كثير من أهل العلم: نحن نرى انقضاض الكواكب، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى. ثم يصير ناراً إذا أدرك الشيطان.



---

ويجوز أن يقال: يرمون بشعلة من نار الهواء فيخيل إلينا أنه نجم يسري.

﴿ والأرض مددناها ﴾ أي: بسطناها وفرشناها، كما في قوله: ﴿ والارض بَعْدَ ذَٰلِكَ دحاها ﴾ [النازعات: 30]، وفي قوله: ﴿ والأرض فرشناها فَنِعْمَ الماهدون ﴾ [الذاريات: 48] وفيه ردّ على من زعم أنها كالكرة.

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ أي: جبال ثابتة، لئلا تحرك بأهلها، وقد تقدم بيان ذلك في

سورة الرعد .

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ أي : أنبتنا في الأرض من كل شيء مقدّر معلوم ، فعبر عن ذلك بالوزن ؛ لأنه مقدار تعرف به الأشياء ، ومنه قول الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مرّة . . . عندي لكل مخاصم ميزانه

وقيل : معنى ﴿ موزون ﴾ مقسوم .

وقيل : معدود .

والمقصود من الإثبات الإنشاء والإيجاد ؛ وقيل : الضمير راجع إلى الجبال أي : أنبتنا في الجبال من كل شيء موزون من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك .

وقيل : موزون بميزان الحكمة ، ومقدّر بقدر الحاجة .

وقيل : الموزون : هو المحكوم بحسنه ، كما يقال : كلام موزون ، أي : حسن : ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا معايش ﴾ تعيشون بها من المطاعم والمشارب جمع معيشة .

وقيل : هي الملابس .

وقيل : هي التصرف في أسباب الرزق مدّة الحياة .

قال الماوردي : وهو الظاهر .

قلت : بل القول الأوّل أظهر ، ومنه قول جرير :

تكلفني معيشة آل زيد . . . ومن لي بالمرقق والضباب

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ معطوف على معايش ، أي : وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين ، وهم المماليك والخدم والأولاد الذين رازقهم في الحقيقة هو الله ، وإن ظنّ بعض العباد أنه الرازق لهم باعتبار استقلاله بالكسب ، ويجوز أن يكون معطوفاً على محل ﴿ لكم ﴾ أي : جعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لمن لستم له برازقين فيها معايش ، وهم من تقدّم ذكره ، ويدخل في ذلك الدواب على اختلاف أجناسها ، ولا يجوز العطف على الضمير المجرور في ﴿ لكم ﴾ لأنه لا يجوز عند الأكثر إلاّ بإعادة الجارّ .

وقيل : أراد الوحش .

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ " إن " هي النافية و " من " مزيدة للتأكيد ، وهذا التركيب عام لوقوع النكرة في حيز النفي مع زيادة من ، ومع لفظ ﴿ شيء ﴾ المتناول لكل الموجودات الصادقة على كل فرد منها .

فأفاد ذلك أن جميع الأشياء عند الله خزائنها لا يخرج منها شيء ، والخزائن جمع خزانة : وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأمور ، وذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور ؛ والمعنى : أن كل الممكنات مقدورة ومملوكة يخرجها من العدم إلى الوجوب بمقدار كيف

شاء .

وقال جمهور المفسرين : إن المراد بما في هذه الآية هو المطر ، لأنه سبب الأرزاق والمعايش ؛ وقيل : الخزائن المفاتيح أي : ما من شيء إلا عندنا في السماء مفاتيحه ، والأولى ما ذكرناه من العموم لكل موجود ، بل قد يصدق الشيء على المعدوم على الخلاف المعروف في ذلك ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلاّ بقدر معلوم .

(206/424)

---

والقدر : المقدار ؛ والمعنى : أن الله سبحانه لا يوجد للعباد شيئاً من تلك الأشياء المذكورة إلاّ متلبساً ذلك الإيجاد بمقدار معين حسبما تقتضيه مشيئته على مقدار حاجة العباد إليه كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء ﴾ [ الشورى : 27 ] .

وقد فسر الإنزال بالإعطاء ، وفسر بالإنشاء ، وفسر بالإيجاد ، والمعنى متقارب ، وجملة وما ﴿ ننزله ﴾ معطوفة على مقدّر ، أي : وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه ننزله وما ننزله ، أو في محل نصب على الحال .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياحَ لَوَاقِحَ ﴾ معطوف على ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ وما بينهما اعتراض .

قرأ حمزة " الريح " بالتوحيد .

وقرأ من عداه ﴿ الرياح ﴾ بالجمع .

وعلى قراءة حمزة فتكون اللام في الريح للجنس .

قال الأزهري : وجعل الرياح لواقح لأنها تحمل السحاب : أي تقله وتصرفه ، ثم تمرّ به فتنزله .

قال الله سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أي : حملت .

وناقة لاقح : إذا حملت الجنين في بطنها .

وبه قال الفراء وابن قتيبة .

وقيل : ﴿ لواقح ﴾ بمعنى : ملقحة .

قال ابن الأنباري : تقول العرب : أبقل النبت فهو باقل أي : مبقل .

والمعنى : أنها تلقح الشجر أي : بقوّتها .

وقيل : معنى ﴿ لواقح ﴾ ذوات لقح .

قال الزجاج : معناه وذات لقحة ، لأنها تعصر السحاب وتدره كما تدرّ اللقحة .

يقال : رامح أي : ذو رمح ، ولابن أي : ذو لبن ، وتامر أي : ذو تمر .

قال أبو عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح ، ذهب إلى أنها جمع ملقحة .

وفي هذه الآية تشبيه الرياح التي تحمل الماء بالحامل ، ولقاح الشجر بلقاح الحمل .

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاءً ﴾ أي : من الحساب وكل ما علاك فأظلك فهو سماء ، وقيل : من جهة السماء ، والمراد بالماء هنا ماء المطر ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي : جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم .

(207/424)

---

قال أبو عليّ : يقال سقيته الماء إذا أعطيته قدر ما يروي ؛ وأسقيته نهراً أي : جعلته شرباً له ، وعلى هذا ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أبلغ من سقيناكموه .

وقيل : سقى وأسقى بمعنى واحد ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ أي ليست خزائنه عندكم ، بل خزائنه عندنا ، ونحن الخازنون له ، فنفى عنهم سبحانه ما أثبته لنفسه في قوله : ﴿ وَإِن مّن شَىْء إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ وقيل المعنى : إن ما أنتم له بخازنين بعد أن أنزلناه عليكم : أي لا تقدرون على حفظه في الآبار والغدران والعيون ، بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة إليه .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ أي نوجد الحياة في المخلوقات ونسلبها عنها متى شئنا ،

والغرض من ذلك الاستدلال بهذه الأمور على كمال قدرته - عزّ وجلّ - وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده على حسب ما يستحقونه وتقتضيه مشيئته .

ولهذا قال : ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ أي للأرض ومن عليها ، لأنه سحبانه الباقي بعد فناء خلقه ، الحيّ الذي لا يموت ، الدائم الذي لا ينقطع وجوده .

﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السموات والأرض ﴾ [ آل عمران : 180 ] .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم ، وهكذا اللام في : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ ، والمراد : من تقدّم ولادة وموتاً ، ومن تأخر فيهما .

وقيل : من تقدّم طاعة ومن تأخر فيها .

وقيل : من تقدّم في صف القتال ومن تأخر .

وقيل المراد بالمستقدمين : الأموات ، وبالمستأخرين : الأحياء .

وقيل المستقدمين : هم الأمم المتقدّمون على أمة محمد ، والمستأخرون : هم أمة محمد .

وقيل : المستقدمون : من قتل في الجهاد ، والمستأخرون : من لم يقتل .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي هو المتولى لذلك ، القادر عليه دون غيره ، كما يفيده ضمير الفصل من الحصر .

وفيه أنه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لأنه الأمر المقصود من الحشر ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ يجري الأمور على ما تقتضيه حكمته البالغة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أحاط علمه بجميع الأشياء ، لا يخفى عليه شيء منها ، ومن كان كذلك فله القدرة البالغة على كل شيء مما وسعه علمه ، وجرى فيه حكمه سبحانه لا إله إلا هو .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا ﴾ قال : كواكب .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : الكواكب العظام .

وأخرج أيضاً عن عطية قال : قصوراً في السماء فيها الحرس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة قال الرجيم : الملعون .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ أراد أن يخطف السمع كقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ [ الصافات : 10 ] .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال : كان ابن عباس يقول : "إن الشهب لا تقتل ، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل" .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه في قوله : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ شَىْء مَّوْزُونٍ ﴾ قال :

معلوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ قال : بقدر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الأشياء التي توزن .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ قال : الدوابّ والأنعام .

وأخرج هؤلاء عن منصور ، قال : الوحش .

(209/424)

---

وأخرج البزار ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خزائن الله الكلام ، فإذا أراد شيئاً ، قال له : كن فكان " وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله : ﴿ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ قال : المطر خاصة .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : "ما نقص المطر منذ أنزله الله ،

ولكن تمطر أرض أكثر مما تمطر أخرى .

ثم قرأ : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن مسعود قال : "ما من عام بأمطر من عام ، ولكن الله يصرفه حيث يشاء ، ثم قرأ ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ " .

وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فتدرّ كما تدرّ اللقحة ثم تمطر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال : يبعث الله المبشرة فتقمّ الأرض قماً ، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فتجعله كسفاً ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فيجعله ركاماً ، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والديلمي بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ريح الجنوب من الجنة ، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه " وأخرج الطيالسي ، وسعيد ابن منصور ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : "كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن النساء ، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه ، فأنزل الله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ " .

وهذا الحديث هو من رواية أبي الجوزاء عن ابن عباس .

وقد رواه عبد الرزاق ، وابن المنذر من قول أبي الجوزاء قال الترمذي : وهذا أشبه أن يكون أصح .

وقال ابن كثير : في هذا الحديث نكارة شديدة .

وأخرج الحاكم ، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : المستقدمين : الصفوف المقدّمة ، والمستأخرين : الصفوف المؤخرة .

وقد وردت أحاديث كثيرة في أن خير صفوف الرجال أولها وشرّها آخرها .

وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أوّلها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ومقاتل بن حبان أن الآية في صفوف القتال .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن الحسن قال : المستقدمين : في طاعة الله ، والمستأخرين في معصية الله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : يعني بالمستقدمين : من مات ، وبالمستأخرين : من هو حيّ لم يمت .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً قال : المستقدمين : آدم ومن مضى من ذريته ، والمستأخرين : في أصلاب الرجال .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر عن قتادة نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(211/424)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ .

بين في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحي ويميت وأوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله : ﴿ إِنَّا

نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المصير ﴾ [ ق : 43 ] وقوله تعالى : ﴿ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ [ البقرة : 258 ] وقوله ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين ﴾ [ الدخان : 8 ] وبين في مواضع أخر أنه أحياهم مرتين وأماتهم مرتين كقوله : ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين ﴾ [ غافر : 11 ] الآية وقوله ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [ البقرة : 28 ] والإماتة الأولى هي كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا والاحياءة الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم والإحياءة الثانية بعثهم من قبورهم أحياء يوم القيامة وسياتي له إن شاء الله تعالى زيادة إيضاح .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث ولم يبين الشيئ الذي يرثه وبين في مواضع أخر أنه يرث الأرض ومن عليها كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [ مريم : 40 ] وقوله : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ [ مريم : 80 ] ومعنى ما يقول أي نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد كما ذكره الله عنه في قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ [ مريم : 77 ] ومعنى كونه يرث الأرض من عليها أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفاً بصفات الكمال والجلال يفعل ما يشاء كيف يشاء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) ﴾

لما جرى ذكر إنزال المطر وكان مما يسبق إلى الأذهان عند ذكر المطر إحياءُ الأرض به ناسب أن يذكر بعده جنس الإحياء كله لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوحدانية ، ولأن فيه دليلاً على إمكان البعث .

والمقصود ذكر الإحياء ولذلك قُدم .

وذكر الإماتة للتكميل .

والجملة عطف على جملة ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا ﴾ [ سورة الحجر : 16 ] للدلالة على القدرة وعموم التصرف .

وضمير نَحْن ضمير فصل دخلت عليه لام الابتداء .

وأكد الخبر بـ ( إنّ ) واللاّم وضمير الفصل لتحقيقه وتنزيلاً للمخاطبين في إشراكهم منزلة المنكرين للإحياء والإماتة .

والمراد بالإحياء تكوين الموجودات التي فيها الحياة وإحياؤها أيضاً بعد فناء الأجسام .

وقد أدمج في الاستدلال على تفرد الله تعالى بالتصرف إثبات البعث ودفع استبعاد وقوعه واستحالتِه.

ولما كان المشركون منكرين نوعاً من الإحياء كان توكيد الخبر مستعملاً في معنييه الحقيقي والتنزيلي.

وجملة ونحن الوارثون ﴾ عطف على جملة ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ .

ومعنى الإرث هنا البقاء بعد الموجودات تشبيهاً للبقاء بالإرث وهو أخذ ما يتركه الميت من أرض وغيرها .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) ﴾

لما ذكر الإحياء والإماتة وكان الإحياء بكسر الهمزة يذكر بالأحياء بفتحها ، وكانت الإماتة تذكّر بالأموات الماضين تخلص من الاستدلال بالأحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم علم الله وهو علمه بالأمم البائدة وعلم الأمم الحاضرة ؛ فأريد بالمستقدمين الذين تقدموا الأحياء إلى الموت أو إلى الآخرة ، فالتقدم فيه بمعنى المضي ؛ وبالمستأخرين الذين تأخروا وهم الباقون بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتي .

والسين والتاء في الوصفين للتأكيد مثل استجاب ؛ ولكن قولهم استقدم بمعنى تقدم على خلاف القياس لأن فعله رباعي .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ في سورة الأعراف ( 34 ) .

وقد تقدم في طالع تفسير هذه السورة الخبر الذي أخرجه الترمذي في جامعه من طريق نوح بن قيس ومن طريق جعفر بن سليمان في سبب نزول هذه الآية .

وهو خبر واهٍ لا يلاقي انتظام هذه الآيات ولا يكون إلا من التفاسير الضعيفة .

وجملة وإن ربك هو يحشرهم ﴾ نتيجة هذه الأدلة من قوله : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ [ سورة الحجر : 23 ] فإن الذي يُحيي الحياة الأولى قادر على الحياة الثانية بالأوْلى ، والّذي قدّر الموت ما قدره عبثاً بعد أن أوجد الموجودات إلاّ لتستقبلوا حياة أبدية ؛ ولولا ذلك لقدر الدّوام على الحياة الأولى ، قال تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [ سورة الملك : 2 ] .

وللإشارة إلى هذا المعنى من حكمة الإحياء والإماتة أتبعه بقوله : إنه حكيم عليم ﴾ تعليلاً لجملة ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ لأن شأن ﴿ إنّ ﴾ إذا جاءت في غير معنى الرد على المنكر أن تفيد معنى التعليل والربط بما قبلها .

والحكيم الموصوف بالحكمة.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ [سورة البقرة: 269] وعند قوله تعالى: ﴿ فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ في سورة البقرة (209).

والعَليم الموصوف بالعلم العام، أي المحيط.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ في سورة آل عمران (140).

وقد أكدت جملة وإن ربك هو يحشرهم ﴾ بحرف التوكيد وبضمير الفصل لرد إنكارهم الشديد للحشر.



---

وقد أسند الحشر إلى الله بعنوان كونه رب محمد صلى الله عليه وسلم تنويهاً بشأن النبي عليه الصلاة والسلام لأنهم كذبوه في الخبر عن البعث ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبّئكم إذا مزّقتم كل ممزّق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذباً أم به جِنّة ﴾ [سورة سبأ: 7 8] أي فكيف ظنك بجزائه مكذبيك إذا حشرهم. انتهى انتهى. اهـ

﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) ﴾

من مشهد المكابرة . وكان ميدانه السماء . إلى معرض الآيات الكونية مبدوءاً بمشهد السماء . فمشهد الأرض . فمشهد الرياح اللواقح بالماء . فمشهد الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . . كل أولئك آيات يكابر فيها من لو فتح عليهم باب من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون . فلنعرضها مشهداً مشهداً كما هي في السياق :

﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا . وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع ، فأتبعه شهاب مبين ﴾ . .

إنه الخط الأول في اللوحة العريضة . . لوحة الكون العجيبة ، التي تنطق بآيات القدرة المبدعة ، وتشهد بالإعجاز أكثر مما يشهد نزول الملائكة ؛ وتكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما تكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير .

والبروج قد تكون هي النجوم والكواكب بضخامتها . وقد تكون هي منازل النجوم والكواكب التي تتنقل فيها في مدارها . وهي في كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة ، وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل :

﴿ وزيناها للناظرين ﴾ . .

وهي لفتة هنا إلى جمال الكون وبخاصة تلك السماء تشي بأن الجمال غاية مقصودة في خلق هذا الكون. فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها ، إنما هو الجمال الذي ينتظم المظاهر جميعاً ، وينشأ من تناسقها جميعاً .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء في الليلة الحالكة ، وقد انتثرت فيها الكواكب والنجوم ، توصوص بنورها ثم يبدو كأنما تخبو ، ريثما تنتقل العين لتلبي دعوة من نجم بعيد . . ونظرة مثلها في الليلة القمرية والبدر حالم ، والكون من حوله مهوّم ، كأنما يمسك أنفاسه لا يوقظ الحالم السعيد ! .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك حقيقة الجمال الكوني ، وعمق هذا الجمال في تكوينه ؛ ولإدراك معنى هذه اللفتة العجيبة :

﴿ وزيناها للناظرين ﴾ . .



---

ومع الزينة الحفظ والطهارة :

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ . .

لا ينالها ولا يدنسها ؛ ولا ينفث فيها من شره ورجسه وغوايته . فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها ، وبالغاوين من أبناء آدم فيها . أما السماء وهي رمز للسمو والارتفاع فهو مطرود عنها مطارد لا ينالها ولا يدنسها . إلا محاولة منه ترد كلما حاولها :

﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ . .

وما الشيطان ؟ وكيف يحاول استراق السمع ؟ وأي شيء يسترق ؟ . . كل هذا غيب من غيب الله ، لا سبيل لنا إليه إلا من خلال النصوص . ولا جدوى في الخوض فيه ، لأنه لا يزيد شيئاً في العقيدة ؛ ولا يثمر إلا انشغال العقل البشري بما ليس من اختصاصه ، وبما يعطله عن عمله الحقيقي في هذه الحياة. ثم لا يضيف إليه إدراكاً جديدا لحقيقة جديدة .

فلنعلم أن لا سبيل في السماء لشيطان ، وأن هذا الجمال الباهر فيها محفوظ ، وأن ما ترمز إليه من سمو وعُلىً مصون لا يناله دنس ولا رجس ، ولا يخطر فيه شيطان ، وإلا طورد فطرد وحيل بينه وبين ما يريد .

ولا ننسى جمال الحركة في المشهد في رسم البرج الثابت ، والشيطان الصاعد ، والشهاب المنقض ، فهي من بدائع التصوير في هذا الكتاب الجميل .

والخط الثاني في اللوحة العريضة الهائلة هو خط الأرض الممدودة أمام النظر ، المبسوطة للخطو والسير ؛ وما فيها من رواسٍ ، وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء :

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسيَ ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾ . .



---

إن ظل الضخامة واضح في السياق . فالإشارة في السماء إلى البروج الضخمة تبدو ضخامتها حتى في جرس كلمة ﴿ بروج ﴾ وحتى الشهاب المتحرك وصف من قبل بأنه ﴿ مبين ﴾ . . والإشارة في الأرض إلى الرواسي ويتجسم ثقلها في التعبير بقوله : ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ . وإلى النبات موصوفاً بأنه ﴿ موزون ﴾ وهي كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها أن كل نبت في هذه الأرض في خلقه دقة وإحكام وتقدير . . ويشترك في ظل التضخيم جمع ﴿ معايش ﴾ وتنكيرها ، وكذلك ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ من كل ما في الأرض من أحياء على وجه الإجمال والإبهام . فكلها تخلع ظل الضخامة الذي يجلل المشهد المرسوم .

والآية الكونية هنا تتجاوز الآفاق إلى الأنفس . فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ؛ وهذه الرواسي الملقاه على الأرض ، تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ؛ ومنه إلى المعايش التي جعلها الله للناس في هذه الأرض . وهي الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها . وهي كثيرة

شتى ، يجملها السياق هنا ويبهمها لتلقي ظل الضخامة كما أسلفنا . جعلنا لكم فيها معايش ، وجعلنا لكم كذلك ﴿ من لستم له برازقين ﴾ . فهم يعيشون على أرزاق الله التي جعلها لهم في الأرض . وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التي لا تحصى . أمة لا ترزق سواها إنما الله يرزقها ويرزق سواها ، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ومتاعها وخدمتها أمماً أخرى تعيش من رزق الله ، ولا تكلفها شيئاً .

هذه الأرزاق ككل شيء مقدرة في علم الله ، تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء وكما يريد ، في الوقت الذي يريده حسب سنته التي ارتضاها ، وأجراها في الناس والأرزاق :

﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ . .

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئاً ، إنما خزائن كل شيء مصادره وموارده عند الله . في علاه . ينزله على الخلق في عوالمهم ﴿ بقدر معلوم ﴾ فليس من شيء ينزل جزافاً ، وليس من شيء يتم اعتباطاً .

ومدلول هذا النص المحكم : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان في المعرفة ، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه .

ومدلول ﴿ خزائنه ﴾ يتجلى في صورة أقرب بعد ما كشف الإنسان طبيعة العناصر التي يتألف منها الكون المادي ؛ وطبيعة تركيبها وتحليلها إلى حد ما وعرف مثلاً أن خزائن الماء الأساسية هي ذرات الايدروجين والأكسوجين ! وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك الآزوت الذي في الهواء ! وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب في ثاني أكسيد الكربون ! وتلك الأشعة التي ترسل بها الشمس أيضاً ! ومثل هذا كثير يوضح دلالة خزائن الله التي توصل الإنسان إلى معرفة شيء منها . . وهو شيء على كثرته قليل قليل . .

ومما يرسله الله بقدر معلوم الرياح والماء :

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه . وما أنتم له بخازنين ﴾ . .

أرسلنا الرياح لواقح بالماء ، كما تلقح الناقة بالنتاج ؛ فانزلنا من السماء ماء مما حملت الرياح ، فأسقيناكموه فعشتم به :

﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ . .

فما من خزائنكم جاء ، إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم .

والرياح تنطلق وفق نواميس كونية ، وتحمل الماء وفقاً لهذه النواميس ؛ وتسقط الماء كذلك بحسبها . ولكن من الذي قدر هذا كله من الأساس ؟ لقد قدره الخالق ، ووضع الناموس الكلي الذي تنشأ عنه كل الظواهر :

﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ .

(219/424)

---

ونلحظ في التعبير أنه يرد كل حركة إلى الله حتى شرب الماء . . ﴿ فأسقيناكموه ﴾ . . والمقصود أننا جعلنا خلقتكم تطلب الماء ، وجعلنا الماء صالحاً لحاجتكم ، وقدرنا هذا وذاك . وأجريناه وحققناه بقدر الله . والتعبير يجيء على هذا النحو لتنسيق الجو كله ، ورجع الأمر كله إلى الله حتى في حركة تناول الماء للشراب . لأن الجو جو تعليق كل شيء في هذا الكون بإرادة الله المباشرة وقدره المتعلق بكل حركة وحادث . . سنة الله هنا في حركات الأفلاك كسنته هناك في حركات الأنفس . . تضمن المقطع الأول سنته في المكذبين ، وتضمن المقطع الثاني سنته في السماوات والأرضين ، وفي الرياح والماء والاستقاء . وكله من سنة الله التي يجري بها قدر الله . وهذه وتلك موصولتان بالحق الكبير الذي خلق الله به السماوات والأرض والناس والأشياء سواء .

ثم يتم السياق رجع كل شيء إلى الله ، فيرد إليه الحياة والموت ، والأحياء والأموات ، والبعث والنشور .

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ . .

وهنا يلتقي المقطع الثاني بالمقطع الأول . فهناك قال :

﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾

وهنا يقرر أن الحياة والموت بيد الله ، وأن الله هو الوارث بعد الحياة . وأنه هو يعلم من كتب عليهم أن يستقدموا فيتوفوا ، ومن كتب عليهم أن يؤجلوا فيستأخروا في الوفاة .

وأنه هو الذي يحشرهم في النهاية ، وإليه المصير :

﴿ إنه حكيم عليم ﴾ . .

يقدر لكل أمة أجلها بحكمته ، ويعلم متى تموت ، ومتى تحشر ، وما بين ذلك من أمور . .



---

ونلاحظ في هذا المقطع وفي الذي قبله تناسقاً في حركة المشهد . في تنزيل الذكر . وتنزيل الملائكة . وتنزيل الرجوم للشياطين . وتنزيل الماء من السماء . . ثم في المجال الذي يحيط

بالأحداث والمعاني ، وهو مجال الكون الكبير : السماء والبروج والشهب ، والأرض والرواسي والنبات ، والرياح والمطر . . فلما ضرب مثلا للمكابرة جعل موضوعه العروج من الأرض إلى السماء خلال باب منها مفتوح في ذات المجال المعروض . . وذلك من بدائع التصوير في هذا الكتاب العجيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2132 . 2135 ﴾

(221/424)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) ﴾

وفي ظاهر الأمر كان من المُمْكِن أن يقول الحق : " إنّا نُميت ونُحيي " ؛ لأنه سبحانه يخاطبنا ونحن أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو العدم المَحْض الذي أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [ البقرة : 28 ]

والكلام في تفصيل الموت يجب أن نُفرّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود ؛ فالعدم المَحْض هو ما كان قبل أن نُخلَق ؛ ثم أوجدنا الله لنكون أحياء ؛ ثم يميتنا من بعد ذلك ، ثم

يبعثنا من بعد ذلك للحساب .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يكون الكلام عن الموت الذي يحدث بعد أن يهبَنا اللهُ الحياةُ ، ثم نقضي ما كتبه لنا من أجَل .

ثم يُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ . . . وَنَحْنُ الوارثون ﴾ [ الحجر : 23 ]

وهذا القول يعني أن هناك تركة كبيرة ؛ وهي هذا الكون الذي خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه . ونحن لم نُضِفْ شيئاً لهذا الكون الذي خلقه الله ؛ لأنك إنْ نظرتَ إلى كمية المياه أو الغذاء التي في الكون ، وكُل مقومات الحياة لَمَا وجدتَ شيئاً يزيد أو ينقص ؛ فالماء تشربه لِيرويكَ ، ثم يخرج عرقاً وبولاً ؛ ومن بعد الموت يتحلّل الجسم ليتبخرَ منه الماء ، وهذا يجري على كل الكائنات .

وحين يتناول الحق سبحانه في هذه الآية أَمْر الموت والحياة وعودة الكون في النهاية إلى مُنْشِئه سبحانه ؛ فهو يُحدّثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود ؛ هما الحياة والموت ، وكلاهما يجري على كُلّ الكائنات ؛ فكُلّ شيء له مدة يَحْياها ، وأجل يقضيه .

وكل شيء يبدأ مهمة في الحياة فهو يُولّد ؛ وكل شيء يُنهِي مهمته في الحياة بحسب ما قدره الله له فهو يموت ؛ وإنْ كنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعي ذلك .

وهو سبحانه القائل : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [ القصص : 88 ]

إذن : فكُلّ شيء يُطلَق عليه " شيء " مصيره إلى هلاك ؛ ومعنى ذلك أنه كان حياً ؛ ودليلنا على أنه كان حياً هو قول الحق : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [ الأنفال : 42 ]

وهكذا نعلم أن كل ما له مهمة في الحياة له حياة تناسبه ؛ وفَوْر أن تنتهي المهمة فهو يهلك ويموت ، والحق سبحانه وتعالى يرث كل شيء بعد أن يهلك كل مَنْ له حياة ، وهو سبحانه القائل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [ مريم : 40 ]

وهو بذلك يرث التارك والمتروك ؛ وهو الخالق لكل شيء . ويختلف ميراث الحق سبحانه عن ميراث الخَلْق ؛ بأن المخلوق حين يرث آخر ؛ فهو يُودِعه التراب أولاً ، ثم يرث ما ترك ؛ أما الحق سبحانه فهو يرث الاثنين معاً ، المخلوق وما ترك .

ولذلك نحن نرى مَنْ يعز عليهم ميت ؛ قد يُمسِكون بالخشبة التي تحمل الجثة ، ويرفضون من فَرْط المحبة أن تخرج من منزله ؛ ولو تركناه لهم لمدة أسبوع ورمّت الجثة ؛ سيتوسّلون لِمَنْ يحمل الجثث أن يحملَه لِيُوارِيه التراب ، ثم يبدأون في مناقشة ما يرثونه من الفقيد .

وهم بذلك يَرِثون المتروك بعد أن أودعوا التارك للتراب ، وإذا كان التارك من الذين أحسنوا الإيمان والعمل فيدخل حياة جديدة هي أرغد بالتأكيد من حياته الدنيا ؛ ولَسوف يأكل

ويشرب دون أن يتعبَ ، وكل ما تمر على ذهنه رغبة فهي تتحقّق له ، فهو في ضيافة المُنعِم الأعلى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين . . . ﴾

(223/424)

---

والمُستقدم هو مَنْ تقدّم بالحياة والموت ؛ وهم مَنْ قبلنا من بشر وأُمَم . والمُسْتأخِر هو مَنْ سيأتي من بعدنا . وسبحانه يعلَمُنَا بحكم أنه علم من قَبْل كل مستأخر ؛ أي : أنه عَلِم بنا من قبل أنْ نُوجد ؛ ويعلم بنا من بَعْد أن نرحلَ ؛ فعِلْمه كامل وأزليّ ؛ وفائدة هذا العلم أنه سيترتب عليه الجزاء ؛ فنحن حين أخذنا الحياة والرزق لم نُفلت بهما بعيداً ؛ بل نجد الله قد عَلم أزلاً بما فعل كل مِنّا .

وهناك مَنْ يقول إن هناك معنًى آخر ؛ بأن الحق سبحانه يكتب مَنْ يسرع إلى الصلاة ويتقدم إليها فَوْر أن يسمع النداء لها ، ويعلم مَنْ يتأخر عن القيام بأداء الصلاة ، ذلك أن تأثير كلمة " الله اكبر " فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كُلّ ما يشغلك .

ونعلم أن من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم " الله أكبر " ؛ ولم يَقُلْ : الله كبير ؛ وذلك احتراماً لما يشغلنا في الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة ؛ ذلك أن الدنيا لا يجب أن تُهَان

؛ لأنها المَعْبر إلى الجزاء القادم في الآخرة .

ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهم من أن تُنسَى ؛ وفي نفس الوقت هي أتفه من أنْ تكون غاية ، فأنت في الدنيا تضرب في الأرض وتسعى لِقُوتك وقُوتِ مَنْ تعول ؛ وليُعينك هذا القوتُ على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحد الدنيا ؛ بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يُوفّقه فيها ، وأن يبذل كل جَهْد في سبيل نجاحه في عمله ؛ فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء ؛ وفَوْر أن يسمعَ المؤمن " الله أكبر " ؛ فعليه أن يتجهَ إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأن يؤدي الصلاة . هذا هو المعنى المُستقى من المستقدِم للصلاة والمُستأخِر عنها .

وهناك من العلماء مَنْ رأى ملاحظَ شتَّى في الآية الكريمة فمعناها قد يكون عاماً يشمل الزمن كله ؛ وقد تكون بمعنى خاص كمعنى المستقدم للصلاة والمستأخِر عنها .

(224/424)

---

وقد يكون المعنى أشدَّ خصوصية من ذلك ؛ فنحن حين نُصلّي نقف صفوفاً ، ويقف الرجال أولاً ؛ ثم الأطفال ؛ ثم النساء ؛ ومن الرجال مَنْ يتقدّم الصفوف كَيْلا تقع عيونه على امرأة ؛ ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف في الصفوف الأخيرة ليرى النساء ؛ فأوضح الحق

سبحانه أن مثل هذه الأمور لا تفوت عليه ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

أو : أن يكون المعنى هو المُستقدمين إلى الجهاد في سبيل الله أو المتأخرين عن الجهاد في سبيله . ومَنْ يموت حَتْف أنفه أي : على فراشه لا دَخْلَ له بهذه المسألة .

أما إنْ دعا داعي الجهاد ، ويُقدِّم نفسه للحرب ويُقاتل وينال الشهادة ، فالحق سبحانه وتعالى يعلم مَنْ تقدّم إلى لقائه محبةً وجهاداً لِرفعة شأن الدين .

وقد يكون في ظاهر الأمر وفي عيون غيره مِمَّنْ يكرهون الحياة ؛ ولكنه في حقيقة الأمر مُحِبّ للحياة بأكثر مِمَّنْ يدّعون حُبّها ؛ لأنه امتلك اليقين الإيماني بأن خالقَ الدنيا يستحق أن ينالَ الجهاد في سبيل القِيم التي أرادها منهاجاً ينعدل به ميزان الكون ؛ وإن استشهد فقد وعده سبحانه الخُلْد في الجنة ونعيمها .

" ونجد أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادْعُ لي يا رسول الله أن أستشهد ؛ فيردّ عليه النبي الكريم : " متعنا بنفسك يا أبا بكر " .

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلّ لَوْم ؛ لأن الإيمان يحتاج لِمَنْ يصونه ويُثبّته ؛ كما يحتاج إلى مَنْ يؤكد أن الإيمان بالله أعزُّ من الحياة نفسها ؛ وهو المُتقدّم للقتال ، وينال الشهادةَ في سبيل الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ . . . ﴾

أي : أن المُتولّي تربيتك يا محمد لن يترك مَنْ خاصموك وعاندوك ، وأهانوك وآذوْكَ دون

عقاب .

وكلمة : ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ [ الحجر : 25 ]

(225/424)

---

تكفي كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، فهم قد أنكروا البعث ؛ ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكِر الموت ، وإذا كان الحق سبحانه قد سبق وعبّر عن البعث بقوله الحق : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة تُبْعَثُونَ ﴾ [ المؤمنون : 15-16 ]

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لِمَا بعد الموت ، وكأنهم يشكُّون في أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتميّ ، وسبقته ( هو ) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذي يشكُّون فيه ؛ وهو أمر سبق وأنْ ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل : ﴿ يَحْشُرُهُمْ . . . ﴾ [ الحجر : 25 ]

وسبحانه يُجرِي الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة عِلْماً يحيط بكل الزوايا والجهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) ﴾

أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في سننه من طريق أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه ، فأنزل الله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، عن أبي الوزاء في قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ قال : في الصفوف في الصلاة . قال الترمذي : هذا أشبه أن يكون أصح .

وأخرج ابن مردويه والحاكم عن ابن عباس في الآية قال ﴿ المستقدمين ﴾ الصفوف المتقدمة ﴿ والمستأخرين ﴾ الصفوف المؤخرة.

وأخرج ابن جرير عن مروان بن الحكم قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم. . . ﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح قال: قال سهل بن حنيف الأنصاري: أتدرون فيم أنزلت ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾؟ قلت: في سبيل الله. قال: لا، ولكنها في صفوف الصلاة.

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خير صفوف الرجال أوّلها، وشر صفوف الرجال آخرها. وخير صفوف النساء آخرها، وشر صفوف النساء أوّلها ".



---

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجة وأبو يعلى، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " خير صفوف الرجال مقدمها، وشرها مؤخرها. وخير صفوف النساء آخرها وشرها مقدمها ".

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خير صفوف الرجال المقدم، وشرها المؤخر. وخير صفوف النساء المؤخر، وشرها المقدم ".

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الصف الأول لعلى مثل صف الملائكة، ولو تعلمون لأبتدرتموه ".

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داود وابن ماجة وابن خزيمة والحاكم، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول " وفي لفظ " على الصفوف الأول ". وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد رضي الله عنه قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف المقدم رقة فقال:

" إن الله وملائكته يصلون على الصفوف الأول " فازدحم الناس عليه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه قال: كان يقال: إن الله وملائكته يصلون على الذين في الصفوف المتقدمة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عامر بن مسعود القرشي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو يعلم الناس ما في الصف الأول، ما صفوا فيه إلا بقرعة ".

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجة، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على الصف المقدم ثلاثاً ، وعلى الثاني واحدة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم . . . ﴾ الآية . قال : في صفوف الصلاة والقتال .

(228/424)

---

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق معتمر بن سليمان ، عن شعيب بن عبد الملك ، عن مقاتل بن سليمان رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم . . . ﴾ الآية . قال : بلغنا أنه في القتال . قال معتمر : فحدثت أبي فقال : لقد نزلت هذه الآية قبل أن يفرض القتال .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ قال : المتقدمون في طاعة الله ، والمستأخرون في معصية الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه في الآية قال : المتقدمين في الخير من الأمم . والمستأخرين ، المبطئين فيه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ قال: يعني بالمستقدمين، من مات. وبالمستأخرين، من هو حي لم يمت.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: ﴿ المستقدمين ﴾ آدم عليه السلام ومن مضى من ذريته. و ﴿ المستأخرين ﴾ من في أصلاب الرجال.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال: ﴿ المستقدمين ﴾ آدم ومن معه. حين نزلت هذه الآية و ﴿ المستأخرين ﴾ من كان ذرية الخلق بعد وهو مخلوق كل أولئك قد علمهم عز وجل.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عون بن عبد الله رضي الله عنه، أنه سأل محمد بن كعب رضي الله عنه عن هذه الآية: أهي في صفوف الصلاة؟ قال: لا ﴿ المستقدمين ﴾ الميت والمقتول و ﴿ المستأخرين ﴾ من يلحق بهم من بعد.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر، عن عكرمة رضي الله عنه ومجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ قالا: من مات ومن بقي.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : قدّم خلقاً وأخر خلقاً ، فعلم ما قدم وعلم ما أخر .

(229/424)

---

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : المستقدمون ، ما مضى من الأمم . والمستأخرون ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ قال : الأوّل والآخر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ قال : يحشر المستقدمين والمستأخرين .

وأخرج ابن جرير عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ قال : يجمعهم يوم القيامة جميعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(230/424)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنَحْنُ ﴾ " نحن " يجوز أن يكونَ مبتدأً ، و " نُحْيِيْ " خبرُه ، والجملةُ خبرُ " إنَّا " . ويجوز أن يكونَ تأكيداً ل " ن " في " إنَّا " ، ولا يجوز أن يكونَ فَصْلاً لأنه لم يَقَعْ بين اسمين ، وقد تقدَّم نظيرُه . وقال أبو البقاء : " لا يكون فَصْلاً لوجهين ، أحدهما : أنَّ بعده فعلاً ، والثاني : أنَّ معه اللامَ . قلت : الوجهُ الثاني غَلَطَ فإنَّ/ لامَ التوكيد لا يمتنع دخولُها على الفَصلِ ، نصَّ النحاةُ على ذلك ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ القصص ﴾ [ آل عمران : 62 ] جوَّزوا فيه الفصلَ مع اقترانِه باللامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 155.154 ﴾

(231/424)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (23) ﴾

نحيي قلوبهم بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.

ويقال نحييهم بأن نفْنِيَهمْ بالمشاهدة، ونميتَهم بأَنْ نأخذَهم عن شواهدهم.

ويقال يحيي المريدين بذكره، ويميت الغافلين بهجره.

ويقال يحيي قوماً بموافقة الأمر في الطاعات، ويميت قوماً بمتابعة الشهوات.

ويقال يحيي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قوماً بأن يحجبهم عن أفضاله.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) ﴾

العارفون مستقدمون بِهِمَمَهم، والعابدون مستقدمون بقَدَمهم، والتائبون بندمهم وأقوام مستأخِرون بقدمهم وهم العُصاة، وآخرون مستأخرون بهمومهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الخيرات، والمستأخرون المتكاسلون عن الخيرات.

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقِ - من غير تَعريجٍ - إلى تفكر، والمستأخِرون الذين يرجعون إلى الرُّخصِ والتأويلات.

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق، والمستأخرون الذين تثبطهم مشقة الخذلان.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25) ﴾

يبعث كلاًّ على الوصل الذي خرجوا من الدنيا عليه : فمن منفرد القلب بربه ، ومن مُتَطَوِّحٍ في أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 268 . 269 ﴾



---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/425)

---

الجزء الخامس والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 26 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من نفس السورة

(4/425)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35)
﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما جرت سنته الإلهية أنه يذكر ابتداء الخلق دليلاً على الإعادة سابقاً ولاحقاً ، وابتدأ هنا بذكر الحشر لما قام عليه من الدليل بإحياء الأرض ، توقع السامع تفصيل ابتداء الخلق الذي هو أدل دليل على البعث بعد إجماله في قوله ﴿ وإنا لنحن نحيي ﴾ فقال مفتتحاً بحرف التوقع : ﴿ ولقد خلقنا ﴾ أي بالعظمة الباهرة ﴿ الإنسان ﴾ أي الآنس بنفسه ، الناسي لغيره ﴿ من صلصال ﴾ أي طين يابس ، له عند النقر صلصلة أي صوت شديد متردد في الهواء ، فإن كان فيه مد من غير ترجيع فهو صلل ، فالمراد شديد يبسه ولكنه غير مطبوخ ، وأما المطبوخ فهو فخار : ثم بين أصل الصلصال فقال : ﴿ من حمإٍ ﴾ أي طين أسود منتن ﴿ مسنون ﴾ أي مصبوب مهيأ لعمل ما يراد منه بالدلك والتحسين من الذهاب والاضطراب والجعل على طبع وطريقة مستوية ، وكل ذلك على غاية السهولة والطواعية والهوان ، فذكر أصل الإنسان وما وقع له من إبليس – الذي هو أصل الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر – من الكيد حتى أخرجه من دار الصفاء إلى دار الكدر ، ليحذره العقلاء من بني آدم ، وفي التنبيه بابتداء الخلق على وصول البشر إلى أصل كان بمحض

القدرة مخالف لهم في التكوين بين أبوين ، وانتهاء الجن إلى أصل ليس خلقه كخلقهم تنبيه عظيم على انتهاء الموجودات إلى موجود لا يجانسهم ، بل هو خالق غير مخلوق ، فاعل بالاختيار ، واحد لا شريك له ، ولا اعتراض عليه ، قادر على ما يريد سبحانه ، وفي خلقه من الماء – الذي هو كالأب – والطين – الذي هو كالأم – بمساعدة النار والهواء من الحكمة أن يكون ملائماً لما في هذا العالم ، فيكون بقاءه بذلك الذي خلق منه في مأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره ، وذلك أدل على حكمة الخالق وعلمه ووحدانيته .

(5/425)

---

ومادة " صل " تدور على الصلصال الذي هو الطين مطلقاً ، أو الطين الحر يخلط بالرمل ، أو الطين ما لم يجعل خزفاً ، ويتفرع جميع معاني المادة منه ، لأن من لوازمه في أوله الماء واللين بنداوته وسهولة خلطه لغيره ، فيأتي الخفاء لأنه يغرز فيه بغير صوت ، ومنها قبول التصفية من الغش ، ومنها في آخره الصلابة لشدة اليبس ، فيلزم تضامّ الأجزاء وتضايقها على انتظام أو غير انتظام ، والصوت ، وشدة الانفصال بالتشقق ، ومن لوازمه التغير بالنتن ، فيأتي الخبث والفساد ، ومن لوازمه شدة الاختلاط بحيث إذا نشب فيه شيء عسر خلاصه ، ومن لوازمه تميزه عما عداه ، ومحل يصنع فيه .

فمن الصوت واليبس : صليل الحديد والإبل ونحو ذلك ، يقال : صل الحديد واللجام : امتد

صوته ، فإن توهم ترجيع الصوت قيل : صلصل ، وصل البيض : سمع له طنين عند القراع ،

والمسمار صليلاً : ضرب فأكره أن يدخل في الشيء ، والإبل صليلاً : يبست أمعاؤها من

العطش فسمع لها صوت عند الشرب .

ومن الصوت : صلصل : أوعد وتهدد ، وقتل سيد العسكر - لظهور الصيت بذلك ،

وصلصل الرعد : صفا صوته ، والكلمة : أخرجها متحذلقاً ، وطائر أو الفاختة ،

والراعي الحاذق ، والمصلل - كمحدث : السيد الكريم الحسيب ، والخالص النسب ،

والأسكف وهو الإسكاف عند العامة ، وتصلصل الغدير : جفت حمأته ، فتهيأ لأن

يصوت بيبسه ، والحلي : صوت ، وحمار صُلصُل وصُلاصل - بضمهما ، وصلصال

ومُصلصِل : مصوت .

ومن النتن : صلول اللحم والماء ، يقال : صل اللحم صلولاً : أنتن ، والماء : أجن ، والصليان

- بكسرتين مشددة اللام : ما تغير من اللحم ، والصلة - بالضم : الريح المنتنة .

ومن اليبس : الصلة ، وهي الجلد اليابس قبل الدباغ ، والنعل ، والأرض ، أو اليابسة -

وصل السقاء صليلاً : يبس .

أو أرض لم تمطر بين ممطورتين ، والصل - بالكسر : القرن ، وشجر ، والسيف القاطع .

ومن النداوة : الصلة ، وهي التراب الندي ؛ ومن الماء أعم من أن يكون كثيراً أو قليلاً : الصلة للمطرة الواسعة والمتفرقة القليلة ، والصلة – بالضم : بقية الماء وغيره ، وكذا الصلصلة والصلصل – بضمهما : بقية الماء في الغدير ، وكذا من الدهن والزيت ، وأما التفرق فمن التشقق ، والصلة : القطعة من العشب ، سميت باسم المطر تسمية للمسبب باسم السبب .

ومن اللين : الصلالة – بالكسر – لبطانة الخف أو ساقها ، والصلصل – كهدهد : ناصية الفرس ويفتح ، أو بياض في شعر معرفته ، وما ابيض من شعر ظهره ، وهذا من التمييز أيضاً ؛ ومن المحل : القدح أو الصغير منه ، والمصلة – بالكسر : الإناء يصفى فيه الشراب ؛ ومن الخبث : الصل – بالكسر للحية مطلقاً ، أو الدقيقة الصفراء ، والداهية ، والتسيف القاطع – شبه بذلك لإهلاكه ، وإنه لصل أصلال : داهٍ منكر في الخصومة وغيرها ، وصلتهم الصالة : أصابتهم الداهية ، وهذا أيضاً من شدة الانتشاب ، ومن التشقق : الصال وهو الماء يقع على الأرض فتشقق .

ومن التصفية : صللنا الحب المختلط بالتراب : صببنا فيه ماء فعزلنا كلاً على حياله ، وصل الشراب صلاً صفاه ، والمصلة – بالكسر : الإناء يصفي فيه .

ومن تضام الأجزاء وتضايقها ، وقد يكون مع الانتظام ومنه : تلصيص البنيان ، أي

ترصيصه ، وقد لا يشترط فيه الانتظام ومنه : التص بمعنى التزق ، واللص وهو تقارب المنكبين ، وتقارب الأضراس ، وتضام مرفقي الفرس إلى زوره ، واللصاء من الجباه : الضيقة ، والمرأة الملتزقة الفخدين لا فرجة بينهما ، والزنجي : ألص الأليتين ، وإغلاق الباب ؛ ومن إطلاقه على ما ليس منتظماً وإن لم يكن تقارب : اللصاء من الغنم ، وهي ما أقبل أحد قرينها وأدبر الآخر ، ومن الخفاء الذي هو من لوازم الطين وهو ندي : اللص – بالفتح ، وهو فعل الشيء في ستر ، والسارق ، ويثلث .

(7/425)

---

ومادة " سن " تدور على الدلك ، ويلزمه التحسين ، فمن الدلك : السن – بالكسر ، وهو الضرس والحبة من الثوم – تشبه به ، والثور الوحشي ، وسنان الرمح ، ومكان البري من القلم ، والأكل الشديد ، والقرن ، وشعبة المنجل ، ومقدار العمر – لأنه لما مر على صاحبه كان كأنه دلكه ، والمسانّ من الإبل : الكبار ، وسن السكين وغيره فهو مسنون ، والمسن – بالكسر : آلة السن ، وسنن رمحه إليه : سدده ، وسن الأضراس : سوكها ، والإبل : ساقها سريعاً – لتدالكها عند الازدحام ، وسن الأمر : بينه – فكأنه هيأه لأن يركب فيدلك بالأفكار أو غيرها ، وسن الطين : عمله فخاراً ، وفلاناً : طعنه بالسنان أو

عضه بالأسنان، والفحل الناقة: كبها على وجهها، وعليه الدرع أو الماء: صبه، والطريقة: سارها، واستن: استاك.

(8/425)

---

والفرسُ: قمص، والسراب: اضطرب، والسنة - بالكسر: الفأس لها خلفان، والسنة - بالضم: السيرة أو الطبيعة - كأنها عولجت حتى انقادت، والسنة من الله: حكمه وأمره ونهيه، وسنن الطريق - مثلثة وبضمتين: نهجه وجهته، وجاءت الريح سناسن: على طريقة واحدة، والحمأ المسنون: المنتن - لأنه تهيأ لأن يدلك بالآية جبلاً حتى يصلح لما يستعمل فيه، والفحل يسانّ الناقة: يكدمها ويطردها حتى ينوخها ليسفدها، والسنين - كأمير: ما يسقط من الحجر إذا حككته، والأرض التي أكل نباتها كالمسنونة، والسنسن - بالكسر: العطش - كأنه سن الأمعاء حتى أحرقها، ورأس المحالة، أي البكرة العظيمة، وحرف فقار الظهر كالسن والسنسنة، ورأس عظام الصدر، أو طرف الضلع التي في الصدر، والمستسن: الطريق المسلوك، والمستن: الأسد، والسنن - محركة: الإبل تستن في عدوها، والسنينة - كسفينة: الرمل المرتفع المستطيل على وجه الأرض، وهو من المسنون بمعنى المصبوب: وسنني هذا الشيء: شهى إليّ الطعام - كأنه سن المعدة حتى

قطعت بعد كلالها ، وتسانت الفحول : تكادمت ، والنّس : سرعة الذهاب ، ويلزمه تدالك الأعضاء ، ونسيس الإنسان : مجهوده – لأن ذلك لا يكون إلا بعد أشد الاضطراب ، والنسيسة : الحشاشة ، وهي بقية الروح من المريض والجريح – كأنها صدمت حتى ذهب أكثرها ، ونس اللحم : ذهب بلله من شدة الطبخ – لأن إحراق النار أعظم دلكٍ ، وكذا نس الحطب – إذا أخرجت النار زبده على رأسه – لقيام الإحراق مقام الرضخ فيما يستخرج دهنه ، ونس من العطش : جف ، من ذلك ؛ ومن التحسين : سنن المنطق – إذا حسنه ، وسن الأمر : بينه ، والطين : عمله فخاراً ، والمال : أرسله في الرعي أو أحسن القيام عليه حتى كأنه صقله ، والشيء : صوره ، والسنة – بالضم : الوجه ، أو حُرُّه ، أو دائرته ، أو الصورة أو الجبهة ، ورجل مسنون الوجه : مملسه حسنه سَهْلُه ، أو في وجهه وأنفه طول ، وكل ذلك يرجع

(9/425)

---

إلى الدلك أيضاً – والله أعلم .

وقال أبو حيان : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : المسنون : الرطب ، ومعناه المصبوب ، لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رطب ؛ وقال الرازي في اللوامع : وهذا إشارة إلى درجات

خلق آدم عليه السلام ومراتبه ، وأشار الله تعالى إلى ذلك في مواضع مختلفة حسبما اقتضته الحكمة فقال في موضع ﴿ خلقه من تراب ﴾ [ آل عمران : 59 ] إشارة إلى المبدإ الأول ، وفي آخر ﴿ من طين ﴾ إشارة إلى الجمع بين الماء والتراب ، وفي آخر ﴿ من حمإٍ مسنون ﴾ إشارة إلى الطين المتغير المستقر على حالة من الاعتدال تصلح لقبول الصورة ، وفي آخر ﴿ من صلصال ﴾ إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه ، وفي آخر ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ [ الرحمن : 14 ] وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالخذف ، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة - انتهى .

وقال الرماني : وقد تضمنت الآيات البيان عمّا يوجبه تقليب الحيوان من حال إلى حال من جاعل قادر قلّبه من أصل هو أبعد شيء من حال الحيوان إلى الحيوان ، وقال : إن الحكمة في جعله من الحمأة العبرة في أنه قلب من تلك الحال الحقيرة في الصفة إلى هذه الحال الجليلة .

ولما ذكر سبحانه خلق الإنسان ، أتبعه ذكر ما خلقه قبله من الجنان فقال : ﴿ والجان ﴾ أي الذي هو للجن كآدم عليه السلام للناس : وقيل : هو إبليس ﴿ خلقناه ﴾ وعبر عن تقليل زمان سبق خلقه وتقريبه بإثبات الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل خلق الإنسان ﴿ من نار السموم ﴾ أي الحر الشديد ، قيل : هي نار لا دخان لها ، يكون منها الصواعق ، وهي بين السماء وبين الحجاب ، فإذا أراد الله تعالى خرقت الحجاب ، فهدت إلى ما أمرت به ، فالهداة التي يسمعها الناس هي خرق ذلك الحجاب ؛ وقال الرازي في اللوامع : نار لطيفة

تناهت في الغليان في أفق الهواء ، وهي بالإضافة إلى النار التي جعلها الله تعالى متاعاً كالجمد إلى الماء والحجر إلى التراب - انتهى .

(10/425)

---

وقال عبد الله : هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق الله منها الجان ، وهي مأخوذة من دخولها بلطفها في مسام البدن ، ومنه السم القاتل - انتهى .

ولما كانت نعمة الإيجاد كافية في إخلاص العبادة للموجد ، ثم لم يعتبرها أهل الضلال ، أشار تعالى إلى نعمة هي أكبر منها ، وهي التفضيل على جميع المخلوقات على وجه مبين لسبب الضلال ، فقال عاطفاً على ما تقديره : اذكر هذا فإنه كافٍ في المراد لكل ذي لب :

﴿ وإذ ﴾ أي واذكر قول ربك إذ ﴿ قال ربك ﴾ أي المحسن إليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك ﴿ للملائكة ﴾ ولما كان مما يتوقف فيه ، أكده فقال : ﴿ إني خالق بشراً ﴾ أي حيواناً غير مُلبَس البشرة بما جعله عليه من الطبيعة على الصورة الإنسانية ﴿ من صلصال ﴾ أي طين شديد اليبس ﴿ من حمإ ﴾ أي طين أسود منتن ﴿ مسنون ﴾ أي مصور بصورة الآدمي في تجويفه وأعضائه كأنه مصبوب في قالب ؛ قال الرماني : وأصله الاستمرار في جهة من قولهم : على سَنن واحد ﴿ فإذا سويته ﴾ أي عدلته وأتممته

وهيأته لنفخ الروح تهيئة قريبة من الفعل ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ أي خلقت الحياة فيه كما تعلق النار بالفتيلة بالنفخ ، وهو تمثيل ، وأضاف الروح إليه تشريفاً ، وهو ما يصير به الجسم حياً ، وأشرف منه ما يصير به الروح عالماً ، وأشرف منه ما يصير به العالم عاملاً خاشعاً ﴿ فقعوا له ﴾ أي تعظيماً ، حال كونكم ﴿ ساجدين ﴾ أي اسجدوا له سجود من كان في مبادرته به وسهولة انقياده كأنه وقع من غير اختياره ﴿ فسجد الملائكة ﴾ أي بسبب هذا الأمر من غير توقف لما جاء الوقت الذي أمرتهم فيه لذلك البشر ، وهو أبوكم آدم عليه السلام وأنتم في صلبه ﴿ كلهم أجمعون ﴾ .

ولما أبلغ في تأكيد ما أفهمه الجمع ، استثنى فقال : ﴿ إلا إبليس ﴾ قيل : هو من قوم من الملائكة ، وقيل : بل - لكونه كان واحداً بينهم منضافاً إليهم عاملاً بأعمالهم - كان معموراً فيهم ، فكان كأنه منهم ، فصح استثناءه لذلك ، فكأنه قيل : ما فعل .



---

فقيل استعظاماً لمخالفته : ﴿ أبى أن يكون ﴾ أي لشكاسة في جبلته ﴿ من الساجدين ﴾ أو إنه لم يقل : فأبى - بالعطف ، لأن الاستثناء منقطع ، فإن إبليس من نار والملائكة من نور ، وهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون بخلافه ، فكأنه قيل : فما فعل به

الملك ؟ فقيل : لم يعاجله بالعقوبة ، بل أخره إلى أجله المحكوم به في الأزل كما أنه لم يعاجلكم لذلك ، فكأنه قيل : فما قال له ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ له ليقيم الحجة عليه عند الخلائق ظاهراً كما قدمت عليه الحجة في العلم باطناً : ﴿ يا إبليس ﴾ اختار هذا الاسم هنا لأن الإبلاس معناه اليأس من كل خير ، والسكون والانكسار ، والحزن والتحير ، وانقطاع الحجة والندم ﴿ مالك ﴾ أي شيء لك من الأعذار في ﴿ ألا تكون ﴾ أي بقلبك وقالبك ﴿ مع الساجدين ﴾ لمن أمرتك بالسجود له وأنت تعلم مما أنا عليه من العظمة والجلال ما لا يعلمه كثير من الخلق ﴿ قال لم أكن ﴾ وأكد إظهاراً للإصرار والإضرار بالكبر فقال : ﴿ لأسجد لبشر ﴾ أي ظاهر البدن ، لا قدرة له على التشكل والتطور ﴿ خلقته من صلصال ﴾ أي طين يابس لا منعة فيه ، بل إذا نقر أجاب بالتصويت ﴿ من حمإ ﴾ أي طين متغير أسود كدر ﴿ مسنون ﴾ أي مصور بصورة الفخار متهيىء للدلك ، لا يرد يد لامس ، وأنا خير منه لأنك خلقتني من نار نافعة بالإشراق ، ممتنعة ممن يريدها بالإحراق ، فخضوعي له منافٍ لحالي وممتنع مني ، وإلزامي به جور ، فكأنه قيل : فماذا أجيب ؟ فقيل : ﴿ قال فاخرج ﴾ أي تسبب عن كبرك أني أقول لك : اخرج ﴿ منها ﴾ أي من دار القدس ، قيل : السماء ، وقيل : الجنة ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي مطرود إذ الرجم لا يكون إلا لمن هو بعيد يراد الزيادة في إبعاده بل إهلاكه ، وعلة الإخراج أنها دار لا يقيم بها متكبر عاصٍ بمخالفة أمري ، فإن لي الحاكم النافذ والعظمة التامة المقتضية لوجوب الطاعة ، لا

ينبغي لمن أمرته بما مر أن يتخلف عن أمري فضلاً عن أن يضرب لي الأمثال ، ويواجهني بالجدال ، طاعناً فيما لي من الجلال والجمال ؛

(12/425)

---

ثم أكد بُعده بالإخبار باستمراره فقال : ﴿ وإن عليك ﴾ أي خاصة ﴿ اللعنة ﴾ أي الكاملة للقضاء بالمباشرة لأسباب البعد ﴿ إلى يوم الدين ﴾ أي إلى يوم انقطاع التكليف وطلوع صبح الجزاء بفناء الخلق أجمعين وفوات الأمد التي تصح فيه التوبة التي سبب القرب ، فذلك إيذان بدوام الطرد ، وتوالي البعد والمقت ، فلا يتمكن في هذا الأمد من عمل يكون سبباً للقرب من حضرة الأنس ، وجناب القدس ، ومن منع من التوبة عن الكفر في وقتها يعلم قطعاً أنه لا يغفر له ، فهو معذب أبداً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 222.216 ﴾

(13/425)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا هو النوع السابع من دلائل التوحيد فإنه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة أردفه بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب .

المسألة الثانية :

ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع القول بوجود حوادث لا أول لها ، وإذا ثبت هذا ظهر وجوب انتهاء الحوادث إلى حادث أول هو أول الحوادث ، وإذا كان كذلك فلا بد من انتهاء الناس إلى إنسان هو أول الناس ، وإذا كان كذلك فذلك الإنسان الأول غير مخلوق مع الأبوين فيكون مخلوقاً لا محالة بقدرة الله تعالى .

فقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ إشارة إلى ذلك الإنسان الأول ، والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم عليه السلام ، ونقل في "كتب الشيعة" عن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر وأقول : هذا لا يقدح

في حدوث العالم بل لأمر كيف كان ، فلا بد من الانتهاء إلى إنسان أول هو أول الناس وأما أن ذلك الإنسان هو أبونا آدم ، فلا طريق إلى إثباته إلا من جهة السمع .

(14/425)

---

واعلم أن الجسم محدث ، فوجب القطع بأن آدم عليه السلام وغيره من الأجسام يكون مخلوقاً عن عدم محض ، وأيضاً دل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ [ آل عمران : 59 ] على أن آدم مخلوق من تراب ، ودلت آية أخرى على أنه مخلوق من الطين ، وهي قوله : ﴿ إِنّي خالق بَشَراً مّن طِينٍ ﴾ [ ص : 71 ] وجاء في هذه الآية أن آدم عليه السلام مخلوق من صلصال من حمأ مسنون ، والأقرب أنه تعالى خلقه أولاً من تراب ثم من طين ثم من حمأ مسنون ثم من صلصال كالفخار ، ولا شك أنه تعالى قادر على خلقه من أي جنس من الأجسام كان ، بل هو قادر على خلقه ابتداء ، وإنما خلقه على هذا الوجه إما لمحض المشيئة أو لما فيه من دلالة الملائكة ومصلحتهم ومصلحة الجن ، لأن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه .

المسألة الثالثة :

في الصلصال قولان : قيل الصلصال الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ ، وإذا

طبخ فهو فخار .

قالوا : إذا توهمت في صوته مداً فهو صليل ، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة .

قال المفسرون : خلق الله تعالى آدم عليه السلام من طين فصوره وتركه في الشمس أربعين سنة ، فصار صلصالاً كالخزف ولا يدري أحد ما يراد به ، ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح .

وحقيقة الكلام أنه تعالى خلق آدم من طين على صورة الإنسان فجف فكانت الريح إذا مرت به سمع له صلصلة فلذلك سماه الله تعالى صلصالاً .



---

والقول الثاني : الصلصال هو المنتن من قولهم صل اللحم وأصل إذا نتن وتغير ، وهذا القول عندي ضعيف ، لأنه تعالى قال : ﴿ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وكونه حمأ مسنوناً يدل على النتن والتغير وظاهر الآية يدل على أن هذا الصلصال إنما تولد من الحمأ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالاً مغايراً لكونه حمأ مسنوناً ، ولو كان كونه صلصالاً عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالاً ، وبين كونه حمأ مسنوناً تفاوت ، وأما الحمأ فقال الليث الحمأة بوزن فعلة ، والجمع الحمأ وهو الطين الأسود المنتن .

وقال أبو عبيدة والأكثرون حماة بوزن كمأة وقوله : ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ فيه أقوال : الأول : قال ابن السكيت سمعت أبا عمرو يقول في قوله : ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي متغير قال أبو الهيثم يقال سن الماء ، فهو مسنون أي تغير .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [ البقرة : 259 ] أي لم يتغير .

الثاني : المسنون المحكوك وهو مأخوذ من سننت الحجر إذا حككته عليه ، والذي يخرج من بينهما يقال له السنن وسمي المسن مسناً لأن الحديد يسن عليه .

والثالث : قال الزجاج : هذا اللفظ مأخوذ من أنه موضوع على سنن الطريق لأنه متى كان كذلك فقد تغير .

الرابع : قال أبو عبيدة : المسنون المصبوب ، والسن والصب يقال سن الماء على وجهه سناً .

الخامس : قال سيبويه : المسنون المصور على صورة ومثال ، من سنة الوجه وهي صورته ، السادس : روي عن ابن عباس أنه قال : المسنون الطين الرطب ، وهذا يعود إلى قول أبي عبيدة ، لأنه إذا كان رطباً يسيل وينبسط على الأرض ، فيكون مسنوناً بمعنى أنه مصبوب .

أما قوله تعالى : ﴿ والجآن خلقناه ﴾ فاختلفوا في أن الجان من هو ؟ فقال عطاء عن ابن

عباس : يريد إبليس وهو قول الحسن ومقاتل وقتادة .

وقال ابن عباس في رواية أخرى : الجان هو أب الجن وهو قول الأكثرين .

(16/425)

---

وسمي جاناً لتواريه عن الأعين ، كما سمي الجنين جنيناً لهذا السبب ، والجنين متوارٍ في بطن أمه ، ومعنى الجان في اللغة الساتر من قولك : جن الشيء إذا ستره ، فالجان المذكور ههنا يحتمل أنه سمي جاناً لأنه يستر نفسه عن أعين بني آدم ، أو يكون من باب الفاعل الذي يراد به المفعول كما يقال في لابن وتامر وماء دافق وعيشة راضية .

واختلفوا في الجن فقال بعضهم : إنهم جنس غير الشياطين والأصح أن الشياطين قسم من الجن ، فكل من كان منهم مؤمناً فإنه لا يسمى بالشيطان ، وكل من كان منهم كافراً يسمى بهذا الاسم ، والدليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، فكل من كان كذلك كان من الجن ، وقوله تعالى : ﴿ خلقناه مِن قَبْلُ ﴾ قال ابن عباس : يريد من قبل خلق آدم ، وقوله : ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ معنى السموم في اللغة : الريح الحارة تكون بالنهار وقد تكون بالليل ، وعلى هذا فالريح الحارة فيها نار ولها لفح وأوار ، على ما ورد في الخبر أنها لفح جهنم .

قيل : سميت سموماً لأنها بلطفها تدخل في مسام البدن ، وهي الخروق الخفية التي تكون في جلد الإنسان يبرز منها عرقه وبخار باطنه .

قال ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزأ من السموم التي خلق الله بها الجان وتلا هذه الآية .

فإن قيل : كيف يعقل خلق الجان من النار ؟

قلنا : هذا على مذهبنا ظاهر ، لأن البنية عندنا ليست شرطاً لإمكان حصول الحياة ، فالله تعالى قادر على خلق الحياة والعلم في الجوهر الفرد ، فكذلك يكون قادراً على خلق الحياة والعقل في الجسم الحار ، واستدل بعضهم على أن الكواكب يمتنع حصول الحياة فيها قال : لأن الشمس في غاية الحرارة وما كان كذلك امتنع حصول الحياة فيه فننقضه عليه بقوله تعالى : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ بل المعتمد في نفي الحياة عن الكواكب الإجماع .

(17/425)

---

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حدوث الإنسان الأول واستدل بذكره على وجود الإله القادر

المختار ذكر بعده واقعته وهو أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلا إبليس فإنه أبى وتمرد ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ما تفسير كونه بشراً .

فالمراد منه كونه جسماً كثيفاً يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أجسام البشر ، والبشرة ظاهرة الجلد من كل حيوان وأما كونه صلصالاً من حمأ مسنون فقد تقدم ذكره .

وأما قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ ففيه قولان : الأول : فإذا سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية .

والثاني : فإذا سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [ الإنسان : 2 ] .

وأما قوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ففيه مباحث : الأول : أن النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر ، وظاهر هذا اللفظ يشعر بأن الروح هي الريح ، وإلا لما صح وصفها بالنفخ إلا أن البحث الكامل في حقيقة الروح سيجيء في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [ الإسراء : 85 ] وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفاً له وتكريماً .

وقوله : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فيه مباحث : أحدها : أن ذلك السجود كان لآدم في الحقيقة أو كان آدم كالقبلة لذلك السجود ، وهذا البحث قد تقدم ذكره في سورة البقرة .

(18/425)

---

وثانيها : أن المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام كل ملائكة السموات أو بعضهم أو ملائكة الأرض ، من الناس من لا يجوز أن يقال : إن أكابر الملائكة كانوا مأمورين بالسجود لآدم عليه السلام ، والدليل عليه قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة الملائكة : ﴿ إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [ الأعراف : 206 ] فقوله : ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ يفيد الحصر ، وذلك يدل على أنهم لا يسجدون إلا لله تعالى وذلك ينافي كونهم ساجدين لآدم عليه السلام أو لأحد غير الله تعالى أقصى ما في الباب أن يقال : إن قوله تعالى : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ يفيد العموم ، إلا أن الخاص مقدم على العام .

(19/425)

---

وثالثها : أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى كما نفخ الروح في آدم عليه السلام وجب على الملائكة أن يسجدوا له ، لأن قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ ساجدين ﴾ مذكور بفاء التعقيب وذلك يمنع من التراخي وقوله : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ قال الخليل وسيبويه قوله : ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ توكيد بعد توكيد ، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم ، فلما قال : ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ، ثم بعد هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد منهم في وقت آخر فلما قال : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال : وقول الخليل وسيبويه أجود ، لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالاً وقوله : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ أجمعوا على أن إبليس كان مأموراً بالسجود لآدم ، واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا ؟ وقد سبقت هذه المسألة بالاستقصاء في سورة البقرة وقوله : ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ استئناف وتقديره أن قائلاً قال : هلا سجد فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه .

أما قوله : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ فاعلم أنهم أجمعوا على أن المراد من قوله : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ ﴾ أي قال الله تعالى له يا إبليس وهذا يقتضي أنه تعالى تكلم معه ، فعند هذا قال بعض المتكلمين : إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله ، إلا أن هذا ضعيف ، لأن إبليس قال في الجواب : ﴿ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال ﴾ فقوله : ﴿ خَلَقْتَهُ ﴾ خطاب الحضور لا خطاب الغيبة ، وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأن إبليس تكلم مع الله تعالى بغير واسطة ، وكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى بغير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب ، فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم ، ولعل الجواب عنه أن مكالمة الله تعالى إنما تكون منصباً عالياً إذا كان على سبيل الإكرام والإعظام ، فأما إذا كان على سبيل الإهانة والإذلال فلا ، وقوله : ﴿ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ فيه بحثان :

البحث الأول : اللام في قوله : ﴿ لِأَسْجُدَ ﴾ لتأكيد النفي ، ومعناه : لا يصح مني أن أسجد لبشر .

البحث الثاني : معنى هذا الكلام أن كونه بشراً يشعر بكونه جسماً كثيفاً وهو كان روحانياً لطيفاً ، فالتفرقة حاصلة بينهما في الحال من هذا الوجه .

كأنه يقول : البشر جسماني كثيف له بشرة ، وأنا روحاني لطيف ، والجسماني الكثيف أدون حالاً من الروحاني اللطيف ، والأدون كيف يكون مسجوداً للأعلى ، وأيضاً أن آدم مخلوق من صلصال تولد من حمأ مسنون ، فهذا الأصل في غاية الدناءة وأصل إبليس هو النار وهي أشرف العناصر ، فكان أصل إبليس أشرف من أصل آدم فوجب أن يكون إبليس أشرف من آدم ، والأشرف يقبح أن يؤمر بالسجود للأدون ، فالكلام الأول إشارة إلى الفرق الحاصل بسبب البشرية والروحانية ، وهو فرق حاصل في الحال والكلام الثاني إشارة إلى الفرق الحاصل بحسب العنصر والأصل ، فهذا مجموع شبهة إبليس وقوله تعالى : ﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ فهذا ليس جواباً عن تلك الشبهة على سبيل التصريح ، ولكنه جواب عنها على سبيل التنبيه .

وتقريره أن الذي قاله الله تعالى نص ، والذي قاله إبليس قياس ، ومن عارض النص بالقياس كان رجيماً ملعوناً .

وتمام الكلام في هذا المعنى ذكرناه مستقصى في سورة الأعراف ، وقوله : ﴿ فاخرج مِنْهَا ﴾ قيل المراد من جنة عدن ، وقيل من السموات ، وقيل من زمرة الملائكة ، وتمام هذا الكلام مع تفسير الرجيم قد سبق ذكره في سورة الأعراف وقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ﴾ قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم مثل قوله :

﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [ الفاتحة : 4 ] .

فإن قيل : كلمة ( إلى ) تفيد انتهاء الغاية فهذا يشعر بأن اللعن لا يحصل إلا إلى يوم القيامة ، وعند قيام القيامة يزول اللعن .

أجابوا عنه من وجوه : الأول : المراد منه التأبيد ، وذكر القيامة أبعد غاية يذكرها الناس في كلامهم كقولهم : ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ [ هود : 107 ] في التأبيد .

(22/425)

---

والثاني : أنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن يعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذب عذاباً ينسى اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب أن شدة العذاب تذهل عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 146.142 ﴾

(23/425)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حَمَإٍ مسنون ﴾

أما الإنسان ها هنا فهو آدم عليه السلام في قول أبي هريرة والضحاك .

أما الصلصال ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الطين اليابس الذي لم تصبه نار ، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة ، قاله ابن عباس وقتادة ، ومنه قول الشاعر :

وقاعٍ ترى الصَّلصال فيه ودونه . . . بقايا بلالٍ بالقرى والمناكبِ

والصلصة : الصوت الشديد المسموع من غير الحيوان ، وهو مثل القعقعة في الثوب .

الثاني : أنه طين خلط برمل ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه الطين المنتن ، قاله مجاهد ، مأخوذ من قولهم : صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ إذا أنتن ، قال الشاعر :

ذاك فتى يبذل ذا قدرِه . . . لا يفسد اللحم لديه الصلول

والحمأ : جمع حماة وهو الطين الأسود المتغير .

وفي المسنون سبعة أقاويل :

أحدها : أن المسنون المنتن المتغير ، من قولهم قد أسن الماء إذا تغير ، قاله ابن عباس ، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

سَقَتْ صداي رَضاباً غير ذي أَسَنٍ . . . كالمسك فُتَّ على ماءٍ العناقيد

الثاني : أن المسنون المنصوب القائم ، من قولهم وجه مسنون ، قاله الأخفش .

الثالث : أن المسنون المصبوب ، من قولهم سنيتُ الماء على الوجه إذا صببته عليه ، قاله أبو عمرو بن العلاء ، ومنه الأثر المروي عن عمر أنه كان يسن الماء على وجهه ولا يشنُّه ، والشن تفريق الماء ، والسن صبه .

الرابع : أن المسنون الذي يحك بعضه بعضاً ، من قولهم سننت الحجر على الحجر إذا حككت أحدهما بالآخر ، ومنه سمي المسَنّ لأن الحديد يسن عليه ، قاله الفراء .

الخامس : أن المسنون المنسوب .

السادس : أنه الرطب ، قاله ابن أبي طلحة .

السابع : أنه المخلص من قولهم سن سيفك أي اجلهُ .

قوله عز وجل : ﴿ والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ وفي الجان ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه إبليس ، قاله الحسن .

الثاني : أنهم الجن حكاه ابن شجرة .

الثالث : أنه أبو الجن قاله الكلبي فآدم أبو الإنس ، والجان : أبو الجن ، وإبليس أبو الشياطين .

قال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شياطين . والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر .

﴿ خلقناه من قبل ﴾ يعني من قبل آدم . قال قتادة : لأن آدم إنما خلق آخر الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ من نار السّموم ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يعني من لهب النار ، قاله ابن عباس .

الثاني : يعني من نار الشمس ، قاله عمرو بن دينار .

الثالث : من حر السموم ، والسموم : الريح الحارة . ذكره ابن عيسى .

الرابع : أنه نار السموم نار الصواعق بين السماء وبين حجاب دونها ، قاله الكلبي وسمي سموماً لدخوله في مسام البدن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(25/425)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ الآية ،

﴿ الإنسان ﴾ هنا للجنس ، والمراد آدم ، قال ابن عباس سمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي

، ودخل من بعده في ذلك إذ هو من نسله ، و" الصلصال " : الطين الذي إذا جف صلصل ، هذا قول فرقة ، منها من قال : هو طين الخزف ، ومنها قول الفراء : هو الطين الحر يخالطه رمل دقيق .

وقال ابن عباس : خلق من ثلاثة : من طين لازب وهو اللازق والجيد ، ومن ﴿ صلصال ﴾ وهو الأرض الطيبة يقع عليها الماء ثم ينحسر فتشقق وتصير مثل الخزف ، ومن ﴿ حمإ مسنون ﴾ وهو الطين في الحمأة .

قال القاضي أبو محمد : وكان الوجه أن يقال – على هذا المعنى – صلال ، ولكن ضوعف الفعل من فائه وأبدلت إحدى اللامين من صلاص صاداً . وهذا مذهب الكوفيين ، وقاله ابن جني والزبيدي ونحوهما على البصرة ، ومذهب جمهور البصريين : إنهما فعلان متباينان ، وكذلك قالوا في ثرة وثرثارة . قال بعضهم تقول : صل الخزف ونحوه : إذا صوت بتمديد : فإذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت : صلصل ، ومنه قول الكميت : [ البسيط ]

فينا العناجيج تردي في أعنتها . . . شعثاً تصلصل في أشداقها اللجم

وقال مجاهد وغيره : ﴿ صلصال ﴾ هنا إنما هو مأخوذ من صل اللحم وغيره : إذا انتن .

قال القاضي أبو محمد : فجعلوا معنى ﴿ صلصال ﴾ ومعنى ﴿ حمإ ﴾ في لزوم أنتن شيئاً واحداً .

قال القاضي أبو محمد : و" الحمأ " جمع حمأة وهو الطين الأسود المنتن يخالطه ماء . و"

المسنون " قال معمر : هو المنتن ، وهو من أسن الماء إذا تغير .

قال القاضي أبو محمد : والتصريف يرد هذا القول . وقال ابن عباس : " المسنون " : الرطب .

(26/425)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا تفسير لا يخص اللفظة . وقال الحسن ، المعنى : سن ذريته على خلقه . والذي يترتب في ﴿ مسنون ﴾ إما أن يكون بمعنى محكوك محكم العمل أملس السطح ، فيكون من معنى المسن والسنان ، وقولهم : سننت السكين وسننت الحجر : إذا أحكمت تمليسه ، ومن ذلك قول الشاعر : [ الخفيف ]

ثم دافعتها إلى القبة الخضرا . . . ء وتمشي في مرمر مسنون

أي محكم الإملاس بالسن ، وإما أن يكون بمعنى المصبوب ، تقول : سننت التراب والماء إذا صببته شيئاً بعد شيء ، ومنه قول عمرو بن العاص لمن حضر دفنه : إذا أدخلتموني في قبري فسنوا علي التراب سناً ، ومن هذا : هو سن الغارة . وقال الزجاج : هو مأخوذ من كونه على سنة الطريق ، لأنه إنما يتغير إذا فارق الماء ، فمعنى الآية - على هذا - من حمأ مصبوب موضوع بعضه فوق بعض على مثال وصورة .

﴿ الجان ﴾ يراد به جنس الشياطين، ويسمون: جنة وجاناً لاستتارهم عن العين.

وسئل وهب بن منبه عنهم فقال: هم أجناب، فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون، ومنهم أجناس تفعل هذا كله، منها السعالي والغول وأشباه ذلك.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: "والجأن" بالهمز.

قال القاضي أبو محمد: والمراد بهذه الحلقة إبليس أبو الجن، وفي الحديث: "أن الله تعالى خلق آدم من جميع أنواع التراب الطيب والخبيث والأسود والأحمر" وفي سورة البقرة إيعاب هذا وقوله ﴿ من قبل ﴾ لأن إبليس خلق قبل آدم بمدة، وخلق آدم آخر الخلق. و ﴿ السموم ﴾ -في كلام العرب- إفراط الحر حتى يقتل من نار أو شمس أو ريح. وقالت فرقة: السموم بالليل، والحرور بالنهار.

قال القاضي أبو محمد: وأما إضافة ﴿ نار ﴾ إلى ﴿ السموم ﴾ في هذه الآية فيحتمل أن تكون النار أنواعاً، ويكون ﴿ السموم ﴾ أمراً يختص بنوع منها فتصح الإضافة حينئذ؛ وإن لم يكن هذا فيخرج هذا على قولهم: مسجد الجامع، ودار الآخرة، على حذف مضاف.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) ﴾

﴿ إذ ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره : اذكر إذ قال ربك ، و" البشر " هنا آدم ، وهو مأخوذ من البشرة ، وهي وجه الجلد ، في الأشهر من القول . ومنه قول النبي عليه السلام : " وافقوا البشر " وقيل البشرة ما يلي اللحم ، ومنه قولهم في المثل : إنما يعاتب الأديم ذو البشرة لأن تلك الجهة هي التي تبشر .

وأخبر الله تعالى الملائكة بعجب عندهم ، وذلك أنهم كانوا مخلوقين من نور - فهي مخلوقات لطاف - فأخبرهم : أنه لا يخلق جسماً حياً ذا بشرة وأنه يخلقه ﴿ من صلصال ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : " والبشر " والبشارة أيضاً أصلهما البشرة لأنهما فيها يظهران .

و﴿ سويته ﴾ معناه : كملته وأتقنته حتى استوت أجزاؤه على ما يجب ، وقوله : ﴿ من روحي ﴾ إضافة خلق وملك إلى خالق مالك ، أي من الروح الذي هو لي ولفظة الروح هنا للجنس .

وقوله : ﴿ فقعوا ﴾ من وقع يقع ، وفتحت القاف لأجل حرف الحلق ، وهذه اللفظة تقوي أن سجود الملائكة إنما كان على المعهود عندنا ، لا أنه خضوع وتسليم ، وإشارة ، كما قال بعض الناس ، وشبهوه بقول الشاعر [ أبي الأخزر الحماني ] : [ الطويل ]

فكلتاهما خرّت وأسجد رأسها . . . كما سجدت نصرانة لم تحنف

وهذا البيت يشبه أن يكون السجود فيه كالمعهود عندنا .

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس : أنه قال : خلق الله ملائكة أمرهم بالسجود لآدم فأبوا ، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق آخرين فأمرهم بالسجود فأطاعوا إلا إبليس فإنه كان من الأولين .

قال القاضي أبو محمد : وقول ابن عباس – من الأولين – يحتمل أن يريد في حالهم وكفرهم ، ويحتمل أن يريد : في أنه بقي منهم .

(28/425)

---

وقوله : ﴿ كلهم أجمعون ﴾ هو – عند سيبويه – تأكيد بعد تأكيد ، يتضمن الآخر ما تضمن الأول . وقال غيره : ﴿ كلهم ﴾ لو وقف عليه – لصلحت للاستيفاء ، وصلحت على معنى المبالغة مع أن يكون البعض لم يسجد ، وهذا كما يقول القائل : كل الناس يعرف كذا ، وهو يريد أن المذكور أمر مشتهر ، فلما قال : ﴿ أجمعون ﴾ رفع الاحتمال في أن يبقى منهم أحد ، واقتضى الكلام أن جميعهم سجد . وقال ابن المبرد : لو وقف على ﴿ كلهم ﴾ لاحتمل أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة ، فلما قال : ﴿ أجمعون ﴾ دل على أنهم سجدوا في موطن واحد .

قال القاضي أبو محمد : واعترض قول المبرد بأنه جعل قوله : ﴿ أجمعون ﴾ حالاً . بمعنى مجتمعين ، يلزمه – على هذا – أن يكون أجمعين ، يقرب من التنكير إذ هو معرفة لكونه يلزم اتباع المعارف ، والقراءة بالرفع تأبى قوله .

وقوله : ﴿ إلا إبليس ﴾ قيل : إنه استثناء من الأول ، وقيل : إنه ليس من الأول . وهذا متركب على الخلاف في ﴿ إبليس ﴾ ، هل هو من الملائكة أم لا ؟ والظاهر – من كثير من الأحاديث ومن هذه الآية – أنه من الملائكة وذلك أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود ، ولو لم يكن إبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود .

وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن : أن إبليس إنما كان من قبيل الجن ولم يكن قط ملكاً ؛ ونسب ابن فورك القول إلى المعتزلة ، وتعلق من قال هذا بقوله في صفته : ﴿ كان من الجن ﴾ [ الكهف : 50 ] وقالت الفرقة الأخرى : لا حجة في هذا لأن الملائكة قد تسمى جناً لاستتارها وقد قال تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ [ الصافات : 158 ] .

*(29/425)*

---

وقوله تعالى : ﴿ قال : يا إبليس ﴾ ، قيل : إنه – حينئذ – سماه ﴿ إبليس ﴾ ، وإنما كان اسمه – قبل – عزازيل ، وهو من الإبلاس وهو الإبعاد ، أي يا مبعد ، وقالت طائفة : ﴿

إبليس ﴾ كان اسمه ، وليس باسم مشتق ، بل هو أعجمي ، ويقضي بذلك أنه لا ينصرف ، ولو كان عربياً مشتقاً لكان كإجفيل - من أجفل - وغيره ، ولكان منصرفاً ، قاله أبو علي الفارسي .

وقوله : ﴿ ألا تكون ﴾ "أن" في موضع نصب ، وقيل : في موضع خفض ، والأصل : ما لك ألا تكون ؟ وقول إبليس ﴿ لم أكن لأسجد لبشر ﴾ ليس هذا موضع كفره عند الحذاق ، لأن إبايته إنما هي معصية فقط ، وأما قوله وتعليله فإنما يقتضي أن الله خلق خلقاً مفضولاً وكلف أفضل منه أن يذل له ، فكأنه قال : وهذا جور ، وذلك أن إبليس لما ظن أن النار أفضل من الطين ظن أن نفسه أفضل من آدم من النار يأكل الطين ، فقاس وأخطأ في قياسه ، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها الله المالك للجميع لا رب غيره .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) ﴾

الضمير في ﴿ منها ﴾ للجنة ، وإن لم يجر ذكرها في القصة تضمنها ، ويحتمل أن يعود الضمير على ضيفة الملائكة ، وال ﴿ رجيم ﴾ المشتوم أي المرجوم بالقول والشتم ، و ﴿ يوم الدين ﴾ يوم الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوا . . . ن دناهم كما دانوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإِنسان ﴾

يعني آدم ﴿ من صلصال ﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الطين اليابس الذي لم تُصِبه النار ، فإذا نقرتَه صَلَّ ، فسمعتَ له صلصلة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه الطين المنتن ، قاله مجاهد ، والكسائي ، وأبو عبيد .

ويقال : صَلَّ اللحمُ : إِذا تغيرت رائحته .

والثالث : أنه طين خُلط برمل ، فصار له صوت عند نقره ، قاله الفراء .

فأما الحمأُ ، فقال أبو عبيدة : هو جمع حَمْأة ، وهو الطين المتغير .

وقال ابن الأنباري : لا خلاف أن الحمأ : الطين الأسود المتغيِّر الريح .

وروى السدي عن أشياخه قال : بُلَّ التراب حتى صار طيناً ، ثم تُرك حتى أنتن وتغيَّر .

وفي المسنون أربعة أقوال .

أحدها : المنتن أيضاً ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة في آخرين .

قال ابن قتيبة : المسنون : المتغير الرائحة .

والثاني : أنه الطين الرطب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه المصبوب ، قاله أبو عمرو بن العلاء ، وأبو عبيد .

والرابع : أنه المحكوك ، ذكره ابن الأنباري ، قال : فمن قال : المسنون : المنتن ، قال : هو من قولهم : قد تسنَّى الشيء : إِذا أنتن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لم يتسنَّهْ ﴾ [ البقرة 259 ] ، وإِنما قيل له : مسنون ، لتقادم السنين عليه .

ومن قال : الطين الرطب ، قال : سمي مسنوناً ، لأنه يسيل وينبسط ، فيكون كالماء المسنون المصبوب .

ومن قال : المصبوب ، احتج بقول العرب : قد سننت عليَّ الماء : إِذا صببته .

ويجوز أن يكون المصبوب على صورة ومثال ، من قوله : رأيت سُنَّة وجهه ، أي : صورة وجهه ، قال الشاعر :

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرَ مُقْرِفَةٍ . . .
مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلاَ نَدَبُ

ومن قال : المحكوك ، احتج بقول العرب : سننت الحجر على الحجر : إِذا حككته عليه .

وسمي المِسَنُّ مسناً ، لأن الحديد يُحَكُّ عليه .

قال : وإنما كُرِّرت "مِنْ" لأن الأولى متعلقة ب "خلقنا" ، والثانية متعلقة بالصلصال ، تقديره : ولقد خلقنا الإِنسان من الصلصال الذي هو من حمأٍ مسنون .

قوله تعالى : ﴿ والجانَّ ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه مسيخ الجن ، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإِنس ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أنه أبو الجن ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وروى عنه الضحاك أنه قال : الجانُّ أبو الجن ، وليسوا بشياطين ، والشياطين ولد إِبليس لا يموتون إِلا مع إِبليس ، والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر .

والثالث : أنه إِبليس ، قاله الحسن ، وعطاء ، وقتادة ، ومقاتل .

فإن قيل : أليس أبو الجن هو إِبليس ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه هو ، فيكون هذا القول هو الذي قبله .

والثاني : أن الجانَّ أبو الجن ، وإِبليس أبو الشياطين ، فبينهما إِذاً فرق على ما ذكرناه عن ابن عباس .

قال العلماء : وإِنما سمي جانّاً ، لتواريه عن العيون .

قوله تعالى : ﴿ من قبل ﴾ يعني : قبل خَلْق آدم ﴿ من نار السموم ﴾ ، وقال ابن مسعود : من نار الريح الحارَّة ، وهي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم .

والسَّموم في اللغة: الريح الحارّة وفيها نار، قال ابن السائب: وهي نار لا دخان لها.

قوله تعالى: ﴿ فإذا سوَّيتُه ﴾

أي: عدلّتُ صورته، وأتممتُ خلقته ﴿ ونفختُ فيه من روحي ﴾ هذه الروح هي التي يحيا بها الإنسان، ولا تُعْلَم ما هيَّتُها، وإنما أضافها إليه، تشريفاً لآدم، وهذه إضافة مِلْك.

وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخاً، لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه.

قوله تعالى: ﴿ فقعوا ﴾ أمر من الوقوع.

وقوله: ﴿ كلُّهم أجمعون ﴾ قال فيه سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد.

وقال المبرد: "أجمعون" يدل على اجتماعهم في السجود، فالمعنى: سجدوا كلُّهم في حالة واحدة.

(32/425)

---

قال ابن الأنباري: وهذا، لأن "كلاًّ" تدل على اجتماع القوم في الفعل، ولا تدل على اجتماعهم في الزمان.

قال الزجاج: وقول سيبويه أجود، لأن "أجمعين" معرفة، ولا تكون حالاً.

قوله تعالى : ﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ قال المفسرون : معناه : يلعنك أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب .

قال ابن الأنباري : وإنما قال : ﴿ إلى يوم الدِّين ﴾ لأنه يوم له أول وليس له آخر ، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى ، والمعنى : عليك اللعنة أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(33/425)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾

يعني آدم عليه السلام .

﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ أي من طين يابس ؛ عن ابن عباس وغيره .

والصَّلْصَال : الطين الحرّ خُلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جَفّ ، فإذا طبخ بالنار فهو الفَخّار ؛ عن أبي عبيدة .

وهو قول أكثر المفسرين .

وأنشد أهل اللغة :

كعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوّال . . .

وقال مجاهد : هو الطين المُنْتِن ؛ واختاره الكسائيّ .

قال : وهو من قول العرب : صلّ اللّحمُ وأصلّ إذا أنتن مطبوخاً كان أو نيئاً يَصل صلولاً .

قال الحُطيئة :

ذاك فتًى يبذُل ذا قِدْرِه . . .

لا يُفسِد اللحمَ لدَيه الصُّلول

وطين صَلاّل ومِصْلال ؛ أي يصوّت إذا نقرته كما يصوّت الحديد .

فكان أوّلَ ترابا ً ، أي متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصار طيناً ، ثم تُرك حتى أنتن فصار حَمَأً

مسنوناً ؛ أي متغيرا ، ثم يَبِس فصار صلصالاً ؛ على قول الجمهور .

وقد مضى في "البقرة" بيان هذا .

والحَمَأ : الطين الأسود ، وكذلك الحمأة بالتسكين ؛ تقول منه : حمِئت البئر حَمْأً ( بالتسكين

) إذا نزعت حمأتها .

وحَمِئت البئر حماً ( بالتحريك ) كثرتْ حمأتُها .

وأحمأتُها إحماء ألقيتُ فيها الحَمْأة ؛ عن ابن السّكّيت .

وقال أبو عبيدة : الحمأة ( بسكون الميم ) مثل الكمأة .

والجمع حَمْءٌ ، مثل تمرة وتمر .

والحَمَأ المصدر ، مثل الهلع والجزع ، ثم سُمّي به .

والمسنون المتغيّر .

قال ابن عباس : هو التراب المبتّل المنتن ، فجعل صلصالاً كالفخار .

ومثله قول مجاهد وقتادة ، قالا : المنتن المتغيّر ؛ من قولهم : قد أَسِن الماء إذا تغيّر ؛ ومنه ﴿ يَتَسَنَّهْ ﴾ [ البقرة : 259 ] و ﴿ مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ [ محمد : 15 ] .

ومنه قول أبي قيس بن الأسلت :

سقت صداي رُضابا غير ذي أسن . . .

كالمسك فُتّ على ماء العناقيد

وقال الفراء : هو المتغير ، وأصله من قولهم : سَننت الحجر على الحجر إذا حككته به .

(34/425)

---

وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسَّنِين ؛ ومنه المِسن .

قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبة الحم . . .

راء تمشي في مَرْمَر مَسنون

أي محكوك مُمَلَّس.

حُكي أن يزيد بن معاوية قال لأبيه: ألا ترى عبد الرحمن بن حسان يُشبّب بابنتك.

فقال معاوية: وما قال؟ فقال قال:

هي زَهْراءُ مثلُ لؤلؤة الغوَّ . . .

اص مِيزَتْ من جَوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاوية: صدق! فقال يزيد: (إنه يقول):

وإذا ما نَسَبْتَها لم تجدها . . .

في سَناء من المكارم دونِ

فقال: صدق! فقال: أين قوله: ثم خاصرتها . . .

البيت.

فقال معاوية: كذب.

وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب: سننت الماء وغيره على الوجه

إذا صببته.

والسَّن الصب.

وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛

لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رطب.

النحاس : وهذا قول حسن ؛ لأنه يقال : سننت الشيء أي صببته .

قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المرويّ عن عمر أنه كان يَسُنّ الماء على وجهه ولا يَشُنّه .

والشنّ ( بالشين ) تفريق الماء ، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق .

وقاله سيبويه : المسنون المصوّر .

أخِذ من سُنّة الوجه وهو صورته .

وقال ذو الرمة :

تُرِيك سنّة وجهٍ غير مُقْرِفة . . .

ملساء ليس بها خال ولا نَدَب

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم ؛ من قولهم : وجه مسنون إذا كان فيه طول .

وقد قيل : إن الصَّلصال التراب المدقق ؛ حكاه المهدويّ .

ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلاّل ، فأبدل من إحدى اللامين الصاد .

و"مِنْ حَمَإٍ" مفسر لجنس الصلصال ؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : ﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾

أي من قبل خلق آدم .

وقال الحسن : يعني إبليس ، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام .

وسُمِّيَ جانا لتواريه عن الأعين .

(35/425)

---

وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به وينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك " ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم .

وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التي تقتل .

وعنه : أنها نار لا دخان لها ، والصواعق تكون منها ، وهي نار تكون بين السماء والحجاب .

فإذا أحدث الله أمراً اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أمِرت .

فالهَدّة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب .

وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب ، والذي تسمعون من انغطاط السحاب صوتها .

وعن ابن عباس أيضاً قال : كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة قال : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر ؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر ؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأي .

وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارِج من نار وخلق آدم مما وُصف لكم " فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضي العموم .

والله أعلم .

وقال الجوهريّ : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان ، والسموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سمّ يومُنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم .

قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار .

القشيريّ : وسُمّيت الريح الحارة سموماً لدخولها بلطفها في مَسامّ البدن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ ﴾ تقدم في "البقرة" .

﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ ﴾ من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي سوّيت خلقه وصورته .

﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ النفخ إجراء الريح في الشيء .

والرُّوح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم .

وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً ؛

كقوله : أرضي وسمائي وبيتي وناقة الله وشهر الله .

ومثله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [ النساء : 171 ] وقد تقدّم في "النساء" مبيّناً .

وذكرنا في كتاب ( التذكرة ) الأحاديث الواردة التي تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن

النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد .

وسيأتي ذلك إن شاء الله .

ومن قال إن الروح هو الحياة قال أراد : فإذا ركّبت فيه الحياة .

﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أي خرّوا له ساجدين .

وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة .

ولِلَّه أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة .

وقد تقدم في "البقرة" هذا المعنى .

وقال القَفَّال : كانوا أفضل من آدم ، وامتحنهم ( الله ) بالسجود له تعريضاً لهم للثواب

الجزيل .

وهو مذهب المعتزلة .

وقيل : أمروا بالسجود لِلَّه عند آدم ، وكان آدم قِبلة لهم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : لا شك أن إبليس كان مأموراً بالسجود ؛ لقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] وإنما منعه من ذلك الاستكبارُ والاستعظام ؛ كما تقدّم في "البقرة" بيانه .

ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس .

وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع .

وقد مضى في "البقرة" هذا كلّه مستوفًى .

وقال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شياطين .

والشياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس .

والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر .

فآدم أبو الإنس .

والجان أبو الجن .

وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره الماورديّ .

والذي تقدّم في "البقرة" خلاف هذا ، فتأمله هناك .

(37/425)

---

الثانية : الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعيّ ، حتى لو قال : لفلان عليّ دينار إلا ثوباً ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولاً ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة .

ويستوي في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات .

وقال مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل .

فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقوّمات ، مثل أن يقول : عليّ عشرة دنانير إلا ثوباً ، أو عشرة أثواب إلا ديناراً لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقرّ جميع المبلغ .

وقال محمد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقرّ جملة ما أقرّ به .

والدليل لقول الشافعيّ أن لفظ الاستثناء يستعمل في الجنس وغير الجنس ؛ قال الله تعالى :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [ الواقعة : 25 26 ]

فاستثنى السلام من جملة اللّغو .

ومثله "فسجد الملائكة كلهم أجمعون .

إلا إبليس" وإبليس ليس من جملة الملائكة ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [ الكهف : 50 ] .

وقال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

فاستثنى اليعافير وهي ذكور الظباء ، والعِيس وهي الجمال البيض من الأنيس ؛ ومثله قول النابغة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ ﴾

أي ما المانع لك .

﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي في ألا تكون .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ بيّن تكبّره وحسده ، وأنه خير منه ، إذ هو من نار والنار تأكل الطين ؛ كما تقدّم في "الأعراف" بيانه .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي من السموات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة .

﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مرجوم بالشهب .

وقيل : ملعون مشؤوم .

وقد تقدّم هذا كلّه مستوفًى في البقرة والأعراف .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة ﴾ أي لعنتي ؛ كما في سورة " ص " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾



وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾

يعني آدم عليه السلام في قول جميع المفسرين سمي إنسانًا لظهوره وإدراك البصر إياه ، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي من ﴿ صلصال ﴾ يعني من اليابس ، إذا نقرته سمعت له صلصلة يعني صوتًا ، وقال ابن عباس : هو الطين الحر الطيب الذي إذا نضب عنه الماء

تشقق فإذا حرك تقعقع .

وقال مجاهد : هو الطين المنتن .

واختاره الكسائي وقال : هو من صل اللحم إذا أنتن ﴿ من حمأ ﴾ يعني من الطين الأسود ﴿ مسنون ﴾ أي متغير قال مجاهد وقتادة : هو المنتن المتغير .

وقال أبو عبيدة : هو المصبوب .

تقول العرب : سننت الماء إذا أصببنه قال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن جعل صلصالاً كالفخار ، والجمع بين هذه الأقاويل على ما ذكره بعضهم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام ، قبض قبضة من تراب الأرض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتن ريحها ، وتغيرت وإليه الإشارة : بقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ ثم إن ذلك التراب بله بالماء وخمره حتى اسودت ، وأنتن ريحه وتغير وإليه الإشارة بقوله : من حمأ مسنون ثم ذلك الطين الأسود المتغير صوره صورة إنسان أجوف ، فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتاً ، وإليه الإشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس ، إذا تفخّر في الشمس ثم نفخ فيه الريح فكان بشراً سوياً قوله تعالى ﴿ والجان خلقناه من قبل ﴾ يعني من قبل آدم عليه السلام .

قال ابن عباس : الجان أبو الجن كما أن آدم أبو البشر .

وقال قتادة : هو إبليس .

وقيل : الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين ، وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم .

وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس .

(40/425)

---

وقال وهب : إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ، ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ، ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح أن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جناً لتواريهم واستتارهم عن الأعين من قولهم : جن الليل إذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر ، والجن منهم المؤمن ومنهم الكافر ﴿ من نار السموم ﴾ يعني من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطفها ، وقوة حرارتها فتقتله .

ويقال للريح الحارة التي تكون بالنهار : السموم .

وللريح الحارة التي تكمون بالليل : الحرور ، وقال أبو صالح : السموم نار لا دخال لها والصواعق تكون منها ، وهي نار بين السماء والحجاب ، فإذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة أن الكرة الرابعة تسمى كرة النار ، وقيل : من نار السموم يعني من نار جهنم .

وقال ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق منها الجان ، وتلا هذه الآية .

وقال ابن عباس : كان ابليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم ، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار ، وخلقت الملائكة من النور .

(41/425)

---

قوله ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ أي واذكر يا محمد : إذ قال ربك للملائكة ﴿ إني خالق بشراً ﴾ سمي الآدمي بشراً ، لأنه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ تقدم تفسيره ﴿ فإذا سويته ﴾ يعني عدلت صورته ، وأتممت خلقه ﴿ ونفخت له من روحي ﴾ النفخ عبارة عن إجراء الريح في تجاويف جسم آخر ، ومنه نفخ الرح في النشأة الأولى ، وهو المراد من قوله : ونفخت فيه من روحي وأضاف الله روح آدم إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم لها كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام على الروح في تفسير سورة الإسراء عند قوله : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ إن شاء الله تعالى ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ الخطاب للملائكة ، الذي قال الله لهم : إني خالق بشراً أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين .

وكان هذا السجود تحية لا سجود عبادة ﴿ فسجد الملائكة كلهم ﴾ يعني الذين أمروا بالسجود لآدم ﴿ أجمعون ﴾ قال سيبويه : هذا توكيد بعد توكيد ، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال : لو قال فسجد الملائكة لاحتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم إزالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا أنهم سجدوا بأسرهم ثم عند هذا بقي احتمال آخر ، وهو أنهم سجدوا في أوقات متفرقة ، أو في دعة واحدة فلما قال : أجمعون ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة ، ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال : قول الخليل وسيبويه أجود لأن أجمعين معرفة فلا تكون حالاً .

روي عن ابن عباس أن الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة ، بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم .

ثم قال لجماعة أخرى : اسجدوا لآدم فسجدوا .

﴿ إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين ﴾



---

يعني مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا ﴿ قال ﴾ يعني قال الله ﴿ يا أبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال ﴾ يعني إبليس ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من

صلصال من حمأ مسنون ﴾ أراد إبليس أنه أفضل من آدم لأن آدم طيني الأصل وإبليس ناري الأصل.

والنار أفضل من الطين فيكون إبليس في قياسه أفضل من آدم، ولم يدرِ الخبيث أن الفضل فيما فضله الله تعالى ﴿ قال فاخرج منها ﴾ يعني من الجنة وقيل من السماء ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي طريد ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السموات والأرض فإن قلت: إن حرف إلى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذي هو يوم القيامة؟ قلت: لا بل يزداد عذاباً إلى اللعنة التي عليه كأنه قال تعالى، وإن عليك اللعنة فقط إلى يوم الدين.

ثم تزداد معها بعد ذلك عذاباً دائماً مستمراً لا انقطاع له. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(43/425)

---

وقال أبو حيان:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) ﴾

لما نبه تعالى على منتهى الخلق وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرون فيه، نبههم على مبدأ

أصلهم آدم ، وما جرى لعدوه إبليس من المحاورة مع الله تعالى .

وتقدم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة عقب ذكر الأماتة والإحياء والرجوع إليه تعالى .

وفي الأعراف بعد ذكر يوم القيامة ، وذكر الموازين فيه .

وفي الكهف بعد ذكر الحشر ، وكذا في سورة ص بعد ذكر ما أعد من الجنة والنار لخلقه .

فحيث ذكر منتهى هذا الخلق ذكر مبدأهم وقصته مع عدوه إبليس ليحذرهم من كيده ، ولينظروا ما جرى له معه حتى أخرجه من الجنة مقر السعادة والراحة ، إلى الأرض مقر التكليف والتعب ، فيتحرزوا من كيده ، ومن حمإ قال الحوفي بدل من صلصال ، بإعادة الجار .

وقال أبو البقاء : من حمإ في موضع جر صفة لصلصال .

وقال ابن عباس : المسنون الطين ومعناه المصبوب ، لأنه لا يكون مصبوباً إلا وهو رطب ، فكنى عن المصبوب بوصفه ، لأنه موضوع له .

وقال مجاهد وقتادة ومعمر : المنتن .

قال الزمخشري : من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به ، فالذي يسيل بينهما سنين ولا يكون إلا منتناً .

وقال غيره : من أسن الماء إذا تغير ، ولا يصح لاختلاف المادتين .

وقيل : مصبوب من سننت التراب والماء إذا صببته شيئاً بعد شيء ، فكان المعنى : أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها .

قال الزمخشري : وحمأ مسنون بمعنى مصور أنْ يكون صفة لصلصال ، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصال ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر انتهى .

وقيل : المسنون المصور من سنة الوجه ، وهي صورته .

قال الشاعر :

تريك سنة وجه غير مقرفة . . .

وقيل : المسنون المنسوب أي : ينسب إليه ذريته .

والجان : هو أبو الجن ، قاله ابن عباس .

قال الزمخشري : والجان للجن كآدم للناس .



---

وقال الحسن وقتادة : هو إبليس ، خلق قبل آدم .

وقال ابن بحر : هو اسم لجنس الجن ، والإنسان المراد به آدم ، ومن قبل أي : من قبل خلق

الإنسان .

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : والجأن بالهمز .

والسموم قال ابن عباس : الريح الحارة التي تقتل .

وعنه : نار لا دخان لها ، منها تكون الصواعق .

وقال الحسن : نار دونها حجاب .

وعن ابن عباس : نفس النار ، وعنه : لهب النار .

وقيل : نار اللهب السموم .

وقيل : أضاف الموصوف إلى صفته أي : النار السموم .

وسويته أكملت خلقه ، والتسوية عبارة عن الإتقان ، وجعل أجزائه مستوية فيما خلقت .

ونفخت فيه من روحي أي : خلقت الحياة فيه ، ولا نفخ هناك ، ولا منفوخ حقيقة ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيي به فيه .

وأضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف نحو : بيت الله ، وناقة الله ، أو الملك إذ هو المتصرف في الإنشاء للروح ، والمودعها حيث يشاء .

وقعوا له أي : اسقطوا على الأرض .

وحرف الجر محذوف من أن أي : ما لك في أن لا تكون .

وأي : داع دعا بك إلى إبائك السجود .

ولا سجد اللام لام الجحود ، والمعنى : لا يناسب حالي السجود له .

وفي البقرة نبه على العلة المانعة له وهي الاستكبار أي : رأى نفسه أكبر من أن يسجد .

وفي الأعراف صرح بجهة الاستكبار ، وهي ادعاء الخيرية والأفضلية بادعاء المادة المخلوق منها كل منهما .

وهنا نبه على مادة آدم وحده ، وهنا فاخرج منها وفي الأعراف : ﴿ فاهبط منها ﴾ وتقدم ذكر الخلاف فيما يعود عليه ضمير منها .

وقد تقدمت منها مباحث في سورة البقرة ، والأعراف ، أعادها المفسرون هنا ، ونحن نحيل على ما تقدم إلا ما له خصوصية بهذه السورة فنحن نذكره .

فنقول : وضرب يوم الدين غاية للعنة ، إما لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم ، وإما أن يراد أنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾

أي هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقاً بديعاً منطوياً على خلق اسئر أفراد انطواء اجمالياً كما مر تحقيقه في سورة الأنعام ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أي يصوت عند نقرة قبل اذا توهمت في صوته مدا فهو صليل وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل إذانتين ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ من طين تغير وأسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أي من صلصال كائن من حم ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي مصور من سنة الوجه وهي صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أي مفرغ على هيئة الآنسان كما يفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب وقيل منتن فهو صفة لحما و على الأولين حقه أن يكون صفة لصلصال وإنما أخر عن حمنتبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه صلصالاً بل في حال كونه حمكأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسانا أجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

﴿ والجآن ﴾ أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أ ، يراد به الجنس كما هو الظاهر من الانسان لأن تشغب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واجدة كان الجنس بأسره مخلوقاً منها وقرئ بالهمزة وانتصابه بفعل يفسره ﴿ خَلَقْنَاهُ ﴾ وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام ولا امتناع من خلق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا امتناع من خلقها في الجواهر المجردة فضلاً عن الأجسام المؤلفة التي غالب أجزائها الجزء الناري فانها أقبل لها من التي غالب أجزائها الجزء الأرضي وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب ومساق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر وهو قبول المواد للجميع والاحياء .

(47/425)

---

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ نصب بإضمار ذكر وتذكير الوقت لما مر مراراً من أنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشيء إلى كماله اللائق

به شيئاً فشيئاً مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أي اذكر وقت قوله تعالى ﴿ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ ﴾ فيما سيأتي وفيه ما ليس في صيغة الماضرع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلونه ﴿ بَشَراً ﴾ أي انساناً قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم اني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل حسماً كثيفاً يلاقي ويباشر وقيل خلقاً بادى البشر بلا صوف ولا شعرة ﴿ مِّن صَلْصَالٍ ﴾ متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أي بشراً كائناً من صلصال كائن ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ تقدم تفسيره ولا ينافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص من قوله بشراً من طين فإن عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والأسود ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكى غايته أنه لم يتعرض له هناك اكتفاء بما شرح ههنا .

(48/425)

---

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح

لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أي فاذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري ﴿ فَقَعُوا لَهُ ﴾ أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أي اسقطوا له ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ تحية له وتعظيماً أو اسجدوا لله تعالى على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى حكمته كقول حسان رضي الله تعالى عنه

أليس اول من صلى لقبلتكم . . . وأعلم الناس بالقرآن والسنن

﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضاً فإن الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والأصل في الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشيء ولا ريب في أن السجود معاً أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيداً وأقيم مقام كل في افادة معنى الاحاطة من غير نظر الى الكمال فإذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الأصل صونا للكلام عن الالغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة في التعميم هذا وأما ان سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الأمر التعليقي كما

تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة ص أو على الأمر التنجيزي كما يستدعيه ما في غيرهمافقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة.

(49/425)

---

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ استثناء متصل إما لأنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة فعد منهم تغليباً واما لأن من الملائكة جنساً يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فإن مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد به علم أنه مع الاباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به ما بعده أي لكن ابليس أبى ان يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج في معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والاباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين الكرام ﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبنى على سؤال من قال فماذا قال الله تعالى عند ذلك فقيل قال ﴿ ياإبليس مَا لَكَ ﴾ اي أي سبب لك لاأي غرض لك كما قيل لقوله تعالى ما منعك ﴿ أَلاَّ تَكُونَ ﴾ في أن لا تكون ﴿ مَعَ الساجدين ﴾ لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم في الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم بل لكل من المعاصي الثلاث المذكورة قال تعالى في سورة الأعراف قال ما

منعك أن لا تسجد اذ أمرتك وفي سورة ص قال يا ابليس ما منعك أن تسجد ملا خلقت بيدي ولكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اجتراء بما ذكر في مواطن آخر واشعار بأن كل واحدة من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبته وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً في سورة البقرة وسورة بني اسارئيل وسورة الكهف وسورة طه.

(50/425)

---

﴿ قَالَ ﴾ أي ابليس وهو أيضاً استئناف مبنى على السؤال الذي ينساق اليه الكلام ﴿ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي ينافي حالي ولا يستقيم مني لأني مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن اسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ أي جسم كثيف ﴿ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذي هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقاً منه في أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفى في سورة الاعراف وسورة ص بما حكى عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من

طين وكذا في سورة بنى اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طيناً وفي جوابه دليل على أن قوله تعالى مالك ليس استفسارا عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظام في سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأنى من الخضوع للمفضول ولقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزل عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربانية والتخلي عن الملكات الردية التي أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين جلا جلاله .

﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ أي من زُمرة الملائكةِ المعزّزين لا من السماء ، فإن وسوسته لآدَمَ عليه الصلاة والسلام في الجنة إنما كانت بعد هذا الطرد ،

(51/425)

---

وقوله تعالى : ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾ ليس نصّاً في ذلك ، فإن الخروجَ من بين الملإ الأعلى هبوطٌ وأيُّ هبوط ، أو من الجنة على أن وسوستَه كانت بطريق النداءِ من بابها كما رُوي عن الحسن البصْري ، أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها وتوسّل إليه بالحيّة كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا ينافي هذا طردَه على رؤوس الأشهاد لما يقتضيه من الحِكَم البالغة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرودٌ من كل خير وكرامةٍ ، فإن من يُطرَدْ

يُرجَمْ بالحجارة ، أو شيطان يُرجَمُ بالشهب وهو وعيدٌ يتضمن الجوابَ عن شبهته ، فإن مَن عارض النصَّ بالقياس فهو رجيم ملعون .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة ﴾ الإبعادَ عن الرحمة ، وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وإن كان جارياً على ألسنة العبادِ ، قيل : في سورة ص ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى ﴾ ﴿ إلى يَوْمِ الدين ﴾ إلى يوم الجزاء والعقوبةِ ، وفيه إشعارٌ بتأخير عقابِه وجزائه إليه ، وأن اللعنة مع كمال فظاعتِها ليست جزاءً لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ ، وفيه من التهويل ما لا يوصف ، وجعل ذلك أقصى أمدِ اللعنة ليس لأنها تنقطع هنالك ، بل لأنه عند ذلك يعذَّب بما يَنسى به اللعنة من أفانين العذاب ، فتصير هي كالزائل .

وقيل : إنما حدت به لأنه أبعدُ غاية يُضرَب بها الناسُ كقوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ وحيث أمكن كونُ تأخير العقوبةِ مع الموت كسائر من أُخِّرت عقوباتهم إلى الآخرة من الكفرة ، طلب اللعينُ تأخيرَ موتِه كما حُكي عنه بقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنِى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(52/425)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾

أي هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقاً بديعاً منطوياً على خلق سائر أفراده انطواءً إجمالياً .

﴿ مِن صلصال ﴾ أي طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر .

أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة ونقله في "الدر المصون" عن أبي عبيدة ونقل عنه أبو حيان أنه قال : هو الطين المخلوط بالرمل وهو رواية عن ابن عباس ، وفي رواية أخرى عنه أنه الطين المرقق الذي يصنع منه الفخار ، وفي أخرى نحو الأول ، وقيل : هو من صلصل إذ أنتن تضعيف صل يقال : صل اللحم وأصل إذا أنتن وهذا النوع من المضعف مصدر يفتح أوله ويكسر كالزلزال ووزنه عند جمهور البصريين فعلال ، وقال الفراء : وكثير من النحويين فعفع كررت الفاء والعين ولا لام ، وغلطهم في "الدر المصون" لأن أقل الأصول ثلاثة فاء وعين ولام ، وقال بعض البصريين والكوفيين : فعفل ونسب أيضاً إلى الفراء بل قيل هو المشهور عنه ، وعن بعض آخر من الكوفيين أن وزنه فعل بتشديد العين والأصل صلل مثلاً فلما اجتمع ثلاثة أمثال أبدل الثاني من جنس الفاء ، وخص بعضهم هذا الخلاف بما إذا لم يختل المعنى بسقوط الثالث كلملم وكبكب فإنك تقول لم وكب فلو لم يصح المعنى بسقوطه نحو سمسم فلا خلاف في أصالة الجميع ، وقال اليمني : ليس معنى قولهم : إن الأصل صلل أنه زيد فيه

صاد بل هو ربقاعي كزلزل والاشتراك في أصل المعنى لا يقتضي أن يكون منه إذ الدليل دال على أن الفاء لا تزاد لكن زيادة الحرف تدل على زيادة المعنى ، وذكر في "البحر" أن صلصال بمعنى مصلصل كالقضاض بمعنى المقضقض فهو مصدر بمعنى الوصف ومثله كثير .

(53/425)

---

﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ من طين تغير واسود من مجاورة الماء ويقال للواحدة حمأة ، قال الليث : بتحريك الميم ووهم في ذلك وقالوا : لا نعرف الحمأة في كلام العرب إلا ساكنة الميم وعلى هذا أبو عبيدة والأكثرون ، والجار والمجرور في موضع الصفة لصلصال كما هو السنة الشائعة في الجار والمجرور بعد النكرة أي من صلصال كائن من حمإ ، وقال الحوفي : هو بدل مما قبله بإعادة الجار فكأنه قيل خلقناه من حمإ ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي مصور من سنة الوجه وهي صورته ، وأنشد لذلك ابن عباس قول عمه حمزة يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أغر كأن البدر سنة وجهه . . .

جلا الغيم عنه ضوؤه فتبددا

وأنشد غيره قول ذي الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة . . .

ملساء ليس بها خال ولا ندب

أو مصبوب من سن الماء صبه ويقال شن بالشين أيضاً أي مفرغ على هيئة الإنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب ، وقال قتادة .

(54/425)

---

ومعمر : المسنون المنتن ، قيل : وهو من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فالذي يسيل بينهما سنين ولا يكون إلا منتناً ، وقيل : هو من سننت الحديدة على المسن إذا غيرتها بالتحديد ، وأصله الاستمرار في جهة من قولهم : هو على سنن واحد وهو صفة لحمإ ، ويجوز أن يكون صفة لصلصال ولا ضير في تقدم الصفة الغير الصريحة على الصريحة ، فقد قال الرضي : إذا وصفت النكرة بمفرد أو ظرف أو جملة قدم المفرد في الأغلب وليس بواجب خلافاً لبعضهم ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أنزلناه ﴾ [ الأنبياء : 50 ] لكنه يحتاج إلى نكتة لا سيما في كلام الله تعالى لأنه لا يعدل عن الأصل لغير مقتض ، ولعل النكتة ههنا مناسبة المقدم لما قبله في أن كلاًّ منهما من جنس المادة ، وقيل : إنما أخرت الصفة الصريحة تنبيهاً على أن ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه

صلصالاً بل في حال كونه حما كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صوت ثم غيره طوراً بعد طور حتى نفخ فيه من روحه فتبارك الله أحسن الخالقين ، وقيل : المسنون المنسوب أي نسب إليه ذريته وهو كما ترى .

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) ﴾

﴿ والجآن ﴾ هو أبو الجن كما روي عن ابن عباس ويجمع على جنان كحائط وحيطان وراع ورعيان قاله الطبرسي ، وقيل : هو إبليس وروي عن الحسن .

وقتادة لكن في "الدر المصون" أنه هو أبو الجن ، وقال ابن بحر : هو اسم لجنس الجن وتشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس مخلوقاً منها .

وقرأ الحسن .

(55/425)

---

وعمرو بن عبيد ﴿ والجآن ﴾ بالهمز وانتصابه بفعل يفسره ﴿ خلقناه ﴾ وهو هنا أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل خلق الإنسان ، قيل : ومن هنا يظهر جواز كون المراد بالمستقدمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله تعالى : ﴿ مّنكُمْ ﴾ [ الحجر : 24 ] للكل وهو بعيد غاية البعد .

﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ أي الريح الحارة التي تقتل .

وروي ذلك عن ابن عباس ، وأكثر ما تهب في النهار وقد تهب ليلاً .

وسميت سموماً لأنها بلطفها تنفذ في مسام البدن ومنه السم القاتل ، ويقال : سم يومنا يسم إذا هبت فيه تلك الريح ، وقيل : السموم نار لا دخان لها ومنها تكون الصواعق ، وروى ذلك أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس فالإضافة من إضافة العام إلى الخاص ، وقيل : السموم إفراط الحر والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة ، والمراد من النار المفرطة الحرارة ، وقد جاء في بعض الآثار ما يدل على أن النار التي خلق منها الجان أشد حرارة من النار المعروفة .

فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رؤيا المسلم جزء من سبعين جزأً من النبوة وهذه النار جزء من سبعين جزأً من السموم التي خلق منها الجان وتلا عليه الصلاة والسلام الآية " واستشكل الخلق من النار بأنه كيف تخلق الحياة فيها وهي بسيطة ليست متركبة من أجزاء مختلفة الطبع والحياة كالمزاج لا تكون إلا في المركبات وقد اشترط الحكماء فيها البنية المركبة .

وأجيب بمنع ذلك لأنها إذا خلقت في المجردات كالملائكة على قول والعقول التي أثبتها الفلاسفة فبالطريق الأولى البسائط بل لا مانع أيضاً أن تخلق في الأجزاء الفردة خلافاً للمعتزلة حيث اشترطوا البينة المركبة .

وأجيب بمنع ذلك لأنها إذا خلقت في المجردات كالملائكة على قول والعقول التي أثبتها الفلاسفة فبالطريق الأولى البسائط بل لا مانع أيضاً أن تخلق في الأجزاء الفردة خلافاً للمعتزلة حيث اشترطوا البنية المركبة من الجواهر وليس لهم سوى شبه أو هن من بيت العنكبوت على أن ذلك غير وارد رأساً لأن معنى كون الجن مخلوقة من نار أنها الجزء الأعظم الغالب عليها كالتراب في الإنسان فليست بسيطة ، وقال بعضهم : إن الجن أجسام هوائية أو نارية بمعنى أنهم يغلب عليهم ذلك وهم مركبون من العناصر الأربعة كالملائكة عليهم السلام على قول .

ثم إن النقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكار الجن وليس ذلك مذهب جميعهم فقد ذهب جمع عظيم من قدمائهم إلى وجودهم وهو مذهب جمهور أرباب الملل وأصحاب الروحانيات ويسمونهم بالأرواح السفلية وزعموا أنهم أسرع إجابة من الأرواح الفلكية إلا أنها أضعف .

نعم اختلف المثبتون فمنهم من زعم أنهم ليسوا أجساماً ولا حالين فيها بل هم جواهر قائمة بأنفسها لكنها أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الاعراض بعد استوائها في الحاجة

إلى المحل فبعضها كريمة حرة محبة للخيرات وبعضها دنية خسيسة محبة للشرور ولا يعلم عدد أنواعهم إلا الله تعالى ولا يبعد أن يكون في أنواعها من يقدر على أفعال شاقة يعجز عنها قدرة البشر وكذا لا يبعد لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم.

(57/425)

---

ومن الناس من زعم أن هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية فإذا اتفق حدوث بدن مشابه للبدن الذي فارقته فبسبب تلك المشابهة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما بهذا البدن وتصير معاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً ، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة ، ومنهم من قال : إنهم أجسام لكن اختلفوا فقال بعضهم : هي مختلفة الماهية وإن اشتركت في صفة ، وقال آخرون : إنها متساوية في تمام الماهية ، وقد أطال الكلام في ذلك الإمام في تفسير سورة الجن ، وذكر في تفسير هذه الآية أنهم اختلفوا في الجن فقال بعضهم : إنهم جنس غير الشياطين ، والأصح أن الشياطين قسم من الجن ، فكل من كان منهم مؤمناً فإنه لا يسمى بالشيطان ،

وكل من كان منهم كافراً سمي بهذا الاسم ، والدليل على صحة ذلك أن لفظ الجن مشتق من الاستتار فكل من كان كذلك كان من الجن اه ، وما ذكره من الأصح هو الذي ذهب إليه المعظم لكن ما ذكره من الدليل ضعيف .

وقال وهب : إن من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ، ومنهم من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين .

وذكر ابن عربي أن تناسل الجن بإلقاء الهواء في رحم الأنثى كما أن التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم ، وأنهم محصورون في اثنتي عشرة قبيلة أصولاً ثم يتفرعون إلى أفخاذ ، ويقع بينهم حروب وبعض الزوابع يكون عند حربهم ، فإن الزوبعة تقابل ريحين تمنع كل صاحبتها أن تخترقها فيؤدي ذلك إلى الدور وما كل زوبعة حرب .

وأخرج البيهقي في الأسماء .

وأبو نعيم .

والديلمي .

وغيرهم بإسناد صحيح كما قال العراقي عن أبي ثعلبة مرفوعاً الجن ثلاثة أصناف .

فصنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء .

وصنف حيات وكلاب .

وصنف يحلون ويظعنون ، وفي هذه القسمة عندي إشكال يظهر بالتدبر ، ولعل حاصلها أن صنفاً منهم يغلب عليهم الطيران في الهواء ، وصنف يغلب عليهم الحل والارتحال ، وصنف يغلب عليهم المكث والتوطن ببعض المواطن ، وعبر عنهم بالحيات والكلاب لكثرة تشكلهم بذلك دون الصنفين الآخرين ، فإنهم وإن جاز عليهم التشكل بالأشكال المختلفة لأنهم من الجن ، وقد قالوا : إنهم قادرون على ذلك وإن نوزع فيه بأنه يستلزم أن لا تبقى ثقة بشيء .

ورد بأن الله تعالى قد تكلف لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يترتب عليه الريبة في الدين ورفع الثقة بعالم وغيره فاستحال شرعاً الاستلزام المذكور إلا أنهم لا يكثر تشكلهم بذلك ، وربما يقال : إن القدرة على التشكل إنما هي لصنف المتوطنين ، وإثباتها في كلامهم للجن يكفي فيه صحتها باعتبار بعض الأصناف لكنه بعيد جداً فليتدبر حقه ، وقد قال الهيتمي : إن رجال هذا الحديث وثقوا في بعضهم ضعف ، فإن كان الحديث لذلك ضعيفاً فلا قيل ولا قال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، وسيأتي إن شاء الله تعالى استيفاء الكلام في هذا المقام بعون الله تعالى الملك العلام ، ثم إن مساق الآية الكريمة على ما قيل كما هو للدلالة على كمال قدرته تعالى شأنه وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على مقدمة يتوقف

عليها إمكان الحشر وهي قبول المواد للجمع والإحياء فتدبر .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(59/425)

---

نصب بإضمار اذكر ، وتذكير الوقت لما مر مراراً من أنه أدخل في تذكير ما وقع فيه ، وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام إشعار بعلة الحكم وتشريف له صلى الله عليه وسلم أي اذكر وقت قوله تعالى : ﴿ للملائكة ﴾ الظاهر أن المراد بهم ملائكة السماء والأرض ، وزعم بعض الصوفية أن المراد بهم ملائكة الأرض ولا دليل له عليه ﴿ إِنِّى خَٰلِقٌ ﴾ فيما سيأتي ؛ وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل لذلك البتة من غير صارف ولا عاطف ﴿ بَشَرًا ﴾ أي إنساناً ، وعبر به عنه اعتباراً بظهور بشرته وهي ظاهر الجلد عكس الأدمة خلافاً لأبي زيد حيث عكس وغلطه في ذلك أبو العباس .

وغيره من الصوف والوبر ونحوهما ، ولبعض أكابر الصوفية وجه آخر في التسمية سنذكره إن شاء الله تعالى في باب الإشارة ، ويستوي فيه الواحد والجمع .

وذكر الراغب أنه جاء جمع البشرة بشراً وأبشاراً ، وقيل : أريد جسماً كثيفاً يلاقي ويباشر

أو جسماً بادي البشرة ولم يرد إنساناً وإن كان هو إياه في الواقع ، وبعض من قال إنه المراد قال : ليس هذا صيغة عين الحادثة وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم : إني خالق خلقاً من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم ﴿ مِن صلصال ﴾ متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة ﴿ بَشَرًا ﴾ ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ تقدم تفسيره وإعرابه فتذكر فما في العهد من قدم .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ فعلت فيه ما يصير به مستوياً معتدلاً مستعداً لفيضان الروح وقيل : صوته بالصور الإنسانية والخلقة البشرية ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ النفخ في العرف إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، والمراد هنا تمثيل إفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها وليس هناك نفخ حقيقة .

(60/425)

---

وقال حجة الإسلام : عبر بالنفخ الذي يكون سبباً لاشتعال فتيلة القابل من الطين الذي تعاقبت عليه الأطوار حتى اعتدل واستوى واستعد استعداداً تاماً بنور الروح كما يكون سبباً لاشتعال الحطب القابل مثلاً بالنار عن نتيجته ومسببه وهو ذلك الاشتعال ، وقد يكنى بالسبب عن الفعل المستفاد الذي يحصل منه على سبيل المجاز وإن لم يكن الفعل

المستفاد على صورة الفعل المستفاد منه ، ثم هذا الروح عنده وكذا عند جماعة من المحققين ليس بجسم يحل البدن حلول الماء في الإناء مثلاً ، ولا هو عرض يحل القلب أو الدماغ حلول السواد في الأسود والعلم في العالم بل هو جوهر مجرد ليس داخل البدن ولا خارجه ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، ولهم على ذلك عدة أدلة .

الدليل الأول : أن الإنسان يمكنه إدراك الأمور الكلية وذلك بارتسام صور المدركات في المدرك فمحل تلك الصور إن كان جسماً فإما أن يحل غير منقسم أو منقسماً ، والأول محال لأن الذي لا ينقسم من الجسم طرف نقطي والنقطة تمتنع أن تكون محلاً للصور العقلية لأنها مما لا يعقل حصول المزاج لها حتى يختلف حال استعدادها في القابلية وعدمها بل إن كانت قابلة للصور المذكورة وجب أن يكون ذلك القبول حاصلاً أبداً ولو كان كذلك لكان المقبول حاصلاً أبداً لما أن المبادىء الفعالة المفارقة عامة الفيض فلا يتخصص إلا لاختلاف أحوال القوابل فلو كان القابل تام الاستعداد لكان المقبول واجب الحصول وحينئذٍ يكون جميع الأجسام ذوات النقط عاقلة ، ويجب أيضاً أن يبقى البدن بعد الموت عاقلاً لبقاء محل الصور على استعداده وليس كذلك ، والثاني أيضاً محال لأن الحال في المنقسم منقسم فيلزم أن تكون تلك الصورة منقسمة أبداً وذلك محال لوجوه مقررة فيما بينهم .

الدليل الثاني : ما عول عليه الشيخ وزعم أنه أجل ما عنده في هذا الباب وهو أنه يمكننا أن نعقل ذواتنا وكل من عقل ذاتاً فله ماهية ذلك الذات فإذاً لنا ماهية ذاتنا فلا يخلو إما أن يكون تعقلنا لذاتنا لأجل صورة إلى الجمع بين المثلين فتعين الثاني ، وكل ما ذاته حاصل لذاته كان قائماً بذاته ، فإذن القوة العاقلة وهي الروح والنفس الناطقة قائمة بنفسها ، وكل جسم أو جسماني فإنه غير قائم بنفسه ، وأكثر تلامذته من الاعتراضات وأجاب عنها .

الدليل الثالث : ما عول عليه أفلاطون وهو أنا نتخيل صوراً لا وجود لها في الخارج ونميز بينها وبين غيرها فهذه الصور أمور وجودية ومحلها يمتنع أن يكون جسمانياً فإن جملة بدننا بالنسبة إلى الأمور المتخيلة لنا قليل من كثير فكيف ينطبق الصور العظيمة على المقادير الصغيرة ؟ وليس يمكن أن يقال : إن بعض تلك الصور منطبعة في أبداننا وبعضها في الهواء المحيط بنا إذ الهواء ليس من جملة أبداننا ولا آلة لنفوسنا في أفعالها أيضاً وهو ظاهر ، فإذن محل هذه الصور شيء غير جسماني وذلك هو النفس الناطقة .

الدليل الرابع : لو كان محل الإدراكات شيئاً جسمانياً لصح أن يقوم ببعض ذلك الجسم علم وبالبعض الآخر جهل فيكون الشيء الواحد عالماً جاهلاً بشيء واحد في حالة واحدة .

الدليل الخامس : أن الروح لو كان منطبعاً في جسم مثل قلب أو دماغ لكان إما أن يعقل دائماً ذلك الجسم أو لا يعقله كذلك أو يعقله في وقت دون وقت والأقسام باطلة فالقول بانطباعه باطل ، وبيان ذلك أن تعقل الروح لذلك الجسم إما أن يكون لأجل أن الآلة حاضرة عنده أو لأن صورة أخرى من تلك الآلة تحصل له فإن كان الأول فالروح إن أمكنه إدراك تلك الآلة وإدراك نفس مقارنتها له فما دامت الآلة مقارنة وجب أن يعقلها الروح فيكون دائم الإدراك لتلك الآلة وإن امتنع على الروح إدراك الآلة وجب أن لا يدركها أبداً فظاهر أنه لو كان تعقل الروح لتلك الآلة لأجل المقارنة لوجب أن يعقلها دائماً أو لا يعقلها كذلك وكلا القسمين باطل ، وأما إن كان تعقله لها لأجل حصول صورة أخرى منها فالروح إن كانت في تلك الآلة والصورة الثانية حاصلة فيه يكون الصورة الثانية للآلة حالة أيضاً في الآلة لأن الحال في الحال في الشيء حال في ذلك الشيء فيلزم الجمع بين المثلين وإن لم يكن الروح في تلك الحالة بل مجردة فذلك المطلوب واستدل بغير ذلك أيضاً .

وقد ذكر الإمام في المباحث من الأدلة اثني عشر دليلاً منها ما ذكر وأطال الكلام في ذلك جرحاً وتعديلاً وعول في إثبات هذا المطلب على غير ذلك فقال : والذي نعول عليه أن نقول : إن كل عاقل يجد من نفسه أنه الذي كان قبل فهويته إما أن تكون جسماً وإما أن تكون قائمة بالجسم وإما أن لا تكون شيئاً من الأمرين والأول بالباطل ، أما أولاً فلأن الإنسان قد يكون عالماً بهويته عند ذهوله عن جملة أعضائه الظاهرة والباطنة ، وأما ثانياً فلأن الأبعاض الجسمانية دائمة التحلل والتبدل لأن الأسباب المحالة من الحرارة الخارجية الداخلية والحركات النفسانية والبدنية مما لا تختص بجزء دون جزء والبدن مركب من الأعضاء المركبة وهي مركبة من الأعضاء البسيطة مثل اللحم والعظم فيكون كل جزء من اللحم مثل الآخر في الاستعداد للتحلل فإذا كانت الأجزاء كلها متساوية في ذلك كانت نسبة المحللات إلى كل واحد من الأجزاء كنسبته إلى الجزء الآخر فلم يكن عروض التحلل لبعض أولى من عروضه للبعض الآخر فثبت أن هوية الإنسان ليست جسماً وليست أيضاً قائمة بالجسم لأن القائم به يجب أن يتبدل عند تبدله لاستحالة انتقال الأعراض فكان يلزم أن لا يجد الإنسان من نفسه أنه الذي كان موجوداً قبل ، ولما كان هذا العلم من العلوم البديهية علمنا أن هوية الإنسان ليست جسماً ولا محتاجة إليه فهو جوهر مجرد وهو المطلوب .

ولا يلزم أن يكون لسائر الحيوانات هذا الجوهر لأنا وإن عرفنا أنها تعلم هويات أنفسها لكن لا نعرف أنها تعلم من أنفسها أنها هي التي كانت موجودة قبل ويمكن أن يحتج أيضاً على هذا المطلب بأنا قد دللنا على أن المدرك بجميع أصناف الإدراكات لجميع المدركات شيء واحد في الإنسان فنقول ذلك المدرك إما أن يكون جسماً أو قائماً به أو لا ولا ، والأول ظاهر الفساد لأن الجسم من حيث هو جسم لا يمكن أن يكون مدركاً ، والثاني أيضاً باطل لأن تلك الصفة إما أن تكون قائمة بجميع أجزاء البدن أو ببعض دون بعض والأول باطل وإلا لكان كل جزء من أجزاء البدن مبصراً سامعاً متخيلاً متفكراً عاقلاً وليس كذلك ، وبطل أيضاً أن يقال : إن بعض الأعضاء قامت به القوة المدركة لجميع هذه المدركات لأنه يلزم أن يكون في البدن عضو واحد سامع مبصر متخيل متفكر عاقل ولسنا نجد ذلك فينا ، وبهذا ظهر أيضاً فساد ما قيل : لعل القوة المدركة لجميع المدركات قائمة بجسم لطيف محصور في بعض الأعضاء لظهور أنا لا نجد من أبداننا موضعاً مشتملاً على هذا الجسم اللطيف السامع المبصر المتخيل المتفكر العاقل ، وليس لأحد أن يقول : هب أنكم لا تعرفون هذا الموضع لكن ذلك لا يدل على عدمه لأنا نقول إنا قد دللنا على أنا السامعون المبصرون المتخيلون العاقلون فلو كان بعض الأجسام سواء كان جزءاً من البدن أو محصوراً في جزء منه موصوفاً بالقوة المتعلقة بجميع هذه المدركات لم يكن حقيقتنا وهويتنا إلا ذلك

الجسم فلو لم نعرفه لكنا لا نعرف حقيقة أنفسنا وذلك باطل فثبت أن الموصوف بالقوة المدركة لجميع المدركات ليس جسماً أصلاً ولا قائماً به فهو جوهر مجرد وهو المطلوب ، وذكر هؤلاء الذاهبون إلى التجرد أنه متعلق بالبدن كتعلق العاشق عشقاً جبلياً إلهامياً بالمعشوق حتى أنه لا ينقطع ذلك التعلق ما دام البدن مستعداً لأن يتعلق به بل تعلق الروح أقوى من هذا التعلق بكثير وهو تعلق التدبير والتصريف وإضافته

*(65/425)*

---

إلى ضميره تعالى في الآية لأنه سبحانه وتعالى خلقه من غير واسطة تجري مجرى الأصل والمادة أو للتشريف ، وسئل حجة الإسلام عن ذلك فقال : لو نطقت الشمس وقالت : أفضت على الأرض من نوري يكون ذلك صدقاً ويكون معنى النسبة أن النور الحاصل للأرض من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه .

*(66/425)*

---

وإن كان في غاية من الضعف بالنسبة إليه وقد عرفت أن الروح منزه عن الجهة والمكان وفي قوته العلم بجميع الأشياء وذلك مضاهاة ومناسبة ولذلك خص بالإضافة وهذه المضاهاة ليست للجسمانيات أصلاً ، وليس لأحد أن يقول : إن في تنزيه الروح عن المكان وصفاً له بصفة الله تعالى شأنه وتقدست صفاته بل بأخص صفاته سبحانه ويلزم من ذلك عدم التميز فقد قالوا : كما يستحيل اجتماع جسمين في مكان واحد يستحيل أن يجتمع اثنان لا في مكان لأنه إنما استحال اجتماع جسمين في مكان لأنه لو اجتمعا لم يتميز أحدهما عن الآخر فكذلك لو وجد اثنان كل واحد منهما ليس في مكان لم يحصل التميز والفرق بينهما ولذا قالوا لا يجتمع سوادان في محل واحد حتى قيل المثلان كالضدين لأنا نقول : التميز غير منحصر بالمكان بل يكون به لجسمين في مكانين وبالزمان كسوادين في جوهر واحد في زمانين وبالحد والحقيقة كالأعراض المختلفة في محل واحد مثل الطعم واللون والبرودة والرطوبة في جسم واحد فإن تميز كل منها عن الآخر بذاته لا بمكان ولا زمان ومثل ذلك العلم والإرادة والقدرة فإن تميز كل أيضاً بذاته وإن كان الجميع لشيء واحد فإذا تصور أعراض مختلفة الحقائق في محل واحد فبأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها في غير مكان أولى ، وكون الوجود لا في مكان أخص صفاته سبحانه في حيز المنع بل الأخص أنه جل شأنه قيوم أي قائم بذاته وكل ما سواه قائم به وأنه تبارك وتعالى موجود بذاته وكل ما سواه تعالى موجود لا بذاته بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدم وإنما لها الوجود من غيرها

على سبيل العارية ، والوجود له سبحانه ذاتي غير مستعار فالقيومية ليس إلا لله عز وجل انتهى .

وهذا الذي قالوه من تجرد الروح خلاف ما عليه جمهور أهل السنة .

(67/425)

---

قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي : قد خاض سائر الفرق غمرة الكلام في الروح فما ظفروا بطائل ولا رجعوا بنائل وفيها أكثر من ألف قول وليس فيها على ما قال ابن جماعة قول صحيح بل كلها قياسات وتخليات عقلية ، وجمهور أهل السنة على أنها جسم لطيف يخالف الأجسام بالماهية والصفة متصرف في البدن حال فيه حلول الزيت في الزيتون والنار في الفحم يعبر عنه بأنا وأنت .

وإلى ذلك ذهب إمام الحرمين ، وقال اللقاني : جمهور المتكلمين على أنها جسم مخالف بالماهية للجسم الذي تتولد منه الأعضاء نوراني علوي خفيف حي لذاته نافذ في جوهر الأعضاء سار فيه سريان ماء الورد في الورد والنار في الفحم لا يتطرق إليه تبدل ولا انحلال بقاؤه في الأعضاء حياة وانفصاله عنها إلى عالم الأرواح موت .

وزعم بعضهم أن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس وروحه عرض قائم به وعزاه بعض

المتأخرين من المعاصرين إلى جمهور المتكلمين وجعله وامتناع اتحاد القابل والفاعل دليلاً على إبطال كون العبد خالقاً لأفعاله ، وقد رد الإمام في التفسير ذلك الزعم وارتضى ما نقلناه عن الجمهور فقال : إنهم قالوا لا يجوز أن يكون الإنسان عبارة عن هذا الهيكل المحسوس لأن أجزاءه أبداً في الذبول والنمو والزيادة والنقصان والاستكمال والذوبان ولا شك أن الإنسان من حيث هو هو أمر باق من أول عمره إلى آخره وغير الباقي غير الباقي فالمشار إليه عند كل أحد بقوله أنا وجب أن يكون مغايراً لهذا الهيكل .

(68/425)

---

ثم اختلفوا عند ذلك في أن المشار إليه بأنا أي شيء هو؟ والأقوال فيه كثيرة إلى أن أسدها تحصيلاً وتلخيصاً أنها أجزاء جسمانية سارية في هذا الهيكل سريان الماء في الورد والدهن في السمسم ثم إن المحققين منهم قالوا إن الأجسام التي هي باقية من أول العمر إلى آخره مخالفة بالماهية لما تركب منه الهيكل وهي حية لذاتها مدركة لذاتها نورانية لذاتها فإذا خالطت ذلك وصارت سارية فيه صار مستنيراً بنورها متحركاً بتحريكها ثم إنه أبداً في الذوبان والتحلل والتبدل وتلك الأجزاء لمخالفتها له بالماهية باقية بحالها وإذا فسد انفصلت عنه إلى عالم القدس إن كانت سعيدة أو عالم الآفات إن كانت شقية اه ، ومنه يعلم

بطلان الاستدلال على تجرد الروح بإبطال كون الإنسان عبارة عن الهيكل المحسوس كما يقتضيه كلام صاحب الهياكل حسبما يدل عليه كلام شارحه الجلال حيث قال في الهيكل الثاني : أنت لا تغفل عن ذاتك أبداً وما جزء من أجزاء بدنك ألا تنساه أحياناً ولا يدرك الكل إلا بأجزائه فلو كنت أنت هذه الجملة ما كان يستمر شعورك بذاتك مع نسيانها فأنت وراء هذا البدن وقال الجلال : فلا تكون النفس جسماً أصلاً لأن غاية ذلك إثبات أن النفس وراء هذا البدن لا إثبات أنها مع ذلك مجردة لجواز أن تكون جسماً لطيفاً كما علمت .

وزعم القاضي أن مذهب أكثر المتكلمين أن الروح عرض وأنها هي الحياة واختاره الأستاذ أبو إسحاق ولم يبال بلزوم قيام العرض بالعرض .

(69/425)

---

واعترض هذا الزاعم القول بالجسمية بأنها لو كانت جسماً لجاز عليها الحركة والسكون كسائر الأجسام فيلزم أن تكون كلها أرواحاً ولوجب أن يكون للروح روح أخرى لا إلى نهاية ، وفيه أنه إنما يلزم ما ذكر أن لو كان الجسم إنما كان روحاً لكونه جسماً وليس فليس فإنه إنما كان روحاً لمعنى خصه الله تعالى به وقد علمت أن القائل بالجسمية يقول : إنه حي لذاته

فلا يلزم التسلسل وبينه وبين الجسم عنده علاقة بحسب بخار لطيف يعبر عنه بالروح الحيواني ، وعرفه في الهياكل بأنه جسم لطيف بخاري يتولد من لطائف الأخلاط وينبعث من التجويف الأيسر من القلب وينبث في البدن بعد أن يكتسب السلطان النوري من النفس الناطقة ولولا لطفه لما سرى وهو مطية تصرفات النفس ومتى انقطع انقطع تصرفها ، وقال بعضهم : إنه اعتدال مزاج دم القلب والأمر في ذلك سهل ، وذهب بعض المحققين إلى أن الروح تطلق على الروح التي ذكر أنها جسم لطيف سار في البدن سريان ماء الورد في الورد وهو غير الروح الحيواني وعلى أمر رباني شريف له إشراق على ذلك الجسم اللطيف ولعل ذلك هو سبب حياة الروح بالمعنى الأول وإدراكها ونورانيتها ويعبر عنه بالروح الأمري وهو المراد من الروح في قوله تعالى :



---

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ﴾ [ الإسراء : 85 ] الآية ، ويطلقون كثيراً على الروح بالمعنى الأول النفس الإنسانية وعليها بالمعنى الثاني النفس الناطقة والذي يقال فيه : إنه جوهر مجرد ليس جسماً ولا جسمانياً ولا متصلاً ولا منفصلاً ولا داخل العالم ولا خارجه وأنه نور من أنوار الله تعالى القائمة لا في أين من الله عز وجل مشرقه وإليه سبحانه مغربه هو الروح

بهذا الإطلاق ، واختلفوا في أن حدوثها هل هو قبل الأبدان أو بعدها فقال حجة الإسلام : الحق أن الأرواح حدثت عند استعداد الجسد للقبول كما حدثت الصورة في المرآة بحدوث الصقالة وإن كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقيل ، وقد قال بذلك من الفلاسفة أرسطو ومتبعوه ، واستدلوا عليه بأنه لو كانت موجودة قبل الأبدان فأما أن تكون واحدة أو كثيرة وعلى الأول إما أن تتكثر عند التعلق بالبدن أولا فإن لم تتكثر كانت الروح الواحدة روحاً لكل بدن ولو كان كذلك لكان ما علمه إنسان علمه الكل وما جهله جهلة وذلك محال ، وإن تكثرت لزم انقسام ما ليس له حجم وهو أيضاً محال ، وعلى الثاني لا بد أن يمتاز كل واحدة منها عن صاحبتها إما بالماهية أو لوازمها أو عوارضها ، والأولان محالان لأن الأرواح متحدة بالنوع والواحد بالنوع يتساوى جميع أفراده بالذاتيات لوازمها ، وأما العوارض فحدوثها إنما هو بسبب المادة وهي هنا البدن فقبله لا مادة فلا يمكن أن يكون هناك عوارض مختلفة وبعد أن ساق حجة الإسلام الدليل على هذا الطرز قيل له : ما تقول في خبر " إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجسام بألفي عام " ؟ وقوله صلى الله عليه وسلم : " أنا أول الأنبياء خلقا وآخرهم بعثا وكنت نبياً وآدم بين الماء والطين "

فقال رحمه الله تعالى : نعم هذا يدل بظاهره على تقدم وجود الروح على الجسد ولكن أمر الظواهر هين لسعة باب التأويل ، وقد قالوا : إن البرهان القاطع لا يدرأ بالظاهر بل يؤول له الظاهر كما في ظواهر الكتاب والسنة في حق الله تعالى المنافية لما يدل عليه البرهان القطعي ، وحينئذ يقال : لعل المراد من الأرواح في الخبر الأول الملائكة عليهم السلام وبالأجساد أجساد العالم من العرش والكرسي والسموات ونحوها ، وإذا تفكرت في عظم هذه الأجساد لم تكد تستحضر أجساد الآدميين ولم تفهمها من مطلق لفظ الأجساد ، ونسبة أرواح البشر إلى أرواح الملائكة عليهم السلام كنسبة أجسادهم إلى أجساد العالم ولو انفتح عليك باب معرفة أرواح الملائكة لرأيت الأرواح البشرية كسراج قتبس من نار عظيمة طبقت العالم وتلك النار هي الروح الأخير من أرواح الملائكة .

(72/425)

---

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : " أنا أول الأنبياء خلقاً " فالخلق فيه بمعنى التقدير دون الإيجاد فإنه صلى الله عليه وسلم قبل أن يولد لم يكن مخلوقاً موجوداً ولكن الغايات سابقة في التقدير ولاحقة في الوجود ، وهو معنى قول الحكيم : أول الفكر آخر العمل ، فالدار الكاملة أول الأشياء في حق المهندس مثلاً تقديراً وآخرها وجوداً وما يتقدم على جودها

من ضرب اللبن ونحوه وسيلة إليها ومقصود لأجلها ، ولما كان المقصود من فطرة الآدميين إدراكهم لسعادة القرب من الحضرة الإلهية ولم يمكنهم ذلك إلا بتعريف الأنبياء عليهم السلام كانت النبوة مقصودة والمقصود كمالها وغايتها لا أولها وتمهيد أولها وسيلة إلى ذلك وكمالها به صلى الله عليه وسلم فلذلك كان أولاً في التقدير وآخراً في الوجود ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين" إشارة إلى هذا أيضاً وانه لم يشأ سبحانه خلق آدم إلا لينتزع الصافي من ذريته ولم يزل يستصفى تدريجاً إلى أن بلغ كمال الصفاء ، ولا يفهم هذا إلا بأن يعلم أن للدار مثلاً وجودين وجوداً في ذهن المهندس حتى كأنه ينظر إلى صورتها ووجوداً خارج الذهن مسبباً عن الوجود الأول فهو سابق عليه لا محالة .



---

وحينئذ يقال : إن الله تعالى يقدر أولا ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً ، والتقدير يرسم في اللوح المحفوظ كما يرسم تقدير المهندس أولا في لوح أو قرطاس فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعاً من الوجود يكون سبباً للوجود الحقيقي ، وكما أن هذه الصورة ترتسم في لوح المهندس بواسطة القلم والقلم يجري على وفق العلم بل العلم يجريه كذلك تقدير صور الأمور

الإلهية ترتسم أولاً في اللوح المحفوظ بواسطة القلم الإلهي والقلم يجري على وفق العلم السابق الأزلي ، واللوح عبارة عن موجود قابل لنقش الصور ، والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح وليس من شرطهما أن يكونا جسمين ولا يبعد أن يكون قلم الله تعالى ولوحة لائقين لأصبعه ويده وكل ذلك على ما يليق بذاته الإلهية ويقدس عن حقيقة الجسمية ، وقد يقال إنهما جوهران روحانيان أحدهما متعلم وهو اللوح والآخر معلم وهو القلم ، وقد أشير إلى ذلك ذلك بقوله سبحانه :

﴿ عَلَّمَ بالقلم ﴾ [ العلق : 4 ] فإذا فهمت معنيي الوجود فقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بالمعنى الأول منهما دون المعنى الثاني اه .

واعترض على الاستدلال من وجوه منها ما هو جار على رأي الفلاسفة المستدلين بذلك أيضاً ومنها ما لا اختصاص له برأيهم .

الأول لم لا يجوز أن يقال : إنها كانت قبل الأبدان واحدة ثم تكثرت ولا يقال : الكل لو كان واحداً وكان قابلاً للانقسام يلزم أن تكون وحدته اتصالية فيكون جسماً لأنا نقول : مسلم أن كل ما وحدته اتصالية فإنه واحد قابل للإنقسام ولا نسلم أن كل واحد قابل للانقسام فوحدته اتصالية لأن الموجبة الكلية لا تنعكس كنفسها .

الثاني سلمنا أنها كانت متكثرة لكن لم قلتم لا بد أن يختص كل بصفة مميزة لأنه لو كان التميز للاختصاص بأمر ما لكان ذلك الأمر أيضاً متميزاً عن غيره فأما أن يكون تميزه بما به تميزه فيلزم الدور أو بثالث فيلزم التسلسل ولأن التميز لا يختص بشيء بعينه إلا بعد تميزه فلو كان تميز الشيء عن غيره باختصاصه بشيء لزم الدور .

الثالث سلمنا أنه لا بد من ميز فلم لا يجوز أن يكون بذاتي ، وبيانه ما بينوه من اختلاف النفوس بالنوع .

الرابع سلمنا أنها لا تتميز بشيء من الذاتيات فلم لا يجوز أن تتميز بالعوارض ؛ قولكم : إن حدوثها بسبب المادة وهي هنا البدن ولا بدن فنقول لم لا يجوز أن يكون هناك بدن تتعلق به وقبله آخر وهكذا ولا مخلص من هذا إلا بابطال التناسخ فتوقف حجة إثبات حدوث الأرواح على ذلك الإبطال مع أن الحكماء بنوا ذلك على الحدوث حيث قالوا بعد الفراغ من دليله : إذا ثبت حدوث النفس فلا بد وأن يكون لحدوثها سبب وذلك هو حدوث البدن فإذا حدث البدن وتعلقت به نفس على سبيل التناسخ وثبت أن حدوث النفس سبب لأن يحدث عن المبادىء المفارقة نفس أخرى فحينئذ يلزم اجتماع نفسين في بدن فيجيء الدور .

الخامس سلمنا عدم تعلقها ببدن قبل لكن لم لا يجوز أن تكون موصوفة بعارض باعتباره كانت متميزة ثم يكون كل عارض بسبب عارض آخر لا إلى أول .

(75/425)

---

السادس : المعارض وهي أن الأرواح عند الفريقين باقية بعد المفارقة ولا يكون تمايزها بالماهية ولوازمها بل بالعوارض لكن الأرواح الهيولانية التي لم تكتسب شيئاً من العوارض إذا فارقت لا يكون فيما شيء من العوارض سوى أنها كانت متعلقة بأبدان فإن كفى هذا القدر في وقوع التمايز فلكيف أيضاً كونها بحيث يحدث لها بعد التعلق بأبدان متمايزة ، قولهم : لم لا يجوز أن تكون قبل واحدة فتكسرت ، قلنا : لا يجوز لأن كل ما انقسم وجب أن يكون جزؤه مخالفاً لكله ضرورة أن الشيء مع غيره ليس هو لا مع غيره فتلك المخالفة إن كانت بالملاهية أو لوازمها وجب أن يكون كل واحد من الأجزاء مخالفاً للآخر بالماهية فتكون تلك الأجزاء قد كانت متميزة أبداً وكانت موجودة قبل التعلق .

فهذه الأمور المتعلقة الآن بالأبدان كانت متميزة قبل التعلق بها وإن كانت المخالفة لا بالماهية ولا بلوازمها فلا بد أن يكون الجزء أصغر مقداراً من الكل وإلا لم يكن أحدهما أولى بأن يكون جزء الآخر من العكس ، فثبت أن كل واحد قابل للانقسام فلا بد أن يكون ذا

مقدار .

سلمنا أن المجرد لا يمكن أن ينقسم بعد وحدته لكن تعينات تلك الأجزاء إنما تحدث بعد الانقسام الحاصل بعد التعلق بالبدن فيكون تعين كل واحد من تلك الأجزاء بعد التعلق بالبدن فيكون تعين كل واحدة من تلك النفوس من حيث هي حادثاً وهو المطلوب .

وقولهم : لم قلتم إن الامتياز لا يوجد إلا عند الاختصاص بوصف ، قلنا : يجاب بنحو ما ذكروه في تشخص التشخص ، وقولهم لم قلتم : إن النفوس لا يجوز أن تمايز بالصفات المقومة ؟ قلنا : هب أن لأمر كما قلتموه إلا أنا لا نعرف بالبديهة أن كل نوع من أنواعها فإنها مقولة على أشخاص عدة بالضرورة فانا نعلم أنه ليس يجب أن يكون كل إنسان مخالفاً لجميع الناس في الماهية ، وإذا وجد في كل نوع من أنواعها شخص فقد تمت الحجة .

وقولهم : إن هذه الحجة مبنية على إبطال التناسخ .

قلنا : ليس كذلك .



---

لأنا إذا وجدنا من النوع الواحد شخصين علمنا أن تلك الشخصية ليست معلولة لتلك الماهية لأن كل ما كان كذلك كان نوعه في شخصه ، ولما لم يكن كذلك علمان أن شخصيته

ليست من لوازم ماهيته فهي إذن لعلة خارجية ، وقد عرفت أن العلة هي المادة ومادة النفس هي البدن فاذن تعينها لا بد وأن يكون للتعلق ببدن معين فتكون لا محالة غير متعينة قبل ذلك البدن فهي معدومة قبله .

وبهذا يظهر أن كل ما نوعه مقول على كثيرين بالفعل فهو محدث ، فاتضح من هذا أنه متى سلم كون النفوس متحدة في النوع يلزم حدوثها وأنه لا يحتاج في ذلك إلى إبطال التناسخ ليجيء الدور السابق .

قولهم : لم لا يجوز أن تكون موصوفة بعارض الخ ؟ قلنا : لا يجوز أن يكون امتيازها بذلك لأن تميز النفس المعينة عن غيرها حكم معين لا بد له من علة معينة ، وتلك العلة لا يمكن أن تكون حالة فيها لأن ذلك متوقف على امتيازها عن غيرها فلو توقف ذلك الامتياز على حلول ذلك الحال لزم الدور ، فاذن تلك العلة أمر عائد إلى القابل وقيل البدن لا قابل فلا تميز .

والمتكلمون يبطلون مثل ما ذكر بلزوم التسلسل الذي يبطله برهان التطبيق .

وأما المعاوضة فالجواب عنها بأن النفوس الهيولانية يتميز بعضها عن البعض أولا بسبب تعلقها بالقابل المعين ثم إنه يلزم من تعين كل واحد منها شعورها بذاتها الخاصة وقد بين أن شعور الشيء بذاته حالة زائدة على ذاته ثم إن ذلك الشعور يستمر فلا جرم يبقى الامتياز .

والحاصل أن الامتياز لا بد وأن يحصل أولا بسبب آخر حتى يحصل لكل من النفوس شعور بذاته الخاص وذلك السبب في النفوس الهيولانية تعلقها بالأبدان ، وأما التي قبل الأبدان فلو تميزت لكان المميز سوى الشعور حتى يترتب هو عليه ، وقد بين أنه ليس هناك مميز فلا جرم استحال حصول التميز وظهر الفرق والله تعالى الموفق .

(77/425)

---

وقد استدل صاحب المعتبر على حدوثها بأنها لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما متعلقة بأبدان أخر أولا والأول باطل لأنه قول بالتناسخ وهو باطل لأن أنفسنا لو كانت من قبل في بدن آخر لكنا نعلم الآن شيئاً من الأحوال الماضية ونتذكر ذلك البدن وليس فليس ، والثاني كذلك لأنها تكون حينئذ معطلة ولا معطل في الطبيعة وهو دليل بجميع مقدماته ضعيف جداً فلا تعتبره ، وزعم قوم من قدماء الفلاسفة قدمها وأوردوا لذلك أموراً .

الأول : أن كل ما يحدث فلا بد أن يكون له مادة تكون سبباً لأن يصير أولى بالوجود بعد أن كان أولى بالعدم فلو كانت النفوس حادثة لكانت مادية وليس فليس .

الثاني : أنها لو كانت حادثة لكان حدوثها لحدوث الأبدان لكن الابدان الماضية غير متناهية فالنفوس الآن غير متناهية لكن ذلك محال لكونها قابلة للزيادة والنقصان والقابل

لهما متناه فهي الآن متناهية ، فاذن ليس حدوث الأبدان علة لحدوثها فلا يتوقف صدورها عن عللها على حدوث أمر فتكون قديمة .

الثالث : أنها لو لم تكن أزلية لم تكن أبدية لما ثبت أن كل كائن فاسد لكنها أبدية إجماعاً فهي أزلية ، ويرد عليهم أنه إن أريد بكونها مادية أن حدوثها يكون متوقفاً على حدوث البدن فالأمر كذلك ، وإن أريد به أنها تكون منطبعة في البدن فلم قلتم : إنه لو توقف حدوثها على حدوث البدن وجوب أن تكون منطبعة فيه ، وأيضاً لمانع أن يمنع فساد لزوم كون النفوس الآن غير متناهية ، والمقدمة القائلة إن كل قابل للزيادة والنقصان متناه ليس من الأوليات قطعاً كما هو ظاهر فإذن لا تصح إلا ببرهان وهو لا يتقرر إلا فيما يحتمل الانطباق على ما بين في محله ، وقولهم : لو لم تكن أزلية لم تكن أبدية قضية لا حجة لهم على تصحيحها فلا تقبل ، ثم ان كون النفوس متحدة بالنوع مما قد صرح به جماعة من المتكلمين كالغزالي وغيره ، وإليه ذهب الشيخ من الفلاسفة إلا أنه لم يأت لذلك بشبهة فضلاً عن حجة واستدل غيره بأمور .

الأول : أن النفوس مشتركة في أنها نفوس بشرية فلو انفصل بعضها عن بعض بمقوم ذاتي مع هذا الاشتراك لزم التركيب فكانت جسمانية .

الثاني أنا نرى الناس مشتركين في صحة العلم بالمعلومات ، وفي صحة التخلق بالأخلاق فالنفوس متساوية في صحة اتصافها بالأفعال الإدراكية والتحريكية ، وذلك يوجب أن تكون متساوية مطلقاً لأن نعقل من صفاتها إلا كونها مدركة ومتحركة بالإدارة وهي متساوية فيهما فهي إذن متساوية في جميع صفاتها المعقولة فلو اختلفت بعد ذلك لكان اختلافها في صفات غير معقولة ، ولو فتحنا هذا الباب لزم تعذر الحكم بتماثل شيئين لجواز اختلافهما في غير معقول عندنا وذلك يؤدي إلى القدح في تماثل المتماثلات .

الثالث : أنه بين في محله أن كل ماهية مجردة لا بد وأن تكون عاقلة لحقيقة ذاتها لكن نفس زيد مثلاً مجردة فهي عاقلة لذلك ثم إنها لا تعقل إلا ماهية قوية على الإدراك والتحريك فإذن ماهيته هذا القدر وهو مشترك بينه وبين سائر النفوس بالأدلة التي ذكروها في بيان أن الوجود مشترك فيكون حينئذ تمام ماهيته مقولاً على سائر النفوس ، ويمتنع أن يكون هذا المشترك فصل مقوم في غيره إذ هو غير محتاج إليه في زيد إلى فصل يميزه عن غيره فلا يحتاج في غيره أيضاً إلى فصل فإن الطبيعة الواحدة لا تكون محتاجة غنية معا ، فثبت الاتفاق في النوع وهي أدلة واهية .

أما الأول فلقائل أن يقول : لم لا يجوز أن هذه النفوس وإن كانت مختلفة بالنوع فهي غير متشاركة في الجنس فلا يلزم من ذلك الاختلاف كونها مركبة ؟ والاشتراك في كونها نفوساً بشرية ونحوه يجوز أن يكون اشتراكاً في أمور لازمة لجوهرها ولا تكون مقومة لها فتكون مختلفة في تمام ماهيتها ، ومشتركة في اللوازم الخارجية مثل اشتراك الفصول المقومة لأنواع جنس واحد في ذلك الجنس فلا يلزم التركيب ، ولو سلمنا أن هذه الأوصاف ذاتية فلم لا يجوز أن تكون النفوس مركبة في ماهياتها مع عدم كونها جسمانية فالسواد والبياض مثلاً مندرجان تحت جنس وهو اللون فيكون كل منهما مركباً لا تركيباً جسمانياً ، ومثل هذا يقال هنا كيف لا وبقد قالوا : الجوهر مقول على النفس والجسم .

وأما الثاني فمداره الاستقراء ، ويضعف ذلك لوجهين .

أحدهما : أنه لا يمكننا أن نحكم على كل إنسان بكونه قابلاً لجميع المدركات .

وثانيهما أنه لا يمكننا أيضاً أن نحكم على النفس التي علمنا قبولها لصفة أنها قابلة لجميع الصفات كيف وضبط الصفات غير ممكن .

وأما الثالث : فهو يقتضي أن يكون جميع المفارقات نوعاً واحداً وهو مما لا سبيل إليه ، وذهب شرذمة إلى اختلافها بالنوع ، وهذا المعتبر عند صاحب المعتبر وطول الكلام في ذلك ، وأحسن ما عول عليه في الاستدلال له اختلاف الناس في العلم والجهل والقوة والضعف والغضب والتحمل وغير ذلك فقال : ليس ذلك لاختلاف المزاج لما أنا نجد متساويين مزاجاً مختلفين أخلاقاً وبالعكس ، وأيضاً أن نفس النبي عليه الصلاة والسلام تبلغ قوتها إلى حيث تكون قوية على التصرف في هيولي هذا العالم ومعلوم أن ذلك ليس لقوة مزاجه فليس ذلك الاختلاف إلا لاختلاف الجواهر ، وأنت تعلم أن هذا ليس في الحقيقة من البراهين بل هو من الاقناعات الضعيفة فتدبر جميع ما ذكرناه وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة للكلام في هذا المقام وهو لعمر الله تعالى طويل الذيل ، وبالجملة ان الوقوف على حقيقة الروح أمر عسر والطريق إليه وعر ، وقد جعل الله سبحانه ذلك من أعظم آياته الدالة على جلال ذاته وكمال صفاته فسبحانه من إله ما أجله ومن رب ما أكمله .

﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أمر للملائكة عليهم السلام بالسجود لآدم عليه السلام على وجه التحية والتعظيم أو لله تعالى وهو عليه السلام بمنزلة القبلة حيث ظهرت فيه تعاجيب آثار قدرته عز وجل كقوله حسان :

أليس أول من صلى لقبلتكم . . .

وأعلم الناس بالقرآن والسنن

وفي أمرهم بالوقوع أي السقوط دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل بل السجود بالمعنى المتبادر .

﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فسجد له الملائكة ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد بل أوقعوا الفعل مجتمعين في وقت واحد ، هذا على ما ذهب إليه الفراء والمبرد من دلالة أجميع على الاجتماع في وقت الفعل ، وقال البصريون : انها ككل لافادة العموم مطلقاً .

(81/425)

---

ومن هنا منع تعاطفما فلا يقال جاء القوم كلهما وأجمعون وردوا على ذلك بقوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 39 ] لظهور أن لا اجتماع هناك . ورده في الكشف بأن الاشتقاق من الجمع يقتضيه لأنه ينصرف إلى أكمل الأحوال فإذا فهمت الاحاطة من لفظ آخر وهو كل ملم يكن بد من كونه في وقت واحد وإلا كان لغواً ، والرد بالآية منشؤه عدم تصور وجه الدلالة ، ومنه يعلم وجه فساد النظر بأنه لو كان الأمر كذلك لكان حالاً لا تأكيداً ، فالحق في المسألة مع الفراء .

والمبرد وذلك هو الموافق لبلاغة التنزيل ، وزعم البصريون أنه إنما أكد بتأكيدين للمبالغة في

التعميم ومنع التخصيص.

وزعم غير واحد أنه لا يؤكد بأجمع دون كل اختياراً والمختار وفاقاً لأبي حيان جوازه لكثرة وروده في الفصيح ففي القرآن عدة آيات من ذلك؛ وفي الصحيح " فله سلبه أجمع. فصلوا جلوساً أجمعون " ولعل منشأ الزعم وجوب تقديم كل عند الاجتماع، ويرده أن النفس يجب تقديمها على العين إذا اجتمعا مع جواز التأكيد بالعين على الانفراد، وما ذكروه من وجوب تقديم كل إنما هو بناء على ما علمت من الحق لرعاية البساطة والتركيب هذا.

ثم إنه قد تقدم الكلام في تحقيق أن سجودهم هذا هل ترتب على ما حكى من الأمر التعليقي كما يقتضيه هذه الآية الكريمة أو على الأمر التنجيزي كما يستدعيه بعض الآيات فتذكر.

(82/425)

---

﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ استثناء متصل ما لأنه كان جنياً مفرداً مغموراً بألوف من الملائكة فعد منهم تغليباً واما لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم جن وهو منهم وإما لأنه ملك لا جنى، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ مِنْ الجن ﴾ [ الكهف: 50 ] مؤول كما ستعلمه إن شاء الله

تعالى ، وقوله سبحانه : ﴿ إِبْلِيسَ أَبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستنثاء بناء على أنه من الاثبات نفي ومن النفي إثبات وهو الذي تميل إليه النفس فإن مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الإباء والاستكبار ، وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً فجملة ﴿ أَبى ﴾ الخ متصلة بما قبلها ، ووجه ذلك بأن إلا بمعنى لكن وإبليس اسمها ، والجملة خبرها كذا قيل : وفي الهمع أن البصريين يقدرون المنقطع بلكن المشددة ويقولون : إنما يقدر بذلك لأنه في حكم جملة منفصلة عن الأولى فقولك : ما في الدار أحد الاحمارا في تقدير لكن فيها حماراً على أنه استدراك يخالف ما بعد لكن فيها ما قبلها غير أنهم اتسعوا فأجروا إلا مجرى لكن لكن لما كانت لا يقع بعدها إلا المفرد بخلاف لكن فإنه لا يقع بعدها إلا كلام تام لقبوه بالاستثناء تشبيهاً بها إذا كانت استثناء حقيقة وتفريقاً بينها وبين لكن ، والكوفيون يقدرونه بسوى ، وقال قوم منهم ابن يسعون : إلا مع الاسم الواقع بعدها في المنقطع يكون كلاماً مستأنفاً ، وقال في قوله : وما بالربع من أحد .

الا الأواري إلا فيه بمعنى لكن والأواري اس ملها منصوب بها والخبر محذوف كأنه قال : لكن الأواري بالربع وحذف خبر إلا كما حذف خبر لكن في قوله :

ولكن زنجياً عظيم المشارف . . .

اه .

والظاهر منه أن البصريين وإن قدروه بلكن لا يعربونه هذا الإعراب فهو تقدير معنى لا تقدير إعراب ، ولعل التوجيه السابق مبني على مذهب ابن يسعون إلا أنه لم يصرح فيه بورود الخبر مصرحاً به ، نعم صرح بعضهم بذلك وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة لهذا المبحث في هذه السورة فافهم ، ووجه الانقطاع ظاهر لأن المشهور أنه ليس من جنس الملائكة عليهم السلام ، والانقطاع على ما قال غير واحد يتحقق بعدم دخوله في المستثنى منه أو في حكمه ، وما قيل : إنه حينئذ لا يكون مأموراً بالسجود فلا يلزم والاعتذار عنه بأن الجن كانوا مأمورين أيضاً واستغنى بذكر الملائكة عليهم السلام عنهم وأنه معنى الانقطاع وتوجه اللوم من ضيق العطن .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال من قال : فماذا قال الرب تعالى عند آبائه ؟ فقيل قال سبحانه : يَا ابْلِيسُ مَالَكَ ﴾ أي أي سبب لك كما يقتضيه الجواب ، وقوله تعالى : ﴿ ما منعك ﴾ [ الأعراف : 12 ] ﴿ أَلاَّ تَكُونَ ﴾ أي في أن لا تكون ﴿ مَعَ الساجدين ﴾ لما خلقت مع أنهم هم ومنزلتهم في الشرف منزلتهم ، وكأن في صيغة الاستقبال إيماء إلى

مزيد قبح حاله ، ولعل التوبيخ ليس لمجرد تخلفه عن أولئك الكرام بل لأمور حكيت متفرقة أشعاراً بأن كلاًّ منها كاف في التوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه وشناعته ، وقد تركت حكاية التوبيخ رأساً في غير سورة اكتفاء بحكايتها في موضع آخر ، والظاهر أن قول الله تعالى له ذلك لم يكن بواسطة وهو منصب عال إذا كان على سبيل الاعظام والاجلال دون الإهانة والإذلال كما لا يخفى .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) ﴾

(84/425)

---

﴿ قَالَ ﴾ استئناف على نحو ما تقدم ﴿ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي ينافي حالي ولا يستقيم مني أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني كثيف ﴿ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ إشارة إجمالية إلى ادعاء خيريته وشرف مادته ، وقد نقل عنه لعنه الله تعالى التصريح بذلك في آية أخرى ، وقد عنى اللعين بهذا الوصف بيان مزيد خسة أصل من لم يسجد له وحاشاه وقد اكتفى في غير موضع بحكاية بعض ما زعمه موجباً للخسة ، وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصي عن المناقشة وأني له ذلك كأنه قيل : لم أمتنع عن الانتظام في سلك الساجدين بل عما لا يليق بشأني من السجود للمفضول ،

وقد أخطأ اللعين حيث ظن أن الفضل كله باعتبار المادة وما درى أنه يكون باعتبار الفاعل وباعتبار الصورة وباعتبار الغاية بل إن ملاك الفضل والكمال هو التخلي عن الملكات الردية والتحلي بالمعارف الربانية :

فشمال والكاس فيها يمين . . .

ويمين لا كاس فيها شمال

ولله تعالى در من قال :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا . . .

يغنيك مضمونه عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا . . .

ليس الفتى من يقول كان أبي

على أن فيما زعمه من فضل النار على التراب منعاً ظاهرا وقد تقدم الكلام في ذلك .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ استئناف كما تقدم أيضاً ﴿ فاخرج مِنْهَا ﴾ قيل: الظاهر أن الضمير للسماء وإن لم يجر لها ذكر، وأيد بظاهر قوله تعالى: ﴿ فاهبط مِنْهَا ﴾ [ الأعراف: 13 ] وقيل لزمرة الملائكة عليهم السلام ويلزم خروجه من السماء إذ كونه بانزاوئه عنهم في جانب لا يعد خروجاً في المتبارد وكفى به قرينة، وقيل: للجنة لقوله تعالى: ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة ﴾ [ الأعراف: 19 ] ولوقوع الوسوسة فيها ورد بأن وقوعها كان بعد الأمر بالخروج ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من كل خير وكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجارة فالكلام من باب الكناية، وقيل: أي شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد بالرجم بها، وقد تضمن هذا الكلام الجواب عن شبهته حيث تضمن سوء حاله، فكأنه قيل: إن المانع لك عن السجود شقاوتك وسوء خاتمتك وبعدك عن الخير لا شرف عنصرك الذي تزعمه، وقيل: تضمنه ذلك لأنه علم منه أن الشرف بتشريف الله تعالى وتكريمه فبطل ما زعمه من رجحانه إذ أبعده الله تعالى وأهانه وقرب آدم عليه الصلاة والسلام وكرمه، وقيل: تضمنه للجواب بالسكوت كما قيل: جواب ما لا يرتضي السكوت، وفي تفسير الرجيم بالمرجوم بالشهب إشارة لطفية إلى أن اللعين لما افتخر بالنار عذب بها في الدنيا فهو:

كعابد النار يهواها وتحرقه . . .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) ﴾

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة ﴾ الأبعاد على سبيل السخط وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول فيضه تعالى وتوفيقه سبحانه ، ومن الإنسان دعاء بذلك والظاهر أن المراد لعنة الله تعالى لقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى ﴾ [ ص : 78 ] ﴿ إلى يَوْمِ الدين ﴾ إلى يوم الجزاء ، وفيه اشعار بتأخير جزائه إليه وإن اللغنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ ، وفيه من التهويل ما فيه ، وجعل ذلك غاية أمد اللعنة قيل ليس لأنها تنقطع هنالك بل لأنه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من افانين العذاب فتصير هي كالزائل ، وقيل : إنما غيا بذلك لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم فهو نظير قوله تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ [ هود : 107 ] على قول .

وقال بعضهم : إن المراد باللعنة لعن الخلائق له لعنة الله تعالى عليه وذلك منقطع إذا نفخ في الصور وجاء يوم الدين دون لعن الله تعالى له وابعاده إياه فإنه متصل إلى الأبد . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(87/425)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾

يعني آدم : ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ أي : طين يابس مصوّت : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ صفة لصلصال ، أي : كائن من طين متغير مسود : ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي : مصور ، من ( سنة الوجه ) وهي صورته . أو مصبوب ، من ( سنّ الماء ) صبه . أي : مفرغ على هيئة الإنسان . كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل ، ثم صيَّره جسداً ولحماً ونفخ فيه من روحه .

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل الإنسان .

﴿ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ أي : من نار الريح الشديد الحرّ .

قال أبو السعود : ومساق الآية ، كما هو ، للدلالة على كمال قدرته تعالى ، وبيان بدء خلق الثقلين ؛ فهو التنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر ، وهو قبول المواد للجمع والإحياء .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي : عدلت خلقته وأكملتها : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أي : تحية له وتعظيماً .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

يعني : وقد خلقتني من نار ، فأنا خير منه ، كما صرح به في آية غيرها . وفي تكرير قوله : ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ الخ تذكير للإنسان بأصله هذا المفضول ؛ ليكون كابحاً من جماح غوايته ، وشدة تمرده .

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي : من زمرة الملائكة المعززين : ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي : مطرود من كل خير وكرامة . فإن من يطرد يرجم بالحجارة . أو شيطان يرجم بالشهب ، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته . فإن من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون . أفاده أبو السعود .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : الجزاء . وهو يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 348 ـ 349 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه خلق أبانا آدم من صلصال من حمأ مسنون والصلصال الطين اليابس الذي يصل اي يصوت من يبسه إذا ضربه شيء ما دام لم تمسه النار فإذا مسته النار فهو حينئذ فخار ، وأصل الصليل والصلصلة واحد ، والفرق بينهما أنك إذا توهمت في الصوت مداً فهو صليل ، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة ، والحمأ : الطين الأسود المتغير والمسنون . قيل : المصور من سنة الوجه وهي صورته ، ومنه قول ذي الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة . . . ملساء ليس بها خال ولا ندب

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما ساله نافع بن الأزرق عن معنى المسنون وأجابه بأن معناه المصور قال له : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقال له ابن عباس : نعم ، أما سمعت قول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أغر كأن البدر سنة وجهه . . . جلا الغيم عنه ضوءه فتبددا

وقيل المسنون المصبوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها وقيل المسنون المنتن وقال بعض العلماء المسنون الأملس قال ومنه قول عبد الرحمن بن حسان :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء . . . تمشي في مرمر مسنون

أي أملس صقيل قاله ابن كثير وقال مجاهد الصلصال هو المنتن وما قدمنا هو الحق بدليل قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ [ الرحمن : 14 ] إذا عرفت هذا فاعلم أن الله جل وعلا أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه آدم فبين أنه أولاً تراب بقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ آل عمران : 59 ] وقوله : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [ الحج : 5 ] وقوله ﴿ هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [ غافر : 67 ] الآية إلى غير ذلك من الآيات ثم اشار إلى ان ذلك التراب بل فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع أخر كقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴾ [ الصافات : 11 ] وقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [ المؤمنون : 12 ] وقوله : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ﴾ [ السجدة : 7 ] إلى غير ذلك من الآيات وبين أن ذلك الطين أسود وأنه متغير بقوله هنا ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [ الحجر : 26 ] وبين أيضاً أنه يبس حتى صار صلصلاً اي تسمع له صلصة من يبسه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صَلْصَالٍ ﴾ [ الحجر : 26 ] الآية وقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار ﴾ [ الرحمن : 14 ] الآية

والعلم عند الله تعالى .

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) ﴾

(91/425)

---

بين في هذه الآية الكريمة أن إبليس أبى أن يسجد لآدم وبين في مواضع أخر أنه تكبر عن امتثال أمر ربه كقوله في البقرة : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أبى واستكبر ﴾ [ البقرة : 34 ] الآية وقوله في ص ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ استكبر وكَانَ مِنَ الكافرين ﴾ [ ص : 74 ] وأشار إلى ذلك هنا بقوله : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [ الحجر : 33 ] كما تقدمت الإشارة إليه .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه سأل إبليس سؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من السجود لآدم الذي أمره به ربه جل وعلا وبين أيضاً في الأعراف وص أنه وبخه أيضاً بهذا السؤال قال في الأعراف ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُك ﴾ [ الأعراف : 12 ] الآية وقال في ص : ﴿ قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ ص : 75 ] الآية وناداه باسمه إبليس في الحجر وص ولم يناده به في الأعراف .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) ﴾

هذا القول الذي ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن إبليس لعنه الله أنه لم يكن ليسجد لبسر مخلوق من الطين مقصوده به أنه خير من آدم لأن آدم خلق من الطين وهو خلق من النار كما يوضحه قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ الأعراف: 12 ].

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر إبليس بالخروج من الجنة مؤكداً أنه رجيم وبين في الأعراف أنه خروج هبوط وأنه يخرج متصفاً بالصغار والذل والهوان بقوله: ﴿ قَالَ فاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ﴾ [ الأعراف: 13 ].

(92/425)

---

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) ﴾

بين في هذه الآية الكريمة أن اللعنة على إبليس إلى يوم الدين وصرح في ص بأنه لعنته جل وعلا على إبليس غلى يوم الدين بقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يَوْمِ الدين ﴾ [ص: 78 ] وقد قدمنا في الفاتحة بيان يوم الدين. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) ﴾

تكملة لإقامة الدليل على انفراده تعالى بخلق أجناس العوالم وما فيها .

ومنه يتخلص إلى التذكير بعداوة الشيطان للبشر ليأخذوا حذرهم منه ويحاسبوا أنفسهم على ما يخامرها من وَسْوَاسه بما يرديهم .

جاء بمناسبة ذكر الإحياء والإماتة فإن أهم الإحياء هو إيجاد النوع الإنساني .

ففي هذا الخبر استدلال على عظيم القدرة والحكمة وعلى إمكان البعث ، وموعظةٌ وذكرى .

والمراد بالإنسان آدم عليه السلام .

والصلصال : الطين الذي يترك حتى ييبس فإذا يبس فهو صلصال وهو شبه الفَخّار ؛ إلا أن الفَخّار هو ما يبس بالطبخ بالنّار .

قال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ [ سورة الرحمن : 14 ] .

والحَمأ : الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته .

وقوله : ﴿ من حمإ ﴾ صفة ل ﴿ صلصال ﴾ و ﴿ مسنون ﴾ صفة ل ﴿ حمإ ﴾ أو ل ﴿ صلصال ﴾ .

وإذ كان الصلصال من الحمأ فصفة أحدهما صفة للآخر .

والمسنون : الذي طالت مدة مكثه ، وهواسم مفعول من فعل سنّهُ إذا تركه مدة طويلة تشبه السّنة .

وأحسب أن فعل ( سَن ) بمعنى ترك شيئاً مدة طويلة غيرُ مسموع .

ولعل ( تَسَنّه ) بمعنى تغيّر من طول المدّة أصله مطاوع سَنه ثم تنوسي منه معنى المطاوعة .

وقد تقدم قوله تعالى ﴿ لم يتسنّه ﴾ في سورة البقرة ( 259 ) .

والمقصود من ذكر هذه الأشياء التنبيه على عجيب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعاً هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة .

وفيه إشارة إلى أن ماهية الحياة تتقوم من الترابية والرطوبة والتعفن ، وهو يعطي حرارة ضعيفة .

ولذلك تنشأ في الأجرام المتعفّنة حيوانات مثل الدود ، ولذلك أيضاً تنشأ في الأمزجة المتعفّنة الحمى .

وفيه إشارة إلى الأطوار التي مرّت على مادة خلق الإنسان .

وتوكيد الجملة بلام القسم وبحرف ( قد ) لزيادة التحْقيق تنبيهاً على أهميّة هذا الخلق وأنه بهذه الصفة .

وعطف جملة والجانّ خلقناه ﴾ إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين بني آدم وجُند إبليس .

وأكدت جملة ﴿ والجان خلقناه ﴾ بصيغة الاشتغال التي هي تقوية للفعل بتقدير نظيره المحذوف ، ولما فيها من الاهتمام بالإجمال ثم التفصيل لمثل الغرض الّذي أكدت به جملة ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ الخ .

وفائدة قوله : ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل خلق الإنسان تعليم أن خلق الجانّ أسبق لأنّه مخلوق من عنصر الحرارة والحرارة أسبق من الرطوبة .

و ﴿ السموم ﴾ بفتح السين : الريح الحارة .

فالجنّ مخلوق من النارية والهوائية ليحصل الاعتدال في الحرارة فيقبل الحياة الخاصة اللائقة بخلقة الجنّ ، فكما كوّن الله الحمأةَ الصلصالَ المسنونَ لخلق الإنسان ، كَون ريحاً حارة وجعل منها الجنّ .

" فهو مكون من حرارة زائدة على مقدار حرارة الإنسان ومن تهوية قوّية .

والحكمة كلّها في إتقان المزج والتركيب .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) ﴾

عطف قصة على قصة .

و ﴿ إذ ﴾ مفعول لفعل ( اذكر ) محذوف .

وقد تقدم الكلام في نظائره في سورة البقرة وفي سورة الأعراف .

والبشر مرادف الإنسان ، أي أنّي خالق إنساناً .

وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم ، أو أن الله وصف لهم حقيقة الإنسان بالمعنى الذي عبّر عنه في القرآن بالعبارة الجامعة لذلك المعنى .

وإنما ذُكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أن شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها كما أومأ إلى ذلك قوله : ﴿ فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

والتسوية : تعديل ذات الشيء .

وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح .

والنفخ : حقيقته إخراج الهواء مضغوطاً بين الشفتين مضمومتين كالصفير ، واستعير هنا لوضع قوة لطيفة السريان قوية التأثير دَفعة واحدة ، وليس ثَمة نفخ ولا منفوخ.

وتقريب نفخ الروح في الحي أنه تكون القوّة البخارية أو الكهربائية المنبعثة من القلب عند انتهاء استواء المزاج وتركيب أجزاء المزاج تكوناً سريعاً دفعياً وجريان آثار تلك القوة في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن في تجاويف جميع أعضائه الرئيسة وغيرها .

وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق .

وفيه إيماء إلى أن حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلا بتفاضل آثارها وأعمالها ، وأن كراهة الذات أو الرائحة إلى حالة يكرهها بعض الناس أو كلهم إنما هو تابع لما يلائم الإدراك الحسي أو ينافره تبعاً لطباع الأمزجة أو لإلففِ العادة ولا يُؤْبَه في علم الله تعالى .

وهذا هو ضابط وصف القذارة والنّزاهة عند البشر .

ألا ترى أن المني يستقذر في الحس البشري على أن منه تكوين نوعه ، ومنه تخلقت أفاضل البشر .

وكذلك المسك طَيّب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشّم وما هو إلا غُدة من خارجات بعض أنواع الغزال ، قال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسلَهُ من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما

تشكرون ﴾ [سورة السجدة: 9].

وهذا تأصيل لكون عالم الحقائق غير خاضع لعالم الأوهام.

وفي الحديث "لَخلُوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك".

وفيه لا يُكْلَم أحد في سبيل الله؛ والله أعلمُ بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة ودَمه يَشْخُبُ اللّونُ لونُ الدم والريح ريح المسك.

ومعنى فقعوا له ساجدين ﴾ أُسقُطوا له ساجدين، وهذه الحال لإفادة نوع الوقوع، وهو الوقوع لقصد التعظيم، كقوله تعالى: ﴿ وخرّوا له سجداً ﴾ [سورة يوسف: 100].

(96/425)

---

وهذا تمثيل لتعظيم يناسب أحوال الملائكة وأشكالهم تقديراً لبديع الصنع والصلاحية لمختلف الأحوال الدال على تمام علم الله وعظيم قدرته.

وأمر الملائكة السجود لا ينافي تحريم السجود في الإسلام لغير الله من وجوه:

أحدها: أن ذلك المنع لسدّ ذريعة الإشراك والملائكة معصومون من تطرّق ذلك إليهم.

وثانيها: أن شريعة الإسلام امتازت بنهاية مبالغ الحق والصلاح، فجاءت بما لم تجىء به الشرائع السالفة لأن الله أراد بلوغ أتباعها أوج الكمال في المدارك، ولم يكن السجود من قبل

محظوراً فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف عليهم السلام وكانوا أهل إيمان .

وثالثها : أن هذا إخبار عن أحوال العالم العلوي ، ولا تقاس أحكامه على تكاليف عالم الدنيا .

وقوله : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ عنوان على طاعة الملائكة .

و﴿ كلهم أجمعون ﴾ تأكيد على تأكيد ، أي لم يتخلّف عن السجود أحد منهم .

وقوله : ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ تقدم القول على نظيره في سورة البقرة وسورة الأعراف .

وقوله هنا ﴿ أن يكون مع الساجدين ﴾ بيان لقوله في سورة البقرة ( 34 ) ﴿ واستكبر ﴾ لأنه أبى أن يسجد وأن يساوي الملائكة في الرضى بالسجود .

فدلّ هذا على أنه عصى وأنه ترفّع عن متابعة غيره .

وجملة ما لك ألا تكون مع الساجدين ﴾ استفهام توبيخ .

ومعناه أي شيء ثبت لك ، أي متمكناً منك ، لأن اللام تفيد الملك .

و﴿ ألا تكون ﴾ معمول لحرف جر محذوف تقديره ( في ) .

وحَذف حرف الجر مطرد مع ( أنْ ) .

وحرف ( أن ) يفيد المصدرية .

فالتقدير في انتفاء كونك من الساجدين .

وقوله : ﴿ لم أكن لأسجد ﴾ جُحود .

وقد تقدم أنه أشد في النفي من ( لا أسجد ) في قوله تعالى : ﴿ ما يكون لي أن أقول ﴾ في آخر العقود [ المائدة : 116 ] .

وقوله : ﴿ لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴾ تأييد لإبايَته من السجود بأن المخلوق من ذلك الطين حِقِير ذميم لا يستأهل السجود .

(97/425)

---

وهذا ضلال نشأ عن تحكيم الأوهام بإعطاء الشيء حكم وقعه في الحاسة الوهمية دون وقعه في الحاسة العقلية ، وإعطاء حكم ما منه التكوين للشيء الكائن .

فشتّان بين ذكر ذلك في قوله تعالى للملائكة : ﴿ إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ﴾ وبين مقصد الشيطان من حكاية ذلك في تعليل امتناعه من السجود للمخلوق منه بإعادة الله الألفاظ التي وصف بها الملائكة .

وزاد فقال ما حكي عنه في سورة ص ( 76 ) إذ قال : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ولم يحك عنه هنا .

وبمجموع ما حكي عنه هنا وهناك كان إبليس مصرحاً بتخطئة الخالق ، كافراً بصفاته ،

فاستحق الطرد من عالم القدس .

وقد بيناه في سورة ص .

وعطفت جملة أمره بالخروج بالفاء لأن ذلك الأمر تفرع على جوابه المُنبىء عن كفره وعدم تأهله للبقاء في السماوات .

والفاء في ﴿ فإنك رجيم ﴾ دالّة على سبب إخراجه من السماوات .

و( إنّ ) مؤذنة بالتعليل .

وذلك إيماء إلى سبب إخراجه من عوالم القدس ، وهو ما يقتضيه وصفه بالرجيم متلوث الطوية وخبث النفس ، أي حيث ظهر هذا فيك فقد خبثت نفسك خبثاً لا يرجى بعده صلاح فلا تَبقى في عالم القدس والنزاهة .

والرجيم : المطرود .

وهو كناية عن الحقارة .

وتقدم في أول هذه السورة ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [ سورة الحجر : 17 ] .

وضمير ﴿ منها ﴾ عائد إلى السماوات وإن لم تذكر لدلالة ذكر الملائكة عليها .

وقيل : إلى الجنة .

وقد اختلف علماؤنا في أنها موجودة .

و﴿ اللعنة ﴾ : السّبّ بالطرد .

و( على ) مستعملة في الاستعلاء المجازي ؛ وهو تمكن اللعنة والشتم منه حتى كأنه يقع فوقه .

وجُعل ﴿ يوم الدين ﴾ وهو يوم الجزاء غاية للّعن استعمالاً في معنى الدوام ، كأنه قيل أبدا . وليس ذلك بمقتضي أن اللعنة تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدها ، ولكن المراد أن اللعنة عليه في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله فذلك يومئذٍ أشد من اللعنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

*(98/425)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) ﴾

وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفةَ لله ؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصّلصال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخَلْق في هذه السورة التي تضمنت خبر مَدّ الأرض ؛ ومَجِيء الرياح ، وكيفية إنزال الماء من السماء ؛ وكيف قَدّر في الأرض الرزق ، وجعل في الأرض رواسي ،

وجعل كُلّ شيء موزوناً .

وهو سبحانه قد استهلّ السورة بقوله : ﴿ . . . تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الحجر : 1 ]

أي : أنه افتتح السورة بالكلام عن حارس القِيم للحركة الإنسانية ؛ ثم تكلّم عن المادة التي منها الحياة ؛ وبذلك شمل الحديثُ الكلام عن المُقوّمِ الأساسي للقيم وهو القرآن ، والكلام عن مُقوّمِ المادة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ ودَلّتْ عليه سابقاً بحديثي عن مُصمِّم أي جهاز من الأجهزة الحديثة ؛ حيث يحدد أولاً الغرض منه ؛ ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة .

وهكذا كان خَلْق الله للإنسان الذي شاء له سبحانه أن يكون خليفته في الأرض ، ووضع له مُقوِّمات مادة ومُقوّمات قِيم ؛ وجاء بالحديث عن مُقوّمات القِيَم أولاً ؛ لأنها ستمدّ حياة الإنسان لتكون حياة لا تنتهي ، وهي الحياة في الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّح لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض ؛ بل كان هناك خَلْق من قَبْل آدم ، فإذا حدّثنا علماء الجيولوجيا والحفريات عن أن هناك ما يدل على وجود بعض من الكائنات المطمورة تثبت أنه كانت هناك حياة منذ خمسين ألف قرن من الزمان .

فنحن نقول له : إن قولك صحيح .

وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة في زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عَمَر الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف في الأرض .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [ فاطر : 16-17 ]

أي : أن خَلْق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخَلْق من قبلنا أمرٌ وارد .

ونعلم أن خَلْق آدم قد أخذ لقطات متعددة في القرآن الكريم ؛ تُؤدّي في مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكُنْ ذلك تكراراً في القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطة في الموقع المناسب لها ؛ ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر ؛ بل كتاب قِيَم ومنهج ، ويريد أن يُؤسّس في البشر القيم التي تحميهم وتصونهم من أيّ انحراف ، ويريد أن يُربّيَ فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان في الكثير من سُور القرآن : البقرة ؛ الأعراف ؛ الحجر ؛ الإسراء ؛ الكهف ؛ وسورة ص .

قال سبحانه على سبيل المثال في سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدماَءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ البقرة : 30 ]

وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعة خَلْق الله لآدم ، من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض .

وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلاً طويلاً من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين : كيف يقول مرة : إن الإنسان مخلوق من ماء ؛ ومرة من طين ؛ ومرة من صلصال كالفخار ؟

(100/425)

---

ونقول : إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق ، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق ، كما خلق السماوات والأرض ، ولم يُشهِد الحق أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [ الكهف : 51 ]

ومن رحمته سبحانه أنه ترك في مُحسَّات الحياة وماديتها ما يُثبت صِدْقه في غيبيّاته ؛ فإذا قال مرّة : إنه خلق كل شيء من الماء ؛ فهو صادق فيما قال ؛ لأن الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد

البشري على سبيل المثال .

وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء صار طيناً ، وإذا مرّ على الطين وقتٌ صار صلصالاً ، وإذا قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ الحجر : 29 ]

وكُلُّ هذا من الأمور الغيبية ؛ التي يشرحها لنا نقضُها في الواقع المادي الملموس ، فحين يحدث الموت وهو نَقْض الحياة نجد الروح هي أول ما يخرج من الجسم ؛ وكانت هي آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق .

ومن بعد ذلك تبدأ الحيوية في الرحيل عن الجثمان ؛ فيتحول الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال ؛ ثم يتبخّر الماء من الجثمان ؛ ليصير من بعد ذلك تراباً .

وهكذا نشهد في الموت نقض الحياة كيفية بَدْء مراحل الخَلْق وهي معكوسة ؛ فالماء أولاً ثم التراب ؛ ثم الطين ؛ ثم الصلصال الذي يشبه الحمأ المسنون ؛ ثم نَفْخ الروح .

وقد صدق الحق سبحانه حين أوضح لنا في النقيض المادي ، ما أبلغنا عنه في العالم الغيب .

وعلى ذلك أيضاً نجد أن الذين يضعون التكهنات بأن الشمس خُلِقَتْ قبل الأرض ؛ وكانت الأرض جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها ؛ على هؤلاء أن يعلموا أن ما يقولونه هو أمر لم يشاهدوه ، وهي أمور لا يمكن أن يدرسها أحد في معمل تجريبي ؛ وقد قال القرآن عن أهل هذا اللغو : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [ الكهف : 51 ]

وهم قد أعانوا على تأكيد إعجازية القرآن الذي أسماهُم المُضِلّين ؛ لأنهم يغوون الناس عن الحق إلى الباطل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ . . . ﴾

ونعلم أن كلمة ( السَّمُوم ) هي اللهب الذي لا دُخانَ له ، ويُسمّونه " السَّموم " لأنه يتلصَّص في الدخول إلى مسَامِّ الإنسان .

وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً في مُقوِّمات حياة الكائنات ، فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نارٍ له صفات النارية ؛ ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . ﴾ [ الأعراف : 27 ]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التي لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات

تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته في الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع له خيريةً أو أفضلية ، لأن المهام حين تتعدد في الأشياء ؛ تمنع المقارنة بين الكائنات .

والمَثُل على ذلك هو غلبة مَنْ عنده عِلْم بالكتاب على عفريت الجن ؛ حين سأل سليمان عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس : ﴿ قَالَ يا أَيُّهَا الملأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [ النمل : 38 ]

*(102/425)*

---

وقال عفريت من الجن : إنه قادر على أن يأتي بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مُقَامه ، ولكن مَنْ عنده عِلْم بالكتاب قال : إنه قادر أنْ يأتيَ بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان ؛ وهكذا غلب مَنْ عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن .

وقد قصَّ علينا الحق سبحانه هذا في كتابه الكريم ، فقال : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الجن أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي . . . ﴾ [ النمل : 39-40 ]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ . . . ﴾

وعرفنا في مواقع متفرقة من خواطرنا كيف نفهم هذه الآية . ونعلم أن البشر في زماننا حين يريدون صُنْع تمثال ما ، فَهُم يَخْلِطون التراب بالماء ليصير طيناً ؛ ثم يتركونه إلى أنْ يختمرَ، ويصيرَ كالصَّلْصَال ، ومن بعد ذلك يُشكل المِثَّال ملامح مَنْ يُريد أن يصنع له تمثالاً .

والتماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرةَ لها ، عَكْس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذي يملك بفعل النفْخ فيه من روح الله ما لا يَملكه أيّ كائن صنعتْه مهارة الإنسان ؛ ذلك أن إعجازَ وطلاقة قدرِة الخالق لا يمكن أن تستوي مع قدرة المخلوق المحدودة .

وهناك حديث يقول فيه صلى الله عليه وسلم : " خلق الله عز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً " .

واختلف العلماء في مرجع الضمير في هذا الحديث ؛ أيعود إلى صورة آدم ؟ أم يعود إلى آدم ؟

فمن العلماء من قال : إن الضمير يعود إلى آدم ؛ بمعنى أن الله لم يخلقه طفلا ، ثم كبر ؛ بل خلقه على الصورة الناضجة ؛ وتلفَّت آدم فوجد نفسه على تلك الصورة الناضجة ؛ وأنه لم يكُنْ موجوداً من قبل ذلك بساعة ؛ لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له .

والذين قالوا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وأن الضمير يعود إلى الله ؛ فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفة له في الأرض ؛ وأعطاه من قدرته قدرةً ؛ ومن عِلْمه علماً ؛ ومن حكمته حكمة ، ومن قاهريته قهراً .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : " تخلقوا بأخلاق الله " .

فخلق آدم داخلٌ في كينونته . يقول الحق : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ آل عمران : 59 ]

وأمام الكينونة ينتفي التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالخالق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ . . . ﴾

والتسوية تعني جَعْل الشيء صالحاً للمهمة التي تُراد له . وشاء سبحانه أن يُسوِّيَ الإنسان في صورة تسمح لنفخ الروح فيه . والنفخ من روح الله لا يعني أن النفخ قد تَمَّ بدفع الحياة عن طريق الهواء في فَمِ آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح في جميع أجزاء الجسد .

وقد اختلف العلماء في تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض في ذلك الأمر ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ الإسراء : 85 ]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ . . . ﴾

وقد سجدوا جميعاً في حركة واحدة ؛ ذلك أنه لا اختيارَ لهم في تنفيذ ما يُؤمرون به ، فمن

بَعْد أن خلق الله آدمَ جاء تكريم الحق سبحانه له بقوله للملائكة: ﴿ اسجدوا لأَدَمَ . . .

﴾ [طه: 116]

وسجدت الملائكة التي كلَّفها الله برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد، وهم المُدبِّرات أمراً والحفظة، ومَنْ لهم علاقة بهذا المخلوق الجديد.

وقوله الحق: ﴿ . . . فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: 29]

(104/425)

---

يعني أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة، وكان سجودهم هو طاعة للآمر الأعلى؛ لا طاعة لآدم.

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَسَجَدَ المَلائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: 30]

يعني الملائكة الأعلى من البشر، ذلك أن هناك ملائكةً أعلى منهم؛ وهم الملائكة المُهِيمون المتفرِّغون للتسبيح فقط.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) ﴾

وهكذا جاء الحديث هنا عن إبليس؛ بالاستثناء وبالعقاب الذي نزل عليه؛ فكأن الأمر

قد شَمله ، وقد أخذتْ هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء .

وكان من الواجب أن يحكمَ هذا الجدلَ أمران :

الأمر الأول : أن النصَّ سيد الأحكام .

والأمر الثاني : أن شيئاً لا نصَّ فيه ؛ فنحن نأخذه بالقياس والالتزام . وإذا تعارض نصٌّ مع التزام ؛ فنحن نؤول الالتزام إلى ما يُؤول النص .

وإذا كان إبليس قد عُوقِب ؛ فذلك لأنه استثنى من السجود امتناعاً وإباءً واستكباراً ؛ فهل هذا يعني أن إبليس من الملائكة ؟

لا . ذلك أن هناك نصاً صريحاً يقول في الحق سبحانه : ﴿ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . . ﴾ [ الكهف : 50 ]

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة ؛ بل هو من الجنّ ؛ والجن جنس مختار كالإنس ؛ يمكن أن يُطيع ، ويمكن أن يَعصِي .

وكونه سَمِع الأمر بالسجود ؛ فمعنى ذلك أنه كان في نفس الحَضْرة للملائكة ؛ ومعنى هذا أنه كان من قبل ذلك قد التزم التزاماً يرفعه إلى مستوى الحضور مع الملائكة ؛ ذلك أنه مُخْتار يستطيع أن يطيع ، ويملك أن يعصي ، ولكن التزامه الذي اختاره جعله في صفوف الملائكة .

وقالت كتب الأثر : إنهم كانوا يُسمُّونه طاووس الملائكة مختالاً بطاعته ، وهو الذي وهبه الله الاختيار ، لأنه قدر على نفسه وحمل نفسه على طاعة ربه ، لذلك كان مجلسه مع الملائكة تكريماً له ؛ لأنه يجلس مع الأطهار ، لكنه ليس مَلاكاً .

وبعض العلماء صَنَّفوه بمُسْتَوًى أعلى من الملائكة ؛ والبعض الآخر صَنَّفه بأنه أقلُّ من الملائكة ؛ لأنه من الجنِ ؛ ولكن الأمر المُتفق عليه أنه لم يكُنْ ملاكاً بنصِ القرآن ، وسواء أكان أعلى أم أَدْنى ، فقد كان عليه الالتزام بما يصدر من الحق سبحانه .

ونجد الحق سبحانه وهو يعرض هذه المسألة ، يقول مرة ( أبىَ ) ، ومرة ( استكبر ) ، ومرة يجمع بين الإباء والاستكبار .

والإباء يعني أنه يرفض أن ينفذ الأمر بدون تعال . والاستكبار هو التأّبِي بالكيفية ، وهنا كانت العقوبة تعليلاً لعملية الإباء والاستكبار ، وكيف ردّ أمر الحق أورده سبحانه مرة بقول إبليس : ﴿ . . . لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [ الحجر : 33 ]

وقوله : ﴿ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ ص : 76 ]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ قَالَ يا إبليس مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾

ونقول " ما لك ؟ " في الشيء العجيب الذي تريد أن تعرف كيف وقع ، وكأن هذا تساؤلٌ

عن أمر مخالف لِمَا اختاره إبليس ؛ الذي وهبه الله خاصية الاختيار ، وقد اختار أن يكون على الطاعة .

ولنلحظ أن المتكلم هنا هو الله ؛ وهو الذي يعلم أنه خلق إبليس بخاصية الاختيار ؛ فله أن يطيعَ ، وله أنْ يعصيَ . وهو سبحانه هنا يُوضِّح ما علمه أزلاً عن إبليس ؛ وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة .

ويتابع سبحانه : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ . . . ﴾

(106/425)

---

وهكذا أفصح إبليس عما يُكِنّه من فَهْم خاطئ لطبيعة العناصر ؛ فقد توهَّم أن الطينَ والصلصال أقلُّ مرتبة من النار التي خلقه منها الله . وامتناع إبليس عن السجود إذن امتناع مُعلَّل ؛ وكأن إبليس قد فَهِم أن عنصر المخلوقية هو الذي يعطي التمايز ؛ وتجاهل أن الأمر هو إرادة المُعنصِر الذي يُرتِّب المراتب بحكمته ، وليس على هَوى أحدٍ من المخلوقات .

ثم من قال : إن النارَ أفضل من الطين ؟ ونحن نعلم أنه لا يُقال في شيء إنه أفضل من الآخر إلا إذا استوتْ المصلحة فيهما ؛ والنار لها جهة استخدام ، والطين له استخدام مختلف ؛ وأيٌّ منهما له مهمة تختلف عن مهمة الآخر .

ومن توجيه الله في فضائل الخَلْق أن مَنْ يطلي الأشياء بالذهب لا يختلف عنده سبحانه عن الذي يعجن الطين ليصنعَ منه الفخار ، فلا يفضل أُحدهما الآخرَ إلا بإتقان مهمته .

وهكذا أفصح إبليس أن الذي زيَّن له عدم الامتثال لأمر السجود هو قناعته بأن هناك عنصراً افضل من عنصر .

ويأتي الأمر بالعقاب من الحق سبحانه ؛ فيقول تعالى : ﴿ قَالَ فَاخرج مِنْهَا . . . ﴾

وهكذا صدر الأمر بطرْدِ إبليس من حضرة الله بالملأ الأعلى ؛ وصدر العقاب بأنه مطرود من كل خَيْر ، وأَصْل المسألة أنها الرَّجْم بالحجارة .

وقد حدث ذلك لردِّه أمر الله سبحانه ، واستكباره ، ولقناعته أن النار التي خُلِق منها أفضلُ من الطين الذي خُلِق منه آدم ، ولم يلتفت إلى أن لكل مخلوق مُهمة ، وكل كائن يؤدي مُهِمته هو مُساوٍ للآخر .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ليزاول كل كائن الأسباب التي وُجِد من أجلها ؛ فآدم قد خلقه الله ليجعله خليفة في الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه يباشر الأمر في السَّببيات بواسطة ما خلق

.

فالنار على سبيل المثال تتسبَّب في إنضاج الطعام ؛ لأنه سبحانه هو الذي شاء ذلك ، وجعلها سبباً في إنضاج الطعام . ومزاولة الحق سبحانه لأشياء كثيرة في المُسبِّبات معناه أن المخلوقات تُؤدِّي المهامَّ التي أرادها سبحانه لها في الوجود .

والمؤمن الحق هو مَنْ يرى في الأسباب التي في الكون ؛ أنها عطاء من الله ، وأن يده مَمْدودة له بتلك الأسباب .

وبعد أن طرد الحق سبحانه إبليس من حضرته سيُقرر سبحانه الحكم الذي أصدره عليه في قوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة . . . ﴾

وفي هذا القول ما يؤكد أن الجن أيضاً يموتون ؛ ولهم آجَال مثلنا ، وفي هذا الحكم بالطرد تأكيدٌ على أنه سبحانه لن يُوفِّقه إلى توبة ، ولا يعفو عنه في النهاية .

ولكن إبليس يحاول الالتفاف ؛ فيأتي ما جاء على لسانه : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(108/425)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ( 34 ) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ( الحجر : 34-35 ) ، وفي سورة ص : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ( ص : 78 ) ، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف العبارتين من ورود اللعنة في سورة الحجر بالألف واللام ، وفي ص بالإضافة مع اتحاد المعنى ؟

والجواب عنه ، والله أعلم : أن آية الحجر وردت بالألف واللام ، وهي الأداة المقتضية الحصر الجنسي حيث لا عهد ، وذلك وارد على ما ينبغي لما قصد هنا من المبالغة ، ولا سؤال فيه . وأما الوارد في سورة ص مضافاً لياء المتكلم فوجهه المناسبة اللفظية لقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ( ص : 75 ) ، فجرت العبارتان على منهج واحد ومسلك متناسب ، ولم يكن ليتناسب العكس فيما ورد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 290 ﴾

(109/425)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق الله الإِنسان من ثلاث : من طين لازب ، وصلصال ، وحمأ مسنون . فالطين اللازب ، اللازم الجيد . والصلصال المرقق ، الذي يصنع منه الفخار . والحمأ المسنون ، الطين فيه الحمأة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من صلصال ﴾ قال : الصلصال ، الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها فتيبس ، ثم تصير مثل الخزف الرقاق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصلصال ، هو التراب اليابس الذي يبل بعد يبسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصلصال ، طين خُلِطَ برمل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصلصال ، طين إذا ضربته صلصل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : الصلصال ، التراب اليابس الذي يسمع له صلصلة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الصلصال ، الطين تعصره بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من حمإ مسنون ﴾ قال: من طين رطب.

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ من حمإ مسنون ﴾ قال: من طين منتن.

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنه، أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قول الله ﴿ من حمإ مسنون ﴾ قال: الحمأة السوداء، وهي الثاط أيضاً. والمسنون، المصور. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول حمزة بن عبد المطلب وهو يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ يقول:

(110/425)

---

أغر كأن البدر مسنة وجهه... جلا الغيم عنه ضوءة فتبددا

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خلق آدم من أديم الأرض، فألقي على الأرض حتى صار طيناً لازباً، وهو الطين الملتزق، ثم ترك حتى صار حمأً مسنوناً وهو المنتن، ثم خلقه الله بيده فكان أربعين يوماً مصوراً، حتى يبس فصار صلصالاً كالفخار إذا ضرب عليه صلصل. فذلك الصلصال والفخار مثل ذلك والله أعلم.

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الجان، مسيخ الجن كما القردة والخنازير مسيخ الإنس.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ والجان خلقناه من قبل ﴾ وهو إبليس خلق من قبل آدم.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ قال: من أحسن الناس.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ من نار السموم ﴾ قال: ﴿ السموم ﴾ الحارة التي تقتل.

وأخرج الطيالسي والفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ﴿ السموم ﴾ التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ثم قرأ ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رؤيا المؤمن جزء من سبعين جزءاً من النبوّة ، وهذه النار جزء من سبعين جزءاً من نار السموم التي خلق منها الجان " وتلا هذه الآية ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ .

(111/425)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن دينار رضي الله عنه قال : خلق الجان والشياطين من نار الشمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(112/425)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ : " مِنْ " لابتداء الغاية أو للتبعيض . والصَّلْصال : قال أبو

عبيدة : " وهو الطينُ المختلِط بالرَّمْل ، ثم يَجِفُّ ، فيُسمع له صَلْصَلَةٌ ، أي : تَصْوِيْت " .

وقال الزمخشري : " الطين اليابسُ الذي يُصَلْصِل من غيرِ طبخٍ ، فإذا طُبِخَ فهو فَخَّار " .

وقال أبو الهيثم : " هو صوت اللِّجامِ وما أشبهه كالقَعْقَعَة في الثوب " . وقال الزمخشري

أيضاً : " قالوا : إذا تَوَهَّمْتَ في صوته مَدّاً فهو صَليل ، وإن توهَّمْتَ فيه ترجيعاً فهو صَلْصَلَة

. وقيل : هو مِنْ تضعيفِ " صَلَّ : إذا أَنْتَنَ " . انتهى . وصَلْصال هنا بمعنى مُصَلْصِل

كزَلْزال بمعنى مُزَلْزِل ، ويكون فَعْلال أيضاً مصدراً نحو : الزِّلزال . ويجوز كسرُه أيضاً .

وفي وزن هذا النوعِ أعني ما تكَّررت فاؤه وعينُه خلاف ، فقيل : وزنه فَعْفَع ، كُرِّرَتْ الفاءُ

والعينُ ولا لامَ للكلمة ، قاله الفراء وغيرُه . وهو غَلَطٌ لأنَّ أقلَّ الأصولِ ثلاثةٌ : فاء وعين ولام

. الثاني : أنّ وزنه فَعْفَل وهو قولُ الفرّاء . الثالث : أنه فَعَّل بتشديدِ العينِ وأصلُه صَلَّل ،

فلما اجتمع ثلاثةُ أمثالٍ أبدل الثاني من جنسِ فاءِ الكلمةِ وهو مذهبٌ كوفي . وخصَّ

بعضُهم هذا الخلافَ بما إذا لم يختلَّ المعنى بسقوطِه نحو : لَمْلَمَ وكَبْكَبَ فإنك تقول فيهما : لَمَّ

وكَبَّ ، فلو لم يَصِحَّ المعنى بسقوطِه نحو : سِمْسِم ، قال : فلا خلاف في أصالةِ الجميع .

قوله : { مِّنْ حَمَإٍ } فيه وجهان ، أحدهما : أنه في محلِّ جرٍّ صفةً لصَلْصال ، فيتعلَّقُ

بمحذوف . والثاني : أنه بدلٌ من " صَلْصال " بإعادة الجارِّ .

والحَمَأُ : الطينُ الأسودُ المُنْتِنُ . قال الليث : " واحدُه حمَأة بتحريك العين " ، جعله اسمَ جنسٍ ، وقد غَلِط في ذلك ؛ فإنَّ أهلَ اللغة قالوا : لا يُقال إلا " حَمْأة " بالإِسكان ، ولا يُعْرَفُ التحريكُ ، نصَّ عليه أبو عبيدة وجماعة ، وأنشدوا لأبي الأسود :

2939- يجيءُ بمِلْئِها طَوْراً وطَوْراً . . . يَجِيءُ بحَمْأةٍ وقليلِ ماءِ

فلا تكون " الحَمْأَةُ " واحدةَ " الحَمَأ " لاختلاف الوزنين .

والمَسْنُون : المَصْبوبُ مِنْ قولهم : سَنَنْتُ الشرابَ كأنَّه لرطوبتِهِ جُعِل مَصْبوباً كغيره من المائعات ، فكأنَّ المعنى : أَفْرغ صورة إنسان كما تُفْرَغُ الجواهرُ المُذابة . قال الزمخشري : " وحَقُّ مَسْنُون بمعنى مُصَوَّر أن يكون صفةً لصَلْصال ، كأنه أَفْرغ الحَمَأَ فَصَوَّر منه تمثالَ شخصٍ " . قلت : يعني أنه يصيرُ التقدير : مِنْ صَلْصالٍ مُصَوَّر ، ولكن يلزم تقديمُ الوصفِ المؤوَّلِ على الصريح إذا جعَلْنا ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ صفةً لصَلْصال ، أمَّا إذا جعَلْناه بدلاً منه فلا . وقيل : مَسْنُون مُصَوَّر ، مِنْ سُنَّةِ الوجهِ وهي صورتُه . قال الشاعر :

2940- تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غيرَ مُقْرِفَةٍ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

وقال الزمخشري : " مِنْ سَنَنْتُ الحجرَ بالحجر : إذا حَكَكْتُه به فالذي يَسِيل بينهما " سَنِينٌ " ولا يكون إلا مُنْتِناً " . وقيل : المَسْنُون : المنسوبُ إليه ، والمعنى : يُنْسَبُ إليه ذُرِّيَّةً ،

وكأن هذا القائلَ أخذه مِنَ الواقع . وقيل : هو من أَسِنَ الماءُ إذا تَغَيَّر ، وهذا غَلَطٌ لاختلافِ المادتين .

قوله تعالى : ﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ ﴾ : منصوبٌ على الاشتغال ، ورُجِّح نصبُه لعطفِ جملتِه على جملةٍ فعلية . والجانُّ أو الجنُّ وهو إبليس كآدمَ أبي الإِنس . وقيل : اسمٌ لجنسِ الجنِّ . وقرأ الحسن " والجَأَنّ " وقد تقدَّمَ القولُ في ذلك في أواخر الفاتحة .

(114/425)

---

و ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ و ﴿ مِن نَّارِ ﴾ متعلقان ب " خَلَقْنا " ؛ لأن الأولى لابتداءِ الغاية والثانيةَ للتبعيض ، وفيه دليلٌ على أن " مِنْ " لابتداء الغايةِ في الزمانِ ، وتأويلُ البصريين له ولنظائِره بعيدٌ .

والسَّمومُ : ما يَقْتُلُ من إفراطِ الحَرِّ من شمسٍ أو ريحٍ أو نار ؛ / لأنها تَدْخُل في المَسامِّ فتقتُل . وقيل : السَّموم ما كان ليلاً ، والحَرُور ما كان نهاراً .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ : تأكيدٌ ثانٍ ، ولا يفيد الاجتماعَ في الوقت ، خلافاً لبعضهم . قال أبو البقاء : " لكان حالاً [ لا ] توكيداً " يعني أنه يُفيد إفادةَ الحالِ مع أنه توكيدٌ ، وفيه نظر

؛ إذ لا منافاةَ بينهما بالنسبة إلى المعنى . ألا ترى أنه يجوز " جاؤوني جميعاً " مع إفادتِه للتوكيدِ ، وقد تقدَّم لك تحريرُ هذا وحكايةُ ثعلب مع ابن قادم .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لأَسْجُدَ ﴾ : هذه لامُ الجحودِ .

وقوله : ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ﴾ [ الحجر : 29 ] يجوز أن تتعلَّقَ اللامُ بالفعل قبلها ، وأن تتعلَّق بساجدين . وقد تقدم نظائرُ ألفاظِ هذه القصة في البقرة والأعراف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 155 . 159 ﴾

(115/425)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) ﴾

ذَكَّرَهم بِخِسَّتِهِم لئلا يُعْجَبُوا بحالتهم .

ويقال القيمة في القُربةِ لا بالتُّربة ؛ والنسب تربة ولكن النعتَ قربة .

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ : وإذا انطفأت النار صارت رماداً لا يجيء منها شيء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك العدو لمَّا انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجبر بعده ، وأمَّا آدم - عليه السلام - فلمَّا اغْتَرَّ جَبَرَهُ ماءُ العناية ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ [ طه : 122 ] .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) ﴾

أظهرهم بهذا القول ، وفي عين ما أظهرهم سَتَرهم .

ويقال ليست العِبْرَة بقوالبهم . إنما الاعتبار بالمعاني التي أودعها فيهم .

ويقال الملائكة لاحظوه بعين الخِلْقَة فاستصْغروا قَدْرَه وحاله ، ولهذا عَجِبوا من أَمْرِ الله - سبحانه - لهم بالسجود له ، فكشف لهم شظية مما اختَصَّه به فسجدوا له .

قوله : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ : وكذا أمرُ مَنْ حُجِبَ عن أحواله ادَّعى الخَيْرَةَ وبَقِيَ في ظلمة الحَيْرة .

ويقال بَخِل بسجدةٍ واحدةٍ ، وقال : أَسْتَنْكِفُ أَنْ أسجد لغير الله . ثم من شقاوته لا يبالي بكثرة معاصيه ، فإنه لا يَعْصِي أحدٌ إلَّا وهو سببُ وسواسه ، وداعيه إلى الزَّلَّةِ . . وذلك هو عين الشَّقوة وقضية الخذلان .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) ﴾

سأله ومعلومٌ له حالُه ، ولو ساعدته المعرفة لقال : قُلْ لي مالك ؟ وما مَنَعكَ ؟ ومَنْ منَعك حتى أقول أنت . . حيث أَشْقَيْتني ، وبقهرِك أَغْوَيْتني ، ولو رَحِمْتَني ، لَهَدَيْتَني وفي كنف عصمتك آويتني . . . ولكنَّ الحرمانَ أدركه حتى قال : ﴿ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 269 . 270 ﴾

*(117/425)*

---

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما علم من هذا دوام لعنه ، لأنه منع التقرب في دار العمل ، وما بعد ذلك محل الجزاء لا

العمل ، وكان ذلك مفهماً لإنظاره إلى ذلك الحد ، وكان ظاهره أن لعنه معني به ، كان كأنه قيل : فماذا قال حين سمع ذلك ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ ذاكراً صفة الإحسان والتسبب في سؤال الإنظار : ﴿ رب ﴾ فاعترف بالعبودية والإحسان إليه ، ولم يحمله ذلك على التوبة للحكم بدوام لعنه فلا يطمع طامع في إيمان من ختم بكفره بالإجابة إلى ما يقترح ، وأتى بفاء السبب لما فهم من الإملاء فقال : ﴿ فأنظرني ﴾ والإنظار : تأخير المحتاج للنظر في أمره ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ فحمل يوم الدين على حقيقته ، وأراد التصريح بالإنظار إليه ليأمن الموت .

فكأنه قيل : ماذا قيل له ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ له ربه : ﴿ فإنك ﴾ أي بسبب ما تقدم من الحكم ﴿ من المنظرين ﴾ وقطع عليه ما دبج به من المكر فقال : ﴿ إلى ﴾ ولما كان اليوم ما يتم فيه أمر ظاهر ، وكانت الأيام الهائلة ثلاثة : زمان موت الأحياء الخارجين من دار الخلد ، ثم بعث الأموات ، ثم الفصل بينهم بإحلال كل فريق في داره ، قال : ﴿ يوم ﴾ ولما كان الوقت أدل ألفاظ الزمان على الأجل ، قال : ﴿ الوقت ﴾ ولما كان قد دبج في سؤاله هذا تدبيجاً أوهم تجاهله بتحتم الموت على كل مكلف ، بين تعالى أنه مما لا يجهل فقال : ﴿ المعلوم ﴾ أي الذي قدرت عليك الموت فيه ، وهو النفخة الأولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن في دار الخلد .

ولما أفهم ما تقدم - كما قلنا - الحكم بإغوائه ، كان السامع كأنه قال : فماذا قال ؟ فقيل :

﴿ قال ﴾ منسوباً نفسه بالمعبود العلي - الذي لا يسأل عما يفعل ، وكل أفعاله عدل وحكمة - بعد أن رفع نفسه على العبد البشري : ﴿ رب ﴾ أي أيها الموجد والمربي لي وعزتك ﴿ بما أغويتني ﴾ أي بسبب إغوائك لي من أجلهم ، وللاهتمام بهذا السبب قدمه على جواب القسم الدال على المقسم به ، وهو قوله : ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي تزييناً عظيماً ، المعاصي والمباحات الجارّة إليها الشاغلة عن الطاعة الصارفة عنها ﴿ في الأرض ﴾ أي التي هي محل الغفلة وهم منها ، والشيء إلى ما هو منه أميل ، فهي بهذا التقدير مساوية لآية "ص" "فبعزتك" ؛ والتزيين : جعل الشيء متقبلاً في النفس من جهة الطبع والعقل بحق أو بباطل ﴿ ولأغوينهم ﴾ أي بالإضلال عن الطريق الحميدة ﴿ أجمعين ﴾ انتقاماً لنفسي ﴿ إلا عبادك منهم ﴾ أي المشرفين بالإضافة إليك ، فهم لذلك لا يميلون عنك إلى شيء سواك ، فلذلك أبدل منهم ﴿ المخلصين ﴾ فزاد بهذا الكلام في الضلال ، ولم يقدر أن يقول بدل ذلك : ربّ تب عليّ - ونحوه من الاستعطاف كما قال آدم عليه السلام لما حفه اللطف وداركه العفو ، فارعوا هذه النعمة ! والإخلاص : إفراد الشيء عما يشوبه من غيره ، فكأنه قيل : فبماذا أجيب ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ الله في جوابه ، راداً على ما أوهمه كلامه من أن له فعلاً يستقل به ، مكذباً له : ﴿ هذا ﴾ أي الذي ذكرته من حال المستثنى

والمستثنى منه ﴿ صراط عليّ مستقيم ﴾ لأني قضيت به ولو لم تقله أنت وحكمت به عليك وعليهم ، فلا محيص لكم عنه ، فكأنه قيل : عليّ إقامته ، أو هو وارد عليّ ألا عوج لسالكيه عن الرجوع إليّ والمرور عليّ - يعني أنه لا يقدر أحد أن يعمل شيئاً بغير إرادتي ، فإني بالمرصاد ؛ ثم شرح ذلك بقوله - مضيفاً جميع العباد إليه كما هو الحقيقة ، نافياً ما قد يوهمه الكلام من أن لإبليس عملاً مستقلاً - : ﴿ إن عبادي ﴾ أي عامة ﴿ ليس لك ﴾ أي بوجه من الوجوه

(119/425)

---

﴿ عليهم سلطان ﴾ أي لتردهم كلهم عما يرضيني ﴿ إلا من اتبعك ﴾ أي بتعمد منه ورغبة في اتباعك ﴿ من الغاوين ﴾ ومات عن غير توبة ؛ فإني جعلت لك عليهم سلطاناً بالتزيين والإغواء ، وقيل وهو ظاهر : إن الإضافة للتشريف ، فلا تشمل إلا الخلص ، فحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً ، وفائدة سوقه بصورة الاستثناء - على تقدير الانقطاع - الترغيب في رتبة التشرف بالإضافة إليه والرجوع عن اتباع العدو وإلى الإقبال عليه ، لأن ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية ينافسون في ذلك المقام ، ويرونه - كما هو الحق - أعلى مرام ﴿ وإن جهنم لموعدهم ﴾ أي الغاوين من إبليس ومن شايعه ﴿ أجمعين ﴾ ثم بين أنهم

متفاوتون فيها فقال: ﴿لها سبعة أبواب﴾ قال الرماني: وهي أطباق بعضها فوق بعض - عن علي بن أبي طالب. رضى الله عنهم. والحسن وقتادة وابن جريج رحمهم الله ﴿لكل باب منهم﴾ أي الغاوين خاصة، لا يشاركهم فيه مخلص ﴿جزء مقسوم﴾ معلوم لنا من القدم لتقديرنا إياه، لا يزيد شيئاً ولا ينقص شيئا، فلا فعل فيه بغير التسبب الذي أظهرناه، لنربط به الأحكام على ما يقتضيه عقولكم ومجاري عاداتكم، وعن ابن جريج أن العليا جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وفي نسخة تقديم سقر على لظى، وعن الضحاك أن العليا لأهل التوحيد، ثم يخرجون، والثانية للنصارى، والثالثة لليهود، والرابعة للصائبة، والخامسة للمجوس، والسادسة لمشركي العرب، والسابعة للمنافقين، والسبب في تصاعدها اختلاف أنواع الكفر في الغلط والخفة



---

﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: 49] رحمة منه سبحانه، ولعلها كانت سبعة باعتبار أصناف الكفار، لأنهم إما معطلة أو مثبتة، والمثبتة إما يهود أو صابئة أو نصارى أو مجوس أو عباد أوثان، والكل إما مصارحون أو منافقون، ولما كان المنافق لا يعرف ظاهراً من أيّها هو؟ عدّ قسماً واحداً ووكل أمره في ميزه إلى العليم الخبير، ولما كان الكل

عاملين بما لم يأذن به الله كانوا في حكم المعطلة ، لوصفهم الله بغير صفته ، فرجعت الأقسام إلى ستة ، فأضيفت إليها العصاة من كل فرقة فجعلت جزء الطبقة العليا من النار مقابلة لقسم المنافقين من كل أمة ، لعملهم أعمال الكفار مع الإيمان ، كما أن عمل المنافقين عمل المؤمنين مع الكفران ، فكانوا أخفى الكفار فكان لهم الدرك الأسفل من النار ، ثم رأيت في " رشف النصائح الإيمانية وكشف الفضائح اليونانية " للعارف بالله تعالى شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي رحمه الله أنها جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، لأنها مصادر السيئات ، فكانت مواردها الأبواب السبعة – وهو مأخوذ من كتاب المحاسبة من كتاب الإحياء للإمام الغزالي – ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية ، والنية من أعمال القلب ، زادت الأعضاء واحداً ، فجعلت أبواب الجنان ثمانية هذا معنى قوله ، قال : وأعمال القلوب من السيئات غير مؤاخذ بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 222 . 224 ﴾

(121/425)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَأَنْظِرْنِى ﴾ متعلق بما تقدم والتقدير : إذا جعلتني رجيماً ملعوناً إلى يوم الدين فأنظرني فطلب الإبقاء من الله تعالى عند اليأس من الآخرة إلى وقت قيام القيامة .

لأن قوله : ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ المراد منه يوم البعث والنشور وهو يوم القايمة ، وقوله : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ اعلم أن إبليس استنظر إلى يوم البعث والقيامة ، وغرضه منه أن لا يموت لأنه إذا كان لا يموت قبل يوم القيامة ، وظاهره أن بعد قيام القيامة لا يموت أحد فحينئذ يلزم منه أن لا يموت ألبتة .

ثم إنه تعالى منعه عن هذا المطلوب وقال : ﴿ إِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ واختلفوا في المراد منه على وجوه : أحدها : أن المراد من يوم الوقت المعلوم وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق ، وإنما سمي هذا الوقت بالوقت المعلوم لأن من المعلوم أن يموت كل الخلائق فيه .

وقيل : إنما سماه الله تعالى بهذا الاسم ، لأن العالم بذلك الوقت هو الله تعالى لا غير كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [ الأعراف : 187 ] وقال : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [ لقمان : 34 ] .

وثانيها : أن المراد من يوم الوقت المعلوم هو الذي ذكره إبليس وهو قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ وإنما سماه تعالى بيوم الوقت المعلوم ؟ لأن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار ذلك كالمعلوم .

فإن قيل : لما أجابه الله تعالى إلى مطلوبه لزم أن لا يموت إلى وقت قيام الساعة وبعد قيام القيامة لا يموت أيضاً ، فيلزم أن يندفع عنه الموت بالكلية .

قلنا : يحمل قوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ إلى ما يكون قريباً منه .

(122/425)

---

والوقت الذي يموت فيه كل المكلفين قريب من يوم البعث ، وعلى هذا الوجه فيرجع حاصل هذا الكلام إلى الوجه الأول .

وثالثها : أن المراد بيوم الوقت المعلوم يوم لا يعلمه إلا الله تعالى ، وليس المراد منه يوم القيامة .

فإن قيل : إنه لا يجوز أن يعلم المكلف متى يموت ، لأن فيه إغراء بالمعاصي ، وذلك لا يجوز على الله تعالى .

أجيب عنه بأن هذا الإلزام إنما يتوجه إذا كان وقت قيام القيامة معلوماً للمكلف .

فأما إذا علم أنه تعالى أمهله إلى وقت قيام القيامة إلا أنه تعالى ما أعلمه الوقت الذي تقوم

القيامة فيه فلم يلزم منه الإغراء بالمعاصي.

وأجيب عن هذا الجواب بأنه وإن لم يعلم الوقت الذي فيه تقوم القيامة على التعيين إلا أنه علم في الجملة أن من وقت خلقة آدم عليه الصلاة والسلام إلى وقت قيام القيامة مدة طويلة فكأنه قد علم أنه لا يموت في تلك المدة الطويلة.

أما قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأرض ولأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: الباء في ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ للقسم وما مصدرية، وجواب القسم لأزينن.

والمعنى أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: 82] إلا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله، وهي من صفات الذات، وفي قوله: ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ أقسم بإغواء الله وهو من صفات الأفعال.

والفقهاء قالوا: القسم بصفات الذات صحيح، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه.

ونقل الواحدي عن قوم آخرين أنهم قالوا: الباء ههنا بمعنى السبب، أي بسبب كوني غاوياً لأزينن كقول القائل، أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار، وبطاعته ليدخلن الجنة.

البحث الثاني : اعلم أن أصحابنا قد احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يريد خلق الكفر في الكافر ويصده عن الدين ويغويه عن الحق من وجوه : الأول : أن إبليس استمهل وطلب البقاء إلى قيام القيامة مع أنه صرح بأنه إنما يطلب هذا الإمهال والإبقاء لإغواء بني آدم وإضلالهم وأنه تعالى أمهله وأجابه إلى هذا المطلوب ، ولو كان تعالى يراعي مصالح المكلفين في الدين لما أمهله هذا الزمان الطويل ، ولما مكنه من الإغواء والإضلال والوسوسة .

الثاني : أن أكابر الأنبياء والأولياء مجدون ومجتهدون في إرشاد الخلق إلى الدين الحق ، وأن إبليس ورهطه وشيعته مجدون ومجتهدون في الضلال والإغواء ، فلو كان مراد الله تعالى هو الإرشاد والهداية لكان من الواجب إبقاء المرشدين والمحققين وإهلاك المضلين والمغوين ، وحيث فعل بالضد منه ، علمنا أنه أراد بهم الخذلان والكفر .

الثالث : أنه تعالى لما أعلمه بأنه يموت على الكفر وأنه ملعون إلى يوم الدين كان ذلك إغراء له بالكفر والقبيح ، لأنه أيس عن المغفرة والفوز بالجنة يجترىء حينئذ على أنواع المعاصي والكفر .

الرابع : أنه لما سأل الله تعالى هذا العمر الطويل ، مع أنه تعالى علم منه أنه لا يستفيد من هذا العمر الطويل إلا زيادة الكفر والمعصية ، وبسبب تلك الزيادة يزداد استحقاقه لأنواع العذاب الشديد كان هذا الإمهال سبباً لمزيد عذابه ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد به أن يزداد عذابه وعقابه .

الخامس : أنه صرح بأن الله أغواه فقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ وذلك تصريح بأن الله تعالى أغواه لا يقال : هذا كلام إبليس وهو ليس بحجة ، وأيضاً فهو معارض بقول إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فأضاف الإغواء إلى نفسه ، لأنا نقول .

أما الجواب عن الأول : فهو أنه لما ذكر هذا الكلام فإن الله تعالى ما أنكره عليه وذلك يدل على أنه كان صادقاً فيما قال .

(124/425)

---

وأما الجواب عن الثاني : فهو أنه قال في هذه الآية : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ فالمراد ههنا من قوله : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ هو المراد من قوله في تلك الآية : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلا أنه بين في هذه الآية أنه إنما أمكنه أن يزين لهم الأباطيل لأجل أن الله تعالى أغواه قبل ذلك ، وعلى هذا التقدير فقد زال التناقض ويتأكد هذا بما ذكره الله تعالى حكاية عن الشياطين في سورة القصص :

﴿ هَؤُلاءِ الذين أَغْوَيْنَا أغويناهم كَمَا غَوَيْنَا ﴾ [ القصص : 63 ] .

السؤال السادس : أنه اقل : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ وهذا اعتراف بأن الله تعالى أغواه فنقول : إما أن يقال : إنه كان قد عرف بأن الله تعالى أغواه ، أو ما عرف ذلك ، فإن كان قد

عرف بأن الله تعالى أغواه امتنع كونه غاوياً لأنه إنما يعرف أن الله تعالى أغواه إذا عرف أن الذي هو عليه جهل وباطل ، ومن عرف ذلك امتنع بقاؤه على الجهل والضلالة ، وأما إن قلنا : بأنه ما عرف أن الله أغواه فكيف أمكنه أن يقول : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ فهذا مجموع السؤالات الواردة في هذه الآية .

أما الإشكال الأول : فللمعتزلة فيه طريقان :

الطريق الأول : وهو طريق الجبائي أنه تعالى إنما أمهل إبليس تلك المدة الطويلة ، لأنه تعالى علم أنه لا يتفاوت أحوال الناس بسبب وسوسته ، فبتقدير أن لا يوجد إبليس ولا وسوسته فإن ذلك الكافر ، والعاصي كان يأتي بذلك الكفر والمعصية ، فلما كان الأمر كذلك ، لا جرم أمهله هذه المدة .



---

الطريق الثاني : وهو طريق أبي هاشم أنه لا يبعد أن يقال : إنه تعالى علم أن أقواماً يقعون بسبب وسوسته في الكفر والمعصية ، إلا أن وسوسته ما كانت موجبة لذلك الكفر والمعصية ، بل الكافر والعاصي بسبب اختياره اختار ذلك الكفر وتلك المعصية ، أقصى ما في الباب أن يقال : الاحتراز عن القبائح حال عدم الوسوسة أسهل منه حال وجودها ،

إلا أن على هذا التقدير تصير وسوسته سبباً لزيادة المشقة في أداء الطاعات ، وذلك لا يمنع الحكيم من فعله ، كما أن إنزال المشاق وإنزال المتشابهات صار سبباً لمزيد الشبهات ، ومع ذلك فلم يمتنع فعله فكذا ههنا ، وهذان الطريقان هما بعينهما الجواب عن السؤال الثاني .

وأما السؤال الثالث : وهو أن إعلامه بأنه يموت على الكفر يحمله على الجرأة على المعاصي والإكثار منها ، فجوابه أن هذا إنما يلزم إذا كان علم إبليس بموته على الكفر يحمله على الزيادة في المعاصي أما إذا علم الله تعالى من حاله أن ذلك لا يوجب التفاوت ألبتة ، فالسؤال زائل ، وهذا بعينه هو الجواب عن السؤال الرابع .

وأما السؤال الخامس : وهو أن إبليس صرح بأن الله تعالى أغواه وأضله عن الدين ، فقد أجابوا عنه بأنه ليس المراد ذلك بل فيه وجوه أخرى : أحدها : المراد بما خيبتني من رحمتك لأخيبنهم بالدعاء إلى معصيتك .

وثانيها : المراد كما أضللتني عن طريق الجنة أضلهم أنا أيضاً عنه بالدعاء إلى المعصية .

وثالثها : أن يكون المراد بالإغواء الأول الخيبة ، وبالثاني الإضلال .

ورابعها : أن المراد بإغواء الله تعالى إياه هو أنه أمره بالسجود لآدم فأفضى ذلك إلى غيه ، يعني أنه حصل ذلك الغي عقيبه باختيار إبليس ، فأما أن يقال : إن ذلك الأمر صار موجباً لذاته لحصول ذلك الغي ، فمعلوم أنه ليس الأمر كذلك ، هذا جملة كلام القوم في هذا الباب وكله ضعيف ، أما قوله إنه لا يتفاوت الحال بسبب وسوسة إبليس فنقول : هذا باطل ، ويدل عليه القرآن والبرهان ، أما القرآن فقوله تعالى :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطان ﴾ [ البقرة : 36 ] فأضاف تلك الزلة إلى الشيطان ، وقال : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى ﴾ [ طه : 117 ] فأضاف الإخراج إليه ، وقال موسى عليه السلام : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ [ القصص : 15 ] وكل ذلك يدل على أن لعمل الشيطان في تلك الأفعال أثراً ، وأما البرهان فلأن بداية العقول شاهدة بأنه ليس حال من ابتلى بمجالسة شخص يرغبه أبداً في القبائح .

وينفره عن الخيرات ، مثل شخص كان حاله بالضد منه ، والعلم بهذا التفاوت ضروري .



---

وأما قوله إن وجوده يصير سبباً لزيادة المشقة في الطاعة فنقول : تأثير زيادة المشقة إنما هو في كثرة الثواب على أحد التقديرين ، وفي الإلقاء في العذاب الشديد على التقدير الثاني وهو

التقدير الأكثر الأغلب ، وكل من يراعي المصالح ، فإن رعاية هذا التقدير الثاني أولى عنده من رعاية التقدير الأول لأن دفع الضرر العظيم أولى من السعي في طلب النفع الزائد الذي لا حاجة إلى حصوله أصلاً ، ولما اندفع هذان الجوابان عن هذا السؤال قويت سائر الوجوه المذكورة ، وأما قوله : المراد من قوله : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ الخيبة عن الرحمة أو الإضلال عن طريق الجنة فنقول : كل هذا بعيد ، لأنه هو الذي خيب نفسه عن الرحمة وهو الذي أضل نفسه عن طريق الجنة ، لأنه لما أقدم على الكفر باختياره فقد خيب نفسه عن الرحمة ، وأضل نفسه عن طريق الجنة فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى فثبت أن الإشكالات لازمة وأن أجوبتهم ضعيفة ، والله أعلم .

وأما قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن إبليس استثنى المخلصين ، لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ، ولا يقبلون منه ، وذكرت في مجلس التذكير أن الذي حمل إبليس على ذكر هذا الإستثناء أن لا يصير كاذباً في دعواه فلما احترز إبليس عن الكذب علمنا أن الكذب في غاية الخساسة .

المسألة الثانية :

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو : ﴿ المخلصين ﴾ بكسر اللام في كل القرآن ، والباقون بفتح اللام .

وجه القراءة الأولى أنهم الذين أخلصوا دينهم وعبادتهم عن كل شائب يناقض الإيمان والتوحيد ، ومن فتح اللام فمعناه : الذين أخلصهم الله بالهداية والإيمان ، والتوفيق ، والعصمة ، وهذه القراءة تدل على أن الإخلاص والإيمان ليس إلا من الله تعالى .

المسألة الثالثة :

(128/425)

---

الإخلاص جعل الشيء خالصاً عن شائبة الغير فنقول : كل من أتى بعمل فإما أن يكون قد أتى به لله فقط أو لغير الله فقط ، أو لمجموع الأمرين ، وعلى هذا التقدير الثالث فإما أن يكون طلب رضوان الله راجحاً أو مرجوحاً أو معادلاً ، والتقدير الرابع أن يأتي به لا لغرض أصلاً وهذا محال ، لأن الفعل بدون الداعية محال .

أما الأول : فهو الإخلاص في حق الله تعالى ، لأن الحامل له على ذلك الفعل طلب رضوان الله ، وما جعل هذه الداعية مشوبة بداعية أخرى بل بقيت خالصة عن شوائب الغير ، فهذا هو الإخلاص .

وأما الثاني : وهو الإخلاص في حق غير الله ، فظاهر أن هذا لا يكون إخلاصاً في حق الله تعالى .

وأما الثالث : وهو أن يشتمل على الجهتين إلا أن جانب الله يكون راجحاً ، فهذا يرجى أن يكون من المخلصين ، لأن المثل يقابله المثل .

فيبقى القدر الزائد خالصاً عن الشوب .

وأما الرابع والخامس : فظاهر أنه ليس من المخلصين في حق الله تعالى ، والحاصل أن القسم الأول : إخلاص في حق الله تعالى قطعاً .

والقسم الثاني : يرجى من فضل الله أن يجعله من قسم الإخلاص وأما سائر الأقسام فهو خارج عن الإخلاص قطعاً ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ففيه وجوه : الأول : أن إبليس لما قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ فلفظ المخلص يدل على الإخلاص ، فقوله هذا عائد إلى الإخلاص ، والمعنى : أن الإخلاص طريق علي وإلي ، أي أنه يؤدي إلى كرامتي وثوابي ، وقال الحسن : معناه هذا صراط إلي مستقيم ، وقال آخرون : هذا صراط من مر عليه ، فكأنه مر علي وعلى رضواني وكرامتي وهو كما يقال : طريقك علي .

الثاني : أن الإخلاص طريق العبودية فقوله : ﴿ هَذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم .

الثالث : قال بعضهم : لما ذكر إبليس أنه يغوي بني آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته فقال تعالى : ﴿ هَذَا صراط عَلَيَّ ﴾ أي تفويض الأمور إلى إرادتي ومشيئتي طريق علي مستقيم .

الرابع : معناه : هذا صراط علي تقريره وتأكيده ، وهو مستقيم حق وصدق ، وقرأ يعقوب : ﴿ صراط عَلَيّ ﴾ بالرفع والتنوين على أنه صفة لقوله : ﴿ صراط ﴾ أي هو علي بمعنى أنه رفيع مستقيم لا عوج فيه .

قال الواحدي : معناه أن طريق التفويض إلى الله تعالى والإيمان بقضاء الله طريق رفيع مستقيم .

إ ﴿ نَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) ﴾



اعلم أن إبليس لما قال : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأرض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ أوهم هذا الكلام أن له سلطاناً على عباد الله الذين يكونون من المخلصين ،

فبين تعالى في هذه الآية أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين ، بل من اتبع منهم إبليس باختياره صار متبعاً له ، ولكن حصول تلك المتابعة أيضاً ليس لأجل أن إبليس يقهره على تلك المتابعة أو يجبره عليها والحاصل في هذا القول : أن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطاناً ، فبين تعالى كذبه فيه ، وذكر أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس أنه قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [ إبراهيم : 22 ] وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين ءامَنُواْ وعلى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 99 ، 100 ] قال الجبائي : هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم كما يقوله العامة ، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة قال وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه ، وفي الآية قول آخر ، وهو أن إبليس لما قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ الحجر : 40 ] فذكر أنه لا يقدر على إغواء المخلصين صدقه الله في هذا الاستثناء فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ فلهذا قال الكلبي : العباد المذكورون في هذه الآية هم الذين استثناهم إبليس .

واعلم أن على القول الأول يمكن أن يكون قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ اتبعك ﴾ استثناء ، لأن المعنى : أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين فإن لك عليهم سلطاناً بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي .

وأما على القول الثاني فيمتنع أن يكون استثناء ، بل تكون لفظة ( إلا ) بمعنى لكن ، وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال ابن عباس : يريد إبليس وأشياعه ، ومن اتبعه من الغاوين .

ثم قال تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : إنها سبع طبقات : بعضها فوق البعض وتسمى تلك الطبقات بالدركات ، ويدل على كونها كذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِى الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [ النساء : 145 ] .

والقول الثاني : إن قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام : ولكل قسم باب ، وعن ابن جريج :

أولها : جهنم .

ثم لظى .

ثم الحطمة .

ثم السعير .

ثم سقر .

ثم الجحيم .

ثم الهاوية .

قال الضحاك : الطبقة الأولى : فيها أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون .

والثانية : لليهود .

والثالثة : للنصارى .

والرابعة : للصابئين .

والخامسة : للمجوس .

والسادسة : للمشركين .

والسابعة : للمنافقين .

وقوله : ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿جُزُءٌ مَّقْسُومٌ﴾ والباقون (جز ) بتخفيف الزاي .

وقرأ الزهري : (جز ) بالتشديد ، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي ، كقولك :

خب في خبء ، ثم وقف عليه بالتشديد .

المسألة الثانية :

الجزء بعض الشيء ، والجمع الأجزاء ، وجزأته جعلته أجزاء .

والمعنى : أنه تعالى يجزي أتباع إبليس إجزاء ، بمعنى أنه يجعلهم أقساماً وفرقاً ، ويدخل في كل قسم من أقسام جهنم طائفة من هؤلاء الطوائف .

(132/425)

---

والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة ، فلا جرم صارت مراتب العذاب والعقاب مختلفة بالغلظ والخفة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 152.146 ﴾

(133/425)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثونَ ﴾

وهذا السؤال من إبليس لم يكن من ثقة منه بمنزلته عند الله تعالى وأنه أهل أن يجاب له دعاء ، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار

إلى يوم يبعثون أن لا يموت ، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده .

فقال الله تعالى : ﴿ فإنك من المنظرين ﴾ يعني من المؤجلين .

﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ فلم يجبه إلى البقاء .

وفي الوقت المعلوم وجهان :

أحدهما : معلوم عند الله تعالى ، مجهول عند إبليس .

الثاني : إلى يوم النفخة الأولى يموت إبليس . وبين النفخة والنفخة أربعون سنة . فتكون مدة موت إبليس أربعين سنة ، وهو قول ابن عباس وسمي يوم الوقت المعلوم لموت جميع الخلائق فيه .

وليس هذا من الله تعالى إجابة لسؤاله ، لأن الإجابة تكرمة ، ولكن زيادة في بلائه ، ويعرف أنه لا يضر بفعله غير نفسه .

وفي كلام الله تعالى له قولان :

أحدهما : أنه كلمه على لسان رسول .

الثاني : أنه كلمه تغليظاً في الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب .

قوله عز وجل : ﴿ قال ربِّ بما أغويَتني ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بما أضللتني ، قاله ابن عباس .

الثاني : بما خيبتني من رحمتك .

الثالث : بما نسبتني إلى الإغواء .

ويحتمل هذا من إبليس وجهين :

أحدهما : أنه يقوله على وجه القسم وتقديره : وحق إغوائك لي .

الثاني : أنه يقوله على وجه الجزاء ، وتقديره لأجل إغوائك لي .

﴿ لأزينن لهم في الأرض ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لأزينن لهم فعل المعاصي .

الثاني : لأشغلنهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي لأضلنهم عن الهدى .

﴿ إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾ وهم الذين أخلصوا العبادة من فساد أو رياء حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلص للّه ، فقال : الذي يعمل لله ولا يحب أن يحمده الناس .

قوله عز وجل : ﴿ قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيم ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة ، قاله عمر رضي الله عنه .

الثاني : هذا صراط إليَّ مستقيم ، قاله الحسن فتكون عليَّ بمعنى إليَّ .

الثالث : أنه وعيد وتهديد ، ومعناه أن طريقه إليَّ ومرجعه عليَّ ، كقول القائل لمن يهدده ويوعده : عليَّ طريقك ، قاله مجاهد .

الرابع : معناه هذا صراط ، عليّ استقامته بالبيان والبرهان . وقيل بالتوفيق والهداية .

وقرأ الحسن وابن سيرين : ﴿ عليٌّ مستقيم ﴾ برفع الياء وتنوينها ، ومعناه رفيع مستقيم ، أي رفيع أن ينال ، مستقيم أن يمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(135/425)

---

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾

وسأل إبليس " النظرة إلى يوم البعث " فأعطاه الله إياها إلى " وقت معلوم " ، واختلف فيه فقيل إلى يوم القيامة أي يكون آخر من يموت من الخلق ، قاله الطبري وغيره وقيل إلى وقت

غير معين ولا مرسوم بقيامة ولا غيرها ، بل علمه عند الله وحده ، وقيل بل أمره كان إلى يوم بدر وأنه قتل يوم بدر .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وإن كان روي فهو ضعيف ، والمنظر المؤخر ، وقوله ﴿ رب ﴾ مع كفره يخرج على أنه يقر بالربوبية والخلق ، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأحاديث ، وهذا لا يدفع في صدر كفره ، وقوله ﴿ بما أغويتني ﴾ قال أبو عبيدة وغيره أقسم بالإغواء .

(136/425)

---

قال القاضي أبو محمد : كأنه جعله بمنزلة قول " رب " بقدرتك علي وقضائك ويحتمل أن تكون باء سبب ، كأنه قال " رب " والله لأغوينهم بسبب إغوائك لي ومن أجله وكفاء له .

ويحتمل أن يكون المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجد أي بحالي هذه وبعدي عن الخير والله لأفعلن ولأغوين ، ومعنى ﴿ لأزينن لهم في الأرض ﴾ أي الشهوات والمعاصي ، والضمير في ﴿ لهم ﴾ لذرية آدم وإن كان لم يجر لهم ذكر ، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملة تتضمنهم ، و" الإغواء " : الإضلال ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والحسن والأعرج " المخلَصين " بفتح اللام ، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك ، وقرأ الجمهور "

المخلِصين " بكسر اللام ، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسلك ، وقوله تعالى : ﴿ قال هذا صراط ﴾ الآية : القائل هو الله تعالى ، ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة ، وقرأ الضحاك وحميد والنخعي وابو رجاء وابن سيرين وقتادة وقيس بن عباد ومجاهد وغيرهم " عليّ مستقيم " من العلو والرفعة ، والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الإخلاص لما استثني إبليس من أخلص . قال الله له هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله ، وقرأ جمهور الناس " علي مستقيم " ، والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص ، لما قسم إبليس الناس هذين القسمين ، قال الله هذه طريق علي ، أي هذا أمر إلى مصيره ، والعرب تقول طريقك في هذا الأمر على فلان أي إليه يصير النظر في أمرك ، وهذا نحو قوله تعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [ الفجر : 14 ] .

قال القاضي أبو محمد : الآية على هذه القراءة تتضمن وعيداً ، ثم ابتدأ الإخبار عن سلامة عباده المتقين من إبليس وخاطبه بأنه لا حجة له عليهم ولا ملكه .



---

قال القاضي أبو محمد : والظاهر من قوله ﴿ عبادي ﴾ : الخصوص في أهل الإيمان والتقوى لا عموم الخلق ، وبحسب هذا يكون ﴿ إلاّ من اتبعك ﴾ مستثنى من غير الأول ،

التقدير لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان ، وإن أخذنا العباد عاماً في عباد الناس إذ لم يقرر الله لإبليس سلطاناً على أحد فإنا نقدر الاستثناء في الأقل في القدر من حيث لا قدر للكفار ، والنظر الأول أصوب ، وإنما الغرض أن لا تقع في استثناء الأكثر من الأقل ، وإن كان الفقهاء قد جوزوه ، قال أبو المعالي ليس معروفاً في استعمال العرب ، وهذه الآية أمثل ما احتج به مجوزوه .

قال القاضي أبو محمد : ولا حجة لهم في الآية على ما بينته ، وقوله ﴿ جهنم لموعدهم ﴾ أي موضع اجتماعهم ، والموعد يتعلق بزمان ومكان ، وقد يذكر المكان ولا يحد زمان الموعد ، و﴿ أجمعين ﴾ تأكيد وفيه معنى الحال ، وقوله ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ قيل إن النار بجملتها سبعة أطباق أعلاها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم وفيه أبو جهل ، ثم الهاوية ، وإن في كل طبق منها باباً ، فالأبواب على هذا بعضها فوق بعض ، وعبر في هذه الآية عن النار جملة ب ﴿ جهنم ﴾ إذ هي أشهر منازلها وأولها وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون ، ولهذا روي أن جهنم تخرب وتبلى ، وقيل إن النار أطباق كما ذكرنا لكن " الأبواب السبعة "كلها في جهنم على خط استواء ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقة الذي يفضى إليه .

قال القاضي أبو محمد : واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات التي بين الأبواب وفي هواء النار ، وفي كيفية الحال إذ هي أقوال أكثرها لا يستند ، وهي في حيز الجائز ، والقدرة

أعظم منها ، عافانا الله من ناره وتغمدنا برحمته بمنه . وقرأ الجمهور " جزء " بهمز ، وقرأ ابن شهاب " جزُء " بضم الزاي ، وقرأت فرقة " جزّ " بشد الزاي دون همز وهي قراءة ابن القعقاع. انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(138/425)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِلى يوم الوقت المعلوم ﴾

يعني : المعلوم بموت الخلائق فيه ، فأراد أن يذيقه ألم الموت قبل أن يذيقه العذاب الدائم في جهنم .

قوله تعالى : ﴿ لأزيِّننَّ لهم في الأرض ﴾ مفعول التزيين محذوف ، والمعنى : لأزيِّننَّ لهم الباطلَ حتى يقعوا فيه .

﴿ ولأُغوينَّهم ﴾ أي : ولأُضِلَّنَّهم .

والمخلَصون : الذين أخلصوا دينهم لله عن كل شائبة تناقض الإخلاص ، وما أخللنا به من الكلمات هاهنا ، فقد سبق تفسيرها في [ الأعراف : 16 ] وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ قال هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة

أقوال :

أحدها : أنه يعني بقوله هذا : الإِخلاصَ ، فالمعنى : إِن الإِخلاص طريق إِليَّ مستقيم ، و "عليَّ" بمعنى "إِليَّ" .

والثاني : هذا طريق عليَّ جَوازه ، لأني بالمرصاد ، فأجازيهم بأعمالهم ؛ وهو خارج مخرج الوعيد ، كما تقول للرجل تخاصمه : طريقك عليَّ ، فهو كقوله : ﴿ إِن ربك لبالمرصاد ﴾ [ الفجر 14 ] .

والثالث : هذا صراط عليَّ استقامته ، أي : أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان .

وقرأ قتادة ، ويعقوب : "هذا صراطٌ عَلِيٌّ" بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها ، أي : رفيع .

قوله تعالى : ﴿ إِن عبادي ﴾

فيهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم المؤمنون .

والثاني : المعصومون ، رُوِيا عن قتادة .

والثالث : المخلِصون ، قاله مقاتل .

والرابع : المطيعون ، قاله ابن جرير .

فعلى هذه الأقوال ، تكون الآية من العامِّ الذي أريد به الخاصُّ .

وفي المراد بالسلطان قولان :

أحدهما : أنه الحجة ، قاله ابن جرير ، فيكون المعنى : ليس لك حجة في إِغوائهم .

والثاني : أنه القهر والغلبة ؛ إِنما له أن يَغُرَّ ويزيِّن ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية ، فقال : ليس لك عليهم سلطان أن تلقيَهم في ذَنْب يضيق عفوي عنه .

قوله تعالى : ﴿ وإِن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ يعني : الذين اتَّبعوه .

(139/425)

---

قوله تعالى : ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ وهي دركاتها بعضها فوق بعض ، قال علي عليه السلام : أبواب جهنم ليست كأبوابكم هذه ، ولكنها هكذا وهكذا بعضها فوق بعض ، ووصف الراوي عنه بيده وفتح أصابعه .

قال ابن جرير : لها سبعة أبواب ، أولها جهنم ، ثم لَظى ، ثم الحُطَمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

وقال الضحاك : هي سبعة أدراك بعضها فوق بعض ، فأعلاها فيه أهل التوحيد يعذَّبون على قدر ذنوبهم ثم يُخرَجون ، والثاني فيه النصارى ، والثالث فيه اليهود ، والرابع فيه الصائبون ، والخامس فيه المجوس ، والسادس فيه مشركو العرب ، والسابع فيه المنافقون .

قال ابن الأنباري : لما اتصل العذاب بالباب ، وكان الباب مِنْ سببه ، سمي باسمه للمجاورة ، كتسميتهم الحدث غائطاً .

قوله تعالى : ﴿ لكل بابٍ منهم ﴾ أي : من أتباع إبليس ﴿ جزءٌ مقسوم ﴾ والجزء : بعض الشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(140/425)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة .

وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ يعني من المؤجّلين .

﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أي حين تموت الخلائق .

وقيل : الوقت المعلوم الذي استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس .

فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [ الرحمن : 26 ] .

وفي كلام الله تعالى له قولان : أحدهما : كلمه على لسان رسوله .

الثاني : كلمه تغليظاً في الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرض ﴾

تقدّم معنى الإغواء والزينة في الأعراف .

وتزيينه هنا يكون بوجهين : إما بفعل المعاصي ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة .

ومعنى ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لأضلنهم عن طريق الهدى .

وروى ابن لَهيعة عبدُ الله عن دُرّاج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم فقال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني " .

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ؛ أي الذين استخلصتهم وأخلصتهم .

وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أي الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء .

حكى أبو ثمامة أن الحواريين سألوا عيسى عليه السلام عن المخلِصين لله فقال : الذي يعمل ولا يحب أن يحمده الناس .

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) ﴾

قال عمر بن الخطاب: معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنة.

الحسن: "عليّ" بمعنى إليّ.

مجاهد والكسائيّ: هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهدّده: طريقك عليّ ومصيرك إليّ.

وكقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: 14].

فكان معنى الكلام: هذا طريقٌ مرجعه إليّ فأجازي كُلاًّ بعمله، يعني طريق العبودية.

وقيل: المعنى عليّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان.

وقيل: بالتوفيق والهداية.

وقرأ ابن سِيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب "هذا صِراط عليٌّ مستقيمٌ" برفع "عليّ" وتنوينه؛ ومعناه رفيع مستقيم، أي رفيع في الدين والحق.

وقيل: رفيع أن يُنال، مستقيم أن يمال.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعني على قلوبهم .

وقال ابن عُيينة : أي في أن يلقيهم في ذنب يمنعهم عفوي ويضيّقه عليهم .

وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

قلت : لعل قائلاً يقول : قد أخبر الله عن صفة آدم وحواء عليهما السلام بقوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشيطان ﴾ [ البقرة : 36 ] ، وعن جملة من أصحاب نبيّه بقوله : ﴿ إِنَّمَا استزلهم الشيطان بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ [ آل عمران : 155 ] فالجواب ما ذكر ، وهو أنه ليس له سلطان على قلوبهم ، ولا موضع إيمانهم ، ولا يلقيهم في ذنب يؤول إلى عدم القبول ، بل تزيله التوبة وتمحوه الأوْبة .

ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول ؛ على ما تقدّم في "البقرة" بيانه .

وأما أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقد مضى القول عنهم في آل عمران .

ثم إن قوله سبحانه : "ليس لك عليهم سلطان" يحتمل أن يكون خاصاً فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون في أكثر الأوقات والأحوال ، وقد يكون في تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة ؛ كما فُعل ببلال ، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّى الصبيّ حتى نام ، ونام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس ، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتِنا ؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ليس في النوم تفريط " ففرّج عنهم .

﴿ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ أي الضالين المشركين .

أي سلطانه على هؤلاء ؛ دليله ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 100 ] .

الثانية : وهذه الآية والتي قبلها دليل على جواز استثناء القليل من الكثير والكثير من القليل ؛ مثل أن يقول : عشرة إلا درهماً .

أو يقول : عشرة إلا تسعة .

وقال أحمد بن حنبل : لا يجوز أن يستثني إلا قدر النصف فما دونه .

وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح .

ودليلنا هذه الآية ؛ فإن فيها استثناء "الغاوين" من العباد والعباد من الغاوين ، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يعني إبليس ومن اتبعه.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أي أطباق، طبق فوق طبق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أي لكل طبقة ﴿ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي حظ معلوم.

ذكر ابن المبارك قال: أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغَنَوِيّ قال: سمعت حِطّان بن عبد الله الرَّقاشي يقول سمعت عليًّا رضي الله عنه يقول: هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا: هي مثل أبوابنا.

(143/425)

---

قال لا، هي هكذا بعضها فوق بعض، زاد الثعلبيّ: ووضع إحدى يديه على الأخرى وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحُطَمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظَى وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكلّ باب أشدّ حراً من الذي يليه سبعين مرة.

قلت: كذا وقع هذا التفسير.

والذي عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدّركات، وهي مختصة بالعُصاةِ من أمة

محمد صلى الله عليه وسلم ، وهي التي تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها .

ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم سعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية .

قال الضحاك : في الدّرك الأعلى المحمديّون ، وفي الثاني النصارى ، وفي الثالث اليهود ، وفي الرابع الصابئون ، وفي الخامس المجوس ، وفي السادس مشركو العرب ، وفي السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [ النساء : 145 ] وقد تقدم في النساء ، وقال : ﴿ أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [ غافر : 46 ] ، وقال : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ﴾ [ المائدة : 115 ] .

وقسّم معاذ بن جبل رضي الله عنه العلماء السّوء من هذه الأمة تقسيماً على تلك الأبواب ؛ ذكرناه في كتاب ( التذكرة ) .

وروى الترمذيّ من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سَلّ سيفه على أمتي " قال : حديث غريب .

وقال أُبَيّ بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحَرُورِية .

وقال وهب بن منبّه : بين كل بابين مسيرة سبعين سنة ، كلّ باب أشدّ حرّاً من الذي فوقه

بسبعين ضعفاً .

وقد ذكرنا هذا كلّه في كتاب التذكرة .

(144/425)

---

وروى سلام الطويل عن أبي سفيان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهم على الله ، وجزء شفوْا غيظهم بغضب الله ، وجزء صيّروا رغبتهم بحظهم من الله ، وجزء عتَوْا على الله .

ذكره الحَلِيمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب ( منهاج الدين ) له ، وقال : فإن كان ثابتاً فالمشركون بالله هم الثّنوية .

والشاكّون هم الذين لا يدرون أن لهم إلها أو لا إله لهم ، ويشكون في شريعته أنها من عنده أم لا .

والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلاً ولا يثبتونه ، وهم الدهرية .

والمؤثرون شهواتهم على الله هم المنهمكون في المعاصي ؛ لتكذيبهم رسلَ الله وأمره ونهيه .

والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المعذِّبون من

ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم .

والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب ؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه ، لهم جميع حظهم من الله تعالى .

والعاتون على الله الذين لا يبالون ، بأن يكون ما هم فيه حقاً أو باطلاً ، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون .

والله أعلم بما أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث .

ويروى : أن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه لما سمع هذه الآية ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية "وإن جهنم لَمَوْعِدُهم أجمعِين" ؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي ؛ فأنزل الله تعالى "إِنّ المتقِين فِي جنات وعُيُونٍ" .

(145/425)

---

وقال بلال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلي في مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية "لها سبعة أبوابٍ لكل باب منهم جزء مقسوم" فخرّت الأعرابية مغشيًّا عليها ، وسمع النبيّ

صلى الله عليه وسلم وَجْبَتها فانصرف ودعا بماء فصبّ على وجهها حتى أفاقت وجلست ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يا هذه ما لك" ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل ، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : "يا أعرابية بل هو من كتاب الله تعالى المنزل" فقالت : كل عضو من أعضائي يعذب على كل باب منها ؟ قال : "يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذّب أهل كل منها على قدر أعمالهم" فقالت : والله إني امرأة مسكينة ، مالي مال ، ومالي إلا سبعة أعبد ، أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى .

فأتاه جبريل فقال : "يا رسول الله ، بشّر الأعرابية أن الله قد حَرّم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(146/425)

---

وقال الخازن :

﴿ قال رب فأنظرني ﴾

يعني أخّرني ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ يعني يوم القيامة وأراد بهذا السؤال أنه لا يموت أبداً لأنه أذا أمهل إلى يوم القيامة ، ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك أنه لا يموت أبداً ، فلهذا

السبب سأل الإنظار إلى يوم يبعثون ، فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الأولى فيقال : إن مدة موت إبليس أربعون سنة ، وهو ما بين النفختين ، ولم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له بل كان ذلك الإمهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه .

وإنما سمي يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم ، لأن ذلك اليوم لا يعلمه أحد إلا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل : إن جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل إبليس الإنظار إلى يوم يبعثون أجابه الله بقوله : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الإنظار إليه ﴿ قال رب بما أغويتني ﴾ الباء للقسم في قوله بما وما ومصدرية ، وجواب القسم ﴿ لأزينن ﴾ والمعنى فبإغوائك إياي لأزينن لهم في الأرض ، وقيل هي باء السبب .

يعني بسبب كوني غاوياً لأزينن ﴿ لهم في الأرض ﴾ يعني لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ يعني بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ، وذلك أن إبليس لما علم أنه يموت على الكفر غير مغفور لهم حرص على إضلال الخلق بالكفر ، وإغوائهم ثم استثنى فقال ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ يعني المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ، ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى إلا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك .

وإنما استثنى إبليس المخلصين لأنه علم أن كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ، ولا يقبلون منه وحقيقة الإخلاص فعل الشيء خالصاً لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو ، إما أن مراده بتلك الطاعات وجه الله فقط ، أو غير الله أو مجموع الأمرين .

أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول ، وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود ، وأما من كان مراده مجموع الأمرين فإن ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجحين وإن ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لأن المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد ، وإلى أي الجانبين رجح أخذ به ﴿ قال ﴾ يعني قال الله تبارك وتعالى ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ قال الحسن معناه هاذا صراط إلى مستقيم .

وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج إلى شيء .

وقال الأخفش : معناه على الدلالة على الصراط المستقيم .

وقال الكسائي : هذا على طريق التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه : طريقك علي أي لا تنفلت مني .

وقيل : معناه علي استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية .

وقيل : هذا عائد إلى الإخلاص والمعنى أن الإخلاص طريق علي وإلي يؤدي إلى كرامتي ورضواني .

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾

أي قوة وقدرة وذلك أن إبليس لما قال : لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، أوهم بهذا الكلام أن له سلطاناً على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى ، أنه ليس له سلطان على أحد من عبيده سواء كان من المخلصين ، أو لم يكن من المخلصين .



---

قال أهل المعاني : ليس لك عليهم سلطان على قلوبهم ، وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال : معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي ، وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم ، واجتباهم من عباده ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ يعني إلا من اتبع إبليس من الغاوين ، فإن له عليهم سلطاناً بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ يعني موعد إبليس وأتباعه وأشياعه ﴿ لها ﴾ يعني

لجهنم ﴿ سبعة أبواب ﴾ يعني سبع طبقات .

قال علي بن أبي طالب : تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض .

قال ابن جريج : النار سبع دركات أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ يعني لكل دركة قوم يسكنونها والجزء بعض الشيء وجزأته جعلته أجزاء ، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجزىء أتباع إبليس سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم في النار دركة من النار والسبب فيه أن مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت مراتبهم في النار ، قال الضحاك : في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار يعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها ، وفي الثانية النصارى ، وفي الثالثة اليهود ، وفي الرابعة الصابئون ، وفي الخامسة المجوس ، وفي السادسة أهل الشرك ، وفي السابعة المنافقون فذلك ، قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ عن ابن عمر عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال " لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي أو قال على أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) " أخرجه الترمذي .

وقال : حديث غريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

ويوم الدين ، ويوم يبعثون ، ويوم الوقت المعلوم ، واحد .

وهو وقت النفخة الأولى حتى تموت الخلائق .

ووصف بالمعلوم إما لانفراد الله بعلمه كما قال : ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أو لأنه معلوم فناء العالم فيه ، فيكون قد عبر بيوم الدين ، وبيوم يبعثون ، ويوم الوقت المعلوم ، بما كان قريباً من ذلك اليوم .

قال الزمخشري : ومعنى إغوائه إياه نسبته لغيه ، بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام ، فأفضى ذلك إلى غيه .

وما الأمر بالسجود الأحسن ، وتعريض للثواب بالتواضع ، والخضوع لأمر الله ، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك ، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال .

والضمير في لهم عائد على غير مذكور ، بل على ما يفهم من الكلام ، وهو ذرية آدم .

ولذلك قال في الآية الأخرى : ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾

والتزين تحسين المعاصي لهم ووسوسته حتى يقعوا فيها في الأرض أي : في الدنيا التي هي دار الغرور لقوله تعالى : ﴿ أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ أو أراد أني أقدر على الاحتيال لآدم ، والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء ، فأنا على التزيين لأولاده أقدر .

أو أراد لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض ، ولأرفعن رتبتي فيها أي : لأزينها في أعينهم ، ولأحدثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها دونها ، ونحوه : يجرح في عراقيبها نصلي قاله الزمخشري .

وإلاّ عبادك استثناء القليل من الكثير ، إذ المخلصون بالنسبة إلى الغاوين قليل ، واستثناؤهم إبليس ، لأنه علم أنّ تزيينه لا يؤثر فيهم ، وفيه دليل على جلاله هذا الوصف ، وأنه أفضل ما اتصف به الطائع .



---

وقرأ الكوفيون ، ونافع ، والحسن ، والأعرج : بفتح اللام ، ومعناه إلا من أخلصته للطاعة أنت ، فلا يؤثر فيه تزييني .

وقرأ باقي السبعة والجمهور : بكسرها أي : إلا من أخلص العمل لله ولم يشرك فيه غيره .

ولا راءى به ، والفاعل لقال الله أي : قال الله .

والإشارة بهذا إلى ما تضمنه المخلصين من المصدر أي : الإخلاص الذي يكون في عبادي هو صراط مستقيم لا يسلكه أحد فيضل أو يزل ، لأنّ من اصطفيته أو أخلص لي العمل لا سبيل لك عليه .

وقيل : لما قسم إبليس ذرية آدم إلى غاو ومخلص قال تعالى : هذا أمر مصيره إليّ ، ووصفه بالاستقامة ، أي : هو حق ، وصيرورتهم إلى هذين القسمين ليست لك .

والعرب تقول : طريقك في هذا الأمر على فلان أي : إليه يصير النظر في أمرك .

وقال الزمخشري : هذا طريق حق عليّ أن أراعيه ، وهو أن يكون لك سلطان على عبادي ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته انتهى .

فجعل هذا إشارة إلى انتفاء تزيينه وإغوائه .

وكونه ليس له عليهم سلطان ، فكأنه أخذ الإشارة إلى ما استثناه إبليس ، وإلى ما قرره تعالى بقوله : إن عبادي .

وتضمن كلامه مذهب المعتزلة .

وقال صاحب اللوامح : أي : هذا صراط عهدة استقامته عليّ .

وفي حفظه أي : حفظه عليّ ، وهو مستقيم غير معوج .

وقال الحسن : معنى عليّ إليَّ .

وقيل: عليّ كأنه من مرّ عليه مرّ عليّ أي: على رضواني وكرامتي.

وقرأ الضحاك، وابراهيم.

وأبو رجاء، وابن سيرين، ومجاهد، وقتادة، وقيس بن عباد، وحميد، وعمرو بن ميمون، وعمارة بن أبي حفصة، وأبو شرف مولى كندة، ويعقوب: عليّ مستقيم أي: عال لارتفاع شأنه.

وهذه القراءة تؤكد أنّ الإشارة إلى الإخلاص وهو أقرب إليه.

(151/425)

---

والإضافة في قوله: إنّ عبادي، إضافة تشريف أي: أنّ المختصين بعبادتي، وعلى هذا لا يكون قوله: إلاّ من اتبعك، استثناء متصلاً، لأنّ من اتبعه لم يندرج في قوله: إنّ عبادي: وإنْ كان أريد بعبادي عموم الخلق فيكون: إلاّ من اتبعك استثناء من عموم، ويكون فيه دلالة على استثناء الأكثر، وبقاء المستثنى منه أقل، وهي مسألة اختلف فيها النحاة. فأجاز ذلك الكوفيون وتبعهم من أصحابنا الأستاذ أبو الحسن بن خروف، ودلائل ذلك مسطرة في كتب النحو.

والذي يظهر أنّ إبليس لما استثنى العباد المخلصين كانت الصفة ملحوظة في قوله: إنّ

عبادي أي : عبادي المخلصين الذين ذكرتهم ليس لك عليهم سلطان .

ومن في الغاوين لبيان الجنس أي : الذين هم الغاوون .

وقال الجبائي : هذه الآية تدل على بطلان قول من زعم أن الشيطان والجن يمكنهم صرع الناس وإزالة عقولهم كما تقول العامة ، وربما نسبوا ذلك إلى السحرة .

قال : وذلك خلاف ما نص الله تعالى عليه ، ولموعدهم مكان وعد اجتماعهم والضمير للغاوين .

وقال ابن عطية : وأجمعين تأكيد ، وفيه معنى الحال انتهى .

وهذا جنوح لمذهب من يزعم أنّ أجمعين تدل على اتحاد الوقت ، والصحيح أنّ مدلوله مدلول كلهم .

والظاهر أن جهنم هي واحدة ، ولها سبعة أبواب .

وقيل : أبواب النار أطباقها وأدراكها ، فأعلاها للموحدين ، والثاني لليهود ، والثالث للنصارى ، والرابع للصائبين ، والخامس للمجوس ، والسادس للمشركين ، والسابع للمنافقين .

وقرأ ابن القعقاع : جز بتشديد الزاي من غير همز ، ووجهه أنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي ، ثم وقف بالتشديد نحو : هذا فرج ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف .

واختلف عن الزهري ، ففي كتاب ابن عطية : وقرأ ابن شهاب بضم الزاي ، ولعله

تصحيف من الناسخ ، لأني وجدت في التحرير : وقرأ ابن وثاب بضمها مهموزاً فيهما .

وقرأ الزهري بتشديد الزاي دون همز ، وهي قراءة ابن القعقاع .

(152/425)

---

وأنّ فرقة قرأت بالتشديد منهم : ابن القعقاع .

وفي كتاب الزمخشري وكتاب اللوامح : أنه قرأ بالتشديد ، وفي اللوامح هو وأبو جعفر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(153/425)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ .

أي أمهلني وأخِّرْني ولا تُمِتْني ، والفاء متعلقٌ بمحذوف ينسحب عليه الكلام ، أي إذْ جعلتني رجيماً فأمهلني ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي آدمُ وذريتُه للجزاء بعد فنائِهم ، وأراد بذلك أن يجد فُسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجوَ من الموت لاستحالته بعد يوم

البعث .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ وورودُ الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يُؤذِنُ بكون السائلِ تبعاً لهم في ذلك ، دليلٌ على أنه إخبارٌ بالإنظار المقدر لهم أزلاً ، لا إنشاءُ لإنظار خاصَ به وقع إجابةً لدعائه ، أي إنك من جملة الذين أُخّرت آجالُهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمةُ التكوين ، فالفاءُ ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار بل لربط الإخبارِ المذكور به ، كما في قوله

(154/425)

---

فإن ترحم فأنت لذاك أهل . . . فإنه لا إمكان لجعل الفاءِ فيه لربط ما فيه تعالى من الأهلية القديمةِ للرحمة بوقوع الرحمةِ الحادثة ، بل هي لربط الإخبار بتلك الأهليةِ للرحمة بوقوعها ، وأن استنظاره كان طلباً لتأخير الموتِ إذ به يتحقق كونُه من جملتهم ، لا لتأخير العقوبه كما قيل ، ونظمه في ذلك في سلك من أُخّرت عقوبتُهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحِق من الثقلين لا يلائم مقامَ الاستنظار مع الحياة ، ولأن ذلك التأخيرَ معلومٌ من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث كما عرفته ، وفي سورة الأعراف : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ بترك التوقيتِ والنداءِ ، والفاء في

الاستنظار والإنظارِ تعويلاً على ما ذكر هاهنا ، وفي سورة ص ، فإن إيراد كلامٍ واحد على أساليبَ متعددةٍ غيرُ عزيزٍ في الكتاب العزيز ، وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريمِ لا بد أن يكون له مقامٌ يقتضيه مغايرٌ لمقام غيره ، وأن ما حُكي من اللعين إنما صدر عنه مرة وكذا جوابُه لم يقع إلا دفعةً ، فمقامُ المجاورة إن اقتضى أحدَ الأساليبِ المذكورة فهو المطابقُ لمقتضى الحال والبالغُ إلى طبقة الإعجاز وما عداه قاصرٌ عن رتبة البلاغة فضلاً عن الارتقاء إلى معالم الإعجازِ ، فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الأعراف .

(155/425)

---

﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وهو وقتُ النفخة الأولى التي علم أنه يَصْعَق عندها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله تعالى ، ويجوز أن يكون المرادُ بالأيام واحداً ، والاختلافُ في العبارات لاختلاف الاعتباراتِ ، فالتعبيرُ بيوم البعث لأن غرض اللعين يتحقق ، وبيوم الدين لما ذُكر من الجزاء ، وبيوم الوقت المعلومِ لما ذُكر أو لاستئثاره تعالى بعلمه فلعل كلاًّ من هلاك الخلق جميعاً وبعثهم وجزائِهم في يوم واحد ، يموت اللعينُ في أوله ويُبعث في أواسطه ويعاقب في بقيته . يُروى أن بين موتِه وبعثه أربعين سنةً من سِني الدنيا مقدارَ ما بين النفختين ، ونقل عن الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال : قدِمتُ المدينة أريد أميرَ

المؤمنين عمرَ رضي الله تعالى عنه ، فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعبُ الأحبار فيها يحدث الناس وهو يقول : لما حضر آدمَ عليه الصلاة والسلام الوفاةُ قال : يا رب سيشمت بي عدوي إبليسُ إذا رآني ميتاً وهو مُنْظَرٌ إلى يوم القيامة ، فأجيب أنْ يا آدمُ إنك ستردِ إلى الجنة ويؤخَّر اللعينُ إلى النظرة ليذوق ألَمَ الموتِ بعدد الأولين والآخِرين ، ثم قال لملك الموت : صِفْ كيف تذيقه الموتَ ، فلما وصفه قال : يا رب حسبي .

(156/425)

---

فضجّ الناسُ وقالوا : يا أبا إسحاق كيف ذلكَ ؟ فأبى ، فألّحوا فقال : يقول الله سبحانه لملك الموت عِقبَ النفخةِ الأولى : " قد جعلت فيك قوةَ أهلِ السموات السبع ، وأهلِ الأرضينَ السبعِ ، وإني ألبستُك اليوم أثوابَ السخط والغضب كلّها ، فانزلْ بغضبي وسطوتي على رجيمي إبليسَ فأذِقْه الموتَ واحمِلْ عليه فيه مرارةَ الأولين والأخِرين من الثقلين أضعافاً مضاعفةً ، وليكن معك من الزبانية سبعون ألفاً قد امتلأوا غيظاً وغضباً ، وليكن مع كل منهم سلسلةٌ من سلاسل جهنم وغُلٌّ من أغلالها ، وأنزل روحَه المُنْتنَ بسبعين ألفَ كلاب من كلاليبها ، ونادِ مالكاً ليفتح أبواب النيران " فينزل ملكُ الموت بصورة لو نظر إليها أهلُ السموات والأرضين لماتوا بغتةً من هولها ، فينتهي إلى إبليس فيقول : قف لي يا

خبيثُ لأُذيقنّك الموت كم من عمر أدركتَ وقرونٍ أضللتَ وهذا هو الوقتُ المعلوم ، قال : فيهرُب اللعين إلى المشرِق فإذا هو بملك الموت بين عينيه ، فيهرُب إلى المغرِب فإذا هو به بين عينيه ، فيغوص البحارَ فتنز منه البحارُ فلا تقبله ، فلا يزال يهرُب في الأرض ولا محيصَ له ولا ملاذ ، ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدمَ ويتمرغ في التراب من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، حتى إذا كان في الموضع الذي أُهبط في آدمُ عليه الصلاة والسلام ، وقد نَصبت له الزبانية الكلاليبَ وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ، ويبقى في النزع والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى ، ويقال لآدمَ وحواءَ : اطَّلِعا اليوم إلى عدوكما كيف يذوق الموت ، فيطّلعان فينظران إلى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان : ربنا أتممتَ علينا نعمتك .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾



---

الباء للقسم وما مصدريةٌ والجواب ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي أقسم بإغوائك إيايَ لأزينن لهم المعاصيَ ﴿ فِى الأرض ﴾ أي في الدنيا التي هي دارُ الغرور كقوله تعالى : ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الأرض ﴾ وإقسامُه بعزة الله المفسَّرة بسلطانه وقهره لا ينافي إقسامَه بهذا ، فإنه فرعٌ من

فروعها وأثرٌ من آثارها ، فلعله أقسم بهما جميعاً فحُكي تارة قسمُه بهذا وأخرى بذاك ، أو للسببية ، وقوله : لأزينن ، جوابُ قسمٍ محذوف ، والمعنى بسبب تسبُّبِك لإغوائي أقسم لأفعلن بهم مثلَ ما فعلت بي من التسبيب لإغوائهم بتزيين المعاصي وتسويلِ الأباطيل ، والمعتزلة أوّلوا الإغواءَ بالنسبة إلى الغيّ أو التسبب له لأمره إياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، واعتذروا عن إمهال الله تعالى وتسليطِه له على إغواء بني آدم بأنه تعالى قد علِم منه وممن تبِعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار ، أُمهل أم لم يُمهَل ، وأن في إمهاله تعويضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيدِ الثواب ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لأحمِلنّهم على الغواية .

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ الذين أخلصتَهم لطاعتك وطهّرتَهم من الشوائب ، فلا يعملُ فيهم كيدي ، وقرىء بكسر اللام ، أي الذين أخلصوا نفوسَهم لله تعالى .

﴿ قَالَ هَذَا صراط ﴾ أي حقٌّ ﴿ عَلَيَّ ﴾ أن أراعيه ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا عوجَ فيه ، والإشارةُ إلى ما تضمّنه الاستثناءُ وهو تخلّصُ المخْلَصين من إغوائه ، أو الإخلاصُ على معنى أنه طريقٌ يؤدي إلى الوصول من غير اعوجاج وضلالٍ ، والأظهرُ أن ذلك لِما وقع في عبارة إبليسَ حيث قال : ﴿ لأقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية ، وقرىء على من علو الشرف .

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ وهم المشار إليهم بالمخلَصين ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ تسلطٌ وتصرفٌ بالإغواء ﴿ إِلَّا مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ وفيه، مع كونه تحقيقاً لما قاله اللعين، تفخيمٌ لشأن المخلَصين وبيانٌ لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الإغواء عنهم وأن إغواءَه للغاوين ليس بطريق السلطانِ بل بطريق اتباعِهم له بسوء اختيارِهم.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ أي موعدُ المتبعين أو الغاوين، والأول أنسبُ وأدخلُ في الزجر عن اتباعه، وفيه دلالةٌ على أن جهنم مكانُ الوعد وأن الموعودَ مما لا يوصف في الفظاعة ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيدٌ للضمير أو حالٌ، والعامل فيها الموعِدُ إن جعل مصدراً على تقدير المضاف، أو معنى الإضافة إن جعل اسم مكان.

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلونها لكثرتهم، أو سبعُ طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغَواية والمتابعة، وهي: جهنم ثم لظَى ثم الحُطمة ثم السعير ثم سقرُ ثم الجحيمُ ثم الهاوية ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ من الأتباع أو الغواة ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ حزبٌ معينٌ مُفرَزٌ من غيره حسبما يقتضيه استعدادُه، فأعلاها للموحدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار، والحُطَمة لعبدة الأصنام، وسقَرُ لليهود، والسعير للنصارى، والجحيم للصابئين، والهاوية

للموحّدين ، ولعل حصرها في السبع لانحصار المهلكات في المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضياتِ القوة الشهوية والغضبية ، وقرىء بضم الزاي وبحذف الهمزة وإلقاءِ حركتها إلى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل ، ومنهم حال ، من جزء أو من ضميره في الظرف لا في مقسوم ، لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفَها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(159/425)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾

أمهلني وأخرني ولا تمتني والفاء متعلقة بمحذوف مفهوم من الكلام أي إذ جعلتني رجيما فامهلني ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي آدم عليه السلام وذريته للجزاء وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره ، قيل : ولينجوا من الموت إذ لا موت بعد البعث وهو المروى عن ابن عباس .

والسدى ، وكأنه عليه اللعنة طلب تأخير موته لذلك ولم يكتف بما أشار إليه سبحانه في التغيى من التأخير لما أنه يمكن كون تأخير العقوبة كسائر من أخرت عقوباتهم إلى الآخرة من

الكفرة .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الرب سبحانه ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ أي من جملتهم ومنتظم في سلكهم قال بعض الأجلة : إن في ورود الجواب جملة اسمية مع التعرض لشمول ما سأله الآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعاً لهم في ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم لا لانشاء انظار خاص به وقع إجابة لدعائه أي أنك من جملة الذين أخرت آجالهم ازلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين ، فالفاء لربط الأخبار بالانظار بالاستنظار كما في وقوله :

فإن ترحم فأنت لذاك أهل . . .

وإن تطرد فمن يرحم سواكا

لا لربط نفس الانظار به وأن استنظاره لتأخير الموت إذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ، ونظمه في سلك من أخرت عقوبتهم إلى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولأن ذلك التأخير معلوم من إضافة اليوم إلى الدين مع إضافته في السؤال إلى البعث انتهى ، وقيل : إن الفاء متعلقة كالفاء الأولى بمحذوف والكلام إجابة له في الجملة أي إذ دعوتني فإنك من المنظرين

﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وهو وقت النفخة الأولى كما روى عن ابن عباس ، وعليه الجمهور .

ووصفه بالمعلوم اما على معنى أن الله تعالى استأثر بعلمه أو على معنى معلوم حاله وأنه يصعق فيه من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى ، وقال آخرون : إنه عليه اللعنة أعطى مسؤوله كملا وليس إلا البقاء إلى وقت النفخة الأولى وهو آخر أيام التكليف والوقت المشارف للشيء المتصل به معدود منه فأول يوم الدين وأول يوم البعث كأنه من ذلك الوقت ، واستظهر ذلك بأن الملعون عالم فلا يسأل ما يعلم أنه لا يجاب إليه وبأن ما في الأعراف لعدم ذكر الغاية فيه يدل على الإجابة ؛ واعترض على الأول بأنه غير بين ولا مبين وكونه على غالب الظن لا يجدي في مثله ، وعلى الثاني بأن ترك الغاية في سورة الأعراف يحتمل أن يكون كترك الفاء في الاستنظار والانظار تعويلاً على ما ذكر ههنا وفي سورة ص فإن أيراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز في الكتاب العزيز .

ومن الناس القائلين بالمغايرة من قال : إن المراد باليوم المعلوم اليوم الذي علم الله تعالى فيه انقضاء أجله وهو يوم خروج الدابة فإنها هي التي تقتله ، وقد قدمنا نقل هذا القول عن بعض السلف وهو من الغرابة بمكان ، وأغرب منه ما قيل : أنه هلك في بعض غزواته صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرنا قبل أن هذا مما لا يكاد يقبل بظاهره أصلاً ، والمشهور المعول عليه عند الجمهور هو ما ذكرناه من أنه يموت عند النفخة الأولى وبينها وبين النفخة الثانية التي يقوم فيها الخلق لرب العالمين أربعون سنة ، ونقل عن الأحنف بن قيس عليه الرحمة أنه قال : قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه فإذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الأحبار فيها وهو يقول : لما حضر آدم عليه السلام الوفاة قال : يا رب سيشمت بي عدوي إبليس إذا رآني ميتاً وهو منتظر إلى يوم القيامة فأجيب أن يا آدم إنك سترد إلى الجنة ويؤخر اللعين إلى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين ، ثم قال لملك الموت : صف لي كيف تذيقه الموت ؟ فلما وصفه قال : يا رب حسبي فضج الناس وقالوا : يا أبا إسحاق كيف ذلك ؟ فأبى وألحوا فقال : يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الأولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات وأهل الأرضين السبع وإني اليوم ألبستك ثواب السخط والغضب كلها فابرز بغضبي وسطوتي على رجيمي إبليس فأذقه الموت وأحمل عليه فيه مرارة الأولين والآخرين من الثقلين أضعافاً مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفاً قد امتلأوا غيظاً وغضباً وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع

روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكاً ليفتح أبواب النيران فينزل الملك بصورة لو نظر إلهيا أهل السموات والأرضين لماتوا بغتة من هولها فينتهي إلى إبليس فيقول : قف لي يا خبيث لأذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرن أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال : فيهرب اللعين إلى المشرق فإذا هو

(162/425)

---

بملك الموت بين عينيه فيهرب إلى المغرب فإذا هو به بين عينيه فيغوص البحاري فيثير منها البخاري فلا تقبله فلا يزال يهرب في الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدم عليه السلام ويتمرغ في التراب من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق حتى إذا كان في الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه السلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الأرض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب فيبقى في النزع والعذاب إلى حيث يشاء الله تعالى ، ويقال : آدم وحواء عليهما السلام اطلعا اليوم على عدو كما يذوق الموت فيطلعان فينظران إلى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك ، وجاء في بعض الأخبار أنه حين لا يجد مفراً يأتي قبر آدم عليه السلام فيحثو التراب على رأسه وينادي يا آدم أنت أصل بليتي فيقال له : يا إبليس اسجد الآن لآدم عليه السلام فيرتفع

عنك ما ترى فيقول: كلا لم أسجد له حياً فكيف أسجد له ميتاً ، وهذا إن صح يدل على أن اللعين من العناد بمكان لا تصل إلى غايته الأذهان.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾

(163/425)

---

أي بسبب إغوائك إياي ﴿ لأُزَيِّنَنَّ ﴾ أي أقسم لأزينن ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لذريته وهو مفهوم من السياق وإن لم يجر له ذكر ، وقد جاء مصرحاً به في قوله تعالى حكاية عن اللعين أيضاً : ﴿ لاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ ﴾ [الإسراء : 62] ومفعول ﴿ أزينن ﴾ محذوف أي المعاصي ﴿ ضَلَلْنَا فِى الأرض ﴾ أي هذا الجرم المدحو وكأن اللعين أشار بذلك إلى أني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة في السماء فإنا على التزيين لذريته في الأرض أقدر ، ويجوز أنه أراد بالأرض الدنيا لأنها محل متاعها ودارها ، وذكر بعضهم أن هذا المعنى عرفي للأرض وأنها إنما ذكرت بهذا اللفظ تحقيراً لها ، ولعل التقييد على ما قيل للإشارة إلى أن للتزين محلاً يقوي قبوله أي لأزينن لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور ، وجوز أن يكون يراد بها هذا المعنى وينزل الفعل منزلة اللازم ثم يعدى بفي ، وفي ذلك دلالة على أنها مستقر التزيين وأنه تمكن المظروف في ظرفه ، ونحوه قول ذي الرمة :

فإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها . . .

إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

والمعنى لأحسنن الدنيا وأزيننها لهم حتى يشتغلوا بها عن الآخرة ، وجوز جعل الباء للقسم و﴿ مَا ﴾ مصدرية أيضاً أي أقسم بإغوائك إياي لأزينن ، وأقسامه بعزة الله تعالى المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافي أقسامه بهذا فإنه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعاً فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك ، وزعم بعضهم أن السببية أولى لأنه وقع في مكان آخر ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ [ص : 82 ] والقصة واحدة والحمل على محاورتين لا موجب له ولأن القسم بالإغواء غير متعارف انتهى ، وفيه نظر ظاهر فإ قوله : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ [ص : 82 ] يحتمل القسمية أيضاً ، وقد صرح الطيبي بأن مذهب الشافعية أن القسم بالعزة والجلال يمين شرعاً فالآية على الزاعم لا له .



---

نعم أن دعواه عدم تعارف القسم بالأغواء مسلمة وهو عندي يكفي لأولوية السببية ولعدم التعارف مع عدم الإشعار بالتعظيم لا يعد القسم بها يميناً شرعاً فإن القائلين بانعقاد القسم بصفة له تعالى يشترطون أن تشعر بتعظيم ويتعارف مثلها ، وفي نسبة الأغواء إليه تعالى بلا

إنكار منه سبحانه قول بأن الشر كالخير من الله عز وجل ، وأول المعتزلة ذلك وقالوا : المراد النسبة إلى الغي كفسقته نسبته إلى الفسق لأفعلته أو أن المراد فعل به فعلاً حسناً أفضى به لخبثه إلى الغي حيث أمره سبحانه بالسجود فأبى واستكبر أو أضله عن طريق الجنة وترك هدايته واللطف به واعتذروا عن إنظار الله تعالى إياه مع أنه مفض إلى الاغواء القبيح بأنه تعالى قد علم منه وممن اتبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أنظر أم لم ينظر وأن في إنظاره تعريضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب .

وأنت تعلم أن في إنظار إبليس عليه اللعنة وتمكينه من الاغواء وتسليطه على أكثر بني آدم ما يأبى القول : وجوب رعاية الأصلح المشهور عن المعتزلة ، وأيضاً من زعم أن حكيماً أو غيره يحصر قوماً في دار ويرسل فيها النار العظيمة والأفاعي القاتلة الكثيرة ولم يرد أذى أحد من أولئك القوم بالإحراق أو اللسع فقد خرج عن الفطرة البشرية .

فحينئذ الذي تحكم به الفطرة أن الله تعالى أراد بالإنظار إضلال بعض الناس فسبحانه من إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وتمسك بعض المعتزلة في تأويل ما تقدم بقوله : ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ حيث أفاد أن الاغواء فعله فلا ينبغي أن ينسب إلى الله تعالى ، وأجيب بأن المراد به هنا الحمل على الغواية لا إيجادها وتأويل اللاحق للسابق أولى من العكس ، وبالجملة ضعف الاستدلال ظاهر فلا يصلح ذلك متمسكاً لهم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي كلهم فهو لمجرد الإحاطة هنا .

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾

بفتح اللام وهو قراءة الكوفيين .

ونافع .

والحسن .

(165/425)

---

والأعرج أي الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من كل ما ينافي ذلك ، وكان الظاهر وأن منهم من لا أغويه مثلاً ، وعدل عنه إلى ما ذكر لكون الإخلاص والتمحض لله تعالى يستلزم ذلك فيكون من ذكر السبب وإرادة مسببه ولازمه على طريق الكناية وفيه اثبات الشيء بدليله فهو من التصريح به ، وقرأ باقي السبعة والجمهور بكسر اللام أي الذين أخلصوا العمل لك ولم يشركوا معك فيه أحداً .

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) ﴾

﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه وتعالى : ﴿ هَذَا صراط عَلَىَّ ﴾ أي حق لا بد أن أراعيه ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من إغوائه وكلمة ﴿ عَلَىَّ ﴾ تستعمل للوجوب والمعتزلة يقولون به حقيقة

لقولهم بوجوب الأصلح عليه تعالى ، وقال أهل السنة : إن ذلك وإن كان تفضلاً منه سبحانه إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكد ثبوته وتحقق وقوعه بمقتضى وعده جل وعلا فنجيء بعلي لذلك أو إلى ما تضمنه ﴿ المخلصين ﴾ [ الحجر : 40 ] بالكسر من الإخلاص على معنى أنه طريق يؤدي إلى الوصول إلى من غير إعوجاج وضلال وهو على نحو طريقك على إذا انتهى المرور عليه ، وإيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء لتأكيد الاستقامة والشهادة باستعلاء من ثبت عليه فهو أدل على التمكن من الوصول ، وهو تمثيل فلا استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وليست ﴿ عَلَىَّ ﴾ فيه بمعنى إلى .

نعم أخرج ابن جرير عن الحسن أنه فسرها بها ، وأخرج عن زياد بن أبي مريم .

وعبد الله بن كثير أنهما قرآ ﴿ هذا صراط مُّسْتَقِيمٌ ﴾ وقالا : ﴿ على ﴾ هي إلى وبمنزلتها والأمر في ذلك سهل ، وهي متعلقة بيمر مقدراً و﴿ صراط ﴾ متضمن له فيتعلق به .

وقال بعضهم : الإشارة إلى انقسامهم إلى قسمين أي ذلك الانقسام إلى غاو وغيره أمر مصيره إلى وليس ذلك لك ، والعرب تقول : طريقك في هذا الأمر على فلان على معنى إليه يصير النظر في أمرك ، وعن مجاهد .

وقتادة .

إن هذا تهديد للعين كما تقول لغيرك افعل ما شئت فطريقك على أي لا تفوتني ، ومثله على ما قال الطبرسي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [ الفجر : 14 ] والمشارك على هذا إليه ما أقسم مع التأكيد عليه ، وأظهر هذه الأوجه على ما قيل هو الأول ، واختار في "البحر" كونها إلى الإخلاص ، وقيل : الأظهر أن الإشارة لما وقع في عبارة إبليس عليه اللعنة حيث قال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صراطك المستقيم ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [ الأعراف : 16 ، 17 ] الخ ، ولا أدري ما وجه كونه أظهر .

وقرأ الضحاك .

وإبراهيم ، وأبو رجاء .

وابن سيرين .

ومجاهد .

وقتادة .

وحميد .

وأبو شرف مولى كندة .

ويعقوب ، وخلق كثير ﴿ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ برفع ﴿ عَلَيَّ ﴾ وتنوينه أي عال لارتفاع

شأنه .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾

أي تسلط وتصرف بالاغواء والمراد بالعباد المشار إليهم بالمخلصين فالإضافة للعهد ،

والاستثناء على هذا في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ منقطع واختار ذلك غير واحد ، واستدل عليه بسقوط

الاستثناء في الإسراء ، وجوز أن يكون المراد بالعباد العموم والاستثناء متصل والكلام

كالتقرير لقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ الحجر : 40 ] ولذا لم يعطف على ما

قبله ، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء .

وفي الآية دليل لمن جوز استثناء الأكثر وإلى ذلك ذهب أبو عبيد .

والسيرافي .

وأكثر الكوفية ، واختاره ابن خروف .

والشلوبين .

وابن مالك ، وأجاز هؤلاء أيضاً استثناء النصف ، وذهب بعض البصرية إلى أنه لا يجوز كون المستثنى قدر نصف المستثنى منه أو أكثر ويتعين كونه أقل من النصف واختاره ابن عصفور .

والآمدي وإليه ذهب أبو بكر الباقلاني من الأصوليين ، وذهب البعض الآخر من علماء البلدين إلى أنه يجوز أن يكون المخرج النصف لما دونه ولا يجوز أن يكون أكثر وإليه ذهب الحنابلة ، واتفق النحويون كما قال أبو حيان وكذا الأصوليون عند الإمام .

والآمدي خلافاً لما اقتضاه نقل القرافي عن المدخل لابن طلحة على أنه لا يجوز أن يكون المستثنى مستغرقاً للمستثنى منه ، ومن الغريب نقل ابن مالك عن الفراء وجواز له على الف إلا ألفين ، وقيل : إن كان المستثنى منه عدداً صريحاً يمتنع فيه النصف والأكثر وإن كان غير صريح لا يمتنعان ، وتحقيق هذه المسألة في الأصول ، والمذكور في بعض كتب العربية عن أبي حيان أنه قال : المستقرأ من كلام العرب إنما هو استثناء الأقل وجميع ما استدل به على خلافه محتمل التأويل ؛ وأنت تعلم أن الآية تدفع مع ما تقدم قول من شرط الأقل لما يلزم عليه من الفساد لأن استثناء الغاوين هنا يستلزم على ذلك أن يكونوا أقل من المخلصين الذين هم الباقون بعد الاستثناء من جنس العباد ، واستثناء المخلصين هناك

يستلزم أن يكونوا أقل من الغاوين الذي هم الباقون بعد الاستثناء من ذلك فيكون كل من المخلصين والغاوين أقل من نفسه وهو كما ترى.

(168/425)

---

وأجاب بعضهم بأن المستثنى منه هنا جنس العباد الشامل للمكلفين وغيرهم ممن مات قبل أن يكلف ولا شك أن الغاوين أقل من الباقي منهم بعد الاستثناء وهم المخلصون ومن مات غير مكلف والمستثنى منه هناك المكلفون إذ هم الذين يعقل حملهم على الغواية والضلال إذ غير المكلف لا يوصف فعله بذلك والمخلصون أقل من الباقي منهم بعد الاستثناء أيضاً ولا محذور في ذلك، وذكر بعضهم أن الكثرة والقلة الإدعائيتين تكفيان لصحة الشرط فقد ذكر السكاكي في آخر قسم الاستدلال وكذا لا تقول لفلان على ألف إلا تسعمائة وتسعين إلا وأنت تنزل ذلك الواحد منزلة الألف بجهة من الجهات الخطابية مع أنه ممن يشترط كون المستثنى أقل من الباقي اه، وظاهر كلام الأصوليين ينافيه، وجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً على تقدير إرادة الجنس أيضاً ويكون الكلام تكذيباً للملعون فيما أوهم أن له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده سبحانه فإن منتهى قدرته أن يغرهم ولا يقدر على جبرهم على اتباعه كما قال:

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [ إبراهيم : 22 ] .

فحاصل المعنى أن من اتبعك ليس لك عليهم سلطان وقهر بل أطاعوك في الإغواء واتبعوك لسوء اختيارهم ولا يضر في الانقطاع دخول الغاوين في العباد بناء على ما قالوا من أن المعتبر في الاتصال والانقطاع الحكم ، ويفهم كلام البعض أنه يجوز أن تكون الآية تصديقاً له عليه اللعنة في صريح الاستثناء وتكذيباً في جعل الإخلاص علة للخلاص حسبما يشير إليه كلامه فإن الصبيان والمجانين خلصوا من إغوائه مع فقد هذه العلة .

﴿ وَمَنْ ﴾ على جميع الأوجه المذكورة لبيان الجنس أي الذين هم الغاوون .

واستدل الجبائي بنفي أن يكون له سلطان على العباد على رد قول من يقول : إن الشيطان يمكنه صرع الناس وإزالة عقولهم ، وقد تقدم الكلام في إنكار المعتزلة تخبط الشيطان والرد عليهم

(169/425)

---

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

الضمير لمن اتبع أو للغاوين ورجح الثاني بالقرب وظهور ملاءمته للضمير ، والأول بأن اعتباره أدخل في الزجر عن اتباعه مع أن الثاني جيء به لبيانه و ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ توكيد

للضمير ، وجوز أن يكون حالاً منه ويجعل على هذا الموعد مصدراً ميمياً ليتحقق شرط مجيء الحال من المضاف إليه وهو كون المضاف مما يعمل عمل الفعل فإنهم اشترطوا ذلك أو كون المضاف جزء المضاف إليه أو كجزئه على ما ذكره ابن مالك وغيره ليتحد عامل الحال وصاحبها حقيقة أو حكماً لكن يقدر حينئذ مضاف قبله لأن جهنم ليست عين الموعد بل محله فيقدر محل وعدهم أو مكانه ، وليس بتأويل اسم المفعول كما وهم ، وجوز أن يكون الموعد اسم مكان ، وحينئذ لا يحتاج إلى تقدير المضاف إلا أن في جواز الحالية بحثاً لأن اسم المكان لا يعمل عمل فعله كما حقق في النحو ، وكون العامل معنى الإضافة وهو الاختصاص على القول بأنه الجار للمضاف إليه غير مقبول عند المحققين لأن ذلك من المعاني التي لا تنصب الحال ، ولا يخفى ما في جعل جهنم موعداً لهم من التهكم والاستعارة فكأنهم كانوا على ميعاد ، وفيه أيضاً إشارة إلى أن ما أعد لهم فيها مما لا يوصف في الفضاعة .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾

أي سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في الغواية والمتابعة روى ذلك عن عكرمة .

وقتادة ، وأخرج أحمد في الزهد .

والبيهقي في البعث .

وغيرهما من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : "أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها" .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها جهنم والسعير ولظي والحطمة وسقر والجحيم والهاوية وهي أسفلها ، وجاء في ترتيبها عن الأعمش .

وابن جريج .

(170/425)

---

وغيرهما غير ذلك ، وذكر السهيلي في كتاب الإعلام أنه وقع في كتب الرقائق أسماء هذه الأبواب ولم ترد في أثر صحيح وظاهر القرآن والحديث يدل على أن منها ما هو من أوصاف النار نحو السعير والجحيم والحطمة والهاوية ومنها ما هو علم للنار كلها نحو جهنم وسقر ولظى فلذا أضربنا عن طكرها اه ، وأقرب الآثار التي وقفنا عليها إلى الصحة فيما أظن ما روى عن علي كرم الله تعالى وجهه لكثرة مخرجيه ، وتحتاج جميع الآثار إلى التزام أن يقال : إن جهنم تطلق على طبقة مخصوصة كما تطلق على النار كلها ، وقيل : الأبواب على بابها والمراد أن لها سبعة أبواب يدخلونها لكثرتهم والإسراع بتعذيبهم .

والجملة كما قال أبو البقاء يجوز أن تكون خبراً ثانياً ويجوز أن تكون مستأنفة ولا يجوز أن تكون حالاً من جهنم لأن إن لا تعمل في الحال ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ من الاتباع والغواة ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ فريق معين مفروز من غيره حسبما يقتضيه استعداده ، فباب للموحدين

العصاة وباب لليهود وباب للنصارى وباب للصابئين وباب للمجوس وباب للمشركين وباب للمنافقين ، وروى هذا الترتيب في بعض الآثار ، وعن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين العاصين ، وروى غير ذلك ، وبالجملة في تعيين أهلها كترتيبها اختلاف في الروايات .

(171/425)

---

ولعل حكمة تخصيص هذا العدد انحصار مجامع المهلكات في المحسوسات بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوانية الغضبية أو أن أصول الفرق الداخلين فيها سبعة ، وقرأ ابن القعقاع ( جز ) بتشديد الزاي من غير همزة ووجهه أنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاي ثم وقف بالتشديد ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وقرأ ابن وثاب ﴿ جُزْء ﴾ بضم الزاي والهمز ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ حال من ﴿ جُزْء ﴾ وجاء من النكرة لتقدمه ووصفها أو حال من ضميره في الجال والمجرور الواقع خبراً له ، ورجح بأن فيه سلامة مما في وقوع الحال من المبتدأ ، والتزم بعضهم لذلك كون المرفوع فاعلاً بالظرف ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ مَّقْسُومٌ ﴾ لأنه صفة ﴿ جُزْء ﴾ فلا يصح عمله فيما قبل الموصوف ،

وكذا لا يجوز أن يكون صفة ﴿ بَابٍ ﴾ لأنه يقتضي أن يقال منها ، وتنزيل الأبواب منزلة العقلاء لا وجه له هنا كما لا يخفى والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(172/425)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) ﴾

المراد بالإنسان في قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ هو : آدم لأنه أصل هذا النوع ، والصلصال ، قال أبو عبيدة : هو الطين المخلوط بالرمل الذي يتصلصل إذا حرّك ، فإذا طبخ في النار فهو الفخار .

وهذا قول أكثر المفسرين .

وقال الكسائي : هو الطين المنتن ، مأخوذ من قول العرب صلّ اللحم وأصلّ : إذا أنتن ، مطبوخاً كان أو نيئاً .

قال الحطيئة :

ذاك فتى يبذل ذا قدرة . . . لا يفسد اللحم لديه الصلول

والحمأ : الطين الأسود المتغير ، أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير .

قال ابن السكيت : تقول منه .

حمأت البئر حمأ بالتسكين : إذا نزعت حمأتها ، وحمئت البئر حمأ بالتحريك : كثرت حمأتها ، وأحميتها إحماء : ألقيت فيها الحمأة .

قال أبو عبيدة : الحمأة بسكون الميم مثل الحمأة ، يعني : بالتحريك .

والجمع : حمء مثل : تمرة وتمر ، والحمأ المصدر مثل : الهلع والجزع ، ثم سمي به .

والمسنون قال الفراء : هو المتغير ، وأصله من سننت الحجر على الحجر : إذا حككته .

وما يخرج بين الحجرين يقال له : السنانة والسنين ، ومنه قول عبد الرحمن بن حسان :

ثم حاصرتها إلى القبة الحمراء . . . تمشي في مرمر وسنون

أي : محكوك ، ويقال : أسن الماء : إذا تغير .

ومنه قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [ البقرة : 259 ] .

وقوله : ﴿ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [ محمد : 15 ] .

وكلا الاشتقاقين يدل على التغير ؛ لأن ما يخرج بين الحجرين لا يكون إلاّ منتنا .

وقال أبو عبيدة : المسنون : المصوب ، وهو من قول العرب .

سننت الماء على الوجه : إذا صببته ، والسنّ الصب .

وقال سيبويه : المسنون المصوّر ، مأخوذ من سنة الوجه ، وهي صورته ، ومنه قول ذي

الرمة :

تريك سنة وجه غير مقرفة . . . ملساء ليس بها خال ولا ندب

وقال الأخفش : المسنون : المنصوب القائم ، من قولهم : وجه مسنون إذا كان فيه طول .

(173/425)

---

والحاصل على هذه الأقوال أن التراب لما بلّ ، صار طيناً ، فلما أنتن صار حمأً مسنوناً ، فلما يئس صار صلصالاً .

فأصل الصلصال : هو الحمأ المسنون ، ولهذا وصف بهما .

﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ الجانّ : أبو الجنّ عند جمهور المفسرين .

وقال عطاء والحسن وقتادة ومقاتل : هو إبليس .

وسمي جاناً ، لتواريه عن الأعين .

يقال : جن الشيء إذا ستره .

فالجانّ : يستر نفسه عن أعين بني آدم ، ومعنى ﴿ من قبل ﴾ : من قبل خلق آدم .

والسموم : الريح الحادة النافذة في المسامّ ، تكون بالنهار ، وقد تكون بالليل .

كذا قال أبو عبيدة ، وذكر خلق الإنسان والجانّ في هذا الموضع للدلالة على كمال القدرة

الإلهية ، وبيان أن القادر على النشأة الأولى قادر على النشأة الأخرى .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدّر ، أي : اذكر .

بين سبحانه بعد ذكره لخلق الإنسان ما وقع عند خلقه له ، وقد تقدّم تفسير ذلك في البقرة .

والبشر : مأخوذ من البشرة ، وهي ظاهر الجلد ، وقد تقدّم تفسير الصلصال والحمأ المسنون قريباً مستوفى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي : سويت خلقه ، وعدلت صورته الإنسانية وكملت أجزاءه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ النفخ : إجراء الريح في تجاويف جسم آخر .

فمن قال : إن الروح جسم لطيف كالهواء فمعناه ظاهر ، ومن قال : إنه جوهر مجرد غير متحيز ، ولا حال في متحيز .

فمعنى النفخ عنده : تهيئة البدن لتعلق النفس الناطقة به .

قال النيسابوري : ولا خلاف في أن الإضافة في روحي للتشريف والتكريم ، مثل " ناقة الله " ، و " بيت الله " .

قال القرطبي : والروح : جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم .

وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح : خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً

وتكريماً .

قال : ومثله : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [ النساء : 171 ] .

(174/425)

---

وقد تقدّم في النساء ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ الفاء تدلّ على أن سجودهم واجب عليهم عقب التسوية والنفح من غير تراخٍ ، وهو أمر بالوقوع ، من وقع يقع .

وفيه دليل على أن المأمور به هو السجود ، لا مجرّد الانحناء كما قيل ، وهذا السجود : هو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ، ولله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء ؛ وقيل : كان السجود لله تعالى وكان آدم قبلة لهم .

﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أخبر سبحانه بأن الملائكة سجدوا جميعاً عند أمر الله سبحانه لهم بذلك من غير تراخٍ ، قال المبرد : قوله ﴿ كلهم ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة لم يسجد ، وقوله ﴿ أجمعون ﴾ توكيد بعد توكيد ، ورجح هذا الزجاج .

قال النيسابوري : وذلك لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ، ولو صح أن يكون حالاً لكان منتصباً ، ثم استثنى إبليس من الملائكة فقال : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ قيل : هذا الاستثناء متصل لكونه كان من جنس الملائكة ولكنه أبى ذلك استكباراً

واستعظاماً لنفسه وحسداً لآدم ، فحقت عليه كلمة الله .

وقيل : إنه لم يكن من الملائكة ، ولكنه كان معهم ، فغلب اسم الملائكة عليه وأمر بما أمروا به ، فكان الاستثناء بهذا الاعتبار متصلاً .

وقيل : إن الاستثناء منفصل بناءً على عدم كونه منهم ، وعدم تغليبهم عليه ، أي : ولكن إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقد تقدّم الكلام في هذا في سورة البقرة ، وجملة ﴿ أَبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ استئناف مبين لكيفية ما فيهم من الاستثناء من عدم السجود ؛ لأن عدم السجود قد يكون مع التردّد ، فبين سبحانه أنه كان على وجه الإباء .

(175/425)

---

وجملة ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسَ مالك أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ مستأنفة أيضاً جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال الله سبحانه لإبليس بعد أن أبى السجود ؟ وهذا الخطاب له ليس للتشريف والتكريم ، بل للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : أي غرض لك في الامتناع ؟ وأيّ سبب حملك عليه على أن لا تكون مع الساجدين لآدم مع الملائكة وهم في الشرف وعلوّ المنزلة والقرب من الله بالمنزلة التي قد علمتها .

وجملة ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لاِسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ مستأنفة

كالتي قبلها ، جعل العلة لترك سجوده كون آدم بشراً مخلوقاً من صلصال من حمأ مسنون زعماً منه أنه مخلوق من عنصر أشرف من عنصر آدم ، وفيه إشارة إجمالية في كونه خيراً منه .

وقد صرح بذلك في موضع آخر ، فقال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ الأعراف : 76 ] .

وقال في موضع آخر : ﴿ أأسجد لمن خلقت طينا ﴾ [ الإسراء : 61 ] .

واللام في ﴿ لأسجد ﴾ لتأكيد النفي ، أي : لا يصح ذلك مني ، فأجاب الله سبحانه عليه بقوله : ﴿ قَالَ فَاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ والضمير في ﴿ منها ﴾ ، قيل : عائد إلى الجنة ، وقيل : إلى السماء .

وقيل : إلى زمرة الملائكة أي : فأخرج من زمرة الملائكة ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي : مرجوم بالشهب .

وقيل : معنى رجيم : ملعون ، أي : مطرود ؛ لأن من يطرد يرجم بالحجارة .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ﴾ أي : عليك الطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه مستمراً عليك لازماً لك إلى يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة .

وجعل يوم الدين غاية للعنة لا يستلزم انقطاعها في ذلك الوقت ، لأن المراد دوامها من غير

انقطاع، وذكر يوم الدين، للمبالغة كما في قوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ السموات والأرض ﴾ [ هود: 107 ].

(176/425)

---

أو أن المراد أنه في يوم الدين وما بعده يعذب بما هو أشدّ من اللعن من أنواع العذاب، فكأنه لا يجد له ما كان يجده قبل أن يمسه العذاب.

﴿ قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنِى ﴾ أي: أخرني وأمهلني ولا تمتني إلى يوم يبعثون، أي: آدم وذريته. طلب أن يبقى حياً إلى هذا اليوم لما سمع ذلك علم أن الله قد أخر عذابه إلى الدار الآخرة وكأنه طلب أن لا يموت أبداً، لأنه إذا أخر موته إلى ذلك اليوم فهو يوم لا موت فيه.

وقيل: إنه لم يطلب أن لا يموت، بل طلب أن يؤخر عذابه إلى يوم القيامة ولا يعذب في الدنيا ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ لما سأل الإنظار، أجابه الله سبحانه إلى ما طلبه، وأخبره بأنه من جملة من أنظره ممن أخر آجالهم من مخلوقاته، أو من جملة من أخر عقوبتهم بما اقترفوا.

ثم بين سبحانه الغاية التي أمهله إليها، فقال: ﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وهو يوم القيامة، فإن ﴿ يوم الدين ﴾ و ﴿ يوم يبعثون ﴾ و ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ كلها عبارات عن يوم

القيامة .

وقيل : المراد بالوقت المعلوم : هو الوقت القريب من البعث ، فعند ذلك يموت .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْض ﴾ الباء للقسم ، و " ما " مصدرية ، وجواب القسم ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي : أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم في الأرض ، أي : ما داموا في الدنيا .

والتزيين منه إما بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها ، أو يشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به فلا يلتفتون إلى غيرها .

وإقسامه ها هنا بإغواء الله له لا ينافي إقسامه في موضع آخر بعزة الله التي هي سلطانه وقهره ، لأن الإغراء له هو من جملة ما تصدق عليه العزّة ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : لأضلنهم عن طريق الهدى وأوقعهم في طريق الغواية ، وأحملهم عليه ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الكوفة بفتح اللام ، أي : الذين استخلصتهم من العباد .

وقرأ الباقون بكسر اللام ، أي : الذين أخلصوا لك العبادة ، فلم يقصدوا بها غيرك .

﴿ قَالَ هَذَا صراط عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾ أي : حق عليّ أن أراعيه ، وهو ألا يكون لك على عبادي سلطان .

قال الكسائي : هذا على الوعيد والتهديد ، كقولك لمن تهدده : طريقك عليّ ومصيرك إليّ .

وكقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [ الفجر : 14 ] .

فكأن معنى هذا الكلام : هذا طريق مرجعه إليّ ، فأجازي كلا بعمله ، وقيل : ﴿ على ﴾ هنا بمعنى إلى .

وقيل : المعنى : على أن الصراط المستقيم بالبيان والحجة .

وقيل : بالتوفيق والهداية .

وقرأ ابن سيرين ، وقتادة ، والحسن ، وقيس بن عباد ، وأبو رجاء ، وحميد ، ويعقوب " هذا صراط علي " على أنه صفة مشبهة ، ومعناه : رفيع .

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سلطان ﴾ المراد بالعباد هنا : هم المخلصون ، والمراد أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به ، ولا يتوبون منه ، فلا ينافي هذا ما وقع من آدم وحواء ونحوهما ، فإنه ذنب مغفور لوقوع التوبة عنه ﴿ إِلَّا مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ استثنى سبحانه من عباده هؤلاء .

وهم المتبعون لإبليس من الغاوين عن طريق الحقّ الواقعين في الضلال ، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله : ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ ، ويمكن أن يقال : إن بين الكلامين فرقاً فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلاّ من اتبعه من الغاوين ، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس من الغاوين ؛ وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلاّ المخلصين ، فدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً .

والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لإبليس .

وقد قيل : إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون .

(178/425)

---

ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا سلطانه على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 100 ] .

ثم قال الله سبحانه متوعداً لأتباع إبليس : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : موعد المتبعين الغاوين ، و ﴿ أجمعين ﴾ تأكيد للضمير ، أو حال ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾

يدخل أهل النار منها ، وإنما كانت سبعة لكثرة أهلها ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي : من الأتباع الغواة ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي : قدر معلوم متميز عن غيره .

وقيل : المراد بالأبواب : الأطباق طبق فوق طبق ، وهي جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، فأعلاها للموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطباق ، ثم ما بعدها تحتها ، ثم كذلك ، كذا قيل .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : خلق الإنسان من ثلاث : من طين لازب ، وصلصال ، وحمأ مسنون ، فالطين اللازب : اللازم الجيد ، والصلصال : المدقق الذي يصنع منه الفخار ، والحمأ المسنون : الطين الذي فيه الحمأة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه قال : الصلصال : الماء يقع على الأرض الطيبة ثم يحسر عنها ، فتشقق ثم تصير مثل الخزف الرقاق .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الصلصال : هو التراب اليابس الذي يبلّ بعد يبسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الصلصال : طين خلط برمل .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً .

قال : الصلصال : الذي إذا ضربته صلصل .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً .

قال : الصلصال : الطين تعصر بيدك ، فيخرج الماء من بين أصابعك .



وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

قال : من طين رطب .

وأخرج هؤلاء عنه أيضاً ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ قال : من طين منتن .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الجان : مسيخ الجنّ ، كالقردة والخنازير مسيخ الإنس .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة قال : الجان : هو إبليس ، خلق من قبل آدم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾

قال : من أحسن النار .

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه قال: نار السموم: الحارة التي تقتل.

وأخرج الطيالسي، والفريابي، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: السموم.

التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، ثم قرأ: ﴿ والجآن خلقناه مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾.

وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنِى إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قال: أراد إبليس لا يذوق الموت فقيل: إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن سيرين ﴿ هَذَا صراط عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي: رفيع.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ بعدد أطباق جهنم كما قدّمنا.

وأخرج ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وهناد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في صفة النار، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في البعث من طرق عن

عليّ قال : أطباق جهنم سبعة ، بعضها فوق بعض ، فيملأ الأوّل ، ثم الثاني ، ثم الثالث حتى .



---

تملأ كلها ، وأخرج البخاري في تاريخه ، والترمذي ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بجهنم سبعة أبواب ، باب منها لمن سلّ السيف على أمتي " وقد ورد في صفة النار أحاديث وآثار .

وأخرج ابن مردويه ، والخطيب في تاريخه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ قال : "جزء أشركوا بالله ، وجزء شكوا في الله ، وجزء غفلوا عن الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 ص ﴾



---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ الآية .

قال بعض العلماء هذا قسم من إبليس بإغواء الله له على أنه يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين ويدل له أنه أقسم بعزته تعالى على ذلك في قوله ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : 82 ] الآية وقيل الباء في قوله ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ سببية .

قوله تعالى : ﴿ أُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

(182/425)

---

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبليس أخبر أنه سيبذل جهده في إضلال بني آدم حتى يضل أكثرهم وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ أَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : 16-17 ] وقوله : ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ﴾ [ النساء : 118 ] الآية وقوله : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 62 ] وهذا قاله إبليس قبل أن يقع ظناً منه أنه يتمكن من إضلال أكثر بني آدم ، وقد بين تعالى أنه صدق ظنه هذا بقوله ﴿ وَلَقَدْ

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ سبأ : 20 ] وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبني آدم بين فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم في النار كما قال هنا ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ [ الحجر : 43-44 ] الآية ، وقال في الأعراف : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الأعراف : 18 ] وقال في سورة بني إسرائيل : ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ [ الإسراء : 63 ] وقال في ص : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 84-85 ] .

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

*(183/425)*

---

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعد بأنه سيضل أكثر بني آدم استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معترفاً بأنه لا قدوة له على إضلالهم ونظيره قوله في ص أيضاً ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخلصين ﴾ [ ص : 82-83 ] وعباد الله المخلصون هم المرادون بالاستثناء في قوله في بني إسرائيل ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [ الإسراء : 62 ] وقوله في سبأ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ

المؤمنين ﴾ [ سبأ : 20 ] وهم الذين احترز منهم بقوله ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [ الأعراف : 17 ] وبين تعالى في مواضع أخر أن الشيطان لا سلطان له على أولئك المخلصين كقوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [ الحجر : 42 ] الآية وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين آمَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 99-100 ] الآية وقوله ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بالآخرة مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ [ سبأ : 21 ] الآية . وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ﴾ [ إبراهيم : 22 ]

وقوله : ﴿ المخلصين ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام فاعل وقرأه نافع والكوفيون بفتح اللام بصيغة اسم المفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(184/425)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) ﴾

سؤاله النظرة بعد إعلامه بأنه ملعون إلى يوم الدين فاض به خبث جبلته البالغ نهاية الخباثة

التي لا يشفيها إلا دوام الإفساد في هذا العالم ، فكانت هذه الرغبة مجلبة لدوام شقوته .

ولما كانت اللعنة تستمر بعد انعدام الملعون إذا اشتهر بين الناس بسوء لم يكن توقيتها بالأبد مقيداً حياة الملعون ، فلذلك لم يكن لإبليس غنى بقوله تعالى ﴿ إلى يوم الدين ﴾ عن أن يسأل الإبقاء إلى يوم الدين ليكون مصدر الشرور للنفوس قضاء لما جبل عليه من بثّ الخُبث ؛ فكان بذلك حريصاً على دوامها بما يوجه إليه من اللّعنة ، فسأل النظرة حباً للبقاء لما في البقاء من استمرار عمله .

وخاطب الله بصفة الربوبية تخضّعاً وحثّاً على الإجابة ، والفاء في ﴿ فأنظرني ﴾ فاء التفريع .

فرع السؤال عن الإخراج .

ووسّط النداء بين ذلك .

وذُكرت هذه الحالة من أوصاف نفسيته بعثاً لكراهيته في نفوس البشر الذين يرون أن حق النفس الأبية أن تأنف من الحياة الذميمة المحقرة ، وذلك شأن العرب ، فإذا علموا هذا الحوص من حال إبليس أبغضوه واحتقروه فلم يرضوا بكل عمل ينسب إليه .

والإنظار : الإمهال والتأخير .

وتقدم في قوله : ﴿ فنظرة إلى ميسرة ﴾ في سورة البقرة ( 280 ) .

والمراد تأخير إماتته لأن الإنظار لا يكون للذات ، فتعين أنه لبعض أحوالها وهو الموت بقرينة

السياق .

وعبر عن يوم الدين بـ يوم يبعثون ﴿ تمهيداً لما عقد عليه العزم من إغواء البشر ، فأراد الإنظار إلى آخر مدة وجود نوع الإنسان في الدنيا .

وخلق الله فيه حب النظرة التي قدرها الله له وخلقه لأجلها وأجل آثارها ليحمل أوزار تبعة ذلك بسبب كسبه واختياره تلك الحالة ، فإن ذلك الكسب والاختيار هو الذي يجعله ملائماً لما خلق له ، كما أومأ إلى ذلك البيان النبوي بقوله : "كل ميسر لما خلق له" .

(185/425)

---

وضمير ﴿ يبعثون ﴾ للبشر المعلومين من تركيب خلق آدم عليه السلام ، وأنه يكون له نسل ولا سيما حيث خلقت زوجه حينئذٍ فإن ذلك يقتضي أن يكون منهما نسل .

وعبر عن يوم البعث بـ ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ تفنّناً تفادياً من إعادة اللفظ قضاء لحق حسن النظم ، ولما فيه من التعليم بأن الله يعلم ذلك الأجل .

فالمراد : المعلوم لدينا .

ويجوز أن يراد المعلوم للناس أيضاً علماً إجمالياً .

وفيه تعريض بأن من لم يؤمنوا بذلك اليوم من الناس لا يعبأ بهم فهم كالعدم .

وهذا الإنظار رمز إلهي على أن ناموس الشر لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار ، قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ [ سورة الأنبياء : 18 ] وقال : ﴿ كذلك يضرب الله الحقّ والباطل ﴾ [ سورة الرعد : 17 ] .

فلذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدل والصلاح وإيداعها إلى الكفاة لتنفيذها والذّود عنها .

وعطفت مقولات هذه الأقوال بالفاء لأن كل قول منها أثاره الكلام الذي قبله فتفرّع عنه .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) ﴾

الباء في ﴿ بما أغويتني ﴾ للسببية ، و ( ما ) موصولة ، أي بسبب إغوائك إياي ، أي بسبب أن خلقتني غاوياً فسأغوي الناس .

واللام في ﴿ لأزينن ﴾ لام قسم محذوف مراد بها التأكيد ، وهو القسم المصرح به في قوله : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ [ سورة ص : 82 ] .

والتزيين : التحسين ، أي جعل الشيء زينا ، أي حسناً .

وحذف مفعول لأُزَيِّنَنّ ﴾ لظهوره من المقام ، أي لأزينن لهم الشر والسيئات فيرونها حسنة ، وأزّين لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ في سورة البقرة ( 212 ) .

والإغواء : جعلهم غاوين .

(186/425)

---

والغّواية بفتح الغين : الضلال .

والمعنى : ولأضلنّهم .

وإغواء الناس كلهم هو أشد أحوال غاية المغوي إذ كانت غوايته متعدية إلى إيجاد غواية غيره .

وبهذا يعلم أن قوله : ﴿ بما أغويتني ﴾ إشارة إلى غَواية يعلمها الله وهي التي جبله عليها ، فلذلك اختير لحكايتها طريقة الموصولية ، ويعلم أن كلام الشيطان هذا طفح بما في جبلّته ، وليس هو تشفّياً أو إغاظة لأن العظمة الإلهية تصده عن ذلك .

وزيادة ﴿ في الأرض ﴾ لأنها أول ما يخطر بباله عند خطور الغواية لاقتران الغواية بالنزول إلى الأرض الذي دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فاخرج منها ﴾ [ سورة الحجر : 34 ] ، أي اخرج من الجنة إلى الأرض كما جاء في الآية الأخرى قال : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ﴾ [ سورة البقرة : 2 ] ، ولأن جعل التزيين في الأرض يفيد

انتشاره في جميع ما على الأرض من الذوات وأحوالها .

وضمائر : ﴿ لهم ﴾ ، و ﴿ لأغوينهم ﴾ و ﴿ منهم ﴾ ، لبني آدم ، لأنه قد علم علماً ألقي في وجدانهِ بأن آدم عليه السلام ستكون له ذرية ، أو اكتسب ذلك من أخبار العالم العلوي أيام كان من أهله وملئه .

وجعل المُغْوَيْن هم الأصل ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين لأن عزيمته منصرفة إلى الإغواء ، فهو الملحوظ ابتداء عنده ، على أن المُغْوَيْن هم الأكثر .

وعكسه قوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك ﴾ [ سورة الحجر : 42 ] .

والاستثناء لا يُشعر بقلّة المستثنى بالنسبة للمستثنى منه ولا العكس .

وقرىء ﴿ المخلصين ﴾ بفتح اللام لنافع وحمزة وعاصم والكسائي على معنى الذين أخلصتَهم وطهّرتهم .

وبكسر اللام لابن كثير وابن عامر وأبي عَمرو ، أي الذين أخلَصوا لك في العمل .

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) ﴾

الصراط المستقيم : هو الخير والرشاد .

فالإشارة إلى ما يؤخذ من الجملة الواقعة بعد اسم الإشارة المبيّنة للإخبار عن اسم الإشارة وهي جملة ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ ، فتكون الإشارة إلى غير مشاهَد تنزيلاً له منزلة المشاهد ، وتنزيلاً للمسموع منزلة المرئي .

ثم إن هذا المنزل منزلة المشاهد هو مع ذلك غير مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره .

فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن ، كما يكتب في العهود والعقود : هذا ما قاضى عليه فلان فلاناً أنه كيَت وكيت ، أو هذا ما اشترى فلان من فلان أنه باعه كذا وكذا .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى الاستثناء الذي سبق في حكاية كلام إبليس من قوله : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ سورة الحجر : 40 ] لتضمنه أنه لا يستطيع غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير ، فتكون جملة إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ مستأنفة أفادت نفي سلطانه .

والصراط : مستعار للعمل الذي يقصِد منه عاملُه فائدةً .

شُبه بالطريق الموصل إلى المكان المطلوب وصوله إليه ، أي هذا هو السُنّة التي وضعتُها في الناس وفي غوايتك إياهم وهي أنّك لا تغوي إلا من اتّبعك من الغاوين ، أو أنك تغوي من عدا عبادي المخلصين .

و﴿ مستقيم ﴾ نعت ل ﴿ صراط ﴾ ، أي لا اعوجاج فيه .

واستعيرت الاستقامة لملازمة الحالة الكاملة .

و﴿ على ﴾ مستعملة في الوجوب المجازي ، وهو الفعل الدائم التي لا يتخلّف كقوله تعالى :

﴿ إن علينا للهدى ﴾ [ سورة الليل : 12 ] ، أي أنّا التزمنا الهدى لا نحيد عنه لأنه

مقتضى الحكمة وعظمة الإلهية .

وهذه الجملة مما يُرسل من الأمثال القرآنية .

وقرأ الجمهور على ﴾ بفتح اللام وفتح الياء على أنها ( على ) اتصلت بها ياء المتكلم .

وقرأه يعقوب بكسر اللام وضم الياء وتنوينها على أنه وصف من العلوّ وصف به صراط ،

أي صراط شريف عظيم القدر .

(188/425)

---

والمعنى أن الله وضع سنّة في نفوس البشر أن الشيطان لا يتسلّط إلا على من كان غاوياً ،

أي مائلاً للغواية مكتسباً لها دون مَن كبحَ نفسه عن الشر .

فإن العاقل إذا تعلق به وسواس الشيطان عَلم ما فيه من إضلال وعلم أن الهدى في خلافه

فإذا توفّق وحمل نفسه على اختيار الهُدى وصرف إليه عزمه قوي على الشيطان فلم يكن

له عليه سلطان ، وإذا مَال إلى الضلال واستحسنه واختار إرضاء شهوته صار متهيئاً إلى الغواية فأغواه الشيطان فغوَى .

فالاتباع مجاز بمعنى الطاعة واستحسان الرأي كقوله : ﴿ فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [ سورة آل عمران : 31 ] .

وإطلاق الغاوين ﴾ من باب إطلاق اسم الفاعل على الحصول في المستقبل بالقرينة لأنه لو كان غاوياً بالفعل لم يكن لسلطان الشيطان عليه فائدة .

وقد دلّ على هذا المعنى تعلّق نفي السلطان بجميع العباد ، ثم استثناء من كان غاوياً .

فلما كان سلطان الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاوياً علمنا أن ثمّة وصفاً بالغواية هو مهيِّئُ تسلطِ سلطان الشيطان على موصوفه .

وذلك هو الموصوف بالغواية بالقوة لا بالفعل ، أي بالاستعداد للغواية لا بوقوعها .

فالإضافة في قوله تعالى : ﴿ عبادي ﴾ للعموم كما هو شأن الجمع المعرّف بالإضافة ، والاستثناء حقيقي ولا حَيرة في ذلك .

وضمير "مَوعدهم" عائد إلى ﴿ من اتبعك ﴾ ، والموعد مكان الوعد .

وأطلق هنا على المصير إلى الله استعير الموعد لمكان اللقاء تشبيهاً له بالمكان المعين بين الناس للقاء معين وهو الوعد .

ووجه الشبه تحقّق المجيء بجامع الحرص عليه شأن المواعيد ، لأن إخلاف الوعد محاور ،

وفي ذلك تَمليح بهم لأنهم ينكرون البعث والجزاء ، فجُعلوا بمنزلة من عيّن ذلك المكان للإتيان .

وجملة ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها لإعداد الناس بحيث لا تضيق عن دخولهم .

(189/425)

---

والظاهر أن السبعة مستعملة في الكثرة فيكون كقوله : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ [ سورة الرعد : 23 ] ؛ أو أريد بالأبواب الكناية عن طبقات جهنم لأن الأبواب تقتضي منازل فهي مراتب مناسبة لمراتب الإجرام بأن تكون أصول الجرائم سبعة تتفرع عنها جميع المعاصي الكبائر .

وعسى أن نتمكن من تشجيرها في وقت آخر .

وقد يكون من جملة طبقاتها طبقة النفاق قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدركِ الأسفل من النار ﴾ [ سورة النساء : 145 ] .

وانظر ما قدمناه من تفريع ما ينشأ عن النفاق من المذام في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ في سورة البقرة ( 8 ) .

وجملة ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ صفة ل ﴿ أبواب ﴾ وتقسيمها بالتعيين يعلمه الله تعالى .

وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد ل ﴿ من اتبعك من الغاوين ﴾ ، أي لكل باب فريق يدخل منه ، أو لكل طبقة من النار قسم من أهل النار مقسوم على طبقات أقسام النار .

واعلم أن هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان لدى الحضرة القدسية هي انكشاف لجبلّة التطور الذي تكيّفت به نفس إبليس من حينَ أبى من السجود وكيف تولدَ كل فصل من ذلك التطور عما قبله حتى تقومت الماهية الشيطانية بمقوماتها كاملة عندما صدر منه قوله :

﴿ لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ سورة الحجر : 39 ، 40 ] ، فكلّما حدث في جبلّته فصْل من تلك الماهية صدر منه قول يدل عليه ؛ فهو شبيه بنطق الجوارح بالشهادة على أهل الضلالة يوم الحساب .

وأما الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينية التي قدّرها الله تعالى في علمه لتطور أطوار إبليس المقومة لماهية الشيطنة ، وللألطاف التي قدرها الله لمن يعتصم بها من عباده لمقاومة سلطان الشيطان .

وليست تلك الأقوال كلها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته ولا بغلبة من الشيطان لخالقه ، فإن ضعفه تُجاهَ عزّة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

*(191/425)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) ﴾

وكأن إبليس بهذا القول أراد أن يُفلِتَ من الموت ، ولكن مثل هذا المَكْر لا يجوز على الله أو معه ، فإذا كان إبليس قد أراد أنْ يظلّ في الدنيا إلى يوم بَعْث البشر ؛ فذلك دليلٌ على أمنيته بالهروب من الموت .

ويقول الحق سبحانه رداً على دعاء إبليس :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) ﴾

ولحظةَ أنْ يسمعَ إبليسُ ذلك يظن أنه قد أفلتَ من الموت ؛ إذ لا مَوْتَ بعد البعث ، ويتوهم أن دعوته قد أُجيبت ، وكأنه قد أفلتَ بغروره الذي ظَنّ به أن يتسع له الوقت ليأخذ الثأر من بني آدم ؛ فعدم سجوده لآدم هو الذي وضعه في هذا الموقف العصيب .

ولو كان إبليس يملك ذرة من وَعْي لَعِلم أن الاستكبار والتوهم بأن عنصر النار افضل من الطين هما السبب وراء ما حاق به من الطرد .

ولكن تأتي من بعد ذلك مباشرة الآية التي تتضمن عدم إفلاته من الموت ؛ فيقول سبحانه :

﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) ﴾

أي : أن إبليس سيذوق الموت أيضاً ؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله . . . ﴾ [ الزمر : 68 ]

وكذلك قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [ الرحمن : 26 ]

وهكذا لم يُفلتْ إبليس من الموت .

ولقائل أنْ يسألَ : كيف كلّمه الله ؟

ونقول : لم يُكلّمه الله تشريفاً أو تكريماً ؛ بل غلَّظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يُبلّغوا ما شاء لمَنْ شاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ . . . ﴾

وقول الشيطان : ﴿ رَبِّ . . . ﴾ [ الحجر : 39 ]

هو إقرار بالربوبية ؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبّب لنفسه الطَّرد واللعنة ؛ فقد قال : ﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي . . . ﴾ [ الحجر : 39 ]

والحق سبحانه لم يُغوِه ؛ بل أعطاه الاختيار الذي كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصي ويُعاقب ، فسبحانه قد مَكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ؛ فخالف إبليسُ أمرَ الله وعصاه .

ويتابع إبليس : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض . . . ﴾ [ الحجر : 39 ]

وفي هذا إيضاح أن كُلّ وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفي الأشياء التي تُدمّر العافية ، كمَنْ يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يُغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخْلٍ يكفيه الضرورات ؛ فهو يَأْمن على نفسه من الانحراف .

ونقول أيضاً لمَنْ يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية : إن الاستقامة لا تُكلّف ؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون في الأمور الحلال ؛ لأن كل الضرورات لم يُحرِّمها الحق سبحانه ؛ بل يكون التزيين دائماً في غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية من ألوان الإنحراف .

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على الاستقامة ، ويحاولون أَخْذهم إلى طريق الانحراف ؛ لأن كل منحرف إنما يلوم نفسه متسائلاً : لماذا أخيب وحدي ؛ ولا يخيب معي مثل هذا المستقيم ؟ وتمتلئ نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس في حُمْق رده على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه ؛ أيدخل في معركة مع الله ، أم مع أبناء آدم الذي خلقه سبحانه كخليفة ليعمر الأرض ؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال : ﴿ . . . فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ الحجر : 36 ]

وهذا يعني أن مجال معركته مع الخَلْق لا مع الخالق ؛ لذلك قال : ﴿ . . . وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 39 ]

(193/425)

---

وكلمة ( أجمعين ) تفيد الإحاطة لكل الأفراد ، وهذا فوق قدرته بعد أنْ عرف مُقَامه من نفسه ومن ربه ، فقال ما جاء به الحق سبحانه في الآية التالية : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ . . . ﴾

فهؤلاء العباد الذين خلّصتهم لنفسك يا ربّ ؛ فلن أقدر عليهم ؛ لأنك أخذتهم من طريق

الغواية ؛ لأنهم أحسنوا الإيمان ، وقد وصلوا إلى مرتبة من الإخلاص التعبُّدي درجةً يصعب بها على الشيطان غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : " أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة الله " .

ولو شاء الله أن يكون جميع خَلْقه مهديين ما استطاع أحد أنْ يُضلّهم ، ولكن عِزّة الله عن خَلْقه هي التي أفسحت المجالَ للإغواء ، ولذلك نجد إبليس يُقِرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لَبْس فيه ، ولا قبولَ لِمَا قد يظنُّه إبليس مجاملةً منه لله ، فيقول سبحانه في الآية التالية :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذي يقود العباد إلى الطاعة ؛ فليس في الأمر تفضُّل من إبليس الذي سبق له أنْ حدَّد المواقع والاتجاهات التي سيأتي منها لغواية البشر ، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [ الأعراف : 17 ]

في ذلك القول حدَّد إبليس جهات الغواية التي يأتي منها وترك " الفَوْق " و " التَّحْت " ، لذلك نقول : إن العبد إذا استحضر دائماً عُلُوَّ عِزّة الربوبية ، وذُلّ العبودية ؛ فالشيطان لا يدخل له

أبداً .

ويواصل الحق سبحانه قوله المبلغ عنه لنا : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ . . . ﴾

(194/425)

---

وهكذا أصدر الحق سبحانه حُكْمه بألاَّ يكون لإبليس سلطان على مَنْ أخلص لله عبادة ، وأمر إبليس ألاَّ يتعرض لهم ؛ فسبحانه هو الذي يَصُونهم منه ؛ إلا مَنْ ضَلَّ عن هدى الله سبحانه ، وهم مَنْ يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجد أن " الغاوين " هي ضد " عبادي " ، وهم الذين اصطفاهم الله من الوقوع تحت سلطان الشيطان ؛ لأنهم أخلصوا وخَلَّصوا نفسهم لله ، وسنجد إبليس وهو ينطق يوم القيامة أمام الغاوين : ﴿ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [ إبراهيم : 22 ]

ومن نِعَم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك في الدنيا ، ولسوف يُقر الشيطان بهذا كله في اليوم الآخر ؛ ذلك أنه لم يملك سلطاناً يقهرنا به في الدنيا ، بل مجرد إشارة ونَزْغ ؛ ولا

يملك سلطانَ إقناع ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يُؤكّد أن جزاء الغاوين قاسٍ أليم : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ . . . ﴾

ولأن المصير لهؤلاء هو جهنم ؛ فعلى العبد الذكيّ أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل ؛ كي لا يرتكب حماقةَ الفعل الذي يُزيّنه له الشيطان ، أو تُلح عليه به نفسه . ولو أن المُسرِف على نفسه استحضر العقوبة لحظةَ ارتكاب المعصية لَمَا أقدم عليها ، ولكن المُسْرف على نفسه لا يقرِن المعصية بالعقوبة ؛ لأنه يغفل النتائج عن المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أن إنساناً قد استولتْ عليه شراسة الغريزة الجنسية ، وعرف عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له مَا يشاء من رغبات ، وأحضروا له أجملَ النساء ؛ وسهّلوا له المكان المناسب للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

(195/425)

---

وقالوا : هذا كله ذلك ، شَرْط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك . وأضاءوا له من بعد ذلك قَبْواً في المنزل ؛ به فرن مشتعل . ويقولون له : بعد أنْ تَفْرُغ من لَذّتك ستدخل في هذا الفرن المشتعل . ماذا سيصنع هذا الإنسان ؟

لأبدّ أنه سيرفض الإقدام على المعصية التي تقودهم إلى الجحيم .

وهكذا نعلم أن مَنْ يرتكب المعاصي إنما يستبطِئ العقوبة ، والذكيّ حقاً هو مَنْ يُصدّق حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه " الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته " . ولا أحدَ يعلم متى يموت .

ويُبيِّن الحق سبحانه من بعد ذلك مراتبَ الجحيم ، فيقول :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) ﴾

وفي جهنمَ يكون مَوْعِد هؤلاء الغَاوين ، ومعهم إبليس الذي أَبَى واستكبر ، وصَمَّم على غواية البشر ، وألوان العذاب ستختلف ، ولكن جماعة لهم جريمة يُقْرنون بها معاً . فمَنْ يشربون الخمر سيكونون معاً ؛ ومَنْ يلعبون الميسر يكونون معاً .

ولكُلّ باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطَتْ بينهم في الدنيا معصيةٌ ما ؛ وجمعهم في الدنيا وَلاءٌ ما ، وتكوّنتْ من بينهم صداقاتٌ في الدنيا ، واشتركوا بالمخالطة ؛ ولذلك فعليهم الاشتراك في العقوبة والنكال . وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ]

وفي الجحيم أماكن تَأْويهم ؛ فقِسْم يذهب إلى اللظى ؛ وآخر إلى الحُطَمة ؛ وثالث إلى سَقَر ، ورابع إلى السَّعير ، وخامس إلى الهاوية .

وكل جُزْء له قِسْم مُعيَّن به ؛ وفي كل قسم دَرَكات ، لأن الجنة درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(196/425)

---

فائدة

قال صاحب روح البيان :

قال في أسئلة الحكم إنما استجاب الله دعاءه بإنظاره إلى يوم الدين مكافاة له بعبادته التي مضت في السماء وعلى وجه الأرض ليعلم أنه لا يضيع أجر العاملين فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره إما في الدنيا معجلاً مثوبته وأما في الآخرة في حق المؤمن .

وقال في موضع آخر : أهلك الله تعالى أعداء سائر الأنبياء كفرعون ونمرود وشداد وأبقى عدو آدم الصفي وهو إبليس وذريته لأن إبليس لم يكن عدو آدم فحسب إنما كان عدو الله فأمهله وأبقاه إلى آخر الدهر استدراجاً من حيث لا يعلم ليتحمل من الأوزار ما لا يتحمله غيره من الأشرار والكفار فأنظره إلى يوم القرار ليحصل به الاعتبار لذوي الأبصار بأن أطول الأعمار في هذه الدار لرئيس الكفار وقائد زمرة الفجار وأساء الأدب ودعا لنفسه بالبقاء

والكبرياء والفراعنة لم يدعوا بالبقاء لأنفسهم وما أصروا على الاستكبار في جميع أعمارهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح البيان حـ 4 صـ 598 ﴾

(197/425)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إلى يومِ ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ بالاستقرار في " عليك " ، ويجوز أن يتعلَّقَ بنفسِ اللعنةِ .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) ﴾

والضميرُ في : ﴿ لَهُمْ ﴾ لذريَّةِ آدم ، وإن لم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ للعِلْمِ بهم .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ ﴾ : " هذا " إشارةٌ إلى الإِخلاص المفهومِ من " المُخْلَصين " .

وقيل : " هذا " ، أي : انتفاءُ تزْيينه وإغوائه . و " عليَّ " ، أي : مَنْ مَرَّ عليه مَرَّ عليَّ ، أي على رضواني وكرامتي . وقيل : على بمعنى إلى ، نُقِل عن الحسن .

وقرأ الضَّحاك وأبو رجاء وابن سيرين ويعقوب في آخرين : عَلِيٌّ " ، أي : عالٍ مرتفعٌ .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه استثناءٌ متصل ، لأنَّ المرادَ بعبادي العمومُ طائعهم وعاصيهم ، وحينئذ يَلْزَمُ استثناءُ الأكثرِ من الأقل ، وهي مسالةُ خلافٍ .

والثاني : أنه منقطعٌ ؛ لأنَّ الغاوين لم يَنْدرجوا في " عبادي " ؛ إذ المرادُ بهم الخُلَّصُ ، والإِضافةُ إضافةُ تشريفٍ .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) ﴾

(198/425)

---

و ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ : تأكيدٌ . وقال ابن عطية : " تأكيدٌ فيه معنى الحال " وفيه جنوحٌ لِمَنْ يَرَى اتحادَ الوقت . قوله : ﴿ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ في " أجمعين " وجهان أظهرُهما : أنه تأكيدٌ للضمير . والثاني : أنه حالٌ منه ، والعاملُ فيه معنى الإِضافة ، قاله أبو البقاء . وقد عَرَفْتَ خلافَ الناس في مجيءِ الحال من المضافِ إليه . ولا يَعْمل فيها المَوْعِدُ إن أريد به المكانُ ، فإن أُريد به المصدرُ جاز أَنْ يعمل لأنه مصدرٌ ، ولكن لا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مضافٍ ، أي : مكان موعدِهم .

قوله تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يجوز في هذه الجملةِ أن تكونَ مستأنفةً وهو الظاهرُ ، ويجوز أن تكونَ خبراً ثانياً ، ولا يجوز أن تكونَ حالاً من " جهنم " لأنَّ " إنَّ " لا تعمل في الحال ، قاله أبو البقاء ، وقياسُ ما ذكروه في ليت وكأنَّ ولعلَّ مِنْ أخواتها ، مِنْ عملِها في الحال ، لأنها بمعنى تَمَنَّيْتُ وشَبَّهْتُ وترجَّيْتُ : أن تعمل فيها " إنَّ " أيضاً ؛ لأنها بمعنى أكَّدْتُ ، ولذلك عَمِلَتْ عَمَلَ الفعلِ ، وهي أصلُ البابِ .

قوله : " منهم " يجوز أن يكونَ حالاً مِنْ " جُزْء " لأنه في الأصل صفةٌ له ، فلمَّا قُدِّمَتْ انتصبَتْ حالاً . ويجوز أن تكونَ حالاً من الضميرِ المستترِ في الجارِّ ، وهو " لكلِّ بابٍ " والعاملُ في هذه الحالِ ما عَمِل في هذا الجارِّ . ولا يجوز أن تكونَ حالاً من الضمير المستكنِّ في " مَقْسُوم " لأنَّ الصفةَ لا تعمل فيما قبل الموصوفِ . ولا يجوز أن تكونَ صفةً ل " باب " لأنَّ البابَ ليس من الناس .

وقرأ أبو جعفر بتشديد الزَّاي من غير همز ، كأنه ألقى حركةَ الهمزةِ على الزاي ، ووَقَفَ عليها فَشَدَّدها ، كقولهم : " خالدّْ " ، ثم أَجْرى الوصلَ مُجْرى الوقفِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 161.159 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) ﴾

ولمَّا أبعده الحقُّ - سبحانه - عن معرفته ، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة والبعث ، فأجابه . وظَنَّ اللَّعينُ أنه حصل في الخير مقصوده ، ولم يعلم أنه أراد بذلك تعذيبه عذاباً شديداً ، فكأنه كان في الحقيقة مكراً - وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال بما يُشْبِهُ اللطفَ والبرَّ .

وبعض أهل الرجاء يقول : إن الحق - سبحانه - حينما يهين عدوَّه لا يَرُدُّ دعاءَه في الإمهال ولا يمنعه من الاستنظار ؛ فالمؤمن - إذ أَمْرُهُ الاستغفارُ السؤالُ بوصفِ الافتقارِ - أَوْلَى ألا يقنطَ مِنْ رحمتِهِ ، لأنَّ إنظارَ اللعين زيادةُ شقاء له تحقيق عطاء .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) ﴾

الباء في ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ باء القسم ، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يُقْسِم به لولا فَرْطُ جَهْلِه . ثم هو في المعنى صحيح ، لأنَّ الإغواء مما يتفرَّدُ بالحق بالقدرة عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولكن اللَّعِينَ لا يعرف الله الحقيقة ، إذ لو عَرَفَه لم يدعُ إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلالِ غيره لاستبقى على الهداية نَفْسَه . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حَدْساً

وهو لم يَعْرِفْ الله – على الحقيقة – قَطُّ .

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) ﴾

الإخلاصُ هو تصفيةُ الأعمال عن الغَيْن وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال . وقد عَلِمَ اللعينُ أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لَمَّا تَحَقَقَ من عناية الحقِّ بشأنهم .

﴿ قال هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ تهديدٌ ، كما تقول : افعل ما شِئْتَ . . وهذا طريقي .

(200/425)

---

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) ﴾

السلطان الحجة ، وهي لله على خَلْقه ، وليس للعدوِّ حجة على مخلوق ، إذ لا تَتَعدّى مقدرتُه محلَّه ، فلا تَسَلُّطَ – في الحقيقة (1) – لمخلوق بالتأثير فيه .

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ : إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخاص ، وهم الذين محاهم عن شواهدهم ، وحفظهم وصانهم عن أسباب التفرقة وجرَّدهم عن حَوْلهم وقوَّتِهم ، وكان النائبَ عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم ، وحفظ عليهم آدابَ الشرع ، وألبَسُهم صِدارَ الاختيار في أوان أداء التكليف ،

وأخذهم عنهم باستهلاكهم في شهوده، واستغراقهم في وجوده.. فأيُّ سبيلٍ للشيطان إليهم؟ وأي يدٍ للعدو عليهم؟

ومَنْ أشهدِ الحقُّ حقائقَ التوحيد، ورأى العالمَ مُصرَّفاً في قبضة التقدير، ولم يكن نهباً للأغيار.. فمتى يكونِ للَّعين عليه تسلط، وفي معناه قالوا:

جحودي فيك تقديسُ... وعقلي فيك تهويسُ

فمن آدم إلاَّكَ... ومَنْ في البيت إبليسُ (2)

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44) ﴾

اجتمعوا اليومَ في أصل الضلالة، ثم الكفر مِلَلٌ مختلفةٌ، ثم يجتمعون غداً في العقوبة وهم زُمَرٌ مختلفون، لكلِّ دَرَكةٍ من دركات جهنم قوم مُخَصُّون. انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 270. 272 ﴾

---

(1) نلاحظ أن القشيري يكثر فى هذا الموضوع من قوله (في الحقيقة، وعلى الحقيقة... ونحو ذلك) والسبب فى ذلك راجع إلى أن ظاهر النصوص أن لإبليس إرادة وفعلا، ولكن - فى الحقيقة - كل شىء مرده إلى الحق سبحانه.

(2) هذان البيتان للحلاج (الطواسين ص 43) والديوان المقطعة رقم 28 ومعناهما: أننى لو سجدت لغيرك - حسبما أمرتنى - فأنا جاحد، ولكن - نظرا لمعرفتى بك - فإن

جحودى عين تقديسى ، لأننى أعلم أنه لا يستحق السجود على الحقيقة إلا أنت ، فأنا راض باحتمال لعنتك ثمنا لعدم امتثالى لإرادتك .



---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الحجر : 3 ] فيه إشارة إلى ذم من كان همه بطنه وتنفيذ شهواته ، قال أبو عثمان : أسوأ الناس حالاً من كان همه ذلك فإنه محروم عن الوصل إلى حرم القرب ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الحجر : 6 ] رموه وحاشاه صلى الله عليه وسلم بالجنون مشيرين إلى أن سببه دعواه عليه الصلاة والسلام نزول الذكر الذي لم تتسع له عقولهم ، والإشارة في ذلك أنه لا ينبغي لمن لم يتسع عقله لما من الله سبحانه به على أوليائه من الأسرار أن يبادروهم بالإنكار ويرموهم بما لا ينبغي كما هو عادة كثير من المنكرين اليوم على الأولياء الكاملين حيث نسبوهم فيما تكلموا به من الأسرار الإلهية والمعارف الربانية إلى الجنون ؛ وزعموا أن ما تكلموا به من ذلك ترهات وأباطيل خيلت لهم من الرياضات ، ولا أعني بالأولياء

الكاملين سوى من تحقق لدى المنصفين موافقتهم للشرع فيما يأتون ويذرون دون الذين يزعمون انتظامهم في سلكهم وهم أولياء الشيطان وحزبهم حزبه كبعض متصوفة هذا الزمان فإن الزنادقة بالنسبة إليهم أتقياء موحدون كما لا يخفى على من سبر أحوالهم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [ الحجر : 9 ] قال ابن عطاء : أي إنا نزلنا هذا الذكر شفاء ورحمة وبياناً للهدى فينتفع به من كان موسوماً بالسعادة منوراً بتقديس السر عن دنس المخالفة ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ في قلوب أوليائنا فهي خزائن أسرارنا ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا وزيناها للناظرين ﴾ [ الحجر : 16 ] إشار سبحانه إلى سماء الذات وبروج الصفات والجلال فيسير في ذلك القلب والسر والعقل والروح فيحصل للروح التوحيد والتجريد والتفريد وللعقل المعارف والكواشف وللقلب العشق والمحبة والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس

*(202/425)*

---

والانبساط وللسر الفناء والبقاء والسكر والصحو ﴿ وحفظناها مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ [ الحجر : 17 ] إشارة إلى منع كشف جمال صفاته سبحانه وجلاله ذاته عز وجل عن أبصار البطالين والمدعين والمبطلين الزائغين عن الحق ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾

اختلس شيئاً من سكان هاتيك الحضائر القدسية من الكاملين ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [ الحجر : 18 ] نار التحير فهلك في بوادي التيه أو صار غولاً يضل السائرين السالكين لتحصيل ما ينفعهم ، وقيل الإشارة في ذلك : إنا جعلنا في سماء العقل بروج المقامات ومراتب العقول من العقل الهيولاني والعقل بالملكة والعقل بالفعل والعقل المستفاد وزيناها بالعلوم والمعارف للناظرين المتفكرين وحفظانا من شياطين الأوهام الباطلة إلا من اختطف الحكم العقلي باستراق السمع لقربه من أفق العقل فأتبعه شهاب البرهان الواضح فطرده وأبطل حكمه اه ولا يخفى مافي تزيين كل مرتبة من مراتب العقول المذكورة بالعلوم والمعارف للمتفكرين من النظر على من تفكر ، وقيل : الإشارة إلى أنه تعالى جعل في سماء القلوب بروج المعارف تسير فيها سيارات الهمم ، وجعلها زينة للناظرين إليها المطلعين عليها من الملائكة والروحانيين وحفظها من الشياطين فلودنا إبليس أو جنوده من قلب عارف احترق بنور معرفته ورد خاسئاً .

(203/425)

---

﴿ والأرض مددناها وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [ الحجر : 19 ] إشارة إلى أنه تعالى بسط بأنوار تجلى جماله وجلاله سبحانه أرض قلوب أولياه حتى

أن العرش وما حوى بالنسبة إليها كحلقة في فلاة بل دون ذلك بكثير ، وفي الخبر : " ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن " ثم أنه تعال لما تجلى عليها تزلزلت من هيبته فألقى عليها رواسي السكينة فاستقرت وأنبت فيها بمياه بحار زلال نور غيبه من جميع نباتات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب وكل من ذلك موزون بميزان علمه وحكمته .

وقال بعضهم : نفوس العابدين أرض العبادة وقلوب العارفين أرض المعرفة وأرواح المشتاقين أرض المحبة ، والرواسي الرجاء والخوف والرغبة والرهبة ، والأزهار الأنوار التي أشرقت فيها من نور اليقين ونور العرفان ونور الحضور ونور الشهود ونور التوحيد إلى غير ذلك ، وقيل : أشير بالأرض إلى أرض النفس أي بسطنا أرض النفس بالنور القلبي وألقينا فيها رواسي الفضائل وأنبتنا فيها كل شيء من الكمالات الخلقية والأفعال الإرادية والملكان الفاضلة والإدراكات الحسية معين مقدر بميزان الحكمة والعدل ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ بالتدابير الجزئية ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ [ الحجر : 20 ] ممن ينسب إليكم ويتعلق بكم ، قال بعضهم : إن سبب العيش مختلف فعيش المريدين بيمن إقباله تعالى وعيش العارفين بلطف جماله سبحانه وعيش الموحدين بكشف جلاله جل جلاله .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ أي ما من شيء إلا له عندنا خزانة في عالم القضاء ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ في عالم الشهادة ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 21 ] من شكل وقدر ووضع ووقت ومحل حسبما يقتضيه استعداده ، قيل : إن الإشارة في ذلك إلى دعوة العبادة إلى حقائق التوكل وقطع الأسباب والإعراض عن الأغيار ، ومن هنا قال حمدون : إنه سبحانه قطع أطماع عبيده جل وعلا بهذه الآية فمن رفع بعد هذا حاجة إلى غيره تعالى شأنه فهو جاهل ملوم ، وكان الجنيد قدس سره إذا قرأ هذه الآية يقول فأين تذهبون ؟ ويقال : خزائنه تعالى في الأرض قلوب العارفين وفيها جواهر الأسرار ، ومنهم من قال : النفوس خزائن التوفيق والقلوب خزائن التحقيق والألسنة خزائن الذكر إلى غير ذلك ﴿ وَأَرْسَلْنَا ﴾ على القلوب ﴿ الرياح ﴾ النفحات الإلهية ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ بالحكم والمعارف ، قال ابن عطاء : رياح العناية تلقح الثبات على الطاعات ورياح الكريم تلقح في القلوب معرفة المنعم ورياح التوكل تلقح في النفوس الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه ، وكل من هذه الرياح تظهر في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة وشقى من حرمها ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السماء ﴾ أي سماء الروح ﴿ مَاء ﴾ من العلوم الحقيقية ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ وأحييناكم به ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ ﴾ أي لذلك الماء

﴿ بخازنين ﴾ [ الحجر : 22 ] لخلوكم عن العلوم قبل أن نعلمكم ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ ﴾ القلوب بماء العلم والمشاهدة ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ النفوس بالجد والمجاهدة ، وقيل : نحيي بالعلم ونميت بالإفناء في الوحدة ؛ وقيل : نحيي بمشاهدتنا قلوب المطيعين من موت الفراق ونميت نفوس المريدين بالخوف منا وقهر عظمتنا عن حياة الشهوات ، وقال الواسطي : نحيي من نشاء بنا ونميت من نشاء عنا ، وقال الوراق : نحيي القلوب بنور الايمان ونميت النفوس باتباع الشيطان ؛ وقيل وقيل : ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ [ الحجر : 23 ] للوجود والباقون بعد الفناء ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ وهم المشتاقون الطالبون للتقدم ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ [ الحجر : 24 ] وهم المنجذبون إلى عالم الحس باستيلاء صفات النفس الطالبون للتأخر عن عالم القدس وروضات الأنس ، ومن هنا قال ابن عطاء : من القلوب قلوب همتها مرتفعة عن الأدناء والنظر إلى الأكوان ومنها ما هي مربوطة بها مقترنة بنجاستها لا تنفك عنها طرفة عين ، وقيل : المستقدمين الطالبون كشف أنوار الجمال والجلال والمستأخرين أهل الرسوم الطالبون للحظوظ والاعراض ، وقيل : الأولون هم أرباب الصحو الذين يتسارعون إذا دعوا إلى الطاعة والآخرون سكارى التوحيد والمعرفة

والمحبة ، وقيل : الأولون هم الآخذون بالعزائم والآخرون هم الآخذون بالرخص ، وقيل : غير ذلك ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [ الحجر : 28 ] فيه إشارة إلى عظم شأن آدم عليه السلام حيث أخبر سبحانه بخلقه قبل أن يخلقه ، وسماه بشراً لأنه جل شأنه باشر خلقه بيديه ، ولم يثن سبحانه اليد لأحد إلا له ، وهو النسخة الإلهية الجامعة لصفات الجمال والجلال ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ الحجر : 29 ] أضاف سبحانه الروح إلى نسه تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها

(206/425)

---

لما أنها سر خفي من أسراره جل وعلا ، ولذا قيل : من عرف نفسه عرف ربه ، وعلق تبارك شأنه الأمر بالسجود بالتسوية والنفخ لما أن أنوار الأسماء والصفات وسناء سبحات الذات إنما تظهر إذ ذاك ، ولذا لما تم الأمر وجلدت النسخة فظهرت أنوار الحق وقرئت سطور الأسرار استصغروا أنفسهم ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ الحجر : 30 ] إلا إبليس لما أعمى الله تعالى عينه عن مشاهدة ما شاهدوه ﴿ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [ الحجر : 31 ] ولو شاهد ذلك لسجد كما سجدوا ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن

لِإِسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : 33] غلط اللعين في زعمه أنه خير من آدم عليه السلام ولم يخطر في باله أيضاً أن المحب الصادق يمتثل أمر محبوبه كيف كان ، ومن هنا قيل :

لو قال تيها قف على جمر الغضى . . .

لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

وقال بعض أهل الوحدة : إن الملعون ظن أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره تعالى ، وقد أخطأ أيضاً لأنه لا غير هناك لأن في حقيقة جمع الجمع ترتفع الغيرية وتزول الإثنينية .

وأنت تعلم أن هذا بمراحل عما يدل عليه كلامه وأن الغيرية إذا ارتفعت في هذا المقام ترتفع مطلقاً فلا تبقى غيرية بين آدم وإبليس بل ولا بينهما وبين شخص من الأشخاص الخارجية والذهنية ، ومن هنا قال قائلهم :

ما آدم في الكون ما إبليس . . .

ما ملك سليمان وما بلقيس

الكل عبارة وأنت المعنى . . .

يا من هو للقلوب مغناطيس

وقال الحسين بن منصور :

جحودي لك تقديس . . .

وعقلي فيك منهوس

فمن آدم الاك . . . .

ومن في البين إبليس

(207/425)

---

وقد انتشر مثل هذا الكلام اليوم في الأسواق ومجالس الجهلة والفساق واتسع الخرق على الواقع وتفاقم الأمر وما له سوى الله تعالى من دافع ﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ الحجر : 34 ] طريد عن ساحة القرب إذ القرب يقتضي الامتثال وكلما ازداد العبد قرباً من ربه ازداد خضوعاً وخشوعاً ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ﴾ [ الحجر : 35 ] لم يد سبحانه أنه بعد ذلك يحصل له القرب خلافاً لبعض أهل الوحدة بل أراد جل وعلا بعض ما قدمناه .

﴿ قَالَ رَبّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأزَيّنَنَّ لَهُمْ فِى الأرض ﴾ أي لأزينن لهم الشهوات في الجهة السفلية ﴿ وَلأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 39 ] ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ الحجر : 40 ] الذين أخلصتهم لك واصطفيتهم لمحبتك أو المخلصين في طاعتهم لك ولا يلتفتون

وحد سواك، وفيه من مدح الإخلاص ما فيه، وفي "الخبر" "العالم هلكى إلا العالمون والعالمون هلكى إلا العاملون والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر" أي شرف عظيم كما ذكره السيد السند في بعض تعليقاته.

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلَّا مَن اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر: 42] أي الذي يناسبونك في الغوايم والبعد ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: 43] ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ عدد الحواس الخمس والقوتين الشهوية والغضبية وهاتان القوتان بابان عظيمان للضلالة المفضية إلى النار.

(208/425)

---

أخرج ابن جرير عن يزيد بن قسيط قال: كانت للأنبياء عليهم السلام مساجد خارجة من قراهم فإذا أراد أحدهم أن يستنبىء ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله تعالى ثم سأل ما بدا له فبينما نبي في مسجده إذ جاء إبليس حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي: أعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ثلاثاً فقال إبليس: أخبرني بأي شيء تنجو مني؟ قال النبي: بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم فأجد كل واحد منهما على صاحبه فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلَّا مَنِ

اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [ الحجر : 42 ] قال إبليس : قد سمعت هذا قبل أن تولد قال النبي :

ويقول الله تعالى :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله ﴾ [ الأعراف : 200 ] وإني والله تعالى ما أحسست بك قط إلا اسعذت بالله تعالى منك قال إبليس : صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي : أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم قال : آخذه عند الغضب وعند الهوى ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [ الحجر : 44 ] فيكون لكل باب فرقة تغلب عليها قوة ذلك الباب ، نسأل الله تعالى أي يجيرنا منها بحرمة سيد ذوي الألباب صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(209/425)

---

فائدة

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَد بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بن عَبْدِ السَّلَامِ بْن تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِي – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ وَرَحِمَهُ – :

فَصْلٌ :

فِي آيَاتٍ ثَلَاثٍ مُتَنَاسِبَةٍ مُتَشَابِهَةِ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى يَخْفَى مَعْنَاهَا عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ . قَوْله تَعَالَى

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ .

(210/425)

---

فَلَفْظُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِ أَنَّ السَّبِيلَ الْهَادِيَ هُوَ عَلَى اللَّهِ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ بِخِلَافِ الْآيَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ فِيهِمَا إلَّا قَوْلًا وَاحِدًا . فَقَالَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ : اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ . ( أَحَدُهَا : أَنَّهُ يَعْنِي بِقَوْلِهِ هَذَا : الْإِخْلَاصَ . فَالْمَعْنَى أَنَّ الْإِخْلَاصَ طَرِيقٌ إلَيَّ مُسْتَقِيمٌ و " عَلَيَّ " بِمَعْنَى " إلَيَّ " . و ( الثَّانِي : هَذَا طَرِيقٌ عَلَيَّ جَوَازُهُ لِأَنِّي بِالْمِرْصَادِ فَأُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ . وَهُوَ خَارِجٌ مَخْرَجَ الْوَعِيدِ كَمَا تَقُولُ لِلرَّجُلِ تُخَاصِمُهُ " طَرِيقُك عَلَيَّ " فَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ . و ( الثَّالِثُ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ اسْتِقَامَتُهُ أَيْ أَنَا ضَامِنٌ لِاسْتِقَامَتِهِ بِالْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ . قَالَ : وَقَرَأَ قتادة وَيَعْقُوبُ : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ ﴾ أَيْ رَفِيعٌ . قُلْت : هَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ قَدْ ذَكَرَهَا مَنْ قَبْلَهُ كَالثَّعْلَبِيِّ وَالْوَاحِدِيِّ والبغوي وَذَكَرُوا قَوْلًا رَابِعًا . فَقَالُوا - وَاللَّفْظُ للبغوي وَهُوَ مُخْتَصَرُ الثَّعْلَبِيِّ .

(211/425)

قَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ صِرَاطٌ إِلَيَّ مُسْتَقِيمٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَقُّ يَرْجِعُ إِلَيَّ وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ لَا يُعَرَّجُ عَلَى شَيْءٍ. وَقَالَ الْأَخْفَشُ: يَعْنِي عَلَيَّ الدَّلَالَةُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: هَذَا عَلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَنْ يُخَاصِمُهُ " طَرِيقُك عَلَيَّ " أَيْ لَا تَفْلِتُ مِنِّي كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ عَلَيَّ اسْتِقَامَتُهُ بِالْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ. فَذَكَرُوا الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ وَذَكَرُوا قَوْلَ الْأَخْفَشِ " عَلَيَّ الدَّلَالَةُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ". وَهُوَ يُشْبِهُ الْقَوْلَ الْأَخِيرَ لَكِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ. فَإِنَّ ذَاكَ يَقُولُ: عَلَيَّ اسْتِقَامَتُهُ بِإِقَامَةِ الْأَدِلَّةِ. فَمَنْ سَلَكَهُ كَانَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَالْآخَرُ يَقُولُ: عَلَيَّ أَنْ أَدُلَّ الْخَلْقَ عَلَيْهِ بِإِقَامَةِ الْحُجَجِ. فَفِي كِلَا الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُ بَيَّنَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ بِنَصْبِ الْأَدِلَّةِ لَكِنَّ هَذَا جَعَلَ الدَّلَالَةَ عَلَيْهِ وَهَذَا جَعَلَ عَلَيْهِ اسْتِقَامَتَهُ - أَيْ بَيَانُ اسْتِقَامَتِهِ - وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ. وَلِهَذَا - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - لَمْ يَجْعَلْهُ أَبُو الْفَرَجِ قَوْلًا رَابِعًا. وَذَكَرُوا الْقِرَاءَةَ الْأُخْرَى عَنْ يَعْقُوبَ وَغَيْرِهِ: أَيْ رَفِيعٌ. قَالَ البغوي: وَعَبَّرَ بَعْضُهُمْ عَنْهُ " رَفِيعٌ أَنْ يُنَالَ مُسْتَقِيمٌ أَنْ يُمَالَ ".

(212/425)

قُلْت : الْقَوْلُ الصَّوَابُ هُوَ قَوْلُ أُئمَةِ السَّلَفِ - قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَنَحْوِهِ - فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ. لَا سِيَّمَا مُجَاهِدٌ. فَإِنَّهُ قَالَ : عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إلَى خَاتِمَتِهِ أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا " وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ. وَالْأَئِمَّةُ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَالْبُخَارِيِّ وَنَحْوِهِمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَى تَفْسِيرِهِ. وَالْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ أَكْثَرُ مَا يَنْقُلُهُ مِنْ التَّفْسِيرِ يَنْقُلُهُ عَنْهُ. وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَعْلَمُ التَّابِعِيْنَ بِالْبَصْرَةِ. وَمَا ذَكَرُوهُ عَنْ مُجَاهِدٍ ثَابِتٌ عَنْهُ. رَوَاهُ النَّاسُ كَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرِهِ. مِنْ تَفْسِيرِ وَرْقَاءَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ الْحَقُّ يَرْجِعُ إلَى اللَّهِ وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ لَا يُعَرِّجُ عَلَى شَيْءٍ. وَذَكَرَ عَنْ قتادة أَنَّهُ فَسَّرَهَا عَلَى قِرَاءَتِهِ - وَهُوَ يَقْرَأُ " عَلِيٌّ " - فَقَالَ : أَيْ رَفِيعٌ مُسْتَقِيمٌ. وَكَذَلِكَ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ فَسَّرُوا آيَةَ النَّحْلِ. فَرُوِيَ مِنْ طَرِيقِ وَرْقَاءَ. عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلُهُ ﴿ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قَالَ : طَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ. قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ السدي أَنَّهُ قَالَ : الْإِسْلَامُ. وَعَطَاءٌ قَالَ : هِيَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ. فَهَذِهِ الْأَقْوَالُ - قَوْلُ مُجَاهِدٍ والسدي وَعَطَاءٍ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ مِثْلُ قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ فِي تِلْكَ الْآيَةِ. وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ تَفْسِيرِ العوفي عَنْ ابْنِ

عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ يَقُولُ : عَلَى اللَّهِ الْبَيَانُ - أَنْ يُبَيِّنَ الْهُدَى وَالضَّلَالَةَ . وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَيْنِ وَلَمْ يَذْكُرْ فِي آيَةِ الْحِجْرِ إلَّا قَوْلَ مُجَاهِدٍ فَقَطْ . وَابْنُ الْجَوْزِيِّ لَمْ يَذْكُرْ فِي آيَةِ النَّحْلِ إلَّا هَذَا الْقَوْلَ الثَّانِي وَذَكَرَهُ عَنْ الزَّجَّاجِ فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ الْقَصْدُ : اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ - يُقَالُ : طَرِيقٌ قَصْدٌ وَقَاصِدٌ إذَا قَصَدَ بك إلَى مَا تُرِيدُ قَالَ الزَّجَّاجُ : الْمَعْنَى وَعَلَى اللَّهِ تَبْيِينُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَالدُّعَاءُ إلَيْهِ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ . وَكَذَلِكَ الثَّعْلَبِيُّ والبغوي وَنَحْوُهُمَا لَمْ يَذْكُرُوا إلَّا هَذَا الْقَوْلَ لَكِنْ ذَكَرُوهُ بِاللَّفْظَيْنِ . قَالَ البغوي : يَعْنِي بَيَانَ طَرِيقِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالَةِ . وَقِيلَ : بَيَانُ الْحَقِّ بِالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ . قَالَ : وَالْقَصْدُ : الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ يَعْنِي وَمِنْ السَّبِيلِ مَا هُوَ جَائِرٌ عَنْ الِاسْتِقَامَةِ مُعْوَجٌّ . فَالْقَصْدُ مِنْ السَّبِيلِ : دِينُ الْإِسْلَامِ وَالْجَائِرُ مِنْهَا : الْيَهُودِيَّةُ والنصرانية وَسَائِرُ مِلَلِ الْكُفْرِ .

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَصْدُ السَّبِيلِ: بَيَانُ الشَّرَائِعِ وَالْفَرَائِضِ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَسَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَصْدُ السَّبِيلِ: السُّنَّةُ ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ الْأَهْوَاءُ وَالْبِدَعُ. دَلِيلُهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾. وَلَكِنْ البغوي ذَكَرَ فِيهَا الْقَوْلَ الْآخَرَ ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ - عَنْ الْفَرَّاءِ كَمَا سَيَأْتِي. فَقَدْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ تَبَعًا لِمَنْ قَبْلَهُ كَالثَّعْلَبِيِّ وَغَيْرِهِ. والمهدوي ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى قَوْلَيْنِ مِنْ الثَّلَاثَةِ وَذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ مَا رَوَاهُ العوفي وَقَوْلًا آخَرَ. فَقَالَ: قَوْلُهُ ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أَيْ عَلَى أَمْرِي وَإِرَادَتِي. وَقِيلَ: هُوَ عَلَى التَّهْدِيدِ كَمَا يُقَالُ "عَلَيَّ طَرِيقُك وَإِلَيَّ مَصِيرُك". وَقَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ بَيَانُ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ. وَقِيلَ: السَّبِيلُ الْإِسْلَامُ ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أَيْ وَمِنْ السَّبِيلِ جَائِرٌ أَيْ عَادِلٌ عَنْ الْحَقِّ. وَقِيلَ الْمَعْنَى "وَعَنْهَا جَائِرٌ" أَيْ عَنْ السَّبِيلِ فَ "مِنْ" بِمَعْنَى "عَنْ". وَقِيلَ: مَعْنَى قَصْدُ السَّبِيلِ: سَيْرُكُمْ وَرُجُوعُكُمْ وَالسَّبِيلُ وَاحِدَةٌ بِمَعْنَى الْجَمْعِ.

قلت: هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ - جَعَلَ "الْقَصْدَ" بِمَعْنَى "الْإِرَادَةِ" أَيْ عَلَيْهِ قَصْدُكُمْ لِلسَّبِيلِ فِي ذَهَابِكُمْ وَرُجُوعِكُمْ. وَهُوَ كَلَامُ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ الْآيَةَ. فَإِنَّ "السَّبِيلَ الْقَصْدَ" هِيَ السَّبِيلُ الْعَادِلَةُ أَيْ عَلَيْهِ السَّبِيلُ الْقَصْدُ. و "السَّبِيلُ" اسْمُ جِنْسٍ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾. أَيْ عَلَيْهِ الْقَصْدُ مِنْ السَّبِيلِ وَمِنْ السَّبِيلِ جَائِرٌ. فَأَضَافَهُ إلَى اسْمِ الْجِنْسِ إضَافَةَ النَّوْعِ إلَى الْجِنْسِ أَيْ "الْقَصْدُ مِنْ السَّبِيلِ" كَمَا تَقُولُ "ثَوْبُ خَزٍّ". وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾. وَأَمَّا مَنْ ظَنَّ أَنَّ التَّقْدِيرَ "قَصْدُكُمْ السَّبِيلَ" فَهَذَا لَا يُطَابِقُ لَفْظَ الْآيَةِ وَنَظْمَهَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ. وَابْنُ عَطِيَّةَ لَمْ يَذْكُرْ فِي آيَةِ الْحِجْرِ إلَّا قَوْلَ الْكِسَائِيِّ وَهُوَ أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ وَذَكَرَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَ تَفْسِيرًا لِلْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى. فَذَكَرَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ السَّلَفِ قَرَءُوا ﴿ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ مِنْ الْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ. قَالَ: وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ إلَى الْإِخْلَاصِ - لَمَّا اسْتَثْنَى إبْلِيسُ مَنْ أَخْلَصَ قَالَ اللَّهُ لَهُ: هَذَا الْإِخْلَاصُ طَرِيقٌ رَفِيعٌ مُسْتَقِيمٌ لَا تَنَالُ أَنْتَ بِإِغْوَائِك أَهْلَهُ. قَالَ: وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ ﴿ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾. وَالْإِشَارَةُ بِهَذَا عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ إلَى انْقِسَامِ النَّاسِ إلَى غَاوٍ وَمُخْلِصٍ. لَمَّا قَسَّمَ إبْلِيسُ هَذَيْنِ

الْقِسْمَيْنِ قَالَ اللَّهُ " هَذَا طَرِيقٌ عَلَيَّ " أَيْ هَذَا أَمْرٌ إِلَيَّ مَصِيرُهُ . وَالْعَرَبُ تَقُولُ " طَرِيقُك فِي هَذَا الْأَمْرِ عَلَى فُلَانٍ " أَيْ إلَيْهِ يَصِيرُ النَّظَرُ فِي أَمْرِك . وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ . قَالَ : وَالْآيَةُ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ خَبَرٌ يَتَضَمَّنُ وَعِيدًا . قُلْت : هَذَا قَوْلٌ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ - لَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَا فِي نَظِيرِهَا . وَإِنَّمَا قَالَهُ الْكِسَائِيُّ لَمَّا أَشْكَلَ عَلَيْهِ مَعْنَى الْآيَةِ الَّذِي فَهِمَهُ السَّلَفُ وَدَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَالنَّظَائِرُ . وَكَلَامُ الْعَرَبِ لَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ . فَإِنَّ الرَّجُلَ وَإِنْ كَانَ يَقُولُ لِمَنْ يَتَهَدَّدُهُ وَيَتَوَعَّدُهُ " عَلَيَّ طَرِيقُك " فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ : إنَّ طَرِيقَك مُسْتَقِيمٌ . وَأَيْضًا فَالْوَعِيدُ إنَّمَا يَكُونُ لِلْمُسِيءِ لَا يَكُونُ لِلْمُخْلِصِينَ . فَكَيْفَ يَكُونُ قَوْلُهُ هَذَا " إشَارَةً إلَى انْقِسَامِ النَّاسِ إلَى غَاوٍ وَمُخْلِصٍ " وَطَرِيقُ هَؤُلَاءِ غَيْرُ طَرِيقِ هَؤُلَاءِ ؟ هَؤُلَاءِ سَلَكُوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى اللَّهِ وَهَؤُلَاءِ سَلَكُوا السَّبِيلَ الْجَائِرَةَ . وَأَيْضًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لِغَيْرِهِ فِي التَّهْدِيدِ " طَرِيقُك عَلَيَّ " مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ لَكِنَّ ذَاكَ يَمُرُّ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُ كَمَا كَانَ أَهْلُ



الْمَدِينَةِ يَتَوَعَّدُونَ أَهْلَ مَكَّةَ بِأَنَّ " طَرِيقَكُمْ عَلَيْنَا " لَمَّا تَهَدَّدُوهُمْ بِأَنَّكُمْ آوَيْتُمْ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ . كَمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ لَمَّا ذَهَبَ سَعْدٌ إلَى مَكَّةَ " لَا أَرَاك تَطُوفُ

بِالْبَيْتِ آمِنًا وَقَدْ آوَيْتُمْ الصُّبَاةَ وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ " فَقَالَ " لَئِنْ مَنَعْتنِي هَذَا لَأَمْنَعَنَّك مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْك مِنْهُ - طَرِيقُك عَلَى الْمَدِينَةِ " أَوْ نَحْوَ هَذَا . فَذَكَرَ أَنَّ طَرِيقَهُمْ فِي مَتْجَرِهِمْ إلَى الشَّامِ عَلَيْهِمْ فَيَتَمَكَّنُونَ حِينَئِذٍ مِنْ جَزَائِهِمْ . وَمِثْلُ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُقَالُ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى . فَإِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْعِبَادِ حَيْثُ كَانُوا كَمَا قَالَتْ الْجِنُّ ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ وَقَالَ ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ . ﴾ وَإِذَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ مَا ذَكَرَهُ : يَقُولُونَ " طَرِيقُك فِي هَذَا الْأَمْرِ عَلَى فُلَانٍ " أَيْ إلَيْهِ يَصِيرُ أَمْرُك فَهَذَا يُطَابِقُ تَفْسِيرَ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ : الْحَقُّ يَرْجِعُ إلَى اللَّهِ وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ لَا يُعَرِّجُ عَلَى شَيْءٍ . فَطَرِيقُ الْحَقِّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ كَمَا فُسِّرَتْ بِهِ الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى . فَالصِّرَاطُ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ هَذَا الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ



---

أَنْ يَسْأَلُوهُ إيَّاهُ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَقُولُوا ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْت عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ . وَهُوَ الَّذِي وَصَّى بِهِ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ﴾ وقَوْلُهُ هَذَا إشَارَةٌ إلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وهُوَ قَوْلُهُ ﴿ إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فَتَعَبُّدُ الْعِبَادِ لَهُ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ: طَرِيقٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ وَهُوَ طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ. ولِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ. ﴾ وابْنُ عَطِيَّةَ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُخْرَى مُسْتَشْهِدًا بِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرُهُ فِي تَفْسِيرِهَا. فَهُوَ بِفِطْرَتِهِ عَرَفَ أَنَّ هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ ولَكِنَّهُ لَمَّا فَسَّرَهَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْقَوْلَ كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اتَّفَقَ أَنْ رَأَى غَيْرَهُ قَدْ قَالَهُ هُنَاكَ. فَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ. وقَوْلُهُ ﴿ وعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ومِنْهَا جَائِرٌ ﴾. وهَذِهِ أَيْضًا مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى. أَيْ عَلَى اللَّهِ تَقْوِيمُ طَرِيقِ الْهُدَى وتَبْيِينُهُ - وذَلِكَ بِنَصْبِ الْأَدِلَّةِ وبَعْثِ الرُّسُلِ. وإلَى هَذَا ذَهَبَ الْمُتَأَوِّلُونَ. قَالَ: ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّ مَنْ سَلَكَ السَّبِيلَ الْقَاصِدَ فَعَلَى اللَّهِ طَرِيقُهُ وإلَى ذَلِكَ مَصِيرُهُ. فَيَكُونُ هَذَا مِثْلَ قَوْلِهِ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ



---

مُسْتَقِيمٌ ﴾ وضِدُّ ﴿ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك ﴾ أَيْ لَا يُفْضِي إلَى رَحْمَتِك. وطَرِيقٌ قَاصِدٌ مَعْنَاهُ: بَيِّنٌ مُسْتَقِيمٌ قَرِيبٌ ومِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ: بَعِيدٌ عَنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ الْقَاصِدِ قَالَ: والْأَلِفُ واللَّامُ فِي " السَّبِيلِ " لِلْعَهْدِ وهِيَ سَبِيلُ الشَّرْعِ ولَيْسَتْ

لِلْجِنْسِ وَلَوْ كَانَتْ لِلْجِنْسِ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا جَائِرٌ. وَقَوْلُهُ ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ يُرِيدُ طَرِيقَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ كَعُبَّادِ الْأَصْنَامِ. وَالضَّمِيرُ فِي "مِنْهَا" يَعُودُ عَلَى "السَّبِيلِ" الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا مَعْنَى الْآيَةِ كَأَنَّهُ قَالَ "وَمِنْ السَّبِيلِ جَائِرٌ" فَأَعَادَ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ لِتَضَمُّنِ لَفْظَةِ "السَّبِيلِ" بِالْمَعْنَى لَهَا. قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي "مِنْهَا" عَلَى "سَبِيلِ الشَّرْعِ" الْمَذْكُورَةِ وَيَكُونُ "مِنْ" لِلتَّبْعِيضِ وَيَكُونُ الْمُرَادُ فِرَقَ الضَّلَالَةِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ - كَأَنَّهُ قَالَ: وَمِنْ بُنَيَّاتِ الطُّرُقِ مِنْ هَذِهِ السَّبِيلِ وَمِنْ شُعَبِهَا جَائِرٌ. (قُلْت: سَبِيلُ أَهْلِ الْبِدَعِ جَائِرَةٌ خَارِجَةٌ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِيمَا ابْتَدَعُوا فِيهِ. وَلَا يُقَالُ إنَّ ذَلِكَ مِنْ السَّبِيلِ الْمَشْرُوعَةِ.

(220/425)

---

وَأَمَّا قَوْلُهُ "إنَّ قَوْلَهُ: ﴿ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ هِيَ سَبِيلُ الشَّرْعِ وَهِيَ سَبِيلُ الْهُدَى وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ. وَأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ لِلْجِنْسِ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا جَائِرٌ فَهَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي دَلَالَةِ الْآيَةِ وَهُوَ مَرْجُوحٌ. وَالصَّحِيحُ الْوَجْهُ الْآخَرُ أَنَّ "السَّبِيلَ" اسْمُ جِنْسٍ وَلَكِنَّ الَّذِي عَلَى اللَّهِ هُوَ الْقَصْدُ مِنْهَا وَهِيَ سَبِيلٌ وَاحِدٌ وَلَمَّا كَانَ جِنْسًا قَالَ ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ وَالضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى مَا ذُكِرَ بِلَا تَكَلُّفٍ. وَقَوْلُهُ "لَوْ كَانَ لِلْجِنْسِ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا جَائِرٌ" لَيْسَ كَذَلِكَ. فَإِنَّهَا لَيْسَتْ

كلُّهَا عَلَيْهِ بَلْ إنَّمَا عَلَيْهِ الْقَصْدُ مِنْهَا وَهِيَ سَبِيلُ الْهُدَى وَالْجَائِرُ لَيْسَ مِنْ الْقَصْدِ . وَكَأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ إذَا كَانَتْ لِلْجِنْسِ يَكُونُ عَلَيْهِ قَصْدُ كُلِّ سَبِيلٍ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . بَلْ إنَّمَا عَلَيْهِ سَبِيلٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ – هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ . وَسَائِرُهَا سَبِيلُ الشَّيْطَانِ كَمَا قَالَ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ . وَقَدْ أَحْسَنَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي هَذَا الِاحْتِمَالِ وَفِي تَمْثِيلِهِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

وَأَمَّا آيَةُ اللَّيْلِ – قَوْلُهُ ﴿ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ – فَابْنُ عَطِيَّةَ مَثَّلَهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ لَكِنَّهُ فَسَّرَهَا بِالْوَجْهِ الْأَوَّلِ فَقَالَ :

(221/425)

---

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ عَلَيْهِ هُدَى النَّاسِ جَمِيعًا أَيْ تَعْرِيفُهُمْ بِالسُّبُلِ كُلِّهَا وَمَنْحُهُمْ الْإِدْرَاكَ كَمَا قَالَ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ثُمَّ كُلُّ أَحَدٍ يَتَكَسَّبُ مَا قُدِّرَ لَهُ . وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْهِدَايَةُ بِالْإِرْشَادِ إلَى الْإِيمَانِ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يُوجَدْ كَافِرٌ . قُلْت : وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ – وَذَكَرَهُ عَنْ الزَّجَّاجِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : إنَّ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَى مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ . وَهَذَا التَّفْسِيرُ ثَابِتٌ عَنْ قتادة رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حميد . قَالَ : حَدَّثَنَا يُونُسُ عَنْ

شيبان عَنْ قتادة: ﴿ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ عَلَيْنَا بيانُ حلَالِه وحرامِه وطاعتِه ومَعْصِيَتِه.

وكَذَلِكَ رواهُ ابْنُ أَبِي حاتِمٍ فِي تَفْسِيرِ سعيدٍ عَنْ قتادة فِي قَوْلِه ﴿ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ يَقُولُ: عَلَى اللَّهِ الْبَيَانُ - بيانُ حلَالِه وحرامِه وطاعتِه ومَعْصِيَتِه. لَكِنَّ قتادة ذكرَ أَنَّهُ الْبَيَانُ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ وأَنْزَل بِهِ كُتُبَهُ فتَبَيّنُ بِهِ حلَالُهُ وحرامُهُ وطاعتُهُ ومَعْصِيَتُهُ. وأَمَّا الثَّعْلَبِيُّ وَالْوَاحِدِيُّ والبغوي وغَيْرُهُمْ فذكَرُوا الْقَوْلَيْنِ وزادُوا أَقْوَالًا أُخَرَ. فقَالُوا - وَاللَّفْظُ للبغوي:

(222/425)

---

﴿ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ يَعْنِي الْبَيَانَ. قَالَ الزَّجَّاجُ: عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَى مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ. وهُوَ قَوْلُ قتادة قَالَ: عَلَى اللهِ بيانُ حلَالِه وحرامِه. وقَالَ الْفَرَّاءُ: يَعْنِي مَنْ سَلَكَ الْهُدَى فعَلَى اللهِ سبيلُهُ كَقَوْلِه تَعَالَى ﴿ وعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ اللَّهَ فهُوَ عَلَى السَّبِيلِ الْقَاصِدِ. قَالَ: وقِيلَ معْنَاهُ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَالْإِضْلَالَ كَقَوْلِه "بِيَدِكَ الْخَيْرُ"

قُلْت: هَذَا الْقَوْلُ هُوَ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي لَمْ تُعْرَفْ عَنْ السَّلَفِ وكَذَلِكَ مَا أَشْبَهَهُ. فَإِنَّهُمْ قَالُوا: معْنَاهُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ يَقُولُ ﴿ وَالْخَيْرُ بِيَدَيْك وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك ﴾. وَاَللَّهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ - لَا يَكُونُ فِي مِلْكِهِ إلَّا مَا يَشَاءُ - وَالْقَدَرُ حَقٌّ. لَكِنَّ فَهْمَ الْقُرْآنِ ووضعَ كُلِّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وبيانَ حِكْمَةِ

الرَّبِّ وَعدْلِه معَ الْإيمَان بالْقَدرِ هُوطَرِيقُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ . وَقَدْ ذَكَرَ المهدوي الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ فقَالَ : إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى



---

وَالضَّلَالَ . فَحَذَفَ قَتَادَة . الْمَعْنَى : إنَّ عَلَيْنَا بيَانَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى إنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَهْدِيَ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهُدَى . قُلْت : هَذَا هُوَقَوْلُ الْفَرَّاءِ لَكِنَّ عِبَارَةَ الْفَرَّاءِ أَبْيَنُ فِي مَعْرِفَةِ هَذَا الْقَوْلِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ جُمْهُورَ الْمُتَقَدِّمِينَ فَسَّرُوا الْآيَاتِ الثَّلَاثَ بِأَنَّ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ لَا يَدُلُّ إلَّا عَلَى اللَّهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهَا بِأَنَّ عَلَيْهِ بيَانَ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ . وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَمَّا الثَّانِي فَقَدْ يَقُولُ طَائِفَةٌ : لَيْس عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ - لَا بَيَانُ هَذَا وَلَا هَذَا . فَإِنَّهُمْ مُتَنَازِعُونَ هَلْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا قَالَ ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وَقَوْلِه ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَوْلِه ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . ﴾ وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِ بيَانُ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ وَبَيَانُ حَلَالِه وَحَرَامِه وَطَاعَتِه وَمَعْصِيَتِه فَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ : إنَّ عَلَيْهِ إرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْبَيَانَ لَا يَحْصُلُ إلَّا بِهَذَا . وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِأَصْلِ آخَرَ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا فَعَلَهُ فَهُوَ وَاجِبٌ مِنْهُ

أَوْجَبَتْهُ مَشِيئَتُهُ وَحِكْمَتُهُ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . فَمَا شَاءَهُ وَجَبَ وُجُودُهُ وَمَا لَمْ يَشَأْهُ امْتَنَعَ وُجُودُهُ . وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَدَلَالَةُ الْآيَاتِ عَلَى هَذَا فِيهَا نَظَرٌ .

وَأَمَّا الْمَعْنَى الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ فَهُوَ مُرَادٌ مِنْ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ قَطْعًا وَأَنَّهُ أَرْشَدَ بِهَا إلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَهِيَ الطَّرِيقُ الْقَصْدُ وَهِيَ الْهُدَى إنَّمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ - وَهُوَ الْحَقُّ طَرِيقُهُ عَلَى اللَّهِ لَا يُعْرَجُ عَنْهُ . لَكِنْ نَشَأَتْ الشُّبْهَةُ مِنْ كَوْنِهِ قَالَ " عَلَيْنَا " بِحَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ وَلَمْ يَقُلْ " إلَيْنَا " وَالْمَعْرُوفُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ يُشَارُ إلَيْهِ أَنْ يُقَالَ " هَذِهِ الطَّرِيقُ إلَى فُلَانٍ " وَلِمَنْ يَمُرُّ بِهِ وَيَجْتَازُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ " طَرِيقُنَا عَلَى فُلَانٍ " . وَذَكَرَ هَذَا الْمَعْنَى بِحَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ . وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْقُرْآنِ الَّذِي لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ . فَإِنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ مَصِيرُهُمْ وَمَرْجِعُهُمْ إلَى اللَّهِ عَلَى أَيِّ طَرِيقٍ سَلَكُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ ﴾ أَيْ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ وَقَالَ



﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ وَقَالَ ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ فَأَيُّ سَبِيلٍ سَلَكَهَا الْعَبْدُ فَإِلَى اللَّهِ مَرْجِعُهُ وَمُنْتَهَاهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. ﴾ وَتِلْكَ الْآيَاتُ قُصِدَ بِهَا أَنَّ سَبِيلَ الْحَقِّ وَالْهُدَى وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي يَسْعَدُ أَصْحَابُهُ وَيَنَالُونَ بِهِ وِلَايَةَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ وَكَرَامَتَهُ فَيَكُونُ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ دُونَ الشَّيْطَانِ. وَهَذِهِ سَبِيلُ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَطَاعَ رُسُلَهُ. فَلِهَذَا قَالَ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾. فَالْهُدَى وَقَصْدُ السَّبِيلِ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى



---

عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ – لَا يَدُلُّ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَطَاعَةِ الشَّيْطَانِ.

فَالْكَلَامُ تَضَمَّنَ مَعْنَى " الدَّلَالَةِ " إِذْ لَيْسَ الْمُرَادُ ذِكْرَ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ الْجَزَاءَ يَعُمُّ الْخَلْقَ

كلُّهمْ . بَلْ الْمَقْصُودُ بيانُ مَا أَمرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ عِبادَتِه وطَاعَتِهِ وطَاعَةِ رُسُلِهِ - مَا الَّذِي يدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؟ فَكَأَنَّهُ قِيلَ : الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ يدُلُّ عَلَى اللَّهِ - عَلَى عِبادَتِهِ وطاعَتِهِ . وَذَلِكَ يُبَيِّنُ أَنَّ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يقُولُونَ " هَذِهِ الطَّرِيقُ عَلَى فُلَانٍ " إذَا كَانَتْ تدُلُّ عَلَيْهِ وكَانَ هُوَ الْغَايَةَ الْمَقْصُودَ بِهَا ؛ وهَذَا غَيْرُ كَوْنِهَا " عَلَيْهِ " بِمَعْنَى أَنَّ صَاحِبَهَا يمُرُّ عَلَيْهِ . وَقَدْ قِيلَ :

فَهُنَّ الْمَنَايَا أَيَّ وَادٍ سَلَكْتَه * * عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَيَّ طَرِيقُهَا

وهُوَ كَمَا قَالَ الْفَرَّاءُ : مَنْ سَلَكَ الْهُدَى فَعَلَى اللَّهِ سَبِيلُهُ . فَالْمَقْصُودُ بِالسَّبِيلِ هُوَ : الَّذِي يدُلُّ ويُوقِعُ عَلَيْهِ كَمَا يُقَالُ : إنْ سَلَكْتَ هَذِهِ السَّبِيلَ وَقَعْتَ عَلَى الْمَقْصُودِ وَنَحْوَ ذَلِكَ وكَمَا يُقَالُ " عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ " . فَإِنَّ الْغَايَةَ الْمَطْلُوبَةَ إذَا كَانَتْ عَظِيمَةً فَالسَّالِكُ يقَعُ عَلَيْهَا وَيَرْمِي نَفْسَهُ عَلَيْهَا . وأَيْضًا فَسَالِكُ طَرِيقِ اللَّهِ مُتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ . فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ عِبادَتِهِ وَمِنْ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ . فَإِذَا قِيلَ " عَلَيْهِ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ " تَضَمَّنَ أَنَّ سَالِكَهُ عَلَيْهِ يتَوَكَّلُ



---

وَعَلَيْهِ تَدُلُّهُ الطَّرِيقُ وَعَلَى عِبادَتِهِ وطَاعَتِهِ يقَعُ وَيَسْقُطُ لَا يَعْدِلُ عَنْ ذَلِكَ إلَى نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي يدُلُّ عَلَيْهَا حَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ دُونَ حَرْفِ الْغَايَةِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . فَعَلَيْهِ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ - سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 198. 216 ﴾

*(228/425)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/426)

---

الجزء السادس والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 45 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 56 ﴾ من نفس السورة

(4/426)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر الكافرين وما جرهم إلى الضلال ، وجرأهم على قبائح الأعمال ، ذكر المخلصين فقال - مؤكداً لإنكار المكذبين بالبعث : ﴿ إن المتقين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ؛

والمتقي : من جعل الإيمان بإخلاصه حاجزاً بينه وبين العقاب ﴿ في جنَّات وعيون ﴾ .

ولما كان المنزل لا يحسن إلا بالسلامة والأنس والأمن ، قال تعالى : ﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لهم ذلك ﴿ بسلام ﴾ أي سالمين من كل آفة ، مرحباً بكم ومسلماً عليكم حال الدخول ﴿ آمنين ﴾ من ذلك دائماً .

ولما كان الأنس لا يكمل إلا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر ، قال : ﴿ ونزعنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ ما في صدورهم من غل ﴾ أي حقد ينغل أي ينغرز في القلب حال كونهم ﴿ إخواناً ﴾ أي متصافين ، حال كونهم ﴿ على سرر ﴾ جمع سرير ، وهو مجلس رفيع موطأ للسرور ﴿ متقابلين ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض ؛ في آخر الثقفيات عن الجنيد رحمه الله أنه قال : ما أحلى الاجتماع مع الأصحاب ! وما أمرّ الاجتماع مع الأضداد ! ولما كان النظر في الدوام والمآل بعد ذلك ، قال : ﴿ لا يمسّهم فيها نصب ﴾ أي إعياء وتعب وجهد ومشقة ﴿ وما هم منها ﴾ ولما كان المنكى في كل شيء إنما هو الإكراه ، بني للمفعول قوله : ﴿ بمخرجين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 224 . 225 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ إِنَّ المتقين ﴾ قولان :

القول الأول : قال الجبائي وجمهور المعتزلة : القائلون بالوعيد المراد بالمتقين هم الذين اتقوا جميع المعاصي .

قالوا : لأنه اسم مدح فلا يتناول إلا من يكون كذلك .

والقول الثاني : وهو قول جمهور الصحابة والتابعين ، وهو المنقول عن ابن عباس أن المراد الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به .

وأقول : هذا القول هو الحق الصحيح ، والذي يدل عليه هو أن المتقى هو الآتي بالتقوى مرة واحدة ، كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة واحدة ، والقاتل هو الآتي بالقتل مرة واحدة ، فكما أنه ليس من شرط الوصف كونه ضارباً وقاتلاً كونه آتياً بجميع أنواع الضرب والقتل ، فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوى ، والذي يقوي هذا الكلام أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى ، لأن كل

فرد من أفراد الماهية فإنه يجب كونه مشتملاً على تلك الماهية ، فالآتي بالتقوى يجب أن يكون متقياً ، فثبت أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يصدق عليه كونه متقياً ، ولهذا التحقيق اتفق المفسرون على أن ظاهر الأمر لا يفيد التكرار .

(6/426)

---

إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر قوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن شيء واحد ، إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم ، وأيضاً فإن هذه الآية وردت عقيب قول إبليس : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ الحجر : 40 ] وعقيب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [ الحجر : 42 ] فلأجل هذه الدلائل اعتبرنا الإيمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزيد فيه قيد آخر ، لأن تخصيص العام لما كان بخلاف الظاهر فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق لمقتضى الأصل والظاهر ، فثبت أن قوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ يتناول جميع القائلين بلا إله إلا الله محمد رسول الله قولاً واعتقاداً سواء كانوا من أهل الطاعة أو من أهل المعصية وهذا تقرير بين ، وكلام ظاهر .

المسألة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ أما الجنات فأربعة لقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [ الرحمن : 46 ] ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [ الرحمن : 46 ] فيكون المجموع أربعة وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ يؤكد ما قلناه ، لأن من آمن بالله لا ينفك قلبه عن الخوف من الله تعالى وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ ﴾ يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرة واحدة ، وأما العيون فيحتمل أن يكون المراد منها ما ذكر الله تعالى في قوله :

﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون فِيهَا أَنْهَارٌ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأنهار مّنْ خمرٍ لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾ [ محمد : 15 ] ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون ينابيع مغايرة لتلك الأنهار .

(7/426)

---

فإن قيل : أتقولون إن كل واحد من المتقين يختص بعيون ، أو تجري تلك العيون من بعض إلى بعض قيل : لا يمتنع كل واحد من الوجهين فيجوز أن يختص كل أحد بعين وينتفع به كل من في خدمته من الحور والولدان ، ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهواتهم ، ويحتمل أن يكون يجري من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون عن الحقد والحسد وقوله :

﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ءامِنِينَ ﴾ يحتمل أن القائل لقوله : ﴿ ادخلوها ﴾ هو الله تعالى وأن يكون ذلك القائل بعض ملائكته ، وفيه سؤال لأنه تعالى حكم قبل هذه الآية بأنهم في جنات وعيون ، وإذا كانوا فيها فكيف يمكن أن يقال لهم : ﴿ ادخلوها ﴾ .

والجواب عنه من وجهين : الأول : لعل المراد به قيل لهم قبل دخولهم فيها : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ﴾ .

الثاني : لعل المراد لما ملكوا جنات كثيرة فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم ادخلوها وقوله : ﴿ ادخلوها بِسَلامٍ ءَامِنِينَ ﴾ المراد ادخلوا الجنة مع السلامة من كل الآفات في الحال ومع القطع ببقاء هذه السلامة ، والأمن من زوالها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ والغل الحقد الكامن في القلب وهو مأخوذ من قولهم : أغل في جوفه وتغلغل ، أي إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم ، وعن علي عليه السلام أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، وحكى عن الحرث بن الأعور أنه كان جالساً عند علي عليه السلام إذ دخل زكريا بن طلحة فقال له علي : مرحباً بك يا ابن أخي ، أما والله إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى في حقهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ فقال الحرث : كلا بل الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد .

قال عليه السلام : فلمن هذه الآية ؟ لا أم لك يا أعور ، وروي أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص لبعضهم من بعض ، ثم يؤمر بهم إلى الجنة .

(8/426)

---

وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش ، والحقد والحسد ، وقوله : ﴿ إِخْوَانًا ﴾ نصب على الحال وليس المراد الأخوة في النسب بل المراد الأخوة في المودة والمخالصة كما قال :

﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [ الزخرف : 67 ] وقوله : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ السرير معروف والجمع أسرة وسرر قال أبو عبيدة يقال : سرر وسرر بفتح الراء وكذا كل فعيل من المضاعف فإن جمعه فعل وفعل نحو : سرر وسرر ، وجدد وجدد قال المفضل : بعض تميم وكلب يفتحون ، لأنهم يستثقلون ضمتين متواليتين في حرفين من جنس واحد ، وقال بعض أهل المعاني : السرير مجلس رفيع مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور .

قال الليث : وسرير العيش مستقره الذي اطمأن إليه في حال سروره وفرحه قال ابن عباس : يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية ، وقوله : ﴿ متقابلين ﴾ التقابل التواجه ، وهو نقيض التدابر ، ولا شك أن

المواجهة أشرف الأحوال وقوله : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ النصب الإعياء والتعب أي لا ينالهم فيها تعب : ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ والمراد به كونه خلوداً بلا زوال وبقاء بلا فناء ، وكمالاً بلا نقصان ، وفوزاً بلا حرمان .

واعلم أن للثواب أربع شرائط : وهي أن تكون منافع مقرونة بالتعظيم خالصة عن الشوائب دائمة .

أما القيد الأول : وهو كونها منفعة فإليه الإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ .

وأما القيد الثاني : وهو كونها مقرونة بالتعظيم فإليه الإشارة بقوله : ﴿ ادخلوها بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ لأن الله سبحانه إذا قال لعبيده هذا الكلام أشعر ذلك بنهاية التعظيم وغاية الإجلال .

(9/426)

---

وأما القيد الثالث : وهو كون تلك المنافع خالصة عن شوائب الضرر ، فاعلم أن المضار إما أن تكون روحانية ، وإما أن تكون جسمانية ، أما المضار الروحانية فهي الحقد ، والحسد ، والغل ، والغضب ، وأما المضار الجسمانية فكالإعياء والتعب فقوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ إشارة إلى نفي المضار الروحانية وقوله : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ إشارة إلى نفي المضار الجسمانية .

وأما القيد الرابع : وهو كون تلك المنافع دائمة آمنة من الزوال فإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فهذا ترتيب حسن معقول بناء على القيود الأربعة المعتبرة في ماهية الثواب ولحكماء الإسلام في هذه الآية مقال ، فإنهم قالوا : المراد من قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ إشارة إلى أن الأرواح القدسية النطقية نقية مطهرة عن علائق القوى الشهوانية والغضبية ، مبرأة عن حوادث الوهم والخيال ، وقوله : ﴿ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ معناه أن تلك النفوس لما صارت صافية عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام ، ووقع عليها أنوار عالم الكبرياء والجلال فأشرقت بتلك الأنوار الإلهية ، وتلألأت بتلك الأضواء الصمدية ، فكل نور فاض على واحد منها انعكس منه على الآخر مثل المزايا المتقابلة المتحاذية ، فلكونها بهذه الصفة وقع التعبير عنها بقوله : ﴿ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 152 . 154 ﴾

(10/426)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ادخلوها بسلامٍ آمنين ﴾

في قوله ﴿ بسلام ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : بسلامة من النار ، قاله القاسم ابن يحيى .

الثاني : بسلامة تصحبكم من كل آفة ، قاله علي بن عيسى .

الثالث : بتحية من الله لهم ، وهو معنى قول الكلبي .

﴿ آمنين ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : آمنين من الخروج منها .

الثاني : آمنين من الموت .

الثالث : آمنين من الخوف والمرض .

قوله عز وجل : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم مِنْ غِلٍّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : نزعنا بالإسلام ما في صدورهم من غل الجاهلية ، قاله علي بن الحسين .

الثاني : نزعنا في الآخرة ما في صدورهم من غل الدنيا ، قاله الحسن ، وقد رواه أبو سعيد الخدري مرفوعاً .

﴿ إخواناً عَلَى سُرُرٍ متقابلين ﴾ في السرر وجهان :

أحدهما : أنه جمع أسرة هم عليها .

الثاني : أنه جمع سرورهم فيه .

وفي ﴿ متقابلين ﴾ خمسة أوجه :

أحدها : متقابلين بالوجوه يرى بعضهم بعضاً فلا يصرف طرفه عنه تواصلاً وتحابياً ، قاله مجاهد .

الثاني : متقابلين بالمحبة والمودة ، لا يتفاضلون فيها ولا يختلفون ، قاله علي بن عيسى .

الثالث : متقابلين في المنزلة لا يفضل بعضهم فيها على بعض لاتفاقهم على الطاعة واستهوائهم في الجزاء ، قاله أبو بكر بن زياد .

الرابع : متقابلين في الزيارة والتواصل ، قاله قتادة .

الخامس : متقابلين قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود ، حكاه القاسم .

قيل إن هذه الآية نزلت في العشرة من قريش . وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

ذكر الله تعالى ما أعد لأهل الجنة عقب ذكره ما أعد لأهل النار ليظهر التباين ، وقرأ الجمهور و" عُيون " بضم العين ، وقرأ نبيح والجراح وأبو واقد ويعقوب في رواية رويس " وعِيون " بكسر العين مثل بيوت وشيوخ ، وقرأ الجمهور " ادخُلوها " على الأمر بمعنى يقال لهم " ادخُلوها " ، وقرأ رويس عن يعقوب " أدخَلوها " على بناء الفعل للمفعول وضم التنوين في " عيونٌ " ، ألقى عليه حركة الهمزة ، و" السلام " هاهنا يحتمل أن يكون السلامة ، ويحتمل أن يكون التحية ، و" الغل " الحقد ، وذكر الله تعالى في هذه الآية أن ينزع الغل من قلوب أهل الجنة ، ولم يذكر لذلك موطناً ، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط ، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة ، وفي لفظ بعضها أن الغل ليبقى على أبواب الجنة كمعاطن الإبل .

قال القاضي أبو محمد : وهذا على أن الله تعالى يجعل ذلك تمثيلاً بلون يخلقه هناك ونحوه ، وهذا كحديث ذبح الموت ، وقد يمكن أيضاً أن يسل من الصدور ، ولذلك جواهر سود فيكون كمبارك الإبل ، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة .

قال القاضي أبو محمد : والذي يقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم وفي موطن من

آخرين ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ . وذكر أن ابناً لطلحة كان عنده فاستأذن الأشتر فحبسه مدة ثم أذن له فدخل ، فقال ألهذا حبستني وكذلك لو كان ابن عثمان حبستني له فقال علي نعم إني وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ الآية .

(12/426)

---

قال القاضي أبو محمد : وقد روي أن المستأذن غير الأشتر و﴿ إخواناً ﴾ نصب على الحال ، وهذه أخوة الدين والود ، والأخ من ذلك يجمع على إخوان وإخوة أيضاً ، والأخ من النسب يجمع أخوة وإخاء ، ومنه قول الشاعر :

وأي بني الإخاء تصفو مذاهبه . . . ويجمع أيضاً إخواناً و﴿ سرر ﴾ جمع سرير ، و﴿ متقابلين ﴾ الظاهر أن معناه في الوجوه ، إذ الأسرة متقابلة فهي أحسن في الرتبة ، قال مجاهد لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه ، وقيل ﴿ متقابلين ﴾ في المودة ، وقيل غير هذا مما لا يعطيه اللفظ ، و" النصب " التعب ، يقع على القليل والكثير ، ومن الكثير قول موسى عليه السلام ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ [ الكهف : 62 ] ومن ذلك قول

الشاعر : [ الطويل ]

كليني لهم يا أمية ناصب . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(13/426)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِن المتقين في جنات وعيون ﴾

قد شرحنا في سورة [ البقرة : 2و 25 ] معنى التقوى والجنات .

فأما العيون ، فهي عيون الماء ، والخمر ، والسلسبيل ، والتسنيم ، وغير ذلك مما ذُكر أنه من شراب الجنة .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ المعنى : يقال لهم : ادخلوها بسلام ، وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بسلامة من النار .

والثاني : بسلامة من كل آفة .

والثالث : بتحية من الله .

وفي قوله : ﴿ آمنين ﴾ أربعة أقوال :

أحدها : آمنين من عذاب الله .

والثاني : من الخروج.

والثالث : من الموت .

والرابع : من الخوف والمرض .

قوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ ﴾ قد ذكرنا تفسيرها في سورة [ الأعراف : 43 ] فإن المفسرين ذكروا ما هناك هاهنا من تفسير وسبب نزول .

قوله تعالى : ﴿ إِخواناً ﴾ منصوب على الحال ، والمعنى : أنهم متوادّون .

فإن قيل : كيف نصب "إِخواناً" على الحال ، فأوجب ذلك أن التآخي وقع مع نزع الغِلّ ، وقد كان التآخي بينهم في الدنيا ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : ما مضى من التآخي قد كان تشوبه ضغائن وشحناء ، وهذا التآخي بينهم الموجودُ عند نزع الغِلّ هو تآخي المصافاة والإِخلاص ، ويجوز أن ينتصب على المدح ، المعنى : اذكر إِخواناً .

فأما السرر ، فجمع سرير ، قال ابن عباس : على سرر من ذهب مكلَّلة بالزبرجد والدُّرّ والياقوت ، السرير مثل ما بين عدن إِلى أيلة ، ﴿ متقابلين ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض ، حيثما التفت رأى وجهاً يحبه يقابله .

قوله تعالى : ﴿ لا يَمسُّهم فيها نَصَب ﴾ أي : لا يصيبهم في الجنة إِعياءٌ وتعب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾

أي الذين اتقوا الفواحش والشرك .

﴿ فِي جنَّاتٍ ﴾ أي بساتين .

﴿ وَعُيُونٍ ﴾ هي الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل .

وأما العيون المذكورة في سورة "الإنسان" : الكافور والزنجبيل والسلسبيل ، وفي "المطففين" : التسنيم ، فيأتي ذكرها وأهلها إن شاء الله .

وضم العين من "عُيونٍ" على الأصل ، والكسر مراعاة للياء ، وقرىء بهما .

﴿ ادخلوها بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾ قراءة العامة "ادخلوها" بوصل الألف وضم الخاء ، من دخل يدخُل ، على الأمر .

تقديره : قيل ادخلوها .

وقرأ الحسن وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب "ادخلوها" بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخاء على الفعل المجهول ، من أدخل .

أي أدخلهم الله إياها .

ومذهبهم كسر التنوين في مثل ﴿ بِرَحْمَةٍ ادخلوا الجنة ﴾ [ الأعراف : 49 ] وشبهه ؛ إلا أنهم ها هنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين ؛ إذ هي ألف قطع ، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان .

﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي بسلامة من كل داء وآفة .

وقيل : بتحية من الله لهم .

﴿ آمِنِينَ ﴾ أي من الموت والعذاب والعزل والزوال .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) ﴾

قال ابن عباس : أوّل ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان ، فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله ما في قلوبهم ، من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم ، وتجري عليهم نضرة النعيم ؛ ونحوه عن عليّ رضي الله عنه .

وقال عليّ بن الحسين : نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ والصحابة ، يعني ما كان بينهم في الجاهلية من الغل .

والقول الأوّل أظهر ، يدلّ عليه سياق الآية .

وقال عليّ رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء .

(15/426)

---

والغل : الحقد والعداوة ؛ يقال منه : غلّ يغِلّ .

ويقال من الغلول وهو السرقة من المَغْنَم : غَلّ يَغُلّ .

ويقال من الخيانة : أَغَلّ يُغِلّ .

كما قال :

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ ابنة نوفلٍ . . .

جزاءَ مُغِل بالأمانة كاذبٍ

وقد مضى هذا في آل عمران .

﴿ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قَفَا بعض تواصلاً وتحابُباً ؛ عن مجاهد وغيره .

وقيل : الأسِرة تدور كيفما شاءوا ، فلا يرى أحد قفا أحد .

وقيل : "متقابلين" قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ .

وسُرُر جمع سرير .

مثل جديد وجدد .

وقيل : هو من السرور ؛ فكأنه مكان رفيع ممهَّد للسرور .

والأوّل أظهر .

قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر ، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة .

"وإخواناً" نصب على الحال من "المتقين" أو من المضمر في "ادخلوها" ، أو من المضمر في "آمنين" ، أو يكون حالاً مقدرة من الهاء والميم في "صدورهم" .

﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي إعياء وتعب .

﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لا يزول ، وأن أهلها فيها باقون .

أكلها دائم ؛ ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ ص : 54 ] . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(16/426)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾

المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك في قول جمهور المفسرين وقيل : هم الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات والبساتين والعيون والأنهار الجارية في الجنات ، وقيل : يحتمل أن تكون هذه العيون غير الأنهار الكبار التي في الجنة ، وعلى هذا فهل يختص كل واحد من أهل الجنة بعيون أو تجري هذه العيون من بعضهم إلى بعض ؟ وكلا الأمرين محتمل فيحتمل أن كل واحد من أهل الجنة يختص بعيون تجري في جناته وقصوره ودوره فينتفع بها هون ومن يختص به من حوره وولدانه ، ويحتمل أنها تجري من جنات بعضهم إلى جنات بعض لأنهم قد طهروا من الحسد والحقد .

﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لهم : ادخلوها والقائل هو الله تعالى أو بعض ملائكته ﴿ بسلام آمنين ﴾ يعني ادخلوا الجنة مع السلامة والأمن من الموت ومن جميع الآفات ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ الغل الحقد الكامن في القلب .

ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد ، وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لأنها كامنة في القلب يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة ، وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد ﴿ إخواناً ﴾ يعني في المحبة والمودة والمخالطة ، وليس المراد منه إخوة النسب ﴿ على

سرر ﴾ جمع سرير.

قال بعض أهل المعاني: السرير مجلس رفيع عدل مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور.

(17/426)

---

وقال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل صنعاء إلى الجابية ﴿ متقابلين ﴾ يعني يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم في قفا صاحبه، وفي بعض الأخبار أن المؤمن في الجنة إذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان ﴿ لا يمسهم فيها ﴾ يعني في الجنة ﴿ نصب ﴾ أي تعب ولا إعياء ﴿ وما هم منها ﴾ يعني من الجنة ﴿ بمخرجين ﴾ هذا نص من الله في كتابه على خلود أهل الجنة في الجنة، والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء بلا فناء، وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان. انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(18/426)

---

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

السرر : جمع سرير ، ككليب وكلب .

وبعض تميم يفتح الراء ، وكذا كل مضاعفة فعيل .

النصب : التعب .

﴿ إن المتقين في جنات وعيون .

ادخلوها بسلام آمنين .

ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخواناً على سرر متقابلين .

لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين .

نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم .

وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ : لما ذكر تعالى ما أعد لأهل النار ، ذكر ما أعد لأهل الجنة ، ليظهر تباين ما بين الفريقين .

ولما كان حال المؤمنين معتنى به ، أخبر أنهم في جنات وعيون ، جعل ما يستقرون فيه في الآخرة كأنهم مستقرون فيه في الدنيا ، ولذلك جاء : ادخلوها على قراءة الأمر ، لأنّ من استقر في الشيء لا يقال له : أدخل فيه .

وجاء حال الغاوين موعوداً به في قوله : ﴿ لموعدهم ﴾ لأنهم لم يدخلوها .

والعيون : جمع عين .

وقرأ نافع ، وأبو عمر ، وحفص ، وهشام : وعيون بضم العين ، وباقي السبعة بكسرها .

وقرأ الحسن : ادخلوها ماضياً مبنياً للمفعول من الإدخال .

وقرأ يعقوب في رواية رويس كذلك ، وبضم التنوين ، وعنه فتحه .

وما بعده أمر على تقدير : أدخلوها إياهم من الإدخال ، أمر الملائكة بإدخال المتقين الجنة ، وتسقط الهمزة في القراءتين .

وقرأ الجمهور : ادخلوها أمر من الدخول .

فعلى قراءتي الأمر ، ثم محذوف أي : يقال لهم ، أو يقال للملائكة .

وبسلام في موضع نصب على الحال ، واحتمل أن يكون المعنى : مصحوبين بالسلامة ، وأن يكون المعنى : مسلماً عليكم أي : محيون ، كما حكي عن الملائكة أنهم يدخلون على أهل الجنة يقولون : سلام عليكم .

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ تقدم شرحه في الأعراف .

قيل : وانتصب إخواناً على الحال ، وهي حال من الضمير ، والحال من المضاف إليه إذا لم يكن معمولاً لما أضيف على سبيل الرفع أو النصب تندر ، فلذلك قال بعضهم : إنه إذا كان المضاف جزأ من المضاف إليه كهذا ، لأنّ الصدور بعض ما أضيفت إليه وكالجزء كقوله : ﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ جاءت الحال من المضاف .

وقد قررنا أنّ ذلك لا يجوز .

وما استدلوا به له تأويل غير ما ذكروا ، فتأويله هنا أنه منصوب على المدح ، والتقدير : أمدح إخواناً .

لما لم يمكن أن يكون نعتاً للضمير قطع من إعرابه نصباً على المدح ، وقد ذكر أبو البقاء أنه حال من الضمير في الظرف في قوله : في جنات ، وأن يكون حالاً من الفاعل في : ادخلوها ، أو من الضمير في : آمنين .

ومعنى إخواناً : ذوو تواصل وتوادد .

وعلى سرر متقابلين : حالان .

والقعود على السرير : دليل على الرفعة والكرامة التامة كما قال : يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة .

وعن ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر .

وقال قتادة : متقابلين متساوين في التواصل والتزاور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(20/426)

---

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جنات وَعُيُونٍ * ادخلوها بِسَلامٍ . . . ﴾ الآية

ال ﴿ سلام ﴾ ؛ هنا : يحتمل أن يكونَ السَّلامة ، ويحتمل أن يكون التحيَّة ، وال ﴿ غِلٍّ ﴾ : الحقْد ، قال الداووديُّ : عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم . . . ﴾ الآية ، قال : " إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ الصِّرَاطِ ، حُبِسُوا عَلَى صِرَاطٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ بِمَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا ، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ ، وَاللَّهِ ، لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْ مَنْزِلِهِ في الدُّنْيَا "

انتهى .

و ﴿ سُرُرٍ ﴾ : جمع سرير ، و ﴿ متقابلين ﴾ : الظاهر أن معناه : في الوجوه ، إِذ الأَسرَّة متقابلةٌ ، فهي أحْسَنُ في الرتبة .

قال مجاهد : لا يَنْظُرُ أَحَدُهُمْ في قفا صاحبه ، وقيل غير هذا مما لا يعطِيهِ اللفْظُ ، و ﴿ نَصَبٌ ﴾ : التعب ، و ﴿ نَبِّئْ ﴾ : معناه : أعْلِم .

(21/426)

---

قال الغزَّالِيُّ رحمه اللَّه في «منهاجه» : «ومن الآيات اللطيفة الجامعةِ بَيْنَ الرجاءِ والخَوْفِ قولُهُ تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ ، ثم قال في عَقِبَهُ : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ ؛ لِئَلاَّ يستولي عَلَيْكَ الرجاءِ بِمَرَّة ، وقوله تعالى : ﴿ شَدِيدِ العقاب ﴾ [ غافر : 3 ] ، ثم قال في عقبه : ﴿ ذِي الطول ﴾ [ غافر : 3 ] ، لِئَلاَّ يستولي عَلَيْكَ الخوف ، وأَعْجَبُ من ذلك قَوْلُهُ تعالَى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [ آل عمران : 30 ] ، ثم قال في عَقِبَهُ : ﴿ والله رَءوفٌ بالعباد ﴾ [ آل عمران : 30 ] ، وأعجبُ منه قولُهُ تعالَى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب ﴾ [ ق : 33 ] ، فعلَّق الخشية باسم الرحمن ، دون اسْمِ الجَبَّار أو المنتقِمِ أو المتكبِّر ونحوه ، ليكون تخويفاً في تأمينٍ ، وتحريكاً في تسكينٍ كما تقولُ : «أَمَا تخشى الوالدةَ الرحيمة ، أَمَا تخشى الوالِدَ الشَّفِيقَ» ، والمراد من ذلك أنْ يكونَ الطَّرِيقُ عدلاً ، فلا تذهب إلى أَمْنٍ وقنوطٍ جعلنا اللَّه وإيَّاكم من المتدبِّرين لهذا الذكْرِ الحكيم ، العامِلِينَ بما فيه ، إِنه الجَوَادُ الكَرِيم انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ المتقين ﴾

من اتباعه في الكفر والفواحش فإن غيرها مكفر ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ أي مستقرون فيها خالدين ، لكل واحد منهم جنةٌ وعينٌ ، أو لكل منهم عدةٌ منهما كقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وقرىء بكسر العين حيث وقع في القرآن العظيم .

﴿ ادخلوها ﴾ على إرادة القول أمراً من الله تعالى لهم بالدخول ، وقرىء أدخِلوها أمراً منه تعالى للملائكة بإدخالهم ، وقرأ الحسن : أُدخِلوها مبنياً للمفعول على صيغة الماضي من الإدخال ﴿ بِسَلامٍ ﴾ ملتبسين بسلام أي سالمين أو مسلَّماً عليكم ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من الآفات والزوال .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ ﴾ أي حقدٍ كان في الدنيا ، وعن علي رضي الله تعالى عنه : أرجو أن أكونَ أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ منهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين

﴿ إِخْوَانًا ﴾ حال من الضمير في قوله تعالى : ﴿ فِي جنات ﴾ ، أو من فاعل ادخلوها ، أو من الضمير في آمنين ، أو الضمير المضاف إليه والعامل فيه معنى الإضافةِ ، وكذلك قوله

تعالى : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ويجوز كونُهما صفتين لإخواناً أو حالين من ضميره ، لأنه بمعنى متصافّين ، وكونُ الثاني حالاً من المستكنّ في الأول . وعن مجاهد : تدور بهم الأسرّةُ حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم .

﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي تعب بألا يكونَ لهم فيها ما يوجبه من الكدّ في تحصيل ما لا بُدّ لهم منه ، لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولةِ عملٍ أصلاً ، أو بأن لا يعترِيَهم ذلك وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوتِهم ، وهو استئنافٌ أو حالٌ بعد حال من الضمير في متقابلين ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أبدَ الآباد لأن تمام النعمة بالخلود . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(23/426)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾

أي مستقرون في ذلك خالدون فيه ، والمراد بهم على ما في الكشاف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها ، وفيه أن المتقي على الإطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه ، ونقل الإمام عن جمهور

الصحابة والتابعين وذكر أنه المنقول عن الحبر أن المراد بهم الذين اتقوا الشرك ثم قال: وهذا هو الحق الصحيح، والذي يدل عليه أن المتقي هو الآتي بالتقوى مرة واحدة كما أن الضارب هو الآتي بالضرب مرة فليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوى، والذي يقرر ذلك أن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى فإن الفرد مشتمل على الماهية بالضرورة وكل آت بالتقوى يجب أن يكون متقياً فالآتي بفرد يجب كونه متقياً، ولهذا قالوا: ظاهر الأمر لا يفيد التكرار فظاهر الآية يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى عن ذنب واحد إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم، وأيضاً هذه الآية وردت عقيب قول إبليس: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [الحجر: 40] وعقيب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الحجر: 42] فلذا اعتبر الإيمان في هذا الحكم فوجب أن لا يزاد فيه قيد آخر لأن تخصيص العام لما كان خلاف الظاهر، فكلما كان التخصيص أقل كان أوفق بمقتضى الأصل والظاهر فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كانوا من أهل المعصية، وهذا تقرير بين وكلام ظاهر اه.

وقد يقال: لا شبهة في أن السياق يدل على أن المتقين هم المخلصون السابق ذكرهم وأن

المطلق يحمل على الكامل والكامل ما أشار إليه الزمخشري ولا بأس بالحمل عليه وقيل إنه الأنسب.

(24/426)

---

وإخراج العصاة من النار ثابت بنصوص أخر، وكذا إدخال التائبين الجنة بل غيرهم أيضاً فلا يلزم القائل بذلك القول بما عليه المعتزلة من تخليد أصحاب الكبائر كما لا يخفى، وأل للاستغراق وهو إما مجموعي فيكون لكل واحد من المتقين جنة وعين أو إفرادي فيكون لكل جنات وعيون، والمراد بالعيون يحتمل كما قيل أن يكون الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتقون فِيهَا أَنْهَارٌ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ [محمد: 15] الآية، ويحتمل أن يكون منابع مغايرة لتلك الأنهار وهو الظاهر، وهل كل من المتقين مختص بعيونه أو ليس مختصاً بل تجري من بعض إلى بعض احتمالان فإنه يمكن أن يكون لكل واحد عين وينتفع بها من في معيته، ويمكن أن تجري العين من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون عن الحقد والحسد، وضم العين من ﴿ عيون ﴾ هو الأصل وبه قرأ نافع.

وأبو عمرو.

وحفص.

وهشام وقرأ الباقون بالعكس وهو لمناسبة الياء .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) ﴾

﴿ ادخلوها ﴾ أمر لهم بالدخول من قبله تعالى ، وهو بتقدير القول على أنه حال أي وقد قيل لهم ادخلوها ، فلا يرد أنه بعد الحكم بأنهم في الجنة كيف يقال لهم ادخلوها ، وجوز أن يقدر مقولاً لهم ذلك والمقارنة عرفية لاتصالهما ، وقيل : يقدر يقال لهم فيكون مستأنفاً ، ووجه ذكر هذا الأمر بعد الحكم السابق بأنهم لما ملكوا جنات كثيرة كانوا كلما خرجوا من جنة إلى أخرى قيل لهم ادخلوها إلى آخره ، وهو إنما يجري على تقدير أن يكون لكل جنات وبغير ذلك مما فيه دخل .

وقرأ الحسن ﴿ ادخلوها ﴾ على أنه ماض مبني للمفعول من باب الأفعال والهمزة فيه للقطع ، وأصل القياس أن لا يكسر التنوين قبلها إلا أن الحسن كسره على أصل التقاء الساكنين إجراءً لهمزة القطع مجرى همزة الوصل في الإسقاط .

(25/426)

---

وقرأ يعقوب في رواية رويس كذلك إلا أنه ضم التنوين بإلقاء حركة همزة القطع عليه ، وعنه ﴿ ادخلوها ﴾ بفتح الهمزة عليه وكسر الخاء على أنه أمر للملائكة بإدخالهم إياها ،

وفتح في هذه القراءة التنوين بإلقاء فتحة الهمزة عليه وعلى القراءة بصيغة الماضي لا حاجة إلى تقدير القول، والفاعل عليها هو الله تعالى أي أدخلهم الله سبحانه إياها ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي ملتبسين به أي سالمين أو مسلماً عليكم وعلى الأول يراد سلامتهم من الآفة والزوال في الحال، ويراد بالأمن في قوله سبحانه: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ الأمن من طرو ذلك في الاستقبال فلا حاجة إلى تخصيص السلامة بما يكون جسمانياً والأمن بغيره.

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

أي حقد، وأصله على ما قيل من الغلالة وهو ما يلبس بين الثوبين الشعار والدثار وتستعار للدرع كما يستعار الدرع لها، وقيل: قيل للحقد غل أخذاً له من انغل في كذا وتغلل إذا دخل فيه، ومنه قيل للماء الجاري بين الشجر غلل، وقد يستعمل الغل فيما يضمر في القلب مما يذم كالحسد والحقد وغيرهما، وهذا النزع قيل في الدنيا، فقد أخرج ابن أبي حاتم.

وابن عساكر عن كثير النوّا قال: قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أن هذه الآية نزلت في أبي بكر.

وعمر.

وعلي رضي الله تعالى عنهم ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قال: والله إنها لفيهم أنزلت وفيمن تنزلا إلا فيهم؟ قلت: وأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية إن بني تيم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا فأخذت أبا بكر الخاصرة

فجعل علي كرم الله تعالى وجهه يسخن يده فيكوي بها خاصرة أبي بكر رضي الله تعالى عنه فنزلت هذه الآية، ويشعر بذلك على ما قيل ما أخرجه سعيد بن منصور.

وابن جرير.

وابن المنذر.

والحاكم.

(26/426)

---

وغيرهم من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال لابن طلحة: إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ الآية فقال رجل من همذان: إن الله سبحانه أعدل من ذلك فصاح علي كرم الله تعالى وجهه عليه صيحة تداعى لها القصر، وقال: فمن إذن إن لم نكن نحن أولئك؟ وقيل: إن ذلك في الآخرة بعد دخول الجنة، فقد أخرج ابن جرير.

وابن أبي حاتم.

وابن مردويه من طريق القاسم عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن حتى إذا تدانوا وتقابلوا على السرر نزع الله

تعالى ما في صدورهم في الدنيا من غل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم بن رشيد قال : ينتهي أهل الجنة إلى باب الجنة وهم يتلاحظون تلاحظ الفيران فإذا دخلوها نزع الله تعالى ما في صدورهم من الغل ، وقيل : فيها قبل الدخول ، فقد أخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل "

وهذا ونحوه يؤيد ما قاله الإمام في المتقين ، وقيل : معنى الآية طهر الله تعالى قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع سبحانه منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب ، والآية ظاهرة في وجود الغل في صدورهم قبل النزع فتأمل .

(27/426)

---

﴿ إِخْوَانًا ﴾ حال من الضمير في ﴿ فِي جنات ﴾ [ الحجر : 45 ] وهي حال مترادفة أن جعل ﴿ ادخلوها ﴾ حالاً من ذلك أيضاً أو حال من فاعل ﴿ ادخلوها ﴾ وهي مقدرة إن كان النزع في الجنة أو من ضمير ﴿ ءامِنِينَ ﴾ [ الحجر : 46 ] أو الضمير

المضاف إليه في ﴿ صُدُورِهِمْ ﴾ وجاز لأن المضاف بعض من ذلك وهي حال مقدرة أيضاً ، ويقال نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ويجوز أن يكون صفتين لإخوانا أو حالين من الضمير المستتر فيه لأنه في معنى المشتق أي متصافين ، ويجوز أن يكون ﴿ متقابلين ﴾ حالاً من المستتر في ﴿ على سُرُرٍ ﴾ سواء كان حالاً أو صفة ، وأبو حيان لا يرى جواز الحال من المضاف إليه إذا كان جزأه أو جزئه ويخصه فيما إذا كان المضاف مما يعمل في المضاف إليه الرفع أو النصب ، وزعم أن جواز ذلك في الصورتين السابقتين مما تفرد به ابن مالك ، ولم يقف على أنه نقله في فتاويه عن الأخفش .

وجماعة وافقوه فيه ، واختار كون ﴿ إِخْوَانًا ﴾ منصوباً على المدح ؛ والسرر بضمتين جمع سرير وهو معروف وأخذه من السرور إذ كان ذلك لأولي النعمة ، وإطلاقه على سرير الميت للتشبيه في الصورة وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله عز وجل وخلاصه من سجنه المشا إليه بما جاء في بعض الآثار "الدنيا سجن المؤمن" .

وكلب .

وبعض بني تميم يفتحون الراء وكذا كل مضاعف فعيل ، ويجمع أيضاً على أسرة ، وهي على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من ذهب مكللة باليواقيت والزبرجد والدر ، وسعة كل كسعة ما بين صنعاء إلى الجابية .

وفي كونهم على سرر إشارة إلى أنهم في رفعة وكرامة تامة .

وروي عن مجاهد أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا فهم في جميع أحوالهم متقابلون لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، فالتقابل التواجه وهو نقيض التدابر، ووصفهم بذلك إشارة إلى أنهم على أشرف أحوال الاجتماع.

(28/426)

---

وقيل: هو إشارة إلى أنهم يجتمعون ويتنادمون، وقيل: معنى ﴿ متقابلين ﴾ متساوين في التواصل والتزاور.

وفي بعض الأخبار إن المؤمن في الجنة إذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار كل واحد منهم إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا ﴾ أي في تلك الجنات ﴿ نَصَبٌ ﴾ تعب ما إما بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من السعي في تحصيل ما لا بد لهم منه لحصول كل ما يشتهونه من غير مزاولة عمل أصلاً، وإما بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم.

وفي بعض الآثار أن قوة الواحد منهم قوة أربعين رجلاً من رجال الدنيا؛ والجملة استئناف نحوي أو بياني أو حال من الضمير في ﴿ فِي جنات ﴾ [الحجر: 45] أو من الضمير في ﴿ إِخْوَانًا ﴾ [الحجر: 47] أو من الضمير في ﴿ متقابلين ﴾ [الحجر: 47] أو من

الضمير في ﴿ على سُرُرٍ ﴾ [الحجر : 47 ] ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أي هم خالدون فيها .

فالمراد استمرار النفي وذلك لأن إتمام النعمة بالخلود ، وهذا متكرر مع ﴿ ءامِنِينَ ﴾ [ الحجر : 46 ] إن أريد منه الأمن من زوالهم عن الجنة وانتقالهم منها ، وارتكب ذلك للاعتناء والتأكيد وإن أريد به الأمن من زوال ما هم عليه من النعيم والسرور والصحة لا يتكرر ، وبحث بعضهم في لزوم التكرار بأن الأمن من الشيء لا يستلزم عدم وقوعه كأمن الكفرة من مكر الله تعالى مثلاً وأنه يجوز أن يكون المراد زوال أنفسهم بالموت لا الزوال عن الجنة ، وتعقب بأن الثاني في غاية البعد فإنه لا يقال للميت : إنه فيها وإن دفن بها كالأول فإن الله تعالى إذا بشرهم بالأمن منه كيف يتوهم عدم وقوعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(29/426)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ (46) ﴾

بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين يوم القيامة في جنات وعيون ، ويقال لهم يوم القيامة : ﴿

ادخلوها بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾ [ الحجر : 46 ] وذكر في مواضع أخر صفات ثوابهم وربما يبن بعض تقواهم التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل كقوله في الذاريات : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [ الذاريات : 15-19 ] وقوله في الدخان : ﴿ إِنَّ المتقين فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجحيم فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ [ الدخان : 51-57 ] وقوله في الطور : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ بِمَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [ الطور : 17-20 ] وقوله في القمر : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [ القمر : 54-55 ] وقوله في المرسلات : ﴿ إِنَّ المتقين فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [ المرسلات : 41-42 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن الشيء الذي له أوصاف متعددة في القرآن نبين أوصافه عند ذكر بعضها كما تقدم مثاله مراراً وكما هنا .

والمتقي اسم فاعل الاتقاء وأصل الاتقاء ﴿ و ق ي ﴾ لفيف مفروق فاؤه واو وعينه قاف ولامه ياء فدخله تاء الافتعال فصارت وقي أو تقي فأبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء للقاعدة المقررة في التصريف أن كل واو هي فاء الكلمة إذا دخلت عليها تاء الافتعال يجب إبدالها أعني الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال نحو اتصل من الوصل واتزن من الوزن واتحد من الوحدة واتقى من الوقاية وعقد هذه القاعدة ابن مالك في الخلاصة بقوله :

ذو اللين فا تا في افتعال أبدلا . . . وشذ في ذي الهمز نحو ائتكلا

والاتقاء في اللغة : اتخاذ الوقاية دون المكروه ومنه قول نابغة ذبيان :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه . . . فتناولته واتقتنا باليد

يعني استقبلتنا بيدها جاعلة وقاية تقيها من أن ننظر إلى وجهها لأنها تستره بها وقول الآخر :

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت . . . بأحسن موصلين كف ومعصم

والتقوى في اصلاح الشرع : هي اتخاذ الوقاية دون عذاب الله وسخطه وهي مركبة من أمرين هما امتثال أمر الله واجتناب نهيه .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه نزع ما في صدور أهل الجنة من الغل في حال كونهم إخواناً وبين هذا المعنى في الأعراف وزاد أنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنة وذلك في قوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا ﴾ [الأعراف: 43] الآية.

قوله تعالى: ﴿ على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾.

(31/426)

---

بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين هم أهل الجنة يوم القيامة يكونون على سرر وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع منها أنها منسوجة بقضبان الذهب وهي الموضونة قال في الواقعة: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة: 13-16] وقيل الموضوعة المصفوفة كقوله: ﴿ مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ [الطور: 20] الآية ومنها أنها مرفوعة كقوله في الغاشية: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية: 13] الآية وقوله في الواقعة: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: 34]، وقوله ﴿ مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: 76] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب وهو التعب والإعياء وقوله نصب نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب فتدل الآية على سلامة أهل الجنة من جميع أنواع التعب والإعياء وقوله نصب نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب فتدل الآية على سلامة أهل الجنة من جميع أواع التعب والمشقة وأكد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [ فاطر : 35 ] لأن اللغوب هو التعب والإعياء أيضاً وقد صح عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

(32/426)

---

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يخرجون منها وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله ﴿ بِمُخْرَجِينَ ﴾ فهم دائمون في نعيمها أبداً بلا انقطاع . وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر كقوله : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفردوس نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [ الكهف : 107-108 ] وقوله : ﴿ وَبَشِّرِ

المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ [الكهف : 2-3 ] وقوله : ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 108 ] وقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص : 54 ] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(33/426)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

استئناف ابتدائي ، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتّقين على عادة القرآن في التفنن .

والمتّقون : الموصوفون بالتقوى .

وتقدمت عند صدر سورة البقرة .

والجنّات : جمع جنة .

وقد تقدمت عند قوله تعالى ﴿ أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ في أول سورة البقرة ( 25 )

والعيون : جمع عين اسم لثقب أرضي يخرج منه الماء من الأرض .

فقد يكون انفجارها بدون عمل الإنسان .

وأسبابه كثيرة تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ في سورة البقرة ( 74 ) .

وقد يكون بفعل فاعل وهو التفجير .

وجملة ﴿ ادخلوها ﴾ معمولة لقول محذوف يقدر حالاً من ﴿ المتقين ﴾ والقرينة ظاهرة .

والتقدير : يقال لهم ادخلوها .

والقائل هو الملائكة عند إدخال المتقين الجنة .

والباء من ﴿ بسلام ﴾ للمصاحبة .

والسلام : التحية .

وتقدم في قوله : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ في سورة الأنعام ( 54 )

والأمن النجاة من الخوف .

وجملة ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ عطف على الخبر ، وهو ﴿ في جنات وعيون ﴾ .

والتقدير : إن المتقين نزعنا ما في صدورهم من غِلّ .

والغِلّ بكسر الغين البغض .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ في سورة الأعراف ( 43 ) ، أي ما كان بين بعضهم من غلّ في الدنيا .

وإخواناً ﴾ حال ، وهو على معنى التشبيه ، أي كالإخوان ، أي كحال الإخوان في الدنيا .

وأول من يدخل في هذا العموم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم من الحوادث الدافع إليها اختلاف الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين ، والشدة في إقامة الحق على حسب اجتهادهم .

كما روي عن علي كرّم الله وجهه أنه قال : إني لأرجو من أن أكون أنا وطلحة ممن قال الله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً ﴾ .

(34/426)

---

فقال جاهل من شيعة عليّ اسمه الحارث بن الأعور الهمذاني : كلا ، اللّهُ أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد .

فقال عليّ : "فلمن هذه الآية لا أمّ لك بِفيك التراب" .

والسرر : جمع سرير .

وهو محمل كالكرسي متّسع يمكن الاضطجاع عليه .

والاتّكاء : مجلس أصحاب الدعة والرفاهية لتمكن الجالس عليه من التقلّب كيف شاء حتى إذا ملّ جِلسة انقلب لغيرها .

والتقابل : كون الواحد قبالة غيره ، وهو أدخل في التأنس بالرؤية والمحَادثة .

والمسّ : كناية عن الإصَابة .

والنصَب : التعب النّاشىء عن استعمال الجهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

*(35/426)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

والمُتقِي هو الذي يحول بين ما يُحبّ وما يكره ؛ ويحاول ألاَّ يصيب مَنْ يحب ما يكره .

وتتعدى التقوى إلى متقابلاتٍ ، فنجد الحق سبحانه يقول : ﴿ اتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله . . . ﴾ [ البقرة : 282 ] .

ويقول أيضاً : ﴿ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة . . . ﴾ [ البقرة : 24 ]

وقلنا من قَبْل : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويهَبُ بصفات الجلال البَلايا ؛ فهو غفّار ، وهو قهار ، وهو عَفْو ، وهو مُنْتقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية ؛ وأن نجعل بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى ؛ والطريق أن نتبعَ منهجه ؛ فلا ندخل النار التي هي جُنْد من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [ الحجر : 45 ]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصي بعد أن آمنوا بالله ورسوله واتبعوا منهجه . وإنْ كانت المعصية قد غلبتْ بعضهم ، وتابوا عنها واستغفروا الله ؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبدّل سيئاتِهم حسناتٍ .

ومَنْ يدخل الجنة سيجد فيها العيون والمقصود بها الأنهار ؛ والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ . . . ﴾ [ محمد : 15 ]

ولعل هناك عيوناً ومنابعَ لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ ادخلوها . . . ﴾

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة في سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلامَ الدنيا والاطمئنان فيها مُختلِف عن سلام الجنة ؛ فسلامُ الدنيا يعكره خوف افتقاد النعمة ، أو أن يفوت الإنسانُ تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم في الدنيا إلى زوال .

أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

(36/426)

---

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾

وهكذا يُخرِج الحق سبحانه من صدورهم أيَّ حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا في المعاصي وهم مُمْتلئون بالغِلّ ، بينما هم قد طهَّرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه في الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مُطهَّرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أيٌّ منهم بحسد لغيره .

والغِل كما نعلم هو الحقد الذي يسكُن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وُجهات نظرهم في الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعه الجمل ، وكان في المعسكر المقابل طلحةُ والزبير رضي الله عنهما ؛ وكلاهما مُبشَّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُغلبه .

" ولحظةَ أنْ قامت المعركة جاء وَجْه علي كرَّم الله وجهه في وَجْه الزبير ؛ فيقول علي رضي الله عنه : تذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتما تمرّان عليّ ، سلَّم النبي وقلْتَ

أنت : لا يفارق ابنَ أبي طالب زَهْوُه ، فنظر إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لك : " إنك تقاتل علياً وأنتَ ظالم له " . فرمى الزبير بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على عليٍ كرّم الله وجهه ؛ فقال عليٌّ رضوان الله عليه : يجعل لي الله ولأبيك في هذه الآية نصيباً " فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أنْ يجمعَ بينك وبين طلحة في الجنة . فقال عليٌّ : وفيما نزل إذنْ قوله الحق :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [ الحجر : 47 ] .

وكلمة " نزعنا " تدل على أن تغلغل العمليات الحِقْدية في النفوس يكون عميقاً ، وأن خَلْعها في اليوم الآخر يكون خَلْعاً من الجذور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله ؛ والذي عاداه في الدنيا نظرته إلى مُحسِن له ؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عَيْب منه .

(37/426)

---

ذلك أن المؤمن في الآخرة يذكر مُعْطيات الأشياء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً ؛ فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك ، والحق سبحانه هو القائل في موقع آخر : ﴿ واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النار فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا ﴾ [ آل عمران : 103 ] .

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه ؛ ولكنك لا تُجالسه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع . وقد تكون أخوة طيبة ممتلئة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه في الآخرة على سُرُر متقابلين .

وسأل سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما في الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فَضل الحق المطلق يرفع منزلة الأَدْنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان في الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّها الإنسان إنَّك كَادِحٌ إلى ربِّكَ كَدْحاً فمُلاَقِيهِ ﴾ [ الانشقاق : 6 ] .

ولكن الحال في الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه في الآية التالية :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) ﴾

وحياتُكَ في الآخرة إنْ أصلحتَ عملك وكنت من المؤمنين - تختلف عن حياتك في الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك في الدنيا تَحيا مع أسباب الله المَمْدودة لك ؛ وتضرب في الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أنْ يهبكَ الله ما في الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المُفْلِحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل عُلاَه : ﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ * أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [ البقرة : 4-5 ] .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي بلفظ المُفْلِح كصفة للمؤمن في الجنة ، لأن المؤمن قد حرثَ الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيمَ منهج الله في الأرض ، ونصَبَ قامته ، ونعلم أن نَصْب القَامَة يدلُّ على أن مَنْ يعمل قد أصابه التعب ، وذلك في الحياة الدنيا .

أما في الجنة ، فيقول الحق :

﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [ الحجر : 48 ] .

أي : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجون من الجنة ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تكلَّم سبحانه عن الغَاوين ، وقد كانوا أخلاَّء في الدنيا يمرحُون فيها بالمعاصي ؛ وهم مَنْ ينتظرهم عقابُ الجحيم . وتكلَّم عن العباد المُخلصين الذين سيدخلون الجنة ؛ ومنهم مَنِ اختلفتْ رُؤاه في الدنيا ، ولم يربط بينهم تآلفٌ أو محبّة ؛ لكنهم يدخلون الجنة ، وتتصافَى قلوبهم من أيِّ خلاف قد سبق في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ قال : أراد إبليس أن لا يذوق الموت ، فقيل ﴿ إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ قال : النفخة الأولى يموت فيها إبليس ، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة . قال : فيموت إبليس أربعين سنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ قال فإنك من المنظرين ﴾ قال : فلم ينظره إلى يوم البعث ، ولكن أنظره إلى الوقت المعلوم .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ يعني المؤمنين .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ قال : هذه ثنية الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ قال : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه لا يعرج على شيء .

وأخرج ابن جرير عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ يقول

: إليّ مستقيم .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن زياد بن أبي مريم وعبد الله بن كثير ، أنهما قرآ " هذا صراط مستقيم " وقالا ﴿ عليّ ﴾ هي إليّ وبمنزلتها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ أي رفيع مستقيم .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر ، عن ابن سيرين أنه كان يقرأ ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ يعني رفيع .

وأخرج ابن جرير عن قيس بن عبّاد أنه قرأ ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ يقول : رفيع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ قال : عبادي الذين قضيت لهم الجنة ﴿ ليس لك عليهم ﴾ أن يذنبوا ذنباً إلا أغفره لهم .



---

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لما لعن إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ،

فجزع لذلك فرنّ رنّة . فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن قسيط قال : "كانت الأنبياء تكون لهم مساجد خارجة من قراها ، فإذا أراد النبي أن يستنبئ ربه عن شيء ، خرج إلى مسجد فصلى ما كتب له ثم سأل ما بدا له . فبينما نبي في مسجده إذ جاء إبليس حتى جلس بينه وبين القبلة ، فقال النبي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثاً . فقال إبليس : أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟ قال النبي : بل أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم ؟ فأخذ كل واحد منهما على صاحبه ، فقال النبي : إن الله يقول ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ قال إبليس : قد سمعت هذا قبل أن تولد .

قال النبي : ويقول الله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ [ الأعراف : 200 ] وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك . قال إبليس : صدقت . . . بهذا تنجو مني . فقال النبي : فأخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم ؟ قال : آخذه عند الغضب وعند الهوى " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ قال : جهنم ، والسعير ، ولظى ، والحطمة ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية ، وهي أسفلها .

وأخرج ابن المبارك وهناد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في صفة النار ، وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طرق ، عن علي قال :

أبواب جهنم سبعة ، بعضها فوق بعض . فتملأ الأوّل ثم الثاني ثم الثالث حتى تملأ كلها .

وأخرج أحمد في الزهد عن خطاب بن عبد الله قال : قال علي : أتدرون كيف أبواب جهنم ؟ قلنا كنحو هذه الأبواب . قال : لا ، ولكنها هكذا . ووضع يده فوق وبسط يده على يده .

(41/426)

---

وأخرج البيهقي في البعث ، عن الخليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ ﴿ تبارك ﴾ و ﴿ حم ﴾ السجدة . وقال : الحواميم سبع ، وأبواب جهنم سبع : جهنم ، والحطمة ، ولظى ، وسعير ، وسقر ، والهاوية ، والجحيم . تجيء كل حاميم منها يوم القيامة تقف على باب من هذه الأبواب فتقول : اللهم لا تدخل هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرأني ، مرسل .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن مردويه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب ، باب منها لمن سلّ السيف على أمتي " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبزار ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للنار باب لا يدخله إلا من شفى غيظه بسخط الله " .

وأخرج أبو نعيم عن عطاء الخراساني قال : لجهنم سبعة أبواب ، أشدها غمّاً وكرباً وحراً ، وأنتنها ريحاً للزناة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم باب لا يدخل منه إلا من أخفرني في أهل بيتي وأراق دماءهم من بعدي " .

وأخرج أحمد وابن حبان والطبري وابن مردويه والبيهقي في البعث ، عن عتبة بن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " للجنة ثمانية أبواب ، وللنار سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من بعض " .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : تطلع الشمس من جهنم بين قرني شيطان ، فما ترفع من السماء قصبة إلا فتح لها باب من أبواب النار ، حتى إذا كانت الظهيرة فتحت أبواب النار كلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ قال : لها سبعة أطباق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ قال : أوّلها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . والجحيم فيها أبو جهل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال: فهي والله منازل بأعمالهم.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن الأعمش رضي الله عنه قال: أسماء أبواب جهنم: الحطمة، والهاوية، ولظى، وسقر، والجحيم، والسعير، وجهنم، والنار هي جماع.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ جزء مقسوم ﴾ قال: فريق مقسوم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال: باب لليهود وباب للنصارى وباب للصابئين وباب للمجوس وباب للذين أشركوا – وهم كفار العرب – وباب للمنافقين وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرْجَى لهم ولا يرجى للآخرين أبداً.

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني، عن ابن مسعود قال: تطلع الشمس من جهنم بين قرني شيطان، فما ترتفع من السماء قصة إلا فتح لها باب من أبواب النار، حتى إذا كانت الظهيرة فتحت أبواب النار كلها.

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في البعث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " إن الصراط بين ظهري جهنم دحض مزلة ، والأنبياء عليه يقولون : اللهم سلم سلم ، والمارُّ كلمع البرق وكطرف العين ، وكأجاويد الخيل والبغال والركاب . وشدّ على الأقدام فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ومطروح فيها و ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ " .

(43/426)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن سمرة بن جندب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال : " إن من أهل النار مَنْ تأخذه النار إلى كَعْبَيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى تراقيه منازل بأعمالهم ، فذلك قوله ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال : على كل باب منها سبعون ألف سرادق من نار ، في كل سرادق سبعون ألف قبة من نار ، في كل قبة سبعون ألف تنور من نار ، لكل تنور منها سبعون ألف كوّة من نار ، في كل كوّة سبعون ألف صخرة من نار ، على كل صخرة منها سبعون ألف حجر من النار ، في كل حجر منها سبعون ألف عقرب من النار ، لكل عقرب منها سبعون ألف ذنب من نار ، لكل ذنب منها سبعون ألف فقارة من نار ، في كل فقارة منها سبعون ألف قلة من سم وسبعون ألف موقد من نار ، يوقدون تلك النار . وقال :

إن أوّل من دخل من أهل النار وجدوا على الباب أربعمائة ألف من خزنة جهنم ، سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله الرحمة من قلوبهم ليس في قلب واحدٍ منهم مثقال ذرة من الرحمة " .

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن جهنم لَتُسَعَّرُ كل يوم وتفتح أبوابها ، إلا يوم الجمعة فإنها لا تفتح أبوابها ولا تُسَعَّر " .

وأخرج سعيد بن منصور عن مسروق رضي الله عنه قال : إن أحق ما استعيذ من جهنم في الساعة التي تفتح فيها أبوابها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك رضي الله عنه قال : جهنم سبعة نيران ، ليس منها نار إلا وهي تنظر إلى النار التي تحتها تخاف أن تأكلها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في النار سجناً لا يدخله إلا شرّ الأشرار ، قراره نار وسقفه نار وجدرانه نار ، وتلفح فيه النار .

(44/426)

---

وأخرج عبد الرزاق والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن كعب رضي الله عنه قال : للشهيد نور ، ولمن قاتل الحرورية عشرة أنوار ، وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب ، باب منها

للحرورية. قال: ولقد خرجوا في زمان داود عليه السلام.

وأخرج ابن مردويه والخطيب في تاريخه، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ قال: "جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا في الله، وجزء غفلوا عن الله".

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه، وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه، فجئته لأنظر في وجهه فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعت منه أن قال: "يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام".

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ آمنين ﴾ قال: أمنوا الموت، فلا يموتون ولا يكبرون ولا يسقمون ولا يعرون ولا يجوعون.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طريق لقمان بن عامر، عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة أحد حتى ينزع الله ما في صدورهم من غل، وحتى أنه لينزع من صدر الرجل بمنزلة السبع الضاري.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق القاسم، عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا نزلوا

وتقابلوا على السرر ، نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل .

وأخرج ابن جرير عن علي ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال : العداوة .

(45/426)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن قتادة في قوله ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال : حدثنا أبو المتوكل الناجي ، عن أبي سعيد الخدري . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة : فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا " قَالَ قَتَادَةُ : وَكَانَ يُقَالُ : ما يُشَبَّهُ بِهِمْ إِلاَّ أَهْلُ جُمُعَةٍ حِينَ انْصَرَفُوا مِنْ جُمُعَتِهِمْ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط ، حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا ، ويدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الكريم بن رشيد قال : ينتهي أهل الجنة إلى باب الجنة وهم

يتلاحظون تلاحظ الغيران ، فإذا دخلوها نزع الله ما في صدورهم من غل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن الحسن البصري قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الله بن مليل ، عن علي في قوله ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال : نزلت في ثلاثة أحياء من العرب : في بني هاشم ، وبني تميم ، وبني عدي . وفي أبي بكر وفي عمر .



---

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال : قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين ، إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال : والله إنها لفيهم أنزلت . وفيمن تنزل إلا فيهم ؟ قلت : وأي غل هو ؟ قال : غل الجاهلية . إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم ، كان بينهم في الجاهلية . فلما أسلم هؤلاء القوم تحابّوا وأخذت أبا بكر الخاصرة ، فجعل علي يسخن يده فيكوي بها خاصرة أبي بكر . فنزلت هذه الآية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم من طرق، عن علي أنه قال لابن طلحة: إني أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ فقال رجل من همدان: إن الله أعدل من ذلك.

فصاح علي عليه صيحة تداعى لها القصر، وقال: فمن اذن إن لم نكن نحن أولئك؟.

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن علي قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة ممن قال الله ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾.

وأخرج ابن مردويه من طريق مجاهد، عن ابن عباس في قوله ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل... ﴾ الآية. قال: نزلت في علي وطلحة والزبير.

وأخرج الشيرازي في الألقاب وابن مردويه وابن عساكر من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال: نزلت في عشرة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم، عن أبي صالح موقوفاً عليه.

وأخرج ابن مردويه من طريق النعمان بن بشير، عن علي ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال: ذاك عثمان وطلحة والزبير وأنا.

وأخرج هنّاد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ على سرر متقابلين ﴾ قال : لا يرى بعضهم قفا بعض .

(47/426)

---

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه من طريق مجاهد ، عن ابن عباس قال : أهل الجنة لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، ثم قرأ ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو القاسم البغوي وابن مردويه وابن عساكر ، عن زيد بن أبي أوفى قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية ﴿ إخوانا على سرر متقابلين ﴾ " المتحابين في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ قال : المشقة والأذى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(48/426)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

وكَسرَ عينَ ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ : منكَّراً و " العِيون " مُعَرَّفاً حيث وقع ابنُ كثيرٍ والأخوان وأبو بكر وابن ذكوان . والباقون بالضمِّ وهو الأصل .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ادخلوها ﴾ : العامَّةُ على وَصْلِ الهمزةِ من دَخَل يَدْخُل . وقد تقدَّم خلافُ القرّاءِ في حركةِ هذا التنوين / لالتقاء الساكنين في البقرة . وقرأ يعقوب بفتح التنوين وكسرِ الخاء . وتوجيهُها : أنه أمرٌ مِنْ أَدْخَلَ يُدْخِل ، فلمَّا وقع بعد " عيون " ألقى حركة الهمزةِ على التنوين لأنها همزةُ قطع ، ثم حذفها . والأمرُ مِنَ الله تعالى للملائكةِ ، أي أَدْخِلوها إياهم .

وقرأ الحسن ويعقوب أيضاً " أُدْخِلوها " ماضياً مبنياً للمفعول ، إلا أنَّ يعقوبَ ضَمَّ التنوين ، ووجهُه : أنه أخذه مِنْ أَدْخَلَ رباعياً ، فألقى حركَةَ همزةِ القطع على التنوين ، كما ألقى حركةَ المفتوحةِ في قراءتِه الأولى . والحسن كَسَره على أصلِ التقاءِ الساكنين ، ووجهُه : أن يكونَ أجرى همزةَ القطعِ مُجْرى همزةِ الوصلِ في الإِسقاط .

وقراءةُ الأمرِ على إضمارِ القول ، أي : يُقال لأهل الجنة : ادْخُلوها . أو يُقال للملائكة :

أَدْخِلُوها إياهم . وعلى قراءة الإِخبار يكون مستأنفاً مِنْ غيرِ إضمارِ قولٍ .

قوله : " بسلامٍ " حالٌ ، أي : ملتبسين بالسلامة ، أو مُسلِّماً عليكم .

قوله : آمِنين " حالٌ أخرى وهي بدلٌ مِمَّا قبلها : إمَّا بدلُ كلٍ من كلٍ ، وإمَّا بدلُ اشتمال ؛ لأنَّ الأَمْنَ مُشْتملٌ على التحيةِ أو بالعكس .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (47) ﴾

(49/426)

---

قوله تعالى : ﴿ إِخْوَانًا ﴾ : يجوز فيه أن يكونَ حالاً من " هم " في " صدورِهم " ، وجاز ذلك لأنَّ المضافَ جزءُ المضاف إليه . وقال أبو البقاء : " والعاملُ فيها معنى الإِلصاق " .

ويجوز أن يكونَ حالاً مِنْ فاعل " ادْخُلوها " على أنها حالٌ مقدرةٌ ، كذا قال أبو البقاء ، ولا حاجةَ إليه ، بل هي حالٌ مقارنةٌ ، ويجوز أن يكونَ حالاً من الضمير في " آمِنين " ، وأن يكونَ حالاً مِنَ الضمير في قوله ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ .

قوله : ﴿ على سُرُرٍ ﴾ يجوز أن يتعلَّقَ بنفسِ " إخواناً " لأنه بمعنى متصافِّيْنَ على سُرُر . قاله أبو البقاء ، وفيه نظرٌ من حيث تأويلُ جامدٍ بمشتق بعيدٍ منه . و " متقابلين " على هذا حالٌ من الضمير في " إخواناً " ، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه صفةٌ لإِخوان ، وعلى

هذا ف " متقابلين " حالٌ من الضميرِ المستكنّ في الجارّ . ويجوز أن يتعلَّقَ ب " متقابلين " ، أي : متقابلين على سُرُرٍ ، وعلى هذا ف " متقابلين " حالٌ من الضمير في " إخواناً " أو صفةٌ ل " إخواناً " ويجوز نصبُه على المدح ، يعني أنه لا يمكن أن يكونَ نعتاً للضمير فلذلك قُطِعَ .

والسُّرُر : جمع سَرِيْر وهو معروفٌ . ويجوز في " سُرُر " ونحوِه مِمَّا جُمِعَ على هذه الصيغةِ مِنْ مضاعَف فعيل فَتْحُ العين تخفيفاً ، وهي لغة كلبٍ وتميم فيقولون : سُرَرٌ وذُلَلٌ في جمع : سَرِير وذَلِيل .

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ : يجوز أن تكون هذه مستأنفةً ، ويجوز أُن تكونَ حالاً من الضمير في " متقابلين " . والنَّصَب : التَّعَبُ . يُقالا منه : نَصِبَ يَنْصِبُ فهو نَصِبٌ وناصِب ، وأَنْصَبَني كذا . قال :

2941- تأوَّبَني هَمٌّ مع الليلِ مُنْصِبُ . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

وهَمٌّ ناصِبٌ ، أي : ذو نَصَبٍ ك لابنٍ وتامرٍ . قال النابغة :

2942- كِلِيْني لِهَمٍّ يا أُميمةُ ناصِبِ . . . وليلٍ أقاسيه بَطِيْءِ الكواكبِ

و" منها " متعلقٌ ب " مُخْرَجِيْن " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 161 .

163 ﴾

## لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى سلم )

السَّلام والسّلامة : التعرّى من الآفات الظّاهرة والباطنة ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أى من الدّغَل ، هذا فى الباطن ، وقال تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ هذا فى الظّاهر .

يقال : سَلِمَ يسلم سلامةً ، وسَلَامًا ، وسلَّمه الله .

وقوله : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ أَى بسلامة .

والسّلامة الحقيقية ليست إلاَّ فى الجَنَّة ؛ لأَنَّ فيها بقاء بلا فناء ، وغنىّ بلا فقر ، وعزًّا بلا ذلّ ، وصحّة بلا سقم .

وقوله : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ أَى السّلامة .

وقيل : السّلام : اسم من أَسماءِ الله تعالى ، وكذا قيل فى قوله : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ ﴾ .

قيل : وُصف الله بالسّلام من حيث لا يلحقه العيوب والآفات الّتى تلحق الخَلْق .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ، و ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ ، كل ذلك من النّاس والملائكة بالقول ، ومن الله بالفعل ، وهو إِعطاء ما تقدّم ذكره ممّا يكون فى الجنّة من

السّلامة .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ أى نطلب منكم السّلامة ، فيكون (سلاماً) منصوباً بإضمار فعل .

وقيل : معناه : قالوا سَدَادًا من القول ، فيكون صفة لمصدر محذوف .

وقوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ ﴾ إِنَّما رفع الثَّانى لأَنَّ الرفع فى باب الدّعاء أَبلغ ، فكأَنَّه يجرى فى باب الأَدب المأمور به فى قوله : ﴿ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾ .

ومن قرأَ (سِلْمٌ) فلأَن السّلام لمّا كان يقتضى السِّلْم وكان إِبراهيم عليه السّلام قد أَوجس منهم فى نفسه خِيفة ، فلمّا رآهم مسلِّمين تصوّر من تسليمهم أَنَّهم قد بذلوا له سِلْمًا ، فقال فى جوابهم : (سِلْم) تنبيهًا أَنَّ ذلك حصل من جهتى لكم ، كما حصل من جهتكم لى .

(51/426)

---

وقوله : ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ هذا لا يكون لهم بالقول فقط ، بل ذلك بالقول والفعل جميعاً .

وقوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ ﴾ هذا فى الظَّاهر أَنَّه سلّم عليهم ، وفى الحقيقة سؤال الله السلامة منهم .

و ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ، وكذلك البواقى ، كلّ ذلك تنبيه من الله أَنَّه جعلهم

بحيث يُثْنَى عليهم ، ويُدْعَى لهم .

والسَّلَام ، والسَّلَم ، والسَّلْم : الصّلح .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ﴾ ، قيل : نزلت فيمن قُتل بعد

إِقراره بالإِسلام ومطالبته بالصّلح .

وقوله : ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ أَى مستسلمون .

وقوله : ﴿ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ﴾ ، وقرىء : سَلَما وسِلْما ، وهما مصدران وليسا

بوصفين ، تقول : سلِم سِلْماً وسَلَما ، وربِح ربْحاً وربَحاً .

وقيل : السَّلْم اسم بإِزاءِ الحرب : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ ، لأَنّ كلّ واحد من

المتحاربين يخلُص ويسلّم من أَذى الآخر ، ولهذا يبنى على مفاعلة ، فيقال : المسالمة .

والإِسلام : الدّخول فى السَّلْم - وهو أَن يَسلَم كلٌّ واحد منهما أَن يناله أَلم من صاحبه ،

ومصدر أَسلمت الشىء إِلى فلان إِذا أَخرجته إِليه .

ومنه السَّلَم / فى البيع .

والإِسلام فى الشرع على ضربين :

أَحدهما : دون الإِيمان ، وهو الاعتراف باللّسان .

وبه يُحقَن الدّم ، حصل معه الاعتقاد أَو لم يحصل ، وإِياه قَصَد بقوله : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَاكِن

قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ .

والثانى : فوق الإِيمان .

وهو أَن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، والاستسلامُ لله تعالى فى جميع ما قَضَى وقدَّر ؛ كما ذكر عن إِبراهيم عليه السّلام فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 252 . 255 ﴾

(52/426)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

المتقي مَنْ وقَّاه الله بفضله لا مَنْ اتَّقى بتكلُّفِه ، بل إنه ما اتقى بتكلفه إلاَّ بعد أن وقَّاه الحقُّ -سبحانه- بفضله . هم اليومَ في جنات ولها دَرَجات بعضها أرفعُ من بعض ، كما أنهم غداً في جنَّات ولها درجات بعضها فوق بعض .

اليوم لقومٍ درجةُ حلاوة الخدمة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ، ولآخرين

درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأُنْسِ والقربة ، قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهم ولزم كلُّ قومٍ مذهبَهم .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (46) ﴾

معناه يقال لهم : ﴿ ادخلوها ﴾ ، وأَجْمَلَ ذلك ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم . ويرى قومٌ أن المَلَكَ يقول لهم : أدخلوها .

ويقال إذا وافَوْا الجنة وقد قطعوا المسافةَ البعيدةَ ، وقاسوا الأمورَ الشديدةَ ، فَمِنْ حقِّهم أن يدخلوا الجنة ، خاصةً وقد علموا أَنَّ الجنةَ مُبَاحةٌ لهم ، ولعلهم لا يفقهون حتى يقال لهم .

ويقال يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول المَلَكِ حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :

ولا أَلْبَسُ النُّعمى وغيرُك مُلْبِسٌ . . . ولا أَقْبَلُ الدنيا وغيرُك واهبُ

قوله : ﴿ بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴾ : بمعنى السلامة ، وهي الأمان ، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها .

ويقال كما لا يخرجون من الجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال ؛ فالرؤية لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية - مديدةٌ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

أَمَرَ الخليلَ عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ ﴾ [ الحج : 26 ] ، وأَمَرَ جبريلَ عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى - صلى لله عليه وسلم - فَطَهَّرَه .

وتولّى هو - سبحانه - بنفسه تطهيرَ قلوب العاصين ، فقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [ الحجر : 47 ] وذلك رفقاً بهم ، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجَّبُ منه القوي ، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبُهم ، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم .

ويقال قال : ﴿ مَا فِى صُدُورِهِم ﴾ ولم يقل ما في قلوبهم لأن القلوب في قبضته يقلبها ، وفي الخبر : " قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن " يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ الإصبع لذلك توسعاً . وقيل بين إصبعين أي نعمتين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ .

قابل بعضُهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كلٌّ واحدٍ عن صاحبه سِرَّه وقلبَه ، فالنفوس متقابلة ولكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة ؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ .

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (48) ﴾

أي لا يلحقهم تعبٌ ؛ لا بنفوسهم ولا بقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكانٍ إلى مكان ، ولا تحار أبصارهم ، ولا يلحقهم دَهَشٌ ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم

عليه من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .

﴿ وَمَا هُم مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أي لا يلحقهم ذلّ الإخراج بل هم بدوام الوصال . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 272. 274 ﴾

(54/426)

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ الر تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ أي : هذه آيات الكتاب ﴿ الر تِلْكَ ﴾

أي : بيّن حلاله ، وحرامه .

والكتاب والقرآن واحد .

وقال قتادة في قوله : ﴿ الر تِلْكَ ﴾ بيّن الله رشده ، وهداه ، وخيره ، ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين

كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قرأ نافع وعاصم ﴿ رُبَمَا ﴾ بالتخفيف .

وقرأ الباقون بالتشديد قال عاصم : قرأت عند زر بن حبيش ﴿ رُّبَمَا ﴾ بالتشديد .

فقال : إنك لتحب الرّب .

وقال : هي رُبَّمَا مخففة .

ولكن معناها واحد .

فالتخفيف لغة بعض العرب .

واللغة الظاهرة بالتشديد ، أي : ربما يأتي على الكافر يوم يتمنى أنه كان أسلم .

ويقال : أقسم الله تعالى بالألف ، واللام ، والراء ، إن هذا القرآن حق ، وهو بيّن لكم الحق من الباطل .

وأقسم أنه رُبَّ يومٍ يأتي على الكافر ، يتمنى فيه أن لو كان مؤمناً في الدنيا ، يقول الكافر : يا ليتني كنت مؤمناً في الدنيا .

أي : يعني : يقول يوم القيامة : يا ليت كنت .

وذلك أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ، ورأى حالاً من أحوال المسلمين ، وَدَّ أن لو كان مسلماً .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : يخرج من النار حين يقال : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

فيتمنى الكافر أن لو كان مؤمناً ، فذلك قوله ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ .

وروي عن حماد بن أبي سلمة أنه قال : سألت إبراهيم النخعي عن هذه الآية .

قال : نزلت في الكفار ، يعيرون أهل التوحيد ، ويقولون : ما أغنى عنكم إيمانكم ، وأنتم

معنا ، فيغضب الله لهم ، فيأمر الله النبيين والملائكة ، فيشفعون ، فيخرج أهل التوحيد من النار .

حتى إن إبليس يتطاول رجاء أن يخرج ، ويتمنى الكافر أن لو كان مسلماً في الدنيا .

حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا صالح بن أحمد .

قال : حدّثنا محمد بن شوكر .

(55/426)

---

قال : حدّثنا القاسم .

قال : حدّثنا أبو حنيفة ، عن يزيد بن صهيب ، عن جابر بن عبد الله .

قال : سألته عن الشفاعة .

فقال : يعذب الله قوماً من أهل الإيمان ، ثم يخرجهم منها بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت له : فأين قوله : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [ المائدة : 37 ] مِنْهَا قال : اقرأ ما قبلها ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ الله

أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ [ عافر : 10 ] الآية .

يعني : إن تلك الآية نزلت في الكفار .

وقال مجاهد : إذا أخرج من النار ، من قال : لا إله إلا الله ، فعند ذلك يقولون : يا ليتنا كنا مسلمين ، وعن أبي العالية مثله .

ثم قال : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ يقول : اتركهم ، وخلّ عنهم يا محمد في الدنيا .

يأكلوا ، ويتمتعوا ؛ يأكلوا كالأنعام ، ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا ، لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد ﴿ وَيُلْهِهِمُ الامل ﴾ يعني : يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة ، وعن ذكر الله تعالى .

ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة ، وعن ذكر الأجل ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا وعيد لهم أي يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة .

قوله :

(56/426)

---

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ يعني : أهل قرية ﴿ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ يعني : أجلاً مؤقتاً ، ووقتاً معروفاً ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ يعني : لا يموت أحد قبل أجله ﴿ وَمَا

يَسْتَخِرُونَ ﴾ بعد أجلهم ، طرفة عين ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعني : أهل مكة ﴿ وَقَالُوا يا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ أي : الذي يزعم أنه ينزل عليه القرآن ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ نزلت في عبد الله بن أُمية ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ يعني : هلاّ تأتينا الملائكة ، فتخبرنا بأنك رسول الله ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ بأنك نبي مرسل .

وأن العذاب نازل بنا .

قال الله تعالى : ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ أي : بالوحي ، والعذاب ، وقبض أرواحهم ، ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ يعني : إذا نزلت عليهم الملائكة ، لا يؤجلون بعد نزول الملائكة قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفص ، ما ﴿ نُنَزِّلُ ﴾ بالنون ، وتشديد الزاي ، ونصب ﴿ الملائكة ﴾ من قولك : نَزَّلَ يُنَزِّلُ .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ مَا تُنَزَّلُ ﴾ بالتاء ، والضم ، ونصب الزاي مع التشديد ، على معنى فعل ما لم يسم فاعله .

وقرأ الباقون ﴿ مَا تَنَزَّلَ ﴾ بنصب التاء ، وتشديد الزاي فجعل الفعل للملائكة .

ثم قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ أي : القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ يعني : القرآن .

ويقال : يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم من القتل .

وقال قتادة : يعني : القرآن يحفظه الله تعالى ، من أن يزيد فيه الشيطان باطلاً ، أو يبطل منه

حقّاً .

وذلك قال مقاتل .

(57/426)

---

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ يعني : قد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً ﴿ فِى شِيَعِ الاولين ﴾ أي : في أمم ، وقرون الأولين قبل أمتك ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي كانوا يسخرون منهم كما سخر منك قومك ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ قرأ بعضهم ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ بضم النون ، وكسر اللام .

وقراءة العامة : بنصب النون ، وضم اللام .

وهما لغتان .

يقال : سلكت الخيط في الإبرة ، إذا أدخلته فيها .

ومعناه : هكذا ندخل الإضلال في قلوب المجرمين أي : المشركين عقوبة ومجازاة لكفرهم .

ويقال : معناه هكذا نطبع على قلوب المجرمين .

ويقال : نجعل حلاوة التكذيب بالعذاب .

ويقال : الشرك في قلوب المشركين الذين ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني : لا يصدقون بالله .

ويقال : بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقال : بالعذاب إنه غير نازل .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الاولين ﴾ أي : مضت سنة الأولين .

نأتيهم بالعذاب عند التكذيب .

ويقال : تقدمت سيرة الأولين بالهلاك .

قوله : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ أي فصاروا يصعدون فيه ، وينزلون .

يعني : الملائكة ، ويراهم المشركون ، وهم أهل مكة ﴿ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ يقول : أخذت ، وغشيت أبصارنا ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ أي : ولقالوا سحرنا فلا نبصر .

وروى قتادة عن أبي صالح أنه قال : لو فتح الله عليهم باباً من السماء ، فظلت الملائكة يعرجون فيه .

لقالوا : أخذت أبصارنا .

قرأ ابن كثير ﴿ سُكِرَتْ ﴾ بالتخفيف .

وهكذا قرأ الحسن .

وقرأ الباقون بالتشديد .

وقال القتبي : ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ بالتشديد أي : غُشِّيَتْ .

ومنه يقال : سُكِّر النهر إذا سدّ ومنه يقال سكر الشراب وهو الغطاء على العقل .

ومن قرأ ﴿ سُكِّرَتْ ﴾ بالتخفيف يعني : سحرت .

(58/426)

---

يعني : إنهم لا يعتبرون به ، كما لم يعتبروا بانشقاق القمر حين رأوه معاينة .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا ﴾ أي : خلقنا نجوماً .

ويقال : هي القصور في السماء .

وقال الضحاك ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد هي النجوم ﴿ وزيناها للناظرين ﴾ أي : زينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها ﴿ وحفظناها ﴾ السماء ﴿ مِن كُلّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ أي : مرجوم .

ويقال : ملعون مبعد من الرحمة ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ أي : لكن من اختلس السمع خلسة ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : لحقه نجم حار ، متوهج ، متوقد ، لا يخطئه الشهاب أن يصيبه .

فإما أن يأتي على نفسه ، أو أن يخبله ، حتى لا يعود إلى الاستماع إلى السماء .

وقال ابن عباس : إن أهل الجاهلية من الكهنة قالوا : لا يكون كاهن إلا ومعه تابع من الجن ،

فينطلق الشياطين الذين كانوا مع الكهنة، فيقعدون من السماء مقاعد السمع، ويستمعون إلى ما هو كائن في الأرض من الملائكة، فينزلون به على كهنتهم.

فيقولون: إنه قد كان كذا وكذا من الأمر فتفشيه كهنتهم إلى الناس، فيتكلمون به قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم من الأنبياء السابقين، فإذا تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم قالوا قد علمنا قبلك وكانت الشياطين تحجب عن الاستماع في السموات حتى بعث عيسى ابن مريم عليه السلام فلما بعث منعوا من ثلاث سماوات وكانوا يصعدون في أربع سماوات، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، منعوا من السموات السبع، وكان الشيطان المارد منهم يصعد، ويكون آخر أسفل منه، فإذا استمع قال للذي أسفل منه: قد كان من الأمر كذا وكذا، فيهرب الأسفل، ويرمي الذي استمع بالشهاب، ويأتي الأسفل بالأمر الذي سمع إلى كهنتهم.

(59/426)

---

فذلك قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ثم قال: ﴿ والأرض مددناها ﴾ يقول: بسطناها على الماء ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ أي: الجبال الثوابت لكي لا تتحرك من أمكنتها ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي: في الجبال ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾

أي: مقسوم معلوم.

ويقال: ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ مما يخرج من الجبال من الحديد، والرصاص، والفضة، والذهب.

ويقال: ﴿ وَأَنبَتْنَا ﴾ فِيهَا يعني: الأرض ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ يعني: مقداراً معلوماً من الحبوب ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ أي: عيشاً من الزرع، والنبات.

ويقال: ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي: معدود من الحبوب وغيره.

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ يعني: خلقنا فيها معايشهم، ومعايش البهائم، والوحوش، والطيور، يعني: أنتم لستم ترزقونها، وأنا أرزقها.

قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ أي: مفاتيح رزقه.

ويقال: علمه.

كقوله: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظلمات الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام: 59 ] ويقال: يعني: خزائن الغيب وهو المطر ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ أي: المطر ﴿ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي: بكيل، ووزن معروف.

قال ابن عباس : أي : يعلمه الخزان إلا يوم الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح ، فإنه طغى على خزانه ، وكثر فلم يحفظوا ما خرج منه يومئذٍ ، خرج أربعين يوماً .

*(60/426)*

---

قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ يعني : بعث الله الريح ، فتلقح السحاب ، ثم تمر به ، فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر هذا قول ابن مسعود وقال ابن عباس : أي في قوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ ملقحات .

نُلقح الأشجار .

وقال قتادة : ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ أي : تلقح السحاب .

وهكذا قال الكلبي : قرأ حمزة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الريح ﴾ بلفظ الوحدان .

وقرأ الباقون بلفظ الجماعة .

ثم قال : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً ﴾ يعني : المطر ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ يعني : فأرويناكموه به أي : حبستم الماء في الغدران ، والحياض ، لتسقوا الضياع ، والمواشي ﴿ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ أي : بمالكين ، وحافظين .

ويقال : ليس مفاتيحه بأيديكم .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ ﴾ أي : نحيي للبعث ، ونميت في الدنيا .

ويقال ﴿ نُحْيِ ﴾ الأرض بالمطر أيام الربيع ، ونميتها أيام الخريف ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ أي : المالكون .

ويقال : معناه يهلك الخلق ، ويبقي الرب تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ أي : الأموات ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ يعني : الأحياء .

ويقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ في الصف الأول ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ في الصف الآخر .

وروى أبو الجوزاء ، عن ابن عباس أنه قال : كانت امرأة حسناء تصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان بعض القوم يتقدم الصف الأول لكيلا يراها ، ويتأخر بعضهم ، فإذا ركع ، نظر من تحت إبطيه ، فنزل ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ ويقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم حرض الناس على الصف الأول ، وكان قوم بيوتهم قاصية من المسجد .

فقالوا لنبيعن دورنا ، ونشتري دوراً قريبة من المسجد ، حتى ندرك الصف الأول .

فصارت الديار البعيدة خالية .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم " مَنْ أَتَى المَسْجِدَ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ آثَارُهُ وَيُكْتَبُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةٍ ، وَتُرْفَعُ لَهُ كَذَا وَكَذَا دَرَجَةٍ " فجعل الناس يشترون الدور البعيدة من المسجد لكي يكتب لهم آثارهم ، فنزل ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ ، وإنما يؤجرون بالنية .

فاطمأنوا ، وسكنوا .

وقال مجاهد : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين ﴾ أي : ما مضى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ ما بقي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : المستقدمين : آدم ومن مات قبل نزول هذه الآية .

والمستأخرين من لم يخلق بعد ، كلهم قد علمهم .

وقال الحسن : المستقدمين في الخير ، والمستأخرين عنه ، يقول : المبطئين .

وقوله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ يعني : يجمعهم يوم القيامة ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ حكم بحشر الأولين والآخرين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بهم .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ أي : آدم ﴿ مِن صلصال ﴾ أي : من طين يتصلصل إذا مشيت عليه يتقلقل ، وإذا تركته ينغلق ، ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أي : من طين أسود منتن .

وقال الأخفش : أي من طين مصبوب .

ويقال : ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ أي : متغير الرائحة كقوله ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ البقرة : 259 ] .

ويقال : الذي أتت عليه السنون .

(62/426)

---

وقال القتبي : ﴿ الصلصال ﴾ الطين اليابس الذي لم تصبه نار إذا ضربته صوّت ، وإذا مسته النار ، فهو فخار والمسنون المتغير الرائحة ، والحمأ جمع حمئة وهو الطين المتغير ﴿ مَّسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ ﴾ يعني : إبليس .

ويقال : الجان أبو الجن خلقناه من قبل آدم ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ قال ابن عباس : هي نار لا دخان لها ، تكون بين السماء وبين الحجاب .

وقال آخرون : ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ أي : من نار حارة .

قال الكسائي : الجن والجنة من أصل واحد .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائكة ﴾ يعني : قد قال ربك للملائكة الذين هم في الأرض مع إبليس سكان الأرض ﴿ إِنِّى خالق بَشَرًا ﴾ أي : سأخلق خلقاً ﴿ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أي : جمعت خلقه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ أي : جعلت الروح فيه ﴿ فَقَعُوا لَهُ ساجدين ﴾ أي : فخروا له أي فاسجدوا بأجمعكم ﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ يعني : سجدة التحية لا سجدة العبادة وكانت التحية لآدم عليه السلام والعبادة لله تعالى .

﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ روي عن الخليل بن أحمد أنه قال : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ على معنى توكيد بعد توكيد .

وذكر عن محمد بن يزيد عن المبرد أنه قال : معناه سجدوا كلهم في حالة واحدة .

وقال الزجاج : الأول أجود لأن أجمعين معرفة ، فلا يكون حالاً .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ قال بعضهم : معناه لكن إبليس لم يكن من الساجدين ، لأن إبليس لم يكن من الملائكة ، فيكون الاستثناء من غير جنس ما تقدم بدليل قوله : ﴿ وَإِذَا قُلْنَا للملائكة اسجدوا لِآدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ للظالمين بَدَلاً ﴾ [ الكهف : 50 ] .

وقال بعضهم: استثنى إبليس من الملائكة، وكان من جنسهم، إلا أنه لما لم يسجد، لعن، وغيّر عن صورة الملائكة، ولا يكون الاستثناء من غير جنس، فذلك قوله ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ السَاجِدِينَ ﴾ أي: تعظم عن السجود لآدم مع الملائكة ﴿ قَالَ يَاءادَمُ إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَاجِدِينَ ﴾ أي: مع الملائكة ﴿ قَالَ ﴾ أي: إبليس ﴿ لَمْ أَكُن لِاسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ أي: من الأرض.

ويقال: من الجنة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي: ملعون، مطرود.

فألحقه بجزائر البحور ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ﴾ أي طرد من رحمته يوم الحساب.

قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ أي: أجلني ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ من قبورهم ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ أي: من المؤجلين ﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ أي: إلى النفخة الأولى ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ يعني كما أضللتني عن الهدى لأجل آدم.

وقال القتبي: بإغوائك إياي أي: لأضلنهم عن الهدى ﴿ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

المخلصين ﴾ قرأ ابن كثير: وأبو عمرو، وابن عامر ﴿ المخلصين ﴾ بكسر اللام أي: المخلصين في العبادة.

ويقال: الموحدين.

وقرأ الكسائي، ونافع، وحمزة، وعاصم، ﴿ المخلصين ﴾ بنصب اللام أي: المعصومين من الشرك.

قال: حدّثنا الفقيه أبو جعفر.

قال: حدّثنا أبو القاسم.

قال: حدّثنا محمد بن سلمة.

قال: حدّثنا أحمد بن عبد الله.

قال: حدّثنا أبو بكر بن عياش، عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَمَّا لُعِنَ إِبْلِيسُ، قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لا أُفَارِقُ قَلْبَ ابنِ آدَمَ حَتَّى يَمُوتُ".

(64/426)

---

قال: قيل له: وعزتي لا أحجب عنه التوبة، حتى يغرغر بالموت ﴿ قَالَ هَذَا صراط عَلَيَّ ﴾ أي: هذا التوحيد صراط ﴿ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ على دلالته، وهذا قول الحسن.

ويقال : معناه على ممر من أطاعك ، ومن عصاك .

كقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [ الفجر : 14 ] ويقال : معناه هذا بيدي ، لا بيدك .

وقال الضحاك : هذا سبيل الله عليّ مستقيم ، أي : عليّ هدايته ودلالته كقوله ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ النحل : 9 ] وروي عن ابن سيرين : أنه كان يقرأ ﴿ هَذَا صراط عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ بكسر اللام ، ورفع الياء مع التنوين ، ومعناه هذا صراط رفيع مستقيم ، وهو قول قتادة أي طريق شريف ، لا عوج فيه .

﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ أي : عبادي الذين لا يطيعونك ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ أي حجة ولا ملك ، ولا أسلطك عليهم .

كقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ على الذين ءَامَنُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [ النحل : 99 ] .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ أي : من أطاعك من الكافرين .

ويقال : معناه إنما نفاذ دعوتك ، ووسوستك لمن اتبعك من المشركين .

ثم بيّن مصير من اتبعه ومصير من لم يتبعه فقال : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : لمصير من اتبعه ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أي : سبعة منازل ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أي : لكل منزل صنف ممن يعذب من الكفار ، على قدر منزلته من الذنب .

نصيب معروف أسفلها هاوية وهي لآل فرعون ، ولأصحاب المائدة الذين كفروا بعيسى .

وللمنافقين ، والزنادقة .

والثانية لظى وهي منزلة المجوس، والثنوية الذين قالوا بإلهين.

والثالثة سقر وهي منزلة المشركين، وعبدة الأوثان.

والرابعة الجحيم، وهي منزلة اليهود الذين كذبوا الرسل، وقتلوا أنبياء الله بغير حق.

(65/426)

---

والخامسة الحطمة وهي منزلة النصارى الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وقالوا قولاً عظيماً.

والسادسة السعير وهي منزلة الصابئين، ومن أعرض عن دين الإسلام، وخرج منه.

والسابعة جهنم وهي أعلى المنازل، وعليها ممر الخلق كلهم، وهي منزل أهل الكبائر من المسلمين وقال ابن عباس، في رواية أبي صالح، الباب الأول، جهنم، والثاني السعير، والثالث سقر، والرابع الجحيم، والخامس لظى، والسادس الحطمة، والسابع الهاوية.

وقال بعضهم: جهنم اسم عام يقع على الأدراك كلها، والأول أصح إن جهنم اسم لا يقع على الإدراك، وهكذا روي عن جماعة من الصحابة.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ أي: الذين يتقون الشرك، والفواحش، ويتقون إجابة الشيطان في بساتين، وعيون طاهرة، ﴿ ادخلوها ﴾ أي: الجنة ﴿ بِسَلامٍ

﴿ يعني : مسلمين ، آمنين ، ويقال : سالمين ، ناجين من العذاب .

﴿ ءامِنِينَ ﴾ أي : من الموت والخوف ، وإبليس ، والعزل ، والحوادث ، والآفات والعاقبة ، والقطيعة ، والفراق ، قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ أي : من حسد ، وعداوة كانت بينهم في الدنيا ، ويكونون في الآخرة ﴿ إِخْوَانًا ﴾ صار نصباً على الحال ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ أي : متزاورين متحدثين .

وروى سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، أن علياً قال : أرجو أن أكون أنا وطلحة ، والزبير ، من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ وروى ربعي بن خراش قال : قال رجل من همدان : فقال : يا أمير المؤمنين : الله أعدل من ذلك .

فصاح به عليٌ فقال : إذا لم نكن نحن فمن هم .

ثم قال : ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ يقول : لا يصيبهم في الجنة تعب ، ولا مشقة ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أي : من الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 250 . 257 ﴾

وقال الثعلبي

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾

يعني وآيات قرآن . ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ﴾ .

قرأ عاصم وأهل المدينة : بتخفيف الباء .

وقرأ الباقون : بتشديده ، وهما لغتان .

قال أبو حاتم وأهل الحجاز : يخففون ربما .

وقيس وبكر وتميم : يثقّلونها وإنما أُدخل ما على رُب ليتكلم بالفعل بعدها .

﴿ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

روى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة . قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم شيئاً ؟ وقد صرتم معنا في النار . قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فغضب الله لهم بفضل رحمته فأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار يخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : ما يزال الله يدخل الجنة ويرحم ويشفع حتى يقول لمن كان من المسلمين : ادخلوا الجنة فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ يا محمد يعني الذين كفروا ﴿ يَأْكُلُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ من لذاتها ﴿ وَيُلْهِهِمُ ﴾ ويشغلهم ﴿ الأمل ﴾ عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ بما وردوا القيامة ونالوا وبال ما صنعوا فنسختها آية القتال ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ أي من أهل قرية ﴿ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أجل مؤقت قد كتبناها لهم لا يعذبهم ولا يهلكهم حتى يلقوه ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ من ملة ﴿ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ ونظيرها ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ] ﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ يا أيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ يعني القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْمَا ﴾ هلاّ ﴿ تَأْتِينَا بالملائكة ﴾ شاهدين لك على صدق ما تقول ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ .

قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام .

ومنه قول ابن مقبل :

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما . . . ببعض ما فيكما إذ عبتما عودي

يريد لولا الحياء

﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ .

قرأ أهل الكوفة : ننزل الملائكة بضم النون ورفع اللام ، الملائكة نصباً ، واختاره أبو عبيد .

وقرأ الباقون : بفتح التاء ورفع اللام في الملائكة رفعها ، واختاره أبو عبيد اعتبارا ًبقوله ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح ﴾ [ القدر : 4 ] .

(68/426)

---

﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ بالعذاب ولو نزلت ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من الباطل ومن الشياطين وغيرهم أن يزيدوا فيه وينقصوا منه ويبدلوا حرفاً ، نظيره قوله : ﴿ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [ فصلت : 42 ] الآية .

وقيل بأن الهاء في قوله له راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم يعني وإنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء نظيره

﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين ﴾ في الآية إضمار ، مجازها ولقد أرسلنا من قبلك في شيع أُمم من الأولين .

قاله ابن عباس وقتادة ، وقال الحسن : فرق الأولين وواحدتها شيعة وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ كما فعلوا بك يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ يعني كما أسلكنا الكفر والتكذيب والإستهزاء بالرسل في قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه أي نجعله وندخله في قلوب مشركي قومك ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني حتى لا يؤمنوا بمحمد ، وفي هذه الآية ردّ على المعتزلة ، فقال سلكه يسلكه سلكاً وسلوكاً وأسلكه إسلاكاً .

قال عدي بن زيد :

وكنت لزاز خصمك لم أعرّد . . . وقد سلكوك في قوم عصيب

﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ وقائع الله لا من خلا من هكذا في الأُمم نخوف أهل مكة .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ يعني ولو فتحنا على هؤلاء القائلين لوما تأتينا بالملائكة ﴿ بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ فظلت الملائكة تعرج فيه وهم يرونهم عياناً ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، هذا قول ابن عباس وأكثر العلماء .

قال الحسن : هذا العروج راجع إلى بني آدم يعني فظل هؤلاء الكافرون يه يعرجون أي يصعدون ومنه المعراج ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ ﴾ سدّت ﴿ أَبْصَارُنَا ﴾ قاله ابن عباس ، وقال الحسن : سحرت .

قتادة : أخذت .

الكلبي : أغشيت وعميت .

وكان أبو عمرو وأبو عبيدة يقولان : هو من سكر الشراب ومعناه قد عش أبصارنا السكر ،

المؤرخ : دير بنا .

وقرأ مجاهد وابن كثير : سكرت بالتخفيف أي حبست ومنعت بالنظر كما سكر النهر ليحبس الماء ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ سحرنا محمد .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السماء بُرُوجاً ﴾ أي قصوراً ومنازل وهي كواكب وبروج الشمس والقمر والكواكب السيارة وأسماؤها الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت .

﴿ وزَيَّنَّاهَا ﴾ يعني السماء ﴿ لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ لكن من استرق السمع ، ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ نار ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بيّن .

قال ابن عباس : تصعد الشياطين أفواجاً يسترق السمع فينفرد المارد منها فيعلو فيرمي بالشهاب فيصيب جبهته أو جبينه أو حيث شاء الله منه فيلتهب فيأتي أصحابه وهو

ملتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا فيذهب أُولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليه تسعاً فيحدثون بها أهل الأرض الكلمة حق والتسع باطل فإذا رأوا شيئاً مما قالوا قد كان صدقوهم بما جاؤوا به من كذبهم .

وقال ابن عباس أيضاً : كانت الشياطين لا يحجبون عن السماوات فكانوا يدخلونها فيأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة بأن ولد عيسى ، ومنعوا عن ثلاث سماوات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم نعوا من السماوات أجمع فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلاّ رمي بشهاب ، فلما منعوا بتلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال لقد حدث في الأرض حدث .



---

قال : فبعثهم فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا : هذا والله حديث وإنهم ليرمون فإذا نوّر النجم عنكم فقد أدركه لا يخطئ أبداً ولكن لا يقتله بحرق وجهة جنبه ويده ، وبعضهم من يخبّله فيصير حولاً ، يضل الناس في البوادي .

قال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق : إن أول من فزع للرمي بالنجوم حين رما بها هذا الحي من ثقيف ، وإنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أُمية أحد بني علاج

وكان أدهى العرب وأمكرها رأياً فقالوا له : ألم تر ما حدث في السماء في القذف بهذه النجوم ؟ قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يهتدي بها في البر والبحر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء ؟ لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طيّ الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها ، وإن كانت نجوم غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا الأمر أراد الله به هذا في الخلق .

وروى عمارة بن زيد عن عبد الله بن العلا عن أبي الشعشاع عن أبيه عن أبي لهب بن مالك قال : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت عنده الكهانة فقلت : بأبي أنت وأمي نحن أول من تطوع لحراسة السماء وزجر الشياطين ومنع الجن من استراق السمع عند قذفها بالنجوم ، وإنا لما رأينا ذلك اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك وكان شيخاً كبيراً قد أتت عليه ثلاثمائة وستون سنة هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمى بها فأنا قد فزعنا وخفنا سوء عاقبتها ، فقال لنا : اعدوا عليّ في السحر ، ائتوني بسحر أُخبركم الخبر إما بخير أو ضرر ، قال : فانصرفوا عنه يومنا فلما كان في وقت السحر أتينا فإذا هو قائم على قدميه شاخص بعينيه إلى السماء فناديناه يا خطر فأومأ إلينا أن امسكوا فأمسكنا فانقض من السماء نجم عظيم وصرخ الكاهن بأعلى صوته : أصابه أصابه خامره عاقبه عاجله عذابه أحرقه شهابه ، زايله جوابه ، يا ويله ما حاله ، تغيرت أحواله .

ثم أمسك وطفق يقول يا معشر بني قحطان :

أُخبركم بالحق والبيان . . . أقمت بالكعبة والأركان

والبلد المؤتمن السدان . . . قد منع السمع عتاة الجان

بثاقب بكف ذى سلطان . . . من اجل مبعوث عظيم الشان

يبعث بالتنزيل والفرقان . . . وبالهدى وفاضل القرآن

تبطل به عبادة الأوثان

قال : فقلت : ويحلك يا خطر إنك لتذكر أمراً عظيماً فماذا ترى لقومك ؟

فقال :

أرى لقومي ما أرى لنفسي . . . أن يتبعوا خير بني الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس . . . يبعث في مكة دار الحمس

بمحكم التنزيل غير اللبس

قال : فقلنا له : من هو وما اسمه وما مدته ؟ قال : الحياة والعيش إنه لمن قريش ما في حكمه من طيش ولا في خلقه هيش ، تكون في جيش وأي جيش من آل قحطان وآل أيش ،

والأيش الأخلاط من كل قوم ، فقلنا له من أي البطون هو فقال : بطن إسماعيل ولد إبراهيم ، فقلنا له بيّن لنا من أي قريش هو؟ قال :

والبيت ذي الدعائم . . . والسدير والحمائم

إنه لمن نسل هاشم . . . من معشر أكارم يبعث بالملاحم

وقتل كل ظالم . . . ثم قال : الله أكبر الله أكبر جاء الحق وأظهره وانقطع عن الإنس الخبر هذا هو البيان أخبرني به رأس الجان ، ثم قال هذا وسكت وأُغمي عليه فما أفاق إلاّ بعد ثلاثة أيام فلما أفاق قال : لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ثم مات .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سبحان الله سبحان الله لقد نطق عن مثل نبوة وإنه ليحشر يوم القيامة أُمة وحده " .

﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها على رحبة الماء ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا ﴾ أي في الأرض ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ مقدر معلوم وقيل : بغى به في الجبال وهو جواهر من الفضة والذهب والحديد والنحاس وغيرها حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزناً .

قال ابن زيد هي الأشياء : التي توزن .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ جمع معيشة ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ ﴾ يعني ولمن لستم ﴿ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ هي الدواب والأنعام.

عن شعبة قال: قرأ علينا منصور: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ قال الوحش.

قال أبو حسن: "من" في محل الخفض عطفاً على الكاف والميم في قوله ﴿ لَكُمْ ﴾.

وقد يفعل العرب هذا كقول الشاعر:

هلا سألت بذي الجماجم عنهم ... وأبي نعيم ذي اللوا المخرق

فعطف بالظاهر على المكنى و(من) في هذه الآية بمعنى: ما، كقوله ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ [النور: 45] ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ وما من شيء من أرزاق الخلق ﴿ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ من السماء ﴿ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ لكل أرض حد مقدر.

قال ابن مسعود: وما من أرض أمطر من أرض، وما عام أمطر من عام ولكن الله يقسمه ويقدره في الأرض كيف يشاء عاماً هاهنا وعاماً هاهنا ثم قرأ هذه الآية.

وروى إسماعيل بن سالم عن الحكم بن عيينة في هذه الآية: ما من عام بأكثر مطراً من عام ولكن يُمطر قوم ويُحرم آخرون وربما كان في البحار والقفار قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كل قطرة حيث يقع وما ينبت.

جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : "في العرش مثال كل شيء خلقه الله في البر والبحر . وهو تأويل قوله تعالى : وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه" .

(73/426)

---

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ قرأ العامّة بالجمع لأنها موصوفة وهو قوله : ﴿ لَوَاقِحَ ﴾ ، وقرأ بعض أهل الكوفة : الريح على الواحد وهو في معنى الجمع أيضاً وإن كان لفظها لفظ الواحد ، لأنه يقال : جاءت الريح من كل جانب ، وهو مثل قوله : أرض سباسب وثوب أخلاق ، وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتّسع ، وقول العلماء في وجه وصف الرياح : باللقح ، وإنما هي ملقّحة لانها تلقح السحاب والشجر .

فقال قوم : معناها حوامل ؛ لأنها تحمل الماء والخير والنفع لاقحة كما يقال : ناقة لاقحة إذا حملت الولد ، ويشهد على هذا قوله : ﴿ الريح العقيم ﴾ [ الذاريات : 41 ] فجعلها عقيماً إذا لم تلقح ولم يكن فيها ماء ولا خير ، فمن هذا التأويل قول ابن مسعود في هذه الآية قال : يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمري السحاب فتدرّ كما تدرّ اللقحة ثم يمطر .

قال الطرماح :

لأفنان الرياح للاقح قال منها وحائل . . . وقال الفراء : أراد ذات لقح . كقول العرب :

رجل نابل ورامح وتامر .

قال أبو عبيدة : أراد ملاقح جمع ملقحة كما في الحديث "أعوذ بالله من كل لامّة" أي ملمّة .

قال النابغة :

كليني لهمَ يا أميمة ناصب . . . وليل أُقاسيه بطيء الكواكب

أي منصب .

قال زيد بن عمر : يبعث الله المبشرة فتقمّ الأرض قمّا ، ثمّ يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ، ثمّ يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثمّ يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ، ثمّ تلا : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ .

وقال أبو بكر بن عياش : لا يقطر قطرة من السحاب إلاّ بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه : فالصبا تهيّجه ، والدبور تلقحه ، والجنوب تدرّه ، والشمال تفرقه .

ويروي أبو المهزم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الريح الجنوب من الجنة وهي الرياح اللواقح التي ذكر الله في كتابه وفيها منافع للناس " .

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي جعلنا المطر لكم سقياً ، ولو أراد أنزلناه ليشربه لقال : فسقيناكموه ، وذلك أن العرب تقول : سقيت الرجل ماءً ولبناً وغيرهما ليشربه ، إذا كان لسقيه ، فإذا جعلوا له ماءً لشرب أرضه أو ماشيته قالوا : أسقيته وأسقيت أرضه وماشيته ، وكذلك إذا استسقت له ، قالوا : أسقيته واستسقيته ، كما قال ذو الرمة :

وقفت على رسم لميّة ناقتي . . . فما زلت أبكي عنده وأخاطبه

وأسقيه حتّى كاد مما أبثّه . . . تكلمني أحجاره وملاعبه

قال المؤرخ : ما تنال الأيدي والدلاء فهو السقي وما لا تنال الأيدي والدلاء فهو الإسقاء .

﴿ وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ يعني المطر . قال سفيان : بما نعين .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى من سوانا ، نظيره قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [ مريم : 40 ] .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ .

ابن عبّاس : أراد بالمستقدمين : الأموات ، والمستأخرين : الأحياء .

عكرمة : المستقدمين : من خلق ، والمستأخرين : من لم يخلق ، قد علم من خلق إلى اليوم وقد علم من هو خالقه بعد اليوم .

قتادة : المستقدمون : من مضى ، والمستأخرون : من بقي في أصلاب الرجال .

الشعبي : من إستقدم في أول الخلق ، ومن إستأخر في آخر الخلق .

مجاهد : المستقدمون : القرون الأُولى ، والمستأخرون : أُمة محمّد ( صلى الله عليه وسلم ) .

الحسن : المستقدمون بالطاعة والخير ، والمستأخرون المبطئون عن الطاعة والخير .

وقيل : ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة ، والمستأخرين فيها بسبب النساء .

(75/426)

---

وروى أبو الجوزاء وابن أبي طلحة عن ابن عبّاس قال : كانت النساء يخرجن إلى الجماعات فيقوم الرجال صفوفاً [ خلف ] النبي صلى الله عليه وسلم والنساء صفوفاً خلف صفوف الرجال ، وربما كان في الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى الصف الأخير من صفوف الرجال ، وربما كان في النساء من في قلبها ريبة فتتقدّم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال ، وكانت إمرأة من أحسن الناس لا والله ما رأيت مثلها قط ، تصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم وكان بعض الناس ويتقدّم في الصف الأوّل لئلا يراها ، ويستأخر بعضهم حتّى يكون في الصف المؤخر ، فإذا ركع وسجد نظر إليها من تحت يديه ، فأنزل الله

تعالى هذه الآية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " خير صفوف الرجال أوّلها وشرّها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أولها " .

وقال الربيع بن أنس : حضّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصف الأوّل في الصلاة فأزدحم الناس عليه ، وكانت بنو عذرة دورهم قاصية عن المسجد . فقالوا : نبيع دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وفيهم نزلت : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ [ يس : 12 ] .

الأوزاعي : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ ﴾ يعني المصلين في أوّل الأوقات ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ يعني المؤخرين صلاتهم إلى آخر الأوقات .

مقاتل بن حيان : يعني المستقدمين والمستأخرين في صف القتال . ابن عيينة : يعني من يسلم ومن لا يسلم .

(76/426)

---

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ . قال ابن عبّاس : وكلهم ميت ثمّ يحشرهم ربهم جميعاً الأوّل والآخر ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ يعني آدم ( عليه السلام ) ، قال إنساناً لانه عهد إليه فنسي . وذهب إلى هذا قوم من أهل اللغة وقالوا : وزنه انسيان

على وزن إفعلان فأسقط الياء منه لكثرة جريانه على الألسن ، فإذا صُغّر ردت الياء إليه فيقول أنيسان على الأصل لأنه لايكثر صغراً كما لا يكبر مكبراً .

وقال آخرون : إنما سمّي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه وإليه ذهب نحاة البصرة وقالوا : هو على وزن فعلان فزيدت الياء في التصغير كما زيدت في تصغير رجل فقالوا : رويجل وليلة فقالوا : لويلة .

﴿ مِن صَلْصَالٍ ﴾ وهو الطين اليابس إذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتاً من يبسه ، قيل : أن تمسه النار فإذا أصابته النار فهو فخار ، هذا قول أكثر المفسرين .

وروى أبو صالح عن ابن عبّاس : هو الطين الحرّ الطيب الذي إذا نضب عنه الماء تشقق وإذا حرّك تقعقع .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : هو الطين المنتن ، واختاره الكسائي وقال هو من قول العرب : صل اللحم وأصلّ إذا أنتن .

﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ جمع حماة ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ .

قال ابن عبّاس : هو التراب المبتل المنتن ، يجعل صلصالاً كالفخار ومثله ، قال مجاهد وقتادة : المنتن المتغير .

قال الفرّاء : هو المتغير وأصله من قول العرب : سننت الحجر على الحجر أي أحككته وما يخرج من بين الحجرين يقال له السنن السنانة ومنه المسن .

أبو عبيدة : هو المصبوب ، وهو من قول العرب : سننت الماء على الوجه وغيره إذا صببته .

[ سيبويه ] : المسنون : المصور ، مأخوذ من سنة الوجه وهي صورته .

قال ذو الرمة :

[ تريك ] سنة وجه غير مقرفة . . . ملساء ليس بها خال ولا ندب .

﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْل ﴾ .

قال ابن عبّاس : هو أب الجن .

قتادة ومقاتل : هو أبليس ، خُلق قبل آدم .

﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ .

(77/426)

---

قال ابن عبّاس : السموم : الحارة التي تقتل .

الكلبي عن أبي صالح عنه : هي نار لا دخان لها والصواعق تكون منها ، وهي نار بين السماء وبين الحجاب ، فإذا أحدث الله له أمراً خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت ، فالهدّة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب .

أبو روق عن الضحاك عن ابن عبّاس قال : كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة قال : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

روى سعيد عن أبي إسحاق قال : دخلت على عمرو بن الأصم أعوده فقال : ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله [ قال : بلى ، قال : ] سمعت عبد الله يقول : هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان وتلا : ﴿ والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ ﴾ سأخلق ﴿ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ عدلت صورته وأتممت خلقه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ فصار بشراً حياً ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ سجود تحية وتكرمة لا سجود صلاة وعبادة ﴿ فَسَجَدَ الملائكة ﴾ المأمورون بالسجود ﴿ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ على التأكيد ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ .

روى عكرمة عن ابن عبّاس قال : لما خلق الله الملائكة قال : إني خالق بشراً من طين فإذا أنا خلقته فأسجدوا له ، قالوا : لانفعل . فأرسل عليهم ناراً فأحرقهم . ثمّ خلق ملائكة فقال : إني خالق بشراً من طين فإذا أنا خلقته فأسجدوا له ، فأبوا ، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقهم . ثمّ خلق ملائكة فقال : إني خالق بشراً من طين فإذا أنا خلقته فأسجدوا له ،

قالوا : سمعنا وأطعنا إلاّ إبليس كان من الكافرين .

﴿ قَالَ ياإبليس مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ محل ( أن ) النصب بفقد الخافض .

(78/426)

---

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ أي من الجنة ومن السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ملعون طويلاً ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ أي بأغوائك أياي وهو الإضلال والإبعاد ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض ﴾ معاصيك ولأُحببنّها اليهم ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ لأضلنهم ﴿ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ .

قرأ أهل الكوفة والمدينة والشام : بفتح اللام . وإختاره أبو عبيد ، يعني إلاّ من أخلصته بتوفيقك فهديته واصطفيته .

وقرأ أهل مكة والبصرة : بكسر اللام ، وإختاره أبو حاتم ، يعني من أخلص لك بالتوحيد والطاعة . وأراد بالمخلصين في القرائتين جميعاً : المؤمنين .

﴿ قَالَ ﴾ الله لإبليس ﴿ هَذَا صِرَاطٌ ﴾ طريق ﴿ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

قال الحسن : هذا صراط إليَّ مستقيم .

وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء .

وقال الأخفش : يعني على الدلالة صراط مستقيم .

وقال الكسائي : هذا على الوعيد فإنه تهديد كقولك للرجل خاصمتهُ وتهدده : طريقك عليَّ ، كما قال الله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبالمرصاد ﴾ [ الفجر : 14 ] فكان معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلاًّ بأعمالهم .

وقال ابن سيرين وقتادة وقيس بن عبادة وحميد ويعقوب : هذا صراط عليٍّ برفع الياء على نعت الصراط أي رفيع ، كقوله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [ مريم : 57 ] .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قوة .

قال أهل المعاني : يعني على قلوبهم .



وسُئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية ، فقال : معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عبدي ، وهؤلاء يثبت الله الذين رأى فيهم إحسانهم .

﴿ إِلَّا مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾

أطباق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني من أتباع إبليس ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ حظ معلوم .

وقال عليّ بن أبي طالب ( رضي الله عنه ) : تدرون كيف أبواب النار ؟ قلنا : نعم كنحو هذه الباب .

فقال : لا ولكنها هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى وإن الله تعالى وضع الجنان على الأرض ، ووضع النيران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم وفوقها لظى وفوقهما الحطمة وفوقها سقر وفوقها الجحيم وفوقها السعير وفوقها الهاوية .

وأبو سنان عن الضحاك في قول الله : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ قال : للنار سبعة أبواب هي سبعة أدراك بعضها على بعض .

فأولها : أهل التوحيد يعذّبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا ثمّ يخرجون .

والثاني : فيه اليهود .

والثالثة : فيه النصارى .

والرابع : فيه الصابئون .

والخامسة : فيه المجوس .

والسادس : فيه مشركوا العرب .

والسابع : فيه المنافقون .

فذلك قوله : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [ النساء : 145 ] الآية .

أبو رباح عن أنس بن مالك عن بلال قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في مسجد المدينة وحده ، فمرّت به أعرابية فاشتهت أن تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ، فدخلت وصلت ولم يعلم بها رسول الله ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى بلغ هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ فخرّت الأعرابية مغشية عليها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبتها فانصرف وقال : "يا بلال عليّ بماء " فجاء فصب على وجهها حتّى أفاقت وجلست ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا هذه ما حالك ؟" فقالت : رأيتك تصلي وحدك فاشتهيت أن أُصلي خلفك ركعتين ، فهذا شيء من كتاب الله أو تقول من تلقاء نفسك ؟

قال بلال : فما أحسبه إلاّ قال : "يا أعرابية بل هو في كتاب الله المنزل " .

فقالت : كل عضو من أعضائي يعذب على باب منها .

فقال : "يا أعرابية لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب على كل باب على قدر أعمالهم " .

فقالت : والله إني لامرأة مسكينة مالي مالٌ ومالي إلاّ سبعة أعبد أشهدك يا رسول الله أن

كل عبد منهم على كل باب من أبواب جهنم حرٌ لوجه الله . فأتاه جبرئيل فقال : يا رسول الله بشّر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها ، وفتح لها أبواب الجنة كلها " .

﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادخلوها ﴾ قرأه العامة بوصل الألف وضم الخاء على الأمر ، مجازه : يقال لهم ادخوها .

وقرأ الحسن : أدخلوها بضم الهمزة وكسر الخاء على الفعل المجهول ، وحينئذ لا يحتاج إلى الضمير .

(81/426)

---

﴿ بِسَلاَمٍ ﴾ بسلامة ﴿ آمِنِينَ ﴾ من الموت والعذاب والآفات ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً ﴾ نصب على الحال ، وإن شئت قلت : جعلناهم إخوانا ﴿ على سُرُرٍ ﴾ جمع سرير مثل جديد جدد ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ يقابل بعضهم بعضاً لا ينظر أحد منهم في قفا صاحبه ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ ﴾ لا يصيبهم ﴿ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 330 . 343 ﴾

(82/426)

وقال الزمخشرى :

سورة الحجر

(مكية [إلا آية 87 فمدنية] وهي تسع وتسعون آية [نزلت بعد سورة يوسف ]) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجر (15) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1)

تِلْكَ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات . والكتاب ، والقرآن المبين : السورة . وتنكير القرآن للتفخيم . والمعنى : تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأى قرآن مبين ، كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان .

[سورة الحجر (15) : الآيات 2 إلى 3]

رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3)

قرئ : ربما ، وربتما . بالتشديد . وربما ، وربما : بالضم والفتح مع التخفيف . فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي ؟ قلت : لأن المترقب في إخبار اللّه

تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه ، فكأنه قيل : ربما ودّ . فإن قلت : متى تكون

ودادتهم ؟ قلت :

عند الموت ، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين . وقيل : إذا رأوا المسلمين

يخرجون من النار ، وهذا أيضاً باب من الودادة . فإن قلت : فما معنى التقليل ؟ «1»

قلت : هو وارد على

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : ما معنى تقليل ودادتهم . . . الخ» ؟ قال أحمد : لا شك

أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدى عكس مقصوده كثيراً ، ومنه قوله :

قد أترك القرآن مصفراً أنامله

وإنما يمتدح بالإكثار من ذلك ، وقد عبر بقد المفيدة للتقليل ، ومنه والله أعلم . وَقَدْ تَعْلَمُونَ

أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ والمقصود توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر علمهم برسالته

ومناصحته لهم ، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك ، فمنهم من وجهه بما ذكره

الزمخشري آنفا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك

الإيذان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى الضد ، وذلك شأن كل ما انتهى

لنهايته أن يعود إلى عكسه . وقد أفصح أبو الطيب ذلك بقوله :

ولجدت حتى كدت تنخل حائلا للمنتهى ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها ، والعمدة في ذلك على

سياق الكلام، لأنه إذا اقتضى مثلا تكثيراً، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين، واللّه أعلم.

(83/426)

---

مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل، لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون، كما يتحرّزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودّون الإسلام مرة واحدة، فبالحرى أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودّونه في كل ساعة لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف باللّه ليفعلنّ. ولو قيل: حلف باللّه لأفعلنّ، ولو كنا مسلمين، لكان حسناً سديداً. وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكوتهم تمنوا، فلذلك قلل ذَرْهُمْ يعنى اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بدنياهم «1» وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا

في العاقبة إلا خيرا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء صنيعهم.

والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندما في العاقبة. وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه. وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدّى إليه طول الأمل. وهذه هجيرى أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين. وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

[سورة الحجر (15): الآيات 4 إلى 5]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5)

وَلَها كِتابٌ جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني وعليه ثوب. كِتابٌ مَعْلُومٌ مكتوب معلوم،

---

(1). قوله «ويتمتعوا بدنياهم» في الصحاح: سميت الدنيا لدنوها، والجمع دنى، مثل الكبرى والكبر، والصغرى والصغر. (ع)

وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين ، ألا ترى إلى قوله ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها في موضع كتابها ، وأنث الأمّة أوّلا ثم ذكرها آخرا ، حملا على اللفظ والمعنى : وقال وَما يَسْتَأْخِرُونَ بحذف «عنه» لأنه معلوم.

[سورة الحجر (15) : آية 6]

وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6)

قرأ الأعمش : يا أيها الذي ألقى عليه الذكر ، «1» وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء ، كما قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون. والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع. وقد جاء في كتاب اللّه في مواضع ، منها فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ وقد يوجد كثيراً في كلام العجم ، والمعنى : إنك لتقول قول المجانين حين تدعى أنّ اللّه نزل عليك الذكر.

[سورة الحجر (15) : آية 7]

لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7)

«لو» ركبت مع «لا» و «ما» لمعنيين : معنى امتناع الشيء لوجود غيره ، ومعنى التحضيض ، وأما «هل» فلم تركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض : قال ابن مقبل :

لَوْمَا الْحيَاءُ وَلَوْمَا الدّينُ عِبْتُكُمَا بِبَعْضِ مَا فِيكُمَا إِذْ عِبْتُمَا عَوَرِى «2»

والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك ، كقوله تعالى لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أو : هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقا كما كانت تأتي الأمم المكذبة برسلها ؟ .

[سورة الحجر (15) : آية 8]

ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8)

قرئ : تنزل ، بمعنى تتنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل ، وننزل الملائكة : بالنون ونصب الملائكة إِلَّا بِالْحَقِّ إلا تنزلا ملتبساً بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى اللّه عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدّقون عن اضطرار . ومثله قوله تعالى وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وقيل : الحق

---

(1) . قوله «الذي ألقى عليه الذكر» لعله : إليه . (ع)

(2) . لابن مقبل ، ولولا ولوما : أصلهما «لو» التي تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره ، فركبت مع «لا» و«ما» النافيتين . فأفادت معهما امتناع الشيء لوجود غيره ، لأن نفى النفي إثبات ، فان لم يكن لها جواب أفادت معهما في المضارع التحضيض ، وفي غيره التنديم

أو التوبيخ ، يقول : لولا الحياء موجود ، ولو ما الدين موجود لعبتكما ببعض ما فيكما من العيوب ، لأنكما عبتماني بعوري ، أو عدد تموه عيبا .

(85/426)

---

الوحى أو العذاب . وإذاً جواب وجزاء ، لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم .

[سورة الحجر (15) : آية 9]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ رد لإنكارهم واستهزائهم «1» في قولهم يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد صلى اللّه عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصد ، حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل ، بخلاف الكتب المتقدمة ، فإنه لم يتول حفظها . وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه . فإن قلت : فحين كان قوله إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ رداً لإنكارهم واستهزائهم ، فكيف اتصل به قوله وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ؟ قلت

: قد جعل ذلك دليلا على أنه منزل من عنده آية ، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه. وقيل: الضمير في لَهُ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كقوله تعالى وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ.

[سورة الحجر (15) : الآيات 10 إلى 11]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11)

فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ في فرقهم وطوائفهم. والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة. ومعنى أرسلناه فيهم: نبأناه فيهم وجعلناه رسولا فيما بينهم وَما يَأْتِيهِمْ حكاية حال ماضية ، لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ، ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال.

[سورة الحجر (15) : الآيات 12 إلى 13]

كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13)

يقال: سلكت الخيط في الإبرة ، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته. وقرئ: نسلكه ،

---

(1) . قال محمود: «هذا رد لانكارهم واستهزائهم . . . الخ» قال أحمد: ويحتمل أن يراد حفظه مما يشينه من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى ، وذلك أيضا من الدليل

على أنه من عند اللّه، كما قال تعالى في آية أخرى وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً.

(86/426)

---

للذكر، أى: مثل ذلك السلك، ونحوه: نسلك الذكر في قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ على معنى أنه يلقيه في قلوبهم «1» مكذباً مستهزآً به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت:

كذلك أنزلها باللئام، تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية. ومحل قوله لا يُؤْمِنُونَ بِهِ النصب على الحال، أى غير مؤمن به. أو هو بيان لقوله كَذلِكَ نَسْلُكُهُ. سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ طريقتهم التي سنها اللّه في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

[سورة الحجر (15): الآيات 14 إلى 15]

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

قرئ يَعْرُجُونَ بالضم والكسر. وسُكِّرَتْ حيرت أو حبست من الإبصار، من السكر أو

السكر . وقرئ : سكرت بالتخفيف «2» أى حبست كما يحبس النهر من الجري . وقرئ :

سكرت من السكر ، أى حارت كما يحار السكران . والمعنى أنّ هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد : أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ، ورأوا من العيان ما رأوا ، لقالوا : هو شيء نتخايله لا حقيقة له ، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك . وقيل :

الضمير للملائكة ، أى : لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانا لقالوا ذلك . وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون . وقال : إنما ، ليدل على أنهم يبتون القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيرا للأبصار .

---

(1) . قال محمود : «معناه يلقيه في قلوبهم مكذبا به . . . الخ» قال أحمد : والمراد واللّه أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن اللّه تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويدائها ، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ولئلا يكون للكفار على اللّه حجة بأنهم ما فهموا وجوه الاعجاز كما فهمها من آمن ، فأعلمهم اللّه تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين ، واللّه أعلم . ولذلك عقبه اللّه تعالى بقوله وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقالُوا إِنَّما

سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ أى هؤلاء فهموا القرآن وعلموا وجوه إعجازه ، وولج ذلك في قلوبهم ووقر ، ولكنهم قوم سجيتهم العناد وشيمتهم اللدد ، حتى لو سلك بهم أوضح السبيل وأدعاها إلى الايمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يفتح لهم بابا في السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهارا . وإلى ذلك الاشارة بقوله فَظَلُّوا لأن الظلول إنما يكون نهارا ، لقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف :

إنما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد ، وما هذه إلا خيالات لا حقائق تحتها ، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع ووعى ووصول إلى القلوب ، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كله حاصل لهم وإنما بهم العناد واللدد والإصرار لا غير والله أعلم .

(2) . قوله : وقرئ سُكِّرَتْ بالتخفيف : لعل هذا من السكر بالفتح كما أن ما يأتى من السكر بالضم . (ع)

(87/426)

---

[سورة الحجر (15) : الآيات 16 إلى 20]

وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ

(17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20)

مَنِ اسْتَرَقَ في محل النصب على الاستثناء. وعن ابن عباس: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها شِهابٌ مُبِينٌ ظاهر للمبصرين مَوْزُونٍ وزن بميزان الحكمة، وقدّر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة. وقيل: ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها مَعايِشَ بياء صريحة، بخلاف الشمائل والخبائث ونحوهما، فإن تصريح الياء فيها خطأ، والصواب الهمزة، أو إخراج الياء بين بين.

وقد قرئ: معايش، بالهمزة على التشبيه وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ عطف على معايش، أو على محل لكم، كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم من لستم له برازقين، أو: وجعلنا لكم معايش ولمن لستم له برازقين. وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإنّ اللّه هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما اللّه رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون. ولا يجوز أن يكون مجرورا عطفاً على الضمير المجرور في لَكُمْ لأنه لا يعطف على الضمير

المجرور.

[سورة الحجر (15) : آية 21]

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21)

ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور.

[سورة الحجر (15) : آية 22]

وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (22)

لَواقِحَ فيه قولان، أحدهما: أنّ الريح لاقح إذا جاءت بخير، من إنشاء سحاب ماطر كما قيل التي لا تأتى بخير: ريح عقيم. والثاني: أن اللواقح بمعنى الملاقح، كما قال:

(88/426)

---

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ «1»

يريد المطاوح جمع مطيحة. وقرئ: وأرسلنا الريح، على تأويل الجنس فَأَسْقَيْناكُمُوهُ فجعلناه لكم سقيا وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

عِنْدَنا خَزائِنُهُ كأنه قال : نحن الخازنون للماء ، على معنى : نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها ، وما أنتم عليه بقادرين : دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم .

[سورة الحجر (15) : الآيات 23 إلى 25]

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

وَنَحْنُ الْوارِثُونَ أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي «وارث» استعارة من وارث الميت ، لأنه يبقى بعد فنائه . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم في دعائه «واجعله الوارث منا» «2» وَلَقَدْ عَلِمْنَا من استقدم ولادة وموتاً ، ومن تأخر من الأوّلين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم في الإسلام وسبق إلى الطاعة

---

(1) ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

لضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد بن نهشل . وقيل : غير ذلك . وليبك : مبنى للمفعول ، واللام للطلب ، ويزيد نائب الفاعل ، وضارع فاعل لفعل محذوف ، وفي الكلام سؤال مقدر ، كأنه قيل : من يبكيه ؟ فقيل يبكيه ضارع وهو الدليل ، ومختبط وهو السائل ، كأنه يختبط أبواب المسئولين . وما مصدرية ، وتطيح تهلك . وقال الجوهري : طوحته الطوايح قذفته القواذف ، ولا يقال : المطوحات ، وهو من النوادر ، والقياس المطيحات من أطاح . أو المطوحات من طوح .

وقال الأصمعى : هو جمع طائحة . يقال : ذهبت طائحة من العرب أى طائفة منها . أى : يبكيه المختبط من أجل إهلاك الطوائح ماله ، فما متعلق بمختبط . وقيل : يجوز تعلقه بالفعل المقدر ، كقوله الخصومة . ونقل العصام عن العارف الرومي : أن يزيد منادى ، وحرف النداء محذوف ، وضارع نائب الفاعل ، لأن الضارع والمختبط أحق بالبكاء عليهما بعد يزيد الذي كان يغيثهما . وروى ليبك يزيد بالبناء للفاعل ونصب يزيد ، فضارع فاعل للفعل المذكور ، ولو ضم يزيد على النداء لجاز هنا أيضا ، أى : ليبك عليك يا يزيد ضارع ومختبط .

(2) . أخرجه الترمذي والنسائي والبزار . والحاكم من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما قال «فلما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات : اللهم اقسم لنا من خشيتك - الحديث» وفيه «واجعله الوارث منا» قال الترمذي : حديث حسن وقال البزار : تفرد به عبد اللّه بن رواحة . وهو واهى الحديث ، وأخرج من رواية حبيب بن أبى ثابت عن عروة عن عائشة «أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يقول : اللهم عافني في جسدي ، وعافني في بصرى ، واجعله الوارث منى» وأخرجه أبو يعلى أيضا ، وفي الترمذي والحاكم من حديث أبى هريرة قال «كان من دعاء النبي صلى اللّه عليه وسلم : اللهم متعني بسمعي وبصرى واجعلهما الوارث منى» وفي الطبراني والأوسط عن على رضى اللّه عنه قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يدعو - فذكر مثله .

ومن تأخر. وقيل: المستقدمين في صفوف الجماعة والمستأخرين. وروى أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها، وبعض يستأخر ليبصرها فنزلت «1» هُوَ يَحْشُرُهُمْ أى هو وحده القادر على حشرهم، والعالم بحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ باهر الحكمة واسع العلم، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب، وقد أحاط علماً بكل شيء.

[سورة الحجر (15) : الآيات 26 إلى 27]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (27)

الصلصال: الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ، وإذا طبخ فهو فخار. قالوا: إذا توهمت في صوته مدّا فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة. وقيل: هو تضعيف «صل» إذا أنتن. والحمأ: الطين الأسود المتغير. والمسنون: المصوّر، من سنة الوجه «2»، وقيل: المصبوب المفرغ، أى: أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر

المذوبة في أمثلتها. وقيل: المنتن، من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، فالذي يسيل بينهما سنين، ولا يكون إلا منتنا مِنْ حَمَإٍ صفة لصلصال، أى: خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق مَسْنُونٍ بمعنى مصور، أن يكون صفة لصلصال، كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صلصل، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر وَالْجَانَّ للجن كآدم للناس. وقيل: هو إبليس. وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: والجأن، بالهمز مِنْ نارِ السَّمُومِ من نار الحرّ الشديد النافذ في المسام. قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التي خلق اللّه منها الجانّ.

[سورة الحجر (15): الآيات 28 إلى 44]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32)

قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (35) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37)

إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

(39) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42)
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

---

(1) . أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وأبو يعلى وأحمد والبزار والطبري وابن أبى حاتم من رواية أبى الجوزاء أوس بن عبد اللّه عن ابن عباس. قال «كانت امرأة حسناء من أحسن الناس تصلى خلف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لأن لا يراها أو يستأخر بعضهم حتى يكون في الصف الآخر. فإذا ركع نظر من تحت إبطه. فأنزل اللّه هذه الآية. قال البزار: لا نعلم رواه ابن عباس ولا له طريق إلا هذه. وقال الترمذي: روى عن أبى الجوزاء مرسلا، وهو أشبه اه.

(2) . قوله «من سنة الوجه» في الصحاح: سنة الوجه صورته. (ع)



---

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ واذكر وقتقوله سَوَّيْتُهُ عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها.

ومعنى وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل

لتحصيل ما يحيا به فيه . واستثنى إبليس من الملائكة ، لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود ، فغلب اسم الملائكة ، ثم استثنى بعد التغليب كقولك : رأيتهم إلا هنداً . وأبى استئناف على تقدير قول قائل يقول : هلا سجد ؟ فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه . وقيل : معناه ولكن إبليس أبى . حرف الجرمع «أن» محذوف . وتقديره «مالك» في أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ بمعنى أيّ غرض لك في إبائك السجود . وأى داع لك إليه . اللام في لِأَسْجُدَ لتأكيد النفي .

ومعناه : لا يصحّ مني وينافي حالى . ويستحيل أن أسجد لبشر رَجِيمٌ شيطان من الذين يرجمون بالشهب ، أو مطرود من رحمة اللّه ، لأن من يطرد يرجم بالحجارة . ومعناه : ملعون ، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها . والضمير في مِنْها راجع إلى الجنة أو السماء ، أو إلى جملة الملائكة . وضرب يوم الدين حداً للعنة ، إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم ، كقوله ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ في التأبيد . وإما أن يراد أنك مذموم مدعوّ عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين ، من غير أن تعذب ، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت

بما ينسى اللعن معه . وَيَوْمِ الدِّينِ ويَوْمِ يُبْعَثُونَ ويَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ في معنى واحد ، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة . وقيل : إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت ، لأنه لا يموت يوم البعث أحد ، فلم يجب إلى ذلك ، وأُنظر إلى آخر أيام التكليف بِما أَغْوَيْتَنِي الباء للقسم . و«ما» مصدرية وجواب القسم لَأُزَيِّنَنَّ المعنى : أقسم بإغوائك إياى لأزينن لهم . ومعنى إغوائه إياه : تسبيبه لغيه ، بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام ، فأفضى ذلك إلى غيه . وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك ، والله تعالى بريء من غيه «1» ومن إرادته والرضا به ، ونحو قوله بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ : قوله فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ في أنه إقسام ، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله ، وقد فرق الفقهاء بينهما . ويجوز أن لا يكون قسما ، ويقدر قسم محذوف ، ويكون المعنى : بسبب تسبيبك لإغوائى أقسم لأفعلنّ بهم نحو ما فعلت بى من التسبيب لإغوائهم ، بأن أزين لهم المعاصي وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم فِي الْأَرْضِ في الدنيا التي هي دار الغرور ، كقوله تعالى أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ أو أراد أنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء ، فأنا علىّ التزيين لأولاده في الأرض أقدر . أو أراد : لأجعلنّ مكان التزيين عندهم الأرض ، ولأوقعن تزييني فيها ، أى : لأزيننها في أعينهم ولأحدّثنهم بأنّ الزينة في الدنيا وحدها ، حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها

دونها . ونحوه :

يَجْرَحْ فِى عَرَاقِيبِهَا نَصْلِى «2»

---

(1) . قوله «واللّه تعالى بريء من غيه» هذا على مذهب المعتزلة : أن اللّه لا يريد الشر ولا يخلقه . ومذهب أهل السنة : أن كل كائن فهو يخلقه تعالى وإرادته ، خيراً كان أو شرا ، وإن كان لا يرضى الشر من العبد ، وتفصيله في التوحيد . (ع) [ . . . . . ]

(2) وما لام من يوم أخ وهو صادق إخالى ولا اعتلت على ضيفها إبلى

إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه فصالى ولو كانت عجافا ولا أهلى

وإن تعتذر بالمحل عن ذى ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلى

لذي الرمة يمدح نفسه ، والإخاء مصدر آخاه ، كالوفاق مصدر وافقه ، والصحاب مصدر صاحبه ، وزنا ومعنى .

يقول : وما لام أخ من يوم أى في يوم . وعبر بمن لإشعارها بالاستغراق . أى : لم يلم ، والحال أنه صادق في لومه ، أو في أخوته مصاحبة لي معه ، وقصر الإخاء للوزن ، وضمن لام معنى عاب ، فعداه إليه . ويجوز أن إيقاع اللوم عليه مجاز عقلى ، لأن الإخاء كأنه محل اللوم ، ولا اعتلت أى أبدت لضيفها علة في التأخر عن قراه ، وإسناد الفعل للإبل وإضافة الضيف إليها لأنها محل قراه ، وذلك كناية عن غاية كرمه ، ويجوز أن إسناد الفعل إليها مجاز عقلى ، لأنها سبب في اعتلال صاحبها للضيف عنها إذا كان بخيلا ، وإضافة الضيف إليها

ترشيح لذلك . ويحتمل أنه شبه الإبل بالكرماء على طريق المكنية ، فذلك تخييل ، وبين عدم الاعتلال بقوله «إذا كان فيها الرسل» وهو اللبن القليل ، ويطلق على الجمل السهل ، لم تأت دونه : أى قريبا من اللبن .

فصالى : جمع فصيل ، وهو ولد الناقة . ونفى قربها كناية عن نفى ارتضاعها له ، ولو كانت عجافا : أى مهازيل ، ولا أهلى : ولا جياعا ، وإن تعتذر الإبل بالمحل والجدب ، عن ذى ضروعها : كناية عن اللبن ، لأنه ملازم للضروع يجرح نصلى : أى سيفي أو سهمي في عراقيبها ، وهي بمنزلة الركب للإنسان ، وإسناد الاعتذار إليها مجاز ، وكذلك إسناد الجرح للنصل ، لأنه آلته . ومعنى الجرح في العراقيب : أنه يجعلها مكانا معداً له ، ولو قال : يجرح عراقيبها ، لفات ذلك المعنى . وقيل : ضمنه معنى يعثو أى يفد ، وكانت عادة العرب أن يفصدوا الإبل ويجمعوا دماءها ويضعوها على النار فتصير كالكبد ، ويقرون بها الضيفان في الجدب ، فحرمه اللّه : ويجوز أنه كناية عن نحرها ، لأنهم كانوا يعقرون الجمل الصعب قبل نحره ليسهل عليهم ، وهذا هو الذي يقتضيه مقام المدح.

استثنى المخلصين ، لأنه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه . أى هذا طريق حق عَلَيَّ أن أراعيه ، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته : وقرئ علىّ ، وهو من علو الشرف والفضل لَمَوْعِدُهُمْ الضمير للغاوين . وقيل : أبواب النار أطباقها وأدراكها ، فأعلاها للموحدين ، والثاني لليهود ، والثالث للنصارى ، والرابع للصابئين ، والخامس للمجوس ، والسادس للمشركين ، والسابع للمنافقين . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : إن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبدة النار ، والحطمة لعبدة الأصنام وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين .

وقرئ : جزء ، بالتخفيف والتثقيل . وقرأ الزهري : جزّ ، بالتشديد ، كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى ، كقولك : خبّ في خبء ، ثم وقف عليه بالتشديد ، كقولهم : الرجل ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف .

[سورة الحجر (15) : الآيات 45 إلى 48]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48)

المتقى على الإطلاق : من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما :

اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها ادْخُلُوها على إرادة القول .

وقرأ الحسن : أدخلوها بِسَلامٍ سالمين أو مسلما عليكم : تسلم عليكم الملائكة . الغل : الحقد الكامن في القلب ، من انغل في جوفه وتغلغل ، أى : إن كان لأحدهم في الدنيا غلّ على آخر نزع اللّه ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم . وعن علىّ رضى اللّه عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم . وعن الحرث الأعور : كنت جالساً عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له علىّ :

(93/426)

---

مرحبا بك يا ابن أخى . أما واللّه إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال اللّه تعالى وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فقال له قائل : كلا ، اللّه أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد ، فقال : فلمن هذه الآية لا أمّلك «1» ؟ وقيل : معناه طهر اللّه قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ، ونزع منها كل غل ، وألقى فيها التوادّ والتحاب . وإِخْواناً نصب على الحال . وعَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ كذلك . وعن مجاهد . تدور بهم الأسرة حيثما داروا ، فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 569 .

(94/426)

---

وقال ابن جزى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾

يحتمل أن يريد بالكتاب الكتب المتقدمة ، وعطف القرآن عليها ، والظاهر أنه القرآن وعطفه عطف الصفات ﴿ رُبَّمَا ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان . وما حرف كافة لرب ، ومعنى رب التقليل ، وقد تكون للتكثير ، وقيل : إن هذه منه ، وقيل : إنما عبر عن التكثير بأداة التقليل كقوله : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السماء ﴾ [ البقرة : 144 ] ، و ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [ النور : 64 ] ، وقيل إن معنى التقليل في هذه أنهم لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة لوجب أن يسارعوا إليه ، فكيف وهم يودونه مراراً كثيرة ، ولا تدخل إلا على الماضي ﴿ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قيل : إن ذلك عند الموت ، وقيل : في القيامة ، وقيل : إذا خرج عصاة المسلمين من النار ، وهذا هو الأرجح لحديث روي في ذلك ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ وما بعده تهديد ﴿ كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي وقت محدود .

(95/426)

﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ الضمير في قالوا لكفار قريش ، وقولهم : نزل عليه الذكر يعنون على وجه الاستخفاف ، أي بزعمك ودعواك ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة ﴾ لو ما عرض وتحضيض ، والمعنى أنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالملائكة معه ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق ﴾ رد عليهم فيما اقترحوا ، والمعنى أن الملائكة لا تنزل إلا بالحق من الوحي والمصالح ، التي يريدها الله ، لا باقتراح مقترح واختيار كافر ، وقيل : الحق هنا العذاب ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ إذاً حرف جواب وجزاء ، والمعنى لو أنزل الملائكة لم يؤخر عذاب هؤلاء الكفار ، الذين اقترحوا نزولهم ، لأن من عادة الله أن من اقترح آية فرآها ولم يؤمن أنه يعجل له العذاب ، وقد علم الله ، أن هؤلاء القوم يؤمن كثير منهم ، ويؤمن أعقابهم فلم يفعل بهم ذلك .

(96/426)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الذكر هنا هو القرآن وفي قوله : إنا نحن نزلنا الذكر رداً لإنكارهم واستخفافهم في قولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر ولذلك أكده بنحن واحتج عليه بحفظه ، ومعنى حفظه : حراسته عن التبديل والتغيير ، كما جرى في غيره من

الكتب ، فتولى الله حفظ القرآن ، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان منه ، ولا تبديله بخلاف غيره من الكتب ، فإن حفظها موكول إلى أهلها لقوله : ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [ المائدة : 44 ] ﴿ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴾ الشيع : جمع شيعة وهي الطائفة التي تتشيع لمذهب أو رجل ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ معنى نسلكه ندخله ، والضمير في نسلكه يحتمل أن يكون للاستهزاء ، الذي دل عليه قوله : به يستهزؤن ، أو يكون للقرآن أي نسلكه في قلوبهم فيستهزئوا به ، ويكون قوله : كذلك تشبيهاً للاستهزاء المتقدم ، ولا يؤمنون به تفسيراً لوجه إدخاله في قلوبهم ، والضمير في به للقرآن .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي تقدمت طريقتهم على هذه الحالة من الكفر والاستهزاء حتى هلكوا بذلك ، ففي الكلام تهديد لقريش ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ الضمائر لكفار قريش المعاندين المحتوم عليهم بالكفر وقيل : الضمير في ظلوا وفي يعرجون للملائكة وفي قالوا للكفار ، ومعنى : يعرجون يصعدون ، والمعنى أن هؤلاء الكفار لو رأوا أعظم آية لقالوا : إنها تخييل أو سحر ، وقرئ سكّرت بالتشديد والتخفيف ويحتمل أن يكون مشتقاً من السكر ، فيكون معناه : أجبرت أبصارنا فرأينا الأمر على غير حقيقته ، أو من السِّكْر وهو السد فيكون معناه منعت أبصارنا من النظر .

﴿ بُرُوجاً ﴾ يعني المنازل الاثني عشر ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ استثناء من حفظ السموات فهو في موضع نصب ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ أي : مقدر بقدر ، فالوزن على هذا استعارة وقيل : المراد ما يوزن حقيقة كالذهب والأطعمة ، والأول أعم وأحسن .

﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ يعني : البهائم والحيوانات ومن معطوف على معايش وقيل : على الضمير في لكم ، وهذا ضعيف في النحو لأنه عطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض ، وهو قوي في المعنى أي جعلنا في الأرض معايش لكم وللحيوانات .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ قيل : يعني المطر ، واللفظ أعم من ذلك ، والخزائن المواضع الخازنة ، وظاهر هذا أن الأشياء موجودة قد خلقت ، وقيل : ذلك تمثيل ، والمعنى وإن من شيء إلا نحن قادرون على إيجاده وتكوينه ﴿ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي بمقدار محدود ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لواقح ﴾ يقال : لقحت الناقة والشجرة إذا حملت فهي لاقحة ، وألقحت الريح الشجر فهي ملحقة ولواقح جمع لاقحة ، لأنها تحمل الماء أو جمع ملقحة على حذف الميم الزائدة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين ﴾ الآية : يعني الأولين والآخرين من الناس ، وذكر ذلك على وجه الاستدلال على الحشر الذي ذكر بعد ذلك في قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لأنه أذا أحاط بهم علماً لم تصعب عليه إعادتهم وحشرهم ، وقيل : يعني من استقدم ولادة

وموتاً ومن تأخر ، وقيل : من تقدم إلى الإسلام ومن تأخر عنه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صلصال ﴾ الإنسان هنا هو : آدم عليه السلام ، والصلصال : الطين اليابس الذي يصلصل أي يصوت وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخار ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ الحمأ : الطين الأسود ، والمسنون المتغير المنتن ، وقيل : إنه من أَسِنَ إذا تغير ، والتصريف يردّ هذا القول ، وموضع من حمأ صفة لصلصال : أي صلصال كائن من حمأ .

(98/426)

---

﴿ والجآن خلقناه ﴾ يراد به جنس الشياطين ، وقيل إبليس الأول ، وهذا أرجح لقوله : من قبلُ وتناسلت الجن من إبليس وهو للجن كآدم للناس ﴿ السموم ﴾ شدّة الحر .

﴿ خالق بَشَراً ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ يعني الروح التي في الجسد ، وأضاف الله تعالى الروح إلى نفسه إضافة مُلْك إلى مالك أي : من الروح الذي هو لي وخلق من خلق ، وتقدّم الكلام على سجود الملائكة في البقرة .

﴿ فاخرج مِنْهَا ﴾ أي من الجنة أو من السماء ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ يقتضي إقراره بالربوبية وأن كفره كان بوجه غير الجحود ، وهو اعتراضه على الله في أمره بالسجود لآدم ﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ اليوم الذي طلب إبليس أن ينظر إليه هو يوم القيامة ، وقيل : الوقت المعلوم

الذي أُنْظِر إليه هو يوم النفخ في الصور النفخة الأولى ؛ حين يموت من في السموات ومن في الأرض . وكان سؤال إبليس الانتظار إلى يوم القيامة جهلاً منه ومغالطة ؛ إذ سأل ما لا سبيل إليه . لأنه لو أعطي ما سأل لم يمت أبداً ، لأنه لا يموت أحد بعد البعث ، فلما سأل ما لا سبيل إليه : أعرض الله عنه ، وأعطاه الانتظار إلى النفخة الأولى .

(99/426)

---

[ الأعراف : 16 ] الباء للسببية أي لأغوينهم بسبب إغوائك لي ، وقيل : للقسم كأنه قال : بقدرتك على إغوائي لأغوينهم ، والضمير لذرية آدم ﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ القائل لهذا هو الله تعالى ، والإشارة بهذا إلى نجاة المخلصين من إبليس ، وأنه لا يقدر عليهم أو إلى تقسيم الناس إلى غويّ ومخلص ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ ﴾ يحتم أن يريد بالعباد جميع الناس ، فيكون قوله : إلا من اتبعك استثناء متصل أي يريد بالعباد المخلصين فيكون الاستثناء منقطعاً ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ الضمير للغاوين ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أبواب ﴾ روي أنها سبعة أطباق في كل طبقة باب ، فأعلاها للمذنبين من المسلمين والثاني : لليهود ، والثالث : للنصارى ، والرابع : للصابئين والخامس : للمجوس ، والسادس : للمشركين ، والسابع : للمنافقين ادخلوها تقديره يقال لهم : ادخلوها والسلام يحتمل أن يكون التحية أو السلامة

﴿ إخوانا ﴾ يعني أخوّة المودّة والإيمان ﴿ متقابلين ﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً على الأسرة ﴿ نَصَبٌ ﴾ أي تعب. انتهى انتهى. اهـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 143. 146 ﴾

(100/426)

---

وقال النسفى :

﴿ الر تِلْكَ ءايات الكتاب وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب، والقرآن المبين السورة، وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال وللغرابة في البيان ﴿ رُّبَمَا ﴾ بالتخفيف : مدني وعاصم، وبالتشديد غيرهما، و"ما" هي الكافة لأنها حرف يجر ما بعده، ويختص الاسم النكرة فإذا كفت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم.

وإنما جاز ﴿ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ لأن المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل : ربما ود، ووداتهم تكون عند النزع أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، وإذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلماً، كذا رُوى عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ حكاية ودادتهم.

وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم كقولك : "حلف بالله ليفعلن" ولو قيل : "حلف يالله لأفعلن" و"لو كنا مسلمين" لكان حسناً وإنما قلل ب "رب" لأن أهوال القيامة تشغلهم عن التمني فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين .

وقول من قال : إن "رب" يعني بها الكثرة سهو لأنه ضد ما يعرفه أهل اللغة لأنها وضعت للتقليل

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أمر إهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم ﴿ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ بدنياهم ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم ، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين .

(101/426)

---

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ ولها كتاب جملة واقعة صفة ل ﴿ قرية ﴾ والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [ الشعراء : 208 ] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف إذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجيء بالواو تأكيداً لذلك .

والوجه أن تكون هذه الجملة حالاً ل ﴿ قرية ﴾ لكونها في حكم الموصوفة كأنه قيل : وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفاً .

وقوله : ﴿ كتاب معلوم ﴾ أي مكتوب معلوم وهو أجلها الذي كتب في اللوح المحفوظ وبين ألا ترى إلى قوله : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ في موضع كتابها ﴿ وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ﴾ أي عنه وحذف لأنه معلوم ، وأنث الأمة أولاً ثم ذكرها آخراً حملاً على اللفظ والمعنى .

﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي الكفار ﴿ يا أيها الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ أي القرآن ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ يعنون محمداً عليه السلام ، وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : 27 ] وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ آل عمران : 21 ] ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ [ هود : 87 ] والمعنى إنك لتقول قول المجانين حيث تدعى أن الله نزل عليك الذكر



---

﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملئكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ "لو" ركبت مع "لا" و"ما" لامتناع الشيء لوجود غيره أو للتحضيض ، و"هل" ركبت مع "لا" للتحضيض فحسب ، والمعنى هلا

تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ، أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكة ﴾ كوفي غير أبي بكر ، ﴿ تُنَزَّلَ الملائكة ﴾ أبو بكر ﴿ تَنَزَّلَ الملائكة ﴾ أي تتنزل : غيرهم ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحكمة ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ ﴿ إذا ﴾ جواب لهم وجزاء الشرط مقدر تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين إذاً وما أخر عذابهم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ للقرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ وهو رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ ولذلك قال : ﴿ إنا نحن ﴾ فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً فوقع التحريف ، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه وقد جعل قوله : ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ دليلاً على أنه منزل من عنده آية إذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه ، أو الضمير في ﴿ له ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله : ﴿ والله يَعْصِمُكَ ﴾ ﴿ [ المائدة : 67 ] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً في الفرق الأولين ، والشيعة : الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ حكاية حال ماضية لأن ما لا تدخل على

المضارع إلا وهو في معنى الحال وعلى ماضٍ إلا وهو قريب من الحال ﴿ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يعزي نبيه عليه السلام

(103/426)

---

﴿ كذلك نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الأولين نسلكه أي الكفر أو الاستهزاء في قلوب المجرمين من أمتك من اختار ذلك.

يقال : سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة في الأصلح وخلق الأفعال ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالله أو بالذكر وهو حال ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ﴾ مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السمآء ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء ﴿ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون ﴿ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾ حيرت أو حبست من الإبصار أو من السكر ، ﴿ سكِرت ﴾ مكي أي حبست كما يحبس النهر من الجري ، والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شيء نتخايله لا حقيقة له ولقالوا ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد بذلك ،

أو الضمير للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا ذلك .

وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون وقال : إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السمآء ﴾ خلقنا فيها ﴿ بُرُوجاً ﴾ نجوماً أو قصوراً فيها الحرس أو منازل للنجوم ﴿ وزيناها ﴾ أي السماء ﴿ للناظرين وحفظناها ﴾ أي السماء ﴿ مِن كُلِّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ ملعون أو مرمي بالنجوم ﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ أي المسموع و"من" في محل النص على الاستثناء ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ﴾ نجم ينقض فيعود ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر للمبصرين .

(104/426)

---

قيل : كانوا لا يحجبون عن السماوات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السماوات كلها

﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها من تحت الكعبة ، والجمهور على أنه تعالى مدها على وجه الماء ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ في الأرض جبالاً ثوابت ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان ، أوله وزن وقدر في أبواب المنفعة والنعمة ، أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة

والنحاس والحديد وغيرها ، وخص ما يوزن لانتهاء الكيل إلى الوزن ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا ﴾ في الأرض ﴿ معايش ﴾ ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة وهي بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فإن تصريح الياء فيها خطأ ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ ﴿ من ﴾ في محل النصب بالعطف على ﴿ معايش ﴾ أو على محل ﴿ لكم ﴾ كأنه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين ، أو جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون أنهم يرزقونهم ويخطئون فإن الله هو الرزاق يرزقهم وإياهم ، ويدخل فيه الأنعام والدواب ونحو ذلك .

ولا يجوز أن يكون محل ﴿ من ﴾ جراً بالعطف على الضمير المجرور في ﴿ لكم ﴾ لأنه لا يعطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به ، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ جمع لاقحة أي وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب في جوفها كأنها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم .

﴿ الريح ﴾ حمزة ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السماآء مَآءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ فجعلناه لكم سقياً ﴿ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ نفى عنهم ما اثبته لنفسه في قوله : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ كأنه قال : نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها ، وما أنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيي وَنُمِيتُ ﴾ أي نحيي بالإيجاد ونميت بالإفناء ، أو نميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ الواو للجمع المطلق ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلهم .

وقيل : للباقي وارث استعارة من وارث الميت لأنه يبقى بعد فنائه ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستخرين ﴾ من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد ، أو من تقدم في الإسلام أو في الطاعة أو في صف الجماعة أو في صف الحرب ومن تأخر ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ باهر الحكمة واسع العلم .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ أي آدم ﴿ مِن صلصال ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ صفة ﴿ لصلصال ﴾ أي خلقه من صلصال كائن من حمإ أي طين أسود متغير ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ مصور

وفي الأول كان ترابا فعجن بالماء فصار طينا فمكث فصار حمأ فخلص فصار سلالة فصوّر ويبس فصار صلصالاً فلا تناقض ﴿ والجآن ﴾ أبا الجن كآدم للناس أو هو إبليس وهو منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿ خلقناه مِن قَبْلُ ﴾ من قبل آدم ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام.

(106/426)

---

قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق الله منها الجان ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ واذكر وقت قوله ﴿ للملائكة إِنّى خالق بَشَرًا مّن صلصال مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ وجعلت فيه الروح وأحييته وليس ثمة نفخ وإنما هو تمثيل والإضافة للتخصيص ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ساجدين ﴾ هو أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الأرض يعني اسجدوا له، ودخل الفاء لأنه جواب "إذا" وهو دليل على أنه يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل

﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله ﴿ كلهم ﴾ وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله ﴿ أجمعون ﴾ ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ ظاهر الإستثناء يدل على أنه كان من الملائكة لأن المستثنى يكون من

جنس المستثنى منه .

وعن الحسن أن الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة .

قلنا : غير المأمور لا يصير بالترك ملعوناً .

وفي الكشاف كان بينهم مأموراً معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك "رأيتهم إلا هنداً" ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ امتنع أن يكون معهم و ﴿ أبى ﴾ استئناف على تقدير قول قائل يقول : هلا سجد ؟ فقيل : أبى ذلك واستكبر عنه .

وقيل : معناه ولكن إبليس أبى .

(107/426)

---

﴿ قَالَ يا بْلِيس مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ حرف الجر مع أن محذوف تقديره مالك في أن لا تكون مع الساجدين أي أي غرض لك في إبائك السجود ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لأن اللعنة هي الطرد من الرحمة والإبعاد منها ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ﴾ ضرب يوم الدين حداً للعنة لأنه أبعد غاية يضربها الناس في

كلامهم ، والمراد به إنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ فأخرني ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ ﴿ يوم الدين ﴾ و ﴿ يوم يبعثون ﴾ و ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ في معنى واحد ، ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة البلاغة .

وقيل : إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ الباء للقسم و"ما" مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم ومعنى أقسم بإغوائك إياي ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ المعاصي ونحو قوله ﴿ بما أغويتني لأزينن لهم ﴾ ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ [ص : 82 ] في أنه إقسام إلا أن أحدهما إقسام بصفه الذات والثاني بصفة الفعل ، وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون : الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين ، والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين .

والأصح أن الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يميناً وما لا فلا ، والآية حجة على المعتزلة في خلق الأفعال .

وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر ﴿ فِى الأَرض ﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور ، وأراد إني أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو في السماء فأنا على التزيين لأولاده في الأرض أقدر .

﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ وبكسر اللام : بصري ومكي وشامي استثنى المخلص لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه .

﴿ قَالَ هَذَا صراط عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ أي هذا طريق حق عليَّ أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته .

وقيل : معنى ﴿ على ﴾ إلي .

﴿ على ﴾ يعقوب من علو الشرف والفضل

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الضمير للغاوين ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مّنْهُمْ ﴾ من أتباع إبليس ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ نصيب معلوم مفرز .

قيل : أبواب النار أطباقها وأدراكها ، فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون ، والثاني لليهود ، والثالث للنصارى ، والرابع للصابئين ، والخامس للمجوس ، والسادس للمشركين ، والسابع للمنافقين ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ وبضم العين : مدني

وبصري وحفص .

المتقي على الإطلاق من يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه .

وقال في الشرح : إن دخل أهل الكبائر في قوله ﴿ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر وإلا فالمراد به الذين اتقوا الشرك ﴿ ادخلوها ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ حال أي سالمين أو مسلماً عليكم تسلم عليكم الملائكة ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الخروج منهما والآفات فيها وهو حال أخرى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ وهو الحقد الكامن في القلب أي إن كان لأحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم .

(109/426)

---

وعن علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم .

وقيل : معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب ﴿ إِخْوَانًا ﴾ حال ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ كذلك قيل تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضاً ﴿ لاَ

يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ في الجنة تعب ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فتمام النعمة بالخلود .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 268. 274 ﴾

(110/426)

---

وقال البيضاوى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر تِلْكَ ءايات الكتاب وَقُرْءانٍ مُّبِينٍ ﴾

الإشارة إلى آيات السورة و ﴿ الكتاب ﴾ هو السورة ، وكذا القرآن وتنكيره للتفخيم أي آيات الجامع لكونه كتاباً كاملاً وقرآناً يبين الرشد من الغي بياناً غريباً .

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر أو حلول الموت أو يوم القيامة . وقرأ نافع وعاصم ﴿ ربما ﴾ بالتخفيف ، وقرىء ﴿ ربما ﴾ بالفتح والتخفيف وفيه ثمان لغات ضم الراء وفتحها مع التشديد والتخفيف وبتاء التأنيث ودونها ، وما كافة تكفه عن الجر فيجوز دخوله على الفعل وحقه أن يدخل الماضي لكن لما كان المترقب في أخبار الله تعالى كالماضي في تحققه أجرى مجراه . وقيل : ما نكرة موصوفة كقوله :

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأَمْ . . . رِ لَهُ فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ

ومعنى التقليل فيه بالإِيذان بأنهم لو كانوا يودون الإِسلام مرة فبالحري أن يسارعوا إليه ، فكيف وهم يودونه كل ساعة . وقيل تدهشهم أهوال القيامة فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات تمنوا ذلك ، والغيبة في حكاية ودادتهم كالغيبة في قولك : حلف بالله ليفعلن .

﴿ ذَرْهُمْ ﴾ دعهم . ﴿ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ بدنياهم . ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأمل ﴾ ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه ، والغرض إقناط الرسول صلى الله عليه وسلم من ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان ، وإن نصحهم بعد اشتغال بما لا طائل تحته ، وفيه إلزام للحجة وتحذير عن ايثار التنعم وما يؤدي إليه طول الأمل .

(111/426)

---

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ ، والمستثنى جملة واقعة صفة لقرية ، والأصل أن لا تدخلها الواو كقوله : ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ ولكن لما شابهت صورتها الحال أدخلت تأكيداً للصوقها بالموصوف .

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ أي وما يستأخرون عنه ، وتذكير ضمير ﴿ أُمَّةٍ ﴾ فيه للحمل على المعنى .

﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ نادوا به النبي صلى الله عليه وسلم على التهكم ، ألا ترى إلى ما نادوه له وهو قولهم . ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ونظير ذلك قول فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ والمعنى إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر ، أي القرآن .

﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا ﴾ ركب ﴿ لَوْ ﴾ مع ﴿ مَا ﴾ كما ركبت مع لا لمعنيين امتناع الشيء لوجود غيره والتحضيض . ﴿ بالملئكة ﴾ ليصدقوك ويعضدوك على الدعوة كقوله تعالى : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ﴾ أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أتت الأمم المكذبة قبل . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك .

﴿ مَا يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ بالياء ونصب ﴿ الملائكة ﴾ على أن الضمير لله تعالى . وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون وأبو بكر بالتاء والبناء للمفعول ورفع ﴿ الملائكة ﴾ . وقرىء ﴿ تنزل ﴾ بمعنى تتنزل . ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته ، ولا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لبساً ، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإن منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإِيمان .

وقيل الحق الوحي أو العذاب . ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ ﴿ إِذاً ﴾ جواب لهم وجزاء لشرط مقدر أي ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين .

(112/426)

---

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم ولذلك أكده من وجوه وقرره بقوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ أي من التحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزاً مبايناً لكلام البشر ، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان ، أو نفي تطرق الخلل إليه في الدوام بضمان الحفظ له كما نفى أن يطعن فيه بأنه المنزل له . وقيل الضمير في ﴿ لَهُ ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الأولين ﴾ في فرقهم ، جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب من شاعه إذا تبعه ، وأصله الشياع وهو الحطب الصغار توقد به الكبار ، والمعنى نبأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رسلاً فيما بينهم .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءونَ ﴾ كما يفعل هؤلاء ، وهو تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام و﴿ مَا ﴾ للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى الحال ، أو ماضياً قريباً منه وهذا على حكاية الحال الماضية .

﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ﴾ ندخله . ﴿ فِى قُلُوبِ الْمجرمين ﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط ، والرمح في المطعون والضمير للاستهزاء . وفيه دليل على أن الله يوجد الباطل في قلوبهم . وقيل ل ﴿ الذكر ﴾ فإن الضمير الآخر في قوله :

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ له وهو خال من هذا الضمير ، والمعنى مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذباً غير مؤمن به ، أو بيان للجملة المتضمنة له ، وهذا الاحتجاج ضعيف إذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع إليه ولا يتعين أن تكون الجملة حالاً من المجرمين ، ولا ينافي كونها مفسرة للمعنى الأول بل يقويه . ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الاولين ﴾ أي سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم ، أو بإهلاك من كذب الرسل منهم فيكون وعيداً لأهل مكة .

(113/426)

---

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي على هؤلاء المقترحين . ﴿ بَاباً مِنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون إليها ويرون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون ، أو تصعد الملائكة وهم يشاهدونهم .

﴿ لَقَالُواْ ﴾ من غلوهم في العناد وتشكيكهم في الحق . ﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أبصارنا ﴾

سدت عن الأبصار بالسحر من السكر ، ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف ، أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ سكرت ﴾ . ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات ، وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السماء بُرُوجًا ﴾ اثني عشر مختلفة الهيئات والخواص على ما دل عليه الرصد والتجربة مع بساطة السماء . ﴿ وزيناها ﴾ بالأشكال والهيئات البهية .

﴿ للناظرين ﴾ المعتبرين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها .

﴿ وحفظناها مِن كُلِّ شيطان رَّجِيمٍ ﴾ فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس إلى أهلها ويتصرف في أمرها ويطلع على أحوالها .

﴿ إِلاَّ مَنِ استرق السمع ﴾ بدل من كل شيطان واستراق السمع اختلاسه سراً ، شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات لما بينهم من المناسبة في الجوهر أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات ، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من كلها بالشهب . ولا يقدح فيه تكونها قبل المولد لجواز أن يكون لها أسباب أخر . وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن من استرق

السمع . ﴿ فَأَتْبَعَهُ ﴾ فتبعه ولحقه . ﴿ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر للمبصرين ، والشهاب شعلة نار ساطعة ، وقد يطلق للكوكب والسنان لما فيهما من البريق .

(114/426)

---

﴿ والأرض مددناها ﴾ بسطناها . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رواسي ﴾ جبالاً ثوابت . ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا ﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال . ﴿ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ مقدر بمقدار معين تقتضيه حكمته ، أو مستحسن ، مناسب من قولهم كلام موزون ، أو ما يوزن ويقدر أو له وزن أبواب النعمة والمنفعة .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا معايش ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس . وقرىء "معائش" بالهمزة الى التشبيه بشمائل : ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ برازقين ﴾ عطف على ﴿ معايش ﴾ أو على محل ﴿ لَكُمْ ﴾ ، ويريد به العيال والخدم والمماليك وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظناً كاذباً ، فإن الله يرزقهم وإياهم ، وفذلكة الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء في الوضع محدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة ، مع جواز أن لا تكون كذلك على كمال قدرته وتناهي حكمته ، والتفرد في الألوهية والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه ، ثم بالغ في ذلك

وقال :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه ، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد . ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ ﴾ من بقاع القدرة . ﴿ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة ، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملاً على بعض الصفات والحالات لا بد له من مخصص حكيم .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ﴾ حوامل ، شبه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر بالحامل كما شبه ما لا يكون كذلك بالعقيم ، أو ملقحات للشجر ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات في قوله :

(115/426)

---

وَمُخْتَبطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطوَائِحُ . . . وقرىء ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرياح ﴾ على تأويل الجنس . ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ فجعلناه لكم سقيا . ﴿ وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بخازنين ﴾ قادرين متمكنين من إخراجه ، نفى عنهم ما أثبته لنفسه ، أو حافظين في الغدران والعيون والآبار ، وذلك أيضاً يدل على المدبر الحكيم كما تدل حركة الهواء في بعض الأوقات من

بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس ، فإن طبيعة الماء تقتضي الغور فوقوفه دون حد لا بد له من سبب مخصص .

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها . ﴿ وَنُمِيتُ ﴾ بإزالتها وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات وتكرير الضمير للدلالة على الحصر . ﴿ وَنَحْنُ الوارثون ﴾ الباقون إذا مات الخلائق كلها .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستقدمين مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المستأخرين ﴾ من استقدم ولادة وموتاً ومن استأخر ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد ، أو من تقدم في الإِسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة ، أو تأخر لا يخفى علينا شيء من أحوالكم ، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته ، فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه . وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت . وقيل إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم بعض القوم لئلا ينظر إليها وتأخر بعض ليبصرها فنزلت .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لا محالة للجزاء ، وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غير ، وتصدير الجملة ب ﴿ إِنَّ ﴾ لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما

صرح به بقوله : ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ باهر الحكمة متقن في أفعاله . ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شيء .

(116/426)

---

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صلصال ﴾ من طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر . وقيل هو من صلصل إذا أنتن تضعيف صل . ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ طين تغير وأسود من طول مجاورة الماء ، وهو صفة صلصال أي كائن ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ . ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ مصور من سنه الوجه ، أو منصوب لييبس ويتصور كالجواهر المذابة تصب في القوالب ، من السن وهو الصب كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل ، ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه ، أو منتن من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به ، فإن ما يسيل بينهما يكون منتناً ويسمى السنين .

﴿ والجآن ﴾ أبا الجن . وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الإِنسان ، لأن تشعب الجنس لما كان من شخص واحد خلق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقاً منها وانتصابه بفعل يفسره . ﴿ خلقناه مِن قَبْلُ ﴾ من قبل خلق الإنسان . ﴿ مِن نَّارِ السموم ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام ، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام

البسيطة كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المؤلفة التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي، وقوله: ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ باعتبار الغالب كقوله: ﴿ خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ ومساق الآية كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول للجمع والإحياء.

(117/426)

---

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿ للملائكة إِنِّى خالق بَشَرًا مِّن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾. ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ عدلت خلقته وهيأته لنفخ الروح فيه. ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي، وأصل النفخ إجراء الريح في تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب وتفيض عليه الحيوانية فيسري حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً وإضافة الروح إلى نفسه لما مر في "النساء". ﴿ فَقَعُواْ لَهُ ﴾ فاسقطوا له. ﴿ ساجدين ﴾ أمر من وقع يقع.

﴿ فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص،

وقيل أكد بالكل للإحاطة وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة ، وفيه نظر إذ لو كان الأمر كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً .

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ إن جعل منقطعاً اتصل به قوله : ﴿ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ﴾ أي ولكن ابليس أبى وإن جعل متصلاً كان استئنافاً على أنه جواب سائل قال هلا سجد .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسَ مالك أَلَّا تَكُونَ ﴾ أي غرض لك في أن لا تكون . ﴿ مَعَ الساجدين ﴾ لآدم .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد . ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ جسماني كثيف وأنا ملك روحاني . ﴿ خَلَقْتَهُ مِن صلصال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وهو أخس العناصر وخلقتني من نار وهي أشرفها ، استنقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصل وقد سبق الجواب عنه في سورة "الأعراف" .

﴿ قَالَ فاخرج مِنْهَا ﴾ من السماء أو الجنة أو زمر الملائكة . ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ مطرود من الخير والكرامة ، فإن من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان يرجم بالشهب ، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة ﴾ هذا الطرد والإبعاد . ﴿ إلى يَوْمِ الدين ﴾ فإنه منتهى أمد اللعن ، فإنه يناسب أيام التكليف ومنه زمان الجزاء وما في قوله : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ﴾ بمعنى آخر ينسى عنده هذه . وقيل إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضر بها الناس ، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن معه فيصير كالزائل .

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى ﴾ فأخرني ، والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه ﴿ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ ﴿ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أراد أن يجد فسحة في الإِغواء أو نجاة من الموت ، إذ لا موت بعد وقت البعث فأجابه إلى الأول دون الثاني .

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين ﴾ ﴿ إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله ، أو انقراض الناس كلهم وهو النفخة الأولى عند الجمهور ، ويجوز أن يكون المراد بالأيام الثلاثة يوم القيامة ، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات فعبر عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرفته وثانياً بيوم البعث ، إذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف واليأس عن التضليل ، وثالثاً بالمعلوم لوقوعه في الكلامين ، ولا يلزم من ذلك أن لا يموت فلعله يموت أول اليوم ويبعث مع الخلائق في تضاعيفه ، وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدل على منصب إبليس لأن خطاب الله له على سبيل الإِهانة والإِذلال .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ الباء للقسم وما مصدرية وجوابه. ﴿ لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرض ﴾ والمعنى أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الأَرض ﴾ وفي انعقاد القسم بأفعال لله تعالى خلاف. وقيل للسببية والمعتزلة أَوَلُوا الاغواء بالنسبة إلى الغي، أو التسبب له بأمره إياه بالسجود لآدم عليه السلام، أو بالإِضلال عن طريق الجنة واعتذروا عن إمهال الله له، وهو سبب لزيادة غيه وتسليط له على إغواء بني آدم بأن الله تعالى علم منه وممن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أمهل أو لم يمهل، وأن في إمهاله تعريضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب، وضعف ذلك لا يخفى على ذوي الألباب. ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولأحملنهم أجمعين على الغواية.

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدي. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالكسر في كل القرآن أي الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى.

﴿ قَالَ هَذَا صراط عَلَيَّ ﴾ حقٌ علي أن أراعيه. ﴿ مُسْتَقِيم ﴾ لا انحراف عنه، والإِشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو تخليص المخلصين من إغوائه، أو الإِخلاص على

معنى أنه طريق ﴿ عَلَىَّ ﴾ يؤدي إلى الوصول إليّ من غير اعوجاج وضلال .

وقرىء ﴿ على ﴾ من علو الشرف .

(120/426)

---

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ تصديق لإبليس فيما استثناه وتغيير الوضع لتعظيم ﴿ المخلصين ﴾ ، ولأن المقصود بيان عصمتهم وانقطاع مخالب الشيطان عنهم ، أو تكذيب له فيما أوهم أن له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده ، فإن منتهى تزيينه التحريض والتدليس كما قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُمْ مّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى ﴾ وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً ، وعلى الأول يدفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي لإفضائه إلى تناقض الاستثناءين .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ ﴾ لموعد الغاوين أو المتبعين . ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد إن جعلته مصدراً على تقدير مضاف ، ومعنى الإضافة إن جعلته اسم مكان فإنه لا يعمل .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ يدخلون منها لكثرتهم ، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة وهي : جهنم ثم لظى ، ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ، ولعل

تخصيص العدد لانحصار مجامع المهلكات في الركون إلى المحسوسات ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، أو لأن أهلها سبع فرق. ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ ﴾ من الأتباع. ﴿ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحدين العصاة، والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين، وقرأ أبو بكر ﴿ جُزْء ﴾ بالتثقيل. وقرىء ﴿ جز ﴾ على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الزاي، ثم الوقف عليه بالتشديد ثم إجراء الوصل مجرى الوقف، ومنهم حال منه أو من المستكن في الظرف لا في ﴿ مَّقْسُومٌ ﴾ لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها.

(121/426)

---

﴿ إِنَّ الْمتقين ﴾ من أتباعه في الكفر والفواحش فإن غيرها مكفرة. ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ لكل واحد جنة وعين أو لكل عدة منهما كقوله تعالى: ﴿ وِلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ثم قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ وقوله: ﴿ مَّثَلُ الْجنة التى وُعِدَ المتقون فِيهَا أَنْهَارٌ مّن مَّاء غَيْرِ ءاسِنٍ ﴾ الآية، وقرأ نافع وحفص وأبو عمرو وهشام ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ بضم العين حيث وقع والباقون بكسر العين. ﴿ ادخلوها ﴾ على إرادة القول، وقرىء بقطع الهمزة وكسر الخاء على أنه ماض فلا يكسر التنوين. ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ سالمين أو

مسلماً عليكم . ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من الآفة والزوال .

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ في الدنيا بما ألف بين قلوبهم ، أو في الجنة بتطييب نفوسهم . ﴿ مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ من حقد كان في الدنيا وعن علي رضي الله تعالى عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، أو من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب . ﴿ إِخْوَانًا ﴾ حال من الضمير في جنات ، أو فاعل ادخلوها أو الضمير في آمنين أو الضمير المضاف إليه ، والعامل فيها معنى الإضافة وكذا قوله : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ ويجوز أن يكونا صفتين لإخوانا أو حال من ضميره لأنه بمعنى متصافين ، وأن يكون متقابلين حالاً من المستقر في على سرر .

﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ استئناف أو حال بعد حال ، أو حال من الضمير في متقابلين .

﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 360. 374 ﴾

*(122/426)*

---

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الحجر

مكية

وهي تسع وتسعون آية وستمائة وأربع وخمسون كلمة، وعدد حروفها ألفان وسبعمائة وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الواحد القهار ﴿ الرحمن ﴾ الذي أسبغ نعمه على سائر بريته، فعجزت عن وصفه الأفكار ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ولايته بنجاتهم من النار، وقوله تعالى:

﴿ الر ﴾ ذكر فيه الفتح والإمالة أوّل يونس. وقيل: معناه: أنا الله أرى، وقدّمنا الكلام على أوائل السور في أوّل سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات هذه السورة، أي: هذه الآيات ﴿ آيات الكتاب ﴾، أي: القرآن، والإضافة بمعنى من، وقوله تعالى: ﴿ وقرآن مبين ﴾، أي: مظهر للحق من الباطل عطف بزيادة صفة. وقيل: المراد بالكتاب هو السورة، وكذا القرآن، وقيل: المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب. ثم بيّن سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى:

﴿ ربما يودّ ﴾، أي: يتمنى ﴿ الذين كفروا ﴾ إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين في ذلك اليوم ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ وقيل: حين يعاينوا حال المسلمين عند نزول النصر وحلول الموت، ورب للتكثير، فإنه يكثر منهم تمنى ذلك. وقيل: للتقليل، فإنّ الأهوال تدهشهم، فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة. فإن قيل: لم دخلت رب على المضارع وقد

أبوا دخولها إلا على الماضي ؟

أجيب : بأنّ المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحقيقه ، فكأنه قيل : ربما ودّ . وقرأ عاصم ونافع بتخفيف باء ربما ، والباقون بالتشديد . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما ، وقيس وبكر يثقلونها ، ولما تمادوا في طغيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

(123/426)

---

﴿ ذرهم ﴾ ، أي : دعهم عن النهي عما هم عليه والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة ، وخلهم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ بدنياهم وتنفيذ شهواتهم ، والتمتع التلذذ ، وهو طلب اللذة حالاً بعد حال كالتقرب في أنه طلب القرب حالاً بعد حال . ﴿ ويلههم الأمل ﴾ ، أي : ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار ، واستقامة الأحوال عن أخذ حظهم من السعادة ، وعن الاستعداد للمعاد . وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم ، وحمزة والكسائي برفع الهاء والميم ، والباقون بكسر الهاء ورفع الميم . وأمّا الوقف فالجميع بكسر الهاء ، والكلام على الهاء الثانية ، وأمّا الهاء الأولى فمكسورة للجميع وقفاً ووصلاً . ولما كان هذا أمراً لا يشتغل به إلا أحمق تسبب عنه التهديد بقوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ ، أي : ما يحل

بهم بعد ما فسحنا لهم في زمن التمتع من سوء صنيعهم ، وهذا قبل الأمر بالقتال . تنبيه : في الآية دليل على أنّ إيثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدّي إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين . وعن بعضهم : التمتع في الدنيا من أخلاق الهالكين والأخبار في ذم الأمل كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم "يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر" . وعن علي رضي الله تعالى عنه : إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ، فإنّ طول الأمل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصدّ عن الحق . ولما هددهم تعالى بآية التمتع وإلهاء الأمل أتبعه بما يؤكد الزجر . بقوله تعالى:

﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ ، أي : من القرى ، والمراد أهلها ومن مزيدة ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ ، أي : أجل مضروب محدود مكتوب في اللوح المحفوظ لهلاكها . تنبيه : المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والأصل أن لا تدخلها الواو ، كقوله تعالى : ﴿ إلا لها منذرون ﴾ (الشعراء ، )



---

وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال : جاءني زيد عليه ثوب وجاءني وعليه ثوب . فائدة : رسم كتاب هنا بإثبات الألف . ثم بيّن تعالى الآية السابقة

بقوله تعالى:

﴿ ما تسبق ﴾ وأكد الاستغراق بقوله تعالى: ﴿ من أمة ﴾ وقيل: من مزيدة كقولك: ما جاءني من أحد، أي: أحد وبيّن أنّ المراد بالكتاب الأجل بقوله تعالى: ﴿ أجلها ﴾، أي: الذي قدّرناه لها. ﴿ وما يستأخرون ﴾، أي: عنه. تنبيه: أنث الأمة أولاً ثم ذكرها آخراً حملاً على اللفظ الأوّل وعلى المعنى في الثاني. قال البقاعي: وإنما ذكره لئلا يصرفوه إلى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتاً وفي الآية دليل على أنّ كل من مات أو قتل فإنما مات بأجله وإن من قال بجواز أن يموت قبل أجله مخطئ. ولما بالغ تعالى في تهديد الكفار ذكر شبههم في إنكار نبوّته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾، أي: القرآن في زعمه ﴿ إنك لمجنون ﴾ إنما نسبوه إلى الجنون إما لأنهم كانوا يستبعدون كونه رسولاً حقاً من عند الله لأنّ الرجل إذا سمع كلاماً مستبعداً من غيره فربما قال به جنون، وإما لأنه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا أنها جنون ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ (الأعراف، )

ثم أتبعوه ما زعموا أنه دليل على قولهم فقالوا:

﴿ لو ما ﴾، أي: هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾، أي: يشهدون لك بأنك رسول من عند الله

حقاً . ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في إدعائك للرسالة وأنّ هذا القرآن من عند الله ولما كان في قولهم أمران أجاب الله تعالى عن قولهم الثاني لأنه أقرب بقوله تعالى:



---

﴿ وما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ ، أي : إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن نأتيكم بهم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ (الحجر ، )

وقيل الحق الوحي أو العذاب . وقرأ شعبة بضم التاء مع فتح الزاي ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائي بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة والباقون بالتاء مفتوحة مع فتح الزاي ورفع الملائكة وشدّد التاء البزي في الوصل ، وأما الزاي فهي مشدّدة للجميع من يفتح ومن يكسر ﴿ وما كانوا ﴾ ، أي : الكفار ﴿ إذاً ﴾ ، أي : إذ تأتيهم الملائكة ﴿ منظرين ﴾ ، أي : لزوال الإمهال عنهم فيعذبوا في الحال إن لم يؤمنوا ويصدّقوا وكان حينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم ثم أجاب تعالى عن الأوّل بقوله تعالى مؤكداً لتكذيبهم:

﴿ إنا نحن ﴾ بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ نزّلنا ﴾ ، أي : بالتدريج على لسان جبريل عليه السلام ﴿ الذكر ﴾ ، أي : القرآن ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ ، أي : من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (النساء ، )

فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الأشياء كلها لا يقدر أحد من جميع الخلق من الجن والإنس أن يزيد فيه أو ينقص منه كلمة واحدة أو حرفاً واحداً وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فإنه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ، فإن قيل : فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه ؟



---

أجيب : بأن جمعهم القرآن في المصحف كان من أسباب حفظ الله تعالى إياه فإنه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك ، قال أصحابنا : وفي هذه الآية دلالة قوية على كون البسملة آية من أول كل سورة لأن الله تعالى قد وعد حفظ القرآن والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصوناً من الزيادة والنقصان فلو لم تكن البسملة آية من القرآن لما كان مصوناً عن التغيير ولما كان

محفوظاً عن الزيادة ولو جاز أن يظنّ بالصحابة أنهم زادوا جاز أيضاً أن يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة ، وقيل : الضمير في له راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى : وإنا لمحمد لحافظون ممن أراد به سوءاً فهو كقوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة ، )

. ولما أساء الكفار عليه صلى الله عليه وسلم في الأول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا :

﴿ إنك لمجنون ﴾ (الحجر ، )

. وكان عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه رادّ عليهم:

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴾ ، أي : رسلاً فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه وقوله تعالى : ﴿ في شيع ﴾ أي : فرق ﴿ الأوّلين ﴾ من باب إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى : ﴿ حق اليقين ﴾ (الواقعة ، )

سموا شيعاً لمتابعة بعضهم بعضاً في الأحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد ، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة . وقال الفراء : الشيعة هم الأتباع وشيعة الرجل أتباعه ، وقيل : الشيعة من يتقوى بهم الإنسان .

﴿ وما يأتيهم ﴾ عبر بالمضارع على حكاية الحال الماضية ، فإن ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال ، والأصل وما كان يأتيهم

﴿ من رسول ﴾ ، أي : على ، أي : وجه كان ﴿ إلا كانوا به ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ يستهزؤون ﴾ كاستهزاء قومك بك فصبروا فاصبر كما صبروا .

(127/426)

---

﴿ كذلك ﴾ ، أي : مثل ادخالنا التكذيب في قلوب هؤلاء المستهزئين بالرسل ﴿ نسلكه ﴾ ، أي : ندخله ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ ، أي : كفار مكة المستهزئين .

﴿ لا يؤمنون به ﴾ ، أي : بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل : بالقرآن . وفي الآية دليل على أنّ الله تعالى يخلق الباطل في قلوب الكفار والسلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح في المطعون ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ (الدثر ، ) وقيل : الضمير في نسلكه يعود للذكر كما أنّ الضمير في به يعود إليه وجملة لا يؤمنون به حال من ذلك الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذباً به غير مؤمن به قال البيضاوي : وهذا الاستدلال ضعيف إذ لا يلزم من تعاقب الضمائر توافقها في المرجوع إليه اه . وما أعدت الضمير عليه في ذلك هو ما قاله ابن الخازن ، وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله تعالى : ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ ، أي : سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وعيد شديد لكفار مكة بأنه ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم

الماضية المكذبة، وقال الزجاج: قد مضت سنة الله في أن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم. ا

قال الرازي: وهذا أليق بظاهر اللفظ. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام تاء التأنيث في السين والباقون بالإظهار وقوله تعالى:

﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ﴾ الآية هو المراد في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ (الأنعام، )

الآية، أي: الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة فلو أنزلنا الملائكة ﴿ فظلوا فيه ﴾، أي: فظلت الملائكة ﴿ يعرجون ﴾، أي: يصعدون في الباب وهم يرونها عياناً.

(128/426)

---

﴿ لقالوا ﴾، أي: من عتوّهم في الكفر ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾، أي: سدت عن الأبصار بالسحر من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف أو حيرت من السكر يدل عليه قراءة الباقين بالتشديد. ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾، أي: قد سحرنا محمد بذلك، أي: كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات كانشقاق القمر وما جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله. وقيل: الضمير في

يعرجون للمشركين ، أي : فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات وما فيها من العجائب لما آمنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا : إنما سحرنا . وقرأ الكسائي بإدغام لام بل في النون والباقون بالإظهار . ولما أجاب الله تعالى عن شبهة منكري النبوّة والقول بالنبوّة مفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها أرضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية فقال مفتتحاً بحرف التوقع:

(129/426)

---

﴿ ولقد جعلنا ﴾ بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة . ﴿ في السماء بروجاً ﴾ قال الليث : البروج واحدها برج من بروج الفلك ، والبروج هي النجوم الكبار مأخوذة من الظهور يقال : تبرجت المرأة إذا ظهرت وأراد بها المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهي اثنا عشر برجاً الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهي منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الأسد ، والمشتري وله القوس والحوت ، وزحل وله الجدي والدلو . وهذه البروج مقسومة على ثلاثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة

تقطعها الشمس في كل سنة مرّة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً .

قال ابن عباس في هذه الآية : يريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال عطية : هي قصور في السماء عليها الحرس . وقال مجاهد : هي النجوم العظام . قال أبو إسحاق : يريد نجوم هذه البروج . وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار دال قد عند الجيم والباقون بالإدغام . ﴿ وزيناها ﴾ ، أي : السماء بالشمس والقمر والنجوم والأشكال والهيئات البهية ﴿ للناظرين ﴾ ، أي : المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذي أوجد كل شيء وخلقه وصوّره .



---

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ ، أي : مرجوم وقيل : ملعون . قال ابن عباس : كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الله لغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب ، فلما منعوا تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس فقال : لقد حدث في الأرض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا : والله

هذا حدث وقوله تعالى : ﴿ إلا من استرق السمع ﴾ بدل من كل شيطان رجيم . وقيل استثناء منقطع ، أي : لكن من استرق السمع واستراق السمع اختلاسه . قال ابن عباس : يريد الخطفة اليسيرة وذلك أنّ الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى : ﴿ فأتبعه شهاب مبين ﴾ وهو شعلة من نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار فلا يخطئ أحداً فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه أو جنبه أو يده حيث يشاء الله . ومنهم من يخبله فيصير غولاً فيضل الناس في البوادي . روى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا قضي الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العليّ الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع" ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض . ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدّد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها إلى لسان الساحر أو الكاهن ، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مئة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدّق بتلك الكلمة التي سمعها من السماء . فإن قيل : إذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة

خرج الإخبار عن

المغيبات عن كونه معجزاً دليلاً على الصدق لأنّ كل غيب يخبر عنه النبيّ صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذٍ يخرج عن كونه معجزاً دليلاً على الصدق . أجيب : بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بسائر المعجزات ثم بعد العلم بنبوّته نقطع بأنّ الله تعالى أعجز الشياطين عن تلقف الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الإخبار عن الغيب معجزاً ، ولما شرح الله تعالى الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الأرضية وهي أنواع ؛ النوع الأوّل : قوله تعالى:

﴿ والأرض مددناها ﴾ قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء . قال البغوي : يقال إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة . فإن قيل : فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة ؟

أجيب : بأن ليس في الآية دلالة على شيء من ذلك ، لأنّ الأرض على تقدير كونها كرة فهي في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي ، وتقدّم الكلام على ذلك في سورة البقرة ، وسيأتي زيادة على ذلك إن شاء الله تعالى في سورة والنازعات . النوع الثاني : قوله تعالى : ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ ، أي : جبالاً ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسي . وهو كقوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (النحل ، )

قال ابن عباس : لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكي لا تميد بأهلها ، وقيل : إنّ الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال . النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ واختلف في عود ضمير فيها فقيل : يعود إلى الأرض لأنّ أنواع النبات المنتفع به يكون في الأرض وقيل : إلى الجبال لأنها أقرب مذكور ولقوله تعالى : ﴿ من كل شيء موزون ﴾ وإنما يوزن ما يتولد من الجبال والأولى عوده لهما ، واختلفوا في المراد بالموزون فقال ابن عباس: ، أي : معلوم . وقال مجاهد : ، أي : مقدار معين تقتضيه حكمته . وقال الحسن : أعني به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والأولى أنه جميع ما ينبت في الأرض والجبال ، لأنّ ذلك نوعان أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون . والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع إلى الوزن لأنّ الصاع والمدّ مقداران بالوزن .

﴿ وجعلنا لكم فيها ﴾ ، أي : إنعاماً منا وتفضلاً عليكم ﴿ معايش ﴾ وهي بياء صريحة

من غير مدّ جمع معيشة وهو ما يعيش به الإنسان مدّة حياته في الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها . ﴿ و ﴾ جعلنا لكم ﴿ من لستم له برازقين ﴾ من العبيد والأنعام والدواب والطير فإنكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لأنّ رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في أكثر الأمر أنهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد ، وذلك خطأ فإنّ الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لأنه تعالى خلق الأطعمة والأشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة وإلا لم يحصل لأحد رزق . فإن قيل : صيغة من مختصة بمن يعقل ؟

(133/426)

---

أجيب : بأنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقاً على الله تعالى حيث قال : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ (هود : )

﴿ والأرض مددناها ﴾ قال ابن عباس : بسطناها على وجه الماء . قال البغوي : يقال إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة . فإن قيل : فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة ؟

أجيب : بأن ليس في الآية دلالة على شيء من ذلك ، لأنّ الأرض على تقدير كونها كرة فهي

في غاية العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي ، وتقدّم الكلام على ذلك في سورة البقرة ، وسيأتي زيادة على ذلك إن شاء الله تعالى في سورة والنازعات . النوع الثاني : قوله تعالى : ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ ، أي : جبالاً ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع الجمع رواسي . وهو كقوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (النحل ، )

(134/426)

---

قال ابن عباس : لما بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال لكي لا تميد بأهلها ، وقيل : إنّ الله تعالى خلقها لتكون دلالة للناس على طرق الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميل الناس عن الجادة المستقيمة ولا يقعون في الضلال . النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ واختلف في عود ضمير فيها فقيل : يعود إلى الأرض لأنّ أنواع النبات المنتفع به يكون في الأرض وقيل : إلى الجبال لأنها أقرب مذكور ولقوله تعالى : ﴿ من كل شيء موزون ﴾ وإنما يوزن ما يتولد من الجبال والأولى عوده لهما ، واختلفوا في المراد بالموزون فقال ابن عباس : ، أي : معلوم . وقال مجاهد : ، أي : مقدار معين تقتضيه حكمته . وقال الحسن : أعني به الشيء الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والأولى أنه جميع ما ينبت في الأرض

والجبال ، لأنّ ذلك نوعان أحدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون . والثاني النبات فبعضه موزون وبعضه بالكيل وهو يرجع إلى الوزن لأنّ الصاع والمدّ مقدران بالوزن .

﴿ وجعلنا لكم فيها ﴾ ، أي : إنعاماً منا وتفضلاً عليكم ﴿ معايش ﴾ وهي بياء صريحة من غير مدّ جمع معيشة وهو ما يعيش به الإنسان مدّة حياته في الدنيا من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها . ﴿ و ﴾ جعلنا لكم ﴿ من لستم له برازقين ﴾ من العبيد والأنعام والدواب والطير فإنكم تنتفعون بها ولستم لها برازقين لأنّ رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في أكثر الأمر أنهم هم الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد ، وذلك خطأ فإنّ الله هو الرزاق يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك لأنه تعالى خلق الأطعمة والأشربة وأعطى القوة الغاذية والهاضمة وإلا لم يحصل لأحد رزق . فإن قيل : صيغة من مختصة بمن يعقل ؟



---

أجيب : بأنه تعالى أثبت لجميع الدواب رزقاً على الله تعالى حيث قال : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ (هود : )

فغلب من يعقل على غيره . حكي أنّ الماء قد قلّ في بعض الأودية والجبال واشتدّ الحرّ قال بعضهم : فرأيت بعض تلك الوحوش رفعت رؤوسها إلى السماء عند اشتداد عطشها قال : فرأيت الغيوم قد أقبلت وأمطرت وامتلأت الأودية . تنبيه : قيل لا يجوز أن يكون و ﴿ من لستم له برازقين ﴾ (الحجر ، )

مجروراً عطفاً على الضمير لا يقال : أخذت منك وزيد إلا بإعادة الخافض كما في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ (الأحزاب ، )

والراجح الجواز كما قرئ قوله تعالى : ﴿ تساءلون به والأرحام ﴾ (النساء ، )

بالخفض في القراءات السبع وهذا أعظم دليل .

ولما بين سبحانه وتعالى أنه أنبت لهم كل شيء موزون وجعل لهم معايش أشعر بذكر ما هو السبب لذلك فقال تعالى : ﴿ وإن ﴾ ، أي : وما ﴿ من شيء ﴾ ، أي : مما ذكر وغيره من الأشياء الممكنة وهي لا نهاية لها . ﴿ إلا عندنا خزائنه ﴾ ، أي : قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عند جدّه قال : في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البحر والبرّ والخزائن جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه للحفظ . وقيل : أراد مفاتيح الخزائن ، وقيل : المطر لأنه سبب الأرزاق لبني آدم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا ، أي : في حكمه تعالى وتصرّفه وأمره وتدبيره ﴿ وما ننزله ﴾ من يفاع القدرة ﴿ إلا بقدر

معلوم ﴾ ، أي : على حسب المصالح وقيل : إنّ لكل أرض حدّاً ومقداراً من المطر يقال : لا ينزل من السماء قطرة مطر إلا ومعها ملك يسوقها إلى حيث يشاء الله ولما أتم ما أراد من آيتي السماء والأرض وختمه بشمول قدرته لكل شيء أتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعاً في خزائن قدرته بقوله تعالى:

(136/426)

---

﴿ وأرسلنا الرياح ﴾ جمع ريح وهو جسم لطيف منبث في الجوّ سريع المر ﴿ لواقح ﴾ ، أي : حوامل لأنها تحمل الماء إلى السحاب فهي لاقحة ، يقال : ناقة لاقحة إذا حملت الولد . وقال ابن مسعود : يرسل الله تعالى الريح فتحمل الماء فتمجه في السحاب ثم تمرّ به فتدرّ كما تدر اللقحة ثم تمطر . وقال عبيد بن عمير : يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً ثم يبعث الله اللواقح تلقح الشجر . وعن ابن عباس قال : ما هبت ريح قط إلا جثا النبيّ صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال : "اللهمّ اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحاً" . وعن عائشة رضي الله عنها "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا عصفت الريح قال : اللهمّ إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت

به" . وقرأ حمزة بالإفراد والباقون بالجمع . ﴿ فأنزلنا ﴾ ، أي : بعظمتنا بسبب تلك السحاب التي حملتها الريح ﴿ من السماء ﴾ ، أي : الحقيقية أو جهتها أو السحاب لأنّ الأسباب المترقبة يسند الشيء تارة إلى القريب منها وتارة إلى البعيد ﴿ ماء ﴾ وهو جسم مائع سيال به حياة كل حيوان من شأنه الاغتذاء ﴿ فأسقيناكموه ﴾ ، أي : جعلناه لكم سقياً ، يقال : سقيته ماء يشربه وأسقيته ، أي : مكنته منه ليسقي به ماشيته ومن يريد ، ونفى سبحانه وتعالى عن غيره ما أثبته أولاً لنفسه بقوله : ﴿ وما أنتم له ﴾ ، أي : لذلك الماء ﴿ بخازنين ﴾ ، أي : ليست خزائنه بأيديكم والخزن وضع الشيء في مكان مهيأ للحفظ فثبت أنّ القادر عليه واحد مختار ومن دلائل التوحيد الإحياء والإماتة كما قال تعالى:



---

﴿ وإنا لنحن نحيي ﴾ ، أي : لنا هذه الصفة على وجه العظمة فنحيي بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات بالنمو وإن كان أحدهما حقيقة والآخر مجازاً لأنّ الجمع جائز ﴿ ونميت ﴾ ، أي : لنا هذه الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء . ﴿ ونحن الوارثون ﴾ ، أي : الإرث التام إذا مات الخلائق الباقون بعد كل شيء كما

كنا ولا شيء فليس لأحد تصرّف بإماتة ولا إحياء ، فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فلما ثبت بهذا كمال قدرته وكانت آثار القدرة لا تكون محكمة إلا بالعلم قال تعالى:

(138/426)

---

﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ وهو من قضينا بموته أولاً من لدن آدم فيكون في موته كأنه يسارع إلى التقدّم إليه وإن كان هو وكل من أهله مجتهداً بالعلاج في تأخيره ﴿ ولقد علمنا المستأخرين ﴾ ، أي : الذين نمدّ في أعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كأنهم يسابقون إلى ذلك وإن عالجوا الموت بشرب سم أو نحوه أو عالجه لهم غيرهم بضربهم بسيف أو غيره فعرف من ذلك قطعاً أنّ الفاعل واحد مختار . وقال ابن عباس : أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياءز وقال عكرمة : المستقدمين من خلق الله تعالى والمستأخرين من لم يخلق . وقال الحسن : المستقدمين في الطاعة والخير والمستأخرين المستبطؤون عنه . وقيل : المستقدمين من القرون الأولى والمستأخرين أمّة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : المستقدمين في الصفوف والمستأخرين فيها وذلك أنّ النساء كنّ يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان في الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر

صف الرجال ومن النساء من في قلبها ريبة فتتقدم إلى أوّل صف النساء لتقرب من الرجال فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "خير صفوف الرجال أوّلها وشرّها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أولها" . تنبيه : في سبب نزول هذه الآية قولان أحدهما : أنّ امرأة حسناء كانت تصلي خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يستقدم حتى يكون في أوّل صف حتى لا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون آخر صف ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه فنزلت . والثاني : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حرّض على الصف الأوّل فازدحموا عليه ، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبيعنّ دورنا ولنشترين دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت .

(139/426)

---

﴿ وإنّ ربك هو يحشرهم ﴾ ، أي : المستقدمين والمستأخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غيره وتصدير الجملة بأنّ لتحقيق الوعد والتنبيه على أنّ ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرّح به بقوله تعالى : ﴿ إنه حكيم ﴾ ، أي : باهر الحكمة متقن في أفعاله ﴿ عليم ﴾ وسع علمه كل شيء ، ولما استدل سبحانه وتعالى بتخليق الحيوانات على

صحة التوحيد في الآية المتقدّمة أردفه بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب بقوله تعالى:

(140/426)

---

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ قال الرازي والمفسرون : أجمعوا على أنّ المراد منه آدم عليه السلام . ونقل في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه ، وقيل : من النسيان لأنه عهد إليه فنسى . ﴿ من صلصال ﴾ ، أي : من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار ، إذا نقرته سمعت له صلصلة ، أي : صوتاً . وقال ابن عباس : هو الطين إذا نضب عنه الماء تشقق فإذا حرّك تقعقع . وقال مجاهد : هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال الفراء : هو طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره . وقال الرازي : قال المفسرون : خلق الله تعالى آدم من طين فصوّره وتركه في الشمس أربعين سنة فصار صلصالاً لا يدري أحد ما يراد به ولم يروا شيئاً من الصور يشبهه إلى أن نفخ فيه الروح . ﴿ من حمأ ﴾ ، أي : طين أسود منتن ﴿ مسنون ﴾ ، أي : مصوّر بصورة الآدمي . وقال ابن عباس : هو التراب المبتل المنتن . وقال مجاهد : هو المنتن المتغير . قال البغوي : وفي بعض الآثار إنّ الله تعالى خمر

طينة آدم وتركه حتى صار متغير أسود ثم خلق منه آدم عليه السلام . قال ابن الخازن : والجمع بين هذه الأقوال على ما ذكره بعضهم أنّ الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ (آل عمران ، )

ثم إنّ ذلك التراب بله بالماء وحمأ حتى اسودّ وأنتن ريحه وتغير وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ثم إنّ ذلك الطين الأسود المتغير صوّره الله صورة إنسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ (الرحمن ، )

وهو الطين اليابس يفخر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشراً سوياً . ولما ذكر سبحانه وتعالى خلق الإنسان ذكر ما خلقه قبل من الجان فقال تعالى:



---

﴿ والجانّ ﴾ قال ابن عباس : هو أبو الجن كما أنّ آدم عليه السلام أبو البشر وإبليس أبو الشياطين وفي الجنّ مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم ، وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون إلا إذا مات إبليس . وقال وهب : إنّ من الجنّ من

يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجنّ من هو بمنزلة الريح لا يتولدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين. قال ابن الخازن: والأصح أنّ الشياطين نوع من الجنّ لاشتراكهم في الاستتار سموا جناً لتواريهم واستتارهم عن الأعين، من قولهم جنّ الليل إذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرّد الكافر، والجنّ منهم المؤمن ومنهم الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره. ﴿خلقناه من قبل﴾، أي: قبل خلق الإنسان ﴿من نار السموم﴾، أي: من ريح حارة تدخل مسام الإنسان فتقتله من قوّة حرارتها. قال الرازي: فالريح الحارة فيها نار ولها لفح كما ورد في الخبر أنها من فيح جهنم انتهى. ويقال: السموم بالنهار والحرور بالليل. وقال الكلبي: عن أبي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار تكون بين السماء وبين الحجاب فإذا أحدث الله تعالى أمراً خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت به فالهدّة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب. وعن ابن عباس هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجان، وتلا هذه الآية. وعن الضحاك عن ابن عباس كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجنّ خلقوا من نار السموم، وخلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن ﴿من مارج من نار﴾ (الرحمن، ) ، وأمّا الملائكة فخلقوا من النور.

ولما ذكر الله تعالى حدوث الإنسان الأوّل واستدل بذكره على وجود الإله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى:

﴿ وإذ ﴾ ، أي : واذكر يا أشرف الخلق قول ربك عز وجل إذ ﴿ قال ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك بتشريف أبيك آدم عليه السلام لتشريفك ﴿ للملائكة إني خالق بشراً ﴾ ، أي : حيواناً كثيفاً يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون للطف أجسامهم عن أبشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى : ﴿ من صلصال من حمأ مسنون ﴾ تقدّم تفسيره .

﴿ فإذا سويته ﴾ ، أي : عدّلته وأتممته وهيأته لنفخ الروح فيه بالفعل ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ ، أي : خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل وأضاف الروح إليه تشريفاً كما يقال : بيت الله وهو ما يصير به الروح عالماً وأشرف منه ما يصير به العالم عاملاً خاشعاً وسيأتي الكلام على الروح إن شاء الله تعالى في سورة سبحان عند قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ (الإسراء ، )

. ﴿ فقعوا ﴾ ، أي : أسقطوا ﴿ له ﴾ تعظيماً حال كونكم ﴿ ساجدين ﴾ وتقدّم في سورة البقرة الكلام على من المخاطب بالسجود وهل هو كل الملائكة أو ملائكة السموات أو ملائكة الأرض وهل هو سجود انحناء أو غيره .

﴿ فسجد الملائكة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كلهم أجمعون ﴾ قال سيبويه : تأكيد بعد تأكيد . وسئل المبرد عن ذلك فقال : لو قال ﴿ فسجد الملائكة ﴾ احتمل أن يكون سجد بعضهم

فلما قال : ﴿ كلهم ﴾ زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد في وقت آخر ، فلما قال : ﴿ أجمعون ﴾ ظهر أنّ الكل سجدوا دفعة واحدة . قال الزجاج : وقول سيبويه أجود لأنّ أجمعين معرفة فلا يكون حالاً وقوله تعالى:

﴿ إلا إبليس ﴾ أجمعوا على أنّ إبليس كان مأموراً بالسجود لآدم واختلفوا في أنه هل كان من الملائكة أم لا وقد سبقت هذه المسألة على الاستقصاء في سورة البقرة وقوله تعالى :

﴿ أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ أي : لآدم استئناف تقديره إنّ قائلاً قال : هل سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه .

(143/426)

---

﴿ قال ﴾ الله تعالى له : ﴿ يا إبليس ما لك ألا تكون ﴾ أي : أن تكون ولا مزيدة ، أي : ما منعك أن تكون ﴿ مع الساجدين ﴾ لآدم ﴿ قال لم أكن لأسجد لبشر ﴾ جسماني كثيف واللام لتأكيد النفي ، أي : لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد وأنا ملك روحاني لبشر .

﴿ خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ وهو أخس العناصر ﴿ وخلقتني من نار ﴾ وهي أشرفها استنقص آدم باعتبار النوع والأصل وقد سبق الجواب عنه في سورة

الأعراف. تنبيه: قال بعض المتكلمين: إنه تعالى أوصل هذا الخطاب إلى إبليس على لسان بعض رسله وضعف لأنّ إبليس قال في الله لجواب: ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال ﴾ فقوله: خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره يقتضي أن الله تعالى تكلم مع إبليس بغير واسطة وأنّ إبليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف يعقل هذا مع أن مكالمة الله تعالى من غير واسطة من أعظم المناصب وأشرف المراتب فكيف يعقل حصوله لرأس الكفرة ورئيسهم؟ وأجيب: بأنّ مكالمة الله تعالى إنما تكون منصباً عالياً إذا كانت على سبيل الإكرام والإعظام فأمّا إذا كانت على سبيل الإهانة والإذلال فلا.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَاذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

﴿ قال ﴾ الله تعالى له ﴿ فاخرج منها ﴾ أي : من الجنة وقيل : من السموات وقيل : من زمرة الملائكة وقد تقدّم الكلام على ذلك أيضاً في سورة الأعراف . ﴿ فإنك رجيم ﴾ أي : مطرود من الخير والكرامة فإن من يطرد يرجم بالحجر أو شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته .

﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ أي : هذا الطرد والإبعاد ﴿ إلى يوم الدين ﴾ قال ابن عباس : يريد يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم مثل قوله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ (الفاتحة ، ) . فإن قيل : كلمة إلى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يفيد أنّ اللعنة لا تحصل إلا إلى يوم الدين وعند القيامة يزول اللعن ؟

أجيب : بجوابين الأوّل : أنّ المراد التأبيد وذكر القيامة أبعد غاية ذكرها الناس في كلامهم كقوله تعالى : ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ (هود ، )

في التأبيد والثاني : أنه مذموم مدعو عليه باللعن في السموات والأرض إلى يوم القيامة من غير أن يعذب فإذا جاء اليوم عذب عذاباً يقترن اللعن معه فيصير اللعن حينئذٍ كالزائل بسبب أنّ شدّة العذاب تذهل عنه . ولما جعله رجيماً ملعوناً إلى يوم القيامة فكأنّ قائلاً يقول فماذا قال ؟ فقيل:

﴿ قال رب ﴾ فاعترف بالعبودية والإحسان إليه ﴿ فأنظرني ﴾ أي : أخرني والإنظار تأخير المحتاج للنظر في أمره والفاء متعلقة بمحذوف دلّ عليه ﴿ فاخرج منها فإنك

رجيم ﴾ . ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي : الناس أراد أن يجد فسحة في الإغواء ونجاة من الموت إذ لا موت بعد وقت البعث . ﴿ قال ﴾ الله تعالى مجيباً للأوّل دون الثاني بقوله تعالى : ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ وهو المسمى فيه أجلك عند الله وهو النفخة الأولى وما يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن في دار الخلد . فإن قيل : كيف أجابه الله تعالى إلى ذلك الإمهال ؟

أجيب : بأنه إنما أجابه إلى ذلك زيادة في بلائه وشقائه وعذابه لا لإكرامه ورفع مرتبته . ولما أجيب لذلك كأنه قيل فماذا قال فقيل:

*(145/426)*

---

﴿ قال رب ﴾ أي : أيها الموجد والمدبر لي وقوله : ﴿ بما أغويتني ﴾ أي : خيبتني من رحمتك الباء فيه للقسم وما مصدرية وجواب القسم ﴿ لأزينن ﴾ أي : أقسم بإغوائك إياي لأزينن ﴿ لهم في الأرض ﴾ حب الدنيا ومعاصيك كقوله : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ (ص ، )

إلا أنه في ذلك الموضع أقسم بعزة الله وهي من صفات الذات وهنا أقسم بإغواء الله ، وهي من صفات الأفعال ، والفقهاء قالوا : القسم بصفات الذات صحيح ، واختلفوا في القسم

بصفات الأفعال والراجح فيها الصحة . ﴿ ولأغوينهم ﴾ أي : بالإضلال عن الطريق الحميدة بإلقاء الوسوسة في قلوبهم ولأحملنهم . ﴿ أجمعين ﴾ على الغواية وقوله: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام ، أي : الذين أخلصوا دينك عن الشوائب وقرأه الباقون بفتحها ، أي : الذين أخلصهم الله تعالى بالهداية وإنما استثنى إبليس المخلصين لأنه علم أنّ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه . وقال الرازي : والذي حمله على هذا الاستثناء أنه لا يصير كاذباً في دعواه فلما احترز إبليس عن الكذب علمنا أنّ الكذب في غاية الخساسة . تنبيه : قال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عنه عوضاً من الدارين ولا عوضاً من الملكين . وقال الجنيد : الإخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله . وذكر القشيري وغيره عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال : سرّ استودعته قلب من أحب من عبادي" . ولما ذكر إبليس أنه يغوي بني آدم إلا من عصمه الله بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى الله تعالى وإلى إرادته .

﴿ قال ﴾ تعالى ﴿ هذا ﴾ أي: الذي ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه ﴿ صراط ﴾ أي: طريق ﴿ عليّ مستقيم ﴾ أي: لا انحراف عنه لأني قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل أنت. ولما قال إبليس لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين أوهم هذا أنّ له سلطاناً على عباد الله غير المخلصين فبين تعالى كذبه أنه ليس له سلطان على أحد من عبيد الله سواء أكانوا مخلصين أو لم يكونوا مخلصين ومن اتبع منهم إبليس باختياره صار تبعاً له ولكن حصول تلك المتابعات أيضاً ليس لأجل إبليس وأوهم أن له على بعض عباد الله سلطاناً فبين تعالى كذبه وذكر تعالى أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً بقوله تعالى:

﴿ إن عبادي ﴾ أي: المؤمنين كلهم ﴿ ليس لك ﴾ أي: بوجه من الوجوه ﴿ عليهم سلطان ﴾ أي: لتردّهم كلهم عما يرضيني ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ (إبراهيم، )

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (النحل: ، )

. ﴿ إلا من اتبعك ﴾ أي: بتعمدٍ منه ورغبة من اتباعك ﴿ من الغاوين ﴾ أي: ومات من غير توبة فإني جعلت لك عليهم سلطاناً بالتزيين والإغواء وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية؟ فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي. وقيل:

إنّ الإضافة للتشريف فلا تشمل إلا الخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً وفائدة سوقه بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب في رتبة التشريف بالإضافة إليه والرجوع عن اتباع العدو إلى الإقبال عليه لأن ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية ينافسون في ذلك المقام ويرونه كما هو الحق أعلى مرام.

﴿ وإن جهنم لموعدهم ﴾ أي: الغاوين وهم إبليس ومن تبعه ﴿ أجمعين ﴾ ثم بين تعالى أنهم متفاوتون فيها بقوله تعالى:

(147/426)

---

﴿ لها ﴾ أي: لجهنم ﴿ سبعة أبواب ﴾ أي: سبع طبقات قال عليّ رضي الله تعالى عنه: أتدرون كيف أبواب النار؟ هكذا ووضع إحدى يديه على الأخرى، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض. وإنّ الله تعالى وضع الجنات على العرض ووضع النيران بعضها على بعض. قال ابن جريج: النار سبعة دركات أوّلها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. تنبيه: تخصيص العدد لأنّ أهلها سبع فرق وقيل: جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، لأنها مصادر السيئات فكانت مواردها الأبواب السبعة، ولما كانت هي بعينها مصادر

الحسنات بشرط النية والنية من أعمال القلب زادت الأعضاء واحداً فجعلت أبواب الجنان ثمانية قال تعالى: ﴿لكل باب﴾ أي: منها ﴿منهم﴾ أي: من الغاوين خاصة لا يشاركهم فيها مخلص ﴿جزء﴾ أي: نصيب. وقرأ شعبة بضم الزاي والباقون بالسكون ﴿مقسوم﴾ أي: معلوم فلكل دركة قوم يسكنونها. قال الضحاك: في الدرجة الأولى أهل التوحيد الذي أدخلوا النار يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ (النساء، )

. وروي عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمّتي أو قال على أمّة محمد". ولما شرح تعالى أحوال أهل العقاب أتبعه بصفة أهل الثواب بقوله تعالى مؤكداً لإنكار المكذبين بالبعث:



---

﴿إن المتقين﴾ أي: الذين اتقوا الشرك بالله تعالى كما قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لأنّ المتقي والآتي بالتقوى مرّة واحدة كما أنّ الضارب هو الآتي بالضرب مرّة

واحدة والقاتل هو الآتي بالقتل مرّة واحدة فكما أنه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضارباً أو قاتلاً كونه آتياً بجميع أنواع الضرب والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً كونه آتياً بجميع أنواع التقوى لأنّ الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى، لأنّ كل فرد من أفراد الماهية يجب كونه مشتملاً على تلك الماهية ﴿في جنات﴾ أي: بساتين. قال الرازي: أمّا الجنات فأربعة لقوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (الرحمن، )

ثم قال: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (الرحمن، )

فيكون المجموع أربعة. وقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (الرخمن، )

يؤكد ما قلناه لأن من آمن بالله لا ينفك قلبه من الخوف من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ولمن خاف﴾ يكفي في صدقه حصول هذا الخوف مرّة واحدة. وقوله تعالى: ﴿وعيون﴾ قال الرازي: يحتمل أن يكون المراد منها ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ (محمد، )

. ويحتمل أن يكون المراد من هذه العيون منابع مغايرة لتلك الأنهار. فإن قيل: هل كان واحد من المتقين مختص بعيون أو تجري تلك العيون بعضها إلى بعض؟

أجيب: بأن كل واحد من الوجهين محتمل فيجوز أن يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها،

ومن يختص به من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل أن يجري من بعضهم إلى بعض لأنهم يطهرون عن الحقد والحسد . وقرأ نافع وأبو عمرو وهشام وحفص برفع العين والباقون بالكسر وقرأ بكسر التنوين في الوصل أبو عمرو وابن ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم . ولما كان المنزل لا يحسن إلا بالسلامة والأنس قال تعالى:

(149/426)

---

﴿ ادخلوها ﴾ أي : يقال لهم ذلك ﴿ بسلام ﴾ أي : سالمين من كل آفة مرحباً بكم ﴿ آمنين ﴾ من ذلك دائماً . ولما كان الأنس لا يكمل إلا بالجنس مع كمال المودة وصفاء القلوب عن الكدر . قال تعالى : ﴿ ونزعنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ ما في صدورهم من غلّ ﴾ أي : حقد كامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة والحسد والبغضاء فكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لأنها كامنة في القلب . يروى أن المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم إلى الجنة وقد نقيت قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم ﴿ إخواناً ﴾ أي : متصافين حالة كونهم ﴿ على سرر ﴾ جمع سرير وهو مجلس رفيع موطأ للسرور وهو مأخوذ منه لأنه

مجلس سرور . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : يريد على سرر من ذهب مكالة بالزبرجد والدرّ والياقوت والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية ﴿ متقابلين ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض فإن التقابل التواجه وهو نقيض التدابر ولا شك أنّ المواجهة أشرف الأحوال . وعند مجاهد رضي الله تعالى عنه تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين . تنبيه : ليس المراد الإخوة في النسب بل المراد الإخوة في المودّة والمخالطة كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ﴾ (الزخرف ، )

. وعن الجنيد أنه قال : ما أحلى الاجتماع مع الأصحاب وما أمرّ الاجتماع مع الأضداد .

وقوله تعالى:

﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ أي : إعياء وتعب وجهد ومشقة استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير في متقابلين وقوله تعالى : ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ المراد به كونه خلوداً بلا زوال وبقاء بلا فناء وكمالاً بلا نقصان وفوزاً بلا حرمان . انتهى انتهى . اهـ

﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 281. 298 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) ﴾

هنا نجيء إلى قصة البشرية الكبرى : قصة الفطرة الأولى . قصة الهدى والضلال وعواملهما الأصيلة . قصة آدم . مم خلق ؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه ؟

ولقد مرت بنا هذه القصة في الظلال معروضة مرتين من قبل . في سورة البقرة ، وفي سورة الأعراف . ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص ، في معرض خاص ، في جو خاص . ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع ، واختلفت طريقة الأداء ، واختلفت الظلال ، واختلفت الإيقاع . مع المشاركة في بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف .

تشابهت مقدمات القصة في السور الثلاث ؛ في الأشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها :

ففي سورة البقرة سبقها في السياق : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ﴾ وفي سورة الأعراف سبقها : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون ﴾ وهنا سبقها : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾ ولكن السياق الذي وردت فيه القصة في

كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض . .

في البقرة كانت نقطة التركيز في السياق هي استخلاف آدم في الأرض التي خلق لله للناس ما فيها جميعاً :

(151/426)

---

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ومن ثم عرض من القصة أسرار هذا الاستخلاف الذي عجبت له الملائكة لما خفي عليهم سره : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ ﴾ ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره . وسكنى آدم وزوجه الجنة . وإزلال الشيطان لهما عنها وأخراجهما منها . ثم الهبوط إلى الأرض للخلافه فيها ، بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية ، واستغفارهما وتوبة الله عليهما . . وعقب على القصة بدعوة بني إسرائيل لذكر نعمة الله عليهم والوفاء بعهده معهم ، فكان هذا متصلاً باستخلاف أبيهم الأكبر في الأرض ، وعهده معه ،

والتجربة القاسية لأبي البشر . .

وفي الأعراف كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ؛ وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها . حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولي . ففريق منهم يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه . وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود . . ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإباء ابليس واستكباره .

(152/426)

---

وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث ، ليغوي أبناء آدم الذي من أجله طرد . ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، هي رمز المحظور الذي تبتلى به الإرادة والطاعة . ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سوآتهما لهما ، وعتاب الله لآدم وزوجه ، وإهباطهم إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى : ﴿ قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، قال : فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة أخرى . وعرضهم في الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار . ثم انتهى فريق

إلى الجنة وفريق إلى النار : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ وأسدل الستار . .

فأما هنا في هذه السورة فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان . . ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ؛ وخلق الشيطان من قبل من نار السموم . ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون . وطرده ولعنته . وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته . وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين . إنما سلطانه على من يدينون له ولا يدنون لله . وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل . تبعا لنقطة التركيز في السياق ، وقد استوفيت ببيان عنصري الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان . .

فلنمض إلى مشاهد القصة في هذا المجال :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ . .

وفي هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال وهو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره، المتخذ من الطين الرطب الآسن والنار الموسومة بأنها شعواء سامة.. نار السموم.. وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله، أما طبيعة الشيطان فبقيت نار السموم.

﴿ وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال: يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين؟ قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. قال: فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾..

وإذ قال ربك للملائكة.. متى قال؟، وأين قال؟ وكيف قال؟ كل أولئك قد أجبنا عنه في سورة البقرة في الجزء الأول من هذه الظلال.

إنه لا سبيل إلى الإجابة، لأنه ليس لدينا نص يجيب. وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص، وكل ما عدا ذلك ضرب في التيه بلا دليل.

فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان؟ فهو كذلك ما لا ندري كيفيته، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال.

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى في هذه القضية ، وبخاصة قوله : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . وقوله : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين . أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ؛ ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين . وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة ﴿ سلالة ﴾ . وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التحمل ليس القرآن في حاجة إليه . وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له ، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلا مضمونة ، ويبدل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص . غير متعارض في أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التي ضمنها القرآن ؛ وهي ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبها على وجه اليقين .

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولا ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيرا ؟ فهنا السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون . وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافيا لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه . فأما سر الحياة الإنسانية

العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعا ، تفوقاً حاسماً فاصلا منذ بدء ظهور الإنسان . فأما هذا السر فما تزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله ، مما يزعم بعضها أن الإنسان " تطور " عنه كما أنها لا تملك نفي الاحتمال الآخر : وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء وإن كان بعضها أرقى من بعض ثم نشأة هذا الإنسان متفرداً منذ البدء ايضاً . والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك التفرد ، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط :

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي . . . ﴾

(155/426)

---

فهي روح الله تنقل هذا التكوين العضوي الوضيع إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذي توكل إليه الخلائق في الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين .

كيف ؟ .

.

ومتى كان نطاق هذا المخلوق الإنساني أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين . .

لقد كان خلق الشيطان من قبل من نار السموم . فهو سابق إذن للإنسان في الخلق . هذا ما نعلمه . أما كيف هو وكيف كان خلقه . فذلك شأن آخر . ليس لنا أن نخوض فيه . إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم . ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار . والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم . ثم تتكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار . وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار !

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ؛ ثم من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء ؛ ومنحته خصائصه الإنسانية ، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ؛ فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء . بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه !

هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى ؛ وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، وللتلقي عنه ؛ ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول . والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات . ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات . . هذا مع أن هذا الكائن " مركّب " منذ البدء من هذين الأفقين اللذين لا ينفصلان فيه . طبيعته طبيعة " المركّب " لا طبيعة " المخلوط " أو " الممزوج ! " ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التي جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين . . إنه لا انفصال بين هذين الأفقين في تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته . إنه لا يكون طيناً خالصاً في لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً في لحظة ؛ ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلا بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الانفصال !

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يطلب إليه ان يبلغه ، وهو الكمال البشري المقدر له . فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون مَلَكا أو ليكون حيوانا . وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان . والارتفاع الذي يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه

الأصيلة ، والحكمة التي من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذي يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة . . كلاهما يخرج على سواء فطرته ؛ ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له . وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب في كيانها الأصيل . وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل هذا أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام . انكر عليهم كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها وقال : " فمن رغب عن سنتي فليس مني " .

(157/426)

---

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ؛ وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر . إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف ؛ ولا اعتداء من إحداها على الأخرى . فكل اعتداء يقابله تعطيل . وكل طغيان يقابله تدمير . والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله . والنظام الذي يقيمه الإسلام للناس حفيظ على

هذه الخصائص التي لم يهبها الله جزافا للإنسان .

والذي يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية في الإنسان يدمر كيانه المتفرد . ومثله الذي يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والإيمان بالغيب الذي هو من خصائص الإنسان . . والذي يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية ، كالذي يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء . . كلاهما عدو " للإنسان " يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان !

إن الإنسان حيوان وزيادة . . فله مثل مطالب الحيوان ، وله ما يقابل هذه الزيادة . وليست هذه المطالب دون هذه هي " المطالب الأساسية "كما يزعم اعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية " العلمية " .

هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما يقررها القرآن . نمر بها سراعا ، حتى لا نوقف تدفق النص القرآني في عرض مشاهد القصة الكبرى ، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات في نهايتها :

لقد قال الله للملائكة : ﴿ إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ . .

وقد كان ما قاله الله. فقوله تعالى إرادة. وتوجه الإرادة ينشئ المراد. ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني. فالجدل على هذا النحو عبث عقلي. بل عبث بالعقل ذاته، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم. وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده، وإقحام له في غير ميدانه، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية، وخطأ في المنهج من الأساس.

إنه يقول: كيف يتلبس الخالد بالفاني، وكيف يتلبس الأزلي بالحادث؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل! بينما العقل الإنساني ليس مدعواً أصلاً للفصل في الموضوع. لأن الله يقول: إن هذا قد كان. ولا يقول: كيف كان. فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه. وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده - غير التسليم بالنص - لأنه لا يملك وسائل الحكم. فهو حادث. والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته، ولا على الأزلي في خلقه للحادث. وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية وهي أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أي صورة من صوره. يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً في غير مجاله المأمون.

فلننظر بعد ذلك ماذا كان :

﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ . .

كما هي طبيعة هذا الخلق الملائكة الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق .

﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ . .

(159/426)

---

وإبليس خلق آخر غير الملائكة . فهو من نار وهم من نور . وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وهو أبى وعصى . فليس هو من الملائكة بيقين . أما الاستثناء هنا فليس على وجهه . إنما هو كما تقول : حضر بنو فلان إلا أحمد . وليس منهم . إنما هو معهم في كل مكان أو ملابسة . وأما أن الأمر المذكور للملائكة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ . . فكيف شمل إبليس ؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحاً في سورة الأعراف : ﴿ قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ ﴾ وأسلوب القرآن يكتفي بالدلالة اللاحقة في كثير من المواضع . فقول الله تعالى له : ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ ﴾ قاطع في أن الأمر قد صدر له . وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة . فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة ما . وقد يصدر إليه منفردا

ولا يذكر تهوينا لشأنه وإظهارا للملائكة في الموقف . ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة . وهذا ما نختاره .

وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها في غير حدود النصوص . لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال .

﴿ قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ . .

وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم . وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين .

وتشامخ برأسه المغرور يقول : إنه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ! .

وكان ما ينبغي أن يكون :

﴿ قال : فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ . .

جزاء العصيان والشرود :

عندئذ تتبدى خليقة الحقد وخليقة الشر :

﴿ قال : رب فأنظرني إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ . .

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفر عن إثمه الجسيم . ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده . يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير !

﴿ قال : رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . .

وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة . إنها الأرض :

﴿ لأزينن لهم في الأرض ﴾ . .

وحدد عدته فيها إنه التزين . تزيين القبيح وتجميله ، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه . وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمله ، وتظهره في غير حقيقته وردائه . فليفطن الناس إلى عدة الشيطان ؛ وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينا ، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاء . ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك . إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق عبادته ، فليس للشيطان بشرطه هو على عباد الله المخلصين من سبيل :

﴿ ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . .

والله يستخلص لنفسه من عباده من يخلص نفسه لله ، ويجردها له وحده ، ويعبده كأنه يراه . وهؤلاء ليس للشيطان عليهم من سلطان .

هذا الشرط الذي قرره إبليس اللعين قرره وهو يدرك أن لا سبيل إلى سواه ، لأنه سنة الله . . أن يستخلص لنفسه من يخلص له نفسه ، وأن يحميه ويرعاه . . ومن ثم كان الجواب :

﴿ هذا صراط عليّ مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ . .



---

هذا صراط . هذا ناموس . هذه سنة . وهي السنة التي إرتضتها الإرادة قانونا وحكما في الهدى والضلال . ﴿ إن عبادي ﴾ المخلصين لي ليس لك عليهم سلطان ، ولا لك فيهم تأثير ، ولا تملك أن تزين لهم لأنك عنهم محصور ، ولأنهم منك في حمى ، ولأن مداخلك إلى نفوسهم مغلقة ، وهم يعلقون أبصارهم بالله ، ويدركون ناموسه بفطرتهم الواصلة إلى الله . إنما سلطانك على من اتبعك من الغاوين الضالين . فهو استثناء مقطوع لأن الغاوين ليسوا جزاء من عباد الله المخلصين . إن الشيطان لا يتلقف إلا الشاردين كما يتلقف الذئب

الشاردة من القطيع . فأما من يخلصون أنفسهم لله ، فالله لا يتركهم للضياع . ورحمة الله أوسع ولو تخلفوا فإنهم يثوبون من قريب !

فأما العاقبة . عاقبة الغاوين . فهي معلنة في الساحة منذ البدء :

﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين .

لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

فهولاء الغاوون صنوف ودرجات . والغواية ألوان وأشكال . ولكل باب منهم جزء مقسوم ، بحسب ما يكونون وما يعملون .

وينتهي المشهد وقد وصل السياق بالقصة إلى نقطة التركيز وموضع العبرة . ووضح كيف يسلك الشيطان طريقه إلى النفوس . وكيف تغلب خصائص الطين في الإنسان على خصائص النفخة . أما من يتصل بالله ويحتفظ بنفخة روحه فلا سلطان عليه للشيطان . .

وبمناسبة ذكر مصير الغاوين يذكر مصير المخلصين :

﴿ إن المتقين في جنات وعيون . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ .

والمتقون هم الذين يرقبون الله ويقون أنفسهم عذابه وأسبابه . ولعل العيون في الجنات تقابل في المشهد تلك الأبواب في جهنم . وهم يدخلون الجنات بسلام آمنين في مقابل الخوف والفزع هناك . ونزعنا ما في صدورهم من غل ، في مقابل الحقد الذي يغلي به صدر إبليس فيما سلف من السياق . لا يمسهم فيها نصب ولا يخافون منها خروجا . جزاء ما خافوا في الأرض واتقوا فاستحقوا المقام المطمئن الآمن في جوار الله الكريم . . . .

وبعد ، فإن قصة البشرية الكبرى كما تعرض في هذا السياق القرآني تستحق تعقيبات مفصلة لا نملك ان نستطرد فيها في ظلال القرآن فنكتفي أن نلم بها إلماما ، على قدر المناسبة :

* أن دلالتها واضحة على طبيعة تكوين هذا الخلق المسمى بالإنسان . فهو تكوين خاص متفرد ، يزيد على مجرد التركيب العضوي الحيوي ، الذي يشترك فيه مع بقية الأحياء . وأيا كانت نشأة الحياة ، ونشأة الأحياء ؛ فإن الخلق الإنساني يتفرد بخاصية أخرى هي التي ورد بها النص القرآني . . خاصية الروح الإلهي المودع فيه . . وهي الخاصية التي تجعل من هذا الإنسان إنسانا ، يتفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى . وهي قطعاً ليست مجرد الحياة . فهو يشترك في " الحياة " مع سائر الأحياء . ولكنها خاصية الروح الزائد عن مجرد الحياة .

هذه الخاصية كما يلهم النص القرآني لم تجئ للإنسان بعد مراحل أو أطوار من نشأته كما

تزعم الدارونية ولكنها جاءت مصاحبة لخلقه ونشأته. فلم يجئ على هذا الكائن الإنساني زمان كان فيه مجرد حيّ من الأحياء بلا روح إنساني خاص ثم دخلته هذه الروح، فصار بها وهو هذا الإنسان!

ولقد اضطرت الدارونية الحديثة على يد جوليان هاكسلي أن تعترف بشطر من هذه الحقيقة الكبيرة؛ وهي تقرر "تفرد الإنسان" من الناحية الحيوية والوظيفية. ومن ثم تفرده من الناحية العقلية، وما نشأ عن ذلك كله من تفرده من الناحية الحضارية.

.

ولكنها ظلت تزعم أن هذا الإنسان المتفرد متطور عن حيوان!



---

والتوفيق عسير بين ما انتهت إليه الداروينية الحديثة من تفرد الإنسان، وبين القاعدة التي تقوم عليها الداروينية قاعدة التطور المطلق وتطور الإنسان عن الحيوان ولكن الداروينيين ومن والاهم لا يزالون مصرين على ذلك الاندفاع غير العلمي الذي صبغوه بصبغة العلم، في دفعة الانسلاخ من كل مقررات الكنيسة! والذي شجع اليهود على نشره وتمكينه وتثبيته، وإضفاء الصبغة "العلمية" عليه لغرض في نفوسهم؛ ولغاية في مخططاتهم!

ولقد سبق أن تحدثنا عن هذه القضية ، ونحن نواجه النصوص القرآنية المشابهة في سورة الأعراف في هذه الضلال ؛ فنقتطف هذه الفقرات مما سبق تقريره هناك :

" وعلى أية حال ، فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام ، وفي نشأة الجنس البشري ، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحبا لخلقه . وأن الترقي " الإنساني " كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ، ونموها ، وتدريبها ، واكتسابها الخبرة العالية . ولم يكن ترقياً في " وجود " الإنسان . . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان . . كما تقول الداروينية .

" ووجود أنواع مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والإرتقاء هو مجرد نظرية " ظنية " وليست " يقينية " لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظنا ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدّلها أو تغيرها !



---

" على أنه على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور ليس هناك ما يمنع من وجود " أنواع " من الحيوان ، في أزمان متوالية ، بعضها أرقى من بعض ، بفعل الظروف السائدة في الأرض

ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة في حياتها . ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة ( وظهور أنواع أخرى أكثر ملاءمة للظروف السائدة ) . . . ولكن هذا لا " يحتم " أن يكون بعضها " متطورا " من بعض . . وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا ، لا تستطيع أن تثبت في يقين مقطوع به أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنيا . . وهذا يمكن تعليله بما قلنا من ان الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع . فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر ، فنشأ . ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشا من قبل في الظروف الأخرى ، فانقرض . وعندئذ تكون نشأة النوع الأنساني نشأة مستقلة ، في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع . . وهذا ما ترجحه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية .

" وتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية . هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون وفيهم الملحدون بالله كلية للاعتراف به ، دليل مرجح ( في مجال البحوث الإنسانية ) على تفرد النشأة الإنسانية ، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي " .

* هذه النشأة المتفردة للإنسان ، باحتوائها على هذه الخاصية المنشئة للوجود الأنساني المستقل . . خاصية النفخة من روح الله . . تجعل النظرة إلى هذا الأنسان و " مطالبه الأساسية " تختلف اختلافاً أصيلا عن نظرة المذاهب المادية ، بكل إفرازاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكل إفرازاتها في التصورات والقيم التي ينبغي أن تسود الحياة الإنسانية .

إن الزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان ! هي التي جعلت الإعلان الماركسي يذكر أن مطالب الإنسان الأساسية هي الطعام والشراب والمسكن والجنس ! فهذه فعلاً هي مطالب الحيوان الأساسية ! ولا يكون الإنسان في وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة ! ومن ثم تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرده عن الحيوان بخصائصه الإنسانية . . تهدر حقوقه في الاعتقاد الديني . وتهدر حقوقه في حرية التفكير والرأي . وتهدر حقوقه في اختيار نوع العمل ، ومكان الإقامة . وتهدر حقوقه في نقد النظام السائد وأسسه الفكرية والمذهبية . بل تهدر حقوقه في نقد تصرفات " الحزب " ومن هم أقل من الحزب من الحكام المتسلطين في تلك الأنظمة البغيضة ، التي تحشر الأناسي حشراً ، وتسوقهم سوقاً ،

لأن هؤلاء " الأناسيّ " وفق الفلسفة المادية ليسوا سوى نوع من الحيوان تطور عن حيوان ! . . ثم يسمى ذلك النكد كله : " الاشتراكية العلمية " !

(166/426)

---

فأما النظرة الإسلامية إلى " الإنسان " وهي تقوم على أساس تفرده بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوي - فإنها منذ اللحظة الأولى تعتبر أن مطالب الإنسان الأساسية مختلفة وزائدة عن مطالب الحيوان الأساسية . فليس الطعام والشراب والمسكن والجنس هي كل مطالبه الأساسية . وليس ما وراءها من مطالب العقل والروح مطالب ثانوية ! . . إن العقيدة وحرية التفكير والإرادة والاختيار هي مطالب أساسية كالطعام والشراب والمسكن والجنس . . بل هي أعلى منها في الاعتبار ؛ لأنها هي المطالب الزائدة في الإنسان على الحيوان . أي المطالب المتعلقة بخصائصه التي تقرر إنسانيته ! والتي بإهدارها تهدر آدميته !

ومن ثم لا يجوز أن تهدر في النظام الإسلامي حرية الاعتقاد والتفكير والاختيار في سبيل " الإنتاج " وتوفير الطعام والشراب والمسكن والجنس للآدميين ! كما لا يجوز أن تهدر القيم الاخلاقية كما يقررها الله للإنسان لا كما يقررها العرف والبيئة والاقتصاد في سبيل توفير

تلك المطالب الحيوانية .

.

إنهما نظرتان مختلفتان من الأساس في تقييم " الإنسان " و " مطالبه الأساسية " . . ومن ثم لا يمكن الجمع بينهما في نظام واحد على الإطلاق ! فإما الإسلام ، وإما المذاهب المادية بكل ما تفرزه من إفرازات نكدة . . بما فيها ما يسمونه هناك : " الاشتراكية العلمية " فإن هو إلا إفراز خبيث من إفرازات المادية الحقيرة المحتقرة للإنسان الذي كرمه الله .

* والمعركة الخالدة بين الشيطان والإنسان في هذه الأرض ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدا عن منهج الله ؛ والتزيين له فيما عداه . استدراجه إلى الخروج من عبادة الله أي الدينونة له في كل ما شرع من عقيدة وتصور ، وشعيرة ونسك ، وشريعة ونظام فأما الذين يدينون له وحده أي يعبدونه وحده فليس للشيطان عليهم من سلطان . . ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ . .



ومفرق الطريق بين الاتجاه إلى الجنة التي وعد بها المتقون ؛ وبين الاتجاة إلى جهنم التي وعد بها الغاوون ، هو الدينونة لله وحده التي يعبر عنها في القرآن دائماً بالعبادة أو اتباع تزيين

الشيطان بالخروج على هذه الدينونة.

والشيطان نفسه لم يكن ينكر وجود الله سبحانه، ولا صفاته.. أي إنه لم يكن يلحد في الله من ناحية العقيدة! إنما الذي فعله هو الخروج على الدينونة لله.. وهذا هو ما أورده جهنم هو ومن اتبعه من الغاوين.

إن الدينونة لله وحده هي مناط الإسلام. فلا قيمة لإسلام يدين أصحابه لغير الله في حكم من الأحكام. وسواء كان هذا الحكم خاصاً بالاعتقاد والتصور. أو خاصاً بالشعائر والمناسك. أو خاصاً بالشرائع والقوانين. أو خاصاً بالقيم والموازين.. فهو سواء.. الدينونة فيه لله هي الإسلام. والدينونة فيه لغير الله هي الجاهلية الذاهبة مع الشيطان. ولا يمكن تجزئة هذه الدينونة؛ واختصاصها بالاعتقاد والشعائر دون النظام والشرائع. فالدينونة لله كل لا يتجزأ. وهي العبادة لله في معناها اللغوي وفي معناها الاصطلاحي على السواء.. وعليها تدور المعركة الخالدة بين الإنسان والشيطان!

* وأخيراً نقف أمام اللفتة الصادقة العميقة في قوله تعالى عن المتقين:

﴿ إن المتقين في جنات وعيون. ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين. لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾..

إن هذا الدين لا يحاول تغيير طبيعة البشر في هذه الأرض ؛ ولا تحويلهم خلقاً آخر . ومن ثم يعترف لهم بأنه كان في صدورهم غلٌّ في الدنيا ؛ وبأن هذا من طبيعة بشريتهم التي لا يذهب بها الإيمان والإسلام من جذورها ؛ ولكنه يعالجها فقط لتخف حدتها ، ويتسامى بها لتنصرف إلى الحب في الله والكره في الله وهل الإيمان إلا الحب والبغض ؟ ولكنهم في الجنة قد وصلت بشريتهم إلى منتهى رقيها وأدت كذلك دورها في الحياة الدنيا ينزع أصل الإحساس بالغل من صدروهم ؛ ولا تكون إلا الأخوة الصافية الودود . .

إنها درجة أهل الجنة . . فمن وجدها في نفسه غالبة في هذه الأرض ، فليستبشر بأنه من أهلها ، ما دام ذلك وهو مؤمن ، فهذا هو الشرط الذي لا تقوم بغيره الأعمال . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ الظلال جـ 4 صـ 2136. 2145 ﴾

*(169/426)*

قوله تعالى ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ

تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المفهوم من هذا السياق أن الناجي إنما هو المتقي المخلص الذي ليس للشيطان عليه سلطان ، وكان مفهوم المخلص من لا شائبة فيه ، وكان الإنسان محل النقصان ، وكان وقوعه في النقص منافياً للوفاء بحق التقوى والإخلاص ، وكان ربما أيأسه ذلك من الإسعاد ، فأوجب له التمادي في البعاد ، قال سبحانه - جواباً لمن كأنه قال : فما حال من لم يقم بحق التقوى ؟ ﴿ نبىء عبادي ﴾ أي أخبرهم إخباراً جليلاً ﴿ أني أنا ﴾ أي وحدي ﴿ الغفور الرحيم ﴾ أي الذي أحاط - محوه للذنوب وإكرامه لمن يريد - بجميع ما يريد ، لا اعتراض لأحد عليه .

ولما كان ذلك ربما سبباً للاغترار الموجب للإصرار ، قال تعالى : ﴿ وأن عذابي هو ﴾ أي وحده ﴿ العذاب الأليم ﴾ أي الكامل في الإيلام ، فعلم أن الأول لمن استغفر ، والثاني لمت أصر ، وعرف من ذلك أن المتقين إنما دخلوا الجنة بعفوه ، والغاوين إنما عذبوا بعدله ، فهو لف ونشر مشوش - على ما هو الأفصح .

ولما أتم سبحانه شرح قوله : ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ وما تبعه من الدلالة على

البعث ، شرع في شرح ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ بقصة الخليل عليه السلام وما بعدها مع الوفاء بذكر المعاد ، تارة تلويحاً وتارة تصريحاً ، والرجز عن الاجتراء على طلب الإتيان بالملائكة عليهم السلام ، والالتفات إلى قوله : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ﴾ [ إبراهيم : 39 ] في أسلوب شارح لما تعقبه هذه القصة ، فإن حصول القنوط سبب لآية المغفرة ، والإخبار بعذاب الأمم تمثيل لآية العذاب ليزدجر المخاطبون ، وأفراد لهم ذكر من هو أقرب إلى بلادهم ممن يعرفونه من المعذبين لأنه أوقع في النفس ، فقال تعالى : ﴿ ونبئهم ﴾ أي خبرهم إخباراً عظيماً ﴿ عن ضيف إبراهيم ﴾ والضيف هو المنضم إلى غيره لطلب القرى ، فهؤلاء سموا بهذا الاسم لأنهم على صورة الضيف ، فهو من دلالة التضمن ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ أي إبراهيم عليه السلام ﴿ فقالوا ﴾ أي عقب الدخول ﴿ سلاماً ﴾ .



---

ولما كان طلبهم في هذه الصورة للملائكة على وجه أوكد مما في سورة هود عليه السلام ، أشار لهم إلى ما في رؤية الملائكة من الخوف ولو كانوا مبشرين وفي أحسن صورة من صور البشر - بقوله : ﴿ قال ﴾ بلسان الحال أو القال : ﴿ إنا ﴾ أي أنا ومن عندي ﴿ منكم

وجلون ﴾ وأسقط ذكر جوابه بالسلام ، ولا يقدح ذلك فيما في سورة هود وغيرها من ذكره ، فإن إذ ظرف زمان بمعنى حين ، والحين قد يكون واسعاً ، فيذكر ما فيه تارة جميعه على ترتيبه ، وأخرى على غير ذلك ، وتارة بعضه مع إسقاط البعض مع صدق جميع وجوه الإخبار لكونه كان مشتملاً على الجميع ، وتكون هذه التصرفات على هذه الوجوه لمعانٍ يستخرجها من أراد الله .

ولما أخبر أنه أخبرهم بوجله منهم ، تشوف السامع إلى جوابهم فقال : ﴿ قالوا ﴾ مريدين أمنه : ﴿ لا توجل ﴾ والوجل : اضطراب النفس لتوقع ما يكره ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكدين لقلع ما في نفسه من الوجل المنافي للبشرى ﴿ إنا نبشرك بغلام ﴾ أي ولد ذكر هو في غاية القوة وليس هو كأولاد الشيوخ ضعيفاً .

ولما كان خوفه لخفاء أمرهم عليه ، كان للوصف بالعلم في هذا السياق مزيد مزية فقالوا : ﴿ عليم ﴾ فكأنه قيل : فما قال ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ مظهراً للتعجب إرادة تحقيق الأمر وتأكيده : ﴿ أبشرتموني ﴾ أي بذلك ﴿ على أن مسني الكبر ﴾ أي الذي لا حركة معه يأتي منها ولد ، أم على أن أعود شاباً ؟ ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فبم تبشرون ﴾ بينوا لي ذلك بياناً شافياً ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ أي الأمر الثابت المقطوع به الواقع لا محالة الذي يطابق خبرنا ﴿ فلا تكن ﴾ أي بسبب تبشيرنا لك بالحق ﴿ من القانطين ﴾ أي الآئسين الذين ركنوا إلى يأسهم ، لقولك نحو أقوالهم .

(171/426)

---

فلما ألهبوه بهذا النهي ﴿ قال ﴾ منكراً لأن يكون من القانطين : ﴿ ومن يقنط ﴾ أي ييأس هذا اليأس ﴿ من رحمة ربه ﴾ أي الذي لم يزل إحسانه داراّ عليه ﴿ إلا الضالون ﴾ أي المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم من تمام القدرة وأنه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة ، وهذا إشارة إلى أنه ما كان قانطاً ، وإنما كان مريداً لتحقيق الخبر ، وفي هذا تلويح إلى أمر المعاد . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 225 ـ 227 ﴾

(172/426)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

في الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

أثبتت الهمزة الساكنة في ( نبىء ) صورة ، وما أثبتت في قوله : ﴿ دِفْءٌ ﴾ ﴿ وجزء ﴾ لأن ما قبلها ساكن فهي تحذف كثيراً وتلقى حركتها على الساكن قبلها ، ف ( نبىء ) في الخط على تحقيق الهمزة ، وليس قبل همزة ( نبىء ) ساكن فاجرؤها على قياس الأصل :

المسألة الثانية :

اعلم أن عباد الله قسمان : منهم من يكون متقياً ، ومنهم من لا يكون كذلك ، فلما ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة ، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية فقال : ﴿ نَبِّىء عِبَادِى ﴾ .

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، فههنا وصفهم بكونهم عباداً له ، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفوراً رحيماً ، فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كونه الله غفوراً رحيماً ومن أنكر ذلك كان مستوجباً للعقاب الأليم .

وفي الآية لطائف : أحدها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : ﴿ عِبَادِي ﴾ وهذا تشريف عظيم .

ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله : ﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [ الإسراء : 1 ] .

وثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله : ﴿ أَنِّى ﴾ .

وثانيها : قوله : ﴿أَنَا ﴾ .

وثالثها : ادخال حرف الألف واللام على قوله : ﴿الغفور الرحيم﴾ ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ .

وثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

(173/426)

---

ورابعها : أنه لما قال : ﴿نَبِّىء عِبَادِي﴾ كان معناه نبىء كل من كان معترفاً بعبوديتي ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى .

وعن قتادة قال : بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى ما تورع من حرام ، ولو علم قدر عقابه لبخع نفسه " أي قتلها وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بنفر من أصحابه ، وهم يضحكون فقال : " أتضحكون والنار بين أيديكم " فنزل قوله : ﴿نَبِّىء عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم﴾ ، والله أعلم .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ

﴿ (52) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء ، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء ، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام ، والضمير في قوله : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ عِبَادِى ﴾ والتقدير : ونبىء عبادي عن ضيف إبراهيم ، يقال : أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة إذا أخبرتهم وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر .

وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضاً بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين ، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار .

المسألة الثانية :

الضيف في الأصل مصدر ضاف يضيف إذا أتى إنساناً لطلب القرى ، ثم سمى به ، ولذلك

وحد في اللفظ وهم جماعة.

فإن قيل: كيف سماهم ضيفاً مع امتناعهم عن الأكل؟

*(174/426)*

---

قلنا: لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك.

وقيل أيضاً: إن من يدخل دار الإنسان ويلتجىء إليه يسمى ضيفاً وإن لم يأكل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً أو سلمت سلاماً، فقال إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل.

وقيل: لأنهم دخلوا عليه بغير إذن وبغير وقت وقرأ الحسن: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه.

وقرىء لا تأجل ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله، وهذه القصة قد مر ذكرها بالاستقصاء في سورة هود.

وقوله: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ فيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ حمزة: ﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ﴾ بفتح النون، وتخفيف الباء، والباقون: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ بالتشديد.

البحث الثاني : قوله : ﴿ إنا نُبَشّرُكَ ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل ، والمعنى : أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل .

البحث الثالث : قوله : ﴿ إِنَّا نُبَشّرُكَ بغلام عَلِيمٍ ﴾ بشروه بأمرين : أحدهما : أن الولد ذكر والآخر أنه يصير عليماً ، واختلفوا في تفسير العليم ، فقيل : بشروه بنبوته بعده .

وقيل : بشروه بأنه عليم بالدين .

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ، فمعنى : ﴿ على ﴾ ههنا للحال أي حالة الكبر ، وقوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشّرُونَ ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

لفظ ما ههنا استفهام بمعنى التعجب كأنه قال : بأي أعجوبة تبشروني ؟

فإن قيل : في الآية إشكالان : الأول : أنه كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر وإنكار قدرة الله تعالى في هذا الموضع كفر .

الثاني : كيف قال : ﴿ فَبِمَ تُبَشّرُونَ ﴾ مع أنهم قد بينوا ما بشروه به ، وما فائدة هذا الإستفهام .

قال القاضي : أحسن ما قيل في الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شاباً ، ثم يعطيه الولد ، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب .

فإن قيل : فإذا كان معنى الكلام ما ذكرتم فلم قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قلنا : إنهم بينوا أن الله تعالى بشره بالولد مع إبقائه على صفة الشيخوخة وقوله : فلا تكن من القانطين .

لا يدل على أنه كان كذلك ، بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ ﴾ وفيه جواب آخر ، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه ، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلمات مضطربة في ذلك الفرح في ذلك الوقت ، وقيل أيضاً : إنه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ومرتين وأكثر طلباً للالتذاذ بسماع تلك البشارة ، وطلباً لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [ البقرة : 260 ] وقيل أيضاً : استفهم أبأمر الله تبشرون أم من عند أنفسكم واجتهادكم ؟

المسألة الثانية :

قرأ نافع : ﴿ تُبَشِّرُونَ ﴾ بكسر النون خفيفة في كل القرآن ، وقرأ ابن كثير بكسر النون وتشديدها .

والباقون بفتح النون خفيفة ، أما الكسر والتشديد فتقديره تبشرونني أدغمت نون الجمع في نون الإضافة ، وأما الكسر والتخفيف فعلى حذف نون الجمع استثقالاً لاجتماع المثلين وطلباً للتخفيف قال أبو حاتم : حذف نافع الياء مع النون .

قال : وإسقاط الحرفين لا يجوز ، وأجيب عنه : بأنه أسقط حرفاً واحداً وهي النون التي هي علامة للرفع .

(176/426)

---

وعلى أن حذف الحرفين جائز قال تعالى في موضع : ﴿ وَلَا تَكُ ﴾ وفي موضع : ﴿ وَلَا تَكُن ﴾ فأما فتح النون فعلى غير الإضافة والنون علامة الرفع وهي مفتوحة أبداً ، وقوله : ﴿ بشرناك بالحق ﴾ قال ابن عباس : يريد بما قضاه الله تعالى والمعنى : أن الله تعالى قضى أن يخرج من صلب إبراهيم إسحق عليه السلام .

ويخرج من صلب إسحق مثل ما أخرج من صلب آدم فإنه تعالى بشر بأنه يخرج من صلب

إسحق أكثر الأنبياء فقوله : ﴿ بالحق ﴾ إشارة إلى هذا المعنى وقوله : ﴿ فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ نهي لإبراهيم عليه السلام عن القنوط وقد ذكرنا كثيراً أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهى فاعلاً للمنهى عنه كما في قوله :

﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ﴾ [ الأحزاب : 1 ] ثم حكى تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبّهِ إِلاَّ الضآلون ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

هذا الكلام حق ، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور : أحدها : أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه .

وثانيها ؛ أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه .

وثالثها : أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال ، فلهذا المعنى قال : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبّهِ إِلاَّ الضآلون ﴾ .

المسألة الثانية :

قرأ أبو عمرو والكسائي : ( يقنط ) بكسر النون ولا تقنطوا كذلك ، والباقون بفتح النون وهما لغتان : قنط يقنط ، نحو ضرب يضرب ، وقنط يقنط نحو علم يعلم ، وحكى أبو عبيدة : قنط يقنط بضم النون ، قال أبو علي الفارسي : قنط يقنط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من أعلى اللغات يدل على ذلك اجتماعهم في قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [ الشورى : 28 ] وحكاية أبي عبيدة تدل أيضاً على أن قنط بفتح النون أكثر ، لأن المضارع من فعل يجيء على يفعل ويفعل مثل فسق يفسق ويفسق ولا يجيء مضارع فعل على يفعل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 154. 157 ﴾

(178/426)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ نَبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾

سبب نزولها ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون ، فقال : " تضحكون وبين أيديكم الجنة والنار " فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ نَبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾

قوله عز وجل : ﴿ قالوا لا توجل ﴾

أي لا تخف ، ومنه قول معن بن أوس :

لعمرك ما أدري وأني لأوجل . . . على أينا تعدو المنية أُوّلُ

﴿ إنّا نبشّرِك بغلامٍ عليم ﴾ أي بولد هو غلام في صغره ، عليم في كبره ، وهو إسحاق .

لقوله تعالى ﴿ فضحكت فبشرناها بإسحاق ﴾ .

وفي ﴿ عليم ﴾ تأويلان :

أحدهما : حليم ، قاله مقاتل .

الثاني : عالم ، قاله الجمهور .

فأجابهم عن هذه البشرى مستفهماً لها متعجباً منها ﴿ قال أَبَشّرتموني على أن مسنيَ الكبر ﴾ أي علو السن عند الإياس من الولد .

﴿ فبم تبشرونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه قال ذلك استفهاماً لهم ، هل بشروه بأمر الله ؟ ليكون أسكن لنفسه .

الثاني : أنه قال ذلك تعجباً من قولهم ، قاله مجاهد .

﴿ قالوا بشرناك بالحقّ ﴾ أي بالصدق ، إشارة منهم إلى أنه عن الله تعالى .

﴿ فلا تكن مِنَ القانطين ﴾ أي من الآيسين من الولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

و﴿ نبىء ﴾ معناه أعلم ، و﴿ عبادي ﴾ مفعول ب ﴿ نبىء ﴾ ، وهي تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، ف ﴿ عبادي ﴾ مفعول و" أن " تسد مسد المفعولين الباقيين واتصف ذلك وهي وما عملت فيه بمنزلة اسم واحد ، ألا ترى أنك إذا قلت أعجبني أن زيداً منطلق إنما المعنى أعجبني انطلاق زيد لأن دخولها إنما هو على جملة ابتداء وخبر فسدت لذلك مسد المفعولين .

قال القاضي أبو محمد : وقد تتعدى ﴿ نبىء ﴾ إلى مفعولين فقط ومنه قوله تعالى ﴿ من أنبأك هذا ﴾ [ التحريم : 3 ] ، وتكون في هذا الموضع بمعنى أخبر وعرف ، وفي هذا كله نظر ، وهذه آية ترجية وتخويف ، وروي في هذا المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " لو يعلم العبد قدر عفو الله لنا تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه " وروي في هذه الآية أن سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى جماعة من أصحابه عند باب بني شيبة في الحرم ، فوجدهم يضحكون ، فزجرهم ووعظهم ثم ولى

فجاءه جبريل عن الله ، فقال : يا محمد أتقنط عبادي ؟ وتلا عليه الآية ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأعلمهم .

قال القاضي أبو محمد : ولو لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها يقتضيها ، إذ تقدم ذكر ما في النار وذكر ما في الجنة فأكد تعالى تنبيه الناس بهذه الآية .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) ﴾

قرأ أبو حيوة " ونبهُم " بضم الهاء من غير همز ، وهذا ابتداء قصص بعد انصرام الغرض الأول ، و﴿ ضيف ﴾ مصدر وصف به فهو للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد كعدل وغيره ، قال النحاس وغيره : التقدير عن أصحاب ضيف .



---

قال القاضي أبو محمد : ويغني عن هذا أن هذا المصدر عومل معاملة الأسماء كما فعل في رهن ونحوه ، والمراد ب " الضيف " هنا الملائكة الذين جاؤوا لإهلاك قوم لوط وبشروا إبراهيم ، وقد تقدم قصصهم . وقوله ﴿ سلاماً ﴾ مصدر منصوب بفعل مضمر تقديره سلمنا أو نسلم سلاماً ، والسلام هنا التحية ، وقوله ﴿ سلاماً ﴾ حكاية قولهم فلا يعمل القول فيه ، وإنما يعمل إذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكى بعينه كما تقول لمن قال لا

إله إلا الله قلت حقاً ونحو هذا وقوله ﴿ إنا منكم وجلون ﴾ أي فزعون ، وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لما قدم إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأكلون ، وكانت عندهم العلامة المؤمنة أكل الطعام ، وكذلك هو في غابر الدهر أمنة للنازل والمنزول به ، وقرأ الجمهور " لا توجل " مستقبل وجل ، وقرأ الحسن " لا تُوجل " بضم التاء على بناء الفعل للمفعول من أوجل ، لأن وجل لا يتعدى ، وكانت هذه البشارة بإسحاق ، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة ، وقول إبراهيم ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ [ إبراهيم : 39 ] وليس يقتضي أنهما حينئذ وهبهما بل قبل الحمد بكثير . وقرأ الجمهور " أبشرتموني " بألف الاستفهام ، وقرأ الأعرج " بشرتموني " بغير ألف . وقوله : ﴿ على أن مسني الكبر ﴾ ، أي في حالة قد مسني فيها الكبر ، وقرأ ابن محيصن " الكُبْر " بضم الكاف وسكون الباء ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " تُبشرونَ " بفتح النون التي هي علامة الرفع ، والفعل على هذه القراءة غير معدى ، وقرأ الحسن البصري " تبشروني " بنون مشددة وياء ، وقرأ ابن كثير بشد النون دون ياء ، وهذه القراءة أدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياء ، وقرأ نافع " تبشرونِ " بكسر النون ، وغلط أبو حاتم نافعاً في هذه القراءة ، وقال إن شاهد الشعر في هذا اضطرار .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حمل منه ، وتقدير هذه القراءة أنه حذفت النون التي للمتكلم وكسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياء ، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها ، ونحو هذا قول الشاعر أنشده سيبويه : [ الوافر ]

تراه كالثغام يعل مسكاً . . . يسوء الفاليات إذا فليني

ومنه قول الآخر :

أبالموت الذي لا بد أني . . . ملاق لا أباك تخوفيني

ومن حذف هذه النون قول الشاعر :

قدني من نصر الخبيبين قدي . . . يريد عبد الله ومصعباً ابني الزبير ، وكان عبد الله يكنى أبا خبيب ، وقرأ الحسن " فبم تَبشُرون " بفتح التاء وضم الشين ، وقول إبراهيم عليه السلام ﴿ فبم تبشرون ﴾ تقرير على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما ، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرة الدنيوية لمضي العمر واستيلاء الكبر . قال مجاهد : عجب من كبره ومن كبر امرأته ، وقد تقدم ذكر سنة وقت البشارة . وقولهم ﴿ بشرناك بالحق ﴾ فيه شدة ما ، أي بشر بما بشرت به ودع غير ذلك ، وقرأ جمهور الناس " القانطين " والقنوط : أتم اليأس ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وابن مصرف ورويت عن عمرو " القنطين " ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة ، " من يقنَط " بفتح النون في كل القرآن ، وقرأ

أبو عمرو والكسائي " ومن يقنِط " بكسر النون ، وكلهم قرأ من ﴿ بعد ما قنطوا ﴾ [ الشورى : 28 ] بفتح النون ، ورد أبو عبيدة قراءة أهل الحرمين وأنكر أن يقال قِنط بكسر النون ، وليس كما قال لأنهم لا يجمعون إلا على قوي في اللغة مروي عندهم ، وهي قراءة فصيحة إذ يقال قَنَط يقنَط يقنِط مثل نَقَم ونقِم ، وقرأ الأعمش هنا " يقنِط " بكسر النون ، وقرأ ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ [ الشورى : 28 ] بكسر النون أيضاً ، فقرأ باللغتين ، وقرأ الأشهب " يقنُط " بضم النون وهي قراءة الحسن والأعمش أيضاً وهي لغة تميم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(182/426)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾

سبب نزولها ما روى ابن المبارك بإسناد له عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " طلع علينا رسول الله من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ، ونحن نضحك ، فقال : "ألا أراكم تضحكون ؟" ثم أدبر ، حتى إِذا كان عند الحِجر ، رجع إِلينا القهقرى ، فقال : "إِني لمَّا خرجت ، جاء جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، يقول الله

تعالى: لِمَ تقنّط عبادي؟ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم" " وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو بتحريك ياء "عبادي" وياء "أني أنا"، وأسكنها الباقون.

قوله تعالى: ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ قد شرحنا القصة في [هود: 69] وبيّنّا هنالك معنى الضيف والسبب في خوفه منهم، وذكرنا معنى الوَجَل في [الأنفال: 2].

قوله تعالى: ﴿ بغلام عليم ﴾ أي: إنه يبلغ ويعلم.

قوله تعالى: ﴿ قال أبشَّرتموني ﴾

أي: بالولد ﴿ على أن مسَّني الكِبَرُ ﴾ أي: على حالة الكِبَر والهرم ﴿ فبم تُبشِّرونَ ﴾ قرأ أبو عمر، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: "تُبشِّرونَ" بفتح النون.

وقرأ نافع بكسر النون، ووافقه ابن كثير في كسرها، لكنه شددها.

وهذا استفهام تعجب، كأنه عجب من الولد على كِبَره.

﴿ قالوا بشَّرناك بالحق ﴾ أي: بما قضى الله أنه كائن ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ يعني: الآيسين.

﴿ قال ومن يقنط ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: "ومن يقنَط" بفتح النون في جميع القرآن.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي: "يقنِط" بكسر النون.

وكلهم قرؤوا ﴿ من بعد ما قنَطوا ﴾ [الشورى: 28] بفتح النون.

وروى خارجة عن أبي عمرو "ومن يقنُط" بضم النون .

قال الزجاج : يقال : قنِط يقنَط ، وقنَط يقنِط ، والقُنوط بمعنى اليأس ، ولم يكن إبراهيم قانطاً ، ولكنه استبعد وجود الولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(183/426)

---

وقال القرطبى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من رحمته أحد " أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

وقد تقدّم في الفاتحة .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره فيخوّف ويرجّى ، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض .

وجاء في الحديث " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : "أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار" " فشق ذلك عليهم فنزلت الآية .

ذكره الماورديّ والمهدويّ.

ولفظ الثعلبيّ " عن ابن عمر قال : اطّلع علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شَيْبة ونحن نضحك فقال : "ما لكم تضحكون لا أراكم تضحكون" ثم أدبر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع القهقرى فقال لنا : "إني لما خرجت جاءني جبريل فقال يا محمد لمَ تُقنّط عبادي من رحمتي "نبّىء عِبادي أني أنا الغفور الرحِيم.

وأن عذابِي هو العذاب الأَلِيم" " فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

ضيفُ إبراهيم : الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط.

وقد تقدّم ذكرهم.

وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان وكان لقَصْره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد .

وسمي الضيف ضيفاً لإضافته إليك ونزوله عليك.

وقد مضى من حكم الضيف في "هود" ما يكفي والحمد لله.

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنية والمذكر والمؤنث كالمصدر .

ضافه وأضافه أماله ؛ ومنه الحديث : " حين تَضيف الشمس للغروب " ، وضيفوفة السهم

، والإضافة النحوية .

﴿ فَقَالُواْ سَلاماً ﴾ أي سلّموا سلاماً .

(184/426)

---

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي فزعون خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقدّم في هود .

وقيل : أنكر السلام ولم يكن في بلادهم رسم السلام .

﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ ﴾ أي قالت الملائكة لا تخف .

﴿ إِنَّا نُبَشّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ أي حليم ؛ قاله مقاتل .

وقال الجمهور : عالم .

وهو إسحاق .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ "أنْ" مصدرية ؛ أي على مس الكبر إياي وزوجتي ، وقد تقدّم في هود وإبراهيم ؛ حيث يقول : "فَبِمَ تُبَشّرُونَ" استفهام تعجب .

وقيل : استفهام حقيقي .

وقرأ الحسن "تُوجل" بضم التاء .

والأعمش "بشرتموني" بغير ألف، ونافع وشيبة "تُبَشّرونِ" بكسر النون والتخفيف؛ مثل "أتحاجّونِي" وقد تقدّم تعليله.

وقرأ ابن كَثير وابن محيصِن "تُبَشّرُونِّ" بكسر النون مشدّدة، تقديره تبشرونني، فأدغم النون في النون.

الباقون "تُبشرون" بنصب النون بغير إضافة.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بالحق ﴾

أي بما لا خلف فيه، وأن الولد لا بُدّ منه.

﴿ فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ أي من الآيسين من الولد، وكان قد أيس من الولد لفرط الكبر.

وقراءة العامة "مِن القانِطِين" بالألف.

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثّاب "من القنطين" بلا ألف.

وروي عن أبي عمرو.

وهو مقصور من "القانطين".

ويجوز أن يكون من لغة من قال: قَنِط يَقْنَط؛ مثل حذِر يحذر.

وفتح النون وكسرها من "يقنِط" لغتان قرئ بهما.

وحكي فيه "يقنُط" بالضم.

ولم يأت فيه "قنَط يقنَط".

( و ) من فتح النون في الماضي والمستقبل فإنه جمع بين اللغتين ، فأخذ في الماضي بلغة من قال : قَنَط يقنِط ، وفي المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط ؛ ذكره المهدوّي .

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) ﴾

أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب .

يعني أنه استبعد الولد لِكِبَر سنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(185/426)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾

قال ابن عباس : يعني لمن تاب منهم وروي أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) خرج على أصحابه وهم يضحكون فقال : " أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال : يقول لك ربك يا محمد مم تقنط عبادي " ذكره البغوي بغير سند ﴿ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ قال قتادة بلغنا أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال " لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم العبد قدر عذابه لبخع نفسه " يعني لقتل نفسه (خ) عن

أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول : " إن الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأدخل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار " وفي الآية لطائف منها أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه بقوله نبىء عبادي وهذا تشريف وتعظيم لهم ، ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً ( صلى الله عليه وسلم ) ليلة المعراج لم يزد على قوله

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا التشريف العظيم ، ومنها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها قوله : أني وثانيها أنا وثالثها إدخال الألف واللام في الغفور الرحيم ، وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة .

ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب ، وما وصف نفسه بذلك .

بل قال : وأن عذابي هو العذاب الأليم على سبيل الإخبار ، ومنها أنه سبحانه وتعالى أمر رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) أن يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ هذا معطوف على ما قبله أي وأخبر يا محمد عبادي عن ضيف أبراهيم .

وأصل الضيف الميل يقال ضفت إلى كذا وإذا ملت إليه والضيف من مال إليك نزولاً بك وصارت الضيافة متعارفة في القرى وأصل الضيف مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع في عامة كلامهم ، وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى ، ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط ﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ يعني إذ دخل الأضياف على إبراهيم عليه السلام ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ أي نسلم سلاماً ﴿ قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ إنا منكم وجلون ﴾ أي خائفون وإنما خاف إبراهيم منهم لأنهم لم يأكلوا طعامه ﴿ قالوا لا توجل ﴾ يعني لا تخف ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ يعني أنهم بشروه بولد ذكر غلام في صغره عليم في كبره ، وقيل عليم بالأحكام والشرائع والمراد به إسحاق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب إبراهيم من كبره وكبر امرأته ﴿ قال أبشرتموني ﴾ يعني بالولد ﴿ على أن مسني الكبر ﴾ يعني على حالة الكبر ، قال على طريق التعجب ﴿ فبم تبشرون ﴾ يعني فبأي شيء تبشرون ، وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ يعني

بالصدق الذي قضاه الله بأن يخرج منك ولداً ذكراً ، تكثر ذريته وهو إسحاق ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ يعني فلا تكن من الآيسين من الخير .

*(187/426)*

---

والقنوط : هو الإياس من الخير ﴿ قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ يعني من ييأس من رحمة ربه إلا المكذبون ، وفيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ، ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة أن به قنوطاً فنفى ذلك عن نفسه ، وأخبر أن القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لأن القنوط من رحمة الله كبيرة ، كالأمن من مكر الله ولا يحصل إلا عند من يجهل كون الله تعالى قادراً على ما يريد ، ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع المعلومات فكل هذه الأمور سبب للضلالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

*(188/426)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

القنوط : أتم اليأس ، يقال : قنط يقنط بفتحها ، وقنط بفتح النون يقنط بكسرها وبضمها .

﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم .

إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون .

قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم .

قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون .

قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾

ولما ذكر تعالى ما أعد للعاصين من النار ، وللطائعين من الجنة ، ذكر العرب بأحوال من يعرفونه ممن عصى وكذب الرسل فحل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ليزدجروا عن كفرهم ، وليعتبروا بما حل بغيرهم .

فبدأ بذكر جدهم الأعلى إبراهيم عليه السلام ، وما جرى لقوم ابن أخيه لوط ، ثم بذكر أصحاب الحجر وهم قوم صالح ، ثم بأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب .

وقرأ أبو حيوة : ونبيهم بإبدال الهمزة ياء .

وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين بشروه بالولد ، وبهلاك قوم لوط .

وأضيفوا إلى ابراهيم وإن لم يكونوا أضيافاً ، لأنهم في صورة من كان ينزل به من الأضياف ، إذ كان لا ينزل به أحد إلى ضافه ، وكان يكنى أبا الضيفان .

وكان لقصره أربعة أبواب ، من كل جهة باب ، لئلا يفوته أحد .

والضيف أصله المصدر ، والأفصح أن لا يثنى ولا يجمع للمثنى والمجموع ، ولا حاجة إلى تكلف إضمار كما قاله النحاس وغيره من تقدير : أصحاب ضيف .

وسلاماً مقتطع من جملة محكية بقالوا ، فليس منصوباً به ، والتقدير : سلمت سلاماً من السلامة ، أو سلمنا سلاماً من التحية .

وقيل : سلاماً نعت لمصدر محذوف تقديره : فقالوا قولاً سلاماً ، وتصريحه هنا بأنه وجل منهم ، كان بعد تقريبه إليهم ما أضافهم به وهو العجل الحنيذ ، وامتناعهم من الأكل وفي هو ذاته أوجس في نفسه خيفة ، فيكمن أنّ هذا التصريح كان بعد إيجاس الخيفة .

ويحتمل أن يكون القول هنا مجازاً بأنه ظهرت عليه مخايل الخوف حتى صار كالمصرح به القائل .

وقرأ الجمهور : لا توجل مبنياً للفاعل .

وقرأ الحسن : بضم التاء مبنياً للمفعول من الإيجال .

وقرئ : لا تاجل بإبدال الواو ألفاً كما قالوا : تابة في توبة .

وقرئ : لا تواجل من واجله بمعنى أوجله .

إنا نبشرك استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل ، أي : إنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل .

والمبشر به هو إسحاق ، وذلك بعد أنْ ولد له إسماعيل وشب بشروه بأمرين : أحدهما : أنه ذكر .

والثاني : وصفه بالعلم على سبيل المبالغة .

فقيل : النبوة كقوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً ﴾ وقيل : عليم بالدين .

وقرأ الأعرج : بشرتموني بغير همزة الاستفهام ، وعلى أنّ مسني الكبر في موضع الحال .

وقرأ ابن محيصن : الكبر بضم الكاف وسكون الباء ، واستنكر إبراهيم عليه السلام أنْ يولد له مع الكبر .

وفبم تبشرون ، تأكيد استبعاد وتعجب ، وكأنه لم يعلم أنهم ملائكة رسل الله إليه ، فلذلك استفهم ، واستنكر أن يولد له .

ولو علم أنهم رسل الله ما تعجب ولا استنكر ، ولا سيما وقد رأى من آيات الله عياناً كيف

أحيا الموتى .

قال الزمخشري : كأنه قال : فبأيّ أعجوبة تبشروني ، أو أراد أنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة ، فبأي شيء تبشرون ؟ يعني : لا تبشروني في الحقيقة بشيء ، لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء .

ويجوز أن لا تكون صلة لبشر ، ويكون سؤالاً على الوجه والطريقة يعني : بأي طريقة تبشرونني بالولد ، والبشارة به لا طريقة لها في العادة انتهى .

وكأنه قال : أعلى وصفي بالكبر ، أم على أني أرد إلى الشباب ؟ وقيل : لما استطاب البشارة أعاد السؤال ، ويضعف هذا قولهم له : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين .

وقرأ الحسن : تبشروني بنون مشددة وياء المتكلم ، أدغم نون الرفع في نون الوقاية .

وابن كثير : بشدها مكسورة دون ياء .



---

ونافع يكسرها مخففة ، وغلّطه أبو حاتم وقال : هذا يكون في الشعر اضطراراً ، وخرجت على أنه حذف نون الوقاية وكسر نون الرفع للياء ، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها .

وقالوا هو مثل قوله :

يسوء القاليات إذا قليني . . .

وقول الآخر :

لا أباك تخوفيني . . .

وقرأ باقي السبعة : بفتح وهي علامة الرفع .

قال الحسن : فبم تبشرون على وجه الاحتقار وقلة المبالاة بالمبشرات لمضي العمر واستيلاء الكبر .

وقال مجاهد : عجب من كبره وكبر امرأته ، وتقدم ذكر سنة وقت البشارة .

وبالحق أي باليقين الذي لا لبس فيه ، أو بالطريقة التي هي حق ، وهي قول الله ووعده وأنه قادر على أنْ يوجد ولداً من غير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ ، وعجوز عاقر .

وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، ورويت عن أبي عمرو : من القنطين ، من قنط يقنط .

وقرأ النحويان والأعمش : ومن يقنط ، وفي الروم والزمر بكسر النون ، وباقي السبعة بفتحها ، وزيد بن علي والأشهب بضمها .

وهو استفهام في ضمنه النفي ، ولذلك دخلت إلا في قوله : إلا الضالون وقولهم له : فلا تكن من القانطين نهي ، والنهي عن الشيء لا يدل على تلبس المنهى عنه به ولا بمقارنته .

وقوله : ومن يقنط ردّ عليهم ، وأن المحاورة في البشارة لا تدل على القنوط ، بل ذلك على

سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة.

وفي ذلك إشارة إلى أنّ هبة الولد على الكبر من رحمة الله، إذ يشد عضد والده به ويؤازره حالة كونه لا يستقل ويرث منه علمه ودينه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(191/426)

---

وقال أبو السعود:

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى ﴾

وهم الذين عبر عنهم بالمتقين ﴿ أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الأليم ﴾ فذلكةٌ لما سلف من الوعد والوعيد وتقريرٌ له، وفي ذكر المغفرة إشعارٌ بأن ليس المرادُ بالمتقين مَن يتقي جميعَ الذنوب كبيرَها وصغيرَها، وفي وصف ذاتِه تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب إيذانٌ بأنهما مما يقتضيهما الذاتُ وأن العذاب إنما يتحقق بما يوجبه من خارج.

﴿ وَنَبّئْهُمْ ﴾ عطفٌ على نبىءْ عبادي، والمقصود اعتبارُهم بما جرى على إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى في تضاعيف الخوفِ، وبما حل بقوم لوطٍ من

العذاب ونجاتِه عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له في ضمن الخوف ، وتنبيهُهم بحلول انتقامِه تعالى من المجرمين وعلمُهم بأن عذاب الله هو العذاب الأليم ﴿ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : " أنهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام وملكان معه " وقال محمد بن كعبٍ : " وسبعةٌ معه " وقيل : " جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ عليهم الصلاة والسلام " وقال الضحاك : " كانوا تسعةً " وعن السدي : " كانوا أحدَ عشرَ على صور الغلمان الوِضاءِ وجوهُهم " وعن مقاتلٍ : " أنهم كانوا اثنيْ عشرَ ملَكاً " وإنما لم يتعرض لعنوان رسالتِهم لأنهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بل إلى قوم لوطٍ حسبما يأتي ذكرُه .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ نُصب بفعلٍ مضمر معطوفٍ على نبيء ، أي واذكر وقت دخولِهم عليه ، أو خبر مقدر مضاف إلى ضيف ، أي خبر ضيف إبراهيمَ حين دخولهم عليه ، أو بنفس ضيف على أنه مصدرٌ في الأصل ﴿ فَقَالُواْ ﴾ عند ذلك ﴿ سَلاَماً ﴾ أي نسلّم سلاماً أو سلّمنا أو سَلِمْتَ سلاماً .

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي خائفون ، فإن الوجلَ اضطرابُ النفس لتوقع مكروهٍ ، قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ما قرّبه إليهم من العجل الحنيذ ، لِما أن المعتاد عندهم أنه إذا نزل بهم ضيفٌ فلم يأكلْ من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير ، لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولِهم بغير إذن ولا بغير وقت ، إذ لو كان كذلك لأجابوا حينئذ بما أجابوا ، ولم يتصدَّ عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام إليهم ، وإنما لم يذكر هاهنا اكتفاءً بما بيّن في غير هذا الموضع ، ألا يرى إلى أنه لم يُذكر هاهنا ردُّه عليه الصلاة والسلام لسلامهم .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ لا تخف ، وقرئ لا تاجل ولا تُوجِلْ من أوجله أي أخافه ، ولا تُواجِلْ من واجله بمعنى أوجله ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ استئنافٌ لتعليل النهي عن الوجل ، فإن المبشَّر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوفٌ ولا حزن ، كيف لا وهو بشارةٌ ببقائه وبقاءِ أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً ﴿ بغلام ﴾ هو إسحاقُ عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ ولم يتعرض هاهنا لبشارة يعقوبَ عليه الصلاة والسلام اكتفاءً بما ذكر في سورة هود ﴿ عَلِيمٌ ﴾ إذا بلغ ، وفي موضع آخرَ بغلام حليم .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ بذلك ﴿ على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ وأثر في تعجبه عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد في حالة مباينة للولادة ، وزاد في ذلك فقال : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ

﴿ أي بأي أعجوبةٍ تبشرونني ، فإن البشارة بما لا يُتصور وقوعُه عادة بشارةٌ بغير شيء ، أو بأي طريقةٍ تبشرونني ، وقرىء بتشديد النون المكسورة على إدغام نون الجمع في نون الوقاية .

(193/426)

---

﴿ قَالُواْ بشرناك بالحق ﴾ أي بما يكون لا محالة ، أو باليقين الذي لا لَبْس فيه ، أو بطريقة هي حقٌّ وهو أمرُ الله تعالى ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَكُن مّنَ القانطين ﴾ من الآيسين من ذلك ، فإن الله قادر على أن يخلق بشراً بغير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر ، وقرىء من القَنِطين ، وكان مقصِدُه عليه الصلاة والسلام استعظامَ نعمتِه تعالى عليه في ضمن التعجب العادي المبنيِّ على سنة الله تعالى المسلوكةِ فيما بين عباده ، لا استبعادَ ذلك بالنسبة إلى قدرته سبحانه كما ينبىء عنه قولُ الملائكة : فلا تكن من القانطين ، دون أن يقولوا : من الممترين أو نحوه .

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ استفهامُ إنكاريٌّ أي لا يقنط ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبّهِ إِلاَّ الضآلون ﴾ المخطِئون طريقَ المعرفة والصواب ، فلا يعرِفون سعةَ رحمتِه وكمالَ علمه وقدرتِه كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ لاَ يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون ﴾ ومرادُه نفيُ

القنوط عن نفسه على أبلغ وجهٍ ، أي ليس بي قنوطٌ من رحمته تعالى ، وإنما الذي أقول لبيان منافاةِ حالي لفيضان تلك النعمةِ الجليلة عليّ ، وفي التعرض لوصف الربوبيةِ والرحمةِ ما لا يخفى من الجزالة ، وقرىء بضم النون ، وبكسرها من قنَط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضةُ من الملائكة مع إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام خاصة ، بل مع سارةَ أيضاً حسبما شُرح في سورة هود ، ولم يُذكر ذلك هاهنا اكتفاءً بما ذكر هناك كما أنه لم يُذكر هذه هناك اكتفاء بما ذكر هاهنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

*(194/426)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

﴿ نَبّىء ﴾ قيل : مطلقاً ، وقيل : الذين عبر عنهم بالمتقين أي أخبرهم ﴿ عِبَادِى أَنّى أَنَّا الغفور الرحيم ﴾ .

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

وهذا إجمال لما سبق من الوعد والوعيد وتأكيد له ، و﴿ أَنَاْ ﴾ إما مبتدأ أو تأكيد أو فصل ، وهو إما مبتدأ أو فصل ، وأن وما بعدها قال أبو حيان : ساد مسد مفعولي ﴾

نَّبئ ﴾ [ الحجر : 49 ] إن قلنا : إنها تعدت إلى ثلاثة ومسد واحد إن قلنا تعدت إلى اثنين ، وفي ذكر المغفرة إشعار على ما قيل بأن ليس المراد بالمتقين من يتقي جميع الذنوب إذ لو أريد ذلك لم يكن لذكرها موقع ، وقيل : إن ذكرها حينئذٍ لدفع توهم أن غير أولئك المتقين لا يكون في الجنة بأنه يدخلها وإن لم يتب لأنه تعالى الغفور الرحيم ، وله وجه ، وفي توصيف ذاته تعالى بالمغفرة والرحمة دون التعذيب حيث لم يقل سبحانه : وإني أنا المعذب المؤلم ترجيح لجانب الوعد على الوعيد وإن كان الأليم على ما قال غير واحد في الحقيقة صفة العذاب ، وكذا لا يضر في ذلك الإضافة إنها لا تقتضي حصول المضاف إليه بالفعل كما إذا قيل ضربي شديد فإنه يصح أن يراد منه ذاك شديد إذا وقع ويكفي في الإضافة أدنى ملابسة ، ويقوى أمر الترجيح الإتيان بالوصفين بصيغتي المبالغة ، وكذا ما أخرج ابن جرير .

*(195/426)*

---

وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذي منه بنو شيبة فقال : ألا أراكم تضحكون ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال : إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله تعالى يقول لم تقنط عبادي ؟ ﴿

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [ الحجر : 49 ] الآية ، وتقديم الوعد أيضاً يؤيد ذلك ، وفيه إشارة إلى سبق الرحمة حسبما نطق به الخبر المشهور .

ومع ذلك كله في الآية ما تخشع منه القلوب ، فقد أخرج عبد بن حميد .

وجماعة عن قتادة أنه قال في الآية : بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم العبد قدر عفو الله تعالى لما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه " وأخرج الشيخان .

وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم الكافر كل الذي عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار " ثم إنه تعالى لما ذكر الوعد والوعيد ذكر ما يحقق ذلك لما تضمنه من البشرى والإهلاك بقوله سبحانه :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الخ ،

وقيل : إنه تفصيل لما تضمنته الآية السابقة منهما لا من الوعيد فقط كما قيل ، والمراد بضيف إبراهيم الملائكة عليهم السلام الذين بشروه بالولد وبهلك قوم لوط عليه السلام ، وإنما سموا ضيفاً لأنهم في صورة من كان ينزل به عليه السلام من الأضياف وكان لا ينزل به أحد إلا أضافه ، وكان لقصره عليه السلام أربعة أبوب من كل جهة باب لئلا يفوته أحد ، ولذا كان يكنى أبا الضيفان ، واختلف في عددهم كما تقدم ، وهو في الأصل مصدر والأفصح أن لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث للمثنى والمجموع والمؤنث فلا حاجة إلى تكلف إضمار أي أصحاب ضيف كما قاله النحاس .

وغيره ، ولم يتعرض سبحانه لعنوان رسالتهم لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط عليه السلام كما يأتي إن شاء الله تعالى ذكره .

وقرأ أبو حيوة ﴿ ونبيهم ﴾ بإبدال الهمزة ياء .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ نصب على أنه مفعول بفعل محذوف معطوف على ﴿ نَبِّىء ﴾ [ الحجر : 49 ] أي واذكر وقت دخولهم عليه أو ظرف لضيف بناءً على أنه مصدر في الأصل ، وجوز أبو البقاء كونه ظرفاً له بناءً على أنه مصدر الآن مضاف إلى المفعول حيث كان التقدير أصحاب ضيف حسبما سمعته عن النحاس .

وغيره، وأن يكون ظرفاً لخبر مضافاً إلى ﴿ ضَيْفِ ﴾ [الحجر: 51] أي خبر ضيف إبراهيم حين دخولهم عليه ﴿ فَقَالُوا ﴾ عند ذلك: ﴿ سَلَامًا ﴾ مقتطع من جملة محكية بالقول وليس منصوباً به أي سلمت سلاماً من السلامة أو سلمنا سلاماً من التحية، وقيل: هو نعت لمصدر محذوف تقديره فقالوا قولاً سلاماً ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي خائفون فإن الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه، وقوله عليه السلام هذا كان عند غير واحد بعد أن قرب إليهم العجل الحنيذ فلم يأكلوا منه، وكان العادة أن الضيف إذا لم يأكل مما يقدم له ظنوا أنه لم يجيء بخير، وقيل: كان عند ابتداء دخولهم حيث دخلوا عليه عليه الصلاة والسلام بغير إذن وفي وقت لا يطرق في مثله، وتعقب بأنه لو كان كذلك لأجابوا حينئذٍ بما أجابوا به ولم يكن عليه السلام ليقرب إليهم الطعام، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: 70] ظاهر فيما تقدم؛ ولعل هذا التصريح كان بعد الإيجاس.

وقيل: يحتمل أن يكون القول هنا مجازاً بأن يكون قد ظهرت عليه عليه الصلاة والسلام مخايل الخوف حتى صار كالقائل المصرح به، وإنما لم يذكر هنا تقريب الطعام اكتفاءً بذكره في غير هذا الموضع كما لم يذكر رده عليه السلام السلام عليهم لذلك، وقد تقدم ما ينفعك هنا مفصلاً في هود فتذكره.

﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ لا تخف وقرأ الحسن ﴿ لَا تُوْجَلْ ﴾ بضم التاء مبنياً للمفعول من الإيجال ، وقرىء ﴿ لا ﴾ من واجله بمعنى أوجله و ﴿ لا ﴾ بإبدال الواو ألفاً كما قالوا تابة في توبة .

﴿ يازكريا إِنَّا نُبَشّرُكَ ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل فإن المبشر لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهي بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً .

(198/426)

---

﴿ بغلام ﴾ هو إسحاق عليه السلام لأنه قد صرح به في موضع آخر ، وقد جعل سبحانه البشارة هنا لإبراهيم وفي آية أخرى لامرأته ولكل وجهة ، ولعلها هنا كونها أوفق بإنباء العرب عما وقع لجدهم الأعلى عليه السلام ، ولعله سبحانه لم يتعرض ببشارة يعقوب اكتفاءً بما ذكر في سورة هود ، والتنوين للتعظيم أي بغلام عظيم القدر ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ذي علم كثير ، قيل : أريد بذلك الإشارة إلى أنه يكون نبياً فهو على حد قوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نَبِيّاً ﴾ [ الصافات : 112 ] .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى ﴾ بذلك ﴿ على أَن مَّسَّنِىَ الكبر ﴾ وأثر في والاستفهام للتعجب ،

و﴿ على ﴾ بمعنى مع مثلها في قوله تعالى : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ [ البقرة : 177 ] على أحد القولين في الضمير ، والجار والمجرور في موضع الحال فيكون قد تعجب عليه السلام من بشارتهم إياه مع هذه الحال المنافية لذلك ، ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار و﴿ على ﴾ على ما سمعت بمعنى أنه لا ينبغي أن تكون البشارة مع الحال المذكورة .

وزعم بعض المنتمين إلى أهل العلم أن الأولى جعل ﴿ على ﴾ بمعنى في مثلها في قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ [ القصص : 15 ] وقوله سبحانه : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سليمان ﴾ [ البقرة : 102 ] لوجهين الاستغناء عن التقدير وكون المصاحبة لصدقها بأول المس لا تنافي البشارة ، وهو لعمري ضرب من الهذيان كما لا يخفى على إنسان .

ثم إنه عليه السلام زاد في ذلك فقال : ﴿ فَبِمَ تُبَشّرُونَ ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرون أو بأي شيء تبشرون فإن البشارة بما لا يقع عادة بشارة بغير شيء .

وجوز أن تكون الباء للملابسة والاستفهام سؤال عن الوجه والطريقة أي تبشرون ملتبسين بأي طريقة ولا طريق لذلك في العادة .

وقرأ الأعرج ﴿ بشرتمون ﴾ بغير همزة الاستفهام ، وابن محيصن ﴿ لإِحْدَى الكبر ﴾ بضم الكاف وسكون الباء .

وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة بدون ياء على إدغام نون الجمع في نون الوقاية والاكتفاء بالكسرة عن الياء .

وقرأ نافع بكسر النون مخففة ، واعترض على ذلك أبو حاتم بأن مثله لا يكون إلا في الشعر وهو مما لا يلتفت إليه ، وخرج على حذف نون الرفع كما هو مذهب سيبويه استثقالاً لاجتماع المثلين ودلالة بإبقاء نون الوقاية على الياء .

وقيل : حذفت نون الوقاية وكسرت نون الرفع وحذفت الياء اجتزاءً بالكسرة وحذفها كذلك كثير فصيح وقد قرىء به في مواضع عديدة ، ورجح الأول بقلة المؤنة واحتمال عدم حذف نون في هذه القراءة بأن يكون اكتفى بكسر نوع الرفع من أول الأمر خلاف المنقول في كتب النحو والتصريف وإن ذهب إليه بعضهم .

وقرأ الحسن كابن كثير إلا أنه أثبت الياء وباقي السبعة يقرؤون بفتح النون وهي نون الرفع .

﴿ قَالُواْ بشرناك بالحق ﴾ أي بالأمر المحقق لا محالة أو باليقين الذي لا لبس فيه أو بطريقة هي حق ، وهو أمر من له الأمر القادر على خلق الولد من غير أبوين فكيف بإيادة من شيخ وعجوز ﴿ فَلاَ تَكُن مّنَ القانطين ﴾ أي الآيسين من خرق العادة لك فإن ظهور الخوارق على يد الأنبياء عليهم السلام كثير حتى لا يعد بالنسبة إليهم مخالفاً للعادة ، وكأن مقصده عليه السلام استعظام نعمته تعالى عليه في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى

المسلوكة فيما بين عباده جل وعلا لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته جل جلاله ، فإنه عليه السلام بل النبي مطلقاً أجل قدراً من ذلك ، وينبىء عنه قول الملائكة عليهم السلام : ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِين ﴾ على ما فيه من المبالغة دون أن يقولوا : من الممترين ونحوه .

(200/426)

---

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضالّون ﴾ أي الكفرة المخطئون طريق معرفة الله تعالى فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى ، وهذا كقول ولده يعقوب : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [ يوسف : 87 ] ومراده عليه السلام نفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى وإنما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة علي ، وفي التعرض لعنوان الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة .

وقرأ ابن وثاب .

وطلحة والأعمش .

وأبو عمرو في رواية ﴿ القانطين ﴾ والنحويان .

والأعمش ﴿ يَقْنُطُ ﴾ بكسر النون ، وباقي السبعة بفتحها ، وزيد بن علي رضي الله

تعالى عنهما .

والأشهب بضمها ، وهو شاذ وماضيه مثله في التثليث .

واستدل بالآية على تفسير ﴿ الضالين ﴾ بما سمعت لما سمعت من الآية على أن القنوط وهو كما قال الراغب : اليأس من الخير كفر ، والمسألة خلافية ، والشافعية على أن ذاك وكذا الأمن من المكر من الكبائر "للحديث الموقوف على ابن مسعود أو المرفوع من الكبائر الإشراك بالله تعالى واليأس من روح الله تعالى والأمن من مكر الله تعالى" وقال الكمال بن أبي شريف : العطف على الإشراك بمعنى مطلق الكفر يقتضي المغايرة فإن أريد باليأس إنكار سعة الرحمة الذنوب وبالأمن اعتقاد أنه لا مكر فكل منهما كفر اتفاقاً لأنه رد للقرآن العظيم ، وإن أريد استعظام الذنوب واستبعاد العفو عنها استبعاداً يدخل في حد اليأس وغلبة الرجاء المدخل له في حد الأمن فهو كبيرة اتفاقاً اه وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(201/426)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) ﴾

بين في مواضع أخر أن ضيف إبراهيم المذكورين في هذه الآية أنهم ملائكة كقوله في هود :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [ هود : 69 ] كما تقدم وقوله : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ [ الحجر : 57-58 ] إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) ﴾

لم يبين تعالى في هذ الآية الكريمة هل رد إبراهيم السلام على الملائكة أولا لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم وإنما قال عنه إنه قال لهم إنا منكم وجلون وبين في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله بقوله في هود ﴿ قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [ هود : 69 ] وقوله في الذاريات : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [ الذاريات : 25-26 ] وبين أن الوجل المذكور هنا هو الخوف لقوله في القصة بعينها في هود : ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ [ هود : 70 ] وقوله في الذاريات : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ [ الذاريات : 28 ] . وقد قدمنا أن من أنواع البيان في هذا الكتاب بيان اللفظ بمرادف له أشهر منه كما هنا لأن الخوف يرادف الوجل وهو أشهر منه ، وبين أن سبب خوفه هو عدم أكلهم بقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [ هود : 70 ] .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) ﴾

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك الضيف الذين هم ملائكة بشروا إبراهيم بغلام موصوف بالعلم ونظير ذلك قوله تعالى أيضاً في الذاريات : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [ الحجر : 28 ] وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيمٍ فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ﴾ [ الذاريات : 28-30 ] لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها أي لطمته قائلة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى ويزيده إيضاحاً تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحاً باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها : ﴿ وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ هود : 71-72 ] وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم الموصوف بالحلم المذكور في الصافات في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ

﴾ [ الصافات : 99-102 ] الآية فهو إسماعيل وسترى إن شاء الله تعالى في سورة الصافات دلالة الآيات القرآنية على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق على وجه قاطع للنزاع ، والغلام يطلق في لغة العرب على العبد وعلى الصغير الذي لم يبلغ وعلى الرجل البالغ ومن إطلاقه على البالغ قول علي رضي الله عنه يوم النهروان :

أنا الغلام القرشي المؤتمن . . . أبو حسين فاعلمن والحسن



---

وقول صفوان بن المعطل السلمي لحسان رضي الله عنهما :

تلق ذباب السيف عني فإنني . . . غلام إذا هوجيت لست بشاعر

وقول ليلى الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة . . . تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها . . . غلام إذا هز القناة سقاها

وربما قالوا للأنثى غلامة ومنه قول أوس بن غلفاء الهجيمي يصف فرساً :

ومركضة صريحي أبوها . . . يهان لها الغلامة والغلام

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال : إنه وقت البشرى بإسحاق مسه الكبر .

وصرح في هود بأن امرأته أيضاً قالت إنه شيخ كبير في قوله عنها : ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ [ هود : 72 ] كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن وذلك كقوله في هود : ﴿ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ [ هود : 72 ] الآية ، وقوله في الذاريات : ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [ الذاريات : 29 ] . وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم أنه وقت هبة الله له ولده إسماعيل أنه كبير السن أيضاً وذلك قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء ﴾ [ إبراهيم : 39 ] .

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ .

(204/426)

---

الظاهر أن استفهام نبي إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام للملائكة بقوله ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى ويدل لذلك أنه تعالى ذكر أن ما وقع له وقع نظيره لامرأته حيث قالت ﴿ أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ ﴾ وقد بين تعالى أن ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمر الخارق للعادة في قوله : ﴿ قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [ هود : 73

] الآية ويدل له أيضاً وقوع مثله من نبي الله زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لأنه لما قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [ آل عمران : 38 ] الآية ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى ﴾ [ آل عمران : 39 ] عجب من كمال قردة الله تعالى فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر وامرأتي عَاقِرٌ ﴾ [ آل عمران : 40 ] الآية وقوله ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ قرأه ابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بفتح النون مخففة وهي نون الرفع وقرأه نافع بكسر النون مخففة وهي نون الوقاية مع حذف ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها وقرأ ابن كثير بالنون المكسورة المشددة مع المد فعلى قراءة ابن كثير لم يحذف نون الرفع ولا المفعول به بل نون الرفع مدغمة في نون الوقاية وياء المتكلم هي المفعول به وعلى قراءة الجمهور فنون الرفع ثابتة والمفعول به محذوف على حد قول ابن مالك .

وحذف فضله أجر إن لم يضر . . . كحذف ما سيق جوابا أو حصر

وعلى قراءة نافع فنون الرفع محذوفة لاستثقال اجتماعها مع نون الوقاية .

تنبيه

حذف نون الرفع له خمس حالات ثلاث منها يجب فيها حذفها وواحدة يجوز فيها حذفها وإثباتها وواحدة يقصر فيها حذفها على السماع ، أم الثلاث التي يجب فيها الحذف فالأولى منها إذا دخل على الفعل عامل جزم والثانية إذا دخل عليه عامل نصبو الثالثة إذا أكد العل بنون التوكيد الثقيلة نحو لتبلون وأما الحلاة التي يجوز فيها الإثبات ومن الحذف قراءة نافع في هذه الآية ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ بالكسر وكذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَتحاجواني فِي اللهِ ﴾ [ الأنعام : 80 ] . وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [ النحل : 27 ] بكسر النون مع التخفيف في الجميع أيضاً وقوله ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني أَعْبُدُ ﴾ [ الزمر : 64 ] الآية بالكسر مع التخفيف أيضاً وكلها قرأها بعض القراء بالتشديد لإثبات نون الرفع وإدغامها في نون الوقاية وأما الحالة الخامسة المقصورة على السماع فهي حذفها لغير واحد من الأسباب الأربعة المذكورة كقول الراجز :

أبيت أسري وتبيت تدلكي . . . وجهك بالعنبر والمسك الذكي

أما بقاء نون الرفع مع اجازم في قوله :

لولا فوارس من نعم وأسرتهم . . . يوم الصليفاء لم يوفون بالجار

فهو نادر حملاً للم على أختها لا النافية أو ما النافية وقيل هو لغة قوم كما صرح به في التسهيل وكذلك بقاء النون مع حرف النصب في قوله :

أن تقرأن على أسماء ويحكما . . . مني السلام وألا تشعرا أحدا

فهو لغة قوم حملوا أن المصدرية على أختها ما المصدرية في عدم النصب بها كما أشار له في الخلاصة بقوله :

وبعضهم أهمل أن حملاً على . . . ما أختها حيث استحقت عملا

(206/426)

---

ولا ينافي كون استفهام إبراهيم للتعجب من كمال قردة الله قول الملائكة له فيما ذكر الله عنهم : ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [ الحجر : 55 ] بدليل قوله : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ ﴾ [ الحجر : 56 ] لأنه دليل على أن استفهامه ليس استفهام منكر ولا قانط والعلم عند الله تعالى .

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال للملائكة إنه لا يقنط من رحمة الله جل وعلا إلا الضالون عن طريق الحق وبين أن هذا المعنى قاله أيضاً يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لبنيه في قوله : ﴿ يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [ يوسف : 87 ] قال ابو حيان في البحر

المحيط في تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾ الآية وروح الله رحمته وفرجه وتنفيسه . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(207/426)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

هذا تصدير لذكر القصص التي أريد من التذكير بها الموعظة بما حلّ بأهلها ، وهي قصة قوم لوط وقصة أصحاب الأيكة وقصة ثمود .

وابتدىء ذلك بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما فيها من كرامة الله له تعريضاً بالمشركين إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وهو مرتبط بقوله في أوائل السورة : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ [ سورة الحجر : 4 ] .

وابتداء الكلام بفعل الإنباء لتشويق السامعين إلى ما بعده كقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ [ سورة البروج : 17 ] ونحوه .

والمقصود هو قوله تعالى الآتي : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ [ سورة الحجر : 51

] .

وإنما قدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم من المؤمنين لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب .

وقدمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه .

وضمير أنا ﴾ وضمير ﴿ هو ﴾ ضميرا فصل يفيدان تأكيد الخبر .

واعلم أن في قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادي ﴾ إلى ﴿ الرحيم ﴾ من المحسّنات البديعية محسّن الاتّزان إذا سكنت ياء ﴿ أني ﴾ على قراءة الجمهور بتسكينها ، فإن الآية تأتي متزنة على ميزان بحر المجتث الذي لحقه الخبن في عروضه وضربه فهو متَفْعلن فَعِلاتن مرتين .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) ﴾

هذا العطف مع اتحاد الفعل المعطوف بالفعل المعطوف عليه في الصيغة دليل على أن المقصود الإنباء بكلا الأمرين لمناسبة ذكر القصة أنها من مظاهر رحمته تعالى وعذابه .

و ﴿ ضيف إبراهيم ﴾ : الملائكة الذين تشكلوا بشكل أناس غرباء مارّين ببيته .

وتقدمت القصة في سورة هود .

وجملة ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ جاءت مفصولة بدون عطف لأنها جواب عن جملة ﴿ فقالوا سلاماً ﴾ .

وقد طوي ذكر رده السلام عليهم إيجازاً لظهوره .

صُرح به في قوله : ﴿ قال سلام قوم منكرون ﴾ [ سورة الذاريات : 25 ] ، أي قال إنا منكم وجلون بعد أن رد السلام .

وفي سورة هود أنه أوجس منهم خِيفة حين رآهم لم يمدّوا أيديهم للأكل .

وضمير ﴿ إنا ﴾ من كلام إبراهيم عليه السلام فهو يعني به نفسه وأهله ، لأن الضيف طرقوا بيتهم في غير وقت طروق الضيف فظنّهم يريدون به شراً ، فلما سلموا عليه فاتحهم بطلب الأمْن ، فقال : ﴿ إنا منكم وجلون ﴾ ، أي أخفتمونا .

وفي سورة الذاريات أنه قال لهم : ﴿ قوم منكرون ﴾ [ سورة الحجر : 25 ] .

والوجِل : الخائف .

والوجَل بفتح الجيم الخوف .

ووقع في سورة هود ( 70 ) ﴿ نكِرهم وأوجس مِنهم خِيفة ﴾ وقد جُمع في هذه الآية متفرق كلام الملائكة ، فاقتصر على مجاوبتهم إياه عن قوله : إنا منكم وجلون ﴾ ، فنِهاية الجواب هو ﴿ لا توجل ﴾ .

وأما جملة ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ فهي استئناف كلام آخر بعد أن قدّم إليهم القِرى وحضرت امرأته فبشّروه بحضرتها كما فُصّل في سورة هود .

والغلام العليم : إسحاق عليه السلام أي عليم بالشريعة بأن يكون نبيئاً .

وقد حكي هنا قولهم لإبراهيم عليه السلام ، وحكي في سورة هود قولهم لامرأته لأن البشارة كانت لهما معاً فقد تكون حاصلة في وقت واحد فهي بشارتان باعتبار المبشّر ، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين بشّروه بانفراد ثم جاءت امرأته فبشروها .

وقرأ الجمهور ﴿ نبشرك ﴾ بضم النون وفتح الموحدة وتشديد الشين المكسورة مضارع بشر بالتشديد .

وقرأ حمزة وحده ﴿ نَبْشُرُكَ ﴾ بفتح النون وسكون الموحدة وضم الشين وهي لغة .

يقال بشَرَه يبشره من باب نصر .

والاستفهام في ﴿ أبشرتموني ﴾ للتعجب .

و﴿ على ﴾ بمعنى ( مع ) : دالة على شدة اقتران البشارة بمسّ الكبر إياه .

والمسّ : الإصابة .

والمعنى تعجب من بشارته بولد مع أن الكبر مسّه .

وأكد هذا التعجب بالاستفهام الثاني بقوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ﴾ استفهام تعجب .

نُزل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنه يكاد يكون غير معلوم .

وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أنهم ملائكة صادقون فتعين أن الاستفهام

للتعجب .

وحذف مفعول "بشرتموني" لدلالة الكلام عليه .

قرأ نافع ﴿ تبشرونِ ﴾ بكسر النون مخففة دون إشباع على حذف نون الرفع وحذف ياء

المتكلم وكل ذلك تخفيف فصيح .

وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة على حذف ياء المتكلم خاصة .

وقرأ الباقون بفتح النون على حذف المفعول لظهوره من المقام ، أي تبشرونني .

وجواب الملائكة إياه بأنهم بشّروه بالخَبَر الحق ، أي الثابت لا شك فيه إبطالاً لما اقتضاه

استفهامه بقوله : ﴿ فبم تبشرون ﴾ من أن ما بشروه به أمر يكاد أن يكون منتفياً

وباطلاً .

فكلامهم رد لكلامه وليس جواباً على استفهامه لأنه استفهام غير حقيقي .

ثم نهوه عن استبعاد ذلك بأنه استبعاد رحمة القدير بعد أن علم أن المبشّرين بها مرسلون

إليه من الله فاستبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله فقالوا : ﴿ فلا تكن من القانطين

﴾ .

ذلك أنه لما استبعد ذلك استبعاد المتعجب من حصوله كان ذلك أثَراً من آثار رسوخ الأمور المعتادة في نفسه بحيث لم يقلعه منها الخبر الذي يعلم صدقه فبقي في نفسه بقية من التردّد في حصول ذلك فقاربتْ حاله تلك حال الذين يَيأسون من أمر الله .

ولما كان إبراهيم عليه السلام منزّهاً عن القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة ، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطاً لرفعة مقام نبوءته عن ذلك .

وهو في هذا المقام كحاله في مقام ما حكاه الله عنه من قوله : ﴿ أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [ سورة البقرة : 260 ] .



---

وهذا النّهي كقول الله تعالى لنوح عليه السلام ﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ [ سورة هود : 46 ] .

وقد ذكرته الموعظة مقاماً نسيه فقال : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

وهو استفهام إنكار في معنى النفي ، ولذلك استثنى منه ﴿ إلا الضالون ﴾ .

يعني أنه لم يذهب عنه اجتناب القنوط من رحمة الله ، ولكنه امتلكه المعتاد فتعجب فصار ذلك كالذهول عن المعلوم فلما نبّهه الملائكة أدنى تنبيه تذكّر .

القنوط : اليأس .

وقرأ الجمهور ﴿ ومن يقنط ﴾ بفتح النون .

وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون وهما لغتان في فعل قَنط .

قال أبو علي الفارسي : قَنَط يقنِط بفتح النون في الماضي وكسرها في المستقبل من أعلى اللغات .

قال تعالى : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ [ سورة الشورى : 28 ] .

قلت : ومن فصاحة القرآن اختياره كل لغة في موضع كونها فيه أفصح ، فما جاء فيه إلا الفتح في الماضي ، وجاء المضارع بالفتح والكسر على القراءتين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾



---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال ( نبيء ) في خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم ﴾ [ النبأ : 1-2 ] .

وقال سبحانه أيضاً عن النبأ : ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ ص : 67-68 ] .

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة ما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتي سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذي يختصُّ به عباده المخلصين المُتقِين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها .

ولقائل أنْ يسأل : أليستْ المغفرة تقتضي ذّنْباً ؟

ونقول : إن الحق سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجسَ ؛ ولا يمكن أنْ تسلمَ النفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسوسة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّم الكثير من الأفعال على المسلم ؛ حمايةً للفرد وحمايةً للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع في الاستقرار الآمن .

فقد حرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقة والزِّنَا وشُرْب الخمر ، وغيرها من المُوبِقات والخطايا ، والهواجس التي تقوده إلى الإفساد في الأرض ، وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعني أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يُلزم كل المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُؤرّق نفسه بتلك الغفلات ؛ فسبحانه رءوفٌ رحيم .

ونحن حين نقرأ العربية التي قد شرّفَ اللهُ أُهلَها بنزول القرآن بها ، نجد أقسامَ الكلام إما شِعْراً أو نَثْراً ، والشعر له وزْن وقافية ، وله نَغَم وموسيقى ، أما النثر فليس له تلك الصّفات ، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غيْرَ مسجوع .

(212/426)

---

وإنْ تكلمتَ بكلام نثريّ وجئْتَ في وسطه ببيت من الشعر ، فالذي يسمعك يُمكِنه أن يلحظ هذا الفارق بين الشعر والنثر . ولكن القرآن كلامُ ربّ قادر ؛ لذلك أنت تجد هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهي موزونة مُقفَّاة :

"نَبّيء عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفورُ الرَّحيمُ"

ووزنها من بَحْر المُجْتث ولكنها تأتي وَسْط آيات من قبلها ومن بعدها فلا تشعر بالفارق ، ولا تشعر أنك انتقلتَ من نثر إلى شعرٍ ، ومن شعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعاني مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

وهكذا يكتمل النبأ بالمغفرة لِمَن آمنوا ؛ والعذاب لِمَنْ كفروا ، وكانوا من أهل الغواية .

ونلحظ أنه سبحانه لم يُشدِّد في تأكيد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقتْ غضبه ، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمة ، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل في خَلْقه كلِّهم رحمةً واحدةً ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس من الجنة ؛ ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب ؛ لم يأمن من النار " .

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ﴾ [ الرعد : 6 ] .

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مَقَامي الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصي ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول الحديث : " لمَّا قضى الله الخَلْق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي " .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية في الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسّية واقعية تُوضِّح كل تلك الصفات، فيتكلم عن إبراهيم عليه السلام ويعطيه البُشْرى، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة، ويُنزِل بأهله العقاب.

يقول الحق سبحانه:

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لِقِرىً أو استئناس، ويُسمونه "المُنْضوي" لأنه ينضوي إلى غيره لطلب القِرَى، ولطلب الأمن. ومن معاني المُنْضوي أنه مالَ ناحية الضَّوْء.

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم، ولكنهم يُعلِنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير في الطريق ليهتدي إليهم.

وكلنا قرأنا ما قال حاتم الطائي للعبد الذي يخدمه:

أَوْقِد النارَ فإنَّ الليْلَ لَيْل قُرٌّ . . . والريحُ يا غُلامُ ريحٌ صِرّ . . . إنْ جلبت لنا ضَيْفاً فأنت حُر . . . وهكذا نعرف أصل كلمة انضوى. أي: تَبِع الضوء.

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنَّى والجمع، إناثاً أو ذكوراً، فيُقال: جاءني ضيف فأكرمته، ويقال: جاءني ضيف فأكرمتها، ويقال: جاءني ضيف فأكرمتهما، وجاءني ضيف فأكرمتهم، وجاءني ضيف فأكرمتهُنَّ.

وكلُّ ذلك لأن كلمة " ضيف " قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون " ضيف " على " أضياف " ؛ ويجمعون " ضيف " على " ضيوف " ، أو يجمعون " ضيف " على " ضِيفان " .

ولنتنبه إلى أن الضيفَ إذا أُطلِق على جَمْع ؛ فمعناه أن فرداً قد جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتْهَا جماعة أخرى نقول : وجاءت ضيف أخرى .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نعلم أنهم ليسوا ضيفاً من الآية التي تليها ؛ التي قال فيها الحق سبحانه : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ . . . ﴾ .

(214/426)

---

ونلحظ أن كلمة ( سلاماً ) جاءت هنا بالنّصبْ ، ومعناها نُسلّم سلاماً ، وتعني سلاماً متجدداً . ولكنه في آية أخرى يقول : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [ الذاريات : 25 ] .

ونعلم أن القرآن يأتي بالقصة عَبْر لقطات مُوّزعة بين الآيات ؛ فإذا جمعتَها رسمَتْ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أن إبراهيم قد ردّ سلامهم ؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه

للعجل المَشْويّ لهم ؛ لأنه ذكر ذلك في موقع آخر من القرآن .

إذن : فمِنْ تلك الآية نعلم أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ، وجاء هذا السلام مرفوعاً ، فلماذا جاء السلام في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها منصوباً ؟

أي : قالوا هم : ﴿ سَلاماً ﴾ [ الحجر : 52 ] .

وكان لا بُدَّ من ردٍّ ، وهو ما جاءتْ به الآية الثانية : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [ الذاريات : 25 ] .

والسلام الذي صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتجدّد ؛ بينما السلام الذي صدر منه جاء في صيغة جملة اسمية مُثْبتة ؛ ويدلُّ على الثبوت .

إذا رَدَّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه يُوضِّح أن أخلاق المنهج أنْ يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أنْ يردّها فقط ، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامُهم كان سلاماً تجدديا ً ، والفرق بين سلام إبراهيم عليه السلام وسلام الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتي من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [ الحجر : 52 ] .

وجاء في آية أخرى أنه : ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [ هود : 70 ] .

وفي موقع آخر من القرآن يقول : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [ الذاريات : 25 ] .

فلماذا أوجسَ منهم خِيفة؟ ولماذا قال لهم : إنهم قومٌ مُنْكرون؟ ولماذا قال :

(215/426)

---

﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [ الحجر : 52 ] .

لقد جاءوا له دون أن يتعرّف عليهم ، وقدَّم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه

كما قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [ هود : 70 ] .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قَدِم ضَيْفاً وقُدِّم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلَى المرء ألاَّ يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين عَلِم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذي أرسلهم به الله اطمأنتْ نفسه ؛ وفي ذلك تأتي الآية القادمة : ﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ . . ﴾ .

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهَدَّأَتْ من رَوْعه ، وأزالتْ مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام سيصير إلي مرتبة أن يكون كثير العِلْم .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثيرَ ، فيقول ما ذكره الحق

سبحانه : ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي . . . ﴾ .

ونعلم أن الحق – سبحانه وتعالى – يخلق الخَلْق على أنحاء مُتعدّدة ؛ حتى يعلمَ المخلوق أن خَلْقه لا ضرورة أن يكونَ بطريقة محددة ؛ بل طلاقة القدرة أن يأتي المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولَد الولد من أبٍ وأم ؛ ذكر وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثُمَّ خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً صلى الله عليه وسلم من ذكرٍ وأنثى .

وفي الآية التي نحن بصددها نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشّرِونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر ، في قوله تعالى :

﴿ على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ [ الحجر : 54 ] .

يعني أن " على " هنا جاءت بمعنى " مع " أي : أنه يعيش مع الكِبَر ؛ ويرى أنه من الصعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب .

*(216/426)*

---

وأقول دائما : إن كلمة ( على ) لها عطاءاتٌ واسعة في القرآن الكريم ، فهي تترك مرة ويأتي الحق سبحانه بغيرها لتؤدي معنًى مُعيناً ؛ مثل قوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ

النخل ﴾ [ طه : 71 ] .

والصَّلْب إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء ب ( في ) بدلاً من ( على ) ليدلَّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ، بحيث تتدخل الأيدي والأرجُل المَصْلوبة في جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ [ الحجر : 54 ] .

أي : أتُبشِّرونني بالغلام العليم مع أنِّي كبير في العمر ؛ والمفهوم أن الكِبَر والتقدُّم في العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تأتي " على " بمعنى " مع " . أي : كيف تُبشِّرونني بالغلام مع أنِّي كبير في العمر ، وقد قال قولته هذه مُؤمِناً بقدرة الله ؛ فإبراهيم أيضاً هو الذي أورد الحق سبحانه قَوْلاً له :

﴿ الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء ﴾ [ إبراهيم : 39 ] .

وكأن الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتي رَدُّ الملائكة على إبراهيم خليل الرحمن : ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ ﴾ .

وكأن الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكِنَّا نُبلغك ببشارة شاءها الله لك ؛ فلا تكُنْ من اليائسين .

ونفس القصة تكررتْ من بعد إبراهيم مع ذكريا – عليه السلام – في إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا ربّه أن يهبه غلاماً : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ [ مريم : 6 ] .

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه : ﴿ قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ﴾ [ مريم : 8 ] .

(217/426)

---

وإن شئت أن تعرف سِرَّ عطاءات الأسلوب القرآني فاقرأ قوْل الحق سبحانه رداً على زكريا : ﴿ فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [ الأنبياء : 90 ] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين ؛ وفي ذلك إشارة إلي أن العطب كان في الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرةَ المرأة على أن تحمل مُحدّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿ وَوَهَبْنَا ﴾ [ الأنبياء : 90 ] .

نجد أنها تُثبِت طلاقة قدرة الله سبحانه فيما وَهَب ؛ وفي إصلاح مَا فسد ؛ فسبحانه لا يُعْوِزه شيء ؛ قادر جَلَّ شأنه على الوَهْب ؛ وقادر على أن يُهيئَ الأسباب ليتحقق مَا يَهبه

.

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

﴿ بَشَّرْنَاكَ بالحق ﴾ [ الحجر : 55 ] أي : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

﴿ فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ [ الحجر : 55 ] .

ويأتي الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ . . . ﴾ .

وهنا يعلن إبراهيم – عليه السلام – أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التعجب من طلاقة التعجب من طلاقة القدرة التي توحي بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحَدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففي كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم – عليه السلام – يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى . . ﴾ [ البقرة : 260 ] .

ولنلحظ أنه لم يسأله " أتحيي الموتى " ، بل كان سؤاله عن الكيفية التي يُحْيى بها الله المَوْتى ؛ ولذلك لسأله الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن . . . . ﴾ [ البقرة : 260 ] .

وكان رَدّ إبراهيم –عليه السلام– : ﴿ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [ البقرة : 260 ] .

وحدثتْ تجربة عندما أُمر إبراهيم بأن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقي على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكُنْ إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التي يُجرِي الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زَوْجه سارة ؛ إذ أن الحق سبحانه قد قال في سورة هود : ﴿ يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [ هود : 72-73 ] .

وهكذا نجد أن القرآن يُكمِل بعضُه بعضاً ؛ وكل لَقْطة تأتي في موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا في سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم – عليه السلام – للملائكة التي حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهِمّة الأساسية لمجيئهم ، الذي تسبَّب في أن يتوجَّس منهم خِيفةً ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارةَ بالغلام ؛ لأن البشارةَ يكفي فيها مَلَكٌ واحد .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذي سأله إبراهيم –

عليه السلام – : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/426)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ( إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ) ( الحجر : 53 ) ، وكذا في سورة الذاريات : ( قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ) ( الذاريات : 28 ) ، وورد في سورة الصافات : ( فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ) ( الصافات : 101 ) خلاف الوصف بالعلم في السورتين .

ووجه ذلك ، والله أعلم : أن آية والصافات لما وردت كالتمهيد لما تلاها متصلاً بها من قوله : ( فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ) ( الصافات : 102 ) ، فتلقى الذبيح ، وعليه السلام ، ما أخبره ( به ) ، أبوه – لعلمه أنه من أمر الله – بالرضى والصبر . قال ابن عطية في تفسير حليم : صابر محتمل عظيم العقل ، قال : والحلم العقل ، فأحسن ، عليه السلام ، جوب أبيه معزياً له محتسباً بنفسه ، فناسب هذا الموضع وورد وصف الذبيح بالحلم . ولما لم يرد في الآيتين الأخريين ذكر الأمر بالذبح ناسبها

الوصف بالعلم، وهو صفة الأنبياء ، فورد كل على ما يجب ويناسب ، والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 291 ﴾

(220/426)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أنَّا الغفور ﴾ : يجوز في " أنا " أن يكونَ تأكيداً ، وأن يكونَ مبتدأً ، وأن يكونَ فصلاً .

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ العذاب ﴾ : يجوز في " هو " الابتداء والفصلُ ، ولا يجوزُ التوكيدُ ؛ إذ المُظْهَرُ لا يُؤَكَّد بالمضمر .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ ﴾ : في " إذ " وجهان : أحدُهما : أنه مفعولٌ بفعلٍ مقدَّر ، أي : اذكر إذ دخلوا . والثاني : أنه ظرفٌ على بابِه . وفي العاملِ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه

محذوفٌ تقديره: خبر "ضيفِ" . والثاني: أنه نفس "ضيف" . وفي توجيه ذلك وجهان، أحدُهما: أنه لمَّا كان في الأصل مصدراً اعتُبر ذلك فيه، ويدلُّ على اعتبار مصدريَّته بعد الوصفِ به عدمُ مطابقتهِ لما قبله تثنيةً وجمعاً وتانيثاً في الأغلب، ولأنه قائمٌ مَقامَ وصفٍ، والوصفُ يعمل . والثاني: أنه على حَذْفِ مضاف، أي: أصحاب ضيفِ إبراهيم، أي: ضيافته، فالمصدرُ باقٍ على حالِه فلذلك عَمِلَ .

وقال أبو البقاء: -بعد أنْ قَدَّر أصحابَ ضيافته -/ "والمصدرُ على هذا مضافٌ إلى المفعول" . قلت: وفيه نظر؛ إذ الظاهرُ إضافتُهُ لفاعِله، إذ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هو

. . . . . . . . .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) ﴾

قوله تعالى: ﴿ لاَ تَوْجَلْ ﴾ : العامة على فتح التاء، مِنْ وَجِل كشَرِب يَشْرَب، والفتحُ قياسُ فَعِل، إلا أنَّ العربَ آثَرَتْ يَفْعِل بالكسرِ في بعضِ الألفاظِ إذا كانت فاؤه واواً نحو: يَثِقُ

.

وقرأ الحسن " تُوْجَل " مبنياً للمفعول من الإيجال . وقُرِئ " لا تاجَل " والأصلُ " تَوْجَل " كقراءة العامَّة ، إلاَّ أنه أبدل من الواو ألفاً لانفتاحِ ما قبلها ، وإن لم تتحرَّكْ ، كقولهم : تابة وصامة ، في تَوْبة وصَوْمَة ، وسُمِع : : اللهم تقبَّل تابتي وصامتي " . وقُرِئ أيضاً " لا تَوَاجَلْ " من المواجلة .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ قرأ الأعرج " بَشَّرْتموني " بإسقاطِ أداةِ الاستفهام ، فتحتمل الإِخبارَ ، وتحتمل الاستفهامَ وإنما حَذَفَ أداتَه للعلمِ بها .

قوله : ﴿ على أَن مَّسَّنِيَ ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال . وقرأ ابنُ محيصن " الكُبْرُ " بزنةِ قُفْل .

قوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ " بِمَ " متعلقٌ ب " تُبَشِّرون " ، وقُدِّم وجوباً لأنَّ له صدرَ الكلامِ . وقرأ العامَّةُ بفتح النون مخففةً على أنها نونُ الرفع ، ولم يُذْكَرْ مفعولُ التبشير . وقرأ نافع بكسرها ، والأصل " تُبَشِّرُونِي " فَحَذَفَ الياءَ مجتزِئاً عنها بالكسرة . وقد غلَّطه أبو حاتم وقال : " هذا يكونُ في الشعرِ اضطراراً " .

وقال مكي : " وقد طَعَنَ في هذه القراءةِ قومٌ لبُعْدِ مَخْرَجِها في العربيةِ ؛ لأنَّ حَذْفَ النونِ التي تصحب الياءَ لا يَحْسُنُ إلا في شِعْرٍ ، وإن قُدِّر حَذْفُ النون الأولى حَذَفْتَ عَلَمَ الرفعِ من غيرِ ناصبٍ ولا جازمٍ ؛ ولأنَّ نونَ الرفعِ كَسْرُها قبيحٌ ، إنما حَقُّها الفتح " . وهذا الطعنُ

لا يُلتفت إليه لأنّ ياءَ المتكلمِ قد كَثُرَ حَذْفُها مجتزَأً عنها بالكسرةِ، وقد قرئ بذلك في قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني ﴾ [الزمر: 64] كما سيأتي بيانُه.

(222/426)

---

ووجهُه: أنه لَمَّا اجتمع نونان إحداهما للرفع، والأخرى نونُ الوقاية، استثقل اللفظ: فمنهم مَنْ أدغم، ومنهم مَنْ حذف. ثم اخْتُلِف في المحذوفة: هل هي في الأولى أو الثانية؟ وقد قدَّمْتُ دلائلَ كلِّ قولٍ مستوفاةً في سورةِ الأنعام. وقرأ ابن كثير بتشديدِها مكسورةً، أدغم الأولى في الثانية وحَذَف ياءَ الإِضافةِ. والحسن أثبت الياءَ مع تشديدِ النون. ويرجِّح قراءةَ مَنْ أثبت مفعول "تُبَشِّرون" وهو الياءُ قولُه: ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ ﴾.

﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) ﴾

و﴿ بالحق ﴾: متعلقٌ بالفعلِ قبله، ويَضْعُفُ أن يكون حالاً، أي: بَشَّرْناك ومعنا الحقُّ.

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ ﴾: هذا الاستفهامُ معناه النفي؛ ولذلك وقع بعده الإِيجابُ ب "إلا". وقرأ أبو عمروٍ والكسائي "يَقْنِط" بكسرِ عينِ هذا المضارعِ حيث وقع، والباقون بفتحها، وزيدُ بن علي والأشهبُ بضمِّها. وفي الماضي لغتان: قَنِط بكسر النون، يَقْنَط

بفتحها ، وقَنَط بفتحِها يَقْنِط بكسرِها ، ولولا أنّ القراءةَ سُنّةٌ متبعةٌ لكان قياس مَنْ قرأ " يَقْنَطُ " بالفتح أن يقرأ ماضيَه " قَنِط " بالكسر ، لكنهم أَجْمعوا على فتحِه في قولِه تعالى في قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [ الشورى : 28 ] . والفتحُ في الماضي هو الأكثر ولذلك أُجْمِعَ عليه . ويُرَجِّح قراءَة "يَقْنَطُ" بالفتح قراءةُ أبي عمروٍ في بعض الروايات ﴿ فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ كفَرِح يَفْرَحُ فهو فَرِح . والقُنُوط : شدةُ اليأسِ من الخير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 163.167 ﴾

(223/426)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى نبأ )

النَبأَ - مُحركةً - : الخَبَر ، ونَبَّأَ وأَنْبأَ : أَخبر ، ومنه اشتق [النبى] قال تعالى : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وعلى هذا هو فعيل بمعنى فاعل ، [و] قال تعالى : ﴿ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ وعلى هذا فهو فعيل بمعنى مفعول .

غير أَنهم تركوا الهمزة فى النبىّ ، والبَرِيَّة ، والذُّرِيّة ، والخابية ؛ إِلا أَهل مكَّة حرسها الله ،

فإنهم يهمزون هذه الأَحرف ولا يهمزون غيرها ويخالفون العرب فى ذلك .

وتصغير النبىّ نُبَيِّئ كنُبَيِّع ، وتصغير النبوّة نُبَيِّئَة مثال نُبَيِّعة ، يقول العرب : كانت نُبَيِّئَةُ مُسَيْلِمَةَ نُبَيِّئَةَ سَوْءٍ وجمع النبىّ أَنبئاء ونُبآء .

قال العبّاس بن مِرْداس :

*يا خاتم النُبَآءِ إِنّك مرسَل * بالحقّ كلّ هُدَى السبيل هداكا*

*إِنّ الإِله بَنَى عليك محبَّة * في خَلْقه ومحمّداً سمّاكا*

ويُروى : يا خاتم الأَنباءِ .

ويجمع أَيضاً على نبيّين وأَنبياء ؛ لأَن الهمز لَمّا أُبدل وأُلزم الإِبدال جُمِع جَمْعَ ما أَصلُ لامه حرف العلة ؛ كعِيد وأَعياد .

ونَبَّأَ تنبئة : أَخبر ، وقوله تعالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ ﴾ أَى لتُجازِيَنّهم بفعلهم .

ويقول العربىّ للرّجل إِذا توعّده : لأُنبِّئَنّك ولأُعَرِّفَنَّك .

ونبّأْته أَبلغ من أَنبأْته .

ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ولم يقل : أَنبأَنى بل عدل إِلى نبّأَ الّذى أَبلغ ؛ تنبيها على تحقيقه وكونِه من قِبَل الله .

/ والنبوّة : سِفَارة بين الله وبين ذوى العقول ؛ لإِزاحة عِلَلهم فى أَمر مَعادهم ومَعاشهم .

والنَبْأَة : الصّوت .

ونَبَأت أنْبَأُ نُبُوءًا ، أَى ارتفعت ، وكلّ مرتفع نابئٌ ونَبئٌ .

وفى بعض الآثار : لا يُصلَّى على النبئِ ، أَى المكان المرتفع المحْدَوْدِب .

(224/426)

---

ونَبَأْت على القوم نَبْأً ونُبُوءاً : إِذا طلعتَ عليهم .

ونَبَأت من أَرض إِلى

أَرض : إِذا خرجت منها إِلى أُخرى وهذا المعنى أَراد الأَعرابىّ بقوله : يا نبىءَالله ، أَى يا من خرج من مكَّة إِلى المدينة ، فأَنكر عليه الهمز وقال : "إِنّا معشرَ قريش لانَنْبر" .

ويُرْوَى : لا تَنْبِرْ باسمى فإِنما أَنَا نبىّ الله ولست بنَبىءِ الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 15.14 ﴾

(225/426)

---

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين العذاب والألم

أن العذاب أخص من الألم وذلك أن العذاب هو الألم المستمر يكون سمتمرا وغير مستمر ألا ترى أن قرصة البعوض ألم وليس بعذاب فإن استمر ذلك قلت عذبني البعوض الليلة فكل عذاب ألم وليس كل ألم عذابا وأصل الكلمة الاستمرار ومنه يقال ماء عذب لاستمرائه في الحلق

الفرق بين الألم والوجع

أن الوجع أعم من الألم تقول آلمني زيد بضربه إيادي وأوجعني بذلك وتقول أوجعني ضربني ولا تقول آلمني ضربني وكل ألم هو يلحقه بك غيرك والوجع ما يلحقك من قبل نفسك ومن قبل غيرك ثم استعمل أحدهما في موضع الآخر

الفرق بين الألم والوصب

أن الوصب هو الألم الذي يلزم البدن لزوما دائما ومنه يقال فلاة واصبه إذا كانت بعيدة كأنها من شدة

بعدها لا غاية لها ومنه قوله تعالى ( وله الدين واصبا ) وقوله تعالى ( ولهم عذاب واصب

الفرق بين العذاب والعقاب

أن العقاب ينبىء عن استحقاق وسمي بذلك لأن الفاعل يستحقه عقيب فعله ويجوز أن يكون العذاب مستحقا وغير متسحق وأصل العقاب التلو وهو تأدية الأول إلى الثاني يقال عقب الثاني الأول إذا تلاه وعقب الليل نهار والليل النهار هما عقيبان وأعقبه بالغبطة

حسرة إذا أبدله بها وعقب باعتذار بعد اساءة وفي التنزيل ( ولى مدرا ولم يعقب ) اي لم يرجع بعد ذهابه تاليا له مجيئة وفيه ( لا معقب لحكمة ) وتعقبت فلانا تتبعت أمره واستعقبت منه خيرا وشرا اي استبدلت بالأول ما يتلوه من الثاني وتعاقبا الأمر تناوباه بما يتلو كل واحد منهما الآخر وعاقبت اللص بالقطع الذي يتلو سرقته واعتقب الرجلن العقبة إذا ركبها كل واحد منهما على مناوبة يتلو سرقته واعتقب الرجلان العقبة إذا ركبها كل واحد منهما على مناوبة الآخر ( والعاقبة للمتقين ) وعلى المجرمين لأنها تعقب المتقين خيرا والمجرمين شرا كما تقول الدائرة لفلان على فلان

(226/426)

---

الفرق بين البلاء والنقمة

أن البلاء يكون ضررا يكون نفعا وإذا أردت النفع قلت أبليته وفي القرآن ( وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ) ومن الضر بلوته واصله أن تختبره بالمكروه وتستخرج ما عنده من الصبر ويكون ذلك ابتداء والنقمة لا تكون غلا جزاء وعقوبة وأصلها شدة الإنكار تقول نقمت عليه الأمر إذا أنكرته عليه وقد تسمى النقمة بلاء والبلاء لا يسمى نقمة إذا كان ابتداء والبلاء أيتضا اسم للنعمة وفي

كلام الأحنف البلاء ثم الثناء أي النعمة ثم الشكر

الفرق بين قولك أنكر وبين وقولك نقم أن قولك نقم أبلغ من قولك أنكر ومعنى نقم أنكر إنكار المعاقب ومن ثم سمي العقاب نقمه

الفرق بين العقاب والانتقام

أن الانتقام سلب النعمة بالعذاب والعقاب جزاء على الجرم بالعذاب لأن العقاب نقيض الثواب والانتقام نقيض الإنعام

الفرق بين الخوف والحذر والخشية والفزع

أن الخوف توقع الضرر المشكوك في وقوعه ومن يتيقن الضرر لم يكن خائفا له وكذلك الرجاء لا يكون إلا مع الشك ومن تيقن النفع لم يكن راجيا له والحذر توقي الضرر وسواء كان مظنونا أو متيقنا والحذر يدفع الضرر والخوف لا يدفعه ولهذا يقال خذ حذرك ولا يقال خذ خوفك

الفرق بين الحذر والاحتراز

أن الاحتراز هو التحفظ من الشيء الموجود والحذر هو التحفظ مما لم يكن إذا علم أنه يكون أو ظن ذلك

الفرق بين الخوف والخشية

أن الخوف يتعلق بالمكروه ويترك المكروه تقول خفت زيدا كما قال تعالى ( يخافون ربهم من

فوقهم ) وتقول خفت المرض كما قال سبحانه ( ويخافون سوء الحساب ) والخشية تتعلق بمنزل المكروه ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية ولهذا قال ( ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ) فإن

(227/426)

---

قيل أليس قد قال ( إني خشيت أن تقول فرقت بين بين إسرائيل ) قلنا إنه خشي القول المؤدي إلى الفرقة والمؤدي إلى الشيء بمنزلة من يفعله وقال بعض العلماء يقال خشيت زيدا ولا يقال خشيت ذهاب زيد فإن قيل ذلك فليس على الأصل ولكن على ضع الخشية مكان الخوف وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه

الفرق بين الخشية والشفقة

أن الشفقة ضرب من الرقة وضعف القلب ينال الإنسان ومن ثم يقال للأم إنها تشفق على ولدها أي ترق له وليست هي من الخشية والخوف في شيء والشاهد قوله تعالى ( الذين هم من خشية ربهم مشفقون ) ولو كانت الخشية هي الشفقة لما حسن أن يقول ذلك كما لا يسحن أن يقول يخشون من خشية ربهم ومن هذا الأصل قولهم ثوب شفق إذا كان رقيقا وشبهت به البدا لأنها حمرة ليست بالمحكمة فقولك اشفقت من كذا معناه ضعف قلبي عن

احتماله

الفرق بين الخوف والرهبة

أن الرهبة طول الخوف واستمراره ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يدم أخوف واصله من قولهم جمل رهب إذا كان طويل العظام مشبوح الخلق والرهابة العظم الذي على رأس المعدة يرجع الى هذا وقال علي بن عيس الرهبة خوف قع على شريطة لا مخافة والشاهد أن نقيضها الرغبة وهي السلامة من المخاوف مع حصول فائدة والخوف مع الشك بوقوع الشرر والرهبة مع العلم به يقع على شريطة كذا وإن لم تكن الشريطة لم تقع

الفرق بين التخويف والإنذار

أن الإنذار تخويف مع إعلام موضع المخافة من قولك نذرت بالشيء إذا علمته فاستعددت له فإذا خوف الإنسان غير وأعلمه حال ما يخوفه به فقد أنذره وإن لم يعلمه ذلك لم يقل أنذره والنذر ما يجعله الانسان على نفسه إذا سلم ما يخافه والانذار إحسان من المنذر وكلما كانت المخافة أشد كانت النعمة بالإنذار أعظم ولهذا كان النبي أعظم الناس منه بإنذاره لهم عقاب الله تعالى

الفرق بين الإنذار والوصية

أن الإنذار لا يكون إلا منك لغيرك وتكون الوصية منك لنفسك ولغيرك تقول أوصيت نفسي كما توقل أوصيت غيري ولا تقول أنذرت نفسن والإنذار لا يكون بالزجر عن القبيح وما يعتقد المنذر قبح والوصية تكون بالحسن ولا يجوز أن ينذره إلا في ما هو قبيح وقيل النذراة نقيضة البشارة وليست الوصية نقيضة البشارة

الفرق بين الخوف والهلع والفزع

أن الفزع مفاجاة الخوف عند هجوم غارة أو صوت هدة وما أشبه ذلك وهو انزعاج القلب بتوقع مكروه عاجل وتقول فزعت منه فتعدية بمن وخفته فتعدية بنفسه فمعنى خفتة أي هو نفسه خوفي ومعنى فزعت منه أي هو ابتداء فزعي بنفسه فمعنى خفته أي هو نفسه خوفي ومعنى فزعت منه أي هو ابتداء فزعي لأن من لابتداء العاية وهو يؤكد ما ذكرناه وأما الهلع فو أسوأ الجزع وقيل الهلوع على ما فسره الله تعالى في قوله تعالى ( إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ) ولا يسمى هلوعا حتى تجمع فيه هذه الخصال

الفرق بين الخوف والهول

أن الهول مخافة الشيء لا يدري على ما يقحم عليه منه كهول الليل وهول البحر وقد هالني الشيء وهو هائل ولا يقال أمر مهول أن الشاعر في بيت من الخفيف

( ومهول من المناهل وحش

ذي عراقيب آجن مدفان )

وتفسير المهول أن فيه هولا والعرب إذا كان الشيء أنشىء له يخرجونه على فاعل كقولهم دارع وإذا كان الشيء أنشىء فيه أخرجوه على مفعول مثل محبون فيه ذلك ومديون عليه ذلك وهذا قول الخليل

الفرق بين الخوف والوجل



---

أن الخوف خلاف الطمأنينة وجل الرجل يوجل وجلا وإذا قلت ولم يطمئن ويقال أنا من هذا على وجل ومن ذلك على طمأنينة ولا يقال على خوف في هذا الموضع وفي القرآن ( الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) أي إذا ذكرت عظمة الله وقدرته لم تطمئن قلوبهم إلى ما قدموه من الطاعة وظنوا أنهم مقصرون فاضطربوا من ذلك وقلقوا فليس الوجل من الخوف في شيء وخاف متعد ووجل غير متعد وصيغتاهما مختلفتان أيضا وذلك يدل على فرق بينهما في المعنى

الفرق بين الاتقاء والخشية

أن في الاتقاء معنى الاحتراس مما يخاف وليس ذلك في الخشية

الفرق بين الخوف والبأس والبؤس

أن البأس يجري على العدة من السلاح وغيرها ونحوه قوله تعالى ( وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ) ويستعمل في موضع الخوف مجازا فيقال لا بأس عليك ولا بأس في هذا الفعل أي لا كراهة فيه

الفرق بين الحيرة والدهش

أن الدهش حيرة مع تردد واضطراب ولا يكون إلا ظاهر ويجوز أن تكون الحيرة خافية كحيرة الإنسان بين أمرين تروى فيهما ولا يدري على أيهما يقدم ولا يظهر حيرته ولا يجوز أن يدهش ولا يظهر دهشته

الفرق بين الخجل والحياء

أن الخجل معنى يظهر في الوجه

لغم يلحق القلب عند ذهاب حجة أو ظهور على ريبة وما أشبه ذلك فهو شيء تتغير به الهيبة والحياء هو الاتداع بقوة الحياء ولهذا يقال فلان يستحي في هذا الحال أن يفعل كذا ولا يقال يخجل أن يفعله في هذه الحال لأن هيئة لا تتغير منه قبل أن يفعل فالخجل مما كان والحياء مما يكون وقد يستعمل الحياء موضع الخجل توسعا وقال الأنباري أصل الخجل في اللغة الكسل والتواني وقلة الحركة في طلب الرزق ثم كثر استعمال العرب له حتى أخرجوه على

معنى الأنقطاع في الكلام وفي الحديث إذا جعتن دقعتن وإذا شبعتن خجلتن دقعتن أي ذللتن وخجلتن كسلتن وقال أبو عبيدة الخجل ههنا الأشر وقيل هو سوء احتمال العناء وقد جاء عن العرب الخجل بمعنى الدهش قال الكميت من المتقارب

فلم يدقعوا عندما نابهم



---

لوقع الحروب ولم يخجلوا

أي لم يبقوا دهشين مبهوتين

الفرق بين الرجاء والطمع

أن الرجاء هو الظن بوقوع الخير الذي يعترى صاحبه الشك فيه إلا أن ظنه أغلب وليس هو من قبيل العلم والشاهد أنه لا يقال أرجو أن يدخل النبي الجنة لكون ذلك متيقنا ويقال أرجو أن يدخل فلان الجنة إذا لم يعلم ذلك والرجاء الأمل في الخير والخشية الخوف في الشر لأنهما يكونان مع الشك في المرجو والمخوف ولا يكون الرجاء إلا عن سبب يدعو إليه من كرم المرجو أو ما به إليه ويتعدى بنفسه تقول رجوت زيدا والمراد رجوت الخير من زيد لأن الرجاء لا يتعدى إلى أعيان الرجال والطمع ما يكون من غير سبب يدعو

إليه فإذا طمعت في الشيء فكأنك حدثت نفسك به من غير أن يكون هناك سبب يدعو اليه ولهذا ذم الطمع ولم يذم الرجاء والطمع يتعدى إلى المفعول بحرف فتقول طمعت فيه كما تقول فرقت منه وحذرت منه واسم الفاعل طمع مثل حذر وفرق ودئب إذا جعلته كالنسبة وإذا بنيته على الفعل قلت طامع

الفرق بين الوجل والأمل

أن الأمل رجاء يستمر فلأجل هذا قيل للنظر في لاشيء إذا استمر وطال تأمل وأصله من الأميل وهو الرمل المستطيل

الفرق بين اليأس والقنوط والخيبة

أن القنوط أشد مبالغة من اليأس وأما الخيبة فلا تكون إلا بعد الأمل لنها امتناع نيل ما أمل فأما اليأس فقد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده والرجاء واليأس نقيضان يتعاقبان كتعاقب الخيبة والظفر والخائب المتقطع عما أمل. انتهى انتهى. اهـ ﴿الفروق اللغوية صـ 253. 259﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

لَمَّا ذَكَرَ حديثَ المتقين وما لهم من علوِّ المنزلة انكسرت قلوب العاصين ، فَتَدارَكَ اللَّهُ قلوبهم ، وقال لنبيِّه - صلى الله عليه وسلم - أخبر عبادي العاصين أني غفور رحيم ، وأني إنْ كنتُ الشكورَ الكريمَ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين .

ويقال مَنْ سَمِعَ قوله : ﴿ أَنِى أَنَا ﴾ بسمع التحقيق لا يبقى فيه مساغٌ لسماع المغفرة والرحمة ؛ لأنه يكون عندئذ مُخْتَطَفاً عن شاهده ، مُسْتَهَلكاً في أنيته .

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

العذابُ الأليم هنا هو الفراق ، ولا عذابَ فوق في الصعوبة والألم .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) ﴾

أَلا عرَّفَهم كيف كانت فتوة الخليل في الضيافة ، وقيامه بحقِّ الضيفان ، وكان الخليلُ عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلمَّا سلموا من جانبهم وردَّ عليهم وانْقَضُّوا عن تناولِ طعامِه :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ .

وَجلون أي خائفون ، فإنّ الإمساكَ عن تناول طعام الكرام موضعٌ للريبة . ولمّا عَلِمَ أنهم ملائكة خاف أن يكونوا نزلوا لتعذيب قومه إذ كانوا مجرمين . ولكن سكن رَوْعُه .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) ﴾

فليس لك موضعٌ للوجَلِ لكن موضِعٌ لفَرَجٍ ؛ فإنا جئناك مُبشِّرِين ، وإن كُنَّا لغيرِكَ مُعَذِّبِين . نحن ﴿ نبشرك بغلام عليم ﴾ : أي يعيش حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشارتُهم بالوَلَدِ وببقاءِ الولد هي العجب .

(232/426)

---

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) ﴾

قال أبشرتموني وقد مسَّني الكِبَرُ ؟ وإنَّ الكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشيء . بماذا تبشروني وقد طعَنْتُ في السنّ ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من جملة من يقنط من رحمة الله ، ولا يقنط من رحمة ربه إلا من كان ضالاً .

قال : كيف أخطأ ظنكم فيّ فتوهمتم أني أقنط من رحمة ربي ؟

فلما فرغ قلبه من هذا الحديث ، وعرف أنه لن يُصيبَه ضررٌ منهم سألهم عن حالهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 274 . 275 ﴾

(233/426)

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

التفسير قال جار الله : ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآي والكتاب والقرآن المبين السورة . وتنكير القرآن للتفخيم وقال آخرون : الكتاب والقرآن المبين هو الكتاب الذي وعد الله محمداً صلى الله عليه وسلم والمعنى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتاباً وفي كونه قرآناً مفيداً للبيان . أما قوله ﴿ ربما يود ﴾ فذكر السكاكي أن فيه سبع لغات أخر بعد المشهورة : رب بالراء مضمومة ، والباء مخففة مفتوحة أو مضمومة أم مسكنة ، ورب بالراء مفتوحة والباء كذلك مشددة ، وربة بالتاء مفتوحة والباء كذلك أي

مفتوحة مخففة أو مشددة ، وإنما دخل على المضارع مع أنه مختص بالماضي لأن المترقب في أخبار الله بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل : ربما ود . و " ما " هذه كافة أي تكف رب عن العمل فتهيأ بذلك للدخول على الفعل .

(234/426)

---

وقيل : إن " ما " بمعنى شيء أي رب شيء يوده الذين كفروا . ورب للتقليل فأورد عليه أن تمنيهم يكثر ويتواصل فما معنى التقليل ؟ وأجيب بأنه على عادة العرب إذا أرادوا التكثير ذكروا لفظاً وضع لأجل التقليل كما إذا أرادوا اليقين ذكروا لفظاً وضع للشك . والمقصود إظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالتعريض فيقولون : ربما ندمت على ما فعلت ، ولعلك تندم على فعلك . وإن كان العلم حاصلاً بكثرة الندم ووجوده بغير شك أرادوا لو كان الندم قليلاً أو مشكوكاً فيه لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من الغم القليل كما يحذرون من الكثير ، ومن الغم المظنون كما من المتيقن . فمعنى الآية لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة كان جديراً بالمسارعة إليه فكيف وهو يودونه في كل ساعة . وقوله ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ إخبار عن ودادتهم كقولك " حلف بالله ليفعلن " . ولو قيل " لو كنا مسلمين " جاز من حيث العربية كقولك " حلف بالله لأفعلن " . ومتى تكون هذه

الودادة؟ قال الزجاج: إن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب أو رأى أحوالاً من أحوال المسلم ود لو كان مسلماً . وعلى هذا فقد قيل في وجه التقليل: إن العذاب يشغلهم عن كثير التمني فلذلك قلل. وقال الضحاك: هي عند الموت إذا شاهد أمارات العذاب. وقيل: إذا اسودت وجوههم. روي عن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة اجتمع أهل النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة. فقال الكفار لهم: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى قالوا: فما أغنى عنكم من إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم فيأمر لكل من كان من أهل القبلة بالخروج فحينئذٍ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية " وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الملائكة والأنبياء حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول: من كان من المسلمين فليدخل



---

الجنة فهناك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ ذرهم ﴾ ظاهره أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يخليهم وشأنهم، فاحتجت الأشاعرة به على أنه سبحانه وتعالى قد يصد عن الإيمان ويفعل بالمكلف ما يكون مفسدة في الدين. وقالت المعتزلة: ليس هذا إذناً

وتجويزاً وإنما هو تهديد ووعيد وقطع طمع النبي عن ارعوائهم ، وفيه أنهم من أهل الخذلان ولا يجيء منهم إلا ما هم فيه ، ولا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ . وفي الآية تنبيه على أن إيثار التلذذ والتمتع وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين ﴿ و ﴾ معنى ﴿ يلههم الأمل ﴾ يشغلهم الرجاء عن الإيمان والطاعة .

لهيت عن الشيء بالكسر ألهى لهياً إذا سلوت عنه وتركت ذكره وأضربت عنه . وألهاني غيره . عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطاً وقال : هذا الإنسان . وخط آخر إلى جنبه وقال : هذا أجله . وخط آخر بعيداً منه فقال : هذا الأمل . فبينما هو كذلك إذا جاءه الأقرب ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سوء صنيعهم مزيد تأكيد للتهديد .

*(236/426)*

---

ثم ذكر ما هو نهاية في الزجر والتحذير فقال ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب ﴾ أي مكتوب ﴿ معلوم ﴾ وهو أجلها الذي كتب في اللوح. قال جار الله : قوله ﴿ ولها كتاب ﴾ جملة واقعة صفة لقرية والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف . وذكر السكاكي في المفتاح أن هذا سهو لأن الفصل بين الموصوف والصفة لا يجوز ولكن الجملة حال من قرية

ومثل هذا جائز ، ولو كان ذو الحال نكرة محضة كقولك " جاءني رجلٌ وعلى كتفه سيف " لعدم التباس الحال بالوصف لمكان الفاصلة بالواو ، وكيف وقد زادت الفاصلة في الآية بكلمة ﴿ إلا ﴾ وذو الحال قريب من المعرفة إذ التقدير : وما أهلكنا قرية من القرى من قبل إفادة من الاستغراق . قال قوم : المراد بهذا الهلاك عذاب الاستئصال الذي كان ينزله الله بالمكذبين المعاندين من الأمم السالفة . وقال آخرون : أراد الموت والأول أقرب لأنه في الزجر أبلغ وكأنه قيل : إن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتر به العاقل فإن لكل أمة وقتاً معيناً في نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر . وقيل : أراد مجموع الأمرين . قال صاحب النظم : إذا كان السبق واقعاً على شخص فمعناه جاز وخلف كقولك " سبق زيد عمراً " أي جازه وخلفه وأنه قصر عنه وما بلغه ، وإذا كان واقعاً على زمان فعلى العكس كقولك " سبق فلان عام كذا " معناه مضى قبل إتيانه ولم يبلغه . فمعنى الآية أنه لا يحصل أجل أمة قبل وقته ولا بعده كما في كل حادث ، وقد مر بحث الأجل في أول سورة الأنعام . وأنث الأمة أولاً ثم ذكرها آخراً في قوله ﴿ وما يستأخرون ﴾ حملاً على اللفظ والمعنى ، وحذف متعلق ﴿ يستأخرون ﴾ وهو عنه للعلم به . ولما بالغ في تهديد الكفار شرع في تعديد بعض شبههم ومطاعنهم في النبي . فالأولى أنهم كانوا يحكمون عليه بالجنون لأنهم كانوا يسمعون منه صلى الله عليه وسلم . ما لا يوافق آراءهم ولا يطابق أهواءهم وإنما نادوه ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ مع أنهم كانوا لا يقرون بنزول الوحي عليه

تعكيساً للكلام استهزاءً وتهكماً ، وأرادوا يا أيها الذين نزل عليه الوحي في زعمه واعتقاده وعند أصحابه وأتباعه ، الثانية . ﴿ لوما تأتينا بالملائكة ﴾ " لوما " حرف تحضيض مركب من " لو " المفيدة للتمني ومن " ما " المزيدة ، فأفاد المجموع الحث على الفعل الداخل هو عليه والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة ليشهدوا على صدقك ويعضدوك على إنذارك ؟ والمراد هلا تأتينا بملائكة العذاب إن كنت صادقاً في أن تكذيبك يقتضي التعذيب العاجل ؟ فأجاب الله سبحانه عن شبههم بقوله ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ قالت المعتزلة : أي تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة والغاية الصحيحة ، ولا حكمة في أن تأتيكم عياناً فإن أمر التكليف حينئذٍ يؤول إلى الاضطرار والإلجاء ، ولا فائدة تعود عليكم لأنه تعالى يعلم إصراركم على الكفر فيصير إنزالهم عبثاً ، أو لا حكمة في إنزالهم لأنهم لو نزلوا ثم لم تؤمنوا وجب عذاب الاستئصال وذلك قوله ﴿ وما كانوا إذاً منظرين ﴾ فإن التكليف يزول عند نزول الملائكة وقد علم الله من المصلحة أن لا يهلك هذه الأمة ويمهلهم لما علم من إيمان بعضهم أو إيمان أولادهم .

وقالت الأشاعرة : إلا بالحق أي إلا بالوحي أو العذاب . قال صاحب النظم : لفظ " إذن " مركبة من " إذ " بمعنى " حين " ومن " أن " الدالة على مجيء فعل بعده ، فخففت الهمزة بحذفها بعد نقل حركتها وكأنه قيل : وما كانوا منظرين إذ كان ما طلبوا . وقال غيره : " إذن " جواب وجزاء تقديره : ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخر عذابهم . ثم أنكر على الكفار استهزاءهم في قولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ فقال على سبيل التوكيد ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ ثم دل على كونه آي منزلة من عنده فقال ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ لأنه لو كان من قول البشر أو لم يكن آية لم يبق محفوظاً من التغيير والاختلاف . وقيل : الضمير في ﴿ له ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] والقول الأول أوضح . ووجه حفظ القرآن قيل : هو جعله معجزاً مبايناً لكلام البشر حتى لو زادوا فيه شيئاً ظهر ذلك للعقلاء . ولم يخف ، فلذلك بقي مصوناً عن التحريف . وقيل : حفظ بالدرس . والبحث ولم يزل طائفة يحفظونه ويدرسونه ويكتبونه في القراطيس باحتياط بليغ وجد كامل حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن في حرف من كتاب الله لقال له بعض الصبيان : أخطأت . ومن جملة إعجاز القرآن وصدقه أنه سبحانه أخبر عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف وكان كما أخبر بعد تسعمائة سنة فلم يبق للموحد شك في إعجازه . وههنا نكتة هي أنه سبحانه تولى حفظ القرآن ولم يكله إلى غيره

فبقي محفوظاً على مر الدهور بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم ووقع التحريف. ثم ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء كذلك، والغرض تسلية النبي صلى الله عليه وسلم.

(239/426)

---

وفي الكلام إضمار والتقدير ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك ﴾ رسلاً إلا أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه. ومعنى ﴿ في شيع الأولين ﴾ في أممهم وأتباعهم وقد مر معنى الشيعة في آخر "الأنعام" قال جار الله: معنى أرسلنا فيهم جعلناهم رسلاً فيما بينهم. قال الفراء: إضافة الشيع إلى الأولين من إضافة الموصوف إلى الصفة كقوله ﴿ حق اليقين ﴾ [الواقعة: 95] و ﴿ بجانب الغربي ﴾ [القصص: 44] وقوله ﴿ وما يأتيهم ﴾ حكاية حال ماضية. وإنما كان الاسهزاء بالرسل عادة الجهلة في كل قرن لأن الفطام عن المألوف شديد وكون الإنسان مسخرا لأمر من هو مثله أو أقل حالاً منه في المال والجاه والقبول أشد، على أن السبب الكلي فيه هو الخذلان وعدم التوفيق من الله سبحانه ووقوعهم مظاهر القهر في الأزل. قوله ﴿ كذلك نسلكه ﴾ السلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط. وقالت الأشاعرة: الضمير في ﴿ نسلكه ﴾ يجب عوده إلى

أقرب المذكورات وهو الاستهزاء الدال عليه ﴿ يستهزءُون ﴾ وأما الضمير في قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ فيعود إلى الذكر لأنه لو عاد إلى الاستهزاء وعدم الإيمان بالاستهزاء حق وصواب لم يتوجه اللوم على الكفار ، ولا يلزم من تعاقب الضمائر عودها على شيء واحد وإن كان الأحسن ذلك . والحاصل أن مقتضى الدليل عود الضمير إلى الأقرب إلا إذا منع مانع من اعتباره . وقال بعض الأدباء منهم : قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ تفسير للكناية في قوله ﴿ نسلكه ﴾ أي نجعل في قلوبهم أن لا يؤمنوا به فثبتت دلالة الآية على أن الكفر والضلال والاستهزاء ونحوها من الأفعال كلها بخلق الله وإيجاده . وقالت المعتزلة : الضميران يعودان إلى الذكر لأنه شبه هذا السلك بعمل آخر قبله وليس إلا تنزيل الذكر . والمعنى مثل ذلك الفعل نسلك الذكر في قلوب المجرمين . ومحل ﴿ لا يؤمنون به ﴾ نصب على الحال أي غير مؤمن به أو هو بيان لقوله ﴿ كذلك نسلكه ﴾ والحاصل أنا نلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزأً به غير



---

مقبول نظيره ما إذا أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها فقلت : كذلك أنزلها باللئام تعني مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . واعتراض بأن النون إنما يستعمله الواحد

المتكلم إظهاراً للعظمة والجلال ومثل هذا التعظيم إنما يحسن ذكره إذا فعل فعلاً يظهر له أثر قويّ كامل ، أما إذا فعل بحيث يكون منازعه ومدافعه غالباً عليه فإنه يستقبح ذكره على سبيل التعظيم ، والأمر ههنا كذلك لأنه تعالى سلك استماع القرآن وتحفيظه وتعليمه في قلب الكافر لأجل أن يؤمن به ، ثم إنه لم يلتفت إليه ولم يؤمن به فصار فعل الله كالهدر الضائع وصار الشيطان كالغالب المدافع فكيف يحسن ذكر النون المشعر بالتعظيم في هذا المقام ؟ أما قوله ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ فقيل : أي طريقتهم التي بينها الله في إهلاكهم حين كذبوا برسلهم وبالذكر المنزل عليهم ، وهذا يناسب تفسير المعتزلة ، وفيه وعيد لأهل مكة على تكذيبهم .



---

وقيل : قد مضت سنة الله في الأولين بأن يسلك الكفر والضلال في قلوبهم وهذا قول الزجاج ، ويناسب تفسير الأشاعرة . ثم حكى إصرارهم على الجهل والتكذيب بقوله ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا ﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿ فيه يعرجون ﴾ يتصاعدون ﴿ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ هو من سكر الشراب أو من سكر سدّ الشق يقال : سكر النهر إذا سدّه وحبسه من الجري . والتركيب يدل على قطع الشيء من سننه الجاري

عليه ومنه السكر في الشراب لأنه ينقطع عما كان عليه من المضاء في حال الصحو. فمعنى الآية حيرت أبصارنا ووقع بها من فساد النظر ما يقع بالرجل السكران، أو حبست عن أفعالها بحيث لا ينفذ نورها ولا تدرك الأشياء على حقائقها. عن ابن عباس: المراد لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه وإلى عباده الملائكة الذين هم من خشية ربهم مشفقون لتشككوا في تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس ان يأتوا بمثله. قال في الكشاف: ذكر الظلول يعني أنه قال ﴿ فظلوا ﴾ ولم يقل "فباتوا" ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: إنما سكرت ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار. وقيل: الضمير في ﴿ فظلوا ﴾ للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عياناً لقالوا: إن السحرة سحرونا وجعلونا بحيث نشاهد هذه الأباطيل التي لا حقيقة لها. وههنا سؤال وهو أنه كيف جاز من جم غفير أن يصيروا شاكين فيما يشاهدونه بالعين السليمة في النهار الواضح؟ وأجيب بأنهم قوم مخصوصون لم يبلغوا مبلغ التواتر وكانوا رؤساء قليلي العدد فجاز تواطؤهم على المكابرة والعناد لا سيما إذا جمعهم غرض معتبر كدفع حجة أو غلبة خصم.

ولما أجاب عن شبه منكري النبوة بما أجاب وكان القول بالنبوة مفرعاً على القول بالصانع أتبعه دلائل ذلك فقال ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ وهي اثنا عشر عند أهل النجوم ، وذلك أنهم قسموا نطاق الفلك الثامن عندهم باثني عشر قسماً متساوية ، ثم أجيز بمنتهى كل قسم وبأوله مبتدأة من أول الحمل نصف دائرة عظيمة مارة بقطبي الفلك فصار الفلك أيضاً منقسماً باثنتي عشرة قطعة كل منها تشبه ضلعاً من أضلاع البطيخ تسمى برجاً . ولا شك أن هذه البروج مختلفة الطباع ، كل ثلاثة منها على طبيعة عنصر من العناصر الأربعة فلذلك يسمى الحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدي مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية .



ثم إن كانت أجزاء الفلك مختلفة في الماهية على ما يجوّزه المتكلمون ، أو كانت متساوية ثم تمام الماهية مختلفة في التأثير كما يقول به الحكيم ، فعلى التقديرين يكون اختصاص كل جزء بطبيعة معينة أو بتأثير معين مع تساوي الكل في حقيقة الجسمية دالاً على صانع حكيم

ومدبر قدير . الدليل الآخر قوله ﴿ وزيناها ﴾ أي بالشمس والقمر والنجوم ﴿ للناظرين ﴾ بنظر الاعتبار والاستبصار . وقال المنجمون . إن الكواكب الثابتة كلها على الفلك الثامن وهذا لا ينافي الآية على ما يمكن أن يسبق إلى الوهم ، لأنها سواء كن في سماء الدنيا أو في سموات أخر فوقها فلابد أن يكون ظهورها في السماء الدنيا فتكون السماء الدنيا مزينة بها ، والآية لا تدل إلا على هذا القدر . ونظير هذه الآية قوله تعالى في " حم السجدة " ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [ فصلت : 12 ] ومثله في سورة الملك . الدليل الثالث قوله ﴿ وحفظناها ﴾ أي البروج أو السماء ﴿ من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع ﴾ نصب عل الاستثناء المنقطع أي لكن من استرق وجائز أن يكون مخفوضاً أي إلا ممن استرق . وعن ابن عباس : يريد الخطفة اليسيرة ﴿ فاتبعه ﴾ أي أدركه ولحقه ﴿ شهابٌ مبين ﴾ ظاهر للمبصرين والشهاب شعلة نار ساطع ، وقد يسمى الكوكب شهاباً لأجل لمعانه وبريقه . قال ابن عباس : كانت الشياطين لا يحجبون من السموات وكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها على الكهنة ، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها وهذا هو المراد بحفظ السموات كما لو حفظ أحدنا منزله ممن يتجسس ويخشى منه الفساد . والاستراق السعي في استماع الكلام مستخفياً . قال الحكماء : إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس ، فإذا بلغ النار التي دون

الفلك احترق بها واشتعل لدهنية فيه فيحدث منها أنواع النيران من جملتها الشهب ، فلا ريب أنها كانت موجودة قبل



---

مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنها لم تكن مسلطة على الشياطين . وإنما قيض كونها رجوماً للشياطين في زمن عيسى عليه السلام ثم في زمن محمد صلى الله عليه وسلم .

أسئلة : كيف يجوز أن يشاهد هؤلاء الجن واحداً كان أو أكثر من جنسهم يسترقون السمع فيحرقون ، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم ؟ والجواب : إذا جاء القضاء عمي البصر ، فإذا قيض الله لطائفة منهم الحرق لطغيانها قدر له من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها يقدم على العمل المفضي الى الهلاك والبوار . آخر : قد ورد في الأخبار أن ما بين كل سماء مسيرة خمسمائة عام ، فهؤلاء الجن إن قدروا على خرق السماء ناقض قوله سبحانه ﴿ هل ترى من فطور ﴾



---

[ الملك : 3 ] وإن لم يقدروا فكيف يمكنهم استماع أسرار الملائكة من ذلك البعد البعيد ، ولم لا يسمعون كلام الملائكة حال كونهم في الأرض ؟ وأجيب بأنا سلمنا أن بعد ما بين كل سماء ذلك القدر إلا أن نحن الفلك لعله قدر قليل ، وقد روى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالسٌ في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا حدث مثل هذا ؟ قالوا : كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يرمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبحت حملة العرش ثم سبح أهل السماء وسبح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ، ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ولا يزال ينتهي ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، ويتخطف الجن فيرمون فما جاءُوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون" آخر : الشياطين مخلوقون من نار فكيف تحرق النار النار ؟ والجواب : أن الأقوى قد يبطل الأضعف وإن كان من جنسه . آخر : إن هذا الرجم لو كان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم بقي بعد وفاته ؟ الجواب : هذا من المعجزات الباقية والغرض منه إبطال الكهانة . آخر : إن الشهب قد تحدث بالقرب من الأرض وإلا لم يمكن الإحساس بها فكيف تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك حين الاستراق ؟ وأجيب بأن البعد عندنا غير مانع من السماع فلعله تعالى أجرى عادته بأنهم

إذا وقعوا في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة .

آخر : لو كان يمكنهم نقل أخبار الملائكة إلى الكهنة فكيف لم يقدروا على نقل أسرار المؤمنين إلى الكفار ؟ وأجيب بأنه تعالى أقدرهم على شيء وأعجزهم عن شيء ولا يسأل عما يفعل . وأقول : لعل السبب فيه أن نسبتهم إلى الروحانيات أكثر .

(246/426)

---

آخر : إذا جوّزتم في الجملة اطلاع الجن على بعض المغيبات فقد ارتفع الوثوق عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض الغيوب فلا يكون دليلاً على صدقه . لا يقال : إنه تعالى أخبر أنهم عجزوا عن ذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم لأنا نقول : صدق هذا الكلام مبني على صحة نبوّته ، فلو أثبتنا صحة نبوّته به لزم الدور ؟ والجواب : أنا نعرف صحة نبوّته بدلائل أخر حتى لا يدور ، ولكن لا ريب أن إخباره عن بعض المغيبات مؤكد لنبوّته وإن لم يكن مثبتاً لها .

الدليل الرابع : قوله ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ وقد مرّ تفسير مثله في أوّل سورة الرعد . الدليل الخامس قوله : ﴿ وأنبتنا فيها ﴾ أي في الأرض أو في الجبال

الرواسي ﴿ من كل شيء موزون ﴾ بميزان الحكمة ومقدر بمقدار الحاجة ، وذلك أن الوزن سبب معرفة المقدار فأطلق اسم السبب على المسبب .

*(247/426)*

---

وقيل : أي له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة . وقيل : أراد أن مقاديرها من العناصر معلومة وكذا مقدار تأثير الشمس والكواكب فيها . وقيل : أي مناسب أي محكوم عليه عند العقول السليمة بالحسن واللطافة . يقال : كلام موزون أي مناسب ، وفلان موزون الحركات . وقيل : أراد ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس وغيرها من الموزونات كأكثر الفواكه والنبات . ﴿ وجعلنا لكم فيها ﴾ أي في الأرض أو في تلك الموزونات ﴿ معايش ﴾ ما يتوصل به إلى المعيشة وقد مر في أول " الأعراف " . ﴿ ومن ﴾ عطف على معايش أي جعلنا لكم من ﴿ لستم له برازقين ﴾ أو عطف على محل لكم لا على المجرور فقط فإنه لا يجوز في الأكثر إلا بإعادة الجار والتقدير : وجعلنا لكم معايش لمن لستم له برازقين . وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين رازقهم في الحقيقة هو الله تعالى وحده لا الآباء والسادات المخاديم ، ويدخل فيه بحكم التغليب غير ذوي العقول في الأنعام والدواب والوحش والطير كقوله : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [ هود

: 6 ] وقد يذكر من يعقل بصفة من يعقل بوجه ما من الشبه كقوله : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ [ النمل : 18 ] والدواب تشبه ذوي العقول من جهة أنها طالبة لأرزاقها عند الحاجة . يحكى أنه قلت مياه الأودية في بعض السنين واشتد عطش الوحوش فرفعت رأسها إلى السماء فأنزل الله المطر . ثم بين غاية قدرته ونهاية حكمته فقال : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ قال جمع من المفسرين : أراد بالشيء ههنا المطر الذي هو سبب لأرزاق بني آدم وغيرهم من الطير والوحش ، وذلك أنه لما ذكر معايشهم بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده أي في أمره وحكمه وتدبيره . قوله : ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ عن ابن عباس : يريد قدر الكفاية . وقال الحكم : ما من عام بأكثر مطراً من عام آخر ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون ، وربما كان في البحر ، واعلم أن لفظ الآية لا يدل على هذين



---

القولين فلو ساعدهما نقل صحيح أمكن أن يقبلهما العقل وإلا كان شبه تحكم والظاهر عموم الحكم ، وإن ذكر الخزائن تمثيل لاقتداره على كل مقدور . والمعنى إن جميع الممكنات مقدورة ومملوكة له يخرجها من العدم إلى الوجود كيف شاء ، وهي إن كانت غير متناهية

بالقوّة لأن كلاًّ منها يمكن أن يقع في أوقات غير محصورة على سبيل البدل ، وكذا الكلام في الأحياز وسائر الأعراض والأوصاف . فاختصاص ذلك الخارج إلى الوجود بمقدار معين وشكل معين وحيز ووقت معين إلى غير ذلك من الصفات المعينة دون أضدادها لا بد أن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وهو المراد من قوله : ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ وقد يتمسك بالآية بعض المعتزلة في أن المعدوم شيء .

قيل : المراد أن تلك الذوات والماهيات كانت مستقرة عند الله بمعنى أنها كانت ثابتة من حيث إنها حقائق وماهيات ، ثم إنه تعالى نزل أي أخرج بعضها من العدم إلى الوجود .

الدليل السادس : قوله ﴿ وأرسلنا الرياح ﴾ ومن قرأ الريح فاللام للجنس ﴿ لواقح ﴾ قال ابن عباس : معناه ملاقح جمع ملقحة لأنها تلقح السحاب بمعنى أنها تحمل الماء وتمجه في السحاب ، أو لأنها تلقح الشجر أي تقوّيها وتنميها إلى أن يخرج ثمرها . قاله الحسن وقتادة والضحاك . وقد جاء في كلام العرب " فاعل " بمعنى " مفعل " قال :



---

ومختبط مما تطيح الطوائح . . . يريد المطاوح جمع مطيحة . وقال ابن الأنباري : تقول العرب : أبقل النبت فهو باقل أي مبقل . وقال الزجاج : معناه ذوات لقحة لأنها تعصر

السحاب وتدره كما تدر اللقحة كما يقال رامح أي ذو رمح – ولابن وتامر أي ذو لبن وذو تمر . وقيل : إن الريح في نفسها لاقح أي حالة للسحاب أو للماء من قوله تعالى : ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً ﴾ [ الأعراف : 57 ] أو حاملة للخير والرزق كما قيل لضدها الريح العقيم ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي جعلناه لكم سقياً قال أبو عليّ : يقال سقيته الماء إذا أعطاه قدر مما يروى ، وأسقيته نهراً أي جعلته شرباً له . والذي يؤكد هذا اختلاف القراء في قوله : ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ [ النحل : 66 ] ولم يختلفوا في قوله : ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ [ الدهر : 21 ] ويقال : سقيته لشفته وأسقته لماشيته وأرضه . ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ أي نحن الخازنون للماء لا أنتم أراد عظيم قدرته وعجز من سواه . الدليل السابع : قوله ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ والغرض الاستدلال بانحصار الإحياء والإماتة فيه على أنه واحد في ملكه . قال أكثر المفسرين : إنه وصف النبات فيما قبل فهذا الإحياء مختص بالحيوان ، ومنهم من يحمله على القدر المشترك بين إحياء النبات وبين إحياء الحيوان ﴿ ونحن الوارثون ﴾ مجاز عن بقائه بعد هلاك ما عداه كما مر في آخر " آل عمران " في قوله : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ [ الآية : 180 ] قوله : ﴿ ولقد علمنا ﴾ عن ابن عباس في رواية عطاء ﴿ المستقدمين ﴾ يريد أهل طاعة الله ، والمستأخرين يريد المتخلفين عن طاعته . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم رغب الناس في الصف الأول في

الجماعة فازدحم الناس عليه فأنزل الله الآية . والمعنى إنا نجزيهم على قدر نياتهم . وقال الضحاك ومقاتل : يعني في صف القتال . وقال ابن عباس في رواية أبي الجوزاء : كانت امرأة



---

حسناء تصلي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قوم يتقدمون إلى الصف الأول لئلا يروها ، وآخرون يتخلفون ويتأخرون ليروها ، وكان قوم إذا ركعوا جافوا أيديهم لينظروا من تحت آباطهم فنزلت .

وقيل : المستقدمون هم الأموات والمستأخرون هم الأحياء . وهذا القول شديد المناسبة لما قبل الآية ولما بعدها . وقيل : المستقدمون هم الأمم السالفة والمستأخرون هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال عكرمة : المستقدمون من خلق ، والمستأخرون من لم يخلق بعد . والظاهر العموم وأن علمه تعالى شامل لجميع الذوات والأحوال الماضية والمستقبلة فلا ينبغي أن تخص الآية بحالة دون أخرى . ثم نبه على أن الحشر والنشر أمر واجب ولا يقدر على ذلك أحد إلا هو فقال : ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ فلحكمته بني أمر العباد على التكليف والجزاء ، ولعلمه قدر على توفية مقادير الجزاء .

الدليل الثامن : الاستدلال على خلق الإنسان خاصة وذلك أنه لا بد من انتهاء الناس إلى إنسان أول ضرورة امتناع القول بوجود حوادث لا أول لها . وقد أجمع المفسرون على أنه آدم عليه السلام ، ورأيت في كتب الشيعة عن محمد بن علي الباقر رضي الله عنه أنه قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر ، وكيف كان فلا بد من إنسان هو أول الناس . والأقرب أنه تعالى خلق آدم من تراب ثم من طين ثم من حمإٍ مسنون ثم من صلصال كالفخار . وقد كان قادراً على خلقه من أيّ جنس من الأجسام كان ، بل كان قادراً على خلقه ابتداء . وإنما خلقه على هذا الترتيب لمحض المشيئة . أو لما كان فيه من زلة الملائكة والجن ، أو لغير ذلك من المصالح ، ولا شك أن خلق الإنسان من هذه الأمور أعجب من خلق الشيء من شكله وجنسه ، والصلصال الطين اليابس الذي يصلصل أي يصوّت وهو غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار . وقيل : هو تضعيف صل إذا أنتن . والحمأ الأسود المتغير من الطين ، وكذلك الحمأة بالتسكين . المسنون المصوّر من سنة الوجه أي صورته قاله سيبويه . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصورة من الجواهر المذابة . وقال ابن السكيت : سمعت أبا عمرو يقول : معنا متغير منتن وكأنه من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فالذي يسيل منهما سنين ولا يكون إلا منتناً . قال في الكشاف : قوله : ﴿ من حمإٍ ﴾ صفة صلصال أي خلقه من صلصال كائن من حمإٍ .

قلت : ولا يبعد أن يكون بدلاً أي خلقه من حم . قال : وحق مسنون بمعنى مصوّر أن يكون صفة لصلصال كأنه أفرغ الحمأ فصوّر منها تمثال إنسان أجوف فيبس حتى إذا نقر صلصل ، ثم غيره بعد ذلك الى جوهر آخر . قوله : ﴿ والجانّ ﴾ قال الحسن ومقاتل وقتادة وهو رواية عطاء عن ابن عباس يريد إبليس - وعن ابن عباس - في رواية أخرى : هو أبو الجن كآدم أبي الناس وهو قول الأكثرين .



---

والتركيب يدل على السبق والتواري عن الأعين وق مر فيما سلف ولا سيما في تفسير الاستعاذة في أول الكتاب ﴿ خلقناه من قبل ﴾ قال ابن عباس : أي من قبل خلق آدم و ﴿ السموم ﴾ الريح الحارة النافذة في السمام تكون في النهار وقد تكون بالليل . ومسام البدن الخروق الخفية التي يبرز منها العرق وبخار الباطن ، ولا شك أن تلك الريح فيها نار ولها لفح على ما ورد في الخبر أنه لفح جهنم . قال ابن مسعود : هذه السموم جزءاً من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق . الله منها الجان . ولا استبعاد في خلق الله الحيوان من النار فإنا نشاهد السمندل قد يتولد فيها . على قاعدة الحكيم : كل ممتزج من العناصر فإنه يمكن أن يغلب عليه أحدها ، وحينئذٍ يكون مكانه مكان الجزء الغالب والحرارة مقوية

للروح لا مضادة لها . ثم إنه لما استدل بحدوث الإنسان الأول على كونه قادراً مختاراً ذكر بعده واقعته . والمراد بكونه بشراً أنه يكون جسماً كثيفاً يباشر ويلاقي ، والملائكة والجن لا يباشرون للطاقة أجسامهم .

(253/426)

---

والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان . ﴿ فإذا سوّيته ﴾ عدلت خلقته وأكملتها أو سويت أجزاء بدنه بتعديل الأركان والأخلاط والمزاج التابع لذلك اعتدالاً نوعياً أو شخصياً . ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ النفخ إجراء الريح في تجاويف جسم آخر . فمن زعم أن الروح جسم لطيف كالهواء سار في البدن فمعناه ظاهر ، ومن قال إنه جوهر مجرد غير متحيز ولا حال في متحيز فمعنى النفخ عنده تهيئة البدن لأجل تعلق النفس الناطقة به . قال جار الله : ليس ثم نفخ ولا منفوخ وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه . وتمام الكلام في الروح سوف يجيء إن شاء الله في قوله : ﴿ يسألونك عن الروح ﴾ [ الإسراء : 85 ] . ولا خلاف في أن الإضافة في قوله : ﴿ روحي ﴾ للتشريف والتكريم مثل " ناقة الله " و " بيت الله " والفاء في قوله : ﴿ فقعوا ﴾ تدل على أن وقوعهم في السجود كان واجباً عليهم عقيب التسوية والنفخ من غير تراخ . قال المبرد : قوله ﴿ كلهم ﴾ أزال احتمال أن بعض الملائكة

لم يسجدوا . وقوله : ﴿ أجمعون ﴾ أزال احتمال أنهم سجدوا متفرقين ، وقال سيبويه والخليل ﴿ أجمعون ﴾ توكيد بعد توكيد ، ورجح الزجاج هذا القول لأن أجمع معرفة فلا يقع حالاً ، ولو صح أن يكون حالاً وكا منتصباً لأفاد المعنى الذي ذكره المبرد ، ثم استثنى إبليس من الملائكة وقد سلف وجه الاستثناء في أول البقرة . ثم استأنف على تقدير سؤال سائل هل سجد ؟ فقال : ﴿ أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ يعني إباء استكبار .

(254/426)

---

ثم قال سبحانه وتعالى خطاب تقريع وتعنيف لا تعظيم وتشريف ﴿ يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ وقال بعض المتكلمين : خاطبه على لسان بعض رسله لأن تكليم الله بلا واسطة منصب شريف فكيف يناله اللعين ؟ قال جار الله : حرف الجر مع أن محذوف ومعناه أيّ غرض لك في الامتناع من السجود ﴿ قال لم أكن لأسجد ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد ﴿ لبشر ﴾ وحاصل شبهة اللعين أنه روحاني لطيف وآدم جسماني كثيف ، وأصله نوراني شريف وأصل آدم ظلماني خسيس ، فعارض النص بالقياس فلا جرم أجيب بقوله : ﴿ فاخرج منها ﴾ أي من الجنة أو من السماء أو من جملة الملائكة .

وضرب يوم الدين أي يوم الجزاء حداً للعنة جرياً على عادة العرب في التأبيد كما في قوله : ﴿ ما دامت السموات والأرض ﴾ [ هود : 107 ] أو أراد اللعن المجرد من غير تعذيب حتى إذا جاء ذلك اليوم عذب بما ينسى اللعن معه . قال صاحب الكشاف : وأقول : هذا إن أريد باللعن مجرد الطرد عن الحضرة . أما إن أريد به الإبعاد عن كل خير فيتعين الوجه الأول إلا عند من أثبت لإبليس رجاء العفو . وإنما ذكر اللعنة ههنا بلام الجنس لأنه ذكر آدم بلفظ الجنس حيث قال : ﴿ إني خالق بشراً ﴾ ولما خصص آدم بالإضافة إلى نفسه في سورة " ص " حيث قال : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ [ الآية : 75 ] خصص اللعنة أيضاً بالإضافة فقال : ﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ فافهم . ﴿ قال رب فأنظرني ﴾ قد مر مثله في أول " الأعراف " . ومعنى ﴿ الوقت المعلوم ﴾ أن إبليس لما عينه وأشار إليه بعينه صار كالمعلوم والمراد منه الوقت القريب من البعث الذي يموت فيه الخلائق كلهم ليشمل الموت اللعين أيضاً . وقيل : لم يجب إلى ذلك وأنظر إلى يوم لا يعلمه إلا الله ﴿ قال رب بما أغويتني ﴾ قد مر مباحثه في " الأعراف " . ومفعول ﴿ لأزينن ﴾ محذوف أي أزين لهم المعاصي في الأرض أي في الدنيا التي هي دار الغرور ، أو أراد أنه قدر على الاحتيال لآدم وهو في

السماء فهو على التزيين لأولاده وهم في الأرض أقدر ، أو أراد لأجعلن مكان التزيين عندهم الأرض بأن أزين الأرض في أعينهم وأحدثهم أن الزينة هي في الأرض وحدها كقوله :

وإن يعتذر بالمحل من ذي ضروعها . . . من الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

(256/426)

---

أراد يجرح عراقيبها نصلي ثم استثنى اللعين عباد الله المخلصين لأنه علم أن كيده لا يؤثر فيهم . قال بعض الحذاق : احترز إبليس بهذا الاستثناء من الكذب فيعلم منه أن الكذب في غاية السماحة والإخلاص فعل الشيء خالصاً لله من غير شائبة الغير لا أقل من أن يكون حق الله فيه راجحاً أو مساوياً . ولما ذكر إبليس من الاستثناء ما ذكر ﴿ قال ﴾ الله سبحانه ﴿ هذا ﴾ يعني الإخلاص طريق مستقيم عليّ ان أراعيه أو عليّ مروره أي على رضواني وكرامتي .

(257/426)

---

وقيل: لما ذكر اللعين أنه يغوي بني آدم لا من عصمه الله بتوفيقه تضمن هذا الكلام تفويض الأمور إلى مشيئته تعالى فأشير إليه بقول: ﴿ هذا ﴾ أي تفويض الأمور إلى إرادتي ومشيئتي. ﴿ صراط عليّ ﴾ تقريره وتأكيده، ومن قرأ ﴿ عليّ ﴾ بالتوين فهو من علو الشرف أي الإخلاص أو طريق التفويض إلى الله والإيمان بقضائه طريق رفيع. ﴿ مستقيم ﴾ لا عوج له. وقال جار الله: هذا إشارة إلى ما بعده وهو قوله: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ قال الكلبي: المذكورون في هذه الآية هم الذين استثناهم إبليس وذلك أنه لما ذكر ﴿ إلا عبادك ﴾ يبن به أنه لا يقدر على إغواء المخلصين فصدقه الله تعالى في الاستثناء قائلاً ﴿ إن عبادي ليس عليهم سلطان إلا من اتبعك ﴾ أي ولكن من اتبعك من الغواة فلك تسلط عليهم وهذا يناسب أصول الأشاعرة. وقال آخرون: هذا تكذيب لإبليس وذلك أنه أوهم بما ذكر أن له سلطاناً على عباد الله الذين لا يكونون من المخلصين فبين تعالى أنه ليس له على أحد منهم سلطان ولا قدرة أصلاً إلا الغواة، لا بسبب الجبر والقسر بل من جهة الوسوسة والتزيين نظيره قوله: ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم ﴾ [إبراهيم: 22] وهذا يناسب أصول الاعتزال ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجميعن ﴾ قال ابن عباس: يريد إبليس ومن تبعه من الغاوين. ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ أي سبع طبقات بعضها فوق بعض أعلاها للموحدين، والثاني لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين. وعن ابن

عباس في رواية ابن جريج : إن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبدة النار ، والحطمة لعبدة الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين .

وقيل : إن قرار جهنم مقسوم بسبعة أقسام لكل قسم باب معين لكل باب جزء من أتباع إبليس مقسوم في قسمة الله سبحانه . والسبب في أن مراتب الكفر مختلفة بالغلظ والخفة . فلا جرم



---

صارت مراتب العقاب أيضاً متفاوته بحسبها .

ثم عقب الوعيد بالوعد فقال : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ فزعم جمهور المعتزلة أنهم الذين اتقوا جميع المعاصي وإلا لم يفد المدح . وقال جمهور : الصحابة والتابعين هم الذين اتقوا الشرك بالله واحتجوا عليه بأنه إذا اتقى مرة واحدة صدق عليه أنه اتقى ، وكذا الكلام في الضارب والكاتب فليس من شرط صدق الوصف كونه آتياً بجميع أصنافه وأفراده إلا أن الأمة أجمعوا على أن التقوى عن الشرك شرط في حصول هذا الحكم . والآية أيضاً وردت عقيب قوله : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ فلزمه اعتبار الإيمان في هذا الحكم . والظاهر أن لا يراد شرط آخر لأن

التخصيص خلاف الظاهر فكلما كان أقل كان أوفق لمقتضى الأصل، فثبت أن المتقين يتناول جميع القائلين بكلمة الإسلام وهي "لا إله إلا الله محمد رسول الله" قولاً واعتقاداً سواء كان من أهل الطاعة أو من أهل المعصية.

(259/426)

---

ثم إن الجنات أقلها أربع لقوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن: 46] ثم قال ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [الرحمن: 62] وأما العيون فإما أن يراد بها الأنهار المذكورة في قوله: ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ [محمد: 15] الآية وإما أن يراد بها منابع غير ذلك. ثم إن كل واحد من المتقين يحتمل أن يختص بعين وينتفع بها كل من في خدمته من الحور والولدان ويكون ذلك على قدر حاجتهم وعلى حسب شهوتهم. ويحتمل أن يجري من بعضهم إلى بعض لأنهم مطهرون من كل حقد وحسد. فإن قيل: إذا كانوا في جنات فكيف يعقل أن يقول لهم الله تعالى وبعض الملائكة ﴿ ادخلوها ﴾ فالجواب لعل المراد أنهم لما ملكوا الجنات فكلما أرادوا أن ينتقلوا من جنة إلى أخرى قيل لهم ذلك. ومعنى ﴿ بسلام ﴾ أي مع السلامة من آفات النقص والانقطاع. قوله: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قد مر تفسيره في "الأعراف" ﴿ إخواناً ﴾ نصب على

الحال . وكذلك ﴿ على سرر متقابلين ﴾ والمراد بالإخوة . إخوة الدين والتعاطف .

والسرر جمع سرير . قيل : هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور . وقال الليث : سرير العيش مستقره الذي يطمئن عليه حال سروره وفرحه . والتركيب يدور على العزة والنفاسة ومنه قوله : " سر الوادي لأفضل موضع منه " ومنه السر الذي يكتم . عن ابن عباس : يريد على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ، وعن مجاهد : تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون في جميع أحوالهم متقابلين . والتقابل التواجه نقيض التدابر ، وتقابل الإخوان يوجب اللذة والسرور ليكون كل منهم مقبلاً على الآخر بالكلية ، وتقابل الأعداء يكون تقابل التضاد التمانع فيكون موجباً للتباغض والتخالف ، واعلم أن الثواب منفعة مقرونة بالتعظيم خالصة من الآفات آمنة من الزوال . فقوله : ﴿ إن المتقين ﴾ إشارة إلى المنفعة وقوله : ﴿ ادخلوها ﴾ رمز إلى أنها مقرونة بالتعظيم ، وقوله : ﴿ ونزعنا ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ أي



---

تعب تلويح إلى كونها سالمة من المنغصات إلا أن الثواب منفعة مقرونة بالتعظيم خاصة من الآفات آمنة من الزوال . فقوله : ﴿ إن للمتقين ﴾ إشارة إلى المنفعة وقوله : ﴿ ادخلوها

﴿ رمز إلى أنها مقرونة بالتعظيم ، وقوله ﴿ ونزعنا ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ أي تعب تلويح إلى كونها سالمة من المنغصات إلا أن قوله : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم ﴾ إشارة إلى نفي المضار الروحانية ، وقوله : ﴿ لا يمسهم ﴾ إشارة إلى نفي المضار الجسدانية ، وقوله : ﴿ وما هم بمخرجين ﴾ مفيد لمعنى الخلود . ثم لما ذكر الوعيد والوعد زاده تقريراً وتمكيناً في النفوس فقال : ﴿ نبىء عبادي ﴾ وفيه من التوكيدات ما لا يخفى : منها إشهاد رسوله وإعلامه ، ومنها تشريفهم بإطلاق لفظ العباد عليهم ثم بإضافتهم إلى نفسه ، ومنها التوكيد ب " أن " وبالفضل وبصيغتي الغفور والرحيم مع نوع تكرر كل ذلك يدل على أن جانب الرحمة أغلب كما قال : " سبقت رحمتي غضبي " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 209 . 223 ﴾

*(261/426)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾

أي النفوس الكافرة ﴿ لو كانوا ﴾ مستسلمين لأوامر الله ونواهيه ، وذلك إنما يكون عند

استيلاء سلطان الذكر على القلب والروح، وتنور صفاتها بنور الذكر فيغلب النور على ظلمة النفس وصفاتها وتبدلت أحوالها من الأمّارية إلى الاطمئنان فتمنت حين ذاقت حلاوة الإسلام وطعم الإيمان لو كانت من بدء الخلق مسلمة مؤمنة كالقلب والروح. ثم هدد النفس التي ذاقت حلاوة الإسلام ثم عادت الميشوم إلى طبعها واستحلت المشارب الدنيوية بقوله: ﴿ ذرهم يأكلوا ﴾ ﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ من القرى البدنية بإفساد استعدادها ﴿ إلا ولها كتاب ﴾ مكتوب في علم الله من سوء أعماله وأحواله ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ متى يظهر منها ما هو سبب هلاكها ﴿ وما يستأخرون ﴾ لحظة بعد استيفاء أسباب هلاكها ﴿ وقالوا ﴾ يعني النفوس المتمردة مخاطباً للقلب الذاكر ﴿ لو ما تأتينا ﴾ بصفات الملائكة المنقادين، وفيه إشارة إلى أن النفس الأمارة لا تؤمن بما أنزل الله إلى القلوب من أنوار الإلهية حتى تصير مطمئنة مستعدة لهذه الصفات، ولو أنزلت قبل أوانها وكمال استعداد القلوب ما كانوا إذاً منظرين مؤخرين من الهلاك لضيق نطاق طاقتهم ﴿ إنا نحن نزلنا ﴾ كلمة لا إله إلا الله في قلوب المؤمنين ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ [ المجادلة: 22 ] والمنافق يقول ذلك ولكن لم ينزل في قلبه ولم يحفظ. ﴿ ولو فتحنا ﴾ على من أسلكنا الكفر في قلوبهم ﴿ باباً من ﴾ سماء القلب لأنكروا فتح الباب. ولقد جعلنا في سماء القلب بروج الأطوار، فكما أن البروج منازل السيارات فكذلك الأطوار منازل شموس المشاهدات وأقمار المكاشفات وسيارات اللوامع والطوالع ﴿ وزيناها ﴾ لأهل

النظر السائرين إلى الله ﴿ وحفظناها من ﴾ وساوس الشيطان وهواجس النفس الأمارة ، ولكن من استرق السمع من النفس والشيطان فأدركه شعلة من أنوار تلك الشواهد فيضمحل الباطل ويتبين الحق ﴿ والأرض مددناها ﴾ فيه أن أرض البشرية تميل كنفس الحيوانات إلى أن أرساها



---

الله بجبال العقل وصفات القلب ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ هي أسباب الوصول والوصال ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ وهو جوهر المحبة وإن غذاءه من مواهب الحق وتجلي جماله فقط ، ولكل شيء خزانة فلصورة الأجسام خزانة ، ولاسمها خزانة ، ولمعناها خزانة ، وكذا للونها ولطعمها ولخواصها من المنافع والمضار ، وكذا لظلمتها ونورها ولملكها وملكوتها ، وما من شيء إلا وفيه لطف الله وقهره مخزون ، وقلوب العباد خزائن صفات الله تعالى بأجمعها ﴿ وأرسلنا ﴾ رياح العناية ﴿ لواقح ﴾ لأشجار القلوب بأنهار الكشوف وبأثمار الشواهد كما قال بعضهم : إذا هبت رياح الكرم على أسرار العارفين أعتقهم من هواجس أنفسهم ورعونات طبائعهم ، وظهر في القلوب نتائج ذلك وهي الاعتصام بالله والاعتماد عليه .

﴿ فأنزلنا من ﴾ سماء الهداية ﴿ ماء ﴾ الحكمة ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ في أصل الخلقة فإن المخلوق لا يوصف بالحكمة إلا مجازاً . وإنا لنحن نحيي قلوب أوليائنا بأنوار جمالنا ، ونميت نفوسهم بسطوة جلالنا ﴿ ونحن الوارثون ﴾ بعد إفناء وجودهم ليبقوا ببقائنا ﴿ وإن ربك هو ﴾ يحشر المستقدمين إلى حظائر قدسه والمستأخرين إلى أسفل سافلين الطبيعة ، خاطب إبليس النفس بقوله : ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ أي إلى أن تطلع شمس شواهدنا من مشرق الروح وتصير أرض النفس مشرقة وتتبدل صفاتها الذميمة المظلمة بالأخلاق الروحانية الحميدة ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي يبعث الأرواح في قيامة العشق وهو الوقت المعلوم الذي يتجلى الرب فيه لأرواح العشاق ، فينعكس نور التجلي من الأرواح إلى النفوس فتجعلها مطمئنة . ﴿ بما أغويتني ﴾ أضللتني من طريق الأمارية ﴿ لأزينن ﴾ للأرواح في أرض البشرية من الأعمال الصالحات التي تورث الأخلاق الحميدة وبها تربية الأرواح وترقيها ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ عما كانا عليه من الأعمال الروحانية الملكية التي لا تتأتى إلا لعبادك الذين خلصوا من حبس الوجود بجذبات الألطاف . ﴿ هذا صراط ﴾ أي هو طريق أهل الاستقامة في السير في الله المنقطعين عن

غيره ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ حجة تتعلق بتلك الحجة لهدايتهم وإغوائهم فإنهم بلاهم ، وإن من خصوصية العبودية المضافة إلى الحضرة الحرية عما سواه ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ من الحرص والشره والحقد والحسد والغضب والشهوة والكبر ، أو الأبواب السبعة إشارة إلى الحواس الخمس الظاهرة وإلى الوهم والخيال فإنهما أصلا الحواس الباطنية ، لأن الأول يدرك المعاني والثاني يدرك الصور ، والباقية – أعني المفركة والحافظة والذاكرة – من أعوانهما ، وأكثر ما يستعمل الإنسان هذه المشاعر إنما يستعملها في الأحوال الدنيوية المفضية إلى الهلاك ، فلا جرم صارت أبواباً لجهنم . فإذا استعملها في تحصيل السعادات الباقية بحسب



---

تصرف العقل الغريزي صرن مع العقل أبواباً بل أسباباً لحصول الجنة . ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ والسلام من الله الجذبات ﴿ آمنين ﴾ من موانع الخروج والدخول بعد الوصول فإن السير في الله لا يمكن إلا بالله وجذباته ولهذا قال جبرائيل ليلة المعراج : لو دنوت أنملة لاحترقت . ﴿ ونزعنا ﴾ فيه أن نزع الغل من الصدور لا يكون إلا بنزع الله ، وأن الأرواح القدسية مطهرات عن علائق القوى الشهوانية والغضبية مبرءات من حوادث الوهم والخيال

، ومعنى تقابلهم أن النفوس المصفاة عن كدورات عالم الأجسام ونوازع الخيال والأوهام إذا وقع عليها أنواع جمال الله أو جلاله انعكست منها إلى من في مثل درجاتها كما تتعاكس المرايا الصافية ، المتحاذية ، فيزداد كل منها في نفسها بخفاء صفاتها . وفي قوله : ﴿ نبىء عبادي ﴾ إشارة إلى أن سلوك السالكين وطير الطائرين يجب أن يكون على قدمي الرجاء والخوف وجناحي الإنس والجن والله الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 223 . 225 ﴾

*(265/426)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرَيم

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/427)

---

الجزء السابع والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 57 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 79 ﴾ من نفس السورة

(4/427)

---

قوله تعالى ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (60) فَلَمَّا

جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تحقق البشرى ورأى إتيانهم مجتمعين على غير الصفة التي يأتي عليها الملك للوحي ، وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بأنه ما تنزل الملائكة إلا بالحق ، كان ذلك سبباً لأن يسألهم عن أمرهم ليزول وجله كله ، فلذلك ﴿ قال فما ﴾ بفاء السبب ﴿ خطبكم ﴾ قال أبو حيان : والخطب لا يكاد يقال إلا في الأمر الشديد - انتهى .

(5/427)

---

وقال الرماني : إنه الأمر الجليل ﴿ يا أيها المرسلون ﴾ فإنكم ما جئتم إلا لأمر عظيم يكون فيصلاً بين هالك وناج ﴿ قالوا إنا ﴾ ولما كان عالماً بمرسلهم ، بنوا للمفعول قولهم :

﴿ أرسلنا ﴾ أي بإرسال العزيز الحكيم الذي أنت أعرف الناس في هذا الزمان به ﴿ إلى

قوم ﴾ أي ذوي منعة ﴿ مجرمين ﴾ أي عريقين في الإجرام كلهم .

ولما كان إرسالهم للعذاب ، قالوا مستثنين من الضمير في ﴿ مجرمين ﴾ أي قد أجرموا كلهم إجراماً عظيماً ﴿ إلا آل لوط ﴾ فاستثنوهم من أن يكونوا مجرمين ، المستلزم لكونهم ما أرسلوا لتعذيبهم ، فكان ذلك محركاً للنفس إلى السؤال عن حالهم ، فإنهم ممن وقع الإرسال بسببه ، فأجابوا بقولهم : ﴿ إنا لمنجوهم ﴾ أي تنجية عظيمة بتدريج الأسباب على العادة ﴿ أجمعين إلا امرأته ﴾ .

فلما استثنوها من أن ينجّوها فكان أمرها محتملاً لأن تعذب ولأن ينجيها الله تعالى بسبب غيرهم ، تشوفت النفس للوقوف على ما قضى الله به من ذلك ، فقيل بإسناد الفعل إلى أنفسهم لما لهم من الاختصاص بالمقدر سبحانه : ﴿ قدرنا ﴾ ولما كان فعل التقدير متضمناً للعلم ، علقه عن قوله : ﴿ إنها ﴾ أي امرأته ، وأكد لأجل ما أشير إليه هنا من عظيم تشوف الخليل عليه السلام إلى معرفة أمرهم وتشديد سؤاله ، في نجاة لوط عليه السلام وجميع آله - كما مضى التصريح به في هود - فطماً له عن سؤال في نجاتها بخلاف ما في النمل ، فإن سياقها عار عن ذلك ﴿ لمن الغابرين ﴾ أي الباقين الذين لا ينجون مع لوط عليه السلام ، بل تكون في الهلاك والعبرة ؛ والآل - قال الرماني : أهل من يرجعون إلى ولايته ، ولهذا يقال : أهل البلد ، ولا يقال آل البلد ، والتقدير : جعل الشيء على مقدار غيره لتظهر المساواة والمباينة ، والغابر : الباقي فيمن يهلك .

فلما تم ما أريد الإخبار عنه من تحاورهم مع إبراهيم عليه السلام ، أخبر عن أمرهم مع لوط عليه السلام ، فقال : ﴿ فلما ﴾ بالفاء الدالة على سرعة وصولهم إليه ، وكأنه ما اشتد إنكاره لهم إلا بعد الدخول إلى منزله ، إما لخوفه عليهم وهم لا يخافون ، أو غير ذلك من أحوال لا تشبه أحوال البشر فلذا قال : ﴿ جاء آل لوط ﴾ أي في منزله ﴿ المرسلون ﴾ أي لإهلاك قومه ﴿ قال إنكم قوم ﴾ أي أقوياء ﴿ منكرون ﴾ لا بد أن يكون عن إتيانكم إلى هذه البلدة شر كبير لأحد من أهل الأرض ، وهو معنى ﴿ سيء بهم ﴾ [ العنكبوت : 33 ] الآية ، فقدم حكاية إنكاره إياهم وإخبارهم عن العذاب لمثل ما تقدم في قصة إبراهيم عليه السلام من الزجر عن قولهم ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ المحتمل لإرادة جميع الملائكة ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ تعريفاً لهم بأن بعض الملائكة أتوا من كانا أكمل أهل ذلك الزمان على أجمل صور البشر ، مبشرين لهما ، ومع ذلك خافهم كل منهما ، فكيف لو كان منهم جمع كثير ؟ أم كيف لو كانوا على صورهم ؟ أم كيف لو كان الرائي لهم غيرهما ؟ أم كيف لو كان كافراً ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ [ الفرقان : 22 ] ويجوز أن يكون قوله لهم هذه المقالة إنما كان عند إخبارهم له

بأنهم رسل الله، ويكون المعنى حينئذ أنكم لستم على صفة الآتي بالوحي، فقد اشتد على أمركم، لكوني لا أعرفكم مع الاستيحاش منكم، وذلك بعد محاورته لقومه ثم مقارعتهم عنهم، فكان خائفاً عليهم، فلما أخبروه أنهم ملائكة خاف منهم أن يكونوا أتوا بشيء يكرهه، وقد تقدم آنفاً أن الإخبار عما كان في حين من الأحيان لا يضر تقديم بعضه على بعض ولا إسقاط بعض وذكر آخر، ولم يزد هنا الحرف الذي أصله المصدر، وهو " أن "كما في العنكبوت، لأن استنكاره لهم وإن كان مرتباً على مجيئهم إلا أنه ليس متصلاً بأوله بخلاف المساءة.

(7/427)

---

ولما كانت حقيقة المنكر ما خرج عن عادة أشكاله، ولم يكن على طريقة أمثاله، أضربوا عن قوله، وكان جوابهم أن ﴿ قالوا بل ﴾ أي لسنا منكرين لأنا ﴿ جئناك ﴾ لنفرج عنك ﴿ بما ﴾ أي بسبب إيقاع ما ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ فيه يمترون ﴾ بما جرت عادتنا أن نأتي بمثله من العذاب الذي كانوا يشكون فيه شكاً عظيماً، يحملون نفوسهم عليه ويكذبون به، والجاهل يوصف بالشك وإن كان مكذباً من جهة ما يعرض له منه، من حيث إنه لا يرجع إلى ثقة فيما هو عليه ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ الفاصل بينك وبينهم، الواقع

بهم مطابقاً لإخبارنا ؛ والإتيان : الانتقال إلى جهة الشيء ، والذهاب : الانتقال عنه ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في الإخبار بما يطابق الواقع .

(8/427)

---

ولما أخبروه بوقوع العذاب بهم ، أمروه بما يكون سبباً فيما أمروا به من إنجائه ، فقالوا : ﴿ فأسر ﴾ فأتوا بالفاء لأن ما بعدها مسبب عما قبلها ﴿ بأهلك بقطع ﴾ أي طائفة ﴿ من الليل واتبع ﴾ أي كلف نفسك أن تتبع ﴿ أدبارهم ﴾ لتكون أقربهم إلينا وإلى محل العذاب ، لأنك أثبتهم قلباً وأعرفهم بالله ، والشر من ورائكم ، وقد جرت عادة الكبراء أن يكونوا أدنى جماعتهم إلى الأمر المخوف سماحاً بأنفسهم وتثبيتاً لغيرهم ، وعلماً منهم بأن مداناة ما فيه وجل لا يقرب من أجل ، وضده لا يغني من قدر ، ولا يباعد من ضرر ، ولئلا يشتغل قلبك بمن خالفك ، وليحتشموك فلا يلتفتوا ، أو يتخلف أحد منهم - وغير ذلك من المصالح ؛ والدبر : جهة الخلف وهو ضد القبل ﴿ ولا يلتفت ﴾ أي أصلاً ﴿ منكم أحد ﴾ إذ لا فائدة فيه لأن الملتفت غير ثابت ، لأنه إما غير مستيقن لخبرنا أو متوجع لهم ، فمن التفت ناله العذاب ، وذلك أيضاً أجد في الهجرة ، وأسرع في السير ، وأدل على إخراج ما خلفوه من منازلهم وأمتعتهم من قلوبهم ، وعلى أنهم لا يرقون لمن غضب الله عليهم مع

أنهم ربما رأوا ما لا تطيقه أنفسهم ﴿ وامضوا حيث ﴾ وتعبيره بالمضارع يشعر بأنه يكون معهم بعض الملائكة عليهم السلام في قوله : ﴿ تؤمرون ﴾ .

ولما تقرر بهذا أمر إهلاكهم من غير تصريح ولا تعيين لوقت ، قال تعالى : ﴿ وقضينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، موحين ﴿ إليه ﴾ أي خاصة ﴿ ذلك الأمر ﴾ وأشار إلى تعظيمه بالإشارة إليه بأداة البعد ، ثم فسره بقوله : ﴿ أن دابر ﴾ أي آخر ﴿ هؤلاء ﴾ أي الحقيرين عند قدرتنا ، وأشار بصيغة المفعول إلى عظمته سبحانه وسهولة الأمر عنده فقال تعالى : ﴿ مقطوع ﴾ حال كونهم ﴿ مصبحين ﴾ ولا يقطع الدابر حتى يقطع ما دونه ، لأن العدو يكون مستقبلاً لعدوه ، فهو كناية عن الاستئصال بأن آخرهم وأولهم في الأخذ سواء ، لأن الآخذ قادر ، لا كما يفعل بعض الناس مع بعض من أنهم يملون في آخر الوقائع فيفوتهم البعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 227 . 230 ﴾

(9/427)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إذ دخلوا ﴾ وبابه مدغماً : أبو عمرو وحمزة وعلي وخلف غير هشام ﴿

إنا نبشرك ﴾ بسكون الباء وضم الشين : حمزة . الآخرون بالتشديد ﴿ تبشرون ﴾ بالتشديد وكسر النون المخففة : نافع مثله . ولكن مشددة النون : ابن كثير . الباقون بفتح النون على أنها علامة رفع ﴿ يقنط ﴾ بكسر النون : أبو عمرو وسهل ويعقوب وعلي وخلف وكذلك بابه . الآخرون بالفتح ﴿ آل لوط ﴾ مدغماً حيث كان شجاع ﴿ لمنجوهم ﴾ بالتخفيف : يعقوب وحمزة علي وخلف . الباقون بالتشديد ﴿ قدرنا ﴾ بالتخفيف حيث كان : أبو بكر وحماد ﴿ بناتي إن ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع ﴿ أني أنا ﴾ بفتح ياء المتكلم : جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو .

(10/427)

---

الوقوف : ﴿ إبراهيم ﴾ 5 ج لئلا يصير ﴿ إذا دخلوا ﴾ ظرفاً ﴿ لنبئهم ﴾ فإنه محال ﴿ سلاماً ﴾ ط ﴿ وجلون ﴾ 5 ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ تبشرون ﴾ 5 ﴿ القانطين ﴾ 5 ﴿ الضالون ﴾ 5 ﴿ المرسلون ﴾ 5 ﴿ مجرمين ﴾ 5 لا للاستثناء . ﴿ آل لوط ﴾ ط ﴿ أجمعين ﴾ 5 لا ﴿ قدرنا ﴾ لا لأن الجملة بعده مفعول والكسر لدخول اللام في الخبر ﴿ الغابرين ﴾ 5 ﴿ المرسلون ﴾ 5 لا لأن ما بعده جواب " لما " ﴿ منكرون ﴾ 5 ﴿ يمترون ﴾ 5 ﴿ لصادقون ﴾ 5 ﴿ تؤمرون ﴾ 5 ﴿ مصبحين ﴾ 5 ﴿

يستبشرون ﴾ 5 ﴿ فلا تفضحون ﴾ 5 لا للعطف ﴿ ولا تخزون ﴾ 5 ﴿ العالمين

﴾ 5 ﴿ فاعلين ﴾ 5 ط لابتداء القسم ﴿ يعمهون ﴾ 5 ﴿ مشرقين ﴾ 5 لا لاتصال

انقلابها بالصيحة ﴿ من سجيل ﴾ ط ﴿ للمتوسمين ﴾ 5 ﴿ مقيم ﴾ 5 ﴿ للمؤمنين

﴾ 5 ط لتمام القصة ﴿ لظالمين ﴾ 5 لا لاتصال الانتقام بظلمهم ﴿ منهم ﴾ 5 ط لأن

الواو للابتداء فلو وصل لشابه الحال وهو محال ﴿ مبين ﴾ 5 ط لتمام قصتهم ﴿ المرسلين

﴾ 5 لا لأن الواو بعده للحال وقد آتيناهم ﴿ معرضين ﴾ 5 لا للعطف ﴿ آمنين ﴾ 5

ط ﴿ مصبحين ﴾ 5 ط للاتصال معنى ﴿ يكسبون ﴾ 5 م لتمام القصص ﴿ إلا بالحق

﴾ ط ﴿ الجميل ﴾ 5 ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ العظيم ﴾ 5 ﴿ للمؤمنين ﴾ 5 ﴿ المبين

﴾ 5 ج لجواز تعلق الكاف بقوله : ﴿ فأخذتهم ﴾ أو بقوله : ﴿ فانتقمنا ﴾ ولجواز

تعلقها بمحذوف أي أنزلنا عليهم العذاب كما أنزلنا ، وتمام البحث سيجيء في التفسير .

﴿ المقتسمين ﴾ 5 لا ﴿ عضين ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ 5 لا ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿

المشركين ﴾ 5 ﴿ المستهزئين ﴾ 5 لا ﴿ آخر ﴾ ج لابتداء التهديد مع الفاء ﴿ يعلمون

﴾ 5 ﴿ يقولون ﴾ 5 لا لاتصال الأمر بالتسبيح تسلية ﴿ الساجدين ﴾ 5 لا للعطف

﴿ اليقين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 226 . 227 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ سؤال عما لأجله أرسلهم الله تعالى ، والخطب والشأن والأمر سواء : إلا أن لفظ الخطب أدل على عظم الحال .

فإن قيل : إن الملائكة لما بشروه بالولد الذكر العليم فكيف قال لهم بعد ذلك : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ .

قلنا : فيه وجوه : الأول : قال الأصم : معناه ما الأمر الذي توجهتم له سوى البشرى .

الثاني : قال القاضي : إنه علم أنه لو كان كمال المقصود إيصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافياً ، فلما رأى جمعاً من الملائكة علم أن لهم غرضاً آخر سوى إيصال البشارة فلا جرم قال : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ .

الثالث : يمكن أن يقال إنهم قالوا : إنا نبشرك بغلام عليم .

في معرض إزالة الخوف والوجل ، ألا ترى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما خاف قالوا له :

﴿ لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ [ الحجر : 53 ] ولو كان تمام المقصود من المجيء هو ذكر تلك البشارة لكانوا في أول ما دخلوا عليه ذكروا تلك البشارة ، فلما لم يكن الأمر كذلك علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهذا الطريق أنه ما كان مجيئهم لمجرد هذه البشارة بل كان لغرض آخر فلا جرم سألهم عن ذلك الغرض فقال : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ .

ثم حكى تعالى عن الملائكة أنهم قالوا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم وأيضاً فقولهم : ﴿ إِلا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يدل على أن المراد بذلك الإرسال إهلاك القوم .

أما قوله تعالى : ﴿ إِلا ءَالَ لُوطٍ ﴾ فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه .

فإن قيل : قوله : ﴿ إِلا ءَالَ لُوطٍ ﴾ هل هو استثناء منقطع أو متصل ؟

(12/427)

---

قلنا : قال صاحب "الكشاف" : إن كان هذا الاستثناء استثناء من ( قوم ) كان منقطعاً ، لأن القوم موصوفون بكونهم مجرمين وآل لوط ما كانوا مجرمين ، فاختلف الجنسان ، فوجب أن يكون الاستثناء منقطعاً .

وإن كان استثناء من الضمير في ( مجرمين ) كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم كما قال : ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [ الذاريات : 36 ] ثم قال صاحب "الكشاف" : ويختلف المعنى بحسب اختلاف هذين الوجهين ، وذلك لأن آل لوط يخرجون في المنقطع من حكم الإرسال ، لأن على هذا التقدير الملائكة أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة وما أرسلوا إلى آل لوط أصلاً ، وأما في المتصل فالملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء ، وأما قوله : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فاعلم أنه قرأ حمزة والكسائي ﴿ منجوهم ﴾ خفيفة ، والباقون مشددة وهما لغتان .

أما قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ قال صاحب "الكشاف" : هذا استثناء من الضمير المجرور في قوله : ﴿ لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء ، لأن الاستثناء من الإستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه ، كما لو قيل : أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته ، وكما لو قال : المطلق لامرأته أنت طالق ثلاثاً إلا ثنتين إلا واحدة ، وكما إذا قال : المقر لفلان على عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهماً ، فأما في هذه الآية فقد اختلف الحكمان ، لأن قوله : ﴿ إِلا ءال لُوطٍ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ أو بقوله ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ قد تعلق بقوله : ﴿ منجوهم ﴾ فكيف يكون هذا استثناء من استثناء .

وأما قوله : ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن معنى التقدير في اللغة : جعل الشيء على مقدار غيره .

(13/427)

---

يقال : قدر هذا الشيء بهذا أي اجعله على مقداره ، وقدر الله تعالى الأقوات أي جعلها على مقدار الكفاية ، ثم يفسر التقدير بالقضاء ، فقال : قضى الله عليه كذا ، وقدره عليه أي جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر ، وقيل في معنى : ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ كتبنا .

قال الزجاج : دبرنا .

وقيل : قضينا ، والكل متقارب .

المسألة الثانية :

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ بتخفيف الدال ههنا وفي النمل .

وقرى الباقون فيهما بالتشديد .

قال الواحدي يقال : قدرت الشيء وقدرته ، ومنه قراءة ابن كثير : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ [ الواقعة : 60 ] خفيفاً ، وقراءة الكسائي : ﴿ والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ ثم قال : والمشددة في هذا المعنى أكثر استعمالاً لقوله تعالى ؛ ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أقواتها ﴾ [ فصلت :

10 ] وقوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [ الفرقان : 2 ] .

المسألة الثالثة :

لقائل أن يقول : لم أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، ولم لم يقولوا : قدر الله تعالى ؟

والجواب : إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لا هم ، وإنما يريدون بذكر هذا الكلام إظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك ، فكذا ههنا .

والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ في موضع مفعول التقدير قضينا أنها تتخلف وتبقى مع من يبقى حتى تهلك كما يهلكون .

ولا تكون ممن يبقى مع لوط فتصل إلى النجاة والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آَلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) ﴾

اعلم أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك إلى لوط وإلى آله، وأن لوطاً وقومه ما عرفوا أنهم ملائكة الله، فلهذا قال لهم: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ وفي تأويله وجوه: الأول: أنه إنما وصفهم بأنهم منكرون، لأنه عليه الصلاة والسلام ما عرفهم، فلما هجموا عليه استنكر منهم ذلك وخاف أنهم دخلوا عليه لأجل شر يوصلونه إليه، فقال هذه الكلمة.

والثاني: أنهم كانوا شباباً مرداً حسان الوجوه، فخاف أن يهجم قومه عليه بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة.

والثالث: أن النكرة ضد المعرفة فقوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي لا أعرفكم، ولا أعرف أنكم من أي الأقوام، ولأي غرض دخلتم علي، فعند هذه الكلمة قالت الملائكة، بل جئناك بما كانوا فيه يمترون، أي بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله، ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم: ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ قال الكلبي: بالعذاب، وقيل باليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه وهو عذاب أولئك الأقوام ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم: ﴿ وإنّا لصادقون ﴾ .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) ﴾

قرىء ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بقطع الهمزة ووصلها من أسرى وسرى.

وروى صاحب الكشاف عن صاحب الإقليد فسر ﴿ مِنْ ﴾ السير والقطع آخر الليل.

قال الشاعر :

افتحي الباب وانظري في النجوم . . كم علينا من قطع ليل بهيم

وقوله : ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ معناه : اتبع آثار بناتك وأهلك .

وقوله : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ الفائدة فيه أشياء : أحدها : لئلا يتخلف منكم أحد فينا له العذاب .

وثانيها : لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من البلاء .

وثالثها : معناه الإسراع وترك الاهتمام لما خلف وراءه كما تقول : امض لشأنك ولا تعرج على شيء .

ورابعها : لو بقي منه متاع في ذلك الموضع ، فلا يرجعن بسببه ألبتة .

(15/427)

---

وقوله : ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعني الشام .

قال المفضل : حيث يقول لكم جبريل .

وذلك لأن جبريل عليه السلام أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة أهلها ما عملوا مثل عمل قوم لوط .

وقوله : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ عدى قضينا بإلى ، لأنه ضمن معنى أوحينا ، كأنه قيل : وأوحيناه إليه مقضياً مبتوتاً ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسرائيل ﴾ [ الإسراء : 4 ] وقوله ؛ ﴿ ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ ﴾ [ يونس : 71 ] ثم إنه فسر بعد ذلك القضاء المبتوت بقوله : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ ﴾ وفي إبهامه أولاً ، وتفسيره ثانياً تفخيم للأمر وتعظيم له .

وقرأ الأعمش ﴿ إن ﴾ بالكسر على الاستئناف كان قائلاً قال أخبرنا عن ذلك الأمر ، فقال : إن دابر هؤلاء ، وفي قراءة ابن مسعود .

وقلنا : ﴿ إِنَّ دَابِرَ هَؤُلآء ﴾ ودابرهم آخرهم ، يعني يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله : ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي حال ظهور الصبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 157.160 ﴾

(16/427)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا آلَ لُوطٍ إنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ ﴾ .

قَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ بِمَا فِيهِ بَلَاغٌ لِلطَّلَبَةِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ

الثَّانِي يَرْجِعُ إلَى مَا يَلِيه ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَوَّلِ مِنْ الْكَلَامِ تَعَلُّقَ الْأَوَّلِ مِنْ الِاسْتِثْنَاءِ بِهِ ، لِاسْتِحَالَةِ ذَلِكَ فِيهِ .

(17/427)

---

وَبَيَانُهُ الْآنَ عَلَى اخْتِصَارٍ لَكُمْ أَنَّا لَوْ عَلَّقْنَاهُ بِالْأَوَّلِ كَمَا عَلَّقْنَاهُ بِمَا يَلِيه لَكَانَ ذَلِكَ تَنَاقُضًا وَصَارَ الْكَلَامُ نَفْيًا لِمَا أُثْبِتَ ، وَإِثْبَاتًا لِمَا نُفِيَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مِنْ الْإِثْبَاتِ نَفْيٌ ، وَمِنْ النَّفْيِ إثْبَاتٌ ، فَإِذَا كَانَ الْأَوَّلُ إثْبَاتًا فَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْهُ نَفْيٌ ؛ ثُمَّ إنْ اسْتَثْنَى مِنْ النَّفْيِ فَإِنَّمَا يُسْتَثْنَى بِهِ إثْبَاتٌ ، فَيَصِيرُ هَذَا الْمُسْتَثْنَى الْآخَرُ مَنْفِيًّا بِالِاسْتِثْنَاءِ الْأَوَّلِ مُثْبَتًا بِالثَّانِي ، وَهَذَا تَنَاقُضٌ ، وَبَسْطُهُ وَإِيضَاحُهُ فِي الْأُصُولِ ، فَأَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ إلَّا آلَ لُوطٍ فَلَيْسُوا مِنْهُمْ ، إلَّا امْرَأَتَهُ فَإِنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ آلِهِ ، فَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنْ الْفِقْهِ قَوْلُ الْمُقِرِّ : عِنْدِي عَشَرَةٌ إلَّا ثَلَاثَةً إلَّا وَاحِدًا ، فَثَبَتَ الْإِقْرَارُ بِثَمَانِيَةٍ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ قَوْلُ الْمُطَلِّقِ لِزَوْجَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا إلَّا اثْنَتَيْنِ إلَّا وَاحِدَةً ، فَتَكُونُ اثْنَتَيْنِ ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فَأَغْنَى عَنْ الْإِطْنَابِ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(18/427)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قالوا إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين إلاّ آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ آل لوط اتباعه ومؤمنو قومه ، سمّاهم آلَهُ لنصرتهم له ، وإيمانهم به ، فاستثناهم من المجرمين المأمور بهلاكهم ، فخرجوا بالاستثناء منهم .

ثم قال تعالى ﴿ إلاّ امْرأَته ﴾ فكانت مستثناة من آل لوط ولاحقة بالمجرمين ، لأن كل استثناء يعود إلى ما تقدمه فيخالفه في حكمه . فإن عاد إلى إثبات كان الاستثناء نفياً ، وإن عاد إلى نفي كان الاستثناء إثباتاً ، فصارت امرأة لوط ملحقة بالمجرمين المهلكين .

ومثال هذا في الإقرار أن يقول له : عليّ عشرة إلا سبعة إلا أربعة ، فيكون عليه سبعة لأن الأربعة استثناء يرجع إلى السبعة التي قبلها ، فصار الباقي منها ثلاثة . وتصير الثلاثة الباقية هي الاستثناء الراجع إلى العشرة ، فيبقى منها سبعة .

وهكذا في الطلاق لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثاً أو اثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين لأن الواحدة ترجع إلى الثنتين ، فتبقى منها واحدة فتصير الواحدة هي القدر المستثنى من الثلاثة فيصير الباقي منها ثنتين وهكذا حكم قوله : ﴿ إلا امرأته ﴾ . ﴿ قدرنا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : معناه قضينا ، قاله النخعي .

الثاني : معناه كتبنا ، قاله علي بن عيسى .

﴿ إنها لَمِنَ الغابرين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أي من الباقين في العذاب مع المجرمين .

الثاني : من الماضين بالعذاب .

قوله عز وجل : ﴿ فأسرِ بأهلك بقطعٍ مِن الليل ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : بآخر الليل ، قاله الكلبي .

الثاني : ببعض الليل ، قاله مقاتل .

الثالث : بظلمة الليل ، قاله قطرب ، ومنه قول الشاعر :

ونائحةٍ تنوحُ بقطع ليلٍ . . . على رَجُلٍ بقارعةِ الصعيد

قوله عز وجل : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ أي أوحينا إليه ذلك الأمر .

﴿ أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : آخرهم .

الثاني : أصلهم .

﴿ مقطوع مصبحين ﴾ أي يستأصلون بالعذاب عند الصباح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

القائل هنا إبراهيم عليه السلام ، وقوله : ﴿ فما خطبكم ﴾ سؤال فيه عنف ، كما تقول لمن تنكر حاله : ما دهاك وما مصيبتك ؟ وأنت إنما تريد استفهاماً عن حاله فقط . لأن " الخطب " لفظة إنما تستعمل في الأمور الشداد ، على أن قول إبراهيم عليه السلام ﴿ أيها المرسلون ﴾ وكونهم أيضاً قد بشروه يقتضي أنه قد كان عرف أنهم ملائكة حين قال ﴿ فما خطبكم ﴾ ، فيحتمل قوله ﴿ فما خطبكم ﴾ مع هذا أنه أضاف الخطب إليهم من حيث هم حملته إلى يوم المعذبين أي ما هذا الخطب الذي تتحملونه وإلى أي أمة . و ﴿ لقوم مجرمين ﴾ يراد به أهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام ، والمجرم الذي يجر الجرائر ويرتكب المحظورات ، وأصل جرم وأجرم كسب ، ومنه قول الشاعر : [ الوافر ]

جريمة ناهض في رأس نيق . . . أي كسب عقاب في قنة شامخ ، ولكن اللفظة خصّت في عرفها بالشر ، لا يقال لكاسب الأجر مجرم ، وقولهم ﴿ إلا آل ﴾ استثناء منقطع ، والأول القوم الذين يؤول أمرهم إلى المضاف إليه ، كذا قال سيبويه ، وهذا نص في أن لفظة ﴿ آل

﴿ ليست لفظة أهل كما قال النحاس ، ويجوز على هذا إضافة ﴿ آل ﴾ إلى الضمير ، وأما أهيل فتصغير أهل ، واجتزوا به عن تصغير " آل " ، فرفضوا " أويلاً " وقرأ جمهور السبعة " لمُنجُّوهم " وقرأ حمزة والكسائي " لمنْجُوهم " بسكون النون وضم الجيم مخففة ، والضمير في ﴿ لمنجوهم ﴾ في موضع خفض بالإضافة ، وانحذفت النون للمعاقبة ، هذا قول جمهور النحويين ، وقال الأخفش الضمير في موضع نصب وانحذفت النون لأنه لا بد من اتصال هذا الضمير .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، وقوله ﴿ إلا امرأته ﴾ استثناء بعد استثناء وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة لأنهم لم يجعلوا امرأته الكافرة من آله .

(20/427)

---

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، لأنها قبل الاستثناء داخلة في اللفظ الذي هو الأول ، وليس كذلك الأول مع " المجرمين " ، فيظهر الاستثناء الأول منقطعاً والثاني متصلاً ، والاستثناء بعد الاستثناء يرد المستثنى الثاني في حكم أمر الأول ، ومثل بعض الناس في هذا بقولك : لي عندك مائة درهم إلا عشرة دراهم إلا درهمين ، فرجعت الدرهمان في حكم التسعين الدرهم ، وقال المبرد : ليس هذا المثال بجيد ، لأنه من خلق الكلام ورثه إذ

له طريق إلى أداء المعنى المقصود بأجمل من هذا التخليق، وهو أن يقول لي عندك مائة إلا ثمانية، وإنما ينبغي أن يكون مثالاً للآية قولك: ضربت بني تميم إلا بني دارم إلا حاجباً، لأن حاجباً من بني دارم فلما كان المستثنى الأول في ضمنه ما لا يجري الحكم عليه، والضرورة تدخله في لفظه ولا يمكنك العبارة عنه دون ذلك يجري الحكم عليهم اضطررت إلى استثناء ثان.

قال القاضي أبو محمد: ونزعة المبرد في هذا نبيلة، وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أبي بكر "قدّرنا" بتشديد الدال في كل القرآن، وقرأ عاصم "قدَرنا" بتخفيفها، ونقل في رواية حفص، والتخفيف يكون بمعنى التثقيل كما قال الهذلي أبو ذؤيب: [الطويل]

ومفرهة عنس قدرت لساقها . . . فخرت كما تتابع الريح بالقفل

يريد قدرت ضربي لساقها، وكقول النبي عليه السلام في الاستخارة: "واقدر لي الخير حيث كان"، ويكون أيضاً بمعنى سن ووفق ومنه قول الشاعر: [يزيد بن مفرغ]

بقندهار ومن تقدير منيته . . . يرجع دونه الخبر

وكسرت الألف من ﴿ إنها ﴾ بسبب اللام التي في قوله ﴿ لمن ﴾ والغابر الباقي في الدهر وغيره، وقالت فرقة منهم النحاس : هو من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي، وأما في هذه الآية فهي للبقاء أي من الغابرين في العذاب، وقوله تعالى : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ الآيات، تقدم القول وذكر القصص في أمر لوط وصورة لقاء الرسل له، وقيل إن الرسل كانوا ثلاثة، جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل كانوا اثني عشر وقوله ﴿ منكرون ﴾ أي لا يعرفون في هذا القطر، وفي هذه اللفظة تحذير وهو من نمط ذمه لقومه وجريه إلى أن لا ينزل هؤلاء القوم في تلك المدينة خوفاً منه أن يظهر سوء فعلهم وطلبهم الفواحش، فقالت الرسل للوط بل جئناك بما وعدك الله من تعذيبهم على كفرهم ومعاصيهم، وهو الذي كانوا يشكون فيه ولا يحققونه، وقرأت فرقة " فاسر " بوصل الألف ، وقرأت فرقة " فأسر " بقطع الألف، يقال سرى وأسرى بمعنى، إذا سار ليلاً، وقال النابغة : [ البسيط ]

أسرت عليه من الجوزاء سارية . . . فجمع بين اللغتين في بيت، وقرأ اليماني " فيسر بأهلك "، وهذا الأمر بالسرى هو عند الله تعالى، أي يقال لك، و" القطع " الجزء من الليل ، وقرأت فرقة " بقطَع " بفتح الطاء حكاه منذر بن سعيد . وقوله : ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أي كن خلفهم وفي ساقتهم حتى لا يبقى منهم أحد ولا يتلوى، و﴿ حيث ﴾ في مشهورها ظرف مكان، وقالت فرقة أمر لوط أن يسير إلى زغر، وقيل : إلى موضع نجاة غير معروف

عندنا ، وقالت فرقة : ﴿ حيث ﴾ قد تكون ظرف زمان ، وأنشد أبو علي في هذا بيت طرفة : [ المديد ]

للفتى عقل يعيش به . . . حيث تهدي ساقه قدمه

(22/427)

---

كأنه قال مدة مشيه وتنقله ، وهذه الآية من حيث أمر أن يسري ﴿ بقطع من الليل ﴾ ثم قيل له " حيث تؤمر " . ونحن لا نجد في الآية أمراً له لا في قوله ﴿ بقطع من الليل ﴾ أمكن أن تكون ﴿ حيث ﴾ ظرف زمان ، و ﴿ يلتفت ﴾ مأخوذ من الالتفات الذي هو نظر العين ، قال مجاهد : المعنى لا ينظر أحد وراءه .

قال القاضي أبو محمد : ونهوا عن النظر مخافة العقلنة وتعلق النفس بمن خلف ، وقيل بل لئلا تتفطر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها . وقيل ﴿ يلتفت ﴾ معناه يتلوى من قولك لفت الأمر إذا لويته ، ومنه قولهم للعصيدة لفيتة لأنها تلوى ، بعضها على بعض .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) ﴾

المعنى ﴿ وقضينا ذلك الأمر ﴾ أي أمضيناه وختمنا به ، ثم أدخل في الكلام ﴿ إليه ﴾

من حيث أوحى ذلك إليه وأعلمه الله به فجلب هذا المعنى بإيجاز وحذف ما يدل الظاهر عليه و﴿ أن ﴾ في موضع نصب ، قال الأخفش : هي بدل من ﴿ ذلك ﴾ ، وقال الفراء : بل التقدير " بأن دابر " فحذف حرف الجر ، والأول أصوب ، و" الدابر " الذي يأتي آخر القوم أي في أدبارهم ، وإذا قطع ذلك وأتى عليه فقد أتى العذاب من أولهم إلى آخرهم ، وهذه ألفاظ دالة على الاستئصال والهلاك التام ، يقال قطع الله دابره واستأصل شأفته وأسكت نأمته بمعنى . و﴿ مصبحين ﴾ معناه إذا أصبحوا ودخلوا في الصباح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(23/427)

---

وقال ابن الجوزى :

﴿ قال فما خطبكم ﴾

أي : ما أمركم ؟ ﴿ قالوا إِنا أُرسلنا ﴾ أي : بالعذاب .

وقوله : ﴿ إِلا آل لوط ﴾ استثناء ليس من الأول .

فأما آل لوط ، فهم أتباعه المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ إِنا لمنجوهم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

"لمنجُّوهم" مشددة الجيم.

وقرأ حمزة، والكسائي "لمُنجوهم" خفيفة.

قوله تعالى: ﴿ إلا امرأته ﴾ المعنى: إنا لمنجوهم إلا امرأته ﴿ قدَّرنا ﴾ وروى أبو بكر عن عاصم "قَدَرْنا" بالتخفيف، والمعنى واحد، يقال: قدَّرت وقدْرت، والمعنى: قضينا ﴿ إنها لمن الغابرين ﴾ يعني: الباقين في العذاب.

قوله تعالى: ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ يعني: لا أعرفكم، ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعنون: العذاب، كانوا يشكّون في نزوله.

﴿ وأَتيناك بالحق ﴾ أي: بالأمر الذي لا شك فيه من عذاب قومك.

قوله تعالى: ﴿ واتَّبِعْ أدبارهم ﴾ أي: سِرْ خلفهم ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ أي: حيث يأمركم جبريل.

وفي المكان الذي أُمِروا بالمضي إليه قولان:

أحدهما: أنه الشام، قاله ابن عباس.

والثاني: قرية من قرى قوم لوط، قاله ابن السائب.

قوله تعالى: ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ أي: أوحينا إليه ذلك الأمر، أي: الأمر بهلاك قومه، قال الزجاج: فسَّر: ما الأمر بباقي الآية، والمعنى: وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

فأما الدابر ، فقد سبق تفسيره [ الأنعام : 45 ] ، والمعنى : إِن آخر من يبقى منكم يَهْلِك وقت الصبح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(24/427)

---

وقال القرطبى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : لما علم أنهم ملائكة إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد قال : فما خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير .

أي فما أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به .

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين ضالين .

وفي الكلام إضمار ؛ أي أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم .

﴿ إِلَّا آَلَ لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهل دينه .

﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي "لَمُنْجُوهم" بالتخفيف من أنجى .

الباقون : بالتشديد من نجّى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

والتنجية والإنجاء التخليص.

﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك.

وقد تقدّمت قصة قوم لوط في "الأعراف" وسورة "هود" بما فيه كفاية.

﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ أي قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين في العذاب.

والغابر: الباقي.

قال:

لا تكسع الشّوْل بأغبارها . . .

إنك لا تدري مَنِ النّاتج

الأغبار بقايا اللبن.

وقرأ أبو بكر والمفضل "قَدَرنا" بالتخفيف هنا وفي النمل، وشدد الباقون.

الهَرَوِيّ: يقال قدّر وقَدَر، بمعنًى.

الثانية: لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الإستثناء من النفي إثبات ومن الإثبات نفي؛ فإذا قال رجل: له عليّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهماً؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفي، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة.

وكذلك لو قال: عليّ خمسة دراهم إلا درهماً إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث.

وكذلك إذا قال : لفلان عليّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة ؛ كان الاستثناء الثاني راجعاً إلى ما قبله ، والثالث إلى الثاني فيكون عليه درهمان ؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر .

(25/427)

---

والتسعة نفي والسبعة نفي فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان ، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير .

فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّآ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امرأته ﴾ فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال "إلا امرأته" فاستثناها من آل لوط ، فرجعت في التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا .

وهكذا الحكم في الطلاق ، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين ؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقي من المستثنى منه وهي الثلاث .

وكذا كل ما جاء من هذا فتفهّمه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ المرسلون * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي لا أعرفكم .

وقيل : كانوا شبابا ً ورأى جمالاً فخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار .

﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكّون أنه نازل بهم ، وهو العذاب .

﴿ وَآتَيْنَاكَ بالحق ﴾ أي بالصدق .

وقيل : بالعذاب .

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي في هلاكهم .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل ﴾ تقدّم في هود .

﴿ واتبع أَدْبَارَهُمْ ﴾ أي كن من ورائهم لئلا يتخلفَ منهم أحد فيناله العذاب .

﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ نُهوا عن الالتفات ليجِدّوا في السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح .

وقيل : المعنى لا يتخلف .

﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعني الشام .

مقاتل : يعني صَفَد ، قرية من قرى لوط .

وقد تقدّم .

وقيل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنما سمي اليقين لأن إبراهيم لما خرجت الرسل شيّعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهم ؟ قال : " من ها هنا " وحَدّ له حَدًّا ، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب ، فلما

اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" .

فسمّي اليقين .

(26/427)

---

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي أوحينا إلى لوط .

﴿ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ نظيره ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ ﴾ [ الأنعام : 45 ] .

﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي عند طلوع الصبح . وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(27/427)

---

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ فما خطبكم ﴾ يعني فما شأنكم وما الأمر الذي جئتم فيه ﴿ أيها المرسلون ﴾ والمعنى ما الأمر الذي جئتم به سوى ما بشرتموني به من الولد ﴿

قالوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعني لهلاك قوم مجرمين ﴿ إلا آل لوط ﴾ يعني أشياعه وأتباعه من أهل دينه ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته ﴾ يعني امرأة لوط ﴿ قدرنا ﴾ يعني قضينا وإنما أسند الملائكة القدر إلى أنفسهم وإن كان ذلك لله ، لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ، ونحن فعلنا وإن كان قد فعلوه بأمر الملك ﴿ إنها لمن الغابرين ﴾ يعني لمن الباقين في العذاب والاستثناء من النفي إثبات ، ومن الإثبات نفي فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ وذلك أن الملائكة عليهم السلام لما بشروا إبراهيم بالولد ، وعرفوه بما أرسلوا به ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط ﴿ قال إنكم قوم منكرون ﴾ وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه ، فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة .

*(28/427)*

---

وقيل : إن النكرة ضد المعرفة فقول : إنكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا أعرف من أي الأقوام أنتم ، ولا لأي غرض دخلتم فعند ذلك ﴿ قالوا ﴾ يعني الملائكة ﴿ بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ﴿ وأتيناك بالحق ﴾

يعني باليقين الذي لا شك فيه ﴿ وإنّا لَصادقون ﴾ يعني فيما أخبرناك به من إهلاكهم ﴿ فأسر بأهلك ﴾ بقطع من الليل يعني آخر الليل ، والقطع القطعة من الشيء وبعضه ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ يعني واتبع آثار أهلك وسر خلفهم ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ يعني حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك ، وقيل : المراد الإسراع في السير وترك الالتفات إلى ورائه ، والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شيء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ قال ابن عباس : يعني إلى الشام وقيل : الأردن ، وقيل إلى حيث يأمركم جبريل وذلك أن جبريل أمرهم أن يسيروا إلى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ يعني وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر الذي حكمنا به على قومه ، وفرغنا منه ثم إنه سبحانه وتعالى فسر ذلك الأمر الذي قضاه بقوله ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ يعني أن هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وإنما أبهم الأمر الذي قضاه عليهم أولاً ، وفسر ثانياً تفخيماً له وتعظيماً لشأنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

لما بشروه بالولد راجعوه في ذلك ، علم أنهم ملائكة الله ورسله ، فاستفهم بقوله : فما خطبكم ؟ الخطب لا يكاد يقال إلا في الأمر الشديد ، فأضافه إليهم من حيث أنهم حاملوه إلى أولئك القوم المعذبين .

ونكر قوماً وصفتهم تقليلاً لهم واستهانة بهم ، وهم قوم لوط أهل مدينة سدوم والمعنى : أرسلنا بالهلاك .

وإلا آل لوط : يحتمل أن يكون استثناء من الضمير المستكن في مجرمين والتقدير : أجرموا كلهم إلا آل لوط ، فيكون استثناء متصلاً ، والمعنى : إلا آل لوط فإنهم لم يجرموا .

ويكون قوله : إنا لمنجوهم أجمعين ، استئناف إخبار عن نجاتهم ، وذلك لكونهم لم يجرموا ، ويكون حكم الإرسال منسحباً على قوم مجرمين وعلى آل لوط لإهلاك هؤلاء ، وإنجاء هؤلاء .

والظاهر أنه استثناء منقطع ، لأنّ آل لوط لم يندرج في قوله : قوم مجرمين ، لا على عموم البدل ، لأنّ وصف الإجرام منتف عن آل لوط ، ولا على عموم الشمول لتنكير قوم مجرمين ، ولانتفاء وصف الإجرام عن آل لوط .

وإذا كان استثناء منقطعاً فهو مما يجب فيه النصب ، لأنه من الاستثناء الذي لا يمكن بوجه

العامل على المستثنى فيه ، لأنهم لم يرسلوا إليهم أصلاً ، وإنما أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة .

ويكون قوله : إنا لمنجوهم جرى مجرى خبر ، لكن في اتصاله بآل لوط ، لأن المعنى : لكن آل لوط منجون .

وقد زعم بعض النحويين في الاستثناء المنقطع المقدر بلكن إذا لم يكن بعده ما يصح أن يكون خبراً أنّ الخبر محذوف ، وأنه في موضع رفع لجريان إلا وتقديرها بلكن .

(30/427)

---

قال الزمخشري : ( فإن قلت ) : فقوله إلا امرأته مم استثنى ، وهل هو استثناء من استثناء ؟ ( قلت ) : استثنى من الضمير المجرور في قوله : لمنجوهم ، وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء ، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه ، وأن يقال : أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته ، كما اتحد الحكم في قول المطلق : أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة ، وفي قول المقر لفلان : عليّ عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهماً .

فأما في الآية فقد اختلف الحكمان ، لأنّ إلا آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين ، وإلا امرأته قد تعلق بمنجوهم ، فأنى يكون استثناء من استثناء : انتهى .

ولما استسلف الزمخشري أن إلا امرأته مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم ، لم يجوز أن يكون استثناء من استثناء .

ومن قال : إنه استثناء فيمكن تصحيح كلامه بأحد وجهين : أحدهما : أنه لما كان الضمير في لمنجوهم عائد على آل لوط ، وقد استثنى منه المرأة ، صار كأنه مستثنى من آل لوط ، لأنّ المضمر هو الظاهر في المعنى .

والوجه الآخر : أن قوله : إلا آل لوط ، لما حكم عليهم بغير الحكم علي قوم مجرمين اقتضى ذلك نجاتهم ، فجاء قوله : إنا لمنجوهم أجمعين تأكيداً لمعنى الاستثناء ، إذ المعنى إلا آل لوط ، فلم يرسل إليهم بالعذاب ، ونجاتهم مترتبة على عدم الإرسال إليهم بالعذاب ، فصار نظير قولك : قام القوم إلا زيداً ، فإنه لم يقم وإلا زيداً لم يقم .

فهذه الجملة تأكيد لما تضمنه الاستثناء من الحكم على ما بعد إلا بضد الحكم السابق على المستثنى منه ، فإلا امرأته على هذا التقرير الذي قررناه استثناء من آل لوط ، لأن الاستثناء مما جيء به للتأسيس أولى من الاستثناء مما جيء به للتأكيد .

وقرأ الأخوان : لمنجوهم بالتخفيف ، وباقي السبعة بالتشديد .

وقرأ أبو بكر : قدرنا بالتخفيف ، وباقي السبعة بالتشديد ، وكسرت إنها إجراء لفعل التقدير مجرى العلم ، إما لكونه بمعناه ، وإما لترتبه عليه .

وأسندوا التقدير إليهم ، ولم يقولوا : قدر الله ، لأنهم هم المأمورون بإهلاكهم كما يقول من يلوذ بالملك ومن هو متصرف بأوامره : أمرنا بكذا ، والآمر هو الملك .

وقال الزمخشري : لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم انتهى .

فأدرج مذهب الاعتزال في تفضيل الملائكة في غضون كلامه ، ووصف قوم بمنكرون لأنه نكرتهم نفسه ونفرت منهم ، وخاف أن يطرقوه بشرٍ .

وبل إضراب عن قول محذوف أي : ما جئناك بشيء تخافه ، بل جئناك بالعذاب لقومك ، إذ كانوا يمترون فيه أي : يشكون في وقوعه ، أو يجادلونك فيه تكذيباً لك بما وعدتهم عن الله .

ويحتمل أن يكون نكرهم لكونهم ليسوا بمعروفين في هذا القطر ، فخاف الهجوم منهم عليه ، أو أن يتعرض إليهم أحد من قومه إذ كانوا في صورة شباب حسان مرد .

وأتيناك بالحق أي : باليقين من عذابهم ، وإنا لصادقون في الإخبار لحلوله بهم .

وتقدم الخلاف في القراءة في فأسر .

وروى صاحب الإقليد فسر من السير ، وحكاها ابن عطية وصاحب اللوامح عن اليماني .

وحكى القاضي منذر بن سعيد أنّ فرقة قرأت بقطع بفتح الطاء ، وتقدم الكلام في القطع وفي الالتفات في سورة هود .

وخطب الزمخشري هنا فقال : ( فإن قلت ) : ما معنى أمره باتباع أدبارهم ، ونهيهم عن الالتفات ؟ ( قلت ) : قد بعث الله الهلاك على قومه ونجاه وأهله ، إجابة لدعوته عليهم ، وخرج مهاجراً فلم يكن بد من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله ، لذلك فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أهوالهم ، فلا يفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحالة المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه ، وليكون مسيره مسير الهارب الذي تقدم سريه وتفوت به .

(32/427)

---

وحيث تؤمرون قال ابن عباس : الشام .

وقيل : موضع نجاة غير معروف .

وقيل : مصر .

وقيل : إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين .

وحيث على بابها من أنها ظرف مكان ، وادعاء أنها قد تكون هنا ظرف زمان من حيث أنه ليس في الآية أمر إلا قوله : فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ثم قيل له : حيث تؤمر ضعيف .

ولفظ تؤمر يدل على خلاف ذلك ، إذ كان يكون التركيب من حيث أمرتم ، وحيث من الظروف المكانية المبهمة ، ولذلك يتعدّى إليها الفعل وهو : امضوا بنفسه ، تقول : قعدت حيث قعد زيد ، وجاء في الشعر دخول في عليها .

قال الشاعر :

فأصبح في حيث التقينا شريدهم . . .

طليق ومكتوف اليدين ومرعف

ولما ضمّن قضينا معنى أوحينا ، تعدت تعديها بإلى أي : وأوحينا إلى لوط مقضياً مبتوتاً ، والإشارة بذلك إلى ما وعده تعالى من إهلاك قومه .

وأنّ دابر تفخيم للأمر وتعظيم له ، وهو في موضع نصب على البدل من ذلك قاله الأخفش ، أو على إسقاط الباء أي بأنّ دابراً قاله الفراء ، وجوزه الحوفي .

وأنّ دابر هؤلاء مقطوع كناية عن الاستئصال .

وتقدم تفسير مثله في قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ ومصبحين داخلين في الصباح ، وهو حال من الضمير المستكن في مقطوع على المعنى ، ولذلك جمعه وقدره

الفراء وأبو عبيد : إذا كانوا مصبحين ، كما تقول : أنت راكباً أحسن منك ماشياً ، فإن كان تفسير معنى فصحيح ، وإن أراد الإعراب فلا ضرورة تدعو إلى هذا التقدير .

وقرأ الأعمش وزيد بن علي : إن دابر بكسر الهمزة لما ضمن قضينا معنى أوحينا ، فكان المعنى : أعلمنا ، علق الفعل فكسر إنْ أو لما كان القضاء بمعنى الإيحاء معناه القول كسران ، ويؤيده قراءة عبد الله .

وقلنا : إنّ دابر وهي قراءة تفسير لا قرآن ، لمخالفتها السواد .

والمدينة : سدوم ، وهي التي ضرب بقاضيها المثل في الجور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(33/427)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ أي إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وتوسيطُه بين قوله السابقِ وبين قوله : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي أمركم وشأنكم الخطيرُ الذي لأجله أُرسلتم سوى البشارةِ ﴿ أَيُّهَا المرسلون ﴾ صريحٌ في أن بينهما مقالةً مطويةً لهم أشير به إلى مكانها كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ الآية ، فإن قوله

الأخيرَ ليس موصولاً بقوله الأول ، بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى : ﴿ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ فإن توسيطَ قال بين قوليه للإيذان بعدم اتصالِ الثاني بالأول وعدم ابتنائِه عليه بل على غيره ، ثم خطابُه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابقُ مجرداً عن ذلك مع تصديره بالفاء ، دليلٌ على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنةً لبيان أن مجيئَهم ليس لمجرد البشارةِ ، بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام : وإن لم يكن شأنُكم مجردَ البشارة فماذا هو؟ فلا حاجة إلى الالتجاء إلى أن علمَه عليه الصلاة والسلام بأن كلَّ المقصود ليس البشارةَ بسبب أنهم كانوا ذوي عدد ، والبشارةُ لا تحتاج إلى عدد ولذلك اكتُفي بالواحد في زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ، ولا إلى أنهم بشروه في تضاعيف الحالِ لإزالة الوجل ولو كانت تمامَ المقصود لابتدأوا بها فتأمل .

﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ هو قومُ لوط ، وُصفوا بالإجرام وجيء بهم بطريق التنكيرِ ذمًّا لهم واستهانةً بهم .

(34/427)

---

﴿ إِلاَّ ءالَ لُوطٍ ﴾ استثناءٌ متصلٌ من الضمير في مجرمين ، أي إلى قوم أَجرموا جميعاً إلا آلَ لوط ، فالقومُ والإرسالُ شاملان للمجرمين وغيرِهم ، والمعنى إنا أرسلنا إلى قوم أجرَم كلُّهم

إلا آلَ لوط لنُهلِك الأولين ونُنجّيَ الآخرين ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ أي لوطاً وآله ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ أي مما يصيب القومَ ، فإنه استئنافٌ للإخبار بنجاتهم لعدم إجرامِهم ، أو لبيان ما فُهم من الاستثناء من مطلق عدمِ شمولِ العذاب لهم ، فإن ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين ، أو لتعليله ، فإن مَنْ تعلّق بهم التنجيةُ بمَنْجى من شمول العذاب .

أو منقطعٌ من قوم وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ متصلٌ بآلَ لوطٍ جارٍ مَجرى خبر لكنّ ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ استثناءٌ من آلَ لوط أو من ضميرهم ، وعلى الأول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يُجعل إنا لمنجوهم اعتراضاً ، وقرىء بالتخفيف ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ الباقين مع الكفرة لتُهلَك معهم ، وقرىء قدَرْنا بالتخفيف ، وإنما عُلّق فعلُ التقدير مع اختصاص ذلك بأفعال القلوب لتضمُّنه معنى العلم ، ويجوز حملُه على معنى قلنا لأنه بمعنى القضاء قولٌ وأصلُه جعلُ الشيء على مقدار غيرِه ، وإسنادُهم له إلى أنفسهم وهو فعلَ الله سبحانه لِما لهم من الزلفى والاختصاص .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءالَ لُوطٍ المرسلون ﴾

شروع في بيان كيفيةِ إهلاكِ المجرمين وتنجيةِ آل لوط حسبما أُجمل في الاستثناء ثم فُصّل في التعليل نوعَ تفصيل ، ووضعُ المظهرِ موضعَ المضمر للإيذان بأن مجيئَهم لتحقيق ما أرسلوا به من الإهلاك والتنجية ، وليس المرادُ به ابتداءَ مجيئهم بل مطلقُ كينونتهم عند آل لوط ، فإن ما حُكي عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ إنما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي حين ضاقت عليه الحيلُ وعيَّتْ به العللُ لمّا لم يشاهِدْ من المرسلين عند مقاساته الشدائدَ ومعاناته المكايدَ من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهودُ والمعتاد من الإعانة والإمداد فيما يأتي ويذر عند تجشّمِه في تخليصهم إنكاراً لخذلانهم له ، وتركِ نصرته في مثل تلك المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لأسباب المدافعةِ والممانعة حتى ألجأته إلى أن قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ حسبما فصل في سورة هود ، لا أنه قاله عند ابتداء ورودِهم له خوفاً أن يطرُقوه بشرّ كما قيل ، كيف لا وهم بجوابهم المحكيّ بقوله تعالى :

(36/427)

---

﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به فيمترون به ويكذبونك ، قد قشَروا العصا وبيّنوا له عليه الصلاة والسلام جليةَ الأمر ، فأنى يمكن أن

يعتريَه بعد ذلك المساءةُ وضيقُ الذّرْع ، وليست كلمةُ بل إضرابًا عن موجب الخوفِ المذكور على معنى ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله بل بما يسرك وتقَرّ به عينُك ، بل هي إضرابٌ عما فهمه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرة له ، والمعنى ما خذلناك وما خلّينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمّرهم من العذاب الذي كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ، ولعل تقديمَ هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهلِ المدينة من المجادلة للمسارعة إلى ذكر بشارةِ لوطٍ عليه الصلاة والسلام بإهلاك قومِه وتنجيةِ آله عَقيبَ ذكر بشارةِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بهما ، وحيث كان ذلك مستدعيًا لبيان كيفية النجاةِ وترتيبِ مباديها أُشير إلى ذلك إجمالاً ، ثم ذُكر ما فَعل القوم وما فُعل بهم ولم يُبالَ بتغيير الترتيب الوقوعيّ ثقةً بمراعاته في مواقعَ أُخَرَ ونسبةُ المجيء بالعذاب إليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازلٌ بالقوم بطريق تفويض أمرِه إليه لا بطريق نزوله عليه ، كأنهم جاءوه به وفوّضوا أمره إليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعّدهم به .

﴿ وأتيناك بالحق ﴾ أي باليقين الذي لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابُهم ، عبر عنه بذلك تنصيصًا على نفي الامتراءِ عنه ، أو المرادُ بالحق الإخبارُ بمجيء العذابِ المذكور ، وقوله تعالى : ﴿ وإنّا لصادقون ﴾ تأكيدٌ له ، أي أتيناك فيما قلنا بالخبر الحقّ أي المطابق للواقعِ ، وإنا لصادقون في ذلك الخبرِ أو في كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه ، وعلى الأول تأكيدٌ إثرَ تأكيدٍ .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ شروعٌ في ترتيب مبادي النجاةِ ، أي اذهبْ بهم في الليل ، وقرىء بالوصل وكلاهما من السرى وهو السيرُ في الليل ، وقرىء فسِرْ من السير ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اللّيل ﴾ بطائفة منه أو من آخره قال

افتحي الباب وانظُري في النجوم . . . كم علينا من قِطْعِ ليلٍ بهيم

وقيل : هو بعد ما مضى منه شيءٌ صالح ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ وكن على أثرهم تذودُهم وتسرع بهم وتطّلع على أحوالهم ، ولعل إيثارَ الاتباعِ على السَّوْق مع أنه المقصودُ بالأمر للمبالغة في ذلك ، إذ السَّوْقُ ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزَمه عادةً الغفلةُ عن حال المتأخر ، والالتفاتُ المنهيُّ عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ ﴾ أي منك ومنهم ﴿ أَحَدٌ ﴾ فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه ، أو يصيبه ما أصابهم ، أو ولا ينصرفْ منكم أحدٌ ولا يتخلفْ لغرض فيصيبه العذاب ، وقيل : نُهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة ، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلّفوه ، أو هو للإسراع في السير فإن الملتفتَ قلما يخلو عن أدنى وقفة ، وعدمُ ذكر استثناء المرأةِ من الإسراء والالتفات لا يستدعي عدم وقوعِه ، فإن ذلك لما عرفت مراراً للاكتفاء بما ذكر في مواضعَ أخرَ ﴾

وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى حيث أمركم الله تعالى بالمُضيّ إليه وهو الشام أو مصر ، وحذفُ الصلتين على الاتساع المشهور ، وإيثارُ المضيّ إلى ما ذكر على الوصول إليه واللُّحوق به للإيذان بأهمية النجاةِ ولمراعاة المناسبةِ بينه وبين ما سلف من الغابرين .

(38/427)

---

﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ أي أوحينا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ مقْضيًّا ولذلك عُدِّيَ بإلى ﴿ ذَلِكَ الأمر ﴾ مبهمٌ يفسره ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَآْء مَقْطُوعٌ ﴾ على أنه بدلٌ منه ، وإيثار اسم الإشارة على الضمير للدلالة على اتصافهم بصفاتهم القبيحةِ التي هي مدارُ ثبوت الحكم ، أي دابرَ هؤلاء المجرمين ، وإيرادُ صيغة المفعول بدلَ صيغة المضارع لكونها أدخلَ في الدلالة على الوقوعِ ، وفي لفظ القضاءِ والتعبيرِ عن العذاب بالأمر والإشارةِ إليه بذلك وتأخيرِه عن الجار والمجرور وإبهامِه أولاً ثم تفسيره ثانياً من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعتِه ما لا يخفى . وقرىء بالكسر على الاستئناف ، والمعنى أنهم يُستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحدٌ ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخِلين في الصُّبح ، وهو حال من هؤلاء أو من الضمير في مقطوعٌ وجمعه للحمل على المعنى فإن دابر هؤلاء بمعنى مدبري هؤلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾

أي أمركم وشأنكم الخطير الذي لأجله أرسلتم سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا المرسلون ﴾ لعله عليه السلام علم أن كمال المقصود ليس البشارة من مقالة لهم في أثناء المحاورة مطوية هنا ، وتوسيط ﴿ قَالَ ﴾ بين كلاميه عليه السلام مشيراً إلى أن هناك ما طوى ذكره ، وخطابه لهم عليهم السلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجرداً عن ذلك مع تصديره بالفاء ظاهر في أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة ما فهم منه ذلك فلا حاجة إلى الالتجاء إلى أن علمه عليه السلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوي عدد والبشارة لا تحتاج إلى عدد ولذلك اكتفى بواحد في زكريا ومريم عليهما السلام ولا إلى أنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدأوا بها على أن فيما ذكر بحثاً فقد قيل : إن التعذيب كالبشارة لا يحتاج أيضاً إلى العدد ؛ ألا يرى أن جبريل عليه السلام قلب مدائنهم بأحد جناحيه ، وأيضاً يرد على قوله : ولذلك اكتفى الخ أن زكريا عليه السلام لم يكتف في بشارته بواحد كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ

قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ [آل عمران : 39] وأما مريم عليها السلام فإنما جاءها الواحد لنفخ الروح والهبة كما يدل عليه قوله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : 19] وقوله تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 91] وأما التبشير فلازم لتلك الهبة وفي ضمنها وليست مقصودة بالذات ، وأيضاً يخدش قوله : ولو كانت تمام المقصود لابتدأوا بها ما في قصة مريم عليها السلام قالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : 18 ، 19].

فيجوز أن يكون قولهم : ﴿ لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر : 53] تمهيداً للبشارة .

*(40/427)*

---

وأجيب عن هذا بأنه لا ورود له لأن مريم عليها السلام لنزاهة شأنها أول ما أبصرته متمثلاً عاجلته بالاستعاذة فلم تدعه يبتدىء بالبشارة بخلاف ما نحن فيه ، وعما تقدم بأن المعنى إن العادة الجارية بين الناس ذلك فيرسل الواحد للبشارة والجمع لغيرها من حرب وأخذ ونحو ذلك والله تعالى يجري الأمور للناس على ما اعتادوه فلا يرد قصة جبريل عليه السلام في ذلك وإن قيل : المراد بالملائكة في تلك الآية جبريل عليه السلام كقولهم فلان يركب الخيل

ويلبس الثياب أي الجنس الصادق بالواحد من ذلك قاله بعض المحققين ، وتعقب ما تقدم من كون العلم من كلام وقع في أثناء المحاورة وطوي ذكره بأنه بعيد وتوسيط ﴿ قَالَ ﴾ والفاء والخطاب بعنوان الرسالة لا يقربه ، أما الأول فلجواز أن يكون لما أن هناك انتقالاً إلى بحث آخر ومثله كثير في الكلام ، وأما الثاني فلجواز أن تكون فصيحة على معنى إذا تحقق هذا فأخبروني ما أمركم الذي جئتم له سوى البشرى ؟ ، وأما الثالث فلجواز أن يقال : إنه عليه السلام لم يعلم بأنهم ملائكة مرسلون من الله تعالى إلا بعد البشارة ولم يكن يحسن خطابهم بذلك عند الإنكار أو التعجب من بشارتهم ، وكذا لا يحسن في الجواب كما لا يخفى على أرباب الأذواق السليمة بل قد يقال : إنه لا يحسن أيضاً عند قوله : ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [ الحجر : 52 ] على تقدير أن يكون علم عليه السلام ذلك قبل البشارة لما أن المقام هناك ضيق من أن يطال فيه الكلام بنحو ذلك الخطاب فتدبر .

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾

هم قوم لوط عليه السلام ، وجيء بهم بطريق التنكير ووصفوا بالإجرام استهانة بهم وذماً لهم .

﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾

قال الزمخشري : يجوز أن يكون استثناءً من قوم بملاحظة الصفة فيكون الاستثناء منقطعاً لأنهم ليسوا قوماً مجرمين ، واحتمال التغليب مع هذه الملاحظة ليتصل الاستثناء ليس مما يقتضيه المقام ، ولو سلم فغير ضار فيما ذكر لأنه مبني على الحقيقة ولا ينافي صحة الاتصال على تقدير آخر ، ويجوز أن يكون استثناءً من الضمير المستتر في ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ [ الحجر : 58 ] فيكون الاستثناء متصلاً لرجوع الضمير إلى القوم فقط فيكون الآل على الأول مخرجين من حكم الإرسال المراد به إرسال خاص وهو ما كان للإهلاك لا مطلق البعث لاقتضاء المعنى له ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ خبر الأبناء على ما سمعت سابقاً ، وعن الرضى أن المستثنى المنقطع منتصب عند سيبويه بما قبل إلا من الكلام كما انتصب المتصل به وإن كانت إلا بمعنى لكن وأما المتأخرون من البصريين فلما رأوها بمعنى لكن قالوا إنها الناصبة بنفسها نصب لكن للأسماء وخبرها في الأغلب محذوف نحو جاءني القوم إلا حماراً أي لكن حماراً لم يجيء قالوا وقد يجيء خبرها ظاهراً نحو قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قوميونس لما آمنوا كشفنا عنهم ﴾ [ يونس : 98 ] وقال الكوفيون إلا في ذلك بمعنى سوى والنصب بعدها في الانفصال كالنصب في الاتصال ، وتأويل البصريين أولى لأن المستثنى المنقطع يلزم مخالفته لما قبله نفياً وإثباتاً كما في لكن وفي سوى لا يلزم ذلك لأنك تقول : لي عليك دينار ان سوى الدينار الفلاني وذلك إذا كان صفة ، وأيضاً معنى لكن

الاستدراك ، والمراد به فيها دفع توهم المخاطب دخول ما بعدها في حكم ما قبلها مع أنه ليس بداخل وهذا هو معنى الاستثناء المنقطع بعينه انتهى ، وزعم بعضهم أن في كون إلا الاستثنائية تعمل عمل لكن خفاء من جهة العربية وقال : إنه في المعنى خبر وليس خبراً حقيقياً كما صرح به النحاة ، ومما نقلناه يعلم ما فيه من النظر .

(42/427)

---

نعم صرح الزمخشري بأن الجملة على تقدير الانقطاع جارية مجرى خبر لكن وهو ظاهر في أنها ليست خبراً في الحقيقة وذكر أنه إنما قال ذلك لأن الخبر محذوف أي لكن آل لوط ما أرسلنا إليهم والمذكور دليله لتلازمهما ولذا لم يجعله نفس الخبر بل جار مجراه ، وفيه غفلة عن كونه مبنياً على ما نقل عن سيبويه ، وزعم بعض أنه قال ذلك لأن الجملة المصدرة بأن يمتنع أن تكون خبراً للكن فليراجع ، وقيل : قال ذلك لأن المذكور إلا لا لكن وهو كما ترى ، وعلى تقدير الاتصال يكون الآل مخرجين من حكم المستثنى منه وهو الإجرام داخلين في حكم الإرسال بمعنى البعث مطلقاً فيكون الملائكة قد أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء ، وجملة ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ على هذا مستأنفة استئنافاً بياناً كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم حين قالوا : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾ فما حال آل

لوط؛ فقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [ الحجر : 58 ، 59 ] الخ وقوله سبحانه :

﴿ إِلَّا امرأته ﴾ على التقديرين عند جار الله مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم ولم يجوز أن يكون من الاستثناء من الاستثناء في شيء قال : لأن ذلك إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه كقول المطلق أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة والمقر لفلان على عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهماً ، وههنا قد اختلف الحكمان لأن آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين و﴿ إِلَّا امرأته ﴾ تعلق بمنجوهم فأنى يكون استثناءً من استثناء انتهى .

وقد يتوهم أن الإرسال إذا كان بمعنى الإهلاك فلا اختلاف إذ التقدير إلا آل لوط لم نهلكهم فهو بمعنى منجوهم فيكون من الاستثناء من الاستثناء على أحد التقديرين .

(43/427)

---

وأجاب عن ذلك صاحب التقريب بأن شرط الاستثناء المذكور أن لا يتخلل لفظ بين الاستثنائين متعدد يصلح أن يكون مستثنى منه وههنا قد تخلل ﴿ منجوهم ﴾ ولو قيل إلا آل لوط إلا امرأته لجاز ذلك؛ وتعقب بأنه لا يدفع الشبهة لأن السبب حينئذٍ في امتناعه وجود الفاصل لا اختلاف الحكمين فلا وجه للتعبير به عنه ، وفي "الكشف" المراد من اتحاد الحكم اتحاده شخصاً وعدداً فلا يرد أن الإرسال إذا كان بمعنى الإهلاك كان قوله

سبحانه : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [ الحجر : 59 ] وقوله تعالى : ﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾ في معنى واحد فالاستثناء من الأول في المعنى ، وإنما شرط الاتحاد لأن المتصل كاسمه لا يجوز تخلل جملة بين العصا ولحائها وكذلك في المنقطع وبه يتضح حال ما تقدم أتم اتضاح ، وفيه أيضاً ، فإن قلت : لم لا يرجع الاستثناء إليهما ؟ قلت : لأن الاستثناء متعلق بالجملة المستقلة والخلاف في رجوعه إلى الجملتين فصاعداً لا إلى جملة ، وبعض جملة سابقة ، هذا والمعنى مختلف في ذلك ومحل الخلاف الجمل المتعاطفة لا المنقطع بعضها عن بعض انتهى ، والأمر كما ذكر في تعيين محل الخلاف ، والمسألة قل من تعرض لها من النحاة وفيها مذاهب .

الأول وهو الأصح وعليه ابن مالك أن الاستثناء يعود للكل إلا أن يقوم دليل على إرادة البعض كما في قوله تعالى : ﴿ والذين يَرْمُونَ أزواجهن ﴾ [ النور : 6 ] الآية فإن ﴿ إِلاَّ الذين ﴾ فيه عائد إلى فسقهم وعدم قبول شهادتهم معاً لا إلى الجلد للدليل ، ولا يضر اختلاف العامل لأن ذلك مبني على أن إلا هي العاملة .

الثاني أنه يعود للكل إن سيق الكل لغرض واحد نحو حبست داري على أعمامي ووقفت بستاني على أخوالي وسبلت سقايتي لجيراني إلا أن يسافروا وإلا فللأخيرة فقط نحو أكرم العلماء واحتبس دارك على أقاربك وأعتق عبيدك إلا الفسقة منهم .

الثالث : إن كان العطف بالواو عاد للكل أو بالفاء أو ثم عاد للأخيرة وعليه ابن الحاجب ،

الرابع : أنه خاص بالأخيرة واختاره أبو حيان .

الخامس : إن اتحد العامل فللكل أو اختلف فللأخيرة إذ لا يمكن حمل المختلفات في مستثنى واحد وعليه البهاباذي ، وهو مبني على أن عامل المستثنى الأفعال السابقة دون إلا ، هذا ويوهم كلام بعضهم أنه لو جعل الاستثناء من ﴿ آل لوط ﴾ لزم أن تكون امرأته غير مهلكة أو غير مجرمة وهو توهم فاحش لأن الاستثناء من ﴿ آل لوط ﴾ إن قلنا به بملاحظة الحكم عليهم بالانجاء وعدم الإهلاك أو بعدم الإجرام والصلاح فتكون الإمرأة محكوماً عليه بالإهلاك أو الإجرام .

ويرشدك إلى هذا ما ذكره الرضى فيما إذا تعدد الاستثناء وأمكن استثناء كل تال من متلوه نحو جاءني المكيون إلا قريشاً إلا بني هاشم إلا بني عقيل حيث قال : لا يجوز في الموجب حينئذ في كل وتر إلا النصب على الاستثناء لأنه عن موجب ، والقياس أن يجوز في كل شفع الإبدال والنصب على الاستثناء لأنه عن غير موجب والمستثنى منه مذكور ، والكلام في وتر وشفع غير الموجب على عكس هذا ، وهو مبني على ما ذهب إليه الجمهور من أن الاستثناء من النفي إثبات ومن الإثبات نفي خلافاً للكسائي حيث قال : إن المستثنى مسكوت عن نفي الحكم عنه أو ثبوته له ، ولا دلالة في الكلام على شيء من ذلك

، واستفادة الإثبات في كلمة التوحيد من عرف الشرع ، وكما وقع الخلاف في هذه المسألة بين النحويين وقع بين الأئمة المجتهدين وتحقيق ذلك في محله .

(45/427)

---

واختار ابن المنير كون ﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾ مستثنى من ﴿ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر : 58 ] على أنه منقطع قال : وهو أولى وأمكن لأن في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول ، وهنا الدخول متعذر مع التنكير ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفي لأنها حينئذ تعم فيتحقق الدخول لولا الاستثناء ، ومن ثمة لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً وحسن ما رأيت أحداً إلا زيداً انتهى .

ورد بأن هذا ليس نظير رأيت قوماً إلا زيداً بل من قبيل رأيت قوماً أساءوا إلا زيداً فالوصف يعينهم ويجعلهم كالمحصورين ، قال في "همع الهوامع" : ولا يستثنى من النكرة في الموجب ما لم تفد فلا يقال : جاء قوم إلا رجلاً ولا قام رجال إلا زيداً لعدم الفائدة ، فإن أفاد جاز نحو ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : 14 ] وقام رجال كانوا في دارك إلا رجلاً ، على أن المراد بالقوم أهل القرية كما صرح به في آية أخرى فهم معنى

محصورون ، ونقل المدقق عن السكاكي أنه صرح في آخر بحث الاستدلال من كتابه بأن الاستثناء من جمع غير محصور جائز على المجاز ، مع أن بعض الأصوليين أيضاً جوزوا الاستثناء من النكرة في الإيجاب وأطلقوا القول في ذلك .

نعم المصرح به في كثير من كتبا النحو نحو ما في "الهمع" .

(46/427)

---

وزعم بعضهم أنه ينبغي أن يكون الاستثناء من الظاهر والضمير منقطعاً ، وعلل ذلك بأن الضمير في الصفة هو عين الموصوف المقيد بالصفة ، وذكر الجلال السيوطي أن بعض الفضلاء رفع هذا مع عدة أسئلة نثراً ونظماً إلى الكمال بن الهمام ولم يذكر أنه أجاب عنها ، والجواب عما زعمه هنا قد مرت إليه الإشارة ، وأما الجواب عن سائر ما استشكلوه وسئل عنه الكمال فيغني عنه الإطلاع على السؤال فإنه مما يتعجب منه ، ومن هنا قال الشهاب : أظن أن ابن الهمام إنما سكت عن جواب ذلك لوضوح اندفاعه وأنه لا ينبغي أن يصدر عمن تحلى بحلية الفضل ، نعم بعد كل حساب الذي ينساق إلى الذهن أن الاستثناء من الظاهر لكن الرضى أنه إذا اجتمع شيآن فصاعداً يصلحان لأن يستثني منهما فهناك تفصيل فاما أن يتغايرا معنى أولاً فإن تغايرا وأمكن اشتراكهما في ذلك الاستثناء بلا بعد

اشتركا فيه نحو ما بر أب وابن الأزيدا أي زيد أب بار وابن بار ، فإن لم يمكن الاشتراك نحو ما فضل ابن أبا إلا زيداً أو كان بعيداً نحو ما ضرب أحد أحداً إلا زيداً فإن الأغلب مغايرة الفاعل للمفعول نظرنا فإن تعين دخول المستثنى في أحدهما دون الآخر فهو استثناء منه وليه أولاً نحو ما فدى وصي نبينا إلا علياً كرم الله تعالى وجهه ، وإن احتمل دخوله في كل واحد منهما فإن تأخر عنهما المستثنى فهو من الأخير نحو ما فضل ابن أبا إلا زيداً وكذا ما فضل أبا ابن إلا زيد لأن اختصاصه بالأقرب أولى لما تعذر رجوعه إليهما ، وإن تقدمهما معاً فإن كان أحدهما مرفوعاً لفظاً أو معنى فالاستثناء منه لأن مرتبته بعد الفعل فكأن الاستثناء وليه بعده نحو ما فضل إلا زيداً أبا ابن أو من ابن ، وإن لم يكن أحدهما مرفوعاً فالأول أولى به لقربه نحو ما فضلت إلا زيداً واحداً على أحد ويقدر للأخير عامل ، وإن توسطهما فالمتقدم أحق به لأن أصل المستثنى تأخره عن المستثنى منه نحو ما فضل أبا إلا زيد ابن ويقدر أيضاً للأخير عامل ، وإن لم



---

يتغايرا معنى اشتركا فيه ، وإن اختلف العاملان فيهما نحو ما ضرب أحد وما قتل إلا خالداً لأن فاعل قتل ضمير أحد انتهى .

وجزم ابن مالك فيما إذا تقدم شيآن مثلاً يصلح كل منهما للاستثناء منه بأن الاستثناء من الأخير وأطلق القول في ذلك فليتأمل ذاك مع ما نحن فيه ، وقال القاضي البيضاوي : إنه على الانقطاع يجوز أن يجعل ﴿ إِلَّا امرأته ﴾ مستثنى من ﴿ آل لوط ﴾ [ الحجر : 59 ] أو من ضمير ﴿ منجوهم ﴾ وعلى الاتصال يتعين الثاني لاختلاف الحكمين اللهم إلا إذا جعلت جملة

﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [ الحجر : 59 ] معترضة انتهى ، ومخالفته لما نقل عن الزمخشري ظاهرة حيث جوز الاستثناء من المستثنى في الانقطاع ومنعه الزمخشي مطلقاً ، وحيث جعل اختلاف الحكمين في الاتصال وأثبته الزمخشري مطلقاً أيضاً وبين اختلاف الحكمين بنحو ما بين به في كلام الزمخشري ، ولم يرتض ذلك مولانا سري الدين وقال : المراد بالحكمين الحكم المفاد بطريق استثناء الثاني من الأول وهو على تقدير الاتصال إجرام الامرأة والحكم المقصود بالإفادة وهو الحكم عليها بالإهلاك وبين إتحاد هذا الحكم المقصود مع الحكم المفاد بالاستثناء على تقدير الانقطاع بأنه على ذلك التقدير تكون إلا بمعنى لكن و ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [ الحجر : 59 ] خبراً له ثابتاً للآل فيكون الحكم الحاصل من الاستثناء منه بعينه هو الحكم المقصود بالإفادة ويقال على تقدير الاتصال والاعتراض : إن الحكمين وإن اختلفا ظاهراً إلا أنه لما كانت الجملة المعترضة كالبيان لما يقتضيه الاستثناء الأول كان في المعنى كأنه هو وصار الإخراج منه كالإخراج منه ، وخذا بخلاف ما إذا كان استئنافاً فإنه

يكون منقطعاً عنه ويكون جواباً لسؤال مقدر ولا يتم الجواب بدون الاستثناء ولا يخلو عن الاعتراض.

(48/427)

---

وقال بعضهم في توجيه الاستثناء على هذا: إن هناك حكمين الإجرام والانجاء فيجر الثاني الاستثناء إلى نفسه كيلا يلزم الفصل إلا إذا جعل اعتراضاً فإن فيه سعة حتى يتخلل بين الصفة وموصوفها فيجوز أن يكون استثناء من ﴿ آل لوط ﴾ [ الحجر: 59 ] ولذا جوز الرضى أن يقال: أكرم القوم والنحاة بصريون إلا زيداً، ويرد عليه أن كون الحكم المفاد بالاستثناء غير الحكم المقصود بالإفادة باقياً بحاله ولا يحتاج الأمر إلى ما سمعت وهو كما سمعت، والذي ينساق إلى الذهن ما ذكره الزمخشري.

وفي "الحواشي الشهابية" أنه الحق دراية ورواية.

أما الأول: فلأن الحكم المقصود بالإخراج منه هو الحكم المخرج منه الأول والثاني حكم طارىء من تأويل إلا بلكن وهو أمر تقديري، وأما الثاني: فلما ذكر في التسهيل من أنه تعدد الاستثناء فالحكم المخرج منه حكم الأول، ومما يدل عليه أنه لو كان الاستثناء مفرغاً في هذه الصورة كما إذا قلت: لم يبق في الدار إلا اليعافير أبقاها الزمان إلا يعفور صيد منها فإنه

يتعين إعرابه بحسب العامل الأول كقولك : ما عندي إلا عشرة إلا ثلاثة ، ثم أنه كلامه مبني على أمر ومانع معنوي لا على عدم جواز تخلل كلام منقطع بين المستثنى والمستثنى منه كما قيل وأن كان مانعاً أيضاً كما صرح به الرضى فتدبر انتهى ، فافهم ذاك والله سبحانه يتولى هداك .

وقرأ الأخوان ﴿ لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [ الحجر : 59 ] بالتخفيف .

(49/427)

---

﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ أي الباقين في عذاب الله تعالى كما أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أو الباقي مع الكفرة لتهلك معهم ، وأصله من الغبرة وهي بقية اللبن في الضرع ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ بالتخفيف ، وكسرت همزة ﴿ إن ﴾ لتعليق الفعل بوجود لام الإبتداء التي لها صدر الكلام ، وعلق مع أن التعليق في المشهور من خواص أفعال القلوب قال الزمخشري : لتضمن فعل التقدير معنى العلم ، ولذلك فسره العلماء تقدير الله تعالى أفعال العباد بالعلم ، والمراد بتضمنه ذلك قيل المعنى المصطلح ، وقيل : التجوز عن معناه الذي كأنه في ضمنه لأنه لا يقدر إلا ما يعلم ذكره المدقق توجيهاً لكلام الزمخشري ، ثم قال : وليس ذلك من باب تضمين الفعل معنى فعل آخر في شيء حتء يعترض بأنه لا ينفع

الزمخشري لبقاء معنى الفعلين .

نعم هو على أصلهم من أنه كناية معلوم محقق لا مقدار مراد ، وقال القاضي : جاز أن يقال : أجرى مجرى القول لأن التقدير بمعنى القضاء قول ، وأما أنا فلا أنكر على جار الله أن التعليق لتضمن معنى العلم وإنما أنكر نفي كونه مقدوراً مراداً انتهى ، وإنما أنكره لأنه اهعتزال تأباه الظواهر ، ومن هنا قال إبراهيم النخعي فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم : بيني وبين القدرية هذه الآية وتلاها .

والظاهر أن هذا من كلام الملائكة عليهم السلام وإنما أسندوا ذلك إلى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص ، وهذا كما يقول حاشية السلطان أمرنا ورسمنا بكذا والآمر هو في الحقيقة ، وقيل : ولا يخفى بعده هو من كلام الله تعالى فلا يحتاج إلى تأويل وقيل : وكذا لا يحتاج إليه إذا كان المراد بالتقدير العلم مجازاً .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ المرسلون ﴾



---

شروع في بيان إهلاك المجرمين وتنجية آل لوط ، ووضع الظاهر موضع الضمير للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من ذلك ، وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند

آل لوط فإن ما حكى عنه عليه السلام

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) ﴾

إنما قاله عليه السلام بعد اللتيا والتي حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل ولم يشاهد من المرسلين عند مقاساة الشدائد ومعاناة المكائد من قومه الذي يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الإعانة والإمداد فيما يأتي ويذر عند تجشمه في تخليصهم إنكاراً لخذلانهم وتركهم نصره في مثل المضايقة المعترية له بسببهم حيث لم يكونوا عليهم السلام مباشرين معه لأسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته إلى أن قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ اوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: 80] حسبما فصل في سورة هود لا أنه عليه السلام قاله عند ابتداء ورودهم له على معنى أنكم قوم تنكركم نفسي وتنفر منكم فأخاف أن تطرقوني بشر كما قيل، كيف لا وهم بجوابهم المحكى

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) ﴾

أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به فيمترون ويشكون ويكذبونك فيه، قد قشروا العصا وبينوا له عليه السلام جلية الأمر فأنى يعتريه بعد ذلك المساءة وضيق الذرع قاله العلامة أبو السعود وهو كلام معقول.

وجعل ﴿ بَلِ ﴾ إضراباً عما حسبه عليه السلام من ترك النصرة له والمعنى ما خذلناك

وما خلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذي كانوا يكذبونك فيه حين تتوعدهم به .

(51/427)

---

وجعله غير واحد بعد أن فسر قوله عليه السلام : بما سمعت إضراباً عن موجب الخوف المذكور على معنى ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم به ويكذبونك ، ولم يقولوا بعذابهم مع حصول الغرض ليتضمن الكلام الاستئناس من وجهين تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام ففيه تذكير لما كان يكابد منهم من التكذيب ، قيل : وقد كنى عليه السلام عن خوفه ونفاره بأنهم منكرون فقابلوه عليه السلام بكناية أحسن وأحسن ، ولا يمتنع فيما أرى حمل الكلام على الكناية على ما نقلناه عن العلامة أيضاً ، ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة كما قال للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه السلام بإهلاك قومه المجرمين وتنجية آله عقيب ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام بهما ، وحيث كان ذلك مستدعياً لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير إلى ذلك إجمالاً ثم ذكر فعل القوم وما فعل بهم ، ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعي ثقة بمراعاته في موضع آخر ، ونسبة المجيء

بالعذاب إليه عليه السلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره إليه كأنهم جاؤه به وفوضوا أمره إليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به فالباء للتعدية ، وجوز أن تكون للملابسة ، وجوز الوجهان في الباء في قوله سبحانه :

﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾

أي بالأمر المحقق المتيقن الذي لا مجال للامتراء والشك فيه وهو عذابهم ، عبر عنه بذلك تنصيصاً على نفي الامتراء عنه ، وجوز أن يراد ﴿ بالحق ﴾ الاخبار بمجيء العذاب المذكور .

وقوله تعالى : ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ تأكيداً له أي أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أي المطابق للواقع وإنا لصادقون في ذلك الخبر أو في كل خبر فيكون كالدليل على صدقهم فيه ، وعلى الأول : تأكيداً إثر تأكيداً ، ومن الناس من جوز كون الباء للملابسة وجعل الجار والمجرور في موضع الحال من ضمير المفعول ، ولا يخفى حاله .

(52/427)

---

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾

شروع في ترتيب مبادىء النجاة أي اذهب بهم في الليل .

وقرأ الحجازيان بالوصل على أنه من سرى لا من أسرى كما في قراءة الجمهور وهما بمعنى على ما ذهب إليه أبو عبيدة وهو سير الليل، وقال الليث: يقال: أسرى في السير أول الليل وسرى في السير آخره، وروى صاحب الإقليد ﴿ فسر ﴾ من سار وحكاها ابن عطية و"صاحب اللوامح" عن اليماني وهو عام، وقيل: إنه مختص في السير بالنهار وليس مقلوباً من سرى.

﴿ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مّنَ الليل ﴾ بطائفة منه أو من آخره، ومن ذلك قوله:

افتحي الباب وانظري في النجوم...

كم علينا من قطع ليل بهيم

وقيل: هو بعد ما مضى منه شيء صالح، وفي الكلام تأكيد أو تجريد على قراءة الجماعة على ما قيل، وعلى قراءة ﴿ سر ﴾ لا شيء من ذلك، وسيأتي لهذا تتمة إن شاء الله تعالى.

وحكى منذر بن سعيد أن فرقة قرأت ﴿ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ ﴾ بفتح الطاء.

﴿ واتبع أدبارهم ﴾ وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أوالهم ، ولعل إيثار الاتباع على السوق مع أنه المقصود بالأمر كما قيل للمبالغة في ذلك إذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة الغفلة عن حال المتأخر ، والالتفات المنهي عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ ﴾ أي منك ومنهم ﴿ أَحَدٌ ﴾ فيرى ما وراءه من الهول ما لا يطيقه أو فيصيبه العذاب فالالتفات على ظاهره ، وجوز أن يكون المعنى لا ينصرف أحدكم ولا يتخلف لغرض فيصيبه ما يصيب المجرمين فالالتفات مجاز لأن الالتفات إلى الشيء يقتضي محبته وعدم مفارقته فيتخلف عنده ، وذكر جار الله أنه لما بعث الله تعالى الهلاك على قومه ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم وخرج مهاجراً لم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله تعالى وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحالة المهولة المحذورة ولئلا يتخلف أحد منهم لغرض يصيبه العذاب وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به ، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم فيرقوا لهم وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم ويمضوا قدماً غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوي له أخادعه كما قال :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني . . .

وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة اه.

(54/427)

---

قال المدقق: وخلاصة ذلك أن فائدة الأمر والنهي أن يهاجر عليه الصلاة والسلام على وجه يمكنه وأهله التشمر لذكر الله تعالى والتجرد لشكره وفيه مع ذلك إرشاد إلى ما هو أدخل ف يالحزم للسير وأدب المسافرة وما على الأمير والمأمور فيها وتنبيه على كيفية السفر الحقيقية وأنه أحق بقطع العوائق وتقديم العلائق وأحق وإشارة إلى أن الإقبال بالكلية على الله تعالى إخلاص فلله تعالى در التنزيل ولطائفه التي لا تحصى اه، وأنت تعلم أن كون الفائدة المهاجرة على وجه يمكن معه التشمر لذكر الله تعالى والتجرد لشكره غير متبادر كما لا يخفى، ولعله لذلك تركه بعض مختصري كتابه وإنما لم يستثن سبحانه الإمرأة عن الإسراء أو الالتفات اكتفاء بما ذكر في موضع آخر وليس نحو ذلك بدعاً في التنزيل ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قيل: أي إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضي إليه وهو الشام على ما روى عن ابن عباس.

والسدي ، وقيل : مصر وقيل : الأردن وقيل : موضع نجاة غير معين فعدى ﴿ امضوا ﴾ إلى ﴿ الساحر حَيْثُ ﴾ وتؤمرون إلى الضمير المحذوف على الاتساع.

واعترض بأن هذا مسلم في تعدية تؤمرون إلى حيث فإن صلته وهي الباء محذوفة إذ الأصل تؤمرون به أي بمضيه فأوصل بنفسه ، وأما تعدية ﴿ امضوا ﴾ إلى حيث فلا اتساع فيها بل هي على الأصل لكونه من الظروف المبهمة إلا أن يجعل ما ذكر تغليباً ، وأجيب بأن تعلق ﴿ حَيْثُ ﴾ بالفعل هنا ليس تعلق الظرفية ليتجه تعدي الفعل إليه بنفسه لكونه من الظروف المبهمة فإنه مفعول به غير صريح نحو سرت إلى الكوفة ، وقد نص النحاة على أنه قد يتصرف فيه فالمحذوف ليس في بل إلى فلا إشكال اه ، والمذكور في كتب العربية أن الأصل في حيث أن تكون ظرف مكان وترد للزمان قليلاً عند الأخفش كقوله :

للفتى عقل يعيش به . . .

حيث تهدي ساقه قدمه

أراد حين تهدي ، ولا تستعمل غالباً إلا ظرفاً وندر جرها بالباء في قوله :

كان منا بحيث يفكي الإزار . . .

وبإلى في قوله :

إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم . . .

وبفي في قوله :

فأصبح في حيث التقينا شريدهم . . .

طليق ومكتوف اليدين ومرعف

وقال ابن مالك : تصرفها نادر ، ومن وقوعها مجردة عن الظرفية قوله :

إن حيث استقر من أنت راعيه . . .

حمى فيه عزة وأمان

فحيث اسم إن ، وقال أبو حيان : إنه غلط لأن كونها اسم إن فرع عن كونها تكون مبتدأ ولم يسمع في ذلك البتة بل اسم إن في البيت حمى وحيث الخبر لأنه ظرف ، والصحيح أنها لا تتصرف فلا تكون فاعلاً ولا مفعولاً به ولا مبتدأ اه ، ونقل ابن هشام وقوعها مفعولاً به عن الفارسي ، وخرج عليه قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] وذكر أنها قد تخفض بمن وبغيرها وأنها لا تقع اسماً لأن خلافاً لابن ماكل ، وزعم الزجاج أنها اسم موصول ، ومما ذكرنا يظهر حال التصرف فيها ، واعترض ما ذكره المجيب بأنه وإن رفع به إشكال التعدي لكنه غير صحيح لأنهم قد صرحوا بأن الجمل المضاف إليها لا يعود منها ضمير إلى المضاف ، قال

نجم الأئمة: اعلم أن الظرف المضاف إلى الجملة لما كان ظرفاً للمصدر الذي تضمنته الجملة لم يجز أن يعود من الجملة ضمير إليه فلا يقال: يوم قدم زيد فيه لأن الربط الذي يطلب حصوله حصل بإضافة الظرف إلى الجملة وجعله ظرفاً لمضمونها فيكون كأنك قلت: يوم قدوم زيد فيه اه، و﴿ حَيْثُ ﴾ على ما ذكروا تلزم في الغالب الإضافة إلى الجملة وكونها فعلية أكثر وإضافتها إلى مفرد قليلة نحو:

بيض المواضي حيث ليّ العمائم . . .

وحيث سهيل طالعاً، ولا يقاس على ذلك عند غير الكسائي، وأقل من ذلك عدم إضافتها لفظاً بأن تضاف إلى محذوفة معوضاً عنها ما كقوله:

إذا ريدة من حيث ما نفحت له . . .

(56/427)

---

أي من حيث هبت وهي هنا مضافة للجملة بعدها فكيف يقدر الضمير في ﴿ يُؤْمَرُونَ ﴾ عائداً عليها، وقد نص بعضهم على أن ﴿ حَيْثُ ﴾ لا يصح عود الضمير عليها والذي في "البحر" أنها ظرف مكان مبهم تعدى إليها ﴿ امضوا ﴾ بنفسه كما تقول: قعدت حيث قعد زيد، والظاهر أن تعلق الفعل بها كما قال المجيب ليس تعلق الظرفية

فلعل ذلك مبني على تضمين فعل صالح لأن يتعلق به الظرف المذكور كالحلول والتوطن وغيرهما .

ونقل عن بعضهم القول بأن ﴿ الساحر حَيْثُ ﴾ هنا ظرف زمان أي امضوا حين أمرتم ، والمراد بهذا الأمر ما سبق من قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يالوط إِنَّا رُسُلُ رَبّكَ ﴾ ورد بأن الظاهر على هذا أمرتم دون ﴿ تُؤْمَرونَ ﴾ مع أن فيه استعمال ﴿ حَيْثُ ﴾ في أقل معنييها وروداً من غير موجب ، وظاهر كلام بعض الأجلة أن المضارع مستعمل في مقام الماضي على المعنى الذي أشير إليه أولاً وهو يقتضي تقدم أمر بالمضي إلى مكان فإن كان فصيغة المضارع لاستحضار الصورة ، وإيثار المضي إلى ذلك على ما قيل دون الوصول إليه واللحوق به للإيذان بأهمية النجاة ولمراعاة لمناسبة بينه وبين ما سلف من الغابرين .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) ﴾

(57/427)

---

﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ أي أوحينا ﴿ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ مقضياً مثبتاً فقضى مضمن معنى أوحى ولذا عدى تعديته ، وجعل المضمن حالاً كما أشرنا إليه أحد الوجهين المشهورين في التضمين وذلك مبهم يفسره ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ ﴾ على أنه بدل منه كما قال

الأخفش ، وجوز أبو البقاء كونه بدلاً من الأمر إذا جعل بياناً لذلك لا بدلاً ، وعن الفراء أن ذاك على إسقاط الباء أي بأن دابر الخ ، ولعل المشار إليه بذلك الأمر عليه الأمر الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [ الحجر : 65 ] والباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال أي أوحينا ذلك الأمر المتعلق بنجاته ونجاة آله ملابساً لبيان حال قومه المجرمين من قطع دابرهم ، وهو حسن إلا أنه لا يخلو عن بعد ، وقرأ زيد بن علي ، والأعمش رحمهم الله تعالى ﴿ إن ﴾ بكسر الهمزة وخرج على الاستئناف البياني كأنه قيل : ما ذلك الأمر ؟ فقيل في جوابه : إن دابر الخ أو على البدلية بناء على أن في الوحي معنى القول ، قيل : ويؤيده قراءة عبد الله ﴿ وَقُلْنَا أَنَّ دَابِرَ ﴾ الخ وهي قراءة تفسير لا قرآن لمخالفتها لسواد المصحف ، والدابر الآخر وليس المراد قطع آخرهم بل استئصالهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ أي داخلين في الصباح فإن الأفعال يكون للدخول في الشيء نحو أتهم وأنجد ، وهو من أصبح التامة حال من ﴿ هَؤُلاء ﴾ وجاز بناء على أن المضاف بعضه ، وقد قيل : بجواز مجيء الحال من المضاف إليه فيما كان المضاف كذلك ، وليس العامل معنى الإضافة خلافاً لبعضهم ، وكونه اسم الإشارة توهم لأن الحال لم يقل أحد إن صاحبها يعمل فيها ، واختار أبو حيان كونه حالاً من الضمير المستكن في ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ الراجع إلى ﴿ دَابِرَ ﴾ وجاز ذلك مع الاختلاف إفراداً وجمعاً رعاية للمعنى

لأن ذلك في معنى دابري هؤلاء فيتفق الحال وصاحبها جمعية .

وقدر الفراء .

(58/427)

---

وأبو عبيد إذا كانوا مصبحين كما تقول : أنت راكباً أحسن منك ماشياً .

وتعقب بأنه إن كان تقدير معنى فصحيح وإن كان بيان إعراب فلا ضرورة تدعو إلى ذلك

كما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(59/427)

---

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّ المتقين فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ أي : المتقين للشرك بالله كما قاله جمهور

الصحابة والتابعين .

وقيل : هم الذين اتقوا جميع المعاصي ﴿ في جنات ﴾ وهي البساتين ، ﴿ وعيون ﴾

وهي الأنهار .

قرئ بضم العين من ﴿ عيون ﴾ على الأصل ، وبالكسر مراعاة للياء .

والتركيب يحتمل أن يكون لجميع المتقين جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنات وعيون ، أو لكل واحد منهم جنة وعين ﴿ ادخلوها ﴾ قرأ الجمهور بلفظ الأمر على تقدير القول أي قيل لهم : أدخلوها .

وقرأ الحسن وأبو العالية ، وروي عن يعقوب بضم الهمزة مقطوعة ، وفتح الخاء على أنه فعل مبني للمفعول أي : أدخلهم الله إياها .

وقد قيل : إنهم إذا كانوا في جنات وعيون ، فكيف يقال لهم بعد ذلك ادخلوها على قراءة الجمهور ؟ فإن الأمر لهم بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ، وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا في الجنات ، فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها : ادخلوها ، ومعنى ﴿ بِسَلَامٍ ءامِنِينَ ﴾ بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، أو مسلمين على بعضهم بعضاً ، أو مسلماً عليهم من الملائكة ، أو من الله عزّ وجلّ .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ ﴾ الغلّ : الحقد والعداوة ، وقد مرّ تفسيره في الأعراف ، وانتصاب ﴿ إِخْوَانًا ﴾ على الحال ، أي : إخوة في الدين والتعاطف ﴿ على

سُرُرٍ متقابلين ﴾ أي : حال كونهم على سرر ، وعلى صورة مخصوصة وهي التقابل ، ينظر بعضهم إلى وجه بعض ، والسرر جمع سرير .

(60/427)

---

وقيل : هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور ، ومنه قولهم : سرّ الوادي لأفضل موضع منه ﴿ لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ أي : تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة ؛ لأنها نعيم خالص ، ولذّة محضة تحصل لهم بسهولة ، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد ، بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم يحصل ذلك الشيء عندهم صفوا عفوا ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ أبداً ، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم . فإنّ علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين موجب لتنغص نعيمه وتكدّر لذاته .

ثم قال سبحانه بعد أن قصّ علينا ما للمتقين عنده من الجزاء العظيم والأجر الجزيل ﴿ نَبِّىء عِبَادِى أَنّى أَنَا الغفور الرحيم ﴾ أي : أخبرهم يا محمد أني أنا الكثير المغفرة لذنوبهم ، الكثير الرحمة لهم ، كما حكمت به على نفسي : "إن رحمتي سبقت غضبي" ، اللهم اجعلنا من عبادك الذين تفضلت عليهم بالمغفرة ، وأدخلتهم تحت واسع الرحمة .

ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة ، أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ، ويتقابل التبشير والتحذير ، ليكونوا راجين خائفين ، فقال : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الأليم ﴾ أي : الكثير الإيلام. وعند أن جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير ، صاروا في حالة وسط بين اليأس والرجاء ، وخير الأمور أوساطها ، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف ، وبين حالتي الأنس والهيبة .

(61/427)

---

وجملة ﴿ وَنَبّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إبْرَاهِيمَ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ نبىء عبادي ﴾ أي : أخبرهم بما جرى على إبراهيم من الأمر الذي اجتمع فيه له الرجاء والخوف ، والتبشير الذي خالطه نوع من الوجل ليعتبروا بذلك ويعلموا أنها سنّة الله سبحانه في عباده ، وأيضاً لما اشتملت القصة على إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين ، كان في ذلك تقريراً لكونه الغفور الرحيم ، وأن عذابه هو العذاب الأليم ، وقد مرّ تفسير هذه القصة في سورة هود ، وانتصاب ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ بفعل مضمر معطوف على ﴿ نَبّىء عِبَادِى ﴾ أي : واذكر لهم دخولهم عليه ، أو في محل نصب على الحال .

والضيف في الأصل مصدر ، ولذلك وحد وإن كانوا جماعة ، وسمي ضيفاً لإضافته إلى المضيف ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ أي : سلمنا سلاماً ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي : فزعون خائفون ، وإنما قال هذا بعد أن قرّب إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه كما تقدم في سورة هود ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [ هود : 70 ]

وقيل : أنكر السلام منهم ، لأنه لم يكن في بلادهم .

وقيل : أنكر دخولهم عليه بغير استئذان .

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أي قالت الملائكة : لا تخف .

وقرئ "لا تاجل" و "لا توجل" من أوجله أي : أخافه ، وجملة ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ مستأنفة لتعليل النهي عن الوجل ، والعليم : كثير العلم .

وقيل : هو الحليم كما وقع في موضع آخر من القرآن ، وهذا الغلام : هو إسحاق كما تقدّم في هود ، ولم يسمه هنا ولا ذكر التبشير بيعقوب اكتفاء بما سلف ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ قرأ الجمهور بألف الاستفهام .

وقرأ الأعمش " بشرتموني " بغير الألف ﴿ على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : مع حالة الكبر والهرم ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ استفهام تعجب ، كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم الذي جرت العادة بأنه لا يولد لمن بلغ إليه ، والمعنى : فبأي شيء تبشرون ؟ فإن البشارة بما لا يكون عادة لا تصح .

وقرأ نافع " تبشرونِ " بكسر النون والتخفيف وإبقاء الكسرة لتدل على الياء المحذوفة .

وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن بكسر النون مشدّدة على إدغام النون في النون ، وأصله : تبشرونني .

وقرأ الباقون " تبشرون " بفتح النون .

﴿ قَالُواْ بشرناك بالحق ﴾ أي : باليقين الذي لا خلف فيه ، فإن ذلك وعد الله وهو لا يخلف الميعاد ، ولا يستحيل عليه شيء ، فإنه القادر على كل شيء ﴿ فَلاَ تَكُن مّنَ القانطين ﴾ هكذا قرأ الجمهور بإثبات الألف .

وقرأ الأعمش ، ويحيى بن وثاب " من القنطين " بغير ألف .

وروي ذلك عن أبي عمرو أي : من الآيسين من ذلك الذي بشرناك به ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبّهِ إِلاَّ الضالّون ﴾ قرئ بفتح النون من " يقنط " وبكسرها وهما لغتان .

وحكي فيه ضم النون ، و ﴿ الضالون ﴾ المكذبون ، أو المخطئون الذاهبون عن طريق الصواب ، أي : إنما استبعدت الولد لكبر سني ، لا لقنوطي من رحمة ربي .

ثم سألهم عما لأجله أرسلهم الله سبحانه فقال : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ الخطب : الأمر الخطير والشأن العظيم ، أي : فما أمركم وشأنكم ، وما الذي جئتم به غير ما قد بشرتموني به ، وكأنه قد فهم أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا ﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : إلى قوم لهم إجرام ، فيدخل تحت ذلك الشرك ، وما هو دونه ، وهؤلاء القوم هم : قوم لوط .

(63/427)

---

ثم استثنى منهم من ليسوا مجرمين فقال : ﴿ إِلاَّ ءالَ لُوطٍ ﴾ وهو استثناء متصل ؛ لأنه من الضمير في ﴿ مجرمين ﴾ ولو كان من قوم لكان منقطعاً لكونهم قد وصفوا بكونهم مجرمين ، وليس آل لوط مجرمين .

ثم ذكر ما سيختص به آل لوط من الكرامة لعدم دخولهم مع القوم في إجرامهم فقال : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين ﴾ أي : آل لوط ، وهم أتباعه وأهل دينه ، وهذه الجملة مستأنفة على تقدير كون الاستثناء متصلاً كأنه قيل : ماذا يكون حال آل لوط؟ فقال : ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ وأما على تقدير كون الاستثناء منقطعاً فهي خبر ، أي : لكن آل لوط ناجون من عذابنا .

وقرأ حمزة والكسائي "لمنجوهم" بالتخفيف من أنجا .

وقرأ الباقون بالتشديد من : نجي .

واختار هذه القراءة الأخيرة أبو عبيدة وأبو حاتم ، والتنجية والإنجاء : التخليص مما وقع فيه غيرهم .

﴿ إِلَّا امرأته ﴾ هذا الاستثناء من الضمير في منجوهم إخراجاً لها من التنجية ، والمعنى : قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنهلكهم إلاّ آل لوط إنا لمنجوهم إلاّ إمرأته فإنها من الهالكين .

ومعنى ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ قضينا وحكمنا أنها من الباقين في العذاب مع الكفرة .

والغابر : الباقي ، قال الشاعر :

لا تكْسَع الشول بأغبارها . . . إنك لا تدري من الناتج

والإغبار : بقايا اللبن .

قال الزجاج : معنى قدّرنا : دبرنا ، وهو قريب من معنى قضينا .

وأصل التقدير : جعل الشيء على مقدار الكفاية .

وقرأ عاصم من رواية أبي بكر والمفضل "قدرنا" بالتخفيف .

وقرأ الباقون بالتشديد .

قال الهروي : هما بمعنى ، وإنما أسند التقدير إلى الملائكة من كونه مع فعل الله سبحانه ، لما لهم من القرب عند الله .

(64/427)

---

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءالَ لُوطٍ المرسلون ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان وإهلاك من يستحق الهلاك ، وتنجية من يستحق النجاة ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي قال لوط مخاطباً لهم : إنكم قوم منكرون ، أي : لا أعرفكم ، بل أنكركم ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي : بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ، فالإضراب هو عن مجيئهم بما ينكره ، كأنهم قالوا : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل جئناك بما فيه سرورك ، وهو عذابهم الذي كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك .

﴿ واتيناك بالحق ﴾ أي : باليقين الذي لا مرية فيه ولا تردّد ، وهو العذاب النازل بهم لا محالة ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ في ذلك الخبر الذي أخبرناك .

وقد تقدّم تفسير قوله : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ في سورة هود ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أي : كن ورائهم تذودهم لئلا يختلف منهم أحد فيناله العذاب ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي : لا تلتفت أنت ولا يلفتت أحد منهم فيرى ما نزل بهم من العذاب ، فيشتغل

بالنظر في ذلك ، ويتباطأ عن سرعة السير والبعد عن ديار الظالمين .

وقيل : معنى لا يلتفت : لا يتخلف ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ أي : إلى الجهة التي أمركم الله سبحانه بالمضيّ إليها ، وهي جهة الشام .

وقيل : مصر .

وقيل : قرية من قرى لوط .

وقيل : أرض الخليل .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ أي : أوحينا إلى لوط ﴿ ذَلِكَ الأمر ﴾ وهو إهلاك قومه ، ثم فسره بقوله : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآْءِ مَقْطُوعٌ ﴾ قال الزجاج : موضع " أن " نصب ، وهو بدل من ﴿ ذلك الأمر ﴾ ، والدابر : هو الآخر ، أي : أن آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح .

وانتصاب ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ على الحال ، أي : حال كونهم داخلين في وقت الصبح ، ومثله ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ ﴾ [ الأنعام : 45 ] .



---

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ ءامِنِينَ ﴾ قال : آمنوا الموت ، فلا يموتون ، ولا يكبرون ، ولا يسقمون ، ولا يعرون ، ولا يجوعون .

وأخرج ابن جرير عن عليّ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قال : العداوة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن الحسن البصري قال : قال عليّ بن أبي طالب : فينا والله أهل بدر نزلت : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ .

وأخرج ابن عساكر ، وابن مردويه عنه في الآية ، قال : نزلت في ثلاثة أحياء من العرب ، في بني هاشم ، وبني تميم ، وبني عديّ ، فيّ وفي أبي بكر وعمر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن عساكر عن كثير النواء ، قال : قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن عليّ بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعليّ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قال : والله إنها لفيهم أنزلت ؛ وفيمن تنزل إلاّ فيهم ؟ قلت : وأي غل هو ؟ قال : غلّ الجاهلية ، إن بني تميم وبني عديّ وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية ، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا ، فأخذت أبا بكر الخاصرة ، فجعل عليّ يسخن يده ، فيكمد بها خاصرة أبي بكر ، فنزلت هذه الآية .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه عن عليّ من طرق أنه قال لابن طلحة : إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم ﴾ الآية ، فقال رجل من همدان : الله أعدل من ذلك ، فصاح عليّ عليه صيحة تداعى لها القصر ، وقال : فيمن إذن إن لم نكن

نحن أولئك .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، والطبراني ، وابن مردويه عن عليّ قال : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان والزبير وطلحة فيمن قال الله : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

(66/427)

---

وأخرج ابن مردويه ، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس في هذه الآية ، قال : نزلت في عشرة : أبي بكر وعمر ، وعثمان وعلي ، وطلحة والزبير ، وسعد وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود .

وأخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أبي صالح موقوفاً عليه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وهناد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ قال : لا يرى بعضهم قفا بعض .

وأخرجه ابن المنذر ، وابن مردويه عن مجاهد ، عن ابن عباس .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو القاسم البغوي ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن زيد بن أبي أوفى قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية : " ﴿

إِخْوَانًا على سُرُرٍ متقابلين ﴾ قال: المتحابون في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض"

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ في قوله: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ قال: المشقة والأذى.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: "ألا أراكم تضحكون"؟ ثم أدبر، حتى إذا كان عند الحجر رجع القهقري، فقال: إني لما خرجت جاء جبريل فقال: يا محمد، إن الله -عزّ وجلّ- يقول: لَمَ تقنط عبادي؟ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ ".

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مصعب بن ثابت قال: "مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على ناس من أصحابه يضحكون فقال: اذكروا الجنة، واذكروا النار"، فنزلت: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾.

وأخرج الطبراني، والبزار، وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، قال: مرّ النبي صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه.

وأخرج البخاري، ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته، لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار" وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ لا تخف.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ ﴿ مّنَ القانطين ﴾ قال: الآيسين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ يعني: الباقين في عذاب الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ قال: أنكرهم لوط، وفي قوله: ﴿ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال: بعذاب قوم لوط.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة ﴿ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال: يشكون.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة في قوله: ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ قال: أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديّ ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال: أخرجهم الله إلى الشام.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ قال:

أوحيناه إليه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ يعني : استئصالهم وهلاكهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير جـ 3 ص ﴾

(68/427)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٍ مُّجۡرِمِينَ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ الآية .

(69/427)

---

أشار في هذه الآية الكريمة إلى أن المراد بهؤلاء القوم المجرمين قوم لوط الذين أرسل إليهم فكذبوه ووجه إشارته تعالى لذلك استثناء لوط وأهله غير امرأته في قوله : ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ إِلَّا امرأته ﴾ [ الحجر : 59-60 ] الاية وصرح بأنهم قوم لوط بقوله في هود في القصة بعينها : ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ [ هود : 70 ] الآية وصرح في الذاريات بأنهم أرسلوا إلى هؤلاء القوم القوم المجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من

طين في قوله : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ [ الذاريات : 32-33 ] وصرح في العنكبوت أنهم قالوا إنهم مهلكوهم بسبب ظلمهم ومنزلون عليه رجزاً من السماء بسبب فسقه وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴾ [ العنكبوت : 31-32 ] الآية ، وقوله : ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ [ العنكبوت : 33-34 ] وقوله : ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ [ الحجر : 59 ] بين في هذه الآية الكريمة أنه استثنى آل لوط من ذلك العذاب النازل بقومه وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كما تقدم في هود في قوله : ﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ﴾ [ هود : 81 ] الآية وقوله في العنكبوت : ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك

(70/427)

وَأَهْلَكَ إِلاَّ امرأتك ﴾ [ العنكبوت : 33 ] الآية وقوله ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ﴾ [ الأعراف : 83 ] وقوله : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ [ الشعراء : 170-171 ] الآية وقوله : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغابرين ﴾ [ النمل : 57 ] إلى غير ذلك من الآيات . وما ذكر في هذه الآية الكريمة من استثناء امرأته من أهله الناجين في قوله : ﴿ إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ [ الحجر : 60 ] ، وأوضحه في هذه الآيات التي ذكرنا آنفاً ونحوها من الآيات ، وبين في الذاريات أنه أنجى من كان في قوم لوط من المؤمنين وأنهم لم يكن فيهم من المسلمين إلاَّ بين واحد وهو آل لوط وذلك في قوله ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [ الذاريات : 35-36 ] .

تنبيه

في هذه الآية الكريمة دليل واضح لما حققه علماء الأصول من جواز الاستثناء من الاستثناء لأنه تعالى استثنى آل لوط من إهلاك المجرمين بقوله : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 59 ] ثم استثنى من هذا الاستثناء امرأة لوط بقوله : ﴿ إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ [ الحجر : 60 ] وبهذا تعلم أن قول ابن مالك في الخلاصة :

وحكمها في القصد حكم الأول

ليس صحيحاً على إطلاقه . وأوضح مسالة تعدد بأقسامها صاحب مراقي السعود في

مبحث المخصص المتصل بقوله:

وذا تعدد بعطف حصل . . . بالاتفاق مسجلاً للأول

إلا فكل للذي به اتصل . . . وكلها مع التساوي قد بطل

إن كان غير الأول المستغرقا . . . فالكل للمخرج منه حققا

وحيثما استغرق الأول فقط . . . فألغ واعتبر بخلف في النمط

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) ﴾

(71/427)

---

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما جاءه الملائكة المرسلون لإهلاك قومه قال لهم إنكم قوم منكرون . وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيئهم وأنه ضاق ذرعاً بذلك كقوله في هود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [ هود : 77 ] وقوله في العنكبوت ﴿ وَلَمَّآ أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ [ العنكبوت : 33 ] الآية ، وذكر تعالى في الذاريات : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [ الذاريات : 25 ] وقوله ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ قيل معناه أنهم غير معروفين والنكرة ضد المعرفة وقيل إنه رآهم في صفة

شباب حسان الوجوه فخاف أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط قال : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ وقال الزمخشري في الكشاف : منكرون أي تنكرهم نفسي وتفر منكم فأخاف أن تطرقوني بشر بدليل قوله : ﴿ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَآتَيْنَاكَ بالحق ﴾ [ الحجر : 63-64 ] الآية ويدل لهذا الوجه أنه بين في هود أن سبب إنكار إبراهيم لهم عدم أكلهم من لحم العجل الذي قدمه إليهم وذلك في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [ هود : 70 ] لأن من استضعاف وامتنع من الأكل خيف من الشر . وقوله تعالى في هذه الآيات : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ [ الحجر : 59 ] قرأه حمزة والكسائي بإسكان النون بعد الميم المضمومة مخففاً اسم فاعل أنجى على وزن أفعل وقرأه غيرهما من القراء بفتح النون وتشديد الجيم اسم فاعل نجى على وزن فعل بالتضعيف والإنجاء والتنجية معناهما واحد وقوله : ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ [ الحجر : 60 ] قرأه أبو بكر عن عاصم بتخفيف الدال وقرأه غيره بتشديدها وهما لغتان معناهما واحد وقوله : ﴿ جَاءَ آلَ لُوطٍ ﴾ قرأه

قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الأولى وتسهيل الثانية مع القصر والتوسط والمد وقرأه قنبل مثل قراءة ورش غلا أنه ليس له مع التسهيل إلا القصر وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين وكل على أصله من المد وما ذكر من قراءة ورش وقنبل هو التحقيق عنهما وإن قيل غيره والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(73/427)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

حكاية هذا الحوار بين إبراهيم والملائكة عليهم السلام لأنه يجمع بين بيان فضل إبراهيم عليه السلام وبين موعظة قريش بما حل ببعض الأمم المكذبين ، انتقل إبراهيم عليه السلام إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض ، لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون إلا لأمر عظيم كما قال تعالى : ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحقّ ﴾ [ سورة الحجر : 8 ] .

وقد نزل الملائكة يوم بدر لاستئصال سادة المشركين ورؤسائهم .

والخطب تقدم في قوله تعالى ﴿ قال ما خطبكنّ ﴾ في [ سورة يوسف : 51 ] .

والقوم المجرمون هم قوم لوط أهل سدوم وقُراها .

وتقدم ذكرهم في سورة هود .

والاستثناء في ﴿ إلا آل لوط ﴾ منقطع لأنهم غير مجرمين .

واستثناء ﴿ إلا امرأته ﴾ متصل لأنها من آل لوط .

وجملة ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ استئناف بياني لبيان الإجمال الذي في استثناء آل لوط من متعلق فعل ﴿ أرسلنا ﴾ لدفع احتمال أنهم لم يرسلوا إليهم ولا أمروا بإنجائهم .

وفي قوله : ﴿ أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ إيجاز حذف .

وتقدير الكلام : إنا أرسلنا إلى لوط لأجل قوم مجرمين ، أي لعذابهم .

ودل على ذلك الاستثناء في ﴿ إلا آل لوط ﴾ .

وقرأ الجمهور ﴿ لمنجوهم ﴾ بفتح النون وتشديد الجيم مضارع نجّى المضاعف .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بسكون النون وتخفيف الجيم مضارع أنجى المهموز .

وإسناد التقدير إلى ضمير الملائكة لأنهم مُزمعون على سببه .

وهو ما وكلوا به من تحذير لوط عليه السلام وآله من الالتفات إلى العذاب ، وتَرْكِهم تحذير امرأته حتى التفتت فَحل بها ما حل بقوم لوط .

وقرأ الجمهور ﴿ قدرنا ﴾ بتشديد الدال من التقدير .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بتخفيف الدال من قدَر المجرد وهما لغتان .

وجملة ﴿ إنها لمن الغابرين ﴾ مستأنفة .

و( إن ) معلقة لفعل ﴿ قدرنا ﴾ عن العمل في مفعوله .

وأصل الكلام قدرنا غُبُورها ، أي ذهابها وهلاكها .

(74/427)

---

والتعليق يطرأ على الأفعال كلها وإنما يكثر في أفعال القلوب ويقلّ في غيرها .

وليس من خصائصها على التحقيق .

وتقدم ذكر الغابرين في سورة الأعراف .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) ﴾

تفريع على حكاية قصتهم مع إبراهيم وقد طوي ما هو معلوم من خروج الملائكة من عند إبراهيم .

والتقدير : ففارقوه وذهبوا إلى لوط فلما جاءوا لوطاً .

وعُبر بآل لوط عليه السلام لأنهم نزلوا في منزلة بين أهله فجاءوا آله وإن كان المقصود بالخطاب والمجيء هو لوط .

وتولى لوط عليه السلام تلقيهم كما هو شأن كبير المنزل ولكنه وجدهم في شكل غير

معروف في القبائل التي كانت تمر بهم فألهم إلى أن لهم قصة غريبة ولذلك قال لهم : ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ ، أي لا تعرف قبيلتكم .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ نكرهم ﴾ في سورة هود ( 70 ) وقد أجابوه بما يزيل ذلك إذ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ إضراباً عن قوله : ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ وإبطالاً لما ظنه من كونهم من البشر الذين لم يعرف قبيلتهم فلا يأمنهم أن يعاملوه بما يضرّه .

وعبر عن العذاب بـ "ما كانوا فيه يمترون" إيماء إلى وجه بناء الخبر وهو التعذيب ، أي بالأمر الذي كان قومك يشكون في حلوله بهم وهو العذاب ، فعلم أنهم ملائكة .

والمراد بالحق الخبر الحق ، أي الصدق ، ولذلك ذيل بجملة ﴿ وإنا لصادقون ﴾ .

وقوله : ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ حكاية لخطاب الملائكة لوطا عليه السلام لمعنى عباراتهم محولة إلى نظم عربي يفيد معنى كلامهم في نظم عربي بليغ ، فبِنَا أن نبيّن خصائص هذا النظم العربي :

فإعادة فعل ﴿ أتيناك ﴾ بعد واو العطف مع أن فعل ﴿ أتيناك ﴾ مرادف لفعل ﴿ جئناك ﴾ دون أن يقول : و ﴿ بالحق ﴾ ، يحتمل أن يكون للتأكيد اللفظي بالمرادف .

والتعبيرُ في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنن لدفع تكرار الفعل الواحد ، كقوله تعالى في سورة الفرقان ( 33 ) : ﴿ ولا يأتونك بمَثَل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيراً ﴾ وعليه تكون الباء في قوله : بما كانوا فيه يمترون ﴾ وقوله : ﴿ بالحق ﴾ للملابسة .

ويحتمل أن تكونِ لذكر الفعل الثاني وهو ﴿ وأتيناك ﴾ خصوصية لا تفي بها واو العطف وهي مراعاة اختلاف المجرورين بالباء في مناسبة كل منهما للفعل الذي تعلق هو به .

فلما كان المتعلق بفعل ﴿ جئناك ﴾ أمراً حسياً وهو العذاب الذي كانوا فيه يمترون ، وكان مما يصح أن يسند إليه المجيء بمعنًى كالحقيقي ، إذ هو مجيء مجازي مشهور مساوٍ للحقيقي ، أوثر فعل ﴿ جئناك ﴾ ليسند إلى ضمير المخاطبين ويعلق به "ما كانوا فيه يمترون" .

وتكون الباء المتعلقة به للتعدية لأنهم أجاءوا العذاب ، فموقع قوله تعالى : ﴿ بما كانوا فيه يمترون ﴾ مَوقع مفعول به ، كما تقول ( ذهبتُ به ) بمعنى أذهبتُه وإن كنتَ لم تذهب معه ، ألاَ ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فإما نذهبنّ بك ﴾ [ سورة الزخرف : 41 ] أي نُذهبك من الدنيا ، أي نميتك .

فهذه الباء للتعدية وهي بمنزلة همزة التعدية .

وأما متعلق فعل أتيناك ﴾ وهو ﴿ بالحق ﴾ فهو أمر معنوي لا يقع منه الإتيان فلا يتعلق

بفعل الإتيان فغُيرت مادة المجي إلى مادة الإتيان تنبيهاً على إرادة معنى غير المراد بالفعل السابق، أعني المجيء المجازي.

فإن هذا الإتيان مسند إلى الملائكة بمعناه الحقيقي، وكانوا في إتيانهم ملابسين للحق، أي الصدق، وليس الصدق مسنداً إليه الإتيانُ.

فالباء في قوله تعالى: ﴿ بالحق ﴾ للملابسة لا للتعدية.

والقِطْع بكسر القاف وسكون الطاء الجزء الأخير من الليل.

وتقدم عند قوله تعالى: ﴿ قطعاً من الليل مظلماً ﴾ في سورة يونس (27).

*(76/427)*

---

وأمروه أن يجعل أهله قُدامه ويكون من خلفهم، فهو يتبع أدبارهم، أي ظهورهم ليكون كالحائل بينهم وبين العذاب الذي يحل بقومه بعقب خروجه تنويهاً ببركة الرسول عليه السلام، ولأنهم أمروه أن لا يلتفت أحد من أهله إلى ديار قومهم لأن العذاب يكون قد نزل بديارهم.

فبكونه وراء أهله يخافون الالتفات لأنه يراقبهم.

وقد مضى تفصيل ذلك في سورة هود، وأن امرأته التفتت فأصابها العذاب.

وحيث تؤمرون ﴾ أي حيث تؤمرون بالمضي .

ولم يبينوا له المكان الذي يقصده إلا وقت الخروج ، وهو مدينة عمورية ، كما تقدم في سورة هود .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) ﴾

﴿ قضينا ﴾ قدرنا ، وضمن معنى أوحينا فعدي بـ ( إلى ) .

والتقدير : وقضينا ذلك الأمر فأوحينا إليه ، أي إلى لوط عليه السلام ، أي أوحينا إليه بما قضينا .

و ﴿ ذلك الأمر ﴾ إبهام للتهويل .

والإشارة للتعظيم ، أي الأمر العظيم .

و ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ جملة مفسرة لـ ﴿ ذلك الأمر ﴾ وهي المناسبة للفعل المضمن وهو ( أوحينا ) .

فصار التقدير : وقضينا الأمرَ وأوحينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع .

فنُظم الكلام هذا النظم البديع الوافر المعنى بما في قوله : ﴿ ذلك الأمر ﴾ من الإبهام والتعظيم .

ومجيء جملة ﴿ دابر ﴾ مفسرة مع صلوحية ﴿ أنّ ﴾ لبيان كل من إبهام الإشارة ومن فعل ( أوحينا ) المقدر المضمن ، فتم بذلك إيجاز بديع معجز .

والدابرُ: الآخر، أي آخر شخص.

وقطعه: إزالته.

وهو كناية عن استئصالهم كلهم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ في سورة الأنعام (45).

وإشارة هؤلاء ﴾ إلى قومه.

و﴿ مصبحين ﴾ داخلين في الصباح، أي في أول وقته، وهو حال من اسم الإشارة.

ومبدأ الصباح وقت شروق الشمس ولذلك قال بعده ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ [سورة الحجر: 73]. انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(77/427)

---

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

أي: ما هو الأمر العظيم الذي جِئْتم من أجله؛ لأن الخَطْب هو الحَدث الجَلل الذي ينتاب الإنسان؟ وسُمِّي خَطْباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به، وكلما التقتْ جماعة من البشر بجماعة أخرى فَهُمْ يتحدثون في هذا الأمر.

ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزواج بين رجل وامرأة وتَقدّمه لأهلها طَلباً لِيدها " خِطْبة " ؛ لأنه أمر جَلَل وهَامّ ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة ؛ ورآه واحدٌ من أهلها لثَار من الغَيْرة ؛ ولكن ما أن يدقَّ البابَ طالباً يدها ، فالأمر يختلف ؛ لأن أهلها يستقبلون مَنْ يتقدّم للزواج الاستقبالَ الحسن ؛ ويقال : " جدعَ الحلال أُنْفَ الغَيْرة " .

وهنا قال إبراهيم عليه السلام للملائكة : ما خَطْبكم أيها المُرْسلون ؟ أي : لأيّ أمر جَلَلٍ أتيتُم ؟

ويأتي الجواب من الملائكة في قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) ﴾

ونعلم أن كلمة " القوم " مأخوذةٌ من القيام ، وهُم القوم الذين يقومون للأحداث ؛ ويُقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يَقُمْنَ للأحداث ؛ والحق سبحانه هو الذي يُفصّل هذا الأمر في قوله : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ [ الحجرات : 11 ] .

فلو أن كلمة " القوم " تُطلَق على النساء ؛ لَوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كي نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها في رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخصُّ هذا البيت .

وهنا أخبرتْ الملائكة إبراهيم عليه السلام أنهم مُرْسَلون إلى قوم مُجرمين ؛ وهم قوم لوط الذين أرهقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصي التي أدمنوها .

(78/427)

---

ولكن الحق سبحانه يستثني آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ . . . ﴾ .

وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ من المجرمين . والمُجرِم هو المُنقطِع عن الحق ، والجريمة هي الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، غلب اسم القوم على الجماعة المُجْرمين ، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين . الذين أجرموا في حق منهج الله ، والقيم التي نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه في مهمة واحدة .

ثم يأتي استثناء جديد ؛ حيث يقرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ امرأته . . . ﴾ .

ونعلم في اللغة أنه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه ؛ نأخذ المُسْتثنى الأول من المُسْتثنى منه ، والمستثنى الثاني نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من

المستثنى الثاني .

والمثل أن يقول لك من تدينه " لك عشرة جنيهات إلا أربعة " أي : أنه أقرَّ بأن لك ستة جنيهات ؛ ولكنك تنظر إليه لعلّه يتذكر كم سدّد إليك ؟ فيقول : " لك إلا درهماً " وهكذا يكون قد أقرَّ بسبعة دراهم كَدَيْن ؛ بعد أنْ كان قد أقرَّ بستة ؛ ذلك أنه قال : " لك عشرة جنيهات إلا أربعة " ، ثم أضاف : " إلا درهماً " .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهات التي قال إنه سَدّدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سدده من دين ثلاث جنيهات ، وبقي عنده سبعة جنيهات .

والحق سبحانه هنا يستثني امرأة لوط من الذين استثناهم من قبل للنجاة ، وهم آل لوط ، والملائكة التي تقوم ذلك لم تُقدِّر الأمر بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هي تُنفِّذ التقدير الأعلى ؛ فسبحانه هو مَنْ قدَّر وأمر :

﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ [ الحجر : 60 ] .

(79/427)

---

والغابر هنا بمعنى داخل ؛ أو هو من أسماء الأضداد ؛ وهي لن تنجو ؛ لأن مَنْ تقررتْ نجاتهم سيتركون القرية ؛ وسيهلك مَنْ يبقى فيها ، وامرأة لُوط من الباقين في العذاب

والاستثناء من النفي إثبات ؛ ومن الإثبات نفي ، فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط - عليه السلام - فيقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ . . ﴾ .

وهكذا قال لوط عليه السلام للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد كان مشهدهم غايةً في الجمال ؛ ويعلم أن قومه يُعَانُون من الغلمانية ، ويحترفون الفاحشة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول عن معاملته للملائكة في موقع آخر من القرآن : ﴿ سياء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ [ هود : 77 ] .

ذلك أن لوطاً عَلِم أن قومه سيطمعون في هؤلاء المُرْد ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه في صورة شبان تضيء ملامحهم بالحُسْن الشديد ؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أيّ أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التي يعيش فيها ؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أن طمأنوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم : ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ . . . ﴾ .

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كي يُنزِلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا

يشكُّون في قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفي هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَآتَيْنَاكَ بالحق . . . ﴾ .

أي : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقّ سبحانه ؛ فلا مجالَ للشكّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلّغك به .

ويقولون له من بعد ذلك : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ . . . ﴾ .

(80/427)

---

أي : سِرْ أنت وأهلك في جزء من الليل . ومرة يُقَال " سرى " ، ومرة يُقال " أسرى " ؛ ويلتقيان في المعنى . ولكن " أسرى " تأتي في موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدّية مثل قول الحق : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [ الإسراء : 1 ] .

وقولهم هنا ( أسر بأهلك ) هو تعبير مُهذّب عن صُحْبة النساء والأبناء . ونجد في ريفنا المصري مَنْ لا يتكلم أبداً في حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم " قال الأولاد كذا " ، فكأن اسم المرأة مبنيٌّ على السَّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة في حكم الرجل إلا في الأمر المُتعلّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الليل . . . ﴾ [الحجر : 65] .

وكلمة " قطع " هي اسم جمع ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ بأهله في جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذي أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوه أن يتبع أدبار قومه بقولهم :

﴿ واتبع أَدْبَارَهُمْ . . . ﴾ [الحجر : 65] .

أي : أن يكون في المُؤخّرة ، وفي ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا في مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته ؛ وأهله فيها فوق الناقة ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه " مُعقِّب " كي يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلَّف أو تعثَّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص " مُعقِّب " .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقّباً لأهله والمؤمنين به ؛ لِيحثّهم على السير بسرعة ؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ . . . ﴾ [الحجر : 65] .

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضي أن يكون لوط في مُؤخّرة القوم؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً، ويُقلّل من سرعة مَنْ يلتفت؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التّذكار وأرض المَنْشأ، وكل ذلك قد يُعطّل حركة القوم جميعهم؛ لذلك جاء الأمر الإلهي:

﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: 65].

أو: أن الحق سبحانه يريد ألاّ يلتفت أحدٌ خَلْفه حتى لا يشهدَ العذاب، أو مقدمة العذاب الذي يقع على القوم، فتأخذه بهم شفقة.

ونحن نعلم قول الحق سبحانه في إقامة أيِّ حدّ من الحدود التي أنزلها: ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله ﴾ [النور: 2].

فلو أن أحداً قد التفتَ إلى العذاب، أو مُقدّمة العذاب؛ فقد يحِنّ إليهم، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنب كبير، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهت؛ وقد يبقى في النفس عِظَم ألَم العقوبة لحظة توقيعِها على المُجرم.

أو: أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أنْ يوجد، ولو التفزيع الذي هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هَوْل هذا العذاب القادم.

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم، والكيفية هي أن يكون الخروج في جزء من الليل، وأنْ يتبعَ لوطٌ أدبارهم، وألا يلتفتَ أحد من الناجين خَلْفه؛

ليمضي هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هي الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ . . . ﴾ .

وقوله الحق : ﴿ وَقَضَيْنَآ . . ﴾ [ الحجر : 66 ] .

أي : أوحينا . وسبحانه تكلَّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلَّم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذي قضى به الحق سبحانه أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطْع الدَّابر هو الخَلْع من الجذور .

(82/427)

---

ولذلك يقول القرآن : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ ﴾ [ الأنعام : 45 ] .

وهكذا نفهم أن قَطْع الدابر هو أنْ يأخذهم الحق سبحانه أَخْذ عزيز مقتدر فلا يُبقِى منهم أحداً . وموعد ذلك هو الصباح ، فبعد أنْ خرج لوط ومَنْ معه بجزء من الليل وتمَّتْ نجاتهم يأتي الأمر بإهلاك المنحرفين في الصباح .

والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادئ الحروب ؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ [ الصافات :

. [ 177

وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يأخذهم وهُمْ في استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرة على المقاومة

.

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [ الحجر : 66 ] .

لا يتناقض مع قوله عنهم في موقع آخر : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ ﴾ [ الحجر : 73 ]

.

فكأن بَدْء الصيحة كان صُبْحاً ، ونهايتهم كانت في الشروق . وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوطٍ من قبل أنْ يبدأ التنفيذ ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(83/427)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ : فيه [ أوجهٌ ] أحدُها : أنه مستثنى متصلٌ على أنه

مستثنى من الضميرِ المستكنّ في " مجرمين " بمعنى : أَجْرَموا كلُّهم إلا آلَ لوطٍ فإنهم لم يُجْرِموا ، ويكونُ قولُه ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ / استئنافَ إخبارٍ بنجاتهم لكونِهم لم يُجْرِموا ، ويكون الإِرسالُ حينئذ شاملاً للمجرمين ولآلِ لوط ، لإِهلاكِ أولئك ، وإنجاءِ هؤلاء .

والثاني : أنه استثناءٌ منقطع ؛ لأنَّ آلَ لوط لم يَنْدَرجوا في المجرمين البتَةَ . قال الشيخ : " وإذا كان استثناءً منقطعاً فهو مِمّا يجبُ فيه النصبُ ، لأنه من الاستثناءِ الذي لا يمكن تَوَجُّه العاملِ إلى المستثنى فيه ؛ لأنهم لم يُرْسَلوا إليهم ، إنما أُرْسِلوا إلى القوم المجرمين خاصةً ، ويكون قوله ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ جرَى مجرى خبرِ " لكن " في اتصاله بآلِ لوطٍ ، لأنَّ المعنى : لكن آلَ لوطٍ مُنَجُّوهم . وقد زعم بعض النحويين في الاستثناءِ المنقطعِ المقدَّرِ ب " لكن " إذا لم يكن بعده ما يَصِحُّ أن يكونَ خبراً أنَّ الخبرَ محذوفٌ ، وأنه في موضعِ رفعٍ لجريان " إلا " وتقديرِها ب " لكن " .

قلت : وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ قولَهم : لا يتوجَّه عليه العاملُ ، أي : لا يمكن ، نحو : " ضحك القومُ إلا حمارَهم " ، و " صَهَلَت الخيلُ إلا الإِبلَ " . وأمَّا هذا فيمكن الإِرسالُ إليهم مِنْ غيرِ مَنْعٍ . وأمَّا قولُه " لأنهم لم يُرْسَلُوا إليهم " فصحيحٌ لأنَّ حكمَ الاستثناءِ كلّه هكذا ، وهو أن يكونَ خارجاً عن ما حُكِم به الأولِ ، لكنه لو تَسَلَّط عليه لَصَحَّ ذلك ، بخلافِ ما ذكَرْتُه مِنْ أمثلتِهم .

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ : فيه وجهان: أحدُهما: أنه استثناءٌ مِنْ آل لوط. قال أبو البقاء: "والاستثناءُ إذا جاء بعد الاستثناءِ كان الاستثناءُ الثاني مضافاً إلى المبتدأ كقولِك: "له عندي عشرةٌ إلا أربعةً إلا درهماً" فإنَّ الدرهمَ يُستثنى من الأربعة، فهو مضافٌ إلى العشرة، فكأنك قلت: أحد عشر إلا أربعةً، أو عشرة إلا ثلاثةً".

الثاني: أنَّها مستثناةٌ من الضمير المجرور في "مُنجُّوهم". وقد مَنَعَ الزمخشريُّ الوجهَ الأول، وعَيَّن الثاني فقال: "فإن قلتَ: فقوله: "إلا امرأته" مِمَّ استثني؟ وهل هو استثناءٌ مِنْ استثناءٍ؟ قلت: مستثنى من الضمير المجرور في قوله "لمنجُّوهُمْ" وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيءٍ؛ لأنَّ الاستثناءَ من الاستثناء إنما يكونُ فيما اتَّحد الحكمُ فيه، وأن يقالَ: أهلكناهم إلا آلَ لوطٍ إلا امرأتَه، كما اتحد في قولِ المُطْلَق: أنتِ طالقٌ ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدةً، وقولِ المُقِرّ لفلان: عليَّ عشرةٌ إلا ثلاثةً إلا درهماً، وأمَّا الآيةُ فقد اختلف الحكمان لأنَّ ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ متعلقٌ بـ "أَرْسَلْنا" أو بمجرمين، و ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ قد تعلَّق بقولِه "لمنجُّوهم" فأنَّى يكون استثناءً من استثناء"؟

قال الشيخ : " ولمَّا استسلف الزمخشريُّ أن " امرأته " استثناءٌ من الضمير في لمنجُّوهم " أنى أن يكون استثناءً من استثناء ؟ ومَنْ قال إنه استثناءٌ من استثناء فيمكن تصحيحُ قولِه بأحدِ وجهين ، أحدُهما : أنَّه لمَّا كان " امرأتَه " مستثنى من الضمير في " لمُنجُّوهم " وهو عائدٌ على آلِ لوط صار كأنه مستثنى مِن آلِ لوط ، لأنَّ المضمرَ هو الظاهر . والوجهُ الآخر : أن قولَه ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ لمَّا حَكَمَ عليهم بغيرِ الحكم الذي حَكَم به على قومٍ مجرمين اقتضى ذلك نجاتَهم فجاء قولُه : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ تاكيداً لمعنى الاستثناء ، إذ المعنى : إلا آلَ لوط لم يُرْسَلْ إليهم بالعذاب ، ونجاتُهم مترتبةٌ على عدمِ الإِرسال إليهم بالعذاب ، فصار نظيرَ قولِك : " قام القومُ إلا زيداً لم يَقُمْ " ، أو " إلا زيداً فإنه لم يَقُمْ " ، فهذه الجملة تأكيدٌ لِما تَضَمَّن الاستثناءُ من الحكم على ما بعد إلاّ بضدِّ الحكم السابق على المستثنى منه ، ف " إلا امرأته " على هذا التقريرِ الذي قَرَّرْناه مستثنى مِنْ آلِ لوط ، لأنَّ الاستثناءَ مِمَّا جيء به للتأسيسِ أَوْلَى من الاستثناءِ مِمَّا جيْءَ به للتأكيد " .

وقرأ الأخوان " لمُنَجُوْهم " مخفَّفاً ، وكذلك خَفَّفا أيضاً فِعْلَ هذه الصفةِ في قولِه تعالى في العنكبوت : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [ الآية : 32 ] وكذلك خَفَّفا أيضاً قولَه فيها : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ [ الآية : 33 ] فهما جاريان على سَنَنٍ واحد .

وقد وافقهما ابنُ كثير/ وأبو بكر على تخفيف " مُنْجوك " كأنهما جمعا بين اللغتين . وباقي السبعة بتشديد الكلِّ ، والتخفيفُ والتشديدُ لغتان مشهورتان مِنْ نَجَّى وأَنْجَى كأَنْزَلَ ونَزَّل

، وقد نُطِقَ بفعلهما قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ﴾ [ العنكبوت : 65 ] وفي موضعٍ آخرَ ﴿ أَنجَاهُمْ ﴾ [ يونس : 23 ] .

*(86/427)*

---

قوله : " قَدَّرْناها " أبو بكر بتخفيف [ الدال ] والباقون بتشديدها ، وهما لغتان : قَدَرَ وقدَّر ، وهذا الخلافُ أيضاً جارٍ في سورة النمل .

قوله : " إنَّها " كُسِرتْ من أجلِ اللامِ في خبرها وهي معلِّقةٌ لِما قبلها ، لأنَّ فِعْلَ التقديرِ يُعَلَّقُ إجراءً له مُجْرى العِلْم : إمَّا لكونِه بمعناه ، وإمَّا لأنَّه مترتِّبٌ عليه . قال الزمخشري : " فإن قلتَ " لِمَ جاز تعليقُ فِعْلِ التقدير في قوله " قَدَّرْنَآ إِنَّهَا " ، والتعليق مِنْ خصائصِ أفعالِ القلوب؟ قلت : لتضمُّنِ فِعْلِ التقدير معنى العِلْم " . قال الشيخ : " وكُسِرَتْ " إنها " إجراءً لفعل التقدير مُجْرى العِلْم " . قلت : وهذا لا يَصِحُّ علةً لكسرِها ، إنما يَصْلُحُ علةً لتعليقِها الفعلَ قبلها ، والعلةُ في كسرِها ما قَدَّمْتُه في وجودِ اللامِ ولولاها لفُتِحَتْ .

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) ﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلْ جِئْنَاكَ ﴾ إضرابٌ عن المفعول المحذوفِ تقديرُه : ما جئناك بما يُنْكَرُ ، بل جِئْناك .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) ﴾

وقد تقدَّم الخلافُ في قولِه تعالى : ﴿ فَأَسْرِ ﴾ : قطعاً ووصلاً في هود . وقرأ اليمانيُّ فيما نقل ابن عطية وصاحب " اللوامح " " فَسِرْ " من السَّيْر . وقرأت فرقةٌ " بِقِطَع " بفتح الطاء . وقد تَقَدَّم في يونس : أن الكسائيَّ وابنَ كثير قرآه بالسكون في قوله " قطعاً " ، والباقون بالفتح .

قوله : ﴿ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ " حيث " على بابِها مِنْ كونِها ظرفَ مكانٍ مبهمٍ ، ولإِبهامها تعدَّى إليها الفعلُ من غير واسطة على أنه قد جاء في الشعر تَعَدِّيه إليها ب " في " كقولِه :

2943- فأَصْبَحَ في حيثُ التقَيْنا شريدُهُمْ . . . طَليقٌ ومكتوفُ اليدين ومُزْعِفُ

(87/427)

---

وزعم بعضُهم أنها هنا ظرفُ زمانٍ ، مستدلاًّ بقولِه " بِقِطْعٍ من الليل " ، ثم قال : ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ ، أي : في ذلك الزمان . وهو ضعيفٌ ، ولو كان كما قال لكان التركيبُ : حيث أُمِرْتم ، على أنه لو جاء التركيب كذا لم يكن فيه دلالةٌ .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ ضَمَّنَ القضاءَ معنى الإيحاء ، فلذلك تَعَدَّى تعديَتَه ب " إلى " ، ومثلُه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [ الإسراء : 4 ] .

قوله : ﴿ ذَلِكَ الأمرَ ﴾ " ذلك " مفعولُ القضاء ، والإشارةُ به إلى ما وَعَدَ من إهلاكِ قومِه ، و " الأمرَ " : إمَّا بدلٌ منه أو عطفُ بيانٍ له .

قوله : ﴿ أَنَّ دَابِرَ ﴾ العامَّةُ على فتحِ " أنَّ " وفيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها بدلٌ مِنْ " ذلك " إذا قلنا : " الأمر " عطفُ بيان . الثاني : أنها بدل من " الأمر " سواء قلنا : إنها بيانٌ أو بدل ممَّا قبلَه . والثالث : أنه على حَذْفِ الجارّ ، أي : بأنَّ دابِرَ ، ففيه الخلافُ المشهور . وقرأ زيدُ بن علي بكسرِها ؛ لأنه بمعنى القولِ ، أو على إضمار القول . وعَلَّله الشيخُ بأنَّه لمَّا عَلَّق ما هو بمعنى العلم كُسِر . وفيه النظرُ المتقدم .

قوله : ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ حالٌ من الضمير المستتر في " مقطوعٌ " وإنما جُمع حَمْلاً على المعنى ، وجعله الفراء وأبو عبيد خبراً ل " كان " مضمرة ، قالا : " وتقديره : إذا كانوا مُصْبحين نحو : " أنتَ ماشياً أحسنُ منك راكباً " . وهو تكلُّفٌ . و " مُصْبِحين " داخلين في الصَّباح فهي تامَّةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 167.173 ﴾

*(88/427)*

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) ﴾

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهله إلا امرأته لمشاركتها معهم في الفساد ، وكانت تدل على أضيافه ، فاستوجبت العقوبة .

فلمّا وافى المرسلون من آل لوطٍ أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر ، وتفرّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمر عظيم ، قالوا : بل جئناك بما كان قومك يَشُكُّونَ فيه مِنْ تعذيبنا إياهم ، وآتيناك بالحق ، أي بالحكم الحق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ .

فأَسْرِ بأهلك بعدما يمضي شيءٌ من الليل ، وامش خلفهم ، وقدّمهم عليك ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يَرَوْا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلَكَ إلا امرأتك ، فإنا نعذبها بمشاركتها مع قومك في العصيان . ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ فلكم السلام ولقومكم العقوبة .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ أي علّمناه وعرّفناه : ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ ﴾ ؛ أي

أنهم مُهْلَكون ومُسْتَأْصَلون بالعقوبة .

ثم لما نزل الملائكةُ بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافي ، فلا تتعرضوا لهم فتفضحوني ، واتقوا اللَّهَ ، وذروا مخالفة أمره ولا تخْجلوني . فقال قومه : ألم نَنْهَكَ عن أن تحمي أحداً ، وأمرناك ألا تمنع مِنَّا أحداً ؟ فقال : هؤلاء بناتي يعني نساء أمتي . وقال قومٌ : أراد بناتِه من صلبه ، عَرَضهن عليهم لئلا يُلِمُّوا بتلك الغلطة الفحشاء ، فلم تنجع فيهم نصيحة ، ولم يُقْلِعوا عن خبيثِ قَصْدِهم .

فأخبره الملائكة ألا يخافَ عليهم ، وسكنوا من رَوْعه حين أخبروه بحقيقة أمرهم ، وأنهم إنما أرسلوا للعقوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 276 . 277 ﴾

*(89/427)*

---

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِنْ كَانَ

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

فلما تم ما دار بينه وبين الرسل مقدماً لما بيّن ، أتبعه البيان عن حال قومه إشارة إلى أن الملائكة إن كانوا بصفات البشر لم يعرفهم الكفرة ، وإن كانوا بصفاتهم أو بإظهار شيء من خوارقهم لم تحتمله قواهم ، فلا نفع لهم في مكاشفتهم في حالة من الحالات ، فسؤالهم الإتيان بهم جهل عظيم ، فقال تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ أي التي كان هذا الأمر فيها - قالوا : وهي سدوم - لإرادة عمل الفاحشة بالأضياف ﴿ يستبشرون ﴾ أي يلوح على بشراتهم السرور ، فهم يوجدونه لأنفسهم إيجاد من هو شديد الرغبة في طلبه ، فكان حال لوط عليه السلام أن ﴿ قال ﴾ لهم : ﴿ إن هؤلاء ﴾ أي الأقرباء مني ﴿ ضيفي ﴾ .

*(90/427)*

---

ولما كان إكرام الضيف إكراماً لمن هو عنده وإهانته إهانته ، سبب عن ذلك ما أشار إليه الكلام فقال : ﴿ فلا تفضحون ﴾ في إصابتهم بفاحشة ، وكان ذلك قبل معرفته أنهم ملائكة ﴿ واتقوا الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ ولا تخزون ﴾ أي بإهانة ضيفي ،

فيكون ذلك عاراً عليّ مدى الدهر ، فلم يكفهم ذلك بل ﴿ قالوا ﴾ بفظاظة ، عاطفين على ما تقديره : ألم تعلم أنا لا نترك هذا الأمر لشيء من الأسباب : ﴿ أو لم ننهك ﴾ أي من قبل هذا ﴿ عن العالمين ﴾ أن تجير علينا أحداً منهم ، فما وصلوا إلى هذا الحد من الوقاحة ، ذكر لهم الحريم ليحملهم ذلك على الحياء ، لأنه دأب من له أدنى مروءة ولا سيما ذكر الأبكار في سياق يكاد يصرح بمراده ، بأن ﴿ قال هؤلاء ﴾ مشيراً إلى بيته الذي فيه بناته .صلى الله عليه وسلم. ورضي عنهن ﴿ بناتي إن كنتم ﴾ ولا بد ﴿ فاعلين ﴾ أي قد عزمتم عزماً ماضياً على هذا الفعل ، إشارة بأداة الشك إلى أن هذا الفعل مما لا ينبغي أن يفعل ، يعني وأنتم عالمون بأني لا أسلم بناتي أبداً ، فعلم من ذلك أن وصولكم إلى أضيافي دون هلاكي محال .

(91/427)

---

ولما ذكر ما ذكر من أمورهم وعظيم فجورهم ، وهم قد فرغ من أمرهم وقضي باستئصالهم ، كان كل من يعلم ذلك قاضياً بأنهم لا عقول لهم ، فأتبع سبحانه ذلك ما يدل عليه بقوله : ﴿ لعمرك ﴾ أي وحياتك يا كريم الشمائل ، وأكد لأن الحال قاض في ذلك الحين استبعاد ردهم ، ولتحقيق أن ذلك ضلال منهم صرف وتعنت محض ، فقال : ﴿ إنهم لفي

سكرتهم ﴾ أي غوايتهم الجاهلية ﴿ يعمهون ﴾ أي يتحيرون ولا يبصرون طريق الرشد ، فلذلك لا يقبلون قول النصوح ، فإن كان المخاطب لوطاً عليه السلام ، كان ضمير الغيبة لقومه ، وإن كان المخاطب نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم – وهو الظاهر – كان الضمير لقومه ، وكان التقدير أنهم في خبط بعيد عن السنن في طلبهم إتيان الملائكة كما كان قوم لوط عليه السلام يقصدون الالتذاذ بالفاحشة بمن مكن من هلاكهم ، فشتان ما بين القصدين ! وهيهات لما بين الفعلين ! فصار المعنى أن ما قذفوك به أول السورة بهم لا بك ، لأن من يطلب إتيان الملائكة – مع جواز أن يكون حاله حال قوم لوط عليه السلام عند إتيانهم – هو المجنون ؛ والعمر – بالفتح : العمر – بالضم ، وهو مدة بقاء الشيء حيّاً ، لكنه لا يقال في القسم إلا بالفتح لخفته مع كثرة دور القسم ، ولذلك حذفوا الذي تقديره : قسمي ، والسكرة : غمور السهو للنفس .

(92/427)

---

ولما تم ذلك ، سبب عن القضاء دابرهم قوله تعالى : ﴿ فأخذتهم ﴾ أي أخذ انتقام وغلبة ﴿ الصيحة ﴾ أي التي هي لعظمها وهولها هي الصيحة ، وغيرها عدم بالنسبة إليها ؛ والأخذ : فعل يصير به الشيء في جهة الفاعل ، والصيحة : صوت يخرج من الفم بشدة ؛

وقوله : ﴿ مشرقين ﴾ أي داخلين في الإشراق ، وهو ضياء الشمس عند بزوغها ، وتبين به أن وقته يسمى صبحاً لغة ، فإن الصبح والصبّاح والإصباح أول النهار ، ولعله يطلق عليه إلى وقت الغداء أو الزوال ، أو تكون الصيحة وقت الإشراق آخر أمرهم ، وقلع المدائن من أماكنها وقت الصبح ابتداء أمرهم ؛ ثم بين سبحانه ما تسبب عن الصيحة متعقباً لها فقال : ﴿ فجعلنا عاليها ﴾ أي مدائنهم ﴿ سافلها وأمطرنا ﴾ .

ولما كان الزجر في هذه السورة أعظم من الزجر في سورة هود عليه السلام ، لطلبهم أن يأتي بجميع الملائكة ، أعاد الضمير على المعذبين لا على مدنهم - كما مضى في سورة هود عليه السلام - لأن هذا أصرح ، فقال : ﴿ عليهم ﴾ أي أهل المدائن التي قلبت المدائن لأجلهم ﴿ حجارة من سجيل ﴾ ثم حقق أن ذلك كله شرح لقوله ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم جداً ﴿ لآيات ﴾ أي عدة من جهة غمرها بالماء بعد خسفها ، ومن جهة كونه مخالفاً لمياه الأرض بالنتن والخباثة ، وعدم عيش الحيوان فيه ، وعدم النفع به ، ومن جهة فظاعة منظرة - وغير ذلك من أمره ﴿ للمتوسمين ﴾ جمع متوسم ، وهو الناظر في السمة الدالة - وهي الأثر الدال في الوجه - والقرائن القاضية بالخير والشر ، وكانوا يدعون أنهم أبصر الناس بمثل ذلك ، فهو إلهاب لهم وتبكيت ؛ ثم بين أن ذلك غير خفي عنهم ولا بعيد عمن أراد الاتعاظ به ، فقال جعلاً لهم - لعدم اعتبارهم بها ومع رؤيتهم إياها في كل حين - في عداد المنكرين : ﴿ وإنها ﴾ أي هذه المدائن

﴿ لبسبيل مقيم ﴾ أي ثابت ، وهو مع ذلك مبين ، فالاعتبار بها في غاية السهولة لقومك ، وكانوا يمرون عليها في بعض أسفارهم إلى الشام .

(93/427)

---

ولما أشار سبحانه إلى الاستدلال بالتوسم الدال - مما هي عليه من المخالفة لسائر مياه الأرض العذبة الورادة إليها على كثرتها ومع أن البلاد التي هي بها من أبهج البلاد في عذوبة المياه وطراوة الأرض وحسن الأشجار وغير ذلك - على أن لها نبأ هو في غاية الغرابة ، وأتبع ذلك سهولة الوصول إليها حثاً على إتيانها بقصد نظرها والاعتبار بها والسؤال عن سبب كونها كذلك ، قال تعالى مشيراً إلى زيادة الحث بالتأكيد : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من حالها ﴿ لآية ﴾ أي علامة عظيمة في الدلالة علينا ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الراسخين في الصدق والتصديق ، فإذا أخبروا أن سبب كونها هكذا أن الله أمر بعض جنده فرفعها ثم قلبها ثم أتبعها الحجارة ثم خسف بها وغمرها بهذا الماء - الذي هو في القذارة وعدم الثمرة مناسب لأفعال أهلها - لأجل عصيانهم رسوله صلى الله علية وعلى آله وسلم ، آمنوا حذراً من مثل هذا العذاب إيماناً بالغيب .

(94/427)

ولما ذكر هذه القصة ، ضم إليها ما هو على طريقها مما عذب قومه بنوع آخر من العذاب يشابه عذاب قوم لوط في كونه ناراً من السماء ، فقال مؤكداً لأجل إنكار الكفار أن يكون عذابهم لأجل التكذيب ، أو عدّاً لهم - لأجل تماديهم على الغواية مع العلم به - عداد المنكرين : ﴿ وإن ﴾ أي وإنه ﴿ كان ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ؛ والأيكة : الشجرة - عن الحسن ، وجمعه الأيك كشجرة وشجر ، وقيل : الأيكة : الشجر الملتف ﴿ لظالمين ﴾ أي العريقين في الظلم ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي بسبب ذلك ؛ ثم أخبر عن البلدين لتقاربهما في العذاب والمكان وكونهما على طريق واحدة من طرق متاجر قريش فقال : ﴿ وإنهما ﴾ أي قرى قوم لوط ومحال أصحاب الأيكة ﴿ لبإمام ﴾ أي طريق يؤم ويتبع ويهتدي به ﴿ مبين ﴾ واضح لمن أراده ، بحيث إنه من شدة وضوحه موضح لعظمة الله وانتصاره لأنبيائه ممن يكذبهم ، وهو مع وضوحه مقيم في مكانه لم تندرس أعلامه ، ولم تنطمس آثاره ، فالآية من الاحتباك : ذكر في الأولى ﴿ مقيم ﴾ دلالة على حذف مثله ثانياً ، وفي الثانية ﴿ مبين ﴾ دلالة على حذف مثله أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 230.132 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط ، وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤه إلا أن القصة تدل على أنهم جاؤوا دار لوط .

قيل : إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط .

وقيل : امرأة لوط أخبرتهم بذلك ، وبالجملة فالقوم قالوا : نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجهاً ولا أحسن شكلاً منهم فذهبوا إلى دار لوط طلبها منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور فقال لهم لوط لما قصدوا أضيافه كلامين :

الكلام الأول : قال : ﴿ إِنَّ هَؤُلَآء ضَيْفِى فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ يقال فضحه يفضحه فضحاً وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار ، والمعنى أن الضيف يجب إكرامه فإذا قصدتموهم بالسوء كان ذلك إهانة بي ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ واتقوا الله وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ فأجابوه بقولهم : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ والمعنى : ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة .

والكلام الثاني : مما قاله لوط قوله : ﴿ هؤلاءآء بَنَاتِى إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ قيل : المراد بناته

من صلبه ، وقيل : المراد نساء قومه ، لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم وهو كقوله تعالى :

﴿ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [ الأحزاب : 6 ] وفي قراءة أبي

وهو أب لهم ، والكلام في هذه المباحث قد مر بالاستقصاء في سورة هود عليه السلام .

أما قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

العمر والعمر واحد وسمي الرجل عمراً تفاؤلاً أن يبقى ومنه قول ابن أحمر :

ذهب الشباب وأخلق العمر . . وعمر الرجل يعمر عمراً وعمراً ، فإذا أقسموا به قالوا :

لعمرك وعمرك فتحوا العين لا غير .

قال الزجاج : لأن الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بلعمري ولعمرك فالتزموا

الأخف .

المسألة الثانية :



---

في قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قولان : الأول : أن المراد أن الملائكة قالت

للوط عليه السلام : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي في غوايتهم يعمهون ، أي

يتحيرون فكيف يقبلون قولك ، ويلتفتون إلى نصيحتك .

والثاني : أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه تعالى أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد ، وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى قال النحويون : ارتفع قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ بالابتداء والخبر محذوف ، والمعنى : لعمرك قسمي وحذف الخبر ، لأن في الكلام دليلاً عليه وباب القسم يحذف منه الفعل نحو : بالله لأفعلن ، والمعنى : أحلف بالله فيحذف لعلم المخاطب بأنك حالف .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام قال أهل المعاني : ليس في الآية دلالة على أن تلك الصيحة صيحة جبريل عليه السلام فإن ثبت ذلك بدليل قوي قيل به ، وإلا فليس في الآية دلالة إلا على أنه جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله : ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ يقال شرق الشارق يشرق شروقاً لكل ما طلع من جانب الشرق ، ومنه قولهم ما ذر شارق أي طلع طالع فقوله : ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي داخلين في الشروق يقال أشرق الرجل إذا دخل في الشروق ، وهو بزوغ الشمس .

واعلم أن الآية تدل على أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب : أحدها : الصيحة الهائلة المنكرة .

وثانيها : أنه جعل عاليها سافلها .

وثالثها : أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل ، وكل هذه الأحوال قد مر تفسيرها في سورة

هود .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ يقال توسمت في فلان خيراً أي رأيت فيه أثراً منه وتفرسته فيه ، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير المتوسمين قيل : المتفرسين ، وقيل : الناظرين ، وقيل : المتفكرين ، وقيل : المعتبرين ، وقيل : المتبصرين .

(97/427)

---

قال الزجاج : حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته ، والمتوسم الناظر في السمة الدالة تقول : توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته فيه .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ الضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ عائد إلى مدينة قوم لوط ، وقد سبق ذكرها في قوله ؛ ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة ﴾ وقوله : ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي هذه القرى وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يندرس ولم يخف ، والذين يمرون من الحجاز إلى الشام يشاهدونها .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي كل من آمن بالله وصدق الأنبياء والرسل عرف أن ذلك إنما كان لأجل أن الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال ، أما الذين لا يؤمنون بالله

فإنهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه ، وعلى حصول القرانات الكوكبية والاتصالات الفلكية ، والله أعلم .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

اعلم أن هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة .

فأولها : قصة آدم وإبليس .

وثانيها : قصة إبراهيم ولوط .

وثالثها : هذه القصة ، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام ، كانوا أصحاب غياض فكذبوا شعيباً فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة ، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء ، والأيكة الشجر الملتف .

يقال : أيكة وأيك كشجرة وشجر .

قال ابن عباس : الأيك هو شجر المقل ، وقال الكلبي : الأيكة الغيضة ، وقال الزجاج : هؤلاء أهل موضع كان ذا شجر .

قال الواحدي : ومعنى إن واللام للتوكيد وإن ههنا هي المخففة من الثقيلة ، وقوله : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ قال المفسرون : اشتد الحر فيهم أياماً ، ثم اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا عن آخرهم وقوله : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ فيه قولان :

القول الأول : المراد قرى قوم لوط عليه السلام والأيكة .

والقول الثاني : الضمير للأيكة ومدين لأن شعيباً عليه السلام كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقوله : ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به .

قال الفراء والزجاج : إنما جعل الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع .

قال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده وقوله : ﴿ مُّبِينٍ ﴾ يحتمل أنه مبين في نفسه ويحتمل أنه مبين لغيره ، لأن الطريق يهدي إلى المقصد . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 160.162 ﴾

(99/427)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

لَمَّا تَدَاعَى أَهْلُ الْمَدِينَةِ إلَى لُوطٍ حِينَ رَأَوْا وَسَمِعُوا بِجَمَالِ أَضْيَافِهِ ، وَحُسْنِ شَارَتِهِمْ ؛ قَصْدًا لِلْفَاحِشَةِ فِيهِمْ ، تَحَرَّمَ لَهُمْ لُوطٌ بِالضِّيَافَةِ ، وَسَأَلَهُمْ تَرْكَ الْفَضِيحَةِ ، وَإِتْيَانَ الْمُرَاعَاةِ ،

فَلَمَّا قَالُوا لَهُ : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ : إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ قَضَاءَ الشَّهْوَةِ فَهَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ .

وَلَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَنْ يَعْرِضُوا بَنَاتِهِمْ عَلَى الْفَاحِشَةِ فِدَاءً لِفَاحِشَةٍ أُخْرَى ؛ وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ أُمَّتِي ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُ أُمَّتِهِ ، وَبَنَاتُهُمْ بَنَاتُهُ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالتَّزْوِيجِ الشَّرْعِيِّ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى النِّكَاحِ الْجَائِزِ كَسْرًا لِسَوْرَةِ الْغُلْمَةِ ، وَإِطْفَاءً لِنَارِ الشَّهْوَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَعَمْرُك إنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ بِأَجْمَعِهِمْ : أَقْسَمَ اللَّهُ هُنَا بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْرِيفًا لَهُ ، أَنَّ قَوْمَهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ وَفِي حَيْرَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

(100/427)

---

قَالُوا : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : " مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا ذَرَأَ وَلَا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَمَا سَمِعْت اللَّهَ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِهِ " .

وَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ ، وَلَا أَدْرِي مَا الَّذِي أَخْرَجَهُمْ عَنْ ذِكْرِ لُوطٍ إِلَى ذِكْرِ مُحَمَّدٍ ، وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ لُوطٍ ، وَيَبْلُغَ بِهِ مِنَ التَّشْرِيفِ مَا شَاءَ ؛ فَكُلُّ مَا يُعْطِي اللَّهُ لِلُوطٍ مِنْ فَضْلٍ وَيُؤْتِيهِ مِنْ شَرَفٍ فَلِمُحَمَّدٍ ضِعْفَاهُ ؛ لِأَنَّهُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُ .

أَوَلَا تَرَاهُ قَدْ أَعْطَى لِإِبْرَاهِيمَ الْخُلَّةَ ، وَلِمُوسَى التَّكْلِيمَ ، وَأَعْطَى ذَلِكَ لِمُحَمَّدٍ ، فَإِذَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِحَيَاةِ لُوطٍ فَحَيَاةُ مُحَمَّدٍ أَرْفَعُ ، وَلَا يُخْرَجُ مِنْ كَلَامٍ إِلَى كَلَامٍ آخَرَ غَيْرِهِ لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أَرَادَ بِهِ الْحَيَاةَ وَالْعَيْشَ ، يُقَالُ : عُمْرٌ وَعَمْرٌ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا لُغَتَانِ ، وَقَالُوا : إِنَّ أَصْلَهَا الضَّمُّ ، وَلَكِنَّهَا فُتِحَتْ فِي الْقَسَمِ خَاصَّةً لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ ؛ وَالِاسْتِعْمَالُ إِنَّمَا هُوَ فِي غَيْرِ الْقَسَمِ ، فَأَمَّا الْقَسَمُ فَهُوَ بَعْضُ الِاسْتِعْمَالِ ؛ فَلِذَلِكَ صَارَا لُغَتَيْنِ .

فَتَدَبَّرُوا هَذَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : مَنْ أَقْسَمَ بِالنَّبِيِّ لَزِمَتْهُ الْكَفَّارَةُ ؛ لِأَنَّهُ أَقْسَمَ بِمَا لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ ، فَلَزِمَتْهُ الْكَفَّارَةُ ، كَمَا لَوْ أَقْسَمَ بِاللَّهِ .

وَقَدَّمْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقْسِمُ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، وَلَيْسَ لِخَلْقِهِ أَنْ يُقْسِمُوا إلَّا بِهِ لِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاَللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ ﴾ .

فَإِنْ أَقْسَمَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّهُ آثِمٌ ، أَوْ قَدْ أَتَى مَكْرُوهًا عَلَى قَدْرِ دَرَجَاتِ الْقَسَمِ وَحَالِهِ .

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : إنَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالْمُؤَنَّثِينَ مِنْهُمْ يُقْسِمُونَ بِحَيَاتِك وَبِعَيْشِك ، وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الذِّكْرِ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ أَقْسَمَ بِهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَذَلِكَ بَيَانٌ لِشَرَفِ الْمَنْزِلَةِ وَشَرَفِ الْمَكَانَةِ ، فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ سِوَاهُ ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِهِ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : هُوَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَبِهِ أَقُولُ ؛ لَكِنَّ الشَّرْعَ قَدْ قَطَعَهُ فِي الِاسْتِعْمَالِ ، وَرَدَّ الْقَسَمَ إلَيْهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي [ الْأُصُولِ وَفِي ] مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي التَّوَسُّمِ : وَهُوَ تَفَعُّلٌ مِنْ الْوَسْمِ ، وَهُوَ الْعَلَامَةُ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَطْلُوبِ غَيْرِهَا .

قَالَ الشَّاعِرُ يَمْدَحُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنِّي تَوَسَّمْت فِيك الْخَيْرَ نَافِلَةً وَاَللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي صَادِقُ الْبَصَرِ وَفِي الْفِرَاسَةِ أَيْضًا ، يُقَالُ : تَفَرَّسْت وَتَوَسَّمْت .

وَحَقِيقَتُهَا الِاسْتِدْلَال بِالْخَلْقِ عَلَى الْخُلُقِ ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ ، وَحِدَّةِ الْخَاطِرِ ، وَصَفَاءِ الْفِكْرِ .

يُحْكَى أَنَّ الشَّافِعِيَّ وَمُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ كَانَا جَالِسَيْنِ بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ، وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَرَاهُ نَجَّارًا، وَقَالَ الْآخَرُ: بَلْ حَدَّادًا، فَتَبَادَرَ مَنْ حَضَرَ إِلَى الرَّجُلِ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: كُنْتُ نَجَّارًا، وَأَنَا الْآنَ حَدَّادٌ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ عَلَى الْعَادَةِ، فَزَعَمَتْ الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا كَرَامَةٌ.

وَقَالَ غَيْرُهُمْ: بَلْ هِيَ اسْتِدْلَالٌ بِالْعَلَامَةِ، وَمِنْ الْعَلَامَاتِ ظَاهِرٌ يَبْدُو لِكُلِّ أَحَدٍ، بِأَوَّلِ نَظَرٍ، وَمِنْهَا مَا هُوَ خَفِيٌّ فَلَا يَبْدُو لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يُدْرَكُ بِبَادِئِ النَّظَرِ.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ﴾ وَهَذَا مُبَيَّنٌ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: إذَا ثَبَتَ أَنَّ التَّوَهُّمَ وَالتَّفَرُّسَ مِنْ مَدَارِكِ الْمَعَانِي وَمَعَالِمِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حُكْمٌ، وَلَا يُؤْخَذُ بِهِ مَوْسُومٌ وَلَا مُتَفَرِّسٌ.

وَقَدْ كَانَ قَاضِي الْقُضَاةِ الشَّامِيُّ الْمَالِكِيُّ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ كَوْنِي بِالشَّامِ يَحْكُمُ بِالْفِرَاسَةِ فِي الْأَحْكَامِ جَرْيًا عَلَى طَرِيقَةِ إيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَيَّامَ كَانَ قَاضِيهَا ، وَلِشَيْخِنَا فَخْرِ الْإِسْلَامِ أَبِي بَكْرٍ الشَّاشِيِّ جُزْءٌ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ ، كَتَبَهُ لِي بِخَطِّهِ ، وَأَعْطَانِيهِ ، وَذَلِكَ صَحِيحٌ ؛ فَإِنَّ مَدَارِكَ الْأَحْكَامِ مَعْلُومَةٌ شَرْعًا ، مُدْرَكَةٌ قَطْعًا ، وَلَيْسَتْ الْفِرَاسَةُ مِنْهَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(104/427)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾

لعمرك : قسم فيه أربعة أوجه :

أحدها : معناه وعيشك ، وهذا مروي عن ابن عباس .

الثاني : معناه وعملك ، قاله قتادة .

الثالث : معناه وحياتك ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً وقال : ما أقسم الله تعالى بحياة غيره .

الرابع : وحقك ، يعني الواجب على أمتك ، والعمر الحق ، ومنه قولهم : لعمر الله ، أي

وحق الله. وفي ﴿ سكرتهم ﴾ وجهان :

أحدهما : في ضلالتهم ، قاله قتادة .

الثاني : في غفلتهم ، قاله الأعمش .

وفي ﴿ يعمهون ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : معناه يترددون ، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وأبو مالك .

الثاني : يتمارون ، قاله السدي .

الثالث : يلعبون ، قاله الأعمش .

الرابع : يمنعون ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ في ذلك لآياتٍ للمتوسمين ﴾

فيه خمسة أوجه :

أحدها : للمتفرسين ، قاله مجاهد . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ثم تلا هذه الآية . . .

الثاني : للمعتبرين ، قاله قتادة .

الثالث : للمتفكرين ، قاله ابن زيد .

الرابع : للناظرين ، قاله الضحاك . قال زهير بن أبي سلمى :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر . . . أنيقٌ لعَيْنِ الناظر المتوسم

الخامس: للمبصرين، قاله أبو عبيدة. قال الحسن: هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار، ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبي صلى الله عليه وسلم:

إني توسمت فيك الخير أعرِفُه... والله يعلم أني ثابت البصر

قوله عز وجل: ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: لهلاك دائم، قاله ابن عباس.

الثاني: لبطريق معلم، قاله مجاهد. يعني بقوله ﴿ وإنما ﴾ أهل مدائن قوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب.

قوله عز وجل: ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴾



---

يعني في تكذيب رسول الله إليهم وهو شعيب، لأنه بعثَ إلى أمتين، أصحاب الأيكة وأهل مدين. فأما أهل مدين فأهلكوا بالصيحة، وأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة التي احترقوا بنارها، قاله قتادة.

وفي ﴿ الأيكة ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها : أنها الغيضة ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه الشجر الملتف ، وكان أكثر شجرهم الدوم وهو المقل ، وهذا قول ابن جرير ، ومنه قول النابغة الذبياني :

تجلو بقادِمَتي حمامةِ أيكة . . . بَرَداص أُسفَّ لثاثُهُ الإثمدِ

الثالث : أن الأيكة اسم البلد ، وليكة اسم المدينة بمنزلة بكة من مكة ، حكاه ابن شجرة .

قوله عز وجل : ﴿ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمامٍ مبينٍ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : لبطريق واضح ، قاله قتادة . وقيل للطريق إمام لأن المسافر يأتم به حتى يصل إلى مقصده .

الثاني : لفي كتاب مستبين ، قاله السدي . وإنما سمي الكتاب إماماً لتقدمه على سائر الكتب ، وقال مؤرج : هو الكتاب بلغة حِمْيَر .

ويعني بقوله ﴿ وإنهما ﴾ أصحاب الأيكة وقوم لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ ،

يحتمل أن رجع الوصف أمر جرى قبل إعلام لوط بهلاك أمته ، ويدل على هذا أن محاجة لوط لقومه تقتضي ضعف من لم يعلم إهلاكهم ، وأن الأضياف ملائكة ، ويحتمل قوله ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ أن يكون بعد علمه بهلاكهم ، وكان قوله ما يأتي من المحاورة على جهة التهكم عنهم والإملاء لهم والتربص بهم .

قال القاضي أبو محمد : والاحتمال الأول عندي أرجح ، وهو الظاهر من آيات غير هذه السورة ، وقوله ﴿ يستبشرون ﴾ أي بالأضياف طمعاً منهم في الفاحشة ، و" الضيف " مصدر وصف به ، فهو يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث ، وقولهم ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ روي أنهم قد تقدموا إليه في أن لا يضيف أحداً ولا يجيره ، لأنهم لا يراعونه ولا يكتفون عن طلب الفاحشة فيه ، وقرأ الأعمش " إن دابر " بكسر الهمزة وروي أن في قراءة عبد الله " وقضينا إليه ذلك الأمر وقلنا إن دابر هؤلاء مقطوع " ، وذكر السدي أنهم إنما كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباء ولا يفعلونها بعضهم ببعض ، فكانوا يعترضون الطرق ، وقول لوط عليه السلام ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ اختلف في تأويله ، فقيل أراد نساء أمته لأن زوجات النبيين أمهات الأمم وهو أبوهم فالنساء بناته في الحرمة والمراد بالتزويج ، ويلزم هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة ، وقد ورد أن المؤمنات به قليل

جداً ، وقيل إنما أراد بنات صلبه ودعا إلى التزويج أيضاً قاله قتادة ويلزم هذا التأويل أيضاً ما لزم المتقدم في ترتيبنا .

(107/427)

---

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يريد بقوله عليه السلام هؤلاء بناتي بنات صلبه ، ويكون ذلك على طريق المجاز ، وهو لا يحقق في إباحة بناته وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر اقتلني ولا تقتله فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه والاستنزال من جهة ما واستدعاء الحياء منه ، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب بل الغرض منه مفهوم ، وعليه قول النبي عليه السلام

" ولو كمفحص قطاة " ، إلى غير هذا من الأمثلة و" العَمر " و" العُمر " بفتح العين وضمها واحد ، وهما مدة الحياة ، ولا يستعمل في القسم إلا بالفتح ، وفي هذه الآية شرف لمحمد عليه السلام لأن الله تعالى أقسم بحياته ولم يفعل ذلك مع بشر سواه ، قاله ابن عباس .

قال القاضي أبو محمد : والقسم ب ﴿ لعمرك ﴾ في القرآن ، وب " لعمري " ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها في غير موضع .

كقوله : [ الطويل ]

لعمري وما عمري عليَّ بهين . . . وقوله الآخر : [ الوافر ]

لعمر أبيك ما نسب المعالي . . . وكقول الآخر : [ طرفة بن العبد ] [ الطويل ]

لعمرك إن الموت ما أخطأَ الفتى . . . لكالطّوَلِ المرخى وثنياه باليد

والعرب تقول لعمر الله ، ومنه قول الشاعر :

إذا رضيت عليَّ بنو قشير . . . لعمر الله أعجبني رضاها

وقال الأعشى : [ الكامل ]

ولعمر من جعل الشهور علامة . . . فيها فبين نصفها وكمالها

(108/427)

---

ويروى وهلالها ، وقال بعض أصحاب المعاني ، لا يجوز هذا لأنه لا يقال لله تعالى عمر ، وإنما يقال بقاء أزلي ذكره الزهراوي ، وكره إبراهيم النخعي أن يقول الرجل لعمري لأنه حلف بحياة نفسه ، وذلك من كلام ضعفة الرجال ، ونحو هذا ، قول مالك في " لعمري " و " لعمرك " أنها ليست بيمين ، وقال ابن حبيب ينبغي أن تصرف ﴿ لعمرك ﴾ في الكلام اقتداء بهذه الآية ، و﴿ يعمهون ﴾ يرتبكون ويتحيرون ، والضمائر في ﴿ سكرتهم ﴾ يراد بها قوم لوط المذكورون ، وذكر الطبري أن المراد قريش ، وهذا بعيد لأنه ينقطع مما قبله ومما بعده

، وقوله ﴿ لفي سكرتهم ﴾ مجاز وتشبيه ، أي في ضلالتهم وغفلتهم وإعراضهم عن الحق ولهوهم ، و﴿ يعمهون ﴾ معناه يترددون في حيرتهم ، و﴿ مشرقين ﴾ معناه قد دخلوا في الإشراق وهو سطوع ضوء الشمس وظهوره قاله ابن زيد .

(109/427)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذه " الصيحة " هي صيحة الوجبة وليست كصيحة ثمود ، وأهلكوا بعد الفجر مصبحين واستوفاهم الهلاك مشرقين ، وخبر قوله ﴿ لعمرك ﴾ محذوف تقديره لعمرك قسمي أو يميني ، وفي هذا نظر ، وقرأ ابن عباس و" عمرك " ، وقرأ الأشهب العقيلي " لفي سُكرتهم " بضم السين ، وقرأ ابن أبي عبلة " لفي سكراتهم " ، وقرأ الأعمش " لفي سكرهم " بغير تاء ، وقرأ أبو عمرو في رواية الجهضمي " أنهم في سكرتهم " بفتح الألف ، وروي في معنى قوله ﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ أن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحيه ورفعها حتى سمعت ملائكة السماء صراخ الديكة ونباح الكلاب ثم قلبها وأرسل الكل ، فمن سقط عليه شيء من جرم المدينة مات ، ومن أفلت منهم أصابته ﴿ حجارة من سجيل ﴾ ، و﴿ سجيل ﴾ اسم من الدنيا ، وقيل لفظة فارسية ، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالآجر ونحوه ، وقد تقدم القول في هذا و" المتوسمون " قال

مجاهد المتفرسون ، وقال الضحاك الناظرون ، وقال قتادة المعتبرون ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه ، وهذا كله تفسير بالمعنى ، وأما تفسير اللفظة فإن المعاني التي تكون في الإنسان وغيره من خير أو شر يلوح عليه وسم عن تلك المعاني ، كالسكون والدماثة واقتصاد الهيئة التي تكون عن الخير ونحو هذا ، فالمتوسم هو الذي ينظر في وسم المعنى فيستدل به على المعنى ، وكأن معصية هؤلاء أبقت من العذاب والإهلاك وسماً ، فمن رأى الوسم استدل على المعصية به واقتاده النظر إلى تجنب المعاصي لئلا ينزل به ما نزل بهم ، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر : [ الطويل ]

توسمته لما رأيت مهابة . . . عليه وقلت المرء من آل هاشم

وقال آخر :

فظللت فيها واقفاً أتوسم . . . وقال آخر :

(110/427)

---

إني توسمت فيك الخير نافلة . . . والضمير في قوله ﴿ وإنها ﴾ يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة ؛ أي أنها في طريق ظاهر بين للمعتبر ، وهذا تأويل مجاهد وقتادة وابن زيد ، ويحتمل أن يعود على الآيات ، ويحتمل أن يعود على الحجارة ، ويقوي هذا التأويل ما روي أن النبي

عليه السلام قال : " إن حجارة العذاب معلقة بين السماء والأرض منذ ألفي سنة لعصاة أمتي " ، وقوله ﴿ الآية ﴾ أي أمارة وعلامة كما تقول آية ما بيني وبينك كذا وكذا .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

﴿ الأيكة ﴾ الغيضة والشجر الملتف المخضر يكون السدر وغيره ، قال قتادة ، وروي أن أيكة هؤلاء كانت من شجر الدوم ، وقيل من المقل ، وقيل من السدر ، وكان هؤلاء قوماً يسكنون غيضة ويرتفقون بها في معايشهم فبعث الله إليهم شعيباً فكفروا فسلط الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أيام ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها فاضطرمت عليهم ناراً ، وحكى الطبري قال : بعث شعيب إلى أمتين كفرتا فعذبتا بعذابين مختلفين : أهل مدين عذبوا بالصيحة ، و﴿ أصحاب الأيكة ﴾ ، ولم يختلف القراء في هذا الموضع في إدخال الألف واللام على " أيكة " ، وأكثرهم همز ألف أيكة بعد اللام ، وروي عن بعضهم أنه سهلها ونقل حركتها إلى اللام فقرأ " أصحاب الأيكة " دون همز ، واختلفوا في سورة الشعراء وفي صورة ص ، و﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين ، وقال الفراء ﴿ إن ﴾ بمعنى ما ، واللام في قوله ﴿ لظالمين ﴾ بمعنى إلا . قال أبو علي : الأيك جمع أيكة كثرة وتمر .

قال القاضي أبو محمد : ومن الشاهد على اللفظة قول أمية بن أبي الصلت :

كبكاء الحمام على غصون الأي . . . ك في الطير الجوانح

ومنه قول جرير : [ الوافر ]

وقفت بها فهاج الشوق مني . . . حمام الأيك يسعدها حمام

ومنه قول الآخر :

(111/427)

---

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة . . . إذا اخضرَّ منها جانب جف جانب

ومنه قول الهذلي :

موشحة بالطرتين دنا لها . . . جنا أيكةٍ تضفو عليها قصارها

وأنشد الأصمعي : [ البسيط ]

وما خليج من المروت ذو حدب . . . يرمي الصعيد بخشب الأيك والضال

والضمير في قوله ﴿ وإنهما ﴾ يحتمل أن يعود على المدينتين اللتين تقدم ذكرهما : مدينة قوم لوط ، ومدينة أصحاب الأيكة ، ويحتمل أن يعود للنبيين : على لوط وشعيب ، أي أنهما على طريق من الله وشرع مبين . و" الإمام " في كلام العرب الشيء الذي يهتدي به ويؤتم ، يقولونه لخيط البناء ، وقد يكون الطريق ، وقد يكون الكتاب المفيد ، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع ، وقد يكون الرجل المقتدى به ، ونحو هذا ، ومن رأى عود الضمير

في ﴿ إنهما ﴾ على المدينتين قال "الإمام" الطريق ، وقيل على ذلك "الإمام" الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(112/427)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وجاء أهلُ المدينة ﴾

وهم قوم لوط ، واسمها سَدُوم ، ﴿ يستبشرون ﴾ بأضياف لوط ، طمعاً في ركوب الفاحشة ، فقال لهم لوط : ﴿ إِن هؤلاء ضيفي فلا تفضحونِ ﴾ أي : بقصدكم إِياهم بالسوء ، يقال : فضَحَه يفضَحُه : إِذا أبان من أمره ما يلزمه به العار ، وقد أثبت يعقوب ياء "تفضحون" و"لا تُخزون" في الوصل والوقف .

قوله تعالى : ﴿ أوَلَم ننهك عن العالَمين ﴾ أي : عن ضيافة العالَمين .

قوله تعالى : ﴿ بناتي إِن كنتم ﴾ حرك ياء "بناتيَ" نافع ، وأبو جعفر .

قوله تعالى : ﴿ لعمرك ﴾

فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناه : وحياتك يا محمد ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثاني: لَعَيْشُك، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الأخفش، وهو يرجع إِلى معنى الأول.

والثالث: أن معناه: وحقّك على أمتك، تقول العرب: لَعَمْرُ اللهِ لا أقوم، يعنون: وحَق الله، ذكره ابن الأنباري.

قال: وفي العَمْرِ ثلاث لغات.

عَمْرٌ وعُمْرٌ وعُمُرٌ، وهو عند العرب: البقاء.

وحكى الزجاج أن الخليل وسيبويه وجميع أهل اللغة قالوا: العَمْرُ والعُمْرُ في معنى واحد، فإذا استُعمل في القسَم، فُتح لا غير، وإِنما آثروا الفتح في القسَم، لأن الفتح أخف عليهم، وهم يؤكدون القسَم ب "لعَمري" و "لعَمّرك"، فلما كثر استعمالهم إِياه، لزموا الأخف عليهم، قال: وقال النحويون: ارتفع "لَعمرُكَ" بالابتداء، والخبر محذوف، والمعنى: لعَمْرك قَسَمي، ولعَمْرك ما أُقسِمُ به، وحُذف الخبر، لأن في الكلام دليلاً عليه.

المعنى: أُقسِم ﴿ إِنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾.

وفي المراد بهذه السكرة قولان:

أحدهما: أنها بمعنى الضلالة، قاله قتادة.

والثاني: بمعنى الغفلة، قاله الأعمش.

وقد شرحنا معنى العَمَه في سورة [البقرة: 15].

وفي المشار إليهم بهذا قولان.

أحدهما: أنهم قوم لوط، قاله الأكثرون.

*(113/427)*

---

والثاني: قوم نبينا صلى الله عليه وسلم، قاله عطاء.

قوله تعالى: ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ يعني: صيحة العذاب، وهي صيحة جبريل عليه السلام.

﴿ مُشرقين ﴾ قال الزجاج: يقال: أشرقنا، فنحن مُشرقون: إِذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما يقال: أصبحنا: إِذا صادفوا الصبح، يقال: شَرَقت الشمس: إِذا طلعت، وأشرقت: إِذا أضاءت وصَفَت، هذا أكثر اللغة.

وقد قيل: شَرَقت وأشرقت في معنى واحد، إِلا أن "مُشرقين" في معنى مصادِفين لطلوع الشمس.

قوله تعالى: ﴿ فجعلنا عاليها سافلها ﴾ قد فسرنا الآية في سورة [ هود: 82 ].

وفي المتوسِّمين أربعة أقوال:

أحدها: أنهم المتفرِّسُون، روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال

: " اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ثم قرأ ﴿ إِن في ذلك لآيات للمتوسِّمين ﴾ قال : المتفرِّسين ، وبهذا قال مجاهد ، وابن قتيبة .

قال ابن قتيبة : يقال : توسَّمتُ في فلان الخير ، أي : تبيَّنتُه .

وقال الزجاج : المتوسمون ، في اللغة : النُّظَّار المتثبِّتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سِمة الشيء ، يقال : توسمت في فلان كذا ، أي : عرفت وسم ذلك فيه .

وقال غيره : المتوسم : الناظر في السِّمَة الدالة على الشيء .

والثاني : المعتبرون ، قاله قتادة .

والثالث : الناظرون ، قاله الضحاك .

والرابع : المتفكرون ، قاله ابن زيد ، والفراء .

قوله تعالى : ﴿ وإِنها ﴾ يعني : قرية قوم لوط ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لَبِطريق واضح ، رواه نهشل عن الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والزجاج .

وقال ابن زيد : لبِطَريق متبيِّن .

والثاني : لبهلاك .

رواه أبو رَوْق عن الضحاك عن ابن عباس ، والمعنى : إِنها بحال هلاكها لم تُعْمَر حتى الآن ،

فالاعتبار بها ممكن، وهي على طريق قريش إِذا سافروا إِلى الشام.

قوله تعالى: ﴿ وإِن كان أصحاب الأيكة الظالمين ﴾

(114/427)

---

قال الزجاج: معنى "إِنْ" واللام: التوكيدُ، والأيك: الشجر الملتف، فالفصل بين واحده وجمعه، الهاء.

فالمعنى: أصحاب الشجرة.

قال المفسرون: هم قوم شعيب، كان مكانُهم ذا شجر، فكذَّبوا شعيباً فأُهلكوا بالحرِّ كما بيَّنا في سورة [هود: 87].

قوله تعالى: ﴿ وإِنهما ﴾ في المكنى عنهما قولان.

أحدهما: أنهما الأيكة ومدينة قوم لوط، قاله الأكثرون.

والثاني: لوط وشعيب، ذكره ابن الأنباري.

وفي قوله: ﴿ لبإمام مبين ﴾ قولان:

أحدهما: لبطريق ظاهر، قاله ابن عباس.

قال ابن قتيبة: وقيل للطريق: إِمام، لأن المسافر يأتمُّ به حتى يصير إِلى الموضع الذي يريده.

والثاني : لفي كتاب مستبين ، قاله السدي .

قال ابن الأنباري : "وإِنهما" يعني : لوطاً وشعيباً بطريق من الحق يؤتم به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(115/427)

---

وقال القرطبى :

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة ﴾

أي أهل مدينة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعاً منهم في ركوب الفاحشة .

﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِي ﴾ أي أضيافي .

﴿ فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ أي تخجلون .

﴿ واتقوا الله وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن يكون من الخزي وهو الذل والهوان ، ويجوز أن يكون من الخَزاية وهو الحياء والخجل .

وقد تقدّم في هود .

﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ أي عن أن تضيف أحداً لأنا نريد منهم الفاحشة .

وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء ؛ عن الحسن .

وقد تقدم في الأعراف .

وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة .

﴿ قَالَ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي فتزوّجوهن ولا تركنوا إلى الحرام .

وقد تقدّم بيان هذا في هود .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعالى بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له ، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حَيْرتهم يتردّدون .

قلت : وهكذا قال القاضي عِياض : أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال .

ومعناه وبقائك يا محمد .

وقيل وحياتك .

وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف .

قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم البرية عنده .

قال ابن العربي : "ما الذي يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتي ضعفيه من شرفٍ لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخُلّة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد ، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع .

*(116/427)*

---

ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة" .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاماً معترضاً في قصة لوط.

قال القشيريّ أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم في تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أي كانوا في سكرتهم يعمهون .

وقيل : لما وعظ لوط قومَه وقال هؤلاء بناتي قالت الملائكة : يا لوط ، "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" ولا يدرون ما يحلّ بهم صباحاً .

فإن قيل: فقد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين؛ فما في هذا ؟ قيل له: ما من شيء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضله على ما يدخل في عداده، فكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو في عداده.

والعُمْر والعَمْر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل في القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال.

وتقول: عَمْرك الله، أي أسأل الله تعميرك.

و"لَعَمْرُكَ" رفع بالابتداء وخبره محذوف.

المعنى لعمرك مما أقسم به.

الثانية: كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمري؛ لأن معناه وحياتي.

قال إبراهيم النَّخَعِيّ: يكره للرجل أن يقول لعمري؛ لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضَعَفة الرجال.

ونحو هذا قال مالك: إن المستضعفين من الرجال والمؤنّثين يقسمون بحياتك وعَيْشك، وليس من كلام أهل الذُّكْران، وإن كان الله سبحانه أقسم به في هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل في غيره.

وقال ابن حبيب: ينبغي أن يُصرف "لعمرك" في الكلام لهذه الآية.

وقال قتادة: هو من كلام العرب.

قال ابن العربيّ : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم ب"لعمرك ولعمري" ونحوه في أشعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة :

لَعَمْرِي وما عَمْرِي عليّ بهيّنٍ . . .

لقد نَطقتْ بُطْلاً عليّ الأقارع

آخر :

(117/427)

---

لَعُمْرُكَ إن الموت ما أخطأ الفتى . . .

لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياه باليَدِ

آخر :

أيّها المنكح الثُّرّيا سُهيلاً . . .

عَمْرَكَ الله كيف يلتقان

آخر :

إذا رَضيتْ عليّ بنو قُشيْر . . .

لعَمْرُ اللَّهِ أعجبني رضاها

وقال بعض أهل المعاني : لا يجوز هذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر ، وإنما هو تعالى أزليّ .

ذكره الزهراوي .

الثالثة : قد مضى الكلام فيما يُحلَف به وما لا يجوز الحلف به في "المائدة" ، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبيّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة .

قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى مما يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوماً ؛ لأنه في الباطن مستخِفّ بما وجب عليه تعظيمه .

قالوا : وقوله تعالى "لعمرك" أي وحياتك .

وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيّه فإنما أراد بيان التصريح لنا أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته .

وعلى مذهب مالك معنى قوله : "لعمرك" و ﴿ والتين والزيتون ﴾ [ التين : 1 ] ﴿ والطور وكتاب مُّسْطُورٍ ﴾ [ الطور : 21 ] ﴿ والنجم إِذَا هوى ﴾ [ النجم : 60 ] ﴿ والشمس وَضُحَاهَا ﴾ [ الشمس : 1 ] ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد * وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ [ البلد : 31 ] كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون ، وبرب الكتاب المسطور ، وبرب البلد الذي حللت به ، وخالق عيشك وحياتك ، وحق محمد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سبحانه لا بالمخلوق .

قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ومن جوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تحلفوا بآبائكم " وقال : إنما نَهى عن الحلف بالآباء الكفارِ ، ألا ترى أنه قال لما حلفوا بآبائهم : " للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية " ومالك حمل الحديث على ظاهره .

(118/427)

---

قال ابن خُوَيْزِمنداد : واستدل أيضاً من جوّز ذلك بأن أيمان المسلمين جرت منذ عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا حاكم أحدهم صاحبَه قال : احلف لي بحق ما حواه هذا القبر ، وبحق ساكن هذا القبر ، يعني النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحَرَم والمشَاعر العظام ، والرُّكن والمقَام والمحراب وما يُتْلى فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ ﴾

نصب على الحال ، أي وقت شروق الشمس .

يقال : أشرقت الشمس أي أضاءت ، وشرَقت إذا طلعت .

وقيل : هما لغتان بمعنى .

وأشرق القوم أي دخلوا في وقت شروق الشمس .

مثل أصبحوا وأمسوْا ، وهو المراد في الآية .

وقيل : أراد شروق الفجر .

وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس ، فكان تمام الهلاك عند ذلك . والله أعلم .

و"الصيحة" العذاب .

وتقدّم ذكر "سِجّيل" .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ روى التّرمذيّ الحكيم في ( نوادر الأصول ) من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " للمتفرسين " وهو قول مجاهد .

وروى أبو عيسى التّرمذيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتّقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ "إِن فِي ذلك لآياتٍ لِلمتوسّمِين" " قال : هذا حديث غريب .

وقال مقاتل وابن زيد : للمتوسمين للمتفكرين .

الضحاك: للناظرين.

قال الشاعر:

أوَكلّما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ . . .

بعثوا إليّ عريفَهم يتوسّم

وقال قتادة: للمعتبرين.

قال زهير:

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظرٌ . . .

أنيقٌ لعينِ الناظر المتوسّمِ

وقال أبو عبيدة: للمتبصرين، والمعنى متقارب.

(119/427)

---

وروى الترمذِيّ الحكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن للَّهِ عز وجل عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم".

قال العلماء: التوسّم تفعّل من الوَسْم، وهي العلامة التي يستدلّ بها على مطلوب غيرها.

يقال: توسّمت فيه الخير إذا رأيت مِيسَم ذلك فيه؛ ومنه قول عبد الله بن رَوَاحة للنبيّ

صلى الله عليه وسلم :

إني توسّمت فيك الخير أعرفه . . .

والله يعلم أني ثابت البصر

آخر :

توسمته لما رأيت مهابة . . .

عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها .

وتوسّم الرجل طلب كلأ الوَسْمِيّ .

وأنشد :

وأصبحن كالدَّوْم النّواعِم غُدْوةً . . .

على وجْهةٍ من ظاعنٍ مُتَوَسّم

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فَرْقك إلى قدمك .

وأصل التوسّم التثبت والتفكر ؛ مأخوذ من الوَسْم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر .

زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصي وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا .

روى نَهْشَل عن ابن عباس "للمتوسمين" قال : لأهل الصلاح والخير .

وزعمت الصوفية أنها كرامة .

وقيل : بل هي استدلال بالعلامات ، ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأوّل نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادىء النظر .

قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة .

ومثله قول ابن عباس : ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه .

وروي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بِفِناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجاراً ، وقال الآخر : بل حدّاداً ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجاراً وأنا اليوم حدّاد .



---

وروي عن جُنْدَب بن عبد الله البَجَلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سَمّع سمّع الله به ، ومن راءى راءى الله به .

فقلنا له : كأنك عرّضت بهذا الرجل ، فقال : إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غداً

حَرُورِياًّ ؛ فكان رأس الحُرورِيّة ، واسمه مرداس .

وروي عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البَصرة إن لم يحُدِث ، فكان من أمره من القدر ما كان ، حتى هجره عامة إخوانه .

وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة ، ولم يستثن .

وروي عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأزْدي وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى في رأسك ، وكان كذلك .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر ، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيّهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث .

فقال : ما له قاتله الله ! إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً ؛ فكان منه في الفتنة ما كان .

وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه ، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة ، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم عليّ وفي عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْياً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ولكن برهان وفراسة وصدق .

ومثله كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين .

الثانية : قال ( القاضي ) أبو بكر بن العربي : "إذا ثبت أن التوسم والتفرّس من مدارك المعاني فإن ذلك لا يترتب عليه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس .

وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد أيام كوني بالشام يحكم بالفراسة في الأحكام، جَرْياً على طريق إياس بن معاوية أيام كان قاضياً، وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءاً في الردّ عليه، كتبه لي بخطه وأعطانيه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً وليست الفِراسة منها.

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) ﴾

(121/427)

---

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعني قرى قوم لوط.

﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي على طريق قومك يا محمد إلى الشام.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعبرة للمصدّقين.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيكة لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غِياض ورياض وشجر مثمر.

والأَيكة: الغَيْضة، وهي جماعة الشجر، والجمع الأَيك.

ويروى أن شجرهم كان دَوْماً وهو المُقْل.

قال النابغة:

تَجْلُو بقَادِمَتَيْ حمامة أَيْكةٍ . . .

بَرَداً أُسِفّ لِثَاتُه بالإِثْمِد

وقيل : الأيكة اسم القرية .

وقيل اسم البلدة .

وقال أبو عبيدة : الأيكة ولَيْكة مدينتهم ، بمنزلة بكة من مكة .

وتقدّم خبر شعيب وقومه .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بطريق واضح في نفسه ، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمرّ عليهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(122/427)

---

وقال الخازن :

﴿ وجاء أهل المدينة ﴾

يعني مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط ﴿ يستبشرون ﴾ يعني يبشر بعضهم بعضاً بأضياف لوط والاستبشار : إظهار الفرح والسرور ، وذلك أن الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك ، وكانوا شباناً مرداً في غاية الحسن

ونهاية الجمال فجاء قوم لوط إلى داره طمعاً منهم في ركوب الفاحشة ﴿ قال ﴾ يعني قال لوط لقومه ﴿ إن هؤلاء ضيفي ﴾ وحق على الرجل إكرام ضيفه ﴿ فلا تفضحون ﴾ يعني فيهم يقال فضحه يفضحه إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه ﴿ واتقوا الله ﴾ يعني خافوا الله في أمرهم ﴿ ولا تخزون ﴾ يعني ولا تخجلون ﴿ قالوا ﴾ يعني : قوم لوط الذين جاؤوا إليه ﴿ أولم ننهك عن العالمين ﴾ يعني أولم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين .

وقيل : معناه أو لم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك ، فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة :

وقيل : معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة .

﴿ قال ﴾ يعني لوط لقومه الذين قصدوا أضيافه ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ أزوجكم إياهن إن أسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل : أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ يعني ما آمركم به ﴿ لعمرك ﴾ الخطاب فيه للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال ابن عباس : معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ( صلى الله عليه وسلم ) وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الإنسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته .

قال النحويون : ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمي فحذف الخبر لأن في الكلام دلالة عليه .

﴿ إنهم لفي سكرتهم ﴾ يعني في حيرتهم وضلالتهم وقيل غفلتهم ﴿ يعمهون ﴾ يعني يترددون متحيرين وقال قتادة: يلعبون ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ يعني حين أضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذي نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين أشرقت الشمس ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ تقدم تفسيره في سورة هود ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني الذي نزل بهم من العذاب ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ قال ابن عباس: للناظرين.

وقال قتادة: للمعتبرين.

وقال مقاتل: للمتفكرين.

وقال مجاهد: للمتفرسين ويعضد هذا التأويل ما روي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ إن في ذلك لآيات للمتوسمين" أخرجه الترمذي وقال حديث غريب.

الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست في فلان الخير.

وهي على نوعين: أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث، وهو ما يوقعه الله في قلوب أوليائه

فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات ، وإصابة الحدس والنظر والظن والتثبيت ، والنوع الثاني ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والأخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضاً وللناس في علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثه .

قال الزجاج : حقيقة المتوسمين في اللغة المتثبتين في نظرهم حتى يعرفوا سمة الشيء وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر في سمة الدلائل ، تقول توسمت في فلان كذا أي عرفت وسم ذلك وسمته ﴿ وإنها ﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ يعني بطريق واضح .

(124/427)

---

قال مجاهد : بطريق معلم ليس بخفي ولا زائل والمعنى : أن آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر ولم يخف ، والذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني الذي ذكر من عذاب قوم لوط ، وما أنزل بهم ﴿ لآية للمؤمنين ﴾ يعني المصدقين لما أنزله على رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴾ يعني كان أصحاب الأيكة وهي الغيضة ، واللام في قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض ، وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوماً كافرين فبعث الله إليهم شعيباً رسولاً فكذبوه

فأهلكهم الله فهو قوله تعالى ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ يعني بالعذاب وذلك أن الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى كالظلة فالتجؤوا إليها ، واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم جميعاً ﴿ وإنهما ﴾ يعني مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة ﴿ لبإمام مبين ﴾ يعني طريق واضح مستبين لمن مر بهما ، وقيل : الضمير راجع إلى الأيكة ومدين لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما وإنما سمي الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع ، ولأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(125/427)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

الفضح والفضيحة مصدران لفضح يفضح ، إذا أتى من أمر الإنسان ما يلزمه به العار ،

ويقال : فضحك الصبح ، إذا تبين للناس .

قال الشاعر :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا . . .

مثل القلامة قد قصت من الظفر

التوسم : تفعل من الوسم ، هي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها ، يقال : توسم فيه الخير إذا رأى ميسم ذلك .

وقال عبد الله بن رواحة في رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) :

إني توسمت فيك الخير أجمعه . . .

والله يعلم أني ثابت البصر

وقال الشاعر :

توسمت لما أن رأيت مهابة . . .

عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتسم الرجل جعل لنفسه علامة يعرف بها ، وتوسم الرجل طلب كلاء الوسمي .

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك .

وأصل التوسم التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البعير أو غيره .

﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون .

قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون .

واتقوا الله ولا تخزون .

قالوا أولم ننهك عن العالمين .

قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين .

لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون .

فأخذتهم الصيحة مشرقين .

فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل .

إن في ذلك لآيات للمتوسمين .

وإنها لبسبيل مقيم .

إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ : استبشارهم : فرحهم بالأضياف الذين وردوا على لوط عليه السلام .

والظاهر أنّ هذا المجيء ومحاورته مع قومه في حق أضيافه ، وعرضه بناته عليهم ، كان ذلك كله قبل إعلامه بهلاك قومه وعلمه بأنهم رسل الله ، ولذلك سماهم ضيفان خوف الفضيحة ، لأجل تعاطيهم ما لا يجوز من الفعل القبيح .

وقد جاء ذلك مرتباً هكذا في هود ، والواو لا ترتب .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المجيء والمحاورة بعد علمه بهلاكهم ، وخاور تلك المحاورة على جهة التكتم عنهم ، والإملاء لهم ، والتربص بهم انتهى .

ونهاهم عن فضحهم إياه لأنّ من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه .

ولا تخزون من الخزي وهو الإذلال ، أو من الخزاية وهو الاستحياء .

وفي قولهم : أو لم ننهك دليل على تقدم نهيهم إياه عن أن يضيف ، أو يجبر أحداً ، أو يدفع عنه ، أو يمنع بينهم وبينه ، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد .

وكان هو صلى الله على نبينا وعليه يقوم بالنهي عن المنكر ، والحجز بينهم وبين من تعرضوا له ، فأوعدوه بأنه إنْ لم ينته أخرجوه .

وتقدم الكلام في قوله : بناتي ، ومعنى الإضافة في هود .

وإن كنتم فاعلين شك في قبولهم لقوله : كأنه قال إن فعلتم ما أقول ، ولكم ما أظنكم تفعلون .

وقيل : إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم .

واللام في لعمرك لام الابتداء ، والكاف خطاب للوط عليه السلام ، والتقدير : قالت الملائكة للوط لعمرك ، وكنى عن الضلالة والغفلة بالسكرة أي : تحيرهم في غفلتهم ، وضلالتهم منعهم عن إدراك الصواب الذي يشير به من ترك البنين إلى البنات .

وقيل : الخطاب للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، وهو قول الجمهور ابن عباس ، وأبو الحوراء ، وغيرهما .

أقسم تعالى بحياته تكريماً له .

والعمر : بفتح العين وضمها البقاء ، وألزموا الفتح القسم ، ويجوز حذف اللام ، وبذلك قرأ ابن عباس : وعمرك .

وقال أبو الهيثم : لعمرك لدينك الذي يعمر ، وأنشد :

أيها المنكح الثريا سهيلاً . . .

عمرك الله كيف يلتقيان

أي : عبادتك الله .

وقال ابن الأعرابي : عمرت ربي أي عبدته ، وفلان عامر لربه أي عابد .

قال : ويقال تركت فلاناً يعمر ربه أي يعبده ، فعلى هذا لعمرك لعبادتك .

وقال الزجاج : ألزموا الفتح القسم لأنه أخف عليهم ، وهم يكثرون القسم بلعمرى ولعمرك فلزموا الأخف ، وارتفاعه بالابتداء ، والخبر محذوف أي : ما أقسم به .

وقال بعض أصحاب المعاني : لا يجوز أن يضاف إلى الله ، لأنه لا يقال لله تعالى عمر ، وإنما يقال : هو أزلي ، وكأنه يوهم أنّ العمر لا يقال إلا فيما له انقطاع ، وليس كذلك العمر ، والعمر البقاء .

قال الشاعر :

إذا رضيت عليّ بنو قشير . . .

لعمر الله أعجبني رضاها

وقال الأعشى :

ولعمر من جعل الشهور علامة . . .

فبين منها نقصها وكمالها

وكره النخعي أن يقال : لعمري ، لأنه حلف بحياة المقسم .

وقال النابغة :

لعمري وما عمري عليّ بهين . . .

والضمير في سكرتهم عائد على قوم لوط ، وقال الطبري : لقريش ، وهذا مروي عن ابن عباس .

قال : ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد قال له : وحياتك إنهم أي قومك من قريش لفي سكرتهم أي ضلالهم ، وجهلهم يعمهون يتردّدن .

قال ابن عطية : وهذا بعيد لانقطاعه مما قبله وما بعده .

وقرأ الأشهب : سكرتهم بضم السين ، وابن أبي عبلة : سكراتهم بالجمع ، والأعمش : سكرهم بغير تاء ، وأبو عمرو في رواية الجهضمي : أنهم بفتح همزة أنهم .

والصيحة : صيحة الهلاك .

وقيل : صوت جبريل عليه السلام .

وقال ابن عطية : هي صيحة الوحشة ، وليست كصيحة ثمود مشرقين : داخلين في الشروق ، وهو بزوغ الشمس .

وقيل : أول العذاب كان عند الصبح ، وامتد إلى شروق الشمس ، فكأنه تمام الهلاك عند ذلك .

والضمير في عاليها سافلها عائد على المدينة المتقدّمة الذكر .

وقال الزمخشري : لقرى قوم لوط ، ولم يتقدم لفظ القرى .

وقال مقاتل وابن زيد : للمتوسمين ، للمتفكرين .

وقال الضحاك : للناظرين .

قال الشاعر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة . . .

بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقال أبو عبيدة : للمتبصرين .

وقال قتادة : للمعتبرين .

وروي نهشل عن ابن عباس للمتوسمين قال : لأهل الصلاح والخير ، والضمير في وأنها عائد

على المدينة المهلكة أي : أنها لبطريق ظاهر بين للمعتبر قاله : مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

قيل : ويحتمل أن يعود على الآيات ، ويحتمل أن يعود على الحجارة .

وقوله : لبسبيل أي ممر ثابت ، وهي بحيث يراها الناس ويعتبرون بها لم تندرس .

وهو تنبيه لقريش ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل .



---

وقيل : عائد على الصيحة أي : وإنّ الصيحة لبمرصد لمن يعمل عملهم لقوله : وما هي من الظالمين ببعيد .

وقيل : مقيم معلوم .

وقيل : معتد دائم .

وقال ابن عباس : هلاك دائم السلوك إنّ في ذلك أي : في صنعنا بقوم لوط لعلامة ودليلاً لمن آمن بالله .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

الأيكة : الشجرة الملتفة واحدة أيك .

قال الشاعر :

تجلو بقادمتي حمامة ايكة . . .

برداً أسف لثاته بالإثمد

﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين .

فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ : هم قوم شعيب ، والأيكة التي أضيفوا إليها كانت

شجر الدوم .

وقيل : المقل .

وقيل : السدر .

وقيل : الأيكة اسم الناحية ، فيكون علماً .

ويقويه قراءة من قرأ في الشعراء وص : ليكة ممنوع الصرف .

كفروا فسلط الله عليهم الحر ، وأهلكوا بعذاب الظلة .

ويأتي ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى في سورة الشعراء .

وإنْ عند البصريين هي المخففة من الثقيلة ، وعند الفراء نافية ، واللام بمعنى ألا .

وتقدم نظير ذلك في : ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ في البقرة .

والظاهر قول الجمهور من أنّ الضمير في وأنهما عائد على قريتي : قوم لوط ، وقوم شعيب .

أي : على أنهما ممر السائلة .

وقيل : يعود على شعيب ولوط أي : وإنهما لبإمام مبين ، أي بطريق من الحق واضح ،

والإمام الطريق .

وقيل : وإنهما أي : الحر بهلاك قوم لوط وأصحاب الأيكة ، لفي مكتوب مبين أي : اللوح المحفوظ .

قال مؤرج : والإمام الكتاب بلغة حمير .

وقيل : يعود على أصحاب الأيكة ومدين ، لأنه مرسل إليهما ، فدل ذكر أحدهما على الآخر ، فعاد الضمير إليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(129/427)

---

وقال الثعالبى :

وقوله : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، أي : بالأضياف طَمَعاً منهم في الفاحِشَةِ ، وقولهم : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ : روي أنهم كانوا تقدَّموا إليه في ألاَّ يضيفَ أحداً ، والعَمْر والعُمْر - بفتح العين وضمِّها - واحدٌ ، وهما مدة الحياة ، ولا يستعمل في القَسَم إلا بالفتحِ ، وفي هذه الآية شرَفٌ لنبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ أقسَمَ بحياته ، ولم يفعلْ ذلك مع بَشَرٍ سواه ؛ قاله ابن عباس .

* ت * : وقال : * ص * : اللام في ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ للابتداءِ ، والكافُ خطابٌ للُوطٍ

عليه السلام، والتقديرُ: قالتِ الملائكةُ له: لَعَمْرُكَ، واقتصر على هذا.

وما ذَكَرَهُ *ع*: هو الذي عوَّل عليه عِيَاضٌ وغيره.

وقال ابن العربيِّ في «أحكامه»: قال المفسّرون بأجمعهم: أَقْسَمَ اللَّهُ في هذه الآيَةِ بحَيَاةِ محمَّد صلى الله عليه وسلم، ولا أَدْرِي ما أخرجَهم عن ذكْرِ لُوطٍ إلى ذكْرِ محمَّد عليه السلام، وما المانعُ أنْ يُقْسِمَ اللَّه بحياةِ لوطٍ، ويبلغ به من التشريفِ ما شاءَ، وكُلُّ ما يُعْطِي اللَّهِ لِلُوطٍ مِنْ فضلٍ، ويؤتيه مِنْ شَرَفٍ، فلنبيِّنا محمَّد عليه السلام، ضعفاه؛ لأنه أكرمُ على اللَّه منه، وإذا أقسم اللَّه بحياةِ لوطٍ، فحياة نبينا محمَّد عليه السلام أرْفع، ولا يخرج من كلامٍ إلى كلامٍ آخر غيره، لم يجْرِ له ذكْرٌ؛ لغير ضرورة. (1) انتهى

*ت*: وما ذَكَرَه الجمهورُ أحْسَنُ؛ لأن الخطاب خطابُ مواجهةٍ؛ ولأنه تفسير صحابيٍّ، وهو مقدَّم على غيره.

و﴿ يَعْمَهُونَ ﴾: معناه: يتردَّدون في حيرتهم، و﴿ مُشْرِقِينَ ﴾: معناه: قد دَخَلوا في الإِشراق، وهو سطوعُ ضوء الشمس وظهوره؛ قاله ابن زيد، وهذه الصَّيْحَةُ هي صيحة الوجْبَة، وليستْ كصيحةِ ثمود، وأهلكوا بعد الفَجْرِ مُصْبحين، واستوفاهم الهَلاَكُ مُشْرِقين، وباقي قصص الآية تقدَّم تفسير.

---

(1) كيف لم يجر له ذكر. صلى الله عليه وسلم. والكلام من أوله خطاب لرسول الله. صلى الله عليه وسلم. من قوله تعالى ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾ وحتى لو لم

يجر له ذكره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن الضمير يعود عليه كثيرا ـ صلى الله عليه وسلم ـ

كما فى قوله تعالى ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة . والله أعلم .

(130/427)

---

و«للمتوسمين» : قال مجاهد : المتفرِّسون ، وقال أيضاً : المعتبرون ، وقيل غير هذا ، وهذا كلُّه تفسيرٌ بالمعنى ، وأما تفسير اللفظة ، فالمتوسِّم هو الذي يَنْظُرُ في وَسْمِ المعنى ، فيستدلُّ به على المعنى ، وكأن معصيةَ هؤلاء أبقَتْ من العذابِ والإهلاكِ وَسْماً ، فمَنْ رأى الوَسْم ، استدل على المعصية به واقتاده النظر إلى تجنُّب المعاصِي ؛ لئلا ينزل به ما نَزَل بهم ؛ ومِنَ الشِّعْرِ في هذه اللفظة قولُ الشاعر : [ الطويل ]

تَوَسَّمْتُهُ لَمَّا رَأَيتُ مَهَابَةً . . . عَلَيْهِ وَقُلْتُ المَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمِ

والضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ : يحتمل أنْ يعود على المدينةِ المُهْلَكَة ، أي : أنها في طريقٍ ظاهرٍ بيِّن للمعتَبر ، وهذا تأويلُ مجاهد وغيره ، ويحتمل أن يعود على الآيات ، ويحتمل أنْ يعود على الحِجَارَة ، ويقوِّيه ما روي عنه صلى الله عليه وسلم ؛ أنَّه قَالَ : " إنَّ حِجَارَةَ العَذَابِ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مُنْذُ أَلْفَيْ سَنَةٍ لِعُصَاةِ أُمَّتِي " .

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ أَصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ : ﴿ الأَيْكَةِ ﴾ : الغَيْضة والشجَرُ الملتفُّ المُخْضَرُّ، قال الشاعر: [الطويل]

أَلاَ إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةُ أَيْكَةٍ . . . إِذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبُ

وكان هؤلاءِ قوماً يسكنون غَيْضَة، ويرتَفِقُون بها في معايشِهم، فبعث إليهم شعيبٌ، فكفروا به، فسَلَّط اللَّه عليهم الحَرَّ، فدام عليهم سبعةَ أيام، ثم رَأَوْا سحابة، فخرجُوا، فاستظلوا بها، فأمطرتْ عليهم ناراً، وحكى الطبريُّ قال: بُعِثَ شعيبٌ إلى أُمَّتَيْن، فكفرتا، فعُذِّبتا بعذابَيْنِ مختلفين: أَهْلِ مَدْيَنَ عَذِّبوا بالصيحة، وأَصْحَابِ الأيكة بالظُّلَّة.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ : الضميرُ في «وإنهما»: يحتمل أنْ يعود على مدينةِ قوم لوطٍ، ومدينة أصحاب الأيكة، ويحتمل أنْ يعود على لُوطٍ وشُعَيْبٍ عليهما السلام، أي: أنهما على طريقٍ من اللَّه وشَرْعٍ مبينٍ، و«الإمامُ»، في كلام العرب: الشيء الذي يهتدى به، ويؤتَمُّ به؛ فقد يكون الطريقَ، وقد يكون الكتابَ، وقد يكونُ الرَّجُلَ المقتدَى به، ونَحْوَ هذا، ومَنْ رأى عودَ الضميرِ على المدينتين، قال: «الإمام»: الطريقُ، وقيل على ذلك الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(131/427)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة ﴾

شروعٌ في حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضيافِ من الفعل والقول وما ترتب عليه بعد ما أشير إلى ذلك إجمالاً حسبما نبه عليه ، أي جاء أهلُ سدومَ منزلَ لوط عليه الصلاة والسلام ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعاً فيهم .

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِى ﴾ الضيفُ حيث كان مصدراً في الأصل أُطلق على الواحد والمتعددِ والمذكرِ والمؤنث ، وإطلاقُه على الملائكة بحسب اعتقادِه عليه الصلاة والسلام لكونهم في زِيّ الضيف ، والتأكيدُ ليس لإنكارهم بذلك بل لتحقيق اتّصافِهم به وإظهارِ اعتنائه بشأنهم وتشمُّره لمراعاة حقوقِهم وحمايتهم من السوء ، ولذلك قال : ﴿ فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ أي عندكم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدْرٌ وحرمة ، أو لا تفضحونِ بفضيحة ضيفي فإن من أُسيء إلى ضيفه فقد أُسيءَ إليه ، يقال : فضحَه فضحاً وفضيحةً إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار .

﴿ واتقوا الله ﴾ في مباشرتكم لما يسوؤني ﴿ وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ أي لا تُذِلوني ولا تُهينوني بالتعرض لمن أجَرْتُهم بمثل تلك الفَعْلةِ الخبيثة ، وحيث كان التعرضُ لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله : فلا تفضحونِ أكثرَ تأثيراً في جانبه عليه الصلاة والسلام

وأجلبَ للعار إليه، إذِ التعرّضُ للجار قبل شعورِ المُجير بذلك ربما يُتسامَح فيه، وأما بعد الشعورِ به والمناصبةِ لحمايته والذبِّ عنه فذاك أعظمُ العار، عبّر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهي المذكورِ بسبب لَجاجهم ومُجاهرتهم بمخالفته بالخِزي وأمرَهم بتقوى الله تعالى في ذلك، وإنما لم يصرِّحْ بالنهي عن نفس تلك الفاحشةِ لأنه كان يعرِف أنه لا يفيدهم ذلك، وقيل: المرادُ تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشةِ، ولا يساعده توسيطُه بين النهيَيْن عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام.

(132/427)

---

وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ أي عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتِهم، والهمزةُ للإنكار والواو للعطف على مقدر، أي ألم نتقدمْ إليك ولم ننْهَكَ عن ذلك فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحدٍ من الغرباء بالسوء، وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وُسعِه وكانوا قد نهَوْه عليه الصلاة والسلام عن أن يُجير أحداً، فكأنهم قالوا: ما ذكرتَ من الفضيحة والخِزي إنما جاءك من قِبلك لا من قِبَلنا إذ لولا تعرضُك لما تصدّى له لَما اعتراك تلك الحالةُ. ولمّا رآهم لا يُقلِعون عما هم عليه.

﴿ قَالَ هؤلاء بَنَاتِى ﴾

يعني نساءَ القومِ ، فإن نبيّ كلِ أمةٍ بمنزلة أبيهم أو بناتِه حقيقةً أي فتزوجوهن ، وقد كانوا من قبل يُطلبُونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدمِ كفاءِتهم ، لا لعدم مشروعية المُناكحةِ بين المسلمات والكفار وقد فُصّل ذلك في سورة هود . ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ أي قضاءَ الوطر أو ما أقول لكم .

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسمٌ من الله تعالى بحياة النبي عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوطٍ عليه الصلاة والسلام والتقدير لَعمرُك قسمي ، وهي لغة في العُمُر يختص به القسم إيثاراً للخِفة لكثرة دورانِه على الألسنة ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ غَوايتهم أو شدة غُلْمتهم التي أزالت عقولَهم وتمييزَهم بين الخطإ والصواب ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيّرون ويتمادَوْن فكيف يسمعون النصح ؟ وقيل : الضميرُ لقريش والجملةُ اعتراض .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ أي الصيحةُ العظيمة الهائلة ، وقيل : صيحةُ جبريلَ عليه الصلاة والسلام ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس .

(133/427)

---

﴿ فَجَعَلْنَا عاليها ﴾ عاليَ المدينة أو عاليَ قُراهم ، وهو المفعولُ الأول لجعلنا وقوله تعالى : ﴿ سَافِلَهَا ﴾ مفعول ثانٍ له وهو أدخلُ في الهول والفظاعة من العكس كما مر ﴿ وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ ﴾ في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب ﴿ حِجَارَةً ﴾ كائنة ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجّر أو طينٍ عليه كتاب ، وقد فصل ذلك في سورة هود .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من القصة ﴿ لَأَيَاتٍ ﴾ لعلاماتٍ يُستدل بها على حقيقة الحق ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي المتفكّرين المتفرّسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرِفوا حقيقة الشيء بسَمْته .

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي المدينة أو القرى ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي طريق ثابتٍ يسلكه الناس ويرَوْن آثارها .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمرآى من الناس يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمةً ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالله ورسوله ، فإنهم الذين يعرِفون أن ما حاق بهم ( من ) العذاب الذي ترك ديارَهم بلاقعَ إنما حاق بهم لسوء صنيعهم ، وأما غيرُهم فيحمِلون ذلك على الاتفاق أو الأوضاع الفلَكية ، وإفرادُ الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهدَ هاهنا بقيةُ الآثارِ لا كلُّ القصة كما فيما سلف .

﴿ وَإِن كَانَ ﴾ إنْ مخففةٌ من إنّ ، وضميرُ الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ واللام هي الفارقةُ أي وإن الشأن كان ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ وهم قومُ شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكةُ والليكة الشجرةُ الملتفةُ المتكاثِفة ، وكان عامة شجرِهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى إليهم ﴿ لظالمين ﴾ متجاوزين عن الحد .

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ بالعذاب . روي أن الله تعالى سلط عليهم الحرّ سبعة أيام ، ثم بعث سحابة فالتجأوا إليها يلتمسون الرَّوْحَ ، فبعث الله تعالى عليهم منها ناراً فأحرقتهم ، فهو عذابُ يوم الظلة ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني سدوم والأيكة ، وقيل : والأيكة ومدينَ ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثاً إليهما فذِكرُ أحدهما منبّهٌ على الآخر ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ لبطريق واضحٍ ، والإمام اسمُ ما يؤتّم به سُمِّيَ به الطريقُ ومطمر البناء واللوحُ الذي يكتب فيه لأنها مما يؤتم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾



وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾

شروع في حكاية ما صدر من القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل وما ترتب عليه مما أشير إليه أولاً على سبيل الإجمال ، وهذا مقدم وقوعاً على العلم بهلاكهم كما

سمعت والواو لا تدل على الترتيب ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون هذا بعد العلم بذلك وما صدر منه عليه السلام من المحاورة معهم كان على جهة التكتم عنهم والإملاء لهم والتربص بهم ، ولا يخفى أن كون المساءة وضيق الذرع من باب التكتم والإملاء أيضاً مما يأبى عنه الطبع السليم ، والمراد بالمدينة سذوم وبأهلها أولئك القوم المجرمون ، ولعل التعبير عنهم بذلك للإشارة إلى كثرتهم مع ما فيه من الإشارة إلى مزيد فظاعة فعلهم ، فإن اللائق بأهل المدينة أن يكرموا الغرباء الواردين على مدينتهم ويحسنوا المعاملة معهم فهم عدلوا عن هذا اللائق مع من حسبوهم غرباء واردين إلى قصد الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين وجاءوا منزل لوط عليه السلام ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين مسرورين إذ قيل لهم : إن عنده عليه السلام ضيوفاً مرداً في غاية الحسن والجمال فطمعوا قاتلهم الله تعالى فيهم :

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾

الضيف كما قدمنا في الأصل مصدر ضافه فيطلق على الواحد والجمع ولذا صح جعله خبراً لهؤلاء ، وإطلاقه على الملائكة عليهم السلام بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زي الضيف ، وقيل : بحسب اعتقادهم لذلك ، والتأكيد ليس لإنكارهم ذلك بل لتحقيق اتصالهم به وإظهار اعتنائه بهم عليه السلام وتشميره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم عن السوء ، ولذلك قال : ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أي عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لي

عندكم قدر أو لا تفضحوني بفضيحة ضيفي فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه ، يقال : فضحته فضحاً وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه به العار ، ويقال : فضح الصبح إذا تبين للناس .

(136/427)

---

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) ﴾

﴿ وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ أي لا تذلوني ولا تهينوني بالتعرض بالسوء لمن أجرتهم فهو من الخزي بمعنى الذل ، والهوان ، وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عنه بقوله : ﴿ فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ [ الحجر : 68 ] أكثر تأثيراً في جانبه عليه السلام وأجلب للعار إليه إذ التعرض للجار قبل العلم ربما يتسامح فيه وأما بعد العلم والمناصبة بحمايته والذب عنه فذاك أعظم العار ، عبر عليه السلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهي المذكور بسبب لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزي وأمرهم بتقوى الله تعالى في ذلك ، وجوز أن يكون ذلك من الخزاية وهي الحياء أي لا تجعلوني استحيي من الناس بتعرضكم لهم بالسوء ، واستظهر بعضهم الأول ، وإنما لم يصرح عليه السلام بالنهي عن نفس تلك الفاحشة قيل : لأنه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك ، وقيل : رعاية لمزيد الأدب مع ضيفه حيث لم يصرح بما

يثقل على سمعهم وتنفر عنه طباعهم ويرى الحر الموت ألذ طعماً منه ، وقال بعض الأجلة : المراد باتقوا الله أمرهم بتقواه سبحانه عن ارتكاب الفاحشة .

وتعقب بأنه لا يساعد ذلك توسيطه بين النهيين المتعلقين بنفسه عليه السلام وكذلك قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) ﴾

أي عن إجارة أحد منهم وحيلولتك بيننا وبينه أو عن ضيافة أحد منهم ، والهمزة للإنكار والواو على ما قال غير واحد للعطف على مقدر أي ألم نتقدم إليك ولم ننهك عن ذلك فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه ويحول بينهم وبين من يعرضون له وكانوا قد نهوه عن تعاطي مثل ذلك فأنهم قالوا : ما ذكرت من الفضيحة والخزي إنما جاءك من قبلك لا من قبلنا إذ لولا تعرضك لما تتصدى له لما اعتراك ، ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه ﴿ قَالَ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ يعني نساء القوم أو بناته حقيقة .

وقد تقدم الكلام في ذلك، واسم الإشارة مبتدأ و﴿ بَنَاتِى ﴾ خبره، وفي الكلام حذف أي فتزوجوهن، وجوز أن يكون ﴿ بَنَاتِى ﴾ بدلاً أو بياناً والخبر محذوف أي أطهر لكم كما في الآية الأخرى، وأن يكون ﴿ هَؤُلاء ﴾ في موضع نصب بفعل محذوف أي تزوجوا بناتي، والمتبادر الأول.

﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ شك في قبولهم لقوله فكأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون، وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله تعالى دون ما حرم، والوجه الأول كما في "الكشف" أوجه.

وفي الحواشي الشهابية: أنه أنسب بالشك، ويفهم صنيع بعضهم ترجيح الثاني قيل لتبادره من الفعل، وعلى الوجهين المفعول مقدر، وجوز تنزيل الوصف منزلة اللازم، وجواب الشرط محذوف أي فهو خير لكم أو فاقضوا ذلك ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسم من الله تعالى بعمر نبينا صلى الله عليه وسلم ما عليه جمهور المفسرين.

وأخرج البيهقي في الدلائل.

وأبو نعيم.

وابن مردويه.

وغيرهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما سمعت الله سبحانه أقسم بحياة أحد غيره قال تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ الخ ، وقيل : هو قسم من الملائكة عليهم السلام بعمر لوط عليه السلام ، وهو مع مخالفته للمأثور محتاج لتقدير القول أي قالت الملائكة للوط عليهم السلام : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ الخ ، وهو خلاف الأصل وإن كان سياق القصة شاهداً له وقرينة عليه ، فلا يرد ما قاله "صاحب الفرائد" من أنه تقدي من غير ضرورة ولو ارتكب مثله لأمكن إخراج كل نص عن معناه بتقدير شيء فيرتفع الوثوق بمعاني النص ، وأياً ما كان فعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوباً أي قسمي أو يميني أو نحو ذلك ، والعمر بالفتح والضم البقاء والحياة إلا أنهم التزموا الفتح في القسم لكثرة دوره فناسب التخفيف وإذا دخلته اللام التزم فيه الفتح وحذف الخبر في القسم ، وبدون اللام يجوز فيه النصب والرفع وهو صريح ، وهو مصدر مضاف للفاعل أو المفعول ، وسمع فيه دخول الباء وذكر الخبر قليلاً ، وذكر أنه إذا تجرد من اللام لا يتعين للقسم ، ونقل ذلك عن الجوهري ، وقال ابن يعيش : لا يستعمل إلا فيه أيضاً وجاء شاذاً رعملي وعدوه من القلب ، وقال أبو الهيثم : معنى ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ لدينك الذي تعمل ويفسر بالعبادة ، وأنشد :

أيها المنكح الثريا سهيلا . . .

عمرك الله كيف يلتقيان

أراد عبادتك الله تعالى فإنه يقال على ما نقل عن ابن الأعرابي عمرت ربي أي عبدته ، وفلان عامر لربه أي عابد ، وتركت فلاناً يعمر ربه أي يعبده وعهو غريب .

(139/427)

---

وفي البيت توجيهات فقال سيبويه فيه : الأصل عمرتك الله تعالى تعميراً فحذف الزوائد من المصدر وأقيم مقام الفعل مضافاً إلى مفعوله الأول ، ومعنى عمرتك أعطيتك عمراً بأن سألت الله تعالى أن يعمرك فلما ضمن عمر معنى السؤال تعدى إلى المفعول الثاني أعني الاسم الجليل فهو على هذا منصوب ، وأجاز الأخفش رفعه ليكون فاعلاً أي عمرك الله سبحانه تعميراً ، وجوز الرضى أن يكون عمرك فيه منصوباً على المفعول به لفعل محذوف أي أسأل الله تعالى عمرك وأسأل متعد إلى مفعولين ، أو يكون المعنى أسألك بحق تعميرك الله تعالى أي اعتقادك بقاءه وأبديته تعالى فيكون انتصابه بحذف حرف القسم نحو الله لا فعلن ، وهو مصدر محذوف الزوائد مضاف إلى الفاعل والاسم الجليل مفعول به له ، ولا بأس بإضافة عمر إليه تعالى ، وقد جاء مضافاً كذلك قال الشاعر :

إذا رضيت على بنو قشير . . .

لعمر الله أعجبني رضاها

وقال الأعشى :

ولعمر من جعل الشهور علامة . . .

منها تبين نقصها وكمالها

وزعم بعضهم أنه لا يجوز أن يقال : لعمر الله تعالى لأنه سبحانه أزلى أبدى ، وكأنه توهم أن العمر لا يقال إلا فيما له انقطاع وليس كذلك ، وجاء في كلامهم إضافته لضمير المتكلم ، قال النابغة :

لعمري وما عمري على بهين . . .

وكره النخعي ذلك لأنه حلف بحياة المقسم ، ولا أعرف وجه التخصيص فإن في ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ خطاباً بالشخص حلفاً بحيلة المخاطب وحكم الحلف بغير الله تعالى مقرر على أتم وجه في محله .



---

وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما و﴿ عُمُرِكَ ﴾ بدون لام ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي لفى غوايتهم أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذي

يشار به إليهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون فكيف يسمعون النصح ، وأصل العمة عمى البصيرة وهو مورث للحيرة وبهذا الاعتبار فسر بذلك ، والضمائر لأهل المديسنة ، والتعبير بالمضارع بناء على المأثور في الخطاب لحكاية الحال الماضية ، وقيل : ونسب إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الضمائر لقريش ، واستبعده ابن عطية وغيره لعدم مناسبة السباق والسياق ، ومن هنا قيل : الجملة اعتراض وجملة ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ حال من الضمير في الجار والمجرور ، وجوز أن تكون حالا من الضمير المجرور في ﴿ سَكْرَتِهِمْ ﴾ والعامل السكرة أو معنى الإضافة ، ولا يخفاك حاله ، وقرأ الأشهب ﴿ سُكْرَتِهِمْ ﴾ بضم السين ، وابن أبي عبلة ﴿ سكراتهم ﴾ بالجمع ، والأعمش ﴿ سكرهم ﴾ بغير تاء ، وأبو عمرو في رواية الجهضمي ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة ، وقال أبو البقاء : وذلك على تقدير زيادة اللام ، ومثله قراءة سعيد بن جبير ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ﴾ [ الفرقان : 20 ] بالفتح بناء على أن لام الابتداء إنما تصحب إن المكسورة الهمزة وكأن التقدير على هذه القراءة لعمرك قسمي على أنهم فافهم .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ يعني صيحة هائلة ، والتعريف للجنس ، وقيل : صيحة جبريل عليه السلام فالتعريف للعهد ؛ وقال الإمام : ليس في الآية دلالة على هذا التعيين فإن ثبت بدليل قوي قيل به .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنه قال في الآية : الصيحة مثل الصاعقة فكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس ، قال المدقق : والجمع بين مصبحين ومشرقين باعتبار الابتداء والانتهاء بأن يكون ابتداء العذاب عند الصبح وانتهاؤه عند الشروق ؛ وأخذ الصيحة قهرها إياهم وتمكنها منهم ، ومنه الأخيذ الأسير ، ولك أن تقول : ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ بمعنى يقطع عما قريب انتهى ، وقيل : ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ حال مقدرة .

﴿ فَجَعَلْنَا عاليها ﴾

أي المدينة كما هو الظاهر .

وجوز رجوعه إلى القرى وإن لم يسبق ذكرها والمراد بعاليها وجه الأرض وما عليه وهو المفعول الأول لجعل و ﴿ سَافِلَهَا ﴾ الثاني له ، وقد تقدم الكلام في ذلك ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ في تضاعيف ذلك ﴿ حِجَارَةً ﴾ كائنة ﴿ مّن سِجّيلٍ ﴾ من طين متحجر وهو في المشهور معرب سنك كل ، وذهب أبو عبيد وطائفة إلى أنه عربي وأنه يقال فيه ﴿ سِجّينٍ ﴾ بالنون واحتجوا بقول تميم بن مقبل :

ضربا تواصى به الأبطال سجينا . . .

وهو كما ترى .

وسئل الأصمعي عن معناه في البيت فقال : لا أفسره إذ كنت أسمع وأنا حدث سخينا بالخاء المعجمة أي سخنا وسجين بالجيم أيضاً ، وقيل : هو مأخوذ من السجل وهو الكتاب أي من طين كتب عليه أسماؤهم أو كتب الله تعذيبهم به ، وقد مر الكلام في ذلك أيضاً .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من القصة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال ابن عباس : للناظرين ، وقال جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما : للمتفرسين ، وقال مجاهد : للمعتبرين ، وقيل غير ذلك وهي معان متقاربة .

وفي البحر التوسم تفعل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب ، وقال ثعلب : التوسم النظر من القرن إلى القدم واستقصاء وجوه التعريف ، قال الشاعر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة . . .

بعثوا إلى عريفهم يتوسم



---

وذكر أن أصله التثبت والتفكر مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة محماة في جلد البعير أو غيره ، ويقال : توسمت فيه خيراً أي ظهرت علاماته لي منه ، قال عبد الله بن رواحة في

رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إني توسمت فيك الخير أعرفه . . .

والله يعلم أني ثابت البصر

والجار والمجرور في موضع الصفة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أو متعلق به ، وهذه الآية على ما قال الجلال السيوطي أصل في الفراسة ، فقد أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى " ثم قرأ الآية وكان بعض المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام جرياً على طريق إياس بن معاوية .

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي المدينة المهلكة وقيل القرى ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها وقيل : الضمير للآيات ، وقيل : للحجارة ، وقيل : للصيحة أي وإن الصيحة صد لمن يعمل عملهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [ هود : 83 ] و﴿ مُّقِيمٌ ﴾ قيل معلوم ، وقيل : معتد دائم السلوك .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمرأى من الناس يشاهدونها عند مرورهم عليها ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فانهم الذين يعرفون ان سوء صنيعهم هو الذي ترك ديارهم بلاقع ، واما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الأوضاع الفلكية ، وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق قيل لما أن المشاهد هاهنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف ، وقيل : للإشارة

إلى أن المؤمنين يكفيهم آية واحدة .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) ﴾

هم قوم شعيب عليه السلام ؛ والايكة في الأصل الشجرة الملتفة واحدة الايك ، قال الشاعر :

تجلو بقادمتي حمامة ايكة . . .

بردا اسف لقاتة بالأثمد

(143/427)

---

والمراد بها غبضة أي بقعة كثيفة الأشجار بناء على ما روي أن هؤلاء القوم كانوا يسكنون الغيضة وعامة شجرها الدوم وقيل السدر فبعث الله تعالى إليهم شعيباً فكذبوه فأهلكوا بما ستسمعه إن شاء الله تعالى ، وقيل : بلدة كانوا يسكنونها ، واطلاقها على ما ذكر إما بطريق النقل أو تسمية المحل باسم الحال فيه ثم غلب عليه حتى صار علماف ، وأيد القول بالعلمية أنه قرىء في الشعراء ( 176 ) وص ( 13 ) ﴿ ليكة ﴾ ممنوع الصرف ، و ﴿ إن ﴾ عند البصريين هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة ، وعند الفراء هي النافية ولا اسم لها واللام بمعنى الا ، والمعول عليه الأول أي وأن

الشأن كان أولئك القوم متجاوزين عن الحد .

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾

جازيناهم على جنايتهم السابقة بالعذاب ؛ والضمير لاصحاب الأيكة .

وزعم الطبرسي أنه لهم ولقوم لوط وليس بذاك .

(144/427)

---

روى غير واحد عن قتادة قال : ذكر لنا أنه جل شأنه سلط عليهم الحر سبعة أيام لا يظلهم منه ظل ولا يمنعهم منه شيء ثم بعث سبحانه عليهم سحابة فجعلوا يلتمسون الروح منها فبعث عليهم منها ناراً فأكلتهم فهو عذاب يوم الظلة ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي محلى قوم لوط وقوم شعيب عليهما السلام وإلى ذلك ذهب الجمهور ، وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، والثاني وإن لم يذكر هنا لكن ذكر الأول يدل عليه لارسال شعيب عليه الصلاة والسلام إلى أهلهما ، فقد أخرج ابن عساكر وغيره عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله تعالى إليهما شعيباً عليه السلام " ولا يخلو عن بعد بل قيل : إن القول الأول كذلك أيضاً لأن الأخبار عن مدينة قوم لوط عليه السلام بأنها ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي لبطريق واضح يتكرر مع الأخبار عنها آنفاً ،

بأنها لبسبيل مقيم على ما عليه أكثر المفسرين ، وجمع غيرها معها في الأخبار لا يدفع التكرار بالنسبة إليها وكأنه لهذا قال بعضهم : الضمير يعود على لوط وشعيب عليهما السلام أي وانهما لبطريق من الحق واضح .

وقال الجبائي : الضمير لخبر هلاك قوم لوط وخبر هلاك قوم شعيب ، والإمام اسم لما يؤتم به وقد سمي به الطريق واللوح المحفوظ ومطلق اللوح المعد للقراءة وزيج البناء ويراد به على هذا اللوح المحفوظ .

وقال مؤرج الإمام : الكتاب في لغة حمير ، والأخبار عنهما بأنهما في اللوح المحفوظ إشارة إلى سبق حكمه تعالى بهلاك القومين لما علمه سبحانه من سوء أفعالهم . انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(145/427)

---

وقال الشوكانى :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

ذكر سبحانه ما كان من قوم لوط عند وصول الملائكة إلى قريتهم فقال : ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : أهل مدينة قوم لوط ، وهي سلام كما سبق ، وجملة ﴿

يستبشرون ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : مستبشرون بأضياف لوط طمعاً في ارتكاب الفاحشة منهم فقال لهم لوط ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾ وحد الضيف ؛ لأنه مصدر كما تقدّم ، والمراد : أضيافي ، وسماهم ضيفاً ؛ لأنه رآهم على هيئة الأضياف ، وقومه رأوهم مردا حسان الوجوه ، فلذلك طمعوا فيهم ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ يقال : فضحه يفضحه فضيحة وفضحاً : إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بإظهاره .

والمعنى : لا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فيعلمون أني عاجز عن حماية من نزل بي ، أو لا تفضحون بفضيحة ضيفي ، فإن من فعل ما يفضح الضيف فقد فعل ما يفضح المضيف ﴿ واتقوا الله ﴾ في أمرهم ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجوز أن تكون من الخزي : وهو الذلّ والهوان ، ويجوز أن يكون من الخزاية وهي الحياء والخجل .

وقد تقدّم تفسير ذلك في هود .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي : قوم لوط ، مجيبين له : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ الاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على مقدّر ، أي : ألم نتقدّم إليك وننهك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ؟ وقيل : نهوه عن ضيافة الناس ، ويجوز حمل ما في الآية على ما هو أعمّ من هذين الأمرين .

﴿ قَالَ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ فتزوّجوهنّ ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ ما عزمتم عليه من فعل الفاحشة بضيفي فهؤلاء بناتي تزوّجوهنّ حلالاً ولا تركبوا الحرام .

وقيل : أراد ببناته نساء قومه ، لكون النبيّ بمنزلة الأب لقومه ، وقد تقدّم تفسير هذا في هود

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ العمر والعمر بالفتح والضم واحد ، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح ، لإيثار الأخف فإنه كثير الدور على ألسنتهم .

ذكر ذلك الزجاج .

قال القاضي عياض : اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله ، جلّ جلاله ، بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي ، فقال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له .

قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم البرية عنده .

قال ابن العربي : ما الذي يمتنع أن يقسم الله سبحانه بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله تعالى للوط من فضل يؤتى ضعفه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه أكرم على الله منه ، أو لا تراه سبحانه أعطى إبراهيم الخلة وموسى التكليم ،

وأعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ فإذا أقسم الله سبحانه بحياة لوط فحياة محمد أرفع .

قال القرطبي : ما قاله حسن ، فإنه يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاماً معترضاً في قصة لوط .

فإن قيل : قد أقسم الله سبحانه بالتين والزيتون وطور سينين ، ونحو ذلك فما فيهما من فضل ؟ وأجيب بأنه ما من شيء أقسم الله به إلاّ وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه ، وذكر صاحب الكشاف وأتباعه : أن هذا القسم هو من الملائكة على إرادة القول أي : قالت الملائكة للوط : لعمرك ، ثم قال : وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له .

انتهى .

وقد كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه ، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله ، فليس لعباده أن يقسموا بغيره .

وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [ الأنبياء : 23 ] .

وقيل : الإقسام منه سبحانه بالتين والزيتون ، وطور سينين ، والنجم ، والضحى ، والشمس ، والليل ، ونحو ذلك هو على حذف مضاف هو المقسم به ، أي : وخالق التين ، وكذلك ما بعده .

وفي قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ أي : وخالق عمرك .

ومعنى ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ : لفي غوايتهم يتحيرون ، جعل الغواية ، لكونها تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر سكرة ، والضمير لقريش .

على أن القسم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو القوم لوط على أن القسم للرسول عليه السلام ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ العظيمة ، أو صيحة جبريل حال كونهم ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي : داخلين في وقت الشروق ، يقال : أشرقت الشمس أي : أضاءت .

وشرقت : إذا طلعت ، وقيل : هما لغتان بمعنى واحد .

وأشرق القوم : إذا دخلوا في وقت شروق الشمس .

وقيل : أراد شروق الفجر .

وقيل : أوّل العذاب كان عند شروق الفجر وامتدّ إلى طلوع الشمس .

والصيحة : العذاب ﴿ فَجَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ أي : عالي المدينة سافلها ﴿ وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجر .

وقد تقدّم الكلام مستوفى على هذا في سورة هود .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي : في المذكور من قصتهم ، وبيان ما أصابهم ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ لعلامات يستدلّ بها ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ : للمتفكرين الناظرين في الأمر ومنه قول زهير :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر . . . أنيق لعين الناظر المتوسم

وقال الآخر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة . . . بعثوا إليّ عريفهم يتوسم

وقال أبو عبيدة : للمتبصرين .

وقال ثعلب : الواسم : الناظر إليك من قرنك إلى قدمك .

*(148/427)*

---

والمعنى متقارب ، وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم ، وهو التأثير بحديدة في جلد البعير ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ يعني : قرى قوم لوط أو معدينتهم على طريق ثابت ، وهي الطريق من المدينة إلى الشام ، فإن السالك في هذه الطريق يمرّ بتلك القرى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من المدينة أو القرى ﴿ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعتبرون بها ،

فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ قال : استبشروا بأضياف نبيّ الله لوط حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : يقولون : أولم ننهك أن تضيف أحداً ، أو تؤويه ؟ ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أمرهم لوط بتزويج النساء ، وأراد أن يبقي أضيافه ببناته .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم عن ابن عباس قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يقول : وحياتك يا محمد ، وعمرك وبقائك في الدنيا .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قال : لعيشك .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : ما حلف الله بحياة أحد إلاّ بحياة محمد قال : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يكرهون أن يقول الرجل لعمري يرونه كقوله وحياتي .

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: في ضلالهم يلعبون.

(149/427)

---

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الأعمش في الآية: لفي غفلتهم يتردّدون.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ مثل الصاعقة، وكل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة.

وأخرج ابن جرير عنه ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ قال: حين أشرقت الشمس.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ قال: علامة، أما ترى الرجل يرسل خاتمه إلى أهله، فيقول: هاتوا كذا وكذا، فإذا رأوه، عرفوا أنه حق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال: للناظرين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة قال: للمعتبرين.

وأخرج ابن جريج، وابن المنذر عن مجاهد قال: للمتفرّسين، وأخرج البخاري، في التاريخ

، والترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن السني ، وأبو نعيم ، وابن مردويه ، والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ " وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ يقول : لبهلاك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لبطريق مقيم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لبطريق واضح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(150/427)

---

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾

أي : بالإساءة إليهم ، فإن الإساءة إليهم فضيحة للمضيف .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : عن أن تجير أحداً منهم ، أو تدفع عنهم ، أو تمنع

بيننا وبينهم ، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد . وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرّض له . فأوعدوه وقالوا : ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [ الشعراء : 167 ] . أفاده الزمخشري .

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ تقدم الكلام عليه في سورة هود مفصلاً .

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسم بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، اعترض به تعباً من شدة غفلتهم وتكريماً للمخاطب : ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي : غفلتهم التي ذهبت معها أحلامهم : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : يترددون فلا يفهمون ما يقال لهم . ولما لم يسمعوا منه النصيحة المبقية لهم ؛ أسمعهم الله الصيحة المهلكة لهم .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ أي : صيحة العذاب : ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي : داخلين في وقت شروق الشمس .



---

﴿ فَجَعَلْنَا ﴾ أي : من تلك الصيحة المحركة للأرض : ﴿ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ قال المهايمي : لجعلهم الرجال العالين كالنساء السافلات .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ أي : طين متحجر ؛ لرجمهم على لواطهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي : الناظرين بطريق في الآيات .

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعني مدينة قوم لوط المدمَّرة : ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي : ثابت يسلكه الناس ، لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار .

قال الزمخشري : وهو تنبيه لقريش ، كقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [ الصافات : 137 – 138 ] .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ ﴾ أي : في هلاكهم لعبرة لهم .

تنبيهان :

الأول : قال ابن القيم في " أقسام القرآن " : أكثر المفسرين من السلف والخلف ، بل لا يعرف السلف فيه نزاعاً – أن هذا – يعني قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسم من الله بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب عز وجل بحياته . وهذه مزية لا تعرف لغيره .

ولم يوفق الزمخشري لذلك ، فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط . وإنه من قول الملائكة .

فقال : هو على إرادة القول . أي : قالت الملائكة للوط عليه السلام : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ الآية ، وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين ، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على أن ما فهمه السلف أطيب ، لا أهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ أي : حياتك ، قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره . والعَمر والعُمر واحد ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف ؛ لكثرة دور الحلف على ألسنتهم . وأيضاً فإن العمر حياة مخصوصة ، فهو عمر شريف عظيم أهلٌ أن يقسم به ؛ لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم . ولا ريب أن عمره وحياته من أعظم النعم والآيات ، فهو أهل أن يقسم به . والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات . ثم قال ابن القيم : وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ؛ لأن للعشق سكرة مثل سكرة الخمر كما قال القائل :

~سُكْرَانِ سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ وَمَتَى إِفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْرَانِ

الثاني : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال السيوطي في " الإكليل " : هذه الآية أصل في الفراسة . أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد مرفوعاً : < اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله > ، ثم قرأ هذه الآية . وقد كان بعض قضاة المالكية يحكم بالفراسة في الأحكام ، جرياً على طريق إياس بن معاوية . انتهى .

وقد أجاد الكلام في الفراسة الراغب الأصفهاني في كتاب " الذريعة " حيث قال في الباب السابع : وأما الفراسة ، فالاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله .

وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الإنسان وأحواله . وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [ الحجر : 75 ] ، وقوله : ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [ البقرة : 273 ] ، وقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [ محمد : 30 ] ، ولفظها من قولهم ( فَرِسَ السبعُ الشاةَ ) فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الإلهام ، بل ضرب من الوحي ، وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : < المؤمن ينظر بنور الله > وهو الذي يسمى صاحبه : المروّع والمحدَّث . وقال عليه الصلاة والسلام : < إن يكن في هذه الأمة محدَّث فهو عمر > .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [ الشورى : 51 ] الآية ، إنما كان وحياً بإلقائه في الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [ الشعراء : 193 - 194 ] ، وقد يكون بإلهام في حال اليقظة ، وقد يكون في حال المنام . ولأجل ذلك قال عليه الصلاة السلام : < الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة > .

والضرب الثاني من الفراسة يكون بضاعة متعلمة وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة والأخلاق والأفعال الطبيعية . ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة . وقد عمل في ذلك كتب ، من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ما ضمنوه .

والفراسة ضرب من الظن . وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال : الظن بتقلب القلب ، والفراسة بنور الرب . ومن قوي فيه نور الروح المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ [ الحجر : 29 ] و [ ص : 72 ] ، كان ممن وصفه بقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [ هود : 17 ] ، وكان ذلك النور شاهداً ؛ أصاب فيما حكم به . ومن الفراسة قوله عليه السلام في المتلاعنين : < إن أمرهما بيِّنٌ ، لولا حكم الله > .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف. أي: وإن الشأن كان أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام. كانوا يسكنون أيكة، وهي بقعة كثيرة الأشجار، فظلموا بأنواع من الظلم، من شركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان. فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: بعذاب الظلة، وهي: سحابة أظلتهم بنار تقاذفت منها، فأحرقتهم: ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني قرى قوم لوط والأيكة: ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: طريق واضح. وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان. ولهذا لما أنذرهم شعيب قال: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيد ﴾ [هود: 89]. انتهى انتهى. ا. هـ ﴿محاسن التأويل حـ 10 صـ 355. 358﴾

(156/427)

---

وقال الشيخ الشنقيطى:

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

سبب استبشار قوم لوط أنهم ظنوا أنهم ظنوا الملائكة شباباً من بني آدم فحدثتهم أنفسهم بأن يفعلوا بهم فاحشة اللواط كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلاَ

تَفۡضَحُونِ ﴾ [ الحجر : 68 ] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ رَاوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ ﴾ [ القمر : 37 ] الآية وقوله : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ السيئات ﴾ [ هود : 78 ] إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ (75) ﴾

بين تعالى فه عذع الآية أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب الذي أنزل بقول لوط لما عصوه وكذبوا رسوله . وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في العنكبوت : ﴿ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [ العنكبوت : 35 ] وقوله في الذاريات : ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ﴾ [ الذاريات : 37 ] وقوله هنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 8 ] الآية ، كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في الشعراء وقوله : ﴿ لِلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾ اصل التوسم تفعل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها . يقال توسمت فيه الخير إذا رأيت ميسمه فيه أي علامته التي تدل عليه ، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في النّبي صلى الله عليه وسلم :

إني توسمت فيك الخير أعرفه . . . والله يعمل أني ثابت النظر

وقال الآخر :

(157/427)

---

توسمته لما رأيت مهابة . . . عليه وقلت المرء من آل هاشم

هذا أصل التوسم وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد . فعن قتادة للمتوسمين اي العتبرين ، وعن مجاهد للمتوسمين اي المتفرسين ، وعن ابن عباس والضحاك للمتوسمين اي للناظرين ، وعن مالك عن بعض أهل المدينة للمتوسمين أي للمتأملين .

ولا يخفى ان الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد ، وكذلك قول ابن زيد ومقاتل للمتوسمين اي للمتفكرين ، وقول ابي عبيدة للمتوسمين أي للمتبصرين ، فمآل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة لمن نظر في ذلك وتأمل فيه حق التأمل وإطلاق التوسم على التأمل والنظر ، والاعتبار مشهور في كلام العرب ومنه قول زهير :

وفيهن ملهى للصديق ومنظر . . . انيق لعين الناظر المتوسم

أي المتأمل في ذلك الحسن ، وقول طريق بن تميم العنبري :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة . . . بعثوا إلى عريفهم يتوسم

اي ينظر ويتأمل . وقال صاحب الدر المنثور وأخرد ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال : للناظرين . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ : قال للمعتبرين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال : هم المتفرسون . وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال : هم المتفرسون . وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وابو نعيم معاص في الطب وابن مردودية والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :



" اتقوا فراسة المؤمن فإن ينظر بنور الله " ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال : " للمتفرسين " وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله " وأخرج ابن جرير عن ثوبان قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : " إحذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله " وأخرج الحكيم الترمذي والبزار وابن السني وأبو نعيم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم " اه .

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن ديار قوم لوط وآثار تدمير الله لها بسبيل مقيم أي بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد ، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام ، والمراد أن آثار تدمير الله لهم التي تشاهدون في أسفاركم فيها لكم عبرة ومزدجر يوجب عليكم الحذر من أن تفعلوا كفعلهم لئلا ينزل الله بكم مثل ما أنزل بهم وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [ الصافات : 137-138 ] وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [ محمد صلى الله عليه وسلم : 10 ] . وقوله فيها وفي ديار أصحاب الأيكة : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الحجر : 79 ] ، إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين وأنه جل وعلا انتقم منهم

بسبب ظلمهم ، وأوضح هذه القصة في مواضع أخر كقوله في الشعراء ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ

الأيكة المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَآ

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين

وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ

واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن

نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قَالَ ربي أَعْلَمُ

بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا

كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 176–190 ] فبين في هذه الآية أن ظلمهم هو

تكذيب رسولهم وتطفيفهم في الكيل وبخسهم الناس أشياءهم ، وأن انتقامه منهم بعذاب

يوم الظلة ، وبين أنّه عذاب يوم عظيم ، والظلة سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم ناراً

فأحرقتهم والعلم عند الله تعالى .

قرأ نافع والن عامر وابن كثير " ليكة " . في " الشعراء " و " ص " بلام مفتوحة أول الكلمة وتاء مفتوحة آخرها من غير همز ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف . وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي " الأيكة " بالتعريف والهمز وكسر التاء ، وقرأ كذلك جميع القراء في " ق " و " الحجر " . قال أبو عبيدة : ليكة والأيكة اسم مدينتهم كمكة وبكة ، والأيكة في لغة العرب الغيضة وهي جماعة الشجر والجمع الأيك ، وإ ، ما سموا أصحاب الأيكة لأنهم كانوا أصحاب غياض ورياض ، ويروى أن شجرهم كان دوماً وهو المقل ، ومن إطلاق الأيكة على الغيضة قول النابغة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة . . . برداً أسف لثانه بالأثمد

وقال الجوهري في صحاحه : ومن قرأ أصحاب الأيكة فهي الغيضة ، ومن قرأ ليكة فهي اسم القرية ، ويقال : هما مثل بكة ومكة . وقال بعض العلماء : الآيكة الشجرة ، والأيك هو الشجر الملتف . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾



---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

عطف جزء من قصة قوم لوط وهو الجزء الأهم فيها .

ومجيء أهل المدينة إليه ومحاورته معهم كان قبل أن يعلم أنهم ملائكة ولو علم ذلك لما أشفق مما عزم عليه أهل المدينة لمّا علم بما عزموا عليه بعد مجادلتهم معه ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ في سورة هود ( 81 ) .

والواو لا تفيد ترتيب معطوفها .

ويجوز جعل الجملة في موضع الحال من ضمير لوط المستتر في فعل ﴿ قال إنكم قوم منكرون ﴾ [ سورة الحجر : 62 ] ، أو من الهاء في ﴿ إليه ﴾ ، ولا إشكال حينئذٍ .

والمدينة هي سدوم .

و﴿ يستبشرون ﴾ يفرحون ويسرون .

وهو مطاوع بشره فاستبشر ، قال تعالى : ﴿ فاستبشروا ببيعكم ﴾ في سورة براءة ( 111 ) .

وصيغ بصيغة المضارع لإفادة التجدد مبالغة في الفرح.

ذلك أنهم علموا أن رجالاً غرباء حلوا ببيت لوط عليه السلام ففرحوا بذلك ليغتصبوهم كعادتهم السيئة .

وقد تقدمت القصة في سورة هود .

والفضح والفضيحة : شهرة حال شنيعة .

وكانوا يتعيرون بإهانة الضيّف ويعد ذلك مذلة لمُضيفه .

وقد ذكرهم بالوازع الديني وإن كانوا كفاراً استقصاء للدعوة التي جاء بها ، وبالوازع العرفي

فقال : ﴿ واتقوا الله ولا تخزون ﴾ كما في قول عبد بني الحسحاس:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا . . .

والخزي : الذلّ والإهانة .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ في أوائل سورة البقرة ( 85 ) .

وتقدم في مثل هذه القصة في سورة هود .

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) ﴾

الواو في ﴿ أولم ننهك ﴾ عطف على كلام لوط عليه السلام جار على طريقة العطف على

كلام الغير كقوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ قال إني جاعلك للناس

إماماً ﴾ في سورة البقرة ( 124 ) .

والاستفهام إنكاري ، والمعطوف هو الإنكار .

و﴿ العالمين ﴾ الناس .

وتعدية النّهي إلى ذات العالمين على تقدير مضاف دلّ عليه المقام ، أي ألم ننهك عن حماية الناس أو عن إجارتهم ، أي أن عليك أن تخلي بيننا وبين عادتنا حتى لا يطمع المارون في حمايتك ، وقد كانوا يقطعون السبيل يتعرضون للمارين على قُراهم .

و ﴿ العالمين ﴾ تقدم في الفاتحة .

وأرادوا به هنا أصناف القبائل لقصد التعميم .

وعرض عليهم بناته ظناً أن ذلك يردعهم ويطفىء شبقهم .

ولذلك قال : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ .

وقد تقدم في سورة هود معنى عرضه بناته ، وأن قوله : ﴿ بناتي ﴾ يجوز أن يراد به بنات صلبه وكنّ اثنتين أو ثلاثاً ، ويجوز أن يراد به بنات القوم كلهم تنزيلاً لهم منزلة بناته لأن النبي كأب لأمّته .

وجملة ﴿ لعمرك إنهم لفي سكراتهم يعمهون ﴾ معترضة بين أجزاء القصة للعبرة في عدم جدوى الموعظة فيمن يكون في سكرة هواه .

والمخاطب بها محمد صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى .

وقيل هو من كلام الملائكة بتقدير قول .

وكلمة ﴿ لعمرك ﴾ صيغة قسم .

واللام الداخلة على لفظ ( عمر ) لام القسم .

والعَمْر بفتح العين وسكون اللام أصله لغة في العُمر بضم العين ، فخص المفتوح بصيغة القسم لخفّته بالفتح لأن القسم كثير الدوران في الكلام .

فهو قسم بحياة المخاطب به .

وهو في الاستعمال إذا دخلت عليه لام القسم رفعوه على الابتداء محذوف الخبر وجوباً .

والتقدير : لعمرك قَسمي .

وهو من المواضع التي يحذف فيها الخبر حذفاً لازماً في استعمال العرب اكتفاء بدلالة اللّام على معنى القسم .

وقد يستعملونه بغير اللّام فحينئذٍ يقرنونه باسم الجلالة وينصبونهما ، كقول عُمر بن أبي ربيعة:

عَمرَك اللّهَ كيفَ يلتقيان . . .



---

فنصَب عمرَ بنزع الخافض وهو ياء القسم ونَصب اسم الجلالة على أنه مفعولُ المصدر ، أي بتعميرك الله بمعنى بتعظيمك الله ، أي قولك للّهِ لعمرك تعظيماً لله لأن القسم باسم أحد تعظيم له ، فاستعمل لفظ القسم كناية عن التعظيم ، كما استعمل لفظ التحية كناية عن

التعظيم في كلمات التشهد "التّحِيّات لله" أي أقسم عليك بتعظيمك ربّك .

هذا ما يظهر لي في توجيه النصب ، وقد خالفت فيه أقوالَ أهل اللّغة بعضَ مخالفة لأدفع ما عرض لهم من إشكال .

والسكرة : ذهاب العقل .

مشتقّة من السَكْر بفتح السين وهو السدّ والغلق .

وأطلقت هنا على الضلال تشبيهاً لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهاب العقل وغشيته .

و﴿ يعمهون ﴾ يتحيّرون ولا يهتدون .

وقد تقدم عند قوله تعالى:

﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة البقرة ( 15 )

وجملة ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ تفريع على جملة ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ [ سورة الحجر : 66 ] .

﴿ والصيحة ﴾ : صعْقة في الهواء ، وهي صواعق وزلازل وفيها حجارة من سجّيل .

وقد مضى بيانها في سورة هود .

وانتصب ﴿ مشرقين ﴾ على الحال من ضمير الغيبة .

وهو اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا في وقت شروق الشمس .

وضميرًا ﴿ عاليَها سافلها ﴾ للمدينة .

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى ما عادت عليه ضمائر الجمع قبله .

وجملة ﴿ إن في ذلك لأيات للمتوسمين ﴾ : تذييل .

والآيات : الأدلّة ، أي دلائل على حقائق من الهداية وضدّها ، وعلى تعرُّض المكذبين رُسلهم لعقاب شديد .

والإشارة ﴿ في ذلك ﴾ إلى جميع ما تضمّنته القصة المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ [ سورة الحجر : 51 ] .



---

ففيها من الآيات آية نزول الملائكة في بيت إبراهيم عليه السلام كرامة له ، وبشارته بغلام عليم ، وإعلام الله إيّاه بما سيحلّ بقوم لوط كرامة لإبراهيم عليهما السلام ، ونصر الله لوطاً بالملائكة ، وإنجاء لوط عليه السلام وآله ، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إيّاهم ، وآية عماية أهل الضلالة عن دلائل الإنابة ، وآية غضب الله على المسترسلين في عصيان الرّسل .

وتقدم الكلام على لفظ آية عند قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ في سورة البقرة ( 39 ) .

وقوله: ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ في سورة الأنعام (37) .

والمتوسّمون أصحاب التوسم وهو التأمّل في السّمة، أي العلامة الدّالة على المعلّم، والمراد للمتأملين في الأسباب وعواقبها وأولئك هم المؤمنون .

وهو تعريض بالّذين لم تردَعْهم العبر بأنهم دون مرتبة النظر تعريضاً بالمشركين الذين لم يتّعظوا ؛ بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها .

ولذلك أعقب الجملة بجملة وإنها لبسبيل مقيم ﴾ ، أي المدينة المذكورة آنفاً هي بطريق باقٍ يشاهِد كثير منكم آثارها في بلاد فلسطين في طريق تجارتكم إلى الشّام وما حولها ،

وهذا كقوله: ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [ سورة الصافات : 137 138 ] .

والمقيم: أصله الشخص المستقرّ في مكانه غير مرتحل .

وهو هنا مستعار لآثار المدينة الباقية في المكان بتشبيهه بالشخص المقيم .

وجملة ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ تذييل .

والإشارة إلى ما تقدم من قوله من القصّة مع ما انضمّ إليها من التذكير بأن قراهم واضحة فيها آثار الخسف والأمطار بالحجارة المُحماة .

وعبّر في التذييل بالمؤمنين للتنبيه على أن المتوسّمين هم المؤمنون .

وجعل ذلك (آية) بالإفراد تفنّناً لأن (آية) اسم جنس يصدق بالمتعدّد ، على أن مجموع ما

حصل لهم آية على المقصود من القصة وهو عاقبة المكذبين .

وفي مطاوي تلك الآيات آيات .

(165/427)

---

والذي في درة التنزيل ، أي الفرق بين جمع الآيات في الأول ، وإفراده ثانياً في هذه الآية بأن ما قصّ من حديث لوط وضيف إبراهيم وما كان من عاقبة أمرهم كل جزء من ذلك في نفسه آية .

فالمشار إليه بذلك هو عدة آيات .

وأمّا كون قرية لوط بسبيل مقيم فهو في جملته آية واحدة .

فتأمّل .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

﴿ وَإِن كَانَ أصحاب الْأَيْكَةِ لظالمين فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ .

عطف قصة على قصة لما في كلتيهما من الموعظة .

وذكر هاتين القصّتين المعطوفتين تكميل وإدماج ، إذ لا علاقة بينهما وبين ما قبلهما من قصة إبراهيم والملائكة .

وخصّ بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر لأنهم مثل قوم لوط في موعظة المشركين من الملائكة لأن أهل مكة يشاهدون ديار هذه الأمم الثّلاث .

و﴿ إنْ ﴾ مخفّفة ( إنّ ) وقد أهمل عملها بالتخفيف فدخلت على جملة فعلية .

واللام الداخلة على ( الظالمين ) اللام الفارقة بين ( إن ) التي أصلها مشددة وبين ( إن ) النافية .

و﴿ الأيكة ﴾ : الغيضة من الأشجار الملتفّ بعضها ببعض .

واسم الجمع ( أيك ) ، وأطلقت هنا مراداً بها الجنس إذ قد كانت منازلهم في غيضة من الأشجار الكثيرة الورق .

وقد تخفّف الأيكة فيقال : ليكة .

و﴿ أصحاب الأيكة ﴾ : هم قوم شعيب عليه السلام وهم مَديَن .

وقيل أصحاب الأيكة فريق من قوم شُعيب غير أهل مدين .

فأهل مدين هم سكان الحاضرة وأصحاب الأيكة هم باديتهم ، وكان شُعيب رسولاً إليهم جميعاً .

قال تعالى : ﴿ كذب أصحاب ليكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴾ [ سورة الشعراء : 176 177 ] .

وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى في سورة الشّعراء .

والظالمون : المشركون .

والانتقام : العقوبة لأجل ذنب ، مشتّقة من النّقم ، وهو الإنكار على الفعل .

يقال : نقم عليه كما في هذه الآية ، ونقم منه أيضاً .

(166/427)

---

وتقدم في قوله : ﴿ وما تنقم منا ﴾ في سورة الأعراف ( 126 ) .

وأجمل الانتقام في هذه الآية وبيّن في آيات أخرى مثل آية هود .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

ضمير ﴿ إنهما ﴾ لقرية قوم لوط وأيكة قوم شعيب عليهما السلام .

.

والإمام : الطريق الواضح لأنه يأتّم به السائر ، أي يعرف أنه يوصل إذ لا يخفى عنه شيء منه .

والمبين : البيّن ، أي أن كلتا القريتين بطريق القوافل بأهل مكّة .

وقد تقدم آنفاً قوله : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [ سورة الحجر : 76 ] فإدخال مدينة لوط عليه السلام في الضمير هنا تأكيد للأول .

ويظهر أن ضمير التثنية عائد على أصحاب الأيكة باعتبار أنهم قبيلتان ، وهما مدين وسكان الغيضة الأصليون الذين نزل مدين بجوارهم ، فإن إبراهيم عليه السلام أسكن ابنه مَدين في شرق بلاد الخليل ، ولا يكون إلا في أرض مأهولة .

وهذا عندي هو مقتضى ذكر قوم شعيْب عليه السلام باسم مَدين مرّات وباسم أصحاب الأيكة مرّات .

وسيأتي لذلك زيادة إيضاح في سورة الشّعراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(167/427)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

وعندما عَلِم أهل المدينة من قوم لُوطٍ بوصول وَفْد من الشبان الحِسَان المُرْد عند لوط جاءوا مُستبشرين فَرِحين . وكان حُسْنهم مضربَ الأمثال ؛ وكأن كُلاًّ منهم ينطبق عليه قَوْله الحق عن يوسف عليه السلام : ﴿ مَا هذا بَشَراً إِنْ هذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [ يوسف : 31 ] .

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الحجر : 67] .

يجمع لقطات مُركّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ، وكانوا يستبشرون بفعله ويَفْرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله الحق : ﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : 79] .

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحيق بهم ؛ وأراد أنْ يجعل بينهم وبين فِعْل الفاحشة مع الملائكة سَدّاً ؛ فهم في ضيافته وفي جواره ، والتقاليد تقتضي أنْ يأخذ الضيف كرامة المُضيف ، وأيّ إهانة تلحق بالضيف هي إهانة للمُضيف ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) ﴾

والفضيحة هي هَتْك المساتير التي يستحيي منها الإنسان ، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحي أنْ يعملها عنه غيره . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن تتخلَّق بخُلُقه ؛ جعل من كُلِّ صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخَلْقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتي بمقابل لها ؛ فهو قد قال مثلاً " الضَّارّ " ومقابلها " النافع " وقال " الباسط " ومقابلها " القابض " وقال " المُعِزّ " ومقابلها " المُذِلّ " .

ومن أسمائه " الستار " ولم يَأْتِ بالمقابل وهو " الفاضح " ؛ لماذا لم يَأْتِ بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أنْ يحميَ الكون ؛ لكي يستمتع كُلّ فَرْد بحسنات المُسيء ، لأنك لو علمتَ سيئاته قد تبصُق عليه ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسيء ، ويُظهِر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهاهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) ﴾

أي : ضَعوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً في إحساسي بالخِزي والعار أمام ضيوفي بسبب ما ترغَبُون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هي الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ﴾ [التحريم : 6] .

أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فِعْل المحذور طريق إلى النار ، والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ واتقوا الله ﴾ [ البقرة : 194 ] .

ويقول : ﴿ واتقوا النار ﴾ [ آل عمران : 131 ] .

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا في النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصي ، وإن فعلتَ المأمورات ، ورضيتَ بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تمادَوْا في غِيِّهم وقالوا ما أورده الحق سبحانه : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ . . . ﴾ .

أي : أَلَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشبان الذين يتميَّزون بالحُسْن ، ولأنك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشبان ؛ فلا بُدَّ لنا من أنْ نفعل معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرَّضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهاهم قَدْر استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أنْ يُجير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا في الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شيء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ، ما جاء به الحق سبحانه : ﴿ قَالَ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي . . . ﴾ .

أي : أنكم إنْ كُنتم مُصرِّين على ارتكاب الفاحشة ؛ فلماذا لا تتزوجون من بناتي ؟ ولقد حاول البعضُ أن يقولوا : إنه عرض بناته عليهم ليرتكبوا معهن الفاحشة ؛ وحاشا الله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِي . . ﴾ [ الحجر : 71 ] .

أي : أنه تحدث عن جمع كثير ؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرْنَ من بناته .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يُوضّح ذلك في آية أخرى . ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [ الشعراء : 165-166 ] .

أي : أن لوطاً أراد أنْ يردّ هؤلاء الشواذ إلى دائرة الصواب ، والفعل الطيب . وذيّل كلامه :

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [ الحجر : 71 ] .

ليوحي لهم بالشكّ في أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب المَمْجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) ﴾

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . و " عَمْرُك " معناها السنُّ المُحدَّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق " عُمْرك " ومرة تنطق " عَمْرك " ، ولكنهم في القَسَم يختارون كلمة " عَمْرك " ، وهذا يماثل قولنا في الحياة اليومية " وحياتك " .

(170/427)

---

ومن هذا القول الكريم الذي يُحدّث به الحق سبحانه رسوله استدلّ أهل الإشراق والمعرفة أن الحق سبحانه قد كرَّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَادِه باسمه العلنيّ " يا محمد " أو " يا أحمد " كما نادى كل رُسُله ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بقوله : ﴿ يا أيُّها الرسول ﴾ [ المائدة : 67 ] .

أو : ﴿ يا أيها النبي ﴾ [ الممتحنة : 12 ] .

وفي هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا في هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسِم بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهو الخالق العليم بكل ما خلق ؛ ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمُهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألاَّ نُقسِم إلاَّ به ؛ لأننا نجل حقائق الأشياء مُكْتملةً .

وقد أقسم سبحانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأيِّ إنسان إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال هنا :

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ [ الحجر : 72 ] بحياتك يا محمد إنهم في سَكْرة يعمهون .

والسكرة هي التخديرة العقلية التي تحدث لمن يختلّ إدراكهم بفعل عقيدة فاسدة ، أو عادة شاذة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب في الوعي .

و﴿ يَعْمَهُونَ . . ﴾ [ الحجر : 72 ] .

أي : يضطربون باختيارهم .

ويأتي العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة . . . ﴾ .

وسبق أنْ أخبرنا سبحانه أنه سيقطع دابرهم وهم مصبحون ، وهنا يخبرنا أن الصيحة أخذتهم وهم مُشْرقون ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة " الكاراتيه " تصدر صيحة من اللاعب في مواجهة خَصْمه لِيُزيد من رُعبْه .

كما نرى في تدريبات الصاعقة العسكرية؛ نوعاً من الصرخات، هدفها أنْ يُدخِل المقاتل الرُّعْب في قلب عدوه .

(171/427)

---

وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْم يبدأ بصيحة تُفقِده توازنه الفكري؛ ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ﴾ [ القمر : 31 ] .

ومرّة يُسمّيها الحق سبحانه بالطاغية؛ فيقول : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [ الحاقة : 5 ] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا . . . ﴾ .

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظّم المُوجّه؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً؛ لانقلب بعضُ ما في تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتي لنا بصورة ما حدث ، لِيدلَنا على قدرته على أنْ يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه بحجارة من سجيل؛ كتلك التي أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة في عام ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهي حجارة صُنِعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَه إلا الله سبحانه ، والطين إذا تحجَّر سُمِّي " سجيلاً " .

والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف في سورة الذاريات : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [ الذاريات : 33 ] .

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم ليُبيدهم ، فلا يُبقِي منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ . . . . ﴾ .

وهكذا كان العذاب الذي أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية واضحة للمُتوسِّمين . والمُتوسِّم هو الذي يُدرك حقائق المَسْتور بمكْشُوف المظهور . ويُقال " توسَّمْتُ في فلان كذا " أي : أخذ من الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود ﴾ [ الفتح : 29 ] .

أي : ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضِّح ما في الأعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً ﴾ [ البقرة : 273 ] .

وهكذا نعرف أن المُتوسِّم هو صاحب الفَراسة التي تكشف مكنون الأعماق . وها هو صلى الله عليه وسلم يقول : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابي الذي فقد جمله ، فذهب إلى قيم الناحية أي : عمدة المكان وقال له : " ضاع جملي ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد " . وبينما هو يُحدّث القيِّم جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتَر ؟ أي : لا ذَيْل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم . فسأل الرجل سؤالاً ثالثاً : أجملك أشول ؟ أي : يعرج قليلاً عندما يسير ؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جَمَلِي .

وأراد قيِّم الحي أن يعلم كيف عرف الرجل الذي حضر كل هذه العلامات التي في الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقد رأيتُه في الطريق ، وعرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشبْ الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر في الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر .

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذيل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التي لها ذَيْل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشول ؛ لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُمْقاً في الأرض من أثر ساقه اليسرى .

وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة " المتوسم " .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ . . . ﴾ .

أي : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتُم ناحية هذا المكان ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ [ الصافات : 137 ] .

فهذه المدينة إذنْ في طريق ثابت ؛ لن تُضيِّعه عوامل التَّعْرية أو الأغيار ، ولن تضيعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن يكون مُحْكَم التكوين ومُحكمَ التثبيت . وهو ما يُسمَّى " سدوم " .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

(173/427)

---

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77) ﴾

وقد قال من قبل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [ الحجر : 75 ] .

فكأن من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص في أدبار الأشياء ، وأنْ يتعرّف على الأشياء بسيماها ، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التي قال عنها صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسةَ

المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله" .

وهكذا يُنهي الحق سبحانه هنا قصة لوط ؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أن يتعظ به المؤمنون ؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلة أخرى ؛ إلى أهل مَدْين ، وهم قوم شُعَيب . وهم أصحاب الأيكة ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) ﴾

و" الأَيك " هو الشجر المُلْتف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً عليه السلام قد بُعِث لأهل مدين وأصحاب الأيكة ، وهي مكان قريب من مدين ، وكان أهل مدين قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وإلى مَديَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [ الأعراف : 85 ] .

وقال عن أصحاب الأيكة : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [ الشعراء : 176-177 ] .

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعِث لأُمتين مُتجاورتين .

ويقول سبحانه عن هاتين الأُمتين : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ . . . ﴾ .

ويُقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلْتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعِث إلى أُمتين

هو قوله الحق :

﴿ وَإِنَّهُمَا . . ﴾ [ الحجر : 79 ] .

وقد انتقم الله من الأُمتين الظالمتين ؛ مَدْين وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الحجر : 79 ] .



---

والإمام هو ما يُؤتَم به في الرأي والفتيا ، أو في الحركات والسَّكنات ؛ أو : في الطريق المُوصِّل إلى الغايات ، ويُسمَّى " إمام " لأنه يدلُّ على الأماكن أو الغايات التي نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأَيكة قد تمادَوْا في الظُّلْم والكفر ، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلط عليهم الحَرَّ سبعة أيام لا يُظِلهم منه ظِلٌّ ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا أن تُمطر ، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم ، كما قالت كتب الأثر .

وهذا هو العذاب الذي قال فيه الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 189] .

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذي يقود إلى التبصُّر بعواقب الظلم والشرك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(175/427)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) (الحجر : 75-77) ، فيها سؤالان : جمع آيات في الأولى وإفراد ذلك في الثانية؟ وتخصص الاعتبار أولاً بالمتوسمين وثانياً بالمؤمنين؟

والجواب : أن المتقدم في ذكر ضيف إبراهيم ووجله ، عليه السلام ، منهم مع أنه كان لا يهاب كثرة الرجال لما منح من النبوة والأيد ، إلى حال النبوة ، وتخصيص الخِلة ، ثم بشارة الملائكة له بالولد مع بلوغ الكبر ، ثم سؤاله إياهم عن إرسالهم إذ ذاك فأخبروه أنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، وكانت مدينتهم على قرب من حيث كان إبراهيم ، عليه السلام ، فسألهم - إشفاقاً ورحمة جبل عليهما الرسل والأنبياء - أيهلكون إن كان فيهم مؤمنون؟ وعن ذلك

السؤال والمحاورة عبر بالمجادلة (في قوله) : (يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) (هود : 74) أي يجادل رسلنا ، وهي محاورته معهم وسؤاله إياهم حتى عرفوه أن آل لوط ، عليه السلام ، ناجون إلا امرأته ، ثم أعقب ذلك من مجيء الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط ، وإنكار لوط أولاً إياهم حتى علم أنهم الملائكة ثم أمرهم أياه بأن يسري بأهله ، وأن يُقدمهم أمامه ، ولا يلتفت إلى ما وراءه ، ولا يعرج على شيء فإن قومه هالكون صبح ليلتهم ، ثم الإخبار بمجيء قوم لوط لما سمعوا بأضيافه وظنوا أنهم من البشر ، وجاؤوا مسرعين طامعين في غلبة لوط ، عليه السلام ، وقهره في ضيفه ليأخذوهم لأغراضهم الشنيعة : (وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) (هود : 78) ، فذكرهم ، عليه

*(176/427)*

---

السلام ، وأمرهم بتقوى الله ، عز وجل ، فقال : (إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ) (الحجر : 68-69) ، ثم عرض عليهم نساء آله وقومه بالوجه المحل لذلك فقال : (هَؤُلَاءِ بَنَاتِي) (الحجر : 71) ، ونساء قوم كل نبي بنات له ، وهو لهم بمنزلة الأب (فلم) يجد ذلك عليهم شيئاً ، وعند تمردهم وطغيانهم قال عليه السلام : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) (هود : 80) ، أي عشيرة (وقبيلة) يحمونني ، فقالت

الملائكة إذ ذاك : إنهم لن يصلوا إليك ، أي لا سلطان لهم عليك ولا عون ، فروي أن جبريل ، عليه السلام ، نفخ في أعينهم فخرجوا وقد عموا قائلين لمن وراءهم أن عند لوط سحرة أو كما قالوا ، ثم صبحهم العذاب : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ ( الحجر : 73 ) ، قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ ( الحجر : 74 ) ، هذه جمل ومقدمات عجائب من الآيات يجول فيها اعتبار المعتبر ويتسع له النظر ، ويتوسم منها المتفرس مخائل الهلاك ومقدمات التلف لأولئك الأشرار ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ( الحجر : 75 ) أي المعتبرين أو المتفرسين والناظرين ، فهذا مناسب لما تقدم . ثم لما تحصل من قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ ( الحجر : 74 ) قلب مدينتهم المشاهد أثره مرئياً مشاهداً لمن أتى بعدهم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ ( الحجر : 76 ) أي طريق واضح ودليل بين لمن شاهده وأبصره ، وذلك أمر مدرك ومعتبر متخذ حاصل لنا تفصيل قصصه بخبر الصادق ، عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ( الحجر : 77 ) ، وقال ( ( لمؤمنين ) ) أي للمصدقين المشاهدين أثرهم ، فجاء كل على ما يجب ، ولم يكن ليناسب المتقدم

إفراد آية ، ولا جعل العبرة للمصدقين مع ذكر المتوسمين في الأخرى ولا المتأخر ما ورد في الأولى ، بل ورد كل على ما يجب ويناسب ، والله سبحانه أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 291.292 ﴾

(178/427)

---

فائدة

قال ابن القيم :

وقد مدح الله سبحانه وتعالى الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وهم المتفرسون الذين يأخذون بالسيما وهي العلامة ويقال: توسمت فيك كذا أي تفرسته كأنك أخذت من السيما وهي فعلا من السمة وهي العلامة وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ وفي الترمذي مرفوعا : "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ بدائع الفوائد حـ 3 صـ 119.118 ﴾

(179/427)

وقال في مدارج السالكين :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الفراسة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [ الحجر: 75 ] قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما : للناظرين وقال قتادة: للمعتبرين وقال مقاتل: للمتفكرين

ولا تنافي بين هذه الأقوال فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة وقال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [ محمد: 30 ] فالأول: فراسة النظر والعين والثاني: فراسة الأذن والسمع وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: علق معرفته إياهم بالنظر على المشيئة ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم على شرط بل أخبر به خبرا مؤكدا بالقسم فقال: ولتعرفنهم في لحن القول وهو تعريض الخطاب وفحوى الكلام ومغزاه و اللحن ضربان: صواب وخطأ فلحن الصواب نوعان أحدهما : الفطنة ومنه الحديث: ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض والثاني: التعريض والإشارة وهو قريب من الكناية ومنه قول الشاعر :

وحديث ألذه وهو مما . . . يشتهي السامعون يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيانا . . . وخير الحديث ما كان لحنا

(180/427)

---

والثالث: فساد المنطق في الإعراب وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطإ وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية والفراسة تتعلق بالنوعين بالنظر والسماع وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بور الله ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: 75]

فصل و الفراسة ثلاثة أنواع: إيمانية وهي المتكلم فيها في هذه المنزلة

(181/427)

---

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده يفرق به بين الحق والباطل والحالي والعاطل والصادق والكاذب وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة لكن الفريسة فعيلة بمعنى مفعولة وبناء الفراسة كبناء الولاية والإمارة والسياسة وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان فمن كان أقوى إيمانا فهو أحد فراسة قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولا غفلة بل حكم حق جرى على لسان عبده وقال الواسطي: الفراسة شعاشع أنوار لمعت في القلوب وتمكن معرفة جملة السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق إياها فيتكلم عن ضمير الخلق وقال الداراني: الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب وهي من مقامات الإيمان وسئل بعضهم عن الفراسة فقال: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطىء ويقول: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبه وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال: لم تخطىء فراسته وقال أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس وقال أبو حفص النيسابوري: ليس لأحد أن يدعي الفراسة ولكن يتقي

الفراسة من الغير لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله" ولم يقل: تفرسوا وكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون وكان الجنيد يوما يتكلم على الناس فوقف عليه شاب نصراني متنكرا فقال: أيها الشيخ ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله" فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه إليه وقال: أسلم فقد حان وقت إسلامك فأسلم الغلام ويقال في بعض الكتب القديمة: إن الصديق لا تخطىء فراسته وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف حيث قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى: ﴿ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ [ القصص: 26 ] وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه وفي رواية أخرى: وامرأة فرعون حين قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [ القصص: 9 ] وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ووقائع فراسته مشهورة فإنه ما قال لشيء: أظنه كذا إلا كان كما قال ويكفي في فراسته: موافقته ربه في المواضع المعروفة ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه فقال لقد أخطأ ظني أو أن هذا كاهن أو كان يعرف

الكهانة في الجاهلية فلما جلس بين يديه قال له ذلك عمر فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين ما استقبلت أحدا من جلسائك

(183/427)

---

بمثل ما استقبلتني به فقال له عمر رضي الله عنه: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك ولكن أخبرني عما سألتك عنه فقال: صدقت يا أمير المؤمنين كنت كاهنا في الجاهلية ثم ذكر القصة وكذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه صادق الفراسة وقال أنس ابن مالك رضي الله عنه: دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه وكنت رأيت امرأة في الطريق تأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه فقلت: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة وفراسة الصحابة رضي الله عنهم أصدق الفراسة وأصل هذا النوع من الفراسة: من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى لمن يشاء من عباده فيحيا القلب بذلك ويستنير فلا تكاد فراسته تخطىء قال الله: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام: 122] كان ميتا بالكفر والجهل فأحياه الله بالإيمان والعلم وجعل له بالقرآن والإيمان نورا يستضيء به في الناس على

قصد السبيل ويمشي به في الظلم والله أعلم

فصل الفراسة الثانية: فراسة الرياضة والجوع والسهر والتخلي فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاية وكثير من الجهال يغتر بها وللرهبان فيها وقائع معلومة وهي فراسة لا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم بل كشفها جزئي من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم وللأطباء فراسة معروفة من حذقهم في صناعتهم ومن أحب الوقوف عليها فليطالع تاريخهم وأخبارهم وقريب من نصف الطب: فراسة صادقة يقترن بها تجربة والله سبحانه أعلم

فصل الفراسة الثالثة: الفراسة الخلقية وهي التي صنف فيها الأطباء



---

وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل وبكبره وبسعة الصدر وبعد ما بين جانبيه: على سعة خلق صاحبه واحتماله وبسطته وبضيقه على ضيقه وبخمود

العين وكلال نظرها على بلادة صاحبها وضعف حرارة قلبه وبشدة بياضها مع إشرابه بحمرة وهو الشكل على شجاعته وإقدامه وفطنته وبتدويرها مع حمرتها وكثرة تقلبها على خيانته ومكره وخداعه ومعظم تعلق الفراسة بالعين فإنها مرآة القلب وعنوان ما فيه ثم باللسان فإنه رسوله وترجمانه وبالاستدلال بزرقتها مع شقرة صاحبها على رداءته وبالوحشة التي ترى عليها على سوء داخله وفساد طويته وكالاستدلال بإفراط الشعر في السبوطة على البلادة وبإفراطه في الجعودة على الشر وباعتداله على اعتدال صاحبه

وأصل هذه الفراسة: أن اعتدال الخلقة والصورة: هو من اعتدال المزاج والروح وعن اعتدالها يكون اعتدال الأخلاق والأفعال وبحسب انحراف الخلقة والصورة عن الاعتدال: يقع الانحراف في الأخلاق والأعمال هذا إذا خليت النفس وطبيعتها ولكن صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره ولو أنه من الحيوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقا وأفعالا وتعود له تلك طباعا ويتعذر أو يتعسر عليه الانتقال عنها وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقا وأفعالا شريفة تصير له كالطبيعة فإن العوائد والمزاولات تعطي الملكات والأخلاق

فليتأمل هذا الموضع ولا يعجل بالقضاء بالفراسة دونه فإن القاضي حينئذ يكون خطؤه

كثيرا فإن هذه العلامات أسباب لا موجبة وقد تتخلف عنها أحكامها لفوات شرط أو لوجود مانع



---

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه وأذنه وقلبه فعينه للسيماء والعلامات وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه ومنطوقه ومفهومه وفحواه وإشاراته ولحنه وإيمائه ونحو ذلك وقلبه للعبور: والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه فيعبر إلى ما وراء ظاهره كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح أو زغل وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدل إلى باطن الروح والقلب فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد وكذلك نقد أهل الحديث فإنه يمر إسناد ظاهر كالشمس على متن مكذوب فيخرجه ناقدهم كما يخرج الصيرفي الزغل من تحت الظاهر من الفضة

وكذلك فراسة التمييز بين الصادق والكاذب في أقواله وأفعاله وأحواله وللفراسة سببان أحدهما: جودة ذهن المتفرس وحدة قلبه وحسن فطنته والثاني: ظهور العلامات والأدلة

على المتفرس فيه فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة وإذا انتفيا لم تكد تصح له فراسة وإذا قوي أحدهما وضعف الآخر: كانت فراسته بين بين



---

وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة وله الوقائع المشهورة وكذلك الشافعي رحمة الله وقيل: إن له فيها تآليف ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أمورا عجيبة وما لم أشاهده منها أعظم وأعظم ووقائع فراسته تستدعي سفرا ضخما أخبر أصحابه بدخول التتار الشام سنة تسع وتسعين وستمائة وأن جيوش المسلمين تكسر وأن دمشق لا يكون بها قتل عام ولا سبي عام وأن كلب الجيش وحدته في الأموال: وهذا قبل أن يهم التتار بالحركة ثم أخبر الناس والأمراء سنة اثنتين وسبعمائة لما تحرك التتار وقصدوا الشام: أن الدائرة والهزيمة عليهم وأن الظفر والنصر للمسلمين وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا فيقال له: قل إن شاء الله فيقول: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا وسمعته يقول ذلك قال: فلما أكثروا علي قلت: لا تكثروا كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ: أنهم مهزومون في هذه الكرة وأن النصر لجيوش الإسلام قال: وأطعمت بعض الأمراء والعسكر حلاوة النصر قبل خروجهم إلى لقاء العدو وكانت فراسته الجزئية في خلال هاتين الواقعتين

مثل المطر ولما طلب إلى الديار المصرية وأريد قتله بعد ما أنضجت له القدور وقلبت له الأمور: اجتمع أصحابه لوداعه وقالوا: قد تواترت الكتب بأن



---

القوم عاملون على قتلك فقال: والله لا يصلون إلى ذلك أبدا قالوا: أفتحبس قال: نعم ويطول حبسي ثم أخرج وأتكلم بالسنة على رؤوس الناس سمعته يقول ذلك ولما تولى عدوه الملقب بالجاشنكير الملك أخبروه بذلك وقالوا: الآن بلغ مراده منك فسجد لله شكرا وأطال فقيل له: ما سبب هذه السجدة فقال: هذا بداية ذله ومفارقة عزه من الآن وقرب زوال أمره فقيل له: متى هذا فقال: لا تربط خيول الجند على القرط حتى تغلب دولته فوقع الأمر مثل ما أخبر به سمعت ذلك منه وقال مرة: يدخل علي أصحابي وغيرهم فأرى في وجوههم وأعينهم أمورا لا أذكرها لهم فقلت له أو غيري لو أخبرتهم فقال: أتريدون أن أكون معرفا كمعرف الولاة وقلت له يوما: لو عاملتنا بذلك لكان أدعى إلى الاستقامة والصلاح فقال: لا تصبرون معي على ذلك جمعة أو قال: شهرا وأخبرني غير مرة بأمور باطنة تختص بي مما عزمت عليه ولم ينطق به لساني وأخبرني ببعض حوادث كبار تجري في المستقبل ولم يعين أوقاتها وقد رأيت بعضها وأنا أنتظر بقيتها وما شاهده كبار أصحابه من ذلك أضعاف

أضعاف ما شاهدته والله أعلم

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله: الفراسة: استئناس حكم غيب

والاستئناس: استفعال من آنست كذا إذا رأيته فإن أدركت بهذا

(188/427)

---

الاستئناس حكم غيب: كان فراسة وإن كان بالعين: كان رؤية وإن كان بغيرها من المدارك: فبحسبها قوله: من غير استدلال بشاهده هذا الاستدلال بالشاهد على الغائب: أمر مشترك بين البر والفاجر والمؤمن والكافر كالاستدلال بالبروق والرعود على الأمطار وكاستدلال رؤساء البحر بالكدر الذي يبدو لهم في جانب الأفق على ريح عاصف ونحو ذلك وكاستدلال الطبيب بالسحنة والتفسرة على حال المريض ويدق ذلك حتى يبلغ إلى حد يعجز عنه أكثر الأذهان وكما يستدل بسيرة الرجل وسيره على عاقبة أمره في الدنيا من خير أو شر فيطابق أو يكاد فهذا خارج عن الفراسة التي تتكلم فيها هذه الطائفة وهو نوع فراسة لكنها غير فراستهم وكذلك ما علم بالتجربة من مسائل الطب والصناعات والفلاحة وغيرها والله اعلم

فصل قال: وهي على ثلاث درجات الأولى: فراسة طارئة نادرة تسقط على

لسان وحشي في العمر مرة لحاجة سمع مريد صادق اليها لا يتوقف على مخرجها ولا يؤبه لصاحبها وهذا شيء لا يخلص من الكهانة وما ضاهاها لأنها لم تشر عن عين ولم تصدر عن علم ولم تسبق بوجود يريد بهذا النوع: فراسة تجري على ألسنة الغافلين الذين ليست لهم يقظة أرباب القلوب فلذلك قال: طارئة نادرة تسقط على لسان وحشي الذي لم يأنس بذكر الله ولا اطمأن اليه قلب صاحبه فيسقط على لسانه مكاشفة في العمر مرة وذلك نادر ورمية من غير رام وقوله: لحاجة مريد صادق



---

يشير الى حكمة إجرائها على لسانه وهي حاجة المريد الصادق إليها فإذا سمعها على لسان غيره كان أشد تنبها له وكانت عنده أعظم موقعا وقوله: لا يوقف على مخرجها يعني لا يعلم الشخص الذي وصلت إليه واتصلت به: ما سبب مخرج ذلك الكلام وإنما سمعه مقتطعا مما قبله ومما هيجه ولا يؤبه لصاحبها لأنه ليس هناك قلت: وهذا من جنس الفأل وكان رسول يحب الفأل ويعجبه والطيرة من هذا ولكن المؤمن لا يتطير فإن التطير شرك ولا يصده ما سمع عن مقصده وحاجته بل يتوكل على الله ويثق به ويدفع شر التطير عنه بالتوكل وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: انه قال:

"الطيرة شرك" وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل وهذه الزيادة وهي قوله: وما منا إلا يعني من يعتريه ولكن الله يذهبها بالتوكل مدرجة في الحديث من قول ابن مسعود وجاء ذلك مبينا ومن له يقظة يرى ويسمع من ذلك عجائب وهي من إلقاء الملك تارة على لسان الناطق وتارة من القاء الشيطان فالإلقاء الملكي: تبشير وتحذير وإنذار والإلقاء الشيطاني: تحزين وتخويف وشرك وصد عن المطالب وصاحب الهمة والعزيمة: لا يتقيد بذلك: ولا يصرف إليه همته وإذا سمع ما يسره استبشر وقوي رجاؤه وحسن ظنه وحمد الله وسأله إتمامه واستعان به على حصوله وإذا سمع ما يسوءه: استعاذ بالله ووثق به وتوكل عليه ولجأ إليه والتجأ إلى التوحيد وقال اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك



---

ولا إله غيرك اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك ومن جعل هذا نصب قلبه وعلق به همته: كان ضرره به أكثر من نفعه قوله: وهذا شيء لا يخلص من الكهانة يعني: أنه من جنس الكهانة وأحوال الكهان معلومة قديما وحديثا في إخبارهم عن نوع من المغيبات بواسطة إخوانهم من الشياطين الذين يلقون إليهم السمع ولم يزل هؤلاء في الوجود ويكثرون في الأزمنة والأمكنة التي يخفى فيها نور النبوة

ولذلك كانوا أكثر ما كانوا في زمن الجاهلية وكل زمان جاهلية وبلد جاهلية وطائفة جاهلية فلهم نصيب منها بحسب اقتران الشياطين بهم وطاعتهم لهم وعبادتهم إياهم وقوله: وما ضاهاها أي وما شابهها من جنس الخط بالرمل وضرب الحصا والودع وزجر الطير الذي يسمونه السانح والبارح والقرعة الشركية لا الشرعية والاستقسام بالأزلام وغير ذلك مما تتعلق به النفوس الجاهلية المشركة التي عاقبة أمرها خسر وبوار وقوله: لأنها لم تشر عن عين أي عن عين الحقيقة التي لا يصدر عنها إلا حق يعني غير متصلة بالله عز وجل وقوله: ولم تصدر عن علم يعني أنها عن ظن وحسبان لا عن علم ويقين وصاحبها دائما في شك ليس على بصيرة من أمره وقوله: ولم تسبق بوجود أي لم يسقها وجود الحقيقة لصاحبها بل هو فارغ بل غير واجد بل فاقد من غير أهل الوجود والله أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: فراسة تجنى من غرس الإيمان وتطلع من صحة



---

الحال وتلمع من نور الكشف هذا النوع من الفراسة: مختص بأهل الإيمان ولذلك قال: تجنى من غرس الإيمان وشبه الإيمان بالغرس لأنه يزداد وينمو ويزكو على السقي ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه وأصله ثابت في الأرض وفروعه في السماء فمن غرس الإيمان في أرض قلبه

الطيبة الزاكية وسقى ذلك الغراس بماء الإخلاص والصدق والمتابعة: كان من بعض ثمره هذه الفراسة قوله: وتطلع من صحة الحال يعني: أن صدق الفراسة من صدق الحال فكلما كان الحال أصدق وأصح فالفراسة كذلك قوله: وتلمع من نور الكشف يعني أن نور الكشف من جملة ما يولد الفراسة بل أصلها نور الكشف وقوة الفراسة: بحسب قوة هذا النور وضعفه وقوته وضعفه بحسب قوة مادته وضعفها والله أعلم

فصل قال: الدرجة الثالثة: فراسة سرية لم تجتلبها روية على لسان

مصطنع تصريحا أو رمزا يحتمل لفظ السرية وجهين: أحدهما: الشرف أي فراسة شريفة فإن الرجل السري هو الرجل الشريف وجمعه سراة ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: 24] أي سيدا مطاعا وهو المسيح وعلى هذا يكون سرية بوزن شريفة.

(192/427)

---

والثاني: أن يكون من السر أي فراسة متعلقة بالأسرار لا بالظواهر فتكون سرية بوزن شربية ومكيثة قوله: لم تجتلبها روية أي لا تكون عن فكرة بل تهجم على القلب هجوما لا يعرف سببه قوله: على لسان مصطنع أي مختار مصطفى على غيره تصريحا أو رمزا يعني

أن هذا المختار المصطفى يخبر بهذه الفراسة العالية عن أمور مغيبة تارة بالتصريح وتارة بالتلويح إما سترا لحاله وإما صيانة لما أخبر به عن الابتذال ووصوله إلى غير أهله وإما لغير ذلك من الأسباب والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين جـ 2 صـ 482.494 ﴾

(193/427)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) ﴾

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال : " ألا أراكم تضحكون ؟ ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال : إني لمّا خرجت جاء جبريل فقال : يا محمد ، إن الله يقول : لم تقنط عبادي ؟ ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مصعب بن ثابت قال : " مر النبي صلى الله عليه

وسلم على ناس من أصحابه يضحكون فقال : اذكروا الجنة والنار . فنزلت ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ " .

وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه ، عن عبد الله بن الزبير قال : " مر النبي صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه وقد عرض لهم شيء يضحكهم فقال : أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أيديكم ؟ ونزلت هذه الآية ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " " لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً " . فقال : " هذا الملك ينادي لا تقنط عبادي " " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ قال : بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم العبد قدر عفو الله ، لما تورّع من حرام . ولو يعلم قدر عذابه ، لجمع نفسه " .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة. فلو يعلم الكافر كل الذي عند الله من رحمته، لم ييأس من الرحمة. ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن من النار".

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة: "أن النبي صلى الله عليه وسلم، خرج على رهط من الصحابة وهم يتحدثون فقال: والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم لَضَحِكْتُمْ قليلاً ولَبَكيتُم كثيراً. فلما انصرفنا أوحى الله إليه، أن يا محمد، لم تقنط عبادي؟... فرجع إليهم: ابشروا وقاربوا وسددوا".

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ قالوا لا توجل ﴾ قالوا: لا تخف.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد ﴿ فبم تبشرون ﴾ قال: عجب من كبره، وكبر امرأته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ من القانطين ﴾ قال: الآيسين.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر من طريق الأعمش، عن يحيى أنه قرأها "فلا تكن من

القنطين " بغير ألف . قال : وقرأ ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه ﴾ مفتوحة النون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قال : من ذهب يقنط الناس من رحمة الله ، أو يقنط نفسه فقد أخطأ ، ثم نزع بهذه الآية ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه ﴾ قال : من ييأس من رحمة ربه .

(195/427)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأحمد في الزهد ، عن موسى بن علي ، عن أبيه قال : بلغني أن نوحاً عليه السلام قال لابنه سام : يا بني ، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله ؛ فإنه من يأت الله عز وجل مشركاً فلا حجة له . ويا بني ، لا تدخل القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر ؛ فإن الكبر رداء الله ، فمن ينازع الله رداءه يغضب الله عليه . ويا بني ، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنوط ؛ فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الفاجر الراجي لرحمة الله ، أقرب منها من العابد القنط " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال : بيني وبين القدرية هذه الآية ﴿ إلا امرأته

قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ قال : أنكرهم لوط .

وفي قوله ﴿ بما كانوا فيه يمترون ﴾ قال : بعذاب قوم لوط .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ بما كانوا فيه يمترون ﴾ قال : يشكون .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ قال : أمر أن يكون خلف أهله يتبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ قال : أخرجهم الله إلى الشام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ قال : أوحينا إليه .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ يعني استئصالهم وهلاكهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ قال : استبشروا بأضياف نبي الله لوط ، حين نزلوا به لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ قال: يقولون أن تضيف أحداً أو تؤويه ﴿ قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ قال: أمرهم لوط بتزويج النساء، وأراد أن يقي أضيافه ببناته والله أعلم.

وأخرج ابن أبي شيبة والحرث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل، عن ابن عباس قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم. وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره. قال ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ يقول: وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لعمرك ﴾ قال: لعيشك.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما حلف الله بحياة أحد إلا بحياة محمد، قال ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ وحياتك يا محمد ".

وأخرج ابن جرير عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يقول الرجل: لعمري، يرونه كقوله وحياتي.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أي في

ضلالتهم يلعبون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الأعمش أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ قال : لفي غفلتهم يترددون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ قال : ﴿ الصيحة ﴾ مثل الصاعقة ، كل شيء أهلك به قوم فهو صاعقة وصيحة .

وأخرج ابن جرير عن ابن جريج في قوله ﴿ مشرقين ﴾ قال : حين أشرقت الشمس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ قال : علامة . أما ترى الرجل يرسل بخاتمه إلى أهله فيقول هاتوا كذا وكذا ؟ فإذا رأوه عرفوا أنه حق .

*(197/427)*

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ قال : للناظرين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، عن قتادة في قوله ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ قال : للمعتبرين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ قال : هم المتفرسون .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ قال : هم المتفرسون .

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب ، وابن مردويه والخطيب ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله "

ثم قرأ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ قال : المتفرسين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن ، فإن المؤمن ينظر بنور الله " .

وأخرج ابن جرير عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احذروا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله " .

وأخرج الحكيم الترمذي والبزار وابن السني وأبو نعيم ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ يقول : لبهلاك .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ يقول : لبطريق واضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(198/427)

---

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[ قصة لوط عليه السلام ]

تمسكوا بقوله تعالى إخبارا عنه عليه السلام : (هؤلاء بناتى ان كنتم فاعلين) عرض بالفاحشة مع بناته وذلك كسرة دالة على سقوط النفس *

[ جوابه ] قال الشافعي رحمه الله الكلام يجمل في غير مقصوده ويفصل في مقصوده ، فلما كان غرضه ترجيح النساء على الغلمان لا جرم لم يتعرض لذكر النكاح وإن كان ذلك معتبرا في نفس الأمر ، والدليل على أن هذا الشرط كان معتبرا وجهان : [ الأول ] قال : (هن أطهر) ولا طهارة في الزنا *

[ الثاني ] أنه لو دعا نفسه إلى الزنا لكان لهم أن يقولوا الزنا واللواطة حرامان على مذهبك ، فأى فائدة في الدعوى من أحدهما إلى الآخر ؟

[ فإن قيل ] هب أنه كذلك ولكن كيف يجوز تزويج المسلمة من الكافر ؟ [ جوابه ] من وجوه أربعة : [ الأول ] أن ذلك مما يختلف باختلاف الشرائع . الا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنته زينب من أبى العاص وهو كافر (1) [ الثاني ] أنا كما أثبتنا ضمنا فكذلك إسلام الزوج *

[ الثالث ] أنه عليه السلام أراد موافقتهم وتسويفهم وذلك لان الرسل من الملائكة عليهم السلام كانوا أخبروه بهلاكهم عند الصبح ، كما أخبر الله عنه (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) *

[ الرابع ] أنه يكفى في الاضافة أدنى سبب ، فالبنات بنات

---

(1) أبو العاص بن الربيع كانت خالته خديجة رضى الله عنها أخذ أسيرا في بدر مع المشركين فمن عليه المسلمون على أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة ففعل ، ثم لم يلبث أن جاء مسلما بعد هجرة زينب بسنة فردها عليه النبي صلى الله عليه وآله بالنكاح الاول . وقد كان تزوجها قبل البعثة النبوية (*)

الأمة إلا أنه أضافهن إلى نفسه لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام كالأب لأمتهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 89. 91 ﴾



---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) ﴾

قوله تعالى : و ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ : حال .

قوله تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ : يجوز فيه أوجهٌ ، أحدها : أن يكونَ " بناتي " مفعولاً بفعلٍ مقدرٍ ، أي : تَزَوَّجوا هؤلاء . و " بناتي " بيانٌ أو بدلٌ . الثاني : أن يكونَ " هؤلاء بناتي " مبتدأً وخبراً ولا بُدَّ مِنْ شيءٍ محذوفٍ تَتِمُّ به الفائدةُ ، أي : فتَزَوَّجُوْهن . الثالث : أن يكونَ " هؤلاء " مبتدأً ، و " بناتي " بدلٌ أو بيان ، والخبرُ محذوفٌ ، أي : هُنَّ أطهرُ لكم ، كما جاء في نظيرتها .

قوله : ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ [ الحجر : 68 ] : الفَضْحُ والفَضِيْحَةُ البيان والظهور ، ومنه فَضَحَه الصُّبْحُ قال :

2944- ولاحَ ضوءُ هِلالِ الليلِ يَفْضَحُنا . . . مثلَ القُلامَةِ قد قُصَّتْ من الظُفُرِ

إلا أنَّ الفضيحةَ اختصَّتْ بما هو عارٌ على الإِنسانِ عند ظهورِه .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) ﴾

(201/427)

---

قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ : مبتدأٌ ، محذوفُ الخبرِ وجوباً ، ومثلُه : لأيمُنُ الله . و " إنهم " وما في حَيِّزه جوابُ القسمِ تقديرُه : لَعَمْرك قسمي أو يميني إنهم . والعَمْر والعُمْر بالفتح والضم هو البقاء ، إلا أنهم التزموا الفتح في القسم . قال/ الزجاج : " لأنَّه أَخَفُّ عليهم ، وهم يُكْثِرون القَسَم ب " لَعَمْري " و " لَعَمْرك " . وله أحكامٌ كثيرة منها : أنه متى اقترن بلامِ الابتداء لَزِم فيه الرفعُ بالابتداءِ ، وحُذِف خبرُه ، لِسَدِّ جوابِ القسم مَسَدَّه . ومنها : أنه يصير صريحاً في القسم ، أي : يَتَعَيَّن فيه ، بخلافِ غيرِه نحو : عهدُ اللهِ وميثاقُه . ومنها : أنه يَلْزَمُ فَتْحُ عينِه ، فإن لم يقترنْ به لامُ الابتداء جاز نصبُهُ بفعل مقدر نحو : عَمْرَ اللهِ لأفعلنَّ ، ويجوز حينئذ في الجلالةِ وجهان : النصبُ والرفعُ ، فالنصبُ على أنه مصدرٌ مضافٌ لفاعله وفي ذلك معنيان ، أحدهما : أنَّ الأصلَ : أسألُكَ بتعميرك اللهَ . أي : بوصفِك اللهَ تعالى بالبقاء ، ثم حُذِف زوائدُ المصدرِ . والثاني : أن المعنى : عبادتك الله ، والعَمْر :

العبادة، حكى ابن الأعرابي "عَمَرْتُ ربي"، أي: عَبَدْته، وفلانٌ عامِرٌ ربِّه، أي: عابدُه.

وأمَّا الرفعُ: فعلى أنه مضافٌ لمفعولِه. قال الفارسي: "معناه: عَمَّرَكَ اللهُ تَعْميراً". وقال الأخفش: "أصله: أسألك بتعميرك الله، فحُذِفَ زوائدُ المصدر والفعلُ والباءُ فانتصب، وجاز أيضاً ذِكْرُ خبرِه فتقول: عَمْرُك قَسَمي لأقومَنَّ، وجاز أيضاً ضَمُّ عينِه، ويُنْشِدُ بالوجهين قولُه:

2945- أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً . . . عَمْرَكَ اللهَ كيف يَلتقيانِ

ويجوزُ دخولُ باءِ الجرِّ عليه، نحو: بعَمْرِكَ لأفعلَنَّ. قال:

2946- رُقَيَّ بعَمْرِكُمْ لا تَهْجُرينا . . . ومَنِّيْنا المُنَى ثم امْطُلِينا



---

وهو من الأسماء اللازمة للإِضافة، فلا يُقطع عنها، ويُضاف لكلِّ شيءٍ. وزعم بعضُهم أنه لا يُضاف إلى الله. قيل: كأنَّ قائل هذا تَوَهَّم أنه لا يُسْتعمل إلا في الانقطاع، وقد سُمع إضافتُه للباري تعالى. قال الشاعر:

2947- إذا رَضِيَتْ عليَّ بنو قُشَيْرٍ . . . لعَمْرُ اللهِ أَعْجبني رِضاها

ومَنَع بعضُهم إضافتَه إلى ياءِ المتكلمِ قال : لأنه حَلْفٌ بحياة المُقْسِم ، وقد ورَدَ ذلك ، قال النابغة :

2943- لَعَمْري -وما عَمْري عليَّ بهيِّنٍ- . . . لقد نَطَقَتْ بُطْلاً عَلَيَّ الأقارِعُ

وقد قَلَبَتْه العربُ بتقديمِ رائه على لامه فقالوا : " رَعَمْلي " ، وهي رديئةٌ .

والعامَّة على كسرِ " إنَّ " لوقوعِ اللامِ في خبرها . وقرأ أبو عمروٍ في روايةِ الجَهْضَميِّ بفتحها . وتخريجُها على زيادةِ اللامِ وهي كقراءة ابن جبير : ﴿ إلاَّ إنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام ﴾ [ الفرقان : 20 ] بالفتح .

والأعمش : " سَكْرِهم " دون تاءٍ . وابن أبي عبلة " سَكَراتهم " جمعاً . والأشهبُ " سُكْرَتِهم " بضم السين .

و " يَعْمَهُون " حالٌ من الضميرِ المستكنِّ في الجارِ ، وإمَّا من الضميرِ المجرورِ بالإِضافةِ .

والعامل : إمَّا نفسُ " سَكْرَة " لأنها مصدرٌ ، وإمَّا معنى الإِضافة .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ : حالٌ مِنْ مفعول " أَخَذَتْهم " ، أي : داخلين في الشُّروق .

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) ﴾

والضميرُ في ﴿ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ للمدينة . وقال الزمخشري : " لقرى قومِ لوطٍ " . ورُجِّح

الأولُ بأنه تقدَّم ما يعود عليه لفظاً بخلاف الثاني .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (75) ﴾

(203/427)

---

قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ : متعلِّقٌ بمحذوف على أنه صفةٌ لآيات . والأجودُ أَنْ يتعلَّق بنفس " آياتٍ " لأنها بمعنى العلامات . والتَّوَسُّم تَفَعُّلٌ مِنَ الوَسْمِ ، والوَسْم : أصلُه التَّثَبُّتُ والتفكُّر ، مأخوذٌ من الوَسْم ، وهو التأثير بحديدةٍ في جِلْد البعير أو غيره . وقال ثعلب : " الواسم : الناظرُ إليك مِنْ قَرْنك إلى قدَمِك " ، وفيه معنى التَّثُّبت . وقيل : / أصلُه : استقصاءُ التعرّفِ يُقال : تَوَسَّمْتُ ، أي : تَعَرَّفْتُ مُسْتَقْصِياً وجوهَ التعرُّف . قال :

2949- أَوَ كلما وَرَدَتْ عُكاظَ قبيلةٌ . . . بَعَثَتْ إليَّ عريفَها يتوسَّمُ

وقيل : هو تَفَعُّل من الوَسْمِ ، وهو العَلاَمَةُ : تَوَسَّمْتُ فيك خيراً ، أي : ظَهَر له مِيْسَمُه عليك . قال ابن رواحة في النبي صلَّى الله عليه وسلم :

2950- إنِّي تَوَسَّمْتُ فيك الخيرَ أَعْرِفُه . . . واللهُ يَعلم أني ثابتُ البَصَرِ

وقال آخر :

2951- تَوَسَّمْتُه لَمَّا رَأَيْتُ مَهابَةً . . . عليه وقُلْتُ : المرءُ مِنْ آلِ هاشمِ

ويُقال: اتَّسَمَ الرجلُ: إذا اتَّخَذَ لنفسِه علامةً يُعْرَفُ بها، وتَوَسَّمَ: إذا طلب كَلأَ الوَسْمِيِّ، أي: العشبِ النابتِ في أولِ مطرِ [الربيعِ].

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ ﴾: الظاهرُ عَوْدُ الضميرِ على المدينة أو القُرى. وقيل: على الحجارةِ. وقيل: على الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ ﴾: "إنْ" هي المخففةُ واللامُ فارقةٌ، وقد تَقَدَّم حكمُ ذلك. والأَيْكَةُ: الشجرةُ المُلْتَفَّةُ، واحدةُ الأَيْكِ. قال:

2952- تَجْلُوْ بقادِمَتَيْ حمامةِ أَيْكةٍ ... بَرَدًا أُسِفَّ لِثاتُه بالإِثْمِدِ

ويقال: لَيْكَة. وسيأتي بيانُ هذا عند اختلافِ القرَّاءِ فيه إن شاء الله تعالى في الشعراء.

(204/427)

---

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ ﴾ في ضميرِ التثنيةِ أقوالٌ، أَرْجَحُها: عَوْدُه على قريَتَيْ قومِ لوطٍ وأصحابِ الأيكة وهم قوم شُعَيب لتقدُّمِهما ذِكْرًا. وقيل: يعودُ على لوطٍ وشُعَيْبٍ، وشعيبٌ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ، ولكنْ دَلَّ عليه ذِكْرُ قومه. وقيل: يعود على الخبرين: خبرِ إهلاكِ

قوم لوطٍ ، وخبر إهلاكِ قوم شعيب . وقيل : يعودُ على أَصحاب الأيكةِ وأصحاب مَدْيَنَ ؛ لأنه مُرْسَلٌ إليهما فَذِكْرُ أحدِهما مُشْعِرٌ بالآخرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 178.173 ﴾

(205/427)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) ﴾

اقسم بحياته تخصيصاً له في شرفه ، وتفضيلاً له على سائر البرية ، فقال وحياتك - يا محمد - إنهم لفي ضلالتهم وسكرة غفلتهم يترِدُّون ، وإنهم عن شِرْكهم لا يُقْلِعون .

ويقال أقسم بحياته لأنه لم يكن في وقته حياة أشرف من حياته - إنهم في خُمَارِ سُكْرِهم ، وغفلةِ ضلالتهم لا يترقبون عقوبةً ، ولا يخافون سوءاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

باتوا في حبور وسرور ، وأصبحوا في محنة وثبور ، وخرَّ عليهم سقوفُهم ، وجعلنا مُدَنَهم ومنازِلهم عاليَها سافِلَها ، وأمطرنا عليهم من العقوبة ما لم يُبْق عيناً ولا أَثَراً ، إنَّ في ذلك لَعِبْرة لمن اعتبر ، ودلالةً ظاهرة لمن استبصر ، ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ لِمَنْ شاءَ أن يَعْتَبِرْ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

جاء في التفسير " المتفرسين " ، والفراسةُ خاطرٌ يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهورِ برهانٍ عليه ، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة . مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر . والحق - سبحانه - يُطْلِعُ أولئاءه على ما خفي على غيرهم .

وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن تُسَدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فَنبيُّنا - صلى الله عليه وسلم - كان يقول لعائشة - رضي الله عنها - في زمان الإفك : " إنْ كُنْتِ فعلتِ فتوبى إلى الله " وكإبراهيم ولوط - عليهما السلام - لم يعرفا الرسل .



---

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان شعيب - عليه السلام - مبعوثاً لهم فكذَّبوه ،

فانتقمنا منهم .

قوله : ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني مدين والأيكة . . . ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ : أي بطريق واضح مَنْ قصده ( . . . ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 277 . 278 ﴾

(207/427)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/428)

---

الجزء الثامن والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 80 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 87 ﴾ من نفس السورة

(4/428)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ربما قيل : إنه لو كان لأصحاب الأيكة بيوت متقنة لمنعتهم من العذاب ؟ عطف عليهم من هم على طريق أخرى من متاجرهم إلى الشام ، وكانوا قد طال اغترارهم بالأمل حتى اتخذوا الجبال بيوتاً ، وكانت آيتهم في غاية الوضوح فكذبوا بها ، تحقيقاً لأن المتعنتين لو رأوا كل آية لقالوا إنما سكرت أبصارنا فقال : ﴿ ولقد كذب ﴾ .

ولما كان السياق للمكذبين وما وقع لهم بتكذيبهم ، قدم فاعل ، فقال مشيراً إلى إتقان بيوتهم : ﴿ أصحاب الحجر ﴾ وهم ثمود قوم صالح عليه السلام ، وديارهم بين المدينة الشريفة والشام ﴿ المرسلين ﴾ أي كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين بتكذيبك ، لأن الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق ، فمن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع ، وهم في إثبات الرسالة بالمعجزة على حد سواء ؛ ثم أتبع ذلك قوله : ﴿ وءاتيناهم ﴾ أي بعظمتنا على يد رسولهم صالح عليه السلام ﴿ ءاياتنا ﴾ أي كلها ، بإيتاء الناقة وسقيها ودرها وشربها ، لأن الممكنات كلها بالنسبة إلى قدرته على حد سواء ، فمن كذب بواحدة منها فقد كذب بالجميع ﴿ فكانوا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ﴿ عنها ﴾ أي الآيات كلها خاصة ، لا عن زينة الدنيا التي تجر إلى الباطل ﴿ معرضين ﴾ أي راسخين في الإعراض ، لم يؤمنوا بها ، التفاتاً إلى قوله تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ﴾ - الآيتين ، وتمثيلاً له رداً للمقطع على المطلع ؛ ثم أخبر أنهم كانوا مثل هؤلاء في الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع أنهم كانوا أشد منهم فقال : ﴿ وكانوا ينحتون ﴾ والنحت

: قلع جزء بعد حزء من الجسم على سبيل المسح ﴿ من الجبال ﴾ التي تقدم أنا جعلنا ها رواسي ﴿ بيوتاً ءامنين ﴾ عليها من الانهدام، وبها من لحاق ما يكره، لا كبيوتكم التي لا بقاء لها على أدنى درجة ﴿ فأخذتهم ﴾ أي فتسبب عن تكذيبهم أن أخذتهم أخذ العذاب والانتقام ﴿ الصيحة ﴾ حال كونهم ﴿ مصبحين ﴾ أي داخلين في الصبح ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن الصيحة أنه ما ﴿ أغنى ﴾ أي أجزأ ﴿ عنهم ما كانوا ﴾ أي بجبلاتهم ﴿ يكسبون ﴾ من البيوت والأعمال والعدد والآلات الخبيثة، لأنه لا يعجزنا شيء لأنه لا كلفة علينا فيما نفعل ﴿ إنما نقول له كن فيكون ﴾ وفعلنا بهم ذلك لأنهم كانوا على باطل، فكان تعذيبنا لهم حقاً. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 233 ﴾

(5/428)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

هذه هي القصة الرابعة، وهي قصة صالح.

قال المفسرون : الحجر اسم وادٍ كان يسكنه ثمود وقوله : ﴿ المرسلين ﴾ المراد منه صالح

وحده ، ولعل القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل وقوله : ﴿ وءاتيناهم ءاياتنا ﴾ يريد الناقة ، وكان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها وظهور نتاجها عند خروجها ، وكثرة لبنها وأضاف الإيتاء إليهم وإن كانت الناقة آية لصالح لأنها آيات رسولهم ، وقوله : ﴿ فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ يدل على أن النظر والاستدلال واجب وأن التقليد مذموم وقوله : ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال ﴾ قد ذكرنا كيفية ذلك النحت في سورة الأعراف وقوله : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ يريد من عذاب الله ، وقال الفراء : ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ أن يقع سقفهم عليهم وقوله : ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي ما دفع عنهم الضر والبلاء ما كانوا يعملون من نحت تلك الجبال ومن جمع تلك الأموال ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 163 ﴾

(6/428)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي الْحِجْرِ وَتَفْسِيرِهِ : وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا دِيَارُ ثَمُودَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ وادٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ كُلُّ بِناءٍ بَنَيْته وحَظَرْت عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ : ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ هَهُنَا دِيَارُ ثَمُودَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَمَّا نَزَلَ الْحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَهُمْ أَلَّا يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا ، وَلَا يَسْتَقُوا مِنْهَا ، فَقَالُوا : قَدْ عَجَنَّا وَاسْتَقَيْنَا .

فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ وَيُهْرِيقُوا الْمَاءَ .

﴾ وَعَنْهُ فِيهِ أَيْضًا ﴿ أَنَّ النَّاسَ نَزَلُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضَ ثَمُودَ الْحِجْرَ ، وَاسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا ، وَاعْتَجَنُوا بِهِ ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُهْرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بِئْرِهَا ، وَأَنْ يَعْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنْ الْبِئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَرِدُهَا النَّاقَةُ ﴾ .

(7/428)

---

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : رَوَى مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِ الْحِجْرِ : لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ ، إلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ

تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ .

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ ، قَالَ : ﴿ لَمَّا نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحِجْرَ قَالَ : لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ ، فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا ، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا ، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أُخْمِدَتْ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ ، إلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهُمْ كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ فَقِيلَ : مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَبُو رِغَالٍ .

فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : ﴿ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَرْقِ مَاءِ دِيَارِ ثَمُودَ ، وَإِلْقَاءِ مَا عُجِنَ وَحِيسَ بِهِ ﴾ .

لِأَجْلِ أَنَّهُ مَاءُ سُخْطٍ ، فَلَمْ يَجُزْ الِانْتِفَاعُ بِهِ ، فِرَارًا مِنْ سَخَطِ اللَّهِ .

(8/428)

---

وَقَالَ : ﴿ اعْلِفُوهُ الْإِبِلَ ﴾ ؛ فَكَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مَا لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ يَجُوزُ أَنْ تُعْلَفَهُ الْإِبِلُ وَالْبَهَائِمُ ؛ إذْ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا ، وَلِأَجْلِ هَذَا قَالَ مَالِكٌ فِي الْعَسَلِ النَّجِسِ إنَّهُ تُعْلَفُهُ النَّحْلُ .

وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ الصَّلَاةُ فِيهَا ؛ لِأَنَّهَا دَارُ سُخْطٍ وَبُقْعَةُ غَضَبٍ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَدْخُلُوهَا إلَّا بَاكِينَ » .

وَرُوِيَ « أَنَّهُ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ ، وَأَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ حَتَّى خَرَجَ عَنْهَا » .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فَصَارَتْ هَذِهِ بُقْعَةً مُسْتَثْنَاةً مِنْ قَوْلِهِ : « جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا ، وَجُعِلَ تُرَابُهَا طَهُورًا » ؛ فَلَا يَجُوزُ التَّيَمُّمُ بِهَا ، وَلَا الْوُضُوءُ مِنْ مَائِهَا ، وَلَا الصَّلَاةُ فِيهَا .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ » رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَهُوَ حَدِيثٌ مُضْطَرِبٌ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ الصَّلَاةِ فِي سَبْعَةِ مَوَاطِنَ : الْمَزْبَلَةُ ، وَالْمَجْزَرَةُ ، وَالْمَقْبَرَةُ ، وَالْحَمَّامُ ، وَالطَّرِيقُ ، وَظَهْرُ الْكَعْبَةِ ، وَأَعْطَانُ الْإِبِلِ » .

وَذَكَرَ عُلَمَاؤُنَا مِنْهَا جُمْلَةً ، وَجِمَاعُهَا هَذِهِ الثَّمَانِيَةُ .

التَّاسِعُ : الْبُقْعَةُ النَّجِسَةُ .

الْعَاشِرُ : الْبُقْعَةُ الْمَغْصُوبَةُ .

الْحَادِيَ عَشَرَ : أَمَامَك جِدَارٌ عَلَيْهِ نَجَسٌ .

الثَّانِي عَشَرَ : الْكَنِيسَةُ .

الثَّالِثَ عَشَرَ : الْبِيعَةُ .

الرَّابِعَ عَشَرَ : بَيْتٌ فِيهِ تَمَاثِيلُ .

الْخَامِسَ عَشَرَ : الْأَرْضُ الْمُعْوَجَّةُ .

السَّادِسَ عَشَرَ : مَوْضِعٌ تَسْتَقْبِلُ فِيهِ نَائِمًا أَوْ وَجْهَ رَجُلٍ .

السَّابِعَ عَشَرَ : الْحِيطَانُ .

وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَمِنْ هَذَا مَا مُنِعَ لِحَقِّ الْغَيْرِ ، وَمِنْهُ مَا مُنِعَ لِأَجْلِ النَّجَاسَةِ الْمُحَقَّقَةِ أَوْ لِغَلَبَتِهَا ، وَمِنْهُ مَا مُنِعَ مِنْهُ عِبَادَةً .

فَمَا مُنِعَ مِنْهُ لِأَجْلِ النَّجَاسَةِ إنْ فُرِشَ فِيهِ ثَوْبٌ طَاهِرٌ كَالْمَقْبَرَةِ وَالْحَمَّامِ فِيهَا أَوْ إلَيْهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي الْمُدَوَّنَةِ ، وَذَكَرَ أَبُو مُصْعَبٍ عَنْهُ الْكَرَاهِيَةَ ، وَفَرَّقَ عُلَمَاؤُنَا بَيْنَ الْمَقْبَرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْقَدِيمَةِ ، لِأَجْلِ النَّجَاسَةِ إلَّا أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمَقْبَرَةِ يَتَأَكَّدُ إذَا كَانَتْ لِلْمُشْرِكِينَ لِأَجْلِ النَّجَاسَةِ وَأَنَّهَا دَارُ عَذَابٍ كَالْحِجْرِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : ﴿ لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا يُصَلَّى إلَيْهَا ﴾ .

وَفِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ﴾ يُحَذِّرُ مِمَّا صَنَعُوا .

(10/428)

---

وَقَالَ مَالِكٌ فِي الْمَجْمُوعَةِ : لَا يُصَلَّى فِي أَعْطَانِ الْإِبِلِ ، وَإِنْ فَرَشَ ثَوْبًا ، كَأَنَّهُ رَأَى لَهَا عِلَّتَيْنِ : الِاسْتِقْذَارَ بِهَا وَقِفَارَهَا ، فَتُفْسِدُ عَلَى الْمُصَلِّي صَلَاتَهُ ، فَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَلَا بَأْسَ بِهِ ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ .

وَقَالَ مَالِكٌ : لَا يُصَلَّى عَلَى بِسَاطٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ إلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ .

وَكَرِهَ ابْنُ الْقَاسِمِ الصَّلَاةَ إلَى قِبْلَةٍ فِيهَا تَمَاثِيلُ ، وَفِي الدَّارِ الْمَغْصُوبَةِ ، فَإِنْ فَعَلَ أَجْزَأَهُ .

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي الدَّارِ الْمَغْصُوبَةِ لَا تُجْزِئُ .

وَذَلِكَ عِنْدِي بِخِلَافِ الْأَرْضِ ؛ فَإِنَّ الدَّارَ لَا تُدْخَلُ إلَّا بِإِذْنٍ ، وَالْأَرْضُ وَإِنْ كَانَتْ مِلْكًا فَإِنَّ الْمَسْجِدِيَّةَ فِيهَا قَائِمَةٌ لَا يُبْطِلُهَا الْمِلْكُ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ : ﴿ لَعَنَ اللَّهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(11/428)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾

وهم ثمود قوم صالح . وفي ﴿ الحجر ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الوادي ، قاله قتادة .

الثاني : أنها مدينة ثمود ، قاله ابن شهاب .

الثالث : ما حكاه ابن جرير أن الحجر أرض بين الحجاز والشام .

وروى جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ في غزاة تبوك بالحجر ، فقال : " هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلاّ رجلاً كان في حَرَم الله ، منعه حرمُ الله من عذاب الله " .

قيل : يا رسول الله من هو؟ قال : " أبو رغال

" . قوله عز وجل : ﴿ وكانوا ينحتون مِنَ الجبال بيوتاً آمنين ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : آمنين أن تسقط عليهم .

الثاني : آمنين من الخراب .

الثالث : آمنين من العذاب .

الرابع : آمنين من الموت . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

---

(1) كلام فى غاية البعد .

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾

و﴿ أصحاب الحجر ﴾ هم ثمود ، وقد تقدم قصصهم ، و﴿ الحجر ﴾ مدينتهم ، وهي ما بين المدينة وتبوك ، وقال ﴿ المرسلين ﴾ من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع ، إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع ، فهذه العبارة أشنع على المكذبين ، و" الآية " التي آتاهم الله في الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسبما تقدم تفسيره وبسطه ، وقرأ أبو حيوة " وآتيناهم آيتنا " مفردة ، وقوله تعالى : ﴿ وكانوا ينحتون ﴾ الآية ، يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب منها فذكر من ذلك مثالاً أن بيوتهم كانوا ينحتونها من حجر الجبال ، و" النحت " النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه ، وقرأ جمهور الناس " ينحِتون " بكسر الحاء ، وقرأ الحسن " ينحَتون " بفتحها ، وذلك لأجل حرف الحلق ، وهي قراءة أبي حيوة ، وقوله ﴿ آمنين ﴾ قيل معناه من انهدامها ، وقيل من حوادث الدنيا ، وقيل من الموت لاغترارهم بطول الأعمال .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله ضعيف ، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون

عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها ، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها ، ومعنى ﴿ مصبحين ﴾ أي عند دخولهم في الصباح ، وذكر أن ذلك كان يوم سبت ، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم ، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئاً ، ولا دفع عذاب الله ، و﴿ ما ﴾ الأولى تحتمل النفي وتحتمل التقرير ، والثانية مصدرية.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(13/428)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد كذَّب أصحاب الحِجر المرسلين ﴾

يعني بهم ثمود.

قال ابن عباس : كانت منازلهم بالحِجر بين المدينة والشام.

وفي الحِجر قولان : أحدهما : أنه اسم الوادي الذي كانوا به ، قاله قتادة ، والزجاج.

والثاني : اسم مدينتهم ، قاله الزهري ، ومقاتل.

قال المفسرون : والمراد بالمرسَلين : صالح وحده ، لأنه من كذَّب نبياً فقد كذَّب الكُلّ.

والمراد بالآيات : الناقة ، قال ابن عباس : كان في آيات : خروجها من الصخرة ، ودنوّ

نتاجها عند خروجها ، وعِظَمُ خَلْقها فلم تشبهها ناقة ، وكثرةُ لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً ، ﴿ فكانوا عنها معرضين ﴾ لم يتفكروا فيها ولم يستدلُّوا بها .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ﴾

قد شرحناه في [ الأعراف 74 ] .

وفي قوله : ﴿ آمنين ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : آمنين أن تقع عليهم .

والثاني : آمنين من خرابها .

والثالث : من عذاب الله عز وجل ، وفي قوله تعالى : ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ قولان :

أحدهما : ما كانوا يعملون من نحت الجبال .

والثاني : ما كانوا يكسبون من الأموال والأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

*(14/428)*

---

وقال القرطبى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

الحجر ينطلق على معان : منها حجر الكعبة .

ومنها الحرام ؛ قال الله تعالى : ﴿ وحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [ الفرقان : 22 ] أي حراماً محرماً .

والحجر العقل ؛ قال الله تعالى : ﴿ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [ الفجر : 5 ] والحِجْر حِجر القميص ؛ والفتح أفصح .

والحجر الفرس الأنثى .

والحجر ديار ثمود ، وهو المراد هنا ، أي المدينة ؛ قاله الأزهريّ .

قتادة : وهي ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادي الذي فيه ثمود .

الطبريّ : هي أرض بين الحجاز والشام ، وهم قوم صالح .

وقال : ﴿ المرسلين ﴾ وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبيًّا فقد كذّب الأنبياء كلهم ؛ لأنهم على دين واحد في الأصول فلا يجوز التفريق بينهم .

وقيل : كذبوا صالحاً ومن تبعه ومن تقدّمه من النبيّين أيضاً .

والله أعلم .

روى البخاريّ عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجر في غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها .

فقالوا : قد عَجَنَّا واستقينا .

فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين.

وفي الصحيح عن ابن عمر: أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود، فاستقوْا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا ما استقوْا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدها الناقة.

وروي أيضاً عن ابن عمر قال: "مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم ثم زجر فأسرع".

(15/428)

---

قلت: ففي هذه الآية التي بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل، استنبطها العلماء واختلف في بعضها الفقهاء، فأوّلها: كراهة دخول تلك المواضع، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار؛ فإن دخل الإنسان شيئاً من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبيّ صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلوا أرض بابَل فإنها ملعونة".

مسألة : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط ، فلم يجز الإنتفاع به فراراً من سخط الله .

وقال "اعلفوه الإبل" .

قلت : وهكذا حكم الماء النجس وما يعجن به .

وثانيها : قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل .

وثالثها : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُر الإنسية يوم خَيْبَر ؛ فدلّ على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس .

وقد : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف الناضحَ والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس .

قال الشافعيّ : ولو كان حراماً لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه ؛ لأنه متعبّد فيه كما تعبّد في نفسه .

ورابعها : في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليل على جواز حمل الرجل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافاً لمن منع ذلك من أصحابنا وقال : تطلق الكلاب عليها ولا يحملها إليها .

وخامسها : أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار

الأنبياء والصالحين ، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن في الأوّل دليلاً على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم .

(16/428)

---

هذا ، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحبوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كثير :

أحب لحبها السودان حتى . . .

أحبّ لحبها سود الكلاب

وكما قال آخر :

أمرّ على الدّيار ديارِ لَيْلَى . . .

أقبّل ذا الجدارَ وذا الجدارا

وما تلك الديار شَغفن قلبي . . .

ولكن حبّ من سكن الديارا

وسادسها : منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب .

قال ابن العربيّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً " فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة فيها .

وقد روى الترمذي عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلّى في سبعة مواطن : في المَزْبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق ، وفي الحمام وفي معاطن الإبل وفوق بيت الله .

وفي الباب عن أبي مَرْثد وجابر وأنس : حديثُ ابن عمر إسناده ليس بذاك القوِيّ ، وقد تُكُلِّم في زيد بن جَبيرة من قِبَل حفظه .

وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذي فيه تماثيل ، والأرض المغصوبة أو موضعاً تستقبل فيه نائماً أو وجه رجل أو جداراً عليه نجاسة .

قال ابن العربيّ : ومن هذه المواضع ما مُنع لحق الغير ، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى ، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها ؛ فما منع لأجل النجاسة إن فرش فيه ثوب طاهر كالحمام والمقبرة فيها أو إليها فإن ذلك جائز في المدوّنة .

وذكر أبو مصعب عنه الكراهة .

وفرق علماؤنا بين المقبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر .

وقال مالك في المجموعة : لا يُصلِّي في أعطان الإبل وإن فرش ثوباً ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها ونفارها فتفسد على المصلي صلاتُه ، فإن كانت واحدة فلا بأس ؛ كما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يفعل ؛ في الحديث الصحيح .

وقال مالك : لا يصلّي على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة .

وكره ابن القاسم الصلاة إلى القبلة فيها تماثيل ، وفي الدار المغصوبة ، فإن فعل أجزأه .

وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة في الدار المغصوبة لا تجزي .

قال ابن العربيّ : وذلك عندي بخلاف الأرض فإن الدار لا تُدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكاً فإن المسجدية فيها قائمة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح إن شاء الله الذي يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة .

وما روي من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا وادٍ به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهريّ فقال : واخرجوا عن الموضع الذي أصابتكم فيه الغفلة .

وقولِ عليّ : نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلي بأرض بابل فإنها ملعونة .

وقولِه عليه السلام حين مرّ بالحجرِ من ثمود :

" لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ونهيِه عن الصلاة في معاطن الإبل إلى

غير ذلك مما في هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليها والدلائل الصحيح مجيئها .

(18/428)

---

قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا في هذا الباب أن ذلك الوادي وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلّها ما لم تكن فيها نجاسة متيقّنة تمنع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من اعتل بأن موضع النوم عن الصلاة موضع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيه الصلاة ، وكل ما روي في هذا الباب من النهي عن الصلاة في المقبرة وبأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك مما في هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " جُعلت لي الأرض كلها مسجداً وطَهوراً " ، وقوله صلى الله عليه وسلم مخبراً : إن ذلك من فضائله ومما خُصّ به ، وفضائلُه عند أهل العلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص .

قال صلى الله عليه وسلم : " "أوتيت خمساً" وقد روي ستاً ، وقد روي ثلاثاً وأربعاً ، وهي تنتهي إلى أزيد من تسع ، قال فيهن "لم يؤتهن أحد قبلي بُعثت إلى الأحمر والأسود ونُصرت بالرُّعْب وجُعلت أمتي خير الأمم وأحِلّت لي الغنائم وجُعلت لِيَ الأرض مسجداً

وطَهوراً وأوتيت الشفاعة وبعثت بجوامع الكَلِم وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت في يدي وأعطيت الكوثر وختِم بي النبيون " رواها جماعة من الصحابة .

وبعضهم يذكر بعضها ، ويذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهي صحاح كلها .

وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبداً قبل أن يكون نبيًّا ثم كان نبيًّا قبل أن يكون رسولاً ؛ وكذلك روي عنه .

(19/428)

---

وقال : " ما أدري ما يفعل بي ولا بكم " ثم نزلت : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [ الفتح : 2 ] " وسمع رجلاً يقول له : يا خير البرية ؛ فقال : "ذاك إبراهيم" وقال : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن مَتّا" وقال : "السيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام" ثم قال بعد ذلك كله : أنا سيد ولد آدم ولا فخر " ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن ها هنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولا الاستثناء ولا النقصان ، وجائز فيها الزيادة .

وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " أجزنا الصلاة في المقبرة والحمام وفي كل موضع من الأرض إذا كان طاهراً من الأنجاس .

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذرّ : " حيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخاريّ ولم يخص موضعاً من موضع .

وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرني يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر حديث الترمذيّ الذي ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جَبِيرة وأنكروه عليه ، ولا يعرف هذا الحديث مسنداً إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة .

وقد كتب الليث بن سعد إلى عبد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبد الله بن نافع لا أعلم من حدّث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل .

ذكره الحُلْواني عن سعيد بن أبي مريم عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها .

وقد رُوي عن عليّ بن أبي طالب قال : نهاني حبيبي صلى الله عليه وسلم أن أصلي في المقبرة ، ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة .

وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذي رواه عن عليّ هو سعيد بن عبد الرحمن الغِفاريّ ، بصريّ ليس بمشهور ولا يصح له سماع عن عليّ ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون .

قال أبو عمر : وفي الباب عن عليّ من قوله غيرَ مرفوع حديثٌ حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبي الحُرّ الكِنْديّ قال : حدّثني أبو العَنْبس حُجر بن عنبس قال : خرجنا مع عليّ إلى الحرورية ، فلما جاوزنا سوريا وقع بأرض بابل ، قلنا : يا أمير المؤمنين أمسيتَ ، الصلاةَ الصلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحداً .

قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت .

قال بلى ، ولكن لا أصلي في أرض خسف الله بها .

والمغيرة بن أبي الحُرّ كوفي ثقة ؛ قاله يحيى بن مَعين وغيره .

وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب عليّ .

وروى الترمذيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأرض كلّها مسجد إلا المقبرةَ والحمام " قال الترمذيّ : رواه سفيان الثوريّ عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلا ، وكأنه أثبت وأصح .

قال أبو عمر : فسقط الاحتجاج به عند من لا يرى المرسل حجة ، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرناه .

ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة في هذا الحديث وغيره أريد بها مقبرة المشركين خاصة ؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالألف واللام ؛ فغير جائز أن يُرَد ذلك

إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح ، ولا مدخل له في القياس ولا في المعقول ، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر .

ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليها بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر ؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بما لا معنى له .

(21/428)

---

أو يكون من أجل أنها بقعة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبني مسجده في مقبرة المشركين وينبِشها ويسوّيها ويبني عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هذا الحديث .

وكل من كره الصلاة في المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبيّنه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله

؛ لأنه بعث مبيِّناً .

ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن في الحديث المقبرة والحمام .

وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة ؛ غير جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا ؛ لأن التحكم في دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيباً طاهراً نظيفاً جائز .

وكذلك أجمعوا على أن من صلى في كنيسة أو بِيعة على موضع طاهر ، أن صلاته ماضية جائزة .

وقد تقدّم هذا في سورة "براءة" .

ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة ؛ لأنها بقعة يعصى الله ويكفر به فيها ، وليس كذلك المقبرة .

وقد وردت السنة باتخاذ البِيع والكنائس مساجد .

روى النَّسائي عن طَلْق بن عليّ قال : " خرجنا وَفْداً إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه ، وأخبرناه أن بأرضنا بِيعة لنا ، وذكر الحديث .

وفيه : "فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بِيعتكم واتخذوها مسجداً " وذكر أبو داود عن

عثمان بن أبي العاص : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم .

وقد تقدّم في "براءة" .

وحسبك بمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم الذي أسِّس على التقوى مبنياً في مقبرة المشركين ؛ وهو حجة على كل من كره الصلاة فيها .

(22/428)

---

وممن كره الصلاة في المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثوريُّ وأبو حنيفة والأوزاعيّ والشافعيّ وأصحابهم .

وعند الثوريّ لا يعيد .

وعند الشافعيّ أجزأه إذا صلى في المقبرة في موضع ليس فيه نجاسة ؛ للأحاديث المعلومة في ذلك ، ولحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً " ، ولحديث أبي مَرْثَد الغَنَويّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل ، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة في كل موضع طاهر إلا

بدليل لا يحتمل تأويلاً .

ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خَطَل القول الذي لا يشتغل بمثله ، ولا وجه له في نظر ولا في صحيح أثر .

وثامنها : الحائط يلقى فيه النَّتْن والعَذِرة ليكرم فلا يصلّى فيه حتى يسقى ثلاث مرات ، لما رواه الدارقطني عن مجاهد عن ابن عباس "عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحائط يُلقى فيه العَذِرة والنّتْن قال : "إذا سُقي ثلاث مرات فصلّ فيه" وخرجه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر : أنه سئل عن هذه الحيطان التي تلقى فيها العَذِرات وهذا الزبل ، أيصلّى فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصلّ فيها .

رُفع ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

اختلفا في الإسناد ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أي بآياتنا .

كقوله : ﴿ آتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ [ الكهف : 62 ] أي بغدائنا .

والمراد الناقة ، وكان فيها آيات جمّة : خروجها من الصخرة ، ودُنُوُّ نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعاً .

ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبئر وغيره .

﴿ فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي لم يعتبروا .

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) ﴾

النحت في كلام العرب: البَرْيُ والنَّجر.

نحته ينحته (بالكسر) نحتاً أي براه.

والنُّحاتَة البراية.

والمِنحت ما يُنحت به.

وفي التنزيل ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: 95] أي تَنْجرون وتصنعون.

فكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً لأنفسهم بشدة قوّتهم.

﴿ آمِنِينَ ﴾ أي مِن أن تسقط عليهم أو تَخْرَب.

وقيل: آمنين من الموت.

وقيل: من العذاب.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ ﴾ أي في وقت الصبح، وهو نصب على الحال.

وقد تقدم ذكر الصيحة في هود والأعراف.

﴿ فَمَآ أَغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصون في الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(24/428)

---

وقال الخازن :

قوله ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾

قال المفسرون : الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام إلى الحجار ، وأهل الحجاز إلى الشام وأراد بالمرسلين صالحاً وحده ، وإنما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لأنهم كذبوه ، وكذبوا من قبله من الرسل .

﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ يعني الناقة وولدها والآيات التي كانت في الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها ، وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لصالح ، لأنه مرسل إليهم بهذه الآيات ﴿ فكانوا عنها ﴾ يعني عن الآيات ﴿ معرضين ﴾ يعني تاركين لها غير ملتفتين إليها ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ خوفاً من الخراب أو أن يقع عليهم الجبل أو السقف ﴿ فاخذتهم الصيحة ﴾ يعني العذاب ﴿

مصبحين ﴾ يعني وقت الصبح ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ يعني من الشرك والأعمال الخبيثة (ق) عن أبي هريرة قال: لما مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالحجر قال: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادي". انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(25/428)

---

وقال أبو حيان:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

أصحاب الحجر ثمود قوم صالح عليه السلام، والحجر أرض بين الحجاز والشام، وتقدّمت قصته في الأعراف مستوفاة.

والمرسلين يعني بتكذيبهم صالحاً، لأنّ من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً.

قال الزمخشري: أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين كما قيل: الخبيبيون في ابن الزبير وأصحابه.

وعن جابر قال: مررنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الحجر فقال لنا: "لا

تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا ان تكونوا باكين حذر أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ، ثم زجر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) راحلته فأسرع حتى خلفها " وفي بعض طرقه ثم قال : " هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلا رجلاً كان في حرم الله منعه حرم الله من عذاب الله " قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : "أبو رغال" وإليه تنسب ثقيف .

وآتيناهم آياتنا قيل : أنزل إليهم آيات من كتاب الله ، وقيل : يراد نصب الأدلة فأعرضوا عنها .

وقيل : كان في الناقة آيات خمس .

خروجها من الصخرة ، ودنو نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً .

وقيل : كانت له آيات غير الناقة .

وقرأ الجمهور : ينحتون بكسر الحاء .

وقرأ الحسن ، وأبو حيوة بفتحها وصفهم بشدة النظر للدنيا والتكسب منها ، فذكر من ذلك مثالاً وهو نقرهم بالمعاول ونحوها في الحجارة .

وآمنين ، قيل : من الانهدام .

وقيل : من حوادث الدنيا .

وقيل : من الموت لاغترارهم بطول الأعمار .

وقيل : من نقب اللصوص ، ومن الأعداء .

وقيل : من عذاب الله ، يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه .

قال ابن عطية : وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة ، فكانوا لا يعملون بحسبها ، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها .

ومصبحين : داخلين في الصباح.

والظاهر أنّ ما في قوله فما أغنى نافية ، وتحتمل الاستفهام المراد منه التعجب .

(26/428)

---

وما في كانوا يحتمل أن تكون مصدرية ، والظاهر أنها بمعنى الذي ، والضمير محذوف أي : يكسبونه من البيوت الوثيقة والأموال والعدد ، بل خروا جاثمين هلكى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(27/428)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أصحاب الحجر ﴾

يعني ثمود ﴿ المرسلين ﴾ أي صالحاً ، فإن مَنْ كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام فقد كذب الجميعَ لاتفاقهم على التوحيد والأصولِ التي لا تختلف باختلاف الأممِ والأعصار ، وقيل : المراد صالحٌ ومن معه من المؤمنين ، كما قيل : الخُبيبون لخبيب بن عبدِ اللَّه بن الزبير وأصحابه ، وادٍ بين المدينة والشام كانوا يسكنونه .

﴿ وءاتيناهم ءاياتنا ﴾ وهي الآياتُ المنزلة على نبيهم ، أو المعجزاتُ من الناقة وسَقْيها وشِرْبها ودرِّها ، أو الأدلةُ المنصوبة لهم ﴿ فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ إعراضاً كلّيًا ، بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا .

﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتًا ءامِنِينَ ﴾ من الانهدام ونقْب اللصوص وتخريبِ الأعداء لوثاقتها ، أو من العذاب لُحسبانهم أن ذلك يحميهم منه . عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحِجْر فقال : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثلُ ما أصاب هؤلاء " ثم زجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلّفها .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ ﴾ وهكذا وقع في سورة هود ، قيل : صاح بهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام ، وقيل : أتتهم من السماء صيحةٌ فيها صوتُ كلِّ صاعقةٍ وصوتُ كل

شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم ، وفي سورة الأعراف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ أي الزلزلةُ ولعلها من روادف الصيحة المستتبِعةِ لتموّج الهواء تموجاً شديداً يفضي إليها كما مر في سورة هود .

﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾

(28/428)

---

ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوتِ الوثيقة والأموالِ الوافرة والعُدد المتكاثرة ، وفيه تهكمٌ بهم ، والفاء لترتيب عدمِ الإغناء الخاصّ بوقت نزول العذابِ حسبما كانوا يرجونه لا عدمِ الإغناءِ المطلق فإنه أمرٌ مستمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(29/428)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾

يعني ثمود ﴿ المرسلين ﴾ حين كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام ، فإن من كذب واحداً من رسل الله سبحانه فكأنما كذب الجميع لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار ، وقيل : المراد بالمرسلين صالح عليه السلام ومن معه من المؤمنين على التغليب وجعل الأتباع مرسلين كما قيل : الخبيبون لخبيب بن الزبير وأصحابه ، وقال الشاعر :

قدنى من نصر الخبيبين قدى . . .

والقول بأنه نزل كل من الناقة وسقبها منزلة رسول لأنه كالداعي لهم إلى اتباع صالح عليه السلام فجمع بهذا الاعتبار لا اعتبار له ألاً فيما أرى .

والحجر واد بين الحجاز والشام كانوا بسكنونه ، قال الراغب : يسمى ما أحيط به الحجارة حجراً وبه سمى حجر الكعبة وديار ثمود ، وقد نهى صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم كما في صحيح البخاري وغيره عن الدخول على هؤلاء القوم إلا أن يكونوا باكين حذراً من أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

وجاء عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن الناس عام غزوة تبوك استقوا من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم باهراق القدور وأن يعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت ترد الناقة .

﴿ وءاتيناهم ءاياتنا ﴾

من الناقة وسقبها وشربها ودرها .

وذكر بعضهم أن في الناقة خمس آيات خروجها من الصخرة .

ودنوا نتاجها عند خروجها .

وعظمها حتى لم تشبهها ناقة .

وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً ، وقيل : كانت لنبيهم عليه السلام معجزات غير ما ذكر ولا يضرنا أنها لم تذكر على التفصيل ، وهو على الإجمال ليس بشيء ، وقيل : المراد بالآيات الأدلة العقلية المنصوبة لهم الدالة عليه سبحانه المبثوتة في الأنفس والآفاق وفيه بعد ، وقيل آيات الكتاب المنزل على نبيهم عليه السلام .

(30/428)

---

وأورد عليه أنه عليه السلام ليس له كتاب مأثور إلا أن يقال : الكتاب لا يلزم أن ينزل عليه حقيقة بل يكفي كونه معه مأموراً بالأخذ بما فيه ويكون ذلك في حكم نزوله عليه ، وقد يقال : بتكرار النزول حقيقة ولا يخفي قوة الإيراد ، وقيل : يجوز أن يراد بالآيات ما يشمل ما بلغهم من آيات الرسل عليهم السلام ، ومتى صح أن يقال : أن تكذيب واحد منهم في حكم

تكذيب الكل فلم لم يصح أن يقال : إن ما يأتي به واحد من الآيات كأنه أتى به الكل وفيه نظر ، وبالجملة الظاهر هو التفسير الأول ﴿ فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ غير مقبلين على العمل بما تقتضيه ، وتقديم المعمول لرعاية تناسب رؤوس الآي .

﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتًا ءامِنِينَ ﴾

من نزول العذاب بهم ، وقيل : من الموت لاغترارهم بطول الأعمار ، وقيل : من الانهدام ونقب اللصوص وتحزيب الأعداء لمزيد وثاقتها ، وقال ابن عطية : أصح ما يظهر لي في ذلك انهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة فكانوا لا يعملون بحسبها بل يعملون بحسب الأمن وتفريع قوله تعالى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) ﴾

أظهر في تأييد الأول ، ووقع في سورة الأعراف ( 78 ، 91 ) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ﴾ ووفق بينهما بان الصيحة تفضي إلى الرجفة أو هي مجاز عنها ، واستشكل التقييد بمصبحين مع ما روى في ترتيب أحوالهم بعد أن أوعدهم عليه السلام بنزول العذاب من أنه لما كانت ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فاتتهم صيحة من السماء فتقطعت لها قلوبهم ، فإن هذا يقتضي أن أخذ الصيحة اياهم بعد الضحوة لا مصبحين . وأجيب بأنه ان صحت الرواية يحمل ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ على كون الصيحة في النهار دون

الليل أو أطلق الصبح على زمان ممتد إلى الضحوة وقيل : يجمع بين الآية والخبر بنحو ما جمع به بين الآيتين آنفاً ، وفيه تأمل فتأمل .

(31/428)

---

﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ ولم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من نحت البيوت الوثيقة أو منه ومن جمع الأموال والعدد بل خروا جاثمين هلكى فما الأولى نافية وتحتمل الاستفهام و﴿ مَا ﴾ الثانية يحتمل أن تكون مصدرية وأن تكون موصولة واستظهره أبو حيان والعائد عليه محذوف أي الذي كانوا يكسبونه .

وفي الإرشاد أن الفاء لترتيب عدم الإغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر ، وفي الآية من التهكم بهم ما لا يخفى . انتهى انتهى .

اهـ ﴿روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(32/428)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

جُمعتْ قصص هؤلاء الأمم الثّلاث : قومِ لوط ، وأصحابِ الأيكة ، وأصحاب الحجر في نسق ، لتماثل حال العذاب الّذي سلط عليها وهو عذاب الصّيحة والرّجفة والصّاعقة .

وأصحاب الحِجر هم ثمود كانوا ينزلون الحِجر بكسر الحاء وسكون الجيم .

والحجر : المكان المحجور ، أي الممنوع من النّاس بسبب اختصاص به ، أو اشتقّ من الحجارة لأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتاً محكماً .

وقد جعلت طبقات وفي وسطها بئر عظيمة وبئار كثيرة .

والحجر هو المعروف بوادي القرى وهو بين المدينة والشّام ، وهو المعروف اليوم باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك .

وأما حَجر اليمامة مدينة بُني حنيفة فهي بفتح الحاء وهي في بلاد نَجد وتسمى العَروض وهي اليوم من بلاد البحرين .

وقد توهّم بعض المستشرقين من الإفرنج أن البيوت المنحوتة في ذلك الجبل كانت قبوراً ، وتعلقوا بحجج وهمية .

ومما يفنّد أقوالهم خلوّ تلك الكهوف عن أجساد آدمية .

وإذا كانت تلك قبوراً فأين كانت منازل الأحياء ؟ .

والظاهر أن ثمود لما أخذتهم الصّيحة كانوا منتشرين في خارج البيوت لقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ .

وقد وُجدت في مداخل تلك البيوت نقر صغيرة تدلّ على أنّها مجعولة لوصد أبواب المداخل في اللّيل .

وتعريف ﴿ المرسلين ﴾ للجنس ، فيصدق بالواحد ، إذ المراد أنّهم كذبوا صالحاً عليه السلام فهو كقوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [ سورة الشعراء : 105 ] .

وقد تقدم .

وكذلك جمع الآيات في قوله : آياتنا ﴾ مراد به الجنس ، وهي آية النّاقة ، أو أريد أنها آية تشتمل على آيات في كيفيّة خروجها من صخرة ، وحياتها ، ورعيها ، وشربها .

وقد روي أنّها خرج معها فصيلها ، فهما آيتان .

وجملة ﴿ وكانوا ينحتون ﴾ معترضة .

والنّحتُ : بَرْي الحجر أو العود من وسطه أو من جوانبه .

و ﴿ من الجبال ﴾ تبعيض متعلق بـ ﴿ ينحتون ﴾ .

والمعنى من صخر الجبال ، لما دلّ عليه فعل ﴿ ينحتون ﴾ .

و ﴿ آمنين ﴾ حال من ضمير ﴿ ينحتون ﴾ وهي حال مقدرة ، أي مقدرين أن يكونوا آمنين عقب نحتها وسكناها .

وكانت لهم بمنزلة الحصون لا ينالهم فيها العدو .

ولكنهم نسوا أنها لا تأمنهم من عذاب الله فلذلك قال : ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

والفاء في ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ للتعقيب والسببية .

و ﴿ مصبحين ﴾ حال ، أي داخلين في وقت الصّباح.

و ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ أي يصنعون ، أي البيوت التي عُنوا بتحصينها وتحسينها كما دلّ عليه فعل ﴿ كانوا ﴾ .

وصيغة المضارع في ﴿ يكسبون ﴾ لدلالتها على التكرّر والتجدّد المكنّى به عن إتقان الصنعة .

وبذلك كان موقع الموصول والصلة أبلغ من موقع لفظ ( بيوتهم ) مثلاً ، ليدل على أن الذي لم يغن عنهم شيءُ متّخذ للإغناء ومن شأنه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

الحجر : منازل ثمود بين الحجاز والشام عند وادي القرى . فمعنى الاية الكريمة : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ [ الشعراء : 141 ] ، وقد بين تعالى تكذيب ثمود لنبيه صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في مواضع أخر . كقوله : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [ الشعراء : 141-142 ] الآيات وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [ الشمس : 14 ] وقوله : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [ القمر : 23-24 ] وقوله : ﴿ فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [ الأعراف : 77 ] إلى غير ذلك من الآيات . وإنما قال إنهم كذبوا المرسلين مع أن الذي كذبوه هو صالح وحده لأن دعوة جميع الرسل واحدة ، وهي تحقيق معنى " لا إله إلا الله " كما بينه تعالى بأدلة عمومية وخصوصية . قال معمماً لجميعهم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [ الأنبياء : 25 ] الآية . وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ

اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [ النحل : 36 ] وقال : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 45 ] إلى غير ذلك من الآيات .

(35/428)

---

وقال في تخصيص الريل بأسمائهم : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [ الأعراف : 59 ] وقال : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [ الأعراف : 65 ] وقال : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ﴾ [ الأعراف : 85 ] إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا حققت أن دعوة الرسل واحدة عرفت أن من كذب واحداً منهم فقد كذب جميعهم . ولذا صرح تعالى بأن من كفر ببعضهم فهو كافر حقاً . قال : ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أولئك هُمُ الكافرون حَقّاً ﴾ [ النساء : 150-151 ] وبين أنه لا تصح التفرقة بينهم بقوله : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [ البقرة : 136 ] وقوله : ﴿ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [ البقرة : 285 ] ووعد

الأجر على عدم التفرقة بينهم في قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفرّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أولئك سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [ النساء : 152 ] الآية . وقد بينا هذه المسالة في كتابنا " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " .

تنبيه

(36/428)

---

اعلم أنه صلى الله عليه وسلم مر بالحجر المذكور في هذه الآية في طريقه في غزوة تبوك ، فقد أخرج البخاري في صحيحه في غزوة تبوك عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لمّا مرَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : " لا تدخلوا مسكان الَّذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما اصابهم ، إلاَّ ان تكونوا باكين " ثمَّ قنّع رأسه وأسرع السَّير حتَّى أجاز الوادي . وهذا لفظ البخاري . وأخرج البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ايضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا نزل الحجر في غزوة تبوك ، " أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها .

فقالوا قد عجنَّا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهرقوا ذلك الماء " . ثم قال البخاري : ويروى عن سبرة بن معبد وأبي الشموس : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم "

أمر بإلقاء الطَّعام " ثم قال : وقال أبو ذر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : " من اعتجن بمائه ".

ثم ساق بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أخبره : أَنَّ النَّاس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض ثمود الحجر واستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " أن يهرقوا ما استقوا من بيارها وأن يعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستسقوا من البئر التي كانت تردها النَّاقة " ثم قال : تابعه اسامة عن نافع .
ثم ساق بسنده عن سالم بن عبد الله عن أبيه : أَنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا مر بالحجر قال : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا ان تكونوا باكين اذن يصيبكم ما أصابهم " ثمَّ تقنَّع بردائه وهو على الرَّحل .

(37/428)

---

ثم ساق أيضاً بسنده عن سالم أن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم غلاان تزنوا باكين أن يصيبكم ما اصابهم " هذا كله لفظ البخاري في صحيحه . وقال ابن حجر في الفتح : أما حديث سبرة بن معبد فوصله أحمد والطبراني من طريق عبد العزيز بن الربع بن سبرة بن معبد عن ابيه عن جده سبرة

وهو بفتح السين المهلمة وسكون الباء الموحدة - الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين راح من الحجر : " من كان عجن منكم من هذا الماء عجينة أو حاس حيساً فليلقه " وليس لسبرة بن معبد في البخاري إلا هذا الموضع . وأما حديث أبي الشموس - وهو بمعجمة ثم مهملة ، وهو بكري لا يعرف اسمه - فوصله البخاري في الأدب المفرد والطبراني وابن منده من طريق سليم بن مطير عن أبيه عنه قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . - فذكر الحديث وفيه فألقى ذو العجين عجينه وذو الحيس حيسه " ورواه ابن أبي عاصم من هذا الوجه وزاد : " فقلت يا رسول اله قد حست حيسة فألقهما راحلتي قال " نعم " .

وقال ابن حجر ايضاً : قوله وقال أبو ذر عن النّبي صلى الله عليه وسلم " من اعتجن بمائه " وصله البزار من طريق عبد الله بن قدامة عنه : " أنهم كانوا مع النّبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأتوا على واد فقال لهم النّبي صلى الله عليه وسلم



---

" إنكم بواد ملعون فاسرعوا " وقال : " من اعتجن عجينة أو طبخ قدراً فليكبها " الحديث - وقال لا أعلمه إلا بهذا الإسناد . وأخرج البخاري في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ

كَذَّبَ أَصْحَابُ الحجر المرسلين ﴾ عن ابن عمر رضي الله عنهما : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحاب الحجر : " لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا ان تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما اصابهم " واخرج البخاري ايضاً عن ابن عمر " في كتاب الصلاة " في " باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب " ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبم ما أصابهم " وبعض هذه الروايات الذي ذكرناها عن البخاري أخرجه مسلم أيضاً في صحيحه ، فقد اتفقا على النهي عن دخول ديارهم إلا في حال البكاء ، وعلى إسراعه صلى الله عليه وسلم حتى جاوز ديارهم . وفي هذه الروايات الصحيحة النهي عن الدخول إلى مواضع الخسف والعذاب إلا في حالة البكاء ، وفيها الأسراع بمجاوزتها وعدم الاستسقاء من مياهها ، وعدم أكل الطعام الذي عجن بها ، ومن هنا قال بعض العلماء : لا يجوز التطهر بمائها ولا تصح الصلاة فيها لأن اماءها لما لم يصلح للأكل والشرب على أنه غير صالح للطهارة التي تقرب إلى الله تعالى . قال البخاري في صحيحه " باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب " ويذكر ان علياً رضي الله عنه كره الصلاة بخسف بابل . وقال ابن حجر في الفتح : هذا الأثر رواه ابن أبي شيبة من طريق عبد الله بن أبي المُحِل – وهو بضم الميم وكسر المهملة وتشديد اللام – قال "كنا مع علي فمررنا على الخسف الذي ببابل فلم يصل حتى أجازه أي تعداه " ومن طريق أخرى عن

على قال : " ما كنت لأصلي بأرض خسف الله بها ثلاث مرات " والظاهر أن قوله ثلاث مرار ليس متعلقاً بالخسف لأنه ليس فيها إلا خسف واحد . وإنما أراد أن علياً قال



---

ذلك ثلاثاً . ورواه أبو داود مرفوعاً من وجه آخر عن علي ولفظه : " نهاني حبيبي صلى الله عليه وسلم أن أصلي في ا رض بابل فإنها ملعونة " في إسناده ضعف واللائق بتعليق المصنف ما تقدم والمراد بالخسف هنا ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [ النحل : 26 ] الآية ، ذكر أهل التفسير والأخبار : أن المراد بذلك أن النمروذ بن كنعان بنى ببابل بنياناً عظيماً يقال إن ارتفاعه كان خمسة الآف ذراع فخسف الله بهم : قال الخطابي : " لا أعلم أحداً من العلماء حرم الصلاة في أرض بابل " انتهى محل الغرض من فتح الباري .

وقول الخطابي – يعارضه ما رأيته عن علي رضي الله عنه ، ولكنه يشهد له عموم الحديث الصحيح : " وجعلت لنا الأرض مسجداً وطهورا " وحديث أبي داود المرفوع عن علي الذي أشار له ابن حجر أن فيه ضعفاً هو قوله : " حدثنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب قال حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري :

ان علياً رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر . فلما برز منها أمر المؤذن فاقام الصلاة فلما فرغ منها قال : " إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني ان اصلي في المقبرة ، ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة " .

(40/428)

---

حدثنا أحمد بن صالح ثنا ابن هوب أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن الحجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي بمعنى سليمان بن داود قال : " فلما خرج " مكان " فلما برز " اه وقد يظهر للناظر في إسنادي هذا الحديث أنه لا يقل درجة القبول ، ولكن فيه علة خفية نبه عليها ابن يونس أما كونه لا يقل عن درجة القبول فلأن طريقته الأولى أول طبقاتها سليمان بن داود ولا خلاف في كونه ثقة ، وفي الثانية أحمد بن صالح مكان سليمان المذكور ، وأحمد بن صالح ثقة حافظ . وكلام النسائي فيه غلط مردود عليه كما قال العراقي في ألفيته :

وربما رد كلام الجارح . . . كالنسائي في أ ؛ مد بن صالح

وسبب غلطه في ذلك أن ابن معين كذب أحمد بن صالح الشموني . فظن النسسائي أن مراد ابن معين أحمد بن صالح هذا الذي هو أبو جعفر بن الطبري المصري وليس كما جزم به ابن

حبان.

والطبق الثانية في كلا الإسنادين: ابن وهب وهو عبد الله بن وهب بم مسلم القرشي مولاهم أبو محمد المصري ثقة حافظ عابد مشهور.

والطبقة الثالثة من الإسنادين: يحيى بن ازهر وعبد الله بن لهيعة ويحيى بن أزهر البصري مولى قريس صدوق، وعبد الله بن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه. والظاهر أن اعتضاد أحدهما بالآخر لا يقل عن درجة الحسن. ويؤيد ذلك أن رواي الحديث ابن وهب ومعلوم أن رواية ابن وهب وابن مبارك عن ابن لهيعه أعدل من رواية غيرهما عنه.

والطبقة الرابعة في الإسناد الأول: عمار بن سعد المرادي. وفي الإسناد الثاني الحجاج بن شداد وعمار بن سعد المرادي ثم السهلمي والحجاج بن شداد الصناعني نزيل مصر كلاهما مقبول كما قاله ابن حجر في التقريب، واعتضاد أحدهما بالآخر لا يقل عن درجة الحسن.

والطبقة الخامسة في كلا الإسنادين: أبو صالح الغفاري وهو سعيد بن عبد الرحمن وعداده في أهل مصر، وهو ثقة.

والطبق السادسة في كليهما : أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، فالذي يظهر صلاحية الحديث للاحتجاج ولكنه فيه علة خفية ذكرها ابن يونس ، وهو أن رواية أبي صالح الغفاري عن علي مرسلة كما ذكره ابن حجر في التقريب . وقال البيهقي في السنن الكبرى " باب من كره الصلاة في موضع الخسف والعذاب " أنبأ أبو علي الروذباري أنبأ أبو بكر بن داسة ثنا أبو داود ، ثم ساق حديث أبي داود المذكور آنفاً بلفظه في المتن والإسنادين . ثم قالك وروينا عن عبد الله بن أبي محل العمري قال : كنا مع علي بن أبي طالب فمر بنا على الخسف الذي ببابل فلم يصل حتى أجازه " وعن جحر الحضرمي عن علؤ بن ابي طالب رضي الله عنه قال : " ما كنت لأصلي بأرض خسف الله بها ثلاث مرات " . ثم قال البيهقي : وه1ا النهي عن الصلاة فيها إن ثبت مرفوعاً ليس لمعنى يرجع غلى الصلاة . فلو صلى فيها لم يعد ثم ساق البيهقي بعض روايات حديث ابن عمر الذي قدمنا عن البخاري ومسلم ثم قال : إن النّبي صلى الله عليه وسلم أحب الخروج من تلك المساكن ، وكره المقام فيه إلا باكياً فدخل في ذلك المقام للصلاة وغيرها . اه .

وهذا الذي ذكرنا هو حاصل ما جاء في الصلاة في مواضع الخسف والتطهر بمياهها ، فذهب بعض أهل العلم إلى أن صلاة بها صحيحة والتطهر بمائها مجزيء واستدلوا بعموم النصوص كقوله صلى الله عليه وسلم : " وجعلت لي الأرض كلها مسجداً " الحديث. وكعموم الأدلة على رفع الحدث وحكم الخبث بالماء المطلق. وذهب بعض أهل العلم إلى أنها لا تجوز الصلاة فيها ولا تصح الطهارة بمائها واستدلوا بحديث علي المرفوع أن حبيبه صلى الله عليه وسلم " نهاه عن الصلاة في خسف بابل لأنها أرض ملعونة " قالوا : والنهي يقتضي الفساد لأن ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من أمرنا ، ومن أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد كما ثبت في الحديث. واحتجوا لعدم الطهارة بمائها بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم منع من استعماله في الأل والشرب وهما ليس بقربة. فدل ذلك على منع الطهارة به من باب أولى.

قال مقدية عفا الله عنه : الذي يظهر لنا رجحانه أن من مر عليها ينبغي له ان يسرع في سيره حتى يخرج منه كفعله صلى الله عليه وسلم وفعل صهره وابن عمه وأبي سبطيه رضي الله عنهم جميعاً ، وأنه لا يدخل إلا باكياً للحديث الصحيح.

فلو نزل فيها وصلى فالظاهر صحة صلاته إذا لم يقم دليل صحيح بدلالة واضحة على بطلانها ، والحكم ببطلان العبادة يحتاج إلى نص قوي المتن والدلالة والعلم عند الله تعالى.

مسائل لها تعلق بهذه الآية الكريمة

قد علمت أن الحجر المذكور في هذه الآية في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحجر المرسلين ﴾ [ الحجر : 80 ] الآية : هو ديار ثمود ، وأنه ورد النهي عن الصلاة في مواضع الخسف . فبهذه المناسبة نذكر الأماكن التي نهى عن الصلاة فيها ونبين ، ما صح فيه النهي وما لم يصح .

(43/428)

---

والمواضع التي ورد النهي عن الصلاة فيها تسعة عشر موضعاً ستأتي كلها عن زيد بن جبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نهى أن يصلى في سبعة مواطن : في المزبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق وفي الحمام وفي أعطان الإبل وفوق ظهر بيت الله " رواه عبد بن حميد في مسنده والتومذي وابن ماجه . وق لالترمذي في إسناده : ليس بذاك . وقد روى الليث بن سعد هذا الحديث عن عبد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم مثله . والحديث ضعيف لا تقوم به حجة . لأن الإسناد الأول فيه زيد بن جبيرة وهو متروك ، قال فيه ابن حجر في التقريب متروك . وقال في تهذيب التهذيب : قال ابن معين هو لا شيء . وقال البخاري منكر الحديث . وقالي في موضع آخر متروك الحديث . وقال النسائي ليس بثقة وقال أبو

حاتم ضعيف الحديث، منكر الحديث جداً، متروك الحجيث لا يكتب حديثه. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه أحد. قلت وقال الساجي حدث عن داود بن الحصين بحديث منكر جداً، يعني حديث النهي عن الصلاة في سبع مواطن. وقال الفسوي ضعيف منكر الحديث. وقال الأزدي متروك وقال ابن حبان يروى المناكير وقال الدارقطني ضعيف. قال ابن عبد البر أجمعوا على أنه ضعيف اه كلام ابن حجر. وأحد إسنادي ابن ماجه فيه ابو صالح كاتب الليث وهو كثير الغلط، وفيه ابن عمر العُمري ضعفه بعض أهل العلم وأخرج له مسلم. وقال ابن أبي حاتم في العلل: هما جميعاً – يعني الحديثين واهيان. وصحح الحديث المذكور ابن السكن وإمام الحرمين.

(44/428)

---

اعلم أولاً ان المواضع التي ورد النهي عن الصلاة فيها هي السبعة المذكورة، والصلاة إلى المقبرة وإلى جدار مرحاض عليه نجاسة والكنية والبيعة وإلى لتماثيل وفي دار العذاب في المكان المغصوب والصلاة إلى النائم والمتحدث وفي بطن الوادي وفي مسجد ضرار والصلاة إلى التنور، فالمجموع تسعة عشر موضعاً. وسنبين أدلة النهي عنها مفصلة إن شاء الله تعالى أما في مواضع الخسف والعذاب فقد تقدم حكم ذلك قريباً.

وأما الصلاة في المقبرة والصلاة إلى القبر فكلاهما ثبت أن النَّبي صلى الله عليه وسلم النهي عنه .

(45/428)

---

أما الصلاة في المقابر فقد وردت أحاديث صحيحة في النهي عنها منها ما رواه الشيخان في صحيحهما عن عائشة رضي الله عنها : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال في مرض موته " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائه مساجد " يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك أبرز قبره صلى الله عليه وسلم غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً . وفي الصحيحين أيضاً نحوه عن أبي هريرة وقد ثبت في الصحيح أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي بعض الروايات . المتفق عليها " لعن الله اليهود والنصارى " وفي بعض الروايات الصحيحة الاقتصار على اليهود . والنَّبي صلى الله عليه وسلم لا يلعن إلا على فعل حرام شديد الحرمة . وعن جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ان يموت بخمس وهو يقول : " إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم

وصالحيهم مساجد . إلا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك " أخرجه ميلم في صحيحه بهذا اللفظ ، رواه النسائي أيضاً . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً " أخرجه الشيخان والإمام أحمد واصحاب السنن إلا ابن ماجه وقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث " ولا تتخذوها قبوراً " دليل على أن القبور ليست محل صلاة وقال بعض العلماء : يحتمل أن يكون معنى الحديث صلوا ولا تكونوا كالأموات في قبورهم فإنهم لا يصلون . واخرج الإمام أحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : " إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهو أحياء والذين يتخذون القبور مساجد " ورواه ابن أبي حاتم أيضاً .



---

والأحاديث في هذا الباب كثيرة صحيحة لا مطعن فيها ، وهي تدل دلالة واضحة على تحريم الصلاة المقبرة. لأن كل موضع صلي فيه يطلق عليه اسم المسجد ، لأن المسجد في اللغة مكان السجود ، ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح " وجعلت الأرض مسجداً " الحديث اي كل مكان منها تجوز الصلاة فيه . وظاهر

النصوص المذكورة العموم سواء نبشت المقبرة واختلط ترابها بصديد الأموات أو لم تنبش .

لأن علة النهي ليست بنجاسة القمابر كما يقوله الشافعية ، بدليل اللعن الوارد من النَّبي صلى الله عليه وسلم على من اتخذ قبور الأنبياء مساجد .

*(47/428)*

---

ومعلوم ان قبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ليست نجسة فالعلة للنهي سد الذريعة لأنهم إذا عبدوا الله عند القبور آل بهم الأمر إلى عبادة القبور . فالظاهر من النصوص المذكورة منع الصلاة عند المقابر مطلقاً وهو مذهب الإمام أحمد وفي صحتها عنده روايتان وإن تحققت طهارتها . وذهب مالك إلى أن الصلاة فيها مكروهة . وذهب الشافعية إلى أنها إذا كانت نجسة لاختلاط ارضها بصديد الأموات لأجل النبش فالصلاة فيها باطلة ، وإن كانت لم تنبش فالصلاة فيها مكروهة عندهم . وذكر النووي عن ابن المنذر أنه قال : روينا عن علي وابن عباس وابن عمر وعطاء والنخعي أنه كرهوا الصلاة في المقبرة . قال : ولم يكرهها أبو هريرة وواثلة بن الأسقع والحسن البصري ونقل صاحب الحاوي عن داود أنه قال : تصح الصلاة وإن تحقق نبشها . وذكر ابن حزم النهي عن الصلاة في المقبرة عن خمسة من الصحابة : وهم عمر وعلي وأبو هريرة وانس وابن عباس . وقال : ما نعلم لهم مخالفاً ،

وحكاه عن جماعة من التابعين إبراهيم النخعي ونافع بن جبير بن مطعم وطاوس وعمرو بن دينار وخيثمة وغيرهم . وقد حكى الخطابي في معالم السنن عن عبد الله بن عمر أنه رخص في الصلاة في المقبرة . وحكي ايضاً عن الحسن أنه صلى في المقبرة . وعن ابن جريج قال قلا لنافع : أكان ابن عمر يكره أن يصلي وسط القبور قال : لقد صلينا على عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما وسط البقيع والإمام يوم صلينا على عائشة أبو هريرة رضي الله عنه ، وحضر ذلك عبد الله بن عمر . رواه البيهقي وغيره . وممن كره الصلاو في المقبرة أبو حنيفة والثوري والأوزاعي . واحتج من قال بجواز الصلاة في المقبرة بأن النَّبي صلى الله عليه وسلم صلى على المسكينة السوداء بالمقبرة . وسياتي قريباً إن شاء الله حكم الصلاة إلى جهة القبر .

(48/428)

---

قال مقيدة عفا الله عنه : أظهر الأقوال دليلاً في هذه المسألة عندي قول الإمام أحمد بن حنب رحمه الله تعالى لأن النصوص صريحة في النهي عن الصلاة في المقابر ولعن من اتخذ المساجد عليها ، وهي ظاهرة جداً في التحريم . أما البطلان فمحتمل ، لأن النهي يقتضي الفساد لقوله صلى الله عليه وسلم : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو در "

والصلاة في المقابر منهي عنها ، فليست من أمرنا فهي رد . ويحتمل أن يقال : الصلاة من أمرنا فليست رداً ، وكونها في المكان المنهي عنه هو الذي ليس من أمرنا . كما علم الخلاف بين العلماء في كل منهي عنه له جهتان : إحداهما مأمور به منها ككونه صلاة ، والأخرى منهي عنه منها ككونه في موضع نهي أو وقت نهي أو أرض مغصوبة أو بحرير او ذهب ونحو ذلك فإنهم يقولون : إن انفكت جهة الأمر عن جهة النهي لم يقتض النهي الفساد ، وإن لم تنفك عنها اقتضاه .

ولكنهم عند التطبيق يختلفون ، فيقول أحدهم : الجهة هنا منفكة . ويقول الآخر : ليست منفكة كالعكس ، فيقول الحنبلي مثلاً الصلاة في الأرض المغصوبة لا يمكن أن تنفك فيها جهة الأمر عن جهة النهي . لكون حركة أركان الصلاة كالركوع والسجود والقيام كلها يشغل المصلي به حيزاً من الفراغ ليس مملوكاً له فنفس شغله له بدنه أثناء الصلاة حرام ، فلا يمكن أن يكون قربه بحال . فيقول المعترض كالمالكي والشافعي : الجهة منفكة هنا لأن هذا الفعل من حيث كونه صلاة قربة ، ومن حيث كونه غصباً حرام ، فله صلاته وعليه غصبه كالصلاة بالحرير . وإلى هذه المسألة وأقوال العلماء فيها أشار مراقي السعود بقوله :

دخول ذي كراهة فيما أمر . . . به بلا قيد وفصل قد حظر

فنفى صحة ونفى الأجر . . . في وقت كره للصلاة يجري

وإن يك النهي عن الأمر انفصل . . . فالفعل بالصحة لا الأجر اتصل

وذا إلى الجمهور ذو انتساب . . . وقيل بالأجرة مع العقاب

وقد روى البطان والقضاء . . . وقيل ذا فقط له انتفاء

(49/428)

---

مثل الصلاة بالحرير والذهب . . . أو في مكان الغصب والوضو انقلب

ومعطن ومنهج ومقبره . . . كنيسة وذي حميم مجزرة

وأما الصلاة إلى القبور فإنها لا تجوز أيضاً ، بدليل ما أخرجه مسلم في صحيحه والإمام أحمد وابو داود والترمذي والنسائي عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها " هذا لفظ مسلم . وفي لفظ له أيضاً : " لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها " والقاعدة المقررة في الأصول : ان النهي يقتضي التحريم . فأظهر الأقوال دليلاً منع الصلاة في المقبرة وإلى القبر ، لأن صيغة النهي المتجردة من القرائن تقتضي التحريم . أما اقتضاء النهي الفساد إذا كان للفعل جهة أمر وجهة نهي ففيه الخلاف الذي قدمناه آنفاً وإن كانت جهته واحدة اقتضى الفساد .

وقال صاحب المراقي في اقتضاء النهي الفساد :

وجاء في الصحيح للفساد . . . إن لن يجى الدليل للسداد

وقد نهى صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح عن الصلاة إلى القبور وقد قال : " وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " وقال تعالى : ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [ الحشر : 7 ] وقد قدمنا أن لعنه صلى الله عليه وسلم من اتخذ القبور مساجد يدل دلالة واضحة على التحريم . واحتج من قال بصحة الصلاة في المقابر وإلى القبور بأدلة منها عموم قوله صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيح : " جعلت لي الأرض مسجداً " الحديث . قالوا عمومه يشمل المقابر ويجاب عن هذا الاستدلال من وجهين : أحدهما أن أحاديث النهي منه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في المقبرة وإلى القبر خاصة ، وحديث



---

" جعلت لي الأرض مسجداً " عام ، والخاص يقتضي به على العام كما تقرر في الأصول عند الجمهور . والثاني أن النّبي صلى الله عليه وسلم استثنى من عموم كون الأرض مسجداً المقبرة والحمام ، فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والشافعي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححاه عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام " قال ابن حجر في " فتح الباري " في الكلام على قول البخاري باب " كراهية الصلاة في المقابر " في حديث ابي

سعيد هذا رواه أبو داود والترمذي ورجاله ثقات ، لكن اختلف في وصله وإرساله ، وحكم مع ذلك بصحته الحاكم وابن حبان . وقال الشوكاني رحمه الله " في نيل الأوطار " : صححه الحاكم في المستدرك وابن حزم الظاهري ، وأشار ابن دقيق العيد إلى صحته .

قال مقيده عفا الله عنه : التحقيق أن الحديث إذا اختلف في وصله وإرساله ، وثبت موصولاً من طريق صحيحة حكم بوصله ، ولا يكون الإرسال في الرواية الأخرى علة فيه . لأن الوصل زيادة وزيادات العدول مقبولة . وإليه الإشارة بقول صاحب " مراقي السعود " :

والرفع والوصل وزيد اللفظ . . . مقبولة عند إمام الحفظ

ومن أدلة من قال : تصح الصلاة في القبور – ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة : أن امرأةَ سوداء كانت تقم المسجد أو شاباً فقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها أو عنه فقالوا مات قال : " أفلا آذنتموني " قال : فكأنهم صغَّروا أمرها أو أمره . فقال دلُّوني على قبره فدلُّوه فصلَّى عليها . ثمَّ قال : " هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها وإنَّ الله ينورها لهم بصلاتي عليهم " وليس للبخاري " إن هذه القبور مملوءة ظلمة " إلى آخر الخبر قالوا : فهذا الحديث يدل على مشروعية الصلاة إلى القبر .

ومن أدلتهم أيضاً – ما رواه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قبر رطب فصلى عليه وصفوا خلفه وكبر أربعاً .

ومن أدلتهم ايضاً ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النَّبي صلى على قبر .

ومن أدلتهم – ما ذكره البخاري تعليقاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ : " ورأى عمر أنس بن مالك رضي الله عنه يصلي عند قبر . فقال : القبر القبر ولم يامره بالإعادة " اه . وقال ابن حجر في الفتح : أورد أثر عمر الدال على أن النهي في ذلك لا يقتضي فساد الصلاة . والأثر المذكور عن عمر رويناه موصولاً في كتاب الصلاة لأبي نعيم شيخ البخاري . ولفظه : " بينما أنس يصلي إلى قبر ناداه عمر : القبر القبر ! فظن أنه يعني القمر . فلما راى أنه يعني القبر جاوز القبر وصلى " وله طرق أخرى بينتها في تعليق التعليق . منها من طريق حميد عن أنس نحوه ، زاد فيه : فقال بعض من يليني إنما يعني القبر فتنحيت عنه . وقوله القبر القبر بالنصب فيهما على التحذير . وقوله ولم يأمره بالإعادة استنبطه من تمادى أنس على الصلاة . ولو كان ذلك يقتضي فساد ها لقطعها واستأنف اه منه بلفظه .

قال مقيده عفا الله عنه : هذه الأدلة يظهر للناظر أنها متعارضة ، ومعلوم أن الجمع واجب إذا أمكن ، وإن لم يمكن وجب الترجيح ، وفي هذه المسالة يجب الجمع والترجيح معاً . أما وجه الجمع فإن جميع الأدلة المذكورة في الصلاة إلى القبور كلها في الصلاة على الميت وليس فيها ركوع ولا سجود ، وإنما هي دعاء للميت فهي من جنس الدعاء للأموات عند المرور بالقبور . ولا يفيد شيء من تلك الأدلة جواز صلاة الفريضة أو النافلة التي هي صلاة ذات ركوع وسجود . ويؤيده تحذير عمر لأنس من الصلاة عند القبر . نعم تتعارض تلك الأدلة مع ظاهر عموم "لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها " فإنه يعم كل ما يصدق عليه اسم الصلاة ، فيشمل الصلاة على الميت ، فيتحصل أن الصلاة ذات الركوع والسجود لم يرد شيء يدل على جوازها إلى القبر أو عنده بل العكس . أم الصلاة على الميت فهي التي تعارضت فيها الأدلة . والمقرر في الأصول أن الدليل الدال على النهي مقدم على الدليل على الجواز ، وللمخالف ان يقول : لا يتعارض عام وخاص . فحديث "لا تصلوا إلى القبور " عام في ذات الركوع والسجود والصلاة على الميت . والأحاديث الثابتة في الصلاة على قبر الميت خاصة والخاص يقضى به على العام . فأظهر الأقوال بحسب الصناعة الأصولية : منع الصلاة ذات الركوع والسجود عند القبر وإليه مطلقاً للعنه صلى الله عليه وسلم لمتخذي القبور مساجد ، وغير ذلك من الأدلة – وأن الصلاة على القبر الميت التي هي للدعاء له الخالية من الركوع والسجود تصح لفعله صلى الله عليه وسلم الثابت في الصحيح

نم حديث أبي هريرة وابن عباس وأنس ويومئ لهذا الجمع حديث لعن متخذي القبور مساجد لأنها أماكن السجود . وصلاة الجنازة لا سجود فيها . فموضعها ليس بمسجد لغة لأنه ليس موضع سجود .

تنبيه

(53/428)

---

اعلم أن ما يزعمه بعض من لا علم عنده : من أن الكتاب والسنة دلل على اتخاذ القبور مساجد ، يعني بالكتاب قوله تعالى : ﴿ قَالَ الذين غَلَبُواْ على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً ﴾ [ الكهف : 21 ] ويعني بالسنة ما ثبت في الصحيح من أن موضع مسجد النَّبي صلى الله عليه وسلم كان فيه قبور المشركين – في غاية السقوط ، وقائله من أجله خلق الله .

أما الجواب عن الاستدلال بالآية فهو أن تقولك من هؤلاء القوم الذين قالوا لنتخذن عيلهم مسجداً ؟ أهم ممن يقتدي به ! أم هم كفرة لا يجوز الاقتداء بهم ؟ وقد قال أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله تعالى في هؤلاء القوم ما نصه : " وقد اختلف في قائل هذه المقالة ، أهم الرهط المسلمون أم هم الكفار ؟ فإذا علمت ذلك فاعلم أنهم على القول بأنهم كفار

فلا إشكال في أن فعلهم ليس بحجة إذ لم يقل أحد بالاحتجاج بأفعال الكفار كما هو ضروري.

(54/428)

---

وعلى القول بأنهم مسلمون كما يدل له ذكر المسجد لأن اتخاذ المساجد من صفات المسلمين، فلا يخفى على أدنى عاقل أن قول قوم من المسلمين في القرون الماضية إنهم سيفعلون كذا لا يعارض به النصوص الصحيحة الصريحة عن النَّبي صلى الله عليه وسلم إلا من طمس الله بصيرته فقابل قولهم ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِداً ﴾ [الكهف: 21] - بقوله صلى الله عليه وسلم في مرض موته قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بخمس ﴿ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ﴾ الحديث يظهر لك أن من اتبع هؤلاء القوم في اتخاذهم المسجد على القبور ملعون على لسان الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم كما هو واضح، ومن كان ملعوناً على لسانه صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله كما صح عن ابن مسعود رضي الله عنه. لأن الله يقول: ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: 7] الآية. ولهذا صرح ابن مسعود رضي الله عنه بأن الواصلة والواشمة ومن ذكر معهما في الحديث كل واحدة منهن ملعونة في كتاب الله. وقال للمرأة التي

قالت له : قرأت ما بين الدفتين فلم أجد إن كنت قرأته فقد وجدته ، ثم تلا الآية الكريمة ، وحديثه مشهور في الصحيحين وغيرهما ، وبه تعلم أن من اتخذ المساجد على القبور ملعون في كتاب الله جل وعلا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . وأنه لا دليل في آية : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴾ [ الكهف : 21 ] .

(55/428)

---

وأما الاستدلال بأن مسجد النَّبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مبنى في محل مقابر المشركين فسقوطه ظاهر . لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر بها فنشبت وأزيل ما فيها . ففي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه : " فكان فيه ما أقول لكم : قبور المشركين ، وفيه خرب ، وفيه نخل ، فأمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين ، فنبشت ، ثم بالخرب فسويت ، وبالنخل فقطع ، فصفوا النخل قبلة المسجد ، وجعلوا عضادتيه الحجارة " . الحديث . هذا لفظ البخاري . ولفظ مسلم قريب منه بمعناه . فقبور المشركين لا حرمة لها ، ولذلك أمر صلى الله عليه وسلم بنبشها وإزالة ما فيها . فصار الموضع كأن لن يكن فيه قبر أصلاً لإزالته بالكلية . وهو واضح كما ترى اه .

والتحقيق الذي لا شك فيه : أنه لا يجوز البناء على القبور ولا تجصيصها .

كما رواه مسلم في صحيحه وغيره عن أبي الهياج الأسدي : ان علياً رضي الله عنه قال له : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم - ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته " .

ولما ثبت في صحيح مسلم وغيره أيضاً عن جابر رضي الله عنه قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه " .

فهذا النهي ثابت عنه صلى الله عليه وسلم . وقد قال : " وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " وقال جل وعلا : ﴿ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [ الحشر : 7 ] .

وقد تبين مما ذكرنا حكم الصلاة في مواضع الخسف ، وفي المقبرة ، وإلى القبر ، وفي الحمام .

(56/428)

---

وأما أ'طان الإبل فقد ثبت عن النَّبي أيضاً النهي عن الصلاة فيها ، فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه : أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أأتوضأ من لحوم الغنم ؟ قال : " إن شئت فتوضأ ، وإن شئت فلا توّضأ " قال : أتوضأ من لحوم الإبل ؟ قال : " نعم توضأ من لحوم الإبل " قال : اصلي في مرابض الغنم ؟ قال : " نعم " قال : أصلي في " مبارك الإبل " : قال " لا " هذا لفظ مسلم في صحيحه .

وأخرد الإمام احمد والترمذي وصححه ، وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اله صلى الله عليه وسلم قال : " صلوا في مرابض الغنم ولا تصلوا في أعطان الإبل " .

وأخرج النسائي والبيهقي وابن ماجه من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة في أعطان الإبل .

وقال النووي في ( شرح المهذب ) : إن الإسناد الذي أخرجه به البيهقي حسن . وأخرج أبو داود في سننه في ( باب الوضوء ) من لحوم الإبل وفي ( باب النهي عن الصلاة في مبارك الإبل ) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مبارك الإبل فقال : " لا تصلوا في مبارك الإبل فإنها من الشياطين " وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم فقال : " صلوا فيها فإنها بركة " .

وأخرج ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " صلوا في مراح الغنم ولا تصلوا في معاطن الإبل " .

وأخرج ابن ماجه عن سبره بن معبد الجهني رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يصلى في أعطان الإبل ويصلى في مراح الغنم " .

وترجم البخاري رحمه الله في صيحه لهذه المسألة فقال : ( باب الصلاة في مواضع الإبل ) ثم

قال : حدثنا صدفة بن الفضل قال : أخبرنا سليمان بن حيان قال حدثنا عبيد الله عن نافع قال : رايت ابن عمر يصل إلى بعيره وقال : رايت النَّبي صلى الله عليه وسلم يفعله .

(57/428)

---

وقال ابن حجر في الفتح في الكلام على هذه الترجمة الي لم يأت البخاري بحديث يطابقها ما نصه : كأنه يشير إلى أن الأحاديث الواردة في التفرقة بين الإبل والغنم ليست على شرطه ، ولكن لها طرق قوية ، منها حديث جابر بن سمرة عند مسلم وحديث البراء بن عازب عند أبي داود وحديث أبي هريرة عند الترمذي ، وحديث عبد الله بن مغفل عند النسائي ، وحديث سبرة بن معبد عند ابن ماجه ، وفي معظمها التعبير بمعاطن الإبل . ووقع في حديث أبي هريرة عند الترمذي " أعطان الإبل " . وفي حديث أسيد بن حضير عند الطبراني " مناخ الإبل " وفي حديث عبد الله بن عمرو ، عند أحمد " مرابد الإبل " فعبر المصنف بالمواضع لأنها أشمل ، والمعاطن أخص من المواضع ، لأن المعاطن مواضع إقامتها عند الماء خاصة .

وقد ذهب بعضهم إلى أن النهي خاص بالمعاطن دون غيرها من الأماكن التي تكون فيها الإبل . وقيل مأواها مطلقاً ، نقله صاحب المغني عن أحمد - اه كلام ابن حجر .

وقال ابن حزم : إن أحاديث النهي عن الصلاة في أعطان الإبل متواترة بنقل تواتر يوجب العلم .

فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلماء اختلفوا في صحة في أعطان الإبل .

فذهبت جماعة من أهل العلم إلى أنها لا تصح فيها ، وهو الصحيح من مذهب الإمام أحمد وعليه جل أصحابه .

قال صاحب ( الإنصاف ) : هذا المذهب وعليه الأصحاب . وفي الفروع هو أشهر وأصح في المذهب . وقال المصنف وغيره : هذا ظاهر المذهب وهو من المفردات .

وممن قال بها القول ( ان حزم ) .

وذهب جمهور أهل العلم إلى أن النهي للكراهة ، وأنه لو صلى فيها لصحت صلاته . وقد قدمنا كلام أهل الأصول في مثل هذه المسألة .

اواعلم أن العلماء اختلفوا في علة النهي عن الصلاة في أعطان الإبل .



---

فقيل : لأنها خلقت من الشياطين كما تقدم في الحديث عن النَّبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا هو الصحيح في التعليل ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : "لاتصلوا في مبارك

الإبل فإنها خلقت من الشياطين " وترتيبه كونها خلقت من الشياطين بالفاء على النهي ، يدل على أنه هو علته كما تقرر في مبحث مسلك النص ، ومسلك الإيماء ، والتنبيه .

وقال جماعة من أهل العلم : معنى كونها " خلقت من الشياطين " أنها ربما نفرت وهو في الصلاة فتؤدي إلى قطع صلاته ، أو أذاه ، أو تشويش خاطره . وقد قدمنا أن كل عات متمرد تسميه العرب شيطاناً .

والإبل إذا نفرت فهي عاتية متمردة ، فتسميها باسم الشيطان للغة العرب .

والعرب تقول : خلق من كذا للمبالغة ، كما يقولون : خلق هذا من الكرم . ومنه قوله ﴿ خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ﴾ [ الأنبياء : 37 ] على اصح التفسرين .

وعلى هذا فيفرق بين كون الإبل في معاطنها ، وبيم غيبتها عنها إذ يؤمن نفورها حينئذ .

قال الشوكاني ( في نيل الأوطار ) : ويرشد إلى صحة هذا حديث ابن مغفل عند أحمد بإسناد صحيح بلفظ : " لا تصلوا في أعطان أبل فإنها خلقت من الجن ، وألا ترون إلى عيوناها وهيئاتها إذا نفرت " .

وقد يحتمل أن علة النهي أن يجاء بها إلى معاطنها بعد شروعه في الصلاة فيقطعها ، أو يستمر مع شغل خاطره – اه كلام الشوكاني .

ومن هذا التعليل المنصوص فهم العلماء القائلون بعدم بطلانها أنه لما كانت علة النهي ما ذكر دل ذلك على أن الصلاة إذا فعلها تامة أنها غير باطلة .

وقيل: العلة أن أصحاب الإبل يتغوطون في مباركها بخلاف أهل الغنم.

وقيل: العلة أن الناقة تحيض، والجمل يمني.

وكلها تعليلات لا معول عليها، والصحيح التعليل المنصوص عنه صلى الله عليه وسلم بأنها خلقت من الشياطين. والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

فإن قيل: ما حكم الصلاة في مبارك البقر؟

(59/428)

---

فالجواب أن أكثر العلما يقولون: إنها كمرابض الغنم. ولو قيل: إنها كمرابض الإبل لكان لذلك وجه.

قال بان حجر (في الفتح الباري): وقع في مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في مرابض الغنم ولا يصلي في مرابض الإبل والبقر اه.

قال: وسنده ضعيف. فلو ثبت لأفاد أن حكم البقر حكم الإبل. بخلاف ما ذكره ابن المنذر أن البقر في ذلك كالغنم. اه كلام ابن حجر.

وما يقوله أبو داود رحمه الله من أن العلم بالحديث الضعيف خير من العلم بالرأي له وجه

وجيه . والعلم عند الله تعالى .

وأما الصلاة في المزبلة ، والمجزرة ، وقارعة الطريق ، وفوق ظهر بيت الله الحرام فدليل النهي عنها هو ما تقدم من حديث زيد بن جبيرة ، عن داود بن حصين ، عن نافع ، عن ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمناه ما في إسناده من الكلام .

وأما الصلاة إلى جدار مرحاض عليه نجاسة ، فلما روي من النهي عن ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم .

قال العلامة الشوكاني رحمه الله في ( نيل الأوطار ) : وأما الصلاة إلى جدار مرحاض فلحديث ابن عباس في سبعة من الصحابة بلفظ " نهى عن الصلاة في المسجد تجاهه حش " أخرجه ابن عدي . قال العراقي ولم يصح إسناده .

وروى ابن ابي شيبة في المصنف عن عبد الله بن عمرو قال : لا يصلى إلى الحش .

وعن علي قال : لا يصلى تجاه حش .

وعن إبراهيم : كانوا يكرهون ثلاثة أشياء – فذكر منها الحش .

وفي كراهة استقباله خلاف بين العلماء اه كلام الشوكاني .

والمراد بالحش – بضم الحاء وفتحها – بيت الخلاء .

وأما الصلاة في الكنيسة والبيعة – والمراد بهما متعبدات اليهود والنصارى – فقد كرها جماعة من أهل العلم .

قال النووي (في شرح المهذب) : حكاه ابن المنذر عن عمر بن الخطاب ، وابن عباس ، ومالك رضي الله عنهم .

قال الشوكاني : وقد رويت الكراهة أيضاً عن الحسن .

(60/428)

---

قال مقيده عفا الله عنه : الظاهر أن ما روي من ذلك عن عمر وابن عباس ليس على إطلاقه ، وإنما هو في الكنائس والبيع التي فيها الصور خاصة . ومما يدل على ذلك ما ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه قال : (باب الصلاة في البيعة) وقال عمر رضي الله عنه : "إنا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور" . وكان ابن عباس يصلي في البيعة إلا بيعة فيها تماثيل .

وقال ابن حجر في (الفتح) "إن الأثر الذي علقه البخاري عن عمر وصله عبد الرزاق من طريق أسلم مولى عمر . والأثر الذي علق عن ابن عباس وصله البغوي في الجعديات اه .

ومعلوم أن البخاري لا يعلق بصيغة الجزم إلا ما هو ثابت عنده .

ورخص في الصلاة في الكنيسة والبيعة جماعة من أهل العلم ، منهم أبو موسى ، وعمر بن عبد العزيز ، والشعبي ، وعطاء بن ابي رباح ، وابن سرين ، والنخعي والأوزاعي ،

وغيرهم .

قال العلامة الشوكاني رحمه الله . ولعل وجه الكراهة هو ما تقدم من اتخاذ قبور أنبيائهم وصلحائهم مساجد ، لأنه يصير جميع البيع والكنائس مظنة لذلك .

قال مقيده عفا الله عنه : ويحتمل أن تكون العلة أن الكنيسة والبيعة موضع يعصى الله فيه ويكفر به فيه ، فهي بقعة سخط وغضب . وأما النهي عن الصلاة إلى التماثيل فدليله ثابت في الصحيح .

فمن ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه ( في كتاب الصلاة – قال : ( باب إن صلى في ثوب مصلب ، أو تصاوير . هل يفسد صلاته ؟ وما ينهى عن ذلك ) حدثنا أبو معمر عبد الله بن عمرو قال : حدثنا عبد الوارث قال : حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس : كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال النَّبي صلى الله عليه وسلم : " أميطي عنَّا قرامكِ هذا فإنه لا تزال تصاويره تعرض في صلاتي " .



---

وقال البخاري أيضاً ( في كتاب اللباس – باب كراهية اللباس في التصاوير ) : حدثنا عمران بن ميسرة ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس رضي الله عنه

قال : كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النّبي صلى الله عليه وسلم : " أميطي عنّي فإنّه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي " .

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الرحمن ابن القاسم قال : سمعت القاسم يحدث عن عائشة : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سهوة ، فكان النّبي صلى الله عليه وسلم يصلّي إليه فقال : " أخّريه عنّي " قالت : فأخّرته فجعلته وسائد .

والثوب في هذه الرواية هو القرام المذكور ، والقرام - بالكسر - : ستر فيه رقم ونقوش ، أو الستر الرقيق ، ومنه قول لبيد في معلقته يصف الهودج :

من كل محفوف يظل عصيه . . . زوج عليه كلة وقرامها

وقول الآخر يصف داراً :

على ظهر جرعاء العجوز كأنها . . . دوائر رقم في سراة قرام

والكلة في بيت لبيد : هي القرام إذا خيط فصار كالبيت .

فهذه النصوص الصحيحة تدل على أنه لا تجوز الصلاة إلى التماثيل . ومما يدل لذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره

مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة " اه ، هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخاري قريب منه اه .

أما بطلان من صلاة من صلى إلى التماثيل ففيه اختلاف بين العلماء ، وقد أشار له بالخاري بقوله الذي قدمنا عنه ( باب إن صلى في ثوب مصلب ، أو تصاوير هل تفسد صلاته ) الخ .

وقد قدمنا أن منشأ الخلاف في البطلان هو الاختلاف في انفكاك جهة النهي عن جهة الأمر . والعلم عند الله تعالى .

*(62/428)*

---

وأما منع تصوير الحيوان وتعذيب فاعليه يوم القيامة أشد العذاب ، وأمرهم بإحياء ما صوروا ، وكون الملائكة لا تدخل محلاً فيه صورة أو كلب ، فكله معروف ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الصلاة في المكان المغصوب فإنها لا تجوز بإجماع المسلمين ، لأن اللبث فيها حرام في غير الصلاة ، فلأن يحرم في الصلاة أولى .

وذهب جمهور أهل العلم : إلى أنه لو صلى في أرض مغصوبة فصلاته صحيحة لانفكاك الجهة لأنه آثم بغصبه ، مطيع بصلاته كالمصلي بحرير .

وذهب الإمام أحمد في أصح الروايات عنه ، والجبائي وغيره من المعتزلة إلى أنها باطلة .

لعدم انفكاك جهة الأمر عن جهة النهي كما قدمنا وقد قدمنا أقوال عامة العلماء في هذه المسألة في أبيات مراقي السعود التي استشهدنا بها .

وأما النهي عن الصلاة إلى النائم والمتحدث فدليله ما أخرجه أبو داود في سننه قال : ( باب الصلاة إلى المتحدثين والنيام ) حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي ، حدثنا عبد الملك بن محمد بن أيمن ، عن عبد الله بن يعقوب بن إسحاق ، عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي قال : قلت له – يعني لعمر بن ايمن ، حدثني عبد الله بن عباس : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال :

" لا تصلوا خلف نائم ولا المتحدث " اه .

وهذا الحديث لا يخفى ضعفه ، لأن الرواي في هذا الإسناد عن محمد بن كعب لا يدري من هو كما ترى .



---

وقال ابن ماجه في سننه : حدثنا محمد بن إسماعيل ، ثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المقدام ، عن محمد ابن كعب ، عن ابن عباس قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يصلى خلف المتحدث أو النائم " ، وإسناد ابن ماجه هذا لا يحتج به أيضاً ، لأن الراوي فيه عن محمد بن كعب أبو المقدام وهو هشام بن زياد بن أبي يزيد ، وهو هشام بن أبي هشام ، ويقال له أيضاً هشام بن أبي الوليد المدني ، وهو لا يحتج بحديثه . قال فيه ابن حجر في التقريب : متروك . وقال في تهذيب التهذيب : قال عبد الله بن أحمد ، وأبو زرعة : ضعيف الحديث . وقال الدوري عن ابن معين : ليس بثقة . وقال في موضع آخر : ضعيف ، ليس بشيء . وقال البخاري : يتكلمون فيه . وقال أو داود : غير ثقة وقال الترمذي : يضعف . وقال النسائي وعلي بن الجنيد الأزدي : مترزك الحديث . وقال النسائي أيضاً : ضعيف . وقال النسائي : ليس بثقة ، ومرة ليس بشيء . وقال أبو حاتم ضعيف الحديث ليس بقوي ، وكان جاراً لأبي الوليد فلم يرو عنه وكان لا يرضاه . ويقال : إنه أخذ كتاب حفص المنقري عن الحسن فروى عن الحسن . وعنده عن الحسن أحاديث منكرة .

قلت : وقال ابن حبان يروى الموضوعات عن الثقات لا يجوز الاحتجاج به . وقال الدار قطني : ضعيف ، وترك ابن مبارك حديثه . وقال ابن سعد : كان ضعيفاً في الحديث . وقال أبو بكر بن خزيمة : لا يحتج بحديثه . وقال العجلي : ضعيف . وقال يعقوب بن سفيان : ضعيف لا يفرح بحديثه اه كلام ابن حجر . وبه تعلم أن الصلاة إلى النائم والمتحدث لم يثبت النهي عنها من طريق صحيح .

وإذا علمت ذلك فأعلم أن الصلاة إلى النائم ثبت عن النّبي صلى الله عليه وسلم أنه فعلها .

قال البخاري في صحيحه ( باب الصلاة خلف النائم ) حدثنا مسدد قال : حدثنا يحى قال : حدثنا هشام قال : حدثني أبي عن عائشة قالت : كان النَّبي يصلِّي وأنا راقدة معترضة على فراشه ، فإذا أراد أن يوتر أيقظني فأوترت .

(64/428)

---

وقال ابن حجر في الفتح : أورد فيه حديث عائشة ايضاً من وجه آخر بلفظ آخر للإشارة إلى أنه قد يفرق مفرق بين كونها نائمة أو يقظى . وكأنه أشار أيضاً إلى تضعيف الحديث الوارد في النهي عن الصلاة إلى النائم ، فقد اخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث ابن عباس اه .

وقال أبو داود : طرقة كلها واهية – يعني حديث ابن عباس وفي الباب عن ابن عمر أخرجه ابن عدي . وعن ابي هريرة أخرجه الطبراني في الأوسط ، وهما واهيان ايضاً . وكره مجاهد وطاوس ومالك الصلاة إلى النائم خشية ان يبدو منه ما يلهى المصلي عن صلاته وظاهر تصرف المصنف أن عدم الكراهة حيث يحصل الأمن من ذلك – انتهى كلام ابن حجر في ( فتح الباري ) .

قال مقيده – عفا الله عنه : الذي يظهر – والله تعالى أعلم – أنه لم يثبت نص خاص في النهي

عن الصلاة إلى النائم والمتحدث ، ولكن ذلك لا ينافي أخذ الكراهة من عموم نصوص أخر ، كتعليل كراهة الصلاة إلى النائم بما ذكر من خشية أن يبدو منه ما يلهي المصلي عن صلاته ، لأن النائم لا يدري عن نفسه .

وكتعليل كراهة الصلاة إلى المتحدث بأن الحديث يشوش على المصلي في صلاته ، والله تعالى أعلم .

وأما كراهة الصلاة في بطن الوادي فيستدل لها بما جاء في بعض روايات حديث زيد بن جبيرة المتقدم في المواضع التي نهى عن الصلاة فيها " وبطن الوادي " بدل " المقبرة " قال الشوكاني قال الحافظ : وهي زيادة باطلة لا تعرف .

وقال بعض العلماء : كراهة الصلاة في بطن الوادي مختصة بالوادي الذي حضر فيه الشيطان النّبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فناموا عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس ، وأمرهم النّبي صلى الله عليه وسلم بأن يتأخروا عن ذلك الموضع الذي حضرهم فيه الشيطان .

ويجاب عن هذا : بأن الشيطان يمكن أن يكون ذهب عن الوادي . والله تعالى أعلم .

وأما النهي عن الصلاة في مسجد الضرار فدليله قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ [ التوبة : 108 ] وقوله جل وعلا : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [ التوبة : 107 ] الاية . وقوله ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [ التوبة : 109-110 ] الآية . فهذه الآيات تدل على التباعد عن موضع ذلك المسجد وعدم القيام فيه كما هو ظاهر .

وأما كراهة الصلاة إلى التنور فلما رواه ابن أبي شيبة في المصنف عن محمد بن سرين : أنه كره الصلاة إلى التنور ، وقال : هو بيت نار .

وظاهر صنيع البخاري أن الصلاة إلى التنور عنده غير مكروه ، وأن عرض النار على النّبي صلى الله عليه وسلم في صلاته يدل على عدم الكراهة . قال البخاري في صحيحه ( باب من صلى وقدامه تنور أو نار ، أو شيء مما يعبد فأراد به الله ) وقال الزهري : أخبرني أنس قال قال النّبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ عرضت عليّ النّار وأنا أصلّي ﴾ حدثنا عبد الله بن مسلمة ، عن مالك ، عن زيد بن اسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عباس قال : " انخسفت الشمس فصلّ رسول الله صلى الله عيله وسلم ثمّ قال : " رأيت النّار فلم أرى منظراً كاليوم قطّ أفظع " اه .

وعرض النار عليه صلى الله عليه وسلم وهو في صلاته دليل على عدم الكراهة ، لأنه لم يقطع .

(66/428)

---

وقد دلت بعض الروايات الثابتة في الصحيح على أن النار عرضت عليه من جهة ومن جهة لا من جهة اليمين ولا الشمال ، ففي بعض الروايات الصحيحة أ ، هم قالوا به بعد أن انصرف : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً في مقامط ، ثم رايناك تكعكعت - أي تأخرت - إلى الخلف ؟ وفي جوابه : أن ذلك بسبب كونه أرى النار . . إلخ .

فهذا هو الحاصل كلام العلماء في الأماكن التي ورد نهي عن الصلاة فيها ، التي لها مناسبة بآية الحجر التي نحن بصددها - والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَآَتَيْنَاهُمْ آَيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) ﴾

ذكر تعالى في هذا الآية الكريمة أنه آتى أصحاب الحجر - وهم ثمود - آياته فكانوا عنها معرضين . والإعراض : الصدود عن الشيء وعدم الالتفات إليه . كأنه مشتق من العرض - بالضم - وهو الجانب . لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتاً صاداً .

ولم يبين جل وعلا هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم ، ولا كيفية إعراضهم عنها ، ولكنه

بين ذلك في مواضع أخر . فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم : تلك الناقة اتي أخرجها الله لهم . بل قال بعض العلماء : إن في الناقة المذكورة آيات جمة : كخروجها عشراء ، وبراء ، جوفاء من صخر صماء ، وسرعة ولادتها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً ، وكثرة شربها . كما قال تعالى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الشعراء : 155 ] وقال : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المآء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [ القمر : 28 ] .

(67/428)

---

فإذا علمت ذلك فاعلم أن مما يبين قوله هنا : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ قوله : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الشعراء : 154-155 ] وقوله : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسوء ﴾ [ الأعراف : 73 ] الآية . وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً ﴾ [ الإسراء : 59 ] الآية . وقوله : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو الناقة فِتْنَةً لَّهُمْ فارتقبهم واصطبر ﴾ [ القمر : 27 ] وقوله : ﴿ وياقوم هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [ هود : 64 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وبين إعراض قوم صالح عن تلك الآيات في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: 77] وقوله ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود: 65] الآية. وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس: 11-14] الآية. وقوله: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر: 29]. وقوله: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء: 59]. وقوله: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾ [الشعراء: 153-154] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) ﴾

*(68/428)*

---

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الحجر وهو ثمود صالح كانوا آمنين في أوطانهم، وكانوا ينحتون الجبال بيوتاً.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء

: 146-149 ] وقوله تعالى : ﴿ واذكروا إِذْ جعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً فاذكروا آلآءَ الله ﴾ [ الأعراف : 74 ] الآية . وقوله : ﴿ وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ [ الفجر : 9 ] أي قطعوا الصخر بنحته بيوتاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(69/428)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التي يقيمون فيها كلها من الحجارة ؛ ولا يزال مُقَامهم معروفاً في المسافة بين خيبر وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [ الشعراء : 128-129 ] .

وهم قد كذّبوا نبيهم "صالح" وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل الرسل ، ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون في الأحكام العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا في الجزئيات المناسبة لكل بيئة من البيئات التي يعيشون فيها .

فبيئة : تعبد الأصنام ، فيُثبت لهم نبيُّهم أن الأصنام لا تستحق أن تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطفِّف الكيْل والميزان ؛ فيأتي رسولهم بما ينهاهم عن ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذِّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل في الجزئيات المناسبة لكل بيئة ؛ لكنهم لم يختلفوا في المنهج الكُلِّيّ الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق سبحانه عن قوم صالح أنهم كذَّبوا المُرْسلين ؛ بمعنى أنهم كذّبوا صالحاً فيما جاء به من دعوة التوحيد التي جاء بها كل الرسل .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :

﴿ وَآَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (81) ﴾

وهنا يُوجِز الحق – سبحانه وتعالى – ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصِدْق بلاغ صالح عليه السلام الذي تمثَّل في الناقة ، التي حذَّرهم صالح أَنْ يقربوها بسوء كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم .

لكنهم كذَّبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التي خلقها الحق سبحانه في الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الأَلْسِن والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتي دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالة على صدْق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبلَّغ عن الله ، تكون آية الرسول من هؤلاء من نوع ما نبَغ فيه القوم المُرْسَل إليهم ؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادةً ما تثير هذه الآية خاصيَّة التحدِّي الموجودة في الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل أيّ رسول لا يُفلِح في أن يأتي بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [ الحجر : 81 ] .

أي : تكبّروا وأعرضوا عن المنهج الذي جاءهم به صَالِح ، والإعراض هو أنْ تُعطِي الشيء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لَوجدتَ فيه الخير لك .

وأنت حين تُقبل على آيات الله ستجد أنها تدعوك للتفكُّر ، فتؤمن أن لها خالقاً فتلتزم بتعاليم المنهج الذي جاء به الرسول .

وأنت حين تُفكِّر في الحكمة من الطاعة ستجد أنها تُريحك من قلق الاعتماد على أحد غير خالقك ، لكن لو أخذتَ المسائل بسطحية ؛ فلن تنتهي إلى الإيمان .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر من القرآن الكريم : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [ يوسف : 105 ] .

وفي هذا تكليفٌ للمؤمن كُل مؤمن أن يُمعِنَ النظر في آيات الكون لعلَّه يستنبط منها ما يفيد

غيره .

وأنت لو نظرتَ إلى كل المُخْترعات التي في الكون لوجدتَّها نتيجةً للإقبال عليها من قِبَل عالم أراد أنْ يكتشفَ فيها ما يُريح غيره به .

والمثل في اكتشاف قُوَّة البخار التي بدأ بها عَصْر من الطاقة واختراع المُعدات التي تعمل بتلك الطاقة ، وحرّك بها القطار والسفينة ؛ مثلما سبقها إنسان آخر واخترع العجلة لِيُسهّل على البشر حَمْل الأثقال .

(71/428)

---

وإذا كان هذا في أمر الكَوْنيّات ؛ فأنت أيضاً إذا تأملتَ آيات الأحكام في " افعل " و " لا تفعل " ستجدها تفيدُك في حياتك ومستقبلك ، والمثَل على ذلك هو الزكاة ؛ فأنت تدفع جزءاً يسيراً من عائد عملك لغيرك مِمَّنْ لا يَقْوَى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك إنْ حدث لك احتياج ؛ ذلك أنك من الأغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح : ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ . . ﴾ .

وهنا يمتنُّ عليهم بأن منحهم حضارةً ، ووهبهم مهارة البناء والتقدُّم في العمارة ؛ وأخذوا في بناء بيوتهم في الأحجار ، ومن الأحجار التي كانت توجد بالوادي الذي يقيمون فيه ،

وقطعوا تلك الأحجار بطريقة تُتيح لهم بناء البيوت والقُصور الآمنة من أغيار التقلُّبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن مَنْ يعيش في خَيْمة يعاني من قِلَّة الأمن ؛ أما مَنْ يبني بيته من الطوب اللَّبن ؛ فهو أكثر أمْناً مِمَّنْ في الخيمة ، وإنْ كان أقلَّ أماناً من الذي يبني بيته من الأسمنت المُسلَّح ، وهكذا يكون أَمنْ النفس البشرية في سكنها واستقرارها من قوة الشيء الذي يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهي بالتأكيد أكثر أَمْناً من غيرهم ، ونجد نبيهم صالحاً ، وقد قال لهم ما أورده الحق سبحانه في كتابه الكريم : ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً فاذكروا آلآءَ الله وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ [ الأعراف : 74 ] .

ولكنهم طَغَوْا وبَغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح - عليه السلام - فما كان من الحق سبحانه إلا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم .

وقال الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة . . . . ﴾ .

(72/428)

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبليّة الموقع أَمْناً لهم ؛ فقد جاءت الصيحة من الحق سبحانه لِتدكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال الحق سبحانه عنهم من قبل في سورة هود : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [ هود : 67 ] .

وقال سبحانه عنهم أيضاً : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [ الأعراف : 78 ] .

والرَّجْفة هي الزلزلة ، والصَّيْحة هي بعض من توابع الزلزلة ، ذلك أن الزلزلة تُحدِث تموجاً في الهواء يؤدي إلى حدوث أصوات قوية تعصف بِمَنْ يسمعها .

وهم حسب قَوْل الحق سبحانه قد تمتَّعوا ثلاثة أيام قبل أنْ تأخذهم الصَّيْحة كوَعْد نبيهم صالح عليه السلام لهم : ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [ هود : 65 ] .

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيْحة : ﴿ فَمَآ أغنى . . . ﴾ .

وهكذا لم تنفعهم الحصون في حمايتهم من قدَر الله ، ونعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أنْ يمنعه مانعٌ مهما كان ؛ فهو القائل : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [ النساء : 78 ] .

وهكذا لا يمكن أن يحميَ الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له ، أو مِمَّا يشاء الحق أن يُنزِله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القائل : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتل إلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [ آل عمران : 154 ] .

وهكذا خرُّوا جميعاً في قاع الهلاك ، ولم تَحْمِهم حصونهم من العذاب الذي قدّره سبحانه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/428)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) ﴾

و﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ حال كما تقدَّم ، وهي تامَّة .

﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَمَآ أغنى ﴾ : يجوز أن تكونَ نافية ، أو استفهاميةً فيها معنى التعجب .

و " ما " يجوز أُنْ تكونَ مصدرية ، أي : كَسْبُهم ، أو موصوفةً ، أو بمعنى الذي ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : شيءٌ يَكْسِبونه ، أو الذي يَكْسِبونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 178 ﴾

(74/428)

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) ﴾

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر - وهم ثمود - كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كناقة صالح وغيرها ، وأنهم كانوا أخلدوا إلى الأرضين وكانوا مُغْتَرِّين بطول إمهال الله إياهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمِنُون من الموت والعذاب .

ثم أخبر أنهم أَخَذَتْهم الصيحة على بغتةٍ ، ولم تُغْنِ عنهم حيلتُهم لَمَّا حَلَّ حَيْنُهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 278. 279﴾

(75/428)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

يتضمن هذا الدرس نماذج من رحمة الله وعذابه، ممثلة في قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم.

هذا القصص يساق بعد مقدمة: ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ فيجيء بعضه مصداقاً لنبأ الرحمة، ويجيء بعضه مصداقاً لنبأ العذاب.. كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة، فيصدق ما جاء فيها من نذير: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل.. وكذلك يصدق هذا القصص ما جاء في مطالع السورة في شأن الملائكة حين يرسلون: ﴿ وقالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون. لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين. ما ننزل الملائكة إلا بالحق، وما كانوا إذا منظرين ﴾ فتبدو السورة وحدة متناسقة، يظاهر بعضها بعضا.. وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادرا، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية تواليها في المصحف. ولكن ترتيب هذه الآيات في السور ترتيب توقيفي، فلا بد من حكمة في

ترتيبها على هذا النسق، وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور التي عرضناها في تماسك بنيان السور، واتحاد الجو والظلال في كل سورة. . والعلم بعد ذلك لله. إنما هو اجتهاد. والله الموفق إلى الصواب.

﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ . .

(76/428)

---

يجيء هذا الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذكر جزاء الغاوين وجزاء المتقين في سياق السورة. والمناسبة بينهما ظاهرة في السياق. ويقدم الله نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب. جرياً على الأصل الذي ارتضت مشيئته. فقد كتب على نفسه الرحمة. وإنما يذكر العذاب وحده أحياناً أو يقدم في النص لحكمة خاصة في السياق تقتضي إفراده بالذكر أو تقديمه.

ثم تجيء قصة إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط. . وقد وردت هذه الحلقة من قصة إبراهيم وقصة لوط في مواضع متعددة بأشكال متنوعة، تناسب السياق الذي وردت فيه. ووردت قصة لوط وحده في مواضع أخرى.

وقد مرت بنا حلقة من قصة لوط في الأعراف، وحلقة من قصة إبراهيم ولوط في هود . .

فأما في الأولى فقد تضمنت استنكار لوط لما يأتيه قومه من الفاحشة ، وجواب قومه : ﴿ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ وإنجاءه هو وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

وذلك دون ذكر لمجيء الملائكة إليه وائتمار قومه بهم . . وأما في الثانية فقد جاءت قصة الملائكة مع إبراهيم ولوط مع اختلاف في طريقه العرض . فهناك تفصيل في الجزء الخاص بإبراهيم وتبشيره وامرأته قائمة ، وجداله مع الملائكة عن لوط وقومه . وهو ما لم يذكر هنا . وكذلك يختلف ترتيب الحوادث في القسم الخاص بلوط في السورتين . . ففي سورة هود لم يكشف عن طبيعة الملائكة إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه وهو يرجوهم في ضيفه فلا يقبلون رجاءه ، حتى ضاق بهم ذرعاً وقال قولته الأسيفة : ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ! ﴾ وأما هنا فقدم الكشف عن طبيعة الملائكة منذ اللحظة الأولى ، وأخر حكاية القوم وائتمارهم بضيف لوط . لأن المقصود هنا ليس هو القصة بترتيبها الذي وقعت به ، ولكن تصديق النذير ، وأن الملائكة حين ينزلون فإنما ينزلون للعذاب فلا ينظر القوم ولا يمهلون . .

﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاما . قال : إنا منكم وجلون . قالوا : لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر ؟ فبم تبشرون ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟ ﴾ .

فقالوا : سلاما . قال : إنا منكم وجلون . . ولم يذكر هنا سبب قوله ، ولم يذكر أنه جاءهم بعجل حنيذ . .

﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ كما جاء في سورة هود . ذلك أن المجال هنا هو مجال تصديق الرحمة التي ينبئ الله بها عباده على لسان رسوله ، لا مجال تفصيلات قصة إبراهيم . .

﴿ قالوا : لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ . .

وهكذا عجلوا له البشرى ، وعجل بها السياق دون تفصيل .

كذلك يثبت هنا رد إبراهيم ولا يدخل امرأته وحوارها في هذه الحلقة :

﴿ قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر ؟ فبم تبشرون ؟ ﴾

فقد استبعد إبراهيم في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر ( وزوجته كذلك عجوز عقيم كما جاء في مجال آخر ) فرده الملائكة إلى اليقين :

﴿ . . قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ . .

أي من اليائسين. فآب إبراهيم سريعا ، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله :

﴿ قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ؟ ﴾

وبرزت كلمة ﴿ الرحمة ﴾ في حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة في هذا السياق ؛ وبرزت معها الحقيقة الكلية : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب الندي بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل في ظلال الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر . . فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود.

(78/428)

---

وهنا وقد اطمأن إبراهيم إلى الملائكة ، وثابت نفسه واطمأنت للبشرى راح يستطلع سبب مجيئهم وغايته :

﴿ قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين ، إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ . .

ولا يعرض السياق لجدال إبراهيم عن لوط وقومه هنا كما عرض له في سورة هود ؟ بل يصل إخبار الملائكة له ، بالنبأ كله . ذلك أنه يصدق رحمة الله بلوط وأهله ، وعذابه لامرأته وقومه . وينتهي بذلك دورهم مع إبراهيم ، ويمضون لعملهم مع قوم لوط . .

﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال : إنكم قوم منكرون . قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون . وآتيناك بالحق وإنا لصادقون . فأسر بأهلك بقطع من الليل ، واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ . .

وهكذا يعجل السياق إخبارهم للوط بأنهم الملائكة ، جاءوه بما كان قومه يمترون فيه من أخذهم بذنوبهم وإهلاكهم جزاء ما يرتكبون ، تصديقا لوعد الله ، وتوكيدا لوقوع العذاب حين ينزل الملائكة بلا إبطاء .

﴿ قال : إنكم قوم منكرون ﴾ . .

قالها ضيّق النفس بهم ، وهو يعرف قومه ، ويعرف ماذا سيحاولون بأضيافه هؤلاء ، وهو بين قومه غريب ، وهم فجرة فاحشون . . إنكم قوم منكرون ان تجيئوا إلى هذه القرية وأهلها مشهورون بما يفعلون مع أمثالكم حين يجيئون !

﴿ قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وآتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴾ . .

وهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه . وهو في حيرة بين واجبه لضيفه وضعفه

عن حمايتهم في وجه قومه . فجاءه التوكيد بعد التوكيد ، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء التعليمات إليه :

﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل . واتبع أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون ﴾ . .

(79/428)

---

والسرى سير الليل . والقطع من الليل جزؤه . وقد كان الأمر للوط أن يسير بقومه في الليل قبل الصبح ، وأن يكون هو في مؤخرتهم يتفقدهم ولا يدع أحدا منهم يتخلف أو يتلكأ أو يتلفت إلى الديار على عادة المهاجرين الذين يتنازعهم الشوق إلى ما خلفوا من ديارهم فيتلفتون إليها ويتلكأون . وكان الموعد هو الصبح والصبح قريب :

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر : أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ . .

وأطلعناه على ذلك الأمر الخطير : أن آخر هؤلاء القوم وهو دابرهم مقطوع في الصباح . وإذا انقطع آخرهم فقد انقطع أولهم ؛ والتعبير على هذا النحو يصور النهاية الشاملة التي لا تبقي أحدا . فلا بد من الحرص واليقظة كي لا يتخلف أحد ولا يتلفت ، فيصيبه ما يصيب أهل المدينة المتخلفين .

قدم السياق هذه الواقعة في القصة لأنها الأنسب لموضوع السورة كله .

ثم أكمل ما حدث من قوم لوط قبلها .

لقد تسامعوا بأن في بيت لوط شبانا صباح الوجوه ففرحوا بأن هناك صيدا :

﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ . .

والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة الذي وصل إليه القوم في الدنس والفجور في الفاحشة الشاذة المريضة . يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة ، يستبشرون بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرة وعلانية . هذه العلانية الفاضحة في طلب هذا المنكر فوق المنكر ذاته شيء بشع لا يكاد الخيال يتصور وقوعه لولا أنه وقع . فقد يشذ فرد مريض فيتوارى بشذوذه ، ويتخفى بمرضه ، ويحاول الحصول على لذته المستقذرة في الخفاء وهو يخجل أن يطلع عليه الناس . وإن الفطرة السليمة لتتخفى بهذه اللذة حين تكون طبيعية . بل حين تكون شرعية . وبعض أنواع الحيوان يتخفى بها كذلك . . بينما أولئك القوم المنحوسون يجاهرون بها ، ويتجمهرون لتحصيلها ، ويستبشرون جماعات وهم يتلمظون عليها ! إنها حالة من الارتكاس معدومة النظير .

فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيفه وعن شرفه. وقف يستثير النخوة الآدمية فيهم ويستجيش وجدان التقوى لله. وإنه ليعلم أنهم لا يتقون الله، ويعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم تعد فيها نخوة ولا شعور إنساني يستجاش. ولكنه في كربه وشدته يحاول ما يستطيع:

﴿ قال: إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون ﴾..

وبدلا من أن يثير هذا في نفوسهم رواسب المروءة والحياة، إذا هم يتبجحون فيؤنبون لوطا على استضافة أحد من الرجال. كأنما هو الجاني الذي هيأ لهم أسباب الجريمة ودفعهم إليها وهم لا يملكون له دفاعا!

﴿ قالوا: أولم ننهك عن العالمين؟ ﴾..

ويمضي لوط في محاولته يلوح لهم باتجاه الفطرة السليم إلى الجنس الآخر. إلى الإناث اللواتي جعلهن الله لتلبية هذا الدافع العميق في نظام الحياة؛ ليكون النسل الذي تمتد به الحياة وجعل تلبية هذا الدافع معهن موضع اللذة السليمة المريحة للجنسين معا في الحالات الطبيعية ليكون هذا ضمانا لامتداد الحياة، بدافع من الرغبة الشخصية العميقة.. يمضي لوط في محاولته هذه:

﴿ قال: هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾..

ولوط النبي لا يعرض بناته على هؤلاء الفجار ليأخذوهن سفاحا . إنما هو يلوح لهم بالطريق الطبيعي الذي ترضاه الفطرة السليمة ، لينبه فيهم هذه الفطرة . وهو يعلم أنهم إن ثابوا إليها فلن يطلبوا النساء سفاحا . فهو مجرد هتاف للفطرة السليمة في نفوسهم لعلها تستيقظ على هذا العرض الذي هم عنه معرضون .

وبينما هذا المشهد معروض . القوم في سعارهم المريض يستبشرون ويتلمظون . ولوط يدافعهم ويستثير نخوتهم ، ويستجيش وجدانهم ، ويحرك دواعي الفطرة السليمة فيهم ، وهم في سعارهم مندفعون . .

بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير يلتفت السياق خطابا لمن يشهد ذلك المشهد ، على طريقة العرب في كلامهم بالقسم :

﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ .

.

(81/428)

---

لتصوير حالتهم الأصلية الدائمة التي لا يرجى معها أن يفيقوا ولا ان يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة .

ثم تكون الخاتمة . وتحق عليهم كلمة الله :

﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين ﴾ وإذا نحن أمام مشهد الدمار والخراب والخسف والهلاك المناسب لتلك الطبائع المقلوبة :

﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ . .

وقد خسف بقرى لوط بظاهرة تشبه ظاهرة الزلازل أو البراكين وتصاحبها أحيانا ظاهرة الخسف وتناثر أحجار ملوثة بالطين وهبوط مدن بكاملها تسيح في الأرض . ويقال : إن بحيرة لوط الحالية وجدت بعد هذا الحادث ، بعد انقلاب عمورة وسدوم في باطن الأرض ، وهبوط مكانها وامتلائه بالماء . ولكننا لا نعلل ما وقع لهم بأنه كان زلزالا أو بركانا عابراً مما يقع في كل حين . . فالمنهج الإيماني الذي نحرص عليه في هذه الظلال يبعد كل البعد عن هذه المحاولة !

إننا نعلم علم اليقين أن الظواهر الكونية كلها تجري وفق ناموس الله الذي أودعه هذا الكون . ولكن كل ظاهرة وكل حادث في هذا الكون لا يقع بأية حتمية إنما يقع وفق قدر خاص به . بلا تعارض بين ثبات الناموس وجريان المشيئة بقدر خاص لكل حدث . .

كذلك نحن نعلم علم اليقين أن الله سبحانه يجري في حالات معينة أقداراً معينة بأحداث معينة لوجهة معينة . وليس من الضروري أن يكون ذلك الذي دمر قرى لوط زلزال أو بركان

عادي ؛ فقد يريد الله أن ينزل بهم ما يشاء ، وقتما يشاء ، فيكون ما يشاء ، وفق ما يشاء . . وهذا هو المنهج الإيماني في تفسير معجزات الرسل أجمعين . .

وقرى لوط تقع في طريق مطروق بين الحجاز والشام يمر عليها الناس . وفيها عظات لمن يتفرس ويتأمل ، ويجد العبرة في مصارع الغابرين . . وإن كانت الآيات لا تنفع إلا القلوب المؤمنة المتفتحة المستعدة للتلقي والتدبر واليقين :

﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ . .

(82/428)

---

وهكذا صدق النذير ، وكان نزول الملائكة إيذانا بعذاب الله الذي لا يرد ولا يمهل ولا يحيد .

كذلك كان الحال مع قوم شعيب أصحاب الأيكة ومع قوم صالح أصحاب الحجر :

﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم . وإنهما لبإمام مبين . ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ؛ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ؛ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ؛ فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ . .

وقد فصل القرآن قصة شعيب مع قومه : أهل مدين وأصحاب الأيكة في مواضع أخرى .

فأما هنا فيشير إشارة إلى ظلمهم وإلى مصرعهم تصديقا لنبأ العذاب ، في هذا الشوط ، ولإهلاك القرى بعد انقضاء الأجل المعلوم الوارد في مطالع السورة .

ومدين والأيكة كانتا بالقرب من قرى لوط . والإشارة الواردة هنا . . ﴿ وإنهما لبإمام مبين . . ﴾ قد تعني مدين والأيكة ، فهما في طريق واضح غير مندثر ، وقد تعني قرى لوط السالفة الذكر وقرية شعيب ، جمعهما لأنهما في طريق واحد بين الحجاز والشام . ووقوع القرى الداثرة على الطريق المطروق أدعى إلى العبرة ، فهي شاهد حاضر يراه الرائح والغادي . والحياة تجري من حولها وهي داثرة كأن لم تكن يوماً عامرة . والحياة لا تحفلها وهي ماضية في الطريق !

أما اصحاب الحجر فهم قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهي ظاهرة إلى اليوم . فقد نحتوها في الصخر في ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والأيد والحضارة .

﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ . .

وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح . ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين ؛ فلما كذبه قومه قيل : إنهم كذبوا المرسلين . توحيدا للرسالة وللرسل وللمكذبين . في كل أعصار التاريخ ، وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام .

﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ . .

وآية صالح كانت الناقة. ولكن الآيات في هذا الكون كثير. والآيات في هذه الأنفس كثير. وكلها معروضة للأنظار والأفكار. وليست الخارقة التي جاءهم بها صالح هي وحدها الآية التي آتاهم الله. وقد أعرضوا عن آيات الله كلها، ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا، ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير.

﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، فأخذتهم الصيحة مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾..

وهذه اللمحة الخاطفة من الأمن في البيوت الحصينة في صلب الجبال، إلى الصيحة التي تأخذهم فلا تبقي لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئاً يغني عنهم ويدفع الهلاك الخاطف.. هذه اللمحة تلمس القلب البشري لمسة عنيفة. فما يأمن قوم على أنفسهم أكثر مما يأمن قوم بيوتهم منحوتة في صلب الصخور. وما يبلغ الاطمئنان بالناس في وقت أشد من اطمئنانهم في وقت الصباح المشرق الوديع.. وها هم أولاء قوم صالح تأخذهم الصيحة مصبحين وهم في ديارهم الحصينة آمنون. فإذا كل شيء ذاهب، وإذا كل وقاية ضائعة، وإذا كل حصين موهون... فما شيء من هذا كله بواقيهم من الصيحة. وهي

فرقعة ريح أو صاعقة، تلحقهم فتهلكهم في جوف الصخر المتين.

وهكذا تنتهي تلك الحقائق الخاطفة من القصص في السورة، محققة سنة الله في أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم. فتتناسق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط الثلاثة السابقة في تحقيقة سنة الله التي لا ترد، ولا تتخلف، ولا تحيد. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الظلال حـ 4 صـ 2146.2152 ﴾

(84/428)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المتعنت ربما قال : ما له يخلقهم ثم يهلكهم وهو عالم حين خلقهم أنهم يكذبون ؟ وكانت هذه الآية ملتفتة - مع ما فيها من ذكر الأرض - إلى تلك التي أتبعها ذكر الخافقين، استدلالاً على الساعة، قال على ذلك النمط : ﴿ وما خلقنا ﴾ أي على عظمتنا

﴿ السماوات ﴾ أي على ما لها من العلو والسعة ﴿ والأرض ﴾ على ما بها من المنافع والغرائب ﴿ وما بينهما ﴾ من هؤلاء المكذبين وعذابهم ، ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك ﴿ إلا بالحق ﴾ أي خلقاً ملتبساً بالحق ، فيتفكر فيه من وفقه الله فيعلم النشأة الآخرة بهذه النشأة الأولى ، أو بسبب الحق من إثبات ثوابت الأمور ونفي مزلزلها ، لتظهر عظمتنا بإنصاف المظلوم من الظالم ، وإثابة الطائع وعقاب العاصي في يوم الفصل - إلى غير ذلك من الحكم كما قال تعالى ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ [ النجم : 31 ] فمن أمهلناه في الدنيا أخذنا منه الحق بعد قيام الساعة ، فلا بد من فعل ذلك ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ لأجل إقامة الحق لا شك في إتيانها لحكم علمها سبحانه فيظهر فيها كل ذلك ، ويمكن أن يكون التقدير : فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، وما فعلنا ذلك إلا بالأمر من قولنا "كن" وهو الحق ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي بالأمر ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [ الأعراف : 54 ] يعني أنه لا مشقة علينا في شيء من ذلك ، وسنعدم ذلك بالحق إذا أردنا قيام الساعة ، وأن الساعة لآتيه ، لأنا قد وعدنا بذلك ، وليس بينكم وبين كونها إلا أن نريد فتكون كما كان غيرها مما أردناه ﴿ فاصفح الصفح ﴾ أي فأعرض - بسبب تحقق الأخذ بثارك - الإعراض ﴿ الجميل ﴾ بالحلم والإغضاء وسعة الصدر ، في مثل قولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ فإنه لا بد من

الأخذ لك منهم بالحق ولو لم يكن لك نصرة إلا في ذلك اليوم لكانت كافية ؛ ثم علل هذا الأمر بقوله : ﴿ إن ربك ﴾

(85/428)

---

أي المحسن إليك الآمر لك بهذا ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ الخلاّق ﴾ المتكرر منه هذا الفعل في كل وقت بمجرد الأمر ، فلا عجب في إيجاد ما ينسب إليه من إبداع الساعة أو غيرها ، وهو لذلك عالم بأحوالكم أجمعين وما يكون منها صلاحاً لك على غاية الحكمة ، لأن المصور أعلم بالصورة من ناظرها والمتبصر فيها ، وصانع الشيء أدرى به من مشتريه ، وباني البيت أخبر به من ساكنه ، وهو الذي خلق كل ما تراه منهم فهو فعله فسلم له .
ولما كان إحكام المصنوعات لا يتم إلا بالعلم ، قال تعالى : ﴿ العليم ﴾ أي البالغ العلم بكل المعلومات ، فلا ترى أفعالهم وأقوالهم إلا منه سبحانه لأنه خالقها ، وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه في أخذ حقك ، فإنه نعم المولى ونعم النصير ، ولا يخفي عليه شيء منه ؛ ويدل على ما قلته آية يس

(86/428)

﴿ أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم ﴾ [ يس : 81 ] أو يقال : فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون شيئاً مما أردنا من الحق ، لأنا ما خلقنا عذابهم إلا بالحق كما خلقناهم بالحق ، فلم يمتنع علينا شيء من ذلك ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي بسبب إقامة الحق وإظهار أمرنا في العدل ، ولولا أن سلطنا بعض الناس على بعض لم يظهر لهم منا هذه الصفة غاية الظهور ، فنحن نعجل من الحق الذي خلقنا ذلك بسببه على قيام الساعة - ما شئنا من الابتلاء والانتقام كما فعلنا بمن قصصنا أمرهم ، ونؤخر من ذلك ما بقي إلى قيام الساعة ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ لا شك فيها ، فلا ندع هناك شيئاً من الحقوق إلا أقمناه ﴿ فأصفح الصفح الجميل ﴾ فلا بد من الأخذ لك بحقك إما في الدنيا وإما في الآخرة أن أي لأن ﴿ ربك هو الخلّاق ﴾ أي الفاعل للخلق مرة بعد مرة ، لا تنفذ قدرته ولا تهن كلمته ﴿ العليم ﴾ التام العلم ، فهو قادر على ذلك عالم بوجه الحكمة فيه في وقته وكيفيته ، فهو يعيد الخلائق في الساعة كما بدأهم ، ويستوفي إذ ذاك جميع الحقوق ويؤتيك في ذلك اليوم ما يقر به عينك .

ولما ذكر صفة العلم بصيغة المبالغة، أتبعها ما آتاه في هذه الدار من مادة العلم بصيغة العظمة، فقال عطفاً على ما قدرته مما دل عليه السياق: ﴿ولقد آتيناك﴾ مما يدل على علمنا ﴿سبعاً من المثاني﴾ وهي الفاتحة الجامعة على وجازتها جميع معاني القرآن فتثني في النزول فإنها نزلت مرتين، وتثني في كل ركعة من الصلاة، وهي ثناء على الله والصالحين من عباده، وهي مقسومة بين الله وعبده، وتثني فيه مقاصدها، ويورد كل معنى من معانيها فيه بطرق مختلفة في إيضاح الدلالة عليه في قوالب الألفاظ وجواهر التراكيب الهادية إليه - وغير ذلك من التثنية ﴿والقرآن العظيم﴾ أي الحاوي لجميع علوم الأولين والآخرين مما في جميع الكتب السالفة وغيره. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 233. 235﴾

(88/428)

---

فصل

قال الفخر:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار فكأنه قيل : الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم الكريم .

فأجاب عنه بأني إنما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة فإذا تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم ، وهذا النظم حسن إلا أنه إنما يستقيم على قول المعتزلة ، قال الجبائي : دلت الآية على أنه تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا حقاً وبكون الحق لا يكون الباطل ، لأن كل ما فعل باطلاً وأريد بفعله كون الباطل لا يكون حقاً ولا يكون مخلوقاً بالحق ، وفيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلقه الله تعالى بين السموات والأرض من الكفر والمعاصي باطل .

واعلم أن أصحابنا قالوا : هذه الآية تدل على أنه سبحانه هو الخالق لجميع أعمال العباد ، لأنها تدل على أنه سبحانه هو الخالق للسموات والأرض ولكل ما بينهما .



---

ولا شك أن أفعال العباد بينهما فوجب أن يكون خالقها هو الله سبحانه ، وفي الآية وجه آخر في النظم وهو أن المقصود من ذكر هذه القصص تصبير الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام على سفاهة قومه فإنه إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله تعالى بمثل

هذه المعاملات الفاسدة سهل تحمل تلك السفاهات على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه تعالى لما بين أنه أنزل العذاب على الأمم السالفة فعند هذا قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ وإن الله لينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم ، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق والعدل والإنصاف فكيف يليق بحكمته إهمال أمرك ، ثم إنه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم فقال : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ أي فأعرض عنهم ، واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء ، وقيل : هو منسوخ بآية السيف وهو بعيد ، لأن المقصود من ذلك أن يظهر الخلق الحسن والعفو والصفح ، فكيف يصير منسوخاً .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق العليم ﴾ ومعناه أنه خلق الخلق مع اختلاف طبائعهم وتفاوت أحوالهم مع علمه بكونهم كذلك ، وإذا كان كذلك فإنما خلقهم مع هذا التفاوت ، ومع العلم بذلك التفاوت .

أما على قول أهل السنة فلمحض المشيئة والإرادة .

وأما على قول المعتزلة فلأجل المصلحة والحكمة ، والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

اعلم أنه تعالى لما صبره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل أتبع ذلك بذكر النعم

العظيمة التي خص الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بها ، لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه سهل عليه الصفح والتجاوز ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :



---

اعلم أن قوله : ﴿ آتيناك سَبْعًا ﴾ يحتمل أن يكون سبعاً من الآيات وأن يكون سبعاً من السور وأن يكون سبعاً من الفوائد .

وليس في اللفظ ما يدل على التعيين .

وأما المثاني : فهو صيغة جمع .

واحده مثناة ، والمثناة كل شيء يثنى ، أي يجعل اثنين من قولك : ثنيت الشيء إذا عطفته أو ضممت إليه آخر ، ومنه يقال : لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني ، لأنها تثنى بالفخذ والعضد ، ومثاني الوادي معاطفه .

إذا عرفت هذا فنقول : سبعاً من المثاني مفهومه سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثنى ولا شك أن هذا القدر مجمل ولا سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل وللناس فيه أقوال :

الأول : وهو قول أكثر المفسرين : إنه فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وأبي

هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة ، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال : هي السبع المثاني رواه أبو هريرة ، والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة أنها سبع آيات ، وأما السبب في تسميتها بالمثاني فوجوه :

الأول : أنها تثنى في كل صلاة بمعنى أنها تقرأ في كل ركعة .

والثاني : قال الزجاج : سميت مثاني لأنها يثنى بعدها ما يقرأ معها .

الثالث : سميت آيات الفاتحة مثاني ، لأنها قسمت قسمين اثنين ، والدليل عليه ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" والحديث مشهور .

الرابع : سميت مثاني لأنها قسمان ثناء ودعاء ، وأيضاً النصف الأول منها حق الربوبية وهو الثناء ، والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء .

الخامس : سميت الفاتحة بالمثاني ، لأنها نزلت مرتين مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ومرة بالمدينة .

السادس : سميت بالمثاني ، لأن كلماتها مثناة مثل : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ [ الفاتحة : 3 ] ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهدنا الصراط المستقيم * صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [ الفاتحة : 5-7 ] وفي قراءة عمر : ( غير المغضوب عليهم وغير الضالين ) .

السابع : قال الزجاج : سميت الفاتحة بالمثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه .

واعلم أنا إذا حملنا قوله : ﴿ سَبْعًا مِّنَ المثاني ﴾ على سورة الفاتحة فههنا أحكام : الحكم الأول : نقل القاضي عن أبي بكر الأصم أنه قال : كان ابن مسعود يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب رأى أنها ليست من القرآن .

وأقول : لعل حجته فيه أن السبع المثاني لما ثبت أنه هو الفاتحة .

ثم إنه تعالى عطف السبع المثاني على القرآن ، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه وجب أن يكون السبع المثاني غير القرآن ، إلا أن هذا يشكل بقوله تعالى :

﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ [ الأحزاب : 7 ] وكذلك قوله : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ [ البقرة : 98 ] وللخصم أن يجيب : بأنه لا يبعد أن يذكر الكل ، ثم يعطف عليه ذكر بعض أجزائه وأقسامه لكونه أشرف الأقسام ، أما إذا ذكر شيء ثم عطف عليه شيء آخر كان المذكور أولاً مغايراً للمذكور ثانياً ، وههنا ذكر السبع المثاني ، ثم عطف عليه القرآن العظيم ، فوجب حصول المغايرة .

والجواب الصحيح : أن بعض الشيء مغاير لمجموعه ، فلم لا يكفي هذا القدر من المغايرة في حسن العطف ، والله أعلم .

الحكم الثاني : أنه لما كان المراد بقوله : ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ هو الفاتحة ، دل على أن هذه السورة أفضل سور القرآن من وجهين : أحدهما : أن إفرادها بالذكر مع كونها جزءاً من أجزاء القرآن ، لا بد وأن يكون لاختصاصها بمزيد الشرف والفضيلة .

والثاني : أنه تعالى لما أنزلها مرتين دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها .

(92/428)

---

وإذا ثبت هذا فنقول : لما رأينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب على قراءتها في جميع الصلوات طول عمره ، وما أقام سورة أخرى مقامها في شيء من الصلوات دل ذلك على أنه يجب على المكلف أن يقرأها في صلاته وأن لا يقيم سائر آيات القرآن مقامها وأن يحترز عن هذا الإبدال فإن فيه خطراً عظيماً والله أعلم .

القول الثاني : في تفسير قوله : ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ إنها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وسعيد بن جبير في بعض الروايات ومجاهد وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة معاً .

قالوا : وسميت هذه السور مثاني ، لأن الفرائض والحدود والأمثال والعبر ثنيت فيها وأنكر الربيع هذا القول .

وقال هذه الآية مكية وأكثر هذه السور السبعة مدنية .

وما نزل شيء منها شيء منها في مكة ، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها .

وأجاب قوم عن هذا الإشكال : بأن الله تعالى أنزل القرآن كله إلى السماء الدنيا .

ثم أنزله على نبيه منها نجوماً ، فلما أنزله إلى السماء الدنيا ، وحكم بإنزاله عليه ، فهو من جملة ما آتاه ، وإن لم ينزل عليه بعد .

ولقائل أن يقول : إنه تعالى قال : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ وهذا الكلام إنما يصدق إذا وصل ذلك الشيء إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

فأما الذي أنزله إلى السماء الدنيا وهو لم يصل بعد إلى محمد عليه السلام ، فهذا الكلام لا يصدق فيه .

وأما قوله بأنه لما حكم الله تعالى بإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم كان ذلك جارياً مجرى ما نزل عليه فهذا أيضاً ضعيف ، لأن إقامة ما لم ينزل عليه مقام النازل عليه مخالف للظاهر .

والقول الثالث : في تفسير السبع المثاني إنها هي السور التي هي دون الطوال والمئين وفوق المفصل ، واختار هذا القول قوم واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني المثاني مكان الزبور ، وفضلني ربي بالمفصل " قال الواحدي : والقول في تسمية هذه السور مثاني كالقول في تسمية الطوال مثاني .

وأقول إن صح هذا التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا غبار عليه وإن لم يصح فهذا القول مشكل ، لأنا بينا أن المسمى بالسبع المثاني يجب أن يكون أفضل من سائر السور ، وأجمعوا على أن هذه السور التي سموها بالمثاني ليست أفضل من غيرها ، فيمتنع حمل السبع المثاني على تلك السور .

والقول الرابع : أن السبع المثاني هو القرآن كله ، وهو منقول عن ابن عباس في بعض الروايات ، وقول طاوس قالوا : ودليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [ الزمر 23 ] فوصف كل القرآن بكون مثاني ثم اختلف القائلون بهذا القول في أنه ما المراد بالسبع ، وما المراد بالمثاني ؟ أما السبع فذكر فيه وجوهاً : أحدها : أن القرآن سبعة أسباع .

وثانيها : أن القرآن مشتمل على سبعة أنواع من العلوم .

التوحيد ، والنبوة والمعاد ، والقضاء ، والقدر ، وأحوال العالم ، والقصص ، والتكاليف .

وثالثها : أنه مشتمل على الأمر والنهي ، والخبر والاستخبار ، والنداء ، والقسم ، والأمثال .

وأما وصف كل القرآن بالمثاني ، فلأنه كرر فيه دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف ، وهذا القول ضعيف أيضاً ، لأنه لو كان المراد بالسبع المثاني القرآن ، لكان قوله : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ عطفاً على نفسه ، وذلك غير جائز

وأجيب عنه بأنه إنما حسن إدخال حرف العطف فيه لاختلاف اللفظين كقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . وليث الكتيبة في المزدحم

*(94/428)*

---

واعلم أن هذا وإن كان جائزاً لأجل وروده في هذا البيت ، إلا أنهم أجمعوا على أن الأصل خلافه .

والقول الخامس : يجوز أن يكون المراد بالسبع الفاتحة ، لأنه سبع آيات ، ويكون المراد بالمثاني كل القرآن ويكون التقدير : ولقد آتيناك سبع آيات هي الفاتحة وهي من جملة المثاني الذى هو القرآن وهذا القول عين الأول والتفاوت ليس إلا بقليل والله أعلم .

المسألة الثانية :

لفظة " من " في قوله : ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال الزجاج فيها وجهان : أحدهما : أن تكون للتبعيض من القرآن أي ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم قال ويجوز أن تكون من صلة ، والمعنى : آتيناك سبعاً هي المثاني كما قال : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [ الحج : 30 ] المعنى : اجتنبوا الأوثان ، لا أن بعضها رجس والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 164 . 166 ﴾

(95/428)

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ .

قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ كَانَ أَمَرَ أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُمْ صَفْحًا جَمِيلًا ، وَيُعْرِضَ عَنْهُمْ إعْرَاضًا حَسَنًا ، ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ السَّبْعِ : وَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ

السَّبْعَ قِيل : هِيَ [ أَوَّلُ ] السُّوَرِ الطِّوَالِ : الْبَقَرَةُ ، وَآلُ عِمْرَانَ ، وَالنِّسَاءُ ، وَالْمَائِدَةُ ، وَالْأَنْعَامُ ، وَالْأَعْرَافُ ، وَبَرَاءَةٌ تَتِمَّةُ الْأَنْفَالِ .

وَقِيلَ : السَّابِعَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا يُونُسُ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمْ .

الثَّانِي : أَنَّهَا الْحَمْدُ ، سَبْعُ آيَاتٍ ؛ قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ مِنْ الْقُرْآنِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا الْأَمْرُ ، وَالنَّهْيُ ، وَالْبُشْرَى ، وَالنِّذَارَةُ ، وَضَرْبُ الْأَمْثَالِ ، وَإِعْدَادُ النِّعَمِ ، وَنَبَأُ الْأُمَمِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي الْمَثَانِي : وَفِيهَا [ أَرْبَعَةُ ] أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : هِيَ السَّبْعُ الطِّوَالُ بِنَفْسِهَا ؛ لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِيهَا الْمَعَانِي .

الثَّانِي : أَنَّهَا آيَاتُ الْفَاتِحَةِ ؛ لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ .

(96/428)

---

الثَّالِثُ : أَنَّهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾

الرَّابِعُ : أَنَّهَا الْقُرْآنُ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : هُوَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ .

الثَّانِي : هُوَ الْحَوَامِيمُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا الْفَاتِحَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْمَسْطُورِ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ السَّبْعُ مِنْ السُّوَرِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْآيَاتِ ؛ لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَشَفَ قِنَاعَ الْإِشْكَالِ ، وَأَوْضَحَ شُعَاعَ الْبَيَانِ ، فَفِي الصَّحِيحِ عِنْدَ كُلِّ فَرِيقٍ وَمِنْ كُلِّ طَرِيقٍ أَنَّهَا أُمُّ الْكِتَابِ ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : ﴿ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيت ﴾ .

وَبَعْدَ هَذَا فَالسَّبْعُ الْمَثَانِي كَثِيرٌ ، وَالْكُلُّ مُحْتَمَلٌ ، وَالنَّصُّ قَاطِعٌ بِالْمُرَادِ ، قَاطِعٌ بِمَنْ أَرَادَ التَّكْلِيفَ وَالْعِنَادَ ، وَبَعْدَ تَفْسِيرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تَفْسِيرَ .

وَلَيْسَ لِلْمُتَعَرِّضِ إلَى غَيْرِهِ إلَّا النَّكِيرُ .

(97/428)

---

وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ لَوْلَا تَفْسِيرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أُحَرِّرَ فِي ذَلِكَ مَقَالًا وَجِيزًا ، وَأَسْبُكَ مِنْ سَنَامِ الْمَعَارِفِ إبْرِيزًا ، إلَّا أَنَّ الْجَوْهَرَ الْأَغْلَى مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى وَأَعْلَى ؛ وَقَدْ بَيَّنَّا تَفْسِيرَهَا فِي أَوَّلِ سُورَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، إذْ هِيَ الْأُولَى مِنْهُ

، فَلْيُنْظَرْ هُنَاكَ مِنْ هَهُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

الْمَعْنَى : قَدْ أَعْطَيْنَاكَ الْآخِرَةَ ، فَلَا تَنْظُرْ إِلَى الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَعْطَيْنَاكَ الْعِلْمَ فَلَا تَتَشَاغَلْ بِالشَّهَوَاتِ ، وَقَدْ مَنَحْنَاكَ لَذَّةَ الْقَلْبِ فَلَا تَنْظُرْ إِلَى لَذَّةِ الْبَدَنِ ، وَقَدْ أَعْطَيْنَاكَ الْقُرْآنَ فَتَغَنَّ بِهِ ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ أَيْ لَيْسَ مِنَّا مَنْ رَأَى بِمَا عِنْدَهُ مِنْ الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَيْسَ بِغَنِيٍّ حَتَّى يَطْمَحَ بِبَصَرِهِ إِلَى زَخَارِفِ الدُّنْيَا ، وَعِنْدَهُ مَعَارِفُ الْمَوْلَى ، حَيِيَ بِالْبَاقِي ، فَغَنِيَ عَنْ الْفَانِي .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : الطِّيبُ ، وَالنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ﴾ .

(98/428)

---

فَكَانَ يَتَشَاغَلُ بِالنِّسَاءِ جِبِلَّةَ الْآدَمِيَّةِ وَتَشَوُّفَ الْخِلْقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيُحَافِظُ عَلَى الطِّيبِ مَنْفَعَةً خَاصِّيَّةً وَعَامِّيَّةً ، وَلَا يَقَرُّ لَهُ عَيْنٌ إلَّا فِي الصَّلَاةِ لَدَى مُنَاجَاةِ الْمَوْلَى ، وَيَرَى أَنَّ مُنَاجَاةَ الْمَوْلَى أَجْدَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَوْلَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا تَحْقِيقَ ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرَّهْبَانِيَّةُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا كَانَ فِي دِينِ عِيسَى ؛ وَإِنَّمَا شَرَعَ اللَّهُ لَهُ وَلَنَا بِحِكْمَتِهِ حَنِيفِيَّةً سَمْحَةً خَالِصَةً عَنِ الْحَرَجِ خَفِيفَةً عَنِ الْإِصْرِ ، نَأْخُذُ مِنَ الْآدَمِيَّةِ وَشَهَوَاتِهَا بِحَظٍّ وَافِرٍ ، وَنَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، إِنْ شُغِلَ بَدَنُهُ بِاللَّذَّاتِ عَكَفَ قَلْبُهُ عَلَى الْمَعَارِفِ ، وَرَأَى الْيَوْمَ عُلَمَاءُ الْقُرَّاءِ وَالْمُخْلِصُونَ مِنَ الْفُضَلَاءِ أَنَّ الِانْكِفَافَ عَنِ اللَّذَّاتِ ، وَالْخُلُوصَ لِرَبِّ السَّمَوَاتِ الْيَوْمَ أَوْلَى ، لِمَا غَلَبَ عَلَى الدُّنْيَا مِنَ الْحَرَامِ ، وَاضْطُرَّ إِلَيْهِ

(99/428)

---

الْعَبْدُ فِي الْمَعَاشِ مِنْ مُخَالَطَةِ مَنْ لَا تَجُوزُ مُخَالَطَتُهُ ، وَمُصَانَعَةِ مَنْ تَحْرُمُ مُصَانَعَتُهُ ، وَحِمَايَةِ الدُّنْيَا بِالدِّينِ ، وَصِيَانَةِ الْمَالِ بِتَبَدُّلِ الطَّاعَةِ بَدَلًا عَنْهُ ؛ فَكَانَتْ الْعُزْلَةُ أَفْضَلَ ، وَالْفِرَارُ عَنِ النَّاسِ أَصْوَبُ لِلْعَبْدِ وَأَعْدَلُ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بِهِ الْوَعْدُ الَّذِي لَا خُلْفَ لَهُ مِنَ الصَّادِقِ ؛ ﴿ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْفَاتِحَةِ: ﴿ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ ﴾، فَتَكُونُ الْفَاتِحَةُ هِيَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ.

قُلْنَا: الْمُرَادُ بِالْمَثَانِي الْقُرْآنُ كُلُّهُ، فَالْمَعْنَى: وَلَقَدْ آتَيْنَاك سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي مِمَّا ثَنَى بَعْضُ آيِهِ بَعْضًا، وَيَكُونُ الْمَثَانِي جَمْعُ مُثَنَّاةٍ، وَتَكُونُ آيُ الْقُرْآنِ مَوْصُوفَةً بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ بَعْضَهَا تَلَا بَعْضًا بِفُصُولٍ بَيْنَهَا، فَيُعْرَفُ انْقِضَاءُ الْآيَةِ وَابْتِدَاءُ الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ مَثَانِيَ ﴾؛ لِأَنَّ الْمَعَانِيَ كُرِّرَتْ فِيهِ وَالْقَصَصَ.

وَقَدْ قِيلَ: إنَّهَا سُمِّيَتْ مَثَانِيَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اسْتَثْنَاهَا لِمُحَمَّدٍ دُونَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَلِأُمَّتِهِ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(100/428)

---

وقال الماوردى:

قوله عز وجل: ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾

فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه الإعراض من غير جزع.

الثاني : أنه صفح المنكر عليهم بكفرهم ، المقيم على وعظهم ، قاله ابن بحر .

الثالث : أنه العفو عنهم بغير توبيخ ولا تعنيف .

الرابع : أنه الرضا بغير عتاب ، قاله علي بن أبي طالب .

وفيه قولان :

أحدهما : أنه أمر بالصفح عنهم في حق الله تعالى ، ثم نسخ بالسيف ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، "لقد أتيتكم بالذبح ، وبعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة" قاله عكرمة ومجاهد .

الثاني : أنه أمره بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم ، قاله الحسن .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً مِن المثاني والقرآن العظيم ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن السبع المثاني هي الفاتحة ، سميت بذلك لأنها تثنى كلما قرىء القرآن وصُلّي ، قاله الربيع بن أنس وأبو العالية والحسن . وقيل : لأنها يثني فيها الرحمن الرحيم ، ومنه قول الشاعر :

نشد تكم بمنزل القرآن . . . أمّ الكتاب السّبع من مثاني

ثُنّين مِن آيٍ مِن القرآن . . . والسبع سبع الطوَل الدواني

الثاني : أنها السبع الطوَل : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس ،

قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد .

قال ابن عباس : سميت المثاني لما تردد فيها من الأخبار والأمثال والعبر وقيل : لأنها قد تجاوزت المائة الأولى إلى المائة الثانية . قال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يمسي . . . مضيعاً للمفصل والمثاني

الثالث : أن المثاني القرآن كله ، قاله الضحاك ، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نوراً ساطعاً يهتدى به . . . يخص بتنزيل المثاني المعظم

الرابع : أن المثاني معاني القرآن السبعة أمر ونهي وتبشير وإنذار وضرب أمثال وتعديد نعم وأنباء قرون ، قاله زياد بن أبي مريم .



---

الخامس : أنه سبع كرامات أكرمه الله بها ، أولها الهدى ثم النبوة ، ثم الرحمِة ثم الشفقة ثم المودة ثم الألفة ثم السكينة وضم إليها القرآن العظيم ، قاله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض ﴾ الآية ،

المراد أن هؤلاء المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء ، فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثاً ولا سدى ، ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم ، وإنما خلقت بالحق ولواجب مراد وأغراض لها نهايات من عذاب أو تنعيم ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ على جميع أمور الدنيا ، أي فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك فإن الجزاء لهم بالمرصاد ، ﴿ فاصفح ﴾ عن أعمالهم ، أي ولّها صفحة عنقك بالإعراض عنها ، وأكد الصفح بنعت الجمال إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض .

وهذه الآية تقتضي مداهنة ، ونسخها في آية السيف قالة قتادة ، ثم تلا في آخر الآية بأن الله تعالى يخلق من شاء لما شاء ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك لا هذه الأوثان التي يعبدونها ، وقرأ جمهور الناس " الخلاق " ، وقرأ الأعمش والجحدري " الخالق " .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

قال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس ومجاهد وابن جبير : " السبع " هنا هي السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والمص والأنفال مع براءة ، وقال ابن جبير : بل السابعة يونس وليست الأنفال وبراءة منها ، و﴿ المثاني ﴾ على قول هؤلاء : القرآن كما قال تعالى : ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ [ الزمر : 23 ] ، وسمي بذلك لأن القصص والأخبار تثنى فيه وتردد ، وقال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس أيضاً وابن مسعود والحسن وابن أبي مليكة وعبيد بن عمير وجماعة : " السبع " هنا هي آيات الحمد ، قال ابن عباس : هي سبع : ببسم الله الرحمن الرحيم ، وقال غيره هي سبع دون البسملة ، وروي في هذا حديث أبي بن كعب ونصه : قال أبيّ : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أعلمك يا أبيّ سورة لم تنزل في التوراة والإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها " ، قلت : بلى ، قال : " إني لأرجو أن لا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها " ، فقام رسول الله وقمت معه ويدي في يده وجعلت أبطىء في المشي مخافة أن أخرج ، فلما دنوت من باب المسجد ، قلت : يا رسول الله ، السورة التي وعدتنيها ؟ فقال : "كيف تقرأ إذا قمت في الصلاة" ؟ قال : فقرأت ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [ الفاتحة : 1 ] حتى كملت فاتحة الكتاب ، فقال : " هي هي ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت " ، كذا أو نحوه ذكره مالك في الموطأ ، وهو مروي

في البخاري ومسلم عن أبي سعيد بن المعلى أيضاً ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " إنها السبع المثاني ، وأم القرآن ، وفاتحة الكتاب " وفي كتاب الزهراوي : وليس فيها بسملة ، و﴿ المثاني ﴾ على قول هؤلاء يحتمل أن يكون القرآن ، ف ﴿ من ﴾ للتبعيض ، وقالت فرقة : بل أراد الحمد نفسها كما قال ﴿ الرجس من الأوثان ﴾ [ الحج : 30 ] ف ﴿ من ﴾ لبيان الجنس ، وسميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة ،

(104/428)

---

وقيل سميت بذلك لأنها يثنى بها على الله تعالى ، جوزه الزجاج .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا القول من جهة التصريف نظر ، وقال ابن عباس : سميت بذلك لأن الله تعالى استثناها لهذه الأمة ولم يعطها لغيرها ، وقال نحوه ابن أبي مليكة ، وقرأت فرقة " والقرآن " بالخفض عطفاً على ﴿ المثاني ﴾ وقرأت فرقة " والقرآنَ " بالنصب عطفاً على قوله ﴿ سبعاً ﴾ ، وقال زياد بن أبي مريم : المراد بقوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً ﴾ أي سبع معان من القرآن خولناك فيها شرف المنزلة في الدنيا والآخرة وهي : مُرْ ، وانْهَ ، وبشر ، وأنذِر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واقصص الغيوب ، وقال أبو

العالية " السبع المثاني " هي آية فاتحة الكتاب ، ولقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطوال شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(105/428)

---

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلا بالحق ﴾ أي : للحق ولإِظهار الحق ، وهو ثواب المصدِّق وعقاب المكذِّب .

﴿ وإِن الساعة لآتية ﴾ أي : وإِن القيامة لتأتي ، فيجازى المشركون بأعمالهم ، ﴿ فأصفح الصفح الجميل ﴾ عنهم ، وهو الإِعراض الخالي من جزع وفُحش .

قال المفسرون : وهذا منسوخ بآية السيف .

فأما ﴿ الخلاّق ﴾ فهو خالق كل شيء .

و﴿ العليم ﴾ قد سبق شرحة [ البقرة : 29 ] .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾

سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ،

فيها أنواع من البَزّ والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال : أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل ، ويدل على صحة هذا قوله : ﴿ لا تَمُدنَّ عينيك . . . ﴾ الآية ، قاله الحسين بن الفضل .

وفي المراد بالسبع المثاني أربعة أقوال :

أحدها : أنها فاتحة الكتاب ، قاله عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود في رواية ، وابن عباس في رواية الأكثرين عنه ، وأبو هريرة ، والحسن ، وسعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد في رواية ، وعطاء ، وقتادة في آخرين .

فعلى هذا ، إنما سمّيت بالسبع ، لأنها سبع آيات .

وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال :

أحدها : لأن الله استثناها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يعطِها أمةً قبلهم ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : لأنها تُثنّى في كل ركعة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قال ابن الأنباري : والمعنى : آتيناك السبع الآيات التي تُثنّى في كل ركعة ، وإنما دخلت "مِنْ" للتوكيد ، كقوله : ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ [ محمد 15 ] .

وقال ابن قتيبة : سمي "الحمد" مثانيَ ، لأنها تُثنّى في كل صلاة .

والثالث: لأنها ما أُثني به على الله تعالى، لأن فيها حمد الله وتوحيده وذِكر مملكته، ذكره الزجاج.

والرابع: لأن فيها "الرحمن الرحيم" مرتين، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين، وهذا على قول من يرى التسمية منها.

والخامس: لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين عبده، ويدل عليه حديث أبي هريرة "قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي".

والسادس: لأنها نزلت مرتين، ذكره الحسين بن الفضل.

والسابع: لأن كلماتها مثنّاة، مثل: الرحمن الرحيم، إِياك إِياك، الصراط صراط، عليهم عليهم، غير غير، ذكره بعض المفسرين.

ومن أعظم فضائلها أن الله تعالى جعلها في حيِّزٍ، والقرآن كله في حيِّزٍ، وامتنَّ عليه بها امتنَّ عليه بالقرآن كله.

والقول الثاني: أنها السبع الطُّوَل، قاله ابن مسعود في رواية، وابن عباس في رواية، وسعيد بن جبير في رواية، ومجاهد في رواية، والضحاك.

فالسبع الطُّوَل هي : ( البقرة ) ، و ( آل عمران ) ، و ( النساء ) ، و ( المائدة ) ، و ( الأنعام ) ، و ( الأعراف ) ، وفي السابعة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ( يونس ) ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : ( براءة ) قاله أبو مالك .

والثالث : ( الأنفال ) و ( براءة ) جميعاً ، رواه سفيان عن مسعر عن بعض أهل العلم .

قال ابن قتيبة : وكانوا يرون ( الأنفال ) و ( براءة ) سورة واحدة ، ولذلك لم يفصلوا بينهما .

قال شيخنا أبو منصور اللغوي : هي الطُّوَل ، ولا تَقُلها بالكسر ، فعلى هذا ، في تسميتها بالمثاني قولان :

أحدهما : لأن الحدود والفرائض والأمثال ثنِّيت فيها ، قاله ابن عباس .

والثاني : لأنها تجاوز المائة الأولى إِلى المائة الثانية ، ذكره الماوردي .

والقول الثالث : أن السبع المثاني سبع معان أُنزلت في القرآن : أمر ، ونهي ، وبشارة ، وإِنذار ، وضرب الأمثال ، وتعداد النِّعَم ، وأخبار الأُمم ، قاله زياد بن أبي مريم .

والقول الرابع : أن المثاني : القرآن كلُّه ، قاله طاووس ، والضحاك ، وأبو مالك ، فعلى هذا ، في تسمية القرآن بالمثاني أربعة أقوال :

أحدها : لأن بعض الآيات يتلو بعضاً ، فتثنّى الآخرة على الأولى ، ولها مقاطع تفصل الآية بعد الآية حتى تنقضيَ السورة ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أنه سمي بالمثاني لِما يتردَّد فيه من الثناء على الله عز وجل .

والثالث : لما يتردَّد فيه من ذِكْر الجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب .

والرابع : لأن الأقاصيص ، والأخبار ، والمواعظ ، والآداب ، ثنِّيت فيه ، ذكرهن ابن الأنباري .

وقال ابن قتيبة : قد يكون المثاني سور القرآن كله ، قصارها وطوالها ، وإنما سمي مثاني ، لأن الأنباء والقصص تثنّى فيه ، فعلى هذا القول ، المراد بالسبع : سبعة أسباع القرآن ، ويكون في الكلام إِضمار ، تقديره : وهي القرآن العظيم .

فأما قوله : ﴿ من المثاني ﴾ ففي "مِن" قولان :

أحدهما : أنها للتبعيض ، فيكون المعنى : آتيناك سبعاً من جملة الآيات التي يُثنى بها على الله تعالى ، وآتيناك القرآن .

والثاني : أنها للصفة ، فيكون السبع هي المثاني ، ومنه قوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [ الحج 30 ] لا أن بعضها رجس ، ذكر الوجهين الزجاج ، وقد ذكرنا عن ابن

الأنباري قريباً من هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ والقرآنَ العظيمَ ﴾ يعني : العظيم القَدْر ، لأنه كلامُ الله تعالى ، ووحيُه .

وفي المراد به هاهنا قولان :

أحدهما : أنه جميع القرآن .

قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : أنه الفاتحة أيضاً ، قاله أبو هريرة ، وقد روينا فيه حديثاً في أول تفسير ( الفاتحة )

قال ابن الأنباري : فعلى القول الأول ، يكون قد نُسق الكُلُّ على بعض ، كما يقول العربي :

رأيت جدار الدار والدار ، وإنما يصلح هذا ، لأن الزيادة التي في الثاني من كثرة العدد أشبهَ

بها ما يغاير الأولَ ، فجوَّز ذلك عطفَه عليه .

(108/428)

---

وعلى القول الثاني ، نُسِق الشيء على نفسه لمَّا زِيد عليه معنى المدح والثناء ، كما قالوا :

روي ذلك عن عمر ، وابن الخطاب .

يريدون بابن الخطاب : الفاضلَ العالمَ الرفيع المنزلة ، فلما دخلته زيادة ، أشبه ما يغاير الأول

، فعُطف عليه . انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾

أي للزوال والفناء .

وقيل : أي لأجازي المحسن والمسيء ؛ كما قال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [ النجم : 31 ] .

﴿ وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ أي لكائنة فيُجزى كل بعمله .

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ مثل ُ﴿ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً ﴾ [ المزمل : 10 ] أي تجاوز عنهم يا محمد ، واعف عفواً حسناً ؛ ثم نسخ بالسيف .

قال قتادة : نسخه قوله : ﴿ فَخُذُوهُمْ واقتلوهم حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ ﴾ .

وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : " لقد جئتكم بالذَّبح وبُعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة " ؛ قاله عكرمة ومجاهد .

وقيل : ليس بمنسوخ ، وأنه أمِرُ بالصفح في حق نفسه فيما بينه وبينهم .

والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق ﴾ أي المقدّر للخلق والأخلاق.

﴿ العليم ﴾ بأهل الوفاق والنفاق.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

اختلف العلماء في السبع المثاني؛ فقيل: الفاتحة؛ قاله عليّ بن أبي طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم، ورُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة، من حديث أُبَيّ بن كعب وأبي سعيد بن المُعَلَّى.

وقد تقدّم في تفسير الفاتحة.

وخرّج الترمذي من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني" قال: هذا حديث حسن صحيح.

وهذا نص، وقد تقدّم في الفاتحة.

وقال الشاعر:

نشدتكم بمنْزِل القرآن . . .

أمِّ الكتاب السبعِ من مثاني

وقال ابن عباس: هي السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً؛ إذ ليس بينهما التسمية.

روى النَّسائيّ حدّثنا علي بن حُجْر أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾ قال : السبع الطُّوَل ، وسميت مثاني لأن العبر والأحكام والحدود ثُنّيت فيها .

وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّوَل شيء إذ ذاك .

وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوماً ، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنما آتاه محمداً صلى الله عليه وسلم وإن لم ينزل عليه بعد .

وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد .

وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسِي . . .

مُضِيعاً للمفَصّل والمثاني

وقيل : المثاني القرآن كله ؛ قال الله تعالى : ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [ الزمر : 23 ] .

هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك ، وقاله ابن عباس .

وقيل له مثاني لأن الأنباء والقصص ثُنّيت فيه .

وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقد كان نوراً ساطعاً يهتدى به . . .

يُخَصُّ بتنزيل المثاني المعظم

أي القرآن .

وقيل : المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون ؛ قاله زياد بن أبي مريم .

والصحيح الأوّل لأنه نصّ .

وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ؛ إلا أنه إذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعالى : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ فيه إضمار تقديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالها على ما يتعلق بأصول الإسلام .

وقد تقدّم في الفاتحة .

وقيل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني القرآن العظِيم .

ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِك القَرْم وابن الهمام . . .

وليثِ الكَتِيبةِ في المُزْدَحم

وقد تقدّم عند قوله : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [ البقرة : 238 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(111/428)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ يعني لإظهار الحق والعذاب ، وهو أن يثاب المؤمن المصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ يعني : وإن القيامة لتأتي ليجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ الخطاب للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) أي فأعرض عنهم يا محمد واعفُ عنهم عفواً حسناً .

واحتمل ما تلقى من أذى قومك وهذا الصفح والإعراض منسوخ بآية القتال ، وقيل فيه بُعد لأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) ، أن يظهر الخلق الحسن وأن يعاملهم بالعفو والصفح الخالي من الجزع والخوف ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى خلق خلقه ، وعلم ما هم فاعلوه وما يصلحهم .

قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ قال ابن الجوزي : سبب نزولها أن

سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ، فيها أنواع من البز والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله هذه الآية .

وقال : قد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله ﴿ لا تمدّن عينيك ﴾ الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف أو لا يصح لأن هذه السورة مكية ، بإجماع أهل التفسير وليس فيها من المدني شيء .

ويهود قريظة والنضير ، كانوا بالمدينة وكيف يصح أن يقال إن سبع قوافل جاءت في يوم واحد ، فيها أموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية ، وأخبرهم أن هذه السبع آيات هي خير من هذه السبع القوافل والله أعلم ، وفي المراد بالسبع المثاني أقوال أحدها أنها فاتحة الكتاب ، وهذا قول عمر وعلي وابن مسعود وفي رواية عنه وابن عباس ، وفي رواية الأكثرين عنه وأبي هريرة والحسن ، وسعيد بن جبير وفي رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة في آخرين .

يدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب ، والسبع المثاني " أخرجه أبو داود والترمذي ( ق ) عن أبي سعيد ابن المعلى قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته " أخرجه البخاري . وفيه زيادة أما السبب في تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثاني ، فلأنها سبع آيات بإجماع أهل العلم واختلفوا في سبب تسميتها بالمثاني .

فقال ابن عباس والحسن وقتادة : لأنها تثنى في الصلاة تقرأ في كل ركعة .

وقيل : لأنها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين : فنصفها الأول ثناء على الله .

ونصفها الثاني : دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن أبي هريرة عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) قال " يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين " الحديث مذكور في فضل الفاتحة .

وقيل سميت مثاني لأن كلماتها مثناة مثل قوله : ﴿ الرحمن الرحيم إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين ﴾ فكل هذه ألفاظ مثناة .

وقال الحسن بن الفضل : لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة ومعها سبعون ألف ملك .

وقال مجاهد : لأن الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم .

وقال أبو زيد البلخي : لأنها تثني أهل الشرك عن الشر من قول العرب ثنيت عناني .

وقال ابن الزجاج : سميت فاتحة الكتاب مثاني لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده ، وملكه وإذا ثبت كون الفاتحة هي السبع المثاني دل ذلك على فضلها وشرفها وأنها من أفضل سور القرآن ، لأن إفرادها بالذكر في قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ مع أنها جزء من أجزاء القرآن وإحدى سوره لا بد . وأن يكون لاختصاصها بالشرف ، والفضيلة .

(113/428)

---

القول الثاني في تفسير قوله سبعاً من المثاني أنها السبع الطوال ، وهذا قول ابن عمر وابن مسعود في رواية عنه وابن عباس وفي رواية عنه وسعيد جبير وفي رواية عنه السبع الطوال هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف .

واختلفوا في السابعة فقيل الأنفال مع براءة لأنهما كالسورة الواحدة ، ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم .

وقيل السابعة هي سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ما روي عن ثوبان أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : " إن الله سبحانه وتعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئتين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني ، وفضلني ربي بالمفصل "

أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي ؛ قال ابن عباس : إنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود ، والأمثال والخبر والعبر ثنيت فيها ، وأورد على هذا القول أن هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها ، وهي مكية وأجيب عن هذا الإيراد بأن الله سبحانه وتعالى ، حكم في سابق علمه بإنزال هذه السورة على النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وإذا كان الأمر كذلك صح أن تفسر هذه الآية بهذه السورة ، القول الثالث : أن السبع المثاني هي السور التي هي دون الطوال ، وفوق المفصل وهي المئين ، وحجة هذا القول الحديث المتقدم وأعطاني مكان الزبور المثاني ، والقول الرابع : أن السبع المثاني هي القرآن كله وهذا قول طاوس وحجة هذا القول أن الله سبحانه وتعالى قال



---

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ وسمي القرآن كله مثاني لأن الأخبار والقصص والأمثال ثنيت فيه فإن قلت : كيف يصح عطف القرآن في قوله ﴿ والقرآن العظيم ﴾ على قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه ؟ قلت : إذا عني بالسبع المثاني فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لأن القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى إلى قوله بما أوحينا إليك

هذا القرآن يعني سورة يوسف عليه السلام .

وإذا عنى بالسبع المثاني القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ، وهي القرآن العظيم وإنما سمي القرآن عظيماً ، لأنه كلام الله ووحيه أنزله على خير خلقه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(115/428)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) ﴾

الخفض مقابل الرفع ، وهو كناية عن الإلانة والرفق .

عضين : جمع عضة ، وأصلها الواو والهاء يقال : عضيت الشيء تعضيه فرقته ، وكل فرقة عضة ، فأصله عضوة .

وقيل : العضة في قريش السحر ، يقولون للساحر : عاضه ، وللساحرة : عاضهة .

قال الشاعر :

أعوذ بربي من النافثات . . .

في عقد العاضه المعضه

وفي الحديث : "لعن الله العاضهة والمستعضهة" وفسر بالساحر والمستسحرة ، فأصله الهاء .

وقيل : من العضه يقال : عضهه عضها ، وعضيهة رماه بالبهتان .

قال الكسائي : العضه الكذب والبهتان ، وجمعها عضون .

وذهب الفراء إلى أنّ عضين من العضاة ، وهي شجرة تؤذي تخرج كالشوك .

ومن العرب من يلزم الياء ويجعل الإعراب في النون فيقول : عضينك كما قالوا : سنينك ، وهي كثيرة في تميم وأسد .

الصدع : الشق ، وتصدع القوم تفرقوا ، وصدعته فانصدع أي شققته فانشق .

وقال مؤرج : أصدع أفصل ، وقال ابن الأعرابي : أفصد .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل .

إن ربك هو الخلاق العليم .

ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم .

لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين .

وقل إني أنا النذير المبين .

كما أنزلنا على المقتسمين .

الذين جعلوا القرآن عضين .

فوربك لنسألنهم أجمعين .

عما كانوا يعملون .

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إنا كفيناك المستهزئين .

الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون .

ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون .

فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ : إلا بالحق أي : خلقاً ملتبساً بالحق .

(116/428)

---

لم يخلق شيء من ذلك عبثاً ولا هملاً ، بل ليطيع من أطاع بالتفكر في ذلك الخلق العظيم ، وليتذكر النشأة الآخرة بهذه النشأة الأولى .

ولذلك نبه من يتنبه بقوله : وأن الساعة لآتية ، فيجازي من أطاع ومن عصي .

ثم أمر نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) بالصفح ، وذلك يقتضي المهادنة ، وهي منسوخة بآية السيف قاله قتادة .

أو إظهار الحكم عنهم والإغضاء لهم .

ولما ذكر خلق السموات والأرض وما بينهما قال : إن ربك هو الخلاق ، أتى بصفة المبالغة لكثرة ما خلق ، أو الخلاق من شاء لما شاء من سعادة أو شقاوة .

وقال الزمخشري : الخلاق الذي خلقك وخلقهم ، وهو العليم بحالك وحالهم ، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم .

أو إنّ ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم ، وقد علم أنّ الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح .

وقرأ زيد بن علي ، والجحدري ، والأعمش ، ومالك بن دينار : هو الخالق ، وكذا في مصحف أبي وعثمان ، من المثاني .

والمثاني جمع مثناة ، والمثنى كل شيء يثني أي : يجعل اثنين من قولك : ثنيت الشيء ثنياً أي عطفته وضممت آليه آخر ، ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيه : مثاني ، لأنه يثني بالفخذ والعضد .

ومثاني الوادي معاطفه .

فنقول : سبعاً من المثاني مفهوم سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثني ، وهذا مجمل ، ولا

سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وابن جبير : السبع هنا هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، وبراءة ، لأنهما في حكم سورة ، ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية .

وسميت الطوال مثاني لأنّ الحدود والفرائض والأمثال ثنيت فيها قاله ابن عباس ، وعلى قوله من لبيان الجنس .

وقيل : السابعة سورة يونس قاله ابن جبير ، وقيل : براءة وحدها ، قاله أبو مالك .

والمثاني على قول هؤلاء وابن عباس في قوله المتقدم : القرآن .

(117/428)

---

كما قال تعالى : ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ وسمي بذلك لأنّ القصص والأخبار تثنى فيه وتردّد .

وقيل : السبع آل حميم ، أو سبع صحائف وهي الأسباع .

وقيل : السبع هي المعاني التي أنزلت في القرآن : أمر ، ونهي ، وبشارة ، وإنذار ، وضرب أمثال ، وتعداد النعم ، وأخبار الأمم .

قاله زياد بن أبي مريم .

وقال عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عباس أيضاً ، والحسن ، وأبو العالية ، وابن أبي مليكة ، وعبيد بن عمير ، وجماعة : السبع هنا هي آيات الحمد .

قال ابن عباس : وهي سبع ببسم الله الرحمن الرحيم .

وقال غيره : سبع دون البسملة .

وقال أبو العالية : لقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطوال شيء ، ولا ينبغي أن يعدل عن هذا القول ، بل لا يجوز العدول عنه لما في حديث أبيٍّ ففي آخره ، "هي السبع المثاني" وحديث أبي هريرة عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) : " إنها السبع المثاني وأمّ القرآن وفاتحة الكتاب " وسميت بذلك لأنها تثنى في كل ركعة .

وقيل : لأنها يثني بها على الله تعالى جوزه الزجاج .

قال ابن عطية : وفي هذا القول من جهة التصريف نظر انتهى .

ولا نظر في ذلك ، لأنها جمع مثنى بضم الميم مفعل من أثنى رباعياً أي : مقر ثناء على الله تعالى أي : فيها ثناء على الله تعالى .

وقال ابن عباس : لأن الله استثناها لهذه الأمة ولم يعطها لغيرها ، وقال نحوه ابن أبي مليكة .

وعلى هذا التفسير الوارد في الحديث تكون من لبيان الجنس ، كأنه قيل : التي هي المثاني ، وكذا في قول من جعلها أسباع القرآن ، أو سبع المعاني .

وأما من جعلها السبع الطوال أو آل حميم فمن للتبعيض ، وكذا في قول من جعل سبعاً الفاتحة والمثاني القرآن .

قال الزمخشري : يجوز أن تكون كتب الله كلها مثاني ، لأنها تثني عليه ، ولما فيها من المواعظ المكررة ، ويكون القرآن بعضها .

وقرأ الجمهور : والقرآن العظيم بالنصب .

(118/428)

---

فإن عني بالسبع الفاتحة أو السبع الطوال لكان ذلك من عطف العام على الخاص ، وصار الخاص مذكوراً مرتين .

إحداهما : بجهة الخصوص ، والأخرى : بجهة العموم .

أو لأنّ ما دون الفاتحة أو السبع الطوال ينطلق عليه لفظ القرآن ، إذ هو اسم يقع على بعض الشيء ، كما يقع على كله .

وإنْ عنى الإسباع فهو من باب عطف الشيء على نفسه ، من حيث أنّ المعنى : ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم أي : الجامع لهذين المعنيين وهو الثناء والتنبيه والعظم .

وقرأت فرقة : والقرآن العظيم بالخفض عطفاً على المثاني .

وأبعد من ذهب إلى أنّ الواو مقحمة ، والتقدير : سبعاً من المثاني القرآن العظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(119/428)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾

أي إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمةِ والمصلحةِ بحيث لا يلائم استمرارَ الفساد واستقرارَ الشرور ، ولذلك اقتضت الحكمةُ إهلاكَ أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم وإرشاداً لمن بقيَ إلى الصلاح ، أو إلا بسبب العدل والإنصافِ يوم الجزاءِ على الأعمال كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ فينتقم الله تعالى لك فيها ممن كذبك ﴿ فاصفح ﴾ أي أعرض عنهم ﴿ الصفح الجميل ﴾ إعراضاً جميلاً وتحمّلْ أذيّتهم ولا تعجَلْ بالانتقام منهم ، وعامِلْهم معاملةَ الصَّفوح الحليم ، وقيل : هي منسوخةٌ بآية السيف .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الذي يبلّغك إلى غاية الكمال ﴿ هُوَ الخلاق ﴾ لك ولهم ولسائر الموجوداتِ على الإطلاق ﴿ العليم ﴾ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه

شيءٍ مما جرى بينك وبينهم ، فهو حقيقٌ بأن تكِل جميع الأمورِ إليه ليحكُم بينكم ، أو هو الذي خلقكم وعلِم تفاصيل أحوالِكم وقد علم أن الصفحَ اليوم أصلحُ إلى أن يكون السيفُ أصلحَ ، فهو تعليلٌ للأمر بالصفح على التقديرين ، وفي مصحف عثمانَ وأُبيّ رضي الله تعالى عنهما ( هو الخالق ) وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختصٌّ بالكثير .

(120/428)

---

﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا ﴾ آياتٍ وهي الفاتحةُ ، وعليه عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعود وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم ، والحسنُ وأبو العالية ومجاهدٌ والضحاكُ وسعيدُ بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى . وقيل : سبعُ سورٍ وهي الطوالُ التي سابعتُها الأنفالُ والتوبة فإنهما في حكم سورةٍ واحدة ، ولذلك لم يُفصَل بينهما بالتسمية . وقيل : يونسُ أو الحواميم السبعُ . وقيل : الصحائفُ السبعُ وهي الأسباع . ﴿ مّنَ المثانى ﴾ بيانٌ للسبع من التثنية وهي التكريرُ ، فإن كان المرادُ الفاتحةَ وهو الظاهرُ ، فتسميتُها المثاني لتكرر قراءتِها في الصلاة ، وأما تكررُ قراءتها في غير الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مداراً للتسمية ولأنها تثنى بما يقرأ بعدها في الصلاة ، وأما تكررُ نزولها فلا يكون وجهاً للتسمية لأنها كانت مسماةً بهذا الاسمِ قبل نزولها الثاني إذ السورةُ مكيةٌ بالاتفاق ، وإن كان المرادُ غيرَها من السور فوجهُ

كونِها من المثاني أن كلاًّ من ذلك تُكرّر قراءته وألفاظُه أو قصصه ومواعظُه ، أو من الثناء لاشتماله على ما هو ثناءٌ على الله واحدتها مَثْناةٌ أو مَثْنيةٌ صفة للآية ، وأما الصحائفُ وهي الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القِصص والمواعظ والوعدِ والوعيد وغيرِ ذلك ، ولما فيها من الثناء على الله تعالى كأنها تُثْني عليه سبحانه بأفعاله وصفاتِه الحسنى ، ويجوز أن يراد بالمثاني القرآنُ لما ذكر أو لأنه مُثْنَى عليه بالإعجاز ، أو كتبُ الله تعالى كلُّها فمن للتبعيض ، وعلى الأول للبيان ﴿ والقرآن العظيم ﴾ إن أريد بالسبع الآياتُ أو السورُ فمِنْ عطف الكلِّ على البعض أو العام على الخاص ، وإن أريد به الأسباعُ أو كلُّ القرآن فهو عطفُ أحدِ الوصفين على الآخر كما في قوله

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام . . . وليثِ الكتائبِ في المزدَحَمْ

أي ولقد أتيناك ما يقال له السبعُ المثاني والقرآنَ العظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾



---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

أي الا خلقا متلبساً بالحق والحكمة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ، وقد اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وإرشاداً لمن بقى إلى الصلاح ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ ولا بد فننتقم أيضاً من أمثال هؤلاء ، فالجملة الأولى إشارة إلى عذابهم الدنيوي والثانية إلى عقابهم الأخروي ، وفي كلتا الجملتين من تسليته صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى مع تضمن الأولى الإشارة إلى وجه اهلاك أولئك بأنه أمر اقتضته الحكمة ، وفي التفسير الكبير في وجه النظم انه تعالى لما ذكر اهلاك الكفار فكأنه قيل : كيف يليق ذلك بالرحيم ؟ فأجاب سبحانه بأنه إنما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة فإذا تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير الأرض .

وتعقبه المفسر بانه إنما يستقيم على قول المعتزلة ، ثم ذكر وجهاً آخر ذلك وهو أن المقصود من هذه القصة تصبير النبي صلى الله عليه وسلم على سفاهة قومه فإنه عليه الصلاة والسلام إذا سمع أن الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياءهم عليهم السلام بمثل هذه المعاملات الفاسدة هان عليه عليه الصلاة والسلام تحمل سفاهة قومه ، ثم إنه تعالى لما بين انزال العذاب على الأمم السالفة المكذبة قال له صلى الله عليه وسلم إن الساعة لآتية وان الله تعالى ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيآتهم فإنه سبحانه ما خلق السموات والأرض وما بنيهما إلا بالعدل والإنصاف فكيف يليق بحكمته إهمال أمرك ، وإلى جواز تفسير ﴿ الحق ﴾ بالعدل ذهب شيخ الإسلام وأشار إلى أن الباء للسببية

وإن المعنى ما خلقنا ذلك إلا بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ، وذكر أنه ينبىء عن ذلك الجملة الثانية ؛ ولعل جعل كل جملة إشارة إلى شيء حسبما أشرنا إليه أولى .

(122/428)

---

واستدل بالأولى بعض الأشاعرة على أن أفعال العباد مطلقاً مخلوقة له تعالى لدخولها فيما بينهما ، وزعم بعض المعتزلة الرد بها على القائلين بذلك لأن المعاصي من الأفعال باطلة فإذا كانت مخلوقة له سبحانه لكانت مخلوقة بالحق والباطل لا يكون مخلوقاً بالحق ، وهو كلام خال عن التحقيق ﴿ فاصفح ﴾ أي أعرض عن الكفرة المكذبين ﴿ الصفح الجميل ﴾ وهو ما خلا عن عتاب على ما روي غير واحد عن علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله تعالى عنهما وفسر الراغب ﴿ الصفح ﴾ نفسه بترك الترثيب وذكر انه أبلغ من العفو وفي أمره صلى الله عليه وسلم بذلك إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام قادر على الانتقام منهم فكأنه قيل : أعرض عنهم وتحمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم ، وحاصل ذلك أمره صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم بخلق رضى وحلم وتأن بأن ينذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال ثم يقاتلهم ، وعلى هذا فالآية

غير منسوخة ، وعن ابن عباس .

وقتادة .

ومجاهد .



---

والضحاك إنها منسوخة بآية السيف ، وكأنهم ذهبوا إلى أن المراد بها مداراتهم وترك قتالهم ، وآثار هذا الأخير العلامة الطيبي قال : ليكون خاتمة القصص جامعة للتسلي والأمر بالمداواة وتخلصاً إلى مشرع آخر وهو قوله تعالى الآتي : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ إلى آخره ففيه حديث الأعراض عن زهرة الحياة الدنيا وهو من أعظم أنواع الضر لكن ذكر في الكشف أن الذي يقتضيه النظم ان قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات ﴾ إلى آخره جمع بين حاشيتي مفصل الآيات البرهانية والامتنانية ملخص منها مع زيادة مبالغة من الحصر ليلقيه المحتج به إلى المعاندين ويتسلى به عن استهزاء الجاحدين وتمهيد لتطرية ذكر المقصود من كون الذكر كاملاً في شأن الهداية وافياً بكل ما علق به من الغرض القائم له بحق الرعاية ، ثم قال : ومنه يظهر أن الآية عطف على ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ﴾ الخ عطف الخاص على العام إشارة إلى أنه أتم النعم وأحق دليل وأحق ما يشتفي به عن الغليل وان من أوتيه لا يضره فقد شيء سواه ومن

طلب الهوى في غيره ترك وهواه اه فتدبر .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) ﴾

﴿ هُوَ الخلاق ﴾ لك ولهم ولسائر الأشياء على الإطلاق ﴿ العليم ﴾ بأحوالك وأحوالهم وبكل شيء فلا يخفى عليه جل شأنه شيء مما جرى بينك وبينهم فحقيق أن تكل الأمور إليه ليحكم بينكم أو هو الذي خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم سبحانه ان الصفح الجميل اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح ، فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين على ما قيل ، وقال بعض المدققين : إنه على الأخير تذييل للأمر المذكور وعلى الأول لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ [ الحجر : 85 ] وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما والجحدري والأعمش .

ومالك بن دينار ﴿ هُوَ الخالق ﴾ وكذا في مصحف أبي .

(124/428)

---

وعثمان رضي الله تعالى عنهما وهو صالح للقليل والكثير و﴿ الخلاق ﴾ مختص بالكثير و﴿ العليم ﴾ أوفق به ، وهو على ما قيل أنسب بما تقدم من قوله سبحانه : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق .

﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا ﴾

أي سبع آيات وهي الفاتحة وروي ذلك عن عمر .

وعلي .

وابن عباس .

وابن مسعود .

وأبي جعفر .

وأبي عبد الله .

والحسن .

ومجاهد .

وأبي العالية والضحاك .

وابن جبير .

وقتادة رضي الله تعالى عنهم .

وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : سبع سور وهي الطول وروي ذلك أيضاً عن عمر وابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد وهي في رواية البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة سورة واحدة ، وفي أخرى عد براءة دون الأنفال

السابعة ، وفي أخرى عد ، يونس دونهما ، وفي أخرى عد الكهف ، وقيل : السبع آل حم ، وقيل : سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء عليهم السلام ، على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أوتي ما يتضمن سبعاً منها وإن لم يكن لفظها وهي الأسباع ، وعن زياد بن أبي مريم هي أمور سبع الأمر والنهي والبشارة والإنذار وضرب الأمثال وتعداد النعم وأخبار الأمم ، وأصح الأقوال الأول .

وقد أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي ورفعوه ، وقال أبو حيان : إنه لا ينبغي العدول عنه بل لا يجوز ذلك .

وأورد على القول بأنها السبع الطول ان هذه السورة مكية وتلك السبع مدنية ، وروي هذا عن الربيع ، فقد أخرج البيهقي في الشعب وابن جرير وغيرهما أنه قيل له : إنهم يقولون : هي السبع الطول فقال : لقد أنزلت هذه الآية وما نزل من الطول شيء وأجيب بأن المراد بايتائها إنزالها إلى السماء الدنيا ولا فرق بين المدني والمكي فيها .



---

واعترض بأن ظاهر ﴿ ءاتيناك ﴾ يأباه ، وقيل : إنه تنزيل للمتوقع منزلة الواقع في الامتنان ومثله كثير ﴿ مّنَ المثاني ﴾ بيان للسبع وهو على ما قال في موضع من الكشاف جمع مثنى

بمعنى مردد ومكرر ويجوز أن يكون مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما في تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [ الملك : 4 ] أي كرة بعد كرة ونحو قولهم لبيك وسعديك وأراد كما في الكشف أنه جمع لمعنى التكرير والإعادة كما ثنى لذلك لكن استعمال المثنى في هذا المعنى أكثر لأنه أول مراتب التكرار ويحتمل أن يريد ان مثنى بمعنى التكرير والإعادة كما أن صريح المثنى كذلك في نحو ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ ثم جمع مبالغة وقوله من التثنية إيضاح للمعنى لأنه من الثنى بمعنى التثنية والأول أرجح نظراً إلى ظاهر اللفظ والثاني نظراً إلى الأصل وقال في موضع آخر : إنه من التثنية أو الثناء والواحدة مثناة أو مثنية بفتح الميم على ما في أكثر النسخ وإلا قيس على ما قال المدقق بحسب اللفظ أن ذلك مشتق من الثناء أو الثنى جميع مثنى مفعل منهما اما بمعنى المصدر جمع لما صير صفة أو بمعنى المكان في الأصل نقل إلى الوصف مبالغة نحو أرض مأسدة لأن محل الثناء يقع على سبيل المجاز على الثاني والمثنى عليه وكذلك محل الثنى ولا بعد في باب العدل أن يكون منقولاً عنه لا مخترعاً ابتداء ، واطلاق ذلك على الفاتحة لأنها تكرر قراءتها في الصلاة وروى هذا عن الحسن وأبي عبد الله رحمهما الله تعالى وعن الزجاج لأنه تثنى بما يقرأ بعدها من القرآن وقيل ونسب إلى الحسن أيضاً : لأنه نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة .

وتعقب بأنها كانت مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني إذ السورة كما سمعت غير مرة مكية وقيل : لأن كثيراً من ألفاظها مكرر كالرحمن والرحيم وإياك والصراط وعليهم ، وقيل : لاشتمالها على الثناء على الله تعالى والقولان كما ترى ، وقيل ونسب إلى ابن عباس ومجاهد أن اطلاق المثاني على الفاتحة لأن الله سبحانه استثناها وادخرها لهذه الأمة فلم يعطها لغيرهم ، وروي هذا الادخار في غيرها أيضاً وفي غيرها أن ذلك لأنه تكرر قراءته وألفاظه أو قصصه ومواعظه أو لما فيه من الثناء عليه تعالى بما هو أهله جل شأنه أو لأنه مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز أو يثنى بذلك على المتكلم به ، وعن أبي زيد البلخي أن اطلاق المثاني على ذلك لأنه يثني أهل الشر عن شرهم فتأمل ، وجوز أن يراد بالمثاني القرآن كله وأخرج ذلك ابن المنذر وغيره عن أبي مالك وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في توجيه اطلاقها عليه مع الاختلاف في الافراد والجمع ، وأن يراد بها كتب الله تعالى كلها فمن للتبعيض وعلى الأول للبيان ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك ﴾ بالنصب عطف على سبعا فإن أريد بها الآيات أو السور أو الأمور السبع التي رويت عن زياد فهو من عطف الكل على الجزء بأن يراد بالقرآن مجموع ما بين الدفتين أو من عطف العام على الخاص بأن يراد به المعنى المشترك بين الكل والبعض وفيه دلالة على امتياز الخاص حتى كأنه غيره كما في عكسه وإن أريد بها

الاسباع فهو من عطف أحد الوصفين على الآخر كما في قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . .



---

البيت بناء على أن القرآن في نفسه الاسباع أي ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم ، واختار بعض تفسير ﴿ القرءان العظيم ﴾ كالسبع المثاني بالفاتحة لما أخرجه البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " وفي الكشف كونهما الفاتحة أوفق لمقتضى المقام لما مر في تخصيص ﴿ الكتاب وَقُرْءانٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الحجر : 1 ] بالسورة وأشد طباقاً للواقع فلم يكن إذ ذاك قد أوتي صلى الله عليه وسلم القرآن كله اه ، وأمر العطف معلوم مما قبله .

وقرأت فرقة ﴿ والقرءان ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ المثاني ﴾ ، وأبعد من ذهب إلى أن الواو مقحمة والتقدير سبعا من المثاني القرآن العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) ﴾

قوله : ﴿ وَإِن كَانَ أصحاب الأيكة ﴾ "إن" هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، أي : وإن الشأن كان أصحاب الأيكة .

والأيكة : الغيضة ، وهي جماع الشجر .

والجمع : الأيك .

ويروى أن شجرهم كان دوماً ، وهو المقل ، فالمعنى : وإن كان أصحاب الشجر المجتمع .

وقيل : الأيكة : اسم القرية التي كانوا فيها .

قال أبو عبيدة : الأيكة ، وليكة : مدينتهم كمكة وبكة ، وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، وقد تقدّم خبرهم ، واقتصر الله سبحانه هنا على وصفهم بالظلم ، وقد فصل ذلك الظلم فيما سبق ، والضمير في ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يرجع إلى مدينة قوم لوط ، ومكان أصحاب الأيكة ، أي : وإن المكانين لبطريق واضح .

والإمام : اسم لما يؤتّم به ، ومن جملة ذلك الطريق التي تسلك .

قال الفراء والزجاج : سمي الطريق إماماً ، لأنه يؤتّم ويتبع .

وقال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتّم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده .

وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، لأن شعيباً كان ينسب إليهما .

ثم إن الله سبحانه ختم القصص بقصة ثمود فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أصحاب الحجر المرسلين ﴾ الحجر : اسم لديار ثمود ، قاله الأزهري .

وهي ما بين مكة وتبوك .

وقال ابن جرير : هي أرض بين الحجاز والشام .

وقال : ﴿ المرسلين ﴾ ، ولم يرسل إليهم إلاّ صالح ؛ لأن من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الباقين لكونهم متفقين في الدعوة إلى الله .

وقيل : كذبوا صالحاً ومن تقدّمه من الأنبياء .

وقيل : كذبوا صالحاً ، ومن معه من المؤمنين ﴿ وءاتيناهم ءاياتنا ﴾ أي الآيات المنزلة على نبيهم ، ومن جملتها : الناقة .

فإن فيها آيات جمة ، كخروجها من الصخرة ، ودنوّ نتاجها عند خروجها وعظمها وكثرة لبنها ﴿ فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي : غير معتبرين ، ولهذا عقروا الناقة وخالفوا ما أمرهم به نبيهم .

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ النحت في كلام العرب : البري والنجر ، نحته ينحته بالكسر نحتاً أي : براه ، وفي التنزيل : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [ الصافات : 95 ] أي : تنجرون .

وكانوا يتخذون لأنفسهم من الجبال بيوتاً ، أي : يخرقونها في الجبال .

وانتصاب ﴿ ءامِنِينَ ﴾ على الحال .

قال الفراء : آمنين من أن ينقع عليهم ، وقيل : آمنين من الموت .

وقيل : من العذاب ركوناً منهم على قوّتها ووثاقتها .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ ﴾ أي : داخلين في وقت الصبح .

وقد تقدم ذكر الصيحة في الأعراف ، وفي هود ، وتقدم أيضاً قريباً .

﴿ فَمَا أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : لم يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال والحصون في الجبال .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ أي : متلبسة بالحق ، وهو ما فيهما من الفوائد والمصالح ، وقيل : المراد بالحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته كما في قوله سبحانه :

﴿ وَللَّهِ مَا فِى * السموات وَمَا فِي الأرض * لِيَجْزِىَ الذين أَسَاءوا بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِى الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [ النجم : 31 ] .

وقيل : المراد بالحق : الزوال ؛ لأنها مخلوقة وكل مخلوق زائل ﴿ وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ وعند إتيانها ينتقم الله ممن يستحق العذاب ، ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، وفيه وعيد للعصاة وتهديد ، ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يصفح عن قومه ، فقال : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ أي : تجاوز عنهم واعف عفواً حسناً .

وقيل : فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً ولا تعجل عليهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .

قيل : وهذا منسوخ بآية السيف ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق العليم ﴾ أي : الخالق للخلق جميعاً ، العليم بأحوالهم وبالصالح والطالح منهم .

(130/428)

---

وقد أخرج ابن مردويه ، وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس قال : أصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، والأيكة .

ذات آجام وشجر كانوا فيها .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأيكة : الغيضة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : أصحاب الأيكة : أهل مدين ، والأيكة : الملتفة من

الشجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : الأيكة : مجمع الشيء .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال في قوله : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ طريق ظاهر .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في أصحاب الحجر قال : أصحاب الوادي .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : كان أصحاب الحجر ثمود وقوم صالح .

وأخرج البخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر : "لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلاّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم " وأخرج ابن مردويه عنه قال : "نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، وعجنوا منها ، ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، فقال : " إني أخشى أن يصيبكم مثل الذي أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم " .

وأخرج ابن مردويه ، عن سبرة بن معبد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بالحجر

لأصحابه : " من عمل من هذا الماء شيئاً فليلقه " قال : ومنهم من عجن العجين ، ومنهم من حاس الحيس .

(131/428)

---

وأخرج ابن مردويه ، وابن النجار عن عليّ في قوله : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال : الرضا بغير عتاب .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن مجاهد قال : هذه الآية قبل القتال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(132/428)

---

وقال القاسمى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾

أي : إلا خلقاً متلبساً بالحق والحكمة الثابتة ، التي لا تقبل التغير . وهي الاستدلال بها على

الصانع وصفاته وأسمائه وأفعاله ليعرفوه فيعبدوه ، بحيث لا يلائم استمرار الفساد .

ولذلك اقتضت الحكمة إرسال الرسل مبشرين ومنذرين : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أي : فيجزي كلاًّ بما كانوا يعملون : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ أي : عاملهم معاملة الصفوح الحكيم ، كقوله : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الزخرف : 89 ] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة . فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزّق من الأجساد وتفرّق في سائر أقطار الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [ يس : 81 ] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ قال الرازي : إنه تعالى لما صبّره على أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميل ؛ أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خصه بها ؛ لأن الإنسان إذا تذكر نعم الله عليه ، سهل عليه الصفح والتجاوز .

( والسبع المثاني ) هو القرآن كله كما قاله ابن العباس في رواية طاوس ؛ لقوله تعالى : ﴿ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [ الزمر : 23 ] ، والواو في قوله : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ لعطف الصفة ، كقول الشاعر :

~إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

و ( السبع ) : يراد بها الكثرة في الآحاد ، كالسبعين في العشرات . و ( المثاني ) جمع مثنى بمعنى التثنية أو الثناء ، فإنه تكرر قراءته أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه . أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز . أو مثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى .

وقد روي عن بعض السلف تفسير السبع بالسور الطوال الأول ، وهذا لم يقصد به ، إلا أن اللفظ الكريم يتناولها ، لا أنها هي المعنية . كيف لا وهذه السورة مكية وتلك مدنيات ؟ كالقول بأنها الفاتحة سواء . وأما حديث : < الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته > عند الشيخين ؛ فمعناه أنها من السبع ، لعطف قوله : < والقرآن العظيم الذي أوتيته > ولو كان القصر على بابه ، لناقضه لمعطوف ؛ لاقتضائه أنها هو لا غيره . وبداهة بطلانه لا تخفى .

وسر الإخبار بأنها السبع ، كون الفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن . وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها ، كما بينه الإمام مفتي مصر في " تفسير الفاتحة " فراجعه . هذا ما ظهر لي الآن في تحقيق الآية .

وللأثري الواقف مع ظاهر ما صح من الأخبار ، الجازم بأن السبع في الآية هي الفاتحة لظاهر الحديث ، أن يجيب عن القصر بأن المراد بالمعطوف القرآن بمعنى المقروء ، لا بمعنى الكتاب كله . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 360 . 361 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) ﴾

موقع الواو في صدر هذه الجملة بديع .

فهذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلاً لقصص الأمم المعذبة ببيان أن ما أصابهم قد استحقّوه فهو من عدل الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها ، ولأن تكون تصديراً للجملة التي بعدها وهي جملة ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ .

والمراد ساعة جزاء المكذّبين بمحمد صلى الله عليه وسلم أي ساعة البعث .

فعلى الأول تكون الواو اعتراضية أو حالية ، وعلى الثّاني عاطفةً جملة على جملة وخبراً على خبر .

على أنه قد يكون العطف في الحالين لجعلها مستقلة بإفادة مضمونها لأهميته مع كونها مكمّلة لغيرها ، وإنما أكسبها هذا الموقع البديع نظمُ الجمل المعجز والتنقل من غرض إلى غرض بما بينها من المناسبة .

وتشمل ﴿ السموات والأرض وما بينهما ﴾ أصناف المخلوقات من حيوان وجماد ، فشمل الأمم التي على الأرض وما حلّ بها ، وشمل الملائكة الموكّلين بإنزال العذاب ، وشمل الحوادث الكونية التي حلّت بالأمم من الزلازل والصواعق والكِسف .

والباء في ﴿ إلا بالحق ﴾ للملابسة متعلقة بـ ﴿ خلقنا ﴾ ، أي خلقا ملابساً للحقّ ومقارناً له بحيث يكون الحقّ بادياً في جميع أحوال المخلوقات .

والملابسة هنا عرفية ؛ فقد يتأخّر ظهور الحقّ عن خلق بعض الأحوال والحوادث تأخّراً متفاوتاً .

فالملابسة بين الخلق والحقّ تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحقّ وخفائه ؛ على أنّه لا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [ سورة الأنبياء : 18 ] .



---

والحقّ : هنا هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة والمناسبة في الخير والشرّ ، والكمال والنقص ، والسموّ والخفض ، في كلّ نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يُصلحه ، وما يصلح هوله ، بحسب ما يقتضيه النظام العام لا بحسب الأميال والشهوات ،

فإذا لاح ذلك الحقّ الموصوف مقارناً وجودُه لوجود محقوقه فالأمر واضح ، وإذا لاح تَخلّف شيء عن مناسبة فبالتأمّل والبحث يتّضح أن وراء ذلك مناسبة قضت بتعطيل المقارنة المحقوقة ، ثم لا يتبدّل الحقّ آخر الأمر .

وهذا التأويل يُظهره موقع الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت ، فإن ذلك جزاء مناسبٌ تمردَها وفسادَها ، وأنها وإن أمهلت حيناً برحمة من الله لحكمة استبقاء عمران جزء من العالم زماناً فهي لم تُفلت من العذاب المستحقّ لها ، وهو من الحقّ أيضاً فما كان إمهالها إلاّ حقّاً ، وما كان حلول العذاب بها إلاّ حقّاً عند حلول أسبابه ، وهو التمرّد على أنبيائهم .

وكذلك القول في جزاء الآخرة أن تعطّل الجزاء في الدّنيا بسبب عطل ما اقتضته الحكمة العامة أو الخاصة .

وموقع جملة ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ في الكلام يجعلها بمنزلة نتيجة الاستدلال ، فمن عرف أن جميع المخلوقات خلقت خلقاً ملابساً للحقّ وأيقن به علم أن الحقّ لا يتخلّف عن مستحقّه ولو غاب وتأخّر ، وإن كان نظام حوادث الدنيا قد يعطّل ظهور الحقّ في نصابه وتخلّفه عن أربابه .

فعُلم أنّ وراء هذا النّظام نظاماً مدّخراً يتّصل فيه الحقّ بكل مستحقّ إن خيراً وإن شراً ،

فلا يُحْسبَنّ من فات من الذين ظلموا قبل حلول العذاب بهم مفلتاً من الجزاء فإن الله قد أعدّ عالماً آخر يعطي فيه الأمور مستحقّيها .

(136/428)

---

فلذلك أعقب الله و ﴿ وما خلقنا السموات والأرض ﴾ بآية ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ ، أي أن ساعة إنفاذ الحقّ آتية لا محالة فلا يريبك ما تراه من سلامة مكذّبيك وإمهالهم كما قال تعالى : ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ [ سورة يونس : 41 ] .

والمقصود من هذا تسلية النبي على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم .

وقد كانت هذه الجملة في مقتضى الظاهر حريّة بالفصل وعدم العطف لأن حقّها الاستئناف ولكنها عطفت لإبرازها في صورة الكلام المستقلّ اهتماماً بمضمونها ، ولأنها تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من قومه ، وليصحّ تفريع أمره بالصّفح عنهم في الدنيا لأن جزاءهم موكول إلى الوَقت المقدر .

وفي إمهال الله تعالى المشركين ثم في إنجائهم من عذاب الاستئصال حكمة تحقّق بها مراد الله

من بقاء هذا الدّين وانتشاره في العالم بتبليغ العرب إيّاه وحمْله إلى الأمم .

والمرد بالساعة ساعة البعث وذلك الذي افتتحت به السورة .

وذلك انتقال من تهديدهم ووعيدهم بعذاب الدنيا إلى تهديدهم بعذاب الآخرة .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ في سورة الأحقاف ( 3 ) .

وتفريع ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ على قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ باعتبار المعنى الكنائي له ، وهو أن الجزاء على أعمالهم موكول إلى الله تعالى فلذلك أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن أذاهم وسوء تلقّيهم للدّعوة .

و﴿ الصفح ﴾ : العفو .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ في سورة العقود ( 13 ) .

وهو مستعمل هنا في لازمه وهو عدم الحزن والغضب من صنيع أعداء الدّين وحذف متعلق الصّفح لظهوره ، أي عمن كذّبك وآذاك .

﴿ والجميل ﴾ : الحسن .

والمراد الصفح الكامل .

ثمّ إن في هذه الآية ضرباً من ردّ العجز على الصدر ، إذ كان قد وقع الاستدلال على المكذبين بالبعث بخلق السماوات والأرض عند قوله : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ [ سورة الحجر : 14 16 ] الآيات .

وختمت بآية : وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون إلى قوله تعالى : ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ [ سورة الحجر : 23 25 ] .

وانتقل هنالك إلى التذكير بخلق آدم عليه السلام وما فيه من العِبر .

ثم إلى سَوق قصص الأمم الّتي عقبت عصور الخلقة الأولى فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم حيث ذكر خلق السماوات ودلالته على البعث بقوله تعالى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ الآيات ، فجاءت على وزان قوله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ [ سورة الحجر : 16 ] الآيات .

فإن ذلك خلق بديع .

وزيد هنا أن ذلك خُلق بالحقّ .

وكان قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ فذلكة لقوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ إلى : ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ [ سورة الحجر : 25 ] ، فعاد

سياق الكلام إلى حيث فارق مهيعه.

ولذلك تخلص إلى ذكر القرآن بقوله: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [سورة الحجر: 87] الناظر إلى قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [سورة الحجر: 9].

وجملة إن ربك هو الخالق العليم ﴾ في موقع التعليل للأمر بالصّفح عنهم، أي لأن في الصّفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربك، فمصلحة النبي صلى الله عليه وسلم في الصّفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصّفح رجاء إيمانهم، فالله الخلّاق لكم ولهم ولنفسك وأنفسهم، العليم بما يأتيه كل منكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ [سورة فاطر: 8].

ومناسبته لقوله تعالى: وإن الساعة لآتية ﴾ ظاهرة.



---

وفي وصفه بـ ﴿ الخالق العليم ﴾ إيماء إلى بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله يخلق من أولئك من يعلم أنّهم يكونون أولياء للنبيء صلى الله عليه وسلم وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والّذين ولدوا، كقول النبي صلى الله عليه وسلم "لعل الله أن يخرج من أصلابهم

من يعبده " .

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبي صلى الله عليه وسلم

دَعَاني داعٍ غيرُ نفسي وردّني . . .
إلى الله من أطردته كل مُطْرَد

يعني بالداعي النبي صلى الله عليه وسلم

وتلك هي نكتة ذكر وصف ﴿ الخالق ﴾ دون غيره من الأسماء الحسنى .

والعدول إلى ﴿ إن ربك ﴾ دون ( إنّ الله ) للإشارة إلى أنّ الذي هو ربّه ومدبّر أمره لا يأمره إلا بما فيه صلاحه ولا يقدر إلاّ ما فيه خيره .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

اعتراض بين جملة ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ [ سورة الحجر : 85 ] وجملة ولقد آتيناك سبعاً ﴾ الآية .

أتبع التسلية والوعد بالمنّة ليذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنّعمة العظيمة فيطمئن بأنه كما أحسن إليه بالنّعم الحاصلة فهو منجزه الوعود الصادقة .

وفي هذا الامتنان تعريض بالردّ على المكذبين .

وهو ناظر إلى قوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ إلى قوله تعالى :

﴿ وإنا له لحافظون ﴾ [ سورة الحجر : 9 ] .

فالجملة عطف على الجمل السابقة عطف الغرض على الغرض والقصّة على القصّة .

وهذا افتتاح غرض من التنويه بالقرآن والتحقير لعيش المشركين .

وإيتاء القرآن : أي إعطاؤه ، وهو تنزيله عليه والوحي به إليه .

وأوثر فعل آتيناك ﴾ دون ( أوحينا ) أو ( أنزلنا ) لأن الإعطاء أظهر في الإكرام والمنّة .

وجَعْل ﴿ القرآن ﴾ معطوفاً على ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ يشعر بأن السبع المثاني من القرآن .

وذلك ما درج عليْه جمهور المفسّرين ودلّ عليْه الحديث الآتي .

(139/428)

---

وقد وصف القرآن في سورة الزمر ( 23 ) بالمثاني في قوله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ فتعين أن السبع هي أشياء تجري تسميتها على التأنيث لأنّها أجري عليها اسم عدد المؤنّث .

ويتعيّن أن المراد آيات أو سور من القرآن ، وأن ﴿ مِن ﴾ تبعيضية .

وذلك أيضاً شأن ﴿ مِن ﴾ إذا وقعت بعد اسم عدد .

وأن المراد أجزاء من القرآن آيات أو سور لها مزية اقتضت تخصيصها بالذكر من بين سائر القرآن ، وأنّ المثاني أسماء القرآن كما دلّت عليه آية الزّمر ، وكما اقتضته ﴿ من ﴾ التبعيضية ، ولكون المثاني غير السبع مغايرة بالكليّة والجزئية تصحيحاً للعطف .

و﴿ المثاني ﴾ يجوز أن يكون جمع مُثَنّى بضم الميم وتشديد النّون اسم مفعول مشتقاً من ثَنّى إذا كرّر تكريرة .

قيل ﴿ المثاني ﴾ جمع مثناة بفتح الميم وسكون الثاء المثلّثة وبهاء تأنيث في آخره .

فهو مشتق من اسم الاثنين .

والأصح أن السبع المثاني هي سورة فاتحة الكتاب لأنّها يثنى بها ، أي تعاد في كلّ ركعة من الصلاة فاشتقاقها من اسم الإثنين المراد به مطلق التكرير ، فيكون استعماله هذا مجازاً مرسلاً بعلاقة الإطلاق ، أو كناية لأن التّكرير لازم كما استعملت صيغة التثنية فيه في قوله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرّتين ﴾ [ سورة الملك : 4 ] أي كرّات وفي قولهم : لبّيْك وسعديك ودواليْك .

أو هو جمع مَثْناة مصدراً ميمياً على وزن المفعلة أطلق المصدر على المفعول .

ثم إن كان المراد بالسبع سبع آيات فالمؤتى هو سورة الفاتحة لأنها سبع آيات وهذا الذي ثبت عن رسول الله في حديث أبي سعيد بن المعلى وأبيّ بن كعب وأبي هُريرة في الصحيح عن رسول الله أن أمّ القرآن هي السبع المثاني فهو الأوْلى بالاعتماد عليه .

وقد تقدم ذلك في ذكر أسماء الفاتحة.

ومعنى التكرير في الفاتحة أنّها تكرّر في الصّلاة.

وعن ابن عبّاس: أن السبع المثاني هي السور السبع الطوال: أولاها البقرة وآخرها براءة.

(140/428)

---

وقيل: السور الّتي فوق ذوات المئين.

وعطْفُ القرآن ﴿ على السبع من عطف الكل على الجزء لقصد التعميم ليعلم أن إيتاء القرآن كلّه نعمة عظيمة.

وفي حديث أبي سعيد بن المعلّى قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم "وَالقرآنُ العظيم الّذي أوتيتُه" على تأويله بأن كلمة "القرآن" مرفوعة بالابتداء "والّذي أوتيتُه" خبره.

وأجري وصف ﴿ العظيم ﴾ على القرآن تنويهاً به.

وإن كان المراد بالسبع سوراً كما هو مروي من قول ابن عباس وكثير من الصّحابة والسّلف واختلفوا في تعيينها بما لا ينثلج له الصدر، فيكون إبهامها مقصوداً لصرف الناس للعناية بجميع ما نزل من سور القرآن كما أبهمت ليلة القدر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق . اي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده ، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم . فدلت الآية على أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا لعباً ولا باطلاً . وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ﴾ [ص : 27 ] ، وقوله ﴿ رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : 191 ] ، وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ [الدخان : 38-39 ] الآية ، وقوله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى الله الملك الحق لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : 115-116 ] ، وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ﴾ [النجم : 31 ] ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ﴾ [

القيامة: 36-37 ] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو "إنَّ" وبلام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر. وذلك يدل على أمرين:

أحدهما - إتيان الساعة لا محالة.

والثاني - إن إتيانها أنكره الكفار، لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني.

(142/428)

---

وأوضح هذين الأمرين في آيات أخر. فبين أن الساعة آتية لا محالة في مواضع كثيرة كقوله: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [ طه: 15 ] وقوله: ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [ الحج: 7 ] وقوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [ الحج: 1-2 ] الآية، وقوله ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ [ الجاثية: 32 ] الآية، وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [ الروم: 12

] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [ الروم : 55 ] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ﴾ [ الأعراف : 187 ] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

وبين جل وعلا إنكار الكفار لها في مواضع أخر . كقوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [ سبأ : 3 ] وقوله : ﴿ زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ﴾ [ التغابن : 7 ] وقوله : ﴿ إِنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [ الدخان : 34-35 ] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً .

قوله تعالى : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصفح الجميل .

أي بالحلم والإغضاء . وقال علي وابن عباس : الصفح الجميل : الرضا بغير عتاب . وأمره صلى الله عليه وسلم يشمل حكمه الأمة . لأنه قدوتهم والمشرع لهم .

وبين تعالى ذلك المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: 89] ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان: 63]، وقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص: 55]، وقوله: ﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ [البقرة: 109] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: هذا الأمر بالصفح منسوخ بآيات السيف. وقيل: هو غير منسوخ.

والمراد به حسن المخالقة، وهي المعاملة بحسن الخلق.

قال الجوهري في صحاحه: والخلق والخلق: السجية، يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه الخلاق العليم. والخلاق والعليم: كلاهما صيغة مبالغة.

والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقاً إلا وهو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [ يس : 79 ] ، وقوله : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [ الملك : 14 ] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ استوى إِلَى السمآء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [ البقرة : 29 ] ، وقوله : ﴿ الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ لتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾ [ الطلاق : 12 ] ، وقوله تعالى مجيباً للكفار لما أنكرو البعث وقالوا : ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ ق : 3 ] مبيناً أن العالم بما تمزق في الأرض من أجسادهم قادر على إحيائهم : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ ق : 4 ] إلى غير ذلك من الآيات .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه آتى نبيه صلى الله عليه وسلم سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . ولم يبين هنا المراد بذلك .

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة إن كان لها بيان في كتاب اله غير واف بالمقصود ، أننا نتمم ذلك البيان من السنة ، فنبين الكتاب بالسنة من حيث إنها بيان للقرآن المبين باسم الفاعل . فإذا علمت ذلك فاعلم أن النّبي صلى الله عليه وسلم بين في

الحديث الصحيح : ان المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة : هو فاتحة الكتاب . ففاتحة الكتاب مبينة للمراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم ، وإنما بينت ذلك بإيضاح النّبي صلى الله عليه وسلم لذلك في الحديث الصحيح .

(145/428)

---

قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة : حدثني محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المعلي قال : مرّ بي النّبي صلى الله عليه وسلم وأنا أُصلّي ، فدعاني فلم آته حتّى صلّيت ، ثمّ أتيت فقال : " ما منعك أن تأتيني " فقلت : كنت أُصلّي . فقال : " ألم يقل الله ﴿ استجيبوا للّهِ ولِلرّسُولِ ﴾ " – ثمّ قال : – " إلا أعلمك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج من المسجد " فذهب النّبي صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرته فقال : " ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الّذي أُوتيته " حدثنا آدم حدثنا ابن ابي ذئب ، حدثنا سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمّ القُرآنِ هي السّبع المثاني والقرآن العظيم " .

فهذا نص صحيح من النّبي صلى الله عليه وسلم أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم :

فاتحة الكتاب ، وبه تعلم أن قول من قال إنها السبع الطوال غير صحيح ، إذ لا كلام لأحد معه صلى الله عليه وسلم . ومما يدل على عدم صحة ذلك القول : أن آية الحجر هذه مكية ، وأن السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة . والعلم عند الله تعالى .

وقيل لها " مثاني " لأنها تثنى قراءتها في الصلاة .

وقيل لها " سبع " لأنها سبع آيات .

وقيل لها " القرآن العظيم " لأنها هي أعظم سورة . كما ثبت عن النّبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المذكور آنفاً .

وإما عطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أن المراد بهما واحد وهو الفاتحة لما علم في اللغة العربية : من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات . ومنه قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى والذي أَخْرَجَ المرعى ﴾ [ الأعلى : 1-4 ] ، وقول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . . وليث الكتيبة في المزدحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) ﴾

والحقُّ هو الشيء الثابت الذي لا تَعْتوره الأغيار ، والمثَل هو نظام المجرّات وحركة الشمس والقمر ؛ تجدها مُنْضبِطة ؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخّل فيها ، وليس للإنسان – صاحب الأغيار – معه أيُّ اختيار .

ولذلك نجد أن الفسادَ لا ينشأ في الكون من النواميس العُلْيا ، ولكن من الأمور التي يتدخَّل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أنْ يتوقفَ الإنسانُ عن الحركة في الأرض ؛ ولكن عليه أنْ يرعى منهج الله ، ويمتنع عَمَّا نهى عنه وأنْ يطيعَ ما أمره به .

وأنت لو طَبَّقْتَ أوامر الحق سبحانه في " افعل " و " لا تفعل " لاستقامتْ الدنيا في الأمور التي لك دَخْل فيها كانتظام الأمور التي ليس لك دَخْل فيها .

واقرأ إنْ شِئْتَ قَوْله الحق : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان * عَلَّمَهُ البيان * الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ * والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ [ الرحمن : 1-8 ] .

فإن كنتم تريدون أن تنتظمَ أموركم في الحياة الدنيا ؛ فلا تطغَوْا في ميزان أيِّ شيء .

وهنا يُذكِّرنا الحق سبحانه ألاَّ نقع في خطأ الوهم بأننا سنأخذ نِعَم الدنيا دون ضابط أو رابط ؛ فالحساب قادم لا محالة ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ [ الزخرف : 41-42 ] .

أي : مَا قدّره الله سيقع دون أنْ يَصُدَّه شيء مهما كان ، وإمَّا ترى ذلك في حياتك ، أو تراه لحظة البَعْث .

(147/428)

---

والدليل هو ما حاق بِمَنْ كفروا وظلموا وكذَّبوا الرسل ، وعاثوا في الأرض مُفْسدين .

وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض مِنْ فسادهم ، هذا جزاؤهم في الدنيا ، وهناك جزاء آخر في اليوم الآخر .

وفي هذا القول تَسْلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو حين يُعْلِمه الله ما حاقَ بالأمم السابقة التي كذَّبت الرسل ؛ هانتْ عليه المتاعب والمشاقّ التي عاناها من قومه ، وليسهُلَ عليه من بعد ذلك أن يتذرَّع بالصبر الجميل ، حتى يأتي وَعْدُه سبحانه ، وليس عليك يا محمد أنْ تُحمّل نفسك ما لاَ تطيق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) ﴾

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذي خلق به من عدَم ، وأمدَّ من عُدْم . وقيُّومية الربوبية هي التي تمدُّ كل الكون برزقه وترعاه ؛ فسبحانه هو الذي استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذي يرعاه .

وكلمة : ﴿ رَبَّكَ . . ﴾ [ الحجر : 86 ] .

تُوحي بأنه إنْ أصابك شيءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود قومك أمامك وعدائهم لك ، فربُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والرب كما نعلم هو مَنْ يتولَّى تربية الشي إلي ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ الخلاق ﴾ [ الحجر : 86 ] .

مبالغة في الخَلْق ، وهي امتداد صفة الخَلْق في كل ما يمكن أنْ يخلق ، لأنه سبحانه هو الذي أعدَّ كل مادة يكون منها أيّ خَلْق ، وأعدّ العقل الذي يُفكر في أيِّ خلق ، وأعدَّ الطاقة التي تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخطِّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من مواد ، وإنْ وُجِد خلاق من البشر ؛ فهو وحده سبحانه الذي يهب إنساناً ما أفكاراً لينفذها ، ثم يأتي مَنْ هو أذكى منه

لِيُطوِّرها .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [ يوسف : 76 ] .

*(148/428)*

---

وهكذا رأينا كل المخترعات البشرية تتطوَّر ؛ والمثَل على ذلك هو آلة الحياكة التي صارت تعمل الآن آلياً بعد أن كانت المرأة تجلس عليها لِتكدَّ في ضَبْطها ، وكذلك غسَّالة الملابس ، وغسالة الأطباق والسيارات والطائرات .

ونلحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستفاد من عادمه مثل رَوَث البهائم ؛ الذي يُستخدم كسماد ، أما عادم السيارات مثلاً فهو يُلوِّث الجو . وشاشة التلفزيون تُصدِر من الإشعاعات مَا يضر العين ، وتمَّ بَحْثُ ذلك لتلافي الآثار الجانبية في مثل تلك الأدوات التي يسهل الإنسان بها حياتها .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية ؛ فسبحانه ليس صاحب عِلْم مُكْتسب أو ممنوح ؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

وهنا يمتنُّ الحق سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يكفيه أنْ أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه . فالقرآن يضمُّ كمالاتِ الحق التي لا تنتهي ؛ فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحمَّل عنك كُلَّ ما يُؤلمك .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [ الحجر : 97 ] .

ويقول له الحق أيضاً : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [ الأنعام : 33 ] .

وأزاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون ؛ وقال له سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ [ الأنعام : 33 ] .

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمثَّل امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزل عليه السَّبْع المثاني ، واتفق العلماء على أن كلمة " المثاني " تعني فاتحة الكتاب ، فلا يُثنَّى في الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

ونجده سبحانه يَصِف القرآنَ بالعظيم ؛ وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْء مقاييسه المُطْلقة ؛ وهي مقاييس العظمة عنده سبحانه .

والمثَل الآخر على ذلك وَصْفُه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [ القلم : 4 ] .

وهذا حُكْم بالمقاييس العُلْيا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلّ متاع الدنيا أقلَّ مِمَّا وهبه الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينظرَنَّ أحدٌ إلى ما أُعطِيَ غيره ؛ فقد وهبه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد عطف القرآن على السَّبْع المثاني ، وهو عَطْف عام على خاصٍّ ؛ كما قال الحق سبحانه : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [ البقرة : 238 ] .

ونفهم من هذا القول أن الصلاة تضمُّ الصلاة الوُسْطى أيضاً ، وكذلك مثل قول الحق ما جاء على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ رَّبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [ نوح : 28 ] .

وهكذا نرى عَطْف عام على خاص ، وعَطْف خاص على عام .

أو : أنْ نقولَ : إن كلمة " قرآن " تُطلَق على الكتاب الكريم المُنزَّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول آية في القرآن إلى آخر آية فيه ، ويُطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن

؛ فقول الحق سبحانه : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [ الرحمن : 64 ] .

هي آية من القرآن ؛ وتُسمَّى أيضاً قرآناً .

ونجده سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [ الإسراء : 78 ] .

ونحن في الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآناً ، وكذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ [ الإسراء : 45 ] .

وهو لا يقرأ كُلَّ القرآن بل بعضه ، إذن : فكل آية من القرآن قرآن .



---

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم السَّبْع المثاني والقرآن العظيم ، وتلك هي قِمَّة العطايا ؛ فلله عطاءاتٌ متعددة ؛ عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائع والعاصي ، وعطاءات خاصة بمَنْ آمن به ؛ وتلك عطاءات الألوهية لمَنْ سمع كلام ربِّه في " افعل " و " لا تفعل " .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخَلْق إلى شَرْبة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملابس ، وإلى المَسْكن ، وكل عطاء له عُمْر ، ويسمو العطاء عند الإنسان بسُمو عمر العطاء ، فكل

عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلَّق بمُعْطيات المادة وقوام الحياة ؛ فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة ؛ وإذا كان ما يُنغِّص أيَّ عطاء في الدنيا أن الإنسان يُفارقه بالموت ، أو أن يذوي هذا العطاء في ذاته ؛ فعطاء القرآن لا ينفد في الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهايةَ لها على عكس الدنيا التي لا يطول عمرك فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدَّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءاتُ القرآن تحرس القيم التي تهبُك عطاءات الحياة التي لا تفنَى وهي الحياة الآخرة ؛ فهذا هو أَسْمى عطاء ، وإياك أن تتطلعَ إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نِعَم الدنيا الفانية ؛ لأن مَنْ أُعطِي القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِي خيراً منه ؛ فقد حقر ما عَظَّم الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(151/428)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79) ﴾

أخرج ابن مردويه وابن عساكر ، عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ان مدين وأصحاب الأيكة ، أمتان بعث الله إليهما شعيباً " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن عباس ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة ﴾ قال : قوم شعيب و ﴿ الأيكة ﴾ ذات آجام وشجر كانوا فيها .

وأخرج ابن جرير عن خصيف في قوله ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ قال : الشجر . وكانوا يأكلون في الصيف الفاكهة الرطبة ، وفي الشتاء اليابسة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴾ ذكر لنا أنهم كانوا أهل غيضة ، وكان عامة شجرهم هذا الدوم ، وكان رسولهم فيما بلغنا شعيب ، أرسل إليهم وإلى أهل مدين ، أرسل إلى أمتين من الناس وعذبتا بعذابين شتى . أما أهل مدين ، فأخذتهم الصيحة . وأما ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ فكانوا أهل شجرٍ متكاوش . ذكر لنا أنه سلط عليهم الحر سبعة أيام لا يظلهم منه ظل ولا يمنعهم منه شيء ، فبعث الله عليهم سحابة فجعلوا يلتمسون الروح منها ، فجعلها الله عليهم عذاباً ، بعث عليهم ناراً فاضطرمت عليهم فأكلتهم . فذلك ﴿ عذاب يوم الظلة أنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ [ الشعراء : 189 ] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ قال : الغيضة .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ قال : أصحاب غيضة .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال ﴿ الأيكة ﴾ الشجر الملتف .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ أهل مدين . و ﴿ الأيكة ﴾ الملتفة من الشجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ الأيكة ﴾ مجمع الشجر .

(152/428)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فملا خرجوا منها أصابهم فزع شديد ، ففرقوا أن يدخلوا البيوت أن تسقط عليهم ، فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال : ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد ! . . . هلموا أيها الناس . فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح فيهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ يقول : على الطريق .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ لبإمام مبين ﴾ قال : طريق ظاهر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ قال: بطريق معلم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ لبإمام مبين ﴾ قال: طريق واضح.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن الضحاك في قوله ﴿ لبإمام مبين ﴾ قال: بطريق مستبين.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ أصحاب الحجر ﴾ قال: أصحاب الوادي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: كان ﴿ أصحاب الحجر ﴾ ثمود، قوم صالح.

وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر: "لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم".



---

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال: "نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من مياه الآبار التي كانت تشرب منها ثمود،

وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور . وعلفوا العجين الإِبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال : " إني أخشى أن يصيبكم مثل الذي أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر : أن الناس لما نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود ، استقوا من أبيارها وعجنوا به العجين . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهرقوا ما استقوا ويعلفوا الإِبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت ترد الناقة .

وأخرج ابن مردويه عن سبرة بن معبد ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بالحجر لأصحابه : " من عمل من هذا الماء شيئاً فليلقه . قال : ومنهم من عجن العجين ، ومنهم من حاس الحيس " .

وأخرج ابن مردويه وابن النجار ، عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال : الرضا بغير عتاب .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال : هو الرضا بغير عتاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قال :

هذا الصفح الجميل، كان قبل القتال.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر، عن عمر بن الخطاب قال: السبع المثاني، فاتحة الكتاب.

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق، عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال: هي فاتحة الكتاب.



---

وأخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه، عن ابن مسعود في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال: فاتحة الكتاب ﴿ والقرآن العظيم ﴾ قال: سائر القرآن.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه، و البيهقي في سننه عن ابن عباس: أنه سئل عن السبع المثاني قال: فاتحة الكتاب، استثناها الله لأمة محمد، فرفعها في أم الكتاب فدخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحداً قبله.

قيل: فأين الآية السابعة؟ قال: بسم الله الرحمن الرحيم.

وأخرج ابن الضريس عن سعيد بن جبير مثله.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال:

دُخرَتْ لنبيكم صلى الله عليه وسلم ، لم تُدَّخَرَ لنبي سواه .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : هي أم القرآن ، تثنى في كل صلاة .

وأخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه ، عن أبي هريرة قال : السبع المثاني ، فاتحة الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال : السبع المثاني ، الحمد لله رب العالمين .

وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن يعمر وأبي فاختة في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ قالا : هي فاتحة الكتاب .

وأخرج ابن الضريس عن مجاهد في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : هي أم الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن الحسن مثله .

وأخرج ابن الضريس وابن جرير ، عن قتادة في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : فاتحة الكتاب ، تثنى في كل ركعة مكتوبة وتطوّع .

وأخرج ابن الضريس عن أبي صالح في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : هي فاتحة الكتاب ، تثنى في كل ركعة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان من طريق الربيع ، عن أبي العالية في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : فاتحة الكتاب سبع آيات . وإنما سميت ﴿ المثاني ﴾ لأنه تثنى بها ، كلما قرأ القرآن قرأها . قيل للربيع : إنهم يقولون السبع الطول . قال : لقد أنزلت هذه الآية . وما نزل من الطول شيء .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : السبع الطول .

وأخرج الفريابي وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال : هي السبع الطول . ولم يُعْطَهُنَّ أحدٌ إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعطي موسى منهن اثنتين .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ الطول . وأوتي موسى ستاً ، فلما ألقى الألواح ، ذهب اثنتان وبقي أربعة .

وأخرج الدارمي وابن مردويه عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب هي السبع المثاني " .

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : البقرة وآل عمران

والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس .

وأخرج سعيد بن منصور وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان ، عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : السبع الطول : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس .

فقيل لابن جبير : ما قوله ﴿ المثاني ﴾ قال : ثنى فيها القضاء والقصص .

وأخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عباس في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والكهف .

(156/428)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان ﴿ المثاني ﴾ المئين : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف وبراءة والأنفال سورة واحدة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي من طريق سعيد جبير ، عن ابن عباس في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : السبع الطول . قلت : لم سميت ﴿ المثاني ﴾ ؟ قال : يتردد فيهن الخبر والأمثال والعبر .

وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس في قوله ﴿ سبعاً من

المثاني ﴾ فاتحة الكتاب والسبع الطول منهن .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن زياد بن أبي مريم في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : أعطيتك سبعاً أخر أؤمر وأنه وبشر وأنذر واضرب الأمثال واعدد النعم واتل نبأ القرون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر ، عن أبي مالك قال : القرآن كله مثاني .

وأخرج آدم بن أبي إياس وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي ، عن مجاهد في قوله ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ قال : هي السبع الطول الأول ﴿ والقرآن العظيم ﴾ سائره .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي ، عن ابن عباس قال : ﴿ المثاني ﴾ ما ثني من القرآن . ألم تسمع لقول الله ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني ﴾ [ الواقعة : 16 ] .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال ﴿ المثاني ﴾ القرآن ، يذكر الله القصة الواحدة مراراً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

*(157/428)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) ﴾

قوله تعالى: ﴿ إلاَّ بالحق ﴾ : نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: خَلْقاً ملتبساً بالحقِّ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 179 ﴾

*(158/428)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

قوله جلّ ذكره: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ .

دلَّت الآيةُ على أنّ أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله لأنها بين السموات والأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿ إِلاَّ بِالحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لأَتِيَةٌ ﴾ .

﴿ إِلاَّ بالحَقّ ﴾ : أي وأنا مُحقٌّ فيه ويقال ﴿ بِالحَقّ ﴾ : بالأمرِ العظيم الكائن إنْ الساعة لآتيةٌ يعني القيامَة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ ﴾ .

يقال الصفح الجميل الذي تذكر الزَّلَّةُ فيه.

ويقال الصفح الجميل سحبُ ذيل الكَرَمِ على ما كان مِنْ غير عَقْدِ الزَّلة ، بلا ذِكْرٍ لما سَلَفَ من الذنب ، كما قيل :

تعالوا نصطلح ويكون مِنّا . . . ( . . . . . . . . . . . . . . ) . . . ويقال الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْمِ بلا عدِّ الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن ، الذنب كان منك لا من العاصي ، قال قائلهم :

( وتُذْنِبون فنسي ونعتذر )

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) ﴾

﴿ هُوَ الخَلاّقُ العَلِيمُ ﴾ إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالِم .

﴿ وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

أكثَرُ المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثاني لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، ولأنها شيء في كل صلاةٍ يتكرر ، من " التثنية " وهي التكرير ، أو لأن بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . ومعنى هذا مذكور في كتب التفاسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 279.280 ﴾

## فصل في ذكر الفضائل التي خصّ الله تعالى بها نبيّه ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلّم وشرفه بها على جميع الأنبياء

قال المقريزى :

اعلم أن الله تعالى فضّل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلّم بفضائل عديدة ميّزه بها وشرّفه على من عداه من الأنبياء عليهم السلام ، فجعله رحمة للعالمين ، ولم يخاطبه باسمه وإنما خاطبه بالنّبوّة والرسالة التي لا أجلّ منها ولا أعظم ، ونهى تعالى الأمة أن يخاطبوه باسمه ، ودفع عنه ما قذفه به المشركون ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولم يذكر له ذنبا ولا زلة ، وأخذ الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا به إن أدركوه ، وأمر الناس أن يتأسوا به فعلا وقولا ، وفرض طاعته على الكافة ، وقرن اسمه تعالى باسمه ، وقدم نبوته قبل خلق آدم عليه السلام ، ونوه باسمه من عهد آدم ، وشرّف أصله ، وكرّم حسبه ونسبه ، وطيب مولده ، وسماه بخير الأسماء ، وأقسم بحياته ، وأفرده بالسيادة يوم القيامة على جميع الأنبياء ، فآدم ومن دونه تحت لوائه ، وخصّه بالشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر وبالحوض المورود ، وجعله أعظم الأنبياء تبعا ، وأعطاه خمسا لم يعطهن أحدا قبله ، وبعث بجوامع الكلم ، وأولى مفاتيح خزائن الأرض ، وأمدّه الله بالملائكة حتى قاتلت معه ، وختم به الأنبياء ، وجعل أمته خير الأمم ، وذكره في كتب الأنبياء وصحفهم ، وأنطق العلماء بالبشارة به حتى كانت بعثته صلى الله عليه وسلّم تنتظرها الأمم ، وسمع الأخبار بنبوته صلى الله

عليه وسلّم من هواتف الجن ومن أجواف الأصنام ومن رجز الكهان ، صلى الله تعالى عليه وعلى جميع الأنبياء وعظّم وكرّم .

(160/428)

---

فأما أنه صلى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين

فقد قال تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ 21 : 107 [1] ، وذلك أن أعداءه أمنوا من العذاب مدة حياته ، قال تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ 8 : 33 [2] ، فلم يعذبهم الله تعالى حتى ذهب عنهم إلى ربه ، فأنزل بهم ما أوعدهم من قبل وأشد ، وذلك قوله تعالى : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ 43 : 41 [3] .

خرج الحرث بن أبي أسامة من حديث على بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : بعثني الله رحمة وهدى للعالمين ، وهو هدي الدعاء والبيان .

ورواه محمد بن إسحاق من حديث الفرج بن فضالة عن علي بن يزيد به ولفظه : إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين ، وهو هدى التعريف والاستهداء .

وقال يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ،

ألا تدعو على المشركين ؟ قال : إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا ، فإن قيل : كيف يكون رحمة للعالمين وقد أنزل بمن عاداه الذل والصّغار ، فحطّم بعد الرفعة ، وأهانهم بعد المنعة ، وصيرهم بعد الملك إلى الهلك ، بأن حوى أموالهم ، وسبى حريمهم ، وملك معاقلهم ، وقتل حماتهم ، ثم إن أصحابه من بعده دوخوا ممالك الأرض بدعوته ، فاجتاحوا العرب من بني حنيفة وغيرهم عند ارتدادهم عن ملته ، ومزقوا ملك كسرى وملك فارس ، وأذلوا الفرس ، وشردوا قيصر ملك الروم عن الشام والجزيرة ، وقتلوا الروم والفرس أبرح قتل ، وغلبوا قبط مصر وجبروهم أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون بعد ما ملكوا ديارهم وأموالهم

---

[1] الأنبياء : 107 .

[2] الأنفال : 33 .

[3] الزخرف : 41 .



---

بمصر ، وأزاحوا البربر عن بلاد المغرب وانتزعوها منهم ومن القوط الجلالقة ، فلم يتركوا نوعا من أنواع العذاب حتى أحلّوه بمن ذكرنا من الأمم ، وهم سكان البسيطة ومعظم الخليقة من البشر ؟ .

قلنا : هذا اعتراض من لم ترض نفسه بالحكمة ، حتى غفل عن ترتيب حكمة الباري تعالى في مصنوعاته ، ولم يعلم ما تعطيه حقائق الأشياء ، وذلك أن المحالّ إنما تقبل على قدر الاستعداد المهيأ فيها ، وبيان ذلك أن الله تعالى وصف كتابه العزيز بأنه هدى للناس ، قال تعالى : شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ 2 : 185 [1] ، وهذا عام مطّرد باعتبار القوة والصلاحية ، أي في قوته وصلاحيته أن يهدي جميع الناس ، وهو عام مخصوص بمن لم يهتد باعتبار الفعل ، إذ كثير من الناس لم يهتد به ، ثم وصف تعالى كتابه بوصفين متضادين في وروده على الناس بحسب قبول قلوبهم له على قدر استعدادها ، قال تعالى : وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ من يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ 9 : 124 – 125 [2] ، وقال تعالى : وَنُنَزِّلُ من الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً 17 : 82 [3] ، وقال تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ من مَكانٍ بَعِيدٍ 41 : 44 [4] ، فانظر – أعزك الله – كيف كانت عين القرآن واحدة ، وأثره في قلوب الناس مختلف ، فيزيد المؤمن به إيمانا على إيمانه ، ويزداد به الكافر كفرا على كفره حتى يموت كافرا ، وانظر كيف تكون شفاء ورحمة لقوم وخسارا لآخرين ، وكيف يهتدي به قوم ويكون عمى على قوم ؟ ، وذلك بحسب ما أعطاه الله من الاستعداد والمهيأ للقبول ، وقد

كشف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم قناع هذا المعنى ببليغ بيانه :

فخرج البخاري[5] . .

---

[1] البقرة : 185 .

[2] التوبة : 124 ، 125 .

[3] الإسراء : 82 .

[4] فصلت : 44 .

[5] (فتح الباري) : 1/ 232 ، كتاب العلم ، باب (20) فضل من علم وعلّم ، حديث رقم (79) .

*(162/428)*

---

ومسلم[1] . . .

---

[1] قال المقريزي – رحمه الله – بعد أن ساق هذا الحديث : «اللفظ لمسلم» ، ولفظ مسلم : «حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وأبو عامر الأشعري ، ومحمد بن العلاء [واللفظ لأبي عامر] ، قالوا : حدثنا أبو أسامة ، عن بريد عن أبي بردة ، عن أبي موسى عن النبي

صلى الله عليه وسلّم قال : إن مثل ما بعثني به الله عزّ وجلّ من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا منها ، وسقوا ، ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه بما بعثني الله به ، فعلم ، وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به» .

(مسلم بشرح النووي) : 16/ 51 – 53 ، كتاب الفضائل ، باب (5) ، بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلّم من الهدى والعلم ، حديث رقم (2282) . أما الغيث فهو المطر ، وأما العشب والكلأ والحشيش ، فكلها أسماء للنبات لكن الحشيش مختص باليابس والرطب . وقال الخطابي وابن فارس : الكلأ يقع على اليابس ، وهذا شاذ ضعيف . وأما الأجادب – فبالجيم والدال المهملة – وهي الأرض التي تنبت كلأ . وقال الخطابي هي الأرض التي تمسك الماء ، فلا يسرع فيه النضوب .

قال ابن بطال ، وصاحب المطالع ، وآخرون : هو جمع جدب ، على غير قياس ، كما قالوا في حسن :

جمعه محاسن ، والقياس : أن محاسن جمع محسن ، وكذا قالوا : مشابه جمع شبه ، وقياسه : أن يكون جمع مشبه ، قال الخطابي : وقال بعضهم : أحادب – بالحاء المهملة والدال –

قال : وليس بشيء . قال :

وقال بعضهم : أجارد - بالجيم والراء والدال - . قال : وهو صحيح المعنى .

قال الأصمعي : الأجارد من الأرض ما لا ينبت الكلأ ، معناه : أنها جرداء هزرة ، لا يسترها النبات ، قال : وقال بعضهم : إنما هي أخاذات - بالخاء والذال المعجمتين وبالألف - وهو جمع أخاذة ، وهي الغدير الّذي يمسك الماء . وذكر صاحب (المطالع) هذه الأوجه التي ذكرها الخطابي ، فجعلها روايات منقولة .

وقال القاضي في (الشرح) : لم يرد هذا الحرف في مسلم ولا في غيره ، إلا بالدال المهملة من الجدب ، الّذي هو ضد الخصب . قال : وعليه شرح الشارحون . وأما القيعان فبكسر القاف - جمع القاع ، وهو الأرض المستوية ، وقيل : الملساء ، وقيل : التي لا نبات فيها ، وهذا هو المراد في هذا الحديث ، كما شرح به صلى الله عليه وسلّم ، ويجمع أيضا على أقوع ، وأقواع ، والقيعة - بكسر القاف - بمعنى القاع . قال الأصمعي : قاعة الدار : ساحتها .

وأما الفقه في اللغة فهو الفهم . يقال منه : فقه - بكسر القاف - يفقه فقها ، بفتحها كفرح يفرح فرحا ، وقيل : المصدر فقها - بإسكان القاف - وأما الفقه الشرعي ، فقال صاحب (العين) ، والهروي ، وغيرهما : يقال منه فقه - بضم القاف - وقال ابن دريد : بكسرها كالأول .

والمراد بقوله صلى الله عليه وسلّم : «فقه في دين الله» ، هذا الثاني ، فيكون مضموم القاف على المشهور ، وعلى

(163/428)

---

[ () ] قول ابن دريد بكسرها ، وقد روى بالوجهين ، والمشهور الضم .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء» ، فهكذا هو في جميع نسخ مسلم «طائفة طيبة» . ووقع في البخاري : «فكانت منه نقية قبلت الماء» - بنون مفتوحة ثم قاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحت مشددة - وهو بمعنى طيبة ، هذا هو المشهور في روايات البخاري . ورواه الخطابي وغيره : «ثغبة» - بالثاء المثلثة والغين المعجمة والباء الموحدة - قال الخطابي : وهو مستنقع الماء في الجبال والصخور ، وهو الثغب أيضا ، وجمعه ثغبان . قال القاضي وصاحب (المطالع) : هذه الرواية غلط من الناقلين وتصحيف ، وإحالة للمعنى ، لأنه إنما جعلت هذه الطائفة الأولى مثلا لما ينبت ، والثغبة لا تنبت .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «وسقوا» فقال أهل اللغة : سقى وأسقى : بمعنى لغتان ، وقيل : سقاه : ناوله ليشرب ، وأسقاه : جعل له سقيا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «ورعوا» فهو بالراء من الرعي ، هكذا هو في جميع نسخ مسلم ، ووقع في البخاري «وزرعوا» ، وكلاهما صحيح ، والله تعالى أعلم .

أما معاني الحديث ومقصوده : فهو تمثيل الهدى الّذي جاء به صلى الله عليه وسلّم بالغيث ، ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع ، وكذلك الناس :

فالنوع الأول ، من الأرض ينتفع بالمطر ، فيحيي بعد أن كان ميتا وينبت الكلأ ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها ، وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم ، فيحفظه ، فيحيا قلبه ، ويعمل به ، ويعلمه غيره ، فينفع وينفع .

والنوع الثاني ، من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها ، لكن فيها فائدة ، وهي إمساك الماء لغيرها ، فينتفع بها الناس والدواب ، وكذا النوع الثاني من الناس ، لهم قلوب حافظة ، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة ، ولا رسوخ لهم في العقل ، يستنبطون به المعاني والأحكام ، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به ، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج ، متعطش لما عندهم من العلم ، أهل للنفع والانتفاع ، فيأخذه منهم ، فينتفع به ، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .

والنوع الثالث ، من الأرض السباخ ، التي لا تنبت ، ونحوها ، فهي لا تنتفع بالماء ، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها ، وكذا النوع الثالث من الناس ، ليست لهم قلوب حافظة ، ولا أفهام واعية ، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ، ولا يحفظونه لنفع غيرهم ، والله تعالى أعلم .

وفي هذا الحديث أنواع من العلم ، منها :

[1] ضرب الأمثال .

[2] فضل العلم والتعليم .

[3] شدة الحث عليهما .

[4] ذم الإعراض من العلم .

والله تعالى أعلم . (المرجع السابق) .

*(164/428)*

---

والنّسائي [1] من حديث سويد عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلّم : أن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب فمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا ، فذلك مثل من فقه معاني دين الله ونفعه بما بعثني به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الّذي أرسلت به .

اللفظ لمسلم ، ذكره في كتاب المناقب ، وذكره البخاري في كتاب العلم وقال فيه : كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء ، وقال فيه : فشربوا وسقوا

وزرعوا ، وقال فيه : ونفعه بما بعثني الله ، وقال بعده : قال إسحاق : وكان منها طائفة قبلت الماء قاع يعلوه الماء .

---

[1] لم أجده في (النسائي) بهذه السياقة ، لكن أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري ، ضمن حديث طويل أوله : عبد الله حدثني أبي ، حدثني عبد الله بن محمد – وسمعته أنا من عبد الله بن محمد – حدثنا أبو أسامة ، عن بريد بن أبي بردة ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى ، قال : «ولد لي غلام ، فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلّم ، فسماه إبراهيم وحنكه بتمرة ، وقال : احترق بيت بالمدينة على أهله ، فحدث النبي صلى الله عليه وسلّم بشأنهم فقال : إنما هذه النار عدوّ لكم ، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال : بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن مثل ما بعثني الله عزّ وجلّ به من الهدى والعلم . . . » وساق الحديث بنحو سياقه البخاري ومسلم .

(مسند أحمد) : 5/ 544 ، حديث رقم (19076) . قال القرطبي وغيره : ضرب النبي صلى الله عليه وسلّم لما جاء به من الدين ، مثلا بالغيث العام الّذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه ، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه صلى الله عليه وسلّم ، فكما أن الغيث يحي البلد الميت ، فكذا علوم الدين تحيي القلب الميّت ، ثم شبّه السامعين له بالأرض

المختلفة التي ينزل بها الغيث ، فمنهم العالم العامل المعلم ، فهو بمنزلة الأرض الطيبة ، شربت فانتفعت في نفسها ، وأنبتت فنفعت غيرها .

ومنهم الجامع للعلم ، المستغرق لزمانه فيه ، غير أنه لم يعمل بنوافله ، أو لم يتفقه فيما جمع ، لكنه أدّاه لغيره ، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع به الناس .

ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ، ولا يعمل به ، ولا ينقله لغيره ، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها .

وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين ، لاشتراكهما في الانتفاع بهما ، وأفراد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها . (الأمثال في الحديث النبوي) : 378 - 379 ، حديث رقم (326) والتعليق عليه .

(165/428)

---

فانظر ما أبلغ هذا المثال النبوي وأبينه لما نحن بصدده ، فهذه عين الماء الّذي نزل من السماء واحدة ، وأثره في الأرض مختلف على قدر ما أعطاها الحكيم الخبير سبحانه من الاستعداد ، وهيأ فيها من القبول حتى قبلت [كل] [1] قطعة منها الماء بحسب استعدادها ، فأنبتت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات التي يفضل بعضها

على بعض في الأكل ، وقبلت قطعة أخرى من الأرض ذلك الماء بعينه ، فأنبتت بحسب استعدادها كلأ وعشبا ترعاه الأنعام ، وفقدت قطعة أخرى هذا الاستعداد المهيئ لقبول الإنبات ، فأمسكت الماء ولم تغيره عن أصله لطيبها حتى استقى منه الناس فشربوا وحملوا وسقوا أنعامهم ، وكانت قطعة أخرى من الأرض لم يجعل الله تعالى فيها من الاستعداد لقبول الإنبات شيئًا ، وسلبها مع ذلك الطيب والاعتدال ، حتى انحرفت عنه فلم تخرج نبتا ولا أمسكت ماء ، بل أحالته لخبثها أجاجا وملحا لا ينتفع به ، فكما اختلفت الأرض في الاستعداد واختلفت في القبول ، وهكذا نفوس الناس لما اختلفت في الاستعداد لقبول الخير والهدى ، اختلفت في قبوله ، وعين الهدى واحدة ، ولكن أثره في نفوس الناس مختلف ، فواحد قبل هدى الله الّذي جاء به نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم حال ما جاء به من غير أن يدعى إليه ولا طلب منه دليلا عليه كخديجة بنت خويلد ، وأبي بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد الحبّ ، رضي الله عنهم ، وذلك بحسب قوة استعدادهم لقبول الهدى ، وقد عبّر عن هذا الاستعداد في اصطلاح القرآن بالهداية ، ويقال له التوفيق أيضا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ 49 : 7 [2] ، وقال تعالى : وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ 47 : 17 [3] ، أي والذين اهتدوا يعني قبلوا الهداية العامة الإيمانية بقابليتهم الأصلية ، وأقبلوا بكلية مواطنهم إليها ، زادهم الله هدى بما أدركهم من عناية مدد الحضرة

الرحمانية بالهداية الخاصة من مقام الإحسان ، وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ 47 : 17 يعني أعطاهم تقوى نفوسهم بأن جعلوا حكم توحيدهم الباطن في قلوبهم وقاية تصون أنفسهم عن التلبس من أحشاء الانحرافات المبعدة لهم عن جناب

---

[1] زيادة للسياق .

[2] الحجرات : 7 .

[3] محمد : 17 .



---

موجدهم تقدّس وتعالى .

وآخرون آتاهم الله تعالى من هذا الاستعداد دون ما أتى من ذكرنا ، فاحتاجوا إلى أن يدعوا إلى الله ويدلّوا على الطريق إليه ، وهم الذين دخلوا في دين الإسلام من المهاجرين والأنصار ، وقصر هذا الاستعداد في قلوب آخرين حتى احتاجوا في دخولهم في الإيمان إلى أن أظهر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم من آياته ومعجزاته ما قادهم إلى الإيمان به طوعا ، وانحط فريق عن هذه الرتب لضعف الاستعداد عندهم لقبول الهدى ، فلم يدخلوا فيه إلا كرها من تحت السيف ، كمسلمة الفتح الذين قيل لهم :

«الطلقاء» [1] .

وعدمت طوائف من الناس هذا الاستعداد جملة فشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى وعاندوا الحق بعد ما وضح ، وصدّوا عن سبيل الله من آمن به ، وبذلوا جهدهم في إطفاء نور الله – رسول الله صلى الله عليه وسلّم – حتى ماتوا وهم كافرون من أجل أنه لم يكن فيهم من الاستعداد المهيء لقبول الهدى شيء ، قلّ ولا جلّ ، بل كانوا في ورود الهدى عليهم بمنزلة الأرض الخبيثة التي أحاطت ماء الغيث العذب الطهور إلى السباخ الرديء ، وبمنزلة من به آفة في معدته من خلط رديء ، [فأحالت] [2] أطيب المآكل وأنفعها سما مهلكا وداء عياء .

وانظر – رحمك الله – إلى الآية الواحدة من كتاب الله تعالى فإنّها ترد على الأسماع ، فواحد يفهم أمرا واحدا ، وآخر لا يفهم منها ذلك الأمر بل يفهم أمرا آخر ، وآخر يفهم منها أمورا كثيرة ، ولهذا يستشهد كل واحد من الناظرين فيها بها ، فالآية واحدة العين ، والسامعون لها مختلفون في القبول ، وذلك لاختلاف استعداد أفهامهم فيها .

واوع سمعك أمثالا أفصّلها مما قد ألفته من المحسوسات : منها أن الشمس تبسط أنوارها على الموجودات كلها فتقبل المحال ذلك النور على قدر الاستعداد ، فالجسم

---

[1] إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلّم يوم الفتح : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

[2] زيادة للسياق .

المبرود يسخن بها فيتلذذ بذلك ، والجسم المحرور يزيد في كمية حرارته فيتألم بها ، فالنور واحد لهما ، وكل واحد منهما يتألم بما به ينعم الآخر بعينه ، فلو كان النور لإعطائه حقيقة واحدة ، وإنما ذلك لاستعداد القابل .

وهكذا تجد الشمس تسوّد وجه القصّار [1] وتبيض الثوب الّذي يقصره ، فإن استعداد الثوب تعطي الشمس فيه التبييض ، ووجه القصّار تعطي الشمس فيه التسويد ، وكذلك ترى الشمس تذيب الشمع والشحم ، وتجفف الطين والثوب المبلول ، فإن استعداد كل واحد من هذه المذكورات تعطيه الشمس بحسب قبوله ، ومن ذلك الهواء ، إذا هبّ فإنه في هبوبه يطفئ السراج ويشعل النار في الحطب ونحوه مما من شأنه أن يقبل الاشتعال ، وهكذا نفخك يطفئ السراج ويشعل النار في الحطب ، وربما كان ذلك بنفخة واحدة ، وذلك أن اختلافهما في الاستعداد يوجب اختلافهما في القبول ، والهواء واحد في عينه ، ومن هذا القبيل العطايا الإلهية ، قال تعالى : وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً 17 : 20 [2] أي ممنوعا ، فهو سبحانه معط على الدوام ، والمحالّ تقبل على قدر ما أعطاها الله تعالى من الاستعدادات ، فإذا فهمت هذا علمت أن عطاء الله تعالى ليس بممنوع ، إلا أنك

تحب أن يعطيك ما لا يقبله استعدادك ، وتنسب المنع إليه – سبحانه – فيما طلب منه ، ولا تجعل ما لك من الاستعداد وتقول : إن الله تعالى على كل شيء قدير ، وتصدق في ذلك ، ولكنك تغفل عن ترتيب الحكمة الإلهية وما تعطيه حقائق الأشياء والكل من عند الله ، فمنعه عطاء ، وعطاؤه منع ، ولكن بقي أن تعلم بكذا أو من كذا .

وإذا تدبرت هذه الأمثلة انجلت لك شبهة ما أورده أهل الزيغ والإلحاد على عموم أن رسالة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم رحمة للعالمين ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بالحكيم الترمذي : إن الأنبياء والرسل

---

[1] القصّارة المحوّر للثياب لأنه يدقها بالقصرة التي هي القطعة من الخشب وحرفته القصارة ، والمقصرة : خشبة القصّار . (لسان العرب) : 5/ 104 .

[2] الإسراء : 20 .

صفوة الخلق ، وأما محمد صلى الله عليه وسلّم فقد جازت مرتبته الاصطفاء لأنه [نور]

[1] ورحمة ، قال الله تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ 21 : 107 [2] ، فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلّم خلق بنفسه رحمة ، فلذلك صار أمانا للخلق لما بعثه سبحانه وتعالى أمن الخلق العذاب إلى نفخة الصور ، وسائر الأنبياء عليهم السلام لم يحلوا هذا المحل ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلّم : أنا رحمة مهداة ، فأخبر أنه بنفسه رحمة للخلق من الله تعالى ، وقوله : مهداة ، أي هدية من الله سبحانه وتعالى للخلق ، والله الموفق .

---

[1] زيادة للسياق .

[2] الأنبياء : 107 .



---

وأما مخاطبة الله له بالنّبوّة والرسالة ومخاطبة من عداه من الأنبياء باسمه

فإن ذلك أبان الله تعالى به عن إجلال قدر نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم وتمجيده وتعظيمه ، فإنه لا أجلّ من النبوة ، ولا أعظم خطرا منها ، قال تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ 33 : 45 [1] ، وقال : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ 8 : 64 [2] ، وقال : يا أَيُّهَا

الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ 5 : 41 [3] ، وقال : يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ 5 : 67 [4] ، وخاطب سبحانه الأنبياء بأسمائهم ، وأخبر عنهم بأسمائهم ، فقال تعالى : يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ 2 : 35 [5] ، وقال في الإخبار عنه : وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى 20 : 121 [6] ، وقال ، يا نُوحُ اهْبِطْ 11 : 48 [7] ، وقال في الإخبار عنه : وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ 11 : 42 [8] ، وقال : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا 11 : 76 [9] ، وقال في الإخبار عنه : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ 2 : 127 [10] ، وقال :

يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي 7 : 144 [11] ، وقال في الإخبار عنه :

فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ 28 : 15 [12] ، وقال : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ 5 : 110 [13] ، وقال في الإخبار عنه : وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ 61 : 6 [14] ، وقال : يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ 11 : 53 [15] ، وقال : يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا 7 : 77 (بعذاب الله) [16] ، وقال : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ 38 : 26 [17] ، وقال : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ 38 : 34 [18] ، . . . .

---

[1] الأحزاب : 45 .

[2] الأنفال : 64 .

[3]آل عمران: 176.

[4]المائدة: 67.

[5]الأعراف: 19.

[6]طه: 121.

[7]هود: 48.

[8]هود: 42.

[9]هود: 76.

[10]البقرة: 127.

[11]الأعراف: 144.

[12]القصص: 15.

[13]المائدة: 110.

[14]الصف: 6.

[15]هود: 53.

[16]الأعراف: 77.

[17]ص: 26.

[18]ص: 34.

وقال: يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ 19 : 7 [1] ، وقال: يا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ 19 : 12 [2] ، فلم يخاطب أحدا منهم ولا أخبر عنه إلا باسمه، وكل موضع ذكر فيه محمدا صلى الله عليه وسلّم أضاف إليه ذكر الرسالة، فقال تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ 3 : 144 [3] ، وقال: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ 48 : 29 [4] ، وقال: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ 33 : 40 [5] ، وقال: وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ 47 : 2 [6] ، فسماه ليعلم من جحده أن أمره وكتابه هو الحق ، ولأنهم لم يعرفوه إلا بمحمد ، فلو لم يسمه لم يعلم اسمه من الكتاب، وكأن تسمية الله له بمحمد زيادة في جلالة قدره وتنبيها على مزيد شرفه، لأن اسمه عليه السلام مشتق من اسم الله تعالى، كما مدحه به عمه أبو طالب بقوله:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

ولما جمع الله تعالى بين ذكر محمد وإبراهيم عليهما السلام، سمي خليله باسمه وكنّي حبيبه محمدا بالنّبوّة فقال تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا 3 : 68 [7] ، فأبان سبحانه بذلك عن شرف مقدار محمد صلى الله عليه وسلّم وعلو

رتبته عنده ، ثم قدمه الله عز وجل في الذكر على من تقدمه في البعث ، قال تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ من بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ . . . 4 : 163 [8] ، إلى قوله : وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً 4 : 163 [9] ، وقال تعالى : وَإِذْ أَخَذْنا من النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمن نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ 33 : 7 [10] الآية ، وقد روى من طرق عن سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم في قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنا من النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمن نُوحٍ 33 : 7 [11] ، قال : كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ، فانظر كيف خاطب الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلّم بالنّبوّة والرسالة ، ولم يخاطب غيره من الأنبياء إلا باسمه ، إلا أن يكون محمدا صلى الله عليه وسلّم في جملتهم فيشركهم معه

---

[1] مريم : 7 .

[2] مريم : 20 .

[3] آل عمران : 144 .

[4] الفتح : 29 .

[5] الأحزاب : 40 .

[6] محمد : 2 .

[7]آل عمران : 68 .

[8]النساء : 163 .

[9]النساء : 163 .

[10]الأحزاب : 7 .

[11]الأحزاب : 7 .



---

في الخطاب والخبر ، ليبين تعالى لعباده ارتفاع رتبة رسول الله صلى الله عليه وسلّم على جميع الأنبياء ، وعلوّ مكانته على مكاناتهم كلهم ، إذ الكناية عن الاسم غاية التعظيم للمخاطب ، لأن من بلغ به الغاية في التعظيم كني عن اسمه بأخص أوصافه وأجلّها ، والله الموفق .



---

وأما دفع الله عن الرسول صلى الله عليه وسلّم ما قرفه به المكذبون ، ونهي الله تعالى العباد عن مخاطبته باسمه

اعلم أن الأمم السالفة كانت تخاطب أنبياءهم بأسمائهم ، كقولهم : يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ 7 : 138 [1] ، وقولهم : يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً 5 : 112 [2] ، وقولهم : يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ 11 : 53 [3] ، وقولهم : يا صالِحُ ائْتِنا 7 : 77 [4] ، فشرف الله الرسول صلى الله عليه وسلّم بتبجيل قدره ، ونهى الكافة أن يخاطبوه باسمه ، فقال تعالى : لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24 : 63 [5] ، فندبهم الله تعالى إلى تكنيته بالنّبوّة والرسالة ، رفعة لمنزلته وتشريفا لقدره على جميع الرسل والأنبياء ، وأوجب تعالى تعزيره صلى الله عليه وسلّم وتوقيره ، وألزم سبحانه إكرامه وتعظيمه ، قال ابن عباس : تعزروه : تبجلوه ، وقال المبرد :

تعزروه : تبالغوا في تعظيمه ، وقال الأخفش : تنصرونه ، وقال الطبري : تعينونه ، وقرأ تعززونه بزاءين من العز .

[و] [6] خرج محمد بن عثمان بن أبي شيبة من حديث أبي رزق عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24 : 63 [7] قال : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم ، قال :

فنهاهم الله عن ذلك إعظاما لنبيه صلى الله عليه وسلّم، قال: فقالوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

ولأبي نعيم من حديث محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس:

لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24: 63 يعني كدعاء أحدكم إذا

---

[1] الأعراف: 138.

[2] المائدة: 112.

[3] هود: 53.

[4] الأعراف: 77.

[5] النور: 63.

[6] زيادة للسياق.

[7] النور: 63.



---

دعي أخاه باسمه، ولكن وقروه وعزروه وعظموه، وقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله.

وعن عاصم عن الحسن: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24:

63 قال : لا تقولوا : يا محمد ، قولوا يا رسول الله .

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24 : 63 قال : لا تقولوا : يا محمد ، قولوا يا رسول الله .

وعن قتادة : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24 : 63 قال : أمر الله سبحانه وتعالى أن يهاب نبيه صلوات الله عليه وأن يعظم ويفخّم ويسوّد ، وفي رواية قال : أمرهم الله تعالى أن يفخموه ويشرفوه ، ونهى المؤمنين أن يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم : راعنا سمعك ، قال تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا 2 : 104 [1] ، قال الضحاك عن ابن عباس : لا تقولوا : راعنا ، وذلك أنها سبّة بلغة اليهود ، فقال : قولوا انظرنا ، يريد أسمعنا ، فقال المؤمنون بعدها : من سمعتموه يقولها فاضربوا عنقه ، فانتهت اليهود بعد ذلك .

وعن أبي صالح عن ابن عباس : لَا تَقُولُوا رَاعِنَا 2 : 104 قال : راعنا بلسان اليهود السب القبيح ، فكان اليهود يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ذلك سرا ، فلما سمعوا أصحابه يقولونه أعلنوا بها ، فكانوا يقولون ذلك ويضحكون فيما بينهم ، فسمعها منهم سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال لليهود : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والّذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلّم لأضربن عنقه .

وعن مجاهد : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا 2 : 104 خلافا وقولوا : انظرنا ، أفهمنا ،

يبين لنا .

وعن قتادة : لا تَقُولُوا راعِنا 2 : 104 قال : كانت اليهود تقول : راعنا استهزاء ، فنهى الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم .

---

[1] البقرة : 104 .

(174/428)

---

وعن عطية : لا تَقُولُوا راعِنا 2 : 104 قال : كان أناس من اليهود يقولون : راعنا سمعك ، حتى قالها أناس من المؤمنين ، فكره لهم ما قالت اليهود ، فقال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا 2 : 104 كما قالت اليهود وَقُولُوا انْظُرْنا 2 : 104 والله الموفق .

(175/428)

---

وأما دفع الله تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلّم ما قرفه المكذبون له

كان من تقدم من أنبياء الله صلوات الله عليهم كانوا يردون عن أنفسهم ويدفعون ما قرفهم مكذبوهم ، فتولى الله ذلك عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلّم ، قال تعالى

[حكاية] [1] عن قوم نوح : إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ 7 : 60 [2] ، فقال دافعا عن نفسه : يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ 7 : 61 [3] ، وقال قوم هود : إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ 7 : 66 [4] ، فقال دافعا عن نفسه : قال يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ 7 : 67 [5] ، وقال فرعون لموسى : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً 17 : 101 [6] ، فقال موسى مجيبا له : إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً 17 : 102 [7] ، فتولى الله سبحانه وتعالى المجادلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حين قال المشركون عنه : إنه شاعر ، فقال : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ 36 : 69 [8] ، ولما قالوا : كاهن قال تعالى : وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ 69 : 41 - 42 [9] ، ولما قالوا : ضال ، قال سبحانه وتعالى : ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى 53 : 2 [10] ، ولما قالوا عنه صلى الله عليه وسلّم : إنه مجنون ، قال الله سبحانه وتعالى : فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ 52 : 29 [11] .

---

[1] زيادة للسياق .

[2] الأعراف : 60 .

[3] الأعراف : 66 .

[4] الأعراف : 61 .

[5] الأعراف : 67 .

[6] الإسراء : 101 .

[7] الإسراء : 102 .

[8] يس : 69 .

[9] الحاقة : 41 .

[10] النجم : 2 .

[11] الطور : 29 .



---

وأما مغفرة ذنبه من غير ذكره تعالى له خطا ولا زلّة

فقد خرج الحاكم من حديث الحكم بن أبان قال : سمعت عكرمة يقول : قال ابن عباس : إن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلّم على جميع الأنبياء وعلى جميع أهل السماء ، وفضله على أهل الأرض ، قالوا : يا ابن عباس ! ! بم فضله على أهل السماء ؟ قال :

قال الله تعالى : وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ من دُونِه فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ 21 : 29 [1] ، وقال لمحمد : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ 48 : 1 - 2 [2] الآية ، قالوا : فبم فضّله على أهل الأرض ؟ قال : قال الله

تعالى : وَما أَرْسَلْنا من رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ 14 : 4 [3] ، الآية ، وقال لمحمد : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً 34 : 28 [4] ، فأرسله إلى الجن والإنس ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح .

واعلم أن من تقدم الرسول صلى الله عليه وسلّم ، من الأنبياء ذكر الله تعالى أحوالهم [و [5] ما كان منهم يقصّه تعالى على ما غفره لهم ، قال تعالى في قصه موسى : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً 28 : 33 [6] ، وقال : إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ 28 : 16 [7] ، فقصّ تعالى ما غفر له وسأل فيه المغفرة ، وقال تعالى عن داود : وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ 38 : 21 - 25 [8] ، فقصّ تعالى على

---

[1] الأنبياء : 29 .

[2] الفتح : 1 ، 2 .

[3] إبراهيم : 4 .

[4] سبأ : 28 .

[5] زيادة للسياق .

[6] القصص : 33 .

[7] القصص : 16 .

[8] ص : 21 – 24 .

(177/428)

---

ما كان فيهم ، ولم يقصّ على خطأ كان من رسول الله صلى الله عليه وسلّم إكراما له وتشريفا ، فقال عز من قائل : إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً 48 : 1 – 3 [1] ، وهذا غاية الفضل والشرف ، لأنه تشريف النبي صلى الله عليه وسلّم من غير أن يكون هناك ذنب ، ولكنه تعالى استوعب في هذه الآية جميع أنواع النعم الأخروية والدنيوية التي أنعم الله بها على عباده ، فلم تبق نعمة يمكن أن تكون من الله تعالى على عباده إلا وقد جمعها لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فإن جميع النعم الأخروية شيئان : سلبية وهي غفران الذنوب ، وثبوتية وهي لا تتناهى ، أشار إليها بقوله : وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ 12 : 6

[1] ، وجميع النعم الدنيوية شيئان : دينية أشار إليها بقوله : وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً

48 : 2 [1] ، ودنيوية ، وإن كانت هنا المقصود بها الدين ، وهي قوله :

وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً 48 : 3 [1] ، وقدم الأخروية على الدنيوية ، وقدم في الدنيوية الدينية على غيرها تقديما للأهم فالمهم ، فانتظم بذلك تعظيم قدر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بإتمام نعم الله تعالى عليه ، المتفرقة في غيره ، ولهذا قال : جعل ذلك غاية الفتح المبين الّذي عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة ، وجعله خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلّم بقوله :

لك .

وقد أشار ابن عطية إلى هذا فقال : وإنما المعنى : التشريف بهذا الحكم ، ولو لم يكن له ذنب البتة . انتهى .

وقد ذكر الناس أقوالا أخر ، منها : ما يجب تأويله ، ومنها ما يجب ردّه ، فمن ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ 48 : 2 أي ما يكون ، وهذا يمكن تأويله على ما قدمناه ، أي مما يكون لو كان ، والمعنى أنك يا سيد المرسلين بحالة لو كان لك ذنوب ماضية ومستقبلة لغفرنا جميعها لك لشرفك عندنا .

ومنها قول مقاتل : لِيَغْفِرَ لَكَ 48 : 2 ما كان في الجاهلية ، وهذا مردود ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليس له جاهلية ، ومن قال : ليغفر لك ما كان قبل النبوة فهو مردود

[1] أول سورة الفتح .



أيضا ، لأنه صلى الله عليه وسلّم معصوم قبل النبوة وبعدها .

ومنها قول سفيان الثوري : ليغفر لك ما كان في الجاهلية ما علمت وما لم تعلم ، وهو مردود بمثل الّذي قبله ، ومنها قول عطاء الخراسانىّ : ليغفر لك ما تقدم من ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك ، وما تأخر من ذنوب أمتك بدعوتك على حذف مضاف .

ومنها ما حكى عن مجاهد : ليغفر لك ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ، وهذا قول باطل ، فإنه لم يكن في قصه مارية وامرأة زيد ذنب أصلا ، وقد أوردنا ما جاء في قصتيهما عند ذكر أزواجه وسراريه صلى الله عليه وسلّم ، وليس فيهما ما يعدّ زلة ولا ذنبا ، ومن اعتقد ذلك فقد أخطأ .

ومنها قول الزمخشريّ : جميع ما فرط منك ، وهذا مردود بشيئين : أحدهما : عصمة الأنبياء ، وقد أجمعت الأمة على عصمتهم فيما يتعلق بالتبليغ وفي غير ذلك من الكبائر ومن الصغائر الرذيلة التي تحط مرتبتهم ، ومن المداومة على الصغائر ، فهذه الأربعة مجمع عليها ، واختلفوا في الصغائر التي لا تحط مرتبتهم ، فذهبت المعتزلة ، وكثير من

غيرهم إلى جوازها ، والمختار المنع لأنا مأمورون بالاقتداء في كل ما يصدر منهم في قول وفعل ، فكيف يقع منهم ما لا ينبغي ، ونؤمر بالاقتداء بهم فيه ؟

وتجاسر قوم على الأنبياء فنسبوا إليهم تجويزها عليهم مطلقا ، وهم محجوجون بما تقدم من الإجماع ، ثم إن الذين جوزوا الصغائر لم يجوزوها بنص ولا دليل ، وإنما أخذوا ذلك من هذه الآية وأمثالها ، وقد ظهر بجواب هذه ، وفي كل موضع من الباقيات يذكر جوابه إن شاء الله تعالى .

والذين جوزوا الصغائر التي ليست برذائل ، قال ابن عطية : اختلفوا هل وقع ذلك من محمد صلى الله عليه وسلّم أو لم يقع ؟ قال كاتبه : والحق الّذي لا مرية فيه أنه لم يقع ، وكيف يستحيل خلاف ذلك وأحواله صلى الله عليه وسلّم منقسمة إلى قول وفعل ؟ أما القول ، فقال تعالى : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى 53 : 3 – 4 [1] ، وأما الفعل ،

---

[1] النجم : 3 – 4 .



---

فإجماع الصحابة المعلوم منهم قطعا على اتباعه والتأسي بما يفعله في كل ما يفعله من قليل أو كثير ، أو صغير أو كبير ، لما عندهم في ذلك توقف ولا بحث ، حتى أعماله عليه السلام في

السر والخلوة يحرصون على العلم بها وعلى اتباعها ، علم بهم صلى الله عليه وسلّم أو لم يعلم .

والثاني : أنا لو سلمنا بعدم العصمة – وحاش لله – فإنه لا يناسب ما تشير إليه الآية من التعظيم والامتنان ، وجعل ذلك غاية الفتح المبين ، المقرون بالتعظيم ، فحمله على ذلك مخل بالبلاغة ، والمعنى الّذي حملنا عليه الآية يناسب البلاغة ، فوجب المصير إليه ، وقوله : وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً 48 : 3 [1] أعيد لفظه لمّا بعد عما عطف عليه ، وليكون المبتدأ والمنتهي بالاسم الظاهر ، والضميران في الوسط ، وأتت هذه النعم الأربع بلفظ الغيبة ، وجاء الفتح قبلها بضمير المتكلم تعظيما لأمر الفتح ، لأن المغفرة وإن كانت عظيمة فهي عامة ، قال تعالى : وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ 4 : 48 [2] وكذلك إتمام النعمة ، قال تعالى : وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي 5 : 3 [3] ، وهكذا الهداية ، قال تعالى : يَهْدِي مَن يَشاءُ 2 : 142 [4] ، ومثله النصر ، قال تعالى :

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ 37 : 172 [5] ، وأما الفتح : فإنه لم يتفق لغير رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقيل في الاسم مع النصر : إنه تعظيم له ، ولهذا قلّ ما ذكر الله تعالى النصر من غير إضافة إليه أو اقتران باسمه ليطمئن القلب بذكر الله تعالى ، فيحصل الصبر ، وبه يحصل النصر ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

وقال سفيان عن عيينة قال : عن ميسرة قال ابن عبد الله : أخبره بالعفو قبل أن يخبره

بالذنب، قال تعالى: عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ 9 : 43 [6]، وقال عبد الله بن يزيد المصري: ليس هذا لنبي قبله ولا بعده، يعني قوله تعالى: عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ 9 : 43 [6]، فبدأ سبحانه بالعفو قبل العقاب.

---

[1] الفتح: 3.

[2] النساء: 48.

[3] المائدة: 3.

[4] البقرة: 142.

[5] الصافات: 172.

[6] التوبة: 43.



---

وأما أخذ الله تعالى الميثاق على جميع الأنبياء أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلّم وينصروه إن أدركوه

فقد قال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا

قال فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ من الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ 3 : 81 - 82 [1] .

قوله : لَما آتَيْتُكُمْ من كِتابٍ 3 : 81 ما ، بمعنى الّذي ، قال النحاس : التقدير على قول الخليل : الّذي آتيتكموه ثم حذف الهاء لطول الاسم ، والإصر : العهد .

وعن أبي أيوب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لم يبعث الله نبيا [من لدن] [2] آدم فمن بعده إلا أخذ الله العهد عليه في محمد لئن بعث وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، فقال : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ من كِتابٍ وَحِكْمَةٍ . . . 3 : 81 وعن سعيد عن قتادة : قوله : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ من كِتابٍ وَحِكْمَةٍ . . . 3 : 81 الآية ، هذا ميثاق قد أخذه الله على النبيين أن يصدّقوا بعضهم بعضا ، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته ، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذ عليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلّم ويصدقوه وينصروه .

وقال أسباط عن السدي : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ من كِتابٍ وَحِكْمَةٍ 3 : 81 الآية ، قال : لم يبعث الله نبيا قط من لدن نوح إلا أخذ ميثاقه ليؤمنن

---

[1] المائدة : 83 .

[2] زيادة للسياق .

بمحمد صلى الله عليه وسلّم ولينصرنه إن خرج وهو حيّ ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ولينصرونه هم إن خرج وهم أحياء .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال : ثم ذكر ما أخذ عليهم – يعني على أهل الكتاب – وعلى أنبيائهم من الميثاق بتصديقه – يعني بتصديق محمد صلى الله عليه وسلّم – إذا جاءهم ، وإقرارهم به على أنفسهم فقال : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ . . . 3 : 81 إلى آخر الآية .

وقال أسباط عن السدي في قوله : لَمَا آتَيْتُكُمْ 3 : 81 : يقول لليهود : أخذت ميثاق النبيين لمحمد صلى الله عليه وسلّم وهو الّذي ذكر في الكتاب عندكم ، فهذا كما ترى ، وقد أخذ الله الميثاق على جميع الأنبياء عليهم السلام إن جاءهم رسول مصدق لما معهم وهو محمد صلى الله عليه وسلّم آمنوا به ونصروه ، فلم يكن أحد منهم ليدرك الرسول صلى الله عليه وسلّم إلا وجب عليه الإيمان به ونصره على أعدائه لأخذه الميثاق منهم ، فجعلهم تعالى كلهم أتباعا لمحمد صلى الله عليه وسلّم يلزمهم الانقياد له والطاعة لأمره لو أدركوه .

وقد نصّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم على معنى ما قلنا ، فروى هشيم عن مجالد عن

الشعبيّ عن جابر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : «أتيت النبي صلى الله عليه وسلّم ومعي كتاب أصبته من بعض أهل الكتاب فقال : والّذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حيا اليوم ما وسعه إلا أن يتبعني» [1] .

---

[1] رواه البخاري عن يحى بن بكير ، وعن موسى بن إسماعيل ، عن إبراهيم بن سعد ، وقال البيهقي في (الشّعب) : وقد روينا عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم ، أن عمر أتاه فقال : إنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فقال : أمتهوّكون أنتم كما تهوّكت اليهود والنصارى ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي . قال أبو عبيد : قال ابن عون فقلت للحسن : متهوكون ؟ قال : متحيرون .

وأخبرنا أحمد بن الحسن القاضي ، حدثنا أبو علي حامد بن محمد الرفّاء ، حدثنا محمد بن شاذان الجوهري ، حدثنا زكريا بن عدي ، حدثنا حماد بن زيد ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنّهم لن يهدوكم وقد ضلوا» . زاد القاضي في روايته : «والله لو كان موسى عليه السلام حيا ما حلّ له إلا أن يتبعني» . وروى عن جبير بن نفير ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم في محو ما كتب من قول اليهود

وقال بعض العارفين بالله تعالى . وبهذا يتبين لك سيادة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم على جميع الأنبياء [والمرسلين من] [1] قوله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد ولد آدم [2] ولا فخر ، وفي رواية مسلم [3] : أنا سيد الناس يوم القيامة ، فثبتت له السيادة والشرف على

---

[()] (بريقه والنهي عن ذلك .

(شعب الإيمان للبيهقي) : 1/ 199 - 200 ، باب في الإيمان بالقرآن والكتب المنزلة ، ذكر حديث جمع القرآن ، حديث رقم (176) ، (178) ، (179) ، وحديث رقم (5205) :

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو عبد الله الصنعاني ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أنبأنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري ، أن حفصة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلّم بكتاب فيه قصص يوسف في كتف ، فجعلت تقرأ عليه ، والنبي صلى الله عليه وسلّم يتلون وجهه فقال : «والّذي نفسي بيده ، لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم» . (المرجع السابق) : 4/ 308 - 309 ، باب حفظ اللسان ، فصل في ترك

قراءة كتب الأعاجم. ونحوه في (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية) 3/ 114 - 115 ، باب الزجر عن النظر في كتب أهل الكتاب ، حديث رقم (3024) . وخرّج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن ثابت رضي الله تعالى عنه ، قال : حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن ثابت قال : «جاء عمر بن الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله ، إني مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي من جوامع التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، قال عبد الله : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ فقال عمر : رضينا باللَّه ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلّم رسولا ، قال : فسرّي عن النبي صلى الله عليه وسلّم ثم قال : والّذي نفسي بيده ، لو أصبح فيكم موسى ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين» . (مسند أحمد) : 4/ 513 - 514 ، حديث رقم (15437) .

[1] زيادة للسياق ، ومكانها مطموس في (خ) .

[2] (المستدرك) : 3/ 133 ، 134 ، كتاب معرفة الصحابة ، حديث رقم (4625/ 223) : حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ، حدثنا محمد بن معاذ ، حدثنا أبو حفص عمر بن الحسن الراسي ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن

جبير، عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «أنا سيد ولد آدم، وعليّ سيد العرب». قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وفي إسناده عمر بن الحسن، وأرجو أنه صدوق، ولولا ذلك لحكمت بصحته على شرط الشيخين، وله شاهد من حديث عروة عن عائشة رقم (4626/ 224): أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر القاري ببغداد، حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح، حدثنا الحسين بن علوان، عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ادعوا لي سيد العرب» فقلت: يا رسول الله! ألست سيد العرب؟ قال: «أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب». وله شاهد آخر من حديث جابر رقم (4627/ 225): قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ادعوا لي سيد العرب، فقالت عائشة رضي الله عنها: ألست سيد العرب يا رسول الله؟ فقال: أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب».

[3] (مسلم بشرح النووي): 3/ 66 – 69، كتاب الإيمان، باب (84)، حديث رقم (327)،

أبناء جنسه من البشر ، وقال صلى الله عليه وسلّم : كنت نبيا وآدم بين الماء والطين [1] ، فأخبره الله تعالى بمرتبته ، وأنه عليه السلام إذ ذاك صاحب شرع ، فإنه قال : كنت نبيا ولم

---

[()] وحديث رقم (328) ، قوله صلى الله عليه وسلّم : «أنا سيد الناس يوم القيامة» ، ضمن حديث طويل معروف باسم (حديث الشفاعة) ، وسيأتي ذكره مشروحا إن شاء الله تعالى في فصل [اختصاصه بالشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر] .

[1] المعروف أن هذا الحديث بلفظ : «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» ، أخرجه أبو نعيم في (الدلائل) ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، وابن لال ، ومن طريقه الديلميّ ، كلهم من حديث سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة به مرفوعا . وله شاهد من حديث ميسرة الفجر ، بلفظ :

«كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» ، أخرجه أحمد ، والبخاري في (التاريخ) ، والبغوي ، وابن السكن ، وغيرهما في (الصحابة) ، وأبو نعيم في (الحلية) ، وصححه الحاكم ، وكذا هو بهذا اللفظ عند الترمذي وغيره عن أبي هريرة : متى كنت أو كتبت نبيا ؟ قال : «و آدم» ، وذكره . وقال الترمذي :

إنه حسن صحيح ، وصححه الحاكم أيضا وفي لفظ : «و آدم منجدل في طينته» ، وفي صحيحي ابن حبان والحاكم ، من حديث العرباض بن سارية مرفوعا : «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وأن آدم لمنجدل في طينته» . وكذا أخرجه أحمد ، والدارميّ في

مسنديهما ، وأبو نعيم والطبراني ، من حديث ابن عباس ، قال : قيل : يا رسول الله ، متى كنت نبيا ؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد» . وأما الّذي على الألسنة بلفظ «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» ، فلم نقف عليه بهذا اللفظ ، فضلا عن زيادة : «وكنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين» . وقد قال شيخنا - الحافظ ابن حجر - في بعض الأجوبة عن الزيادة : إنها ضعيفة ، والّذي قبلها قوي . (المقاصد الحسنة) : 520 - 521 ، حديث رقم (837) .

وقال الزركشي : لا أصل له بهذا اللفظ ، قال السيوطي في (الدرر) : وزاد العوام : «ولا آدم ولا ماء ولا طين» ، لا أصل له أيضا ، وقال القاري : يعني بحسب مبناه ، وإلا فهو صحيح باعتبار معناه . وروى الترمذي أيضا عن أبي هريرة ، أنهم قالوا : يا رسول الله ، متى وجبت لك النبوة ؟ قال :

«وآدم بين الروح والجسد» ، وفي لفظ : متى كتبت نبيا ؟ قال : «كتبت نبيا وآدم بين الروح والجسد» . وعن الشعبي ، قال رجل : يا رسول الله متى استنبئت ؟ قال : «وآدم بين الروح والجسد ، حين أخذ مني الميثاق» . وقال التقي السبكي : فإن قلت : النبوة وصف ، لا بدّ أن يكون الموصوف به موجودا ، وإنما يكون بعد أربعين سنة ، فكيف يوصف به قبل وجوده وقبل إرساله ؟ قلت : جاء أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد ، فقد تكون بقوله : «كنت نبيا» ، إلى روحه الشريفة ، أو حقيقته ، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها

، وإنما يعرفها خالقها ، ومن أمدّه بنور آلهي .

ونقل العلقميّ عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده مرفوعا أنه قال : «كنت نورا بين يدي ربي عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام . (كشف الخفا ومزيل الالتباس) : 2/ 129 ، حديث رقم (2007) .

*(184/428)*

---

يقل : كنت إنسانا ، ولا كنت موجودا ، أو ليست النبوة إلا بالشرع المقدر عليه من عند الله تعالى ؟ فأخبر سبحانه وتعالى أنه عليه السلام صاحب النبوة قبل وجوده في الأنبياء في الدنيا وهو روح قبل اتخاذه تعالى الأجسام الإنسانية ، فكانت الأنبياء عليهم السلام في هذا العالم نواب محمد صلى الله عليه وسلّم من آدم إلى عيس عليهما السلام ، وإلى هذا الإشارة بقوله عليه السلام : لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني ، وكذلك لو كان محمد صلى الله عليه وسلّم موجودا بجسمه من لدن آدم عليه السلام إلى زمان وجوده ، لكان جميع بني آدم تحت شريعته ، ولهذا لم يبعث بشريعة عامة إلا هو صلى الله عليه وسلّم ، فإنه الملك والسيد ، وكل رسول إنما بعث إلى قوم مخصوصين ، ولم تعم ، فمن زمن آدم إلى زمن بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم وإلى يوم القيامة ملكه ، وله يوم القيامة التقدم أيضا

على جميع الرسل مع السيادة ، فكانت روحانيته صلى الله عليه وسلّم روحانية كل رسول موجودة ، والإمداد يأتي إليهم من روحه الطاهرة بما يظهر منهم من الشرائع والعلوم في زمن وجودهم رسلا ، وكان تشريعهم الشرائع كما كان علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم يقضون في زمان وجود جسم رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وكما يكون عيسى عليه السلام حين ينزل آخر الزمان بشرع محمد صلى الله عليه وسلّم ، لكن لما لم يوجد صلى الله عليه وسلّم في الحسّ نسب كل شرع إلى من بعث به ، وهو في الحقيقة شرع محمد صلى الله عليه وسلّم ، وإن كان مفقود العين ، كما يكون صلى الله عليه وسلّم مفقود العين في زمان نزول عيسى وحكمه بالشرع المحمدي ، وكون محمد صلى الله عليه وسلّم نسخ الله بشرعه جميع الشرائع ، لا يخرجها النسخ عن أن تكون من شرعه ، فإن الله تعالى قد أشهدنا في القرآن والسنة النسخ مع إجماعنا واتفاقنا على أنه شرعه ، فنسخ بالمتأخر ، فكان هذا النسخ الموجود في القرآن والسنة المحمدية تنبيها لنا على أن نسخه لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعا له ، وكان نزول عيسى آخر الزمان حاكما بغير شرعه الّذي كان عليه في زمان رسالته ، وحكمه بشرع محمد صلى الله عليه وسلّم أدلّ دليل على أنه لا حكم لأحد من الأنبياء مع وجود محمد صلى الله عليه وسلّم أو وجود ما قرره من الحكم ، فخرج من هذا كله أن محمدا صلى الله عليه وسلّم ملك وسيد على جميع بني آدم ، وأن جميع من تقدمه كان ملكا له ، والحاكمون فيه

كانوا نوابا عنه، فإن قلت: قال الله تعالى:

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ

(185/428)

---

اقْتَدِهْ 6: 90 [1]، قلت: هذا صحيح، فقد قال تعالى: فَبِهُدَاهُمُ 6: 90،

وهداهم من الله وهو شرعه صلى الله عليه وسلّم، أي الزم شرعك الّذي أظهرته نوّابك

من إقامة الدين وعدم التفرق فيه، ولم يقل سبحانه: فبهم أقتد، وكذا قال سبحانه: ثُمَّ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً 16: 123 [2] وهو الدين، فهو صلى الله عليه

وسلّم مأمور باتباع الدين، فإن أصل الدين إنما هو من الله تعالى لا من غيره، وأين هذا من

قوله صلى الله عليه وسلّم: لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني؟ فأضاف الاتباع

إليه، وأمر هو صلى الله عليه وسلّم باتباع الدين لا باتباع الأنبياء، فإن السلطان الأعظم

إذا حضر لا يبقى لنائب من نوابه حكم إلا له، فإذا غاب حكم النائب بمراسمه، فهو الحاكم

في الحقيقة غيبا وشهادة، مما قيل في شرفه:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب [3]

فانظر ما أبدع هذا الفضل الّذي لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، الّذي لم ينتبه إليه إلا من

شاء الله ، وقليل ما هم ، والله يختص برحمته من يشاء .

---

[1] الأنعام : 90 .

[2] النحل : 123 .

[3] البيت للنابغة الذبياني .



---

وأما عموم رسالته إلى الناس جميعا وفرض الإيمان به على الكافة ، وأنه لا ينجو أحد من النار حتى يؤمن به صلى الله عليه وسلّم

فاعلم أن الإيمان به صلى الله عليه وسلّم هو التصديق بنبوته وإرسال الله تعالى له وتصديقه في جميع ما جاء به من الله وما قاله ، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله ، فإذا اجتمع التصديق بالقلب والنطق بالشهادة باللسان ، تم الإيمان به والتصديق له ، قال الله تعالى : فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا 64 : 8 [1] ، وقال : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ 48 : 8 - 9 [2] ، وقال : فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ 7 : 158 الَّذِي يَجِدُونَهُ 7 : 157 [3] الآية ، فالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلّم واجب لا يتم الإيمان إلا به ، ولا يصح الإسلام إلا معه ، وقد

تقرر بما تقدم ثبوت نبوته وصحة رسالته ، فوجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به وتعيّن ذلك ، قال تعالى : وَمَن لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً 48 : 13 [4] ، وقال تعالى : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ 34 : 28 [5] ، وقال : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً 7 : 158 [6] ، وقال : وَأَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً 4 : 79 [7] ، أي على رسالتك يشهد لك بإظهار المعجزات على صدقك ، إذ المعجزة في قوة قول الله تعالى : صدق عبدي في أنه رسول ، والثانية مقررة للأولى ، لأنه إنما تثبت عموم دعوته بإخباره ، وما ورد على لسانه ، وخبره إنما يقبل إذا ثبت صدقه ، وصدقه إنما ثبت بالمعجزات ، فأذن نظم الدليل هكذا : محمد صلى الله عليه وسلّم أتي بالمعجزات فهو صادق ، وكل صادق يجب قبول خبره بعموم دعوته ، وهو المطلوب .

وخرج مسلم من حديث يزيد بن زريع قال : حدثنا روح عن العلاء بن

---

[1] التغابن : 8 .

[2] الفتح : 8 .

[3] الفتح : 13 .

[4] الفتح : 13 .

[5] سبأ : 28 .

[6] الأعراف : 158 .

[7] النساء : 79 .

*(187/428)*

---

عبد الرحمن بن يعقوب عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله [1] . وخرج البخاري ومسلم من حديث شعبة ، عن واقد بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم

---

[1] (مسلم بشرح النووي) : 1/ 314 - 315 ، كتاب الإيمان ، باب (8) الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأن من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ، ووكلت سريرته إلى الله تعالى ، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام ، واهتمام

الإمام بشعائر الإسلام، حديث رقم (32)، (33)، (34)، (35)، (36).

قوله صلى الله عليه وسلّم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»، قال الخطابي رحمه الله: معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف.

قال: ومعنى حسابه على الله: أي فيما يستسرون به ويخفونه، دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة. قال: ففيه أن من أظهر الإسلام وأسّر الكفر قبل إسلامه في الظاهر، وهذا قول أكثر العلماء. وذهب مالك إلى أن توبة الزنديق لا تقبل. ويحكى ذلك أيضا عن أحمد بن حنبل رضي الله عنهما. هذا كلام الخطابي.

وذكر القاضي عياض معنى هذا، وزاد عليه، وأوضحه، فقال: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بها مشركو العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحد، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام، وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد، فلا يكتفي في عصمته بقول لا إله إلا الله، إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر: «وأني رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة». هذا كلام القاضي عياض.

قال الحافظ ابن حجر: ولا بدّ مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله صلى الله

عليه وسلّم ، كما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة ، هي مذكورة في الكتاب : «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي ، وبما جئت به» . والله أعلم .

واختلف أصحابنا في قبول توبة الزنديق – وهو الّذي ينكر الشرع جملة – فذكروا فيه خمسة أوجه ، لأصحابنا أصحها ، والأصوب منها قبولها مطلقا للأحاديث الصحيحة المطلقة .



---

على الله [1] .

وقال البخاري : فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله . ذكره في كتاب الإيمان .

---

[1] قوله صلى الله عليه وسلّم : «فإذا فعلوا ذلك» ، فيه التعبير بالفعل عما بعضه قول ، إما على سبيل التغليب ، وإما على إرادة المعنى الأعم ، إذ القول فعل اللسان .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «عصموا» أي منعوا ، وأصل العصمة من العصام وهو الخيط الّذي يشد به فم القربة ليمنع سيلان الماء .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «حسابهم على الله» ، أي في أمر سرائرهم ، ولفظة «على»

مشعرة بالإيجاب ، وظاهرها غير مراد ، فإما أن تكون بمعنى اللام ، أو على سبيل التشبيه ، أي هو كالواجب على الله في تحقيق الوقوع ، وفيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة والحكم بما يقتضيه الظاهر ، والاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم ، خلافا لمن أوجب تعلم الأدلة ، وقد تقدم فيه ، ويؤخذ منه ترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد ، الملتزمين للشرائع ، وقبول توبة الكافر من كفره ، من غير تفصيل بين كفر ظاهر أو باطن .

فإن قيل : مقتضى الحديث قتال كل من امتنع من التوحيد ، فكيف ترك مؤدي الجزية والمعاهد ؟

الجواب من أوجه :

أحدها : دعوى النسخ ، بأن يكون الإذن بأخذ الجزية والمعاهدة متأخرا عن هذه الأحاديث ، بدليل أنه متأخر عن قوله تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ 9 : 5 .

ثانيها : أن يكون من العام الّذي خص منه البعض ، لأن المقصود من الأمر حصول المطلوب . فإذا تخلف البعض لدليل لم يقدح في العموم .

ثالثها : أن يكون من العام الّذي أريد به الخاص ، فيكون المراد بالناس في قوله صلى الله عليه وسلّم «أقاتل الناس» ، أي المشركين من غير أهل الكتاب ، ويدل عليه رواية النسائي بلفظ : «أمرت أن أقاتل المشركين» . فإن قيل : إذا تم هذا في أهل الجزية ، لم يتم في المعادين ولا فيمن منع الجزية ، أجيب بأن الممتنع في ترك المقاتلة رفعها لا تأخيرها مدة كما في الهدنة ،

ومقاتلة من امتنع من أداء الجزية ، بدليل الآية .

رابعها : أن يكون المراد بما ذكر من الشهادة وغيرها ، التعبير عن إعلاء كلمة الله ، وإذعان المخالفين ، فيحصل في بعض بالقتل ، وفي بعض بالجزية ، وفي بعض بالمعاهدة .

خامسها : أن يكون المراد بالقتال هو ، أو ما يقوم مقامه من جزية أو غيرها .

سادسها : أن يقال الغرض من ضرب الجزية اضطرارهم إلى الإسلام وسبب السبب سبب ، فكأنه قال : حتى يسلموا أو يلتزموا بما يؤديهم إلى الإسلام ، وهذا أحسن ، ويأتي فيه ما في الثالث وهو آخر الأجوبة . والله تعالى أعلم (فتح الباري) : 1/ 102 - 105 ، كتاب الإيمان باب (17) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ 9 : 5 ، حديث رقم (25) .

*(189/428)*

---

وخرج مسلم من حديث عبد الله بن بريد عن يحى بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنيّ ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن [الحميري] [1] حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فسألناه عن ما يقول [هؤلاء] [2] في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر فاكتنفته أنا وصاحبي ، كان

أحدنا عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفّرون العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون ألا قدر ، وأن الأمر أنف ، [قال : فإذا] [3] لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني ، والّذي يحلف به

---

[1] في (خ) : «الحميدي» والتصويب من رواية مسلم .

[2] زيادة من رواية مسلم .

[3] في (خ) : «فقال إذا» والتصويب من رواية مسلم .

قوله : «فاكتنفته أنا وصاحبي» ، يعني صرنا في ناحيتيه ، ثم فسّره فقال : أحدنا عن يمينه ، والآخر عن شماله ، وكنفا الطائر جناحاه ، وفي هذا تنبيه على أدب الجماعة في مشيهم مع فاضلهم ، وهو أنهم يكتنفونه ويحفون به .

قوله : «فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ» معناه يسكت ويفوضه إليّ لإقدامي وجرأتي وبسطة لساني ، فقد جاء عنه في رواية «لأني كنت أبسط لسانا» .

قوله : «ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم» ، هو بتقديم القاف على الفاء ، ومعناه يطلبونه ويتتبعونه ، هذا هو المشهور ، وقيل معناه يجمعونه ، رواه بعض شيوخ المغاربة من طريق ابن ماهان «يتفقرون» – بتقديم الفاء – وهو صحيح أيضا ، معناه يبحثون عن غامضه ، ويستخرجون خفيّه . وروى في غير مسلم : «يتقفون» بتقديم

القاف ، وحذف الراء ، وهو صحيح أيضا ، ومعناه يتتبعون .

قال القاضي عياض : ورأيت بعضهم قال فيه : «يتقعرون» بالعين ، وفسّره بأنهم يطلبون قعره ، أي غامضه وخفيّه . ومنه تقعّر في كلامه إذا جاء بالغريب منه ، وفي رواية أبي يعلي الموصلي : «يتفقهون» بزيادة الهاء ، وهو ظاهر .

قوله : «و ذكر من شأنهم» . هذا الكلام من كلام بعض الرواة الذين دون يحى بن يعمر ، والظاهر أنه من ابن بريدة الراويّ ، عن يحى بن يعمر ، وذكر ابن يعمر من حال هؤلاء ، وصفهم بالفضيلة في العلم ، والاجتهاد في تحصيله والاعتناء به .

قوله : «يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف» ، هو بضم الهمزة والنون ، أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه كما قدمنا حكايته عن مذهبهم الباطل ، وهذا القول قول غلاتهم ، وليس قول جميع القدرية ، وكذب قائله وضلّ وافترى . عافانا الله وسائر المسلمين .



---

عبد الله بن عمر لو أن لأحد مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم قال : حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال بينما نحن عند رسول الله

صلى الله عليه وسلّم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلّم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد ! أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، فعجبنا له ، يسأله ويصدقه ! قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : [فأخبرني ] [1] عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : [فأخبرني ] [1] عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ، [قال : ] [2] [أمارتها ] [3] أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة [العالة] [4] رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال لي : يا عمر ! أتدري من السائل ؟ قلت : الله

---

[ () ] قوله : «قال - يعني ابن عمر رضي الله عنهما - : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني ، والّذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر» ، هذا الّذي قاله ابن عمر رضي الله عنهما ، ظاهر في تكفير القدرية .

قال القاضي عياض رحمه الله : هذا في القدرية الأول ، الذين نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات ، قال : والقائل بهذا كافر بلا خلاف ، وهؤلاء الذين ينكرون القدر هم الفلاسفة في الحقيقة .

قال غيره : ويجوز أنه لم يرد بهذا الكلام التكفير المخرج من الملة ، فيكون من قبيل كفران النعم ، إلا أن قوله : ما قبله الله منه ، ظاهر في التكفير ، فإن إحباط الأعمال إنما يكون بالكفر ، إلا أنه يجوز أن يقال في المسلم : لا يقبل عمله لمعصيته وإن كان صحيحا ، كما أن الصلاة في الدار المغصوبة صحيحة ، غير محوجة إلى القضاء عند جمهور العلماء ، بل بإجماع السلف ، وهي غير مقبولة ، فلا ثواب فيها على المختار عند أصحابنا . والله تعالى أعلم . (مسلم بشرح النووي) : 1/ 259 ، كتاب الإيمان ، حديث رقم (1) .

[1] في (خ) : «أخبرني» والتصويب من رواية مسلم .

[2] زيادة للسياق من رواية مسلم .

[3] زيادة من (خ) .

[4] زيادة من رواية مسلم .

ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . هذا الحديث انفرد به مسلم [1] ، ولم يخرجه البخاري ، وأخرجه أبو داود من طريق ابن بريدة بمثله أو

---

[1] أخرجه مسلم في أول كتاب الإيمان ، باب الإيمان والإسلام والإحسان ، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ، وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر ، وإغلاظ القول في حقه ، حديث رقم (1) .

قوله : «لا يرى عليه أثر السفر» ضبطناه بالياء المثناة من تحت ، المضمومة ، وكذلك ضبطناه في الجمع بين الصحيحين وغيره ، وضبطه الحافظ أبو حازم العدوي هنا : «نرى» بالنون المفتوحة ، وكذا هو في مسند أبي يعلي الموصلي ، وكلاهما صحيح .

قوله : «و وضع كفيه على فخذيه» ، معناه أن الرجل الداخل وضع كفيه على فخذي نفسه ، وجلس على هيئة المتعلم . والله تعالى أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلّم ، لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى ، لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع ، وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه ، على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها ، إلا أتي به ، فقال صلى الله عليه وسلّم : أعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان ، فإن التتميم المذكور في حال العيان ، إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه ،

فلا يقدم العبد على تقصير في هذه الحال للاطلاع عليه ، وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد ، فينبغي أن يعمل بمقتضاه ، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى ، في إتمام الخشوع والخضوع ، وغير ذلك ، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ، ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشيء من النقائص احتراما لهم ، واستحياء منهم ، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعا عليه في سرّه وعلانيته .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة ، من عقود الإيمان ، وأعمال الجوارح ، وإخلاص السرائر ، والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ، ومتشعبة منه .

قال : وعلى هذا الحديث وأقسامه الثلاثة ، ألّفنا كتابنا الّذي سميناه : [المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان ] ، إذ لا يشذّ شيء من الواجبات ، والسنن ، والرغائب ، والمحظورات ، والمكروهات ، عن أقسامه الثلاثة . والله تعالى أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» ، فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما ، إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، وأن ذلك لا ينقصه ، بل يستدل به على ورعه ، وتقواه ، ووفور علمه .

قوله : «أن تلد الأمة ربتها» ، وفي الرواية الأخرى «ربها» على التذكير ، وفي الأخرى «بعلها» وقال : يعني السراري ، ومعنى ربها وربتها ، سيدها ومالكها ، وسيدتها

ومالكتها ، قال الأكثرون من العلماء : هو إخبار عن كثره السراري وأولادهم ، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها ، لأن مال

(192/428)

---

[ ()] الإنسان صائر إلى ولده ، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين ، إما بتصريح أبيه له بالإذن ، وإما يعلمه بقرينة الحال ، أو عرف الاستعمال .

وقيل : معناه أن الإماء يلدن الملوك ، فتكون أمه من جملة رعيته ، وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته ، وهذا قول إبراهيم الحربي ، وقيل : معناه أن تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان ، فيكثر ترداده في أيدي المشترين ، حتى يشتريها ابنها ولا يدري ، ويحتمل على هذا القول أن لا يختص هذا بأمهات الأولاد ، فإنه متصور في غيرهن ، فإن الأمة تلد ولدا حرا من غير سيدها بشبهة ، أو ولدا رقيقا بنكاح أو زنا ، ثم تباع الأمة في الصورتين بيعا صحيحا ، وتدور في الأيدي حتى يشتريها ولدها ، وهذا أكثر وأعم من تقديره في أمهات الأولاد .

وأما بعلها ، فالصحيح في معناه أن البعل هو المالك أو السيد ، فيكون بمعنى ربها على ما ذكرناه . قال أهل اللغة : بعل الشيء ربه ومالكه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما

والمفسرون في قوله سبحانه وتعالى :

أَتَدْعُونَ بَعْلًا 37 : 125 : أي ربّا ، وقيل : المراد بالبعل في الحديث ، الزوج ، ومعناه نحو ما تقدم ، أنه يكثر بيع السراري حتى يتزوج الإنسان أمه وهو لا يدري ، وهذا أيضا معنى صحيح ، إلا أن الأول أظهر ، لأنه إذا أمكن حمل الروايتين في القضية الواحدة على معنى كان أولى ، والله أعلم .

واعلم أن هذا الحديث ليس فيه دليل على إباحة بيع أمهات الأولاد ، ولا منع بيعهن ، وقد استدل إمامان من كبار العلماء به على ذلك ، فاستدل أحدهما على الإباحة ، والآخر على المنع ، وذلك عجب منهما ، وقد أنكر عليهما ، فإنه ليس كل ما أخبر صلى الله عليه وسلّم بكونه من علامات الساعة يكون محرما أو مذموما ، فإن تطاول الرعاء في البنيان ، وفشو المال ، وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد ليس بحرام بلا شك ، وإنما هذه علامات ، والعلامة لا يشترط فيها شيء من ذلك ، بل تكون بالخير والشّر ، والمباح والمحرم ، والواجب وغيره ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» ، أما العالة فهم الفقراء ، والعائل الفقير ، والعيلة الفقر ، وعال الرجل يعيل عيلة أي افتقر ، والرعاء بكسر الراء وبالمد ، ويقال فيهم الرعاة بضمّ الراء وزيادة الهاء بلا مدّ ، ومعناه أن أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة ، تبسط لهم الدنيا ، حتى

يتباهون في البنيان . والله أعلم .

قوله : «فلبث مليا» هكذا ضبطناه ، لبث آخره ثاء مثلثة من غير تاء ، وفي كثير من الأصول المحققة «لبثت» بزيادة تاء المتكلم ، وكلاهما صحيح ، وأما «مليا» بتشديد الياء ، فمعناه وقتا طويلا ، وفي رواية أبي داود والترمذي ، أنه قال ذلك بعد ثلاث ، وفي شرح السنة للبغوي بعد ثالثة ، وظاهر هذا أنه بعد ثلاث ليال ، وفي ظاهر هذا مخالفة لقوله في حديث أبي هريرة بعد هذا ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ردّوا عليّ الرجل ، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم : «هذا جبريل» فيحتمل الجمع بينهما أن عمر رضي الله عنه لم يحضر قول النبي صلى الله عليه وسلّم لهم في الحال ، بل كان قد قام من المجلس ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلّم الحاضرين في الحال ، وأخبر عمر رضي الله عنه بعد ثلاث ، إذا لم يكن حاضرا وقت إخبار الباقين ، والله أعلم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» ، فيه أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها

نحوه ، وقال فيه : فلبثت مليا [1] وخرجه الترمذي بنحو حديث مسلم وقال في آخره :

فلقيني النبي صلى الله عليه وسلّم بعد ذلك بثلاث فقال : يا عمر ، أتدري من السائل ؟

ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم [2] . قال القاضي عياض : فقد قرر أن الإيمان محتاج

[3] إلى العقد بالجنان ، والإسلام

---

[ ()] دينا . واعلم أن هذا الحديث يجمع أنواعا من العلوم والمعارف ، والآداب واللطائف ،

بل هو أصل الإسلام . ومن فوائد هذا الحديث :

[1] أنه ينبغي لمن حضر مجلس العالم إذا علم بأهل المجلس حاجة إلى مسألة لا يسألون عنها

، أن يسأل هو عنها ليحصل الجواب للجميع .

[2] أنه ينبغي للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ، ليتمكن من سؤاله ، غير هائب منه ولا

منقبض .

[3] أنه ينبغي للسائل أن يرفق في سؤاله . (المرجع السابق) : 1/ 269 - 275 .

[1] (صحيح سنن الترمذي) : 3/ 887 ، باب (17) في القدر ، حديث رقم

(3928 - 4695) ، (تحفة الأحوذي) : 12/ 300 ، كتاب السنة ، باب (16) ،

حديث رقم (4681) .

[2] وأخرجه أيضا ابن ماجة ، (صحيح ابن ماجة) : 1/ 16 - 17 ، حديث رقم

(53 - 63) ، (54 - 64) ، وقال في آخره : «ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا

ولدت الأمة ربتها فذلك من أشراطها وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذلك من أشراطها ، في خمس لا يعلمهن إلا الله ، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ 31 : 34 [لقمان : 34] .

وأخرجه أيضا النسائي ، وقال في أوله : «عن أبي هريرة وأبي ذر قالا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يجلس بين ظهراني أصحابه ، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل ، فطلبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه ، فبنينا له دكانا من طين كان يجلس عليه ، وإنا لجلوس ورسول الله صلى الله عليه وسلّم في مجلسه ، إذ أقبل رجل أحسن الناس وجها ، وأطيب الناس ريحا ، كأن ثيابه لم يمسها دنس ، حتى سلّم في طرف البساط فقال : السلام عليك يا محمد ، فرد عليه السلام . قال : أدنو يا محمد ، . . فما زال يقول : أدنو مرارا حتى وضع يده على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، قال : يا محمد ، أخبرني ما الإسلام . . . وساق الحديث باختلاف يسير .

(صحيح سنن النسائي) : 3/ 1025 - 1026 ، كتاب (47) الإيمان وشرائعة ، باب (6) صفة الإيمان والإسلام ، حديث رقم (4618) .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند ، وقال في آخره بعد قوله صلى الله عليه وسلّم : ذاك جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ، قال : وسأله رجل من جهينة ، أو مزينة فقال : يا رسول الله

، فيما نعمل ؟ أفي شيء قد خلا أو مضى ؟

أو في شيء يستأنف الآن ؟ قال : في شيء قد خلا أو مضى ، فقال رجل أو بعض القوم : يا رسول الله فيما نعمل ؟ قال : أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة ، وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار . (مسند أحمد) : 1/ 46 ، مسند عمر بن الخطاب ، حديث رقم (185) .

[3] في (خ) «يحتاج» ، وما أثبتناه من (الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض) .

*(194/428)*

---

به مضطر إلى النطق باللسان ، وهذه الحالة المحمودة التامة ، وأما الحال المذمومة : فالشهادة باللسان دون تصديق القلب ، وهذا هو النفاق ، قال : وللفرق بين القول والعقد ما جعل في حديث جبريل عليه السلام ، الشهادة من الإسلام ، والتصديق من الإيمان ، وبقيت حالتان [أخريان بين هذين ] [1] .

إحداهما : أن يصدق بقلبه ثم يخترم [2] قبل اتساع وقت للشهادة بلسانه ، فاختلف فيه فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به ، ورآه بعضهم مؤمنا مستوجبا للجنة لقوله صلى الله عليه وسلّم : يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان [3] ، فلم يذكر

سوى ما في القلب ، وهذا مؤمن بقلبه غير عاص ولا مفرط بترك غيره ، وهذا هو الصحيح في هذا الوجه .

الثانية : أن يصدق بقلبه ويطول مهلة وعلم ما يلزمه من الشهادة فلم ينطق بها جملة ، ولا استشهد في عمره ولا مرة ، فهذا اختلف فيه أيضا فقيل : هو مؤمن لأنه مصدق ، والشهادة من جملة الأعمال ، فهو عاص بتركها غير مخلد [في النار] [4] ، وقيل : ليس بمؤمن حتى يقارن عقده بشهادة ، إذ الشهادة إنشاء عقد وإلزام إيمان ، وهي مرتبطة مع العقد ، ولا يتم التصديق مع المهلة إلا بها ، وهذا هو الصحيح .

وخرج الحاكم من حديث عبد الرازق عن معمر عن أيوب عن سعيد بن هيثم ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار ، فجعلت أقول :

أين [5] تصديقها في كتاب الله ، [وقلّ ما سمعت حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلّم إلا وجدت

---

[1] تكملة من المرجع السابق .

[2] في (خ) و(الشفا ) «يحترم» بالحاء ، وما أثبتناه أجود للسياق ، حيث اخترم فلان عنّا : مات وذهب ، واخترمته المنية من بين أصحابه : أخذته من بينهم ، واخترمهم الدهر وتخرّمهم أي اقتطعهم واستأصلهم ، ويقال : خرمته الخوارم إذا مات . (لسان العرب) :

12/ 172 مادة خرم.

[3] في (خ) : «الإيمان» ، وما أثبتناه من (الشفا) .

[4] زيادة للسياق من هامش المرجع السابق .

[5] في (خ) : «أن» ، ما أثبتناه من (المستدرك) : 2/ 372 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة هود عليه السلام ، حديث رقم (3309/ 446) .

*(195/428)*

---

تصديقه في كتاب الله تعالى ] [1] ، حتى وجدت هذه الآية : وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ 11 : 17 [2] ، قال : الأحزاب الملل كلها ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

---

[1] ما بين الحاصرتين زيادة من (خ) ، وليست في (المستدرك) .

[2] هود : 17 .

*(196/428)*

---

وأما فرض طاعته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه بما جاء به وجبت طاعته لأن ذلك مما أتي به صلى الله عليه وسلّم

قال الله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ 4 : 59 [1] ، وقال: أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ 3 : 132 [2] ، فجمع تعالى بينهما بواو العطف المشتركة، ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه صلى الله عليه وسلّم، قال: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا 24 : 54 [3] ، وقال: من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ 4 : 80 [4] ، وقال: وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا 59 : 7 [5] ، وقال: وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ 4 : 69 [6] الآية، وقال: وَما أَرْسَلْنا من رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ 4 : 64 [7] ، فجعل طاعة رسوله طاعته تعالى، وقرن طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه، فبيّن أنه سبحانه وتعالى فرض على الكافة بأسرها طاعة رسوله صلى الله عليه وسلّم فرضا مطلقا لا شرط فيه ولا استثناء، كما فرض تعالى طاعته ولم يقل من طاعتي، أو من كتابي أو بأمري، وحين فرض أمره ونهيه صلى الله عليه وسلّم على الخلق طرا كفرض من التنزيل، لا يزاد في ذلك، ولا يطلب فيه تنبيه، كما أخبر تعالى عن قوم موسى عليه السلام أنهم قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً 2 : 55 [8] ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أولى بأمته

وبأموالهم وأنفسهم وأهليهم وذراريهم منهم بأنفسهم ، قال تعالى : النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أَنْفُسِهِمْ 33 : 6 [9] ، وقع ذلك منهم بوفاقهم وكراهيتهم ، فإنه تعالى حكم على من وجد في نفسه شيئًا من

---

[1] النساء : 59 ، وفي (خ) : «ورسوله» .

[2] آل عمران : 32 .

[3] النور : 54 .

[4] النساء : 80 .

[5] الحشر : 7 .

[6] النساء : 69 .

[7] النساء : 64 .

[8] البقرة : 55 .

[9] الأحزاب : 6 .

حكمه صلى الله عليه وسلّم وقضائه بالخروج من الإيمان ، قال تعالى : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً 4 : 65 [1] ، فأقسم سبحانه وتعالى بأن أحدا لا يؤمن حتى يحكّم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلّم ، ثم مع تحكيمه إياه لا يجد في نفسه كرها لما قضى به عليه مما هو مخالف لهواه ، بل يرضى بما حكم به ، ويسلّم لأمره تسليما لا شائبة فيه من اعتراض ولا تعقيب .

وانظر - أعزك الله وهداك - كيف أقسم تعالى بإضافة الرب إلى كاف الخطاب ، يتبين لك تعظيمه تعالى للرسول صلى الله عليه وسلّم ، حتى هنا : غاية ، أي ينتفي عنهم الإيمان إلى هذه الغاية ، فإذا وجد ما بعد الغاية كانوا مؤمنين ، وفِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ 4 : 65 ، في كل أمر دنيوي وأخروي وقع بينهم فيه تنازع وتجاذب ، ومعنى يُحَكِّمُوكَ 4 : 65 : يجعلوك حكما ، وفي الكلام حذف تقديره : فتقضي بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا ، أي ضيقا من حكمك .

وقال مجاهد : شكّا ، لأن الشاكّ في ضيق من أمره حتى يلوح له الشأن ، وقال الضحاك : إثما ، أي سبب إثم ، والمعنى : لا يخطر ببالهم ما يأثمون به من عدم الرضى ، وقيل : هما وحزنا ، ويسلموا : أي ينقادوا ويذعنوا لقضائك لا يعارضون فيه بشيء ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والجمهور .

وقيل: معناه ويسلموا: أي سارعوا فيه لحكمك، ذكره الماوردي، وأكد تعلق الفعل بالمصدر على سبيل صدور التسليم حقيقة.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام محبته والتسليم لما جاء به، وقالوا: وما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه.

وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام فقال: وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ 59 : 7 [2]، وقال السمرقندي: يقال: أطيعوا الله في فرائضه والرسول في سننه، وقيل: أطيعوا الله فيما حرّم عليكم والرسول فيما بلغكم، ويقال: أطيعوا الله

---

[1] النساء: 65.

[2] الحشر: 7.

(198/428)

---

بالشهادة له بالربوبية، والنبي بالشهادة له بالنّبوّة.

وخرج البخاري في كتاب الأحكام من حديث الزهري: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع [من] [1] أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: من

أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني [2] . وخرجه مسلم [3] مثله

---

[1] زيادة في السياق .

[2] قوله صلى الله عليه وسلّم : «من أطاعني فقد أطاع الله» ، هذه الجملة منتزعه من قوله تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ 4 : 80 ، أي أني لا آمر إلا بما أمر الله به ، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع من أمرني أن آمره ، ويحتمل أن يكون المعنى لأن الله أمر بطاعتي فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله له بطاعتي ، وفي المعصية كذلك . والطاعة هي الإتيان بالمأمور به ، والانتهاء عن المنهي عنه ، والعصيان بخلافه .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «و من أطاع أميري فقد أطاعني» ، في رواية (همام) ، و(الأعرج) وغيرهما عند مسلم : «و من أطاع الأمير» ، ويمكن رد اللفظين لمعنى واحد ، فإن كل من يأمر بحق وكان عادلا فهو أمير الشارع ، لأنه تولى بأمره وبشريعته ، ويؤيده توحيد الجواب في الأمرين ، وهو قوله : صلى الله عليه وسلّم : «فقد أطاعني» ، أي عمل بما شرعته ، وكأن الحكمة في تخصيص أميره بالذكر ، أنه المراد وقت الخطاب ، ولأنه سبب ورود الحديث .

وأما الحكم ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ووقع في رواية همام أيضا : «و من يطع الأمير فقد أطاعني» بصيغة المضارعة ، وكذا «و من يعص الأمير فقد عصاني» وهو أدخل في إرادة تعميم من خوطب ومن جاء بعد ذلك .

قال ابن التين : قيل : كانت قريش ومن يليها من العرب لا يعرفون الإمارة ، فكانوا يمتنعون على الأمراء ، فقال هذا القول يحثهم على طاعة من يؤمرهم عليهم ، والانقياد لهم ، إذا بعثهم في السرايا ، وإذا ولاهم البلاد ، فلا يخرجوا عليهم ، لئلا تفترق الكلمة .

قال الحافظ في الفتح : هي عبارة الشافعيّ في (الأم) ، ذكره في سبب نزولها ، وعجبت لبعض شيوخنا الشراح من الشافعية ، فكيف قنع بنسبة هذا الكلام إلى ابن التين ، معبرا عنه بصيغة «قيل» ، وابن التين إنما أخذه من كلام الخطابي ؟

ووقع عند أحمد ، وأبي يعلي ، والطبراني ، من حديث ابن عمر ، قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم في نفر من أصحابه فقال : ألستم تعلمون أن من أطاعني فقد أطاع الله ، وأن من طاعة الله طاعتي ؟ قالوا : بلى نشهد ، قال : فإن من طاعتي أن تطيعوا أمراءكم» . وفي لفظ : «أئمتكم» . وفي الحديث وجوب طاعة ولاه الأمور ، وهي مقيدة بغير الأمر بالمعصية ، والحكمة في الأمر بطاعتهم ، المحافظة على اتفاق الكلمة ، لما في الافتراق من الفساد ، والله أعلم . (فتح الباري) :

13/ 139 - 141 ، كتاب الأحكام ، باب (1) أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ 4 : 59 ، حديث رقم (7137) .

[3] (مسلم بشرح النووي) : 12/ 464 ، كتاب الإمارة ، باب (8) وجوب طاعة الأمراء من غير

سواء ، فطاعة الرسول من طاعة الله ، إذ الله أمر بطاعته ، وطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له .

وقد حكى الله تعالى عن الكفار في دركات [1] جهنم يوم تقلب وجوههم في النار يقولون : يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا 33 : 66 [2] فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني .

وخرج البخاري ومسلم من حديث ابن شهاب قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وسعيد بن المسيب قالا : كان أبو هريرة يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم [3] . وخرجه البخاري من حديث مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : دعوني ما تركتكم ، إنما هلك من كان

---

[ () ] معصية وتحريمها في المعصية ، حديث رقم (32) ، (33) :

قال الإمام النووي : أجمع العلماء على وجوبها في غير معصية ، وعلى تحريمها في المعصية ، قال العلماء :

المراد بأولي الأمر ، من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء ، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم . وقيل : هم العلماء ، وقيل : هم الأمراء والعلماء ، وأما من قال : الصحابة خاصة فقد أخطأ . (المرجع السابق) .

[1] دركات النار : منازل أهلها ، والنار دركات ، والجنة درجات ، والدّرك إلى أسفل ، والدّرج إلى فوق .

(لسان العرب) : 10/ 422 مادة درك .

[2] الأحزاب : 66 .

[3] (مسلم بشرح النووي) : 15/ 118 ، كتاب الفضائل ، باب (37) توقيره صلى الله عليه وسلّم وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ، أو لا يتعلق به تكليف ، وما لا يقع ، ونحو ذلك ، حديث رقم (130) .

قال الإمام النووي : مقصود أحاديث الباب أنه صلى الله عليه وسلّم نهاهم عن إكثار السؤال والابتداء بالسؤال عما لا يقع ، ذكره ذلك لمعان :

منها أنه ربما كان سببا لتحريم شيء على المسلمين فيلحقهم به المشقة .

ومنها أنه ربما كان في الجواب ما يكرهه السائل ويسوؤه ، ولهذا أنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ 5 : 101 ومنها أنهم أحفوه

صلى الله عليه وسلّم بالمسألة ، والحفوة المشقة والأذى ، فيكون ذلك سببا لهلاكهم .

(المرجع السابق) .

*(200/428)*

---

قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم . ذكره في كتاب الاعتصام [1] .

---

[1] (فتح الباري) : 13/312 ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب (2) ، الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً 25 : 74 ، حديث رقم (7288) .

قال الإمام النووي : هذا من جوامع الكلم ، وقواعد الإسلام ، ويدخل فيه كثير من الأحكام ، كالصلاة لمن عجز عن ركن منها أو شرط فيأتي بالمقدور ، وكذا الوضوء ، وستر العورة ، وحفظ بعض الفاتحة ، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل ، والإمساك في رمضان لمن أفطر بالعذر ثم قدر في أثناء النهار ، إلى غير ذلك من المسائل التي يطول شرحها .

وقال غيره : فيه أن من عجز عن بعض الأمور لا يسقط عنه المقدور ، وعبّر عنه بعض

الفقهاء بأن الميسور لا يسقط بالمعسور ، كما لا يسقط ما قدر عليه من أركان الصلاة بالعجز عن غيره ، وتصح توبة الأعمى عن النظر المحرم ، والمجبوب عن الزنا ، لأن الأعمى والمجبوب قادران على الندم فلا يسقط عنهما بعجزهما عن العزم على عدم العود ، إذ لا يتصور منهما العود عادة ، فلا معنى للعزم على عدمه .

واستدل به على أن من أمر بشيء فعجز عن بعضه ففعل المقدور أنه يسقط عنه ما عجز عنه ، وبذلك استدل المزني على أن [ما وجب أداؤه لا يجب قضاؤه ] ، ومن ثم كان الصحيح أن القضاء بأمر جديد .

واستدل بهذا الحديث على أن اعتناء الشرع بالمنهيات فوق اعتنائه بالمأمورات ، لأنه أطلق الاجتناب في المنهيات ولو مع المشقة في الترك ، وقيد في المأمورات بقدر الطاقة ، وهذا منقول عن الإمام أحمد .

فإن قيل : أن الاستطاعة معتبرة في النهي أيضا ، إذ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها 2 : 286 ، فجوابه أن الاستطاعة تطلق باعتبارين ، كذا قيل ، والذي يظهر أن التقييد في الأمر بالاستطاعة ، لا يدل على المدعي مع الاعتناء به ، بل هو من جهة الكف ، إذ كل أحد قادر على الكف لو لا داعية الشهوة مثلا ، فلا يتصور عدم الاستطاعة عن الكف ، بل كل مكلف قادر على الترك ، بخلاف الفعل ، فإن العجز عن تعاطيه محسوس ، فمن ثم قيد في الأمر بحسب الاستطاعة دون النهي .

وعبّر الطوفي في هذا الموضوع بأن ترك المنهي عنه عبارة عن استصحاب حال عدمه ، أو الاستمرار على عدمه ، وفعل المأمور به عبارة عن إخراجه من العدم إلى الوجود ، وقد نوزع بأن القدرة على استصحاب عدم النهي عنه قد تتخلف ، واستدل له بجواز أكل المضطر الميتة ، وأجيب بأن النهي في هذا عارضه الإذن بالتناول في تلك الحالة .

وقال ابن فرج في (شرح الأربعين) : قوله صلى الله عليه وسلّم : «فاجتنوه» ، هو على إطلاقه ، حتى يوجد ما يبيحه ، كأكل الميتة عند الضرورة ، وشرب الخمر عند الإكراه ، والأصل في ذلك جواز التلفظ بكلمة الكفر إذا كان القلب مطمئنا بالإيمان ، كما نطق به القرآن .

والتحقيق أن المكلف في ذلك كله ليس منهيا في تلك الحال ، وأجاب الماوردي بأن الكف عن المعاصي ترك وهو سهل ، وعمل الطاعة فعل وهو يشق ، فلذلك لم يبح ارتكاب المعصية ولو مع العذر لأنه ترك ، والترك لا يعجز المعذور عنه ، وأباح ترك العمل بالعذر لأن العمل قد يعجز المعذور عنه .

(201/428)

---

[()] وادعى بعضهم أن قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ 16 : 64 ، يتناول امتثال

المأمور واجتناب المنهي وقد قيد بالاستطاعة واستويا ، فحينئذ يكون الحكمة في تقييد الحديث بالاستطاعة في جانب الأمر دون النهي ، أن العجز يكثر تصوره في الأمر بخلاف النهي ، فإن تصور العجز فيه محصور في الاضطرار .

وزعم بعضهم أن قوله تعالى : فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ 64 : 16 ، نسخ قوله تعالى : اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ 3 : 102 . والصحيح أن لا نسخ ، بل المراد بحق تقاته ، امتثال أمره واجتناب نهية مع القدرة لا مع العجز .

واستدل به على أن المكروه يجب اجتنابه لعموم الأمر باجتناب المنهي عنه ، فشمل الواجب والمندوب .

وأجيب بأن قوله تعالى : فَاجْتَنِبُوهُ 5 : 90 ، يعمل به في الإيجاب والندب بالاعتبارين ، ويجيء مثل هذا السؤال وجوابه في الجانب الآخر وهو الأمر .

وقال الفاكهاني : النهي يكون تارة مع المانع من النقيض وهو المحرم ، وتارة لا معه وهو المكروه ، وظاهر الحديث يتناولهما .

واستدل به على أن المباح ليس مأمورا به ، لأن التأكيد في الفعل إنما يناسب الواجب والمندوب ، وكذا عكسه . وأجيب بأن من قال : المباح مأمور به ، لم يرد الأمر بمعنى الطلب ، وإنما أراد بالمعنى الأعم وهو الإذن .

واستدل به على أن الأمر لا يقتضي التكرار ولا عدمه ، وقيل : يقتضيه ، وقيل : يتوقف

فيما زاد على مرة ، وحديث الباب قد يتمسك به لذلك ، لما في سببه أن السائل قال في الحج : أكل عام ؟ فلو كان مطلقة يقتضي التكرار أو عدمه لم يحسن السؤال ولا العناية بالجواب . وقد يقال : إنما سأل استظهارا أو احتياطا .

وقال المازري : يحتمل أن يقال : إن التكرار إنما احتمل من جهة أن الحج في اللغة قصد تكرار ، فاحتمل عند السائل التكرار من جهة اللغة ، لا من صيغة الأمر . وقد تمسك به من قال بإيجاب العمرة ، لأن الأمر بالحج إذا كان معناه تكرار قصد البيت بحكم اللغة والاشتقاق ، وقد ثبت في الإجماع أن الحج لا يجب إلا مرة ، فيكون العود إليه مرة أخرى دالا على وجوب العمرة .

واستدل به على أن النبي صلى الله عليه وسلّم كان يجتهد في الأحكام لقوله صلى الله عليه وسلّم : «لو قلت نعم لوجبت» ، وأجاب من منع باحتمال أن يكون أوحى إليه ذلك في الحال .

واستدل به على أن جميع الأشياء على الإباحة ، حتى يثبت المنع من قبل الشارع .

واستدل به على النهي عن كثرة المسائل والتعمق في ذلك .

قال البغوي في (شرح السنة) : المسائل على وجهين :

أحدهما : ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين ، فهو جائز ، بل مأمور به لقوله تعالى :

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ 16 : 43 ، وعلى ذلك تتنزل أسئلة الصحابة عن الأنفال والكلالة وغيرهما .

ثانيهما : ما كان على وجه التعنت والتكلف ، وهو المراد في هذا الحديث ، والله تعالى أعلم ،



---

وخرج البخاري ومسلم من حديث أبي أمامة عن بريدة عن أبي بريدة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيش بعينيّ وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء [النجاء] [1] ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني [فاتبع] [2] ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق .

لفظهما فيه متقارب ، ولم يقل فيه مسلم : فنجوا . ذكره البخاري في كتاب الاعتصام [3] .

. .

---

[ () ] ويؤيده ورود الزجر في الحديث عن ذلك وذم السلف ، فعند أحمد من حديث معاوية

: «أن النبي صلى الله عليه وسلّم نهي عن الأغلوطات» ، قال الأوزاعي : هي شداد المسائل ، وقال الأوزاعي أيضا : «إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علما» .

وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : «المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل» ، وقال ابن العربيّ : «كان النهي عن السؤال في العهد النبوي خشية أن ينزل ما يشق عليهم ، فأما بعد فقد أمن ذلك ، لكن أكثر النقل عن السلف بكراهة الكلام في المسائل التي لم تقع» ، قال : «وإنه لمكروه إن لم يكن حراما ، إلا للعلماء ، فإنّهم فرعوا ومهدوا ، فنفع الله من بعدهم بذلك ، ولا سيما مع ذهاب العلماء ودروس العلم .

وينبغي أن يكون محل الكراهية للعالم ، إذا شغله ذلك عما هو أعم منه ، وكان ينبغي تلخيص ما يكثر وقوعه مجردا عما يندر ، ولا سيما في المختصرات ليسهل تناوله ، والله المستعان .

واستدل به على أن الاشتغال بالأهم المتاح إليه عاجلا عما لا يحتاج إليه في الحال ، فكأنه قال :

عليكم بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، فاجعلوا اشتغالكم بها عوضا عن الاشتغال بالسؤال عما لم يقع .

فينبغي للمسلم أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله ، ثم يجتهد في تفهم ذلك ، والوقوف

على المراد به ، ثم يتشاغل بالعمل به ، فإن كان من العلميات ، يتشاغل بتصديقه واعتقاد أحقيته ، وإن كان من العمليات ، بذل وسعه في القيام به فعلا وتركا ، فإن وجد وقتا زائدا على ذلك فلا بأس بأن يصرفه في الاشتغال بتعرف حكم ما سيقع على قصد العمل به أن لو وقع ، فأما إن كانت الهمة مصروفة عن سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع ، مع الإعراض عن القيام بمقتضى ما سمع ، فإن هذا مما يدخل في النهي ، فالتفقه في الدين إنما يحمد إذا كان للعمل ، لا للمراء والجدال. (المرجع السابق) : 325 - 328.

[1] في (خ) : «النجاء» مرتين خلافا لرواية البخاري.

[2] في (خ) : «واتبع» ، وما أثبتناه من رواية البخاري.

[3] (فتح الباري) : 13/ 311 ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب (2) الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً 25 : 74 ، حديث رقم (7283).

(203/428)

---

وفي كتاب الرقاق [1].

---

[1] (المرجع السابق) : 11/ 383 ، كتاب الرقاق ، باب (26) الانتهاء عن المعاصي ، حديث رقم (6482) .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «ما بعثني الله» ، العائد محذوف ، والتقدير بعثني الله به إليكم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «أتى قوما» التنكير فيه للشيوع .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «بعيني» ، بالإفراد ، وللكشميهني بالتثنية بفتح النون والتشديد ، قيل : ذكر العينين إرشادا إلى أنه تحقّق عنده ما أخبر عنه ، تحقّق من رأى شيئًا بعينه ، لا يعتريه وهم ، ولا يخالطه شك .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وإني أنا النذير العريان» ، قال ابن بطال : النذير العريان ، رجل من خثعم ، حمل عليه رجل يوم ذي الخلصة ، فقطع يده ويد امرأته ، فانصرف إلى قومه فحذرهم ، فضرب به المثل في تحقيق الخبر .

قال الحافظ في الفتح : وسبق إلى ذلك يعقوب بن السكيت وغيره ، وسمّى الّذي حمل عليه (عوف ابن عامر اليشكري) ، وأن المرأة كانت من بني كنانة ، وتعقب باستبعاد تنزيل هذه القصة على لفظ الحديث ، لأنه ليس فيها أنه كان عريانا .

وزعم ابن الكلبي أن النذير العريان امرأة من بني عامر بن كعب ، لما قتل المنذر بن ماء السماء أولاد أبي داود – وكان جار المنذر – خشيت على قومها ، فركبت جملا ولحقت

بهم وقالت : أنا النذير العريان .

ويقال : أول من قاله أبرهة الحبشي لما أصابته الرمية بتهامة وقد سقط لحمه . وذكر أبو بشر الآمدي :

أن زنبرا - بزاي ونون ساكنة ثم موحدة - ابن عمرو الخثعميّ ، كان ناكحا في آل زبيد ، فأرادوا أن يغزوا قومه ، وخشوا أن ينذر بهم ، فحرسه أربعة ، فصادف منهم غرة ، فقذف ثيابه وعدا ، وكان من أشدّ الناس عدوا فأنذر قومه .

وقال غيره : الأصل فيه أن رجلا لقي جيشا فسلبوه وأسروه ، فانفلت إلى قومه فقال : إني رأيت الجيش فسلبوني ، فرأوه عريانا فتحققوا صدقه ، لأنهم كانوا يعرفونه ولا يتهمونه في النصيحة ، ولا جرت عادته بالتعري ، فقطعوا بصدقة لهذه القرائن ، فضرب النبي صلى الله عليه وسلّم لنفسه ولما جاء به مثلا بذلك ، لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالة على القطع بصدقة ، تقريبا لأفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه .

ويؤيد ما أخرجه الرامهرمزيّ في الأمثال ، وعند أحمد أيضا بسند جيد ، من حديث عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال : «خرج النبي صلى الله عليه وسلّم ذات يوم فنادى ثلاث مرات : أيها الناس ، مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا أن يأتيهم ، فبعثوا رجلا يترايا لهم ، فبينما هم كذلك إذ أبصر العدو ، فأقبل لينذر قومه فخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه أيها الناس أتيتم ثلاث مرات» . وأحسن ما فسّر به الحديث من الحديث .

وأخرجه أبو الشيخ بنحوه في كتاب (الأمثال في الحديث النبوي) ، وقال : رجاله رجال الصحيح .

ص 297 ، حديث رقم (253) . وهذا كله يدل على أن العريان من التعري ، وهو المعروف في الرواية .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «فالنجاء النجاء» ، بالمد فيهما ، وبمد الأولى وقصر الثانية ، وبالقصر فيهما تخفيفا ، وهو منصوب على الإغراء ، أي اطلبوا النجاء بأن تسرعوا الهرب ، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك

*(204/428)*

---

وخرج البخاري من حديث سعيد بن ميناء قال : حدثنا - أو سمعت - جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول : جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا :

[بأن] [1] لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا ، فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل [من] [2] المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل [من] [2] المأدبة ، فقالوا :

أولوها له بفقهها ، [قال] [3] بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : فالدار الجنة ، والداعي محمد صلى الله عليه وسلّم [2] ، فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلّم [2] فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلّم [2] فقد عصى الله ، ومحمد فرق بين

---

[()] الجيش . قال الطيبي : في كلامه أنواع من التأكيدات :

أحدها : «بعيني» . ثانيهما : «وإني أنا» . ثالثها : «العريان» ، لأنه الغاية في قرب العدو ، ولأنه الّذي يختص في إنذاره بالصدق .

قوله : «فأطاعه طائفه» ، كذا فيه بالتذكير ، لأن المراد بعض القوم .

قوله : «فأدلجوا» ، بهمزة قطع ثم سكون ، أي ساروا أول الليل ، أو ساروا الليل كله ، على الاختلاف في مدلول هذه اللفظة .

قوله : «على مهلهم» ، بفتحتين ، والمراد به الهينة والسكون ، وبفتح أوله وسكون ثانيه الإمهال ، وليس مرادا هنا ، وفي رواية مسلم «على مهلتهم» بزيادة تاء تأنيث ، وضبطه النووي بضم الميم وسكون الهاء وفتح اللام .

قوله : «وكذبته طائفة» ، قال الطيبي : عبّر في الفرقة الأولى بالطاعة ، وفي الثانية بالتكذيب ، ليؤذن بأن الطاعة مسبوقة بالتصديق ، ويشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان .

قوله : «فصبّحهم الجيش» ، أي أتاهم صباحا ، هذا أصله ، ثم كثر استعماله ، حتى استعمل فيمن طرق بغتة في أي وقت كان .

قوله : «فاجتاحهم» ، بجيم ثم حاء مهملة ، أي استأصلهم ، من جحت الشيء أجوحه إذا استأصلته ، والاسم : الجائحة ، وهي الهلاك ، وأطلقت على الآفة لأنها مهلكة .

قال الطيبي : شبه صلى الله عليه وسلّم نفسه بالرجل ، وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح ، وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه ، بمن كذّب الرجل في إنذاره ومن صدّقه .

[1] كذا في (خ) ورواية البخاري : «إن» .

[2] زيادات من رواية البخاري .

[3] كذا في (خ) ، ورواية البخاري «فقال» .



---

الناس [1] [2] . . .

---

[1] (فتح الباري) : 13/ 310 ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب

[2] الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ

إِماماً 25 : 74 ، حديث رقم (7281) .

قوله : «حدثنا أو سمعت» ، القائل ذلك سعيد بن ميناء ، والشّاك هو سليم بن حيان ، شك في أيّ الصيغتين قالها شيخه سعيد .

قوله : «جاءت ملائكة» ، لم أقف على أسمائهم ولا أسماء بعضهم ، ولكن في رواية سعيد بن أبي هلال المعلقة عقب هذا عن الترمذي أن الّذي حضر في هذه القصة جبريل وميكائيل ، ولفظة : «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوما فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي . . » ، فيحتمل أنه كان مع كل منهما غيره . واقتصر في هذه الرواية على من باشر الكلام منهم ابتداء وجوابا ، ووقع في حديث ابن مسعود عند الترمذي ، وحسنه وصححه ابن خزيمة : أن النبي صلى الله عليه وسلّم توسّد فخذه فرقد ، وكان إذا نام نفخ ، قال : فبينا أنا قاعد ، إذ أنا برجال عليهم ثياب بيض ، الله أعلم بما بهم من الجمال ، فجلست طائفة منهم عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وطائفة منهم عند رجليه .

قوله : «إن لصاحبكم هذا مثلا قال : فاضربوا له مثلا» ، كذا للأكثر ، وسقط لفظ «قال» من رواية أبي ذر .

قوله : «فقال بعضهم : إنه نائم . . . إلى قوله : يقظان» ، قال الرامهرمزيّ : هذا تمثيل يراد به حياة القلب وصحة خواطره ، يقال : رجل يقظ ، إذا كان ذكي القلب ، وفي حديث ابن

مسعود ، فقالوا بينهم : ما رأينا عبدا قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي ، إن عينيه تنامان وقلبه يقظان ، اضربوا له مثلا .

وفي رواية سعيد بن أبي هلال : فقال أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلا ، فقال : «اسمع سمع أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك» . ونحوه في حديث ربيعة الجرشي ، عند الطبراني ، زاد أحمد في حديث ابن مسعود ، فقالوا : اضربوا له مثلا ، ونؤول أو نضرب وأولوا ، وفيه : ليعقل قلبك .

قوله : «مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة» ، في حديث ابن مسعود : «مثل سيد بنى قصرا» ، وفي رواية أحمد : «بنيانا حصينا ثم جعل فيها مأدبة فدعا الناس إلى طعامه وشرابه ، فمن أجاب أكل من طعامه وشرب من شرابه ، ومن لم يجبه عاقبه – أو قال – عذبه» . وفي رواية أحمد «عذب عذابا شديدا .

والمأدبة بسكون الهمزة وضم الدال بعدها موحدة ، وحكى بالفتح ، وقال ابن التين : عن أبي عبد الملك الضم والفتح لغتان فصيحتان ، وقال الرامهرمزيّ نحوه في حديث «القرآن مأدبة الله» قال :

وقال لي أبو موسى الحامض : من قاله بالضم أراد الوليمة ، ومن قاله بالفتح أراد أدب الله الّذي أدب به عباده . قال الحافظ ابن حجر : فعلى هذا يتعين الضم .

قوله : «فبعث داعيا» ، في رواية سعيد : «ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم

من أجاب الرسول ومنهم من تركه» .

قوله : «فقال بعضهم : أوّلوها بفقهها » ، قيل : يؤخذ منه حجة لأهل التعبير ، أن التعبير إذا وقع في المنام اعتمد عليه . قال ابن بطال : قوله : «أولوها له» يدل على أن الرؤيا ما عبرت في النوم ،أ . ه .

وفيه نظر لاحتمال الاختصاص بهذه القصة ، لكون الرائي النبي صلى الله عليه وسلّم ، والمرئي الملائكة ، فلا يطرد ذلك في حق غيرهم .



---

[ () ] قوله : «فقالوا : الدار الجنة» ، أي الممثل بها ، زاد في رواية سعيد بن أبي هلال : «فالله هو الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول الله» . وفي حديث ابن مسعود عند أحمد : «أما السيد فهو الله رب العالمين ، وأما البنيان فهو الإسلام ، والطعام الجنة ، ومحمد الداعي» ، فمن اتبعه كان في الجنة .

قوله : «فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله» ، أي لأنه رسول صاحب المأدبة ، فمن أجابه ودخل في دعوته أكل من المأدبة ، وهو كناية عن دخول الجنة ، ووقع بيان ذلك في رواية سعيد ، ولفظه : «وأنت يا محمد رسول الله ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل

الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل ما فيها » .

قوله : «ومحمد فرق بين الناس» ، كذا لأبي ذر بتشديد الراء فعلا ماضيا ، ولغيره بسكون الراء والتنوين ، وكلاهما متجه . قال الكرماني : ليس المقصود من هذا التمثيل تشبيه المفرد بالمفرد ، بل تشبيه المركّب بالمركّب ، مع قطع النظر عن مطابقة المفردات من الطرفين . أ . ه .

وقد وقع في غير هذه الطريق ما يدل على المطابقة المذكورة ، زاد في حديث ابن مسعود : «فلما استيقظ قال : سمعت ما قال هؤلاء ، هل تدري من هم ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : هم الملائكة ، والمثل الّذي ضربوا : الرحمن بنى الجنة ودعا إليها عباده» الحديث .

تنبيه : قال الحافظ في الفتح : تقدم في كتاب المناقب من وجه آخر عن سليم بن حيان بهذا الإسناد ، «قال النبي صلى الله عليه وسلّم مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة» الحديث . وهو حديث آخر ، وتمثيل آخر ، فالحديث الّذي في المناقب – وهو الحديث رقم (3534) – يتعلق بالنبوّة وكونه صلى الله عليه وسلّم خاتم النبيين . وهذا يتعلق بالدعاء إلى الإسلام ، وبأحوال من أجاب أو امتنع ، وقد وهم من خلطهما كأبي نعيم في (المستخرج) ، فإنه لما ضاق عليه مخرج حديث الباب ، ولم يجده مرويا عنده ، أورد حديث اللبنة ، ظنا منه أنهما حديث واحد ، وليس كذلك لما بينته . وسلّم الإسماعيلي من ذلك ، فإنه لما لم يجده في مروياته ، أورده من روايته عن الفربري ،

بالإجازة عن البخاري بسنده ، وقد روى يزيد بن هارون بهذا السند حديث اللبنة ، أخرجه أبو الشيخ في (كتاب الأمثال) ، من طريق أحمد بن سنان الواسطي عنه ، وساق بهذا السند حديث «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا» الحديث ، لكنه عن أبي هريرة لا عن جابر ، وقد ذكر الرامهرمزيّ حديث الباب في (كتاب الأمثال) معلقا فقال : وروى يزيد بن هارون ، فساق السند ولم يوصل سنده بيزيد ، وأورد معناه من مرسل الضحاك بن مزاحم .

[2] زاد في رواية البخاري بعد قوله : «ومحمد فرّق بين الناس» ، تابعه قتيبة عن ليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال «عن جابر ، خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلّم . . .» .

قوله : «تابعه قتيبة عن ليث» ، يعني ابن سعد ، «عن خالد» ، يعني ابن يزيد ، وهو أبو عبد الرحيم المصري أحد الثقات .

قوله : «عن سعيد بن أبي هلال عن جابر قال : خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلّم ، هكذا اقتصر على هذا القدر من الحديث ، وظاهر أن بقية الحديث مثله ، وقد بينت ما بينهما من الاختلاف ، وقد وصله الترمذي عن قتيبة بهذا السند ، ووصله أيضا الإسماعيلي عن الحسن بن سفيان ، وأبو نعيم من طريق أبي العباس

[ () ] السراج ، كلاهما عن قتيبة ، ونسب السراج في روايته الليث وشيخه كما ذكرته .

قال الترمذي بعد تخريجه : هذا حديث مرسل ، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله .

قال الحافظ ابن حجر : وفائدة إيراد البخاري له ، رفع التوهم عمن يظن أن طريق سعيد بن ميناء موقوفة ، لأنه لم يصرح برفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فأتى بهذه الطريق لتصريحها ، ثم قال الترمذي : وجاء من غير وجه عن النبي بإسناد أصحّ من هذا . قال : وفي الباب عن ابن مسعود ، ثم ساقه بسنده وصححه ، وقد بينت ما فيه أيضا بحمد الله تعالى . ووصف الترمذي له بأنه مرسل ، يريد أنه منقطع بين سعيد وجابر ، وقد اعتضد هذا المنقطع بحديث ربيعة الجرشي عند الطبراني ، فإنه بنحو سياقه وسنده جيد ، وسعيد بن أبي هلال غير سعيد بن ميناء الّذي في السند الأول ، وكل منهما مدني ، لكن ابن ميناء تابعي ، بخلاف ابن أبي هلال .

والجمع بينهما إما بتعدد المرئي ، وهو واضح ، أو بأنه منام واحد ، حفظ فيه بعض الرواة ما لم يحفظ غيره ، وتقدم طريق الجمع بين اقتصاره على جبريل وميكائيل في حديث ، وذكره الملائكة بصيغة الجمع في الجانبين الدال على الكثرة في آخر ، وظاهر رواية سعيد بن أبي

هلال أن الرؤيا كانت في بيت النبي صلى الله عليه وسلّم لقوله : «خرج علينا فقال : إني رأيت في المنام» .

وفي حديث ابن مسعود أن ذلك كان بعد أن خرج إلى الجن فقرأ عليهم ، ثم أغفى عند الصبح فجاءوا إليه حينئذ . ويجمع بأن الرؤيا كانت على ما وصف ابن مسعود ، فلما رجع إلى منزله خرج على أصحابه فقصها ، وما عدا ذلك فليس بينهما منافاة ، إذ وصف الملائكة برجال حسان ، يشير إلى أنهم تشكلوا بصورة الرجال .

وقد أخرج أحمد والبزار والطبراني ، من طريق علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، نحو أول حديث سعيد بن أبي هلال ، لكن لم يسمّ الملكين ، وساق المثل على غير سياق من تقدم ، قال :

«إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر ، انتهوا إلى رأس مفازة ، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك ، إذ أتاهم رجل فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة ، وحياضا رواء ، أتتبعوني ؟ قالوا : نعم ، فانطلق بهم فأوردهم ، فأكلوا ، وشربوا ، وسمنوا ، فقال لهم : إن بين أيديكم رياضا هي أعشب من هذه ، وحياضا أروى من هذه فاتبعوني ، فقالت طائفة : صدق ، والله لنتبعه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه» .

وهذا إن كان محفوظا قوى الحمل على التعدد ، إما للمنام وإما لضرب المثل ، ولكن عليّ بن

زيد ضعيف من قبل حفظه. قال ابن العربيّ في حديث ابن مسعود: إن المقصود «المأدبة»، وهو ما يؤكل ويشرب، ففيه رد على الصوفية الذين يقولون: لا مطلوب في الجنة إلا الوصال، والحق أن لا وصال لنا إلا بانقضاء الشهوات الجسمانية والنفسانية والمحسوسة والمعقولة، وجماع ذلك كله في الجنة.

(أ. هـ).

وليس ما ادّعاه من المرد بواضح، قال: وفيه أن من أجاب الدعوة أكرم، ومن لم يجبها أهين، وهو بخلاف قولهم: من دعوناه فلم يجبنا فله الفضل علينا، فإن أجابنا فلنا الفضل عليه، فإنه مقبول في النظر، وأما حكم العبد مع المولى، فهو كما تضمنه هذا الحديث. (المرجع السابق): 317 – 320.

*(208/428)*

---

وله من حديث فليح: حدثنا هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قالوا: [يا رسول الله] [1] ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي [2]». ذكره والّذي قبله في كتاب الاعتصام.

---

[1] ما بين الحاصرتين تكملة من رواية البخاري .

[2] (فتح الباري) : 13/ 310 ، كتاب الاعتصام بالسنة ، باب (2) الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وقول الله تعالى : وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً 25 : 74 ، حديث رقم (7280) .

قوله : «فليح» ، بالفاء والمهملة ، مصغر ، هو ابن سليمان المدني ، وشيخه هلال بن علي ، هو الّذي يقال له ابن ميمونة .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبي» ، بفتح الموحّدة ، أي امتنع ، وظاهره أن العموم مستمر ، لأن كلّا منهم لا يمتنع من دخول الجنة ، ولذلك قالوا : «و من يأبى» فبين لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدخول ، مجاز عن الامتناع عن سننه ، وهو عصيان الرسول صلى الله عليه وسلّم .

وأخرج أحمد والحاكم من طريق صالح بن كيسان عن الأعرج ، عن أبي هريرة رفعه «لتدخلن الجنة إلا من أبي وشرد على الله شراد البعير» ، وسنده على شرط الشيخين ، وله شاهد عن أبي أمامة عن الطبراني ، وسنده جيد ، والموصوف بالإباء وهو الامتناع ، إن كان كافرا فهو لا يدخل الجنة أصلا ، وإن كان مؤمنا ، فالمراد منعه من دخولها مع أول داخل ، إلا من شاء الله تعالى .

وأما وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهداه صلى الله عليه وسلّم

فقد قال الله تعالى : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ 3 : 31 [1] فوعد تعالى محبته ومغفرته [للذين] [2] اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلّم وآثروه على أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم ، قال الحسن : إن أقواما قالوا : يا رسول الله ، إنا نحب الله ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ 3 : 31 الآية ، وقيل إن كعب بن الأشرف وغيره قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، ونحن أشد حبا لله ، فأنزل الله : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ 3 : 31 الآية ، وقال الزجاج : معناه إن كنتم تحبون الله أن تقصدوا طاعته فافعلوا ما أمركم ، إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لهما ورضاه بما أمر ، ومحبة الله لهم عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته ، وقال تعالى : فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ 7 : 158 [3] ، فأمر تعالى الكافة بمتابعته صلى الله عليه وسلّم ، ووعدهم الاهتداء باتباعه لأنه الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم .

وقال تعالى : فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ 4 : 65 الآية ، أي ينقادون لحكمك ، يقال : سلم واستسلم وامتثل إذا انقاد ، فجعل تعالى صحة إيمان خليقته بانقيادهم له صلى الله عليه وسلّم ورضائهم بحكمه وترك الاعتراض عليه . وقال

سهل في قوله : صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ 1 : 7 [4] قال : بمتابعة السنة .

وخرج أبو داود من حديث ثور بن يزيد قال : حدثني خالد بن معدان قال :

حدثني عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر قالا : أتينا العرباض بن

---

[1] آل عمران : 31 .

[2] زيادة للسياق .

[3] الأعراف : 158 .

[4] الفاتحة : 7 .



---

سارية [1] وهو ممن نزل فيه : وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ 9 : 92 [2] ، فتكلمنا وقلنا : أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين ، فقال العرباض : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة تامة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله [كأن] [3] هذه موعظة مودّع فما ذا تعهد إلينا ، فقال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء

المهديين الراشدين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة . . .

---

[1] هو العرباض بن سارية السلمي ، من أعيان أهل الصّفّة ، سكن حمص ، وروى أحاديث ، روي عنه جبير بن نفير ، وأبو رهم السّمعي ، وعبد الرحمن بن عمرو السّلمي ، وحبيب بن عبيد ، وحجر بن حجر ، ويحى بن أبي المطاع ، وعمر بن الأسود وعدّة . ابن وهب : حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عروة بن رويم ، عن العرباض بن سارية – وكان يحب أن يقبض – فكان يدعو : اللّهمّ كبرت سني ، ووهن عظمي ، فاقبضني إليك . قال : فبينا أنا يوما في مسجد دمشق أصلي ، وأدعو أن أقبض ، إذا أنا بفتى من أجمل الرجال ، وعليه دوّاج [ثوب ] أخضر ، فقال : ما هذا الّذي تدعو به ؟

قلت : كيف أدعو يا ابن أخي ؟ قال : قل اللّهمّ حسن العمل وبلّغ الأجل . فقلت : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا «رتبابيل» الّذي يسلّ الحزن من صدور المؤمنين ، ثم التفت فلم أر شيئًا . قال أحمد بن حنبل : كنية العرباض ، أبو نجيح .

روى إسماعيل بن عيّاش ، عن ضمضم بن زرعة ، عن شريح بن عبيد ، قال : قال عتبة بن عبد : أتينا النبي صلى الله عليه وسلّم سبعة من بني سليم ، أكبرنا العرباض بن سارية فبايعناه . [رجاله ثقات ] .

إسماعيل بن عيّاش : حدثنا أبو بكر بن عبد الله ، عن حبيب بن عبيد ، عن العرباض : قال : لولا أن يقال : فعل أبو نجيح ، لألحقت مالي سبلة ، ثم لحقت واديا من أودية لبنان عبدت الله حتى أموت .

شعبة : عن أبي الفيض ؟ سمع أبا حفص الحمّصي يقول : أعطى معاوية المقداد حمارا من المغنم ، فقال له العرباض بن سارية : ما كان لك أن تأخذه ، ولا له أن يعطيك ، كأني بك في النار تحمله ، فردّه .

قال أبو مسهر وغيره : توفي العرباض سنة خمس وسبعين .

(طبقات ابن سعد) : 4/ 276 ، 7/ 412 ، (التاريخ الكبير) : 7/ 85 ، (الجرح والتعديل) : 7/ 39 ، (تهذيب الأسماء واللغات) : 1/ 330 ، (مرآة الجنان) : 1/ 156 ، (الإصابة) : 4/ 482 ، ترجمة رقم (5505) ، (تهذيب التهذيب) : 7/ 147 ، (خلاصة تذهيب الكمال) : 2/ 436 ، (شذرات الذهب) : 1/ 82 ، (سير أعلام النبلاء) :

3/ 419 - 422 ، ترجمة رقم (71) .

[2] التوبة : 92 ، وتمامها : تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ من الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ 9 : 92 .

[3] تكملة من (صحيح سنن أبي داود) : 3/ 871 ، حديث رقم (3851 - 4607) ، قال الألباني : صحيح .

(211/428)

---

ضلالة [1] . وأخرجه الترمذي [2] وقال : حديث حسن صحيح .

وخرج بقي بن مخلد من حديث زيد بن الجناب عن معاوية بن صالح قال : حدثني الحسن بن جابر أنه سمع المقدام بن معديكرب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : يوشك برجل متكئ على أريكته يحدث بحديثي يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ،

---

[1] قوله : «فسلمنا» ، أي على العرباض ، «زائرين» من الزيارة ، «وعائدين» من العيادة ، «ومقتبسين» ، أي محصلين منك العلم ، «ذرفت» ، أي دمعت ، «ووجلت» ، أي خافت ، «كأن هذه موعظة مودع» ، فإن المودِّع - بكسر الدال - عند الوداع ، لا يترك شيئًا مما يهم المودَّع - بفتح الدال - أي كأنك تودعنا بها ، لما رأى من مبالغته صلى الله عليه وسلّم في الموعظة ، «فما ذا تعهد» ، أي توصي ، «وإن عبدا حبشيا» أي وإن كان المطاع عبدا حبشيا .

قال الخطابيّ : يريد به طاعة من ولاه الإمام عليكم وإن كان عبدا حبشيا ، ولم يرد بذلك أن

يكون الإمام عبدا حبشيا . وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلّم أنه قال : «الأئمة من قريش» ، وقد يضرب المثل في الشيء بما لا يكاد يصح في الوجود ، كقوله صلى الله عليه وسلّم : «من بنى للّه مسجدا ولو مثل مفحص قطاة ، بنى الله له بيتا في الجنة» ، وقدر مفحص القطاة لا يكون مسجدا لشخص آدمي ، ونظائر هذا الكلام كثير .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وعضوا عليها بالنواجذ» ، جمع ناجذة بالذال المعجمة ، قيل : هو الضرس الأخير ، وقيل : هو مرادف السن ، وهو كناية عن شدة ملازمة السنة والتمسك بها . وقال الخطابي : وقد يكون معناه أيضا الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله ، كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وإياكم ومحدثات الأمور» ، قال الحافظ ابن رجب في كتاب (جامع العلوم والحكم) : فيه تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة ، وأكد ذلك بقوله : «وكل بدعة ضلالة» . والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة .

فقوله صلى الله عليه وسلّم : «وكل بدعة ضلالة» ، من جوامع الكلم ، لا يخرج عنه شيء ، وهو أصل عظيم من أصول الدين . وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع ، فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية ، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه في التراويح : «نعمت البدعة هذه» ، وروى عنه أنه قال : «إن كانت هذه بدعة فنعمت

البدعة» ، ومن ذلك أذان الجمعة الأول ، زاده عثمان لحاجة الناس إليه ، وأقرّه عليّ ، واستمر عمل المسلمين عليه . وروى عن ابن عمر أنه قال : هو بدعة ، ولعله أراد ما أراد أبوه في التراويح . (عون المعبود) : 12/ 234 ، كتاب السنه ، باب التمسك بالسنة ، حديث رقم (4594) .

[2] قال المنذري : وأخرجه الترمذي وابن ماجة ، وليس في حديثهما ذكر حجر بن حجر ، غير أن الترمذي أشار إليه تعليقا ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

والخلفاء : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي : والمحدث على قسمين : محدث ليس له أصل إلا الشهوة والعمل بالإرادة فهذا باطل ، وما كان على قواعد الأصول أو مردود إليها فليس ببدعة ولا ضلالة .

(المرجع السابق) : 235 .

*(212/428)*

---

وما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله [1] . وخرج البخاري في كتاب الأدب [2] وفي كتاب الاعتصام [3] من حديث الأعمشي ، حدثنا مسلم عن مسروق [قال] [4] : قالت

عائشة رضي الله عنها : صنع النبي صلى الله عليه وسلّم شيئًا [فرخص ] [5] فيه فتنزه عنه قوم ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلّم ، فخطب فحمد

---

[1] أخرج أبو داود نحوه في كتاب السنة ، باب لزوم السنة ، حديث رقم (3848 - 4604) : عن المقدام بن معديكرب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السّبع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه» . وحديث رقم (3849 - 4605) : ، عن أبي رافع عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : «لا ألفينّ أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه . (صحيح سنن أبي داود للألباني) : 3/ 870 - 871 . قوله صلى الله عليه وسلّم : «على أريكته» أي على سريره المزين بالحلل والأثواب ، وأراد بهذه الصفة أصحاب الترفة والدعة ، الذين لزموا البيوت ، ولم يطلبوا العلم من مظانه . قال الخطابي : في الحديث دليل على أن لا حاجة بالحديث أن يعرض على الكتاب ، وأنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيء كان حجة بنفسه ، فأما ما رواه بعضهم أنه قال : إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على الكتاب فإن وافقه فخذوه ، فإنه

حديث باطل لا أصل له. وقد حكى زكريا الساجي عن يحى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعته الزنادقة.

قال المنذري: وأخرجه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، وحديث أبي داود أتم من حديثهما. (عون المعبود) 12/ 231، حديث رقم (4591).

[2] (فتح الباري): 10/ 628، باب (72) من لم يواجه الناس بالعتاب، حديث رقم (6101).

[أي حياء منهم].

[3] (المرجع السابق): 13/ 342، باب (5) ما يكره من التعمق والتنازع والغلوّ في الدين والبدع، لقوله تعالى: يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ 4: 171، حديث رقم (7301).

قوله: «صنع النبي صلى الله عليه وسلّم شيئًا فترخص فيه»، في رواية مسلم من طريق أبي معاوية عن الأعمش:

«رخّص النبي في أمر».

قوله: «فتنزه عنه قوم»، في رواية مسلم من طريق جرير عن الأعمش «فبلغ ذلك ناسا من أصحابه فكأنهم كرهوه وتنزهوا».

قوله : «فخطب» ، في رواية أبي معاوية «فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلّم فغضب حتى بان الغضب في وجهه .

[4] زيادة للسياق .

[5] في (خ) : «ترخص فيه» .

(213/428)

---

الله ثم قال : [ما بال ] [1] أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم [له ] [1] خشية . وخرجه مسلم بنحوه أو قريب منه [2] . وخرج الترمذي من حديث سفيان عن عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن

---

[1] تكملة من البخاري .

[2] (مسلم بشرح النووي) : 15/115 ، كتاب الفضائل ، باب (35) علمه صلى الله عليه وسلّم بالله تعالى وشدة خشيته ، حديث رقم (127) ، (128) .

قوله : «ما بال أقوام» ، في رواية جرير «ما بال رجال» قال ابن بطال : هذا لا ينافي الترجمة ، لأن المراد بها المواجهة مع التعيين ، كأن يقول : ما بالك يا فلان تفعل كذا ، وما بال فلان يفعل كذا ، فأما مع الإبهام فلم تحصل المواجهة وإن كانت صورتها موجودة ، وهي مخاطبة من

فعل ذلك ، لكنه لما كان من جملة المخاطبين ولم يميز عنهم ، صار كأنه لم يخاطب .

قوله : «يتنزهون عن الشيء أصنعه» ، في رواية جرير «بلغهم عني أمر ترخّصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه» ، وفي رواية أبي معاوية : «يرغبون عما رخص لي فيه» . قوله : «فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» ، جمع بين القوة العملية ، والقوة العلمية ، أي أنهم توهموا أن رغبتهم عما أفعل أقرب لهم عند الله ، وليس كذلك ، إذ هو أعلمهم بالقربة ، وأولادهم بالعمل بها .

قال ابن بطال : كان النبي صلى الله عليه وسلّم رفيقا بأمته ، فلذلك خفف عنهم العتاب ، لأنهم فعلوا ما يجوز لهم من الأخذ بالشدة ، ولو كان ذلك حراما لأمرهم بالرجوع إلى فعله .

قال الحافظ ابن حجر : أما المعاتبة فقد حصلت منه لهم بلا ريب ، وإنما لم يميز الّذي صدر منه ذلك سترا عليه ، فحصل منه الرّفق من هذه الحيثية ، لا بترك العتاب أصلا ، وأما استدلاله بكون ما فعلوه غير حرام ، فواضح من جهة أنه لم يلزمهم بفعل ما فعله هو .

وفي الحديث الحث على الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وذم التعمق والتنزه عن المباح ، وحسن العشرة عند الموعظة ، والإنكار والتلطف في ذلك .

قال الإمام النووي في شرح مسلم : فيه الحث على الاقتداء به صلى الله عليه وسلّم ، والنهي عن التعمق في العبادة ، وذم التنزه عن المباح شكّا في إباحته .

وفيه الغضب عند انتهاك حرمات الشرع . وإن كان المنتهك متأولا تأويلا باطلا .

وفيه حسن المعاشرة بإرسال التعزير والإنكار في الجمع ، ولا يعين فاعله ، فيقال : ما بال أقوام ونحوه .

وفيه أن القرب إلى الله تعالى سبب لزيادة العلم به وشدة خشيته .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «فو الله لأنا أعلمهم باللّه وأشدهم له خشية» ، فمعناه أنهم يتوهمون أن سننهم عما فعلت أقرب لهم عند الله ، وإن فعل خلاف ذلك ، وليس كما توهموا ، بل أنا أعلمهم باللّه وأشدهم له خشية ، وإنما يكون القرب إليه سبحانه وتعالى ، والخشية له على حسب ما أمر ، لا بمخيلات النفوس ، وتكلف أعمال لم يأمر بها . والله أعلم .



---

عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو [بن العاص ] [1] رضي الله [عنهما ] [2] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية [ليكوننّ ] [3] في أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، [وستفترق ] [4] أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا من هي يا رسول الله ؟ قال :

[من كان على] [5] ما أنا عليه وأصحابي. قال أبو عيسى: هذا حديث مفسّر غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه [6]. قال الترمذي: الإفريقي ضعيف عند أهل الحديث،

---

[1] تكملة من (جامع الأصول): 10/ 33.

[2] في (خ): «عنه».

[3] في (خ): «لكان».

[4] في (خ): «و تفترق»، والتصويب من المرجع السابق.

[5] تكملة من المرجع السابق، حديث رقم 7491.

[6] قوله صلى الله عليه وسلّم: «ليأتينّ على أمتي»، من الإتيان وهي المجيء بسهولة، وعدّى بعلي لمعنى الغلبة المؤدية إلى الهلاك، ومنه قوله تعالى: ما تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ 51: 42 [الذاريات: 42].

قوله صلى الله عليه وسلّم: «حذو النعل بالنعل» استعارة في التساوي، وقيل: الحذو القطع والتقدير أيضا، يقال: حذوت النعل بالنعل إذا قدرت كل واحدة من طاقاتها على صاحبتها لتكونا على السواء، ونصبه على المصدر، أي يحذونهم حذوا مثل حذو النعل بالنعل، أي تلك المماثلة المذكورة في غاية المطابقة والموافقة، كمطابقة النعل بالنعل.

قوله صلى الله عليه وسلّم: «حتى إذا كان منهم من أتى أمه»، حتى: ابتدائية، والواقع بعده جملة شرطية، وإتيان الأم كناية عن الزنا.

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين مله» ، سمى صلى الله عليه وسلّم طريقة كل واحد منهم «ملة» اتساعا ، وهي في الأصل ما شرع الله لعباده على ألسنة أنبيائه ليتوصلوا به إلى القرب من حضرته تعالى ، ويستعمل في جملة الشرائع دون آحادها ، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله تعالى ، ولا إلى آحاد أمة النبي ، بل يقال : ملة محمد صلى الله عليه وسلّم أو ملتهم كذا ، ثم إنها اتسعت فاستعملت في الملل الباطلة ، لأنهم لما عظم تفرقهم ، وتديّنت كل فرقة منهم بخلاف ما تديّن به غيرها ، كانت طريقة كل منهم كالملة الحقيقية في التدين ، فسميت باسمها مجازا .

وقيل : الملة كل فعل وقول اجتمع عليه جماعة ، وهو قد يكون حقا ، وقد يكون باطلا ، والمعنى أنهم يفترقون فرقا ، تديّن كل واحدة منها بخلاف ما تديّن به الأخرى .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «و تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة» ، قيل : فيه إشارة لتلك المطابقة ، مع زيادة هؤلاء في ارتكاب البدع بدرجة . وقوله صلى الله عليه وسلّم : «إلا ملة» ، بالنصب ، أي إلا أهل ملة ، «قالوا : من هي» ؟ أي تلك الملة أي أهلها الناجية .

قوله : «هذا حديث حسن غريب» ، في سنده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ، وهو ضعيف ، فتحسين الترمذي له لاعتضاده بأحاديث الباب ، وحديث عبد الله بن عمرو هذا أخرجه أيضا الحاكم

ضعفه يحى بن سعيد القطان وغيره ، وقال أحمد : لا أكتب حديث الإفريقي .

وخرج الترمذي من حديث محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن [المسيب] [1] قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال [لي] [2] رسول الله صلى الله عليه وسلّم : يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال لي : يا بني ، وذلك من سنتي ومن [أحيا] [3] سنتي فقد [أحياني] [4] ومن [أحياني] [5] كان معي في الجنة - وفي الحديث قصة طويلة - قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ثقة ، وأبوه ثقة ، وعلي بن زيد صدوق إلا أنه [ربما] [6] يرفع الشيء الّذي يوقفه

---

[()] وفيه : «ما أنا عليه اليوم وأصحابي» . واعلم أن أصول البدع كما نقل في (المواقف) ثمانية :

[1] المعتزلة القائلون بأن العباد خالقوا أعمالهم ، وبنفي الرؤية ، وبوجوب الثواب والعقاب ، وهم عشرون فرقة .

[2] الشيعة المفرطون في محبة علي كرم الله وجهه وهم اثنان وعشرون فرقة .

[3] الخوارج المفرطة المكفّرة له رضي الله عنه، ومن أذنب كبيرة وهم عشرون فرقة.

[4] المرجئة القائلة بأن لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهي خمس فرق.

[5] والنجّارية الموافقة لأهل السنة في خلق الأفعال، فرقة أيضا.

[6] المعتزلة في نفي الصفات وحدوث الكلام، وهم ثلاث فرق.

[7] والجبرية القائلة بسلب الاختيار عن العباد فرقة واحدة.

[8] والمشبهة الذين يشبهون الحق بالخلق في الجسمية والحلول. فرقة أيضا، فتلك ثلاث وسبعون فرقه، والفرقة الناجية هم أهل السنة البيضاء المحمدية، والطريقة النقية الأحمدية. (تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي): 7/ 333 - 334، أبواب الإيمان باب (18) افتراق هذه الأمة، حديث رقم (27779).

وأخرجه أيضا الحاكم في (المستدرك): 1/ 129، حديث رقم (444/ 155) ذكره في كتاب العلم. قال في التخليص: رواه ثابت بن محمد العابد، عن الثوري، عن ابن أنعم الإفريقي، عن عبد الله بن يزيد عنه. وقال إسماعيل بن أبي أويس: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف بن يزيد، عن أبيه، عن جده مرفوعا: «لتسلكن سنن من قبلكم، إن بني إسرائيل افترقت...» الحديث.

[1] ما بين الحاصرتين سقط من (خ)، وما أثبتناه من صحيح الترمذي.

[2] ما بين الحاصرتين سقط من (خ)، وما أثبتناه من صحيح الترمذي.

[3] في (خ): «أحب».

[4] في (خ): «أحبني».

[5] في (خ): «أحبني» وما أثبتناه من صحيح الترمذي.

[6] زيادة من صحيح الترمذي.

(216/428)

---

غيره. [قال] [1]: وسمعت محمد بن بشار يقول: قال أبو الوليد: قال شعبة: [أخبرنا] [1] علي بن زيد وكان رفاعا، ولا يعرف لسعيد بن المسيب [عن أنس] [2] رواية إلا في هذا الحديث بطوله. وقد روى عباد [بن ميسرة] [3] المقبري هذا الحديث عن علي بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب، قال أبو عيسى: وذاكرت محمد بن إسماعيل [ولم] [4] يعرفه، ولم يعرف لسعيد بن المسيب، عن أنس هذا الحديث ولا غيره، ومات أنس [بن مالك] [5] سنة ثلاث وتسعين، ومات سعيد بن المسيب بعده بسنتين، مات سنة خمس وتسعين والله أعلم [6].

---

[1] زيادة من (خ)، وفي (خ): «حدثنا» وما أثبتناه من صحيح الترمذي.

[2] زيادة من صحيح الترمذي.

[3] في (خ): «عباد بن ميسرة المقبري».

[4] في (خ): «فلم».

[5] تكملة من صحيح الترمذي.

[6] والحديث أخرجه الترمذي في (الجامع الصحيح) في أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة.

قوله: «قال لي»، أي وحدي أو مخاطبا لي من بين أصحابي، «يا بني» بضم التاء تصغير ابن، وهو تصغير لطف ومرحمة، ويدل على جواز هذا لمن ليس ابنه، ومعناه اللطف، وأنك عندي بمنزلة ولدي في الشفقة.

قوله: «إن قدرت»، أي استطعت، والمراد: اجتهد قد ما تقدر «أن تصبح وتمسي»، أي تدخل في وقت الصباح والمساء، والمراد جميع الليل والنهار «ليس في قلبك» الجملة حال من الفاعل، تنازع فيه الفعلان، أي وليس كائنا في قلبك «غش» بالكسر ضد النصح، الّذي هو إرادة الخير للمنصوح له.

قوله: «لأحد» وهو عام للمؤمن والكافر، فإن نصيحة الكافر أن يجتهد في إيمانه، ويسعى في خلاصه من ورطة الهلاك باليد واللسان، وللتألف بما يقدر عليه من المال. كذا ذكره الطيبي.

قوله : «فافعل» ، جزاء كناية عما سبق في الشرط ، أي افعل نصيحتك «و ذلك» ، أي خلو القلب من الغش ، قال الطيبي : وذلك إشارة إلى أنه رفيع المرتبة أي بعيد التناول «من سنتي» أي طريقتي ، «و من أحيا سنتي» أي أظهرها وأشاعها بالقول أو العمل ، «فقد أحياني ومن أحياني» كذا في النسخ الحاضرة من الإحياء في المواضع الثلاثة .

وأورد صاحب المشكاة هذا الحديث نقلا عن الترمذي بلفظ «من أحب سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة» ، ومن الإحباب في المواضع الثلاثة ، فالظاهر أنه قد وقع في بعض نسخ الترمذي هكذا ، والله تعالى أعلم .

قال محققه : ولعل المقريزي – رحمه الله – قد نقل من إحدى هذه النسخ ذلك اللفظ الّذي حققناه وصوبناه من الرواية الأخرى حسب الهوامش السابقة على متن هذا الحديث .

قوله : «كان معي في الجنة» ، أي معية مقاربة لا معية متحدة في الدرجة ، قال تعالى : وَمن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ 4 : 69

ومخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم وتبديل سنته ضلال وبدعة، يوعد الله تعالى على ذلك بالخذلان والعذاب، قال تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ 24 : 63 [1]، وقال: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا 4 : 115 [2].

والآثار المسندة والموقوفة أيضا كثيرة جدا وفي استيعابها خروج عما نحن بصدده، وفيما أوردته كفاية إن شاء الله تعالى، والله سبحانه وتعالى الموفق بمنه.

---

[()] أُولَئِكَ رَفِيقًا 4 : 69 [النساء: 169].

قوله: «وعلي بن زيد صدوق»، وضعّفه غير واحد من أئمة الحديث، «وكان رفّاعا» بفتح الراء وتشديد الفاء، أي كان يرفع الأحاديث الموقوفة كثيرا «وقد روى عباد» بن ميسرة «المنقري» بكسر الميم وسكون النون، البصري المعلم، لين الحديث، عابد من السابعة «ولا غيره» بالنصب عطف على هذا الحديث.

قوله: «ومات أنس بن مالك سنة ثلاث وتسعين ومات سعيد بن المسيب بعده بسنتين» مقصود الترمذي بهذا أن المعاصرة بين أنس وبين سعيد بن المسيب ثابتة، فيمكن سماعة منه. (تحفة الأحوذي): 7/ 370 - 371، أبواب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، حديث رقم (2818).

[1] النور : 63 .

[2] النساء : 115 .

(218/428)

---

وأما أمر الكافّة بالتّأسي به قولا وفعلا

فقال تعالى : لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ 33 : 21 [1] ، فأمر تعالى بالتأسي به صلى الله عليه وسلّم أمرا مطلقا ، لم يستثن من التأسي به شيئا بخلاف أمره تعالى بالتأسي بإبراهيم عليه [السلام] [2] ، فإنه استثنى بالتأسي به ، قال تعالى : قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ 60 : 4 [3] ، فحثّ تعالى المؤمنين أن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام والذين معه من أنبياء الله فيما ذكر تعالى ، ثم استثنى من التأسي به استغفاره عليه السلام لأبيه ، فنهى المؤمنين عن التأسي به في ذلك . قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ 60 : 4 ، قال : نهوا أن يتأسوا به في استغفاره لأبيه ، فيستغفروا للمشركين . وقال مطرف عن مجاهد : أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ 60 : 4 إلى

قوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ 60 : 4 يقول تعالى : ائتسوا به في كل شيء ما خلا قوله لأبيه :

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ 60 : 4 فلا تأتسوا بذلك منه ، فإنّها كانت عن موعدة وعدها إياه .

وقال معمر عن قتادة : يقول : لا تأتسوا بذلك منه فإنه كان عليه موعدا ، وتأسوا بأمره

كله . وقال ابن وهب : قال ابن زيد : قول الله تعالى : قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ

60 : 4 إلى قوله : إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ 60 : 4 قال : يقول : ليس لكم في

هذه أسوة . وقال محمد بن علي الترمذي :

الأسوة في الرسول صلى الله عليه وسلّم الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو

فعل .

وقال الإمام محمد بن عمر الرازيّ : اختلفوا في أن فعل الرسول صلى الله عليه وسلّم بمفرده ،

---

[1] الأحزاب : 21 .

[2] زيادة للسياق .

[3] الممتحنة : 4 .

هل يدل على حكم في حقنا أم لا ؟ على أربعة أقوال :

أحدها : أنه للوجوب وهو قول ابن شريج وأبي سعيد الاصطخري ، وأبي على ابن خيران .

وثانيها : أنه للندب ونسب ذلك إلى الشافعيّ رحمه الله .

وثالثها : أنه للإباحة وهو قول مالك رحمه الله .

ورابعها : أنه يتوقف على الكل ، وهو قول الصيرفي وأكثر المعتزلة ، وهو المختار لنا ، إنا إذا جوّزنا في ذلك الفعل أن يكون ذنبا له ولنا ، وحينئذ لا يجوز لنا فعله ، وإن لم نجوز الذنب عليهم جوزنا كونه مباحا ومندوبا وواجبا ، وبتقدير أن يكون واجبا جوزنا أن يكون ذلك من خواصه ، وأن لا يكون ، ومع احتمال هذه الأقسام امتنع الجزم بواحد منها ، واحتج القائلون بالوجوب بالقرآن والإجماع والمعقول ، أما القرآن : فسبع آيات .

[أولها] : قوله تعالى : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ 24 : 63 ، والأمر حقيقة الفعل ، والتحذير عن مخالفة فعله يقتضي وجوب موافقة فعله .

وثانيها : قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ 33 : 21 ، وهذا يجري مجرى الوعيد فيمن ترك التأسي به ، ولا معنى للتأسي إلا أن يفعل الإنسان مثل فعله .

وثالثها : قوله تعالى : فَاتَّبِعُوهُ 6 : 153 ، وظاهر الأمر للوجوب ، والمتابعة هي الإتيان

بمثل فعله .

ورابعها : قوله تعالى : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي 3 : 31 ، دلت الآية على أن محبته تعالى مستلزمة للمتابعة ، لكن المحبة واجبة بالإجماع ، ولازم الواجب واجب ، فمتابعه واجبة .

وخامسها : قوله تعالى : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ 59 : 7 ، فإذا فعل فعلا فقد أتانا بالفعل ، فوجب علينا أن نأخذه .

وسادسها : قوله تعالى : أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ . . . 3 : 132 ،

(220/428)

---

دلت الآية بإطلاقها على وجوب طاعة الرسول ، والآتي بمثل ما فعله الغير لأجل أن ذلك الغير فعله طائع لذلك الغير ، فوجب أن يكون ذلك واجبا .

وسابعها : قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا 33 : 37 [1] ، بين أنه تعالى إنما زوجه لها ليكون حكم أمته مساويا لحكمه في ذلك وهو المطلوب .

وأما الإجماع فلأن الصحابة بأجمعهم اختلفوا في الغسل بالتقاء الختانين ، فقالت عائشة رضي الله عنها : فعلته أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلّم فاغتسلنا ، فرجعوا إلى ذلك ،

وإجماعهم على الرجوع حجة ، وهو المطلوب .

وإنما كان ذلك لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقد أجمعوا ها هنا على أن مجرد الفعل للوجوب ، ولأنهم واصلوا الصيام لما واصل ، وخلعوا نعالهم لما خلع ، وأمرهم عام الحديبيّة بالتحلل فتوقفوا ، فشكا ذلك إلى أم سلمة رضي الله عنها فقالت : اخرج إليهم فاحلق واذبح ، ففعل ، فحلقوا وذبحوا مسارعين ، وأنه خلع خاتمه فخلعوا ، وأن عمر رضي الله عنه كان يقبل الحجر الأسود ويقول : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولو لا أني رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك ، وأما خلع الخاتم فهو مباح ، فلما خلع أحبوا موافقته لا لاعتقادهم وجوب ذلك عليهم .

والجواب عن الوجه الأول من المعقول أن الاحتياط إنما يصار إليه إذا خلا عن الضرر قطعا ، وها هنا ليس كذلك لاحتمال أن يكون ذلك الفعل حراما ، وإذا احتمل الأمران لم يكن المصير إلى الوجوب احتياطا .

وعن الثاني إن ترك الإتيان بمثل ما يأتي به الملك العظيم قد يكون تعظيما ، ولذلك يقبح من العبد أن يفعل كل ما يفعله سيده ، واحتج القائلون بالندب بالقرآن والإجماع والمعقول .

أما القرآن : فقوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ 33 : 21 ، فلو كان التأسي به واجبا لقال عليه ، ولما لم يقل ذلك وقال لكم دل على عدم الوجوب ، ولما أثبت الأسوة دل على رجحان جانب الفعل على الترك ، فلم يكن

[1] الأحزاب : 37 .

(221/428)

مباحا .

وأما الإجماع : فهو أنا رأينا أهل الأمصار متطابقين على الاقتداء في الأفعال بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم ، وذلك يدل على انعقاد الإجماع على أنه يفيد الندب .

وأما المعقول : فهو أنه يفيد أن فعله إما أن يكون راجح العدم أو مساوي العدم أو مرجوح العدم ، والأول باطل لما ثبت أنه لا يوجد منه الذنب ، والثاني باطل ظاهر ، لأن الاشتغال به عبث ، والعبث مزجور عنه لقوله تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً 23 : 115 [1] ، فتعين الثالث ، وهو أن يكون مرجوح العدم .

ثم لما تأملنا أفعاله صلى الله عليه وسلّم وجدنا بعضها مندوبا وبعضها واجبا ، والقدر المشترك هو رجحان جانب الوجوب وعدم الوجوب ثابت بمقتضى الأصل ، فأثبتنا الرجحان مع عدم الوجوب .

والجواب عن الأول ما تقدم : أن التأسي في إيقاع الفعل على الوجوب الّذي أوقعه ، فلو فعله واجبا أو مباحا وفعلناه مندوبا لما حصل التأسي .

وعن الثاني أنا لا نسلم أنهم استدلوا بمجرد الفعل ، فلعلهم وجدوا مع الفعل قرائن أخر .

وعن الثالث : لا نسلّم أن فعل المباح عبث ، لأن العبث هو الخالي عن العرض ، وإذا حصل في المباح منفعة ناجزة لم يكن عبثا ، بل من حيث النفع به خرج عن العبث ، فلم قلتم بأنه خلّى عن العرض ، ثم حصول العرض في التأسي بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم متابعته في أفعاله بيّن ، فلا يعد من أقسام العبث .

واحتج القائلون بالإباحة بأنه لما ثبت أنه لا يجوز صدور الذنب منه صلى الله عليه وسلّم ثبت أن فعله لا بد وأن يكون مباحا أو مندوبا أو واجبا ، وهذه الأقسام الثلاثة مشتركة في رفع الحرج عن الفعل ، فأما رجحان جانب الفعل يثبت على وجوده دليلا لأن الكلام فيه ، وثبت على عدمه دليل ، لأن هذا الرجحان كان معدوما ، والأصل

---

[1] المؤمنون : 115 .



---

في كل شيء بقاؤه ، فقد ثبت بهذا أنه لا حرج في فعله قطعا ، ولا رجحان في فعله ظاهرا ، فهذا الدليل يقتضي في كل أفعاله صلى الله عليه وسلّم أن يكون مباحا ترك العمل به في الأفعال التي كونها واجبة أو مندوبة ، فبقي معمولا به في الباقي ، وإذا ثبت كونه مباحا

ظاهرا وجب أن يكون في حقنا كذلك ، للآية الدالة على وجوب التأسي ترك العمل به فيما إذا كان من خواصه ، فبقي معمولا به في الباقي .

والجواب هنا : أنه في حقه صلى الله عليه وسلّم كذلك ، فلم يجب أن يكون في حق غيره كذلك ؟ والله أعلم .

قال جمهور الفقهاء والمعتزلة : التأسّي واجب ، ومعنى ذلك أنا إذا علمنا أن الرسول صلى الله عليه وسلّم فعل فعلا على وجه الوجوب فقد تعبدنا أن نفعله على وجه الوجوب ، وإن علمنا أنه مستقل به كنا متعبدين بالتنفل به ، وإن علمنا أنه فعله على وجه الإباحة كنا متعبدين باعتقاد إباحته ، وجاز لنا أن لا نفعله .

وقال أبو على بن خلاد – تلميذ أبي هاشم من المعتزلة – : نحن متعبدون بالتأسي به في العبادات دون غيرها كالمناكحات والمعاملات ، ومن الناس من أنكر ذلك في الكل ، احتج أبو الحسن بالقرآن والإجماع .

أما القرآن فقوله تعالى : لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ 33 : 21 والتأسي بالغير في أفعاله هو أن يفعل على الوجه الّذي فعل ذلك الغير ، ولم يفرق الله تعالى بين أفعال النبي صلى الله عليه وسلّم إذا كانت مباحة أو لم تكن مباحة .

وأما الإجماع : فهو أن السلف رجعوا إلى أزواجه صلى الله عليه وسلّم في قبلة الصائم ، وفي من أصبح جنبا لم يفسد صومه ، وفي تزويج النبي ميمونة رضي الله عنها وهو حرام ، وذلك

يدل على أن أفعاله لا بد من أن يمتثل بها في طريقه .

ولقائل أن يقول : على الدليل الأول ، الأمر يفيد التأسي به مرة واحدة ، كما أن قول القائل لغيره : لك في الدار ثوب حسن ، يفيد ثوبا واحدا ، فإن قلت : هذا إن ثبت تم عرضا من التعبد بالتأسي به صلى الله عليه وسلّم في الجملة ، ولأنه يفيد إطلاق كون الشيء أسوة لنا ، ولا يطلق وصف الإنسان بأنه أسوة لزيد إلا إذا لم يجز لزيد وصف أن يتبعه إلا في واحد ، وإنما يطلق ذلك أن لو كان ذلك الإنسان لزيد قدوة يهتدي به في

(223/428)

---

أموره كلها ما خصه الدليل .

قلت : الجواب عن الأول : أن أحدا لا ينازع في التأسي به صلى الله عليه وسلّم في الجملة ، لأنه لما قال : صلوا كما رأيتموني أصلي ، وخذوا عني مناسككم ، فقد أجمعوا على وقوع التأسي به ، والآية ما دلت إلا على المرة الواحدة ، فكان التأسي به صلى الله عليه وسلّم في هذه الصورة كافيا في العمل بالآية ، لا سيما والآية إنما وردت على صيغة الإخبار عما مضى ، وذلك يكفي فيه وقوع التأسي به فيما مضى .

والجواب عن الثاني : أنك إن أردت أنه لا يصح إطلاق اسم الأسوة إلا إذا كان أسوة في كل

شيء فهو ممنوع ، ثم يدل على فساده وجهان :

الأول : أنه من يعلم من إنسان نوعا واحدا من العلم يقال له : إن لك في فلان أسوة حسنة في كل شيء ، ويقال لك في فلان أسوة حسنة في هذا الشيء دون ذاك ولو اقتضى اللفظ العموم لكان الأول تكرار ، والثاني نقصا ، وإن أردت أنه يصح إطلاق اسم الأسوة إذا كان أسوة في بعض الأشياء فهذا مسلّم ، ولكنه صلى الله عليه وسلّم أسوة لنا في أقواله وأفعاله التي أمرنا بالاقتداء بها كقوله : «صلوا كما رأيتموني أصلي ، وخذوا عني مناسككم» .

والجواب عن الحجة الثانية : أن قوله تعالى : فَاتَّبِعُوهُ 6 : 153 يطلق في الاتباع فلا يفيد العموم في كل الاتباعات ، والأمر لا يقتضي التكرار ، فلا يفيد العموم في كل الأزمنة ، فإن قلت : ترتب الحكم على الاسم يشعر بأن المسمى علة لذلك الحكم ، فماهية المتابعة علة الأمر بها ، قلت : فعلى هذا لو قال السيد لعبده :

اسقني ، يلزمه أن يكون أمرا له يجمع أنواع السقي في كل الأزمنة ، وفي هذه الأمثلة كثرة ، وما ذكرناه في فساد ما قالوا ، وأما الإجماع فقد سبق الكلام عليه ، قال : لما عرفت أن التأسّي مطابقة المتأسّى به في الوجه وجب معرفة الوجه الّذي عليه وقع فعل الرسول صلى الله عليه وسلّم وهو ثلاثة : الندب والإباحة والوجوب .

أما الإباحة فتعرف بطرق أربعة :

أحدها : أن ينص رسول الله صلى الله عليه وسلّم على أنه مباح.

وثانيها : أن تقع امتثالا لأنها دالة على الإباحة.



---

وثالثها : أن تقع بيانا لأنها دالة على الإباحة.

ورابعها : أنه لما ثبت أنه لا ندب ثبت أنه لا حرج عليه في ذلك الفعل ، ويعرف نفي كيفية الوجوب والندب بالبقاء على الأصل ، فحينئذ نعرف كونه مباحا . أما الندب فيعرف بتلك الثلاثة الأدلة مع أربعة أخرى.

أحدها : أن يعلم من قصده صلى الله عليه وسلّم أنه قصد القربة بذلك الفعل ، فيعلم أنه راجح الوجود ، ولم يعرف انتفاء الوجوب بحكم الاستصحاب فيثبت الندب.

وثانيها : أن ينص على أنه كان مخيّرا بين ما فعل وبين فعل ما ثبت أنه ندب ، لأن التخيير لا يقع بين الندب وبين ما ليس بندب.

وثالثها : أن يقع قضاء لعبادة كانت مندوبة.

ورابعها : أن يداوم على الفعل ثم يخل به من غير نسخ ، فيكون إدامته صلى الله عليه وسلّم دليلا على كونه طاعة ، وإخلاله به من غير نسخ دليل على عدم الوجوب.

وأما الوجوب ، فيعرف بتلك الثلاثة الأول مع خمسة أخرى :

أحدها : الدلالة على أنه كان مخيرا بينه وبين فعل آخر قد ثبت وجوبه ، لأن التخيير لا يقع بين الواجب وما ليس بواجب .

وثانيها : أن يكون قضاء لعبادة ثبت وجوبها .

وثالثها : أن يكون على وقوعه أمارة قد تقرر في الشريعة أنها أمارة الوجوب كالصلاة بأذان وإقامة .

ورابعها : أن يكون جزاء الشرط موجب كفعل ما وجب نذره .

وخامسها : أن يكون لو لم يكن واجبا لم يجز كالجمع بين الركوعين في الكسوف .

قال : الفعل إذا عارضه معارض ، فمعارض فعله صلى الله عليه وسلّم إما أن [يكون] [1] قولا

---

[1] زيادة للسياق .



---

أو فعلا ، أما القول : فإما أن يعلم أن المقدم هو القول أو الفعل ، ولا يعلم واحد منهما .

أما القسم الأول : وهو أن يكون المتقدم هو القول والفعل المعارض إما أن يحصل عقيبه أو

متراخيا عنه ، فإن كان متعاقبا له فإما أن يكون القول متناولا له خاصة ، أو لأمّته خاصة ، أو له ولهم معا ، لا يجوز أن يتناوله خاصة إلا على قول من يجوّز نسخ الشيء قبل حضور وقته ، فإن تناول أمته خاصة وجب المصير إلى القول دون الفعل ، وإلا لكان القول لغوا ولا يلغو الفعل لأن حكمه ثابت في الرسول صلى الله عليه وسلّم ، وإن كان الخطاب يعمه وإياهم ، ذلك فعله على أنه مخصوص من القول ، وأمته داخلة فيه لا محالة وإن كان الفعل متراخيا عن القول ، فإن كان القول عاما لنا وله صار مقتضاه منسوخا عنا وعنه ، وإن تناول ما دونه كان ناسخا عنا دونه ، لأن القول لم يتناوله ، وإن تناوله دوننا كان منسوخا عنه دوننا ، ثم يلزمنا مثل فعله لوجوب التأسي به .

القسم الثاني : أن يكون هو الفعل ، فالقول المعارض له إما أن يحصل عقيبه أو متراخيا عنه ، فإن كان متعقبا : فإما أن يكون الفعل متناولا له خاصة ، أو لأمته خاصة ، أو عاما فيه وفيهم ، فإن كان متناولا له خاصة وقد كان الفعل المتقدم على لزوم مثله لكل مكلف في المستقبل فيصير ذلك القول المخصص به مخصصا له عن ذلك العموم ، وإن كان متناولا لأمته خاصة ، دل على أن حكم الفعل مختص به دون أمته ، وإن كان عاما فيه وفيهم دلّ سقوط حكم الفعل عنه [و] [1] عنهم ، وأما إن كان القول متراخيا عن الفعل ، فإن كان القول متناولا له ولأمته فيكون القول ناسخا لحكم الفعل عنه وعن أمته ، أو يتناول أمته دونه فيكون منسوخا عنهم دونه أو يتناوله دون أمته ، فيكون منسوخا عنه دون أمته .

القسم الثالث: إذا لم يعلم تقدم أحدهما على الآخر فهاهنا يقدم القول على الفعل ويدل عليه وجهان.

---

[1] زيادة للسياق.



---

أحدهما : أن القول أقوى من الفعل، والأقوى راجح، إنما قلنا أنه موافى لأن دلالة القول تستغني على الفعل، ودلالة الفعل لا تستغني عن القول، والمستغني أقوى من المحتاج.

والثاني: أنا نقطع بأن القول قد يتناولها، وأما الفعل فبتقدير أن [يتراخى] [1] كان متناولا لنا معلوم، وبتقدير أن يتناولنا [أو] [2] لا يتناولنا، وكون [الفعل] [2] متناولا لنا معلوم، وكون الفعل متناولا لنا مشكول، والمعلوم مقدم لنا [على] [2] المشكول.

فرع: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن استقبال القبلة واستدبارها في قضاء الحاجة، ثم جلس في البيت لقضاء الحاجة مستقبل بيت المقدس، فعند الشافعيّ - رحمه الله - أن نهيه مخصوص بفعله حتى يجوز استقبال القبلة واستدبارها في البيوت لكل أحد، وعند الكرخي: يجب إجراء النهي على إطلاقه في الصحراء والبنيان، وكان ذلك من خواص النبي صلى الله عليه وسلّم، وتوقف القاضي عبد الجبار في المسألة.

وحجة الشافعيّ : أن النهي عام ومجموع الدليل الّذي يوجب علينا أن نفعل مثل فعل الرسول صلى الله عليه وسلّم مع كونه مستقبل القبلة في البنيان عند قضاء الحاجة أخص من ذلك النهي ، والخاص مقدم على العام ، فوجب القول بالتخصيص ، أما إذا كان الفعل للفعل فعلا آخر ، فذاك على وجهين .

الأول : أن يفعل الرسول صلى الله عليه وسلّم فعلا فيعلم بالدليل أن غيره مكلف به ثم نراه بعد ذلك قد أقر الناس على فعل ضده ، فنعلم أنه خارج منه .

الثاني : إذا علمنا أن ذلك الفعل مما يلزم أمثاله للرسول صلى الله عليه وسلّم في مثل تلك الأوقات ما لم يرد ناسخ ، ثم يفعل صلى الله عليه وسلّم ضده في مثل ذل الوقت ، فنعلم أنه قد نسخ عنه .

تنبيه : التخصيص والنسخ في الحقيقة إنما لحقا ما دلّ على أن ذلك الفعل لازم لغيره ، فإنه لازم له في مستقبل الأوقات ، وإنما يقال : أن ذلك الفعل قد لحقه

---

[1] في (خ) «يتراخيا» .

[2] زيادة للسياق .

النسخ ، يعني أنه قد زال التعبد بمثله ، فإن التخصيص قد لحقه على معنى أن المكلفين لا يلزمهم مثله والله أعلم . وأنه قال في جواب [من سأل ] [1] أم سلمة رضي الله عنها عن قبلة الصائم : ألا أخبرتيه أني أقبّل وأنا صائم ، وأما المعقول فمن وجهين :

الأول : أن الاحتياط يقتضي حمل الشيء على أعظم مراتبه ، وأعظم مراتب فعل الرسول صلى الله عليه وسلّم أن يكون واجبا عليه وعلى أمته ، فوجب حمله عليه ببيان الأول أن الاحتياط يتضمن دفع ضرر الخوف عن النفس بالكلية ، ودفع الضرر واجب ببيان الثاني ، أن أعظم مراتب الفعل أن يكون واجبا على الكل .

الثاني : أنه لا نزاع في وجوب تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلّم في الجملة ، وإيجاب الإتيان بمثل فعله تعظيم له بدليل العرف ، والتعظيمان مشتركان في هذا القدر من المناسبة ، فيجمع بينهما بالقدر المشترك فيكون ورود الشرع بإيجاب ذلك التعظيم يقتضي وروده بأن يجب على الأمة الإتيان بمثل فعله ، والجواب عن الأول : أنا لا نسلّم أن الأمر حقيقة في الفعل ، فليس حمله على ذلك بأولى من حمله على هذا سلمناه ، لكن هاهنا ما يمنع حمله على الفعل من وجهين : الأول أن تقدم ذكر الدعاء وذكر المخالفة ، وذكر الدعاء يمنع منه ، فإن الإنسان إذا قال لعبده : لا تجعل دعائي كدعاء غيري واحذر مخالفة أمري ، فهم منه أنه أراد بالأمر القول الثاني ، وهو أنه قد أريد به القول بالإجماع ، ولا يجوز حمله على الفعل ، إلا أن اللفظ المشترك لا يجوز حمله على معنييه سلمنا ذلك ، ولكنها راجعة إلى الله تعالى

لأنه أقرب المذكورين ، فإن قلت : القصد هو الحث على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلّم لأنه تعالى قال : لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً 24 : 63 [2] ، فحث بذلك على الرجوع إلى أقواله وأفعاله ، ثم عقب ذلك بقوله : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ 24 : 63 [2] ، فعلمنا أنه حث بذلك على التزام ما كان دعاء الله من الرجوع إلى أمر النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأيضا فلم لا يجوز الحكم بصرف الكناية إلى الله والرسول ؟ قلت : الجواب عن الأول صرف الضمير إلى الله تعالى مؤكد لهذا الغرض أيضا ، ولأنه لما حثّ على الرجوع إلى أقوال الرسول وأفعاله

---

[1] ما بين القوسين مثبت في هامش (خ) .

[2] النور : 63



---

ثم حذر عن مخالفة أمر الله تعالى كان ذلك تأكيدا لما هو المقصود من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلّم .

وعن الثاني : أن الهاء كناية عن واحد ، فلا يجوز عوده إلى الله تعالى وإلى الرسول معا ، سلمنا عود الضمير إلى الرسول فلم قلت أن الإتيان بمثل فعله مخالفة لأمره . فإن قلت يدل

عليه أمران :

الأول : أن المخالفة ضد الموافقة ، لكن موافقة الغير هو أن يفعل مثل فعله ، فمخالفته هو أن لا يفعل مثل فعله .

الثاني : وهو أن المعقول من المختلفين هما اللذان لا يقوم أحدهما مقام الآخر ، والعدم والوجود لا يقوم أحدهما مقام الآخر بوجه أصلا ، فكانا في غاية المخالفة ، فثبت أن عدم الإتيان بمثل فعله مخالف للإتيان بمثل فعله من كل الوجوه .

قلت : هب أنها في أصل الوضع كذلك ، لكنها في عرف الشرع ليست كذلك ، ولهذا لا يسمى إخلال الحائض بالصلاة مخالفة للمسلمين ، بل هي عبارة عن عدم الإتيان بمثل فعله إذا كان الإتيان به واجبا ، وعلى هذا لا يسمى ترك مثل فعل النبي صلى الله عليه وسلّم مخالفة إلا إذا فعله على الوجوب ، وإذا بينا ذلك بهذا لزم الدور وهو محال .

والجواب عن الثاني : لم قلتم أن الإتيان بمثل فعل الغير مطلقا يكون تأسيا به ، بل عندنا كما يشترط في التأسي المساواة في الصورة يشترط فيه المساواة في الكيفية ، حتى لو صام واجبا فتطوعنا بالصوم لم نكن متأسيين به ، وعلى هذا لا يكون مطلق فعل الرسول صلى الله عليه وسلّم سببا للوجوب في حقنا لأن فعله قد لا يكون واجبا فيكون فعلنا إياه على سبيل الوجوب قادحا في التأسي به .

فالجواب عن الثالث : أن قوله تعالى : فَاتَّبِعُوهُ 6 : 153 ، إما أن لا يفيد العموم أو يفيد ،

فإن كان الأول سقط التمسك به ، وإن كان الثاني فبتقدير أن لا يكون ذلك الفعل واجبا عليه وعلينا ، وجب أن نعتقد فيه أيضا هذا الاعتقاد ، فالحكم بالوجوب يناقضه ، فوجب أن لا يتحقق ، وهذا هو الجواب عن التمسك بقوله تعالى :

*(229/428)*

---

فَاتَّبِعُونِي 3 : 31 [1] .

والجواب عن الخامس : لا نسلّم أن قوله تعالى : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ 59 : 7 [2] يتناول الفعل ، ويدل عليه وجهان .

الأول : أن قوله تعالى : وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا 59 : 7 [2] على أنه عني بقوله : ما آتَاكُمُ 59 : 7 ما أمركم .

الثاني : أن الإتيان إنما يتأتى بالقول لأنا نحفظه ، وامتثاله يصير كأننا أخذناه ، فكأنه صلى الله عليه وسلّم أعطاناه .

والجواب عن السادس : أن الطاعة هي الإتيان بالمأمور به أو بالمراد على اختلاف المذهبين ، فلم قلت : أن مجرد فعل الرسول صلى الله عليه وسلّم يدل على أنّا أمرنا بمثله أو أريد منا مثله ؟ والجواب عن الإجماع من وجوه .

الأول : أن هذه آحاد ولا تفيد العلم ، ولهم أن يقولوا : هب أنها تفيد الظن ، لكن ما حصل ظن كونه دليلا ترتب عليه ظن ثبوت الحكم ، فيكون العمل به دافعا للضرر المظنون فيكون واجبا ، إلا أن أكثر هذه الأخبار واردة في الصلاة والحج ، فلعله صلى الله عليه وسلّم كان قد بين لهم أن شرعه وشرعهم سواء في هذه الأمور ، قال صلى الله عليه وسلّم : «صلوا كما رأيتموني أصلي» ، وعليه خرج مسألة التقاء الختانين [3] ، وقال : «خذوا عني مناسككم» ، وعليه يقبل عمر رضي الله عنه الحجر ، وقال : «هذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي» . وأما عن الوصال [4] : فإنّهم ظنوا لما أمرهم بالصوم واشتغل معهم به أنه قصد بفعله بيان الواجب ، فرد عليهم ظنهم وأنكر عليهم الموافقة .

وأما خلع النعل : فلا نعلم أنهم فعلوا ذلك واجبا ، وأيضا لا يمتنع أن يكونوا

---

[1] آل عمران : 31 .

[2] الحشر : 7 .

[3] بوجوب الغسل من الإكسال ، والإكسال : هو الجماع بدون إنزال .

[4] الوصال لغة : يكون في عفاف الحب ودعارته (ترتيب القاموس) ج 4 ص 620 ، وشرعا : تتابع الصوم من غير إفطار بالليل . قال (الخطابي) في (معالم السنن) : الوصال من خصائص ما أبيح لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وهو محظور على أمته . راجع (عون المعبود شرح سنن أبي داود) ج 6 ص 487 .

لما رأوه قد خلع نعله مع قوله تعالى: خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ 7 : 31 [1] ظنوا أن خلعها مأمور به غيرهم، لأنه لو كان مباحا ما تركه المستنون في الصلاة على أنه صلى الله عليه وسلّم قال لهم: لم خلعتم نعالكم؟ فقالوا: لأنك خلعت نعلك، فقال: إن جبريل أخبرني أن فيهما أذى، فبين بهذا أنه ينبغي أن يعرفوا الّذي وقع عليه فعله صلى الله عليه وسلّم ثم يتبعوه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

---

[1] الأعراف: 31.



وأما اقتران اسم النبي صلى الله عليه وسلّم باسم الله تعالى

فإنه سبحانه قرن اسمه تعالى باسمه صلى الله عليه وسلّم في كتابه العزيز عند ذكر طاعته ومعصيته، وفرائضه وأحكامه، ووعده ووعيده، قال الله تعالى: أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ 4 : 59 [1]، وقال: وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا 5 : 92 [2]، وقال:

يُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ 9 : 71 [3] ، وقال : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ 24 : 62 [4] ، وقال : اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ 8 : 24 [5] ، وقال : وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ 4 : 14 [6] ، وقال : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ 33 : 57 [7] ، وقال : بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ 9 : 1 [8] ، وقال : وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ 9 : 3 [9] ، وقال : وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ 9 : 16 [10] ، وقال : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ 9 : 63 [11] ، وقال : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ 5 : 33 [12] ، وقال : وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ 9 : 29 [13] ، [وقال] : وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ 8 : 13 [14] ، وقال : قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ 8 : 1 [15] ، وقال : فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ 4 : 59 [16] ، وقال : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ 9 : 59 [17] ، وقال : فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ 8 : 41 [18] ، وقال : وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ 9 : 74

---

[1] النساء : 59 .

[2] المائدة : 92 . وفي (خ) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ 8 : 1 .

[3] التوبة : 71 ، وفي (خ) وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ 9 : 71 .

[4] التوبة : 62 .

[5] الأنفال : 24 .

[6] الأحزاب: 36.

[7] الأحزاب: 57.

[8] التوبة: 1.

[9] التوبة: 3.

[10] التوبة: 63.

[11] التوبة: 16. وفي (خ) يُحادِدِ اللهَ ورَسُولَهُ 9: 63.

[12] المائدة 33.

[13] التوبة: 29.

[14] الأنفال: 13.

[15] الأنفال: 1.

[16] النساء: 59.

[17] التوبة: 59.

[18] الأنفال: 41.

وَرَسُولُهُ من فَضْلِهِ 9 : 74 [1] ، وقال : وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ 9 : 90 [2] ، وقال : أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ 33 : 37 [3] ، فقرن تعالى اسمه الكريم باسم رسوله محمد في جميع الأحكام والأصول ، تعظيما لقدره وتشريفا له على غيره صلى الله عليه وسلّم .

---

[1] التوبة : 74 .

[2] التوبة : 90 .

[3] الأحزاب : 37 .

(233/428)

---

وأما تقدم نبوته صلى الله عليه وسلّم قبل تمام خلق آدم عليه السلام

فخرج الترمذي من حديث الوليد بن مسلم قال : حدثنا الأوزاعي ، حدثنا يحي بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا : يا رسول الله ! متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد [1] ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، هذا آخر كلام الترمذي .

وقد رواه عباد بن جويرية عن الأوزاعي مرسلا ، واختلف على الوليد بن مسلم فيه ،

فرواه بعضهم عنه مرسلا ، ورواه بعضهم عنه فأسنده كما تقدم ذكره .

ولأبي نعيم من حديث إبراهيم بن طهمان عن بديل عن ميسرة ، عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال : متى كنت يا رسول الله نبيا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد [1] . وله من حديث حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة عن خالد الحذاء عن عبد الله بن شقيق عن رجل أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلّم : متى كنت نبيا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . كذا رواه حماد ولم يسم ميسرة ، وتابعه عليه عن خالد الحذاء وهب بن خالد [1] . ولأبي نعيم من حديث عمرو بن واقد ، عن عروة بن رويم [2] ، عن الصنابجي قال عمر رضي الله عنه : متى جعلت نبيا ؟ قال : وآدم منجدل في الطين . وله من حديث نصر بن مزاحم ، حدثنا قيس بن الربيع عن جابر عن الشعبي ،

---

[1] سبق تخريج هذه الأحاديث والتعليق عليها .

[2] عروة بن رويم اللخمي أبو القاسم الأردني ، قال ابن أبي حاتم عن أبيه : عامة أحاديث مرسلة .

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ! متى كنت نبيا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . تفرد به نصر بن مزاحم .

وله من حديث أبي بكر بن أبي مريم عن سعيد بن سويد ، عن العرباض بن سارية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : إني عبد الله في أم الكتاب وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته . وفي رواية : أنا عبد الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته . وفي رواية : إني عبد الله مكتوب بخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته . وفي رواية : إني عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته [1] . وخرجه الحاكم من حديث عثمان بن سعيد الدارميّ قال : قلت لأبي اليمان :

حدثك أبو بكر بن أبي مريم الغساني عن سعيد بن سويد عن العرباض بن سارية السلمي قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول : إني عبد الله في أول الكتاب بخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسآتيكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ، ورؤيا أمي بي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد [2] .

وخرج أبو نعيم من حديث سعيد عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث [3] . وفي الصحيحين [4] من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال

---

[1] (دلائل النبوة لأبي نعيم) ج - 1 ص 8 - 9 ، وفي (خ) «بخاتم»

[2] (المستدرك للحاكم ج 2 ص 600 وله شاهد على صحته ص 609 .

[3] سبق تخريجه وشرحه .

[4] ذكره البخاري في كتاب الجمعة ، باب (2) هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم ؟ وقال ابن عمر : إنما الغسل على من تجب عليه الجمعة ، حديث رقم (896) : حدثنا مسلم ابن إبراهيم قال : حدثنا وهيب قال : حدثنا ابن طاوس عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون والسابقون يوم القيامة ، أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا اليوم الّذي اختلفوا فيه فهدانا الله ، فغدا لليهود ، وبعد غد للنصارى» فسكت . (897) : ثم قال : «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده» .



---

رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة» الحديث .

وله طرق [1] ، قال أبو نعيم : وكان صلى الله عليه وسلّم آخرهم في البعث ، وبه ختمت النبوة ، وهو

---

[()] وأخرجه مسلم من كتاب الجمعة باب (6) هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، حديث رقم (19) :

وحدثنا عمرو الناقد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون ونحن السابقون يوم الجمعة ، بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم الّذي كتبه الله علينا ، هدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا ، والنصارى بعد غد .

وحدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة وابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة» بمثله .

وحديث رقم (20) : حدثنا قتيبة بن سعيد ، وزهير بن حرب قالا : حدثنا جرير عن الأعمش ، عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا ، فهدانا الله له ، قال يوم الجمعة ، فاليوم لنا ، وغدا لليهود ، وبعد غد للنصارى» قوله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة» ، قال العلماء : معناه الآخرون في الزمان والوجود ، السابقون بالفضل ودخول الجنة ، فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم» ، هو بفتح الباء الموحدة وإسكان المثناة تحت ، قال أبو عبيد : لفظه «بيد» تكون بمعنى غير ، وبمعنى على ، وبمعنى من أجل ، وكله صحيح هنا ، ويقال : «ميد» بمعنى «بيد» .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «هذا اليوم الّذي كتبه الله علينا هدانا الله له» ، فيه دليل لوجوب الجمعة ، وفيه فضيلة هذه الأمة . قوله صلى الله عليه وسلّم : «اليهود غدا» ، أي عيد اليهود غدا ، لأن ظروف الزمان لا تكون أخبارا عن الجثث فيقدر فيه معنى يمكن تقديره خبرا .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «فهذا يومهم الّذي اختلفوا فيه هدانا الله» ، قال القاضي : الظاهر أنه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ، ووكل إلى اجتهادهم لإقامة شرائعهم فيه ، فاختلف اجتهادهم في تعيينه ، ولم يهدهم الله له ، وفرضه على هذه الأمة مبينا ، ولم يكله إلى اجتهادهم ، ففازوا بتفضيله . قال : وقد جاء أن موسى عليه السلام أمرهم بالجمعة ، وأعلمهم بفضلها فناظروه أن السبت أفضل ، فقيل له : دعهم .

قال القاضي : ولو كان منصوصا لم يصح اختلافهم فيه ، بل كان يقول : خالفوا فيه . قال الإمام النووي : ويمكن أن يكون أمروا به صريحا ، ونصّ على عينه ، فاختلفوا فيه ، هل يلزم تعيينه أم لهم إبداله ، وأبدلوه وغلطوا في إبداله . (مسلم بشرح النووي) : 6/ 391 ، كتاب الجمة ، باب (6) هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ، حديث رقم (19) ، (20) ،

(21) .

[1] باقي طرق الحديث في المرجع السابق ، حديث رقم (22) ، (23) ، كلها بسياقات قريبة من بعضها مع التقديم والتأخير والزيادة والنقصان لكن بمعنى واحد ، وذكره أبو نعيم في (الدلائل) : 1/ 49 ، باب ما روي في تقديم نبوته صلى الله عليه وسلّم قبل خلق آدم عليه السلام ، حديث رقم (11) ، والنسائي في الجمعة ، باب إيجاب يوم الجمعة ، حديث رقم (1366) .

*(236/428)*

---

[ () ] قال الحافظ السيوطي : قوله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون» ، أي الآخرون زمانا ، الأولون منزلة ، والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية ، فهي سابقة لهم في الآخرة ، بأنهم أول من يحشروا ، وأول من يحاسب ، وأول من يقضى بينهم ، وأول من يدخل الجنة .

وقيل : المراد بالسبق إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل ، وهو يوم الجمعة ، وقيل المراد به السبق إلى القبول والطاعة التي حرمها أهل الكتاب فقالوا : سَمِعْنا وَعَصَيْنا 2 : 93 ، والأول أقوى . «بيد» بموحدة ثم تحتية ساكنه مثل «غير» وزنا ، ومعنى ، وإعرابا ، وبه

جزم الخليل والكسائي ، ورجحه ابن سيدة .

وروى ابن أبي حاتم في مناقب الشافعيّ رحمه الله ، عن الربيع ، عنه ، أن معنى «بيد» من أجل ، وكذا ذكره ابن حبان والبغوي ، عن المزني عن الشافعيّ ، وقد استبعده القاضي عياض ، ولا بعد فيه .

والمعنى إنا سبقنا بالفضل إذ هدينا للجمعة ، مع تأخرنا في الزمان ، بسبب أنهم ضلوا عنها مع تقدمهم . ويشهد لهم ما في (فوائد المقري) بلفظ : نحن الآخرون في الدنيا ، ونحن أول من يدخل الجنة ، لأنهم أورثوا الكتاب من قبلنا . وقال الراويّ : هي بمعنى «على» أو «مع» . قال القرطبي : إن كانت بمعنى «غير» فنصب على الاستثناء ، وإن كانت بمعنى «مع» ، فنصب على الظرف ، وقال الطيبي : هي للاستثناء ، وهي من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم . «أنهم أوتوا الكتاب قبلنا» اللام للجنس ، والمراد التوراة والإنجيل : «وأوتيناه» المراد الكتاب ، مرادا به القرآن ، «وهذا اليوم الّذي كتب الله عليهم» ، أي فرض عليهم تعظيمه ، «فاختلفوا فيه» ، قال ابن بطال : ليس المراد أن يوم الجمعة فرض عليهم بعينه فتركوه ، لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض الله عليه وهو مؤمن ، وإنما يدل والله تعالى أعلم على أنه فرض عليهم يوم الجمعة ووكل على اختيارهم ليقيموا فيه شريعتهم ، فاختلفوا في أي الأيام هو ، ولم يهتدوا ليوم الجمعة .

وقال النووي : يمكن أن يكونوا أمروا به صريحا فاختلفوا ، هل يلزم تعيينه أم يسوغ إبداله بيوم

آخر ، فاجتهدوا في ذلك فأخطئوا . وقد روى ابن أبي حاتم عن السدّي ، في قوله تعالى : إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ 16 : 124 ، قال : إن الله فرض على اليهود يوم الجمعة فأبوا وقالوا : يا موسى إن الله لم يخلق يوم السبت شيئًا فاجعله لنا ، فجعله عليهم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «اليهود غدا والنصارى بعد غد» ، قال القرطبي «غدا» منصوب على الظروف ، وهو متعلق بمحذوف تقديره : اليهود يعظمون غدا وكذا بعد غد ولا بد من هذا التقدير لأن ظرف الزمان لا يكون خبرا عن الجثة ، وقدر ابن مالك تقييد اليهود غدا . (حاشية الحافظ السيوطي على سنن النسائي) : 3/ 95 - 96 ، كتاب الجمعة ، باب إيجاب الجمعة ، حديث رقم (1366) .

وقال الإمام السندي : قوله صلى الله عليه وسلّم : «نحن الآخرون السابقون» ، أي الآخرون زمانا في الدنيا ، الأولون منزلة وكرامة يوم القيامة ، والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية ، فهي سابقة إياهم في الآخرة ، بأنهم أول من يحشر ، وأول من يحاسب ، وأول من يقضى بينهم ، وأول من يدخل الجنة .

وقيل : المراد بالسبق إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل ، وهو يوم الجمعة ، وقيل : المراد بالسبق إلى القبول والطاعة التي حرمها أهل الكتاب فقالوا : سَمِعْنا وَعَصَيْنا 2 : 93 .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «أوتوا الكتاب» ، اللام للجنس ، فيحمل بالنسبة إليهم على كتابهم ، وبالنسبة إلينا

السابق يوم القيامة لأنه أول مكتوب في النبوة ، ففي هذا الخبر الفضيلة العظيمة لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، لما أوجب الله تعالى له النبوة قبل تمام خلق آدم الّذي هو أبو البشر ، ويحتمل أن يكون هذا الإيجاب هو ما أعلم الله ملائكته ما سبق في علمه وقضائه من بعثه صلى الله عليه وسلّم في آخر الزمان ، فمن حاز هذه الفضيلة حق له الصبر على مواصلة الدعوة واحتمال الأذية ممن ردها ، وإعظام من قبلها ، واستفراغ الوسع في احتمال كل عارض وشدة وبلوى تعرض دون إقامتها ، إذ الفضيلة سابقة على فضائل من تقدمه من الأنبياء في العهد والخلق الأول .

وقال بعض العارفين باللَّه : لما خلق الله الأرواح المدبرة للأجسام عند حركة الفلك أول ما خلق الزمان بحركته ، كان أول ما خلق روح محمد صلى الله عليه وسلّم ، ثم صدرت الأرواح الفلكية عن الحركات الفلكية ، فكان لها وجود في عالم الغيب دون عالم الشهادة ، وأعلمه الله بنبوته ، وآدم لم يكن إلا كما قال بين الماء والطين ، فاقتضى قوله : «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» أن يكون وجوده حقيقة ، فإنه لا يكون العدم بين أمرين موجودين لانحصاره ، والمعدوم لا يوصف بالحصر في شيء ، ثم انتهى الزمان في حقه عليه السلام إلى

وجود جسمه وارتباط الروح به ، فظهر محمد صلى الله عليه وسلّم بكليته جسما وروحا ، فكان له الحكم أولا باطنا في جميع ما ظهر من الشرائع على أيدي الأنبياء والرسل عليهم السلام ، ثم صار له الحكم ظاهرا فنسخ كل شرع وإن كان المشرع واحدا ، وهو صاحب الشرع ، فإنه قال : «كنت نبيا» . . .

---

[ ()] على كتابنا ، وهذا بيان زيادة شرف لنا ، أي فصار كتابنا ناسخا لكتابهم ، وشريعتنا ناسخة لشريعتهم ، وللناسخ فضل على المنسوخ ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم .

أو المراد بيان أن هذا يرجع إلى مجرد تقدمهم علينا في الوجود ، وتأخرنا عنه فيه ، ولا شرف لهم فيه ، أو هو شرف لنا أيضا من حيث قلة انتظارنا أمواتا في البرزخ ، ومن حيث حيازة المتأخر علوم المتقدم دون العكس ، فقولهم الفضل للتقدم ليس بكلي . قوله صلى الله عليه وسلّم : «وهذا اليوم» ، الظاهر أنه أوجب عليهم يوما بعينه والعبادة فيه ، فاختاروا لأنفسهم أن يبدل الله لهم يوم السبت ، فأجيبوا إلى ذلك ، وليس بمستبعد من قوم قالوا لنبيهم : اجْعَلْ لَنا إِلهاً 7 : 138 .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «فهدانا الله» ، بالثبات عليه حين شرع لنا العبادة فيه ، «اليهود غدا» أي يعبدون الله في يوم الجمعة . فأخذ المصنف قوله : «كتب الله» ، الوجوب

، والظاهر أن الحكم بالنظر إلى واحد ، فحيث إن ذلك الحكم هو الوجوب بالنسبة إلى قوم تعين أنه الوجوب بالنظر إلى الآخرين ، والله تعالى أعلم (المرجع السابق) .



---

ما قال : كنت إنسانا ، ولا كنت موجودا ، وليست النبوة إلا بالشرع المقرر من عند الله ، فأخبر أنه صاحب النبوة قبل وجود الأنبياء في الدنيا كما تقرر فيما تقدم ، فكانت استدارته إليها دورته بالاسم الباطن ، وابتداء دورة أخرى بالاسم الظاهر ، فقال صلى الله عليه وسلّم : «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض» [1] ،

---

[1] ذكره البخاري في مواضع متفرقة من صحيحه يتمم بعضها بعضا ، لكن أخرجه مسلم بتمامه في كتاب القسامة باب (9) تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ، حديث رقم (29) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، ويحى بن حبيب الحارثي «و تقاربا في اللفظ» قالا : حدثنا عبد الوهاب الثقفي ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن ابن أبي بكرة ، عن أبي بكرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلّم أنه قال : «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب شهر مضر ، الّذي بين جمادى وشعبان ، ثم قال : أي شهر

هذا ؟ قلنا :

الله ورسوله أعلم ، قال : فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ، قلنا : بلى ، قال : فأي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال :

أليس البلدة ؟ قلنا : بلى ، قال : فأي يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال فإن دماءكم وأموالكم قال محمد : وأحسبه قال : وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، فلا ترجعن بعدي كفارا – أو ضلالا – يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ثم قال : ألا هل بلغت» ؟ قال ابن حبيب في روايته : «ورجب مضر» وفي رواية أبي بكر : «فلا ترجعوا بعدي» . قوله صلى الله عليه وسلّم : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب شهر مضر ، الّذي بين جمادى وشعبان» ، أما ذو القعدة ، فبفتح القاف ، وذو الحجة بكسر الحاء ، هذه اللغة المشهورة ، ويجوز في لغة قليلة كسر القاف وفتح الحاء ، وقد أجمع المسلمون على أن الأشهر الحرم الأربعة هي هذه المذكورة في الحديث ، ولكن اختلفوا في الأدب المستحب في كيفية

عدّها ، فقالت طائفة من أهل الكوفة وأهل الأدب ، يقال : المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة ، ليكون الأربعة من سنة واحدة ، وقال علماء المدينة والبصرة ، وجماهير العلماء ، هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، وهذا هو الصحيح الّذي جاءت به الأحاديث الصحيحة ، منها هذا الحديث الّذي نحن فيه ، وعلى هذا الاستعمال أطبق الناس من الطوائف كلها .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «ورجب شهر مضر الّذي بين جمادى وشعبان» ، وإنما قيّده هذا التقييد مبالغة في إيضاحه ، وإزالة للبس عنه ، قالوا : وقد كان بين بني مضر وبين ربيعة اختلاف في رجب ، فكانت مضر تجعل رجبا هذا الشهر المعروف الآن ، وهو الّذي بين جمادى وشعبان ، وكانت ربيعة تجعله رمضان ، فلهذا أضافه النبي صلى الله عليه وسلّم إلى مضر .

وقيل : لأنهم كانوا يعظمونه أكثر من غيرهم ، وقيل : إن العرب كانت تسمي رجبا وشعبان



---

[()] الرجبين ، وقيل كانت تسمى جمادى ورجبا جمادين ، وتسمى شعبان رجبا .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات

والأرض» ، فقال العلماء :

معناه أنهم في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم صلى الله عليه وسلّم في تحريم الأشهر الحرم ، وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات ، فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخروا تحريم المحرم إلى الشهر الّذي بعده ، وهو صفر ، ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر ، وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة ، حتى اختلط عليهم الأمر ، وصادفت حجة النبي صلى الله عليه وسلّم تحريمهم ، وقد تطابق الشرع ، وكانوا في تلك السنة قد حرّموا ذا الحجة لموافقة الحساب الّذي ذكرناه ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلّم أن الاستدارة قد صادفت ما حكم الله تعالى به يوم خلق السموات والأرض .

وقال أبو عبيد : كانوا ينسئون أي يؤخرون ، وهو الّذي قال الله تعالى فيه : إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ 9 : 37 ، فربما احتاجوا إلى الحرب في المحرم ، فيؤخرون تحريمه إلى صفر ، ثم يؤخرون صفر في سنة أخرى ، فصادف تلك السنة رجوع المحرم إلى موضعه .

قوله : «ثم قال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى ، قال : فأي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . . إلى آخره» ، هذا السؤال ، والسكوت ، والتفسير ، أراد به التفخيم ، والتقرير ، والتنبيه على عظم مرتبه هذا الشهر ، والبلد ، واليوم ، وقولهم : «الله ورسوله أعلم» ، هذا من حسن أدبهم ، وأنهم علموا أنه صلى الله عليه وسلّم لا يخفى عليه ما

يعرفونه من الجواب ، فعرفوا أنه ليس المراد مطلق الإخبار بما يعرفون .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «فإن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا» . المراد بهذا كله بيان توكيد غليظ تحريم الأموال والدماء ، والأعراض ، والتحذير من ذلك .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «لا ترجعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض» ، قيل في معناه سبعة أقوال :

[1] أن ذلك كفر في حق المستحل بغير حق .

[2] المراد كفر النعمة ، وحق الإسلام .

[3] أنه يقرب من الكفر ، ويؤدي إليه .

[4] أنه فعل كفعل الكفار .

[5] المراد حقيقة الكفر ، ومعناه : لا تكفروا ، ودوموا مسلمين .

[6] حكاه الخطابي وغيره ، أن المراد بالكفار : المتكفرون بالسلاح ، يقال : تكفّر الرجل بسلاحه إذا لبسه . قال الأزهري في كتاب (تهذيب اللغة) : يقال للابس السلاح كافر .

[7] قال القاضي عياض رحمه الله : ثم إن الرواية «يضرب» برفع الباء ، هكذا هو الصواب ، وكذا رواه المتقدمون والمتأخرون ، وبه يصح المقصود هنا .

ونقل القاضي عياض رحمه الله ، أن بعض العلماء ضبطه بإسكان الباء . قال القاضي :

وهو إحالة للمعنى ، والصواب الضم ، قال الإمام النووي : وكذا قال أبو البقاء العكبريّ : إنه يجوز جزم الباء على تقدير شرط مضمر ، أي إن ترجعوا يضرب ، والله تعالى أعلم .



---

يعني في نسبة الحكم لنا ظاهرا كما كان في الدورة الأولى منسوبا إلينا باطنا ، وإن كان في الظاهر منسوبا لمن نسب إليه من الأنبياء ، ولما كانت العرب تنسئ[1] في الشهور فترى المحرّم منها حلالا والحلال منها محرّما ، جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم برد الزمان إلى أصله الّذي حكم إليه به عند خالقه ، فبين الحرم من الشهور على حد ما خلقها الله

---

[()] وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «لا ترجعوا بعدي كفارا» ، فقال القاضي : قال الصبري : معناه بعد فراقي من موقفي هذا ، وكان هذا يوم النحر بمنى في حجة الوداع ، أو يكون بعدي أي خلافي ، أي لا تخلفوني في أنفسكم بغير الّذي أمرتكم به ، أو يكون تحقق صلى الله عليه وسلّم أن هذا لا يكون في حياته ، فنهاهم عنه بعد مماته .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «ليبلغ الشاهد منكم الغائب» ، فيه وجوب تبليغ العلم ، وهو فرض كفاية ، فيجب تبليغه بحيث ينتشر .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» ، احتج به العلماء لجواز رواية الفضلاء وغيرهم من الشيوخ الذين لا علم لهم عندهم ولا فقه ، إذا ضبط ما يحدث به. (مسلم بشرح النووي) : 2/ 415 - 416 ، كتاب الإيمان ، باب (29) بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلّم : «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» ، حديث رقم (118) ، (المرجع السابق) : 11/ 180 ، كتاب القسامة ، باب (9) . تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال ، حديث رقم (29) .

[1] النسيء : يقال نسأه وأنسأه ، إذا أخّره ، حكاه الكسائي . قال تعالى : إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ 9 : 37 .

قال الجوهري وأبو حاتم : النسيء فعيل بمعنى مفعول ، من نسأت الشيء فهو منسوء إذا أخّرته ، ثم حوّل إلى نسيء ، كما حوّل مقتول إلى قتيل . ورجل ناسئ ، وقوم نسأة ، مثل فاسق وفسقة .

وقيل : النسيء مصدر من أنسأ ، كالنذير من أنذر ، والنكير من أنكر ، وهو ظاهر قول الزمخشريّ لأنه قال : النسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر .

وقال الطبريّ : النسيء بالهمز معناه الزيادة . قال أبو حيان : فإذا قلت : أنسأ الله أجله بمعنى أخّر ، لزم من ذلك الزيادة في الأجل ، فليس النسيء مرادفا للزيادة ، بل قد يكون

منفردا عنها في بعض المواضع . وإذا كان النسيء مصدرا كان الإخبار عنه بمصدر واضحا ، وإذا كان بمعنى مفعول فلا بد من إضمار إما في النسيء أي : إن نسأ النسيء ، أو في زيادة ، أي : ذو زيادة . وبتقدير هذا الإضمار يرد على ما يرد على قوله . ولا يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، لأنه يكون المعنى : إنما المؤخر زيادة ، والمؤخر الشهر ، ولا يكون الشهر زيادة في الكفر .

وأخبر أن النسيء زيادة في الكفر ، أي جاءت مع كفرهم باللّه ، لأن الكافر إذا أحدث معصية ازداد كفرا . قال تعالى : فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ 9 : 125 [التوبة : 125] ، كما أن المؤمن إذا أحدث طاعة ازداد إيمانا . قال تعالى : فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ 9 : 124 [التوبة : 124] ، وأعاد الضمير في به على النسيء ، لا على لفظ زيادة .



---

عليه ، فلهذا قال : «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض» ، كذلك استدار الزمان فأظهر محمدا صلى الله عليه وسلّم جسما وروحا ، فنسخ [1] من شرعه المتقدم ما أراد أن ينسخ منه . وأبقى ما أراد الله أن يبقى عليه ، وذلك النّسخ في الأحكام لا في الأصول ، ولما كان ظهوره صلى الله عليه وسلّم [بالميزان] [2] وهو العدل

في الكون وهو معتدل حار رطب كان زمان ملته متصلا بالآخرة ، وكان العلم في أمته أكثر مما كان .

في الأوائل ، وأعطي صلى الله عليه وسلّم علم الأولين وعلم الآخرين ، فكان الكشف في هذه الأمة

---

[ () ] وقرأ ابن مسعود والأخوان وحفص : يُضِلُّ 2 : 26 مبنيا للمفعول ، وهو مناسب لقوله : زُيِّنَ 2 : 212 ، وباقي السبعة مبنيا للفاعل . وابن مسعود في رواية ، والحسن ومجاهد ، وقتادة ، وعمرو بن ميمون ، ويعقوب : يُضِلُّ 2 : 26 أي الله ، أي يضل به الذين كفروا أتباعهم .

ورويت هذه القراءة عن الحسن ، والأعمش ، وأبي عمرو ، وأبي رجاء . وقرأ أبو رجاء : يُضِلُّ 2 : 26 بفتحتين ، من ضللت بكسر اللام ، أضلّ بفتح الضاد منقولا ، فتحها من فتحة اللام ، إذ الأصل أضلل . وقرأ النخعي ومحبوب عن الحسن : نضل بالنون المضمومة وكسر الضاد ، أي فضل نحن .

ومعنى تحريمهم عاما وتحليله عاما : لا يراد أن ذلك كان مداولة في الشهر بعينه ، عام حلال وعام حرام ، وقد تأول بعض الناس القصة على أنهم كانوا إذا شقّ عليهم توالي الأشهر الحرم ، أحل لهم المحرم ، وحرم صفرا بدلا من المحرم ، ثم مشت الشهور مستقيمة على أسمائها المعهودة ، فإذا كان من قابل ، حرّم المحرم على حقيقته ، وأحلّ صفر ، ومشت الشهور

مستقيمة ، وإن هذه كانت حال القوم .

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك : الذين شرعوا النسيء هم بنو مالك من كنانة ، وكانوا ثلاثة .

وعن ابن عباس : إن أول من فعل ذلك عمرو بن لحيّ ، وهو أول من سيب السوائب وغيّر دين إبراهيم عليه السلام . وقال الكلبي : أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له : نعيم بن ثعلبة .

والموطأة : الموافقة ، أي ليوافقوا العدة التي حرّم الله ، وهي الأربعة ولا يخالفونها ، وقد خالفوا التخصيص الّذي هو أصل الواجبين . والواجبان هما العدد الّذي هو أربعة ، في أشخاص أشهر معلومة ، وهي رجب وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم . يقال : تواطئوا على كذا ، إذا اجتمعوا عليه ، كأن كل واحد منهم يطأ حيث يطأ صاحبه . ومن الإيطاء في الشعر ، وهو أن يأتي في الشعر بقافيتين على لفظ واحد ومعنى واحد .

قال ابن عطية : ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد ، فأزالوا الفضيلة التي خصّ بها الأشهر الحرم وحدها ، بمثابة أن يفطر رمضان ، ويصوم شهرا من السنة بغير مرض أو سفر . باختصار من (البحر المحيط) : 5/ 416 - 418 .

[1] النسخ إبطال الشيء وإقامة آخر مكانه ، وفي التنزيل : ما نَنْسَخْ من آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها 2 : 106 ، والآية الثانية ناسخة والأولى منسوخة ، والشيء ينسخ

الشيء أي يزيله ويكون مكانه. (لسان العرب) : 3/ 61.

[2] في (خ) «بالميراث»، وما أثبتناه أجود للسياق.



---

أكثر مما كان في غيرها، لغلبة البرد واليبس على سائر الأمم قبلنا، وإن كانوا أذكياء وعلماء فآحاد مهم معينون بخلاف الأمة المحمدية، ألا ترى كيف ترجمت هذه الأمة جميع علوم الأمم، ولو لم يكن المترجم عالما بالمعنى الّذي دل عليه لفظ المتكلم به لما صح أن يكون مترجما، ولا كان ينطبق على ذلك اسم الترجمة، فقد علمت هذه الأمة علم من تقدم، واختصت بعلوم لم تكن للمتقدمين، ولهذا أشار صلى الله عليه وسلّم بقوله: «فعلمت علم الأولين»، وهم الذين تقدموه، ثم قال: «وعلم الآخرين»، وهو علم ما لم يكن عند المتقدمين، وهو ما تعلمته أمته من بعده إلى يوم القيامة، فقد أخبر عليه السلام أن عندنا علوما لم تكن قبل، فقد ثبت له صلى الله عليه وسلّم السيادة في الدنيا في العلم، وثبت له أيضا السيادة في الحكم حيث قال: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»، وتبين ذلك عند نزول عيسى عليه السلام، وحكمه فينا بالقرآن، فصحّت لنبينا محمد صلى الله عليه وسلّم السيادة في الدنيا بكل وجه ومعنى.

ثم أثبت له السيادة على سائر الناس يوم القيامة بفتحه باب الشفاعة ، ولا يكون ذلك [لنبي في [1] يوم القيامة] إلا له صلى الله عليه وسلّم ، فقد شفع صلى الله عليه وسلّم في الرسل والأنبياء أن تشفع ، نعم ، وفي الملائكة ، فأذن الله تعالى عند شفاعته عليه السلام في ذلك لجميع من له شفاعة من ملك ورسول ونبي ومؤمن أن يشفع ، فهو صلى الله عليه وسلّم أول شافع بإذن الله تعالى ، وأرحم الراحمين ، أخرج من النار من لم يعمل خيرا قط كما ورد في الحديث الصحيح ، فأي شرف أعظم من دائرة تدار يكون آخرها أرحم الراحمين ، وآخر الدائرة متصل بأولها ، ولا شرف أعظم من شرف محمد صلى الله عليه وسلّم ، حيث كان ابتداء الأشياء ، وبه كملت ، وما أعظم شرف المؤمن حيث ثلث شفاعته بشفاعة أرحم الراحمين ، فلا دائرة أوسع من دائرة محمد صلى الله عليه وسلّم ، فإن له الإحاطة - [و لأمته بحكم التبعية فلها الاحاطة] [2] - بسائر الأمم ، ولذلك كانوا شهداء على الناس [3] .

---

[1] في (خ) «ولا يكون ذلك لنبي إلا في يوم القيامة» ، وهو خطأ من الناسخ .

[2] ما بين القوسين من هامش (خ) .

[3] إشارة إلى قوله تعالى : وَفي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ 22 : 78 [الحج : 78] .

[وأعطى] [1] الله محمدا صلى الله عليه وسلّم ما لم يعط غيره، فمن ذلك القرآن لم يبدل [ولم يحرف] [2]، ولا نسخت شريعته بل ثبتت محفوظة، واستقرت بكل عين ملحوظة، يستشهد بها على كل طائفة، وخصّ صلى الله عليه وسلّم بعلم الأولين والآخرين، وبالتؤدة والرّفق والرحمة وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً 33: 43 [3]، وما غلظ على من غلظ إلا بالأمر الإلهي حين قيل له جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ 9: 73 [4]، فصحت له السيادة على العالم بما تقرر، فإنه لم يحصل لغيره.

قال تعالى: يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ 2: 75 [5]، وقال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ 15: 9 [6]، فلذلك ثبت القرآن ولم يحرف، وكذا علمه الإحاطي لم يكن لغيره ممن تقدمه. ومما خص به: السيف الّذي بعث به، وقتال الملائكة معه، فإن ذلك لم يكن لغيره، وهو من رتبة الكمال، وبعث من قوم ليس لهم همّ إلا في قرى الضيفان ونحر الجزور، والقتال الدائم الّذي لم يكن في غيرهم من الناس، وبهذا ولهذا كانوا يتمدحون كما هو معروف في أشعارهم، ولا خفاء عند كل أحد بفضل العرب على العجم بالكرم والشجاعة، وإن كان في العجم كرماء وشجعان كما في العرب بخلاء وجبناء لكن آحاد،

والكلام يقع في الغالب لا في النادر ، فهذا أمر لا ينكره أحد .

ومما اختص به صلى الله عليه وسلّم أنه حببت إليه النساء [7] ، فإن حبهن بكون الله تعالى حببهن إليه ، فكان يحبهن . ومن سنته النكاح لا التبتل ، وجعل النكاح عبادة ، وحبب إليه أيضا الطيب [7] .

---

[1] في (خ) «وأعطا» .

[2] في (خ) «ولا حرف» .

[3] الأحزاب : 43 .

[4] التوبة : 73 ، التحريم : 9 .

[5] البقرة : 75 .

[6] الحجر : 9 .

[7] أخرجه النّسائيّ في كتاب عشرة النساء ، باب (1) ، حب النساء ، حديث رقم (3949) : حدثنا الشيخ الإمام أبو عبد الرحمن النّسائيّ قال : أخبرنا الحسين بن عيسى القومسيّ قال : حدثنا عفان بن مسلم قال : حدثنا سلّام أبو المنذر عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «حبّب إليّ من الدنيا النساء والطّيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة» . وحديث رقم (3950) : أخبرنا عليّ بن مسلم الطوسيّ قال : حدثنا سيّار قال : حدثنا جعفر قال : حدثنا ثابت عن أنس قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلّم : «حبّب إليّ النّساء والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة» . قال الحافظ السيوطي : قال بعضهم : في هذا قولان : أحدهما : أنه زيادة في الابتلاء والتكليف ،



---

[ () ] حتى يلهو بما حبب إليه من النساء ، عما كلف من أداء الرسالة ، فيكون ذلك أكثر لمشاقه وأعظم لأجره .

والثاني : لتكون خلواته مع ما يشاهدها من نسائه ، فيزول عنه ما يرميه به المشركون من أنه ساحر أو شاعر ، فيكون تحببهن إليه على وجه اللطف به ، وعلى القول الأول على وجه الابتلاء ، وعلى القولين فهو له فضيلة .

وقال التستري في (شرح الأربعين) : «من» في هذا الحديث بمعنى «في» ، لأن هذه من الدين لا من الدنيا ، وإن كانت فيها . والإضافة في رواية «دنياكم» للإيذان بأن لا علاقة له بها .

وفي هذا الحديث : إشارة إلى وفائه صلى الله عليه وسلّم بأصلي الدين ، وهما التعظيم لأمر الله ، والشّفقة على خلق الله ، وهما كمال لقوّتيه ، النظرية والعملية ، فإن كمال الأولى

بمعرفة الله ، والتعظيم دليل عليها ، لأنه لا يتحقق بدونها ، والصلاة لكونها مناجاة الله تعالى على ما قال صلى الله عليه وسلّم : «المصلي يناجي ربه» ، نتيجة التعظيم على ما يلوح من أركانها ووظائفها .

وكمال الثانية في الشفقة وحسن المعاملة مع الخلق ، وأولى الخلق بالشفقة بالنسبة إلى كل واحد من الناس ، نفسه وبدنه ، كما قال صلى الله عليه وسلّم : «أبدأ بنفسك ثم بمن تعول» ، والطيب أخص الذات بالنفس ، ومباشرة النساء ألذّ الأشياء بالنسبة إلى البدن ، مع ما يتضمن من حفظ الصحة ، وبقاء النسل المستمر لنظام الوجود ، ثم إن معاملة النساء ، أصعب من معاملة الرجال ، لأنهن أرق دينا ، وأضعف عقلا ، وأضيق خلقا ، كما قال صلى الله عليه وسلّم : «ما رأيت من ناقصات عقل ودين ، أذهب للبّ الرجل الحازم منكن» . فهو عليه الصلاة والسلام أحسن معاملتهن بحيث عوتب بقوله تعالى : تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ 66 : 1 ، وكان صدور ذلك طبعا لا تكلفا ، كما يفعل الرجل ما يحبه من الأفعال ، فإذا كانت معاملته معهن هذا ، فما ظنك بمعاملته مع الرجال ، الذين هم أكمل عقلا ، وأمثل دينا ، وأحسن خلقا ؟ .

وقوله صلى الله عليه وسلّم : «وجعلت قرة عيني في الصلاة» ، إشارة إلى أن كمال القوة النظرية أهم عنده وأشرف في نفس الأمر ، وأما تأخيره فللتدرج التعليمي من الأدنى إلى الأعلى ، وقدم الطيب على النساء ، لتقدم حظ النفس على حظ البدن في الشرف .

وقال الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) : الأنبياء زيدوا في النكاح لفضل نبوتهم ، وذلك أن النور إذا امتلأ منه الصدر ، ففاض في العروق ، التذت النفس والعروق ، فأثار الشهوة وقوّاها .

وروى عن سعيد بن المسيب أن النبيين عليهم الصلاة والسلام ، يفضّلون بالجماع على الناس ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنه قال : «أعطيت قوة أربعين رجلا في البطش والنكاح ، وأعطى المؤمن قوة عشرة» ، فهو بالنّبوّة ، والمؤمن بإيمانه ، والكافر له شهوة الطبيعة فقط .

قال : وأما الطيب فإنه يزكي الفؤاد . . . وروى أحمد والترمذي من حديث أبي أيوب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «أربع من سنن المرسلين : التعطّر ، والحياء ، والنكاح ، والسواك» . وقال الشيخ تقي الدين السبكي : السرّ في إباحة نكاح أكثر من أربع لرسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أن الله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها ، وما يستحيا من ذكره ، وما لا يستحيا منه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم أشدّ الناس حياء ، فجعل الله تعالى له نسوة ، ينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله ، ويسمعنه من أقواله ، التي قد يستحي من الإفصاح بها بحضرة الرجال ، ليكتمل نقل الشريعة ، وكثر عدد النساء ليكثر الناقلون لهذا

واختص أيضا بإعجاز القرآن ، وأعطي جوامع الكلم ، ولم يعط ذلك نبي قبله ، واعطي كما قال : ستا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبله : بعث إلى الناس كافة فعمت رسالته ، ونصر بالرعب ، وأحلت له ولأمته الغنائم ، وجعلت له ولأمته الأرض مسجدا وتربتها طهورا ، ومما خصّ به أن أعطاه الله مفاتيح خزائن الأرض ، وخصّه بصورة الكمال فكملت به الشرائع وكان خاتم الأنبياء ، ولم يكن ذلك

---

[ ( ) ] النوع ، ومنهن عرف مسائل الغسل ، والحيض ، والعدة ، ونحوها .

قال : ولم يكن ذلك لشهوة منه في النكاح ، ولا كان يحب الوطء للذة البشرية ، معاذ الله ، وإنما حبّب إليه النساء لنقلهن عنه ما يستحي هو من الإمعان في التلفظ به ، فأحبهن لما فيه من الإعانة على نقل الشريعة في هذه الأبواب .

وأيضا فقد نقلن ما لم ينقله غيرهن مما رأينه في منامه ، وحال خلوته ، من الآيات البينات على نبوته ، ومن جدّه ، واجتهاده في العبادة ، ومن أمور يشهد كل ذي لب أنها لا تكون إلا لنبي ، وما كان يشاهدها غيرهن ، فحصل بذلك خير عظيم .

وقال الموفق عبد اللطيف البغدادي : لما كانت الصلاة جامعة لفضائل الدنيا والآخرة ، خصّها بزيادة صفة ، وقدّم الطيب لإصلاحه النفس ، وثنّي بالنساء لإماطة أذى النفس

بهن ، وثلّث بالصلاة لأنها تحصل حينئذ صافية عن الشوائب ، خالصة من الشواغل .

(سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي) : 7/ 72 – 73 .

وقال الإمام السندي : قوله صلى الله عليه وسلّم : «حبّب إليّ من الدنيا النساء» ، قيل : إنما حبب إليه النساء لينقلن عنه ما لا يطلع عليه الرجال من أحواله ، ويستحيا من ذكره .

وقيل : حبب إليه زيادة في الابتلاء في حقه ، حتى لا يلهو بما حبب إليه من النساء عما كلف به من أداء الرسالة ، فيكون أكثر لمشاقه ، وأعظم لأجره ، وقيل غير ذلك .

وأما الطيب ، فكأنه يحبه لكونه يناجي الملائكة ، وهم يحبون الطيب ، وأيضا هذه المحبة تنشأ من اعتدال المزاج ، وكمال الخلقة ، وهو صلى الله عليه وسلّم أشدّ اعتدالا من حيث المزاج ، وأكمل خلقة .

وقوله صلى الله عليه وسلّم : «قرة عيني في الصلاة» ، إشارة إلى أن تلك المحبة ، غير ما نعقله عن كمال المناجاة مع الرب تبارك وتعالى ، بل هو مع تلك المحبة منقطع إليه تعالى ، حتى أنه بمناجاته تقر عيناه ، وليس له قريرة العين فيما سواه .

فمحبته الحقيقية ليست إلا لخالقه تبارك وتعالى ، كما قال : صلى الله عليه وسلّم : «لو كنت متخذا أحدا خليلا لاتخذت أبا بكر ، وإن صاحبكم لخليل الرحمن» – أو كما قال – وفيه إشارة إلى أن محبة النساء والطيب إذا لم يكن مخلا لأداء حقوق العبوديّة ، بل للانقطاع إليه تعالى ، يكون من الكمال ، وإلا يكون من النقصان ، فليتأمّل .

وعلى ما ذكر، فالمراد بالصلاة، هي ذات ركوع وسجود، ويحتمل أن المراد في صلاة الله تعالى عليّ، أو في أمر الله تعالى الخلق بالصلاة عليّ. والله تعالى أعلم. (المرجع السابق: 73 - 74.

(246/428)

---

لغيره [1].

---

[1] هذا الحديث أخرج البخاري في كتاب التيمم، باب (1)، حديث رقم (335):

أخبرنا سيار قال:

حدثنا يزيد الفقير قال: أخبرنا جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال:

«أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي المغانم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». قوله: «حدثنا يزيد الفقير»، هو ابن صهيب يكنى أبا عثمان، التابعي مشهور، قيل له الفقير لأنه كان يشكو فقار ظهره، ولم يكن فقيرا من المال، قال صاحب المحكم: رجل فقير مكسور فقار الظهر، ويقال له: فقير بالتشديد أيضا.

فائدة: مدار حديث جابر هذا على هشيم بهذا الإسناد، وله شواهد من حديث ابن عباس وأبي موسى وأبي ذر، من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، رواها كلها أحمد بأسانيد حسان.

قوله صلى الله عليه وسلّم: «لم يعطهن أحد قبلي»، زاد في كتاب الصلاة عن محمد بن سنان: «من الأنبياء»، وفي حديث ابن عباس: «لا أقولهن فخرا»، ومفهومه أنه لم يختص بغير الخمس المذكورة، لكن روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا: «فضلت على الأنبياء بست»، فذكر أربعا من هذه الخمس، وزاد ثنتين كما سيأتي بعد.

وطريق الجمع أن يقال: لعله اطلع أولا على بعض ما اختص به، ثم اطلع على الباقي، ومن لا يرى مفهوم العدد حجة يدفع هذا الإشكال من أصله. وظاهر الحديث يقتضي أن كل واحدة من الخمس المذكورات لم تكن لأحد قبله، وهو كذلك.

ولا يعترض بأن نوحا عليه السلام، كان مبعوثا إلى أهل الأرض بعد الطوفان، لأنه لم يبق إلا من كان مؤمنا معه، وقد كان مرسلا إليهم، لأن هذا العموم لم يكن في أصل بعثته، وإنما اتفق بالحادث الّذي وقع، وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما نبينا صلى الله عليه وسلّم فعموم رسالته من أصل البعثة، فثبت اختصاصه بذلك.

وأما قول أهل الموقف لنوح كما صح في حديث الشفاعة: «أنت أول رسول إلى أهل الأرض»، فليس المراد به عموم بعثته، بل إثبات أولية إرساله، وعلى تقدير أن يكون

مرادا فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى في عدة آيات ، على أن إرسال نوح كان إلى قومه ، ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم .

واستدل بعضهم لعموم بعثته بكونه دعا على جميع من في الأرض ، فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة ، ولو لم يكن مبعوثا إليهم لما أهلكوا ، لقوله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا 17 : 15 ، وقد ثبت أنه أول الرسل .

وأجيب بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح ، وعلم نوح بأنهم لم يؤمنوا ، فدعا على من لم يؤمن من قومه ومن غيرهم فأجيب ، وهذا جواب حسن ، لكن لم ينقل أنه نبّئ في زمن نوح غيره .

ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا صلى الله عليه وسلّم في ذلك بقاء شريعته إلى يوم القيامة ، ونوح وغيره بصدد أن يبعث نبي في زمانه ، أو بعده ، فينسخ بعض شريعته ، ويحتمل أن يكون دعاؤه قومه إلى التوحيد ، بلغ بقية الناس ، فتمادوا على الشرك فاستحقوا العذاب ، وإلى هذا نحا ابن عطية في تفسيره



---

[ () ] سورة هود قال :

وغير ممكن أن تكون نبوّته لم تبلغ القريب والبعيد لطول مدته ، ووجّهه ابن دقيق العيد بأن توحيد الله تعالى يجوز أن يكون عامّا في حق بعض الأنبياء ، وإن كان التزام فروع شريعته ليس عاما ، لأن منهم من قاتل غير قومه على الشرك ، ولو لم يكن التوحيد لازما لهم لم يقاتلهم .

ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرسال نوح إلا قوم نوح ، [وهذا الاحتمال الأخير أظهر مما قبله ، لقول الله تعالى : وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ 11 : 36 ، وقوله تعالى :

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا 71 : 26] فبعثته خاصة لكونها إلى قومه فقط ، وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم ، لكن لو اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثا إليهم .

وغفل الداوديّ الشارح غفلة عظيمة فقال : قوله : «لم يعطهن أحد» يعني لم تجمع قبله ، لأن نوحا بعث إلى كافة الناس ، وأما الأربع فلم يعط أحد واحدة منهن . وكأنه نظر في أول الحديث وغفل عن آخره ، لأنه نص صلى الله عليه وسلّم على خصوصيته بهذه أيضا لقوله : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة» ، وفي رواية مسلم : «وكان كل نبي» . قوله صلى الله عليه وسلّم : «نصرت بالرعب» ، زاد أبو أمامة : «يقذف في قلوب أعدائي» ، أخرجه الإمام أحمد . قوله صلى الله عليه وسلّم : «مسيرة شهر» ، مفهومه أنه لم يوجد

لغيره النصر بالرعب في هذه المدة ولا في أكثر منها ، أما ما دونها فلا ، لكن لفظ رواية عمرو بن شعيب : «ونصرت على العدو بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر» ، فالظاهر اختصاصه به مطلقا ، وإنما جعل الغاية شهرا ، لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه ، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق ، حتى لو كان وحده بغير عسكر ، وهل هي حاصلة لأمته من بعده ؟ فيه احتمال .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وجعلت لي الأرض مسجدا» ، أي موضع سجود ، لا يختص السجود منها بموضع دون غيره ، ويمكن أن يكون مجازا عن المكان المبني للصلاة ، وهو من مجاز التشبيه ، لأنه لما جازت الصلاة في جميعها ، كانت كالمسجد في ذلك .

قال ابن التين : قيل : المراد جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وجعلت لغيري مسجدا ، ولم تجعل له طهورا ، لأن عيسى عليه السلام ، كان يسبح في الأرض ، ويصلي حيث أدركته الصلاة ، كذا قال ، وسبقه إلى ذلك الداوديّ .

وقيل : إنما أبيحت لهم في موضع يتيقنون طهارته ، بخلاف هذه الأمة ، فأبيح لها في جميع الأرض ، إلا فيما يتيقنوا نجاسته ، والأظهر ما قاله الخطابي ، وهو أن من قبله إنما أبيحت لهم الصلوات في أماكن مخصوصة ، كالبيع والصوامع ، ويؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ : «وكان من قبلي إنما يصلون في كنائسهم» ، وهذا نص في موضع النزاع ، فثبتت الخصوصية ، ويؤيده ما أخرجه البزار من حديث ابن عباس نحو حديث الباب فيه : «ولم يكن من

الأنبياء أحد يصلي حتى يبلغ محرابه» . قوله صلى الله عليه وسلّم : «وطهورا» ، استدلّ به على أن الطهور هو المطهر لغيره ، لأن الطهور لو كان المراد به الطاهر لم تثبت الخصوصية ، والحديث إنما سيق لإثباتها . وقد روى ابن المنذر ، وابن الجارود ، بإسناد صحيح ، عن أنس مرفوعا : «جعلت لي كل أرض طيبة مسجدا وطهورا» ، ومعنى طيبة طاهرة ،



---

[ () ] فلو كان معنى طهورا طاهرا للزم تحصيل الحاصل .

واستدل به على أن التيمم يرفع الحدث كالماء لاشتراكهما في هذا الوصف ، قال الحافظ في (الفتح) : «وفيه نظر» . قال محققه : «ليس للنظر المذكور وجه ، والصواب أن التيمم رافع للحدث كالماء ، عملا بظاهر الحديث المذكور ، وما جاء في معناه ، وهو قول جم غفير من أهل العلم . والله تعالى أعلم . (أ . ه) .

وعلى أن التيمم جائز بجميع أجزاء الأرض ، وقد أكد في رواية أبي أمامة بقوله : «وجعلت لي الأرض كلها ولأمتي مسجدا وطهورا» .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «فأيما رجل» ، «أيّ» مبتدأ فيه معنى الشرط ، و«ما» زائدة للتأكيد ، وهذه صيغة عموم يدخل تحتها من لم يجد ماء ولا ترابا ، ووجد شيئا من أجزاء

الأرض ، فإنه يتيمم به ، ولا يقال :

هو خاص بالصلاة ، لأنا نقول : لفظ حديث جابر مختصر ، وفي رواية أبي أمامة عند البيهقي : «فأيما رجل من أمتي أتى الصلاة فلم يجد ماء ، وجد الأرض طهورا ومسجدا . وعند الإمام أحمد : «فعنده طهوره ومسجده» . وفي رواية عمرو بن شعيب : «فأينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت» .

واحتج من خصّ التيمم بالتراب ، بحديث حذيفة عند الإمام مسلم بلفظ : «وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» ، وهذا خاص ، فينبغي أن يحمل العام عليه ، فتختص الطهورية بالتراب ، ودلّ الافتراق في اللفظ ، حيث حصل التأكيد من جعلها مسجدا دون الآخر على افتراق الحكم ، وإلا لعطف أحدهما على الآخر نسقا ، كما في حديث الباب .

ومنع بعضهم الاستدلال بلفظ «التربة» على خصوصية التيمم بالتراب بأن قال : تربة كل مكان ما فيه من تراب أو غيره . وأجيب بأنه ورد في الحديث المذكور بلفظ «التراب» ، أخرجه ابن خزيمة وغيره . وفي حديث علي : «وجعل التراب لي طهورا» ، أخرجه الإمام أحمد والبيهقي بإسناد حسن ، ويقوى القول بأنه خاص بالتراب ، أن الحديث سيق لإظهار التشريف والتخصيص ، فلو كان جائزا بغير التراب لما اقتصر عليه . قوله صلى الله عليه وسلّم : «فليصل» ، عرف مما تقدم أن المراد فليصل بعد أن تيمم .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وأحلت لي الغنائم» ، وللكشميهني «المغانم» وهي رواية الإمام مسلم ، قال الخطابي :

كان من تقدم على ضربين ، منهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم مغانم ، ومنهم من أذن له فيه ، لكن كانوا إذا غنموا شيئًا لم يحل لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقته . . وقيل : المراد أنه خصّ بالتصرف في الغنيمة يصرفها كيف يشاء ، والأول أصوب ، وهو أن من مضى لم تحل لهم المغانم أصلا .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «أعطيت الشفاعة» ، قال ابن دقيق العيد : الأقرب أن اللام منها للعهد ، والمراد الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف ، ولا خلاف في وقوعها . وكذا جزم النووي وغيره .

وقيل : الشفاعة التي اختص بها أنه لا يرد فيما يسأل . وقيل : الشفاعة لخروج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، لأن شفاعة غيره تقع فيمن في قلبه أكثر من ذلك ، قاله عياض . والّذي يظهر لي أن هذه مع الأولى ، لأنه يتبعها بها .

وقال البيهقي : يحتمل أن الشفاعة التي يختص بها أن يشفع لأهل الصغائر والكبائر ، وغيره إنما يشفع لأهل الصغائر دون الكبائر . ونقل عياض أن الشفاعة المختصة به شفاعة لا ترد . وقد وقع في حديث ابن عباس : «وأعطيت الشفاعة ، فأخّرتها لأمتي ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئًا» . وفي حديث عمرو بن

---

[ () ] شعيب : «فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله» ، والظاهر أن المراد بالشفاعة المختصّة في هذا الحديث إخراج من ليس له عمل صالح إلا التوحيد ، وهو مختص أيضا بالشفاعة الأولى ، لكن جاء التنويه بذكر هذه لأنها غاية المطلوب من تلك لاقتضائها الراحة المستمرة .

وقد ثبتت هذه الشفاعة في رواية الحسن عن أنس في كتاب التوحيد : «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي لأخرجن منها من قال :

لا إله إلا الله» . ولا يعكر على ذلك ما وقع عند مسلم قبل قوله : «وعزتي» فيقول : «ليس ذلك ، وعزتي . . إلخ» ، لأن المراد أنه لا يباشر الإخراج كما في المرات الماضية ، بل كانت الشفاعة سببا في ذلك .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «وبعثت إلى الناس عامة» ، فوقع في رواية مسلم : «و بعثت إلى كل أحمر وأسود» ، فقيل : المراد بالأحمر العجم ، وبالأسود العرب ، وقيل : الأحمر الإنس ، والأسود الجن ، وعلى الأول التنصيص على الإنس من باب التنبيه بالأدنى

على الأعلى ، لأنه مرسل إلى الجميع ، وأصرح الروايات في ذلك وأشملها ، رواية أبي هريرة عند مسلم : «وأرسلت إلى الخلق كافة» . قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : أول حديث أبي هريرة هذا : «فضّلت على الأنبياء بست» ، فذكر الخمس المذكورة في حديث جابر إلا الشفاعة ، وزاد خصلتين وهم : «وأعطيت جوامع الكلم ، وختم بي النبيون» ، فتحصل منه ومن حديث جابر سبع خصال .

ولمسلم أيضا من حديث حذيفة : «فضلنا على الناس بثلاث خصال : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» وذكر خصلة الأرض كما تقدم ، قال : وذكر خصلة أخرى ، وهي الخصلة المهمة بينها ابن خزيمة والنسائي ، وهي : «وأعطيت هذه الآيات من سورة البقرة من كنز تحت العرش» ، يشير إلى ما حطه الله عن أمته من الإصر ، وتحميل ما لا طاقة لهم به ، ورفع الخطأ والنسيان ، فصارت الخصال تسعا .

ولأحمد من حديث علي : «أعطيت أربعا لم يعطهنّ أحد من أنبياء الله : أعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد ، وجعلت أمتي خير الأمم» وذكر خصلة التراب فصارت الخصال اثنتي عشرة خصلة .

وعند البزار من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه : «فضّلت على الأنبياء بست : غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وجعلت أمتي خير الأمم ، وأعطيت الكوثر ، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة ، تحته آدم فمن دونه» ، وذكر ثنتين مما تقدم .

وله من حديث ابن عباس رفعه : «فضّلت على الأنبياء بخصلتين : كان شيطاني كافرا فأعانني الله عليه فأسلّم» قال : ونسيت الأخرى ، قال الحافظ ابن حجر : فينتظم بهذا سبع عشرة خصلة . ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع . وقد تقدم طريق الجمع بين هذه الروايات ، وأنه لا تعارض فيها .

وقد ذكر أبو سعيد النيسابوريّ في كتاب (شرف المصطفى) ، أن عدد الّذي اختص به نبينا صلى الله عليه وسلّم عن الأنبياء ستون خصلة . وفي حديث الباب من الفوائد غير ما تقدم :

[1] مشروعية تعديد نعم الله .

[2] إلقاء العلم قبل السؤال .

[3] أن الأصل في الأرض الطهارة .

[4] أن صحة الصلاة لا تختص بالمسجد المبني لذلك .

وأما حديث : «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» فضعيف ، أخرجه الدار الدّارقطنيّ من حديث

فبهذا وأمثاله انفرد بالسيادة الجامعة للسيادات كلها ، والشرف المحيط الأعم صلى الله عليه وسلّم. وكان من رتبة الكمال الّذي اختص به عليه السلام في جميع أموره : الكمال في [العبودّية] [1] فكان عبدا صرفا لم تقم بذاته ربانية على أحد ، وهي التي أوجبت له السيادة ، وهي الدليل على شهوده على الدوام ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يذكر الله على كل أحيانه» ، وهو أمر يختص بباطن الإنسان وقوله ، وقد يظهر خلاف ذلك بأفعاله مع تحققه بالمقام ، فيلتبس على من لا معرفة له بالأحوال. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

[ () ] جابر. واستدل به صاحب (المبسوط) من الحنفية على إظهار كرامة الآدمي وقال : لأن الآدمي خلق من ماء وتراب ، وقد ثبت أن كل منهما طهور ، ففي ذلك بيان كرامته.

قال محققه :

وحديث جابر ، يغني عنه ما رواه ابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم بإسناد حسن عن ابن عباس مرفوعا : «من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له إلا من عذر» ، وما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة : «أن رجلا أعمى سأل النبي صلى الله عليه وسلّم أن يصلي في بيته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلّم : هل تسمع النداء بالصلاة ؟ قال : نعم ، قال : فأجب» ، وهذا في الفرائض كما هو معلوم ، أما النافلة فلا تختص بالمسجد بل هي في البيت أفضل ، إلا ما للشرع دليل على استثنائه. والله تعالى أعلم. (فتح الباري) :

1/ 574 كتاب التيمم باب (1) حديث (335) .

[1] في (خ) : «العبودة» .

*(251/428)*

---

ذكر التنويه [1] بذكر رسول صلى الله عليه وسلّم من زمن آدم عليه السلام

فخرج الحاكم من حديث عمر بن أوس الأنصاري ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : «أوحى الله إلى عيسى :

يا عيسى ، آمن بمحمد ومن أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلق آدم ، ولولا محمد ما خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه لا إله إلا الله فسكن [2]»

قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد .

وذكر إبراهيم بن طهمان [3] عن بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن

---

[1] ناه الشيء ينوه : ارتفع وعلا ، عن ابن جني ، فهو نائه . ونهت بالشيء نوها ، ونوّهت به ، ونوّهته تنويها : رفعته . ونوّهت باسمه : رفعت ذكره . (لسان العرب) : 13/ 550 .

[2] (المستدرك) : 2/ 671 ، كتاب تواريخ المتقدمين ، حديث رقم (4227/

237) : حدثنا علي بن حمشاد العدل إملاء ، حدثنا هارون بن العباس الهاشمي ، حدثنا جندل بن والق ، حدثنا عمرو بن أوس الأنصاري ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «أوحى الله إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى ، آمن بمحمد ، وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن» . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . قال في (التخليص) : أظنه موضوعا على سعيد .

[3] هو إبراهيم بن طهمان بن شعبة الخراساني أبو سعيد ، ولد في بهراة وسكن نيسابور ، وقدم بغداد ، ثم سكن مكة إلى أن مات . روي عن أبي إسحاق السبيعي ، وأبي إسحاق الشيبانيّ ، وعبد العزيز بن صهيب ، وأبي جمرة نصر بن عمران الضبعي ، ومحمد بن زياد الجمحيّ ، وأبي الزبير ، والأعمش ، وشعبة ، وسفيان والحجاج بن الحجاج الباهلي ، وجماعة .

وروى عنه حفص بن عبد الله السلمي ، وخالد بن نزار ، وابن المبارك ، وأبو عامر العقدي ، ومحمد بن سنان العوقيّ ، ومحمد بن سابق البغدادي وغيرهم . وروى عنه صفوان بن سليم ، وهو من شيوخه .

قال ابن المبارك : صحيح الحديث . وقال أحمد وأبو حاتم وأبو داود : ثقة . زاد أبو حاتم :

صدوق حسن الحديث . وقال ابن معين والعجليّ : لا بأس به . وقال عثمان بن سعيد الدارميّ : كان ثقة في الحديث ، لم يزل الأئمة يشتهون حديثه ، ويرغبون فيه ، ويوثقونه . وقال صالح بن محمد : ثقة ، حسن الحديث ، يميل شيئًا إلى الإرجاء في الإيمان ، حبب الله حديثه

*(252/428)*

---

ميسرة قال : قلت : يا رسول الله ، متى كنت نبيا ؟ قال : لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وخلق العرش ، كتب على ساق العرش : محمد رسول الله ، خاتم الأنبياء ، وخلق الله الجنة التي أسكنها آدم وحواء ، وكتب على أبوابها اسمي ، والأوراق والقباب والخنام وآدم بين الروح والجسد ، فلما أحياه الله نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه . وخرج الطبراني من حديث عبد الله بن مسلم ، حدثنا إسماعيل المدني عن عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «لما أصاب آدم الخطيئة رفع رأسه فقال : يا رب ، بحق محمد صلى الله عليه وسلّم إلا غفرت لي ، فأوحى الله إليه : وما محمد ، ومن محمد ؟ فقال : يا رب ، إنك لما

أتممت خلقي رفعت رأسي إلى عرشك فإذا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك إذ قرنت اسمه مع اسمك ، فقال : نعم ، قد غفرت لك ، وهو آخر الأنبياء من ذريتك ، ولولاه ما خلقتك . قال البيهقي :

---

[ () ] إلى الناس ، جيد الرواية . وقال إسحاق بن راهويه : كان صحيح الحديث ، حسن الرواية ، كثير السماع ، ما كان بخراسان أكثر حديثا منه ، وهو ثقة .

وقال يحى بن أكثم القاضي : كان من أنبل الناس ممن حدّث بخراسان والعراق والحجاز ، وأوثقهم وأوسعهم علما .

وقال أحمد : كان يرى الإرجاء ، وكان شديدا على الجهمية . وقال أبو زرعة : ذكر عند أحمد ، وكان متكئا فاستوى جالسا وقال : لا ينبغي أن يذكر الصالحون فنتكئ .

وقال الدار الدّارقطنيّ : ثقة ، إنما تكلموا في الإرجاء . وقال البخاري في (التاريخ) : حدثني رجل ، حدثني علي بن الحسن بن شقيق ، سمعت ابن المبارك يقول : أبو حمزة السكري ، وإبراهيم بن طهمان العلم والحديث .

قال البخاري : وسمعت محمد بن أحمد يقول : سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن إبراهيم فقال :

صدوق اللهجة . وقال ابن حبان في (الثقات) : قد روى أحاديث مستقيمه تشبه أحاديث الأثبات ، وقد تفرد عن الثقات بأشياء معضلات .

قال الحافظ ابن حجر : الحق فيه أنه ثقة صحيح الحديث إذا روى عنه ثقة ، ولم يثبت غلوه في الإرجاء ولا كان داعية إليه ، بل ذكر الحاكم أنه رجع عنه . (تهذيب التهذيب) : 1/112 - 114 ، ترجمة رقم (231) باختصار .

*(253/428)*

---

تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من هذا الوجه عنه ، وهو ضعيف [1] .

قال كاتبه : هو أبو زيد عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، مولى عمر بن الخطاب ، ضعّفه أحمد وأبو داود والنسائي ، وقال ابن عدي : له أحاديث حسان ، وهو ممن احتمله وصدقه بعضهم ، وهو ممن يكتب حديثه . وخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن جده عن عمر بنحو أو قريب منه ، ثم قال : حديث صحيح الإسناد .

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا من حديث سعيد بن جبير أنه قال : اختصم ولد آدم أي الخلق أكرم علي الله تعالي ؟ فقال بعضهم : آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته ، وقال آخرون : بل الملائكة الذين لم يعصوا الله ، فذكروا ذلك لآدم ، فقال : لما نفخ في الروح لم يبلغ قدمي حتى استويت جالسا ، فبرق لي العرش ، فنظرت فيه : محمد رسول الله ، فذاك أكرم الخلق علي الله .

وروى الحسين بن [علي] بن أبي طالب مرفوعا: أهل الجنة ليست لهم كنى إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد توقيرا وتعظيما. وقال محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة: حدثني عبد الرحمن بن عبد المنعم عن أبيه عن وهب قال: أوحي الله تعالى إلى آدم عليه السلام: أنا الله، وبكة [2] أهلها خيرتي، وزوارها وفدي كنفي، أعمر [بيتي] [3] بأهل السماء وأهل الأرض، يأتونه أفواجا شعثا غبرا، يعجون بالتكبير عجيجا، ويرجون بالتلبية رجيجا، ويثجون بالبكاء ثجا، فمن اعتمره لا يريد غيره فقد زارني وضافني، ووفد إليّ، ونزل بي، وحق لي أتحفه بكرامتي، أجعل ذاك البيت وذكره وشرفه ومجده وسناه لنبي من ولدك يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضي على يديه عمارته، وأبسط له سقايته، وأريه حله وحرمه،

---

[1] (المستدرك للحاكم) وقال: حديث صحيح الإسناد، وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن بن زيد ابن أسلّم في هذا الكتاب، وقال (الحافظ الذهبي) في (التلخيص): «قلت: بل موضوع وعبد الرحمن واه» ج 2 ص 615.

[2] من أسماء مكة المكرمة: بكة، وأم القرى.

[3] في (خ) «أعمره»، وما بين القوسين زيادة للسياق.

وأعلمه مشاعره ، ثم تعمره الأمم والقرون حتى ينتهي إلي بني من ولدك يقال له محمد ، وهو خاتم النبيين ، فأجعله من سكانه وولاته وحجابه وسقاته ، ومن سألك عني يومئذ فأنا الشعث الغبر الموفين بنذورهم ، المقبلين إلي ربهم .

وقال سعيد بن عمرو الأنصاري عن أبيه عن كعب الأحبار قال : لما أراد الله أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلّم أمر جبريل فأتاه بالقبضة التي هي موضع قبر رسول الله صلى الله عليه وسلّم فعجنت بماء التسنيم ، وثم غمست في أنهار الجنة وطيف بها في السموات والأرض ، فعرفت الملائكة محمدا وفضله قبل أن تعرف آدم ، ثم كان نور [محمد] [1] يرى في غرة جبهة آدم ، وقيل له يا آدم ، هذا سيد ولدك من المرسلين ، فلما حملت [حواء] [2] بشيث انتقل النور من آدم إلي [حواء] [2] ، وكانت تلد في كل بطن ولدين إلّا شيثا فإنه ولدته وحده كرامة لمحمد صلى الله عليه وسلّم ، ثم لم [يزل] [3] ينتقل من طاهر إلي طاهر إلي أن ولد صلى الله عليه وسلّم .

وقال ورقاء بن عمر عن ابن أبي الحجيج عن عطاء بن السائب ومجاهد عن مرة الهمزاني عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أين كنت وآدم في الجنة ؟ قال : كنت في صلبه ، وأهبطت إلي الأرض وأنا في صلبه ، وركبت السفينة في صلب نوح ، وقذفت في النار في صلب إبراهيم ، لم يلتق لي أبوان قط علي سفاح ، لم يزل ينقلني من

الأصلاب الطاهرة إلي الأرحام النقية مهذبا ، لا يتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما ، فأخذ الله لي بالنّبوّة ميثاقي ، وفي التوراة بشّر بي ، وفي الإنجيل شهر اسمي ، تشرق الأرض لوجهي ، والسماء لرؤيتي [4] .

---

[1] في (خ) : «محمدا» وما أثبتناه حق اللغة .

[2] في (خ) : «حوى» .

[3] زيادة للسياق .

[4] يشهد لهذا الأثر ما أخرجه كل من :

البخاري : في كتاب المناقب ، باب (23) ، حديث رقم (3557) : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن ، عن عمرو ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الّذي كنت منه» . قوله صلى الله عليه وسلّم : «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا» ، القرن الطبقة من الناس المجتمعين في عصر واحد» ، ومنهم من حدّه بمائة سنة ، وقيل : بسبعين ، وقيل بغير ذلك . فحكى الحربي الاختلاف فيه من عشرة إلي مائة وعشرين ، ثم تعقب الجميع وقال : الّذي أراه أن القرن كل أمة هلكت

[()] حتى لم يبق منها أحد . وقوله صلى الله عليه وسلّم : «قرنا» ، بالنصب حال للتفصيل .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «حتى كنت من القرن الّذي كنت منه» ، في رواية الإسماعيلي : «حتى بعثت من القرن الّذي كنت فيه» . . . والقرن أهل زمان واحد متقارب ، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة ، ويقال : إن ذلك مخصوص بما إذا اجتمعوا في زمن نبي أو رئيس يجمعهم علي ملة ، أو مذهب ، أو عمل . ويطلق القرن علي مدة من الزمان ، واختلفوا في تحديدها ، ذكر الجوهري بين الثلاثين والثمانين ، وقد وقع في حديث عبد الله بن بسر عند مسلم ، ما يدل علي أن القرن مائة وهو المشهور .

وقال صاحب المطالع : القرن أمة هلكت ، فلم يبق منهم أحد ، وثبتت المائة في حديث عبد الله بن بسر ، وهو ما عند أكثر أهل العراق . ولم يذكر صاحب (المحكم) الخمسين ، وذكر من عشر إلي سبعين ، ثم قال : هذا هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن ، وهذا أعدل الأقوال ، وبه صرح ابن الأعرابي وقال : إنه مأخوذ من الأقران ، ويمكن أن يحمل عليه المختلف من الأقوال المتقدمة ممن قال إن القرن أربعون فصاعدا ، أما من قال إنه دون ذلك فلا يلتئم علي هذا القول والله أعلم .

والمراد بقرن النبي صلى الله عليه وسلّم في هذا الحديث الصحابة . قوله صلى الله عليه وسلّم : «و بعثت في خير قرون بني آدم» ، وفي رواية بريدة عند الإمام أحمد : «خير هذه الأمة القرن الّذي بعثت فيهم» ، وقد ظهر أن الّذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة ، أو دونها ، أو فوقها بقليل ، علي الاختلاف في وفاة أبي الطفيل ، وإن اعتبر ذلك من بعد وفاته صلى الله عليه وسلّم فيكون مائة سنة أو تسعين أو سبعا وتسعين .

وأما قرن التابعين ، فإن اعتبر من سنة مائة كان نحو سبعين أو ثمانين ، وأما الذين بعدهم ، فإن اعتبر منها ، كان نحوا من خمسين ، فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان والله تعالي أعلم .

واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلي حدود العشرين ومائتين ، ورفعت الفلاسفة رءوسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيرا شديدا ، ولم يزل الأمر في نقص إلي الآن ، وظهر قوله صلى الله عليه وسلّم : «ثم يفشو الكذب» ظهورا بينا ، حتى يشمل الأقوال ، والأفعال ، والمعتقدات ، والله المستعان .

(فتح الباري) : 6/712 ، 7/6 - 7 .

ومسلم : في كتاب الفضائل ، باب (1) ، فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلّم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ، حديث رقم (2276) : حدثنا محمد بن مهران الرازيّ ، ومحمد

بن عبد الرحمن بن سهم ، جميعا عن الوليد ، قال ابن مهران : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي ، عن أبي عمار شداد ، أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : «إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفي قريشا من كنانة ، واصطفي من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» . وباب (2) تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلّم علي جميع الخلائق ، حديث رقم (2278) ، حدثني الحكم بن موسي أبو صالح ، حدثنا هقل - يعني ابن زياد - عن الأوزاعي ، حدثني أبو عمار ، حدثني عبد الله بن فروخ ، حدثني أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفّع»

*(256/428)*

---

[()] قوله صلى الله عليه وسلّم : «إن الله اصطفي كنانة» ، قال الإمام النووي : استدل به أصحابنا علي أن غير قريش من الغرب ليس بكفء لهم ، ولا غير بني هاشم كفؤ لهم ، إلا بني المطلب فإنّهم هم وبنو هاشم شيء واحد ، كما صرح به في الحديث الصحيح .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول

شافع ، وأول مشفّع» ، قال الهروي : السيد هو الّذي يفوق قومه في الخير ، وقال غيره : هو الّذي يفزع إليه في النوائب والشدائد ، فيقوم بأمرهم ، ويتحمّل عنهم مكارهم ، ويدفعها عنهم .

وأما قوله صلى الله عليه وسلّم : «يوم القيامة» ، مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة ، فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ، ولا يبقى مناع ولا معاند ونحوه ، بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار ، وزعماء المشركين .

وهذا التقييد قريب من معني قوله تعالي : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ 40 : 16 مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك ، لكن كان في الدنيا من يدعي الملك ، أو من يضاف إليه مجازا ، فانقطع كل ذلك في الآخرة .

قال العلماء : وقوله صلى الله عليه وسلّم : «أنا سيد ولد آدم» ، لم يقله فخرا ، بل صرّح بنفي الفخر في غير مسلم ، في الحديث المشهور : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ، وإنما قاله لوجهين :

أحدهما : امتثال قوله تعالي : وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ 93 : 11 .

والثاني : أنه من البيان الّذي يجب عليه تبليغه إلي أمته ، ليعرفوه ويعتقدوه ، ويعملوا بمقتضاه ، ويوقروه صلى الله عليه وسلّم بما يقتضي مرتبته ، كما أمرهم الله تعالي .

الآدميين أفضل من الملائكة ، وهو صلى الله عليه وسلّم علي الخلائق كلهم ، لأن مذهب

أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة ، وهو صلى الله عليه وسلّم أفضل الآدميين وغيرهم . وأما الحديث الآخر : «لا تفضلوا بين الأنبياء» ، فجوابه من خمسة أوجه :

أحدهما : أنه صلى الله عليه وسلّم قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، فلما علم أخبر به .

والثاني : قاله أدبا وتواضعا .

والثالث : أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلي تنقيص المفضول .

والرابع : إنما نهي عن تفضيل يؤدي إلي الخصومة والفتنة ، كما هو المشهور في سبب الحديث .

والخامس : أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة ، فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى ، ولا بدّ من اعتقاد التفضيل ، فقد قال تعالي : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ 2 : 253 .

قوله صلى الله عليه وسلّم : «وأول شافع وأول مشفع» ، إنما ذكر الثاني لأنه قد يشفع اثنان ، فيشفع الثاني منهما قبل الأول . والله تعالي أعلم .

والترمذي : في أبواب المناقب ، باب (20) ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلّم حديث رقم (3850) :

حدثنا محمود بن غيلان ، أخبرنا أبو أحمد ، أخبرنا سفيان عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد

الله بن الحارث ، عن المطلب بن أبي وداعة قال : «جاء العباس إلي رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكأنه سمع شيئا ،



---

قال جامعه قد أشار إلي هذا الحديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في شعره المشهور عنه ، خرج أبو بكر الشافعيّ قال : حدثني أبو الشيخ محمد بن الحسين الأصفهاني ، وعبد الله بن محمد بن ياسين قالا : حدثنا زكريا بن يحي بن عمر بن حصن بن حمير عن منهب بن حارث بن خريم بن أوس بن حارثة قال :

قال : خريم بن أوس : هاجرت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأسلمت فسمعت العباس رضي الله عنه يقول : يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم :

فقل لا يفضض الله فاك ، فأنشأ العباس يقول :

---

[ () ] فقام النبي صلى الله عليه وسلّم علي المنبر فقال : من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله عليك السلام ، قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم

بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا» ، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروي عن سفيان الثوري ، عن يزيد بن أبي زياد ، نحو حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث ، عن العباس بن عبد المطلب .

قوله : «جاء العباس» ، أي غضبان «وكأنه سمع شيئًا» ، أي من الطعن في نسبه أو حسبه ، «فقال : من أنا ؟» استفهام تقرير علي جهة التبكيت ، «فقالوا : أنت رسول الله ، فلما كان قصده صلى الله عليه وسلّم بيان نسبة وهم عدلوا عن ذلك المعني ، ولم يكن الكلام في ذلك المبني ، «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب» ، يعني وهما معروفان عند العارف المنتسب .

قال الطيبي : قوله : «فكأنه سمع» ، مسبب عن محذوف ، أي جاء العباس غضبان بسبب ما سمع طعنا من الكفار في رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، نحو قوله تعالي : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ 43 : 31 ، كأنهم حقّروا شأنه ، وأن هذا الأمر العظيم الشأن لا يليق إلا بمن هو عظيم من إحدى القريتين ، كالوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي مثلا ، فأقرهم صلى الله عليه وسلّم ، علي سبيل التبكيت ، علي ما يلزم تعظيمه وتفخيمه ، فإنه الأولى بهذا الأمر من غيره ، لأن نسبه أعرف . ومن ثم لما قالوا : أنت رسول الله ، ردّهم بقوله : أنا محمد بن عبد الله . (تحفة الأحوذي) : 10/ 54 .

وابن الأثير في (جامع الأصول) : 8/ 536 ، حديث رقم (6338) ، رقم (6339) .

والإمام أحمد في (المسند) : 1/ 345 ، حديث رقم (1791) ، حديث رقم (1793) .

وأبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) : 8/ 198 ، عند تفسير قوله تعالي من سورة الأعراف :

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ 26 : 217 - 219 ، قال ابن عباس : في أصلاب آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، حتى خرجت .

وابن كثير في (التفسير) : 3/ 365 ، وروى البزار وابن أبي حاتم ، من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ 26 : 219 : يعني تقلبه من صلب نبي إلي صلب نبي ، حتى أخرجه نبيا .

(258/428)

---

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد ولا بشر أنت ولا مضغة ولا علق

بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسرا وأهله الغرق

وردت نار الخليل فكنتما تجول فيها فليس تحترق

نقلت من صالب إلي رحم إذا مضي عالم بدا طبق

حتى احتوى بيتك المهيمن من من خندف علياء تحتها النّطق

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق

قوله : (في الظلال) ، يريد ظلال الجنة حيث كان كونه صلى الله عليه وسلّم في صلب آدم عليه السلام .

ويشير بقوله : (مستودع) ، إلي موضع آدم وحواء من الجنة ، وقيل المستودع : النطفة في الرحم .

ويشير بقوله : (يخصف الورق) إلي قوله تعالي حكاية عن آدم وحواء :

فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما من وَرَقِ الْجَنَّةِ 7 : 22 [1] .

وفي رواية : (وأهلها الغرق) ، كأنه عني أهل الأرض أو البلاد لتقدم ذكرها ، ويكون الضمير في قوله : (نسرا وأهله) ، عائد علي قوم نوح المغرقين ، يريد :

كنت يا محمد في صلب آدم وهو في الجنة ، ثم لما هبط إلي الأرض هبطت في صلبه ، وتنقلت من بعده في الأصلاب حتى ركبت مع نوح عليه السلام السفينة وأنت في صلبه ، لما غرق قوم نوح بالطوفان من أجل كفرهم بالله عز وجل ، وعباده الأصنام التي هي ودّا

وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، وعبّر عن السفينة بالسفين ، وهو جمع سفينة ، يقال : سفينة وسفين ، وتجمع علي سفن والسفائن أيضا .

وقوله : (وردت نار الخليل) ، يريد أنك كنت في صلب إبراهيم عليه السلام

---

[1] الأعراف : 22 .



---

لما ألقي في النار فلم تحرقه .

وقوله : (تنقل) ، وفي رواية : نقلت من صالب إلي رحم ، يريد من صلب ذكر إلي رحم امرأة ، وفي الصلب ثلاث لغات : بضم الصاد وإسكان اللام ، وصلب بضم الصاد واللام جميعا ، وصلب بفتح الصاد واللام معا ، حكي هذه الأخيرة في (مختصر العين) .

وقد روى (تنقل من صلب) ، ورواية (صالب) أشهر ، والصالب بمعني الصلب لغة قليلة .

وقوله : (إذا مضي عالم بدا طبق) ، يريد بالطبق القرن لأنهم طبق الأرض ، فينقرضون ويأتي طبق آخر .

وقوله : (حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف) ، قيل : حتى احتوى بيتك المهيمن أي يا مهيمن من خندف علياء فأقام البيت مقامه صلى الله عليه وسلّم لأن بيته إذا حل بهذا

المكان فقد حل هو به ، وهو كما يقال : بيته أعزّ بيت ، وإنما يراد صاحبه ، واعترض علي هذا بأنه إذا عبر بالبيت عنه صلى الله عليه وسلّم فإنه كما قال زياد الأعجم .

إن السماحة والمروءة والنّدى في قبة ضربت علي ابن الحشرج

فإن هذا وإن كان ممكنا ، لا ضرورة تدعو إليه ، إذ بقاؤه علي ظاهره ممكن ، وهو مدح أهل بيته صلى الله عليه وسلّم وهو داخل فيهم ، فإن مدح بيت الرجل قد يكون أبلغ في مدحه .

فإن قيل : هذا مثل من العباس ، أي جعلك الله عاليا وجعل خندف كالنطاق لك ، قيل : هذا لا يقتضيه اللفظ إلا بإكراه وتقديم وتأخير ، بأن يكون تقديره :

حتى احتويت واحتوى بيتك علياء تحتها النطق من خندف ، وإنما الوجه أن يكون المعني : احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء كل النطق تحتها ، أو يعلق من خندف بعلياء أي علياء من خندف كل نطاق دونها أو تحتها .

والنّطق : هي أوساط الجبال العالية .

والمهيمن : الشاهد ، كأنه حتى احتوى شرف بيتك الشاهد منه الفرع الّذي

هو أنت علي طيب الأصل ، ويمكن أن يكون قد عبّر بالنطق عن ذوات النطاق ، والنطق : جمع نطاق ، والنطاق : إزار له تكة تنتطق به المرأة ، وكأنه لما قال : أنه احتوى علياء خنندف ، والقبيلة إنما سميت بالمرأة ، حسن أن يقال : أن هذه العلياء التي احتواها دونها علياء كل ذات نطاق ، هي أم الشخص أو القبيلة ، ويمكن أن يكون مأخوذا من نطاق البيت وهو ما يراد عليه من خشب يجمع أركانه ، فكأنه لما وصف شرفه الليالي وكني عنه البيت ، رشّحه إلي ذكر النطاق المستعمل للبيت ، أي تحت علياء بيته نطاق كل بيت .

وقيل معناه : حتى احتويت يا مهيمن من خندف علياء ، يريد النبي صلى الله عليه وسلّم فأقام البيت مقامه ، لأن البيت إذا حل بهذا المكان فقد حلّ به صاحبه ، وأراد بيته شرفه ، والمهيمن من نعته ، كأنه قال : حتى احتوى شرفك الشاهد علي فضلك علياء الشرف من نسب ذوي خندف إلي تحتها النطق – وهي أوساط الجبال العالية – وخندف : هي امرأة إلياس بن مضر بن نزار ، فنسب إليها ولد الناس [1] .

وقيل : أراد بقوله : النطق ، العفاف من لبس المرأة النطاق ليحصنها ، فيكون النطق بمعني نطاق ، أي تحتها نطاق العفاف ، وقيل : النطق ، جمع ناطق ، وقيل :

النطق : جمع نطاق ، وهو الّذي يشده الإنسان علي وسطه ، ومنه المنطق ، وهذا من العباس رضي الله تعالى عنه مثل ، أي جعلك الله عاليا ، وجعل خندف كالنطاق لك .

والله أعلم .

وقد روى أن جبير بن مطعم قال : لما بعث الله تعالي نبيه صلى الله عليه وسلّم فظهر أمره بمكة خرجت إلي الشام ، فلما كنت ببصرى أتاني جماعة من النصارى فقالوا لي : من أهل الحرم أنت ؟ قلت : نعم ، قالوا : فتعرف هذا الّذي تنبأ فيكم ؟ قلت :

---

[1] هي ليلي بنت حلوان بن عمران ، وكان إلياس خرج في نجعة فنفرت إبله أرنب ، فخرج إليها عمرو فأدركها ، وخرج عامر فتصيدها وطبخها ، وانقمع عمير في الخباء ، وخرجت أمهم تسرع ، فقال لها إلياس : أين تخندفين ؟ فقالت : ما زلت أخندف في إثركم ، فلقبوا : مدركة ، وطابخة ، وقمعة ، وخندف (ترتيب القاموس) : ج 2 ص 115 ، (الأعلام للزركلي) : ج 6 ص 116 ، (معجم قبائل العرب) : ج 1 ص 40 .



---

نعم ، قال : فأخذوا بيدي فأدخلوني ديرا فيه تماثيل وصور فقالوا : انظر ، هل ترى صورة هذا الّذي بعث ؟ فنظرت ، فلم أر صورته فقلت : لا أرى صورته ، فأدخلوني ديرا أكبر من ذلك الدير ، فإذا فيه تماثيل وصور أكثر مما في ذلك الدير ، فقالوا لي : انظر هل ترى صورته ؟ فإذا أنا بصورة رسول الله صلى الله عليه وسلّم وصفته ، وإذا أنا بصفة أبي بكر رضي الله تعالى عنه وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقالوا لي :

هل ترى صورته ؟ فقلت : نعم ، وقلت : لا أخبرهم حتى أعرف ما يقولون ، قالوا : هو هذا ؟ قلت : نعم ، وأشاروا إلى جبهة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، قلت : اللّهمّ نعم ، أشهد أنه هو ، قالوا : هل تعرف هذا ؟ قلت : نعم ، قالوا لي : نشهد أن هذا صاحبكم وهذا الخليفة بعده [1] .

وقال موسى بن عقبة : إن هشام بن العاص ونعيم بن عبد الله ورجل آخر بعثوا إلى ملك الروم زمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، قالوا : فدخلنا على جبلة بن الأهثم وهو بالغوطة ، فإذا عليه ثياب سود ، وإذا كل شيء حوله أسود ، قالوا :

يا هشام ، كلمه ، فكلمه ودعاه إلى الله تعالى ، فقال : ما هذه الثياب السود ؟ قال : لبستها نذرا ولا أنزعها حتى أخرجكم من الشام كلها ! ! قال : قلنا اتئد – أو كلمة تشبهها – حتى تمنع مجلسك ، فو الله لنأخذنه منك وملك الملك الأعظم إن شاء الله ، أخبرنا بذلك نبينا ، قال : فأنتم إذن السمراء ، قلنا : السمراء ؟ قال : لستم هم ، قلنا : ومن هم ؟ قال : هم الذين يصومون النهار ويقومون الليل ، قلنا : نحن هم والله ، قال : فكيف صومكم ؟ فوصفنا له صومنا ، فقال : فكيف صلاتكم ؟

فوصفنا له صلاتنا ، فقال : فاللّه يعلم لقد غشيه سواد حتى صار وجهه كأنه قطعة طابق وقال : قوموا ، فأمر بنا إلى الملك ، فانطلقنا ، فلقينا الرسول بباب المدينة فقال : إن شئتم آتيكم ببغال ، وإن شئتم آتيكم ببراذين ، فقلنا : لا والله لا ندخل

[1] ونحوه باختلاف يسير في (دلائل النبوة للبيهقي) ج 1 ص 385 ، 386 وسنده :

«أخبرني الشيخ أبو الفتح رحمه الله من أصله قال : أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح الهروي قال : حدثنا يحى بن محمد ابن صاعد قال : حدثنا عبد الله بن شبيب أبو سعيد الربعي قال : حدثنا محمد بن عمر بن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سعيد بن محمد بن جبير عن أبيه قال : سمعت أبي جبير بن مطعم يقول . . .» وأورد الحديث .



---

عليه إلا كما نحن ، فأرسل إليهم أن يأتون ، فأرسل : أن خلّ سبيلهم ، فدخلنا معتمّين متقلدين السيوف على الرواحل ، فلما كنا بباب الملك ، إذا هو في غرفة له عالية ، فنظر إلينا ، قال : فرفعنا رءوسنا فقلنا : لا إله [إلا] الله ، فاللَّه يعلم لنقضت الغرفة كلها حتى كأنها غدق نفضته الريح ، فأرسل : إن هذا ليس لكم أن تجهروا بدينكم عليّ ، وأرسل إلينا : أن ادخلوا ، فدخلنا ، فإذا هو على فراش إلى السقف ، وإذا عليه ثياب حمر ، وإذا كل شيء عنده أحمر ، وإذا عنده بطارقة الروم ، وإذا هو يريد أن يكلمنا برسول ، فقلنا : لا والله ما نكلمه برسول ، وإنما بعثنا إلى الملك ، فإذا كنت تحب أن نكلمك فأذن لنا نكلمك ، فلما دخلنا عليه ضحك ، فإذا هو رجل فصيح بالعربية ، فقلنا : لا إله إلا الله ، فاللَّه يعلم

لقد نقض السقف حتى رفع رأسه هو وأصحابه فقال: ما أعظم كلامكم عندكم، فقلنا: هذه الكلمة؟

قال: التي قلتماها قبل؟ قلنا: نعم، قال: فإذا قلتموها في بلاد عدوكم نقضت سقوفهم؟ قلنا: لا، قال: فإذا قلتموها في بلادكم نقضت سقوفكم؟ قلنا لا، وما رأيناها فعلت هذا، وما هو إلا شيء عبرت به، فقال: ما أحسن الصدق! فما تقولون إذا فتحتم المدائن؟ قلنا: نقول: لا إله إلا الله والله أكبر، قال:

تقولون: لا إله إلا الله ليس معه شيء، والله أكبر من كل شيء؟ قلنا: نعم، قال: فما منعكم أن تحيوني بتحية نبيكم؟ قلنا: إن تحية نبينا لا تحل لكم، وتحيتك لا تحل لنا فنحييك بها، قال: وما تحيتكم؟ قلنا: تحية أهل الجنة، قال: وبها كنتم تحيون نبيكم؟ قلنا: نعم، قال: وبها كان يحييكم؟ قلنا نعم، قال: فمن كان يورث منكم؟ قلنا: من كان أقرب قرابة، قال: وكذلك ملوككم؟ قلنا: نعم، فأمر لنا بنزل كثير ومنزل حسن، فمكثنا ثلاثا ثم أرسل إلينا ليلا، فدخلنا عليه وليس عنده أحد، فاستعاد كلامنا فأعدنا عليه، فإذا عنده مثل الربعة العظيمة مذهبة، وإذا فيها أبواب صغار، ففتح منها بابا، واستخرج منه خرقة حرير سوداء، فيها صورة بيضاء، فإذا رجل طوّال أكثر الناس شعرا فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال:

هذا آدم، ثم أعاد وفتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء فإذا

رجل ضخم الرأس عظيم ، له شعر كشعر القبط ، أعظم الناس أليتين ، أحمر العينين فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا نوح ، ثم أعاده وفتح بابا آخر فاستخرج



---

حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل أبيض الرأس واللحية ، كأنه يبتسم ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إبراهيم ، ثم أعاده وفتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، وإذا والله رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله ، وبكينا ، والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس وقال : والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم ، إنه لهو كأننا ننظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال : أما إنه كان آخر الأبواب ولكني عجلته لأنظر ما عندكم ، ثم أعاده وفتح بابا آخر ، واستخرج خرقة حرير سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل مقلص الشفتين غائر العينين ، متراكم الأسنان كث اللحية عابس ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا موسى ، وإذا جنبه رجل يشبهه غير أن في عينيه قيلا وفي رأسه استدارة ، فقال : هذا هارون ، ثم رفعهما ، وفتح بابا آخر واستخرج منه خرقة سوداء فيها صورة حمراء أو بيضاء ، فإذا رجل أحمر أحمش الساقين أخفش العينين ، ضخم البطن مقلد سيفا ، فقال : أتعرفون هذا

؟ قلنا : لا ، قال : هذا داود ، ثم أعاده وفتح بابا آخر واستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها صورة بيضاء ، وإذا رجل راكب على فرس ، طويل الرجلين قصير الظهر ، كل شيء منه جناح تحفه الريح ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا سليمان ، ثم أعاده ففتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة أو خرقة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، فإذا صورة شاب تعلوه صفرة ، صلت الجبين حسن اللحية ، يشبهه كل شيء منه ، قال :

أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا عيسى ابن مريم ، ثم أعاده وأمر بالربعة فرفعت ، فقلنا : هذه صورة نبينا قد عرفناها ، فإنا قد رأيناه ، فهذه الصورة التي لم نرها كيف نعرفها أنى هي ؟ قال : إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه صورة نبي نبي ، فأخرج إليه صورهم في خرق الحرير من الجنة ، فأصابها ذو القرنين في خزانة آدم في مغرب الشمس ، فلما كان دانيال ، صورها هذه الصّور ، فهي بأعيانها ، فوالله لو تطيب نفسي في الخروج عن ملكي ما باليت أن أكون عبدا لأشدّكم ملكة ، ولكن عسى أن تطيب نفسي ، قال : فأحسن جائزتنا وأخرجنا [1] .

---

[1] وفي المرجع السابق : «فأحسن جائزتنا وسرحنا ، فلما أتينا أبا بكر الصديق فحدثناه بما رأيناه وما قال لنا وما أجازنا ، قال : فبكى أبو بكر وقال : مسكين ، لو أراد الله به خيرا لفعل ثم قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلّم عندهم» ص 390 .

وقد رواه شرحبيل بن مسلم الخولانيّ عن أبي أمامة الباهلي ، عن هشام بن العاص ، قال : بعثني أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ورجلا آخر من قريش إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة ، فنزلنا على جبلة بن الأهتم الغساني ، فذكروه . . . وزاد بعد قوله في صورة نبينا عليه السلام وذكر موسى وهارون : ففتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان حسن الوجه ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا :

لا ، قال : هذا لوط ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أجنأ ، خفيف العارضين حسن الوجه ، قال : هل تعرفون هذا ؟

قلنا : لا ، قال : هذا إسحاق ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة تشبه صورة إسحاق ، إلا أن بشفته السفلى خالا ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا :

لا ، قال : هذا يعقوب ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أقنى الأنف حسن القامة ، يعلو وجهه النور ، يعرف في وجهه الخشوع ، يضرب إلى الحمرة فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إسماعيل جد نبيكم ، ثم

فتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة بيضاء فيها صورة كأنها صورة آدم ، كأن وجهه الشمس ، قال : هل تعرفون هذا ؟ [قلنا : لا ، قال : ] [1] هذا يوسف . ثم ذكر قصة داود وسليمان وعيسى مثل حديث موسى ابن عقبة ، وزاد : قال : فلما قدمنا على أبي بكر رضي الله تعالى عنه حدثناه بما رأيناه وما قال لنا وما أرانا ، فبكى أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقال : مسكينا ، لو أراد الله به خيرا لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلّم ، وقال تعالى : يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ 7 : 157 [2] .

---

[1] زيادة للسياق من المرجع السابق ص 291 .

[2] وأخرج الإمام أحمد في (المسند) ، من حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم قال : حدثنا عبد الله ، حدثني أبي ، حدثنا إسماعيل عن الجريريّ ، عن أبي صخر العقيلي ، حدثني رجل من الأعراب



---

[()] قال : «جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فلما

فرغت من بيعتي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهودي ناشرا التوراة يقرؤها ، يعزى بها نفسه على ابن له في الموت ، كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟ فقال برأسه : هكذا ، أي لا ، فقال ابنه : إني والّذي أنزل التوراة ، لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : أقيموا اليهود عن أخيكم ، ثم ولى كفنه ، وحنطه ، وصلى عليه» . (المرجع السابق) : 6/ 571 ، حديث رقم (22981) .

وذكر ابن كثير في (التفسير) ، عند قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ 7 : 157 ، باختلاف يسير ، وقال في آخره :

هذا حديث جيد ، قوي له شاهد في الصحيح عن أنس (تفسير ابن كثير) : 2/ 262 .

وأما حديث صور الأنبياء ، فقد أخرجه ابن كثير في (التفسير) ، عن الحاكم صاحب (المستدرك) :

أخبرنا محمد بن عبد الله بن إسحاق البغوي ، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ابن إدريس ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن شرحبيل بن مسلم ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن هشام ابن العاص الأموي قال : بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل

صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة – يعني غوطة دمشق – فنزلنا على جبلة بن الأهتم الغسّاني ، فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له ، فأرسل إلينا برسوله نكلمه ، فقلنا : والله لا نكلم رسولا وإنما بعثنا إلى الملك ، فإن أذن لنا كلمناه ، وإلا لم نكلم الرسول ، فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك ، قال : فأذن لنا فقال :

تكلموا ، فكلمه هشام بن العاص ، ودعاه إلى الإسلام ، فإذا عليه ثياب سود ، فقال له هشام : وما هذه الثياب التي عليك ؟ فقال : لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام ، قلنا : ومجلسك هذا لنأخذنه منك ، ولنأخذن ملك الملك الأعظم إن شاء الله ، أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم ، قال :

لستم بهم ، بل هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل ، فكيف صومكم ؟ فأخبرناه ، فملئ وجهه سوادا فقال : قوموا ، وبعث معنا رسولا إلى الملك ، فخرجنا حتى إذا كنا قريبا من المدينة قال لنا الّذي معنا : إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك ، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال ، قلنا : والله لا ندخل إلا عليها ، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك ، فأمرهم أن ندخل على رواحلنا ، فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا ، حتى انتهينا إلى غرفة له ، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فاللَّه يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح .

قال : فأرسل إلينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم ، وأرسل إلينا أن ادخلوا ، فدخلنا

عليه وهو على فراش له ، وعنده بطارقة من الروم ، وكل شيء في مجلسه أحمر ، وما حوله حمرة ، وعليه ثياب من الحمرة ، فدنونا منه ، فضحك فقال : ما عليكم لو جئتموني بتحيتكم فيما بينكم ؟ ، وإذا عنده رجل فصيح بالعربية ، كثير الكلام ، فقلنا : إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك ، وتحيتك التي تحيّا بها لا يحل لنا أن نحيك بها ، قال : كيف تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا : السلام عليكم ، قال : فكيف تحيون ملككم ؟ قلنا : بها ، قال : فكيف يرد عليكم ؟ قلنا : بها ، قال : فما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله

(266/428)

---

[ () ] إلا الله والله أكبر ، فلما تكلمنا بها – والله يعلم – لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها ، قال :

فهذه الكلمة التي قلتموها حيث انتفضت الغرفة ، أكلّ ما قلتموها في بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم ؟

قلنا : لا ، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك ، قال لوددت أنكم كلما قلتم انتفض كل شيء عليكم ، وإني قد خرجت من نصف ملكي ، قلنا : لم ؟ .

قال : لأنه كان أيسر لشأنها وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة ، وأنها تكون من حيل الناس ،

ثم سألنا عما أراد ، فأخبرناه ، ثم قال : كيف صلاتكم وصومكم ؟ فأخبرناه ، فقال : قوموا ، فأمر لنا بمنزل حسن ، ونزل كثير ، فأقمنا ثلاثا ، فأرسل إلينا ليلا ، فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا فأعدناه ، ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة ، مذهبة ، فيها بيوت صغار ، عليها أبواب ، ففتح بيتا وقفلا ، فاستخرج حريرة سوداء ، فنشرناها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين ، عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله . فقال :

أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا آدم عليه السلام ، وإذا هو أكثر الناس شعرا .

ثم فتح باب آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : هل تعرفون هذا ؟

قلنا : لا ، قال : هذا نوح عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها رجل شديد البياض ، حسن العينين ، صلت الجبين ، طويل الخد ، أبيض اللحية ، كأنه يبتسم ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال :

هذا إبراهيم عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فإذا فيه صورة بيضاء ، وإذا والله رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم ، هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، قال : وبكينا ،

قال : والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس ، وقال والله إن لهو ؟ قلنا : نعم إنه لهو ، كأنك تنظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عجلته لكم ، لأنظر ما عندكم.

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فإذا فيها صورة أدماء سمحا ، وإذا رجل جعد قطط ، غائر العينين ، حديد النظر ، عابس ، متراكب الأسنان ، متقلص الشفة ، كأنه غضبان ، فقال :

هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا موسى عليه السلام ، وإلى جنبه صورة تشبهه ، إلا أنه مدهان الرأس ، عريض الجبين ، في عينيه قبل ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا هارون بن عمران عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل آدم ، سبط ، ربعة ، كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا لوط عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة ، أقنى خفيف العارضين حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إسحاق عليه السلام.

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق إلا أنه على شفته خال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا يعقوب عليه السلام.

[ () ] ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة رجل أبيض ، حسن الوجه ، أقنى الأنف ، حسن القامة ، يعلو وجهه نور ، يعرف في وجه الخشوع ، يضرب إلى الحمرة ، قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا إسماعيل جد نبيكم صلى الله عليه وسلّم .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة كصورة آدم ، كأن وجهه الشمس ، فقال : تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا يوسف عليه السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل ضخم الأليتين ، طويل الرجلين ، راكب فرسا ، فقال ، هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا سليمان بن داود عليهما السلام .

ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وإذا شاب شديد سواد اللحية ، كثير الشعر ، حسن العينين ، حسن الوجه ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا عيسى ابن مريم عليه السلام .

قلنا : من أين لك هذه الصور ، لأنا نعلم أنها على ما صوّرت عليه الأنبياء عليهم السلام ،

لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله ؟ فقال : إن آدم عليه السلام ، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم ، فكانت في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس ، فدفعها إلى دانيال .

ثم قال : أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي ، وإني كنت عبدا لا [يترك] ملكه حتى أموت ، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرّحنا .

فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا ، وبما أجازنا ، قال :

فبكى أبو بكر وقال : مسكين ! لو أراد الله به خيرا لفعل ، ثم قال : أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلّم عندهم . (تفسير ابن كثير) : 2/ 262 - 263 ، تفسير الآية (157) من سورة الأعراف .

وهكذا أورده أيضا الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي في (دلائل النبوة) : 1/ 385 - 390 ، باب ما وجد من صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم مقرونة بصورة الأنبياء قبله بالشام ، عن الحاكم إجازة ، فذكره ، وإسناده لا بأس به .

وذكر أبو نعيم في (الدلائل) : 1/ 50 - 56 ، بنحوه وقال في آخره : قال الشيخ رضي الله عنه : ففي هذه القصة علم أهل الكتابين بصفة نبينا صلى الله عليه وسلّم ، وباسمه ، وبعثه .

وانتفاض الغرفة حين أهلّوا بلا إله إلا الله ، وما يوجد من المعجزات بعد موت الأنبياء ، كما يوجد أمثالها قبل بعثتهم ، إعلاما وإيذانا بقرب مبعثهم ومجيئهم . (المرجع السابق) .



---

وأما شرف أصله ، وتكريم حسبه ونسبه ، وطيب مولده

فخرج مسلم والترمذي من حديث الوليد بن مسلم قال : حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار شداد ، أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . وقال الترمذي : واصطفى هاشما من قريش ، وقال : هذا حديث حسن غريب [1] .

وخرج الترمذي من حديث محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعي عن أبي عمار عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح [1] .

وقد خرج الفسوي من حديث حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن محمد ابن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : «إن الله اختار العرب ، ثم اختار منهم كنانة أو النضر بن كنانة ، ثم اختار منهم قريشا ، ثم اختار منهم بني هاشم . وهو حديث مرسل .

وله أيضا من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله ابن الحرث بن نوفل ، عن العباس رضي الله تعالى عنه قال : قلت : يا رسول الله إن قريشا إذا التقوا ، لقي بعضهم بعضا بالبشاشة ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا

[1] سبق تخريج هذه الأحاديث والتعليق عليها بالشرح .



لا نعرفها ! ! فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلّم عند ذلك غضبا شديدا ثم قال : والّذي نفس محمد بيده ، لا يدخل الجنة قلب رجل الإيمان حتى يحبكم للَّه ولرسوله ،

وقلت :

يا رسول الله ، إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم ، فجعلوا مثلك مثل نخلة في كناس الأرض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن الله عز وجلّ يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم ، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة ،

ثم جعلني حين جعل البيوت في خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا [1] . وخرج الترمذي من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث عن العباس بن عبد المطلب ، قال : قلت : يا رسول الله ! إن قريشا جلسوا فتذاكروا أحسابهم ، فجعلوا مثلك كمثل نخلة في كناسة الأرض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم ، وخير الفريقين ، ثم خير القبائل ، فجعلني في خير القبيلة ، ثم في خير البيوت ، فجعلني في خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا . انفرد به الترمذي وقال : هذا حديث

---

[1] ونحوه في أبواب المناقب من (سنن الترمذي) : 10/ 54 حديث رقم (3849) ، وقال فيه «فجعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من الأرض» ، أي كصفة نخلة نبتت في كناسة من الأرض ، والمعنى أنهم طعنوا في حسبك .

قال الجزري في (النهاية) : 4/ 145 : كبا ، فيه : «ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت عنده له كبوة ، غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم» . الكبوة : الوقفة كوقفة العاثر ، أو الوقفة عند الشيء يكرهه الإنسان . ومنه «كبا الزّند» إذا لم يخرج نارا .

ومنه حديث أم سلمة قالت لعثمان : «لا تقدح بزند كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم أكباها» ، أي عطّلها من القدح فلم يور بها .

وفي حديث العباس «قال : يا رسول الله ، إن قريشا جعلوا مثلك مثل نخلة في كبوة من

الأرض» قال شمر : لم نسمع الكبوة ، ولكنا سمعنا الكبا ، والكبة ، وهي الكناسة والتراب الّذي يكنس من البيت .

وقال الزمخشريّ في (الفائق) : 3/ 242 : وعنه صلى الله عليه وسلّم أنه قيل له : أين ندفن ابنك ؟ قال : عند فرطنا عثمان بن مظعون ، وكان قبر عثمان عند كبا بني عمرو بن عوف .

وقال أصحاب الفراء : الكبة المزبلة ، وجمعها كبون ، وأصلها كبوة ، من كبوت البيت إذا كنسته ، وعلى الأصل جاء الحديث ، إلا أن المحدّث لم يضبط الكلمة فجعلها كبوة بالفتح ، وإن صحت الرواية فوجهها أن تطلق الكبوة ، وهي الكسحة ، على الكساحة .

(270/428)

---

حسن . وعبد الله بن الحرث هو ابن نوفل [1] .

ورواه أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد ، فزاد في إسناده : المطلب ابن أبي وداعة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث بن نوفل ، عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال : قال العباس : بلغه صلى الله عليه وسلّم بعض ما يقول الناس ، قال : فصعد المنبر فقال : من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله ، قال : أنا محمد

بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا .

وقد خرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث قال : حدثني المطلب بن ربيعة أن العباس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلّم مغضبا وأنا عنده فقال : ما أغضبك ؟ فذكر نحوه وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قال : ورواه جرير عن عبد الحميد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث عن المطلب بن ربيعة وهو الصواب . قال كاتبه : وهكذا رواه يزيد بن عطاء عن يزيد بن أبي زياد كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

[وخرج] [2] أبو بكر بن أبي شيبة من حديث ابن فضيل عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث ، عن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب قال : بلغ النبي صلى الله عليه وسلّم أن قوما نالوا منه وقالوا له : إنما مثل محمد كمثل نخلة تنبت في كناس ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلّم [و] [2] قال : إن الله خلق خلقه فجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلا ، ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إني خيركم قبيلا وخيركم بيتا . قال البيهقي : كذا قال عن ربيعة بن الحرث ، وقال غيره : عن المطلب بن ربيعة بن الحرث ، وابن ربيعة إنما هو عبد المطلب بن ربيعة له صحبة ، وقد قيل : عن المطلب بن أبي وداعة . ثم ذكر

حديث أبي نعيم الفضل بن دكين قال: حدثنا سفيان عن يزيد ابن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث بن نوفل عن عبد المطلب بن أبي وداعة قال:

---

[1] سبق الإشارة إليه وشرحه.

[2] زيادة للسياق.



---

قال العباس: بلغه بعض ما يقول الناس، وفي رواية: عن عبد المطلب بن أبي وداعة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم - وبلغه بعض ما يقول الناس - فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: من أنا ؟ قالوا: أنت رسول الله، قال: أنا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا [1]. وخرجه الإمام أحمد من حديث حسين بن محمد، حدثنا يزيد بن عطاء عن يزيد بن عبد الله عن عبد الله بن الحرث بن نوفل عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث قال: أتى ناس من الأنصار النبي صلى الله عليه وسلّم فقالوا: إنا نسمع من قومك حتى يقول القائل منهم: إنما محمد مثل نخلة تنبت في كنا، قال: حسين: الكنا،

الكناسة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أيها الناس ! من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله ، قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قال : فما سمعناه ينتمي قبلها إلا أن الله خلق خلقه فجعلني في خير خلقه ، ثم فرقهم فرقتين فجعلني في خير الفريقين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا [1] . وخرجه الترمذي من حديث سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحرث ، عن عبد المطلب بن أبي وداعة قال : جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكأنه سمع شيئًا فقام النبي فقال : من أنا ؟ فقالوا : أنت رسول الله ، قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فريقين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا وخيرهم نفسا . انفرد به الترمذي وقال : هذا حديث حسن [صحيح غريب] [2] .

---

[1] سبق تخريج وشرح نظائر هذه الأحاديث على خلاف في السياقات لكن بنفس المعنى .

[2] زيادة من رواية الترمذي ، (تحفة الأحوذي) : 10/ 54 - 55 ، حديث رقم (3850) ، وسبق شرحه .

وللفسوي من حديث قيس عن الأعمش عن عباية بن ربعي عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن الله عز وجل خلق الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسما ، وذلك قوله : لِأَصْحابِ الْيَمِينِ 56 : 38 [1] ، أَصْحابُ الشِّمالِ 56 : 41 [2] ، فأنا من أصحاب اليمين ، وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين [أثلاثا] [3] فجعلني في خيرهم ثلثا ، فذلك قوله عزّ وجل :

فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ 56 : 8 [4] ، وَالسَّابِقُونَ 56 : 10 [5] ، فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ، وذلك قول الله عز وجل : وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ 49 : 13 [6] ، فأنا [7] أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرهم [8] ، بيتا ، فذلك قوله عز وجل : إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً 33 : 33 [9] ، فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب [10] . وخرج البيهقي من حديث محمد بن ذكوان عن عمرو بن دينار عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما : إنا لقعود بفناء النبي صلى الله عليه وسلّم إذ مرت [11] امرأة ، فقال بعض

---

[1] الواقعة : 38 .

[2] الواقعة : 41 ، وفي (خ) : «وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال» ، وما أثبتناه موافق للتنزيل .

[3] في (خ) : «ثلاثا» والتصويب من (دلائل البيهقي) .

[4] الواقعة : 8

[5] الواقعة : 10 ، وفي (خ) بين الآيتين قوله تعالى : وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ 56 : 9 ، والسياق يقتضي عدم إثباتها .

[6] الحجرات : 13

[7] في (دلائل البيهقي) : «وأنا» .

[8] في المرجع السابق : «في خيرها»

[9] الأحزاب : 33 .

[10] (دلائل النبوة للبيهقي) : 1/ 170 - 171 ، وقال : «فيه غرابة ونكارة» . ورواية عباية بن ربعي - من غلاة الشيعة - له عن علي : «أنا قسيم النار» ، وحديث الصراط ، قال الخريبي : «كنا عند الأعمش فجاءنا يوما وهو مغضب ، فقال : «ألا تعجبون من موسى بن طريف يحدث عن عباية عن علي : «أنا قسيم النار» . وذكره العقيلي في (الضعفاء الكبير) : 3/ 415 ، وقال : روى عنه موسى بن طريف ، كلاهما

غاليان ملحدان .

[11] زيادة من (دلائل البيهقي) : 1/ 172 .

(273/428)

---

القوم : هذه [ابنة] [1] رسول الله ، فقال أبو سفيان : مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن ، فانطلقت المرأة فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلّم ، فجاء يعرف في وجهه الغضب فقال : ما بال أقوال تبلغني عن أقوام ؟ ! إن الله عز وجل خلق السموات سبعا ، فاختار العلياء منها فأسكنها من شاء من خلقه ، ثم خلق الخلق واختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشا ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار ، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم [2] . وخرج البخاري من حديث عبد الواحد ، أنبأنا كريم بن وائل ، حدثتني ربيبة النبي صلى الله عليه وسلّم - زينب بنت أبي سلمة - قالت : قلت لها : أرأيت النبي صلى الله عليه وسلّم أكان من مضر ؟ قالت : فممّن كان إلا من مضر ؟ من بني النضر بن كنانة [3] .

---

[1] في (خ) : «امرأة» وما أثبتناه من المرجع السابق .

[2] سرده العقيلي في الضعفاء وقال: «لا يتابع عليه»، ومن رواته يزيد بن عوانة، عن محمد بن ذكوان، فيزيد بن عوانة، ضعّفه العقيلي، وسرد له الحديث المنكر هذا، وقال: «لا يتابع عليه». (الميزان):

4/ 436، أما محمد بن ذكوان الأزدي الطائي اتفقوا على ضعفه، قال البخاري: منكر الحديث.

وقال النسائي: ليس بثقة ولا يكتب حديثه. وقال ابن حبان: سقط الاحتجاج به.

[3] أخرجه البخاري في أول كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ 49: 13 [الحجرات: 13]، وقوله:

وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسائَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً 4: 1 [النساء: 1] وما ينهى عن نسب الجاهلية، حديث رقم: (3491)، حدثنا قيس بن حفص، حدثنا عبد الواحد، حدثنا كليب ابن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي صلى الله عليه وسلّم زينب ابنة أبي سلمة قال: «قلت لها: أرأيت النبي صلى الله عليه وسلّم أكان من مضر؟ قالت: فمن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة».

وحديث رقم (3492)، حدثنا موسى، حدثنا عبد الواحد، حدثنا كليب، حدثتني ربيبة النبي صلى الله عليه وسلّم - زينب - قالت: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم

عن الدّباء، والحنتم، والمقيّر، والمزفّت. وقلت لها:

أخبريني، النبي صلى الله عليه وسلّم ممن كان، من مضر كان؟ قالت: فممن كان إلا من مضر؟ كان من ولد النضر بن كنانة».

قوله: «مضر»، هو ابن نزار بن معد بن عدنان. والنسب ما بين عدنان إلى إسماعيل بن إبراهيم مختلف فيه كما سيأتي، وأما من النبي صلى الله عليه وسلّم إلى عدنان فمتفق عليه. وقال ابن سعد في (الطبقات):

حدثنا هشام بن الكلبي قال: «علمني أبي وأنا غلام نسب النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: محمد بن عبد الله



---

ولأبي داود الطيالسي من حديث حماد بن سلمة عن عقيل بن طلحة السلمي عن مسلم بن هيضم عن الأشعث بن قيس قال: قلت: يا رسول الله، إنا نزعم أنا منكم أو أنكم منا؟ فقال: نحن من بني النضر بن كنانة، لا ننتفي من أبينا ولا نقفوا أمنا، قال: فقال الأشعث: لا أوتي برجل نفي رجلا من قريش من النّضر بن كنانة، إلّا جلدته . . .

---

[()] ابن عبد المطلب – وهو شيبة الحمد – بن هاشم – واسمه عمرو – بن عبد مناف

واسمه المغيرة بن قصي واسمه زيد بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر وإليه جماع قريش» .

«وما كان فوق فهر فليس بقرشيّ بل هو كناني ، ابن مالك بن النضر واسمه قيس بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ، واسمه عمرو بن إلياس بن مضر .

وروى الطبراني بإسناد جيد ، عن عائشة قالت : «استقام نسب الناس إلى معد بن عدنان» . ومضر بضم الميم وفتح المعجمة ، يقال : سمي بذلك لأنه كان مولعا بشرب اللبن الماضر ، وهو الحامض ، وفيه نظر لأنه يستدعي أنه كان له اسم غيره قبل أن يتصف بهذه الصفة ، نعم يمكن أن يكون هذا اشتقاقه ، ولا يلزم أن يكون متصفا به حال التسمية ، وهو أول من حدا الإبل .

وروى ابن حبيب في تاريخه عن ابن عباس قال : «مات عدنان ، وأبوه ، وابنه معد ، وربيعة ، ومضر ، وقيس ، وتميم ، وأسد وضبّة ، على الإسلام على ملة إبراهيم عليه السلام .

وروى الزبير بن بكار من وجه آخر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : «لا تسبوا مضر ولا ربيعة ، فإنّهما كانا مسلمين» ، ولابن سعد من مرسل عبد الله بن خالد ، رفعه : «لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم» .

قوله : «من بني النضر بن كنانة» ، أي المذكور ، وروى أحمد وابن سعد ، من حديث

الأشعث ابن قيس الكندي قال : «قلت : يا رسول الله ، أنّا نزعم أنكم منا – يعني من اليمن – فقال : نحن بنو النضر بن كنانة» . وروى ابن سعد من حديث عمرو بن العاص ، بإسناد فيه ضعف مرفوعا «أنا محمد بن عبد الله ، وانتسب حتى بلغ النضر بن كنانة ، قال : فمن قال غير ذلك فقد كذب» .

وإلى النضر تنتهي أنساب قريش ، وسيأتي بيان ذلك في الباب الّذي يليه [من أبواب البخاري ] ، وإلى كنانة منتهي أنساب أهل الحجاز .

وقد روى مسلم من حديث واثلة مرفوعا : «إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفي من كنانة ، قريشا ، واصطفي من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» . ولابن سعد من مرسل أبي جعفر الباقر : ثم اختار بني هاشم من قريش ، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم . قوله : «وأظنها زينب» كأن قائله موسي ، لأن قيس بن حفص في الرواية التي قبلها قد جزم بأنها زينب ، وشيخهما واحد . لكن أخرجه الإسماعيلي من رواية حبان بن هلال ، عن عبد الواحد وقال :

لا أعلمها إلا زينب ، فكأن الشك فيه من شيخهم عبد الواحد ، كان يجزم بها تارة ، ويشك تارة أخرى .

الحد [1] .

وقال أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي : حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن أنس بن مالك وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام قال : بلغ النبي صلى الله عليه وسلّم أن رجالا من كندة يزعمون [أنه ] [2] منهم ، فقال : «إنما كان يقول [ذاك ] [3] العباس وأبو سفيان بن حرب إذا قدما المدينة ليأمنا بذلك ، وإنا لن ننتفي من آبائنا ، نحن [بنو] [4] النضر بن كنانة ، قال : وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، ابن قصي ، بن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، بن لؤيّ ، بن غالب ، بن فهر ، ابن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، ابن مضر ، ابن نزار» ، وما افترق الناس فريقين إلا جعلني [الله ] [5] في خيرهما ، فأخرجت [من ] [5] بين أبوين فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية ، خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى [انتهيت ] [6] ، إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفسا وخيركم أبا . قال البيهقي : تفرد به أبو محمد عبد الله بن محمد بن ربيعة

---

[1] أخرجه ابن ماجة في (السنن) ، كتاب الحدود ، باب (37) من نفي رجلا من قبيلته ، حديث رقم (2612) ولفظه : عن مسلم بن الهيضم ، عن الأشعث بن قيس ، قال :

أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم في وفد كندة ، ولا يروني إلا أفضلهم . قلت : يا رسول الله ! ألستم منا ؟ فقال : «نحن بنو النضر ابن كنانة ، لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا» ، قال : فكان الأشعث بن قيس يقول : لا أوتي برجل نفي رجلا من قريش ومن النضر بن كنانة إلا جلدته الحدّ .

قال في (الزوائد) : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، لأن عقيل بن طلحة وثّقه ابن معين والنسائي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال الإسناد على شرط الإمام مسلم .

وقال في (النهاية) : «لا نقفوا أمّنا» ، أي لا نتّهمها ولا نقذفها ، يقال : قفا فلان فلانا : إذا اتهمه بما ليس فيه . وقيل معناه : لا نترك النسب إلى الآباء ، وننتسب إلى الأمهات . (سنن ابن ماجة) : 2/ 871 . وفي (خ) : «ولا نقثوا من أمنا» ، وهو خطأ من الناسخ وما أثبتناه من المرجع السابق ومن المرجع التالي .

وأخرجه أيضا الإمام أحمد في (المسند) : 6/ 276 ، حديث رقم (21332) بنحوه سواء .

[2] في (خ) : «أنهم» .

[3] في (خ) : «ذلك» .

[4] في (خ) : «بني» .

[5] زيادة من (دلائل البيهقي) .

[6] في (خ) : «أتيت» والتصويب من المرجع السابق .

(276/428)

---

القدامي ، وله عن مالك وغيره أفراد لم تابع عليها .

قال كاتبه : قال ابن عدي : عن عبد الله بن محمد بن ربيعة بن قدامة بن مظعون أبو محمد المصيصي [1] ، عامة أحاديثه غير محفوظة ، وهو ضعيف على ما تبين لي من رواياته واضطرابه ، ولم أر للمتقدمين فيه كلاما .

وخرج البخاري من حديث قتيبة بن سعيد ، أنبأنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الّذي كنت فيه . ذكره في باب صفة النبي صلى الله عليه وسلّم [2] . وخرج البيهقي من حيث عمرو بن عبد الله بن نوفل عن الزهري عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : [قال] لي جبريل عليه السلام :

قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض

مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم [3] . وخرج البخاري من حديث شعبة ، حدثني عبد الملك عن طاووس عن ابن عباس [في قوله تعالي ] : إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى 42 : 23 ، قال : فقال سعيد بن جبير :

---

[1] هو عبد الله بن محمد بن ربيعة القدامي من أهل المصيصة ، كان يقلب الأخبار ، قلب على مالك أكثر من مائة حديث وخمسين حديثا ، ذكره ابن حبان في (المجروحين) : 2/ 39 . (دلائل النبوة البيهقي) : 174 - 175 .

[2] (فتح الباري) : 6/ 701 ، كتاب المناقب ، باب (23) صفة النبي صلى الله عليه وسلّم ، حديث رقم (3557) . ورواية البيهقي : «كنت فيه» .

قوله : «بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا» ، القرن الطبقة من الناس المجتمعين في عصر واحد ، ومنهم من حدّه بمائة سنة ، وقيل بسبعين ، وقيل بغير ذلك . فحكى الحربي الاختلاف فيه من عشرة إلى مائة وعشرين ، ثم تعقب الجميع وقال : الّذي أراه أن القرن كل أمة هلكت حتى لم يبق منها أحد . وقوله : «قرنا» بالنصب على الحال للتفصيل . وفي رواية الإسماعيلي : «حتى بعثت من القرن الّذي كنت فيه» . (المرجع السابق) ، (دلائل البيهقي) : 1/ 175 .

[3] (دلائل النبوة للبيهقي) : 1/ 176 ، وتعقّبه بقوله : «قال أحمد : هذه الأحاديث وإن كان في روايتها من لا تصح به ، فبعضها يؤكد بعضا ، ومعني جميعها يرجع لما روينا عن واثلة

بن الأسقع وأبي هريرة.

والله تعالي أعلم.

(277/428)

---

قربي محمد، فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلّم لم يكن بطن [1] من قريش إلا وله فيه قرابة، فنزلت [عليه] [2] فيه إلا أن تصلوا قرابة بيني وبينكم. ذكره في باب قوله تعالي: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ من ذكرٍ وأُنْثى 49: 13 [3].

وخرجه في التفسير من حديث شعبة عن عبد الملك بن ميسرة، سمعت طاووسا يقول: عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى 42: 23 فقال سعيد

---

[1] في (خ): «في بطن».

[2] زيادة من (البخاري).

[3] (فتح الباري): 6/ 652، حديث رقم: (3497)، ونحوه حديث رقم: (4818)، حدثني محمد بن بشّار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال: سمعت طاووسا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى 42: 23، فقال سعيد بن جبير: قربي آل محمد صلى الله عليه

وسلّم ، فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي صلى الله عليه وسلّم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة» . قوله : إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى 42 : 23 ، ذكر فيه حديث طاووس «عن ابن عباس ، سئل عن تفسيرها ، فقال سعيد بن جبير : قربي آل محمد ، فقال ابن عباس : «عجلت» أي أسرعت في التفسير ، وهذا الّذي جزم به سعيد بن جبير ، قد جاء عنه من روايته عن ابن عباس مرفوعا ، فأخرج الطبري وابن أبي حاتم من طريق قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت قالوا : يا رسول الله ، من قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم ؟ . . الحديث ، وإسناده ضعيف ، وهو ساقط لمخالفته هذا الحديث الصحيح .

والمعني : إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني ، والخطاب لقريش خاصة ، والقربى قرابة العصوبة والرحم ، فكأنه قال : احفظوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة .

وقد جزم بهذا التفسير جماعة من المفسرين ، واستندوا إلى ما ذكرته عن ابن عباس من الطبري وابن أبي حاتم ، وإسناده واه فيه ضعيف ورافضي .

وذكر الزمخشريّ هنا أحاديث ظاهر وضعها ، وردّه الزجاج بما صح عن ابن عباس من رواية طاووس .

وقد روى سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال : أكثروا علينا في هذه الآية فكتبت إلى ابن عباس أسأله عنها ، فكتب : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان واسط النسب

في قريش، لم يكن حيّ من أحياء قريش إلا ولده، فقال الله: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى 42: 23 تودوني بقرابتي منكم، وتحفظوني في ذلك.

وقوله: القربى، هو مصدر، كالزلفى والبشرى، بمعني القرابة، والمراد في أهل القربى، وعبّر بلفظ في دون اللام كأنه جعلهم مكانا للمودة ومقرا لها، كما يقال: في آل فلان هوى، أي هم مكان هواي، ويحتمل أن تكون في سببية، وهذا على أن الاستثناء متّصل، فإن كان منقطعا فالمعني لا أسألكم عليه أجرا قط، ولكن أسألكم أن تودوني بسبب قرابتي فيكم. (فتح الباري): 8/ 724 - 726 باختصار من شرح الحديث رقم (4818) من كتاب التفسير.

(278/428)

---

ابن جبير: قربي آل محمد، فقال ابن عباس: [عجلت] [1] إن رسول الله [2] صلى الله عليه وسلّم لم يكن [بطن] [3] من قريش إلا كان له [فيهم] [4] قرابة: إلا أن تصلوا [5] ما بيني وبينكم من القرابة.

وخرج أبو نعيم من حديث ورقاء بن عمر عن ابن أبي نجيح عن عطاء ومجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لم يلتق أبواي على سفاح، لم يزل الله

ينتقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفى مهذبا ، ولا يتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما [6] . وخرج البيهقي في سننه من حديث هشيم ، حدثنا الملالي أو المليلي ، أو كما قال عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية ، ما ولدني إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام [7] .

قال أبو نعيم : ووجه الدلالة في هذه الفضيلة أن النّبوّة ملك وسياسة عامة ، وذلك قوله تعالى : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ من فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً 4 : 54 [8] ، والملك في ذوي الأحساب والأخطار من الناس ، وكلما كانت خصال فضله أوفر كانت الرعية بالانقياد له أسمع ، وإلى طاعة مطيعة أسرع .

---

[1] في (خ) : «علمت» .

[2] في (خ) : «إن النبي صلى الله عليه وسلّم» .

[3] في (خ) : «بطنا» .

[4] في (خ) : «فيهم» .

[5] في (خ) : «تصلوا قرابة ما بيني وبينكم من القرابة» والتصويبات السابقة من رواية المرجع السابق .

[6] أخرجه أبو نعيم في (دلائل النبوة) : 1/ 57 ، الفصل الثاني ، ذكر فضيلته صلى الله

عليه وسلّم بطيب مولده وحسبه ونسبه، حديث رقم (15)، ولفظه: حدثنا محمد بن سليمان الهاشمي قال: أحمد بن محمد بن سعيد المروزي قال: حدثنا محمد بن عبد الله، حدّثني أنس بن محمد قال: حدثنا موسي بن عيسى قال:

حدثنا يزيد بن أبي حكيم، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «لم يلتق أبواي في سفاح، لم يزل الله عزّ وجلّ ينقلني من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة صافيا مهذبا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما». قال السيوطي في (الخصائص): 1/ 93، أخرجه أبو نعيم من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[7] أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى): 7/ 190، باب نكاح أهل الشرك وطلاقهم.

[8] النساء: 54.

*(279/428)*

---

وإذا كان في الملك وتوابعه نقيصة، نقص عدد أتباع رعيته، ففي اختيار الله له صلى الله عليه وسلّم أن أمده بكل ما بالملوك إليه حاجة، ليدعو الناس إلى اتباعه، ولذلك قال قوم شعيب: ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ 11: 91 [1] الآية. وقال فرعون لموسى: أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ 43: 52

[2] ، فأزرى فرعون به ليثبط بذلك القوم عن اتباعه ، حتى شكا موسي إلى الله تعالي وسأله أن يحل العقدة عن لسانه ليفقهوا قوله ، وقال : وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي 28 : 34 [3] ، فدل ذلك على أن الملك لا يجعل إلا في أهل الكمال والمهابة ، وهاتان الخصلتان لا توجدان في غير ذوي الأحساب .

فجل الله تعالي لنبيه محمد صلى الله عليه وسلّم من الحظوظ أوفرها ، ومن السهام أوفاها وأكثرها ، ولذلك قال عليه السلام فأنا من خيار إلى خيار ، وجعله أيضا من أفضل البقاع مولدا ومسكنا ومخرجا ، وهي البقعة التي افترض الله على جميع الموحدين من المستطيعين حجّها ، فكان بهذا أيضا أفضلهم نفسا وحسبا ودارا صلى الله عليه وسلّم ، ولذلك سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن حسبه فقال : كيف حسبه فيكم ؟ فقال : هو من أوسطنا حسبا ، فقال له هرقل : كذلك الأنبياء .

---

[1] هود : 91 .

[2] الزخرف : 52 .

[3] القصص : 34 .

وأما أنّ أسماءه خير الأسماء

فقد تقدم أنه محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب والفاتح والخاتم والمقفى ونبي التوبة، ونبي الملحمة، ونبي الرحمة[1].

قال أبو نعيم: وفيما تضمنه اسمه الماحي والحاشر ونبي الرحمة والملحمة من معان لطيفة، وفوائد جليلة، فإن الماحي إذا جرى على اللفظ المفسر في الخبر أن الله يمحو به الكفر، كان ذلك دلالة وبشارة بكثرة الفتوح وانتشار ضياء الإسلام في الأرضيين وصفحتيها شرقا وغربا، وأن سلطان الإسلام يكون غالبا، وسلطان الكفر دارسا عافنا، وذلك يرجع إلى معنى قوله تعالى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ 48 : 28 [2]، وليس معنى المحو أن يحسم الكفر أصلا حتى لا يوجد في الأرض كافرا، بل معناه أن يكونوا مقهورين باعتلاء المسلمين عليهم، حتى تكون الأقضية والأحكام والحل والعقد للمسلمين دونهم، وأن الكفار مغمورون خاملون، خاملو الذكر ساقطو الصيت والكلام، أما الذمة عقدت عليهم بصغار الجزية، وإما لخوفهم من سيوف الإسلام فيهم غزوا وجهادا، وهذا سائغ بين أهل اللسان والبيان، أن معنى المحو مرجعه إلى الخمول والكتمان، ويريدون بالمحو سقوطه وخموله لظهور العالمين والقاهرين عليهم، ومعنى المحو إن أضيف إليه صلى الله عليه وسلّم فلإجراء الله ذلك على يديه، فأضيف إليه كما أن الهداية مضافة إليه صلى الله عليه وسلّم والهادي هو الله، فكذلك الماحي في

---

[1] أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب (17) ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقول الله عزّ وجلّ:

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ 48 : 29 [الفتح: 29]، وقوله: من بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ 61 : 6 [الصف: 6]، حديث رقم (3532)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «ولي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الّذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الّذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». (فتح الباري: 6/ 688، (المرجع السابق): 8/ 826، حديث رقم (4896) بنحوه.

[2] الفتح: 28، الصف: 9.

(281/428)

---

الحقيقة هو الله تعالى القاهر، فأضاف ذلك إلى الرسول عليه السلام، إذ جرى ذلك على يده بتمكين الله تعالى له، وتسليطه على من كذبه وجحده، وهذه بشارة قد تحقق صدقها فيه لظهور المسلمين وعلوهم على من خالفهم، فتحققت الدلالة ولله الحمد.

ومعنى الحاشر على ما روى الخبر: أنه الّذي يحشر الناس على قدمه، أي لا نبوة بعده، وأن شريعته قائمة ثابتة إلى قيام الساعة، اهتدى بها من اهتدى، أو ضلّ عنها من ضلّ.

ومعنى نبي الرحمة مثل قوله : إنما أنا رحمة مهداة ، فبعثه من الله رحمة ، هدى بها من شاء رحمته وهداه ، وسمى كالمطر المسمى رحمة ، لأن الله يرحم عباده بالمطر فيسوق إليهم بالمطر الخيرات ، ويوسع عليهم بها النبات والأقوات ، ولا يوجب هذا الاسم أن الله رحم به كل المدعوين من عباده ، وذلك إنما يجري الله على لسانه من الدعاء والبيان ، وإن كان رحمة فصورته كعطية من قبلها فاز بنفعها ، ومن تركها وردّها حرم نفعها ووجب عليه العقاب .

قال كاتبه ويؤيد هذا ما رواه البيهقي من حديث السعودي عن سعيد بن أبي سعيد عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ 21 : 107 [1] ، قال : من آمن باللَّه ورسوله تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن باللَّه ورسوله عوفي مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف ، فتلك الرحمة في الدنيا .

قال أبو نعيم : ومعنى نبي الرحمة : فهو إعلام منه يكون بعده وفي زمانه من الحروب والجهاد ، والقتل والسبي . ومعنى الرحمة في إرساله : أن الله تعالى لم يعجل معجزته ودلائله كدلائل الماضين قبله من الأنبياء ، وذلك أن الماضين من الأمم كانوا يقترحون على أنبيائهم ويتحكمون عليهم بالآيات على حسب شهوتهم واقتراحهم ، فكان دأب الله فيهم الاصطلام إذ لم يؤمنوا بها كقوله لما اقترحوا على عيسى المائدة :

---

[1] الأنبياء : 106 .

(282/428)

---

قال الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ 5 : 115 [1] ، واقتدي بهم المشركون فسألوا النبي صلى الله عليه وسلّم الآيات اقتراحا وتحكما ، كقولهم : اجعل الصفا لنا ذهبا ، وأحيي لنا قصيا ، وسيّر جبالنا لتتسع مزارعنا ، وائتنا بالملائكة إن كنت من الصادقين ، وأنزل علينا كتابا نقروه ، فأنزل الله تعالى ردا عليهم : وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا 13 : 31 [2] ، وقال : ما نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ 15 : 8 [3] فجعل الله تعالى لرحمته بهم الآية الباقية مدة الدنيا له صلى الله عليه وسلّم القرآن المعجز ، وتحدى به أرباب اللغة واللسان أن يأتوا بمثله أو بسورة أو بآية مثله ، فباءوا بالعجز عن معارضته مع تمكينهم من أصناف الكلام نظما ونثرا ورجزا وسجعا ، وكان القرآن معجزة له صلى الله عليه وسلّم كإبراء الأكمه وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام مع تقدم قومه بصناعة الطب ، وكقلب العصا حيّة لموسى وفلق البحر مع تمكن قوم فرعون وحذقهم بالسّحر .

فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن جعل أظهر دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم القرآن الّذي يعلم صدقه بالاستدلال الّذي تعرض فيه الشبهة والشكوك، لكنه لا يستأصل القوم المنكرون له كما استؤصل قوم صالح لما كفروا بالناقة، وقوم موسى بانفلاق البحر، وتلقف العصا حبالهم وعصيهم.

وإلى هذا المعنى يرجع قوله تعالى: وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً 17 : 59 [4]، المعنى: أن إرادتنا لاستبقاء المقترحين للإيمان منعا من إرسال الآيات التي اقترحوها بها، لعلمنا بأنا نخرج من أصلابهم من يؤمن، وإن من سبق له منا الرحمة بالإيمان فقال تعالى: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى 29 : 51 [5]، فدعاهم إلى التفكر والتذكر في القرآن الّذي هو من

---

[1] المائدة: 115.

[2] الرعد: 31.

[3] الحجر: 8.

[4] الإسراء: 59.

[5] العنكبوت: 51.

جنس ما يعرفونه ويتعاطونه من الفصاحة والبيان .

أبان بعد هذا وجه الرحمة في تسمية الله رسوله نبي الرحمة ، ونبي الملحمة ، والحاشر ، وإن الكتاب المعجز باق عندهم بقاء الدهر ، كما قال : وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ 6 : 19 [1] ، فمن بلغ وقبل فاز ونجا ، ومن رده وكذب به قوتل ، ونصبت بينه القتال والملحمة حتى ينقاد لشريعته ، أو يقتل لسوء اختياره ، فتتم الرحمة بهذه المعاملة ، ويعرف فضل هذه الأمة على غيرها بإزالة الاستئصال والاصطلام الواقعة بغيرها من الماضين من الأمم .

وذكر من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي ، عن عبيد الله بن عطاء بن إبراهيم عن جدته : أم عطاء – مولاة الزبير بن العوام – قالت : سمعت الزبير بن العوام يقول : لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ 26 : 214 [2] ، صاح رسول الله صلى الله عليه وسلّم على أبي قبيس : يا بني عبد مناف ، إني نذير لكم ، فجاءت قريش فحذرهم وأنذرهم ، فقالوا : تزعم أنك نبي يوحى إليك ، وأن سليمان سخر له الجبال والريح ، وأن موسى سخر له البحر ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، فادع الله أن يسيّر عنا الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارا ،

فتتخذها محارث فنزرع ونأكل ، وإلا فادع الله بأن يحي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا ، وإلا فادع الله أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبا ، فنبحث عنها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم ، قال : فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي ، فلما سري عنه قال : والّذي نفسي بيده ، لقد أعطاني ما سألتم ، ولو شئت لكان ، ولكن خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، فنزلت :
وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ 17 : 59 [3] ، فقرأ ثلاث آيات فنزلت : وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى 13 : 31 [4] .

---

[1] الأنعام : 19 .

[2] الشعراء : 214 .

[3] الإسراء : 59 .

[4] الرعد : 31 .

وخرج الحاكم من حديث معمر عن قتادة أنه تلا هذه الآية : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ 43 : 41 [1] ، فقال : قال أنس : ذهب رسول الله وبقيت النقمة ، ولم يرى الله نبيه في أمته شيئا يكرهه حتى مضى صلى الله عليه وسلّم ، ولم يكن نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا قد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم صلى الله عليه وسلّم . قال الحاكم : صحيح الإسناد .

---

[1] الزخرف : 41 .



---

وأما قسم الله تعالى بحياته صلى الله عليه وسلّم

فقد قال تعالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ 15 : 72 [1] ، وإنما يقع القسم بالمعظم وبالمحبوب ، قوله : لَعَمْرُكَ 15 : 72 [2] ، أصله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ، ومعناه : وبقائك يا محمد ، وقيل : وحياتك . قال القاضي أبو بكر محمد بن العربيّ [3] : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله تعالى

[1] الحجر : 72 .

[2] الحجر : 72 .

[3] فيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلّم تشريفا له ، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون وفي حيرتهم يتردّدون ، قالوا : روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما خلق الله وما ذرأ ولا برأ نفسا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلّم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، وهذا كلام صحيح .

ولا أدري ما الّذي أخرجهم عن ذكر لوط إلى ذكر محمد صلى الله عليه وسلّم ، وما الّذي يمنع أن يقسم بحياة لوط ، ويبلغ به من التشريف ما شاء ؟ فكل ما يعطى الله للوط من فضل ، ويؤتيه من شرف ، فلمحمد صلى الله عليه وسلّم ضعفاه ، لأنه أكرم على الله منه ، أولا تراه قد أعطى لإبراهيم الخلّة ، ولموسى التكليم ، وأعطى ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلّم ، فإذا أقسم الله بحياة لوط ، فحياة محمد أرفع ، ولا يخرج من كلام إلى كلام آخر غيره لم يجر له ذكر لغير ضرورة .

المسألة الثانية : قوله : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ 15 : 72 ، أراد به الحياة والعيش ، يقال : عمر ، وعمر بضم العين وفتحها لغتان ، وقالوا : إن أصلها الضم ، ولكنها فتحت في القسم خاصة لكثرة الاستعمال ، والاستعمال إنما هو غير القسم ، فأما القسم فهو بعض

الاستعمال ، فلذلك صارا لغتين ، فتدبروا هذا .

المسألة الثالثة : قال أحمد بن حنبل : من أقسم بالنبيّ صلى الله عليه وسلّم لزمته الكفارة ، لأنه أقسم بما لا يتم الإيمان إلا به ، فلزمته الكفارة ، كما لو أقسم باللَّه تعالى .

وقدّمنا أن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به ، لقوله صلى الله عليه وسلّم : «من كان حالفا فليحلف باللَّه أو ليصمت» ، فإن أقسم بغيره فإنه آثم ، أو قد أتى مكروها على قدر درجات القسم وحاله .

وقد قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤمنين منهم ، يقسمون بحياتك وبعيشتك ، وليس من كلام أهل الذكر ، وإن كان الله أقسم به في هذه القصة ، فذلك بيان لشرف المنزلة ، وشرف المكانة ، فلا يحمل عليه سواه ، ولا يستعمل في غيره .

وقال قتادة : هو من كلام العرب ، وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه في الاستعمال ، وردّ القسم إليه . (أحكام القرآن لابن العربيّ) : 3/ 1130 - 1131 .



---

بحياة محمد صلى الله عليه وسلّم تشريفا له ، أن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون ، وفي حيرتهم يترددون . وقال القاضي عياض [1] : اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله

تعالى بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلّم ، ومعناه : وبقائك يا محمد ، وقيل : وعيشتك ، وقيل :

وحياتك ، وهذه نهاية التعظيم ، وغاية البر والتشريف .

وخرج الحرث بن أبي أسامة من حديث عمرو بن مالك البكري ، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال : ما خلق الله وما ذرأ نفسا أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلّم ، وما سمعت أن الله أقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال :

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ 15 : 72 [2] ، وفي رواية : ما حلف الله بحياة أحد قط إلا بمحمد فقال : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ 15 : 72 [2] ، وقال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد لأنه أكرم البرية عنده ، وقال ابن عقيل الحنبلي : وأعظم من قوله لموسى : وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي 20 : 41 [3] ، وقوله لمحمد صلى الله عليه وسلّم : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَ 48 : 10 [4] ، وقوله تعالى : لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ 90 : 1 – 2 [5] ، المعنى : أقسم لا بالبلد ، فإن أقسمت بالبلد فلأنك فيه . قال ابن الجوزي : أقسم تعالى بتراب قدم محمد صلى الله عليه وسلّم فقال : لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ 90 : 1 – 2 [5] ، قال ابن عقيل : وقال تعالى : يا موسى فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ 20 : 12 [6] ، أي ولا تجيء إلا ماشيا ، ومحمد ركب البراق ولا يجيء إلا راكبا .

وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ : أقسم الله بحياته ثم زاده شرفا فأقسم بغبار رجليه فقال تعالى : وَالْعادِياتِ ضَبْحاً 100 : 1 [7] ، الآية [8] ، وقال أبو نعيم :

---

[1] (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) : 1/ 25 ، الفصل الرابع في قسمه تعالى بعظيم قدره صلى الله عليه وسلّم .

[2] الحجر : 72 .

[3] طه : 41 .

[4] الفتح : 10 .

[5] البلد : 1 .

[6] طه : 12 .

[7] العاديات : 1 .

[8] (أحكام القرآن لابن العربيّ) : 4/ 1973 ، سورة العاديات ، قال : أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلّم ، فقال :

يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ 36 : 1 - 2 ، وأقسم بحياته فقال : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ 15 : 72 ، وأقسم بخيله ، وصهيلها ، وغبارها ، وقدح حوافرها النار من الحجر ، فقال : وَالْعادِياتِ ضَبْحاً فَالْمُورِياتِ قَدْحاً فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً 100 : 1 - 5 العاديات : 1 - 5 .

والمعنى في هذا ، أن المتعارف بين العقلاء : أن الإقسام لا يقع إلا على المعظمين والمبجلين ، فتبين بهذا جلالة الرسول الله صلى الله عليه وسلّم وتعظيم أمره وما شرع الله تعالى على لسانه من الشرائع ، وتنبيهه عباده على وحدانيته ، ودعائه إلى الإيمان به ، وعرفت جلالة نبوته ورسالته بالقسم الواقع على حياته ، إذ هو أعز البرية وأكرم الخليقة صلى الله عليه وسلّم .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ 36 : 1 - 2 [1] قال : هو قسم وهو من أسماء الله . وعن كعب يس 36 : 1 [1] قسم أقسم الله به قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام يا محمد إنك لمن المرسلين ، ثم قال : وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ 36 : 2 - 3 [2] ، قال القاضي عياض : ومؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه ، وإن كان بمعنى النداء ، فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته ، أقسم الله تعالى باسمه ، وكتي به أنه من المرسلين بوحيه إلى عباده ، وعلى صراط مستقيم من إيمانه ، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق .

وقال النقاش : لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له صلى الله عليه

وسلّم[3] .

---

[1]يس : 1 – 2 .

[2]يس : 2 ، 3 .

[3] (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) : 1/ 26 .



---

وأما تفرده بالسيادة يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسل وأن آدم ومن دونه تحت لوائه قال تعالى : يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ 36 : 1 – 2 [1] ، روي عن جعفر بن محمد أنه قال : أراد الله (يا سيد ) مخاطبة لنبيه محمد صلى الله عليه وسلّم .

فخرج مسلم من حديث الأوزاعي قال : حدثني أبو عمار قال : حدثني عبد الله بن فروخ قال : حدثني أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم . أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع . وخرج الترمذي من حديث سفيان عن ابن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ [من ] ، آدم فمن تحته إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه

الأرض ولا فخر . . . الحديث . قال : أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن أبي نضرة عن ابن عباس . .

الحديث بطوله [2] .

وله من حديث عبد السلام بن حرب عن ليث عن الربيع بن أنس عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا يأسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

وخرج بقي بن مخلد من حديث سفيان عن كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : فضلت بخصال ست لا أقولهن فخرا ، لم يعطهنّ أحد قبلي : غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأخرجت لي

---

[1] يس : 1 ، 2 .

[2] سبق تخريج وشرح هذه الأحاديث ونحوها وشواهدها .

خير الأمم ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الكوثر ، ونصرت بالرعب . والّذي نفسي بيده إن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة ، تحته آدم فمن دونه [1] . وخرج أبو نعيم من حديث معمر بن راشد عن محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب عن بشر بن شغاف ، عن عبد الله بن سلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأول من تنشق الأرض عنه ولا فخر ، وأول شافع ومشفع ، لواء الحمد بيدي يوم القيامة ، تحتى آدم فمن دونه [1] . وله من حديث أبي معمر إسماعيل بن إبراهيم القطيعي قال : أنبأنا عبد الله ابن جعفر عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا صاحب لواء الحمد بيدي ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر ، آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي فيستقبلني وجه الجبار تعالى فأخرّ له ساجدا فيقول :
يا محمد ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : رب أمتي [2] .

---

[1] سبق تخريج وشرح هذه الأحاديث ونحوها وشواهدها .

[2] أخرجه البيهقي في (الدلائل) : 5/ 479 - 480 ، باب ما جاء في تحدّث رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنعمة ربه عزّ وجلّ لقوله تعالى : وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ 93 : 11 ، وما جاء في خصائصه صلى الله عليه وسلّم على طريق الاختصار : أخبرنا أبو

عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا ليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن أنس قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول : «إني أول الناس تنشق الأرض عن جبهتي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وأنا آتي باب الجنة فآخذ بحلقيها فيقولون : من هذا ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتحون لي ، فأجد الجبّار فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك يا محمد ، وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول : أمّتي ، أمّتي يا رب ، فيقول : اذهب إلى أمتك ، فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة» .

وذكر الحديث فيمن كان في قلبه نصف حبّه من شعير ، ثم حبّة من خردل ، ثم في إخراج كل من كان يعبد الله لا يشرك به شيئًا .

وزاد الإمام أحمد في (المسند) : 4/ 610 : «وفرغ الله من حساب الناس وأدخل من بقي من أمتي النار مع أهل النار ، فيقول أهل النار : ما أغنى عنكم أنكم كنتم تعبدون الله عزّ وجلّ لا تشركون به شيئًا» ، فيقول الجبار عزّ وجلّ : فبعزتي لأعتقنهم من النار ، فيرسل إليهم فيخرجون وقد

وله من حديث ليث بن أبي سليم عن أبي إسحاق عن صلة عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلّم ، قال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، يدعوني ربي فأقول : لبيك وسعديك [تباركت لبيك] [1] وحنانيك ، [والمهدي] [2] من هديت وعبدك بين يديك ، [لا ملجأ ولا منجأ] [3] منك إلا إليك ، تباركت رب البيت [4] . [قال : وإن قذف المحصنة ليهدم عمل مائة سنة] [5] . ومن حديث خديج عن أبي إسحاق عن صلة ، عن حذيفة قال : قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إبراهيم خليل الله ، وموسى كلمه الله تكليما ، وعيسى كلمة الله وروحه ، فما أعطيت يا رسول الله ؟ قال : ولد آدم كلهم تحت رايتي ، فأنا أول من يفتح له باب الجنة . ومن حديث سلام بن سليم عن عبد الله بن غالب عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد الناس يوم القيامة [6] . وفي رواية روح بن مسافر عن أبي إسحاق

---

[()] امتحشوا ، فيدخلون في نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في غثاء السيل ، ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الله عزّ وجلّ ، فيذهب بهم فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار :

بل هؤلاء عتقاء الجبار عزّ وجلّ» حديث رقم (12060) .

[1] تكملة من (المستدرك) .

[2] في (خ) : «والهادي» والتصويب من المرجع السابق .

[3] في (خ) : «لا منجا ولا ملجأ» والتصويب من المرجع السابق .

[4] أخرجه الحاكم في (المستدرك) : 4/ 618 ، حديث رقم (8712/ 37) ، وقال في آخره : «وقد أخرجه له مسلم شاهدا» ، وقال الذهبي في (التلخيص) : «قد استشهد مسلم بليث بن أبي سليم .

[5] ما بين الحاصرتين تكملة من (المستدرك) .

[6] أخرجه الحاكم في (المستدرك) : 1/ 83 ، حديث رقم (82/ 82) من كتاب الإيمان ، وهذا الحديث يشهد لكثير من أحاديث الباب التي لم نقف لها على تخريج ولفظه : «أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار ، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا فضيل بن سليمان ، حدثنا موسى بن عقبة ، حدثني إسحاق بن يحيى ، عن عبادة بن الصامت قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ، ما من أحد إلا وهو تحت لوائي يوم القيامة ينتظر الفرج ، وإن معي لواء الحمد ، أنا أمشي ويمشي الناس معي ، حتى آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقال من هذا ؟ فأقول محمد ، فيقال : مرحبا بمحمد ، فإذا رأيت ربي خررت له ساجدا انظر إليه» . قال الحاكم : هذا حديث كبير في

الصفات والرؤية ، على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الذهبي في (التلخيص) على شرطهما ولم يخرجاه .

ونحوه في (دلائل البيهقي) : 5/ 479 - 480 ، ونحوه أيضا في (المسند) : 3/ 609 ، حديث رقم (12060) .

*(291/428)*

---

أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . وفي رواية زكريا بن عدي قال : حدثنا سلام عن أبي إسحاق عن عبد الله عن حذيفة قال : محمد سيد الناس يوم القيامة .

وله من حديث عبد الأعلى قال : حدثنا سعد عن قتادة عن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، [وأنا] [1] أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع ، ولواء الحمد معي ، تحته آدم ومن دونه ومن بعده من المؤمنين [2] . وفي رواية يعلى بن الفضل قال : حدثنا زياد بن ميمون عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ، فأخرج من قبري وحولي المهاجرون والأنصار ، ينفضون التراب عن رءوسهم ، وأنا أول شافع وأول مشفع ، ولا تزال لي دعوة عند ربي مستجابة ، وأنا لكم عند النفخة الثانية [3] . وفي رواية منصور بن أبي مزاحم

قال : حدثنا أبو سعيد المؤدب عن زياد النميري عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر ، ولواء الحمد بيدي ولا فخر [4] . وفي رواية عبد العزيز بن أبي حازم قال : حدثنا سهيل بن أبي صالح عن زياد النميري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : أنا أول من تنفلق الأرض عن جمجمته ولا فخر ، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ، ومعي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تفتح له أبواب الجنة ولا فخر ، فأتي فآخذ بحلقة باب الجنة

---

[1] تكملة من رواية أبي نعيم .

[2] (دلائل أبي نعيم) : 1/ 64 ، حديث رقم (23) ، وأخرجه أيضا الترمذي من حديث أبي سعيد الخدريّ ، حديث رقم (3148) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة في (الزهد) ، باب ذكر الشفاعة مختصرا ، والإمام أحمد في (المسند) : 1/ 463 ، حديث رقم (2542) ، (2687) ، وقال أحمد محمد شاكر : إسناده صحيح ، وقال في (مجمع الزوائد) : 10/ 372 :

فيه على بن زيد وقد وثق على ضعفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

وأخرجه البيهقي في (الدلائل) : 5/ 481 ، ضمن حديث طويل أوله : «ما من نبي إلا وله دعوة تنجّزها في الدنيا ، وإني ادّخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . .» وذكر

الحديث بنحوه وزيادة .

[3] لم أجده بهذه السياقة ، وسيأتي الكلام على النفختين بعد قليل .

[4] سبق الإشارة إليه .

(292/428)

---

فيقال : من هذا ؟ فأقول : محمد ، فيفتح ، فيستقبلني الجبار تعالى ، فأخر له ساجدا فيقول : يا محمد ، قل تسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه [1] . وفي رواية منصور بن أبي الأسود عن ليث عن الربيع بن أنس عن أنس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أولهم خروجا إذا بعثوا ، وقائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شافعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الكرامة ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ، يطوف عليّ ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور [2] . وفي رواية حبان بن علي عن ليث عن عبيد الله بن زحر ، عن الربيع بن أنس عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه القبور يوم القيامة ولا فخر ، لواء الحمد بيدي ولا فخر ، مفاتيح الجنة يومئذ بيدي ولا فخر ، آدم ومن دونه من النبيين تحت لوائي يوم القيامة

ولا فخر ، يطوف عليّ ألف خادم كأنهن بيض مكنون [2] . وفي رواية جرير والثوري وزائدة ، عن [المختار] [3] بن فلفل عن أنس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول من يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا [4] . وفي رواية الحميدي وسفيان بن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان عن أنس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيفتحها الله [5] . وفي رواية خلف بن هشام قال : أخبرنا عيسى بن ميمون عن عسل

---

[1] في (دلائل البيهقي) : 5/ 479 ، باختلاف يسير ، وفيه : «عن جبهتي يوم القيامة ولا فخر» .

[2] (المرجع السابق) : 84 بنحوه ، (دلائل أبي نعيم) : 1/ 64 ، حديث رقم (24) وفيه : «الكرامة ومفاتيح الجنة ولواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف عليّ ألف خادم كأنهن بيض مكنون أو لؤلؤ منثور» . والبيض المكنون : المستور عن الأعين . ولفظهما فيه متقارب .

[3] في (خ) : «المختال» ، والتصويب من صحيح مسلم .

[4] (مسلم بشرح النووي) : 3/ 72 ، حديث رقم (330) من كتاب الإيمان ، باب (85) في قول النبي صلى الله عليه وسلّم «أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا» .

[5] (مسند الحميدي) : 2/ 506 - 507 ، حديث رقم (1204) . وأخرجه أيضا الترمذي في آخر حديث الشفاعة ، حديث رقم (3148) وقال في آخره : قال سفيان : ليس عن أنس إلا هذه الكلمة :

«فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها» ، قال أبو عيس : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى

*(293/428)*

---

ابن سفيان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا مبشرهم إذا [أبلسوا] [1] ، لواء [الكرامة] [1] يومئذ بيدي ، يطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون . وله من طريق أبي داود الطيالسي وسليمان بن حرب قالا : حدثنا حماد ابن سلمة ، حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة قال : خطبنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ألا إني سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه ولا فخر . ورواه هشيم عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع ولا فخر ، وإن لواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر [2] . ورواه سفيان بن عيينة عن ابن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، بيدي لواء الحمد ولا فخر [2] . وله من حديث زمعة بن صالح عن سلمة بن وهران عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فيفتحها الله لي ، وأنا سيد الأولين والآخرين من النبيين ولا فخر . وله عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم ينظرون ، فخرج حتى دنا منهم ، فسمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا ! إن الله اتخذ من خلقه خليلا ، وقال آخر : ما ذا بأعجب من كلامه موسى تكليما ، وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم

---

[ ()] بعضهم هذا الحديث عن أبي نضرة عن ابن عباس الحديث بطوله .

والقعقعة : حكاية حركة لشيء يسمع له صوت (لسان العرب) : 8/ 286 .

[1] سيأتي شرحه بعد قليل ، وفي (خ) : «بلسوا» ، «الكرم» .

[2] سبق الإشارة إليه .

فسلّم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم أن الله اتخذ إبراهيم خليلا ، وهو كذلك ، وموسى نجيّ الله ، وهو كذلك ، وعيسى كلمته وروحه ، وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة وتحته آدم ومن دونه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق [باب ] [1] الجنة فيفتح الله لي ، فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، [و] [1] أنا أكرم الأولين والآخرين على الله عز وجل ولا فخر . ورواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أرسلت إلى الجن والإنس ، [وإلى ] [2] كل أحمر وأسود ، وأحلت لي الغنائم دون الأنبياء ، وجعلت لي الأرض كلها طهورا ومسجدا ، ونصرت بالرعب أمامي شهرا ، وأعطيت خواتيم سورة البقرة [3] وكانت من كنوز العرش ، وخصصت بها دون الأنبياء ، وأعطيت المثاني [4] مكان التوراة ، [و المئين ] [5] مكان الإنجيل ، والحواميم [6] مكان الزبور ، وفضلت بالمفصّل ، فأنا سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق الأرض عني وعن أمتي ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ، آدم وجميع الأنبياء من ولد آدم تحته ولا فخر ، وإليّ مفاتيح

الجنة يوم القيامة ولا فخر، وبي تفتح الشفاعة يوم القيامة ولا فخر، وأنا سابق [7] الخلق

---

[1] زيادة للسياق، وأخرج الحاكم نحوه مختصرا في (المستدرك) : 2/ 629 حديث رقم (4098/ 107) .

[2] زيادة من (دلائل أبي نعيم) .

[3] وهي من قوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ 2: 285 حتى آخر السورة [من الآية 285 حتى الآية 286] .

[4] المثاني: سورة الفاتحة، وسميت بالمثاني لأنها تثنى وتقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة. قال تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ 15: 87 [87: الحجر] .

[5] كذا في (خ) ، وفي رواية البيهقي في (الدلائل) ، لكن في رواية أبي نعيم في (الدلائل) : «و المائدة مكان الإنجيل» ، أي سورة المائدة. والمئين: أي السور التي أولها ما يلي سورة الكهف لزيادة كل منها على مائة آية.

[6] الحواميم: السور التي أولها حم 40: 1 وهي سبع سور: [1] سورة غافر، [2] سورة فصلت، [3] سورة الشورى، [4] سورة الزخرف، [5] سورة الدخان، [6] سورة الجاثية، [7] سورة الأحقاف.

[7] في (خ) : «سابق» ، وهي رواية السيوطي في (الخصائص) .

إلى الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أمامهم وأمتى بالأثر [1] . وفي رواية مردان بن معاوية عن يحيى اللخمي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : لواء الحمد بيدي يوم القيامة ، وأقرب الناس من لوائي العرب . وله من حديث ابن لهيعة عن جعفر بن ربيعة عن صالح بن عطاء ، عن عطاء عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : أنا قائد المسلمين ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ولا فخر ، وأنا شافع ومشفع ولا فخر . وله من حديث شريح بن النعمان قال : حدثنا عبد الله بن نافع عن عاصم ابن عمر ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ، عن سالم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول من تنشق الأرض عنه ثم أبو بكر ثم عمر ، ثم يأتي أهل البقيع فيحشرون معي ، ثم أنتظر أهل مكة فأحشر بين الحرمين [2].

---

[1] (دلائل أبي نعيم) : 1/ 65 ، حديث رقم (25) من الفصل الرابع : ذكر الفضيلة الرابعة بإقسام الله بحياته ، وتفرده بالسيادة لولد آدم في القيامة ، وما فضل هو وأمته على سائر الأنبياء وجميع الأمم صلى الله عليه وسلّم ، وقال فيه : «وأنا سائق الخلق . . . » .

و(دلائل البيهقي) : 5/ 475 ، في باب ما جاء في تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلّم بنعمة ربه عزّ وجلّ لقوله تعالى : وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ 93 : 11 ، وما جاء في خصائصه على طريق الاختصار : أخبرنا أبو بكر بن فورك ، أنبأنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن أبي المليح ، عن واثلة بن الأسقع قال : قال النبي صلى الله عليه وسلّم : «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، ومكان الزبور المئين ، ومكان الإنجيل المثاني ، وفضّلت بالمفصل» .

والسبع الطوال : من البقرة إلى براءة (التوبة) . والمفصّل : من أول سورة الحجرات حتى آخر القرآن الكريم .

والحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، وأشار إليه السيوطي بالحسن .

[2] (المستدرك) : 2/ 505 ، حديث رقم (3732/ 869) : بدون قوله : «فأحشر بين الحرمين» ، وزاد في رواية (المستدرك) : «و تلا عبد الله بن عمر : يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ 50 : 44 [ق : 44] قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ذكره في باب (50) تفسير سورة ق من كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين . و(دلائل أبي نعيم) : 1/ 66 حديث رقم (26) بمثله سواء .

وله من حديث حماد بن شعيب وزائدة وإسرائيل ، كلهم عن عاصم عن زر ابن حبيش عن عبد الله قال : إن الله اتخذ إبراهيم خليلا ، وإن صاحبكم خليل الله ، وإن محمدا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ثم قرأ : عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 [1] .

ورواه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله قال : إن الله اتخذ إبراهيم خليلا ، وإن صاحبكم خليل الله ، وإن نبي الله أكرم الخلائق على الله يوم القيامة ، ثم قرأ : عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 [2] .

وله من حديث كثير بن زيد عن الوليد بن رباح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : والّذي نفسي بيده إن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة ، تحته آدم فمن دونه [3] . وفي رواية سعيد بن رافع عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا سيد الخلائق يوم القيامة في اثنى عشر نبيا ، منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

---

[1] ونحوه باختلاف يسير بدون ذكر الآية في (المستدرك) : 2/ 550 ، حديث رقم (4018/ 27) ، ذكره في باب ذكر إبراهيم النبي صلى الله عليه وسلّم خليل الله عزّ وجلّ ، وبينه وبين نوح هود وصالح صلوات الله عليهما ، من كتاب تواريخ المتقدمين من

الأنبياء والمرسلين، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ونحوه في (المستدرك): 1/ 652، 653، الأحاديث أرقام (3741)، (3742)، (3743)، (3744) بسياقات متقاربة.

[2] أخرجه البيهقي في (الدلائل): 5/ 485، وقال فيه: «وأن محمدا صلى الله عليه وسلّم أكرم الخلاق على الله..»، والآية رقم 79: الإسراء.

[3] ونحوه بدون قوله: «فمن بعده المؤمنين»، وقال فيه: «ومن دونه»، في (دلائل أبي نعيم):

1/ 64، حديث رقم (23)، بدون الآية.

ورواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدريّ في (الجامع الصحيح)، حديث رقم (3148)، وقال: حديث حسن صحيح، (سنن الترمذي): 5/ 288، كتاب (48) باب (18). ورواه الإمام أحمد في (المسند) من حديث ابن عباس في الشفاعة، ورواه ابن ماجة في (السنن):

2/ 1440، كتاب الزهد، باب (37) ذكر الشفاعة، حديث رقم (4308).

والترمذي أيضا في المناقب، حديث (3615)، قال أبو عيسى: وفي الحديث قصة، وهذا حديث حسن صحيح، وقد روي بهذا الإسناد عن أبي نضرة، عن ابن عباس.

وفي رواية بديل بن المحبّر قال : حدثنا عبد السلام بن عجلان قال : سمعت أبا يزيد المدني يحدث عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأنا بيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأول شخص يدخل عليّ الجنة : فاطمة بنت محمد ، ومثلها في هذه الأمة مثل مريم في بني إسرائيل [1] . ورواه يعقوب الحضرميّ عن عبد السلام عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر ، وأول من تنشق الأرض عن هامته ولا فخر ، وأنا أول مشفع ولا فخر ، لواء الحمد بيدي يوم القيامة ، حرم الله الجنة على كل آدمي يدخلها قبلي [2] . وله من حديث زكريا بن أبي زائدة عن عامر الشعبي عن أبي هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إني أول من يرفع [رأسه ] [3] بعد النفخة الأخيرة ، فإذا موسى متعلق بالعرش فلا أدري أكذاك كان أو بعد النفخة [4] ؟ . ومن حديث شعيب عن الزهري قال : حدثني أبو سلمة وسعيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق .

[1] (دلائل أبي نعيم) : 1/ 66 ، حديث رقم (27) . وأخرجه الترمذي بسند آخر وقال : حديث غريب . وتوقف غيره في الاحتجاج به ثم قال : عن بديل بن المحبر ، عن عبد السلام بن عجلان ، عن أبي يزيد المدني ، عن أبي هريرة . . . ، فذكره ، ثم قال : أخرجه أبو صالح المؤذن في مناقب فاطمة عليها السلام .

[2] وفي (صحيح مسلم بشرح النووي) : 3/ 73 - 74 ، كتاب الإيمان ، باب (85) في قول النبي صلى الله عليه وسلّم : «أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا» ، حديث رقم (333) ، حدثني عمرو الناقد ، وزهير بن حرب قالا : حدّثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك .

وأخرجه البيهقي في (الدلائل) من حديث أنس بمثله سواء . (دلائل النبوة للبيهقي) : 5/ 480 .

[3] زيادة للسياق .

[4] أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب (43) النفخ في الصور ، قال مجاهد : الصور كهيئة البوق ، زجرة : صيحة ، وقال ابن عباس : الناقور الصور ، الراجفة : النفخة الأولى

، والرادفة: النفخة الثانية، حديث رقم (6517): حدثني عبد العزيز بن عبد الله قال

: حدّثني إبراهيم بن سعد عن



---

[ ()] ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن الأعرج أنهما حدّثاه أن أبا هريرة قال: «استبّ رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والّذي اصطفى محمدا على العالمين، فقال اليهودي: والّذي اصطفى موسى على العالمين. قال: فغضب المسلم عند ذلك، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهوديّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: لا تخيّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله عزّ وجلّ». وحديث رقم (6518): حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلّم: «يصعق الناس حين يصعقون، فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق». رواه أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلّم. قوله:

«باب نفخ الصور» تكرر ذكره في القرآن الكريم، في الأنعام، والمؤمنين، والنمل، والزمر، وق، وغيرها، وهو بضم المهملة وسكون الواو، وثبت كذلك في القراءات المشهورة والأحاديث، وذكر عن الحسن البصري أنه قرأها بفتح الواو، جمع صورة، وتأوله على أن المراد النفخ في الأجساد لتعاد إليها الأرواح.

وقال أبو عبيدة في (المجاز): يقال: الصور - يعني بسكون الواو - جمع صورة، كما يقال: سور المدينة جمع سورة، قال الشاعر:

[فلما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة] فيستوي معنى القراءتين.

وحكى مثله الطبري عن قوم وزاد: كالصوف جمع صوفة، قالوا: والمراد النفخ في الصّور وهي الأجساد لتعاد فيها الأرواح، كما قال تعالى: وَنَفَخْتُ فِيهِ من رُوحِي 15 : 29، وتعقب قوله: «جمع»، بأن هذه أسماء أجناس لا جموع، وبالغ النحاس وغيره في الردّ على التأويل، وقال الأزهري: إنه خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة.

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): وقد أخرج أبو الشيخ في (كتاب العظمة)، من طريق وهب بن منبه من قوله قال: خلق الله الصور من لؤلؤ بيضاء في صفاء الزجاجة، ثم قال للعرش:

خذ الصور فتعلق به، ثم قال: كن، وكان إسرافيل، فأمره أن يأخذ الصور، فأخذه وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة، ونفس منفوسة، فذكر الحديث وفيه: «ثم تجمع الأرواح كلها

في الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه ، فتدخل كل روح في جسدها » ، فعلى هذا فالنفخ يقع في الصور أولا ، ليصل النفخ بالروح إلى الصور ، وهي الأجساد ، فإضافة النفخ إلى الصور الّذي هو القرن ، حقيقة ، وإلى الصّور التي هي الأجساد ، مجاز .

قوله : «قال مجاهد : الصور كهيئة البوق» ، وصله الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال في قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ 18 : 99 ، قال كهيئة البوق ، وقال صاحب الصحاح : البوق الّذي يزمر به ، وهو معروف ، ويقال للباطل ، يعني يطلق ذلك عليه مجازا ، لكونه من جنس الباطل .

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : لا يلزم من كون الشيء مذموما أن لا يشبه به

*(299/428)*

---

وفي رواية محمد بن يوسف الفرياني قال : حدثنا سفيان عن عمر بن يحيى عن أبيه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إن الناس يصعقون [يوم القيامة] [1] فأكون أول من يفيق [2] .

---

[ () ] الممدوح ، فقد وقع تشبيه صوت الوحي بصلصلة الجرس ، مع النهي عن استصحاب الجرس ، كما تقدم تقريره في بدء الوحي .

قوله : «قال ابن عباس : الناقور الصور» ، وصله الطبري وابن أبي حاتم من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ 74 : 8 قال : الصور ، ومعنى نقر نفخ ، قاله في الأساس . وأخرج البيهقي من طريق أخرى عن ابن عباس في قوله تعالى : فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ 74 : 8 ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن» ؟ وللحاكم بسند حسن ، عن يزيد بن الأصم ، عن أبي هريرة رفعه «إن طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان درّيان» . قوله : «الراجفة النفخة الأولى ، والرادفة النفخة الثانية» ، هو من تفسير ابن عباس ، وصله الطبري وابن أبي حاتم بالسند المذكور ، وقد تقدم بيانه في تفسير سورة النازعات ، فليراجع هناك .

وإذا تقرر أن النفخة للخروج من القبور فكيف تسمعها الموتى ؟ والجواب : يجوز أن تكون نفخة البعث تطول إلى أن يتكامل إحياؤهم شيئا بعد شيء ، وتقدم الإلمام في قصة موسى مما ورد في تعيين من استثنى الله تعالى في قوله تعالى : فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ 39 : 68 ، وحاصل ما جاء في ذلك عشرة أقوال ذكرهم الحافظ ابن حجر في (الفتح) : 11/ 451 باب (43) من كتاب الرقاق فليراجع هناك .

[1] ما بين الحاصرتين تكملة من (دلائل أبي نعيم) .

[2] (دلائل أبي نعيم) : 1/ 67 ، حديث رقم (28) . وخرّج البخاري ومسلم من

حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، قال: «جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلّم قد لطم وجهه، فقال: يا محمد! إن رجلا من الأنصار من أصحابك لطم وجهي، فقال: ادعوه، فدعوه، فقال: لم لطمت وجهه؟

قال: يا رسول الله، إني مررت باليهودي، فسمعته يقول: والّذي اصطفى موسى على البشر، فقلت:

وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة، فلطمته، فقال: لا تخيّروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري: أفاق قبلي، أو جوزي بصعقة الطور».

وفي رواية: «فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش...» وذكر نحوه.

رواه البخاري في (الخصومات)، باب ما يذكر من الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهودي، وفي (الأنبياء)، باب قول الله تعالى: وَوٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ 7: 142، وفي تفسير سورة الأعراف، باب وَلَمّٰا جٰاءَ مُوسىٰ لِمِيقٰاتِنٰا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قٰالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ 7: 143، وفي (الديات)، باب إذا لطم المسلم يهوديا عند الغضب، وفي (التوحيد)، باب وكان عرشه على الماء وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ 9: 129. ورواه مسلم في (الفضائل)، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلّم.

وله من حديث يحيى الحماقي وحبان بن موسى قالا : حدثنا عبد الله بن المبارك ، أنبأنا حبان [عن] يحيى بن سعيد التيمي قال : حدثني أبو زرعة عن أبي هريرة قال : أتي رسول الله صلى الله عليه وسلّم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة . رواه مسلم [1] . وفي رواية عثمان بن أبي شيبة قال : حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : وضعت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلّم قصعة من ثريد فتناول الذراع – وكانت أحب الشاة إليه – فنهس نهسة ثم قال : أنا سيد [الناس] [2] يوم القيامة [3] . ولأبي نعيم من حديث يحيى الحماني ، حدثنا شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبي كعب عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الناس يوم القيامة وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر [4] . وله من حديث عبيد الله بن عمرو عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : إذا كان يوم القيامة كان لواء الحمد بيدي ، وكنت إمام المرسلين وصاحب شفاعتهم [5] .

---

[1] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب (84) ، حديث رقم (327) وهو حديث الشفاعة كاملا ، والبيهقي في (الدلائل) : 5/ 476 .

قوله : «فنهس منها نهسة» ، هو بالسين المهملة . قال القاضي عياض : أكثر الرواة رووه بالمهملة ، ووقع لابن ماهان بالمعجمة وكلاهما صحيح ، بمعنى أخذ بأطراف أسنانه . قال الهروي : قال ابن عباس :

النهس بالمهملة بأطراف الأسنان ، وبالمعجمة الأضراس .

قوله صلّى الله عليه وسلّم : «أنا سيد الناس يوم القيامة» ، إنما قال هذا صلّى الله عليه وسلّم تحدثا بنعمة الله تعالى ، وقد أمره الله تعالى بهذا ، ونصيحة لنا بتعريفنا حقه صلّى الله عليه وسلّم ، قال القاضي عياض : السيد الّذي يفوق قومه ، والّذي يفزع إليه في الشدائد ، والنبي صلّى الله عليه وسلّم سيدهم في الدنيا والآخرة ، وإنما خصّ يوم القيامة لارتفاع السؤدد فيه ، وتسليم جميعهم له ، ولكون آدم وجميع أولاده تحت لوائه صلّى الله عليه وسلّم (مسلم بشرح النووي) : 3/ 66 - 67 .

[2] ما بين الحاصرتين في (خ) : «سيد ولد آدم» وما أثبتناه من (صحيح مسلم) .

[3] (صحيح مسلم بشرح النووي) : 3/ 69 ، كتاب الإيمان باب (84) ، حديث رقم (328) .

[4] أخرجه البيهقي في (الدلائل) : 5/ 481 ، والترمذي في (المناقب) باب (1) في

فضل النبي صلى الله عليه وسلّم ، حديث رقم (3613) ، وقال : هذا حديث حسن .

[5] سبق الإشارة إليه .



---

وله من حديث أبي عوانة عن أبي بشير ، عن سعيد عن جابر عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلّم فقال : أنا سيد ولد آدم . وله من حديث أحمد بن أبي ظبية عن أبيه عن عبد الله بن جابر عن عطاء عن أم كرز أنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلّم يقول : أنا سيد المؤمنين إذا بعثوا ، وسابقهم [1] إذا وردوا ، ومبشرهم إذا أبلسوا [2] ، وإمامهم إذا سجدوا ، وأقربهم مجلسا من الرب تعالى إذا اجتمعوا ، [أقوم] [3] ، فأتكلم فيصدّقني ، وأشفع فيشفّعني ، وأسأل فيعطيني [4] .

وله من حديث الحرث بن أسامة قال : حدثنا عبد العزيز بن أبان ، حدثنا إسرائيل عن آدم بن علي قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول : تصير الأمم يوم القيامة تجيء كل أمة نبيها فيرقاهم على كوم فيقول : يا فلان اشفع ، فيردها بعضهم إلى بعض حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فهو المقام المحمود الّذي قال الله تعالى عنه : عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 [5] .

---

[1] كذا في (خ) : وفي (الخصائص) : 3/ 222 ، وفي (دلائل أبي نعيم) : «وسائقهم» .

[2] أبلسوا : أسكتوا من الحزن ، ومنه إبليس لعنه الله ، وفي التنزيل : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ 30 : 12 ، حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ 6 : 44 ، حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ 23 : 77 ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ 43 : 75 ، وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ 30 : 49 [الروم : 12] ، [الأنعام : 44] ، [المؤمنون : 77] ، [الزخرف : 75] ، [الروم : 49] على الترتيب .

[3] في (خ) : «أقول» ، وما أثبتناه من رواية أبي نعيم .

[4] أخرجه أبو نعيم في (دلائل النبوة) : 1/ 67 ، الفصل الرابع ، ذكر الفضيلة الرابعة بإقسام الله تعالى بحياته ، وتفرده بالسيادة لولد آدم في القيامة ، وما فضّل به هو وأمته على سائر الأنبياء وجميع الأمم صلى الله عليه وسلّم ، حديث رقم (29) . وقال السيوطي في (الخصائص) : 3/ 222 «أخرجه أبو نعيم عن أم كرز» .

[5] الإسراء : 79 ، وعسى ، مدلولها في المحبوبات الترجي ، فقيل : هي على بابها في الترجي تقديره لتكن على رجا من أن يَبْعَثَكَ 17 : 79 . وقيل هي بمعنى كي ، وينبغي أن يكون هذا تفسير معنى .

والأجود أن هذه الترجية والإطماع بمعنى الوجود من الله تعالى ، وهو متعلق من حيث

المعنى بقوله :

فَتَهَجَّدْ 17 : 79 . وعسى هنا تامة ، وفاعلها أَنْ يَبْعَثَكَ 17 : 79 ، وربك فاعل يبعثك ، ومقاما الظاهر أنه معمول ليبعثك ، هو مصدر من غير لفظ الفعل ، لأن يبعثك بمعنى يقيمك ، تقول : أقيم من قبره ، وبعث من قبره . وقال ابن عطية : منصوب على الظرف أي في مقام



---

[()] محمود . وقيل : منصوب على الحال ، أي ذا مقام محمود . وقيل : هو مصدر لفعل محذوف ، التقدير فتقوم مقاما ، ولا يجوز أن تكون عسى هنا ناقصة ، وتقدم الخبر على الاسم فيكون ربك مرفوعا اسم عسى وأَنْ يَبْعَثَكَ 17 : 79 الخبر في موضع نصب بها ، إلا في هذا الإعراب الأخير .

وفي تفسير المقام المحمود أقوال :

أحدها : أنه في أمر الشفاعة التي يتدافعها الأنبياء حتى تنتهي إليه صلى الله عليه وسلّم ، والحديث في الصحيح ، وهي عدة من الله تعالى له صلى الله عليه وسلّم ، وفي هذه الشفاعة يحمده أهل الجمع كلهم ، في دعائه المشهور :

«وابعثه المقام المحمود الّذي وعدته» واتفقوا على أن المراد منه الشفاعة .

الثاني : أنه في أمر شفاعته لأمّته في إخراجه لمذنبهم من النار ، وهذه الشفاعة لا تكون إلا بعد الحساب ودخول الجنة ودخول النار ، وهذه لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء . وقد روي حديث الشفاعة وفي آخره : «حتى لا يبقى في النار إلا من حبسه القرآن» ، أي وجب عليه الخلود .

قال : ثم تلا هذه الآية عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 . وعن أبي هريرة أنه عليه السلام قال : «المقام المحمود هو المقام الّذي أشفع فيه لأمتي» فظاهر هذا الكلام تخصيص شفاعته لأمته ، وقد تأوله من حمل ذلك على الشفاعة العظمى ، التي يحمده بسببها الخلق كلهم ، على أن المراد لأمته وغيرهم ، أو يقال : إن كل مقام منها محمود .

الثالث : عن حذيفة : يجمع الله الناس في صعيد فلا تتكلم نفس ، فأول مدعوّ محمد صلى الله عليه وسلّم ، فيقول :

لبيك وسعديك والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا منجأ ولا ملجأ إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت . قال : فهذا قوله تعالى : عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 .

الرابع : قال الزمخشريّ : معنى المقام المحمود المقام الّذي يحمده القائم فيه ، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات (أ . ه) ، وهو قول حسن

ولذلك نكّر مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 ، فلم يتناول مقاما مخصوصا ، بل كل مقام محمود صدق عليه إطلاق اللفظ .

الخامس : ما قالت فرقة – منها مجاهد – وقد روي أيضا عن ابن عباس أن المقام المحمود هو أن يجلسه الله تعالى معه على العرش . وذكر الطبري في ذلك حديثا ، وذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال : من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم ، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا . قال ابن عطية :

يعني من أنكر جوازه على تأويله . وقال أبو عمر ومجاهد : إن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم هذا أحدهما ، والثاني تأويل إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ 75 : 23 [22 : القيامة] ، قال تنتظر الثواب ليس من النظر ، وقد يؤوّل قوله معه على رفع محله وتشريفه على خلقه كقوله : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ 7 : 206 [206 : الأعراف ] ، وقوله : ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً 66 : 11 [11 : التحريم ] ، وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ 29 : 69 [69 : العنكبوت ] ، كل ذلك كناية عن المكانة لا عن المكان .

وقال الواحدي : هذا القول مروي عن ابن عباس وهو قول رذل ، موحش ، فظيع ، لا يصح مثله عن ابن عباس ، ونصّ الكتاب ينادي بفساده من وجوه : . . .

ورواه البخاري من حديث أبي الأحوص عن آدم ، وله من حديث أبي نعيم قال : حدثنا داود بن يزيد الأودي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلّم في قوله تعالى عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً 17 : 79 قال : الشفاعة [1] .

ورواه إدريس الأودي عن أبيه مثله ، قال الحافظ أبو نعيم : أحمد . وفيه عن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وكعب بن مالك وجابر وأبي سعيد وعبد الله بن عمرو بن العاص في المقام المحمود [1] .

ورواه الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن رجل من أهل العلم عن النبي صلى الله عليه وسلّم في المقام المحمود [1] . واعلم أن كل من خبرك عن نفسه بأمر يحتاج إلى علمه لو إخباره ما عرفته ، فليس يقبح ذكره وإن اتصل بمدحه ، ولهذه العلة مدحت الأنبياء عليهم السلام أنفسها مع تواضعها .

وخرج الحاكم من حديث إسحاق بن إبراهيم ، أنبأنا يزيد بن أبي حكيم ، حدثنا الحكم بن أبان قال : سمعت عكرمة يقول : قال ابن عباس [رضي الله عنهما] [2] :

إن الله فضل محمدا على أهل السماء وفضله على أهل الأرض قالوا : [يا ابن عباس] [2]

:

---

[()] الأول : أن البعث ضد الإجلاس ، بعث التارك ، وبعث الله الميت أقامه من قبره ، فتفسير البعث بالإجلاس تفسير الضد بالضد .

الثاني : لو كان جالسا – تعالى – على العرش لكان محدودا متناهيا ، فكان يكون محدثا .

الثالث : أنه قال : مقاما ولم يقل مقعدا محمودا ، والمقام موضع القيام لا موضع القعود .

الرابع : أن الحمقى والجهال يقولون : إن أهل الجنة يجلسون كلهم معه تعالى ويسألهم عن أحوالهم الدنيوية ، فلا مزّية له بإجلاسه معه ! الخامس : إذا قيل : بعث السلطان فلانا ، لا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه . (البحر المحيط) :

7/ 100 – 102 ، تفسير سورة الإسراء .

[1] أخرجه البيهقي في (الدلائل) : 5/ 484 ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ، تفسير سورة الإسراء ، حديث رقم (3137) 5/ 283 وقال : هذا حديث حسن .

[2] زيادة للسياق من (المستدرك) .



---

فبم [1] فضله على أهل السماء ؟ قال : قال الله تعالى : وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ من دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ 21 : 29 [2] ، وقال لمحمد : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ

فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ 48 : 1 - 2 [3] الآية ، قالوا : فبم [1] فضله الله على أهل الأرض ؟ قال : إن الله تعالى قال : وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ 14 : 4 [4] الآية ، وقال لمحمد : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً 34 : 28 [5] ، فأرسله إلى الجن والإنس . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، فإن الحكم بن أبان قد احتج به جماعة من أئمة الإسلام [أيضا] [6] [ولم يخرجه الشيخان ] [7] . انتهى انتهى . اهـ ﴿إمتاع الأسماع جـ 3 صـ 240.95﴾

---

[1] كذا في (خ) : وفي المرجع السابق : «فبما» .

[2] الأنبياء : 29 .

[3] الفتح : 1 .

[4] إبراهيم : 4 .

[5] سبأ : 28 .

[6] زيادة في (خ) .

[7] تكملة من المستدرك . والحديث أخرجه الحاكم في (المستدرك) : 2/ 381 ، حديث رقم (3335/ 472) ، وقال الذهبي في (التلخيص) : صحيح . وأخرجه البيهقي في (الدلائل) : 5/ 486 - 487 بالإسناد السابق . .

والحكم بن أبان العدني أبو عيسى ، روي عن عكرمة ، وطاووس ، وشهر بن حوشب ،

وإدريس ابن سنان بن بنت وهب ، وغيرهم ، وعنه ابنه إبراهيم ، وابن عيينة ، ومعمر ، ومات قبله ، وابن جريج – وهو من أقرانه – ومعتمر بن سليمان ، وابن علية ، ويزيد بن أبي حكيم ، وموسى بن عبد العزيز القنباري ، وغيرهم .

قال ابن معين والنسائي : ثقة . وقال أبو زرعة : صالح ، وقال العجليّ : ثقة صاحب سنّة ، كان إذا هدأت العيون وقف في البحر إلى ركبتيه يذكر الله تعالى حتى يصبح . وقال سفيان بن عيينة :

أتيت عدن فلم أر مثل الحكم بن أبان . وقال ابن عيينة : قدم علينا يوسف بن يعقوب قاصّ كان لأهل اليمن ، وكان يذكر منه صلاح ، فسألته عن الحكم بن أبان ، قال : ذاك سيد أهل اليمن . قال أحمد : مات سنة (154) وهو ابن (84) سنة . ترجمته في : (تهذيب التهذيب) : 2/ 364 ، ترجمة رقم (736) ، (الثقات) : 6/ 185 ، (التاريخ الكبير) : 2/ 336 ، ترجمة رقم (662) .



---

وَيُسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والعشرون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/429)

---

الجزء التاسع والعشرون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 88 ﴾ من سورة الحجر

وحتى الآية ﴿ 99 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/429)

قوله تعالى ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ما أوتيه وما سيؤتاه أعظم ما أوتيه مخلوق ، اتصل به قوله : ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ أي مداً عظيماً بالتمني والاشتهاء المصمم ، ولذلك ثنى العين احترازاً عن حديث النفس ﴿ إلى ما متعنا ﴾ أي على عظمتنا ﴿ به أزواجاً ﴾ أي أصنافاً ﴿ منهم ﴾ أي أهل الدنيا ؛ أو يقال : إنه لما كان المقصود لكل ذي لب إنما هو التبليغ بدار الفناء إلى دار البقاء ، المؤكد إتيانها في الآية السابقة ، وكان القرآن - كما تقدم - كفيلاً بذلك ، وسلاه صلى الله عليه وعلى آله وسلم عما يؤذونه من أقوالهم ، وتبين من ذلك علو درجته ، توقع السامع ذكر ما أسبغ عليه من النعم فقال تعالى ؛ أو يقال : إنه لما أمره سبحانه بالصبر على أذاهم ، علل ذلك مما معناه أنهم خلقه ، وأنه منفرد بالخلق ، وهو بليغ العلم بأفعالهم مريد لها ، فليس الفعل في الحقيقة إلا له ، وعلى المحب أن يرضى بفعل حبيبه من حيث إنه فعله ، ولما كان

التقدير : فهو الذي خلقهم ، وعلم قبل خلقهم ما يفعلون ، عطف عليه تسلية له صلى عليه وعلى آله وسلم قوله ﴿ ولقد آتيناك ﴾ أي بما لنا من العظمة كما أتينا صالحاً ما تقدم ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ يكون كل سبع منها كفيلاً بإغلاق باب من أبواب النيران السبعة ، وهي أم القرآن الجامعة لجميع معاني القرآن التي أمرنا بإعادتها في كل ركعة ، زيادة في حفظها ، وتبركاً بلفظها ، وتذكيراً لمعانيها ، تخصيصاً لها عن بقية الذكر الذي تكلفنا بحفظه ﴿ و ﴾ آتيناك ﴿ القرآن العظيم ﴾ الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفلة بخيري الدارين مع زيادات لا تحصى ، المشار إلى عظمته أول السورة بالتنوين ووصفه بأنه مبين للبراهين الساطعة على نبوتك ، والأدلة القاطعة على رسالتك ، الدالة على الله الموصلة إليه ، والآية مع ذلك دليل على العلم المختتم به ما قبلها ، فكأنه قيل : فماذا أعمل ؟ فقيل في معنى ﴿ ذرهم يأكلوا ﴾ : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ اكتفاء بهذا البلاغ العظيم الذي من تحلى به



---

وأشربه قلبه أراه معايب هذه الدار فبغضه فيها وأشرف به على ما أمامه ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ لكونهم لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار ، ويقوى بهم جانب الإسلام ، وكأن

هذا هو الصفح المأمور به ، وهو الإعراض عنهم أصلاً ورأساً إلا في أمر البلاغ .

ولما أمره في عشرتهم بما أمر ، أتبعه أمره بعشرة أصحابه ـ رضى الله عنهم ـ م بالرفق واللين فقال تعالى : ﴿ واخفض ﴾ أي طأطىء ﴿ جناحك للمؤمنين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف ، واصبر نفسك معهم ، واكتفِ بهم ، فإن الله جاعل فيهم البركة ، وناصرك ومعز دينك بهم ، وغير محوجك إلى غيرهم ، فمن أراد شقوته فلا تلتفت إليهم ، وهذا كناية عن اللين ، وأصله أن الطائر إذا ضم الفرخ إليه بسط جناحه ثم قبضه عليه – قاله أبو حيان ؛ وفي الجزء العاشر من الثقفيات عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال :

" المؤمن لين حتى تخاله من اللين أحمق " .

ولما كان الغالب على الخلق التقصير ، قال له : ﴿ وقل ﴾ أي للفريقين ، مؤكداً لما للكفار من التكذيب ، ولما للمؤمنين به من طيب النفس : ﴿ إني أنا ﴾ أي لا غيري من المنذرين بالأعداء الدنيوية ﴿ النذير المبين ﴾ لمن تعمد التقصير ، إنذاري منقذ له من ورطته ، لأنه محتف بالأدلة القاطعة .

ولما ذكر ما التحم بقصة أصحاب الحجر المقتسمين على قتل رسولهم ، وختمه بالإنذار الذي هم أهله ، عاد إلى تتميم أمرهم فشبههم بمن كذب من هذه الأمة فقال : ﴿ كما ﴾ أي كذب أولئك وآتيناهم آياتنا فأعرضوا عنها ففعلنا بهم من العذاب ما هم أهله مثل ما ﴿ أنزلنا ﴾ أي بعظمتنا من الآيات ﴿ على المقتسمين ﴾ أي مثلهم من قريش حيث اقتسموا شعاب مكة ، ينفرون الناس عنك ويفرقون القول في القرآن ، فلا تأس عليهم لتكذيبهم وعنادهم مع رؤيتهم الآيات البينات ، فإن سنتنا جرت بذلك فيمن أردنا شقوته كقوم صالح ؛ ثم قال : ﴿ الذين ﴾ أي مع أنهم تقاسموا على قتلك واقتسموا طرق مكة للتنفير عنك ﴿ جعلوا القرءان ﴾ بأقوالهم ﴿ عضين ﴾ أي قسموا القول فيه والحال أنه جامع المعاني ، لا متفرق المباني - منتظم التأليف أشد انتظام .

متلائم الارتباط أحكم التئام ، كما قدمنا الإشارة إليه بتسميته كتاباً وقرآناً ، وختمنا بأن ذلك على وجه الإبانة لاخفاء فيه ، فقولهم كله عناه ، فقالوا : سحر ، وقالوا : شعر ، وقالوا : كهانة ، وقالوا : أساطير الأولين - وغير ذلك ، أنزلنا عليهم آياتنا البينات وأدلتنا الواضحات ، فأعرضوا عنها واشتغلوا بما لا ينفعهم من التعنت وغيره دأب أولئك فليرتقبوا مثل ما حل بهم ، ومثلهم كل من تكلم في القرآن بمثل ذلك مما لا ينبغي من العرب وغيرهم ؛ وروى البخاري عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿ جعلوا القرآن عضين ﴾ قال : هم أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، جزؤوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

وسيأتي معنى هذه اللفظة ﴿ فوربك ﴾ أي فتسبب عن فعلهم هذا أنا نقسم بالموجد لك ، المدبر لأمرك ، المحسن إليك بإرسالك ﴿ لنسئلنهم أجمعين ﴾ أي هؤلاء وأولئك ﴿ عما كانوا ﴾ أي كوناً هو جبلة لهم ﴿ يعملون ﴾ أي من تعضية القرآن وغيرها لأنا نسأل كلاًّ عما صنع ﴿ فاصدع ﴾ أي اجهر بعلو وشدة ، فارقاً بين الحق والباطل بسبب ذلك ﴿ بما تؤمر ﴾ به من القرآن وكتاب مبين ﴿ وأعرض ﴾ أي إعراض من لا يبالي ﴿ عن المشركين ﴾ بالصفح الجميل عن الأذى والاجتهاد في الدعاء ، ويؤيد أن قوله ﴿ كما ﴾ راجع إلى قصة صالح ومتعلق بها - وإن لم أر من سبقني إليه - ذكرُ الوصف الذي به تناسبت الآيتان وهو الاقتسام ، ثم وصف المقتسمين بالذين جعلوا القرآن عضين ، لئلا يظن أنهم الذين تقاسموا في بيات صالح ، أي أتينا أولئك الآيات المقتضية للإيمان فما كان منهم إلا التكذيب والتقاسم كما أنزلنا على هؤلاء الآيات فما كان منهم إلا ذلك ، وإنما عبر في أولئك ب ﴿ ءاتيناهم ﴾ لأن آياتهم الناقة وولدها والبئر ، وهي معطاة محسوسة ، لا منزلة معقولة ، وقال في هؤلاء أنزلنا إشارة إلى القرآن الذين هو أعظم الآيات ، أو إلى الجميع وغلب عليها القرآن لأنه أعظمها ، وإلى أنهم مبطلون في جحدهم وأنه لا ينبغي لهم أن

يتداخلهم نوع شك في أنه منزل لأنه أعظم من تلك الآيات مع كونها محسوسات ، وأما اعتراض ما بينهما من الآيات فمن أعظم أفانين البلاغة ، فإنه لما أتم قصة صالح عليه السلام ، علم أنه المتعنتين ربما قالوا : لأيّ شيء يخلقهم ثم يهلكهم مع علمه بعدم إجابتهم ؟ فرد عليهم بأنه ما خلق ﴿ السماوات والأرض وما بينهما ﴾ من هؤلاء المعاندين ومن أفعالهم وعذابهم وغير ذلك ﴿ إلا بالحق وأن الساعة لآتية ﴾ فيعلم ذلك كله بالعيان من يشك فيه الآن ، وذلك حين يكشف الغطاء عن البصائر والأبصار فاصفح عنهم ، فإنه لا بد من الأخذ لك بحقك ، إن لم يكن في الدنيا ففي يوم الجمع ، ثم أكد التصرف بالحكمة بقوله ﴿ إن ربك هو الخلاّق

(8/429)

---

العليم ﴾ ثم سلاه – عما يضيّقون به صدره من التكذيب بالساعة ، وأن الوعد بها إنما هو سحر ، ونحو ذلك من القول ، ومن افتخارهم بأموالهم ونسبته إلى الحاجة إلى المشي بالأسواق – بما آتاه من كنوز القرآن ، وأمره بأن يزيد في التواضع واللين للمؤمنين لتطيب نفوسهم فلا يأسوا على ما فاتهم من الدنيا ، وأن ينذر الجميع ويحذرهم من سطوات الله أمثال ما أنزل بالأقدمين ، ثم عاد إليهم فشبههم بهؤلاء في التكذيب ليعلم أنهم أجدر منهم

بالعذاب لأنهم مشبه بهم ، والمشبه به أعلى من المشبه ، وذلك لكونهم أشد كفراً لأن نبيهم أعظم وآياته أجل وأكثر ، وأجلى وأبهر ، فيكون ذلك سبب اشتداد حذرهم ، ولك أن تقول ولعله أحسن : إنه تعالى لما ذكر أن ثمود سكنوا الأرض سكنى الآمنين .

فأزعجتهم عنها صيحه سلبت أرواحهم ، وقلبت أشباحهم ، كما سيكون لأهل الأرض قاطبة بنفخة الصور ، عند نفوذ المقدور ، وكان قد قدم ذكر كثير مما في السماوات والأرض من الآيات والعبر بقوله تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾ وما بعد ذلك من الجن والإنس وغيرهما مما جعل ذكر اختراعه دليلاً على الساعة ، أتبع ذلك أن سبب خلق ذلك كله وما حواه من الخافقين إنما هو الساعة فقال ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي بالأمر الثابت لا بالتمويه والسحر كما أنتم تشاهدون ، أو بسبب إقامة الحق وإبانته من الباطل إبانة لا شك فيها يوم الجمع الأكبر ، ومن إقامة الحق تنعيم الطائع وتعذيب العاصي ، وذلك بعد إتيان الساعة بنفختي الصور ﴿ وإن الساعة لآتيه بالحق ﴾ أيضاً ، وليست سحراً كما تظنون ، ولما كان إتيانها لهذا العرض مما يشفي القلب لإدراك الثأر وهو حق لا بد منه ، تسبب عنه قوله تعالى ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ .

ولما كانت النفس بخبر الأعلم أوثق ، وكان صانع الشيء أعلم به من غيره فكيف إذا كان مع ذلك تام للعلم قال الله تعالى معللاً لذلك ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك ﴿ وهو الخلاّق ﴾ أي التام القدرة على الإيجاد والإعدام ، الفعال لذلك " العليم " البالغ العلم ؛ ولما ختم بهذين الوصفين بعد تقدم الأخبار عما أوتى أهل الحجر من الآيات ، وأنه خلق الوجود بالحق لا بالتمويه ، وكان ذلك موجباً لتوقع الإخبار عما أوتي هذا النبي الكريم منها لإرشاد أمته ، وكانت الآيات إما أن تكون من قسم الخلق كآية صالح ، أو من قسم الأمر الذي هو مدار العلم ، أشار إلى تفضيله - صلى الله عليه وسلم - بفضل ابنه ، فقال عاطفاً على ذلك ﴿ ولقد ءاتيناك ﴾ أي إن كنا أتينا صالحاً أو غيره آية مضت فلم يبق إلا ذكرها فقد آتيناك ﴿ سبعاً من المثاني ﴾ وهي الفاتحة التي خصصت بها ، ثنى فيها البسملة للمبادىء ، والحمدلة للكمالات ، والرحمانية والرحيمية فيها للإبداع الأول والمرضي من الأعمال ، وملك الدنيا المسمى بالربوبية لكونه مستوراً ، وملك يوم الدين ، وبينهما رحمانية الإيجاد الثاني بالمعاد ورحيمية الثواب للمرضي من الأسباب ، والعبادة التي لا تكون إلا مع القدرة والاختيار ، والاستعانة الناظرة إلى العجز عن كمال الاقتدار ، والهداية بالهادي والمهدي ، والضلال في مقابل ذلك بالمضل والضال ، وفي ذلك أسرار لا تسعها الأفكار ﴿ والقرآن الكريم ﴾ الجامع لجميع الآيات مع كونه حقاً ثابتاً لا سحراً وخيالاً ، بل هو آية باقية على وجه الدهر ، مستمراً أمرها ، دائماً تلاوتها وذكرها ، تفني الجبال الرواسي وهي باقية ،

وتزول السماوات والأراضي وهي جديدة، إذا اصطف عسكر الفجرة قالت كل آية منها هل من مبارز؟ وإن رام عدو مطاولة لتحققه بالضعف صاحت لدوام قوتها: إني أناجز فلا تقوم لها قائم، ولا يحوم حول حماها حائم، ولا يروم خوض بحرها رائم.

(10/429)

---

ولما كانت هذه الآية لصاحبها مغنية، ولمن فاز بقبولها معجبة مرضية، حسن كل الحسن اتباعها بقوله ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ ولما كان كفرهم بعد بيانها إنما هو عناد، قال تعالى "ولا تحزن عليهم" ولما كان الغني بها ربما ظن حسن أنفة الغنى، عقبه قوله ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ ولما كان ربما ظن أن تلاوتها تغني عن الدعاء لا سيما لمن أعرض، نفى ذلك بقوله ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ تحريضاً على الاجتهاد في التحذير، وتثبيتاً للمؤمنين وإرغاماً للمعاندين، واستجلاباً لمن أراد الله إسعاده من الكافرين، إعلاماً بأن القلوب للمؤمنين بيد الله سبحانه وتعالى، فلا وثوق مع ذلك بمقبل، ولا يأمن عن مدبر.

ولما تم ذلك على هذا النظم الرصين، والربط الوثيق المتين، التفت الخاطر إلى حال من يندرهم، وكان كفار قريش - في تقسيمهم القول في القرآن واقتسامهم طرق مكة لإشاعة

ذلك البهتان، تنفيراً لمن أراد الإيمان – أشبه شيء بالمقتسمين على صالح عليه السلام، قال تعالى ﴿كما ﴾ أي آتينا أولئك المقتسمين آياتنا فكانوا عنها معرضين، مثل ما ﴿ أنزلنا ﴾ آياتنا ﴿على المقتسمين ﴾ أي الذين تقاسموا برغبة كبيرة واجتهاد في ذلك ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أي ذا أعضاء أي أجزاء متفاصلة متباينة مثل أعضاء الجزور إذا قطعت، جمع عضة مثل عدة وأصلها عضوة ﴿ فوربك لنسئلنهم أجمعين ﴾ أي لا يمتنع علينا منهم أحد ﴿ عما كانوا يعملون فاصدع ﴾ أي بسبب أمرنا لك بالإنذار وإخبارك أنا نسأل كل واحد عما عمل ﴿ بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ . انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 235. 240 ﴾

*(11/429)*

---

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ فاعلم أنه تعالى لما عرف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين، وهو أنه آتاه سبعاً من المثاني والقرآن العظيم، نهاه عن الرغبة في الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه إليها رغبة فيها وفي مد العين أقوال :

القول الأول : كأنه قيل له إنك أوتيت القرآن العظيم فلا تشغل سرك وخاطرك بالإلتفات إلى الدنيا ومنه الحديث : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " وقال أبو بكر : من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً ، وقيل : وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير ، فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى فقال الله تعالى لهم : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع .

القول الثاني : قال ابن عباس : ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ أي لا تمن ما فضلنا به أحداً من متاع الدنيا ، وقرر الواحدي هذا المعنى فقال : إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر ونحوه ، وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه ، وكان صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا ، وروي أنه نظر إلى نعم بني المصطلق ، وقد عبست في أبوالها وأبعارها فتقنع في ثوبه وقرأ هذه الآية وقوله عبست في أبوالها وأبعارها هو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها إذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ما تكون .

والقول الثالث : قال بعضهم : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ أي لا تحسدن أحداً على ما أوتي من الدنيا قال القاضي : هذا بعيد ، لأن الحسد من كل أحد قبيح ، لأنه إرادة لزوال نعم الغير عنه ، وذلك يجري مجرى الاعتراض على الله تعالى والاستقباح لحكمه وقضائه ، وذلك من كل أحد قبيح ، فكيف يحسن تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم به ؟

أما قوله تعالى : ﴿ أزواجاً منهم ﴾ قال ابن قتيبة أي أصنافاً من الكفار ، والزوج في اللغة الصنف ثم قال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ إن لم يؤمنوا فيقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون .

والحاصل أن قوله : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ نهي له عن الالتفات إلى أموالهم وقوله : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ نهي له عن الالتفات إليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن .

ثم قال : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ الخفض : معناه في اللغة نقيض الرفع ، ومنه قوله تعالى في صفة القيامة : ﴿ خافضة رافعة ﴾ [ الواقعة : 3 ] أي أنها تخفض أهل المعاصي ، وترفع أهل الطاعات ، فالخفض معناه الوضع ، وجناح الإنسان يده .

قال الليث : يدا الإنسان جناحاه ، ومنه قوله : ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ [ القصص : 32 ] وخفض الجناح كناية عن اللين والرفق والتواضع ، والمقصود أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين ، ونظيره

قوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ [ المائدة : 54 ] وقال في صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [ الفتح : 29 ] .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) ﴾

(13/429)

---

اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله بالزهد في الدنيا ، وخفض الجناح للمؤمنين ، أمره بأن يقول للقوم : ﴿ إِنّى أَنَّا النذير المبين ﴾ فيدخل تحت كونه نذيراً ، كونه مبلغاً لجميع التكاليف ، لأن كل ما كان واجباً ترتب على تركه عقاب وكل ما كان حراماً ترتب على فعله عقاب فكان الأخبار بحصول هذا العقاب داخلاً تحت لفظ النذير ، ويدخل تحته أيضاً كونه شارحاً لمراتب الثواب والعقاب والجنة والنار ، ثم أردفه بكونه مبيناً ، ومعناه كونه آتياً في كل ذلك بالبيانات الشافية والبينات الوافية ، ثم قال بعده : ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : اختلفوا في أن المقتسمين من هم ؟ وفيه أقوال :

القول الأول : قال ابن عباس : هم الذين اقتسموا طرق مكة يصدون الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرب عددهم من أربعين .

وقال مقاتل بن سليمان : كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها لا تغتروا بالخارج منا ، والمدعي للنبوة فإنه مجنون ، وكانوا ينفرون الناس عنه بأنه ساحر أو كاهن أو شاعر ، فأنزل الله تعالى بهم خزياً فماتوا شر ميتة ، والمعنى : أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين .

والقول الثاني : وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات أن المقتسمين هم اليهود والنصارى ، واختلفوا في أن الله تعالى لم سماهم مقتسمين ؟ فقيل لأنهم جعلوا القرآن عضين آمنوا بما وافق التوراة وكفروا بالباقي .

وقال عكرمة : لأنهم اقتسموا القرآن استهزاء به ، فقال بعضهم : سورة كذا لي .

وقال بعضهم : سورة كذا لي .

وقال مقاتل بن حبان : اقتسموا القرآن فقال بعضهم سحر .

وقال بعضهم شعر ، وقال بعضهم كذب ، وقال بعضهم : أساطير الأولين .

والقول الثالث : في تفسير المقتسمين .

قال ابن زيد : هم قوم صالح تقاسموا لنبيتنه وأهله ، فرمتهم الملائكة بالحجارة حتى قتلوهم ، فعلى هذا والاقتسام من القسم لا من القسمة ، وهو اختيار ابن قتيبة .

البحث الثالث : أن قوله : ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ يقتضي تشبيه شيء بذلك فما ذلك الشيء ؟

والجواب عنه من وجهين :

الوجه الأول : التقدير : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين ، حيث قالوا بعنادهم وجهلهم بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل .

فإن قيل : فعلى هذا القول كيف توسط بين المشبه والمشبه به قوله : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [ الحجر : 88 ] إلى آخره ؟

قلنا : لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم ، اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم .

والوجه الثاني : أن يتعلق هذا الكلام بقوله : ﴿ وَقُلْ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ .

واعلم أن هذا الوجه لا يتم إلا بأحد أمرين : إما التزام إضمار أو التزام حذف ، أما

الإضمار فهو أن يكون التقدير إني أنا النذير المبين عذاباً كما أنزلناه على المقتسمين ، وعلى هذا الوجه ، المفعول محذوف وهو المشبه ، ودل عليه المشبه به ، وهذا كما تقول : رأيت كالقمر في الحسن ، أي رأيت إنساناً كالقمر في الحسن ، وأما الحذف فهو أن يقال : الكاف زائدة محذوفة ، والتقدير : إني أنا النذير المبين ما أنزلناه على المقتسمين ، وزيادة الكاف له نظير وهو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْء ﴾ [ الشورى : 11 ] والتقدير : ليس مثله شيء ، وقال بعضهم : لا حاجة إلى الإضمار والحذف ، والتقدير : إني أنا النذير أي أنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين وقوله : ﴿ الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ فيه بحثان :

(15/429)

---

البحث الأول : في هذا اللفظ قولان : الأول : أنه صفة للمقتسمين .

والثاني : أنه مبتدأ ، وخبره هو قوله : ﴿ لَنَسْئَلَنَّهُمْ ﴾ [ الحجر : 92 ] وهو قول ابن زيد .

البحث الثاني : ذكر أهل اللغة في واحد عضين قولين :

القول الأول : أن واحدها عضة مثل عزة وبرة وثبة ، وأصلها عضوة من عضيت الشيء إذا فرقته ، وكل قطعة عضة ، وهي مما نقص منها واو وهي لام الفعل ، والتعضية التجزئة

والتفريق ، يقال : عضيت الجزور والشاة تعضية إذا جعلتها أعضاء وقسمتها ، وفي الحديث : " لا تعضية في ميراث إلا فيما احتمل القسمة " أي لا تجزئه فيما لا يحتمل القسمة كالجوهرة والسيف .

فقوله : ﴿ جَعَلُواْ الْقرءان عِضِينَ ﴾ يريد جزؤه أجزاء ، فقالوا : سحر وشعر وأساطير الأولين ومفترى .

والقول الثاني ؛ أن واحدها عضة وأصلها عضهة ، فاستثقلوا الجمع بين هاءين ، فقالوا : عضة كما قالوا شفة ، والأصل شفهة بدليل قولهم : شافهت مشافهة ، وسنة وأصلها سنهة في بعض الأقوال ، وهو مأخوذ من العضة بمعنى الكذب ، ومنه الحديث : " إياكم والعضة " وقال ابن السكيت : العضة بأن يعضه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه .

وهذا قول الخليل فيما روى الليث عنه ، فعلى هذا القول معنى قوله تعالى : ﴿ جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ أي جعلوه مفترى .

وجمعت العضة جمع ما يعقل لما لحقها من الحذف ، فجعل الجمع بالواو والنون عوضاً مما لحقها من الحذف .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(16/429)

---

قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ، لأن عود الضمير إلى الأقرب أولى ، ويكون التقدير أنه تعالى أقسم بنفسه أن يسأل هؤلاء المقتسمين عما كانوا يقولونه من اقتسام القرآن وعن سائر المعاصي ، ويحتمل أن يكون راجعاً إلى جميع المكلفين لأن ذكرهم قد تقدم في قوله : ﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النذير المبين ﴾ [ الحجر : 89 ] أي لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين ، فيعود قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على الكل ، ولا معنى لقول من يقول إن السؤال إنما يكون عن الكفر أو عن الإيمان ، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الأعمال ، لأن اللفظ عام فيتناول الكل .

فإن قيل : كيف الجمع بين قوله : ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وبين قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] أجابوا عنه من وجوه :

الوجه الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يسئلون سؤال الاستفهام لأنه تعالى عالم

بكل أعمالهم ، وإنما يسئلون سؤال التقريع يقال لهم لم فعلتم كذا ؟

ولقائل أن يقول : هذا الجواب ضعيف ، لأنه لو كان المراد من قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ سؤال الاستفهام لما كان في تخصيص هذا النفي بقوله يومئذ فائدة لأن مثل هذا السؤال على الله تعالى محال في كل الأوقات .

والوجه الثاني : في الجواب أن يصرف النفي إلى بعض الأوقات ، والإثبات إلى وقت آخر ، لأن يوم القيامة يوم طويل .

ولقائل أن يقول : قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] هذا تصريح بأنه لا يحصل السؤال في ذلك اليوم ، فلو حصل السؤال في جزء من أجزاء ذلك اليوم لحصل التناقض .

*(17/429)*

---

والوجه الثالث : أن نقول : قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ يفيد عموم النفي وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عائد إلى المقتسمين وهذا خاص ولا شك أن الخاص مقدم على العام .

أما قوله فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ فاعلم أن معنى الصدع في اللغة الشق والفصل وأنشد ابن

السكيت لجرير هذا الخليفة فارضوا ما قضى لكم

بالحق يصدع ما في قوله حيف

فقال يصدع يفصل وتصدع القوم إذا تفرقوا ومنه قوله تعالى يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ( الروم 43 )

قال الفراء يتفرقون والصدع في الزجاجة الإبانة أقول ولعل ألم الرأس إنما سمي صداعاً لأن

قحف الرأس عند ذلك الألم كأنه ينشق قال الأزهري وسمي الصبح صديعاً كما يسمى فلقاً

وقد انصدع وانفلق الفجر وانفطر الصبح

إذا عرفت هذا فقول فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ أي فرق بين الحق والباطل وقال الزجاج فاصدع

أظهر ما تؤمر به يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً كقولك صرح بها وهذا في الحقيقة

يرجع أيضاً إلى الشق والتفريق أما قوله بِمَا تُؤْمَرُ ففيه قولان الأول أن يكون ( ما ) بمعنى الذي

أي بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

الثاني أن تكون ( ما ) مصدرية أي فاصدع بأمرك وشأنك قالوا وما زال النبي ( صلى الله

عليه وسلم ) مستخفياً حتى نزلت هذه الآية

ثم قال تعالى وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار

الدعوة قال بعضهم هذا منسوخ بآية القتال وهو ضعيف لأن معنى هذا الإعراض ترك

المبالاة بهم فلا يكون منسوخاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 166 . 171 ﴾

*(18/429)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ﴾

يعني ما متعناهم به من الأموال .

وفي قوله : ﴿ أزواجاً منهم ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم الأشباه ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم الأصناف قاله أبو بكر بن زياد .

الثالث : أنهم الأغنياء ، قاله ابن أبي نجيح .

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تحزن عليهم بما أنعمت عليهم في دنياهم .

الثاني : لا تحزن بما يصيرون إليه من كفرهم .

﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اخضع لهم ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : معناه أَلِنْ جانبك لهم ، قال الشاعر :

وحسبك فتيةٌ لزعيم قومٍ . . . يمدّ على أخي سُقْم جَناحا

وروى أبو رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل به ضيف فلم يلق عنده أمراً يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود يستسلف منه دقيقاً إلى هلال رجب ، فقال : لا إلاّ برهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أما والله إني لأمينٌ في السماء وأمين في الأرض ، ولو أسلفني أو باعني لأدّيتُ إليه " فنزلت عليه ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾

قوله عز وجل : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾

فيهم سبعة أقاويل :

أحدها : أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى اقتسموا القرآن فجعلوه أعضاءً أي أجزاءً فآمنوا ببعض منها وكفروا ببعض ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنهم أهل الكتاب اقتسموا القرآن استهزاءً به ، فقال بعضهم : هذه السورة لي ، وهذه السورة لك ، فسموا مقتسمين ، قاله عكرمة .

الثالث : أنهم أهل الكتاب اقتسموا كتبهم ، فآمن بعضهم ببعضها ، وآمن آخرون منهم بما كفر به غيرهم وكفروا بما آمن به غيرهم ، فسماهم الله تعالى مقتسمين ، قاله مجاهد .

الرابع : أنهم قوم صالح تقاسموا على قتله ، فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ [ النمل : 49 ] قاله ابن زيد .

(19/429)

---

الخامس : أنهم قوم من كفار قريش اقتسموا طرق مكة ليتلقوا الواردين إليها من القبائل فينفروهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون ، حتى لا يؤمنوا به ، فأنزل الله تعالى عليهم عذاباً فأهلكهم ، قاله الفراء .

السادس : أنهم قوم من كفار قريش قسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعراً وبعضه كهانة وبعضه أساطير الأولين ، قاله قتادة .

السابع : أنهم قوم أقسموا أيماناً تحالفوا عليها ، قاله الأخفش .

وقيل إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث ، وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج .

قوله عز وجل : ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني فرقاً ، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين ، فجعلوه أعضاء كما يعضّى الجزور و ﴿ عضين ﴾ جمع عضو ، مأخوذ

من عضَّيت الشيء تعضية إذا فرقته كما قال رؤبة بن العجاج:

وليس دينُ الله بالمعضى . . . يعني بالمفرَّق، قاله ابن عباس والضحاك.

الثاني: أن العضين جمع عضه وهو البهت، ومن قولهم: عضهتُ الرجل أعضهه عضهاً إذا بهتّه، لأنهم بهتوا كتاب الله تعالى فيما رموه به، قاله قتادة. ومنه قول الشاعر:

إن العضيهة ليستْ فعل أحرار . . . الثالث: أن العضين المستهزئون، لأنه لما ذكر في القرآن البعوض والذباب والنمل والعنكبوت قال أحدهم: أنا صاحب البعوض، وقال آخر: أنا صاحب الذباب وقال آخر: أنا صاحب النمل. وقال آخر: أنا صاحب العنكبوت، استهزاء منهم بالقرآن، قاله الشعبي والسدي.

الرابع: أنه عنى بالعضه السحر، لأنهم جعلوا القرآن سحراً، قاله مجاهد، قال الشاعر:

لك من عضائهن زمزمة . . . يعني من سحرهن. وقال عكرمة: العضه السحر بلسان قريش يقولون للساحرة العاضهة، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن العاضهة والمستعضهه، يعني الساحرة والمستسحرة.

وفي اشتقاق العضين وجهان :

أحدهما : أنه مشتق من الأعضاء ، وهو قول عبيدة .

الثاني : أنه مشتق من العضه وهو السحر ، وهو قول الفراء .

قوله عز وجل : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني عما كانوا يعبدون ، قاله أبو العالية .

الثاني : عما كانوا يعبدون ، وماذا أجابوا المرسلين ، رواه الربيع بن أنس .

قوله عز وجل : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾

فيه ستة تأويلات :

أحدها : فامضِ بما تؤمر ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه فاظهر بما تُؤمر ، قاله الكلبي . قال الشاعر :

ومَن صادعٌ بالحق بعدك ناطقٌ . . . بتقوى ومَن إن قيل بالجوْر غيّرا

الثالث : يعني اجهر بالقرآن في الصلاة ، قاله مجاهد .

الرابع : يعني أعلن بما يوحى إليك حتى تبلغهم ، قاله ابن زيد .

الخامس : معناه افرق بين الحق والباطل ، قاله ابن عيسى .

السادس : معناه فرق القول فيهم مجتمعين وفرادى ، حكاه النقاش .

وقال رؤبة : ما في القرآن أعْرَبُ من قوله ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ ﴿ وأعرض عن الجاهلين

﴿ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه منسوخ بقوله تعالى ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [ التوبة : 5 ] قاله ابن عباس .

الثاني : أعرض عن الاهتمام باستهزائهم .

الثالث : معناه بالاستهانة بهم ، قاله ابن بحر .

ثم فيه وجهان :

أحدهما : اصدع الحق بما تؤمر من اظهاره .

الثاني : اصدع الباطل بما تؤمر من إبطاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ

﴾

(21/429)

---

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ الآية ،

حكى الطبري ، عن سفيان بن عيينة أنه قال هذه الآية أمر بالاستغناء بكتاب الله عن جميع

زينة الدنيا ، وهي ناظرة إلى قوله عليه السلام :

" ليس منا من لم يتغن بالقرآن " أي يستغني به .

قال القاضي أبو محمد : فكأنه قال : ولقد آتيناك عظيماً خطيراً فلا تنظر إلى غير ذلك من أمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من هؤلاء الكفرة ، ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد عظم صغيراً ، وصغر عظيماً " وكأن " مد العين " يقترن به تمنّ ، ولذلك عبر عن الميل إلى زينة الدنيا ب " مد العين " و " الأزواج " هنا الأنواع والأشباه ، وقوله ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي لا تتأسف لكفرهم وهلاكهم ، واصرف وجه تحفيك إلى من آمن بك ﴿ واخفض ﴾ لهم ﴿ جناحك ﴾ وهذه استعارة بمعنى لين جناحك ووطىء أكنافك . " والجناح " الجانب والجنب ، ومنه ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ [ طه : 22 ] فهو أمر بالميل إليهم ، والجنوح الميل ، ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ ، أي تمسك بهذا القدر العظيم الذي وهبناك ، والكاف من قوله ﴿ كما ﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره ، وقل إني أنا النذير المبين عذاباً كالذي أنزلنا على المقتسمين ، فالكاف اسم في موضع نصب .

*(22/429)*

---

قال القاضي أبو محمد : هذا قول المفسرين ، وهو عندي صحيح لأن ﴿ كما ﴾ ليس مما يقوله محمد عليه السلام بل هو من قول الله تعالى له فينفصل الكلام ، وإنما يترتب هذا القول

بأن نقدر أن الله تعالى قال له تنذر عذاباً كما ، والذي أقول في هذا المعنى : وقل أنا النذير كما قال قبلك رسلنا وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك ، ويحتمل أن يكون المعنى وقل أنا النذير كما قد أنزلنا قبل في الكتب أنك ستأتي نذيراً ، وهذا على أن ﴿ المقتسمين ﴾ أهل الكتاب ، واختلف الناس في ﴿ المقتسمين ﴾ من هم ؟ فقال ابن زيد : هم قوم صالح الذين اقتسموا السيئات فالمقتسمون على هذا من القسم .

قال القاضي أبو محمد : ويقلق هذا التأويل مع قوله ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ ، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : " المقتسمون " هم أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم ، وجعلوا كتاب الله أعضاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقال نحوه مجاهد ، وقالت فرقة : " المقتسمون " هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت الموسم ليعرفوا الناس بحال محمد عليه السلام ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة فعضهوه بهذا وعضوه أعضاء بهذا التقسيم ، وقال عكرمة : " المقتسمون " هم قوم كانوا يستهزئون بسور القرآن فيقول الرجل منهم هذه السورة لي ، ويقول الآخر وهذه لي ، وقوله ﴿ عضين ﴾ مفعول ثان وجعل بمعنى صير ، أي بألسنتهم ودعواهم ، وأظهر ما فيه أنه جمع عضة ، وهي الفرقة من الشيء والجماعة من الناس كثبة وثبين وعزة وعزين ، وأصلها عضهة وثبوة فالياء والنون عوض من المحذوف ، كما قالوا سنة وسنون ، إذ أصلها سنهة ، وقال ابن عباس وغيره :

﴿ عضين ﴾ مأخوذ من الأعضاء أي عضوة فجعلوه أعضاء مقسماً ، ومن ذلك قول الراجز :

(23/429)

---

وليس دين الله بالمعضى . . . وهذا هو اختيار أبي عبيدة ، وقال قتادة ﴿ عضين ﴾ مأخوذ من العضة وهو السب المفحش ، فقريش عضهوا كتاب الله بقولهم : هو شعر ، هو سحر ، هو كهانة ، وهذا هو اختيار الكسائي ، وقالت فرقة : ﴿ عضين ﴾ جمع عضة وهي اسم للسحر خاصة بلغة قريش ، ومنه قول الراجز :

للماء من عضتهن زمزمة . . . . وقال هذا قول عكرمة مولى ابن عباس ، وقال العضة السحر ، وهم يقولون للساحرة العاضهة ، وفي الحديث "لعن الله العاضهة والمستعضهة" ، وهذا هو اختيار الفراء .

قال القاضي أبو محمد : ومن قال جعلوه أعضاء فإنما أراد قسموه كما تقسم الجزور أعضاء ، وقوله ﴿ فوربك لنسألنهم ﴾ إلى آخر الآية ، ضمير عام ووعيد محض يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه ، فالكافر يسأل عن لا إله إلا الله وعن الرسل وعن كفره وقصده به ، والمؤمن العاصي يسأل عن تضييعه ، والإمام عن رعيته ، وكل مكلف عما

كلف القيام به ، وفي هذا المعنى أحاديث ، وقال أبو العالية في تفسير هذه الآية : يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين ، وقال في تفسيرها أنس بن مالك وابن عمر ومجاهد : إن السؤال عن لا إله إلا الله ، وذكره الزهراوي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ ، قال يقال لهم : لم عملتم كذا وكذا ؟ قال وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [ الرحمن : 39 ] معناه يقال له ما أذنبت لأن الله تعالى أعلم بذنبه منه .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) ﴾

(24/429)

---

﴿ فاصدع ﴾ معناه فانفذ وصرح بما بعثت به ، والصدع التفريق بين ملتئم كصدع الزجاجة ونحوه ، فكأن المصرح بقول يرجع إليه ، يصدع به ما سواه مما يضاده ، والصديع الصبح لأنه يصدع الليل ، وقال مجاهد : نزلت في أن يجهر بالقرآن في الصلاة ، وفي ﴿ تؤمر ﴾ ضمير عائد على ﴿ ما ﴾ ، تقديره ما تؤمر به أو تؤمره وفي هذين تنازع ، وقوله ﴿

وأعرض عن المشركين ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف، قاله ابن عباس.

انتهى انتهى. اهـ ﴿المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(25/429)

---

وقال ابن الجوزى:

ولما ذكر الله تعالى مِنّته عليه بالقرآن، نهاه عن النظر إِلى الدنيا ليستغنيَ بما آتاه من القرآن عن الدنيا، فقال: ﴿ لا تمدنَّ عينيك إِلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ﴾ أي: أصنافاً من اليهود والمشركين، والمعنى: أنه نهاه عن الرغبة في الدنيا.

وفي قوله: ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ قولان:

أحدهما: لا تحزن عليهم إِن لم يؤمنوا.

والثاني: لا تحزن بما أنعمتُ عليهم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ أي: أَلِن جانبك لهم.

وخفضُ الجناح: عبارةٌ عن السكون وترك التصعُّب والإِباء، قال ابن عباس: ارفق بهم ولا تغلُظ عليهم.

قوله تعالى: ﴿ وقل إِني أنا النذير المبين ﴾ حرك ياء "إِنيَ" ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع.

وذكر بعض المفسرين أن معناها منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾

في هذه الكاف قولان :

أحدهما : أنها متعلِّقة بقوله : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ .

ثم في معنى الكلام قولان : أحدهما : أن المعنى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ، كما أنزلنا الكتب على المقتسمين ، قاله مقاتل .

والثاني : أن المعنى : ولقد شرَّفناك وكرَّمناك بالسبع المثاني ، كما شرَّفناك وأكرمناك بالذي أنزلناه على المقتسمين من العذاب ، والكاف بمعنى "مِثْلٍ" و "ما" بمعنى "الذي" ذكره ابن الأنباري .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : ﴿ إِني أنا النذير ﴾ ، والمعنى : إِني أنا النذير ، أنذرتكم مثلَ الذي أُنزل على المقتسمين من العذاب ، وهذا معنى قول الفراء .

فخرج في معنى "أنزلنا" قولان :

أحدهما : أنزلنا الكتب ، على قول مقاتل .

والثاني : العذابَ ، على قول الفراء .

وفي "المقتسمين" ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم اليهود والنصارى ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد .

فعلى هذا ، في تسميتهم بالمقتسمين ثلاثة أقوال .

*(26/429)*

---

أحدها : أنهم آمنوا ببعض القرآن ، وكفروا ببعضه ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنهم اقتسموا القرآن ، فقال بعضهم : هذه السورة لي ، وقال آخر : هذه السورة لي ، استهزاءً به ، قاله عكرمة .

والثالث : أنهم اقتسموا كتبهم ، فآمن بعضهم ببعضها وكفر ببعضها ، وآمن آخرون بما كفر به غيرهم ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم مشركو قريش ، قاله قتادة ، وابن السائب .

فعلى هذا ، في تسميتهم بالمقتسمين قولان .

أحدهما : أن أقوالهم تقسَّمت في القرآن ، فقال بعضهم : إِنه سحر ، وزعم بعضهم أنه كهانة ، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين ، منهم الأسود بن عبد يغوث ، والوليد بن المغيرة ، وعدي بن قيس السهمي ، والعاص ابن وائل ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم اقتسموا على عِقاب مكة ، قال ابن السائب : هم رهط من أهل مكة

اقتسموا على عِقاب مكة حين حضر الموسم، قال لهم الوليد ابن المغيرة: انطلقوا فتفرَّقوا على عِقاب مكة حيث يمرُّ بكم أهل الموسم، فإذا سألوكم عنه، يعني: رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فليقل بعضكم: كاهن، وبعضكم: ساحر، وبعضكم: شاعر، وبعضكم: غاوٍ، فإذا انتهَوْا إلَّي صدَّقتكم، ومنهم حنظلة ابن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل، والعاص ابن هشام، وابو قيس بن الوليد، وقيس بن الفاكه، وزهير بن أبي أمية، وهلال ابن عبد الأسود، والسائب بن صيفي، والنضر بن الحارث، وأبو البَخْتري بن هشام، وزمعة بن الحجاج، وأُمية بن خلف، وأوس بن المغيرة.

والثالث: أنهم قوم صالح الذين تقاسموا بالله: ﴿ لَنُبَيِّتَنَّه وأهلَه ﴾ [النمل 49]، فكفاه الله شرهم، قاله عبد الرحمن بن زيد.

فعلى هذا، هو من القَسَم، لا من القِسمة.

قوله تعالى: ﴿ الذين جعلوا القرآن عِضين ﴾ في المراد بالقرآن قولان:

أحدهما: أنه كتابنا، وهو الأظهر، وعليه الجمهور.

والثاني: أن المراد به: كتب المتقدمين قبلنا.

وفي "عضين" قولان:

أحدهما: أنه مأخوذ من الأعضاء.

قال الكسائي، وأبو عبيدة: اقتسموا بالقرآن وجعلوه أعضاءً.

ثم في ما فعلوا فيه قولان.

أحدهما: أنهم عضَّوه أعضاءً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه.

والمعضي: المفرِّق.

والتعضية: تجزئة الذبيحة أعضاءً.

قال علي عليه السلام: لا تَعْضِيَةَ في ميراث، أراد: تفريق ما يوجب تفريقه ضرراً على الورثة كالسيف ونحوه.

وقال رؤبة:

وليس دَيْنُ الله بالمُعَضَّى . . .

وهذا المعنى في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثاني: أنهم عضَّوْا القول فيه، أي: فرَّقوا، فقالوا: شعر، وقالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وهذا المعنى في رواية ابن جريج عن مجاهد، وبه قال قتادة، وابن زيد.

والثاني : أنه مأخوذ من العَضَهِ ، والعَضَهُ ، بلسان قريش : السِّحر ، ويقولون للساحرة : عاضهة ، وفي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن العاضهة والمستعضهة ، فيكون المعنى : جعلوه سِحراً ، وهذا المعنى في رواية عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، والفراء .

قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألَنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ هذا سؤال توبيخ ، يُسأَلون عما عملوا في ما أُمروا به من التوحيد والإِيمان ، فيقال لهم : لم عصيتهم وتركتم الإِيمان ؟ فتظهر فضيحتهم عند تعذّر الجواب .

قال أبو العالية : يُسأَل العبادُ كلُّهم يوم القيامة عن خَلَّتين : عما كانوا يعبدون ، وعما أجابوا المرسَلين .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله : ﴿ فيومئذ لا يُسأَل عن ذنبه إِنس ولا جانّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] فعنه جوابان :

أحدهما : أنه لا يسألهم : هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم ، وإِنما يقول : لم عملتم كذا ؟ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنهم يُسأَلون في بعض مواطن القيامة ، ولا يُسأَلون في بعضها ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾

فيه ثلاثة أقوال :



---

أحدها : فامض لما تؤمر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أَظْهِر أمرك ، رواه ليث عن مجاهد .

قال ابن قتيبة : "فاصدع بما تؤمر" أي : أَظْهِر ذلك .

وأصله : الفَرْق والفتح ، يريد : اصدع الباطل بحقك .

وقال الزجاج : اظهَر بما تؤمر به ، أُخذ ذلك من الصديع ، وهو الصبح ، قال الشاعر :

كأنَّ بياضَ غُرَّته صَدِيع . . .

وقال الفراء : إِنما لم يقل : بما تؤمر به ، لأنه أراد : فاصدع بالأمر .

وذكر ابن الأنباري أن "به" مضمرة ، كما تقول : مررت بالذي مررت .

والثالث : أن المراد به ، الجهر بالقرآن في الصلاة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

قال موسى بن عبيدة : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه .

وفي قوله : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : اكفف عن حربهم .

والثاني : لا تبالِ بهم ، ولا تلتفت إِلى لومهم على إِظهار أمرك .

والثالث : أعرضْ عن الاهتمام باستهزائهم .

وأكثر المفسرين على أن هذا القدْر من الآية منسوخ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(29/429)

---

وقال القرطبى :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ المعنى : قد أغنيتك بالقرآن عما في أيدي الناس ؛ فإِنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أي ليس منا من رأى أنه ليس يَغْنَى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره إِلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى .

يقال : إنه وافى سبع قوافل من بُصْرَى وأذْرِعات ليهود قُريظة والنّضِير في يوم واحد ، فيها البُرّ والطِّيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ أي فهي خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدّن أعينكم إليها .

وإلى هذا صار ابن عُيينة ، وأورد قوله عليه السلام : " ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن " أي من لم يستغن به .

وقد تقدّم هذا المعنى في أوّل الكتاب .

ومعنى ﴿ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ أي أمثالاً في النعم ، أي الأغنياء بعضهم أمثال بعض في الغنى ، فهم أزواج .

الثانية : هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام ، وإقبال العبد على عبادة مولاه .

ومثله ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [ طها : 131 ] الآية .

وليس كذلك ؛ فإنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" حُبِّبَ إليّ من دنياكم النساء والطيب وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة " وكان عليه الصلاة والسلام يتشاغل بالنساء ، جِبِلّة الآدمية وتشوّف الخِلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب

، ولا تقرّ له عين إلا في الصلاة لدى مناجاة المولى .

ويرى أن مناجاته أحْرى من ذلك وأولى .

(30/429)

---

ولم يكن في دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان في دين عيسى ، وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدميّ ، يأخذ من الآدمية بشهواتها ويرجع إلى الله بقلب سليم .

ورأى القراء والمخلصون من الفضلاء الانكفافَ عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليوم أولى ؛ لما غَلَب على الدنيا من الحرام ، واضطر العبد في المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعة من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " يأتي على الناس زمان يكون خير مال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القطر يفرُّ بدينه من الفتن " قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا .

وقيل : المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به في الدنيا فلك في الآخرة أفضل منه .

وقيل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العذاب .

﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أَلِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضَعْ لهم .

وأصله أن الطائر إذا ضمّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتقريب الإنسان أتباعه .

ويقال : فلان خافض الجناح ، أي وقور ساكن .

والجناحان من ابن آدم جانباه ؛ ومنه ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ [ طه : 22 ]

وجناح الطائر يده .

وقال الشاعر :

وحسبك فتيةٌ لزعيم قوم . . .

يمدّ على أخي سُقم جناحا

أي تواضعاً وليناً .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) ﴾

في الكلام حذف ؛ أي إني أنا النذير المبين عذاباً ، فحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه ، كما قال في موضع آخر : ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [ فصلت : 13 ] .

وقيل : الكاف زائدة ، أي أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين ؛ كقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [ الشورى : 11 ] .

وقيل : أنذرتكم مثل ما أنزلنا بالمقتسمين .

وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أي من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذي بغَوْا ؛ فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

واختلف في "الْمُقْتَسِمِينَ" على أقوال سبعة : الأوّل : قال مقاتل والفراء : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا أعقاب مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها : لا تغترُّوا بهذا الخارج فينا يدّعي النبوة ؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن .

وسُمُّوا المقتسمين لأنهم اقتسموا هذه الطرق ، فأماتهم الله شرّ مِيتة ، وكانوا نصبوا الوليد بن المغيرة حَكَماً على باب المسجد ، فإذا سألوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك .

الثاني : قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأوّلين .

الثالث : قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لي وهذه السورة لك .

وهو القول الرابع .

الخامس : قال قتادة : قسموا كتابهم ففرّقوه وبددوه وحرّفوه .

السادس : قال زيد بن أسلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسُمّوا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [ النمل : 49 ] .

السابع : قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيماناً تحالفوا عليها .

وقيل : إنهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ومنبّه بن الحجاج ؛ ذكره الماوردي .

*(32/429)*

---

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) ﴾

هذه صفة المقتسمين .

وقيل : هو مبتدأ وخبره "لنسألنهم" .

وواحد العِضِين عِضَة ، من عضّيت الشيء تعضيه أي فرّقته ؛ وكل فرقة عِضَة .

وقال بعضهم : كانت في الأصل عِضْوَة فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين ؛ كما قالوا :

عِزِين في جمع عِزة ، والأصل عِزْوة .

وكذلك ثُبة وثبين .

ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه في المقتسمين .

قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض .

وقيل : فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً .

عضوته أي فرقته .

قال الشاعر هو رؤبة :

وليس دين الله بالمُعَضَّى . . .

أي بالمفرّق .

ويقال : نقصانه الهاء وأصله عضْهة ؛ لأن العِضَه والعِضين في لغة قريش السحر .

وهم يقولون للساحر : عاضِه وللساحرة عاضِهة .

قال الشاعر :

أعوذ بربي من النافِثا . . .

تِ في عُقَد العاضِه المُعْضِه

وفي الحديث : "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضِهة والمُسْتَعْضهة" ، وفُسِّر : الساحِرة والمستسحِرة .

والمعنى : أكثَروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه ، فقالوا : سحر وأساطير الأولين ، وأنه مفترًى ، إلى غير ذلك .

ونظير عِضة في النقصان شَفة ، والأصل شَفَهة .

كما قالوا : سنة ، والأصل سنَهة ، فنقصوا الهاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهي للتأنيث .

وقيل : هو من العَضْه وهي النميمة .

والعَضِيهة البهتان ، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيه .

يقال عَضَهه عَضْهاً رماه بالبهتان .

وقد أَعْضَهْت أي جئت بالبهتان .

قال الكسائيّ : العِضَة الكذب والبهتان ، وجمعها عِضون ؛ مثل عِزة وعزون ؛ قال تعالى : ﴿ الذين جعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ .

ويقال : عَضّوه أي آمنوا بما أحبوا منه وكفروا بالباقي ، فأحبط كفرهم إيمانَهم .

وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهي شجر الوادي ويخرج كالشوك .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أي لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا .

وفي البخاريّ : وقال عِدة من أهل العلم في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روي مرفوعاً ، روى الترمذيّ الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ قال : حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : "فوربك لنسألنهم أجمِعين عما كانوا يعملون" قال : " عن قول لا إله إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيله العمل فقال : ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ولم يقل عما كانوا يقولون ، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضاً عمل اللسان ، فإنما المعنيّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قولٌ والعمل عملٌ .

وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عن لا إله إلا لله " أي عن الوفاء بها والصدق لمقالها .

كما قال الحسن البصريّ : ليس الإيمان بالتحلّي ولا الدين بالتمني ولكن ما وقر في القلوب

وصدقته الأعمال.

ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة" قيل: يا رسول الله، وما إخلاصها؟ قال: أن تُحجزه عن محارم الله" رواه زيد بن أرقم.

*(34/429)*

---

وعنه أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عهد إليّ ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وَجَبَت له الجنة قالوا: يا رسول الله، وما الذي يخلط بلا إله إلا الله؟ قال: حرصاً على الدنيا وجَمْعاً لها ومنعاً لها، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة" وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا: لا إله إلا الله رُدّت عليهم وقال الله كذبتم" أسانيدها في نوادر الأصول.

قلت: والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافِرهم ومؤمِنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه في كتاب (التذكرة).

فإن قيل: وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا: فيه خلاف، وذكرناه في التذكرة.

والذي يظهر سؤاله ، للآية وقوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ﴾ [ الصافات : 24 ] وقوله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [ الغاشية : 25 26 ] .

فإن قيل : فقد قال تعالى :

﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [ القصص : 78 ] وقال : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] ، وقال : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله ﴾ [ البقرة : 174 ] ، وقال : ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [ المطففين : 15 ] .

قلنا : القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه .

قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها .

وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول .



---

وقيل : "لنسألنهم أجمعين" يعني المؤمنين المكلفين ؛ بيانه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [ التكاثر : 8 ] .

والقول بالعموم أولى كما ذكر .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾

أي بالذي تؤمر به ، أي بلّغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك .

والصدع : الشق .

وتصدّع القوم أي تفرقوا ؛ ومنه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [ الروم : 43 ] أي يتفرّقون .

وصدعته فانصدع أي انشق .

وأصل الصدع الفرق والشق .

قال أبو ذُؤَيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهنّ رِبَابة وكأنه . . .

يَسَرٌ يُفيض على القِداح ويَصْدَع

أي يفرق ويشق .

فقوله : "اصدع بِمَا تُؤْمَرُ" قال الفراء : أراد فاصدع بالأمر ، أي أظهر دينك ، ف "ما" مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر .

وقال ابن الأعرابي : معنى اصدع بما تؤمر ، أي اقصد .

وقيل : "فاصدع بما تؤمر" أي فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرّقون

بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برأك الله عما يقولون .

وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [ التوبة : 5 ] .

وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى : "فاصدع بِما تؤمر" فخرج هو وأصحابه .

وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن في الصلاة .

"وأعرِض عنِ المشرِكين" لا تبال بهم .

وقال ابن إسحاق : لما تمادَوْا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى "فاصدع بِما تؤمر وأعِرض عنِ المشرِكين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(36/429)

---

وقال الخازن :

قوله ﴿ لا تمدن عينيك ﴾

الخطاب للنبي ( صلى الله عليه وسلم ) أي لا تمدن عينيك يا محمد ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً ﴾ يعني أصنافاً ﴿ منهم ﴾ يعني من الكفار متمنياً لها نهى الله رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) عن الرغبة في الدنيا ، ومزاحمة أهله عليها والمعنى أنك قد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء ، فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات إلى الدنيا والرغبة فيها .

روي أن سفيان بن عيينة تأول قول النبي ( صلى الله عليه وسلم ) " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " يعني من لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية .

قيل : إنما يكون مادّاً عينيه إلى الشيء ، إذا أدام النظر إليه مستحسناً له فيحصل من ذلك تمني ذلك الشيء المستحسن ، فكان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا ينظر إلى شيء من متاع الدنيا ولا يلتفت إليه ولا يستحسنه ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ يعني ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا وقيل ولا تحزن على إيمانهم إذا لم يؤمنوا ففيه النهي عن الالتفات إلى أموال الكفار ، والالتفات إليهم أيضاً وروى البغوي بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " لا تغبطن فاجراً بنعمته فإنك لا تدري ما هو لاق بعد موته أن له عند الله قاتلاً لا يموت قيل : وما هو ؟ قال : النار "

( ق ) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) " إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال ، والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه " لفظ البخاري ولمسلم قال : قال

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم" قال عوف بن عبد الله بن عتبة: كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هماً مني كنت أرى دابة خيراً من دابتي وثوباً خيراً من ثوبي، فلما سمعت هذه الحديث صحبت الفقراء فاسترحت.

(37/429)

---

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ واخفض جناحك ﴾ يعني ليِّن جانبك ﴿ للمؤمنين ﴾ وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار، أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين.

﴿ وقل ﴾ أي وقل لهم يا محمد ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ لما أمر الله تعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بالزهد في الدنيا، والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم، والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى: إني أنا النذير بالعقاب لمن عصاني المبين النذارة ﴿ كما أنزلنا المقتسمين ﴾ يعني أنذركم عذاباً كعذاب أنزلناه بالمقتسمين، قال ابن عباس: أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى.

وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة: سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه، فما

وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به ، وقال عكرمة : إنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لي وقال : آخر هذه السورة لي ، وإنما فعلوا ذلك استهزاء به ، وقال مجاهد : إنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها ، وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم .

وقال قتادة وابن السائب : أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لأن أقوالهم تقسمت في القرآن .

فقال بعضهم : إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم إنه أساطير الأولين وقال ابن السائب : سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها ، وذلك أن الوليد بن المغيرة بعث رهطاً من أهل مكة .

قيل ستة عشر .

وقيل : أربعين .

فقال لهم : انطلقوا فتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم أهل الموسم ، فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم إنه كاهن وليقل بعضكم إنه شاعر ، وليقل بعضكم إنه ساحر فإذا جاؤوا إلي صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم من حجاج العرب : لا تغتروا بهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فإنه مجنون كاهن ، وشاعر .

وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام فإذا جاؤوا وسألوه عما قال : أولئك المقتسمون .

قال : صدقوا .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين .

قال : هم اليهود والنصارى جزؤوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قيل : هو جمع عضة من قولهم عضيت الشيء إذا فرقته ، وجعلته أجزاء وذلك لأنهم جعلوا القرآن أجزاء مفرقة .

فقال بعضهم : هو سحر .

وقال بعضهم : هو كهانة .

وقال بعضهم : هو أساطير الأولين .

وقيل : هو جمع عضة .

وهو الكذب والبهتان وقيل : المراد به العضة وهو السحر يعني أنهم جعلوا القرآن عضين ﴾

عما كانوا يعملون ﴾ يعني عما كانوا يقولونه في القرآن .

وقيل : عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي .

وقيل : يرجع الضمير في لنسألنهم إلى جميع الخلق المؤمن والكافر لأن اللفظ عام فحمله على العموم أولى قال جماعة من أهل العلم عن لا إله إلا الله عن أنس عن النبي صلى الله عليه سلم في قوله : لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال :

" عن قول لا إله إلا الله " أخرجه الترمذي .

وقال : حديث غريب وقال أبو العالية : يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون ، وماذا أجابوا المرسلين .

(39/429)

---

فإن قلت : كيف الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ قلت : قال ابن عباس : لا يسألهم هل عملتم لأنه أعلم به منهم ، ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمدوه قطرب فقال : السؤال ضربان سؤال استعلام وسؤال توبيخ فقال تعالى ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ يعني سؤال استعلام وقوله ﴿ لنسألنهم أجمعين ﴾ سؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر ، وهو يروى عن ابن عباس أيضاً أنه

قال في الآيتين : أن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها نظيره قوله سبحانه وتعالى ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ وقال تعالى في آية أخرى ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قوله سبحانه وتعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال ابن عباس : أظهر .

ويروى عنه أمضه .

وقال الضحاك : أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي أفرق بالقرآن بين الحق الباطل أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الآية بإظهار الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من أرسل اليهم قال عبد الله بن عبيدة .

ما زال النبي (صلى الله عليه وسلم) مستخفياً حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اكفف عنهم ولا تلتفت إلى لومهم على إظهار دينك ، وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام باستهزائهم ، وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 ص ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾

ولما ذكر تعالى ما أنعم به على رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) من إتيانه ما آتاه ، نهاه .

وقد قلنا : إنّ النهي لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة عن طموح عينه إلى شيء من متاع الدنيا ، وهذا وإن كان خطاباً للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) فالمعنى : نهى أمته عن ذلك لأنّ من أوتي القرآن شغله النظر فيه وامتثال تكاليفه وفهم معانيه عن الاشتغال بزهرة الدنيا .

ومد العين للشيء إنما هو لاستحسانه وإيثاره .

وقال ابن عباس : أي لا تتمنّ ما فضلنا به أحداً من متاع الدنيا أزواجاً منهم ، أي رجالاً مع نسائهم ، أو أمثالاً في النعم ، وأصنافاً من اليهود والنصارى والمشرين أقوال .

ونهاه تعالى عن الحزن عليهم إن لم يؤمنوا ، وكان كثير الشفقة على من بعث إليه ، واداًّ أن يؤمنوا بالله كلهم ، فكان يلحقه الحزن عليهم .

نهاه تعالى عن الحزن عمن لم يؤمن ، وأمره بخفض جناحه لمن آمن ، وهي كناية عن التلطف والرفق .

وأصله : أنّ الطائر إذا ضم الفرخ إليه بسط جناحه لم ثم قبضه على فرخه ، والجناحان من ابن آدم جانباه .

ثم أمره أن يبلغ أنه هو النذير الكاشف لكم ما جئت به إليكم من تعذيبكم إنْ لم تؤمنوا ،

وإنزال نقم الله المخوفة بكم .

والكاف قال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما : أن يتعلق بقوله : ولقد آتيناك أي : أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب ، وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين ، حيث قالوا بعنادهم وعداوتهم : بعضه حق موافق للتوارة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، فاقتسموه إلى حق وباطل ، وعصوه .

وقيل : كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم : سورة البقرة لي ، ويقول الآخر : سورة آل عمران لي .



ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرأونه من كتبهم ، وقد اقتسموه بتحريفهم ، وبأن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض ، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض ، وهذه تسلية لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم : سحر ، وشعر ، وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم .

والثاني : أن يتعلق بقوله تعالى : وقل إني أنا النذير المبين ، وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني : اليهود ، هو ما جرى على قريظة والنضير ، جعل المتوقع

بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز لأنه إخبار بما سيكون وقد كان .

ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير أي : أنذر المعضين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم : الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ، فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) يقول بعضهم : لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر ، ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، وقبله بآفات : كالوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وغيرهم .

أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام والاقتسام بمعنى التقاسم



---

( فإن قلت ) : إذا علقت قوله كما أنزلنا بقوله ولقد آتيناك فما معنى توسط لا تمدن إلى آخره بينهما ( قلت ) : لما كان ذلك تسلية للرسول ( صلى الله عليه وسلم ) عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين انتهى أما الوجه الأول وهو تعلق كما

بآتيناك فذكره أبو البقاء على تقدير وهو وأن يكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف تقديره آتيناك سبعاً من المثاني إيتاء كما أنزلنا أو إنزالاً كما أنزلنا لأن آتيناك بمعنى أنزلنا عليك وأما قوله أن المقتسمين هم أهل الكتاب فهو قول الحسن ومجاهد ورواه العوفي عن ابن عباس وأما قوله اقتسموا القرآن فهو قول ابن عباس فيما رواه عنه سعيد بن جبير وأما قوله اقتسموا فقال بعضهم سورة البقرة وبعضهم سورة آل عمران الخ فقاله عكرمة وقال السدي هم الأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث والوليد والعاصي والحرث بن قيس ذكروا القرآن فمن قائل البعوض لي ومن قائل النمل لي وقائل الذباب لي وقائل العنكبوت لي استهزاء فأهلك الله جميعهم .

وأما قوله أن القرآن عبارة عما يقرأونه من كتبهم إلى آخره فقاله مجاهد .

وأما قوله ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير أي أنذر المعضين فلا يجوز أن يكون منصوباً بالنذير كما ذكر لأنه موصوف بالمبين ولا يجوز أن يعمل إذا وصف قبل ذكر المعمول على مذهب البصريين لا يجوز هذا عليم شجاع علم النحو فتفصل بين عليم وعلم بقوله شجاع وأجاز ذلك الكوفيون وهي مسألة خلافية تذكر دلائلها في علم النحو .

وأما قوله الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير فمروي عن قتادة إلا أنه قال بدل شعر كهانة .

وأما قوله الذين اقتسموا مداخل مكة فهو قول السائب وفيه أن الوليد بن المغيرة قال : ليقل بعضكم كاهن وبعضكم ساحر وبعضكم شاعر وبعضكم غاوٍ وهم حنظلة بن أبي سفيان وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصي بن هشام وأبو قيس بن الوليد وقيس بن الفاكه وزهير بن أمية وهلال بن عبد الأسود والسائب بن صيفي والنضر بن احرث وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الحجاج وأمية بن خلف وأوس بن المغيرة تقاسموا على تكذيب رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فأهلكوا جميعاً .

وأما قوله أنهم الذين تقاسموا أن يبيتوا صالحاً فقول عبد الله بن زيد .

وقال ابن عطية والكاف من قوله كما متعلقة بفعل محذوف تقديره وقل إني أنا النذير عذاباً كالذي أنزلنا على المقتسمين فالكاف اسم في موضع نصب هذا قول المفسرين وهو عندي غير صحيح لأن كما ليس مما يقوله محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بل هو من قول الله تعالى فينفصل الكلام وإنما يترتب هذا القول بأن يقدر ان الله تعالى قال له أنذر عذاباً كما والذي أقول في هذا المعنى وقل أنا النذير المبين كما قال قبلك رسلنا وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك ويحتمل أن يكون المعنى وقل أني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً

وهذا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى .

أما قوله وهو عندي غير صحيح إلى آخره فقد استعذر بعضهم عن ذلك فقال الكاف متعلقة بمحذوف دل عليه المعنى تقديره أنا النذير بعذاب مثل ما أنزلنا وإن كان المنزل الله كما يقول بعض خواص الملك أمرنا بكذا وإن كان الملك هو الآمر .

وأما قوله والذي أقول في هذا المعنى إلى آخره فكلام مثبج ولعله من الناسخ ولعله أن يكون وأنزلنا عليك كما أنزلنا عليهم .

وقال أبو البقاء وقيل التقدير متعناهم تمتيعاً كما أنزلنا والمعنى متعنا بعضهم كما عذبنا بعضهم .

وقيل التقدير إنذار مثل ما أنزلنا انتهى .

(44/429)

---

وقيل الكاف زائدة التقدير أنا النذير المبين ما أنزلنا على المقتسمين هذه أقوال وتوجيهات متكلفة والذي يظهر لي أنه تعالى لما أمره بأن لا يحزن على من لم يؤمن وأمره بخفض جناحه للمؤمنين أمره أن يعلم المؤمنين وغيرهم أنه هو النذير المبين لئلا يظن المؤمنون أنهم لما أمر عليه الصلاة والسلام بخفض جناحه لهم خرجوا من عهدة النذارة فأمره تعالى بأن يقول لهم إني

أنا النذير المبين لكم ولغيركم كما قال تعالى إنما أنت منذر من يخشاها وتكون الكاف نعتاً لمصدر محذوف تقديره وقل قولاً مثل ما أنزلنا على المقتسمين إنك نذير لهم فالقول للمؤمنين في النذارة كالقول للكفار المقتسمين لئلا يظن إنذارك للكفار مخالف لإنذار المؤمنين بل أنت في وصف النذارة لهم بمنزلة واحدة تنذر المؤمنين كما تنذر الكافرين كما قال تعالى نذير وبشير لقوم يؤمنون والظاهر أن الذين صفة للمقتسمين وجوزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن ينتصب على الذم وتقدم تجويز الزمخشري له أن يكون مفعولاً بالنذير فوربك أقسم تعالى بذاته وربوبيته مضافاً إلى رسوله على جهة التشريف والضمير في لنسألنهم يظهر عوده على المقتسمين وهو وعيده من سؤال تقريع ويقال أنه يعود على الجميع من كافر ومؤمن إذ قد تقدم ذكرهما والسؤال عام للخلق ويجوز أن يكون السؤال كناية عن الجزاء وعن ما كانوا يعملون عام في جميع الأعمال .

وقال أبو العالية يسأل العباد عن حالتين عن ما كانوا يعبدون وعن ما أجابوا المرسلين وقال ابن عباس يقال لهم لم عملتم كذا ؟ قال أنس وابن عمر ومجاهد السؤال عن لا إله إلا الله وذكره الزهراوي عن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وإذا ثبت ذلك فيكون المعنى عن الوفاء بلا إله إلا الله والصدق لمقالها كما قال الحسن ليس الإيمان بالتحلي ولا الدين بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال .

وقال ابن عباس فاصدع بما تؤمر امض به .

وقال الكلبي اجهر به وأظهره من الصديع وهو الفجر قال الشاعر :

(45/429)

---

كأن بياض غرته صديع . . .

وقال السدي تكلم بما تؤمر .

وقال ابن زيد أعلم بالتبليغ .

وقال ابن بحر جرد لهم القول في الدعاء إلى الإيمان .

وقال أبو عبيدة عن رؤبة ما في القرآن أغرب من قوله فاصدع بما تؤمر وما في بما بمعنى الذي والمفعول الثاني محذوف تقديره بما تؤمره وكان أصله تؤمر به من الشرائع فحذف الحرف فتعدى الفعل إليه .

وقال الأخفش ما موصولة والتقدير فاصدع بما تؤمر بصدعه فحذف المضاف ثم الجار ثم الضمير .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون ما مصدرية أي بأمرك مصدر من المبني للمفعول انتهى .

وهذا ينبني على مذهب من يجوز أن المصدر يراد به أن والفعل المبني للمفعول والصحيح أن

ذلك لا يجوز وأعرض عن المشركين من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(46/429)

---

وقال أبو السعود :

﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾

لا تطمَحْ ببصرك طُموحَ راغب ولا تُدِمْ نظرك ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ من زخارفِ الدنيا وزينتها ومحاسِنها وزهْرتها ﴿ أزواجا مّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفرة فإن ما في الدنيا من أصناف الأموالِ والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَرٌ لا يُعبأ به أصلاً ، وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه : " مَنْ أوتيَ القرآنَ فرآى أن أحداً أوتيَ أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيماً وعظّم صغيراً " وروي ( أنه وافَتْ من بصرى وأذْرِعاتَ سبعُ قوافلَ ليهود بني قُريظةَ والنّضِير فيها أنواعُ البَزِّ والطيب والجواهر وسائرُ الأمتعة فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموالُ لنا لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فقيل لهم : قد أُعطِيتم سبعَ آياتٍ وهي خير من هذه القوافل السبْع ) ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ حيث لم يؤمنوا ولم ينتظِموا أتباعك في سلك ليتقوى بهم ضعفاءُ المسلمين ، وقيل : أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فإن تمّتعهم

به لا يكون مداراً للحزن عليهم ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي تواضَعْ لهم وارفُق بهم وأَلِنْ جانبك لهم وطِبْ نفساً من إيمان الأغنياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النذير المبين ﴾ أي المنذِرُ المُظْهِر لنزول عذاب الله وحلولِه ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ قيل : إنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك ﴾ الخ ، أي أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب .

(47/429)

---

﴿ الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ أي قسَموه إلى حق وباطل ، حيث قالوا عِناداً وعدواناً : بعضُه حقٌّ موافقٌ للتوراة والإنجيل ، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما ، أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً حيث كان يقول بعضُهم : سورةُ البقرة لي ، وبعضُهم : سورةُ آلِ عمران لي وهكذا ، أو قسموا ما قرأوا من كتبهم وحرّفوه فأقرّوا ببعضه وكذبوا ببعضه ، وحُمل توسيطُ قوله تعالى : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ على إمداد ما هو المرادُ بالكلام من التسلية ، وعُقّب ذلك بأنه جل المقامُ عن التشبيه ، ولقد أوتيَ عليه الصلاة والسلام ما لم يؤتَ أحدٌ قبله ولا بعده مثلَه ، وقيل : إنه متعلق بقوله : ﴿ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ فإنه في قوة الأمرِ بالإنذار ، كأنه قيل : أنذِرْ قريشاً مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين ، يعني اليهودَ ، وهو ما جرى

على بني قريظةَ والنضير بأن جُعل المتوقَّعُ كالواقع وقد وقع كذلك ، وأنت خبيرٌ بأن ما يُشبَّه به العذابُ المنذَرُ لا بد أن يكون محققَ الوقوعِ معلومَ الحالِ عند المنذَرين إذ به تتحققُ فائدةُ التشبيهِ ، وهي تأكيدُ الإنذار وتشديدُه ، وعذابُ بني قريظةَ والنضير مع عدم وقوعِه إذ ذاك لم يسبِقْ به وعدٌ ووعيد فهم منه في غفلة محضةٍ وشك مُريب ، وتنزيلُ المتوقَّع منزلةَ الواقع له موقعٌ جليلٌ من الإعجاز لكن إذا صادف مقاماً يقتضيه كما في قوله تعالى :

(48/429)

---

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ ونظائرِه . على أن تخصيصَ الاقتسام باليهود بمجرد اختصاصِ العذاب المذكور بهم مع شِركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرِّع على الموافقة والمخالفة ، وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشاملِ للكتابين بل تخصيصُ العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسامِ تخصيصٌ من غير مخصِّص ، وقد جُعل الموصول مفعولاً أولَ لأنذر أي أنذر المعَضّين الذين يجزّئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطيرَ ، مثلَ ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشرَ الذين اقتسموا مداخل مكةَ أيام الموسم فقعد كل منهم في مدخل لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضُهم : لا تغترّوا بالخارج منا فإنه ساحرٌ ، ويقول الآخر : كذابٌ ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ، وقبله بآفات وفيه مع

ما فيه من الاشتراك لما سبق في عدم كون العذابِ الذي شُبه به العذابُ المنذَرُ واقعاً ولا معلوماً للمنذَرين ولا موعودَ الوقوع أنه لا داعيَ إلى تخصيص وصفِ التعضِيةِ بهم وإخراجِ المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوةً لهم في ذلك ، فإن وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرعٌ على وصفهم للقرآن بذلك ، وهل هو إلا نفسُ التعضيةِ ، ولا إلى إخراجهم من حكم الإنذارِ على ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يُشبه به عذابُ غيرِهم ولا مخصوصاً بهم ، بل عامًّا لكلا الفريقين وغيرِهم مع أن بعضَ المنذَرين كالوليد بنِ المغيرةَ والعاصِ بن وائل والأسودِ بن المطلب قد هلكوا قبل مهلِك أكثرِ المقتسمين يوم بدر ، ولا إلى تقديم المفعول الثاني على الأول كما ترى ، وقيل : إنه وصفٌ لمفعول النذيرِ أقيمَ مُقامه والمقتسمون هم القاعدون في مداخل مكة كما حرر .

(49/429)

---

وفيه مع ما مر أن قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ صريحٌ في أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام ، والاعتذارُ بأن ذلك من باب ما يقوله بعضُ خواصّ الملِك أُمرْنا بكذا وإن كان الأمرُ هو الملكَ حسبما سلف في قوله تعالى : ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ تعسّفٌ لا يخفى ، وأن إعمال الوصفِ الموصوف مما لم يجوِّزه البصريون فلا بد

من الهرب إلى مسلك الكوفيين ، أو المصير إلى جعله مفعولاً غيرَ صريح أي أنا النذيرُ المبين بعذاب مثلِ عذاب المقتسمين ، وقيل : المراد بالمقتسمين الرهطُ الذين تقاسموا على أن يبيّتوا صالحاً عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى ، وأنت تدري أن عذابَهم حيث كان متحققاً ومعلوماً للمنذرين حسبما نطق به القرآنُ العظيم صالحٌ لأن يقعَ مشبَّهاً به العذابُ المنذَر ، لكن الموصولَ المذكورَ عَقيبَه حيث لم يمكن كونُه صفةً للمقتسمين حينئذ ، فسواءٌ جعلناه مفعولاً أولَ للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية في حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور في حيز المفعول الثاني فائدة ، لما أن ذلك إنما يكون للإشعار بعلّية الصلة والصفةِ للحكم الثابتِ للموصول والموصوف ، فلا يكون هناك وجهُ شبَهٍ يدور عليه تشبيهُ عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكِهم في السبب فإن المُعَضّين بمعزل من التقاسم على التبييت الذي هو السبب لهلاك أولئك ، كما أن أولئك بمعزل من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء ، ولا علاقة بين السببين مفهوماً ولا وجوداً تصحّح وقوعَ أحدِهما في جانب والآخرِ في جانب ، واتفاقُ الفريقين على مطلق الاتفاقِ على الشر المفهومِ من الاتفاق على الشر المخصوص الذي هو التبييتُ المدلولُ المدلولُ عليه بالتقاسم غيرُ مفيد إذ لا دِلالةَ لعنوان التعضيةِ على ذلك وإنما يدل عليه اقتسامُ المداخِل ، وجعلُ الموصولِ مبتدأً على أن خبرَه الجملةُ القسَمية

لا يليق بجزالة التنزيلِ وجلالة شأنه الجليل .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأقربَ من الأقوال المذكورةِ أنه متعلّق بالأول ، وأن المرادَ بالمقتسمين أهلُ الكتابين ، وأن الموصولَ مع صلته صفةٌ مبينة لكيفية اقتسامِهم ، ومحلُّ الكاف النصبُ على المصدرية ، وحديثُ جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظرِ الجليل ، والمعنى لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم إيتاءً مماثلاً لإنزال الكتابين على أهلهما ، وعدمُ التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرضَ بيانُ المماثلة بين الإيتاءين لا بين متعلَّقَيهما ، والعدولُ عن تطبيق ما في جانب المشبَّه به على ما في جانب المشبَّه بأن يقال : كما آتينا المقتسِمين حسبما وقع في قوله تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ الخ ، للتنبيه على ما بين الإيتاءين من التنائي فإن الأول على وجه التكرِمة والامتنان وشتان بينه وبن الثاني .

(51/429)

---

ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبَّهاً به ، فإن ذلك إنما هو لمُسلَّميته عندهم وتقدمِ وجودُه على المشبه زماناً لا لمزيةٍ تعود إلى ذاته كما في الصلاة الخليلية ، فإن التشبيه فيها ليس لكون رحمة

الله تعالى الفائضةِ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتمَّ وأكملَ مما فاض على النبي عليه الصلاة والسلام ، وإنما ذلك للتقدم في الوجود والتنصيصِ عليه في القرآن العظيم ، فليس في التشبيه شائبةُ إشعار بأفضلية المشبَّه به من المشبه ، فضلاً عن إيهام أفضليةِ ما تعلق به الأول مُما تعلق به الثاني ، وإنما ذُكروا بعنوان الاقتسام إنكاراً لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الإنزال المذكورِ ، وإيذاناً بأنه كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب إيمانِهم بما أُنزل عليهم بحكم الاشتراكِ في العلة والاتحادِ في الحقيقة التي هي مطلقُ الوحي ، وتوسيطُ قوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ ﴾ الخ ، لكمال اتصالِه بما هو المقصودُ من بيان حالِ ما أوتيَ النبي عليه الصلاة والسلام ، ولقد بُيّن أولاً علوُّ شأنِه ورفعة مكانِه بحيث يستوجب اغتباطَه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءَه به عما سواه ، ثم نُهي عن الالتفات إلى زَهرة الدنيا ، وعُبّر عن إيتائها لأهلها بالتمتيع المنبىءِ عن وشك زوالِها عنهم ثم عن الحزَن بعدم إيمانِ المنهمكين فيها ، وأُمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاءِ بهم عن غيرهم وبإظهار قيامِه بمواجب الرسالة ومراسمِ النذارة حسبما فُصّل في تضاعيف ما أوتي من القرآن العظيم ، ثم رُجِع إلى كيفية إيتائه على وجه أُدمج فيه ما يُزيح شُبَهَ المنكِرين ويستنزِلهم عن العِناد من بيان مشاركتِه لما لا ريب لهم في كونه وحياً صادقاً فتأمل ، والله عنده علم الكتاب ، هذا وقد قيل : المعنى وقل إني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً ، على أن المقتسِمين أهلُ الكتاب انتهى .

يريد أن ما في ( كما ) موصولةٌ ، والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقةُ وهي مع ما في حيزها في محل النصبِ على الحالية من مفعول قل ، أي قل هذا القولَ حال كونِه كما أنزلنا على أهل الكتابين أي موافقاً لذلك ، فالأنسبُ حينئذ حملُ الاقتسام على التحريف ليكون وصفُهم بذلك تعريضاً بما فعلوا من تحريفهم وكِتمانهم لنعت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ عِضِينَ ﴾ جمعُ عِضة وهي الفِرقة ، أصلها عِضْوَةٌ ، فِعْلة من عضّى الشاةَ تعضيةً إذا جعلها أعضاءَ ، وإنما جُمعت جمع السلامةِ جبراً للمحذوف كسنينَ وعِزينَ ، والتعبيرُ عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريقُ الأعضاء من ذي الروح المستلزمُ لإزالة حياتِه وإبطالِ اسمِه دون مطلق التجزئةِ والتفريق اللذَيْن ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيضُ من المِثليات ، للتنصيص على كمال قبحِ ما فعلوه بالقرآن العظيم ، وقيل : هي فِعلة من عضهتُه إذا بهتُّه . وعن عكرِمةَ : العضه السحرُ بلسانِ قريشٍ ، فنقصانها على الأول واو وعلى الثاني هاء .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أي لنسألن يوم القيامة أصنافَ الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤالَ توبيخٍ وتقريع .

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من قول وفعل وترْكٍ ، فيدخُل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضيةِ دخولاً أولياً ، ولنجزّينهم بذلك جزاءاً موفوراً ، وفيه من التّشديد وتأكيدِ الوعيدِ ما لا يخفى ، والفاءُ لترتيب الوعيدِ على أعمالهم التي ذكر بعضها ، وفي التعرض لوصف الربوبيةِ مضافاً إليه عليه الصلاة والسلام إظهارُ اللطف به عليه الصلاة والسلام .

(53/429)

---

﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فاجهر به ، من صَدَع بالحجة إذا تكلم بها جِهاراً ، أو افرُق بين الحق والباطل ، وأصلُه الإبانةُ والتمييزُ ، وما مصدرية أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ ، أي ما تؤمر به من الشرائع المودعة في تضاعيف ما أوتيتَه من المثاني السبعِ والقرآنِ العظيم ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبالِ بهم ولا تتصدّ للانتقام منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(54/429)

---

وقال الآلوسى :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾

لا تطمح بنظرك طموح راغب ولا تدم نظرك ﴿ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ﴿ أزواجا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفرة اليهود والنصارى والمشركين ، وقيل : رجالاً مع نسائهم ، والنهي قيل له صلى الله عليه وسلم وهو لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة ، وقيل : هو لأمته وان كان الخطاب له عليه الصلاة والسلام ، وأيد بما أخرجه ابن جرير . وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه نعم كان صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية شديد الاحتياط فيما تضمنته ، فقد أخرج أبو عبيد .

وابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير أنه عليه الصلاة والسلام مر با بل لحي يقال لهم بنو الملوح أو بنو المصطلق قد عنست في أبوالها وأبعارها من السمن فتقنع بثوبه ومر ولم ينظر إليها لقوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية ، ويعد نحو هذا الفعل من باب سد الذرائع .

ومنهم من أيد الأول بهذا وبدلالة ظاهر السياق عليه ، وحاصلها مع ما قبل أوتيت النعمة العظمة الت كل نعمة وان عظمت فهي بالنسبة إليها حقيرة فعليك أن تستغنى بذلك ولا ترغب في متاع الدنيا ، وجعل من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " بناء على أن "يتغن" من الغنى المقصور كيستغنى وليس مقصوراً على الممدود ،

ويشهد لذلك ما في الحديث الصحيح في الخيل " وأما التي هي له ستر لا فرجل ربطها تغنياً وتعففاً " وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه من أوتي القرآن فرأى أن أحد أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً .

وقد أخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة ما هو بمعناه ، وقال العراقي : أن الخبر مروى لكن لم أقف على روايته عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه في شيء من كتب الحديث .



---

وحكى بعضهم في سبب نزول الآية أنه وافت من بصرى واذرعات سبع قوافل لقريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البر والطيب والجواهر فقال المسلمون : لو كانت لنا لقتوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله تعالى فنزلت ، فكأنه سبحانه يقول : قد أعطيتكم سبعاً هي خير من سبع قوافل ، وروى هذا عن الحسن بن الفضل .

وتعقب بأنه ضعيف أو لا يصح لأن السورة مكية وقريظة والنضير كانوا بالمدينة فكيف يصح أن يقال ذلك وهو كما ترى .

نعم روى أنه صلى الله عليه وسلم وافى بأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها الخ وهو غير معروف ، وقد قالوا : إنه لم يعهد سفره صلى الله عليه وسلم للشام ، واستؤنس

بخبر النزول على أن النهي معني به سيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام كالنهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ حيث أنهم لم يؤمنوا ، وكان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن كل من بعث إليه ويشق عليه عليه الصلاة والسلام لمزيد شفقته بقاء الكفرة على كفرهم ولذلك قيل له : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ وكأن مرجع الجملة الأولى إلى النهي عن الالتفات إلى أموالهم ومرجع هذه الجملة إلى النهي عن الالتفات إليهم ، وليس المعنى لا تحزن عليهم حيث أنهم المتمتعون بذلك فإن التمتع به لا يكون مداراً للحزن عليهم ، وكون المعنى لا تحزن على تمتعهم بذلك فالكلام على حذف مضاف لا يخفى ما فيه من ارتكاب خلاف الظاهر من غير داع إليه ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كناية عن التواضع لهم والرفق بهم ، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له ، والجناحان من ابن آدم جانباه .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) ﴾

أي المنذر الكاشف نزول عذاب الله تعالى ونقمة املخوفة بمن لم يؤمن .

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90)

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ قيل: إنه متعلق بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ ﴾ [ الحجر: 87 ] الخ على أن يكون في موضع نصب نعتا لمصدر من ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾ محذوف أي آتيناك سبعا من المثاني إيتاء كما أنزلنا وهو في معنى أنزلنا عليك ذلك أنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب.

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) ﴾

أي قسموه إلى حق وباطل حيث قالوا عناداً وعداوة: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما ، وتفسير المقتسمين المذكورين بأهل الكتاب مما روي عن الحسن.

وغيره ، وفي "الدر المنثور" أخرج البخاري.

وسعيد بن منصور.

والحاكم.

وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاءً فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً ، فقد أخرج الطبراني في الأوسط عن الحبر قال: "سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أرأيت قول الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ [ الحجر: 90 ] قال عليه الصلاة والسلام: اليهود والنصارى قال: ﴿ الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ ما عضين؟

قال صلى الله عليه وسلم : " آمنوا ببعض وكفروا ببعض " أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً به ؛ فقد روي عن عكرمة أن بعضهم كان يقول : سورة البقرة لي وبعضهم سورة آل عمران لي وهكذا ، وجوز أن يراد بالمقتسمين أهل الكتاب ويراد من القرآن معناه اللغوي أي المقروء من كتبهم أي الذين اقتسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه وأقروا ببعض وكذبوا ببعض ، وحمل توسط قوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [ الحجر : 88 ] الخ بين المتعلق والمتعلق على إمداد ما هو المراد بالكلام من التسلية .



---

وتعقب القول بهذا التعلق بأنه جل هذا المقام عن التشبيه فلقد أوتي صلى الله عليه وسلم ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله ، وفي حمل القرآن على معناه اللغوي ما فيه ، وقيل : هو متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النذير المبين ﴾ [ الحجر : 89 ] لأنه في قوة الأمر بالإنذار كأنه قيل : أنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين يعني اليهود وهو ما جرى على قريظة .

والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك .

وتعقب بأن المشبه به العذاب المنذر ينبغي أن يكون معلوماً حال النزول وهذا ليس كذلك

فيلغو التشبيه ، وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الإعجاز لكن إذا صادف مقاماً يقتضيه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [ الفتح : 1 ] ونظائره ، على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة ، وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص ، وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من قريش وهي اثنا عشر ، وقال ابن السائب : ستة عشر رجلاً حنظلة بن أبي سفيان .

وعتبة .

وشيبة ابنا ربيعة .

والوليد بن المغيرة وأبو جهل .

والعاص بن هشام .

وأبو قيس بن الوليد .

وقيس بن الفاكه .

وزهير بن أمية .

وهلال عبد الأسود .

والسائب بن صيفي .

والنضر بن الحرث .

وأبو البختري بن هشام .

وزمعة بن الحجاج .

وأمية بن خلف .

(58/429)

---

وأوس بن المغيرة أرسلهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ليقفوا على مداخل طرق مكة لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتسموا على هاتيك المداخل يقول بعضهم : لا تغتروا بالخارج فإنه ساحر ، ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر إلى غير ذلك من هذيانهم فأهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات ، ويجعل ﴿ الذين ﴾ منصوباً بالنذير على أنه مفعوله الأول و ﴿ كَمَا ﴾ مفعوله الثاني أي أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة وهذوا مثل هذيانهم .

وتعقب بأن فيه مع ما فيه من المشاركة لما سبق في عدم كون العذاب الذي شبه به العذاب المنذر واقعاً ومعلوماً للمنذرين أنه لا داعي إلى تخصيص وصف التعضية بهم وإخراج

المقتسمين من بينهم مع كونهم أسوة لهم في ذلك فإن وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا به من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو إلا نفس التعضية ولا إلى إخراجهم من حكم الإنذار ، على أن ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصاً بهم بل هو عام لكلا الفريقين وغيرهم ، مع أن بعض من عد من المنذرين على قول كالوليد بن المغيرة .

والأسود .

وغيرهما قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ، ولا إلى تقديم المفعول الثاني على الأول كما ترى ، وقيل : إنه صفة لمفعول ﴿ النذير ﴾ أقيم مقامه بعد حذفه والمقتسمون هم القاعدون في مداخل الطرق كما حرر ، أي النذير عذاباً مثل العذاب الذي أنزلناه على المقتسمين .

(59/429)

---

وتعقب أيضاً بأن فيه مع ما مر أنه يقتضي أن يكون ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾ من مقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يصلح لذلك ، واعتذر له بأنه كما يقول بعض خواص الملك أمرنا بكذا والآمر الملك كما تقدم غير بعيد أو حكاية لقول الله تعالى ، وفيه من التعسف ما

لا يخفى ، وأيضاً فيه إعمال الوصف الموصوف في المفعول وهو مما لا يجوز .

وأجيب بأن الكوفية تجوزه والقائل بنى الكلام على ذلك أو أن المراد بالمفعول المفعول الغير الصريح وتقديره بعذاب وهو لا يمنع الوصف من العمل فيه ، وقيل : المراد بالمقتسمين على تقدير الوصفية الرهط الذين تقاسموا .

على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام فأهلكهم الله تعالى ، والاقتسام بمعنى التقاسم ، ولا إشكال في التشبيه لأن عذابهم أمر محقق نطق به القرآن العظيم فيصح أن يقع مشبهاً به للعذاب المنذر ، والموصول إما مفعول أول للنذير أو لما دل هو عليه من ﴿ أُنذِرَ ﴾ .

(60/429)

---

وتعقب أيضاً بأن فيه بعد إغماض العين عما في المفعولية من الخلاف أو الخفاء أنه لا يكون للتعرض لعنوان التعضية في حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور في حيز المفعول الثاني فائدة لما أن ذلك إنما يكون للإشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه شبه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم في السبب ، فإن المعضين بمعزل من التقاسم على التبيت الذي هو السبب لهلاك أولئك مع أن أولئك بمعزل من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين

مفهوماً ولا وجوداً تصحح وقوع أحدهما في جانب والآخر في جانب ، واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشرور المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذي هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير مفيد إذ لا دلالة لعنوان التعضية على ذلك وإنما يدل عليه اقتسام المداخل ، وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اه ، وهذا الجعل مروي عن ابن زيد ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أخرجها البيهقي .

(61/429)

---

وأبو نعيم في الدلائل ما يقتضيه ، ومن هنا قيل بمنع عدم اللياقة ، وبعض من يسلمها يقول : يجوز أن يكون الموصول صفة ﴿ المقتسمين ﴾ [ الحجر : 90 ] مراداً بهم أولئك الرهط ، ومعنى جعلهم القرآن عضين حكمهم بأنه مفترى وتكذيبهم به والمراد منه معناه اللغوي فيؤول إلى وصفهم بتكذيبهم بكتابهم وإعراضهم عن الإيمان به والعمل بما فيه ، ويوافق ما مر من قوله تعالى فيهم وفي قومهم : ﴿ وءاتيناهم ءاياتنا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [ الحجر : 81 ] بناءً على أن المراد بالآيات آيات الكتاب المنزل على نبيهم عليه السلام حسبما قيل به فيما سبق ، وإن أبيت ذلك بناءً على ما سمعت هنا لك التزمنا كون الموصول مفعولاً

وقلنا : فائدة التعرض للعنوانين المذكورين على الوجه المذكور الإشارة إلى تفظيع أمر التكذيب وكونه في سببيته للعذاب كالاقتسام على قتل النبي ، ويلتزم ما يشعر به هذا من أفظعية الاقتسام المزبور لأنه لا يكون إلا عن تكذيب ومزيد عداوة للنبي ، وفيه بحث ، وقيل : المصحح لوقوع أحد العنوانين في جانب والآخر في جانب أن التكذيب ينجر بزعم المكذبين إلى إبطال أمر النبي عليه الصلاة والسلام وإطفاء نوره وهو العلة الغائية لذلك والاقتسام المذكور كذلك وهو كما ترى ، وقال أبو البقاء وليته لم يقل : إن ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ [ الحجر : 88 ] وهو في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف أي متعناهم تمتيعاً كما أنزلنا ، والمعنى نعمنا بعضهم كما عذبنا بعضهم .

وذكر ابن عطية .

(62/429)

---

وغيره أنه يحتمل أن يكون المعنى قل إني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً على المقتسمين أي أهل الكتاب ، ومرادهم على ما قيل أن ﴿ مَا ﴾ في ﴿ كَمَا ﴾ موصولة ، والمراد من المشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهي مع ما في حيزها في محل

النصب على الحالية من مفعول ﴿ قُلْ ﴾ أي قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أي موافقاً لذلك ، والأنسب على هذا حمل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضاً بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبي صلى الله عليه وسلم .

وأنت تعلم أن فيه بعداً لكنه أولى بالنسبة إلى بعض ما تقدم ، وقريب منه ما قيل : المعنى ولقد آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً موافقاً للإيتاء الذي أنزلناه على أهل الكتابين وأخبرناهم به في كتبهم ، وفيه ما فيه .

وأما جعلها زائدة والمعنى أنا النذير المبين ما أنزلنا فحاله غني عن التنبيه عليه ، وقال العلامة أبو السعود بعد نقل أقوال عقبها بما عقبها : والأقرب من الأقوال المذكورة أن ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾ [ الحجر : 90 ] متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك ﴾ [ الحجر : 87 ] الخ ، وإن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين ، وأن الموصول مع صلته صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية ، وحديث جلة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل .

والمعنى لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم إيناءً مماثلاً لإنزال الكتابين على أهلهما ، وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لأن الغرض بيان المماثلة بين الإيتائين لا بين متعلقيهما ، والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبه به على ما في جانب المشبه بأن يقال : كما آتينا المقتسمين حسبما وقع في قوله تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ [ البقرة : 121 ] الخ للتنبيه على ما بين الإيتائين من التنائي فإن الأول على وجه التكرمة والامتنان فشتان بينه وبين الثاني ، ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبهاً به فإن ذلك إنما هو لمسلميته عندهم ، وتقدم وجوده على المشبه زماناً لا لمزية تعود إلى ذاته ، ونظير ذلك ما قيل في الصلوات الإبراهيمية فليس في التشبيه إشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلاً عن إيهام ما تعلق به الأول مما تعلق به الثاني ، وإنما ذكروا بعنوان الاقتسام إنكاراً لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الإنزال المذكور وإيذاناً بأنهم كان من حقهم أن يؤمنوا بكله حسب إيمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك في العلة والاتحاد في الحقيقة التي هي مطلق الوحي ، وتوسيط قوله تعالى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [ الحجر : 88 ] الخ لكمال اتصاله بما هو المقصود من بيان حال ما أوتي النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد بين أولاً علو شأنه ورفعة مكانه صلى الله عليه وسلم بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ، ثم نهى عن الالتفات إلى زهرة الدنيا وعبر سبحانه عن إيتائها لأهلها بالتمتع المنبىء عن وشك زوالها عنهم ، ثم عن الحزن لعدم إيمان

المنهمكين فيها ، وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وبإظهار قوامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل في تضاعيف ما أوتي من القرآن العظم .

(64/429)

---

ثم رجع إلى كيفية إتيانه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم من العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم في كونه وحياً صادقاً ، فتأمل والله تعالى عنده علم الكتاب اه وهو كلام ظاهر عليه مخايل التحقيق .

وفي "البحر" بعد نقل أكثر هذه الأقوال وهذه أقوال وتوجيهات مكلفة والذي يظهر لي أنه تعالى لما أمره صلى الله عليه وسلم بأن لا يحزن على من لم يؤمن وأمره عليه الصلاة والسلام بخفض جناحه للمؤمنين أمره صلى الله عليه وسلم أن يعلم المؤمنين وغيرهم أنه هو النذير المبين لئلا يظن المؤمنون أنهم لما أمر صلى الله عليه وسلم بخفض جناحه لهم خرجوا من عهدة النذارة فأمر صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : ﴿ إِنِّى أَنَا النذير المبين ﴾ [ الحجر : 89 ] لكم ولغيركم كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [ النازعات : 45 ] وتكون الكاف نعتاً لمصدر محذوف ، والتقدير وقل قولاً مثل ما أنزلنا على المقتسمين إنك نذير لهم ، فالقول للمؤمنين في النذارة كالقول للكفارة المقتسمين لئلا يظن إنذارك للكفار

مخالفاً لإنذار المؤمنين بل أنت في وصف النذارة لهم بمنزلة واحدة تنذر المؤمن كما تنذر الكافر كما قال تعالى: ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 188] اهـ بحروفه، وهو كما ترى ركيك لفظاً ومعنى والله تعالى أعلم بمراده وعنده علم الكتاب، وعضين جمع عضة وأصلها عضوة بكسر العين وفتح الضاد بمعنى جزء فهو معتل اللام من عضاه بالتشديد جعله أعضاء وأجزاء؛ فالمعنى جعلوا القرآن أجزاء.

وقيل: العضه في لغة قريش السحر فيقولون للساحر: عاضه وللساحرة عاضهة، وفي حديث رواه ابن عدي في "الكامل".



---

وأبو يعلى في مسنده "لعن الله تعالى العاضهة والمستعضهة" وأراد صلى الله عليه وسلم الساحرة والمستسحرة أي المستعملة لسحر غيرها، وهو على هذا مأخوذ من عضهته فاللام المحذوفة هاء كما في شفة وشاة على القول بأن أصلهما شفهة وشاهة بدليل جمعهما على شفاه وشياه وتصغيرهما على شفيهة وشويهة.

وعن الكسائي أنه من عضهه عضها وعضيهة رماه بالبهتان، قيل: وأخذ العضه بمعنى السحر من هذا لأن البهتان لا أصل له والسحر تخييل أمر لا حقيقة له، وذهب الفراء إلى

أنه من العضاه وهي شجرة تؤذي كالشوك واختار بعضهم الأول ، وجمع السلامة لجبر ما حذف منه كعزين وسنين وإلا فحقه أن لا يجمع جمع السلامة المذكر لكونه غير عاقل ولتغير مفرده ؛ ومثل هذا كثير مطرد ، ومن العرب من يلزمه الياء ويجعل الإعراب على النون فيقول : عضينك كسنينك وهذه اللغة كثيرة في تميم .

وأسد ، وفي التعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح المستلزم لإزالة حياته وإبطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض للتنصيص على قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أي لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة مطلقاً المقتسمين وغيرهم سؤال تقريع وتوبيخ .

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(66/429)

---

في الدنيا من قول وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولاً أولياً أو لنجازينهم على ذلك ، وعلى التقديرين لا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] لأن المراد هنا حسبما أشرنا إليه إثبات

سؤال التقريع والتوبيخ أو المجازاة بناءاً على أن السؤال مجاز عنها وهناك نفى سؤال الاستفهام لأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم؛ وروي هذا عن ابن عباس، وضعف هذا الإمام بأنه لا معنى لتخصيص نفي سؤال الاستفهام بيوم القيامة لأن ذلك السؤال محال عليه تعالى في كل وقت.

وأجيب بأنه بناءاً على زعمهم كقوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [إبراهيم: 21] فإنه يظهر لهم في ذلك اليوم أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء فلا يحتاج إلى الاستفهام، وقيل: المراد لا سؤال يومئذٍ منه تعالى ولا من غيره بخلاف الدنيا فإنه ربما سأل غيره فيها.

ورد بأن قوله: لأنه سبحانه عالم بجميع أعمالهم يأباه.

واختار غير واحد في الجمع أن النفي بالنسبة إلى بعض المواقف والإثبات بالنسبة إلى بعض آخر، وسيأتي تمام الكلام في ذلك، واستظهر بعضهم عود الضمير في ﴿ لَنَسْئَلَنَّهُمْ ﴾ إلى ﴿ المقتسمين الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ [الحجر: 90، 91] للقرب، وجوز أن يعود على الجميع من مؤمن وكافر لتقدم ما يشعر بذلك من قوله سبحانه: ﴿ وَقُلْ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ [الحجر: 89] و﴿ مَا ﴾ للعموم كما هو الظاهر، وأخرج ابن جرير: وغيره وعن أبي العالية أنه قال في الآية: يسأل العباد كلهم يوم القيامة عن خلتين عما كانوا يعبدون وعما أجابوا به المرسلين.

وأخرج الترمذي.

وجماعة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يسألون عن قول لا إله إلا الله " وأخرجه البخاري في تاريخه .

والترمذي من وجه آخر عن أنس مرفوعاً ، وروي أيضاً عن ابن عمر .



---

ومجاهد ، والمعنى على ما في "البحر" يسألون عن الوفاء بلا إله إلا الله والتصديق لمقالها بالأعمال ، والفاء قيل لترتيب الوعيد على أعمالهم التي ذكر بعضها ، وقيل : لتعليل النهي والأمر فيما سبق ، وزعم أنها الفاء الداخلة على خبر الموصول كما في قولك : الذي يأتيني فله درهم مبني على أن ﴿ الذين ﴾ مبتدأ وقد علمت حال ذلك ، وفي التعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من إظهار اللطف به صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾

قال الكلبي : أي أظهره واجهر به يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، ومن ذلك قيل للفجر صديع لظهوره .

وجوز أن يكون أمراً من صدع الزجاجة وهو تفريق أجزائها أي افرق بين الحق والباطل ، وأصله على ما قيل الإبانة والتمييز ، والباء على الأول صلة وعلى الثاني سببية ، و﴿ مَا ﴾ جوز أن تكون موصولة والعائد محذوف أي بالذي تؤمر به فحذف الجار فتعدى الفعل إلى الضمير فصار تؤمره ثم حذف ، ولعل القائل بذلك لم يعتبر حذفه مجروراً لفقد شرط حذفه بناءً على أنه يشترط في حذف العائد المجرور أن يكون مجروراً بمثل ما جر به الموصول لفظاً ومعنى ومتعلقاً ، وقيل : التقدير فاصدع بما تؤمر بالصدع به فحذفت الباء الثانية ثم الثالثة ثم لام التعريف ثم المضاف ثم الهاء ، وهو تكلف لا داعي له ويكاد يورث الصداع ، والمراد بما يؤمر به الشرائع مطلقاً ، وقول مجاهد : كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم إن المعنى اجهر بالقرآن في الصلاة يقتضي بظاهره التخصيص ولا داعي له أيضاً كما لا يخفى ، وأظهر منه في ذلك ما روي عن ابن زيد أن المراد ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ القرآن الذي أوحى إليه صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم إياه ، وأن تكون مصدرية أي فاصدع بمأموريتك وهو الذي عناه الزمخشري بقوله : أي بأمرك مصدر من المبني للمفعول ، وتعقبه أبو حيان بأنه مبني على مذهب من يجوز أن يراد بالمصدر أن والفعل المبني للمفعول والصحيح أن ذلك لا يجوز .

ورد بأن الاختلاف في المصدر الصريح هل يجوز انحلاله إلى حرف مصدري وفعل مجهول أم لا إما أن الفعل المجهول هل يوصل به حرف مصدري فليس محل النزاع ، فإن كان اعتراضه على الزمخشري في تفسيره بالأمر وأنه كان ينبغي أن يقول بالمأمورية فشيء آخر سهل ، ثم لا يخفى ما في الآية من الجزالة ، وقال أبو عبيدة : عن رؤبة ما في القرآن منها ، ويحكى أن بعض العرب سمع قارئاً يقرأها فسجد فقيل له في ذلك فقال : سجدت لبلاغة هذا الكلام ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم مستخفياً كما روي عن عبد الله بن مسعود قبل نزول ذلك فلما نزلت خرج هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم فليست الآية منسوخة ، وقيل : هي من آيات المهادنة التي نسختها آية السيف ، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم .

وأبو داود في ناسخه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾

يعني : قد أوتيت النعمة العظمى ، التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ، وهي القرآن العظيم . فعليك أن تستغني ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به من زخارف الدنيا وزينتها أصنافاً من الكفار متمنياً لها . فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته . وفي التعبير عما أوتوه ( بالمتاع ) إنباء عن وشك زوالها عنهم .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : لعدم إيمانهم ، المرجو بسببه تقوي ضعفاء المسلمين بهم : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم ، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ أي : المنذر المظهر للعذاب لمن لم يؤمن .

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ أي : مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين . أو إنذاراً مثل ما أنزلنا . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقتسمون أصحاب صالح عليه السلام، الذين تقاسموا بالله : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ فأخذتهم الصيحة ، كما مر . فالاقتسام من ( القسم ) لا من القسمة .

وهذا التأويل اختاره ابن قتيبة .

وقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أي : أجزاء ، جمع ( عضة ) يعني كفار مكة . قالوا : سحر . وقالوا : كهانة . وقالوا : أساطير الأولين . وهو مبتدأ خبره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : من التقسيم فنجازيهم عليه . وجوّز تعلق ( كما ) بقوله : ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ ﴾ أي : لنسألنهم أجمعين مثل ما أنزلنا . فيكون ( كما ) رأس آية و ( المقتسمون ) حينئذ : إما من تقدم ، أو المشركون . ويعني بالإنزال عليهم إنزال الهداية التي أَبَوْها . وجوّز جعل الموصول مفعولاً أول للنذير ، أو لما دلَّ عليه من أنذر ، أي : النذير . أو أنذر المعضين الذين يجزئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين . وجوّز جعل ( كما ) متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ ﴾ أي : أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب الذين جزؤوا القرآن إلى حق وباطل . حيث قالوا : قسم منه حق موافق لما عندنا . وقسم باطل لا يوافقه . أو القرآن هو مقروؤهم . أي : قسموا ما قرؤوا من كتبهم وحرفوه ، فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه . والله أعلم .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أمر من ( الصدع ) بمعنى الإظهار والجهر ، من ( انصداع الفجر ) . أو من ( صدع الزجاجة ) ونحوها وهو تفريق أجزائها . أي : افرق بين الحق والباطل :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : الذين يرومون صدك عن التبليغ ، فلا تبال بهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 361 ـ 363 ﴾

(72/429)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) ﴾

استئناف بياني لما يثيره المقصود من قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [ سورة الحجر : 85 ] ، ومن تساؤل يجيش في النّفس عن الإملاء للمكذّبين في النّعمة والتّرف مع ما رمقوا به من الغضب والوعيد فكانت جملة ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ بياناً لما يختلج في نفس السامع من ذلك ، ولكونها بهذه المثابة فصلت عن الّتي قبلها فصل البيان عن المبيّن .

ولولا أن الجملة الّتي وقعت قبلها كانت بمنزلة التمهيد لها والإجمال لمضمونها لعطفت هذه الجملة لأنها تكون حينئذٍ مجرد نهي لا اتّصال له بما قبله ، كما عطفت نظيرتها في قوله تعالى في سورة طه ( 129 131 ) : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع

الشّمس وقبل غروبها ومن ءَاناء اللّيل فسبّح وأطراف النّهار لعلّك ترضى ولا تمدنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الحياة ﴾ فلما فصلت الجملة هنا فهم أن الجملة الّتي قبلها مقصودة التمهيد بهذه الجملة ولو عطفت هذه لما فهم هذا المعنى البديع من النظم.

والمَدّ: أصله الزيادة.

وأطلق على بسط الجسم وتَطويله.

يقال: مَدّ يده إلى كذا، ومدّ رجله في الأرض.

ثم استعير للزيادة من شيء.

ومنه مدد الجيش، ومدّ البحر، والمد في العمر.

وتلك إطلاقات شائعة صارت حقيقة.

واستعير المدّ هنا إلى التّحديق بالنظر والطموح به تشبيهاً له بمدّ اليد للمتناول، لأن المنهي عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم، أي فإن ما أوتيته أعظم من ذلك فلو كانوا بمحل العناية لاتّبعوا ما آتيناك ولكنّهم رضوا بالمتاع العاجل فليسوا ممن يعجب حالهم.

والأزواج هنا يحتمل أن يكون على معناه المشهور ، أي الكفّار ونسائهم .

ووجه تخصيصهم بالذكر أن حالتهم أتم أحوال التمتّع لاستكمالها جميع اللّذات والأنس .

ويحتمل أن يراد به المجاز عن الأصناف وهو استعمال أثبته الراغب .

فوجه ذكره في الآية أن التمتّع الّذي تمتدّ إلى مثله العين ليس ثابتاً لجميع الكفّار بل هو شأن كبرائهم ، أي فإن فيهم من هم في حال خصاصة فاعتبر بهم كيف جمع لهم الكفر وشظف العيش .

والنّهي عن الحزن عليهم شامل لكلّ حال من أحوالهم من شأنها أن تحْزن الرّسول عليه الصلاة والسلام وتؤسفه .

فمن ذلك كفرهم كما قال تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [ سورة الكهف : 6 ] .

ومنه حلول العذاب بهم مثل ما حلّ بهم يوم بدر فإنهم سادة أهل مكة ، فلعلّ رسول الله أن يتحسّر على إصرارهم حتى حلّ بهم ما حلّ من العذاب .

ففي هذا النهي كناية عن قلّة الاكتراث بهم وعن توعدهم بأن سيحلّ بهم ما يثير الحزن لهم ، وكناية عن رحمة الرسول بالنّاس .

ولما كان هذا النّهي يتضمنّ شدّة قلب وغلظة لا جرم اعترضه بالأمر بالرفق للمؤمنين بقوله واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ .

وهو اعتراض مراد منه الاحتراس.

وهذا كقوله: ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [ سورة الفتح: 29 ].

وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحطّ للوقوع حفض جناحه يريد الدنوّ، وكذلك يصنع إذا لاعب أنثاه فهو راكن إلى المسالمة والرفق، أو الذي يتهيأ لحضن فراخه.

وفي ضمن هذه التمثيلية استعارة مكنية، والجناح تخييل.

وقد بسطناه في سورة الإسراء في قوله: ﴿ واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة ﴾ [ سورة الإسراء: 24 ] وقد شاعت هذه التمثيلية حتى صارت كالمَثَل في التواضع واللّين في المعاملة.

وضد ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدّة.

ومن شعر العلامة الزمخشري يخاطب مَن كان متواضعاً فظهر منه تكبرّ ( ذكره في سورة الشعراء ):

وأنتَ الشّهيرُ بخفض الجناح . . .

فلا تكُ في رفعه أجدلاً

وفي هذه الآية تمهيد لما يجيء بعدها من قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ [ سورة الحجر : 94 ] .

وجملة ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ عطف على جملة ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ .

فالمقولُ لهم هذا القولُ هم المتحدّث عنهم بالضّمائر السابقة في قوله تعالى : ﴿ منهم ﴾ وقوله : ﴿ عليهم ﴾ .

فالتقدير : وقل لهم لأن هذا القول مراد منه المتاركة ، أي ما عليّ إلاّ إنذاركم ، والقرينة هي ذكر النذارة دون البشارة لأن النذارة تناسب المكذبين إذ النذارة هي الإعلام بحدث فيه ضرّ .

والنّذير : فعيل بمعنى مُفعِل مثل الحكيم بمعنى المُحكم ، وضرب وجيع ، أي موجع .

والقصر المستفاد من ضمير الفصل ومن تعريف الجزءين قصر قلب ، أي لست كما تحسبون أنكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإنّي نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم .

و﴿ المبين ﴾ : الموضح المصرح.

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) ﴾

التشبيه الذي أفاده الكاف تشبيه بالذي أنزل على المقتسمين .

و( ما ) موصولة أو مصدرية ، وهي المشبه به .

وأما المشبه فيجوز أن يكون الإيتاءَ المأخوذ من فعل ﴿ آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [ سورة الحجر : 87 ] ، أي إيتاء كالذي أنزلنا أو كإنزالنا على المقتسمين .

شُبّه إيتاء بعض القرآن للنبيء بما أنزل عليه في شأن المقتسمين ، أي أنزلناه على رسل المقتسمين بحسب التفسيرين الآتيين في معنى المقتسمين ﴾ .

ويجوز أن يكون المشبّهُ الإنذارَ المأخوذَ من قوله تعالى : ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ [ سورة الحجر : 89 ] ، أي الإنذار بالعقاب من قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [ سورة الحجر : 92 93 ] .

وأسلوب الكلام على هذين الوجهين أسلوب تخلّص من تسلية النبي إلى وعيد المشركين الطاعنين في القرآن بأنهم سيحاسبون على مطاعنهم .

(75/429)

---

وهو إما وعيد صريح إن أريد بالمقتسمين نفسُ المراد من الضميرين في قوله تعالى : ﴿ أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم ﴾ [ سورة الحجر : 88 ] .

وحرف على ﴾ هنا بمعنى لام التّعليل كما في قوله تعالى : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم

﴾ [ سورة البقرة : 185 ] وقوله : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ [ سورة المائدة : 4 ]

، وقول علقمة بن شيبان من بني تيم الله بن ثعلبة:

ونطاعن الأعداء عن أبنائنا . . .

وعلى بصائرنا وإن لم نُبصر

ولفظ ﴿ المقتسمين ﴾ افتعال من قَسم إذا جَعل شيئاً أقساماً .

وصيغة الافتعال هنا تقتضي تكلف الفعل .

والمقتسمون يجوز أن يراد بهم جمع من المشركين من قريش وهم ستّة عشر رجلاً ، سنذكر أسماءهم ، فيكون المراد بالقرآن مسمى هذا الاسم العَلَم ، وهو كتاب الإسلام .

ويجوز أن يراد بهم طوائف أهل الكتاب قَسّموا كتابهم أقساماً ، منها ما أظهروه ومنها ما أنسوه ، فيكون القرآن مصدراً أطلق بمعناه اللغوي ، أي المقروء من كتبهم ؛ أو قسّموا كتاب الإسلام ، منه ما صدّقوا به وهو ما وافق دينهم ، ومنه ما كذّبوا به وهو ما خالف ما هم عليه .

وقد أجمل المراد بالمقتسمين إجمالاً بيّنه وصفهم بالصلة في قوله تعالى : ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ ؛ فلا يَحتمل أن يكون المقتسمون غير الفريقيْن المذكوريْن آنفاً .

ومعنى التقسيم والتجزئة هنا تفرقة الصّفات والأحوال لا تجزئة الذّات .

و﴿ القرآن ﴾ هنا يجوز أن يكون المراد به الاسم المجعول علماً لكتاب الإسلام .

ويجوز أن يكون المراد به الكتاب المقروء فيصدق بالتوراة والإنجيل .

و﴿ عضين ﴾ جمع عضة ، والعضة : الجزء والقطعة من الشيء .

وأصلها عضو فحذفت الواو التي هي لام الكلمة وعوض عنها الهاء مثل الهاء في سنة وشفّة .

وحذف اللاّم قصد منه تخفيف الكلمة لأن الواو في آخر الكلمة تثقل عند الوقف عليها ، فعوضوا عنها حرفاً لئلا تبقى الكلمة على حرفين ، وجعلوا العوض هاء لأنّها أسعد الحروف بحالة الوقف .



---

وجمع ( عضة ) على صيغة جمع المذكر السّالم على وجه شاذ .

وعلى الوجهين المتقدّمين في المراد من القرآن في هذه الآية فالمقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين هم أهل الكتاب اليهود والنصارى فهم جحدوا بعض ما أنزل إليهم من القرآن ، أطلق على كتابهم القرآن لأنه كتاب مقروء ، فأظهروا بعضاً وكتموا بعضاً ، قال الله تعالى:

﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ [ سورة الأنعام : 91 ] فكانوا فيما كتموه شبيهين بالمشركين فيما رفضوه من القرآن المنزّل على محمد وهم أيضاً جعلوا القرآن المنزل

على محمد عضين فصدّقوا بعضه وهو ما وافق أحوالهم ، وكذبوا بعضه المخالف لأهوائهم مثل نسخ شريعتهم وإبطال بنوّة عيسى لله تعالى ، فكانوا إذا سألهم المشركون : هل القرآن صدق ؟ قالوا : بعضه صدق وبعضه كذب ، فأشبه اختلافُهم اختلافَ المشركين في وصف القرآن بأوصاف مختلفة ، كقولهم : ﴿ أساطيرُ الأولين ﴾ [ سورة الأنعام : 25 ] ، وقول كاهن ، وقول شاعر .

وروي عن قتادة أن المقتسمين نفر من مشركي قريش جمعهم الوليد بن المغيرة لما جاءَ وقت الحجّ فقال : إن وفود العرب ستقدَم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجْمعوا فيه رأياً واحداً ، فانتدب لذلك ستة عشر رجلاً فتقاسموا مداخل مكة وطرقها ليُنفّروا الناس عن الإسلام ، فبعضهم يقول : لا تغترّوا بهذا القرآن فهو سحر ، وبعضهم يقول : هو شعر ، وبعضهم يقول : كلام مجنون ، وبعضهم يقول : قول كاهن ، وبعضهم يقول : هو أساطير الأولين اكتتبها ، فقد قسموا القرآن أنواعاً باعتبار اختلاف أوصافه .

وهؤلاء النّفر هم : حنظلة بن أبي سفيان ، وعتبة بن ربيعة ، وأخوه شَيبة ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وأخوه العاص ، وأبو قيس بن الوليد ، وقيس بن الفاكه ، وزهير بن أميّة ، وهلال بن عبد الأسود ، والسائب بن صيفي ، والنضر بن الحارث ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الحجّاج ، وأميّة بن خلف ، وأوس بن المغيرة .

واعلم أن معنى المقتسمين على الوجه المختار المقتسمون القرآن .

وهذا هو معنى جعلوا القرآن عضين ﴾ ، فكان ثاني الوصفين بياناً لأولهما وإنّما اختلفت العبارتان للتفنّن .

وأن ذمّ المشبّه بهم يقتضي ذمّ المشبهين فعلم أن المشبهين قد تلقوا القرآن العظيم بالردّ والتكذيب .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) ﴾

الفاء للتفريع ، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾ [ سورة الحجر : 85 ] .

والواو للقسم ، فالمفرع هو القسم وجوابُه .

والمقصود بالقسم تأكيد الخبر .

وليس الرسول عليه الصلاة والسلام ممن يشكّ في صدق هذا الوعيد ؛ ولكن التأكيد متسلطّ على ما في الخبر من تهديد معاد ضمير النصب في ﴿ لنسألنهم ﴾ .

ووصف الربّ مضافاً إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن في السؤال المقسم عليه حَظّاً من التنويه به ، وهو سؤال الله المكذّبين عن تكذيبهم إياه سؤال ربّ يغضب لرسوله عليه الصلاة والسلام .

والسؤال مستعمل في لازم معناه وهو عقاب المسؤول كقوله تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ [ سورة التكاثر : 8 ] فهو وعيد للفريقين .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) ﴾

تفريع على جملة ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [ سورة الحجر : 87 ] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه .

نزلت هذه الآية في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ورسول الله عليه الصلاة والسلام مختف في دار الأرقم بن أبي الأرقم .

رُوي عن عبد الله بن مسعود قال : ما زال النبي مستخفياً حتى نزلتْ : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه .

(78/429)

---

يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت سورة المدّثر كان يدعو النّاس خفية وكان من أسلم من النّاس إذا أراد الصّلاة يذهب إلى بعْض الشّعاب يستخفي بصلاته من المشركين ، فلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعِيبون صلاتهم ، فحدث تضارب بينهم وبين سعد بن أبي وقاص أدمى فيه سعد رجلاً من المشركين .

فبعد تلك الوقعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه دار الأرقم عند الصّفا فكانوا يقيمون الصّلاة بها واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد ، فنزل قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ الآية .

وبنزولها ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدّعوة للإسلام جهراً .

والصدع : الجهر والإعلان .

وأصله الانشقاق .

ومنه انصداع الإناء ، أي انشقاقه .

فاستعمل الصدع في لازم الانشقاق وهو ظهور الأمر المحجوب وراء الشيء المنصدع ؛ فالمراد هنا الجهر والإعلان .

وما صدقُ "ما تؤمر" هو الدّعوة إلى الإسلام .

وقَصْدُ شمول الأمر كلّ ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتبليغه هو نكتة حذف متعلّق ﴿ تؤمر ﴾ ، فلم يصرح بنحو بتبليغه أو بالأمر به أو بالدّعوة إليه .

وهو إيجاز بديع .

والإعراض عن المشركين الإعراض عن بعض أحوالهم لا عن ذواتهم .

وذلك إبايتهم الجهر بدعوة الإسلام بين ظهرانيهم ، وعن استهزائهم ، وعن تصدّيهم إلى أذى

المسلمين .

وليس المراد الإعراض عن دعوتهم لأن قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ مانع من ذلك ، وكذلك جملة ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(79/429)

---

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ .

لما بين تعالى أنه آتى النبي صلى الله عليه وسلم السبع المثاني والقرآن العظيم ، وذلك أكبر نصيب ، وأعظم حظ عند الله تعالى ، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي متع به الكفار . لأن من أعطاه ربه جل وعلا النصيب الأكبر والحظ الأوفر ، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس ، ولا سيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار . وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع ، كقوله في ( طه ) : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة

الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبة للتقوى ﴾ [ طه : 130-132 ] والمراد بالأزواج هنا : الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

(80/429)

---

الصحيح في معنى هذه الآية الكريمة : أن الله نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام . ويدل لذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم . كقوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [ النحل : 127 ] ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [ فاطر : 8 ] ، وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الشعراء : 3 ] ، وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [ الكهف : 6 ] ، وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [ المائدة : 68 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والمعنى : قد بلغت وليست مسؤولاً عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان ، فإنما عليك

البلاغ وعلينا الحساب، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء.

قوله تعالى: ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾.

أمر الله جل وعلا نبيه في هذه الآية الكريمة بخفض جناحه للمؤمنين. وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح... فلا تك في رفعه أجدلا

وبين هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في الشعراء: ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء: 215]، وكقوله: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ [آل عمران: 159] إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من دليل خطاب الآية الكريمة - أعني مفهوم مخالفتها - أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح، بل يعاملون بالشدة والغلظة.

(81/429)

---

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ [التوبة: 73]، وقوله: ﴿ أشداء على الكفار رحماء

بَيْنَهُمْ ﴾ [ الفتح : 29 ] وقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [ المائدة : 54 ] كما قدمناه في المائدة .

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) ﴾

في المراد بالمقتسمين أقوال للعلماء معروفة ، وكل واحد منها يشهد له قرآن . إلا ان في الآية الكريمة قرينة تضعف بعض تلك الأقوال :

الأول – أن المراد بالمقتسمين : الذين يحلفون على تكذيب الرسل ومخالفتهم ، وعلى هذا القول فالاقتسام افتعال من القسم بمعنى اليمين ، وهو بمعنى التقاسم .

ومن الآيات التي ترشد لهذا الوجه قوله تعالى عن قوم صالح : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [ النمل : 49 ] الآية . اي نقتلهم ليلاً ، وقوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ ﴾ [ النحل : 38 ] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [ إبراهيم : 44 ] ، وقوله : ﴿ أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [ الأعراف : 49 ] إلى غير ذلك من الآيات . فكأنهم لا يكذبون بشيء إلا اقسموا عليه . فسموا مقتسمين .

القول الثاني – أن المراد بالمقتسمين : اليهود والنصارى . وإنما وصفوا بأنهم مقتسمون لأنهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا بعضها .

ويدل لهذا القول قوله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [ البقرة : 23 ] الاية ، وقوله : ﴿ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [ النساء : 150 ] الآية .

(82/429)

---

القول الثالث – أن المراد بالمقتسمين : جمعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الحاقة : 41-42 ] ، وقوله : ﴿ فَقَالَ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [ المدثر : 24 ] ، وقوله : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ [ ص : 7 ] ، وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [ النحل : 24 ] ، وقوله : ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [ الفرقان : 5 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والقرينة في الآية الكريمة تؤيد هذا القول الثالث ولا تنافي الثاني بخلاف الأول . لأن قوله : ﴿ الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ [ الحجر : 91 ] أظهر في القول الثالث ، لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة ، كقولهم : شعر ، سحر ، كهانة الخ .

وعلى أنهم أهل الكتاب – فالمراد بالقرآن كتبهم التي جزؤوها فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها ، أو القرآن لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه وكفروا بغيره .

وقوله ﴿ عضين ﴾ جمع عضة ، وهو العضو من الشيء ، اي جعلوه أعضاء متفرقة .

واللام المحذوفة أصلها واو . قال بعض العلماء : اللام المحذوفة أصلها هاء ، وعليه فأصل العضة عضهة ، والعضه السحر . فعلى هذا القول - فالمعنى جعلوا القرآن سحراً . كقوله : ﴿ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [ المدثر : 24 ] ، وقوله : ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ [ القصص : 48 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والعرب تسمي الساحر عاضها ، والساحرة عاضهة . والسحر عضها . ويقال : إن ذلك لغة قريش . ومنه قول الشاعر :

أعوذ بربي من الناقثا . . . ت في عقد العاضه المعضه

تنبيه

فإن قيل : بم تتعلق الكاف في قوله ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ [ الحجر : 90 ] ؟

(83/429)

---

فالجواب - ما ذكره الزمخشري في كشافه قال : فإن قلت بم تعلق قوله ﴿ كما أنزلنا ﴾ قلت : فيه وجهان : احدهما - أن يتعلق بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ ﴾ [ الحجر : 87 ] اي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب ، وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين ، حيث

قالوا بعنادهم وعدوانهم : بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه .

وقيل : كانوا يستهزؤون به فيقول بعضهم : " سورة البقرة " لي ، ويقول ى لآخر : " سورة آل عمران " لي ( إلى أن قال ) الوجه الثاني – أن يتعلق بقوله : ﴿ وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ﴾ [ الحجر : 89 ] اي وأنذر قريشاً مثل ما أنزلناه من العذاب على المقتسمين ( يعني اليهود ) وهو ما جرى على قريظة والنضير . جعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو من الإعجاز ، لأنه إخبار بما سيكون ، وقد كان انتهى محل الغرض من كلام صاحب الكشاف .

ونقل كلامه بتمامه أبو حيان في " البحر المحيط " ثم قال أبو حيان :

أما الوجه الأول وهو تعلق ﴿ كما ﴾ ب ﴿ آتيناك ﴾ فذكره أبو البقاء على تقدير ، وهو أن يكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف تقديره : آتيناك سبعاً من المثاني إيتاء كما أنزلنا ، أو إنزالاً كما أنزلنا . لأن " آتيناك " بمعنى أنزلنا عليك .

قوله تعالى : ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ .

أي فاجهر به وأظهره . من قولهم : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : صرح بها . وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما أمر به علناً في غير خفاء ولا مواربة . وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة ، كقوله ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [ المائدة : 67 ] الآية .

وقد شهد له تعالى بأنه امتثل ذلك الأمر فبلغ على أكمل وجه في مواضع آخر. كقوله: ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: 3]، وقوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات: 54] إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه

قوله: ﴿ فاصدع ﴾ قال بعض العلماء: أصله من الصدع بمعنى الإظهار، ومنه قولهم: انصدع الصبح: انشق عنه الليل. والصديع: الفجر لانصداعه، ومنه قول عمرو بن معد يكرب:

ترى السرحان مفترشاً يديه... كأن بياض لبته صديع

اي فجر والمعنى على هذا القول: أظهر ما تؤمر به وبلغه علناً على رؤوس الأشهاد وتقول العرب: صدعت الشيء: أظهرته. ومنه قول أبي ذؤيب:

وكأنهن ربابة وكأنه... يسر يفيض على القداح ويصدع

قاله صاحب اللسان.

وقال بعض العلماء: اصله من الصدع بمعنى التفريق والشق في الشيء الصلب كالزجاج

والحائط. ومنه بمعنى التفريق: قوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: 43] اي يتفرقون: فريق في الجنة وفريق في السعير. بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: 14] ومنه قول غيلان ذي الرمة:

عشية قلبي في المقيم صديعه... وراح جناب الظاعنين صديع

يعني ان قلبه افترق إلى جزءين: جزء في المقيم وجزء في الطاعنين.

وعلى هذا القول - ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ اي فرق بين الحق والباطل بما أمرك الله بتبليغه. وقوله: ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ يحتمل أن تكون "مات" موصوله. ويحتمل أن تكون مصدرية، بناء على جواز سبك المصدر من أن والفعل المبني للمفعول، ومنع ذلك جماعة من علماء العربية. قال أبو حيان في (البحر): والصحيح أن ذلك لا يجوز.

قوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾.

في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء:



---

أحدهما - أن معنى ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك. فالله حافظك منهم.

والآية على هذا التأويل معناها : فاصدع بما تؤمر – أي بلغ رسالة ربك ، وأعرض عن المشركين ، أي لا تبال بهم ولا تخشهم . وهذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] .

الوجه الثاني – وهو الظاهر في معنى الآية – أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين ، ثم نسخ ذلك بآيات السيف . ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ اتبع مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [ الأنعام : 106 ] ، وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ [ السجدة : 30 ] ، وقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة الدنيا ﴾ [ النجم : 29 ] وقوله : ﴿ وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [ الأحزاب : 48 ] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

*(86/429)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ

لِلْمُؤْمِنِينَ (88) ﴾

والمَدُّ: هو مَطُّ الشيء وزيادته. وللعيْن مسافات تُرَى فيها المرائي؛ كُل عَيْن حَسْب قدرتها، فهناك مَنْ يتمتع ببصر قوي وحادّ، وهناك مَنْ ليس كذلك.

ويتراوح الناس في قدرة إبصارهم حسب توصيف وضعه الأطباء؛ ليعالجوا ذلك على قَدْر استطاعتهم العلمية. وفي المثَل اليومي نسمع مَنْ يقول "فلان عنده بُعْد نظر" أي: يملك قدرة على أن يقيس رُدود الأفعال، ويتوقّع ما سوف يحدث، وما يترتَّب على نتائج أيِّ فعل.

والمراد بمَدِّ العين ليس إخراج حبة العين ومدّها؛ ولكن المراد إدامة النظر والإمعان، ولكن الحق سبحانه عبَّر في القرآن هذا التعبير، وكأن الإنسان سيخرج حبَّة عينه ليجري بها، وليُمعِن النظر، وهذا ما يفهم من منطوق الآية، والمنطوق يشير إلى المفهوم المراد، وهذا عين الإعجاز.

وكلمة "متاع" تفيد أن شيئاً يُتمتَّع به وينتهي، ولذلك يُوصَف متاع الدنيا في القرآن بأنه متَاعُ الغرور، أي: أنه متاع موقوت بلحظة.

وقول الحق سبحانه:

﴿ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ . . . ﴾ [الحجر: 88].

هي جَمْع زَوْج، وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة "زوج" هي مفرد، والذكر والأنثى حين

يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا ﴾ [ يس : 36 ] .

والأزواج كُلُّها تعني الفرد ، ومعه الفرد من كل صنف من الأصناف . المراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا شِلَلاً شِللاً ؛ ضال ومضل ؛ وضال آخر معه مُضِل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم : ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [ الصافات : 51 ] .

(87/429)

---

وهكذا كانت كلمة " أزواج " تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومُنكِرين لمنهجه .

وفي موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أغوتْهم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين في نار جهنم : ﴿ وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ [ الأنعام : 128 ] .

أي : يا معشرَ الجنِّ قد استطعتم أنْ تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا

أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شيء نُسمّيهم أزواجاً .

وهنا يُوضِّح الحق سبحانه : إياك أنْ تَمُدَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاءٍ ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذي يضمُّ النَّهْج القويم .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [ الحجر : 88 ] .

ويُقال : حزنت منه ، وحَزِنت عليه ، وحَزِنت له ؛ فمَنْ ناله ما يُحزن ، ولم يَصْدُر عنك هذا السبب في حزنه ؛ فأنت تقول له " حَزِنت لك " .

وآخر ارتكب فِعْلاً يُسِيء إلى نفسه ؛ فأنت تحزن عليه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حَزِن عليهم ؛ فقد كان يُحِبّ أنْ يؤمنوا ، وأنْ يتمتعوا بالنعمة التي يتمتع هو بها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ التوبة : 128 ] .

فمِنْ رأفته صلى الله عليه وسلم صَعُبَ على نفسه أنْ ينال قومه مشقةٌ ؛ فالرحمة والرأفة مصدرها ما وهبه الله إياه من فَهْم لقيمة نعمة الإيمان .

وفي آية أخرى يقول سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [ الكهف : 6 ] .

أي : أنه لن ينقصَ منك شيء في حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً ؛ ذلك أن عليك البلاغَ فقط ؛ فلماذا تحزن على عدم إيمانهم ؟

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [ الحجر : 88 ] .

دليل على أن رسول الله صل الله عليه وسلم كان حريصاً على أن يُؤمِن قومه ، محبةً فيهم ، وليتعرَّفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان صلى الله عليه وسلم يتألم ويحز في نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له في آية أخرى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [ الشعراء : 3-4 ] .

وهنا يُوضِّح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم أن إيمانهم ليس أمراً صعباً عليه سبحانه ؛ ذلك أنه قادر أنْ ينزِّل آية من السماء تجعلهم خاضعين ؛ مؤمنين ؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خَلْقُه محبةً ، وأن يُحسِنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به ؛ فالإيمان عَمَل قلوب ، وسبحانه لا يريد قوالب ،

وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خَلْقه أنْ يأتوه طواعية ؛ فالقهر من القاهر يُثبت له القدرة ، ولكن أنْ يأتي الخَلْق إلى خالقهم طواعية ؛ فهذا يُثبت له المحبوبية .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [ الحجر : 88 ] .

ثم يُوجّه له الأمر بأنْ يُوجّه طاقة الحنان والمودّة التي في قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته صلى الله عليه وسلم ؛ وعليه أنْ يخفض جناحه للمؤمنين .

(89/429)

---

فكُلُّ حركة من الإنسان هي نزوع يتحرّك من بعد وُجدْان ، والوُجْدان يُولّد طاقة داخلية تُهيئ للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحُزْن إنما يخصم ويأخذ من طاقته ؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يُوفّر طاقته ، وأنْ يُوجّهها لمَنْ آمن به ؛ وأن يخفِض جناحه لهم .

وخَفْض الجناح هو التواضُع ؛ ذلك أن الجناحَ هو الجانب ، فحين يأتيك إنسانٌ تريد أنْ تتكبّر عليه ؛ فهو يقول " فلان لَوَى عنِّي جانبه " .

وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين ؛ وأنْ يتوجه إليهم لا باستقامة قالبه ، بل أن ينزل هذا القالب قليلاً

وكلمة : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ .

. . ﴾ [ الحجر : 88 ] مأخوذة من خَفْض جناح الطائر ، فالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أنْ يلمسَ هذا الطائر فَرْخَه الصغير حتى يَخفِض جناحه له ليضمه إليه .

إذن : فالطاقة التي كنتَ تُوجِّهها يا رسول الله إلى مَنْ لا يستحق ؛ عليك أنْ تُوجِّهها لِمَنْ يستحقها ، فيكفيك أن تُبلِّغ الناس جميعاً برسالتك ؛ ومَنْ يؤمن منهم هو مَنْ يستحق طاقةَ حنانِك ورحمتك .

وخَفْض الجناح لِمَنْ آمن برسالتك لا يورثه كِبْراً عليك ؛ بل يزيده أدباً معك .

وقد جاء في الأثر : " إذا عَزَّ أخوك فهُنْه " أي : أنك إذا رأيتَ أخاك في وضع يعِزّ عليك ، فَهُنْ له أنت .

ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربي :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ . . . وقُلْنا القَوْمُ إخْوانُ

عَسَى الأيامُ أنْ يَرْجِعْ . . . نَ قَوْماً كَالذِي كَانُوا

فَلمّا صَرَّح الشّر . . . فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيَانُ

مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَيْثِ . . . غَدَا واللَيْثُ غَضْبَان

بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ . . . وتَخْضِيعٌ وإقرانُ

وَطَعْنٍ كَفَمِ الزِّقِّ . . . غَدَا والزِّقّ مَلآنُ

وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِي . . . نَ لاَ يُنجيكَ إحسَانُ

وَبعضُ الحلمِ عِنْدَ الجه . . . لِ لِلْذلةِ إذْعَانُ

(90/429)

---

ونجد القرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ؛ لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجعل طَبْعه الخُلقي مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [ المائدة : 54 ] .

ويقول أيضاً في وصف المؤمنين : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الفتح : 29 ]

.

وهكذا لم يطبع المؤمن على الشدة والعزة ، بل جعله يتفاعل مع المواقف ؛ فالموقف الذي يحتاج إلى الشدة فهو يشتد فيه ؛ والموقف الذي يحتاج إلى لِينٍ فهو يلين فيه .

والحكمة الشاعرة تقول :

ووَضْعُ النَّدى في مَوضعِ السَّيف بالعلي مضر . . . كوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضعِ النَّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) ﴾

ونعلم أن الرسل مُبشرِّين ومُنذرِين ؛ ولسائل أنْ يقول : ولماذا تأتي صيغة الإنذار دائماً ؟

وأقول : إن مَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ؛ أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النّذارة فهو الكافر المُنكِر .

وفي الإنذار تخويفٌ بشيء ينال مُنك في المستقبل ؛ وعليك أنْ تَعُد العُدَّة لتبتعد بنفسك أن تكون فيه ، والتبشير يكون بأمر تتمناه النَّفْس . وبالإنذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويُحَاط الإنسان بكل قضايا الحياة ؛ ويتضح مسَار كُل أمرٍ من الأُمورِ .

وبذلك يكون الحق سبحانه في الآيتين السابقتين قد امتنَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم ؛ ولذلك يوصيه ألاَّ تطمح نفسه إلى ما أوتي بعضُ من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن عزُّ الدنيا والآخرة .



---

ويوصيه كذلك بألا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ، فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضعَ صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ، فهم خير من كل الكافرين

برسالته صلى الله عليه وسلم . ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه نذير وبشير ، يوضح ما جاء في القرآن من خير يعُمَّ على المؤمنين ، وعقاب ينزل على الكافرين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إنما مثَلي ومثَل ما بعثني اللهُ به كمثَلِ رجلٍ أتى قوماً فقال : يا قوم ، إني رأيتُ الجيشَ بعينيَّ ، وإني أنا النذير العُرْيان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأَدْلجوا فانطلقوا على مهلهِم فنَجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثَل مَنْ أطاعني فاتَّبع ما جِئْتُ به ، ومثَل مَنْ عصاني وكذَّب بما جئتُ به من الحقِّ" .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) ﴾

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستقبله الناس استقبالَيْن : فمنهم مَن استمع إلى القرآن فتبصَّر قول الحق وآمن ، وفي هؤلاء قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنْزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين ﴾ [ المائدة : 83 ] .

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [ محمد : 16 ] .

ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسْبق ، فلم يقيموا ميزانَ العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

(92/429)

---

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ألا يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل ؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لِمَا نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا في أمور الكُتب المنزَّلة إلى رسلهم .

وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المُنزَّل إليك ، فلا تحزنْ إن اتهموك بأنك ساحرٌ ، أو أن ما نزل إليك كتابُ شعر ، أو أنك تمارس الكهانة ؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قَسَّموا القرآن المُنزَّل من الله سبحانه إلى أقسام هي : السِّحْر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

فمنهم مَنْ قال ، وأثبته القرآن عليهم : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الشعراء : 27 ] .

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بِدْعاً من الرسل ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طَمَّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضرُّ بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهُبُّ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل ؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [ فصلت : 26 ] .

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صَفُّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا ؛ لذلك يقول لهم سادتهم : ﴿ والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [ فصلت : 26 ] .

أي : شَوِّشوا عليه .

وهكذا فالاقتسام الذي استقبل به الكفار القرآن سبق وأنْ حدث مع الرسل الذين سبقوك

.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) ﴾

وكلمة ( عضين ) تعني القطع ؛ فيُقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عِضين . أي : فصَل كُلَّ ذراع عن الآخر ، وكذلك قطع الفخذ ؛ أي : أنه جعل الذبيحة قِطَعاً قِطَعاً بعد أنْ كانت أعضاء مُتصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كياناً واحداً ؛ فأراد بعض من الكفار أن يُقطّعوه إلى أجزاء .

والمقصود هنا هم جماعة من اليهود وجماعة من النصارى الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا أنْ يُقطِّعوا القرآن كما فعلوا مع الكتابين اللذين نزلا على موسى ، وهما التوراة ؛ والإنجيل الذي جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما : ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ ﴾ [ المائدة : 13 ] .

أي : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذي نزل عليه .

وإنْ وجدنا لهم العذر في النسيان ؛ فماذا عن الذي كتموه من تلك الكتب ؟ وماذا عن الذي بدّلوه وحرّفوه من كلمات تلك الكتب ؟ وماذا عن الذي أضافوه عليه ، ولم ينزل من عند الله ؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك في القرآن .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبال مَنْ يُصدّق بعضه مِمَّا لا يتعبهم ، وكذَّبوه في البعض الذي يتعبهم ، فقد كذَّبوا مثلاً أن كتابهم قد بشّرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عِضين ، أي : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض

، وقد حاولوا ذلك بعد أن تبيَّن لهم أن القرآن مُؤثِّر وفاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة ؛ فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لِمَن اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد – عليه الصلاة والسلام – فقِسْم منهم تفرَّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه ؛ وجماعة أخرى قسَّمتْ أعضاءها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

(94/429)

---

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسول صلى الله عليه وسم بالجنون ؛ ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شِعْر ؛ ومنهم مَنْ وصفَ الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ . . . . ﴾ .

وهنا يُقسِم الحق سبحانه بصفة الربوبية التي تعهدتْ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلِمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [ طه : 39 ] .

أي : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْميّ بإرادته سبحانه ؛ وتلك عناية الحماية للمنهجية

الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملون رسالته إلى الخَلْق ؛ فقد رزق سبحانه خَلْقه جميعاً ؛ والرسل إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذي يُدير حركة الحياة ؛ لذلك لا بُدَّ أن يُوفِّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 92 ] .

يُبيِّن لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدقِّ التفاصيل ؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لَوْن من العذاب .

ويحاول البعض مِمَّنْ يريدون أنْ يعثروا على تعارض في القرآن أن يقولوا : كيف يقولَ الله مرة :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] .

ويقول في اكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المُكذِّبين ؛ فكيف يُثبِت السؤالَ مرة ، وينفيه مرة أخرى ؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذي تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً في حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال أيّ سؤال له مُهمتان ، المُهِمة الأُولى : أن تعلم ما تجهل . والمهمة الثانية : لتقرِّ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفي سؤالاً فهو ينفي أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه ؛ وحين يثبت السؤال ؛ فهذا يعني أنه سيسألهم سؤالَ الإقرار .

*(95/429)*

---

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونفاه مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، أي : أن جهة النفي غَيْر جهة الإثبات ، وكُلٌّ منهما لها معنًى مختلف .

وقوله هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 92 ] .

يعني أن الضَّال والمُضِلّ ، والتابع والمتبوع سيُسألون عَمّا عملوا . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارحة إلى مُتعلّقها ؛ فجارحةُ العين مُتعلّقها أنْ ترى ؛ وجارحةُ اللسان مُتعلّقها أن تتكلم ، وجارحةُ اليد إما أنْ تُربّت ، وإما أنْ تبطشَ .

وهكذا فكُلُّ ما تصنعه ملكاتُ الإدراك في النفس البشرية نُسمّيه عملاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [ البقرة : 74 ] .

أي : تذكَّروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ، وأن كل ما تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ . . . ﴾ .

أي : افرغ لِمُهمتك ؛ فالصّدع تصنع شقاً في متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً في حائط . والرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء لِيشقّ الكفر ويهدم الفساد القوي المتماسك الذي يَقْوي بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح " الصدع " في الزجاج ؛ لأن أيّ شقٍّ في أيِّ شيء من الممكن أنْ يلتئَم إلا في الزجاج ؛ لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصغيرة التي تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [ الحجر : 94 ] .

(96/429)

---

أي : أَعْطِهم عرض كتفيك ، ولا تسأل عنهم ؛ فَهُم لن يُسلِموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذي جِئْتَ أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تتثبت دعوتك ،

وتصل قلوبهم إلى تيقُّن أن ما جئتَ به هو الحق .

والمَثَل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ فقد قالا : " لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تَعُدْ معارضتنا له تفيد أحداً " ، ودخلاَ الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(97/429)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : ( وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ) ( الحجر : 88 ) ، وفي سورة الشعراء : ( وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ) ( الشعراء : 215 ) ، فزيد هنا قوله : ( لِمَنِ اتَّبَعَكَ ) ومقصود الآيتين واحد فللسائل أن يسأل عن وجه التخصيص ؟

(98/429)

---

والجواب عن ذلك : إنه لما لم يتقدم آية الحجر تخصيص بمدعو بل تقدمها خطابه ، عليه السلام ، بالتأنيس والتسلية عمن أعرض والرفق بمن آمن فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ( الحجر : 88 ) ، لم يحتج هنا إلى زيادة . ولما تقدم آية الشعراء قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ( الشعراء : 214 ) ، والإنذار يستصحب التخويف والاستعلاء على من يخاطب به ، اتبع ذلك تعالى تلطفاً وإنعاماً على من آمن من عشيرته ، عليه السلام ، وغيره بقوله : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ( الشعراء : 215 ) فقيل هنا : ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ ﴾ ليكون أنص في تعميم المؤمنين مطلقاً من العشيرة وغيرهم ، ولو قيل هنا ( ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لما كان نصاً في التعميم بل كان يحتمل أن يراد به خصوص المؤمنين من عشيرته ، عليه السلام ، وكأن قد قيل : واخفض جناحك لمت آمن منهم أي من العشيرة ، لأن لفظ المؤمنين هنا –وإن عم– فإنه مما تقدمه وبني عليه من قوله : ( ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ( الشعراء : 214 ) يشبه الوارد من العمومات على سبب خاص ، وذلك مما يكسر سورة عمومه ويدخله الخلاف ، فجيء بالمجموع من قوله : ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لايمتنع أن يراد به الخصوص ، فالجواب ان رجوع الضمير إلى العشيرة على اللزوم غير لازم بل يمكن رجوعه إلى الجميع من متماد على كفره ومتبع . أما الأول فبين ، وأما الثاني فالارتداد وقد قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ ( آل عمران : 86 ) ، بل رجوع الضمير إلى الكل أولى ليستصحب

المؤمن الخوف ، ولهذا قيل : ( فَإِنْ عَصَوْكَ ) لوقوع اسم المعصية على الكفر وما فوقه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 292. 293 ﴾

(99/429)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾

فيه أقوالٌ ، أحدُهما : أنَّ الكافَ متعلقٌ ب " آتيناك " ، وإليه ذهب الزمخشري فإنه قال : " أي : أَنْزَلْنا عليك مثلَ ما أَنْزَلْنا على أهل الكتاب ، وهم المُقتسِمُون الذين جعلوا القرآن عِضِينَ " . والثاني : أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ منصوبٍ ب " آتيناك " تقديرُه : آتَيْناك إتْياناً كما أَنْزَلْنا . الثالث : أنه منصوبٌ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ ، ولكنه مُلاقٍ ل " آتيناك " من حيث المعنى لا من حيث اللفظُ ، تقديرُه : أَنْزَلْنا إليك إنزالاً كما أَنْزَلْنا ، لأَنَّ " آتيناك " بمعنى أَنْزَلْنَا إليك . الرابع : أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، العاملُ فيه مقدرٌ أيضاً تقديرُه : مَتَّعْناهم تمتيعاً كما أَنْزَلْنا ، والمعنى : نَعَّمْنا بعضَهم كما عَذَّبنا بعضَهم . الخامس : أنه صفةٌ لمصدرٍ دلَّ

عليه " النذير " والتقدير : أنا النذيرُ إنْذاراً كما أَنْزَلْنا ، أي : مثلَ ما أنزلناه .

السادس : أنه نعتٌ لمفعولٍ محذوف ، الناصبُ له " النذير " ، تقديرُه : النذير عذاباً ، كما أنزلنا على المُقْتَسِمين ، وهم قومُ صالحٍ لأنهم قالوا : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [ النمل : 49 ] فأَقْسموا على ذلك ، أو يُراد بهم قريشٌ حيث قَسَموا القرآنَ إلى سِحْرٍ وشِعْرٍ وافتراء .

وقد رَدَّ بعضُهم هذا بأنه يلزمُ منه إعمالُ الوصفِ موصوفاً ، وهو غيرُ جائزٍ عند البصريين ، جائزٌ عند الكوفيين ، فلو عَمِل ثم وُصِفَ جاز عند الجميعِ .

(100/429)

---

السابع : أنه مفعولٌ به ، ناصبُه " النذير " أيضاً . قال الزمخشريُّ : " والثاني : أَنْ يتعلَّقَ بقوله : " وقل : إني أنا النذيرُ المبين ، أي : وأَنْذِرْ قريشاً مثلَ ما / أَنْزَلْنَا من العذابِ على المقتسمين ، يعني اليهودَ وهو ما جرَى على قُرَيْظَةَ والنَّضِير " . وهذا مردودٌ بما تقدم من إعمالِ الوصفِ موصوفاً .

الثامن : أنه منصوبٌ نعتاً لمفعولٍ به مقدر ، والناصبُ لذلك المحذوفِ مقدَّرٌ لدلالةِ لفظِ " النذير " عليه ، أي : أُنْذِرُكم عذاباً مثلَ العذابِ المنزَّلِ على المقتسمين ، وهم قومُ صالحٍ أو قريشٌ ، قاله أبو البقاء ، وكأنه فَرَّ مِنْ كونِه منصوباً بلفظِ " النَّذير " لِما تقدَّم من الاعتراض

البَصْرِيّ .

وقد اعترض ابنُ عطيةَ على القول السادس فقال : " والكافُ من قوله "كما " متعلقةٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه : وقل إني أنا النذيرُ المبينُ عذاباً كما أنزَلْنا ، فالكافُ اسمٌ في موضع نصب ، هذا قولُ المفسِّرين . وهو عندي غيرُ صحيحٍ ، لأنَّ ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾ ليس مما يقولُه محمدٌ عليه السلام ، بل هو مِنْ كلامِ الله تعالى ، فينفصِلُ الكلامُ ، وإنما يترتَّبُ هذا القولُ بأن الله تعالى قال له : أَنْذِرْ عذاباً كما . والذي أقول في هذا : " المعنى : وقل : إني أنا النذيرُ المبين ، كما قال قبلَك رسلُنا ، وأنزلْنا عليهم كما أَنْزَلنا عليك . ويُحْتمل أن يكونَ المعنى : وقل إني أنا النذيرُ المُبينُ ، كما قد أَنْزَلْنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً ، على أنَّ المُقْتَسِمين اهلُ الكتاب " .

انتهى .

(101/429)

---

وقد اعتذر بعضُهم عَمَّا قاله أبو محمدٍ فقال : " الكافُ متعلقةٌ بمحذوفٍ دَلَّ عليه المعنى تقديرُه : أنا النذيرُ بعذابٍ مثلِ ما أنزلنا ، وإنْ كان المُنَزِّلَ اللهُ ، كما يقول بعضُ خواصِّ المَلِك : أَمَرْنا بكذا ، وإن كان المَلِكُ هو الآمرَ ، وأمَّا قولُ أبي محمدٍ : وأَنْزَلَنا عليهم كما أَنْزَلْنا عليك

كلامٌ غيرُ منتظمٍ ، ولعل أصلَه : وأَنْزَلنا عليك كما أَنْزَلْنا عليهم ، كذا اصلحه الشيخ وفيه نظرٌ : كيف يُقَدَّر ذلك والقرآن ناطقٌ بخلافِه : وهو قولُه ﴿ عَلَى المقتسمين ﴾ ؟

التاسع : أنه متعلِّقٌ بقوله ﴿ لَنسْأَلَنَّهُمْ ﴾ [ الحجر : 92 ] تقديرُه : لَنَسْأَلَنَّهم أجمعين مثلَ ما أَنْزَلْنا .

العاشر : أنَّ الكافَ مزيدةٌ تقديره : أنا النذير المُبين ما أنزلناه على المقتسِمين ، ولا بد مِنْ تأويلِ ذلك : على أنَّ " ما " مفعولٌ بالنذير عند الكوفيين فإنهم يُعْمِلون الوصفَ الموصوفَ ، أو على إضمارِ فعلٍ لائق ، أي : أُنْذِركم ما أنزلناه كما يليق بمذهبِ البصريين .

الحادي عشر : أنه متعلِّقٌ ب " قل " التقديرُ : وقُلْ قولاً كما أَنْزَلْنا على المقتسِمين : إنك نذيرٌ لهم ، فالقولُ للمؤمنين في النِّذارة كالقولِ للكفارِ المقتسِمين ؛ لئلا تظنَّ أن إنذارَك للكفارِ مخالِفٌ لإِنذار المؤمنين ، بل أنت في وصفِ النِّذارة لهم بمنزلةٍ واحدةٍ ، تُنْذِر المؤمنَ كما تُنْذر الكافرَ ، كأنه قال : أنا النذير المبينُ لكم ولغيرِكم .

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين جَعَلُواْ ﴾ : فيه أوجهٌ : أظهرُها : أنه نعتٌ للمقتسِمين . الثاني : أنه بدلٌ منه . الثالث : أنه بيانٌ له . الرابع : أنه منصوبٌ على الذمِّ . الخامس : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ . السادس : أنه منصوب بالنذير المبين ، قاله الزمخشري ، وهو مردودٌ بإعمال الوصفِ الموصوفِ عند البصريين ، وتقدَّم تقريرُه .

و " عِضِيْن " جمع " عِضَة " وهي الفِرْقَةُ ، ف " العِضين " الفِرَق ، ومعنى جَعْلِهم القرآنَ كذلك : أنَّ بعضَهم جعله شعراً ، وبعضَهم سحراً ، وبعضَهم كِهانةً ، نعوذ بالله من ذلك .

وقيل : العَضْهُ : السِّحْرُ بلغة قريش ، يقولون : هو عاضِهٌ وهي عاضِهَةٌ . قال :

2953- أَعُوذُ بربِّي من النَّافِثا . . . تِ في عُقَدِ العاضِهِ المُعْضِهِ

وفي الحديث : " لَعَنَ العاضِهَةَ والمُسْتَعْضِهَة " ، أي : الساحرة والمُسْتَسْحِرَة . وقيل : هو مِنْ العِضَه ، وهو الكذبُ والبُهْتانُ . يقال : عَضَهَهُ عَضْهَاً وعَضِيْهَةً ، أي : رماه بالبُهتان ، وهذا قولُ الكسائيِّ . وقيل : هو من العِضَاه ، وهي شجرٌ شَوْكٌ مُؤْذٍ ، قاله الفراء .

وفي لام " عِضَة " قولان يَشْهد لكلٍّ منهما التصريفُ : الواوُ ، لقولهم : عِضَوات ، واشتقاقها من العُضْو ، لأنه جزءٌ مِنْ كلٍّ ، ولتصغيرِها على عُضَيَّة ، والهاء / لقولهم : عُضَيْهَة وعاضِهٌ وعاضِهَةٌ وعَضِهٌ ، وفي الحديث : " لا تَعْضِيَةَ في مِيراثٍ " وفُسِّر بأنْ لا تَفْريقَ فيما يَضُرُّ بالورَثَةِ ، تفريقُه كسيفٍ يُكْسَر بنصفَيْن فَيَنْقُصُ ثمنُه .

وقال الزمخشريُّ : " عَضين : أجزاءٌ ، جمع عِضَة ، وأصلُها عِضْوَة فِعْلَة ، مِنْ عَضَا الشاةَ إذا جَعَلَها أعضاءً . قال :

2954- وليس دينُ الله بالمُعَضَّى . . . وجُمِعَ عِضَةَ على عِضين ، كما جُمع سَنَة وثُبَة وظُبَة ، وبعضهم يُجْري النونَ بالحركاتِ مع الياء ، وقد تقدَّم تقريرُ ذلك ، وحينئذ تَثْبُتُ نونُه في الإِضافةِ فيقال : هذه عِضِيْنُك .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فاصدع ﴾ : أصلُ الصَّدْعِ : الشَّقُّ : صَدَعْتُه فانصَدَعَ ، أي : شَقَقْتُه فانْشَقَ ، ومنه التفرقةُ أيضاً كقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [ الروم : 43 ] .

وقال :

(103/429)

---

2955- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . كأنَّ

بياضَ غِرَّتِه صَدِيعُ

والصَّديعُ : ضوء الفجر لانشقاقِ الظلمةِ عنه ، ومعنى " فاصدَعْ " : فافرُقْ بين الحقِّ والباطلِ وافْصِلْ بينهما . وقال الراغب : " الصَّدْعُ شِقٌّ في الأجسامِ الصُّلْبة كالزُّجاج والحديد ، وصَدَّعْتُه بالتشديد فتصَدَّع ، وصَدَعْتُه بالتخفيفِ فانْصَدَع ، وصُداع الرأسِ منه لتوهُّمِ الانشقاقِ فيه ، وصَدَعْتُ الفَلاةَ ، أي : قطعتُها " مِنْ ذلك ، كأنه تَوَهَّم تفريقَها .

و" ما " في " بما تُؤْمَر " مصدريةٌ أو بمعنى الذي ، والأصلُ : تُؤْمَر به ، وهذا الفعلُ يَطَّرِدُ حَذْفُ الجارِّ معه ، فَحَذْفُ العائدِ فصيحٌ ، وليس هو كقولك " جاء الذي مررت " ونحُوه :

2956- أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعَلْ ما أُمِرْتَ به . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

والأصل : بالخير . وقال الزمخشري : " ويجوز أن تكونَ " ما " مصدريةً ، أي : بأَمْرِك ، مصدرٌ من المبني للمفعول " . انتهى . وهو كلامٌ صحيحٌ . ونَقَلَ الشيخُ عنه أنه قال : " ويجوز أن يكونَ المصدرُ يُراد به " أَنْ " والفعلِ المبنيِّ للمفعول " . ثم قال الشيخ : " والصحيحُ أنَّ ذلك لا يجوز " . قلت : الخلافُ إنما في المصدرِ المُصَرَّح به : هل يجوز أن يَنْحَلَّ لحرفٍ مصدريٍ وفعلٍ مبني للمفعول أم لا يجوز ذلك ؟ خلافٌ مشهور ، أمَّا أنَّ الحرفَ المصدريَّ هل يجوز فيه أن يُوْصَلَ بفعل مبني للمفعول نحو : "يُعجبني أن يُكْرَمَ عمرٌو " أم لا يجوز ؟ فليس محلَّ النِّزاعِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 179.185 ﴾

(104/429)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى اللام )

وهى [ترد على وجوه] :

1- حرف هجاءٍ من حروف الذَلاَقة ، مخرجها ذُلْق اللسان جوار مخرَج النون .

2- عبارة عن اسم عدد الثلاثين فى حساب الجُمّل .

3- لام العَجْز ، فإِنَّ بعض الناس يجعلها مكان / الراء ، فيقول فى رَحِيق : لحيق .

4- لام أَصل الكلمة كلام كمل ، ومَكَل ، وكلم .

5- لام القَسَم : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ ﴾ .

6- لام جواب القسم : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

7- لام جواب إِنَّ : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

8- اللام المصاحبة لإِن الخفيفة : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .

9- اللام المصاحِبة للو : ﴿ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ ﴾ ، ﴿ لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

10- لام بمعنى لقد ؛ نحو : لهان علينا ، أَى لقد هان علينا .

11- لام الاستغاثة : يا لَلْمُسلمين [وكقول الشاعر] :

يالَبَكْرٍ أَين أَين الفرارُ

12- لام التمييز : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾

13- لام التفصيل : ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ﴾ .

14- لام المدح: ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

15- لام الذمّ : ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

16- اللام المنقولة : ﴿ يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ .

17- لام المقحمة : ﴿ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي ردفكم .

18- اللام الداخلة على الضمائر : لك ، وله ، ولنا .

وأما اللامات المكسورة فمنها : العاملة للجرّ [وترد لمعان] .

1- لام الاستحقاق : الحمد لله .

2- لام الاختصاص : المنبر للخطيب .

3- لام التمليك : الدار لزيد .

4- لام شبه التمليك : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ .

5- لام التعليل نحو قوله : ويوم عقرت للعذارى مطيّتى

6- لام التوكيد : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ ﴾ .

7- اللام بمعنى إلى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ .

8- اللام الموافقة لمن : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ .

9- الموافقة لعلى : ﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ ﴾ : أى على الأَذقان ؛ ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ : أى على الجبين .

10- الموافقة لفى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ومنه قول الشاعر :

*تَوَهَّمْتُ آياتٍ لها فعرفتها * لستة أَعوامٍ وذا العامُ سابعُ*

11- لام بمعنى عند : كتبتهُ لخمس خلون .

12- بمعنى بعد : ﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ .

13- الموافقة لمع :

*فلمَّا تفرَّقنا كأَنى ومالكا * لطول اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا*

14- الموافقة لمن : سمعت له صُرَاخا .

15- لام التبليغ : قلت له .

16- اللام بمعنى عن : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

17- لام الصيرورة وهى لام العاقبة ولام المآل : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ .

18- لام القسم والتعجُّب معا ، ويختص باسم الله تعالى : [كقول الشاعر]

* لله يبقى على الأَيام ذو حِيَدٍ *

19- [لام] التعجُّب المجرّد عن القسم، ويستعمل فى لله دره، قيل ومنه: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أى عجباً من إلفهم، وفى النداء يا للماء.

20- لام التعدية: ما أَضرب زيدًا لعمرو.

21- لام التأْكيد: وهى اللام الزائده: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

22- لام التبيين: سقياً لزيد، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

23- لام الصلة: نقدت أَلفا لفلان: أَى وصلته إليه.

وأَمّا العاملة للجزم فنحو: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾.

[ومن أقسامها]:

ا - لام التهديد: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

ب - لام التحدّى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾.

جـ - لا التعجيز: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِى الأَسْبَابِ﴾.

أَما اللام غير العاملة فسبع:

(ا) لام الابتداء : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

(ب) اللام الزائدة نحو : أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شهربَهْ .

(جـ) لام الجواب نحو : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ﴾ ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ ، ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ .

(د) اللام الداخلة على أَداة الشرط للإِيذان : ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ .

(هـ) لام أَلْ ؛ نحو : الرجل .

(و) اللام اللاحقة بأَسماء الإِشارة : كما فى تلك .

(ز) لام التعجب غير الجارّة : لَظَرُفَ زيدٌ .

واللام اللغوىّ .

اللام الدروع جمع لامة .

وهى الدّرع .

واللام : أَيضاً : الشخص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 408 . 412 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ .

لم يُسَلِّمْ له إشباع النظر إلى زَهْرَة الدنيا وزينتها .

ويقال غار على عينيه – صلى الله عليه وسلم – أن يستعملَها في النظر إلى المخلوقات .

ويقال أدَّبَه اللَّهُ – سبحانه – بهذا التأديب حتى لا يُعِيرَ طَرْفَه من حيث الاستئناس به .

ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لمَّا لم يكن اليومَ سبيلٌ لأحد إلى رؤيته ، فلا تمدن عينيك إلى ملاحظة شيء من جملة ما خوَّلْناهم ، كما قال بعضهم :

لمَّا تيَقَّنْتُ أني لستُ أُبصركم . . . أغمضتُ عيني فلم أنظر إلى أحد

ويقال شتَّانَ بينه وبين موسى – عليه السلام ! قال له : ﴿ لَن تَرَانِى وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ ﴾ [ الأعراف : 143 ] ، ونبينا – صلى الله عليه وسلم – مَنَعَه من النظر إلى المخلوقات بوصفٍ هو تمام النظر فقال : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [ الحجر : 88 ] .

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى غير الله ؟ !

ويقال لما أُمِرَ بغَضّ بَصَرِه عما يتمتّع به الكفارُ في الدنيا تأدَّبَ – عليه السلام – فلم ينظرْ ليلةَ المعراج إلى شيءٍ مما رأى في الآخرة ، فأثنى عليه الحقُّ بقوله : ﴿ مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى

﴾ [النجم : 17 ] وكان يقول لكل شيءٍ رآه " التحيات لله " أي المُلْكُ لله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

أدّبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكين .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(108/429)

---

أي أَلِنْ لهم جانبَكَ . وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة في الشافعة إلى مواليها يمضي معها . . . إلى غير ذلك من حسن خُلُق - صلوات الله عليه - وكان في الخبر إنه كان يخدم بيته وكان في ( مهنة ) أهله . وتولَّى خدمة الوفد ، وكان يقول ؛ " سيدُ القومِ خادمُهم " .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) ﴾

لَمَّا لم يكن بنفسه وكان قائماً بحقه - سبحانه وتعالى - سَلّمَ له أن يقول : إني وأنا . وفي الخبر : أن جابراً دَقَّ عليه الباب ، فقال : " مَنْ ؟ " قال : أنا . . . فقال النبي عليه السلام : " أنا أنا " . . كأنه كرهها .

ويقال : قُلْ لا حدّ لاستهلاكك فينا ، سلَّمنا أن تقول : إني أنا ، لما كنتَ بنا ولنا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ .

أي قل إني أنا لكم مُنذِرٌ بعذابٍ كالعذاب الذي عذَّبْنا به المقتسمين ؛ وهم الذين تقاسموا بالله لنبيّه في قصة صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ؛ فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضِه .

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المقتسمين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم ، وصدوا الناس . وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به : لا تؤْمِنْ بمحمدٍ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ .

ففرقوا القول فيه ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال بعضهم إنه سحر ، وقال بعضهم إنه كهانة . . . إلى غير ذلك .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) ﴾

العوام يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .

ويقال يسأل قوماً عن حركات ظواهرهم ، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم . ويسأل الصديقين عن تصحيح المعاني بفعالهم ، ويسأل المدَّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيفاً لهم .

ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم أُنساً وسروراً حيث علموا أنه يكلّمهم ونُسْمِعُهُم خطابَه لاشتياقِهم إليه ، ولا عَجَبَ في ذلك فالمخلوق يقول في مخلوق :

في الخَفِراتِ البيضِ ودَّ جليسُها . . . إذا ماانتهت أُحْدُوثةٌ لَوْ تُعِيدُها

فلا أسعدَ مِنْ بَشَرٍ يعرف أنَّ مولاه غداً سيكلمه .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) ﴾

كُنْ بنا وقُلْ بنا ، وإذا كنتَ بنا ولَنَا فلا تجعلْ حِساباً لغيرنا ، وصرِّحْ بما خاطبناك به ، وأَفْصِحْ عَمَّا نحن خصصناكَ به ، وأَعْلِنْ محبتنا لك :

فسبِّحْ باسم مَنْ تَهْوى ودَعْنا من الكُنى . . . فلا خيرَ في اللَّذاتِ مِنْ بعدها سَتْرُ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 280.282 ﴾

(110/429)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة عليه صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكثرة ما يلقى عليه الأذى ، خفف عنه سبحانه بقوله معللاً له : ﴿ إنا كفيناك ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ المستهزءين ﴾ أي شر الذين هم عريقون في الاستهزاء بك وبما جئت به ، فأقررنا عينك بإهلاكهم ، وزال عنك ثقل ما آذوك به ، وبقي لك أجره ، وسنكفيك غيرهم كما كفيناكهم ، ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين يجعلون مع الله ﴾ أي مع ما رأوا من آياته الدالة على جلاله ، وعظيم إحاطته وكماله ﴿ إلهاً ﴾ .

ولما كانت المعية تفهم الغيرية ، ولا سيما مع التعبير بالجعل ، وكان ربما تعنت منهم متعنت باحتمال التهديد على تألهه سبحان على سبيل التجريد ، أو على دعائه باسم غير الجلالة ، لما ذكر المفسرون في قوله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [ الإسراء : 110 ] الآية آخر سبحان ، زاد في الصراحة بنفي كمال كل احتمال بقوله : ﴿ ءاخر ﴾ قال البغوي : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : سجد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمكة ذات ليلة فجعل يقول في سجوده : يا الله يا رحمن ، فقال أبو جهل : إن محمداً ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين ؟ فأنزل الله هذه الآية يعني آية سبحان ، وتسبب عن أخذنا للمستهزئين – وكانوا أعتاهم – أن يهدد الباقون بقولنا : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي يحيط علمهم بشدة

بطشنا وقدرتنا على ما نريد ، ليكون وازعاً لغيرهم ، أو يعلم المستهزئون وغيرهم عاقبة أمورهم في الدارين .

(111/429)

---

ولما كان صدعه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذلك على حد من المشقة عظيم وإن أريح من المستهزئين ، لكثرة من بقي ممن هو على مثل رأيهم ، قال يسليه ويسخي بنفسه فيه : ﴿ ولقد نعلم ﴾ أي تحقق وقوع علمنا على ما لنا من العظمة ﴿ أنك ﴾ أي على ما لك من الحلم وسعة البطان ﴿ يضيق صدرك ﴾ أي يوجد ضيقه ويتجدد ﴿ بما يقولون ﴾ عند صدعك لهم بما تؤمر ، في حقك من قولهم : ﴿ يا أيُّها الذي نزل عليه الذكر ﴾ إلى آخره ، وفي حق الذي أرسلك من الشرك والصاحبة والولد وغير ذلك ﴿ فسبح ﴾ بسبب ذلك ، ملتبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي نزهه عن صفات النقص التي منها الغفلة عما يعمل الظالمون ، مثبتاً له صفات الكمال التي منها إعزاز الولي وإذلال العدو ﴿ وكن ﴾ أي كوناً جبلياً لا انفكاك له ﴿ من الساجدين ﴾ له ، أي المصلين ، أي العريقين في الخضوع الدائم له بالصلاة التي هي أعظم الخضوع له وغيرها من عبادته ، ليكفيك ما أهمك فإنه لا كافي غيره ، فلا ملجأ إلى سواه ، وعبر عنها بالسجود إشارة إلى شرفه وما ينبغي من

الدعاء فيه لا سيما عند الشدائد ، فقد قال تعالى :

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [ البقرة : 45 ] وروي أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة – ذكره البغوي بغير سند ، وهو في مسند أحمد وسنن أبي داود عن حذيفة -رضى الله عنهم- قال : كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا حزبه أمر صلى .

وفي سنن النسائي الكبرى ومسند أحمد عن علي -رضى الله عنهم- قال : لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إنسان إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح .

وفي لفظ لأحمد : لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح .

ولأحمد ومسلم وأبي يعلى عن أبي هريرة -رضى الله عنهم- أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " .

ولما أمره بعبادة خاصة، أتبعه بالعامة فقال: ﴿ واعبد ربك ﴾ أي دم على عبادة المسحن إليك بهذا القرآن الذي هو البلاغ بالصلاة وغيرها ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ بما يشرح صدرك من الموت أو ما يوعدون به من الساعة أو غيرها مما ﴿ يود الذين كفروا معه لو كانوا مسلمين ﴾ قال الرازي في اللوامع: وهذا دليل على أن شرف العبد في العبودية، وأن العبادة لا تسقط عن العبد بحال ما دام حياً - انتهى.

وقال البغوي: وهذا معنى ما في سورة مريم عليها السلام ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ [ مريم: 31 ] فقد انطبق آخر السورة - في الأمر باتخاذ القرآن بلاغاً لكل خير والإعراض عن الكفار - على أولها أتم انطباق، واعتنق كل من الطرفين: الآخر والأول أي اعتناق - والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 240 . 242 ﴾

*(113/429)*

---

فصل

قال الفخر:

ثم قال: ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ قيل: كانوا خمسة نفر من المشركين: الوليد بن المغيرة

والعاص بن وائل وعدي بن قيس والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال : لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحا ومات ، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي ، وأشار إلى أنف عدي بن قيس ، فامتخط قيحاً فمات وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات .

واعلم أن المفسرين قد اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين وفي أسمائهم وفي كيفية طريق استهزائهم ، ولا حاجة إلى شيء منها ، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في علو قدره وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم ، والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون وأولئك المستهزؤون قال له : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك فعند هذا قال له : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فأمره بأربعة أشياء بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة واختلف الناس في أنه كيف صار الإقبال على هذه الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن ؟ فقال العارفون المحققون إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية ، ومتى حصل ذلك الإنكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة ، وإذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها ، وعند ذلك يزول الحزن والغم .

وقالت المعتزلة : من اعتقد تنزيه الله تعالى عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق ، فإنه يعلم أنه عدل منزه عن إنزال المشاق به من غير غرض ولا فائدة فحينئذ يطيب قلبه ، وقال أهل السنة : إذا نزل بالعبد بعض المكاره فزع إلى الطاعات كأنه يقول : تجب على عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات ، وقوله : ﴿ واعبد ربَّكَ حتى يأتِيَكَ اليقين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد الموت وسمي الموت باليقين لأنه أمر متيقن .

فإن قيل : فأي فائدة لهذا التوقيت مع أن كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات ؟

قلنا : المراد منه : ﴿ واعبد ربَّكَ ﴾ في زمان حياتك ولا تخل لحظة من لحظات الحياة عن هذه العبادة ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 171 . 172 ﴾

*(115/429)*

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ ﴾

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِل :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : التَّسْبِيحُ : هُوَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالتَّعْظِيمِ ، بِالْقَلْبِ اعْتِقَادًا ، وَبِاللِّسَانِ قَوْلًا .

وَالْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا الصَّلَاةُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَعْلَمُ ضِيقَ صَدْرِك بِمَا تَسْمَعُهُ مِنْ تَكْذِيبِك وَرَدِّ قَوْلِك ، وَيَنَالُهُ أَصْحَابُك مِنْ إذَايَةِ أَعْدَائِك ؛ فَافْزَعْ إلَى الصَّلَاةِ ، فَهِيَ غَايَةُ التَّسْبِيحِ وَنِهَايَةُ التَّقْدِيسِ ، ﴿ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ

إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ ، وَذَلِكَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ ﴾ ، أَيْ مِنْ الْمُصَلِّينَ وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَإِنَّ دِعَامَةَ الْقُرْبَةِ فِي الصَّلَاةِ حَالَ السُّجُودِ .

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هَهُنَا الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ نَفْسِهِ ، فَيَرَى هَذَا الْمَوْضِعَ مَحَلَّ سُجُودٍ فِي الْقُرْآنِ .

وَقَدْ شَاهَدْت الْإِمَامَ بِمِحْرَابِ زَكَرِيَّا مِنْ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ طَهَّرَهُ اللَّهُ يَسْجُدُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عِنْدَ قِرَاءَتِهِ لَهُ فِي تَرَاوِيحِ رَمَضَانَ ، وَسَجَدْت مَعَهُ فِيهَا ، وَلَمْ يَرَهُ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّك حَتَّى يَأْتِيَك الْيَقِينُ ﴾ : أَمَرَهُ بِعِبَادَتِهِ إذَا قَصَّرَ عِبَادُهُ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ طِبُّ عِلَّتِهِ ، وَهِيَ كَمَا قَدَّمْنَا أَشْرَفُ الْخِصَالِ ، وَالتَّسَمِّي بِهَا أَشْرَفُ الْخُطَطِ .

(116/429)

---

قَالَ شُيُوخُ الْمَعَانِي : أَلَا تَرَى كَيْفَ سَمَّى اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ عِنْدَ أَفْضَلِ مَنَازِلِهِ ، وَهِيَ الْإِسْرَاءُ ، فَقَالَ : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ نَبِيِّهِ وَلَا رَسُولِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الشَّاعِرُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ اللَّفْظِ حَيْثُ يَقُولُ : يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي لَا تَدْعُنِي إلَّا بِيَا عَبْدَهَا

فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : الْيَقِينُ : الْمَوْتُ ، فَأَمَرَهُ بِاسْتِمْرَارِ الْعِبَادَةِ أَبَدًا ، وَذَلِكَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ، وَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ أَبَدًا ، لِاحْتِمَالِ لَفْظَةِ الْأَبَدِ لِلَّحْظَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَلِجَمِيعِ الْأَبَدِ ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ : وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْيَقِينَ الْمَوْتُ ﴿ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ الْأَنْصَارِيَّةَ وَكَانَتْ بَايَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْ أَنَّهُمُ اقْتَسَمُوا الْمُهَاجِرِينَ قُرْعَةً ، فَصَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ قَالَتْ : فَأَنْزَلْنَاهُ مَعَ أَبْنَائِنَا ، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ ، لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ .



فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ ؟ قُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَهْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ﴾ .

الْحَدِيثَ .

وَيَتَرَكَّبُ عَلَى هَذَا أَنَّ الرَّجُلَ إذَا قَالَ لِامْرَأَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ أَبَدًا ، وَقَالَ : نَوَيْت يَوْمًا أَوْ شَهْرًا كَانَتْ لَهُ عَلَيْهَا الرَّجْعَةُ .

وَلَوْ قَالَ : طَلَّقْتهَا حَيَاتَهَا لَمْ يُرَاجِعْهَا ، وَقَدْ مَهَّدْنَا ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(118/429)

---

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إنّا كفيناك المستهزئين ﴾

وهم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الطلاطلة .

أهلكهم الله جميعاً قبل بدر لاتسهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسبب هلاكهم ما حكاه مقسم وقتادة أن الوليد بن المغيرة ارتدى فعلق سهم بردائه ، فذهب فجلس فقطع أكحله فنزف فمات . وأما العاص بن وائل فوطىء على شوكة ، فتساقط لحمه عن عظامه ، فمات ، وأما أبو زمعة فعمى . وأما الأسود بن عبد يغوث فإنه أتى بغصن شوك فأصاب عينيه ، فسالت حدقتاه على وجهه ، فكان يقول : [ دعا ] عليّ

محمد فاستجيب له ، ودعوت عليه فاستجيب لي ، دعا عليّ أن أعمى فعميت ،

ودعوت عليه أن يكون طريداً بيثرب ، فكان كذلك ، وأما الحارث بن الطلاطلة فإنه

استسقى بطنه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل [ حين ] نزل عليه بقوله

تعالى : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ " دع لي خالي " يعني الأسود بن الطلاطلة فقال له :

كفيت .

قوله عز وجل : ﴿ ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك ﴾ أي قلبك لأن الصدر محل القلب .

﴿ بما يقولون ﴾ يعني من الاستهزاء ، وقيل من الكذب بالحق .

﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الخاضعين .

الثاني : المصلين .

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ، قاله شجرة .

الثاني : الموت الذي لا محيد عنه ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أعلمه الله تعالى بأنه قد كفاه ﴿ المستهزئين ﴾ من كفار مكة ببوائق إصابتهم من الله تعالى لم يسع فيها محمد ولا تكلف فيها مشقة ، وقال عروة بن الزبير وسعيد بن جبير : " المستهزئون " خمسة نفر : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، ومن خزاعة الحارث بن الطلاطلة ، وهو ابن غيطلة ، وهو ابن قيس ، قال أبو بكر الهذلي : قلت للزهري : إن ابن جبير وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين ، فقال ابن جبير هو الحارث بن غيطلة ، وقال عكرمة هو الحارث بن قيس ، فقال الزهري صدقا أمه غيطلة وأبوه قيس وذكر الشعبي في ﴿ المستهزئين ﴾ هبار بن الأسود ، وذلك وهم لأن هباراً أسلم يوم الفتح ورحل إلى المدينة ، وذكر الطبري عن ابن عباس : أن ﴿ المستهزئين ﴾ كانوا ثمانية كلهم مات قبل بدر ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المسجد ، فأتاه جبريل فجاز الوليد فأومأ جبريل بأصبعه إلى ساقه ، وقال للنبي عليه السلام : كفيت ثم جاز العاصي ، فأومأ إلى أخمصه ، وقال : كفيت ، ثم مر أبو زمعة فأومأ إلى عينه ، ثم مر الأسود بن عبد يغوث ، فأومأ إلى أخمصه ، وقال : كفيت ، ثم مر أبو زمعة فأومأ إلى عينه ، ثم مر الأسود بن عبد يغوث ، فأومأ إلى رأسه ، وقال كفيت ، ثم مر الحارث ، فأومأ إلى بطنه ، وقال : كفيت ، وكان الوليد قد مر بقين في خزاعة فتعلق

سهم من نبله بإزاره ، فخدش ساقه ، ثم برىء فانتقض به ذلك الخدش بعد إشارة جبريل ، فقتله ، وقيل إن السهم قطع أكحله ، قاله قتادة ومقسم ، وركب العاصي بغلة في حاجة فلما جاء ينزل وضع أخمصه على شبرقه فورمت قدمه فمات ، وعمي أبو زمعة ، وكان يقول : دعا علي محمد بالعمى فاستجيب له ، ودعوت عليه بأن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي ، وتمخض رأس الأسود بن عبد يغوث قيحاً فمات ، وامتلأ بطن الحارث ماء فمات حبناً .



---

قال القاضي أبو محمد : وفي ذكر هؤلاء وكفايتهم اختلاف بين الرواة في صفة أحوالهم ، وما جرى لهم ، جليت أصحه مختصراً طلب الإيجاز ، ثم قرر تعالى ذنبهم في الكفر واتخاذ الأصنام آلهة مع الله تعالى ، ثم توعدهم بعذاب الآخرة الذي هو أشق ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ آية تأنيس للنبي عليه السلام ، وتسلية عن أقوال المشركين وإن كانت مما يقلق ، وضيق الصدر يكون من امتلائه غيظاً بما يكره الإنسان ، ثم أمره تعالى بملازمة الطاعة وأن تكون مسلاته عند الهموم ، وقوله ﴿ من الساجدين ﴾ يريد من المصلين ، فذكر من الصلاة حالة القرب من الله تعالى وهي السجود ، وهي أكرم

حالات الصلاة وأقمنها بنيل الرحمة ، وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة" فهذا منه عليه السلام أخذ بهذه الآية ، و ﴿ اليقين ﴾ : الموت ، بذلك فسره هنا ابن عمر ومجاهد والحسن وابن زيد ، ومنه قول النبي عليه السلام عند موت عثمان بن مظعون : "أما هو فقد رأى اليقين" ، ويروى "فقد جاءه اليقين" . وليس ﴿ اليقين ﴾ من أسماء الموت ، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل ، فسماه هنا يقيناً تجوزاً ، أي يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه وهذه الغاية معناها مدة حياتك ، ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ في النصر الذي وعدته . انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

*(121/429)*

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنا كفيناك المستهزئين ﴾

المعنى : فاصدع بأمري كما كفيتك المستهزئين ، وهم قوم كانوا يستهزئون به وبالقرآن .

وفي عددهم قولان :

أحدهما : أنهم كانوا خمسة : الوليد بن المغيرة ، وأبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ،

والعاص بن وائل ، والحارث بن قيس ، قاله ابن عباس .

واسم أبي زمعة : الأسود بن المطلب .

وكذلك ذكرهم سعيد بن جبير ، إلا أنه قال مكان الحارث بن قيس : الحارث بن غيطلة ،

قال الزهري : غيطلة أمه ، وقيس أبوه ، فهو واحد .

وإنما ذكرتُ ذلك ، لئلا يُظَن أنه غيره .

وقد ذكرتُ في كتاب "التلقيح" من يُنْسَب إلى أمه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وسميت آباءهم ليُعرَفوا إلى أي الأبوين نُسبوا .

وفي رواية عن ابن عباس مكان الحارث ابن قيس : عدي بن قيس .

والثاني : أنهم كانوا سبعة ، قاله الشعبي ، وابن أبي بزة ، وعدَّهم ابن أبي بَزَّة ، فقال : العاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والحارث بن عدي ، والأسود ابن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، وأصرم وبعكك ابنا عبد الحارث بن السبّاق .

وكذلك عدَّهم مقاتل ، إلا أنه قال مكان الحارث بن عدي : الحارث بن قيس السهميّ ، وقال : أصرم وبعكك ابنا الحجاج بن السبَّاق .

ذِكر ما أهلكهم الله به وكفى رسولَه صلى الله عليه وسلم أمرهم

قال المفسرون : أتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، والمستهزئون يطوفون بالبيت ، فمر الوليد بن المغيرة ، فقال جبريل : يا محمد ، كيف تجد هذا ؟ فقال : "بئس عبد الله"

قال : قد كفيت ، وأومأ إلى ساق الوليد ، فمر الوليد برجُل يَريش نبلاً له ، فتعلقت شظية من نبل بإزاره ، فمنعه الكِبْرُ أن يطامن لينزعها ، وجعلت تضرب ساقه ، فمرض ومات .

وقيل : تعلَّق سهم بثوبه فأصاب أكحله فقطعه ، فمات .

(122/429)

---

ومر العاص بن وائل ، فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : "بئس عبد الله" فأشار إلى أخمص رجله ، وقال : قد كُفيتَ ، فدخلت شوكة في أخمصه ، فانتفخت رجله ومات .

ومر الأسود بن المطلب ، فقال : كيف تجد هذا ؟ قال : "عبد سوء" ، فأشار بيده إلى عينيه ، فعمي وهلك .

وقيل : جعل ينطح برأسه الشجر ويضرب وجهه بالشوك ، فاستغاث بغلامه ، فقال : لا أرى أحداً يصنع بك هذا غير نفسك ، فمات وهو يقول : قتلني ربُّ محمد .

ومر الأسود بن عبد يغوث ، فقال جبريل : كيف تجد هذا ؟ فقال : "بئس عبد الله" ، فقال : قد كُفيت ، وأشار إلى بطنه ، فسَقَى بطنُه ، فمات .

وقيل : أصاب عينه شوك ، فسالت حدقتاه .

وقيل: خرج عن أهله فأصابه السَّموم، فاسودَّ حتى عاد حبشياً، فلما أتى أهله لم يعرفوه، فأغلقوا دونه الأبواب حتى مات.

ومر به الحارث بن قيس، فقال: كيف تجد هذا؟ قال: "عبدَ سوء" فأومأ إلى رأسه، وقال: قد كُفيت، فانتفخ رأسه فمات، وقيل: أصابه العطش، فلم يزل يشرب الماء حتى انقدَّ بطنُه.

وأما أصرم وبعكك، فقال مقاتل: أخذتْ أحدَهما الدُّبَيْلَةُ والآخرَ ذاتُ الجَنْبِ، فماتا جميعاً.

قال عكرمة: هلك المستهزئون قبل بدر.

وقال ابن السائب: أُهلكوا جميعاً في يوم وليلة.

قوله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه التكذيب.

والثاني: الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿ فسبِّح بحمد ربك ﴾ فيه قولان.

أحدهما: قل سبحان الله وبحمده، قاله الضحاك.

والثاني: فصلِّ بأمر ربك، قاله مقاتل.

وفي قوله: ﴿ وكن من الساجدين ﴾ قولان:

أحدهما : من المصلِّين .

والثاني : من المتواضعين ، رويا عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حتى يأتيَك اليقين ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور ، وسمي يقيناً ، لأنه موقَن به .



---

وقال الزجاج : معنى الآية : اعبد ربك أبداً ، ولو قيل : اعبد ربك ، بغير توقيت ، لجاز إذا عبد الإِنسان مرة أن يكون مطيعاً ، فلما قال : ﴿ حتى يأتيَك اليقين ﴾ أُمر بالإِقامة على العبادة ما دام حيّاً .

والثاني : أنه الحق الذي لا ريب فيه مِنْ نصرك على أعدائك ، حكاه الماوردي . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾



---

وقال القرطبى :

﴿ إنا كفيناك المستهزِئين ﴾ .

والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله ؛ فإن الله كافيك مَن أذاك كما كفاك المستهزئين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة .

والأسود بن عبد يَغُوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة ، أهلكهم الله جميعاً ، قيل يوم بدر في يوم واحد ؛ لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء فعَمِيَ ووجِعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار .

ومرّ به الأسود بن عبد يَغُوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمات منه حَبَناً .

[ يقال : حَبِن ( بالكسر ] حَبَنا وحُبِن للمفعول عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحبن ، والمرأة حبناء ؛ قاله في الصحاح ) .

ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يَجُرّ سَبَله ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلاً له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخَدَش في رجله ذلك الخدش وليس بشيء ، فانتقض به فقتله .

ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أَخْمَص قدمه ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرَبَض به على شِبْرِقة فدخلت في أَخْمَص رجله شوكةٌ فقتلته .

ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلة ، فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله .

وقد ذُكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا .

وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [ النحل : 26 ] .

شبّه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم ؛ على ما يأتي .

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) ﴾

هذه صفة المستهزئين .

وقيل : هو ابتداء وخبره "فسوف يعلمون

(125/429)

---

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أي قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب .

﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أي بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتناله ويناله أصحابك من أعدائك .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي فافزع إلى الصلاة ، فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس ؛ وذلك تفسيرٌ لقوله : ﴿ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود ، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء " .

ولذلك خصّ السجود بالذكر .

الثانية قال ابن العربي : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه ، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن ، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله ، يسجد في هذا الموضع وسجدت معه فيها ، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدةً عند أبي حذيفة ويَمَان بن رِئاب ، ورأى أنها واجبة .

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾

فيه مسألة واحدة وهو أن اليقين الموت .

أمره بعبادته إذ قصّر عبادُه في خدمته ، وأن ذلك يجب عليه .

فإن قيل : فما فائدة قوله "حتى يأتيك اليقِين" وكان قوله : "واعبد ربك" كافياً في الأمر بالعبادة .

قيل له: الفائدة في هذا أنه لو قال: "واعبد ربك" مطلقاً ثمّ عبده مرة واحدة كان مطيعاً؛ وإذا قال "حتى يأتيك اليقين" كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت.

فإن قيل: كيف قال سبحانه "واعبد ربك حتى يأتيك اليقِين" ولم يقل أبداً؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله: أبداً؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد.

وقد تقدّم هذا المعنى.

والمراد استمرار العبادة مدّة حياته، كما قال العبد الصالح: وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًّا.

(126/429)

---

ويتركّب على هذا أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق أبداً، وقال: نويت يوماً أو شهراً كانت عليه الرجعة.

ولو قال: طلقتها حياتَها لم يراجعها.

والدليل على أن اليقين الموت حديثُ أُمّ العلاء الأنصارية، وكانت من المبايِعات، وفيه: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما عثمان أعني عثمان بن مَظْعُون فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير واللّهِ ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به" وذكر الحديث.

انفرد بإخراجه البخاريّ رحمه الله ! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعني كأنهم فيه شاكون .

وقد قيل : إن اليقين هنا الحق الذي لا ريب فيه من نصرك على أعدائك ؛ قاله ابن شجرة ؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهد وقتادة والحسن . والله أعلم .

وقد روى جُبير بن نفير عن أبي مسلم الخَوْلانِيّ أنه سمعه يقول إن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما أوحي إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إليّ أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(127/429)

---

وقال الخازن :

﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾

أكثر المفسرين على أن هذا الإعراض منسوخ بآية القتال .

وقال بعضهم : ما للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم ، والالتفات إليهم ، فلا يكون منسوخاً ، وقوله تعالى إنا كفيناك المستهزئين يقول الله تعالى لنبيه محمد ( صلى الله

عليه وسلم ) فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحداً غيري فإني أنا كافيك ، وحافظك ممن عاداك فإنا كفيناك المستهزئين وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش ، كانوا يستهزئون بالنبي ( صلى الله عليه وسلم ) وبالقرآن وهم : الوليد بن المغيرة المخزومي وكان رأسهم ، والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة ، وكان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قد دعا عليه فقال : اللهم أعم بصره وأثكله بولده .

والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، والحارث بن قيس ابن الطلاطلة كذا ذكره البغوي .

وقال ابن الجوزي : الحارث بن قيس ابن عيطلة وقال الزهري : عيطلة أمة وقيس أبوه فهو منسوب إلى أبيه وأمة قال المفسرون : أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) والمستهزئون يطوفون بالبيت فقام جبريل ، وقام رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل : يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال : قد كفيته وأومأ إلى ساق الوليد فمرّ الوليد برجل من خزاعة نبال بريش نبلاً له ، وعليه برد يماني وهو يجر إزاره فتعلقت شظية من النبل بإزار الوليد ، فمنعه الكبر أن يطأطىء رأسه فينزعها وجعلت تضربه في ساقه ، فخدشته فمرض فمات ، ومر بهما

العاص بن وائل السهمي فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : بئس عبد الله ،
فأشار جبريل إلى أخمص قدمه وقال : قد كفيته .

(128/429)

---

فخرج العاص على راحلة يتنزه ، ومعه ابناه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطىء شبرقة
فدخل منها شوكة في أخمص رجله ، فقال : لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئاً
وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير ، فمات مكانه .
ومر بهما الأسود بن المطلب فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : عبد سوء
فأشار جبريل بيده إلى عينيه .
وقال : قد كفيته فعمي .
قال ابن عباس : رماه جبريل بورقة خضراء فأذهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب
برأسه الجدار ، حتى هلك وفي رواية الكلبي قال : أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة
ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث
بغلامه ، فقال له غلامه : ما أرى أحداً يصنع بك شيئاً غيرك فمات ، وهو يقول قتلني محمد
ومر بهما الأسود ابن عبد يغوث فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : بئس عبد

الله على أنه خالي .

فقال جبريل : قد كفيته وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات .

وفي رواية الكلبي أنه خرج من أهله .

فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً ، فأتى أهله لم يعرفوه وأغلقوه دونه الباب

فمات ، وهو يقول : قتلني رب محمد .

ومر بهما الحارث بن قيس فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : عبد سوء فأومأ

جبريل إلى رأسه .

وقال قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله .

قال ابن عباس : إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى أنقد بطنه

فمات .

فذلك قوله تعالى ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ يعني بك وبالقرآن .

﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾

يعني إذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ يعني بسبب ما يقولون ، وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به ، والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر ، فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ قال ابن عباس : فصلِّ بأمر ربك ﴿ وكن من الساجدين ﴾ يعني من المتواضعين لله ، وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روي أن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، قال بعض العارفين من المحققين : أن السبب في زوال الحزن عن القلب ، إذا أتى العبد بهذه العبادات أنه يتنور باطنه ويشرق قلبه ، وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها ، ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه .

وقال بعض العلماء : إذا نزل بالعبد مكروه ففزع إلى الصلاة فكأنه يقول : يا رب إنما يجب عليّ عبادتك سواء أعطيتني ما أحب أو كفيتني ما أكره ، فأنا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشاء .

قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾

يعني الموت وانت في عبادة ربك ، وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ روى البغوي بسنده عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم " ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " وعن عمر قال : نظر رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) : " انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها ، أو قال : شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله ، وحب رسوله إلى ما ترون " ذكره بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾



وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾

ثم أخبره تعالى أنه كفاه المستهزئين بمصائب أصابتهم لم يسع فيها الرسول ولا تكلف لها

مشقة .

قال عروة وابن جبير هم خمسة الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأبو زمعة والأسود بن عبد يغوث ومن بني خزاعة الحرث بن الطلاطلة .

قال أبو بكر الهذلي قلت للزهري أن ابن جبير وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين فقال ابن جبير هو الحرث بن عيطلة وقال عكرمة هو الحرث بن قيس فقال الزهري صدقا إنه عيطلة وأبوه قيس وذكر الشعبي في المستهزئين هبار بن الأسود وذلك وهم لأن هباراً أسلم يوم الفتح ورحل إلى المدينة .

وعن ابن عباس أن المستهزئين كانوا ثمانية وفي رواية مكان الحرث بن قيس عدي بن قيس .

وقال الشعبي وابن أبي بزة كانوا سبعة فذكر الوليد والحرث بن عدي والأسودين والأثرم وبعكك ابني الحرث بن السباق وكذا قال مقاتل إلا أنه قال مكان الحرث بن عدي الحرث بن قيس السهمي وذكر المفسرون والمؤرخون أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه فمنعه الكبر أن يطامن لنزعه فأصاب عرقاً في عقبه .

قال قتادة ومقسم وهو الأكحل فقطعه فمات وأومأ إلى أخمص العاصي فدخلت فيه شوكة .

وقيل ضربته حية فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات وأومأ إلى عيني الأسود بن

المطلب فعمي وهلك وأشار إلى أنف الحرث بن قيس فامتخط قيحاً فمات .

وقيل أصابته سموم فاسودّ حتى صار كأنه حبشي فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا الباب في وجهه فصار يطوف في شعاب مكة حتى مات وفي بعض ما أصاب هؤلاء اختلاف والله أعلم .



---

وقال مقاتل أصاب الأثرم أو بعككاً الدبيلة والآخر ذات الجنب فما تا فسوف يعلمون وعيد لهم بالمجازاة على استهزائهم وجعلهم إلهاً مع الله في الآخرة كما جوزوا في الدنيا وكنى بالصدر عن القلب لأنه محله وجعل سبب الضيق ما يقولون وهو ما ينطقون به من الاستهزاء والطعن فيما جاء به ثم أمره تعالى بتنزيهه عن ما نسبوا إليه من اتخاذ الشريك معه مصحوباً بحمده والثناء على ما أسدي إليه من نعمة النبوة والرسالة والتوحيد وغيرها من النعم فهذا في المعتقد والفعل القلبي وأمره بكونه من الساجدين والمراد والله أعلم من المصلين فكنى بالسجود عن الصلاة وهي أشرف أفعال الجسد وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ولما كان الصادر من المستهزئين اعتقاداً وهو فعل القلب وقولاً وهو ما يقولون في الرسول وما جاء به وهو فعل جارحة أمر تعالى بما يقابل ذلك من التنزيه لله ومن السجود وهما جامعان

فعل القلب وفعل الجسد ثم أمره تعالى بالعبادة التي هي شاملة لجميع أنواع ما يتقرب بها إليه تعالى وهذه الأوامر معناها دُم على كذا لأنه (صلى الله عليه وسلم) ما زال متلبساً بها أي دم على التسبيح والسجود والعبادة والجمهور على أن المراد باليقين الموت أي ما دمت حياً فلا تخل بالعبادة وهو تفسير ابن عمر ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيد ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) في عثمان بن مظعون عند موته أما هو فقد رأى اليقين ويروى فقد جاءه اليقين وليس اليقين من أسماء الموت وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل فسمي يقيناً تجوزاً أي يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه.



---

وقال ابن عطية ويحتمل أن يكون المعنى حتى يأتيك اليقين في النصر الذي وعدته انتهى وقاله ابن بحر قال اليقين النصر على الكافرين انتهى وحكمة التغيية باليقين وهو الموت أنه يقتضي ديمومة العبادة ما دام حياً بخلاف الاقتصار على الأمر بالعبادة غير مغيا لأنه يكون مطلقاً فيكون مطيعاً بالمرة الواحدة والمقصود أن لا يفارق العبادة حتى يموت. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾

بقمعهم وتدميرهم ، قيل : ( كانوا خمسةً من أشراف قريش : الوليدُ بن المغيرة ، والعاص بنُ وائل ، والحارثُ بن قيس بن الطَلاطِلةَ ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ ، والأسودُ بنُ المطلب ، يبالغون في إيذاءِ النبي صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به ، فنزل جبريلُ عليه الصلاة والسلام فقال : قد أُمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى ساق الوليد ، فمرَّ بِنبال ، فتعلق بثوبه سهمٌ ، فلم ينعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عِرقاً في عَقِبه ، فقطعه ، فمات ، وأومأ إلى أخمَص العاص ، فدخلت فيه شوكةٌ ، فقال : لُدغتُ ، وانتفخت رجلُه حتى صارت كالرّحى ، فمات ، وأشار إلى عيني الأسودِ بن المطلب ، فعمِيَ ، وإلى أنف الحارث ، فامتخط قيحاً ، فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوثَ وهو قاعدٌ في أصل شجرةٍ ، فجعل ينطح برأسه الشجرةَ ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ) .

﴿ الذين يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ وصفهم بذلك تسليةً لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهويناً للخطب عليه بإعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام ، بل اجترأوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله سبحانه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ ما يأتون ويذرون .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

من كلمات الشّرك والطعنِ في القرآن والاستهزاء به وبك ، وتحليةُ الجملة بالتأكيد لإفادة تحقيقِ ما تتضمنه من التسلية ، وصيغةُ الاستقبال لإفادة استمرارِ العلم حسب استمرارِ متعلَّقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة .

(135/429)

---

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزَعْ إلى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدرِ والحرَج بالتسبيح والتقديس ملتبساً بحمده ، وفي التعرض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من إظهار اللطفِ به عليه الصلاة والسلام والإشعارِ بعلة الحُكم ، أعني الأمرَ بالتسبيح والحمد ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ أي المصلّين يكفِك ويكشِفِ الغمَّ عنك ، أو فنزِّهْه عما يقولون ملتبساً بحمده على أنْ هداك للحق المبين ، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه إذا حزَبه أمرٌ فزِع إلى الصلاة

﴿ واعبد رَبَّكَ ﴾ دُمْ على ما أنت عليه من عبادته تعالى ، وإيثارُ الإظهار بالعنوان السالف آنفاً لتأكيد ما سبق من إظهار اللطفِ به عليه الصلاة والسلام والإشعارِ بعلة الأمرِ بالعبادة .

﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ أي الموتُ ، فإنه مُتيقَّنُ اللحوق بكل حي مخلوق ، وإسنادُ الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجِّهٌ إلى الحيّ طالبٌ إليه ، والمعنى دم على العبادة ما دمت حيًّا من غير إخلالٍ بها لحظة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورةَ الحِجْر كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد المهاجِرين والأنصارِ والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(136/429)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾

بك أو بك وبالقرآن كما روي عن ابن عباس بقمعهم وتدميرهم .

أخرج الطبراني في الأوسط .

والبيهقي .

وأبو نعيم كلاهما في الدلائل .

وابن مردويه بسند حسن قال : المستهزؤون الويد بن المغيرة .

والأسود بن عبد يغوث .

والأسود بن المطلب .

والحرث بن عيطل السهمي .

والعاص بن وائل فأتاه جبريل عليه السلام فشكاهم إليه فأراه الوليد فأومأ جبريل عليه السلام إلى أكحله فقال صلى الله عليه وسلم : ما صنعت شيئاً قال : كفيتكه ، ثم أراه الأسود بن المطلب فأومأ إلى عينيه فقال : ما صنعت شيئاً قال : كفيتكه ، ثم أراه الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلى رأسه فقال : ما صنعت شيئاً قال : كفيتكه ؛ ثم أراه الحرث فأومأ إلى بطنه فقال : ما صنعت شيئاً قال : كفيتكه ، ثم أراه العاص بن وائل فأومأ إلى أخمصه فقال : ما صنعت شيئاً قال : كفيتكه .

فأما الوليد فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلاً فأصاب أكحله فقطعها ، وأما الأسود بن المطلب فنزل تحت سمرة فجعل يقول : يا بني ألا تدفعون عني قد هلكت أطعن بالشوك في عيني فجعلوا يقولون : ما نرى شيءاً فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه ، وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها ؛ وأما الحرث فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج رجيعه من فيه فمات منه ، وأما العاص فركب إلى الطائف فربض على شبرقة فدخل في أخمص قدمه شوكة فقتلته ، وقال الكرماني في "شرح البخاري" : إن المستهزئين هم السبعة الذين ألقوا الأذى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي كما جاء في حديث

البخاري وهم : عمرو بن هشام .

وعتبة بن ربيعة .

وشيبة بن ربيعة .

والوليد بن عتبة .

وأمية بن خلف .

وعقبة بن معيط ، وعمارة بن الوليد ، وفي الأعلام للسهيلي أنهم قذفوا بقليب بدر وعدهم بخلاف ما ذكر .

وفي "الدر المنثور" وغيره روايات كثيرة مختلفة في عدتهم وأسمائهم وكيفية هلاكهم ، وعد الشعبي منهم هبار بن الأسود .



---

وتعقبه في "البحر" بأن هباراً أسلم يوم الفتح ورحل إلى المدينة فعده وهم ، وهذا متعين إذا كانت كفايته عليه السلام إياهم بالإهلاك كما هو الظاهر ، وقد ذكر الإمام نحو ما ذكرنا من اختلاف الروايات ثم قال : ولا حاجة إلى شيء من ذلك ، والقدر المعلوم أنهم كانوا طائفة لهم قوة وشوكة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم في علو قدره وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله سبحانه أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم .

﴿ الذين يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾

أي اتخذوا إلهاً يعبدونه معه تعالى ، وصيغة الاستقبال لاستحضار الحال الماضية ، وفي وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب عليه عليه الصلاة والسلام بالإشارة إلى أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به صلى الله عليه وسلم بل اجترؤا على العظيمة التي هي الإشراك به سبحانه ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ما يأتون ويذرون . وفيه من الوعيد ما لا يخفى .

وفي "البحر" أنه وعيد لهم بالمجازاة على استهزائهم وشركهم في الآخرة كما جوزوا في الدنيا .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

من كلمات الشرك والاستهزاء ، وتحلية الجملة بالتأكيد لإفادة تحقق ما تتضمنه من التسلية .

وصيغة المضارع لإفادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

فافزع إلى ربك فيما نابك من ضيق الصدر بالتسبيح ملتبساً بحمده أي قل : سبحان الله والحمد لله أو فنزهه عما يقولون حامداً له سبحانه على أن هداك للحق ، فالتسبيح والحمد بمعناهما اللغوي كما أنهما على الأول بمعناهما العرفي أعني قول تينك الجملتين ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من اللطف به عليه الصلاة والسلام والإشعار بعلة الحكم أعني الأمر المذكور ﴿ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي المصلين ففيه التعبير عن الكل بالجزء .

وهذا الجزء على ما ذهب إليه البعض أفضل الأجزاء لما صح من قوله صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " وليس هذا موضع سجدة خلافاً لبعضهم .

وفي أمره صلى الله عليه وسلم بما ذكر إرشاد له إلى ما يكشف به الغم الذي يجده كأنه قيل : افعل ذلك يكشف عنك ربك الغم والضيق الذي تجده في صدرك ولمزيد الاعتناء بأمر الصلاة جيء بالأمر بها كما ترى مغايراً للأمر السابق على هذا الوجه المخصوص .

وفي ذلك من الترغيب فيها ما لا يخفى .

وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة .

وصح " حبب لي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة " وذكر بعضهم أن في الآية إشارة إلى الترغيب بالجماعة فيها .

وإن في عدم تقييد السجود بنحو له أو لربك إشارة إلى أنه مما لا يكاد يخطر بالبال إيقاعه لغيره تعالى فتدبر .

﴿ واعبد ربَّكَ ﴾ دم على ما أنت عليه من عبادته سبحانه ، قيل : وفي الإظهار بالعنوان السالف آنفاً تأكيد لما سبق من إظهار اللطف به صلى الله عليه وسلم والإشعار بعلة الأمر بالعبادة ﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ أي الموت كما روي عن ابن عمر .

والحسن .

وقتادة .



---

وابن زيد ، وسمي بذلك لأنه متيقن اللحوق بكل حي ، وإسناد الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجه إلى الحي طالب للوصول إليه ، والمعنى دم على العبادة ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظة ، وقال ابن بحر : اليقين النصر على الكافرين الذي وعده صلى الله عليه وسلم ،

وأياً مّا كان فليس المراد به ما زعمه بعض الملحدين مما يسمونه بالكشف والشهود ، وقالوا : إن العبد متى حصل له ذلك سقط عنه التكليف بالعبادة وهي ليست إلا للمحجوبين ، ولقد مرقوا بذلك من الدين وخرجوا من ربقة الإسلام وجماعة المسلمين .

وذكر بعض الثقات أن هذا الأمر كان بعد الإسراء والعروج إلى السماء ، أفترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يتضح له ليلتئذٍ صبح الكشف والشهود ولم يمن عليه باليقين عظيم الكرم والجود ؟ الله أكبر لا يتجاسر على ذلك من في قلبه مثقال ذرة من إيمان أو رزق حبة خردل من عقل ينتظم به في سلك الإنسان ، وأيضاً لم يزل صلى الله عليه وسلم ما دام حياً آتياً بمراسم العبادة قائماً بأعباء التكليف لم ينحرف عن الجادة قدر حادة أفيقال : إنه لم يأته عليه الصلاة والسلام حتى توفي ذلك اليقين ولذلك بقي في مشاق التكليف إلى أن قدم على رب العالمين ؟ لا أرى أحداً يخطر له ذلك بجنان ولو طال سلوكه في مهامه الضلالة وبان .



---

نعم ذكر بعض العلماء الكرام في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ [ الحجر : 97 ] الخ كلاماً متضمناً شيئًا مما يذكره الصوفية لكنه بعيد بمراحل عن مرام أولئك اللئام ، ففي "الكشف" أنه تعالى بعدما هدم قواعد جهالات الكفرة وأبرق وأرعد بما أظهر من صنيعه بالقائلين نحو

مقالات أولئك الفجرة فذلك الكلام بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ [ الحجر : 97 ] مؤكداً هذا التأكيد البالغ الصادر عن مقام تسخط بالغ وكبرياء لينفس عن حبيبه عليه الصلاة والسلام أشد التنفيس ، ثم أرشد إلى ما هو أعلى من ذلك مما تأهله لمسامرة الجليس للجليس وقال تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [ الحجر : 98 ] إشارة إلى التوجه إليه بالكلية والتجرد التام عن الأغيار والتحلي بصفات من توجه إليه بحسن القبول والافتقار إذ ذلك مقتضى التسبيح والحمد لمن عقلهما ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ [ الحجر : 98 ] دلالة على الاقتراب المضمر فيه لأن السجود غاية الذلة والافتقار وهو مظهر الفناء حتى نفسه وشرك البقاء بمن أمره بخمسه ، وقوله تعالى شأنه : ﴿ واعبد رَبَّكَ ﴾ الخ ظاهره ظاهر وباطنه يومي إلى أن السفر في الله تعالى لا ينقطع والشهود الذي عليه يستقر لا يحصل أبداً فما من طامة إلا وفوقها طامة :

إذا تغيبت بدا . . .

وإن بدا غيبني

وعن لسان هذا المقام ﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [ طه : 114 ] اه ، هذا ولا يخفى مما ذكره غير واحد من المفسرين مناسبة خاتمة هذه السورة لفاتحتها ، وأن قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ [ الحجر : 97 ] الخ في مقابلة ﴿ وَقَالُواْ يا أَيُّهَا الذى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ﴾ [ الحجر : 6 ] والله تعالى أعلم وأحكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) ﴾

اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماذا هي ؟ فقال جمهور المفسرين : إنها الفاتحة .

قال الواحدي : وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر ، وعليّ ، وابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع ، والكلبي .

وزاد القرطبي : أبا هريرة وأبا العالية ، وزاد النيسابوري : الضحاك وسعيد بن جبير .

وقد روي ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي بيانه ، فتعين المصير إليه .

وقيل : هي السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والسابعة الأنفال والتوبة ؛ لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية .

روي هذا القول عن ابن عباس .

وقيل : المراد بالمثاني : السبعة الأحزاب ، فإنها سبع صحائف .

والمثاني : جمع مثناة من التثنية ، أو جمع مثنية .

وقال الزجاج : تثنى بما يقرأ بعدها معها ، فعلى القول الأوّل يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني : أنها تثنى ، أي : تكرّر في كل صلاة ، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية : أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها ، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية : هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها ، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني : القرآن كله الضحاك ، وطاوس ، وأبو مالك ، وهو رواية عن ابن عباس واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ كتابا متشابها مَّثَانِيَ ﴾ [ الزمر : 23 ] .

وقيل : المراد بالسبع المثاني : أقسام القرآن ، وهي : الأمر ، والنهي ، والتبشير ، والإنذار ، وضرب الأمثال ، وتعريف النعم ، وأنباء قرون ماضية .

قال زياد بن أبي مريم ، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم ، وقد تقرّر أنها المرادة بهذه الآية ، فلا يقدح في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها .

*(142/429)*

---

﴿ والقرآن العظيم ﴾ معطوف على ﴿ سبعا من المثاني ﴾ ، ويكون من عطف العام على الخاص ، لأن الفاتحة بعض من القرآن .

وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال ؛ لأنها بعض من القرآن .

وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه ، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر ، كما قيل في قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام . . . ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة : أن هذه السورة مكية ، وأكثر السبع الطوال مدنية ، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه ، وظاهر قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني ﴾ أنه قد تقدّم إيتاء السبع على نزول هذه الآية ، و "من" في المثاني للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال .

ذكر معنى ذلك الزجاج فقال : هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الإشباع .

ثم لما بين لرسوله الله صلى الله عليه وسلم ما أنعم به عليه من هذه النعمة الدينية نفره عن اللذات العاجلة الزائلة فقال : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مّنْهُمْ ﴾ أي : لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة فيها وتمنّ لها ، والأزواج : الأصناف ، قاله ابن قتيبة .

وقال الجوهري : الأزواج : القرناء .

قال الواحدي : إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء : إذا أدام النظر نحوه .

وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه .

وقال بعضهم : معنى الآية لا تحسدنّ أحداً على ما أوتي من الدنيا ، وردّ بأن الحسد منهي عنه مطلقاً ، وإنما قال في هذه السورة لا تمدنّ بغير واو ، لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه ، ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم فقال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ حيث لم يؤمنوا ، وصمموا على الكفر والعناد .

وقيل : المعنى لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا ، فلك الآخرة .

والأول أولى .

(143/429)

---

ثم لما نهاه عن أن يمد عينيه إلى أموال الكفار ولا يحزن عليهم ، وكان ذلك يستلزم التهاون بهم وبما معهم ، أمره أن يتواضع للمؤمنين ، فقال : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل ﴾ [ الإسراء : 24 ] ، وقول الكميت :

خفضت لهم مني جناحي مودة . . . إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه ، بسط جناحه ، ثم قبضه على الفرخ ، فجعل ذلك وصفاً لتواضع الإنسان لأتباعه .

ويقال: فلان خافض الجناح، أي: وقور ساكن، والجناحان من ابن آدم جانباه، ومنه:

﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ [طه: 22] ومنه قول الشاعر:

وحسبك فتنة لزعيم قوم... يمدّ على أخي سُقم جناحا

﴿ وَقُلْ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ أي: المنذر المظهر لقومه ما يصيبهم من عذاب الله ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ قيل: المفعول محذوف، أي: مفعول ﴿ أنزلنا ﴾ والتقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عذاباً، فيكون المعنى: إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم، كقوله تعالى: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صاعقة مّثْلَ صاعقة عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: 13].

وقيل: إن الكاف زائدة، والتقدير: إني أنا النذير المبين أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين من العذاب.

وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك ﴾ أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون، والأولى أن يتعلق بقوله: ﴿ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ لأنه في قوّة الأمر بالإنذار.

وقد اختلف في المقتسمين من هم ؟ فقال الفراء : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا أنقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون ، وربما قالوا : ساحر ، وربما قالوا : شاعر ، وربما قالوا : كاهن ، فقيل لهم : مقتسمين ؛ لأنهم اقتسموا هذه الطرق .

وقيل : إنهم قوم من قريش اقتسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأوّلين .

قاله قتادة .

وقيل : هم أهل الكتاب ، وسموا مقتسمين لأنهم كانوا يقتسمون القرآن استهزاء ، فيقول بعضهم : هذه السورة لي وهذه لك ، روي هذا عن ابن عباس .

وقيل : إنهم قسموا كتابهم وفرّقوه وبدّدوه وحرّفوه .

وقيل : المراد قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين ، كما قال تعالى : ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [ النمل : 49 ] .

وقيل : تقاسموا أيماناً تحالفوا عليها ، قاله الأخفش .

وقيل : إنّهم العاص بن وائل ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ، ومنبه بن الحجاج .

ذكره الماوردي .

﴿ الذين جَعَلُوا القرءان عِضِينَ ﴾ جمع عضة، وأصلها : عضوة، فعلة من عضى الشاة : إذا جعلها أجزاء، فيكون المعنى على هذا : الذين جعلوا القرآن أجزاء متفرقة، بعضه شعر، وبعضه سحر، وبعضه كهانة، ونحو ذلك.

وقيل : هو مأخوذ من عضته : إذا بهته، فالمحذوف منه الهاء لا الواو، وجمعت العضة على المعنيين جمع العقلاء لما لحقها من الحذف، فجعلوا ذلك عوضاً عما لحقها من الحذف ؛ وقيل : معنى ﴿ عضين ﴾ إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، ومما يؤيد، أن معنى عضين التفريق، قول رؤبة :

وليس دين الله بالعضين... أي : بالمفرق.

وقيل : العضة والعضين في لغة قريش : السحر، وهم يقولون : للساحر : عاضه، وللساحرة : عاضهة، ومنه قول الشاعر :

أعوذ بربي من النافثات... في عقد العاضهة والعضه



---

وفي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن العاضهة والمستعضهة، وفسر بالساحرة والمستسحرة، والمعنى : أنهم أكثروا البهت على القرآن، وسموه : سحراً وكذباً

وأساطير الأوّلين، ونظير عضة في النقصان شفة، والأصل شفهة، وكذلك سنّة، والأصل: سنهة.

قال الكسائي: العضة: الكذب والبهتان، وجمعها عضون.

وقال الفراء: إنه مأخوذ من العضاه.

وهي شجر يؤذي ويجرح كالشوك.

ويجوز أن يراد بالقرآن: التوراة والإنجيل لكونهما مما يقرأ، ويراد بالمقتسمين: هم اليهود والنصارى، أي: جعلوهما أجزاء متفرّقة، وهو أحد الأقوال المتقدّمة.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي: لنسألنّ هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها؛ وقيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، والعموم في ﴿ عما كانوا يعملون ﴾، يفيد ما هو أوسع من ذلك.

وقيل: إن المسؤولين ها هنا هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار.

ويدلّ عليه قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر: 8]، وقوله: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: 24]، وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: 25 - 26].

ويمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم إليهم لا ينافي سؤال غيرهم.

﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ قال الزجاج: يقول أظهر ما تؤمر به.

أخذ من الصديع وهو الصبح انتهى.

وأصل الصدع: الفرق والشق، يقال: صدعته فانصدع، أي: انشق، وتصدّع القوم، أي: تفرّقوا، ومنه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: 43] أي: يتفرقون.

*(146/429)*

---

قال الفراء: أراد فاصدع بالأمر أي: أظهر دينك فما مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر، وقال ابن الأعرابي: معنى اصدع بما تؤمر أي: اقصد؛ وقيل: فاصدع بما تؤمر أي: فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرّقون، والأولى أن الصدع الإظهار، كما قاله الزجاج والفراء وغيرهم.

قال النحويون: المعنى بما تؤمر به من الشرائع، وجوّزوا أن تكون مصدرية أي: بأمرك وشأنك.

قال الواحدي: قال المفسرون: أي اجهر بالأمر أي: بأمرك بعد إظهار الدعوة، وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت هذه الآية، ثم أمره سبحانه بعد أمره بالصدع بالإعراض وعدم الالتفات إلى المشركين، فقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي

: لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة .

ثم أكد هذا الأمر ، وثبت قلب رسوله بقوله : ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ مع كونهم كانوا من أكابر الكفار ، وأهل الشوكة فيهم فإذا كفاه الله أمرهم بقمعهم وتدميرهم كفاه أمر من هو دونهم بالأولى ، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة من رؤساء أهل مكة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن الحارث بن زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة ، كذا قال القرطبي ووافقه غيره من المفسرين .

وقد أهلكهم الله جميعاً وكفاهم أمرهم في يوم واحد ، ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال : ﴿ الذين يَجْعَلُونَ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ فلم يكن ذنبهم مجرّد الاستهزاء ، بل لهم ذنب آخر وهو الشرك بالله سبحانه ، ثم توعدهم فقال : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ كيف عاقبتهم في الآخرة وما يصيبهم من عقوبة الله سبحانه .

(147/429)

---

ثم ذكر تسلية أخرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد التسلية الأولى بكفايته شرهم ودفعه لمكرهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الأقوال الكفرية المتضمنة للطعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والكهانة

والكذب .

وقد كان يحصل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقتضى الجبلة البشرية والمزاج الإنساني ، ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله سبحانه وحمده فقال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : متلبساً بحمده ، أي : افعل التسبيح المتلبس بالحمد ﴿ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي : المصلين ، فإنك إذا فعلت ذلك ، كشف الله همك ، وأذهب غمك ، وشرح صدرك .

ثم أمره بعبادة ربه ، أي : بالدوام عليها إلى غاية هي قوله ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ أي : الموت .

قال الواحدي : قال جماعة المفسرين : يعني الموت لأنه موقن به .

قال الزجاج : المعنى : اعبد ربك أبداً ، لأنه لو قيل : اعبد ربك بغير توقيت ، لجاز إذا عبد الإنسان مرّة أن يكون مطيعاً .

فإذا قال : حتى يأتيك اليقين ، فقد أمره بالإقامة على العبادة أبداً ما دام حياً .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن عمر في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ قال : السبع المثاني : فاتحة الكتاب .

وأخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني وابن مردويه ، والبيهقي من طرق عن عليّ بمثله .

وأخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن مسعود مثله، وزاد: والقرآن العظيم ﴿ سائر القرآن.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس في الآية قال: فاتحة الكتاب استثناها الله لأمة محمد، فرفعها في أمّ الكتاب فادخرها لهم حتى أخرجها ولم يعطها أحد قبل.

قيل: فأين الآية السابعة؟ قال: بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم.

(148/429)

---

وروي عنه نحو هذا من طرق.

وأخرج ابن الضريس، وأبو الشيخ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: السبع المثاني: فاتحة الكتاب.

وأخرج ابن جرير عن أبيّ بن كعب قال: السبع المثاني: ﴿ الحمد لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾.

وروي نحو قول هؤلاء الصحابة عن جماعة من التابعين.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا أعلمك أفضل سورة قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي صلى الله

عليه وسلم ليخرج، فذكرت، فقال: ﴿ الحمد للَّهِ ربّ العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم" وأخرج البخاري أيضاً من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمّ القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم"، فوجب بهذا المصير إلى القول بأنها فاتحة الكتاب، ولكن تسميتها بذلك لا ينافي تسمية غيرها به كما قدّمنا.

وأخرج ابن مردويه عن عمر، قال في الآية: هي السبع الطوال.

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود مثله.

وأخرج الفريابي، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال في الآية: هي السبع الطوال.

وأخرج الدارمي، وابن مردويه عن أبيّ بن كعب مثله.

وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: هي فاتحة الكتاب والسبع الطوال.

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال: ما ثنى من القرآن، ألم تسمع لقول الله: ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا متشابها مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر: 23].

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: المثاني: القرآن، يذكر الله القصة الواحدة مراراً.

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن زياد بن أبي مريم في الآية قال : أعطيتك سبعة أجزاء : مر ، وأنه ، وبشر وأنذر ، واضرب الأمثال ، واعدد النعم ، واتل نبأ القرآن .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ قال : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ أزواجا مّنْهُمْ ﴾ قال : الأغنياء الأمثال والأشباه .

وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال : من أعطي القرآن فمدّ عينه إلى شيء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ، ألم يسمع إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني ﴾ ، وإلى قوله : ﴿ وَرِزْقُ رَبّكَ خَيْرٌ وأبقى ﴾ [ طه : 131 ] وقد فسر ابن عيينة أيضاً الحديث الصحيح : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " فقال : إن المعنى : يستغنى به .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ قال : اخضع .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي

حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ الآية قال : هم أهل الكتاب ، جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

وأخرج ابن جرير من طريق عليّ بن أبي طلحة عنه قال : عضين : فرقاً .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن ابن عباس أنها نزلت في نفر من قريش ، كانوا يصدّون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة .

وأخرج الترمذي ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن أنس عن النبي في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال : " عن قول لا إله إلاّ الله " .

وأخرجه ابن أبي شيبة ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر من وجه آخر عن أنس موقوفاً .



---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عمر مثله .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس

﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فامضه، وفي عليّ بن أبي طلحة مقال معروف.

وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه.

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه، وجميع من أرسل إليه.

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ قال: أعلن بما تؤمر.

وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ قال: نسخه قوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة: 5].

وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وأبو نعيم، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزئين ﴾ قال: المستهزئون: الوليد بن المغيرة، والأسود بن يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، وذكر قصة هلاكهم.

وقد روي هذا عن جماعة من الصحابة مع زيادة في عددهم، ونقص على طول في ذلك.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في التاريخ، وابن مردويه، والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ما أوحي إليّ أن أجمع المال، وأكن من التاجرين، ولكن أوحي إليّ أن سبح بحمد ربك

وكن من الساجدين.

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ " وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن مردويه، والديلمي عن أبي الدرداء مرفوعاً نحوه.

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق من طريق عبيد الله بن أبان بن عثمان بن حذيفة ابن أوس الطائفي قال: حدثني أبان بن عثمان عن أبيه، عن جدّه يرفعه مثل حديث أبي مسلم الخولاني.

(151/429)

---

وأخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن عبد الله بن عمر ﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ قال: الموت.

وأخرج ابن المبارك عن الحسن مثله.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

(152/429)

---

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

أي : حفظناك من شرهم ، فلا ينالك منهم ما يحذر . وهذا ضمان منه تعالى ، له صلوات الله عليه ؛ لينهض بالصدع نهضة من لا يهاب ولا يخشى . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : 67] .

(153/429)

---

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ وصفهم بذلك ؛ تسليةً له عليه الصلاة والسلام ، وتهويناً للخطب عليه ، بأنهم أصحاب تلك الجريمة العظمى ، التي هي أكبر الكبائر ، التي سيخذلون بسببها . كما قال : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : عاقبة أمرهم . وقد جوّز في الموصول أن يكون صفة (للمستهزئين) ومنصوباً بإضمار فعل . ومرفوعاً بتقدير (هم) . وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبوداً آخر . وقد أشار كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ عنى به ما عجله من إهلاكهم . كما روى ابن إسحاق عن عروة : أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر ، وكانوا ذوي أسنان وشرف في

قومهم : من بني أسد أبو زَمْعَة ، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه ، فقال : < اللهم أعم بصره ، وأثكله ولده > ومن بني زهرة الأسود ، ومن بني مخزوم الوليد بن المغيرة ، ومن بني سهم العاص بن وائل ، ومن خزاعة الحارث . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء ؛ أنزل الله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق عن عروة : إن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت ، فقام وقام رسول الله إلى جنبه ، فمر به الأسود ، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه . ومر به الوليد فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله كان أصابه قبل ذلك بسنتين فانتقض به فقتله . ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه ، فخرج على حمار يريد الطائف ، فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه . ومر به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله . انتهى .



---

ومثله ما رواه ابن مسعود : قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نصلي في ظل الكعبة ، وناس من قريش وأبو جهل قد نحروا جزوراً في ناحية مكة ، فبعثوا فجاؤوا

بسلاها وطرحوه بين كتفيه وهو ساجد . فجاءت فاطمة فطرحته عنه ، فلما انصرف قال : < اللهم ! عليك بقريش وبأبي جهل وعتبة وشيبة والوليد بن عُتْبَة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط > .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : فلقد رأيتهم قتلى في قليب بدر .

(155/429)

---

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ لما ذكر تعالى أن قومه يهزأون ويسفهون ؛ أعلمه بما يعلمه سبحانه منه ، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون ؛ لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك . ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن ، وذلك أمره من التسبيح والتحميد والصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ [ البقرة : 45 ] ، وقال : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [ الرعد : 28 ] ومعلوم أن في الإقبال على ما ذكر ، استنزال الإمداد الرباني بالنصر والمعونة ؛ لقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [ البقرة : 153 ] و [ الأنفال : 46 ] ، وقوله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [ البقرة : 152 ] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ ﴾ [ النحل : 128 ] .

وقد روي في شمائله صلوات الله عليه ؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، تأويلاً لما ذكر .

قال أبو السعود : وتحلية الجملة بالتأكيد ؛ لإفادة تحقيق ما تضمنته من التسلية . وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ، والإشعار بعلة الحكم ، أعني الأمر بالتسبيح والحمد . والمراد من ( الساجدين ) المصلين ، من إطلاق الجزء على الكل . و ( اليقين ) : الموت ، فإنه متيقن اللحوق بكل حيّ مخلوق . وإسناد الإتيان إليه ؛ للإيذان بأنه متوجه إلى الحيّ طالب للوصول إليه . والمعنى : دُمْ على العبادة ما دمت حياً . كقوله تعالى في سورة مريم : ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [ مريم : 31 ] .

(156/429)

---

وقيل : المراد بـ ( اليقين ) : تعذيب هؤلاء وأن ينزل بهم ما وعده . ولا ريب أنه من المتيقن ، إلا أن إرادة الموت منه أولى ، يدل له قوله تعالى إخباراً عن أهل النار : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [ المدثر : 43 - 47 ] . وما في الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ! فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < وما يدريك أن الله أكرمه ؟ > فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ! فمن ؟ فقال : < أما هو فقد جاءه اليقين ، وإني لأرجو له الخير > .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : يستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ على أن العبادة ، كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً ، كما في صحيح البخاري عن عِمْرَان بن حصين رضي الله عنهما ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال : < صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب > .

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين : المعرفة . فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم ، أعلم الناس بالله ، وأعرافهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثرهم مواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 10 صـ 363-365 ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾

تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به ، فإن اختفاء النبي صلى الله عليه وسلم بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله أهمّها تعدّد الداخلين في الإسلام في تلك المدّة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدّين مع أن دعوته مخفية ، ثم إن الله أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بإعلان دعوته لحكمة أعلى تهيّأ اعتبارها في علمه تعالى .

والتّعبير عنهم بوصف ﴿ المستهزئين ﴾ إيماء إلى أنّه كفاه استهزاءهم وهو أقلّ أنواع الأذى ، فكفايته ما هو أشدّ من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحْرى .

وتأكيد الخبر بـ ( إنّ ) لتحقيقه اهتماماً بشأنه لا للشكّ في تحقّقه .

والتّعريف في ﴿ المستهزءين ﴾ للجنس فيفيد العموم ، أي كفيناك كل مستهزء .

وفي التّعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أن قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء ، كقوله تعالى: ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ [ سورة آل عمران : 111 ] ، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبي بغير الاستهزاء .

وذلك لطف من الله برسوله .

ومعنى الكفاية تولّي الكافي مهم المكفي ، فالكافي هو متولي عمل عن غيره لأنه أقدر عليه أو

لأنه يبتغي راحة المكفي .

يقال : كفيتُ مهمك ، فيتعدّى الفعل إلى مفعولين ثانيهما هو المهم المكفي منه .

فالأصل أن يكون مصدراً فإذا كان اسم ذات فالمراد أحواله التي يدلّ عليها المقام ، فإذا قلت : كفيتك عدوّك ، فالمراد : كفيتك بأسه ، وإذا قلت : كفيتك غريمك ، فالمراد : كفيتك مطالبتَه .

فلما قال هنا ﴿ كفيناك المستهزئين ﴾ فهم أن المراد كفيناك الانتقام منهم وإراحتك من استهزائهم .

وكانوا يستهزئون بصنوف من الاستهزاء كما تقدم .

ويأتي في آيات كثيرة من استهزائهم استهزاؤهم بأسماء سور القرآن مثل سورة العنكبوت وسورة البقرة ، كما في "الإتقان" في ذكر أسماء السور .

(158/429)

---

وعُد من كبرائهم خمسة هم : الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطّلب ، والحارث بن عيطلة ( ويقال ابن عيطل وهو اسم أمّه دُعِي لها واسم أبيه قيس . وفي "الكشاف" و"القرطبي" أنه ابن الطُلاَطِلَة ، ومثله في "القاموس" ، وهي بضم الطاء

الأولى وكسر الطاء الثّانية ) والعاصي بن وائل ، هلكوا بمكّة متتابعين ، وكان هلاكهم العجيب المحكي في كتب السيرة صارفاً أتباعهم عن الاستهزاء لانفراط عِقدهم .

وقد يكون من أسباب كفايتهم زيادة الداخلين في الإسلام بحيث صار بأس المسلمين مخشيّاً ؛ وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فاعتزّ به المسلمون ، ولم يبق من أذى المشركين إياهم إلاّ الاستهزاء ، ثم أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فخشيه سفهاء المشركين ، وكان إسلامه في حدود سنة خمس من البعثة .

ووصفهم بـ ﴿ الذين يجعلون مع الله إلها آخر ﴾ للتشويه بحالهم ، ولتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم ما اقتصروا على الافتراء عليه فقد افتروا على الله .

وصيغة المضارع في قوله تعالى : ﴿ يجعلون ﴾ للإشارة إلى أنهم مستمرون على ذلك مجدّدون له .

وفرع على الأمرين الوعيد بقوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ .

وحذف مفعول ﴿ يعلمون ﴾ لدلالة المقام عليه ، أي فسوف يعلمون جزاء بهتانهم .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) ﴾

لما كان الوعيد مؤذناً بإمهالهم قليلاً كما قال تعالى : ﴿ ومهّلهم قليلا ﴾ [ سورة المزمل : 11 ] كما دلّ عليه حرف التنفيس في قوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ [ سورة الحجر : 96 ] طمأن الله نبيه بأنه مطّلع على تحرّجه من أذاهم وبهتانهم من أقوال الشرك وأقوال

الاستهزاء فأمره بالثبات والتفويض إلى ربّه لأن الحكمة في إمهالهم ، ولذلك افتتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق .

(159/429)

---

وليس المخاطب ممن يداخله الشكّ في خبر الله تعالى ولكن التحقيق كناية عن الاهتمام بالمخبر وأنه بمحل العناية من الله ؛ فالجملة معطوفة على جملة ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [ سورة الحجر : 95 ] أو حال .

وضيق الصدر : مجاز عن كدر النفس .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وضائق به صدرك ﴾ في سورة هود ( 12 ) .

وفرع على جملة ولقد نعلم ﴾ أمره بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عمّا يقولونه من نسبة الشريك ، أي عليك بتنزيه ربّك فلا يضرّك شركهم .

على أن التسبيح قد يستعمل في معناه الكنائي مع معناه الأصلي فيفيد الإنكار على المشركين فيما يقولون ، أي فاقتصر في دفعهم على إنكار كلامهم .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [ سورة الإسراء : 93 ] .

والباء في بحمد ربك ﴾ للمصاحبة .

والتقدير : فسبح ربّك بحمده ؛ فحُذف من الأول لدلالة الثاني .

وتسبيح الله تنزيهه بقول : سُبحان الله .

والأمر في ﴿ وكن من الساجدين واعبد ربك ﴾ مستعملان في طلب الدّوام .

و﴿ من الساجدين ﴾ أبلغ في الاتّصاف بالسجود من ( ساجداً ) كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ في سورة براءة ( 119 ) ، وقوله ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة ( 67 ) ونظائرهما .

والساجدون : هم المصلّون .

فالمعنى : ودم على الصلاة أنتَ ومن معكَ .

وليس هذا موضع سجدة من سجود التلاوة عند أحد من فقهاء المسلمين .

وفي تفسير القرطبي ﴾ عن أبي بكر النقاش أن أبا حُذيفة ( لعلّه يعني به أبا حذيفة اليمان بن المغيرة البصري من أصحاب عكرمة وكان منكر الحديث ) واليمان بن رئاب ( كذا ) رأياها سجدةَ تلاوة واجبة .

قال ابن العربي : شاهدت الإمام بمحراب زكرياء من البيت المقدس سجد في هذا الموضع حين قراءته في تراويح رمضان وسجدتُ معه فيها .

وسجود الإمام عجيب وسجود أبي بكر بن العربي معه أعجب للإجماع ؛ على أنه لا

سجدة هنا ، فالسجود فيها يعدّ زيادة وهي بدعة لا محالة .

و ﴿ اليقين ﴾ : المقطوع به الذي لا شكّ فيه وهو النصر الذي وعده الله به . انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(160/429)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) ﴾

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه كفى نبيه صلى الله عليه وسلم المستهزئين الذين كانوا يستهزون به وهم قوم من قريش . وذكر في مواضع أخر أنه كفاه غيرهم . كقوله في أهل الكتاب : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله ﴾ [ البقرة : 137 ] الآية ، وقوله : ﴿ أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [ الزمر : 36 ] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

والمستهزؤو المذكورون : هم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والحارث بن قيس السهمي والأسود ابن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب .

والآفات التي كانت سبب هلاكهم مشهورة في التاريخ .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يعلم أن نبيه صلى الله عليه وسلم يضيق صدره بما يقول الكفار فيه: من الطعن والتكذيب، والطعن في القرآن. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام: 33]، وقوله: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود: 12]، وقوله ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف: 6] وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3] إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا شيئاً من ذلك من الأنعام.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) ﴾

أمر جل علا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بأمرين: أحدهما – قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، والثاني – قوله: ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾.



---

وقد كرر تعالى في كتابه الأمر بالشيئين المذكورين في هذه الآية الكريمة، كقوله في الأول: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا ﴾ [النصر: 3]، وقوله: ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: 130]، وقوله:

﴿ فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ واستغفر لذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشي والإبكار ﴾ [ غافر : 55 ] والآيات بمثل ذلك كثيرة .

واصل التسبيح في اللغة : الإبعاد عن السوء . ومعناه في عرف الشرع : تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله . ومعنى سبح : نزه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله . وقوله ﴿ بحمد ربك ﴾ أي في حال كونك متلبساً بحمد ربك ، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال ، لأن لفظة ﴿ بحمد ربك ﴾ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف وجلال ثابت لله جل وعلا .

فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال ، لأن الكمال يكون بأمرين : أحدهما – التخلي عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، وهذا معنى التسبيح .

والثاني – التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد ، فتم الثناء بكل كمال . ولأجل هذا المعنى ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلمتان خفيفتان على اللّسان ، ثقيلتان في الميزام ، حبيبتان إلى الرّحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " ، وكقوله في الثاني وهو السجود : ﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ واسجد واقترب ﴾ [ العلق : 19 ] وقوله : ﴿ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [ فصلت : 37 ] ويكثر في القرآن العظيم إطلاق التسبيح على الصلاة .

وقالت جماعة من العلماء : المراد بقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي صل له ، وعليه فقوله ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ من عطف الخاص على العام والصلاة تتضمن غاية التنزيه ومنهى التقديس . وعلى كل حال فالمراد بقوله ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ اي من المصلين ، سواء قلنا إن المراد بالتسبيح الصلاة ، أو أعم منها من تنزيه الله عما لا يليق به . ولأجل كون المراد بالسجود الصلاة لم يكن هذا الموضع محل سجدة عند جمهور العلماء . خلافاً لمن زعم أنه موضع سجود .

قال القرطبي في تفسيره : قال ابن العربي : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه ، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن ، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله يسجد في هذا الموضع ، وسجدت معه فيه ، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش ان ههنا سجدة عند ابي حذيفة ويمان بن رئاب ورأى أنها واجبة – انتهى كلام القرطبي .

وقد تقدم معنى السجود في سورة الرعد .

وعلى أن المراد بالتسبيح الصلاة فالمسوغ لهذا الإطناب الذي هو عطف الخاص على العام هو أهمية السجود ، لأن اقرب ما يكون العبد من ربه في حال كونه في السجود .

قال مسلم في صحيحه : حدثنا هارون بن معروف ، وعمرو بن سواد قالا : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن عمارة بن غزية ، عن سمي مولى أبي بكر ، أنه سمع أبا صالح ذكوان يحدث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء " .

تنبيه

اعلم أن ترتيبه جل وعلا الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره صلى الله عليه وسلم بسبب ما يقولان له من السوء – دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه ، ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة . وقال تعالى ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [ البقرة : 45 ] الآية .

*(163/429)*

---

ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي من حديث نعيم بن همار رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله تعالى : يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره " فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أني يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها .

وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

قوله تعالى : ﴿ واعبد ربَّكَ ﴾ .

أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يعبد ربه ، اي يقترب له علة وجه الذل والخضوع والمحبة بما امر أن يتقرب له به من جميع الطاعات على الوجه المشروع . وجل القرآن في تحقيق هذا الأمر الذي هو حظ الإثبات من لا إله إلا الله ، مع حظ النفي منها .

وهو خلع جميع المعبودات سوى الله تعالى في جميع أنواع العبادات . قال تعالى : ﴿ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [ هود : 123 ] ، وقال ﴿ فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ ﴾ [ مريم : 65 ] ، وقال : ﴿ واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ﴾ [ النساء : 36 ] ، وقال ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بالطاغوت وَيُؤْمِن بالله فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [ البقرة : 256 ] ، وقال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [ يوسف : 106 ] والآيات في مثل ذلك كثيرة جداً .

قوله تعالى ﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ .

قالت جماعة من أهل العلم ، منهم سالم بن عبد الله بن عمر ، ومجاهد ، والحسن وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيرهم : اليقين : الموت ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين حتى أَتَانَا اليقين ﴾ [ المدثر : 43-47 ] وهو الموت .

ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أم العلاء ( امرأة من الأنصار ) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت أُمُّ العلاء : رحمة الله عليك أبا السَّائب ! فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ " فقالت : بأبي وأمي يا رسول الله فمن يكرمه الله ! ؟ فقال : " أَما هو فقد جاءه اليقين ، وإِني لأَرجوله الخير . . " الحديث . وهذا الحديث الصحيح يدل على أن اليقين الموت . وقول من قال : إن المراد باليقين انكشاف الحقيقة ، وتيقن الواقع لا ينافي ما ذكرنا ، لأن الإنسان إذا جاءه الموت ظهرت له الحقيقة يقيناً . ولقد أجاد التهامي في قوله : والعيش

نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

وقال صاحب الدر المنثور : أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والحاكم في لاريخ ، وابن مردويه ، والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحي إلي : أن " سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحي إلي : أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أب الدرداء رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أوحي إلى أن أكون تاجراً ولا أجمع المال متكاثراً ، ولكن أوحي إلي : أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " .

تنبيه



---

الأول – هذه الآية الكريمة تدل على أن الإنسان ما دام حياً وله عقل ثابت يميز بهن فالعبادة واجبة عليه بحسب طاقته . فإن لم يستطع الصلاة قائماً فليصل قاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . وهكذا قال تعالى عن نبيه عيس عليه السلام وعلى نبينا الصلاة والسلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً ﴾ [ مريم : 31 ] وقال البخاري في صحيحه " باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب " وقال عطاء : إن لم يقدر أن يتحول غلى القبلة صلى حيث كان وجهه – حدثنا عبدان عن عبد الله ، عن إبراهيم بن طهمان قال :

حدثني الحسين المكتب ، عن بريدة ، عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما قال : كانت بي بواسير ، فسألت النَّبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال : " صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب " اه ونحو هذا معلوم . قال تعالى : ﴿ فاتقوا الله مَا استطعتم ﴾ [ التغابن : 16 ] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [ البقرة : 286 ] ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم . . . " الحديث .

التنبيه الثاني – اعلم ان ما يفسر به هذه الآية الكريمه بعض الزنادقة الكفرة المدعين للتصوف من أن معنى اليقين المعرفة بالله جل وعلا ، وأن الآية تدل على أن العبد إذا وصل من المعرفة بالله إلى تلك الدرجة المعبر عنها باليقين – أنه تسقط عنه العبادات والتكاليف . لأن ذلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة .

(166/429)

---

إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة ، وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين . وهذا النوع لا يسمى في الاصطلاح تأويلاً ، بل يسمى لعباً كما قدمنا في آل عمران . ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم وأصحابه هم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه

وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع ذلك أكثر الناس عباد لله جل وعلا ، وأشدهم خوفاً منه وطمعاً في رحمته . وقد قال جل وعلا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [ فاطر : 28 ] والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(167/429)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) ﴾

فبعد أنْ قال له : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [ الحجر : 94 ] .

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُستهزيء بمحمد صلى الله عليه وسلم قد ناله عقاب من السماء . فها هو ذا الوليد بن المغيرة الذي يتبختَّر في ثيابه ؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأنَفُ أن ينحنيَ لِيُخلّص ثوبه الذي اشتبك بقطعة الحديد ؛ فتُجرح قدمه وتُصاب بالغرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الغرغرينا في كُلّ جسده إلي أنْ يموتَ .

وها هو الثاني الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض في عينيه ؛ ويُصاب بالعمَى ، وكذلك الحارث بن الطلاطلة ، والعاصي بن وائل .

وكل مستهزيء برسول الله صلى الله عليه وسلم قد ناله عقابٌ ما ، ومَنْ لم تُصِبْه عاهة أو آفة صرعتْه سيوف المسلمين في بدر ، لدرجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدد المواقع التي سيلْقى فيها كل واحد من صناديد قريش حَتْفه ؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان .

وقد أوضح صلى الله عليه وسلم تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب كَرّاً وَفَرّاً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدث بالضبط .

ويُحدّد الحق سبحانه نوعية هؤلاء المستهزئين بقوله :

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) ﴾

أي : أن هؤلاء المشركين الذين يَهْزءون بك لهم عذابهم ؛ ذلك أنهم أشركوا بالله سبحانه ، وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الحجر : 96 ] .

ففي هذا القول استيعاب لكل الأزمنة ، أي : سيعلمون الآن ومن بعد الآن ، فكلمة " سوف " تتسع لكل المراحل ، فالحق سبحانه لم يأخذهم جميعاً في مرحلة واحدة ، بل أخذهم على فترات .

فحين يأخذ المُتطرِّف في الإيذاء ؛ قد يرتدع مَنْ يُؤذي ، ويتراجع عن الاستمرار في الإيذاء ، وقد يتحوّل بعضهم إلى الإيمان ؛ فمَنْ كانت شِدّته على رسول الله صلى الله عليه وسلم تصبح تلك الشدة في جانب الرسول صلى الله عليه وسلم .

وها هو المَثَل واضح في عكرمة بن أبي جهل ؛ يُصَاب في موقعة اليرموك ؛ فيضع رأسه على فَخذِ خالد بن الوليد ويسأله : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضِي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيرد خالد : "نعم" . فيُسلِم الروح مُطْمئناً .

وهؤلاء المستهزئون ؛ قد أشركوا بالله ؛ فلم تنفعهم الآلهة التي أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك ؛ فَهُمْ يتأكدون من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) ﴾

وفي هذا القول الكريم يتجلّى تقدير الحق سبحانه لمشاعر النبوة ، فالحق يُكلِّفه أنْ يفعل كذا وكذا ، وسبحانه يعلم أيضاً ما يعانيه صلى الله عليه وسلم في تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

ورد هذا المعنى أيضاً في قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ﴾ [ الأنعام : 33 ] .

فأنت يا رسولَ الله أكرم من أنْ تكذبَ ، فقد شهدوا لك بحُسْن الصدق عبر معايشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [ الحجر : 97 ] .

ومعنى ضيق الصدر أنْ يقِلّ الهواء الداخل عَبْر عملية التنفُّس إلى الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثاني أوكسيد الكربون ؛ ويعمل الأكسجين على أنْ يُؤكسِدَ الغذاء لِينتجَ الطاقة ؛ فإنْ ضاق الصَّدْر صارت الطاقة قليلة .

(169/429)

---

والمثَل يتضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالي لأيّ منزل أو أيّ مكان ؛ ويجدون أنفسهم ينهجون ؛ والسبب في هذا النهجَ هو أن الرئة تريد أنْ تُسرِع بالتقاط كمية الهواء أكبر من تلك التي تصل إليها ، فيعمل القلب بشدة اكثر كي يُتيح للرئةِ أن تسحبَ كمية أكبر من الهواء .

أما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذي يتيح للرئة أن تأخذَ الكمية التي تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يُكذّبِه أحد ، أو يستهزيء به أحد كان

يضيق صَدْره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة ؛ ولذلك يُطمِئنه الحق سبحانه أن مَدَده له لا ينتهي .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر في نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه ؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك ؟ وَسِّع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول في موقع آخر : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ [ الأنعام : 125 ] .

أي : يُوسّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعاني التي جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء ﴾ [الأنعام : 125 ] .

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكأن فيها مجاهدةً ومكابدةً ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء أكثر نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى في الفضاء فلن يجد هواء .

ويدلُّ الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسم على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يُحزنه أو يؤلمه مُكذّب ، أو مُستهزيء ؛ فيقول سبحانه : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . ﴾ .

وهكذا يمكن أن تُذْهب عنك أيَّ ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاكَ البِشْر أو ضايقك الخَلْق ؛ فاعلم أنك قادر على الأُنس بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تنزِّهه عن كُلِّ شيء وتحمده ، لتعيش في كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر : ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ الصافات : 143-144 ] .

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص في الذات أو في الصفات أو في الأفعال ، وسبحانه كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تُشْبِه أيَّ ذات ، وصفاته أزلية مُطْلقة ، أما صفات الخَلْق فهي موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جَلَّ وعَلا يقول في مسألة التسبيح : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا . . ﴾ [ يس : 36 ] .

وهو القائل : ﴿ فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [ الروم : 17 ] .

وكُلٌّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ؛ فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذْنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذي لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً .

فكأن سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزَع إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يَأْوي إلى رُكْن شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جَفْوة الخَلْق لهم ؛ فيقولون : " إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به " .

(171/429)

---

وأنت حين تُسبِّح الله فأنت تُقِرّ بأن ذاته ليستْ كذاتِك ، وصفاته ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛ فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هي قدرة عَجْز وأغيار ؛ أما قدرته سبحانه فهي ذاتية فيه ومُطْلقة وأَزلية ، وهو الذي يأتيك بكُل النِّعم .

ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أنْ يكونَ مثلك ، والحمد لله واجب في كل وقت ؛ فسبحانه الذي خلق المواهب كلها لِتخدُمَك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة ؛ فخيْرُ تلك النعمة يصِل إليك .

وحين تُسبِّح بحمد الله ؛ فسبحانه لا يُخلِف وَعْده لك بكل الخير ؛ فَكُلُّنا قد نُخلِف الوعد رغماً عَنّا ، لأننا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلِف وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْتَ الله وحمدته .

وزِدْ خضوعاً للمُنْعِم ، فاسجُدْ امتثالاً لأمره تعالى :

﴿ وكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ [ الحجر : 98 ] .

فالسجود هو المَظْهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان كما نعلم هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تَلْقَى الناس ؛ وهو أول ما تدفع عنه أيَّ شيء يُلوِّثه أو ينال من رضاك عنه .

ومَنْ يسجد بأرقى ما فيه ؛ فهذا خضوع يُعطي عِزّة ، ومَنْ يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل أَوْجُه السجود ، وكُلُّنا نذكر قَوْل الشاعر :

وَالسُّجود الذِي تُجتويه فِيهِ . . . مِنْ أُلوفِ السُّجودِ نَجاةُ

والسجود هو قمة الخضوع للحق سبحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ البشرية حمل كثيراً من المظالم نتيجة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطي كما نعلم خَيْر العبد للسيد ؛ ولكن العبوديةَ لله تعطي خَيْره سبحانه للعباد ، وفي ذلك قِمَّة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ واعْبُدْ ربَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾

ونعرف أن العبادة هي إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سَلْباً ، وتطبيق " افعل " و " لا تفعل " ، وكثيرٌ من الناس يظنون أن العبادة هي الأمور الظاهرية في الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ؛ وحِجّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فهذه هي الأُسس التي تقوم عليها العبادة . أي : أنها البِنْية التي تقوم عليها بقية العبادة ، وهكذا تصبح العبادة هي ، كُل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أي : أن حركة الحياة كلها حتى كَنْس الشوارع ، وإماطة الأذى عن الطريق هي عبادة ، كل ما يُقصد به نَفْع الناس عبادة ، كي لا يصبح المسلمون عالة على غيرهم .

وفي إقامة الأركان إظهارٌ لقوة المسلمين ، حين يُظهِرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فَوْر أنْ يسمع النداء ب " الله أكبر " فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً في السنة ؛ فهو يُعلِن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُبَاحة ؛ وأوّل ما يأتي موعد الإمساك من قَبْل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتثال لأوامر الحق سبحانه يُذكِّرك بنعمه عليك ؛ فأنت في يومك العادي لا تقرب المُحرَّمات التي أخذتْ وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحدَ من المسلمين يُفكِّر في شُرْب الخمر ؛ ولا أحدَ منهم يُفكِّر في لعب المَيْسِر ، وانطبعتْ تلك الأمور ؛ وصارتْ عادة سلوكية في إلْف ورتَابة عند غالبية المسلمين مِمَّنْ يُنفِّذون شريعة الله ، ويُطبِّقون " افعل " و " لا تفعل " .

وعندما يأتي الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هي حلال لك طوال العالم ، وتقضي أي نهار في رمضان ونفسُك تستشرف سماع أذان المغرب لِتفْطر .

(173/429)

---

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك لِيعُوّدك على الكثير من الطاعات التي تصير عند المؤمنين عادةً ؛ وسبحانه يريد أنْ يُديم عليك لذّة التكليف العبادي .

وبعْضٌ من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم قوله الحق :

﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [ الحجر : 99 ] .

ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير " لقد وصلت إلى مرتبة اليقين " ، ويمتنع عن أداء

الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحجّ إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدَّعِي أن التكليف قد سقط عنه ؛ لأن اليقين قد وصله .

ونقول لمن يدَّعي ذلك : أتُخادع الله ورسوله ؟ وكُلُّنا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظَلَّ يُؤدِّي الفرائض حتى آخر يوم في حياته . وكُلُّنا يعلم أن اليقين المُتفق عليه والمُتيقن من كل البشر ، ولا خلافَ عليه أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خُصوصيات المؤمن ؛ فما أنْ بلغه أمرها من القرآن فقد صَدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتَّى أمرُها . والمَثَلُ الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحدِّثونه بالأمر الغريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول " مادام قد قال فقد صدق " .

أما الكافر والعياذ بالله فهو يشكُّ في كل شيء غيبيّ أو حتى ماديّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أنْ يأتيه الموت حتى يعلمَ أنه اليقين الوحيد .

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : " ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت " .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكِنَّا نُزحزِح مسألة اليقين هذه بعيداً عَنَّا رَغْم أنها واقعةٌ لا محالةَ . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هي اللحظة التي لا ينفع فيها شيء إلا عمل الإنسان إنْ كان مؤمناً مُؤدِّياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن لِيُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تَبلغك به .

أما عَيْن اليقين ؛ فهي التي ترى الحدث فتتيقّنه ، أو هو أمر حقيقيّ يدخل إلى قلبك فَتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدّقه تَصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذهن لِيُناقَش من جديد ، وله مصادر عِلْم مِمَّنْ تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذب أبداً ؛ وهذا هو " علم اليقين " ؛ فإنْ رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وها هو الإمام عليّ كرَّم الله وجهه وأرضاه يقول : " ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التي حدثنا بها رسول الله غيباً ما ازددتُ يقيناً " .

" وها هو سيدنا حارثة رضي الله عنه يقول : "كأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عرفت فالزم "

.

وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(175/429)

---

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [ 97 ، 98 ]

أي صلِّ لله تعالى واذكره ، فكأن الله تعالى قال له : إن ضاق صدرك بقرب الكفار بكذبهم ، بما وصفوا لك من الضد والندر والشريك بجهلهم وحسدهم ، فارجع إلى مشاهدتنا وقربنا بذكرنا ، فإن قربك فينا ، وسرورك بذكرنا ومشاهدتنا ، واصبر على ذلك ، فإن رضاي فيك .

وقد حكي أن موسى عليه السلام قال : إلهي دلني على عمل إن أنا عملته نلت به رضاك .

قال : فأوحى إليه : يا ابن عمران ، إن رضاي في كرهك ولن تطيق ذلك .

قال : فخر موسى عليه السلام ساجداً باكياً ، وقال : إلهي خصصتني منك بالكلام ، فلم تكلم بشراً قبلي ، ولم تدلني على عمل أنال به رضاك .

فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاي بقضائي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 89 ﴾

(176/429)

---

فائدة

قال صاحب روح البيان :

قال في شرح الحكم ما تجده القلوب من الهموم والأحزان يعني عند فقدان مرادها وتشويش معتادها فلأجل ما منعت من وجود العيان إذ لو عاينت جمال الفاعل جمل عليها ألم البعد كما اتفق في قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن ويحكى أن شاباً ضرب تسعة وتسعين سوطاً ما صاح ولا استغاث ولا تأوه فلما ضرب الواحدة التي كملت بها المائة صاح واستغاث فتبعه الشبلي قدس سره فسأله عن أمره فقال إن العين التي ضربت من أجلها كانت تنظر إلى في التسعة والتسعين وفي الواحدة حجبت عني وقد قال الشبلي من عرف الله لا يكون عليه غم أبداً .

واعبد ربك دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى حتى يأتيك اليقين أي : الموت فإنه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق ويزول بنزوله كل شك وإسناد الإتيان إليه للإيذان بأنه متوجه إلى

الحي طالب للوصول إليه .

والمعنى دم على العبادة ما دمت حياً من غير إخلال بها لحظة كقوله : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ (مريم : 31) ووقت العبادة بالموت لئلا يتوهم أن لها نهاية دون الموت فإذا مات انقطع عنه عمله وبقى ثوابه ، وهذا بالنسبة إلى مرتبة الشريعة .

وأما الحقيقة فباقية في كل موطن إذ هي حال القلب والقلب من الملكوت ولا يعرض الفناء والانقطاع لأحوال الملكوت نسأل الله الوصول إليه والاعتماد في كل شيء عليه ، وفي الحديث : "ما أوحي إلي أن أجمع المال وأكن من التاجرين ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" .

*(177/429)*

---

وفي "التأويلات النجمية" ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ إنك يضيق صدرك من ضيق البشرية وغاية الشفقة وكمال الغيرة بما يقولون من أقوال الأخيار ويعملون عمل الأشرار فسبح بحمد ربك أنك لست منهم وكن من الساجدين سجدة الشكر واعبد ربك بالإخلاص حتى يأتيك اليقين أي إلى الأبد وذلك أن حقيقة اليقين المعرفة ولا نهاية لمقامات المعرفة فكما أن الواصل إلى مقام من مقامات المعرفة يأتيه يقين بذلك المقام في

المعرفة كذلك يأتيه شك بمعرفة مقام آخر في المعرفة فيحتاج إلى يقين آخر في إزالة هذا الشك إلى ما لا يتناهى فثبت أن اليقين ههنا إشارة إلى الأبد انتهى كلامه .

قال في العوارف منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدي فكيف في العمر القصير الدنيوي .

قيل : اليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للعوام والعلم علم اليقين للأولياء وعين اليقين لخواص الأولياء وحق اليقين للأنبياء وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 4 صـ 633 . 634 ﴾

*(178/429)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تمدن عينيك . . . ﴾ الآية .

قال : نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر ، عن يحيى بن أبي كثير : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بإبل حي ، يقال لهم بنو الملوح أو بنو المصطلق ، قد عنست في أبوالها من السمن . فتقنع بثوبه ومرّ ولم ينظر إليها لقوله ﴿ لا تمدن عينيك . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله ﴿ أزواجاً منهم ﴾ قال : الأغنياء ، الأمثال ، الأشباه .

وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال : من أعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء منها ، فقد صغر القرآن . ألم تسمع قوله ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني . . . . ﴾ إلى قوله ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ قال : يعني القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ﴿ واخفض جناحك ﴾ قال : اخضع .

وأخرج البخاري وسعيد بن منصور والحاكم والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق ، عن ابن عباس في قوله ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، جزأوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

وأخرج ابن جرير من طريق علي ، عن ابن عباس ﴿ عضين ﴾ فرقا .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن ابن عباس قال : سأل رجل رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : " أرأيت قول الله ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾ قال : اليهود والنصارى .
قال ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ قال : آمنوا ببعض وكفروا ببعض " .

(179/429)

---

وأخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل ، عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش – وكان ذا سن فيهم – وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيُكَذِّب بعضكم بعضاً . فقالوا : أنت فقل ، وأتم لنا به رأياً نقول به . قال : لا ، بل أنتم قولوا لأسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : ما هو بكاهن . . . لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكهان ولا بسجعهم . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو بمجنون . . . لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا بجائحه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر . . . . لقد عرفنا الشعر كله ، رَجَزه وهَزَجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا بعقده . قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله حلاوة ؛ وإن عليه طلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه

لجناء ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك . فأنزل الله في الوليد وذلك من قوله ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً . . . ﴾ [ المدثر : 11 ] إلى قوله ﴿ سأصليه سقر . . . ﴾ [ المدثر : 26 ] وأنزل الله في أولئك النفر الذين كانوا معه ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أي أصنافاً ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ قال : هم رهط من قريش ، عضهوا كتاب الله ، فزعم بعضهم أنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الأوّلين .

(180/429)

---

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن جرير ، عن عكرمة يقول : العضه ، السحر بلسان قريش . يقولون للساحرة : إنها العاضهة .

وأخرج الترمذي وابن جرير وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن أنس ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ قال : يسأل العباد كلهم يوم القيامة عن خلتين : عما كانوا يعبدون ، وعما أجابوا به المرسلين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ وقال : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [ الرحمن : 39 ] قال : لا يسألهم هل عملهم كذا وكذا ؛ لأنه أعلم منهم بذلك ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فامضه .

وأخرج ابن جرير عن أبي عبيدة ، أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو داود في ناسخه من طريق علي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ قال : نسخه قوله ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [ التوبة : 5 ] .

وأخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال : هذا أمر من الله لنبيه بتبليغ رسالته قومه وجميع من أرسل إليه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال : اجهر بالقرآن في الصلاة .

وأخرج عن ابن زيد في قوله ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال : بالقرآن الذي أوحي إليه أن يبلغهم إياه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ قال : أعلن بما تؤمر .

(181/429)

---

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق السدي الصغير ، عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً سنين لا يظهر شيئاً مما أنزل الله حتى نزلت ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ يعني : أظهر أمرك بمكة ، فقد أهلك الله المستهزئين بك وبالقرآن ، وهم خمسة رهط . فأتاه جبريل بهذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أراهم أحياء بعد كلهم . . . " . فاهلكوا في يوم واحد وليلة . منهم العاص بن وائل السهمي ، خرج في يومه ذلك في يوم مطير فخرج على راحلته يسير وابن له يتنزه ويتغدى ، فنزل شعباً من تلك الشعاب . فلما وضع قدمه على الأرض قال : لدغت . فطلبوا فلم يجدوا شيئاً ، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير ، فمات مكانه .

ومنهم الحارث بن قيس السهمي ، أكل حوتاً فأصابه غلبة عطش ، فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقدّ بطنه ، فمات وهو يقول : قتلني رب محمد .

ومنهم الأسود بن المطلب ، وكان له ابن يقال له زمعة بالشام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا على الأب أن يعمى بصره وأن يثكل ولده ، فأتاه جبريل بورقة خضراء فرماه بها فذهب بصره . وخرج يلاقي ابنه ومعه غلام له ، فأتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه ويضرب وجهه بالشوك ، فاستغاث بغلامه فقال له غلامه : لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك . حتى مات وهو يقول : قتلني رب محمد .

ومنهم الوليد بن المغيرة ، مرّ على نبل لرجل من خزاعة قد راشها وجعلها في الشمس ، فربطها فانكسرت ، فتعلق به سهم منها فأصاب أكحله فقتله .

ومنهم الأسود بن عبد يغوث ، خرج من أهله فأصابه السموم فاسودّ حتى عاد حبشياً ، فأتى أهله فلم يعرفوه فأغلقوا دونه الباب حتى مات . وهو يقول : قتلني رب محمد . فقتلهم الله جميعاً ، فأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره وأعلنه بمكة " .



---

وأخرج أبو نعيم في الدلائل بسندين ضعيفين ، عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قال : قد سلطت عليهم جبريل وأمرته بقتلهم ، فعرض للوليد بن المغيرة فعثر به ، فعصره عن نصل في رجله حتى خرج رجيعه من أنفه . وعرض للأسود بن عبد العزى

وهو يشرب ماء ، فنفخ في ذلك حتى انتفخ جوفه فانشق ، واعترض للعاص بن وائل وهو متوجه إلى الطائف ، فنخسه بِشَبْرُقَةٍ فجرى سمّها إلى رأسه ، وقتل الحارث بن قيس بلكزة ، فما زال يفوق حتى مات . وقتل الأسود بن عبد يغوث الزهري .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في الدلائل وابن مردويه بسند حسن والضياء في المختارة ، عن ابن عباس في قوله ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قال : المستهزئون ، الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب والحارث بن عبطل السهمي والعاص بن وائل ، فأتاه جبريل فشكاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أرني إياهم ، فأراه الوليد .



---

فأومأ جبريل إلى أكحله فقال : ما صنعت شيئاً . قال : كفيتكه . ثم أراه الأسود بن المطلب ، فأومأ إلى عينيه فقال : ما صنعت شيئاً . قال : كفيتكه ، ثم أراه الأسود بن عبد يغوث ، فأومأ إلى رأسه فقال : ما صنعت شيئاً . قال : كَفَيْتُكَهُ . ثم أراه الحرث ، فأومأ إلى بطنه فقال : ما صنعت شيئاً . فقال : كفيتكه . ثم أراه العاص بن وائل ، فأومأ إلى أخمصه فقال : ما صنعت شيئاً . فقال : كفيتكه . فأما الوليد ، فمر برجل من خزاعة وهو يريش

نبلاً فأصاب أكحله فقطعها . وأما الأسود بن المطلب ، فنزل تحت سمرة فجعل يقول : بنيّ ، ألا تدفعون عني ؟ قد هلكت وَطُعِنْتُ بالشوك في عيني . فجعلوا يقولون : ما نرى شيئاً . فلم يزل كذلك حتى عتمت عيناه . وأما الأسود بن عبد يغوث ، فخرج في رأسه قروح فمات منها . وأما الحارث ، فأخذه الماء الأصفر في بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات منه . وأما العاص ، فركب إلى الطائف فربض على شبرقة فدخل من أخمص قدمه شوكة فقتلته " .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق جويبر ، عن الضحاك عن ابن عباس ، أن الوليد بن المغيرة قال : إن محمداً كاهن ، يخبر بما يكون قبل أن يكون وقال أبو جهل : محمد ساحر ؛ يفرق بين الأب والابن . وقال عقبة بن أبي معيط : محمد مجنون ، يهذي في جنونه . وقال أبي بن خلف : محمد كذاب . فأنزل الله ﴿ انا كفيناك المستهزئين ﴾ فهلكوا قبل بدر .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه ، عن ابن عباس ، أن المستهزئين ثمانية : الوليد بن المغيرة ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن وائل ، والحارث بن عدي بن سهم ، وعبد العزى بن قصي ؛ وهو أبو زمعة ، وكلهم هلك قبل بدر بموت أو مرض . والحارث بن قيس من العياطل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : ﴿ المستهزئين ﴾ منهم : الوليد بن المغيرة ،

والعاص بن وائل ، والحارث بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، وأبو هبار بن الأسود .



---

وأخرج ابن مردويه عن علي ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قال : خمسة من قريش ، كانوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم الحارث بن عيطلة والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والوليد بن المغيرة .

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط عن أنس قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على أناس بمكة ، فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل . فغمز جبريل بأصبعه فوقع مثل الظفر في أجسادهم ، فصارت قروحاً نتنة . فلم يستطع أحد أن يدنو منهم . وأنزل الله ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، عن عكرمة قال : مكث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة خمس عشرة سنة ، منها أربع أو خمس يدعو إلى الإسلام سراً وهو خائف ، حتى بعث الله على الرجال الذين أنزل فيهم ﴿ انا كفيناك المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ والعضين بلسان قريش ، والسحر .

وأمر بعدوانهم فقال : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ثم أمر بالخروج إلى المدينة فقدم في ثمان ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول ، ثم كانت وقعة بدر . ففيهم أنزل الله ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ [ الأنفال : 7 ] وفيهم نزلت ﴿ سيهزم الجمع ﴾ [ القمر : 45 ] وفيهم نزلت ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ [ المؤمنون : 64 ] وفيهم نزلت ﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ [ آل عمران : 127 ] وفيهم نزلت ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [ آل عمران : 128 ] أراد الله القوم وأراد رسول الله العير ، وفيهم نزلت ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً . . . ﴾ [ إبراهيم : 28 ] الآية. وفيهم نزلت ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ [ آل عمران : 13 ] في شأن العير ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ [ الأنفال : 42 ] أخذوا أسفل الوادي . فهذا كله في أهل بدر ، وكانت قبل بدر بشهرين سرية يوم قتل ابن الحضرمي ، ثم كانت أحد ، ثم يوم الأحزاب بعد أحد بسنتين ، ثم كانت الحديبية – وهو يوم الشجرة – فصالحهم النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ على أن يعتمر في عام قابل في هذا الشهر . ففيها أنزلت ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ [ البقرة : 194 ] فشهر العام الأول بشهر العام فكانت ﴿ الحرمات قصاص ﴾ ثم

كان الفتح بعد العمرة ، ففيها نزلت ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد . . . ﴾ [ المؤمنون : 77 ] الآية . وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم غزاهم ولم يكونوا أعدوا له أهبة القتال ، ولقد قتل من قريش يومئذ اربعة رهط من حلفائهم ، ومن بني بكر خمسين أو زيادة . وفيهم نزلت – لما دخلوا في دين الله ﴿ هو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار ﴾ [ المؤمنون : 78 ] ثم خرج إلى حنين بعد عشرين ليلة ، ثم إلى المدينة ، ثم أمر أبا بكر على الحج . ولما رجع أبو بكر من الحج ، غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك ، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم العام المقبل ، ثم ودع الناس ، ثم رجع



---

فتوفي لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قال : هؤلاء فيما سمعنا خمسة رهط ، استهزأوا بالنبي صلى الله عليه وسلم . فلما أراد صاحب اليمن أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم ، أتاه الوليد بن المغيرة فزعم أن محمداً ساحر . وأتاه العاص بن وائل وأخبره أن محمداً يعلم أساطير الأولين ، فجاءه آخر فزعم أنه كاهن ، وجاءه آخر فزعم أنه شاعر ، وجاء آخر فزعم أنه مجنون فكفى الله محمداً أولئك الرهط في ليلة واحدة

، فأهلكهم بألوان من العذاب . . . كل رجل منهم أصابه عذاب . فأما الوليد ، فأتى على رجل من خزاعة وهو يريش نبلاً له ، فمر به وهو يتبختر فأصابه منها سهم فقطع أكحله ، فأهلكه الله .

وأما العاص بن وائل ، فإنه دخل في شعب فنزل في حاجة له ، فخرجت إليه حية مثل العمود فلدغته فأهلكه الله : وأما الآخر ، فكان رجلاً أبيض حسن اللون ، خرج عشاء في تلك الليلة فأصابته سموم شديدة الحر ، فرجع إلى أهله وهو مثل حبشي ، فقالوا : لست بصاحبنا . فقال : أنا صاحبكم ! . . فقتلوه . وأما الآخر ، فدخل في بئر له فأتاه جبريل فعمه فيها ، فقال : إني قد قتلت فأعينوني : فقالوا : والله ما نرى أحداً . فكان كذلك حتى أهلكه الله . وأما الآخر ، فذهب إلى إبله ينظر فيها ، فأتاه جبريل بشوك القتاد فضربه ، فقال : أعينوني فإني قد هلكت . قالوا : والله ما نرى أحداً . فأهلكه الله فكان لهم في ذلك عبرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : " جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحنى ظهر الأسود بن عبد يغوث حتى احقوقف صدره . فقال : النبي صلى الله عليه وسلم خالي خالي فقال جبريل : دعه عنك فقد كفيته فهو من المستهزئين . قال : وكانوا يقولون سورة البقرة وسورة العنكبوت يستهزئون بها " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن قتادة قال : هؤلاء رهط من قريش ، منهم الأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس .

وأخرج ابن جرير وأبو نعيم ، عن أبي بكر الهذلي قال : قيل للزهري إن سعيد بن جبير وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين ، فقال سعيد : الحارث بن عيطلة وقال عكرمة : الحارث بن قيس . فقال : صدقا جميعاً . كانت أمه تسمى عيطلة ، وكان أبوه قيساً .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وأبو نعيم ، عن الشعبي رضي الله عنه قال : المستهزئون سبعة ، فسمى منهم العاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، وهبار بن الأسود ، وعبد يغوث بن وهب ، والحرث بن عيطلة .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم ، عن قتادة ومقسم مولى ابن عباس ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ قال : هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وعدي بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب ، مروا رجلاً رجلاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل ، فإذا مر به رجل منهم قال له جبريل : كيف محمد هذا ؟ فيقول : بئس عبد الله ، فيقول جبريل : كَفَيْنَاكَهُ . فأما الوليد ، فتردّى فتعلق سهم بردائه ، فذهب يجلس فقطع أكحله فنزف حتى مات .

وأما الأسود بن عبد يغوث ، فأتى بغصن فيه شوك ، فضرب به وجهه فسالت حدقتاه

على وجهه فمات . وأما العاص ، فوطئ على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك .

وأما الأسود بن المطلب وعدي بن قيس ، فأحدهما قام من الليل وهو ظمآن ليشرب من جرة ، فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات .

وأما الآخر ، فلدغته حية فمات .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾

(188/429)

---

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ ، وابن مردويه والديلمي ، عن أبي مسلم الخولاني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أوحي لي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحي إلي أن ﴿ سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أوحي إليّ أن أكون تاجراً ولا أجمع المال متكاثراً ، ولكن أوحي

إلي أن ﴿ سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ، عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال : الموت إذا جاءه الموت جاءه تصديق ما قال الله له ، وحدثه من أمر الآخرة .

وأخرج البخاري وابن جرير عن أم العلاء : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال : وما يدريك أن الله أكرمه . . ؟ أمّا هو ، فقد جاءه اليقين إني لأرجو له الخير " .

وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير ما عاين الناس له ، رجل يمسك بعنان فرسه فالتمس القتل في مظانه :

ورجل في شعب من هذه الشعاب ، أو في بطن وادٍ من هذه الأودية في غنيمة أن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد الله حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير " .

(189/429)

---

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من طلب ما عند الله ، كانت السماء ظلاله والأرض فراشه ، لم يهتم بشيء من أمر الدنيا . فهو لا يزرع الزرع وهو يأكل الخبز ، وهو لا يغرس الشجر ويأكل الثمار ؛ توكّلاً على الله وطلب مرضاته فضمن الله السموات السبع والأرضين السبع رزقه ، فهم يتعبأون به ويأتون به حلالاً ، واستوفى هو رزقه بغير حساب عبد الله حتى أتاه اليقين " .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله ، ومن كانت راحته في لقاء الله فكان قد كفي . والله أعلم بالصواب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(190/429)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) ﴾

الذين دَفَعْنَا عنكَ عادية شَرِّهم ، ودَرَأْنا عنكَ سوءَ مكرهم ، ونصرناك بموجب عنايتنا بشأنك . . فلا عليكَ فيما يقولون أو يفعلون ، فما العقبى إلا لَك بالنصر والظفر .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) ﴾

وقال : ﴿ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ ولم يقل يضيق قلبك ؛ لأنه كان في محل الشهود ، ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله ، ولا تكون مع اللقاء وحشة .

ويقال هوَّنَ عليه ضيق الصدر بقوله : ﴿ ولقد نعلم ﴾ ويقال إن ضاق صدرُك بسماع ما يقولون فيك من ذمِّكَ فارتفع بلسانك في رياض تسبيحنا ، والثناءِ علينا ، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ؛ وسلوة لك بما تتذكر من جلال قدرنا وتقديسنا ، واستحقاق عِزِّنا .

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾

قف على بساط العبودية معتنقاً للخدمة ، إلى أَنْ تجلس على بساط القربة ، وتطالَبَ بآداب الوصلة .

ويقال التزِمْ شرائطَ العبودية إلى أنْ ترْقَى بل تُكْفَى بصفات الحرية . ويقال في ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ

حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ : إن أشرف خصالك قيامك بحقّ العبودية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 282 . 283 ﴾

*(191/429)*

---

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى ﴾

أي : أخبر عبادي يا محمد ﴿ أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم ﴾ لمن تاب منهم ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الاليم ﴾ لمن مات على الكفر ، ولم يتب .

قال : حدّثنا أبو جعفر .

قال : حدّثنا إسحاق بن عبد الرحمن .

قال : حدّثنا محمد بن شاذان الجوهري .

قال : حدّثنا محمد بن مقاتل .

قال : حدّثنا عبد الله بن المبارك .

قال : حدّثنا مصعب بن ثابت عن عاصم بن عبيد ، عن عطاء ، عن رجل من أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اطلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ، ونحن نضحك ، فقال : " أَتَضْحَكُونَ ؟ " ثم قال : " لا أُرَاكُمْ تَضْحَكُونَ " ثم أدبر فكأن على رؤوسنا الرخم ، حتى إذا كان عند الحجر ، ثم رجع القهقري فقال : " جَاءَ جِبْرِيلُ .

فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : لِمَ تُقْنِطُ عِبَادِي ؟ ﴿ نَبِّىء عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الاليم ﴾ " وقال قتادة : ذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لَوْ عَلِمَ العَبْدُ قَدرَ رَحْمَةِ اللهِ ، مَا تَوَرَّعَ عَنْ حَرَامٍ .

وَلَوْ عَلِمَ العَبْدُ قَدرَ عُقُوبَةِ اللهِ ، لَبَخَعَ نَفْسَهُ " .

أي : في عبادة الله تعالى .

ثم قال : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي : عن أضياف إلا أن هذا اللفظ مصدر ، والمصدر لا يثنى ، ولا يجمع ، وذلك حين بعث الله تعالى جبريل في اثني عشر من الملائكة .

قوله : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على إبراهيم ﴿ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ أي : فسلموا عليه .

فرد عليهم السلام .

كما قال في موضع آخر ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سلاما قَالَ سلام قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [ الذاريات : 25 ] وقال الكلبي : فأنكرهم إبراهيم في تلك الأرض ، لأنهم لم يطعموا من طعامه .

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أي: خائفين ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أي: لا تخف منا ، وبشروه ، فقالوا: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ قرأ حمزة ﴿ نَبْشُرُكَ ﴾ بجزم الباء ، مع التخفيف.

ونصب النون ، وضم الشين.

وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ بغلام عَلِيمٍ ﴾ أي: بإسحاق عليم في صغره ، حليم في كبره ، ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ ﴾ أي: بعدما أصابني الكبر والهرم ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ قرأ نافع ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونِ ﴾ بكسر النون مع التخفيف لأن أصله تبشروني بالياء فأقيم الكسر مقامه وقرأ ابن كثير ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونِّ ﴾ بكسر النون مع التشديد ، لأنه في الأصل بنونين ، فأدغم إحداهما في الأخرى مثل قوله ﴿ تَأْمُرُنِّي ﴾ ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى ﴾.

وقرأ الباقون ﴿ تُبَشِّرُونَ ﴾ بنصب النون مع التخفيف ، لأنها نون الجماعة.

وقال أبو عبيدة: هذا أعجب إليّ لصحتها في العربية ﴿ قَالُوا بشرناك بالحق ﴾ أي: بالولد.

ويقال: بالصدق ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أي: من الآيسين من الولد.

ويقال : من نعم الله تعالى ﴿ قَالَ إبراهيم وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ ﴾ أي : من نعمة ربه ﴿ إِلَّا الضآلون ﴾ أي : الجاهلون قرأ الكسائي ، وأبو عمرو ، ﴿ يَقْنِطُ ﴾ بكسر النون ، وقرأ الباقون ﴿ يَقْنَطُ ﴾ بالنصب ومعناهما واحد .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ أي قال لهم إبراهيم ما حالكم ، وشأنكم ، وبماذا جئتم ، ﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي : مشركين .

قال إبراهيم : من هم ؟ قالوا : قوم لوط .

قال إبراهيم : أتهلكونهم ، وفيهم لوط ؟ فقالوا : ﴿ إِلا ءالَ لُوطٍ ﴾ يعني : ابنتيه زعورا ، وريثا .

ويقال : امرأة له أخرى غير التي أهلكت ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قرأ حمزة ، والكسائي ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ بالتخفيف .

وقرأ الباقون : بنصب النون ، وتشديد الجيم .

(193/429)

---

من أَنْجَى ، يُنْجِي ، وَنَجَّى ، يُنَجِّي ، بمعنى واحد ﴿ إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَآ ﴾ عليها الهلاك ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ أي لمن المتخلفين للهلاك .

قرأ عاصم في رواية أبو بكر ﴿ قَدَرْنَآ ﴾ بالتخفيف، وهو من القدر.

وقرأ الباقون: بالتشديد، وهو من التقدير.

قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي: لما دخلوا عليه، أنكرهم ولم يعرفهم ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي: بما كانوا يشكون من نزول العذاب بهم ﴿ واتيناك بالحق ﴾ أي: بالعذاب، وهو العدل والصدق ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ بأن العذاب نازل بهم ﴿ قَالُواْ يالوط إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ أي: في بعض الليل.

قرأ ابن كثير، ونافع ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بجزم الألف، والباقون بالنصب، سريت وأسريت إذا سرت ليلاً ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ يقول: امش وراءهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ يعني لا يتخلف منكم أحد ﴿ وامضوا ﴾ أي: انطلقوا ﴿ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ أي إلى المدينة وهي مدينة زعر.

قوله: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ يعني: أخبرناه، وأوحينا إليه ذلك الأمر، ثم فسّر ذلك الأمر فقال: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ يعني: إنهم مستأصلون عند الصباح.

ويقال: قضينا إليه ذلك الأمر.

يعني : أمرناه بالخروج إلى الشام ، إلى المدينة زعر ، لأن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين قوله :

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بدخول الرجال منزل لوط ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ ضَيْفِى ﴾ يقول : أضيافي ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ فيهم ﴿ واتقوا الله وَلَا تُخْزُونِ ﴾ أي : لا تذلوني في أضيافي ﴿ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ألم ننهك أن تضيف أحداً من الغرباء ﴿ قَالَ هَٰؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ أي : بنات قومي أزوجكم ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي : فتزوجوا النساء ، فإن الله تعالى خلق النساء للرجال ، وأمر بتزويجهن .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : بحياتك يا محمد إنهم لفي جهالتهم ، وضلالتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : يترددون ، ويتجبرون .

يعني : إن أهل مكة يسمعون هذه العجائب ، ولا تنفعهم ، وهم على جهلهم مصرون .

قال : حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا ابن معاذ .

قال : حدّثنا عبد العزيز بن أبان ، عن سعيد بن زيد ، عن عمرو بن مالك ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره .

فقال ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ثم رجع إلى قصة قوم لوط ، فقال تعالى : ﴿

فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ أي : أخذتهم صيحة جبريل ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ يعني : عند طلوع الشمس ، وذلك أن جبريل قلع الأرض وقت الصبح ، فرفعها مع الملائكة إلى قريب من السماء ، ثم قلبها وأهواها إلى الأرض ، وصاح بهم وقت طلوع الشمس فذلك قوله : ﴿ فَجَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ وقد ذكرناها ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي : في هلاك قوم لوط ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي : علامات ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ يقول : للمتفكرين .

وقال قتادة : للمعتبرين .

وقال الضحاك : للناظرين .

وقال مجاهد : للمفترسين .

(195/429)

---

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا أبو يعقوب .

قال : حدّثنا عمار بن الربيع الباهلي ، عن أبي صالح بن محمد ، عن محمد وهو ابن مروان ، عن عمرو بن قيس ، عن عطية ، عن أبي سعيد ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "

اتَّقُوا فَرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله " .

ثم قرأ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ وقال الزجاج : حقيقته في اللغة ، النظار المثبتون في نظرهم ، حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء .

يقال : توسمت في فلان كذا وكذا أي : عرفت ذلك فيه .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أي : قريات لوط ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي : بطريق واضح بيّن يرونها ، حين مروا بها ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في هلاك قوم لوط ﴿ لَآيَةً ﴾ أي لعلامة وعبرة ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَإِن كَانَ ﴾ يقول : وقد كان ﴿ كَذَّبَ أَصحاب ﴾ أي : أصحاب الغيضة ، والغيضة والأيكة الشجرة .

وهم قوم شعيب قال قتادة : مدين وإلى أصحاب الأيكة ، وقال بعضهم : آل مدين والأيكة واحد ، لأن الأيكة كانت عند مدين ، وهذا أصح ﴿ لظالمين ﴾ أي : لكافرين .

قوله : ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أي : قريات لوط وشعيب ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي لبطريق واضح .

وقال القتبي : أصل الإمام ما يؤتم به .

قال الله تعالى : ﴿ إِنِّى جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أي : يؤتم ، ويقتدى بك ، ثم تستعمل لمعاني منها .

الكتاب إماماً ، لأنه يؤتم بما أحصاه الكتاب .

قال الله تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء : 71] أي : بكتابهم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : 12] أي : في اللوح المحفوظ .

وهو الكتاب .

وسمي الطريق إماماً .

(196/429)

---

لأن المسافر يأتم به ، ويستدل به .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ أي : بطريق واضح .

أي : قريات قوم لوط ، وقرية شعيب عليهما السلام .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهم قوم صالح ، كذبوا صالحاً ، والحجر أرض ثمود ﴿ وءاتيناهم ءاياتنا ﴾ أي : الناقة ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ يقول : مكذبين بها ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءامِنِينَ ﴾ من أن تقع عليهم الجبال .

ويقال : ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من نزول العذاب ، فلم يعرفوا نعمة الله تعالى .

ويقال ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من العذاب بعقر الناقة .

فعقروا الناقة ، وقسموا لحمها ، فأهلكهم الله تعالى بصيحة جبريل فذلك قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ ﴾ أي : حين أصبحوا ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : فما نفعهم ما كانوا يكسبون من الكفر والشرك .

قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ أي : للحق .

والباء توضع موضع اللام أي : لينظر عبادي إليها فيعتبروا .

ويقال : وما خلقناهما إلا عذراً ، وحجة على خلقي ، ﴿ وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ أي : لكائنة ، لا محالة ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ أي : اعرض عنهم إعراضاً جميلاً بلا جزع منك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق العليم ﴾ أي : عليماً بمن يؤمن ، وبمن لا يؤمن ، ويقال العليم يعلم متى تقوم الساعة .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني ﴾ أي : فاتحة الكتاب ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك ﴾ أي : سائر القرآن وهذا قول ابن عباس وعليّ بن أبي طالب وابن مسعود وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال : السبع المثاني : السبع الطوال .

وعن سعيد بن جبير قال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس .

قال : لأنه يثني فيها حدود الفرائض والقرآن .

ويقال : السبع المثاني ، والقرآن كله وهو سبعة أسباع .

*(197/429)*

---

سمي مثاني لأن ذكر الأقاصيص فيه مثنى كقوله : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتابا متشابها مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [ الزمر : 23 ] وقال طاوس : القرآن كله مثاني .

وقال أبو العالية المثاني : فاتحة الكتاب سبع آيات ، وإنما سمي مثاني ، لأنه يثنى مع القرآن كلما قرىء القرآن .

قيل إنهم يزعمون أنها السبع الطوال .

قال : لقد أنزلت هذه الآية ، وما أنزل شيء من الطوال .

وسئل الحسن عن قوله : ﴿ سَبْعًا مِّنَ المثاني ﴾ قال : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ حتى أتى على آخرها .

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ أُمُّ

الكِتَابِ وَأُمُّ القُرْآنِ وَالسَّبْعُ المَثَانِي " .

وقال قتادة : ﴿ سَبْعًا مِّنَ المثاني ﴾ هي فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة ، وتطوع ، يعني : في كل صلاة .

ويقال : من المثاني أي : مما أثني به على الله تعالى ، لأن فيها حمدَ الله تعالى وتوحيده ومن ههنا على ضربين ، يكون للتبعيض من القرآن أي : أعطيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله تعالى ، وآتيناك القرآن العظيم ، ويجوز أن يكون السبع هي المثاني كقوله : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ حرمات الله فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ فاجتنبوا الرجس مِنَ الاوثان واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ [ الحج : 30 ] أي : اجتنبوا الأوثان .

قوله : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي : لا تنظرن بعين الرغبة ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ أي : ما أعطيناهم في الدنيا .

يعني : ما أعطيناك من القرآن أفضل مما أعطيناهم من الأموال .

فاستغن بما أعطيناك من القرآن ، والدين والعلم ، ولا تنظر إلى أموالهم .

قوله : ﴿ أزواجا مِّنْهُمْ ﴾ أي : أصنافاً منهم ، وألواناً من الأموال ، يعني : أعطينا رجالاً منهم ، أي : المشركين منهم ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على كفار مكة إن لم يؤمنوا ، لأن مقدوري عليهم الكفر .

ويقال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ إن نزل بهم العذاب ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول : ليّن جناحك عليهم أي : تواضع للمؤمنين ﴿ وَقُلْ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ أخوفكم بعذاب مبين بلغة تعرفونها .

﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ أي : كما أنزلنا العذاب على المقتسمين ، وهم الذين أقسموا على عقبات مكة ، ليردوا الناس عن دين الإسلام ، وعن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال : ﴿ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ بالقرآن ، كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين ، وهم اليهود ، والنصارى اقتسموا فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

وقال مجاهد : هم اليهود والنصارى .

فرقوا القرآن ، آمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه .

ويقال : إن أهل مكة قالوا أقاويل مختلفة .

قوله : ﴿ الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ أي : فرقوا القول فيه .

قال بعضهم : سحر وقال بعضهم : شعر .

وهذا قول قتادة .

ويقال : أصله في اللغة الفرقة .

يقال : فرّقوه أي : عضوه أعضاء .

يقال : ليس دين الله بالتعضية أي : بالتفريق .

وروى الضحاك ، عن ابن عباس ، أنه قال : جزؤوه ، وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور .

(199/429)

---

ثم قال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني : أقسم بنفسه ليسألنهم يوم القيامة ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الشرك ، وعن ترك قول : لا إله إلا الله ، وعن الإيمان بالله ، والرسول ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي : أظهر أمرك ، وامض ، واقض ما أمرتك ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي : اتركهم ، حتى يجيء أمر الله تعالى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية ، مستخفياً ، لا يظهر شيئاً مما أنزل الله عليه ، حتى نزلت هذه الآية .

ثم قال : ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ أي : أظهر أمرك ، فقد أهلك الله المستهزئين ، وهم

خمسة رهط .

فأهلكوا كلهم في يوم وليلة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الموسم أيام الحج ، ليدعو الناس ، فمنعه المستهزئون ، وبعثوا على كل طريق رجلاً ، فإذا سألهم أحد من الغرباء عن النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : هو ساحر كاهن .

ثم قالوا : هذا دأبنا كل سنة .

فشقّ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فأهلكهم الله تعالى ، منهم الوليد بن المغيرة .

نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كيف تجد هذا ؟ فقال : " بِئْسَ الرَّجُلُ " .

فقال : كفيناكه .

فمضى وهو يتبختر في ردائه ، ويقال : ببردته ، فمر برجل يصنع السهام ، فتعلق سهم بردائه ، وأخذ طرف ردائه ليجعله على كتفه ، فأصاب السهم أكحله ، فنزف فمات .

ومنهم العاص بن وائل السهمي ، مرّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم فسئل عنه فقال : " بئس الرجل هو " .

فقال : كفيناكه فوطئ على شوكة ؟ فتساقط لحمه عن عظامه ، حتى هلك ، ومنهم الحارث بن حنظلة ، أصاب ساقه شيء فانتفخ فمات .

ومنهم أسود بن عبد يغوث ، أصابه العطش ، فجعل يشرب الماء حتى انتفخ بطنه فمات .

ومنهم أسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد عزى ، ضربه جبريل بجناحه ، فمات .



---

ويقال : خرج مع غلام له ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو قاعد في أصل شجرة ، فجعل ينطح برأسه الشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك ، فاستغاث بغلامه ، فقال غلامه : لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتى مات ، وهو يقول : قتلني رب محمد وفي رواية الكلبي : أن أسود بن عبد يغوث ، خرج من أهله ، فأصابه السواد حتى عاد حبشياً ، فأتى أهله فلم يعرفوه ، وأغلقوا دونه الباب حتى مات .

وروي في خبر آخر أن العاص بن وائل السهمي ، خرج في يوم مطير على راحلته مع ابنين له ؟ فنزل شعباً من الشعاب ، فلما وضع قدمه على الأرض ، لدغت رجله ، فطلبوا ، فلم يجدوا شيئاً ، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق بعير ، فمات مكانه وعن أبي بكر الهذلي أنه قال : قلت للزهري : إن سعيد بن جبير ، وعكرمة قد اختلفا في رجل من المستهزئين .

فقال سعيد : هو الحارث بن عيطلة .

وقال عكرمة : هو الحارث بن قيس .

فقال : صدقاً كانت أمه اسمها عيطلة ، وأبوه قيساً .

ويقال : إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه عطش ، فلم يزل يشرب عليه الماء حتى أنفذ فمات ، وهو يقول : قتلني رب محمد فنزل ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ ﴿ الذين يَجْعَلُونَ ﴾ أي : يقولون ﴿ مَعَ اللهِ إلها ءاخرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴾ ماذا يفعل بهم ، هذا وعيد لسائر الكفار .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يقول : صلِّ بأمر ربك .

ويقال : اشتغل بعبادة ربك ، ولا تشغل قلبك بهم ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ يعني : من المصلين .

قوله : ﴿ واعبد رَبَّكَ ﴾ يعني : على التوحيد ﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ أي : واستقم على التوحيد حتى يأتيك اليقين .

أي : الموت قال الفقيه : حدّثنا محمد بن الفضل .

قال : حدّثنا محمد بن جعفر .

قال : حدّثنا إبراهيم بن يوسف .

قال : حدّثنا المحارمي ، عن إسماعيل بن عياش ، عن شرحبيل بن مسلم عن جبير بن نصير ، عن أبي مسلم الخولاني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَا أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ المَالَ وَأَكُونَ مِنَ التَّاجِرِينَ ، ولكن أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك ، وكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 257.264 ﴾

*(202/429)*

---

وقال الثعلبى :

﴿ نَبِّىء عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم ﴾

﴿ نَبِّىءْ ﴾ أخبر ﴿ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم ﴾ .

قال ابن عبّاس : يعني لمن تاب منهم .

﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾ لمن لم يتب منهم .

روى ابن المبارك عن مصعب بن ثابت عن عاصم بن عبيد الله عن ابن أبي رباح " عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : طلع علينا رسول الله صلى الله

عليه وسلم من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ونحن نضحك ، فقال : " لا أراكم تضحكون " ، ثمّ أدبر حتّى إذا كان عند الحجر رجع ألينا القهقرى فقال : " إني لمّا خرجت جاء جبرئيل فقال : يا محمّد لِمَ تقنّط عبادي ﴿ نبّيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ " " .

وقال قتادة : بلغنا أنّ نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع عن محارم الله ، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه " .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعني الملائكة الذين أرسلهم الله ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ جمع الخبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والإثنين والجمع والمؤنث والمذكر ﴿ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [ خائفون ] ﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ ﴾ لا تخف ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ يعني إسحاق ، فعجب إبراهيم من كبره وكبر إمراته ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ أي على الكبر ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ فأي شيء تبشرون .

واختلف القراء في هذا القول ، فقرأ أهل المدينة والشام بكسر النون والتشديد على معنى تبشرونني ، فأدغمت نون الجمع في نون الإضافة .

وقرأ بعضهم : بالتخفيف على الخفض .

وقرأ الباقون : في النون من غير إضافة .

﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بالحق فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ .

قرأه العامّة : بالألف .

(203/429)

---

وقرأ يحيى بن وثاب : القانطين .

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ .

قرأ الأعمش وأبو عمرو والكسائي بكسر النون ، وقرأ الباقون : بفتحه [ وقال الزجاج ] :

قنط يقنط ، وقنط يقنط إذا يئس من رحمة الله .

﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون * قَالَ ﴾ لهم إبراهيم ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ شأنكم وأمركم

﴿ أَيُّهَا المرسلون ﴾ ﴿ قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ مشركين ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾

أتباعه وأهل دينه ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

قرأ أهل الحجاز وعاصم وأبو عمرو : [ لمنجّوهم ] بالتشديد ، وإختاره أبو عبيد وأبو

حاتم ، وخففه الآخرون .

﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ سوى إمرأة لوط ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ قضينا ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ الباقين في

العذاب ، وخفف ابن كثير قدرنا .

قال أبو عبيد : استثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثمّ إستثنى إمرأته من آل لوط فرجعت إمرأته في التأويل إلى القوم المجرمين ، لأنه استثناء مردود على استثناء ، وهذا كما تقول في الكلام : لي عليك عشرة دراهم إلاّ أربعة إلاّ درهماً ، فلك عليه سبعة دراهم ؛ لأنك لما قلّت : إلاّ أربعة ، كان لك عليه ستة ، فلما قلت : إلاّ درهماً كان هذا استثناء من الأربعة فعاد إلى الستة فصار سابعاً .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ المرسلون ﴾ لوط لهم ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ يعني لا أعرفكم ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعني يشكّون إنه ينزل بهم وهو العذاب ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بالحق ﴾ وجئناك باليقين ، وقيل : بالعذاب ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اليل واتبع أَدْبَارَهُمْ ﴾ أي كن ورائهم وسر خلفهم ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : يعني الشام . وقال خليل : يعني مصدر .



---

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ يعني وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر ، وأخبرناه ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ ﴾ .

يدل عليه قراءة عبد الله : وقلنا له إن دابر هؤلاء ، يعني أصلهم ، ﴿ مَقْطُوعٌ ﴾ مستأصل ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ في وقت الصبح إذ دخلوا فيه ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ يعني سدوم ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بأضياف لوط طمعاً منهم في ركوب الفاحشة ﴿ قَالَ ﴾ لوط لقومه ﴿ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِي ﴾ وحق على الرجل بإكرام ضيفه ﴿ فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ فيهم ﴿ واتقوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ ﴾ فلا تهينون ولا تخجلون ، يجوز أن يكون من الخزي ، ويحتمل أن يكون الخزاية ﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أولم ننهك أن تضيّف أحداً من العالمين .

﴿ قَالَ هَؤُلآءِ بَنَاتِي ﴾ أزوجهن إياكم إن أسلمتم فأتوا النساء الحلال ودعوا ما حرم الله عليكم من إتيان الرجال ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ ما أمركم به .

قال قتادة : أراد أن يقي أضيافه ببناته ، وقيل : رأى أنهم سادة إليهم يؤول أمرهم فأراد أن يزوجهم بناته ليمنعوا قومهم من التعرّض لأضيافه ، وقيل : أراد بنات أمته لأن النبي [ أب ] لامته ، قال الله ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ يا محمّد يعني وحياتك .

وفيه لغتان : وعمرُ وعمرَ .

يقول العرب : عَمرك وعمرك .

﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ ضلالتهم وحيرتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون .

قاله مجاهد ، وقال قتادة : يلعبون .

ابن عبّاس : يتمادون .

أبو الجوزاء عن ابن عبّاس قال: فالخلق لله عزّ وجل ولا برأ ولا ذرأ نفساً أكرم عليه من محمّد، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلاّ حياته قال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

(205/429)

---

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ ﴾ حيت أشرقت الشمس، أي أضاءت، وهو نصب على الحال ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ قال ابن عبّاس والضحاك: للناظرين.

مجاهد: للمتفرسين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله" ثمّ قرأ هذه الآية.

وقال الشاعر:

توسمته لما رأيت مهابة ... عليه وقلت المرء من آل هاشم

وقال آخر:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسّم

وقال قتادة : للمعتبرين .

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ بطريق واضح .

قاله قتادة ، ومجاهد ، والفراء ، والضحاك : بطريق معلّم ليس بخفي ولا زائغ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ وقد كان أصحاب الغيضة لكافرين ، وهم قوم شعيب كانوا أصحاب غياض ورياض وشجر متناوش متكاوش ملتف وكانوا يأكلون في الصيف الفاكهة الرطبة وفي الشتاء اليابسة وكان عامة شجرهم الدوم وهو المُقل ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ بالعذاب ، وذلك أن الله سلّط عليهم الحرّ سبعة أيام لايمنعهم منه شيء ، فبعث الله عليهم سحابة فالتجأوا إلى ظلّها يلتمسون روحها فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم فذلك قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ [ الشعراء : 189 ] ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الأيكة ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ طريق مستبين ، وسمّي الطريق إماماً لأنه يؤتم به .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحجر ﴾ أي الوادي ، وهو مدينة ثمود وقوم صالح وهي فيما بين المدينة والشام ﴿ المرسلين ﴾ أراد صالحاً وحده .

" عبدالله بن عمر وجابر بن عبد الله قالا : مررنا مع النبي صلى الله عليه وسلم على الحجر ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلاّ أن تكونوا باكين حذراً بأن يصيبكم مثل ما أصابهم " ثمّ قال : " هؤلاء قوم صالح أهلكهم الله إلاّ رجلاً في حرم الله منعه حرم الله من عذاب الله " قيل : من هو يا رسول الله ؟ قال : " أبو رغال " ثمّ زجر صلى الله عليه وسلم فأسرع حتّى خلفها " .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ يعني الناقة وولدها و [ السير ] ﴿ فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ ﴾ من الخراب ووقوع الجبل عليهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ يعني صيحة العذاب والهلاك ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ في وقت الصبح وهو نصب على الحال ﴿ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من الشرك والأعمال الخبيثة . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ وإن القيامة لجائية ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ فأعرض عنهم واعف عفواً حسناً ، نسختها آية القتال .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق العليم ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾ اختلفوا فيه .

روى عبد الوهاب عن ابن مسعود عن أبي نصر عن رجل من عبد القيس يقال له جابر أو جويبر عن ابن مسعود أن عمر قال : السبع المثاني هي فاتحة الكتاب .

روى إسماعيل السدي عن عبد خير عن علي ( رضي الله عنه ) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً

مِّنَ المثاني ﴾ قال: فاتحة الكتاب.

عن ابن سيرين أن ابن مسعود قال في السبع المثاني: فاتحة الكتاب، والقرآن العظيم سائر القرآن.

وعن عبد الرحمن عن أحمد الطابقي قال: أتيت أبا هريرة وهو في المسجد فقرأت عليه فاتحة القرآن.

فقال أبو هريرة: هذه السبع المثاني.

(207/429)

---

شعبة عن قتادة في قوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾، قال: هي فاتحة الكتاب.

وسمعت الكلبي يقول: هي أمّ الكتاب.

ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى ﴿ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾ قال: هي أم القرآن والآية السابعة ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيم ﴾ [الفاتحة: 1].

وهذا قول الحسن وأبي العالية وسعيد بن جبير وإبراهيم وابن أبي مليكة وعبد الله بن عبيد ابن عمرو ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وصالح الحنفي قاضي مرو.

ويدل عليه ما روى أبو سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " الحمد لله رب العالمين سبع آيات إحداهن بسم الله الرحمن الرحيم وهي السبع المثاني وهي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب " .

وروى ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم " .

وروى حفص بن عاصم عن أبي سعيد المعلّى " عن أُبيّ بن كعب قال : كنت أُصلي فناداني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ، فلما صلّيت أتيته ، فقال : " ما منعك أن تجيبني " ؟ قلت : كنت أُصلي ، قال : " أولم يقل الله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [ الأنفال : 24 ] " الآية .

ثمّ قال : " لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن نخرج من المسجد " فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن . قال : " نعم ، الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت " . وعن أبي هريرة قال : قرأ أُبي بن كعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ القرآن . فقال : " والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت " .

عن ابن جريج قال : أخبرني أبي أنّ سعيد بن جبير أخبره فقال له : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ ، قال : هي أم القرآن ، قال : هي ، وقرأ عليَّ سعيد بن جبير بسم الله الرحمن الرحيم حتّى ختمها ، ثمّ قال : بسم الله الرحمن الآية السابعة .

قال سعيد بن جبير : لأبي : وقرأ عليَّ ابن عبّاس كما قرأتها عليك ، ثمّ قال : بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة :

قال ابن عبّاس : قد ادخرها الله لكم فما أخرجها لأحد قبلكم .

فقلت : هذه اختيار الصحاح إن السبع المثاني هي فاتحة الكتاب ، وأن الله تعالى امتن على رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه السورة كما امتن عليه بجميع القرآن ، وقيل : نزلت هذه السورة في [ خيبر ] .

وفي هذا دليل على إن الصلاة لا تجوز إلاّ بها ويؤيد ما قلنا ما روى الزهري عن محمّد بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب عوض من كل القرآن ، والقرآن كلّه ليس منه عوض " .

واختلف العلماء في حديث آيات هذه السورة مثاني ، فقال ابن عبّاس والحسن وقتادة والربيع : لأنها تثنى في كل صلاة وفي كل ركعة .

وقال بعضهم : سمّيت مثاني لأنها مقسومة بين الله وبين العبد قسمين اثنين ، بيانه والذي

يدل عليه ما روى أبو السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج هي خداج غير تمام " .

قال أبو السائب لأبي هريرة : إني أحياناً أكون وراء الامام .

قال : فغمز أبو هريرة ذراعي ، وقال : يا فارسي إقرأها في نفسك إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ، ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل " .

(209/429)

---

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرؤا ، يقول : العبد : الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله : حمدني عبدي ، ويقول العبد : الرحمن الرحيم ، فيقول الله : أثنى عليَّ عبدي ، فيقول العبد : مالك يوم الدين ، فيقول الله : مجّدني عبدي ، يقول العبد : إياك نعبدُ وإياك نستعين ، قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ، يقول العبد : اهدنا الصراط إلى آخره ، يقول الله : فهذا لعبدي ولعبدي ما سأل " .

ويقال : سمّيت [ مثاني ] لأنها منقسمة إلى قسمين : نصفها ثناء ونصفها دعاء ، ونصفها حق الربوبية ونصفها حق العبودية ، وقيل : لأن ملائكة السماوات يصلّون الصلوات بها ،

كما أن أهل الأرض يصلّون بها . وقيل : لأن حروفها وكلماتها مثنّاة ، ومثل الرحمن الرحيم ، إياك وإيّاك ، الصراط الصراط ، عليهم عليهم ، غير غير ، في قراءة عمر .

وقال الحسين بن الفضل وغيره : لأنها تقرأ مرّتين كل مرّة معها سبعون ألف ملك ، مره بمكة من أوائل ما نزل من القرآن ، ومرة بالمدينة ، والسبب هو أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود بني قريضة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز وأوعية [ وأفاوية ] الطيب والجواهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وقال : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل ، ودليل هذه التأويل قوله في عقبها : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الآية .

وقيل : لأنها متصدرة بالحمد ، والحمد كل كلمة تكلم بها آدم حين عطس وهي آخر كلام أهل الجنة من ذريته ، قال الله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ يونس : 10 ] .

وقيل : لأن الله استثناها وادّخرها لهذه الأُمة فما أعطاها غيرهم ، كما روينا في خبر سعيد ابن جبير عن ابن عبّاس .

وقال أبو زيد اللخمي : لانها تثني أهل الدعارة والشرارة عن الفسق والبطالة من قول العرب ثنيت عنائي ، قال الله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ [ هود : 5 ] .

وقيل : لأن أولها ثناء على الله عزّ وجلّ .

وقال قوم : إن السبع المثاني هو السبع الطوال ، وهي : سورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة معاً .

وقال بعضهم : يونس ، وعليه أكثر المفسرين .

روى سفيان عن منصور عن مجاهد عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾ ، قال : السبع الطوال .

سعيد بن جبير عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾ قال : هو السبع الطوال .

وهو قول عمر ، ورواية أبي بشر وجعفر بن المغيرة ومسلم البطين عن سعيد بن جبير ، ورواية ليث وابن أبي نجيح عن مجاهد ، ورواية عبيد بن سليمان عن الضحاك . يدل عليه ما روى أبو أسماء الرحبي عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المبين مكان الإنجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني ربي بالمفصّل " .

وروى الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم السبع المثاني الطوال ، وأعطي موسى ستاً فلما ألقى الألواح رفعت إثنان وبقي أربع .

روى عروة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أخذ السبع الأول فهو حبر " .

قال ابن عبّاس : وإنما سميت السبع الطوال مثاني ؛ لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر والعبر تثبت فيه .

طاوس وأبو مالك : القرآن كلّه مثاني ، وهي رواية العوفي عن ابن عبّاس قال : ألم تسمع إلى قول الله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [ الزمر : 23 ] وسمّي القرآن مثاني لأن القصص ثبتت فيه .

*(211/429)*

---

وعلى هذا القول المراد بالسبع سبعة أسباع القرآن . ويكون فيه إضمار تقديره : وهي للقرآن العظيم .

فاحتج بقول الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام . . . وليث الكتيبة في المزدحم

مجازة : الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة في المزدحم .

وروى عتاب بن بشر عن حنيف عن زياد بن أبي مريم في قوله : ﴿ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾

قال : أعطيتك سبعة أجزاء وهي سبع معان في القرآن : مرّ ، وانه ، وبشّر ، وأنذر ،

واضرب الأمثال وأعدد النعم ، وآتيتك نبأ القرآن .

﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ يا محمّد ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ من

الكفار متمنياً إياها . نهى رسوله عن الرغبة في الدنيا .

وقال أنس : مرّت برسول الله صلى الله عليه وسلم إبل أيام الربيع وقد حبست في أبعارها

وأبوالها . فغطى رسول الله صلى الله عليه وسلم عينه بكمّه وقال : "بهذا أمرني ربي" ثمّ

تلا هذه الآية .

﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ ليّن جانبك ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وارفق بهم .

والجناحان من ابن آدم جانباه ، ومنه قوله : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ [ طه : 22

] أي جنبك وناحيتك .

﴿ وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين * كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾ ، قال الفراء : مجازه : أنذركم عذاباً ﴿ عَلَى

المقتسمين ﴾ . فاختلفوا فيهم .

فروى الأعمش عن أبي ظبيان قال : سمعت ابن عبّاس يقول في قوله : ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى

المقتسمين ﴾ ، قال : هم اليهود والنصارى .

﴿ الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ جزّأوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

وقال عكرمة : سمّوا مقتسمين لأنّهم كانوا يستهزؤن فيقول بعضهم : هذه السورة لي . وقال بعضهم : هذه لي ، فيقول أحدهم : لي سورة البقرة ، ويقول الآخر : لي سورة آل عمران .

وقال مجاهد : هم اليهود والنصارى ، قسّموا كتابهم ففرّقوه وبدّدوه .



---

وقال مقاتل : كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم فاقتسموا عقاب مكة وطرقها وقعدوا على أبوابها وأبقابها وإذا جاء الحجاج ، قال فريق منهم : لا تغتروا بخارج منّا يدعي النبوة فإنه مجنون .

وقالت طائفة أخرى : على طريق آخر أنه كاهن .

وقالت طائفة : عَرّاف . وقالت طائفة شاعر ، والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكماً ، فإذا سئل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صدق لوليك المقتسمين .

وقال مقاتل بن حيان : هم قوم اقتسموا القرآن ، فقال بعضهم : سحر ، وقال بعضهم : سمر ، وقال بعضهم : كذب . وقال بعضهم : شعر ، وقال بعضهم : أساطير الأولين .

وقال بعضهم : هم الذين تقاسموا صالح وأرادوا تبييته .

وقرأ قول الله : ﴿ وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ * قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ [ النمل : 48-49 ] الآية .

﴿ الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ يعني عضوا كتاب الله ونبيه وأمره ونهيه أي كذبوا .

وقوله : ﴿ عِضِينَ ﴾ ، قال بعضهم : هو جمع عضو وهو مأخوذ من قولهم عضيت يعضيه إذا فرّقته .

وقال رؤبة :

وليس دين الله بالمعضى . . . يعني : بالمفرّق .

وقال آخر :

وعضى بني عوف ، فأما عدوهم . . . فأرضي وأمّا العز منهم فغيرا

يعني بقوله عضّني بني عوف : سبّاهم وقطعهم بلسانه .

وقال آخرون : بل هو جمع عضة ، يقال : عضه وعضين . مثل يره ويرين ، وكرة وكرين ، وقلة وقلين ، وعزة وعزين ، وأصله عضهه ذهبت هاؤها الأصلية كما نقصوا الهاء من الشفة وأصلها شفهه ومن الشاة وأصلها شاهه يدلك على ذلك التصغير تقول : شفيهة وغويهة ، ومعنى العضة : الكذب والبهتان ، وفي الحديث :

" لا يعضه بعضكم بعضاً " .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يوم القيامة ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا .

وروى أنس " عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال : عن لا إله إلاّ الله " .



---

قال عبد الله : والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلاّ سيخلو الله تعالى به يوم القيامة ، [ كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ] فيقول : يا بن آدم ماذا غرك مني ، يا بن آدم ما عملت فيما علمت ، يا بن آدم ماذا أجبت المرسلين .

واعترضت الملحدة بأبصار كليلة وأفهام عليلة على هذه الآية على قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] وحكموا عليهما بالتناقض .

والجواب عنه : ما روي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله : ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [ الرحمن : 39 ] . قال : لا نسألهم هل عملتم كذا وكذا ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم : لِمَ عملتم كذا وكذا ؟ واعتمد قطرب هذا القول ، وقال : السؤال على ضربين : سؤال استعلام واستخبار ، وسؤال توبيخ وتقرير . فقوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ ﴾ [ الرحمن : 39 ] يعني استعلاماً واستخباراً ، لأنه كان عالماً بهم قبل أن يخلقهم . وقوله :

﴿ لَنسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني تقريعاً وتقريراً ليريهم القدرة في تعذيبنا إياهم .

وقال عكرمة : سألت مولاي عبد الله بن عبّاس عن الآيتين ، فقال : إن يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف ، يسألون في بعض المواقف ولا يسألون في بعضها . ونظيره قوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَيَنطِقُونَ ﴾ [ المرسلات : 35 ] وقال في آية أخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [ الزمر : 31 ] .

(214/429)

---

وقال بعضهم : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ ﴾ [ الرحمن : 39 ] إذا كان المذنب مكرهاً مضطراً ، و ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ ﴾ إذا كانوا مختارين ، وقيل : لا يسأل إذا كان الذنب في حال الصبى أو الجنون أو النوم ، بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " رفع القلم عن ثلاث " وقولهم : لنسألنهم ، إذا كان عملهم خارجاً من هذه الأحوال ، وقيل : لا يسأل إذا كان الذنب في حال الكفر . وقوله : ﴿ لَنسْأَلَنَّهُمْ ﴾ يعني المؤمنين ، بيانه قوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [ الأنفال : 38 ] وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الاسلام يجبّ ما قبله " .

﴿ فاصدع ﴾ .

قال ابن عبّاس : أظهر . الوالبي عنه : فاقض .

عطية عنه : افعل . الضحاك : اعلم ، الأخفش : افرق ، المؤرّج : افصل ، سيبويه : اقض .

﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ يعني بأمرنا ( ما ) المصدر .

وأصل الصدع : الفصل والفرق .

قال ذؤيب يصف الحمار والأتن :

وكأنهن ربابة وكأنه . . . يسر يفيض على القداح ويصدع

[ وقيل ] : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإضهار الدعوة .

روى موسى عن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيدة قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتّى نزلت ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فخرج هو وأصحابه .

وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن في الصلاة .

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ لا تبال بهم ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين ﴾ .

يقول الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصدع بأمر الله ولا تخف شيئاً سوى الله فإن الله كافيك من عاداك وآذاك كما كفاك المستهزئين وهم من قريش ورؤسائهم خمسة نفر : الوليد بن المغيرة ، وعبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان رأسهم ، والعاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعيد بن سهم ، " والأسود بن المطلب بن الحرث بن [ أسد ] بن عبد العزى أبو زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال : اللهم أعم بصره وأثكله بولده " والأسود بن عبد يغوث بن وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، والحرث بن قيس بن الطلاطلة فإنه عيطل .

فأتى جبرئيل محمداً صلى الله عليه وسلم والمستهزئون يطوفون بالبيت ، فقام جبرئيل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمرّ به الوليد بن المغيرة ، فقال جبرئيل : يا محمّد كيف تجد هذا ، قال : بئس عبد الله . قال : " قد كفيت " وأومأ إلى ساقه ويده ، فمرّ برجل من خزاعة [ نبّال ] يريّش نبلاً له وعليه برد يمان وهو يجر إزاره فتعلقت شظّية من نبل بإزاره فمنعه الكبر أن يطمئن ونبذ عمامته وجعلت تضرب ساقه فخدشته فمرض منه ومات .

وقال الكلبي : تعلّق سهم بثوبه فأصاب أكحله فقطعه فمات .

ومرَّ به العاص بن وائل ، فقال جبرئيل : كيف تجد هذا يا محمّد ؟ قال : " بئس عبد الله " ، فأشار جبرئيل لأخمص رجله وقال : " قد كفيت " وقد خرج على راحلته ومعه اثنان

يمنعانه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطيء على شرقة فدخلت منها شوكة في أخمص رجله، فقال: الوقت لدغت. فطلبوا ولم يجدوا شيئاً فأنتفخت رجله حتّى صارت مثل عنق بعير فمات مكانه.

ومرَّ به الأسود بن عبد المطلب، فقال جبرئيل: كيف تجد هذا يا محمّد؟ قال: "عبد سوء" فأشار إلى عينه، وقال: "قد كفيت" فعمى.

قال ابن عبّاس: رماه جبرئيل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتّى هلك.



---

وفي رواية الكلبي: أتاه جبرئيل وهو قاعد في ظل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك واستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتّى مات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد.

ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث فقال جبرئيل: كيف تجد هذا؟ فقال: "بئس عبد الله، على أنه خالي"، فقال: قد كفيت، وأشار إلى بطنه فشقّ بطنه فمات حينها.

وفي رواية الكلبي: أنه خرج من أهله فأصابه السموم فاسودّ حتّى عاد حبشياً فأتى أهله

فلم يعرفوه فأغلقوا دونه الباب هو يقول : قتلني ربّ محمّد .

ومرَّ به الحرث بن قيس ، فقال جبرئيل (عليه السلام) : يا محمّد كيف تجد هذا ؟ قال : " عبد سوء " فأومأ إلى رأسه وقال : قد كفيت ، فأمتخط قيحاً فقتله " .

وقال ابن عبّاس : إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتّى انّقد بطنه فمات ، فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ يعنى بك وبالقرآن .

﴿ الذين يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيدهم ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .

قال ابن عبّاس : فصلِّ يا محمّد لربك .

﴿ وَكُنْ مِّنَ السَاجدين ﴾ المتواضعين .

وقال الضحاك : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ قل سبحان الله وبحمده ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ أي المصلين .

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزنه أمر فزع إلى الصلاة .

﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ يعني الموت ، ومجازه : الموفق به .

روى يونس بن زيد عن ابن شهاب : أن خارجة بن زيد بن ثابت أخبره " " عن أم العلاء امرأة من الأنصار قد بايعت النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنهم اقتسموا المهاجرين قرعة قالت : فصار لنا عثمان ابن مظعون فأنزلناه في أبياتنا فوجع وجعه الذي مات فيه ، فلما توفي وغسّل وكفّن في ثوبه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : ياعثمان بن مظعون رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه " قالت : فقلت : بأبي أنت يا رسول الله فمه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمّا هو فقد جاءه اليقين ووالله إني لأرجو له الخير " " .

قالوا : فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أوحي إليَّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحي إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتّى يأتيك اليقين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان جـ 5 صـ 343 ـ 357 ﴾

وقال الزمخشري :

﴿ نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) ﴾

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه نَبِّئْ عِبادِي تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : غفور لمن تاب، وعذابه لمن لم يتب. وعطف وَنَبِّئْهُمْ على نبئ عبادي، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط اللّه وانتقامه من المجرمين، ويتحققوا عنده أنّ عذابه هو العذاب الأليم.

[سورة الحجر (15) : الآيات 51 إلى 56]

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55)

قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (56)

سَلاماً أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمت سلاماً وَجِلُونَ خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل : لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت. وقرأ الحسن : لا توجل، بضم التاء من أوجله يوجله إذا أخافه. وقرئ : لا تأجل. ولا تواجل، من واجله بمعنى أوجله. وقرئ نَبْشُرُكَ بفتح النون والتخفيف إِنَّا نُبَشِّرُكَ استئناف في معنى التعليل للنهى عن

---

(1) . أخرجه الطبراني في الأوسط والعقيلي وابن سعد من طريق الحارث الأعور قال :

كنت عند على بن أبى طالب إذ جاءه عمران بن طلحة فذكره – وفيه «فقال الحرث – يعنى الراوي – : اللّه أجل وأعدل من ذلك وله طريق أخرى أخرجها الحاكم من طريق ربعي بن خراش قال «إنى لعند على جالس إذ جاءه ابن طلحة، فسلم عليه فرحب به، فقال: ترحب بى يا أمير المؤمنين، وقد قلت والدي، وأخذت مالى؟ قال: أما مالك فهو معزول في بيت المال، أعد إليه فخذه. وأما أبوك فانى أرجوا أن أكون أنا وأبوك من الذين قال اللّه تعالى وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ الآية فقال رجل من همدان، فذكره. ورواه الحاكم أيضا والطبري من طريق أبى حبيبة مولى طلحة قال: دخل عمران بن طلحة على على رضى اللّه عنه. وذكر نحوه.

(219/429)

---

الوجل: أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل. يعنى أَبَشَّرْتُمُونِي مع مس الكبر، بأن يولد لي. أى: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر فَبِمَ تُبَشِّرُونَ هي ما الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأى أعجوبة تبشروني. أو أراد: أنكم تبشروننى بما هو غير متصوّر في العادة، فبأى شيء تبشرون، يعنى: لا تبشروننى في الحقيقة بشيء، لأنّ البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر،

ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعنى : بأى طريقة تبشروننى بالولد ، والبشارة به لا طريقة لها في العادة. وقوله بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة ، أى : بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه ، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول اللّه ووعده ، وأنه قادر على أن يوجد ولداً من غير أبوين ، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر . وقرئ : تبشرون ، بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع ، والأصل تبشرونن ، وتبشرونّ «1» بإدغام نون الجمع في نون العماد . وقرئ : من القنطين ، من قنط يقنط . وقرئ :

ومن يقنط ، بالحركات الثلاث في النون ، أراد : ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون ، كقوله لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ يعنى : لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها اللّه .

[سورة الحجر (15) : الآيات 57 إلى 60]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60)

فإن قلت قوله تعالى : إِلَّا آلَ لُوطٍ استثناء متصل أو منقطع ؟ «2» . قلت ، لا يخلو من من أن يكون استثناء من قوم ، فيكون منقطعاً ، لأنّ القوم موصوفون بالإجرام ، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في مجرمين ، فيكون متصلا ، كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . فإن

قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم ، وذلك أنّ آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا .

ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين ، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمىّ . في أنه في معنى التعذيب

---

(1) . قوله «و تبشرون» بكسر النون والتشديد . قاله النسفي . (ع)

(2) . قال محمود : «إن قلت هل الاستثناء الأول متصل . . . الخ» قال أحمد : وجعله الأول منقطعاً أولى وأمكن ، وذلك أن في استثنائهم من الضمير العائد على قوم منكرين بعداً ، من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول ، وهذا الدخول متعذر من التنكير ، ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفى ، لأنها حينئذ أعم ، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء ، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيداً وحسن ما رأيت أحداً إلا زيداً ، والله أعلم .

والإهلاك ، كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم . وأمّا في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصا «1» بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأوّل . فإن قلت :

فقوله إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ بم يتعلق على الوجهين ؟ قلت : إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكنّ» في الاتصال بآل لوط ، لأنّ المعنى . لكن آل لوط منجون ، وإذا اتصل كان كلاما مستأنفاً ، كأنّ إبراهيم عليه السلام قال لهم : فما حال آل لوط ، فقالوا : إنا لمنجوهم . فإن قلت :

فقوله إِلَّا امْرَأَتَهُ ممّ استثنى ، وهل هو استثناء من استثناء ؟ قلت : استثنى من الضمير المجرور في قوله لَمُنَجُّوهُمْ وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء ، لأنّ الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه ، وأن يقال : أهلكناهم إلا آل لوط ، إلا امرأته ، كما اتحد الحكم في قول المطلق :

أنت طالق ثلاثاً ، إلا اثنتين ، إلا واحدة . وفي قول المقرّ : لفلان علىّ عشرة دراهم ، إلا ثلاثة ، إلا درهما . فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان ، لأنّ إِلَّا آلَ لُوطٍ متعلق بأرسلنا ، أو بمجرمين .

وإِلَّا امْرَأَتَهُ قد تعلق بمنجوهم ، فأنى يكون استثناء من استثناء . وقرئ لَمُنَجُّوهُمْ

بالتخفيف والتثقيل . فإن قلت : لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله ﴿قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ «2» والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قلت : لتضمن فعل التقدير معنى العلم ، ولذلك فسر العلماء تقدير اللّه أعمال العباد بالعلم . فإن قلت : فلم أسند الملائكة فعل التقدير - وهو للّه وحده - إلى أنفسهم ، ولم يقولوا : قدّر اللّه؟ قلت : لما لهم من القرب والاختصاص باللّه الذي ليس لأحد غيرهم ، كما

---

(1) . قوله «فلا يكون الإرسال مخلصا» لعله : مختصا . (ع)

(2) . عاد كلامه . قال محمود : «فان قلت لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله ﴿قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ﴾ الخ» قال أحمد : وهذه أيضاً من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر ، واعتقاد أن الأمر أنف ، لأنهم لا يعتقدون أن اللّه تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد ، بمعنى أنه مريد ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته . فالتقدير عندهم هو العلم لا الارادة ، ثم استدل على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل ، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته ، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطنته في ابتغاء آية يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلقها ، وفي كلامه شاهد على رده ، فان التقدير عنده مضمن معنى العلم ، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر : أن يبقى على معناه الأصلى ، مضافا إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعاً ، فالتقدير إذاً كما أفاد العلم الطارئ يفيد الارادة أصلا ووضعاً . واللّه أعلم ، على أن من الناس من جعل قوله

تعالى قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ من كلامه تعالى غير محكي عن الملائكة، وهو الظاهر، فان الذي يجعله من قول الملائكة يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، وإنما يعنون دبر الملك وأمر، وبذلك أولة الزمخشري. وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علمنا إنها لمن الغابرين، فلا غرو في علم الملائكة ذلك باخبار اللّه تعالى إياهم به، وإنما يحتاج إلى التأويل: من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة، واللّه أعلم.

*(221/429)*

---

يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه. وقرئ: قدرنا، بالتخفيف.

[سورة الحجر (15): الآيات 61 إلى 66]

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65)

وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66)

مُنْكَرُونَ أى تنكركم نفسي وتنفر منكم ، فأخاف أن تطرقوني بشرّ ، بدليل قوله بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أى ما جئناك بما تنكرنا لأجله ، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوّك ، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون فيه ويكذبونك بِالْحَقِّ باليقين من عذابهم وَإِنَّا لَصادِقُونَ في الإخبار بنزوله بهم . وقرئ : فأسر ، بقطع الهمزة ووصلها ، من أسرى وسرى . وروى صاحب الإقليد : فسر ، من السير والقطع في آخر الليل . قال :

افْتَحِى الْبَابَ وَانْظُرِى فِى النُّجُومِ كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بَهِيمِ «1»

وقيل : هو بعد ما يمضى شيء صالح من الليل . فإن قلت : ما معنى أمره باتباع أدبارهم «2» ونهيهم عن الالتفات ؟ قلت قد بعث اللّه الهلاك على قومه ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم ، وخرج مهاجراً فلم يكن له بدّ من الاجتهاد في شكر اللّه وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدّمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم

(1) . يقول لصاحبته وكان يحب طول الليل ويدعيه : افتحي باب البيت وانظري وتأملى في النجوم ، أمالت جهة الغرب أم لا ؟ وكم : يحتمل أنها خبرية التكثير ، ويحتمل أنها استفهامية ، ثم يحتمل أنها مستأنفة ، ويحتمل أن الفعل قبلها معلق عن العمل في لفظها لأن

لها الصدارة. والمراد من هذا الأمر طلب إخباره بما تعلمه بعد النظر من جواب الاستفهام المذكور. وقطع الليل: ظلمته. وقال في الصحاح: ظلمة آخره، والمراد به هنا جزء الليل. والبهيم: شديد الظلام لانبهام الأشياء فيه، ووصفه بذلك ملائم للمقام.

(2). قال محمود: «إن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم... الخ» قال أحمد: ولبعض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام حيث تقدم قومه فقال وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى والله أعلم.

(222/429)

---

أحد لغرض له فيصيبه العذاب، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدّم سربه ويفوت به، ونهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب «1» فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة «2» ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدماً «3» غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أخادعه، كما قال:

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَىِّ حَتّي وَجَدْتنِى وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا «4»

أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف، لأنّ من يلتفت لا بدّ له في ذلك من أدنى وقفة حَيْثُ تُؤْمَرُونَ قيل: هو مصر، وعدّى وَامْضُوا إلى حَيْثُ

تعديته إلى الظرف المبهم ، لأن حَيْثُ مبهم في الأمكنة ، وكذلك الضمير في تُؤْمَرُونَ وعدى قَضَيْنا بإلى لأنه ضمن معنى : أوحينا ، كأنه قيل : وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً . وفسر ذلِكَ الْأَمْرَ بقوله أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له . وقرأ الأعمش : إن ، بالكسر على الاستئناف ، كأن قائلا قال : أخبرنا عن ذلك

---

(1) . عاد كلامه . قال : «وإنما نهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب . . . الخ» قال أحمد :

ولقد شملت هذه الآية على وجازتها آداب المسافرين لمهم ديني أو دنيوي ، من الآمر والمأمور والتابع والمتبوع ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ .

(2) . قوله «وليوطنوا نفوسهم عل المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم» لعل فيه تقديما ، والأصل : على المهاجرة عن مساكنهم ويطيبوها ، فليحرر . (ع)

(3) . قوله «ويمضوا قدما» في الصحاح «مضى قدماء بضم الدال : لم يعرج ولم ينثن . (ع)

(4) ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنن نزعا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

للصمة بن عبد اللّه بن طفيل بن الحرث ، والبشر : السرور وما به السرور ، وأعرض : ظهر أمامنا ، وحالت - بالمهملة - أي صارت حائلا بيننا وبين البشر ومنعتنا عنه ، وبكت :

جواب لما ، وخص اليسرى أولا ، لأنه كان أعور . ويروى : جالت ، بالجيم أى حامت خواطر القلب الناشئة من الشوق في قلبي ، حال كونها نحن إلى المحبوبة ، نازعات شائقات إليها ، يقال : نزع نزوعا إذا مال قلبه واشتاق إلى حبه . والنزع : جمع نازع ، فشبه الخواطر بالبنات على طريق التصريحية ، لتولدها من الشوق وإثبات الجولان والحنين ، والنزوع ترشيح ، لأن الأول خاص بالمحسوس ، والأخيران بالمدرك . وإسناد الحنين والنزوع إليها مجاز عقلى ، لأنهما في الحقيقة لمحلها وهو القلب ، بل الشخص وهو سببها . والجهل ضد الحلم . أسبلتا : سالت دموعهما ، وإسناد البكاء للعين مجازاً ، ومعناه دمعت عينى ، فيجوز تشبيهها بالإنسان على طريق المكنية ، وزجرها ترشيح ، وجهلها وحلمها تخييل ، وتلفت : أى أكثرت الالتفات جهة الحي ، حتى وجع ليتى وأخدعى . يقال : وجع وجعا كتعب تعبا . والليت – بالكسر – : صفحة العنق . والأخدع : عرق فيها ، وهما تمييزان محولان عن الفاعل ، وذلك مبالغة في كثرة التلفت .



---

الأمر ، فقال : إنّ دابر هؤلاء . وفي قراءة ابن مسعود : وقلنا إنّ دابر هؤلاء . ودابرهم : آخرهم ، يعنى : يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد .

[سورة الحجر (15) : الآيات 67 إلى 77]

وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (69) قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (70) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (71)

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

أَهْلُ الْمَدِينَةِ أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة فَلا تَفْضَحُونِ بفضيحة ضيفي، لأنّ من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم وَلا تُخْزُونِ ولا تذلون بإذلال ضيفي، من الخزي وهو الهوان. أو ولا تشوّروا «1» بى، من الخزاية وهي الحياء عَنِ الْعالَمِينَ عن أن تجير منهم أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرّضون لكل أحد، وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهى عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرّض له، فأوعدوه وقالوا: لئن لم تنته يا لوط لتكوننّ من المخرجين. وقيل: عن ضيافة الناس وإنزالهم، وكانوا نهوه أن يضيف أحداً قط هؤُلاءِ بَناتِي إشارة إلى النساء، لأنّ كل أمّة أولاد نبيها رجالهم بنوه

ونساؤهم بناته ، فكأنه قال لهم : هؤلاء بناتي فانكحوهنّ ، وخلوا بنىّ فلا تتعرضوا لهم إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ شك في قبولهم لقوله ، كأنه قال : إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل : إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل اللّه دون ما حرّم لَعَمْرُكَ على إرادة القول ، أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : لعمرك إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ أى غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم ، من ترك البنين إلى البنات يَعْمَهُونَ

---

(1) . قوله «ولا تشوروا بى» في الصحاح «الشوار» فرج المرأة والرجل. ومنه قيل : شور به ، أى كأنه أبدى عورته (ع)



---

يتحيرون ، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك. وقيل : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له ، والعمرو العمر واحد ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه ، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم ، ولذلك حذفوا الخبر ، وتقديره : لعمرك مما أقسم به ، كما حذفوا الفعل في قولك : باللّه. وقرئ : في سكرهم وفي سكراتهم الصَّيْحَةُ صيحة جبريل عليه السلام

مُشْرِقِينَ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس مِنْ سِجِّيلٍ قيل : من طين ، عليه كتاب من السجل . ودليله قوله تعالى :

حِجارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ أى معلمة بكتاب لِلْمُتَوَسِّمِينَ للمتفرّسين المتأملين .

وحقيقة المتوسمين النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء . يقال : توسمت في فلان كذا ، أى عرفت وسمه فيه . والضمير في عالِيَها سافِلَها لقرى قوم لوط وَإِنَّها وإنّ هذه القرى يعنى آثارها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار ، وهو تنبيه لقريش كقوله وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ

.

[سورة الحجر (15) : الآيات 78 إلى 79]

وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (79)

أَصْحابُ الْأَيْكَةِ قوم شعيب وَإِنَّهُما يعنى قرى قوم لوط والأيكة . وقيل : الضمير للأيكة ومدين ، لأنّ شعيبا كان مبعوثا إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ لبطريق واضح ، والامام اسم لما يؤتم به ، فسمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذي يكتب فيه ، لأنها مما يؤتم به .

[سورة الحجر (15) : الآيات 80 إلى 84]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81)

وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84)

أَصْحابُ الْحِجْرِ ثمود ، والحجر واديهم ، وهو بين المدينة والشأم الْمُرْسَلِينَ يعنى بتكذيبهم صالحاً ، لأنّ من كذب واحداً منهم فكأنهما كذبهم جميعاً ، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين ، كما قيل : الخبيبون في ابن الزبير وأصحابه . وعن جابر : مررنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم «1» على الحجر

---

(1) . لم أجده من حديث جابر ، وهو في الصحيح من حديث ابن عمر بهذا اللفظ دون قوله «ناقته» وفي رواية :

أن ذلك كان في غزوة تبوك . [.....]



---

فقال لنا «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء» ثم زجر النبي صلى اللّه عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها آمِنِينَ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تتهدم ويتداعى بنيانها ، ومن نقب اللصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر . أو آمنين من عذاب اللّه يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه ما كانُوا

يَكْسِبُونَ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد .

[سورة الحجر (15) : آية 85]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)

إِلَّا بِالْحَقِّ إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة ، لا باطلا وعبثاً . أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ وإنّ اللّه ينتقم لك فيها من أعدائك ، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم ، فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك فَاصْفَحِ فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلا بحلم وإغضاء . وقيل : هو منسوخ بآية السيف .

ويجوز أن يراد به المخالقة «1» فلا يكون منسوخاً .

[سورة الحجر (15) : آية 86]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الذي خلقك وخلقهم ، وهو الْعَلِيمُ بحالك وحالهم ، فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم . أو إن ربك هو الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح . وفي مصحف أبىّ وعثمان : إن ربك هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير ، والخلاق للكثير لا غير ، كقولك : قطع الثياب

، وقطع الثوب والثياب .

[سورة الحجر (15) : آية 87]

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)

سَبْعاً سبع آيات وهي الفاتحة . أو سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة فقيل : الأنفال وبراءة ، لأنهما في حكم سورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية . وقيل سورة يونس . وقيل : هي آل حم ، أو سبع صحائف وهي الأسباع . والْمَثانِي من التثنية وهي التكرير ، لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها ، أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على اللّه ، الواحدة مثناة أو مثناة أو مثنية صفة للآية . وأمّا السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير

---

(1) . قوله «يراد به المخالقة» أى المعاملة بحسن الخلق . وفي الصحاح : يقال خالص المؤمن ، وخالق الفاجر اه (ع)



---

القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء ، كأنها تثنى على اللّه تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى . و«من» إما للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع

الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الأسباع . ويجوز أن يكون كتب اللّه كلها مثاني ، لأنها تثنى عليه ، ولما فيها من المواعظ المكررة ، ويكون القرآن بعضها ، فإن قلت : كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع ، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه ؟ قلت : إذا عنى بالسبع للفاتحة أو الطوال ، فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن ، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل . ألا ترى إلى قوله بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ يعنى سورة يوسف ، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى : ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم ، أى : الجامع لهذين النعتين ، وهو الثناء أو التثنية والعظم .

[سورة الحجر (15) : الآيات 88 إلى 89]

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89)

أى : لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمنّ له إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ أصنافاً من الكفار . فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟ «1» قلت : يقول لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة ضئيلة ، وهي القرآن العظيم ، فعليك أن تستغني به ، ولا تمدّن عينيك إلى متاع الدنيا . ومنه الحديث «ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ، «2» وحديث أبى بكر «من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى من الدنيا

أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيما وعظم صغيراً «3»» وقيل : وافت من بصرى وأذرعات : سبع قوافل ليهود

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف وصل هذا بما قبله . . . الخ» ؟ قال أحمد : وهذا هو الصواب في معنى الحديث ، وقد حمله كثير من العلماء على الغناء ، وادعى هؤلاء أن «تغنى» إنما يبنى من الغناء الممدود لا من الغنى المقصور ، وأن فعله استغنى خاصة ، وقد وجدت بناء تغنى من الغنى المقصور في الحديث الصحيح في الخيل . وأما التي هي ستر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ، وإنما هذا من الغنى المقصور قطعا واتفاقا ، وهو مصدر تغنى ، فدل ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً على خلاف دعوى المخالف ، واللّه الموفق .

(2) . أخرجه البخاري من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة وفي الباب عن سعد وأبى لبابة عند أبى داود . قال المخرج ذهل النووي وقبله المذرى ، ثم الطيبي فعزوه لأبى داود ولم يعزوه للبخاري وأخطأ القرطبي فعزاه لمسلم لا للبخاري ، ولم يذكره صاحب جامع الأصول ، وعزاه الحاكم للشيخين والذي في الصحيحين حديث أبى هريرة «ما أذن اللّه لشيء كاذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به» «فائدة» قال البيهقي في السنن في كتاب الشهادات ، أخبرنا الحاكم عن أبى الأصم سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعي يقول : ليس منا من لم يتغن بالقرآن . فقال له رحل : يستغن ؟ قال : ليس هذا معناه ، أى معناه يقرأه تحزينا .

(3) . لم أجده عن أبى بكر ، وأخرجه ابن عدى في ترجمة حمزة النصيبي عن زيد بن رفيع عن أبى عبيدة عن ابن مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقر عظيما وعظم صغيرا» وحمزة اتهموه بالوضع .

وأخرجه إسحاق والطبري من حديث عبد اللّه بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما صغر اللّه وصغر ما عظم اللّه - الحديث»

(227/429)

---

بنى قريظة والنضير ، فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها ، ولأنفقناها في سبيل اللّه ، فقال لهم اللّه عز وعلا : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أى لا تتمنّ أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوّى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون ، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم ، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء وَقُلْ لهم إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أنذركم ببيان وبرهان أنّ عذاب اللّه نازل بكم .

[سورة الحجر (15) : الآيات 90 إلى 91]

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)

فإن قلت : بم تعلق قوله كَما أَنْزَلْنا ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بقوله : وَلَقَدْ آتَيْناكَ أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، فاقتسموه إلى حق وباطل ، وعضوه «1» . وقيل : كانوا يستهزؤن به فيقول بعضهم : سورة البقرة لي ، ويقول الآخر : سورة آل عمران لي . ويجوز أن يراد بالقرآن :

ما يقرءونه من كتبهم ، وقد اقتسموه بتحريفهم ، وبأنّ اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض ، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض ، وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم ، وقولهم سحر وشعر وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم . والثاني أن يتعلق بقوله : وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ أى : وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين ، يعنى اليهود ، وهو ما جرى على قريظة والنضير ، جعل المتوقع بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز ، لأنه إخبار بما سيكون وقد كان . ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير ، أى : أنذر المعضين الذين يجزءون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير ، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ، فقعدوا في كل مدخل متفرّقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، يقول بعضهم : لا تغترّوا

بالخارج منا فإنه ساحر .

ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر ، فأهلكهم اللّه يوم بدر وقبله بآفات ، كالوليد بن المغيرة ،

---

(1) . قوله «وعضوه» في الصحاح : عضيت الشاة تعضية ، إذا جزأتها أعضاء .

وعضيت الشيء تعضية ، إذا فرقته . (ع)

(228/429)

---

والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب وغيرهم ، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام ، والاقتسام بمعنى التقاسم . فإن قلت : إذا علقت قوله : كَما أَنْزَلْنا بقوله : وَلَقَدْ آتَيْناكَ فما معنى توسط لا تَمُدَّنَّ إلى آخره بينهما ؟ قلت : لما كان ذلك تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم ، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية . من النهى عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين عِضِينَ أجزاء ، جمع عضة ، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء . قال رؤبة :

وَلَيْسَ دِينُ اللَّهِ بِالْمَعْضِى

وقيل : هي فعلة ، من عضهته إذا بهته «1» . وعن عكرمة : العضة السحر ، بلغة قريش ، يقولون للساحرة عاضهة . ولعن النبي صلى اللّه عليه وسلم العاضهة «2» والمستعضهة ، نقصانها على الأوّل واو ، وعلى الثاني هاء .

[سورة الحجر (15) : الآيات 92 إلى 93]

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93)

لَنَسْئَلَنَّهُمْ عبارة عن الوعيد . وقيل . يسألهم سؤال تقريع . وعن أبى العالية : يسأل العباد عن خلتين : عما كانوا يعبدون ، وما ذا أجابوا المرسلين .

[سورة الحجر (15) : آية 94]

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94)

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فاجهر به وأظهره . يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : صرح بها ، من الصديع وهو الفجر ، والصدع في الزجاجة : الإبانة . وقيل : فَاصْدَعْ فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر ، والمعنى : بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجارّ ، كقوله :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ «3»

---

(1) . قوله «إذا بهته» أى اتهمته . (ع)

(2) . أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث ابن عباس . وفي إسناده زمعة بن صالح عن

سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان . وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء .

(3) فقال لي قول ذي رأي ومقدرة محرر نزه خال من الريب

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

لخفاف بن ندبة ، وقيل : لعباس بن مرداس . وقيل : لعمرو بن معديكرب . وقيل : لاياس بن موسى ، والمقدرة :

مثلث الدال : القوة ، والمحرر النزه – كحذر – : الخالص من الغش . والريب ، أي الشبه ، وهو نعت لذي رأي .

ولو جعلته نعتا للرأي لكان فيه الفصل بين النعت والمنعوت بالعطف . ويجوز رفعه على أنه نعت مقطوع للقول .

والنشب : المال الأصل صامتا أو ناطقا ، فهو من عطف الخاص على العام . ويروى : ذا نسب ، بالمهملة : أي نسب عظيم ، وأمر : يتعدى للثاني بالباء . ويقال : أمرتك الخير على التوسع ، أو تضمين التكليف ، وجمعهما الشاعر في البيت .

ويجوز أن تكون بِما مصدرية ، أى بأمرك مصدر من المبنى للمفعول .

[سورة الحجر (15) : الآيات 95 إلى 96]

إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)

عن عروة بن الزبير في المستهزئين : هم خمسة نفر ذوو أسنان وشرف : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن الطلاطلة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : ماتوا كلهم قبل بدر . قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم ، فلم ينعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل ، فدخلت فيها شوكة ، فقال : لدغت لدغت وانتفخت رجله ، حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار إلى عينى الأسود بن المطلب ، فعمى وأشار إلى أنف الحرث بن قيس ، فامتخط قيحاً فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات «1» .

[سورة الحجر (15) : الآيات 97 إلى 99]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

بِما يَقُولُونَ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن فَسَبِّحْ فافزع فيما نابك إلى الله . والفزع إلى

اللّه : هو الذكر الدائم وكثرة السجود ، يكفك ويكشف عنك الغم . ودم

---

(1) . لم أجده بهذا السياق . وأخرجه الطبراني في معجميه . وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لهما . وابن مردويه كلهم من طريق جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ قال : هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وأبو زمعة والحرث بن عيطل السهمي قال أتاه جبريل فشكاهم إليه . فأراه الوليد بن المغيرة فأومأ جبريل إلى أكحله . فقال : ما صنعت ؟ قال : كفيته . فساق الحديث . قال : فأما الوليد بن المغيرة فمر برجل من خزاعة وهو يريش نبلا له فأصاب أكحله فقطعها . وأما الأسود ابن المطلب فعمى . وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها ، وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف فربط به حماره على شبرقة يعنى شوكة . فدخلت في أخمص قدمه فقتلته . وأما الحرث بن عيطل فأخذه ألم الأصفر في بطنه حتى خرج خرءه من فيه فمات منها »



---

على عبادة ربك حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ أى الموت ، أى ما دمت حياً فلا تخل بالعبادة . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة « 1 » .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار ، والمستهزئين بمحمد صلى اللّه عليه وسلم» «2» .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 580. 592﴾

---

(1) . تقدم في البقرة .

(2) . رواه الثعلبي من طريق أبى الخليل عن على بن زيد عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب . وقد تقدمت أسانيده في آخر آل عمران .



---

وقال ابن جزى :

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي ﴾ الآية :

أعلمهم والآية آية ترجيه وتخويف ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ﴾ ضيف هنا واقع على جماعة وهم الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم بالبشرى ﴿ وَجِلُونَ ﴾ أي خائفون ، والوجل الخوف ﴿ لاَ تَوْجَلْ ﴾ أي لا تخف ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بغلام عَلِيمٍ ﴾ هو إسحاق ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي على أَن مَّسَّنِيَ الكبر ﴾ المعنى : أبشرتموني بالولد مع أنني قد كبر سني ، وكان حينئذ ابن مائة سنة ، وقيل : أكثر ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ قال ذلك على وجه التعجب

من ولادته في كبره أو على وجه الاستبعاد ، ولذلك قرئ تبشرون ، بتشديد النون وكسرها على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وبالكسر والتخفيف على حذف إحدى النونين ، وبالفتح وهو نون الجمع ﴿ قَالُواْ بشرناك بالحق ﴾ أي باليقين الثابت فلا تستبعده ولا تشك فيه ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضالون ﴾ دليل على تحريم القنوط ، وقرئ يقنط بفتح النون وكسرها وهما لغتان .

(232/429)

---

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ أي ما شأنكم وبأي شيء جئتم ﴿ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ ﴾ أن يكون استثناء من قوم لوط فيكون منقطعاً لوصف القوم بالإجرام ، ولم يكن آل لوط مجرمين ويحتمل أن يكون استثناء من الضمير في المجرمين ، فيكون متصلاً كأنه قال إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط فلم يجرموا ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ استثناء من آل لوط ، فهو استثناء من استثناء . وقال الزمخشري : إنما هو استثناء من الضمير المجرور في قولهم لمنجوهم ، وذلك هو الذي يقتضيه المعنى ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ الغابر يقال : بمعنى الباقي ، وبمعنى الذاهب ، وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم ، وهو لله وحده لما لهم من القرب والاختصاص بالله ، لا سيما في هذه القضية ، كما تقول خاصة الملك للملك

: دبرنا كذا ويحتمل أن يكون حكاية عن الله ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي لا نعرفهم ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي جئناك بالعذاب لقومك ومعنى يمترون يشكون فيه ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أي : كن خلفهم أي في ساقتهم حتى لا يبقى منهم أحد وليكونوا قدّامه ، فلا يشتغل قلبه بهم لو كانوا وراءه لخوفه عليهم ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ تقدم في هود ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قيل : مصر وقيل : حيث هنا للزمان إذ لم يذكر مكاناً .

(233/429)

---

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ هو من القضاء والقدر ، وإنما تعدى بإلى لأنه ضمن معنى أوحينا وقيل : معناه أعلمناه بذلك الأمر ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ هذا تفسير لذلك الأمر ، ودابر القوم أصلهم ، والإشارة إلى قوم لوط ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ في الموضعين أي إذا أصبحوا ودخلوا في الصباح ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ المدينة هي سدوم ، واستبشار أهلها بالأضياف ، طمعاً أن ينالوا منهم الفاحشة ﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ كانوا قد نهوه أن يضيف أحداً .

﴿ قَالَ هَؤُلآءِ بَنَاتِي ﴾ دعاهم إلى تزويج بناته ليقي بذلك أضيافه ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسم والعمر الحياة ، ففي ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أن الله أقسم بحياته ، أو قيل :

هو من قول الملائكة للوط ، وارتفاعه بالابتداء وخبره محذوف تقديره : لعمرك قسمي واللام للتوطئة ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الضمير لقوم لوط ، وسكرتهم : ضلالهم وجهلهم ، ويعمهون : أي يتحيرون ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ أي صيحة جبريل وهي أخذه لهم ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي داخلين في الشروق وهو وقت بزوغ الشمس ، وقد تقدم تفسير ما بعد هذا من قصتهم في [ هود : 76 ] ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي للمتفرسين ، ومنه فراسة المؤمن ، وقيل : للمعتبرين ، وحقيقة التوسم النظر إلى السيمة ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي بطريق ثابت يراه الناس والضمير للمدينة المهلكة .

﴿ وَإِن كَانَ أَصحاب الأيكة لظالمين ﴾ أصحاب الأيكة قوم شعيب والأيكة الغيضة من الشجر لما كفروا أضرمها الله عليهم ناراً ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ الضمير في إنهما قيل : إنه لمدينة قوم لوط وقوم شعيب ، فالإمام على هذا : الطريق أي إنهما بطريق واضح يراه الناس ، وقيل : الضمير للوط وشعيب ، أي إنهما على طريق من الشرع واضح والأول أظهر .



---

﴿ أصحاب الحجر ﴾ هم ثمود قوم صالح ، الحجر واديهم هو بين المدينة والشام ﴿ المرسلين ﴾ ذكره بالجمع وإنما كذبوا واحداً منهم ، وفي ذلك تأويلان أحدهما أن من كذب

واحداً من الأنبياء لزمه تكذيب الجميع ؛ لأنهم جاءوا بأمر متفق من التوحيد ، والثاني : أنه أراد الجنس كقولك : فلان يركب الخيل ، وإن لم يركب إلا فرساً واحداً ﴿ وآتيناهم آياتنا ﴾ يعني الناقة ، وما كان فيها من العجائب ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً ﴾ النحت : النقر بالمعاويل وشبهها من الحجر والعود وشبهه ذلك وكانوا ينقرون بيوتهم في الجبال ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ يعني آمنين من تهدم بيوتهم لوثاقتها ، وقيل : آمنين من عذاب الله ﴿ إِلاَّ بالحق ﴾ يعني أنها لم تخلق عبثاً .

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ قيل : إن الصفح الجميل هو الذي ليس معه عقاب ولا عتاب ، وفي الآية مهادنة للكفار منسوخة بالسيف .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ﴾ يعني : أم القرآن لأنها سبع آيات ، وقيل : يعني السور السبع الطوال ، وهي البقرة وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال مع براءة ، والأول أرجح لوروده في الحديث ، والمثاني : مشتق من التثنية وهي التكرير ، لأن الفاتحة تكرر قراءتها في الصلاة ، ولأن غيرها من السور تكرر فيها القصص وغيرها ، وقيل : هي مشتقة من الثناء ، لأن فيها ثناء على الله ، ومن يحتمل أن تكون للتبعيض أو لبيان الجنس ، وعطف القرآن على السبع المثاني ؛ لأنه يعني ما سواها من القرآن فهو عموم بعد الخصوص .

﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تنظر إلى ما متعناهم به في الدنيا كأنه يقول : قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم ، فلا تنظر إلى الدنيا ، فإن الذي أعطيناك أعظم منها ﴿ أزواجا مِّنْهُمْ ﴾ يعني أصنافاً من الكفار ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا تتأسف لكفرهم ﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ أي تواضع ولِنْ ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والجناح هنا استعارة ﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ الكاف من كما متعلقة بقوله : أنا النذير أي أنذر قريشاً عذاباً مثل العذاب الذي أنزل على المقتسمين ، وقيل : متعلق بقوله : ولقد آتيناك أي أنزلنا عليك كتاباً كما أنزلنا على المقتسمين ، واختلف في المقتسمين ، فقيل : هم أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه ، فاقتسموا إلى قسمين ، وقيل : هم قريش اقتسموا أبواب مكة في الموسم ، فوقف كل واحد منهم على باب ، يقول أحدهم : هو شاعر ، ويقول الآخر : هو ساحر ، وغير ذلك .

﴿ الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ﴾ أي أجزاء ، وقالوا فيه أقوالاً مختلفة وواحد عضين عضة وقيل : هو من العَضْة وهو السحر ، والعاضِه الساحر ، والمعنى على هذا أنه سحر ، والكلمة محذوفة اللام ولامها على القول الأول واو وعلى الثاني هاء ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إن قيل : كيف يجمع بين هذا وبين قوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا

جان ؟ فالجواب أن السؤال المثبت هو على : وجه الحساب والتوبيخ ، وأن السؤال المنفي هو : على وجه الاستفهام المحض لأن الله يعلم الأعمال فلا يحتاج إلى السؤال عنها .

(236/429)

---

﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي صرح به وأنفذه ﴿ إِنَّا كفيناك المستهزئين ﴾ يعني قوماً من أهل مكة ؛ أهلكهم الله بأنواع الهلاك من غير سعي النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يغوث وعدي بن قيس ، وقصة هلاكهم مذكورة في السير ، وقيل : الذين قتلوا ببدر كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وغيرهم ، والأول أرجح ، لأن الله كفاه إياهم بمكة قبل الهجرة ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأنيس ﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ أي الموت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 2 صـ 146. 149 ﴾

(237/429)

---

وقال النسفى :

ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه .

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ﴾

تقريراً لما ذكر وتمكيناً له في النفوس .

قال عليه السلام : " لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه في العبادة ولما أقدم على ذنب " وعطف ﴿ وَنَبِّئْهُمْ ﴾ وأخبر أمتك .

عطفه على ﴿ نبىء عبادي ﴾ ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم ﴿ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي أضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكاً ، والضيف يجىء واحداً وجمعاً لأنه مصدر ضافه ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً أو سلمنا سلاماً ﴿ قَالَ ﴾ أي إبراهيم ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ خائفون لامتناعهم من الأكل أو لدخولهم بغير إذن وبغير وقت ﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ ﴾ لا تخف ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل أي إنك مبشر آمن فلا توجل .

وبالتخفيف وفتح النون : حمزة ﴿ بغلام عَلِيمٍ ﴾ هو إسحاق لقوله في سورة هود ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴿ ﴾ [ هود : 71 ] ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى على أَن مَّسَّنِىَ الكبر ﴾ أي أبشرتموني مع مس الكبر بأن يولد لي أي إن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر ﴿ فَبِمَ

تُبَشِّرُونَ ﴾ هي "ما" الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قيل : فبأي أعجوبة تبشرون ، وبكسر النون والتشديد : مكي ، والأصل "تبشرونني" فأدغم نون الجمع في نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلاً عليها .

﴿ تبشرون ﴾ بالتخفيف : نافع ، والأصل "تبشرونني" فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين ، والباقون : بفتح النون ، وحذف المفعول والنون نون الجمع

(238/429)

---

﴿ قَالُواْ بشرناك بالحق ﴾ باليقين الذي لا لبس فيه ﴿ فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ من الآيسين من ذلك ﴿ قَالَ ﴾ أي إبراهيم ﴿ وَمَن يَقْنَطُ ﴾ وبكسر النون : بصري وعلي ﴿ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون ﴾ إلا المخطئون طريق الصواب أو إلا الكافرون كقوله : ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [ يوسف : 87 ] أي لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ فما شأنكم ﴿ أَيُّهَا المرسلون قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ أي قوم لوط ﴿ إِلآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ يريد أهله المؤمنين ، والاستثناء منقطع لأن القوم موصوفون

بالإجرام والمستثني ليس كذلك ، أو متصل فيكون استثناء من الضمير في ﴿ مجرمين ﴾ كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين لأن آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال يعنى أنهم ارسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً ، ومعنى ارسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال السهم إلى المرمى في أنه في معنى التعذيب والإهلاك كأنه قيل : إنا أهلكنا قوماً مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم .

وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال يعني أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء .

وإذا انقطع الاستثناء جرى ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ مجرى خبر لكن في الاتصال بآل لوط لأن المعنى .



---

لكن آل لوط منجون ، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم : فما حال آل لوط ؟ فقالوا : إنا لمنجوهم ﴿ إِلَّا امرأته ﴾ مستثنى من الضمير المجرور في ﴿ لمنجوهم ﴾ وليس باستثناء من الاستثناء ، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما

اتحد الحكم فيه بأن يقول "أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته" وهنا قد اختلف الحكمان لأن إلا آل لوط متعلق ب ﴿ أرسلنا ﴾ أو ب ﴿ مجرمين ﴾ و ﴿ إلا امرأته ﴾ متعلق ب ﴿ منجوهم ﴾ فكيف يكون استثناء من استثناء .

﴿ لمنجوهم ﴾ بالتخفيف : حمزة وعلي ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ وبالتخفيف : أبو بكر ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ الباقين في العذاب .

قيل : لو لم تكن اللام في خبرها لوجب فتح "إن" لأنه مع اسمه وخبره مفعول ﴿ قدرنا ﴾ ولكنه كقوله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ الصافات : 158 ) وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك .

(240/429)

---

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ المرسلون قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي لا أعرفكم أي ليس عليكم زي السفر ولا أنتم من أهل الحضر فأخاف أن تطرقوني بشر ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أي يشكون ويكذبونك ﴿

وأتيناك بالحق ﴾ باليقين من عذابهم ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في الإخبار بنزوله بهم ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ ﴾ في آخر الليل أو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ وسر خلفهم لتكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ حيث أمركم الله بالمضي إليه وهو الشام أو مصر ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ عدى ﴿ قضينا ﴾ ب "إلى" لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل: وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً، وفسر ذلك الأمر بقوله ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ ﴾ وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر ودابرهم آخرهم أي يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ وقت دخولهم في الصبح وهو حال من ﴿ هؤلاء ﴾ ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة ﴾ سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بالملائكة طمعاً منهم في ركوب الفاحشة ﴿ قَالَ ﴾ لوط ﴿ إِنَّ هَؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ بفضيحة ضيفي لأن من أساء إلى ضيفي فقد أساء إليّ ﴿ واتقوا الله وَلَا تُخْزُونِ ﴾ أي ولا تذلوني بإذلال ضيفي من الخزي وهو الهوان.

وبالياء فيهما : يعقوب ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ عن أن تجير منهم أحداً أو تدفع عنهم فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد ، وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ [ الشعراء : 167 ] أو عن ضيافة الغرباء ﴿ قَالَ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزاً ولا تعرضوا لهم ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ أي في غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون فيكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك ، أو الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط تعظيماً له .

والعُمر والعَمر واحد وهو البقاء إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح إيثاراً للأخف لكثرة دور الحلف على ألسنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمي

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ صيحة جبريل عليه السلام ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ﴿ فَجَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا ﴾ رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيات

﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمتفرسين المتأملين كأنهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ وإن هذه القرى يعني آثارها ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد . وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِالَّيلِ ﴾ [ الصافات : 137 ] ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأنهم المنتفعون بذلك .



---

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيكة ﴾ وإن الأمر والشأن كان أصحاب الأيكة أي الغيضة ﴿ لظالمين ﴾ لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ فأهلكناهم لما كذبوا شعيباً ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني قرى قوم لوط والأيكة ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ لبطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به فسمى به الطريق ومطمر البناء لأنهما مما يؤتم به ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أصحاب الحجر المرسلين ﴾ هم ثمود ، والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعني بتكذيبهم صالحاً لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً ، فمن كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً ، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين كما قيل "الخبيبون" في ابن الزبير وأصحابه ﴿ وءاتيناهم ءاياتنا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أي أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتًا ﴾ أي ينقبون في الجبال بيوتاً أو يبنون من

الحجارة ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تنهدم ومن نقب اللصوص والأعداء ، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ العذاب ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ في اليوم الرابع وقت الصبح ﴿ فَمَآ أَغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الأموال النفيسة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق لا باطلاً وعبثاً أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿ وَإِنَّ الساعة ﴾ أي القيامة لتوقعها كل ساعة ﴿ لآتِيَةٌ ﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم فإنه ما خلق السموات والأَرض وما بينهم ، إلا لذلك ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء .

(243/429)

---

قيل : هو منسوخ بآية السيف ، وإن أريد به المخالفة فلا يكون منسوخاً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق ﴾ الذي خلقك وخلقهم ﴿ العليم ﴾ بحالك وحالهم فلا يخفي عليه ما يجري بينكم وهو يحكم بينكم ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا ﴾ أي سبع آيات وهي الفاتحة أو سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة فقيل الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة بدليل

عدم التسمية بينهما ، وقيل سورة يونس أو أسباع القرآن ﴿ مِّنَ الْمَثَانِي ﴾ هي من التثنية وهي التكرير لأن الفاتحة مما يتكرر في الصلاة ، أو من الثناء لاشتمالهما على ما هو ثناء على الله ، والواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية .

وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثني على الله ، وإذا جعلت السبع مثاني فمن للتبيين ، وإذا جعلت القرآن مثاني ف "من" للتبعيض ﴿ والقرءان العظيم ﴾ هذا ليس بعطف الشيء على نفسه لأنه إذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا القرءان ﴾ [ يوسف : 3 ] يعني سورة يوسف ، وإذا أريد به الأسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم أي الجامع لهذين النعتين وهو التثنية أو الثناء والعظم .

ثم قال لرسوله

﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافاً من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعني قد أوتيت النعمة العظمى التي كل نعمة وإن عظمت فهي إليها حقيرة وهي القرآن العظيم فعليك أن تستغني به ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا .

وفي الحديث " ليس منا من لم يتغن بالقرآن " وحديث أبي بكر " من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيماً وعظم صغيراً " ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام والمسلمون ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفساً عن إيمان الأغنياء ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنّى أَنَا النذير المبين ﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم

﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا ﴾ متعلق بقوله ﴿ ولقد آتيناك ﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا ﴿ عَلَى المقتسمين ﴾ وهم أهل الكتاب ﴿ الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء حيث قالوا بعنادهم : بعضه . حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه .

وقيل كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ، ويقول الآخر سورة آل عمران لي .

أو أريد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم وقد اقتسموه ؛ فاليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض ، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض ، ويجوز أن يكون ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ منصوباً ب ﴿ النذير ﴾ أي أنذر المعضين الذين يجزّئون القرآن إلى سحر

وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم : لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر ، ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر فأهلكهم الله .

﴿ لا تمدن عينيك ﴾ على الوجه الأول اعتراض بينهما ، لأنه لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهي عن الإلتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الأمر بأن يقبل بكليته على المؤمنين .

(245/429)

---

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما قالوه في رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في القرآن أو في كتب الله ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فاجهر به وأظهره .

يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً من الصديع وهو الفجر ، أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو الإبانة بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله

: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ هو أمر استهانة بهم

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم : الوليد بن المغيرة مر بنبّال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، والعاص بن وائل دخل في أخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات ، والأسود بن عبد المطلب عمي ، والأسود ابن عبد يغوث جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، والحارث بن قيس امتخط قيحاً ومات ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلها ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم يوم القيامة ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فيك أو في القرآن أو في الله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ فافزع فيما نابك إلى الله ، والفزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم ﴿ واعبد رَبَّكَ ﴾ ودم على عبادة ربك ﴿ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ أي الموت يعني ما دمت حياً فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 274. 279 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الأليم ﴾

فذلكة ما سبق من الوعد والوعيد وتقرير له ، وفي ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها ، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده وفي عطف . ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ على ﴿ نَبِّئ عِبَادِى ﴾ تحقيق لهما بما يعتبرون به .

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَمًا ﴾ أي نسلم عليك سلاماً أو سلمنا سلاماً . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ خائفون وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت ، ولأنهم امتنعوا من الأكل والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره .

﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ ﴾ وقرىء "لا تأجل" من أوجله و"لا توجل" من أوجله "ولا تواجل" من واجله بمعنى أوجله . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل ، فإن المبشر لا يخاف منه . وقرأ حمزة نبشرك بفتح النون والتخفيف من البشر . ﴿ بغلام ﴾ هو إسحاق عليه السلام لقوله : ﴿ وبشرناه بإسحاق ﴾ ﴿ عَلِيمٍ ﴾ إذا بلغ .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ ﴾ تعجب من أن يولد له مع مس الكبر إياه ، أو إنكار لأن يبشر به في مثل هذه الحالة وكذا قوله : ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرون ، أو فبأي شيء تبشرون فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء ، وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة في كل القرآن على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وكسرها وقرأ نافع بكسرها مخففة على حذف نون الجمع استثقالاً لإجتماع المثلين ودلالة بإبقاء نون الوقاية وكسرها على الياء . ﴿ قَالُوا۟ بشرناك بالحق ﴾ بما يكون لا محالة ، أو باليقين الذي لا لبس فيه أو بطريقة هي حق وهو قول الله تعالى وأمره . ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ القانطين ﴾ من الآيسين من ذلك فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر ، وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة ولذلك :

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا الضآلون ﴾ المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي يقنط بالكسر ، وقرئ بالضم وماضيهما قنط بالفتح .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ﴾ أي فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة ،

ولعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا تحتاج إلى العدد ، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام ، أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤوا بها .

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعني قوم لوط.

(248/429)

---

﴿ إِلا ءَالَ لُوطٍ ﴾ إن كان استثناء من ﴿ قَوْمٌ ﴾ كان منقطعاً إذ ال ﴿ قَوْمٌ ﴾ مقيد بالإجرام وإن كان استثناء من الضمير في ﴿ مُّجْرِمِينَ ﴾ كان متصلاً ، والقوم والإرسال شاملين للمجرمين ، و ﴿ آلَ لُوطٍ ﴾ المؤمنين به وكأن المعنى : إنا أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط منهم لنهلك المجرمين وننجي آل لوط منهم ، ويدل عليه قوله : ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي مما يعذب به القوم ، وهو استئناف إذا اتصل الاستثناء ومتصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن إذا انقطع وعلى هذا جاز أن يكون قوله :

﴿ إِلا امرأته ﴾ استثناء من ﴿ آلَ لُوطٍ ﴾ ، أو من ضميرهم ، وعلى الأول لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ اعتراضاً ، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ لَمُنْجُوهُمْ ﴾ مخففاً . ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ الباقين مع الكفرة

لتهلك معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ قَدَرْنا ﴾ هنا وفي "النمل" بالتخفيف، وإنما علق والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم.

ويجوز أن يكون ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ أجري مجرى قلنا لأن التقدير بمعنى القضاء قول، وأصله جعل الشيء على مقدار غيره وإسنادهم إياه إلى أنفسهم. وهو فعل الله سبحانه وتعالى لما لهم من القرب والاختصاص به.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءالَ لُوطٍ المرسلون قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ تنكركم نفسي وتنفر عنكم مخافة أن تطرقوني بِشَرٍ.

﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما يسرك ويشفي لك من عدوك، وهو العذاب الذي توعدتهم به فيمترون فيه.

﴿ وآتيناك بالحق ﴾ باليقين من عذابهم. ﴿ وِإِنَّا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به.

(249/429)

---

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ فاذهب بهم في الليل، وقرأ الحجازيان بوصل الهمزة من السرى وهما بمعنى وقرىء "فسر" من السير. ﴿ بِقِطْعٍ مِّنَ اليل ﴾ في طائفة من الليل وقيل في آخره قال :

افتَحِي البَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُوم . . . كَمْ عَلَيْنَا مِنْ قِطَعٍ لَيْلٍ بَهِيمِ

﴿ واتبع أدبارهم ﴾ وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم . ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ لينظر ما وراءه فيرى من الهول ما لا يطيقه أو فيصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف أحدكم ولا يتخلف امرؤ لغرض فيصيبه العذاب . وقيل نهوا عن الالتفات ليوطنوا نفوسهم على المهاجرة . ﴿ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه ، وهو الشام أو مصر فعدي ﴿ وامضوا ﴾ إلى "حَيْثُ تُؤْمَرُون" إلى ضميره المحذوف على الاتساع .

﴿ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ أي وأوحينا إليه مقضياً ، ولذلك عدي بإلى . ﴿ ذَلِكَ الامر ﴾ مبهم يفسره . ﴿ إِنَّ دَابِرَ هَؤُلآْءِ مَقْطُوعٌ ﴾ ومحله النصب على البدل منه وفي ذلك تفخيم للآمر وتعظيم له . وقرىء بالكسر على الاستئناف والمعنى : أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد . ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾ داخلين في الصبح وهو حال من هؤلاء ، أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى . ف ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآْءِ ﴾ في معنى مدبري هؤلاء .

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ المدينة ﴾ سدوم . ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم .

﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلآءِ ضَيْفِى فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴾ بفضيحة ضيفي فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه .

﴿ واتقوا الله ﴾ في ركوب الفاحشة . ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ ولا تذلوني بسببهم من الخزي وهو الهوان ، أو لا تخجلوني فيهم من الخزاية وهو الحياء .

﴿ قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ﴾ على أن تجير منهم أحداً أو تمنع بيننا وبينهم ، فإنهم كانوا يتعرضون لكل احد وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه ، أو عن ضيافة الناس وإنزالهم .

(250/429)

---

﴿ قَالَ هؤلاء بَنَاتِى ﴾ يعني نساء القوم فإن نبي كل أُمة بمنزلة أبيهم ، وفيه وجوه ذكرت في سورة "هود" . ﴿ إِن كُنتُمْ فاعلين ﴾ قضاء الوطر أو ما أقول لكم .

﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قسم بحياة المخاطب والمخاطب في هذا القسم هو النبي عليه الصلاة والسلام وقيل لوط عليه السلام قالت الملائكة له ذلك ، والتقدير لعمرك قسمي ، وهو لغة في العمر يختص به القسم لإِيثار الأخف فيه لأنه كثير الدور على ألسنتهم . ﴿ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ ﴾ لفي غوايتهم أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به إليهم . ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون فكيف يسمعون نصحك . وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ يعني صيحة هائلة مهلكة . وقيل صيحة جبريل عليه السلام .

﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس .

﴿ فَجَعَلْنَا عاليها ﴾ عالي المدينة أو عالي قراهم . ﴿ سَافِلَهَا ﴾ وصارت منقلبة بهم .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب من السجل ، وقد تقدم مزيد بيان لهذه القصة في سورة "هود" .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للمتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته .

﴿ وَإِنَّهَا ﴾ وإن المدينة أو القرى . ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالله ورسله .

﴿ وَإِن كَانَ أصحاب الأيكة لظالمين ﴾ هم قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة فبعثه الله إليهم فكذبوه فأهلكوا بالظلة ، و﴿ الأَيكة ﴾ الشجرة المتكاثفة .

﴿ فانتقمنا مِنْهُمْ ﴾ بالإهلاك . ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ يعني سدوم والأيكة . وقيل الأيكة ومدين فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذكر إحداهما منبهاً على الأخرى . ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ لبطريق واضح ، والإمام اسم ما يؤتم به فسمي به الطريق ومطمر البناء واللوح لأنها مما يؤتم به .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أصحاب الحجر المرسلين ﴾ يعني ثمود كذبوا صالحاً ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع ، ويجوز أن يكون المراد بالمرسلين صالحاً ومن معه من المؤمنين ، و ﴿ الحجر ﴾ واد بين المدينة والشأم يسكنونه .

﴿ وءاتيناهم ءاياتنا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ يعني آيات الكتاب المنزل على نبيهم ، أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها ودرها ، أو ما نصب لهم من الأدلة .

﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً ءَامِنِينَ ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها ، أو من العذاب لفرط غفلتهم أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُصْبِحِينَ فَمَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السموات والارض وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بالحق ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور ، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة فسادهم من الأرض . ﴿ وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ﴾ فينتقم الله لك فيها ممن كذبك . ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ ولا تعجل بانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم . وقيل هو منسوخ بآية السيف .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق ﴾ الذي خلقك وخلقهم وبيده أمرك وأمرهم . ﴿ العليم ﴾

بجالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل ذلك إليه ليحكم بينكم ، أو هو الذي خلقكم وعلم الأصلح لكم ، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح ، وفي مصحف عثمان وأبيّ رضي الله عنهما هو "الخالق" ، وهو يصلح للقليل والكثير و ﴿ الخلاق ﴾ يختص بالكثير .

(252/429)

---

﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا ﴾ سبع آيات وهي الفاتحة . وقيل سبع سور وهي الطوال وسابعتها "الأنفال" و"التوبة" فإنهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية . وقيل "التوبة" وقيل "يونس" أو الحواميم السبع . وقيل سبع صحائف وهي الأسباع . ﴿ مّنَ المثاني ﴾ بيان للسبع والمثاني من التثنية ، أو الثناء فإن كل ذلك مثنى تكرر قراءته ، أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه أو مثنى عليه بالبلاغة والاعجاز ، أو مثن على الله بما هو أهله من صفاته العظمى وأسمائه الحسنى ، ويجوز أن يراد ب ﴿ المثاني ﴾ القرآن أو كتب الله كلها فتكون ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض . ﴿ وَالْقُرْءانَ الْعَظِيمَ ﴾ إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص ، وإن أريد به الأسباع فمن عطف أحد الوصفين على الآخر .

﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب . ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مّنْهُمْ

﴾ أصنافاً من الكفار ، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات . وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه " من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً وعظم صغيرا " وروي "أنه عليه الصلاة والسلام وافى بأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم : "لقد أعطيتم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع " ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أنهم لم يؤمنوا . وقيل إنهم المتمعون به . ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وتواضع لهم وارفق بهم .

﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النذير المبين ﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا .

(253/429)

---

﴿ كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين ﴾ مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم ، فهو وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم الإثنا عشر الذين اقتسموا أي تقاسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم فأهلكهم الله تعالى يوم بدر أو الرهط الذين اقتسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه الصلاة والسلام وقيل هو صفة مصدر

محذوف يدل عليه . ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك ﴾ فإنه بمعنى أنزلنا إليك ، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا عناداً : بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما ، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين ، أو أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤون من كتبهم ، فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ الخ اعتراضاً ممداً لها .

﴿ الذين جَعَلُواْ القرءان عِضِينَ ﴾ أجزاء جمع عضة ، وأصلها عضوة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء . وقيل فعلة من عضهته إذا بهته ، وفي الحديث "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة" وقيل أسحاراً وعن عكرمة العضة السحر ، وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه والموصول بصلته صفة للمقتسمين أو مبتدأ خبره .

﴿ فَوَرَبّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من التقسيم أو النسب إلى السحر فنجازيهم عليه . وقيل هو عام في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي .

﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فاجهر به ، من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، أو فافرق به بين الحق والباطل ، وأصله الإبانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة ، والراجع محذوف أي بما تؤمر به من الشرائع . ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ ولا تلتفت إلى ما يقولون .

﴿ إِنَّا كفيناك المستهزءين ﴾ بقمعهم وإهلاكهم . قيل كانوا خمسة من أشراف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاص ابن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، يبالغون في إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لاخذه ، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قيحاً فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، وإلى عيني الأسود ابن المطلب فعمي .

﴿ الذين يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك ، أو فنزهه عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق . ﴿ وَكُنْ مِّنَ الساجدين ﴾ من المصلين ، وعنه عليه الصلاة والسلام " أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى

الصلاة " ﴿ واعبد ربَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق ، والمعنى فاعبده ما دمت حياً ولا تخلّ بالعبادة لحظة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم " والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 3 صـ 374 . 383 ﴾

*(255/429)*

---

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) ﴾

التفسير : إنه سبحانه عطف ﴿ ونبئهم ﴾ على ﴿ نبىء عبادي ﴾ ليكون سماع هذه القصص مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأولياء ، ومحذراً من المعصية المستتبعة لدركات الأشقياء ، ولما في قصة لوط من ذكر إنجاء المؤمنين وإهلاك الظالمين ، وكل ذلك يقوّي ما ذكر من أنه غفور رحيم للمؤمنين ، وأن عذابه عذاب أليم للكافرين . وعند المعتزلة

غفور للتائبين معذب لغيرهم . وقد مر تفسير أكثر هذه القصة في سورة هود فنذكر الآن ما هو مختص بالمقام .

(256/429)

---

فقوله : ﴿ وجلون ﴾ معناه خائفون خافهم لامتناعهم من الأكل أو لدخولهم بغير إذن وفي غير وقت . ﴿ إنا نبشرك ﴾ استئناف في معنى تعليل النهي عن الوجل . بشروه بالولد الذكر بكونه عليماً فقيل : أرادوا بعلمه نبوته . وقيل : العلم مطلقاً . وقوله : ﴿ على أن مسني ﴾ في موضع الحال أي مع هذه الحالة استفهم منكراً للولادة في حالة الهرم أنها أمر عجيب عادة لا لأنه شك في قدرة الله تعالى ولذلك قال : ﴿ فبم تبشرون ﴾ " ما " استفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قال : فبأي أعجوبة تبشروني أي أو أنكم لا تبشروني بشيء في الحقيقة لأن ذلك أمر غير متصور في العادة ؟ وأحسن ما قيل فيه أن لا يكون قوله : " بما " صلة للتبشير بل يكون سؤالاً عن الوجه والطريقة يعني إذا كان الطريق . المعتاد ممتنعاً فبأي طريق تبشروني بالولد ، فلذلك قالوا في جوابه ﴿ بشرناك بالحق ﴾ أي باليقين الذي لا لبس فيه ، أو بشرناك بالولد بطريق هو حق وذلك قول الله تعالى ووعده وأنه قادر على خلق الولد من غير أبوين فضلاً من شيخ فانٍ وعجوز عاقر . قال أبو حاتم :

حذف نافع ياء المتكلم مع النون وإسقاط الحرفين لا يجوز . وأجيب بأنه لم يحذف إلا الياء اكتفاء بالكسرة ونون الوقاية لم يوردها كما أوردت في قراءة التشديد ، وإنما كسر نون الجمع لأجل الياء وكلتا اللغتين فصيحة . قيل : عظم فرحه بتلك البشارة فدهش عن الجواب المنتظم فتكلم بالكلام المضطرب . وقيل : طلب مزيد الطمأنينة كقوله : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ [ البقرة : 260 ] عن ابن عباس : يريد بالحق ما قضى الله أن يخرج من صلب إبراهيم إسحق ومن صلب إسحق أكثر الأنبياء . وقوله : ﴿ فلا تكن من القانطين ﴾ لا يدل على أنه كان قانطاً فق ينهى عن الشيء ابتداء كقوله : ﴿ ولا تطع الكافرين ﴾ [ الأحزاب : 48 ] . ولذلك أنكر إبراهيم نهيهم بقول : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ أي المخطئون طريق الصواب أو الكافرون نظيره ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم



---

الكافرون ﴾ [ يوسف : 87 ] وفيه أنه لم يستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ولكن استبعاداً له في العادة التي أجراها الله هما لغتان : قنط يقنط مثل ضرب يضرب ، وقنط يقنط مثل علم يعلم . وزعم الفارسي أن الأولى أعلى اللغتين . ثم سأل عما لأجله أرسلهم الله حيث

قال : ﴿ فما خطبكم ﴾ والخطب الشأن العظيم . فسئل أنهم لما بشروه بالولد الذكر العليم فما وجه السؤال عن مجيئهم ؟ وأجاب الأصم بأن المراد ما الأمر الذي وجهتم فيه سوى البشرى ؟ . وقال القاضي : إنه علم أن المقصود لو كان التبشير فقط لكان الملك الواحد كافياً . وقيل : علم أنه لو كان تمام الغرض البشارة لذكروها أول ما دخلوا قبل أن يوجس إبراهيم منهم خيفة . قلت : لعله استصغر أمر التبشير إما لأجل التواضع وإما لأنه واقعة خاصة فسألهم عن الأمر الذي هو أعظم من ذلك وأعم تعظيماً لشأنهم ﴿ قالوا إنا أرسلنا ﴾ زعم صاحب الكشاف أن الإرسال ههنا في معنى التعذيب والإهلاك كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى .

(258/429)

---

وأقول : كأنه لا حاجة إلى هذا التجوز لقوله في سورة الذاريات ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ [ الآيتان : 32 ، 33 ] فالتقدير إنا أرسلنا إليهم لنهلكهم ﴿ إلا آل لوط ﴾ وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً لاختلاف الجنسين ، فإن القوم موصوفون بالإجرام دون آل لوط . يكون قوله : ﴿ إنا لمنجوهم ﴾ جارياً مجرى خبر " لكن " كأنه قيل : لكن قوم لوط منجون ، ويكون قوله : ﴿ إلا امرأته ﴾ استثناء من

الاستثناء أي أرسلنا إليهم لنهلكهم إلا آل لوط ﴿ إلا امرأته ﴾ كقول المقر : لفلان علي عشرة إلا ثلاثة واحداً . وجوز في الكشاف أن يكون قوله : ﴿ إلا آل لوط ﴾ مستثنى من الضمير في ﴿ مجرمين ﴾ حتى يكون الاستثناء متصلاً أي إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم . ولم لا يجوز الاستثناء من الاستثناء بناء على أن ﴿ آل لوط ﴾ مستثنى من معمول ﴿ أرسلنا ﴾ أو ﴿ مجرمين ﴾ و ﴿ إلا امرأته ﴾ من معمول ﴿ منجوهم ﴾ وقد عرفت ما فيه على أنه إذا جعل الإرسال بمعنى الإهلاك كما قرره هو آل الأمر إلى ما ذكرنا فلا أدري لم استبعده مع وفور فضله . قال أهل اللغة : قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل جعلت الشيء على مقدار غيره ، ومنه قدر الله الأقوات أي جعلها على مقدار الكفاية ، وقدر الأمور أي جعلها على مقدار ما يكفي في أبواب الخير والشر . وقيل : في معنى قدرنا : كتبنا . وقال الزجاج : دبرنا . وقيل : قضينا . والكل متقارب ، والمشدد في هذا المعنى أكثر استعمالاً وأنه جواب سؤال كأنه قيل : ما بالها استثنيت من الناجين ؟ فقيل : ﴿ قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين في الهوالك . ويقال للماضي أيضاً غابر وهو من الأضداد . قال في الكشاف : علق فعل التقدير مع أن التعليق من خصائص أفعال القلوب لأنه في معنى العلم . وإنما أسندوا الفعل إلى أنفسهم مع التقدير لله عز وجل بياناً لاختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا أو أمرنا بكذا ولعل المدبر والآمر هو

الملك وحده .

ثم إن الملائكة لما بشروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون إلى قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك إلى لوط وذلك قوله : ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون قال ﴾ أي لوط ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ تنكركم نفسي وتنفر منكم . وذلك أنهم هجموا عليه فلم يعرفهم وخاف أن يطرقوه بشر فلذلك ﴿ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ أي ما جئناك بما توهمت بل جئناك بما فيه فرجك وتشفيك من عدوك وهو العذاب الذي كنت تخوفهم به وهم يشكون في وقوعه . ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ باليقين الثابت .



وقال الكلبي : بالعذاب الذي لا شك فيه ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ﴾ أي في آخره وقدم في سورة هود وزاد ههنا قوله : ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ، ولا يخفى حالهم . ففي الآية

زيادة بيان لكيفية الإسراء ثم زاد في البيان فقال : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ ولم يستثن امرأته اكتفاء بما مر في السورة من قوله : ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته ﴾ قال جار الله : إنما أمر باتباع أدبارهم ونهى عن الالتفات ليكون فارغ البال من حالهم فيخلص قلبه لشكر الله ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب ، ولئلا يشاهدوا عذاب قومهم فيرقوا لهم مع أنهم ليسوا من أهل الرقة عليهم ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ولا يتحسروا على ما خلفوا . وجوز أن يكون النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني ، لأن من يلتفت لا بد أن يقع له أدنى وقفة ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ قال الجوهري : مضى الشيء مضياً ذهب ، ومضى في الأمر مضياً أنفذه . وقال في الكشاف : عدى ﴿ وامضوا ﴾ إلى ﴿ حيث ﴾ تعديته إلى الظرف المبهم لأن ﴿ حيث ﴾ مبهم في الأمكنة ، وكذلك الضمير في ﴿ تؤمرون ﴾ قلت : حاصل الكلام يرجع إلى قوله : اذهبوا إلى المكان الذي تؤمرون بالذهاب إليه ، أو أنفذوا أمر الذهاب إلى هنالك . عن ابن عباس : إنه الشام . وقيل : مصر . وقال المفضل : حيث يقول لكم جبرائيل وكانت قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط . ثم أخبر عن حالهم مجملاً فقال : ﴿ وقضينا ﴾ ضمن معنى أوحينا ولذلك عدي بإلى كأنه قيل : وأوحينا . ﴿ إليه ذلك الأمر ﴾ مقتضياً مبتوتاً . ثم فسر ذلك الأمر بقوله : ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾

أي يستأصلون عن آخرهم حال ظهور الصبح ودخولهم فيه . وفي هذا الإجمال والتفسير تفخيم لشأن الأمر وتعظيم له .

(261/429)

---

ثم حكى ما أبدى قوم لوط من الفعال بعد نزول الملائكة فقال : ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ أي أهل سذوم التي ضرب بقاضيها المثل فقيل أجور من قاضي سذوم . ﴿ يستبشرون ﴾ بظهور السرور بمجيء الملائكة لأنهم رأوهم مرداً حسان الوجوه ﴿ قال ﴾ لوط لما قصدوا أضيافه ﴿ إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴾ بفضيحة ضيفي لأن الضيف يجب إكرامه فإذا أسيء إليه في دار المضيف كان ذلك إهانة وفضيحة للمضيف . يقال : فضحه يفضحه فضحاً وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار ﴿ واتقوا الله ولا تخزون ﴾ مر في " هود " ﴿ قالوا ﴾ في جواب لوط ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ أي ألسنا نهيناك عن أن تكلمنا في شأن أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة ؟ وكانوا يتعرضون لكل أحد ، وكان لوط عليه السلام ينهاهم عن ذلك فأوعدوه نظيره ﴿ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ ﴿ الشعراء : 116 ] وقيل : نهوه عن ضيافة الناس وإنزالهم ﴿ قال هؤلاء بناتي ﴾ من الصلب أو أراد نساء أمته كما مر في " هود " .

قال جار الله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ شك في قبولهم لقوله كأنه قال وما أظنكم تفعلون . وقيل : إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فبما أحل الله دون ما حرم . ثم قالت الملائكة للوط عليه السلام ﴿ لعمرك ﴾ مبتدأ محذوف الخبر لكثرة الاستعمال أي قسمي أو هو ما أقسم به . والعمر والعمر بالفتح والضم واحد إلاّ أنهم خصوا القسم بالمفتوح اتباعاً للأخف ، فإن الحلف كثير الدور على ألسنتهم ﴿ إنهم لفي سكرتهم ﴾ غوايتهم التي أذهبت عقولهم حتى لم يميزوا بين خطئهم وصوابك ﴿ يعمهون ﴾ يتحيرون فكيف يقبلون قولك الذي تأمرهم به من ترك البنين إلى البنات ؟ وقيل : إنه سبحانه خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقسم بحياته صلى الله عليه وسلم كرامة له صلى الله عليه وسلم وما أقسم بحياة أحد قط وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس كان ابتداء العذاب من أو الصبح لقوله : ﴿ مصبحين ﴾ أليس الصبح بقريب ؟ وغلبته كانت عن طلوع الشمس قال المفسرون : هي صيحة جبرائيل . قلت : ويحتمل أن تكون صيحة قلب المدائن وإرسال الحجارة عليهم . قال بعض المفسرين : إنما قال : ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ وفي سورة هود ﴿ وأمطرنا

عليها ﴾ [ الآية : 82 ] لأنه أراد ههنا من شذ من القرية منهم . وقيل : سبب تخصيص هذه السورة بجمع المذكر هو بناء القصة على قوله : ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ للمتفرسين . وحقيقة التوسم التثبت في النظر حتى يعرف حقيقة سمة الشيء فعبر به عن التأمل والتفكر ﴿ وإنها ﴾ يعني تلك القرى وآثارها ﴿ لبسبيل مقيم ﴾ ثابت يسلكه الناس المارة من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثار قهر الله وغضبه هنالك . قال بعضهم : إنما جميع الآيات في قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ لأنه أشار إلى ما تقدم عن ضيف براهيم وقصة لوط وقلب المدينة وإمطار الحجارة عليها وعلى من غاب منهم . وقال في الثانية ﴿ وإنها ﴾ أي القرية



---

﴿ لبسبيل ﴾ وهذه واحدة من تلك الآيات فلذلك قال : ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ وقيل : ما جاء من القرآن من الآيات فلجمع الدلائل ، وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه ، فلما ذكر عقيبه المؤمنين وهم مقرون بوحدانيته وحد الآية نظيره في " العنكبوت " ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ [ الآية : 44 ] . ثم أجمل قصة قوم شعيب فقال : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴾ " إن " مخففة من

الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبرها . كانوا أصحاب غياض ومواضع ذات شجر فنسبوا إليها . والأيكة الشجر الملتف . والضمير في قوله : ﴿ وإنهما ﴾ يعود إلى قرى قوم لوط وإلى الأيكة .



---

وقيل : بل إلى الأيكة ومدين لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما فدل بذكر أحد الموضعين ههنا - وهو الأيكة - على الآخر ﴿ لبإمام مبين ﴾ لبطريق واضح . قال الفراء والزجاج : سمي الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع . وقال ابن قتيبة : لأن المسافر يأتم به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده . ثم ختم القصص بقصة ثمود فقال : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ وهو واد بين الشأم والمدينة . وجمع المرسلين لأن تكذيب نبي واحد - وهو صالح - كتكذيب جميع الأنبياء ، أو لأن القوم كانوا براهمة منكرين لكل الرسل ، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين ، ﴿ وآتيناهم ﴾ أي أعطينا رسولهم ﴿ آياتنا ﴾ أراد الناقة وكانت فيها آيات خروجها من الصخر وعظم خلقها وكثرة لبنها إلى غير ذلك كما حكينا في " الأعراف " ﴿ فكانوا عنها ﴾ أي عن النظر فيها والاعتبار بها ﴿ معرضين ﴾ وفيه أن التقليد مذموم والاستدلال واجب ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ من أن تنهدم

ويتداعى بنيانها أو يقع سقفهم عليهم ، أو آمنين من عذاب الله أو من حوادث الدهر . ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ لم يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ من بناء البيوت الوثيقة ومن جمع الأموال والعدد . ولم فرغ من القصص قال : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي متلبسة بالفوائد والغايات والحكم الصحيحة منها : اشتغال المكلفين بالعبادة والطاعة حتى لو تركوها وأعرضوا عنها وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير الأرض منهم ، وهذا النظم يناسب أصول الاعتزال ، قال الجبائي : فيه بطلان مذهب الجبرية الذين يزعمون أن أكثر ما خلق الله بين السموات والأرض من الكفر والمعاصي باطل . وأجيب بأن أفعال العباد من جملة ما بين السموات والأرض فوجب أن يكون الله خالقها . ويمكن أن يقال في وجه النظم : إن هذا ابتداء شروع في تسلية النبي صلى الله عليه و سلم وتصبيره على أذيات قومه بعد اقتصاص أحوال الأمم السالفة ومعاملاتهم مع



---

أنبيائهم ، ويؤيد هذا النظم قوله : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ معناه أن الله سينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم فإنه ما خلق السموات والأرض وما

بينهما إلا بالحق والعدل فكيف يليق بحكمته وفضله إهمال أمرك ؟ ولما صبره على أذى قومه رغبه في الصفح فقال : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ أي فأعرض عنهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء إن كان اللام الجنس فالمراد هذا النوع من الصفح لا الذين يشتمل على حقد واجتهال ومكر ، وإن كان للعهد فلعل المراد ما أمر به في نحو قوله : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [ الأعراف : 199 ] وقيل : هذا منسوخ بآية السيف والأظهر أن حسن المعاشرة والمخالقة مأمور به ما أمكن فلا حاجة إلى ارتكاب النسخ ﴿ إن ربك هو الخلاق ﴾ كثير الخلق ﴿ العليم ﴾ الكامل العلم يعلم ما يجري بين الخلائق من الأحوال والأخلاق وإن كثروا وكثرت فيجازيهم يوم القيامة على حسب ذلك .

وقيل : أراد أنه الذي خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم ، فاليوم الصفح أصلح فاصفحوا إلى أن يكون السيف أصلح .



---

ثم حثه على الصفح والتجاوز بذكر النعم العظام التي خصه بها فقال : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بها فاتحة الكتاب وهو قول عمر وعلي رضي الله عنهما وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك

وسعيد بن جبير وقتادة . وذلك أنها سبع آيات . والمثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية لأنها تثنى في كل صلاة . وقال الزجاج : تثنى بما يقرأ بعدها معها . وأيضاً قسمت بنصفين قسم ثناء وقسم دعاء ، وقد ورد الحديث في هذا المعنى " قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين " وقد مر في أول الكتاب . وأيضاً كلماتها مثناة مثل : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ إياك ﴾ و ﴿ إياك ﴾ ﴿ الصراط ﴾ ﴿ صراط ﴾ ﴿ عليهم ﴾ ﴿ عليهم ﴾ واشتمالها على ثناء الله تعالى وتحميده مقرر ومما يتفرع على هذا القول ما نقل القاضي عن أبي بكر الأصم أنه قال : كان ابن مسعود لا يكتب في مصحفه فاتحة الكتاب . فقيل : كأنه رأى أنه تعالى عطف عليه قوله : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ والعطف يوجب المغايرة فوجب أن تكون السبع المثاني غير القرآن . والجواب أنه قد يكون بعطف الجزء على الكل كقوله : ﴿ وملائكته وجبريل ﴾ [ البقرة : 98 ] أو بالعكس كما في الآية . والمقصود في الوصفين تميز البعض عن الكل تنبيهاً على مزية ذلك البعض وشرفه . فإن قلت : ليس لعطف لكل على البعض نظير ، والاستدلال بالآية استدلال بصورة النزاع من غير دليل . قلنا : يكفي بقوله : ﴿ ولقد آتيناك ﴾ دليلاً على أنه من القرآن . وعن ابن عمر وسعيد بن جبير في رواية : أن السبع المثاني هي السبع الطوال سميت بذلك لما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، أو لأنها تثني على الله بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى . وأنكر الربيع هذا القول لأن هذه السورة مكية وأكثر تلك السورة مدنية .

وأجيب بأن المراد من الإيتاء إنزالها إلى السماء الدنيا ، والمكية والمدنية في ذلك سيان ، وضعف بأن إطلاق لفظ الإيتاء



---

على ما لم يصل بعد إليه خلاف الظاهر . وقال قوم : السبع المثاني هي التي دون الطول والمئين وفوق المفصل ، واحتجوا عليه بما روى ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني المثاني مكان الزبور وفضلني ربي بالمفصل " قال الواحدي : والقول في تسمية هذه السور مثاني كالقول في تسمية الطول مثاني . وروي عن ابن عباس وإليه ذهب طاوس أنها هي القرآن لقوله سبحانه : ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ [ الزمر : 23 ] وأنها سبعة أسباع كرر فيها دلائل التوحيد والنبوة والتكاليف .

ومعنى العطف على هذا القول الجمعية كقوله : إلى الملك القرم وابن الهمام . وكأنه قيل : آتيناك ما هو الجامع لكونه سبعاً مثاني ولكونه قرآناً عظيماً . قال الزجاج ووافقه صاحب الكشاف : و " من " في ﴿ من المثاني ﴾ للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطول ، وللبيان إذا أردت الأسباع .

ولما عرف رسوله نعمه الدينية ورغبه فيها نفره من اللذات العاجلة الزائلة لأن كل نعمة وإن عظمت فإنها بالنسبة إلى نعمة القرآن ضيئلة حقيرة ، ومنه الحديث " من لم يتغن بالقرآن أي لم يستغن به - فليس منا " وقول أبي بكر : من أوتي القرآن فرآى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً . فمن حق قارىء القرآن الواقف على معانيه أن لا يشغل سره بالالتفات إلى الدنيا وزهرتها . قال الواحدي : إنما يكون ماداً عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه ، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمنيه . وقال في الكشاف : معنى ﴿ لا تمدن ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أي أصنافاً من الكفار قاله ابن قتيبة . وقال الجوهري : الأزواج القرناء . وقال بعضهم : لا تمدن عينيك أي لا تحسدنّ أحداً على ما أوتي من الدنيا . وضعف بأن الحسد منهي عنه مطلقاً فكيف يحسن تخصيص الرسول به ؟ ويمكن أن يجاب بأن المراد منه نهي التكوين كقوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] أو المراد الغبطة فهي محظورة عليه صلى الله عليه وسلم لجلالة منصبه وإن كانت جائزة لأمته . ويروى أنه وافت من بلاد الشام سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز

والطيب والجوهر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها ولأنفقناها في سبيل الله . فقال لهم الله عز وجل : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع . وإنما قال في هذه السورة ﴿ لا تمدن ﴾ بغير واو العطف لأنه لم يسبقه طلب بخلاف ما في سورة طه . ثم لما نهاه عن الالتفات إلى أموالهم وأمتعتهم نهاه عن الالتفات إليهم أنفسهم وإن لم يحصل لهم في قلبه قدر ووزن فقال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي على أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون ، وكما أمره بالتكبر على الأغنياء والترفع عنهم إذا كانوا كفاراً أمره بالتواضع للفقراء ، إذا



---

كانوا مؤمنين فقال : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ الخفض نقيض الرفع ، وجناحا الإنسان يداه ، وخفضهما كناية عن اللين والرفق . وإنما قال في سورة الشعراء بزيادة ﴿ لمن اتبعك ﴾ [ الآية : 215 ] لأنه قال قبله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [ الآية : 214 ] فلو لم يذكر هذه الزيادة لكان الظاهر أن اللام للعهد فصار الأمر بخفض الجناح مختصاً بالأقربين من عشيرته فزيد ﴿ لمن اتبعك ﴾ [ الشعراء : 215 ] ليعلم أن هذا التشريف شامل لجميع متبعيه من الأمة .

ولما بعثه على الرفق بأهل الإيمان أمره بالإنذار لكل المكلفين فقال : ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ ويدخل تحت كونه نذيراً كونه مبلغاً لجميع التكاليف ، لأن كل ما كان واجباً ترتب على تركه عذاب ، وكل ما كان حراماً ترتب على فعله عقاب . ويدخل في كونه مبيناً كونه شارحاً لجميع مراتب أهل التكاليف من الجنة والنار . فالإنذار بالنار والإحذار بالجنة هو الإخبار عن موجب الحرمان عنها .

(270/429)

---

وفي متعلق قوله : ﴿ كما أنزلنا ﴾ وجهان بعد ما مر به في الوقوف : أحدهما أن يتعلق بقوله : ﴿ ولقد آتيناك ﴾ أي أنزلنا ﴾ أي أنزلنا عليك ما أنزلنا ﴿ على المقتسمين ﴾ ومن هم ؟ قيل : أهل الكتاب ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أي أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة " فعلة " من عضى الشاة إذا جعلها أجزاء وأعضاء ، أو " فعلة " من عضهته إذا بهته فالمحذوف منها الهاء لا الواو . وعن عكرمة : العضه السحر بلسان قريش يقولون للساحرة عاضهة . ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة فينقصانها الهاء أيضاً . وجمعت العضة بالمعاني جمع العقلاء لما لحقها من الحذف ، فجعلوا الجمع بالواو والنون عوضاً عما لحقها من الحذف كسنين . فمعنى الآية أن اليهود اقتسموا

القرآن إلى حق وباطل وجزؤه فقالوا بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما . ويجوز أن يراد بالقرآن ما يقرأونه من كتبهم وقد اقتسموه بتحريفهم وتكذيبهم ، والإقرار بالبعض والتكذيب بالبعض كقوله : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ [ البقرة : 85 ] وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه وعداوتهم ، ولهذا وسط بين المتعلق بقوله : ﴿ لا تمدن ﴾ الآية لأنه مدد للتسلية لما فيه من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الإقبال بالكلية على المؤمنين . الوجه الثاني أن يتعلق بقوله : ﴿ النذير المبين ﴾ وعلى هذا لا يكون بد من التزام إضمار أو زيادة ، أما الإضمار فأن يكون التقدير : أنا النذير عذاباً كما أنزلنا كقولك رأيت كالقمر في الحسن أي وجهاً كالقمر ، وأما الزيادة فأن تكون الكاف زائدة كقوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [ الشورى : 11 ] ويمكن أن يقال : الكاف بمعنى مثل ولا حاجة إلى الالتزام والتقدير : أنذر قريشاً مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم إما اليهود ويراد بالعذاب ما جرى على قريظة والنضير فيكون قد جعل المتوقع بمنزلة الواقع وهو من الإعجاز لأنه

إخبار بما سيكون وقد كان ، وإما غيرهم من أهل مكة أو من قوم صالح . قال ابن عباس : هم الذين اقتسموا طرق مكة ومداخلها أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان بالله ورسوله . يقول بعضهم : لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر ، ويقول الآخر كذاب ، والآخر شاعر ، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بآفات وكانوا قريباً من أربعين ، منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب .

وقال عكرمة : اقتسموا القرآن استهزاء وكان يقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول الآخر سورة آل عمران لي وقال مقاتل : اقتسموه . قال بعضهم سحر ، وبعضهم شعر ، وبعضهم كذب ، وبعضهم أساطير الأولين . وقال ابن زيد : المقتسمون هم الذين تقاسموا بالله ليبيتن صالحاً كما سيجيء في سورة النمل ، فرمتهم الملائكة بالحجارة وقتلوهم ، وعلى هذا يكون قوله : ﴿ الذين جعلوا ﴾ منصوباً بالنذير أي أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين .

*(272/429)*

---

ثم أقسم على سبيل الوعيد فقال : ﴿ فوربك لنسألنهم ﴾ الآية وقد مر تفسير مثله في أول " الأعراف " وذلك قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ [ الأعراف : 6 ] . والأظهر أن

الضمير عائد إلى جميع المكلفين المنذرين ، وأن السؤال يكون عن جميع الأعمال ، وقد يخص الضمير بالمقتسمين والسؤال بالاقتسام . ثم شجع نبيه قائلاً ﴿ فاصدع ﴾ أي اجهر ﴿ بما تؤمر ﴾ وأظهره وفرق بين الحق والباطل . وأصل الصدع الشق والفصل ومنه سمي الصبح صديعاً كما سمي فلقاً . وصدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً . قال النحويون : الجار محذوف والمعنى بالذي تؤمر به من الشرائع مثل " أمرتك الخير " . وجوز أن تكون " ما " مصدرية أي بأمرك وشأنك مصدر من المبني للمفعول . وقالوا : وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت هذه الآية . ثم قال : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة وهذا لا ينافي آية القتال حتى يلزم النسخ على ما ظن بل يؤكدها . ثم أكد النهي عن الاكتراث بهم وقوّى قلبه فقال : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ ولا ريب أنهم طبقة ذو شوكة قدروا على الاستهزاء بالرسول مع جلالة قدره . والآية لا تفيد إلا هذا القدر لكن المفسرين ذكروا عددهم وأسماءهم مع اختلاف بينهم . والأشهر على ما رواه عروة بن الزبير أنهم خمسة نفر من الأشراف : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن الطلاطلة . وعن ابن عباس : ماتوا كلهم قبل يوم بدر . وقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه فأصاب عرقاً في عقبة فقطعه فمات . وأومأ إلى أخمص

العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال : لدغت لدغت فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي ، وأشار إلى أنف الحرث فامتخط قيحاً فمات ، وإلى



---

الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجر ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، ثم زاد في تسلية نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ من المطاعن فيك وفي القرآن لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك .

ثم أمره لكشف ما نابه بأربعة أشياء : بالتسبيح والتحميد والسجود والعبادة إلى إتيان اليقين . عن ابن عباس : هو الموت سمي بذلك لأنه أمر متيقن ولا يجب الإخلال بالعبادة ما دام المكلف حياً وهذا كما قيل في تحديد مدة طلب العلم : إنه من المهد إلى اللحد . وكيف يصير الإقبال على الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب ؟ قال المحققون : لأنه ينكشف له أضواء عالم الربوبية فيهون في نظره المصالح الدنيوية فلا يستوحش من فقدانها ولا يستأنس بوجدانها . وقال أهل السنة : إذا نزل بالعبد بعض المكاره فعليه أن يفزع إلى الله بالذكر

الدائم والسجود وسائر أنواع العبادة فكأنه يقول : وجب عليّ عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكاره. وقالت المعتزلة : من اعتقد تنزيه الله عن القبائح سهل عليه تحمل المشاق لأنه يعلم أنه تعالى عدل منزه عما لا فائدة فيه ولا غرض فيطيب قلبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 227. 237﴾

(274/429)

---

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)

ولما ذكر تعالى أحوال المتقين وأحوال غيرهم أتبع ذلك بقوله تعالى:

﴿ نبئ ﴾ أي : خبر يا أفضل الخلق ﴿ عبادي ﴾ إخباراً جليلاً ﴿ أني أنا ﴾ أي : وحدي ﴿ الغفور ﴾ أي : للمؤمنين ﴿ الرحيم ﴾ بهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء من عبادي وأني والباقون بالسكون . وأمّا الهمزة في نبئ فلم يبد لها إلا حمزة في الوقف فقط ، وكذا الهمزة من نبئهم ونقل عن حمزة كسر الهاء في الوقف .

﴿ وأنّ عذابي ﴾ أي : وحدي للعصاة ﴿ هو العذاب الأليم ﴾ أي : المؤلم . تنبيه : في هذه الآية لطائف : الأولى أنه سبحانه وتعالى أضاف العباد إلى نفسه وهذا تشريف عظيم ألا

ترى أنه قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ (الإسراء ، )

(275/429)

---

. الثانية : أنه تعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيدات بألفاظ ثلاث أوّلها : قوله تعالى : ﴿ أني ﴾ . ثانيها : قوله : ﴿ أنا ﴾ . ثالثها : إدخال حرف الألف واللام على قوله تعالى : ﴿ الغفور الرحيم ﴾ . ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب ، وما وصف نفسه بذلك ، بل قال : ﴿ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ . الثالثة : أنه أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة . والرابعة : أنه لما قال : ﴿ نبئ عبادي ﴾ كان معناه نبئ كل من كان معترفاً بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة فأمسك منها عنده تسعة وتسعين ، وأرسل في خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة . ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار" . وعن

عبادة رضي الله تعالى عنه قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لجمع نفسه إلى قتلها" . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه مرّ بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال : "أتضحكون وقد ذكر الجنة والنار نبى أيديكم فنزل ﴿ بنئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾" . ولما بالغ تعالى في تقرير النبوّة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد ، ثم ذكر تعالى عقبه أحوال القيامة ووصف الأشقياء والسعداء أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليكون سماعها مرغباً في العبادة الموجبة للفوز بدرجات الأولياء ومحذراً عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الأشقياء وافتتح من ذلك بقصة إبراهيم عليه السلام . فقال تعالى:

(276/429)

---

﴿ ونبئهم ﴾ أي : خبّر يا سيد المرسلين عبادي ﴿ عن ضيف إبراهيم ﴾ وهم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل عليه السلام . فإن قيل : الضيف هو المنضم إلى غيره لطلب القرى ؟

أجيب : بأنّ هؤلاء سموا بهذا الاسم لأنهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل أيضاً : إنّ من يدخل دار إنسان ويلتجئ إليه يسمى ضيفاً وإن لم يأكل .

﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ أي : إبراهيم وكان يكنى أبا الضيفان كان لقصره أربعة أبواب لكي لا يفوته أحد ﴿ فقالوا سلاما ﴾ أي : نسلم عليك سلاماً أو سلمت سلاماً ﴿ قال ﴾ إبراهيم عليه السلام بلسان الحال أو المقال ﴿ إنا ﴾ أي : أنا ومن عندي ﴿ منكم وجلون ﴾ أي : خائفون وكان خوفهم لامتناعهم من الأكل أو لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره .

﴿ قالوا لا توجل ﴾ أي : لا تخف ﴿ إنا ﴾ رسل ربك ﴿ نبشرك بغلام ﴾ أي : ولد ذكر في غاية القوّة ليس كأولاد الشيوخ ضعيفاً . وقرأ حمزة بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشدّدة ﴿ عليم ﴾ أي : ذي علم كثير هو إسحاق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدّم ذكر القصة هناك بأسرها ﴿ قال ﴾ إبراهيم عليه السلام

﴿ أبشرتموني ﴾ أي : بالولد وقوله : ﴿ على أن مسني الكبر ﴾ حال ، أي : مع مسه إياي . فإن قيل : كيف قال ﴿ فبم ﴾ أي : فبأيّ شيء ﴿ تبشرون ﴾ أي : بينوا لي ذلك بياناً شافياً مع أنهم قد بينوا ما بشروا به وما فائدة هذا الاستفهام ؟

أجيب : بأنه أراد أن يعرف أنّ الله تعالى هل يعطيه الولد مع بقائه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شاباً ثم يعطيه الولد ، والسبب في هذا الاستفهام أنّ العادة جارية بأنه لا يحصل في

حالة الشيخوخة التامّة ، وإنما يحصل في حال الشباب أو أنه استفهام تعجب ويدل لذلك قولهم:

(277/429)

---

﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ قال ابن عباس : يريدون بما قضاه الله تعالى والمعنى أنّ الله تعالى قضى أن يخرج من صلب إبراهيم إسحاق ويخرج من صلب إسحاق ذرية مثل ما أخرج من صلب آدم وقولهم : ﴿ فلا تكن ﴾ أي : بسبب تبشيرنا ﴿ من القانطين ﴾ أي : الآيسين ، نهي لإبراهيم عليه السلام عن القنوط ونهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كونه فاعلاً للمنهي عنه ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ (الأحزاب ، )

ثم حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه

﴿ قال ومن يقنط ﴾ أي : ييأس من هذا اليأس . ﴿ من رحمة ربه ﴾ أي : الذي لم يزل إحسانه عليه ﴿ إلا الضالون ﴾ أي : المخطئون طريق الاعتقاد الصحيح في ربهم من تمام القدرة وأنه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى ورأى إتيانهم مختفين على غير الصفة التي يأتي عليها الملك للوحي وكان هو وغيره من العارفين بالله عالمين بأنه ما ينزل الملك إلا بالحق كان ذلك

سبباً لأن يسألهم عن أمرهم ليزول وجله كله ولذلك

﴿ قال ﴾ عليه السلام ﴿ فما ﴾ بفاء السبب ﴿ خطبكم ﴾ أي : شأنكم . قال أبو حيان : والخطب لا يكاد يقال إلا في الأمر الشديد اه . وقال الرماني : إنه الأمر الجليل .

﴿ أيها المرسلون ﴾ فإنكم ما جئتم إلا لأمر عظيم يكون فصلاً بين هالك وناج .

﴿ قالوا إنا أرسلنا ﴾ أي : أرسلنا العزيز الحكيم الذي أنت أعرف الناس في هذا الزمان به ﴿ إلى ﴾ إهلاك ﴿ قوم ﴾ أي : ذوي منعة ﴿ مجرمين ﴾ أي : كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى:

(278/429)

---

﴿ إلا آل لوط ﴾ فيه وجهان أحدهما : أنه استثناء متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى أجرموا كلهم إلا آل لوط فإنهم لم يجرموا ، ويكون معنى قوله تعالى : ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ أي : لإيمانهم استئناف إخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا أو يكون الإرسال حينئذ شاملاً للمجرمين ولآل لوط لا هلاك أولئك وإنجاء هؤلاء . والثاني : أنه استثناء منقطع لأنّ آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة فيكون قوله تعالى : ﴿ إنا لمنجوهم أجمعين ﴾ جرى مجرى خبر لكن في اتصاله بآل لوط لأن المعنى لكن آل لوط

منجوهم وقرأ حمزة والكسائي بسكون النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى:

﴿ إلا امرأته ﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم على الأوّل وعلى الثاني لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل ﴿ إنا لمنجوهم ﴾ اعتراضاً وقوله تعالى:

﴿ قدّرنا ﴾ قرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد ﴿ إنها لمن الغابرين ﴾ أي: من الباقين في العذاب لكفرها .

تنبيه: معنى التقدير في اللغة جعل الشيء على مقدار غيره يقال: قدر هذا الشيء لهذا ، أي: اجعله على مقداره وقدّر الله تعالى الأقوات ، أي: جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير بالقضاء فيقال: قضى الله تعالى عليه وقدره عليه ، أي: جعله على مقدار ما يكفي في الخير والشر وقيل: معنى قدّرنا كتبنا . وقال الزجاج: دبرنا . فإن قيل: لم أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله عز وجلّ ؟



---

أجيب: بأنهم إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى كما تقول خاصة الملك دبرنا كذا وأمرنا بكذا والمدبر والآمر هو الملك لا هم وإنما يريدون بهذا الكلام

إظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك فكذا هنا . ولما بشر الملائكة عليهم السلام إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد إبراهيم عليه السلام إلى لوط وآله وهذه هي القصة الثانية المذكورة في هذه السورة قال تعالى:

﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون ﴾ ههنا همزتان مفتوحتان من كلمتين فقرأ قالون والبزي وأبو عمرو بإسقاط واحدة منهما مع المدّ والقصر . وقرأ ورش وقنبل بتسهيل الثانية وإبدالها حرف مدّ والباقون بتحقيق الهمزتين وكذا ﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ (الحجر ، )

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ لأنهم دخلوا عليه هجماً فاستنكرهم وخاف من دخولهم لأجل شر يوصلونه إليه ، ولأجل أنهم كانوا شباباً مرداً حسان الوجوه فخاف أن يهجم قومه عليهم بسبب طلبهم فقال هذه الكلمة . وقيل : إنّ النكرة ضدّ المعرفة فقوله عليه السلام ﴿ إنكم قوم منكرون ﴾ أي : لا أعرفكم ولا أعرف أنكم من أي الأقوام أنتم ، ولأيّ غرض دخلتم عليّ فعند ذلك .

﴿ قالوا ﴾ أي : الملائكة ﴿ بل جئناك بما ﴾ أي : بالعذاب الذي ﴿ كانوا ﴾ أي : قومك ﴿ فيه يمترون ﴾ أي : يشكون في نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وإن كان مكذباً من جهة ما يعرض له منه من حيث أنه لا يرجع إلى نفسه فيما هو عليه ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم : ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ أي : باليقين الذي لا يشك فيه ثم أكدوا هذا التأكيد بقولهم:

﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي : فيما أخبرناك به ﴿ فأسر بأهلك ﴾ أي : فاذهب بهم في الليل

﴿ بقطع من الليل ﴾ أي : في طائفة من الليل وقيل : هي آخره ، قال الشاعر :

*افتحي الباب وانظري في النجوم ** كم علينا من قطع ليل بهيم



---

كأنه طال عليه الليل فخاطب ضجيعته بذلك أو كان يحب طول الليل للوصال . وقرأ نافع وابن كثير بوصل همزة فأسر بعد الفاء من السرى ، والباقون بالقطع وهما بمعنى . ﴿ واتبع أدبارهم ﴾ أي : وكن على آثار أهلك وسر خلفهم وتطلع على أحوالهم ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي : لئلا يرى أليم ما نزل بهم من البلاء ، وقيل : جعل ترك الإلتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ أي : إلى المكان الذي أمركم الله بالمضيّ إليه ، قال ابن عباس : هو الشأم . وقال الفضيل : حيث يقول لكم جبريل وذلك أن جبريل أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط ، وقيل : إلى الأردن ، وقيل : إلى مصر . تنبيه : حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان مبهم ولإبهامها تعدى إليها الفعل من غير واسطة .

﴿ وقضينا ﴾ أي : وأوحينا ﴿ إليه ﴾ ولما ضمن قضينا معنى الإيحاء تعدى بإلى ومثله ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل ﴾ (الإسراء ، )

وقوله تعالى : ﴿ ذلك الأمر ﴾ مبهم تفسيره ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ أي : مستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد وقوله تعالى : ﴿ مصبحين ﴾ حال من هؤلاء أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فإن دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء ، أي : يتم استئصالهم في الصباح.

﴿ وجاء أهل المدينة ﴾ أي : مدينة من مدائن قوم لوط وهي سذوم بسين مهملة وذال معجمة وأخطأ من قال بمهملة ﴿ يستبشرون ﴾ أي : بأضياف لوط طمعاً فيهم وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤوه إلا أن القضية تدل على أنهم جاؤوا دار لوط. وقيل : إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط. وقيل : امرأة لوط أخبرتهم بذلك. قال الرازي : وبالجملة فالقوم قالوا نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجهاً ولا أحسن شكلاً منهم فذهبوا إلى دار لوط طلباً منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور ولما وصلوا إليه.



---

﴿ قال ﴾ لهم لوط : ﴿ إن هؤلاء ضيفي ﴾ أي : وحق على الرجل إكرام الضيف ﴿ فلا تفضحون ﴾ فيهم يقال : فضحه إذا أظهر من أمره ما يلزم به العار وإذا قصد الضيف بسوء

كان ذلك إهانة لصاحب المحل ثم أكد ذلك بقوله:

﴿ واتقوا ﴾ أي: خافوا ﴿ الله ﴾ في أمرهم ﴿ ولا تخزون ﴾ أي: ولا تخجلوني فيهم بقصدكم إياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهي الحياء أو لا تذلوني بسببهم من الخزي وهو الهوان.

﴿ قالوا ﴾ أي: قومه في جواب قوله لهم ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ أي: عن أن تضيف أحداً من العالمين، وقيل: أو لم ننهك أن تدخل الغرباء المدينة فإنا نطلب منهم الفاحشة، وقيل: أو لم ننهك أن تمنع بيننا وبينهم فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنهم بقدر وسعه

ثم ﴿ قال ﴾ لهم: ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ أي: نساء القوم لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهنّ وخلوا بني فلا تعرّضوا لهم ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي: ما أقول لكم أو قضاء الشهوة والكلام في ذلك قد مرّ بالاستقصاء في سورة هود وقرأ نافع بفتح ياء بناتي والباقون بسكونها قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على لسان ملائكته:

﴿ لعمرك ﴾ أي : وحياتك وما أقسم بحياة أحد غيره وذلك يدل على أنه أكرم الخلق على الله تعالى ﴿ إنهم لفي سكرتهم ﴾ أي : شدّة غفلتهم التي أزالت عقولهم ﴿ يعمهون ﴾ أي : يتحيرون الخطاب للوط عليه السلام قالت له الملائكة ذلك ، أي : فكيف يعقلون قولك ويلتفتون إلى نصيحتك . تنبيه : لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوباً وإنهم وما حيزه جواب القسم تقديره : لعمرك قسمي أو يميني إنهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه وذلك لأنّ الحلف كثير الدور على ألسنتهم بلعمري ولعمرك . ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ أي : صيحة هائلة مهلكة وهل هي صيحة جبريل عليه السلام . قال الرازي : ليس في الآية دليل على ذلك فإن ثبت بدليل قوي قيل به وإلا ليس في الآية دليل إلا أنهم جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى : ﴿ مشرقين ﴾ أي : داخلين في وقت الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول أخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب عن الصيحة معقباً لها بقوله تعالى:

﴿ فجعلنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ عاليها ﴾ أي : مدائنهم ﴿ سافلها ﴾ بأن رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ أي : أهل المدائن التي قلبت المدائن لأجلهم ﴿ حجارة من سجيل ﴾ أي : طين طبخ بالنار . تنبيه : دلت الآية الكريمة على أنّ الله تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب أحدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها : أنه جعل عاليها سافلها ، وثالثها : أنه أمطر عليهم

حجارة من سجيل ، وتقدّمت الإشارة إلى ذلك في سورة هود .

﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي : المذكور من هذه الأنواع ﴿ لآيات ﴾ أي : دلالات على وحدانية الله تعالى ﴿ للمتوسمين ﴾ أي : للناظرين المعتبرين جمع متوسم وهو الناظر في السمة حتى يعرف حقيقة الشيء وسمته .



---

﴿ وإنها ﴾ أي : هذه المدائن ﴿ لبسبيل ﴾ أي : طريق قريش إلى الشأم ﴿ مقيم ﴾ أي : لم يندرس بل يشاهدون ذلك ويرون أثره أفلا يعتبرون . ثم قال سبحانه وتعالى مشيراً إلى زيادة الحث على الاعتبار بالتأكيد

﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي : هذا الأمر العظيم ﴿ لآية ﴾ أي : علامة عظيمة في الدلالة على وحدانيته تعالى ﴿ للمؤمنين ﴾ أي : كل من آمن بالله وصدّق الأنبياء والرسل عرف أنّ ذلك إنما كان لأجل أنّ الله تعالى انتقم لأنبيائه من أولئك الجهال ، أمّا الذين لا يؤمنون بالله فإنهم يحملونه على حوادث العالم ووقائعه ، ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهي قصة شعيب عليه السلام بقوله تعالى:

﴿ وإن ﴾ مخففة من الثقيلة ، أي : وإنه ﴿ كان ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ أصحاب

الأيكة ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وقد ذكر الله تعالى قصتهم في سورة الشعراء والأيكة الشجر المتكاثف وقيل الشجر الملتف وقال ابن عباس : هي شجر المقل . وقال الكلبي : الأيكة الغيضة ، أي : غيضة شجر بقرب مدين . ﴿ لظالمين ﴾ أي : عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيباً عليه السلام .

﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي : بسبب ذلك قال المفسرون : اشتدّ الحرّ فيهم أياماً ثم اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا عن آخرهم وقوله تعالى : ﴿ وإنهما ﴾ فيه قولان : الأوّل : أن المراد قرى قوم لوط والأيكة . والقول الثاني : أنّ الضمير للأيكة ومدين ، لأنّ شعيباً كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء ضميرهما ﴿ لبإمامٍ ﴾ أي : طريق ﴿ مبين ﴾ أي : واضح والإمام اسم لما يؤتم به . قال الفراء : إنما جعل الطريق إماماً لأنه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة : لأنّ المسافر يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده ثم ذكر تعالى القصة الرابعة وهي قصة صالح عليه السلام بقوله تعالى:



---

﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر ﴾ وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم بين المدينة الشريفة والشام ﴿ المرسلين ﴾ أي : كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلاء المرسلين

بتكذيبك لأنّ الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع وهم في إثبات الرسالة بالمعجزة على حد سواء ثم أتبع ذلك قوله تعالى :

﴿ وآتيناهم ﴾ أي : بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام ﴿ آياتنا ﴾ أي : آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزات كالناقة وكان فيها آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم خلقها وقرب ولادتها وغزارة لبنها وإنما أضاف الآيات إليهم وإن كانت لنبيهم صالح عليه السلام لأنه مرسل من ربهم إليهم بهذه الآيات ﴿ فكانوا عنها ﴾ أي : الآيات ﴿ معرضين ﴾ أي : تاركيها غير ملتفتين إليها لا يتفكرون فيها ثم أخبر تعالى عنهم أنهم كانوا مثل هؤلاء في الأمن من العذاب والغفلة عما يراد بهم مع أنهم كانوا أشدّ منهم فقال تعالى:

﴿ وكانوا ينحتون ﴾ والنحت قلع جزء بعد جزء من الجسم على سبيل المسح ﴿ من الجبال ﴾ أي : التي تقدّم أنا جعلناها رواسي . ﴿ بيوتاً آمنين ﴾ عليها من الإنهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التي لا بقاء لها على أدنى درجة . وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص برفع الباء والباقون بكسرها . ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ أي : صيحة العذاب ﴿ مصبحين ﴾ أي : وقت الصبح .

﴿ فما أغنى ﴾ أي: ما دفع ﴿ عنهم ﴾ الضرّ والبلاء ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ أي: يعملون من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد . وعن جابر رضي الله تعالى عنه مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا : "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها" . ولما ذكر تعالى هذه القصص تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فإنه إذا سمع أنّ الأمم السالفة كانوا يعاملون أنبياء الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة قال تعالى:

﴿ وما خلقنا السموات والأرض ﴾ أي: على ما لها من العلوّ والسعة والأرض على ما لها من المنافع والغرائب ﴿ وما بينهما ﴾ من هؤلاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات وغير ذلك ﴿ إلا بالحق ﴾ أي: إلا خلقاً ملتبساً بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى ليعلم النشأة الآخرة بهذه النشأة الأولى ﴿ وإن الساعة ﴾ أي: القيامة ﴿ لآتية ﴾ لا محالة فيجازي الله تعالى كل أحد بعمله ثم إنه تعالى لما صبره على أذى قومه رغبّه بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم بقوله تعالى:

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ أي: أعرض عنهم إعراضاً لا جزع فيه ولا تعجل بالإنتقام منهم وهذا منسوخ بآية السيف . قال الرازي : وهو بعيد لأنّ المقصود من ذلك أن يظهر

الخلق الحسن والصفو والصفح فكيف يصير منسوخاً اه. والأوّل جرى عليه البغوي وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الأمر بقوله:

(286/429)

---

﴿ إنّ ربك ﴾ أي: المحسن إليك الآمر لك بهذا ﴿ هو ﴾ أي: وحده ﴿ الخلاّق ﴾ أي: المتكرر منه هذا الفعل ﴿ العليم ﴾ أي: البالغ العلم بكل المعلومات فليست أقوالهم وأفعالهم إلا منه سبحانه وتعالى لأنه خالقها وقد علمت أنه لا يضيع مثقال ذرة فاعتمد عليه في أخذ حقك فإنه نعم المولى ونعم النصير. ولما صبره الله تعالى على أذى قومه وأمره أن يصفح الصفح الجميل، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى أفضل خلقه بها بقوله تعالى:

(287/429)

---

﴿ ولقد آتيناك ﴾ يا أفضل الخلق بما لنا من العظمة والقدرة، كما آتينا صالحاً ما تقدّم ﴿ سبعاً ﴾ يكون كل سبع منها كفيلاً بإغلاق باب أبواب من النيران السبعة وهي أم القرآن

الجامعة لجميع معاني القرآن التي أمرنا بإعادتها في كل ركعة زيادة في حفظها وتبرّكاً بلفظها وتذكراً لمعانيها وتخصيصاً لها عن بقية الذكر الذي تكفلنا بحفظه ، والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة لأنها سبع آيات وهذا ما عليه أكثر المفسرين . روي أنه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال : "هي السبع المثاني" . رواه أبو هريرة ، وقيل : المراد سبع سور وهي الطوال . واختلف في السابعة فقيل : الأنفال وبراءة لأنهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بآية البسملة ، وقيل : الحواميم السبع ، وقيل : سبع صحائف وهي الأسباع وقوله تعالى : ﴿ من المثاني ﴾ صفة للسبع وهو جمع واحده مثناة والمثناة كل شيء يثنى ، أي : يجعل اثنين من قولك : ثنيت الشيء ثنيا ، أي : عطفته وضممت إليه آخر ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني ، لأنها تثنى بالفخذ والعضد ومثاني الوادي معاطفه . أما تسمية الفاتحة بالمثاني فلوجوه : الأوّل : أنها تثنى في كل صلاة بمعنى أنها تقرأ في كل ركعة . الثاني : أنها تثنى بما بعدها فيما يقرأ معها . الثالث : أنها قسمت قسمين اثنين لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين" والحديث مشهور ، وقد ذكرته في وجه تسميتها صلاة عند ذكرها . الرابع : أنها قسمان اثنان ثناء ودعاء وأيضاً النصف الأوّل منها حق الربوبية وهو الثناء ، والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء . الخامس : أنّ كلماتها مثناة مثل ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ، ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ . وأما السور

والأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته



---

الحسنى . تنبيه:

من في ﴿ من المثاني ﴾ إما للبيان أو للتبعيض ، إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال وللبيان إن أردت الأسباع . قال الزمخشريّ : ويجوز أن تكون كتب الله كلها مثاني لأنها تثنى عليه لما فيها من المواعظ المكرّرة ويكون القرآن بعضها ، وقوله تعالى : ﴿ والقرآن العظيم ﴾ أي : الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفل بخيري الدارين مع زيادات لا تحصى فيه أوجه أحدها : أنه من عطف بعض الصفات على بعض ، أي : الجامع بين هذين النعتين . الثاني : أنه من عطف العامّ على الخاص إذ المراد بالسبع إما الفاتحة وإما الطوال ، فكأنه ذكر مرّتين بجهة الخصوص ثم باندراجه في العموم . الثالث : أنّ الواو مقحمة . ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو أنه آتاه سبعاً من المثاني والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى:

﴿ لا تمدّنّ عينيك ﴾ أي : لا تشغل سرّك وخاطرك بالالتفات ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أي : أصنافاً من الكفار والزوج في اللغة الصنف وقد أوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء . قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : من أوتي القرآن فرأى أنّ أحداً أوتي في الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغّر عظيماً وعظّم صغيراً . وتأوّل سفيان بن عيينة هذه الآية بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن" ، أي : لم يستغن . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿ لا تمدّنّ عينيك ﴾ أي : لا تتمنّ ما فضلنا به أحداً من متاع الدنيا ، وقيل : أتت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في طاعة الله تعالى فقال الله تعالى : لقد أعطيتكم سبع آيات هنّ خير من هذه القوافل السبع . وقرّر الواحدي هذا المعنى فقال : إنما يكون ماداًّ عينيه إلى الشيء إذا أدام النظر نحوه وإدامة النظر إلى الشيء تدل على استحسانه وتمنيه . وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى ما يستحسن من متاع الدنيا . روي أنه نظر إلى نعم بني المصطلق وقد عوست في أبوالها وأبعارها وهو أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها إذا تركت من العمل أيام الربيع فتكثر شحومها ولحومها وهي أحسن ما تكون . وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا

تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم" . وقوله تعالى : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ نهي له عن الالتفات إليهم إن لم يؤمنوا فيخلصوا أنفسهم من النار . ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات إلى أولئك الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى:

(290/429)

---

﴿ واخفض جناحك ﴾ أي : ألن جانبك ﴿ للمؤمنين ﴾ أي : العريقين في هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم . ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به إليهم بقوله تعالى : ﴿ وقل إني أنا النذير ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم إن لم تؤمنوا . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون ﴿ المبين ﴾ أي : البين الإنذار وقوله تعالى : ﴿كما أنزلنا ﴾ أي : العذاب ﴿ على المقتسمين ﴾ قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به .

وقال عكرمة : إنهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد : هذه السورة لي . وقال آخر : هذه السورة لي ، وإنما فعلوا ذلك استهزاء به . وقال مجاهد : أنهم اقتسموا كتبهم فآمن بعضهم

ببعضها وكفر بعضهم ببعضها . وقال قتادة : أراد بالمقتسمين كفار قريش قال : سموا بذلك لأنّ أقوالهم تقسمت في القرآن فقال بعضهم : إنه سحر وزعم بعضهم أنه كهانة وزعم بعضهم أنه أساطير الأوّلين. وقال ابن السائب : سموا بالمقتسمين لأنهم اقتسموا طرق مكة ، وذلك أنّ الوليد بن المغيرة بعث رهطاً من أهل مكة قيل : ستة عشر ، وقيل : أربعين. وقال : انطلقوا فتفرّقوا على طرق مكة حيث يمر بكم أهل الموسم فإذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم : إنه مجنون وليقل بعضكم : إنه كاهن وليقل بعضكم : إنه ساحر وليقل بعضكم : إنه شاعر فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمرّ بهم من حجاج العرب وقعد الوليد بن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكماً فإذا جاؤوا سألوا عما قال أولئك فيقول : صدقوا فأهلكهم الله تعالى يوم بدر .



---

وقوله تعالى : ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ نعت للمقتسمين وقال ابن عباس : هم اليهود والنصارى جزؤوا القرآن أجزاء فآمنوا بما وافق التوراة والإنجيل وكفروا بالباقي . وقال مجاهد : قسموا كتاب الله ففرقوه وبدّدوه ، وقيل : كانوا يستهزؤون به فيقول بعضهم : سورة البقرة لي ، ويقول بعضهم : سورة آل عمران لي . وقيل : اقتسموا القرآن فقال بعضهم :

سحر . وقال بعضهم : شعر . وقال بعضهم : كذب . وقال بعضهم : أساطير الأوّلين .

وقيل : هم أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أنّ القرآن ما يقرؤونه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر وأساطير الأوّلين بأنّ غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم . ا

تنبيه : عضين جمع عضة وهي الفرقة والعضين الفرق وتقدّم معنى جعلهم القرآن كذلك وقيل : العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهي عاضهة . وفي الحديث : "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة" ، أي : الساحرة والمستسحرة وقيل : هو من العضه وهو الكذب والبهتان ، يقال : عضهه عضها وعضيهة ، أي : رماه بالبهتان وقيل : جمع عضو مأخوذ من قولهم : عضيت الشيء أعضيه إذا فرقته وجعلته أجزاء وذلك أنهم جعلوا القرآن أعضاء مفرقة فقال بعضهم : سحر . وقال بعضهم : أساطير الأوّلين . ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه على أنه يسأل هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين بقوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ فيكون الضمير عائداً على المقتسمين لأنه الأقرب ويحتمل أن يعود على جميع المكلفين لأنّ ذكرهم تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ (الحجر ، )

أي : لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين : يسألون عن لا إله إلا الله . وقال أبو العالية : يسألون عما كانوا يعبدون وما أجابوا به المرسلين . فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ (الرحمن ، )

؟

أجيب : بأنّ النفي ينصرف إلى بعض الأوقات والاثبات إلى وقت آخر لأنّ يوم القيامة يوم طويل وفيه مواقف يسألون في بعضها ولا يسألون في بعض آخر . ونظيره قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ (المرسلات ، )

. وقال في آية أخرى : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ (الزمر ، )

ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم

﴿ فاصدع ﴾ أي : اجهر بعلو وشدّة فارقاً بين الحق والباطل . وقرأ حمزة والكسائي بإشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد الخالصة . ﴿ بما ﴾ أي : بسبب ما ﴿ تؤمر ﴾ به . أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بإظهار الدعوة . روي عن عبد الله بن عبيدة قال : كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه .

﴿ وأعرض ﴾ أي : إعراض من لا يبالي ﴿ عن المشركين ﴾ بالصفح الجميل عن الأذى

والاجتهاد في الدعاء ولا تلتفت إلى لومهم إياك على إظهار الدعوة. قال بعض المفسرين كالبغوي: وهذا منسوخ بآية القتال، قال الرازي: وهو ضعيف لأنّ معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون منسوخاً. ولما كان هذا الصدع في غاية الشدّة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى عليه من الأذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللاً له:

﴿ إنا ﴾ أي: بما لنا من العظمة والقدرة ﴿ كفيناك المستهزئين ﴾ أي: شرّ الذين هم عريقون في الاستهزاء وهم خمسة نفر من رؤوساء قريش الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، ووصف سبحانه وتعالى هؤلاء بقوله تعالى:



---

﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴾ وقيل: ليس بصفة بل مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي: عاقبة أمرهم في الدارين. ولما ذكر سبحانه وتعالى أنّ قومه يسفهون عليه ولا سيما أولئك المقتسمون قال له تعالى:

﴿ ولقد نعلم ﴾ أي: نحقق وقوع علمنا ﴿ أنك ﴾ أي: على ما لم من الحلم وسعة البطان ﴿ يضيق صدرك ﴾ أي: يوجد ضيقه ويتجدد ﴿ بما يقولون ﴾ أي: من الاستهزاء

والتكذيب بك وبالقرآن لأنّ الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك فعند هذا قال تعالى:

﴿ فسبح ﴾ ملتبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ أي: نزهه عن صفات النقص. وقال الضحاك: قل سبحان الله وبحمده. وقال ابن عباس: فصلّ بأمر ربك. ﴿ وكن من الساجدين ﴾ أي: من المصلين. روي أنه صلى الله عليه وسلم "كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة". وقدّمت معناه في سورة البقرة. تنبيه: اختلف الناس كيف صار الإقبال على الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون: إذا اشتغل الإنسان بهذه الأنواع من العبادات يتنوّر باطنه ويشرق عليه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت إليها. وقال بعض الحكماء: إذا نزل بالإنسان بعض المكاره ففزع إلى الطاعات فكأنه يقول: يا رب يجب عليّ عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات فأنا عبدك بين يديك فافعل بي ما تشاء ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال ابن عباس: يريد الموت، وسمى الموت يقيناً لأنه أمر متيقن وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ (مريم).

وروى البغوي بسنده عن ابن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إليّ أن ﴿ سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾» . فإن قيل : أي : فائدة لهذا التوقيت مع أنّ كل أحد يعلم أنه إذا مات سقطت عنه العبادات ؟

أجيب : بأنّ المراد منه واعبد ربك في جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الدنيا بهذه العبادات . وعن عمر رضي الله عنه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون» . وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال : «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم . حديث موضوع . انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 3 صـ 312.298 ﴾

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) ﴾

تلك السنن العامة التي لا تتخلف ، والتي تحكم الكون والحياة ، وتحكم الجماعات والرسالات ، وتحكم الهدى والضلال ، وتحكم المصائر والحساب والجزاء . والتي انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها ، أو عرض نماذج منه في شتى هذه المجالات . .

تلك السنن شاهد على الحكمة المكنونة في كل خلق من خلق الله ، وعلى الحق الأصيل الذي تقوم عليه طبيعة هذا الخلق .

ومن ثم يعقب السياق في ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر ، الذي يتجلى في طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها . وطبيعة الدعوة التي يحملها الرسول صلى الله عليه وسلم وقد حملها الرسل قبله . ويجمع بينها كلها في نطاق الحق الأكبر الذي يربطها ويتجلى فيها ؛ ويشير إلى أن ذلك الحق متلبس بالخلق ، صادر عن أن الله هو الخالق لهذا الوجود : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ . .

فليمض الحق الأكبر في طريقه ، ولتمض الدعوة المستندة إلى الحق الأكبر في طريقها ، وليمض الداعية إلى الحق لا يبالي المشركين المستهزئين : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ . . وسنة الله ماضية في طريقها لا تتخلف . والحق الأكبر من ورائها متلبساً بالدعوة

وبالساعة وبخلق السماوات والأرض، وبكل ما في الوجود الصادر عن الخلاق العليم . .

إنها لفتة ضخمة تختم بها السورة. لفته إلى الحق الأكبر الذي يقوم به هذا الوجود . .

﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ . .

*(296/429)*

---

إن هذا التعقيب بتقرير الحق الذي تقوم به السماوات والأرض، والذي به كان خلقهما وما بينهما ، لتعقيب عظيم الدلالة، عميق المعنى، عجيب التعبير. فماذا يشير إليه هذا القول : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ ؟ إنه يوحي بأن الحق عميق في تصميم هذا الوجود : عميق في تكوينه. عميق في تدبيره. عميق في مصير هذا الوجود وما فيه ومن فيه . .

عميق في تصميم هذا الوجود. فهو لم يخلق عبثا ، ولم يكن جزافا ، ولم يتلبس بتصميمه الأصيل خداع ولا زيف ولا باطل. والباطل طارئ عليه ليس عنصراً من عناصر تصميمه.

عميق في تكوينه. فقوامه من العناصر التي يتألف منها حق لا وهم ولا خداع. والنواميس

التي تحكم هذه العناصر وتؤلف بينها حق لا يتزعزع ولا يضطرب ولا يتبدل. ولا يتلبس به هوى أو خلل أو اختلاف.

عميق في تدبيره. فبالحق يدبر ويصرف، وفق تلك النواميس الصحيحة العادلة التي لا تتبع هوى ولا نزوة، إنما تتبع الحق والعدل.

عميق في مصيره. فكل نتيجة تتم وفق تلك النواميس الثابتة العادلة؛ وكل تغيير يقع في السماوات والأرض وما بينهما يتم بالحق وللحق.

وكل جزاء يترتب يتبع الحق الذي لا يحابي.

ومن هنا يتصل الحق الذي خلق الله به السماوات والأرض وما بينهما، بالساعة الآتية لا ريب فيها. فهي آتية لا تتخلف. وهي جزء من الحق الذي قام به الوجود. فهي في ذاتها حقيقة، وقد جاءت لتحق الحق.

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾..

ولا تشغل قلبك بالحنق والحقد، فالحق لا بد أن يحق:

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾.. الذي خلق ويعلم ما خلق ومن خلق. والخلق كله من إبداعه فلا بد أن يكون الحق أصيلا فيه، ولا بد أن ينتهي كل شيء فيه إلى الحق الذي بدأ منه وقام عليه. فهو فيه أصيل وما عداه باطل وزيف طارئ يذهب، فلا يبقى إلا ذلك

الحق الكبير الشامل المستقر في ضمير الوجود .

يتصل بهذا الحق الكبير تلك الرسالة التي جاء بها الرسول . وذلك القرآن الذي أوتيه :



---

﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ .

والمثاني الأرجح أن المقصود بها آيات سورة الفاتحة السبع كما ورد في الأثر فهي تثنى وتكرر في الصلاة ، أو يثنى فيها على الله .

والقرآن العظيم سائر القرآن .

والمهم أن وصل هذا النص بآيات خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق والساعة الآتية لا ريب فيها ، يشي بالاتصال بين هذا القرآن والحق الأصيل الذي يقوم به الوجود وتقوم عليه الساعة . فهذا القرآن من عناصر ذلك الحق ، وهو يكشف سنن الخالق ويوجه القلوب إليها ، ويكشف آياته في الأنفس والآفاق ويستجيش القلوب لإدراكها ، ويكشف أسباب الهدى والضلال ، ومصير الحق والباطل ، والخير والشر والصلاح والطلاح . فهو من مادة ذلك الحق ومن وسائل كشفه وتبيانه . وهو أصيل أصالة ذلك الحق الذي خلقت به السماوات والأرض . ثابت ثبوت نواميس الوجود ، مرتبط بتلك النواميس . وليس أمراً

عارضاً ولا ذاهباً . إنما يبقى مؤثراً في توجيه الحياة وتصريفها وتحويلها ، مهما يكذب المكذبون ، ويستهزئ المستهزئون ، ويحاول المبطلون ، الذين يعتمدون على الباطل ، وهو عنصر طارئ زائل في هذا الوجود .

ومن ثم فإن من أوتي هذه المثاني وهذا القرآن العظيم ، المستمد من الحق الأكبر ، المتصل بالحق الأكبر . . لا يمتد بصره ولا تتحرك نفسه لشيء زائل في هذه الأرض من أعراضها الزوائل : ولا يحفل مصير أهل الضلال ، ولا يهمه شأنهم في كثير ولا قليل . إنما يمضي في طريقه مع الحق الأصيل :

﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين . وقل : إني أنا النذير المبين ﴾ . .

﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ . .

والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أي يتوجه . ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع.

وهي صورة طريفة حين يتصورها المتخيل. والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك المتاع الذي آتاه الله لبعض الناس رجالاً ونساء امتحاناً وابتلاء ولا يلقي إليه نظرة اهتمام، أو نظرة استجمال. أو نظرة تمن. فهو شيء زائل وشيء باطل؛ ومعه هو الحق الباقي من المثاني والقرآن العظيم.

وهذه اللفتة كافية للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي مع الرسول، والمتاع الصغير الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل. يليها توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إهمال القوم المتمتعين، والعناية بالمؤمنين، فهؤلاء هم أتباع الحق الذي جاء به، والذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما؛ وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارئ على صميم الوجود..

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾..

ولا تهتم لمصيرهم السيئ الذي تعلم أن عدل الله يقتضيه، وأن الحق في الساعة يقتضيه. ودعهم لمصيرهم الحق.

﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾..

والتعبير عن اللين والمودة والعطف بخفض الجناح تعبير تصويري، يمثل لطف الرعاية وحسن المعاملة ورقة الجانب في صورة محسوسة على طريقة القرآن الفنية في التعبير.

﴿ وقل: إني أنا النذير المبين ﴾..

فذلك هو طريق الأصيل . . ويفرد الإنذار هنا دون التبشير لأنه الأليق بقوم يكذبون ويستهزئون ، ويتمتعون ذلك المتاع البراق ، ولا يستيقظون منه لتدبر الحق الذي تقوم عليه الدعوة ، وتقوم عليه الساعة ، ويقوم عليه الكون الكبير .

﴿ وقل : إني أنا النذير المبين ﴾ . . تلك القولة التي قالها كل رسول لقومه ؛ ومنهم بقايا الأقوام التي جاءها أولئك الرسل بتلك النذارة البينة التي جئت بها قومك . . وكان منهم في الجزيرة العربية اليهود والنصارى . . ولكن هذه البقايا لم تكن تتلقى هذا القرآن بالتسليم الكامل ، إنما كانت تقبل بعضه وترفض بعضه ، وفق الهوى ووفق التعصب وهؤلاء هم الذين يسميهم الله هنا : ﴿ المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ . .

(299/429)

---

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ . .

وهذه السورة مكية . ولكن الخطاب بالقرآن كان عاماً للبشر . ومن البشر هؤلاء المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين ( والعضة : الجزء . من عضى الشاة أي فصل بين أعضائها ) . . وهم مسؤولون عن هذه التفرقة . وقد جاءهم القرآن بالنذارة البينة ، كما

جاءتهم كتبهم من قبل . ولم يكن أمر القرآن ولا أمر النبي بدعاً لا عهد لهم به . فقد أنزل الله عليهم مثله ، فكان أولى أن يستقبلوا الجديد من كتاب الله بالقبول والتسليم . .

وحين يصل السياق إلى هذا الحد ، يتجه بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمضي في طريقه . يجهر بما أمره الله أن يبلغه . ويسمي هذا الجهر صدعا أي شقا دلالة على القوة والنفاذ . لا يقعده عن الجهر والمضي شرك مشرك فسوف يعلم المشركون عاقبة امرهم .

ولا استهزاء مستهزئ فقد كفاه الله شر المستهزئين :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ؛ إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ . .

والرسول صلى الله عليه وسلم بشر لا يملك نفسه أن يضيق صدره وهو يسمع الشرك بالله ، ويسمع الاستهزاء بدعوة الحق . فيغار على الدعوة ويغار على الحق ، ويضيق بالضلال والشرك . لهذا يؤمر أن يسبح بحمد ربه ويعبده ، ويلوذ بالتسبيح والحمد والعبادة من سوء ما يسمع من القوم . ولا يفتر عن التسبيح بحمد ربه طوال الحياة ، حتى يأتيه اليقين الذي ما بعده يقين . . الأجل . . فيمضي إلى جوار ربه الكريم :

﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

ويكون هذا ختام السورة . . الإعراض عن الكافرين واللواذ بجوار الله الكريم . أولئك الكافرين الذين سيأتي يوم يودون فيه لو كانوا مسلمين . .



---

إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة؛ والجهر بكل مقوّماتها وكل مقتضياتها . ضرورة في الحركة بهذه الدعوة؛ فالصدع القوي النافذ هو الذي يهز الفطرة الغافية؛ ويوقظ المشاعر المتبلدة؛ ويقيم الحجة على الناس ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ﴾ أما التدسس الناعم بهذه العقيدة؛ وجعلها عضين يعرض الداعية منها جانبا ويكتم جانبا ، لأن هذا الجانب يثير الطواغيت أو يصد الجماهير ! فهذا ليس من طبيعة الحركة الصحيحة بهذه العقيدة القوية .

والصدع بحقيقة هذه الحقيقة لا يعني الغلظة المنفرة ، والخشونة وقلة الذوق والجلافة ! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني التدسس الناعم ، وكتمان جانب من حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب ، وجعل القرآن عضين . . لا هذه ولا تلك . . إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة؛ في وضوح جلي ، وفي حكمة كذلك في الخطاب ولطف ومودة ولين وتيسير .

" وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان . . لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ؛ ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل . . فالجاهلية هي الجاهلية ، والإسلام هو الإسلام . . الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد والقيم والموازين ، من مصدر آخر غير المصدر الإلهي . . والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام ".

وهذه الحقيقة الأساسية الكبيرة هي التي يجب أن يصدع بها أصحاب الدعوة الإسلامية ، ولا يخفوا منها شيئًا ؛ وأن يصروا عليها مهما لاقوا من بطش الطواغيت وتملل الجماهير :

﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2152. 2156﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : في بشارة إبراهيم إشارة إلى أن الطالب الصادق وإن كان مسناً ضعيف القوى كما قيل : الصوفي بعد الأربعين بارد . فإنه ينبغي أن لا يقنط من رحمة الله ، ويتقرب إليه بالأعمال القلبية ليتقرب إليه ربه بأصناف الألطاف وجذبات الأعطاف ، فيخرج من صلب روحه ورحم قلبه غلاماً عليماً بالعلوم اللدنية وهو واعظ الله الذي في قلب المؤمن ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ لأصحاب القلوب المتوسمين بشواهد أحكام الغيب . وما خلقنا سموات الأرواح وأرض الأشباح ، وما بينهما من النفوس والقلوب والأسرار والخفيات ﴿ إلا بالحق ﴾ أي إلا لمظهر الحق ، ومظهره هو الإنسان المخصوص بذلك من بين سائر المخلوقات ﴿ وإن الساعة ﴾ يعني قيامة العشق ﴿ لآتية ﴾ لنفوس الطالبين الصادقين من أصحاب الرياضات لأن أنفسهم تموت بالرياضة ومن مات فقد قامت قيامته ﴿ فاصفح ﴾ أيها الطالب الصادق عن النفس المرتاضة بأن تداويها وتواسيها ، فإن في قيامة العشق يحصل من تزكية النفس في لحظة واحدة ما لا يحصل بالمجاهدة في سنين كثيرة ومن هنا قيل : جذبة من جذبات الرحمن توازي عمل الثقلين . ﴿ إن ربك هو الخلاق ﴾ لصور المخلوقات ولمعانيها ولحقائقها ﴿ العليم ﴾ بمن خلقه مستعداً لمظهرية ذاته وصفاته ومظهريتهما وليس ذلك في السموات والأرض وما بينهما إلا الإنسان الكامل وغيره مختص

بمظهرية الصفات دون الذات وان كان ملكاً فلهذا قال : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً ﴾ أي سبع صفات ذاتية لله تبارك وتعالى : السمع والبصر والكلام والحياة والعلم والإرادة والقدرة ﴿ من المثاني ﴾ أي من خصوصية المظهرية ، والمظهرية الذات والصفات . ﴿ والقرآن العظيم ﴾ ولهذا صار خلقه عظيماً لأنه كان خلقه القرآن ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً ﴾ من أهل الدنيا والآخرة ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ بهذا المقام ليصلوا بجناح همتك إليه ﴿ على المتقسمين ﴾ الذين قسموا قهر الله على أنفسهم فصاروا مظاهر القهر ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ أي



---

جزؤوه في الاستعمال فقوم قرأوه ليقال لهم القراء وبه يأكلون ، وقوم حفظوه ليقال لهم الحفاظ وبه يجرّون الرزق ، وقوم حصلوا تفسيره وتأويله إظهاراً للفضل وطلباً للشهرة ، وقوم استنبطوا معانيه وفقهه على وفق آرائهم ومذاهبهم فكفروا إذ فسروا القرآن برأيهم .

﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ الذين يستعملون الشريعة بالطبيعة استهزاء بدين الله ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴾ من الهوى والدنيا ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ لأنك لست منهم ﴿ وكن من الساجدين ﴾ سجدة الشكر ﴿ واعبد ربك ﴾ بالإخلاص ﴿ حتى

يأتيك اليقين ﴾ أي إلى الأبد لأن كل مقام يحصل فيه اليقين بالعيان بعد العرفان فإنه يحصل فوقه مقام آخر مشكوك فيه إلى أن يحصل برد اليقين فيه أيضاً ، فهناك مراتب لا تتناهى فاليقين يكون إشارة إلى الأبد والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 4 صـ 238.237﴾

(303/429)

---

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة فيما تقدم من الآيات : ما قالوه مما ملخصه ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغفور الرحيم ﴾ [ الحجر : 49 ] أي أخبرهم بأني أغفر خطرات قلوب العارفين بعد إدراكهم مواضع خطرها وتداركهم ما هو مطلوب منهم وأرحمهم بأنواع الفيوضات وأوصلهم إلى أعلى المكاشفات والمشاهدات ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ العذاب الأليم ﴾ [ الحجر : 50 ] وهو عذاب الاحتجاب والطرد عن الباب .

وقال ابن عطاء هذه الآية إرشاد له صلى الله عليه وسلم إلى كيفية الإرشاد كأنه قيل : أقم عبادي بين الخوف والرجاء ليصح لهم سبيل الاستقامة في الطاعة فإن من غلب عليه رجاؤه عطله ومن غلب عليه خوفه أقنطه وذكر بعضهم أن فيها إشارة إلى ترجيح جانب

الخوف على الرجاء لأنه سبحانه أجرى وصفي الرحمة على نفسه عز وجل ولم يجر العذاب على ذلك السنن ، وأنت تعلم أن المذكور في كثير من الكتب أنه ينبغي للإنسان أن يكون معتدل الرجاء والخوف إلا عند الموت فينبغي أن يكون رجاؤه أزيد من خوفه ؛ وفي المقام كلام طويل يطلب من موضعه ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الحجر : 72 ] قال النووي : أي بحياتك التي خصصت بها من بين العالمين ، وقال القرشي : هذا قسم بحياة الحبيب صلى الله عليه وسلم .

(304/429)

---

وإنما أقسم سبحانه بها لأنها كانت به تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [ الحجر : 75 ] أي المتفرسين ، وذكروا أن للفراسة مراتب فبعضها يحصل بعين الظاهر ، وبعضها ما يدركه آذان العارفين مما ينطق به الحق بألسنة الخلق ، وبعضها ما يبدو في صورة المتفرس من أشكال تصرف الحق سبحانه وانطاقه وجوده له حتى ينطق جميع شعرات بدنه بألسنة مختلفة فيرى ويسمع من ظاهر نفسه ما يدل على وقوع الأمور الغيبية ، وبعضها ما يحصل بحواس الباطن حيث وجدت بلطفها أوائل المغيبات باللائحة ، وبعضها ما يحصل من النفس الأمارة بما يبدو فيها من التمني والاهتزاز وذلك سر محبته فإن الله تعالى إذا أراد فتح

باب الغيب ألقى في النفس آثار بواديه إما محبوبة فتتمنى وإما مكروهة فتنفر فتفزع ولا يعرف ذلك إلا رباني الصفة ، وبعضها ما يحصل للقلب إما بالإلهام وإما بالكشف ، وبعضها ما يحصل للعقل وذلك ما يقع من أثقال الوحي الغيبي عليه ، وبعضها ما يحصل للروح بالواسطة وغير الواسطة ، وبعضها ما يحصل لعين السر وسمعه ؛ وبعضها ما يحصل في سر السر ظهور عرائس أقدار الغيبة ملتبسات بأشكال إلهية ربانية روحانية فيبصر تصرف الذات في الصفات ويسمع الصفات بوصف الحديث والخطاب من الذات بلا واسطة وهناك منتهى الكشف والفراسة .

وسئل الجنيل رضي الله تعالى عنه عن الفراسة فقال : آيات ربانية تظهر في أسرار العارفين فتنطق ألسنتهم بذلك فتصادف الحق ، ولهم في ذلك عبارات أخر .



---

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ [ الحجر : 85 ] روى عمرو بن دينار عن محمد بن الحنفية عن أبيه عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : الصفح الجميل صفح لا توبيخ فيه ولا حقد بعده مع الرجوع إلى ما كان قبل ملابسة المالفة ، وقيل : الصفح الجميل مواساة المذنب برفع الخجل عنه ومداواة موضع آلام الندم في قلبه ﴿ وَلَقَدْ ءاتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني ﴾ وهي

الصفات السبعة أعني الحياة والعلم والقدرة والإرادة والبصر والسمع والكلام ، ومعنى كونها مثاني أنها ثمى وكرر ثبوتها له صلى الله عليه وسلم ، فكانت له عليه الصلاة والسلام أولاً : في مقام وجود القلب وتخلقه بأخلاقه واتصافه بأوصافه ، وثانياً : في مقام البقاء بالوجود الحقاني ، وقيل : معنى كونها مثاني أنها ثواني الصفات القائمة بذاته سبحانه عز وجل ومواليدها ، وجاء "لا زال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أجببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به" الحديث ﴿ والقرآن العظيم ﴾ [ الحجر : 87 ] وهو عندهم : الذات الجامع لجميع الصفات ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ [ الحجر : 88 ] إلى آخره .

(306/429)

---

قال بعضهم في ذلك غار الحق سبحانه عليه عليه الصلاة والسلام أن يستحسن من الكون شيئاً ويعيره طرفه وأراد منه صلى الله عليه وسلم أن تكون أوقاته مصروفة إليه وحالاته موقوفة عليه وأنفاسه النفيسة حبيسة عنده ، وكان صلى الله عليه وسلم كما أراد منه سبحانه ولذلك وقع في المحل الأعلى ﴿ مَا زَاغَ البصر ومَا طغى ﴾ [ النجم : 17 ] ﴿ فَسَبّح بِحَمْدِ رَبّكَ وَكُنْ مّنَ الساجدين واعبد رَبّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [ الحجر : 98 ،

99 ] قد مر عن الكشف ما فيه مقنع لمن أراد الإشارة من المسترشدين ، هذا وأسأل الله سبحانه أن يحفظنا من سوء القضا ويمن علينا بالتوفيق إلى ما يحب ويرضى بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين ما جرى في تفسير كتاب الله تعالى قلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 12 صـ ﴾

(307/429)

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1)

الإعراب

(الر) حروف مقطّعة لا محلّ لها من الإعراب (تلك) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين ، في محلّ رفع مبتدأ ، و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (آيات) خبر مرفوع (الكتاب) مضاف إليه مجرور (قرآن) معطوف على الكتاب بالواو مجرور (مبين) نعت القرآن مجرور .

والجملة الاسمية لا محلّ لها ابتدائيّة .

[سورة الحجر (15) : آية 2]

رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2)

الإعراب

(ربما) كافّة ومكفوفة (يودّ) مضارع مرفوع (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو ضمير متّصل في محلّ رفع فاعل (لو) حرف مصدريّ (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) في محلّ رفع اسم كان (مسلمين) خبر كانوا منصوب ، وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤوّل (لو كانوا مسلمين) في محلّ نصب مفعول به عامله يودّ .

جملة : " يودّ الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الّذين) .

وجملة : "كانوا مسلمين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (لو) .

البلاغة

1 - التعبير بالضد : في قوله تعالى رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ اختلف علماء البلاغة في المراد بهذا التعبير . وقد قرر النحاة أن ربما لا تدخل إلا على الماضي ؟

و ما المراد بمعنى التقليل الذي تفيده رب؟ وقد أجيب عن الأول بأن المترقب في أخبار الله تعالى بمثابة الماضي المقطوع به في تحققه، فكأنه قيل ربما ود، وأجيب عن الثاني بأن هذا مذهب وارد على سنن العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك. وربما ندم الإنسان على ما يفعل، ولا يشكون في ندامته ولا يقصدون تقليله. والعقلاء يتحرزون من التعرض من المظنون، كما يتحرزون من المتيقن الثابت. وهذا الجواب جميل، ولكن الأجمل منه أن يقال: إن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده.

[سورة الحجر (15): آية 3]

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3)

الإعراب

(ذرهم) فعل أمر مبنيّ على السكون.. و (هم) ضمير متّصل في محلّ نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنت (يأكلوا) مضارع مجزوم جواب الطلب وعلامة جزمه حذف النون.. و (الواو) فاعل (الواو) عاطفة (يتمتّعوا) مثل يأكلوا ومعطوف عليه (الواو) عاطفة (يلههم) مضارع مجزوم معطوف على يأكلوا وعلامة الجزم حذف حرف العلّة.. و (هم) مثل الأول (الأمل) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) حرف استقبال (يعلمون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون.. و (الواو)

فاعل، ومفعول يعلمون محذوف تقديره عاقبة أمرهم.

جملة: "ذرهم... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يأكلوا.... " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء.

أي إن تتركهم يأكلوا..

وجملة: "يتمتّعوا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يأكلوا.

وجملة: "يلههم الأمل... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يأكلوا.

جملة: "سوف يعلمون" في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن يشغلهم أمر الدنيا فسوف يعلمون.

الصرف:

(الأمل)، مصدر سماعيّ لفعل أمل، وزنه فعل بفتحتين.

[سورة الحجر (15): آية 4]



---

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (أهلكنا) فعل ماض وفاعله (من) حرف جرّ زائد - لاستغراق الجنس - (قرية) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به (إلّا) للحصر (الواو) واو الحال (اللام) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (كتاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (معلوم) نعت لكتاب مرفوع.

جملة: "أهلكنا... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لها كتاب... " في محلّ نصب حال من قرية لوجود الواو.

الصرف:

(معلوم)، اسم مفعول من علم الثلاثيّ، وزنه مفعول.

[سورة الحجر (15): آية 5]

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5)

الإعراب

(ما) حرف نفي (تسبق) مضارع مرفوع (من) حرف جرّ زائد - لاستغراق الجنس - (أمّة) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل تسبق (أجلها) مفعول به منصوب.. و (ها) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول (يستأخرون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل.

جملة: "ما تسبق... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما يستأخرون" لا محلّ لها معطوفة على جملة ما تسبق..

[سورة الحجر (15) : الآيات 6 إلى 7]

وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (قالوا) فعل ماض وفاعله (يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و (ها) حرف تنبيه



(الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب عطف بيان من أيّ - أو بدل - (نزّل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نزّل) ، (الذكر) نائب الفاعل مرفوع (إنّك) حرف مشبه بالفعل - ناسخ - ، و (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة للتوكيد (مجنون) خبر إنّ مرفوع.

جملة: "قالوا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "النداء وجوابها" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "نزّل عليه الذكر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: "إنّك لمجنون " لا محلّ لها جواب النداء .

(لوما) أداة عرض (تأتينا) مضارع مرفوع، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء . . و

(نا) ضمير مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (بالملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بـ

(تأتينا)، (إن) حرف شرط جازم (كنت) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على

السكون في محلّ جزم فعل الشرط . .

و(التاء) ضمير في محلّ رفع اسم كان (من الصادقين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كنت،

وعلامة الجرّ الياء .

وجملة: "تأتينا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة: "كنت من الصادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه

ما قبله أي: إن كنت من الصادقين في ما تدّعيه فأتنا بالملائكة

الصرف:

(مجنون)، اسم مفعول من الثلاثيّ جنّ، وزنه مفعول .

[سورة الحجر (15): آية 8]

ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8)

الإعراب

(ما) نافية (ننزّل) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (الملائكة) مفعول به منصوب (إلّا) للحصر (بالحق) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من الملائكة " 1 "، (الواو) عاطفة (ما) مثل الأول (كانوا) فعل ماض ناقص و (الواو) اسم كان (إذا) حرف جواب لا عمل له (منظرين) خبر كانوا منصوب، وعلامة النصب الياء.

جملة: " ما ننزّل... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " ما كانوا.. منظرين " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

البلاغة

- اللف والنشر المشوش: في قوله تعالى ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ. فالكلام مسوق منه سبحانه إلى نبيه صلّى اللّه عليه واله وسلّم جوابا عن مقالتهم المحكية وردا لاقتراحهم الباطل الصادر عن محض التعصب والعناد وهو قوله لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ أما رده على مقالتهم الأولى وهي إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ فهو قوله تعالى الذي سيأتي إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ.

[سورة الحجر (15): آية 9]

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9)

الإعراب

(إنّ) حرف توكيد ونصب.. و (نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (نحن) ضمير منفصل

مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 2 " . (نزّلنا) فعل ماض وفاعله (الذكر) مفعول به منصوب

(الواو) عاطفة (إنّا) مثل الأول (اللام)

---

(1) أو متعلّق بـ (ننزّل) ، والباء للاستعانة . . وجعله الزمخشريّ نعتا لمفعول مطلق

محذوف أي إلّا تنزيلا متلبّسا بالحقّ .

(2) أو ضمير مستعار لمحلّ النصب توكيد لاسم إنّ .

(311/429)

---

حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (حافظون) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد

(حافظون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " إنّا نحن نزّلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نحن نزّلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " نزّلنا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ نحن .

وجملة : " إنّا له لحافظون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة الحجر (15) : الآيات 10 إلى 11]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

(11)

الإعراب

(312/429)

---

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) مثل نزّلنا " 1 " ، (من قبلك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا) ، و (الكاف) ضمير مضاف إليه (في شيع) جارّ ومجرور متعلّق بنعت للمفعول المقدّر أي أرسلنا رسلا في شيع . . (الأوّلين) مضاف إليه مجرور ، وعلامة الجرّ الياء " 2 " .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

(الواو) عاطفة (ما) حرف نفي (يأتيهم) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء . . و (هم) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ زائد (رسول) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يأتي (إلّا) للحصر (كانوا) فعل ماض

---

(1) في الآية السابقة (9) .

(2) وهو في الأصل نعت لمنعوت محذوف أي شيع الأمم الأولين .

ناقص . . و (الواو) اسم كان (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يستهزئون) وهو مضارع مرفوع. و (الواو) فاعل .

وجملة : " ما يأتيهم من رسول . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا " 1 " .

وجملة : " كانوا . . يستهزئون " في محلّ نصب حال من مفعول يأتيهم .

وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا . " 2 "

الصرف :

(شيع) ، جمع شيعة ، اسم للفرقة المتّفقة على طريق ، وفي المصباح : كلّ قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة . ثمّ صارت اسما لجماعة مخصوصة ، ووزن شيعة فعلة بكسر فسكون ، ووزن شيع فعل بكسر ففتح .

البلاغة

اللف والنشر المشوش في قوله تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ثم أردف ذلك بقوله ولقد أرسلنا من قبلك إلى آخر الآية أي أن هذا ديدنهم وديدن الجاهلية مع جميع الأنبياء فلا تبتئس واقتد بمن قبلك وتأس بهم .

يطلق على :

[سورة الحجر (15) : الآيات 12 إلى 13]

كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13)

---

(1) أو على جملة القسم المقدّرة.

(2) أو من رسول، ولا تصحّ نعتا لرسول.



---

الإعراب

(الكاف) حرف جرّ وتشبيه (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نسلك، والإشارة إلى الاستهزاء والتكذيب، و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (نسلكه) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم و (الهاء) ضمير مفعول به " 1 "، (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نسلكه)، (المجرمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

جملة: " نسلكه... " لا محلّ لها استئنافيّة.

(لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير

في محلّ جرّ متعلّق بـ (يؤمنون) والباء سببيّة، والضمير عائد على الإشارة " 2 "، (الواو) استئنافيّة (قد) حرف تحقيق (خلت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، و (التاء) للتأنيث (سنّة) فاعل مرفوع (الأولين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

وجملة: "لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تفسير لـ (نسلكه) - " 3 ".

وجملة: " خلت سنّة الأولين " لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) اختلف المفسّرون في إعادة الضمير، فقال الزمخشريّ يعود على الذكر، والإشارة عنده إلى السلك، وقال ابن عطيّة يعود على الاستهزاء والشرك، ويروى عن مجاهد: نسلك التكذيب، وأبو حيّان يختار قول ابن عطيّة . . .

(2) يجوز أن يتعلّق (به) بمحذوف حال من فاعل يؤمنون المنفي أي مستهزئين به.

(3) أو في محلّ نصب حال من الضمير في نسلكه أي: غير مؤمن به - على صيغة اسم المفعول - وضمير الغائب هو الذكر. [. . . . .]

البلاغة

- التشبيه التمثيلي: في قوله تعالى كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ إلخ....

ففي الكلام تشبيه تمثيلي للعناد المستحوذ عليهم، والعناد الراسخ في صدورهم، وتفصيل ذلك أن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويداءاتها كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين، فكذب به هؤلاء، وصدّق به هؤلاء كل على علم وبينة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن فأعلمهم الله تعالى من الآن، وهم في مهلة وإمكان، إنهم ما كفروا إلا على علم، معاندين باغين، ليكون أدحض لأية حجة يختلقونها، وأنفى لكل ادعاء يدعون به.

[سورة الحجر (15) : الآيات 14 إلى 15]

وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (فتحنا) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (فتحنا)، (بابا) مفعول به منصوب (من السماء) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (بابا)، (الفاء) عاطفة (ظلّوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على

الضمّ . . و (الواو) اسم ظلّ (في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(يعرجون) وهو مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل .

جملة : " فتحنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ظلّوا . . يعرجون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يعرجون " في محلّ نصب خبر ظلّوا .

(اللام) واقعة في جواب لو (قالوا) فعل ماض وفاعله (إنّما) كافّة مكفوفة (سكّرت) فعل

ماض مبنيّ للمجهول . . و (التاء) للتأنيث (أبصارنا) نائب الفاعل مرفوع . . و (نا)

مضاف إليه (بل) للإضراب الانتقالي (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (قوم)

خبر مرفوع (مسحورون) نعت لقوم مرفوع، وعلامة الرفع الواو .

(316/429)

---

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

وجملة : " سكّرت أبصارنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نحن قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مسحورون) ، جمع مسحور ، اسم مفعول من سحر الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

البلاغة

1 - الاستعارة : في قوله تعالى إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا فقد أرادوا بذلك أنه فسدت أبصارنا واعتراها خلل في إحساسها كما يعتري عقل السكران ذلك فيختل إدراكه .

2 - وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على أنهم يبتنون القول بذلك ، وأن ما يرونه لا حقيقة له ، وإنما هو أمر خيل إليهم بالسحر . وإيضاح ذلك أنهم قالوا :

" إنما " وهي تفيد الحصر في المذكور آخرا ، فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير ، فكأنهم قالوا سكرت أبصارنا لا عقولنا . ونحن وإن كنا نتخيل بأبصارنا هذه الأشياء ، لكنا نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه ، أي لا حقيقة له . ثم قالوا " بل " كأنهم أضربوا عن الحصر في الأبصار وقالوا بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر صنعه لنا .

[سورة الحجر (15) : الآيات 16 إلى 20]

وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (17) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جعلنا) فعل ماض وفاعله (في السماء) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جعلنا) بمعنى خلقنا " 1 "، (بروجا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (زيّناها) مثل جعلنا.. و (ها) مفعول به (للناظرين) جارّ ومجرور متعلّق بحال من ضمير الغائب " 2 ".

جملة: " جعلنا... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.

وجملة: " زيّناها... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا.

(الواو) عاطفة (حفظناها من كلّ) مثل زيّناها للناظرين، والجارّ متعلّق

---

(1) إن كان متعدّيا لاثنين فالجارّ متعلّق بمحذوف هو المفعول الثاني.

(2) أو متعلّق بـ (زيّناها) واللام للتمليك المعنوي.



---

بـ (حفظناها)، (شيطان) مضاف إليه مجرور (رجيم) نعت لشيطان مجرور.

وجملة: " حفظناها... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناها.

(إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل " 1 "، (استرق) فعل ماض، والفاعل هو وهو العائد (السمع) مفعول به منصوب (الفاء)

عاطفة (أتبعه) مثل استرق . . و (الهاء) مفعول به (شهاب) فاعل مرفوع (مبين) نعت لشهاب مرفوع.

وجملة: "استرق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة: "أتبعه شهاب . . . " لا محل لها معطوفة على جملة الصلة.

(الواو) عاطفة (الأرض) مفعول به لفعل محذوف على الاشتغال يفسّره ما بعده (مددناها) مثل زيّناها (الواو) عاطفة (ألقينا) مثل جعلنا (في) حرف جر و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ألقينا) ، (رواسي) مفعول به منصوب (وأنبتنا فيها) مثل وألقينا فيها (من كلّ) جارّ ومجرور نعت لمقدّر أي أنواعا من كلّ شيء (شيء) مضاف إليه مجرور (موزون) نعت لشيء مجرور.

وجملة: " (مددنا) الأرض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلنا . . .

وجملة: "مددناها (المذكورة) " لا محلّ لها تفسيريّة.

وجملة: "ألقينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (مددنا) الأرض.

وجملة: "أنبتنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (مددنا) الأرض.

(الواو) عاطفة (جعلنا) مثل الأول (اللام) حرف جرّ و (كم) ضمير في

---

(1) أي لكن من استرق السمع خطفه الشهاب . . أو من استرق السمع سمع من خبرها شيئا . وأجاز أبو البقاء العكبريّ أن يكون (من) مبتدأ خبره جملة أتبعه والفاء زائدة لمشابهة المبتدأ للشرط وحينئذ فالاستثناء منقطع .

محلّ جرّ متعلّق بـ (جعلنا) بمعنى خلقنا " 1 " (فيها) مثل السابق متعلّق بـ (جعلنا) ، (معايش) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على معايش " 2 " ، (لستم) فعل ماضي ناقص جامد مبنيّ على السكون . . و (تم) ضمير اسم ليس (اللام) حرف جرّ و (الهاء) في محلّ جرّ متعلّق برازقين (الباء) حرف جرّ زائد (رازقين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " جعلنا لكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (مددنا) الأرض .

وجملة : " لستم . . برازقين " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الصرف :

(شهاب) ، اسم جامد للجرم المحترق النازل من السماء ، وزنه فعال بكسر الفاء ، جمعه شهب بضمّتين .

(موزون) ، اسم مفعول من وزن الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(معايش) ، جمع معيشة اسم لما يعيش به الإنسان مدّة حياته من مطعم ومشرب . .

وملبس، ووزن معيشة مفعلة بفتح الميم وكسر العين، وفيه إعلال بالتسكين حيث سكّنت الياء ونقلت حركتها إلى العين قبلها. لم تقلب الياء همزة في (معايش) لأنها أصلية.

البلاغة

- المجاز: في قوله تعالى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ أي مقدر بمقدار معين

---

(1) إن كان متعدّيا لاثنين فالجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف هو المفعول الثاني.

(2) وهو - على رأي الزجّاج - مفعول به لفعل محذوف تقديره أعشنا من لستم.. وقيل هو مبتدأ خبره محذوف لدلالة المعنى عليه أي: من لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش. وقال الكوفيّون ومعهم الأخفش هو في محلّ جرّ معطوف على الضمير في (لكم).

(319/429)

---

تقتضيه الحكمة، فهو مجاز مستعمل في لازم معناه، أو كناية أو من كل شيء مستحسن متناسب من قولهم: كلام موزون.

[سورة الحجر (15): آية 21]

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (إن) نافية (من) حرف جرّ زائد (شي ء) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (إلّا) للحصر (عندنا) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم، و (نا) ضمير مضاف إليه (خزائنه) مبتدأ مؤخّر مرفوع.

و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) نافية (ننزّله) مضارع مرفوع، و (الهاء) مفعول به، والفاعل نحن للتعظيم (إلّا) مثل الأولى (بقدر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ننزّله) "1"، (معلوم) نعت لقدر مجرور.

جملة: "إن من شي ء إلّا ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "عندنا خزائنه ... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (شي ء).

وجملة: "ننزّله ... " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

الصرف:

(قدر)، اسم لما يقدّره اللّه، وتعلّق الإرادة في أوقاتها، وزنه فعل بفتحتين.

البلاغة

- الاستعارة: في قوله تعالى وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ. حيث شبهت مقدوراته تعالى الغائبة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة في كونها مستورة

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من المفعول أي متلبّسا بقدر معلوم.

"

عن علوم العالمين ، ومصونة عن وصول أيديهم بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية ، وجوز أن يكون قد شبه اقتداره تعالى على كل شيء وإيجاده لما يشاء بالخزائن المودعة فيها الأشياء المعدة لأن يخرج منها ما شاء ، فذكر ذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية .

الفوائد

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ .

إن " هذه نافية ، ولذلك جاءت بعدها " من " وهي حرف جرّ زائد ورد لإفادة التوكيد .

ول " إن " عدة أنواع . وقد استوفينا الحديث بشأنها في أماكن سابقة لذلك اجتزأنا بأن نذكر بها فحسب .

[سورة الحجر (15) : الآيات 22 إلى 25]

وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (أرسلنا ) فعل ماض وفاعله (الرياح) مفعول به منصوب (لواقح) حال منصوبة (الفاء ) عاطفة (أنزلنا . . . ماء ) مثل أرسلنا الرياح (من السماء ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزلنا ) ، (الفاء ) عاطفة (أسقينا ) مثل أرسلنا و (الكاف) ضمير مفعول به و (الميم) لجمع الذكور و (الواو) زائدة إشباع حركة الميم و (الهاء ) ضمير مفعول به ثان (الواو) حاليّة (ما ) نافية عاملة عمل ليس (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسمها (اللام) حرف جرّ و (الهاء ) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخازنين (الباء : حرف جرّ زائد (خازنين) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنزلنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسلنا .

وجملة : " أسقيناكموه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا .

وجملة : " ما أنتم . . . بخازنين " في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (أسقيناكم) " 1 " .

(الواو) عاطفة (إنّا ) حرف توكيد ونصب . . و (نا ) ضمير في محلّ نصب اسم إن (اللام) المزحلقة للتوكيد (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، خبره جملة نحيي (نحيي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل نحن للتعظيم (الواو)

عاطفة (نميت) مضارع مرفوع (نحن) مثل الأول (الوارثون) خبر نحن الثاني مرفوع وعلامة الرفع الواو.

وجملة: "إنّا لنحن... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسقيناكموه.

وجملة: "نحن نحيي... " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "نحيي... " في محلّ رفع خبر نحن.

وجملة: "نميت... " في محلّ رفع معطوفة على جملة نحيي.

وجملة: "نحن الوارثون" في محلّ رفع معطوفة على جملة نحن نحيي.

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (علمنا) مثل أرسلنا (المستقدمين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (من) حرف جرّ و (كم) ضميرا في محلّ جرّ متعلّق بحال من المستقدمين (ولقد علمنا المستأخرين) مثل المتقدّمة.

---

(1) أي حالة كونكم غير قادرين على إيجاده.



---

وجملة: "قد علمنا... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر... وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّا لنحن..

وجملة : " قد علمنا (الثانية) " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجملة القسم المقدّرة معطوفة على جملة القسم الأولى .

(الواو) عاطفة (إنّ) مثل الأول (ربك) اسم إنّ منصوب . . و (الكاف) مضاف إليه (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يحشرهم) مثل نميت . . و (هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (إنّه) مثل إنّا (حكيم) خبر إنّ مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " إنّ ربّك هو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّرة .

وجملة : " هو يحشرهم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يحشرهم . . . " في محلّ رفع خبر هو .

وجملة : " إنّه حكيم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(322/429)

---

الصرف :

(لواقح) ، جمع لاقحة مؤنّث لاقح ، اسم فاعل من لقح الثلاثيّ " 1 " ، وزنه فاعل .

(خازنين) ، جمع خازن ، اسم فاعل من خزن الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(المستقدمين) ، جمع المستقدم ، اسم فاعل من استقدم السداسيّ ، وزنه مستفعل بضمّ

الميم وكسر العين.

(المستأخرين)، جمع المستأخر، اسم فاعل من استأخر السداسيّ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين.

---

(1) يقال إنّه جمع ملقح بضمّ الميم وكسر القاف من ألقح الرباعيّ وجمعه ملاقح ثمّ حذفت الميم تخفيفا. وفي المختار ألقح الفحل الناقة والريح السحاب، وريح لواقح ولا تقل ملاقح وهو من النوادر اه. وفي المحيط: ألقحت الرياح الشجر فهي لواقح وملاقح.



---

البلاغة

- التشبيه البليغ: في قوله تعالى وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ اللواقح جمع لاقح بمعنى حامل، ووصف الرياح بذلك على التشبيه البليغ شبهت الريح المحملة بالسحاب الماطر بالناقة الحامل، لأنها حاملة لذلك السحاب أو للماء الذي فيه والمراد ملقحات للسحاب أو الشجر، فيكون قد أستعير اللقح لصب المطر في السحاب أو الشجر.

[سورة الحجر (15): الآيات 26 إلى 27]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ

السَّمُومِ (27)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (لقد خلقنا الإنسان) مثل لقد علمنا المستقدمين " 1 " ، (من صلصال) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلقنا) ، (من حمأ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لصلصال " 2 " ، (مسنون) نعت لحمأ مجرور .

جملة : " خلقنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . وجملة القسم المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة .

(الواو) عاطفة (الجانّ خلقناه) مثل الأرض " 3 " مددناها (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (خلقناه) ، (من نار) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلقناه) ، (السموم) مضاف إليه مجرور .

---

(1) في الآية (24) من هذه السورة .

(2) أو هو بدل من صلصال بإعادة الجارّ .

(3) في الآية (19) من هذه السورة .

وجملة: " (خلقنا) الجانّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خلقنا الإنسان.

وجملة: " خلقناه . . . " لا محلّ لها تفسيريّة.

الصرف:

(صلصال) ، اسم للطين اليابس، وزنه فعلال.

(حمأ) ، اسم للطين الأسود، وزنه فعل بفتحتين.

(مسنون) ، اسم مفعول من سنّ الثلاثيّ، وزنه مفعول.

(الجانّ) ، اسم جمع للجنّ، وهو على وزن فاعل، جمعه جنّان بكسر الجيم وفتح النون المشدّدة.

(السموم) ، اسم للريح الحارّة أو النار التي لا دخان لها، وزنه فعول فتح الفاء.

[سورة الحجر (15) : الآيات 28 إلى 29]

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (29)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر

(قال) فعل ماض (ربّك) فاعل مرفوع . .

و(الكاف) مضاف إليه (للملائكة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قال) ، (إنّي) مثل إنّا " 1 "

(خالق) خبر إنّ مرفوع (بشرا) مفعول به لاسم الفاعل خالق، منصوب (من صلصال من حمأ مسنون) مرّ إعرابها " 2 " والمجرور الأول متعلّق بخالق.

---

(1) في الآية (23) من هذه السورة.

(2) في الآية (26) من هذه السورة.



---

جملة: " قال ربك... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " إنّي خالق... " في محلّ نصب مقول القول.

(الفاء) عاطفة (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (سوّيت) فعل ماض مبنيّ على السكون.. و(التاء) فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (نفخت) مثل سوّيت (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نفخت)، (من روحي) جارّ متعلّق بنفخت وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء.. و(الياء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قعوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون...

و(الواو) فاعل (له) فيه متعلّق بـ (قعوا) " 1 "، (ساجدين) حال منصوبة وعلامة النصب

الياء.

وجملة: "سوّيته... "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "نفخت... "في محلّ جرّ معطوفة على جملة سوّيته.

وجملة: "قعوا... "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

[سورة الحجر (15): الآيات 30 إلى 31]

فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (سجد) فعل ماض (الملائكة) فاعل مرفوع (كلّهم) توكيد معنويّ للملائكة مرفوع مثله و (هم) ضمير متّصل مضاف إليه (أجمعون) توكيد معنويّ ثان مرفوع، وعلامة الرفع الواو.

جملة: "سجد الملائكة... "لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أو متعلّق بساجدين.. [.....]

(إلّا) أداة استثناء (إبليس) اسم منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل على الخلاف المعروف بحقيقة إبليس هل هو من الملائكة أو لا (أبى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف، والفاعل هو (أن) حرف نصب ومصدريّ (يكون) مضارع ناقص منصوب، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر يكون (الساجدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء.

والمصدر المؤوّل (أن يكون...) في محلّ نصب مفعول به عامله أبي "1".

وجملة: "أبى..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

[سورة الحجر (15): آية 32]

قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32)

الإعراب

(قال) فعل ماض، والفاعل هو (يا) حرف نداء (إبليس) منادى مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب مفرد علم (ما) اسم استفهام - للتوبيخ - مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ما (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية (تكون مع الساجدين) مثل يكون مع الساجدين "2"، واسمه أنت والمصدر المؤوّل (ألّا تكون ...) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف هو في متعلّق بمحذوف حال، أي: مالك في ألّا تكون مع الساجدين.. أي ما عذرك حالة كونك غير ساجد مع الآخرين.

جملة: " قال ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يا إبليس مالك ... " في محلّ نصب مقول القول. " 3 "

---

(1، 2) أي أبى كونه ساجدا .. والسيوطيّ جعل المصدر مجرورا بحرف جرّ محذوف أي من كونه ساجدا ...

(3) في الآية (31) السابقة.



---

وجملة: " مالك ... " لا محلّ لها جواب النداء.

[سورة الحجر (15) : آية 33]

قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33)

الإعراب

(قال) مثل السابق " 1 "، (لم) حرف نفي وجزم (أكن) مضارع ناقص مجزوم، واسمه ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) لام الجحود (أسجد) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود، والفاعل أنا (لبشر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسجد).

والمصدر المؤوّل (أن أسجد ...) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر أكن.

(خلقته) مثل سوّيته " 2 " (من صلصال . . . مسنون) مرّ إعرابها " 3 " .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " لم أكن . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أسجد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: " خلقته . . . " في محلّ جرّ نعت لبشر.

[سورة الحجر (15) : الآيات 34 إلى 35]

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (35)

الإعراب

(قال) مثل السابق " 4 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر

---

(1) في الآية (32) السابقة.

(2) في الآية (29) من هذه السورة.

(3، 4) في الآية (26) من هذه السورة.

(اخرج) فعل أمر ، والفاعل أنت (من) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(اخرج) ، (الفاء) تعليليّة (إنّك) حرف توكيد ونصب . . و (الكاف) ضمير في محلّ

نصب اسم إنّ (رجيم) خبر إنّ مرفوع .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اخرج . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن لم ترض السجود فاخرج

. . وجملة الشرط المقدّرة في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّك رجيم " لا محلّ لها تعليليّة .

(الواو) عاطفة (إنّ) مثل الأول (على) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق

بخبر إنّ مقدّم (اللعنة) اسم إنّ مؤخّر منصوب (إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق باللعنة " 1 " ،

(الدين) مضاف إليه مجرور .

وجملة : " إنّ عليك اللعنة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّك رجيم .

البلاغة

- الكناية : في قوله تعالى فَإِنَّكَ رَجِيمٌ أي مطرود من كل خير وكرامة ، فإن من يطرد يرجم

بالحجارة فالكلام من باب الكناية .

[سورة الحجر (15) : آية 36]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36)

الإعراب

(قال) فعل ماض، والفاعل هو إبليس (ربّ) منادى مضاف محذوف منه أداة النداء، منصوب، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف.. و (الياء) المحذوف مضاف إليه (الفاء) رابطة

---

(1) أو متعلّق بالاستقرار الذي هو خبر.



---

لجواب شرط مقدّر (انظرني) فعل أمر دعائيّ و (النون) للوقاية و (الياء) ضمير مفعول به، والفاعل أنت (إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنظر)، (يبعثون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون.. و (الواو) نائب الفاعل.

جملة: "قال..." لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "النداء وجوابها" في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "انظرني..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن طردتني ولعنتني فأنظرني.. وجملة الشرط المقدّرة لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "يبعثون" في محلّ جرّ مضاف إليه.

[سورة الحجر (15) : الآيات 37 إلى 38]

قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38)

الإعراب

(قال) مثل السابق " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (إنّك) مرّ إعرابه " 2 " ، (من المنظرين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّك من المنظرين " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت الإنظار فإنّك من المنظرين ، وجملة الشرط المقدّر في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) في الآية (36) .

(2) في الآية (34) من هذه السورة .



---

(إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق بالمنظرين (الوقت) مضاف إليه مجرور (المعلوم) نعت للوقت مجرور .

[سورة الحجر (15) : الآيات 39 إلى 40]

قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)

الإعراب

(قال ربّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (الباء) حرف جرّ " 2 " ، (ما) حرف مصدريّ (أغويتني) فعل ماض وفاعله . . و (النون) للوقاية ، و (الياء) ضمير مفعول به (اللام) لام القسم (أزيّننّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع و (النون) للتوكيد ، والفاعل أنا (اللام) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أزيّننّ) ، (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بحال من مفعول أزيّننّ المقدّر أي : أزيّننّ لهم المعاصي كائنة في الأرض " 3 " .

والمصدر المؤوّل (ما أغويتني) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم أي : أقسم بإغوائك لأزيّننّ " 4 " .

(الواو) عاطفة (لأغوينّهم) مثل لأزيّننّ ، و (هم) ضمير مفعول به (أجمعين) توكيد لضمير الغائب هم منصوب - أو حال منه - وعلامة النصب الياء .

---

(1) في الآية 36 .

(2) هي للسببيّة عند بعض المفسّرين لأن القسم بالإغواء غير متعارف ، وهي باء القسم عند آخرين لأن الإغواء يقسم به بكونه من فعل اللّه . . .

(3) أو حال من الضمير في (لهم) .

(4) انظر الآية (16) من سورة الأعراف فهي نظير هذه في الإعراب، وفيها مزيد من توضيح في تعليق الباء وجواز جعلها سببيّة.



---

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " النداء وجوابها " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أغويتني " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة: " أزيننّ لهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجملة القسم وجوابها جواب النداء.

وجملة: " أغوينّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

(إلّا) أداة استثناء (عبادك) مستثنى منصوب . . و (الكاف) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من عبادك (المخلصين) نعت لعبادك منصوب، وعلامة النصب الياء.

الفوائد

- قوله: رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي.



بعض النحاة اعتبر أن "الباء" للقسم وكأنه يقول: اقسم بإغوائك إياي، ونحن لا نرى هذا الرأي فالباء هنا سببية، فهو يقول: سوف أزّين لهم في الأرض وأغويهم أجمعين بسبب اغوائك إياي، فالمعنى على هذا الوجه أقرب للسليقة العربية وأغنى عن التقدير الذي لا حاجة إليه.

[سورة الحجر (15): الآيات 41 إلى 44]

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (44)

الإعراب

(قال) فعل ماض، والفاعل هو (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (صراط) خبر مرفوع (على) حرف جرّ و (الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لصراط

(مستقيم) نعت ثان مرفوع .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هذا صراط . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل (عبادي) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (ليس) فعل ماض ناقص جامد (اللام) حرف جرّ و (الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ليس (عليهم) مثل عليّ متعلّق بحال من سلطان - نعت تقدّم على المنعوت - (سلطان) اسم ليس مؤخّر (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع " 1 " ، (اتّبعك) فعل ماض ، و (الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل هو وهو العائد (من الغاوين) جارّ ومجرور حال من ضمير الفاعل .

وجملة : " إنّ عبادي ليس . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق .

وجملة : " ليس لك . . سلطان " في محلّ رفع خبر إنّ .

(الواو) عاطفة (إنّ جهنّم) مثل إنّ عبادي ، ومنع جهنّم من التنوين للعلميّة والتأنيث (اللام) المزحلقة للتوكيد (موعدهم) خبر إنّ مرفوع . .

و(هم) مضاف إليه (أجمعين) توكيد للضمير في موعدهم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

---

(1) قيل هو استثناء لأنّ العباد هم جميع المكلّفين استثنى منهم من اتّبع الشيطان . . أمّا المنقطع فلأن جميع العباد ليس للشيطان عليهم سلطان . واتّباعهم له بالتزيين .



---

وجملة : " إنّ جهنّم لموعدهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ عبادي . .

(لها) مثل لك متعلّق بخبر مقدّم (سبعة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أبواب) مضاف إليه مجرور (لكلّ) جارّ ومجرور خبر مقدّم (باب) مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من (جزء) " 1 " وهو مبتدأ مؤخّر مرفوع (مقسوم) نعت لجزء مرفوع.

وجملة : " لها سبعة أبواب " في محلّ رفع خبر ثان ل (إنّ) " 2 " .

وجملة : " لكلّ باب . . جزء . . . " في محلّ رفع نعت لسبعة أبواب والرابط مقدّر أي لكلّ باب منها . . " 3 " .

الصرف :

(جزء) ، اسم لبعض الشيء من جزأ يجزأ باب فتح ، وزنه فعل بضمّ فسكون ، جمعه أجزاء زنة أفعال . ومثل الجزء بالضمّ الجزء بالفتح والجزاء بالفتح أيضا .

(مقسوم) ، اسم مفعول من قسم الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

البلاغة

1 - الإيجاز : في قوله تعالى قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ولعله من أبلغ الإيجازات ، لأنه قسيم الإيجاز بالحذف ، فهو إيجاز بالتقدير . وهو قسمان : أحدهما ما ساوى لفظه معناه ، وثانيهما ما زاد معناه على لفظه ويسمى بالقصر ، إذ يدل لفظه على محتملات عديدة ومشتملات كثيرة ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه

---

(1) جزء بمعنى فريق أو حزب. [. . . . .]

(2 ، 3) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .



---

وفي عدتها ، بل يستحيل ذلك فقوله " هذا " إشارة تدل على القرب فكأنه يشير إلى ما هو على مرأى من عيونهم ، ومسمع من آذانهم ، وبين متناول أيديهم ، وصراط تدل على الطريق المسلوكة التي تفضي بسالكها إلى حيث يختار لنفسه من مذاهب لكن الطريق قد تكون معوجة ملتوية كثيرة المنعطفات ، فيتيه السالك في متاهاتها ، وتلتبس عليه أوجه الاستهداء في سلوكها ، فجاء بكلمة " مستقيم " والمستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين وأقل

انحراف يخرجه عن سنن الاستقامة وحدودها . وكلمة " علي " تعني الإلزام والإيجاب ، تقول علي عهد الله لأفعلن كذلك ، فتشعر أنك قد ألزمت نفسك بما هو حق مفروض الأداء . ثم إن الإشارة تضمنت كل ما يحتويه الاستثناء فيما بعد وهو قوله إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ فكأنه أخذ على نفسه وأوجب على ذاته حقا لا انفكاك له عنه وهو تخليص المخلصين من إغوائه .

2 - التهكم :

قوله سبحانه وتعالى إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لا يخفى ما في جعل جهنم موعدا لهم من التهكم والاستعارة فكأنهم على ميعاد ، وفيه أيضا إشارة إلى أن ما أعد لهم فيها مما لا يوصف في الفظاعة .

[سورة الحجر (15) : الآيات 45 إلى 48]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48)

الإعراب

(إنّ المتّقين) مثل إنّ عبادي " 1 " ، وعلامة النصب في المتّقين

---

(1) في الآية (42) من هذه السورة .

الياء (في جنّات) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (عيون) معطوف على جنّات بالواو مجرور .

جملة : " إنّ المتّقين في جنّات " لا محلّ لها استئنافيّة .

(ادخلوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الواو) فاعل و (ها ) ضمير مفعول به

(بسلام) جارّ ومجرور حال من الفاعل (آمنين) حال ثانية " 1 " من ضمير الفاعل منصوبة ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " ادخلوها . . . " في محلّ نصب لقول مقدّر أي تقول لهم الملائكة ادخلوها . .

(الواو) عاطفة (نزعنا ) فعل ماض وفاعله (ما ) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به

(في صدورهم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما . . .

و(هم) مضاف إليه (من غلّ) جارّ ومجرور حال من العائد في الصلة المقدّرة (إخوانا ) حال من الضمير الغائب في صدورهم " 2 " ، (على سرر) جارّ ومجرور نعت لـ (إخوانا ) ،

(متقابلين) نعت ثان منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " نزعنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(لا) نافية (يمسّهم) مضارع مرفوع ، و (هم) ضمير مفعول به (في) حرف جرّ و (ها ) ضمير

في محلّ جرّ متعلّق بفعل يمسّ (نصب) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع اسم ما (منها) مثل فيها متعلّق بـ (مخرجين) (الباء) حرف جرّ زائد

---

(1) هذا إذا كان السلام بمعنى التحيّة، وأما إذا كان السلام بمعنى الأمان وضدّ الخوف فجاز أن يكون (آمنين) بدلا من الحال الأولى.

(2) لأنّ المضاف جزء من المضاف إليه، ويجوز أن يكون حالا من فاعل ادخلوها - قاله العكبريّ - وجاز مجيء الحال جامدة لأنها موصوفة.



---

(مخرجين) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما، وعلامة النصب الياء.

وجملة: "لا يمسّهم.. نصب" في محلّ نصب حال من الضمير في متقابلين "1".

وجملة: "ما هم منها بمخرجين" في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال.

الصرف:

(سرر)، جمع سرير، اسم لما يجلس عليه موطّأ للسرور، وهو مأخوذ منه لأنه مجلس سرور، وزنه فعيل.

(متقابلين) ، جمع متقابل ، اسم فاعل من تقابل الخماسيّ ، وزنه متفاعل بضمّ الميم وكسر العين.

(مخرجين) ، جمع مخرج ، اسم مفعول من أخرج الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين.

[سورة الحجر (15) : الآيات 49 إلى 52]

نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52)

الإعراب

(نبّئ) فعل أمر ، والفاعل أنت (عبادي) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . و (الياء) مضاف إليه (أنّ) حرف توكيد ونصب و (الياء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (الغفور) خبر مرفوع (الرحيم) خبر ثان مرفوع.

---

(1) أو لا محلّ لها استئنافيّة . .

(2) أو ضمير منفصل في محلّ نصب توكيد لاسم أنّ ، وأستعير لمحلّ النصب ، وكونه فصلا ضعيف لأن ما بعده لا يلتبس بالصفة.

والمصدر المؤوّل (أنّي أنا الغفور . . ) في محلّ نصب سدّ مسدّ المفعولين لثاني والثالث لفعل نبّأ .

جملة : " نبّيء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنا الغفور . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

(الواو) عاطفة (أنّ عذابي هو العذاب الأليم) مثل أنّي أنا الغفور الرحيم .

والمصدر المؤوّل (أن عذابي . . . ) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل السابق .

وجملة : " هو العذاب . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

(الواو) عاطفة (نبّئهم) مثل الأول . . و (هم) ضمير مفعول به (عن ضيف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نبّئ) ، (إبراهيم) مضاف إليه مجرور ، وعلامة الجرّ الفتحة .

وجملة : " نبّئهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبّئ عبادي .

(إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (ضيف) " 1 " .

(دخلوا) فعل ماض وفاعله (على) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (دخلوا) ، (الفاء) عاطفة (قالوا) مثل دخلوا (سلاما) مفعول مطلق لفعل محذوف أي نسلّم سلاما (قال) فعل ماض ، والفاعل هو (إنّا) مثل إنّي (من) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (وجلون) وهو خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

(1) بكونه مصدرا . . أو متعلّق بمحذوف مضاف أي عن خبر ضيف إبراهيم إذ دخلوا . . .



---

وجملة: " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " قالوا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة دخلوا.

وجملة: " (نسلّم) سلاما " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " إنّا منكم ووجلون " في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(ضيف) ، اسم للزائر، وأصل الضيف مصدر لذلك استوى فيه الواحد والجمع في غالب كلامهم، وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان. ووزن ضيف فعل بفتح فسكون.

(وجلون) ، جمع وجل، صفة مشبّهة من وجل يوجل باب فرح، وزنه فعل بفتح فكسر.

الفوائد

- إن ورود الآية نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ على وزن البحر المجتث، ليس دليلا على

أن القرآن الكريم شعر ، لأن ذلك ورد عرضا غير مقصود لذاته ، وليس هناك من مانع أن ينطبق عليه وزن الشعر .

وهذا يدفعنا للتعرض لأوزان أبحر الشعر وأسمائها : قال الأخفش : سألت الخليل : لم سمّيت الطويل طويلا قال لأنه طال بتمام أجزائه ، قلت : فالبسيط قال : لأنه انبسط عن مدى الطويل ، قلت : فالوافر ؟ قال لوفور أجزائه وتدا بوتد ، قلت فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر ، قلت : فالهزج ، قال : لأنه يضطرب شبيه بهزج الصوت قلت فالرجز ؟ قال :



---

لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام ، قلت فالرمل ؟ قال لأنه يرمل بضم بعض إلى بعض ، قلت : فالسريع ؟ قال : لأنه يسرع على اللسان ، قلت فالمنسرح ؟ قال : لانسراحه وسهولته ، قلت : فالخفيف ؟ قال : لأنه أخف السباعيات ، قلت : فالمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من السريع ، قلت :

فالمضارع ، قال : لأنه ضارع المقتضب ، قلت فالمجتث ؟ قال : لأنه اجتث أي قطع من طويل دائرته ، قلت : فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أجزائه لأنها خماسية كلها يشبه بعضها

بعضا .

[سورة الحجر (15) : آية 53]

قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53)

الإعراب

(قالوا) ماض وفاعله (لا) ناهية جازمة (توجل) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (إنّا) مثل إنّي " 1 " ، (نبشّرك) مضارع مرفوع ، و (الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن (بغلام) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نبشّر) ، (عليم) نعت لغلام مجرور .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا توجل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّا نبشّرك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة : " نبشّرك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

البلاغة

- المجاز المرسل : في قوله تعالى قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ .

فالإنسان لا يولد غلاما عليما بالأمور إنما يولد طفلا لا يعلم شيئا ، وأطلق عليه هذين اللفظين باعتبار ما سيكون .

[سورة الحجر (15) : آية 54]

قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54)

الإعراب

(قال) فعل ماض والفاعل هو (الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ (بشّرتم) فعل ماض وفاعله و

(الواو) زائدة إشباع حركة الميم و (النون) للوقاية

---

(1) في الآية (49) من هذه السورة.



---

و (الياء) مفعول به (على) حرف جرّ (أن) حرف مصدريّ (مسّني) فعل ماض، و (النون) للوقاية، و (الياء) مفعول به (الكبر) فاعل مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أن مسّني.. ) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بحال من ضمير المتكلّم أي أ بشّرتموني كبيرا.

(الفاء) عاطفة (الباء) حرف جرّ (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تبشّرون) وهو مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون..

و (الواو) فاعل.

جملة: " قال... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "أ بشّرتموني . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "مسّني الكبر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "تبشّرون" في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

[سورة الحجر (15): آية 55]

قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55)

الإعراب

(قالوا) فعل ماض وفاعلة (بشّرنا) فعل ماض وفاعله و(الكاف) ضمير مفعول به (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (بشرنا)، (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) ناهية جازمة (تكن) مضارع ناقص مجزوم، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من القانطين) جارّ ومجرور خبر تكن، وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "بشّرناك . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "لا تكن . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف تعليليّ أي تنبّه فلا تكن من القانطين.

الصرف:

(القانطين)، جمع القانط، اسم فاعل من قنط الثلاثيّ، وزنه فاعل.

[سورة الحجر (15) : آية 56]

قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56)

الإعراب

(341/429)

---

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (من) اسم استفهام فيه معنى النفي مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يقنط) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من رحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقنط) ، (ربّه) مضاف إليه مجرور ، و (الهاء) مضاف إليه (إلّا) للاستثناء (الضالّون) بدل من فاعل يقنط مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يقنط . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول المقدّرة أي قال لا أقنط ومن يقنط . . .

وجملة : " يقنط . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ من .

الفوائد

- " من " اتفق النحاة على أن من هي في الأصل للاستفهام عن الشخص العاقل ، نحو " من

فعل هذا " ؟ وقد تشرب معنى النفي الإنكاري نحو: مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ومنه الآية التي بين أيدينا قال: وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ الا الضالون ؟ ! " .

وتأتي " من " شرطيه كقوله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ . وقد تأتى نكرة موصوفة وذلك إذا وصلت بمفرد أو سبقت بـ " ربّ " الجارة نحو " رأيت من محبّا لك " أي شخصا محبا لك . ومنه قول حسان بن ثابت .

فكفى بنا فضلا على من غيرنا حب النبي محمد إيانا

أي على قوم غيرنا

[سورة الحجر (15) : آية 57]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57)

الإعراب

(قال) كالسابق " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (خطبكم) خبر مرفوع . . و (كم) ضمير مضاف إليه (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . .

و (ها) حرف تنبيه (المرسلون) نعت لأيّ - أو بدل - تبعه في الرفع لفظا ، وعلامة الرفع الواو .

جملة: " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة: " ما خطبكم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن جئتم لسبب غير البشارة فما خطبكم . . وجملة الشرط وجوابه في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: " أيّها المرسلون " لا محلّ لها اعتراض تذييليّ.

الصرف:

(خطبكم)، اسم بمعنى الشأن، وزنه فعل بفتح فسكون.

[سورة الحجر (15): الآيات 58 إلى 60]

قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60)

الإعراب

(قالوا) فعل ماض وفاعله (إنّا) حرف مشبّه بالفعل . .

و(نا) اسم إنّ (أرسلنا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبني على السكون . .

و(نا) ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (إلى قوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أرسلنا)، (مجرمين) نعت لقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء.

---

(1) في الآية (56).

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّا أرسلنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أرسلنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(إلّا) أداة استثناء (آل) مستثنى منصوب ، متّصل أو منقطع " 1 " . (لوط) مضاف إليه مجرور (إنّا) مثل الأول (اللام) المزحلقة للتوكيد (منجّوهم) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو . . و (هم) ضمير مضاف إليه (أجمعين) توكيد معنويّ للضمير الغائب في (منجّوهم) مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " إنّا لمنجّوهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(إلّا امرأته) مثل إلّا آل . . و (الهاء) مضاف إليه ، والاستثناء من آل لوط (قدّرنا) فعل ماض وفاعله (إنّها) مثل إنّا (اللام) مثل الأولى (من الغابرين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " قدّرنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) الظاهر أنّه منقطع لأنّ المستثنى منه (قوم مجرمين) .

وجملة: "إنّها لمن الغابرين" في محلّ نصب مفعول به لفعل قدّرنا المضمّن معنى علمنا والمعلّق بـ (إنّ) المكسورة الهمزة لمجيء اللام في خبرها.

الصرف:

(منجّوهم)، جمع المنجّي أو منج، اسم فاعل من نجّى الرباعيّ، وزنه مفع، وفيه إعلال بالحذف لالتقاء الساكنين بسبب التنوين، ووزن منجّوهم مفعّوهم بضمّ الواو لأنه منقوص.

[سورة الحجر (15): الآيات 61 إلى 62]

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (قال)، (جاء) فعل ماض (آل) مفعول به مقدّم منصوب (لوط) مضاف إليه مجرور (المرسلون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو.

جملة: "جاء... المرسلون" في محلّ جرّ مضاف إليه.

(قال) مثل جاء (إنّكم) مثل إنّا "1". (قوم) خبر إنّ مرفوع (منكرون) نعت لقوم مرفوع وعلامة الرفع الواو.

وجملة: "قال..." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "إنّكم قوم . . . " في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(منكرون) ، جمع منكر، اسم مفعول من أنكر الرباعيّ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين "2".

[سورة الحجر (15) : الآيات 63 إلى 65]

قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (64) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65)

الإعراب

(قالوا) فعل ماض وفاعله (بل) للإضراب الانتقاليّ (جئناك) فعل ماض وفاعله . . و (الكاف) مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق ب (جئناك) ، (كانوا) فعل ماض ناقص واسمه

---

(1) في الآية (58) من هذه السورة.

(2) وانظر الآية (104) من سورة آل عمران، هناك اسم وهنا وصف.

(في) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يمترون) وهو مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . ومقول القول محذوف تقديره لسنا بمنكرين .

وجملة : " جئناك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يمترون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(الواو) عاطفة (أتيناك) مثل جئناك (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل أتينا أي ملتبسين بالحقّ أو من مفعوله أي ملتبسا به (الواو) عاطفة (إنّا) مثل السابق " 1 " ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (صادقون) خبر إنّ مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أسر) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (بأهلك) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسر) " 2 " . . و (الكاف) مضاف إليه (بقطع) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسر) ، (من الليل) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لقطع (الواو) عاطفة (اتّبع) مثل أسر (أدبارهم) مفعول به منصوب . . و (هم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (يلتفت) مضارع مجزوم (من) حرف جرّ و (كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بحال من أحد – نعت تقدّم على المنعوت – (أحد) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (امضوا)

فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . و (الواو) فاعل (حيث) ظرف مكان مبنيّ

---

(1) في الآية (58) من هذه السورة.

(2) أو بمحذوف حال من الفاعل. [. . . . . .]

(345/429)

---

على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (امضوا) ، (تؤمرون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . و (الواو) نائب فاعل.

وجملة: " أتيناك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جئناك.

وجملة: " إنّا لصادقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتيناك " 1 " .

وجملة: " أسر . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا أردت الخلاص من قومك فأسر بأهلك . .

وجملة: " اتّبع . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسر.

وجملة: " لا يلتفت منكم أحد " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتّبع . . .

وجملة: " امضوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا يلتفت منكم أحد . . .

وجملة: " تأمرون في محلّ جرّ مضاف إليه.

الصرف :

(امضوا) ، في إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين أصله امضيوا ، حذفت الياء بعد نقل حركتها إلى الضاد .

البلاغة

- الكناية : في قوله تعالى وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يجوز أن يكون المعنى لا ينصرف أحدكم ، ولا يتخلف لغرض ، فيصيبه ما يصيب المجرمين . فالالتفات مجاز ، لأن الالتفات إلى الشيء يقتضي محبته وعدم مفارقته فيتخلف عنده ، أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف ، لأن من يتلفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل أتيناك .

(346/429)

---

[سورة الحجر (15) : آية 66]

وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (قضينا) مثل جئنا " 1 " ، (إلى) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ

متعلّق بـ (قضينا) بتضمينه معنى أوحينا (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به

. . و (اللام) للبعد ، و (الكاف) للخطاب (الأمر) بدل من ذا - أو عطف بيان - (أنّ)

حرف توكيد ونصب (دابر) اسم أنّ منصوب (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبنيّ

في محلّ جرّ مضاف إليه (مقطوع) خبر مرفوع (مصبحين) حال منصوبة من الضمير

المستكنّ في مقطوع " 2 " ، وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤوّل (أنّ دابر . . مقطوع) في محلّ نصب بدل من الأمر جملة : " قضينا . . . "

لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مقطوع) ، اسم مفعول من قطع الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

(مصبحين) ، جمع مصبح ، اسم فاعل من أصبح الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر

العين .

[

سورة الحجر (15) : آية 67]

وَجاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (جاء) فعل ماض (أهل) فاعل مرفوع (المدينة) مضاف إليه مجرور

(يستبشرون) مضارع مرفوع . . . و (الواو) فاعل .

---

(1) في الآية (63) من هذه السورة .

(2) إنّ دابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء ، فمقطوع بمعنى مقطوعين لذلك جاءت الحال بصيغة الجمع .



---

جملة : " جاء أهل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستبشرون " في محلّ نصب حال من أهل .

[سورة الحجر (15) : الآيات 68 إلى 69]

قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (69)

الإعراب

(قال) فعل ماض ، والفاعل هو أي لوط (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (هؤلاء) تنبيه ، واسم إشارة في محلّ نصب اسم إنّ (ضيفي) خبر إنّ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الباء ، و (الياء) مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تفضحون) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . و (النون) للوقاية ،

وقبلها (الواو) فاعل و (الياء) المحذوفة لمناسبة رأس الآي مفعول به .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّ هؤلاء ضيفي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تفضحون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كنتم تكرموني فلا تفضحون وجملة الشرط المقدّر استئناف في حيّز القول .

(الواو) عاطفة (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . و (الواو) فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا تخزون) مثل لا تفضحون .

وجملة : " اتّقوا اللّه " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تفضحون .

وجملة : " لا تخزون " في محلّ جزم معطوفة على جملة لا تفضحون أو جملة اتّقوا .

*(348/429)*

---

الصرف :

(تخزون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله تخزيون - بضمّ الياء - استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى الزاي - إعلال بالتسكين - ثمّ التقى ساكنان ، (الياء) و (الواو) ، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين فأصبح تخزون ، وزنه

تفعون.

[سورة الحجر (15) : آية 70]

قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (70)

الإعراب

(قالوا) فعل ماض وفاعله (الهمزة) للاستفهام (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم (ننهك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة.. و (الكاف) ضمير مفعول به، والفاعل نحن (عن العالمين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ننهك) على حذف مضاف أي عن ضيافة العالمين، وعلامة الجرّ الياء.

جملة: "قالوا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "لم ننهك..." في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول المقدّرة. أي: ألم ننذرك وننهك عن العالمين "1".

[سورة الحجر (15) : آية 71]

قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (71)

الإعراب

(قال هؤلاء بناتي) مثل قال إنّ هؤلاء ضيفي "2"، وهنا مبتدأ وخبر "3"، (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط و (تم) في محلّ

رفع اسم كنتم (فاعلين) خبر كنتم منصوب وعلامة النصب الياء .

---

(1) أو هي جملة مقول القول على زيادة الواو .

(2) في الآية (68) من هذه السورة .

(3) وفي الكلام حذف أي فتزوّجوهنّ . . ويجوز أن يكون (بناتي) بدلا من اسم الإشارة والخبر محذوف تقديره أطهر لكم . .

*(349/429)*

---

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هؤلاء بناتي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنتم فاعلين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف تقديره فتزوّجوهنّ " 1 " .

[سورة الحجر (15) : آية 72]

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72)

الإعراب

(اللام) لام الابتداء (عمرك) مبتدأ مرفوع ، و (الكاف) مضاف إليه ، والخبر محذوف

وجوبا تقديره قسمي (إنّهم) حرف توكيد ونصب . . و (هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة – أو لام القسم – (في سكرتهم) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ ، و (هم) مضاف إليه (يعمهون) مضارع مرفوع . . و (الواو) فاعل .

جملة : " لعمرك (قسمي) . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " إنّهم لفي سكرتهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " يعمهون . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في سكرتهم " 2 " .

الصرف :

(لعمر) ، بفتح العين وسكون الميم لغة في عمر بضمّتين فهما بمعنى واحد ، وهو مدّة عيش الإنسان في الدنيا ، ولكنّ العرب التزموا بفتح العين في القسم لأنه أخفّ في اللفظ .

(سكرة) ، مصدر مرّة من سكر الثلاثيّ ، وزنه فعله بفتح الفاء .

---

(1) أو إن كنتم فاعلين ما آمركم به من الرجوع عن الغيّ فافعلوا .

(2) والعامل فيه لفظ سكرة لأنه مصدر .

[سورة الحجر (15) : الآيات 73 إلى 74]

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)

الإعراب

(الفاء) عاطفة (أخذت) فعل ماض.. و (التاء) للتأنيث و (هم) ضمير مفعول به (الصيحة) فاعل مرفوع (مشرقين) حال منصوبة من ضمير المفعول في (أخذتهم) ، وعلامة النصب الياء.

جملة: " أخذتهم الصيحة... " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر " 1 ".

(الفاء) عاطفة (جعلنا) فعل ماض وفاعله (عاليها) مفعول به منصوب.. و (ها) ضمير مضاف إليه (سافلها) مفعول به ثان.. و (ها) مثل الأول (الواو) عاطفة (أمطرنا) مثل جعلنا (على) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أمطرنا) ، (حجارة) مفعول به منصوب (من سجّيل) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لحجارة.

وجملة: " جعلنا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذتهم الصيحة.

الصرف:

(مشرقين) ، اسم فاعل مفرده مشرق من الرباعيّ أشرق أي دخل في الشروق وزنه مفعل.

[سورة الحجر (15) : الآيات 75 إلى 77]

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

---

(1) أي: فأبوا الانصياع فأخذتهم الصيحة.. وجملة أبوا معطوفة على جملة قال هؤلاء -الآية (71).

وقد عالجنا هذا الموضوع في غير موضع فعد إليه في مواطنه.

[سورة الحجر (15) : الآيات 78 إلى 79]

(351/429)

---

الإعراب

(إنّ) حرف توكيد ونصب (في) حرف جرّ (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم.. و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (اللام) الثانية للتوكيد (آيات) اسم إنّ مؤخّر منصوب وعلامة النصب الكسرة (للمتوسّمين) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لآيات، وعلامة الجرّ الياء "1".

جملة: "إنّ في ذلك لآيات" لا محلّ لها استئنافيّة.

(الواو) عاطفة (إنّها) مثل (إنّهم) "2"، (اللام) المزحلقة للتوكيد (بسبيل) جارّ ومجرور

متعلّق بخبر إنّ (مقيم) نعت لسبيل مجرور.

وجملة لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ في ذلك.

(إن في ذلك لآية للمؤمنين) مثل نظيرها: إنّ... للمتوسّمين.

والجملة لا محلّ لها استئنافيّة مؤكدّة للأولى.

الصرف:

(المتوسّمون)، جمع المتوسّم، اسم فاعل من (توسّم) الخماسيّ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين.

الفوائد

-إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ.

اللام المزحلقة: هي لام التوكيد، وتسمى أيضا لام الابتداء، وموضعها في الأصل في بدء الكلام، ولكن إذا حلّت إن في أول الكلام طردت اللام فانتقلت إلى الخبر، سواء أكان الخبر مفردا أو جملة أو شبه جملة، كما في هذه الآية وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مقيم".

---

(1) أو متعلق بآيات وهي بمعنى علامات.

(2) في الآية (72) من هذه السورة.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (79)

الإعراب

(إن) مخفّفة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف (كان) فعل ماض ناقص - ناسخ - (أصحاب) اسم كان مرفوع (الأيكة) مضاف إليه مجرور (اللام) هي الفارقة (ظالمين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء.

جملة: " (إن) ه كان... " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كان أصحاب... " في محلّ رفع خبر (إن) المخففة.

(الفاء) عاطفة (انتقمنا) فعل ماض وفاعله (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (انتقمنا)، (الواو) استئنافيّة (إنّهما) حرف مشبّه بالفعل، و(هما) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ " 1 "، (اللام) المزحلقة للتوكيد (بإمام) جارّ ومجرور متعلّق بخبر إنّ (مبين) نعت لإمام مجرور مثله.

وجملة: " انتقمنا... " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف السابقة.

وجملة: " إنّهما لبإمام... " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(الأيكة)، اسم للشجر الكثيف الملتفّ، وزنه فعلة بفتح فسكون، وقد يكون اسم علم

لمكان بعينه .

---

(1) والضمير يعود على لوط وشعيب ، وقد فهم من السياق ، أو يعود على قوم لوط وقوم شعيب .

(353/429)

---

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ مجاز مرسل علاقته الحالية ، لأن الأيكة هي شجر ملتف مزدحم .

2 - الاستعارة التصريحية : لأن الطريق سبيل للوصول ، والمسافر فيه يتبعه حتى النهاية ، فاستعمل المشبه به بدلا عن المشبه .

الفوائد

- قوله تعالى وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ اختلف النحاة اختلافا كبيرا حول ضمير التثنية في " انهما " . . ! على وجوه :

أ - قرى قوم لوط والأيكة .

ب - قيل يعودان على الأيكة ومدين لأن شعيبا كان مبعوثا لكليهما .

ج - وقيل يعود على لوط وشعيب .

(354/429)

---

د - وقيل يعود على الخبرين خبر إهلاك قوم لوط وخبر إهلاك قوم شعيب .

[سورة الحجر (15) : الآيات 80 إلى 84]

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81) وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (84)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (كذّب) فعل ماض

(أصحاب) فاعل مرفوع (الحجر) مضاف إليه مجرور (المرسلين) مفعول به منصوب ،

وعلامة النصب الياء .

جملة : "كذّب أصحاب . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

(الواو) عاطفة (آتينا) فعل ماض وفاعله و (هم) ضمير مفعول به (آياتنا) مفعول به ثان

منصوب وعلامة النصب الكسرة . . و (نا) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . و (الواو) اسم كان (عن) حرف جرّ و (ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (معرضين) وهو خبر كانوا منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب أصحاب .

وجملة : "كانوا عنها معرضين " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيناهم .

(الواو) عاطفة (كانوا) مثل الأول (ينحتون) مضارع مرفوع ، و (الواو) فاعل (من الجبال) جارّ ومجرور متعلّق بفعل ينحتون بتضمينه معنى يتّخذون (بيوتا) مفعول به منصوب (آمنين) حال من فاعل ينحتون منصوبة ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا . . معرضين " 1 " .

وجملة : "ينحتون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

(الفاء) عاطفة (أخذتهم الصيحة مصبحين) مثل أخذتهم . . مشرقين " 2 " .

---

(1) أو اعتراضيّة بين جملة آتيناهم . . وجملة أخذتهم الصيحة . . ويجوز أن تكون في محلّ نصب حال من الضمير في معرضين بتقدير قد .

(2) في الآية (73) من هذه السورة. [. . . . .]

وجملة: "أخذتهم الصيحة... "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر "1".

(الفاء) عاطفة (ما) حرف نفي (أغنى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (عن) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أغنى)، (ما) اسم موصول "2" مبنيّ في محلّ رفع فاعل، والعائد محذوف (كانوا يكسبون) مثل كانوا ينحتون "3".

وجملة: "أغنى.. ما كانوا... "لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذتهم.

وجملة: "كانوا... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "يكسبون... "في محلّ نصب خبر كانوا أي يكسبونه.

الصرف:

(الحجر)، اسم علم هو واد بين المدينة والشام، وزنه فعل بكسر فسكون.

[سورة الحجر (15): الآيات 85 إلى 86]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (86)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (ما خلقنا) مثل ما أغنى.. و (نا) فاعل (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الأرض) معطوف على

(1) أي فبغوا فأخذتهم الصيحة . . .

(2) أو حرف مصدريّ، والمصدر المؤوّل فاعل . . أو هو نكرة موصوفة، والعائد محذوف، والجملة نعت له.

(3) في الآية (82) من هذه السورة.



السموات بالواو منصوب (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما . .

و(هما) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي إلّا خلقا ملتبسا بالحقّ (الواو) عاطفة (إنّ) حرف توكيد ونصب (الساعة) اسم إنّ منصوب (اللام) المزحلقة للتوكيد (آتية) خبر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اصفح) فعل أمر، والفاعل أنت (الصفح) مفعول مطلق منصوب (الجميل) نعت للصفح منصوب.

جملة: "ما خلقنا . . إلّا" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ الساعة لآتية" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : " اصفح . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أوذيت فاصفح .

(إنّ ربّك) مثل إنّ الساعة . . و (الكاف) مضاف إليه (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (الخلّاق) خبر المبتدأ هو ، مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع.

وجملة : " إنّ ربّك . . . " لا محلّ لها تعليليّة للأمر المتقدّم .

وجملة : " هو الخلّاق . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(الصفح) ، مصدر سماعيّ لفعل صفح الثلاثيّ باب فتح ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(الجميل) . صفة مشبّهة من فعل جمل الثلاثيّ باب كرم ، فعل وزنه فعيل .

---

(1) أو ضمير فصل و (الخلّاق) خبر إنّ .

*(357/429)*

---

(الخلّاق) ، مبالغة اسم الفاعل من خلق الثلاثيّ ، وزنه فعّال .

[سورة الحجر (15) : آية 87]

وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم (قد) حرف تحقيق (آتيناك) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و (نا) فاعل، و (الكاف) مفعول به (سبعا) مفعول به ثان منصوب (من المثاني) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (سبعا) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء (الواو) عاطفة (القرآن) معطوف على (سبعا) منصوب (العظيم) نعت للقرآن منصوب.

جملة: "آتيناك . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . .

وجملة القسم استئنافيّة.

الصرف:



---

(المثاني) ، جمع المثنى وهو كلّ شيء يكرر، وقد اختلف في تفسير المثاني الواردة في الآية الكريمة فقيل هي الفاتحة لأن آياتها سبع أو لأنها تكرّر في كلّ صلاة وفي كلّ ركعة، وثمّة أقوال أخرى فيها . . وقيل إنّ المثاني هي السبع الطوال أوّلها سورة البقرة وآخرها سورة الأنفال وبراءة . . وقيل هي السور التي تبدأ بـ (حم) . . وقيل المراد بها جميع القرآن . . . إلخ، ووزن المثاني مفاعل.

الفوائد

1 - اختلف المفسرون في السبع المثاني على آراء، أوجهها رأيان:

أ- قيل انها الفاتحة، لأنها تقرأ في كل ركعة، وهي سبع آيات.

ب - وقيل هي السور السبع الطوال، لأنه تكرر بها أمور كثيرة.

[سورة الحجر (15) : الآيات 88 إلى 89]

لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89)

الإعراب

(لا) ناهية (تمدّن) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم..

و(النون) للتوكيد، والفاعل أنت (عينيك) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء و (الكاف) مضاف إليه (إلى) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق ب (تمدّن) (متّعنا) فعل ماض وفاعله (الباء) حرف جرّ و (الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق ب (متّعنا)، (أزواجا) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ و (هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت ل (أزواجا)، (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (تحزن) مضارع مجزوم، والفاعل أنت (عليهم) مثل منهم متعلّق ب (تحزن)، (الواو) عاطفة (اخفض) فعل أمر، والفاعل أنت (جناحك) مفعول به منصوب.. و (الكاف) ضمير مضاف إليه (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق ب

(اخفض) .

جملة : " لا تمدّنّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " متّعنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(359/429)

---

وجملة : " لا تحزن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تمدّنّ .

وجملة : " اخفض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تمدّنّ .

(الواو) عاطفة (قل) مثل اخفض (إنّي) حرف مشبّه بالفعل . . و (الياء)

ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أنا) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (النذير)

خبر المبتدأ أنا مرفوع (المبين) خبر ثان مرفوع .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تمدّنّ .

وجملة : " إنّي أنا النذير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا النذير . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

البلاغة

- الكناية : في قوله تعالى وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ كناية عن التواضع لهم والرفق بهم ،

وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له ، والجناحان من ابن آدم جانباه .

[سورة الحجر (15) : الآيات 90 إلى 91]

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91)

الإعراب

(الكاف) حرف جرّ وتشبيه " 2 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق " 3 " (أنزلنا) مثل متّعنا " 4 " ، (على المقتسمين) جارّ ومجرور متعلّق ب (أنزلنا) .

---

(1) يجوز أن يكون الضمير مستعارا لمحلّ النصب ، توكيدا لاسم إنّ .

(2) أو اسم بمعنى مثل مفعول مطلق .

(3) اختلف السادة المفسّرون المعربون في تقدير هذا المحذوف ، وكلّها ترجع إلى التأويل القريب أو البعيد ، وأقربها هو : آتيناك إيتاء كالذي أنزلنا على المقتسمين . . واختار أبو حيّان أن يكون نعتا لمصدر محذوف تقديره قل قولا كالذي أنزلناه على المقتسمين .

(4) في الآية (88) من هذه السورة .

جملة: "أنزلنا... "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

(الذين) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للمقتسمين "1"، (جعلوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. و (الواو) فاعل (القرآن) مفعول به منصوب (عضين) مفعول به ثان منصوب، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر.

وجملة: "جعلوا... "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

الصرف:

(المقتسمين)، جمع المقتسم أي الذي اقتسم الكتاب فآمن ببعض وكفر ببعض، وهو اسم فاعل من فعل اقتسم الخماسيّ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين.

(عضين)، جمع عضة، وأصلها عضوة من عضا الشاة إذا جعلها أعضاء، وقيل عضهة من عضهته إذا بهتّه وفي المختار: قال الكسائيّ: العضة الكذب والبهتان وجمعها عضون مثل عزة وعزون.. قيل نقصانه الواو وهو من عضوته أي فرّقته لأنّ المشركين فرّقوا أقاويلهم فجعلوه كذبا وكهانة وشعرا، وقيل نقصانه الهاء وأصله عضهة لأن العضة والعضين في لغة قريش السحر. "2"

الفوائد

- كلمة "عضين" تعرب إعراب جمع المذكر السالم فترفع بالواو وتنصب وتجر بالياء، لأنها

من ملحقاته . وكنا تعرضنا للملحقات جمع المذكر السالم ، ولاستيفاء الفائدة نفصل هنا ما أجملناه هناك :

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . والجملة استئناف بيانيّ .

(2) حاشية الجمل للجلالين .



---

الملحقات بجمع المذكر هي ما يعرب إعرابه ولم يستوف شروطه . وهي أربعة زمر :

أ – الأول ، أسماء جموع وهي " أولو ، وعالمون ، والعقود من عشرين إلى تسعين " .

ب – الثانية : جموع التكسير وهي " بنون ، وأرضون ، وسنون ، وعضون ، وعزون ، وثبوت .

ج – الثالثة جموع تصحيح لم تستوف شروط الجمع نحو " أهلون ووابلون " .

ء – الرابعة ، ما سمّي من هذا الجمع ومما ألحق به مثل : زيدون وعليون .

وهكذا عرضنا لك الفصيح من ملحقات هذا الجمع ، وسكتنا عن الشواذ خشية الإطالة .

فإن كنت ذا نفس طويل فأنشد تمام هذا البحث في المطولات من كتب النحو .

]

سورة الحجر (15) : الآيات 92 إلى 93]

فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (93)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (الواو) واو القسم (ربّك) مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره

أقسم . . و (الكاف) مضاف إليه (اللام) لام القسم (نسألنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في

محلّ رفع . . و (النون) للتوكيد ، والفاعل نحن ، و (هم) ضمير في محلّ نصب مفعول به

(أجمعين) توكيد للضمير الغائب منصوب " 1 " ، وعلامة النصب الياء .

جملة : " (أقسم) بربّك . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو حال منصوبة من الضمير المفعول .



---

وجملة : " نسألنّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

(عن) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص . .

و (الواو) اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع ، و (الواو) فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (نسألنّهم) .

وجملة: "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفيّ.

وجملة: "يعملون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الحجر (15) : الآيات 94 إلى 96]

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96)

الإعراب

(الفاء) استئنافيّة (اصدع) فعل أمر، والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبني في محلّ جرّ متعلّق بـ (اصدع)، (الواو) عاطفة (أعرض) مثل اصدع و (تؤمر) مضارع مرفوع مبنيّ للمجهول، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (عن المشركين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أعرض) .

جملة: " اصدع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " تؤمر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 2 " .

---

(1) أو موصول في محلّ جرّ، والعائد محذوف، والجملة بعده صلة . .

(2) والعائد محذوف تقديره تؤمره . . بحذف الجارّ وتعدية الفعل إلى الضمير . . ولا يصحّ

أن يكون (ما) حرفا مصدريّا إذ لا يمكن تأويل المصدر الصريح من المبنيّ للمجهول مع الحرف المصدريّ.



---

وجملة: "أعرض... " لا محلّ لها معطوفة على جملة اصدع.

(إنّا) مثل إنّي " 1 "، (كفيناك) مثل آتيناك " 2 "، (المستهزئين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء.

وجملة: "إنّا كفيناك... " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كفيناك... " في محلّ رفع خبر إنّا.

(الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت للمستهزئين " 3 "، (يجعلون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (إلها) مفعول به أوّل منصوب (آخر) نعت لـ (إلها) منصوب، ومنع من التنوين لأنه صفة على وزن أفعل (الفاء) استئنافيّة (سوف) حرف استقبال (يعلمون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل، ومفعوله محذوف أي يعلمون عاقبة أمرهم.

وجملة: "يجعلون... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "يعلمون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

البلاغة

-الاستعارة المكنية: في قوله تعالى فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ فالمستعار منه الزجاجة، والمستعار الصدع وهو الشق، والمستعار له هو عقوق المكلفين، وهو من استعارة المحسوس للمعقول، والمعنى صرح بجميع ما أوحي إليك وبين كل ما أُمرت ببيانه، وإن شق ذلك على بعض القلوب فانصدعت.

---

(1) في الآية (89) من هذه السورة. [. . . . . .]

(2) في الآية (87) من هذه السورة.

(3) أو في محلّ رفع مبتدأ خبره جملة سوف يعلمون بزيادة الفاء لمشابهة المبتدأ للشرط . . أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره . . .

(364/429)

---

[سورة الحجر (15) : الآيات 97 إلى 99]

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

الإعراب

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق " 1 " (نعلم) مضارع مرفوع، والفاعل نحن للتعظيم (أنّ) حرف توكيد ونصب و (الكاف) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (يضيق) مثل نعلم (صدرك) فاعل مرفوع و (الكاف) مضاف إليه (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (يقولون) مضارع مرفوع... و (الواو) فاعل.

والمصدر المؤوّل (أنّك يضيق...) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي نعلم.

والمصدر المؤوّل (ما يقولون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يضيق).

جملة: " نعلم... " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر.. وجملة القسم المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " يضيق صدرك... " في محلّ رفع خبر أنّ.

وجملة: " يقولون... " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سبّح) فعل أمر، والفاعل أنت (بحمد) جارّ ومجرور متعلّق بحال من فاعل سبّح أي مشتملا - أو مصحوبا - بحمد ربّك (ربّك) مضاف إليه مجرور... و (الكاف) مضاف إليه (الواو)

---

(1) لأنّ علم الله محقّق في كلّ آن.

عاطفة (كن) فعل أمر ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الساجدين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر كن .

وجملة : " سبّح . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن ضاق صدرك فسبّح .

وجملة : "كن من الساجدين " في محلّ جزم معطوفة على جملة سبّح .

(الواو) عاطفة (اعبد) مثل سبّح (ربّك) مفعول به منصوب . . .

و(الكاف) مضاف إليه (حتّى) حرف غاية وجرّ (يأتيك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى . . . و (الكاف) مفعول به ، (اليقين) فاعل مرفوع .

وجملة : " اعبد . . . " في محلّ جزم معطوفة على جملة كن من الساجدين .

وجملة : " يأتيك اليقين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر انتهت سورة الحجر .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الجدول حـ 14 صـ 217 . 278﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(15) سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون

[سورة الحجر (15) : الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (1) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (2) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (3) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (4)

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (5) وَقالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (6) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (7) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (8) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (9)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (10) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (11)

الإعراب:

(الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) الر تقدم اعرابها وتلك مبتدأ وآيات الكتاب خبر وقرآن عطف على الكتاب ومبين صفة للقرآن وساغ عطف قرآن على الكتاب وإن كان المراد

واحدا للتعدد اللفظي

والتغاير فيه ولزيادة صفة في المعطوف وهي مبين وجميل قول البيضاوي :

" تنكير القرآن للتفخيم وكذا تعريف الكتاب " . (رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ)

ربما : كافة ومكفوفة ، قال أبو حيان : " ولما كانت " رب " عند الأكثرين لا تدخل على

مستقبل تأولوا يود في معنى ود لما كان المستقبل في اخبار الله لتحقق وقوعه كالماضي

فكأنه قيل ود وليس ذلك بلازم بل قد تدخل على المستقبل لكنه قليل بالنسبة إلى دخولها

على الماضي ومما وردت فيه للمستقبل قول هند أم معاوية :



---

يا رب قائلة غدا يا لهف أم معاويه

وقول جحدر :

فإن أهلك فرب فتى سيبكي عليّ مهذّب رخص البنان

وسيأتي قول مسهب فيها في باب الفوائد ، ويود الذين فعل مضارع وفاعل وجملة كفروا

صلة ولو مصدرية لوقوعها بعد يود وهي مع مدخولها في تأويل مصدر هو المفعول للودادة

والمعنى يودون كونهم مسلمين ، ويجوز أن تكون لو امتناعية ويكون جوابها محذوفا تقديره

لو كانوا مسلمين لسروا بذلك إذ تخلصوا مما هم فيه ومفعول يود على هذا التقدير أي ربما يود الذين كفروا النجاة . (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) ذرهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وقد تقدم أن هذا الأمر وأمر دع لا يستعمل لهما ماض إلا قليلا بل يستعمل منهما المضارع نحو " ونذرهم في طغيانهم " ويأكلوا جواب مجزوم على انه جواب الأمر ويتمتعوا عطف على يأكلوا وكذلك يلههم الأمل والأمل فاعل ، فسوف الفاء الفصيحة وسوف حرف استقبال

ويعلمون فعل وفاعل والمفعول محذوف أي عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم .

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ) الواو استئنافية وما نافية وأهلكنا فعل وفاعل ومن حرف جر زائد وقرية مجرور لفظا ومنصوب محلا على المفعولية وإلا أداة حصر والواو حالية ولها خبر مقدم وكتاب مبتدأ مؤخر ومعلوم صفة للكتاب والجملة حالية وقيل الواو زائدة واختار الزمخشري وجها آخر وهو أن تكون جملة لها كتاب معلوم صفة لقرية قال : " والقياس أن لا تتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى : " وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون " وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال : " جاءني زيد عليه ثوب وعليه ثوب " وسيأتي مزيد بحث عن هذا التركيب في باب الفوائد .

)

ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) ما نافية وتسبق فعل مضارع ومن حرف جر زائد وأمة فاعل تسبق محلا وهي مجرورة لفظا وأجلها مفعول به وما يستأخرون عطف على ما تسبق وحمل على لفظ أمة أجلها فأفرد وأنّث وعلى معناها قوله وما يستأخرون فجمع وذكر . (وَقَالُوا : يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) الواو استئنافية وقالوا فعل وفاعل وجملة يا أيها الذي نزل إلخ مقول القول ويا حرف نداء وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه والذي بدل من أي وجملة نزل صلة وعليه متعلقان بنزل والذكر نائب فاعل وإن واسمها واللام المزحلقة ومجنون خبر إن . (لَوْما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) لو ما حرف تحضيض كهلا وتكون حرف امتناع لوجود والفرق بينهما أن التحضيضية لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا والامتناعية لا يليها إلا الأسماء وقد تقدم بسط ذلك وسيأتي مزيد من بحث لو ما . وتأتينا فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وبالملائكة متعلقان بتأتينا وإن شرطية وكنت كان واسمها ومن الصادقين خبرها وجواب إن محذوف تقديره آتيتنا بالملائكة .

)

(ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ) كلام مستأنف مسوق للرد على دعواهم وفيه لف ونشر مشوش وسيأتي حكمه في باب البلاغة وما نافية وننزل فعل مضارع فاعله مستتر تقديره نحن والملائكة مفعول به. وإلا أداة حصر وبالحق حال أي ملتبسا بالحق فالباء للملابسة ويجوز تعليقه بنزل وجعله الزمخشري نعتا لمصدر محذوف أي الا تنزلا ملتبسا بالحق والجميع جائز والواو عاطفة وما نافية وكانوا كان واسمها وإذن حرف جواب وجزاء مهمل ومنظرين خبر كان. (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) ان واسمها ونحن تأكيد لاسم ان أو ضمير فصل لا محل له وجملة نزلنا خبر إن وإنا عطف وله متعلقان بحافظون واللام المزحلقة وحافظون خبر انا. (وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وأرسلنا فعل وفاعل ومن قبلك صفة للمفعول به المحذوف المفهوم من منطوق الإرسال أي رسلا من قبلك وفي شيع الأولين نعت آخر للمفعول المحذوف والشيع جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب. (وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الواو عاطفة وما نافية ويأتيهم فعل ومفعول به ومن حرف جر زائد ورسول مجرور لفظا مرفوع محلا على الفاعلية وإلا أداة حصر وكانوا كان واسمها وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا وجملة كانوا به يستهزئون حال أو صفة لرسول.

قال الزمخشري : " وما يأتيهم حكاية حال ماضية لأن " ما " لا تدخل على مضارع إلا وهو في موضع الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال " وهذا الذي ذكره الزمخشري هو قول الأكثر من أن " ما " تخلص المضارع للحال وتعينه له وذهب غيره إلى أن ما يكثر دخولها على

المضارع مرادا به الحال وتدخل عليه مرادا به الاستقبال وأنشد على ذلك قول أبي ذؤيب :



---

أودى بنيّ وأعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة ما تقلع

وقول الأعشى يمدح الرسول عليه السلام :

له نافلات ما يغب نوالها وليس عطاء اليوم مانعه غدا

البلاغة :

1 - التعبير بالضد : في قوله : " ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين " اختلف علماء البلاغة في المراد بهذا التعبير وقد قرر النحاة أن ربما لا تدخل إلا على الماضي ؟ وما المراد بمعنى التقليل الذي تفيده رب ؟ وقد أجيب عن الاول بأن المترقب في اخبار اللّه تعالى بمثابة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ود ، وأجيب عن الثاني بأن هذا مذهب

وارد على سنن العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الإنسان على ما يفعل ولا يشكون في ندامته ولا يقصدون تقليله والعقلاء يتحرزون من التعرض من المظنون كما يتحرزون من المتيقن الثابت وهذا الجواب جميل ولكن الاجمل منه أن يقال : إن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده ومنه قول أبي الطيب المتنبي :

ولجدت حتى كدت تبخل حائلا للمنتهى ومن السرور بكاء

وقد سبقت الاشارة إلى هذا الفن الجميل وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الإيقاظ إليها والعمدة في ذلك على سياق الكلام .

2- اللف والنشر المشوش : وقد تقدم ذكر هذا الفن وذلك في قوله تعالى : ما ننزل . . . ردا على مقالتهم الثانية وهي لو ما تأتينا بالملائكة " أما رده على مقالتهم الأولى وهي " انك لمجنون " فهو قوله :

" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " ثم أردف ذلك بقوله ولقد أرسلنا من قبلك إلى آخر الآية أي أن هذا ديدنهم وديدن الجاهلية مع جميع الأنبياء فلا تبتئس واقتد بمن قبلك وتأسّ بهم .

الفوائد :

1- (رب) ويقال ربت وربما وربتما وقد تخفف حرف جر للتقليل أو للتكثير حسبما يستفاد من سياق الكلام ولا يدخل الا على نكرة وهو في حكم الزائد فلا يتعلق بشيء نحو : رب جهل رفع ، وإذا لحقته " ما " كفته عن العمل فيجوز دخوله على الافعال والمعارف فتقول ربما أقبل الخليل وربما الخليل مقبل وقد يبقى على عمله كقوله " ربما ضربة بسيف صقيل " وتكف بما فتدخل حينئذ على الاسم والفعل وتصير كحرف الابتداء يقع بعدها الجملة من الفعل والفاعل كقوله :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال والمبتدأ والخبر كقول أبي دؤاد الايادي :

ربما الجامل المؤبل فيهم وعناجيج بينهنّ المهار

وتخلفها الواو كقول امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

كما تخلفها الفاء كقول امرئ القيس أيضا :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذي تمائم محول

هذا ورب في الآية معناها التكثير كما قال الشاعر :

رب رفد هرقته ذلك اليوم وأسرى من معشر أقيال

أما علة دخوله على النكرة واختصاصها بها لأن النكرة تدل على الشيوع فيجوز فيها

التقليل لقبولها التقليل ، والتكثير لقبولها التكثير وأما المعرفة فمعلومة المقدر لا تحتمل تقليلا ولا تكثيرا ، ولكنها قد تدخل في السعة على المضمر كما تدخل على المظهر مثل دخول الكاف في الضرورة كقول العجاج :

كل الذنابات شمالا كثبا وأم أوعال كها أو أقربا

إلا أن الضمير بعد رب يلزم الإفراد والتذكير والتفسير بتمييز يأتي بعده نحو ربه رجلا عرفته وربه امرأة لقيها وقال ابن النحاس :

"

اختلف في الضمير العائد إلى النكرة هل هو معرفة أو نكرة فإن قلنا بأن ضمير النكرة نكرة وبه قال السيرافي والزمخشري وجماعة فلا إشكال في دخول رب على الضمير لأنه لما أبهم من جهة تقديمه على المفسر من جهة وقوعه للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد وشاع من جهة



---

تفسيره بالنكرة صار فيه من الإبهام والشيوع ما قارب به النكرة فجاز دخول رب عليه .

وقال الشيخ ابن النحاس : لا بد للمخفوض بها أو بما ناب منابها من الصفة أولا فمن الناس

من قال منهم بعدم اللزوم ومنهم من قال باللزوم كأبي علي الزمخشري وابن عصفور واحتجوا لذلك بأن الصفة في النكرة للتخصيص فهي تفيد الموصوف تقليلا فيوافق المعنى المقصود في أن رب للتقليل " وقال الشيخ بهاء الدين أيضا " إنما جاز : رب رجل وأخيه ، ولم يجز : رب أخيه ، لأن الثواني يجوز فيها ما لم يجز في الأوائل من قبل انه إذا كان ثانيا يكون ما قبله قد وفى الموضوع حقه فيما يقتضيه فجاز التوسع في ثاني الأمر بخلاف ما إذا أتينا بالتوسع في أول الأمر فإنا حينئذ لا نعطي الموضع شيئا مما يستحقه ، هذا إذا لم نقل إن المضاف إلى ضمير النكرة نكرة فإن قلنا انه نكرة كان الجواز أسوغ" قال : " ولا يكون العامل فيها إلا بمعنى المضي كقولك رب رجل جواد لقيته أو أنا لاق أو هو ملقي ولا تقول :

رب رجل جواد سألقى أو لألقين لأن التقليل في الماضي شائع ولا كذلك في المستقبل لأنه لم يعلم فيتحقق تقليله " قال : وتلزم أبدا الصدر لشبهها بحرف النفي من جهة مقاربة التقليل للنفي لأن النفي اعدام الشيء وتقليله تقريب من إعدامه ولأن العرب استعملوا القليل في موضع النفي قال الشاعر :

قلما يبرح المطيع هواه كلفا ذا صبابة وجنون

معناه ما يبرح المطيع هواه كلفا .

وهناك أبحاث تتعلق برب لا يتسع لها صدر هذه الفوائد .

2- واو الحال أيضا : مما توهم فيه النحاة اشتراطهم في واو الحال عدم اقترانها بإلا الإيجابية

ومن العجيب أن يتورط في هذا الوهم

ابن هشام في شرحه لألفية ابن مالك ويشايعه في وهمه الشيخ خالد الأزهري فإن ذلك ثابت في فصيح الكلام وهو هذه الآية " وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم " وقول الشاعر كما قال شارح اللب :



---

نعم امرأ هرم لم تعر نائبه إلا وكان لمرتاع بها وزرا

وكأن الزمخشري شايع القائلين بعدم الجواز فجعل الجملة صفة والواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف .

3- لوما : لوما ولولا لهما وجهان أحدهما أن يدلا على امتناع جوابهما لوجود تاليهما فيختصان بالجمل الاسمية والى ذلك أشار ابن مالك بقوله في الخلاصة :

لولا ولوما يلزمان الابتداء إذا امتناعا بوجود عقدا

نحو قوله تعالى : " لولا أنتم لكنا مؤمنين " وقول الشاعر :

لوما الاصاخة للوشاة لكان لي من بعد سخطك في رضاك رجاء

والوجه الثاني أن يدلا على التحضيض فيختصان بالجمل الفعلية نحو " لوما تأتينا بالملائكة

" .

[سورة الحجر (15) : الآيات 12 إلى 20]

كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (12) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15) وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (18) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (20)

اللغة:

(نَسْلُكُهُ) : ندخله يقال سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها وفي المختار : " السلك بالكسر الخيط وبالفتح مصدر سلك الشيء في الشيء فانسلك أي أدخله فيه فدخل وبابه نصر قال الله تعالى :

"كذلك نسلكه في قلوب المجرمين" واسلك لغة فيه" وفي القاموس وغيره: سلك يسلك بضم اللام في المضارع سلكا وسلوكا المكان دخل فيه والطريق سار فيه متبعا إياه وأسلك الشيء في الشيء أدخله فيه كما يسلك الخيط في الإبرة وسلكه المكان وأسلكه المكان وفيه وعليه أدخله فيه.

(سُكِّرَتْ): حيرت أو حبست من الأبصار أو سدت يقال سكرت النهر سكرا من باب قتل سددته والسكر بالكسر ما يسد به وفي القاموس وشرحه وغيرهما: سكر يسكر الإناء سكرا من باب قتل:

ملأه والنهر جعل له سدا والباب سده وسكرت الريح سكورا

وسكرانا سكنت والحر فتر وسكر، وسكّر بصره تحير وحبس عن النظر وسكر يسكر من باب علم الحوض امتلأ وسكر الرجل عليه اغتاظ وغضب وسكر سكرا، وسكرا وسكرا وسكرا وسكرانا من الشراب نقيض صحا فهو سكر وسكران وهي سكرة وسكرى وسكرانة والجمع سكرى وسكارى وسكارى. وللسين مع الكاف إذا وقعتا فاء وعينا للفعل معنى التأثير في الشيء واحداث الأثر فيه يقال سكب الماء سفحه وصبه وماء ودم أسكوب قالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب:

الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها مثعنجر من دم الأجواف أسكوب

وهذا أمر سكب وسنّة سكب : حتم قال لقيط بن زرارة لأخيه معبد وقد طلب اليه حين أسر أن يفديه بمئتين من الإبل : ما أنا بمنط (أي بمعط) عنك شيئا يكون على أهل بيتك سنة سكبا ، ويدرب له الناس بنا دربا وسكت الرجل أصابته علة منعته من الكلام ورجل سكوت وساكوت وسكّيت وبه سكات إذا كان طويل السكوت من علة وللحبلى صرخة ثم سكتة ، ومن المجاز ضربته حتى أسكتّ حركته ، والسّكتة : داء معروف تتعطل به الأعضاء عن الحسّ والحركة إلا التنفس والسّكتة : ما تبقى في الوعاء وما تسكت به الصبيّ أو غيره والسّكات داء يمنع من الحيات والسكات من الحياة ما يلدغ قبل أن يشعر به . وسكع يسكع من بابي فهم وفتح سكعا وسكعا مشى على غير هدى لتأثره وفلان يتسكع لا يدري أين يتوجّه من أرض اللّه وتسكّع في الظلمة خبط فيها قال :

أيادي بيضا بيّضت وجه مطلبي وقد كنت في ظلمائه أتسكع

وسئل بعض العرب عن قوله تعالى : " في طغيانهم يعمهون " فقال :

في عمههم يتسكعون ، وهو إسكاف بكسر الهمزة من الأساكفة وهو الخراز وقيل : كل صانع ، وما وطئت أسكفّة بابه ، وما تسكّفت بابه وو اللّه لا أتسكّف له بيتا ، ومن المجاز وقفت الدمعة على أسكفّة عينه أي على جفنها الأسفل ، وسكّ الباب سده بالحديد وسكّ البئر حفرها وسك أذنيه اصطلمهما وسك النّعام ما في بطنه : رمى به رقيقا يقال :

ما سك سمعي مثل ذلك الكلام أي ما دخل وضرب هذا الدرهم في سكة فلان وشقّ الأرض بالسّكة وله سكة من نخل وهو يسكن سكّة بني فلان وهي الزقاق الواسع ، ومن المجاز استكت مسامعه :

صمت ، قال النابغة :

أتاني أبيت اللعين أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

(376/429)

---

و سكن المتحرك وأسكنته وسكّنته وتناسبت حركاته وسكناته وسكنوا الدار وسكنوا فيها وأسكنتهم الدار وأسكنتهم فيها ، ومن المجاز سكنت نفسي بعد الاضطراب وعلمته علما سكنت إليه النفس ومالي سكن أي من أسكن اليه من امرأة أو حميم ، قال أبو الطيب :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وعليه سكينة ووقار ودعة ولهم ضرب يزيل الهام عن سكناته .

قال النابغة :

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كايزاغ المخاض الضوارب

وهذا – كما يبدو – أشبه بأن يكون مقصودا ولكن لغتنا ولدت مع الإلهام متمشية مع خواطر النفوس وهواجسها .

(بُرُوجاً) : جمع برج وبروج السماء اثنا عشر – كما كانوا يقولون – وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، قالوا : وهي منازل الكواكب السبعة السيارة : المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد (ويمنع من الصرف لصيغة منتهى الجموع) وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الأسد ، والمشتري وله القوس والحوت ، وزحل (يمنع الصرف للعلمية والعدل كعمر) وله الجدي والدلو ، ولم نورد هذه الأسماء على سبيل التحقيق العلمي فقد بدل العلم الكثير من هذه المعلومات الابتدائية واكتشف ما لم يكن يدور بالخلد والحسبان ولكننا أوردناها للفوائد اللغوية فقط .

(اسْتَرَقَ) : خطفه وسرقه وسارقه النظر مثله واسترق الكاتب بعض المحاسبات إذا لم يبرزه .

(شِهابٌ) : الشهاب كل مضيء متولد من النار وما يرى كأنه كوكب انقضّ والكوكب عموما والسنان لما فيه من البريق والجمع شهب ، قال أبو تمام وجانس :

والعلم في شهب الأرماح ساطعة بين الخمسين لا في السبعة الشهب

)

مَعايِشَ) : جمع معيشة وهي ما يعيش به الإنسان مدة حياته من المطاعم والمشارب والملابس وهي بياء صريحة بخلاف الشمائل

(377/429)

---

والخبائث وذلك لأن الياء في معايش أصلية في المفرد والمدّ في المفرد لا يقلب همزا في الجمع إلا إذا كان زائدا في المفرد كما قال ابن مالك في الخلاصة :

والمد زيد ثالثا في الواحد همزا يرى في مثل كالقلائد

الاعراب :

(كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) الكاف نعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإدخال ندخله في قلوب المجرمين ونسلكه فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وفي قلوب المجرمين متعلقان بنسلكه .

(لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) الجملة في محل نصب على الحال ويجوز أن تكون مفسرة لقوله نسلكه فلا محل لها ويؤمنون فعل مضارع وفاعل وبه جار ومجرور متعلقان بيؤمنون وقد : الواو حالية وقد حرف تحقيق وخلت سنة الأولين فعل وفاعل والجملة حالية ويجوز أن تكون الواو استئنافية والجملة مستأنفة أي مضت سنة اللّه في إهلاكهم

وتعذيبهم. ﴿وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ الواو عاطفة ولو امتناعية شرطية وفتحنا فعل وفاعل وعليهم متعلقان بفتحنا وبابا مفعول به ومن السماء صفة لبابا والفاء عاطفة وظل واسمها وسيأتي في باب البلاغة ذكر الضمير في يعرجون وفيه متعلقان بيعرجون وجملة يعرجون خبر ظل. ﴿لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ اللام واقعة في جواب لو وقالوا فعل وفاعل وانما كافة ومكفوفة وسكرت أبصارنا فعل وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب لو وجملة إنما سكرت أبصارنا مقول القول

(378/429)

---

و جملة نحن قوم مسحورون تابعة لجملة سكرت أبصارنا، وبل حرف إضراب ونحن مبتدأ وقوم خبر ومسحورون صفة. ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ﴾ الواو عاطفة واللام جواب القسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجعلنا فعل وفاعل وإذا كان بمعنى خلقنا كان قوله في السماء متعلقا به وإذا كان بمعنى صيرنا فيكون مفعوله الأول بروجا والجار والمجرور في محل نصب هو المفعول الثاني وزيناها فعل وفاعل ومفعول به وللناظرين متعلقان بزيناها. ﴿وَحَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ﴾ الواو عاطفة وحفظناها فعل وفاعل ومفعول به ومن كل شيطان رجيم جار ومجرور متعلقان بحفظناها ورجيم

صفة لشيطان .

(إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ) إلا أداة استثناء ومن اسم موصول في موضع نصب على الاستثناء المتصل إن فسر الحفظ بمعنى المنع أي منع الشياطين من التعرض لها على الإطلاق والوقوف على ما فيها في الجملة ، أو الاستثناء المنقطع إن فسر بالمنع من دخولها والتصرف فيها .

والفاء عاطفة وأتبعه فعل ماض ومفعول به وشهاب فاعل ومبين صفة .

)

وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ) والأرض نصب على الاشتغال أي مفعول به لفعل محذوف يفسره ما بعده ومددناها فعل وفاعل ومفعول به وألقينا فعل وفاعل وفيها متعلقان بألقينا ورواسي مفعول به أي جبالا ثابتة لئلا تميد بأهلها . (وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) وأنبتنا عطف على ما قبله وفيها متعلقان بأنبتنا ومن كل شيء صفة للمفعول به المحذوف أي نباتا من كل شيء ، وموزون صفة أي معلوم مقداره . (وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ) وجعلنا عطف على ما تقدم ولكم متعلقان بجعلنا أو في موضوع المفعول الثاني وفيها حال ومعايش مفعول جعلنا ومن الموصول عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم

له برازقين أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين وأراد بهم العيال والخدم والحشم والدواب وقدره الزجاج منصوبا بفعل محذوف مقدر تقديره وأغنينا من لستم له برازقين ويجوز قطع الواو فتكون ابتدائية ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش .

البلاغة :

في قوله تعالى "كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ، ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " تشبيه تمثيلي للعناد المستحوذ عليهم واللدد الراسخ في صدورهم وتفصيل ذلك أن اللّه تعالى سلك القرآن في قلوبهم وأدخله في سويداءاتها كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدقين فكذب به هؤلاء وصدّق به هؤلاء كل على علم وبينة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ولئلا يكون للكفار على اللّه حجة بأنهم ما فهموا وجوه الاعجاز كما فهمها من آمن فأعلمهم اللّه تعالى من الآن ، وهم في مهلة وإمكان : انهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين ليكون أدحض لأية حجة يختلقونها وأنفى لكل ادعاء يخرصون به ولذلك عقبه اللّه تعالى بقوله " ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا " إلخ أي إن هؤلاء فهموا القرآن حق الفهم واكتنهوا أسراره ، وسبروا أغوار

معجزاته وعلموا وجوه إعجازه وولج ذلك إلى قرارات نفوسهم ووقر في أسماعهم ولكنهم قوم ديدنهم العناد وشيمتهم اللجاج والمكابرة حتى لو سلك بهم أوضح السبل وأدعاها إلى الايمان بضرورة العيان والمشاهدة وذلك



---

بأن يفتح لهم بابا في السماء يعرج ويعرج بهم حتى يدخلوا منه نهارا وقد أشار إلى ذلك بقوله ظلوا لأن الظلول إنما يكون نهارا لقالوا بعد ذلك الإيضاح العظيم المكشوف انما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد وما هذه إلا خيالات مموهة لا حقائق تحتها فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم في التكذيب من عدم سماع ووعي ووصول إلى القلوب وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن شأنهم الاستمرار في اللدد والعناد والمكابرة واللجاج فاذا انتقلنا إلى التفصيل قلنا في هذا التشبيه التمثيلي :

1- التتميم وقد مر سابقا وذلك بعرض مختلف مجالي المشاهدة والاعتبار .

2- الاحتراس بكلمة ظلوا خشية أن يكون عروجهم في الظلام فيتعلوا به على عدم الاهتداء .

3- سكر الابصار على طريق الاستعارة المكنية التبعية .

4- وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر حسب ادعائهم وإيضاح ذلك انهم قالوا : " انما " وهي تفيد الحصر في المذكور آخرا فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير فكأنهم قالوا سكرت أبصارنا لا عقولنا ونحن وإن كنا نتخيل بأبصارنا هذه الأشياء لكنا نعلم بعقولنا أن الحال بخلافه أي لا حقيقة له ثم قالوا " بل " كأنهم أضربوا عن الحصر في الأبصار وقالوا بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر صنعه لنا .

وهذه الآيات من الروائع التي يقف البيان أمامها مذعنا .

[سورة الحجر (15) : الآيات 21 إلى 25]



---

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (22) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوارِثُونَ (23) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (24) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (25)

اللغة :

(لَواقِحَ) : حوامل لأنها تحمل السحاب وتثيره وفيها قولان أحدهما أنها جمع لاقح إذا جاءت بخير من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير ريح عقيم والثاني أنها بمعنى الملاحق وهي الإناث التي في بطونها أولادها ، قال :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

يريد المطاوح جمع مطيحة وفعله لقح يقال لقحت تلقح من باب تعب لقحا ولقحا ولقاحا الناقة ونحوها قبلت اللقاح أو حملت فهي لاقح ولقوح ولقحت الحرب هاجت بعد سكون ولقحت المرأة حملت .

وفيما يلي أقوال كبار اللغويين :

قال أبو عبيدة : اللواقح : جمع ملقح لأنه من ألقح يلقح فهو ملحق فجمعه ملاقح فحذفت الميم تخفيفا يقال ألقحت الريح السحاب كما يقال ألقح الفحل الأنثى .

وقال الأزهري : اللواقح : جمع لاقح يقال لقحت الريح إذا حملت الماء فهي حوامل لأنها تحمل السحاب كقولك ألقحت الناقة فلقحت إذا حملت الجنين في بطنها فشبهت الريح بها .

وقال الفراء : اللواقح : جمع لاقح على النسب كلابن وتامر أي ذات لقاح .

وفي المختار : " ألقح الفحل الناقة ولريح السحاب ، ورياح لواقح ولا تقل ملاقح " .

الاعراب :

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) إن نافية ومن شيء من زائدة في المبتدأ وإلا أداة حصر وعندنا الظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وخزائنه مبتدأ مؤخر والجملة خبر شيء .

(382/429)

---

(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) الواو عاطفة وما نافية وننزله فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وإلا أداة حصر وبقدر حال من المفعول أي ملتبسا بقدر ولك أن تعلقه بننزله ومعلوم صفة لقدر . (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) وأرسلنا الرياح فعل وفاعل ومفعول به ولواقح حال مقدرة من الرياح. (فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) فأنزلنا الفاء عاطفة وأنزلنا عطف على أرسلنا ومن السماء جار ومجرور متعلقان بأنزلنا وماء مفعول به فأسقيناكموه الفاء عاطفة وأسقى فعل ماض ونا فاعل والكاف مفعول به أول والميم علامة جمع الذكور والواو لاشباع ضمة الميم والهاء مفعول به ثان وما الواو للحال وما نافية حجازية وأنتم اسمها وله متعلقان بخازنين والباء حرف جر زائد وخازنين خبر ما محلا مجرور

بالباء لفظا . (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة ونحن مبتدأ وجملة نحيي خبره ويجوز أن تكون نحن تأكيدا لنا ولا يجوز أن تكون

فصلا لأنها لم تقع بين اسمين ونحن مبتدأ والوارثون خبر. (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وعلمنا فعل وفاعل والمستقدمين مفعول به ومنكم حال ولقد علمنا المستأخرين عطف. (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) وان ربك ان واسمها وهو مبتدأ وجملة يحشرهم خبر والجملة الاسمية خبر ان وان واسمها وحكيم خبر أول وعليم خبر ثان.

البلاغة:

(383/429)

---

1- الاستعارة التمثيلية في قوله "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه" فقد شبه ما ينتفع به العباد جميعا لا المطر وحده كما قال بعضهم بالخزائن التي تودع فيها المكنونات والمخبآت لا خراج كل شيء بحسب ما اقتضته الحكمة الإلهية ومصالح العباد الحيوية.

2- الاستعارة المكنية في تشبيه الرياح باللواقح وهي النوق لتوليد المطر مما أفاض الحديث في بسطه ولا يتنافى مع هذه الاستعارة.

[سورة الحجر (15): الآيات 26 إلى 44]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (26) وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ

السَّمُومِ (27) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28)
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ (30)

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ
(32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ
مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35)

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ
(38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ
مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)

قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ
مَقْسُومٌ (44)

اللغة :

(الصلصال) : الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ وإذا طبخ فهو فخار ، قالوا : إذا توهمت في صوته مدا فهو صليل وإن توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل إذا أنتن ، وقيل : الصلصال : طين يابس إذا نقر سمع له صوت أي صلصلة وهو بمعنى المصلصل كالزلزال بمعنى المزلزل ويكون فعلال أيضا مصدرا نحو الزلزال وفي وزن هذا النوع أي ما كررت فاؤه وعينه خلاف ، فقيل وزنه فعفع كررت الفاء والعين ولا لام للكلمة وهو قول الفراء وهو غلط لأن أقل الأصول ثلاثة فاء وعين ولام وقد عدل عنه الفراء فقال إن وزنه فعفل وقيل إن أصله فعّل بتشديد العين وأصله صلّل فلما اجتمع ثلاثة أمثال أبدل الثاني من جنس فاء الكلمة ، وخص بعضهم هذا الخلاف بما إذا لم يختلّ المعنى بسقوط الثالث نحو لملم وكبكب فانك تقول فيهما لمّ وكبّ فلو لم يصح المعنى بسقوطه نحو سمسم فلا خلاف في أصالة الجميع . وقيل : ان وزنه فعلل بتكرير اللام فقلبت الأولى منهما من جنس فاء الكلمة ، وفي القاموس : الصلصال الطين اليابس الذي يصل من نفسه أي يصوت ويقال صلصل صلصلة الحلي أو اللجام صوت ، والرعد صفا صوته والجرس رجع صوته وصلصل فلانا تهدده . هذا وقد جاءت الزيادة رابعة بعد اللام الأولى في أسماء صالحة العدة تقارب عشرة أبنية من ذلك :

فعليل وذلك في الاسم والصفة فالاسم قنديل وبرطيل والصفة شنظير وهمهيم فالقنديل

معروف والبرطيل حجر طويل قدر الذراع والشنظير السيّء الخلق والهمهيم الذي يردّد ويهمهم ويقال حمار همهيم أي في صوته ترديد من الهمهمة .

ومن ذلك فعلول في الاسم والصفة فالاسم عصفور وزنبور والصفة سرحوب وقرضوب فالعصفور والزنبور معروفان والسرحوب الطويل والقرضوب الفقير وهو من أسماء السيف وربما قيل للص قرضوب .

(385/429)

---

ومن ذلك فعليل بضم الفاء وسكون العين وفتح اللام الأولى قالوا في الصفة : غرنيق وهو الرفيع السيد والغرنيق من طيور الماء طويل

العنق قال الجوهري إذا وصف به الرجال قيل : غرنيق بكسر الغين وغرنيق بالضم والجمع غرانق بالفتح وغرانيق .

ومن ذلك فعلول جاء في الاسم والصفة والاسم فردوس وحرذون والصفة علطوس فالفردوس هو البستان والحرذون دويبة كالقطاة والعلطوس الناقة الفارهة .

ومن ذلك فعلول في الاسم والصفة فالاسم فربوس وزرجون والصفة قرقوس وحلكوك فالقربوس للسرج معروف والزرجون الخمر سميت بذلك للونها وأصلها بالفارسية زركون

(الزر الذهب والكون اللون) وقال أبو عمرو الجرمي : هو صبغ أحمر .

ومن ذلك فعلول بفتح الفاء والعين وسكون اللام وفتح اللام قالوا كنهور وبلهور ، والكنهور : السحاب العظيم والبلهور من ملوك الهند يقال لكل ملك عظيم منهم بلهور ولا نعلمه اسما .

ومن ذلك فعلال ولا يكون إلا في الكلام المضاعف من ذوات الأربعة يكون اسما وصفة فالاسم الزلزال والحثحاث والصفة الصلصال والقسقاس فالزلزال مصدر كالزلزلة والحثحاث بمعنى الحثحثة والصلصال الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف فإن طبخ فهو الفخار والقسقاس الدليل الهادي وقد جاء حرف واحد على فعلال غير مضاعف قالوا ناقة بها خزعال وهو سوء مشي من داء .

ومن ذلك فعلال بكسر الفاء يكون اسما وصفة فالاسم نحو سربال وحملاق والصفة سرداح وهلباج ، والسربال القميص والحملاق ما تغطيه الأجفان من العين والسرداح الأرض الواسعة والهلباج الكثير العيوب .



---

و من ذلك فعلّل بفتح الفاء والعين وتضعيف اللام الأولى يكون اسما وصفة فالاسم شفلح وهمرّجة والصفة العدبس والعملّس فالشفلح ثمر معين وقد يكون صفة بمعنى الغليظ

الشفة والهمرّجة الاختلاط يقال همرجت عليه الخبر أي خلطته والعدبس الضخم

والعملس الخفيف وقيل للذئب عملّس ، قال الشنفري :

ولي دونكم أهلون سيد عملّس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

ومن ذلك فعلّل بضم الفاء والعين وهو قليل قالوا الصفرق والزمرذ وهما اسمان فالصفرّق

نبت والزمرذ من الجوهر معروف .

(

حَمَإٍ) : الحمأ : الطين الأسود المتغيّر الرائحة من طول مكثه ويقال الحمأة .

(مَسْنُونٍ) : منتن من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به فإن ما يسيل بينهما يكون

منتنا ويسمى سنينا وقيل المصبوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من

الجواهر المذابة في أمثلتها وقد امتاز فعل سنّ بكثرة معانيه حتى ليكاد المرء يذهل يقال سن

يسن السكين من باب نصر أحدّه وشحذه ويقال هذا مما يسنك على الطعام أي يشحذك

على أكله ويشهيه إليك وسن الرمح ركب فيه السنان وسن الأسنان سوكها وسن العقدة

حلها وسن الإبل ساقها سوقا سريعا وسن الرجل طعنه بالسنان وعضه بأسنانه وكسر

أسنانه ومدحه وأطراه وسن الأمر بينه وسهله وأجراه وسن الطريقة سارفيها وسن عليهم

السنة وضعها وسن الطين عمله فخارا وسن الشيء صوّره وسن الماء أو التراب

صبه برفق وسنت العين الدمع صبته وسن الأمير رعيته أحسن سياستها يقال سن فلان

طريقا من الخير أي ابتدأ أمرا من البر لم يعرفه قومه وهذا من أعاجيب لغتنا الشريفة .

(الْجَانَّ) : للجن كآدم للناس .

(السَّمُومِ) : نار الحر الشديد النافذ من المسام وقيل هي نار لا دخان لها تنفذ في المسام

وقيل السموم : ما يقتل من افراط الحر من شمس أو ريح أو نار لأنها تدخل في المسام وهي

الثقوب فتقتل وتجمع على سمائم .

(387/429)

---

(رَجِيمٌ) مطرود وفي المصباح : الرجم بفتحتين الحجارة والرجم القبر سمي بذلك لما يجتمع

عليه من الحجارة ورجمته رجما من باب قتل ضربته بالرجم ، وفي القاموس : " الرجم : اللعن

والشتم والطرد والهجران " والمرجوم المطرود الملعون ولعنه اللّه طرده وأبعده قال الشماخ :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللّجين

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

الاعراب :

)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) الواو استئنافية واللام جواب للقسم

المحذوف وقد حرف تحقيق وخلقنا الإنسان فعل وفاعل ومفعول به ومن صلصال جار ومجرور متعلقان بخلقنا ومن حمأ يجوز أن يكون صفة لصلصال وأن يكون بدلا من قوله من صلصال باعادة الجار ومسنون صفة لحمأ .

)

(388/429)

---

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) والجان نصب على الاشتغال وخلقناه فعل وفاعل ومفعول به ومن قبل متعلقان بمحذوف حال ومن نار السموم متعلقان بخلقناه . (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وجملة قال ربك مضافة للظرف وللملائكة متعلقان بقال وإن واسمها وخالق خبرها وبشرا مفعول به لخالق ومن صلصال من حمأ مسنون تقدم اعرابها . (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) الفاء عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة سويته مضافة للظرف ونفخت عطف على سويته وفيه متعلقان بنفخت ومن روحي صفة لمفعول محذوف أي روحا من روحي والمراد الأحياء وليس ثمة نفخ ولا منفوخ فقعوا الفاء رابطة لجواب إذا وقعوا فعل أمر والواو فاعل وله متعلقان

بساجدين وساجدين حال (فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) الفاء عاطفة على محذوف أي فخلقه وسواه ونفخ فيه من روحه فسجد الملائكة وكلهم وأجمعون تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وترسيخه في الذهن ، وسئل المبرد عن هذه الآية فقال : لو قال فسجد الملائكة احتمل أن يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا ثم عند هذا بقي احتمال وهو أنهم هل سجدوا دفعة واحدة أو سجد كل واحد في وقت فلما قال أجمعون ظهر أنهم جميعا سجدوا دفعة واحدة . (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) تقدم القول في هذا الاستثناء أنه متصل إما لأنه كان جنيا مغمورا بألوف الملائكة فعدّ منهم تغليبا واما لأنه منهم حقيقة ويجوز أن يكون منقطعا فيتصل به ما بعده أي لكن إبليس أبى أن يكون معهم ، وأبى فعل ماض وأن يكون مصدر مؤول منصوب على المفعولية لأبى واسم يكون



---

مستتر تقديره هو أي إبليس ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر يكون والساجدين مضاف اليه . (قالَ : يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) يا حرف نداء وإبليس منادى مفرد علم وما اسم استفهام للتوبيخ مبتدأ ولك خبر وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض

والجار والمجرور في محل نصب على الحال أي مالك غير كائن مع الساجدين ، وأن لا تكون مع الساجدين تقدم اعرابها . (قال : لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) لم حرف نفي وقلب وجزم وأكن مضارع مجزوم بلم واسمها مستتر تقديره أنا واللام لام الجحود وهي لتأكيد النفي وأسجد فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعدها والجار والمجرور خبر أكن ولبشر متعلقان بأسجد وجملة خلقته صفة لبشر ومن صلصال من حمأ مسنون تقدم إعرابها . (قال فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) الفاء الفصيحة لأنها جواب شرط مقدر أي إن تماديت وعصيت فاخرج ومنها متعلقان باخرج والفاء تعليلية وان واسمها وخبرها والجملة لا محل لها . (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) الواو عاطفة وان حرف مشبه بالفعل للتوكيد وعليك خبر ان المقدم واللعنة اسمها المؤخر والى يوم الدين حال أي مستقرة إلى تلك الغاية . (قال رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) رب منادى محذوف منه حرف النداء وهو مضاف إلى ياء المتكلم والفاء الفصيحة لأنها وقعت في جواب شرط مقدر أي إن قضيت علي بهذا الجزاء فأنظرني أي أمهلني ، والى يوم متعلقان بأنظرني ويبعثون مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وجملة يبعثون مضاف إليها وانما طلب الانظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون ليجد مندوحة وفسحة في الإغواء ونجاة عند الموت إذ لا موت بعد وقت البعث فأجابه إلى الاول دون الثاني أي انظر إلى آخر أيام التكليف كما

سيأتي. (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ) الفاء عاطفة وإن واسمها ومن المنظرين خبرها. (إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) إلى يوم جار ومجرور متعلقان بالمنظرين والوقت مضاف اليه والمعلوم صفة. (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) رب منادى كما تقدم وبما الباء للقسم وما مصدرية أي أقسم باغوائك إياي وجملة لأزينن جواب القسم وقد تقدم نظيره في الأعراف وقيل الباء للسببية وكلاهما جائز، لأزينن اللام جواب القسم أو هي موطئة للقسم إن كانت الباء سببية وأزينن فعل مضارع مبني على الفتح ولهم متعلقان بأزينن وفي الأرض حال ولأغوينهم عطف على لأزينن وأجمعين تأكيد للضمير. (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) إلا أداة استثناء وعبادك مستثنى والمخلصين صفة ومنهم حال. (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) هذا مبتدأ وصراط خبر وعلي متعلقان بمحذوف صفة أي حق ومستقيم صفة ثانية أي هذا طريق حق علي أن أراعيه ولا أتجاوزه وهو: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) فالجملة تفسيرية للصراط المستقيم الذي أوجبت على نفسي التزامه وان واسمها وجملة ليس خبر ولك خبر ليس المقدم وعليهم حال لأنه كان صفة لسلطان وسلطان اسم ليس المؤخر.

قال ابن هشام: " قول كثير من النحويين في قوله تعالى: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك " إنه دليل على جواز استثناء الأكثر من الأقل والصواب ان المراد بالعباد

المخلصون لا عموم المملوكين وان الاستثناء منقطع بدليل سقوطه في الآية 65 سورة الاسراء " ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا " وتعقبه الدماميني بقوله : "اختياره لكون الاستثناء منقطعا مقدوح



---

فيه بأنه ارتكاب لخلاف الأصل من غير ضرورة لإمكان حمل الاستثناء على الاتصال وهو الأصل ويكون المراد بالعباد عموم المملوكين ولا يضر في ذلك أن آية الاسراء بدون استثناء لأنه أريد بالعباد فيها المخلصون فترك الاستثناء وقد يجاب بأنه القرآن يفسر بعضه بعضا فإذا تكرر لفظ فيه وكان له موضع محمل واحد وفي آخر ذلك المحمل وغيره حمل في الآخر على ذلك المحمل دون غيره والاستثناء المنقطع وإن كان خلاف الأصل إلا أنه فصيح شائع .

(إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) قيل هو استثناء من غير الجنس لأن المراد بعبادي الموحدون ومتبع الشيطان غير موحد وقيل هو من الجنس لأن عبادي جميع المكلفين ومن الغاوين حال . (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وموعدهم خبر إن وأجمعين تأكيد للضمير . (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) لها خبر

مقدم وسبعة أبواب مبتدأ مؤخر ولكل باب خبر مقدم ومنهم حال لأنه كان صفة لجزء وجزء مبتدأ مؤخر ومقسوم نعت لجزء أيضا والمراد بالجزء الطائفة .

البلاغة :

1 - الإيجاز في قوله " قال هذا صراط علي مستقيم " ولعله من أبلغ الايجازات لأنه قسيم الإيجاز بالحذف فهو إيجاز بالتقدير وهو قسمان : أحدهما ما ساوى لفظه معناه ، وثانيهما ما زاد معناه على لفظه ويسمى بالقصر إذ يدل لفظه على محتملات عديدة ومشتملات كثيرة ولا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها لا بل يستحيل ذلك

(392/429)

---

فقوله " هذا " اشارة تدل على القرب فكأنه يشير إلى ما هو على مرأى من عيونهم ، ومسمع من آذانهم ، وبين متناول أيديهم ، وصراط تدل على الطريق المسلوكة التي تفضي بسالكها إلى حيث يختار لنفسه من مذاهب ولكن الطريق قد تكون معوجة ملتوية كثيرة المنعطفات فيتيه السالك في متاهاتها وتلتبس عليه أوجه الاستهداء في سلوكها فجاء بكلمة " مستقيم " والمستقيم هو أقصر بعد بين نقطتين وأقل انحراف يخرجه عن سنن الاستقامة وحدودها وكلمة " علي " تعني الإلزام والإيجاب تقول علي عهد الله لأفعلن

كذلك فتشعر أنك قد ألزمت نفسك بما هو حق مفروض الأداء ثم ان الاشارة تضمنت كل ما يحتويه الاستثناء فيما بعد وهو قوله " الا عبادك منهم المخلصين " فكأنه أخذ على نفسه وأوجب على ذاته حقا لا انفكاك له عنه وهو تخليص المخلصين من إغوائه ، وقد تضمن تعريف المخلصين أيضا ما يؤكد هذا المعنى ويجعله مستقرا في الذهن لأن التعريف فيه مع تحقيق الصفة للموصوف وهي الإخلاص تفخيم لشأنهم وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الإغواء عنهم ، وفل معاول النقد ان تتوجه إليهم ، فهذه الآية كلمات قليلة وقد احتوت على هذه الأغراض ولا بد لنا من أن نعرض نماذج من غير القرآن لا لأنها ترقى إلى مستواه ولكن لأنها تدور في فلكه وتحوم حوله وتستقي من مناهله استمع إلى هذه القصة العجيبة :

لما أرسل المهلب بن أبي صفرة أبا الحسن المدائني إلى الحجاج ابن يوسف يخبره أخبار الأزارقة كلمه كلاما موجزا كالذي نحن بصدده هنا وذلك ان الحجاج سأله فقال كيف تركت المهلب ؟ فقال أدرك ما أمّل وأمن مما خاف فقال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : كيف جنده له ؟ قال : أولاد بررة ، قال : كيف رضاهم عنه ؟

قال : وسعهم بفضله ، وأغناهم بعدله ، قال : كيف تصنعون إذا لقيتم العدو ؟ قال : نلقاهم بجدنا ويلقوننا بجدهم ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد ، قال فأخبرني عن بني المهلب قال : هم أحلاس القتال بالليل ، حماة السرج بالنهار قال : أيهم أفضل ؟ قال : هم كحلقة مضروبة لا أعرف طرفاها فقال الحجاج لجلسائه : هذا هو والله الكلام الفصل الذي ليس بمصنوع . وتأمل وصف الحجاج للكلام فقد وصف الكلام الموجز البليغ بما يدانيه في الإيجاز والبلاغة ولا غرو فالحجاج كان آية في إتقان اللغة ومعرفة خصائصها ، روى الزجاج في أماليه قال : "أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال : أخبرنا أبو حاتم السجستاني عن الأصمعي قال : أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل :

الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرّية ، والحجاج أفصحهم ، قال يوما لطباخه : اطبخ لنا مخلّلة وأكثر عليها الفيجن (أي السذاب وهو نبات ورقه كالصعتر) واعمل لنا مزعزعا فلم يفهم عنه الطباخ فسأل بعض ندمائه فقال له : اطبخ له سكباجا وأكثر عليها من السذاب واعمل له فالوذا سلسا . وسترى نماذج من الإيجاز في أماكن كثيرة يتم بها شرط الكتاب .

2- الاستثناء في قوله تعالى : " فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس " فإن هذا الاستثناء لو لم يتقدم لفظه هذا الاحتراس من قوله كلهم أجمعون لاحتمل- كما أشرنا في الاعراب- أن يكون في الملائكة من لم يسجد فيتأسى به إبليس ولا يكون منفردا بهذه

الكبيرة لاحتمال أن تكون آلة التعريف للعهد لا للجنس فلما كان هذا الاشكال يتوجه على الكلام إذا اقتصر فيه على ما دون التوكيد وجب الإتيان بالتوكيد ليعلم أن آلة التعريف للجنس فيرتفع هذا الإشكال بهذا



---

الاحتراس فحينئذ تعظم كبيرة إبليس لكونه فارق جميع الملأ الأعلى ، وخرق إجماع الملائكة فيستحق أن يفرد بهذا اللعن إلى آخر الأبد ، هذا والاستثناء الذي يطلقه البلاغيون هو غير الاستثناء المعروف عند النحاة فهو قسمان إذن لغوي وصناعي أما اللغوي فقد فرغ النحاة من تقريره وأما الصناعي فهو الذي نحن بصدده وهو المتعلق بعلم البيان وسترد له نماذج رائعة في هذا الكتاب العجيب .

[سورة الحجر (15) : الآيات 45 إلى 50]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (47) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (48) نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49)

وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (50)

اللغة :

(غِلٍّ) : الغل بكسر الغين الحقد الكامن في القلب من انغل في جوفه وتغلغل ويطلق على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد وتقول : جعل اللّه في كبده غلة وفي صدره غلّا وفي ماله غلولا وفي رقبته غلا فالغل بالضم القيد وهي مادة تدل على التغلغل مطابقة للفظها يقال وبي وجد تغلغل في الحشا وأبلغ فلانا مغلغلة وهي الرسالة الواردة من بلد بعيد وغلغلت اليه رسالة قال الأخطل :

لأغلغلن إلى كريم مدحة ولأثنينّ بنائل وفعال

الاعراب :

)

(395/429)

---

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) إن واسمها وفي جنات خبرها وعيون عطف على جنات .

(ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ) الجملة مقول قول محذوف أي يقال لهم وادخلوها فعل أمر وفاعل ومفعول به وبسلام في محل نصب على الحال من الواو في ادخلوها أي سالمين من كل أذى أو مسلّما عليكم وآمنين حال ثانية من الواو في ادخلوها . (وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ

إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ) ونزعنا فعل وفاعل وما مفعول به وفي صدورهم صلة ومن غل حال بيان للذي استقر في صدورهم وإخوانا حال ثانية من هم وعلى سرر جار ومجرور متعلقان بمتقابلين ومتقابلين حال ثالثة من ضمير صدورهم وجاز ذلك لأن المضاف جزء من المضاف اليه والعامل فيها معنى الإلصاق وقيل متقابلين صفة لإخوانا وليس ببعيد والأول أولى أي لا ينظر بعضهم قفا بعض لدوران الأسرة بهم وهي صفة الجالسين على موائد الشراب والولائم لأن ذلك أبلغ في المؤانسة والإكرام. (لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ) يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة أو حالا من الضمير في متقابلين ولا نافية ويمسهم فعل مضارع ومفعول به مقدم ونصب فاعل مؤخر وما هم الواو عاطفة وما نافية حجازية وهم اسمها ومنها متعلقان بمخرجين والباء حرف جر زائد ومخرجين مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ما. (نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) نبىء فعل أمر والفاعل مستتر وعبادي مفعول به وأن وما في حيزها سدت مسد مفاعيل نبىء وأن واسمها وأنا ضمير فصل أو مبتدأ والغفور خبر أن أو خبر أنا والجملة خبر أن والرحيم خبر ثان. (وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ) عطف على سابقتها والاعراب واحد ولكن الأليم صفة للعذاب.

الفوائد:

قوله " نبىء عبادي اني أنا الغفور الرحيم " هذا مما ورد منظوما في القرآن ولكنه ليس شعرا لأنه ليس مقصودا وقد تقدم القول في بعض الآيات التي وردت موزونة وهذه الآية تؤلف بيتا كاملا من البحر المجتث ولكننا لم نذكر هناك معاني أسماء الأبحر وفيما يلي بيان بالأسماء ومعانيها :

ذكر الزجاج أن ابن دريد أخبره عن أبي حاتم عن الأخفش قال :

سألت الخليل : لم سميت الطويل طويلا ؟ قال لأنه طال بتمام أجزائه قلت : فالبسيط ؟ قال : لأنه انبسط عن مدى الطويل وجاء وسطه فعلن وآخره فعلن ، قلت : فالمديد ؟ قال : لتمدد سباعيه حول خماسيه قلت : فالوافر ؟ قال : لوفور أجزائه وتدا بوتد قلت : فالكامل ؟

قال : لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر قلت : فالهزج ؟

قال : لأنه يضطرب شبه بهزج الصوت قلت : فالرجز ؟ قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام قلت : فالرمل ؟ قال : لأنه برمل الحصير لضم بعضه إلى بعض قلت : فالسريع ؟ قال : لأنه يسرع على اللسان ، قلت : فالمنسرح ؟ قال : لانسراحه وسهولته ، قلت : فالخفيف ؟

قال : لأنه أخف السباعيات قلت : فالمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من السريع ، قلت :

فالمضارع؟ قال: لأنه ضارع المقتضب، قلت:

فالمجتثّ؟ قال: لأنه اجتث أي قطع من طويل دائرته، قلت:

فالمتقارب؟ قال: لتقارب أجزائه لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضا.

[سورة الحجر (15): الآيات 51 إلى 64]

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52)
قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (53) قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ
تُبَشِّرُونَ (54) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (55)



---

قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (56) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57)
قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلاَّ امْرَأَتَهُ
قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (60)
فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (61) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (62) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا
فِيهِ يَمْتَرُونَ (63) وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (64)

الإعراب:

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ) عطف على نبىء عبادي ليعتبروا بما حل بقوم لوط من عذاب ونبئهم فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وعن ضيف ابراهيم متعلقان بنبئهم وأصل الضيف مصدر ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع على أنه قد يجمع فيقال أضياف وضيوف وضيفان.

(إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ) الظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وجملة دخلوا مضاف إليها وعليه متعلقان بدخلوا فقالوا عطف على دخلوا وسلاما مفعول مطلق لفعل محذوف أي نسلم سلاما أو مفعول به على المعنى أي اذكروا سلاما وقال فعل ماض وجملة إنا إلخ مقول القول وإن واسمها ومنكم متعلقان بوجلون ووجلون خبر إنا أي خائفون إما لامتناعهم من الأكل واما لأنهم دخلوا بغير إذن.

)



قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ) لا ناهية وتوجل مضارع مجزوم بلا الناهية وان واسمها وجملة نبشرك خبرها وبغلام متعلقان بنبشرك وعليم صفة والجملة تعليلية لعدم الوجل.

(قالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) الهمزة للاستفهام التعجبي وبشرتموني

فعل وفاعل ومفعول به وعلى حرف جر وان وما في حيزها في محل جر بعلى والجار والمجرور في موضع نصب على الحال أي حالة كونه قد مسني والكبر فاعل مسني ، فبم الباء حرف جر وما اسم استفهام حذفت ألفها لدخول حرف الجر والجار والمجرور متعلقان بتبشرون .

(قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ) جملة بشرناك مقول القول وهو فعل ماض وفاعل ومفعول به وبالحق متعلقان ببشرناك والفاء حرف عطف ولا ناهية وتكن مضارع مجزوم بلا الناهية واسم تكن مستتر تقديره أنت ومن القانطين خبرها . (قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) الواو عاطفة ومن اسم استفهام معناه النفي في محل رفع مبتدأ وجملة يقنط خبره ومن رحمة ربه متعلقان بيقنط وإلا أداة حصر والضالون بدل من الضمير المستتر في يقنط بدل بعض من كل ولم يؤت معه بضمير لقوة تعلق المستثنى بالمستثنى منه . (قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) الفاء عاطفة لتتساوق المحاورة وما اسم استفهام مبتدأ وخطبكم خبر أي ما شأنكم وأيها منادى نكرة مقصودة وحرف النداء محذوف والهاء للتنبيه والمرسلون بدل أو نعت لأيها . (قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)

إن واسمها وجملة أرسلنا خبرها ونا نائب فاعل أرسل والى قوم متعلقان بأرسلنا ومجرمين صفة . (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) فيه وجهان أحدهما أنه مستثنى متصل على أنه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين والمعنى أنهم أجرموا كلهم إلا آل لوط فانهم لم يجرموا وجملة إنا لمنجوهم على هذا استئنافية مسوقة للإخبار بنجاتهم لأنهم لم يجرموا وثانيهما انه مستثنى منقطع لأن آل لوط لم يندرجوا في المجرمين البتة وعلى كل حال محله النصب ويبدو أن جعله منقطعا أولى وأمكن وذلك ان في استثنائهم من الضمير العائد على قوم مجرمين بعدا من حيث ان موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى في حكم الأول وهذا الدخول متعذر من التنكير ولذلك قلما تجد النكرة يستثنى منها إلا في سياق نفي لأنها حينئذ أعم فيتحقق الدخول لولا الاستثناء ومن ثم لم يحسن : رأيت قوما إلا زيدا ، وحسن : ما رأيت أحدا إلا زيدا . وإن واسمها واللام المزحلقة ومنجوهم خبر إنا وأجمعين تأكيد للضمير ، وعلى هذا تكون جملة إنا لمنجوهم متصلة بآل لوط كأنها خبر لكن المقدرة أي لكن آل لوط منجون . (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) اختلف المعربون في هذا الاستثناء وسننقل ما قاله الزمخشري وأبو البقاء ، قال الزمخشري :

" فإن قلت فقوله إلا امرأته ممّ استثني وهل هو استثناء من استثناء ؟

قلت استثنى من الضمير المجرور في قوله لمنجوهم وليس من الاستثناء من الاستثناء في

شيء لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه وان يقال : أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته كما اتحد الحكم في قول المطلّق أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة وفي قول المقرّ : لفلان عليّ عشرة دراهم إلا ثلاثة إلا درهما فأما في الآية فقد



---

اختلف الحكمان لأن إلا آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين وإلا امرأته قد تعلق بمنجوهم فأنى يكون استثناء من استثناء ؟ " .

وقال أبو البقاء : قوله تعالى : إلا امرأته فيه وجهان أحدهما هو مستثنى من آل لوط والاستثناء إذا جاء بعد الاستثناء كان الاستثناء الثاني مضافا إلى المبتدأ كقولك له عندي عشرة إلا أربعة لا درهما فإن الدرهم يستثنى من الأربعة فهو مضاف إلى العشرة فكأنك قلت أحد عشر إلا أربعة أو عشرة إلا ثلاثة والوجه الثاني أن يكون مستثنى من ضمير المفعول في منجوهم وسيأتي في باب الفوائد مزيد .

وقدرنا فعل وفاعل وقد ضمن معنى العلم فلذلك علق باللام فكسرت إن وإنما أسند الملائكة التقدير لأنفسهم لما لهم من المكانة والقربى من اللّه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن رسمنا وان كانوا قد أمروا به ورسموه بأمر الملك ، وان واسمها واللام المزحلقة ومن

الغابرين خبران . (فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) الفاء عاطفة على محذوف أي فخرجوا من عنده وسافروا مع قرينته إلى قرية قوم لوط ولما حينية أو رابطة وجاء فعل ماض وآل لوط مفعول به مقدم والمرسلون فاعل مؤخر . (قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وإن واسمها وخبرها ومنكرون صفة لقوم . (قالُوا : بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) بل حرف إضراب وعطف وجئناك فعل وفاعل ومفعول به وبما متعلقان بجئناك وجملة كانوا صلة وفيه متعلقان بيمترون وجملة يمترون خبر كانوا .

(وَأَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصادِقُونَ) الواو عاطفة وأتيناك فعل وفاعل ومفعول به وبالحق متعلقان بمحذوف حال أي ملتبسين أو ملتبسا أنت لا بصارك له ويجوز تعليقه بأتيناك وإن واسمها واللام المزحلقة وصادقون خبر إن .

الفوائد :



---

وقفنا على مناظرة جرت بين الكسائي وأبي يوسف بصدد قوله تعالى " إلا امرأته " وحكم " إلا " إذا تكررت فقد سأل الكسائي أبا يوسف عمن قال : له عليّ مائة درهم إلا عشرة إلا اثنين فقال :

يلزمه ثمانية وثمانون فقال الكسائي بل يلزمه اثنان وتسعون واستدل بالآية فلم يخالفه وهذا يؤيد رأي أبي البقاء ويخطىء قول الزمخشري وقال ابن هشام : ونظيره قوله تعالى " إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته " فالمرأة مستثناة من الأول والآل مستثنون من القوم المجرمين وهو منقطع والثاني متصل كذا ظهر لي وبعد فلا يمتنع عندي في مثل عشرة إلا أربعة إلا اثنين أن يستثنى الاثنان من الأصل لأن الحمل على الأقرب أرجح لا متعين وكفى بباب التنازع شاهدا وإن كلّا من الفريقين يجيز أعمال كل من العاملين إلا ما استثني لعارض والعارض يوجد هنا أيضا نحو عشرة إلا ثلاثة إلا أربعة فإن قلت : ما المانع من أن يكون في الآية الاستثناء الثاني من القوم المجرمين ويرجحه الاتصال على هذا أيضا لأنها من الآل ومن المجرمين قلت : متى قيل هذا فقد أبعد القائل وأحال أما الأول فواضح وأما الثاني فلأن معنى أرسلنا بالعذاب فلا يصح إخراجها من المعذبين فان قلت : فما المانع من أن يستثنى من هم في إنا لمنجوهم وحينئذ تكون معذبة ويكون حملا على أقرب ما ذكرت وتخرج الآية عن الاستثناء من الاستثناء قلت هو قول الزمخشري وليس عندي كغالب أقواله الاعرابية لأن " إنا لمنجوهم أجمعين " إنما ذكرت توكيدا لا تأسيسا لاستفادة معناها من الإخراج من حكم المعذبين .

(402/429)

وبعد نقل ما تقدم عثرت على اعتراض جميل وهو أنه تقدم أن المراد بالاجرام ذلك الفعل الشنيع فكيف يقولون إن المرأة من الآل ومن المجرمين وذلك الفعل لا يتصور منها وعلى هذا يطيح الرأيان جميعا ويمكن أن يجاب بأن الدلالة على الشيء كفعله أو السكوت على الاجرام والرضا به إجرام وانما أطلنا الكلام لأن هذه الآية مما كثر فيه الكلام وقل من أصاب الغرض من الأئمة الاعلام وسئل عنها الجلال السيوطي في الفتاوى فما أتى بالمرام والله أعلم.

وقد اضطرب أبو حيان في كلامه على الرأيين والموازنة بينهما فقال:

"ولما استسلف الزمخشري أن إلا امرأته مستثنى من الضمير المجرور في لمنجوهم لم يجوز أن يكون استثناء من استثناء ومن قال انه استثناء من استثناء فيمكن تصحيح كلامه بأحد وجهين أحدهما انه لما كان الضمير في لمنجوهم عائدا على آل لوط وقد استثنى منه المرأة صار كأنه مستثنى من آل لوط لأن المضمر هو الظاهر في المعنى والوجه الآخر أن قوله إلا آل لوط لمّا حكم عليهم بغير الحكم على قوم مجرمين اقتضى ذلك نجاتهم فجاء قوله إنا لمنجوهم أجمعين تأكيدا لمعنى الاستثناء إذ المعنى إلا آل لوط فلم يرسل إليهم بالعذاب فصار نظير قولك قام القوم إلا زيدا فانه لم يقم أو إلا زيدا لم يقم فهذه الجملة تأكيد لما تضمنه الاستثناء من الحكم على ما بعد إلا بضد الحكم السابق على المستثنى منه فإلا امرأته على هذا التقرير

الذي قررناه استثناء من آل لوط لأن الاستثناء مما جيء به للتأسيس أولى مما جيء به للتأكيد " .

[سورة الحجر (15) : الآيات 65 إلى 77]

*(403/429)*

---

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (65) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (66) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69)

قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (71) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (74)

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (75) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (76) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

اللغة :

(فَأَسْرِ) : بقطع الهمزة من أسرى وقرىء بوصلها من سرى يقال سرى بالليل وأسرى وسريت به وأسريت به وطال بهم السّرى وطالت يكون مصدرا كالهدى وجمع سرية يقال : سرينا سرية من الليل وسرية كالغرفة والغرفة وأنشد أبو زيد :

وأرفع صدر العنس وهي شملّة إذا ما السرى مالت بلوث العمائم

(يَعْمَهُونَ) يتحيرون وقد تقدم ذكره .

(سِجِّيلٍ) طين طبخ بالنار .

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ) للمتفرسين والمعتبرين المتأملين والتوسم تفعل من الوسم والتوسم أصله التثبت والتفكر مأخوذ من الوسم وهو التأثير بحديدة في جلد البقر أو غيره ، وقال ثعلب : الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك .

(القطع) تقدم تفسيره ولا يكون إلا في آخر الليل ، قال :

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

الاعراب :

)

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ) الفاء الفصيحة وأسر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبأهلك حال وبقطع متعلقان بأسر ومن الليل صفة لقطع. (وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) واتبع عطف على فأسر وأدبارهم مفعول به والواو حرف عطف ولا ناهية ويلتفت مجزوم بلا ومنكم حال لأنه كان في الأصل صفة وأحد فاعل وامضوا عطف أيضا وحيث ظرف مبهم في محل نصب مفعول لأمضوا ولإبهامه تعدى إليه الفعل من غير واسطة وجملة تؤمرون



مضاف إليها الظرف. (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ) وقضينا فعل وفاعل واليه جار ومجرور متعلقان بقفينا لأنها تضمنت معنى أوحينا وذلك مفعول ففينا والأمر بدل من اسم الاشارة وأن وما في حيزها مصدر مؤول بدل من ذلك الأمر أو خبر لمبتدأ محذوف وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه وان واسمها ومقطوع خبرها ومصبحين حال من الضمير المستقر في مقطوع وجمعه على المعنى فيكون معنى مقطوع مقطوعين. (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ) الواو عاطفة وجاء أهل المدينة فعل وفاعل وجملة يستبشرون حال. (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ) إن واسمها وخبرها

والفاء الفصيحة ولا ناهية وتفضحوني مجزوم بلا والواو فاعل والنون نون الوقاية والياء المحذوفة لمراعاة الفواصل مفعول به. (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ) عطف على ما تقدم وقد تقدم إعراب نظيرها. (قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ) الهمزة للاستفهام والواو عاطفة على محذوف ولم حرف نفي وقلب وجزم وننهك فعل مضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به وعن العالمين متعلقان بننهك وأصح الأقوال في نهيه عن العالمين هو نهيه عن أن يجير أحدا منهم ويمنع بينهم وبين قومه. (قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ) هؤلاء بناتي صفة لحجارة. (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها وللمتوسمين صفة لآيات أو تتعلق بنفس الآيات لأنها بمعنى العلامات. (وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ) ان واسمها والضمير يعود للمدينة وهي سدوم والمراد آثارها واللام المزحلقة وبسبيل خبرها ومقيم صفة أي ثابت مسلوك يعرفه الناس وفيه تنبيه لقريش انكم لتمرون عليها كل يوم. (

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ) تقدم اعراب نظيرتها.

البلاغة:

شملت الآية الكريمة وهي " فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون " شملت على وجازتها آداب المسافرين لأمر مهم ديني أو دنيوي من الآمر والمأمور والتابع والمتبوع وسنلخص ما ورد فيها من آداب :

1- أمره بأن يقدمهم أمامه لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه وليكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم .

2- جعل السرى في آخر الليل لأنه أخفى للويل ولأن الإنسان يكون نشيطا فيه .

3- نهاهم عن الالتفات الذي يعوق الساري المسرع المغذ في سراه في تلك الحالة المهولة المحذورة ولئلا يروا ما حلّ بقومهم من العذاب فترق قلوبهم لهم .

4- ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه العذاب ولأن المتلفت يقف دائما ويتذكر مرابعه ومراتعه فيتحسر ويأسى وقد يدوم النشيج كما حدث للصمة بن عبد اللّه .

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا واخدعا

وكما حدث للشريف الرضي :

ولقد وقفت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب

وبكيت حتى ضج من لغب نضوي ولج بعذلي الركب

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الطلول تلفت القلب

الفوائد :

وفي أمثال العرب : " أجور من قاضي سدوم " قالوا بفتح السين مدينة من مدائن قوم لوط ، قال الأزهري قال أبو حاتم في كتابه الذي صنفه في المفسد والمذال : إنما هو سذوم بالذال المعجمة والدال خطأ قال الأزهري : وهذا عندي هو الصحيح قال الطبري : " هو ملك من بقايا اليونانية غشوم كان بمدينة سرمين من أرض قنسرين " وهذا هو الذي اعتمده صاحب القاموس فحمله على تغليط الجوهري وقال الثعالبي : إن سدوم من الملوك المتقدمين المتصفين بالجور "كالة" قاض

أشد جورا منه قال الزبيدي : " وقد علم مما تقدم أن المثل مضبوط بالوجهين وان المشهور فيه إهمال الدال " ونقل عن الشهاب انه يمكن أن يكون بالمعجمة في الأصل قبل التعريب ، فلما عرب أهملوا داله .



---

[سورة الحجر (15) : الآيات 78 إلى 85]

وَإِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (78) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (79) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (81) وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (82)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (84) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (85)

اللغة :

(الْأَيْكَةِ) : هي غيضة شجر بقرب المدينة وأصحابها هم قوم شعيب وفي المختار : الأيك الشجر الملتف والكثير والواحدة أيكة مثل تمر وتمرة .

(الْحِجْرِ) : واد بين المدينة والشام وهم قوم ثمود .

الاعراب :

(وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) الواو استئنافية أو عاطفة وإن



---

مخففة من الثقيلة مهملة أو عاملة واسمها ضمير الشأن المحذوف أي وإن الشأن كان أصحاب الأيكة وكان واسمها والأيكة مضاف اليه واللام الفارقة وظالمين خبر كان .

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ) فانتقمنا الفاء عاطفة على محذوف أي أمعنوا في الإثم فانتقمنا ، وانتقمنا فعل وفاعل ومنهم متعلقان بانتقمنا وإنهما الواو حالية أو عاطفة وإنهما ان واسمها والميم والألف حرفان دالان على التثنية واختلف في عودتهما فقيل يعني قرى

قوم لوط والأيكة وقيل يعودان على الأيكة ومدين لأن شعيبا كان مبعوثا إليهما فلما ذكر الأيكة دل بذكرها على مدين فجاء بضميرهما وقيل يعود على لوط وشعيب وقيل يعود على الخبرين خبر إهلاك قوم لوط وخبر إهلاك قوم شعيب واللام المزحلقة وبإمام خبر إنهما وسمي الطريق إماما لأن السالك فيه يأتم به حتى يصل إلى الموضع الذي يريده ومبين صفته.

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) عطف على ما تقدم لتتساوق القصص واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وكذب أصحاب الحجر فعل وفاعل والمرسلين مفعول به وهذا شروع في قصة صالح. (وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ) وآتيناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وآياتنا مفعول به ثان فكانوا عطف على آتيناهم وكان واسمها وعنها متعلقان بمعرضين ومعرضين خبر كانوا (وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ) وكانوا عطف وكان واسمها وجملة ينحتون خبرها ومن الجبال حال لأنه كان في الأصل صفة أو بينحتون وبيوتا مفعول به وآمنين حال من الضمير في ينحتون أي حال كونهم آمنين عليها من أن تتهدم لاستيثاق بنائها واستحكامها أو من الاستهداف للغارات والاعتداءات لأنها معاقل حصينة لهم. (

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) الفاء عاطفة وأخذتهم فعل ومفعول به مقدم والصيحة فاعل مؤخر ومصبحين حال أي داخلين في وقت الصباح. (فَما أَغْنى

عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ)

الفاء عاطفة وما نافية وأغنى فعل ماض وعنهم متعلقان بأغنى وما فاعل وجملة كانوا صلة وجملة يكسبون خبر كانوا ويجوز أن تكون ما استفهامية مفعولا مقدما لأغنى ويجوز أن تكون ما مصدرية والاعراب واحد. (وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ) الواو عاطفة وما نافية وخلقنا السموات فعل وفاعل ومفعول به والأرض عطف على السموات وإلا أداة حصر وبالحق حال والباء للملابسة أي ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة. (وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) الواو عاطفة وإن واسمها واللام المزحلقة وآتية خبرها والفاء الفصيحة واصفح فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والصفح مفعول مطلق والجميل صفة.

البلاغة:

1- في قوله تعالى: "وان كان أصحاب الأيكة لظالمين" مجاز مرسل علاقته الحالية لأن الأيكة هي شجر ملتف مزدحم.

2- في قوله "لبإمام مبين" استعارة تصريحية لأن الطريق سبيل للوصول والمسافر فيه يتبعه حتى النهاية فاستعمل المشبه به بدلا عن المشبه.

[سورة الحجر (15): الآيات 86 إلى 99]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (86) وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (87) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (88) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (89) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90)

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)

(410/429)

---

الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99)

اللغة :

(الْمَثَانِي) : المراد بالمثاني هنا مختلف فيه فقيل الفاتحة لأنها تثنى في كل ركعة وهي سبع آيات وقيل هي السور السبع الطوال وهي جمع مثناة مؤنث مثنى وقد تقدم بحثه مفصلا في النساء وسميت السور السبع الطوال مثاني لما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد والكلام في ذلك مبسوط في المطولات .

(عِضِينَ) : جمع عضة وأصلها عضوة من عضي الشاة إذا جعلها أعضاء وقيل عضهة من عضهته إذا بهته وفي المختار : " قال الكسائي :

العضة الكذب والبهتان وجمعها عضون مثل عزة وعزون قال الله تعالى :

" الذين جعلوا القرآن عضين " قيل نقصانه الواو وهو من عضوته أي فرقته لأن المشركين فرقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا وقيل نقصانه الهاء وأصله عضهة لأن العضة والعضين في لغة قريش السحر يقولون للساحر عاضه " وسيأتي مزيد بحث عن الملحقات بجمع المذكر السالم في باب الفوائد .

(فَاصْدَعْ) : فاجهر به وأظهره يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها من الصديع وهو الفجر والصدع في الزجاجة الإبانة وقال الضحاك : وأصل الصدع الشق والفرق أي افرق بين الحق والباطل وسيأتي مزيد بحث عن هذا التعبير العجيب في باب البلاغة .

الاعراب :

(

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) ان واسمها وخبرها ، وهو ضمير فصل (وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) كلام مستأنف مسوق لتنبيه المسلمين إلى أن ما أنزل عليهم خبر من متاع الدنيا قيل :

(411/429)

---

وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجوهر وسائر الأمتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم الله عز وعلا لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع . واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتيناك فعل ماض وفاعل ومفعول به أول وسبعا مفعول به ثان ومن المثاني صفة لسبعا والقرآن عطف على سبعا من قبيل عطف الصفات مع وحدة ذات الموصوف والعظيم صفة للقرآن . (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ) لا ناهية وتمدن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد

(412/429)

---

الثقيلة وهو في محل جزم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره أنت وعينيك مفعول به والى ما متعلقان بتمدن وجملة متعنا صلة وبه متعلقان بمتعنا وأزواجا مفعول متعنا ومنهم صفة لأزواجا والمراد بالأزواج الأصناف منهم أي أن ما أوتيته من نعماء سابغة يضؤل أمامه كل

ما في الدنيا من بهارج الحياة وتزاويقها . (وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) ولا تحزن عطف على لا تمدن وعليهم متعلقان بتحزن واخفض عطف أيضا وجناحك مفعول به وللمؤمنين متعلقان بأخفض . (وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) إن واسمها وأنا مبتدأ أو ضمير فصل والنذير خبر أنا أو خبر إن والمبين صفة . (كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ) كما فيها وجهان أحدهما أن يتعلقا بقوله ولقد آتيناك أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون والثاني أن يتعلقا بالنذير أي ينزل عليك مثل الذي نزل بأهل الكتاب وعلى كل حال صفة لمفعول مطلق محذوف وعلى المقتسمين جار ومجرور متعلقان بأنزلنا وسيأتي بيانهم . (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) الذين صفة للمقتسمين وجملة جعلوا صلة والقرآن مفعول جعلوا وعضين مفعول به ثان أي قسموا القرآن أقساما فجعلوه سحرا وشعرا وأساطير وقد اختلف بهؤلاء المقتسمين وقصصهم اختلافا يخرج بنا عن النهج المقرر للكتاب فارجع اليه في المطولات .



---

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ) الفاء عاطفة والواو للقسم وربك مجرور بواو القسم وهما متعلقان بفعل محذوف تقديره أقسم ، واللام واقعة في جواب القسم ولنسئلنهم

فعل وفاعل مستتر ومفعول به وأجمعين تأكيد (فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا فاصدع ، واصدع فعل أمر وفاعله أنت وبما متعلقان به

وما مصدرية أو موصولة وعن المشركين متعلقان بأعرض . وقد رجح ابن هشام في المغني

أن تكون مصدرية وعلل ذلك ابن الشجري قال : فيه أي في الموصولية خمسة حذوف

والأصل بما تؤمر بالصدع به فحذفت

الباء فصار بالصدعة فحذفت أل لامتناع اجتماعها مع الاضافة فصار يصدعه ثم حذف

المضاف كما في : واسأل القرية فصار به ثم حذف الجار كما قال عمرو بن معد يكرب :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب



---

فصار تؤمره ثم حذفت الهاء كما حذفت في : أهذا الذي بعث اللّه رسولا وانما ارتكب

خمسة حذوف لأجل أن يكون جاريا على القياس في حذف العائد المجرور لأنه لا يحذف

العائد المجرور إلا إذا كان مجرورا بمثل الحرف الذي جر الموصول وأن يكون كل من الحرفين

متعلقا بعامل مماثل لما تعلق به الآخر فقول ابن الشجري : والأصل بما تؤمر بالصدع به العائد

متعلق بمثل ما تعلق به الجار للموصول ولو قال : اصدع بما تؤمر به لم توجد تلك الشروط

لاختلاف المتعلق لأن الباء الأولى متعلقة بالصدع والثانية متعلقة بتؤمر . (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) ان واسمها وجملة كفيناك خبرها وهو فعل وفاعل ومفعول به والمستهزئين مفعول به ثان . (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) الذين صفة للمستهزئين وجملة يجعلون صلة والواو فاعل ومع الله ظرف مكان متعلق بمحذوف مفعول به ثان ليجعلون وإلها مفعول به وآخر صفة والفاء استئنافية وسوف حرف استقبال ويعلمون فعل مضارع وفاعل والمفعول محذوف أي عاقبة أمرهم . (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) الواو عاطفة واللام موطئة للقسم وقد حرف تقليل والمراد به هنا التكثير والتحقيق ونعلم فعل مضارع فاعله مستتر تقديره نحن وأنك أن وما في حيزها سدت مسد مفعولي نعلم وان واسمها وجملة يضيق صدرك خبرها وصدرك فاعل يضيق وبما متعلقان بيضيق وجملة يقولون صلة والعائد محذوف أي يقولون من أقاويل ويرجفون به من أراجيف .

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ
السَّاجِدِينَ)

الفاء الفصيحة وسبح بحمد ربك تقدم إعرابه قريبا وكن مع الساجدين كان واسمها ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبرها والساجدين مضاف اليه. (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) حتى حرف غاية وجر ويأتيك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والكاف مفعول به واليقين فاعل وسمي الموت يقينا لأنه متيقن الوقوع.

البلاغة:

1- في قوله " فاصدع بما تؤمر " استعارة مكنية فالمستعار منه الزجاجة والمستعار الصدع وهو الشق والمستعار له هو عقوق المكلفين وهو من استعارة المحسوس للمعقول وقد تقدمت الاشارة إلى أقسام الاستعارة والمعنى صرح بجميع ما أوحي إليك وبين كل ما أمرت ببيانه وإن شق ذلك على بعض القلوب فانصدعت والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصديع في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار كما يظهر ذلك على ظاهر الزجاجة المصدوعة فانظر إلى هذه الاستعارة ما أروعها وما أبعد دلائلها ومراميها وما أوجزها لأنها وقعت في ثلاث كلمات انطوت على ما يستوعب الصفحات، قال عبد الله بن عبيدة ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه.

ويروى أن بعض الأعراب لما سمع هذه اللفظات الثلاث سجد فقيل له: لم سجدت؟ فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام لأنه أدرك منه بديها من غير تأمل كل ما أدركناه بعد الروية

والنظر ومن هذا يتبين لك أن العرب تيقنت من أول ما سمعت القرآن أنه غير مقدور للبشر فلم تشتغل بالمعارضة ولا حدثت نفوسها بها .

2- في قوله " واخفض جناحك للمؤمنين " استعارة مكنية وسيأتي القول فيها مسهبا عند قوله " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " .

الفوائد :

الملحق بجمع المذكر السالم:

حملوا على جمع المذكر السالم أربعة أنواع أعربت بالحروف وليست جمعا مذكرا سالما وهي كما يلي :



---

الأول : أسماء جموع : وهي : أولو بمعنى أصحاب ، وعالمون اسم جمع عالم بفتح اللام وليس جمعا له لأن العالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمون مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه ، وعشرون وبابه وهو سائر العقود إلى التسعين وقد وردت العقود كلها في القرآن وقد أحصيناها على الشكل التالي :

آ- " ان يكن منكم عشرون صابرون " .

ب- " وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة " .

ج- " فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما " .

د- " فإطعام ستين مسكينا " .

ه- " ذرعها سبعون ذراعا " .

و- " فاجلدوهم ثمانين جلدة " .

ز- " إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة " .

الثاني : جموع تكسير تغير فيها بناء الواحد وأعربت بالحروف وهي : (بَنُونَ) جمع ابن وقياس جمعه جمع السلامة ابنون كما يقال في تثنيته ابنان ولكن خالف تصحيحه تثنيته لعلة تصريفية أدت إلى حذف الهمزة وذلك أن ابن أصله بنو حذفت لامه للتخفيف وعوض عنها همزة الوصل والجمع يرد الأشياء إلى أصولها فلما جمع رجعت الواو فذهبت الهمزة ثم حذفت الواو والمحذوف لعلة كالثابت فلم تأت الهمزة وأما التثنية فلو رجعت الواو لم يكن هناك ما يقتضي حذفها لأنها متحركة بالفتح والفتح خفيف وقد حذفت أولا لغرض التخفيف فلو حذفت لزال ذلك الغرض والمانع من حذفها لو رجعت ومن قلبها ألفا سكون ما بعدها كما في بيان ولو حذفت لصار اللفظ بنان فيحصل اللبس ببنان الكف بخلاف بنون فليتأمل وأرضون بفتح الراء جمع أرض بسكونها وجمع هذا الجمع لأنه ربما يورد في مقام

الاستعظام كقوله :

لقد ضجت الأرضون إذ قام من بني سدوس خطيب فوق أعواد منبر



---

إلا أنه سكن الراء للضرورة ، وسنون بكسر السين جمع سنة بفتحها اسم للعام ولامها واو أو هاء لقولهم سنوات وسنهات وبابه وهو شائع في كل اسم ثلاثي حذفت لامه وعوض عنها هاء التأنيث ولم يكسر نحو عضة وعضين وأصل عضة عضه بالهاء من العضه وهو البهتان والكذب وفي الحديث : لا يعضه بعضكم بعضا وقيل أصله عضو من قولهم عضيته تعضية إذا فرقته فعلى الاول لامها هاء ويدل له تصغيرها على عضيهة وعلى الثاني واو ويدل له جمعها على عضوات فكل من التصغير

والجمع يردان الأشياء إلى أصولها ، وعزة وعزين والعزة بكسر العين وفتح الزاي أصلها عزى فلامها ياء وهي الفرقة من الناس والعزين الفرق المختلفة لأن كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الأخرى ، وثبة وثبين والثبة بضم الثاء وفتح الباء الجماعة وأصلها ثبو وقيل ثبي من ثبيت أي جمعت فلامها على الأول واو وعلى الثاني ياء ولا يجوز في نحو اسم واخت وبنت لأن العوض فيهنّ عن لامهنّ المحذوفة غير الهاء ، أما اسم فأصله سمو

فحذفت لامه وعوض عنها الهمزة في أوله وأما أخت وبنت فأصلهما أخو وبنو وحذفت لامهما وعوض منهما تاء التأنيث لا هاء التأنيث والفرق بينهما أن تاء التأنيث فيهما لا تبدل هاء في الوقف وتكتب مجرورة وهاء التأنيث يوقف عليها بالهاء وتكتب مربوطة ولا في نحو شاة وشفة لأنهما كسرا على شفاه وشياه ، قال الجوهري : وإنما لم يجمعا بالحروف لأن العرب استغنت بتكسيرهما عن تصحيحهما .

الثالث : مما حمل على هذا الجمع جموع تصحيح لم تستوف شروط الجمع كأهلون ووابلون لأن أهلا ووابلا ليسا علمين ولا صفتين ولأن وابلا غير عاقل والمعروف أن شرط هذا الجمع أن يكون لعلم من يعقل أو صفته .

*(418/429)*

---

الرابع : ما سمي به من هذا الجمع ومما ألحق به فالأول نحو زيدون مسمى به شخص والثاني كعليون فإنه ملحق بهذا الجمع وسمي به أعلى الجنة قال تعالى : " إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون " وهناك تفاصيل أخرى لا حاجة إلى إثباتها لأنها دون الفصيح ولهذا أضربنا عن ذكرها ويرجع إليها في المطولات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 5 صـ 212 . 267﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى . رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَة

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثلاثون بعد الأربعمائة

( سورة النحل )

(4/430)

---

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

( سورة النحل )

(5/430)

---

" فصل فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

رَوَى المفسّرون فى فضل السّورة أَحاديث ساقطة .

منها حديث أُبىّ الواهى : مَن قرأَ سورة النَّحل لم يحاسبه الله بالنِّعم الَّتى أَنعَم عليه فى دار الدّنيا ، وأُعطى من الأَجر كالَّذى مات فأَحسن الوَصِيّة .

وعن جعفر أَن مَن قرأَ هذه السّورة فى كلِّ شهر كُفى عنه سبعون نوعاً من البلاءِ ، أَهونها

الجذام والبرص ، وكان مسكنه فى جنّة عَدْن وسط الجنان ، وحديث على : يا علىّ مَن قرأَ سورة النَّحل فكأَنَّما نَصَر موسى وهارون على فرعون ، وله بكلِ آيّة قرأَها مثل ثُواب أُمّ موسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 287 ﴾

(6/430)

---

فصل فى مقصود السورة الكريمة

قال البقاعى :

( سورة النحل )

مقصودها الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم ، فاعل بالاختيار ، منزه عن شوائب النقص ، وأدل ما فيها على هذا المعنى أن النحل لما ذكر من شأنها من دقة الفهمة في ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمرها من اختلاف ألوان ما يخرج منها من أعسالها ، وجعله شفاء مع أكلها من الثمار النافعة والضارة - وغير ذلك من الأمور ، ووسمها بالنعم واضح في ذلك - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 243 ﴾

(7/430)

فصل في نزولها

قال ابن الجوزى :

سورة النحل

روى مجاهد وعطية وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية وكذلك روي عن الحسن وعكرمة وعطاء أنها مكية كلها وقال ابن عباس في رواية إنه نزل منها بعد قتل حمزة ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . . . النحل 126 ﴾

وقال في رواية هي مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة وهي قوله ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ إلى قوله ﴿ يعملون . . . النحل 95.97 ﴾

وقال الشعبي كلها مكية إلى قوله ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخر الآيات ﴾ (النحل 126. 128)

وقال قتادة هي مكية إلا خمس آيات ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ﴾ (الآيتين النحل 96.95)

ومن قوله ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخرها النحل 126

وقال ابن السائب هي مكية إلا خمس آيات ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا . . .الآية ﴾ (النحل 41 )وقوله ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا . . .

الآية ﴾ (النحل 110 )

وقوله ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخرها (النحل 126 )

وقال مقاتل مكية إلا سبع آيات قوله ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا . . . الآية ﴾ (النحل 110 )

وقوله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه . . . الآية ﴾ (النحل 106 )

وقوله ﴿ والذين هاجروا في الله . . . الآية ﴾ (النحل 41 ) وقوله ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة . . . الآية ﴾

(النحل 112 ) وقوله ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخرها

(النحل 126 )

قال جابر بن زيد أنزل من أول النحل أربعون آية بمكة وبقيتها بالمدينة وروى حماد عن علي بن زيد قال كان يقال لسورة النحل سورة النعم يريد لكثرة تعداد النعم فيها . انتهى ا . هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى . . أتى أمر الله )

هذه السّورة مكِّيّة ، إلاّ قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ﴾ إِلى آخر السّورة .

وقيل : أَربعون آية منها مكِّيّة ، والباقى مَدَنىّ .

والأَوّل أَولى .

عدد آياتها مائة وثمانية وعشرون .

وكلماتها أَلفان وثمانمائة وأَربعون .

وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أَحرف .

وجموع فواصل آياتها (نمرّ) منا اثنتان على الرّاءِ أخراهما ﴿ قَدِيرٍ ﴾ وسُمّيت سورة النَّحل لِمَا فيها من عجائب ذكر النَّحل .

(9/430)

---

معظم ما اشتملت عليه السّورة : تخويف العباد بمجئ القيامة ، وإِقامة حُجّة الوحدانية ، وذكر ما فى الأَنعام من المنافع والنِّعم ، وما فى المراكب من التَّجمّل والزينة ، وذكر المُسِيم

والنبات والشجر ، وتسخير الشمس والقمر ، وتثبيت الأَرض والجبال والحَجَر ، وهداية الكواكب فى السّفر والحضر ، والنِعم الزّائدة عن (العد والإِحصاء) ، والإِنكار على أَهل الإِنكار ، وجزاءُ مَكْر المُكّار ، ولعنة الملائكة على الأَشرار ، عند الاحتضار ، وسلامهم فى ذلك الوقت على الأَبرار والأَخيار ، وبيان أَحوال الأَنبياءِ والمرسلين مع الأُمم الماضين ، وذكر الهجرة والمهاجرين ، وذكر التّوحيد ، وتعريف المنعِم ، ونعَمه السّابغات ، ومذَمّة المشركات بوأْد البنات ، وبيان الأَسماءِ والصّفات ، والمنّة على الخلائق بإِنزال الرّحمات ، وعدّها من الإِنعام فى باب الأَنعام والحيوانات ، وبيان فوائد النَّحْل ، وذكر ما اشتمل عليه : من عجيب الحالات ، وتفضيل الخَلْق فى باب الأَرزاق والأَقوات ، وبيان حال المؤمن والكافر ، وتسخير الطيور فى الجوّصافّات ، والمِنّة بالمساكن والصّحارى والبرّيّات ، وشكاية المتكبّرين ، وذكر ما أُعِدّ لهم من العقوبات ، والأَمر بالعدل والإِحسان ، والنّهى عن نقض العهد والخيانات ، وأَنّ الحياة الطّيّبة فى ضمن الطّاعات ، وتعلم الاستعاذة بالله فى حال تلاوة الآيات المحكمات ، وردّ سلطان الشّيطان من المؤمنين والمؤمنات ، وتبديل الآيات بالآيات ، لمصالح المسلمين

(10/430)

والمسلمات، والرّخصة بالتّكلم بكلمة الكفر عند الإِكراه والضّرورات، وبيان التحريم والتحليل فى بعض الحالات، وذكر إِبراهيم الخليل وما مُنح من الدّرجات، وذكر السَّبْتِ والدّعاءِ إِلى سبيل الله بالحكمة والعظات الحسنات، والأَمر بالتسوية فى المكافآت بالعقوبات، والأَمر بالصّبر على البليّات، ووعد المتَّقين والمحسنين بأَعظم المثوبات، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ .

النّاسخ والمنسوخ فى هذه السّورة ثلاث آيات منسوخة م ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ن ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ م آية السّيف ن ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ م آية السّيف ن. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 ص 280.278﴾

(11/430)

---

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة النحل

228 - مسألة:

قوله تعالى : ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ؟ .

وقال بعده : ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وبعده : ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ؟ .

جوابه :

أما "آية" و "آيات" فلتعدد الآيات في الوسطى واتحادها في الأولى والثانية .

وأما : ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ و ﴿يَعْقِلُونَ﴾ فقد تقدم في سورة الرعد .

وأما : ﴿يذكرون بالياء ، فلأن فائدة التفكر والتعقل هو التذكر بما خلق ذلك له ، وهو معرفة الله سبحانه وتعالى .

229 - مسألة :

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

وفي فاطر : ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ؟ .

جوابه :

أن آية النحل : سيقت لتعداد النعم على الخلق بدليل تقديم قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ .

وأية فاطر : سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل قوله
تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) الآية ، فتكرر
(منه) في النحل لتحقيق المنة والنعمة ، ولذلك عطف (وَلِتَبْتَغُوا) بالواو العاطفة لمناسبة
تعدد النعم . كما تقدم .
وقدم (مَوَاخِرَ) على (فيه) لأنه امتن عليهم بتسخير
البحر ، فناسب تقديم (مَوَاخِرَ) أي شاقة للماء
وأيضا ليلى المفعول الثاني المفعول الأول لـ (ترى) فإنه
أولى من تقديم الظرف .
وأما آية فاطر فحذف (منه) لدلالة ((وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ)
عليها ، وقدم (فيه) له على (مَوَاخِرَ) لأن شق الفلك الماء
لجريانه فيه آية من آيات الله تعالى فالتقدم فيه أنسب للفلك .
230 – مسألة :
قوله تعالى : (فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)) هنا . وفى
الزمر : (فَبِئْسَ) بحذف اللام ؟ .

جوابه :

لما تقدم هنا شدة كفر المذكورين من صدهم وضلالهم وإضلالهم ، ناسب ذلك التأكيد بذكر اللام ، ولذلك لما أكد في ذكر أهل النار أكد في ذكر أهل الجنة بقوله تعالى : (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) . وآية الزمر : خلية من ذلك فلم يؤكد فيها .

231 - مسألة :

قوله تعالى : (يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) .

أفرد اليمين وجمع الشَّمَائِل ؟ .

جوابه :

والله أعلم ، أن الآية نزلت بمكة والظل فيها إلى جهة اليمين ، وهو يمين الكعبة مدته قليلة ، وهو قليل أيضا ما يكون .

والظل إلى جهة الشام وهو شمال الكعبة تطول مدته ، وتكثر مساحته ، فناسب إفراد اليمين لقلة مسافته ومدته ، وجمع الشمائل لطول مدته ومسافته .

وقيل فيه غير ذلك : وهذا أنسب مما قيل فيه والله أعلم .

232 - مسألة :

قوله تعالى : (فَتَمَتَّعُوا)

وفى العنكبوت : (وَلِيَتَمَتَّعُوا) ؟ .

جوابه :

أن آيات النحل والروم للمخاطبين فجاءت

العنكبوت للغائبين ، فناسب ذكر اللام فيه .

233 - مسألة :

بغير لام . وفى

قوله تعالى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ) وقال :

(عَلَيْهَا) . وفى فاطر : (بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ) وقال : (عَلَى ظَهْرِهَا) ؟ .

جوابه :

أن آية النحل جاءت بعد أوصاف الكفار بأنواع كفرهم في اتخاذهم إلهين اثنين ، وكفرهم وشركهم في عبادة عبادة الله سبحانه ، وجعلهم للأصنام نصيبا من مالهم ، ووأد البنات ، وغير ذلك ، وكل ظلم منهم ، والسب قوله تعالى : (بِظُلْمِهِمْ)

ولم يتقدم مثل ذلك في فاطر .

وأما (عليها) والمراد : الأرض ، فإنه شائع مستعمل كثير في

لسان العرب لظهور العلم به بينهم ولكراهية أن يجتمع ظاءان في جملتين مع ثقلها في لسانهم ، لأن الفصاحة تأباه ولم يتقدم في فاطر ذلك فقال (عَلَى ظَهْرِهَا) مع ما فيه من تفنن الخطاب .

234 - مسألة :

(13/430)

---

قوله تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) . وفى المؤمنين : (مِمَّا فِي بُطُونِهَا) ؟ .

جوابه :

أن المراد في آية النحل البعض ، هو الإناث خاصة ، فرجع

الضمير إلى البعض المقدر ، ودليله تخصيص الآية "باللبن"

وهو في الإناث خاصة .

وأية سورة المؤمنين : عامة للجميع بدليل قوله تعالى : (ولكم فيها منافع) الآيات .

فعم الذكر والأنثى كما عمهما لفظ الإنسان قبله .

235 - مسألة :

قوله تعالى : (كَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) . وقال في

الحج : (مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) بزيادة (من) ؟ .

جوابه :

أن (بَعْد) يستغرق الزمان المتعقب للعلم من غير تعين ابتداء

وانتهاء ، فلما أتى ما قبل آية النحل مجملا جاء بعده كذلك

مجملا ، وفى الحج أتى ما قبلها مفصلا من ابتدائه بقوله

تعالى : (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) إلى آخره بعده كذلك مفصلا من

ابتدائه مناسبا لما تقدمه من التفصيل .

236 - مسألة :

قوله تعالى : (وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72)

وفى العنكبوت : (يَكْفُرُونَ) بغير (هُمْ)

جوابه :

ما تقدم أن آية النحل سياقها للمخاطبين متصل بقوله تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

أَزْوَاجًا) الآية ، ثم عدل إلى الغيبة بقوله تعالى : (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ) فناسب (هُمْ) توكيدا

للغيبة ، كي لا يلتبس الغيبة بالخطاب .

وآية العنكبوت للغائبين ، فناسب حذف (هُمْ) منه لعدم اللبس .

237 - مسألة :

قوله تعالى : (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ)

ثم قال تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) وظاهره واحدة كما تقدم قبل ذلك ؟ .

جوابه :

(14/430)

---

أنه لما ختم الآيات المذكورة في هذه السورة بهذه الآية كانت هي وما قبلها آيات فتكون الإشارة بذلك إلى مجموع ما تقدم من الآيات والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 225 . 231﴾

(15/430)

---

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

فيها فى موضعين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ بالجمع .

وفى خمسة مواضع : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ على الوحدة .

أَما الجمع فلموافقة قوله : ﴿ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ فى الآيتين ؛ لتقع المطابقة فى اللفظ والمعنى .

وأَمّا التوحيد فلتوحيد المدلول عليه .

من الخمس قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ وليس له نظير .

وخصّ بالذِّكر لاتّصاله بقوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ ؛ فإِن اختلاف أَلوان الشىء وتغيّر أَحواله يدلّ على صانع حكيم لا يشبهها ولا تشبهه ، فمن تأَمل فيها اذَّكَّر .

ومن الخمس : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى موضعين ، وليس لهما نظير .

وخُصّتا بالفكر ؛ لأَن الأُولى متصلة بقوله : ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وأَكثرها للأَكل ، وبه قوام البدن ، فيستدعى تفكيرا وتأَمّلاً ، ليعرف به المنعِم عليه فيشكره .

والثانية متَّصلة بذكر النحل ، وفيها أُعجوبة : من انقيادها لأَميرها ، واتّخاذها البيوت على أَشكال يعجز عنها الحاذق منّا ، ثم تتبُّعها الزَهر والطلى من الأَشجار ، ثم خروج ذلك من بطونها لُعابا أَو ونيما ، فاقتضى ذلك فكراً بليغاً ، فختم فى الآيتين بالتفكُّر .

قوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وفى الملائكة : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ

مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ ، ما فى هذه السورة جاء على القياس ؛ فإن (الفلك) المفعول الأَوّل لترى ، و (مَوَاخِرَ) المفعول الثانى ، و (فيه) ظرف ، وحقُّه التأَخُّر .

والواو فى (ولتبتغوا) للعطف على لام العلة فى قوله : ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ ﴾ .

(16/430)

---

وأَمّا فى الملائكة فقدّم (فيه) موافقة لما قبله ، وهو قوله : ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ فقدّم الجارّ والمجرور ، على الفعل والفاعل ، ولم يزد الواو على (لتبتغوا) لأَن اللام فى (لتبتغوا) هنا لام العلة ، وليس يعطف على شىء قبله .

ثم إن قوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ و ﴿ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ اعتراض فى السورتين يجرى مجرى المثل ، ولهذا وَحّد الخطاب ، وهو قوله : (وترى) وقبله وبعده جمع ، وهو قوله : (لتأكلوا) و (تستخرجوا) و (لتبتغوا) .

وفى الملائكة : (تأكلون) و (تستخرجون) ، (لتبتغوا) ومثله فى القرآن كثير ، منه ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ وكذلك ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ، ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ وأمثاله .

أَى لو حضرت أَيها المخاطب لرأَيته فى هذه الصفة ؛ كما تقول : أَيها الرجل ، وكلكم ذلك

الرجل ، فتأمل فإن فيه دقيقة .

قوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وبعده : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ إنما رفع الأول ؛ لأنهم أنكروا إنزال القرآن ، فعدلوا عن الجواب ، فقالوا : أساطير الأولين .

والثانى من كلام المتقين ، وهم مقرّون بالوحى والإنزال ، فقالوا :

خيراً ، أى أنزل خيراً ، فيكون الجواب مطابقاً ، و (خيرا) نصْب بأنزل .

وإن شئت جعلت (خيرا) مفعول القول ، أى : قالوا خيراً ولم يقولوا شرّاً كما قالت الكفّار .

وإن شئت جعلت (خيرا) صفة مصدر محذوف ، أى قالوا قولا خيرا .

وقد ذكرت مسألة (ماذا) فى مواضعه .

(17/430)

---

قوله : ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ليس فى القرآن نظيره للعطف بالفاءِ على التعقيب فى قوله : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ واللام للتأكيد تجرى مجرى القسم موافقة لقوله : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ وليس له نظير ، وبينهما : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ .

قوله : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ هنا وفى الجاثية ، وفى غيرهما ﴿ مَا كَسَبُوا ﴾ ؛

لأن العمل أَعمّ من الكسب، ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وخُصّت هذه السورة (بالعمل) لموافقة ما قبله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ولموافقة ما بعده وهو قوله: ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ومثله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ فى الزمر.

وليس لها نظير.

قوله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ قد سبق.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ قد سبق.

قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ومثله فى الروم و (فى) العنكبوت: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعلَمُونَ﴾ باللام والياءِ.

أَما التاءُ فى السورتين فبإِضمار القول أَى قل لهم: تمتعوا، كما فى قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وكذلك: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾.

وخصصت هذه السّورة بالخطاب لقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم﴾ وأَلحق ما فى الروم به.

وأَمّا [ما] فى العنكبوت فعلى القياس، عطف على اللام قبله، وهى للغائب.

(18/430)

قوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ وفى الملائكة : ﴿ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا ﴾ الهاءُ فى هذه السورة كناية عن الأَرض ، ولم يتقدّم ذكرها .

والعرب تجوّز ذلك فى كلمات منها الأَرض ، تقول : فلان أَفضل مَنْ عليها ، ومنها السماء ، تقول : فلان أَكرم مَن تحتها ، ومنها الغداة (تقول) : إِنها اليوم لباردة .

ومنها الأَصابع تقول : والذى شقَّهن خَمسا من واحدة ، يعنى الأَصابع من اليد .

وإِنما جوّزوا ذلك لحصولها بين يَدَىْ متكلم وسامع .

ولمّا كان كناية عن غير مذكور لم يُزد معه الظهر لئلا يلتبس بالدّابة ؛ لأَن الظهر أَكثر ما يستعمل فى الدابّة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "المنبتُّ لا أَرضا قطع ولا ظهرا أَبقى" وأَما فى الملائكة فقد تقدّم ذكر الأَرض فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ وبعدها : ﴿ وَلاَ فِيْ الأَرْضِ ﴾ فكان كناية عن مذكور سابق ، فذكر الظهر حيث لا يلتبس .

قال الخطيب : إِنما قال فى النحل : ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾ ولم يقل (على ظهرها ) احترازا عن الجمع بين الظاءين ؛ لأَنها تثقل فى الكلام ، وليست لأُمّة من الأُمم سوى العرب .

قال : ولم يجئ فى هذه السّورة إِلا فى سبعة أَحرف ؛ نحو الظلم والنظر والظلّ وظلّ وجهه والظفر والعظم والوعظ ، فلم يجمع بينهما فى جملتين معقودتين عَقْد كلام واحد ، وهو لَوْ وجوابُه .

قوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ وفى العنكبوت : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَآ ﴾ وكذلك

حذف (من) من قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وفى الحج ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ فحذف (من) فى قوله: ﴿بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ موافقة لقوله: ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ وحذف (من) فى قوله: ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ لأَنه أَجمل الكلام فى هذه السورة، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وفصّله فى الحجّ

(19/430)

---

فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ إِلى قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ فاقتضى الإِجمال الحذفَ، والتفصيل الإِثباتَ.

فجاءَ فى كل سورة ما اقتضاه الحال.

قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وفى المؤمنين ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ لأَن فى هذه السورة يعود إِلى البعض وهو الإِناث لأَن اللبن لا يكون للكل.

فصار تقدير الآية: وإِن لكم فى بعض الأَنعام، بخلاف ما فى المؤمنين، فإِنه لمّا عطف ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض - وهو قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا﴾ لم يحتمل أَن يكون المراد البعض، فأَنَّث حملا على الأَنعام، وما قيل: إِن (الأَنعام) ههنا بمعنى النعم لأَن الأَلف واللام يُلحق الآحادَ بالجمع والجمعَ بالآحاد حسنٌ؛ إِلا أَن

الكلام وقع في التخصيص.

والوجه ما ذكرت. والله أعلم.

قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وفي العنكبوت ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بغير (هم) لأن في هذه السورة اتّصل (الخطاب) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ثم عاد إلى الغيبة فقال: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فلا بدّ من تقييده بهم لئلا يلتبس الغَيْبَة بالخطاب والتاءُ بالياءِ.

وما في العنكبوت اتصل بآيات استمرّت على الغَيبة فلم يحتج إلى تقييده بالضمير.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كرّر إنّ، وكذلك في الآية الأخرى ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ لأن الكلام لمّا طال بصلته أعاد إن واسمها وثمّ، وذكر الخبر.

(20/430)

---

ومثله ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ أعاد (أنّ) لمّا طال الكلام.

قوله : ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا﴾ وفى النمل : ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ بإثبات النون .

هذه الكلمة كثر دَوْرها فى الكلام فحذف النون فيها تخفيفاً من غير قياس بل تشبُّها بحروف العلّة .

ويأتى ذلك فى القرآن فى بضعة عشر موضعا تسعة منها بالتاءِ ، وثمانية بالياءِ ، وموضعان بالنون ، وموضع بالهمزة .

وخصّت هذه السورة بالحذف دون النمل موافقة لما قبلها وهو قوله : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ والثانى أَن هذه الآية نزلت تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم حين قتل حمزة ومثّل به فقال عليه السلام : لأَفعلنّ بهم ولأَصنعنّ ، فأَنزل الله تعالى : ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلّى ، وجاءَ فى النمل على القياس ، ولأَن الحزن هنا دون الحزن هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 287.280﴾

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة النحل

258 - قوله فيها في موضعين إن في ذلك لآيات 12 79 بالجمع وفي خمس مواضع إن في ذلك لآية على الوحدة أما الجمع فلموافقة قوله مسخرات في الآيتين لتقع الموافقة في اللفظ والمعنى وأما التوحيد فلتوحيد المدلول عليه

ومن الخمس قوله إن في ذلك لآية لقوم يذكرون 13 وليس له نظير وخص الذكر لاتصاله بقوله وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه 13 فإن اختلاف ألوان الشيء وتغير أحواله يدل على صانع حكيم فما يشبهه شيء فمن تأمل فيها تذكر

ومن الخمس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون 11 69 في موضعين وليس لهما نظير وخصتا بالتفكر لأن الأولى متصلة بقوله ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات 11 وأكثرها للأكل وبه قوام البدن فيستدعى تفكرا وتأملا ليعرف به المنعم عليه فيشكر والثانية متصلة بذكر النحل وفيها أعجوبة من انقيادها لأميرها واتخاذها البيوت على أشكال يعجز عنها الحاذق ثم تتبعها الزهر والطل من الأشجار ثم خروج ذلك من بطونها لعابا هو شفاء فاقتضى ذلك ذكرا بليغا فختم الآية بالتفكير

259 - قوله وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا 14 ما في هذه السورة جاء على القياس فإن الفلك المفعول الأول لترى ومواخر المفعول الثاني وفيه ظروف وحقه التأخر والواو في

ولتبتغوا للعطف على لام العلة في قوله لتأكلوا منه 14 وأما في الملائكة فقدم فيه 12 موافقة لما قبله وهو قوله ومن كل تأكلون لحما طريا 12 فوافق تقديم الجار والمجرور على الفعل والفاعل ولم يزد الواو على لتبتغوا لأن اللام في لتبتغوا هنا لام العلة وليس بعطف على شيء قبله ثم إن قوله وترى الفلك مواخر فيه في هذه السورة وفيه مواخر في فاطر اعتراض في السورتين يجري مجرى المثل ولهذا وحد الخطاب فيه وهو

(22/430)

---

قوله وترى وقبله وبعده جمع وهو قوله لتأكلوا وتستخرجوا ولتبتغوا 14 وفي الملائكة تأكلون تستخرجون 12 ومثله في القرآن كثير كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا 57 20 وكذلك تراهم ركعا سجدا 48 29 وترى الملائكة حافين من حول العرش 39 75 وأمثاله أي لو حصرت أيها المخاطب لرأيته بهذه الصفة كما تقول أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل فتأمل فإن فيه دقيقة

260 - قوله وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين 24 وبعده وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا 30 إنما رفع الأول لأنهم أنكروا إنزال القرآن فعدلوا عن الجواب فقالوا أساطير الأولين والثاني من كلام المتقين وهم مقرون بالوحى والإنزال فقالوا

خيرا أي أنزل خيرا فيكون الجواب مطابقا

وخيرا نصب بأنزل وإن شئت جعلت خيرا مفعول القول أي قالوا خيرا ولم يقولوا شرا كما قالت الكفار وإن شئت جعلت خيرا صفة مصدر محذوف أي قالوا قولا خيرا وقد ذكرت مثله ما زاد في موضعها

261 - قوله فلبئس مثوى المتكبرين 29 ليس له في القرآن نظير الفاء للعطف على فاء التعقيب في قوله فادخلوا أبواب جهنم 29 واللام للتأكيد يجري مجرى القسم موافقة لقوله ولنعم دار المتقين 30 وليس له نظير وبينهما ولدار الآخرة خير 30

262 - قوله فأصابهم سيئات ما عملوا 34 هنا وفي الجاثية 33

وفي غيرهما ما كسبوا 39 51 لأن العمل أعم من الكسب ولهذا قال فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره 99 7 8 وخصت هذه السورة لموافقة ما قبله وهو قوله ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون 26 ولموافقة ما بعده وهو قوله وتوفى كل نفس ما عملت 111 وفي الزمر 70 وليس لها نظير

263 - قوله لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء 35 قد سبق

264 - قوله ولله يسجد ما في السموات 49 قد سبق

265 - قوله ولله يسجد من في السموات قد سبق أيضا

266 - قوله ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون 55 ومثله في الروم 34 وفي
العنكبوت وليتمتعوا فسوف يعلمون 66 باللام والياء أما التاء في السورتين فبإضمار القول
أي قل لهم تمتعوا كما في قوله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار 14 3 وكذلك قل تمتع بكفرك
قليلا 30 8 وخصت هذه بالخطاب لقوله إذا فريق منكم 54 وألحق ما في الروم به
وأما في العنكبوت فعلى القياس عطف على اللام قبله وهي للغائب

267 - قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة 61 وفي الملائكة بما
كسبوا ما ترك على ظهرها 45 الهاء في هذه

السورة كناية عن الأرض ولم يتقدم ذكرها والعرب تجوز ذلك في كلمات منها الأرض تقول
فلان أفضل من عليها ومنها السماء تقول فلان أكرم من تحتها ومنها الغداء تقول إنها اليوم
لباردة ومنها الأصابع تقول والذي شقهن خمسا من واحدة يعني الأصابع من اليد وإنما
جوزوا ذلك لحصولها بين يدي كل متكلم وسامع

ولما كان كناية عن غير مذكور ولم يزد معه الظهر لئلا يلتبس بالدابة لأن الظهر أكثر ما
يستعمل في الدابة قال عليه الصلاة و السلام إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى
وأما في الملائكة فقد تقدم ذكر الأرض في قوله أو لم يسيروا في الأرض 44 وبعدها ولا في
الأرض 44 فكان كناية عن مذكور سابق فذكر الظهر حيث لا يلتبس

قال الخطيب لما قال في النحل بظلمهم 61 لم يقل على ظهرها احترازا عن الجمع بين الظاءين لأنها تقل في الكلام وليست لأمة من الأمم سوى العرب

قال ولم يجئ في هذه السورة إلا في سبعة أحرف نحو الظلم والنظر والظل وظل وجهه والظهر والعظم والوعظ فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقد كلام واحد وهو لو وجوا به

267 - م قوله فأحيا به الأرض بعد موتها 65 وفي العنكبوت من بعد موتها 63 وكذلك حذف من قوله لكيلا يعلم ما بعد علم شيئا 70 وفي الحج من بعد علم شيئا 5 لأنه أجمل الكلام في هذه السورة

(24/430)

---

وفصل في الحج فقال فإنا خلقناكم من تراث ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة إلى قوله ومنكم من يتوفى 5 فاقتضى الإجمال الحذف والتفصيل الإثبات فجاء في كل سورة بما اقتضاه الحال

268 - قوله لسقيكم مما في بطونه 66 وفي المؤمنين في بطونها 21 لأن الضمير في هذه السورة يعود إلى البعض وهو الإناث لأن اللبن لا يكون للكل فصار تقدير الآية وإن لكم في بعض الأنعام بخلاف ما في المؤمنين فإنه عطف عليه ما يعود على الكل ولا يقتصر على

البعض وهو قوله ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها 21 22 ثم يحتمل أن يكون المراد البعض فأنث حملا على الأنعام وما قيل من أن الأنعام ههنا بمعنى النعم لأن الألف واللام تلحق الآحاد بالجمع وفي إلحاق الجمع بالآحاد حسن لكن الكلام وقع في التخصيص والوجه ما ذكرت والله أعلم

269 - قوله وبنعمة الله هم يكفرون 72 وفي العنكبوت يكفرون 67 بغير هم لأن في هذه السورة اتصل والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات 72 ثم عاد إلى الغيبة فقال أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون 72 فلا بد من تقييده بهم لئلا تلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالباء

وما في العنكبوت اتصل بآيات استمرت على الغيبة فيها كلها فلم يحتج إلى تقييده بالضمير

270 - قوله ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم 120 كرر إن وكذلك في الآية الأخرى ثم إن ربك لأن الكلام لما طال بصلته أعاد إن واسمها وثم وذكر الخبر ومثله أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون 23 35 أعاد أن واسمها لما طال الكلام

271 - قوله ولاتك في ضيق مما 127 وفي النمل ولا تكن 70 بإثبات النون هذه الكلمة كثر دورها في الكلام فحذف النون منها تخفيفا من غير قياس بل تشبيها بحروف العلة ويأتي ذلك في القرآن في بضع عشرة موضعا تسعة منها بالتاء وثمانية بالياء وموضعان بالنون وموضع بالهمزة وخصت هذه السورة بالحذف دون النمل موافقة لما قبلها وهو قوله ولم يك من المشركين 120

والثاني إن هذه الآية نزلت تسلية للنبي صلى الله عليه و سلم حين قتل عمه حمزة ومثل به فقال عليه الصلاة و السلام لأفعلن بهم ولأصنعن فأنزل الله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون 126 127

فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التسلي وجاء في النمل على القياس ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن ص ﴾

(26/430)

---

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة النحل مكية ، وعدد آياتها 128 ثمان وعشرون ومائة ، وسميت النحل لذكر النحل فيها فى قوله تعالى : ( وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) .

وهى كالسور المكية تتجه إلى إثبات التوحيد مما خلق من أرض وسماء وأحياء ، وتأكيد للبعث والنشور ، وإبطال عبادة الأوثان ، وما اقترن بعبادة الأوثان من وأد البنات .

وابتدئت بتكيد عذاب الله لمن يشرك وأنه نازل به لا محالة ، وأنه سبحانه ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، وإن فى ذلك إثبات الرسالة الإلهية تجىء على لسان البشر .

وقد أثبت من بعد ذلك قدرته سبحانه فى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين مشيرا إلى مدرجه فى التكوين ، حتى يصير ذا لسان يجادل به ، وعقل يفكر به .

وذكر نعمة الله تعالى على الإنسان بخلق الأنعام يتخذ منها أسباب الدفء من ملابس ومساكن ، ومنافع فى ركوبها ، الانتقال بها من أرض إلى أرض ، ومنها تأكلون ، ( وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) .

وبعد ذلك يبن نعمته سبحانه وتعالى فى الماء ينزل من السماء بأمره يكون منه حيا تكم ، ويكون منكم الشجر ، و(الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وذكر سبحانه تسخير الشمس والقمر والنجوم سخرها بأمره (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وسخر سبحانه ما خلق فى الأرض من فلزات ومعادن يتخذ منها الحلى وتقام بها المصانع وألوانها مختلفة . ووجه سبحانه وتعالى الأنظار إلى البحر وما فيه ( وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) .

ذكر هذا لبيان خلق الله العظيم ومع ذلك يشركون فى عبادته من لا ينفع

ولا يضر ( أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) ، أى لا حياة فيها .

وقد قرر الله سبحانه وتعالى الحق فقال : ( إلهكم إله واحد ) ولا ينكر حقيقة الألوهية ويضل فى معرفتها إلا الذين يكفرون بالبعث ، فقال سبحانه : ( فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) .

(28/430)

---

وقد أنكروا الوحدانية وأنكروا القرآن ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) .

وقد ذكر سبحانه العظات فيمن مضوا ، فقد مكروا مكرهم ، ودبروا تدبيرهم ، وبنوا على ما دبروا أوهامهم ، ( فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26)

وبعد ذلك يجىء إليهم عذاب يوم القيامة يخزيهم ، (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون .

هذا شأن الكفار الذين أنكرت قلوبهم ، أما المتقون يوم القيامة ، فإنهم يذكرون الحق يوم القيامة ، ( وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ

وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) .

(29/430)

---

ولقد بين الله تعالى بعد ذلك تفكير المشركين فى عدم تدبرهم وعدم تفكيرهم ، وإهمالهم الإنذار بعد الإنذار حتى ينزل بهم ما لم يتوقعوا ، وهم فى غفلة ، فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، والمشركون يحملون آثامهم على الله ( وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .

وقد أشار سبحانه إلى ما نزل بالسابقين من المنكرين ، ولكنهم يصرون على إنكار التوحيد وإنكار البعث

( وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) ، وإن البعث أمر ليس بعسير على الله ، (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول

له كن فيكون .

وقد ذكر بعد ذلك سبحانه ثواب المؤمنين : (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، وقد ذكر سبحانه وتعالى أوصاف الإيمان ، وأولها الصبر ، (وعلى ربهم يتوكلون ، ولقد

كانوا يقولون لم بعث رسولا من البشر ؟ ما لهذا الرسول يكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ فقال تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) .

(30/430)

---

ولقد أشار سبحانه أن المشركين فى غفلة إذ يعاندون الله :

( أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) .

وينبهم سبحانه إلى خلقه سبحانه الذى ( يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ

دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) .

وقد أمرهم سبحانه بالحقيقة الخالدة وهى الوحدانية

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) .

*(31/430)*

---

ولقد ذكر عادة جاهلية ، وهى كراهية البنات ، ووأدهم أحياء ، فقال : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) .

ولقد حكم الله تعالى على المشرك أنه أسوأ ما يكون عقلا ، فقال : (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) .

وإن الله لا يؤاخذ الناس بأعمالهم فور وقوعها ، (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) ، ومع إشراكهم

(تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) .

وقد أكد الله تعالى لنبيه أنه سبحانه أرسل (إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) ، وقد ساق ذلك وأكده ليتأسى النبى بالرسل قبله ، وأنه يجب أن يسير فى بيان الشريعة ، (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

ثم ذكر سبحانه (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ، ثم بين سبحانه عجائب الخلق فى الأنعام ، (نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين )



---

وذكر سبحانه ثمرات النخيل والأعناب قد مكن الناس منها ، فاتخذوا منها رزقا حلالا ، واتخذوا مسكرا حراما ، (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ) ، وذكر النحل ، وما ألهمه سبحانه

، والذى يخرجه من بطونها (فيه شفاء للناس) ، ثم بين خلق الإنسان (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) ، ثم بين سبحانه اختلاف الناس فقرا وغنى ، (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ) .

وذكر سبحانه نعمه بأن جعل لنا من أنفسنا أزواجا وذرية بنين وحفدة ، ورزقنا من الطيبات ، ومع هذه النعم المتضافرة (يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون .

وقد ضرب الله تعالى المثل لضلالهم ، (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)

وهكذا الأمثال تحوى فى ذاتها حكما وأخلاقا وتوجيها للأنظار مع دلالتها على معنى التوحيد والموازنة الحكيمة بين الخالق والمخلوق .

وقد وجه سبحانه الأنظار إلى خلق الإنسان لا يعلم شيئًا ثم جعل له السمع والأبصار والأفئدة رجاء أن يشكروا فكفروا ، ثم وجه سبحانه الأنظار إلى خلق الطير صافات ، كما وجه إلى خلق السموات والأرض والأنعام والخيل والبغال وقال : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

ووجه الأنظار إلى البيوت التى يسكن إليها ، (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم وكل هذه نعم ليشكروها فكفروها ، وينبه النبى (صلى الله عليه وسلم) أن عليه البلاغ فقط ، (فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ، وقد أنذر سبحانه وتعالى : (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون) ، وذكر سبحانه بعد ذلك حال المشركين مع الأوثان يوم القيامة ثم أسلموا أنفسهم لله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويبن سبحانه وتعالى مقام النبوة المحمدية يوم القيامة ، فيقول : (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) .

ويبين الله تعالى لب الإسلام وغايته ، فيقول : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي

الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) .

ويدعو الله إلى الوفاء بالعهد ، وينهى عن نكث العهد ، ويبين أن العهد قوة ، ونكث العهد نكث للقوة ، وجعلها أنكاثا ، وأنه لا يصح أن يكون الرغبة فى الكثرة فى الأرض ، والقوة سببا للنقص ، ولا تتخذوا (أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة



---

هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)

ويبين ان الله تعالى قدر اختلاف الأمم (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .

ونهى عن نقض العهد نهيا قاطعا ، فقال : (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) .

وقد بين سبحانه آداب المؤمن عند قراءة القرآن ،

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) .

وقد بين سبحانه ان القرآن معجزة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه آيته الكبرى ، والله أعلم

بأى الآيات أجدى وأنسب وأحكم ، (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) .

(35/430)

---

وبين أن الكذب شأن (الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وبين سبحانه وتعالى حكم من ينطق بكلمة الكفر مكرها (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107)

وقد بين سبحانه أنه طبع على (قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون .

وبين بعد ذلك جزاء المؤمنين المهاجرين ، فقال :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

رَحِيمٌ (110) .

وذكر سبحانه أنه فى ذلك اليوم توفى كل نفس ما كسبت بعد أن جاءت تجادل عن نفسها ، وهم لا يظلمون ، وقد ضرب الله مثلا للقرية الظالمة بعد أن أنعم الله تعالى عليها

( وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)

ولقد أشار إلى ما أباحه سبحانه وتعالى فقال : ( فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) .

*(36/430)*

---

ويبن من بعد ذلك المحرمات ، وهى خبائث تفسد الأجسام ، وإن التحليل والتحريم من الله وحده ؟ ولذا قال سبحانه : ( وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) .

ثم بين أن هذه المحرمات كانت على الذين هادوا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، وأشار

سبحانه إلى أن باب التوبة مفتوح (لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) .

ذكر الله سبحانه وتعالى العرب بما كان يتحلى به إبراهيم ، وهو جدهم الذى يتشرفون بالنسب إليه فقال : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ، ثم خاطب النبى (صلى الله عليه وسلم) بأن دينه هو ملة إبراهم (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) .

وأشار سبحانه إلى أن تحريم السبت كان على اليهود الذين اختلفوا فيه ولم يكن على غيرهم .

وبين سبحانه طرائق الدعوة إلى الحق ، وأشار إلى العقاب دفاعا عن الخير فقال : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) .

وهذه الآيات أشبه بأن تكون مدنية ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ زهرة التفاسير صـ 4127.4120 ﴾

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

سميت هذه السورة عند السلف سورة النحل ، وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة .

ووجه تسميتها بذلك أن لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى .

وعن قتادة أنها تسمى سورة النِعَم – أي بكسر النون وفتح العين – .

قال ابن عطية : لما عدد الله فيها من النعم على عباده .

وهي مكية في قول الجمهور وهو عن أبن عباس وابن الزبير .

وقيل : إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [سورة النحل : 126] إلى آخر السورة .

قيل : نزلت في نسخ عزم النبي صلى الله عليه وسلم على أن يمثل بسبعين من المشركين أن أظفره الله بهم مكافأة على تمثيلهم بحمزة .

وعن قتادة وجابر بن زيد أن أولها مكي إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ

مَا ظُلِمُوا ﴾ [سورة النحل : 41] فهو مدني إلى آخر السورة .

وسيأتي في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ [سورة النحل : 79] ما يرجح أن بعض السورة مكي وبعضها مدني ، وبعضها نزل بعد الهجرة إلى الحبشة كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ [سورة النحل : 110] ، وبعضها متأخر النزول عن سورة الأنعام لقوله في هذه ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [سورة النحل : 118] ، يعني بما قص من قبل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ [سورة الأنعام : 146] الآيات .

*(38/430)*

---

وذكر القرطبي أنه روي عن عثمان بن مظعون : لما نزلت هذه الآية قرأتها على أبي طالب فتعجب وقال : يا آل غالب اتبعوا ابن أخي تفلحوا فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق .

وروى أحمد عن ابن عباس أن عثمان بن مظعون لما نزلت هذه الآية كان جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم قال : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت

محمدا صلى الله عليه وسلم .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يضعها في موضعها هذا من هذه السورة .

وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة الم السجدة .

وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب نزول السور .

وآيها مائة وثمان وعشرون بلا خلاف .

ووقع للخفاجي عن الداني أنها نيف وتسعون .

ولعله خطأ أو تحريف أو نقص .

أغراض هذه السورة

معظم ما اشتملت عليه السورة إكثار متنوع الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية ، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته .

وأدلة إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنزال القرآن عليه – عليه الصلاة والسلام – .

وإن شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم – عليه السلام – .

وإثبات البعث والجزاء ؛ فابتدئت بالإنذار بأنه قد اقترب حلول ما أنذر به المشركون من عذاب الله الذي يستهزئون به ، وتلا ذلك قرع المشركين وزجرهم على تصلبهم في شركهم وتكذيبهم .

وانتقل إلى الاستدلال على إبطال عقيدة الشرك ؛ فابتدئ بالتذكير بخلق السماوات والأرض ، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم ، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال ، وأعراض الليل والنهار .

(39/430)

---

وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر .

وخصت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها .

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان ، وإبطال افترائهم على القرآن .

والاستدلال على إمكان البعث وأنه تكوين كتكوين الموجودات .

والتحذير مما حل بالأمم التي أشركت بالله وكذبت رسله عليهم السلام عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة .

وقابل ذلك بضده من نعيم المتقين المصدقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا .

والتحذير من الارتداد عن الإسلام ، والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من

المكرهين .

والأمر بأصول من الشريعة ؛ من تأصيل العدل ، والإحسان ، والمواساة ، والوفاء بالعهد ، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي ، ونقض العهود ، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة .

وأدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل ، والامتنان على الناس بما في ذلك من المنافع الطيبات المنتظمة ، والمحاسن ، وحسن المناظر ، ومعرفة الأوقات ، وعلامات السير في البر والبحر ، ومن ضرب الأمثال .

ومقابلة الأعمال بأضدادها .

والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان .

والإنذار بعواقب كفران النعمة .

ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ [سورة النحل : 119]الخ . . . .

وملاك طرائق دعوة الإسلام ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ [سورة النحل : 125] .

وتثبيت الرسول – عليه الصلاة والسلام – ووعده بتأييد الله إياه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ 76.74 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

( سورة النحل )

هذه السورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ؛ ولكنها مليئة حافلة . موضوعاتها الرئيسية كثيرة منوعة ؛ والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل ؛ والأوتار التي توقع عليها متعددة مؤثرة ، والظلال التي تلونها عميقة الخطوط .

وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية . والوحي . والبعث . ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية . تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التي تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ودين محمد صلى الله عليه وسلم وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال . وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله في المكذبين لهم . وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع . وتلم بالهجرة في سبيل الله ، وفتنة المسلمين في دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله . . ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة . . وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها .

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل.. هو السماوات والأرض. والماء الهاطل والشجر النامي. والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار. وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها، والأخرى بأقدارها ومشاهدها. وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق.

(41/430)

---

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير. حملة هادئة الإيقاع، ولكنها متعددة الأوتار. ليست في جلجلة الأنعام والرعد، ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري، وتتجه إلى العقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس. إنها تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، واللمس ليستشعر، والوجدان ليتأثر، والعقل ليتدبر. وتحشد الكون كله: سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وجباله وبحاره وفجاجه وأنهاره وظلاله وأكنانه نبته وثماره، وحيوانه وطيوره. كما تحشد دنياه وآخرته، وأسراره وغيوبه.. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب، مختلف الإيقاعات التي لا يصمد لها

فلا يتأثر بها إلا العقل المغلق والقلب الميت ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله في الكون ، وآلائه على الناس كما تتناول مشاهد القيامة ، وصور الاحتضار ، ومصارع الغابرين ؛ تصاحبها اللمسات الوجدانية التي تتدسس إلى أسرار الأنفس ، وإلى أحوال البشر وهم أجنة في البطون ، وهم في الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم في حالات الضعف والقوة ، وهم في أحوال النعمة والنقمة .

كذلك يتخذ الأمثال والمشاهد والحوار والقصص الخفيف أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التي تلون جو السورة كله فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير .

(42/430)

---

كلها متداخلة . . فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ، ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر ، لا تلبي ضروراتهم وحدها ، ولكن تلبي أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة . وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم ، لعلهم يشكرون . .

ومن ثم تتراءى في السورة ظلال النعمة وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها ، والتعقيب بها في مقاطع السورة ، وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج ، وأظهرها نموذج إبراهيم

﴿ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والظلال والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نقف على نماذج منه في أثناء استعراضنا للسياق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 4 صـ 2158. 2159 ﴾

(43/430)

---

وقال الشيخ الصابونى :

سورة النحل

مكية وأياتها ثمان وعشرون ومائة آية

بين يدي السورة

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى (الألوهية ، والوحي ، والبعث والنشور) وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية ، في ذلك العالم الفسيح ، في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهولِ والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي

صور حية مشاهدة ، دالة على وحدانية الله جل وعلا ، وناطقة بأثار قدرته التي أبدع بها جل جلاله الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي " الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) أن يأتيهم بالعذاب الذي خوفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالا وسخرية ، وزادوا استهزاء واستهتاراً .

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ (وحدانية الله ) جل وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، فخاطبت كل حاسةٍ في الإنسان ، وكل جارحةٍ في كيانه البشري ، ليتجه بعقله إلى ربه ، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه وتعالى .

* ثم تتابعت السورة الكريمة تُذكر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يئول إليها مصيرُ كل معاند وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله ، فله عند الله الجزاء الأوفى . التسميه : سميت هذه السورة الكريمة بسورة النحل " لاشتمالها على تلك العبرة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير جـ 2 صـ 118 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة النحل

أتى أمر اللّه : أي قرب ودنا ، ويقال فى مجرى العادة لما يجب وقوعه قد أتى وقد وقع ، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيئها ، جاءك الغوث ، وأمر اللّه عذابه للكافرين ، والروح : الوحى وهو قائم فى الدين مقام الروح من الجسد ، فهو محيى القلوب التي أماتها الجهل ، من أمره : أي بأمره ومن أجله ، أنذروا : أي خوّفوا ، فاتقون : أي خافوا عقابى ، لمخالفة أمرى وعبادة غيرى .

أصل النطفة : الماء الصافي ويراد بها هنا مادة التلقيح ، والخصيم : بمعنى المخاصم كالخليط بمعنى المخالط ، والعشير : بمعنى المعاشر والمراد به المنطيق المجادل عن نفسه ، المنازع للخصوم ، والمبين : المظهر للحجة ، والدفء : ما يستدفأ به من الأكسية ، والمنافع : هى درّها وركوبها والحرث بها وحملها للماء ونحو ذلك ، جمال : أي زينة فى أعين الناس وعظمة لديهم ، تريحون : أي تردونها بالعشي من المرعى إلى مراحها يقال أراح الماشية إذا

ردها إلى المراح، تسرحون : أي تخرجونها غدوة من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها ، والأثقال : واحدها ثقل وهو متاع المسافر ، وشق الأنفس : مشقتها وتعبها ، القصد : الاستقامة ، يقال سبيل قصد وقاصد إذا أدّاك إلى مطلوبك ، وجائر : أي مائل عن المحجة ، منحرف عن الحق ، وتسيمون : أي ترعون يقال أسام الماشية وسوّمها جعلها ترعى ، وذرأ : خلق ، ألوانه : أي أصنافه ، مواخر واحدها ماخرة : أي جارية من مخر الماء الأرض أي شقها ، والميد : الحركة والاضطراب يمينا وشمالا ، وعلامات : أي معالم يستدلّ بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

المراد بمن يخلق : اللّه سبحانه وتعالى ، ومن لا يخلق : الملائكة وعيسى والأصنام ، وما يشعرون : أي لا يعلمون ، وأيان : كمتى كلمتان تدلان على الزمن ، لا جرم : أي حقا .



---

الأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح ، وهى الترّهات والأباطيل ، والأوزار : الآثام واحدها وزر ، ساء ما يزرون : أي بئس شيئا يحملونه ، والمكر :

صرف غيرك مما يريده بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، فأتى اللّه

بنيانهم من القواعد : أي أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، والقواعد : الدعائم والعمد : واحدها قاعدة ، خرّ : سقط ، يخزيهم : يذلهم ويهينهم ، وتشاقون : أي تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم ، وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شقّ وجانب غير شق الآخر ، والذين أوتوا العلم : هم الأنبياء ، والسلم : الاستسلام والخضوع ، بلى بمعنى نعم ، والمثوى : مكان الثواء والإقامة .

ينظرون : ينتظرون ، وأمر ربك : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، وحاق بهم أي أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

الطاغوت : كل معبود دون الله ، من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ، ويقع على الواحد كقوله "يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ" وعلى الجمع كقوله : " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ " حقت : وجبت وثبتت بالقضاء السابق فى الأزل ، لإصراره على الكفر والعناد .

الجهد ، بفتح الجيم : المشقة : وبضمها . الطاقة ، وجهد أيمانهم : أي غاية اجتهادهم فيها ، وبلى : كلمة جواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي فتثبت ما بعده ، وعدا عليه حقا : أي وعد ذلك وعدا عليه حقا ، أي ثابتا متحققا لا شك فيه .

أهل الذكر : أهل الكتاب كما قال : " وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ " أي التوراة ،

والبينة : هى المعجزات الدالة على صدق الرسول ، والزبر :

واحدها زبور ، وهى كتب الشرائع والتكاليف التي يبلغها الرسل إلى العباد ، والذكر :

*(46/430)*

---

القرآن ، لتبين للناس : أي لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، والمكر :

السعى بالفساد خفية ، والسيئات : أي الأعمال التي تسوءهم عاقبتها ، يخسف بهم

الأرض :

أي يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، فى تقلبهم : أي فى أسفارهم وسيرهم فى البلاد

البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال : " لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ " بمعجزين :

أي بفائتين اللّه تعالى بالهرب والفرار ، والتخوف : التنقص من قولهم تخوّفت الشيء وتخيفّته

إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعا ،

ويتفيأ : من الفيء يقال فاء الظل يفىء فيئا إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ،

والظلال : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس ، قال رؤبة : كل ما

كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء ، وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ، واليمين

والشمائل : جانبا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها ، والسجود : الانقياد

والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل ، ومنه قوله : " واسجد لقرد السوء فى زمانه " أي اخضع له ، داخرون : أي صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذي يفعل ما تأمره به شاء أو أبى ، يخافون ربهم : أي يخافون عقابه ، من فوقهم : أي بالقهر والغلبة كما قال : " وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ " .

الرهبة : الخوف ، والدين : الطاعة ، والواصب : الدائم كما قال : " لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ " وتجأرون : أي تتضرعون لكشفه . وأصل الجؤار : صياح الوحش ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

(47/430)

---

تفترون : أي تكذبون ، سبحانه : أي تنزيها له عن النقائص والبشارة فى أصل اللغة إلقاء الخبر الذي يؤثّر فى تغير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن فهو حقيقة فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السارّ ، ويقال لمن لقى مكروها قد اسودّ وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور استنار وجهه وأشرق ، والكظيم : الممتلئ غما وحزنا والكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أي حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس ، ويتوارى : أي يستخفى وقد كان من

عادتهم فى الجاهلية أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته ، فإن أخبر بذكر ابتهج ، وإن أخبر بأنثى حزن وبقي متواريا أياما يدبّر فيها ما يصنع ، ويمسكه : أي يحبسه كقوله (أمسك عليك زوجك) والهون :

الهوان والذل ، ويدسّه : أي يخفيه ، ومثل السوء : أي الصفة السوء ، وهى احتياجهم إلى الولد وكراهتهم للبنات خوف الفقر والعار ، ولّله المثل الأعلى : أي الصفة العليا وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

المراد من الناس : العصاة ، والأجل المسمى : يوم القيامة ، ويجعلون : يثبتون وينسبون إليه ، وما يكرهون : هى البنات ، وتصف ألسنتهم الكذب : أي يكذبون كما يقال عينها تصف السحر أي هى ساحرة ، وقدّها يصف الهيف أي هى هيفاء ، لا جرم : أي حقا ، مفرطون : أي مقدّمون معجّل بهم إليها من أفرطته إلى كذا أي قدّمته ، ويقال لمن تقدم إلى الماء لإصلاح الدلاء والأرسان فارط وفرط ، وليهم : ناصرهم ومساعدهم ، اليوم : أي فى الدنيا .

المراد بحياة الأرض : إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر ، يسمعون : أي يسمعون سماع تدبر وفهم .

قال الفراء والزجاج : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ، ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد ، ورجحه ابن العربي فقال إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة وقد جاء بالوجهين هنا وفى سورة المؤمنين ، والعبرة :

الاعتبار والعظة ، والفرث : كثيف ما يبقى من المأكول فى الكرش والمعى ، خالصا : أي مصفّى من كل ما يصحبه من مواد أخرى ، سائغا : أي سهل المرور فى الحلق ، يقال ساغ الشراب فى الحلق وأساغه صاحبه قال تعالى : " وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ " والسكر : الخمر ، والرزق الحسن : الخل والربّ والتمر والزبيب ونحو ذلك ، وأوحى . ألهم وعلّم ، وبيوتا : أي أوكارا وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا فى الوكر الذي تبنيه النحل لتعسل فيه ، لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة ، ويعرشون : أي يرفعون من الكروم والسقوف ، والسبل : الطرق واحدها سبيل ، والذلل واحدها ذلول : أي منقادة طائعة ، والشراب العسل ، مختلف ألوانه من أبيض إلى أصفر إلى أسود بحسب اختلاف المرعى .

أرذل العمر : أردؤه وأخسه يقال رذل الشيء يرذل رذالة وأرذله غيره قال تعالى حكاية عما قاله قوم شعيب له : " واتّبعك الأرذلون " والحفدة : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن

والأزهرى وواحدهم حافد ككتبة وكاتب : من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل يقال منه حفد يحقد حفدا وحفودا وحفدانا : إذا أسرع كما جاء فى القنوت (وإليك نسعى ونحفد) والطيبات : اللذائذ ، والمراد بالباطل : منفعة الأصنام وبركتها ؟

(49/430)

---

رزق السماء : المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التي تخرج منها ، فلا تضربوا للّه الأمثال : أي لا تجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : " فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً " وضرب المثل للشىء : ذكر الشبيه له ، ليوضح حاله المبهمة ويزيل ما عرض من الشك فى أمره ، والبكم : الخرس ، وهو إما ناشىء من صمم خلقى وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه ، فهو يسمع لكن لسانه معتقل لا يطيق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ، لأن الكلام بعد السماع ، ولا سماع له ، وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا ، فإن بعض البكم لا يكونون صمّا ، والكلّ : الغليظ الثقيل من قولهم كلّت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكلّ عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطع عمله بوجهه :

أي يرسله فى وجه معين من الطريق ، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ، على صراط مستقيم : أي طريق عادل غير جائر .

الساعة : الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ولمح البصر : رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، والأفئدة واحدها فؤاد : وهى القلوب التي هيأها اللّه للفهم وإصلاح البدن ، والجو : الهواء بين الأرض والسماء .

سكنا : أي مسكنا ، والظعن (بالسكون والفتح) السير فى البادية لنجعة أو طلب ماء أو مرتع ، والأصواف : للضأن ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز ، والأثاث : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع : ما يتمتع وينتفع به فى المتجر والمعاش ، إلى حين : أي إلى انقضاء آجالكم ، والظلال : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، والأكنان واحدها كنّ : وهو الغار ونحوه فى الجبل ، والسرابيل واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتّان والصوف وغيرها ، وسرابيل الحزب الجواشن والدروع ، والبأس : الشدة ، ويراد به هنا الحرب .



---

الأمة : الجيل من الناس ، وشهيد كل أمة نبيها ، ثم لا يؤذن للذين كفروا : أي إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعتبه وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل :

العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه : سره بعد ما ساءه ، ينظرون : أي يمهلون ويؤخرون ، والشركاء : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، وندعو : نعبد ، والسلم : الاستسلام والانقياد ، وضل : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، وتبيانا : أي بيانا لأمور الدين إما نصافيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

العدل لغة : المساواة فى كل شىء بلا زيادة ولا نقصان فيه ، والمراد به هنا المكافأة فى الخير والشر . والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه ، وإيتاء ذى القربى : أي إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر . والفحشاء : ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، والمنكر : ما تنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، والبغي : الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، والوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد ، والعهد : كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ونقض اليمين : الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، وتوكيدها : توثيقها والتشديد فيها ، كفيلا : أي شاهدا ورقيبا ، والغزل : ما غزل من صوف ونحوه ، والقوة : الإبرام والإحكام ، والأنكاث ، واحدها نكث وهو ما ينكث فتله وينقض بعد غزله ، والدخل : المكر والخديعة . وقال أبو عبيدة :

كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، ويراد به أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، أربى : أي أكثر وأوفر عددا .

(51/430)

---

زلة القدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة ، وبلاء بعد عافية ، والحياة الطيبة : هى القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا ، لما فى ذلك من الكدّ والعناء . قرأت القرآن : أي أردت قراءته كما تقول إذا أكلت فقل باسم اللّه ، وإذا سافرت فتأهب ، والرجيم : المرجوم المبعد من رحمة اللّه ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، والتولي : الطاعة يقال توليته أي أطعته ، وتوليت عنه أي أعرضت .

التبديل : رفع شىء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : نسخها بآية أخرى ، وروح القدس : جبريل عليه السلام سمى بذلك لأنه ينزل بالقدس أي بما يطهر النفوس :

من القرآن والحكمة والفيض الإلهى ، بالحق : أي بالحكمة المقتضية له ، بشر : هو جبر الرومي غلام ابن الحضرمي كان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان النبي صلى اللّه عليه وسلّم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل يقال لحد وألحد :

إذا مال عن القصد ، ومنه سمى العادل عن الحق ملحدا ، لسان : أي كلام ويقال رجل

أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان عن مرادهما ، والأعجمى والأعجم : الذي فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا فى لسانه لكنة .

أكره : أي على التلفظ بكلمة الكفر ، والاطمئنان : سكون النفس بعد انزعاجها والمراد الثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه ، شرح بالكفر صدرا : أي اعتقده وطاب به نفسا ، استحبوا الحياة الدنيا : أي آثروها وقدّموها ، لا جرم : أي حقا .

أصل الفتن : إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل فى المحنة والابتلاء يصيب الإنسان ، تجادل : أي تدفع وتسعى فى خلاصها ، والنفس الأولى الجثة والبدن ، والنفس الثانية عينها وذاتها ، وتوفى : تعطى .



---

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ، لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعا للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما محيط بحقيقتهما يصفهما للناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف

وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ، إذ جعل

الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هى حقيقته ومنبعه الذي يعرف منه ، وعليه قول أبى العلاء المعرّى :

سرى برق المعرّة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

أي إن سرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أي لتكون العاقبة ذلك ، والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر فى العواقب .

الأمة : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات ما لو تفرّق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهرون الرشيد مادحا :

وليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

والقانت : المطيع للّه القائم بأمره ، والحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، واجتباه : اختاره واصطفاه ، والحسنة : هى محبة أهل الأديان جميعا له إجابة لدعوته لربه " واجعل لى لسان صدق فى الآخرين " وجعل السبت لليهود : فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد ، والحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضّح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، والجدل : الحوار والمناظرة لإقناع المعاند ، والعقاب فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم

استعمل فى مطلق العقاب ، والضيق (بفتح الضاد وكسرها ) الغم وانقباض الصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 14 صـ 158.51 ﴾ . باختصار .

(53/430)

---

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

وهي مكية قال عبد الله بن عباس إلا ثلاث آيات نزلن بين مكة والمدينة حين رجع النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من أحد وقد قتل حمزة ومثل به فقال النبي لأمثلن بثلاثين منهم وقال المسلمون لنمثلن بهم فأنزل الله وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به إلى آخر ثلاث آيات 1

- قوله جل وعز أتى أمر الله فلا تستعجلوه قال بعضهم أتى بمعنى يأتي لأنه قد عرف المعنى فصار مثل قولك إن أكرمتني أكرمتك وقيل أخبار الله بالماضي والمستقبل شئ واحد لأنه قد علم

أنه يكون فهو بمنزلة ما قد كان وقول ثالث وهو أحسنها وذلك أنهم استبعدوا ما وعدهم الله من العقاب فأخبر الله جل وعز أن ذلك قريب فقال أتى أمر الله أي هو القرب بمنزلة ما

قد أتى كما قال تعالى إقتربت

الساعة وكما يقال أتاك الخبر أي قرب منك وقال الضحاك أي جاء القرآن بالفرائض

والحكام والحدود 2 - وقوله جل وعز ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من

عباده

روى هشيم عن أبي بشر عن مجاهد عن ابن عباس قال الروح خلق من خلق الله وأمر من

أمره صورهم على صور بني آدم لا ينزل في السماء ملك إلا ومعه واحد منهم وروى ابن

جريج عن مجاهد قال لا ينزل ملك إلا ومعه روح وقال إسماعيل بن أبي خالد سألت أبا

صالح عن الروح فقال لهم صور كصور بني آدم وليسوا منهم وقال الحسن تنزل الملائكة

بالروح أي بالنبوة وروى معمر عن قتادة تنزل الملائكة بالروح قال بالوحي والرحمة قال أبو

جعفر وهذا قول حسن وقد رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي ينزلهم بما هو بمنزلة

الروح والحياة كما قال تعالى فروح وريحان

وقيل معناه رحمة

3 - وقوله جل وعز والأنعام خلقها لكم فيها دف ء ومنافع ومنها تأكلون روى اسرائيل عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال النسل وروى ابن جريج عن مجاهد قال الدف ء لباس ينسج والمنافع الركوب والبن واللحم قال أبو جعفر وهذا قول حسن أي ما يدفئ من أوبارها وغير ذلك وأحسب مذهب ابن عباس أن المنافع النسل لا الدف ء على أن الأموي قد روى أن الدف ء عند العرب نتاج الابل والانتفاع بها فيكون هذا فيه

4 - وقوله جل وعز ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون روى معمر عن قتادة قال إذا راحت أعظم ما تكون أسنمة من السمن وضروعها محفلة قال أبو جعفر والمعنى عند أهل اللغة وتريحونها بالعشي * يقال أرحت الإبل إذا انصرفت بها من المرعى الذي تكون فيه بالليل ويقال للموضع المراح وفي الحديث إذا سرقها من المراح قطع ومعنى تسرحون تغدون بها إلى المرعى سرحت الإبل أسرحها سرحا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها فلا ترعى وسرحت هي في المعتدي واللازم واحد

5 - وقوله جل وعز وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس روى ابن جريج عن مجاهد قال إلا بمشقة وقال غيره المعنى لولا الإبل لم تبلغوا البلدان إلا بمشقة وقد قرئ إلا بشق الأنفس وهي بمعنى الأول إلا أنه مصدر 6 - وقوله جل وعز والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة تأول هذا جماعة منهم عبد الله بن عباس على أنه لا يحل أكل هذه لقوله في الإبل ومنها تأكلون ولم يقل هذا في الخيل والبغال والحمير

7 - وقوله جل وعز ويخلق مالا تعلمون وظاهره عام إلا أن عبد الرحمن بن معاوية القرشي حدثنا قال حدثنا موسى بن محمد عن ابن السدي عن أبيه في قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون قال السوس في الثياب 8 - وقوله جل وعز وعلى الله قصد السبيل قال الضحاك أي تبيين الهدى والضلالة وقال مجاهد أي طريق الحق وهذه تشبه قال هذا صراط علي مستقيم أي على منهاجي وديني وكذا وعلى الله قصد السبيل

(55/430)

---

أي القصد فيها ما كان على دين الله وقيل هو تبيين الحق والبراهين والحجج وقيل إنه يراد بالسبيل ها هنا الإسلام 9 - ثم قال جل وعز ومنها جائر أي ومن السبل جائر أي عادل عن الحق وأنشدني أبو بكر ابن أبي الأزهر قال أنشدني بندار * لما خلطت دماءنا بدمائها * سار الثفال بها وجار العاذل * وروى عن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ ومنكم جائر وكذلك قرأ عبد الله بن مسعود ذا على التفسير 10 - ثم قال تعالى ولو شاء لهداكم أجمعين أي لو شاء لأنزل آية تضطركم منه إلى الإيمان ولكنة أراد أن يثيب ويعاقب

11 - وقوله جل وعز هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه

تسيمون قال قتادة والضحاك فيه تسيمون فيه ترعون قال أبو جعفر وكذا هو في اللغة يقال أسمت الإبل أي رعيتها فأنا مسيم وهي مسامة وسائمة 12 - وقوله جل وعز وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا

ألوانه قال قتادة من الدواب والأشجار والثمار 13 - وقوله جل وعز وترى الفلك مواخر فيه قال الضحاك تذهب وتجيء والمخر في اللغة الشق يقال مخرت السفينة تمخر ولمخر إذا شقت الماء وسمعت لها صوتا وذلك عند هبوب الرياح ومخر

الأرض إنما هو شق الماء إياها 14 - وقوله جل وعز وألقى في الأرض رواسي قال الحسن أي جبالا قال أبو جعفر يقال رسا يرسو إذا ثبت وأقام ثم قال تعالى أن تميد بكم قال ابراهيم أي تكفأ قال أبو جعفر يقال ماد يميد إذا تحرك ومال وروى معمر عن قتادة قال سمعت الحسن يقول لما خلق الله الأرض كادت تميد فقالوا لا تقر هذه عليها أحدا فأصبحوا وقد خلق الله الجبال ولم تدر الملائكة مما خلقت الجبال 15 - ثم قال جل وعز وأنهارا وسبلا أي وجعل فيها أنهارا وسبلا قال قتادة أي طرقا 16 - ثم قال جل وعز وعلامات وبالنجم هم يهتدون

روى سفيان عن منصور عن ابراهيم قال من النجوم علامات ومنها ما يهتدي به وقال الفراء الجدي والفرقدان قال أبو جعفر والذي عليه أهل التفسير وأهل اللغة سواه أن النجم ها هنا بمعنى النجوم وخلق الله النجوم زينة للسماء ورجوما للشياطين وليعلم بها عدد السنين والحساب وليهتدي: بها 17 - وقوله جل وعز والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون يعني الأوثان

وقرأ محمد اليماني والذين يدعون من دون الله بضم الياء وفتح العين 18 - وقوله جل وعز أموات غير أحياء أي هم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون يجوز أن يكون المعنى وما تشعر الأصنام ويجوز أن يكون المعنى وما يشعر المشركون متى يبعثون 19 - وقوله جل وعز ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة الوزر في اللغة الحمل الثقيل وقيل للإثم وزر على التمثيل 20 - ثم قال تعالى ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم

قال مجاهد يحملون إثم من أضلوه ولا ينقص من إثم المضل شئ 21 - وقوله جل وعز قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وقرأ الأعرج السقف قال مجاهد يعني بهذا نمرود بن كنعان الذي حاج إبراهيم في ربه ويروي أنه بنى بنيانا عظيما فخر وقد قيل هذا تمثيل أي أهلكهم الله فكانوا بمنزلة من سقط عليه بينانه وهلك وقيل أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط عليه بنيانه والفائدة في قوله تعالى من فوقهم أنه قد يقال سقط

على منزل كذا إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه 22 - وقوله جل وعز ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم المعنى أين الذين كنتم تدعون أنهم شركائي أي أين شركائي على قولكم والله جل وعز لا شريك له 23 - وقوله جل وعز فألقوا السلم أي الإستسلام أي أذعنوا واستسلموا 24 - وقوله جل وعز هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أي لقبض أرواحهم أو يأتي أمر ربك أي بالعذاب

(57/430)

---

والزلزلة والخسف 25 - وقوله جل وعز وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا

قال قوم ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته وقال قوم من قال هذا فقد كفر قال أبو جعفر هذا غلط في التأويل ولا يقبل في التفسير على أنهم قالوا هذا على جهة الهزء كما قال قوم شعيب لنبيهم إنك لأنت الحليم الرشيد أي إنك أنت الحليم الرشيد على قولك وقد تبين هذا بقوله إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وفي قراءة أبي فإن الله لا هادي لمن أضل الله وهو شاهد لمن قرأ لا يهدي وهي القراءة البينة كما قال وما توفيقي إلا بالله وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ لا يهدي من يضل وأحسن ما قيل في هذا ما رواه أبو

عبيد عن الفراء أنه يقال هدى يهدي بمعنى اهتدى يهتدي قال تعالى أمن لا يهدي إلا أن

يهدي بمعنى يهتدي

قال أبو عبيد ولا نعلم أحدا روى هذا غير الفراء وليس بمتهم فيما يحكيه قال أبو جعفر

حكى لي عن محمد بن يزيد كأن معنى

لا يهدي من يضل من علم ذلك منه وسبق له ذلك عنده قال ولا يكون يهدي بمعنى يهتدي إلا

أن تقول يهدي أو يهدي 26 - وقوله جل وعز ليبين لهم الذي يختلفون فيه يحتمل معنيين

أحدهما أن يكون متعلقا بفعل محذوف دل عليه جملة الكلام وهو أن يكون المعنى بل يبعثهم

ليبين لهم الذي يختلفون فيه والقول الآخر أن يكون متعلقا بقوله ولقد بعثنا في كل أمة رسولا

فيكون المعنى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا

أنهم كانوا كاذبين 27 - وقوله جل وعز والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا



---

يقال إنه يراد به بلال وصهيب والذي يوجب جملة الكلام أن يكون عاما ويروي أن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين أعطياتهم قال لهم هذا ما وعدكم الله في

الدنيا وما ذخر لكم في الآخرة أكثر ثم يتلو والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم

في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر وروى هشيم عن داود ابن أبي هند عن الشعبي في قوله لنبوئنهم في الدنيا حسنة قال المدينة وكذا قال الحسن

وقال الضحاك يعني بالحسنة النصر والفتح ولأجر الآخرة أكبر الجنة وروى ابن جريج عن مجاهد لنبوئنهم في الدنيا حسنة قال لسان صدق

28 - وقوله جل وعز وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم قيل لهم هذا لأنهم قالوا أبعث الله بشرا رسولا 29 - ثم قال تعالى فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون قيل يعني به أهل الكتاب لأنهم مقرون أن الرسل من بني آدم وقال وكيع سألت سفيان عن قوله فاسألوا أهل الذكر فقال سمعنا أنهم من أسلم من أهل التوراة والأنجيل ثم قال تعالى بالبينات والزبر أي بالبراهين والكتب

30 - وقوله جل وعز أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين روى معمر عن قتادة قال في أسفارهم وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال بالليل والنهار 31 - ثم قال تعالى أو يأخذهم على تخوف قال الضحاك آخذ طائفة وادع طائفة فتخاف الطائفة الباقية أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها وروى عطاء الخراساني عن ابن عباس أو يأخذهم على تخوف قال على تنقص وتفزع وروى ابن جريج عن ابن كثير عن مجاهد قال تنقصا قال أبو جعفر وهذا القول هوا لمعروف عند أهل اللغة يقال أخذهم على خوف وعلى تخوف

إذا تنقصهم كما قال ابن عباس ومجاهد ومعنى التنقص أن ينقصهم في أموالهم وفي زروعهم وفي

(59/430)

---

خيرهم شيئا بعد شئ حتى يهلكهم وقال الليث على تخوف سمعت أنه على عجل وقول الضحاك على تخوف أي يأخذ هذه القرية ويدع هذه عندها أي فتخاف 32 - وقوله جل وعز يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله قال قتادة الفئ الظل وقال غيره التفيؤ رجوعه من موضع إلى موضع خاضعا منقادا وكذلك معنى السجود وقال قتادة عن اليمين بالغداة وقوله والشمائل بالعشي 33 - ثم قال الله جل وعز وهم داخرون قال قتادة أي صاغرون

34 - وقوله جل وعز ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة قيل المعنى ولله يسجد ما في السموات من الملائكة وما في الأرض من دابة والملائكة أي والملائكة الذين في الأرض والله أعلم بما أراد وقال الضحاك كل شئ فيه روح دابة يسجد لله عز وجل 35 - وقوله جل وعز وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين أي لا تعبدوا من دون الله شيئا وإن كنتم تتقربون بعبادته إلى الله وجاء باثنين توكيدا وقيل المعنى لا تتخذوا اثنين

إلهين 36 – وقوله جل وعز وله ما في السموات والأرض وله الدين واصبا

روى عكرمة عن ابن عباس قال واجبا وقيل الطاعة على كل الأحوال وإن كان فيها

الوصب وهو التعب وهذا معنى قول الحسن وروى معمر عن قتادة وله الدين واصبا قال

دائما ألا تسمع إلى قوله ولهم عذاب واصب أي دائم وكذا قال ميمون بن مهران وروى ابن

جريج عن مجاهد وله الدين واصبا قال

الإخلاص والواصب الدائم وهذا هو المعروف في اللغة يقال وصب يصب وصوبا إذا



---

دام والدين الطاعة والمعنى أن كل من يطاع تزول طاعته بهلاك أو زوال إلا الله جل وعز 37

– ثم قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله أي ما يكن بكم من سعة في رزق أو صحة في بدن

فمن الله ثم إذا مسكم الضر وهو البلاء والمشقة فإليه تجأرون أي تدعون وتستغيثون يقال

جأر يجأر جؤارا إذا رفع صوته مستغيثا من جوع أو غيره 38 – وقوله جل وعز ثم إذا

كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم قيل المعنى ليجعلوا

النعمة سببا إلى الكفر كما قال تعالى ربنا ليضلوا عن سبيلك

وقيل ليجحدوا النعمة التي أنعم عليهم كما قال الشاعر * والكفر مخبثة لنفس المنعم *

39 - ثم قال تعالى فتمتعوا فسوف تعلمون وهذا على التهديد كما قال تعالى فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فإنا قد أرسلنا الرسل وبينا وأنذرنا فمن شاء فليكفر بعد هذا فإن العقوبة حالة به

40 - ثم قال جل وعز ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم يعني ما كانوا يجعلونه لأصنامهم من زرعهم وأنعامهم كما قال تعالى فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا 41 - ثم قال جل وعز ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون

أي ولهم البنون 42 - ثم قال جل وعز وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا أي ظل كئيبا مغموما والعرب تقول هذا لكل مغموم قد تغير لونه من الغم أسود وجهه 43 - ثم قال جل وعز وهو كظيم الكظيم الحزين الذي يخفي غيظه ولا يشكو ما به 44 - ثم قال جل وعز يتوارى من القوم من سوء ما بشر به يروى أن أحدهم كان إذا ولد له يتوارى في ذلك الوقت أو قبله فإن ولد له ذكر سر به وإن ولدت له أنثى استتر وربما وأدها

45 - ثم بين ذلك بقوله تعالى أيمسكه على هون أم يدسه في التراب

وقرأ الجحدري أم يدسها في التراب يردها على قوله بالأنثى ويلزمه أن يقرأ أيمسكها وقرأ

عيسى بن عمر أيمسكه على هوان وقال هوان وهون واحد وقرأ الأعمش أيمسكه على

سوء وحكى أبو عبيد عن الكسائي قال في لغة قريش الهون والهوان بمعنى واحد وقال لغة

بني تميم يجعل الهون مصدر الشئ الهين 46 - ثم قال جل وعز ألا ساء ما يحكمون

لأنهم جعلوا لله البنات وهم يكرهونها هذه الكراهية 47 - ثم قال جل وعز للذين لا

يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وروى سعيد عن قتادة قال المثل الأعلى

الإخلاص والتوحيد و المعنيان واحد أي لله جل وعز التوحيد ونفى كل معبود دونه 48

- وقوله جل وعز ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة أي على الأرض ولم يجر

لها ذكر لأنه قد عرف المعنى

49 - وقوله جل وعز ويجعلون لله ما يكرهون

يعني البنات ثم قال تعالى وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى قال مجاهد هو قولهم لنا

البنون وقال غيره الحسنى الجنة 50 - ثم قال جل وعز لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون

وقيل لا رد لكلامهم وجرم بمعنى وجب وحق قال أبو جعفر وقد استقصينا القول فيه 51

- ثم قال تعالى وأنهم مفرطون

كذا قرأ الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير بفتح الراء والتخفيف واختلفوا في تفسيره فقال

الحسن مفرطون معجلون إلى النار وقال هشيم أخبرنا أبو بشر وحصين عن سعيد ابن جبير

وأنهم مفرطون قال متروكون منسيون وروى ابن جريج عن مجاهد قال مفرطون منسيون

قال أبو جعفر وقول الحسن أشهر في اللغة وأعرف وحكى أهل اللغة هو فارط وفرط وفي

حديث النبي (ص)

أنا فرطكم على الحوض أي متقدمكم إليه حتى تردوا على وأفرطته غير إذا قدمته وأنشد

جماعة من أهل اللغة



---

* فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا * كما تعجل فراط لوراد * وقال بقول سعيد بن

جبير ومجاهد أبو عبيدة والكسائي والفراء قال أبو جعفر فعلى قول الحسن معجلون

مقدمون إلى النار وعلى قول سعيد بن جبير ومجاهد متروكون في النار وقرأ عبد الله بن

مسعود وابن عباس وأنهم مفرطون مبالغون في الإساءة كما يقال فرط فلان على فلان إذا

أربى عليه وقال له أكثر مما قال من الشر وقرأ أبو جعفر والسدي وأنهم مفرطون ومعناه

مضيعون أي كانوا مضيعين في الدنيا 52 - وقوله جل وعز وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم

مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا الفرث ما يكون في الكرش يقال أفرثت الكرش إذا

أخرجت ما فيها والمعنى أن الطعام يكون فيه ما في الكرش ويكون منه الدم ثم يخلص اللبن

من الدم 53 - ثم قال تعالى سائغا للشاربين أي سهلا لا يشجي به من شربه

54 - ثم قال جل وعز ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا

روى عمرو بن سفيان عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرتها والزرق الحسن ما كان

حلالا من ثمرتها وروى شعبة عن مغيره عن إبراهيم والشعبي قالا السكر ما حرم وقد نسخ

وروى معمر عن قتادة قال السكر نبيذ للأعاجم وقد نسخت وروى علي بن الحكم عن

الضحاك قال السكر قد حرم وقال مجاهد السكر ما حرم من الخمر والرزق الحسن ما أحل

من التمر والعنب قال أبو جعفر الأولى أن تكون الآية منسوخة لأن تحريم الخمر كان بالمدينة

والنحل مكية والرواية عن ابن عباس كأن معناها أن الآية على الإخبار بأنهم يفعلون ذلك لا

أنه أذن لهم في ذلك وذلك معناه وهي رواية تضعف من جهة عمرو بن سفيان

قال أبو جعفر وفي معنى السكر قول آخر قال أبو عبيدة السكر الطعم وأنشد * جعلت

عيب الأكرمين سكرا *



أي جعلت ذمهم طعما قال أبو جعفر قال الزجاج وقول أبي عبيدة هذا لا يعرف وأهل

التفسير على خلافة ولا حجة له في البيت الذي أنشده لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها

تتخمر بعيوب الناس 55 - وقوله جل عز وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا روى عن الضحاك أنه قال ألهمها

وأصل الوحي في اللغة الإعلان بالشئ في ستره فيقع ذلك بالإلهام وبالإشارة وبالكتابة وبالكلام الخفي 56 - وقوله جل وعز فاسلكي سبل ربك ذللا روى معمر وسعيد عن قتادة قال مطيعة قال أبو جعفر ويحتمل في اللغة أن يكون قوله ذللا للسبل لأنه يقال سبيل ذلول وسبل ذلل أي سهلة السلوك ويحتمل أن يكون للنحل أي هي منقادة مسخرة 57 - وقوله جل وعز يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس فيه قولان أحداهما أن المعنى في القرآن شفاء للناس وهذا قول حسن أي فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس

وقيل في العسل شفاء للناس وهذا القول بين أيضا لأن أكثر الأشربة والمعجونات التي يتعالج بها أصلها من العسل 58 - وقوله جل وعز ومنكم من يرد إلى أرذل العمر أي يهرم حتى ينقص عقله 59 - ثم قال جل وعز لكي لا يعلم بعد علم شيئا أي حتى يعود بعد العلم جاهلا أي لتعلموا أن الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه 60 - وقوله جل وعز والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء

روى سعيد عن قتادة قال هذا مثل ضربه الله أي إذا كان لأحدكم مملوك لم تسغ أحمد نفسه أن يعطيه مما يملك والله جل وعز أولى أن ينزه عن هذا ومعنى هذا القول أنهم عمدوا إلى رزق الله فجعلوا للأصنام منه نصيبا وله نصيبا والمعنى إنكم كلكم بشر ويكون لأحدكم المملوك فلا يرد عليه مما يملك شيئًا ولا يساويه فيه فكيف تعمدون إلى رزق الله فتجعلون منه نصيبا وللأوثان نصيبا 61 - ثم قال جل وعز أفبنعمة الله يجحدون أي أفأن أنعم الله عليهم جحدوا بالنعمة وجعلوا ما رزقهم لغيره وقيل المعنى أفأن أنعم عليهم بالبيان والبراهين جحدوا

نعمه

قال الضحاك هذا المثل لله جل وعز وعيسى أي أنتم لا تفعلون هذا بعبيدكم بعد فكيف ترضون لي باتخاذ بشر ولدا تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا 62 - وقوله جل وعز والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا روى سعيد عن قتادة في قوله والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا قال خلق حواء من ضلع آدم وقال غيره جعل لكم من أنفسكم أزواجا أي من جنسكم 63 - ثم قال جل وعز وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة روى سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن عبد الله بن

مسعود قال الحفدة الأختان وروى سفيان بن عيينة عن عاصم عن زر عن عبد الله قال

الحفدة الأصهار وروى شعبة عن زر قال سألني ابن مسعود عن الحفدة فقلت هم الأعوان قال هم الأختان وقال علقمه وأبو الضحى الحفدة الأختان وقال إبراهيم الحفدة الأصهار

قال أبو جعفر وقد اختلف في الأختان والأصهار فقال

محمد بن الحسن الختن الزوج ومن كان من ذوي رحمه والصهر من كان من قبل المرأة نحو أبيها وعمتها وخالها



---

وقال ابن الأعرابي ضد هذا في الأختان والأصهار وقال الأصمعي الختن من كان من قبل المرأة مثل أبيها وأخيها وما أشبههما والأصهار منهما جميعا يقال أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر وقول عبد الله بن مسعود هم الأختان يحتمل المعنيين جميعا يجوز أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبه من أقربائها ويجوز أن يكون أراد وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيكون لكم بسببهن أختان وقد قيل في الآية غير هذا قال عكرمة الحفدة ولد الرجل من نفعة منهم وقال الحسن وطاووس ومجاهد الحفدة الخدم

قال أبو جعفر وأصل الحفدة في اللغة الخدمة والعمل يقال حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا إذا خدم وعمل ومنه وإليك نسعى ونحفد ومنه قول الشاعر * حفد الولائد

حولهن وأسلمت * بأكفهن أزمة الأجمال وقول من قال هم الخدم حسن على هذا إلا إنه يكون منقطعا مما قبله عند أبي عبيد وينوي به التقديم والتأخير كأنه قال وجعل لكم حفدة أي خدما وجعل لكم من أزواجكم بنين 64 - وقوله جل وعز ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا أي لا يملكون أن يرزقوهم شيئا 65 - ثم قال جل وعز ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال قال الضحاك لا تعبدوا من دونه ما لا ينفعكم ولا يضركم ولا يرزقكم 66 - وقوله جل وعز ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هذه الآية مشكلة وفيها أقوال قال مجاهد والضحاك هذا المثل لله جل ذكره ومن عبد من دونه وقال قتادة هذا المثل للمؤمن والكافر يذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر لأنه لا ينتفع الذي في الآخرة بشئ من عبادته والى أن معنى ومن رزقناه منا رزقا حسنا المؤمن وقال بعض أهل اللغة القول الأول أحسن لأنه وقع بين

كلامين لا نعلم بين أهل التفسير اختلافا إلا من شذ منهم انهما لله جل وعز وهما فلا تضربوا

لله الأمثال وبعده وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على

مولاه يعني الوثن لأنه كل على من عنده وثقل والمولى الولي 67 - ثم قال جل وعز هل يستوي

هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم يعني نفسه جل وعز وكذا قال قتادة الله جل

وعز يأمرنا بالعدل وهو على صراط مستقيم

والمعنى على هذا في قوله جل وعز ضرب الله مثلا عبدا مملوكا أنه يعني به ما عبد من دونه

لأنه لا يملك ضرا ولا نفعا ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا وهذا الله

جل وعز لأنه الجواد الرزاق للأنسان من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم وروى عن ابن عباس

وهذا لفظه المروي عنه قال نزلت هذه الآية ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ

في هشام بن عمرو وهو الذي ينفق منه سرا وجهرا ومولاه أبو الجواب الذي كان ينهاه وقيل

نزلت في رجلين وضرب الله مثلا رجلين الأبكم منهما الكل على مولا أسيد بن أبي العاص

والذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم هو عثمان بن

عفان رحمة الله عليه كان عثمان يكفل مولاه فعثمان الذي ينفق

بالعدل وهو على صراط مستقيم والآخر الأبكم وقال الحسن عبدا مملوكا هو الصنم وأولى

الأقوال في هذا قول ابن عباس رواه عنه حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن

ابراهيم عن عكرمة عن ابن عباس فبين ابن عباس رحمه الله أن هذه الآية نزلت في عبد

بعينه لم يكن له مال ولا يقال في كل عبد لا يقدر على شئ فنزلت فيه وفي سيد كان له مال ينفق منه وأن الآية الأخرى نزلت في رجل بعينه لم يكن له مال وكان كلا على مولاه أي ابن عمه أو قريبه وضرب الله هذه الأمثال ليعلم أنه إله واحد وأنه لا ينبغي أن يشبه به غيره ولا يصح قول من قال إنه صنم لأن الصنم لا يقع عليه اسم عبد

(67/430)

---

68 - وقوله جل وعز ولله غيب السماوات والأرض أي علم ما غاب فيهما عن العباد ثم قال وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب قال قتادة هو أن يقول جل وعز كن فذلك كلمح البصر أو هو أقرب

وقال غيره المعنى أو هو أقرب عندكم ولم يرد أنها على هذا القرب وانما أراد أن يعرفنا قدرته 69 - وقوله جل وعز ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء الجو الهواء البعيد وأبعد منه السكاك الواحدة سكاكة 70 - وقوله جل وعز والله جعل لكم من بيوتكم سكنا

أي موضعا تسكنون فيه 71 - ثم قال جل وعز وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا يعني بيوت الأدم وما أشبهها والأنعام الإبل والبقر والغنم 72 - ثم قال تعالى تستخفونها يوم

ظعنكم ويوم إقامتكم أي يخف عليكم حملها في سفركم وإقامتكم 73 - ثم قال تعالى ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين فالأصواف لأن للضأن والأوبار للإبل والأشعار للمعز قال قتادة الأثاث المال وقال الضحاك الأثاث المال والزينة والأثاث عند أهل اللغة متاع البيت نحو الفرش والأكسية

وقد أث يئث أثا إذ صار ذا أثاث قال أبو زيد واحد الأثاث أثاثه ثم قال تعالى ومتاعا إلى حين روى معمر عن قتادة إلى أجل وبلغة 74 - وقوله جل وعز والله جعل لكم مما خلق ظلالا يعني ظلالا الشجر والله أعلم 75 - ثم قال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا أي ما يكنكم الواحد كن 76 - ثم قال تعالى وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر روى معمر عن قتادة قال يعني قمص الكتان 77 - ثم قال تعالى وسرابيل تقيكم بأسكم قال قتادة يعني الدروع وروى عثمان بن عطاء عن أبيه قال إنما خوطبوا بما يعرفون قال جل وعز وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهل أكثر وأعظم ولكنهم كانوا أصحاب جبال وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وما يقي البرد أكثر ولكنهم أصحاب حر وقال الفراء يحي بن زياد المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ثم حذف كما قال الشاعر * فما أدري إذا يممت وجها

*

أريد الخير أيهما يليني *

والمعنى أي الخير والشر لأنه إذا أراد الخير أتقى الشر 78 - ثم قال تعالى كذلك يتم نعمته

عليكم لعلكم تسلمون روى عن ابن عباس لعلكم تسلمون وقال أي من الجراحات وإسناده

ضعيف رواه عباد بن العوام عن حنظلة عن شهر بن حوشب عن ابن عباس وظاهر القرآن

يدل على الإسلام لأنه عدد النعم ثم قال لعلكم تسلمون 79 - ثم قال جل وعز فإن تولوا

فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها روى سفيان عن السدي قال يعني

محمدا (ص) قال أبو جعفر وهذا القول حسن والمعنى يعرفون أن امر

النبي صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرونه وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال

يعني المساكين والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب أنعم الله بذلك عليهم

فلم يشكروا وقالوا إنما كان لآبائنا وورثناها عنهم 80 - وقوله جل وعز ويوم نبعث من كل

أمة شهيدا يروى أن نبي كل أمة شاهد عليها

81 - وقوله جل وعز فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون أي جحدتم آلهتهم كما قال تعالى

سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا 82 - ثم قال جل وعز وألقوا إلى الله يومئذ

السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون

روى سعيد عن قتادة قال استسلموا وذلوا وضل عنهم ما كانوا يفترون أي يشركون 83 -

وقوله جل وعز الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب روى مسروق عن عبد الله قال زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال 84 - وقوله جل وعز ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ روى أبان بن ثعلب عن مجاهد قال تبيانا للحلال من الحرام 85 - وقوله تعالى ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها قال مجاهد يعني تغليظ اليمين 86 - وقوله جل وعز ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة



---

هذه آية مشكلة تحتاج إلى تدبر قال قتادة الدخل الخيانة وقال غيره المعنى لا تحلفوا أو تؤكدوا عليكم الأيمان ثم تحنثوا فتكونوا كامرأة غزلت غزلا فأبرمته وقد وأحكمته ثم نقضته والأنكاث علي ما نقض من الخز والوبر وغيرهما ليغزل ثانية ومنه قيل ناكث وروى في التفسير أن امرأة يقال لها ربطة ابنة سعد كانت تغزل بمغزل كبير فإذا أبرمته وأتقنته أمرت جارتها فنقضته حتى

قال الضحاك في قوله تعالى أن تكون أمة هي أربى من أمة أي أكثر قال فأمروا بوفاء العهد وإن كانوا كثيرا وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال كانوا يحلفون القوم ويعاهدونهم تعالى

فإذا علموا أن غيرهم أكثر منهم وأقوى نقضوا عهدهم وحالفوا غيرهم فنهاهم الله جل ذكره عن ذلك والمعنى عند أهل اللغة لأن تكون أمة وبأن تكون أمة هي أربى من أمة أي هي أغنى وأكثر أي لا تعاهدوا قوما فإذا أمنوا نقضتم العهد ليكون أصحابكم أغنى وأقوى 87 - وقوله جل وعز من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون روى عن أبن عباس أنه قال الحياة الطيبة الرزق الحلال ثم

يصير إلى الله فيجزية فإن أجره بأحسن ما كان يعمل وروى عن ابن عباس رواه الحكم عن عكرمة عنه أنه قال الحياة الطيبة القناعة وروى ابن كثير عن سعيد بن جبير في قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة قال في الآخرة يحييه حياه طيبة وروى عوف عن الحسن ليس لأحد حياة طيبة إلا في الجنة 88 - وقوله جل وعز فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم



---

المعنى إذا أردت أن تقرأ وهذا كما تقول إذا أكلت فقل بسم الله ومثله في كتاب الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة 89 - وقوله جل وعز إنما سلطانه على الذين يتولونه

والذين هم به مشركون روى ابن نجيح عن مجاهد قال سلطانه حجته قال والذين هم به مشركون يعدلونه برب العالمين وقال غير مجاهد لو كان المعنى على أنهم أشركوا بالشيطان لكانوا مؤمنين ولكن المعنى والذين والذين هم من أجله مشركون كما تقول صار فلان بك عالما أي من أجلك

90 - وقوله جل وعز وإذا بدلنا آية مكان آية

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال رفعناها وجعلنا موضعها غيرها وقال غيره أي نسخنا آية بأية هي أشد عليهم منها قالوا إنما أنت مفتر أي كاذب فقال جل وعز إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله أي الذي إذا رأوا آية لا يأتي بها إلا نبي كذبوا بها فهؤلاء أكذب الكاذبين 91 - وقوله جل وعز ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين روى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن عكرمة قال هو غلام لبني عامر بن لؤي يقال أرى له يعيش وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال هو سلمان الفارسي رحمه الله وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد هو عبد الله بن الحضرمي وهو رومي كان يحسن الكتابة قال أبو عبيد وقال غير مجاهد أسمه جبر

قال أبو جعفر وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأنه يجوز أن يكونوا أوماوا إلى هؤلاء جميعا وزعموا أنهم يعلمونه وأصل الألحاد في اللغة الميل 92 - وقوله جل وعز من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر

رحمة

الله لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه 93 - ثم قال تعالى ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله



---

أي من فتح صدره لقبوله 94 - وقوله جل وعز ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا هذا كله في عمار والمعنى وصبروا على الجهاد 95 - وقوله جل وعز يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها يروى أن كعبا قال لعمر بن الخطاب رحمه الله تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول يا رب نفسي حتى إن إبراهيم خليل الرحمن ليجثو على ركبتيه ويقول لا أسألك إلا نفسي ثم قال كعب إن هذا لفي كتاب الله وتلا يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وقال غيره يدل على هذا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه

96 - وقوله جل وعز وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة روى معمر عن قتادة قال هي مكة

وقال غيره كان أهلها في أمن ودعة ثم ابتلاهم الله بالقتل والجوع سبع سنين قال تعالى فأذاقها

الله لباس الجوع والخوف وأصل الذوق بالفم ثم استعمل للابتلاء وللاختبار عمر 97 - وقوله جل وعز فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال أبو جعفر قد ذكرناه في سورة البقرة وروى عن ابن عباس أنه قال من أكل الميتة وهو غير مضطر

إليها فهو باغ عاد وروى عن سعيد بن جبير ومجاهد أنهما قالا إذا أخاف السبيل وقطع الطريق لم تحلل له الميتة هذا معنى قولهما 98 - وقوله جل وعز ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام قال مجاهد يعني البحائر والسيب 99 - وقوله جل وعز وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل قال قتادة هو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر 100 - وقوله جل وعز إن إبراهيم كان أمة قانتا لله روى الشعبي عن مسروق قال تلا عبد الله بن مسعود رحمه

الله إن إبراهيم كان أمة قانتا لله فقال إن معاذ بن جبل كان أمة قانتا لله أتدرون ما الأمة هو الذي يعلم الناس



---

الخير أتدرون ما القانت هو المطيع قال أبو جعفر لم يقل في هذه الآية أحسن من هذا لأنه إذا كان يعلم الناس الخير فهو يؤتم به وهذا مذهب أبي عبيدة والكسائي القنوت القيام فقيل

للمطيع قانت لقيامه بطاعة الله وروى أبو يحيى عن مجاهد إن إبراهيم كان أمة قانتا لله قال

كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقال بعض أهل اللغة يقوي هذا حديث النبي (صلع)

أنه ذكر زيد بن عمرو بن نفيل فقال كان أمة وحده وقوله وآتيناه في الدنيا حسنة قال مجاهد

لسان صدق 101 - وقوله جل وعز إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه

روى سعيد بن جبير عن قتادة قال أحله بعضهم وحرمة بعضهم وقال مجاهد تركوا الجمعة

واختاروا السبت 102 - وقوله جل وعز أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

وجادلهم بالتي هي أحسن وجادلهم بالتي هي أحسن هي منسوخة 103 - وقوله جل

وعز وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به

قال قتادة لما مثلوا بحمزة رضي الله عنه قال لنمثلن بهم فأنزل الله جل وعز هذه الآية وروى

على بن الحكم عن الضحاك قال نزلت هذه الآية قبل القتال وقبل سورة براءة

قال أبو جعفر وهذا القول أولى وقد قال زيد بن أسلم نحوه قال لما قدم رسول الله (صلى الله

عليه وسلم ) المدينة أذن له في جهاد المشركين والغلظة عليهم ويدلك على أن هذا نزل بمكة

قوله تعالى ولاتك في ضيق مما يمكرون وأكثر مكرهم وحزنه (ص) عليهم كان بمكة فأما

حديث أبي هريرة وابن عباس لما قتل حمزه رحمة الله عليه قال النبي (ص) لأمثلن بسبعين

منهم فنزلت وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به فإسنادهما ضعيف

104 - وقوله جل أسمه إن الله مع الذين أتقوا والذين هم محسنون روى عن الحسن أنه قال

اتقوا الله جل وعز فيما حرم عليكم وأحسنوا في أداء فرائضه . انتهت سورة النحل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 49 . 114 ﴾

(73/430)

---

وقال الفراء :

ومن سورة النحل

[قوله : سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ] .

حدثنا محمد بن الجهم قال : حدّثنا الفراء قال حدّثنى عماد بن الصّلت العكلىّ عن سعيد بن مسروق أبى سفيان عن الربيع بن خيثم أنه قرأ (سبحانه وتعالى عمّا تشركون) الأولى والتي بعدها كلتاهما بالتاء : وتقرأ بالياء . فمن قال بالتاء فكأنه خاطبهم ومن قرأ بالياء فكأنّ القرآن نزل على محمد صلّى اللّه عليه وسلم ثم قال (سُبْحانَهُ) يعجّبه من كفرهم وإشراكهم .

وقوله : يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ [2] بالياء ، و(تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ) بالتاء . وقراءة أصحاب عبد اللّه (ينزّل الملائكة) بالياء .

(74/430)

وقوله : وَالْأَنعامَ خَلَقَها لَكُمْ [5] نصبت (الأنعام) بخلقها لمّا كانت فى الأنعام واو . كذلك كلّ فعل عاد على اسم بذكره ، قبل الاسم واو أو فاء أو كلام يحتمل نقلة الفعل إلى ذلك الحرف الذي قبل الاسم ففيه وجهان : الرفع والنصب . أمّا النصب فأن تجعل الواو ظرفا للفعل . والرفع أن تجعل الواو ظرفا للاسم الذي هى معه . ومثله (وَالْقَمَرَ «1» قَدَّرْناهُ مَنازِلَ) (وَالسَّماءَ بَنَيْناها «2» بِأَيْدٍ) وهو كثير .

ومثله : . وإن أردت : وكلّ من ضربوه هو فى الدار رفعت .

وقوله : (لَكُمْ فِيها دِفْءٌ) وهو ما ينتفع به من أوبارها . وكتبت بغير همز لأن الهمزة إذا سكن ما قبلها حذفت من الكتاب ، وذلك لخفاء الهمزة إذا سكت عليها ، فلمّا سكن ما قبلها ولم يقدروا على همزها فى السكت كان سكوتهم كأنه على الفاء . وكذلك قوله : (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) و(النَّشْأَةَ) «1» و(مِلْءُ الْأَرْضِ) واعمل فى الهمز بما وجدت فى هذين الحرفين .

وإن كتبت الدّفء فى الكلام بواو فى الرفع وياء فى الخفض وألف فى النصب كان صوابا . وذلك على ترك الهمز ونقل إعراب الهمزة إلى الحرف الذي قبلها . من ذلك قول العرب . هؤلاء نشء صدق ، فإذا طرحوا الهمزة قالوا : هؤلاء نشو صدق ورأيت نشا صدق ومررت بنشى صدق . وأجود من ذلك حذف الواو والألف والياء لأن قولهم : يسل أكثر

من يسال ، ومسلة أكثر من مسالة وكذلك بين المر وزوجه إذا تركت الهمزة.

والمنافع : حملهم على ظهورها ، وأولادها وألبانها . والدفء : ما يلبسون منها ، ويبتنون من أوبارها .

وقوله : حِينَ تُرِيحُونَ [6] أي حين تريحون إبلكم : تردّونها بين الرعي ومباركها يقال لها المراح. والسروح بالغداة (قال «2» الفرّاء) إذا سعت للرعى .

---

(1) كذا وقد يكون النشأ حتى تكون الهزة بسكت عليها .

(2) سقط ما بين القوسين فى ا .

(75/430)

---

وقوله : بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [7] أكثر القرّاء على كسر الشين ومعناها : إلا بجهد الأنفس . وكأنه اسم وكأن الشّقّ فعل كما توهّم أن الكره الاسم وأن الكره الفعل . وقد قرأ به بعضهم «1» (إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) وقد يجوز فى قوله : (بِشِقِّ الْأَنْفُسِ) أن تذهب إلى أن الجهد ينقص من قوّة الرجل ونفسه حتى يجعله قد ذهب بالنصف من قوّته ، فتكون الكسرة على أنه كالنصف والعرب تقول : خذ هذا الشّقّ لشقّة الشاة ويقال : المال بينى وبينك شقّ الشعرة وشقّ الشعرة وهما متقاربان ، فإذا قالوا شققت عليك شقّا نصبوا ولم نسمع غيره .

وقوله : وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ [8] تنصبها بالردّ على خلق . وإن شئت جعلته منصوبا على إضمار سخّر : فيكون فى جواز إضماره مثل قوله : (خَتَمَ «2» اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ) من «3» نصب فى البقرة نصب الغشاوة بإضمار (وجعل) ولو رفعت (الخيل والبغال والحمير) كان صوابا من وجهين. أحدهما أن تقول : لمّا لم يكن الفعل معها ظاهرا رفعته على الاستئناف . والآخر أن يتوهّم أن الرفع فى الأنعام قد كان يصلح فتردّها على ذلك كأنك قلت :

والأنعام خلقها ، والخيل والبغال على الرفع .

وقوله عزّ وجلّ : (لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً) ، ننصبها : ونجعلها زينة على فعل مضمر ، مثل وَحِفْظاً «4» مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ) أي جعلناها . ولو لم يكن فى الزينة ولا فى (وَحِفْظاً) واو لنصبتها بالفعل الذي قبلها لا بالإضمار . ومثله أعطيتك درهما ورغبة فى الأجر ، المعنى أعطيتكه رغبة .

فلو ألقيت الواو لم تحتج إلى ضمير لأنه متّصل بالفعل الذي قبله .

وقوله : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ [9] يقال : هداية الطرق . ويقال السبيل ، الإسلام

---

(1) هو أبو جعفر كما فى الإتحاف وقد وافقه اليزيدي راوى أبى عمرو ، وخالف فى هذا أبا عمرو .

(2) الآية 7 سورة البقرة .

(3) هو المفضل كما فى البحر المحيط 1/ 49 .

(4) الآية 9 سورة الصافات .

(76/430)

---

(وَمِنْها جائِرٌ) ، يقال : الجائر اليهوديّة والنصرانيّة . يدلّ على هذا أنّه «1» القول قوله (وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ) .

وقوله : تُسِيمُونَ [10] ترعون إبلكم .

وقوله : مَواخِرَ فِيهِ [14] واحدها «2» ماخرة وهو صوت جرى الفلك بالرياح ، وقد مخرت تمخر وتمخر .

وقوله : وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [16] يقال : الجدى والفرقدان .

وقوله : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ [17] جعل (من) لغير الناس لمّا ميّزه فجعله مع الخالق وصلح ، كما قال : (فَمِنْهُمْ «3» مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ) والعرب تقول : اشتبه علىّ الراكب وحمله فما أدرى من ذا من «4» ذا ، حيث جمعهما واحدهما إنسان صلحت (من) فيهما جميعا .

وقوله : أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ [21] رفعته بالاستئناف . وإن شئت رددته إلى أنه خبر للذين

فكأنه قال : والذين تدعون من دون اللّه أموات . الأموات فى غير هذا الموضع أنها لا روح فيها يعنى الأصنام . ولو كانت نصبا على قولك يخلقون أمواتا على القطع «5» وعلى وقوع الفعل أي ويخلقون «6» أمواتا ليسوا بأحياء .

وقوله : (وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) يقول : هى أموات فكيف تشعر متى تبعث ، يعنى

---

(1) هذا بدل من قوله : «هذا» .

(2) الأولى : «واحدتها» .

(3) الآية 45 سورة النور .

(4) فى تفسير الطبري : «ومن ذا» .

(5) كانه يريد الحال . [ . . . . . ]

(6) كأن الأصل : لا يخلقون أمواتا ، وهذا بالبناء للفاعل وما قبله بالبناء للمفعول .



---

الأصنام . ويقال للكفار : وما يشعرون أيان . وقرأ أبو عبد الرحمن السّلمىّ (أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) بكسر ألف (إيّان) وهى لغة لسليم وقد سمعت بعض العرب يقول : متى إيوان «1» ذاك والكلام أوان ذلك .

وقوله : وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ [30] جَنَّاتُ عَدْنٍ [31] .

ترفع الجنات لأنه اسم لنعم كما تقول : نعم الدار دار تنزلها . وإن شئت جعلت (وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ) مكتفيا بما قبله ، ثم تستأنف الجنات فيكون رفعها على الاستئناف . وإن شئت رفعتها بما عاد من ذكرها فى (يَدْخُلُونَها) .

وقوله : إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ [38] قرأها أصحاب «2» عبد اللّه (يهدّى) يريدون : يهتدى من يضلّ . والعرب تقول للرجل : قد هدّى الرجل يريدون : اهتدى .

ومثله (أَمَّنْ لا يَهِدِّي «3» إِلَّا أَنْ يُهْدى) ، حدثنا «4» محمّد قال : حدّثنا الفراء قال حدّثنى الحسن بن عيّاش أخو أبى بكر بن عيّاش وقيس بن الربيع وغيرهما عن الأعمش عن الشّعبى عن علقمة أنه قرأ (لا يهدى من يضل) كذلك .

وقرأها أهل الحجاز (لا يهدى من يضلّ) وهو وجه جيّد لأنها فى قراءة أبىّ (لا هادى لمن أضل اللّه) ومن فى الوجهين جميعا فى موضع رفع ومن قال (يهدى) كانت رفعا إذ لم يسمّ فاعلها ومن «5» قال (لا يهدى) يريد : يهتدى يكون الفعل لمن .

---

(1) كذا فى الأصول . وفى اللسان (أون) نقلا عن الكسائي ، وفيه (أين) نقلا عن الفراء : «أوان» وكأن ما هنا إن صح نشأ من إشباع كسرة الهمزة .

(2) هى قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف كما فى الإتحاف .

(3) الآية 35 سورة يونس وهو يريد قراءة حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال

(4) سقط ما بين القوسين فى ا .

(5) كذا والأولى حذف الواو .

(78/430)

---

وقوله : بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا [38] بلى ليبعثنّهم وعدا عليه حقّا . ولو كان رفعا على قوله :

بلى ذلك وعد عليه حقّ كان صوابا .

وقوله : إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [40] القول مرفوع بقوله :

(أَنْ نَقُولَ) كما تقول : إنما قولنا الحقّ . وأمّا قوله (فَيَكُونُ) فهى منصوبة «1» بالردّ على تقول .

ومثلها التي فى يس منصوبة ، وقد رفعها أكثر القراء . وكان الكسائىّ يردّ الرفع فى النحل 94 ب .

وفى يس «2» وهو جائز على أن تجعل (أن تقول له) كلاما تامّا ثم تخبر بأنه سيكون ، كما

تقول للرجل : إنّما يكفيه أن آمره ثم تقول : فيفعل بعد ذلك ما يؤمر .

وقوله : (وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا [41] ذكر أنها نزلت فى عمّار وصهيب وبلال ونظرائهم الذين عذّبوا بمكّة (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً) : نزول المدينة ، ولنحلّلنّ لهم الغنيمة . و(الذين) موضعها رفع .

وقوله : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا [43] ثم قال : بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ [44] بعد إلّا وصلة ما قبل إلّا لا تتأخّر بعد إلّا . وذلك جائز على كلامين . فمن ذلك أن تقول : ما ضرب زيدا إلّا أخوك ، وما مرّ بزيد إلّا أخوك . (فإن قلت ما ضرب [سقط فى ا] إلّا أخوك زيدا أو ما مرّ إلا أخوك بزيد ) فإنه على كلامين تريد ما مرّ إلا أخوك ثم تقول : مرّ بزيد . ومثله قول الأعشى :

وليس مجيرا إن أتى الحىّ خائف ولا قائلا إلا هو المتعيّبا «3»

---

(1) النصب قراءة ابن عامر والكسائي .

(2) فى الآية 82 .

(3) من قصيدة له يهجو فيها عمرو بن المنذر ويعاتب بنى سعد بن قيس . ويذكر هذا فى وصف الغريب عن قومه وما يلاقيه من هوان وعجز ، فهو لا يستطيع أن يجير خائفا ، وإذا قيل فى المجلس قول معيب نسب إليه . والمتعيب من تعيبه عابه ونقصه ، وهو وصف للقول . وانظر ديوانه نشر الدكتور كامل حسين ص 113 .

فلو كان على كلمة واحدة كان خطأ لأن المتعيّب من صلة القائل فأخّره ونوى كلامين فجاز ذلك .

وقال الآخر :

نبّئتهم عذّبوا بالنار جارتهم وهل يعذّب إلّا اللّه بالنار «1»

ورأيت الكسائىّ يجعل (إلّا) مع الجحد والاستفهام بمنزلة غير فينصب ما أشبه هذا على كلمة واحدة ، واحتجّ بقول الشاعر «2» :

فلم يدر إلّا اللّه ما هيّجت لنا أهلّة آناء الديار وشامها

ولا حجّة له فى ذلك لأنّ (ما) فى موضع أىّ «3» فلها فعل مضمر على كلامين . ولكنه حسن قوله ، بقول اللّه عزّ وجلّ (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا) «4» فقال : لا أجد المعنى إلّا لو كان فيهما آلهة غير اللّه لفسدتا ، واحتجّ بقول الشاعر «5» :

أبنى لبينى لستم بيد إلّا يد ليست لها عضد

فقال لو كان المعنى إلّا كان الكلام فاسدا فى هذا لأنى لا أقدر فى هذا البيت على إعادة خافض بضمير وقد ذهب هاهنا مذهبا .

وقوله : أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ [47] جاء التفسير بأنه التنقّص . والعرب تقول : تحوّفته بالحاء :

تنقّصته من حافاته . فهذا الذي سمعت . وقد أتى التفسير بالخاء و(هو «6» معنى) .

ومثله ممّا قرىء

---

(1) «جارتهم» كذا فى ا ، ش . والمعروف فى الرواية : «جارهم» .

(2) هو ذو الرمة . والأنآء جمع نؤى ، وهو ما يحفر حولى البيت يمنع المطر ، والأهلة جمع هلال ، وهو هنا ما استقوس واعوج من الأنآء ، والشام جمع شامة وهى العلامة . وانظر الديوان 636 .

(3) يريد أن (ما) استفهامية كأى الاستفهامية وليست موصولة فهى ليست معمولة للفعل السابق لأن الاستفهام له الصدر .

(4) الآية 22 سورة الأنبياء .

(5) هو أوس بن حجر . وانظر الكتاب 1/ 362 ، وشرح المفصل 2/ 90 ، واللسان فى (عبد) . [. . . . .]

(6) فى الطبري «هما بمعنى» .

بوجهين قوله (إِنَّ «1» لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا) و(سبخا) «2» بالحاء والخاء.

والسّبخ:

السعة. وسمعت العرب تقول: سبّخى صوفك وهو شبيه بالندف، والسّبح نحو من ذلك

، وكلّ صواب بحمد اللّه.

وقوله: يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ [48] الظّلّ يرجع على كلّ شىء من جوانبه، فذلك تفيّؤه. ثم فسّر

فقال: (عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ) فوحّد اليمين وجمع الشمائل. وكل ذلك جائز فى العربيّة.

قال الشاعر «3»:

بفي الشامتين الصخر إن كان هدّنى رزيّة شبلى مخدر فى الضراغم

ولم يقل: بأفواه الشامتين. وقال الآخر «4»:

الواردون وتيم فى ذرا سبأ قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

وقال الآخر/ 95:

فباست بنى عبس وأستاه طيّئ وباست بنى دودان حاشا بنى نصر

فجمع ووحّد. وقال الآخر:

كلوا فى نصف بطنكم تعيشوا فإنّ زمانكم زمن خميص «5»

فجاء التوحيد لأن أكثر الكلام يواجه به الواحد، فيقال: خذ عن يمينك وعن شمالك لأن

المكلّم واحد والمتكلّم كذلك، فكأنه إذا وحّد ذهب إلى واحد من القوم، وإذا جمع فهو الذي لا مسألة فيه. وكذلك قوله:

---

(1) الآية 7 سورة المزمل.

(2) هذه قراءة ابن يعمر وعكرمة وابن أبى عبلة كما فى البحر المحيط 8/ 363. وهى قراءة شاذة.

(3) هو الفرزدق يرثى ابنين له. والمخدر: الأسد، والضراغم جمع ضرغم وهو الأسد أيضا. وانظر الديوان 764.

(4) هو جرير فى هجاء عمر بن لجأ التيمي. والرواية فى الديوان طبعة بيروت 252: «تدعوك تيم وتيم... أراد بعض جلد الجواميس أنهم أسرى وفى أعناقهم أطواق من جلد الجواميس.

(5) ورد فى أمالى ابن الشجري 1/ 311 و2/ 38 و343. وفيه: «تعفوا» فى مكان «تعيشوا».

بنى عقيل ماذه الخنافق المال هدى والنساء طالق

وجبل يأوى إليه السارق «1»

فقال: طالق لأن أكثر ما يجرى الاستحلاف بين الخصم والخصم، فجرى فى الجمع على كثرة المجرى فى الأصل. ومثله (بفي الشامتين) وأشباهه.

وقوله: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ [49] فقال: (مِنْ دابَّةٍ) لأن (ما) وإن كانت قد تكون على مذهب (الذي) فإنها غير مؤقّتة، وإذا أبهمت غير موقّتة أشبهت الجزاء، والجزاء تدخل (من) فيما جاء من اسم بعده من النكرة. فيقال: من ضربه من رجل فاضربوه. ولا تسقط من فى هذا الموضع. وهو كثير فى كتاب اللّه عزّ وجلّ. قال اللّه تبارك وتعالى (ما أَصابَكَ «2» مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) وقال (وَمَنْ «3» يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) وقال «4» (أَ وَلَمْ «5» يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ولم يقل فى شىء منه بطرح (من) كراهية أن تشبه أن تكون حالا لمن وما، فجعلوه بمن ليدلّ على أنه تفسير لما ومن لأنهما غير مؤقّتتين، فكان دخول (من) فيما بعدهما تفسيرا لمعناهما، وكان دخول (من) أدلّ على ما لم يوقّت من من وما، فلذلك لم تلقيا «6». ومثله قول الشاعر:

حاز لك اللّه ما آتاك من حسن وحيثما يقض أمرا صالحا تكن

وقال آخر.

عمرا حييت ومن يشناك من أحد يلق الهوان ويلق الذلّ والغيرا «7»

---

(1) الخنافق جمع خنفقيق وهى الداهية. وانظر الخصائص 2/ 62.

(2) الآية 79 سورة النساء.

(3) الآية 124 سورة النساء.

(4) فى ا، ش، ب: «قوله» والمناسب ما أثبت وهو متصل بما قبله.

(5) الآية 48 سورة النحل.

(6) فى الطبري: «تلغيا».

(7) غير الدهر أحداثه وفى ب: «العبرا» ويظهر أنه تحريف.

(82/430)

---

فدلّ مجىء أحدها هنا على أنه لم يرد أن يكون ما جاء من النكرات حالا للأسماء التي قبلها، ودلّ على أنه مترجم «1» عن «2» معنى من وما. وممّا يدلّ أيضا قول اللّه عزّ وجلّ (وَما أَنْفَقْتُمْ «3» مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) لأن الشيء لا يكون حالا، ولكنه اسم مترجم.

وإنما ذكرت هذا لأن العرب تقول: للّه درّه من رجل، ثم يلقون (من) فيقولون للّه درّه رجلا.

فالرجل مترجم (لما «4» قبله) وليس بحال، إنّما الحال التي تنتقل مثل القيام والقعود، ولم

ترد للّه درّه فى حال رجوليّته فقط ، ولو أردت ذلك لم تمدحه كلّ المدح لأنك إذا قلت : للّه درّك قائما ، فإنما تمدحه فى القيام وحده .

فإن قلت : فكيف جاز سقوط من فى هذا الموضع ؟ قلت من قبل أن الذي قبله مؤقت فلم أبل أن يخرج بطرح من كالحال ، وكان فى الجزاء غير موقت فكرهوا أن تفسّر حال عن اسم غير موقّت فألزموها من . فإن قلت : 95 ب قد قالت العرب : ما أتانى من أحد وما أتانى أحد فاستجازوا إلقاء من . قلت : جاز ذلك إذ لم يكن قبل أحد وما أتى مثله شىء يكون الأحد له حالا فلذلك قالوا :

ما جاءنى من رجل وما جاءنى رجل .

وقوله : وَلَهُ الدِّينُ واصِباً [52] معناه : دائما . يقال : وصب يصب : دام . ويقال : خالصا .

وقوله : وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ [53] (ما) فى معنى جزاء ولها فعل مضمر ، كأنك قلت : ما يكن بكم من نعمة فمن اللّه لأن الجزاء لا بدّ له من فعل مجزوم ، إن ظهر فهو جزم وإن لم يظهر فهو مضمر كما قال الشاعر :

---

(1) ضبط فى ا بفتح الجيم والظاهر كسرها . [. . . . .]

(2) ا : «على» .

(3) الآية 39 سورة سبأ .

(4) سقط فى ا .

(83/430)

---

إن العقل فى أموالنا لا نضق به ذراعا وإن صبرا فنعرف للصبر «1»

أراد : إن يكن فأضمرها . ولو جعلت (ما بِكُمْ) فى معنى (الذي) جاز وجعلت صلته (بكم) و(ما) حينئذ فى موضع رفع بقوله (فَمِنَ اللَّهِ) وأدخل الفاء كما قال تبارك وتعالى (قُلْ إِنَّ «2» الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ) وكلّ اسم وصل ، مثل من وما والذي فقد يجوز «3» دخول الفاء فى خبره لأنه مضارع للجزاء والجزاء قد يجاب بالفاء . ولا يجوز أخوك فهو قائم لأنه اسم غير موصول وكذلك مالك لى . فإن قلت : مالك جاز أن تقول : فهو لى . وإن ألقيت الفاء فصواب .

وما ورد عليك فقسه على هذا . وكذلك النكرة الموصولة . تقول : رجل يقول الحقّ فهو أحبّ إلىّ من قائل الباطل . وإلقاء الفاء أجود فى كلّه من دخولها .

والجؤار «4» : الصوت الشديد . والثور يقال له : قد جأر يجأر جؤارا إذا ارتفع صوته من جوع أو غيره بالجيم . وكذلك (فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ)

وقوله : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ [57] نصب «5» لأنها مصدر ، وفيها معنى من التعوّذ والتنزيه للّه عزّ وجلّ . فكأنها بمنزلة قوله (مَعاذَ «6» اللَّهِ) وبمنزلة (غُفْرانَكَ «7» رَبَّنا) .

وقوله : (لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ) (ما) فى موضع رفع ولو كانت نصبا على : ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون لكان ذلك صوابا . وإنما اخترت الرفع لأن مثل ذا من الكلام يجعل مكان لهم لأنفسهم

---

(1) ورد البيت فى أمالى ابن الشجري 2/ 236 ، وقال : «أراد» إن يكن العقل أي إن تكن الدية ، وقوله :

(وإن صبرا) أي وإن نصبر صبرا بمعنى نحبس حبسا» وقوله : «نحبس» بالبناء للمفعول ، وكانه يريد الحبس للقصاص ، وقوله : فنعرف للصبر أي نخضع له ونقر .

(2) الآية 8 سورة الجمعة.

(3) ش : «يجاز» .

(4) أي فى قوله تعالى فى الآية (فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ) .

(5) الحديث عن (سبحانه) .

(6) فى الآيتين 23 ، 79 سورة يوسف .

(7) فى الآية 285 سورة البقرة.

ألا ترى أنك تقول : قد جعلت لنفسك كذا وكذا ، ولا تقول : قد جعلت لك . وكلّ فعل أو خافض ذكرته من مكنىّ عائد عليه مكنيّا فاجعل مخفوضه الثاني بالنفس فتقول أنت لنفسك لا لغيرك ، ثم تقول فى المنصوب أنت قتلت نفسك وفى المرفوع أهلكتك نفسك ولا تقول أهلكتك .

وإنما أراد بإدخال النفس تفرقة ما بين نفس المتكلّم وغيره . فإذا كان الفعل واقعا من مكنىّ على مكنىّ سواه لم تدخل النفس . تقول غلامك أهلك مالك ثم تكنى عن الغلام والمال فتقول : هو أهلكه ، ولا تقول : هو أهلك نفسه وأنت تريد المال ، وقد تقوله العرب فى ظننت وأخواتها من رأيت وعلمت وحسبت فيقولون : أظنّنى قائما ، ووجدتني صالحا لنقصانهما وحاجتهما إلى خبر سوى الاسم . وربما اضطرّ الشاعر فقال : عدمتنى وفقدتنى فهو جائز ، وإن كان قليلا قال الشاعر - وهو جران العود - :

لقد كان بي عن ضرّتين عدمتنى وعمّا ألاقي منهما متزحزح

هى الغول والسعلاة حلقى منهما مخدّش ما فوق التراقى مكدّح

وقوله : ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا [58] ولو كان (ظلّ وجهه مسودّ) لكان صوابا تجعل الظلول

للرجل ويكون «1» الوجه ومسودّ فى موضع نصب كما قال (وَيَوْمَ «2» الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ) والظلول إذا قلت [96 ا] (مُسْوَدًّا) للوجه.

وقوله: أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ [59] الهون فى لغة قريش: الهوان وبعض بنى تميم يجعل الهون مصدرا للشىء الهيّن. قال الكسائىّ: سمعت العرب تقول: إن كنت لقليل هون المئونة مذ اليوم. وقال: سمعت

---

(1) فى ش، ر «قد يكون».

(2) الآية 60 سورة الزمر.



---

الهوان فى مثل هذا المعنى من بنى «1» إنسان قال قال «2» لبعير له ما به بأس غير هوانه، يقول:

إنه هيّن خفيف الثمن. فإذا قالت العرب: أقبل فلان يمشى على هونه لم يقولوه إلّا بفتح الهاء، كقوله (يَمْشُونَ «3» عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً) وهى السكينة والوقار. حدثنا محمّد قال حدثنا الفراء قال حدثنى شريك عن جابر عن عكرمة ومجاهد فى قوله (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً) قالا: بالسكينة والوقار، وقوله:

(أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ) يقول : لا يدرى أيّهما يفعل : أيمسكه أم يدسّه فى التراب ، يقول :

بدفنها أم يصبر عليها وعلى مكروهها وهى المؤودة ، وهو مثل ضربه اللّه تبارك وتعالى :

ثم فسّر المثل فى قوله : لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ [60] ولو كان (مَثَلُ السَّوْءِ) نصبا لجاز ، فيكون فى المعنى على قولك : ضرب للذين لا يؤمنون مثل السوء ، كما كان فى قراءة أبىّ (وضرب «4» مثلا كلمة خبيثة) وقراءة العوامّ ها هنا وفى إبراهيم بالرفع لم نسمع أحدا نصب.

وقوله : وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى [62] أنّ فى موضع نصب لأنه عبارة عن الكذب. ولو قيل «5» : (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) تجعل الكذب من صفة الألسنة واحدها كذوب وكذب ، مثل رسول ورسل. ومثله قوله (وَلا تَقُولُوا «6» لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ) ، وبعضهم يخفض (الكذب) يجعله مخفوضا باللام التي فى قوله (لما) لأنه عبارة عن (ما) والنصب فيه وجه الكلام ، وبه قرأت العوامّ. ومعناه : ولا تقولوا لوصفها الكذب.

وقوله (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) يقول : منسيّون فى النار. والعرب تقول : أفرطت منهم ناسا أي

---

(1) كذا و(إنسان) على هذا أبو قبيلة ولم أقف عليه. وقد يكون «فى» أي فم.

(2) كذا بتكرر (قال) وكأن (قال) الأولى فاعلها الفراء و(قال) الثانية فاعلها العربي.

[. . . . . .]

(3) الآية 63 سورة الفرقان.

(4) الآية فى قراءة الناس غير أبى: «ومثل كلمة خبيثة» فى الآية 26.

(5) جواب لو محذوف أي لجاز. وهى قراءة معاذ بن جبل وبعض أهل الشام كما فى البحر 5/ 506

(6) الآية 116 سورة النحل. وجاءت قراءة الكذب جمع الكذوب عن معاذ وابن أبى عبلة وبعض أهل الشام كما فى البحر 5/ 545

(86/430)

---

خلفتهم ونسيتهم. وتقرأ «1» (وأنّهم مفرطون) بكسر الراء، كانوا مفرطين فى سوء العمل لأنفسهم فى الذنوب. وتقرأ «2» (مفرّطون) كقوله (يا حَسْرَتى «3» عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) يقول:

فيما تركت وضيّعت.

وقوله: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ [66] العرب تقول لكلّ ما كان من بطون الأنعام ومن السّماء أو نهر يجرى لقوم: أسقيت. فإذا سقاك الرّجل ماء لشفتك قالوا: سقاه. ولم يقولوا:

أسقاه كما قال اللّه عزّ وجل (وَسَقاهُمْ «4» رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً) وقال (وَالَّذِي «5» هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) وربما قالوا لما فى بطون الأنعام ولماء السّماء سقى وأسقى، كما قال لبيد :

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال «6»

رعوه مربعا وتصيّفوه بلا وبإ سمىّ ولا وبال

وقد اختلف القراء فقرأ بعضهم «7» (نُسْقِيكُمْ) وبعضهم (نسقيكم) .

وأمّا قوله (مِمَّا فِي بُطُونِهِ) ولم يقل بطونها فإنه قيل - واللّه أعلم - إن النّعم والأنعام شىء واحد، وهما جمعان، فرجع التذكير إلى معنى النّعم إذ كان يؤدى عن الأنعام أنشدنى بعضهم :

إذا رأيت أنجما من الأسد جبهته أو الخراة والكتد

بال سهيل فى الفضيح. ففسد وطاب ألبان اللقاح وبرد «8»

---

(1) هى قراءة نافع.

(2) هى قراءة أبى جعفر.

(3) الآية 56 سورة الزمر.

(4) الآية 21 سورة الإنسان.

(5) الآية 79 سورة الشعراء.

(6) مجد : أم كلب وكلاب ابني ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر الخصائص 1/ 370 .

(7) هى قراءة نافع وابن عامر وأبى بكر عن عاصم ويعقوب . وقراءة الباقين بضم النون .

(8) انظر ص 129 من الجزء الأول .

(87/430)

---

فرجع إلى اللبن لأن اللبن والألبان يكون فى معنى واحد . وقال الكسائي (نسقيكم مّما بطونه) : بطون ما ذكرناه ، وهو صواب ، أنشدنى بعضهم :

مثل الفراخ نتقت حواصله»

وقال الآخر :

كذاك ابنة الأعيار خافى بسالة الرجال وأصلال الرجال أقاصره «2» ولم يقل أقاصرهم .

أصلال «3» الرجال : الأقوياء منهم .

وقوله (سائِغاً لِلشَّارِبِينَ) يقول : لا يشرق باللبن ولا يغصّ به .

وقوله تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً [67] هى الخمر قبل أن تحرّم . والرزق الحسن الزبيب والتمر وما أشبههما .

وقوله : وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [68] ألهمها ولم يأتها رسول .

وقوله : (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ) وهى سقوف البيوت .

وقوله : (ذُلُلًا) [69] نعت للسبل . يقال : سبيل ذلول وذلل للجمع ويقال : إن الذلل نعت للنحل أي ذلّلت لأن يخرج الشراب من بطونها .

وقوله (شِفاءٌ لِلنَّاسِ) يعنى العسل دواء ويقال (فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ) يراد بالهاء القرآن ، فيه بيان الحلال والحرام :

---

(1) انظر ص 130 من الجزء الأول .

(2) الأعيار جمع العير ومن معانيه السيد والملك ، وكأن هذا هو المراد هنا . وقوله : «كذاك» فى اللسان (قصر) :

«إليك» وأقاصره جمع الأقصر . يقول لها : لا تعيبينى بالقصر فإن أصلال الرجال ودهاتهم أقاصرهم . وانظر ص 129 من الجزء الأول . [. . . . . .]

(3) هو جمع صل ، وهو فى الأصل الحية .

وقوله : لِكَيْلا يَعْلَمَ [70] .

يقول : لكيلا يعقل من بعد عقله الأوّل (شَيْئاً) وقوله : فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ [71] فهذا مثل ضرب اللّه للذين قالوا : إن عيسى ابنه تعالى اللّه عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا ، فقال : أنتم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونون «1» سواء فيه ، فكيف جعلتم عبده شريكا له تبارك وتعالى .

وقوله : وَحَفَدَةً [72] : والحفدة الأختان «2» ، وقالوا الأعوان . ولو قيل : الحفد : كان صوابا لأن واحدهم حافد فيكون بمنزلة الغائب والغيب والقاعد والقعد .

وقوله : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً [73] نصبت (شَيْئاً) بوقوع الرزق عليه ، كما قال تبارك وتعالى (أَلَمْ نَجْعَلِ «3» الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَأَمْواتاً) أي تكفت «4» الأحياء والأموات . ومثله (أَوْ إِطْعامٌ «5» فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً) ولو كان الرزق مع الشيء لجاز خفضه : لا يملك لهم رزق شيء من السموات .

ومثله قراءة من قرأ (فجزاء «6» مثل ما قتل من النّعم) .

وقوله : (وَلا يَسْتَطِيعُونَ) وقال فى أوّل الكلام (يَمْلِكُ) وذلك أن (ما) فى مذهب جمع لآلهتم التي يعبدون ، فوحّد (يَمْلِكُ) على لفظ (ما) وتوحيدها ، وجمع فى (يَسْتَطِيعُونَ) على المعنى .

ومثله قوله ﴿وَمِنْهُمْ «7» مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وفى موضع آخر ﴿وَمِنْهُمْ «8» مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾

---

(1) فى الطبري: «فتكونوا» بالنصب فى جواب النفي، وقد جاء الرفع هنا على الاستئناف.

(2) فى الطبري عن بعضهم: «هم الأختان أختان الرجل على بنانه» وفيه عن بعضهم: «هم الأصهار» فالأختان على هذا: أزواج البنات. وفى القاموس أن الختن الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ.

(3) الآيتان 25، 26 سورة المراسلات.

(4) أي تضم وتجمع.

(5) الآيتان 14، 15 سورة البلد.

(6) الآية 95 سورة المائدة، وهو يريد القراءة بإضافة (جزاء) إلى (مثل) وهى قراءة غير عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما فى الإتحاف.

(7) الآية 25 سورة الأنعام، والآية 16 سورة محمد.

(8) الآية 42 سورة يونس.

ومثله (وَمَنْ «1» يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً) و(يَعْمَلْ صالِحاً) فمن ذكره ردّ آخره على أوّله «2» ، ومن أنّث ذهب إلى أن (من) فى موضع تأنيث ، فذهب إلى تأنيثها . وأنشدنا بعض العرب :

هيا أمّ عمرو من يكن عقر داره جواء عديّ يأكل الحشرات «3»

ويسودّ من لفح السموم جبينه ويعر وإن كانوا ذوى نكرات «4»

فرجع فى (كانوا) إلى معنى الجمع وفى قراءة عبد اللّه - فيما أعلم - (ومنكم «5» من يكون شيوخا) ولم يقل (شيخا) وقد قال الفرزدق :

تعشّ فإن واثقتني لا تخوننى نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما أخيّين كانا أرضعا بلبان «6»

فثنّى (يصطحبان) وهو فعل لمن لأنه نواه ونفسه .

وقوله : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً [75] ضرب مثلا للصنم الذي يعبدون أنه لا يقدر على شىء ، (وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ) أي يحمله ، فقال : هل يستوى هذا الصنم (وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) فقال : لا تسوّوا بين الصنم وبين اللّه تبارك وتعالى .

وقوله : وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ [80] يعنى الفساطيط للسفر ، وبيوت العرب التي

(1) الآية 31 سورة الأحزاب. وقراءة الياء لحمزة والكسائي وخلف، وقراءة التاء لغيرهم

(2) هو التذكير فى (يقنت).

(3) عقر الدار أصلها، ويفسر بمحلة القوم. وقوله: «جواء عدى» ففى ش: «حوى» والجواء الواسع من الأودية، وهو أيضا موضع بالصمان فى نجد كما فى معجم البلدان، والحوى من معانيه الحوض الصغير.

(4) «نكرات» جمع نكرة - بالتحريك - وهو اسم من الإنكار، يراد به استنكار ما لا يوافقهم وذلك من سمات القدرة والحفيظة.

(5) كأن ذلك بدل قوله تعالى: «ومنكم من يرد إلى أرذل العمر» في الآيتين 70 سورة النحل، 5 سورة الحج. [.....]

(6) كان الفرزدق طرقه فى سفره ذئب فألقى إليه كتف شاة مشوية وذكر ذلك فى هذه القصيدة، واللبان الرضاع.

وانظر الديوان 870، وأما رثاء عبد العزيز بن مروان. و«تطبى»: تدعو وتستميل يريد أن نعله من جلد مدبوغ فلا يقبل عليها الكلب. يصفه برقة نعله وطيب ريحها. وانظر الخصائص 2/ 9

من الصوف والشعر . والظعن يثقّل فى القراءة ويخفّف ؛ لأن ثانيه عين ، والعرب تفعل ذلك

بما كان ثانيه أحد الستة الأحرف مثل الشعر والبحر والنهر . أنشدنى بعض العرب:

لَه نَعَل لا تَطَّبى الكلبَ رِيحُها * وإن وُضِعت بين المجالس شُمَّت

وقوله ﴿ أَثَاثاً وَمَتَاعاً ﴾ المتاع إلى حين يقول يكتفون بأصوافها إلى أن يموتوا . ويقال إلى

الحين بعد الحين .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ . . . ﴾ .

ولم يقل: البرد ، وهى تقى الحرّ والبرد ، فترك لأن معناه معلوم – والله أعلم – كقول الشاعر :

وما أدْرِى إذا يمّمت وجهاً * أريد الخير أيُّهما يلينى

يريد أىّ الخير والشر يلينى لأنه إذا أرد الخير فهو يتّقى الشرّ وقوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

وبلغنا عن ابن عباس أنه قرأ (لعلكم تَسْلَمُونَ) من الجراحات .

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ . . . ﴾

يعنى الكفار إذا قيل لهم ، مَن رزقكم ؟ قالوا : الله ، ثم يقولون: بشفاعة آلهتنا فيُشركون

فذلك إنكارهم ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ .

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

[قوله]: ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ . . . ﴾

آلهتهم ردّت عليهم قولهم ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى لم ندعكم إلى عبادتنا .

وقوله: ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ . . . ﴾

فكسرت لأنها من صلة القول . ومن فتحها لو لم تكن فيها لام فى قوله لكاذبون جعلها تفسيراً للقول: ألقوْا إليهم أنكم كاذبون فيكون نصبا لو لم يكن فيها لام؛ كما تقول: ألقيت إليك أنك كاذب . ولا يجوز إلاَّ الكسر عند دخول اللام ، فتقول: ألقيت إليك إنّك لكاذب .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ . . . ﴾ :

من بعد إبرام . كانت تغزل

الغزل من الصوف فتبرمه ثم تأمر جارية لها بنقضه. ويقال: إنها ريطة (تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) يقول: دغلا وخديعة.

قوله (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ) يقول: هى أكثر، ومعناه لا تغدروا بقوم لقلّتهم وكثرتكم أو قلّتكم وكثرتهم، وقد غررتموهم بالأيمان فسكنوا إليها 97 ب. وموضع (أدنى) نصب. وإن شئت رفعت كما تقول: ما أظن رجلا يكون هو أفضل منك وأفضل منك، النصب على العماد «1»، والرفع على أن تجعل (هو) اسما. ومثله قول اللّه عزّ وجلّ (تَجِدُوهُ «2» عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً) نصب، ولو كان رفعا كان صوابا.

وقوله: وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ [101] إذا نسخنا آية فيها تشديد مكان «3» آية ألين منها قال المشركون: إنما يتقوّله من نفسه ويتعلّمه من عائش مملوك كان لحويطب بن عبد العزّى كان قد أسلم فحسن إسلامه وكان أعجم، فقال اللّه عزّ وجلّ: لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ [103] يميلون إليه ويهوونه (أَعْجَمِيٌّ) فقال اللّه: وهذا لسان محمد صلّى اللّه عليه وسلّم والقرآن عربىّ.

وقوله «4»: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ [86] فكسرت «5» لأنها من صلة القول. ومن فتحها لو لم تكن فيها لام فى قوله لكاذبون جعلها تفسيرا للقول: ألقوا إليهم أنكم كاذبون فيكون نصبا لو لم يكن فيها لام كما تقول: ألقيت إليك أنك كاذب. ولا يجوز إلّا الكسر عند

دخول اللام ، فتقول : ألقيت إليك إنّك لكاذب .

وقوله : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا [110] يقول : عذّبوا . نزلت فى عمّار

---

(1) هو ضمير الفصل عند البصريين

(2) الآية 20 سورة المزمل

(3) كذا . وكأن الأصل : «بمكان» أي بوجود آية ألين منها ، فسقطت الباء فى «بمكان» من الناسخ .

(4) سبق كلام على هذه الآية

(5) أي (إنكم)



---

بن ياسر وأصحابه الذين عذّبوا ، حتّى أشرك بعضهم بلسانه وهو مؤمن بقلبه فغفر اللّه لهم ، فذلك قوله (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) بعد الفعلة «1» .

وقوله : قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً [112] يعنى مكّة أنها كانت لا يغار عليها كما تفعل العرب :

كانوا يتغاورون (مُطْمَئِنَّةً) : لا تنتقل كما تنتجع العرب الخصب بالنّقلة .

وقوله (مِنْ كُلِّ مَكانٍ) : من كلّ ناحية (فَكَفَرَتْ) ثم قال (بِما كانُوا يَصْنَعُونَ) ومثله فى القرآن كثير. منه قوله (فَجاءَها «2» بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ) ولم يقل : قائلة. فإذا قال (قائِلُونَ) ذهب إلى الرجال، وإذا قال (قائلة) فإنما يعنى أهلها، وقوله (فَحاسَبْناها «3» حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً فَذاقَتْ).

وقوله (لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) ابتلوا بالجوع سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والجيف. والخوف بعوث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسراياه. ثم إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رقّ لهم فحمل إليهم الطعام وهم مشركون. قال اللّه عز وجل لهم، كلوا (وَاشْكُرُوا «4»).

وقوله : لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ [119] كلّ من عمل سوءا فهو جاهل إذا عمله.

وقوله : أُمَّةً قانِتاً [120] : معلما للخير.

وقوله : إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ [124] أتى موسى أصحابه فقال : تفرّغوا للّه يوم الجمعة فلا تعلموا فيه شيئا، فقالوا : لا، بل يوم السبت، فرغ اللّه فيه من خلق السموات والأرض، فشدّد عليهم فيه. وأتى عيسى النصارى بالجمعة أيضا فقالوا : لا يكون عيدهم بعد عيدنا فصاروا إلى الأحد. فذلك اختلافهم وتقرأ «5» (إنما جعل السبت نصبا، أي جعل اللّه تبارك وتعالى.

---

(1) يريد تفسير الضمير فى «بعدها»

(2) الآية 4 سورة الأعراف.

(3) الآيتان 8، 9 سورة الطلاق. [.....]

(4) ورد ذلك في الآية 114

(5) هى قراءة الحسن والمطوعى.

(93/430)

---

وقوله: وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ [126] (نزلت فى حمزة «1») لمّا مثّل المشركون بحمزة يوم أحد فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: لأمثّلنّ بسبعين شيخا من قريش فأنزل اللّه عز وجل (وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ) ثم أمره بالصبر فقال (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ثم أمره بالصبر عزما فقال:

وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ [127].

وقوله (وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) فالضّيق ما ضاق عنه صدرك، والضّيق ما يكون فى الذي يتّسع مثل الدار والثوب وأشباه ذلك وإذا رأيت الضّيق وقع فى موقع الضّيق كان على وجهين: أحدهما أن يكون جمعا واحدته ضيقة كما قال «2»:

كشف الضيقة عنا وفسح

والوجه الآخر أن يراد به شىء ضيّق فيكون مخففا ، وأصله التشديد مثل هين ولين تريد هيّن ليّن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 94.115 ﴾

---

(1) هذه الجملة فى ا ، ش ، ب بعد «يوم أحد» والمناسب وضعها حيث وضعت

(2) هو الأعشى . وصدره :

فلئن ربك من رحمته

*(94/430)*

---

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة النحل

(أتى أمر الله) [1] استقر دينه وأحكامه . (فلا تستعجلوه) [1] بالتكذيب ، وقيل: أتى أمر الله وعداً (فلا تستعجلوه) وقوعاً ، وقيل: إن المراد نصرة الرسول ، والروح: الوحي بالنبوة ، كقوله: (يلقى الروح من أمره)

وقيل: هو الروح المعروف الذي يحيي به الأبدان . (لكم فيها دفء) [5] هو ما يستدفأ به . (بشق الأنفس) [7] بجهدها وعنائها . و(حين تريحون) [6] أي: بالليل إلى معاطنها ، (وحين تسرحون) بالنهار إلى مسارحها ، قال الهذلي: 671- اظعني أم نوفل عن

جنابي لا تريحي فالرعي رعي وخيم 672- من يذق رعيه سميت حبطاً منه فإني مما

أقول زعيم

وقال المرار الفقعسي في السرح: 673- ثقيل على جنب المثال وماله خفيف على

أشياعه حين يسرح 674- فإن مات لم يفجع صديقاً مكانه وإن عاش فهو [الديدني]

المترح. (وعلى الله قصد السبيل) [9] أي: بيان الحق. وقيل: إن إليه طريق كل أحد ، لا

يقدر أحد أن يجوز عنه ، كما قال ذلك طفيل الغنوي/للموت ، لما كان سبيل [كل] حي

عليه:

675- نداماي أمسوا قد تخليت عنهم فكيف [ألذ] الخمر أم كيف أشرب 676-

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب. (ومنها جائر) [9] أي:

[من] السبيل ما هو مائل عن الحق. (ولو شاء لهداكم أجمعين) أي: بالإلجاء. (تسيمون)

[10] ترعون أنعامكم.

وهذا السوم في الرعي ، من التسويم بالعلامة ، لأن الراعي يسيم الراعية بعلامات يعرف بها

البعض من البعض ، أو لأنه يظهر في مواضع الرعي علامات وسمات من آثار اختلاء النبات

، ومساقط الأبعار. (والنجوم مسخرات) [12] نصب مسخرات على حال مؤكدة ،

كقوله: (وهو الحق مصدقاً) ، وليس بمفعول ثانٍ لقوله: (وسخر لكم) ، لأن المسخر لا

يسخر، إلا أن يقدر فيه فعل آخر، أي: جعل النجوم مسخرات، كما قدر في قوله ها هنا: (وما ذرأ لكم في الأرض) [13] أي: وسخر لكم ما [ذرأ] في الأرض.

(95/430)

---

(وترى الفلك مواخر) [14] جواري، مخرت السفينة كما تمخر الريح: إذا جرت.

والمخر: هبوب الريح، والمخر: شق الماء بشيء يعترض في جهة جريانه. وقيل: مواخر: مواقر، مثقلات [بما] فيها. (أن تميد بكم) [15] أي: لئلا [تميد] بكم. (كنتم تشاقون فيهم) [27]. تظهرون شقاق المسلمين وخلافهم لأجلهم.

(فألقوا السلم) [28] أي: الخضوع والاستسلام لملائكة العذاب. (أو يأخذهم على تخوف) [47] أي: خوف. وهو ما يتخوفون منه من الأعمال السيئة، أو يتخوفون عليه من متاع الدنيا. وقيل: على تنقص، أي: يسلط عليهم الفناء فيهلك الكثير في وقت يسير، يقال: تخوفت الشيء: إذا أخذت من حافاته وأطرافه. وقد سأل عمر -رضي الله عنه- عنها وهو على المنبر، فسكت الناس حتى قام شيخ هذلي، وقال: هذه لغتنا/التخوف: التنقص، فقال عمر: وهل شاهد؟ فأنشد لأبي كبير: 677- تخوف الرجل منها تامكاً صلباً كما تخوف عود النبعة السفن.

فقال عمر: عليكم بديوانكم -شعر العرب- ففيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. وقد أنشد بندار بن لرة أيضاً: 678- تخوفني مالي فأذهبت طارفي وتالد [مالي] فصرت أخا الفقر 679- وكنت كذي [بئر] عدا نزف مائها إلى نزح ما فيها إلى آخر القعر.

وفي شعر الهذليين أيضاً: 680- فقلت له لا المرء مالك أمره ولا هو في [جذم] العشيرة عائد 681- أسيت على جذم العشيرة أصبحت تخوف منهم حافة وطرائد. فيكون اللفظ من قوله: ([أ]و يأخذهم على تخوف) والمعنى من قوله: (نأتي الأرض ننقصها من أطرافها). (يتفيؤا ظلاله) [48] يتميل ويتحول. والفيء: الظل بعد الزوال، لأنه مال من جانب إلى جانب.

(96/430)

---

قال الأعرابي: 682- بلاد بها كنا نحل فأصبحت خلاء ترعاها مع الأدم عينها 683- تفيأت فيها بالشباب وبالصبا تميل بما أهوى علي غصونها. وجمع الشمائل للدلالة على أن المراد باليمين: الجمع على معنى الجنس، أو لأن الظل إذا ابتدأ من اليمين، ابتدأ جملة، ثم تنتقص عن الشمائل شيئاً فشيئاً، فجمع الشمائل على جمع أظلالها. (سجداً) [48] خضعاً لأمر الله، لا يمتنع على تسخير[ه] وتصريفه.

ومعناه: ابتداء الظل على طلوع الشمس من خلف الأشخاص، ثم تفيؤه من اليمين والشمال على ارتفاعها إلى الأمام على الغروب. (وهم داخرون) [48]/ صاغرون خاضعون بما فيه من التسخير ودلائل التدبير، أو على أن مثل ذلك لو كان من حي مختار لكان عن خضوع وصغار. (يخافون ربهم من فوقهم) [50] أي: عذابه [وقضاءه]، وقيل: معناه أن قدرته فوق ما أعارهم من القوى والقدر، على مجاز: (وهو القاهر فوق عباده). (وله الدين) [52] أي: الطاعة. (واصباً) [52]

دائماً. وقيل: خالصاً، والوصب: التعب بدوام العمل الشاق. (ويجعلون لما [لا] يعلمون نصيباً مما رزقناهم) [54] هو ما يجعلونه لأصنامهم من الثمرات والأموال [ويحسبون] عليهم من الحرث والأنعام. [ولهم ما يشتهون) [57] أي: من البنين. (مفرطون) [62] معجلون.

وقيل: مقدمون. كما قال لبيد: 684- أقضي اللبانة لا أفرط ريبة أو أن يلوم بحاجة لوامها. (نسقيكم) [66] سقى وأسقى واحد، كما قال لبيد: 685- سقى قومي بني مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال. (مما في بطونه) [66] التذكير للرد إلى لفظ (ما) عند الكسائي. وقال الفراء: للرد على النعم، والنعم والأنعام واحد، لأن النعم اسم جنس، والتذكير على اللفظ، ألا ترى أن لك تأنيث النعم على نية الأنعام،

فكذلك تذكير الأنعام على نية النعم. وقال المؤرج: رد الكناية إلى البعض، أي: نسقيكم مما في بطونه اللبن، [إذ] ليس لكلها لبن يشرب. (سكراً) [67]

*(97/430)*

---

شراباً مسكراً، (ورزقاً حسناً) فاكهة. قال الحسن: السكر ما شربت، والرزق الحسن ما أكلت. فيكون التفسير بثلاثة أوجه: -بالمعتصر من الثمرات، -قيل: السكر بالأنبذة المخللة على مذهبنا، وإن أسكرت، -وبالخمر [قبل] التحريم.

(وأوحى ربك إلى النحل) / [68] ألهمها، أي: جعله في طباعها ومكنها منه، [حتى] صارت سبله [لها] مذللة سهلة -أي [سبل] اتخاذ العسل-، ألا تراها كيف [تبكر] إلى الأعمال من الصباح إلى المساء، [وتقتسمها] بينها، كما يأمرها أميرها وفحلها اليعسوب، فبعضها يعمل الشمع، وبعضها يستقي الماء ويصبه في الثقب، ويلطخه بالعسل، ولا يتخذ ذلك إلا في أعلى موضع، وأحصن موقع، بحيث ينبو عن العيون ويأبى على الأقدام، كما قال الهذلي:

686- [بأري] التي تأري لدى كل مغرب إذا اصفر قرن الشمس حان انقلابها 687- بأري التي تأري اليعاسيب أصبحت إلى شاهق دون السماء ذؤابها 688- جوارسها

[تأري] الشعوف [دوائبا وتنصب] ألهاباً مضيقاً شعابها ، وقال أيضاً: 689- وما

[ضرب] بيضاء يأوي مليكها إلى [طنف أعيا] براق ونازل

690- [تنمى بها اليعسوب] حتى أقرها إلى مألف رحب [المباءة] عاسل. (يخرج من

بطونها شراب) [69] سماه شراباً ، [إذ] كان مما يجيء منه الشراب. والجاحظ يقول

للطاعن: -إن النحل تجني العسل بأفواهها ، وتضعه كهيئته ، فكيف يقال: يخرج من

بطونها ؟ !- قال: الأمر -وإن كان كذلك- فهو يخرج من جهة أجوافها ، وبطونها ، ويكون

العسل باطناً في فيها ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهذيلاً ،

وضواحي كنانة ، وهؤلاء هم أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة ،

وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان ، أو طعن عليه من هذه الجهة. (فيه

شفاء للناس) [69] إذ كانت المعجونات كلها/ بالعسل. وفي الحديث: "من به داء قديم ،

فليأخذ درهماً حلالاً ، وليشتر به عسلاً وليشربه بماء سماء فهو الشفاء".

(98/430)

---

قال الهذلي: 691- وما ضرب بيضاء يسقي دبوبها [دفاق] فعروان الكراب [فضيمها]

692- إلى فضلات من حبي مجلجل أضربت له [أضواجها] وهضومها 693- فصفقها

حتى [استمر] بنطفة وكان شفاء شوبها [وصميمها] . (فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم) [71]

ما ملكت أيمانهم لا يشاركونهم في ملكهم ، ولا يملكون شيئاً من رزقهم ، فكيف يجعلون لي من خلقي شركاء في ملكي ؟ ! (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) [77] أي: إذا أمرنا . وقيل: إنه أراد النفخة [للفناء] أو للبعث . (أنكاثاً) [92] أنقاضاً . (دخلا) غروراً ودغلاً ، كأن داخل القلب يخالف ظاهر القول . (أن تكون أمة هي أربى) أي: أشد وأزيد ، إذ كانوا يعقدون الحلف ، ثم ينقضون إذا [وجدوا] من هو أكثر وأقوى .

(لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) [103] أي: يميلون ويضيفون إليه . [إذ] كانت العرب اتهمت رسول الله في معرفة الأخبار ببعض الأعاجم ممن قرأ الكتب . (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) [112] جاء هذا الكلام على مذهب العرب ، كما قال الشماخ في صفة قوس: 694- فذاق وأعطته من اللين جانباً كفى ولها أن يعوق النزع حاجز

أي: نظر إليها ورآها ، فجعل النظر ذوقاً . وقيل: معنى ذاق: جربها بالمد ، فكذلك تكون الإذاقة في الآية بمعنى الابتلاء ، لأن الابتلاء والتجريب متقاربان . وابن مقبل زاد عليه وجعل الذوق [لليد] فقال:-/ 695- يهززن للمشي أوصالاً منعمة هز الكماة ضحى عيدان يبرينا 696- أو كاهتزاز رديني تذاوقه أيدي التجار فزادوا متنه لينا . وعلى أن

هذه اللفظة كثيرة الوقوع في الشدائد ، لأن صاحبها يجد وقعها ، كما يجد الذائق الطعم فوق ما يجد المستمر على الأكل ، قال الله تعالى: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) ، وقال الراجز:



---

697- دونك ما جنيته فاحس وذق 698- قد حذرتك [آل] المصطلق . وقد سأل بعض الملحدة ابن الأعرابي عن هذه ، وقال: تقول العرب: ذقت اللباس ؟ ! فقال: إن لم يكن عندك [نبياً] ، أما كان عربياً ، وهذا الجواب كافي في إقناع الطاعن ، والذي تقدم من تصحيحه على مذهب العرب حجة وبيان . (إن إبراهيم كان أمة) [120] إماماً يأتم به الناس .

(قانتاً) دائماً على العبادة . (حنيفاً) مسلماً ، مستقبلاً في صلاته الكعبة . كما قال ذو الرمة: 699- [يظل] بها الحرباء للشمس ماثلاً على [الجذل] إلا أنه لا يكبر 700- إذا حول الظل العشي رأيته حنيفاً ، وفي قبل الضحى يتنصر . [والحرباء : يستقبل] الشمس أبداً ، فيكون بالعشي -إذا استقبل الشمس- مستقبلاً القبلة .

[تمت سورة النحل] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 791.815 ﴾

وقال الأخفش :

سورة ( النحل )

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

قال ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ نصب . أي: وَجَعَلَ اللهُ الخَيْلَ والبغال والحمير وجَعَلَها (زِينَةً) .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أي: ومن السبيل [134 ب] لأَنَّها مؤنثة في لغة أهل الحجاز .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

وقال ﴿ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ فعلى "سُخِّرَتْ النُّجُومُ" أَوْ "جَعَلَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ" وجاز اضمار فعل غير الأول لأن ذلك المضمر في المعنى مثل المظهر . وقد تفعل العرب ما هو أشد من ذا . قال الراجز: [وهو الشاهد الثامن والثلاثون بعد المئتين]:

تَسْمَعُ فِي أَجْوافِهِنَّ صرِدَا * وَفِي اليَدَيْنِ جُسْأَةً وَبَدَدا

فهذا على ﴿ وَتَرَى فِي اليَدَيْنِ الجُسْأَةَ ﴾ [وهي]: اليَبَس والبَدَدَ [وهو]: "السَّعَة" .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ يقول: خَلَقَ لكم وبَثَّ لَكُمْ.

﴿ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

وقال ﴿ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ على التوكيد .

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هاذِهِ الْدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾



---

وقال ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً ﴾ فجعل "ماذا" بمنزلة "ما" وحدها .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

وقال ﴿ إِن تَحْرِصْ ﴾ لانها من "حَرَصَ" "يَحْرِصُ" .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾

واذا وقفت على (يَتَفَيَّؤُا) قلت "يَتَفَيَّا" كما تقول بالعين "تَتَفَيَّعْ" جزما وان شئت أشممتها الرفع ورمته كما تفعل ذلك في "هذا حَجَرُ" .

وقال ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ فذكروهم غير الانس لانه لما وصفهم بالطاعة أشبهوا ما يعقل وجعل اليمين للجماعة مثل ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ يريد : من الدواب [144] واجتزأ بالواحد كما تقول: "ما أَتاَنِي من رَجُلٍ" أي: ما أتاني من الرجال مثله .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ لأَنَّ (ما ) بمنزلة (من) فجعل الخبر بالفاء .

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ ﴾ .

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(102/430)

---

وقال ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ ولم يقل "مِنها" لانه أضمر "الشَيْء" كأنه قال "وَمِنْها شَيْءٌ تَتَّخِذونَ مِنه سَكَراً" .

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

وقال ﴿ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي ﴾ على التأنيث في لغة اهل الحجاز. وغيرهم يقول "هُوَ النَّحْل" وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء نحو "البُرُّ" و"الشَعِيرُ" هو في لغتهم مؤنث.

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ ذُلُلاً ﴾ وواحدها "الذَلُولُ" وجماعة "الذَّلول" "الذُلُل".

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

وقال ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ وواحدهم "الحافِدُ".

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾

وقال ﴿ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً ﴾ فجعل "الشَيْء" بدلا من "الرِّزْق" وهو في معنى "لا يَمْلِكُونَ رِزْقاً قَلِيلاً ولا كَثِيرا". وقال بعضهم: "الرِّزْقُ فعل يقع بالشيء" يريد: "لا يَمْلِكُون أَنْ يَرْزُقُوا شَيْئا".

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وقال ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ لأَنَّ (أَينّما) من حروف المجازاة.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

وقال ﴿ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً ﴾ وواحده: "الكِنّ".

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

وقال ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ تقول: "أَوْفَيْتُ بالعَهْد" و"وَفَيْتُ بالعَهْد" فاذا قلت "العَهْدَ" قلت "أَوْفَيْتُ العَهْدَ" بالالف.

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وقال ﴿ أَنكَاثاً ﴾ وواحدها "النِّكْثُ".

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(104/430)

---

[144 ب] وقال ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ خبر لقوله (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ) ثم دخل معه قوله ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ فأخبر عنهم بخبر واحد اذ كان ذلك يدل على المعنى.

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ لأن معنى (كُلُّ نَفْسٍ): كل إنسان، وأنّث لأن النفس تؤنّث وتذكر. يقال "ما جاءَتْنِي نَفْسٌ واحدةٌ" و"ما جاءَنِي نَفْسٌ واحدٌ".

﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾

وقال ﴿ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ جعل (ما تَصِفُ) ألسنتهم اسما للفعل كأنه قال "وَلاَ تَقُولُوا لِوَصْفِ أَلْسِنَتِكُم (الكَذِبَ هذا حلاَلٌ) وقال بعضهم (الكَذِبِ) يقول: "ولا تقولوا للكَذِبِ

الذي تصفه أَلسنتكم" . وقال بعضهم (الكُذُبُ) فرفع وجعل (الكُذُبَ) من صفة الأَلسنة ، كأنه قال: "أَلسنَةٌ كُذُبٌ" .

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وقال ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ وقال ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ [112] فجمع "النِّعْمَة" على "أَنْعُمٍ" كما قال ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ فزعموا أنه جمع "الشِّدَّة" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 414.420 ﴾

*(105/430)*

---

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة النحل

مكية كلها

1 - أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلوهُ يعني القيامة . أي هي قريب فلا تستعجلوا . وأتي بمعنى يأتي . وهذا كما يقال : أتاك الخير فأبشر . أي سيأتيك .

2 - يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أي : بالوحي .

5 - لَكُمْ فِيها دِفْءٌ (الدّفء) : ما استدفأت به. يريد ما يتخذ من اوبارها من الأكسية والأخبية وغير ذلك.

6 - ولَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ إذ راحت عظام الضروع والأسنمة، فقيل : هذا مال فلان.

وَحِينَ تَسْرَحُونَ بالغداة. ويقال : سرحت الإبل بالغداة وسرّحتها.

7 - بِشِقِّ الْأَنْفُسِ أي بمشقة. يقال : نحن بشق من العيش، أي بجهد. وفي حديث أم زرع : «وجدني في أهل غنيمة بشقّ».

9 - وَمِنْها جائِرٌ أي : من الطرق جائر لا يهتدون فيه. والجائر : العادل عن القصد.

(106/430)

---

10 - ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ يعني المرعى. قال عكرمة : لا تأكل ثمر الشجر فإنه سحت. يعني الكلأ.

فِيهِ تُسِيمُونَ أي ترعون. يقال : أسمت إبلي فسامت. ومنه قيل لكل ما رعي من الأنعام : سائمة، كما يقال : راعية.

4 – وَتَرَى الْفُلْكَ : السفن .

مَوَاخِرَ فِيهِ أي : جواري تشقّ الماء . يقال : مخرت السفينة . ومنه مخر الأرض إنما هو شقّ الماء لها .

15 – وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أي جبالا ثوابت لا تبرح . وكل شيء ثبت فقد رسا .

أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ أي لئلا تميد بكم الأرض . والميد : الحركة والميل .

ومنه يقال : فلان يميد في مشيته : إذا تكفّأ .

21 – وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ أي متى يبعثون .

26 – فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ أي من الأساس . وهذا مثل .

أي اهلكهم كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله فخرّ عليه .

28 – فَأَلْقَوُا السَّلَمَ أي انقادوا واستسلموا والسّلم : الاستسلام .

44 – بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ : الكتب . جمع زبور .

47 – أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ أي : على تنقص ومثله التخون يقال : تخوفته الدهور وتخونته إذا نقصته وأخذت من ماله أو جسمه .

تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب . والفىء : الرجوع . ومنه قيل للظل بالعشي : فيء ، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق .

48 - يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ أي تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب.

والفيء: الرجوع. ومنه قيل للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق.

(107/430)

---

سُجَّداً لِلَّهِ أي مستسلمة منقادة. وقد بينت هذا في كتاب «المشكل» وَهُمْ داخِرُونَ أي صاغرون. يقال: دخر اللّه.

52 - وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أي دائما. والدين: الطاعة. يريد: أنه ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال او هلكة، غير اللّه.

فإن الطاعة تدوم له.

53 - ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ أي تضجون بالدعاء وبالمسألة. يقال: جأر الثور يجأر.

والضُّرُّ: البلاء والمصيبة.

56 - وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ

، هذا ما كانوا يجعلونه لآلهتهم من الحظ في زروعهم وأنعامهم. وقد ذكرناه في سورة الأنعام.

57 - وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ أي تنزيها له عن ذلك. وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ يعني البنين.

58 - وَهُوَ كَظِيمٌ أي حزين قد كظم فلا يشكو ما به .

59 - أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أي على هوان .

أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أي يئده .

60 - وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى : شهادة أن لا إله إلا هو .

62 - وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ من البنات .

وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى أي الجنة . ويقال :

البنين .

وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أي معجلون إلى النار . يقال : فرط مني ما لم أحسبه . أي سبق . والفارط :

المتقدّم إلى الماء لإصلاح الأرشية والدّلاء حتى يرد القوم . وأفرطته : أي قدمته .



---

66 - نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ذهب إلى النعم . والنّعم تؤنث وتذكر والفرث : ما في

الكرش .

وقوله : مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً لأن اللبن كان طعاما فخلص من ذلك الطعام دم ، وبقي منه

فرث في الكرش ، وخلص من الدم لبن .

سائِغاً لِلشَّارِبِينَ أي سهلا في الشراب لا يشجي به شاربه ولا يغص.

67 - تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً أي خمرا. ونزل هذا قبل تحريم الخمر.

وَرِزْقاً حَسَناً يعني التمر والزبيب. وقال ابو عبيدة: السّكر: الطّعم.

ولست اعرف هذا في التفسير.

68 - وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [أي ألهمها. وقيل:] سخّرها.

وقد بينت في كتاب «المشكل» انه قد يكون كلاما وإشارة وتسخيرا.

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ كل شيء عرش من كرم او نبات او سقف: فهو عرش ومعروش.

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أي من الثمرات. وكل هاهنا ليس على العموم. ومثل هذا قوله

تعالى: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها [سورة الأحقاف آية: 25].

69 - فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا أي منقادة بالتّسخير. وذل: جمع ذلول.

70 - وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ وهو الهرم، لأن الهرم أسوأ العمر وشرّه.

لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً أي حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئا لشدة هرمه.

71 – وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ يعني فضل السادة على المماليك .

فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا يعني السادة بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أي لا يجعلون أموالهم لعبيدهم حتى يكونوا والعبيد فيها سواء . وهذا مثل ضربه اللّه لمن جعل له شركاء من خلقه .

72 – بَنِينَ وَحَفَدَةً الحفدة : الخدم والأعوان . ويقال : هم بنون وخدم .

ويقال : الحفدة الأصهار . وأصل الحفد : مداركة الخطو والإسراع في المشي . وإنما يفعل هذا الخدم . فقيل لهم : حفدة ، واحدهم حافد ، مثل كافر وكفرة . ومنه يقال في دعاء الوتر : وإليك نسعى ونحفد .

73 – وقوله : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً نصب شيئا بإيقاع رزق عليه . أي يعبدون مالا يملك أن يرزقهم شيئا . كما تقول : هو يخدم من لا يستطيع إعطاءه درهما .

75 – وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أي ثقل على مولاه . أي على وليه وقرابته . مثل ضربه لمن جعل شريكا له من خلقه .

76 – هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ . وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ مثل ضربه لنفسه .

80 – وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً يعني قباب الأدم وغيرها تَسْتَخِفُّونَها في الحمل .

يَوْمَ ظَعْنِكُمْ : يوم سفركم وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ .

والأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية. قال أبو زيد: واحد الأثاث: أثاثة.

81 - وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا أي ظلال الشجر والجبال.

والسرابيل: القمص.

تَقِيكُمُ الْحَرَّ أراد تقيكم الحر والبرد. فاكتفى بذكر أحدهما إذا كان يدل على الآخر.

كذلك قال الفراء.

وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ يعني الدّروع تقيكم بأس الحرب.

83 - يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ أي يعلمون أن هذا كله من عنده، ثم ينكرون ذلك، بأن يقولون: هو شفاعة آلهتنا.

92 - الأنكاث: ما نقض من غزل الشعر وغيره. واحدها نكث، يقول: لا تؤكدوا على أنفسكم الإيمان والعهود ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت، ثم نقضت ذلك النسخ فجعلته أنكاثا.

تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أي دخلا وخيانة.

أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ أي فريق منكم.

أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ أي أغنى من فريق .

110 - إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ لم يرد إنهم بإبليس كافرون . ولو كان هذا كذا كانوا مؤمنين . وإنما أراد الذين هم من أجله مشركون بالله . وهذا كما يقال : سار فلان بك عالما ، أي سار من أجلك .

101 - وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ أي نسخنا آية بآية .

103 - يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلّمك . وأصل الإلحاد : الميل .

(111/430)

---

106 - وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أي فتح له صدرا بالقبول .

111 - يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها أي يأتي كل إنسان يجادل عن نفسه [غدا] .

112 - رَغَداً : كثيرا واسعا .

118 - وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا يعني اليهود .

120 - كانَ أُمَّةً أي معلما للخير . يقال : فلان أمة . وقد بينت هذا في كتاب «المشكل» .

قانِتاً لِلَّهِ أي مطيعا .

121 - شاكِراً لِأَنْعُمِهِ جمع نعم. يقال: يوم نعم ويوم بؤس ويجمع أنعم وأبؤس. وليس قول من قال: إنه جمع نعمة، بشيء. لأن فعلة لا يجمع على أفعل.

127 - وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ تخفيف ضيّق. مثل: هين ولين. وهو إذا كان على التأويل صفة. كأنه قال: لا تك في أمر ضيق من مكرهم.

ويقال: إن «ضيق» و«ضيق» بمعنى واحد. كما يقال: رطل ورطل.

ويقال: أنا في ضيق وضيقة. وهو أعجب إليّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 205.211﴾

(112/430)

---

وقال الغزنوى:

ومن سورة النحل

1 أَتى أَمْرُ اللَّهِ: استقرّ دينه، وأحكامه «1»، فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ: بالتكذيب، أو أتى أمره وعدا فلا تستعجلوه وقوعا «2».

و/ «الروح» «3»: الوحي بالنّبوّة «4»، كقوله تعالى «5»: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ، أو هو البيان عن الحق الذي يجب العمل به، أو هو الروح الذي تحيا به الأبدان.

---

(1) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: 14/ 75 عن الضحاك.

ونقله الماوردي في تفسيره: 2/ 382 عن الضحاك، وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز: 8/ 365، وقال: «ويبعده قوله: فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ لأنا لا نعرف استعجالا إلّا ثلاثة: اثنان منها للكفار في القيامة وفي العذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام».

وانظر زاد المسير: 4/ 427، وتفسير الفخر الرازي: 19/ 223، وتفسير القرطبي: 10/ 65.

(2) ذكره الطبريّ في تفسيره: (14/ 75، 76)، ورجحه، وضعّف القول الأول الذي نسب إلى الضحاك فقال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: هو تهديد من الله أهل الكفر به وبرسوله، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك، وذلك أنّه عقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى: عَمَّا يُشْرِكُونَ فدل ذلك على تقريعه المشركين، ووعيده لهم.

وبعد، فإنه لم يبلغنا أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل فرائض قبل أن تفرض عليهم، فيقال لهم من أجل ذلك: قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها، وأما مستعجلو العذاب من المشركين، فقد كانوا كثيرا» اه.

(3) في قوله تعالى: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ... [آية: 2].

(4) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 241، وتفسير الطبري: 14/ 77، وتفسير

الماوردي :

2/ 383 ، والمحرر الوجيز : 8/ 368 ، وزاد المسير : 4/ 428 ، وتفسير القرطبي :

10/ 67 .

(5) سورة غافر : آية : 15 .

(113/430)

---

4 فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ : أي : من أخرج من النطفة ما هذه صفته فقد أعظم العبرة «1» .

5 دِفْءٌ : ما يستدفأ به من لباس «2» ، سمّي بالمصدر من دفؤ الزمان يدفؤ دفأ فهو دفيء

، ودفيء الرجل فهو دفآن .

وفي الحديث «3» : «أنّه أتي بأسير يوعك فقال : أدفوه» فقتلوه «4» ، فوداه «5» أراد

عليه السّلام : أدفئوه ، فترك الهمز إذ لم يكن في لغته ، ولو أراد القتل لقال : دافّوه ، دافف

الأسير : أجهزت عليه «6» .

7 بِشِقِّ الْأَنْفُسِ : بجهدها «7» .

6 تُرِيحُونَ : بالّليل إلى معاطنها «8» ، وَحِينَ تَسْرَحُونَ : بالنّهار إلى مسارحها «9» .

---

(1) عن تفسير الماوردي : 2/ 383 .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 429 : «و المعنى : أنه مخلوق من نطفة ، وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وأنّ من قدر على إيجاده أولا ، يقدر على إعادته ثانيا . . .» .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 241 ، وتفسير الطبري : 14/ 78 ، ومعاني الزجاج : 3/ 190 .

(3) أورده أبو عبيد في غريب الحديث : 4/ 33 .

وهو أيضا في الفائق : 1/ 428 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 1/ 341 ، والنهاية : 2/ 123 ، وقد جاء في هذين الأخيرين «يرعد» بدل «يوعك» .

(4) الإدفاء : القتل في لغة اليمن .

النهاية لابن الأثير : 2/ 123 ، واللسان : 1/ 76 (دفأ) .

(5) أي : أدى ديته .

(6) الجمهرة لابن دريد : 2/ 1060 ، وغريب الحديث للخطابي : 2/ 269 .

[. . . . . .]

(7) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 97 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 241 ، وتفسير الطبري : 14/ 80 ، والمفردات للراغب : 264 .

(8) معاطن الإبل : مباركها ومنازلها .

النهاية: 3/ 258، واللسان: 13/ 286 (عطن).

(9) قال الطبري - رحمه الله - في تفسيره: 14/ 80: «يعني تردونها بالعشي من مسارحها إلى مراحها ومنازلها التي تأوي إليها، ولذلك سمي المكان: المراح، لأنها تراح إليها عشيا، فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشيته، فهو يريحها إراحة. وقوله: وَحِينَ تَسْرَحُونَ يقول: وفي وقت إخراجكموها غدوة من مراحها إلى مسارحها، يقال منه: سرح فلان ماشيته يسرحها تسريحا، إذا أخرجها للرعي غدوة، وسرحت الماشية: إذا خرجت للمرعى تسرح سرحا وسروحا، فالسرح بالغداة، والإراحة بالعشي».

(114/430)

---

9 وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ: بيان الحق. أو إليه طريق كلّ أحد لا يقدر أحد أن يجوز عنه.

وَمِنْها جائِرٌ: أي: من السّبيل ما هو مائل عن الحق «1».

10 تُسِيمُونَ: ترعون أنعامكم، والسّوم في الرعي من التسويم بالعلامة «2» لأنّ الراعي يسم الراعية بعلامات يعرف بها البعض عن البعض.

أو يظهر في مواضع الرعي علامات وسمات من اختلاء النبات «3» ومساقط الأبعار.

14 وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ: أي: جواري «4». مخرت السفينة كما تمخر الرّيح.

والمخر : هبوب الريح ، والمخر : شق الماء بشيء يعترض في جهة جريانه «5» .

---

(1) قال الطبري في تفسيره : 14/ 84 : «يعني تعالى ذكره : ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوج ، فالقاصد من السبل : الإسلام ، والجائر منها : اليهودية والنصرانية ، وغير ذلك من ملل الكفر كلها جائر عن سواء السبيل وقصدها ، سوى الحنيفية المسلمة» .

(2) معاني القرآن للزجاج : 3/ 192 ، واللسان : 12/ 312 (سوم) .

(3) اختلاء النبات : نزعها وقطعها . وفي اللسان : «واختلاه فانخلى : جزّه وقطعه ونزعه» .

اللسان : 14/ 243 (خلا) .

(4) أخرجه الطبري في تفسيره : 22/ 124 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 242 ، والزجاج في معانيه : 3/ 193 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 64 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 435 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما . وكذا الفخر الرازي في تفسيره : 20/ 7 .

(5) ينظر تفسير الماوردي : 2/ 386 ، والمفردات للراغب : 464 ، والكشاف : 2/ 404 ، وزاد المسير : 4/ 435 ، وتفسير الفخر الرازي : 20/ 7 ، وتفسير القرطبي : 10/ 89 ، واللسان :

5/ 160 (مخ) .

قال الفخر الرازي رحمه اللّه : «إذا عرفت هذا فقول ابن عباس : «مواخر» أي : جوار ، إنما حسن التفسير به ، لأنها لا تشق الماء إلا إذا كانت جارية» .

(115/430)

---

وقيل «1» : مَواخِرَ : مواقر مثقلات .

15 أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تميد «2» .

27 كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ : تظهرون شقاق المسلمين لأجلهم .

28 فَأَلْقَوُا السَّلَمَ : الخضوع والاستسلام لملائكة العذاب «3» .

46 تَقَلُّبِهِمْ : تصرّفهم في أسفارهم وأعمالهم «4» .

47 أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ : أي : ما يتخوّفون منه من الأعمال السّيئة «5» .

أو [ما يتخوفون] «6» عليه من متاع الدنيا .

وقيل «7» : هو على تنقّص ، أي : نسلّط عليهم الفناء فيهلك الكثير في

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره : 14/ 88 عن الحسن رحمه اللّه تعالى .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 386 عن الحسن أيضا ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير :

4/ 435 ، والقرطبي في تفسيره : 10/ 89 .

(2) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 242 : «أي : لئلا تميد بكم الأرض . والميد : الحركة والميل . ومنه يقال : فلان يميد في مشيته : إذا تكفّا» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 357 ، وتفسير الطبري : 14/ 90 ، وتفسير البغوي :

3/ 64 .

(3) قال ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 442 : «قال المفسرون : وهذا عند الموت يتبرؤون من الشرك ، وهو قولهم : ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ وهو الشرك ، فترد عليهم الملائكة فتقول :

بَلى ، وقيل : هذا رد خزنة جهنم عليهم : بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الشرك والتكذيب .

(4) تفسير الطبري : 14/ 112 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 201 ، وتفسير الماوردي :

2/ 392 ، وتفسير القرطبي : 10/ 109 ، وتفسير ابن كثير : 4/ 493 .

(5) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 2/ 392 .

(6) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» . [ . . . . . ]

(7) معاني القرآن للفراء: 2/ 101، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 360.

وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 243: «و مثله: التخوّن، يقال: تخوفته الدهور وتخونته، إذا نقصته وأخذت من ماله أو جسمه».

وانظر تفسير الطبري: (14/ 112 - 114)، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 201، وتفسير البغوي: 3/ 70.



---

وقت يسير، أو بنقصهم في أموالهم وثمارهم «1».

وسأل عمر عنها على المنبر فسكت النّاس حتى قام شيخ هذليّ فقال: هذه لغتنا، التخوّف: التنقّص. فقال عمر: و/ هل شاهد «2»؟ فأنشد لأبي كبير «3»:

تخوّف الرّحل «4» منها تامكا «5» قردا كما تخوّف عود النّبعة السّفن «6»

---

(1) ذكره الزجاج في معاني القرآن: 3/ 201.

وانظر زاد المسير: 4/ 451، وتفسير القرطبي: (10/ 109، 110).

(2) كذا في «ك» وورد في المصادر التي ذكرت الرواية: «فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟

قال : نعم . . . » .

(3) كذا ورد في الرواية التي ذكرها القرطبي في تفسيره : 10/ 110 ، والبيضاوي في تفسيره :

1/ 557 ، منسوبا إلى أبي كبير الهذلي .

ونسبه الأزهري في التهذيب : 7/ 594 إلى ابن مقبل ، والجوهري في الصحاح : 4/ 1359 (خوف) إلى ذي الرمة ، والزمخشري في الكشاف : 2/ 411 إلى زهير .

وأورده صاحب اللسان مرتين ، نسبه في الأولى مادة (خوف) إلى ابن مقبل ، وفي الثانية (سفن) إلى ذي الرمة .

وقد ذكر الزبيدي هذا الاختلاف في نسبة البيت فقال : «وقد روى الجوهري هذا الشعر لذي الرمّة ، ورواه الزجاج ، والأزهري لابن مقبل ، قال الصّاغاني : وليس لهما . وروى صاحب الأغاني - في ترجمة حمّاد الراوية - أنه لابن مزاحم الثمالي ، ويروى لعبد اللّه بن العجلان النّهدي .

قلت (الزبيدي) : وعزاه البيضاوي في تفسيره إلى أبي كبير الهذلي ، ولم أجد في ديوان شعر هذيل له قصيدة على هذا الرويّ» اه .

ينظر تاج العروس : 23/ 292 (خوف) .

(4) في تهذيب اللّغة ، والصحاح ، واللسان ، وتاج العروس : «السّير» : مكان

«الرحل» .

(5) في الأصل : «تامكا صلبا قردا . . . .» ، وأثبت ما ورد في «ك» ، وسائر المصادر التي ذكرت البيت .

(6) قال القرطبي في شرح هذا البيت : «تمك السنام يتمك تمكا ، أي : طال وارتفع فهو تامك ، والسّفن والمسفن ما ينجر به الخشب» .

ينظر تفسيره : 10/ 111 .

*(117/430)*

---

فقال عمر : عليكم بديوانكم شعر العرب «1» .

48 يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ : يتميل ويتحول «2» ، وتفيّأت في الشّجرة : دخلت في أفيائها ، والفيء : الظلّ بعد الزوال لأنه مال «3» .

عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ : في أول النهار وآخره «4» ، إذ بالغداة يتقلص «5» الظلّ من إحدى الجهتين وبالعشيّ ينبسط من الأخرى .

وجمع الشَّمائِلِ للدلالة على أنّ المراد ب «اليمين» الجمع على معنى الجنس ، ولأنّ الابتداء من اليمين ثم ينقبض حالا فحالا عن الشمائل «6» .

---

(1) أورد هذا الأثر الزمخشري في الكشاف: 2/ 411، والفخر الرازي في تفسيره: 20/ 40، والقرطبي في تفسيره: 10/ 110، والبيضاوي في تفسيره: 1/ 557.

وأشار إليه المناوي في الفتح السماوي: 2/ 755، وقال: «لم أقف عليه».

ونقل محقق الفتح السماوي عن ابن همات الدمشقي في تحفة الراوي في تخريج أحاديث البيضاوي أنه قال: «قال السيوطي: لا يحضرني الآن تخريجه، لكن أخرج ابن جرير (تفسير الطبري: 14/ 113) عن عمر أنه سألهم عن هذه الآية فقالوا: ما نرى إلا أنه عند تنقص ما يردده من الآيات، فقال عمر: ما أرى إلّا أنه على تنتقصون من معاصي اللّه، فخرج رجل ممن كان عند عمر فلقي أعرابيا فقال: يا فلان ما فعل ربك؟ قال: قد تخيفته يعني - تنقصته - فرجع إلى عمر فأخبره، فقال: قدر اللّه ذلك».

(2) عن تفسير الماوردي: 2/ 392.

(3) هذا قول رؤبة بن العجاج، قال ثعلب في كتابه «الفصيح»: 319: «وأخبرت عن أبي عبيدة قال: قال رؤبة بن العجاج: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظلّ وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل».

وانظر تهذيب اللغة: (15/ 577، 578)، والمحرر الوجيز: 8/ 432، وتفسير الفخر الرازي: 20/ 41.

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 14/ 115 عن قتادة، ونقله الماوردي في

تفسيره:

2/ 393 عن قتادة، والضحاك. وكذا البغوي في تفسيره: 3/ 71.

(5) في «ج»: ينتقص.

(6) ينظر المحرر الوجيز: 8/ 432، وزاد المسير: 4/ 453، وتفسير الفخر الرازي: 20/ 43، وتفسير القرطبي: 10/ 112.

*(118/430)*

---

سُجَّداً: خضّعا «1» لأمر اللّه لا يمتنع على تصريفه، إذ التصرف لا يخلو عن التغير، والتغيّر لا بدّ له من مغيّر ومدبّر فهي في تلك الشهادة كالخاضع السّاجد.

داخِرُونَ: صاغرون خاضعون «2» بما فيهم من التسخير ودلائل التيسير.

50 يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ: أي عذابه وقضاءه، إذ قدرته فوق ما أعارهم من القوى والقدر، كقوله «3»: وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ، أو لمّا وصف اللّه بالتعالي على معنى لا قادر أقدر منه، وأنّ صفته في أعلى مراتب صفات القادرين حسن القول مِنْ فَوْقِهِمْ ليدل على هذا المعنى.

53 تَجْأَرُونَ: ترفعون أصواتكم بالاستغاثة «4».

52 وَلَهُ الدِّينُ : الطاعة «5» ، واصِباً : دائما ، أو خالصا «6» .

والوصب «7» : التّعب بدوام العمل .

---

(1) تفسير الماوردي : 2/ 393 ، وزاد المسير : 4/ 453 ، وتفسير الفخر الرازي :

20/ 44 . [. . . . .]

(2) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 360 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 243

، وتفسير الطبري : 14/ 116 ، والمفردات للراغب : 166 .

(3) سورة الأنعام : آية : 61 .

(4) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 204 ، وقال : «يقال : جأر الرجل

يجأر جؤارا» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 361 ، وتفسير الطبري : 14/ 121 ، وتفسير

البغوي :

3/ 72 .

(5) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 243 ، وتفسير الطبري : 14/ 118 ، ومعاني

الزجاج :

3/ 203 ، وتفسير الماوردي : 2/ 394 .

(6) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 104 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 361 ،

وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 243 ، وتفسير الطبري : (14/ 119 ، 120) ، وتفسير البغوي : 3/ 72 .

(7) تفسير الطبري : 14/ 118 ، وتهذيب اللغة للأزهري : 12/ 255 ، واللسان : 1/ 797 (وصب) ، والبحر المحيط : 5/ 500 .

(119/430)

---

55 لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ : بما أنعمنا عليهم ، أي : جعلوا ما أنعمنا به عليهم سببا للكفر ، فهم بمنزلة من أشرك في العبادة ليكفروا بما أوتى من النعمة كأنّه لا غرض في شركه إلّا هذا .

56 تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ : سؤال التوبيخ وهو الذي لا جواب لصاحبه إلا بما فيه فضيحته ، وهو يشبه سؤال الجدال من المحق للمبطل .

وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ : أنه يضر وينفع .

نَصِيباً : يتقربون به إليه ، أي : الأصنام ، كما في قوله «1» : وَهذا لِشُرَكائِنا .

57 وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ : أي : من البنين .

60 وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى : مع/ قوله «2» : فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ [35/ أ] لأنّها الأمثال التي توجب الاشتباه «3» .

ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ: أي: من أهل الظلم «4»، أو لأنه لو أهلك

---

(1) سورة الأنعام: آية: 136.

(2) سورة النحل: آية: 74.

(3) في «ك»: الأشباه.

وذكر القرطبي هذا القول في تفسيره: 10/ 119، وقال: «أي لا تضربوا للّه مثلا يقتضي نقصا وتشبيها بالخلق، و«المثل الأعلى» وصفه بما لا شبيه له ولا نظير...».

(4) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 396، وابن عطية في المحرر الوجيز: 8/ 450، عن فرقة، قال: «ويدل على هذا التخصيص أن اللّه تعالى لا يعاقب أحدا بذنب أحد.

واحتجت - الفرقة - بقوله تعالى: وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى. وهذا كله لا حجة فيه وذلك أن اللّه تعالى لا يجعل العقوبة تقصد أحدا بسبب إذ ناب غيره، ولكنه إذا أرسل عذابا على أمة عاصية لم يمكن البريء التخلص من ذلك العذاب، فأصابه العذاب لا بأنه له مجازاة. ونحو هذا قوله: وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وقيل للنبي صلى اللّه عليه وسلم: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

ثم لا بد من تعلق ظلم ما بالأبرياء وذلك بترك التغيير ومداجنة أهل الظلم ومداومة جوارهم» اه.

وانظر تفسير الفخر الرازي: 20/ 61، وتفسير القرطبي: (10/ 119، 120).

الآباء لم يكن الأنباء «1» .

62 لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ : وجب قطعا ، أو كسب فعلهم أنّ لهم النّار ، فيكون لا ردّا للكلام «2» ، أو صلة .

مُفْرَطُونَ : معجّلون «3» ، أو مقدمون ، تقول : أفرطناه في طلب الماء : قدمناه .

66 مِمَّا فِي بُطُونِهِ : التذكير للرد إلى لفظ «ما» «4» ، أو للردّ على النعم .

والنّعم والأنعام واحد «5» لأنّ النّعم اسم جنس فيذكّر على اللّفظ ، ألا ترى أنّ النعم يؤنث على نية الأنعام فيذكّر الأنعام على نية النّعم . أو ردّ الكناية إلى البعض «6» ، أي : نسقيكم مما في بطون البعض منها إذ ليس لكلّها لبن يشرب .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 2/ 396 دون عزو ، وكذا البغوي في تفسيره : 3/ 74 ، والفخر الرازي في تفسيره : 20/ 61 ، والقرطبي في تفسيره : 10/ 119 .

(2) ذكره الزجاج في معانيه : 3/ 207 ، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 460 ، والفخر الرازي في تفسيره : 20/ 62 ، والقرطبي في تفسيره : 10/ 121 عن الزجاج .

(3) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : (244 ، 245) : «أي معجلون إلى النار .

يقال: فرط مني ما لم أحسبه، أي: سبق. والفارط: المتقدم إلى الماء لإصلاح الأرشية والدلاء حتى يرد القوم وأفرطته: أي: قدمته».

وانظر تفسير الطبري: 14/ 128، ومعاني الزجاج: 2/ 207، والكشاف: 2/ 415، والمفردات للراغب: 376.

(4) ذكره الطبري في تفسيره: 14/ 132، والفخر الرازي في تفسيره: 20/ 66.

ونقله القرطبي في تفسيره: 10/ 124 عن الكسائي. [. . . . . .]

(5) ذكره الفراء في معانيه: (2/ 108، 109).

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 362، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 245، وتفسير الطبري: 14/ 131، وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 401، وزاد المسير: 4/ 463.

(6) نقله المؤلف في وضح البرهان: 1/ 507 عن المؤرج.

وأورده النحاس في إعراب القرآن: 2/ 402، وقال: «حكاه أبو عبيد عن أبي عبيدة»، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير: 4/ 463، والقرطبي في تفسيره: 10/ 124 عن أبي عبيدة أيضا.

وانظر تفسير الطبري: 14/ 133، والمحرر الوجيز: 8/ 457.

67 سَكَراً : شرابا مسكرا «1» ، وَرِزْقاً حَسَناً : فاكهة.

وقيل «2» : السكر ما شربت ، والرزق الحسن ما أكلت.

68 وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ : ألهمها «3» ، أي : جعله في طباعها حتى صارت سبله لها مذلّلة سهلة ، فتراها تبكّر إلى الأعمال وتقسمها بينها كما يأمرها اليعسوب «4» فبعض يعمل الشّمع ، وبعض العسل ، وبعض يبني البيوت ، وبعض يستقي الماء ويصبّه في الثّقب.

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ : سمّاه شرابا إذ يجيء منه الشّراب وإن كانت تجيء بالعسل بأفواهها فهو يخرج من جهة أجوافها وبطونها ويكون باطنا في فيها ولأن الاستحالة لا يكون إلّا في البطن فالنّحل تخرج العسل من البطن إلى الفم كالريق ، وخوطب بهذا الكلام أهل تهامة وضواحي كنانة

---

(1) فيكون هذا القول محمولا على قبل تحريم الخمر ، وقد ذكر هذا القول الفراء في معانيه : 2/ 109 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 245 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (14/ 134 - 136) عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومجاهد.

قال الفخر الرازي في تفسيره : 20/ 70 «فإن قيل : الخمر محرمة فكيف ذكرها في معرض

الإنعام؟ أجابوا عنه من وجهين :

الأول : أن هذه السورة مكية ، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة ، فكان نزول هذه الآية في الوقت الذي كانت فيه غير محرمة .

الثاني : أنه لا حاجة إلى التزام هذا النسخ ، وذلك لأنه تعالى ذكر ما في هذه الأشياء من المنافع وخاطب المشركين بها ، والخمر من أشربتهم فهي منفعة في حقهم ، ثم إنه تعالى نبه في هذه الآية أيضا على تحريمها ، وذلك لأنه ميز بينها وبين الرزق الحسن في الذكر ، فوجب أن يكون السكر رزقا حسنا ، ولا شك أنه حسن بحسب الشهوة ، فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا بحسب الشريعة ، وهذا إنما يكون كذلك إذا كانت محرمة» اه .

(2) نقله المؤلف – رحمه اللّه – في كتابه وضح البرهان : 1/ 508 عن الحسن رحمه اللّه تعالى ، ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 75 عن الشعبي .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 109 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 245 ، وتفسير الطبري : 14/ 139 ، ومعاني الزجاج : 3/ 310 ، والمحرر الوجيز : 8/ 460 .

(4) اليعسوب : فحل النحل .

النهاية : 3/ 234 ، واللسان : 1/ 599 (عسب) .

- وهم أهل العسل - فلم ينكر أحد هذا المجاز .

فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ : إذ المعجونات كلها بالعسل ، وفي الحديث «1» :

«عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل» .

70 أَرْذَلِ الْعُمُرِ : أرداه وأوضعه «2» ، وهو إذا صار إلى خمس وسبعين سنة ، عن عليّ رضي اللّه عنه «3» .

لِكَيْلا يَعْلَمَ : لما فيه من الاعتبار بتصريف الأحوال .

71 فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ : أي : ما ملكت أيمانهم لا يشاركونهم في ملكهم ولا يملكون / شيئا من رزقهم ، فكيف يجعلون للّه من خلقه شركاء في ملكه «4» .

و «الحفدة» «5» : الخدم والأعوان «6» . وبنو البنين بلغة سعد

---

(1) أخرجه ابن ماجة في السنن : 2/ 1142 ، كتاب الطب ، باب «العسل» عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه مرفوعا .

وأخرجه الحاكم في المستدرك : 4/ 200 ، كتاب الطب ، باب «الشفاء شفاءان قراءة القرآن وشرب العسل» عن عبد اللّه بن مسعود مرفوعا ، وقال : «هذا إسناد صحيح

على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 5/ 144 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن ابن مسعود موقوفا .

(2) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 246 ، وتفسير الطبري : 14/ 141 ، والكشاف : 2/ 418 ، وتفسير القرطبي : 10/ 140 ، واللسان : 11/ 281 (رذل) .

(3) أخرجه الطبري في تفسيره : (14/ 141 ، 142) عن علي رضي اللّه عنه .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 400 عن علي أيضا ، وكذا البغوي في تفسيره : 3/ 76 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 8/ 464 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 467 .

(4) ينظر تفسير الطبري : 14/ 142 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 212 ، وتفسير البغوي :

3/ 77 ، والمحرر الوجيز : 8/ 465 .

(5) في قوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً . . . [آية : 72] .

(6) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 110 ، وأبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 364 ، وابن

قتيبة في تفسير غريب القرآن: 246، وأخرجه الطبري في تفسيره: (14/ 144، 145) عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وقتادة.

(123/430)

---

العشيرة «1»، أي: اللّه جعل من الأزواج بنين ومن يعاون على ما يحتاج إليه بسرعة. يقال: حفد أسرع في العمل «2».

76 كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ: وليّه.

77 وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ: أي: إذا أمرنا «3».

أَوْ هُوَ أَقْرَبُ: على تقدير قول المخاطب وشكه، أي: كونوا فيها على هذا الظن.

84 نَبْعَثُ [مِنْ] «4» كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً: يبعث اللّه يوم القيامة من أهل كل عصر من هو حجة عليهم فيشهد.

90 إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ: تجالس مسروق «5» وشتير «6»، فقال شتير:

---

(1) ورد في كتاب لغات القرآن لأبي عبيد: 160 أن «الحفدة»: الأختان، بلغة سعد العشيرة.

وقد أخرج الطبري في تفسيره: 14/ 146 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: «هم

الولد وولد الولد» .

ورجحه ابن العربي في أحكام القرآن : 3/ 1162 فقال : «الظاهر عندي من قوله : بَنِينَ أولاد الرجل من صلبه ، ومن قوله : حَفَدَةً أولاد ولده . وليس في قوة اللفظ أكثر من هذا ، ونقول : تقدير الآية على هذا : والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن أزواجكم بنين ، ومن البنين حفدة» .

(2) ينظر تفسير الطبري : 14/ 147 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 213 ، وتهذيب اللغة :

4/ 426 ، واللسان : 3/ 153 (حفد) . [. . . . .]

(3) قال الزجاج في معانيه : 3/ 214 : «ليس يريد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها» .

وانظر زاد المسير : 4/ 474 ، وتفسير القرطبي : 10/ 150 .

(4) في الأصل : «في» .

(5) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني ، الوادعي ، الكوفي .

الإمام التابعي الجليل . قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب : 528 : «ثقة فقيه عابد ، مخضرم ، من الثانية» .

ترجمته في طبقات ابن سعد : 6/ 76 ، وتذكرة الحفاظ : 1/ 49 ، وسير أعلام النبلاء :

4/ 63.

(6) هو شتير بن شكل بن حميد العبسي الكوفي.

ضبط ابن ماكولا اسمه فقال: «أوله شين معجمة مضمومة بعدها تاء مفتوحة معجمة باثنتين من فوقها ثم ياء معجمة باثنتين من تحتها وآخره راء». الإكمال: 4/ 378.

ترجم له الحافظ في التقريب: 264، فقال: «يقال إنه أدرك الإسلام، ثقة، من الثانية».

(124/430)

---

إمّا أن تحدّث ما سمعت من عبد اللّه «1» وأصدّقك وإمّا أن أحدّثك وتصدقني. قال مسروق: بل تحدّث وأصدقك، فقال شتير: سمعت عبد اللّه يقول: أجمع آية في القرآن لخير وشرّ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ الآية. فقال مسروق: صدقت «2».

92 أَنْكاثاً: أنقاضا «3».

دَخَلًا: غرورا ودغلا، كأنّ داخل القلب يخالف ظاهر القول «4».

أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ: أعزّ وأزيد «5»، وكانوا يعقدون الحلف ثم ينقضونه إذا وجدوا من هو أقوى.

و«الحياة الطّيّبة» «6»: الرزق الحلال «7»، أو القناعة «8» وأكثر

(1) هو عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك: 2/ 356، كتاب التفسير، باب «أجمع آية في القرآن للخير والشر» وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه...» ووافقه الذهبي.

وأخرج -نحوه- الطبري في تفسيره: 14/ 163 عن ابن مسعود رضي اللّه عنه.

وانظر هذا الأثر عن عبد اللّه بن مسعود في تفسير البغوي: 3/ 82، والمحرر الوجيز: 8/ 493، وزاد المسير: 4/ 484.

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 1/ 367، وتفسير الطبري: 14/ 166، والمفردات للراغب: 504، وتفسير القرطبي: 10/ 171.

(4) قال الراغب في المفردات: 166: «والدّخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة كالدّغل..».

(5) تفسير الطبري: 14/ 167، وتفسير الماوردي: 2/ 410.

(6) من قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً... [آية: 97].

(7) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 14/ 170 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 164، وزاد نسبته إلى عبد الرزاق، والفريابي،

وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(8) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: 14/ 171 عن الحسن، والضحاك.

وأورده السيوطي في الدر المنثور: 5/ 164، وعزا إخراجه إلى وكيع عن محمد بن كعب القرظي.

(125/430)

---

المسلمين ليسوا متّسقي الأرزاق.

103 لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ: يميلون ويضيفون إليه «1»، حين اتهموا النّبيّ - عليه السلام - في معرفة الأخبار ببعض العجم ممن قرأ.

112 فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ: أي: جعل ما يظهر عليهم من الهزال وسوء الحال كاللباس عليهم.

وإنّما يقال لصاحب الشدّة: ذق لأنّه يتجدّد عليه إدراكه كما يتجدد على الذائق.

120 إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً: إماما يأتّم به النّاس «2».

قانِتاً: دائما على العبادة.

حَنِيفاً: مسلما مستقبلا في صلاته الكعبة «3».

122 وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ: فيه غاية الترغيب في الصّلاح والمدح لإبراهيم - عليه السلام - ، إذ شرف جملة هو منها حتى يصير الاستدعاء إليها بأنه فيها.

وإنّما جاز أن/ يتبع الأفضل المفضول «4» لسبقه إلى القول بالحق [54/أ] والعمل به وإن كان نبيّنا أفضل الأنبياء.

---

(1) ينظر تفسير غريب القرآنلابن قتيبة: 249، ومعاني الزجاج: 3/ 219، والمفردات:

219.

(2) ذكره الماوردي في تفسيره: 2/ 415 عن الكسائي، وأبي عبيدة. [. . . . .]

(3) قال ابن عطية في المحرر الوجيز: 8/ 541: «الحنيف: المائل إلى الخير والإصلاح، وكانت العرب تقول لمن يختتن ويحج البيت حنيفا».

(4) لعله تفسير لقوله تعالى: ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً . . . [آية: 123].

124 إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ : التشديد في يوم السّبت «1» .

عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ : جاءهم موسى بالجمعة فقال أكثرهم : لا ، بل يوم السّبت «2» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 478 . 492﴾

---

(1) قال القرطبي في تفسيره : 10/ 199 : «كان السبت تغليظا على اليهود في رفض الأعمال وترك التبسيط في المعاش بسبب اختلافهم فيه . . . » .

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 114 ، وتفسير الطبري : 14/ 193 .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 8/ 544 : «قوله تعالى : إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ ، أي : لم يكن من ملة إبراهيم ، وإنما جعله اللّه فرضا عاقب به القوم المختلفين فيه ، قاله ابن زيد ، وذلك أن موسى - عليه السلام - أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوما مختصا بالعبادة وأمرهم أن يكون يوم الجمعة ، فقال جمهورهم : بل يكون يوم السبت ، لأن اللّه فرغ فيه من خلق مخلوقاته . . . » .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا اللّه له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد» اه .

صحيح البخاري : (1/ 211 ، 212) ، كتاب الجمعة ، باب «فرض الجمعة . . . » .

وصحيح مسلم : (2/ 585، 586) ، كتاب الجمعة ، باب «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة» .

(127/430)

---

وقال ملاحويش :

تفسير سورة النحل

عدد 20 - 70 - 16

نزلت بمكة بعد الكهف ، عدا الآيات 126 و127 و128 ، وهي مئة وثمان وعشرون آية ، والفان وثمنمئة وأربعون كلمة ، وسبعة آلاف وسبعمئة وسبعة أحرف .

وتسمى سورة النعم ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ، ولا بما ختمت به ، ولا يوجد مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "أَتى أَمْرُ اللَّهِ" بقيام الساعة أي يأتي ، وجاء بلفظ الماضي لأنه محقق الوقوع ،

قال الشيخ عبد القاهر :

إن إخبار اللّه تعالى بالتوقع يقام مقام الإخبار بالواقع ، إذ لا خلف فيه فيجري المستقبل

مجرى الماضي المحقق وقوعه "فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ" أيها الناس فإنه آت لا محالة "سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ" 1 به غيره، وهذا مما يعد سببا لتلو هذه السورة التي قبلها، إذ ختمها بذم الشرك، وبدأ هذه بتقبيحه أيضا، قال ابن عباس لما نزلت (اقتربت الساعة) المارة في ج 1 قال الكفار إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قربت فأمسكوا عما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن، فلما رأوا أنه

لا ينزل شيء قالوا ما نرى شيئا، فنزل قوله تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ).

فأشفقوا، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل (أتى أمر اللّه) فوثب النبي صلّى اللّه عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم وظنوا أنها أتت حقيقة، فنزل (فلا تستعجلوه).

ويطعن في هذا عدم نزول سورة الأنبياء أو شيء منها قبل هذه السورة، تدبر.

واعلم أن هذه الآية لما نزلت على حضرة الرسول قال بعثت أنا والساعة كهاتين، وبشير بإصبعيه بمدهما، أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد، ورويا في السنن مثله بزيادة كفضل إحداهما على الأخرى وضم السبابة والوسطى.

قال تعالى "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ" الوحي سمي روحا لأن فيه حياة القلوب ، أو أن الباء بمعنى مع ، أي ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل عليه السلام ، وهذه الآية تقارب في المعنى الآية 57 من سورة الشورى المارة ، وهذا الإنزال "مِنْ أَمْرِهِ" جل أمره "عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ" الذين اصطفاهم لرسالته آمرا لهم "أَنْ أَنْذِرُوا" الناس وأخبروهم "أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ" 2 لتنالوا رحمتي والعاقبة الحسنة مني أنا ، ذلك الإله العظيم الذي "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" 3 به غيره وهو الذي "خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ" 4 مظهر الخصام له كأنه لم يخلقه مما يعلم أو كأنه خلق نفسه ونسي ما كان عليه من الضعف اغترارا بما صار إليه .

نزلت هذه الآية في أبي بن خلف الجمحي كما نزلت فيه آية (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ) الآية 77 من سورة يس المارة إلى قوله (مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) في ج 1 ، وهي عامة في كل مخاصم للّه وفي آياته .

قال تعالى "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ" أيها الناس "فِيهَا دِفْءٌ" من صوفها ووبرها وشعرها تستدفئون به بما تعملون منها من اللباس والخباء للاستظلال وغيرها "وَمَنَافِعُ" من درّها وركوبها ونسلها وتحميلها "وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" 5 من لحمها وسمنها ولبنها واقطها وجبنها وزبدها وهو مما يعتمد عليه غالبا للتقوت ، أما أكل الطيور والأسماك فيجري مجرى التفكه ، وإنما قدم منفعة اللباس على منفعة الأكل لأنها أكثر وأعظم من منفعة الأكل إذ قد يكون

من غيرها من الحيوان

"وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ" يقال للرجل جمال بالتخفيف وبالتشديد على التكثير، وجميل وللمرأة جميلة وجملاء قال:

فهي جملاء كبدر طالع بذت الخلق جميعا بالجمال



---

أي أنها زينة وبهاء لصاحبها عدا منافعها "حِينَ تُرِيحُونَ" وقت ما تردونها من المرعى إلى مراجعها "وَحِينَ تَسْرَحُونَ" 6 بها جمال أيضا وقدم الرواح على التسريح لأنها ترجع أجمل مما تغدو فيه تتبختر مشيتها مجتمعة متمتعة من المرعى ملأى بطونها حافلة ضروعها، ويفرح بها عند رجوعها أكثر منه عند ذهابها لأنها تكون خاوية البطون والضروع متفرقة مسرعة يخاف عليها الوحش والضباع والنهب.

قال تعالى "وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ" بدونها "إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ" الشق نصف الشيء، وعليه يكون المعنى لم تبلغوا ذلك البلد الذي تريدونه بغيرها إلا بنقصان نصف قوة أنفسكم "إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ" 7 بخلقه إذ سخر لهم هذه الأنعام لاستراحتهم "وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ" خلقها لكم أيضا "لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً" تتباهون بها كالأنعام إلا أنها لا تؤكل ولا

يستفاد من درها ووبرها ، وفيها من المنافع ما لم تكن في تلك عدا الإبل فإنها جامعة للأمرين ، ولذلك عجّبهم اللّه بها ، راجع الآية 17 من الغاشية المارة "وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ" 8 أيها الناس من أدوات الركوب والحمل كالعجلات والسيارات والطائرات والسفن البخارية والقطارات والغواصات مما علمتم ومما لا تعلمون أيضا أنواعا وأجناسا نخلقها لكم بعد لمنافعكم والمزينة أيضا ، عدا أصناف الحيوانات البرية والبحرية مما تنتفعون به ومالا ، وليس المراد من هذه الآية بيان التحليل والتحريم بل تنبيه العباد على نعمه تعالى عليهم .

مطلب جواز أكل لحوم الخيل وتعداد نعم اللّه على خلقه :



---

الحكم الشرعي يجوز أكل لحوم الخيل والبغال المتولدة من الخيل ، أما المتولدة من الحمر الأهلية فلا ، وعليه الشافعي وأحمد وكثير من أهل العلم ، وقال مالك وأبو حنيفة ومن نهج نهجهم وهو قول ابن عباس لا يجوز أكل لحوم الخيل ، لأن اللّه تعالى عدّ ما هو للأكل على حدة وما هو للركوب على حدة ، ودليل الأكل هو ما أخرجه البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي اللّه عنهما قالت :

نحرنا على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فرسا فأكلناه .

وما رويا عن جابر أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل ، وأن القرآن في هذه الآيات تكلم عن الركوب والزينة وسكت عن الأكل فدار الأمر بين التحريم والإباحة فوردت السنة بالإباحة لأكل الخيل وتحريم الحمر الأهلية والبغال منها تبعا لها ، لأن الحيوان ينسب إلى أمه ، فأخذنا بالسنّة جمعا بين النصين ، لأن السنّة مبينة لكتاب اللّه تعالى وشارحة له ، فالأخذ بها جائز ، أما ما قيل إنها ناسخة لكتاب اللّه فلا ، راجع بحث الناسخ والمنسوخ في المقدمة وفي الآية 146 من الأنعام المارة ، ولبحثه صلة واسعة تأتي إن شاء اللّه في الآية 106 من البقرة في ج 3 .

(131/430)

---

"وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ" الموصل للإيمان به ، وهذا على غير الوجوب ، إذ لا يجب عليه شيء ولكن بمحض الفضل ، وقصده بيان استقامته بالآيات والبراهين ، فعليكم أيها الناس اتباعها وسلوكها "وَمِنْها جائِرٌ" معوج مائل عن الاستقامة فلا تسلكوها لأنها مسلك أهل الزيغ والبدع والأهواء والطيش "وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ" 9 إلى الطريق الحق ، ولكنه لم يشأ ذلك لأمر اقتضته حكمته ، ولو كان لما بقي محل لخلق النار ولا معنى للتفاضل "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ" ينبت لكم "شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ" 10

أنعامكم ودوابكم وكل ما له حاجة في الرعي ،

وكذلك "يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ" كالجوز والبرتقال وأنواع المشمش والإجاص والخوخ والكثرى وغيرها ، لأنه تعالى ذكر في كتابه أمهات الأشياء وعبر عن البقية بلفظ الثمرات والفاكهة ، والأب فيما يخص الحيوان من جميع أجناس وأصناف النباتات "إِنَّ فِي ذلِكَ" الذي ذكر من أجناس الحيوان وأصناف الثمار وأنواع النبات "لَآيَةً" عظيمة دالة على قدرة القادر ووحدانيته "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" 11 فيها فيعقلون معناها ويفقهون مغزاها "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" في منافعكم أيها الناس "وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ" لمنافعكم أيضا بصرفها كيف يشاء ويختار "إِنَّ فِي ذلِكَ" التسخير الجاري على نظام بديع



---

لا يتغير على كر الدهور "لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" 12 فوائد تسخيرها ويستدلون بها على مراده منها "وَما ذَرَأَ" خلق وبرأ "لَكُمْ فِي الْأَرْضِ" من حيوان ونبات ومعادن ومياه "مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ" وأشكاله وهيئته وكيفيته وكميته وماهيته وطعمه وريحه "إِنَّ فِي ذلِكَ" الاختلاف مع اتحاد الأصل في الغالب وكونها كلها من الماء خلقه ومقرتا "لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" 13 فيها

فيعتبرون ويتعظون ويعترفون بكمال القدرة للّه تعالى ، وفي هذه الآية دلالة على عقم قول المنجمين إن هذه الكواكب هي نفسها الفعالة المتصرفة في شؤون العالم السفلي ، لأنه تعالى يقول مسخرة مذللة مقهورة بأمره لمنافع خلقه ، وقد أسهبنا البحث بهذا في الآيتين 110/ 112 من سورة الصافات المارة فراجعها وما تشير إليها من المواضع ففيها كفاية .

وبعد أن ذكر اللّه تعالى بعض النعم الموجودة في السماء والأرض أتبعها بما هو في الماء فقال "وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا" مع أنه مالح ليعلم خلقه أنه قادر على إخراج الضد من الضد "وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها" كاللؤلؤ والمرجان واليسر وغيرها "وَتَرَى" أيها الإنسان "الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ" جواري في البحر بسرعة مقبلة ومدبرة بشدة مع أن الريح واحدة والمخر الشق لأن السفينة تشق الماء شقا حالة جريها فيه "وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" الربح في تجارتكم والتنقل للاعتبار والزيارة وحمل الأثقال ولتفكروا كيف تبلغ بكم المواقع التي تقصدونها بسيرها "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" 14 هذه النعم وتقوموا بحقها من توحيد اللّه وطاعته وتمجيده وتعظيمه ، لأن الركوب في البحر من أعظم النعم لما فيه من قطع المسافات البعيدة في زمن قصير بالنسبة للسير بالبر ولعدم الاحتياج للحل والترحال والحركة مع الاستراحة والسكون ، وما أحسن ما قيل فيه :

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسري

واستدل بهذه الآية على جواز ركوب البحر للتجارة بلا كراهة ، وإليه ذهب الكثير ،

وأخرج عبد الرزاق بن عمر أنه كان يكره ركوب البحر إلا لثلاث :

غاز أو حاج أو معتمر .

وجاء في رواية أخرى : لا يركب البحر إلا غاز أو

حاج أو معتمر ، مصدر بالنهي وممنطق بالحصر .

قال تعالى "وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ" لأنه تعالى لما خلقها خلقها طائفة عائمة ، فصارت تمور وتتحرك بالهواء ، فأثقلها بالجبال راجع الآية 9 من سورة لقمان والآية 19 من سورة الحجر المارتين والآية 2 من سورة الرعد في ج 3 ، "وَأَنْهَاراً" جعل فيها للشرب والسقي وغيرها "وَسُبُلًا" طرقا وفجاجا تسلكونها بأسفاركم في السهل والجبل "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" 15 إلى المكان الذي تريدونه فلا تضلون قصدكم ولا يصعب عليكم بلوغه "وَعَلَامَاتٍ" جعل فيها أيضا لتستدلون بها على المواقع كالجبال والوديان والروابي والأنهار والأشجار والعيون في تنقلاتكم النهارية "وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" 16 في الليل كالثريا وسهيل والجدي وبنات نعش والفرقدين والبلدة والقلادة والنثرة والعبور والميزان ، فإنها ترشدكم على القبلة والشمال والشرق والغرب تهتدون بها إلى قصدكم بمعرفة الجهات الطالعة منها

والسائرة إليها .

ولما ذكر اللّه تعالى من عجائب صنعه وغرائب إبداعه وعظيم حكمته مما هو مخلوق له وكل شيء مخلوق له قال على سبيل الإنكار لتاركي عبادته مع هذه النعم التي غمرهم بها "أَفَمَنْ يَخْلُقُ" أيها الناس مثل هذه المخلوقات العظيمة "كَمَنْ لا يَخْلُقُ" شيئا مثل أوثانكم وتساوون هذا الخلاف الجليل بها مع أنها عاجزة عن حفظ نفسها "أَفَلا تَذَكَّرُونَ" 17 أن مخلوقاته كلها بما فيها أوثانكم التي لا تخلق ولا ترزق لا تستحق للعبادة ، فكيف تعبدونها وتتركون عبادة الحق القادر على كل شيء .



---

هذا ، وقد عبر اللّه تعالى عن الأوثان بلفظ من الدالة على من يعقل مع أنها جمادات وينبغي أن يعبر عنها بلفظ ما الموضوعة لما لا يعقل لأنهم لما سموها آلهة أجريت مجرى من يعقل على زعمهم ، فخاطبهم جل جلاله على قدر عقولهم فيها وفي الآية الآتية بعد "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها" يا بني آدم لأنها كثيرة منها ظاهرة ومنها خفية ، ومنها ما أنتم متيقظون لها وما أنتم غافلون عنها لا تعرفون قدرها ، لأن المعافى الآمن لا يعرف نعمتهما إلا عند طروء الخوف والمرض ، والسميع البصير لا يعرف نعمتهما إلا عند فقدهما ، وكذلك بقية

الأعضاء والمأكولات والمشروبات والملبوسات والمركوبات والأموال والأولاد والنساء والسكن لا يعلم قدرها إلا عند

زوالها ، وقد أنعم اللّه نعما كثيرة لا يحصيها إلا هو "إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ" لعباده إذا نسوا نعمه فتيقظوا وتابوا وقاموا بشكرها "رَحِيمٌ" 18 بهم يعفو عما سلف منهم ومن رحمته التجاوز عن قصورهم وتكثير نعمه عليهم وإمهالهم بالعقوبة ليرجعوا إليه "وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ" 19 من أقوالكم وأفعالكم "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" وتسمونها آلهة "لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً" مما ذكر أبدا "وَهُمْ يُخْلَقُونَ" 20 بصنعكم وبعمل أيديكم التي هي من خلقنا ، ولا تكرار هنا لأن الآية الأولى دلت على أنها لا تخلق شيئا ، وهذه تدل على أنها نفسها مخلوقة ففيها زيادة في المعنى ونادرة أخرى وهي



---

"أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ" فكيف يكون الميت إلها ، ومن شأن الإله أن يكون حيا يحي ويميت مجيبا لمن دعاه "وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" 21 للحساب والجزاء والعقاب وفي هذه الآية دلالة على أن اللّه تعالى يبعثها يوم القيامة بخلاف سائر الجمادات ، والحكمة من بعثها تكذيب عابديها وتبرؤها منهم إذ يجعلها القدير صالحة للكلام إظهارا لبطلان زعمهم فيها

من الشفاعة لهم والتقرب إلى اللّه بعبادتهم .

فيا بني آدم "إِلَهُكُمْ" الذي يستحق العبادة ويفعل الخير والشر "إِلَهٌ وَاحِدٌ" هو اللّه لا إله غيره الذي تجدونه غدا في الآخرة ينعم الطائع بالجنة ويعذّب العاصي بالنار "فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ" هذا الإله العظيم جاحدة وحدانيته "وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ" 22 عن عبادته خاضعون لعبادة الأوثان مائلون لحبها .

مطلب لا جرم ولفظها وإعرابها وقدم لسان العرب وتبلبل الألسن وذم الكبر :

"لَا جَرَمَ" قال البصريون إن لا من لا جرم ردّ لكلام سابق مثل قوله تعالى (لَا أُقْسِمُ) وهو هنا إنكار قلوبهم التوحيد واستكبارهم عنه ، وجرم فعل ماض بمعنى ثبت وحق ووجب وعلى هذا قوله :

ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

وان مع ما في حيّزها فاعلة أي ثبت وحق علم اللّه تعالى بسرهم وعلانيتهم وعدم محبته للمستكبرين المشار إليهم في قوله "أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ"

23 عن عبادته والإنابة لطاعته والانقياد لأمره ، وعليه يكون المعنى أن من حق العالم بالسرّ والعلانية أن لا ينكر وحدانيته ولا يستكبر عن عبادته ، ويجوز أن تكون بمعنى كسب وفاعله يعود على ما قبله والجملة بعدها محلها النصب على أنها مفعولة لها ، وبه قال الزجاج ، وقيل لا عاملة وجرم اسمها باعتباره مصدرا مبنيا على الفتح وخبرها الجملة في أن واسمها وخبرها ، فتكون مثل لا بدّ من التبديد وهو التفريق ، أي لا من بطلان دعوة الجحود والاستكبار عن عبادة اللّه ، لأن بطلانها أمر ظاهر مقطوع به .

قال الفراء هذا هو أصل لا جرم لكنه كثر استعماله فصار بمعنى حقا .

ومن العرب من لفظها مثل لفظ لا بد بضم الجيم وسكون الراء وفتح الميم ، لأن فعل وفعل اخوان كرشد ورشد وعدم وعدم ذكره الكشاف ، وهذه اللفظة تؤيد القول باسميتها ، وقال الخليل إن جرم مع لا مركب تركيب خمسة عشر وبعد تركيبها صار معناها معنى فعل ، وعليه فإن ان وما بعدها بعدها في تأويل مصدر فاعل لها ، وقالوا إن لا جرم يعني عن القسم ، تقول لا جرم لآتينك ، وعليه تكون الجملة بعدها جواب القسم .

وفي عموم هذه الآية يدخل كل متكبر سواء عن عبادة ائمه أو على خلقه .

روى مسلم عن ابن مسعود أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر ، فقال رجل يا رسول اللّه إن الرجل يحبّ أن يكون نوبه حسنا ونعله حسنا ؟ قال إن اللّه جميل يحب الجمال .

أي ان هذا من النظافة وهي مطلوبة وليست من الكبر المذموم ، والكبر بطر الحق أي جعل الحق باطلا وغمط الناس حقهم أي احتقارهم فلم توهم شيئًا وغمص بمعنى غمط ، لأن كلّا بمعنى انتقص وازدرى ، والتكبر والكبر والاستكبار ألفاظ متقاربة يجوز استعمال بعضها مقام بعض مع فرق بالمعنى ، والمفهوم من عدم الحب البغض ، لأن من لا يحبه اللّه يبغضه .

(137/430)

---

قال تعالى "وَإِذا قِيلَ لَهُمْ" المتكبرين "ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ" على نبيكم "قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ" 24 كما قالوا في الآية 5 من سورة الفرقان في ج 1 ، وإنما قالوا وفاهوا بهذا "لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ" لم ينقص منها شيء لأن ثواب ما فعلوه من صلة رحم وإقراء ضيف وغيره وما أصابهم من

البلاء في الدنيا كافأهم اللّه عليه فيها من الرزق والأولاد والعافية وغيرها ، فلا يكفر اللّه بها شيئًا من أوزارهم لإعطائه لهم بدلها بالدنيا فتبقى أعمالهم السيئة ثابتة عليهم تامة "وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ" أي ويحملون مع أوزارهم بعض أوزار أتباعهم ، لأن الرؤساء عليهم وزرهم وشيء من أوزار أتباعهم .

أخرج مسلم أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا .

(138/430)

---

"بِغَيْرِ عِلْمٍ" أي يضلونهم من حيث لا يعلمون أن طريقهم الذي يدعون إليه ضلالة ، وفيه تنبيه على أن كيدهم لا يروج على من له لب "أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ" 25 أي بئس شيئًا يزرونه ويرتكبونه من الإثم فعلهم المذكور "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" من الأمم السابقة بأنبيائها كما مكر قومك بك يا سيد الرسل ، وقد قص اللّه عليه مكر قوم إبراهيم وهود وصالح بأنبيائهم وهم عرب مثل قومك ، وبهذا يبطل قول من قال إن أصل لسان الناس السريانية ، وان تبلبل الألسن كان بعد نمرود ، فإذا كان لهذا القول صحة فيكون قبل عاد وثمود وقبل صالح وهود ، لأن قومهما كانوا عربا ، ولأن أهل اليمن كانوا عربا ، لأن جرهم منهم ، وكان قبلهم طسم وجديس يتكلمون بالعربية بما يدل عن أن لسان العرب كان قديما ، لأن اللّه أرسل هودا وصالحا وهما من ذرية نوح عليه السلام قبل إبراهيم وهما عربيان ، ولم يرسل للعرب من ذرية إبراهيم غيرهما وشعيب عربي أيضا وأرسل إليهم إسماعيل عليه السلام قبله وقد

تعلم العربية من جرهم ، ومن ذريته محمد صلى اللّه عليهم وسلم أجمعين .

ومما يدل على قدم لسان العرب قوله تعالى (وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ) الآية 31 من الأحزاب في ج 3 ، وهذه الآية عامة في كل ماكر كايد مبطل يحاول إلحاق الضرر بالغير .

قال تعالى "فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ " أي جاء أمره باستئصال واقتلاع أساطين بنيانهم وأصوله ، لأن القواعد أس البناء "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ" جاء الظرف تأكيدا لأن الخرور لا يكون إلا من فوق ، والأحسن أن يقال يحتمل أنهم عند سقوطه لم يكونوا تحته ، فلما قال من فوقهم علم يقينا أنهم تحته فخر عليهم فأهلكوا جميعا "وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" 26 وهم في مأمن منه معتمدون على قوة بنيانهم .

*(139/430)*

---

قال المفسرون المراد بهذا نمروذ بن كنعان حين بنى الصرح ببابل المارّ ذكره في الآية 34 من سورة القصص في ج 1 بطول خمسة آلاف ذراع ارتفاعا بالهواء ، وعرض ثلاثة آلاف ذراع ، فأهب اللّه تعالى عليه الريح فسقط عليهم وهلكوا ، واقتدى به أخوه فرعون إذ أمر وزيره هامان ببناء صرح له راجع الآية 36 من سورة المؤمن المارة ، قالوا وقد تبلبلت الألسن من الفزع فتكلم الناس بثلاث وسبعين لغة ، وعاش بعد ذلك مدة ثم أهلكه اللّه ببعوضة على ما

هو المشهور نقلا عن ابن عباس ومقاتل وكعب ، "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ" فلا يقتصر على عذابهم الدنيوي هذا بل يذلّهم في الآخرة ويهبننهم أيضا "وَيَقُولُ" لهم بمعرض التوبيخ "أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ" تخاصمون المؤمنين على قراءة فتح النون ، وعلى كسرها يكون المعنى تخاصمون الحضرة الإلهية "فِيهِمْ" في الدنيا ، والمشاقة وجود كل من الخصمين في شق أي طرف غير شق صاحبه ، والمعنى ها توهم ليدفعوا عنكم العذاب كما كنتم تزعمون ، فيكتون ويخرسون "قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" أي أنبياؤهم وصلحاؤهم الذين كانوا معهم في الدنيا يدعونهم إلى الإيمان وكانوا يعرضون عنهم ، ومقول القول "إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ" 27 وهذا شماتة بهم وزيادة في هوانهم ثم بين هؤلاء الكافرين بقوله "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ" استسلموا وأخبتوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والاستهزاء ، وقالوا معتذرين "ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ" في الدنيا ، جحدوا كفرهم وخبثهم من شدة الخوف وعظم الهول



---

ولما رأوه من الإهانة ، فقال لهم الذين أوتوا العلم "بَلى "كنتم تعملون الأسواء كلها في دنياكم فلا تنكروا "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 28 فيحق عليهم القول وتقول لهم الملائكة

"فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ" 29 عن اتباع الرسل والإيمان بهم جهنم .

وذكر الأبواب في الآية دليل على تفاوت منازل أهل النار في العذاب ، وذكر الخلود لزيادة همهم وغمهم وحزنهم بقطع أملهم

من الخلاص "وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا" بعد إنهاء حال الكفرة ، وقد أفردوا بالذّكر ليطلعوا على حال الكافرين ومصيرهم فيفرحوا ويتم سرورهم بثمرة أعمالهم التي كان الكفرة يضحكون منها وتقر أعينهم بانتقام اللّه تعالى لهم منهم فيدخلون الجنة وقد أمنوا على أنفسهم وعرفوا حال أعدائهم "ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ" على رسلكم "قالُوا خَيْراً" نصب على تقدير أنزل فاطبق الجواب على السؤال لأن القول لا ينصب المفرد ورفع أساطير بالآية الأولى 24 على تقدير حذف المبتدأ المقدر وهو هو وأساطير خبره ، ولأنهم عدلوا بالجواب عن السؤال ولم يعتقدوا كونه منزلا ، فلم يستحسن الوقف على أساطير لعدم تمام الكلام واستحسن الوقف في هذه الآية على (خيرا) لتمام الكلام ، ولهذا حسن الابتداء بقوله "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ" لهم من الدنيا لقوله تعالى "وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ" 30 في الآخرة التي هي

"جَنَّاتُ عَدْنٍ" لهم "يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنهارُ" لتمام النعمة وبهجة النظر "لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ" فيها من كل ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم "كَذلِكَ" مثل هذا الجزاء الحسن "يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ" 31 في الآخرة الدائمة وهؤلاء المتقون هم "الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ" طاهرين ، وهذا بمقابلة (ظالمي أنفسهم) في بيان فريق أهل النار في الآية الأولى "يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ" وبمقابلة قول ملائكة العذاب للكافرين (أدخلوا أبواب جهنم) تقول ملائكة الرحمة "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 32 في دنياكم .

واعلم أن ما جاء في هذه الآية وفي قوله تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها ) الآية 73 من سورة الزخرف المارة ونظيرتها الآية 43 من سورة الأعراف في ج 1 والآية 19 من سورة الطور والآية 24 من سورة الحاقة الآتيتين يدل على أن الجنة تكون للشخص بمقابل عمله الحسن .

مطلب التوفيق بين الآيات والحديث بسبب الأعمال وفي آيات الصفات :

وهذه الآيات لا تتنافى مع قوله صلّى اللّه عليه وسلم : لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه بفضله ورحمته ، لأن معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال ، أما التوفيق للإخلاص فيها وقبولها فيكون برحمة اللّه وفضله ليس إلا ، وعليه فيصح أن يقال لم ندخل الجنة بمجرد العمل ، وهذا هو مراده صلّى اللّه

عليه وسلم وهو على حد قول العبد لسيده تفضلتم علي يا سيدي بما لم أكن أهله ، فيقول له السيد بل بحسن خدمتك وأدبك .

(142/430)

---

ويصح أن يقال تدخل الجنة بسبب الأعمال برحمة اللّه وفضله ومنّه ، لا بالوجوب كما قال بعضهم ، لأن اللّه لا يجب عليه شيء لأن الكون وما فيه ملكه وتحت سلطانه وله أن يفعل فيه ما يشاء ، فلو عذب الطائع وأثاب العاصي أيعارضه أحد ؟ كلا لا يسأل عما يفعل ، قال صاحب الزبد في عدم جواز نسبة الظلم إليه تعالى :

وله أن يؤلم الأطفالا ووصفه بالظالم استحالا

لأن الظلم تصرف فى حق الغير فيما لا يحل ، واللّه جل شأنه متصرف في ملكه لأن الكل تحت قبضته ، فلو أن أحدا هدم داره أو أحرق متاعه هل لأحد معارضته وهل عليه عقاب ما ؟ كلا البتة ، فإذا كنا نحن العبيد لنا التصرف المطلق فيما ملكناه اللّه لأن ملكنا له مجاز ، فكيف يعترض أحد على المالك الحقيقي إذا تصرف في ملكه .

راجع الآية 28 من سورة الأعراف في ج 1 والآية 73 من سورة الزخرف المارة ولهذا البحث صلة في الآية 19 من سورة الطور والآية 24 من سورة الحاقة الآتيتين فراجعه تجد

ما يسرك إن شاء الله القائل "هَلْ يَنْظُرُونَ"

هؤلاء الجاحدون نبوتك يا سيد الرسل المنكرون وحينا إليك "إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ"

بقبض أرواحهم "أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ"

بعذابهم الدنيوي، وهذه الآية من آيات الصفات التي أشرنا إليها غير مرة بأن مذهب السلف الصالح إبقاؤها على ظاهرها ومذهب الخلف وبعض المتكلمين، على تأويلها بما يناسبها، راجع الآية 67 من سورة الزمر المارة وما ترشدك إليه "كَذَلِكَ"

مثل فعل هؤلاء "فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ"

من الكفر والتكذيب "وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ"

بتعذيبهم من أجله "وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"



---

33 بما عملوا من الخبائث "فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا" في دنياهم "وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" 34 على الرسل وما جاءوهم به من عندنا جزاء كسبهم هذا بما لا تطيقه أجسامهم "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ"

وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء ، ولو قالوه اعتقادا جازما لأصابوا المرمى ، ويؤذن قولهم أن لا فائدة من بعثة الرسل ، لأن المشيئة اللّه ، لو أراد لم يحرم شيئًا ولم نعبد شيئًا ، وهذا أيضا اعتراض منهم على اللّه جار مجرى العلة في أحكام اللّه تعالى ، وهو باطل لأنه لا يجوز أن يقال لم فعل اللّه كذا ، ولم لم يفعل كذا ، لأن أفعال اللّه لا تقلل ، وكان في حكمة اللّه تعالى وسنته إرسال الرسل ليأمروا عباده بعبادته ، وينهوهم عن الإشراك به والتعدي على الغير ، وإن الهداية والإضلال أمرهما في الحقيقة إليه ، وهذه سنته في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه .

ولما كانت سنته بإرسال الرسل إلى الكافرين قديمة لا محدثة ولا طارئة ولم يبتدعها ببعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم فيهم كان قولهم (لو شاء اللّه) إلخ جهلا ، لاعتقادهم أن كون الأمر كذلك يمنع من جواز بعثتهم وهو أيضا اعتقاد باطل .



---

قال تعالى "كَذلِكَ" مثل فعلهم هذا "فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" إذ كذبوا الرسل وأحلوا ما حرم اللّه وحرموا ما أحله "فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ" 35 هذا استفهام تقريري ، أي ليس عليهم إلا التبليغ القولي وليس عليهم قسرهم على الإيمان وجبرهم على الهداية

وإجبارهم على الرشد ، راجع الآية 149 من سورة الأنعام المارة "وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا" كما بعثناك في أهل مكة وأمرنا كلا من الرسل أن يقولوا لقومهم "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" مبالغة في الطغيان والطاغية ويطلق على كل من عبد من دون اللّه حاشا الملائكة وعزيز وعيسى وعلي عليهم السلام وغيرهم من الصالحين لعدم علمهم ورضاهم "فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ" فتاب وأناب واتبع طريقهم الموصل إليه ففاز برضائه "وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ" فلم ينتفعوا بهدى رسولهم لسابق ثقائهم في علم اللّه وإرادته إضلالهم لسوء طويتهم فهلكوا وخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ، وهذه الآية كافية للدلالة على أن اللّه تعالى هو الهادي والمضل دون اعتراض ، إذ لا يقع في ملكه إلا ما يريد "فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا" أيها الناس "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" 36 حيث بقيت مساكنهم خاوية بسبب العذاب الذي حل



---

بهم ، وفيها تنبيه على أنكم يا أهل مكة إذا أصررتم على الكفر يكون مصيركم مثلهم ، قال تعالى "إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ" يا سيد الرسل وتجتهد كل الاجتهاد لا يغير ما هو مدون في أزلنا أبدا "فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ" أبدا ولو أطبق الخلق على إضلال من هداه لن يقدروا

أيضا "وَمَا لَهُمْ" الضالين "مِنْ نَاصِرِينَ" 37 يمنعونهم من عذاب اللّه المقدر لهم ولا يقدر أحد أن يهديهم أيضا ، "وَأَقْسَمُوا" هؤلاء الكفرة الضالون "بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ" قال ابن الجوزي أتى رجل مسلم يتقاضى دينه من كافر ، فقال فيما قال والذي أرجوه بعد الموت ، فقال الكافر أترجو وتزعم هذا واللّه لا يبعث من يموت .

فنزلت هذه الآية ردا عليه وتكذيبا له ، وهو قوله "بَلَى" يبعث من يموت "وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا" منجزا على طريق عدم جواز الخلف على اللّه إن اللّه لا يخلف الميعاد ومن أصدق من اللّه قيلا "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" 38 كيفية

ذلك ، لأنهم يقولون إن هذه البنية إذا بليت وتفرقت أجزاؤها امتنع عودها بعينها ، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم تبق له ذات ولا حقيقة ، ولم يعلموا أن اللّه تعالى الذي بدأ خلقهم قادر على إعادتهم كما كانوا عليه ، وهو أهون عليه لأن خلقهم من لا شيء على غير مثال والصعوبة إنما تكون في الابتداع لا في التقليد ، فهذه السيارات والطائرات والراد والكهرباء وغيرها بعد أن اخترعت هان على العاملين عملها وكان العقل لا يصدق وجودها لو لم يشاهدها ، فالفضل فيها للمبتدع لا للمقلد .

واعلم أن الحكمة في إعادة الخلق أحياء في الآخرة "لِيُبَيِّنَ لَهُمُ" اللّه الذي خلقهم أول مرة "الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ" في الدنيا حقيقة وعيانا "وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ" 39 في إنكارهم البعث وتكذيبهم ما أخبرهم به الرسل من وجود الحساب والعقاب والجنة والنار ويتحقق أن اللّه تعالى إذا أراد شيئا كان لا محالة بدليل قوله "إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" 40 حالا بين الكاف والنون ، أي يوجد عند وجود هذين الحرفين بل بينهما .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تبارك وتعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ اللّه ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

واعلموا أيها الناس أن خلقكم وبعثكم عندنا كشيء واحد لا يصعب علي شيء من ذلك والإيجاد والإعدام عندنا سواء لا يتخلف شيء عن أمرنا طرفة عين ، فانظروا أيها الناس واعلموا أن لا كلمة على الخلاق فيما يخلق ويفني .

قال تعالى "وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا" في الدنيا "لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً" عظيمة وحسنى جليلة ونعما جسمية "وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ" في الإحسان إليهم وأعظم

أجرا إذا صبروا على ما أصابهم في الدنيا "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" 41 ما أعد اللّه لهم في الآخرة على صبرهم لزادوا في اجتهادهم على العبادة وفي صبرهم على أذى الكافرين وغيرهم .

(147/430)

---

نزلت هذه الآية في أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الذين هاجروا إلى الحبشة بسبب أذى المشركين إليهم ، وفيها دليل على أن الهجرة إذا لم تكن خالصة لوجه اللّه للتمكن من القيام بأوامره وعبادته كما ينبغي كانت كالانتقال من بلد لآخر للتجارة أو الزيارة لا مزيّة لها ولا شرف فيها ولا ثواب ، يدل على هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى إلخ .

ثم وصفهم اللّه بقوله "الَّذِينَ صَبَرُوا" على ظلم المشركين وأذاهم في سبيل اللّه "وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" 42 في أمورهم كلها .

واعلم أن الصبر والتوكل مبدأ السلوك إلى اللّه تعالى ومنتهاه ، لأن الصبر قهر النفس وحبسها على أعمال البر واحتمال الأذى من الخلق وعلى الشهوات المباحات وعلى المصائب وعن المحرمات والتوكل انقطاع عن الخلق ، فبهذا المنتهى والأول المبتدأ .

مطلب التعويض الثاني بالهجرة وعدم الأخذ بالحديث إذا عارض القرآن :

وهذه الآية الثانية التي يعرض اللّه تعالى بها لرسوله بالهجرة ، والأولى 20 من سورة المؤمن المارة .

قال تعالى "وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا" يا أهل مكة إن لم ترشدكم عقولكم إلى التصديق بهذا الذي قصصناه عليكم "أَهْلَ الذِّكْرِ" الذين أنزل عليهم قبلكم من اليهود والنصارى ،

وقولوا لهم هل أرسل اللّه نبيا إلا رجلا فيما سبق من الأمم إلى الأمم "إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ" 43 أمرهم اللّه أن يسألوا أهل الكتابين لأنهم يعتقدون ذلك لعلمهم بما أنزل اللّه في كتبهم من هذا .

نزلت هذه الآية في كفار مكة القائلين اللّه أعظم وأجل أن يرسل رجلا إلى الناس ولو أراد لأرسل ملكا .



---

فرد اللّه عليهم زعمهم واستشهد على بطلانه بأهل الكتابين لأنهم لا يعلمون "بِالْبَيِّناتِ" المعجزات "وَالزُّبُرِ" الكتب المنزلة مثلهم ، أي اسألوهم عن هذا كما سألتموهم قبلا عن حقيقة محمد وكلفوكم أن تسألوه عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين ، وقد أجابكم

كما ذكروه لكم ومع هذا كله لم تصدقوا نذرعا بقولكم كيف يكون بشرا رسولا ، عتوا وعنادا لا غير .

قال تعالى "وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ" القرآن وسمي ذكرا لأنه موعظة وتنبيه للعاقل يذكره بأمر دينه ودنياه ، وإنما أنزلناه عليك يا سيد الرسل "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" 44 فيه فيؤمنون ، والمراد من التبيين في هذه الآية بيان ما أجمل في القرآن من المتشابه ، أما الحكم منه فهو مبين مفسّر لا يحتاج إلى التبيين ، وقد استدل بعضهم في هذه الآية على أنه متى تعارض الحديث مع القرآن وجب الأخذ بالحديث ، لأن الرسول هو المبين للقرآن بنص هذه الآية وبنص قوله (ما ينطق عن الهوى) لأن القرآن مجمل والحديث مبين له ، والمبين مقدم على المجمل ، ولأن المنزل عليه لا يتكلم في نفسه بل بوحي من ربه .

وهذا الاستدلال بغير محله ، لأن القرآن منه محكم ومنه متشابه ، فالمحكم مبين لا يحتاج إلى البيان ويجب الأخذ بظاهره دون حاجة إلى تأويل أو تفسير أو قياس أو استحسان ، سواء أخالف الحديث أم لا ، لأن الحديث الذي نراه مخالفا لبعض القرآن لا يعمل به ، ولعله موضوع لمعنى لا نعرفه ، أو أنه مكذوب على حضرة الرسول ، والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من الحديث وأهل العلم .

قال تعالى (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) لا يتبدل حكمها ولا يتغير معناها من بدء الكون إلى آخره (وأخر متشابهات) إلى أن قال (لا يعلم تأويله إلا اللّه والراسخون في العلم) وهم الأنبياء فمن دونهم ممن هو على آثارهم في العلم والعمل، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 7 من آل عمران في ج 3

بصورة مسهبة إن شاء اللّه.

واعلم أن القائل بهذا قائل بأن الحديث ينسخ القرآن وهو قول لا وجه له، كيف وقد قال تعالى (قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي) الآية 66 من سورة يونس المارة، والنسخ بالسنية تبديل فكيف يجوز أن يقال به فضلا عن أن جهابذة الأصوليين لم يعترفوا به، وما قيل بجوازه فهو قيل ضعيف مستنده حديث الترمذي وغيره (لا وصية لوارث) بأنه نسخ آية (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ) الآية 186 من سورة البقرة ج 3، مع أن هذه الآية مخصصة بآية المواريث الآتية في سورة النساء كما سيأتي بحثها إن شاء اللّه، وقد ألمعنا إلى بطلانه في المقدمة في بحث النسخ، وسيأتي توضيحه في الآية 106 من سورة البقرة ج 3 عند قوله تعالى (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ) إلخ، واعلم أنه لا يجوز بوجه من الوجوه أن يؤخذ بالحديث إذا عارض ظاهر القرآن، وهو دليل على عدم صحته، لأنه

لا يتصور أن يصدر من حضرة الرسول قول يخالف ظاهر كلام الّله ، كيف وهو الذي لا ينطق عن هوى وعليه أنزل القرآن وهو دليله وحجته وبرهانه .

(150/430)

---

قال تعالى "أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا" المنكرات "السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ" كما خسفها بمن قبلهم "أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" 45 كما أهلك من قبلهم فجأة حال غفلتهم من نزول العذاب "أَوْ يَأْخُذَهُمْ" على غرة "فِي تَقَلُّبِهِمْ" في الأرض عند أسفارهم بها ذاهبين أو آئبين "فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ" 46 الله ولا فائتيه ولا قادرين على الهرب منه "أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ" بأن يريهم إهلاك أناس أمامهم فيخافوا من وقوعه بهم أو يحدثه بهم تدريجا فيعذبهم فيهلكوا بين الخوف والعذاب أول بأول بصورة تدريجية حتى يقضى على آخرهم

"فَإِنَّ رَبَّكُمْ" أيها الناس القادر على تسليط أنواع العذاب والهلاك عليكم "لَرَؤُفٌ" كثير الشفقة عليكم "رَحِيمٌ" 47 بكم لا يعجل عقوبتكم بل يمهلكم لترجعوا إليه وتتوبوا مما أذنبتم به إليه .

وفي هذه الآية من التهديد والوعيد ما تنفطر منه القلوب وترتعد منه الفرائض .

والمكر المشار إليه هو أن قريشا لما عجزت عن صد دعوة الرسول صارت تحيك الدسائس لتخلص منه ، وصاروا يعقدون الاجتماعات في دار الندوة ويتذاكرون في كيفية إهلاكه أو إخراجه من بين أظهرهم ، فأنزل اللّه هذه الآية بوعدهم بها بإنزال أصناف العذاب والهلاك إذا هم فعلوا به شيئًا ، وهذا من مقدمات الأسباب الداعية إلى هجرته صلّى اللّه عليه وسلم التي قرب أوان إذن اللّه تعالى له بها .

قال تعالى "أَ وَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْ ءٍ" المراد بهذه الرؤية البصرية لا القلبية ، ولذلك وصلت بإلى إذ يراد منها الاعتبار ولا يكون إلا بنفس الجارحة التي يمكن معها النظر إلى نفس الشيء ليتأمل بأحواله ويتفكر فيه فيعتبر ويتعظ "يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ" يقال للظل بالعشي فيء من فاء إذا رجع ، وفي الصباح ظل لأنه مما نسخته الشمس والفيء ينسخها .



---

قال حميد بن ثور في هذا :

أبى اللّه إلا أن سرحة مالك على كل أفنان العفاة تروق

فلا الظل في برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تذوق

وأراد بالسرحة امرأة على طريق الكناية ، أي تنشر ظلاله انتشارا "عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ

سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ" 48 صاغرون ذليلون ، قال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر في مخيس ومنحجر في غير أرضك في حجر

المخيس السجن "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ" 49 عن السجود لعظمته بل يتواضعون ويخشعون ويخضعون لهيبة جلاله "يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" 50 .

مطلب من أنواع السجود لله وتطاول العرب لاتخاذ الملائكة آلهة :

وهذه الآية شاملة لنوعي السجود ، لأنه سجود طاعة وعبادة كسجود الملائكة والآدميين وسجود انقياد وخضوع كسجود الضلال والدواب ، وجاء بلفظ ما الموضوعة لما لا يعقل تغليبا لأنه أكثر مما يعقل كتغليب المذكر على المؤنث وجمعها جمع من يعقل ، لأنه وصفها بصفته ، لأن السجود من شأن من يعقل ، وهذه السجدة من عزائم السجود وقد بينا ما يتعلق فيه في الآية 37/ 38 من سورة فصلت المارة فراجعه ترشد لما تريده فيه .

"وَقَالَ اللَّهُ" تعالى يا ابن آدم إني نهيتكم كما نهيت

آباءكم من قبل على لسان رسلي أن "لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ" الإله الذي يعبد في السماء والأرض هو "إِلَهٌ واحِدٌ" فرد صمد لا رب غيره ولا إله سواه ولا يستحق العبادة إلا إياه ، وإنما قال واحد لأن الاسم الحامل معنى الإفراد ، والتثنية دال على شيئين الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منها هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن ، وقيل لك إنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ، وإذا أريدت الدلالة على الجنسية فلا حاجة للتأكيد كما تقول واحد اثنين ، ولهذا البحث صلة في الآية 23 من سورة الأنبياء الآتية عند قوله تعالى (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا ) الآية إن شاء اللّه ، "فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ" 51 لا ترهبوا غيري أبدا ، وقد جاء بالالتفات من الغيبة إلى الحضور لأنه أبلغ من الترهيب ، والرهب خوف مع حزن واضطراب ، قال تعالى "وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً" ثابتا دائما واجبا لازما ، قال أبو الأسود الدؤلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقال أمية بن الصلت :

وله الدين واصبا وله الملاك وحمد له على كل حال

ثم خاطب خلقه على طريق الاستفهام بقوله جل قوله "أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ" 52 أيها الناس بعد أن عرفتم ما قصصناه عليكم من كمال عزّته وكبير قدرته وعظيم سلطانه وجليل

عفوه "وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ" لا من غيره فيجب عليكم شكر نعمه "ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ" 53 تضجّون بالدعاء وتصيحون بالاستغاثة ليكشفه عنكم ، والجوأر رفع الصوت بالاستغاثة قال الأعشى :

(153/430)

---

يداوم من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا "ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ" 54 لأنهم يضيفونه إلى أسباب أخر ولا يعلمون أنه هو مسبب الأسباب فإذا كان الضر

من القحط وأنعم اللّه عليهم بالغيث أضافوه إلى الكواكب وإذا كان مرضا أضافوا الشفاء إلى العقاقير ، وإذا كان ربحا أو ولدا أضافوه إلى كسبهم ، وما ذلك إلا "لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ" من تلك النعم بدل أن يشكروها ويحمدوا المنعم بها عليهم "فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" 55 عاقبة كفركم وجحدكم ، وفي العدول من الغيبة إلى الخطاب على قراءة الفعلين بالتاء زيادة في التهديد والوعيد وقرأهما بعض القراء بالياء .

(154/430)

ثم شرع جل شأنه يعدّد مساوئهم فقال "وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ" لآلهتهم التي لا يعلمون أحوالها من أنها لا تضرّ ولا تنفع ولا تحمي ولا تشفع "نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ" من الأنعام راجع الآية 138 من سورة الأنعام المارة تجدها مفصلة هناك، ثم أقسم بذاته الكريمة فقال "تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ" أيها الكفرة "عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ" 56 في الدنيا من هذه الأشياء القبيحة وغيرها، وهذا السؤال يكون حتما يوم القيامة عن عدها آلهة، وتخصيص بعض نعمه إليها وتخظيظها بنصيب منها تشبيها لها بالآلهة "وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ" وهم يكرهوهن لأنفسهم وذلك أن فرقا منهم كخزاعة وكنانة يزعمون أن الملائكة بنات اللّه "سُبْحانَهُ" وتنزه وتعالى عن ذلك "وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ" 57 من الذكور، أي كيف ينسبون النوع المحبوب إليهم والمكروه إلى ربهم "وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا" من الكآبة والحياء من الناس كأنه جاء بشيء منكر فاحش "وَهُوَ كَظِيمٌ" 58 ممتلىء غضبا وحنقا وحزنا على ما حل به من الغم وعلى زوجته أيضا كما أشرنا إليه في الآية 17 من لزخرف المارة "يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ" يتغيب عنهم ويستتر منهم "مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ" لئلا يرونه فيعيّرونه ثم يتفكر ماذا يصنع بها "أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ" بأن يتركه حيا فيربيه على هوان لنفسه ومذلة لها كأن ذلك المولود من زنى وقد ذكر الضمير باعتبار عوده إلى ما بشر به "أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ" فيدفنه حيا فيئده حتى يموت تحته ويتخلص من عاره وشناره.

قال تعالى ذامّا صنيعهم هذا بقوله "أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ" 59 في هذه القسمة وهذا الحياء وهذه السنة وهذا الإباء وهذا الوأد ، راجع الآية 8 من سورة التكوير في ج 1 فيما يتعلق بهذا .

(155/430)

---

قال تعالى "لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ" كراهية الإناث ووأدهن خشية العار أو الفقر "وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى" نزاهته عن ذلك وتعاليه وغناه عن العالمين أجمع ، وهذه الجملة لم تكرر في القرآن إلا في الآية 27 من سورة الروم الآتية "وَهُوَ الْعَزِيزُ" المتمنع في كبريائه الغالب ، الغير محتاج لأحد من خلقه "الْحَكِيمُ" 60 في إمهال عباده المتطاولين عليه لأمر يعلمه لأنه لا يؤاخذهم على ما يبدر منهم من الظلم والتعدي حالا بل يمهلهم ليتوبوا ويرجعوا عن غيهم "وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ" مثل هذا وأشباهه "ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ" بل لدمّر كل من على الأرض حالا "وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى" لإيمان من يؤمن منهم وإصرار من يصر "فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ" 61 عنه لحظة ، وهذه الآية ونظيرتها في المعنى الآية 45 من سورة فاطر في ج 1 عامة في كل ظالم مخصوصتين في قوله (فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ) الآية 35 من سورة فاطر

المذكورة ، لأن في جنس الناس يدخل الأنبياء والصالحون ومن لا يطلق عليهم اسم الظلم ، فاتقوا اللّه أيها الظلمة فلا تحملوا أوزاركم وأوزار غيركم بظلمكم ، فقد يهلك بظلمكم وشؤمكم خلق كثير لا دخل لهم في أعمالكم ، وقد فعل اللّه تعالى ذلك في قوم نوح عليه السلام عدا من كان في السفينة وأدخل الدواب التي لا تعقل بالهلاك عقوبة لكم ، لأن أكثرها مخلوقة لمنافعكم وأنتم تظلمون أنفسكم وتتجاوزون حقوق اللّه وتتعدون حدوده . واعلم أن البلاء قد يعم ، قال تعالى (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً) الآية 15 من سورة الأنفال في ج 3 ، قال أبو هريرة : إن الحبارى لتهلك في وكرها بظلم الظالم .

(156/430)

---

وقال ابن مسعود : إن الجعل لتعذب في جحرها بذنب ابن آدم .

واعلموا أن اللّه لو يؤاخذكم بما يقع منكم لا نقطع نسلكم ولم يبق على وجه الأرض أحد ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ" لأنفسهم ، وهذا بمقابلة قوله (وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ) في الآية المارة 57 "وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ" مع ذلك إذ يتمنون "أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى " العاقبة الحسنة عند اللّه وهي الجنة في الآخرة وهو كذب محض

وافتراء على اللّه ، وهذا ردّ لقول الخبيث منهم (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ) الآية 50 من سورة فصّلت المارة والآية 36 من سورة الكهف أيضا .

قال تعالى "لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ" في الآخرة لا شيء لهم غيرها "وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ" 62 معجلون إليها ، والفرط التقدم إلى الماء قبل القوم ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض ، لأنه صلّى اللّه عليه وسلم يقف على حوضه الكوثر يوم القيامة ويرد عليه المؤمنون به .

(157/430)

---

قال تعالى "تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ" رسلا كما أرسلناك إلى هذه الأمة "فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ" كما زين لقومك أعمالهم القبيحة بالقاء الوسوسة إليهم وقبولها منهم وإلا ففي الحقيقة إن المزين هو اللّه تعالى ، راجع الآية 39 من سورة الحجر المارة والآية 35 المارة من هذه السورة ، والذين يتبعون ما يزين لهم الشيطان رغبة به "فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ" في الدنيا التي هم فيها لأن اليوم المعروف معروف في زمان الحال كالآن وصدر بصورة الحال ليستحضر السامع تلك الصورة العجيبة ويتعجب منها ، ويسمى مثل هذا حكاية الحال الماضية ، وهو استعارة من الحضور الخارجي إلى الحضور الذمني ، والمراد به مدة الدنيا ،

لأنها كلها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة ، وهي شاملة للماضي والآتي وما بينهما "وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" 63 في الآخرة لكفرهم بالله واتخاذهم أولياء من دونه .

قال تعالى "وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ" يا محمد "إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ" من البعث وغيره لا لعلة أخرى وهذا معنى الاستثناء المفرغ أي ما أنزلناه إلا لهذه الغاية ، وهذه الآية قريبة في المعنى من الآية 39 المارة قبلها ، ولقوله تعالى في الآية 44 المارة أيضا وتشمل كل شيء اختلفوا فيه من أمر الدين والدنيا ، لأنه داخل ضمنها "وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 64 به فينتفعون بهديه ورشده أما غير المؤمنين فلن ينتفعوا به وهو عليهم عمى ، راجع الآية 44 من سورة فصلت المارة "وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها" جدبها ويبسها لأنه موت بحقها "إِنَّ فِي ذلِكَ" الإحياء بعد الإماتة "لَآيَةً" دالة على البعث للإنسان بعد موته بالنسبة "لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ" 65 آيات الله سماع قبول فيعونها ويتدبرونها ويعقلون ما فيها ، لأن



---

سماع الأذان وحده لا يكفي للانتفاع بالمسموع ، بل لا بدّ من اقترانه بالقبول وإلا عدّ كسماع الموتى ، ولهذا قال تعالى بحق الذين يسمعون ولا يعون (وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) الآية

22 من سورة فاطر في ج 1 .

مطلب جواز تذكير اسم الجمع وشبهه وكيفية هضم الطعام وصيرورة اللبن في الضرع والدم في الكبد والطحال وغيرها :

هذا وبعد أن عدد اللّه تعالى مساوئهم وذكر الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وضرب المثل لصحة البعث طفق يعدد نعمه على خلقه فقال "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ" المار ذكرها بصدر هذه السورة "لَعِبْرَةً" كبيرة وعظة عظيمة إذا تفكر بها ، ثم بين هذه العبرة بقوله "نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ" ذكر الضمير وهو مؤنث لأن لفظ الأنعام مفرد وضع لإفادة الجمع ، فكان ضميره ضمير الواحد المذكر بحسب اللفظ وبحسب المعنى جمع ، فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث ، ولهذا المعنى ذكره هنا وأنثه في سورة المؤمنين في الآية 23 في نظير هذه الآية ، والأنعام اسم جمع وكل ما كان كذلك يجوز فيه التذكير والتأنيث والجمع والإفراد من حيث اللفظ والمعنى ، كالخيل والإبل والغنم وغيرها من أسماء الأجناس التي لا واحد لها من لفظها ، قال الشاعر :

تركنا الخيل والنعم المفدى وقلنا للنساء بها أقيمي

وقال الكسائي إنما يفرد ويذكر على تقدير المذكور وذلك كقوله :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد توليع البهق

وهذا شائع وفي القرآن سائغ ، قال تعالى (إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ) الآيتين 54/ 55 من

سورة المدثر في ج 1 ، وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قال َهذا رَبِّي) الآية 38 من الأنعام المارة ، وإنما يكون هذا في التأنيث المجازي تدبر .

(159/430)

---

"مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ" الفرث في الكرش ما دام فيها ، نخرج "لَبَناً خالِصاً" من شوائب الكدورة ، ومن مصل الفرث والدم جاريا بسهولة هنيئا مريئا ، بدلالة قوله "سائِغاً لِلشَّارِبِينَ" 66 لا غصّة فيه ولا يحتاج للمضغ ولا يثقل على المعدة ولا يحتاج للشرب بعده ، وهو غذاء وماء يكفي الكبير والصغير ، ذلك تدبير الحكيم القدير الذي هو بكل شيء خبير .

أخرج ابن مردويه عن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي لبيبة عن أبيه عن جده قال : إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : ما شرب أحد لبنا فشرق ، إن اللّه تعالى يقول (لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ) وهو كذلك ، فإذا وقع الشرق فيه فاعلم أن اللبن مشوب بماء ، لأن كلام الرسول لا ينخرم أبدا .

وقرىء سيغا بالتخفيف والتشديد ، وهي قراءة جائزة لأن اللفظ يحتملها بلا زيادة ولا نقص لما ذكرنا أن التشديد والتخفيف والمد والإشباع لا يعد نقصا ولا زيادة .

هذا ، واعلم أن الحيوان إذا تناول غذاءه ينزل إلى معدته إن كان إنسانا ، وإلى كرشه إن كان

حيوانا ، وإلى أمعائه إن كان من غيرهما فيحصل في الغذاء الهضم الأول ، فيجذب بقدرة اللّه تعالى الصافي إلى الكبد ، والكثيف إلى الأمعاء ، ثم يحصل الهضم الثاني في الذي انجذب إلى الكبد ، فيصير دما مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية ، فتجذب بحكمة الحكيم الصفراء إلى المرارة والسوداء إلى الطحال والمائية إلى الكلى ، ومنها إلى المثانة ، ويذهب الدم في العروق ، وهي الأوردة الثابتة في الكبد ، فيحصل الهضم الثالث ، فيصب الدم من تلك العروق إلى الضرع وهو لحم غددي رخو أبيض ، فينقلب بقدرة القادر ذلك الدم لبنا صافيا فيه .

هذا مصير الصافي من الغذاء ، ولا يستبعد أحد كيفية الانجذاب المذكور ، لأن القوة الجاذبة من أمر اللّه ، والذي وضعها في الحديد يضعها في غيره ، والنظر قوة جاذبية الاستفراغ وقس عليها .



---

وأما الكثيف الذي نزل إلى الأمعاء فيخرج فضلات ، فسبحان اللطيف بخلقه ، لأنه لو خرج الغذاء كله أو بقي كله لهلك الحيوان ، ولكن اللّه تعالى يبقي ما يقيم به الوجود من الغذاء للإنسان والحيوان ، ويخرج ما يضره ، فله الحمد والشكر ، ولهذه الحكمة ورد أنه

صلّى اللّه عليه وسلم كان يقول عند خروجه من الخلاء غفرانك ثلاثا ، الحمد للّه الذي أذهب عني الأذى وعافاني .

وكان نوح عليه السلام يقول الحمد للّه الذي أذاقني لذته وأبقى فيّ منفعته وأذهب عني أذاه . واللّه أعلم .

هذا ولا يقال إن الحالة المارة موجودة في الذكر من الحيوان فلم لا يحصل منه اللبن ، لأن أفعال اللّه لا تعلل ، ولعل اللّه تعالى يصرفه لجهة أخرى في الذكر تزيد في قوته ، لأن البشر ليس في طوقه الاطلاع على مكونات اللّه تعالى ، وكيفية

تراكيب مخلوقاته ، ونتائج ما ركبت لأجله ، لأن الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به ، فأوجبت أن يكون مزاج الرجل حارا يابسا ، والأنثى باردا رطبا ، لأن التولد داخل في بدنها فاختصت بالرطوبة لتصير مادة للتولد وسببا لقبول التمدد والاتساع ، وإن تلك الرطوبة بعد انفصال الجنين تنصب إلى الضرع فتصير مادة لقلب الدم لبنا ، لأجل غذائه كما كانت في الرحم ، حتى انك إذا بالغت بحلب الدابة خرج لك بالحليب حمرة تثبت لك أنه كان دما ، ولم ينضج منه إلا ما خرج قبل المبالغة في الحلب ، ولا يوجد في الرجل شيء من ذلك لعدم الحاجة إليه :

حكم حارت البرية فيها وحقيق بأنها تحتار

أما من يقول كيف ينقلب الدم لبنا ، فنقول له الذي قلب النطفة البيضاء دما في الرحم قلب

الدم الأحمر لبنا أبيض في الضرع ، وهذه النطفة مكونة من الدم ، ولهذا فإن من يكثر الجماع قد ينزل دما .



---

هذا ، وإذا تدبرت بدائع صنع الإله في هذا وغيره وعجائب مكوناته اضطررت للاعتراف بكمال قدرته ، وتمام حكمته ، وتناهي رحمته بعباده ، وغاية رأفته بهم ، قسرا ، فسبحانه من إله عظيم أوحى إلى حبيبه "وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ" لكم عبرة عظيمة وعظة كبيرة أيها الناس "تَتَّخِذُونَ مِنْهُ" من عصير التمر والعنب ثمر النخيل والكرم "سَكَرًا" مشروبا يتفكه به كما قال أبو عبيدة ، وخمرا بلغة العرب ، وقال ابن عباس مطعوما يتفكه به ، قال الأخطل :

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر

والمزاء نوع من الأشربة المسكرة .

قيل إنه نقيع التمر والزبيب إذ طبخا وذهب ثلثاهما ، وما لا يسكر من الأنبذة ، لأن اللّه تعالى قد امتنّ على عباده في هذه الآية به ، ولا يقع الامتنان منه إلا بمحلل .

وقال ابن عباس : هو الخلّ بلغة الحبشة ، واستدل على جواز شرب ما دون السكر من

النبيذ صاحب ذلك القيل بهذا التأويل ، وعضد استدلاله بما روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم : قال حرم اللّه الخمر بعينها القليل منها والكثير .

والسكر بضم السين من كل شراب ، أخرجه الدار قطني .

وإلى حل شرب النبيذ إلى ما دون الإسكار ، وذهب إبراهيم النخعي وأبو جعفر والطحاوي وسفيان الثوري ، وأجازه أبو حنيفة وصاحبه أبو يوسف إذا لم يسكر ، أما الخمرة فقليلها وكثيرها حرام ، أسكرت أو لم تسكر .

قال تعالى "وَرِزْقاً حَسَناً" كالتمر والزبيب والعنب والدبس والأشربة المتخذة منهما التي تشرب آنيّا والخل أيضا .

مطلب في السكر ما هو وما يخرج من النحل من العسل وأقسام الوحي :



---

هذا وفي وصفه تعالى الرزق الحاصل منهما بالحسن يفيد أن السكر غير حسن ، وأن التمييز بين السكر وبين الرزق الحسن في الذكر ، عدّه ، أي السكر غير حسن ، وذلك يدل على التحريم الذي سينزله بعد في القسم المدني ، ولهذا عرض على قبح تناوله لعدم وصفه بالحسن ورمز إلى أن السكر وإن كان مباحا إذ ذاك فهو مما يحسن اجتنابه ، وهذه أول آية

نزلت في الخمر على القول بأن المراد بالسكر الخمر ، ولهذا فلا وجه للقول بأن هذه الآية منسوخة ، لأنها ذكرت في معرض تعداد نعم اللّه على عباده ، وكان نزولها بزمن مباح فيه شربها ، لأن التحريم طرأ بصورة تدريجية ، فضلا عن أن السكر يحتمل معاني كثيرة كما مر آنفا ، والنسخ يقتضي أن يكون صريحا لشيء صريح لا يحتمل التأويل والتفسير ، بخلاف ما هنا ، وقد ألمعنا في المقدمة بأن هذه الآية أول آية أنزلت في الخمر مطلقا ، ولم ينزل غيرها في مكة ، وان الآيات الثلاث في البقرة والنساء والمائدة نزلن في المدينة ، وسنوضح هذا البحث في الآيات 220 و43 و94 من السور المذكورة على طريق اللف والنشر المرتب فراجعها "إِنَّ فِي ذلِكَ" المذكور من النعم "لَآيَةً" باهرة "لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" 67 أن لهذه الأشياء خالقا مدبرا ومبدعا حكيما .

قال تعالى "وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" 68 من شجر الكرم ويسقفونه ويبنون من غيره بيوتا للنحل لتقذف فيها العسل رزقا للخلق "ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ" ومن أوراقها وأشجارها وتطلق الثمرة على الشجرة "فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ" الذي ألهمك أن تسلكها وتدخلي فيها لإخراج العسل "ذُلُلًا" مسخرة منقادة لأربابها عند إرادتهم نقلها من

محل لآخر لتمام الانتفاع بها "يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ" أبيض وأحمر وأصفر وما بينها بحسب السن والفعل والمرعى ، فالذي تأكله من ذلك يحيله اللّه تعالى في بطونها عملا ، وفي بطون القز حريرا ، وفي الغير قذرا ، فتفكروا رحمكم اللّه من غذاء واحد مطعوم وملبوس وسماد ، وكذلك شجر الفواكه تسقى بماء واحد وأرض واحدة وتعطي أثمارا مختلفة حلوا وحامضا ومزا وغير ذلك .

راجع الآية 4 من سورة الرعد في ج 3 ، وفي اختلاف ألوانها عبرة أيضا والمؤثر واحد جلت قدرته ، وقد جعل "فِيهِ" أي الشراب الخارج من بطون النحل "شِفاءٌ لِلنَّاسِ" ال فيه للجنس فيصدق على الواحد والمتعدد لأنه شفاء لبعض الأمراض ، وقد يضر بعضها وحده ، أما إذا مزج بأجزاء أخر ففيه نفع لأكثر الأمراض "إِنَّ فِي ذلِكَ" العسل الخارج من النحل وهو يأكل ما يأكل غيره من الطيور والحيوان "لَآيَةً" عظيمة وعبرة جليلة "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" 69 في عجيب صنع المبدع الأعظم .

والمراد بالوحي هنا التسخير ، لأن الوحي أصله الإشارة السريعة ، فيكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، ويكون بصوت مجرد ، فما كان من هذا النوع للأنبياء فهو وحي ، وما كان للأولياء فهو إلهام ، وما كان للطير والحيوان والجماد فهو تسخير ، راجع الآية 51 من سورة الشورى المارة تعلم أقسام الوحي وقد أسهبنا بحثه في المقدمة فراجعها .

ومن بدايع الصنع الذي ألهمه اللّه إلى النحل بناء بيوتها على شكل مسدس من أضلاع متساوية ، لا خلل فيها ولا زيادة ولا نقص ، والأعظم من ذلك أنها تبدأ بنائه من طرفه لا من وسطه ، وهذا مما يعجز عنه البشر غالبا ، ومن عجائب القدرة أن لها أميرا نافذ الحكم على أفرادها وهو أكبرها جثة ويسمى يعسوب ، ولها على باب كل خليّة بواب لا يمكن غيرها من الدخول ، وقد ألهمها اللّه تعالى الخروج إلى المرعى والرجوع إلى محلها أينما كان لا تضله أبدا ، وحتى الآن لم يعرف بوجه حقيقي خروج العسل من فمها أو من دبرها ، والآية صالحة لكلا الأمرين ، لأن اللّه تعالى قال (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها) فالذي يخرج من الفم أو من الدبر يصدق عليه أنه خارج من البطن ، فسبحانه جل كلامه أن يتطرق إليه الخلل كيف وهو تنزيل من حكيم حميد صانه من

طرق الباطل عليه .

واعلم أن النحل على نوعين أهلي يأوي إلى البيوت لا يستوحش من الناس ، ووحشي يأوي للجبال والكهوف والأشجار .

قال ابن مسعود : العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور .

وفي رواية عنه : عليكم بالشفاءين القرآن والعسل .

راجع الآية 82 من سورة الإسراء في ج 1 لتقف على آيات الشفاء كان ابن عمر رضي اللّه عنهما كلما خرجت به قرحة لطخها بالعسل ، وتلا هذه الآية .

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال إن أخي استطلق بطنه ، فقال رسول اللّه اسقه عسلا ، فسقاه ثم جاء فقال لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا ، فقال له ثلاث مرات ، ثم جاء الرابعة فقال اسقه عسلا ، فقال لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقا ، فقال رسول اللّه : صدق اللّه وكذب بطن أخيك ، فسقاه فبرىء .



---

وما قاله بعض الملحدين اعتراضا على هذا الحديث من أن العسل مسهل فكيف يوصف لمن به إسهال ، فهو ناشيء عن جهله وحمقه وقلة عقله وعقيدته ، لأن الإسهال يحصل من أنواع كثيرة منها التخمة والهيضة وغيرهما ، وقد أجمع الأطباء على أن علاج مثلهما يترك إلى الطبيعة أولا ، فإن احتاجت إلى معين أعطي شربة تعينه على تنظيف أمعائه ، فيحتمل أن ذلك الشخص من هذا القبيل ، فكان أمره صلّى اللّه عليه وسلم له بشرب العسل السهل

جاريا على قاعدة الطب والأطباء يخبرون على ذلك ، وفيه دليل على حذقه صلّى اللّه عليه وسلم بالطب دون تعليم من أحد ، وفضلا عن هذا فلا يبعد أن حضرة الرسول علم بتعليم اللّه إياه أن شفاء ذلك الرجل يكون بالعسل فكان شفاؤه به على رغم أنف كل معترض ، وهو مما جرّب أيضا ، إلا أن من لا يعتقد به لا ينفعه جزاء وفاقا .

قال تعالى "وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ" يا ابن آدم وجعل للبثكم في الدنيا أجلا لا تعدونه "ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ" بحلوله أطفالا وصبيانا وشبابا وكهولا وشيوخا ، بحسب آجالكم المقدرة عنده ، فمنكم من يحتفظ بكمال عقله ورشده إلى وفاته مهما بلغ من العمر "وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ" الهرم والخوف إذ ينقص منهم القوى ويفسد الحواس ويضعف العقل فيكون حالهم من هذه الحيثية كحال الطفولة ، ومن هنا تصور الردّ إلى أرذل العمر وقد بينه اللّه تعالى بقوله "لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً" أي يصير كالصبي الذي لا عقل له بسبب نسيانه ما علمه قبلا فيصير بعد العلم جاهلا والقوة ضعيفا والسمن نحيفا ليريكم اللّه قدرته في أنفسكم ، فلا مجال لتأويل آخر لمعنى الأرذل ، ولا تتقيد هذه الآية والحالة التي يصير إليها الإنسان بسن أو شخص .

ونظير هذه الآية الآية 68 من سورة يس في ج 1 وهي (ومن نعمره ننكه في الخلق) أخرج بن مردويه عن علي كرم اللّه وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وهو يختلف باختلاف الأمزجة والأمكنة، فربّ معمر لم تنقص قواه وغير معمر فسدت جوارحه، والتقيد بالسن مبني على الغالب.

روى البخاري ومسلم عن أنس قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات.

قال:

لا طيب للنفس ما دامت منغّصة لذاته بادكار الشيب والهرم

وهذا يعم المؤمن والكافر ولا وجه لتخصيصه بالكافر، لأن ظاهر الآية أو الحديث ينافي ذلك التخصيص لمجيئها على الإطلاق، وقد أوردنا في قوله تعالى (ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ) الآية من سورة والتين المارة في ج 1 أن الصالح قد لا يخرف، وليس كل صالح نراه هو صالح في الحقيقة، فكم صالح قد يبتليه اللّه تعالى بأمراض مزمنة لزيادة درجاته في الجنة، وما جاء عن عكرمة أن من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ليس على إطلاقه لأنا شاهدنا علماء وقراء فلجوا وخرفوا، ورأينا على العكس من يعمر ويموت بكمال عقله بل وقواه وجوارحه، وإن شيخنا الشيخ حسين الأزهري مفتي الفرات ومدرسها عاش 127 سنة ولم يفقد من قواه شيئا وخاصة ذاكرته، تغمده اللّه برحمته التي يختص بها من يشاء ولم نر أورع منه

"إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ" بكل شيء قبل خلقه وما يؤول إليه بعد خلقه وبعد موته "قَدِيرٌ" 70 على تبديل الخلق من حال إلى حال

(167/430)

---

"وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ" فوسعه علي أناس وضيقه على آخرين ، وكما فضلوا بالرزق فضلوا بالخلق والخلق والعقل والصحة والحسن والعلم والصوت والمعرفة وغير ذلك فهم منقادون إلى ما قدر لهم في الأزل متفاوتون في كثير من الأشياء بمقتضى الحكمة الإلهية ، ولكن "فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ" معطيه ومضيفيه "عَلَى ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ"

من الإماء والعبيد لأنهم لا يرضون أن يتساووا معهم فيه طلبا للتفاضل الذي هو غريزة في البشير "فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ" من حيث المعيشة لا من حيث الملكية ، لأنها خاصة بالأسياد ، فإذا كان البشر لا يرضي التساوي مع بعضه ، فكيف أنتم يا أهل مكة تساوى أصنامكم مع اللّه ، والملائكة معه في العبادة وهم عباده ، وكيف يرضى اللّه أن تجعلوا عبيده وخلقه شركاء معه "أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" 71 أولئك الكفرة يأكلون رزقه ويعبدون غيره وينكرون نعمه "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ" أيها الناس "مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً" من جنسكم ونوعكم

والخطاب يشمل آدم فمن دونه ومن خصصه بآدم نظر إلى أن اللّه خلق زوجته منه ، إلا أن جمع الأنفس والأزواج يأباه ، واستدل بعضهم في هذه الآية على عدم جواز نكاح الجن ، ولفظ الآية يدل على الجنس ، إذ لا يحصل الإنس بغيره ، قال تعالى (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ) الآية 21 من الروم الآتية ، وقال تعالى (هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ) الآية 188 من البقرة في ج 3 ، فيبعد أن يكون من غير جنسه لأن الإنس فيها بعد قضاء الحاجة غير متصور ، "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً" الحافد لغة المسرع في الخدمة المسارع إلى الطاعة ، ومنه قول القانت (وإليك نعى ونحفد ) في دعاء القنوت لدى السادة الحنفية ، وشرعا على ولد الولد ، وإنما خص الحفدة لأنهم قد يكونون أحب إليهم من أولادهم ، قال :

*(168/430)*

---

ابن ابننا من ابننا نحب الابن تشر الحفيد لب

أخرج الطبراني والبيهقي في سننه والبخاري في تاريخه والحكم وصححه عن ابن مسعود أنهم الأختان وأريد بهم على ما قيل أزواج البنات ، ويقال لهم أصهار ، وأنشدوا لذلك :

ولو أن نفسي طاوعتني لأصبحت لها حفد مما يعد كثير

ولكنها نفس عليّ أبية عيوني لأصهار اللئام تدور

والأول أولى لأنه الذائع المشهور المتعارف ، "وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ" مما لذّ وطاب من المأكولات والمشروبات وحسن وزها من اللباس والسكن "أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ" أولئك الكفرة فيقولون إن لله شريكا وأنه لا يبعث

(169/430)

---

من يموت "وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ" التي من جملتها الإيمان به ، لأنه من أعظم النعم ، وكل نعمة دونه "هُمْ يَكْفُرُونَ" 72 استفهام تعجب من حالهم القبيح "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً" أي لا يملك شيئا من الرزق البتة "وَلا يَسْتَطِيعُونَ" 73 على شيء أصلا من أسباب الرزق وغيره ، لأنها جماد محتاجة لمن يتعاهدها "فَلا تَضْرِبُوا" أيها الكفار "لِلَّهِ الْأَمْثالَ" بأن تجعلوا له شريكا تعبدونه على عدّه واعتباره شريكا للّه مماثلا له ، وهذه الآية على حد قوله تعالى (فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً) الآية 32 من البقرة في ج 3 ، "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ" بأنه لا مثيل له ولا شريك "وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ" 74 ذلك ولا تعرفون كنه ذاته فلهذا تجاسرتم على ضرب المثل له بما لا يليق بجلاله ولا يناسب عظمة كماله "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ" عاجزا عن كل شيء لا مكاتبا ولا مأذونا ، وإنما خصه اللّه بالمملوكية لاشتراكه هو والحر بالعبودية فميز بينهما في هذا الوصف ،

والمراد بالشيء هنا النفقة مما رزق ، وهذا من المبهم ، وهو من بديع الكلام "وَمَنْ" أي رجلا سيدا "رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا" وهو حر قادر على جميع أنواع التصرف بماله وبنفسه وبواسطة غيره "فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ" أي الرزق على الغير "سِرًّا وَجَهْرًا" لا يعارضه معارض "هَلْ يَسْتَوُونَ" الأحرار السادة والعبيد المملوكون ؟ كلا لا يستوون ، ولم يقل يستويان لإرادة الجمع ، ولما نهاهم اللّه عن ضرب الأمثال لقلة علمهم بها ضرب لنفسه مثلا فقال مثلكم في إشراككم الأوثان باللّه الرحمن ، كمثل من سوى بين العبد العاجز المملوك والحر السيد القوي الكريم ، فكما لا يستويان وكذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ، مع أنهما في الصورة البشرية سواء ، وإن كان



---

لا يجوز التسوية بين هؤلاء عندكم فكيف تسوون بين الخالق الرزاق وبين الأوثان العاجزة عن كل شيء ، مع أنه لا يجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال "الْحَمْدُ لِلَّهِ" المستحق الحمد وحده لا أوثانكم "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ" 75 أن الحمد يختصّ باللّه ويظنون جهلا أن منه لأوثانهم "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ" أخرس ولادة ،
إذ ليس كل أبكم أخرس ولا كل أخرس أبكم "لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ" لعجزه عن كل شيء ،

والمراد بالشيء هنا الأمر بالعدل والاستقامة كما يدل عليه عجز الآيات ، وهذا من المبهم "وَهُوَ كَلٌّ" ثقيل "عَلَى مَوْلاهُ" سيده الذي يعوله لأنه "أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ" فلا ينجح ولا يفلح ، لأنه لا يفهم ولا يفهم ، أخبروني أيها العقلاء "هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ"

(171/430)

---

ذو الرأي والرشد يعلم مرادهم ويحثهم على سلوك الطريق السوي "وَهُوَ" في ذاته ينفع العام والخاص و"عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" 76 في أقواله وأفعاله وأحواله لا يوجهه لأمر إلا وقد أنهاه بحنكة وحكمة دون أن تزوده بالوصية ، وفي مثله يقال أرسل حكيما ولا توصه ، فهل يستويان هذا وذاك ؟ كلا ، وهذا مثل آخر ضربه اللّه تعالى لنفسه المقدسة ولما يفيض به على عباده من النعم وللأصنام التي هي جماد لا تنطق ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع مع ثقلها على عابديها لاحتياجها للخدمة والحفظ من التعدي "وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" وحده خاص به علم ما يقع ممن فيهما لا يعلمه أحد من خلقه ويعلم زمن انتهائهما ، لا علم لأحد بذلك غيره ، "وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ" التي يقوم بها الناس من قبورهم ويساقون فيها إلى المحشر "إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ" قدر انفتاح الجفن أو طبقه "أَوْ هُوَ أَقْرَبُ" من ذلك لأن التمثيل بلمح البصر بالنسبة للبشر إذ لا يرون أقل منه حتى يمثوا به ، أما عند اللّه فهو أقل لأن لمح البصر

يحتاج إلى حركة ، والحركة لا بدّ أن تأخذ شيئا من الزمن ، وأمر اللّه لا يحتاج لذلك ، لأنه إذا قال لشيء كن كان بين الكاف والنون ، تأمل كيفية إحضار عرش بلقيس في الآية 40 من سورة النمل في ج 1 ، و(أو) هنا مثلها في قوله تعالى (أَوْ يَزِيدُونَ) في الآية 147 من الصافات المارة جريا على

عادة الناس ، ولذلك قال (كلمح بالبصر) ولو كان يوجد لفظ يدل على أدنى من ذلك متعارف بينهم للسرعة لقاله ، ومثل هذا مثل (أف) الواردة في الآية 23 من الإسراء في ج 1 ، فلو كان يوجد لفظ متعارف يدل على أدنى منه في مراتب الضجر لذكره "إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 77 في كل ما يتصور وهو قادر على إقامة الساعة حالا ، ثم ضرب مثلا على قدرته فقال

(172/430)

---

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً" البتة لأنكم تولدون على حالة أقل من البهائم إدراكا لا تعرفون معه الحجر من الثمر ، والقرّ من الحر ، والنفع من الضر "وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ" لتعقلوا بها بصورة تدريجية "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" 78 اللّه الذي منحكم تلك القوى وقدركم فيها على إزالة الجهل الذي ولدتم عليه وقد ركبها فيكم

لتستعملوها لما خلقت له أداء لشكرها ، وتشكروا المنعم بها عليكم ، لا أن تضعوها بغير موضعها وتقابلوها بالكفر ، قال تعالى "أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ" الفضاء الواسع ما بينها وبين الأرض ، وقد يراد به الهواء وجوف السماء ، قالوا إن الطير مهما ارتفع لا يتجاوز اثني عشر ميلا ، إذ ينقطع الهواء فإذا تجاوزت هذا القدر لا تستطيع العوم ولا الوقوف ، وقد تموت بسبب انقطاع الهواء "ما يُمْسِكُهُنَّ" شيء عند قبض أجنحتهن من الوقوع "إِلَّا اللَّهُ" لأنه في حالة نشر أجنحتهن ، يقال إن الهواء يمسكها مع أنه قد لا يوجد هواء ، لان الجو كالأرض مختلف أحواله فكما يوجد في الأرض أودية يوجد في الجو خبن لا هواء فيه "إِنَّ فِي ذَلِكَ" الإمساك بدون واسطة "لَآيَاتٍ" بالغات تدل على كمال القدرة الإلهية "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 79 بها وإنما خصّ المؤمنين لأنهم أهل الاعتبار والانتفاع بآيات اللّه وإسنادها لذاته المقدسة "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ" المبنية بالحجر والمدر والخشب وغيره "سَكَناً" تقرون فيه "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً" ومن أشعارها وأوبارها وصوفها خيما وأقبية وأخبية عند ما تريدون التنقل من المرعى والنزهة "تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ" رحيلكم إلى البوادي لرعي أنعامكم "وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ" أيضا في منازلكم إذ لا يهمكم حملها ولا يثقل

عليكم نصبها ونقصها "وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها" جعل لكم أيضا "أَثاثاً" من فرش، ولباس، وغرائز لحفظ الألبسة والحبوب، وبسط وزرابي وغيرها مما تحتاجونه لبيوتكم وأنفسكم "وَمَتاعاً" وأشياء أخرى، لأن الأثاث يطلق على جميع حوائج البيت، والمتاع يطلق على ما ينتفع به ويتمتع فيه في البيت خاصة، ومن قال إن المتاع والأثاث شيء واحد فقد جهل هذا الفرق،

واللّه أعلم بما يقول، فلو كانا بمعنى واحد لما أفردهما أي ان اللّه تعالى جعل لكم ذلك لتتمعوا به "إِلى حِينٍ" 80 مدة مقدرة من الزمن



"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ" من الأشجار والزروع والمغر والوديان والكهوف "ظِلالًا" تستظلون بها من الحر والقر والمطر والخوف "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً" تسكنون بها، إذ جعل فيها مداخل وأسرابا لكم ولأنعامكم وحيواناتكم تتقون بها من الثلج والبرد والهواء الشديد بما يكفي للفقير الذي لا بيت له يلتجأ إليه، أما الغني فعنده الخيام والقساطيط بما يغنيه عن ذلك "وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ" ثيابا وأكسية وقمصانا من القطن

والحرير والصوف والوبر لكل بحسبه "تَقِيكُمُ الْحَرَّ" والبرد ، واكتفى بذكر أحدهما عن الآخر لدلالته عليه ، وإن ما يقي الحريقي البرد وقدمه بالذكر لأنه الغالب عندهم "وَ" جعل لكم "سَرَابِيلَ" أخرى دروعا وجواشن جمع جوشن وهو الصدر في الحديد أو النحاس يلبسه المجاهد على صدره "تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ" هلاككم في الحرب فتمنع وصول قواطع السلاح إلى أجسادكم "كَذَلِكَ" مثل ما أتم عليكم نعمة التي بها قواكم "يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ" في أمور دينكم ودنياكم حالا ومستقبلا "لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ" 81 للّه وتؤمنون به وتخلصون العبادة إليه وتذرون ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي "فَإِنْ تَوَلَّوْا" عنك يا سيد الرسل بعد تعداد هذه النعم العظيمة المسبغة عليكم ، وقد بلغتهم وأمرتهم ونهيتهم ونصحتهم وقمت بما أمرت به ، فلا تبعة عليك "فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ" 82 الظاهر فمن أطاعك فثواب طاعته لنفسه ، من عصاك فعقاب عصيانه عليها إذ لم تؤمر بقسرهم بعد .



---

وبعد أن عدد اللّه تعالى هذه النعم العظيمة وأظهر لخلقه عدم تأثرهم مما ذكرهم به قال "يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ" التي غمرهم بها بأنها منه "ثُمَّ يُنْكِرُونَها" قولا وفعلا لأنهم ينسبون كسبها لفعلهم وفعل آبائهم الذين ورثوها عنهم "وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ" 83 بها فلا

يستعجلونها لطلب رضائه ولا يعترفون بها أنها منه إلا من لم يبلغ حد التكليف أو من لم تبلغه الدعوة ، أو بلغته ولم يفعلها لنقص في عقله فليس عليه شيء ، أما من يعرفها أنها من اللّه وينكرها عنادا فذلك هو الكافر .

وبعد ان ذمتهم اللّه تعالى على عدم تقديرهم تلك النعم ، شرع يخوفهم عاقبة أمرهم بذكر أحوال القيامة فقال "وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً" نبيا يشهد لهم وعليهم بما عملوا في دنياهم "ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا" بإدلاء الحجج هناك والمجادلة والعذر كما كانوا في الدنيا "وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ" 84 لأن العتاب يطلب لإزالة الوجدة التي في نفس الخصم ليسترضيه ، فعدم طلبه ذلك دليل على بقاء غضبه ، ولا يمكن استرضاء الرب إلا بالتوبة ، ولات هناك توبة ، ولو كانت لما بقي للنار من حاجة ، لأنهم عند ما يساقون للعذاب ويرون أن في التوبة خلاصا يتوبون كلهم "وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ" وأدخلوا فيه فلا محل لقبول العذر والاسترضاء "فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ" بسبب ذلك "وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ" 85 لأجله بل يناغتهم ويحيط بهم .

فيا سيد الرسل اذكر لقومك هذا ليتذكروا ويتدبروا من الآن "وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ" في الدنيا يوم القيامة في الموقف "قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ" فاسألهم يا رب وخذهم كما أوقعونا في العذاب وانتقم لنا منهم لإغرارهم إيانا بالدنيا بأنهم يشفعون لنا في هذا اليوم، ولما أسمع اللّه كلام العابدين إلى معبوديهم الذين اشاروا إليهم من الأصنام وغيرها "فَأَلْقَوْا" أجابوهم بصنف حالا دون رؤية وتأمل فرموا وطرحوا "إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ" نبذوه نبذا وهو جملة "إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ" 86 بذلك لأنكم لم تعبدونا ولم تشركونا مع اللّه بالعبادة ولم نتعهد لكم بالشفاعة، ولا يقال إنها جماد لا تنطق لأن اللّه الذي بعثها وأعادها في الآخرة خلق فيها قوة النطق لتكذيب عابديها وترد عليهم "وَأَلْقَوْا" العابدون لما سمعوا منها ذلك "إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ" يوم كذبتهم أوثانهم وتبرأت منهم "السَّلَمَ" الاستسلام لحكم اللّه تعالى إذ أيسوا مما كانوا يرجونه "وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ" 87 في الدنيا من أنها تشفع لهم، لأن الأوثان بعد أن ردت عليهم بما ذكر اللّه ولوا عنهم وغابوا لئلا يروهم مرة ثانية كراهية لهم ونفورا منهم "الَّذِينَ كَفَرُوا" بأنفسهم "وَصَدُّوا" غيرهم "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" فمنعوهم عن الإيمان به "زِدْناهُمْ" بسبب صدهم غيرهم "عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ" الذي استحقوه "بِما كانُوا يُفْسِدُونَ"

88 غيرهم مرّ ما فيها في الآية 25 المارة فراجعها "وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ" من الأمم السابقة "شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ" لأن كل نبي

يبعث بلسان قومه ومن قبيلته غدا لوط عليه السلام فإنه ليس منهم ولكن لما تزوج منهم وقطن معهم عد منهم أو أنه من باب التغليب "وَجِئْنَا بِكَ" يا أكرم الرسل "شَهِيداً عَلَى هؤُلَاءِ" أمتك من قريش وغيرهم بما كان منهم وجاءت هذه الآية بمعنى التكرار للآية 84 المارة قبلها والتأكيد للآية 36 المارة أيضا تشديدا للتهديد وزيادة في الوعيد ليذكر قومه فيها وينبههم للتيقظ لعاقبتها "وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ" من الحدود والأحكام والحلال والحرام والقصص والأخبار "وَهُدىً" من الضلال "وَرَحْمَةً" للناس المخبتين لأوامره ونواهيه وحرمانا للكفرة المفرطين به المهملين ما فيه "وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ" 89 خاصة بالجنة "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ" بين الناس وإليهم "وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى" بما يمكن من الصلة إليهم بحسب الطاقة ، قال عليه الصلاة والسلام بلوا أرحامكم ولو بالسلام "وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ" التطاول على الناس ظلما "يَعِظُكُمْ" ربكم أيها الناس بما ينفعكم فى الدنيا والآخرة ، فعظوا أنفسكم به وغيركم بالحسنى "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" 90 بها فتحصدون ثمرها .

مطلب أجمع آية في القرآن وما قاله ابن عباس لمن سب عليا وما قاله العباس رضي اللّه عنهم وفي العهود :

(178/430)

---

وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر ، ولذلك اعتاد الخطباء قراءتها على المنابر يوم الجملة لأنها عظة جامعة للمأثورات والمنهيّات ، قالوا إن أول من قرأها على المنبر الإمام العادل عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه ، وهو الذي منع سبب سيدنا علي كرم اللّه وجهه على المنبر الذي اعتاده من قبله من ملوك الأمويين عليهم ما يستحقونه من اللّه إذا كان وقع منهم ذلك ، فيكون رضي اللّه عنه قد أبدل الشر بالخير كما أبدل حضرة الرسول الكفر بالإيمان ، قال عبد اللّه بن عباس : مررت بقوم يسبون عليا وكان معي العباس فقال لي خذني إليهم فلما أوقفته عليهم ، قال لهم أيكم السابّ للّه ؟ قالوا لا أحد ، قال أيكم الساب لرسول اللّه ؟ قالوا لا أحد ، قال أيكم الساب

لعلي ؟ قالوا أما هذا فقد وقع ، فقال إني سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : من سب عليا فقد سبّني ، ومن سبني فقد سبّ اللّه تعالى ، ومن سب اللّه فقد كفر .

ثم تركهم وأدبرنا ، فقال لي كيف رأيتهم حينما سمعوا ما قلت ؟ فقلت له يا أبت :

نظروا إليك بأعين محمرة نظر الذليل إلى العزيز القاهر

فقال زدني يا بني ، فقلت :

زرق الوجوه مصفرة ألوانهم نظر التيوس إلى شفار الجازر

فقال زدني ، فقلت :

أحياؤهم تنعى على أمواتهم ومسبة أمواتهم للغابر

فقال لا فض اللّه فاك يا بني .

الحكم الشرعي : اختلف العلماء رحمهم اللّه في حكم من سب الصحابي على أقوال أصحها أنه يفسق ، والحديث على فرض صحته جار مجرى التهديد .

قال بعض أهل العلم : لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لكفت في كونه تبيانا لكل شيء .

وقال أهل المعاني ما من شيء يحتاج إليه الناس في أمر دينهم مما يجب أن يؤتى أو يترك إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية .



---

وقال بعض أهل العلم إن اللّه تعالى جمع في هذه الآية ثلاثا من المأمورات وثلاثا من المنهيات :

ذكر العدل وهو الإنصاف والمساواة في الأقوال والأفعال ، وقابله بالفحشاء وهي أقبح

شيء من الأقوال والأفعال ، وذكر الإحسان وهو أن تعفوا عمن ظلمك ، وتحسن لمن أساء إليك ، وتصل من قطعك وأرحامك والفقراء والمساكين ، وقابله بالمنكر وهو أن تنكر إحسان من أحسن إليك ، وتسيء لغيرك ، وذكر إيتاء القربى وهو التودد إليهم والشفقة والإنفاق عليهم ، وقابله بالبغي وهو التكبر عليهم وظلمهم حقوقهم وقطيعتهم ، راجع الآية 32 من الأعراف والآية 36 من الإسراء في ج 1 تجد ما يتعلق بهذا مستوفيا .

روى عكرمة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له يا ابن أخي أعد علي ، فأعادها فقال له الوليد واللّه إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر .

وأخرج البارودي وأبو نعيم في معرفة الصحابة عن عبد الملك بن عمير قال : بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، فأراد أن يأتيه ، فأتى قومه

فانتدب رجلين ، فأتيا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال نحن رسل أكثم يسألك من أنت وما جئت به ؟ فقال أنا محمد بن عبد اللّه عبد اللّه ورسوله ، ثم تلا عليهم هذه الآية ، قالوا ردد علينا هذا القول ، فردده عليه الصلاة والسلام عليهم حتى حفظوها ، فأتيا أكثم ، فأخبراه ، فلما سمع الآية قال إني لأراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهي عن مذامها ، فكونوا في هذا الأمر رأسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا ، عرض عليهم بكلامه هذا طلبا لأن يكونوا أول أتباعه لئلا يسبقهم أحد فيتقدم عليهم لدى محمد صلّى اللّه عليه وسلم ودينه .

وأخرج الطبراني وأحمد والبخاري في الأدب عن ابن عباس أن هذه الآية صارت سببا لاستقرار الإيمان في قلب عثمان بن مظعون ومحبّته للنبي صلّى اللّه عليه وسلم .



---

وأخرج أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال : كنت عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم جالسا إذ شخص بصره ، فقال أتاني جبريل عليه السلام فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع ، أي بموضعها هذا من هذه السورة .

وهذا يؤذن بأن نزولها كان متأخرا عنها ، وهذا مغزى ما ذكرناه في المقدمة ، وفي الآية 100 من سورة الكهف المارة .

قال تعالى "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ" أحدا باسم اللّه تعالى ، لأنه من آكد الحقوق ، وقدمنا ما يتعلق بالعهود في الآية 34 من سورة الإسراء فراجعها .

الحكم الشرعي : وجوب الوفاء به إذا كان فيه صلاحا ، وإلا فلا ، قال صلّى اللّه عليه وسلم :

من خلف يمينا ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه .

لأن العهد يمين وكفارته كفارة يمين وهذا من العام المخصص بالسنة ، قالوا إن هذه الآية نزلت

في الذين بايعوا حضرة الرسول في الموسم قبل الهجرة، وسيأتي بيانها إن شاء اللّه في الآية 10 من سورة الممتحنة والفتح في ج 3، وبعد أن أمر اللّه تعالى بإيفاء العهد نهى عن النكث فيه فقال "وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها" باسم اللّه تعالى فتحنثوا، وكيف يليق بكم ذلك "وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا" على الوفاء به وهو الشهيد على كل شيء "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ" 91 من الوفاء والبر والنقض والحنث، ثم ضرب اللّه مثلا لنقض العهد فقال "وَلا تَكُونُوا" أيها المعاهدون المؤكدون عهودكم بالأيمان "كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ" في إبرامه وإحكامه وجملة (من بعد قوة) معترضة بين ما قبلها

*(181/430)*

---

وقوله تعالى "أَنْكاثاً" طاقات الخبوط المنقوضة بعد الغزل أو القتل "تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا" دغلا وخيانة وخديعة بأن تظهروا الوفاء وتبطنوا النقض، وهذا هو معنى الدخل، لأنه الذي يدخل بالشيء على طريق الإفساد بسبب "أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى" أكثر عددا وأوفر مالا "مِنْ أُمَّةٍ" أخرى وذلك أن الناس في الجاهلية كانوا يحالفون الخلفاء، فإذا وجدوا قوما أقوياء أكثر منهم وأعز نقضوا عهدهم معهم وحالفوا الأكثر عددا والأعز مكانة، فذم اللّه تعالى صنيعهم هذا وقال "إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ" أي الوفاء بالعهد ويختبركم لينظر

أتمسكون بعهدكم وما وكدتموه بالإيمان من بيعة الرسول أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم فتنقضونه كما كان يفعله من قبلكم "وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" 92 في الدنيا فيثيب المحق ويعاقب المبطل "وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً" وقطع مادة الاختلاف "وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 93 من خير أو شر ثم كرر ما بمعنى الآية الأولى تأكيدا وتهديدا وإعلاما بعظم نقض العهد فقال "وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ" أيها الناس الحذر الحذر من هذا "فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها" تزلق أقدامكم عن محجة الإسلام والإيمان بعد أن ثبتها اللّه فيهما بتوفيقكم إليهما وتعرضوا أنفسكم لما تكرهون "وَتَذُوقُوا السُّوءَ" في الدنيا بذم الناس "بِما صَدَدْتُمْ" غيركم "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" لأن من نقض العهد فقد علّم غيره نقضه فكأنه صده عن الوفاء به "وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ" 94 في الآخرة جزاء عملكم ذلك، ثم أكد ثالثا فقال "وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ" الذي عاهدتم به رسوله عليه، لأنه هو المقصود في هذا الكون كله المطلوب بأن



---

تنقاد له الخلق أجمع ويوقى له بما يريده منهم، لأن هذه المعاهدة هي التي سببت الهجرة إلى المدينة إذ جعلت لهم أصحابا فيها، فكذلك أكد اللّه تعالى عليها هذه التأكيدات لإيجاب

الإيفاء بها ، وهكذا كل عهد لعموم لفظ الآية ، وإياكم أيها الناس أن تأخذوا لقاء نقضه "ثَمَنًا" ثم وصف هذا الثمن بكونه "قَلِيلًا" لأنه مهما كثر فهو قليل بنسبة نقض العهد الذي لا يقابله ثمن لما يترتب عليه من

الخزي والعار في الدنيا والعذاب والعقاب في الآخرة ، وبالنسبة لما يترتب على الوفاء به من المدح في الدنيا والثواب في الآخرة "إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ" من الأجر العظيم على الوفاء بالعهد "هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" مما تتعجلون أخذه من حطام الدنيا على نقضه "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" 95 ما هية العوضين وعاقبتهما في الدارين ، واعلموا أيها الناس أن "مَا عِنْدَكُمْ" من متاع الدنيا جميعه "يَنْفَدُ" يفنى فيها لا تأخذون معكم منه شيئًا للآخرة إلا وباله "وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ" لكم ثوابه لا يفنى ويصحبكم في الآخرة ، لأن من أخذ مالا على نقض العهد فقد فضل ما عنده البالي الذي يحمل وزره في الآخرة على ما عند اللّه الباقي أجره المضاعف خيره في الدار الدائمة .

روى أبو موسى الأشعري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال :

من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى "وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا" على ضراء العهد والبر بأيمانهم والمحافظة على وعودهم "أَجْرَهُمْ" بالآخرة "بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ" 96 في الدنيا فنعطيهم بمقابلة الأدنى من أعمالهم ما نعطيه بمقابلة الأحسن منها "مَنْ عَمِلَ صالِحاً" في دنياه من وفاء العهد وغيره "مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ" لأن من لا إيمان له لا ثواب له في الآخرة ، لأن اللّه تعالى يكافئه على عمله الصالح في دنياه حتى يلقى اللّه وليس له عنده شيء من الخير : فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ، بعيش رغيد وجاء مديد ومال ولد وصحة وقناعة وأمن ممات حياته مع زوجة صالحة وإخوان صالحين حتى يلقى اللّه راضيا مرضيا "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ" بالآخرة "بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ" 97 وهذا وعد حق من اللّه الحق ، واللّه لا يخلف وعده .

واعلم أن هذه الآيات وإن كانت نزلت في الذين عاهدوا حضرة الرسول أوّل معاهدة عاهدها الناس له فهي عامة في كل عهد حق فيه صلاح ، لأن نزولها في الجماعة الذين عاهدوا حضرة الرسول في الموسم في 8 محرم الحرام سنة 52 من ميلاده الشريف الثانية عشرة من البعثة لا يخصصها أو يقيدها بها ، بل هي عامة ، راجع الآية 113 من آل عمران في ج 3 تجد تفصيل هذه المعاهدة إن شاء اللّه ، وإنما أخرناها عن موقعها هنا لما رأينا أن ذكرها هناك أكثر مناسبة ، ومن اللّه التوفيق .

ثم التفت جل جلاله إلى حبيبه فخاطبه بقوله "فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ" أيها الإنسان الكامل "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ" 98 وهذا الخطاب شامل لجميع الأمة، وقدمنا في المقدمة ما يتعلق بالاستعاذة فراجعها ففيه كفاية "إِنَّهُ" الشيطان "لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ" ولا قدرة "عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا" لضعف كيده وقوة يقينهم "وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" 99 بدفع وساوسه والتغلب عليه "إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ" ويتخذونه وليا من دون اللّه ويركنون لدسائسه "وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ" بإغوائه ووساوسه وإغرائه "مُشْرِكُونَ" 100 باللّه غيره ولما قال المشركون إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو إلا مفتر يتقول من تلقاء نفسه، وذلك حينما يسمعون آية لين بعد آية شدة، وهذا هو المراد واللّه أعلم بهذا التبديل المزعوم من قبلهم مثل ذكر العفو بعد القصاص، وكظم الغيظ بعد الأمر بالمقابلة، والفطر بالسفر بعد الأمر بالصيام وهكذا، ومنه تبديل الكعبة عن بيت المقدس في التوجه بالصلاة أنزل اللّه

"وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ" لحكمة نراها، وهذا معنى قوله "وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ" وهذه جملة اعتراضية فيها توبيخ للكفرة وتنبيه على فساد رأيهم جاءت بين صدر هذه الآية وبين قوله تعالى "قالُوا" كفار قريش يا محمد "إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ" بما تسنده لربك وإنك تقول اختلافا من نفسك، قال تعالى ردا عليهم "بَلْ" هو من عندنا ليس من قبل محمد و"أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ"

101 فائدة هذا التبديل وما يترتب عليه من المصالح ، وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في المقدمة ، وله صلة ستأتي في الآية 107 من سورة البقرة ج 3 إن شاء اللّه .

(185/430)

---

"قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الكفرة المعترضين علينا رجما بالغيب المتهمين جنابك بالافتراء إن ما نتلوه عليكم "نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ" جبريل عليه السلام وأضيف إلى القدس أي الطهر كإضافة حاتم الجود وطلحة الخير إضافة بيانية ، أي الروح المقدس "مِنْ رَبِّكَ" نزل به عليك "بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ" به "الَّذِينَ آمَنُوا" على إيمانهم فيزدادوا يقينا به "وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ" 102 وفي هذه الجملة تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغير المسلمين ، واعلم أن من قال بعدم

وجود النسخ في القرآن كأبي مسلم الأصفهاني وغيره ممن ذكرناه في بحث الناسخ والمنسوخ في المقدمة قال إن هذا التبديل المشار إليه في هذه الآية هو لبعض الأحكام المبينة في التوراة وغيرها من الكتب القديمة ، وهو من سنة اللّه القائل على لسان رسوله عيسى بن مريم (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) الآية 51 من آل عمران الآتية في ج 3 والآية 44 من

سورة الزخرف المارة .

ومن قال بالنسخ قال هو كتبديل استقبال القبلة بالكعبة وما يضاهي ذلك .

(186/430)

---

قال تعالى "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ" فيما بينهم "إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ" نزلت هذه الآية عند ما قال المشركون بعضهم لبعض إن محمدا يتعلم ما يتلوه علينا من القصص والأخبار من آدمي مثله ، وليس هو كما يزعم أنه من عند اللّه ، واختلفوا في الذي يتعلم منه ، فمنهم من قال إنه عايش غلام حويطب ، ومنهم من قال جبر غلام رومي لعامر الحضرمي ، ومنهم من قال إنه يسار ، ومنهم من قال إنه سلمان الفارسي أو عداس غلام عتبة بن ربيعة ، أو بلعام غلام أيضا ، لأنهم كلهم يقرءون ، سبب هذه النسبة أنه صلّى اللّه عليه وسلم كان إذا آذاه المشركون قعد لأحدهم يسمع منه شيئا من القرآن ليستميلهم إلى الإيمان ، لأنهم أهل كتاب يعرفون ما جاء في كتبهم مما هو موافق لما جاء في القرآن ، وذلك ترويحا للنفس وتسلية لما أهمه من أمر قومه وما يتهمونه به ، فكذبهم اللّه تعالى بقوله "لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ" يميلون عليه ويشيرون "إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ" والأعجمي وإن سكن في البادية والحاضرة العربية يعجز أن يتكلم بفصاحة العرب ، فضلا عن بلاغة القرآن الذي عجز عن مباراته فصحاء العرب

الذين ينزل بلغتهم ، وهؤلاء العبيد ليسوا بعرب ولا فصحاء فيستحيل عليهم التكلم بالعربية الفصيحة "وَهذا" القرآن الذي تتلوه عليك يا سيد الرسل هو "لِسانٌ" واضح فصيح بليغ "عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" 103 يستحيل على جميع الناس النطق بمثله وإذا استحال عليهم النطق به فمن باب أولى أن يستحيل عليهم تعليمه أو الإتيان بمثله فثبت بهذا البرهان أن الذي جاء به محمد هو وحي إلهي ليس من نفسه ولا من تعليم الغير .

وقال بعض العلماء المراد باللسان هو القرآن نفسه لأنه يطلق على القصيدة والكلمة ، قال الشاعر : لسان السوء تهديه إلينا .

أي كلام السوء وليس بشيء لمخالفته الظاهر .



---

واعلم يا محمد أن هؤلاء المتقوّلين ضلّال لا يؤمنون بآيات اللّه و "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ" لفهمها بالدنيا "وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" 104 في الآخرة ، ثم أشار إليهم بأن محمدا لا يفتري الكذب بقوله "إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ" الكفرة "الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ" المنزلة على رسوله "وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ" 105 ومحمد براء ومعصوم مما يتهمونه به .

مطلب في الكفر تضية ، والكذب والأخذ بالرخصة تارة وبالعزيمة أخرى ، والتعويض

للهجرة ثالثا .

واعلم أن الكذب من الكبائر لأنه إيجاد ما لم يوجد ، روى البغوي بإسناد الثعلبي عن عبد اللّه بن جرار قال : قلت يا رسول اللّه المؤمن يزني ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت المؤمن يسرق ؟ قال قد يكون ذلك ، قلت المؤمن بكذب ؟ قال لا ، قال تعالى (إِنَّما يَفْتَرِي) إلخ .

(188/430)

---

"مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ" مختارا طائعا وجب قتله في الدنيا وفي الآخرة هو خالد في جهنم "إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ" على كلمة الكفر من شخص يتحقق إيقاع الضرر منه فأجرى كلمه الكفر على لسانه تقية كما تجوز موالاة الكفرة تقية على ما يأتي في الآية 39 من آل عمران في ج 3 ، لأن التوسل لخلاص النفس بلفظ الكفر ظاهرا "وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ" فلا وزر عليه لأنها رخصة من اللّه تعالى أعتق بها نفسه ، وقد تفضل اللّه تعالى على عباده بها واللّه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، فإذا قبلها وأخذ بها فلا بأس عليه ، وإذا لم يقبلها ولم يأخذ بها وأبى أن يكفر وقتل من أجل إيمانه فقد أخذ بالعزيمة ولا وزر عليه بل يثاب ، لأن الأفضل في مثل هذا أن يؤخذ بالعزيمة لا بالرخصة ، لاحتمال عدم القتل ، لأن بلالا وصهيبا وخبابا وسالما أوذوا بالضرب والحرق بالنار وألبسوا أدراع الحديد ووضعوا

بحر الشمس في تلك البلاد الحارة ، وقد وضعت عليهم الأحجار الحارة لإجبارهم على الكفر ، فصبروا ولم يكفروا بلسانهم ، ثم تركوا ولم يقتلوا وفازوا بخير الدارين ، أما من أكره على شرب الخمر أو أكل لحم الميتة أو الخنزير ومما هو دون المكفرات كالربى والقمار فليس له أن يأخذ بالعزيمة بل يجب عليه الأخذ بالرخصة ، وإذا قتل ولم يأخذ بالرخصة فهو آثم ، وهذا هو الحكم الشرعي في ذلك .

(189/430)

---

"وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً" والعياذ بالله بعد أن كفر بلسانه وطابت نفسه به وبقي عليه "فَعَلَيْهِمْ" أي الكافرين وجمع الضمير باعتبار معنى من "غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ" في الدنيا "وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" 106 في الآخرة "ذِلِكَ" الغضب والعذاب "بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيا" وزخارفها وآثروها "عَلَى الْآخِرَةِ" وكفروا بطوعهم واختيارهم "وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" 107 ولا يوفقهم للرشد والإيمان "أُولَئِكَ" الذين استحبوا الكفر على الإيمان هم "الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ" فلم يجعلهم ينتفعون بها لأنهم صرفوها إلى غير ما خلقت لها "وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" 108 عن الله وعما يراد بهم المتوغلون في الغفلة الكاملة ، لأن الغفلة عن تدبير العواقب هي غاية في الغفلة ونهاية في اللهو

"لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ" 109 حقا لأنهم ضيعوا رءوس أموالهم وهي أعمارهم وصرفوها فيما يفضي للخلود بالنار ولله در القائل :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق في غير ما وجب

هذا ولما أخذ المشركون عمارا وأباه ياسرا وأمه سمية وعذبوهم ليرجعوا عن الإيمان باللّه فأبي ياسر وسمية فقتلوهما وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام لمرضاة اللّه ، رحمهما اللّه رحمه واسعة ، ووافقهم عمار على ما شاءوا من كلمات الكفر بلسانه بعد أن شاهد قتل أبويه فأخبر محمد صلّى اللّه عليه وسلم بذلك فقال كلا إن عمارا ممتلىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فجاء وهو يبكي ، فقال ما وراءك ؟ قال شرّ ، نلت منك يا رسول اللّه أي أنه تكلم فيه مثل ما أراد الكفرة منه بسبب تعذيبه بعد قتل أبويه ، قال كيف وجدت قلبك ؟ قال مطمئنا بالإيمان ، فجعل يمسح عينيه وقال إن عادوا لك فعد لهم بما قلت ، فنزلت هذه الآيات .



---

وهي عامة في كل من هذا شأنه ، لأن نزولها فيمن ذكر لا يقيدها ، وإن المكره على الكفر ليس بكافر ، وقد استثنى المكره بالآية إذ ظهر منه ما شابه ما يظهر من الكافر طوعا .

قال تعالى "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا" فرارا بدينهم إلى ديار غير ديارهم "مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا" عذبوا وأوذوا من أجل إيمانهم بالله "ثُمَّ جَاهَدُوا" أنفسهم على التثبت بإيمانهم "وَصَبَرُوا" على ما نالهم من أذى المشركين ومر الغربة وذلها "إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا" أي الفتنة التي ألجأتهم إلى الكلام بما ينافي الإسلام تقية، خشية القتل "لَغَفُورٌ" لهم على ما صدر منهم بالنظر لما وقر في قلوبهم "رَحِيمٌ" 110 بهم لا يؤاخذهم على ما وقع منهم حالة الإكراه، وهذه الآية نزلت في عياش بن ربيعة أخي أبي جهل من الرضاع وأبي جندل بن سهل بن عمرو والوليد بن الوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن أسيد الثقفي، حينما عذبهم المشركون على إيمانهم، فأعطوهم من الكلام القبيح ما أرادوا ليسلموا من شرهم، ثم أعلنوا إيمانهم وهاجروا من مكة، وبعد عودتهم من الهجرة بعد نزول آية السيف في المدينة جاهدوا مع المؤمنين أعداءهم الكفرة، وبما أن الجهاد متأخر عن زمن هجرتهم عبّر الله تعالى عنه بثم المفيدة للتراخي، وهؤلاء الذوات محميون بحماية الله تعالى بدليل قوله (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ) إلخ، ومن كان الله له فلا يبالي من شيء، لأنه وليه وناصره، وهذه الآية الثالثة التي يعرض الله تعالى بها لنبيه في الهجرة ليترىض إليها ويمرن نفسه عليها.

وما قيل إن هذه الآية نزلت في عبد اللّه بن أبي سرح الذي ارتد بعد إسلامه كما أشرنا إليه في الآية 193 من الأنعام المارة، وأنه عند فتح مكة شرفها اللّه استجار بعثمان لأنه أخوه لأمه وقبل إسلامه، فقيل ضعيف، لا يكاد يصح، إلا إذا كانت الآية مدنية، والقول بمدنيتها أضعف من القول في نزولها فيه، لأن هذه السورة مكية ولم يستثنى منها إلا الآيات الثلاث الأخيرات على قول الجمهور، لهذا فلا يلتفت إلى غير ما ذكرناه.

قال تعالى واذكر لقومك يا سيد الرسل "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها" وتدافع وتخاصم عنها، ونفس الشيء عينه وذاته، فالنفس الأولى جملة الإنسان، والثانية عينه وذاته، فكأنه قيل كل إنسان يجادل عن ذاته لا عن غيره مهما كان قريبا له وحبيبا، لأن انشغاله بنفسه في ذلك الوقت العصيب ينسيه قريبه وحبيبه لعظم ما يشاهد ويلاقي من الهول، فيقول الكافر أضلنا كبراؤنا وأطعنا ساداتنا ما كنا مشركين وما حرمنا ولا حللنا من شيء فيتشبثون بكل ما يمكنهم من طرق الدفاع

ليتخلصوا مما حل بهم، ولات حين خلاص، وهذه الآية لا تنافي الآية 84 المارة وهي (ثم لا يؤذن للذين كفروا) إلخ، لأن يوم القيامة يوم طويل شديد الهول تختلف فيه أحوال الناس فترى الكفرة مرة لا يؤذن لهم بالكلام، وأخرى يبكون وتارة يجادلون، وطورا يحاورون شركاءهم وأوثانهم "وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ" جزاء "ما عَمِلَتْ" في دنياها لا يغير عقابها كلام ولا جدال

"وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" 111 شيئا بل يجازون على الخير بأحسن منه وعلى الشر بمثله .

مطلب في ضرب المثل وبيان القوية وعظيم فضل اللّه على عباده :

*(192/430)*

---

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا" واسعا كافيا بيسر وسهولة "مِنْ كُلِّ مَكَانٍ" كقوله تعالى (يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ) الآية 56 من سورة القصص المارة في ج 1 ، بدعوة ابراهيم عليه السلام الواردة بالآية 156 من البقرة في ج 3 ، لأن المراد بالقرية مكة "فَكَفَرَتْ" أهاليها وسكانها "بِأَنْعُمِ اللَّهِ" المترادفة عليها ولم تشكرها وتقدرها "فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ" الإذاقة جارية عند أهل المعاني مجرى الحقيقة لشيوعها فيما يمس الناس من البلايا والشدائد ، فيقولون ذاق فلان الضر وأذاقه العذاب ، يشبهون ما يدرك الإنسان من أثر الضرر بما يدركه من طعم المرّ قال :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها

وشبهوا اللباس به لاشتماله على الملابس ، ولما كان الواقع عبارة عما يغشى الإنسان فكأنه قال فأذاقهم ما غشيهم من "الْجُوعِ وَالْخَوْفِ" جزاء "بِما كانُوا يَصْنَعُونَ" 112 لم يقل صنعت لأن المراد أهل القرية كما ذكرنا .

واعلم أن المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوّره بصورة أوضح منه وهنا بين المشبّه وهو القرية ، ولم يذكر المشبّه به لوضوحه عند المخاطبين ولأن ذكر المشبه به غير لازم ، لأنه إما أن يراد بها قرية محققة أو مقدرة وحذفه في علم البلاغة في مثل هذا جائز ، وذلك أن أهل مكة كانوا في أمن وطمأنينة وخصب عيش ، قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) الآية 60 من سورة العنكبوت الآتية والمراد من

قولهم مطمئنة عدم احتياج أهلها للانتقال فقد تدل على ملاك الأمر ، إذ قال العقلاء :

*(193/430)*

---

(ثلاثة ليس لها نهاية : الأمن والصحة والكفاية) وبعد الإنعام عليهم بهذه الثلاثة أنعم اللّه عليهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، فكفروا به وكذبوه وآذوه وأرادوا قتله ، فأمره اللّه تعالى بالهجرة عنهم وسلط عليهم بعد هجرته البلاء والشدة والجوع والخوف بسبب تكذيبهم له وإرادة إخراجهم إياه من بلده حينما حاكوا المكر فيه ، كما سيأتي تفصيله في الآية الأخيرة من سورة المطففين في بحث الهجرة .

وما قاله الحسن من أن هذه الآية مدنية وأن المراد بالقرية هي المدينة تحذيرا لأهلها مما

أصاب أهل مكة قول مخالف لجمهور العلماء والمفسرين يؤيده قوله تعالى "وَلَقَدْ جاءَهُمْ" أي أهل مكة "رَسُولٌ مِنْهُمْ" يعرفون مكانته قبل النبوة "فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ" في الدنيا بالجوع والقتل والأسر والخوف والجلاء "وَهُمْ ظالِمُونَ" 113 أنفسهم وغيرهم بالكفر .

(194/430)

---

قال تعالى "فَكُلُوا" أيها الناس "مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً" وذروا ما تفترون من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغيرها راجع الآية 130 من سورة المائدة في ج 3 في تفسيرها ، "وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ" عليكم "إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" 114 تخصونه وحده بالعبادة "إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ" لأنها كلها تضر بأبدانكم وتختطف صحتكم وتوقعكم في الأمراض القتالة ، وقد اكتشف الأطباء في عصرنا هذا وجود دودة قتالة في الخنزير سموها (ترنجيوس) وأجمعوا على أنها لا تموت بالطبخ بل تنتقل لآكل لحمه وتعيش في المعدة وتميت آكلها ، ولذا منعوا أكله قبل المعاينة ، حتى ان الأميركيين هجروه بتاتا كما يقال ، إلا أنهم قد هجروا الخمر قبلا ثم عادوا إليه ، وفضلا عن هذا ، فإن أكله يورث الجذام ويقلل الغيرة ، ومنه يعلم أن اللّه تعالى لم يحرم علينا شيئا إلا لمنفعتنا وصيانة وجودنا وعقلنا من الخلل "وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ" وفي الآية 4 من سورة المائدة الآتية (وَما ذُبِحَ

عَلَى النُّصُبِ) وهي بمعناها "فَمَنِ اضْطُرَّ" لأكل شيء من ذلك "غَيْرَ باغٍ" على الناس "وَلا عادٍ" على نفسه "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" 115 بهؤلاء المضطرين وسنأتي على تفسير هذه الآية بصورة مفصلة واضحة وبيان مضار هذه
المحرمات مع بيان الحكم الشرعي فيها في الآية المذكورة من سورة المائدة ج 3 إن شاء اللّه، وقدمنا بعض ما يتعلق فيها في الآية 145 من سورة الأنعام المارة فراجعها "وَلا تَقُولُوا" أيها الناس "لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ" من تلقاء أنفسكم لأن التحليل والتحريم من خصائص اللّه تعالى، وذلك أنهم كانوا يحللون ويحرمون برأيهم وينسبونه إلى اللّه تعالى، كما تقدم في الآية 138 من سورة الأنعام المارة.

*(195/430)*

---

يدل على هذا قوله جل قوله "لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ" 116 بل يخيبون ويخسرون، وان متاعهم في هذه الدنيا وما هم عليه "مَتاعٌ قَلِيلٌ" لأن الدنيا مهما طال أمدها فهي قليلة، ولا تطمئن النفس الزكية إليها لتوقع المصائب والفتن والشحناء بين أهلها عداوة وبغضاء من أجل حطامها الزائل، وأشد ما يكون إذا وقع بين الأقارب، وفلما ترى المتصافين فيها للّه، قال:

والمرء يخشى من أبيه وأمه ويخونه فيها أخوه وجاره

فإذا كان أقرب وأحب الناس إلى الرجل فيها يخافهم ويخشهم فتبا لهم من دار وسحقا لها من إقامة ، هذا ما يلاقونه في الدنيا ، وأما في الآخرة فيقول اللّه تعالى "وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ" 117 لا تطيقه قواهم "وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ" هو ما تقدم في الآية 146 من الأنعام المارة ، "وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" 118 بتحريم أشياء على أنفسهم لم يحرمها اللّه كلحوم الإبل وغيرها ، قال تعالى (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) الآية 160 من النساء في ج 3 ، "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ" كلمة جامعة لكل قبح "بِجَهالَةٍ" غير متدبرين عاقبته ولا معاندين اللّه فيه عصيانا عليه ، وإنما بسبب غلبة شهوتهم الناشئة عن الجهل قال :

وما كانت ذنوبي عن عناد ولكن بالشقا حكم القضاء

"ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ" الذي عملوه من السوء وندموا وتابوا توبة نصوحا ، يدل عليه قوله تعالى "وَأَصْلَحُوا" أنفسهم واستقامت أحوالهم "إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها" أي التوبة "لَغَفُورٌ" لما سبق منهم "رَحِيمٌ" 119

بهم تشير هذه الآية إلى عظيم فضل اللّه ، وجليل رحمته ، وكبر كرمه ، وسعة مغفرته ، وكثرة لطفه على عباده وعطفه عليهم إذ تكفل لمن هذا شأنه بالعفو ، ومن كان اللّه كفيله فهو تاج رابح ، وتقدم ما يتعلق بعظيم فضل اللّه وعفوه في الآية 160 من الأنعام المارة ، وفيها ما يرشدك إلى المواقع المتعلق بها هذا البحث فراجعها .

ونظير هذه الآية الآية 17 من سورة النساء في ج 3 ، "إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً" لاجتماع صفات الكمال والخير فيه وتلبسه بالأخلاق الحميدة ، وهذه الصفات قد لا توجد في شخص واحد ولهذا سماه اللّه أمة :

وليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولأنه كان وحده مؤمنا باللّه والناس كلهم كافرون ، ومن هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه اللّه أمة وحده .

لمفارقته الجاهلية وما كانت عليه من عبادة الأوثان وهي جارية مجرى كلام العرب .

يقولون فلان رحمة وفلان نسّابة ، إذا كان متناهيا في المعنى الموصوف به "قانِتاً" خاضعا مطيعا "لِلَّهِ" وحده "حَنِيفاً" مائلا عن كل دين إلى دين الإسلام ، وهو أول من اختتن وضحى وأقام مناسك الحج "وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" 120 قط لأنه من صفره نشأ على التوحيد فكان مؤمنا باللّه مخلصا له وكان في جميع أحواله

"شاكِراً لأَنْعُمِهِ" كلها التي منها توفيقه للإيمان ونصرته على عدوه بالحجة الدامغة وانجاؤه من النار ، ولهذه الخصال الكريمة "اجْتَبَاهُ" ربه للنبوة وشرفه بالرسالة واصطفاه للخلة "وَهَدَاهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ" 221 في أقواله وأفعاله ووفقه لدين الإسلام وطريقه القويم "وَآتَيْناهُ فِي الدُّنيا حَسَنَةً" بأن جعلنا ذكره فيها دائما مثمرا حسنا عند كل ملة وأمة ، فلا تجد قوما إلا ويعرفوه بفضله ويذكرونه بالخير ، هكذا كان عليه الصلاة والسلام في الدنيا "وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" 122 للقاء اللّه ولأعلى مقامات الجنة "ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ" يا سيد الرسل في هذا القرآن الكريم "أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" 123 لأن ملته ودينه هو الحق وكل محق يدين بدينه ، وقيل في هذا :

كل يدين بدين الحق لو فطنوا وليس دين لغير الحق مشروع



ولا تكرار في هذه الآية ، لأن الأولى تتضمن أنها سجيته عليه السلام ، وهذه يأمر اللّه بها حبيبه محمدا بأن يسلك طريقة جده إبراهيم ، وفيها ردّ صريح على العرب وغيرهم الحاضرين والسالفين القائلين إنه كان مشركا ، لأنها جاءت نافية عنه مادة الشرك منذ

نشأته كما أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا كما زعم اليهود والنصارى ، راجع الآية 67 من آل عمران ج 3 ، ولذلك كان صلّى اللّه عليه وسلم يتعبد على شريعته ويتدين بدينه الذي ألهمه اللّه إياه إلى أن كمل اللّه له شريعته الناسخة لكل الشرائع والموافقة لكل عنصر وعصر إلى آخر الدوران ليقتدي بها ويأمر أمته باتباعها ، قال تعالى "إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ" فرض ووجب احترامه وعدم العمل به كسائر الأيام "عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ" مع نبيهم وهم اليهود لأن موسى عليه السلام أمرهم بتعظيم يوم الجمعه وأن يتفرغوا في كل أسبوع يوما للعبادة فيه ، فأبوا إلا السبت محتجين بأنه اليوم الذي فرغ اللّه به من الخلق ، وهذا الاختلاف لم يقل به بعضهم دون بعض منهم من أراده ، ومنهم من أباه ، كلا ، بل أنهم كلهم اتفقوا عليه خلافا لنبيهم الذي وافقهم على رغبتهم ، لأن الخلاف كان بينهم وبينه ، وكذلك عيسى عليه السلام أمرهم بتعظيم يوم الجمعة فأبوا إلا الأحد محتجين بأنه اليوم الذي بدأ فيه الخلق ، وهذا الاختلاف من سعادة أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، إذ تفضل اللّه عليها به فقبلته ولم تختلف على نبيها فيه .

مطلب يوم الجمعة والآيات المدنيات وكيفية الإرشاد والنصح والمجادلة وما يتعلق فيهما :

وسبب تعظيمه أن اللّه تعالى خلق آدم فيه ، وتاب عليه فيه .

وأطاف سفينة نوح فيه ، وأرساها فيه ، وقيل دعوة يونس فيه ، ونجاه فيه ، وإجابة دعوة زكريا فيه ، وكان تمام الخلق فيه ، ولأن الفرح والسرور إنما يكونان عند التمام والكمال فلأن يكون التعظيم له أولى من يوم البدء والفراغ : روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : نحن الآخرون أي (في الوجود والزمن) السابقون (في الفضل ودخول الجنة) يوم القيامة بيد أنهم (غير أن الذين) أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا (إشارة إلى يوم الجمعة) يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه (على نبيهم فلم يقبلوه) فهدانا اللّه تعالى له فهم لنا تبع فغد لليهود وبعد غد للنصارى .

ومن قال إن الاختلاف وقع بينهم أوّل فقال جعل بمعنى وبال ، أو قال إن في الكلام حذفا وهو كلمة وبال ، أي إنما وبال السبت ، أو إنما جعل وبال السبت ولعنته التي مسخوا فيها قردة وخنازير على المختلفين فيه ، وتقدمت قصة النسخ في الآية 164 من الأعراف في ج 1 ، وقال بعضهم إنما فرض عليهم السبت ، ولما بعث عيسى نسخ بالأحد ، كما أن شريعته عدلت بعض أحكام التوراة ، ثم نسخ الأحد بالجمعة ، لأن شريعة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ناسخة لكل الشرائع ، فكان أفضل الأيام الجمعة ، وأفضل الرسل محمد صلى اللّه عليه وسلم .

"وَإِنَّ رَبَّكَ" يا خاتم الرسل "لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ" وبين غيرهم "يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" 124 من السبت وغيره كتحريم الإبل وحل الخنزير وقليل الخمر والزواج بالمحرمات وغير ذلك مما ابتدعوه، ولم ينزل اللّه به برهانا، قال تعالى يا سيد الرسل "ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ" من بعثت إليهم قاطبة "بِالْحِكْمَةِ" بالحجة المزيلة للشك المزيحة للشبهة بالتؤدة واللين والرفق وإيراد الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة لتأييد دعوتك "وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" الرقيقة اللطيفة بخطاب مقنع للخصم مقرون بالعبر المؤثرة والعظة النافعة والأمثلة الظاهرة بقصد نصحهم وطلب خيرهم وإرادة ميلهم إلى كلامك وجنوحهم إلى رشدك وهديك.

وهذه طريقة ثانية لأصول الدعوة إلى اللّه لأن الحكمة المعرفة بمراتب الأفعال، والموعظة الحسنة مزج الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة والشدة باللين.

والطريقة الثانية هي المبينة بقوله جل قوله "وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" من غيرها بأن تناظر معانديهم بالطريقة الحسنة التي هي أحسن طرق المجادلة، وتبدي لهم لين العريكة وخفض الجانب والرفق بالمخاطبة، بلا غلظة ولا فظاظة ولا تعنيف، وتأتي لهم بكل ما

يوقظ القلب ويجلو العقل وتنبسط له النفس وينشرح له الفؤاد ، بوجه مطلق ملئه البشاشة ، كي يكون إرشادك أوقع في قلوبهم ، وهديك أنفع في نفوسهم ، وكلامك أنفع لصلاحهم ، ودلالتك أميل لقلوبهم .

واعلم أن هذه الصفات التي يجب أن يتحلى بها العلماء والمتصدرون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنها من سمات من ورثوا عنه العلم الذي هو صفوة خلق اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ويجب أن



---

تكون طريقتهم في النصح والهدى على نحو ما ذكرنا مع تحمل الأذى وثقل الثقلاء وعناد المعاندين وشقاق العتاة ، وإذا ابتلوا بالمناظرة أن يكون سبيلهم فيها منبثقا عن هذه الأحوال الثلاثة ، وذلك بأن يناظروا الطبقة الراقية بالأصل الأول ، وغيرهم من أصحاب الفطرة السليمة بالثاني ، والمعاندين المتشدقين بالثالث ، لينفعوا وينتفعوا ، وإذا لم يستعملوا هذه الطرق التي علمها اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه وسلم وأمره جلّ أمره بسلوكها وقابلوا الناس بالفظاظة وبالشدة والغلظة والعنف والأنفة والتكبر والتجهيل شامخين بما آتاهم اللّه من فضله ، فيوشك أن يضلوا ويضلوا ويكون عملهم وبالا عليهم في الدنيا والآخرة ، لأن المعتبر

في دعوة الخلق إلى الخالق استعمال الصناعات الثلاث المذكورة التي هي البرهان والخطابة والجدل من بين الصناعات الخمس المبينة في علم المنطق ، وسهل القول المذكور في علم البيان وفصيح اللفظ المشار إليه في علم البديع ليتيسر له ما يريده من النفع التام لما يرضي الملك العلام ، وهذا هو الطريق النافع لقبول الإرشاد ، لأن الآية تشعر إلى الاقتصار عليها "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ" الذين لا تؤثر فيهم الدعوة بطرقها الثلاث لسابق شقائهم "وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" 125 الذين ينتفعون بدعوتك ، إلا أن التبليغ للفريقين من واجب الرسل حتى لا تبقى حجة لمعتذر وهو من بعدهم من واجب العلماء ، لأنهم ورثة الأنبياء ، وهذه الآيات المدنيات الثلاث من هذه السورة كما قاله المفسرون بدليل ما أخرجه النحاس عن طريق مجاهد عن الخبر أنها أي هذه السورة نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من أحد ، ولهذا عدت مدينة كما عدت الآية 54 من الزخرف المارة مكية مع أنها نزلت في بيت المقدس ليلة الإسراء ، لأن العبرة أن جميع ما نزل قبل

الهجرة يسمى مكيا وكل ما نزل بعدها يعد مدنيا كما أشرنا إليه في المقدمة في بحث المكي والمدني.

قال تعالى "وَإِنْ عاقَبْتُمْ" أحدا أيها الناس على فعل يستوجب العقوبة "فَعاقِبُوا" المسيء "بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ" منه أي كما فعل بكم افعلوا به بلا زيادة ولا نقص إن شئتم "وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ" على الإساءة وعفوتم عن المسيء "لَهُوَ" الصبر والصفح "خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ" 126 عليه من المتشفي بالقصاص

عند اللّه تعالى الذي يعظم الأجر للصابر، وعند الناس لما يطرونه من الثناء عليه في وجهه والمدح بغيا به بخلاف التقاصص، إذ لا يقال للمقتص إلا أنه أخذ حقه ولم يعف ولم يصفح ولم يقبل الرجاء بالعفو.

هذا ولما مثل المشركون بقتلى أحد بقروا بطن حمزة بن عبد المطلب رضي اللّه عنه وجدعوا انفه وقطعوا مذاكيره وأذانه وأخذت هند بنت عتبة أم معاوية قطعة من كبده ومضغتها لتأكلها تشفيا به فلم تقدر أن تسيغها فأخرجتها وأرسلتها، فتأثر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما رأى ذلك وقال رحمك اللّه رحمة واسعة ما كنت إلا فعالا للخيرات وصولا للرحم، ثم قال واللّه لئن أظفرني اللّه بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل اللّه هذه الآية، فقال صلى اللّه عليه وسلم بل أصبر وأحتسب، وكفر عن يمينه.

وإنما قلت تأثر صلى اللّه عليه وسلم لأنه بشر يعتريه ما يعتري البشر، وقد بكى على ابنه

إبراهيم واغتاظ لابن بتمه ، ورأى مرة النساء يبكين في جنازة وقد انتهرهن عمر رضي اللّه عنه فقال

عليه السلام دعهن يا عمر فإن النفس مصابة والعين دامعة والعهد قريب .

هذا وسمى الفعل الأول عقوبة للمزاوجة في الكلام ، يعني إن أساء إليكم أحد فقابلوه بإساءته مثلا بمثل ، راجع الآية 39 فما بعدها من سورة الشورى المارة تجد ما يتعلق في هذا البحث مستوفيا .

*(203/430)*

---

وقد أمر اللّه تعالى برعاية العدل والإنصاف في استيفاء الحقوق في القصاص ، لأن الزيادة ظلم تأباه شريعة اللّه العادل .

وما قيل إن هذه الآية منسوحة قول لا يلتفت إليه بل هي محكمة لأنها واردة في تعليم حسن الآداب وكمال الأخلاق والنصفة في استيفاء الحقوق وترك التعدي النهى عنه .

ومثل هذه الأمور لا يدخلها النسخ أبدا .

قال تعالى يا خاتم الرسل اعمل بهذا "وَاصْبِرْ" على ما أصابك من أذى قومك "وَما صَبْرُكَ" على ما يؤذيك ويحزنك "إِلَّا بِاللَّهِ" بتوفيقه ومعونته لك "وَلا تَحْزَنْ" على ما وقع على عمك

فإن له فيها درجات في الجنة عند اللّه ، وكذلك قومك لا تحزن "عَلَيْهِمْ" بسبب ما فعلوه فيه وعدم رعايتك وعن إعراضهم عنك ولا على قتلى أحد كلهم ، فإنهم أفضوا إلى رحمة ربهم وعطفه ولا يضرهم ما مثله المشركون بهم لأنه مما يزيد في أجرهم "وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ" هو الشدة التي يتكمش لها الوجه ويكفهر وينقبض فيها الصدر ويضيق بسبب ما وقع من الغم والحزن فيه وقرىء بفتح الضاد وكسرها "مِمَّا يَمْكُرُونَ" 127 بك ويكيدون لك من الدسائس ويحيكونه لك من المصائد ، فإنهم لن يصلوا إليك ، وإني حافظك منهم ، وناصرك عليهم .

وفي هذه الآية رمز إلى استتباع أمته له في ذلك كله ، لأن كل أمة تقتدي بإمامها وقد خوطب ابن عباس من قبل أحد معزّيه في هذا البيت :

اصبر نكن بك صابرين وإنما صبر الرعية عند صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده واللّه خير منك للعباس

هذا على إنه يصح أن يقال فيه :

سأصبر حتى يعلم الناس أنني صبرت على شيء أمر من الصّبر

"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا" السيئات واجتنبوا التعدي في القصاص وغيره وراقبوا ربهم في كل أمورهم مع خالقهم وخلقه "وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" 128 لأنفسهم ولغيرهم العافين عن الناس الكاظمين الغيظ ومن كان الله معه فهو آمن في الدنيا والآخرة ، قال بعض الكمل : كمال الطريق الموصل إلى الله صدق مع الحق ، وخلق مع الخلق ، وكمال الإنسان ان يعرف الحق لذاته والخير ليعمل به ، فإذا أردت أيها الإنسان العاقل أن يكون الله معك بالعون والفضل والرحمة فكن مع المتقين الصادقين المحسنين ومنهم ، فهؤلاء الذين أمرنا الله بمخالطتهم ، قال تعالى :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) الآية 152 من سورة التوبة في ج 3 ، وقال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) الآية 2 من العلاق في ج 3 ، وقال تعالى (مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) الآية 92 من يوسف المارة .

واعلم أن ترك الإساءة من الإحسان بل إحسان وزيادة ، قيل ترك الإساءة إحسان وإجمال .

هذا والله أعلم ، واستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان أجمعين ، وسلم تسليما كثيرا ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 210 .

263 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والثلاثون بعد الأربعمائة

فصل فى الوقف والابتداء

(4/431)

---

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة النحل

مكية إلا قوله ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخرها فمدني

( فلا تستعجلوه ) تام عما يشركون حسن وقال أبو عمرو كاف فاتقون تام بالحق كاف يشركون حسن مبين صالح أو كاف والأنعام خلقها حسن وقال أبو عمرو كاف وقيل الوقف على لكم فعلى الأول الوقف على مبين صالح وعلى الثاني كاف دفء ومنافع صالح وقال أبو عمرو كاف تأكلون كاف وكذا تسرحون بشق الأنفس أحسن مما قبله وقال أبو عمرو تام رحيم كاف وقال أبو عمرو تام لتركبوها وزينة تام ما لا تعلمون حسن وكذا ومنها أجمعين تام فيه تسمعون حسن ومن كل الثمرات كاف وكذا يتفكرون الليل والنهار تام لمن رفع ما بعده بالابتداء والخبر ومن نصبه لم يقف على ذلك ومن رفع النجوم مسخرات فقط وقف على

والقمر بأمره كاف يعقلون حسن إن نصب ما بعده بالإغراء أي اتقوا ما ذرأ لكم وكاف إن نصب ذلك عطفا على معمول سخر وجوز وان كان فيه المتعاطفين لطول الكلام مختلفا ألو انه صالح يذكرون تام تلبسونها صالح مواخر فيه مفهوم تشكرون كاف وعلامات حسن يهتدون تام كمن لا يخلق جائز تذكرون حسن إلا تحصوها ورحيم وما بعده بالياء أو بالتاء وحسن لمن قرأه بالتاء وما بعده بالياء وهم يخلقون حسن أموات غير أحياء تام وكذا أيان يبعثون واله واحد مستكبرون حسن وما يعلنون كاف المستكبرين حسن أساطير الأولين حسن إن جعلت لام ليحملوا لام الأمر وجائز إن جعلت لام كي بمعنى العاقبة يوم القيامة مفهوم بغير علم حسن وقال أبو عمرو كاف ما يرزون تام من فوقهم جائز لا يشعرون صالح وإنما جوز وان تعلق به ما بعده لأنه رأس آية يخزيهم جائز تشاقون فيهم صالح الكافرين تام إن جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف وجائز إن جعل ذلك نعتا له جوّز لأنه رأس آية ظالمي أنفسهم صالح من سوء حسن وأجاز قوم الوقف على بلى والاختيار الأول واقتصر أبو عمرو على الثاني وقال انه تام بما كنتم تعملون كاف خالدين فيها صالح وقال أبو عمرو فيهما تام المتكبرين تام أنزل ربكم كاف قالوا خبرا تام كاف وكذا خير والمتقين ويدخلونها ومن تحتها الأنهار

وما يشاؤن المتقين تام إن رفع ما بعده خبر مبتدأ محذوف وجائز إن جعل ذلك نعتا له لأنه رأس آية طيبين صالح وكذا سلام عليكم بما كنتم تعملون تام تأتيهم الملائكة جائز عند بعضهم ولا أستحسنه كلام واحد أمر ربك كاف وكذا من قبلهم يظلمون حسن ما عملوا كاف يستهزؤن تام ولا آباؤنا صالح من شيء كاف وكذا من قبلهم المبين تام الطاغوت كاف وكذا الضلالة المكذبين تام من يضل كاف من ناصرين حسن وقال أبو عمرو كاف من يموت كاف ويأتي في بلى مامر لا يعلمون جائز وليس بحسن لتعلق ما بعده بما بعده وإنما جوز لأنه رأس آية يختلفون فيه جائز كاذبين تام كن فيكون تقدم الكلام عليه سورة البقرة في الدنيا حسنة حسن أكبر جائز لو كانوا يعلمون تام إن جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف وجائز إن جعل ذلك نعتا للذين هاجروا يتوكلون تام يوحى إليهم جائز وكذا لا تعلمون والزبر حسن وقال أبو عمرو كاف ما نزل إليهم صالح يتفكرون تام بهم الأرض جائز لا يشعرون صالح وكذا بمعجزين رحيم تام من شيء صالح وكذا والشمائل داخرون تام من دابة مفهوم وكذا والملائكة وهو أحسن لا يستكبرون كاف من فوقهم جائز ما يؤمرون تام الهين اثنين صالح واحد مفهوم ولا أحبه لكراهة الابتداء بما بعده فارهبون حسن والأرض صالح واصبا كاف تتقون إن جعل ما بعده مستأنفا وليس بوقف إن جعل ذلك متعلقا بما قبله فمن الله كاف وكذا تجأرون بل أولى لأنه رأس آية بربهم يشركون جائز بما آتيناهم كاف فسوف

تعلمون حسن وقال أبو عمرو تام مما رزقناهم كاف تفترون حسن سبحانه كاف وقال أبو عمرو تام ما يشتهون كاف وكذا كظيم وما بشر به في التراب حسن ما يحكمون تام مثل السوء حسن الأعلى مفهوم الحكيم تام من دابة مفهوم إلى أجل مسمى صالح ولا يستقدمون تام ما يكرهون إن لهم الحسنى حسن مفرطون تام أعمالهم صالح وكذا وليهم اليوم عذاب تام وكذا يؤمنون بعد موتها كاف يسمعون تام للشاربين كاف إن جعل ما بعده مستأنفا وصالح إن معطوفا على ما في

(6/431)

---

بطونه وتام إن جعل معمولا لتتخذون ورزقا حسنا كاف يعقلون تام بيوتا جائز ومما يعرشون كاف ذللا حسن مختلفا ألوانه حسن إن أعيد الضمير في فيه على القرآن وليس بحسن أن أعيد على العسل المذكور في قوله شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس كاف يتفكرون تام ثم يتوفاكم كاف وكذا شيئا قدير تام في الرزق صالح فهم فيه سواء

(7/431)

---

حسن يجحدون تام وحفدة جائز من الطيبات حسن يؤمنون جائز يكفرون كاف وكذا ولا

يستطيعون ولله الأمثال وأنتم لا تعلمون تام يستوون حسن لا يعلمون تام رجلين صالح مولاه

جائز وكذا الايأت بخير مستقيم تام والأرض حسن أو هو أقرب كاف قدير لا تعلمون شيئا

جائز تشكرون تام إلا الله كاف يؤمنون تام سكنا جائز وكذا اقامتكم إلى حين تام ظلالا

جائز وكذا أكنانا بأسكم حسن تسلمون حسن وكذا البلاغ المبين ثم ينكرونها جائز

الكافرون حسن يستعتبون كاف وكذا ينظرون من دونك صالح لكاذبون كاف السلم جائز

يفترون تام يفسدون حسن وكذا على هؤلاء للمسلمين تام القربى كاف والبغي تام تذكرون

حسن إذا عاهدتم صالح كفيلا كاف وكذا تفعلون وانكانا ومن أمة ويبلوكم الله به تختلفون

تام ويهدي من يشاء كاف كنتم تعملون تام وكذا عظيم ثمنا قليلا إن كنتم تعلمون تام باق

حسن يعملون تام يعملون حسن من الشيطان الرجيم كاف وكذا يتوكلون به مشركون تام

مفتر كاف لا يعلمون تام للمسلمين أتم إنما يعلمه بشر عربي مبين تام لا يهديهم الله جائز أليم تام

بآيات الله جائز الكاذبون تام غضب من الله جائز عظيم كاف الكافرين وكذا الغافلون

الخاسرون كاف لغفور رحيم حسن إن جعل ما بعده منصوبا به وليس بوقف إن جعل

منصوبا بالاغراء أي اتقوا يوم تأتي ما عملت جائز لا يظلمون تام وكذا يصنعون ظالمون

حسن وقال أبو عمرو فيه رؤس الآي الآتية تام طيبا جائز تعبدون تام لغير الله به كاف

رحيم حسن الكذب تام وكذا لا يفلحون وأليم من قبل حسن وكذا يظلمون رحيم تام

حنيفا جائز من المشركين كاف لأنعمه أكفى منه مستقيم حسن حسنة كاف وكذا الصالحين حنيفا جائز من المشركين تام اختلفوا فيه حسن يختلفون تام والموعظة الحسنة كاف أحسن تام عن سبيله صالح بالمهتدين تام ما عوقبتم به كاف للصابرين حسن واصبر مفهوم إلا بالله وكذا ولا تحزن عليهم مما يمكرون تام آخر السورة تام. ن يجحدون تام وحفدة جائز من الطيبات حسن يؤمنون جائز

(8/431)

---

يكفرون كاف وكذا ولا يستطيعون ولله الأمثال وأنتم لا تعلمون تام يستوون حسن لا يعلمون تام رجلين صالح مولاه جائز وكذا الايأت بخير مستقيم تام والأرض حسن أو هو أقرب كاف قدير لا تعلمون شيئًا جائز تشكرون تام إلا الله كاف يؤمنون تام سكنا جائز وكذا اقامتكم إلى حين تام ظلالا جائز وكذا أكنانا بأسكم حسن تسلمون حسن وكذا البلاغ المبين ثم ينكرونها جائز الكافرون حسن يستعتبون كاف وكذا ينظرون من دونك صالح لكاذبون كاف السلم جائز يفترون تام يفسدون حسن وكذا على هؤلاء للمسلمين تام القربى كاف والبغي تام تذكرون حسن إذا عاهدتم صالح كفيلا كاف وكذا تفعلون وانكانا ومن أمة ويبلوكم الله به تختلفون تام ويهدي من يشاء كاف كنتم تعملون تام وكذا عظيم ثمنا قليلا إن

كنتم تعلمون تام باق حسن يعملون تام يعملون حسن من الشيطان الرجيم كاف وكذا يتوكلون به مشركون تام مفتر كاف لا يعلمون تام للمسلمين أتم إنما يعلمه بشر عربي مبين تام لا يهديهم الله جائز أليم تام بآيات الله جائز الكاذبون تام غضب من الله جائز عظيم كاف الكافرين وكذا الغافلون الخاسرون كاف لغفور رحيم حسن إن جعل ما بعده منصوبا به وليس بوقف إن جعل منصوبا بالاغراء أي اتقوا يوم تأتي ما عملت جائز لا يظلمون تام وكذا يصنعون ظالمون حسن وقال أبو عمرو فيه رؤس الآي الآتية تام طيبا جائز تعبدون تام لغير الله به كاف رحيم حسن الكذب تام وكذا لا يفلحون وأليم من قبل حسن وكذا يظلمون رحيم تام حنيفا جائز من المشركين كاف لأنعمه أكفى منه مستقيم حسن حسنة كاف وكذا الصالحين حنيفا جائز من المشركين تام اختلفوا فيه حسن يختلفون تام والموعظة الحسنة كاف أحسن تام عن سبيله صالح بالمهتدين تام ما عوقبتم به كاف للصابرين حسن واصبر مفهوم إلا بالله وكذا ولا تحزن عليهم مما يمكرون تام آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 446.428 ﴾

(9/431)

---

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة النحل

مكية إلاَّ قوله ﴿ وإن عاقبتم ﴾ إلى آخرها فمدني أنزلت حين قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهي مائة وثماني وعشرون آية إجماعاً وكلمها ألف وثمانمائة وإحدى وأربعون كلمة وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً منها بإجماع تسعة مواضع وما يعلنون الثاني والأول رأس آية بلا خلاف وما يشعرون لهم ما يشاؤن الملائكة طيبين ما يكرهون أفبالباطل يؤمنون هل يستوون وما عند الله باق متاع قليل

فلا تستعجلوه (تام) لمن قرأ تشركون بالفوقية ومن قرأ بالتحتية كان أتم قال أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه العرب تقول أتاك الأمر وهو متوقع بعد ومنه أتى أمر الله أي أتى أمر وعده فلا تستعجلوه وقوعاً

يشركون (تام)

من عباده (جائز) على أنَّ ما بعده يدل من مقدر محذوف أي يقال لهم أن أنذروا قومكم قاله نافع وليس بوقف إن أبدل أن أنذروا من قوله بالروح أو جعلت تفسيرية بمعنى أي

فاتقون (تام)

بالحق (حسن)

يشركون (كاف) ومثله مبين وكذا والأنعام خلقها وقيل الوقف على لكم فعلى الأول الأنعام منصوبة بخلقها على الاشتغال وعلى الثاني منصوبة بفعل مقدر معطوف على الإنسان

دفء ومنافع (كاف) عند أبي عمرو ومثله ومنها تأكلون على استئناف ما بعده وكذا تسرحون

إلاَّ بشق الأنفس (كاف)

رحيم (تام) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله أي وخلق الخيل لتركبوها وزينة

وهو (تام) قال التتائي قال مالك أحسن ما سمعت في الخيل والبغال والحمير أنَّها لا تؤكل لأنَّ الله تعالى قال فيها لتركبوها وزينة وقال في الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون فذكر الخيل والبغال والحمير للزينة وذكر الأنعام للركوب والأكل

ما لا تعلمون (تام) عند أبي حاتم ويعقوب

قصد السبيل (جائز)

ومنها جائر (حسن) فقصد السبيل طريق الجنة ومنها جائر طريق النار قال قتادة قصد السبيل حلاله وحرامه وطاعته ومنها جائز سبيل الشيطان وقال ابن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر أهل الأهواء والبدع وقريء شاذاً ومنكم جائر وهي مخالفة للسواد

أجمعين (تام)

ماء (جائز) على أنّ لكم مستأنفاً وشراب مبتدأ وإن جعل في موضع الصفة متعلقاً بمحذوف صفة لماء وشراب مرفوع به فلا وقف

فيه تسيمون (كاف) على قراءة من قرأ ننبت بالنون وهي أعلى من قراءته بالتحتية وبها قرأ عاصم وقيل كاف أيضاً على قراءته بالنون أو بالتحتية

ومن كل الثمرات (كاف) ومثله يتفكرون

والنهار (حسن) لمن رفع ما بعده بالابتداء أو الخبر وليس بوقف لمن نصبه وعليه فوقفه على بأمره وعلى قراءة حفص والنجوم مسخرات برفعهما فوقفه على والقمر

لقوم يعقلون (كاف) إن نصب ما بعده بالإغراء أي اتقوا ما ذرأ لكم

مختلفاً ألوانه (حسن)

يذكرون (كاف)

تلبسونها (حسن)

مواخر فيه (جائز) لأَنَّه في مقام تعداد النعم

تشكرون (كاف)

وسبلاً ليس بوقف لحرف الترجي وهو في التعلق كلام كي

يهتدون (جائز) لكونه رأس آية

وعلامات (تام) عند الأخفش قال الكلبي أراد بالعلامات الطرق بالنهار والنجوم بالليل

وقال السدي وبالنجم هم يهتدون يعني الثريا وبنات نعش والجدي والفرقدان بها يهتدون

إلى القبلة والطرق في البر والبحر قال قتادة إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء زينة للسماء

ومعالم للطرق ورجوماً للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به 0

يهتدون (تام)

كمن لا يخلق (حسن) للاستفهام بعده وجيء بمن في الثاني لاعتقاد الكفار أنَّ لها تأثير

فعوملت معاملة أولي العلم كقوله :

بكيت على سرب القطا إذ مررن بي فقلت ومثلي بالبكاء جدير

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي إلى من قد هويت أطير

فأوقع على السرب من لما عاملها معاملة العقلاء 0

تذكرون (كاف) ومثله لا تحصوها

رحيم (تام)

وما تعلنون (كاف) على قراءة عاصم هو وما بعده بالتحتية وحسن لمن قرأ تعلنون بالفوقية وما بعده بالتحتية 0

لا يخلقون شيأً (جائز)

وهم يخلقون (كاف) إذا رفعت أموات على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم أموات وليس بوقف إن جعل أموات خبراً ثانياً لقوله وهم يخلقون وكذا إن جعل يخلقون وأموات خبرين وليس يخلقون بوقف أيضاً إن جعل والذين مبتدأ أو أموات خبراً والتقدير والذين هذه صفتهم أموات غير أحياء لأنَّها أصنام ولذلك وصفها بالموت وما يشعرون وليس بوقف لأنَّ أيان ظرف منصوب بيشعرون وقيل منصوب بما بعده لا بما قبله لأنه استفهام وقيل أيان ظرف لقوله إلهكم إله واحد يعني أنَّ الإله الواحد يوم القيامة ولم يدّع أحد الإلهية في ذلك اليوم بخلاف الدنيا فإنَّه قد وجد فيها من ادعى ذلك وعلى هذا فقد تم الكلام على يشعرون إلاَّ أنَّ هذا القول مخرج لأيان عن موضوعها وهي إما شرط وإما استفهام إلى محض الظرفية 0

أيان يبعثون (تام) ومثله إله واحد

منكرة (جائز)

مستكبرون (كاف) ووقف الخليل وسيبويه على لا وذلك أنّ لا عندهما ردّ لمن أنكر البعث

وقال أهل الكوفة جرم مع لا كلمة واحدة معناها لابدّ وحينئذ لا يوقف على لا 0

وما يعلنون (كاف) ومثله المستكبرين

ماذا أنزل ربكم ليس بوقف لأنّ قالوا جواب ماذا فلا يفصل بينهما بالوقف وما وذا كلمة

واحدة استفهام مفعول بأنزل ويجوز أن تكون ما وحدها كلمة مبتدأ وذا بمعنى الذي خبر ما

وعائدها في أنزل محذوف أي أيّ شيء أنزل ربكم فقيل أنزل أساطير الأولين

والأولين (حسن) إن جعلت اللام في ليحملوا لام الأمر الجازمة للمضارع وليس بوقف إن

جعلت لام العاقبة والصيرورة وهي التي يكون ما بعدها نقيضاً لما قبلها أي لأنّ عاقبة قولهم

ذلك لأنهم لم يقولوا أساطير الأولين ليحملوا فهو كقوله ليكون لهم عدوّاً وحزناً وكاملة حال

ويوم القيامة (جائز) بتقدير ويحملون من أوزار الذين يضلونهم 0

بغير علم (كاف)

ما يزرون (تام)

من فوقهم (جائز) ومثله لا يشعرون ويخزيهم وتشاقون فيهم كلها وقوف جائزة 0

الكافرين (تام) إن جعل الذين مبتدأ خبره فألقوا السلم وزيدت الفاء في الخبر أو جعل خبر مبتدأ محذوف وكاف إن نصب على الذم وليس بوقف إن جرّ صفة للكافرين أو أبدل مما قبله أو جعل بياناً له 0

ظالمي أنفسهم (جائز) إن جعل ما بعده مستأنفاً وليس بوقف إن جعل خبر الذين أو عطف على الذين تتوفاهم 0

من سوء (تام) عند الأخفش لانقضاء كلام الكفار فمن سوء مفعول نعمل زيدت فيه من أي ما كنا نعمل سوأً فرد الله أو الملائكة عليهم ببلى أي كنتم تعملون السوء وقيل الوقف على بلى والأول أوجه 0

بما كنتم تعملون (كاف) وقيل وصله أولى لمكان الفاء بعده 0

خالدين فيها (كاف) عند أبي حاتم وعند غيره جائز 0

المتكبرين (تام)

أنزل ربكم (كاف) لأنَّ قالوا مستأنف 0

خيراً (تام) أي قالوا أنزل خيراً فخيراً مفعول أنزل فإن قلت لم رفع أساطير ونصب خيراً قلت فصلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد يعني أنَّ المتقين لما سئلوا أطبقوا الجواب على السؤال بيناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا خيراً وهؤلاء عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا أساطير

الأولين وليس هو من الإنزال في شيء وليس خيراً بوقف إن جعل ما بعده جملة مندرجة تحت القول مفسرة لقوله خيراً وذلك أنَّ الخير هو الوحي الذي أنزل الله فيه أنَّ من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة وكذا إن جعل بدلاً من قوله خيراً حسنه (كاف) ومثله خير

(13/431)

---

المتقين (تام) إن رفع جنات خبر مبتدأ محذوف أي لهم جنات أو جعل مبتدأ ويدخلونها في موضع الخبر وجائز إن رفعت جنات نعتاً أو بدلاً مما قبلها لكونه رأس آية وقول السخاوي وغيره وإن رفعت جنات بنعم لم يوقف على المتقين مخالف لما اشترطوه في فاعل نعم من أنه لا يكون إلاَّ معرفاً بأل نحو نعم الرجل زيد أو مضافاً لما فيه أل نحو فنعم عقبى الدار ولنعم دار المتقين كما هنا أي غالباً ومن غير الغالب قوله في الحديث نعم عبد الله خالد بن الوليد ويجوز كونها فيه 0

الأنهار (حسن)

ما يشاؤن (جائز)

المتقين (تام) إن رفع الذين بالابتداء والخبر يقول 0

طيبين (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده متعلقاً بما قبله وطيبين

حال من مفعول تتوفاهم 0

سلام عليكم ليس بوقف لأنَّ ادخلوا مفعول يقولون أي تقول خزنة الجنة ادخلوا الجنة بما كنتم

تعلمون 0

وتعلمون (تام)

أو يأتي أمر ربك (كاف) ومثله من قبلهم ويظلمون وما عملوا كلها وقوف كافية 0

يستهزؤن (تام)

ولا آباؤنا (كاف) ومثله من شيء ومن قبلهم كلها كافية

المبين (تام)

الطاغوت (كاف) ومثله الضلالة

المكذبين (تام)

من يضل (كاف) ومثله من ناصرين

جهد أيمانهم ليس بوقف لأنَّ ما بعده جواب القسم كأنَّه قال قد حلفوا لا يبعث الله من يموت

من يموت (كاف) لأنَّه انقضاء كلام الكفار ثم يبتديء بلى يبعث الله الرَّسول ليبين لهم الذي

يختلفون فيه ولحديث كل نبي عبدي ولم يك ينبغي له أن يكذبني وقال نافع من يموت بلى لأنَّ

بلى ردّ لكلامهم وتكذيب لقولهم وما بعدها منصوب بفعل مضمر أي وعدكم الله وعداً

لا يعلمون (جائز)

الذي يختلفون فيه ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

كاذبين (تام)

كن (حسن) لمن قرأ فيكون بالرفع وليس بوقف لمن نصب فيكون

فيكون (تام) على القراءتين

(14/431)

---

حسنة (كاف) وقال يحيى بن سلام الحسنة هي المدينة المشرفة ولأجر الآخرة أكبر يعني الجنة نزلت في صهيب وبلال وخباب وعمار بن ياسر عذبهم المشركون بمكة وأخرجوهم من ديارهم ولحق منهم طائفة الحبشة ثم بوّأهم الله دار الهجرة وجعلهم أنصاراً . لنبوّأنهم في الدنيا حسنة أنزلهم المدينة وأطعمهم الغنيمة فهذا هو الثواب في الدنيا

أكبر (جائز) وجواب لو محذوف أي لو كانوا يعلمون لما اختاروا الدنيا على الآخرة ولو وصله لصار قوله ولأجر الآخرة معلقاً بشرط أن لو كانوا يعلمون وهو محال قاله السجاوندي

لو كانوا يعلمون (تام) إن جعل الذين بعده خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين وكاف إن نصب بتقدير أعني وجائز إن رفع بدلاً من الذين قبله وكذا لو نصب بدلاً من الضمير في لنبوّأنهم

يتوكلون (تام)

إليهم (جائز) ومثله لا تعلمون إن جعل بالبينات والزبر متعلقاً بمحذوف صفة لرجالاً لأنَّ إلاَّ لا يستثنى بها شيآن دون عطف أو بدلية وما ظن غير ذلك معمولاً لما قبل إلاَّ قدر له عامل أوانه متعلق بمحذوف جواباً لسؤال مقدر يدل عليه ما قبله كأنَّه قيل بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر فالبينات متعلق بأرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي وما أرسلنا إلاَّ رجالاً بالبينات فقد استثنى بإلاَّ شيآن أحدهما رجالاً والآخر بالبينات وليس بوقف إن علق بنوحي لأنَّ ما بعد إلاَّ لا يتعلق بما قبلها وكذا إن علق بقوله لا تعلمون على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام كقول الأجير إن كنت عملت لك فأعطني حقي

والزبر (كاف)

ما نزل إليهم (صالح)

يتفكرون (تام) للابتداء بالاستفهام بعده ولا وقف من قوله أفأمن الذين إلى رحيم فلا يوقف على قوله بهم الأرض وتجاوزه أولى وكذا لا يشعرون ومثله بمعجزين وكذا على تخوف للعطف على كل بأو 0

ورحيم (تام)

من شيء (جائز) ومثله والشمائل

سجد الله (حسن)

داخرون (تام)

من دابة (جائز)

والملائكة (أرقى) مما قبله أي وتسجد له الملائكة طوعاً

(15/431)

---

لا يستكبرون (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع الحال ومن حيث كونه رأس آية يجوز

من فوقهم (جائز)

ما يؤمرون (تام) ومثله إلهين اثنين . للابتداء بإنّما

إله واحد (جائز) وكره بعضهم الابتداء بما بعده لأنَّ الرهبة لا تكون إلاَّ من الله تعالى فإذا ابتدأ بفاياي فكأنَّه أضاف الرهبة إلى نفسه في ظاهر اللفظ وإن كان معلوماً أنَّ الحكاية من الله تعالى كما تقدم في أول البقرة

فارهبون (كاف)

والأرض (جائز)

واصباً (حسن) للابتداء بالاستفهام واصباً أي دائماً

تتقون (تام)

فمن الله (حسن)

تجأرون (كاف) وثم لترتيب الأخبار مع شدة اتصال المعنى

يشركون (كاف) إن جعلت اللام لام الأمر بمعنى التهديد وليس بوقف إن جعلت للتعليل أي إنَّما كان غرضهم بشركهم كفران النعمة وكذا إن جعلت للصيرورة والمآل أي صار أمرهم ليكفروا وهم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا بل آل أمرهم ذلك إلى الكفر بما أنعم عليهم بما آتيناهم (حسن)

فسوف تعلمون (كاف) ومثله مما رزقناكم وكذا تفترون

(16/431)

---

سبحانه (تام) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف ما بعده على لله البنات أي ويجعلون لهم ما يشتهون ويصير ولهم ما يشتهون مفعول ويجعلون فلا يوقف على سبحانه قال الفراء فجعله منصوباً عطفاً على البنات يؤدي إلى تعدي فعل الضمير المتصل وهو واو ويجعلون إلى ضميره المتصل وهو هم في لهم قال أبو اسحق وما قاله الفراء خطأ لأنَّه لا يجوز تعدّي فعل الضمير المتصل ولا فعل الظاهر إلى ضميرهما المتصل إلاَّ في باب ظن وأخواتها

من أفعال القلوب وفي فقد وعدم فلا يجوز زيد ضربه ولا ضربه زيد أي ضرب نفسه ولا ضربتك ولا ضربتني بل يؤتى بدل الضمير المنصوب بالنفس فتقول ضربت نفسك وضربت نفسي ويجوز زيد ظنه قائماً وظنه زيد قائماً وزيد فقده وعدمه وفقده وعدمه زيد ولا يجوز تعدي فعل الضمير المتصل إلى ظاهره في باب من الأبواب فلا يجوز زيد ضربه أي ضرب نفسه وفي قوله إلى ضميرهما المتصل قيدان أحدهما كونه ضميراً فلو كان ظاهراً كالنفس لم يمنع نحو زيد ضرب نفسه وضرب نفسه زيد والثاني كونه متصلاً فلو كان منفصلاً جاز نحو زيد ما ضرب إلاَّ إياه وما ضرب زيد إلاَّ إياه وعلل هذه المسئلة وأدلتها مذكورة في غير هذا الموضوع أنظرها في شرح التسهيل قاله السمين مع زيادة للإيضاح

ما يشتهون (كاف)

مسوداً ليس بوقف لأنَّ ما بعده من تتمته

كظيم (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده في موضع الحال ومن حيث كونه رأس آية يجوز

ما بشربه (جائز)

في التراب (حسن) للابتداء بأداة التنبيه وذكر الضمير في به ويمسكه حملاً على لفظ ما وإن كان أريد به الأنثى

ما يحكمون (تام)

مثل السوء (حسن) قال الكواشي السوء بالفتح الرداءة والفساد وبالضم الضر والمكروه وقيل بالفتح الصفة وبالضم المضرة والمكروه ولا تضم السين من قوله ما كان أبوك امرأ سوء ولا من ظننتم ظن السوء لأنَّه ضد قولك رجل صدق وليس للسوء هنا معنى من عذاب أو بلاء فيضم راجعه في سورة براءة إن شئت

(17/431)

---

ولله المثل الأعلى (كاف)

الحكيم (تام) ولا وقف إلى قوله مسمى فلا يوقف على بظلمهم لأنَّ جواب لو لم يأت ولا على من دابة للاستدراك بعده

إلى أجل مسمى (صالح)

ولا يستقدمون (تام)

ما يكرهون (كاف) ومثله الحسنى

النار ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

مفرطون (تام)

أعمالهم (جائز) ومثله فهو وليهم اليوم

عذاب أليم (تام)

اختلفوا فيه ليس بوقف لأنَّ ما بعده نصب على أنَّهما مفعول من أجله عطف على ليبين والناصب لهما أنزلنا

يؤمنون (تام)

ماءً ليس بوقف لمكان الفاء

بعد موتها (حسن)

يسمعون (تام)

لعبرة (جائز) لمن قرأ نسقيكم بالنون استئنافاً لأنَّه لا يجوز أن تكون الجملة خبر مبتدأ محذوف أي هي أي العبرة نسقيكم ويجوز أن تكون مفسرة للعبرة كأنَّه قيل كيف العبرة فقيل نسقيكم من بين فرث ودم لبناً خالصاً لأنَّه إذا استقر علف الدابة في كرشها طبخته فكان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً سبحانه من عظيم ما أعظم قدرته

للشاربين (تام) إن جعل ما بعده مستأنفاً متعلقاً بتتخذون وجائز إن جعل معطوفاً على مما في بطونه أي ونسقيكم مما في بطونه ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب والوقف على هذا على قوله والأعناب

ورزقاً حسناً (كاف)

يعقلون (تام)

بيوتاً ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

يعرشون (كاف) ومثله ذللاً

مختلف ألوانه (حسن)

(18/431)

---

يخرج من أفواه النحل وذلك أنَّ العسل ينزل من السماء فينبت في أماكن فيأتي النحل فيشربه ثم يأتي الخلايا التي تصنع له والكوى التي تكون في الحيطان فيلقيه في الشمع المهيأ للعسل في الخلايا كما يتوهمه بعض الناس أنَّ العسل من فضلات الغذاء وأنَّه قد استحال في المعدة عسلاً ونزل من السماء عشرة أشياء مع العسل قاله الكواشي قال ابن حجر فعلى أنَّه يخرج من فم النحل فهو مستثنى من القيء وعلى أنَّه من دبرها فهو مستثنى من الروث وقيل من ثقبتين تحت جناحها فلا استثناء إلاَّ بالنظر إلى أنَّه كاللبن وهو من غير المأكول نجس اهـ قال السمين نقلوا في العسل التذكير والتأنيث وجاء القرآن على التذكير في قوله من عسل مصفى وكنى بالعسيلة عن الجماع لمشابهتهما قال عليه الصلاة والسلام لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك ومختلف ألوانه حسن إن جعل الضمير في فيه للقرآن أي في القرآن من بيان الحلال والحرام والعلوم شفاء للناس وليس بوقف إن أعيد على العسل المذكور 0

فيه شفاء للناس (كاف)

يتفكرون (تام)

يتوفاكم (حسن)

شيأً (كاف)

قدير (تام)

في الرزق (كاف) للابتداء بعد بالنفي ولاختلاف الجملتين 0

فهم فيه سواء (كاف) المالك والمملوك الكل مرزوقون قال بعضهم في الرزق :

ولا تقولن لي فضل على أحد الفضل لله ما للناس افضال

يجحدون (كاف) وقيل تام 0

أزواجاً (جائز) ومثله حفدة

من الطيبات (كاف) للابتداء بالاستفهام

يكفرون (كاف) ومثله لا يستطيعون وكذا الأمثال 0

وأنتم لا تعلمون (تام) ولا وقف من قوله ضرب الله إلى قوله وجهراً فلا يوقف على لا يقدر

ولا على حسناً للعطف في كل 0

سراً وجهراً (جائز)

هل يستوون (حسن) لأنّه من تمام القول 0

لا يعلمون (كاف)

(19/431)

---

رجلين (جائز) أحدهما أبكم وهو أبو جهل والذي يأمر بالعدل عمار بن ياسر العنسي بالنون نسبة إلى عنس وعنس حيّ من مذحج وكان حليفاً لبني مخزوم رهط أبي جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمه سمية وكانت مولاة لأبي جهل فقال لها يوماً إنّما آمنت بمحمد لأنّك تحبيه لجماله ثم طعنها بحربة في قلبها فماتت فهي أوّل شهيد في الإسلام وقيل الكل الصنم عبدوه وهو لا يقدر على شيء فهو كلٌ على مولاه يحمله إذا ظعن ويحوله من مكان إلى آخر فقال الله هل يستوي هذا الصنم الكل ومن يأمر بالعدل فهو استفهام ومعناه التوبيخ فكأنّه قال لا تسووا بين الصنم وبين الخالق جلّ جلاله وفي الكلام حذف المقابل لقوله أحدهما أبكم كأنّه قيل والآخر ناطق فيما له وهو خفيف على مولاه أينما يوجهه يأت بخير وحذفت الياء من يأت بخير تخفيفاً كما حذفت في قوله يوم يأت لا تكلم نفس أو حذفت على توهم الجازم قرأ طلحة وعلقمة أينما يوجهه بهاء واحدة ساكنة للجزم والفعل مبني للمفعول وقريء أينما توجه فعلاً ماضياً فاعله ضمير الأبكم انظر السمين 0

على مولاه (جائز) لأنَّ الجملة بعد صفة أحدهما 0

أينما يوجهه لا يأت بخير (حسن)

هل يستوي هو ليس بوقف لأنَّ ومن معطوف على الضمير المستكن في يستوي وهو توكيد له 0

بالعدل (صالح) لأنَّ ما بعده يصلح مستأنفاً وحالاً 0

مستقيم (تام)

والأرض (حسن) للابتداء بعد بالنفي 0

أو هو أقرب (كاف)

قدير (تام)

شياً (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف على ما قبله 0

تشكرون (تام)

في جو السماء (كاف) للابتداء بالنفي 0

إلا الله (أكفى منه)

يؤمنون (تام)

سكناً (جائز)

إقامتكم (حسن) على استئناف ما بعده 0

إلى حين (كاف)

ظلالاً (جائز) ومثله أكناناً

الحر ليس بوقف لأنَّه لم يعد الفعل بعده كما أعاده في الذي قبله وإنَّما أراد تقيكم الحر والبرد فاجتزى بذكر الحر لأنَّ ما يقي من الحر يقي من البرد 0

بأسكم (جائز)

(20/431)

---

عليكم ليس بوقف لحرف الترجي بعده وهو في التعلق كلام الكافي 0

تسلمون (تام) للابتداء بالشرط ومثله المبين 0

ينكرونها (جائز) قال السدي نعمة الله يعني نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم ينكرونها وقيل هو قول الشخص لولا فلان لكان كذا ولولا فلان لما كان كذا وفي الحديث إياكم ولو فإنَّها تفتح عمل الشيطان 0

الكافرون (تام) ومثله يستعتبون وكذا ينظرون ولا وقف من قوله وإذا رأى إلى قوله من دونك 0

ومن دونك (جائز)

إليهم القول ليس بوقف لأنَّ ما بعده خطاب العابدين للمعبودين واجهوا من كانوا يعبدونهم بأنهم كاذبون 0

لكاذبون (كاف)

السلم (جائز)

يفترون (تام) ومثله يفسدون إن نصب إذ باذكر مقدراً فيكون من عطف الجمل مفعولاً به

من أنفسهم (حسن) وقال نافع تام 0

على هؤلاء (حسن)

تبياناً لكل شيء ليس بوقف لأنَّ ما بعده منصوب بالعطف على ما قبله 0

للمسلمين (تام) ورسموا وإيتاءي بزيادة ياء بعد الألف كما ترى 0

ذي القربى (كاف)

والبغي (أكفى) وقيل صالح لأنَّ ما بعده يصلح مستأنفاً وحالاً 0

تذكرون (تام)

إذا عاهدتم (حسن) ومثله بعد توكيدها

كفيلاً (كاف) ومثله تفعلون

أنكاثاً (حسن) لأنَّ الاستفهام بعده مقدر أي أتتخذون وقيل الاستفهام لا يضمر ما لم يأت بعده أم وليس في الآية ذكر أم وأجاز الأخفش حذفه إذا كان في الكلام دلالة عليه وإن لم يكن

بعده أم وجعل منه وتلك نعمة تمنها عليّ

دخلا بينكم ليس بوقف لأنَّ أن موضعها نصب بما قبلها

هي أربى من أمة (كاف) للابتداء بإنّما ومثله يبلوكم الله به وقال نافع تام

تختلفون (تام)

أمة واحدة ليس بوقف للاستدراك بعده

ويهدي من يشاء (كاف)

تعملون (تام) على استئناف النهي بعده عن اتخاذ الإيمان على العموم سواء كانت في مبايعة

أو قطع حقوق مالية أم لا دخلاً بينكم ليس بوقف أيضاً لأنَّ فنزل منصوب على جواب

النهي فلا يفصل منه

بعد ثبوتها ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله

عن سبيل الله (جائز)

عظيم (تام)

ثمناً قليلاً (كاف) للابتداء بإنَّما

تعلمون (كاف) ومثله ينفد وكذا باق على قراءة من قرأ ولنجزينه بالنون لعدوله عن المفرد إلى الجمع لفظاً مع أنَّهما ضميرا من ومن قرأه بالتحتية فوصله أحسن

يعملون (تام)

وهو مؤمن ليس بوقف لأنَّ جواب الشرط لم يأت بعد ومثله في عدم الوقف طيبة لعطف ما بعده على جواب الشرط

يعملون (تام) للابتداء بالشرط

الرجيم (كاف) على استئناف ما بعده

على الذين آمنوا (جائز)

يتوكلون (كاف)

مشركون (تام)

مكان آية ليس بوقف لأن قالوا جواب إذا فلا يفصل بين الشرط وجوابه وقوله والله أعلم بما ينزل جملة اعتراضية بين الشرط وجوابه

مفتر (كاف)

لا يعلمون (تام)

ليثبت الذين آمنوا (حسن) إن جعل موضع وهدى رفعاً على الاستئناف وليس بوقف إن

جعل موضعه نصباً

للمسلمين (تام)

إنَّما يعلمه بشر (تام) وجملة لسان الذي مستأنفة وقيل حال من فاعل يقولون أي يقولون ذلك والحالة هذه أي علمهم بأعجمية هذا البشر وآياته عربية هذا القرآن كانت تمنعهم من تلك المقالة قاله أبو حيان قال ابن عباس كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له بلعام فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه الإسلام ويوقفه عليه فقال المشركون إنَّما يعلمه بلعام النصراني فنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية وقيل غير ذلك

أعجمي (جائز)

مبين (تام)

لا يؤمنون بآيات الله ليس بوقف لأنَّ خبر إن لم يأت بعد وهو لا يهديهم الله

وقوله لا يهديهم الله قيل (كاف) على استئناف ما بعده وجائز إن جعل ما بعده في موضع الحال

أليم (تام)

بآيات الله (جائز)

الكاذبون (تام) لأنَّ من كفر في محل رفع وهو شرط محذوف الجواب لدلالة جواب من شرح عليه والمعنى من كفر بالله فعليهم غضب إلاَّ من أكره ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم

غضب وإن جعل من بدلاً من الذين لا يؤمنون أو من الكاذبون لم يتم الوقف على الكاذبون ولم يجز الزجاج إلاَّ أن تكون بدلاً من الكاذبون انظر أبا حيان

(22/431)

---

مطمئن بالإيمان ليس بوقف لتعلق ما بعده به استدراكاً وعطفاً

غضب من الله (كاف) على استئناف ما بعده

عظيم (كاف)

على الآخرة ليس بوقف لعطف وإن على بأنهم لأن موضعها نصب بما قبلها

الكافرين (تام)

وأبصارهم (جائز)

الغافلون (تام)

في الآخرة (جائز) إن جعل إنَّهم متصل بفعل محذوف تقديره لا جرم إنهم يحشرون في الآخرة وإلاَّ فليس بوقف

الخاسرون (كاف)

وصبروا (حسن) وكذا لغفور رحيم . إن نصب يوم بفعل مقدر تقديره أذكر يوم فهو مفعول

به وكذا يجوز نصبه برحيم ولا يلوم من ذلك تقييد رحمته تعالى بالظرف لأَّنه إذا رحم في هذا اليوم فرحمته في غيره أولى وأحرى قاله السمين وحينئذ فلا يوقف على رحيم

ما عملت (جائز)

لا يظلمون (تام) ولا وقف من قوله وضرب الله إلى يصنعون فلا يوقف على مطمئنة ولا على من كل مكان ولا على بأنعم الله

يصنعون (كاف)

فأخذهم العذاب (جائز)

ظالمون (تام)

طيباً (جائز)

واشكروا نعمة الله ليس بوقف لأنَّ الشرط الذي بعده جوابه الذي قبله

تعبدون (تام)

لغير الله به (كاف)

رحيم (تام)

الكذب الثاني (حسن) لا الأول لأنَّ قوله هذا حلال وهذا حرام داخل في حكاية قولهم تفسير للكذب فلا يفصل بين المفسر والمفسر بالوقف ولا يوقف على حلال ولا على حرام لأنَّ اللام موضعها نصب بما قبلها

إنَّ الذين يفترون على الله الكذب ليس بوقف لأنَّ خبر إن لم يأت وهو لا يفلحون وهو تام

متاع قليل (حسن) على استئناف ما بعده

أليم (كاف)

من قبل (حسن)

يظلمون (كاف)

وأصلحوا قال السجاوندي ليس بوقف لتكرار إن مع اتحاد الخبر وحسنه أبو العلاء الهمداني

رحيم (تام)

حنيفاً (كاف) وهو حال من إبراهيم

من المشركين (كاف) على أنَّ شاكراً حال من الهاء في اجتباه لتعلقه به كأنَّه قال اختاره في حال ما يشكر نعمة ومن جعل شاكراً خبر كان وقفه على لأنعمه لتعلقه به ومن أعرب شاكراً بدلاً من حنيفاً فلا يقف على شيء من أنَّ إبراهيم إلى لأنعمه لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يقطع

مستقيم (كاف)

وآتيناه في الدنيا حسنة (حسن) قال ابن عباس هو الثناء الحسن وروى عنه أنَّها العافية والعمل الصالح في الدنيا

لمن الصالحين (حسن)

حنيفاً (جائز)

من المشركين (تام)

اختلفوا فيه (كاف) وقال نافع تام قال الكلبي أمرهم موسى بالجمعة وقال تفرغوا لعبادة الله في كل سبعة أيام يوماً واحداً فاعبدوه يوم الجمعة ولا تعملوا فيه صنعتكم شيأً واجعلوا ستة أيام لصنعتكم فأبوا وقالوا لا نريد إلاَّ اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق ولم يخلق الله فيه شيأً وهو يوم السبت فجعل عليهم وشدد فيه وجاءهم عيسى بالجمعة فقالوا لا نريد أن يكون عيد اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الأحد فقال تعالى إنَّما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه يعني في يوم الجمعة تركوا تعظيم يوم الجمعة الذي فرض الله تعظيمه عليهم واستحلوه واختاره نبينا فدل ذلك على أنَّه كان في شريعة إبراهيم التي أمر الله نبيه باتباعها وبين أنّ السبت لم يكن في شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

يختلفون (تام)

والموعظة الحسنة (كاف) للابتداء بالأمر وكذا بالتي هي أحسن

عن سبيله (جائز)

بالمهتدين (تام)

ما عوقبتم به (كاف)

للصابرين (حسن)

واصبر (جائز)

وما صبرك إلاَّ بالله (حسن)

ولا تحزن عليهم (كاف)

مما يمكرون (تام)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ 428 . 446 ﴾

(24/431)

---

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة النحل 1 :

بسم الله الرحمن الرحيم 2

قرأ الزهري "دِفُ3" . بغير همز .

قال أبو الفتح : هذه القراءة أقيس من قراءته الأخرى التي هو قول الله عز وجل : "جُزْءٌ مَقْسُومٌ4" ، بتشديد الزاي . وذلك أنه هنا خفف لا غير . فحذفت الهمزة وألقى حركتها على الفاء قبلها . كقولك في مسألة : مسلة . وفي يلوم : يلم ، وفي يزئر يزر . فكان قياس هذا أن يقول : "جُزٌّ مَقْسُومٌ" ، إلا أنه سلك في كل من القراءتين طريقا إحداهما أقوى من الأخرى .

ومن ذلك قراءة أبي جعفر وعمرو بن ميمون وابن أرقم ، ورويت عن أبي عمرو : "بِشَقِّ الْأَنفُس5" ، بفتح الشين .

قال أبو الفتح : الشَقّ ، بفتح الشين بمعنى الشِقّ بكسرها وكلاهما المشقة6 ، قرأت على أبي علي في نوادر أبي زيد لعمرو بن مِلْقَط

. وهو جاهليي :

والخيل قد تجشم أربابها الشَّـقّ وقد تعتسف الراوية7

هكذا الرواية بفتح الشين ، وكلاهما من الشَّق في العصا ونحوها ؛ لأنه آخذ منها وواصل إليها . كالمشقة التي تلحق الإنسان .

---

1 كذا في ك ، وفي الأصل : ومن ذلك سورة النحل .

2 كذا في ك ، ولم تكتب البسملة في الأصل .

3 سورة النحل : 5 .

4 انظر ص4 من هذا الجزء .

5 سورة النحل : 7 .

6 في اللسان : الشِّق ، بالكسر : الجهد ، وكأنه اسم ، وكأن الشق فعل "أي مصدر" . وفي البحر "5 : 476" : هما مصدران ، وقيل : الشّق ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم .

7 اعتسف البعير : أشرف على الموت من الفدة . فجعل يتنفس فترجف حنجرته . والراوية : ما يُستقَى عليه من بغل أو حمار . رواه اللسان "شق" ، ولم نعثر عليه في النوادر .

(25/431)

---

ومن ذلك قراءة أبي عياض "لِتَرْكَبُوهَا زِينَةً1" ؛ بل واو .

قال أبو الفتح : لك في نصب "زِينَةً" وجهان : إن شئت كان معلقا بما قبله ، أي : خلقها زينة لتركبوها ، وإن شئت كان على قولك : لتركبوها زينة ، فزينة هنا حال من "ها" في "لتركبوها" ، ومعناه : كقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ .

ومن ذلك قراءة [90و] الحسن : "وَبِالنُّجُمِ هُمْ يَهْتَدُونَ2" ، وقرأ يحيى : "وبالنُّجْمِ" بضم النون ساكنة الجيم .

قال أبو الفتح : النُّجُم جمع نَجْم ، ومثله مما كسر من فَعْل على فُعُل : سَقْف وسُقُف ، ورَهْن ورُهُن ، ونحوه ثَطٌّ 3 وثُطٌّ . وقال أبو حاتم : سمعت أبا زيد يقول : رجل أَثَطٌّ ، فقلت له : أتقولها ؟ فقال : سعتها – وكَثُّ اللحية وكُثٌّ ، وفرس وَرْد 4 وخيل وُرْد ، وسهم حَشْر 5 وسهام حُشْر .

وإن شئت قلت : أراد النجوم ، فقصر الكلمة فحذف واوها ، فقال : النُجُم . ومثله من المقصور من فُعُول قول أبي بكر في أُسد : إنه مقصور من أُسُود فصار أُسُد ، ثم أسكن فقال 6 : أُسْد 7 . ومثله قوله أيضا في ثِيَرَةٍ جمع ثَوْر : إنه مقصور من ثِيَارَة ؛ فلذلك وجب عنده قلب الواو من ثور ياء ، ولو كان مُكسَّرًا على فِعَلَة لوجب تصحيحه فقيل : ثِوَرَة ، كزَوْج وزِوَجَة وعَوْد وعِوَدَة .

وقال الراجز :

إن الفقير بيننا قاضٍ حَكَم أن ترد الماء إذا غابَ النُّجُم 7

يريد النجوم . وقال الأخطل :

كلمعِ أَيدِي مثاكِيل مسلَّبَةٍ يندُبْنَ ضرسَ بناتِ الدهْرِ والخُطُب 7

يريد الخطوب . وقد ذكرنا نحو هذا فيما مضى .

---

1 سورة النحل : 8

2 سورة النحل : 16

3 من معاني الثط : الثقيل البطن .

4 فرس ورد : أحمر إلى صفرة .

5 سهم حشر : دقيق النصل ، وأصل الحشر الدقيق من الأسنة .

6 في ك : فقيل .

7 انظر الصفحة 199 من الجزء الأول .

*(26/431)*

---

وعليه أيضا قراءة يحيى : "وبالنُّجْم" ساكنة الجيم ، كأنه مخفف من النُّجُم كلغة تميم في قولهم : رسْل ، وكتْب .

ومن ذلك قراءة السلمى : "إِيَّانَ يُبْعَثُونَ1" .

قال أبو الفتح : فيه لغتان : أيان ، وإيان ، بالفتح والكسر وقد مضى فيما قبل2 .

ومن ذلك قراءة مجاهد : "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السُّقُفُ مِنْ فَوْقِهِمْ3" ، و"لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا4" .

قال أبو الفتح : الذي قلناه آنفا5 في "النُّجُم" هو شرح لهذه القراءة .

ومن ذلك قراءة الحسن وإبراهيم وابن خيرة : "إِنْ تَحْرَصْ" ، بفتح الراء .

قال أبو الفتح : فيه لغتان : حَرَصَ يحرِص وهي أعلاهما ، وحرِصْتُ أحرَص . وكلاهما من

معنى السحابة الحارصة ، وهي التي تقشِر وجه الأرض . وشجة حارصة : التي تقشِر

جلدة الرأس ، فكذلك الحرص ، كأنه ينال صاحبه من نفسه لشدة اهتمامه بما هو حريص

عليه ، حتى يكاد يحُت7 مستَقَرَ فكره .

ومن ذلك قراءة الناس : ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً8﴾ بالباء ، وروي عن علي "عليه

السلام" : "لَنُثْوِيَنَّهُمْ" ، بالثاء .

قال أبو الفتح : نصب الحسنة هنا أي : يحسن إليهم إحسانا ، وضع حسنة موضع إحسان

، كأنه واحد من الحَسَن دال عليه ، ودل قوله تعالى : ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ على ذلك الفعل ؛ لأنه

إذا

---

1 سورة النحل : 21 .

2 انظر الصفحة 268 من الجزء الأول .

3 سورة النحل : 26 .

4 سورة الزخرف : 33 .

5 في ك : أيضا .

6 سورة النحل : 37 .

7 حتَّ الشجرَ : قشره وأسقط ورقه .

8 سورة النحل : 41 .

أقرهم في الأرض بإطالة مدتهم ومدة خلفهم فقد أحسن إليهم، كما قال سبحانه: ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ 1 ﴾، وذلك ضدُّ ما يعمل بالعاصين الذين يسحَتُ 2 أعمارهم، ويصطلِمُهُم بذنوبهم وجرائم أفعالهم.

ومن ذلك قراءة الثقفي 3: "تَتَفَيَّأُ ظُلَلُهُ 4"، وقراءة الناس: ﴿ ظِلالُهُ ﴾.

قال أبو الفتح: الظُّلَل: جمع ظُلّة، كحِلّة وحُلَل، وجلّة وجُلَل. وقد يكون ظِلال جمع ظُلَّة أيضا، كجُلَّة وجِلال. وقالوا أيضا: حُلّة وحِلال، بالحاء غير معجمة. وقد يكون ظِلال جمع ظِلّ، كشِعْب وشِعاب، وبِئْر وبِئار، وذِئب وذِئاب.

ومن ذلك قراءة الزهري: "تَجَرُون 5"، بغير همز.

قال أبو الفتح: هذا في قوة القياس كقراءته أيضا 6 [90ظ]: "لَكُمْ فِيهَا دِفٌ 7"، وأصله "تَجْأَرُون"؛ فخفف الهمزة بأن ألقاها ونقل فتحتها إلى الجيم، فصار "تَجَرُونَ"، كقولك في تخفيف يَسْأَلون: يَسَلُون، وفي يَسْأَمُون: يَسَمون. ونظائره كثيرة قوية.

ومن ذلك ما يُروى عن قتادة: "ثُمَّ إِذَا كَاشَفَ الضُّرَّ 8"، بألف.

قال أبو الفتح: قد جاء عنهم فاعَل من الواحد يراد به فعَل، نحو طارَقْتُ النعل، أي:

طرقْتُها ، وعاقَبْتُ اللصَّ ، وعافاه الله ، وقانَيْتُ اللونَ ، أي : خلطته ، في أحرف غير هذه ، فكذلك يكون "ثُمَّ إِذَا كَاشَفَ الضُّرَّ" أي : كشف . ونحوه منه في المعنى والمثال : راخيتُ من خناقه ، أي أرخيْتُ .

---

1 سورة النور : 55

2 سحته : أهلكه واستأصله ، ومثله اصطلمه .

3 الثقفي ساقطة في ك .

4 سورة النحل : 48 .

5 سورة النحل : 53 .

6 أيضا ساقطة في ك .

7 سورة النحل : 5 ، وانظر الصفحة السابعة من هذا الجزء .

8 السورة السابقة : 54 .



---

ومن ذلك قراءة مكحول عن أبي رافع ، قال : حفظت عن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : "فَيُمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ1" ، بالياء .

قال أبو الفتح : هو معطوف على الفعل المنصوب قبله ، أي "لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَيُمَتَّعُوا" ، ثم قال من بعد : "فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" .

ومن ذلك قراءة معاذ : "وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذُبُ2" بضم الكاف والذال والباء .

قال أبو الفتح : هو وصف الألسنة ، جمع كاذب أو كذوب . ومفعول "تَصِفُ" قوله تعالى : ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ ، وهو على قراءة الجماعة ﴿ الْكَذِبَ ﴾ مفعول "تصف" ، "وأَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى" بدل من "الْكَذِبَ" ؛ لأنه في المعنى كذب .

ومن ذلك قراءة الثقفي : "سَيْغًا3" ، وقراءة الناس : "سَائِغًا" .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون "سَيْغ" هذا محذوفا من سَيِّغ ، كمَيْت ومَيِّت ، وهَيْن وهَيِّن4 ؛ وذلك أنه من الواو ، لقولهم ساغ شرابهم يسُوغ . ولو كان سيْغ فعْلا لكان "سوْغا" . ومنه قولهم : هو أخوه سوْغُه ، أي : قابل5 له غير متباعد عنه ، كالشراب إذا قبلتْهُ نفسُ شارِبِه ، ولم تنبُ عنه .

ومن ذلك قراءة ابن مسعود وعلقمة ويحيى ومجاهد وطلحة : "أَيْنَمَا يُوَجِّهْ6" ، وروي عن علقمة : "يُوَجَّهْ" ، بفتح الجيم .

قال أبو الفتح : أما "يُوَجِّهْ" ، بكسر الجيم فعلى حذف المفعول ، أي أينما يوجِّه وجهَه ؛ قال أبو الفتح : أما "يُوَجَّهْ" ؛

---

1 سورة النحل : 55 .

2 السورة السابقة : 62 .

3 من قوله تعالى في سورة النحل : 66 .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ .

4 في ك : كمَيْت من مَيِّت ، وهَيْن من هَيِّن .

5 في ك : قائل ، وهو تحريف .

6 سورة النحل : 76 .

(29/431)

---

فحذف للعلم به . وأما "يُوجَّهْ" ، بفتح الجيم ، أي أينما يرسل أو يبعث 1 لا يأت بخير .

ومن ذلك قراءة الحسن : "بَشَرٌ اللِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ 2" ، بألف ولام .

قال أبو الفتح : ليس قوله : "اللِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ" جملة في موضع صفة "بَشَر" ، ألا تراها خالية من ضميره ؟ وكذلك أيضا هي خالية منه في قراءة الجماعة : ﴿ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ، ولأن المعنى أيضا ليس على كونها وصفا ، وإنما الوقف على قوله : "بَشَر" ، ثم استأنف الله تعالى القول ردا عليهم ، فقال : ﴿ لِسَانُ

الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يميلون بالتهمة إليه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾، ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، أي: فكيف يعلم الأعجمي العربية.

ولهذا قال سبحانه: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾، ولم يقل: عجمي، وذلك أن "الأعجمي" هو الذي لا يفصح وإن كان عربيا. والعجمي هو المنسوب للعجم3 وإن كان فصيحا، ألا ترى أن سيبويه كان عجميا فإن كان لسان4 اللغة العربية فقال الله تعالى: لسان هذا المتهم بأنه يعلمه أعجم، فكيف يجوز أن يعلم العربية وهو لا يفصح؟ [91و] فأعجميٌّ من أعجم بمنزلة أحمريٍّ من أحمر، وأشقريٍّ من أشقر، ودوّاريٍّ من دوّار، وكلابيٍّ5 من كِلَّاب. وقد مضى ذلك.

ومن ذلك قراءة الأعرج وابن يعمر والحسن -بخلاف- وابن أبي إسحاق وعمرو ونعيم بن ميسرة: "أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبِ6"، وقرأ "الْكُذُبَ" يعقوب، وقرأ "الْكُذُبُ" مسلمة بن محارب، وقراءة الناس: ﴿الْكَذِبَ﴾.

قال أبو الفتح: أما "الْكَذِبِ" بالجر فبدل من "ما" في قوله: "وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ" أي: لا تقولوا للكذبِ الذي تصف ألسنتكم.

---

1 في ك: وبعث.

2 سورة النحل: 103.

3 في ك: إلى العجم.

4 كذا في الأصل، وفي ك: وإن كان. والظاهر أن العبارة: وإن كان لسانه اللغة العربية.

5 انظر المحتسب: 1: 310، 311.

6 سورة النحل: 116.

(30/431)

---

وأما "الكُذُبَ" بالنصب فجمع كِذَاب، ككِتَاب وكُتُب. يقال: كذَب الرجل يكذِب كَذِبًا وكِذَابا، وهو رجل كَيْذَبَان، وكِيْذَبان، وكَذَبْذَب. ويقال أيضا: مَكْذَبَان، كمَلْكَعَان1.

وجاز جمع الكِذَاب لأنه ذُهِبَ به مذهب النوع، ولو أُرِيدَ به الجنس لكان جمعُه مستحيلا. والكُذُبُ وصف الألسنة، وقد تقدم مثله.

ومن ذلك قراءة ابن سيرين: "وَإِنْ عَقَّبْتُمْ فَعَقِّبُوا2".

قال أبو الفتح: معناه إن تتبعتم فتتبعوا بقدر الحق الذي لكم، ولا تزيدوا عليه. قال لبيد:

حتى تَهَجَّرَ في الرواحِ وهاجَهُ طلبُ المعقِّب حقَّه المظلوم3

أي هاجه طلبا4 مثل طلب المعقب حقه المظلوم، أي عاذه ومنعه المظلومُ، فـ"حَقَّه" على هذا فِعْلٌ: حَقَّه يَحُقُّه، أي لَوَاهُ حقَّه. ويجوز: طلبَ المعقِّب حقه، فتنصب "حقه" بنفس الطلب مع نصب "طلب" كما تنصبه، أي الحق مع رفعه، أي الطلب. والمظلوم

صفة المعقب على معناه دون لفظه، أي أن طلب المعقب المظلوم حقه في الموضعين جميعا

5. انتهى انتهى. اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 12.6﴾

---

1 الملكعان: اللئيم، وهو ومكذبان مما يلازم النداء. وانظر الهمع: 1: 178.

2 سورة النحل: 126.

3 ضمير هاجه لحمار الوحش، وروي "هاجها"، فتكون "ها" لأتانه. والمعقب: صاحب المال طلب حقه مرة بعد مرة. وتهجر في الرواح: عجل الرواح إلى الماء. والديوان: 128.

4 كذا في النسختين، ورفع "طلب" في البيت يقتضي أن يكون التأويل: وهاجه طلب مثل طلب المعقب.

5 زاد في ك: أي في نصب الطلب ورفعه.



---

وقال العلامة الدمياطى:

سورة النحل

مكية غير ثلاث ﴿وإن عاقبتم إلى آخرها ﴾

وآيها مائة وعشرون وثمان آيات شبه الفاصلة اثنا عشر قصد السبيل وما يشعرون ما تسرون وما يعلنون ما يشاؤن طيبين ما يكرهون يؤمنون هل يستوون وباق قليل وعكسه خمسة ما لا تعلمون وما تعلنون وهم مستكبرون فيكون لا يفلحون القرآآت أمال أتى ابن ذكوان في رواية الأكثرين عن الصوري عنه وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله سبحانه وتعالى إلا أن ابن ذكوان بفتحه

وقرأ ( عما يشركون ) الآية 1 3 معا بتاء الخطاب حمزة والكسائي وخلف وسبق بيونس

واختلف في ( ينزل الملائكة ) الآية 2 فروح بالتاء من فوق مفتوحة وفتح الزاي المشددة مثل ( تنزل ) في سورة القدر المتفق عليه ( الملائكة ) بالرفع على الفاعلية وافقه الحسن والباقون بالياء مضمومة وكسر الزاي ونصب الملائكة وهم في تشديد الزاي على أصولهم فابن كثير وابو عمرو ورويس بسكون النون وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون مع التشديد للزاي وأثبت الياء في فاتقون في الحالين يعقوب ووقف حمزة وهشام بخلفه على دفء بالنقل مع إسكان الفاء والروم والإشمام

واختلف في ( بشق الأنفس ) الآية 7 فأبو جعفر بفتح الشين وافقه اليزيدي فخالف أبا عمرو والباقون بكسرها مصدران بمعنى واحد المشقة وقيل الأول مصدر والثاني اسم وقيل بالكسر نصب الشيء قال القاضي كأنه ذهب نصف قوته بالتعب

وقرأ ( لرؤوف ) الآية 7 بقصر الهمز أبو عمرو وابو بكر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب

وأشم قصد السبيل حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلفه

وأمال شاء حمزة وخلف وابن ذكوان وهشام بخلفه

واختلف في (ينبت) الآية 11 فأبو بكر بالنون والباقون بياء الغيبة

وقرأوالشمس والقمر) الآية 12 برفعهما ابن عامر وقرأ هو وحفص والنجوم مسخرات بالرفع فيهما ومر بالأعراف

(32/431)

---

وأمال (وترى الفلك) الآية 14 وصلا السوسي بخلفه وعن الحسن وبالنجم بضم النون وسكون الجيم هنا وفي سورة النجم على أنها مخففة من قراءة ابن وثاب بضم النون والجيم أو لغة مستقلة والجمهور على فتح النون وسكون الجيم فقيل المراد به كوكب بعينه كالجدي والثريا وقيل هواسم جنس

وقرأ (أفلا تذكرون) الآية 17 بتخفيف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف ومر بالأنعام

واختلف في ﴿ والذين تدعون ﴾ الآية 20 فعاصم ويعقوب بياء الغيبة على الالتفات من خطاب عام للمؤمنين إلى غيب خاص للكافرين وافقهما الحسن والباقون بتاء الخطاب

مناسبة لتسرون التفاتا من الخطاب العام إلى الخاص وأشم قاف قيل هشام والكسائي ورويس

وأمال أوزار أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والدوري عن الكسائي وقلله الأزرق وتقدم نظير عليهم السقف وعن ابن محيصن السقف بضم السين والقاف على الجمع

(33/431)

---

واختلف في ( شركائي الذين ) الآية 27 فالبزي بخلف عنه بحذف الهمزة على لغة قصر الممدود ذكره الداني في التيسير واتبعه الشاطبي لكن قال في النشر وهو وجه ذكره الداني حكاية لا رواية وبين ذلك وأنه ثبت من طرق أخرى عن البزي ثم قال وليس في ذلك شيء يؤخذ به من طرق كتابنا أي فضلا عن طرق الشاطبية وأصلها ولذا لم يعرج عليه في طيبته قال ولولا حكاية الداني له عن النقاش لم نذكره وكذلك لم يذكره الشاطبي إلا تبعا لقول التيسير للبزي بخلف عنه وهو خروج منهما عن طرقهما المبني عليهما كتابهما وقد طعن في هذه الرواية من حيث أن قصر الممدود لا يكون إلا في ضرورة الشعر والحق أنها ثبتت عن البزي من الطرق المتقدمة لا من طرق التيسير ولا الشاطبية ولا من طرقنا فينبغي أن يكون قصر الممدود جائز في الكلام على قلته كما قال بعض أئمة النحو انتهى ملخصا والباقون

بإثبات الهمزة قال في النشر وهو الذي لا يجوز من طرق كتابنا غيره وعن الحسن بالحذف كهذه الرواية عن البزي إلا أنه عم كلما كان مثله وعن ابن محيصن إسكان يائه هنا من المبهج وفتحها من المفردة كالباقين

واختلف في ( تشاقون ) الآية 27 فنافع بكسر النون مخففة والأصل تشاقونني ) فحذف مجتزيا بالكسر كما تقدم في ( تبشرون ) والباقون بفتحها مخففة أيضا والمفعول محذوف أي المؤمنين أو الله

وأمال الكافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ورويس وقلله الأزرق

واختلف في ﴿ تتوفيهم الملائكة ﴾ الآية 28 32 في الموضعين هنا فحمزة وخلف بالياء فيهما على التذكير وافقهما الأعمش والباقون بالتاء على التأنيث وهم في الفتح والإمالة على أصولهم

وقرأ ( تأتيهم الملائكة ) الآية 33 حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير والباقون بالتأنيث كما مر بالأنعام

وأمال وحاق حمزة وحده وكسر نون أن اعبدوا الله أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب

واختلف في ) لا يهدي من يضل ( ) الآية 37 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وكسر الدال على البناء للفاعل أي لا يهدي الله من يضله فمن مفعول بيهدي ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي فمن فاعله وافقهم الحسن والأعمش والباقون بضم الياء وفتح الدال على البناء للمفعول ومن نائب الفاعل والعائد محذوف

وقرأ فيكون والذين الآية 40 بالنصب ابن عامر والكسائي وأبدل همز لنبوئنهم ياء مفتوحة أبو جعفر كوقف حمزة عليه وقرأ يوحي إليهم بالنون مبنيا للفاعل حفص وتقدم بيوسف كنقل فسئلوا لابن كثير والكسائي وكذا خلف وتسهيل الأصبهاني همزة أفأمن الثانية ومر حكم بهم الأرض وقصر همز لرؤف أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب

واختلف في أو لم يروا إلى ما خلق الله الآية 71 فحمزة والكسائي وخلف بالخطاب لقوله فإن ربكم وافقهم الأعمش والباقون بالغيب لقوله أفأمن الذين

واختلف في ﴿ يتفيؤا ﴾ الآية 76 فأبو عمرو ويعقوب بالتأنيث لتأنيث الجمع وافقهما اليزيدي والباقون بالتذكير لأن تأنيثه مجازي ويوقف عليه لحمزة وهشام بخلفه بإبدال الهمزة ألفا لكونها بعد فتح على القياسي وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واوا مضمومة ثم تسكن للوقف ويتحد مع الرسم ويجوز الروم والإشمام فهذه أربعة ويجوز خامس وهو بين بين على تقدير روم حركة الهمزة وأثبت ياء فارهبون في الحالين يعقوب ويوقف لحمزة على تجأرون بالنقل فقط وغلظ الأزرق لام ظل وصلا واختلف عنه في الوقف وكذا حكي عنه الخلاف

وصلا والأرجح التغليظ فيهما

وأمال يتوارى أبو عمرو وابن ذكوان بخلف وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق

وأمال (الأعلى) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق فيهما بخلفه وأما جاء أجلهم من حيث الهمزتان فتقدم حكمه غير مرة ونظيره جاء أحد بالنساء

وقرأ لاجرم بمد لا متوسطا حمزة بخلف عنه

(35/431)

---

واختلف في (مفرطون) الآية 62 فنافع بكسر الراء مخففة اسم فاعل من أفرط إذا تجاوز وقرأ أبو جعفر بكسرها مشددة من فرط قصر والباقون بالفتح مع التخفيف اسم مفعول من أفرطته خلفي أي تركته ونسيته

وأمال فأحيا به الكسائي وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (نسقيكم) الآية 66 هنا و (قد أفلح) الآية 21 فنافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب بالنون المفتوحة فيهما مضارع سقي وعليه قوله تعالى وسقيهم ربهم وافقهم اليزيدي والحسن والشنبوذي وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحفص وحمزة والكسائي وخلف بالنون المضمومة من أسقى ومنه قوله تعالى فأسقيناكموه وافقهم ابن محيصن وقرأ أبو جعفر

بالتاء المفتوحة على التأنيث مسندا للأنعام ولا ضعف فيها من حيث أنه أنث نسقيكم

وذكر بطونه لأن التذكير والتأنيث باعتبارين قاله أبو حيان واتفقوا على ضم ( ) ونسقيه مما

خلقنا ( ) بالفرقان الآية 49 إلا ما يأتي عن المطوعي في فتحه وللشاربين ذكر خلفه في

الإمالة لابن ذكوان

وقرأ ( بيوتا ) الآية 68 بكسر أوله قالون وابن كثير وابن عامر وابو بكر وحمزة والكسائي

وخلف وضم راء يعرشون ابن عامر وأبو بكر ومر بالأعراف

واختلف في ( يجحدون ) الآية 71 فأبو بكر ورويس بالخطاب والباقون بالغيبة وعن ابن

محيصن بخلفه توجهه بالخطاب

وقرأ ( صراط ) الآية 76 بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وأشم الصاد زايا

خلف عن حمزة وأدغم رويس جعل لكم كل ما في هذه السورة وهو ثمانية بخلف عنه كأبي

عمرو ويعقوب بكماله من المصباح وكسر حمزة الهمز والميم من بطون أمهاتكم وصلا

والكسائي الهمزة فقط

واختلف في ) ألم يروا إلى الطير ( ) الآية 79 فابن عامر وحمزة ويعقوب وخلف بالخطاب

لقوله والله أخرجكم وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالغيب قوله ويعبدون الخ ومر قريبا

حكم بيوتكم

واختلف في ( ظعنكم ) الآية 80 فابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بإسكان العين وافقهم الأعمش والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى كالنهر والنهر

وأمال وأوبارها وأشعارها أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي وبالصغرى الأزرق ووقف حمزة على وأشعارها أثاثا بتخفيف الهمزة في الكلمتين وبتسهيل الأولى بين بين مع تخفيف الثانية وتسهيلها بين بين مع المد والقصر وله السكت على حرف المد مع التخفيف فقط فمد الثانية في وجهي التحقيق فهي ستة أوجه وكلاهما متوسط بغيره غير أن الثاني منفصل وعلى من الجبال أكنانا بوجهين أولهما التحقيق وثانيهما إبدال الهمزة ياء مفتوحة ويوقف بالهاء على يعرفون نعمت لابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقوب ومثلها وبنعمت الله المتقدمة

وأمال الراء وفتح الهمزة من رأ الذين ظلموا و رأ الذين أشركوا أبو بكر وحمزة وخلف والباقون بالفتح هذا هو المقروء به وما حكاه الشاطبي رحمه الله تعالى من الخلاف في الهمز عن أبي بكر وفيها وفي الراء عن السوسي متعقب كما تقدم في الأنعام ومر حكم نظير إليهم القول ووقف حمزة وهشام بخلفه على وإيتاي ونحوه مما رسم بياء بعد الألف بإبدال الهمزة الثانية ألفا مع المد والقصر والتوسط وبالتسهيل كالياء مع المد والقصر فهي خمسة وإذا أبدلته ياء على الرسمي فالمد والتوسط والقصر مع سكون الياء والقصر مع روم حركتها

فتصير تسعة وفي الهمزة الأولى التحقيق وبين بين لتوسطها بزائد فصارت ثمانية عشر وأمال وينهى و أربى حمزه والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وقرأ ( تذكرون ) الآية 90 بالتخفيف حفص وحمزة والكسائي وخلف وأدغم دال وقد جعلتم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف ووقف ابن كثير على باق بالياء

(37/431)

---

واختلف في ( وليجزين الذين ) الآية 127 فابن كثير وابن عامر بخلف عنه وعاصم وأبو جعفر بنون العظمة مراعاة لما قبله وافقهم ابن محيصن وهي رواية النقاش عن الأخفش والمطوعي عن الصوري كلاهما عن ابن ذكوان وكذا رواه الرملي عن الصوري من غير طريق الكارزيني وكذا رواه الداجوني عن أصحابه عن هشام وقد قطع الداني بوهم من روى النون عن ابن ذكوان وتعقبه الجعبري وغيره قال في النشر قلت ولا شك في صحة النون عن هشام وابن ذكوان جميعا من طرق العراقيين قاطبة فقد قطع بذلك عنهما أبو العلاء الهمداني كما رواه سائر المشارقة والباقون بالياء على الغيب وهو نص المغاربة قاطبة من جميع طرقهم عن هشام وابن ذكوان جميعا وجها واحدا واتفقوا على النون في ولنجزينهم لأجل ( فلنحيينه ) قبله

وقرأ ( ما ينزل ) الآية 101 بسكون النون وتخفيف الزاي ابن كثير وأبو عمرو وخالف أصله يعقوب هنا فشدد وإليه الإشارة بقول الطيبة

( والنحل لأخرى (ح) ز (د ) فا

(

فما في الأصل هنا لعله سبق قلم مر بالبقرة كتسكين دال القدس لابن كثير ونقله همز القرآن كوقف حمزة وسكنه وصلا على الراء كابن ذكوان وحفص وإدريس وصلا ووقفا بخلفهم وقرأ ( يلحدون ) الآية 51 بفتح الياء والحاء حمزة والكسائي وخلف والباقون بالضم والكسر ومر بالأعراف وضم الهاء الثانية من لا يهديهم الله في الحالين يعقوب واتبعها الميم وصلا وكسرهما وصلا أبو عمرو وضمهما وصلا حمزة والكسائي وخلف وضم الميم فقط كذلك الباقون

*(38/431)*

---

واختلف في ( ما فتنوا ) الآية 7 فابن عامر بفتح الفاء والتاء مبنيا للفاعل أي فتنوا المؤمنين بإكراههم على الكفر أو أنفسهم ثم أسلموا كعكرمة وعمه وسهل بن عمرو والباقون بضم الفاء وكسر التاء مبنيا للمفعول أي فتنتهم الكفار بالإكراه على التلفظ بالكفر وقلوبهم

مطمئنة بالإيمان كعمار بن ياسر وعن الحسن والخوف بالنصب عطفا على لباس ومر قريبا حكم ولقد جاءهم وكذا الوقف على نعمت وشدد الميتة أبو جعفر وعن الحسن الكذب بالخفض بدل من الموصول والجمهور على النصب مفعول به وناصبه نصف وما مصدرية وجملة هذا حلال الخ مقول القول ولما تصف علة النهي وكسر نون فمن اضطر أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب

وقرأ أبو جعفر بكسر طاء ( اضطر ) الآية 115 وسبق توجيهه بالبقرة كقراءة إن إبراهام وملة إبراهام بالألف فيهما لابن عامر غير النقاش عن الأخفش عن ابن ذكوان

وأمال اجتبيه وهديه حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وعن الحسن والمطوعي جعل بالبناء للفاعل و السبت بالنصب مفعول به

واختلف في ( ضيق ) الآية 127 هنا والنمل الآية 70 فابن كثير بكسر الضاد وافقه ابن محيصن بخلفه والباقون بالفتح لغتان بمعنى في هذا المصدر كالقول والقيل أو الكسر مصدر ضاق بيته ونحوه والفتح مصدر ضاق صدره ونحوه

المرسوم يوم تأتي بالياء وإيتاي ذي بياء بعد الألف يتفيوا بواو ألف بعدها المقطوع والموصول اختلف في قطع ( ) إنما عند الله ( واتفقوا على وصل ( أينما يوجهه ) الهاء ( بنعمت الله هم يعرفون نعمت الله واشكروا نعمت الله ) بالتاء فيها زائدتان ( فارهبون ) الآية 2 ( فاتقون

) الآية 51 ومرا ليعقوب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 349.
354﴾

(39/431)

---

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى:

"سورة النحل"

"عما يشركون" معا قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة.

"ينزل" قرأ المكي والبصري ورويس بالتخفيف، وقرأ روح بتاء مثناه مفتوحة ونون مفتوحة وزاي مفتوحة مشددة ورفع الملائكة، والباقون بالتشديد وكلهم ينصبون تاء الملائكة إلا روحا فيرفعها كما سبق.

"أنذروا" تأكلون، بالغيه. منه. والحمير. جائر. لرءوف. تذكرون. غير. منكرة. مستكبرون. قيل. أساطير. يزرون. عليهم السقف. يخزيهم. فيهم. فلبئس كله واضح.

"فاتقون" أثبت يعقوب الياء في الحالين وحذفها غيره كذلك.

"دفء" لهشام وحمزة في الوقف عليه النقل مع السكون والإشمام والروم.

لرءوف ، سبق كثيرا فلا البقرة وغيرها .

" بشق الأنفس " فتح الشين أبو جعفر وكسرها غيره .

" قصد " قرأ بالإشمام الأخوان ورويس وخلف ، وغيرهم بالصاد الخالصة .

" ينبت " قرأ شعبة بالنون مكان الياء التحتية ، وغيره بالياء .

" والشمس والقمر والنجوم مسخرات " قرأ ابن عامر برفع آخر الأسماء الأربعة وحفص بنصب والشمس والقمر – وبرفع والنجوم مسخرات " والباقون بنصب آخر الأربعة ولا يخفى أن نصب مسخرات يكون بالكسرة لكونه جمعا بألف وتاء .

" والذين تدعون " قرأ يعقوب وعاصم بالياء التحتية ، والباقون بالتاء الفوقية .

" شركائي " قرأ البزي بالهمز كغيره من باقي العشرة وما ذكره الشاطبي تبعا للداني في تيسير من أن له ترك الهمز بخلف عنه ضعيف لا يقرأ به وقد أشار الشاطبي إلى ضعفه بقوله: لمهلا ، وقال صاحب النشر: والحق أن هذه الرواية لم تثبت عن البزي من طريق التيسير الشاطبية ولا من طريق كتابنا . وهو وجه ذكره الداني حكاية لا دراية ، انتهى .

وفيه لحمزة وقفا تسهيل الهمز مع المد والقصر .

" تشاقون " قرأ نافع بكسر النون ، والباقون بفتحها .

" الذين تتوفاهم " قرأ حمزة وخلف بالياء التحتية فيهما والباقون بالتاء الفوقية كذلك .

"سوء" لحمزة وهشام وقفا النقل والإدغام وعلى كل السكون المحصن والروم.

"المتكبرين" آخر الربع.

الممال

أتى، وتعالى معا، ولهداكم وألقى فأتى عند الوقف عليه، وأتاهم وتوفاهم وبلى مثوى لدى الوقف عليه للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل بخلفه. شاء لابن ذكوان وخلف وحمزة وترى لدى الوقف عليه بالإمالة للبصري والأصحاب وبالتقليل لورش وعند الوصل بالإمالة للسوسي بخلف عنه. أوزار والكافرين بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ووافق رويس في إمالة الكافرين.

المدغم

"الكبير" وسخر لكم، والنجوم مسخرات، يخلق كمن، يعلم ما معا، قيل لهم، أنزل ربكم، الملائكة ظالمي، السلم ما، ولا إدغام في الحمير لتركبوها، ولا في البحر لتأكلوا. لفتح رائهما بعد ساكن.

"وقيل" خيرا. الآخرة. تتوفاهم. ظلمهم. يستهزئون. أن اعبدوا. فسيروا. الذكر. إليهم بهم الأرض. لرءوف. داخرون يستكبرون جلي.

"أن تأتيهم" قرأ الأخوان وخلف بالياء التحتية. والباقون بالتاء الفوقية.

" لا يهدي قرأ المدنيان والمكي والبصريان والشامي بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها

والباقون بفتح الياء وكسر الدال وياء بعدها .

" من يضل " أجمعوا على ضم يائه وكسر ضاده .

"كن فيكون " قرأ الكسائي والشامي بنصب نون فيكون . والباقون برفعها .

" لنبوئنهم " قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء محضة في الحالين وكذلك حمزة في الوقف .

" نوحي إليهم " قرأ حفص بالنون وكسر الحاء ، والباقون بالياء وفتح الحاء ، وإليهم لا يخفى

" فاسألوا " نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها المكي والكسائي وخلف عن نفسه والباقون

بترك النقل .

" أو لم يروا " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .

" يتفيؤا " قرأ البصريان بتاء التأنيث ، والباقون بياء التذكير وفيه لهشام وحمزة وقفا ما في

تفتؤا لرسم الهمزة على واو .

" يؤمرون " آخر الربع .

الممال

الدنيا معا بالإمالة للأصحاب ، وبالتقليل للبصري وورش بخلفه . حسنة معا والضلالة ودابة عند الوقف عليها الكسائي بلا خلف عنه . تتوفاهم ، وهدى الله وقفا وهداهم وبلى ويوحى للأصحاب بالإمالة ، ولورش بالتقليل بخلف عنه .

وحاق لحمزة وحده ، شاء له وخلف وابن ذكوان . لا يهدي فيه التقليل والفتح لورش ولا إمالة فيه لأحد لأن أصحاب الإمالة يقرءون بكسر الدال . الناس وللناس لدوري البصري .

المدغم

" الكبير " وقيل للذين . أنزل ربكم . الأنهار لهم الملائكة طيبين . أمر ربك . ربك كذلك . ليبين لهم . نقول له ، أكبر لو ، لتبين للناس . ولا إدغام في الذكر لتبين لوقوع الراء مفتوحة بعد ساكن .

" فارهبون " أثبت يعقوب الياء في الحالين وحذفها غيره كذلك .

" أفغير . بشر ظل . وهو لعبرة . لبنا خالصا . بيوتا . كله . يستأخرون فهو . جلي

" تجأرون " وقف عليه حمزة بنقل حركة الهمزة إلى الجيم مع حذف الهمزة .

" للذين لا يؤمنون بالآخرة " إلى آخر الآية فيها لورش ستة أوجه قصر الآخرة مع توسط السوء مع فتح ذات الياء . ثم توسط الآخرة والسوء مع التقليل . ثم مد الآخرة مع توسط السوء مع الفتح والتقليل ثم مد السوء مع الفتح والتقليل كذلك ولحمزة وهشام في الوقف

على السوء النقل والإدغام وكل منهما مع السكون المحض والروم .

يؤاخذ ، يؤخرهم . أبدل ورش وأبو جعفر الهمزة واوا خالصة مطلقا ، وحمزة كذلك وقفا .

ورقق ورش راء يؤخرهم .

" جاء أجلهم " مثل : جاء أحد لجميع القراء .

" مفرطون " قرأ نافع وأبو جعفر بكسر الراء مع تخفيفها للأول وتشديدها للثاني ، والباقون

بفتحها مخففة .

" نسقيكم " قرأ نافع والشامي وشعبة ويعقوب بالنون المفتوحة وأبو جعفر بالتاء المفتوحة

والباقون بالنون المضمومة .

" يعرشون " قرأ الشامي وشعبة بضم الراء ، والباقون بكسرها .

" يجحدون " قرأ شعبة ورويس بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .

وبنعمت الله هم يكفرون . رسم بالتاء فوقف بالهاء المكي والكسائي والبصريان والباقون

بالتاء .

" لا تعلمون " آخر الربع .

الممال

بالأنثى ، والحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه ، يتوارى بالإمالة للأصحاب والبصري ، والتقليل لورش ، الأعلى ومسمى وهدى . لدى الوقف عليها وأوحى ويتوفاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . فأحيا بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلفه . للناس لدوري البصري .

المدغم

" الكبير " يعلمون نصيبا ، البنات سبحانه ، القوم من ، فزين لهم ، فهو وليهم ، لتبين لهم ، سبل ربك ، خلقكم ، العمر لكيلا ، " يعلم بعد " جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم ، ووافقه رويس على إدغام جعل بخلف عنه ، ورزقكم ، وبنعمت الله هم ولا إدغام في يشركون ليكفروا ، ويجعلون ، لما لا نويجعلون لله معا لوقوع النون بعد ساكن .

" لا يقدر " معا رزقناه ، فهو منه ، سرا ، وهو ، مولاه ، يوجهه ، يأت ؛ يأمر ، صراط بيوتكم ، بيوتا ، بأسكم ، ينكرونها ، الكافرون ، يؤذن ظلموا جلي .

" أمهاتكم " قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم وهذا في حال وصل بطون بأمهاتكم ، أما في حالة الابتداء بأمهاتكم فيقرآن بضم الهمزة وفتح الميم والباقون بضم الهمزة وفتح الميم في الحالين .

" ألم يروا " قرأ حمزة ويعقوب وخلف والشامي بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة .

" يمسكهن " وقف عليه يعقوب بهاء السكت .

" ظعنكم " أسكن العين الشامي والكوفيون ، وفتحها الباقون .

" فإن تولوا " لا خلاف في تخفيف تائه .

" نعمت الله " حكمه حكم وبنعمت الله لجميع القراء .

" إليهم القول " سبق مثله غير مرة .

" للمسلمين " آخر الربع .

الممال



---

مولاه وهدى ، لدى الوقف عليه للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل بخلف عنه ، وأوبارها وأشعارها بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، رآى الذين معا " بإمالة الراء فقط لشعبة وحمزة وخلف . وما ذكره الشاطبي من الخلاف لشعبة في إمالة الهمزة ومن الخلاف للسوسي في إمالة الراء والهمزة فقد خرج فيه عن طريق أصله فلا يقرأ به ، وهذا في حالة الوصل ، وأما عند الوقف على رآى فحكمه حكم ما بعده متحرك وقد سبق في الأنعام ،

وبشرى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش .

المدغم

جعل لكم كله ، ولرويس فيه الإظهار والإدغام ، هو ومن ، يعرفون نعمت الله ، يؤذن للذين ، العذاب بما ، ولا إدغام في الأنعام بيوتا لسكون ما قبل الميم .

" وإيتائ " رسمت الهمزة على ياء ، ولهشام وحمزة في الوقف عليه تسعة أوجه: خمسة القياس وهي الإبدال مع القصر والتوسط والمد والتسهيل بالروم مع المد والقصر وكل منهما على أصله في مقدار المد ، ثم إبدال الهمزة ياء خالصة ساكنة مع القصر والتوسط والمد والروم مع القصر وهذه الأوجه التسعة في الهمزة الأخيرة ، أما الأولى فلحمزة فيها التحقيق والتسهيل وحينئذ يكون له ثمانية عشر وجها ، ولهشام تسعة الثانية إذ ليس له في الأولى إلا التحقيق ، ولا يخفى ما لورش من ثلاثة البدل .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف ، وشددها الباقون .

" باق " أجمعوا على تنوينه وصلا وأما في الوقف فوقف عليه ابن كثير بزيادة ياء بعد القاف وحذفها الباقون .

" ولنجزين " قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر بالنون ولابن ذكوان وجهان صحيحان النون والياء ، والباقون بالياء ، واتفق القراء على قراءة ولنجزينهم بالنون .

" وهو " مؤمن ، الخاسرون ، لا يهديهم الله ، فعليهم ، جلي .

" فإذا قرأت القرآن " أبدل السوسي وأبو جعفر همزة قرأت مطلقا ، وحمزة في الوقف ، ونقل ابن كثير حركة همزة القرآن إلى الراء قبلها مع حذف الهمزة في الحالين ، وكذلك حمزة عند الوقف .

(44/431)

---

" ينزل " خففه المكي والبصري وشدده الباقون .

" القدس " أسكن الدال المكي وضمها غيره .

" يلحدون " قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء والحاء والباقون بضم الياء وكسر الحاء

" فتنوا " قرأ الشامي بفتح الفاء والتاء ، والباقون بضم الفاء وكسر التاء .

" رحيم " آخر الربع "

الممال

القربى وأنثى والدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، وبشرى بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش . وينهى وأربى وهدى لدى الوقف عليه ، بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، شاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، الكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس ، والتقليل لورش ، وأبصارهم لهؤلاء ما عدا رويسا فله

الفتح .

المدغم

" الصغير " وقد جعلتم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " والبغي يعظكم ، بعد توكيدها ، يعلم ما ، عند الله هو ، أعلم بما ، ولا إدغام في

" بعد ثبوتها " لكون الدال مفتوحة بعد ساكن وليس بعدها تاء .

" تأتي " يظلمون ، يأتيها ، نعمت الله ، إياه ، غير ، ظلمناهم ، وأصلحوا ، شاكرا ، صراط ، وهو ، لهو ، خير ، عليهم ، جلي .

" الميتة " قرأ أبو جعفر بتشديد الياء مكسورة ، وغيره بتخفيفها ساكنة .

" فمن اضطر " قرأ البصريان وعاصم وحمزة بكسر النون وصلا ، والباقون بضمها كذلك ، وكسر أبو جعفر طاء وضمها غيره ، وأجمعوا على ضم همزة الوصل في الابتداء حتى أبو جعفر .

" إبراهيم معا " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسرها وياء بعدها .

" ضيق " قرأ المكي بكسر الضاد ، والباقون بفتحها .

" محسنون " آخر السورة ، وآخر الربع .

المال

جاءهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، اجتباه وهداه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش

بخلف عنه ، الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري ، وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " : " ولقد جاءهم " للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " رزقكم ، من بعد ذلك ، ليحكم بينهم ، إلى سبيل ربك ، أعلم بمن ، أعلم بالمهتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 181 . 187 ﴾

(45/431)

---

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة النحل

قوله تعالى ﴿ أتى أمر الله ﴾ يقرأ بالإمالة والتفخيم فالحجة لمن أمال أنه دل على الياء والحجة لن فخم أنه أجرى الكلام على أصله وأتى ها هنا ماض في معنى مستقبل ودليله قوله فلا تستعجلوه يريد به الساعة قوله تعالى فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه جعله مما أمر الله نبيه عليه السلام أن يخبر به والحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد معنى الخطاب وأتى به تنزيها لله تعالى من عنده فأنزله الله

تصديقا لقوله والتسبيح ينقسم في اللغة أربعة أقسام تنزيها صلاة واستثناء ونورا فالتنزيه كقوله سبحانه وتعالى والصلاة كقوله فلولا أنه كان من المسبحين



---

والاستثناء كقوله لولا تسبحون والنور كقول النبي صلى الله عليه وسلم فلولا سبحات وجهه أي نور وجهه قوله تعالى ينزل الملائكة يقرا بالياء والتاء وضمهما وبالتشديد والتخفيف فالحجة لمن قرأه بالتاء والتشديد أنه جعل الفعل لما لم يسم فاعله ورفعهم بذلك والحجة لمن قرأه بالياء مشددا أو مخففا أنه جعل الفعل لله عز وجل فأضمره فيه لتقدم اسمه ونصب الملائكة بتعدي الفعل إليهم وأخذ المشدد من نزل والمخفف من أنزل قوله تعالى ينبت لكم به يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أخبر به عن الله عز وجل لتقدم اسمه في أول الكلام والحجة لن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله عز وجل عن نفسه بنون الملكوت وقد تقدم لذلك من الاحتجاج ما فيه بلاغ قوله تعالى والشمس والقمر والنجوم مسخرات يقرأ كله بالنصب وبالرفع وبالنصب إلا قوله والنجوم مسخرات فإنه رفع فالحجة لمن نصبه أنه عطفه بالواو على أول الكلام فأتى به على وجه واحد والحجة لمن رفعه أنه جعل الواو حالا لا عاطفة كقولك كلمت زيدا وعمرو قائم فترفع عمرا بالابتداء وقائم خبره

وكذلك قوله والشمس والقمر والنجوم مبتدآت ومسخرات خبر عنهن والحجة لمن رفع قوله والنجوم مسخرات أنه لما عطف والشمس والقمر على قوله وسخر لكم لم يستحسن أن يقول وسخر النجوم مسخرات فرفعها قاطعا لها مما قبلها فإن قيل فما حجة من نصبها فقل بفعل مقدر معناه وجعل النجوم مسخرات فإن قيل فما معنى قوله وبالنجم هم يهتدون فوحدها هنا وقد جمع في أول الكلام فقل إن الله عز وجل جعل النجوم ثلاثة أصناف منها رجوم الشياطين ومنها ما تهتدى بها كالجدي والفرقدين ومنها مصابيح وزينة فأما النجم الثاقب فقيل الثريا



---

وقيل المتوقد نورا لقولهم أثقب نارك والنجم القرآن لقوله تعالى والنجم إذا هوى قيل هو نزول جبريل به والنجم من النبات ما لا يقوم على ساق قوله تعالى والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون يقرآن بالتاء والياء وقد تقدم من القول في مثاله ما يغني عن إعادته قوله تعالى تشاقون فيهم يقرأ بفتح النون وكسرها والقول فيه كالقول في قوله فبم تبشرون قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة يقرا بالياء والتاء وقد أتينا على علته في قوله فنادته الملائكة قوله تعالى تتوفاهم يقرأ بالإمالة والتفخيم فالحجة لمن أمال أنه دل على أصل الياء والحجة لمن

فخم أنه لما زالت الياء عن لفظها لانفتاح ما قبلها زالت الإمالة بزوال اللفظ قوله تعالى إلا أن تأتيهم يقرأ بالتاء والياء على ما قدمنا من القول في أمثاله قوله تعالى فإن الله لا يهدي من يضل يقرأ بضم الياء وفتح الدال وبفتح الياء وكسر الدال فالحجة لمن قرأ بضم الياء أنه أراد لا يهدى من يضله الله فاسم الله منصوب بإن ويهدى الخبر وهو فعل ما لم يسم فاعله ومن في محل رفع ويضل صلة من وقد حذفت الهاء منه لأن الهاء عائدة على من ولا بد ل من

(48/431)

---

وما والذي والتي وأي من صلة وعائد ومعرب لأنهن أسماء نواقص والحجة لمن فتح الياء أنه أراد فإن الله لا يهدي من يضله أحد إلا هو فيهدي فعل لله عز وجل ومن في موضع نصب بتعدي الفعل إليه قوله تعالى كن فيكون يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع أنه أراد فإنه يكون والحجة لمن نصب أنه عطفه على قوله أن نقول له ومثلها التي في آخر يس قوله تعالى أو لم يروا إلى ما خلق الله أو لم يروا إلى الطير أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق يقرأ ن بالتاء والياء فالحجة لمن قرأهن بالتاء أنه أراد معنى مخاطبتهم وتقريرهم بآيات الله وبدائع خلقه والحجة لمن قرأهن بالياء أنه جعل الألف للتوبيخ فكأنه قال موبخا لهم ويحهم كيف يكفرون بالله وينكرون البعث ويعرضون عن آياته وهم يرون الطير مسخرات وما خلق الله من شجر

ونباتا وما بدأه من الخلق أفليس من خلق شيئا من غير شيء فأنشأه وكونه ثم أماته فأفناه قادرا على إعادته بأن يقوله له عد إلى حالتك الأولى قوله تعالى تتفيؤ ظلاله يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأ بالتاء أنه جمع ظل وكل جمع خالف الآدميين فهو مؤنث وإن كان واحده مذكرا ودليله قوله عز وجل في الأصنام رب إنهن أضللن فأنث لمكان الجمع والحجة لمن قرأه بالياء أنه وإن كان جمعا فلفظه لفظ الواحد كقولك جدار وعذار ولذلك ناسب جمع التكسير الواحد لأنه معرب بالحركات مثله

(49/431)

---

فإن قيل أجاز مثل ذلك في قوله أم هل تستوي الظلمات فقل هذا لا يلزم وإن كانا جمعين لأن علامة التأنيث في قوله الظلمات موجودة وفي قوله ظلال معدومة قوله تعالى إلا رجالا نوحي إليهم يقرأ بالياء وفتح الحاء وبالنون وكسر الحاء وقد ذكر ذلك مع أمثاله قوله تعالى وأنهم مفرطون يقرأ بفتح الراء وكسرها فالحجة لمن فتح أنه جعلهم مفعولا بهم لما لم يسم فاعله ومعناه منسيون من الرحمة وقيل مقدمون إلى النار والحجة لمن كسر أنه جعل الفعل لهم وأراد أنهم فرطوا في الكفر والعدوان فهم مفرطون والعرب تقول أفرط فلان في الأمر إذا قصر وإذا جاوز الحد قوله تعالى نسقيكم يقرأ بضم النون وفتحها ها هنا وفي المؤمنين وهما

لغتان بمعنى سقى وأسقى وأنشد سقى قومي بني مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال وقال قوم سقيته ماء بغير ألف ودليله قوله وسقاهم ربهم شرابا طهورا وأسقيته بالألف سألت الله أن يسقيه وقال آخرون ما كان مرة واحدة فهو بغير ألف وما كان دائما فهو بالألف قوله تعالى يوم ظعنكم يقرأ بتحريك العين وإسكانها فالحجة لمن حرك العين

(50/431)

---

فلأنها من حروف الحلق والحجة لمن أسكن أنه أراد المصدر ومثله طعنته بالرمح طعنا قوله تعالى ولنجزين الذين صبروا يقرأ بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على قوله ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين والحجة لمن قرأه بالنون أنه أراد أن يأتي بأول الكلام محمولا على آخره فوافق بين قوله تعالى ولنجزين وقوله فلنحيينه ولنجزينهم قوله تعالى يلحدون إليه أعجمي يقرأ بضم الياء وفتحها وقد ذكرت علته فيما سلف قوله تعالى من بعد ما فتنوا يقرأ بفتح التاء وبضم الفاء وكسر التاء فالحجة لمن فتح أنه جعل الفعل لهم والحجة لمن ضم الفاء أنه دل بذلك على بناء ما لم يسم فاعله ومعناه أن عمار بن ياسر وجماعة من أهل مكة أرادهم كفار قريش على الكفر وأكرهوهم فقالوا بألسنتهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان ثم هاجروا إلى المدينة فأخبر الله عز وجل عنهم بما كان من إضمارهم

ومن إظهارهم والحجة لمن جعل الفعل لهم أن ذلك كان منهم قبل الإسلام فمحا الإسلام ما قبله قوله تعالى ولا تك في ضيق يقرأ بفتح الضاد وكسرها وقد ذكرت حجته آنفا وقلنا فيه ما قاله أهل اللغة والاختيار ها هنا الفتح لأن الضيق بالكسر في الموضع والضيق بالفتح في المعيشة والذي يراد به ها هنا ضيق المعيشة لا ضيق المنزل. انتهى انتهى. اهـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 208 . 213﴾

(51/431)

---

وقال ابن زنجلة :

سورة النحل

﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون 1﴾

قرأ حمزة والكسائي سبحانه وتعالى عما تشركون بالتاء وكذلك

الذي بعده وحجتهما قوله فلا تستعجلوه رد الخطاب الثاني على الأول

وقرأ الباقون بالياء على الابتداء لا يردون على أول الكلام ولهم حجتان إحداهما أن

سعيد بن جبير قرأ أتى أمر الله فلا يستعجلوه بالياء والثانية أن الله تعالى أنزل القرآن على

محمد صلى الله عليه فقال محمد تنزيها لله سبحانه وتعالى عما يشركون

ينزل الملائكة بالروح 2

قرأ أبو بكر في رواية الكسائي تنزل بالتاء مضمومة وفتح الزاي الملائكة رفع على ما لم يسم فاعله وحجته قوله ونزل الملائكة

وقرأ روح تنزل الملائكة بفتح التاء وحجته قوله تنزل الملائكة والروح فيها

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل الملائكة أي الله ينزلها وحجتهم قوله ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وحجتهم في التخفيف وأنزلنا إليك الذكر

وقرأ الباقون بالتشديد وحجتهم قوله إنا نحن نزلنا الذكر

ينبت لكم به الزرع 11

قرأ أبو بكر ننبت لكم به الزرع بالنون الله أخبر عن نفسه بلفظ الملوك كما قال نحن قسمنا

وقرأ الباقون بالياء أي ينبت الله وحجتهم قوله قبلها هو الذي أنزل من السماء ماء 10

وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره 12

قرأ ابن عامر والشمس والقمر والنجوم مسخرات بالرفع فيهما لأنه لا يصلح أن تقول وسخر النجوم مسخرات فقطعها عما قبلها وجعل والنجوم ابتداء و مسخرات خبرا

وقرأ الباقون جميع ذلك بالنصب نسقا على ما قبله فإن قيل فكيف جاز المتصرفة المخلوقة على سخر فإن تلك جاء مسخرات بعدها هذه الأشياء المنصوبة المنسوقة على ذلك قيل

فإن ذلك لا يمتنع لأن الحال تكون مؤكدة كقوله وهو الحق مصدقا و

أنا ابن دارة معروفا بها نسبي . . . كفى بالنأي من أسماء كاف . . .

(52/431)

---

وحجتهم قوله وسخر لكم الشمس والقمر وكما حمل ها هنا على التسخير كذلك في

الأخرى وكذلك النجوم في قوله و هو الذي جعل لكم النجوم

والذين يدعون دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون 20

قرأ عاصم والذين يدعون من دون الله بالياء إخبارا عن المشركين وقرأ الباقون والذين

تدعون من دون الله وحجتهم ما تقدم وما تأخر فما تقدم وإن تعدوا نعمة الله 18 وما تأخر

إلهكم إله واحد 22

أين شركائي الذين كنتم تشقون فيهم 27

قرأ نافع تشاقون فيهم بكسر النون أراد تشاقونني أي تعادونني فحذف إحدى النونين

استثقالا للجمع بينهما وحذف الياء اجتزاء بالكسرة

وقرأ الباقون تشاقون بفتح النون لا يجعلونه مضافا إلى النفس والنون في هذ القراءة علامة

الرفع والنون مع الياء المحذوفة في قراءة نافع في موضع النصب

الذين تتوفهم الملئكة ظالمي أنفسهم 28

قرأ حمزة الذين يتوفاهم الملائكة بالياء وكذلك الذي بعده وقرأ الباقون بالتاء

اعلم أن فعل الجميع إذا تقدم يذكر ويؤنث فإن ذكرته أردت جمع الملائكة وإذا أنثته أردت جماعة الملائكة وحجة التاء قوله تعالى وإذ قالت الملائكة

هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملئكة 33

قرأ حمزة والكسائي إلا ان يأتيهم الملائكة بالياء وقرأ الباقون بالتاء قد تقدم القول في هذا ونحوه

إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل 37

قرأ حمزة وعاصم والكسائي فإن الله لا يهدي بفتح الياء

وكسر الدال قال الكسائي فيه وجهان أن الله إذا كتب عبدا شقيا فإنه لا يهديه كقوله والله لا يهدي القوم الظالمين وكان مجاهد رحمه الله يقول أربعة أشياء لا تغير الشقاء والسعادة والحياة والموت والوجه الآخر أن الله جل وعز من يضل لا يهدي أي لا يهتدي والعرب تقول هداه الله فهدى واهتدى لغتان بمعنى واحد ف من في موضع رفع على هذا الوجه وعلى القول الأول نصب

وقرأ الباقون فإن الله لا يهدى بضم الياء وفتح الدال على ما لم يسم فاعله أي من أضله الله لا يهديه أحد عن عكرمة عن ابن عباس قال قيل له فإن الله لا يهدي من يضل قال من أضله الله لا يهدى وحجتهم قراءة أبي لا هادي لمن أضله الله مثل لا يهان من أكرمه الله و من في موضع رفع لأنه لم يسم فاعله

أن نقول له كن فيكون 40

قرأ ابن عامر والكسائي أن نقول له كن فيكون بالنصب وقرأ الباقون بالرفع

فالنصب على ضربين أحدهما أن يكون قوله فيكون عطفا على أن يقول المعنى أن يقول فيكون والوجه الثاني أن يكون نصبا على جواب كن والرفع على فهو يكون على معنى ما أراد الله فهو يكون

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم 43

قرأ حفص إلا رجالا نوحي بالنون وكسر الحاء إخبار الله عن نفسه وحجته ما تقدم وهو قوله وما أرسلنا وفي التنزيل إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح

وقرأ الباقون يوحى بضم الياء على ما لم يسم فاعله وحجتهم قوله وأوحي إلى نوح و قل أوحي إلي

أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا

ظلله عن اليمين والشمائل 47 و48

قرأ حمزة والكسائي أو لم تروا إلى ما خلق الله بالتاء على الخطاب وحجتهما قوله قبلها فإن ربكم لرؤوف رحيم ألم تروا

وقرأ الباقون بالياء إخبارا عن غيب وتوبيخا لهم وحجتهم قوله قبلها أو يأخذهم على تخوف

قرأ أبو عمرو تتفيأ ظلاله بالتاء وحجته أن كل جمع خالف الآدمين فهو مؤنث تقول هذه المساجد وهذه الظلال

وقرأ الباقون يتفيأ وحجتهم أن الفعل إذا تقدم جاز التذكير منه

لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون 62

قرأ نافع وأنهم مفرطون بكسر الراء أي مسرفون مكثرون من المعاصي كما تقول أفرط فلان في كذا إذا تجاوز الحد وأسرف

وقرأ الباقون مفرطون بفتح الراء أي متروكون في النار منسيون فيها كذا قال ابن عباس وقال ابن جبير مبعدون وعن أبي عمرو معجلون مقدمون في العذاب

وإن لكم في الأنعم لعبرة نسقيكم مما في بطونه 66

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم بفتح النون وقرأ الباقون بالرفع

قال الخليل سقيته كقولك ناولته فشرب وأسقيته جعلت له سقيا وقال الفراء العرب تقول

كل ما كان من بطون الأنعام ومن ماء السماء أو نهر أسقيت وفي الفرقان ونسقيه مما خلقنا

أنعاما وتقول سقيته إذا ناولته ماء يشربه لا يقولون غيره قال الله

تعالى وسقاهم ربهم فمن قرأ بالرفع فإنه يريد أنا جعلنا في كثرته وإدامته كالسقيا كقولك

أسقيته نهرا قال الله تعالى وأسقيناكم ماء فراتا أي جعلناه سقيا لكم وأما من فتح النون

فإنه لما كان للشفة فتح النون

وقال آخرون سقى وأسقى لغتان قال الشاعر . . . سقى قومي بني مجد وأسقى . . .

نميرا والقبائل من هلال . . .

اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون68

قرأ ابن عامر وأبو بكر يعرشون بضم الراء وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان يقال عرش يعرش

ويعرش

أفبنعمة الله يجحدون 71

قرأ أبو بكر أفبنعمة الله تجحدون بالتاء أي قل لهم يا محمد أفبنعمة الله أي بهذه الأشياء

التي ذكرها تجحدون وحجته قوله أول الآية والله فضل بعضكم على بعض

وقرأ الباقون يجحدون بالياء الله وبخهم على جحودهم ويقوي الياء قوله تعالى بعدها

وبنعمة الله هم يكفرون 72

ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء 79

قرأ ابن عامر وحمزة ألم تروا إلى الطير بالتاء على الخطاب وحجتهما أن المخاطبة لاصقة

بقوله قبلها والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار

والأفئدة لعلكم تشكرون 78 فكذلك ألم تروا إلى الطير

وقرأ الباقون ألم يروا بالياء وكان أبو عمرو يرد الياء إلى قوله قبل آيات ويعبدون من دون الله

ما لا يملك لهم رزقا 72 ألم ير هؤلاء إلى تسخير الطير

وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم 80

(55/431)

---

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو يوم ظعنكم بفتح العين وقرأ الباقون ساكنة العين وهما لغتان مثل

النهر والنهر تقول ظعن وظعنا وحجة الإسكان في قوله سرا وجهرا والهاء أحق أن تفتح

لخفائها فلما كانوا قد أجمعوا على إسكانها ردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم 96

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر ولنجزين بالنون أخبر جل وعز عن نفسه وحجتهم إجماعهم على قوله في الآية بعدها ولنجزينهم بالنون

وقرأ الباقون وليجزين بالياء إخبارا عن الله جل وعز

وحجتهم ذكر الله قبله وهو قوله وما عند الله باق وليجزين فإذا عطفت الآية على مثلها كان أحسن من أن تقطع مما قبلها لسان الذي يلحدون إليه أعجمي 103

قرأ حمزة والكسائي لسان الذي يلحدون بفتح الياء والحاء من لحد يلحد إذا مال

وقرأ الباقون يلحدون بضم الياء يقال ألحد يلحد إلحادا وحجتهم قوله ومن يرد فيه بإلحاد بظلم

قال الكسائي إن كل واحد من لحدت وألحدت يأتي بمعنى غير معنى الآخر وذلك أن ألحد يلحد معناه اعترض وأن لحد يلحد معناه مال وعدل فلما ولي ألحد ما يلي الاعتراض الذي هو بمعناه قرأ بألف فقال وذر الذين يلحدون في أسمائه وإن الذين يلدون في آياتنا بمعنى يعترضون في آياتنا إذ كان من عادة في أن تصحب الاعتراض الذي بمعنى الإلحاد فلما ولي الفعل ما ليس من عادة الاعتراض أن يليه وهو إلى دل على أن معناه غير معنى الاعتراض وأنه بمعنى الميل فقرأه يلحدون بفتح الياء إذ كانت بمعنى يميلون فحسن ذلك وكان ذلك مشهورا من كلام العرب لحد فلان إلى كذا إذا مال إليه

ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا 110

قرأ ابن عامر من بعد ما فتنوا بفتح الفاء والتاء جعل الفعل لهم يقال فتنت الشيء إذا امتحنته و فتنت الذهب إذا امتحنته فعرفت جيده من رديئه فمعنى القراءة أنهم هجروا أوطانهم وقد عرفوا ما في ذلك من الشدة

*(56/431)*

---

وقرأ الباقون فتنوا بضم الفاء على ما لم يسم فاعله أي من بعد ما فتنهم الله وحجتهم فإنا قد فتنا قومك من بعدك

ولا تك في ضيق مما يمكرون 127

قرأ ابن كثير ولا تك في ضيق بكسر الضاد وفي النمل مثله وقرأ الباقون بالفتح

قال أبو عبيد ضيق تخفيف ضيق يقال أمر ضيق وضيق والأصل ضييق فيعل ثم حذفوا الياء فصار ضيق على وزن فيل مثل هين وهين قال الأخفش الضيق والضيق لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم والضيق بالكسر الشدة قوم الضيق بالفتح مصدر والضيق اسم و وزنه على هذا القول فعل لم يحذف منه شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 396.384﴾

*(57/431)*

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة النحل

مكية إلا ثلاث آيات من آخرها فإنها نزلت بالمدينة حين قتل حمزة بن عبد المطلب ومثل به وهن قوله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ إلى آخر السورة هذا قول عطاء

وقال ابن عباس مثله إلا أنه قال نزلت بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله من أحد وما نزل بين مكة والمدينة فهو مدني وكذا ما نزل بعد الهجرة

وقال قتادة من أول النحل إلى ذكر الهجرة يعني ( ﴿ والذين هاجروا في الله ﴾ ) مكي وسائرها مدني وكذا قال جابر بن زيد

ولا نظير لها في عددها

وكلمها ألف وثماني مئة وإحدى وأربعون كلمة

وحروفها سبعة آلاف وسبع مئة وسبعة أحرف

وهي مئة وثمان وعشرون آية ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع تسعة مواضع ( ﴿ يعلم ما يسرون وما

يعلنون ﴾ ) وهو الثاني والأول رأس آية بلا خلاف ( ﴿ وما يشعرون ﴾ لهم فيها ما

يشاؤون ) ( ﴿ الملائكة طيبين ﴾ ما يكرهون ) ( ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ هل يستوون )

( ﴿ وما عند الله باق ﴾ متاع قليل ) ورؤوس الآي

يشركون

1 فاتقون

2 يشركون

3 مبين

4 تأكلون

5 تسرحون

6 رحيم

7 لا تعلمون

8 أجمعين

9 تسيمون

10 يتفكرون

11 يعقلون

12 يذكرون

13 تشكرون

14 تهتدون

15 يهتدون

16 تذكرون

17 رحيم

18 تعلنون

19 يخلقون

20 يبعثون

21 مستكبرين

22 المستكبرين

23 الأولين

24 ما يزرون

25 لا يشعرون

26 الكافرين

27 تعملون

28 المتكبرين

29 المتقين

30 المتقين

(58/431)

---

31 تعملون

32 يظلمون

33 يستهزئون

34 المبين

35 المكذبين

36 ناصرين

37 لا يعلمون

38 كاذبين

39 فيكون

40 يعلمون

41 يتوكلون

42 لا تعلمون

43 يتفكرون

44 لا يشعرون

45 بمعجزين

46 رحيم

47 داخرون

48 لا يستكبرون

49 ما يؤمرون

50 فارهبون

51 تتقون

52 تجأرون

53 يشركون

54 تعلمون

55 تفترون

56 ما يشتهون

57 كظيم

58 ما يحكمون

59 الحكيم

60 يستقدمون

61 مفرطون

62 أليم

63 يؤمنون

64 يسمعون

65 للشاربين

66 يعقلون

67 يعرشون

68 يتفكرون

69 قدير

70 يجحدون 71 يكفرون

72 يستطيعون

73 لا يعلمون

74 لا يعلمون

75 مستقيم

76 قدير

77 تشكرون

78 يؤمنون

79 إلى حين

80 تسلمون

81 المبين

82 الكافرين

83 يستعتبون

84 ينظرون

85 لكاذبون

86 يفترون

87 يفسدون

88 للمسلمين

89 تذكرون

90 تفعلون

91 تختلفون

92 تعملون

93 عظيم

94 تعلمون

95 يعملون

96 يعملون

97 الرجيم

98 يتوكلون

99 مشركون

100 لا يعلمون

101 للمسلمين

102 مبين

103 أليم

104 الكاذبون

105 عظيم

106 الكافرين

107 الغافلون

108 الخاسرون

109 رحيم

110 لا يظلمون

111 يصنعون

112 ظالمون

113 تعبدون

114 رحيم

115 لا يفلحون

116 أليم

117 يظلمون

118 رحيم

119 المشركين

120 مستقيم

121 الصالحين

122 المشركين

123 يختلفون

124 بالمهتدين

125 للصابرين

126 يمكرون

127 محسنون. انتهى انتهى. اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 176.175﴾

(59/431)

---

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أتى) هو ماض على بابه ، وهو بمعنى قرب ، وقيل يراد به المستقبل ، ولما كان خبر الله صدقا قطعا جاز أن يعبر بالماضي عن المستقبل ، والهاء في (تستعجلوه) تعود على الأمر ، وقيل على الله .

قوله تعالى (ينزل الملائكة) فيه قراءات ، ووجوهها ظاهرة ، و (بالروح) في موضع نصب

على الحال من الملائكة: أي ومعها الروح وهو الوحى و (من أمره) حال من الروح (أن أنذروا) أن بمعنى أي ، لأن الوحى يدل على القول فيفسر بأن

فلا موضع لها ، ويجوز أن تكون مصدرية في موضع جر بدلا من الروح ، أو بتقدير حرف الجر على قول الخليل ، أو في موضع نصب على قول سيبويه (أنه لاإله إلا أنا)

الجملة في موضع نصب مفعول أنذروا : أي أعلموهم بالتوحيد ، ثم رجع من الغيبة إلى الخطاب فقال (فاتقون) .

قوله تعالى (فإذا هو خصيم) إن قيل الفاء تدل على التعقيب وكونه خصيما لا يكون عقيب خلقه من نطفة فجوابه من وجهين: أحدهما أنه أشار إلى مايئول حاله إليه فأجرى المنتظر مجرى الواقع ، وهو من باب التعبير بآخر الأمر عن أوله كقوله " أرانى أعصر خمرا " وقوله تعالى " ينزل لكم من السماء رزقا " أي سبب الرزق وهو المطر .

والثانى أنه إشارة إلى سرعة نسيانهم مبدأ خلقهم .

قوله تعالى (والأنعام) هو منصوب بفعل محذوف ، وقد حكى في الشاذ رفعها ، و (ولكم) فيها وجهان: أحدهما هي متعلقة بخلق ، فيكون (فيها دفء) جملة في موضع الحال من الضمير المنصوب .

والثانى يتعلق بمحذوف ، فدفء مبتدأ والخبر لكم ، وفى " فيها " وجهان: أحدهما هو ظرف للاستقرار في لكم .

والثانى هو حال من دف ء ، ويجوز أن يكون حالا من دف ء وفيها الخبر ، ويجوز أن يرتفع دف ء بلكم أو بفيها والجملة كلها حال من الضمير المنصوب ، ويقرأ " دف " بضم الفاء من غير همز ، ووجهه أنه ألقى حركة الهمزة على الفاء وحذفها (ولكم فيها جمال) مثل ولكم فيها دف ء ، و (حين) ظرف لجمال أو صفة له أو معمول فيها .

قوله تعالى (بالغيه) الهاء في موضع جر بالإضافة عند الجمهور ، وأجاز الأخفش أن تكون منصوبة ، واستدل بقوله تعالى " إنا منجوك وأهلك " ويستوفى في موضعه إن شاء الله تعالى (إلا بشق) في موضع الحال من الضمير المرفوع في " بالغيه " أي مشقوقا عليكم ، والجمهور على كسر الشين ، وقرئ بفتحها وهى لغة .

قوله تعالى (والخيل) هو معطوف على الانعام: أي وخلق الخيل (وزينة) أي لتركبوها ولتتزينوا بها زينة ، فهو مصدر لفعل محذوف ، ويجوز أن يكون مفعولا من أجله: أي وللزينة ، وقيل التقدير: وجعلها زينة ، ويقرأ بغير واو ، وفيه الوجوه المذكورة ، وفيها وجهان آخران: أحدهما أن يكون مصدرا في موضع الحال من الضمير في تركبوا .

والثانى أن تكون حالا من الهاء: أي لتركبوها تزينا بها .

قوله تعالى (ومنها جائر) الضمير يرجع على السبيل ، وهى تذكر وتؤنث وقيل السبيل بمعنى السبل فأنث على المعنى .

وقصد مصدر بمعنى إقامة السبيل أو تعديل السبيل ، وليس مصدر قصدته بمعنى أتيته .

قوله تعالى (منه شراب) من هنا للتبعيض ، ومن الثانية للسببية: أي وبسببه إثبات شجر ، ودل على ذلك قوله (ينبت لكم به الزرع) .

قوله تعالى (والشمس والقمر) يقرآن بالنصب عطفا على ما قبلهما ، ويقرآن بالرفع على الاستئناف ، و (النجوم) كذلك ، و (مسخرات) على القراءة الأولى حال وعلى الثانية خبر .

قوله تعالى (وما ذرأ لكم) في موضع نصب بفعل محذوف ، أي وخلق أو وأنبت و (مختلفا) حال منه .



---

قوله تعالى (منه لحما ) من لابتداء الغاية ، وقيل التقدير: لتأكلوا من حيوانه لحما فيه يجوز أن يتعلق بمواخر ، لأن معناه جواري ، إذ كان مخر وشق وجرى قريبا بعضه من بعض ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في مواخر .

قوله تعالى (أن تميد) أي مخافة أن تميد (وأنهارا) أي وشق أنهارا (وعلامات) أي وضع علامات، ويجوز أن تعطف على رواسي (وبالنجم) يقرأ على لفظ الواحد وهو جنس، وقيل يراد به الجدى، وقيل الثريا، ويقرأ بضم النون والجيم وفيه وجهان: أحدهما هو جمع نجم مثل سقف وسقف.

والثانى أنه أراد النجوم فحذف الواو كما قالوا في أسد أسود وأسد، وقالوا في خيام خيم، ويقرأ بسكون الجيم وهو مخفف من المضموم.

قوله تعالى (أموات) إن شئت جعلته خبرا ثانيا لهم: أي وهم يخلقون ويموتون، وإن شئت جعلت يخلقون وأموات خبرا واحدا، وإن شئت كان خبر مبتدإ محذوف أي هم أموات (غير أحياء) صفة مؤكدة، ويجوز أن يكون قصد بها أنهم في الحال غير أحياء ليدفع به توهم أن قوله أموات فيما بعد، إذ قد قال تعالى "إنك ميت" أي ستموت، و (أيان) منصوب ب (يبعثون) لا بيشعرون.

قوله تعالى (ماذا أنزل ربكم) "ماذا) فيها وجهان: أحدهما "ما" فيها استفهام "وذا" بمعنى الذى، وقد ذكر في البقرة، والعائد محذوف، أي أنزله، و (أساطير) خبر مبتدإ محذوف تقديره: ما ادعيتموه منزلا أساطير، ويقرأ أساطير بالنصب، والتقدير: وذكرتم أساطير، أو أنزل أساطير على الاستهزاء.

قوله تعالى (ليحملوا) أي قالوا ذلك ليحملوا، وهى لام العاقبة (ومن أوزار الذين) أي

وأوزار من أوزار الذين .

وقال الأخفش " من " زائدة .

قوله تعالى (من القواعد ) أي من ناحية القواعد والتقدير : أتى أمر الله (من فوقهم) يجوز أن يتعلق من يخر ، وتكون " من " لابتداء الغاية ، وأن تكون حالا أي كائنا من فوقهم ، وعلى كلا الوجهين هو توكيد .

(62/431)

---

قوله تعالى (تشاقون) يقرأ بفتح النون ، والمفعول محذوف: أي تشاقون المؤمنين أو تشاقونني ، ويقرأ بكسرها مع التشديد ، فأدغم نون الرفع في نون الوقاية ، ويقرأ بالكسر والتخفيف ، وهو مثل " فبم تبشرون " وقد ذكر .

قوله تعالى (إن الخزى اليوم) في عامل الظرف وجهان ، أحدهما الخزى ، وهو مصدر فيه الألف واللام .

والثانى هو معمول الخبر وهو قوله تعالى (على الكافرين) أي كائن على الكافرين اليوم ، وفصل بينهما بالمعطوف لاتساعهم في الظرف .

قوله تعالى (الذين تتوفاهم) فيه الجر والنصب والرفع وقد ذكر في مواضع وتتوفاهم بمعنى

توفتهم (فألقوا السلم) يجوز أن يكون معطوفا على قال الذين أوتوا العلم ، ويجوز أن يكون معطوفا على توفاهم ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، والسلم هنا بمعنى القول ، كما قال في الآية الأخرى " فألقوا إليهم القول " فعلى هذا يجوز أن يكون (ما كنا نعمل من سوء ) تفسيرا للسلم الذى ألقوه ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، ويجوز أن يكون التقدير : فألقوا السلم قائلين ما كنا .

قوله تعالى (ماذا أنزل ربكم) " ما " في موضع نصب بأنزل ، ودل على ذلك نصب الجواب وهو قوله (قالوا خيرا ) أي أنزل خيرا .

قوله تعالى (جنات عدن) يجوز أن تكون هي المخصوصة بالمدح مثل زيد في نعم الرجل زيد ، و (يدخلونها ) حال منها ، ويجوز أن يكون مستأنفا ويدخلونها الخبر ، ويجوز أن يكون الخبر محذوفا : أي لهم جنات عدن ، ودل على ذلك قوله تعالى " للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة " (كذلك يجزى) الكاف في موضع نصب نعتا لمصدر محذوف .

قوله تعالى (طيبين) حال من المفعول ، و (يقولون) حال من الملائكة .

قوله تعالى (أن اعبدوا ) يجوز أن تكون " أن " بمعنى أي ، وأن تكون مصدرية (من هدى) من نكرة موصوفة مبتدأ ، وما قبلها الخبر .

قوله تعالى (فإن الله لا يهدى) يقرأ بفتح الياء وكسر الدال على تسمية الفاعل ولا يهدى خبر إن ، و (من يضل) مفعول يهدى .

ويقرأ "لا يهدى" بضم الياء

على ما لم يسم فاعله.

(63/431)

---

وفيه وجهان: أحدهما أن من يضل مبتدأ، ولا يهدى خبر.

والثانى أن لا يهدى من يضل بأسره خبر إن، كقولك: إن زيدا لا يضرب أبوه.

قوله تعالى (فيكون) يقرأ بالرفع: أي فهو، وبالنصب عطفا على نقول، وجعله جواب الأمر

بعيد لما ذكرناه في البقرة.

قوله تعالى (والذين هاجروا) مبتدأ، و (لنبوئنهم) الخبر، ويجوز أن يكون في موضع نصب

بفعل محذوف يفسره المذكور (حسنة) مفعول ثان لنبوئنهم، لأن معناه لنعطينهم، ويجوز أن

يكون صفة لمحذوف: أي دارا حسنة، لأن بوأته أنزلته.

قوله تعالى (الذين صبروا) في موضع رفع على إضمارهم، أو نصب على تقدير أعنى.

قوله تعالى (بالبينات) فيما تتعلق الباء به ثلاثة أوجه: أحدها بنوحى كما تقول: أوحى إليه

بحق، ويجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن تكون حالا من القائم مقام الفاعل وهو إليهم.

والوجه الثاني: أن تتعلق بأرسلنا: أي أرسلناهم بالبينات، وفيه ضعف لأن ما قبل إلا لا

يعمل فيما بعدها إذا تم الكلام على إلا وما يليها ، إلا أنه قد جاء في الشعر كقول الشاعر :

نبئتهم عذبوا بالنار جارتهم * ولا يعذب إلا الله بالنار والوجه الثالث أن يتعلق بمحذوف

تقديره: بعثوا بالبينات ، والله أعلم .

قوله تعالى (على تخوف) في موضع الحال من الفاعل أو المفعول في قوله " أو يأخذهم " .

قوله تعالى (أو لم يروا) يقرأ بالياء والتاء ، وقبله غيبة وخطاب يصححان الأمرين (تتفيؤ)

يقرأ بالتاء على تأنيث الجمع الذى في الفاعل ، وبالياء لأن التأنيث

غير حقيقي (عن اليمين) وضع الواحد موضع الجمع ، وقيل أول ما يبدو الظل عن اليمين ثم

ينتقل وينتشر عن الشمال ، فانتشاره يقتضى الجمع ، و " عن " حرف جر موضعها نصب

على الحال ، ويجوز أن تكون للمجاوزة: أي تتجاوز الظلال اليمين إلى الشمال .

وقيل هي اسم: أي جانب اليمين (والشمائل) جمع شمال (سجدا)

حال من الظلال (وهم داخرون) حال من الضمير في سجدا ، ويجوز أن يكون حالا ثانية

معطوفة .

قوله تعالى (مافى السموات) إنما ذكر " ما " دون " من " لأنها أعم والسجود يشتمل على الجميع .

قوله تعالى (من فوقهم) هو حال من ربهم ، ويجوز أن يتعلق بيخافون .

قوله تعالى (اثنين) هو توكيد ، وقيل مفعول ثان وهو بعيد .

قوله تعالى (واصبا ) حال من الدين .

قوله تعالى (وما بكم) " ما " بمعنى الذى ، والجار صلته ، و (من نعمة) حال من الضمير في الجار (فمن الله) الخبر ، وقيل " ما " شرطية وفعل الشرط محذوف: أي ما يكن ، والفاء جواب الشرط .

قوله تعالى (إذا فريق) هو فاعل لفعل محذوف .

قوله تعالى (فتمتعوا ) الجمهور على أنه أمر ، ويقرأ بالياء وهو معطوف على يكفروا ثم رجع إلى الخطاب فقال (فسوف تعلمون) وقرئ بالياء أيضا .

قوله تعالى (ولهم مايشتهون) " ما " مبتدأ ، ولهم خبره أو فاعل الظرف وقيل " ما " في موضع نصب عطفا على نصيبا : أي ويجعلون مايشتهون لهم ، وضعف قوم هذا الوجه وقالوا: لو كان كذلك لقال ولأنفسهم ، وفيه نظر .

قوله تعالى (ظل وجهه مسودا ) خبره ، ولو كان قد قرئ " مسود " لكان مستقيما ، على أن يكون اسم ظل مضمرا فيها ، والجملة خبرها (وهو كظيم) حال من

صاحب الوجه ، ويجوز أن يكون من الوجه لأنه منه .

قوله تعالى (يتوارى) حال من الضمير في كظيم (أيمسكه) في موضع الحال تقديره: يتوارى مترددا هل يمسكه أم لا ؟ (على هون) حال .

قوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب) يقرأ بالنصب على أنه مفعول تصف أو هو بدل مما يكرهون ، فعلى هذا في قوله (أن لهم الحسنى) وجهان: أحدهما هو بدل من الكذب . والثانى تقديره: بأن لهم ، ولما حذفت الباء صار في موضع نصب عند الخليل ، وعند سيبويه هو في موضع جر .

ويقرأ الكذب بضم الكاف والذال والباء على أنه صفة للالسنة ، وهو جمع واحده كذوب مثل صبور وصبر ، وعلى هذا يجوز أن يكون واحد الألسنة مذكرا أو مؤنثا ، وقد سمع في اللسان الوجهان

وعلى هذه القراءة "أن لهم الحسنى" مفعول تصف .

*(65/431)*

---

(لاجرم) قد ذكر في هود مستوفى (مفرطون) يقرأ بفتح الراء والتخفيف ، وهو من أفرط إذا حمله على التفريط غيره ، وبالكسر على نسبة الفعل إليه ، وبالكسر والتشديد وهو

ظاهر.

قوله تعالى (وهدى ورحمة) معطوفان على لتبين: أي للتبيين والهداية والرحمة.

قوله تعالى (بطونه) فيما تعود الهاء عليه ستة أوجه: أحدها أن الأنعام تذكر وتؤنث، فذكر الضمير على إحدى اللغتين.

والثانى أن الأنعام جنس، فعاد الضمير إليه على المعنى.

والثالث أن واحد الأنعام نعم، والضمير عائد على واحده كما قال الشاعر: * مثل الفراخ نتفت حواصله * والرابع أنه غائب على المذكور فتقديره: مما في بطون المذكور، كما قال الحطيئة: لزغب كأولاد القطا راث خلفها * على عاجزات النهض حمر حواصله

والخامس أنه يعود على البعض الذى له لبن منها.

والسادس أنه يعود على الفحل

لأن اللبن يكون من طرق الفحل الناقة، فأصل اللبن ماء الفحل، وهذا ضعيف لأن اللبن وإن نسب إلى الفحل فقد جمع البطون، وليس فحل الأنعام واحدا، ولا للواحد بطون، فإن قال أراد الجنس فقد ذكر (من بين) في موضع نصب على الظرف، ويجوز أن يكون حالا من " ما " أو من اللبن (سائغا) الجمهور على قراءته على فاعل ويقرأ " سيغا " بياء مشددة وهو مثل سيد وميت وأصله من الواو.

قوله تعالى (ومن ثمرات) الجار يتعلق بمحذوف تقديره: وخلق لكم، أو وجعل (تتخذون)

مستأنف ، وقيل هو صفة لمحذوف تقديره: شيئًا تتخذون بالنصب: أي وإن من الثمرات شيئًا ، وإن شئت شيء بالرفع بالابتداء ، ومن ثمرات خبره ، وقيل التقدير: وتتخذون من ثمرات النخيل سكرا ، وأعاد من لما قدم وأخر ، وذكر الضمير لأنه عاد على شيء المحذوف ، أو على معنى الثمرات: وهو الثمر أو على النخل: أي من ثمر النخل ، أو على الجنس ، أو على البعض ، أو على المذكور كما تقدم في هاء بطونه .

قوله تعالى (أن اتخذى) أي اتخذى أو تكون مصدرية .

(66/431)

---

قوله تعالى (ذللا) هو حال من السبل ، أو من الضمير في اسلكى ، والواحد ذلول ، ثم عاد من الخطاب إلى الغيبة فقال (يخرج من بطونها – فيه شفاء ) يعود على الشراب ، وقيل على القرآن .

قوله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيئًا ) شيئًا منصوب بالمصدر على قول البصريين ، وبيعلم على قول الكوفيين .

قوله تعالى (فهم فيه سواء ) الجملة من المبتدإ والخبر هنا واقعة موقع الفعل والفاعل ، والتقدير: فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا ، وهذا الفعل

منصوب على جواب النفى ، ويجوز أن يكون مرفوعا عطفا على موضع

برادى: أي فما الذين فضلوا يردون فما يستوون .

قوله تعالى (رزقا من السموات) الرزق بكسر الراء اسم المرزوق ، وقيل هو اسم للمصدر ، والمصدر بفتح الراء (شيئا ) فيه ثلاثة أوجه: أحدها هو منصوب برزق لأن اسم المصدر يعمل عمله: أي لا يملكون أن يرزقوا شيئا .

والثانى هو بدل من رزق .

والثالث هومنصوب نصب المصدر: أي لا يملكون رزقا ملكا ، وقد ذكرنا نظائره كقوله " لا يضركم كيدهم شيئا " .

قوله تعالى (عبدا ) هو بدل من مثل ، وقيل التقدير: مثلا مثل عبد ، و (من) في موضع نصب نكرة موصوفة (سرا وجهرا ) مصدران في موضع الحال .

قوله تعالى (أينما يوجهه) يقرأ بكسر الجيم: أي يوجهه مولاه ، ويقرأ بفتح الجيم وسكون الهاء على ما لم يسم فاعله ، ويقرأ بالتاء وفتح الجيم والهاء على لفظ الماضي .

قوله تعالى (أو هو أقرب) هو ضمير للامر ، وأو قد ذكر حكمها في " أو كصيب من السماء " .

قوله تعالى (أمهاتكم) يقرأ بضم الهمزة وفتح الميم وهو الأصل وبكسرهما ، فأما كسرة الهمزة فلعلة: وقيل أتبعت كسرة النون قبلها وكسرة الميم إتباعا لكسرة الهمزة (لا تعلمون

شيئًا ) الجملة حال من الضمير المنصوب في " أخرجكم " .

قوله تعالى (ألم يروا ) يقرأ بالتاء لأن قبله خطابا و بالياء على الرجوع إلى الغيبة (ما يمسكهن) الجملة حال من الضمير في مسخرات أو من الطير ، ويجوز أن يكون مستأنفا .

(67/431)

---

قوله تعالى (من بيوتكم سكنا ) إنما أفرد لأن المعنى ما تسكنون (يوم ظعنكم) يقرأ بسكون العين وفتحها وهما لغتان ، مثل النهر والنهر ، والظعن مصدر ظعن (أثاثا ) معطوف على سكنا ، وقد فصل بينه وبين حرف العطف بالجار والمجرور

وهو قوله تعالى " ومن أصوافها " وليس بفصل مستقبح كما زعم في الإيضاح ، لأن الجار والمجرور مفعول ، وتقديم مفعول على مفعول قياس .

قوله تعالى (ويوم نبعث) أي واذكر ، أو وخوفهم .

قوله تعالى (يعظكم) يجوز أن يكون حالا من الضمير في ينهى ، وأن يكون مستأنفا .

قوله تعالى (بعد توكيدها ) المصدر مضاف إلى المفعول ، والفعل منه وكد ، ويقال أكد تأكيدا ، وقد (جعلتم) الجملة حال من الضمير في " تنقضوا " ، ويجوز أن يكون حالا من فاعل المصدر .

قوله تعالى (أنكاثا) هو جمع نكث وهو بمعنى المنكوث: أي المنقوض وانتصب على الحال من غزلها، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا على المعنى، لأن معنى نقضت صيرت، و (تتخذون) حال من الضمير في تكونوا أو من الضمير في حرف الجر، لأن التقدير: لا تكونوا مشبهين (أن تكون) أي مخافة أن تكون (أمة) اسم كان أو فاعلها إن جعلت كان التامة (هي أربى) جملة في موضع نصب خبر كان، أو في موضع رفع على الصفة، ولا يجوز أن تكون هي فصلا لأن الاسم الاول نكرة، والهاء في (به) تعود على الربو وهو الزيادة.

قوله تعالى (فتزل) هو جواب النهى.

قوله تعالى (من ذكر) هو حال من الضمير في عمل.

قوله تعالى (فإذا قرأت) المعنى فإذا أردت القراءة، وليس المعنى إذا فرغت من القراءة.

قوله تعالى (إنما سلطانه) الهاء فيه تعود على الشيطان، والهاء في (به) تعود عليه أيضا، والمعنى الذين يشركون بسببه، وقيل الهاء عائدة على الله عزوجل.

قوله تعالى (والله أعلم بما ينزل) الجملة فاصلة بين إذا وجوابها، فيجوز أن تكون حالا، وأن لا يكون لها موضع وهى مشددة.

قوله تعالى (وهدى وبشرى) كلاهما في موضع نصب على المفعول له ، وهو عطف على قوله ليثبت ، لأن تقدير الأول لأن يثبت ، ويجوز أن يكونا في موضع رفع خبر مبتدإ محذوف: أي وهو هدى ، والجملة حال من الهاء في نزله .

قوله تعالى (لسان الذى) القراءة المشهورة إضافة لسان إلى الذى ، وخبره (أعجمى) وقرئ في الشاذ اللسان الذى بالألف واللام ، والذى نعت ، والوقف بكل حال على بشر .

قوله تعالى (من كفر) فيه وجهان: أحدهما هو بدل من قوله الكاذبون: أي وأولئك هم الكافرون ، وقيل هو بدل من أولئك ، وقيل هو بدل من الذين لا يؤمنون .

والثانى هو مبتدأ ، والخبر " فعليهم غضب من الله " .

قوله تعالى (إلا من أكره) استثناء مقدم ، وقيل ليس بمقدم فهو كقول لبيد * ألا كل شئ ما خلا الله باطل * وقيل " من " شرط وجوابها محذوف دل عليه قوله " فعليهم غضب " إلا من أكره استثناء متصل ، لأن الكفر يطلق على القول والاعتقاد ، وقيل هو منقطع لأن الكفر اعتقاد والإكراه على القول دون الاعتقاد (من شرح) مبتدأ (فعليهم) خبره .

قوله تعالى (إن ربك) خبر إن (لغفور رحيم) (1) وإن الثانية واسمها تكرير للتوكيد ، ومثله في هذه السورة " ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة " وقيل " لا " خبر لأن الأولى في اللفظ ، لأن خبر الثانية أغنى عنه (من بعد ما فتنوا) يقرأ على ما لم يسم فاعله: أي فتنهم غيرهم بالكفر فأجابوا فإن الله عفا لهم عن ذلك: أي رخص لهم فيه ، ويقرأ بفتح الفاء والتاء : أي

فتنوا أنفسهم أو فتنوا غيرهم ثم أسلموا .

قوله تعالى (يوم يأتي) يجوز أن يكون ظرفا لرحيم ، وأن يكون مفعولا به: أي اذكر .

قوله تعالى (قرية) مثل قوله " مثلا عبدا " (والخوف) بالجر عطفا على الجوع ، وبالنصب عطفا على لباس ، وقيل هو معطوف على موضع الجوع ، لأن التقدير: أن ألبسهم الجوع والخوف .

قوله تعالى (ألسنتكم الكذب) يقرأ بفتح الكاف والباء وكسر الذال ، وهو منصوب بتصف و " ما " مصدرية ، وقيل هي بمعنى الذى ، والعائد محذوف .

---

(1) (قوله خبر إن لغفور إلخ .

) المراد بها إن الأولى في قوله تعالى " ثم إن ربك " إلخ وعليه فللذين متعلق بالخبر كما في السفاقسى .

وعند الزمخشري للذين خبر إن الأولى اه مصححه .

(69/431)

---

والكذب بدل منه ، وقيل هو منصوب بإضمار أعنى ، ويقرأ بضم الكاف والذال وفتح الياء وهو جمع كذاب بالتخفيف ، مثل كتاب وكتب ، وهو مصدر ، وهى في معنى القراءة

الأولى ، ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الباء على النعت للالسنة ، وهو جمع كاذب أو كذوب ، ويقرأ بفتح الكاف وكسر الذال ، والباء على البدل من " ما " سواء جعلتها مصدرية أو بمعنى الذى .

(70/431)

---

قوله تعالى (متاع قليل) أي بقاؤهم متاع ونحو ذلك .

قوله تعالى (اجتباه) يجوز أن يكون حالا ، وقد معه مرادة ، وأن يكون خبرا ثانيا لأن ، وأن يكون مستأنفا (لأنعمه) يجوز أن تتعلق اللام بشاكر ، وأن تتعلق باجتباه .

قوله تعالى (وإن عاقبتم) الجمهور على الألف والتخفيف فيهما ، ويقرأ بالتشديد من غير ألف فيهما : أي تتبعتم (بمثل ما ) الباء زائدة ، وقيل ليست زائدة ، والتقدير : بسبب مماثل لما عوقبتم (لهو خير) الضمير للصبر أو للعفو ، وقد دل

على المصدرين الكلام المتقدم .

قوله تعالى (إلا بالله) أي بعون الله أو بتوفيقه (عليهم) أي على كفرهم ، وقيل الضمير يرجع على الشهداء : أي لا تحزن عليهم فقد فازوا (في ضيق) يقرأ بفتح الضاد وفيه وجهان:

أحدهما هو مصدر ضاق مثل سار سيرا .

والثانى هو مخفف من الضيق: أي في أمر ضيق، مثل سيد وميت (مما يمكرون) أي من أجل مايمكرون، ويقرأ بكسر الضاد، وهى لغة في المصدر، والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 87.77 ﴾

(71/431)

---

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة النحل

[سورة النحل (16): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)

(72/431)

---

"أَتى أَمْرُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ" الفاء عاطفة ولا الناهية والمضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره أسبح والجملة مستأنفة "وَتَعالى" ماض مبني على الفتحة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "عَمَّا" ما موصولية ومتعلقان بسبحان "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "يُنَزِّلُ" مضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "الْمَلائِكَةَ" مفعول به "بِالرُّوحِ" متعلقان بينزل "مِنْ أَمْرِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "عَلى مَنْ" من اسم موصول متعلقان بينزل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بمحذوف حال والهاء مضاف إليه "أَنْ" المخففة واسمها ضمير الشأن محذوف وأن وما بعدها في تأويل المصدر بدل من الروح "أَنْذِرُوا" أمر وفاعله والجملة خبر "أَنَّهُ" أن واسمها والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "إِلهَ" اسمها المبني على الفتح والخبر محذوف والجملة خبر أنه "إِلَّا" أداة حصر "أَنَا" بدل من الضمير في الخبر المحذوف "فَاتَّقُونِ" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم للتخفيف وهي مفعول به "خَلَقَ السَّماواتِ" ماض وفاعله مستتر والسموات مفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "وَالْأَرْضَ" معطوفة على السموات "بِالْحَقِّ" حال والجملة مستأنفة "تَعالى" ماض فاعله مستتر "عَمَّا" عن حرف جر وما موصولية

متعلقان بتعالى والجملة مستأنفة "يُشْرِكُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة "خَلَقَ الْإِنْسانَ" ماض وفاعله مستتر والإنسان مفعوله والجملة مستأنفة "مِنْ نُطْفَةٍ" متعلقان بخلق "فَإِذا" الفاء زائدة وإذا

(73/431)

---

الفجائية "هُوَ خَصِيمٌ" مبتدأ وخبر "مُبِينٌ" صفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 5 الى 7]

وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (7)

"وَالْأَنْعامَ" الواو عاطفة والأنعام معطوف على الإنسان "خَلَقَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "لَكُمْ" متعلقان بخلقها والجملة حالية "فِيها دِفْءٌ" دفء مبتدأ مؤخر وفيها متعلقان بالخبر المقدم والجملة حالية "وَمَنافِعُ"

معطوف على دفء "وَمِنْها" متعلقان بتأكلون "تَأْكُلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ" الواو عاطفة ولكم متعلقان بخبر مقدم فيها

متعلقان بحال محذوفة وجمال مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "حِينَ" ظرف زمان متعلق بصفة محذوفة لجمال "تُرِيحُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مضاف إليه "وَحِينَ تَسْرَحُونَ" الجملة معطوفة على سابقتها وإعرابها كإعرابها "وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ" الواو عاطفة ومضارع فاعله مستتر وأثقالكم مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "إِلى بَلَدٍ" متعلقان بتحمل "لَمْ" حرف جزم ونفي وقلب "تَكُونُوا" مضارع ناقص والواو اسمها والجملة صفة لبلد "بالِغِيهِ" خبر منصوب بالياء والهاء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "بِشِقِّ الْأَنْفُسِ" متعلقان بحال محذوفة والأنفس مضاف إليه "إِنَّ رَبَّكُمْ" إن واسمها "لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ" خبرا إن مرفوعان واللام المزحلقة والجملة مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 8 الى 10]



---

وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10)

"وَالْخَيْلَ" عطف على الأنعام "وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ" عطف على ما سبق "لِتَرْكَبُوها" اللام لام التعليل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والهاء مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر والجار والمجرور متعلقان بخلقها "وَزِينَةً" مفعول به لفعل محذوف تقديره جعلها زينة وهو معطوف "وَيَخْلُقُ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع فاعله مستتر "ما" موصولية مفعول به "لا" نافية "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة الموصول "وَعَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بخبر قصد "قَصْدُ" مبتدأ مرفوع والجملة مستأنفة "السَّبِيلِ" مضاف إليه "وَمِنْها جائِرٌ" جائر صفة لمبتدأ محذوف تقديره منها سبيل جائر والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم والجملة معطوفة على سابقتها "وَلَوْ" الواو استئنافية لو حرف شرط غير جازم "شاءَ" الله ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "لَهَداكُمْ" اللام واقعة في جواب لو وماض فاعله مستتر والكاف مفعوله "أَجْمَعِينَ" توكيد للمفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر "أَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزل "ماءً" مفعول به "لَكُمْ" متعلقان بالخبر المقدم "مِنْهُ" متعلقان بشراب "شَرابٌ" مبتدأ والجملة مستأنفة "وَمِنْهُ" متعلقان بالخبر المقدم "شَجَرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما سبق "فِيهِ" متعلقان بتسيمون "تُسِيمُونَ" مضارع

مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لشجر .

[سورة النحل (16) : الآيات 11 الى 13]

(76/431)

---

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)

(77/431)

---

"يُنْبِتُ" مضارع فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بينبت "بِهِ" متعلقان بينبت "الزَّرْعَ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَالزَّيْتُونَ" معطوف على الزرع "وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ" عطف على ما سبق "وَمِنْ كُلِّ" معطوف على ما تقدم "الثَّمَرَاتِ" مضاف إليه "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً" إن والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب آية اسم إن

واللام المزحلقة والجملة مستأنفة "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآية "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم "وَسَخَّرَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "لَكُمُ" متعلقان بسخر "اللَّيْلَ" مفعول به "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" معطوف على ما سبق "وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "بِأَمْرِهِ" متعلقان بمسخرات "إِنَّ" إن حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بالخبر المقدم "لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن المنصوب بالكسرة لأنه مؤنث مذكر سالم والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لآيات وجملة يتفكرون في محل جر صفة لقوم "وَما" الواو عاطفة وما موصولية "ذَرَأَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بذرأ "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بذرأ "مُخْتَلِفاً" حال "أَلْوانُهُ" فاعل مختلف "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ" انظر إعراب آخر الآيتين السابقتين وهذه الآية مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 14 الى 16]

(78/431)

---

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ

بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16)

"وَهُوَ الَّذِي" الواو عاطفة هو مبتدأ الذي اسم موصول خبره والجملة معطوفة "سَخَّرَ الْبَحْرَ" ماض فاعله مستتر والبحر مفعوله والجملة صلة "لِتَأْكُلُوا" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل جر متعلقان بسخر "مِنْهُ" متعلقان بتأكلوا "لَحْمًا" مفعول به "طَرِيًّا" صفة "وَتَسْتَخْرِجُوا" مضارع والواو فاعله وهو معطوف على تأكلوا منصوب مثله بحذف النون "مِنْهُ" متعلقان بتستخرجوا "حِلْيَةً" مفعول به "تَلْبَسُونَهَا" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والهاء مفعول به والجملة صفة لحلية "وَتَرَى الْفُلْكَ" مضارع فاعله مستتر والفلك مفعوله والجملة اعتراضية لا محل لها "مَوَاخِرَ" حال "فِيهِ" متعلقان بمواخر "وَلِتَبْتَغُوا" إعرابه مثل إعراب لتأكلوا وهو معطوف عليه "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان



بمواخر "وَلِتَبْتَغُوا" إعرابه مثل إعراب لتأكلوا وهو معطوف عليه "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بتبتغوا "وَلَعَلَّكُمْ" الواو عاطفة لعل والكاف اسمها والجملة معطوفة "تَشْكُرُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر لعل "وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ" الواو عاطفة وماض مبني على الفتح

المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجار والمجرور متعلقان بألقى ورواسي صفة لمفعول به محذوف تقديره جبالا رواسي "أَنْ تَمِيدَ" أن الناصبة وتميد مضارع منصوب "بِكُمْ" متعلقان بتميد وأن وما بعدها في محل نصب مفعول لأجله أي كراهة أن تميد "وَأَنْهارًا وَسُبُلًا" معطوف على رواسي "لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" تقدم إعرابها و"عَلاماتٍ" معطوفة على رواسي منصوبة مثلها "وَبِالنَّجْمِ" متعلقان بيهتدون "هُمْ" مبتدأ "يَهْتَدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة النحل (16) : الآيات 17 الى 20]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18) وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20)



---

"أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ومن موصولية مبتدأ والجملة معطوفة على ما سبق "يَخْلُقُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "كَمَنْ" الكاف حرف جر ومن موصولية متعلقان بمحذوف خبر من "لا يَخْلُقُ" لا نافية ويخلق مضارع فاعله مستتر والجملة صلة

"أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع والواو فاعل والجملة صلة "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية "تَعُدُّوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل وجملة الشرط مستأنفة وجملة فعل الشرط ابتدائية لا محل لها "نِعْمَةَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لا تُحْصُوها" لا نافية ومضارع مجزوم جواب الشرط والواو فاعل والها مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير مقترن بالفاء "إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وغفور ورحيم خبراها واللام المزحلقة والجملة مستأنفة "وَاللَّهُ" والواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" موصولية مفعول به والجملة خبر "تُسِرُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَما تُعْلِنُونَ" معطوفة على سابقتها وإعرابها مثل إعرابها "وَالَّذِينَ" الواو استئنافية واسم الموصول مبتدأ "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بيدعون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لا يَخْلُقُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع وفاعله والجملة خبر الذين "شَيْئاً" مفعول به "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "يُخْلَقُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب الفاعل والجملة خبر وجملة هم حالية.

[سورة النحل (16) : الآيات 21 الى 24]

أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24)

(82/431)

"أَمْواتٌ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم أموات والجملة مستأنفة "غَيْرُ" صفة لأموات "أَحْياءٍ" مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "أَيَّانَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية الزمانية "يُبْعَثُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وجملة أيان يبعثون في محل نصب مفعول به "إِلهُكُمْ إِلهٌ" مبتدأ وخبر والكاف مضاف إليه "واحِدٌ" صفة والجملة مستأنفة "فَالَّذِينَ" الفاء استئنافية والذين اسم موصول مبتدأ "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة وجملة المبتدأ والخبر استئنافية "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيؤمنون "قُلُوبُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "مُنْكِرَةٌ" خبر والجملة خبر الذين "وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ" مبتدأ وخبر والجملة في محل نصب حال "لا جَرَمَ" هي بمعنى حقّ وثبت ماض

وما بعده من إن واسمها وخبرها سدت مسد الفاعل "أَنَّ اللَّهَ" أن ولفظ الجلالة اسمها "يَعْلَمُ" مضارع مرفوع "ما" موصولية مفعول به وفاعل يعلم مستتر "يُسِرُّونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَما يُعْلِنُونَ" إعرابها كسابقتها وهي معطوفة عليها "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة استئنافية "لا يُحِبُّ" لا نافية وفعل مضارع فاعله مستتر "الْمُسْتَكْبِرِينَ" مفعول به منصوب بالياء والجملة خبر إن "وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة مضاف إليه ونائب الفاعل جملة ماذا أنزل ربكم "لَهُمْ" متعلقان بقيل "ما ذا" ما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وذا اسم موصول في محل رفع خبر والجملة مقول القول "أَنْزَلَ رَبُّكُمْ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "قالُوا" ماض وفاعل والجملة مستأنفة "أَساطِيرُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه والجملة مقول القول.

*(83/431)*

---

[سورة النحل (16) : الآيات 25 الى 26]

لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ

وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26)

"لِيَحْمِلُوا" اللام للتعليل يحملوا مضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل واللام وما بعدها متعلقان بفعل قالوا والجملة مستأنفة "أَوْزارَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "كامِلَةً" حال "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "وَمِنْ أَوْزارِ" معطوف على أوزارهم "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه "يُضِلُّونَهُمْ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة "بِغَيْرِ" متعلقان بحال محذوفة من الهاء "عِلْمٍ" مضاف إليه "أَلا" حرف تنبيه "ساءَ" ماض لإنشاء الذم "ما" اسم موصول في محل رفع فاعل والجملة

(84/431)

---

استئنافية "يَزِرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "قَدْ" حرف تحقيق "مَكَرَ" ماض مبني على الفتح "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع فاعل والجملة مستأنفة "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة "فَأَتَى" الفاء استئنافية وماض مبني على الفتحة المقدرة للتعذر "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "بُنْيانَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "مِنَ الْقَواعِدِ" متعلقان بأتى والجملة مستأنفة "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجار والمجرور متعلقان بخر "مِنْ فَوْقِهِمْ" متعلقان بحال محذوفة والهاء مضاف إليه

"وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة "مِنْ حَيْثُ" حيث مبنية على الضم في محل جر بمن متعلقان بأتاهم "لا يَشْعُرُونَ" لا نافية يشعرون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مضاف إليه.

[سورة النحل (16) : الآيات 27 الى 29]

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)

*(85/431)*

---

"ثُمَّ" عاطفة "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "يُخْزِيهِمْ" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة معطوفة "وَيَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "أَيْنَ شُرَكائِيَ" شركائي مبتدأ مؤخر والياء مضاف إليه وأين اسم استفهام في محل نصب ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف المقدم والجملة مقول القول "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع صفة لشركائي "كُنْتُمْ" كان واسمها "تُشَاقُّونَ" مضارع

مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كان "فِيهِمْ" متعلقان بتشاقون "قالَ" ماض

وفاعله والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "أُوتُوا الْعِلْمَ" ماض مبني للمجهول

والواو نائب فاعل والعلم ومفعوله والجملة صلة "إِنَّ الْخِزْيَ" إن واسمها "الْيَوْمَ" ظرف زمان

متعلق بالخزي "وَالسُّوءَ" معطوف على الخزي "عَلَى الْكافِرِينَ" متعلقان بالخبر والجملة مقول

القول "الَّذِينَ" اسم موصول صفة للكافرين "تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ" مضارع ومفعوله المقدم

وفاعله المؤخر "ظالِمِي" حال منصوبة بالياء لأنه جمع مذكر سالم وحذفت النون للإضافة

"أَنْفُسِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة صلة "فَأَلْقَوُا السَّلَمَ" الفاء عاطفة وماض

وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على جملة الصلة "ما كُنَّا" ما النافية كنا كان واسمها

والجملة مقول القول لفعل محذوف تقديره يقولون . . إلخ "نَعْمَلُ" مضارع فاعله مستتر

والجملة خبر كنا "مِنْ سُوءٍ" من حرف جر زائد وسوء مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا

"بَلى" حرف جواب "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وعليم خبرها والجملة مقول

القول لفعل محذوف هو قالوا بلى "بِما" ما موصولية ومتعلقان بعليم "كُنْتُمْ" كان واسمها

والجملة

صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كنتم "فَادْخُلُوا" الفاء استئنافية وأمر وفاعله "أَبْوابَ" مفعول به والجملة لا محل لها لأنها استئنافية "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "خالِدِينَ" حال منصوبة بالياء "فِيها" متعلقان بخالدين "فَلَبِئْسَ" الفاء استئنافية واللام للابتداء وبئس ماض لإنشاء الذم "مَثْوَى" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "الْمُتَكَبِّرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 30 الى 31]

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31)

"وَقِيلَ" الواو استئنافية وماض مبني للمجهول "لِلَّذِينَ" اسم موصول متعلقان بقيل والجملة مستأنفة "اتَّقَوْا" ماض وفاعله والجملة صلة "ما ذا" ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبر والجملة نائب فاعل "أَنْزَلَ رَبُّكُمْ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة صلة "قالُوا" ماض وفاعله "خَيْراً" مفعول به لفعل محذوف تقديره أنزل خيرا وهو مقول القول "لِلَّذِينَ" الذين اسم موصول ومتعلقان بخبر مقدم "أَحْسَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي هذِهِ" الها للتنبيه وذه اسم إشارة وهو في محل جر ومتعلقان بأحس "الْآخِرَةِ"

مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر والجملة مستأنفة "وَلَنِعْمَ" الواو عاطفة واللام للابتداء ونعم ماض لإنشاء المدح "دارُ" فاعل "الْمُتَّقِينَ" مضاف إليه والجملة معطوفة "جَنَّاتُ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي والجملة مستأنفة "عَدْنٍ" مضاف إليه "يَدْخُلُونَها" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة حالية "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بتجري والها مضاف إليه "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة حالية "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدم "فِيها" متعلقان بحال محذوفة "ما" موصولية مبتدأ مؤخر "يَشاؤُنَ" مضارع مرفوع والجملة صلة "كَذلِكَ" ذا اسم إشارة ومتعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف "يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله والمتقين مفعوله والجملة مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 32 الى 33]

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32)
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ
اللَّهُ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33)

"الَّذِينَ" موصول مبتدأ "تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة

صلة "طَيِّبِينَ" حال منصوبة بالياء "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر الذين

"سَلامٌ عَلَيْكُمُ" مبتدأ والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مقول القول "ادْخُلُوا الْجَنَّةَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "بِما" ما موصولية متعلقان بادخلوا "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبرهَلْ"

حرف استفهام يَنْظُرُونَ"

(88/431)

---

مضارع مرفوع والواو فاعل إِلَّا"

أداة حصر أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ"

أن ناصبة ومضارع منصوب ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر المصدر المؤول في محل نصب مفعول به أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ"

أو عاطفة ومضارع منصوب معطوف على ما قبله وأمر فاعل رَبِّكَ"

مضاف إليه والكاف مضاف إليه ذلِكَ"

ذا اسم إشارة وهما متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق "عَلَ

ماض مبني على الفتح "الَّذِينَ

موصول فاعل "مِنْ قَبْلِهِمْ"

متعلقان بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "وَما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ"

الواو عاطفة وما نافية وفعل ماض ومفعوله المقدم ولفظ الجلالة فاعله "وَلكِنْ"

الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "كانُوا"

كان واسمها والجملة معطوفة "أَنْفُسَهُمْ"

مفعول به مقدم "يَظْلِمُونَ"

مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا .

[سورة النحل (16) : الآيات 34 الى 35]

فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (34) وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (35)

"فَأَصابَهُمْ" الفاء عاطفة وماض ومفعوله المقدم "سَيِّئاتُ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة على ما سبق "ما" موصول مضاف إليه "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَحاقَ" ماض "بِهِمْ" متعلقان بحاق "ما" موصولية فاعل حاق "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بيستهزئون "يَسْتَهْزِؤُنَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "وَقالَ الَّذِينَ" الواو استئنافية وماض والذين اسم موصول فاعل والجملة مستأنفة "أَشْرَكُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "ما عَبَدْنا" ما نافية وماض وفاعله والجملة مقول القول "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بعبدنا "مِنْ" زائدة "شَيْءٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "نَحْنُ" توكيد لفاعل عبدنا "وَلا آباؤُنا" الواو عاطفة ولا زائدة وآباؤنا معطوف على نحن ونا مضاف إليه "وَلا حَرَّمْنا" الواو عاطفة ولا نافية وماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ دُونِهِ" متعلقان بفعل حرمنا "مِنْ" حرف جر زائد "شَيْءٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "كَذلِكَ" ذا اسم إشارة وهي مجرورة بالكاف ومتعلقان بصفة مفعول مطلق محذوف "فَعَلَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعله "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بصلة موصول محذوفة والهاء مضاف إليه "فَهَلْ" الفاء استئنافية "هل" حرف استفهام "عَلَى الرُّسُلِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "إِلَّا" أداة حصر "الْبَلاغُ" مبتدأ مؤخر "الْمُبِينُ" صفة لبلاغ.

[سورة النحل (16) : الآيات 36 الى 37]

(90/431)

---

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37)

(91/431)

---

"وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق وجملة القسم المحذوفة معطوفة وجملة جواب القسم لا محل لها "بَعَثْنا" ماض وفاعله "فِي كُلِّ" متعلقان ببعثنا "أُمَّةٍ" مضاف إليه "رَسُولًا" مفعول به منصوب "أَنِ" مفسرة "اعْبُدُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعوله والجملة لا محل لها لأنها تفسيرية "وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَمِنْهُمْ" الفاء استئنافية ومنهم متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَنْ" اسم موصول مبتدأ والجملة مستأنفة "هَدَى اللَّهُ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر ولفظ الجلالة فاعل والجملة صلة "وَمِنْهُمْ مَنْ" منهم متعلقان بالخبر المقدم

ومن موصولية مبتدأ والجملة معطوفة "حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ" ماض والضلالة فاعله والجار والمجرور متعلقان بحقت "فَسِيرُوا" أمر وفاعله والجملة مستأنفة "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بسيروا "فَانْظُرُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة "كَيْفَ" اسم استفهام خبر كان المقدم عليها "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها والجملة في محل نصب مفعول به لانظروا "الْمُكَذِّبِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "إِنْ" الشرطية "تَحْرِصْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط وفاعله مستتر والجملة ابتدائية "عَلى هُداهُمْ" متعلقان بتحرص والهاء مضاف إليه "فَإِنَّ اللَّهَ" الفاء رابطة للجواب وإن ولفظ الجلالة اسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "لا يَهْدِي" لا نافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة خبر "مَنْ" موصولية مفعول به "يُضِلُّ" مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة صلة "وَما" الواو استئنافية وما تعمل عمل ليس "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدم "مِنْ" زائدة "ناصِرِينَ" اسم مجرور لفظا منصوب محلا والجملة مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 38 الى 40]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (39) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

"وَأَقْسَمُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بأقسموا "جَهْدَ" حال من الفاعل أي جاهدين "أَيمانِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ" لا نافية ومضارع مرفوع ولفظ الجلالة فاعله واسم الموصول مفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم "يَمُوتُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة صلة "بَلى" حرف جواب "وَعْداً" مفعول مطلق لفعل محذوف "عَلَيْهِ" متعلقان بوعدا "حَقًّا" مفعول مطلق لفعل محذوف "وَلكِنَّ أَكْثَرَ" الواو عاطفة ولكن واسمها "النّاسِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل



---

والجملة خبر لكن "لِيُبَيِّنَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بالفعل الواقع بعد بلى "لَهُمُ" متعلقان بيبين "الَّذِي" موصول مفعول به "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "فِيهِ"

متعلقان بيختلفون "وَلِيَعْلَمَ" معطوف على ليبين وإعرابه مثله "الَّذِينَ" موصول فاعل "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنَّهُمْ" أن واسمها والمصدر سد مسد مفعولي يعلم "كانُوا" كان واسمها والجملة خبر أنهم "كاذِبِينَ" خبر كانوا منصوب بالياء "إِنَّما" كافة ومكفوفة "قَوْلُنا" مبتدأ ونا مضاف إليه والجملة مستأنفة "لِشَيْءٍ" متعلقان بقولنا "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "أَرَدْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مضاف إليه "أَنْ نَقُولَ" أن ناصبة ومضارع منصوب والمصدر المؤول في محل رفع خبر "لَهُ" متعلقان بيقول "كُنْ" أمر تام وفاعله محذوف والجملة مقول القول "فَيَكُونُ" الفاء عاطفة ويكون مضارع تام فاعله نحن والتقدير فنقول له ذلك فيكون.

[سورة النحل (16) : الآيات 41 الى 43]

وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (43)

"وَالَّذِينَ" الواو استئنافية والذين موصول مبتدأ "هاجَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِي اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بفي متعلقان بهاجروا "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بحال محذوفة "ما" المصدرية "ظُلِمُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة في تأويل مصدر مضاف إلى بعد "لَنُبَوِّئَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والهاء مفعوله الأول والجملة المؤلفة من القسم وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ الذين "فِي الدُّنْيا" متعلقان بنبوئنهم "حَسَنَةً" مفعول به ثان "وَلَأَجْرُ" الواو استئنافية واللام لام الابتداء وأجر مبتدأ "الْآخِرَةِ" مضاف إليه "أَكْبَرُ" خبر والجملة مستأنفة "لَوْ" أداة شرط غير جازمة "كانُوا" كان واسمها والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا وجواب لو محذوف "الَّذِينَ" اسم موصول بدل من الذين قبلها "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَلى رَبِّهِمْ" متعلقان بيتوكلون "يَتَوَكَّلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بأرسلنا والكاف مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "رِجالًا" مفعول به والجملة مستأنفة "نُوحِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "إِلَيْهِمْ" متعلقان بنوحي "فَسْئَلُوا أَهْلَ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "الذِّكْرِ" مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة لا محل لها ابتدائية "لا

تَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة خبر كان وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

[سورة النحل (16) : الآيات 44 الى 46]

*(95/431)*

---

بِالْبَيِّناتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46)

*(96/431)*

---

"بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بأرسلنا "وَالزُّبُرِ" معطوف على البينات "وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجار والمجرور متعلقان بأنزلنا والجملة معطوفة "لِتُبَيِّنَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بأنزلنا "لِلنَّاسِ" متعلقان بتبين "ما" موصولية مفعول به "نُزِّلَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "إِلَيْهِمْ" متعلقان بنزل والجملة صلة "وَلَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ" الواو عاطفة ولعل واسمها والجملة معطوفة وجملة يتفكرون خبر "أَفَأَمِنَ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية وماض مبني على الفتح "الَّذِينَ" موصول فاعل والجملة مستأنفة "مَكَرُوا السَّيِّئاتِ" ماض وفاعله ومفعوله المنصوب بالكسرة بدلا عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة صلة "أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ" أن الناصبة ومضارع منصوب ولفظ الجلالة فاعله والأرض مفعوله والجار والمجرور متعلقان بيخسف وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لأمن "أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ" أو العاطفة ومضارع معطوف منصوب بالفتحة ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر "مِنْ حَيْثُ" حيث ظرف مكان مبني على الضم في محل جر ومتعلقان بيأتيهم "لا يَشْعُرُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مضاف إليه "أَوْ يَأْخُذَهُمْ" مضارع معطوف على ما قبله بالفتحة وفاعله مستتر والهاء مفعوله "فِي تَقَلُّبِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال "فَما" الفاء عاطفة وما تعمل عمل ليس "هُمْ" اسمها "بِمُعْجِزِينَ" الباء زائدة معجزين خبر مجرور لفظا منصوب محلا والجملة معطوفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 47 الى 50]

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50)

"أَوْ يَأْخُذَهُمْ" معطوف على ما سبق والهاء مفعوله وفاعله مستتر "عَلَى تَخَوُّفٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ" الفاء استئنافية إن واسمها وخبراها واللام المزحلقة والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "أَوَلَمْ يَرَوْا" الهمزة للاستفهام والواو استئنافية ولم الجازمة ومضارع مجزوم والواو فاعله والجملة مستأنفة "إِلَى مَا" ما موصولية وهما متعلقان يبروا "خَلَقَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان بمحذوف حال "يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة لشىء "عَنِ الْيَمِينِ" متعلقان بيتفيؤوا "وَالشَّمَائِلِ" معطوف على ما سبق "سُجَّدًا" حال "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بسجدا

(98/431)

"وَهُمْ داخِرُونَ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "وَلِلَّهِ" الواو استئنافية ولله لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بيسجد "يَسْجُدُ" مضارع مرفوع "ما" موصولية فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بصلة محذوفة "وَما فِي الْأَرْضِ" معطوفة على ما سبق وإعرابها كإعرابها "مِنْ دابَّةٍ" متعلقان بحال محذوفة "وَالْمَلائِكَةُ" معطوف على ما "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ والجملة الاسمية حال "لا يَسْتَكْبِرُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر "يَخافُونَ رَبَّهُمْ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل وربهم مفعول به والهاء مضاف إليه والجملة حالية من فاعل يستكبرون "مِنْ فَوْقِهِمْ" متعلقان بمحذوف حال من ربهم والهاء مضاف إليه "وَيَفْعَلُونَ" معطوف على يخافون "ما" موصولية مفعول به "يُؤْمَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

[سورة النحل (16) : الآيات 51 الى 53]

وَقالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ واصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53)

"وَقَالَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة مستأنفة "لا تَتَّخِذُوا" لا ناهية ومضارع مجزوم بحذف النون والجملة مقول القول "إِلَهَيْنِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى "اثْنَيْنِ" صفة منصوبة بالياء "إِنَّما" كافة ومكفوفة "هُوَ إِلهٌ واحِدٌ" مبتدأ وخبر وواحد صفة للخبر والجملة تعليل لا محل لها "فَإِيَّايَ" الفاء الفصيحة وإياي ضمير منفصل مبني على الفتح في محل نصب مفعول به لفعل ارهبون "فَارْهَبُونِ" الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم للتخفيف "وَلَهُ" متعلقان بخبر محذوف مقدم "ما" موصولية مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَالْأَرْضِ" معطوف على ما سبق "وَلَهُ الدِّينُ" مبتدأ مؤخر والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم والجملة معطوفة "واصِباً" حال "أَفَغَيْرَ اللَّهِ" الهمزة للاستفهام وغير مفعول به مقدم ولفظ الجلالة مضاف إليه "تَتَّقُونَ" مضارع والواو فاعله والجملة مستأنفة "وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ" الواو استئنافية وما شرطية مبتدأ وبكم متعلقان بخبر محذوف ومن نعمة متعلقان بحال محذوفة فمن الله الفاء رابطة للجواب ومن الله لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بخبر محذوف تقديره هو من الله والجملة في محل جزم جواب الشرط وخبر ما هو جملتا الشرط "ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ" ثم عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط إذا مسكم الضر ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة وجملة مسكم مضاف إليه "فَإِلَيْهِ"

الفاء رابطة والجار والمجرور متعلقان بتجأرون "تَجْأَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا .

[سورة النحل (16) : الآيات 54 الى 56]

(100/431)

---

ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55) وَيَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56)

"ثُمَّ" عاطفة "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "كَشَفَ الضُّرَّ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "عَنْكُمْ" متعلقان بكشف "إِذا" الفجائية "فَرِيقٌ" مبتدأ "مِنْكُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لفريق "بِرَبِّهِمْ" متعلقان بكشف "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر المبتدأ "لِيَكْفُرُوا" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بيشركون "بِما" ما موصولية ومتعلقان بيكفروا "آتَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "فَتَمَتَّعُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط

غير جازم "فَسَوْفَ" الفاء استئنافية وسوف حرف استقبال "تَعْلَمُونَ" مضارع والواو فاعل والجملة مستأنفة "وَيَجْعَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة "لِما" ما موصولية ومتعلقان بيجعلون "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون "نَصِيباً" مفعول به والجملة صلة "مِمَّا" ما الموصولية مجرورة بمن ومتعلقان بمحذوف صفة لنصيبا "رَزَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "تَاللَّهِ" التاء تاء القسم ومتعلقان بفعل أقسم المحذوف "لَتُسْئَلُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مرفوع وحذفت النون منه لكراهية توالي الأمثال وواو الجماعة المحذوفة فاعل والجملة جواب القسم لا محل لها "عَمَّا" ما موصولية والجار والمجرور متعلقان بتسألن "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع الواو فاعل والجملة خبر كان.

(101/431)

---

[سورة النحل (16) : الآيات 57 الى 59]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (57) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (59)

"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة و"لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بيجعلون "الْبَنَاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "سُبْحَانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف والهاء مضاف إليه والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب "وَلَهُمْ" والواو استئنافية ولهم متعلقان بخبر مقدم محذوف "ما" موصولية في محل رفع مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "يَشْتَهُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَإِذا" الواو حالية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "بُشِّرَ أَحَدُهُمْ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والهاء مضاف إليه "بِالْأُنْثى" متعلقان ببشر "ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا" ظل واسمها وخبرها والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَهُوَ كَظِيمٌ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "يَتَوارى" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للثقل والجملة حالية "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان بيتوارى "مِنْ سُوءِ" متعلقان بيتوارى "ما" موصولية في محل جر مضاف إليه "بُشِّرَ" ماض



---

مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف والجملة صلة "بِهِ" متعلقان ببشر "أَيُمْسِكُهُ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع وفاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة حالية "عَلى هُونٍ"

متعلقان بيمسكه "أَمْ" عاطفة "يَدُسُّهُ" معطوف على يمسكه وهو مضارع مرفوع والهاء مفعوله وفاعله مستتر "فِي التُّرابِ" متعلقان بيدسه "أَلا" أداة استفتاح "ساءَ ما" ماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "يَحْكُمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة لا محل لها .

[سورة النحل (16) : الآيات 60 الى 61]

لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (61)

"لِلَّذِينَ" اسم موصول في محل جر متعلقان بخبر مقدم "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيؤمنون "مَثَلُ" مبتدأ مؤخر "السَّوْءِ" مضاف إليه والجملة ابتدائية "وَلِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بخبر مقدم "الْمَثَلُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "الْأَعْلى " صفة مرفوعة بالضمة المقدرة على الألف للتعذر "وَهُوَ" الواو عاطفة وهو مبتدأ "الْعَزِيزُ" خبر "الْحَكِيمُ" صفة والجملة معطوفة "وَلَوْ" الواو اس

[سورة النحل (16) : الآيات 62 الى 63]

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ "وَيَجْعَلُونَ" الواو حرف استئناف ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بيجعلون "ما" موصولية مفعول به والجملة مستأنفة "يَكْرَهُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صلة "وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ" الواو حرف عطف مضارع وفاعله ومفعوله والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى" أن واسمها المؤخر المنصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم والجملة بدل من الكذب "لا جَرَمَ" فعل بمعنى ثبت "أَنَّ لَهُمُ النَّارَ" أن واسمها المؤخر والجار والمجرور متعلقان بالخبر المقدم والجملة في محل رفع فاعل لجرم "وَأَنَّهُمْ" أن واسمها والجملة معطوفة "مُفْرَطُونَ" خبر مرفوع بالواو "تَاللَّهِ" التاء حرف جر وقسم ولفظ الجلالة في محل جر بالتاء متعلقان بفعل أقسم وجملة القسم لا محل لها "لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله والجملة جواب القسم "إِلى أُمَمٍ" متعلقان بأرسلنا "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة لأمم "فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ولهم متعلقان بزين والجملة معطوفة "أَعْمالَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "فَهُوَ وَلِيُّهُمُ" الفاء عاطفة ومبتدأ وخبر والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "الْيَوْمَ" ظرف زمان "وَلَهُمْ عَذابٌ" مبتدأ مؤخر والجار والمجرور متعلقان بخبر المبتدأ المقدم والجملة معطوفة بالواو

"أَلِيمٌ" صفة لعذاب.

[سورة النحل (16) : الآيات 64 الى 65]

(104/431)

---

وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ" ماض وفاعله ومفعوله والجار والمجرور متعلقان بأنزلنا "إِلَّا" أداة حصر "لِتُبَيِّنَ" اللام للتعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر وأن وما بعدها متعلقان بأرسلنا "لَهُمُ" متعلقان بتبين "الَّذِي" موصول مفعول به "اخْتَلَفُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان باختلفوا "وَهُدىً" معطوفة على محل لتبين "وَرَحْمَةً" معطوفة على هدى "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لرحمة "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة لقوم "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "أَنْزَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزل "ماءً" مفعول به "فَأَحْيا" فاء عاطفة وأحيا فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بأحيا

"الْأَرْضَ" مفعول به "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بأحيا "مَوْتِها" مضاف إليه والهاء مضاف إليه

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب

ومتعلقان بخبر مقدم "لَآيَةً" اللام المزحلقة وآية اسم إن "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآية

"يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة في محل جر صفة لقوم.

[سورة النحل (16) : الآيات 66 الى 67]

(105/431)

---

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

"وَإِنَّ لَكُمْ" الواو استئنافية وإن المشبهة بالفعل لكم متعلقان بخبر مقدم "فِي الْأَنْعامِ" متعلقان

بحال محذوفة "لَعِبْرَةً" اللام المزحلقة عبرة اسم إن المؤخر والجملة مستأنفة "نُسْقِيكُمْ"

مضارع والكاف مفعوله الأول والجملة مستأنفة وفاعله مستتر "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان

بنسقيكم "فِي بُطُونِهِ"

متعلقان بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "مِنْ بَيْنِ" متعلقان بنسقيكم "فَرْثٍ" مضاف

إليه "وَدَمٍ" معطوف "لَبَناً" مفعول به ثان "خالِصاً سائِغاً" صفتان للبنا "لِلشَّارِبِينَ" متعلقات بسائغا "وَمِنْ ثَمَراتِ" متعلقان بالفعل بعدهما "النَّخِيلِ" مضاف إليه "وَالْأَعْنابِ" معطوف "تَتَّخِذُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "مِنْهُ" متعلقان بتتخذون "سَكَراً" مفعول به "وَرِزْقاً" معطوف على سكرا "حَسَناً" صفة والجملة مستأنفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب متعلقان بخبر مقدم "لَآيَةً" اللام المزحلقة آية اسم إنّ "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآية والجملة مستأنفة "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صفة لقوم.

[سورة النحل (16) : الآيات 68 الى 69]

(106/431)

---

وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

"وَأَوْحى" الواو استئنافية "أَوْحى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "رَبُّكَ" فاعل والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِلَى النَّحْلِ" متعلقان بأوحى "أَنِ"

حرف تفسير "اتَّخِذِي" أمر مبني على حذف النون والياء فاعله والجملة مفسرة لا محل لها "مِنَ الْجِبالِ" متعلقان باتخذي "بُيُوتاً" مفعول به "وَمِنَ الشَّجَرِ" معطوف "وَمِمَّا" من وما موصولية معطوف على ما سبق "يَعْرِشُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "ثُمَّ" عاطفة "كُلِي" أمر والياء فاعله والجملة معطوفة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بكلي "الثَّمَراتِ" مضاف إليه "فَاسْلُكِي" الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف النون والياء فاعل والجملة معطوفة "سُبُلَ" مفعول به "رَبِّكِ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "ذُلُلًا" حال "يَخْرُجُ" مضارع مرفوع "مِنْ بُطُونِها" متعلقان بيخرج والهاء مضاف إليه "شَرابٌ" فاعل والجملة مستأنفة "مُخْتَلِفٌ" صفة لشراب "أَلْوانُهُ" فاعل لمختلف والهاء مضاف إليه "فِيهِ" متعلقان بخبر محذوف مقدم "شِفاءٌ" مبتدأ مؤخر "لِلنَّاسِ" متعلقان بشفاء والجملة صفة ثانية لشراب "إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" انظر إعرابها في الآية السابقة.

[سورة النحل (16) : الآيات 70 الى 71]

*(107/431)*

---

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ

عَلى ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71)

"وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة استئنافية "خَلَقَكُمْ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة خبر "ثُمَّ" عاطفة "يَتَوَفَّاكُمْ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة معطوفة "وَمِنْكُمْ" الواو عاطفة ومتعلقان بخبر مقدم "مَنْ" موصولية مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "يُرَدُّ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة "إِلى أَرْذَلِ" متعلقان بيرد "الْعُمُرِ" مضاف إليه "لِكَيْ لا"

(108/431)

---

اللام للتعليل وكي حرف مصدري ونصب ولا نافية "يَعْلَمَ" مضارع منصوب بكي فاعله مستتر واللام والمصدر المؤول بعدها متعلقان بيرد "بَعْدَ" ظرف زمان متعلقان بيعلم "عِلْمٍ" مضاف إليه "شَيْئاً" مفعول به "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ" إن ولفظ الجلالة اسمها وعليم وقدير خبراها والجملة مستأنفة "وَاللَّهُ" الواو عاطفة ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة معطوفة على ما قبلها "فَضَّلَ بَعْضَكُمْ" ماض ومفعوله والكاف مضاف إليه وفاعله مستتر والجملة خبر "عَلى بَعْضٍ" متعلقان بفضل "فِي الرِّزْقِ" متعلقان بحال محذوفة "فَمَا" الفاء استئنافية وما تعمل عمل ليس "الَّذِينَ" اسم موصول في محل رفع اسم ما والجملة استئنافية "فُضِّلُوا" ماض

مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صلة "بِرَادِّي" الباء حرف جر زائد ورادي خبر ما مجرور لفظا بالياء لأنه جمع مذكر سالم وحذفت النون للإضافة "رِزْقِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "عَلى ما" ما موصولية متعلقان برادي "مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ" ماض وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة صلة "فَهُمْ" الفاء عاطفة وهم مبتدأ "فِيهِ" متعلقان بسواء "سَواءٌ" خبر والجملة معطوفة "أَفَبِنِعْمَةِ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية بنعمة متعلقان بيجحدون "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يَجْحَدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها استئنافية.

[سورة النحل (16) : الآيات 72 الى 73]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ (73)



---

"وَاللَّهُ" الواو عاطفة لفظ الجلالة مبتدأ والجملة معطوفة على سابقتها "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "لَكُمْ" متعلقان بجعل "مِنْ أَنْفُسِكُمْ" متعلقان بجعل والكاف مضاف

إليه "أَزْواجاً" مفعول به "وَجَعَلَ لَكُمْ" الجملة معطوفة وإعرابها كسابقتها "مِنْ أَزْواجِكُمْ" متعلقان بجعل "بَنِينَ" مفعول به منصوب بالياء "وَحَفَدَةً" معطوف على بنين "وَرَزَقَكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مِنَ الطَّيِّباتِ" متعلقان برزقكم "أَفَبِالْباطِلِ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية والجار والمجرور متعلقان بيؤمنون "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة استئنافية "وَبِنِعْمَتِ" الجار والمجرور متعلقان بيكفرون "اللَّهُ" لفظ الجلالة في محل جر بالإضافة. "هُمْ" مبتدأ "يَكْفُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر "وَيَعْبُدُونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما سبق "مِنْ دُونِ" متعلقان بيعبدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ما" موصولية مفعول به "لا" نافية "يَمْلِكُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "لَهُمْ" متعلقان بيملك "رِزْقاً" مفعول به "مِنَ السَّماواتِ" متعلقان برزق "وَالْأَرْضِ" معطوف على ما سبق "شَيْئاً" مفعول به لرزقا "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يَسْتَطِيعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 74 الى 75]

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (74) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (75)

"فَلا" الفاء استئنافية لا ناهية "تَضْرِبُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بتضربوا "الْأَمْثالَ" مفعول به والجملة استئنافية "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة استئنافية "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "وَأَنْتُمْ" الواو عاطفة وأنتم مبتدأ "لا تَعْلَمُونَ" لا نافية تعلمون مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر أنتم "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا" ماض ولفظ الجلالة فاعله ومثلا مفعوله "عَبْداً" بدل من مثلا "مَمْلُوكاً" صفة والجملة مستأنفة "لا يَقْدِرُ" لا نافية ومضارع وفاعله مستتر والجملة صفة ثانية لعبدا "عَلى شَيْءٍ" متعلقان بيقدر "وَمَنْ" الواو عاطفة من معطوفة على عبدا ومن اسم موصول "رَزَقْناهُ" فعل ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة صلة "مِنَّا" متعلقان برزقناه "رِزْقاً" مفعول به ثان "حَسَناً" صفة "فَهُوَ" الفاء عاطفة هو مبتدأ والجملة معطوفة "يُنْفِقُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة خبر "مِنْهُ" متعلقان بينفق "سِرًّا" حال "وَجَهْراً" معطوفة على سرا "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة مستأنفة "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "بَلْ" حرف إضراب "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "لا

يَعْلَمُونَ" لا نافية ويعلمون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة النحل (16) : الآيات 76 الى 77]

(111/431)

---

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77)

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا" سبق إعرابها والجملة معطوفة "رَجُلَيْنِ" بدل من مثلا "أَحَدُهُما أَبْكَمُ" مبتدأ وخبر والهاء مضاف إليه والجملة صفة لرجلين "لا يَقْدِرُ" لا نافية ويقدر مضارع فاعله مستتر "عَلى شَيْءٍ" متعلقان بيقدر والجملة صفة لأبكم "وَهُوَ كَلٌّ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "عَلى مَوْلاهُ" على حرف جر مولى اسم مجرور بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر والهاء مضاف إليه متعلقان بكل "أَيْنَما" اسم شرط غير جازم ظرف مكان متعلق بما بعده "يُوَجِّهْهُ" مضارع والهاء مفعول به وفاعله مستتر والجملة فس محل جر بالإضافة "لا يَأْتِ" لا نافية يأت مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والجملة لا محل

لها من الإعراب لأنها جواب شرط لم يقترن بالفاء "بِخَيْرٍ" متعلقان بيأت "هَلْ" حرف استفهام "يَسْتَوِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر "هُوَ" توكيد للفاعل "وَمَنْ" اسم

(112/431)

---

موصول معطوف على الضمير المستتر في يستوي "يَأْمُرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "بِالْعَدْلِ" متعلقان بيأمر "وَهُوَ" الواو حالية هو مبتدأ "عَلَى صِراطٍ" متعلقان بالخبر "مُسْتَقِيمٍ" صفة لصراط والجملة حالية "وَلِلَّهِ" الواو استئنافية للّه لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بخبر محذوف مقدم "غَيْبُ" مبتدأ مؤخر والجملة استئنافية "السَّماواتِ" مضاف إليه "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "وَما" الواو عاطفة ما نافية "أَمْرُ" مبتدأ "السَّاعَةِ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "كَلَمْحِ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة "الْبَصَرِ" مضاف إليه "أَوْ" عاطفة "هُوَ أَقْرَبُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "عَلَى كُلِّ" متعلقان بالخبر "شَيْءٍ" مضاف إليه "قَدِيرٌ" خبر إن والجملة استئنافية.

[سورة النحل (16) : الآيات 78 الى 79]

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

(113/431)

---

"وَاللَّهُ" والواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "أَخْرَجَكُمْ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة خبر "مِنْ بُطُونِ" متعلقان بأخرجكم "أُمَّهَاتِكُمْ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "لا تَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية "شَيْئاً" مفعول به "وَجَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "لَكُمُ" متعلقان بجعل "السَّمْعَ" مفعول به "وَالْأَبْصارَ" معطوف على السمع "وَالْأَفْئِدَةَ" معطوف أيضا "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "أَلَمْ" الهمزة للاستفهام ولم جازمة "يَرَوْا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "إِلَى الطَّيْرِ" متعلقان بيروا "مُسَخَّراتٍ" حال منصوبة بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم "فِي جَوِّ" متعلقان بمسخرات "السَّماءِ" مضاف إليه "ما" نافية "يُمْسِكُهُنَّ" مضارع مرفوع ومفعوله "إِلَّا" أداة حصر "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة حالية "إِنَّ" إن حرف

مشبه بالفعل "فِي ذَلِكَ" ذا اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب ومتعلقان بالخبر المقدم "لَآيَاتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآيات "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 80 الى 81]

(114/431)

---

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

"وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "جَعَلَ" ماض وفاعله مستتر والجملة خبر "لَكُمْ" متعلقان بجعل "مِنْ بُيُوتِكُمْ" متعلقان بجعل والكاف مضاف إليه "سَكَنًا" مفعول به "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ"

(115/431)

إعرابها كسابقتها "الْأَنْعَامِ" مضاف إليه "بُيُوتاً" مفعول به "تَسْتَخِفُّونَهَا" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة لبيوتا "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بما قبله "ظَعْنِكُمْ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ" معطوف على ما سبق وإعرابه كإعرابه "وَمِنْ أَصْوافِها" الجار والمجرور عطف على جلود الأنعام "وَأَوْبارِها" معطوف على أصوافها "وَأَشْعارِها" معطوف على ما تقدم "أَثاثاً" معطوف على بيوتا أي جعل لكم من أصوافها أثاثا فهو من عطف المنصوب على مثله "وَمَتاعاً" معطوف على أثاثا "إِلى حِينٍ" متعلقان بمتاعا "وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ "جَعَلَ" ماض وفاعله مستتر والجملة خبر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِمَّا" من وما الموصولية متعلقان بالفعل "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "ظِلالاً" مفعول به والجملة صلة "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً" ماض فاعله مستتر ومفعوله والجار والمجرور متعلقان بجعل والجملة معطوفة "وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ" ماض وفاعله مستتر وسرابيل مفعوله والجار والمجرور متعلقان بالفعل والجملة معطوفة "تَقِيكُمُ الْحَرَّ" مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله الأول والحر مفعوله الثاني "وَسَرابِيلَ" معطوفة على ما سبق والجملة صفة لسرابيل الأولى "تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ" مضارع فاعله مستتر ومفعولاه "كَذلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق "يُتِمُّ نِعْمَتَهُ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "عَلَيْكُمْ" متعلقان بيتم "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تُسْلِمُونَ" الجملة خبر وجملة

لعل تعليل لا محل لها .

[سورة النحل (16) : الآيات 82 الى 85]

(116/431)

---

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (83) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (85)

"فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية "تَوَلَّوْا" ماض والواو فاعله وهو فعل الشرط والجملة ابتدائية "فَإِنَّما" الفاء تعليلية وإنما كافة ومكفوفة "عَلَيْكَ" متعلقان بخبر مقدم "الْبَلاغُ" مبتدأ مؤخر "الْمُبِينُ" صفة وجواب إن محذوف تقديره فلا غضاضة عليك "يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله ونعمة مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "يُنْكِرُونَها" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة معطوفة "وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ" مبتدأ وخبر والجملة حالية "وَيَوْمَ" الواو استئنافية ويوم ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "نَبْعَثُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة مضاف إليه "مِنْ كُلِّ" متعلقان بنبعث "أُمَّةٍ" مضاف إليه "شَهِيداً" مفعول به "ثُمَّ" عاطفة

"لَا يُؤْذَنُ" لا نافية ومضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة معطوفة "لِلَّذِينَ" اسم موصول ومتلعقان بيؤذن "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلا هُمْ" الواو عاطفة ولا نافية وهم مبتدأ والجملة معطوفة "يُسْتَعْتَبُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب الفاعل والجملة خبر "وَإِذا" الواو حرف عطف وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "رَأَى" ماض والجملة مضاف إليه "الَّذِينَ"

(117/431)

---

موصول فاعل "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "الْعَذابَ" مفعول به "فَلا" الفاء واقعة في جواب إذا ولا نافية "يُخَفَّفُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بيخفف والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها من الإعراب "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "هُمْ" مبتدأ "يُنْظَرُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر.

[سورة النحل (16) : الآيات 86 الى 90]

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا

يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

(118/431)

---

"وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا" إعرابها كسابقتها والجملة معطوفة مثلها "شُرَكَاءَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "قَالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب إذا لا محل لها من الإعراب "رَبَّنَا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب على النداء ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا" الها للتنبيه وأولاء اسم إشارة مبتدأ وشركاء خبر ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "الَّذِينَ" اسم موصول صفة "كُنَّا" كان واسمها والجملة صلة "نَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة خبر "مِنْ دُونِكَ" متعلقان بحال محذوفة والكاف مضاف إليه "فَأَلْقَوْا" الفاء عاطفة و "وَيَوْمَ" الواو حرف استئناف ويوم ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر "نَبْعَثُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مضاف إليه

"فِي كُلِّ" متعلقان بنبعث "أُمَّةٍ" مضاف إليه "شَهِيداً" مفعول به "عَلَيْهِمْ" متعلقان بشهيدا "مِنْ أَنفُسِهِمْ" متعلقان بمحذوف صفة لشهيدا والهاء مضاف إليه "وَجِئْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما سبق "بِكَ" متعلقان بجئنا "شَهِيداً" حال "عَلى هؤُلاءِ" الها للتنبيه وأولاء اسم إشارة في محل جر بعلى ومتعلقان بشهيدا "وَنَزَّلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلَيْكَ" متعلقان بنزلنا "الْكِتابَ" مفعول به "تِبْياناً" حال "لِكُلِّ" متعلقان بتبيانا "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَهُدىً" معطوفة على تبيانا "وَرَحْمَةً وَبُشْرى" معطوف على ما سبق "لِلْمُسْلِمِينَ" متعلقان ببشرى "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "يَأْمُرُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "بِالْعَدْلِ" متعلقان بيأمر "وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ" معطوف على ما سبق "ذِي" بمعنى صاحب في محل جر مضاف إليه وعلامة جره الياء لأنه من الأسماء الخمسة "الْقُرْبى" مضاف إليه "وَيَنْهى"



---

مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة معطوفة على يأمر "عَنِ الْفَحْشاءِ" متعلقان بينهى "وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ" معطوف على ما سبق "يَعِظُكُمْ" مضارع فاعله مستتر والجملة حالية "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها والجملة تعليل لا محل لها من

الإعراب "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر لعلكم.

[سورة النحل (16) : الآيات 91 الى 92]

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (91) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)

(120/431)

---

"وَأَوْفُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة معطوفة "بِعَهْدِ" متعلقان بأوفوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "عاهَدْتُمْ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "تَنْقُضُوا" مضارع مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "الْأَيْمانَ" مفعول به "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بتنقضوا "تَوْكِيدِها" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "جَعَلْتُمُ" ماض وفاعله والجملة حالية "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعول به أول "عَلَيْكُمْ" متعلقان بجعلتم "كَفِيلًا" مفعول به ثان "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة استئنافية "يَعْلَمُ" مضارع

فاعله مستتر والجملة خبر "ما" موصولية مفعول به "تَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صلة "وَلَا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَكُونُوا" مضارع ناقص والواو اسمها والجملة معطوفة "كَالَّتِي" التي اسم موصول في محل جر ومتعلقان بمحذوف خبر تكونوا "نَقَضَتْ" ماض وفاعله مستتر والجملة صلة والتاء للتأنيث "غَزْلَها" مفعول به "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بنقضت "قُوَّةٍ" مضاف

(121/431)

---

إليه "أَنْكاثاً" حال "تَتَّخِذُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة حالية "أَيمانَكُمْ دَخَلًا" مفعولا تتخذون والكاف مضاف إليه "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان متعلق بصفة لدخلا "أَنْ" ناصبة "تَكُونَ" مضارع ناقص وأن وما بعدها مفعول لأجله "أُمَّةٌ" اسم تكون "هِيَ أَرْبى" مبتدأ وخبر والجملة خبر "مِنْ أُمَّةٍ" متعلقان بأربى "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يَبْلُوكُمُ اللَّهُ" مضارع ومفعوله المقدم ولفظ الجلالة فاعله المؤخر والجملة مستأنفة "بِهِ" متعلقان بيبولكم "وَلَيُبَيِّنَنَّ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد "لَكُمْ" متعلقان بيبين "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "ما" موصول مفعول به "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بتختلفون "تَخْتَلِفُونَ" الجملة خبر.

[سورة النحل (16) : الآيات 93 الى 95]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94) وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95)

*(122/431)*

---

"وَلَوْ" الواو استئنافية ولو شرطية غير جازمة "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة ابتدائية "لَجَعَلَكُمْ" اللام واقعة في جواب لو وماض ومفعوله وفاعله مستتر "أُمَّةً" مفعول به "واحِدَةً" صفة والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَلكِنْ" الواو حالية ولكن حرف استدراك "يُضِلُّ" مضارع مرفوع "مَنْ" موصول مفعول به والجملة حالية "يَشاءُ" مضارع وفاعله مستتر والجملة صلة "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ" الجملة معطوفة على ما سبق وإعرابها كإعرابها "وَلَتُسْئَلُنَّ" والواو استئنافية واللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون وحذفت النون لكراهية توالي الأمثال وحذفت الواو لالتقاء الساكنين والواو نائب فاعل والجملة لا محل لها من الإعراب والقسم وجوابه مستأنفة

"عَمَّا" مؤلفة من عن وما الموصولية ومتعلقان بلتسألن "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع والواو فاعل والجملة خبر "وَلا تَتَّخِذُوا" الواو استئنافية ولا ناهية ومضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل "أَيمانَكُمْ دَخَلًا" مفعولا تتخذوا والكاف مضاف إليه "بَيْنَكُمْ" ظرف مكان متعلق بدخلا والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَتَزِلَّ" الفاء فاء السببية ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية "قَدَمٌ" فاعل "بَعْدَ" ظرف متعلق بتزل "ثُبُوتِها" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَتَذُوقُوا" معطوف على تزل منصوب مثله بحذف النون والواو فاعل "السُّوءَ" مفعول به "بِما" ما مصدرية "صَدَدْتُمْ" ماض وفاعله والمصدر المؤول مجرور بالياء متعلقان بتذوقوا "عَنْ سَبِيلِ" متعلقان بصددتم "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "وَلَكُمْ عَذابٌ" لكم متعلقان بمحذوف خبر وعذاب مبتدأ والجملة حالية "عَظِيمٌ" صفة "وَلا" لا ناهية "تَشْتَرُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة

(123/431)

---

معطوفة بالواو "بِعَهْدِ اللَّهِ" بعهد متعلقان بتشتروا ولفظ الجلالة مضاف إليه "ثَمَنًا" مفعول به "قَلِيلًا" صفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "ما" اسمها "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف متعلق بصلة محذوفة

لفظ الجلالة مضاف إليه "هُوَ خَيْرٌ" مبتدأ وخبر والجملة خبر "لَكُمْ" متعلقان بخير "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها وهو فعل الشرط لا محل له "تَعْلَمُونَ" مضارع والجملة خبر وجواب الشرط محذوف.

[سورة النحل (16) : الآيات 96 الى 97]

ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (97)



---

"ما" موصولية مبتدأ "عِنْدَكُمْ" ظرف متعلق بالصلة المحذوفة والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "يَنْفَدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ" ما موصولية مبتدأ وعند صلة ولفظ الجلالة مضاف إليه وباق خبر مرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين "وَلَنَجْزِيَنَّ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة واللام واقعة في جواب القسم والواو استئنافية والجملة مستأنفة وجملة جواب القسم لا محل لها والفاعل مستتر "الَّذِينَ" موصول مفعول به أول "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة

"أَجْرَهُمْ" مفعول به ثان والهاء مضاف إليه "بِأَحْسَنِ" متعلقان بنجزين "ما" موصولية في محل جر بالإضافة "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "عَمِلَ" ماض فاعله مستتر وهو فعل الشرط "صالِحاً" مفعول به "مِنْ ذَكَرٍ" متعلقان بمحذوف حال "أَوْ أُنْثى" معطوف على ذكر "وَهُوَ مُؤْمِنٌ" مبتدأ وخبر والجملة حالية "فَلَنُحْيِيَنَّهُ" الفاء رابطة لجواب الشرط واللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعوله والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الجواب والشرط في محل رفع خبر من "حَياةً" مفعول مطلق "طَيِّبَةً" صفة "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ" مضارع ومفعوله وإعرابه كإعراب نحيينه وهو معطوف عليه "أَجْرَهُمْ" مفعول به ثان "بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ" انظر إعرابها في الآية السابقة.

[سورة النحل (16) : الآيات 98 الى 101]

(125/431)

---

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

(100) وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ
(101)

"فَإِذا" الفاء استئنافية وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط متعلق بجوابه والجملة مستأنفة "قَرَأْتَ الْقُرْآنَ" ماض ومفعوله فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "فَاسْتَعِذْ" الفاء واقعة في جواب إذا وأمر فاعله مستتر

(126/431)

---

"بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ" كلاهما متعلقان باستعذ "الرَّجِيمِ" صفة والجملة لا محل لها "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليل لا محل لها "لَيْسَ" تعمل عمل كان "لَهُ" متعلقان بخبر ليس المقدم "سُلْطانٌ" اسم ليس المؤخر والجملة خبر إنه "عَلَى الَّذِينَ" اسم الموصول مجرور ومتعلقان بسلطان "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَلى رَبِّهِمْ" متعلقان بيتوكلون والهاء مضاف إليه "يَتَوَكَّلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "إِنَّما" كافة ومكفوفة "سُلْطانُهُ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "عَلَى الَّذِينَ" اسم الموصول في محل جر ومتعلقان بخبر محذوف والجملة مستأنفة "يَتَوَلَّوْنَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صلة "وَالَّذِينَ" معطوفة على الذين قبلها "هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ" مبتدأ وخبر والجملة حالية والجار

والمجرور متعلقان بالخبر "وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه "بَدَّلْنا آيَةً" ماض وفاعله ومفعوله الأول "مَكانَ" مفعول به ثان "آيَةٍ" مضاف إليه "وَاللَّهُ أَعْلَمُ" لفظ الجلالة مبتدأ وأعلم خبر والجملة اعتراضية لا محل لها "بِما" ما موصولية متعلقان بأعلم "يُنَزِّلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنْتَ مُفْتَرٍ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "بَلْ" حرف إضراب "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر وجملة أكثرهم إلخ مستأنفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 102 الى 104]

(127/431)

---

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (102)
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ
مُبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (104)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "نَزَّلَهُ رُوحُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مقول القول "الْقُدُسِ" مضاف إليه "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بنزله والكاف مضاف إليه

"بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "لِيُثَبِّتَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر واللام والمصدر المؤول بعدها متعلقان بنزله "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَهُدىً" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو هدى والجملة حالية "وَبُشْرى" معطوفة على هدى "لِلْمُسْلِمِينَ" متعلقان ببشرى "وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "نَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة واقعة في جواب قسم لا محل لها والكلام معطوف "أَنَّهُمْ" أن وما بعدها في تأويل مصدر سد مسد مفعولي نعلم "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر "إِنَّما" كافة ومكفوفة "يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ" مضارع ومفعوله وفاعله المؤخر والجملة مقول القول "لِسانُ" مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول مضاف إليه

(128/431)

---

"يُلْحِدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "إِلَيْهِ" متعلقان بيلحدون "أَعْجَمِيٌّ" خبر "وَهذا" الواو عاطفة وذا اسم إشارة مبتدأ والهاء للتنبيه "لِسانٌ" خبر "عَرَبِيٌّ" صفة "مُبِينٌ" صفة ثانية والجملة معطوفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" موصول اسم إن "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "بِآياتِ"

متعلقان بيؤمنون "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ" لا نافية ويهديهم مضارع ومفعوله المقدم ولفظ الجلالة فاعله المؤخر والجملة خبر إن "وَلَهُمْ" الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة والجملة معطوفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 105 الى 106]

إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106)

*(129/431)*

---

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "يَفْتَرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والجملة مستأنفة "الْكَذِبَ" مفعول به "الَّذِينَ" اسم موصول فاعل "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "بِآياتِ" متعلقان بيؤمنون "اللَّهِ" لفظ جلالة مضاف إليه "وَأُولئِكَ" الواو استئنافية وأولاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل لا محل له "الْكاذِبُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "مَنْ" اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ "كَفَرَ" ماض فاعله مستتر "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور

بالباء متعلقان بكفر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بكفر "إِيمانِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "أُكْرِهَ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله مستتر والجملة صلة "وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ" مبتدأ وخبر والجملة حالية "وَلكِنْ" الواو استئنافية ولكن حرف استدراك "مَنْ" موصولية مبتدأ "شَرَحَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "بِالْكُفْرِ" متعلقان بشرح "صَدْراً" تمييز "فَعَلَيْهِمْ" الفاء رابطة للجواب عليهم متعلقان بخبر مقدم "غَضَبٌ" مبتدأ مؤخر وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن متعلقان بمحذوف صفة لغضب وجملة جواب الشرط في محل جزم "وَلَهُمْ" الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم "عَذابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة "عَظِيمٌ" صفة والجملة معطوفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 107 الى 110]



---

ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (107)
أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (108) لا
جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ

جاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110)

"ذَلِكَ" ذا اسم إشارة في محل رفع مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة مستأنفة "بِأَنَّهُمُ" الباء



---

حرف جر وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر متعلقان بالخبر المحذوف والهاء في محل نصب اسم إن والميم للجمع "اسْتَحَبُّوا" ماض وفاعله والجملة خبر إن "الْحَيَاةَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة "عَلَى الْآخِرَةِ" متعلقان باستحبوا "وَأَنَّ اللَّهَ" الواو عاطفة وأن ولفظ الجلالة اسمها والجملة معطوفة "لا يَهْدِي" لا نافية ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "الْقَوْمَ" مفعول به "الْكافِرِينَ" صفة "أُولئِكَ" أولاء اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "الَّذِينَ" موصولية خبر "طَبَعَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "عَلى قُلُوبِهِمْ" متعلقان بطبع "وَسَمْعِهِمْ" وأبصارهم معطوف على ما سبق "وَأُولئِكَ" الواو عاطفة وأولاء مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة معطوفة "هُمُ" مبتدأ "الْغافِلُونَ" خبر والجملة خبر أولئك "لا جَرَمَ" فعل ماض بمعنى ثبت "أَنَّهُمْ" أن واسمها وأن وما بعدها في تأويل مصدر فاعل لا جرم أي ثبتت خسارتهم "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان

بالخاسرون "هُمُ الْخاسِرُونَ" مبتدأ وخبر والجملة خبر أنهم "ثُمَّ" عاطفة "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "لِلَّذِينَ" اسم موصول مجرور باللام ومتعلقان بخبر إن "هاجَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بهاجروا "ما" مصدرية أي من بعد فتنتهم "فُتِنُوا" ماض وفاعله وهو مع "ما" في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه "ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا" الأفعال الماضية معطوفة على ما سبقها "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه "مِنْ بَعْدِها" متعلقان بحال محذوفة والهاء مضاف إليه "لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" اللام المزحلقة وغفور رحيم خبرا إن المرفوعان.

[سورة النحل (16) : الآيات 111 الى 112]

(132/431)

---

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (111) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (112)

"يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر والجملة مستأنفة "تَأْتِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للثقل "كُلُّ" فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه والجملة مضاف إليه

"تُجادِلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حالية "عَنْ نَفْسِها" متعلقان بتجادل والهاء مضاف إليه "وَتُوَفَّى" الواو عاطفة وتوفى مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة "كُلُّ" نائب فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه "ما" موصولية مفعول به "عَمِلَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ والجملة في محل نصب حال "لا" نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر "وَضَرَبَ" الواو استئنافية و"ضَرَبَ" ماض مبني على الفتح "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "مَثَلًا" مفعول به "قَرْيَةً" بدل "كانَتْ" ماض ناقص واسمها محذوف "آمِنَةً" خبر "مُطْمَئِنَّةً" خبر ثان والجملة صفة لقرية "يَأْتِيها رِزْقُها" مضارع ومفعوله وفاعله المؤخر والها

*(133/431)*

---

مضاف إليه "رَغَداً" حال "مِنْ كُلِّ" متعلقان بيأتيها "مَكانٍ" مضاف إليه والجملة في محل نصب حال "فَكَفَرَتْ" الفاء عاطفة وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "بِأَنْعُمِ" متعلقان بكفرت "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَأَذاقَهَا" الفاء عاطفة وماض ومفعوله الأول المقدم "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "لِباسَ" مفعول به ثان "الْجُوعِ" مضاف إليه "وَالْخَوْفِ" معطوف

"بِما" ما موصولية ومتعلقان بأذاقها "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَصْنَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة النحل (16) : الآيات 113 الى 114]

وَلَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَهُمْ ظالِمُونَ (113) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)

(134/431)

---

"وَلَقَدْ" الواو عاطفة واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "جاءَهُمْ رَسُولٌ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة وجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب "مِنْهُمْ" متعلقان بصفة لرسول "فَكَذَّبُوهُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ" الفاء العاطفة وماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة "وَهُمْ ظالِمُونَ" الواو حالية ومبتدأ وخبر والجملة حالية "فَكُلُوا" الفاء استئنافية وكلوا أمر وفاعله والجملة مستأنفة "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بكلوا "رَزَقَكُمُ اللَّهُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة صلة "حَلالًا" مفعول به أو حال "طَيِّباً" صفة "وَاشْكُرُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة معطوفة "نِعْمَتَ" مفعول به "اللَّهُ" لفظ

الجلالة مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها وهو فعل الشرط وجملته ابتدائية لا محل لها من الإعراب "إِيَّاهُ" ضمير نصب في محل نصب مفعول به مقدم "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر كنتم وجملة جواب الشرط محذوفة .

[سورة النحل (16) : الآيات 115 الى 116]

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (116)



---

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "حَرَّمَ" ماض فاعله مستتر "عَلَيْكُمُ" متعلقان بحرم "الْمَيْتَةَ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَالدَّمَ وَلَحْمَ" عطف على الميتة "الْخِنْزِيرِ" مضاف إليه "وَما" ما موصولية معطوفة على ما سبق "أُهِلَّ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف والجملة صلة "لِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "بِهِ" متعلقان بأهل "فَمَنِ" الفاء عاطفة ومن شرطية مبتدأ "اضْطُرَّ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "غَيْرَ" حال "باغٍ" مضاف إليه "وَلا عادٍ" معطوف على باغ "فلا" الفاء رابطة للجواب ولا

نافية للجنس "إثم" اسمها والجملة في محل جزم جواب الشرط "عليه" متعلقان بالخبر المحذوف "فَإِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "غَفُورٌ رَحِيمٌ" خبرا إن والجملة مستأنفة "وَلَا" الواو عاطفة ولا الناهية "تَقُولُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة "لِما" اللام حرف جر وما مصدرية وهي وما بعدها مصدر مؤول مجرور باللام ومتعلقان بتقولوا "تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ" ماض وفاعله ومفعوله "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ "حَلالٌ" خبر والجملة مقول القول "وَهذا حَرامٌ" الجملة معطوفة على سابقتها "لِتَفْتَرُوا" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل واللام والمصدر المؤول بعدها متعلقان ببدل من لما "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بتفتروا "الْكَذِبَ" مفعول به "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِينَ" اسم موصول اسم إن والجملة تعليلية لا محل لها "يَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صلة "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بيفترون "الْكَذِبَ" مفعول به "لا يُفْلِحُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر إن.

[سورة النحل (16) : الآيات 117 الى 119]

مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

"مَتَاعٌ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة "قَلِيلٌ" صفة "وَلَهُمْ" الواو عاطفة ولهم متعلقان بخبر محذوف "عَذَابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة "وَعَلَى الَّذِينَ" الواو استئنافية ومتعلقان بحرمنا "هَادُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "حَرَّمْنَا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "ما" موصولية مفعول به "قَصَصْنَا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَيْكَ" متعلقان بقصصنا "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بقصصنا "وَمَا" الواو عاطفة وما نافية "ظَلَمْنَاهُمْ" معطوفة و"لَكِنْ" والواو عاطفة ولكن حرف استدراك "كَانُوا" كان واسمها "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به مقدم "يَظْلِمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا "ثُمَّ" عاطفة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "رَبَّكَ" اسم إن والكاف مضاف إليه "لِلَّذِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "عَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "السُّوءَ" مفعول به "بِجَهَالَةٍ" متعلقان بحال محذوفة "ثُمَّ" عاطفة "تَابُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بتابوا "ذَلِكَ" ذا اسم إشارة في محل جر مضاف إليه واللام للبعد والكاف للخطاب "وَأَصْلَحُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة مؤكدة لإن ربك السابقة "مِنْ بَعْدِهَا" متعلقان بغفور "لَغَفُورٌ" اللام لام المزحلقة وغفور خبر إن "رَحِيمٌ"

خبر ثان.

[سورة النحل (16) : الآيات 120 الى 123]

(137/431)

---

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ" إن واسمها والجملة مستأنفة "كانَ أُمَّةً" كان واسمها ضمير مستتر وأمة خبر والجملة خبر إن "قانِتاً" خبر ثان "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بقانتا "حَنِيفاً" خبر ثالث لكان "وَلَمْ"

(138/431)

---

الواو عاطفة ولم جازمة "يَكُ" مضارع ناقص مجزوم وحذفت النون للتخفيف واسم يكن محذوف والجملة معطوفة "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "شاكِراً" خبر رابع لكان "لِأَنْعُمِهِ" متعلقان بشاكرا والهاء مضاف إليه "اجْتَباهُ" ماض فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة مستأنفة "وَهَداهُ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة معطوفة "إِلى صِراطٍ" متعلقان بهداه "مُسْتَقِيمٍ" صفة "وَآتَيْناهُ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "فِي الدُّنْيا" متعلقان بآتيناه "حَسَنَةً" مفعول به ثان "وَإِنَّهُ" الواو حالية وإن والهاء اسمها والجملة حال "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بالخبر "لَمِنَ" اللام المزحلقة ومن حرف جر "الصَّالِحِينَ" مجرور بمن وهما متعلقان بالخبر المحذوف "ثُمَّ" عاطفة "أَوْحَيْنا" ماض فاعله مستتر "إِلَيْكَ" متعلقان بأوحينا "أَنِ" مصدرية "اتَّبِعْ" أمر فاعله مستتر والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به "مِلَّةَ" مفعول به "إِبْراهِيمَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "حَنِيفاً" حال "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" كان واسمها محذوف تقديره هو ومن المشركين متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة.

[سورة النحل (16) : الآيات 124 الى 125]

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124) ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

"إِنَّما" كافة مكفوفة "جُعِلَ السَّبْتُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله "عَلَى الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر متعلقان بجعل "اخْتَلَفُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بما قبله والجملة مستأنفة "وَإِنَّ رَبَّكَ" الواو استئنافية وإن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة استئنافية "لَيَحْكُمُ" اللام المزحلقة ومضارع فاعله مستتر والكاف مفعول به والجملة خبر إن "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بيحكم والهاء مضاف إليه "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بيحكم "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "فِيما" ما موصولية وهما متعلقان بيحكم "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "فِيهِ" متعلقان بما بعده "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "ادْعُ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِلى سَبِيلِ" متعلقان بادع "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه "بِالْحِكْمَةِ" متعلقان بادع "وَالْمَوْعِظَةِ" معطوف على الحكمة "الْحَسَنَةِ" صفة "وَجادِلْهُمْ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة معطوفة "بِالَّتِي" اسم موصول في محل جر بالباء ومتعلقان بجادلهم "هِيَ أَحْسَنُ" مبتدأ وخبر والجملة صلة "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه "هُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والجملة خبر إن "بِمَنْ" اسم موصول في محل جر ومتعلقان بأعلم "ضَلَّ" ماض فاعله

مستتر والجملة صلة "عَنْ سَبِيلِهِ" متعلقان بضل "وَهُوَ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبر والجملة معطوفة "بِالْمُهْتَدِينَ" متعلقان بأعلم.

[سورة النحل (16) : الآيات 126 الى 128]

(140/431)

---

وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

(141/431)

---

"وَإِنْ" الواو استئنافية وإن حرف شرط جازم "عاقَبْتُمْ" ماض وفاعله وهو فعل الشرط وجملته لا محل لها "فَعاقِبُوا" الفاء رابطة للجواب وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط "بِمِثْلِ" متعلقان بعاقبوا "ما" موصولية في محل جر مضاف إليه "عُوقِبْتُمْ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب الفاعل والجملة صلة "وَلَئِنْ" الواو

عاطفة واللام موطئة للقسم وإن شرطية "صَبَرْتُمْ" ماض وفاعله وجملة الشرط ابتدائية "فهو" "خَيْرٌ" الفاء رابطة للجواب ومبتدأ وخبر والجملة في محل جزم جواب الشرط "لِلصَّابِرِينَ" متعلقان بخير "وَاصْبِرْ" الواو استئنافية وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "وَمَا" الواو حالية وما نافية "صَبْرُكَ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بالخبر المحذوف والجملة حالية "وَلَا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَحْزَنْ" مضارع مجزوم فاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتحزن والجملة معطوفة "وَلَا" الواو عاطفة "تَكُ" مضارع ناقص مجزوم بلا وحذفت النون للتخفيف واسمها محذوف "فِي ضَيْقٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِمَّا" ما موصولية ومتعلقان بمحذوف صفة لضيق "يَمْكُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة صلة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة تعليلية لا محل لها "مَعَ" ظرف مكان متعلق بخبر إن المحذوف "الَّذِينَ" مضاف إليه "اتَّقَوْا" الجملة صلة "وَالَّذِينَ" الواو عاطفة والذين اسم موصول معطوف على الذين وهي في محل جر مثلها "هُمْ مُحْسِنُونَ" مبتدأ وخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس جـ 2 صـ 181.151﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة النَّحْل

ذكر فِيهَا سَبْعَة عشر حَدِيثا

671 - الحَدِيث الأول

روى أَن أبي بن خلف جَاءَ بعظم رَمِيم إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّد أَتَرَى أَن الله يحيي هَذَا بَعْدَمَا قد رم

قلت ذكره الْمُصَنّف فِي سُورَة يس أتم من هَذَا وَسَيَأْتِي هُنَاكَ إِن شَاءَ الله تَعَالَى

672 - الحَدِيث الثَّانِي

فِي حَدِيث عِكْرِمَة لَا تَأْكُلُوا ثمن الشّجر فَإِنَّهُ سحت يَعْنِي الْكلأ

قلت غَرِيب

وَبِمَعْنَاهُ مَا رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه عَن وهب بن مُنَبّه قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (اتَّقوا السُّحت) قَالُوا وَمَا السُّحت يَا رَسُول الله قَالَ (بيع الشّجر وَثمن الْخمر وَإِجَارَة الْأمة الْمُسَاحقَة) انْتَهَى

وَذكره عبد الْحق فِي أَحْكَامه فِي الْبيُوع من جِهَة عبد الرَّزَّاق وَقَالَ هَذَا مُرْسل

وَحَدِيث عِكْرِمَة أخرجه أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كتاب الْأَمْوَال مَوْقُوفا عَلَيْهِ أخرجه عَن معمر بن رَاشد عَن عَمْرو عَن عِكْرِمَة أَنه قَالَ لَا تَأْكُلُوا من ثمن الشّجر فَإِنَّهُ سحت يَعْنِي الْكلأ وَنَحْوه انْتَهَى

673 - قَوْله عَن أبي هُرَيْرَة أَنه سمع رجلا يَقُول إِن الظَّالِم لَا يضر إِلَّا نَفسه فَقَالَ بلَى وَالله حَتَّى إِن الْحُبَارَى لتَمُوت فِي وكرها بظُلْم الظَّالِم

وَعَن ابْن مَسْعُود كَاد الْجعل يهْلك فِي وكره بذنب ابْن آدم

قلت

(143/431)

---

الأول رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالْأَرْبَعين من حَدِيث أبي حَاتِم الرَّازِيّ أَنا نعيم بن حَمَّاد أَنا إِسْمَاعِيل بن حَكِيم الْخُزَاعِيّ عَن عَمْرو بن جَابر الْحَنَفِيّ عَن يَحْيَى بن أبي كثير عَن أبي سَلمَة قَالَ سمع أَبُو هُرَيْرَة رجلا يَقُول . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن الْمثنى حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن حَكِيم الْخُزَاعِيّ ثَنَا مُحَمَّد بن جَابر الْحَنَفِيّ عَن يَحْيَى بن أبي كثير بِهِ

الثَّانِي رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث أبي الْأَحْوَص قَالَ قَرَأَ ابْن مَسْعُود وَلَو يُؤَاخذ

اللهِ النَّاسَ الْآيَةَ قَالَ كَادَ الْجعل يعذب فِي جُحْره بذنب ابْن آدم انْتَهى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه

وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْأَيْمَان وَسَيَأْتِي فِي فاطر

674 - الحَدِيث الثَّالِث

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْخمر حرَام بِعَينهَا وَالسكر من كل شراب)

قلت رَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَاهُ من حَدِيث مُحَمَّد بن الْفُرَات الْكُوفِي عَن أبي إِسْحَاق

السبيعِي عَن الْحَارِث عَن عَليّ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (حرمت الْخمر بِعَينهَا

وَالسكر من كل شراب) مُخْتَصر وَفِيه قصَّة وأعله بِمُحَمد بن الْفُرَات

وَقَالَ لَا يُتَابع عَلَيْهِ وَنقل عَن البُخَارِيّ أَنه قَالَ فِيهِ مُنكر الحَدِيث وَعَن ابْن معِين أَنه قَالَ لَيْسَ

بِشَيْء

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مَوْقُوفا عَلَى ابْن عَبَّاس وَفِيه كَلَام طَوِيل مُسْتَوفى فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

675 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن رجلا جَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ إِن أخي يشتكي بَطْنه فَقَالَ ( اسْقِه الْعَسَل ) فَذهب ثمَّ رَجَعَ فَقَالَ قد سقيته فَمَا نفع . . . الحَدِيث

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا فِي كتاب الطِّبّ عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ جَاءَ رجل فَقَالَ إِن أخي اسْتطْلق بَطْنه فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ( اسْقِه عسلا ) فَسَقَاهُ ثمَّ جَاءَهُ فَقَالَ إِنِّي سقيته عسلا فَلم يزده إِلَّا اسْتِطْلَاقًا فَقَالَ لَهُ ذَلِك ثَلَاث مَرَّات ثمَّ جَاءَ الرَّابِعَة فَقَالَ ( اسْقِه عسلا ) فَسَقَاهُ فبرئ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ( صدق الله وَكذب بطن أَخِيك ) انْتَهَى

ووهم الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فَرَوَاهُ فِي الطِّبّ كَذَلِك وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

676 - قَوْله عَن ابْن مَسْعُود قَالَ الْعَسَل شِفَاء من كل دَاء وَالْقُرْآن شِفَاء لما فِي الصُّدُور فَعَلَيْكُم بالشِّفَاءَيْنِ الْعَسَل وَالْقُرْآن

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي فَضَائِل الْقُرْآن حَدثنَا وَكِيع عَن مسعر عَن أبي الْأَحْوَص عَن عبد الله قَالَ الْعَسَل شِفَاء من كل دَاء وَالْقُرْآن شِفَاء لما فِي الصُّدُور انْتَهَى

وَحدثنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن الْأَعْمَش عَن خَيْثَمَة عَن الْأسود عَن عبد الله قَالَ عَلَيْكُم بالشِّفَاءَيْنِ الْقُرْآن وَالْعَسَل

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره كَذَلِك مفرقا

(145/431)

---

وَقد رُوِيَ بعضه مَرْفُوعا رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي كتاب الطِّبّ من حَدِيث زيد بن الْحباب عَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي الْأَحْوَص عَن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عَلَيْكُم بالشفاءين الْعَسَل وَالْقُرْآن)

انْتَهَى

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الطِّبّ من طَرِيق ابْن خُزَيْمَة حَدثنَا عَليّ بن سَلمَة حَدثنَا زيد بن الْحباب بِهِ وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ قَالَ وَقد وَقفه وَكِيع عَن سُفْيَان ثمَّ أخرجه من طَرِيق ابْن أبي شيبَة كَذَلِك

انْتَهَى

قلت قد رَوَاهُ سُفْيَان بن وَكِيع عَن وَكِيع فرفعه أَيْضا رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل كَذَلِك عَن سُفْيَان بن وَكِيع عَن أَبِيه وَكِيع عَن الثَّوْرِيّ عَن أبي إِسْحَاق عَن أبي الْأَحْوَص عَن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (عَلَيْكُم بالشفاءين الْعَسَل شِفَاء من كل دَاء

وَالْقُرْآن شِفَاء لما فِي الصُّدُور )

انْتَهى

ثمَّ قَالَ وَهَذَا رُوِيَ عَن الثَّوْرِيّ مَرْفُوعا من رِوَايَة زيد بن الْحباب عَنهُ وَأما عَن وَكِيع فَلم يرفعهُ عَنهُ إِلَّا ابْنه سُفْيَان وَهُوَ فِي الأَصْل مَوْقُوف

انْتَهى

وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ فِي علله الصَّحِيح أَنه مَوْقُوف

انْتَهى

677 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن أبي ذَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أَنه سمع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول ( إِنَّمَا هم إخْوَانكُمْ فاكسوهم مِمَّا تلبسُونَ وَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تطْعمُونَ ) فَمَا رئي عَبده بعد ذَلِك إِلَّا وَرِدَاؤُهُ رِدَاؤُه وَإِزَاره إِزَاره من غير تفَاوت

قلت رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ فَالْبُخَارِي فِي الْعتْق وَمُسلم فِي الْإِيمَان

وَأَبُو دَاوُد وَابْن ماجة فِي الْأَدَب وَالتِّرْمِذِيّ فِي الْبر والصلة كلهم من حَدِيث الْمَعْرُور بن سُوَيْد قَالَ رَأَيْت أَبَا ذَر وَعَلِيهِ حلَّة وَعَلَى غُلَامه مثلهَا فَسَأَلته عَن ذَلِك فَذكر أَنه سَاب رجلا عَلَى عهد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ فَأَتَى الرجل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَذكر ذَلِك لَهُ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنَّك امْرُؤ فِيك جَاهِلِيَّة) قلت عَلَى سَاعَتِي هَذِه من كبر السن قَالَ (نعم هم إِخْوَانكُمْ جعلهم الله تَحت أَيْدِيكُم فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ وَاكْسُوهُمْ مِمَّا تلبسُونَ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِن كلفتموهم فأعينوهم)

انْتَهَى

وَقَوله فَمَا رئي عَبده بعد ذَلِك إِلَّا وَرِدَاؤُهُ رِدَاؤُهُ لَيْسَ فِي الحَدِيث وَإِنَّمَا هُوَ من كَلَام الْمُصَنّف

678 - الحَدِيث السَّادِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أَصْحَابِي كَالنُّجُوم فبأيهم اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ)

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عَبَّاس وَمن حَدِيث جَابر وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عمر

أما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْمدْخل عَن الْحَاكِم بِسَنَدِهِ إِلَى جُوَيْبِر عَن الضَّحَّاك عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (مهما أُوتِيتُمْ من كتاب الله فَالْعَمَل بِهِ لَا عذر لأحد فِي تَركه فَإِن لم يكن فِي كتاب الله فَسنة مني مَاضِيَة وَإِن لم يكن

سنة مني فَمَا قَالَ أَصْحَابِي إِن أَصْحَابِي بِمَنْزِلَة النُّجُوم فِي السَّمَاء فأيما أَخَذْتُم بِهِ اهْتَدَيْتُمْ وَاخْتِلَاف أَصْحَابِي لكم رَحْمَة)

انْتَهى

(147/431)

---

ثمَّ أخرجه من حَدِيث أبي زرْعَة حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن مُوسَى حَدثنَا حَدثنَا يزِيد بن هَارُون عَن جُوَيْبِر عَن جواب بن عبيد الله قَالَ قَالَ رَسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن مثل أَصْحَابِي

كَمثل النُّجُوم فِي السَّمَاء من أَخذ بِنَجْم مِنْهَا اهْتَدَى وَبِأَيِّ قَول أَصْحَابِي أَخَذْتُم فقد اهْتَدَيْتُمْ)

انْتَهى

ثمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيّ هَذَا حَدِيث مَشْهُور وَأَسَانِيده كلهَا ضَعِيفَة لم يثبت مِنْهَا شَيْء

انْتَهى

أما حَدِيث جَاءَ فَرَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه الْمُسَمّى بغرائب مَالك فَقَالَ حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن يحيى الْعَبْسِي حَدثنَا الْحسن بن مهْدي بن عَبدة الْمروزِي حَدثنَا أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن

أَحْمد السكري حَدثنَا أَبُو يحْيَى بكر بن عِيسَى الْمروزِي حَدثنَا جميل بن يزِيد عَن مَالك بن أنس عَن جَعْفَر بن مُحَمَّد عَن أَبِيه عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا وجدْتُم فِي كتاب الله فَالْعَمَل بِهِ لَا يسعكم تَركهَا إِلَى غَيره وَمَا لم تجدوه فِي كتاب الله وَكَانَت مني سنة فَالْعَمَل بهَا لَا يسعكم تَركهَا إِلَى غَيرهَا وَمَا لم تُؤْتوا بِهِ فِي كتاب الله وَلم تكن فِي سنة فَإلَى أَصْحَابِي فَبِأَي قَول أَصْحَابِي أَخَذْتُم اهْتَدَيْتُمْ إِنَّمَا مثل أَصْحَابِي مثل النُّجُوم من أَخذ بِنَجْم مِنْهَا اهْتَدَى)

انْتَهَى

ثمَّ قَالَ هَذَا لَا يثبت عَن مَالك وَرُوَاته عَن مَالك مَجْهُولُونَ

انْتَهَى

(148/431)

---

وَرَوَاهُ فِي كتاب المؤتلف والمختلف من طَرِيق آخر فَقَالَ حَدثنَا أَحْمد بن كَامِل بن خلف حَدثنَا عبد الله بن روح حَدثنَا سَلام بن سُلَيْمَان الْمَدَائِنِي حَدثنَا الْحَارِث ابْن غُصَيْن عَن الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ)

انْتَهى

ذكره فِي تَرْجَمَة الْحَارِث بن غصين بالصَّاد الْمُهْملَة وَقَالَ الْحَارِث بن غصين يروي عَن مَنْصُور وَالْأَعْمَش وحصين وَلَيْث بن أبي سليم وَغَيرهم روى عَنهُ سَلام بن سُلَيْمَان الْمَدَائِنِي وَيحيى بن يعلى الْأَسْلَمِيّ وَغَيرهمَا

انْتَهى

قَالَ ابْن طَاهِر هَذِه الرِّوَايَة معلولة بسلام الْمَدَائِنِي فَإِنَّهُ ضَعِيف

انْتَهى

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب أَنا أَبُو الْفَتْح بن مَنْصُور بن عَلّي الأنماطي حَدثنَا أَبُو مُحَمَّد الْحسن بن رَشِيق حَدثنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مُحَمَّد حَدثنَا جَعْفَر بن عبد الْوَاحِد الْهَاشِمِي أَنا وهب بن جرير بن حَازِم عَن أَبِيه عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (مثل أَصْحَابِي مثل النُّجُوم من اقْتدى بِشَيْء مِنْهَا اهْتَدَى)

انْتَهى

وَهُوَ مَعْلُول بِجَعْفَر بن عبد الْوَاحِد نقل عَن الدَّارَقُطْنِيّ أَنه قَالَ فِيهِ كَانَ يضع الحَدِيث وَقَالَ ابْن طَاهِر كَانَ يروي الْمَنَاكِير عَن الثِّقَات وَلَو سلمت هَذِه الرِّوَايَة مِنْهُ لكَانَتْ صَحِيحَة

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ عبد بن حميد فِي مُسْنده وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي كِتَابه فَضَائِل الصَّحَابَة كِلَاهُمَا من حَدِيث حَمْزَة الْجَزرِي عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّمَا أَصْحَابِي مثل النُّجُوم فَأَيهمْ أَخَذْتُم بقوله اهْتَدَيْتُمْ)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل إِنَّه حَدِيث مُنكر قَالَ وَحَمْزَة الْجَزرِي هُوَ حَمْزَة بن حَمْزَة النصيبي يضع الحَدِيث

انْتَهَى

وَقَالَ ابْن طَاهِر حَمْزَة النصيبي كَذَّاب قَالَ وَرَوَاهُ بشر بن الْحُسَيْن الْأَصْبَهَانِيّ عَن الزُّبَيْر بن عدي عَن أنس وَبشر هَذَا يروي عَن الزُّبَيْر مَوْضُوعَات

انْتَهَى

حَدِيث فِي الْمَعْنى رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كِتَابه الْمدْخل أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ حَدثنَا أَبُو الْعَبَّاس مُحَمَّد بن يَعْقُوب حَدثنَا بكر بن سهل حَدثنَا نعيم بن حَمَّاد حَدثنَا عبد الرَّحِيم ابْن زيد الْعمي عَن أَبِيه عَن سعيد بن الْمسيب عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (سَأَلت رَبِّي عز وَجل فِيمَا يخْتَلف فِيهِ أَصْحَابِي من بعدِي فَأوحى إِلَيّ يَا مُحَمَّد إِن أَصْحَابك عِنْدِي بِمَنْزِلَة النُّجُوم فِي السَّمَاء بَعْضهَا أَضْوَأ من بعض فَمن

أَخذ بِشَيْء مِمَّا هم عَلَيْهِ من اخْتلَافهمْ فَهُوَ عِنْدِي عَلى هدى )

انْتَهى

وَهُوَ مَعْلُول بعَبْد الرَّحِيم الْعمى قَالَ ابْن معِين كَذَّاب وَقَالَ مرّة لَيْسَ بشَيْء وَقَالَ البُخَارِيّ وَالنَّسَائِيّ تَركُوهُ وَقَالَ أَبُو دَاوُد ضَعِيف الحَدِيث وَفِيه أَيْضا شَائِبَة الِانْقِطَاع بَين سعيد وَعمر

679 - الحَدِيث السَّابِع

(150/431)

---

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن علمه الْفَرَائِض حِين قَالَ وَالله لَا زِدْت عَلَيْهَا وَلَا نقصت ( أَفْلح إِن صدق )

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي كتاب الْإِيمَان من حَدِيث أبي سُهَيْل عَن أَبِيه أَنه سمع طَلْحَة بن عبيد الله يَقُول جَاءَ رجل إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل نجد ثَائِر الرَّأْس يسمع دوي صَوته وَلَا نفقه مَا يَقُول حَتَّى دنا من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذا هُوَ يسْأَل عَن الْإِسْلَام فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( خمس صلوَات فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة ) فَقَالَ هَل عَليّ غَيْرهنَّ قَالَ لَا إِلَّا إِن تطوع وَصِيَام رَمَضَان ) قَالَ هَل عَليّ غَيره قَالَ لَا إِلَّا أَن تطوع ) وَذكر لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّكَاة فَقَالَ هَل عَليّ غَيرهَا قَالَ لَا إِلَّا أَن

تطوع ) قَالَ فَأَدْبَرَ الرجل وَهُوَ يَقُول وَالله لَا أَزِيد عَلَى هَذَا وَلَا أنقص فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( أَفْلح إِن صدق )

انْتَهَى

وَوَقع فِي رِوَايَة لمُسلم ( أَفْلح وَأَبِيهِ إِن صدق )

680 - الحَدِيث الثَّامِن

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( اسْتَقِيمُوا وَلنْ تُحْصُوا )

قلت رُوِيَ من حَدِيث ثَوْبَان وَمن حَدِيث جَابر وَمن حَدِيث عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاصِ وَمن حَدِيث سَلمَة بن الْأَكْوَع وَمن حَدِيث أبي أُمَامَة

أما حَدِيث ثَوْبَان فَرَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي الطَّهَارَة من حَدِيث سَالم ابْن أبي الْجَعْد عَن ثَوْبَان قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ( اسْتَقِيمُوا وَلنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَن خير أَعمالكُم الصَّلَاة وَلَا يحافظ عَلَى الْوضُوء إِلَّا مُؤمن )

انْتَهَى

قَالَ التِّرْمذِيّ فِي كِتَابه سَأَلت مُحَمَّدًا يَعْنِي البُخَارِيّ هَل سمع سَالم من ثَوْبَان قَالَ لَا

انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الطَّهَارَة كَذَلِك وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ وَلست أعرف لَهُ عِلّة

انْتَهَى

وَلم يتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن أبي شيبَة وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ والدارمي وَأَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مسانيدهم

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي سنَنه فِي بَاب فَضِيلَة الْوضُوء كَذَلِك وَسكت عَنهُ لكنه رَوَاهُ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْعشْرين مِنْهُ كَذَلِك وَقَالَ حَدِيث مُنْقَطع فَإِن سالما لم يسمع من ثَوْبَان

انْتَهَى

وَله طَرِيق آخر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا هَاشم بن مرْثَد الطَّبَرَانِيّ حَدثنَا صَفْوَان بن صَالح حَدثنَا الْوَلِيد بن مُسلم عَن ابْن ثَوْبَان عَن حسان بن عَطِيَّة عَن أبي كَبْشَة السَّلُولِي عَن ثَوْبَان . . . فَذكره سَوَاء

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر مَرْفُوعا نَحوه وَسكت عَنهُ

وَأما حَدِيث ابْن الْعَاص فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان عَن لَيْث بن أبي سليم عَن مُجَاهِد عَن عبد الله بن عَمْرو بن الْعَاص . . . مَرْفُوعا نَحوه

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم زَاد ابْن رَاهَوَيْه وَقَوله وَلنْ تُحْصُوا أَي لن تُطِيقُوا الاسْتقَامَة

وَقَالَ الْبَزَّار لَا نعلمهُ يرْوي عَن عبد بن عَمْرو بن الْعَاص إِلَّا من هَذَا الْوَجْه بِهَذَا الْإِسْنَاد

انْتَهَى

(152/431)

---

وَأما حَدِيث سَلمَة بن الْأَكْوَع فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من طَرِيق مُحَمَّد ابْن عمر الْوَاقِدِيّ حَدثنَا مُوسَى بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم أَنه سمع إِيَاس بن سَلمَة بن الْأَكْوَع يحدث عَن أَبِيه قَالَ قَالَ رَسُول الله . . . فَذكره

وَرَوَاهُ الْعقيلِيّ فِي ضُعَفَاء وَأَعله بمُوسَى بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم الْهُذلِيّ وَقَالَ لَا يُتَابع عَلَى حَدِيثه قَالَ وَقد رُوِيَ هَذَا الحَدِيث عَن ثَوْبَان بِإِسْنَاد ثَابت

انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي أُمَامَة فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان من طَرِيق عُثْمَان بن سعيد الدَّارمِيّ

حَدثنَا سعيد بن أبي مَرْيَم أَنا يَحْيَى بن أَيُّوب حَدثنَا إِسْحَاق بن أسيد عَن أبي حَفْص الدِّمَشْقِي عَن أبي أُمَامَة الْبَاهِلِيّ يرفع الحَدِيث قَالَ (اسْتَقِيمُوا وَنعما إِن اسْتَقَمْتُمْ وَخير أَعمالكُم الصَّلَاة وَلنْ يحافظ عَلَى الْوضُوء إِلَّا مُؤمن)

انْتَهَى

681 - الحَدِيث التَّاسِع

قَالَ وَذَلِكَ لدَعْوَة نَبينَا (اللَّهُمَّ عَاد من عَادَاهُ)

قلت رُوِيَ من حَدِيث زيد بن أَرقم وَمن حَدِيث الْبَراء بن عَازِب وَمن حَدِيث سعد بن أبي وَقاص وَمن حَدِيث طَلْحَة بن عبيد الله وَأبي سعيد الْخُدْرِيّ وَأبي هُرَيْرَة وَأنس بن مَالك وَابْن عمر وَجَرِير بن عبد الله البَجلِيّ وَجَابِر بن عبد الله وَحُذَيْفَة بن أسيد الْغِفَارِيّ وَحبشِي بن جُنَادَة

أما حَدِيث زيد بن أَرقم فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سنَنه الْكُبْرَى فِي خَصَائِص عَلّي من طَرِيق أبي عوَانَة عَن سُلَيْمَان الْأَعْمَش حَدثنَا حبيب بن أبي ثَابت عَن أبي الطُّفَيْل عَن زيد بن أَرقم قَالَ أَخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَوْم غَدِير خم بيد عَلّي وَقَالَ (من كنت وليه فَهَذَا وليه اللَّهُمَّ وَال من وَالَاهُ وَعَاد من عَادَاهُ)

مُخْتَصر

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْفَضَائِل وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث الْبَراء بن عَازِب فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضا أخبرنَا أَبُو دَاوُد ثَنا عمرَان بن أبان حَدثنَا شريك قلت لأبي إِسْحَاق هَل سَمِعت الْبَراء بن عَازِب يحدث عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ يَوْم غَدِير خم (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَال من وَالَاهُ وَعَاد من عَادَاهُ) قَالَ نعم

مُخْتَصر

وَأما حَدِيث سعد بن أبي وَقاص فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضا من طرق ثَلَاثَة دَائِرَة عَلَى الْمُهَاجِر بن مِسْمَار عَن عَائِشَة بنت سعد عَن سعد أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَخذ بيد عَلّي وَقَالَ (من كنت وليه فَهَذَا وليه اللَّهُمَّ وَال من وَالَاهُ وَعَاد من عَادَاهُ)

مُخْتَصر

وَرَوَاهُ الْحَافِظ أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن عقدَة فِي كتاب الْمُوَالَاة من حَدِيث عَلّي ابْن زيد بن جدعَان عَن سعيد بن الْمسيب عَن سعد . . . فَذكره وَقَالَ فِيهِ من كنت مَوْلَاهُ

وَأما حَدِيث طَلْحَة بن عبيد الله فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه من حَدِيث الْحسن ابْن الْحُسَيْن العرني عَن رِفَاعَة بن إِيَاس الضَّبِّيّ عَن أَبِيه عَن جده قَالَ كُنَّا مَعَ عَلّي يَوْم الْجمل

فَبعث إِلَى طَلْحَة بن عبيد الله فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ عَلّي يَا طَلْحَة نشدتك بِاللَّه ألم تسمع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَال من وَالاهُ وَعَاد من عَادَاهُ) قَالَ نعم قَالَ فَلم تقاتلني قَالَ لم أذكر وَانْصَرف طَلْحَة

انْتَهى

وَسكت عَنهُ قَالَ الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره الْحسن العرني لَيْسَ بِثِقَة

(154/431)

---

وَأما حَدِيث الْخُدْرِيّ فَرَوَاهُ الْحَاكِم أَيْضا من حَدِيث مُسلم الْملَائي عَن خَيْثَمَة بن عبد الرَّحْمَن قَالَ سَمِعت سعد بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم غَدِير خم بعد حمد الله وَالثنَاء عَلَيْهِ (هَل تعلمُونَ أَنِّي أولى بِالْمُؤْمِنِينَ من أنفسهم)

قُلْنَا نعم قَالَ (اللَّهُمَّ من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَال من وَالاهُ وَعَاد من عَادَاهُ)

مُخْتَصر وَسكت عَنهُ قَالَ الذَّهَبِيّ وَمُسلم الْأَعْوَر الْملَائي مَتْرُوك

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَلهُ طرق

فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده وَالْبَزَّار حَدثنَا شريك عَن دَاوُد بن يزِيد الأودي عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة أَنه سمع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ

وَال من وَالَاهُ وَعَاد من عَادَاهُ)

انْتَهى

وَعَن ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا أَحْمد بن عبد الرَّحْمَن حَدثنَا أَبُو جَعْفَر النُّفَيْلِي

حَدثنَا عِكْرِمَة بن إِبْرَاهِيم الْأَزْدِيّ حَدثنَا إِدْرِيس بن يزِيد الأودي عَن أبي هُرَيْرَة . . .

فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن عقدَة فِي كتاب الْمُوَالَاة فَقَالَ فِيهِ عَن دَاوُد بن يزِيد الأودي عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة

(155/431)

---

وَأما حَدِيث أنس بن مَالك فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الصَّغِير عَن طَلْحَة ابْن مصرف عَن

عميرَة بن سعد قَالَ شهِدت عليا عَلَى الْمِنْبَر نَاشد أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم من سَمعه يَقُول يَوْم غَدِير خم مَا قَالَ فَقَالَ اثْنَا عشر رجلا مِنْهُم أَبُو هُرَيْرَة وَأَبُو سعيد

وَأنس بن مَالك فَشَهِدُوا أَنه سمع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (يَقُول من كنت مَوْلَاهُ)

إِلَى آخِره

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث عمر بن شبيب الْمسلي عَن

عبد الله بن عِيسَى عَن عَطِيَّة عَن بن عمر مَرْفُوعا بِلَفْظ النَّسَائِيّ سَوَاء

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن نشيط عَن جميل بن عمَارَة عَن سَالم عَن أَبِيه قَالَ سَمِعت رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول وَهُوَ آخذ بيد عَليّ (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ) إِلَى آخِره ثمَّ قَالَ وَجَمِيل بن عمَارَة لَا نعلم روى عَنهُ إِلَّا إِسْمَاعِيل بن نشيط وَلَا نعلم حدث عَن سَالم إِلَّا هَذَا الحَدِيث

انْتهى

(156/431)

---

وَأما حَدِيث جرير فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيْضا حَدثنَا عَليّ بن سعيد الرَّازِيّ حَدثنَا الْحسن بن صَالح بن زُرَيْق الْعَطَّار حَدثنَا مُحَمَّد بن عون أَبُو عون الزيادي حَدثنَا حَرْب ابْن شُرَيْح عَن بشر بن حَرْب عَن جرير عبد الله البَجلِيّ قَالَ شَهِدنَا حجَّة الْوَدَاع مَعَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فبلغنا مَكَانا يُقَال لَهُ غَدِير خم فَنَادَى الصَّلَاة جَامِعَة فَاجْتمعْنَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَار فَقَامَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَسطنَا وَقَالَ (يَأَيهَا النَّاس بِمَ تَشْهَدُون) قَالُوا نشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله قَالَ (ثمَّ مَه) قَالُوا وَأَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله قَالَ فَمن وَلِيكُم قَالُوا الله وَرَسُوله مَوْلَانَا قَالَ فَضرب بِيَدِهِ إِلَى عضد عَليّ وَقَالَ (من يكن الله وَرَسُوله مولياه

فَإِن هَذَا مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ من وَالَاهُ وَعَادِ من عَادَاهُ

مُخْتَصر

وَأما حَدِيث جَابر بن عبد الله فَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث ابْن لَهِيعَة عَن بكر بن سوارة عَن قبيصَة بن ذُؤَيْب وَأبي سَلمَة عَن جَابر بن عبد الله أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ من وَالَاهُ وَعَادِ من عَادَاهُ) وَفِيه قصَّة

وَأما حَدِيث حُذَيْفَة بن أسيد فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيْضا من حَدِيث زيد بن الْحسن الْأنْمَاطِي حَدثنَا مَعْرُوف بن خَرَّبُوذ عَن أبي الطُّفَيْل عَن حُذَيْفَة بن أسيد الْغِفَارِيّ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ) إِلَى آخِره مُخْتَصر وَفِيه قصَّة

*(157/431)*

---

وَرَوَاهُ ابْن عقدَة من حَدِيث إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْأَسْلَمِيّ عَن أبي هَارُون الْعَبْدي عَن ربيعَة السَّعْدِيّ عَن حُذَيْفَة فَذكره

وَأما حَدِيث حبشِي بن جُنَادَة فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ أَيْضا من حَدِيث سُلَيْمَان بن قرم الضَّبِّيّ عَن أبي إِسْحَاق سَمِعت حبشِي بن جُنَادَة سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (

وَيَوْم غَدِير خم ) فَذكره وَزَاد ( أعن من أَعَانَهُ )

وَأما حَدِيث عمار بن يَاسر فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِير سُورَة الْمَائِدَة فَقَالَ

حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد حَدثنَا مُحَمَّد بن عَلّي الصَّائِغ حَدثنَا خَالِد بن يزِيد الْعمريّ

حَدثنَا إِسْحَاق بن عبد الله بن مُحَمَّد بن عَلّي بن حُسَيْن بن عَلّي بن الْحُسَيْن بن زيد عَن

أَبِيه زيد بن عَلّي بن الْحُسَيْن عَن جده قَالَ سَمِعت عمار بن يَاسر يَقُول وقف بعلي سَائل

وَهُوَ وَاقِف فِي صَلَاة تطوع فَنزع خَاتمه فَأعْطَاهُ السَّائِل فَأتى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّم فَأَعْلمهُ ذَلِك فَنزلت إِنَّمَا وَلِيكُم الله وَرَسُوله وَالَّذين آمنُوا الَّذين يُقِيمُونَ الصَّلَاة وَيُؤْتونَ

الزَّكَاة وهم رَاكِعُونَ فقرأها رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى أَصْحَابه ثمَّ قَالَ ( من

كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَال من وَالَاهُ وَعَاد من عَادَاهُ )

انْتَهَى

ثمَّ وَقع لي فِي كتاب الْمُوَالَاة لِلْحَافِظِ أبي الْعَبَّاس أَحْمد بن مُحَمَّد بن سعيد الْمَعْرُوف بِابْن

عقدَة فَوَجَدته رَوَاهُ عَن جمَاعَة آخَرين من الصَّحَابَة رضوَان الله عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ

فَمِنْهَا حَدِيث عَن الْعَبَّاس بن عبد الْمطلب أخرجه عَن حُسَيْن بن حسن الْأَشْقَر عَن مَنْصُور بن أبي الْأسود عَن الْأَجْلَح عَن أبي الضَّحَّاك عَن الْعَبَّاس بن عبد الْمطلب من كنت مَوْلَاهُ ) إِلَى آخِره

وَمِنْهَا حَدِيث ابْنه عبد الله بن الْعَبَّاس أخرجه من حَدِيث سُلَيْمَان بن قرم عَن عبد الرَّحْمَن بن مَيْمُون عَن أَبِيه عَن ابْن عَبَّاس قَالَ أَخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيد عَلّي يَوْم غَدِير خم وَقَالَ ( من كنت مَوْلَاهُ ) إِلَى آخِره

وَمِنْهَا حَدِيث الْحسن بن عَلّي أخرجه عَن لبيب بن عبد الرَّحْمَن الشاكري سَمِعت الْحسن بن الْحسن أَخا عبد الله بن الْحسن يذكر عَن أَبِيه عَن جده بلَفْظ ابْن عَبَّاس سَوَاء

وَمِنْهَا حَدِيث الْحُسَيْن بن عَلّي أخرجه عَن سعيد بن عُثْمَان وَأبي جَعْفَر مُحَمَّد ابْن عقبَة الشَّيْبَانِيّ قَالَا حَدثنَا مُحَمَّد بن الْحُسَيْن بن عَلّي بن الْحُسَيْن بن عَلّي بن أبي طَالب حَدثنَا أبي عَن أَبِيه عَن جده مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث عبد الله بن جَعْفَر بن أبي طَالب حَدثنَا يحيى بن زَكَرِيَّا بن شَيبَان حَدثنَا عبد الله عَن إِبْرَاهِيم الْغِفَارِيّ حَدثنِي حسن الْحذاء حَدثنِي إِسْمَاعِيل بن عبد الله بن جَعْفَر عَن أَبِيه قَالَ خطب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم غَدِير خم فَقَالَ ( من كنت مَوْلَاهُ ) إِلَى آخِره

وَمِنْهَا حَدِيث ابْن عمر أخرجه من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن نشيط عَن جميل ابْن عمَارَة الْوَالِبِي

عَن سَالم بن عبد الله بن عمر سَمِعت أبي يَقُول سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول . . . فَذكر بِنَحْوِهِ

(159/431)

---

وَمِنْهَا حَدِيث سَمُرَة بن جُنْدُب حَدثنَا الْحسن بن عَلّي الْأَشْعَرِيّ اللؤْلُؤِي حَدثنِي عتاب بن كَلوب أَبُو الْمثنى من كِتَابه حَدثنَا مطرف بن سَمُرَة بن جُنْدُب عَن أَبِيه مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث سَلمَة بن الْأَكْوَع أخرجه من حَدِيث الْفضل بن سُفْيَان بن زِيَاد اليمامي حَدثنَا أَيُّوب بن عُيَيْنَة حَدثنِي إِيَاس بن سَلمَة بن الْأَكْوَع عَن أَبِيه مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث زيد بن ثَابت الْأنْصَارِيّ حَدِيث زيد بن ثَابت رَوَاهُ أَبُو يعلي فِي مُسْنده من حَدِيث حسان بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد بن سَلمَة بن كهيل عَن أَبِيه عَن أبي عبد الله الشَّيْبَانِيّ عَن زيد بن ثَابت مَرْفُوعا نَحوه

حَدثنَا الْحُسَيْن بن الْقَاسِم البَجلِيّ حَدثنَا جَعْفَر بن مُحَمَّد الرَّسْعَنِي حَدثنَا مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْأَسدي حَدثنَا كَامِل بن الْعَلَاء عَن أبي صَالح عَن زيد بن ثَابت مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث حَدثنَا مُحَمَّد بن فضل الْأَشْعَرِيّ حَدثنَا رَجَاء بن عبد الله الْبَزَّار حَدثنَا مُحَمَّد بن كثير عَن فطر وَأبي الْجَارُود عَن أبي الطُّفَيْل قَالَ قَالَ عَلّي أنْشد الله من شهد يَوْم

غَدِير خم فَقَامَ سَبْعَة عشر رجلا فشهدوا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (من كنت مَوْلَاهُ) إِلَى آخِره فيهم عدي بن حَاتِم الطَّائِي وَسَهل ابْن سعد وَأَبُو لَيْلَى وَأَبُو قدامَة الْأَنْصَارِيُّونَ وَأَبُو الْهَيْثَم بن التيهان وَأَبُو شُرَيْح الْخُزَاعِيّ وَعقبَة بن عَامر الْجُهَنِيّ



---

وَمِنْهَا حَدِيث حَدثنَا الْمُنْذر بن مُحَمَّد حَدثنَا حُسَيْن بن مُحَمَّد بن عَلّي حَدثنَا عُمَيْر بن عمرَان حَدثنَا أَبُو مَرْيَم عَن الْمنْهَال عَن زر بن حُبَيْش قَالَ شهد اثْنَا عشر رجلا من أَصْحَاب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنهم سَمِعُوهُ يَقُول يَوْم غَدِير خم (من كنت مَوْلَاهُ) الحَدِيث فيهم قيس بن ثَابت بن شماس وهَاشِم بن عتبَة بن أبي وَقاص الزُّهْرِيّ وحبيب بن بديل بن وَرْقَاء الْخُزَاعِيّ

وَمِنْهَا حَدِيث أخبرنَا يَعْقُوب بن يُوسُف بن زِيَاد الضَّبِّيّ حَدثنَا أَحْمد بن حَمَّاد حَدثنِي عبد الله بن الْحجَّاج عَن عبد الله بن شريك عَن حَبَّة العرني أَن قوما من الْأَنْصَار قَالُوا سمعنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول يَوْم غَدِير خم (من كنت مَوْلَاهُ) إِلَى آخِره فيهم جبلة بن عَمْرو وَسَهل بن حنيف وَعُثْمَان بن حنيف فِي جمَاعَة من الْأَنْصَار

وَمِنْهَا حَدِيث عمار بن يَاسر حَدثنَا الْحُسَيْن بن عبد الرَّحْمَن الْأَزْدِيّ حَدثنَا أبي حَدثنَا

عَلّي بن عَابس حَدثنِي عَمْرو بن عُمَيْر أَبُو الْخطاب الهجري حَدثنِي زيد بن وهب الْجُهَنِيّ سَمِعت أَبَا نوح الْحِمْيَرِي سَمِعت عمار بن يَاسر بِلَفْظ ابْن عَبَّاس

وَمِنْهَا حَدِيث أبي ذَر حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن الْحسن الْقطوَانِي حَدثنَا مُحَمَّد ابْن خلف النَّهْرِي حَدثنَا عَلّي بن الْحسن الْعَبْدي عَن سعد بن طريف عَن الْأَصْبَغ ابْن نباتة عَن أبي ذَر مَرْفُوعا

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد عَن الْأَصْبَغ بن نباتة عَن أبي عَمْرو بن عمر بن مُحصن الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا نَحوه

وَبِه أَيْضا عَن الْأَصْبَغ عَن أبي زَيْنَب بن عَوْف الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا نَحوه

وَبِه أَيْضا عَن الْأَصْبَغ عَن ثَابت بن وديعة الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا

(161/431)

---

وَبِه عَن الْأَصْبَغ عَن ثَابت بن عبد الله الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا نَحوه

وَبِه عَن الْأَصْبَغ عَن عبيد بن عَازِب الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا نَحوه

وَبِه عَن الْأَصْبَغ عَن أبي فضَالة الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا نَحوه

وَبِه عَن الْأَصْبَغ عَن عبد الرَّحْمَن بن زيد الْأنْصَارِيّ مَرْفُوعا نَحوه

ثمَّ رَوَاهُ بالسند الْمَذْكُور وَجمع فِيهِ الشّيعَة وَفِيه يَوْم غَدِير خم

وَمِنْهَا حَدِيث سلمَان الْفَارِسِي حَدثنَا أَحْمد بن يُوسُف بن يَعْقُوب الْجعْفِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن يزِيد النَّخعِيّ حَدثنِي حسن بن شَدَّاد الْجعْفِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن كثير عَن أبي حَمْزَة الثمالِي عَن أبي عقيل عَن سلمَان مَرْفُوعا

وَمِنْهَا حَدِيث يعلي بن مرّة وَخُزَيْمَة بن ثَابت وَأبي أَيُّوب الْأَنْصَارِيّ وَسَهل ابْن حنيف حَدثنَا عبد الله بن إِبْرَاهِيم بن قُتَيْبَة الْأَنْصَارِيّ حَدثنَا حسن بن زِيَاد بن عمر حَدثنَا عمر بن سعد الْبَصْرِيّ عَن عمر بن عبد الله بن يعلي بن مرّة عَن أَبِيه عَن جده يعلي بن مرّة سَمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول (من كنت مَوْلَاهُ فعلي مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَال من وَالَاهُ وَعَاد من عَادَاهُ) فَلَمَّا قدم عَليّ الْكُوفَة نشد النَّاس من سمع ذَلِك من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْشد بضعَة عشر رجلا فيهم خُزَيْمَة بن ثَابت ذُو الشَّهَادَتَيْنِ وَأَبُو أَيُّوب الْأَنْصَارِيّ وَسَهل بن حنيف وَنَاجِيَة بن عمر الْخُزَاعِيّ وَعَمْرو بن الْحمق الْخُزَاعِيّ وَيزِيد بن شرَاحِيل الْأَنْصَارِيّ وَيُقَال زيد وعامر بن لَيْلَى الْغِفَارِيّ

وَمِنْهَا حَدِيث جَابر بن عبد الله أخرجه من حَدِيث هَارُون بن الجهم بن يُونُس ابْن عبد الله بن أبي فَرْوَة عَن أبي جَعْفَر مُحَمَّد بن عَلّي عَن جَابر بن عبد الله أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رَجَعَ من حجَّة الْوَدَاع قَامَ فَخَطب النَّاس بِالْجُحْفَةِ ثمَّ أَخذ بيد عَلّي فَقَالَ من كنت مَوْلَاهُ ) إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُسْند الشاميين حَدثنَا مطلب بن شُعَيْب حَدثنَا عبد الله بن صَالح ثني ابْن لَهِيعَة عَن عبد الله بن هُبَيْرَة وَبكر بن سوَادَة عَن قبيصَة بن ذُؤَيْب وَأبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن عَن جَابر بن عبد الله وَفِيه قصَّة

وَمِنْهَا حَدِيث أبي رَافع أخرجه من حَدِيث مخول عَن عبد الرَّحْمَن بن الْأسود عَن مُحَمَّد بن عبيد الله عَن أَبِيه عَن جده عَن أبي رَافع مولى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْفُوعا

وَمِنْهَا حَدِيث زيد بن حَارِثَة الْأَنْصَارِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن الْحسن بن جَعْفَر الْخلال حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن سُلَيْمَان التَّيْمِيّ حَدثنَا يُونُس بن أَرقم عَن وهب بن عبد الله الْهنائي عَن أبي الطُّفَيْل عَن زيد بن حَارِثَة الْأَنْصَارِيّ قَالَ تنَاول رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَد عَلّي بن أبي طَالب وَقَالَ ( من كنت مَوْلَاهُ ) الحَدِيث

وَمِنْهَا حَدِيث مَالك بن الْحُوَيْرِث حَدثنَا عبد الله بن إِبْرَاهِيم بن قُتَيْبَة حَدثنَا حسن ابْن عَلّي الْحلْوانِي حَدثنَا عمر بن لأبان حَدثنَا مَالك بن الْحُسَيْن بن مَالك بن الْحُوَيْرِث عَن أَبِيه عَن جده مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث جَابر بن سَمُرَة السوَائِي حَدثنَا عَلّي بن الْحسن الْقَسْمَلِي حَدثنَا عبد الرَّحْمَن ابْن الهلقام حَدثنَا صبح الْمَحْمِلِيُّ عَن سماك بن حَرْب عَن جَابر بن سَمُرَة مَرْفُوعا نَحوه

(163/431)

---

وَمِنْهَا حَدِيث ضميرَة الْأَسْلَمِيّ أخرجه عَن إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الْأَسْلَمِيّ عَن حُسَيْن بن عبد الله بن ضميرَة عَن أَبِيه عَن جده مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث عبد الله بن أبي أَوْفَى أخرجه عَن الْحسن بن عمار عَن أَبِيه عَن عبد الله بن أَوْفَى مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث عبد الله بن بشر الْمَازِني أخرجه عَن خَالِد الْعَبْدي وَسَعِيد بن عَنْبَسَة الْقطَّان كِلَاهُمَا عَن عبد الله بن بشر السّلمِيّ عَن عبد الله بن بشر الْمَازِني مَرْفُوعا

وَمِنْهَا حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن يعمر الديلِي أخرجه عَن حُصَيْن بن مُخَارق عَن مُحَمَّد بن خَالِد الضَّبِّيّ عَن بكير بن عَطاء عَن عبد الرَّحْمَن بن يعمر الديلِي مَرْفُوعا نَحوه نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث أبي الطُّفَيْل حَدثنَا عبد الرَّحْمَن بن يُوسُف بن خرَاش حَدثنَا حُسَيْن ابْن

يزِيد الصدائي حَدثنَا أبي عَن فطر عَن أبي إِسْحَاق عَن مُحَمَّد بن سبع عَن أبي الطُّفَيْل عَامر بن وَاثِلَة الْكِنَانِي مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث سعد بن جُنَادَة الْعَوفِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل بن إِسْحَاق الرَّاشِدِي حَدثنَا حسن بن صَالح بن أبي الدَّوَاهِي حَدثنَا مُحَمَّد بن خُلَيْد الْعَوفِيّ حَدثنَا مُحَمَّد بن الْحسن بن عَطِيَّة الْعَوفِيّ عَن أَبِيه الْحسن بن عَطِيَّة أَنه سمع جده سعد ابْن جُنَادَة يَقُول قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَمِنْهَا حَدِيث عَامر بن عُمَيْر حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن الْحسن الْقطوَانِي حَدثنَا الْمُنْذر ابْن جَيْفَر الْعَبْدي حَدثنَا مُوسَى بن أُكْتُل النميري عَن عَمه عَامر بن عُمَيْر النميري العامري مَرْفُوعا نَحوه

(164/431)

---

وَمِنْهَا حَدِيث حَبَّة بن جُوَيْن العرني أخرجه عَن بصر بن مُزَاحم حَدثنَا عبد الله ابْن مُسلم الْملَائي عَن أَبِيه عَن حَبَّة بن جُوَيْن العرني مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث أبي أُمَامَة أخرجه عَن عبيد الله بن زحر عَن عَلّي بن يزِيد عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث عَامر بن لَيْلَى بن ضَمرَة حَدثنَا أَحْمد بن عمر بن كَبْشَة حَدثنَا الْحسن ابْن عَلّي الطَّائِي حَدثنِي مُحَمَّد بن زِيَاد عَن عبد الله بن سِنَان عَن أبي الطُّفَيْل عَامر ابْن وَاثِلَة عَن عَامر بن لَيْلَى بن ضَمرَة مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث وَحشِي بن حَرْب حَدثنَا سعيد بن مُحَمَّد بن سعيد الشوسي حَدثنَا عَلّي بن بَحر بن الْبري الْقطَّان حَدثنَا الْوَلِيد بن مُسلم الدِّمَشْقِي حَدثنَا وَحشِي بن حَرْب عَن أَبِيه عَن جده وَحشِي بن حَرْب مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث عَائِشَة حَدثنَا يحيى بن زَكَرِيَّا بن شَيبَان حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن الحكم حَدثنَا أَبُو عبد الرَّحْمَن المَسْعُودِيّ عَن السّري بن إِسْمَاعِيل عَن الشّعبِيّ عَن عبد الرَّحْمَن ابْن مَسْعُود عَن عَائِشَة مَرْفُوعا نَحوه

وَمِنْهَا حَدِيث أم سَلمَة أخرجه عَن هَارُون بن خَارِجَة عَن فَاطِمَة بنت عَلّي عَن أم سَلمَة قَالَت أَخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بيد عَلّي يَوْم غَدِير خم فَقَالَ من كنت مَوْلَاهُ) إِلَى آخِره

قَالَ ابْن عبد الْهَادِي فِي كِتَابه الَّذِي صنفه فِي الرَّد عَلَى الْخَطِيب فِي الْبَسْمَلَة أَحْمد بن مُحَمَّد بن سعيد بن عقدَة الْحَافِظ بَاب الْأَسَانِيد الْمظْلمَة وَمجمع الْأَحَادِيث الْمَوْضُوعَة وَقَالَ ابْن عدي كَانَ مقدما فِي الشِّيعَة ذَا فضل وَحفظ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ كَانَ رَافِضِيًّا

682 - الحَدِيث الْعَاشِر

(165/431)

---

عَن عبد الله بن مَسْعُود قَرَأت عَلى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقلت أعوذ بِاللَّه السَّمِيع الْعَلِيم من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَقَالَ لي يَا بن أم عبد قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم هَكَذَا أَقْرَأَنِي جِبْرِيل عَن اللَّوْح الْمَحْفُوظ)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره مسلسلا قلت قَرَأت عَلى الشَّيْخ أبي الْفضل مُحَمَّد بن جَعْفَر الْخُزَاعِيّ فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنِّي قَرَأت عَلى أبي الْحُسَيْن عبد الرَّحْمَن ابْن مُحَمَّد بِالْبَصْرَةِ فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنِّي قَرَأت عَلى أبي مُحَمَّد عبد الله بن عجلَان يَقُول أعوذ بالسميع الْعَلِيم

(166/431)

---

قَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنِّي قَرَأت عَلى أبي عُثْمَان إِسْمَاعِيل ابْن إِبْرَاهِيم الْأَهْوَازِي فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم

فَإِنّي قَرَأت عَلَى مُحَمَّد بن عبد الله بن بسطَام قَالَ فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنّي قَرَأت عَلَى روح بن عبد الْمُؤمن فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنّي قَرَأت عَلَى سَلام أبي الْمُنْذر فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنّي قَرَأت عَلَى عَاصِم فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَإِنّي قَرَأت عَلَى زر بن حُبَيْش فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَأَنِّي قَرَأت عَلَى عبد الله بن مَسْعُود فَقلت أعوذ بالسميع الْعَلِيم فَقَالَ لي قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم فَأَنِّي قَرَأت عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقلت أعوذ بِالسَّمِيعِ الْعَلِيم فَقَالَ لي (يَا بن أم عبد قل أعوذ بِاللَّه من الشَّيْطَان الرَّجِيم هَكَذَا أَقْرَأَنِيه جِبْرِيل عَن الْقَلَم عَن اللَّوْح الْمَحْفُوظ)

انْتَهَى

وَعَن الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ وَمَتنه

683 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

رُوِيَ أَن نَاسا من أهل مَكَّة فتنُوا فَارْتَدُّوا عَن الْإِسْلَام بعد دُخُولهمْ فِيهِ وَكَانَ فيهم من أكره فَأَجْرَى كلمة الْكفْر عَلَى لِسَانه وَهُوَ مُعْتَقد للْإيمَان مِنْهُم عمار وَأَبَوَاهُ يَاسر وَسُمَيَّة وصهيب وبلال وخباب وَسَالم عذبُوا فَأَما سميَّة فربطت بَين بَعِيرَيْنِ ووجي فِي قبلهَا بِحَرْبَة وَقَالُوا إِنَّك أسلمت من أجل الرِّجَال فَقتلت وَقتل يَاسر وهما أول قتيلين فِي الْإِسْلَام وَأما عمار فَأَعْطَاهُمْ مَا أَرَادوا بِلِسَانِهِ مكْرها فَقيل يَا رَسُول الله إِن عمارا كفر فَقَالَ (كلا إِن عمارا ملئ إِيمَانًا

من قرنه إِلَى قدمه وَاخْتَلَطَ الْإِيمَان بلحمه وَدَمه) فَأَتَى عمار رَسُول الله وَهُوَ يبكي فَجعل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يمسح عَيْنَيْهِ وَيَقُول (مَالك إِن عَادوا لَك فعد لَهُم بِمَا قلت

)

قلت ذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره هَكَذَا بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور عَن ابْن عَبَّاس من غير سَنَد وَكَذَلِكَ الْبَغَوِيّ وَكَذَلِكَ الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

(168/431)

---

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي فَضَائِل بِلَال عَن الْحُسَيْن بن عَلّي الْجُعْفِيّ حَدثنَا زَائِدَة عَن عَاصِم عَن زر عَن عبد الله قَالَ أول من أظهر إِسْلَامه سَبْعَة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَأَبو بكر وعمار وَأَبوهُ ياسر وَأمه سميَّة وصهيب والمقداد فَأَما رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَمَنعه الله بِعَمِّهِ أبي طَالب وَأما أَبُو بكر فَمَنعه الله بقَوْمه وَأما سَائِرهمْ فَأَخذهُم الْمُشْركُونَ فألبسوهُمْ أدراع الْحَدِيد وَأَوْقَفُوهُمْ فِي الشَّمْس فَمَا من أحد إِلَّا وَقد أَتَاهُم مَا أَرَادوا غير بِلَال فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفسه فِي الله وَهَان على قومه فَأَعْطوهُ الْولدَان فَجعلُوا يطوفون بِهِ فِي شعاب مَكَّة وَجعل يَقُول أحد أحد

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة بِلَال أخبرنَا جرير بن عبد الحميد عَن مَنْصُور عَن مُجَاهِد قَالَ أول من أظهر الْإِسْلَام سَبْعَة . . . فَذكره إِلَى آخِره وَزَاد وَجَاء أَبُو جهل فَجعل يشْتم سميَّة وَيَرْفث ثمَّ طعنها فَقَتلهَا فَهِيَ أول شَهِيد فِي الْإِسْلَام

انْتَهَى

وَقَالَ فِي مَوضِع آخر أخبرنَا إِسْمَاعِيل بن عمر أَبُو الْمُنْذر حَدثنَا سُفْيَان الثَّوْريّ عَن مَنْصُور عَن مُجَاهِد قَالَ أول شَهِيد اسْتشْهد فِي الْإِسْلَام سميَّة أم عمار أَتَاهَا أَبُو جهل لَعنه الله فطعنها بحربة فِي قبلهَا حَتَّى قَتلهَا

انْتَهَى

684 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

رُوِيَ أَن مُسَيْلمَة أَخذ رجلَيْنِ فَقَالَ لأَحدهمَا مَا تَقول فِي مُحَمَّد قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ فَمَا تَقول فِي قَالَ أَنْت أَيْضا فخلاه وَقَالَ للْآخر مَا تَقول فِي مُحَمَّد قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ فَمَا تَقول فِي قَالَ أَنا أَصمّ فَأَعَادَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا فَأَعَادَ جَوَابه فَقتله فَبلغ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (أما الأول فقد أَخذ برخصة الله وَأما الثَّانِي فقد صدع بِالْحَقِّ فهنيئا لَهُ)

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْجِهَاد بتغيير يسير فَقَالَ حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن علية عَن يُونُس عَن الْحسن أَن عيونا لمُسَيْلمَة أخذُوا رجلَيْنِ من الْمُسلمين فَأتوهُ بهما فَقَالَ لأَحَدهمَا أَتَشهد أَن مُحَمَّدًا رَسُول الله قَالَ نعم قَالَ أَتَشهد أَنِّي رَسُول الله فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ فَقَالَ إِنِّي أَصمّ فَأَعَادَهُ عَلَيْهِ فَقَالَ مثله فَأمر بِهِ فَقتل وَقَالَ للْآخر أَتَشهد أَن مُحَمَّدًا رَسُول الله قَالَ نعم قَالَ أَتَشهد أَنِّي رَسُول الله قَالَ نعم فَأرْسلهُ فَأتى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ يَا رَسُول الله هَلَكت قَالَ (وَمَا شَأْنك) فَأخْبرهُ بقصته وقصة صَاحبه فَقَالَ (أما صَاحبك فَمضى على إيمَانه وَأما أَنْت فَأخذت بالرُّخْصَة)

انْتهى

وَهُوَ مُرْسل وَبَوَّبَ لَهُ

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا معمر قَالَ سَمِعت أَن مُسَيْلمَة الْكذَّاب أحد رجلَيْنِ . . . فَذكر الْقِصَّة بِنَحْوِهِ وَهَذَا معضل

وَرَوَى الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الزَّكَاة فِي بَاب مُسَيْلمَة حَدثنِي يَعْقُوب بن مُحَمَّد ابْن أبي صعصعة عَن مُوسَى بن ضَمرَة بن سعيد عَن أَبِيه عَن عباد بن تَمِيم



---

قَالَ لما توفّي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقبل عَمْرو بن الْعَاصِ من عمان فَسمع بِهِ مُسَيْلمَة الْكذَّاب فَاعْترضَ لعَمْرو بن الْعَاصِ وَكَانَ عمي حبيب بن زيد بن عَاصِم وَعبد الله ابْن وهب الْأَسْلَمِيّ فِي السَّاقَة فَأَصَابَهُمَا فَقَالَ مُسَيْلمَة لِلْأَسْلَمِيِّ أَتشهد أَنِّي رَسُول الله قَالَ نعم فَتَركه مَحْبُوسًا فِي حَدِيد وَأما عمي فَقَالَ لَهُ أَتشهد أَنِّي رَسُول الله قَالَ لَا أسمع فَقَالَ أَتشهد أَن مُحَمَّدًا رَسُول الله قَالَ نعم وَجعل كلما قَالَ أَتشهد أَنِّي رَسُول الله قَالَ لَا أسمع وَإِذا قَالَ أَتشهد أَن مُحَمَّدًا رَسُول الله قَالَ نعم فَأمر بِهِ فَقطع عضوا عضوا حَتَّى قطع يَدَيْهِ من الْمَنْكِبَيْنِ وَرجلَيْهِ من الْوَرِكَيْنِ وَأحرقهُ بالنَّار

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة عَمْرو بن الْعَاصِ أَنا مُحَمَّد بن عمر الْوَاقِدِيّ

حَدثنِي الضَّحَّاك أَبُو عُثْمَان قَالَ سَمِعت الزُّهْرِيّ يَقُول لما أقبل عَمْرو ابْن الْعَاصِ من عمان . . . إِلَى آخر لفظ الْوَاقِدِيّ

685 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

فِي الحَدِيث نَادَى مُنَاد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَوْسِمِ بمنى إِنَّهَا أَيَّام طعم وَنعم فَلَا تَصُومُوا

قلت غَرِيب جدا

686 - قَوْله رَوَى الشّعبِيّ عَن فَرْوَة بن نَوْفَل الْأَشْجَعِيّ عَن ابْن مَسْعُود أَنه قَالَ إِن معَاذًا كَانَ أمة قَانِتًا لله فَقلت غلطت فَإِنَّمَا هُوَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ الْأمة الَّذِي يعلم الْخَيْر وَالْقَانِت الْمُطِيع لله وَرَسُوله وَكَانَ معَاذ كَذَلِك



---

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أخبرنَا الثَّوْرِيّ عَن فراس عَن الشّعبِيّ عَن مَسْرُوق قَالَ قَرَأت عِنْد عبد الله بن مَسْعُود إِن إِبْرَاهِيم كَانَ أمة قَانِتًا لله فَقَالَ ابْن مَسْعُود إِن معَاذًا كَانَ أمة قَانِتًا قَالَ فَأَعَادُوا عَلَيْهِ فَأَعَادَ ثمَّ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْأمة الَّذِي يعلم النَّاس الْخَيْر وَالْقَانِت الَّذِي يُطِيع الله وَرَسُوله

انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ فِي كتاب الْفَضَائِل من طَرِيق أَحْمد بن حَنْبَل حَدثنَا مُحَمَّد بن جَعْفَر حَدثنَا شُعْبَة سَمِعت فِرَاسًا يحدث عَن الشّعبِيّ عَن مَسْرُوق عَن عبد الله قَالَ إِن معَاذًا كَانَ أمة قَانِتًا لله فَقَالَ رجل من أَشْجَع يُقَال لَهُ فَرْوَة بن نَوْفَل إِنَّمَا ذَاك إِبْرَاهِيم فَقَالَ عبد الله إِنَّا كُنَّا نُشبههُ بإبراهيم ثمَّ قَالَ عبد الله الْأمة معلم الْخَيْر وَالْقَانِت الْمُطِيع لله وَلِرَسُولِهِ

انْتَهَى

وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو نعيم فِي الْحِلْيَة وَالْحَاكِم أَيْضا من حَدِيث إِسْمَاعِيل ابْن علية عَن مَنْصُور بن عبد الرَّحْمَن عَن الشّعبِيّ حَدثنِي فَرْوَة بن نَوْفَل الْأَشْجَعِيّ قَالَ قَالَ ابْن مَسْعُود إِن معَاذ بن جبل كَانَ أمة قَانِتًا لله حَنِيفا فَقيل إِن إِبْرَاهِيم كَانَ أمة قَانِتًا لله حَنِيفا فَقَالَ الْأمة الَّذِي يعلم النَّاس الْخَيْر وَالْقَانِت الْمُطِيع لله وَالرَّسُول وَكَانَ معَاذ بن جبل يعلم النَّاس الْخَيْر وَكَانَ مُطيعًا لله وَرَسُوله

انْتَهَى

وَسكت عَنهُ الْحَاكِم

ورَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْمدْخل من حَدِيث سُفْيَان عَن زَكَرِيَّا عَن الشّعبِيّ بِهِ بلَفْظ عبد الرَّزَّاق

(172/431)

---

687 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن عمر رَضِي الله عَنهُ أَنه قَالَ حِين قيل أَلا تستخلف لَو

كَانَ أَبُو عُبَيْدَة حَيا لاستخلفته وَلَو كَانَ معَاذ حَيا لاستخلفته وَلَو كَانَ سَالم حَيا لاستخلفته

فَإِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (أَبُو عُبَيْدَة أَمِين هَذِه الْأمة ومعاذ أمة

لله قَانِت لَيْسَ بَينه وَبَين الله يَوْم الْقِيَامَة إِلَّا الْمُرْسَلُونَ وَسَالم شَدِيد الْحبّ لله لَو كَانَ لَا يخَاف

الله لم يَعْصِهِ)

688 - الحَدِيث الْخَامِس عشر

رُوِيَ أَن الْمُشْركين مثلُوا بِالْمُسْلِمين يَوْم أحد بقرُوا بطونهم وَقَطعُوا مذاكيرهم مَا تركُوا أحدا

غير مَمْثُول بِهِ إِلَّا حَنْظَلَة بن الراهب فَوقف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى عَمه

حَمْزَة وَقد مثل بِهِ فَقَالَ (وَالَّذِي أَحْلف بِهِ لَئِن أظفرني الله بهم لأُمَثّلن بسبعين مَكَانك)

فَنزلت يَعْنِي قَوْله تَعَالَى وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمثل مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ الْآيَة فَكفر عَن يَمِينه وَكف

عمّا أَرَادَ

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَذكره الثَّعْلَبِيّ هَكَذَا من غير سَنَد

(173/431)

---

وَحَدِيث حَمْزَة رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي سنَنه فِي كتاب السّير من حَدِيث إِسْمَاعِيل ابْن عَيَّاش عَن عبد الْملك بن أبي غنية أَو غَيره عَن الحكم بن عتيبة عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما انْصَرف الْمُشْركُونَ عَن قَتْلَى أحد فَرَأى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَمّه حَمْزَة منْظرًا سَاءَهُ قد شقّ بَطْنه وَاصْطلمَ أَنفه وجدعت أذنَاهُ فَقَالَ لَوْلَا أَن يحزن النَّاس أَو يكون سنة بعدِي لتركته حَتَّى يَبْعَثهُ الله من بطُون الطير وَالسِّبَاع لأُمَثّلَن مَكَانَهُ بسبعين رجلا ) ثمَّ دَعَا بِبُرْدَةٍ فغطّى بهَا وَجهه فَخرجت رجْلَاهُ فغَطَّى وَجهه وَجعل عَلَى رجلَيْهِ شَيْئا من الْإِذْخر ثمَّ قدمه فكبر عَلَيْهِ عشرا وَجعل يجاء بِالرجلِ فَيُوضَع وَحَمْزَة مَكَانَهُ حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ سبعين صَلَاة وَكَانَ الْقَتْلَى سبعين فَلَمَّا دفنُوا وَفرغ مِنْهُم نزلت هَذِه الْآيَة ادْع إِلَى سَبِيل رَبك بالحكمة

وَالْمَوْعِظَة الْحَسَنَة ) الْآيَة فَصَبر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلم يمثل بِأحد

انْتَهَى

ثمَّ قَالَ لم يروه غير إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش وَهُوَ مُضْطَرب الحَدِيث عَن غير الشاميين

انْتَهَى

(174/431)

---

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث صَالح المري عَن سُلَيْمَان التَّيْمِيّ عَن أبي عُثْمَان النَّهْدِيّ عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر يَوْم أحد إِلَى حَمْزَة وَقد قتل وَمثل بِهِ فَرَأى منْظرًا لم ير قطّ أوجع لِقَلْبِهِ مِنْهُ فَقَالَ (رَحِمك الله قد كنت وصُولًا للرحم فعولًا لِلْخَيْرَاتِ) ثمَّ حلف وَهُوَ وَاقِف مَكَانَهُ (وَالله لَأُمَثِّلَن بسبعين مِنْهُم مَكَانك) فَنزل الْقُرْآن وَهُوَ فِي مَكَانَهُ لم يبرح وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمثل مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ الْآيَة فَكفر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأمْسك عَمَّا أَرَادَ

انْتَهَى

689 - الحَدِيث السَّادِس عشر قَالَ الْمُصَنّف وَقد وَردت الْأَخْبَار بالنَّهْي عَن الْمثلَة

قلت رَوَاهُ جمَاعَة من الصَّحَابَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُسْتَوْفِي فِي أَحَادِيث الْهِدَايَة

690 - الحَدِيث السَّابِع عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ ( من قَرَأَ سُورَة النَّحْل لم يحاسبه الله بِمَا أنعم عَلَيْهِ فِي دَار الدُّنْيَا وَإِن مَات فِي يَوْم تلاهَا أَو لَيْلَة كَانَ لَهُ من الْأجر كَالَّذي مَات وَأحسن الْوَصِيَّة )

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن اسْلَمْ عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . .

فَذكره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 225 . 251 ﴾

(175/431)

---

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة النحل

قوله تعالى : ﴿وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ﴾ ، الآية/ 5 .

قال ابن عباس : الدفء اللباس .

وقال الحسن : الدفء ما استدفئ به من أصوافها ، وأوبارها وأشعارها .

واستدل به قوم على جواز الانتفاع بها في حالة حياة الحيوان وموته .

وليس ذلك بصحيح ، فإنه تعالى قال : ﴿لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ ، وَمِنْها تَأْكُلُونَ﴾ .

فبين أن منها ما أكلنا «1» ، فدل ذلك على إباحة هذه الثلاثة بشرط الزكاة «2» .

ثم بين تعالى بقوله : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً﴾ ، الآية/ 8 ، عظيم منة علينا .

---

(1) في نسخة : ماأكلنا .

(2) أي الذبح وذكر أسم الله عليها .



---

وذكر ذاكرون من أصحاب أبي حنيفة ، أن في الآية دليل على تحريم لحومها ، فيقولون :

في الأنعام ذكر اللّه تعالى في الكتاب ، أنها للأكل ، وفي البغال والحمير أنها للركوب والزينة ،

وذكروا في تحقيق ذلك أن اللّه تعالى ذكر في الأنعام منافع الركوب ، وحمل الأثقال إلى البلاد ،

وذكر الجمال بها حين تريحون وحين تسرحون ، فنبه على المنافع الأصلية ، والنادرة ، كالأكل والركوب على الأنعام ، فلو كانت الخيل مأكولة لذكره .

ويجاب عنه ، بأن اللّه تعالى لم يذكر ذلك ، لأنه لا يعد للأكل عرفا ، وإنما يؤكل إذا أصابته زمانه ، ونقصت قيمته ، فلم يذكر الأكل بما فيه من نقصان وخسران . بخلاف الأنعام التي منها الأكل ، وأن حمل الأثقال عليها هو المقصود .

قوله تعالى : (وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ) ، الآية/ 14 .

يحتج به أبو يوسف «1» ومحمد والشافعي ، فيمن حلف لا يلبس حليا فلبس لؤلؤا ، أنه يحنث لتسمية اللّه تعالى إياه حليا «2» .

وأبو حنيفة لا يرى ذلك ، لأن الحلي إذا أطلق لا يفهم منه اللؤلؤ ، وذلك مكابرة منه .

قوله تعالى : (وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ) ، الآية/ 67 .

يدل على أن ذلك من الآيات التي يجب الإعتبار بها ، لأنه عطف على ما تقدم .

---

(1) من أصحاب الامام أبي حنيفة رضي اللّه عنهم أجمعين

(2) انظر السيوطي في الإكليل .

وفيه بيان عظيم نعم اللّه تعالى لهذين الجنسين ، والأمر ظاهر في مزيتهما ، لكثرة وجوه الانتفاع بهما ، بخلاف سائر الثمرات ، فلذلك خصهما بالذكر .

فأمّا السكر ففيه أقوال :

قال الحسن : هو المسكر من الشراب .

وقال الأصم : أن السّكر ، كل ما حرمه اللّه تعالى من ثمرهما ، والرزق الحسن ما أحله اللّه .

وقال الحسن : هو الشراب المستلذ وإن لم يسكر ، والرزق الحسن :

الرطب والعنب وما يتفرع عنهما .

والأقرب إلى الظاهر ، هو ما يتخذ من الرطب والعنب ، وما يتخذ من التين غيره ، ويدخل فيما يتخذ منها السكر ، وهو الشراب الذي يسكر ، لأن ذلك هو مقتضى الآية ، ويدخل في قوله رزقا حسنا ، ما يتخذ منهما من خل وزبيب وغيره ، مما يؤكل في الطعام الطيب وكل ذلك نعمة منه .

والأقرب أن تحريم الخمر بعد ذلك .

ووجب الاعتبار بثمرات النخيل والأعناب ، فأظهر ما ذكره في اللبن في قوله : (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً) «1» ، لأن ظهور الرطب والعنب من ذلك الرطب اليابس على اختلاف طعومهما ، وذلك من أدل الدلائل على توحيد اللّه تعالى ، ولذلك قال : (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) «2» ، الآية/ 6 .

---

(1) سورة النحل آية 66 .

(2) انظر محاسن التأويل .

(178/431)

---

قوله تعالى : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) الآية/ 75 .

ذكر إسماعيل بن اسحق ، أن المراد به عبد نفسه ، وليس المراد عبدا للعباد ، ويجوز أن يكون عبد اللّه .

وهذا بعيد ، والظاهر أنه أي عبد كان .

واحتج به قوم في أنه لا يملك بالتمليك ، فإنه لو ملك لقدر على شيء ، وقد قال تعالى : (لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ) .

ويمكن أن يجاب عنه ، أن المراد به أنه إذا تصرف لا يمكنه أن يتصرف إلا بإذن غيره ، كما يقال ذلك فيمن لا يملك أصلا ، وإلا فهذا اللفظ لا يدل على نفي ملك الطلاق ، ونفي ملك النكاح ، فهذا ما يدل عليه الظاهر دون ما سواه ، ولذلك عقبه بقوله : (وَمَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ) ، فأبان بذلك أن نقيض هذا المعنى في العبد ، عدم استقلاله بالإنفاق سرا وجهرا .

وقال الأصم : المراد به ، المملوك الذي ربما يكون أشد من مولاه «1» أسرا وأنضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ، فقال اللّه تعالى ضربا للمثل : فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم ، فكيف جعلتم أحجارا أمواتا شركاء للّه تعالى في خلقه وعبادته ، وهي لا تسمع ولا تعقل ؟

وهذا القول أولى بالظاهر ، لأن العبد المملوك لا يكون جمادا ، ولا يقال في الجماد لا يقدر على شيء ، وهو بالصفة التي معها لا يجوز أن يقدر ، فار حاجة والحالة هذه إلى صرفه عن ظاهره ، فبين تعالى أن هذا العبد إذا لم يساوي من رزقناه رزقا حسنا ، فهو ينفق منه سرا وجهرا مع اشتراكهما ________________

(1) انظر تفسير الدر المنثور للسيوطي .



---

في الحيوانية والقدرة والآلة ، فكيف يجوز التسوية بين الأصنام التي لا يتأتى منها ضرر ولا نفع ، وبين مالك الأمر والخلق .

وإسماعيل بن إسحق روى عن ابن عباس ، أن الآية واردة في رجل من قريش وعبده أسلما ، وإنه كان مولى لعثمان يكفله وينفق عليه ، ولذلك ذكر في الأبكم أنه لا يقدر على شيء

كما ذكره في العبد ، ثم لا يدل ذلك على أنه لا يملك «1» .

قوله تعالى : {فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ} ، الآية/ 98 .

وقد روى جبير بن مطعم عن أبيه ، قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين افتتح الصلاة قال :

«اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفثه ونفخه» «2» .

وروى أبو سعيد الخدري أن رسول اللّه كان يتعوذ في صلاته قبل القراءة .

وقال مالك : لا يتعوذ في المكتوبة قبل القراءة ، ويتعوذ في قيام رمضان إذا قرأ .

ونقل عن بعض السلف ، التعوذ بعد القراءة مطلقا ، احتجاجا بقوله تعالى : {فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ} .

ولا شك في أن ظاهر ذلك ، يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة كقوله تعالى : {فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً} «3» ،

---

(1) انظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري .

(2) أخرجه ابن أبي شيبة ، والبيهقي في سننه ، عن جبير بن مطعم . . الحديث

(3) سورة النساء آية 103 .

إلا أن غيره محتمل مثل قوله : (وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)

«1» .

وقوله : (وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ) «2» .

ليس المراد به أن يسألا من وراء حجاب بعد سؤال متقدم ، ومثله قول القائل :

فإذا قلت فأصدق وإذا أحرمت فاغتسل .

يعني فاغتسل قبل الإحرام .

والمعنى في جميع ذلك : إذا أردت ذلك ، كذلك ، والاستعاذة قبل القراءة لنفي وساوس الشيطان لعنه اللّه قبل القراءة .

قال اللّه تعالى : (وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ)

«3» .

قوله تعالى : (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ) ، الآية/ 106 .

وذلك يدل على أن حكم الردة لا يلزمه ، غير أنه إن أمكنه أن يوري فيجب عليه أن يفعل وإلا كفر ، ولو صبر حتى قتل شهيدا كان أعظم لأجره ، وذلك يدل على أنه عند الإكراه قبيح أيضا ، غير أن المشرع غفر له لما يدفع به عن نفسه من الضرر ، ولو لم يكن قبيحا في نفسه ، لوجب عليه أن يأتي به .

واستدل به أصحاب الشافعي على نفي وقوع طلاق المكره وعتاقه ،

---

(1) سورة الأنعام آية 152

(2) سورة الأحزاب آية 53 . [ . . . . . ]

(3) سورة الحج آية 52 .

(181/431)

---

وكل قول حمل عليه بباطل ، نظرا لما فيه من حفظ حقه عليه ، كما امتنع الحكم بنفوذ ردته حفظا على دينه ، وإذا أكره على الزنا فلا يباح له الزنا ، ولا يباح له القتل بالإكراه ، فلولا الرخصة أمكن في الردة مثله ، فكأن الذي يتلفظ بكلمة الردة مراده دفع الضرر ، فليس يطلق على ما يأتي به الكفر ، وما أراد الكفر لمعناه ، وإنما أراد به دفع الضرر «1» .

قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً) ، الآية/ 123 .

إيجاب إتباع ملته ، وقد بينا ذلك في أصول الفقه «2» .

قوله تعالى : (وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ) ، الآية/ 126 .

وذلك يدل على المماثلة في القصاص ، وعلى وجوب المثل في المثليات ، والقيم العادية في المقومات ، وقد وردت الآية في الكفار يوم أحد ، حيث مثلوا ببعض القتلى ، كحمزة بن

عبد المطلب وغيره ، فأراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يمثل بسبعين من المشركين بدله ، فنزل قوله تعالى :

(وَإِنْ عاقَبْتُمْ) الآية ، وأبان أن الصبر أولى ، ودل به على أن للولي الحق على غيره ، وهو أن يعفو «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 241 . 248 ﴾

---

(1) انظر تفسير القاسمي .

(2) انظر تفسير القاسمي .

(3) انظر ابن عربي .

*(182/431)*

---

وقال العلامة القنوجى :

سورة النحل

[وآياتها مائة وثمان وعشرون ]

هي مكيّة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وروي عن ابن عباس وأبي الزبير : أنها نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن

بين مكة والمدينة في منصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم من أحد «1» .

وتسمى هذه السورة بسورة النعم ، بسبب ما عدد اللّه فيها .

[الآية الأولى]

وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) .

وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً : هو ما يسكر من الخمر .

وَرِزْقاً حَسَناً : هو جميع ما يؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب والخل ، وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر .

وقيل : إن السّكر : الخل بلغة الحبشة .

والرزق الحسن : الطعام من الشجرتين .

وقيل : السّكر العصير الحلو الحلال . وسمي سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي ، فإذا بلغ الإسكار حرم . والقول الأول أولى ، وعليه الجمهور .

وقد صرّح أهل اللغة بأن السّكر اسم للخمر ولم يخالف في ذلك إلا أبو عبيدة فإنه قال : السّكر الطعم . ومما يدل على ما قاله الجمهور قول الشاعر :

---

(1) انظر : الطبري (14/ 52) ، زاد المسير (4/ 424) ، والقرطبي (10/ 65) .

بئس [الصّحاة] «1» وبئس الشّرب شربهم إذا جرى [فيهم المزّاء] «2» والسّكر

ومما يدل على ما قاله أبو عبيدة ما أنشده :

جعلت عيب الأكرمين سكرا

أي جعلت ذمهم طعما .

ورجح هذا ابن جرير فقال «3» : إن السّكر ما يطعم من الطعام ، ويحب شربه من ثمار النخيل والأعناب ، وهو الرزق الحسن ، واللفظ مختلف والمعنى واحد ، مثل :

ّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

[يوسف : 86] .

قال الزجاج : قول أبي عبيدة هذا لا يعرف ، وأهل التفسير على خلافه ، ولا حجة له في البيت الذي أنشده ، لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس .

وقد حمل السّكر جماعة من الحنفية على ما يسكر من الأنبذة وعلى ما ذهب ثلثاه بالطبخ . قالوا : وإنما يمتن اللّه على عباده بما أحله لهم لا بما حرمه عليهم ، وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة المتواترة على فرض تأخره عن آية تحريم الخمر «4» .

---

(1) صحّفت في «المطبوعة» إلى (الصحاب) وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه كما في «القرطبي» (10/ 128) .

(2) حرّفت إلى (منهم الهذر) وهو خطأ ، والتصوير من القرطبي (10/ 128) .

(3) انظره في تفسيره (14/ 87 ، 89) .

(4) فبالجملة : هذه الآية نسختها آية المائدة فَاجْتَنِبُوهُ [آية : 9] وهذا على الراجح .

وعقّب القاضي ابن العربي بقوله : هذا بناء على أن السكر الخمر وقد اختلف العلماء في تأويله على خمسة أقوال :

الأول : أن معناه تتخذون من ما حرّم اللّه قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : أنه الخلّ قاله الحسن أيضا .

الثالث : أنه كل ما يتطعم منه .

الرابع : أنه خمور الأعاجم .

الخامس : أنه ما يسدّ الجوع .

وأما الرزق الحسن ففيه ثلاثة أقوال :

الأول : أنه ما أحل اللّه .

الثاني : الأول بعينه – قاله ابن عباس والحسن وغيرهما .

الثالث : أنه النبيذ الحلو – قاله قتادة .

فإذا لم يقل إن السكر الخمر لم يتصور في الآية نسخ ، وإذا قلنا أن المراد به الخمر وتقدير : تتخذون منه ما حرم الله ، فيكون معناه التوبيخ تقديره : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب [ . . . . . ]

(184/431)

---

[الآية الثانية]

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ : وهي أيمان البيعة .

قال الواحدي : قال المفسرون : وهذا في نهي الذين بايعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم عن نقض العهد على الإسلام ونصرة الدين ، واستدلوا على هذا التخصيص بما في قوله :

فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا : من المبالغة ، وبما في قوله :

وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) لأنهم إذا نقضوا العهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم صدوا غيرهم عن الدخول في الإسلام ،

وعلى تسليم أن هذه الأيمان مع رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم، هي سبب نزول هذه الآية، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقال جماعة من المفسرين: إن هذا تكرير لما قبله لقصد التأكيد والتقرير، أعني قوله: وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها [النحل: 91] إلى قوله: تَتَّخِذُونَ أَيمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ [النحل: 92] الآية.

والمراد بالتوكيد التشديد والتغليظ والتوثيق، وليس المراد اختصاص النهي عن النقض بالإيمان المؤكدة، ولا بغيرها مما لا تأكيد فيه، فإن تحريم النقض يتناول الجميع، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في نقض ما لم يؤكد

---

فاتخذتم منه الخمر التي حرّم الله، وإذا قلنا: أن المنة وقعت بالخمر، فحينئذ يكون النسخ، ولا أقول به ولا أصوبه لقائله فإنه لو أراد الخمر لصرّح باسمها، وكان أولى من أن يقول ذلك بلفظ السكر المذموم، والمنّة لا تقع بمكروه، وما يذهب العقل لا يقع فيه مدح ولم يكن السكر محللا في ملة وسكت الله عنه مدة في صدر الإسلام لفساد جميعه ودعاء قليله إلى كثيرة فسكت عنه إلى أن رأوا فساده واستدعوا تحريمه، فجاء كما أرادوا مع هذا كله، فقد تهافتوا عليه تهافت الفراش وسقطوا فيه سقوط الذّباب اه.

وانظر فيما يتعلق بهذه الآية من أقوال أهل العلم والتفسير: «الناسخ والمنسوخ لابن العربي (2/ 280، 281)، والأحكام له (3/ 1141)، والنحاس (179)، وزاد المسير

(10/ 464) ، والمصفّى (208) ، والقرطبي (10/ 128) ، وابن البارزي (296) ، والبصائر (1/ 280) .

(185/431)

---

منها ، وهذا العموم مخصوص بما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه» «1» ، حتى بالغ في ذلك فقال : «و اللّه لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني» ، وهذه الألفاظ ثابتة في الصحيح وغيره.

ويخص أيضا من هذا العموم يمين اللغو لقوله تعالى : لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ [البقرة : 225] ويمكن أن يكون التقييد بالتوكيد هاهنا لإخراج أيمان اللغو ، وقد تقدم بسط الكلام على الإيمان في البقرة.

وقيل : توكيد اليمين هو حلف الإنسان على الشيء الواحد مرارا .

وحكى القرطبي «2» عن ابن عمر : أنّ التوكيد هو أن يحلف مرتين فإن حلف واحدة فلا كفارة عليه.

قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل .

وقيل : الدخل ما أدخل في الشيء على فساده .

وقال الزجاج : غشا .

[الآية الثالثة]

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) .

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ : الفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح .

وقيل : هذه الآية متصلة بقوله : وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ ، والتقدير فإذا أخذت في قراءته فَاسْتَعِذْ .

قال الزجاج وغيره من أئمة اللغة : معناه إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ وليس معناه استعذ بعد أن تقرأ القرآن . ومثله : إذا أكلت فقل : بسم اللّه .

قال الواحدي : وهذا إجماع الفقهاء أن الاستعاذة قبل القراءة إلا ما روي عن أبي هريرة وابن سيرين وداود ومالك وحمزة من القراء فإنهم قالوا : الاستعاذة بعد القراءة ،

---

(1) حديث صحيح : رواه البخاري (11/ 516 ، 517) ، ومسلم (11/ 114 ، 116) عن أبي هريرة وعبد الرحمن بن سمرة مرفوعا بنحوه .

(2) انظره في «تفسيره» (10/ 170) .

وقد ذهبوا إلى ظاهر الآية.

ومعنى فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ اسأله سبحانه أن يعيذك.

مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) : أي من وساوسه، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها للتنبيه على أنها كسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها لهم لأنه إذا وقع الأمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كانت عند إرادة غيرها أوفى، كذا قيل.

وكذا توجيه الخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم للإشعار بأن غيره أولى منه بفعل الاستعاذة، لأنه إذا أمر بها لدفع وساوس الشيطان - مع عصمته - فكيف بسائر أمته.

وقد ذهب الجمهور إلى أن الأمر في الآية للندب، وروي عن عطاء الوجوب أخذا بظاهر الأمر.

[الآية الرابعة]

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106).

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ: قال القرطبي «1»: أجمع أهل

العلم أن من أنكره على الكفر، حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه [إن] «2» كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر.

وحكي عن محمد بن الحسن أنه إذا أظهر الكفر كان مرتدا في الظاهر، وفيما بينه وبين اللّه على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلما.

وهذا القول مردود على قائله مدفوع بالكتاب والسنة.

وذهب الحسن البصري والأوزاعي والشافعي وسحنون إلى أن هذه الرخصة مثل

---

(1) انظره في «تفسيره» (10/ 182).

(2) ما بين [معقوفين] زيادة اقتضاها السياق.



---

أن يكره على السجود لغير اللّه. ويدفعه ظاهر الآية فإنها عامة في من أكره، من غير فرق بين القول والفعل، ولا دليل للقاصرين للآية على القول، وخصوص السبب لا اعتبار به مع عموم اللفظ كما تقرر في علم الأصول.

وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً: أي اختاره وطابت به نفسه.

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ: ليس بعد هذا الوعيد العظيم - وهو الجمع للمرتدين بين غضب

اللّه وعظم عذابه بقوله : وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106) وعيد «1» .

[الآية الخامسة]

وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (116) .

وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ : قال الكسائي والزجاج : (ما) هنا مصدرية ، وانتصاب الكذب بلا تقولوا ، أي لا تقولوا الكذب لأجل وصف ألسنتكم . ومعناه لا تحللوا ولا تحرموا لأجل قول تنطق به ألسنتكم من غير حجة .

ويجوز أن تكون (ما) موصولة والكذب منتصبا بتصف ، أي لا تقولوا للذي تصف

---

(1) تكلم ابن العربي على هذه الآية في «الأحكام» (3/ 1165 ، 1170) ما ملخصه : أنها نزلت في المرتدين ، واختلفوا في التهديد هل هو إكراه أم لا ؟ والصحيح أنه إكراه .

واختلفوا في الزنا ؟ والصحيح أنه يجوز له الإقدام عليه ولا حدّ عليه خلافا لابن الماجشون ، وأما الكفر باللّه فذلك جائز له بدون خلاف على شرط أن يلفظ بلسانه ، وقلبه منشرح بالإيمان ، بل قال المحققون من علمائنا : إنه إذا تلفّظ بالكفر أنه لا يجوز له أن يجري على لسانه إلا جريان المعاريض . مثاله : أن يقال له : اكفر باللّه ؟ فيقول : أنا كافر باللّه - يريد باللاهي ويحذف الياء .

والكفر وإن كان بالإكراه جائزا عند العلماء فإن من صبر على البلاء ولم يفتتن حتى قتل فإنه شهيد .

والمكره على القتل إذا قتل يقتل لأنه قتل من يكافئه ظلما استيفاء لنفسه فقتل كما لو قتله الجماعة .

وفي سبب نزول هذه الآية المكيّة ثلاث روايات : الأولى أنها نزلت في عمار بن ياسر وأمه سميّة حباب بن الإرث وسلمة بن هشام والوليد بن الوليد وعياش بن أبي ربيعة والمقداد بن الأسود وقوم أسلموا ففتنهم المشركون عن دينهم فثبت بعضهم على الإسلام وصبر بعضهم على البلاء ولم يصبر بعض فقتلت سمية وافتتن عمار في ظاهره دون باطنه وسأل النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فنزلت الآية . . . اه .



---

ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام ، فحذف لفظة فيه لكونه معلوما ، فيكون قوله : هذا حلال وهذا حرام بدل من الكذب .

ويجوز أن يكون في الكلام حذف بتقدير القول ، أي ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وقائله هذا حرام وهذا حلال .

ويجوز أن ينتصب الكذب أيضا بتصف وتكون ما مصدرية ، أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب .

واللام في قوله : لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ هي لام العاقبة لا لام العرض ، أي فيعقب ذلك افتراؤكم على اللّه الكذب بالتحليل والتحريم ، وإسناد ذلك إليه من غير أن يكون منه «1» .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل : وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ إلى آخر الآية ، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا «2» .

قال [الشوكاني في ] «3» «فتح القدير» «4» : قلت : صدق رحمه اللّه فإن هذه الآية تتناول بعموم لفظها فينا من أفتى بخلاف ما في كتاب اللّه أو سنة رسوله صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ، كما يقع كثيرا من المؤثرين للرأي المقدمين له على الرواية ، أو الجاهلين لعلم الكتاب والسنة كالمقلدة وإنهم لحقيقيون بأن يحال بينهم وبين فتواهم ويمنعوا من جهالاتهم ، فإنهم أفتوا بغير علم من اللّه ولا هدى ولا كتاب منير فضلوا وأضلوا فهم ومن يستفتيهم كما قال القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الجائر

وقال الطبراني : عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول : إن اللّه أمر كذا ونهى عن كذا ،

فيقول اللّه له : كذبت ! أو يقول : إن اللّه حرم كذا وأحل كذا ، فيقول اللّه له :

كذبت «5» ! انتهى .

---

(1) انظر : زاد المسير (4/ 502) ، القرطبي (10/ 196) ، البيان (2/ 86) .

(2) أورده السيوطي في «الدر» (5/ 175) وعزاه لابن أبي حاتم فقط .

(3) ما بين [] سقط من المطبوعة .

(4) انظره في «تفسيره» هذا (3/ 201) .

(5) ضعيف : رواه الطبراني في «الكبير» (8995) عن عطاء بن السائب ، عن غير واحد من أصحابه به .



---

وقال الحافظ ابن القيم رحمه اللّه في «إعلام الموقعين» «1» : لا يجوز للمفتي أن يشهد على اللّه ورسوله بأنه أحل كذا أو حرمه ، أو أوجبه أو كرهه إلا بما يعلم أن الأمر فيه كذلك مما نص اللّه ورسوله على إباحته أو تحريمه أو إيجابه أو كراهته .

وأما ما وجده في كتابه الذي تلقى عمن قلدوا فيه ، فليس له أن يشهد على اللّه ورسوله ويغير الناس بذلك ولا علم له بحكم اللّه ورسوله .

قال غير واحد من السلف : ليحذر أحدكم أن يقول أحل اللّه كذا ، وحرم كذا فيقول له اللّه كذبت لم أحل كذا ولم أحرمه .

وثبت في «صحيح مسلم» «2» من حديث بريدة بن [الحصيب ] «3» أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال : «إذا حاصرت حصنا فسألوك أن تنزلهم على حكم اللّه ورسوله فإنك لا تدري أتصيب حكم اللّه فيهم أم لا ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك» .

وسمعت شيخ الإسلام - يعني الشيخ ابن تيمية رضي اللّه عنه - قال : حضرت مجلسا فيه القضاة وغيرهم ، فجرت حكومة حكم فيها أحدهم بقول زفر ، فقلت له : ما هذه الحكومة ؟ فقال : هذا حكم اللّه ! فقلت له : صار قول زفر حكم اللّه الذي حكم به وألزم به الأمة ! قل : هذا حكم زفر وقوله ، ولا تقل حكم اللّه ونحو هذا من الكلام .

انتهى .

[الآية السادسة]

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) / .

---

فذكره .

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (1/ 82) : وفيه من لم يسمّ» .

(1) انظره في (1/ 39) .

(2) حديث صحيح : رواه مسلم (12/ 37 ، 40) ، وأبو داود (2612) ، (2613) ، والترمذي (1408) ، (1617) ، وابن ماجة (2858) ، وأحمد في «المسند» (5/ 352 ، 358) ، والدارمي (2/ 215) . [. . . . .]

(3) ما بين [معقوفين] صحّفت إلى (الخصيب) وهو خطأ ، والتصويب من مصادر التخريج .

*(190/431)*

---

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ : حذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة .

وسبيل الله : هو الإسلام .

بِالْحِكْمَةِ : أي بالمقالة المحكمة الصحيحة .

قيل : وهي الحجج القطعية المفيدة لليقين .

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ : وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع ، وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها .

قيل : وهي الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة . قيل :

وليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان. ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل، ولهذا قال سبحانه:

وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: أي بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة، وإنما أمر اللّه سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقا وغرضه صحيحا وكان خصمه مبطلا وغرضه فاسدا «1».

[الآية السابعة] وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126).

وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ: أي بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك.

قال ابن جرير «2»: نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته، لا يتعداها إلى غيرها، وهذا صواب لأن الآية وإن قيل: إن لها سببا خاصا فالاعتبار بعموم اللفظ، وعمومه يؤدي هذا المعنى الذي ذكره. وسمى سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازي، للمشاكلة وهي باب معروف وقع في كثير من آيات الكتاب

---

(1) اختلف العلماء في هذه الآية: أمنسوخة أم محكمة؟ وقد ذكر القرطبي (10/ 200) أنها محكمة من جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين.

وانظر: النحاس (180)، والإيضاح (291)، وابن البازي (295)، والبصائر (1/

280) .

(2) انظر : تفسير الطبري (14/ 197) .

(191/431)

---

العزيز ، ثم حث سبحانه على العفو فقال :

وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) أي لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصار ، ووضع الصابرين الظاهر موضع الضمير ثناء من اللّه عليهم بأنهم صابرون على الشدائد .

وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية محكمة لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة والثناء على الصابرين على العموم .

وقيل : هي منسوخة بآيات القتال ولا وجه لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام ص 364.355 ﴾

(192/431)

---

وقال السايس :

من سورة النحل

قال اللّه تعالى : وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67)

ويجوز أن يكون متعلقا بقوله تعالى : تَتَّخِذُونَ ، والسكر في الأصل مصدر سكر يضم ويفتح كالرشد والرشد ، وقد اختلف السلف في تأويل السكر والرزق الحسن ، فروي عن الحسن وسعيد بن جبير السكر : ما حرم منه ، والرزق الحسن ما حل منه .

وروي عن جماعة منهم النخعي والشعبي أن السكر خمر ، وعن ابن شبرمة أنه خمر إلا أنه من التمر . وقد فهم هؤلاء من الامتنان باتخاذه حلّه في الأصل ، ثم قالوا :

هو منسوخ بتحريم الخمر .

وروي عن ابن عباس نحو قول الأولين الذين قالوا : السكر المحرم ، والرزق الحسن الحلال .

وروي عنه أيضا أنّ السّكر النبيذ ، والرزق الحسن الزبيب ، وقد يتعلق الحنفية في الاستدلال لأبي حنيفة بهذه الآية في تحليل قليل المسكر من غير الخمر ، ويقولون :

إنّ اللّه امتن على عباده باتخاذ السّكر من ثمرات النخيل والأعناب ، ولا يقع الامتنان إلا بمحلّل ، فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ ، فإذا وصل إلى السكر لم يجز .

ويعضّدون هذا من السنة بما

روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «حرّم اللّه الخمر بعينها :

القليل منها والكثير . والسّكر من كل شراب» «1»

، وأنت تعلم أن الاستدلال بالامتنان في الآية لا ينهض ، فإنه إن كانت الآية قبل تحريم الخمر فهي تدل على أنها غير مرغوب فيها ، إذ قد جعل اللّه السكر غير الرزق الحسن ، وذلك كاف في تقبيحها .

وقد روي أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال عند نزول هذه الآية : «إنّ ربكم ليقدم في تحريم الخمر» «2»

، على أنّ الآية قد جمع فيها بين اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات

---

(1) رواه النسائي في السنن (7 - 8/ 729) ، كتاب الأشربة حديث رقم (5714 - 5717) . (بلفظ مختلف) .

(2) رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (2/ 318) .

النخيل والأعناب ، فيجوز أن يكون ذلك جمعا بين العتاب في اتخاذ السكر ، والامتنان بالرزق الحسن ، ويكون المعنى : أتتخذون منه سكرا ورزقا حسنا .

وإن كانت بعد التحريم ففي مقابلة السكر بالرزق الحسن ما يرده إلى المحرم ، ويكون ذلك تقريعا شديدا لمن يقدم عليه .

والحاصل أنّا نرى أن الآية ليس فيها ما يشهد بالحل ، إذ الكلام في الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الإنسان ، ولم تنحصر المنافع في حل التناول ، فقد قال اللّه في شأن الخمر : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ [البقرة : 219] فهل انحصرت منافع السكر على فرض أنه النبيذ في الشرب ؟

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل ، فيعلمون أن ربهم بهم رؤوف رحيم ، وأنه يجب أن يخصّ بالعبادة وحده .

قال اللّه تعالى : فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98)

ظاهر الآية جعل الاستعاذة عقب القراءة ، وبه قال بعض الظاهرية . والجمهور على أن ذلك على حد قوله : إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ [المائدة : 6] وقوله : وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا [الأنعام : 152] وقوله : وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ [الأحزاب : 53] وقوله : إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً [المجادلة : 12] الذي تطلب من أجله الاستعاذة - وهو دفع وسوسة الشيطان - يقتضي تحصيل الاستعاذة قبل

القراءة، وهذا المعنى يشير إلى قوله تعالى: وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ [الحج: 52].

وكيفية الاستعاذة عند جمهور القراء أن يقول:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وقد تضافرت الروايات عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بهذه الصيغة «1»

، وهناك صيغ أخرى وردت: كأعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم «2»، والأمر بها للندب عند الجمهور، وعن الثوري أنها واجبة، وظاهر الآية يؤيده، إذ الأمر للوجوب. والجمهور يقولون: إنه صرفها عن الوجوب ما ورد أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يعلمها الأعرابي «3» وأيضا فقد روي أنه كان يتركها.

ثم هل هي مندوبة في أول الصلاة فقط أو في كل ركعة، خلاف بين الفقهاء يعرف في الفقه، ومبناه على أنّ الاستعاذة قد رتبت على شرط، فتتكرر بتكرره. ثم

---

(1) رواه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (4/ 130).

(2) رواه أبو داود في السنن (1/ 298)، كتاب الصلاة، باب من لم ير الجهر ببسم الله حديث رقم (785).

(3) انظر ما رواه مسلم في الصحيح (1/ 298)، 4 - كتاب الصلاة، 11 - باب وجوب قراءة الفاتحة حديث رقم (45/ 397).

بعد ذلك هل الصلاة عمل واحد فيكتفى بالاستعاذة في أولها ، فمن راعى أنها عمل واحد مفتتح بقراءة يقول : إنها طلبت في بدء القراءة ، وقد قالها ، فلا يكررها ، لأنّه لم يفرغ من العمل الذي بدأه بها . والآخرون يرون أنها قد رتّبت على القراءة ، وكل ركعة فيها فيبدأ قراءته في كل ركعة بالاستعاذة .

قال اللّه تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (106)

في قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ وجوه من الإعراب ، أحسنها أنّ (من) مبتدأ محذوف الخبر ، يدل عليه قوله بعد ذلك فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ والتقدير : من كفر باللّه من بعد إيمانه فعليه غضب إلا من أكره إلخ .

والحذف في مثل ذلك كثير ، وجوز الرفع على القطع ، والنصب على إضمار فعل الذم ، واستبعد أبو حيان النصب على الذم .

وجوز بعضهم كون (من) بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات اللّه ، ورد بأن المبدل منه مطروح من الكلام ، وهو حينئذ يقتضي أن لا يفتري الكذب إلا من كفر بعد إيمانه ، وأيضا هذا يتنافى

مع سياق الآية الأولى ، لأنها سيقت للرد على كفار قريش ، وهم كفار أصليون .

وجوز بعضهم غير ذلك ، وأما قوله : إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ فهو استثناء متصل من (من) ، لأنّ الكفر أعمّ من أن يكون اعتقادا فقط ، أو قولا فقط ، أو اعتقادا وقولا ، ومن نطق بكلمة الكفر كافر ، واطمئنان قلبه بالإيمان أمر مبطن لا اطلاع لأحد عليه ، ولذلك صح الاستثناء ظاهرا .

وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ أصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد هنا السكون والثبات على الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بالإكراه ، وقد يستدلّ بالآية على أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، حيث اكتفي بوجود الاعتقاد ، وهو استدلال واه ، إذ إنّ من يقول : إن القول ركن الإيمان لا يعني أنه لا يسقط للضرورة ترخيصا .

وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً أنس به ، واطمأن إليه ، واعتقده ، وطابت به نفسه ، وانفسح له صدره ، و(من) شرطية ، وجوابها فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ، والتنوين للتهويل وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ يتناسب مع عظيم جرمهم .

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية أنّ عمار بن ياسر وقوما كانوا أسلموا ، ففتنهم المشركون ، فثبت على الإسلام بعضهم ، وافتتن بعضهم . وقد روي أنّ عمارا أخذه بنو المغيرة ، فغطوه في بئر ميمون ، وقالوا : اكفر بمحمد ، فتابعهم على ذلك وهو كاره ، فشكا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال له : «كيف تجد قلبك ؟» قال : مطمئنا

بالإيمان ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «فإن عادوا فعد» فنزلت هذه الآية «1» .

وقد قالوا : إن هذا أصل في جواز إظهار الكفر في حال الإكراه وقالوا أيضا : إنّ الإكراه الذي يبيح ذلك هو أن يبلغ حدّا يخاف معه على نفسه أو بعض أعضائه التلف . إن لم يفعل ما أمر به ، فأبيح له في هذه الحالة أن يظهر الكفر .

وقد قالوا : يجب أن يجنح إلى التعريض فيما أمر به ما أمكنه ، فإن ضيّق عليه حتى لم يكن للتعريض سبيل وسعه أن يفعل ، فإن خطر بباله التعريض ولم يعرّض كان كافرا . وأما إن لم يخطر بباله شيء من ذلك بأن كان همه أن يخرج من الإكراه ، وانحصر فكره في ذلك فلا شيء عليه .

وحكم هذا الترخيص للإكراه كما يجري في الكفر يجري في غيره ، غير أنه إذا أكره على قتل إنسان لا يجوز له أن يفعل ، وهناك أمور يجب عليه فيها أن يفعل ، فإن لم يفعل كان آثما - وهي مبيّنة في الفقه ، وفي الأصول عند الكلام على أقسام الرخصة - والذي يعنينا هنا هو الإكراه على الكفر ما حكمه ، فقد أمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عمارا أن يعود إلى مجاراتهم في القول إن عادوا إلى إكراهه ، فما موجب الأمر ؟

قالوا : إنه للإباحة ، والصارف له عن الوجوب ما روي عن خبيب بن عدي رضي اللّه عنه لما أراد أهل مكة أن يقتلوه ، لأنه لم يعطهم التقية ، بل صبر حتى قتل ، فكان عند النبي صلّى اللّه عليه وسلّم خيرا من عمار في إعطائه التقية ، أضعف إلى ذلك أنّ في الصبر على المكروه إعزازا للدين ، وغيظا للمشركين ، فهو بمنزلة من قاتل المشركين حتى قتل ، فتأثير الإكراه في هذه الصورة إنما هو إسقاط المأثم فقط .

وقد روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» «2»

فألحق المكره بالمخطئ والناسي .

وقد وقع خلاف بين الفقهاء في طلاق المكره وعتاقه ونكاحه وأيمانه ، فذهب الحنفية إلى أنّ الطلاق ونحوه يلزمه ، لأن الطلاق يعتمد الاختيار ، والإكراه ينفي الرضا ، ويحقق الاختيار . وغيرهم يذهب إلى عدم لزومه ، استدلالا بالحديث المتقدم والحنفية يحملونه على رفع الحكم الأخروي وهو المأثم ، والكلام مستوفى في الفقه ، فارجع إليه إن شئت .

ومسألة طلاق المكره مسألة خلافية من الصدر الأول ، فقد روي القول بالوقوع عن علي وعمر وسعيد بن المسيب وشريح وإبراهيم النخعي والزهري وقتادة .

---

(1) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره جامع البيان (14/ 122) .

(2) سبق تخريجه ، بلفظ (إنّ اللّه تجاوز) بدل (رفع عن أمتي) .

وروي القول بعدم الوقوع عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير والحسن وعطاء وعكرمة وغيرهم ، وروي عن الشعبي تفصيل يرجع إلى من حصل منه الإكراه ، إن كان السلطان لم يلزمه الطلاق ، وإن كان غيره لزمه .

قال اللّه تعالى : ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

يقول اللّه ادْعُ يا محمد الناس إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ أي إلى شريعة ربك ، وهي الإسلام بِالْحِكْمَةِ أي بالقول المحكم وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ بالعبر التي تؤثّر بها في قلوبهم وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ خاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها ، فاصفح عمّا نالوا به عرضك من الشتم والهجاء ، ولن لهم في القول ، وقابل السوء بالحسنى ، وليكن قصدك من الخصومة الوصول إلى الحق ، فلا تعمل ما يعمله السفهاء في جدالهم من رفع الصوت ، وسب الخصم ، والمغالبة باليد والسباب إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وبمن اهتدى إليه ، فمجازيهم على ضلالهم واهتدائهم ، فله الجزاء لا إليك ، وإنما عليك الدعوة والبلاغ .

وذهب ابن رشد والفخر الرازي وبعض فلاسفة المسلمين إلى أنّ المراد بالحكمة البرهان

الذي يفيد يقينا لا يحتمل النقيض ، وبالموعظة الحسنة الخطابة التي تفيد الظن الظاهر والإقناع ، والمراد بقوله : وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ استعمل معهم أحسن صناعة الجدل ، فاستعمل معهم المقدمات المسلّمة عند الجمهور ، أو عند المناظر ، لتصل إلى الحق ولا تستعمل معهم المقدمات الباطلة ، وتروجها عليهم بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة .

قالوا : وإنما احتيج لهذه الصناعات الثلاثة : البرهان ، والخطابة ، والجدل ، لأن الناس متفاوتون في العقول والأفهام ، فمنهم من بلغ رتبة الحكمة ، فلا يقنعه إلا البرهان المفيد لليقين الذي لا يحتمل النقيض ، لا حالا ولا مآلا .

ومنهم الطرف الآخر ، المقابل للأول ، وهم جمهور الناس ، وهؤلاء لا يفيدهم إلا صناعة الخطابة . والبرهان مضرّبهم ، فلا يصلون إليه ، وربما أفسد استعماله معهم عليهم أمرهم . القسم الثالث بين بين ، فقد ارتفع عن طبقة العامة ، ولم يصل إلى طبقة الخاصة ، وهؤلاء لا يصلحهم إلا الجدل الحسن ، وفي هذا دليل على أن القرآن من عند اللّه ، لأنّ هذه معارف لا يصل إليها إلا الحكماء الذين مارسوا الحكمة وانقطعوا لها ! ومحمد صلّى اللّه عليه وسلّم نشأ أميا ، لم يمارس الحكمة ، فظهور هذه الحكمة العالية على لسانه دليل على أنّه من عند من علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

هذا تلخيص ما قالوه ، والمعنى حسن في نفسه إلا أن حمل الكلام عليه بعيد ، لأنّ الجدل في لسان العرب هو الخصومة ، وتخصيصه بالقياس المؤلف من المسلمات اصطلاح منطقي حادث ، ولا يسوغ حمل ألفاظ القرآن على الاصطلاحات الحادثة ، ولا يصحّ فهمها إلا مراعى فيها معانيها التي وضعتها لها العرب ، وما أرادوه يصحّ أن يكون داخلا في الحكمة ، فإنّ المراد بها الطريق المحكم في الدعوة ، ولا إحكام في الدعوة إلا إذا خوطب الناس بما يفقهون ، فلا يخاطب العوام بالجدل والبرهان ، ولا كل صنف من الناس إلا بما هو لائق به .

ومن ذلك يعلم أن القائم بالدعوة ينبغي أن يكون على حظّ عظيم من علم النفس وعلم الاجتماع وطبائع الأفراد والأمم ، فإنّه ليس شيء أنجع في الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم ، وتغذية هذه الطبائع والميول بما يناسبها .

ومن الحمق أن يظنّ أن الناس متساوون في القدرة والأفهام فيما إذا خوطبوا على درجة واحدة من الخطاب ، وكما أن الأمراض مختلفة ، وأدويتها كذلك مختلفة ، وليس دواء واحد نافعا لكل مرض ولكل مريض ، كذلك أمراض النفوس ، تحتاج إلى علاجات مختلفة ، وتركيبات متباينة ، وربّ دواء أفاد إنسانا ، وأضر بآخر ، وربما أفاده في وقت ، وأضر به في آخر ، ومدار الأمر على معرفة الداعي أنّ الغرض من القول الإفهام والتأثير ، فيسلك لذلك سبله ، وعلى أن يكون عنده عقل مفكر ، ولسان مؤثر ، سنذكر حديثا يدل على

مقدار رفق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الدعوة ، ومقدار نجاح هذا الرفق .

روى أبو أمامة أنّ غلاما شابا أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال : يا نبي اللّه ، أتأذن لي في الزنى ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «قرّبوه إذن» فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «أ تحبه لأمك» قال : لا جعلني اللّه فداك ، قال : «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم . أتحبه لابنتك» قال : لا جعلني اللّه فداك . قال : «و كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم أتحبه لأختك» قال : لا جعلني اللّه فداك . قال : «و كذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم» فوضع رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم يده على صدره وقال : «اللهم طهّر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصّن فرجه» فلم يكن شيء أبغض إليه منه «1» .

وينبغي أيضا أن يكون الداعي شجاعا في الحق فلا يهن ، صارما في الصدق ، فلا يضعف ، مخلصا فانيا في مبدئه فلا يبيعه بزخارف الدنيا وزينتها .

والمثل الأعلى في ذلك صاحب الدعوة الإسلامية فقد اعترضوا سبيل الدعوة .

بكل أنواع الإيذاء ، وفتنوا المؤمنين . فلم يثن ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن عزمه ، وصبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

---

(1) رواه الإمام أحمد في المسند (5/ 256) .

ثم جاءت قريش إلى عمه أبي طالب ، وعرضوا عليه أن يأخذ محمد ما شاء من مال ويترك ما يدعو إليه ، فذكر أبو طالب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذلك فبكى وقال : «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره اللّه ، أو أهلك دونه» «1» .

قال اللّه تعالى : وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) (126) واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون (127) عُوقِبْتُمْ بِهِ أصل العقاب المجازاة على الفعل ، فالفعل ابتداء ليس عقابا ، وإنما سمّاه اللّه هنا عقابا على طريق المشاكلة ضَيْقٍ تخفيف الضيق أي في أمر ضيق ، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين كالقيل والقول .

لما أمره اللّه بدعوة الناس إلى الإسلام ، وكان في ضمن الدعوة تسفيه آرائهم ، وإبطال عقائدهم ، وتضليل طرائقهم ، وهذا مما يدعو إلى الحمية والاعتداء على الداعي بأنواع الاعتداء ، وربما حمل ذلك الداعي على مقابلة الشر بأكثر منه ، نهى اللّه هنا عن مقابلة الشر بأكثر منه ، فقال : وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ، ثم دعا إلى الصبر ، وعدم مقابلة الشر بمثله ، وحبب فيه فقال : وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .

وقد قيل في سبب نزول هذه الآيات :

إنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لما رأى حمزة وقد مثّل به المشركون ، قال : «واللّه لأمثّلن بسبعين منهم مكانك» «2» فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل ، فكف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عما أراد

، وتكون سورة النحل مكية إلا هذه الآيات .

وقيل إنّ هذا كان قبل الأمر بالجهاد العام ، حين كان المسلمون لا يقاتلون إلا من قاتلهم ، ولا يبدؤون بالقتال ، فتكون كقوله : وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) .

وحمل الآية على قصة حمزة غير ظاهر لأنّ ذلك يجعل الآيات مفككة لا ارتباط لها ،

فالظاهر ما حملنا الآية عليه ، وقريب منه قول مجاهد وابن سيرين : إن المقصود من هذه الآية نهي المظلوم عن استيفاء الزيادة من الظالم ، قال ابن سيرين : إن أخذ منك رجل شيئا فخذ منه مثله .

والضمير في قوله : لَهُوَ يرجع إلى المصدر في قوله : صَبَرْتُمْ والمصدر إما

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام بيروت ، دار الفكر (1/ 176 - 177) .

(2) انظر السيرة النبوية لابن هشام بيروت ، دار الفكر (2/ 610) .

أن يراد به الجنس أي وللصبر خير للصابرين ، وأنتم منهم إذا صبرتم . وإما أن يراد به صبركم ، أي لصبركم خير لكم ، فوضع الصابرين موضع لكم ثناء عليهم .

وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ أمر الله بالصبر أمرا صريحا بعد أن ذكر حسن عاقبته ، ولما كان الصبر شاقا ذكر ما يعين عليه فقال : وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ فالجأ إليه في طلب الصبر ، والتثبيت في الأمر وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ يدعوه إلى عدم الجزع والهلع بترك الحزن ، والحزن سببه إما فوات محبوب أو توقع مكروه ، فبيّن الله ما يستعين به على الصبر ، وهو ترك الحزن ، فقال : وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ أي على إخوانك المسلمين الذين قتلوا ، وهم قتلى أحد ، ولا تك في ضيق مما يمكرون ، أي ولا يضق صدرك من مكرهم ، فإنّ الله ينجيك من مكرهم ، لأنه مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بالنصر والمعونة ، أي هو ولي الذين اجتنبوا المعاصي وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ في أعمالهم ، ومن التقوى والإحسان الصبر .

وقيل : إن الضمير في قوله : وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ يرجع إلى الكافرين ، فيكون كقوله : وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ [المائدة : 68] روي عن هرم بن حبان أنه قيل له حين احتضر : أوص ، فقال : إنما الوصية من المال ، ولا مال لي وأوصيكم بخواتيم سورة النحل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير آيات الأحكام / للسايس صـ 478 . 485 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

«سورة النّحل» (16)

«فِيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ» (5) أي ما استدفئ به من أوبارها . ومنافع سوى ذلك .

«حِينَ تُرِيحُونَ» (6) بالعشي «وَحِينَ تَسْرَحُونَ» (6) بالغداة .

«إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ» (7) يكسر أوله ويفتح ومعناه بمشقة الأنفس ، وقال [النّمر بن تولب] :

وذى إبل يسعى ويحسبها له أخى نصب من شقّها ودؤوب «1»

أي من مشقتها ، وقال العجاج :

أصبح مسحول يوازى شقّا «2»

أي يقاسى مشقة ، [و مسحول بعيره] . «3»

---

(1) : البيت من كلمة فى الكامل 21 ، وهو فى الطبري 14/ 51 ، والقرطبي 10/ 72 واللسان والتاج (شقق) ورواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 293 .

(2) : ديوانه 40 ، والطبري 14/ 51 واللسان (شقق) .

(3) «و مسحول بعيره» : كذا فى اللسان .

(201/431)

---

«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ» (9) السبيل : لفظه لفظ الواحد ، وهو فى موضع الجميع فكأنه : ومن السبيل سبيل جائر ، وبعضهم يؤنث السبيل .

«شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ» (10) يقال : أسمت إبلى وسامت هى ، أي رعيتها .

«وَما ذَرَأَ لَكُمْ» (13) أي ما خلق لكم .

«وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ» (14) من مخرت الماء أي شقّته بجآجئها ، والفلك هاهنا فى موضع جميع فقال فواعل ، وهو موضع واحد كقوله :

«الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» (26/ 119) بمنزلة السلاح واحد وجميع .

«وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ» (15) أي جعل فيها جبالا ثوابت قد رست .

«أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» (15) مجازه : أن لا تميل بكم .

«أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» (21) مجازه : متى يحيّون .

(202/431)

«لا جَرَمَ» (23) أي حقا ، وقال أبو أسماء بن الضّريبة أو عطيّة بن عفيف : «1»

[يا كرز إنك قد منيت بفارس بطل إذا هاب الكماة مجرّب ]

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا (175)

أي أحقت «2» لهم الغضب ، و«جَرَمَ» مصدر منه : [و كرز : رجل من بنى عقيل وأبو عيينة حصن بن حذيفة بن بدر] . «3»

[ «أَوْزارَهُمْ» ] (25) : الأوزار هى الآثام ، واحدها وزر .

---

(1) : «أبو أسماء . . . عفيف» : راجع فى ترجمتها شاعران جاهليان فى الخزانة 4/ 314 ، والاختلاف فى عزو البيتين فى اللسان (جرم) ، والخزانة أيضا . - والبيت الثاني قد مرّ تخريجه فى موضعه ، وأما الأول فهو فى الاقتضاب 313 ، واللسان والتاج (جرم) والخزانة 4/ 314 .

(2) «أي أحقت» : فى اللسان : وقال أبو عبيدة : «أحقت عليهم الغضب» أي أحقت الطعنة فزارة أن يغضبوا . وحقت أيضا من قولهم : لا جرم لأفعلن كذا ، أي حقا ، قال ابن برى : وهذا القول رد على سيبويه والخليل ، لأنهما قدراه أحقت .

(3) «و كرز . . . بدر» : راجع اللسان والتاج والخزانة .

«فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ» (26) مجازه مجاز المثل والتشبيه والقواعد الأساس. إذا استأصلوا شيئا قالوا هذا الكلام، وهو مثل القواعد واحدتها قاعدة، والقاعد من النساء التي لا تحيض.

«أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ» (27) أي تحاربون فيهم.

«فَأَلْقَوُا السَّلَمَ» (28) أي صالحوا وسالموا والسّلم والسّلم والسلام واحد.

«وَالزُّبُرِ» (44) وهى الكتب واحدها: زبور، ويقال: زبرت وذبرت أي كتبت، وقال أبو ذؤيب:

عرفت الدّيار كرقم الدّواة كما زبر الكاتب الحميرىّ «1»

وكما ذبر [فى رواية].

---

(1): ديوان الهذليين 1/ 65، وفعلت وأفعلت للزجاج 182، والجمهرة 1/ 250 واللسان والتاج (زبر).

«أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ» (47) مجازه: على تنقّص قال:

ألام على الهجاء وكل يوم يلاقينى من الجيران غول «1»

تخوّف غدرهم مالى وأهدى سلاسل فى الحلوق لها صليل

أي تنقّص غدرهم مالى. سلاسل يريد القوافي تنشد فهو صليلها وهو قلائد فى أعناقهم

وقال طرفة:

وجامل خوّف من نيبه زجر المعلّى أصلا والسفيح «2»

خوّف من نيبه أي لا يدعه يزيد.

«وَهُمْ داخِرُونَ» (48) أي صاغرون، يقال: فلان دخر للّه، أي ذلّ وخضع.

---

(1): الثاني فى الطبري 14/ 71، والقرطبي 10/ 110.

(2): فى ملحق ديوانه من الستة 183، وفى اللسان والتاج (جمل، خوف).

«وَلَهُ الدِّينُ واصِباً» (52) أي دائما ، قال [أبو الأسود الدّؤلىّ] :

لا أبتغى الحمد القليل بقاؤه يوما بذم الدهر أجمع واصبا «1»

«فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ» (53) أي ترفعون أصواتكم ، وقال عدىّ بن زيد :

إنّني واللّه فاقبل حلفى بأبيل كلّما صلّى جأر «2»

أي رفع صوته وشدّه.

«وَهُوَ كَظِيمٌ» (58) أي يكظم شدة حزنه ووجده ولا يظهره ، وهو فى موضع كاظم خرج مخرج عليم وعالم.

«أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ» (59) أي هوان.

«مُفْرَطُونَ» (62) أي متروكون منسيون مخلفون.

---

(1) : الطبري 14/ 74 ، والقرطبي 10/ 114.

(2) : شعراء النصرانية 1/ 453 ، واللسان والتاج (أبل).



---

«وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ» (66) يذكّر ويؤنث ، وقال آخرون :

المعنى على النّعم لأن النعم يذكر ويؤنث ، قال :

أكلّ عام نعم تحوونه يلقحه قوم وتنتجونه «1»

أربابه نوكى ولا يحمونه

والعرب قد تظهر الشيء ثم تخبر عن بعض ما هو بسببه وإن لم يظهروه كقوله:

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة وللسّبع أزكى من ثلاث وأكثر (268)

قال أنتم ثلاثة أحياء ثم قال: من ثلاث، فذهب به إلى القبائل وفى آية أخرى: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ» (16/ 9) «2» أي من السبل سبيل جائر.

---

(1) : الرجز لقيس بن الحصين الحارثي والشطر الأول والثاني فى الكتاب 1/ 53، والطبري 14/ 81، والشنتمرى 1/ 65، وفتح الباري 8/ 292، والعيني 1/ 529، والخزانة 1/ 196، والثالث فى شواهد الكشاف 317.

(2) «وإن لكم... جائر»: وفى البخاري: الأنعام لعبرة، وهى تؤنث وتذكر وكذلك النعم الأنعام جماعة النعم. وروى ابن حجر (8/ 292) تفسير أبى عبيدة هذا وقال: وأنكر تأنيث النعم وقال: إنما يقال هذا نعم، ويجمع على نعمان بضم أوله مثل حمل وحملان، انتهى.

«تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً» (67) أي طعما ، «1» ويقال : جعلوا لك هذا سكرا أي طعما ، وهذا له سكر أي طعم ، وقال [جندل] :

جعلت عيب الأكرمين سكرا «2»

وله موضع آخر مجازه : سكنا ، وقال :

جاء الشتاء واجثألّ القنبر وجعلت عين الحرور تسكر (404)

أي يسكن حرها ويخبو ، ويقال ليلة ساكرة أي ساكنة ، وقال :

تزيد الليالى فى طولها وليست يطلق ولا ساكره «3»

ويروى تزيد ليالى فى طولها .

---

(1) «طعما» : قال فى اللسان : وقال أبو عبيدة : وحده السكر السكر الطعام وقال القرطبي 10/ 129 وقال أبو عبيدة . . . إلخ . [. . . . . .]

(2) : «جندل» : لا أدرى من هو ، وربما كان هو جندل بن المثنى الطهوي (الذي له ترجمة فى السمط 644) . والشطر فى الطبري 14/ 84 ، والقرطبي 10/ 129 واللسان والتاج (سكر) .

(3) : لأوس بن حجر ، وهو الثاني من القصيدة 15 من ديوانه ، وهو فى الاقتضاب 412 واللسان والتاج (سكر) .

«وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» (68) «1» أي يجعلونه عريشا ، ويقال : يعرش ويعرش .

«بَنِينَ وَحَفَدَةً» (72) أعوانا وخدّاما ، قال [جميل] :

حفد الولائد بينهنّ وأسلمت بأكفّهن أزمّة الأجمال «2»

واحدهم : حافد ، خرج مخرج كامل والجميع كملة .

«وَهُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ» (76) أي عيال على ابن عمّه وكل ولىّ له .

«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ»

(78) قبل أن يخرجكم ثم أخرجكم ، والعرب تقدّم وتؤخّر ، قال الأخطل :

ضخم تعلّق أشناق الدّيات به إذا المئون أمرّت فوقه حملا «3»

---

(1) «يعرشون» : قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر ، واختلف فى ذلك عن عاصم (القرطبي 10/ 134) .

(2) : «جميل» هو جميل بن عبد اللّه الحارثي العذرى وهو من شعراء الدولة الأموية ، له ترجمة فى الشعراء 260 ، والأغانى 7/ 72 والخزانة 1/ 190 .

والبيت فى الطبري 14/ 88 ، 89 والجمهرة 2/ 123 ، والقرطبي 10/ 143 ،

144 واللسان والتاج (حفد) وشواهد الكشاف 237 . ونسبه ابن دريد إلى

الفرزدق .

(3) : ديوانه 154 ، واللسان (شنق) .

(209/431)

---

الشّنق : ما بين الفريضتين والمئون : أعظم من الشّنق فبدأ بالأقل قبل الأعظم .

«السَّمْعَ» (78) لفظه لفظ الواحد . وهو فى موضع الجميع ، كقولك :

الأسماع ، وفى آية أخرى : «فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» (16/ 98) وهى قبل

القراءة .

«جَوِّ السَّماءِ» (79) أي الهواء ، قال :

ويل أمّها من هواء الجوّ طالبة ولا كهذا الذي فى الأرض مطلوب «1»

وقوله «أَثاثاً» (80) أي متاعا ، قال [محمد بن نمير الثّقفى] :

أهاجتك الظّعائن يوم بانوا بذي الرّى الجميل من الأثاث «2»

---

(1) : البيت فى نسخة منسوب إلى إبراهيم بن عمران الأنصاري وفى بغير عزو ، وقد

رواه البغدادي (فى الخزانة 2/ 212) لامرئ القيس بن حجر الكندي وقارن «ويلمها»

بما رآه فى ديوانه وهو «لا كالتى» ، وعزاه سيبويه (1/ 353) فى موضع له ، وفى موضع آخر (2/ 262) للنعمان بن بشير الأنصاري ، ونسبه الطبري (14/ 94) إلى إبراهيم بن عمران الثقفي تبعا لأبى عبيدة.

(2) : «محمد بن نمير» : من الذين هربوا من الحجاج بن يوسف ، وكان يشبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج انظر خبره فى الكامل 289 . - والبيت من كلمة فى الكامل 376 ، وهو الجمهرة 1/ 14 ، واللسان والتاج (رأى) ، والقرطبي 10/ 153 .

*(210/431)*

---

والري الكسوة الظاهرة وما ظهر .

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً» (81) «1» واحدها : كنّ .

«سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» (81) أي قمصا ، «وَسَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ» (81) أي دروعا «2» وقال كعب بن زهير :

شمّ العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجاء سرابيل «3»

«فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ» (86) أي قالوا : إنكم لكاذبون ، يقال : ألقيت إليه كذا ، أي قلت له كذا .

«وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ» (87) أي المسالمة.

«تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ» (89) أي بيانا.

---

(1) «أكنانا»: وفى البخاري: أكنانا واحدها كن مثل حمل وأحمال قال ابن حجر (8/ 292) هو تفسير أبى عبيدة.

(2) «سرابيل... دروعا»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 293

(3): ديوانه 23، والقرطبي 10/ 160 واللسان والتاج (سربل).

(211/431)

---

«وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى» (90) يعنى وإعطاؤه.

«قُوَّةٍ أَنْكاثاً» (92) كل حبل وغزل ونحو ذلك نقضته فهو نكث، وهو من قولهم نكثت

[قال المسيّب بن علس:

من غير مقلية وإنّ حبالها ليست بأنكاث ولا أقطاع] «1»

«دَخَلًا بَيْنَكُمْ» (92) كل شىء وأمر لم يصح فهو دخل: «2» «هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ» (92) أي أكثر.

«فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها» (94) مثل يقال: لكل مبتلى بعد عافية أو ساقط فى ورطة بعد

سلامة ونحو ذلك : زلّت قدمه . «3»

«مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً

---

(1) : فى ملحق ديوان الأعشى 345 ، وشرح المفضليات 93 ، وأمالى القالي 3/ 130 .

(2) «دخلا . . . دخل» : كذا فى البخاري ، قال ابن حجر (8/ 293) : هو قول أبى عبيدة أيضا .

(3) «مثل . . . قدمه» : نقل الطبري (14/ 105) هذا الكلام برمته .



---

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ» (97) من تقع على الواحد وعلى الجميع والذكر والأنثى ، ولفظها لفظ الواحد فجاء الأول من الكناية على لفظ «من» وإن كان المعنى إنما يقع على الجميع ثم جاء الآخر من الكناية على معنى الجميع ، فقال :

«وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ» .

«فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» (98) مقدّم ومؤخّر ، لأن الاستعاذة قبل القراءة .

«1»

«رُوحُ الْقُدُسِ» (102) جبريل عليه السلام.

«لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ» (103) أي يعدلون إليه، ويقال: ألحد فلان أي جار أعجمىّ أضيف إلى أعجم اللسان.

«وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ» (106) شرح صدره بذلك: تابعته نفسه وانبسط إلى ذلك، يقال: ما يشرح صدرى لك بذلك، أي لا يطيب، وجاء قوله: «فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ» على معنى الجميع لأن «من» يقع على الجميع.

---

(1) «فإذا . . . القراءة»: كذا فى البخاري، وقبله: وقال غيره، قال ابن حجر (8/ 291 - 292) المراد بالغير أبو عبيدة فإن هذا كلامه بعينه. [. . . . .]

(213/431)

---

«يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً» (112) أي واسعا كثيرا.

«فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ» (112) واحدها نعم ومعناه نعمة وهما واحد، [قالوا: نادى منادى النبىّ عليه السلام بمنى: «إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا»].

«وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا» (118) من اليهود.

«إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ» (120) أي إماما مطيعا للّه.

«حَنِيفاً» (120) مسلما ومن كان فى الجاهلية يختتن ويحجّ البيت فهو حنيف.

«اجْتَباهُ» (121) اختاره.

«فِي ضَيْقٍ» (127) مفتوح الأول وهو تخفيف ضيّق بمنزلة ميّت وهيّن وليّن، وإذا خفّفتها قلت ميت وهين ولين وإذا كسرت أول ضيق فهو مصدر الضيّق. «1». انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 1 صـ 356. 369﴾

---

(1) «فى ضيق... الضيق»: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 291.

(214/431)

---

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «النّحل»

[سورة النحل (16) : آية 2]

يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (2)

قوله سبحانه: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ [2] وهذه استعارة.

لأن المراد بالروح هاهنا الوحى الذي يتضمن إحياء الخلق والبيان عن الحق . ومثل ذلك قوله سبحانه : وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا «1» ومثله قوله سبحانه فى المسيح عليه السلام : إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ «2» فسماه تعالى روحا على هذا المعنى ، لأن به حيا «3» أمته ، وبقاء شريعته . وقد مضى معنى ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب .

فأما قوله سبحانه : وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ «4» فإنما أراد بذلك الروح التي خلقها ليحيى عباده بها ، وأضافها إلى نفسه كما أضاف الأرض إلى نفسه ، إذ يقول تعالى : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها «5» .

وكان شيخنا أبو الفتح عثمان بن «6» جنىّ رحمه اللّه يقول : معنى قولهم فى القسم : لعمر اللّه ما قلت ذلك ، ولأفعلن ذلك . إنما يريدون به القسم بحياة يحيى اللّه بها ، لا حياة يحيى بها ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . فكان المقسم إذا أقسم بهذه الحياة دخل ما يخصه منها فى جملة قسمه ، وجرى ذلك مجرى قوله : لعمرى . فيصير مقسما بحياته التي أحياه اللّه بها .

---

(1) سورة الشورى الآية رقم 52 . [. . . . .]

(2) سورة . النساء الآية رقم 171 .

(3) هكذا بالأصل . ولعلها «حياة» أو «إحياء» .

(4) فى الأصل : فنفخ بالفاء ، وصحة الآية : ونفخ بالواو . سورة السجدة آية رقم 9 .

(5) سورة النساء . الآية رقم 97 .

(6) تقدمت ترجمته فى مجازات سورة التوبة .



---

والعمر هاهنا هو العمر . ومعناه الحياة .

وكنت أستحسن هذا القول منه جدا ، وله نظائر كنت أسمعها منه عند قراءتى عليه .

وكان - عفا اللّه عنه - كثير الاستنباط للخبايا ، والاستطلاع للخفايا .

[سورة النحل (16) : آية 7]

وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (7)

وقوله سبحانه : إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [7] وهذه استعارة على أحد التأويلين . وهو أن يكون المعنى : أنكم لا تبلغون هذا البلد إلا بأنصاف أنفسكم ، من عظم المشقة ، وبعد الشقة ، لأن الشق أحد قسمى الشيء . ومنه قولهم : شقيق النفس أي قسيمها ، فكأنه من الامتزاج بها شق منها . وعلى ذلك قول الشاعر «1» :

من بنى عامر لها نصف قلبى قسمة مثلما يشقّ الرّداء

فأما من حمل قوله تعالى : إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ على أن معناه المشقة والنصب والكد والدأب ، كان الكلام على قوله حقيقة ، وخرج عن حد الاستعارة . فكأنه سبحانه قال : إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بمشقة الأنفس .

[سورة النحل (16) : آية 9]

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (9)

وقوله سبحانه : وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْها جائِرٌ [9] وهذه استعارة . لأن الجائر هو الضال نفسه . يقال : جار عن الطريق . إذا ضل عن نهجه ، وخرج عن سمته . ولكنهم لما قالوا : طريق قاصد . أي مقصد فيه ، جاز أن يقولوا : طريق جائر أي يجار فيه .

[سورة النحل (16) : الآيات 25 الى 26]

لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (26)

وقوله سبحانه : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ [25] . وهذه استعارة لأن الأوزار على الحقيقة هى الأثقال ، واحدها وزر . والمراد بها هاهنا : الخطايا والآثام ، لأنها تجرى مجرى الأثقال التي تقطع المتون ، وتنقض الظهور .

وفى معنى ذلك قولهم : فلان خفيف الظهر . إذا وصفوه بقلة العدد والعيال ، أو بقلة

الذنوب والآثام .

---

(1) لم أهتد إلى اسم هذا الشاعر بعد طويل بحث فى المراجع والمظان وكتب الشواهد والتفسير واللغة وغيرها . والله يجزل شكر من يدلنا عليه ! .

*(216/431)*

---

وقوله سبحانه : فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ [26] وهذه استعارة . لأن الإتيان هاهنا ليس يراد به الحضور عن غيبة ، والقرب بعد مسافة . وإنما ذلك كقول القائل : أتيت من جهة فلان . أي جاءنى المكروه من قبله . وأتى فلان من مأمنه .

أي ورد عليه الخوف من طريق الأمن ، والضر من مكان النفع .

[سورة النحل (16) : آية 28]

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)

وقوله سبحانه فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ [28] . وهذه استعارة .

وليس هناك شيء يلقى على الحقيقة . وإنما المراد بذلك طلب المسألة عن ذل واستكانة ، والتماس وشفاعة . لأن من كلامهم أن يقول القائل : ألقى إلىّ فلان بيده . أي خضع لى ،

وسلّم لأمرى. وقد يجوز أيضا أن يكون معنى فألقوا السّلم. أي استسلموا وسلّموا.

فكانوا كمن طرح آلة المقارعة، ونزع شكّة المحاربة. وفى معنى ذلك قوله سبحانه:

وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ «1» أي لا تستسلموا لها، وتوقعوا نفوسكم فيها.

[سورة النحل (16): آية 40]

إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)

وقوله سبحانه «2»: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [40].

وهذه استعارة. لأنه ليس هناك شىء على الحقيقة يؤمر ولا قول يسمع. وإنما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وسرعة وجود المراد، من غير معاناة ولا مشقة، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى. فإذا أراد أمرا كان لوقته، من غير أن يبطىء إيجاده، أو يتقاعس إنفاذه. وذلك بمنزلة قول أحدنا: «كن» فى خفة اللفظ به، وسرعة التعبير عنه، من غير كلفة تلحقه، ولا مشقة تعترضه.

وقيل إن معنى قوله سبحانه: (كن) علامة للملائكة يدلهم بها عند سماعهم لها على أنه سيحدث كذا، ويفعل كذا، من محكمات التقدير، ومبرمات التدبير.

---

(1) سورة البقرة. الآية رقم 195.

(2) فى الأصل: «إنما أمرنا» وهو تحريف من الناسخ لكلام اللّه تعالى. والصحيح: «إنما قولنا لشىء إلخ- سورة النحل الآية رقم 40.

[سورة النحل (16) : آية 48]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ داخِرُونَ (48)

وقوله سبحانه : أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ [48] . وهذه استعارة . لأن المراد بها رجوع الظلال من موضع إلى موضع .

والظلال على الحقيقة لا تتفيأ ولا تنقل ، وإنما ترد الشمس عليها ، ثم ترجع إلى ما كانت عليه ، بعد أن تزول الشمس عنها ، والشمس هى المتنقلة عليها ، والظلال قائمة بحالها .

[سورة النحل (16) : آية 69]

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)

وقوله تعالى فى صفة النحل العسّالة : فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ [69] . وفى هذه الآية استعارتان : إحداهما قوله تعالى : فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، على قول من جعل ذللا حالا للسّبل ، لا حالا للنحل . والذّلل :

جمع ذلول ، وهى الطرق الموطّأة للقدم ، السهلة على الحافر والمنسم ، تشبيها لها بالإبل الذلل ، وهى التي قد عوّدت الترحل ، وألفت المسير .

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه : يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ والمراد بذلك العسل . والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار ، وأضغاث النبات . لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة ، وعلى أوصاف معلومة ، والنحل مهملة تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع ، فتنقل العسل بأفواهها إلى كواراتها «1» المواضع «2» المعدّة لها . فقال سبحانه : يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها والمراد من جهة بطونها . وجهة بطونها : أفواهها .

وهذا من غوامض هذا البيان ، وشرائف هذا الكلام .

---

(1) الكوارات بضم الكاف وتشديد الواو جمع كوارة ، وهى بيت يتخذ للنحل من القضبان أو الطين تأوى إليه . أو هى عسلها فى الشمع .

(2) هكذا بالأصل ولعلها «والمواضع» بواو عاطفة .

[سورة النحل (16) : الآيات 86 الى 87]

وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (87)

وقوله سبحانه: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ [86] وهذه استعارة.

والمراد بإلقاء القول- والله أعلم- إخراج الكلام مع ضرب من الخضوع والاستكانة والإسرار والخفية، كما قال سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ «1» وفى هذا الكلام مفعول محذوف. فكأنه قال تعالى: تلقون إليهم الأخبار بالمودة. وهذا القول نزل فى قوم من المؤمنين كانوا يجتمعون مع قوم من المنافقين بأرحام تلفّهم، وخلل «2» تولد عنهم، فيتسقطونهم ليعرفوا منهم أخبار النبي صلّى الله عليه وسلم والمؤمنين، فنهوا عن مناقشتهم والاجتماع معهم. فكأن المعنى: تلقون إليهم الأسرار بالمودة التي بينكم، على سبيل الإسرار والإخفاء.

وقد قيل إن المراد: تلقون «3» إليهم المودة، فقال تعالى: بالمودّة، كما قال سبحانه: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ «4» أي تنبت الدهن على أحد التأويلين، ونظير التأويل الأول قوله سبحانه فى ذكر الشياطين: يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ «5» أي يطلبون سماع الأخبار على وجه الاستخفاء والاستسرار. وهذا الوجه لا يصح «6» فى قوله تعالى: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ

الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ [86] لأن الحال التي أخبر سبحانه بأن هذا يجرى فيها هى حال القيامة، وتلك حال لا يجوز فيها الاستسرار لقول، ولا الكتمان لسر، لأن السرائر مظهرة والضمائر مصحرة. «7» وإنما المراد بهذا الكلام ما يقوله المعبودون لمن عبدهم من الأمة، إذ يقول سبحانه: وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ، قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ [86]

---

(1) سورة الممتحنة. الآية رقم 1.

(2) الخلل: جمع خلة وهى الصداقة والصحبة.

(3) فى الأصل: يلقون.

(4) سورة المؤمنون. الآية رقم 20 [.....]

(5) سورة الشعراء. الآية رقم 223

(6) فى الأصل: من قوله تعالى. وهو تحريف من الناسخ صوابه ما أثبتناه

(7) أصحر الأمر: أظهره وأعلنه فى غير خفاء

فقال المعبودون لهم فى الجواب عن ذلك : إنكم لكاذبون ، أي فى أنّا دعوناكم إلى العبادة ، أو فى قولكم إننا آلهة . وقد يجوز أيضا أن يكون التكذيب من العابدين للمعبودين ، فكأنهم قالوا لهم : كذبتم فى ادعائكم أنكم تستحقون العبادة من دون اللّه تعالى . فلم يبق إذن إلا الوجه الأول فى معنى إلقاء القول ، وهو أن يكون على وجه الخضوع والضراعة ، ويكون سبب هذه الاستكانة الخوف من اللّه سبحانه ، لا خوف بعض الشركاء من بعض . ومثل ذلك قوله سبحانه عقب هذه الآية : وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ [87] أي استسلموا له عن ضرع ذلة ، وانقطاع حيلة . ومن ذلك قولهم : ألقى فلان يد العاني . أي ذلّ ذلّ الأسير ، وخضع خضوع المقهور .

[سورة النحل (16) : آية 94]

وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (94)

وقوله سبحانه : وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها [94] وهذه استعارة . لأن المراد بالقدم هاهنا الثبات فى الدين . ولما كان أصل الثبات فى الشيء والاستقرار عليه إنما يكون بالقدم ، حسن أن يعبر عن هذا المعنى بلفظ القدم وكأن المراد بقوله تعالى : فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها أي يضعف دينكم ، ويضطرب يقينكم ، فيكون كالقدم الزّالة ، والقائمة المائدة .

[سورة النحل (16) : الآيات 102 الى 103]

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

وقوله سبحانه: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ [102] وهذه استعارة.

لأن المراد بذلك جبريل عليه السلام، والتقديس: الطهارة. وإنما سمّى روح القدس لأن حياة الدين وطهارة المؤمنين إنما تكون بما يحمله إلى الأنبياء عليهم السلام من الأحكام والشرائع، والآداب والمصالح.

وقوله سبحانه: لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ [103] وهذه استعارة. لأن المراد باللسان هاهنا جملة القرآن وطريقته، لا العضو



المخصوص الذي يقع الكلام به. وذلك كما يقول العرب فى القصيدة: هذه لسان فلان. أي قوله. قال شاعرهم:

لسان السّوء تهديها إلينا وحنت وما حسبتك أن تحينا «1»

أي مقالة السوء . ومثل ذلك قول الآخر «2» :

ندمت على لسان كان مني ووددت بأنه في جوف عكم

أي على قول سبق مني ، لأن الندم إنما يكون على الفعال والكلام ، لا على الأعضاء والأعيان .

وإنما سمى القول لسانا ، لأنه إنما يكون باللسان ، ويصدر عن اللسان .

[سورة النحل (16) : آية 112]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (112)

وقوله سبحانه : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ [112] وهذه استعارة . لأن حقيقة الذوق إنما تكون فى المطاعم والمشارب ، لا فى الكسى والملابس .

وإنما خرج هذا الكلام مخرج الخبر عن العقاب النازل بهم ، والبلاء الشامل لهم . وقد عرف فى لسانهم أن يقولوا لمن عوقب على جريمة ، أو أخذ بجريرة : ذق غبّ فعلك ، واجن ثمرة جهلك . وإن كانت عقوبته ليست مما يحسّ بالطعم ، ويدرك بالذوق . فكأنّه سبحانه لما شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة حسن أن

---

(1) روى هذا البيت هنا على هذه الصورة . وفى «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبى

جزء 10 ص 179 روى هكذا :

لسان الشر تهديها إلينا وخنت وما حسبتك أن تخونا ولم تذكر كتب الشواهد اسم قائل هذا البيت .

(2) هو الحطيئة الشاعر كما جاء فى «لسان العرب» مادة : لسن . إلا أنه روى فى اللسان هكذا :

ندمت على لسان فات منى فليت بأنه فى جوف عكم والعكم بكسر العين : العدل الذي توضع فيه الأشياء (الغرارة) أو الكارة .



---

يقول تعالى : فأذاقهم ذلك ، أي أوجدهم مرارته كما يجد الذائق مرارة الشيء المرير ، ووخامة الطعم الكريه . وإنما قال سبحانه : لِباسَ الْجُوعِ ولم يقل : طعم الجوع والخوف ، لأن المراد بذلك - والله أعلم - وصف تلك الحال بالشمول لهم ، والاشتمال عليهم ، كاشتمال الملابس على الجلود ، لأن ما يظهر منهم عن مضيض الجوع وأليم الخوف ، من سوء الأحوال ، وشحوب الألوان ، وضئولة الأجسام ، كاللباس الشامل لهم ، والظاهر عليهم . وقد

استقصينا الكلام على ذلك فى كتابنا الكبير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تلخيص البيان صـ 197.190 ﴾

(222/431)

---

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة النحل

ظاهر أن سورة النحل نزلت فى أخريات العهد المكى بعدما احتدم العراك بين المشركين والمؤمنين ، وطال الأمد ولم يظفر الإيمان بنصر يشد أزره ، ولم ينزل بالشرك حدث يقصم ظهره ! ! . وكأن المشركين يقولون للمؤمنين: أين ما توعدوننا به وتنتظرون وقوعه؟ فكان الجواب: كل آت قريب ، إن غدا لنظاره قريب: " أتى أمر الله فلا تستعجلوه . . . " . وما يتحقق وقوعه يمكن الجزم به ، وقد انتهى الصراع بين الحق والباطل بهزيمة أخرست الوثنيين وأخضعت أعناقهم . . ! واحتاج ذلك إلى أجل يعده المجرمون طويلا ، ويعده القدر قصيرا ! . وفى هذا الأجل يجب على المسلمين أن يصبروا دون ارتياب ، ولذلك يقول الله فى آخر السورة لنبيه: " واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما

يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " . وقد صابر المسلمون الأيام ، وعندما حرت فى جلودهم الآلام نزلت آيتان فى هذه السورة تعزيان المسلمين ، وتصبرانهم على ما نزل بهم . الأولى قوله تعالى: " والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون " . والثانية قوله تعالى: " ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم" . والهجرة المقصودة هنا هى الهجرة إلى الحبشة . . وقد أذن فيها للمستضعفين ومن لا طاقة لهم على التعذيب ، وقد روى البخارى حديثا فى هذا الموضوع نسوقه هنا قال: إن أسماء بنت عميس وهى ممن قدم من أرض

الحبشة ـ إلى المدينة ـ دخلت على حفصة ، فدخل عمر عليهما ، فقال لأسماء : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله منكم ! فغضبت أسماء فقالت: كلا والله ،



---

كنتم مع النبى يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة ، كنا نؤذى ونخاف ، وذلك فى الله ورسوله ! . وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ! فلما جاء النبى بيت حفصة قالت أسماء : يا رسول الله ،

إن عمر قال كذا وكذا . . قال: فما قلتِ له ؟ قالت: قلت له كذا وكذا . . قال رسول الله: ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم. أنتم أهل السفينة. هجرتان " ! ! . وفى مطلع هذه السورة سمّى الله الوحى روحا ، لأنه يحيى الأفراد والأمم "ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون" ويقول جل شأنه فى مكان آخر : " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . . . " . والروح النازل على العرب فى تضاعيف هذا القرآن خلق منهم كيانا جديدا رشحهم لقيادة العالمين بجدارة بعدما كانوا صفرا . . ! والسياق فى هذه السورة يتشعب شعبتين: أولاهما تتحدث عن الوحى الذى تنزلت به الملائكة ، والأخرى تتحدث عن آيات الله فى كونه ، وآلائه على عباده . وتتبادل الشعبتان المواقف فى عظة الناس ، وتعريفهم بربهم . ولننظر إلى الشعبة الأولى ، ماذا يقول الناس بعدما سمعوا الآية الكريمة: " ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده " . إنهم فريقان متباعدان: الفريق الأول ضال مضل " وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين * ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . . " هذا الفريق هم رؤساء الضلال وقادة الزيغ ، ووزرهم مضاعف ، فقد أضلوا أنفسهم ، وتسببوا فى إضلال غيرهم ، وفى الحديث: " من دعا إلى ضلالة كان عليه

من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا " . إن الرجل يؤلف الكتاب يودعه من الأغاليط والترهات الشيء الكثير ، ويحسب أن جريمته انتهت بصدور الكتاب . وما درى أن له رصيدا مفتوحا إلى قيام الساعة ، يضيف إلى جريمته جرم كل من انخدع به . . نعم إنه يحمل من أوزار الأتباع قسطا .

أما الأتباع أنفسهم فهم محاسبون على غفلتهم وتسليمهم الأعمى ، وكان يجب أن يكونوا نقدة أذكياء . . وألا يساقوا كالأنعام ! ! . " قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين * الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . . " . ذاك حديث الفريق الأول ، أما الفريق الثانى فإن السؤال نفسه يوجه إليهم ، بيد أنهم أذكياء مهرة يحسنون الإجابة: " وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين" . هذا كلام فقيه فى القرآن ، يعلم أن العاقبة الحسنة للمتقين فى الدنيا والآخرة ، ولكن من هم المتقون ؟ " الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون" . والوصف كما ترى لأناس قضوا أعمارهم فى الصالحات ، وطابت أرواحهم ، بعدما جاءهم الأجل وهم مثابرون على فعل الخيرات ،

وترك المنكرات . . . والثمر ينضج فى منابته وتطيب بعد فترة يقضيها بين الماء والضوء ، تتم فيها حلاوته ، كذلك يرشح المؤمنون لدخول الجنة . وفكرة المسلمين عن الطيبة والصلاح تحتاج إلى تقويم يجب أن يعرفوا أن التقوى استواء مواهب ونضج خصائص . . . وندع الحديث عن الوحى بين منكريه ومقريه لنعود إلى حديث آخر عن الكون ، وكيف مهد الله طرائقه ، ويسر مرافقه لبنى آدم " خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون * خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين " وعجيب أن يتحول الإنسان المعروف النشأة العاجز الطفولة إلى عدو لله الذى خلقه فسواه ، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة . . ! ! " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون *

(225/431)

---

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون " . والصورة التى ذكرها القرآن فى ترفيه الإنسان ليست صورة " أفندى " جالس على مكتبه يصدر الأوامر ، وإنما هى صورة فلاح يذهب إلى الحقل تتبعه ماشيته ، ثم يعود ، وهو لها مالك ، وبها مزدان ، ولها مسخر . . إن هذا متاع عظيم .

ثم يطّرد إحصاء الأفضال الإلهية " هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه

شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون "كيف ينزل الماء على الثرى، فإذا الحبوب أنواع، والأزهار ألوان، والطعوم شتى، للأنعام حظها، وللبشر حظوظهم، والأرض واحدة، والماء واحد، وترى هنا غابات ملتفة، وترى هناك سهولا فيحاء. من صنع هذا كله؟!. "وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" إن الأرض التى تعيش جماهيرنا على أديمها، وتلتقط منها رزقها ليست فى الفضاء الكونى إلا ذرة صغيرة تنتظم فى عقد مبهم من كواكب لا حصر لها. إنها تبنة ملقاة فى سكة التبانة، أو رملة مطمورة فى صحراء هائلة، أو قطرة فى بحر متلاطم الموج!. إن الكون كبير جدا، ولكن خالقه أكبر جدا، ومع ذلك فمن البشر من يجهل هذا الخالق، وقد يتصوره قطعة حجر أو قطعة خشب، ما أشد الغباء!!. "أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون". وسورة النحل تسمى سورة النعم؛ لكثرة ما وصف الله فيها أنعمه على عباده، طالبا منهم أن يذكروه ويشكروه. وقد قلنا أول السورة: إن دلالة الكون الصامتة تقارنها دلالة القرآن الناطقة. وأنهما تتبادلان المواقف فى تعريف الناس بربهم،

واقتيادهم إليه . وقديما وحديثا كان ناس ينكرون الوحى ، ويتهمون رجاله بالكذب ، كانوا يعيشون

(226/431)

---

فى الخلق الأول ، وينكرون قوله -جل شأنه- "كما بدأنا أول خلق نعيده" لا شئ غير هذا العالم المعاصر إلا شئ يليه ! " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون" . والحقيقة أن فترة الاستمتاع بالعالم وما فيه تعقبها حياة أخرى أخلد وأخطر ، جاء المرسلون منبهين إليها على امتداد الزمان "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون

(227/431)

---

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" . إن الماديين والوثنيين والعلمانيين لا يؤمنون بوحى ، وقد توارث أهل مكة عبادة الأصنام ، فما تطوف بأذهانهم إلا أشباح هذه الدنيا . فإذا سمعوا رجلا يحدثهم أنه يوحى إليه ، وأن العالم أوسع

مما يتصورون أنكروه ، وثاروا عليه ، وقد أمرهم القرآن الكريم أن يتصلوا بأهل الكتاب ليشعروا بأن هناك وحيا ، وأن هناك مرسلين سابقين . والحديث عن أهل الكتاب ذو شجون ، فإن موسى حق ، وعيسى حق ! لكن أين ما نزل عليهم وأمروا بتبليغه ؟ . لقد ألف القوم أحاديث من عند أنفسهم ونسبوها إلى الله ! هل يصدق ذو عقل أن الله غار من آدم بعد ما أكل من شجرة المعرفة ، وخاف أن يأكل من شجرة الخلد ، وينازعه السلطان ؟ ؟ ! من أجل ذلك طرده من الجنة ، وأهبطه إلى الأرض ؟ ليشقى فيها هو وأبناؤه ! ! . هل يتصور ذو عقل أن الله قتل عيسى ابنه الوحيد ، أو تركه يقتل ليكفر عن خطيئة آدم ، ويمكن العفو عنه ؟ . إن أهل الكتاب يتدارسون أقاويل من عند أنفسهم ، ثم يزعمون أنها وحى نزل من السماء ، وأن من لم يصدقها لا يقبل فى ملكوت السماء ! . إن سؤال أهل الذكر الذى ورد فى هذه الآية كان ليعرف العرب الأوائل أن الوحى ممكن ، وأنه لا غرابة فى أن يحدث رجل عن السماء ، أما ما عند القوم فيحتاج إلى تصحيح طويل ! ! . والكتاب الذى نزل على محمد تضمن هذا التصحيح المطلوب ، ولذلك يقول الله فى شأنه " تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم * وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون " . إنه تبيان للحق القديم الذى نزل فى الوحى الأول ، وإنقاذ لعقول البشر ! ! . ومحمد . فى

الحقيقة. هو الذى عقد الصلح بين الدين والعقل ، بين الإيمان بالغيب والإيمان بالشهادة ، بين ما نزل من عند الله وما وصل إليه أولو

(228/431)

---

الألباب . . ولذلك جاءت الآية تحدد عمله وسيرته " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " .

إن التفكير خاصة العقل الحى ، وسمة الإنسان الراشد ، وكل تدين ينبو عن منطق العقل ، ويرفض حقيقة الفطرة ، فهو لغو من عند الناس ، وليس وحيا من عند الله سبحانه . فى الوحى الإلهى من قديم: " وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون * وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون " .

وتعود سورة النحل إلى تصنيف النعم التى أفاءها الله على الناس: " والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون " بين ممات الأرض وحياتها ترتد الأرواث والفضلات التى أفرزتها البطون حبوبا وفواكه وثمرات بهية .

من صانع هذه النقائض المتباعدة ؟ إنه الله وحده " وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين " هل صنعت البقرة الحلوب شيئًا من

هذا ؟ إن الكرش وما يضم ليس منبعا ينبجس منه هذا الحليب ! ! .

وهل تدرى الدجاجة وهى تضع بيضتها ما فعلت ؟ وكيف مزجت الزلال بالحديد بشتى الأغذية الأخرى ؟ .

إن الله صانع هذا كله ، ولكن بعض الناس يأكل ويكفر ! ! .

" وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون " .

إن عسل النحل وضعت فيه كتب تصف آثاره وفوائده ! لقد استطاعت هذه الحشرة أن تستخلصه من الحقول والحدائق ، والتلال والحشائش ، وتجمعت زمرا بين شغالات وملكات لتقدمه بعد لأي غذاء ودواء للناس ، والناس يلتهمون ولا يشكرون ! .

ثم شرعت الآيات تصف نعما عامة تشمل الناس كلهم بين المهد واللحد : " والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا " .

إن الحياة غير العدم ، وإذا امتن الله على أحد بالوجود فليقدر هذا الفضل ، وليؤد الوظيفة التى خلق من أجلها .

كان من الممكن أن يكون ترابا يداس ، أو دابة تركب ، فإذا خلقه الله فى أحسن تقويم فليقدر ذلك العطاء ! ! .

وقد فاوت الله بين الناس فى الأرزاق اختبارا للمكثر والمقل معا ، ولله أن يختبر عباده بما شاء ! ترى هل ذكر الغنى الفقير وواساه من الفضول التى اختص بها ؟ أم غلبته الأثرة وأوبقه الجحود ؟ . وقد جعل الله الزواج أسلوبا لبقاء النوع وامتداده مع اختلاف الليل والنهار ، فهل عرفت البشرية معنى الزواج وتحول المرء به إلى أب وجد ؟ أم أنها عقدت تكوين الأسرة ، وفتحت مسارب للخنا ، وجعلت الزواج فى أحيان كثيرة قاصمة للظهر ؟ ؟ " والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون " ؟ . وأغرب ما فى حياة الناس أنهم يعبدون الوهم ويذلون للباطل ، وبدلا من أن يعبدوا الله الذى أحسن إليهم وأعلى شأنهم يعبدون بشرا مثلهم ، أو حجرا دونهم ، أو أكذوبة لا رأس لها ولا ذنب " ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون * فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون" ! ! . إن الحساب الجامع لابد منه ، وسيمثل كل امرئ أمام ربه ليعرف ما قدم وما أخر . . . وجمع الأولين والآخرين لا يحتاج إلى

وقت " وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير" . ومضت سورة النعم تسرد ما فى أعناق الناس من منن: " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" . ما أبعد البون بين طفل زنته أرطال ! وشاب جلد زنته قناطير ، كيف نمت الأعضاء واكتنزت العضلات ؟ . وكيف تحول العقل الطفل إلى عقل ذكى حافل بالتجارب والمشاعر ؟ تلك صناعة الخبير القدير ! . إنه محيط بالبر والبحر والجو ، وهو جاعل الطير يحقق منسابا من



---

ذؤابة إلى ذؤابة " ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون " . إن إلف الشيء يصرف عن البحث فى سره ، وعالم الطير فى الهواء كعالم السمك فى الماء ، ملئ بما يعجب ويدهش ، ولكننا لا نلتفت إلى أسرار هذه العوالم.

ثم قال تعالى: " والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين *

والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا . . . " الخ. إن النعم الإلهية فوق الحصر ، وبين كل نفس ونفس تتنزل نعم ، وتترادف أفضال " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم " . وبعد هذا التذكير يجئ دور الكلام عن القرآن ، ولكنه يجيء من خاتمة الرواية ، عندما يلتقى الأولون والآخرون أمام الله ، وتسأل كل أمة عما أسلفت ، وبماذا أجابت المرسلين ؟ " ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين " . هذا المشهد من مشاهد القيامة تكرر فى سورة النساء عند قوله تعالى: " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا " . صح فى السنن أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكى عندما سمع هذه الآية . لقد تلقى عن الله كتابا فيه بيان كل شىء ، وبلغه بأمانة ووفاء ، وربى به أمة غيرت التاريخ ، ونقلت العالم من الغى إلى الرشاد ! . ماذا دهى هذه الأمة حتى نسيت فذلت ؟ وغفلت فغلبها الجهال ؟ . ماذا فى هذا الكتاب من أوامر يصعب تنفيذها ؟ يقول تعالى : " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي . . . " يظهر أن هذه التعاليم صعبة أيا ما كان الأمر فإن الذين استصعبوها لقوا العنت والهون ، ولا منجى إلا بالعودة إلى القرآن . وناقش القرآن

فرية صغيرة وجهها أعداء الإسلام إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! ! قالوا : إن شخصا من أهل الكتاب ، أو من خبراء الوحى القديم هو الذى يلقن الرسول ما يجئ به ! ! . من هذا الشخص ؟ وما الذى استبقاه فى دائرة الظل فلم يعلم به أحد ؟ ! " ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " الإجماع معقود على أن القرآن معجزة اللسان العربى ، فكيف انبجست بلاغته من فم أعجمى له بالوحى القديم



---

علاقة قوية أو ضعيفة ؟ .

ولماذا لم يتحدث هذا الشخص ويميط اللثام عن نفسه وعمله ، ويعين قريشا فى عداوتها لمحمد ؟ . ولنترك هذه الأسئلة ولننظر فى الواقع الملموس ، ونضع التوراة والإنجيل والقرآن أمامنا ونبحث عن وجوه التشابه بينها . . فى مجال العقيدة تقوم التوراة على التجسيد ، ووصف الله بصفات نابية ، ليس شرها أنه تصارع مع إسرائيل وكاد يهزمه الأخير ولم يفلته إلا بشرط . ! . لقد تجسد الله فى التوراة مرات عدة ، ووصف بالجهل والنزق والندم ، فهل من هذا الحديث بنى القرآن العقيدة على الوحدانية المطلقة ، والسلطان الأعلى ،

والتنزه عن كل نقص ، والتحلى بكل كمال ؟ " الرحمن على العرش استوى * له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى " . أى شبه يوجد بين الكتابين فى مجال العقيدة ؟ أو التاريخ ؟ أو سير الأنبياء ؟ . ويبنى القرآن الإيمان على التوحيد " إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا " فهل هكذا تقول الأناجيل المنتشرة ؟ . إن عبدا من الملائكة هو جبريل سمى الإله روح القدس ، وعبدا من الأنبياء هو عيسى بن مريم سمى الإله: الابن ، أما الخالق الباقى فسمى الإله الأب . ثم قيل: إن الكل واحد ، وأن الإله مثلث الذات ، ولا مانع أن يكون الإله الابن رب البشر ! ! . . هل تعلم محمد حرفا من هذا وأودعه كتابه ؟ أم هو صاحب سورة الإخلاص: " قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد " إن من العبث بالعقل الإنسانى أن يقول أحد : أخذ محمد كتابه من الكتب الأولى ! ! . ودع التناقض القائم فى ميدان الاعتقاد إلى الأسلوب الذى تفرد القرآن به فى غرس التقوى ، ومضاعفة أشواق الكمال ! وكبح وساوس الضعف والهبوط . هل تجد من شبه ؟ . إن أمجاد الألوهية تتألق فى جو القرآن ، وتجعل الإنسان شديد الحس بعظمة الله وقيامه على العالم أجمع ، فهو يعلم خائنة

الأعين وما تخفى الصدور ، كما يعلم أين تهوى النجوم ، ثم تشرق بعد أن تغرب ! . إن آيات القرآن تشيد للجلال الإلهى صرحا فى كل نفس . وتجعل المرء عبدا لله وحده ، لا عبد رغبة ورهبة ! .

لقد انفرد القرآن بنسق لم يعهد فى غيره من الكتب ، فكيف يزعم زاعم أنه مأخوذ مما قيل من قبل ؟ إن الأقوى لا يأخذ من الأضعف ، والمكثر لا يأخذ من المقل ، وقارون لا يأخذ ماله من بائع خبز فى دكان مهجور ! ! . والمستشرقون الذين يرددون هذا اللغو يهرفون بما لا يعرفون ، ويبعثوننا على السخرية منهم . . . ويستحيل أن يهتدوا إلى الحقيقة وهم يستبطنون هذا الهذر : " إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون" وقد اشتدت وطأة القرآن على أولئك المفترين ، لأن كذبهم مفضوح ، واتهامهم سخيف . . وسيبقى القرآن حتى آخر الدهر قمة لا تطاول ، وأوجا لا ينال . . . غير أن النظم الكريم عرض بالمعذرة والمغفرة لأناس ضعفوا فى سعير الفتنة ، ونطقوا بكلمة الكفر راغبين : "من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين " لقد قامت سورة النحل على إحصاء النعم الإلهية ، وفى مقدمتها نعمة

القرآن الكريم ، والمفروض أن يلقى الناس هذه النعم بالشكران والإيمان . غير أن هناك من اعتسف الطريق ، وآثر الكنود ، فماذا كانت عاقبته ؟ " وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " الشكر قيد النعم ، والإيمان حارسها وحافظها . . . وربما أخطأ البعض ثم ثاب إلى رشده ، ورجع إلى الله ، إن الله غافر الذنب وقابل التوب ، فليثق التائبون أن الله لن يضيع إيمانهم أو يسد الطريق فى وجوههم " ثم إن ربك للذين



---

عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم " .

وخدمة الحق تحتاج إلى رجل " أمة " أو بالتعبير المعاصر " فُتُوّ " ـ جمع فتى ـ على نحو ما قال الشاعر : والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى . ! وقد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمة ، وكان محمد كذلك أمة يشبه جده كبير الأنبياء ، قال الشاعر : كأنه ـ وهو فرد ـ من جلالته فى عسكر حين تلقاه ، وفى حشم ! ! . والإسلام دين الفطرة ، وهو ترديد للرسالات الأولى حينما نزلت من السماء ، أما ما طرأ على الأديان السابقة من تحريف وتشويه فقد باعد بينها وبين أصولها ، وانفصلت به عن مواريث السماء . وأنا

أؤيد تفسير الفضل بن عاشور لقوله تعالى: " إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه " أي: فى إبراهيم، فابتعدوا عن سيرته ورسالته، وكانت لهم تعاليم وتقاليد أخرى. . . ثم ختمت السورة بأن الدعوة الإسلامية تقوم على الحوار والإقناع والأخذ والرد، ولا تخط الإكراه طريقا لانتشارها " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " ولا يستطيع ذلك إلا فقيه فى الكتاب والسنة، عارف بالداء والدواء.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 205.215﴾

*(235/431)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثلاثون بعد الأربعمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/432)

---

الجزء الثانى والثلاثون بعد الأربعمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة النحل

وحتى الآية ﴿ 13 ﴾ من نفس السورة

(4/432)

---

( فى رياض آيات السورة الكريمة )

(5/432)

"فصل"

قال السيوطى:

سورة النحل

أقول: وجه وضعها بعد سورة الحجر: أن آخرها شديد الالتئام بأول هذه، فإن قوله في آخر تلك: (واعبُد ربَكَ حتى يأَتيكَ اليقين) الذي هو مفسر بالموت، ظاهر المناسبة لقوله هنا: (أَتى أَمرُ الله) وانظر كيف جاء في المقدمة بيأتيك اليقين، وفي المتأخرة بلفظ الماضي، لأن المستقبل سابق على الماضي، كما تقرر في المعقول والعربية وظهر لي أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم، وإنما تأخرت عنها لمناسبة الحجر، في كونها من ذوات (الر) وذلك: أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت، ومن هو ميت وغيره، وذلك أيضاً في هذه بقوله: (الذينَ تتوفاهُم الملائكة ظالمي أَنفُسَهُم) فذكر الفتنة، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب ووقع في سورة إبراهيم: (وقَد مَكروا مَكرَهُم وعِندَ اللَهِ مكرُهُم وإن كانَ مكرُهُم لتزول منه الجبال) وقيل: إنها في الجبار الذي أراد أن يصعد السماء بالنسور ووقع هنا أيضاً في قوله: (وقد مكرَ الذينَ من قبلهم) ووقع في سورة إبراهيم ذكر النعم، وقال عقبها: (وإن تعُدوا نعمةَ اللَهِ

لا تحصوها ) ووقع هنا ذكر معقباً بمثل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 112.111﴾

(6/432)

---

قوله تعالى ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ بسم الله ﴾ المحيط بدائرة الكمال ما شاء فعل ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت نعمته جليل خلقه وحقيره وصغيره وكبيره ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص من شاء بنعمة النجاة مما يسخطه بما يرضاه .

لما ختم الحجر بالإشارة إلى إتيان اليقين ، وهو صالح لموت الكل ، ولكشف الغطاء بإتيان ما يوعدون مما يستعجلون به استهزاء من العذاب في الآخرة بعد ما يلقون في الدنيا ، ابتدأ هذه بمثل ذلك سواء ، غير أنه ختم تلك باسم الرب المفهم للإحسان لطفاً بالمخاطب ،

وافتتح هذه باسم الأعظم الجامع لجميع معاني الأسماء لأن ذلك أليق بمقام التهديد ، ولما ستعرفه من المعاني المتنوعة في أثناء السورة ، وسيكرر هذا الاسم فيها تكريراً تعلم منه صحة هذه الدعوى ، وعبر عن الآتي بالماضي إشارة إلى تحققه تحقق ما وقع ومضى ، وإلى أن كل آتٍ ولا بد قريب ، فقال تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، بما يذل الأعداء ، ويعز الأولياء ، ويشفي صدورهم ، ويقر أعينهم .

ولما كانت العجلة نقصاً ، قال مسبباً عن هذا الإخبار : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أيها الأعداء استهزاء ، وأيها الأولياء استكفاء واستشفاء ، وذلك مثل ما أفهمه العطف في قوله تعالى ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ كما تقدم ؛ والضمير يجوز أن يكون لله وأن يكون للأمر .

(7/432)

---

ولما كان الجزم بالأمور المستقبلة لا يليق إلا عند نفوذ الأمر ، ولا نفوذ إلا لمن لا كفوء له ، وكانت العجلة - وهي الإتيان بالشيء قبل حينه الأولى به - نقصاً ظاهراً لا يحمل عليها إلا في ضيق الفطن ، وكان التأخير لا يكون إلا عن منازع مشارك ، نزه نفسه سبحانه تنزيهاً

مطلقاً جامعاً بقوله تعالى : ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه عن الاستعجال وعن جميع صفات النقص ﴿ وتعالى ﴾ أي تعالياً عظيماً جداً ﴿ عما يشركون ﴾ أي يدعون أنه شريك له ، فلا مانع مما يريد فعله ، وساقه في غير قراءة حمزة والكسائي - في أسلوب الغيبة ، إظهاراً للإعراض الدال على شدة الغضب ، وهي ناظرة إلى قوله آخر التي قبلها ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ [ الحجر : 94 ] وقوله : ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً ءاخر ﴾ [ الحجر : 96 ] وقد آل الأمر في نظم الآية إلى أن صار كأنه قيل : إنه لا يعجل لأنه منزه عن النقص ، ولا بد من إنفاذ أمره لأنه متعالٍ عن الكفوء ؛ أو يقال : لا تستعجلوه لأنه تنزه عن النقص فلا يجعل ، وتعالى عن أن يكون له كفوء يدفع ما يريد فلا بد من وقوعه ، فهي واقعة موقع التعليل لصدر الآية كما أن صدر الآية تعليل لآخر سورة الحجر .

ولما تقرر بذلك تنزهه عن كل نقص : شرك وغيره ، شرع يصف نفسه سبحانه بصفات الكمال من الأمر والخلق ، ولما كان الأمر أقدم وأعلى ، بدأ به ، ولما كان من أمره إنزال الملائكة على الصورة التي طلبوها في قولهم

﴿ لو ما تأتينا بالملائكة ﴾ [ الحجر : 7 ] وقص عليهم في سورة إبراهيم ولوط عليهما السلام ما يترتب على إنزالهم مجتمعين ، وفهم منه أن لهم في نزولهم حالة أخرى لا تنكرها الرسل ، وهي حالة الإتيان إليهم بالعلم الذي نسبته إلى الأرواح نسبة الأرواح إلى الأشباح ، وكان ذلك ربما أثار لهم اعتراضاً يطلبون به الفرق بينهم وبين الرسل في إنزالهم عليهم دونهم - كما تقدم في الحجر ، وكان ما يشركون به لا تصرف له أصلاً بإنزال ولا غيره ، قال تعالى مشيراً إلى ذلك وإلى أن الوحي بواسطة الملك ، وأن النبوة عطائية لا كسبية : ﴿ ينزل الملائكة ﴾ الذين هم الملأ الأعلى ﴿ بالروح ﴾ أي المعنى الأعظم الذي هو للأرواح بمنزلة الأرواح للأشباح ﴿ من أمره ﴾ الذي هو كلامه المشتمل على الأمر والنهي ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ وهو مما تميز به لحقيته وإعجازه عن جميع المخلوقات ، فكيف بما لا يعقل منها كالأصنام ! ﴿ على ما يشاء من عباده ﴾ دون بعض ، لأن ذلك نتيجة فعله بالاختيار ، وأبدل من الروح أو فسر الإنزال بالوحي لأنه متضمن معنى القول فقال : ﴿ أن أنذروا ﴾ أي الناس سطواتي ، فإنها لا محالة نازلة بمن أريد إنزالها به ، بسبب ﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ وعبر بضمير المتكلم لأنه أدل على المراد لكونه أعرف ؛ وسبب عن وحدانيته التي هي منتهى كمال القوة العلمية قوله آمراً بما هو أقصى كمال القوة العملية : ﴿ فاتقون ﴾ أي فليشتد خوفكم مني وأخذكم لما يكون وقاية لكم من عذابي ، فإنه لا مانع مما أريد ، فمن علمت أنه أهل للنقمة أنزلتها به ، ومن علمته أهلاً لتلقي الروح منحته إياه .

ولما وحد نفسه ، دل على ذلك بقوله ، شارحاً لإيجاده أصول العالم وفروعه على وجه الحكمة : ﴿ خلق السماوات ﴾ أي التي هي السقف المظل ﴿ والأرض ﴾ أي التي هي البساط المقل ﴿ بالحق ﴾ أي بالأمر المحقق الثابت ، لا بالتمويه والتخييل ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ .

(9/432)

---

ولما كان ذلك من صفات الكمال المستلزمة لنفي النقائص ، وكان قاطعاً في التنزه عن الشريك ، لأنه لو كان ، لزم إمكان الممانعة ، فلزم العجز عن المراد ، أو وجود الضدين المرادين لهما ، وكل منهما محال ، فإمكان الشريك محال ، ولأنهما وكل ما فيهما ملكه وفي تصرفه ، لا نزاع لمن أثبت الإله في ذلك ، تلاه بقوله - نتيجة لذلك دالة على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام : ﴿ تعالى ﴾ أي تعالياً فات الوصف ﴿ عما يشركون ﴾ - عرياً عن افتتاحه بالتنزيه كالأولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 243 . 245 ﴾

(10/432)

---

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ تشركون ﴾ وما بعده بتاء الخطاب : حمزة وعلي وخلف . والآخرون على الغيبة ﴿ تنزل ﴾ بالفتحات الثلاث ﴿ الملائكة ﴾ بالرفع : سهل وروح وزيد وأبو زيد مثله لكن بضم التاء الفوقانية : جبلة ﴿ ينزل ﴾ من الإنزال ﴿ الملائكة ﴾ بالنصب : ابن كثير وأبو عمرو ورويس : والباقون بالتشديد من التنزيل . ﴿ بشق الأنفس ﴾ بفتح الشين : يزيد . الباقون بكسرها ﴿ ننبت ﴾ بالنون : يحيى وحماد . الآخرون بياء الغيبة ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات ﴾ كلها مرفوعات : ابن عامر وافق حفص والمفضل ﴿ في النجوم مسخرات ﴾ الباقون : بنصب الجميع على أن ﴿ مسخرات ﴾ حال . ﴿ يسرون ويعلنون ﴾ بالياء التحتانية فيهما : الخزاز عن هبيرة . الآخرون بتاء الخطاب ﴿ يدعون ﴾ على الغيبة : سهل ويعقوب وعاصم غير الأعشى . الباقون على الخطاب .

الوقوف : ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ 5 ﴿ فاتقون ﴾ 5 ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ يشركون ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5ج ﴿ خلقها ﴾ ج لاحتمال تمام الكلام واحتمال أن يكون ﴿ لكم ﴾ متعلقاً به والوقف حينئذٍ على ﴿ لكم ﴾ ﴿ تأكلون ﴾ 5ص للعطف ﴿ تسرحون ﴾ 5ص لذلك ﴿ الأنفس ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 لا لأن ﴿ الخيل ﴾ مفعول ﴿ خلق ﴾ ﴿ وزينة ﴾ ط ﴿ ما لا تعلمون ﴾ 5 ﴿ جائر ﴾ ط ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ تسيمون ﴾ 5 ﴿ الثمرات ﴾ ط ﴿ يتفكرون ﴾ 5 ﴿ والنهار ﴾ ط لمن قرأ ﴿ والشمس ﴾ وما بعده بالرفع ومن نصب ﴿ الشمس والقمر ﴾ ورفع ﴿ النجوم ﴾ وقف على ﴿ القمر ﴾ ومن نصب الكل وقف على ﴿ بأمره ﴾ ﴿ بأمره ﴾ ط ﴿ يعقلون ﴾ 5 لا لأن ما بعده مفعول ﴿ سخر ﴾ ﴿ ألوانه ﴾ ط ﴿ يذكرون ﴾ 5 ﴿ تلبسونها ﴾ ج لأن قوله ﴿ وترى ﴾ فعل مستأنف مع اتصال المعنى. ﴿ تشكرون ﴾ 5 لا ﴿ تهتدون ﴾ 5 لا لأن قوله ﴿ وعلامات ﴾ عطف على ﴿ سبلاً ﴾ ﴿ وعلامات ﴾ ط ﴿ يهتدون ﴾ 5 ﴿ لا يخلق ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ 5 ﴿ لا تحصوها ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ وما تعلنون ﴾ 5 ﴿ وهم يخلقون ﴾ 5ط لأن التقدير : هم أموات ﴿ غير أحياء ﴾ ج لاختلاف الجملتين ﴿ وما يشعرون ﴾ 5 لا لأن ما بعده مفعول ﴿ يبعثون ﴾ 5 ﴿ واحد ﴾ ط لأن ما بعده مبتدأ مع الفاء ﴿

مستكبرون ﴾ 5 ﴿ وما يعلنون ﴾ 5 ﴿ المستكبرين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 4 صـ 240 ﴾

*(12/432)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

سورة النحل

مكية غير ثلاث آيات في أخرها

وحكى الأصم عن بعضهم أن كلها مدنية ، وقال آخرون : من أولها إلى قوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ مدني وما سواه فمكي ، وعن قتادة بالعكس .

واعلم أن هذه السورة تسمى سورة النعم وهي مائة وعشرون وثمان آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سبحانه وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُواْ أَنَّهُ لآ إله إِلآ أَنَاْ فاتقون ﴾ .

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن معرفة تفسير هذه الآية مرتبة على سؤالات ثلاثة :

فالسؤال الأول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بعذاب الدنيا تارة وهو القتل والاستيلاء عليهم كما حصل في يوم بدر ، وتارة بعذاب يوم القيامة ، وهو الذي يحصل عند قيام الساعة ، ثم إن القوم لما لم يشاهدوا شيئاً من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب وقالوا له ائتنا به .

وروي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [ القمر : 1 ] قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً مما تخوفنا به ، فنزل قوله : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ [ الأنبياء : 1 ] فأشفقوا وانتظروا يومها فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل قوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم فنزل قوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ والحاصل أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ولم يروا شيئاً نسبوه إلى الكذب .

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وفي تقرير هذا الجواب وجهان :

الوجه الأول : أنه وإن لم يأت ذلك العذاب إلا أنه كان واجب الوقوع والشيء إذا كان بهذه الحالة والصفة فإنه يقال في الكلام المعتاد أنه قد أتى ووقع إجراء لما يجب وقوعه بعد ذلك مجرى الواقع يقال لمن طلب الإغاثة وقرب حصولها : قد جاءك الغوث فلا تجزع .

والوجه الثاني : وهو أن يقال أن أمر الله بذلك وحكمه به قد أتى وحصل ووقع ، فأما المحكوم به فإنما لم يقع ، لأنه تعالى حكم بوقوعه في وقت معين فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود والحاصل كأنه قيل : أمر الله وحكمه بنزول العذاب قد حصل ووجد من الأزل إلى الأبد فصح قولنا أتى أمر الله ، إلا أن المحكوم به والمأمور به إنما لم يحصل ، لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه ولا تطلبوا حصوله قبل حضور ذلك الوقت .

السؤال الثاني : قالت الكفار : هب أنا سلمنا لك يا محمد صحة ما تقوله من أنه تعالى حكم بإنزال العذاب علينا إما في الدنيا وإما في الآخرة ، إلا أنا نعبد هذه الأصنام فإنها شفعاؤنا عند الله فهي تشفع لنا عنده فنتخلص من هذا العذاب المحكوم به بسبب شفاعة هذه الأصنام .

فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فنزه نفسه

عن شركة الشركاء والأضداد ، والأنداد وأن يكون لأحد من الأرواح والأجسام أن يشفع عنده إلا بإذنه و ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : سبحانه وتعالى عن إشراكهم ويجوز أن تكون بمعنى الذي ، أي سبحانه وتعالى عن هذه الأصنام التي جعلوها شركاء لله ، لأنها جمادات خسيسة ، فأي مناسبة بينها وبين أدون الموجودات فضلاً عن أن يحكم بكونها شركاء لمدبر الأرض والسموات .

(14/432)

---

السؤال الثالث : هب أنه تعالى قضى على بعض عبيده بالسراء وعلى آخرين بالضراء ولكن كيف يمكنك أن تعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ، وكيف صرت بحيث تعرف أسرار الله وأحكامه في ملكه وملكوته ؟

فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إله إِلا أَنَاْ فاتقون ﴾ وتقرير هذا الجواب أنه تعالى ينزل الملائكة على من يشاء من عبيده ويأمر ذلك العبد بأن يبلغ إلى سائر الخلق أن إله العالم واحد كلفهم بمعرفة التوحيد والعبادة وبين أنهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيري الدنيا والآخرة ، وإن تمردوا وقعوا في شر الدنيا والآخرة ، فبهذا الطريق صار مخصوصاً بهذه المعارف من دون سائر الخلق ، وظهر

بهذا الترتيب الذي لخصناه أن هذه الآيات منتظمة على أحسن الوجوه والله أعلم .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي : ( ينزل ) بالياء وكسر الزاي وتشديدها ، والملائكة بالنصب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يُنَزّل ﴾ بضم الياء وكسر الزاي وتخفيفها ، والأول من التفعيل ، والثاني من الأفعال ، وهما لغتان :

المسألة الثانية :

روي عن عطاء عن ابن عباس قال : يريد بالملائكة جبريل وحده .

قال الواحدي : وتسمية الواحد باسم الجمع إذا كان ذلك الواحد رئيساً مقدماً جائز كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ﴾ [ نوح : 1 ] ﴿ وَإِنَا أنزلناه ﴾ [ يوسف : 2 ] . ﴿ وإِنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [ الحجر : 9 ] وفي حق الناس كقوله : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [ آل عمران : 173 ] وفيه قول آخر سيأتي شرحه بعد ذلك وقوله : ﴿ بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ فيه قولان :

القول الأول : أن المراد من الروح الوحي وهو كلام الله ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [ الشورى : 52 ] وقوله : ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾

[ غافر : 15 ] قال أهل التحقيق : الجسد موات كثيف مظلم ، فإذا اتصل به الروح صار حياً لطيفاً نورانياً .

فظهرت آثار النور في الحواس الخمس ، ثم الروح أيضاً ظلمانية جاهلة ، فإذا اتصل العقل بها صارت مشرقة نورانية ، كما قال تعالى ؛ ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ [ النحل : 78 ] ثم العقل أيضاً ليس بكامل النورانية والصفاء والإشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالم الأرواح والأجساد ، وعالم الدنيا والآخرة ، ثم إن هذه المعارف الشريفة الإلهية لا تكمل ولا تصفو إلا بنور الوحي والقرآن .

إذا عرفت هذا فنقول : القرآن والوحي به تكمل المعارف الإلهية ، والمكاشفات الربانية وهذه المعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل ، والعقل به يكمل جوهر الروح ، والروح به يكمل حال الجسد ، وعند هذا يظهر أن الروح الأصلي الحقيقي هو الوحي والقرآن ، لأن به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة ، ونوم الغفلة ، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوج الملكية ، فظهر أن إطلاق لفظ الروح على الوحي في غاية المناسبة والمشاكلة ، ومما

يقوى ذلك أنه تعالى أطلق لفظ الروح على جبريل عليه السلام في قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ ﴾ [ الشعراء : 193 ، 194 ] وعلى عيسى عليه السلام في قوله : ﴿ رَوْحِ الله ﴾ [ يوسف : 87 ] وإنما حسن هذا الإطلاق ، لأنه حصل بسبب وجودهما حياة القلب وهي الهداية والمعارف ، فلما حسن إطلاق اسم الروح عليهما لهذا المعنى ، فلأن يحسن إطلاق لفظ الروح على الوحي والتنزيل كان ذلك أولى .

*(16/432)*

---

والقول الثاني : في هذه الآية وهو قول أبي عبيدة إن الروح ههنا جبريل عليه السلام ، والباء في قوله : ﴿ بالروح ﴾ بمعنى مع كقولهم خرج فلان بثيابه ، أي مع ثيابه وركب الأمير بسلاحه أي مع سلاحه ، فيكون المعنى : ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل ، والأول أقرب ، وتقرير هذا الوجه : أنه سبحانه وتعالى ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جبريل وحده ، بل في أكثر الأحوال كان ينزل مع جبريل أفواجاً من الملائكة ، ألا ترى أن في يوم بدر وفي كثير من الغزوات كان ينزل مع جبريل عليه السلام أقوام من الملائكة ، وكان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ملك الجبال .

وتارة ملك البحار .

وتارة رضوان.

وتارة غيرهم.

وقوله: ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ يعني أن ذلك التنزيل والنزول لا يكون إلا بأمر الله تعالى، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: 64] وقوله: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: 27] وقوله: ﴿ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 28] وقوله: ﴿ يخافون رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: 50] وقوله: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: 6] فكل هذه الآيات دالة على أنهم لا يقدمون على عمل من الأعمال إلا بأمر الله تعالى وإذنه، وقوله: ﴿ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يريد الأنبياء الذين خصهم الله تعالى برسالته، وقوله: ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ قال الزجاج: ﴿ أن ﴾ بدل من الروح والمعنى: ينزل الملائكة بأن أنذروا، أي أعلموا الخلائق أنه لا إله إلا أنا، والإنذار هو الإعلام مع التخويف.

المسألة الثانية:

في الآية فوائد : الفائدة الأولى : أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يكون إلا بواسطة الملائكة ، ومما يقوى ذلك أنه تعالى قال في آخر سورة البقرة : ﴿ والمؤمنون كُلٌّ ءامَنَ بالله وَمَلَٰئِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ﴾ [ البقرة : 285 ] فبدأ بذكر الله سبحانه ثم أتبعه بذكر الملائكة ، لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير واسطة ، وذلك الوحي هو الكتب ، ثم إن الملائكة يوصلون ذلك الوحي إلى الأنبياء فلا جرم كان الترتيب الصحيح هو الابتداء بذكر الله تعالى ، ثم بذكر الملائكة ، ثم بذكر الكتب وفي الدرجة الرابعة بذكر الرسل .

إذا عرفت هذا فنقول : إذا أوحى الله تعالى إلى الملك فعلم ذلك الملك بأن ذلك الوحي وحي الله علم ضروري أو استدلالي .

وبتقدير أن يكون استدلالياً فكيف الطريق إليه ؟ وأيضاً الملك إذا بلغ ذلك الوحي إلى الرسول فعلم الرسول بكونه ملكاً صادقاً لا شيطاناً رجيماً ضروري أو استدلالي فإن كان استدلالياً فكيف الطريق إليه ؟ فهذه مقامات ضيقة ، وتمام العلم بها لا يحصل إلا بالبحث عن حقيقة الملك وكيفية وحي الله إليه ، وكيفية تبليغ الملك ذلك الوحي إلى الرسول .

فأما إذا أجرينا هذه الأمور على الكلمات المألوفة صعب المرام وزال النظام ، وذلك لأن آيات القرآن ناطقة بأن هذا الوحي والتنزيل إنما حصل من الملائكة أو نقول : هب أن آيات القرآن لم تدل على ذلك إلا أن احتمال كون الأمر كذلك قائم في بديهة العقل .

وإذا عرفت هذا فنقول : لا نعلم كون جبريل عليه السلام صادقاً معصوماً عن الكذب والتلبيس إلا بالدلائل السمعية ، وصحة الدلائل السمعية موقوفة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ، وصدقه يتوقف على أن هذا القرآن معجز من قبل الله تعالى ، لا من قبل شيطان خبيث ، والعلم بذلك يتوقف على العلم بأن جبريل صادق محق مبرأ عن التلبيس وعن أفعال الشيطان ، وحينئذ يلزم الدور ، فهذا مقام صعب .



---

أما إذا عرفنا حقيقة النبوة وعرفنا حقيقة الوحي زالت هذه الشبهة بالكلية ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

هذه الآية تدل على أن الروح المشار إليها بقوله : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ ﴾ ليس إلا لمجرد قوله : ﴿ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون ﴾ وهذا كلام حق ، لأن مراتب السعادات البشرية أربعة : أولها : النفسانية ، وثانيها : البدنية ، وفي المرتبة الثالثة : الصفات البدنية التي لا تكون من اللوازم ، وفي المرتبة الرابعة : الأمور المنفصلة عن البدن .

أما المرتبة الأولى : وهي الكمالات النفسانية ، فاعلم أن النفس لها قوتان : إحداهما : استعدادها لقبول صور الموجودات من عالم الغيب ، وهذه القوة هي القوة المسماة بالقوة

النظرية ، وسعادة هذه القوة في حصول المعارف .

وأشرف المعارف وأجلها معرفة أنه لا إله إلا هو ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ﴾ والقوة الثانية للنفس : استعدادها للتصرف في أجسام هذا العالم ، وهذه القوة هي القوة المسماة بالقوة العملية ، وسعادة هذه القوة في الإتيان بالأعمال الصالحة ، وأشرف الأعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فاتقون ﴾ ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لا جرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية ، وهي قوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ﴾ على كمالات القوة العملية وهي قوله : ﴿ فاتقون ﴾ .

وأما المرتبة الثانية : وهي السعادات البدنية فهي أيضاً قسمان : الصحة الجسدانية ، وكمالات القوى الحيوانية ، أعني القوى السبع عشرة البدنية .

وأما المرتبة الثالثة : وهي السعادات المتعلقة بالصفات العرضية البدنية ، فهي أيضاً قسمان : سعادة الأصول والفروع ، أعني كمال حال الآباء .

وكمال حال الأولاد .

وأما المرتبة الرابعة : وهي أخس المراتب فهي السعادات الحاصلة بسبب الأمور المنفصلة وهي المال والجاه ، فثبت أن أشرف مراتب السعادات هي الأحوال النفسانية ، وهي محصورة في كمالات القوة النظرية والعملية ، فلهذا السبب ذكر الله ههنا أعلى حال هاتين القوتين فقال : ﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاتَّقُونِ ﴾ .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فيما سبق أن معرفة الحق لذاته ، وهي المراد من قوله : ﴿ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ ومعرفة الخير لأجل العمل به وهي المراد من قوله : ﴿ فاتقون ﴾ [ النحل : 2 ] روح الأرواح ، ومطلع السعادات ، ومنبع الخيرات والكرامات ، أتبعه بذكر الدلائل على وجود الصانع الإله تعالى وكمال قدرته وحكمته .

واعلم أنا بينا أن دلائل الإلهيات ، إما التمسك بطريقة الإمكان في الذوات أو في الصفات . أو التمسك بطريقة الحدوث في الذوات أو في الصفات أو بمجموع الإمكان والحدوث في الذوات أو الصفات ، فهذه طرق ستة ، والطريق المذكور في كتب الله تعالى المنزلة ، هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغيرات الأحوال .

ثم هذا الطريق يقع على وجهين : أحدهما : أن يتمسك بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ، وهذا الطريق هو المذكور في أول سورة البقرة ، فإنه تعالى قال : ﴿ اعبدوا

رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ ﴾ فجعل تعالى تغير أحوال نفس كل واحد دليلاً على احتياجه إلى الخالق .

(20/432)

---

ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الآباء والأمهات ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [ البقرة : 21 ] ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الأرض ، وهي قوله : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً ﴾ لأن الأرض أقرب إلينا من السماء ، ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله : ﴿ والسماء بِنَاء ﴾ ثم ذكر في المرتبة الخامسة الأحوال المتولدة من تركيب السماء بالأرض ، فقال : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [ البقرة : 22 ] .

الثاني من الدلائل القرآنية ؛ أن يحتج الله تعالى بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون ، وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة ، وذلك لأنه تعالى ابتدأ في الاحتجاج على وجود الإله المختار بذكر الأجرام العالية الفلكية ، ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال الحيوان ، ثم ربع بذكر الاستدلال بأحوال النبات ، ثم خمس بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الأربعة ، وهذا الترتيب في غاية الحسن .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول :

النوع الأول : من الدلائل المذكورة على وجود الإله الحكيم الاستدلال بأحوال السموات والأرض فقال : ﴿ خُلِقَ * السموات والأرض بالحق تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [ الأنعام : 1 ] إن لفظ الخلق من كم وجه يدل على الاحتياج إلى الخالق الحكيم ، ولا بأس بأن نعيد تلك الوجوه ههنا فنقول : الخلق عبارة عن التقدير بمقدار مخصوص ، وهذا المعنى حاصل في السموات من وجوه : الأول : أن كل جسم متناه فجسم السماء متناه ، وكل ما كان متناهياً في الحجم والقدر ، كان اختصاصه بذلك القدر المعين دون الأزيد والأنقص امراً جائزاً ، وكل جائز فلا بد له من مقدر ومخصص ، وكل ما كان مفتقراً إلى الغير فهو محدث .

(21/432)

---

الثاني : وهو أن الحركة الأزلية ممتنعة ، لأن الحركة تقتضي المسبوقية بالغير ، والأزل ينافيه فالجمع بين الحركة والأزل محال .

إذا ثبت هذا فنقول : إما أن يقال أن الأجرام والأجسام كانت معدومة في الأزل ، ثم حدثت أو يقال إنها وإن كانت موجودة في الأزل إلا أنها كانت ساكنة ثم تحركت .

وعلى التقديرين فلحركتها أول ، فحدوث الحركة من ذلك المبدأ دون ما قبله أو ما بعده خلق وتقدير ، فوجب افتقاره إلى مقدر وخالق ومخصص له .

الثالث : أن جسم الفلك مركب من أجزاء بعضها حصلت في عمق جرم الفلك وبعضها في سطحه ، والذي حصل في العمق كان يعقل حصوله في السطح وبالعكس ، وإذا ثبت هذا كان اختصاص كل جزء بموضعه المعين أمراً جائزاً فيفتقر إلى المخصص والمقدر ، وبقية الوجوه مذكورة في أول سورة الأنعام .

واعلم أنه سبحانه لما احتج بالخلق والتقدير على حدوث السموات والأرض قال بعده : ﴿ تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ والمراد أن القائلين بقدم السموات والأرض كأنهم أثبتوا لله شريكاً في كونه قديماً أزلياً فنزه نفسه عن ذلك ، وبين أنه لا قديم إلا هو ، وبهذا البيان ظهر أن الفائدة المطلوبة من قوله : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ يونس : 18 ] في أول السورة غير الفائدة المطلوبة من ذكر هذه الكلمة ههنا ، لأن المطلوب هناك إبطال قول من يقول : إن الأصنام تشفع للكفار في دفع العقاب عنهم ، والمقصود ههنا إبطال قول من يقول : الأجسام قديمة ، والسموات والأرض أزلية ، فنزه الله سبحانه نفسه عن أن يشاركه غيره في الأزلية والقدم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 173 .

﴿ 178 ﴾

وقال الماوردي :

قوله تعالى : ﴿ أتى أمرُ الله فلا تستعجلوهُ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه بمعنى سيأتي أمر الله تعالى .

الثاني : معناه دنا أمر الله تعالى .

الثالث : أنه مستعمل على حقيقة إتيانه في ثبوته واستقراره . وفي ﴿ أمر ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : أنه إنذار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو مسلم .

الثاني : أنه فرائضه وأحكامه ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه وعيد أهل الشرك ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم قاله ابن جريج .

الرابع : أنه القيامة ، وهو قول الكلبي . وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لما نزلت : ﴿ أتى أمر الله ﴾ رفعوا رؤوسهم فنزل ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي فلا تستعجلوا وقوعه .

وحكى مقاتل بن سليمان أنه لما قرأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أتى أمر الله ﴾ نهض رسول الله خوفاً من حضورها حتى قرأ ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ .

ويحتمل وجهين :

أحدهما : فلا تستعجلوا التكذيب فإنه لن يتأخر .

الثاني : فلا تستعجلوا أن يتقدم قبل وقته ، فإنه لن يتقدم .

قوله عز وجل : ﴿ ينزل الملائكة بالروحِ من أمره على من يشاء من عبادِهِ ﴾

فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن الروح ها هنا الوحي ، وهو النبوة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه كلام الله تعالى وهو القرآن ، قاله الربيع ابن أنس .

الثالث : أنه بيان الحق الذي يجب اتباعه ، قاله ابن عيسى .

الرابع : أنها أرواح الخلق . قال مجاهد لا ينزل ملك إلا ومعه روح.

الخامس : أن الروح الرحمة ، قاله الحسن وقتادة .

ويحتمل تأويلاً سادساً : أن يكون الروح الهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيي الروح الأبدان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 ص ﴾

*(23/432)*

---

وقال ابن عطية :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال جبريل في سرد الوحي : ﴿ أتى أمر الله ﴾ وثب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ، فلما قال ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ سكن .

وقوله ﴿ أمر الله ﴾ قال فيه جمهور المفسرين : إنه يريد القيامة وفيها وعيد للكفار ، وقيل : المراد نصر محمد عليه السلام ، وقيل : المراد تعذيب كفار مكة بقتل محمد صلى الله عليه وسلم لهم وظهوره عليهم ، ذكر نحو هذا النقاش عن ابن عباس ، وقيل : المراد فرائض الله وأحكامه في عباده وشرعه لهم ، هذا هو قول الضحاك ، ويضعفه قوله ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ إنا لا نعرف استعجالاً إلا ثلاثة اثنان منها للكفار وهي في القيامة وفي العذاب ، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام ، وقوله ﴿ أتى ﴾ على هذا القول إخبار عن إتيان ما يأتي ، وصح ذلك من جهة التأكيد ، وإذا كان الخبر حقاً فيؤكد المستقبل بأن يخرج في صيغة الماضي ، أي كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع ، ويحسن ذلك في خبر الله تعالى لصدق وقوعه ، وقال قوم : ﴿ أتى ﴾ بمعنى قرب ، وهذا نحو ما قلت ، وإنما يجوز الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينه التأكيد ويفهم المجاز ، وأما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل ، لأن ذلك يفسد الخبر ويوجب الكذب ، وإنما جاز في

الشرط لوضوح القرينة ب ﴿ أن ﴾ ، ومن قال : إن الأمر القيامة ، قال : إن قوله ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ رد على المكذبين بالبعث القائلين متى هذا الوعد ، ومن قال : إن الأمر تعذيب الكفار بنصر محمد صلى الله عليه وسلم وقتله لهم ، قال إن قوله ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ رد على القائلين ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ [ ص : 16 ] ونحوه من العذاب ، أو على مستبطئي النصر من المؤمنين في قراءة من قرأ بالتاء ، وقرأ الجمهور " فلا تستعجلوه " بالتاء على مخاطبة المؤمنين أو على مخاطبة الكافرين بمعنى قل لهم : " فلا تستعجلوه " ، وقرأ سعيد بن جبير بالياء على غيبة المشركين ، وقرأ حمزة والكسائي بالتاء

*(25/432)*

---

من فوق وجميع الباقين قرأ " يشركون " بالياء ، ورجح الطبري القراءة بالتاء من فوق في الحرفين ، قال أبو حاتم : قرأ " يشركون " بالياء ، من تحت في هذه والتي بعدها الأعرج وأبو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن نصاح والحسن وأبو رجاء ، وقرأ عيسى الأولى بالتاء من فوق ، والثانية بالياء من تحت ، وقرأهما جميعاً بالتاء من فوق أبو العالية وطلحة والأعمش وأبو عبد الرحمن ويحيى بن وثاب والجحدري ، وقد روى الأصمعي عن نافع التاء في الأولى .

وقوله ﴿ سبحانه ﴾ معناه تنزيهاً له ، وحكى الطبري عن ابن جريج ، قال : لما نزلت ﴿

أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ قال رجال من الكفار ، إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى فأمسكوا عما أنتم بسبيله حتى ننظر ، فلما لم يروا شيئاً عادوا فنزلت

(26/432)

---

﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ [ الأنبياء : 1 ] فقالوا مثل ذلك : فنزلت ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه إلا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم ﴾ [ هود : 8 ] ، وقال أبو بكر بن حفص : لما نزلت ﴿ أتى أمر الله ﴾ رفعوا رؤوسهم ، فنزلت ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ ، وحكى الطبري عن أبي صادق أنه قرأ : " يا عبادي أتى أمر الله فلا تستعجلوه " . و ﴿ سبحانه ﴾ نصب على المصدر أي تنزيهاً له ، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي " ينزّل " بالياء وشد الزاي ، ورجحها الطبري لما فيها من التكثير ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي مكسورة وسكون النون ، وقرأ ابن أبي عبلة بالنون التي للعظمة وشد الزاي ، وقرأ قتادة بالنون وتخفيف الزاي وسكون النون ، وفي هذه والتي قبلها شذوذ كثير ، وقرأ أبو عمرو عن عاصم " تُنزَّل الملائكةُ " بضم التاء وفتح النون والزاي وشدها ورفع " الملائكة " على ما لم يسم فاعله ، وهي قراءة الأعمش ، وقرأ الجحدري بالتاء مضمومة وسكون النون وفتح الزاي ، وقرأ

الحسن وأبو العالية وعاصم الجحدري والأعرج بفتح التاء ورفع " الملائكةُ " على أنها فاعلة، ورواها المفضل عن عاصم، و﴿ الملائكة ﴾ هنا جبريل: واختلف المتأولون في ﴿ الروح ﴾ فقال مجاهد ، ﴿ الروح ﴾ النبوة، وقال ابن عباس: الوحي، وقال قتادة: بالرحمة والوحي، وقال الربيع بن أنس: كلا كلام الله روح، ومنه قوله تعالى ﴿ أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [ الشورى: 52 ﴾ وقال ابن جريج: الروح شخص له صورة كصورة بني آدم ما نزل جبريل قط إلا وهو معه، وهو كثير، وهم ملائكة، وهذا قول ضعيف لم يأت به سند ، وقال الزجاج: ﴿ الروح ﴾ ما تحيى به قلوب من هداية الله تعالى.

*(27/432)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول حسن، فكأن اللفظة على جهة التشبيه بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد ، ألا ترى قوله ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً ﴾ [ الأنعام: 122 ] .

قال القاضي أبو محمد : و﴿ من ﴾ في هذه الآية على هذا التأويل الذي قدرنا للتبعيض، وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من يشاء ﴾ هي للأنبياء،

و ﴿ أن ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿ الروح ﴾ ، ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الخافض على تقدير بأن أنذروا ، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى أي ، وقرأ الأعمش " لينذروا أنه " ، وحسنت النذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان المنذرون كافرين بالألوهية ، ففي ضمن أمرهم مكان خوف ، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عما كانوا عليه ووعيد ، ثم ذكر تعالى ما يقال للأنبياء بالوحي على المعنى ، ولم يذكره على لفظه لأنه لو ذكره على اللفظ لقال " أن أنذروا أنه لا إله إلا الله " ، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه ، وهذا سائغ في الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها ، أو تحكى بالمعنى فقط ، وقوله تعالى : ﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ الآية ، آية تنبيه على قدرة الله تعالى بالحق أي بالواجب اللائق ، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد ، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيء من صفات الربوبية ، وقرأ الأعمش بزيادة فاء " فتعالى " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

قيل : "أَتَى" بمعنى يأتي ؛ فهو كقولك : إن أكرمتني أكرمتك .

وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء ؛ لأنه آتٍ لا محالة ، كقوله : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار ﴾ [ الأعراف : 44 ] .

و"أمر اللَّهِ" عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله .

قال الحسن وابن جُرَيج والضحاك : إنه ما جاء به القرآن من فرائضه وأحكامه .

وفيه بعد ؛ لأنه لم يُنقل أن أحداً من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم ، حتى قال النّضر بن الحارث : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [ الأنفال : 32 ] الآية ، فاستعجل العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضي الله عنه : وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر ؛ خرّجه مسلم والبخاري .

وقد تقدم في سورة البقرة .

وقال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور ﴾ [ هود : 40 ] .

وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها .

قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [ القمر : 1 ] قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قَرُبت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئاً ، فقالوا : ما نرى شيئًا فنزلت ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [ الأنبياء : 1 ] الآية .

فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئًا فنزلت "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ" فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ؛ فنزلت "فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ" فاطمأنوا ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبابة والتي تليها .

يقول : إن كادت لتسبقني فسبقتها .



---

وقال ابن عباس : كان بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لما مرّ بأهل السموات مبعوثاً إلى محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزيهاً له عما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك .

وقيل : "عَمَّا يُشْرِكُونَ" أي عن إشراكهم .

وقيل : "ما" بمعنى الذي ، أي ارتفع عن الذين أشركوا به .

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) ﴾

قرأ المفضّل عن عاصم "تَنَزَّلُ الملائكةُ" والأصل تتنزل ، فالفعل مسند إلى الملائكة .

وقرأ الكسائي عن أبي بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش "تُنَزَّلُ الملائكة" غير مسمى الفاعل .

وقرأ الجُعْفيّ عن أبي بكر عن عاصم "نُنَزِّلُ الملائكةَ" بالنون مسمى الفاعل ، الباقون "يُنَزِّل" بالياء مسمى الفاعل ، والضمير فيه لاسم الله عز وجل .

وروي عن قتادة "نُنْزِل الملائكةَ" بالنون والتخفيف .

وقرأ الأعمش "تَنْزِل" بفتح التاء وكسر الزاي ، من النزول .

"الملائكةُ" رفعاً مثل ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [ القدر : 4 ] .

﴿ بالروح ﴾ أي بالوحي وهو النبوّة ؛ قاله ابن عباس .

نظيره ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ غافر : 15 ] .

الربيع بن أنس : بكلام الله وهو القرآن .

وقيل : هو بيان الحق الذي يجب اتباعه .

وقيل : أرواح الخلق ؛ قاله مجاهد ، لا ينزل ملك إلا ومعه روح .

وكذا روي عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم ، لا ينزل من السماء مَلَك إلا ومعه واحد منهم .

وقيل بالرحمة ؛ قاله الحسن وقتادة .



---

وقيل بالهداية ؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو معنى قول الزجاج .

قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره .

وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل .

والباء في قوله : "بالروح" بمعنى مع ، كقولك : خرج بثيابه ، أي مع ثيابه .

﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي بأمره .

﴿ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي على الذين اختارهم الله للنبوّة .

وهذا ردّ لقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

﴿ أَنْ أنذروا أَنَّهُ لَا إِله إِلَّآ أَنَاْ فاتقون ﴾ تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء الإنذار ؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه .

ودلّ على ذلك قوله : "فاتقون" .

و"أَنْ" في موضع نصب بنزع الخافض ، أي بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، ف "أن" في محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه .

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾

أي للزوال والفناء .

وقيل : "بالحق" أي للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبّد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت .

﴿ تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي من هذه الأصنام التي لا تقدر على خلق شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ يعني جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب : أتاك الأمر وهو متوقع المجيء ، بعدما أتى ، ومعنى الآية أتى أمر الله وعداً ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ يعني وقوعاً بالمراد به مجيء القيامة .

قال ابن عباس : لما نزل قوله سبحانه وتعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال الكفار : بعضهم لبعض إن هذا الرجل يزعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نرى شيئاً فنزل قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ فأشفقوا فلما امتدت الأيام ، قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزل ﴿ أتى أمر الله ﴾ فوثب النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ورفع الناس رؤوسهم ، وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فاطمأنوا ، والاستعجال طلب مجيء الشيء قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبي ( صلى الله عليه وسلم ) : " بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما " أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد ( ق ) عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل إحداهما على الأخرى ، وضم السبابة إلى الوسطى " وفي رواية " بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الأخرى " قال ابن عباس : كان مبعث النبي ( صلى الله عليه وسلم ) من أشراط الساعة ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثاً إلى

النبي (صلى الله عليه وسلم) قالوا : الله أكبر قامت الساعة قال قوم : المراد بالأمر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك أن النضر بن الحرث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية، وقلت النضر يوم بدر صبراً ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ يعني تنزه الله وتعاظم بالأوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون.

(32/432)

---

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ينزل الملائكة والروح ﴾ يعني بالوحي ﴿ من أمره ﴾ وإنما سمي الأمر روحاً لأنه تحيا القلوب من موت الجهالات وقال عطاء : بالنبوة.

وقال قتادة : بالرحمة.

وقيل : الروح هون جبريل والباء بمعنى مع يعني ينزل مع الروح وهون جبريل ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ يعني على من يصطفيه من عباده للنبوة، والرسالة وتبليغ الوحي إلى الخلق ﴿ أن أنذروا ﴾ يعني بأن اعلموا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ أي فخافون.

وقيل : معناه مروا بقول لا إله إلا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن.

﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾

تقدم تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(33/432)

---

وقال أبو حيان :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، وجابر : هي كلها مكية .

وقال ابن عباس : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد حمزة وهي قوله : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ إلى قوله : ﴿ بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقيل : إلا ثلاث آيات ﴿ وإن عاقبتم ﴾ الآية نزلت في المدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد ، وقوله : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ وقوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا ﴾ وقيل : من أولها إلى قوله : ﴿ يشركون ﴾ مدني وما سواه مكي .

وعن قتادة عكس هذا .

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه تعالى لما قال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ كان ذلك تنبيهاً على حشرهم يوم القيامة ، وسؤالهم عما أجرموه في دار الدنيا ، فقيل : أتى أمر الله وهو يوم

القيامة على قول الجمهور .

وعن ابن عباس المراد بالأمر : نصر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وظهوره على الكفار .

وقال الزمخشري : كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيباً بالوعد انتهى .

وهذا الثاني قاله ابن جريج قال : الأمر هنا ما وعد الله نبيه من النصر وظفره بإعدائه ، وانتقامه منهم بالقتل والسبي ونهب الأموال ، والاستيلاء على منازلهم وديارهم .

وقال الضحاك : الأمر هنا مصدر أمر ، والمراد به : فرائضه وأحكامه .

قيل : وهذا فيه بعد ، لأنه لم ينقل أنّ أحداً من الصحابة استعجل فرائض من قبل أن تفرض عليهم .

وقال الحسن وابن جريج أيضاً : الأمر عقاب الله لمن أقام على الشرك ، وتكذيب الرسول ، واستعجال العذاب منقول عن كثير من كفار قريش وغيرهم .

وقريب من هذا القول قول الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم .

وقيل : الأمر بعض أشراط الساعة .

وأتى قيل : باق على معناه من المضي ، والمعنى : أقي أمر الله وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً .

وقيل : أتى أمر الله ، أتت مبادئه وأماراته .

وقيل : عبر بالماضي عن المضارع لقرب وقوعه وتحققه ، وفي ذلك وعيد للكفار .

وقرأ الجمهور : تستعجلوه بالتاء على الخطاب ، وهو خطاب للمؤمنين أو خطاب للكفار على معنى : قل لهم فلا تستعجلوه .

وقال تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ وقرأ ابن جبير : بالياء نهياً للكفار ، والظاهر عود الضمير في فلا تستعجلوه على الأمر لأنه هو المحدث عنه .

وقيل : يعود على الله أي : فلا تستعجلوا الله بالعذاب ، أو بإتيان يوم القيامة كقوله : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ وقرأ حمزة والكسائي : تشركون بتاء الخطاب ، وباقي السبعة والأعرج وأبوه جعفر ، وابن وضاح ، وأبو رجاء ، والحسن .

وقرأ عيسى : الأولى بالتاء من فوق ، والثانية بالياء والتاء من فوق معاً ؛ الأعمش ، وأبو العالية ، وطلحة ، وأبو عبد الرحمن ، وابن وثاب ، والجحدري ، وما يحتمل أن تكون بمعنى الذي ومصدرية .

وأفضل قراءته عما يشركون باستعجالهم ، لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب ، وذلك من الشرك .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ينزل مخففاً ، وباقي السبعة مشدداً ، وزيد بن علي والأعمش

وأبو بكر : تنزل مشدداً مبنياً للمفعول ، الملائكة بالرفع .

والجحدري كذلك ، إلا أنه خفف .

والحسن ، وأبو العالية ، والأعرج ، والمفضل ، عن عاصم ويعقوب : بفتح التاء مشدداً مبنياً للفاعل .

وقرأ ابن أبي عبلة : ما ننزل بنون العظمة والتشديد ، وقتادة بالنون والتخفيف .

قال ابن عطية : وفيهما شذوذ كثير انتهى .



---

وشذوذهما أنّ ما قبله وما بعده ضمير غيبة ، ووجهه أنه التفات ، والملائكة هنا جبريل وحده قاله الجمهور ، أو الملائكة المشار إليهم بقوله : ﴿ والنازعات غرقاً ﴾ وقال ابن عباس : الروح الوحي تنزل به الملائكة على الأنبياء ، ونظيره : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ وقال الربيع بن أنس : هو القرآن ، ومنه ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ وقال مجاهد : المراد بالروح أرواح الخلق ، لا ينزل ملك إلا ومعه روح .

وقال الحسن وقتادة : الروح الرحمة .

وقال الزجاج : ما معناه الروح الهداية لأنها تحيا بها القلوب ، كما تحيا الأبدان بالأرواح .

وقيل : الروح جبريل ، ويدل عليه : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وتكون الباء للحال أي : ملتبسة بالروح.

وقيل : بمعنى مع ، وقيل : الروح حفظة على الملائكة لا تراهم الملائكة ، كما الملائكة حفظة علينا لا تراهم.

وقال مجاهد أيضاً : الروح اسم ملك ، ومنه : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ وعن ابن عباس : أنّ الروح خلق من خلق الله كصور ابن آدم ، لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم ، وقال نحوه ابن جريج.

قال ابن عطية : وهذا قول ضعيف لم يأت به سند.

وقال الزمخشري : بالروح من أمره ، بما تحيا به القلوب الميتة بالجهل ، من وحيه أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد انتهى.

ومِنْ للتبعيض ، أو لبيان الجنس.

ومن يشاء : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأنْ مصدرية ، وهي التي من شأنها أن تنصب المضارع ، وصلت بالأمر كما وصلت في قولهم : كتبت إليه بأنْ قم ، وهو بدل من الروح.

أو على إسقاط الخافض : بأن أنذروا ، فيجري الخلاف فيه : أهو في موضع نصب ؟ أو في موضع خفض ؟ وقال الزمخشري : وأن أنذروا بدلاً من الروح أي : ننزلهم بأن أنذروا ،

وتقديره : أنذروا أي : بأن الشأن أقول لكم أنذروا .

أنه لا إله إلا أنا انتهى .

(36/432)

---

فجعلها المخفف من الثقيلة ، وأضمر اسمها وهو ضمير الشأن ، وقدر إضمار القول : حتى يكون الخبر جملة خبرية وهي أقول ، ولا حاجة إلى هذا التكلف مع سهولة كونها الشانية التي من شأنها نصب المضارع .

وجوّز ابن عطية ، وأبو البقاء ، وصاحب الغنيان : أن تكون مفسرة فلا موضع لها من الإعراب ، وذلك لما في التنزل بالوحي من معنى القول أي : أعلموا الناس من نذرت بكذا إذا أعلمته .

قال الزمخشري : والمعنى يقول لهم : أعلموا الناس قولي لا إله إلا أنا فاتقون انتهى .

لما جعل أنْ هي التي حذف منها ضمير الشأن قدر هذا التقدير وهو يقول لهم : أعلموا .

وقرىء : لينذروا أنه ، وحسنت النذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان المنذرون كافرين بألوهيته ، ففي ضمن أمرهم مكان خوف ، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عما كانوا عليه ، ووعيد وتحذير من عبادة الأوثان .

ومعنى : فاتقون أي اتقوا عقابي باتخاذكم إلهاً غيري .

وجاءت الحكاية على المعنى في قوله : إلا أنا ، ولو جاءت على اللفظ لكان لا إله إلا الله ، وكلاهما سائغ .

وحكاية المعنى هنا أبلغ إذ فيها نسبة الحكم إلى ضمير المتكلم المنزل الملائكة ، ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض ، وهم مقرون بأنه تعالى هو خالقها .

وبالحق أي : بالواجب اللائق ، وذلك أنها تدل على صفات تحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، بخلاف شركائهم التي لا يحق لها شيء من ذلك .

وقرأ الأعمش : فتعالى بزيادة فاء ، وجاءت هذه الجملة منبهة على تنزيه الله تعالى موجد هذا العالم العلوي والعالم السفلي عن أن يتخذ معه شريك في العبادة . انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ أي الساعةُ أو ما يعُمها وغيرَها من العذاب الموعود للكفرة ، عبّر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققَه في نفسه وإتيانِه منوطٌ بحكمه النافذِ وقضائِه الغالب ، وإتيانُه عبارةٌ عن دنوّه واقترابه على طريقة نظمِ المتوقَّعِ في سلك الواقع ، أو عن إتيان مباديه القريبةِ على نهج إسنادِ حال الأسبابِ إلى المسبَّبات . وأياً ما كان ففيه تنبيهٌ على كمال قربِه من الوقوع واتصالِه وتكميلٌ لحسن موقع التفريعِ في قوله عز وجل : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فإن النهيَ عن استعجال الشيءِ وإن صح تفريعُه على قرب وقوعِه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعِه على وقوعه ، إذ بالوقوع يستحيل الاستعجالُ رأساً لا بما ذكر من قرب وقوعِه ووقوعِ مباديه ، والخطابُ للكفرة خاصة كما يدل عليه القراءةُ على صيغة نهي الغائبِ ، واستعجالُهم وإن كان بطريق الاستهزاءِ ، لكنه حُمل على الحقيقة ونُهوا عنه بضرب من التهكم لا مع المؤمنين ، سواءٌ أريد بأمر الله ما ذُكر أو العذابُ الموعود للكفرة خاصة ، أما الأولُ فلأنه يتصور من المؤمنين استعجالُ الساعة أو ما يعمها وغيرَها من العذاب حتى يعمهم النهيُ عنه ، وأما الثاني فلأن استعجالَهم له بطريق الحقيقةِ واستعجالَ الكفرة بطريق الاستهزاءِ كما عرَفْتَه فلا ينتظمُهما صيغةٌ واحدة ، والالتجاءُ إلى إرادة معنىً مجازيَ يعمهما معاً من غير أن يكون هناك رعايةُ نكتة سرّية تعسفٌ لا يليق بشأن التنزيلِ الجليلِ ، وما روي من أنه لما نزلت ﴿ اقتربت الساعة ﴾ قال

الكفار فيما بينهم : إن هذا يزعُم أن القيامة قد قرُبت ، فأمسِكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائنٌ ، فلما تأخّرت قالوا : ما نرى شيئاً فنزلت ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ فأشفقوا وانتظروا قُربها ، فلما امتدت الأيامُ قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فوثب رسولُ الله صلى

(38/432)

---

الله عليه وسلم فرفع الناسُ رؤوسَهم فلما نزل ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ اطمأنوا ، فليس فيه دِلالةٌ على عموم الخطاب كما قيل لا لما تُوهم من أن التصديرَ بالفاء يأباه ، فإنه بمعزل عن إبائه حسبما تحقّقتَه بل لأن مناطَ اطمئنانِهم إنما هو وقوفُهم ، على أن المرادَ بالإتيان هو الإتيانُ الادّعائي لا الحقيقيُّ الموجبُ لاستحالة الاستعجالِ المستلزِمةِ لامتناع النهي عنه ، لِما أن النهيَ عن الشيء يقتضي إمكانَه في الجملة ، ومدار ذلك الوقوف إنما هو النهي عن الاستعجال المستلزمِ لإمكانه المقتضي لعدم وقوعِ المستعجَل بعدُ ، ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجِل كائناً مَنْ كان بل فيه دَلالةٌ واضحة على عدم العمومِ لأن المراد بأمر الله إنما هو الساعةُ ، وقد عرفت استحالةَ صدور استعجالِها عن المؤمنين ، نعم يجوز تخصيصُ الخطاب بهم على تقديرِ كونِ أمر الله عبارةً عن العذاب الموعودِ للكفرة خاصة ،

لكن الذي يقضي به الإعجازُ التنزيليُّ أنه خاصٌّ بالكفرة كما ستقف عليه ، ولمّا كان استعجالُهم ذلك من نتائج إشراكِهم المستتبعِ لنسبة الله عز وجل إلى ما لا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير ، واعتقادِ أن أحداً يحجُزه عن إنجاز وعدِه وإمضاء وعيدِه ، وقد قالوا في تضاعيفه : إن صح مجيءُ العذاب فالأصنامُ تخلّصنا عنه بشفاعتها ، رُدَّ ذلك فقيل بطريق الاستئناف : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه وتقدّس بذاته وجل عن إشراكهم المؤدِّي إلى صدور أمثالِ هذه الأباطيلِ عنهم ، أو عن أن يكون له شريكٌ فيدفعَ ما أراد بهم بوجه من الوجوه ، وصيغةُ الاستقبالِ للدلالة على تجدد إشراكِهم واستمرارِه ، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء ذكرِ قبائحِهم للإعراض عنهم وطرحِهم عن رتبة الخطاب ، وحكايةِ شنائعهم لغيرهم ، وعلى تقدير تخصيصِ الخطابِ بالمؤمنين تفوت هذه النُّكتةُ كما يفوت ارتباطُ المنهيِّ عنه ، وقُرىء على صيغة الخطاب .

(39/432)

---

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ بيانٌ لتحتم التوحيدِ حسبما نُبّه عليه تنبيهاً إجمالياً ببيان تقدّس جنابِ الكبرياءِ وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبةُ أن يشاركه شيءٌ في شيء ، وإيذانٌ بأنه دينٌ أجمع عليه جمهورُ الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام وأُمروا بدعوة الناسِ إليه مع الإشارة

إلى سر البعثةِ والتشريعِ وكيفية إلقاءِ الوحي ، والتنبيهِ على طريق علمِ الرسول عليه الصلاة والسلام بإتيان ما أوعدهم به وباقترابه إزاحةً لاستبعادهم اختصاصَه عليه الصلاة والسلام بذلك ، وإظهاراً لبُطلان رأيهم في الاستعجال والتكذيب ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للإشعار بأن ذلك عادةٌ مستمرةٌ له سبحانه ، والمرادُ بالملائكة إما جبريلُ عليه السلام ، قال الواحدي : يسمَّى الواحدُ بالجمع إذا كان رئيساً أو هو ومَنْ معه من حفَظَة الوحي بأمر الله تعالى ، وقرىء يُنْزِل من الإنزال وتَنَزَّلُ بحذف إحدى التاءين وعلى صيغة المبني للمفعول من التنزيل ﴿ بالروح ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآنُ على نهج الاستعارةِ ، فإنه يحيي القلوبَ الميتة بالجهل ، أو يقوم في الدين مقامَ الروح في الجسد ، والباء متعلقةٌ بالفعل أو بما هو حالٌ من مفعوله أي ملتبسين بالروح ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بيان للروح الذي أريد به الوحي ، فإنه أمرٌ بالخير أو حال منه أي حال كَونِه ناشئاً ومبتدأً منه ، أو صفةٌ له على رأي من جوّز حذفَ الموصول مع بعضِ صلته أي بالروح الكائن من أمره الناشيءِ منه ، أو متعلقٌ بينزّل ومِنْ للسببية كالباء مثلُ ( ما ) في قوله تعالى : ﴿ مّمَّا خطيئاتهم ﴾ أي ينزلهم بأمره ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي ينزّلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهّلهم لذلك ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ ﴾ بدلٌ من الروح ، أي ينزّلهم ملتبسين بأن أنذِروا أي بهذا القول ، والمخاطَبون به الأنبياءُ الذين نزلت الملائكةُ عليهم ، والآمرُ هو الله سبحانه والملائكةُ نَقَلَةٌ للأمر كما يُشعر به الباء في

المبدَل منه ، و ( أنْ ) إما مخففةٌ من أنّ وضميرُ الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ ، أي ينزلهم ملتبسين بأن الشأنَ أقول لكم : أنذِروا ، أو مفسّرةٌ على أن تنزيلَ الملائكة بالوحي فيه معنى القولِ ، كأنه قيل : يقول بواسطة الملائكةِ لمن يشاء من عباده : أنذروا فلا محل لها من الإعراب ، أو مصدريةٌ لجواز كون صلتِها إنشائيةً كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ حسبما ذكر في أوائل سورة هودٍ فمحلُّها الجرُّ على البدلية أيضاً ، والإنذارُ الإعلام خلا أنه مختصٌّ بإعلام المحذورِ من نذر بالشيء إذا علمه فحذِرَه ، وأنذره بالأمر إنذاراً أي أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه كذا في القاموس أي أعلِموا الناس ﴿ أَنَّهُ لا إله إلا أَنَاْ ﴾ فالضمير للشأن ، ومدارُ وضعِه موضعَه ادعاءُ شهرته المغنيةِ عن التصريح به ، وفائدةُ تصديرِ الجملة به الإيذانُ من أول الأمر بفخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريرٍ له في الذهن ، فإن الضميرَ لا يفهم منه ابتداءً إلا شأنٌ مبهمٌ له خطر ، فيبقى الذهنُ مترقباً لما يعقُبه مترقباً فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن ، كأنه قيل : أنذروا أن الشأنَ الخطير هذا ، وإنباءُ مضمونِه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصافُ المنذَرين بما يضادُّه من الإشراك وذلك كافٍ في كون إعلامِه إنذاراً ، وقوله سبحانه : ﴿ فاتقون ﴾ خطابٌ للمستعجلين

على طريقة الالتفاتِ ، والفاءُ فصيحةٌ أي إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادتِه تعالى بتنزيل الملائكةِ على الأنبياء عليهم السلام وأمرِهم بأن ينذِروا الناسِ أنه لا شريك له في الألوهية ، فاتقون في الإخلال بمضمونه ومباشرةِ ما ينافيه من الإشراك وفروعِه التي من جملتها الاستعجالُ والاستهزاءُ .

وبعد تمهيدِ الدليل السمعيِّ للتوحيد شرِعِ في تحرير الأدلة العقلية فقيل :

(41/432)

---

﴿ خلقَ السموات والأرض بالحق ﴾ أي أوجدهما على ما هما عليه من الوجه الفائق والنمطِ اللائق ﴿ تَعَالَى ﴾ وتقدّس بذاته لا سيما بأفعاله التي من جملتها إبداعُ هذين المخلوقين ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكهم المعهودِ أو عن شركة ما يشركونه به من الباطل الذي لا يُبدىء ولا يعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(42/432)

---

وقال الآلوسى :

ولما ذكر في آخر السورة السابقة المستهزؤن المكذبون له صلى الله تعالى عليه وسلم ابتديء هنا بعد قوله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾

بقوله عز وجل : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

المناسب لذلك على ما ذكر غير واحد في معناه وسبب نزوله .

وفي "البحر" في بيان وجه الارتباط أنه تعالى لما قال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 92 ] كان ذلك تنبيهاً على حشرهم يوم القيامة وسؤلهم عما فعلوه في الدنيا فقيل : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فإن المراد به على قول الجمهور يوم القيامة ، وذكر الجلال السيوطي أن آخر الحجر شديدة الالتئام بأول هذه فإن قوله سبحانه : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [ الحجر : 99 ] الذي هو مفسر بالموت ظاهر المناسبة بقوله سبحانه هنا : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ وانظر كيف جاء في المتقدمة ﴿ يَأْتِيَكَ ﴾ بلفظ المضارع وفي المتأخرة ﴿ أتى ﴾ بلفظ الماضي لأن المستقبل سابق على الماضي كما تقرر في محله ، والأمر واحد الأمور وتفسيره بيوم القيامة كما قال في "البحر" وفسر بما يعمه وغيره من نزول العذاب الموعود للكفرة ، وعن ابن جريج تفسيره بنزول العذاب فقط فقال : المراد بالأمر هنا ما وعد الله

تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من النصر والظفر على الأعداء والانتقام منهم بالقتل والسبي ونهب الأموال والاستيلاء على المنازل والديار ، وأخرج ابن جرير .

(43/432)

---

وغيره عن الضحاك أن المراد به الأحكام والحدود والفرائض ، وكأنه حمله على ما هو أحد الأوامر وفيما ذكره بعد إذ لم ينقل عن أحد أنه استعجل فرائض الله تعالى وحدوده سبحانه ، والتعبير عن ذلك بأمر الله للتهويل والتفخيم ، وفيه إيذان بأن تحققه في نفسه وإتيانه منوط بحكمه تعالى النافذ وقضائه الغالب ، وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع في سلك الواقع ، وجوز أن يكون المراد إتيان مباديه فالماضي باق على حقيقته ، ولعل ما أخرجه ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر الأمر بخروج النبي صلى الله عليه وسلم مؤيد لما ذكر وبعضهم أبقى الفعل على معناه الحقيقي وزعم أن المعنى أتى أمر الله وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً وهو كما ترى ، وظاهر صنيع الكثير يشعر باختيار أن الماضي بمعنى المضارع على طريق الاستعارة بتشبيه المستقبل المتحقق بالماضي في تحقق الوقوع والقرينة عليه قوله سبحانه فإنه لو وقع ما استعجل .

(44/432)

وهو الذي يميل إليه القلب ، والضمير المنصوب في ﴿ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ على ما هو الظاهر عائد على الأمر لأنه هو المحدث عنه ، وقيل : يعود على الله سبحانه أي فلا تستعجلوا الله تعالى بالعذاب أو بإتيان يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ﴾ [ الحج : 47 ] وهو خلاف الظاهر ، لكن قيل : إن ذلك أوفق بما بعد ، والخطاب للكفرة خاصة ويدل عليه قراءة ابن جبير ﴿ فَلا ﴾ على صيغة نهي الغائب ، واستعجالهم وإن كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا بضرب من التهكم لا مع المؤمنين سواء أريد بأمر الله تعالى ما قدمنا أو العذاب الموعود للكفرة خاصة ، أما الأول : فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها من العذاب حتى يعمهم النهي عنه ، وأما الثاني : فلأن الاستعجال من المؤمنين حقيقة ومن الكفرة استهزاء فلا ينظمها صيغة واحدة والالتجاء إلى إرادة معنى مجازي يعمهما معاً غير أن يكون هناك نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل .

(45/432)

وادعى بعضهم عموم الخطاب واستدل بما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [ القمر : 1 ] قال الكفار فيما بينهم : أن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى تنظروا ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً فنزلت ﴿ اقتربت لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ [ الأنبياء : 1 ] فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوفنا به فنزلت ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ اطمأنوا ثم قال صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه إن كادت لتسبقني " ولا دلالة فيه على ذلك لأن مناط اطمأنانهم إنما هو وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الإتيان الإدعائي لا الحقيقي الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهي عنه لما أن النهي عن الشيء يقتضي إمكانه في الجملة ، ومدار ذلك الوقوف إنما هو النهي عن الاستعجال المستلزم لإمكانه المقتضي عدم وقوع المستحيل بعد ، ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائناً من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر الله إنما هو الساعة وصدور استعجالها عن المؤمنين مستحيل .

نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله تعالى العذاب الموعود للكفرة خاصة ، لكن الذي يقضي به الإعجاز التنزيلي أنه خاص بالكفرة كذا قاله أبو السعود .

وبحث فيه من وجوه ، أما أولاً : فلأن الذي لا يتصور من المؤمنين الاستعجال بمعنى طلب الوقوع عاجلاً لاعده عاجلاً وسياق ما روى يدل على الأخير ، فإنه لما سمعوا صدر الكلام حملوه على الظاهر فاضطربوا فقيل لهم : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أي لا تعدوه عاجلاً ، على أن عدم تصور المعنى الأول أيضاً منهم في حيز المنع لجواز أن يستعجلوه لتشفي صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم والاستهزاء بهم والضحك منهم ، وأما ثانياً : فلأن الجمع بين الحقيقة والمجاز لعله مذهب ذلك القائل ، وأما ثالثاً : فلأن القول بكون القراءة على صيغة نهي الغائب دالة على أن الخطاب مخصوص بالكفرة ممنوع والسند ظاهر ، وأما رابعاً : فلأن نفي دلالة ما روي على العموم الخطاب غير موجه لعموم لفظ الناس ، وأما خامساً : فلأن قوله : بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لأن المراد بأمر الله تعالى إنما هو الساعة إلى آخره ، يرد عليه أنه لا دلالة فيه أصلاً على عدم العموم فضلاً أن تكون واضحة ، وقد عرفت ما في قوله : وقد عرفت وأما سادساً : فلأن حصره المراد بالأمر في الساعة مخالف لما ذكره في تفسير قوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ حيث قال : أي الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب فبعد هذا التصريح كيف يدعي ذلك الحصر ؟ وفي بعض الأبحاث نظر .

وقال بعض الفضلاء : قد يقال : إن المراد بالناس في الخبر المؤمنون لما في خبر آخر أخرجه ابن مردويه عن الحبر قال : "لما نزلت ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ ذعر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فسكنوا" .

(47/432)

---

وهذا أيضاً على ما قيل لا يقتضي كون الخطاب للمؤمنين لجواز أن يقال : إنهم لما سمعوا أول الآية ذعروا واضطربوا لظن أنه وقع فلما سمعوا خطاب الكفرة بقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ اطمأنت قلوبهم وسكنوا ، وقد يورد على دعوى أن صدور استعجال الساعة من المؤمنين مستحيل أن ذلك حق لو كان استعجالهم على طرز استعجال الكفرة لها وليس ذلك بمسلم فإنه يجوز أن يراد باستعجالهم اضطرابهم وتهيؤهم لها المنزل منزلة الاستعجال الحقيقي ، واستدل على كون الخذاب للكفرة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فإنه على ذلك التقدير يظهر ارتباطه بما قبله وذلك بأن يقال حينئذ : لما كان استعجالهم ذلك من من نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله تعالى إلى ما لا يليق به سبحانه من العجز والاحتياج إلى الغير واعتقادهم أن أحداً يحجزه عن إمضاء وعيده أو انجاز وعده قيل بطريق الاستئناف ذلك على معنى تنزه وتقدس بذاته وجل عن

إشراكهم المؤدي إلى صدور أمثال هذه الأباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه وقد كانوا يقولون على ما في بعض الروايات : إن صح مجيء ذلك فالأصنام تخلصنا عنه بشفاعتها لنا ، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد إشراكهم واستمراره والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم للغير وهذا لا يتأتى على تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين وقيل في وجه الارتباط على ذلك التقدير : أنه تعالى لما نهاهم عن الاستعجال ذكر ما يتضمن أن إنذاره سبحانه وإخباره تعالى للتخويف والإرشاد وأن قوله جل وعلا : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ إنما هو لذلك فيستعد كل أحد لمعاده ويشتغل قبل السفر بتهيئة زاده فلذلك عقب بذلك دون عطف ، وقد أشار بعضهم إلى ارتباط ذلك باعتباره ما بعده فيكون ما ذكر مقدمة واستفتاحاً له ، وأيضاً فإن قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾



---

تنبيه وإيقاظ لما يرد بعده من أدلة التوحيد اه ، وأنت تعلم أن الارتباط على ما قرر أولاً أظهر منه على هذا التقرير فافهم ، ثم إن ﴿ مَا ﴾ تحتمل الموصولية والمصدرية والاحتمال الثاني أظهر ، ولا بد على الاحتمال الأول من اعتبار ما أشرنا إليه وإلا فلا يظهر التنزيه عن

الشريك.

وقرأ حمزة.

والكسائي ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بتاء الخطاب على وفق ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وقرأ باقي السبعة.

والأعرج.

وأبو جعفر.

وأبو رجاء.

والحسن.

بياء الغيبة، وقد تقدم أن في الكلام حينئذ التفاتاً وهو مبني على أن الخطاب السابق للكفرة أما إذا كان للمؤمنين أو لهم وللكفرة فلا يتحد معنى الضميرين حتى يكون التفات ولا التفات أيضاً على قراءة ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بالتاء سواء كان الخطاب الأول للكفرة أو لهم وللمؤمنين. نعم في ذلك على قدير عموم الخطاب تغليبان على ما قيل الأول تغليب المؤمنين على غيرهم في الخطاب والثاني تغليب غيرهم عليهم في نسبة الشرك، وعلى قراءة ﴿ يستعجلوه، ويشركون ﴾ بالتحتية فيهما لا التفات ولا تغليب.

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾

قيل هو إشارة إلى طريق علم الرسول صلى الله عليه وسلم بإتيان ما أوعد به وباقترابه

إزاحة لاستبعاد اختصاصه عليه الصلاة والسلام بذلك، وقال في "الكشف": التحقيق أن قوله سبحانه ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل: 1] تنبيه وإيقاظ ليكون ما يرد بعده ممكناً في نفس حاضرة ملقية إليه وهو تمهيد لما يرد من دلائل التوحيد وقوله تعالى: ﴿ يُنَزّلُ الملائكة ﴾ الخ تفصيل لما أجمل في قوله سبحانه وتعالى أيقظ أولاً ثم نعى عليهم ما هم فيه من الشرك ثم أردفه بدلائل السمع والعقل، وقدم السمعي لأن صاحبه هو القائمون بالأمرين جميعاً فافهم.

وأخذ سيبويه منه أن جعل ﴿ يُنَزّلٍ ﴾ حالاً من ضمير ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: 1] لا يطابق المقام البتة انتهى.

(49/432)

---

وما ذكره من أمر الحالية إشارة إلى الاعتراض على شيخه العلامة الطيبي حيث جعل ذلك أحد احتمالين في الجملة، ثانيهما: مستأنفة وهو الظاهر، وما أشار إليه من وجه الربط وادعى أنه التحقيق لا يخلو عما هو خلاف المتبادر، والتعبير بصيغه الاستقبال للإشارة إلى أن التنزيل عادة مستمرة له تعالى، والمراد بالملائكة عند الجمهور جبريل عليه السلام ويسمى الواحد بالجمع كما قال الواحدي إذا كان رئيساً، وعند بعض هو عليه السلام ومن

معه من حفظة الوحي .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يُنزِلٍ ﴾ مخففاً من الإنزال ، وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهما .

والأعمش .

وأبو بكر ينزل مشدداً مبنياً للمفعول والملائكة بالرفع على أنه نائب الفاعل والجحدري كذلك إلا أنه خفف ، وأبو العالية والأعرج .

والمفضل عن عاصم ﴿ تُنَزَّل ﴾ بتاء لوقية مفتوحة وتشديد الزاي مبنياً للفاعل وقد حفف منه أحد التاءين وأصله تتنزل ، وابن أبي عبلة ﴿ نُنَزِّلُ ﴾ بنون العظمة والتشديد ، وقتادة بالنون والتخفيف ، وفي هاتين القراءتين كما في البحر التفات ﴿ بالروح ﴾ أي الوحي كما أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ويدخل في ذلك القرآن ، وروى عن الضحاك .



---

والربيع بن أنس الاقتصار عليه ، وأياماً كان فإطلاق ﴿ الروح ﴾ على ذلك بطريق الاستعارة المصرحة المحققة ، ووجه الشبه أن الوحي يحيى القلوب الميتة بداء الجهل

والضلال أو أنه يكون به قوام الدين كما أن بالروح يكون قوام البدن ، ويلزم ذلك استعارة مكنية وتخييلية وهي تشبيه الجهل والضلال بالموت وضد ذلك بالحياة أو تشبيه الدين بإنسان ذي جسد وروح ، وهذا كما إذا قلت : رأيت بحراً يغترف الناس به وشمساً يستغيثون بها فإنه يتضمن تشبيه علم الممدوح بالماء العظيم والنور الساطع لكنه جاء من عرض فليس كأظفار المنية وليس غير كونه استعارة مصرحة ، وجعل ذلك في الكشف من قبيل الاستعارة بالكناية وليس بذاك ، والباء متعلقة بالفعل السابق أو بما هو حال من مفعوله أي ينزل الملائكة ملتبسين بالروح ، وقول سبحانه : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بيان للروح المراد به الوحي ، والأمر بمعنى الشأن واحد الأمور ، ولا يخرج ذلك الروح من الاستعارة إلى التشبيه كما قيل في قوله تعالى :

﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الابيض مِنَ الخيط الاسود مِنَ الفجر ﴾ [ البقرة : 187 ] لما قالوا : من أن بينهما بوناً بعيداً لأن نفس الفجر عين المشبه شبه بخيط ، وليس مطلق الأمر بالمعنى السابق مشبهاً به ولذا بينت به الروح الحقيقية في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبّى ﴾ [ الإسراء : 85 ] كما تبين به المجازية ، ولو قيل : يلقى أمره الذي هو الروح لم يخرج عن الاستعارة فليس وزان ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ وزان ﴿ مِنَ الفجر ﴾ [ البقرة : 187 ] وليس كل بيان مانعاً من الاستعارة كما يتوهم من كلام المحقق في "شرح التلخيص" .

وجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من الروح على معنى حال كونه ناشئاً ومبتدأ منه أو صفة له على رأي من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أي بالروح الكائن من أمره أو متعلقاً بينزل و ﴿ مِنْ ﴾ سببية أو تعليلية أو ينزل الملائكة بسبب أمره أو لأجله ، والأمر على هذا واحد الأوامر ، وعلى ما قبله قيل : فيه احتمالان .

وذهب بعضهم إلى أن ﴿ الروح ﴾ هو جبريل عليه السلام وأيده بقوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين ﴾ [ الشعراء : 193 ] وجعل الباء بمعنى مع ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ﴿ الروح ﴾ خلق من خلق الله تعالى كصور بني آدم لا ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد منهم ، وروى ذلك عن ابن جريج وعليه حمل بعضهم ما في الآية هنا .

وتعقب ذلك ابن عطية بأن هذا قول ضعيف لم يأت له سند يعول عليه ، وأضعف منه بل لا يكاد يقدم عليه في الآية أحد ما روى عن مجاهد أن المراد بالروح أرواح الخلق لا ينزل ملك إلا ومعه روح من تلك الأرواح ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي أن ينزل عليهم لا لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك .

والآية دليل على أن النبوة عطائية كما هو المذهب الحق ، ويرد بها أيضاً على بعض المتصوفة القائلين بأنه لا حاجة للخلق إلى إرسال الرسل عليهم السلام قالوا : الرسل سوى الله تعالى وكل ما سواه سبحانه حجاب عنه جل شأنه فالرسل حجاب عنه تعالى وكل ما

هو حجاب لا حاجة للخلق إليه فالرسل لا حاجة إليهم ، وهذا جهل ظاهر ، ولعمري أنه زندقة وإحاد ، وفساده مثل كونه زندقة في الظهور ، ويكفي في ذلك منع الكبرى القائلة بأن كل ما سواه سبحانه الخ فإن الرسل وسيلة إلى الله تعالى والوصول إليه عز وجل لا حجاب ، وهل يقبل ذو عقل أن نائب السلطان في بلاده حجاب عنه ؟ وهب هذا القائل أمكنه الوصول إليه سبحانه بلا واسطة بقوة الرياضة والاستعداد والقابلية فالسواد الأعظم الذين لا يمكنهم ما أمكنه كيف يصنعون .

(52/432)

---

وممن ينتظم في سلك هؤلاء الملحدين البراهمة فإنهم أيضاً نفوا النبوة لكنهم استدلوا بأن العقل كاف فيما ينبغي أن يستعمله المكلف فيأتي بالحسن ويجتنب القبيح ويحتاط في المشتبه بفعل أو ترك ، فالأنبياء عليهم السلام إما أن يأتوا بما يوافق العقل فلا حاجة معه إليهم أو بما يخالفه فلا التفات إليهم ، وجوابه أن هذا مبني على القول بالحسن والقبح العقليين ، وقد رفعت الأقلام وجفت الصحف وتم الأمر في إبطاله ، وعلى تقدير تسليمه لا نسلم أن العقل يستقل بجميع ما ينبغي ، ولا نسلم أيضاً أنهم إن جاؤوا بما يوافق العقل لا حاجة إليهم لجواز أن يعرفوا المكلف بعض ما يخفى عليه مما ينبغي له أو يؤكدوا حكمه بحكمهم ، ودليلان

أقوى من دليل ، ولا نسلم أيضاً أنهم إن جاؤوا بما يخالف العقل لا يلتفت إليهم لجواز أن يخالفوه فيما يخفى عليه ، على أن ذلك فرض محال لإجماع الناس على أن الشرع لا يأتي بخلاف العقل في نفس الأمر وإنما يأتي بما يقصر عن إدراكه بنفسه كوجوب صوم آخر يوم من رمضان وحرمة صوم أول يوم من شوال ، وتمام الكلام في ذلك يطلب من محله ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ ﴾ بدل من ﴿ الروح ﴾ على أن ﴿ إن ﴾ هي التي من شأنها أن تنصب المضارع وصلت بالأمر كما وصلت به في قولهم : كتبت إليه بأن قم ، ولا ضير في ذلك كما حقق في موضعه أي ينزلهم ملتبسين بطلب الإنذار منهم .

وجوز ابن عطية .

وأبو البقاء .

وصاحب الغنيان كون ﴿ إن ﴾ مفسرة فلا موضع لها من الإعراب ، وذلك لما في تنزيل الملائكة بالوحي من معنى القول كأنه قيل : يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أن أنذروا ، وجوز الزمخشري ذلك وكون ﴿ إن ﴾ المخففة من المثقلة وأمر البدلية على حاله قال : والتقدير بأنه أنذروا أي بان الشأن أقول لكم أنذروا .

(53/432)

وتعقبه أبو حيان بأن جعلها مخففة وإضمار اسمها وهو ضمير الشأن وتقدير القول حتى يكون الخبر جملة خبرية تكلف لا حاجة إليه مع سهولة جعلها الثنائية التي من شأنها نصب المضارع ، وفيه بحث ، ففي "الكشف" أن تحقيق وصل الأمر بهذا الحرف ناصبة كانت أو مخففة وإضمار القول قد سلف إنما الكلام في إيثار المخففة ههنا وفي يونس والناصبة في نوح وهي الأصل لقلة التقدير ، وذلك لأن مقام المبالغة يقتضي إيثار المخففة ، ولهذا جعل بدلاً والمبدل منه ما عرفت شأنه ، وكذاك في يونس معناه أعجبوا من هذا الأمر المحقق وهو أن الشأن كذا ، وأما في نوح فكلام ابتدائي ، وجعلهم فائدة القول أن لا يقع الطلبي خبراً من ضيق العطن فذلك في ضمير الشأن غير مسلم لأنه متحد بما بعده وهو كما تقول : كلامي اضرب زيداً انتهى .

وقرىء ﴿ لينذروا ﴾ والإنذار الإعلام كما قيل خلا أنه مختص بإعلام المحذور أي اعلموا ﴿ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لا إله إِلا أَنَاْ ﴾ فالضمير للشان وهو من خلاف مقتضى الظاهر ، وفائدة تصدير الجملة به الإيذان من أول الأمر بفخامة مضمونها مع ما في ذلك من زيادة تقرير في الذهن ، و﴿ إن ﴾ وما بعدها في موضع المفعول الثاني لأنذروا دون تقدير جار فيه والمفعول الأول محذوف ، والمراد العموم أي أعلموا الناس أن الشان الخطير هذا ، ووجه انباء مضمونه عن المحذور بأنه ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الإشراك ، ولا يشترط تحقق المحذور كالاتصاف المذكور بالفعل في تحقق ماهية الإنذار ،

وإن ابيت إلا اشتراط فتحقق الاتصاف في بعض أفراد المنذرين لا سيما الأكثر بالفعل كاف .

(54/432)

---

وقال الراغب : الإنذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور وهو قريب مما تقدم ، ومحصله على العبارتين التخويف ، ومن هنا جوز بعضهم تفسيره بذلك وقدر المفعول الأول خاصاً و﴿ إن ﴾ وما بعدها في موضع المفعول الثاني بتقدير الجار أي خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأن الشأن الخطير هذا ، وذلك كما جوز تفسيره بالإعلام ، وجعل المفعول الأول عاماً ولم يقدر جاراً في الثاني ، وذكر أن ذلك أصل معناه وأن تخصيصه بإعلام المذور طارىء فإن أريد ذلك الأصل كان تعلقه بما بعده ظاهراً غاية الظهور ، وإن أريد غيره احتاج إلى التوجيه ، وقد علمته فيما إذا كان المفعول الأول عاماً ، والأمر فيما إذا كان خاصاً بعد ذلك أظهر من أن يذكر .

وذكر بعض الفضلاء أن الثابت في اللغة أن نذر بالشيء كفرح به فحذره وأنذره إذا أعلمه بما يحذره وليس فيها مجيئه بمعنى التخويف فأصله الإعلام مع التخويف فاستعملوه بكل من جزئي معنييه الإعلام والتخويف انتهى وفيه غفلة عما أشرنا إليه ، وكأنه لهذا قيل : إنه لم

يأت بشيء يعتد به ﴿ فاتقون ﴾ جعله أبو السعود خطاباً للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على من يشاء تنزيلهم عليه من عباده وأمر المنزل عليهم بأن ينذروا الناس بأنه تعالى لا شريك له فيه الألوهية فاتقون في الإخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه وفروعه التي من جملتها الاستعجال والاستهزاء انتهى .

(55/432)

---

وهو على ما يقتضيه الظاهر مبني على ما مال إليه من اختصاص الخطاب السابق بالكفرة ، وجعل بعضهم هذا الخطاب رجوعاً أيضاً إلى خطاب قريش لكنه متفرع على التوحيد ، ووجه تفرعه عليه أنه سبحانه وتعالى إذا كان واحداً لم يتصور تخليص أحد لأحد من عذابه إذا أراد ذلك ولم يجوز جعله من جملة الموحي به على معنى أعلموهم قولي أن الشأن لا إله إلا أنا فاتقون أو خوفوهم بذلك معللاً بأنه لو كان ذلك لقيل إن بالكسر لا بالفتح .

وتعقب بمنع اللزوم فإن أن ليست بعد قول صريح أو مقدر وإنما ذكروا ذلك في بيان المعنى لتصويره ، واختير أنه إذا كان الإنذار بمعنى التخويف فالظاهر دخول هذا الأمر في المنذر به لأنه هو المنذر به في الحقيقة وهو المقصود بالذكر ، وإذا كان بمعنى الإعلام فالمقصود

بالإعلام هو الجملة الأولى وهو متفرع عليها على طريق الالتفات ، ولا يخلو عن مناقشة فتأمل ، والذي يميل إليه القلب أن المجموع داخل في حيز الانذار وهو مشتمل على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى التي هي أقصى كمال القوة العملية فإن النفوس البشرية لها نسبة إلى عالم الغيب تستعد بها لقبول الصور والتحلي بالمعارف والإدراكات من ذلك العالم ، ونسبة إلى عالم الشهادة تستعد بها لأن تتصرف في أجسام هذا العالم ويسمى استعدادها الحاصل لها باعتبار النسبة الأولى قوة نظرية واستعدادها باعتبار النسبة الثانية قوة عملية ، وأشرف كمالات القوة النظرية معرفة أن لا إله إلا الله تعالى ، وأشرف كمالات القوة العملية الإتيان بالأعمال الصالحة الواقية عن خزي يوم القيامة .

وقدم قوله تعالى : ﴿ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَاْ ﴾ على قوله سبحانه : ﴿ فاتقون ﴾ للإشارة إلى أن ما يستند إلى القوة النظرية أعلى كمالاً مما يستند إلى القوة العملية ، والكمال الإنساني باعتبار هاتين القوتين يسمى كمالاً نفسانياً ، وله كمالات أخر هي كمالاته البدنية وقواه الحيوانية ، وقد فصل ذلك في موضعه .

ثم إنه تعالى شرع في تحرير الدلائل العقلية الدالة على توحيده الذي هو المقصد الأعظم من بعثة الرسل عليهم السلام فقال عز قائلاً :

﴿ خُلِقَ السموات والأرض بالحق ﴾ .

وذكر بعض المحققين أنه تعالى شأنه وعظم برهانه قد استوفى في أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام على أسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم ونبه على أن كل واحد يكفي صارفاً للمشركين عما هم فيه من الشرك وعليه مدارة السورة الكريمة كلما بصرهم طائفة من البصائر ضمنها تبكيتهم وكفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، وانظر إلى فاتحته ثم إلى خاتمته في قوله سبحانه : ﴿ واصبر ﴾ [ النحل : 127 ] إلى آخر السورة يبن لك بعض ما ضمن الكتاب الكريم من أسرار البلاغة وأنوار الإعجاز ؛ والمراد بالسموات والأرض إما هذه الأجرام والأجسام المعلومة ، وإما جهة العلو والسفل أي أوجد ذلك ملتبساً بما يحق له بمقتضى الحكمة فيدل على صانع حي عالم قادر مريد منفرد الألوهية والإلزام إمكان التمانع المستلزم لإمكان المحال حسبما بين في علم الكلام ؛ ولذا عقب هذا بقوله تعالى : ﴿ تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقرأ الأعمش ﴿ فتعالى ﴾ بالفاء ، و﴿ مَا ﴾ يحتمل أن تكون مصدرية أي تعالى وتقدس بذاته وأفعاله عن إشراكهم ، وأن تكون موصولة على معنى تعالى عن شركة ما يشركونه من الباطل الذي لا يبدىء ولا يعيد ، واستدل بالآية على أنه تعالى ليس من قبيل

الأجرام والأجسام كما يقوله المجسمة ، ووجه ذلك أنها تدل على احتياج الأجرام والأجسام إلى خالق سبحانه وتعالى لا يجانسها وإلا لاحتاج إليه فلا يكون خالقاً ، وبإرادة الجهتين يكون وجه الدلالة من الآية أظهر ، وقرأ الكسائي ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ بالتاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(57/432)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ .

اي قرب وقت إتيان القيامة .

وعبر بصيغة تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع . واقتراب القيامة المشار إليه هنا جل وعلا في مواضع أخر ، كقوله : ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [ الأنبياء : 1 ] ، وقوله جل وعلا : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [ القمر : 1 ] ، وقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [ الأحزاب : 63 ] ، وقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [ الشورى : 17 ] ، وقوله جل وعلا : ﴿ أَزِفَتِ الآزفة لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ ﴾ [ النجم : 57-58 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات ﴾ [الزمر: 68] الآية، وقوله ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار ﴾ [الأعراف: 44] الآية، وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكتاب وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بالحق وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ وَسِيقَ الذين كفروا ﴾ [الزمر: 69-71] الآية.

فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾.

نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة. والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

*(58/432)*

---

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله جل وعلا: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [العنكبوت: 53-54]، وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [الشورى: 18]، وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا

عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [ هود : 8 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ﴾ [ ص : 16 ] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ [ يونس : 50 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والضمير في قوله ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ في مفسره وجهان :

أحدهما : أنه العذاب الموعد به يوم القيامة ، المفهوم من قوله : ﴿ أتى أَمْرُ ﴾ .

والثاني : انه يعود إلى الله . اي لا تطلبوا من الله أن يعجل لكم العذاب . قال معناه ابن كثير .

*(59/432)*

---

وقال القرطبي في تفسيره : قال ابن عباس : لما نزلت ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [ القمر : 1 ] قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ! فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا فانتظروا فلم يروا شيئاً ، فقالوا : ما نرى شيئاً ! فنزلت ﴿ اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [ الأنبياء : 1 ] الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئاً ، فنزلت ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وخافوا ، فنزلت ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فاطمأنوا . فقال النّبي صلى الله عليه

وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " - وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها اه محل الغرض من كلام القرطبي ، وهو يدل على أن المراد بقوله ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أي لا تظنوه واقعاً الآن عن عجل ، بل هو متأخر إلى وقته المحدد له عند الله تعالى .

وقول الضحاك ومن وافقه : إن معنى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ اي فرائضه وحدوده - قول مردود ولا وجه له ، وقد رده الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره قائلاً : إنه لم يبلغنا أن أحداً كم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم استعجل فرائض قبل أن تفرض عليهم ، فيقال لهم من أجل ذلك قد جاءتكم فرائض الله فلا تستعجلوها . أما مستعجلو العذاب من المشركين فقد كانوا كثيراً اه .

والظاهر المتبادر من الآية الكريمة - أنها تهديد للكفار باقتراب العذاب يوم القيامة مع نهيهم عن استعجاله .

قال ابن جرير في تفسيره : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : هو تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله ، وإعلام منه لهم قرب العذاب منهم والهلاك ، وذلك أنه عقب ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 1 ] فدل بذلك على تقريعه المشركين به ووعيده لهم اه .

قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

أظهر الأقوال في معنى الروح في هذه الآية الكريمة: أن المراد بها الوحي. لأن الوحي به حياة الأرواح، كما أن الغذاء به حياة الأجسام.

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلَا الإيمان ﴾ [الشورى: 52]، وقوله: ﴿ رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر: 15-16].

ومما يدل على أن المراد بالروح الوحي إتيانه بعد قوله: ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح ﴾ بقوله: ﴿ أَنْ أنذروا ﴾ [النحل: 2] لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بالوحي ﴾ [الأنبياء: 45] الآية وكذلا إتيانه بعد قوله: ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر: 15] بقوله: ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ﴾ [غافر: 15] الآية. لأن الإنذار إنما يكون بالوحي أيضاً. وقرأ هذا الحرف ابن كثير وأبو عمرو "ينزل" بضم الياء وإسكان النون وتخفيف الزاي. والباقون بالضم والتشديد. ولفظه "من" في الآية تبعيضية، أو لبيان الجنس.

وقوله : ﴿ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ النحل : 2 ] اي ينزل الوحي على من اختاره وعلمه أهلاً لذلك . كما بينه تعالى بقوله : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [ الحج : 75 ] ، وقوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] ، وقوله : ﴿ يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ غافر : 15 ] ، وقوله : ﴿ بِئْسَمَا اشتروا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ البقرة : 90 ] .

وهذه الآيات وأمثالها رد على الكفار في قولهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أنذروا أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون ﴾ .

الأظهر في " أن " من قوله : ﴿ أَنْ أنذروا ﴾ أنها هي المفسرة . لأن إنزال الملائكة بالروح - أي بالوحي - فيه معنى القول دون حروفه . فيكون المعنى : أن الوحي الذي أنزلت به الملائكة مفسر بإنذار الناس " بلا إله إلا الله " وأمرهم بتقواه .

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى في آيات كثيرة . كقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ﴾ [ الأنبياء : 25 ] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [ النحل : 36 ] ، وقوله :

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [ الزخرف : 45 ] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهكم إله وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [ الأنبياء : 108 ] إلى غير ذلك من الآيات . وقد قدمنا معنى الإنذار ، ومعنى التقوى .

(62/432)

---

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) ﴾

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو خالق السموات والأرض ، وأن من يخلق هذه المخلوقات العظيمة يتنزه ويتعاظم أن يعبد ما لا يخلق شيئاً ، ولا يملك لنفسه شيئاً .

فالآية تدل على أن من يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود ، لا يصح أن يعبد معه من لا يقدر على شي . ولهذا أتبع قوله : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ بقوله : ﴿ تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

(63/432)

---

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة. كقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [البقر 21] الآية. فدل على أن المعبود هو الخالق دون غيره، وقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 17] وقوله: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: 16]، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: 1-3]، وقوله جل وعلا: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: 11]، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ [فاطر: 40] الآية، وقوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأحقاف: 4]، وقوله جل وعلا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: 191]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا

(64/432)

لَهُ ﴾ [ الحج : 73 ] ، وقوله : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون أَمْ خَلَقُوا السماوات والأرض ﴾ [ الطور : 35–36 ] الآية ، وقوله : ﴿ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [ النحل : 20–21 ] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

فهذه الآيات تبين أن الذي يستحق أن يعبد هو من يخلق الخلق ، ويبرزهم من العدم إلى الوجود . أما غيره فهو مخلوق مربوب ، محتاج إل من يخلقه ، ويدبر شؤونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(65/432)

وقال ابن عاشور :

﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ .

لّما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء

عاقبة ذلك ، وكان قد تكرّر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون الفارقَ بين الحق والباطل فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدّتهم .

وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم .

صدّرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلّ ذلك المتوعد به .

فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحققُ الوقوع بقرينة تفريع ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ ، لأن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه لما يحل بعد .

والأمر : مصدر بمعنى المفعول ، كالوعد بمعنى الموعود ، أي ما أمر الله به .

والمرادُ من الأمر به تقديره وإرادة حصوله في الأجل المسمّى الذي تقتضيه الحكمة .

وفي التعبير عنه بأمر الله إيهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء .

وقد عبّر عنه تارات بوعد الله ومرّات بأجل الله ونحو ذلك .

والخطاب للمشركين ابتداء لأن استعجال العذاب من خصالهم ، قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ [ سورة الحج : 47 ] ويجوز أن يكون شاملاً للمؤمنين لأن عذاب الله وإن كان الكافرون يستعجلون به تهكّماً لظنّهم أنه غير آتٍ ، فإن المؤمنين يضمرون في نفوسهم استبطاءه ويحبّون تعجيله للكافرين .

فجملة فلا تستعجلوه ﴾ تفريع على ﴿ أتى أمر الله ﴾ وهي من المقصود بالإنذار .

والاستعجال : طلب تعجيل حصول شيء ، فمفعوله هو الذي يقع التعجيل به .

ويتعدّى الفعل إلى أكثر من واحد بالباء فقالوا : استعجل بكذا .

وقد مضى في سورة الأنعام ( 57 ) قوله تعالى : ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ فضمير ﴿ تستعجلوه ﴾ إما عائد إلى الله تعالى ، أي فلا تستعجلوا الله .

وحذف المتعلق بـ ﴿ تستعجلوه ﴾ لدلالة قوله : ﴿ أتى أمر الله ﴾ عليه .



---

والتقدير فلا تستعجلوا الله بأمره ، على نحو قوله تعالى : ﴿ سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾ [ سورة الأنبياء : 37 ] .

وقيل الضمير عائد إلى أمر ﴿ الله ﴾ ، وعليه تكون تعدية فعل الاستعجال إليه على نزع الخافض .

والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي .

ويجدر أن يكون للتسوية كما ترد صيغة الأمر للتسوية ، أي لا جدوى في استعجاله لأنه لا يعجّل قبل وقته المؤجّل له .

مستأنفة استئنافاً ابتدائياً لأنها المقصود من الوعيد ، إذ الوعيد والزّجر إنما كانا لأجل

إبطال الإشراك، فكانت جملة ﴿ أتى أمر الله ﴾ كالمقدمة، وجملة ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ كالمقصد.

و( ما ) في قوله: ﴿ عما يشركون ﴾ مصدرية، أي عن إشراكهم غيره معه.

وقرأ الجمهور ﴿ يشركون ﴾ بالتحتية على طريقة الالتفات، فعدل عن الخطاب ليختص التبرؤ من شأنهم أن ينزلوا عن شرف الخطاب إلى الغيبة.

وقرأه حمزة والكسائي بالمثناة الفوقية تبعاً لقوله: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾.

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

كان استعجالُهم بالعذاب استهزاءً بالرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبه، وكان ناشئاً عن عقيدة الإشراك التي من أصولها استحالة إرسال الرسل من البشر.

وأُتبع تحقيق مجيء العذاب بتنزيه الله عن الشريك فقفّي ذلك بتبرئة الرسول عليه الصلاة والسلام من الكذب فيما يبلغه عن ربّه ووصف لهم الإرسال وصفاً موجزاً.

وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد.

والمراد بالملائكة الواحد منهم وهو جبرئيل عليه السلام.

والروح: الوحي.

أطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأن الوحي به هدي العقول إلى الحقّ، فشبّه

الوحي بالروح كما يشبّه العلم الحقّ بالحياة، وكما يشبّه الجهل بالموت قال تعالى: ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه ﴾ [سورة الأنعام: 122].

(67/432)

---

ووجه تشبيه الوحي بالروح أن الوحي إذا وعته العقول حلّت بها الحياة المعنوية وهو العلم، كما أن الروح إذا حلّ في الجسم حلّت به الحياة الحسيّة، قال تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [سورة الشورى: 52].

ومعنى من أمره ﴾ الجنس، أي من أموره، وهي شؤونه ومقدراته التي استأثر بها.

وذلك وجه إضافته إلى الله كما هنا وكما في قوله تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ [سورة الرعد: 11]، وقوله تعالى: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [سورة الإسراء: 85] لما تفيده الإضافة من التخصيص.

وقرأ الجمهور ينزل ﴾ بياء تحتية مضمومة وفتح النون وتشديد الزاي مكسورة.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بسكون النون وتخفيف الزاي مكسورة، و ﴿ الملائكة ﴾ منصوباً.

وقرأه روح عن يعقوب بتاء فوقية مفتوحة وفتح النون وتشديد الزاي مفتوحة ورفع ﴿ الملائكة ﴾ على أن أصله تتنزل .

وقوله تعالى : ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ رد على فنون من تكذيبهم ؛ فقد قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [ سورة الزخرف : 31 ] وقالوا : ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ [ سورة الزخرف : 53 ] أي كان ملكاً ، وقالوا : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [ سورة الفرقان : 7 ] .

ومشيئة الله جارية على وفق حكمته ، قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [ سورة الأنعام : 124 ] .

وأن أنذروا ﴾ تفسير لفعل ﴿ ينزل ﴾ لأنه في تقدير ينزل الملائكة بالوحي .

وقوله : ﴿ بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ اعتراض واستطراد بين فعل ﴿ ينزل ﴾ ومفسره .

و﴿ أنه لا إله إلا أنا ﴾ متعلق بـ ﴿ أنذروا ﴾ على حذف حرف الجر حذفاً مطرداً مع ( أنّ ) .

والتقدير : أنذروا بأنه لا إله إلا أنا .

والضمير المنصوب بـ ( أنّ ) ضمير الشأن .

ولما كان هذا الخبر مسوقاً للذين اتّخذوا مع الله آلهة أخرى وكان ذلك ضلالاً يستحقون عليه العقاب جعل إخبارهم بضدّ اعتقادهم وتحذيرهم مما هم فيه إنذاراً .

وفرع عليه ﴿ فاتقون ﴾ وهو أمر بالتقوى الشاملة لجميع الشريعة .

وقد أحاطت جملة ﴿ أن أنذروا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فاتقون ﴾ بالشريعة كلها ، لأن جملة ﴿ أنذروا أنه لا إله إلا أنا ﴾ تنبيه على ما يرجع من الشريعة إلى إصلاح الاعتقاد وهو الأمر بكمال القوة العقلية .

وجملة ﴿ فاتقون ﴾ تنبيه على الاجتناب والامتثال اللذين هما منتهى كمال القوة العملية .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) ﴾

استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [ سورة النحل : 1 ] لأنهم إذا سمعوا ذلك ترقّبوا دليل تنزيه الله عن أن يكون له شركاء .

فابتدىء بالدلالة على اختصاصه بالخلق والتقدير ؛ وذلك دليل على أن ما يخلق لا يوصف بالإلهية كما أنبأ عنه التّفريع عقب هذه الأدلّة بقوله الآتي ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [ سورة النحل : 17 ] .

وأعقب قوله : سبحانه ﴾ بقوله : ﴿ وتعالى عما يشركون ﴾ تحقيقاً لنتيجة الدليل ، كما يذكر المطلوب قبل ذكر القياس في صناعة المنطق ثم يذكر ذلك المطلوب عقب القياس في

صورة النتيجة تحقيقاً للوحدانية ، لأن الضلال فيها هو أصل انتقاض عقائد أهل الشرك ، ولأن إشراكهم هو الذي حداهم إلى إنكار نبوءة من جاء ينهاهم عن الشرك فلا جرم كان الاعتناء بإثبات الوحدانية وإبطال الشرك مقدماً على إثبات صدق الرسول عليه الصلاة والسلام المُبدأ به في أول السورة بقوله تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ [ سورة النحل : 2 ] .

(69/432)

---

وعُددت دلائل من الخلق كلها متضمنة نعماً جمّة على الناس إدماجاً للامتنان بنعم الله عليهم وتعريضاً بأن المنعم عليهم الذين عبدوا غيره قد كفروا نعمته عليهم ؛ إذ شكروا ما لم يُنعم عليهم ونسوا من انفرد بالإنعام ، وذلك أعظم الكفران ، كما دلّ على ذلك عطف ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها ﴾ [ سورة إبراهيم : 34 ] على جملة ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [ سورة النحل : 17 ] .

والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلّة وأجمع لأنها محوية لهما ، ولأنهما من أعظم الموجودات ، فلذلك ابتدىء بهما ، لكن ما فيه من إجمال المَحويات اقتضى أن يعقّب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات فثنّي بخلق الإنسان وأطواره وهو أعجب

الموجودات المشاهدة ، ثم بخلق الحيوان وأحواله لأنه يجمع الأنواع التي تلي الإنسان في إتقان الصنع مع ما في أنواعها من المنن ، ثم بخلق ما به حياة الإنسان والحيوان وهو الماء والنبات ، ثم بخلق أسباب الأزمنة والفصول والمواقيت ، ثم بخلق المعادن الأرضية ، وانتقل إلى الاستدلال بخلق البحار ثم بخلق الجبال والأنهار والطرقات وعلامات الاهتداء في السير.

وسيأتي تفصيله.

والباء في قوله : بالحق ﴾ للملابسة.

وهي متعلقة بـ ﴿ خلق ﴾ إذ الخلق هو الملابس للحقّ.

والحقّ : هنا ضد العبث ، فهو هنا بمعنى الحكمة والجدّ ؛ ألا ترى إلى قوله ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ [ سورة الأنبياء : 16 ]

وقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ [ سورة ص : 27 ].

والحقّ والصدق يطلقان وصفين لكمال الشيء في نوعه.

وجملة تعالى عما يشركون ﴾ معترضة.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ تعالى عما تشركون ﴾ بمثناة فوقية. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

هكذا تبدأ السورة الجليلة ؛ مُوضِّحةً أن قضاءَ الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شَكَّ فيه ولا محَالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر .

وقد سبق أنْ أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما نَزل عليه من آيات الكتاب ؛ أنذرهم في السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوي ، كنصر الإيمان على الكفر ، وأنذرهم مِنْ قَبْل أيضاً ببعض العذاب في الآخرة ، كقوْل الحق سبحانه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [ غافر : 77 ] .

وكذلك قوله الحق : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [ القمر : 45 ] .

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يهزِم معسكر الكفر ، وأنْ ينصرَ معسكر الإيمان ؛ وإما أنْ يرى ذلك بعينيه أو إنْ قبض الحق أجلَه فسيراها في الآخرة

.

وعن حال الرسول صلى الله عليه وسلم قال سبحانه : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين ﴾ [ الحجر : 95 ] .

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم في جهنم في اليوم الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [ النحل : 1 ] .

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذِرون به ، كما قال مرة : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [ القمر : 1 ] .

أي : اقتربتْ ساعة القيامة التي يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لِمَنْ كفر ، والجنة لِمَنْ آمن وعمِل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غَيْر مُخيف في ذاته ، بل مُخيف لِمَا فيه من الحساب والعقاب .

وقيل : إن أهلَ الكُفْر لحظة أنْ سَمِعوا قول الحق سبحانه : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ [ القمر : 1 ] .

(71/432)

---

قالوا : " فلننتظر قليلاً ؛ فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً " وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تَأْتِ الساعة كما بَشَّر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قالوا : انتظرنا ولم تَأْتِ الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه : ﴿ اقترب لِلنَّاس حِسَابُهُمْ ﴾ [ الأنبياء : 1 ] .

وهذا حديث عن الأمر الذي سيحدث فوْرَ قيام الساعة ، فَهَادُنوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أَيْنَ الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

﴿ أتى أَمْرُ الله . . ﴾ [ النحل : 1 ] .

وساعة سَمِع الكُلُّ ذلك فَزِعوا ؛ بمن فيهم من المسلمين ؛ وجاء الإسعاف في قوله من بعد ذلك :

﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ﴾ [ النحل : 1 ] .

أي : أن الأمر الذي يُعلنه محمد صلى الله عليه وسلم لا يعلم ميعادَه إلا الله سبحانه ؛ واطمأنَّ المسلمون .

وكُلُّ حدث من الأحداث كما نعلم يحتاج كُلٌّ منها لظرفيْن ؛ ظرْفِ زمانٍ ؛ وظرْفِ مكان . والأفعال التي تدلُّ على هذه الظروف إما فِعْل مَاض ؛ فظرْفُه كان قبل أن تتكلَم ، وفعلٌ مضارع . أي : أنه حَلَّ ، إلا إنْ كان مقروناً ب " س " أو ب " سوف " .

أي : أن الفعل سيقع في مستقبل قريب إنْ كان مقروناً ب " س " أو في المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقاً ب " سوف " ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة ( أتى ) تدلُّ على أن الذي يُخبرك به وهو الله سبحانه إنما يُخبِرك بشيء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبِر به ، والبشر قد يتكلَّمون عن أشياءَ وقعتْ ؛ ويُخبِرون بها بعضَهم البعض .

ولكن المتكلِّم هنا هو الحقُّ سبحانه ؛ وهو حين يتكلَّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص عِلْمه

أبداً ، وهو علم أَزَليٌّ ، وهو قادر على أن يأتيَ المستقبل وَفْق ما قال ، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُل شيء من قبل أنْ يخلقَ ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أي شيء ؛ فالخَلْق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مُنزَّه في كل شيء ؛ ولذلك قال :

(72/432)

---

﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلوهُ سُبْحَانَهُ ﴾ [ النحل : 1 ] .

أي : أنه العليمُ بزمن وقوعِ كُلِّ حدَث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قَبْل أن يوجد الخَلْق ؛ فهو القائل : ﴿ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [ الأنبياء : 20 ] .

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أي : أنه مُسبّح به من قَبْل خَلْق السماوات والأرض ، وهو القائل سبحانه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [ الحشر : 1 ] .

ولكن هل انتهى التسبيح؟ لا ، بل التسبيح مُستمِرٌّ أبداً ، فهو القائل : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ﴾ [ الجمعة : 1 ] .

إذن : فقد ثبتتْ له " السُّبْحَانية " في ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسبّحون الليلَ والنهارَ ولا يفترُون ، ثم خلق السماء والأرض ، فسبَّح ما فيهما وما بينهما ؛ وجاء خَلْقه يُسبِّحون

أيضاً فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سَبِّح كما سَبَّحَ كُلُّ الكون .

ولقائل أنْ يسأل : وما علاقة " سبحانه وتعالى " بما يُشرِكون ؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهةً لا تُكلِّفهم بتكليف تعبُّدي ، ولم تنزل منهجاً ؛ بل تُحلِّل لهم كُلَّ مُحرَّم ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ، وتخلوْا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسل مُبلِّغين عن الله من تكليف يحمل مشقَّةً الإيمان .

وهؤلاء هم مَنْ سيلقوْنَ الله ، وتسألهم الملائكة : أين هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .

وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل أنْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبت له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض .

وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قِسْم آمن وسبَّح ، وقِسْم له يُسبِّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .

(73/432)

---

ويقول سبحانه من بعد ذلك : ﴿ يُنَزِّلُ المَلائكة . . . ﴾ .

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ فالكلمة تُوحِي وتُوضِّح أن هناك عُلواً يمكن أن ينزِلَ منه

شيء على أسفل . والمَثَلُ الذي أُحِبّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قَوْل الحق سبحانه : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ [ الأنعام : 151 ] .

أي : أقبلوا لتسمعوا مِنِي التكليفَ الذي نزل لكم مِمَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا في حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تَساموا وخُذوا الأمر مِمَّنْ لا هَوى لَه في أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبيّ آمنّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن ودليله السماع مِمَّنْ نثق بصدقه ، وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم ما نزل به القرآن وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق الصَّدُوق محمد صلى الله عليه وسلم .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ النحل : 2 ] .

فنحن نعلم أنه لا يمكن أنْ ينزل شيءٌ من أعلى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقربات . وقد اختار الحق سبحانه ملكاً من الملائكة لِيُبلِّغ رُسُله بالوحي من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنبياء : 26-27 ] .

ويقول في آية أخرى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [ التحريم : 6 ] .

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوةَ لهم فلا يتناكحون ولا يتناسلون ؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَاء . وهم مَنْ يُمكِنهم التلقِّي من الأعلى ويبلغون الأَدْنى .

(74/432)

---

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [ الشعراء : 193 ] .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ [ النحل : 2 ] .

والآية الإجمالية التي تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [ الحج : 75 ] .

أي : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقِّي منه لِيُعْطُوا المصطفين من الناس ؛ لِيُبلِّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأَدْنى طاقة ليتحمَّل ما تتنزَّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبَّهتْ ذلك بالمُحوّل الذي نستخدمه في الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأَدْنى من المصابيح ، " وكُلّنا يعلم ما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم حين تلقَّى الوحي عبر جبريل عليه السلام " فَضمَّني حتى بلغ مِنِّي الجهد " وتفصد جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول " زملوني زملوني " و " دثروني دثروني " .

ذلك أن طاقة عُلْوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هي طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحي وتخفّ عنه مِثْل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً * إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ [ الشرح : 1-6 ] .

ثم يفتر الوحي لبعض من الوقت لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحي وهو مَنْ قال " دثّروني دثّروني " ؟

لقد كان فُتور الوحي بسبب أنْ يتعوّد محمد صلى الله عليه وسلم على متاعب نُزول المَلَك ؛ فتزول متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : " إن ربَّ محمد قد قلاه " .

فينزل قوله سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [ الضحى : 3-5 ] .

وكلمة الروح وردتْ في القرآن بمعَانٍ متعددة ، فهي مرّة الروح التي بها الحياة في المادة ليحدث بها الحسّ والحركة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ الحجر : 29 ] .

وهذا النفْخ في المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوحٌ أُخْرى تعطي حياةً أعلى من الحياة الموقوتة : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [ العنكبوت : 64 ] .

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أَرْقى من الحياة التي نعيش بها ونتحرّك على الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحان لا روحٌ واحدة ؛ رُوح للحِسِّ والحركة ؛ وروح تُعطي القِيم التي تقودنا إلى حياة أخرى أَرْقى من الحياة التي نحياها ؛ حياةٌ لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمَّى الحق سبحانه القرآن روحاً ؛ فيقول : ﴿ وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [ الشورى : 52 ] .

ويُسمَّى الحق سبحانه الملَكَ الذي ينزل بالقرآن روحاً ، فيقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين * على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [ الشعراء : 193-194 ] .

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أَرْقى ، فيقول : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ

استجيبوا للَّهِ وَلِلرّسُولِ إِذا دَعَاكم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : 24 ] .

أي : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التي لا موْتَ فيها ولا خَوْف أن تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمة .

وهنا يُبلّغنا سبحانه أن القرآن ينزل مع الملائكة :

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِه ﴾ [ النحل : 2 ] .

(76/432)

---

أي : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه في موقع آخر : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [ الرعد : 11 ] .

والسّطْحيون لا يلتفتون إلى أنّ معنى : ﴿ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [ الرعد : 11 ] .

هنا تعني أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هو ما جاء في الآية الأولى منها : ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [ النحل : 1 ] .

وهذا الأمر هو نتيجة لِمَا يشاؤه الله من حياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتعدّدة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ

إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

[النحل: 40].

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له: كُنْ فيكون، وإذا أراد منهجاً؛ فهو يُنزله، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً؛ فهو القائل ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أَمْرُ الله ﴾ هو ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي: إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود؛ سواء أكان معدوماً جزئياً، أو معدوماً كلياً، أو معدوماً أزلياً.

وكُلّ ذلك اسمه أمر، ولحظة أنْ يأمر الله؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق: 1-2].

أي: أنها لم تسمع الأمر فقط؛ بل نفّذته فَوْر صدوره؛ دون أَدْنى ذرة من تخلُّف، فأمْر الله يُنفَّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه، أما أَمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى.

وسبحانه يُنزِل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء لِيُنذِروا؛ ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا؛ لأن الحديث مُوجّه للكفار في قوله: ﴿ أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ... ﴾ [النحل: 1].

ونزّه ذاته قائلاً:

﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 1 ] .

أو : أن الحق يُنبّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم فُفسِّر لهم مُبْهَم ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم بمَنْ يصطفي .

ومشيئته الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تِتمّ بمواصفات الحق سبحانه ؛ فهو القائل :

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . ﴾ [ الأنعام : 124 ] .

وعُلِم أن الكافرين قد قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

وقال الحق سبحانه في رَدِّه عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [ الزخرف : 32 ] .

فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَّم بين الخَلْق أرزاقهم في معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوع مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتي هؤلاء في الأمور القِيَميّة المُتعلِّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون " نريد فلاناً ولا نريد فلاناً " ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضِّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحي ، فعليك أنْ تُبلِّغهم كلمة الله :

﴿ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ [ النحل : 2 ] .

وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدِي لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضِّح لهم أنْ لا إله إلا هو ؛ وعليهم أنْ يتقوه .

وفي هذا حنان من الحق على الخَلْق ، وهو الحق الذي منع الكائنات التي تعجبتْ ورفضتْ كُفْر بَعْضٍ من البشر بالله ؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : " لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دَعُوني وخَلْقي ؛ إنْ تابوا إليّ فأنا حبيبُهم ؛ وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ [ النحل : 2 ] .

*(78/432)*

---

هو جماعُ عقائدِ السماء للأرض ؛ وجماعُ التعبُّداتِ التي طلبها الله من خَلْقه لِيُنظِّم لهم حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .

فكأن :

﴿ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ [ النحل : 2 ] .

هي تفسيرٌ لِمَا أنزله الله على الملائكة من الرُّوح التي قُلْنا من قبل : إنها الروح الثانية التي

يَجِيء بها الوَحْي ؛ وتحمِلُ منهجَ الله ليضمن لِلْمُعتنِق حياة لا يزول نَعيمها ولا المُتنعّم بها ؛ وهي غَيْر الروح الأولى التي إذا نفخها الحق في الإنسان ، فالحياة تدبُّ فيه حركةً وحِساً ولكنها إلي الفناء .

وكأن الحق سبحانه من رحمته بخَلْقه أن أنزلَ لهم المنهج الذي يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أَسْرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيئ الذي ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا مِنْ مُحبٍّ ؛ فسبحانه يُحِب خَلْقه ، ويُحِب منهم أنْ يكونوا إليه مخلصين مؤمنين ، ويحب لهم أنْ ينعموا في آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة "كُنْ" من المُسبّب .

فإذا قال لهم ﴿ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ . . ﴾ [ النحل : 2 ] فهو يُوضِّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بي شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجي الذي يُنظِّم حياتكم وأُجازي عليه في الآخرة .

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنِّي خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم ؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب ؛ فقد أردتُ الحياة بلاءً واختباراً ؛ وفي الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ] .

وظاهر الأمر أن المُلْك لله في الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً في الدنيا وفي الآخرة ؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب المخلوقة بمشيئته تستجيب للإنسان ؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً ؛ فأنت في الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك ؛ فسُنَّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلف الأمر فيها ؛ فلا مُلْكَ لأحدٍ غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التي كانت تخضع لمشيئتك في الدنيا ؛ لا حُكْمَ لك عليها في الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء في الدنيا ، فإنْ وجَّهتها إلى مأمور الله ؛ فأنت من عباده ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدِّم لك سبحانه الحيثية التي تُعزِّز أمره بعبادته وحده ، وأنْ لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبده إلا بعد أنْ خلق لنا السماوات والأرض ؛ وكل الكون المُعَد لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أي بالشيء الثابت ؛ والقانون الذي ليس في اختيار أحد سواه سبحانه .

ويقول سبحانه : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض . . . ﴾ .

أي : تنزَّه سبحانه عَمَّا يشركون معه من آلهة ، فلا أحدَ قد ساعده في خَلْق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحان مُنزَّه عن أنْ يكون معه آلهة أخرى ،

وسبحانه قد خلق لنَا من قبل أن يخلقنا ؛ خلق السماوات والأرض وقدّر الأرزاق ، ولو نظرتَ إلى خَلْقك أنت لوجدت العَالَم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل : ﴿ وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [ الذاريات : 21 ] .

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول : ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(80/432)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ : في " أتى " وجهان ، أحدُهما : - وهو المشهورُ - أنه ماضٍ لفظاً مستقبلٌ معنى ؛ إذ المرادُ به يومُ القيامة ، وإنما أُبْرِز في صورةِ ما وَقَع وانقضى تحقيقاً له ولصِدْقِ المخبِر به . والثاني : أنه على بابه ، والمرادُ به مقدِّماته وأوائلُه ، وهو نَصْرُ رسولِه صلى الله عليه وسلم .

قوله : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ في الضميرِ المنصوبِ وجهان ، أظهرُهما : أنَّه للأمرِ ، فإنَّه هو

المُحدَّثُ عنه . والثاني : أنه لله ، أي : فلا تستعجلوا عذابَه .

قوله : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يجوز أن تكونَ " ما " مصدريةً فلا عائدَ عند الجمهور ، أي : عن إشراكِهم به غيرَه ، وأن تكونَ موصولةً اسميةً .

وقرأ العامَّةُ : ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين أو للكافرين . وابنُ جبير بالياء من تحتُ عائداً على الكفار أو المؤمنين .

وقرأ الأَخوان : " تُشْرِكُون " بتاءِ الخطاب جَرْياً على الخطاب في " تَسْتَعْجِلُوه " والباقون بالياء عَوْداً على الكفار . وقرأ الأعمشُ وطلحةُ والجحدريُّ وجَمٌّ غفيرٌ بالتاء من فوقُ في الفعلين .

(81/432)

---

قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة ﴾ : قد تقدَّم الخلافُ في " يُنزِّل " بالنسبة إلى التشديدِ والتخفيفِ في البقرة . وقرأ زيدُ بن علي والأعمشُ وأبو بكر عن عاصم " تَنَزَّلُ " مشدداً مبنياً للمفعول وبالتاءِ مِنْ فوقُ ، " الملائكةُ " رفعاً لقيامِه مَقامَ الفاعلِ وقرأ الجحدريُّ كذلك ، إلا أنه خَفَّف الزايَ . وقرأ الحسنُ والأعرجُ وأبو العالية والمفضَّل عن عاصم " تَنَزَّلُ " بتاءٍ واحدةٍ مِنْ فوقُ ، وتشديدِ الزاي مبنياً للفاعل ، والأصلُ : " تَتَنَزَّل " بتاءَيْن . وقرأ ابنُ أبي

عبلة " نُنَزِّلُ " بنونينِ وتشديدِ الزاي ، " الملائكةَ " نصباً ، وقتادةُ كذلك إلا انه بالتخفيف .

قال/ابن عطية : " وفيهما شذوذٌ " ولم يُبَيِّن وجهَ ذلك ، ووجهُه : أنَّ ما قبله وما بعده مضمرٌ غائبٌ ، وتخريجُه على الالتفات .

قوله : " بالرُّوْحِ " يجوز أن يكونَ متعلقاً بنفس الإِنزال ، وأن يكونَ متعلقاً بمحذوفٍ على أنه حالٌ من الملائكة " ، أي : ومعهم الروحُ .

قوله : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ حالٌ من " الرُّوحِ " . و " مِنْ " : إمَّا لبيانِ الجنسِ ، وإمَّا للتبعيضِ .

قوله : ﴿ أَنْ أنذروا ﴾ في " أَنْ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها المُفَسِّرةُ ؛ لأنَّ الوحيَ فيه ضَرْبٌ من القولِ ، والإِنزال بالروحِ عبارةٌ عن الوحيِ . الثاني : أنها المخففةُ مِنَ الثقيلة ، واسمُها ضميرُ الشأنِ محذوفٌ تقديره : أنَّ الشأنَ أقول لكم : إنه لا إله إلا أنا ، قاله الزمخشريّ : الثالث : أنها المصدريةُ التي من شأنِها نصبُ نصبُ المضارعِ ووُصِلَتْ بالأمر كقولهم : "كَتَبت إليه بأنْ قُمْ " ، وقد مضى لنا فيه بحثٌ .

(82/432)

---

فإن قلنا : إنها المفسِّرةُ فلا مَحَلَّ لها ، وإنْ قلنا : إنها المخففةُ أو الناصبةُ ففي محلِّها وثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنها مجرورةُ المحلِّ بدلاً من " الرُّوح " ؛ لأنَّ التوحيدَ رُوْحٌ تَحْيا به النفوسُ .

الثاني: أنها في محلِّ جرٍّ على إسقاطِ الخافضِ كما هو مذهبُ الخليل. والثالث: أنها في محل نصب على إسقاطه وهو مذهبُ سيبويه، والأصلُ: بأَنْ أَنْذِروا، فلمَّا حُذِفَ الجارُّ جَرَى الخلافُ المشهورُ.

قوله: ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ هو مفعولُ الإِنذار والإِنذار قد يكونُ بمعنى الإِعلامِ. يقال: نَذَرْتُه وأَنْذرتَه بكذا، أي: أَعْلَمُوهم التوحيدَ. وقوله "فاتَّقونِ" التفاتٌ إلى التكلمِ بعد الغَيْبة. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 7 صـ 187.189﴾

(83/432)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى الإِتيان)

هو مجىءٌ بسهولة.

ومنه قيل للسّيل المارّ على وجهه: أَتِىٌّ، وأَتاوِىٌّ.

وبه شُبّه الغريبُ، فقيل: أَتاوىّ.

والإِتيان قد يقال للمجيءِ بالذات، وبالأَمر، والتدبير.

ويقال فى الخير ، وفى الشرّ ، وفى الأَعيان ، وفى الأَعراض ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ ﴾ ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ ﴿ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴾ وعلى هذا النحو قول الشاعر :

*أَتيت المروءَة من بابها*

وقول الصاحب :

*أَتتنِىَ بالأَمس إِتيانةً * تعَلِّل رُوحى بروْح الجبان*

*كعهد الصِّبا ونسيم الصَّبا * وظلّ الأَمان ، ونيل الأَمانى*

*فلو أَنَّ أَلفاظه جُسّمت * لكانت عقود نُحور الغوانى*

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ أَى لا يتعاطَوْن وقوله : ﴿ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ فاستعمال الإِتيان هنا كاستعمال المجىءِ فى ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ يقال : أَتيته ، وأَتَوْتُهُ ، ويقال للسّقاءِ إِذا مُخِض وجاءَ زُبْدُه : قد جاءَ أَتْوُه .

وتحقيقه : جاءَ ما مِن شأْنه أَن يأْتى منه .

فهو مصدر فى معنى الفاعل .

وأَرض كثيرة الإِتاءِ – بالمدّ – أَى الرَّيع .

وقوله : ﴿ مَأْتِيًّا ﴾ مفعول من أَتيته (وقيل معناه آتيا فجعل المفعول فاعلا .

وليس كذلك ، بل يقال : أَتيت الأَمر وأَتانى الأَمر .

ويقال: أَتيته بكذا وآتيته) كذا.

قال تعالى: ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾.

وكلّ موضع ذكر فى وصف الكتاب: (آتينا)، فهو أَبلغ من كلّ موضع ذُكِر فيه (أُوتوا)، لأَنَّ (أُوتوا) قد يقال إِذا أُوتى مَنْ لم يكن منه قَبُول، و(آتينا) يقال فيمن كان منه قبول.

والإِتيان جاءَ فى القرآن على ستَّة عشرَ وجهاً:

الأَوّل: بمعنى القُرْب الزَّمانى: ﴿ أَتى أَمْرُ الله ﴾ أَى قَرُب وقته.

(84/432)

---

الثَّانى: بمعنى وصول شيءٍ بشيءٍ ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴾ أَى أَصابكم.

الثالث: بمعنى القَلْع وخراب البناءِ: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أَى قلعها وخرّبها.

الرّابع: بمعنى العذاب والعقوبة: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾ أى عذّبهم.

الخامس: بمعنى سَوْق الرِّزق ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَى يسوقه الله.

السّادس: بمعنى الصّحبة وقضاءِ الشّهوة: ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ ﴾.

السّابع : بمعنى الخَوضْ فى المنكَرات من الأَعمال : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ أَى تخُوضون فيه .

الثّامن : بمعنى الانقياد والطاعة : ﴿ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْداً ﴾ أَى إِلاَّ وينقاد للرّحمان .

التَّاسع : بمعنى الإِيجاد والخَلْق ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أَى يخلق ويوجد .

العاشر : بمعنى حقيقة الإِتيان والجئ : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ أَى جاءَت .

الحادى عشر : بمعنى الظهور والخروج : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ أَى يظهر ويخرج .

الثانى عشر : بمعنى الدّخول : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ أَى وادخلوها .

الثالث عشر : بمعنى المرور والمضىّ ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ ﴾ أَى مَضَوْا .

الرابع عشر : بمعنى إِرسال الآيات ، وإِنزال الكتاب ، ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ ﴾ أَى أَرسلنا وأَنزلنا .

الخامس عشر : بمعنى التعجيل والمفاجأَة : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً ﴾ أَى فاجأَها .

السّادس عشر : بمعنى الحلول والنُّزول : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أَى يحِل به .

قوله : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ قرأَها حمزة موصولة أَى جيئُونى .

والإِتياءِ : الإِعطاءِ .

وخصّ دفع الصّدقة فى القرآن بالإِتياءِ نحو ﴿ آتُوا الزَّكَاةَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 43 . 46 ﴾

*(85/432)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره بسم الله الرحمن الرحيم .

ألف الوصل في ( بسم الله ) لم يكن لها في التحقيق أصل ، جلبت للحاجة إليها للتوصل بها إلى النطق بالساكن ، وإذ وقع ذلك أنفا عنها أسقطت في الإدراج ، ولكن كان لها بقاء فيي الخط وإن لم يكن لها ظهور في اللفظ فلما صارت إلى بسم الله اسقطت من الخط كذلك ، وكذلك من ازداد صحبة أستأخر رتبة .

ويقال أي استحقاق لواو عمرو حتى ثبتت في الخط ؟ وأي استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأي موجب لحذف الألف من السموات ؟

طاحت العلل في الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع ، كذلك الإشارة في أرباب الرد والقول ، قال تعالى ( إن ربك فعال لما يريد ) [ هود : 107 ]

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

صيغة أتى للماضي ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى "سيأتي" أمر القيامة ، والكائنات كُلُّها والحادثات بأَسْرِها من جملة أمره ، أي حصل أمرُ تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصل بتقديره وتيسيره ، وقَضَائه وتدبيره ؛ فما يحصل من خير وشرّ ، ونفع وضرِ ، وحلو ومُرّ . فذلك من جملة أمره تعالى .

﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خامدون تحت جريان تصريف الأقدار ؛ فليس لهم إيثار ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أَمَّلوا شيئاً ، أو أُخْبِروا بحصول شيءٍ فلا استعجال لهم ، بل شأنهم التأنِّي والثباتُ والسكونُ ، وإذا بَدَا من التقدير حُكمٌ فلا استعجالَ لهم لما يَرِدُ عليهم ، بل يتقبلون مفاجأةَ التقدير بوجهٍ ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الردِّ والقبول ، والمنع والفتوح بوصف الرضا ، ويحمدون الحق – سبحانه وتعالى – على ذلك .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : تعالى عما يشركون بربهم ، والكفار لم ييسر لهم حتى أنَّه لا سكنَ لقلوبهم من حديثه .

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) ﴾

ينزل الملائكة على الأنبياء – عليهم السلام – بالوحي والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المُحَدَّثون . وإنزالُ الملائكةِ على قلوبهم غيرُ مردودٍ لكنهم لا يُؤْمَرُون أن يتكلموا بذلك ، ولا يكملون رسالةً إلى الخَلْق .

ويُراد بالروح الوحي والقرآن ، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة ؛ إمَّا حياة القلب أو حياة الدنيا .

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) ﴾

خَلَقَها بالحق ، ويَحكم فيها بالحق ، فهو مُحِقٌّ في خَلْقِها لأنَّ له ذلك ويدخل في ذلك أمرُه بتكليف الخَلْق ، وما يَعْقُبُ ذلك التكليفَ من الحَشْرِ والنَّشْرِ ، والثواب والعقاب .

﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : تقديساً وتشريفاً له عن أن يكون له شريك أو معه مليك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 284.285 ﴾

*(87/432)*

قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان خلق السماوات والأرض غيباً لتقدمه ، وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة ، مع كونه أدل على ذلك من حيث إنه أشرف من كل ما يعبده من دون الله ، ولن يكون الرب أدنى من العبد أصلاً ، قال معللاً : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي خلقه أدل ما يكون على الوحدانية والفعل بالاختيار ، لأنه أشرف ما في العالم السفلي من الأجسام لمشاركته للحيوان الذي هو أشرف من غيره بالقوى الشريفة من الحواس الظاهرة والباطنة ، والشهوة والغضب ، واختصاصه بالنطق الذي هو إدراك الكليات والتصرف فيها بالقياسات ﴿ من نطفة ﴾ أي آدم عليه السلام من مطلق الماء ، ومن تفرع منه بعد زوجه من ماء مقيد بالدفق .

ولما كان – مع مشاركته لغيره من الحيوان في كونه من نطفة – متميزاً بالنطق المستند إلى ما في نفسه من عجائب الصنع ولطائف الإدراك ، كان ذلك أدل دليل على كمال قدرة الفاعل واختياره ، فقال تعالى : ﴿ فإذا هو ﴾ أي الإنسان المخلوق من الماء المهين ﴿ خصيم ﴾ أي منطيق عارف بالمجادلة ﴿ مبين ﴾ أي بين القدرة على الخصام ، وموضح لما يريده غاية

الإيضاح بعد أن كان ما لا حسّ به ولا حركة اختيارية عنده بوجه ، أفلا يقدر الذى ابتدأ ذلك على إعادته !

ولما صار التوحيد بذلك كالشمس ، وكان كل ما في الكون - مع أنه دال على الوحدانية - نعمة على الإنسان يجب عليه شكرها ، شرع يعدد ذلك تنبيهاً له على وجوب الشكر بالتبرؤ من الكفر ، فقال مقدماً الحيوانات لأنها أشرف من غيرها ، وقدم منها ما ينفع الإنسان لأنه أجلّ من غيره .

مبتدئاً بما هو أولاها بالذكر لأنه أجلّها منفعة في ضرورات المعيشة وألزمها لمن أنزل الذكر بلسانهم : ﴿ والأنعام ﴾ أي الأزواج الثمانية : الضأن والمعز والإبل والبقر ﴿ خلقها ﴾ غير ناطقة ولا مبينة مع كونها أكبر منكم خلقاً وأشد قوة .

ولما كان أول ما يمكن أن يلقى الإنسان عادة من نعمها اللباس ، بدأ به ، فقال على طريق الاستئناف : ﴿ لكم فيها دفء ﴾ أي ما يدفأ به فيكون منه حر معتدل من حر البدن الكائن بالدثار بمنع البرد ، وثنى بما يعم جميع نعمها التي منها اللبن فقال : ﴿ ومنافع ﴾ ثم ثلث بالأكل لكونه بعد ذلك فقال تعالى : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ وقدم الظرف دلالة على أن الأكل من غيرها بالنسبة إلى الأكل منها مما لا يعتد به ، ثم تلاه بالتجمل لأنه النهاية لكونه للرجال فقال تعالى : ﴿ ولكم ﴾ أي أيها الناس خاصة ﴿ فيها ﴾ أي الأنعام ﴿ جمال ﴾ أي عظيم .

ولما كان القدوم أجل نعمة وأبهج من النزوح، قدمه فقال: ﴿حين يريحون﴾ بالعشي من المراعي وهي عظيمة الضروع طويلة الأسنمة ﴿وحين تسرحون﴾ بالغداة من المُراح إلى المراعي، فيكون لها في هاتين الحالتين من الحركات منها ومن رعاتها ومن الحلب والتردد لأجله وتجاوب الثغاء والرغاء أمر عظيم وأنس لأهلها كبير. انتهى انتهى. ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 4 صـ 245. 246﴾



فصل

قال الفخر:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4)﴾

اعلم أن أشرف الأجسام بعد الأفلاك والكواكب هو الإنسان، فلما ذكر الله تعالى الاستدلال على وجود الإله الحكيم بأجرام الأفلاك، أتبعه بذكر الاستدلال على هذا

المطلوب بالإنسان .

واعلم أن الإنسان مركب من بدن ونفس ، فقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ اشارة إلى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ إشارة إلى الاستدلال بأحوال نفسه على وجود الصانع الحكيم .

أما الطريق الأول : فتقريره أن نقول : لا شك أن النطفة جسم متشابه الأجزاء بحسب الحس والمشاهدة ، إلا أن من الأطباء من يقول إنه مختلف الأجزاء في الحقيقة ، وذلك لأنه إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع ، فإن الغذاء يحصل له في المعدة هضم أول وفي الكبد هضم ثان .

وفي العروق هضم ثالث .

وعند وصوله إلى جواهر الأعضاء هضم رابع .

ففي هذا الوقت وصل بعض أجزاء الغذاء إلى العظم وظهر فيه أثر من الطبيعة العظيمة ، وكذا القول في اللحم والعصب والعروق وغيرها ثم عند استيلاء الحرارة على البدن عند هيجان الشهوة يحصل ذوبان من جملة الأعضاء ، وذلك هو النطفة ، وعلى هذا التقدير تكون النطفة جسماً مختلف الأجزاء والطبائع .

إذا عرفت هذا فنقول : النطفة في نفسها إما أن تكون جسماً متشابه الأجزاء في الطبيعة والماهية ، أو مختلف الأجزاء فيها ، فإن كان الحق هو الأول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد

البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهر النطفة ودم الطمث ، لأن الطبيعة تأثيرها بالذات والإيجاب لا بالتدبير والاختيار .

والقوة الطبيعية إذا عملت في مادة متشابهة الأجزاء وجب أن يكون فعلها هو الكرة ، وعلى هذا الحرف عولوا في قولهم البسائط يجب أن تكون أشكالها الطبيعية في الكرة فلو كان المقتضى لتولد الحيوان من النطفة هو الطبيعة ، لوجب أن يكون شكلها الكرة .

(90/432)

---

وحيث لم يكن الأمر كذلك ، علمنا أن المقتضى لحدوث الأبدان الحيوانية ليس هو الطبيعة ، بل فاعل مختار ، وهو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار .

وأما القسم الثاني : وهو أن يقال : النطفة جسم مركب من أجزاء مختلفة في الطبيعة والماهية فنقول : بتقدير أن يكون الأمر كذلك ، فإنه يجب أن يكون تولد البدن منها بتدبير فاعل مختار حكيم وبيانه من وجوه :

الوجه الأول : أن النطفة رطوبة سريعة الاستحالة ، وإذا كان كذلك كانت الأجزاء الموجودة فيها لا تحفظ الوضع والنسبة ، فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في الأسفل ، والجزء الذي هو مادة القلب قد يحصل في الفوق ، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن

لا تكون أعضاء الحيوان على هذا الترتيب المعين أمراً دائما ولا أكثرياً ، وحيث كان الأمر كذلك ، علمنا أن حدوث هذه الأعضاء على هذا الترتيب الخاص ليس إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم .

والوجه الثاني : أن النطفة بتقدير أنها جسم مركب من أجزاء مختلفة الطبائع ، إلا أنه يجب أن ينتهي تحليل تركيبها إلى أجزاء يكون كل واحد منها في نفسه جسماً بسيطاً ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلو كان المدبر لها قوة طبيعية لكان كل واحد من تلك البسائط يجب أن يكون شكله هو الكرة فكان يلزم أن يكون الحيوان على شكل كرات مضمومة بعضها إلى بعض ، وحيث لم يكن الأمر كذلك ، علمنا أن مدبر أبدان الحيوانات ليس هي الطبائع ولا تأثيرات الأنجم والأفلاك ، لأن تلك التأثيرات متشابهة ، فعلمنا أن مدبر أبدان الحيوانات فاعل مختار حكيم ، وهو المطلوب ، هذا هو الاستدلال بأبدان الحيوانات على وجود الإله المختار .

وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ وأما الاستدلال على وجود الصانع المختار الحكيم بأحوال النفس الإنسانية فهو المراد من قوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في بيان وجه الاستدلال وتقريره : أن النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقل فهماً وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات ، ألا ترى أن ولد الدجاجة كما يخرج من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجىء إلى الأم ، ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والغذاء الذي لا يوافقه وأما ولد الإنسان فإنه حال انفصاله عن بطن الأم ، لا يميز ألبتة بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع ، فظهر أن الإنسان في أول الحدوث أنقص حالاً وأقل فطنة من سائر الحيوانات ثم إن الإنسان بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على مساحة السموات والأرض ويقوى على معرفة ذات الله وصفاته وعلى معرفة أصناف المخلوقات من الأرواح والأجسام والفلكيات والعنصريات ويقوى على إيراد الشبهات القوية في دين الله تعالى والخصومات الشديدة في كل المطالب فانتقال نفس الإنسان من تلك البلاد المفرطة إلى هذه الكياسة المفرطة لا بد وأن يكون بتدبير إله مختار حكيم ينقل الأرواح من نقصانها إلى كمالاتها ومن جهالاتها إلى معارفها بحسب الحكمة والاختيار ، فهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وإذا عرفت هذه الدقيقة أمكنك التنبيه لوجوه كثيرة :

المسألة الثانية :

أنه تعالى إنما يخلق الإنسان من النطفة بواسطة تغيرات كثيرة مذكورة في القرآن العزيز منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مِّن طِينٍ * ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [ المؤمنون : 12 ، 13 ] إلا أنه تعالى اختصر ههنا لأجل أن ذلك الاستقصاء مذكور في سائر الآيات ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ فيه بحثان :

(92/432)

---

البحث الأول : قال الواحدي : الخصيم بمعنى المخاصم ، قال أهل اللغة : خصيمك الذي يخاصمك وفعيل بمعنى مفاعل معروف كالنسيب بمعنى المناسب ، والعشير بمعنى المعاشر ، والأكيل والشريب ويجوز أن يكون خصيم فاعلاً من خصم يخصم بمعنى اختصم ، ومنه قراءة حمزة :

﴿ تَأُخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصّمُونَ ﴾ [ يس : 49 ] .

البحث الثاني : لقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وجهان : أحدهما : فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه ، منازع للخصوم بعد أن كان نطفة قذرة ، وجماداً لا حس له ولا حركة ، والمقصود منه : أن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة العالية الشريفة لا يحصل إلا بتدبير مدبر حكيم عليم .

والثاني : فإذا هو خصيم لربه ، منكر على خالقه ، قائل : ﴿ مَن يُحيِي العظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [ يس : 78 ] والغرض منه وصف الإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل ، والتمادي في كفران النعمة ، والوجه الأول أوفق ، لأن هذه الآيات مذكورة لتقرير وجه الاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، لا لتقرير وقاحة الناس وتماديهم في الكفر والكفران .

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الإنسان سائر الحيوانات لاختصاصها بالقوى الشريفة .

وهي الحواس الظاهرة والباطنة ، والشهوة والغضب ، ثم هذه الحيوانات قسمان : منها ما ينتفع الإنسان بها ، ومنها ما لا يكون كذلك ، والقسم الأول : أشرف من الثاني ، لأنه لما كان الإنسان أشرف الحيوانات وجب في كل حيوان يكون انتفاع الإنسان به أكمل .

وأكثر أن يكون أكمل وأشرف من غيره ، ثم نقول : والحيوان الذي ينتفع الإنسان به إما أن ينتفع به في ضروريات معيشته مثل الأكل واللبس أو لا يكون كذلك ، وإنما ينتفع به في أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها ، والقسم الأول أشرف من الثاني ، وهذا القسم هو الأنعام ، فلهذا السبب بدأ الله بذكره في هذه الآية ، فقال : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ .

واعلم أن الأنعام عبارة عن الأزواج الثمانية وهي : الضأن ، والمعز .

والإبل .

والبقر ، وقد يقال أيضاً : الأنعام ثلاثة : الإبل .

والبقر .

والغنم .

قال صاحب "الكشاف" : وأكثر ما يقع هذا اللفظ على الإبل .

وقوله : ﴿ والأنعام ﴾ منصوبة وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه مَنَازِلَ ﴾ [ يس : 39 ] ويجوز أن يعطف على الإنسان .

أي خلق الإنسان والأنعام ، قال الواحدي : تم الكلام عند قوله : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا ﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ويجوز أيضاً أن يكون تمام الكلام عند قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿ فِيهَا دِفْء ﴾ قال صاحب "النظم" : أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله : ﴿ خَلَقَهَا ﴾ والدليل عليه أنه عطف عليه قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾

والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال .

المسألة الثانية :

أنه تعالى لما ذكر أنه خلق الأنعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك المنافع ، واعلم أن منافع النعم منها ضرورية ، ومنها غير ضرورية ، والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية .

فالمنفعة الأولى : قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ وقد ذكر هذه المعنى في آية أخرى فقال : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ [ النحل : 80 ] والدفء عند أهل اللغة ما يستدفأ به من الأكسية ، قال الأصمعي : ويكون الدفء السخونة .

يقال : أقعد في دفء هذا الحائط ، أي في كنه .

وقرىء : ﴿ دف ﴾ بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء .



---

والمنفعة الثانية : قوله : ﴿ ومنافع ﴾ قالوا : المراد نسلها ودرها ، وإنما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم ، لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود ، وقد ينتفع به بأن يبدل بالثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل .

والمنفعة الثالثة : قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

فإن قيل : قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ يفيد الحصر وليس الأمر كذلك ، فإنه قد يؤكل من غيرها ، وأيضاً منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس ، فلم أخر منفعته في الذكر ؟

قلنا : الجواب عن الأول : إن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم ، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر ، فيشبه غير المعتاد .

وكالجاري مجرى التفكه ، ويحتمل أيضاً أن غالب أطعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التي تأكلونها منها ، وأيضاً تكتسبون باكراء الإبل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها ، وتشترون بها جميع أطعمتكم .

والجواب عن السؤال الثاني : أن الملبوس أكثر بقاء من المطعوم ، فلهذا قدمه عليه في الذكر .

واعلم أن هذه المنافع الثلاثة هي المنافع الضرورية الحاصلة من الأنعام .

وأما المنافع الحاصلة من الأنعام التي هي ليست بضرورية فأمور :

المنفعة الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ الإراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه ليلاً ، ويقال : سرح القوم إبلهم سرحاً إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى .

قال أهل اللغة : هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع إذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة ، وأحسن ما يكون النعم في ذلك الوقت .

(95/432)

واعلم أن وجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة والتسريح الأفنية ، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء ، وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها .

فإن قيل : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟

قلنا : لأن الجمال في الإراحة أكثر .

لأنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع ، ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح ، فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والإنتشار ، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 178.182 ﴾

(96/432)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

الخصيم المحتج في الخصومة ، والمبين هو المفصح عما في ضميره . وفي صفته بذلك ثلاثة أوجه :

أحدها : تعريف قدرة الله تعالى في إخراجه من النطفة المهينة إلى أن صار بهذه الحال في البيان والمكنة .

الثاني : ليعرفه نعم الله تعالى عليه في إخراجه إلى هذه الحال بعدما خلقه من نطفة مهينة .

الثالث : يعرفه فاحش ما ارتكب من تضييع النعمة بالخصومة في الكفر ، قاله الحسن .

وذكر الكلبي أن هذه الآية نزلت في أُبي بن خلف الجمحي حين أخذ عظاماً نخرة فذراها وقال : أنُعادُ إذا صرنا هكذا .

قوله عز وجل : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه اللباس ، قاله ابن عباس .

الثاني : ما ستدفىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، قاله الحسن .

الثالث : أن الدفء صغار أولادها التي لا تركب ، حكاه الكلبي . ﴿ ومنافِعُ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : النسل ، قاله ابن عباس .

الثاني : يعني الركوب والعمل . ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يعني اللبن واللحم . قوله عز وجل : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن الرواح من المراعي إلى الأفنية ، والسراح انتشارها من الأفنية إلى المراعي .

الثاني : أنه على عموم الأحوال في خروجها وعودها من مرعى أو عمل أو ركوب وفي الجمال بها وجهان :

أحدهما : قول الحسن إذا رأوها : هذه نَعَمُ فلان ، قاله السدي .

الثاني : توجه الأنظار إليها ، وهو محتمل .

وقد قدم الرواح على السراح وإن كان بعده لتكامل درها ولأن النفس به أسَرُّ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(97/432)

---

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾

يريد ب ﴿ الإنسان ﴾ الجنس ، وأخذ له الغايتين ليظهر له البعد بينهما بقدرة الله ، ويروى أن الآية نزلت لقول أبي بن خلف من يحيي العظام وهي رميم ؟ وقوله ﴿ خصيم ﴾ يحتمل

أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله ويجادلون في توحيده وشرعه ، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري ، ويحتمل أن يريد أعم من هذا على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان على البشر ، ويظهر أنها إذا تقدر في خصام الكافرين ينضاف إلى العبرة وعيد ما .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

﴿ الأنعام ﴾ الإبل والبقر والغنم وأكثر ما يقال نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ، ولا يقال للغنم مفردة ، ونصبها إما عطف على ﴿ الإنسان ﴾ [ النحل : 4 ] وإما بفعل مقدر وهو أوجه ، و" الدفء " السخانة وذهاب البرد بالأكسية ونحوها ، وذكر النحاس عن الأموي أنه قال : الدفء في لغة بعضهم تناسل الإبل .

قال القاضي أبو محمد : وقد قال ابن عباس : نسل كل شيء ، وقد قال ابن سيده : " الدفء " نتاج الإبل وأوبارها والانتفاع بها ، والمعنى الأول هو الصحيح ، وقرأ الزهري وأبو جعفر " دفء " بضم الفاء وشدها وتنوينها ، و" المنافع " ألبانها وما تصرف منها ودهونها وحرثها والنضح عليها وغير ذلك ، ثم ذكر " الأكل " الذي هو من جميعها ، وقوله ﴿ جمال ﴾ أي في المنظر . و﴿ تريحون ﴾ معناه حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطاناً ممتلئة الضروع ، و﴿ تسرحون ﴾ معناه تخرجونها غدوة إلى السرح ، تقول سرحت السائمة إذا أرسلتها تسرح فسرحت هي ، كرجع رجعته ، وهذا " الجمال " هو لمالكها ولمحبيه وعلى حسدته وهذا المعنى كقوله تعالى ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ [

الكهف : 46 ] وقرأ عكرمة والضحاك " حينما تريحون حيناً تسرحون " ، وقرأت فرقة " وحيناً ترتحون " .

قال القاضي أبو محمد : وأظنها تصحيفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(98/432)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾

لما ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدّي طوره .

"والإنسان" اسم للجنس .

وروي أن المراد به أُبَيّ بن خلف الجُمَحيّ ، جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بعظم رَميم فقال : أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رمّ .

وفي هذا أيضاً نزل ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [ ياس : 77 ] أي خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطواراً إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصِم في الأمور .

فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [ ياس : 78 ]

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ أي مخاصِم، كالنسيب بمعنى المناسب.

أي يخاصم اللَّهَ عز وجل في قدرته.

و ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر الخصومة.

وقيل : يبيّن عن نفسه الخصومة بالباطل.

والمبين : هو المفصح عما في ضميره بمنطقه.

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ لما ذكر الإنسان ذكر ما مَنّ به عليه.

والأنعام : الإبل والبقر والغنم.

وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة.

قال حسان :

عفَتْ ذاتُ الأصابع فالجِواءُ . . .

إلى عَذْراءَ منزِلُها خَلاء

دِيارٌ من بَنِي الحَسْحَاس قَفْرٌ . . .

تُعَفِّيها الروامِسُ والسماء

وكانت لا يزال بها أنيس . . .

خِلال مُرُوجها نَعَمٌ وشَاءُ

فالنَّعم هنا الإبل خاصّةً.

وقال الجوهري : والنَّعَم واحد الأنعام وهي المال الراعية ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

قال الفَرّاء : هو ذكَر لا يؤنث ، يقولون : هذا نَعَم وارد ، ويجمع على نُعْمان مثل حَمَل وحُمْلان .

(99/432)

---

والأنعام تذكّر وتؤنث ؛ قال الله تعالى : ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِه ﴾ [ النحل : 66 ] .

وفي موضع ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [ المؤمنون : 21 ] .

وانتصب الأنعام عطفاً على الإنسان ، أو بفعل مقدّرٌ ، وهو أوجه .

الثانية قوله تعالى : ﴿ دِفْءٌ ﴾ الدِّفْء : السَّخانة ، وهو ما اسْتُدْفِىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ملابس ولُحُف وقُطُف .

وروي عن ابن عباس : دفؤها نسلها ؛ والله أعلم قال الجوهري في الصحاح : الدف ءِ نتاج

الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ؛ قال الله تعالى : "لكم فِيها دفْء" .

وفي الحديث : "لنا من دِفئهم ما سلّموا بالميثاق" والدفء أيضاً : السخونة ، تقول منه :

دَفِيء الرجل دَفَاءة مثل كُرِه كراهة .

وكذلك دَفِيء دَفَأً مثل ظَمِيء ظمأً .

والاسم الدِّفْء ( بالكسر ) وهو الشيء الذي يدفئك ، والجمع الأدفاء .

تقول : ما عليه دفء ؛ لأنه اسم .

ولا تقول : ما عليك دَفاءة ؛ لأنه مصدر .

وتقول : اقعد في دِفء هذا الحائط أي كِنّه .

ورجل دفِيء على فَعِلٍ إذا لبس ما يدفِئه .

وكذلك رجل دفآن وامرأة دفأى .

وقد أدفأه الثوب وتدفأ هو بالثوب واستدفأ به ، وادّفأ به وهو افتعل ؛ أي لبس ما يدفئه .

ودَفُؤت ليلتنا ، ويوم دَفِيء على فعيل وليلة دفِيئة ، وكذلك الثوب والبيت .

والمُدْفِئة الإبل الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفيء بعضاً بأنفاسها ، وقد يشدّد .

والمُدْفَأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم ؛ عن الأصمعي .

وأنشد الشماخ :

وكيف يَضِيع صاحب مُدْفآتٍ . . .

على أثباجهن من الصَّقِيع

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابة .

مجاهد : الركوب والحمل والألبان واللحوم والسمن .

﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع .

وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثة دلت هذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله كموسى وغيره .



---

وفي حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين . . . الحديث ، خرجه مسلم وغيره .

قال ابن العربيّ : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس ليِّناً وخشناً وجيداً ومُقارِباً ورديئاً ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم في الغالب ، فالياء للنسب والهاء للتأنيث .

وقد أنشدني بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تشاجر الناس في الصوفيّ واختلفوا . . .

فيه وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أنْحَل هذا الاسم غيرَ فتًى . . .

صافى فصوفي حتى سُمّيَ الصوفي

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) ﴾

الجمال ما يتجمّل به ويتزين .

والجمال : الحسن .

وقد جَمُل الرجل ( بالضم ) جمالاً فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجملاء أيضاً ؛ عن الكسائي .

وأنشد :

فهي جَمْلاء كبدرٍ طالع . . .

بذّت الخلق جميعاً بالجمال

وقول أبي ذؤيب :

جمالَكَ أيها القلبُ القريح . . .

يريد : الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعاً قبيحاً .

قال علماؤنا : فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلْقة ، ويكون في الأخلاق الباطنة ،

ويكون في الأفعال .

فأما جمال الخِلْقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائماً ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر .

وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العِلم والحكمة والعدل والعِفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد .

وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم .

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئيّ بالأبصار موافق للبصائر .

ومن جمالها كثرتُها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان ؛ قاله السدّيّ .

ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها ؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعاً ؛ قاله قتادة .



---

ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل دَرّها وسرور النفس بها إذ ذاك .

والله أعلم .

وروى أشهب عن مالك قال : يقول الله عز وجل ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه .

والرّواح رجوعها بالعَشِيّ من المرعى ، والسَّراح بالغداة ؛ تقول : سَرَحتُ الإبل أسرحها سَرْحاً وسروحاً إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها ، وسرحت هي .

المتعدّي واللازم واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(102/432)

---

وقال الخازن :

﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾

يعني أنه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي ، وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم إلى النبي ( صلى الله عليه وسلم ) فقال : تزعم أن الله يحيي هذا بعدما رم فنزلت فيه هذه الآية ، ونزل فيه أيضاً قوله تعالى ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ والصحيح أن الآية عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة ، وحملها على العموم أولى ، وفيها بيان القدرة وأن الله خلق الإنسان من نطفة قذرة فصار جبارا كثيراً لخصومة ، وفيه كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم .

قوله ﴿ والأنعام خلقها ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض ، ثم أتبعه بذكر خلق الإنسان ، ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته .

ولما كان أعظم ضرورات الإنسان إلى الأكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الإنسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك ، وهو الأنعام .

فقال تعالى ﴿ والأنعام خلقها ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم .

قال الواحدي : تم الكلام عند قوله والأنعام خلقها .

ثم ابتدأ فقال تعالى ﴿ لكم فيها دفء ﴾ قال : ويجوز أيضاً أن يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى : فيها دفء .

قال صاحب النظم أحسن الوجهين أن يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدأ بقوله لكم فيها دفء ، والدليل عليه أنه عطف عليه قوله ، ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال .

ولما كانت منافع هذه الأنعام منها ضرورية ، ومنها غير ضرورية ، بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية ، فقال تعالى : لكم فيها دفء وهو ما يُستدفأ به من اللباس والأكسية ونحوها ، المتخذة من الأصواف والأوبار والأشعار الحاصلة من النعم ﴿ ومنافع ﴾ يعني النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الأنعام ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يعني من لحومها .

فإن قلت : قوله تعالى ﴿ ومنها تأكلون ﴾ يفيد الحصر لأن تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها .

قلت : الأكل من هذه الأنعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط والإوز وصيد البر والبحر ، فغير معتد به في الأغلب : وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الأغلب في الأكل من هذه الأنعام .

فإن قلت : منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الأكل وقدم منفعة اللباس ؟ قلت : منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الأكل فلهذا قدم على الأكل .

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ولكم فيها ﴾ أي في الأنعام ﴿ جمال ﴾ أي زينة ﴿ حين تريحون وحين تسرحون ﴾ الإراحة رد الإبل بالعشي إلى مراحلها حيث تأوي إليه بالليل .

وقال : سرح القوم إبلهم تسريحاً إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى .

قال أهل اللغة : وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع إذا سقط الغيث ، ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة ، وأحسن ما تكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجميل بها فيه كما من الانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من

معظمها لأن الرعاة إذا سرحوا النعم بالغداة إلى المرعى ، وروحوها بالعشي إلى الأفنية والبيوت يسمع للإبل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضاً ، فعند ذلك يفرح أربابها بها وتتجمل بها الأفنية والبيوت ، ويعظم وقعها عند الناس .

فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة وهو رجوعها إلى البيوت أكثر منها وقت التسريح لأن النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع ، فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها إلى المرعى فإنها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ، ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان أن التجمل في الإراحة ، أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

*(104/432)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾

ولما ذكر ما دل على وحدانيته من خلق العالم العلوي والأرض ، وهو استدلال بالخارج ، ذكر الاستدلال من نفس الإنسان ، فذكر إنشاءه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وكان حقه والواجب عليه أن يطيع وينقاد لأمر الله .

والخصيم من صفات المبالغة من خصم بمعنى اختصم ، أو بمعنى مخاصم ، كالخليط والجليس ، والمبين الظاهر الخصومة أو المظهرها .

والظاهر أنّ سياق هذين الوصفين سياق ذم لما تقدم من قوله : سبحانه وتعالى عما يشركون ، وقوله : أن أنذروا الآية .

ولتكرير تعالى عما يشركون ، ولقوله في يس : ﴿ أو لم ير الإنسان ﴾ الآية وقال : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ وعنى به مخاصمتهم لأنبياء الله وأوليائه بالحجج الداحضة ، وأكثر ما ذكر الإنسان في القرآن في معرض الذم ، أو مردفاً بالذم .

وقيل : المراد بالإنسان هنا أُبي بن خلف الجمحي .

وقال قوم : سياق الوصفين سياق المدح ، لأنه تعالى قواه على منازعة الخصوم ، وجعله مبين الحق من الباطل ، ونقله من تلك الحالة الجمادية وهو كونه نطفة إلى الحالة العالية الشريفة وهي : حالة النطق والإبانة .

وإذ هنا للمفاجأة ، وبعد خلقه من النطفة لم تقع المفاجأة بالمخاطبة إلا بعد أحوال تطور فيها ، فتلك الأحوال محذوفة ، وتقع المفاجأة بعدها .

وقال أبو عبد الله الرازي : اعلم أنّ أشرف الأجسام بعد الأفلاك والكواكب هو الإنسان ، ثم ذكر الإنسان وأنه مركب من بدن ونفس في كلام كثير يوقف عليه في تفسيره ، ولا نسلم ما ذكره من أنّ الأفلاك والكواكب أشرف من الإنسان .

ولما ذكر خلق الإنسان ذكر ما امتن به عليه في قوام معيشته ، فذكر أولاً أكثرها منافع ، وألزم لمن أنزل القرآن بلغتهم وذلك الأنعام ، وتقدم شرح الأنعام في الأنعام .

والأظهر أن يكون لكم فيها دفء استئناف لذكر ما ينتفع بها من جهتها ، ودفء مبتدأ وخبره لكم ، ويتعلق فيها بما في لكم من معنى الاستقرار .

(105/432)

---

وجوز أبو البقاء أن يكون فيها حالاً من دفء ، إذ لو تأخر لكان صفة .

وجوز أيضاً أن يكون لكم حالاً من دفء وفيها الخبر ، وهذا لا يجوز لأنّ الحال إذا كان العامل فيها معنى فلا يجوز تقديمها على الجملة بأسرها ، لا يجوز : قائماً في الدار زيد ، فإنْ تأخرت الحال عن الجملة جازت بلا خلاف ، أو توسطت فأجاز ذلك الأخفش ، ومنعه الجمهور .

وأجاز أيضاً أن يرتفع دفء بلكم أو نعتها بأل ، والجملة كلها حال من الضمير المنصوب انتهى .

ولا تسمى جملة ، لأنّ التقدير : خلقها لكم فيها دفء ، أو خلقها لكم كائناً فيها دفء ، وهذا من قبيل المفرد ، لا من قبيل الجملة .

وجوزوا أن يكون لكم متعلقاً بخلقها ، وفيها دفء استئناف لذكر منافع الأنعام .

ويؤيد كون لكم فيها دفء يظهر فيه الاستئناف مقابلته بقوله : ولكم فيها جمال ، فقابل المنفعة الضرورية بالمنفعة غير الضرورية .

وقال ابن عباس : الدفء نسل كل شيء ، وذكره الأموي عن لغة بعض العرب .

والظاهر أن نصب والأنعام على الاشتغال ، وحسن النصب كون جملة فعلية تقدمت ، ويؤيد ذلك قراءته في الشاذ برفع الأنعام .

وقال الزمخشري ، وابن عطية : يجوز أن يكون قد عطف على البيان ، وعلى هذا يكون لكم استئناف ، أو متعلق بخلقها .

وقرأ الزهري وأبو جعفر : دفء بضم الفاء وشدها وتنوينها ، ووجهه أنه نقل الحركة من الهمزة إلى الفاء بعد حذفها ، ثم شدد الفاء إجراء للوصل مجرى الوقف ، إذ يجوز تشديدها في الوقف .

وقرأ زيد بن علي : دف بنقل الحركة ، وحذف الهمزة دون تشديد الفاء .

وقال صاحب اللوامح : الزهري دف بضم الفاء من غير همز ، والفاء محركة بحركة الهمزة المحذوفة .

ومنهم من يعوض من هذه الهمزة فيشدد الفاء ، وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفاً .

وقال مجاهد : ومنافع الركوب ، والحمل ، والألبان ، والسمن ، والنضج عليها ، وغير

ذلك .

وأفرد منفعة الأكل بالذكر ، كما أفرد منفعة الدفء ، لأنهما من أعظم المنافع .

(106/432)

---

وقال الزمخشري : ( فإن قلت ) : تقدم الظرف في قوله : ومنها تأكلون مؤذن ، بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها ( قلت ) : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معائشهم ، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به ، وكالجاري مجرى التفكه .

وما قاله منه على أن تقديم الظرف أو المفعول دال على الاختصاص .

وقد رددنا عليه ذلك في قوله : ﴿ إياك نعبد ﴾ والظاهر أنّ مِن للتبعيض كقولك : إذا أكلت من الرغيف .

وقال الزمخشري : ويحتمل أنّ طعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر ، والحب والثمار التي تأكلونها منها ، وتكتسبون بإكراء الإبل ، وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها انتهى .

فعلى هذا يكون التبعيض مجازاً ، أو تكون من للسبب .

الجمال مصدر جمل بضم الميم ، والرجل جميل ، والمرأة جميلة وجملاء عن الكسائي وأنشد

:

فهي جملاء كبدر طالع . . .

بزت الخلق جميعاً بالجمال

ويطلق الجمال ويراد به التجمل ، كأنه مصدر على إسقاط الزوائد .

والجمال يكون في الصورة بحسن التركيب يدركه البصر ، ويلقيه في ألقاب ، فتتعلق به النفس من غير معرفة .

وفي الأخلاق باشتمالها على الصفات المحمودة : كالعلم ، والعفة ، والحلم ، وفي الأفعال : بوجودها ملائمة لمصالح الخلق ، وجلب المنفعة إليهم ، وصرف الشر عنهم .

والجمال الذي لنا في الأنعام هو خارج عن هذه الأنواع الثلاثة ، والمعنى : أنه لنا فيها جمال وعظمة عند الناس باقتنائها ودلالتها على سعادة الإنسان في الدنيا ، وكونه فيها من أهل السعة ، فمنّ الله تعالى بالتجمل بها ، كما منّ بالانتفاع الضروري ، لأن التجمل بها من أغراض أصحاب المواشي ومفاخر أهلها ، والعرب تفتخر بذلك .

ألا ترى إلى قول الشاعر :

لعمري لقوم قد نرى أمس فيهم . . .

مرابط للإمهاز والعكر الدثر

أحب إلينا من أناس بقنة . . .

يروح على آثار شائهم النمر

والعكرة من الإبل ما بين الستين إلى السبعين ، والجمع عكر .

(107/432)

---

والدثر الكثير ، ويقال : أراح الماشية ردها بالعشيّ من المرعى ، وسرحها يسرحها سرحاً وسروحاً أخرجها غدوة إلى المرعى ، وسرحت هي يكون متعديا ولازماً ، وأكثر ما يكون ذلك أيام الربيع إذا سقط الغيث وكبر الكلأ وخرجوا للنجعة .

وقدم الإراحة على السرح لأنّ الجمال فيها أظهر إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر ، بخلاف وقت سرحها ، وإن كانت في الوقتين تزين الأفنية ، وتجاوب فيها الرغاء والثغاء ، فيأتنس أهلها ، وتفرح أربابها وتجلهم في أعين الناظرين إليها ، وتكسبهم الجاه والحرمة لقوله تعالى : { المال والبنون زينة الحياة الدنيا } وقوله تعالى : { زُين للناس حب الشهوات } ثم قال تعالى : { والأنعام والحرث } وقرأ عكرمة والضحاك والجحدري : حيناً فيهما بالتنوين ، وفك الإضافة .

وجعلوا الجملتين صفتين حذف منهما العائد كقوله : { واتقوا يوماً لا تجزى } ويكون

العامل في حيناً على هذا ، إمّا المبتدأ لأنه في معنى التجمل ، وإما خبره بما فيه من معنى الاستقرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾



---

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾

ال ﴿ دِفْء ﴾ : السَّخَانة ، وذَهَاب البَرْد بالأَكْسِيَة ونحوها ، وقيل : ال ﴿ دِفْءٌ ﴾ : تناسُل الإِبل ، وقال ابن عَبَّاس : هو نسْل كُلِّ شيء ، والمعنى الأول هو الصحيحُ ، وال ﴿ منافع ﴾ : ألبانها وما تصرَّف منها ، وحَرْثُها والنَّضْح عليها وغَيْر ذلك .

وقوله : ﴿ جَمَالٌ ﴾ ، أي : في المَنْظَر ، و ﴿ تُرِيحُونَ ﴾ : معناه : حين تردُّونها وقْتَ الرَّوَاحِ إلى المنازِلِ ، و ﴿ تَسْرَحُونَ ﴾ : معناه : تخرجُونها غُدْوة إلى السَّرْح ، و«الأَثْقَالُ» : الأمتعة ، وقيل : الأجسام ؛ كقوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [ الزلزلة : 2 ] أي : أجسادَ بني آدم ، وسمِّيت الخيلُ خيلاً ؛ لاختيالها في مِشْيتها .

* ت * : ويجبُ على من ملكه اللَّه شيئاً من هذا الحيوانِ أنْ يَرْفُقَ به ، ويشْكُرُ اللَّه تعالى على هذه النعمة التي خوَّلها ، وقد روَى مالك في «الموطَّأ» عن أبي عُبَيْدٍ مولى سليمان بْنِ عبدِ المَلكِ ، عن خالدِ بْنِ مَعْدَانَ يرفعه ، قال : " إن اللَّه رفيقٌ يحبُّ الرِّفْق ، ويرضَاهُ ، ويعينُ عليه ما لا يُعِينُ على العُنْف ، فإذا ركبتم هذه الدوابَّ العُجْمَ ، فأنزلوها منازلَهَا ، فإنْ كانَتِ الأرض جَدْبةً ، فانجوا عليها بِنقْيِهَا ، وعَلَيْكُمْ بسير اللَّيْلِ ؛ فإن الأرض تُطْوَى باللَّيْلِ ما لا تُطْوَى بالنهار ، وإياكم والتَّعْرِيسَ على الطريقِ ؛ فإنها طُرُقُ الدَّوابِّ ، ومأوى الحَيَّات " .

قال أبو عمر في «التمهيد» : هذا الحديث يستندُ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من وجوهٍ كثيرةٍ ، فأمَّا «الرفْقُ» ، فمحمودٌ في كلِّ شيء ، وما كان الرفْقُ في شيء إلاَّ زانه ، وقد روَى مالك بسنده عن عائشة ، وعن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : " إنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ " ، وأُمِرَ المسافرُ في الخِصْب بأنْ يمشي رويداً ، ويكثر النزول ، لترعَى دابته ، فأما الأَرْضُ الجَدْبة ، فالسُّنَّة للمسافِرِ أنْ يُسْرِعَ السيْر ؛ ليخرجَ عنها ، وبدابَّته شيءٌ من الشَّحْم والقُوَّة ، و«النِّقْي» في كلام العرب : الشَّحْم والوَدَك . انتهى .

وروى أبو داود عن أبي هُرَيْرة ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : " إيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دوَابِّكُمْ مَنَابِرَ ، فَإِنَّ اللَّهَ إنَّمَا سخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تكُونُوا بالغِيهِ إلاَّ بشِقِّ

الأَنفُسِ ، وجَعلَ لَكُمُ الأَرْضَ فعَلَيْهَا فاقضوا حَاجَاتِكُمْ " انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(110/432)

---

وقال أبو السعود :

وبعد ما نبّه على صنعه الكليِّ المنطوي على تفاصيل مخلوقاتِه شرَع في تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بفعله المتعلق بالأنفس فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ أي هذا النوعَ غيرَ الفرد الأول منه ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ جماد لا حسّ له ولا حَراك ، سيالٍ لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد الخلق ﴿ خَصِيمٌ ﴾ مِنطيقٌ مجادِلٌ عن نفسه مكافِحٌ للخصوم ﴿ مُّبِينٌ ﴾ لحجته لقِنٌ بها ، وهذا أنسبُ بمقام الامتنانِ بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدتِه ، أو مخاصمٌ لخالقه منكِرٌ له قائلٌ : ﴿ مَن يُحىِ العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ وهذا أنسبُ بمقام تعداد هَناتِ الكفرة . روي أن أُبيَّ بنَ خلفٍ الجُمَحي أتى النبيَّ عليه السلام بعظم رميم فقال : يا محمد أترى الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رمّ فنزلت ﴿ والانعام ﴾ وهي الأزواجُ الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعَزِ ، وانتصابُها بمضمر يفسره قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهَا ﴾ أو بالعطف على الإنسان ، وما بعده بيانُ ما خُلق لأجله

والذي بعده تفصيلٌ لذلك ، وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ ﴾ إما متعلقٌ بخلَقها ، وقوله : ﴿ فِيهَا ﴾ خبرٌ مقدم ، وقوله : ﴿ دِفْءٌ ﴾ مبتدأٌ وهو ما يُدفأ به فيقي من البرد ، والجملةُ حالٌ من المفعول أو الظرفُ الأول خبرٌ للمبتدأ المذكور ، وفيها حال من دفء إذ لو تأخر لكان صفة ﴿ ومنافع ﴾ هي درّها وركوبها وحملُها والحِراثة بها وغيرُ ذلك ، وإنما عبّر عنها بها ليتناول الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم ، وتقديمُ الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي إلى الأعلى ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغيرِ ذلك ، وتغييرُ النظم للإيماء إلى أنها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحق ، فإن الدفءَ والمنافعَ والجَمال يحصل منها وهي باقيةٌ على حالها ، ولذلك جُعلت محالَّ لها بخلاف الأكل ، وتقديمُ الظرف للإيذان بأن الأكلَ

(111/432)

---

منها هو المعتادُ المعتمدُ في المعاش لأن الأكلَ مما عداها من الدجاج والبط وصيد البرِّ والبحرِ من قبيل التفكّه مع أن فيه مراعاةً للفواصل ، ويحتمل أن يكون معنى الأكلِ منها أكلَ ما يحصل بسببها فإن الحبوبَ والثمارَ المأكولة تُكتسب بإكراء الإبلِ وبإثمارِ نتاجها وألبانها وجلودها .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية ﴿ جَمَالٌ ﴾ أي زينةٌ في أعين الناس ووَجاهةٌ عندهم ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردُّونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها بالغداة من حظائرها إلى مسارحها ، فالمفعول محذوفٌ من كلا الفعلين لرعاية الفواصل ، وتعيينُ الوقتين لأن ما يدور عليه أمرُ الجمال من تزين الأفنية والأكنافِ بها وبتجاوب ثُغائها ورُغائها إنما هو عند ورودِها وخطورها في ذينك الوقتين ، وأما عند كونها في المراعي فينقطع إضافتُها الحسية إلى أربابها ، وعند كونِها في الحظائر لا يراها راءٍ ولا ينظر إليها ناظرٌ ، وتقديمُ الإراحةِ على السَّرْحِ لتقدم الورودِ على الصدور ولكونها أظهرَ منه في استتباع ما ذُكر من الجمال وأتَمَّ في استجلاب الأنسِ والبهجة إذ فيها حضورٌ بعد غَيبة وإقبالٌ بعد إدبار على أحسن ما يكون ملأى البطونِ مرتفعةَ الضلوع حافلةَ الضروع ، وقرىء حيناً تريحون وحيناً تسرحون على أن كِلا الفعلين وصفٌ لحيناً ، بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(112/432)

---

وقال الآلوسى :

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾

أي هذا النوع غير الفرد الأول منه ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أصلها الماء الصافي ويعبر بها عن ماء الرجل أي أوجده من جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلاً ولا وضعاً ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد الخلق من ذلك ﴿ خَصِيمٌ ﴾ منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم ، وهو صيغة مبالغة ، وقال الواحدي : بمعنى مخاصم ، وفعيل بمعنى مفاعل معروف عندهم كالنسيب بمعنى المناسب والخليط بمعنى المخالط والعشير بمعنى المعاشر .

(113/432)

---

﴿ مُّبِينٌ ﴾ مظهر للحجة لقن بها ؛ وقيل : المعنى أوجده من ذلك فإذا هو خصيم لخالقه سبحانه منكر لعظيم قدرته قائل : ﴿ مَنْ يحيى العظام وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [ يس : 78 ] والأول أنسب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته جل جلاله ووحدته ، وبين الإمام وجه الاستدلال فقال بعد أن زعم أن الإنسان في الشرف بعد الأفلاك والكواكب وأشار إلى أنه لذلك عقب الاستدلال بخلق تلك بالاستدلال بخلقه : اعلم أن الإنسان مركب من نفس وبدن ، وصدر الآية إشارة إلى الاستدلال ببدنه على وجود الصانع الحكيم وعجزها إشارة إلى الاستدلال بأحواله ، وتقرير الأول أن يقال : إن النطفة إما أن تكون متشابهة الأجزاء أو مختلفتها فإن كان الأول لم يجز أن يكون المقتضى لتولد هذا

البدن منها هو الطبيعة الحاصلة في جوهرها لأن تأثير الطبيعة بالذات والإيجاب فمتى عملت في مادة متشابهة الأجزاء وجب أن يكون عملها الكرية وحيث لم يكن الأمر فيما نحن فيه كذلك لظهور أن الأبدان ليست كرية علمنا أن المقتضى لها هو الفاعل الحكيم المختار ، وإن كان الثاني قلنا : إنه يجب أن ينتهي تحليل تركيبها إلى أجزاء يكون كل واحد منها في نفسه جسما بسيطاً وحينئذ لو كان المدبر لها قوة طبيعية لوجب أن يكون كل من تلك البسائط كرى الشكل فكان يلزم أن يكون الإنسان على شكل كرات مضمومة بعضها إلى بعض وحيث لم يكن لذلك علمنا أن المقتضى هو الفاعل المختار أيضاً جل شأنه وأيضاً إلى النطفة رطبة سريعة الاستحالة فلا تحفظ الوضع فالجزء الذي هو مادة الدماغ يمكن حصوله في السفل والجزء الذي هو مادة القلب يمكن حصوله في الفوق فحيث كان الإنسان على هذا الترتيب المعين دائماً مع إمكان غيره علمنا أن حدوثه على ذلك الترتيب ليس إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم ولا يصح أن يقال : إن ذلك من تأثير النجوم والأوضاع الفلكية لأن تأثيراتها متشابهة على أنه قد بين بطلان كونها مؤثرة بغير ذلك في موضعه .

وتقرير الثاني أن النفوس الإنسانية في أول الفطرة أقل فهما وذكاء وفطنة من نفوس سائر الحيوانات فإن فرخ الدجاجة حين خروجه من قشر البيضة يميز بين العدو والصديق فيهرب من الهرة ويلتجىء إلى الام ويميز بين الغذاء الذي يوافقه والذي لا يوافقه وأما ولد الإنسان فإنه حين انفصاله من بطن أمه لا يميز بين العدو والصديق ولا بين الضار والنافع ثم إنه بعد كبره يقوى عقله ويعظم فهمه ويصير بحيث يقوى على معرفة الله تعالى وعلى معرفة أصناف المخلوقات العلوية والسفلية والاطلاع على كثير من أحوالها الدقيقة وعلى الخصومات والمباحثات فانتقال نفسه من تلك البلادة المفرطة إلى هذه الكياسة المفرطة لا بد وأن يكون بتدبير إله مختار حكيم ينقلها من نقصانها إلى كمالها ومن جهالتها إلى معرفتها بحسب الحكمة والاختيار، والثاني قيل: انسب بمقام تعداد هنات الكفرة فانه قد اشتمل من بيان جراءة من كفر على الله تعالى وعدم استحيائه منه سبحانه ووقاحته بتماديه في الكفر.

وذكر بعضهم أنه يؤيد هذا الوجه قوله تعالى في سورة يس بعد ما ذكر مقله: ﴿ قَالَ مَن يُحيِ العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: 78] فإنه فيما ذكر فيكون صدر الآية للاستدلال وعجزها لتقرير الوقاحة، وتعقب بأنه ليس بشيء لأن مدار ما قبلها في تلك السورة على ذكر الحشر والنشر ومكابرتهم فيه بخلاف هذه ولكل مقام مقال، وأما كون الآية مسوقة لتقرير وقاحة الإنسان لانتفاء التنافي بين الاستدلال على الوحدانية والقدرة وتقرير وقاحة المنكرين ولذا

جعل التتميم لما قبله ﴿ تعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 3 ] فعدم المنافي لا يقتضي وجود المناسب ، وعندي لكل وجهة .

(115/432)

---

وفي الكشف المعنيان ملائمان للمقام إلا أن في الثاني زيادة ملائمة مع قوله : ﴿ تعالى عَمَّا يشركون ﴾ [ النحل : 3 ] ثم إنه أدمج فيه المعنى الأول وروى الواحدي أن أبي بن خلف أتى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم وقال : يا محمد أتوى ان الله تعالى يحيي هذا بعد ما قدرم فنزلت نظير ما في آخر يس ، والمشهور أن تلك هي النازلة في تلك القصة ، ثم وجه التعقيب وإذا الفجائية في قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ إلى آخره مع أن كونه خصيماً مبيناً بأي معنى أريد لم يعقب خلقه من نطفة إذ بينهما وسائط أنه بيان لأطواره إلى كمال عقله فالتعقيب باعتبار آخرها فلا وجه لتقدير الوسائط ولا للقول بأنه من باب التعبير عن حال الشيء بما يؤول إليه فافهم .

(116/432)

---

﴿ وَالْأَنْعَامَ ﴾ وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والأن والمعز ، قال الراغب : ولا يقال أنعام إلا إذا كان فيها إبل ، وخصها بعضهم هنا بذلك وليس بشيء ، والنصب على المفعولية لفعل مضمر يفسره قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهَا ﴾ وهو أرجح من الرفع في مثل هذا الموضع لتقدم الفعلية وقرىء به في الشواذ أو على العطف على ﴿ الإنسان ﴾ [ النحل : 4 ] وما بعد بيان ما خلق لأجله والذي بعده تفصيل لذلك ، وقوله سبحانه : ﴿ لَكُمْ ﴾ إما متعلق – بخلقها – وقوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ خبر مقدم وقوله جل وعلا : ﴿ دفءٌ ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة حال من المفعول أو الجار والمجرور الأول خبر للمبتدأ المذكور والثاني متعلق بما فيه من معنى الاستقرار ، وقيل : حال من الضمير المستكن فيه العائد على المبتدأ ، وقيل : حال من ﴿ دفء ﴾ إذ لو تأخر لكان صفة ، وجوز أبو البقاء أن يكون الثاني هو الخبر والأول في موضع الحال من مبتدئه ، وتعقبه أبو حيان بأن هذا لا يجوز لأن الحال إذا كان العامل فيها معنى لا يجوز تقديمها على الجملة بأسرها فلا يجوز قائماً في الدار زيد فإن تأخرت الحال عن الجملة جازت بلا خلاف وإن توسطت فالأخفش على الجواز والجمهور على المنع ، وجوز أبو البقاء أيضاً أن يرتفع ﴿ دفء ﴾ – بلكم – أو – بفيها – والجملة كلها حال من الضمير المنصوب ، وتعقبه أبو حيان أيضاً بأن ذلك لا يعد من قبيل الجملة بل هو من قبيل المفرد ، ونقل أنهم جوزوا أن يكون ﴿ لكم ﴾ متعلقاً – بخلقها – وجملة ﴿ فيها دفء ﴾ استئناف لذكر منافع الأنعام ، واستظهر كون جملة ﴿ لكم فيها

جمال ﴾ فقابل سبحانه المنفعة الضرورية بالمنفعة الغير الضرورية ، وإلى نحو ذلك ذهب القطب فاختار أن الكلام قد تم عند ﴿ خلقها ﴾ لهذا العطف وخالفه في ذلك صاحب " الكشف " فقال : إن قوله تعالى : ﴿ خلقها لكم ﴾ بناء على تفسير الزمخشري له بقوله : ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان طرف من ترشيح المعنى الثاني

(117/432)

---

في قوله سبحانه : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ [ النحل : 4 ] لما في الالتفات المشار إليه من الدلالة عليه ، وأما الحصر المشار إليه بقوله : ما خلقها إلا لكم فمن اللام المفيدة للاختصاص سيما وقد نوع الخطاب بما يفيد زيادة التمييز والاختصاص ، وهذا أولى من جعل ﴿ لكم فيها دفء ﴾ مقابل ﴿ لكم فيها جمال ﴾ [ النحل : 6 ] لإفادته المعنى الثاني وأبلغ على أنه يكون ﴿ فيها دفء ﴾ تفصيلاً للأول وكرر ﴿ لكم ﴾ في الثاني لبعد العهد وزيادة التقريع اه ، والحق في دعوى أولوية تعلق ﴿ لكم ﴾ بما قبله معه كما لا يخفى .

والدفْ اسم لما يدفأ به أي يسخن ، وتقول العرب دفىء يومنا فهو دفىء إذا حصلت فيه سخونه ودفىء الرجل دفاء ودفاء بالفتح والكسر ورجل دفآن وامرأة دفأى ويجمع

الدفء على إدفاء ، والمراد به ما يعم اللباس والبيت الذي يتخذ من أوبارها وأصوافها ، وفسره ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير وغيره بالثياب .

وأخرج عبد الرزاق وغيره عنه رضي الله تعالى عنه أيضاً أنه نسل كل دابة ، ونقله الأموي عن لغة بعض العرب والظاهر هو الأول .

وقرأ الزهري وأبو جعفر ﴿ دفء ﴾ بضم الفاء وشدها وتنوينها ، ووجه ذلك في " البحر " بأنه نقل الحركة من الهمزة إلى الفاء وحذفت ثم شدد الفاء إجراء للوصول مجرى الوقف إذ يجوز تشديدها في الوقف .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ دفء ﴾ بنقل الحركة والحذف دون تشديد ، وفي " اللوامح " : قرأ الزهري ﴿ دفء ﴾ بضم الفاء من غير همزة وهي محركة بحركتها ، ومنهم من يعوض عن هذه الهمزة فيشدد الفاء وهو أحد وجهي حمزة بن حبيب وقفا .

واعترض بأن التشديد وقفا لغة مستقلة وإن لم يكن ثمة حذف من الكلمة الموقوف عليها ودفع بأنه إنما يكون ذلك إذا وقف على آخر حرف منها أما إذا وقف على ما قبل الآخر منها كقاض فلا .

﴿ وَمَنَافِع ﴾ هي درها وركوبها والحراثة بها والنضح عليها وغير ذلك ، وإنما عبر عنها بها ليشمل الكل مع أنه الأنسب بمقام الامتنان بالنعم ، وقدم الدفء رعاية لأسلوب الترقي إلى الأعلى ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم ونحو ذلك – فمن – تبعيضية ، والأكل إما على معناه المتبادر وإما بمعنى التناول الشامل للشرب فيدخل في العد الألبان ، وجوز أن تكون ﴿ من ﴾ ابتدائية وأن تكون للتبعيض مجازاً أو سببية أي تأكلون ما يحصل بسببها فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكتراء الإبل مثلاً وأثمان نتاجها وألبانها وجلودها والأول أظهر وأدخل ما يحصل من من اكترائها من الإجارة التي يتوصل بها إلى مصالح كثيرة في المنافع ، وتغيير النظم الجليل قيل للإيماء إلى أنها لا تبقى عند الأكل كما في السابق واللاحق فإن الدفء والمنافع التي أشرنا إليها والجمال يحصل منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت محال لها بخلاف الأكل ، وتقديم الظرف للحصر على معنى أن الأكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش من بين سائر الحيوانات فلا يرد الأكل من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فإنه من قبيل التفكه ، وكذا لا يرد أكل لحم الخيل عند من أباحه لأنه ليس من المعتاد المعتمد أيضاً ، والحاصل أن الحصر إضافي وبذلك لا يرد أيضاً أكل الخبز والبقول ونحوها ، ويضم إلى هذا الوجه في التقديم رعاية الفواصل ، وجعله لمجرد ذلك كما في " الكشف " قصور ، وأبو حيان ينكر كون التقديم مطلقاً للحصر فينحصر وجهه هنا حينئذ في الرعاية المذكورة .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذكر من المنافع الضرورية ﴿ جَمَالٌ ﴾ زينة في أعين الناس وعظمة ووجاهة عندهم ، والمشهور اطلاقه على الحسن الكثير ، ويكون في الصورة بحسن التركيب وتناسق الأعضاء وتناسبها ، وفي الأخلاق باشتمالها على الصفات المحمودة وفي الأفعال بكونها ملائمة للمصلحة من درء المضرة وجلب المنفعة وهو في الأصل مصدر جمل بضم الميم ويقال للرجل جميل وجمال وجمال على التكثير وللمرأة جميلة وجملاء عند الكسائي وأنشد :

فهي جملاء كبدر طالع . . .

بذت الخلق جميعاً بالجمال

ورأى بعضهم اطلاقه على التجمل فظن أنه مصدر بإسقاط الزوائد ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ أي تردونها بالعشى من المرعى إلى مراحها يقال : أراح الماشية إذا ردها إلى المراح وقتئذ ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها غدوة من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها يقال : سرحها يسرحها سرحاً وسروحاً وسرحت هي يتعدى ولا يتعدى ، والفعل الأول وكذا الثاني متعد والمفعول محذوف لرعاية الفواصل ، وتعيين الوقتين لأن ما يدور عليه أمر

الجمال من تزين الا فنية وتجاوب ثغائها ورغائها إنما هو عند الذهاب والمجيء في ذينك الوقتين ، وأما عند كونها في المسارح فتنقطع إضافتها الحسية التي أربابها ، وعند كونها في الحظائر لا يراها راء ولا ينظر إليها ناظر .

وتقديم الا راحة على السرح مع أنها متأخرة في الوجود عنه لكونها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب الانس والبهجة إذ فيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ملأى البطون حافلة الضروع .

وقرأ عكرمة .

والضحاك .



---

والجحدري ﴿ حينا ﴾ فيهما بالتنوين وفك الإضافة على أن كلتا الجملتين صفة لحينا قبلها والعائد محذوف كما في قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ ﴾ [ البقرة : 48 ] أي حينا تريحون فيه وحينا تسرحون فيه ، والعامل في ﴿ حِينٍ ﴾ أما المبتدأ لأنه بمعنى التجمل كما قيل واما خبره لما فيه من معنى الاستقرار .

وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع صفة لجمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(121/432)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه خلق الإنسان من نطفة ، وهي مني الرجل ومني المرأة . بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [ الأنسان : 2 ] أي أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة .

وقال صاحب الدر المنثور بعد ذكر بعض الروايات في تفسير الأمشاج بالأخلاط : من ماء الرجل وماء المرأة . وأخرج الطستي عن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق قال : أخبرني عن قوله ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ قال : اختلاط ماء الرجل وماء المرأة إذا وقع في الرحم . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت أبا ذؤيب وهو يقول :

كأن الريش والفوقين منه . . . خلال النصل خالطه مشيج

ونسب في اللسان هذا البيت لزهير بن حرام الهذلي ، وأنشده هكذا :

كأن النصل والفوقين منها . . . خلال الريش سيط به مشيج

قال : ورواه المبرد :

كأن المتن والشرجين منه . . . خلاف النصل سيط به مشيج

قال : ورواه أبو عبيدة :

كأن الريش والفوقين منها . . . خلال النصل سيط به مشيج

ومعنى "سيط به مشيج" : خلط به الخلط .

إذا عرفت معنى ذلك ، فاعلم أنه تعاى بين أن ذلك الماء الذي هو النطفةن منه ما هو خارج منالصلب ، أي وهو ماء الرجل ، ومنه ما هو خارج من الترائب وهو ماء المرأة ، وذلك قوله جل وعلا : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ﴾ [ الطارق : 5-7 ] لأن المراد بالصلب الرجل وهو ظهره ، والمراد بالترائب ترائب المرأة وهي موضع القلادة منها . ومنه قول امرىء القيس :

مهفهفة بيضاء مفاضة . . . ترائبها مصقوله كالسجنجل

واستشهد ابن عباس لنافع بن الأزرق على أن الترائب موضع القلادة بقول المخبل أو ابن ربيعة :

والزعفران على ترائبها . . . شرقا به اللبات والنحر

فقوله هنا " من بين الصلب والترائب " يدل على أن الأمشاج هي الأخلاط المذكورة. وأمر الإنسان بأن ينظر مم خلق في قوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ [ الطارق: 5 ] تنبيه له على حقارة ما خلق منه. ليعرف قدره، ويترك التكبر والعتو، ويدل لذلك قوله: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [ المرسلات: 20 ] الآية.

وبين جل وعلا حقارته بقوله: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [ المعارج: 38-39 ] والتعبير عن النطفة بما الموصولة في قوله: ﴿ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه غاية تحقير ذل الأصل الذي خلق منه الإنسان. وفي ذلك أعظم ردع، وأبلغ زجر عن التكبر والتعاظم.

وقوله جل وعلا: ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [ النحل: 4 ] أظهر القولين فيه: أنه ذم للإنسان المذكور. والمعنى: خلقناه ليعبدنا ويخضع لنا ويطيع. ففاجأ بالخصومة والتكذيب، كما تدل عليه " إذا " الفجائية. ويوضح هذا المعنى قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [ الذاريات: 56 ] مع قوله جل وعلا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

[يس : 77-79] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ [الفرقان : 54-55] ، وقوله : ﴿ وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : 66-67] إلى غير ذلك من الآيات . وسيأتي إن شاء الله تعالى زيادة لهذا المبحث في سورة " طارق " .

تنبيه

اختلف علماء العربية في " إذا " الفجائية . فقال بعضهم : هي حرف . وممن قال به الأخفش . قال ابن هشام في " المغني " : ويرجح هذا القول قولهم : خرجت فإذا إن زيداً بالباب ( بكسر إن ) لأن " إن " المكسورة لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . وقال بعضهم : هي ظرف مكان . وممن قال به المبرد . وقال بعضهم : هي ظرف زمان . وممن قال به الزجاج . والخصيم : صيغة مبالغة ، أي شديد الخصومة . وقيل الخصيم المخاصم . وإتيان الفعيل بمعنى المفاعل كثير في كلام العرب ، كالقعيد بمعنى القاعد ، والجليس بمعنى المجالس ، والأكيل بمعنى المؤاكل ، ونحو ذلك .

وقوله : " مبين " الظاهر أنه اسم فاعل أبان اللازمة ، بمعنى بان وظهر . اي بين الخصومة .

ومن إطلاق أبان بمعنى بان قول جرير .

إذا آباؤنا وأبوك عدوا . . . أبان المقرفات من العراب

أي ظهر . وقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها . . . لأبان من آثارهن حدور

يعنى لظهر من آثارهن وروم في الجلد . وقيل : من أبان المتعدية والمفعول محذوف . أي مبين خصومته ومظهر لها . والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

(124/432)

---

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أنه خلق الأنعام لبني آدم ينتفعون بها تفضلاً منه عليهم .

وقد قدمنا في " آل عمران " أن القرآن بين أن الأنعام هي الأزواج الثمانية التي هي الذكر والأنثى من الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز . والمراد بالدفء على أظهر القولين : أنه اسم لما يدفأ به ، كالملء اسم لما يملأ به ، وهو الدفاء من اللباس المصنوع من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها . .

ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ [ النحل : 80 ] وقيل : الدفء نسلها . والأول أظهر . والنسل داخل في قوله ﴿ ومنافع ﴾ أي نسلها ودرها ﴿ ومنها تأكلون ﴾ .

(125/432)

---

ومنافع الأنعام التي بين الله جل وعلا امتنانه بها على خلقه في هذه الآية الكريمة ، بينها لهم ايضاً في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [ المؤمنون : 21-22 ] ، وقوله : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ﴾ [ غافر : 79-81 ] ، وقوله : ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ [ يس : 71-73 ] ، وقوله : ﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه

وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [ الزخرف : 21-14 ] ، وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [ الزمر : 6 ] إلى غير ذلك من الآيات .

والأظهر في إعراب ﴿ والأنعام ﴾ أن عامله وهو ﴿ خلق ﴾ اشتغل عنه بالضمير فنصب بفعل مقدر وجوباً يفسره " خلق " المذكور ، على حد قول ابن مالك في الخلاصة :

فالسابق انصبه بفعل أضمرا . . . حتما موافق لما قد أظهر

(126/432)

---

وإنما كان النصب هنا أرجح من الرفع لأن امعطوف على معمول فعل ، وهو قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [ النحل : 4 ] الآية ، فيكون عطف الجملة الفعليه على الجملة الفعليه أولى من عطف الإسمية على الفعليه لو رفع الاسم السابق . وإلى أشار ابن مالك في الخلاصة بقوله عاطفاً على ما يختار فيه النصب :

وبعد عاطف بلا فصل على . . . معمول فعل مستقر أولا

وقال بعض العلماء : إن قوله ﴿ والأنعام ﴾ معطوف على ﴿ الإنسان ﴾ من قوله ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ والأول أظهر كما ترى .

وأظهر أوجه الإعراب في قوله ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ أن قوله ﴿ دِفْءٌ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ وسوغ الابتداء بالنكرة اعتمادها على الجار والمجرور قبلها وهو الخبر كما هو معروف .

خلافاً لمن زعم أن ﴿ دِفْءٌ ﴾ فاعل الجار والمجرور الذي هو ﴿ لكم ﴾ .

وفي الآية أوجه أخرى ذكرها بعض العلماء تركنا ذكرها لعدم اتجاها عندنا ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ [ النحل : 6 ] يعني أن اقتناء هذه الأنعام وملكيتها فيه لمالكها عند الناس جمال . أي عظمة ورفعة ، وسعادة في الدنيا لمقتنيها . وكذلك قال في الخيل والبغال والحمير ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [ النحل : 8 ] فعبر في الأنعام بالجمال ، وفي غيرها بالزينة . والجمال : مصدر جمل فهو جميل وهي جميلة .

ويقال أيضاً : هي جملاء . وأنشد لذلك الكسائي قوله الشاعر :

فهي جملاء كبدر طالع . . . بذت الخلق جميعاً بالجمال

والزينة : ما يتزين به . وكانت العرب تفتخر بالخيل والإبل ونحو ذلك كالسلاح . ولا تفتخر بالبقر والغنم . ويدل لذلك قول العباس بن مرداس يفتخر بمآثر قبيلته بني سليم :

واذكر بلاء سليم في مواطنها . . . ففي سليم لأهل الفخر مفتخر

قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا . . . دين الرسول وأمر الناس مشتجر

لا يغرسون فسيب النخل وسطهم . . . ولا تخاور في مشتاهم البقر



---

إلا سوابح كالعقبان مقربة . . . في دارة حولها الأخطار والعكر

والسوابح : الخيل . والمقربة : المهيأة المعدة قريباً . والأخطار : جمع خطر – بفتح فسكون – وهو عدد كثير من الإبل على اختلاف في قدره . والعكر – بفتحتين – : جمع عكرة ، وهي القطيع الضخم من الإبل أيضاً على اختلاف في تحديد قدره . وقول الآخر :

لعمري لقوم قد ترى أمس فيهم . . . مرابط للأمهار والعكر الدثر

أحب إلينا من أناس بقنة . . . يروح على آثا شائهم النمر

وقوله : " العكر الدثر " اي المال الكثير من الإبل . وبدأ بقوله : ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ [ النحل : 6 ] لأنها وقت الرواح أملأ ضروعاً وبطوناً منها وقت سراحها للمرعي .

وأظهر أوجه الإعراب في وقوله : ﴿ وَزِينَةً ﴾ [ النحل : 8 ] أنه مفعول لأجله ، معطوف على ما قبله . اي لأجل الركوب والزينة . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) ﴾

استئناف بياني أيضاً .

وهو استدلال آخر على انفراده تعالى بالإلهية ووحدانيته فيها .

وذلك أنه بعد أن استدلّ عليهم بخلق العوالم العُليا والسفلى وهي مشاهدة لديهم انتقل إلى الاستدلال عليهم بخلق أنفسهم المعلوم لهم .

وأيضاً لما استدلّ على وحدانيته بخلق أعظم الأشياء المعلومة لهم استدلّ عليهم أيضاً بخلق أعجب الأشياء للمتأمّل وهو الإنسان في طَرَفَيْ أطواره من كونه نطفة مهينة إلى كونه عاقلاً فصيحاً مبيناً بمقاصده وعلومه .

وتعريف ﴿ الإنسان ﴾ للعهد الذهني ، وهو تعريف الجنس ، أي خلق الجنس المعلوم الذي تَدْعونه بالإنسان .

وقد ذُكر للاعتبار بخلق الإنسان ثلاثة اعتبارات : جنسُه المعلومُ بماهيته وخواصه من الحيوانية والناطقية وحسن القوام ، وبقيةُ أحوال كونه ، ومبدأ خلقه وهو النطفة التي هي أمهن شيء نشأ منها أشرف نوع ، ومنتهى ما شرفه به وهو العقل .

وذلك في جملتين وشبه جملة ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

والخصيم من صيغ المبالغة ، أي كثير الخصام .

و﴿ مبين ﴾ خبر ثانٍ عن ضمير ﴿ فإذا هو ﴾ ، أي فإذا هو متكلم مُفصح عما في ضميره ومُراده بالحقّ أو بالباطل والمنطق بأنواع الحجّة حتى السفسطة .

والمراد : الخصام في إثبات الشركاء ، وإبطال الوحدانية ، وتكذيب من يَدْعون إلى التوحيد ، كما دل عليه قوله تعالى في سورة يس ( 77 ، 78 ) : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ [ سورة الحجر : 77 78 ] .

والإتيان بحرف ( إذا ) المفاجأة استعارةٌ تبعية .

استعير الحرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتّب الشيء على غير ما يظن أن يترتبَ عليه .

وهذا معنى لم يُوضع له حرف .

(129/432)

---

ولا مفاجأةَ بالحقيقة هنا لأن الله لم يفجأه ذلك ولا فَجَأَ أحداً ، ولكن المعنى أنّه بحيث لو تدبر النّاظر في خلق الإنسان لترقب منه الاعتراف بوحدانية خالقه وبقدرته على إعادة

خلقه ، فإذا سمع منه الإشراك والمجادلة في إبطال الوحدانية وفي إنكار البعث كان كمن فجأة ذلك .

ولما كان حرف المفاجأة يدل على حصول الفَجْأة للمتكلم به تعيّن أن تكون المفاجأة استعارة تبعية .

فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مفهماً أمرين هما : التعجيب من تطوّر الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل ، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعِم عليه .

فالجملة في حدّ ذاتها تنويه ، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب .

ولو قيل : فهو خصيم أو فكان خصيماً لم يحصل هذا المعنى البليغ .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

يجوز أن يعطف ﴿ الأنعام ﴾ عطف المفرد على المفرد عطفاً على ﴿ الإنسان ﴾ [ سورة النحل : 4 ] ، أي خلق الإنسان من نطفة والأنعامَ ، وهي أيضاً مخلوقة من نطفة ، فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان ، وتكون جملة خلقها ﴾ بمتعلقاتها مستأنفة ، فيحصل بذلك الامتنان .

ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة ، فيكون نصب ﴿ الأنعام ﴾ بفعل مضمر يفسّره المذكور بعده على طريقة الاشتغال .

والتقدير : وخلق الأنعام خلقها .

فيكون الكلام مفيداً للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماماً بما في الأنعام من الفوائد ؛ فيكون امتناناً على المخاطبين ، وتعريضاً بهم ، فإنهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيباً .

وأي كفران أعظم من أن يتقرّب بالمخلوقات إلى غير من خلقها .

وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين .

(130/432)

---

وجملة ﴿ لكم فيها دفء ﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ خلقها ﴾ على كلا التقديرين ؛ إلا أن الوجه الأول تمام مقابلة لقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [ سورة النحل : 4 ] من حيث حصول الاعتبار ابتداء ثم التعريض بالكفران ثانياً ، بخلاف الوجه الثاني فإن صريحه الامتنان ، ويحصل الاعتبار بطريق الكناية من الاهتمام .

والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى : والأنعام خلقها ﴾ وما بعده إدماج للامتنان .

و﴿ الأنعام ﴾ : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز .

وتقدم في سورة الأنعام .

وأشهر الأنعام عند العرب الإبل ، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل .

والخطاب صالح لشمول المشركين ، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال ، وأن يشمل جميع الناس ولا سيما فيما تضمّنه الكلام من الامتنان .

وفيه التفات من طريق الغيبة الذي في قوله تعالى : ﴿ عما يشركون ﴾ [ سورة النحل : 3 ] باعتبار بعض المخاطبين .

والدِّفء بكسر الدال اسم لما يتدفّأ به كالمِلْء و الحِمْل .

وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها تتّخذ منها الخيام والملابس .

فلمّا كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنه مظروف في الأنعام .

وخص الدفء بالذكر من بين عموم المنافع للعناية به .

وعطف منافع ﴾ على ﴿ دفء ﴾ من عطف العام على الخاص لأن أمر الدفء قلّما تستحضره الخواطر .

ثم عطف الأكلُ منها لأنه من ذواتها لا من ثمراتها .

وجملة ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ عطف على جملة ﴿ لكم فيها دفء ﴾ .

وجملة ﴿ ومنها تأكلون ﴾ عطف على جملة ﴿ لكم فيها دفء ﴾ .

وهذا امتنان بنعمة تسخيرها للأكل منها والتغذي ، واسترداد القوة لما يحصل من تغذيتها .

وتقديم المجرور في قوله تعالى : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ للاهتمام ، لأنهم شديدو الرغبة في أكل اللحوم ، وللرعاية على الفاصلة .

والإتيان بالمضارع في ﴿ تأكلون ﴾ لأن ذلك من الأعمال المتكررة .

(131/432)

---

والإراحة : فعل الرواح ، وهو الرجوع إلى المعاطن ، يقال : أراح نعمهُ إذا أعادها بعد السروح.

والسروح : الإسامة ، أي الغدُوّ بها إلى المراعي .

يقال : سَرَحها بتخفيف الراء سَرحاً وسُروحاً ، وسرّحها بتشديد الراء تسريحاً .

وتقديم الإراحة على التسريح لأن الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج ، لأنها تقبل حينئذٍ مَلأى البطون حافلة الضروع مَرِحة بمسرّة الشبع ومحبّة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض .

والإتيان بالمضارع في ﴿ تريحون ﴾ و ﴿ تسرحون ﴾ لأن ذلك من الأحوال المتكررة .

وفي تكررها تكرر النعمة بمناظرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(132/432)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) ﴾

والنطفة التي نجيء منها ، وهي الحيوان المَنويّ الذي يتزاوج مع البويضة الموجودة في رَحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل : ﴿ أَيحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثمّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ القيامة : 36-39 ] .

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفي خَلْق الملايين ؛ ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنويّ الواحد نظراً لدقّته المتناهية .

وهذه الدقَّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكَبِّرة ، ومطمور في هذا الحيوان المنويّ كُل الخصائص التي تتحد مع الخصائص المَطْمورة في بُويْضة المرأة ليتكوَّن الإنسان .

وقد صدق العقاد يرحمه الله حين قال : " إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِيء بالحيوانات المنوية لوُلِد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم " .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنويّ القوي ؛ لِيُؤكّد لنا أن لا بقاءَ إلا للأصلح ، فإنْ كان الحيوان المنويّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولد أنثى ؛ وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مِثْل ذلك في النبات ؛ فأوّل حبّة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التي نعرفها ؛ وفي تلك الحبّة الأولى أوجد الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أنْ تقومَ الساعة ، وتلك عظمةُ الحق سبحانه في الخَلْق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه في أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان ؛ فهو :

﴿ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [ السجدة : 8 ] .

وهو من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة .

(133/432)

---

والحيوان المنويّ المُسمَّى " نُطْفة " هو الذي يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأْنٌ بهذا التحديد ، وكأن في ذلك إشارةً إلى مهمة المرأة كسكَنٍ ؛ لأن البُويْضة تتلقَّى الحيوان المنويّ وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلي أنْ يصير كائناً بشرياً : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [ المؤمنون : 14 ] .

وهو الحق سبحانه القائل : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ [ القيامة : 36-38 ] .

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرَّحِم كما أثبت العِلْم المعاصر ، يقول

سبحانه : ﴿ فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ﴾ [ المؤمنون : 14 ] .

والمُضْغة هي الشيء المَمْضُوغ ؛ ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [ الحج : 5 ] .

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضْغة المُخلَّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً ؛ ولكن ماذا عن غير المُخلّقة ؟

ونقول : إنها رصيد احتياطيّ لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشتري بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية على سبيل المثال تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار ؛ فما بالنا بالحق الذي خلق الإنسان ؟ لقد جعل الله تلك المُضْغة غير المُخلَّقة رصيداً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف ؛ وتكون زائدة في الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التي تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أنْ تترك نَدْبة أو علامة ، ذلك أنه قد تمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التي أودعها الحق سبحانه في الجسم نفسه .

والمفاجأة هي أن هذا الإنسانَ المخلوق لله :

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [ النحل : 4 ] .

ويتمرَّد على خالقه ، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يتجادلون . والخصيم هو الذي يُجادل ويُنكِر الحقائق ؛ فإذا حُدِّث بشيء غيبي ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليته .

ويقول سبحانه في سورة يس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مٌّبِينٌ ﴾ [ يس : 77 ] .

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاك فَعَدلك ، وفي أيِّ صورة ما شاء ركَّبك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ . . . . ﴾ .

والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطي المحرور برودة ، وهذا ما يفعله تكييف الهواء في المنازل الحديثة . نجد الحق سبحانه هنا قد تكلَّم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو في آية أخرى يقول : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر . . . ﴾ [ النحل : 81 ] .

وهذا ما يحدث عندما نسير في الشمس الحارة ؛ فنضع مِظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن في الشتاء نلبس قلنسوة أي : نلفّ شيئاً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسانُ اللباسَ المناسب

للجوِّ المناسب .

وفي الأنعام منافع كثيرة ؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجُبْن والسمن ؛ ونجزّ الصوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها .

ونحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها في موقع آخر حين قال الحق سبحانه : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ . . . ﴾ [الأنعام : 143] .

وهي الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر .

(135/432)

---

ونعلم أن الدِّفْءَ يأتي من الصُّوف والوبَر والشّعْر ، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كل شَعْرة بمفردها ؛ لكن الوبر الذي نجزه من الجمل يكون مُلبداً ؛ وهذا دليل على دِقّة فَتْلته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قَلْبُها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ . . . ﴾ .

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجَمال فهو من ترَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ،

فيتحقق السرور في النفس . والدِّفْء والمنافع والأكل هي أمور خاصة لِمَنْ يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عَامٌّ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المَزْهُوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لِتسُرّ الناظر إليها .

ونلحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف " سرحت البهائم " أي : خرجتْ من الحظائر لترعى وتأكل . ونلحظ أن الحق سبحانه قد قدَّم الرَّواح أي العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابِية حافلة باللبن ؛ فيسعد مَنْ يراها حتى قبل أنْ يطعمَ من ألبانها .

ومَنْ يخرج ببهائمه في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومَنْ لا يملك يمكن أنْ يشاهد جمال تلك الأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾



---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة النحل بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج النحاس من طريق مجاهد ، عن ابن عباس قال : سورة النحل نزلت بمكة سوى ثلاث آيات من آخرها فانهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ أتى أمر الله ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ، حتى نزلت ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فسكنوا .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن أبي بكر بن حفص قال : لما نزلت ﴿ أتى أمر الله ﴾ قاموا فنزلت ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك ، عن ابن عباس ﴿ أتى أمر الله ﴾ قال : خروج محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن أبي بن كعب قال : دخلت المسجد فصليت فقرأت سورة النحل ، وجاء رجلان فقرآ خلاف قراءتنا ، فأخذت بأيديهما فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : "يا رسول الله ، استقرئ هذين فقرأ أحدهما فقال : أصبت . ثم استقرأ الآخر فقال : أصبت . فدخل قلبي أشدّ مما كان في الجاهلية من الشك والتكذيب ،

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري فقال : أعاذك الله من الشك والشيطان . فتصببت عرقاً ، قال : أتاني جبريل فقال : اقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : إن أمتي لا تستطيع ذلك ، حتى قال : سبع مرات . فقال لي : اقرأ على سبعة أحرف ، بكل ردة رددتها مسألة " .

(137/432)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن ابن جريج قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل . فنزلت ﴿ اقترب للناس حسابهم . . . . ﴾ الآية . فقالوا : إن هذا يزعم مثلها أيضاً ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء ، فنزلت ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدوة . . . . ﴾ [ هود : 8 ] الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والحاكم وصححه ، عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " تطلع عليكم قبل الساعة سحابة سوداء من قبل المغرب مثل الترس ، فما تزال ترتفع في السماء حتى تملأ السماء ، ثم ينادي مناد :

يا أيها الناس ، فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ؟ فمنهم من يقول : نعم . ومنهم من يشك . ثم ينادي الثانية : يا أيها الناس ، فيقول الناس : هل سمعتم ؟ فيقولون : نعم . ثم ينادي : أيها الناس ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فوالذي نفسي بيده ، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه ، وإن الرجل ليملأ حوضه فما يسقي فيه شيئاً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه ويشغل الناس " " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن الضحاك في قوله ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ قال : الأحكام والحدود والفرائض .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ قال : بالوحي .

*(138/432)*

---

وأخرج آدم بن أبي أياس وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال : ﴿ الروح ﴾ أمر من أمر الله وخلق من خلق الله ، وصورهم على صورة بني آدم . وما ينزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح ، ثم تلا ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ [ النبأ : 38

.[

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن مجاهد في قوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ قال: إنه لا ينزل ملك إلا ومعه روح كالحفيظ عليه، لا يتكلم ولا يراه ملك ولا شيء مما خلق الله.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾ قال: بالوحي والرحمة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن في قوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ قال: بالنبوة.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن الضحاك في قوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ قال: القرآن.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ قال: كل شيء تكلم به ربنا فهو روح ﴿ من أمره ﴾ قال: بالرحمة والوحي على من يشاء من عباده، فيصطفي منهم رسلاً. ﴿ أن أنذروا أنه لا اله إلا أنا فاتقون ﴾ قال: بها بعث الله المرسلين أن يوحد الله وحده، ويطاع أمره ويجتنب سخطه.

وأخرج ابن سعد وأحمد وابن ماجة والحاكم وصححه، عن يسر بن جحاش قال: بصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفه ثم قال: "يقول الله أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوّيتك فعدلتك مشيت بين برديك، وللأرض منك وئيد. فجمعت

ومنعت ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(139/432)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ متعلِّقٌ ب " خَلَق " و " مِنْ " لابتداءِ الغاية . والنُّطْفَةُ : القَطْرَةُ من الماء ، نَطَفَ رأسُه ماءً ، أي : قَطَر . وقيل : هي الماء الصافي ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرجل ، ويُكْنَى بها عن اللؤلؤة ، ومنه صبيٌّ مُنَطَّف : إذا كان في أذنه لُؤْلؤة ، ويقال : ليلة نَطُوف : إذا جاء فيها مطرٌ . والناطِف : ما سال من المائعاتِ ، نَطَفَ يَنْطِفُ ، أي : سال فهو ناطِفٌ . وفرنٌ يَنْطِفُ بسوءٍ .

قوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ عَطَفَ هذه الجملةَ على ما قبلَها . فإن قيل : الفاءُ تدلُّ على التعقيب ، ولا سيما وقد وُجد معها " إذا " التي تقتضي المفاجَأة ، وكونُه خصيماً مبيناً لم يَعْقُبْ خَلْقَه مِنْ نُطْفة ، إنما توسَّطَتْ بينهما وسائطُ كثيرةٌ . فالجوابُ من وجهين ، أحدُهما

: أنه من باب التعبير عن حال الشيءِ بما يَؤُول إليه، كقوله تعالى: ﴿ أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ [ يوسف: 36 ] . والثاني: أنه أشار بذلك إلى سُرْعَةِ نسْيانهم مَبْدأَ خَلْقِهم . وقيل: ثَمَّ وسائِطُ محذوفةٌ . والذي يظهر أنَّ قولَه " خَلَقَ " عبارةٌ عن إيجاده وتربيتِه إلى أن يبلغَ حدَّ هاتين الصفتين .

و" خصيم " فَعِيْل، مثالُ مبالغةٍ مِنْ خَصَمَ بمعنى اختصم، ويجوز أن يكونَ مُخاصِم كالخَلِيط والجَلِيس .

﴿ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

(140/432)

---

قوله تعالى: ﴿ والأنعامَ خَلَقَهَا ﴾: العامَّةُ على النصبِ وفيه وجهان، أحدُهما: نصبٌ على الاشتغالِ، وهو أرجحُ مِن الرفعِ لتقدُّمِ جملةٍ فعليةٍ . والثاني: أنه نصبٌ على عَطْفِه على " الإِنسان "، قاله الزمخشريُّ وابنُ عطية، فيكون " خَلَقَها " على هذا مؤكِّداً، وعلى الأول مفسِّراً . وقُرِئ في الشاذِّ " والأنعامُ " رفعاً وهي مَرْجُوحَةٌ .

قوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ يجوز أن يَتَعَلَّقَ " لكم " ب " خَلَقها "، أي: لأَجلِكم ولمنافِعكم، ويكون " فيها " خبراً مقدماً، " ودِفْءٌ " مبتدأً مؤخراً . ويجوز أن يكونَ "

لكم " هو الخبر ، و " فيها " متعلّقٌ بما تعلَّقَ به الخبرُ ، أو يكونَ " فيها " حالاً من " دِفْء " لأنه لو تاخَّر لكان صفةً له ، أو يكونَ " فيها " هو الخبرَ ، و " لكم " متعلّقٌ بما تعلَّق به ، أو يكونَ حالاً مِنْ " دِفْء " قاله أبو البقاء . وردَّه الشيخ بأنه إذا كان العامل في الحال معنوياً فلا يتقدَّم على الجملةِ بأسرها ، لا يجوز : " قائماً في الدار زيدٌ " فإنْ تأخَّرَتْ نحو : " زيدٌ في الدار قائماً " جاز بلا خلافٍ ، أو توسَّطَتْ/ فخلافٌ ، أجازه الأخفشُ ، ومنعه غيرُه .

قلت : ولقائلٍ أن يقولَ : لَمَّا تقدَّمَ العامل فيها وهي معه جاز تقديمُها عليه بحالها ، إلاَّ أنْ يقولَ : لا يَلْزَمُ مِنْ تقديمِها عليه وهو متأخرٌ تقديمُها عليه وهو متقدمٌ ، لزيادةِ القبح .

(141/432)

---

وقال أبو البقاء أيضاً : " ويجوز أَنْ يرتفعَ " دِفْء " ب " لكم " أو ب " فيها " والجملةُ كلُّها حالٌ من الضمير المنصوب " . قال الشيخ : " ولا تُسَمَّى جملةً ؛ لأنَّ التقدير : خلقها كائناً لكم فيها دفءٌ ، أو خلَقها لكم كائناً فيها دِفْءٌ " قلت " قد تقدَّمَ الخلاف في تقدير متعلّق الجارِّ إذا وقع حالاً أو صفةً أو خبراً : هل يُقدَّرُ فِعْلاً أو اسماً ؟ ولعلَّ أبا البقاء نحا إلى الأول ، فتسميتُه له جملةً صحيحٌ على هذا .

والدِّفْء اسمٌ لما يُدْفَأُ به ، أي : يُسْخَنُ ، وجمعُه أدْفاء ، ودَفِئَ يومُنا فهو دَفِىءٌ ، ودَفِئَ

الرجلُ يَدْفَأُ دَفاءَةً ودَفَاءً فهو دَفْآنُ، وهي دَفْأَى، كسَكْران وسَكْرى. والمُدْفَأة بالتخفيفِ والتشديد: الإِبلُ الكثيرةُ الوبرِ والشحمِ. قيل: الدِّفْءُ: نِتاجُ الإِبل وألبانُها، وما يُنْتفع به منها.

وقرأ زيدُ بنُ عليّ "دِفٌ" بنَقْلِ حركةِ الهمزةِ إلى الفاء، والزهريّ كذلك، إلا أنه شَدَّدَ الفاء، كأنه أجرى الوَصْلَ مُجْرى الوقفِ نحو قولِهم: "هذا فَرُخّ" بالتشديد وقفاً. وقال صاحب "اللوامح": "ومنهم مَنْ يُعَوِّضُ من هذه الهمزةِ فيُشَدِّد الفاءَ، وهو أحدُ وجهَيْ حمزةَ بنِ حبيب وقفاً". قلت: التشديد وَقْفاً لغةٌ مستقلةٌ، وإن لم يكن ثَمَّ حَذْفٌ من الكلمةِ الموقوفِ عليها.

قوله: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ "مِنْ" هنا لابتداء الغاية، والتبعيض هنا ضعيفٌ. قال الزمخشري: فإن قلت: تقديمُ الظرفِ مُؤْذِنٌ بالاختصاصِ، وقد يُؤْكَلُ مِنْ غيرِها. قلت: الأكل منها هو الأصلُ الذي يعتمده الناسُ، وأمَّا غيرُها مِن البطِّ والدَّجاج ونحوِها من الصَّيْد فكغيرِ المُعْتَدِّ به".

﴿ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(6) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ : كقوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [ النحل : 5 ] . و " حين " منصوبٌ بنفس " جَمال " ، أو بمحذوفٍ على أنه صفةٌ له ، أو معمولٌ لما عَمِل في " فيها " أو في " لكم " .

وقرأ عكرمةُ والضحاكُ " حينا " بالتنوين على أنَّ الجملةَ بعدَه صفةٌ له ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : حيناً تُرِيْحون فيه ، وحيناً تَسْرحُون فيه ، كقولِه تعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ ﴾ [ البقرة : 281 ] .

وقُدِّمَتْ الإِراحةُ على السَّرْحِ ؛ لأنَّ الأنعامَ فيها أجملُ لمَلْءِ بطونِها وتَحَفُّلِ ضُروعِها .

والجَمالُ : مصدرُ جَمُل بضمِّ الميم يَجْمُل فهو جميل ، وهي جميلة . وحكى الكسائيُّ جَمْلاء كحَمْراء ، وأنشد :

2957- فهِيَ جَمْلاءُ كَبَدْرٍ طالعٍ . . . بَذَّتِ الخَلْقَ جميعاً بالجَمالْ

ويقال : أراحَ الماشيةَ وهَرَاحَها بالهاءِ بدلاً من الهمزة . وسَرَحَ الإِبلَ يَسْرَحُها سَرْحاً ، أي : أرسلَها ، وأصلُه أن يُرْسِلَها لترعى السَّرْحَ ، والسَّرْحُ شجرٌ له ثمرٌ ، الواحدة سَرْحَة . قال :

2958- أبى اللهُ إلا أنَّ سَرْحَةَ مالكٍ . . . على كلِّ أفنانِ العِضاهِ تَرُوْقُ

وقال :

2959- بطَلٌ كأن ثيابَه في سَرْحةٍ . . . يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بتوْءَم

ثم أُطْلِق على كل إرسالٍ ، واستُعير أيضاً للطَّلاق فقالوا : سَرَّحَ فلانٌ امرأته ، كما تستعير

الطلاقَ أُيضاً من إطلاق الإِبل من عُلُقِها . واعتُبِر من السَّرْحِ المُضِيُّ فقيل : ناقةَ سُرُحٌ ، أي : سريعة قال :

2960- . . . سُرُحُ اليَدَيْن . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

وحَذَفَ مفعولي " تُرِيْحون " و " تَسْرَحُون " مراعاةً للفواصل مع العلم بهما . انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 189.194 ﴾

*(143/432)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) ﴾

تَعرَّفَ إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه ، قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب ، والتأليف اللطيف ؛ من نطفةٍ متماثلة الأجزاء ، متشاكلة في وقت الإنشاء ، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والخروج من الخفاء . ثم ركَّبَ فيه تمييز وعقل ، ويَسَّرَ له النطق والفعل ، والتدبير في الأمور والاستيلاء على الحيوانات على وجه

التسخير .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

ذكَّرهم بما تفَّضل عليهم ، وأخبرهم بما للحيوانات من النِّعم ، وما لهم فيها من وجوه الانتفاع في جميع الأحوال ، كالحْمل وكالسفر عليها وقطع المسافات ، والتوصُّل على ظهورها إلى مآربهم ، وما لِنَسْلِها ولدرِّها من المنافع .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) ﴾

الغنيُّ له جمال بماله ، والفقير له استقلال بحاله . . وشتَّان ما هما ! فالأغنياء يتجملون بأنعامهم حين يريحون وحين يسرحون ، والفقراء يستقبلون بمولاهم حين يصبحون وحين يمسون . أولئك تحمل أثقالَهم جِمالُهم ، وهؤلاء يحمل الحقُّ عن قلوبهم أثقالَهم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 286.285 ﴾

*(144/432)*

---

قوله تعالى ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت الأسفار بعد ذلك ، تلاه بقوله تعالى : ﴿ وتحمل ﴾ أي الأنعام ﴿ أثقالكم ﴾ أي أمتعتكم مع المشقة ﴿ إلى بلد ﴾ أي غير بلدكم أردتم السفر إليه ﴿ لم تكونوا ﴾ - أي كوناً أنتم مجبولون عليه - قادرين على حملها إليه ، وتبلغكم - بحملها لكم - إلى بلد لم تكونوا ﴿ بالغيه ﴾ بغير الإبل ﴿ أي بشق ﴾ أي بجهد ومشقة وكلفة ﴿ الأنفس ﴾ ويجوز أن يكون المعنى : لم تبلغوه بها ، فكيف لو لم تكن موجودة ؛ والشق : أحد نصفي الشيء ، كأنه كناية عن ذهاب نصف القوة لما يلحق من الجهد ؛ والآية من الاحتباك : ذكر حمل الأثقال أولاً دليلاً على حمل الأنفس ثانياً ، وذكر مشقة البلوغ ثانياً دليلاً على مشقة الحمل أولاً .

ولما كان هذا كله من الإحسان في التربية ، ولا يسخره للضعيف إلا البليغ في الرحمة ، وكان من الناس من له من أعماله سبب لرضى ربه ، ومنهم من أعماله كلها فاسدة ، قال : ﴿ إن ربكم ﴾ أي الموجد لكم والمحسن إليكم ﴿ لرؤوف ﴾ أي بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بما يرضيه ﴿ رحيم ﴾ أي بليغ الرحمة بسبب وبغير سبب .

ولما كانت الأنعام أكثر أموالهم ، مع أن منافعها أكثر ، بدأ بها ثم ثنى بما هو دونها ، مرتباً له على الأشراف فالأشراف ، فقال تعالى : ﴿ والخيل ﴾ أي الصاهلة ﴿ والبغال ﴾ أي المتولدة بينها وبين الحمر ﴿ والحمير ﴾ أي الناهقة .

ولما كان الركوب فعل المخاطبين ، وهو المقصود بالنفعة ، ذكره باللام التي هي الأصل في

التعليل فقال : ﴿ لتركبوها ﴾ ولما كانت الزينة تابعة للمنفعة ، وكانت فعلاً لفاعل الفعل المعلل ، نصبت عطفاً على محل ما قبلها فقال : ﴿ وزينة ﴾ .

ولما دل على قدرته بما ذكر في سياق الامتنان ، دل على أنها لا تتناهى في ذلك السياق ، فنبه على أنه خلق لهم أموراً لو عدها لهم لم يفهموا المراد على سبيل التجديد والاستمرار في الدنيا والآخرة ﴿ ما لا تعلمون ﴾ فلا تعلمون له موجداً غيره ولا مدبراً سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 246 .247 ﴾

(145/432)

---

فصل

قال الفخر :

والمنفعة الثانية : قوله : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

الأثقال جمع ثقل وهو متاع المسافر لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

قال ابن عباس : يريد من مكة إلى المدينة .

أو إلى اليمن .

أو إلى الشام .

أو إلى مصر .

قال الواحدي : هذا قوله والمراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير إبل لشق عليكم وخص ابن عباس هذه البلاد ، لأن متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد ، وقرىء : ﴿ بِشِقِّ الأنفس ﴾ بكسر الشين وفتحها ، وأكثر القراء على كسر الشين .

والشق المشقة والشق نصف الشيء ، وحمل اللفظ ههنا على كلا المعنيين جائز ، فإن حملناه على المشقة كان المعنى : لم تكونوا بالغيه إلا بالمشقة ، وإن حملناه على نصف الشيء كان المعنى : لم تكونوا بالغيه إلا عند ذهاب النصف من قوتكم أو من بدنكم ويرجع عند التحقيق إلى المشقة .

ومن الناس من قال : المراد من قوله : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا ﴾ الإبل فقط بدليل أنه وصفها في آخر الآية بقوله ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه ﴾ وهذا الوصف لا يليق إلا بالإبل .

قلنا : المقصود من هذه الآيات تعديد منافع الأنعام فبعض تلك المنافع حاصلة في الكل وبعضها مختص بالبعض ، والدليل عليه : أن قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ حاصل في البقر

والغنم مثل حصوله في الإبل ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

(146/432)

---

احتج منكرو كرامات الأولياء بهذه الآية فقالوا : هذه الآية تدل على أن الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى بلد إلا بشق الأنفس ؛ وحمل الأثقال على الجمال ومثبتو الكرامات يقولون : إن الأولياء قد ينتقلون من بلد إلى بلد آخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب وتحمل مشقة ، فكان ذلك على خلاف هذه الآية فيكون باطلاً ، ولما بطل القول بالكرامات في هذه الصورة بطل القول بها في سائر الصور ، لأنه لا قائل بالفرق .

وجوابه : أنا نخصص عموم هذه الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرمات . والله أعلم .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها في المنافع الضرورية والحاجات الأصلية ، ذكر بعده منافع الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في المنافع التي ليست بضرورية ، فقال : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ عطف على الأنعام ، أي وخلق الأنعام لكذا وكذا ، وخلق هذه الأشياء للركوب .

وقوله : ﴿ وَزِينَةً ﴾ أي وخلقها زينة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ زَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيح وَحِفْظاً ﴾ [ فصلت : 12 ] المعنى : وحفظناها حفظاً .

قال الزجاج : نصب قوله : ﴿ وَزِينَةً ﴾ على أنه مفعول له .

والمعنى : وخالقها للزينة .

المسألة الثانية :

احتج القائلون بتحريم لحوم الخيل بهذه الآية .

فقالوا منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب ، فلو كان أكل لحم الخيل جائزاً لكان هذا المعنى أولى بالذكر ، وحيث لم يذكره الله تعالى علمنا أنه يحرم أكله ، ويمكن أيضاً أن يقوي هذا الاستدلال من وجه آخر .



---

فيقال : إنه تعالى قال في صفة الأنعام : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [ النحل : 5 ] وهذه الكلمة تفيد الحصر ، فيقتضي أن لا يجوز الأكل من غير الأنعام ، فوجب أن يحرم أكل لحم الخيل

بمقتضى هذا الحصر ، ثم إنه تعالى بعد هذا الكلام ذكر الخيل والبغال والحمير وذكر أنها مخلوقة للركوب ، فهذا يقتضي أن منفعة الأكل مخصوصة بالأنعام وغير حاصلة في هذه الأشياء ، ويمكن الاستدلال بهذه الآية من وجه ثالث وهو أن قوله : ﴿لِتَرْكَبُوهَا ﴾ يقتضي أن تمام المقصود من خلق هذه الأشياء الثلاثة هو الركوب والزينة ، ولو حل أكلها لما كان تمام المقصود من خلقها هو الركوب ، بل كان حل أكلها أيضاً مقصوداً ، وحينئذ يخرج جواز ركوبها عن أن يكون تمام المقصود ، بل يصير بعض المقصود .

وأجاب الواحدي بجواب في غاية الحسن فقال : لو دلت هذه الآية على تحريم أكل هذه الحيوانات لكان تحريم أكلها معلوماً في مكة لأجل أن هذه السورة مكية ، ولو كان الأمر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين أن لحوم الحمر الأهلية حرمت عام خيبر باطلاً ، لأن التحريم لما كان حاصلاً قبل هذا اليوم لم يبق لتخصيص هذا التحريم بهذه الشبهة فائدة ، وهذا جواب حسن متين .

المسألة الثالثة :

القائلون بأن أفعال الله تعالى معللة بالمصالح والحكم ، احتجوا بظاهر هذه الآية فإنه يقتضي أن هذه الحيوانات مخلوقة لأجل المنفعة الفلانية ، ونظيره قوله : ﴿كِتَابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [ إبراهيم : 1 ] وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [ الذاريات : 56 ] والكلام فيه معلوم .

المسألة الرابعة :

لقائل أن يقول لما كان معنى الآية أنه تعالى خلق الخيل والبغال والحمير لتركبوها وليجعلها زينة لكم فلم ترك هذه العبارة ؟

(148/432)

---

وجوابه أنه تعالى لو ذكر هذا الكلام بهذه العبارة لصار المعنى أن التزين بها أحد الأمور المعتبرة في المقصود ، وذلك غير جائز ، لأن التزين بالشيء يورث العجب والتيه والتكبر ، وهذه أخلاق مذمومة والله تعالى نهى عنها وزجر عنها فكيف يقول إني خلقت هذه الحيوانات لتحصيل هذه المعاني بل قال : خلقها لتركبوها فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة ، وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ، ولكنه غير مقصود بالذات ، فهذا هو الفائدة في اختيار هذه العبارة .

أو اعلم أنه تعالى لما ذكر أولاً : أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعاً ضرورياً وثانياً : أحوال الحيوانات التي ينتفع الإنسان بها انتفاعاً غير ضروري بقي القسم الثالث من الحيوانات وهي الأشياء التي لا ينتفع الإنسان بها في الغالب فذكرها على سبيل الإجمال فقال : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وذلك لأن أنواعها وأصنافها وأقسامها كثيرة خارجة

عن الحد والإحصاء ولو خاض الإنسان في شرح عجائب أحوالها لكان المذكور بعد كتبة المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان أحس الأحوال ذكرها على سبيل الإجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الآية ، وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن على يمين العرش نهراً من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع ، والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً البيت المعمور ، وفي الكعبة أيضاً سبعون ألفاً ، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 182.184 ﴾

*(149/432)*

---

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : " الْأَنْعَامَ " : وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، فَأَغْنَى عَنْ إعَادَتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ : يَعْنِي مِنْ الْبَرْدِ بِمَا فِيهَا مِنْ الْأَصْوَافِ

وَالْأَوْبَارِ وَالْأَشْعَارِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ فَامْتَنَّ هَهُنَا بِالدِّفْءِ ، وَامْتَنَّ هُنَاكَ بِالظِّلِّ ، إنْ كَانَ لَاصِقًا بِالْبَدَنِ ثَوْبًا أَوْ كَانَ مُنْفَصِلًا بِنَاءً .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : دِفْؤُهَا نَسْلُهَا ؛ فَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : " مَنَافِعُ " : يَعْنِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْأَلْبَانِ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ سِوَاهَا مِنْ الْمَنَافِعِ ، فَقَالَ : وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

وَقَدْ ذَكَرَ وَجْهَ اخْتِصَاصِهِ بِاللَّبَنِ ، وَيَأْتِي ذَلِكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

(150/432)

---

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى لِبَاسِ الصُّوفِ ، فَهُوَ أَوْلَى ذَلِكَ وَأَوْلَاهُ ، فَإِنَّهُ شِعَارُ الْمُتَّقِينَ وَلِبَاسُ الصَّالِحِينَ ، وَشَارَةُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَاخْتِيَارُ الزُّهَّادِ وَالْعَارِفِينَ ، وَهُوَ يُلْبَسُ لَيِّنًا وَخَشِنًا ، وَجَيِّدًا وَمُقَارِبًا وَرَدِيئًا ، وَإِلَيْهِ نَسَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ النَّاسِ الصُّوفِيَّ ؛ لِأَنَّهُ لِبَاسُهُمْ فِي الْغَالِبِ ، فَالْيَاءُ لِلنَّسَبِ وَالْهَاءُ لِلتَّأْنِيثِ ، وَقَدْ أَنْشَدَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِهِمْ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ : تَشَاجَرَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنْ الصُّوفِ وَلَسْت أَنْحَلُ هَذَا الِاسْمَ غَيْرَ فَتًى صَافَى فَصُوفِيَ حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِيَّ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ : فَأَبَاحَ لَنَا أَكْلَهَا كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ بِشُرُوطِهِ وَأَوْصَافِهِ ، وَكَانَ وَجْهُ الِامْتِنَانِ بِهَا أُنْسُهَا ، كَمَا امْتَنَّ بِالْوَحْشِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الِاصْطِيَادِ ، فَالْأَوَّلُ نِعْمَةٌ هَنِيَّةٌ ، وَالصَّيْدُ مُتْعَةٌ شَهِيَّةٌ ، وَنَصْبَةٌ نَصِيَّةٌ ، وَهُوَ الْأَغْلَبُ فِيهَا .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ : كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ وَالْجَمَالُ قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَأَوْضَحْنَا أَنَّهُ يَكُونُ فِي الصُّورَةِ وَتَرْكِيبِ الْخِلْقَةِ ، وَيَكُونُ فِي الْأَخْلَاقِ الْبَاطِنَةِ ، وَيَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ .

(151/432)

---

فَأَمَّا جَمَالُ الْخِلْقَةِ فَهُوَ أَمْرٌ يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ ، فَيُلْقِيهِ إلَى الْقَلْبِ مُتَلَائِمًا ، فَتَتَعَلَّقُ بِهِ النَّفْسُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِوَجْهِ ذَلِكَ وَلَا بِسَبَبِهِ لِأَحَدٍ مِنْ الْبَشَرِ .

وَأَمَّا جَمَالُ الْأَخْلَاقِ فَبِكَوْنِهَا عَلَى الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْعَدْلِ وَالْعِفَّةِ ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ ، وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ لِكُلِّ وَاحِدٍ .

وَأَمَّا جَمَالُ الْأَفْعَالِ فَهُوَ وُجُودُهَا مُلَائِمَةً لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ ، وَقَاضِيَةً بِجَلْبِ الْمَنَافِعِ إلَيْهِمْ ، وَصَرْفِ الشَّرِّ عَنْهُمْ .

وجَمالُ الْأَنْعامِ والدَّوابِّ مِنْ جَمالِ الْخِلْقَةِ مَحْسُوبٌ ، وَهُوَ مَرْئِيٌّ بالْأَبْصارِ ، مُوافِقٌ لِلْبَصائِرِ ، وَمِنْ جَمالِها كَثْرَتُها .

فَإذَا وَرَدَتْ الإبلُ عَلَى الذُّرَى سَامِيَةَ الذُّرَى هَجْماتٍ هِجانًا تَوافَرَ حُسْنُها ، وَعَظُمَ شَأْنُها ، وَتَعَلَّقَتْ الْقُلُوبُ بِها .

إذَا رَأَيْت الْبَقَرَ نَعاجًا تَرِدُ أَفْوَاجًا أَفْوَاجًا ، تَقَرُّ بِقَرِيرِها ، مَعَهَا صُلْغُها وَأَتابِعُها ، فَقَدْ انْتَظَمَ جَمالُها وانْتِفاعُها .

وَإِذَا رَأَيْت الْغَنَمَ فِيها السَّالِغُ وَالسَّخْلَةُ ، وَالْغَرِيضُ وَالسَّدِيسُ صُوفُها أَهْدَلُ ، وَضَرْعُها مُنْجَدِلٌ ، وَظَهْرُها مُنْسَجِفٌ ، إذَا صَعِدَتْ ثَنِيَّةً مَرَعَتْ ، وَإِذَا أَسْهَلَتْ عَنْ رَبْوَةٍ طَمَرَتْ ، تَقُومُ بِالْكِسَاءِ ، وَتَقَرُّ عَلَى الْغَدَاءِ وَالْعَشَاءِ ، وَتَمْلَأُ الْحِوَاءَ سَمْنًا وَأَقِطًا ، بَلْهَ الْبَيْتِ ، حَتَّى يَسْمَعَ الْحَدِيثَ عَنْها كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَقَدْ قَطَعْت عَنْك لَعَلَّ وَلَيْتَ .

*(152/432)*

---

وَإِذَا رَأَيْت الْخَيْلَ نَزَائِعَ يَعَابِيبَ ، كَأَنَّها فِي الْبَيْدَاءِ أَهَاضِيبُ ، وَفِي الْهَيْجَاءِ يَعَاسِيبُ ، رُءُوسُها عَوَالٍ ، وَأَثْمانُها غَوَالٍ ، لَيِّنَةَ الشَّكِيرِ ، وَشَدِيدَةَ الشَّخِيرِ ، تَصُومُ وَإِنْ رَعَتْ ، وَتَفِيضُ إذَا سَعَتْ ، فَقَدْ مَتَّعَتْ الْأَحْوَالَ وَأَمْتَعَتْ .

وَإِذَا رَأَيْتَ الْبِغَالَ كَأَنَّهَا الْأَفْدَانُ بِأَكْفَالٍ كَالصَّوَى ، وَأَعْنَاقٍ كَأَعْنَاقِ الظِّبَا ، وَمَشْيٍ كَمَشْيِ الْقَطَا أَوْ الدَّبَى فَقَدْ بَلَغَتْ فِيهَا الْمُنَى .

وَلَيْسَ فِي الْحَمِيرِ زِينَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ عَنْ الْخِدْمَةِ مَصُونَةً ، وَلَكِنَّ الْمَنْفَعَةَ بِهَا مَضْمُونَةٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : هَذَا الْجَمَالُ وَالتَّزَيُّنُ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ لِعِبَادِهِ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ خَرَّجَهُ الْبَرْقَانِيُّ وَغَيْرُهُ : { الْإِبِلُ عِزٌّ لِأَهْلِهَا ، وَالْغَنَمُ بَرَكَةٌ ، وَالْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } .

وَإِنَّمَا جَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِزَّ فِي الْإِبِلِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا اللِّبَاسَ وَالْأَكْلَ وَاللَّبَنَ وَالْحَمْلَ وَالْغَزْوَ ، وَإِنْ نَقَصَهَا الْكَرُّ وَالْفَرُّ .

وَجَعَلَ الْبَرَكَةَ فِي الْغَنَمِ لِمَا فِيهَا مِنْ اللِّبَاسِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَكَثْرَةِ الْوِلَادَةِ ، فَإِنَّهَا تَلِدُ فِي الْعَامِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، إلَى مَا يَتْبَعُهَا مِنْ السَّكِينَةِ ، وَتَحْمِلُ صَاحِبَهَا عَلَيْهِ مِنْ خَفْضِ الْجَنَاحِ ، وَلِينِ الْجَانِبِ ، بِخِلَافِ الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْإِبِلِ .



---

وَقَرَنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَيْرَ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ بَقِيَّةَ الدَّهْرِ ، لِمَا فِيهَا مِنْ الْغَنِيمَةِ الْمُسْتَفَادَةِ لِلْكَسْبِ وَالْمَعَاشِ ، وَمَا تُوُصِّلَ إلَيْهِ مِنْ قَهْرِ الْأَعْدَاءِ ، وَغَلَبَةِ الْكُفَّارِ ، وَإِعْلَاءِ

كَلِمَةَ اللَّهِ .

وَقَدْ رَوَى أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ ؛ ذَلِكَ فِي الْمَوَاشِي تَرُوحُ إِلَى الْمَرْعَى وَتَسْرَحُ عَلَيْهِ .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَنْعَامِ عُمُومًا ، وَخَصَّ الْإِبِلَ هَهُنَا بِالذِّكْرِ فِي حَمْلِ الْأَثْقَالِ ، تَنْبِيهًا عَلَى مَا تَتَمَيَّزُ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَنْعَامِ ؛ فَإِنَّ الْغَنَمَ لِلسَّرْحِ وَالذَّبْحِ ، وَالْبَقَرَ لِلْحَرْثِ ، وَالْإِبِلَ لِلْحَمْلِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ بَيْنَا رَاعٍ فِي غَنَمٍ عَدَا عَلَيْهَا الذِّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً ، فَطَلَبَهُ الرَّاعِي ، فَالْتَفَتَ إلَيْهِ الذِّئْبُ ، وَقَالَ : مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي وَبَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا ، فَالْتَفَتَتْ إلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ ، فَقَالَتْ : إنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا ، وَإِنَّمَا خُلِقْت لِلْحَرْثِ .

فَقَالَ النَّاسُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، بَقَرَةٌ تَتَكَلَّمُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ : آمَنْت بِذَلِكَ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَمَا هُمَا ثَمَّ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِيهِ جَوَازُ السَّفَرِ بِالدَّوَابِّ عَلَيْهَا الْأَثْقَالُ الثِّقَالُ ، وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ مَا تَحْتَمِلُهُ مِنْ غَيْرِ إسْرَافٍ فِي الْحَمْلِ ، مَعَ الرِّفْقِ فِي السَّيْرِ وَالنُّزُولِ لِلرَّاحَةِ .

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرِّفْقِ بِهَا ، وَالْإِرَاحَةِ لَهَا ، وَمُرَاعَاةِ التَّفَقُّدِ لِعَلَفِهَا وَسَقْيِهَا ، وَفِي الْمُوَطَّإِ قَالَ مَالِكٌ : عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ : { إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيَرْضَى بِهِ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يُعِينُ عَلَى الْعُنْفِ ، فَإِذَا رَكِبْتُمْ هَذِهِ الدَّوَابَّ الْعُجْمَ فَأَنْزِلُوهَا مَنَازِلَهَا ، فَإِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ جَدْبَةً فَانْجُوا عَلَيْهَا بِنِقْيِهَا ، وَعَلَيْكُمْ بِسَيْرِ اللَّيْلِ ؛ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيْلِ مَا لَا تُطْوَى بِالنَّهَارِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّعْرِيسَ عَلَى الطَّرِيقِ فَإِنَّهَا طُرُقُ الدَّوَابِّ وَمَأْوَى الْحَيَّاتِ } .

قَوْله تَعَالَى : { وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ذَكَرَ اللَّهُ الْأَنْعَامَ فِي مَعْرِضِ الِامْتِنَانِ ، فَسَاقَ فِيهَا وُجُوهًا مِنْ الْمَتَاعِ ، وَأَنْوَاعًا مِنْ الِانْتِفَاعِ ، وَسَاقَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ، فَكَشَفَ قِنَاعَهَا ، وَبَيَّنَ انْتِفَاعَهَا ، وَذَلِكَ الرُّكُوبُ وَالزِّينَةُ ، كَمَا بَيَّنَ فِي تِلْكَ الْمُتَقَدِّمَةِ : الدِّفْءَ وَاللَّبَنَ وَالْأَكْلَ .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ فَجَعَلَهَا لِلرُّكُوبِ وَالزِّينَةِ ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا لِلْأَكْلِ وَنَحْوِهِ عَنْ أَشْهَبَ ، فَفَهِمَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ وَجْهَ إيرَادِ النِّعَمِ ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ الِانْتِفَاعِ ، فَاقْتَصَرَتْ كُلُّ مَنْفَعَةٍ عَلَى وَجْهِ مَنْفَعَتِهَا الَّتِي عَيَّنَ اللَّهُ لَهُ ، وَرَتَّبَهَا فِيهِ ، فَأَمَّا الْخَيْلُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : إنَّهَا تُؤْكَلُ ، وَعُمْدَتُهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَنْ جَابِرٍ : ﴿ نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ ﴾ .

وَرُوِيَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ ، وَحَرَّمَ لُحُومَ الْحُمُرِ ﴾ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : كَانَتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ عَنْ جَابِرٍ حِكَايَةَ حَالٍ ، وَقَضِيَّةً فِي عَيْنٍ ؛ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونُوا ذَبَحُوا لِضَرُورَةٍ ، وَلَا يُحْتَجُّ بِقَضَايَا الْأَحْوَالِ الْمُحْتَمَلَةِ ، وَأَمَّا الْحُمُرُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ ، وَاخْتُلِفَ فِي تَحْرِيمِهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : إنَّمَا حُرِّمَتْ شَرْعًا .

الثَّانِي : أَنَّهَا حُرِّمَتْ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ جَوَّالَ الْقَرْيَةِ ، أَيْ تَأْكُلُ الْجُلَّةَ ، وَهِيَ النَّجَاسَةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا كَانَتْ حُمُولَةَ الْقَوْمِ ؛ وَلِذَلِكَ رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أُكِلَتْ الْحُمُرُ ، فَنِيَتْ الْحُمُرُ ؛ فَحَرَّمَهَا .

الرَّابِعُ : أَنَّهَا حُرِّمَتْ ؛ لِأَنَّهَا أُفْنِيَتْ قَبْلَ الْقَسَمِ ، فَمَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَكْلِهَا ، حَتَّى تُقْسَمَ .

وَأَمَّا الْبِغَالُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فَإِنَّهَا تَلْحَقُ الْحَمِيرَ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ .

فَأَمَّا إنْ قُلْنَا إنَّ الْخَيْلَ لَا تُؤْكَلُ فَهِيَ مُتَوَلِّدَةٌ بَيْنَ عَيْنَيْنِ لَا يُؤْكَلَانِ ، وَإِنْ قُلْنَا : تُؤْكَلُ الْخَيْلُ فَإِنَّهَا عَيْنٌ مُتَوَلِّدَةٌ بَيْنَ مَأْكُولٍ وَبَيْنَ مَا لَا يُؤْكَلُ ؛ فَغَلَبَ التَّحْرِيمُ عَلَى مَا يَلْزَمُ فِي الْأُصُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فِي تَحْقِيقِ الْمَقْصُودِ : قَدْ بَيَّنَّا فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُحَرَّمَاتِ مَقْصُورَةٌ عَلَى مَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَحَقَّقْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَيَنْضَافُ إلَيْهِ فِي آيَاتِ الْأَحْكَامِ مِنْهَا ، وَقَدْ حَرَّرْنَا فِي كُتُبِ الْخِلَافِ أَنَّ مَدَارَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فِي الْمَطْعُومَاتِ يَدُورُ عَلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ ، وَخَبَرٍ وَاحِدٍ .

الْآيَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ : آيَةُ الْأَنْعَامِ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ .

الرَّابِعُ الْخَبَرُ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَكْلُ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ حَرَامٌ ﴾ .

وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَحَرَّمَ لُحُومَ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ ، فَإِنْ عَوَّلْنَا عَلَيْهَا فَالْكُلُّ سِوَاهَا مُبَاحٌ ، وَإِنْ رَأَيْنَا إلْحَاقَ غَيْرِهَا بِهَا حَسْبَمَا يَتَرَتَّبُ فِي الْأَدِلَّةِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ ﴾ .

ثُمَّ جَاءَتْ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا حَتَّى انْتَهَتْ أَسْبَابُ إبَاحَةِ الدَّمِ عِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ إلَى عَشَرَةِ أَسْبَابٍ ، فَالْحَالُ فِي ذَلِكَ مُتَرَدِّدَةٌ ، وَلِأَجْلِهِ اخْتَارَ الْمُتَوَسِّطُونَ مِنْ عُلَمَائِنَا الْكَرَاهِيَةَ فِي هَذِهِ الْحُرُمَاتِ ، تَوَسُّطًا بَيْنَ الْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ ؛ لِتَعَارُضِ الْأَدِلَّةِ ، وَإِشْكَالِ مَأْخَذِ الْفَتْوَى فِيهَا .

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ : الثَّعْلَبُ وَالضَّبُعُ حَلَالٌ ، وَهُوَ قَدْ عَوَّلَ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَكْلُ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ حَرَامٌ ﴾ ، وَلَكِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ الضَّبُعَ يَخْرُجُ عَنْهُ بِحَدِيثٍ يَرْوِيهِ جَابِرٌ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ الضَّبُعِ أَحَلَالٌ هِيَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَفِيهَا إذَا أَتْلَفَهَا الْمُحْرِمُ كَبْشٌ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : هِيَ صَيْدٌ ، وَفِيهَا كَبْشٌ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي الِاسْتِثْنَاءِ كَمَا زَعَمَ لَوْ صَحَّ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ سَنَدُهُ، وَلَوْ عَوَّلْنَا عَلَيْهِ لَمَا خَصَّصْنَا التَّحْلِيلَ مِنْ جُمْلَةِ السِّبَاعِ بِالضَّبُعِ، وَلَكِنَّا نَقُولُ: إِنَّهُ يَنْبَنِي عَلَى قَاعِدَةِ التَّحْلِيلِ، وَأَنَّ الْكُلَّ قَدْ خَرَجَ عَنِ التَّحْرِيمِ، وَانْحَصَرَتِ الْمُحَرَّمَاتُ فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ، وَهَذِهِ الْمُعَارَضَاتُ هِيَ الَّتِي أَوْجَبَتِ اخْتِلَافَ الْعُلَمَاءِ، فَانْظُرُوهَا وَاسْبُرُوهَا، وَمَا ظَهَرَ هُوَ الَّذِي يَتَقَرَّرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ: ذَكَرَ اللَّهُ الْأَنْعَامَ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ فِي مَسَاقِ النِّعَمِ ذِكْرًا وَاحِدًا، وَذَكَرَ لِكُلِّ جِنْسٍ مِنْهَا مَنْفَعَةً حَسْبَمَا سَرَدْنَاهُ لَكُمْ، ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْخَيْلِ مِنْهَا؛ هَلْ تُؤْخَذُ الزَّكَاةُ مِنْ مَالِكِهَا أَمْ لَا؟ فَقَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: لَا زَكَاةَ فِيهَا.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: فِيهَا الزَّكَاةُ مُنْتَزِعًا مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ ﴾ الْحَدِيثَ.

قَالَ فِيهِ: ﴿ وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا ﴾.

وَاحْتَجُّوا بِأَثَرٍ يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ فِي الْخَيْلِ السَّائِمَةِ فِي كُلِّ فَرَسٍ دِينَارٌ ﴾.

وَعَوَّلَ أَصْحَابُهُ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى عَلَى أَنَّ الْخَيْلَ جِنْسٌ يُسَامُ ، وَيُبْتَغَى نَسْلُهُ فِي غَالِبِ الْبُلْدَانِ " فَوَجَبَتْ الزَّكَاةُ فِيهِ كَالْأَنْعَامِ .



---

وَتَعَلَّقَ عُلَمَاؤُنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فِي فَرَسِهِ صَدَقَةٌ ﴾ ، فَنَفَى الصَّدَقَةَ عَنْ الْعَبْدِ وَالْفَرَسِ نَفْيًا وَاحِدًا ، وَسَاقَهُمَا مَسَاقًا وَاحِدًا ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ عَفَوْت لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ ، إلَّا أَنَّ فِي الرَّقِيقِ صَدَقَةَ الْفِطْرِ ﴾ .

وَقَدْ كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إلَى عُمَرَ : إنِّي وَجَدْت أَمْوَالَ أَهْلِ الشَّامِ الرَّقِيقَ وَالْخَيْلَ .

فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ أَنْ دَعْهُمَا ، ثُمَّ اسْتَشَارَ عُثْمَانَ ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَ عُمَرُ .

وَرُوِيَ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ قَدْ جَمَعُوا صَدَقَةَ خُيُولِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَأَتَوْا بِهَا عُمَرَ ، فَاسْتَشَارَ عَلِيًّا فَقَالَ : لَا أَرَى بِهِ بَأْسًا إلَّا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً بَاقِيَةً بَعْدَك .

فَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا ﴾ فَيَعْنِي بِهِ الْحُمْلَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى مَعْنَى النَّدْبِ

وَالْخَلَاصِ مِنْ الْحِسَابِ .

وَأَمَّا حَدِيثُهُمْ ﴿ فِي الْخَيْلِ السَّائِمَةِ فِي كُلِّ فَرَسٍ دِينَارٌ ﴾ فَيَرْوِيهِ غَوْرَكٌ السَّعْدِيُّ ، وَهُوَ مَجْهُولٌ .

جَوَابٌ آخَرُ " قَدْ نَاقَضُوا فَقَالُوا : إنَّ الصَّدَقَةَ فِي إنَاثِهَا لَا فِي ذُكُورِهَا .

(160/432)

---

وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ فَصْلٌ بَيْنَهُمَا ، وَنَقِيسُ الْإِنَاثَ عَلَى الذُّكُورِ فِي نَفْيِ الصَّدَقَةِ ؟ فَإِنَّهُ حَيَوَانٌ يُقْتَنَى لِنَسْلِهِ لَا لِدَرِّهِ ، لَا تَجِبُ الزَّكَاةُ فِي ذُكُورِهِ ، فَلَمْ تَجِبْ فِي إنَاثِهِ ، كَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(161/432)

---

وقال الماوردى :

﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفس ﴾

في البلد قولان :

أحدهما : أنه مكة لأنها من بلاد الفلوات .

الثاني : أنه محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر .

﴿ إلا بشق الأنفس ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنكم لولاها ما بلغتموه إلا بشق الأنفس .

الثاني : أنكم مع ركوبها لا تبلغونه إلا بشق الأنفس ، فكيف بكم لو لم تكن .

وفي شق الأنفس وجهان :

أحدهما : جهد النفس ، مأخوذ من المشقة .

الثاني : أن الشق النصف فكأنه يذهب بنصف النفس .

قوله تعالى : ﴿ . . . ويخلق ما لا تعلمُون ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما لا تعلمون من الخلق ، وهو قول الجمهور .

الثاني : في عين تحت العرش ، قاله ابن عباس .

الثالث : ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء مسيرة الشمس ثلاثين يوماً . مشحونة خلقاً لا يعلمون أن الله يعصى في الأرض ، قالوا : يا رسول الله فأين إبليس

عنهم؟ قال " لا يعلمون أن الله خلق إبليس " ثم تلا ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

(162/432)

---

وقال ابن عطية :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾

و " الأثقال " الأمتعة ، وقيل المراد هنا الأجسام كقوله ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [ الزلزلة : 2 ] أي أجسام بني آدم .

قال القاضي أبو محمد : واللفظ يحتمل المعنيين ، قال النقاش : ومنه سمي الإنس والجن الثقلين ، وقوله ﴿ إلى بلد ﴾ أي بلد توجهتم بحسب اختلاف أغراض الناس ، وقال عكرمة وابن عباس والربيع بن أنس : المراد مكة ، وفي الآية على هذا حض على الحج . و " الشق " المشقة ، ومنه قول الشاعر [ النمر بن تولب ] : [ الطويل ]

وذي إبل يسعى ويحسبها له . . . أخي نصب من شقها ودؤوب

أي من مشقتها ، ويقال فيها شق وشق أي مشقة ، وقرأ أبو جعفر القاري وعمرو بن ميمون وابن أرقم ومجاهد والأعرج " بشَق الأنفس " بفتح الشين ، ورويت عن نافع وأبي عمرو ،

وذهب الفراء إلى أن معنى ﴿ بشق الأنفس ﴾ أي بذهاب نصفها ، كأنه قد دأبت نصباً وتعباً .

قال القاضي أبو محمد : كما تقول لرجل لا تقدر على كذا إبا بذهاب جل نفسك وبقطعة من كبدك ونحو هذا من المجاز ، وذهبوا في فتح الشين إلى أنه مصدر شَق يشق ، ثم أوجب رأفة الله ورحمته في هذه النعم التي أذهبت المشقات ورفعت الكلف ، وقوله ﴿ والخيل ﴾ عطف أي وخلق الخيل ، وقرأ ابن أبي عبلة ، " والخيلُ والبغالُ والحميرُ " بالرفع في كلها ، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية ، أفهمه أعرابي لأبي عمرو بن العلاء ، وقوله ﴿ وزينة ﴾ نصب بإضمار فعل ، قيل تقديره وجعلنا زينة ، وقرأ ابن عياض " لتركبوها زينة " دون واو ، والنصب حينئذ على الحال من الهاء في ﴿ تركبوها ﴾ وقوله ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ عبرة منصوبة على العموم ، أي أن مخلوقات الله من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمها بشر ، بل ما يخفى عنه أثر مما يعلمه ، وقد روي أن الله تعالى خلق ألف نوع من الحيوان منها في البر أربعمائة ، وبثها بأعيانها في البحر ، وزاد في مائتين ليست في البر .

وكل من خصص في تفسير هذه الآية شيئاً ، كقول من قال سوس الثياب وغير ذلك فإنما هو على جهة المثال ، لا أن ما ذكره هو المقصود في نفسه . قال الطبري ﴿ ما لا تعلمون ﴾ هو ما أعد الله في الجنة لأهلها ، وفي النار لأهلها مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ، واحتج بهذه الآية مالك رحمه الله ومن ذهب مذهبه في كراهة لحوم الخيل والبغال والحمير أو تحريمها بحسب الاختلاف في ذلك ، وذكر الطبري عن ابن عباس ، قال ابن جبير : سئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير ، فكرهها فاحتج بهذه الآية ، وقال : جعل الله الأنعام للأكل ، وهذه للركوب ، وكان الحكم بن عتبة يقول : الخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله ويحتج بهذه الآية .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماء ، قالوا إنما ذكر الله عز وجل عظم منافع الأنعام ، وذكر عظم منافع هذه وأهم ما فيها ، وليس يقضي ذلك بأن ما ذكر لهذه لا تدخل هذه فيها ، قال الطبري وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل ، دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، ولحوم الخيل عند كثير من العلماء حلال ، وفي جواز أكلها حديث أسماء بنت أبي بكر ، وحديث جابر بن عبد الله : كنا نأكل الخيل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : والبغال والحمير مكروهة عند الجمهور ، وهو تحقيق مذهب مالك

، ومن حجة من ألحق الخيل بالبغال والحمير في الكراهية القياس ، إذ قد تشابهت وفارقت الأنعام في أنها لا تجتر ، وأنها ذوات حوافر ، وأنها لا أكراش لها ، وأنها متداخلة في النسل ، إذ البغال بين الحمير والخيل فهذا من جهة النظر ، وأما من جهة الشرع بأن قرنت في هذه الآية وأسقطت فيها الزكاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

*(164/432)*

---

وقال القرطبى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره ، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله .

وقيل : المراد أبدانهم ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [ الزلزلة : 2 ] .

والبلد مكة ، في قول عكرمة .

وقيل : هو محمول على العموم في كل بلد مسلكه على الظهر .

وشِقّ الأنفس : مشقتها وغاية جهدها .

وقراءة العامة بكسر الشين .

قال الجوهري : والشّق المشقة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس ﴾

وهذا قد يفتح ، حكاه أبو عبيدة .

قال المهدوِيّ : وكسر الشين وفتحها في "شَق" متقاربان ، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق في العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان .

وقال الثعلبي : وقرأ أبو جعفر "إلا بِشَقّ الأنفسِ" وهما لغتان ، مثل رِق ورَق وجِص وجَص ورِطل ورَطل .

وينشد قول الشاعر بكسر الشين وفتحها :

وذي إبل يَسْعَى ويحسِبُها له . . .

أخِي نَصَب من شِقّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر ، من شَقَقت عليه أشُق شَقّاً .

والشّق أيضاً بالكسر النصف ، يقال : أخذت شِقّ الشاة وشِقّة الشاة .

وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى ؛ أي لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوّة وذهاب شِق منها ، أي لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر .

والشِّق أيضاً الناحية من الجبل .

وفي حديث أمّ زرْع : وجدني في أهل غُنيمة بِشق .

قال أبو عبيد : هو اسم موضع .

والشق أيضاً : الشقيق ، يقال : هو أخي وشِق نفسي .

وشِقّ اسم كاهن من كهان العرب .

والشق أيضاً : الجانب ؛ ومنه قول امرىء القيس :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له . . .

بِشقّ وتحتي شِقُّها لمْ يُحوّلِ

فهو مشترك .

(165/432)

---

الثانية مَنّ الله سبحانه بالأنعام عموماً ، وخَصّ الإبل هنا بالذكر في حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فإن الغنم للسَّرْح والذبح ، والبقر للحرث ، والإبل للحمل .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت

للحرث فقال الناس سبحان الله تعجباً وفزعاً أبقرةٌ تَكَلّم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإني أوِمن به وأبو بكر وعمر " فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب ، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل .

الثالثة في هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل مع الرفق في السير .

وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا سافرتم في الخِصْب فأعطُوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم في السنَة فبادروا بها نِقْيَها " رواه مالك في الموطأ عن أبي عبيد عن خالد بن مَعْدان .

وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبي الدّرداء جمل يقال له دمون ، فكان يقول : يا دمون ، لا تخاصمني عند ربك .

فالدواب عُجم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه ، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيّعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرّض للخصومة بين يدي الله تعالى .

وروى مطر بن محمد قال : حدّثنا أبو داود قال حدّثنا ابن خالد قال حدّثنا المسيّب بن آدم

قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرب جمّالاً وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ والخيل ﴾ بالنصب معطوف ، أي وخلق الخيل .

(166/432)

---

وقرأ ابن أبي عَبْلة "والخيلُ والبغالُ والحميرُ" بالرفع فيها كلها .

وسُمِّيت الخيل خيلا لاختيالها في المِشْية .

وواحد الخيل خائل ، كضائن واحد ضأْن .

وقيل لا واحد له .

وقد تقدم هذا في "آل عمران" ، وذكرنا الأحاديث هناك .

ولما أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام .

وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لما يتعلق بها من الركوب ؛ فإنه يكثر في الخيل والبغال والحمير .

الثانية قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا ، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمة منه تعالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم ، لا اختلاف بينهم في ذلك .

وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور في كتب الفقه .

الثالثة لا خلاف بين العلماء في اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ الآية .

وأجازوا أن يُكرِي الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمّ أين ينزل منها ، وكم من مَنْهل ينزل فيه ، وكيف صفة سيره ، وكم ينزل في طريقه ، واجتزوا بالمتعارف بين الناس في ذلك .

قال علماؤنا : والكراء يجري مجرى البيوع فيما يحل منه ويحرم .

قال ابن القاسم فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرويّ ولم يصف رُقعته وذرعه : لم يجز ؛ لأن مالكاً لا يجيز هذا في البيع ، ولا يجيز في ثمن الكراء إلا ما يجوز في ثمن البيع .

قلت : ولا يُختلف في هذا إن شاء الله ؛ لأن ذلك إجارة .

قال ابن المنذر : وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما اشترط فتلِفت أن لا شيء عليه .

وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعيرا .

واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليها عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزاً ، فكان الشافعيّ وأبو ثَوْر يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليه الكراء .

(167/432)

---

وقال ابن أبي لَيْلَى : عليه قيمتها ولا أجر عليه .

وفيه قول ثالث وهو أن عليه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد .

وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليه في قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح الدابة ، ويُعلم أن مثله لا تعطَب فيه الدابة ، ولرَبّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول ؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة .

وذلك بخلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَدٍّ كله فيضمن إذا هلكت في قليله وكثيره .

والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدٍّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطَب في مثلها عُلم أن هلاكها مما أذن له فيه .

الرابعة واختلف أهل العلم في الرجل يكتري الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمًّى ، فيتعدّى

فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه .

فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدّي كراء ؛ هكذا قال الثوري .

وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمّى ، ولا أجر له فيما لم يسم ؛ لأنه خالف فهو ضامن ، وبه قال يعقوب .

وقال الشافعيّ : عليه الكراء الذي سمّى ، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطبت لزمه قيمتها .

ونحوه قال الفقهاء السبعة ، مشيخة أُهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن .

وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان .

قال ابن المنذر : وبه نقول .

وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكتري الغاية التي اكترى إليها ثم زاد ميلاً ونحوَه أو أميالاً أو زيادة كثيرة فعطبت الدابة ، فلربّها كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغاً ما بلغ ، أو قيمة الدابة يوم التعدّي .

ابن المَوّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خُطوة .

وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة المِيل ونحو: وأما ما يعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن.

(168/432)

---

وقال ابن حبيب عن ابن الماجِشُون وأَصْبغ: إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذي تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمة إلى موضعٍ تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق إلى الموضع الذي تكاراها إليه، فليس له إلا كراء الزيادة، كردّه لما تسلّف من الوديعة.

ولو زاد كثيراً مما فيه مقام الأيام الكثيرة التي يتغيّر في مثلها سوقها فهو ضامن، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُعِن على قتلها فهلاكها بعد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعد ردّه لا محالة.

وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها.

الخامسة قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى: ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب.

ولهذا قال أصحابنا: لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على

الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه .

وقال في الأنعام : "ومِنها تأكلون" مع ما امتن الله منها من الدّفء والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها .

وبهذه الآية احتج ابن عباس والحَكَم بن عُتَيْبَة ، قال الحَكَم : لحوم الخيل حرام في كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال : هذه للأكل وهذه للركوب .

وسئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب ، وقرأ الآية التي قبلها "والأنعَام خلقها لكم فِيها دِفْءٌ ومنافِعُ" ثم قال : هذه للأكل .

(169/432)

---

وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعيّ ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، واحتجوا بما خرجه أبو داود والنّسائي والدّارَقُطْنِيّ وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المِقْدام بن مَعْدِيكَرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خَيْبَر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكلّ ذي ناب من السباع أو مِخْلَب من الطير .

لفظ الدّارَقُطْنِيّ .

وعند النَّسائي أيضاً عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير " وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين : هي مباحة.

وروي عن أبي حنيفة.

وشَذّت طائفة فقالت بالتحريم ؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا ، وروي عن أبي حنيفة.

حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانِيّ في بحر المذهب على مذهب الشافعيّ.

قلت : الصحيح الذي يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة.

أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل ؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر ، والسورة مكية ، وأيّ حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحُمُر عامَ خَيْبَر وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيل على ما يأتي.

وأيضاً لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحاً به ، وقد تُركب ويحرث بها ؛ قال الله تعالى : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعامَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [ غافر : 79 ].

وقال في الخيل : "لِتركبوها وزِينةً" فذكر أيضاً أغلب منافعها والمقصود منها ، ولم يذكر حمل الأثقال عليها ، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل.

وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذي جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتي ، ولا يلزم من كونها خلقت للركوب والزينة ألاّ تؤكل ، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذي أنطق كلّ شيء فقالت : إنما خلقت للحرث .

فيلزم مَن عَلّل أن الخيل لا تؤكل لأنها خلقت للركوب ألاّ تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث .

وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها ، فكذلك الخيل بالسنّة الثابتة فيها .

روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَر عن لحوم الحُمُر الأهلية وأذِن في لحوم الخيل .

وقال النسائيّ عن جابر : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر .

وفي رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهم أكلوها في خَيْبَر حكايةُ حال وقضيّةٌ في عَيْن ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ ، ولا يحتج بقضايا الأحوال .

قلنا : الرواية عن جابر وإخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال ، ولئن سلمناه فمعَنا حديث أسماء قالت : نَحَرْنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه ؛ رواه مسلم .

وكل تأويل من غير ترجيح في مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يُلتفت إليه ولا يعرّج عليه.

وقد روى الدّارقطنيّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل في حديث أسماء، قالت أسماء: كان لنا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها.

فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال.

وبالله التوفيق.

(171/432)

---

فإن قيل: حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمار؟ قلنا: هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول في القول به، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف وقد باين ذوات الأظلاف، وعلى أن القياس إذا كان في مقابلة النص فهو فاسد الوضع لا التفات إليه.

قال الطبريّ: وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب.

السادسة وأما البغال فإنها تلحق بالحمير، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل؛ فإنها تكون متولّدة من عينين لا يؤكلان.

وإن قلنا إن الخيل تؤكل ، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلّب التحريم على ما يلزم في الأصول .

وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهل الذكاة والآخر ليس من أهلها ، لا تكون ذكاة ولا تحلّ به الذبيحة .

وقد مضى في "الأنعام" الكلام في تحريم الحُمُر فلا معنى للإعادة .

وقد علّل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط ؛ فسمّي رجساً .

السابعة في الآية دليل على أن الخيل لا زكاة فيها ؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها ، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل .

وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يَسَار عن عِرَاك بن مالك عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة " وروى أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس في الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر في الرقيق " وبه قال مالك والشافعيّ والأوزاعيّ والليث وأبو يوسف ومحمد .

وقال أبو حنيفة : إن كانت إناثاً كلها أو ذكوراً وإناثاً ، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة ، وإن شاء قوّمها فأخرج عن كل مائتي درهم خمسةَ دراهم .

واحتج بأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " في الخيل السائمة في كل فرس دينار "

وبقوله صلى الله عليه وسلم : " الخيل ثلاثة . . . .

" الحديث .

(172/432)

---

وفيه : " ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها " والجواب عن الأوّل أنه حديث لم يروه إلا غورك السعدي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر .

قال الدّارَقُطْنِيّ : تفرّد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جداً ، ومَن دونه ضعفاء .

وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليها إذا وقع النّفير وتعيّن بها لقتال العدو وإذا تعيّن ذلك عليه ، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك ، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك ، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله في رقابها .

فإن قيل : هذا هو الحق الذي في ظهورها وبقي الحق الذي في رقابها ؛ قيل : قد روي : " لا ينسى حقّ الله فيها " ولا فرق بين قوله : " حق الله فيها " أو " في رقابها وظهورها " فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلّق بجملتها .

وقد قال جماعة من العلماء : إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّد شبعها والإحسان إليها

وركوبها غير مشقوق عليها ؛ كما جاء في الحديث : "لا تتخذوا ظهورها كراسي " وإنما خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيراً في مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [ النساء : 92 ] وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه في الرباع والأموال ؛ ألا ترى قول كُثَيِّر :

غَمْر الرداء إذا تبسّم ضاحكاً . . .

غَلِقتْ لِضَحْكَتِه رِقابُ المال

وأيضاً فإن الحيوان الذي تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولما خرجت الخيل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها .

وأيضاً فإيجابه الزكاة في إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه ، وليس في الحديث فصل بينهما .

ونقيس الإناث على الذكور في نفي الصدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لا لدرّه ، ولا تجب الزكاة في ذكوره فلم تجب في إناثه كالبغال والحمير .

وقد روي عنه أنه لا زكاة في إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة ، وهذا الذي عليه الجمهور .

قال ابن عبد البر : الخبر في صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزُّهْرِيّ وغيره .

وقد روي من حديث مالك ، رواه عنه جُوَيرية عن الزهري أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبي يقوّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر .

وهذا حجة لأبي حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان ، لا أعلم أحداً من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة في الخيل غيرهما .

تفرّد به جُوَيرِية عن مالك وهو ثقة .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل ، المعنى : وجعلها زينة .

وقيل : هو مفعول من أجله .

والزينة : ما يُتزيّن به ، وهذا الجمال والتزيين وإن كان من متاع الدنيا فقد أذن الله سبحانه لعباده فيه ؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

" الإبل عِزٌّ لأهلها والغنم بركة والخيل في نواصيها الخير " خرّجه البَرْقاني وابن ماجه في السنن .

وقد تقدّم في الأنعام .

وإنما جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم العز في الإبل ؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزْو وإن نقصها الكرّ والفرّ .

وجعل البركة في الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد في العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة ، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب ؛ بخلاف الفدّادين أهل الوبَر .

وقرن النبيّ صلى الله عليه وسلم الخير بنواصي الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش ، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغَلَب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور : من الخلق .

وقيل : من أنواع الحشرات والهوام في أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به .

وقيل : "ويخلق ما لا تعلمون" مما أعد الله في الجنة لأهلها وفي النار لأهلها ، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر .

وقال قَتَادة والسُّدّي : هو خلق السوس في الثياب والدود في الفواكه .

ابن عباس : عين تحت العرش ؛ حكاه الماوَرْدِيّ .

الثعلبي : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة سبعين مرّة ، يدخله جبريل كلّ سَحَر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله وعِظَماً إلى عظمه ، ثم ينتفض فيُخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة ، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف مَلَك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور ، وفي الكعبة سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

وقول خامس وهو ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أنها أرض بيضاء ، مسيرة الشمس ثلاثين يوماً مشحونة خلقاً لا يعلمون أن الله تعالى يعصى في الأرض ، قالوا : يا رسول الله ، مِن ولد آدم ؟ قال : " لا يعلمون أن الله خلق آدم " قالوا : يا رسول الله ، فأين إبليس منهم ؟ قال : " لا يعلمون أن الله خلق إبليس " ثم تلا " ويخلق ما لا تعلمون " ذكره الماوردي .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهقي عن الشعبي قال : إن لله عباداً من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق ، رَضْراضهم الدُرّ والياقوت وجبالهم الذهب والفضة ، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملاً ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم ؛ ذكره في بدء الخلق من ( كتاب الأسماء والصفات ) .

وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أذن لي أن أحدّث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(175/432)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾

الأثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج إليه من آلات السفر ﴿ إلى بلد ﴾ يعني غير بلدكم قال ابن عباس : يريد من مكة إلى اليمن ، وإلى الشام وإنما قال ابن عباس : هذا القول لأنه خطاب لأهل مكة وأكثر تجارتهم وأسفارهم إلى الشام واليمن وحمله على العموم أولى لأنه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ يعني بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه ﴿ إلا بشق الأنفس ﴾ يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء ، والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ يعني بخلقه حيث خلق لهم هذه

المنافع .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ هذه الآية عطف على ما قبلها ، والمعنى وخلق هذه الحيوانات لأجل أن تركبوها ، والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والرهط والنساء ﴿ وزينة ﴾ يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها .

فصل

احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل ، وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب وإليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله ، واستدلوا أيضاً بأن منفعة الأكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى ، علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزاً لكان هذا المعنى أولى بالذكر ، لأن الله سبحانه وتعالى خص الأنعام بالأكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب .



---

فقال : لتركبوها فعلمنا أنها مخلوقة للركوب لا للأكل وذهب مجموعة من أهل العلم إلى إباحة لحوم الخيل ، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير : وإليه ذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وأحمد وإسحاق واحتجوا على إباحة لحوم الخيل لما روي

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنها قالت : " نحرنا على عهد رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فرساً ونحن بالمدينة فأكلناه " أخرجه البخاري ومسلم ( ق ) .

(177/432)

---

عن جابر " أن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) نهى عن لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبي عن الحمار الأهلي " هذه رواية البخاري ومسلم ، وفي رواية أبي داود قال : " ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل " وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة ، لا يدل على أن منفعتها مختصة بذلك ، وإنما خص هاتان المنفعتان بالذكر لأنهما معظم المقصود ، قالوا : ولهذا سكت عن حمل الأثقال على الخيل مع قوله في الأنعام وتحمل أثقالكم ، ولم يلزم من هذا التحريم حمل الأثقال على الخيل ، وقال البغوي : ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم ، بل المراد منها تعريف الله عباده نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته ، والدليل الصحيح المعتمد عليه في إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضي أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتاً عنه دار الأمر فيه على الإباحة والتحريم فوردت بإباحة لحوم الخيل

وتحريم لحوم البغال والحمير ، فأخذنا بها جمعاً بين النصين والله أعلم وقوله تعالى ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في جميع حالاته ، وضرورياته على سبيل التفضيل ، ذكر بعدها ما لا ينتفع به الإنسان الغالب على سبيل الإجمال لأن مخلوقات الله في البر والبحر والسموات أكثر من أن تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو فهمه ، فلهذا ذكرها على الإجمال ، وقال بعضهم : ويخلق ما لا تعلمون يعني مما أعد الله لأهل الجنة في الجنة ، ولأهل النار في النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة في قوله : ويخلق ما لا تعلمون يعني السوس في النبات والدود في الفواكة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

(178/432)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾

والأثقال .

الأمتعة : واحدها ثقل .

وقيل : الأجسام لقوله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ أي أجساد بني آدم .

وقوله : إلى بلد ، لا يراد به معين أي : إلى بلد بعيد توجهتم إليه لأغراضكم .

وقيل : المراد به معين وهو مكة ، قاله : ابن عباس ، وعكرمة ، والربيع بن أنس .

وقيل : مدينة الرسول .

وقيل : مصر .

وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على المراد ، إذ المنة لا تختص بالحمل إليها .

ولم تكونوا بالغيه صفة للبلد ، ويحتمل أن يكون التقدير بها ، وذلك تنبيه على بعد البلد ، وأنه مع الاستعانة بها بحمل الأثقال لا يصلون إليه إلا بالمشقة .

أو يكون التقدير : لم تكونوا بالغيه بأنفسكم دونها إلا بالمشقة عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم .

وقرأ الجمهور : بشق بكسر الشين .

وقرأ مجاهد ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وعمر بن ميمون ، وابن أرقم : بفتحها .

ورويت عن نافع وأبي عمرو ، وهما مصدران معناهما المشقة .

وقيل : الشق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، ويعني به : المشقة .

وقال الشاعر في الكسر :

أذي إبل يسعى ويحسبها له . . .

أخي نصب من شقها ودؤوب

أي مشقتها .

وشق الشيء نصفه ، وعلى هذا حمله الفراء هنا أي : يذهبان صف الأنفس ، كأنها قد ذابت تعباً ونصباً كما تقول : لا تقدر على كذا إلا بذهاب جل نفسك ، وبقطعة من كبدك .

ونحو هذا من المجاز .

ويقال : أخذت شق الشاة أي نصفها والشق : الجانب ، والأخ الشقيق ، وشق اسم كاهن .

وناسب الامتنان بهذه النعمة من حملها الأثقال الختم بصفة الرأفة والرحمة ، لأن من رأفته تيسير هذه المصالح وتسخير الأنعام لكم .

ولما ذكر تعالى مننه بالأنعام ومنافعها الضرورية ، ذكر الامتنان بمنافع الحيوان التي ليست بضرورية .

وقرأ الجمهور : والخيل وما عطف عليه بالنصب عطفاً على والأنعام .

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع .

ولما كان الركوب أعظم منافعها اقتصر عليه ، ولا يدل ذلك على أنه لا يجوز لكل الخيل ، خلافاً لمن استدل بذلك .

وانتصب وزينة ، ولم يكن باللام ، ووصل الفعل إلى الركوب بوساطة الحرف ، وكلاهما مفعول من أجله ، لأن التقدير : خلقها ، والركوب من صفات المخلوق لهم ذلك فانتفى شرط النصب ، وهو : اتحاد الفاعل ، فعدى باللام .

والزينة من وصف الخالق ، فاتحد الفاعل ، فوصل الفعل إليه بنفسه .

وقال ابن عطية : وزينة نصب بإضمار فعل تقديره : وجعلناها زينة .

وروى قتادة عن ابن عباس : لتركبوها زينة بغير واو .

قال صاحب اللوامح : والزينة مصدر أقيم مقام الاسم ، وانتصابه على الحال من الضمير في خلقها ، أو من لتركبوها .

وقال الزمخشري : أي وخلقها زينة لتركبوها ، أو يجعل زينة حالاً من هاء ، وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال .

وقال ابن عطية : والنصب حينئذ على الحال من الهاء في تركبوها .

والظاهر نفي العلم عن ذوات ما يخلق تعالى ، فقال الجمهور : المعنى ما لا تعلمون من الآدميين والحيوانات والجمادات التي خلقها كلها لمنافعكم ، فأخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ، لنزداد دلالة على قدرته بالإخبار ، وإنْ طوى عنا علمه حكمة له في طيه ، وما

خلق تعالى من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمه بشر .

وقال قتادة : ما لا تعلمون ، أصل حدوثه كالسوس في النبات والدود في الفواكه .

وقال ابن بحر : لا تعلمون كيف يخلقه .

وقال مقاتل : هو ما أعد الله لأوليائه في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال الطبري : وزاد بعد في الجنة وفي النار لأهلها ، والباقي بالمعنى .

ورويت تفاسير في : ما لا تعلمون في الحديث عن ابن عباس ، ووهب بن منبه ، والشعبي ، الله أعلم بصحتها .



---

ويقال : لما ذكر الحيوان الذي ينتفع به انتفاعاً ضرورياً وغير ضروري ، أعقب بذكر الحيوان الذي لا ينتفع به غالباً على سبيل الإجمال ، إذ تفاصيله خارجة عن الإحصاء والعد .

انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾

جمع ثقل وهو متاعُ المسافر ، وقيل : أثقالكم أجرامكم ﴿ إِلَى بَلَدٍ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أريد به اليمنُ ومصرُ والشامُ ، ولعله نظر إلى أنها متاجرُ أهل مكة ، وقال عكرمةَ : أريد به مكةُ ، ولعله نظر إلى أن أثقالَهم وأحمالهم عند القُفول من متاجرهم أكثرُ ، وحاجتُهم إلى الحمولة أمسُّ ، والظاهرُ أنه عام لكل بلد سحيق ﴿ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الإبل ﴿ إِلاَّ بِشِقّ الأنفس ﴾ فضلاً عن استصحابها معكم ، وقرىء بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكُلفة والمشقة ، وقيل : المفتوحُ مصدرٌ من شق الأمرُ عليه شقاً ، وحقيقتُه راجعة إلى الشِق الذي هو الصَّدْع والمكسورُ النصفِ كأنه يُذهب نصفَ القوة لما يناله من الجهد ، فالإضافة إلى الأنفس مجازيةٌ ، أو على تقدير مضاف أي إلا بشق قُوى الأنفس ، وهو استثناءٌ مفرّغٌ من أعم الأشياء أي لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس ، ولعل تغييرَ النظم الكريم السابقِ الدال على كون الأنعامِ مدار للنعم السابقة إلى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للإشعار بأن هذه النعمةَ ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق ، وفي الشمول للأوقات والاطّراد في الأحيان المعهودة بمثابة النعمِ السالفة فإنها بحسب المنشأ وخاصةٌ بالإبل وبحسب

المتعلق بالضاربين في الأرض المتقلبين فيها للتجارة وغيرِها في أحايينَ غيرِ مطّردة ، وأما سائرُ النعم المعدودةِ فموجودةٌ في جميع أصناف الأنعامِ وعامةٌ لكافة المخاطبين دائماً ، أو في عامة الأوقات ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولذلك أسبغ عليكم هذه النعمَ الجليلةَ ويسّر لكم الأمورَ الشاقة .

(182/432)

---

﴿ والخيل ﴾ هو اسمُ جنس للفرس لا واحد له من لفظه ، كالإبل وهو عطفٌ على الأنعام أي خلق الخيل ﴿ والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ تعليلٌ بمعظم منافعها وإلا فالانتفاعُ بها بالحمل أيضاً مما لا ريب في تحققه ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ عطفٌ على محل لتركبوها ، وتجريدُه عن اللام لكونه فعلاً لفاعل الفعل المعلل دون الأولِ ، وتأخيرُه لكون الركوبِ أهمَّ منه ، أو مصدرٌ لفعل محذوفٍ ، أي وتتزيّنوا بها زينةً ، وقرىء بغير واو أي خلقها زينةً لتركبوها ، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً موقعَ الحال من فاعل تركبوها أو مفعولِه أي متزّينين بها ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي يخلق في الدنيا غيرَ ما عُدد من أصناف النعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهَه وكيفيةَ خلقِه ، فالعدولُ إلى صيغة الاستقبال للدِلالة على الاستمرار والتجددِ أو لاستحضار الصورة ، أو يخلق لكم في الجنة غيرَ ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا تعلمون أي ما

ليس من شأنكم أن تعلموه ، وهو ما أشير إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى : " أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمِعت ولا خطَر على قلب بشر " ويجوز أن يكون هذا إخبارا ً بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علمَ لنا به دَلالةً على قدرته الباهرة الموجبةِ للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن عن يمين العرش نهراً من نور مثلَ السمواتِ السبع والأرضين السبع والبحارِ السبعة ، يدخل فيه جبريلُ عليه السلام كل سَحَر فيغتسل فيزداد نوراً إلى نور وجمالاً إلى جمال وعِظماً إلى عظم ، ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألفَ ملَك ، فيدخل منهم كل يوم سبعون ألفَ ملكٍ البيتَ المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون إليه إلا يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(183/432)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾

أي أحمالكم الثقيلة جمع ثقل ، وقيل : أجسامكم كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ

الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [ الزلزلة : 2 ] حيث فسرت الأثقال فيه بأجسام بني آدم .

﴿ إلى بَلَدٍ ﴾ روى عن ابن عباس أنه اليمن والشام ومصر وكأنه نظر إلى أنها متاجر أهل مكة كما يؤذن به ما في تفسير الخازن عنه رضي الله تعالى عنه من أنه قال : يريد من مكة إلى اليمن وإلى الشام ، وفي رواية أخرى عنه .

وعن الربيع بن أنس .

وعكرمة أنه مكة وكأنهم نظروا إلى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم إلى الحمولة أمس ، والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق وإلى ذلك ذهب أبو حيان ، وجعل ما ورد من التعيين كالمذكور وكالذي نقله عن بعضهم من أنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم محمولاً على التمثيل لا على أن المراد ذلك المعين دون غيره ﴿ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الاقفال فضلاً عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم لو لم تكن الأنعام ولم تخلق ﴿ إِلاَّ بِشِقّ الأنفس ﴾ أي مشقتها وتعبها ، وقيل : المعنى لم تكونوا بالغيه بها إلا بما ذكر وحذف بها لأن المسافر لا بد له من الأثقال ، والمراد التنبيه على بعد البلد وأنه مع الاستعانة بها يحمل الأثقال لا تصلون إليه إلا بالمشقة ، ولا يخفى أن الأول أبلغ .

وقرأ مجاهد .

والأعرج.

وأبو جعفر .

وعمرو بن معين .

وابن أرقم ﴿ بِشِقّ ﴾ بفتح الشين وروى ذلك عن نافع .

وأبي عمر ووكلا ذلك لغة ، والمعنى ما تقدم ، وقيل : الشق بالفتح المصدر وبالكسر الاسم يعني المشقة وعلى الكسر بهذا المعنى جاء قوله :

وذي ابل يسعى ويحسبها له . . .

أخي نصب من شقها ودءوب

(184/432)

---

فإنه أراد من مشقتها ، وعن الفراء أن المفتوح مصدر من شق الأمر عليه شقا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف يقال : أخذت شق الشاة أي نصفها ، وجاء "اتقوا النار ولو بشق تمرة" والمعنى إلا بذهاب نصف الأنفس كأن الأنفس تذوب تعباً ونصباً لما ينالها من المشقة كما يقال لا تقدر على كذا إلا بذهاب جل نفسك أو قطعة من كبدك وهو من المجاز ، وجوز بعضهم أن يكون على تقدير مضاف أي الابشق قوى الأنفس ، والاستثناء مفرغ أي لم تكونوا ﴿ بالغيه ﴾ بشيء من الأشياء إلا بشق الأنفس ،

وجعل أبو البقاء الجار والمجرور في موضع الحال من الضمير المرفوع في ﴿ بالغيه ﴾ أي مشقوقاً عليكم وضمير ﴿ تحمل ﴾ للأنعام إلا أن الحمل المذكور باعتبار بعض أنواعها وهي الإبل ومثله كثير، ومن هنا يظهر ضعف استدلال بعضهم بهذا الإسناد على أن المراد بالانعام فيما مر الإبل فقط، وتغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الأنعام مدار للنعم إلى الفعلية المفيدة للحدوث قيل لعله للاشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفي الشمول للأوقات والاطراد في الأحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فإنها بحسب المنشأ خاصة كما سمعت بالإبل وبحسب المتعلق بالمتقلبين في الأرض للتجارة وغيرها في أحايين غير مطردة، وأما سائر النعم المعدودة فموجودة في جميع الأصناف وعامة لكافة المخاطبين دائماً وفي عامة الأوقات اه.

واحتج كما قال الإمام منكر وكرامات الأولياء بهذه الآية لأنها تدل على أن الإنسان لا يمكنه الانتقال من بلد إلى آخر إلا بشق الأنفس وحمل الأثقال على الجمال.

ومثبتو الكرامات يقولون: إن الأولياء قد ينتقلون من بلد إلى آخر بعيد في زمان قليل من غير تعب وتحمل مشقة فكان ذلك على خلاف الآية فيكون باطلاً وإذا بطلت في هذه الصورة بطلت في الجميع إذ لا قائل بالفرق.

وأجاب بأنا تخصص عموم الآية بالأدلة الدالة على وقوع الكرامات اه ، ولعل القائلين بعدم ثبوت طي المسافة للأولياء يستندون إلى هذه الآية لكن هؤلاء لا ينفون الكرامات مطلقاً فلا يصح قوله إذ لا قائل بالفرق ، ومن أنصف علم أن الاستدلال بها على هذا المطلب مما لا يكاد يلتفت إليه بناء على أنها مسوقة للامتنان ويكفي فيه وجود هذا في أكثر الأحايين لأكثر الناس فافهم ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ولذلك أسبغ عليكم النعم الجليلة ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة .

(186/432)

﴿ والخيل ﴾ هو كما قال غير واحد اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل ، وذكر الراغب أنه في الأصل يطلق على الافراس والفرسان ، وهو عطف على ﴿ الأنعام ﴾ [ النحل : 5 ] أي وخلق الخيل ﴿ والبغال ﴾ جمع بغل معروف ﴿ والحمير ﴾ جمع حمار كذلك ويجمع في القلة على أحمرة وفي الكثرة على حمر وهو القياس ، وقرأ ابن أبي عبلة برفع ﴿ الخيل ﴾ وما عطف عليه ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ تعليل لخلق المذكورات ، والكلام في تعليل أفعال الله تعالى مبسوط في الكلام ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ عطف على محل ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾

فهو مثله مفعول لأجله وتجريده عن اللام دونه لأن الزينة فعل الزاين وهو الخالق تعالى ففاعل الفعلين المعلل والمعلل به واحد بخلاف فاعل الركوب وفاعل المعلل به فشرط النصب الذي اشترطه من اشترطه موجود في المعطوف دون المعطوف عليه قاله غير واحد ، وذكر بعض المدققين أن في عدم مجيئها على سنن واحد دلالة على أن المقصود الأصلي الأول فجيء بالحروف الموضوعة لذلك وسيق الخطاب وأعيد الضمير للثلاثة في ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وجيء بالثاني تتميا ودلالة على أنه لما كان من مقاصدهم عد في معرض الامتنان وإلا فليس التزين بالعرض الزائل مما يقصده أهل الله تعالى وهم أهل الخطاب بالقصد الأول واعترض ما تقدم بأنه وان ثبت اتحاد الفاعل لكن لم تتم به شروط صحة النصب لفقد شرط آخر منها وهو المقارنة في الوجود فإن الخلق متقدم على الزينة .

(187/432)

---

وأجيب بأن ذلك على إرادة إرادة الزينة كما قيل في ضربت زيداً تأديباً أن التأديب بتأويل إرادته ، وجوز أبو البقاء كون ﴿ زِينَةً ﴾ مصدراً لفعل محذوف أي ولتتزينوا بها زينة ، وقال ابن عطية إنه مفعول به لفعل محذوف أي وجعلها زينة ، وروي قتادة عن ابن عباس أنه قرأ ﴿ لِتَرْكَبُوهَا زِينَةً ﴾ بغير واو ، قال صاحب اللوامح : إن ﴿ زِينَةً ﴾ حينئذ نصب

على الحال من الضمير في ﴿ خَلَقَهَا ﴾ [ النحل : 5 ] أو من الضمير في لتركبوها ﴾ ولم يعين الضمير وعينه ابن عطية فقال هو المنصوب ، وقال غير واحد تجوز الحالية من كل من الضميرين أي لتركبوها متزينين أو متزينا بها ، وقال الزمخشري بعد حكاية القراءة : أي خلقها زينة لتركبوها ، ومراده على ما قيل أن الزينة إما ثاني مفعول خلق على إجرائه مجرى جعل أو هو حال عن المفعولات الثلاثة على الجمع ، وجوز كونه مفعولاً له ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وهو بمعنى التزين فلا يرد عليه اختلاف فاعل الفعلين ؛ قيل : وأما لزوم تخصيص الركوب المطلوب بكونه لأجل الزينة وكون الحكمة في خلقها ذلك وكون ذلك هو المقصود الأصلي لنا فلا ضير فيه لأن التجمل بالملابس والمراكب لا مانع منه شرعاً وهو لا ينافي أن يكون لخلقها حكم أهم كالجهاد عليها وسفر الطاعات ، وإنما خص لمناسبته لمقام الامتنان مع أن الزينة على ما قال الراغب ما لا يشين في الدنيا ولا في الآخرة ، وأما ما يزين في حالة دون أخرى فهو من وجه شين اه فتأمل ولا تغفل .

واستدل بالآية على حرمة أكل لحوم المذكورات لأن السوق في معرض الاستدلال بخلق هذه النعم منة على هذا النوع دلالة على التوحيد وسوء صنيع من يقابلها بالإشراك والحكيم لا يمن بأدنى النعمتين تاركاً أعلاهما ، كيف وقد ذكر أماما .

وروى ابن جرير .

وغيره القول بكراهة أكل لحوم الخيل لهذه الآية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وروى عن أبي حنيفة عليه الرحمة أنه قال : رخص بعض العلماء في لحم الخيل فأما أنا فلا يعجبني أكله ، وفي رواية أخرى أنه قال أكرهه والأولى تلوح إلى قوله بكراهة التنزيه والثانية تدل على الترحيم بناء على ما روي عن أبي يوسف أنه سأله إذا قلت : في شيء أكرهه فما رأيك فيه ؟ فقال : التحريم ، وكأنه لهذا قال صاحب الهداية الأصح أن كراهة أكل لحمها تحريمية عند الإمام ، وفي العمادية أنه رضي الله تعالى عنه رجع عن القول بالكراهة قبل موته بثلاثة أيام وعليه الفتوى ، وقال صاحباه والإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهم : لا بأس بأكل لحوم الخيل .

وأجاب بعض الشافعية عن الاستدلال بالآية بمنع كون المذكور أدنى النعمتين بالنسبة إلى الخيل قال : وذلك لأن الآية وردت للامتنان عليهم على نحو ما ألفوه ، ولا ينكر ذو أرب أن معظم الغرض من الخيل الركوب والزينة لا الأكل بخلاف النعم ، وذكر أغلب المنفعتين وترك أدناهما ليس بدعا بل هو دأب اختصارات القررن ، وذكره في الأول أن لم يصر حجة لنا في الاكتفاء مع التنبيه على أنه نزر في المقابل فلا يصير حجة علينا ، فظهر أنه لا استدلال لا من عبارة الآية ولا من إشارتها .

واستدلوا على الحل بما صح من حديث جابر أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر

الأهلية والبغال وأذن عليه الصلاة والسلام في لحم الخيل يوم خيبر ، وفيه دليل عندهم على أن الآية لا تدل على الترحيم فادته أن تحريم لحوم الحمر الأهلية إنما وقع عام خيبر كما هو الثابت عند أكثر المحدثين وهذه السورة مكية فلو علم التحريم مما فيها كان ثابتاً قبله ، وبحث فيه بأن السورة وان كانت مكية يجوز كون هذه الآية مدنية ، وفيه أن مثل ذلك يحتاج إلى الرواية ومجرد الجواز لا يكفي ، وعورض حديث جابر بما أخرجه أبو عبيد .

وأبو داود .

والنسائي .



وابن المنذر عن خالد بن الوليد قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير "

والترجيح كما قال في الهداية للمحرم ، لكن أنت تعلم أن هذا الخبر يوهى أمر الاستدلال بالآية لما أن خالداً قد أسلم بالمدينة والآية مكية فلو كان التحريم معلوماً منها لما كان للنهي الذي سمعه كثير فائدة ، والجملة الاستدلال بالآية على حرمة لحوم الخيل لا يسلم من العثار فلا بد من الرجوع في ذلك إلى الاخبار .

والحكم عند تعارضها لا يخفى على ذوي الاستبصار ، والذي أميل إليه الحل والله تعالى أعلم ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي ويخلق غير ذلك الذي فصله سبحانه لكم ، والتعبير عنه بما ذكر لأن مجموعة غير معلوم ولا يكاد يكون معلوماً فالكلام إجمالاً لما عدا الحيوانات المحتاج غالباً احتياجاً ضرورياً أو غير ضروري ، والعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة ، ويجوز أن يكون إخباراً منه تعالى بأن له سبحانه ما لا علم لنا به من الخلائق ﴿ فَمَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ على ظاهره ، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما خلق الله تعالى لأرضا لؤلؤة بيضاء مسيرة ألف عام عليها جبل من ياقوتة حمراء محدق بها في تلك الأرض ملك قد ملأشرقها وغربها له ستمائة رأس في كل رأس ستمائة وجه في كل وجه ستمائة ألف وستون ألف فم في كل فم ستون ألف لسان يثنى على الله تعالى ويقدسه ويهلله ويكبره بكل لسان ستمائة ألف وستين ألف مرة فإذا كان يوم القيامة نظر إلى عظمة الله تعالى فيقول : وعزتك ما عبدتك حق عبادتك " فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وفي رواية أخرى عنه أن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع

والبحار السبع يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد جمالاً إلى جماله وعظماً إلى عظمه ثم ينتقض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألف ملك الكعبة لا يعودون إلى يوم القيامة.

وروى هذا أيضاً عن الضحاك.

ومقاتل.

(191/432)

---

وعطاء، ومما لا نعلمه أرض السمسمة التي ذكر عنها الشيخ الأكبر قدس سره ما ذكر، وجابرصا وجابلقا حسبما ذكر غير واحد، وان زعمت ذلك من الخرافات كالذي ذكره عصرينا رئيس الطائفة الذين سموا أنفسهم بالكشفية ودعاهم أعداؤهم من الإمامية بالكفشية في غالب كتبه مما تضحك منه لعمر أبيك الثكلى ويتمنى العالم عند سماعه لمزيد حيائه من الجهلة نزوله إلى الأرض السفلى فاقنع بما جاء في الآثار، ولا يثنينك عنه شبه الفلاسفة إذا صح سنده فانها كسراب بقيعة، والذي أظنه أنه ليس أحد من الكفار فضلاً عن المؤمنين يشك في أن الله تعالى خلقاً لا نعلمهم ليحتاج إلى إيراد الشواهد على ذلك،

ويجوز أن يكون المراد بهذا الخلق الخلق في الجنة أي ويخلق في الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا تعلمون أي ما ليس من شأنكم أن تعلموه ، وهو ما أشير إليه بقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى : "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

*(192/432)*

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها ، وابهم الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول ولم يصرح هنا بشيء منه ، ولكن قرينة ذكر ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات تدل على أن منه ما هو من المركوبات ، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية ، كالطائرات ، والقطارات ، والسيارات .

ويؤيد ذلك إشارة النّبي صلى الله عليه وسلم غلى ذلك في الحديث الصحيح . قال مسلم

بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث ، عن سعيد بن أبي سعيد ، عن عطاء بن ميناء ، عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد " اه .

ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح – قوله صلى الله عليه وسلم : " ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها " فإنه قسم من النبي صلى الله عليه وسلم أنه ستترك الإبل فلا يسعى عليها ، وهذا مشاهد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة .

وفي هذا الحديث معجزة عظمى ، تدل على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم وإن كانت معجزاته صوات الله عليه وسلامه أكثر من أن تحصر .

وهذه الدلالة التي ذكرنا تسمى دلالة الاقتران ، وقد ضعفها أكثر أهل الأصول ، كما أشار له صاحب مراقي السعود بقوله :

أما قران اللفظ في المشهور . . . فلا يساوي في سوى المذكور

وصحح الاحتجاج بها بعض العلماء . ومقصودنا من الاستدلال بها هنا أن ذكر ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] في معرض الامتنان بالمركوبات لا يقل عن قرينة داله على أن الآية تشير إلى أن من المراد بها بعض المركوبات ، كما قد ظهرت صحة ذلك بالعيان .

وقد ذكر في موضع آخر : أنه يخلق ما لا يعلمه خلقه غير مقترن بالامتنان بالمركوبات ، وذلك في قوله ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ يس : 36 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

*(194/432)*

---

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ معطوفة على ﴿ ولكم فيها جمال ﴾ فهي في موضع الحال أيضاً .

والضمير عائد إلى أشهر الأنعام عندهم وهي الإبل ، كقولها في قصّة أم زرع "رَكب شَرِياً وأخذَ خطيّاً فأراح علي نعماً ثرياً" ، فإن النعم التي تؤخذ بالرمح هي الإبل لأنها تؤخذ بالغارة .

وضمير ﴿ وتحمل ﴾ عائد إلى بعض الأنعام بالقرينة .

واختيار الفعل المضارع بتكرر ذلك الفعل .

والأثقال : جمع ثَقَل بفتحتين وهو ما يثقل على الناس حمله بأنفسهم .

والمراد بـ ﴿ بلد ﴾ جنس البلد الذي يرتحلون إليه كالشام واليمن بالنسبة إلى أهل الحجاز ، ومنهم أهل مكة في رحلة الصيف والشتاء والرحلة إلى الحجّ .

وقد أفاد ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ معنى تحملكم وتبلغكم ، بطريقة الكناية القريبة من التصريح .

ولذلك عقب بقوله تعالى : ﴿ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ .

وجملة ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ صفة لـ ﴿ بلد ﴾ ، وهي مفيدة معنى البعد ، لأن بلوغ المسافر إلى بلد بمشقّة هو من شأن البلد البعيد ، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم .

والشِّقّ بكسر الشين في قراءة الجمهور : المشقة .

والباء للملابسة .

والمشقة : التعب الشّديد .

وما بعد أداة الاستثناء مستثنى من أحوال لضمير المخاطبين .

وقرأ أبو جعفر ﴿ إلا بشق الأنفس ﴾ بفتح الشين وهو لغة في الشِق المكسور الشين .

وقد نفت الجملة أن يكونوا بالغيه إلا بمشقّة ، فأفاد ظاهرها أنهم كانوا يبلغونه بدون الرواحل بمشقّة وليس مقصوداً ، إذ كان الحمل على الأنعام مقارناً للأسفار بالانتقال إلى البلاد البعيدة ، بل المراد : لم تكونوا بالغيه لولا الإبل أو بدون الإبل ، فحذف لقرينة السياق .

وجملة ﴿ إن بكم لرؤوف رحيم ﴾ تعليل لجملة ﴿ والأنعام خلقها ﴾ ، أي خلقها لهذه المنافع لأنه رؤوف رحيم بكم .

﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ .

والخيل معطوف على ﴿ والأنعام خلقها ﴾ [ سورة النحل : 5 ] .

فالتقدير : وخلق الخيل .

(195/432)

---

والقول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كلّ كالقول فيما تقدّم من قوله تعالى : والأنعام خلقها لكم فيها دفء ﴾ الآيةً .

والفعل المحذوف يتعلق به ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ ، أي خلقها الله لتكون مراكب للبشر ، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم .

وعطف ﴿ وزينة ﴾ بالنصب عطفاً على شبه الجملة في ﴿ لتركبوها ﴾ ، فجُنّب قرنه

بلام التعليل من أجل توفر شرط انتصابه على المفعولية لأجله ، لأن فاعله وفاعلَ عامله واحد ، فإن عامله فعلُ ﴿ خلق ﴾ في قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال ﴾ فذلك كله مفعول به لفعل ﴿ خلقها ﴾ .

ولا مرية في أن فاعل جَعْلها زينة هو الله تعالى ، لأن المقصود أنها في ذاتها زينة ، أي خلقها تزين الأرض ، أو زين بها الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [ سورة الملك : 5 ] .

وهذا النصب أوضح دليل على أن المفعول لأجله منصوب على تقدير لام التعليل .

وهذا واقع موقع الامتنان فكان مقتصراً على ما ينتفع به المخاطبون الأولون في عادتهم .

وقد اقتصر على منّة الركوب على الخيل والبغال والحمير والزينة ، ولم يذكر الحمل عليها كما قال في شأن الأنعام ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ [ سورة النحل : 7 ] ، لأنهم لم تكن من عادتهم الحمل على الخيل والبغال والحمير ، فإن الخيل كانت تركب للغزو وللصيد ، والبغال تركب للمشي والغزو .

والحمير تركب للتنقل في القرى وشبهها .

وفي حديث البخاري عن ابن عباس في حجّة الوداع أنه قال جئت على حمار أتان ورسول الله يصلي بالناس الحديث .

وكان أبو سَيارة يجيز بالناس من عرفة في الجاهلية على حمار وقال فيه:

خلوا السبيل عن أبي سياره . . .

وعن مواليه بني فزاره

حتى يجيز راكباً حماره . . .

مستقبل الكعبة يدعو جاره

(196/432)

---

فلا يتعلق الامتنان بنعمة غير مستعملة عند المنعم عليهم ، وإن كان الشيء المنعم به قد تكون له منافع لا يقصدها المخاطبون مثل الحَرث بالإبل والخيل والبغال والحمير ، وهو مما يفعله المسلمون ولا يعرف منكر عليهم .

أو منافع لم يتفطن لها المخاطبون مثل ما ظهر من منافع الأدوية في الحيوان مما لم يكن معروفاً للناس من قبلُ ، فيدخل كل ذلك في عموم قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ في سورة البقرة ( 29 ) ، فإنه عموم في الذوات يستلزم عموم الأحوال عدا ما خصّصه الدليل مما في آية الأنعام ( 145 ) ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه ﴾ الآية .

وبهذا يعلم أن لا دليل في هذه الآية على تحريم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير لأن أكلها نادر

الخطور بالبال لقلّته ، وكيف وقد أكل المسلمون لحوم الحمر في غزوة خيبر بدون أن يستأذنوا النبي كانوا في حالة اضطرار ، وآية سورة النحل يومئذٍ مقروءة منذ سنين كثيرة فلم ينكر عليهم أحد ولا أنكره النبي .

كما جاء في الصحيح : أنه أتي فقيل له : أُكِلت الحمر ، فسكت ، ثم أتي فقيل : أكلت الحمر فسكت .

ثم أتي فقيل : أفنيت الحمر فنادى منادي النبي أن الله ورسوله ينهيانكم عن أكل لحوم الحمر .

فأهرقت القدور .

وأن الخيل والبغال والحمير سواء في أن الآية لا تشمل حكم أكلها .

فالمصير في جواز أكلها ومنعه إلى أدلّة أخرى .

فأما الخيل والبغال ففي جواز أكلها خلاف قوي بين أهل العلم ، وجمهورهم أباحوا أكلها .

وهو قول الشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد بن الحسن والظاهري ، وروي عن ابن مسعود وأسماء بنت أبي بكر وعطاء والزهري والنخعي وابن جبير .

وقال مالك وأبو حنيفة : يحرم أكل لحوم الخيل ، وروي عن ابن عباس .

واحتجّ بقوله تعالى : ﴿لتركبوها وزينة﴾ ، ولو كانت مباحة الأكل لامتنّ بأكلها كما امتنّ في

الأنعام بقوله : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ [ سورة النحل : 5 ] .

وهو دليل لا ينهض بمفرده .

(197/432)

---

فيجاب عنه بما قرّرنا من جريان الكلام على مراعاة عادة المخاطبين به .

وقد ثبتت أحاديث كثيرة أن المسلمين أكلوا لحوم الخيل في زمن رسول الله وعلمه .

ولكنه كان نادراً في عادتهم .

وعن مالك رضي الله عنه رواية بكراهة لحوم الخيل واختار ذلك القرطبي .

وأما الحمير فقد ثبت أكل المسلمين لحومها يوم خيبر .

ثم نُهوا عن ذلك كما في الحديث المتقدم .

واختلف في محمل ذلك ، فحملهُ الجمهور على التحريم لذات الحمير .

وحملهُ بعضهم على تأويل أنها كانت حمولتهم يومئذٍ فلو استرسلوا على أكلها لانقطعوا بذلك المكان فآبوا رجالاً ولم يستطيعوا حمل أمتعتهم .

وهذا رأي فريق من السلف .

وأخذ فريق من السّلف بظاهر النهي فقالوا بتحريم أكل لحوم الحمر الإنسية لأنها مورد النهي

وأبقوا الوحشية على الإباحة الأصلية .

وهو قول جمهور الأيمة مالك وأبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهم وغيرهم .

وفي هذا إثبات حكم تعبدي في التفرقة وهو مما لا ينبغي المصير إليه في الاجتهاد إلا بنصّ لا يقبل التأويل كما بيّناه في كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية .

على أنه لا يعرف في الشريعة أن يحرّم صنف إنسي لنوع من الحيوان دون وحشيه .

وأما البغال فالجمهور على تحريمها .

فأما من قال بِحرمة أكل الخيل فلأن البغال صنف مركّب من نوين محرمين ، فتعين أن يكون أكله حراماً .

ومن قال بإباحة أكل الخيل فلتغليب تحريم أحد النوعين المركب منهما وهو الحمير على تحليل النوع الآخر وهو الخيل .

وعن عطاء أنه رآها حلالاً .

والخيل : اسم جمع لا واحد له من لفظه على الأصح .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ والخيل المسومة ﴾ في سورة آل عمران ( 14 ) .

﴿ والبغال ﴾ : جمع بَغل .

وهو اسم للذكر والأنثى من نوعٍ أمّه من الخيل وأبوه من الحمير .

وهو من الأنواع النادرة والمتولدة من نوعين .

وعكسه البرذون ، ومن خصائص البغال عُقم أنثاها بحيث لا تلد .

و﴿ الحمير ﴾ : جمع تكسير حمارٍ وقد يجمع على أحمرة وعلى حُمُر .

*(198/432)*

---

وهو غالب للذكر من النوع ، وأما الأنثى فأتان .

وقد روعي في الجمع التغليب .

اعتراض في آخر الكلام أو في وسطه على ما سيأتي .

و﴿ يخلق ﴾ مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال ، أي هو الآن يخلق ما لا تعلمون أيها الناس مما هو مخلوق لنفعهم وهم لا يشعرون به ، فكما خلق لهم الأنعام والكراع خلق لهم ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن ، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود ، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه الناس من بعد مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدُب الأبيض ، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن ، فيكون المضارع مستعملاً في الحال للتجديد ، أي هو خالق ويخلق .

ويدخل فيه كما قيل ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنة ، غير أن ذلك خاصّ بالمؤمنين ،

فالظاهر أنه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس المتوسّل به إلى إقامة الحجّة على كافري النعمة .

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية ، وأنها إيماء إلى أن الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير ، وتلك العجلات التي يركبها الواحد ويحركها برجليه وتسمى ( بسكلات ) ، وأرتال السكك الحديدية ، والسيارات المسيّرة بمصفّى النفط وتسمى ( أطوموبيل ) ، ثم الطائرات التي تسير بالنفط المصفّى في الهواء .

فكل هذه مخلوقات نشأت في عصور متتابعة لم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها .

وإلهام الله الناس لاختراعها هو ملحق بخلق الله ، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرجوا في سلّم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها ، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكلّ من نعمته . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير جـ 13 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) ﴾

ونعلم أن الإنسانَ في حياته بين أمرين ؛ إما ظَاعن أي : مسافر . وإما مقيم . وفي حالة المقيم ، فالأنعامُ تُحقِّق له الدِّفْء والطعام والمَلْبس . وعادةً ما يكتفي متوسطُ الحال بأنْ يستقرّ في مكان إقامته وكذلك الفقير .

أما المُقْتدر الغنيّ ؛ فأنت تجده يوماً في القاهرة ، وآخر في الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكلُّ ذلك ميسور في زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا حماراً أعجف فهو لا يفكر إلا في المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبأ يقول : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وظلموا أَنفُسَهُمْ . . . ﴾ [ سبأ : 19 ] .

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقوية ، تُهيِّئ السفر المريح الذي ينمُّ عن العِزّ والقوة والثراء .

وقوله الحق :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ . . . ﴾ [ النحل : 7 ] .

يعني وضع ما يَثْقل على ما يُثَقّل ؛ ولذلك فنحن لا نجد إنساناً يحمل دابته ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقاله على الدابة ليُخفِّف عن نفسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتبع الكثافة ؛ كما أن الحجم يتبع المساحة ؛ فحين تنظر إلى كيلوجرام من القطن ، فأنت تجد حجم كيلوجرام القطن أكبر من حجم الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهي التي تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله في الآية الكريمة :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس . . . ﴾ [ النحل : 7 ] .

(200/432)

---

ومَنْ يفتش في أساليب القرآن من المستشرقين قد يقول : " إن عَجُزَ الآية غَيْر متفق مع صَدْرها " .

ونقول لمثل صاحب هذا القول : أنت لم تفطن إلى المِنّة التي يمتنُّ بها الله على خَلْقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالٍ إلا بمشقَّة ؛ فما بالنا بِثقَل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟

إنها نعمة كبيرة أنْ يجدوا ما يحملون عليه أثقالهم وأنفسهم ليصلوا إلي حيث يريدون .

وكلمة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [ النحل ] مصدرها شَق وهو الصَّدْع بين شيئين ؛ ويعني عَزْل متصلين ؛ وسبحانه هو القائل : ﴿ فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [ الحجر : 94 ] . وهناك " شَق " وهو الجهد ، و " شقَّة " . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إمَّا نائم ؛ لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته ؛ وأيضاً وهو مُتيقِّظ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة ؛ بل تحتاج إلى طاقة مُتوسِّطة لتعملَ ؛ أما إنْ كان يحمل أشياءَ ثقيلة فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ ولكن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشقة ﴾

[ التوبة : 42 ] .

والمعنىّ هنا بالشُّقة هي المسافة التي يشقّ قطعُها ، ويُنهي الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 7 ] .

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لِمَا جاء بالآية ؛ فالربُّ هو المُتولِّي التربية والمَدَد ، وأيُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأيّ رحلة هي للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للاثنين معاً .

فإذا كانت رحلةَ استثمار فدابّتُك يجب أن تكون قويةً لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل

عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإنْ كانت الرحلةُ للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة والرغبة في الوصول إلى المكان الذي قصدته .



---

وهكذا تجد الرأفةَ مناسبةً لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصِد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفر اضطراري ؛ كالسفر الضروري إلى الحج مرة في العمرة .

والحق سبحانه يزيل ألم الحَمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته ؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أُمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ والخيل والبغال . . . ﴾ .

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التي نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا في هذه الآية الأنعام التي نستخدمها للتنقل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها وهي الخَيْل والبِغَال والحمير ؛

ويُذكِّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تتزيَّن بما تَركب ؛ تماماً كما يفخر أبناءُ عصرِنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس في المراتب ؛ فكُلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لِتركبه ؛ فالخَيْل للسادة والفِرْسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفي لشراء الحصان أو البغل ؛ فيمكنه أنْ يشتريَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ رَكُوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكِنه أنْ يستأجرَ ولو رَكُوبة من أيّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قِلَّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس في الرزق ، فمَنِ الذي يقوم بالأعمال التي نُسمِّيها نحن بالخطأ أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكُلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس في الرزق لَمَا حَلَتْ مثل تلك الأعمال ، وراقتْ في عُيون مَنْ يُمارِسونها ، ذلك أنها تَقِيهم شرَّ السُّؤال .

ولولا أن مَنْ يعمل في تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتلئ بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان في الكون لوجدتَ في حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكِدُّ عَشْرة سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكِدّ عشرين عاماً فيُريح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده .

والمهم هو قيمة ما يُتقنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .

وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغِنَى والتَّرف ستجدهم في بداية حياتهم قد كَدُّوا وتَعِبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةَ وراحةَ بالٍ .

وشاء سبحانه أنْ يُنوِّع في مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .

ونجد النصّ التعبيري في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير ؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال في الوسط ؛ لأنها ليست جنساً بل تأتي من جنسين مختلفين .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه في آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المَطَاف ؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] .

وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء ؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجِيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتني الخيْل ويُربّيها ويُروِّضها ويجرّيها لجمال منظرها .

(203/432)

---

وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التي كانت تحمل عنّا الأثقال ؛ وتلك المُخْترعات التي هدانا الله إياها ؛ فما بالُنَا بالمواصلات في الآخرة ؟ لا بد أن هناك وسائلَ تناسب في رفاهيتها ما في الآخرة من متاعٍ غير موجود في الدنيا ؛ ولذلك يقول في الآية التالية : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(204/432)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (7) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَّمْ تَكُونُواْ ﴾ : صفةٌ ل " بلد " و " إلا بشِقِّ " حالٌ من الضمير المرفوع في " بالِغيْه " ، أي : لم تَبْلُغوه إلا ملتبسِيْنَ بالمَشَقَّة .

والعامَّةُ على كسرِ الشين . وقرأ أبو جعفر ، ورُوِيَتْ عن نافع وأبي عمرو بفتحها . فقيل : هما مصدران بمعنىً واحدٍ ، أي : المَشَقَّة ، فمِنَ الكسر قولُه :

2961- رأى إبلاً تَسْعى ، ويَحْسِبُها له . . . أخي نَصَبٍ مِنْ شِقِّها ودُؤُوْبِ

أي : مِنْ مَشَقَّتها . /وقيل : المفتوحُ المصدرُ ، والمكسورُ الاسمُ . وقيل : بالكسرِ نصفُ الشيء . وفي التفسير : إلا بنصفِ أنفسكم ، كما تقول : " لم تَنَلْه إلا بقطعةٍ من كَبِدك " على المجاز .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ﴾

قوله تعالى : ﴿ والخيل ﴾ : العامَّةُ على نصبها نَسَقاً على " الأنعامَ " . وقرأ ابن أبي عبلة برفعِها على الابتداء والخبرُ محذوفٌ ، أي : مخلوقةٌ أو مُعَدَّةٌ لتركبوها ، وليس هذا مِمَّا نابَ فيه الجارُّ منابَ الخبرِ لكونِه كوناً خاصاً .

قوله : " وزينةً " في نصبها أوجهٌ ، أحدُها : أنها مفعولٌ من أجلِه ، وإنما وَصَلَ الفعلُ إلى

الأول باللام في قوله : " لتركبوها " وإلى هذا بنفسِه لاختلالِ شرطٍ في الأول ، وهو عَدَمُ اتحادِ الفاعلِ ، فإن الخالقَ اللهُ ، والراكبَ المخاطبون بخلافِ الثاني .

الثاني : أنها منصوبةٌ على الحال ، وصاحبُ الحال : إمَّا مفعول " خَلَقَها " ، وإمَّا مفعولُ " لتركبوها " ، فهو مصدرٌ أقيم مُقامَ الحال .

الثالث : أَنْ ينتصِبَ بإضمارِ فعْلٍ ، فقدَّره الزمخشري " وخَلَقها زينة " . وقدَّره ابن عطية وغيرُه " وجَعَلها زينةً " .

(205/432)

---

الرابع : أنه مصدرٌ لفعلٍ محذوف ، أي : وَيَتَزَيَّنُوْن بها زينةً .

وقرأ قتادةُ عن ابن عباس " لِتَرْكَبوها زينةً " بغيرِ واوٍ ، وفيها الأوجهُ المتقدمةُ ، ويزيد أن تكونَ حالاً من فاعل " لتركبوها " ، أي : تركبونها مُتَزَيِّنين بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 194.196 ﴾

(206/432)

---

من لطائف الإمام القشيري في الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) ﴾

قومٌ أحوالهم مقاساة الشدائد ؛ يَصلُون سيرهم بسُراهم ، وقومٌ في حمل مولاهم ؛ بعيدون عن كدّ التدبير ، مستريحون بشهود التقدير ، راضون باختيار الحقّ في العسير واليسير .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) ﴾

فالنفوس في حَمْلها كالدواب ، والقلوب معتقة عن التغنّي في الأسباب . ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : كما أن أهل الجنة من المؤمنين يجدون في الآخرة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطَر على قلب بَشَرٍ فكذلك أرباب الحقائق يجدون - اليومَ - ما لم يخطر قطُّ على بال ، ولا قرأوا في كتاب ، ولا تلقنوه من أستاذ ، ولا إحاطة بما أخبر الحق أنه لا يعلم تفصيله سواه . . وكيف يعلم من أخبر الحقُّ - سبحانه - أنه لا يعلم ؟ . انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 286. 287 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانوا في أسفارهم واضطرابهم في المنافع بهذه الحيوانات وغيرها يقصدون أسهل الطرق وأقومها وأوصلها إلى الغرض ، ومن عدل عن ذلك كان عندهم ضالاً سخيف العقل غير مستحق للعد في عداد النبلاء ، نبههم على أن ما تقدم في هذه السورة قد بين الطريق الأقوم الموصل إليه سبحانه بتكفله ببيان أنه واحد قادر عالم مختار ، وأنه هو المنعم ، فوجب اختصاصه بالعبادة ، وأخبرهم سبحانه أنه أوجب هذا البيان على نفسه فضلاً منه فقال تعالى : ﴿ وعلى ﴾ أي قد بين لكم الطريق الأمم وعلى ﴿ الله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل الشيء ﴿ قصد السبيل ﴾ أي بيان الطريق العدل ، وعلى الله بيان الطريق الجائر حتى لا يشك في شيء منهما ، فإن الطريق المعنوية كالحسية ، منها مستقيم من سلكه اهتدى ﴿ ومنها جائر ﴾ من سلكه ضل عن الوصول فهلك ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم ﴾ [ التوبة : 115 ] الآية ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] فالآية من الاحتباك : ذكر أن عليه بيان القصد أولاً دلالة على حذف أن

عليه بيان الجائر ثانياً ، وذكر أن من الطرق الجائر ثانياً دلالة على حذف أن منها المستقيم أولا ، وتعبير الأسلوب لبيان أن المقصود بالذات إنما هو بيان النافع ، ومادة قصد تدور على العدل المواه ، ومنه القصد ، أي الاستقامة ، واستقامة الطريق من غير تعريج ، وضد الإفراط كالاقتصاد ، ورجل ليس بالجسيم ولا بالضئيل ، وذلك لا يكون إلا عن إرادة وتوجه ، فإطلاق القصد على العزم مستقيماً كان أو جائراً ، إذا قلت : قصدته – بمعنى أتيته أو أممته ونويته ، من دلالة الالتزام ، وكذا القصد بمعنى الكسر بأيّ وجه كان ، وقيل : لا يقال : قصد ، إلا إذا كان بالنصف ، والقصيد : ما تم شطر أبياته ، لأن ذلك أعدل حالاته ، قال في القاموس : ثلاثة أبيات فصاعداً أو ستة عشر فصاعداً ؛ وقال الإمام أبو الفتح عثمان بن جني في آخر كتابه المغرب في شرح القوافي : فالبيت على ثلاثة أضرب : قصير ،

(208/432)

---

ورمل ، ورجز ، فأما القصيد فالطويل التام ، والبسيط التام ، والكامل التام ، والمديد التام ، والوافر التام ، والرجز التام ، والخفيف التام ، وهو كل ما تغنى به الركبان ، ومعنى قولنا : المديد التام والوافر التام .

نريد أتم ما جاء منهما في الاستعمال ، أعني الضربين الأولين منهما ، فأما أن يجيئا على أصل

وضعهما في دائرتيهما فذلك مرفوض مطّرح؛ والقصيد : المخ السمين أو دونه ، والعظم الممخ ، والناقة السمينة بها نفي ، والسمين من الأسنمة – لأن بهذا الحال استقامة كل ما ذكر ، وكذا القاصد : القريب ، وبيننا وبين الماء ليلة قاصدة ، أي هينة السير ، لأنه أقرب إلى الاستقامة ، ومنه قصدت كذا – إذا اعتمدته وأممته وتوجهت إليه سواء كان ذلك عدلاً أو جوراً ، وانقصد الرمح – إذا انكسر على السواء ، كأنه مطاوع قصده ، والواحدة من تلك الكِسَر قصده بالكسر ، ورمح قصد – ككتف : متكسر ، والقصد – بالتحريك : العوسج – لأنه سريع التكسر ، والجوع – لأن الجائع قاصد لما يأكله متوجه إليه ، والقصد : مشرة العضاه تخرج في أيام الخريف لدنة تتثنى في أطراف الأغصان ، وهي خوصة تخرج فيها ، وفي كثير من الشجر في تلك الأيام ، أو هي الأغصان ، أو هي الأغصان الرطبة قبل أن تلون وتشتد – سميت بذلك لخروجها وتوجهها إلى منظر العين ، أو توجه النظر إليها للسرور بها ، والقصيد : العصا – لأنها تقصد ويقصد بها ، وأقصد السهم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلاناً : طعنه فلم يخطئه ، والحية : لدغت فقتلت – يمكن أن يكون ذلك من الاستقامة لأن قصد فاعله القتل ، فكأنه استقام قصده بنفوذه ، ويمكن أن يكون من السلب أي أنه أزال الاستقامة لأن من مات فقد زالت استقامة حياته ، ومنه المقصد كمخرج ، وهو من يمرض ويموت سريعاً ، والقصيد بمعنى اليابس من اللحم – فعيل بمعنى مفعل ، أي أقصد فزالت استقامته بأن هلك جفافاً يبساً .

والصدق ضد الكذب ، وهو من أعدل العدل وأقوم القصد ، والصدق : الشدة ، إذ بها يمتحن الصادق من الكاذب ، ومنه رجل صدق ، أي يصدق ما يعزم عليه أو يقوله بفعله ، فهو شديد العزم سديد الأمر ، والصديق – كأمير : الحبيب الذي يصدق قوله في الحب بفعل ، والمصادقة والصداق – بالكسر : المخالة كالتصادق ، والصيدق – كصقيل : الأمين – لأنه مصدق في قوله ، والملك – لأن محله يقتضي الصدق لعدم حاجته إلى الكذب ، والقطب – لأنه أصدق النجوم دلالة لثباته ، وقال أبو عبد الله القزاز : هو اسم للسها ، وهو النجم الخفي الذي مع بنات نعش ، والصدق – بالفتح : الصلب المستوي من الرماح – لأنه صدق ظن الطاعن به ، وكذا من الرجال ، والكامل من كل شيء ، ورجل صدق اللقاء والنظر ، ومصداق الشيء : ما يصدقه ، وشجاع ذو مصدق – كمنبر : صادق الحملة ، أي شديدها ، والصدقة – محركة : ما أعطيته في ذات الله لأنها تصدق دعوى الإيمان لدلالتها على شدة العزم فيه ، والصدقة – بضم الدال وسكونها : مهر المرأة لأنه يصدق العزم فيه وكسكيت : الكثير الصدق ، وصدقت الله حديثاً إن لم أفعل كذا – يمين لهم ، أي لا صدقت ، وفعله غب صادقة ، أي بعد ما تبين له الأمر ، وصدقه تصديقاً –

ضد كذبه ، والوحشي : عدا ولم يلتفت لما حمل عليه ، والمصدق - كمحدث : آخذ الصدقات ، والمتصدق : معطيها .

ولما كان أكثر الخلق ضالاً ، كان ربما توهم متوهم أنه خارج عن الإرادة ، فنفي هذا التوهم بقوله - عطفاً على ما تقديره : فمن شاء هداه قصد السبيل ، ومن شاء أسلكه الجائر ، وهو قادر على ما يريد من الهداية والإضلال - : ﴿ ولو شاء ﴾ هدايتكم ﴿ لهداكم أجمعين ﴾ بخلق الهداية في قلوبكم بعد بيان الطريق القصد ، ولكنه لم يشأ ذلك فجعلكم قسمين .



---

ولما كان ما مضى كفيلاً ببيان أنه الواحد المختار ، شرع يوضح ذلك بتفصيل الآيات إيضاحاً يدعه في أتم انكشاف في سياق معدّد للنعم مذكر بها داع إلى شكرها ، فقال بعد ما دل به من الإنسان وما يليه في الشرف من الحيوان مبتدئاً بما يليهما في الشرف من النبات الذي هو قوام حياة الإنسان وما به قوام حياته من الحيوان : ﴿ هو ﴾ لا غيره مما تدعي فيه الإلهية ﴿ الذي أنزل ﴾ أي بقدرته الباهرة ﴿ من السماء ﴾ قيل : نفسها .

وقيل : جهتها ، وقيل : السحاب - كما هو مشاهد ﴿ ماء ﴾ أي واحداً تحسونه بالذوق

والبصر ﴿ لكم منه ﴾ أي خاصة ﴿ شراب ﴾ ظاهر على وجه الأرض من العيون والأنهار والغدران وغيرها .

ولما كان أول ما يقيم الآدمي شراب اللبن الناشىء عن الماء فقدمه ، أتبعه ما ينشأ منه أشرف أغذيته وهو الحيواني ، فقال تعالى : ﴿ ومنه شجر ﴾ لسريانه في الأرض الواحدة واختلاطه بها ، فينعقد من ذلك نبات ﴿ فيه تسيمون ﴾ أي ترعون على سبيل الإطلاق ليلاً ونهاراً ما خلق لكم من البهائم ، والشجر هنا - بما أفهمته الإسامة - عام لما يبقى في الشتاء حقيقة ، ولغيره مجازاً ؛ قال القزاز : الشجر ما بقي له ساق في الشتاء إلى الصيف ، ثم يورق ، والبقل ما لا يبقى له ساق ، قال الخليل : جل الشجر عظامه وما يبقى منه في الشتاء ، ودقه صنفان : أحدهما تبقى له أرومة في الأرض في الشتاء ، وينبت في الربيع ، ومنه ما ينبت من الأرض كما تنبت البقلة ، والفرق بينه وبين البقل أن الشجر يبقى له أرومة على الشتاء ولا يبقى للبقل ، وعن أبي حنيفة ـ رضى الله عنهم ـ أن النبات ثلاثة أقسام : شجر وهو ما يبقى في الشتاء ، ولا يذهب فرعه ولا أصله ، وما نبت في بزر ولم ينبت في أرومة ثابتة فهو البقل ، وما نبت في أرومة - أي أصل - وكان مما يهلك فرعه وأصله في الشتاء فهو الجنبة ، لأنه فارق الشجر الذي يبقى فرعه وأصله ، والبقل الذي يبيد فرعه وأصله ، فكان جنبة بينهما .

ولما كان الشجر عاماً ، شرع سبحانه يفصله تنويعاً للنعم وتذكيراً بالتفاوت ، إشارة إلى أن الفعل بالاختيار ، فقال مبتدئاً بالأنفع في القوتية والائتدام والتفكه : ﴿ ينبت ﴾ أي هو سبحانه ﴿ لكم ﴾ أي خاصة ﴿ به ﴾ مع كونه واحداً في أرض واحدة ﴿ الزرع ﴾ الذي تشاهدونه من أقل الشجر مكثاً وأصغره قدراً ، ﴿ والزيتون ﴾ الذي ترونه من أطول الأشجار عمراً وأعظمها قدراً .

ولما كانت المنافع كثيرة في شجر التمر ، سماه باسمه فقال تعالى : ﴿ والنخيل ﴾ ولما كانت المنفعة في الكرم بغير ثمرته تافهة ، قال تعالى : ﴿ والأعناب ﴾ وهما من أوسط ذلك ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ وأما كلها فلا يكون إلا في الجنة ، وهذا الذي في الأرض بعض من ذلك الكل مذكر به ومشوق إليه ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الماء العظيم المحدث عنه وعن فروعه ، أو في إنزاله على الصفة المذكورة ﴿ لآية ﴾ بينة على أن فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وأنه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي يريده .

ولما كان ذلك ممن يحس ، وكان شغل الحواس بمنفعته – لقربه وسهولة ملابسته – ربما شغل عن الفكر في المراد به ، فكان التفطن لدلالته يحتاج إلى فضل تأمل ودقة نظر ، قال تعالى : ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ أي في أن وحدته وكثرة ما يتفرع عنه دليل على وحدة صانعه وفعله

بالاختيار ، وأفرد الآية لوحدة المحدث عنه ، وهو الماء - كما قال تعالى في آية ﴿ تسقى بماء واحد ﴾ [ الرعد : 4 ] وسيأتي في آية النحل كلام الإمام أبي الحسن الحرالي في هذا .

(212/432)

---

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة في التحامها بسورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق ، لما قال تعالى ﴿ فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [ الحجر : 92 ] وقال تعالى بعد ذلك في وعيد المستهزئين ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أعقب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [ النحل : 1 ] وزاد هذا بياناً قوله ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ فنزه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم ، وأتبع ذلك تنزيهاً وتعظيماً فقال تعالى ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾ ثم أبلغه تعالى حداً يكون فيه الخصام والمحاجة ، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب ، وأعقب هذا بذكر بعض ألطافه في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة ، وما هو سبحانه عليه من الرأفة والرحمة اللتين بهما أخر العقوبة عن مستوجبها ، وهدى من لم يستحق الهداية بذاته بل كل

هداية فبرأفة الخالق ورحمته ، ثم أعقب ما ذكره بعد من خلق الخيل والبغال والحمير وما في ذلك كله بقوله ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ فبين أن كل الواقع من هداية وضلال خلقه وفعله ، وأنه أوجد الكل من واحد ، وابتدأهم ابتداء واحداً ﴿ خلق الإنسان من نطفة ﴾ فلا بعد في اختلاف غاياتهم بعد ذلك ، فقد أرانا سبحانه مثال هذا الفعل ونظيره في قوله ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر – إلى قوله : لآية لقوم يتفكرون ﴾ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 247.251 ﴾

*(213/432)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد قال : ﴿ وَعَلَى الله قَصْدُ السبيل ﴾ أي إنما ذكرت هذه الدلائل وشرحتها إزاحة للعذر وإزالة للعلة ليهلك من هلك عن بينة .

ويحيى من حي عن بينة وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي : القصد استقامة الطريق يقال : طريق قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك ، إذا عرفت هذا ففي الآية حذف ، والتقدير : وعلى الله بيان قصد السبيل ، ثم قال : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي عادل مائل ومعنى الجور في اللغة الميل عن الحق والكناية في قوله : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ تعود على السبيل ، وهي مؤنثة في لغة الحجاز يعني ومن السبيل ما هو جائر غير قاصد للحق وهو أنواع الكفر والضلال ، والله أعلم .

المسألة الثانية ؛ قالت المعتزلة : دلت الآية على أنه يجب على الله تعالى الإرشاد والهداية إلى الدين وإزاحة العلل والأعذار ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ وكلمة "على" للوجوب قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت ﴾ [ آل عمران : 97 ] ودلت الآية أيضاً على أنه تعالى لا يضل أحداً ولا يغويه ولا يصده عنه ، وذلك لأنه تعالى لو كان فاعلاً للضلال لقال : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ وعليه جائرها أو قال : وعليه الجائر فلما لم يقل كذلك بل قال في قصد السبيل أنه عليه ، ولم يقل في جور السبيل أنه عليه بل قال ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ دل على أنه تعالى لا يضل عن الدين أحداً .

أجاب أصحابنا أن المراد على الله بحسب الفضل والكرم أن يبين الدين الحق والمذهب الصحيح فإما أن يبين كيفية الاغواء والإضلال فذلك غير واجب فهذا هو المراد ، والله أعلم .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يدل على أنه تعالى ما شاء هداية الكفار ، وما أراد منهم الإيمان ، لأن كلمة (لو) تفيد انتفاء شيء لانتفاء شيء غيره قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ ﴾ معناه : لو شاء هدايتكم لهداكم ، وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم ، وذلك يدل على المقصود .

وأجاب الأصم عنه بأن المراد لو شاء أن يلجئكم إلى الإيمان لهداكم ، وهذا يدل على أن مشيئة الإلجاء لم تحصل .

وأجاب الجبائي بأن المعنى : ولو شاء لهداكم إلى الجنة وإلى نيل الثواب لكنه لا يفعل ذلك إلا بمن يستحقه ، ولم يرد به الهدى إلى الإيمان ، لأنه مقدور جميع المكلفين .

وأجاب بعضهم فقال المراد : ولو شاء لهداكم إلى الجنة ابتداء على سبيل التفضل ، إلا أنه تعالى عرفكم للمنزلة العظيمة بما نصب من الأدلة وبين ، فمن تمسك بها فاز بتلك المنازل ومن عدل عنها فاتته وصار إلى العذاب ، والله أعلم .

واعلم أن هذه الكلمات قد ذكرناها مراراً وأطواراً مع الجواب فلا فائدة في الإعادة .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾

اعلم أن أشرف أجسام العالم السفلي بعد الحيوان النبات، فلما قرر الله تعالى الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات، أتبعه في هذه الآية بذكر الاستدلال على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال النبات.

واعلم أن الماء المنزل من السماء هو المطر، وأما أن المطر نازل من السحاب أو من السماء فقد ذكرناه في هذا الكتاب مراراً، والحاصل: أن ماء المطر قسمان: أحدهما: هو الذي جعله الله تعالى شراباً لنا ولكل حي، وهو المراد بقوله: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ وقد بين الله تعالى في آية أخرى أن هذه النعمة جليلة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حيّ﴾ [ الأنبياء: 30 ].

(215/432)

---

فإن قيل: أفتقولون إن شرب الخلق ليس إلا من المطر، أو تقولون قد يكون منه وقد يكون من غيره، وهو الماء الموجود في قعر الأرض؟

أجاب القاضي: بأنه تعالى بين أن المطر شرابنا ولم ينف أن نشرب من غيره.

ولقائل أن يقول: ظاهر الآية يدل على الحصر، لأن قوله: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ يفيد الحصر لأن معناه منه لا من غيره.

إذا ثبت هذا فنقول : لا يمتنع أن يكون الماء العذب تحت الأرض من جملة ماء المطر يسكن هناك ، والدليل عليه قوله تعالى في سورة المؤمنين : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأرض ﴾ [ المؤمنون : 18 ] ولا يمتنع أيضاً في غير العذب وهو البحر أن يكون من جملة ماء المطر ، والقسم الثاني من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سبباً لتكوين النبات وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، وفيه مباحث :

البحث الأول : ظاهر هذه الآية يقتضي أن أسامة الشجر ممكنة ، وهذا إنما يصح لو كان المراد من الشجر الكلأ والعشب ، وههنا قولان :

القول الأول : قال الزجاج : كل ما ثبت على الأرض فهو شجر وأنشد :

يطعمها اللحم إذا عز الشجر . . يعني أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض ، وقال ابن قتيبة في هذه الآية المراد من الشجر الكلأ ، وفي حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت يعني الكلأ .

ولقائل أن يقول : إنه تعالى قال : ﴿ والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [ الرحمن : 6 ] والمراد من النجم ما ينجم من الأرض مما ليس له ساق ، ومن الشجر ما له ساق ، هكذا قال المفسرون ، وبالجملة فلما عطف الشجر على النجم دل على التغاير بينهما ، ويمكن أن يجاب عنه بأنه عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وأيضاً فلفظ الشجر مشعر بالاختلاط ، يقال : تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض وتشاجرت الرماح إذا اختلطت وقال تعالى : ﴿ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [ النساء : 65 ] ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلأ ، فوجب جواز إطلاق لفظ الشجر عليه .

القول الثاني : أن الإبل تقدر على رعي ورق الأشجار الكبار ، وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى ما ذكرناه في القول الأول .

البحث الثاني : قوله : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي في الشجر ترعون مواشيكم يقال : أسمت الماشية إذا خليتها ترعى ، وسامت هي تسوم سوماً إذا رعت حيث شاءت فهي سوام وسائمة قال الزجاج : أخذ ذلك من السومة وهي العلامة .

وتأويلها أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات ، وقال غيره : لأنها تعلم للإرسال في المرعى ، وتمام الكلام في هذا اللفظ قد ذكرناه في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ والخيل المسومة ﴾ [ آل عمران : 14 ] .

أما قوله تعالى : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : هو أن النبات الذي ينبته الله من ماء السماء قسمان : أحدهما : معد لرعي الأنعام وأسامة الحيوانات ، وهو المراد من قوله : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ .

والثاني : ما كان مخلوقاً لأكل الإنسان وهو المراد من قوله : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون ﴾ .



---

فإن قيل : إنه تعالى بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، وأتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان ، وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر مأكول الإنسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات فقال : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ [ طه : 54 ] فما الفائدة فيه ؟

قلنا : أما الترتيب المذكور في هذه الآية فينبه على مكارم الأخلاق وهو أن يكون اهتمام الإنسان بمن يكون تحت يده أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى ، فالمقصود منه ما هو المذكور في قوله عليه السلام : " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول "

البحث الثاني : قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ ننبت ﴾ بالنون على التفخيم والباقون بالياء ، قال الواحدي : والياء أشبه بما تقدم .

البحث الثالث : اعلم أن الإنسان خلق محتاجاً إلى الغذاء ، والغذاء إما أن يكون من

الحيوان أو من النبات .

والغذاء الحيواني أشرف من الغذاء النباتي ، لأن تولد أعضاء الإنسان عند أكل أعضاء الحيوان أسهل من تولدها عند أكل النبات لأن المشابهة هناك أكمل وأتم والغذاء الحيواني إنما يحصل من أسامة الحيوانات والسعي في تنميتها بواسطة الرعي ، وهذا هو الذي ذكره الله تعالى في الأسامة ، وأما الغذاء النباتي فقسمان : حبوب .

وفواكه ، أما الحبوب فإليها الإشارة بلفظ الزرع وأما الفواكه فأشرفها الزيتون .

والنخيل .

والأعناب ، أما الزيتون فلأنه فاكهة من وجه وإدام من وجه آخر لكثرة ما فيه من الدهن ومنافع الأدهان كثيرة في الأكل والطلي واشتعال السرج ، وأما امتياز النخيل والأعناب من سائر الفواكه ، فظاهر معلوم ، وكما أنه تعالى لما ذكر الحيوانات التي ينتفع الناس بها على التفصيل ، ثم قال في صفة البقية : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾



---

[ النحل : 8 ] فكذلك ههنا لما ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات ، قال في صفة البقية : ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ تنبيهاً على أن تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها

ومنافعها لا يمكن ذكره في مجلدات ، فالأولى الاقتصار فيه على الكلام المجمل .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وههنا بحثان :

البحث الأول : في شرح كون هذه الأشياء آيات دالة على وجود الله تعالى فنقول : إن الحبة الواحدة تقع في الطين فإذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت في داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الأرض ونداوتها فتنتفخ الحبة فينشق أعلاها وأسفلها ، فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء .

ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض وهذه الغائصة هي المسماة بعروق الشجرة ، ثم إن تلك الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ، ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع مثل العنب ، فإن قشره وعجمه باردان يابسان كثيفان ، ولحمه وماؤه حاران رطبان لطيفان .

إذا عرفت هذا فنقول : نسبة الطبائع السفلية إلى هذا الجسم متشابهة ونسبة التأثيرات الفلكية والتحريكات الكوكبية إلى الكل متشابهة .

ومع تشابه نسب هذه الأشياء ترى هذه الأجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة ، فدل صريح العقل على أن ذلك ليس إلا لأجل فاعل قادر حكيم رحيم فهذا تقدير هذه الدلالة .

البحث الثاني : أنه تعالى ختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والسبب فيه أنه تعالى

ذكر أنه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً . . .

يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ .

(219/432)

---

ولقائل أن يقول : لا نسلم أنه تعالى هو الذي أنبتها ولم لا يجوز أن يقال : إن هذه الأشياء إنما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الأربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب ؟ وإذا عرفت هذا السؤال فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاماً وافياً بإفادة هذا المطلوب ، بل يكون مقام الفكر والتأمل باقياً ، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 19 صـ 184 . 188 ﴾

فائدة

قال محمد بن أبى بكر الرازى :

فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى وصف ماء السماء : ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ولم يقل : "كل الثمرات" مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء ؟

قلنا : كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما ينبت في الدنيا بعض منها أنموذجا وتذكرة ، فالتبعيض بهذا الاعتبار ، فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازي صـ 257 ﴾

(220/432)

---

وقال الجصاص :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : " الدِّفْءُ اللِّبَاسُ " وَقَالَ الْحَسَنُ : الدِّفْءُ مَا اُسْتُدْفِئَ بِهِ مِنْ أَوْبَارِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَشْعَارِهَا " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَذَلِكَ يَقْتَضِي جَوَازَ الِانْتِفَاعِ بِأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾

رَوَى هِشَامٌ الدَّسْتُوَائِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَلْقَمَةَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَكْرَهُ لُحُومَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ : إنَّ هَذِهِ لِلْأَكْلِ وَهَذِهِ لِلرُّكُوبِ ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وروى أَبُو حَنِيفَةَ عَنْ الْهَيْثَمِ عَنْ

عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَرِهَ لُحُومَ الْخَيْلِ وَتَأَوَّلَ : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَهَذَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى حَظْرِ لُحُومِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ الْأَنْعَامَ وَعَظَّمَ مَنَافِعَهَا ، فَذَكَرَ مِنْهَا الْأَكْلَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ وَذَكَرَ مَنَافِعَهَا الرُّكُوبَ وَالزِّينَةَ ، فَلَوْ كَانَ الْأَكْلُ مِنْ مَنَافِعِهَا وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَنَافِعِ لَذَكَرَهُ كَمَا ذَكَرَهُ مِنْ مَنَافِعِ الْأَنْعَامِ .

(221/432)

---

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ أَخْبَارٌ مُتَضَادَّةٌ فِي الْإِبَاحَةِ وَالْحَظْرِ ، فَرَوَى عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَصَابَ النَّاسُ مَجَاعَةٌ ، فَذَبَحُوهَا ، فَحَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُحُومَ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ وَلُحُومَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَكُلَّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَكُلَّ ذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ ، وَحَرَّمَ الْخِلْسَةَ وَالنُّهْبَةَ .

﴾ وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : ﴿ أَطْعَمَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُحُومَ الْخَيْلِ وَنَهَانَا عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ ﴾ ، وَلَمْ يَسْمَعْ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ جَابِرٍ وَذَلِكَ لِأَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ رَوَاهُ عَنْ عَمْرِو بْنِ

دِينَارٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ جَابِرٍ ، وَجَابِرٌ لَمْ يَشْهَدْ خَيْبَرَ لِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ رَوَى عَنْ سَلَامِ بْنِ كَرْكَرَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ ، وَلَمْ يَشْهَدْ جَابِرٌ خَيْبَرَ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ وَأَذِنَ لَهُمْ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ فَوَرَدَتْ أَخْبَارُ جَابِرٍ فِي ذَلِكَ مُتَعَارِضَةً ، فَجَائِزٌ حِينَئِذٍ أَنْ يُقَالَ فِيهَا وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ إذَا وَرَدَ خَبَرَانِ أَحَدُهُمَا حَاظِرٌ وَالْآخَرُ مُبِيحٌ فَالْحَظْرُ أَوْلَى ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الشَّارِعُ أَبَاحَهُ فِي وَقْتٍ ثُمَّ حَظَرَهُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ كَانَ الْإِبَاحَةَ وَالْحَظْرَ طَارِئٌ عَلَيْهَا لَا مَحَالَةَ ، وَلَا نَعْلَمُ إبَاحَةً بَعْدَ الْحَظْرِ ، فَحُكْمُ الْحَظْرِ ثَابِتٌ لَا مَحَالَةَ ؛ إذْ لَمْ تَثْبُتْ إبَاحَةٌ بَعْدَ الْحَظْرِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ هَذَا الْمَعْنَى وَذَلِكَ لِأَنَّ ابْنَ وَهْبٍ رَوَى عَنْ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : خُسِفَتْ الشَّمْسُ بَعْدَ الْعَصْرِ وَنَحْنُ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ ، وَبِهَا يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ابْنُ شِهَابٍ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ حَزْمٍ وَقَتَادَةُ وَعَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ ، قَالَ : فَقُمْنَا قِيَامًا بَعْدَ الْعَصْرِ نَدْعُو اللَّهَ ، فَقُلْت لِأَيُّوبَ بْنِ مُوسَى الْقُرَشِيِّ : مَا لَهُمْ لَا يُصَلُّونَ وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : النَّهْيُ قَدْ جَاءَ فِي الصَّلَاةِ بَعْدَ الْعَصْرِ أَنْ لَا تُصَلِّيَ ، فَلِذَلِكَ لَا يُصَلُّونَ ، وَإِنَّ النَّهْيَ يَقْطَعُ الْأَمْرَ فَهَذَا أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ .

وَالْوَجْهُ الْآخَرُ : أَنْ يَتَعَارَضَ خَبَرَا جَابِرٍ فَيَسْقُطَا كَأَنَّهُمَا لَمْ يَرِدَا ، وَقَدْ رَوَى إِسْرَائِيلُ بْنُ يُونُسَ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزَرِيِّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : كُنَّا نَأْكُلُ لُحُومَ الْخَيْلِ ، قَالَ عَطَاءٌ : فَقُلْتُ لَهُ : فَالْبِغَالُ ؟ قَالَ : أَمَّا الْبِغَالُ فَلَا .

وَرَوَى هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْمُنْذِرِ عَنْ أَسْمَاءَ ابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ : " نَحَرْنَا فَرَسًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكَلْنَاهُ " .

وَهَذَا لَا حُجَّةَ فِيهِ لِلْمُخَالِفِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ بِهِ وَأَقَرَّهُمْ عَلَيْهِ ، وَلَوْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ بِهِ وَأَقَرَّهُمْ عَلَيْهِ كَانَ مَحْمُولًا عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْحَظْرِ .

وَقَدْ رَوَى بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ صَالِحِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْمِقْدَامِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْخَيْلِ ﴾ .

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : مَا عَلِمْنَا الْخَيْلَ أُكِلَتْ إِلَّا فِي حِصَارٍ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَالشَّافِعِيُّ : "لَا بَأْسَ بِلُحُومِ الْخَيْلِ" وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَشُرَيْحٍ .

(224/432)

---

وَأَبُو حَنِيفَةَ لَا يُطْلِقُ فِيهِ التَّحْرِيمَ وَلَيْسَ هُوَ عِنْدَهُ كَلَحْمِ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَإِنَّمَا يَكْرَهُهُ لِتَعَارُضِ الْأَخْبَارِ الْحَاظِرَةِ وَالْمُبِيحَةِ فِيهِ ، وَيَحْتَجُّ لَهُ مِنْ طَرِيقِ النَّظَرِ أَنَّهُ ذُو حَافِرٍ أَهْلِيٌّ فَأَشْبَهَ الْحِمَارَ وَالْبَغْلَ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّ لَحْمَ الْبَغْلِ لَا يُؤْكَلُ ، وَهُوَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَوْ كَانَتْ أُمُّهُ حَلَالًا لَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ أُمِّهِ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ الْوَلَدِ حُكْمُ الْأُمِّ ؛ إذْ هُوَ كَبَعْضِهَا ، أَلَا تَرَى أَنَّ حِمَارَةً أَهْلِيَّةً لَوْ وَلَدَتْ مِنْ حِمَارٍ وَحْشِيٍّ لَمْ يُؤْكَلْ وَلَدُهَا ، وَلَوْ وَلَدَتْ حِمَارَةٌ وَحْشِيَّةٌ مِنْ حِمَارٍ أَهْلِيٍّ أُكِلَ وَلَدُهَا ؟ فَكَانَ الْوَلَدُ تَابِعًا لِأُمِّهِ دُونَ أَبِيهِ ، فَلَمَّا كَانَ لَحْمُ الْبَغْلِ غَيْرَ مَأْكُولٍ وَإِنْ كَانَتْ أُمُّهُ فَرَسًا دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْخَيْلَ غَيْرُ مَأْكُولَةٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(225/432)

وقال الماوردى :

﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : وعلى الله قصد الحق في الحكم بين عباده ومنهم جائر عن الحق في حكمه .

الثاني : وعلى الله أن يهدي إلى قصد الحق في بيان السبيل ، ومنهم جائر عن سبيل الحق ، أي عادل عنه لا يهتدي إليه . وفيهم قولان : أحدهما : أنهم أهل الأهواء المختلفة ، قاله ابن عباس .

الثاني : ملل الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 3 صـ ﴾

*(226/432)*

---

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ الآية ،

هذا أيضاً من أجل نعم الله تعالى ، أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه ، وذلك نصب الأدلة وبعث الرسل وإلى هذا ذهب المتأولون ، ويحتمل أن يكون المعنى أن مرسلك السبيل

القاصد فعلى الله ورحمته وتنعيمه طريقه وإلى ذلك مصيره ، فيكون هذا مثل قوله تعالى ﴿ هذا صراط علي مستقيم ﴾ [ الحجر : 41 ] وضد قول النبي صلى الله عليه وسلم " والشر ليس إليك " أي لا يفضي إلى رحمتك ، وطريق قاصد معناه بين مستقيم ، ومنه قول الآخر :

فصد عن نهج الطريق القاصد . . . والألف واللام في ﴿ السبيل ﴾ للعهد ، وهي سبيل الشرع ، وليست للجنس ، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جائر ، وقوله ﴿ ومنها جائر ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعبدة الأصنام ، والضمير في ﴿ منها ﴾ يعود على ﴿ السبيل ﴾ التي تضمنها معنى الآية ، كأنه قال : ومن السبيل جائر ، فأعاد عليها وإن كان لم يجر له ذكر لتضمن لفظة ﴿ السبيل ﴾ بالمعنى لها ، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ منها ﴾ على سبيل الشرع المذكورة وتكون " من " للتبعيض ويكون المراد فرق الضلالة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنه قال ومن بنيات الطرف في هذه السبيل ومن شعبها جائر ، وقوله ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ معناه لخلق الهداية في قلوب جميعكم ولم يضل أحد ، وقال الزجاج معناه لو شاء لعرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداء .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول سوء لأهل البدع الذين يرون أن الله لا يخلق أفعال العباد لم يحصله الزجاج ، ووقع فيه رحمه الله عن غير قصد ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود "

ومنكم جائر " ، وقرأ علي بن أبي طالب " فعنكم جائر " ، و﴿ السبيل ﴾ تذكر وتؤنث .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾



---

هذا تعديد نعمة الله في المطر ، وقوله ﴿ ومنه شجر ﴾ أي يكون منه بالتدريج ، إذ يسقي الأرض فينبت عن ذلك السقي الشجر ، وهذا من التجوز ، كقول الشاعر : [ الرجز ]

أسنمة الآبال في ربابه . . . وكما سمى الآخر العشب سماء ، في قوله : [ الوافر ]

إذا نزل السماء بأرض قوم . . . رعيناه وإن كانوا غضابا

قال أبو إسحاق : يقال لكل ما نبت على الأرض شجر ، وقال عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت يعني الكلأ . و﴿ تسيمون ﴾ معناه ترعون أنعامكم وسومها من الرعي وتسرحونها ، ويقال للأنعام السائمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وفي سائمة الغنم الزكاة " ، يقال أسام الرجل ماشيته إسامة إذا أرسلها ترعى ، وسومها أيضاً وسامت هي ، ومن ذلك قول الأعشى :

ومشى القوم بالأنعام إلى الرّو . . . حتى وأعيى المسيم أين المساق

ومنه قول الآخر : [ الكامل ]

مثل ابن بزعة أو كآخر مثله . . . أولى لك ابن مسيمة الأجمال

أي راعية للأجمال وفسر المتأولون بترعون ، وقرأ الجمهور " ينبت " بالياء على معنى ينبت الله ، يقال نبت الشجر وأنبته الله ، وروي أنبت الشجر بمعنى نبت ، وكان الأصمعي يأبى ذلك ويتمم قصيدة زهير التي فيها : حتى إذا أنبت البقل ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ، " ننبت " بنون العظمة ، وخص عز وجل ذكر هذه الأربعة لأنها أشرف ما ينبت وأجمعها للمنافع ، ثم عم بقوله ﴿ من كل الثمرات ﴾ ، ثم أحال القول على الفكرة في تصاريف النبات والأشجار وهي موضع عبر في ألوانها واطراد خلقها وتناسب ألطافها ، فسبحان الخلاق العليم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾



---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾

أي على الله بيان قصد السبيل ، فحذف المضاف وهو البيان .

والسبيل : الإسلام ، أي على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين .

وقصد السبيل : استقامة الطريق ؛ يقال : طريق قاصد أي يؤدّي إلى المطلوب .

﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ أي ومن السبيل جائر ؛ أي عادل عن الحق فلا يهتدى به ؛ ومنه قول امرىء القيس :

ومن الطريقة جائر وهُدًى . . .

قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال طَرَفة :

عَدَوْلِيّةٌ أو من سَفِين ابن يامِنٍ . . .

يَجُور بها الملاّح طوْراً ويهتدِي

العَدَوْلِيّة سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَي قرية بالبحرين .

والعَدَوْلِيّ : المَلاّح ؛ قاله في الصحاح .

وفي التنزيل ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه ولاَ تَتَّبِعُواْ السبل ﴾ [ الأنعام : 153 ] وقد تقدّم .

وقيل : المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق ، أي عادل عنه فلا يهتدي إليه .

وفيهم قولان : أحدهما أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس .

الثاني ملل الكفر من اليهودية والمجوسية والنصرانية .

وفي مصحف عبد الله "ومِنكم جائر" وكذا قرأ عليّ "ومنكم" بالكاف .

وقيل : المعنى وعنها جائر ؛ أي عن السبيل .

ف "مِن" بمعنى عن.

وقال ابن عباس: أي من أراد الله أن يهديه سهّل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه.

وقيل: معنى "قَصْد السبيل" مسيركم ورجوعكم.

والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال: "ومنها" والسبيل مؤنثة في لغة أهل الحجاز.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيّن أن المشيئة لله تعالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس في تأويل الآية، ويردّ على القَدَرية ومن وافقها كما تقدّم.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾

الشراب ما يُشرب، والشجر معروف.

أي ينبت من الأمطار أشجاراً وعروشاً ونباتاً.



---

و ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم؛ يقال: سامت السائمة تسوم سَوْماً أي رعت، فهي سائمة.

والسَّوَام والسائم بمعنًى ، وهو المال الراعي .

وجمع السائم والسائمة سوائم .

وأسمتها أنا أي أخرجتها إلى الرَّعْيِ ، فأنا مُسِيم وهي مُسامة وسائمة .

قال :

أوْلى لك ابن مُسِيمة الأجمال . . .

وأصل السَّوْم الإبعاد في المرعى .

وقال الزجاج : أخِذ من السُّومة وهي العلامة ؛ أي أنها تؤثر في الأرض علامات برعيها ، أو لأنها تُعلَّم للإرسال في المرعى .

قلت : والخيل المسومة تكون المرعيّة .

وتكون المُعَلَّمة .

وقوله : "مُسَوِّمِين" قال الأخفش تكون مُعَلَّمين وتكون مُرْسَلين ؛ من قولك : سوّم فيها الخيل أي أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنما جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها .

قوله تعالى : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾

قرأ أبو بكر عن عاصم "نُنبِت" بالنون على التعظيم .

العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛ يقال : نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى ، ونبت البقل وأنبت بمعنى .

وأنشد الفراء :

رأيت ذوِي الحاجاتِ حول بيوتهم . . .

قطِينا بها حتى إذا أنبت البقل

أي نبت .

وأنبته الله فهو منبوت ، على غير قياس .

وأنبت الغلام نبتت عانته .

ونَبّتَ الشجرَ غرسه ؛ يقال : نبّتِ أجلكَ بين عينيك .

ونَبّتُّ الصبيّ تنبيتاً ربّيته .

والمَنْبَت موضع النبات ؛ يقال : ما أحسنَ نابِتةَ بني فلان ؛ أي ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم .

وَنَبَتَتْ لهم نابتةٌ إذا نشأ لهم نشء صغار .

وإن بني فلان لنابتةُ شر .

والنوابت من الأحداث الأغمار .

والنبيت حيّ من اليمن .

والينبوت شجر ؛ كلّه عن الجوهريّ .

﴿ والزيتون ﴾ جمع زيتونة .

ويقال للشجرة نفسها : زيتونة ، وللثمرة زيتونة .

وقد مضى في سورة "الأنعام" حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإنزال والإنبات .

﴿ لَآيَةً ﴾ أي دلالة .

﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾

(230/432)

---

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾

القصد استقامة الطريق ، يقال : طريق قصد وقاصد إذا أداك إلى مطلوبك وفي الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل ، وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل : معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين ﴿ ومنها جائر ﴾ يعني ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الإسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر ، وقال جابر بن عبد الله : قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض ، وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله : قصد السبيل السنة ومنها جائر

الأهواء والبدع ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ فيه دليل على أن الله تعالى ما شاء هداية الكفار ، وما أراد منهم الإيمان لأن كلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فقوله ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد أنه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم .

قوله ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لأجل الانتفاع والزينة : عقبه بذكر إنزال المطر من السماء ، وهو من أعظم النعم على العباد فقال : هو الذي أنزل من السماء .

يعني ، والله الذي خلق جميع الأشياء هو الذي أنزل من السماء ماء يعني المطر ﴿ لكم منه ﴾ يعني من ذلك الماء ﴿ شراب ﴾ يعني تشربونه ﴿ ومنه ﴾ يعني ومن ذلك الماء ﴿ شجر ﴾ الشجر في اللغة ما له ساق من نبات الأرض ، ونقل الواحدي عن أهل اللغة أنهم قالوا : الشجر أصناف ما جل وعظم وهو الذي يبقى على الشتاء وما دق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدوحة في الشتاء وينبت في الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق في الشتاء كالبقول وقال أبو إسحاق : كل ما ينبت على وجه الأرض فهو شجر وأنشد :

نطعمها اللحم إذا عز الشجر . . .

أراد أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض ، وقال ابن قتيبة : في هذه الآية يعني الكلأ ومعنى الآية أنه ينبت بالماء الذي أنزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لأن الإبل ترعى كل الشجر ﴿ فيه ﴾ يعني في الشجر ﴿ تسيمون ﴾ يعني ترعون مواشيكم . يقال : أسمت السائمة إذا خليتها ترعى وسامت هي إذا رعت حيث شاءت ﴿ ينبت لكم ﴾ أي ينبت الله لكم وقرىء ينبت على التعظيم لكم ﴿ به ﴾ أي بذلك الماء ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ لما ذكر الله في الحيوان تفصيلاً وإجمالاً ذكر الثمار تفصيلاً وإجمالاً فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما أشبههما لأن به قوام بدن الإنسان ، وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الأدم والدهن والبركة ، وثلث بذكر النخيل لأن ثمرتها غذاء وفاكهة ، وختم بذكر الأعناب لأنها شبه النخلة في المنفعة من التفكة ، والتغذية ، ثم ذكر سائر الثمرات إجمالاً لينبه بذلك على عظيم قدرته ، وجزيل نعمته على عباده ثم قال تعالى ﴿ إن في ذلك ﴾ يعني الذي ذكر من أنواع الثمار ﴿ لآية ﴾ يعني علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ يعني فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾

والقصد مصدر يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه ، والسبيل هنا مفرد اللفظ .

فقيل : مفرد المدلول ، وأل فيه للعهد ، وهي سبيل الشرع ، وليست للجنس ، إذ لو كانت له لم يكن منها جائز .

والمعنى : وعلى الله تبين طريق الهدى ، وذلك بنصب الأدلة وبعثة الرسل .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى : إنّ من سلك الطريق القاصد فعلى الله رحمته ونعيمه وطريقه ، وإلى ذلك مصيره .

وعلى أنّ للعهد يكون الضمير في قوله : ومنها جائز ، عائد على السبيل التي يتضمنها معنى الآية ، كأنه قيل : ومن السبيل جائر ، فأعاد عليها وإن لم يجر لها ذكر ، لأنّ مقابلها يدل عليها .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يعود منها على سبيل الشرع ، وتكون مِن للتبعيض ، والمراد : فرق الضلالة من أمة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

كأنه قال : ومن بنيات الطرق في هذه السبيل ، ومن شعبها .

وقيل : أل في السبيل للجنس ، وانقسمت إلى مصدر وهو طريق الحق ، وإلى جائر وهو

طريق الباطل ، والجائر العادل عن الاستقامة والهداية كما قال :

يجور بها الملاح طوراً ويهتدي . . .

وكما قال الآخر :

ومن الطريقة جائر وهدى . . .

قصد السبيل ومنه ذو دخل

قسم الطريقة : إلى جائر ، وإلى هدى ، وإلى ذي دخل وهو الفساد .

وقال الزمخشري : ومعنى قوله : وعلى الله قصد السبيل إنّ هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه لقوله : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ ( فإن قلت ) : لم غير أسلوب الكلام في قوله : ومنها جائر ؟ ( قلت ) : ليعلم بما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز ، ولو كان كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى الله قصد السبيل ، وعليه جائرها ، أو وعليه الجائر .

وقرأ عبد الله : ومنكم جائر يعني ومنكم جائر عن القصد بسواء اختياره ، والله بريء منه .

ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً والجاء انتهى .

وهو تفسير على طريقة الاعتزال .

وقيل : الضمير في ومنها يعود على الخلائق أي : ومن الخلائق جائر عن الحق .

ويؤيده قراءة عيسى : ومنكم جائر ، وكذا هي في مصحف عبد الله ، وقراءة علي : فمنكم جائر بالفاء .

قال ابن عباس : هم أهل الملل المختلفة .

وقيل : اليهود والنصارى والمجوس .

ولهداكم : لخلق فيكم الهداية ، فلم يضل أحد منكم ، وهي مشيئة الاختيار .

وقال الزجاج : لفرض عليكم آية تضطركم إلى الاهتداء والإيمان .

قال ابن عطية : وهذا قول سوء لأهل البدع الذين يرون أن الله لا يخلق أفعال العباد ، لم يحصله الزجاج ، ووقع فيه رحمة الله من غير قصد انتهى .

ولم يعرف ابن عطية أنّ الزجاج معتزلي ، فلذلك تأول أنه لم يحصله ، وأنه وقع فيه من غير قصد .

وقال أبو علي : لو شاء لهداكم إلى الثواب ، أو إلى الجنة بغير استحقاق .

وقال ابن زيد : لو شاء لمحض قصد السبيل دون الجائر .

ومفعول شاء محذوف لدلالة لهداكم أي : ولو شاء هدايتكم .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما امتن بإيجادهم بعد العدم وإيجاد ما ينتفعون به من الأنعام وغيرها من الركوب ، ذكر ما امتن به عليهم من إنزال الماء الذي هو قوام حياتهم وحياة الحيوان ، وما يتولد عنه من أقواتهم وأقواتها من الزرع ، وما عطف عليه فذكر منها الأغلب ، ثم عمم بقوله : ومن كل الثمرات ، ثم أتبع ذلك بخلق الليل الذي هو سكن لهم ، والنهار الذي هو معاش ، ثم بالنيرين اللذين جعلهما الله تعالى مؤثرين بإرادته في إصلاح ما يحتاجون إليه ، ثم بما ذرأ في الأرض .

والظاهر أنّ لكم ، في موضع الصفة لماء ، فيتعلق بمحذوف ، ويرتفع شراب به أي : ماء كائناً لكم منه شراب .

ويجوز أن يتعلق بانزل ، ويجوز أن يكون استئنافاً ، وشراب مبتدأ .

لما ذكر إنزال الماء أخذ في تقسيمه .



---

والشراب هو المشروب ، والتبعيض في منه ظاهر ، وأما في منه شجر فمجاز ، لما كان الشجر إنباته على سقيه بالماء جعل الشجر من الماء كما قال : أسنمة الآبال في ربابه ، أي في سحاب المطر .

وقال ابن الأنباري : هو على حذف المضاف ، إما قبل الضمير أي : ومن جهته ، أو سقيه شجر ، وإما قبل شجر أي : شرب شجر كقوله ﴿ وأُشربوا في قلوبهم العجل ﴾ أي حبه .

والشجر هنا كل ما تنبته الأرض قاله الزجاج .

وقال : نطعمها اللحم إذا عز الشجر ، فسمى الكلأ شجراً .

وقال ابن قتيبة : الشجر هنا الكلأ ، وفي حديث عكرمة : " لا تأكلوا الشجر فإنه سحت " يعني الكلأ .

ويقال : أسام الماشية وسومها جعلها ترعى ، وسامت بنفسها فهي سائمة وسوام رعت حيث شاءت ، قال الزجاج : من السومة ، وهي العلامة ، لأنها تؤثر في الأرض علامات .

وقرأ زيد بن علي : تسيمون بفتح التاء ، فإن سمع متعدياً كان هو وأسام بمعنى واحد ، وإن كان لازماً فتأويله على حذف مضاف تسيمون أي : تسيم مواشيكم لما ذكر ، ومنه شجر .

أخذ في ذكر غالب ما ينتفع به من الشجر إنْ كان المراد من قوله : ومنه شجر العموم ، وإن كان المراد الكلأ فهو استئناف اخبار منافع الماء .

ويقال : نبت الشيء وأنبته الله فهو منبوت ، وهذا قياسه منبت .

وقيل : يقال أنبت الشجر لازماً .

وأنشد الفراء :

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم . . .

قطينا بهم حتى إذا أنبت البقل

أي نبت .

وكان الأصمعي يأبى أنبت بمعنى نبت .

وقرأ أبو بكر : ننبت بنون العظمة .

وقرأ الزهري : ننبت بالتشديد قيل : للتكثير والتكرير ، والذي يظهر أنه تضعيف التعدية .

وقرأ أبيّ : ينبت من نبت ورفع الزرع وما عطف عليه .

وخص الأربعة بالذكر لأنها أشرف ما ينبت ، وأجمعه للمنافع .

(235/432)

---

وبدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم ، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه ، وهي ضرورية مع منفعة أكله والائتدام به وبدهنه ، والاطلاء بدهنه ، ثم بالنخل لأنّ ثمرته من أطيب الفواكه وقوت في بعض البلاد ، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة ثم قال : ومن كل الثمرات ، أتى بلفظ مِن التي للتبعيض ، لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة ، وإنما أنبت في

الأرض بعض من كلها للتذكرة .

ولما ذكر الحيوانات المنتفع بها على التفصيل أعقبه بقوله : ويخلق ما لا تعلمون ، كذلك هنا ذكر الأنواع المنتفع بها من النبات ، ثم قال : ومن كل الثمرات ، تنبيهاً على أنّ تفصيل القول في أجناسها وأنواعها وصفاتها ومنافعها مما لا يكاد يحصر ، كما أن تفصيل ما خلق من باقي الحيوان لا يكاد يحصر .

وختم ذلك تعالى بقوله : لآية لقوم يتفكرون ، لأنّ النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكر .

ألا ترى أنّ الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمان معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به ، فينشق أعلاها فيصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى ، وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام ، والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع ، وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾

القصدُ مصدر بمعنى الفاعل ، يقال : سبيلٌ قَصْدٌ وقاصدٌ ، أي مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج إسنادِ حال سالكِه إليه ، كأنه يقصِد الوجهَ الذي يؤمه السالكُ لا يعدِل عنه ، أي حقٌ عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعدِه المحتوم بيانُ الطريق المستقيمِ الموصلِ لمن يسلكه إلى الحق الذي هو التوحيدُ بنصب الأدلةِ وإرسالِ الرسل وإنزال الكتبِ لدعوة الناس إليه ، أو مصدرٌ بمعنى الإقامة والتعديل كذا قاله أبو البقاء ، أي عليه عز وجل تقويمُها وتعديلها أي جعلُها بحيث يصل سالكُها إلى الحق ، لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفةً عنه بل إبداعُها ابتداءً كذلك على نهج قوله : سبحان من صغّر البعوضَ وكبّر الفيل ، وحقيقتُه راجعةٌ إلى ما ذكر من نصب الأدلةِ ، وقد فعَل ذلك حيث أبدع هذه البدائعَ التي كلٌّ واحد منها لاحبٌّ يهتدى بمناره وعلَمٌ يُستضاء بناره ، وأَرسل رسلاً مبشرين ومنذرين وأَنزل عليهم كتباً من جملتها هذا الوحيُ الناطقُ بحقيقة الحقِّ الفاحصِ عن كل ما جلّ من الأسرار ودقّ ، الهادي إلى سبيل الاستدلال بتلك الأدلةِ المفضية إلى معالم الهدى ، المنْجية عن فيافي الضلالة ومهاوي الردى ، ألا يُرى كيف بيّن أولاً تنزُّهَ جنابِ الكبرياء وتعالِيَه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبةُ توهمِ الإشراك ، ثم أوضح سرَّ إلقاءِ الوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفيةَ أمرِهم بإنذار الناس

ودعوتِهم إلى التوحيد ونهيهم عن الإشراك ، ثم كرّ على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الأفعالِ مرشداً إلى طريقة الاستدلالِ فبدأ بفعله المتعلق بمحيط العالم الجُسماني ومركزِه بقوله تعالى :



---

﴿ خلُقَ السموات والأرض بالحق تعالى عَمّا يُشرِكُونَ ﴾ ثم فصّل أفعالَه المتعلقةَ بما بينهما فبدأ بفعله المتعلّق بأنفس المخاطَبين ، ثم ذكر ما يتعلق بما لا بد لهم منه في معايشهم ، ثم بين قدرتَه على خلق ما لا يحيط به علمُ البشر بقوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وكلُّ ذلك كما ترى بيانٌ لسبيل التوحيد غِبَّ بيانٍ وتعديلٌ له أيُّما تعديلٍ ، فالمرادُ بالسبيل على الأول الجنسُ بدليل إضافة القصدِ إليه وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا ﴾ في محل الرفع على الابتداء ، إما باعتبار مضمونِه وإما بتقدير الموصوف كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ وقد مر في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَاسِ مَن يَقُولُ ءامَنَّا باللهِ وباليومِ الأخرِ ﴾ الخ ، أي بعضُ السبيل أو بعضٌ من السبيل فإنها تؤنث وتذكر ﴿ جَائِرٌ ﴾ أي مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه لا يوصِل سالكَه إليه ، وهو طرقُ الضلال التي لا يكاد يحصى عددُها المندرجُ كلُّها تحت الجائر ، وعلى الثاني نفسُ السبيل المستقيم والضميرُ في منها راجع إليها بتقدير المضاف أي

ومن جنسها لما عرفتَ من أن تعديلَ السبيل وتقويمَه إبداعُه ابتداءً على وجه الاستقامةِ والعدالةِ لا تقويمُه بعد انحرافِه . وأياً ما كان فليس في النظم الكريم تغييرُ الأسلوب رعايةً لأمر مطلوب كما قيل ، فإن ذلك إنما يكون فيما اقتضى للظاهر سبكاً معيناً ولكن يُعدل عن ذلك لنُكتة أهمّ منه كما في قوله سبحانه : ﴿ الذى يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ فإن مقتضى الظاهرِ أن يقال : والذي يُسقِمني ويشفينِ ، ولكن غُيِّر إلى ما عليه النظم الكريم تفادياً عن إسناد ما تكرهه النفسُ إليه سبحانه ، وليس المرادُ ببيان قصدِ السبيل مجردَ إعلامِ أنه مستقيمٌ حتى يصِحّ إسنادُ أنه جائرٌ إليه تعالى فيُحتاجَ إلى الاعتذار عن عدم ذلك ، على أنه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الأسلوبِ نكتةٌ ، وقد بُين ذلك في



---

مواضعَ غير معدودةٍ ، بل المرادُ ما مر من نصب الأدلةِ لهداية الناس إليه ولا إمكانَ لإسناد مثلِه إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقالَ : وجائرُها حتى يصرفَ ذلك الإسنادُ منه تعالى إلى غيره لنكتة تستدعيه ، ولا يتوهمه متوهمٌ حتى يقتضيَ الحالُ دفعَ ذلك بأن يقال : لا جائرُها ، ثم يُغير سبكُ النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل الجملة الظرفيةُ اعتراضيةٌ جيء بها لبيان الحاجةِ إلى البيان والتعديل وإظهارِ جلالة قدرِ النعمة في ذلك ، والمعنى :

على الله تعالى بيانُ الطريق المستقيم الموصلِ إلى الحق وتعديلُه بما ذكر من نصب الأدلةِ ليسلُكَه الناس باختيارهم ويصلوا إلى المقصِد ، وهذا هو الهدايةُ المفسرة بالدلالة على ما يوصل إلى المطلوب لا الهدايةُ المستلزمة للاهتداء ألبتّةَ ، فإن ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته ، بل هو مُخلٌّ بحكمته حيث يستدعي تسويةَ المحسِن والمسيء والمطيعِ والعاصي بحسب الاستعدادِ وإليه أشير بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لو شاء أن يهديَكم إلى ما ذكر من التوحيد هدايةً موصلةً إليه ألبتةَ مستلزِمةً لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ، ولكن لم يشأه لأن مشيئَتَه تابعةٌ للحكمة الداعيةِ إليها ، ولا حكمةَ في تلك المشيئةِ لِما أن الذي عليه يدور فَلَكُ التكليفِ وإليه ينسحب الثوابُ والعقابُ إنما هو الاختيارُ الجُزئي الذي عليه يترتب الأعمالُ التي بها نيط الجزاءُ .

(239/432)

---

هذا هو الذي يقتضيه المقامُ ويستدعيه حسنُ الانتظام ، وقد فُسّر كونُ قصدِ السبيل عليه تعالى بانتهائه إليه على نهج الاستقامةِ ، وإيثارُ حرفِ الاستعلاءِ على أداة الانتهاءِ لتأكيد الاستقامةِ على وجه تمثيلي مَن غير أن يكون هناك استعلاءٌ لشيء عليه سبحانه وتعالى

عنه علواً كبيراً كما في قوله تعالى : ﴿ هَذَا صراط عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فالقصدُ مصدرٌ بمعنى الفاعل ، والمرادُ بالسبيل الجنسُ كما مر في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ معطوفٌ على الجملة الأولى والمعنى أن قصدَ السبيلِ واصلٌ إليه تعالى بالاستقامة وبعضُها منحرفٌ عنه ولو شاء لهداكم جميعاً إلى الأول ، وأنت خبيرٌ بأن هذا حقٌّ في نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبةٍ لتوسيطه بين ما سبق من أدلة التوحيدِ وبين ما لحِق ، ولمّا بُيّن الطريقُ السمعيُّ للتوحيد على وجه إجماليَ وفصّلَ بعضُ أدلتِه المتعلقة بأحوال الحيواناتِ ، وعُقب ذلك ببيان السرِّ الداعي إليه بعثاً للمخاطبين على التأمل فيما سبق وحثّاً على حسن التلقي لما لحِق أُتبع ذلك ذِكرَ ما يدل عليه من أحوال النبات فقيل :

﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ ﴾ بقدرته القاهرة ﴿ مّنَ السماء ﴾ أي من السحاب أو من جانب السماء ﴿ مَاء ﴾ أي نوعاً منه وهو المطرُ ، وتأخرُه عن المجرورِ لما مر مراراً من أن المقصودَ هو الإخبارُ بأنه أنزل من السماء شيئاً هو الماء لا أنه أنزله من السماء ، والسرُّ فيما سلف من أن عند تأخيرِ ما حقُّه التقديمُ يبقى الذهنُ مترقباً له مشتاقاً إليه فيتمكّن لديه عند وروده عليه فضلَ تمكن ﴿ لَّكُم مّنْهُ شَرَابٌ ﴾ أي ما تشربونه ، وهو إما مرتفعٌ بالظرف الأول أو مبتدأٌ وهو خبرُه والجملةُ صفةٌ لماءً ، والظرفُ الثاني نصبَ على الحالية من شراب ومن تبعيضيةٌ وليس في تقديمه إيهامُ حصر المشروب فيه حتى يفتقر إلى الاعتذار بأنه لا بأس به لأن مياهَ العيون والأبيارِ منه لقوله تعالى :

﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرضِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرضِ ﴾ وقيل : الظرفُ الأولُ متعلقٌ بأنزل والثاني خبرٌ لشرابٌ والجملةُ صفةٌ لماءً ، وأنت خبير بأن ما فيه من توسيط المنصوبِ بين المجرورين وتوسيطِ الثاني منهما بين الماء وصفتِه مما لا يليق بجزالة نظمِ التنزيلِ الجليل ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ من ابتدائية أي ومنه يحصل شجرٌ ترعاه المواشي ، والمرادُ به ما ينبُت من الأرض سواءٌ كان له ساق أو لا ، أو تبعيضيةٌ مجازاً لأنه لما كان سقيُه من الماء جعل كأنه كقوله

أسنمةُ الآبالِ في ربابه . . . يعني به المطرَ الذي ينبت به الكلأُ الذي تأكله الإبلُ فتسمَن أسنمتُها ، وفي حديث عكرمة : ( لا تأكلوا ثمنَ الشجر فإنه سُحْت ) يعني الكلأ ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترون من سامت الماشيةُ وأسامها صاحبها ، وأصلُها السُّومة وهي العلامةُ لأنها تؤثر بالرعي علاماتٍ في الأرض .

﴿ يُنبِتُ ﴾ أي الله عز وجل ، وقرئ بالنون ﴿ لَكُمْ بِهِ ﴾ بما أنزل من السماء ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم من الأرض بطريق الاستئنافِ ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنتُه الجاريةُ على مر الدهور ، أو لاستحضار صورةِ الإنبات ، وتقديمُ الظرفين على المفعول الصريحِ لما مر آنفاً مع ما في تقديم أولهما من الاهتمام به لإدخال المسرّةِ ابتداءً ، وتقديمُ الزرعِ على ما عداه لأنه أصلُ الأغذية وعَمودُ المعاش ، وتقديمُ الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه إدام من وجه وفاكهة من وجه ، وتقديم النخيل على الأعناب لظهور أصالتِها وبقائها ، وجمع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفةِ ، وتخصيصُ الأنواعِ المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلّ الثمرات ﴾ للإشعار بفضلها وتقديمُ الشجر عليها مع كونه غذاءً للأنعام لحصوله بغير صنعٍ من البشر ، أو للإرشاد إلى مكارم الأخلاقِ فإن مقتضاها أن يكون اهتمامُ الإنسان بأمر ما تحت يده أكملَ من اهتمامه بأمر نفسه ، أو لأن أكثرَ المخاطَبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرعٌ ولا ثمرٌ ، وقيل : المراد تقديمُ ما يسام لا تقديمُ غذائه فإنه غذاءٌ حيوانيّ للإنسان وهو أشرف الأغذية ، وقرىء يَنبُت من الثلاثي مسنداً إلى الزرع وما عُطف عليه .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في إنزال الماءِ وإنباتِ ما فُصّل ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمةً دالةً على تفرده تعالى بالألوهية لاشتماله على كمال العلمِ والقدرةِ والحكمة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن من تفكر في أن الحبةَ أو النواة تقع في الأرض وتصِل إليها نداوةٌ تنفُذ فيها فينشق أسفلُها فيخرُج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت منتكِسةً في الوقوع ويخرج منه ساقٌ فينمو ويخرج منه الأوراقُ والأزهارُ والحبوبُ والثمار المشتملةُ على أجسام مختلفةِ الأشكال والألوان والخواصّ والطبائع ، وعلى نواة قابلةٍ لتوليد الأمثالِ على النمط المحرر لا إلى نهاية مع اتحاد الموادِّ واستواءِ نسبة الطبائعِ السفلية والتأثيراتِ العلوية بالنسبة إلى الكل ، علم أن مَنْ هذه أفعالُه وآثارُه لا يمكن أن يشبهه شيءٌ في شيء من صفات الكمال فضلاً عن أن يشاركه أخسُّ الأشياء في أخص صفاتِه التي هي الألوهيةُ واستحقاقُ العبادة تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وحيث افتقر سلوكُ هذه الطريقةِ إلى ترتيب المقدّماتِ الفكرية قطَعَ الآيةَ الكريمةَ بالتفكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾

القصد مصدر بمعنى الفاعل ، يقال : سبيل قصد وقاصد أي مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك ولا يعدل عنه ، فهو نحو نهر جار وطريق سائر و﴿ على ﴾ للوجوب مجازاً والكلام على حذف مضاف أي متحتم عليه تعالى متعين كالأمر الواجب لسبق الوعد بيان ، وقيل : هداية الطريق المستقيم الموصل لمن سلكه إلى الحق الذي هو التوحيد بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، أو هو مصدر بمعنى الإقامة والتعديل و﴿ على ﴾ على حالها المار إلا أنه لا حاجة إلى تقدير المضاف أي عليه سبحانه تقويم السبيل وتعديلها أي جعلها بحيث يصل سالكها إلى الحق على حد صغر البعوضة وكبر الفيل وحقيقته راجعة إلى ما ذكر من نصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب .

وجوز أن يكون القصد بمعنى القاصد أي المستقيم كما في التفسير الأول و﴿ على ﴾ ليست للوجوب واللزوم والمعنى أن قصد للسبيل ومستقيمه موصل إليه تعالى وما عليه سبحانه ، وفيه تشبيه ما يدل على الله عز وجل بطريق مستقيم شأنه ذلك ، وقد ذكر نحو هذا ابن عطية وهو كما ترى ، وأل في السبيل للجنس عند كثير فهو شامل للمستقيم وغير

، وإضافة القصد بمعنى المستقيم إليه من إضافة العام إلى الخاص ، وإضافة الصفة إلى الموصوف خلاف الظاهر على ما قيل ؛ وقيل : أل للعهد .

(244/432)

---

والمراد سبيل الشرع وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أي عادل عن المحجة منحرف عن الحق لا يوصل سالكه إليه ظاهر في إرادة الجنس إذ البعضية إنما تتأتى على ذلك ، فإن الجائر على إرادة العهد ليس من ذلك بل قسيمه ، ومن اراده أعاد الضمير على المطلق الذي في ضمن ذلك المقيد أو على المذكور بتقدير مضاف أي ومن جنسها جائر ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يعود على سبيل الشرع ، والمراد بهذا البعض فرق الضلالة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهو جائر عن قصد السبيل ؛ وزعم بعضهم أن الضمير يعود على الخلائق أي ومن الخلائق جائر عن الحق ، وأيد بقراءة عيسى ، ورويت عن ابن مسعود ﴿ وَمِنكُمْ ﴾ وأخرجها ابن الأنباري في المصاحف عن علي كرم الله تعالى وجهه لكن بالفاء بدل الواو وليس بذاك ، والتأنيث لأن السبيل تؤنث وتذكر ، والجار والمجرور قيل خبر مقدم و ﴿ جَائِرٌ ﴾ مبتدأ مؤخر ، وقيل : هو في محل رفع بالابتداء أما باعتبار مضمونه وإما بتقدير الموصوف أي بعض السبيل أو بعض من السبيل جائر ، والجملة على ما اختاره بعض

المحققين اعتراضية جيء بها لبيان الحاجة إلى البيان أو التعديل بنصب الأدلة والإرسال والإنزال الأمور المذكورة سابقاً واظهار جلالة قدر النعمة في ذلك ، وذلك هو الهداية المفسرة بادلالة على ما يوصل إلى المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء إليه فإن ذلك ليس على الله سبحانه اصلاً بل هو مخل بحكمته كما يشير إليه قول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فإن معناه ولو شاء هدايتكم إلى ما ذكر من التوحيد هداية مستلزمة للاهتداء إليه لفعل ولكن لم يشأ لأن مشيئته تابعة للحكمة ولا حكمة في تلك المشيئة لما أن الذي يدور عليه فلك التكليف إنما هو الاختيار الذي عليه ترتب الأعمال التي بها يرتبط الجزاء ، وقيد ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ للمنفى لا للنفي فيكون المراد سلب العموم لا عموم السلب ؛ وذكر بعضهم أنه كان الظاهر أن يقال : وعلى الله قصد



---

السبيل وجارها أو وعليه جائرها إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم لأن الضلال لا يضاف إليه تعالى تأدباً فهو كقوله تعالى :

﴿ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغضوب عَلَيْهِمْ ﴾ [ الفاتحة : 7 ] .

وزعم الزمخشري أن المخالفة بين أسلوبي الجملتين للإيذان بما يجوز إضافته من السبيلين إليه

تعالى وما لا يجوز وعنى الإشارة إلى ما ذهب إليه إخوانه المعتزلة من عدم جواز إضافة الضلال إليه سبحانه لأنه غير خالقه وجعلوا الآية للمخالفة حجة لهم في هذه المخالفة.

وأجاب بعض الجماعة بأن المراد على الله تعالى بحسب الفضل والكرم بيان الدين الحق والمذهب الصحيح فأما بيان كيفية الاغواء والاضلال فليس عليه سبحانه، وبحث فيه بأنه كما أن بينا الهداية وطريقها متحتم فكذا ضده وليس إرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب إلا لذلك.

وقال ابن المنير: إن المخالفة بين الأسلوبين لأن سياق الكلام لإقامة الحجة على الخلق بأنه تعالى بين السبيل القاصد والجائر وهدى قوماً اختاروا الهدى وأضل آخرين اختاروا الضلالة، وقد حقق أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى ومضاف إليه سبحانه بهذا الاعتبار، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له وتيسره عليه يضاف إلى العبد وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له.

والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر ليناسب ذلك إقامة الحجة ألا لله الحجة البالغة ، وأنكر بعض المحققين أن يكون هناك تغيير الأسلوب لأمر مطلوب بناء على أن ذلك إنما يكون فيها اقتضى الظاهر سبكا معينا ولكن يعدل عن ذلك لنكتة أهم منه ، وليس المراد من بيان قصد السبيل مجرد اعلام أنه مستقيم حتى يصح إسناد أنه جائر إليه تعالى فيحتاج إلى الاعتذار عن عدم ذلك على أنه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الأسلوب نكتة ، وقد بين ذلك في مواضع غير معدودة بل المراد نصب الأدلة للهداية إليه ولا إمكان لإسناد مثله إليه تعالى بالنسبة إلى الطريق الجائر بأن يقال : وجائرها حتى يصرف ذلك الإسناد منه تعالى إلى غيره سبحانه لنكتة ولا يتوهم متوهم حتى يقتضي الحال دفع ذلك بأن يقال لا جائرها ثم يغير سبك النظم عنه لداعية أقوى منه ، وذكر أن الجلمة اعتراضية حسبما نقلناه سابقاً ، وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق ، بيد أن لقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يراد ببيان السبيل لمستقيم وبيان السبيل الجائر نصب الأدلة الدالة على حقية الأول ليهدي إليه وبطلان الثاني ليحذر ولا يعول عليه وهذا غير مجرد الاعلام الذي ذكره ؛ ونسبته إليه تعالى ممكنة بل قال بعصهم : إن الحق أن المعنى على الله تعالى بيان طريق الهداية ليهتدوا إليه وبيان غيرها ليحذروه لكن اكتفى بأحدهما للزوم الآخر له .

وفي "الكشف" أن تغاير الأسلوبين على أصل أهل السنة واضح أيضاً إذ لا منكر أن الأول هو المقصود لذاته فبيان طريق الضلالة إجمالاً قدر ما يمتاز قصد السبيل منه في ضمن بيان قصد السبيل ضرورة وبيانه التفصيلي ليس مما لا بد من وقوعه ولا أن الوعد جرى به على مذهب اه فليتأمل ، ثم إن الآية منادية على خلاف ما زعمه المعتزلة ومنهم الزجاج من عدم استلزام تعلق مشيئته تعالى بشيء وجوده وقد التجأوا إلى التزام تفسيرها بالقسرية ، وقال أبو علي منهم : المعنى لو شاء لهداكم إلى الثواب أو إلى الجنة بغير استحقاق وكل ذلك خلاف الظاهر كما لا يخفى .

﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً ﴾

شروع في نوع آخر من النعم الدالة على توحيده سبحانه ، والمراد من الماء نوع منه وهو المطر ومن السماء إما السحاب على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل ، وإما الجرم المعروف والكلام على حذف مضاف أي من جانب السماء أو جهتها وحملها على ذلك بدون هذا يقتضيه ظاهر بعض الأخبار ولا أقول به ، و﴿ مِنْ ﴾ على كل تقدير ابتدائية وهو متعلق بما عنده ، وتأخير المفعول الصريح عنه ليظمأ الذهن إليه فيتمكن أتم تمكن عند وروده عليه ، وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون خبراً مقدماً ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْهُ ﴾ في موضع الحال من قوله عز وجل : ﴿ شَرَابٌ ﴾ أي ما تشربون وهو مبتدأ مؤخر

أو هو فاعل بالظرف الأول والجملة صفة لماء و ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية وليس في تقديمها إيهام حصر ، ومن توهمه قال : لا بأس به لأن جميع المياه العذبة المشروبة بحسب الأصل منه كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأرض ﴾ [ الزمر : 21 ] وقوله سبحانه : ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأرض ﴾ [ المؤمنون : 18 ] ويحتمل أن يكون متعلقاً بما عنده ﴿ وَمِنْهُ شَرَابٌ ﴾ مبتدأ وخبر أو شراب فاعل بالظرف والجملة ومن كما تقدم .



---

وتعقب بأن توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثاني منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة النظم الجليل وهو كذلك ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ ﴾ أي نبات مطلقاً سواء كان له ساق أم لا كما نقل عن الزجاج وهو حقيقة في الأول ، ومن استعماله في الثاني قول الراجز :

نعلفها اللحم إذا عز الشجر . . .

والخيل في إطعامها اللحم ضرر

فإنه قيل : الشجر فيه بمعنى الكلأ لأنه الذي يعلف ، وكذا فسره في النهاية بذلك في قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت " ولعل ذلك لأنه جاء في الحديث النهي عن منع فضل الماء كمنع فضل الكلأ وتشارك الناس في الماء والكلأ والنار ، وأبقاه

بعضهم على حقيقته ولم يجعله مجازاً شاملاً ، و﴿ مِنْ ﴾ إما للتبعيض مجازاً لأن الشجر لما كان حاصلاً بسقيه جعل كأنه منه كقوله :

أسنمة الآبال في ربابه . . .

يعني به المطر الذي ينبت به ما تأكله الإبل فتسمن أسنمتها ، وإما للابتداء أي وكائن منه شجر ، والأول أولى بالنسبة إلى ما قبله .

وقال أبو البقاء : هي سببية أي وبسببه إنبات شجر ، ودل على ذلك ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع ﴾ [ النحل : 11 ] وجوز ابن الأنباري الوجهين الأولين على ما يقتضيه ظاهر قوله : الكلام على تقدير مضاف إما قبل الضمير أي من جهته أو من سقيه شجر وأما قبل شجر أي ومنه شراب شجر كقوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ العجل ﴾ [ البقرة : 93 ] أي حبه اه وهو بعيد وإن قيل : الإضمار أولى من المجاز لا العكس الذي ذهب إليه البعض وصحح المساواة لاحتياج كل منهما إلى قرينة .

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي ترعون يقال : أسام الماشية وسومها جعلها ترعى وسامت بنفسها فهي سائمة وسوام رعت حيث شاءت ، وأصل ذلك على ما قال الزجاج السومة وهي كالسمة العلامة لأن المواشي تؤثر علامات في الأرض والأماكن التي ترعاها .

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ بفتح التاء فإن سمع سام متعدياً كان هو وأسام بمعنى وإلا فتأويل ذلك أن الكلام على حذف مضاف أي تسيم مواشيكم .

﴿ يُنبِتُ ﴾ أي الله عز وجل يقال نبت الشيء وأنبته الله تعالى فهو منبوت وقياس هذا منبت ، وقيل : يقال أنبت الشجر لازماً وأنشد الفراء :

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم . . .

قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل

أي نبت ، وكان الأصمعي ينكر مجيء أنبت بمعنى نبت .

وقرأ أبو بكر ﴿ ننبت ﴾ بنون العظمة ، والزهري ﴿ تُسِيمُونَ يُنبِتُ ﴾ بالتشديد وهو للتكثير في قول ، واستظهر أبو حيان أنه تضعيف التعدية .

وقرأ أبي ﴿ يُنبِتُ ﴾ بفتح الياء ورفع المتعاطفات بعد على الفاعلية ، وجملة ينبت ﴿ لَكُمْ بِهِ ﴾ أي بما أنزل من السماء ﴿ الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ﴾ يحتمل أن تكون صفة أخرى لماء وأن تكون مستأنفة استئنافاً بيانيا كأنه قيل : وهل له منافع أخر ؟ فقيل : ينبت لكم به الخ ، وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأن الإنبات سنته سبحانه الجارية على ممر الدهور أو لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة ، وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما أشرنا إليه آنفاً مع ما في تقديم أولهما من الاهتمام به لإدخال

المسرة ابتداءً ، وتقديم الزرع على ما عداه قيل : لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش وقوت أكثر العالم وفيه مناسبة للكلأ المرعي ، ثم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث أنه أدام من وجه وفاكهة من وجه ، وقد ذكر الأطباء له منافع جمة ، وذكر غير يسير منها في التذكرة ، والظاهر من كلام اللغويين أنه اسم جنس جمعي واحده زيتونة وأنه يطلق على الشجر المخصوص وعلى ثمرته .



---

واستظهر أن المراد به هنا الأول وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك ، وأكثر ما ينبت في المواضع التي زاد عرضها على الميل واشتد بردها وكانت جبلية ذات تربة بيضاء أو حمراء ، ثم النخيل على الأعناب لظهور دوامها بالنسبة إليها فإن الواحدة منها كثيراً ما تتجاوز مائة سنة وشجرة العنب ليست كذلك ، نعم الزيتون أكثر دواماً منهما فإن الشجرة منه قد تدوم ألف سنة مع أن ثمرتها كثيرا ما يقتات بها حتى جاء في الخبر "ما جاع بيت وفيه تمر" وأكثر ما تنبت في البلاد الحارة اليابسة التي يغلب عليها الرمل كالمدينة المشرفة والعراق وأطراف مصر ، وهي على ما قال الراغب جمع نخل وهو يطلق على الواحد والجمع ويقال للواحدة نخلة ، وأما الأعناب فجمع عنبة بكسر العين وفتح النون

والباء وقد جاءت ألفاظ مفردة على هذا الوزن غير قليلة .

وقد ذكر في "القاموس" عدة منها ، ونسب الجوهري إلى قلة الاطلاع في قوله : إن هذا البناء في الواحد نادر وجاء منه العنبة والتولة والحبرة والطيبة والخيرة ولا أعرف غير ذلك ، وذكر الجوهري أنه إن أردت جمعه في أدنى العدد جمعته بالتاء وقلت عنبات وفي الكثير عنب وأعناب اه ، ولينظر هذا مع عدهم أفعالاً من جموع القلة ، ويطلق العنب كما قال الراغب على ثمرة الكرم وعلى الكرم نفسه ، والظاهر أن المراد هو الثاني .

(251/432)

---

وذكر أبو حيان في وجه تأخير الأعناب إن ثمرتها فاكهة محضة ، وفيه إنه إن أراد بثمرتها العنب ما دام طرياً قبل أن يتزبب فيمكن أن يسلم وإن أراد به المتزبب فغير مسلم ، وفي كلام كثير من الفقهاء في بحث زكاة الفطر أن في الزبيب اقتياتاً بل ظاهر كلامهم أنه في ذلك بعد التمر وقبل الأرز ، والباحث في هذا لا ينفي الاقتيات كما لا يخفى على الواقف على البحث ، وفي جمع النَّخِيلِ والأعناب إشارة إلى أن ثمارها مختلفة الأصناف ففي التذكرة عند ذكر التمر أنه مختلف كثير الأنواع كالعنب حتى سمعت أنه يزيد على خمسين صنفاً ، وعند ذكر العنب أنه يختلف بحسب الكبر والاستطالة وغلظ القشر وعدم العجم وكثرة

الشحم واللون والطعم وغير ذلك إلى أنواع كثيرة كالتمر اه ، وأنا قد سمعت من والدي عليه الرحمة أنه سمع في مصر حين جاءها بعد عوده من الحج لزيارة أخيه المهاجر إليها لطلب العلم أن في نواحيها من أصناف التمر ما يقرب من ثلثمائة صنف والعهدة على من سمع منه هذا ، وللعلامة أبي السعود هنا ما يشعر ظاهره بالغفلة وسبحان من لا يغفل وكان الظاهر تقديم غذاء الإنسان لشرفه على غذاء ما يسام لكن قدم ذاك على ما قال الإمام للتنبيه على مكارم الأخلاق وأن يكون اهتمام الإنسان بمن تحت يده أقوى من اهتمامه بنفسه ، والعكس في قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ وارعوا أنعامكم ﴾ [ طه : 54 ] للإيذان بأن ذلك ليس بلازم وإن كان من الأخلاق الحميدة ، وهو على طبق ما ورد في الخبر " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول " وقيل : لأن ذلك مما لا دخل للخلائق فيه ببذر وغرس فالامتنان به أقوى ، وقيل : لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي وليس لهم زرع ولا شيء مما ذكر ، وقال شهاب الدين في وجه ذلك .



---

ولك أن تقول لما سبق ذكر الحيوانات المأكولة والمركوبة ناسب تعقيبها بذكر مشربها ومأكلها لأنه أقوى في الامتنان بها إذ خلقها ومعاشها لأجلهم فإن من وهب دابة مع علفها كان

أحسن، كما قيل: من الظرف هبة الهدية مع الظرف اه ولا يخلو عن حسن.

والأولى عليه أن يراد من قوله تعالى: ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ [النحل: 10] ما يشرب، وأما ما قيل: إن ما قدم من الغذاء غذاء للإنسان أيضاً لكن بواسطة فإنه غذاء لغذائه الحيواني فلا يدفع السؤال لأنه يقال بعد: كان ينبغي تقديم ما كان غذاء له بغير واسطة، لا يقال: هذا السؤال إنما يحسن إذا كان المراد من المتعاطفات المذكورات ثمراتها لا ما يحصل منها الثمرات لأن ذلك ليس غذاء الإنسان لأنا نقول: ليس المقصود من ذكرها إلا الامتنان بثمراتها إلا أنها ذكرت على نمط سابقها المذكور في غذاء الماشية ويرشد إلى أن الامتنان بثمراتها قوله سبحانه: ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ وإرادة الثمرات منها من أول الأمر بارتكاب نوع من المجاز في بعضها لهذا إهمال لرعاية غير أمر يحسن له حملها على ما قلنا دون ذلك، منه ﴿ يُنبِتُ ﴾ إذ ظاهره يقتضي التعلق بنفس الشجرة لا بثمرتها فليعمل بما يقتضيه في صدر الكلام وإن اقتضى آخره اعتبار نحو ما قيل في:

علفتها تبناً وماءً بارداً . . .

كذا قيل وفيه تأمل ، ومنع بعضهم كون الإنبات مما يقتضي التعلق المذكور فقد قال سبحانه : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وفاكهة وَأَبًّا ﴾ [ عبس : 27-31 ] وجوز أن لا يكون الملحوظ فيما عد مجرد الغذائية بل ما يعمها وغيرها على معنى ينبت به لنفعكم ما ذكر والنفع يكون بما فيه غذاء وغيره ، و ﴿ مِنْ ﴾ للتبعيض والمعنى وينبت لكم بعض كل الثمرات ، وإنما قيل ذلك لما في "الكشاف" وغيره من أن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة وإنما أنبت في الأرض بعض من كل للتذكرة ، وقال بعض الأجلة : المراد بعض مما في بقاع الإمكان من ثمر القدرة الذي لم تجنه راحة الوجود ، وهو أظهر وأشمل وأنسب بما تقدم لأنه سبحانه كما عقب ذكر الحيوانات المنتفع بها على التفصيل بقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ النحل : 8 ] عقب ذكر الثمرات المنتفع بها بمثله ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور من إنزال الماء وإنزال ما فصل ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالإلهية لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن من تفكر في أن الحبة والنواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في الأرض وربما انبسطت فيها وإن كانت صلبة وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع فيخرج منها ساق فينمو فيخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا إلى نهاية مع اتحاد الماء والأرض والهواء

وغيرها بالنسبة إلى الكل علم أن من هذه آثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلاً عن أن يشاركه في أخص صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة أخس الأشياء كالجماد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولله تعالى در من قال :



---

تأمل في رياض الورد وانظر . . .

إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات . . .

على أهدابها ذهب سبيك

على قضب الزبرجد شاهدات . . .

بأن الله ليس له شريك

وحيث كان الاستدلال بما ذكر لاشتماله على أمر خفي محتاج إلى التفكر والتدبر لمن له نظر سديد ختم الآية بالتفكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) ﴾

قوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ أي : عقابه للمشركين .

وقال جماعة من المفسرين : القيامة .

قال الزجاج : هو ما وعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه .

وقيل : إن المراد بأمر الله : حكمه بذلك ، وقد وقع وأتى ، فأما المحكوم به فإنه لم يقع ، لأنه سبحانه حكم بوقوعه في وقت معين ، فقبل مجيء ذلك الوقت لا يخرج إلى الوجود .

وقيل : إن المراد بإتيانه : إتيان مباديه ومقدّماته ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ نهاهم عن استعجاله ، أي : فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت ، وقد كان المشركون يستعجلون عذاب الله كما قال النضر بن الحارث ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [ الأنفال : 32 ] ، الآية .

والمعنى : قرب أمر الله فلا تستعجلوه ، وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة ، وفي نهيهم عن الاستعجال تهكم بهم .

﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : تنزه وترفع عن إشراكهم ، أو عن أن يكون له

شريك ، وشركهم هاهنا هو ما وقع منهم من استعجال العذاب ، أو قيام الساعة استهزاء وتكذيباً ، فإنه يتضمن وصفهم له سبحانه بأنه لا يقدر على ذلك ، وأنه عاجز عنه والعجز وعدم القدرة من صفات المخلوق ، لا من صفات الخالق ، فكان ذلك شركاً .

﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِه ﴾ قرأ المفضل عن عاصم " تنزل الملائكة " ، والأصل : تتنزل ، فالفعل مسند إلى الملائكة .

وقرأ الأعمش " تنزل " على البناء للمفعول ، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم " ننزل " بالنون ، والفاعل هو الله سبحانه .

(256/432)

---

وقرأ الباقون ﴿ ينزل الملائكة ﴾ بالياء التحتية إلاّ أن ابن كثير ، وأبا عمرو يسكنان النون ، والفاعل هو الله سبحانه ؛ ووجه اتصال هذه الجملة بما قبلها أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبرهم عن الله أنه قد قرب أمره ، ونهاهم عن الاستعجال ، تردّدوا في الطريق التي علم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأخبر أنه علم بها بالوحي على ألسن رسل الله سبحانه من ملائكته ، والروح : الوحي ، ومثله : ﴿ يُلْقِى الروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [ غافر : 15 ] .

وسمي الوحي روحاً لأنه يحيي قلوب المؤمنين ، فإن من جملة الوحي : القرآن ، وهو نازل من الدين منزلة الروح من الجسد .

وقيل : المراد أرواح الخلائق .

وقيل : الروح الرحمة .

وقيل : الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح.

قال الزجاج : الروح ما كان فيه من الله حياة بالإرشاد إلى أمره .

وقال أبو عبيد : الروح هنا جبريل ، وتكون الباء على هذا بمعنى مع ، "ومن" في ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بيانية ، أي : بأشياء أو مبتدئاً من أمره ، أو صفة للروح ، أو متعلق ب ﴿ ينزل ﴾ ، ومعنى ﴿ على مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ على من اختصه بذلك ، وهم الأنبياء ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ ﴾ .

قال الزجاج : ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ ﴾ بدل من الروح ، أي : ينزلهم بأن أنذروا ، و "أن" إما مفسرة لأن تنزل الوحي فيه معنى القول ، وإما مخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن مقدّر ، أي : بأن الشأن أقول لكم أنذروا ، أي : أعلموا الناس ﴿ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ ﴾ أي : مروهم بتوحيدي ، وأعلموهم ذلك مع تخويفهم ، لأن في الإنذار تخويفاً وتهديداً .

والضمير في أنه للشأن .

﴿ فاتقون ﴾ الخطاب للمستعجلين على طريق لالتفات، وهو تحذير لهم من الشرك بالله، ثم إن الله سبحانه لما أرشدهم إلى توحيده، ذكر دلائل التوحيد فقال: ﴿ خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ أي: أوجدهما على هذه الصفة التي هما عليهما بالحق، أي: للدلالة على قدرته ووحدانيته.

وقيل: المراد بالحق هنا: الفناء والزوال ﴿ تَعَالَى ﴾ الله ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: ترفع وتقدّس عن إشراكهم، أو عن شركة الذي يجعلونه شريكاً له.

ثم لما كان نوع الإنسان أشرف أنواع المخلوقات السفلية، قدّمه وخصه بالذكر، فقال: ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ وهو اسم لجنس هذا النوع ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ من جماد يخرج من حيوان، وهو المنيّ فنقله أطواراً إلى أن كملت صورته، ونفخ فيه الروح، وأخرجه من بطن أمه إلى هذه الدار فعاش فيها ﴿ فَإِذَا هُوَ ﴾ بعد خلقه على هذه الصفة ﴿ خَصِيمٌ ﴾ أي: كثير الخصومة والمجادلة، والمعنى: أنه كالمخاصم لله سبحانه في قدرته، ومعنى ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الخصومة وأضحها، وقيل: يبين عن نفسه ما يخاصم به من الباطل، والمبين هو المفصح عما في ضميره بمنطقه ومثله قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خلقناه مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [ ياس: 77 ].

ثم عقب ذكر خلق الإنسان بخلق الأنعام لما فيها من النفع لهذا النوع، فالامتنان بها أكمل من

الامتنان بغيرها ، فقال : ﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ وهي : الإبل ، والبقر ، والغنم ، وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ، ولا يقال للغنم مفردة ، ومنه قول حسان :

وكانت لا يزال بها أنيس . . . خلال مروجها نعم وشاء

فعطف الشاء على النعم ، وهي هنا الإبل خاصة .

قال الجوهري : والنعم : واحد الأنعام ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .



---

ثم لما أخبر سبحانه بأنه خلقها لبني آدم بين المنفعة التي فيها لهم فقال : ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ الدفء : السخانة ، وهو ما استدفىء به من أصوافها وأوبارها وأشعارها .

والجملة في محلّ النصب على الحال ﴿ ومنافع ﴾ معطوف على ﴿ دفء ﴾ وهي : درّها وركوبها ونتاجها ، والحراثة بها ونحو ذلك .

وقد قيل : إن الدفء : النتاج واللبن .

قال في الصحاح : الدفء نتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ، ثم قال : والدفء أيضاً : السخونة ، وعلى هذا فإن أريد بالدفء المعنى الأوّل فلا بدّ من حمل المنافع على ما عداه مما ينتفع به منها ، وإن حمل على المعنى الثاني كان تفسير المنافع بما ذكرناه واضحاً .

وقيل : المراد بالمنافع النتاج خاصة ؛ وقيل : الركوب ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : من لحومها وشحومها .

وخصّ هذه المنفعة بالذكر مع دخولها تحت المنافع لأنها أعظمها .

وقيل : خصها لأن الانتفاع بلحمها وشحمها تعدم عنده عينها بخلاف غيره من المنافع التي فيها ، وتقديم الظرف المؤذن بالاختصاص للإشارة إلى أن الأكل منها هو الأصل ، وغيره نادر .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ أي : لكم فيها مع ما تقدّم ذكره جمال ، والجمال : ما يتجمل به ويتزين ، والجمال : الحسن ، والمعنى هنا : لكم فيها تجمل وتزين عند الناظرين إليها ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ أي : في هذين الوقتين ، وهما وقت ردّها من مراعيها ، ووقت تسريحها إليها ، فالرواح رجوعها بالعشيّ من المراعي .

والسراح : مسيرها إلى مراعيها بالغداة .



---

يقال : سرحت الإبل أسرحها سرحاً وسروحاً : إذا غدوت بها إلى المرعى ، وقدّم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل ، وذواتها أحسن لكونها في تلك

الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب ، فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها ، وخصّ هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها ، لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد ، وعند كونها في مراعيها هي متفرّقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى في جانب .

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ الأثقال : جمع ثقل ، وهو متاع المسافر من طعام وغيره ، وسمي ثقلاً لأنه يثقل الإنسان حمله ، وقيل : المراد أبدانهم ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ أي : لم تكونوا واصلين إليه لو لم يكن معكم إبل تحمل أثقالكم إلاّ بشق الأنفس لبعده عنكم ، وعدم وجود ما يحمل ما لا بدّ لكم منه في السفر ، وظاهره يتناول كل بلد بعيدة من غير تعيين ؛ وقيل : المراد بالبلد مكة ، وقيل : اليمن ومصر والشام لأنها متاجر العرب ، ﴿ وشق الأنفس ﴾ : مشقتها .

قرأ الجمهور بكسر الشين ، وقرأ أبو جعفر بفتحها .

قال الجوهري : والشق المشقة ، ومنه قوله : ﴿ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ وحكى أبو عبيدة بفتح الشين ، وهما بمعنى ، ويجوز أن يكون المفتوح مصدراً من شققت عليه أشق شقاً .

والمكسور بمعنى النصف .

يقال : أخذت شق الشاة ، وشقة الشاة ، ويكون المعنى على هذا في الآية : لم تكونوا بالغيه إلاّ بذهاب نصف الأنفس من التعب ، وقد امتنّ الله سبحانه على عباده بخلق الأنعام على

العموم ، ثم خصّ الإبل بالذكر لما فيها من نعمة حمل الأثقال دون البقر والغنم ، والاستثناء من أعمّ العام ، أي : لم تكونوا بالغيه بشيء من الأشياء إلاّ بشقّ الأنفس .

﴿ والخيل والبغال والحمير ﴾ بالنصب عطفاً على الأنعام ، أي : وخلق لكم هذه الثلاثة الأصناف .

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع فيها كلها .

(260/432)

---

وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في مشيها ، وواحد الخيل خائل .

كضائن واحد الضأن .

وقيل : لا واحد له .

ثم علل سبحانه خلق هذه الثلاثة الأنواع بقوله : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ وهذه العلة هي باعتبار معظم منافعها ، لأن الانتفاع بها في غير الركوب معلوم كالتحميل عليها وعطف ﴿ زِينَةً ﴾ على محل ﴿ لتركبوها ﴾ لأنه في محل نصب على أنه علة لخلقها .

ولم يقل : لتتزينوا بها ، حتى يطابق ﴿ لتركبوها ﴾ لأن الركوب فعل المخاطبين ، والزينة : فعل الزائن وهو الخالق .

والتحقيق فيه : أن الركوب هو المعتبر في المقصود ، بخلاف الزينة ، فإنه لا يلتفت إليه أهل الهمم العالية ، لأنه يورث العجب ، فكأنه سبحانه قال : خلقها لتركبوها ، فتدفعوا عن أنفسكم بواسطتها ضرر الإعياء والمشقة .

وأما التزين بها فهو حاصل في نفس الأمر ، ولكنه غير مقصود بالذات .

وقد استدلّ بهذه الآية القائلون بتحريم لحوم الخيل ، قائلين بأن التعليل بالركوب يدلّ على أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها .

قالوا : ويؤيد ذلك إفراد هذه الأنواع الثلاثة بالذكر ، وإخراجها عن الأنعام ، فيفيد ذلك اتحاد حكمها في تحريم الأكل .

قالوا : ولو كان أكل الخيل جائزاً لكان ذكره ، والامتنان به أولى من ذكر الركوب ، لأنه أعظم فائدة منه ، وقد ذهب إلى هذا مالك ، وأبو حنيفة ، وأصحابهما ، والأوزاعي ، ومجاهد وأبو عبيدة وغيرهم .

وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدّثين وغيرهم إلى حلّ لحوم الخيل .

ولا حجة لأهل القول الأوّل في التعليل بقوله : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ لأن ذكر ما هو الأغلب من منافعها لا ينافي غيره ، ولا نسلم أن الأكل أكثر فائدة من الركوب حتى يذكر ، ويكون ذكره أقدم من ذكر الركوب .

وأيضاً لو كانت هذه الآية تدلّ على تحريم الخيل ، لدلت على تحريم الحمر الأهلية ، وحينئذٍ

لا يكون ثم حاجة لتحديد التحريم لها عام خيبر، وقد قدّمنا أن هذه السورة مكية.

والحاصل: أن الأدلة الصحيحة قد دلت على حل أكل لحوم الخيل.

(261/432)

---

فلو سلمنا أن في هذه الآية متمسكاً للقائلين بالتحريم، لكانت السنة المطهرة الثابتة رافعة لهذا الاحتمال، ودافعة لهذا الاستدلال.

وقد أوضحنا هذه المسألة في مؤلفاتنا بما لا يحتاج الناظر فيه إلى غيره.

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: يخلق ما لا يحيط علمكم به من المخلوقات غير ما قد عدّده ها هنا.

وقيل: المراد: من أنواع الحشرات والهوامّ في أسافل الأرض، وفي البحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به.

وقيل: هو ما أعدّ الله لعباده في الجنة وفي النار مما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولا خطر على قلب بشر.

وقيل: هو خلق السوس في النبات، والدود في الفواكه؛ وقيل: عين تحت العرش؛ وقيل نهر من النور.

وقيل : أرض بيضاء ، ولا وجه للاقتصار في تفسير هذه الآية على نوع من هذه الأنواع ، بل المراد أنه سبحانه يخلق ما لا يعلم به العباد ، فيشمل كل شيء لا يحيط علمهم به ، والتعبير هنا بلفظ المستقبل لاستحضار الصورة ، لأنه سبحانه قد خلق ما لا يعلم به العباد .

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ القصد : مصدر بمعنى الفاعل ، فالمعنى : وعلى الله قاصد السبيل ، أي : هداية قاصد الطريق المستقيم بموجب وعده المحتوم وتفضله الواسع ؛ وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير : وعلى الله بيان قصد السبيل ، والسبيل : الإسلام ، وبيانه بإرسال الرسل وإقامة الحجج والبراهين .

والقصد في السبيل هو كونه موصلاً إلى المطلوب ، فالمعنى : وعلى الله بيان الطريق الموصل إلى المطلوب ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ الضمير في ﴿ منها ﴾ راجع إلى السبيل بمعنى : الطريق ، لأنها تذكر وتؤنث .

وقيل : راجع إليها بتقدير مضاف أي : ومن جنس السبيل جائر مائل عن الحق عادل عنه ، فلا يهتدي به ، ومنه قول امرىء القيس :

ومن الطريقة جائر وهدى . . . قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقيل : إن الطريق كناية عن صاحبها ، والمعنى : ومنهم جائر عن سبيل الحق : أي عادل عنه ، فلا يهتدي إليه ، قيل : وهم أهل الأهواء المختلفة ، وقيل : أهل الملل الكفرية ، وفي مصحف عبد الله " ومنكم جائر " ، وكذا قرأ عليّ ، ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أجمعين ﴾ أي : ولو شاء أن يهديكم جميعاً إلى الطريق الصحيح ، والمنهج الحق لفعل ذلك ، ولكنه لم يشأ ، بل اقتضت مشيئته سبحانه إراءة الطريق ، والدلالة عليها ﴿ وَشَفَتَيْنِ وهديناه النجدين ﴾ [ البلد : 10 ] .

وأما الإيصال إليها بالفعل ، فذلك يستلزم أن لا يوجد في العباد كافر ، ولا من يستحق النار من المسلمين ، وقد اقتضت المشيئة الربانية أنه يكون البعض مؤمناً ، والبعض كافراً كما نطق بذلك القرآن في غير موضع .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : لما نزل ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ ذعر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فسكنوا .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال : لما نزلت ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ قاموا ، فنزلت ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ قال : خروج محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن جريج قال : "لما نزلت هذه الآية ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾

قال رجال من المنافقين بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن أمر الله أتى ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء ، فنزلت ﴿ اقتربَ لِلنَّاسِ حسابهم ﴾ [ الأنبياء : 1 ] فقالوا : إن هذا يزعم مثلها أيضاً ، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء قالوا : ما نراه نزل شيء ، فنزلت ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [ هود : 8 ] .

الآية .

(263/432)

---

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ قال : الأحكام والحدود والفرائض .

وأخرج هؤلاء عن ابن عباس في قوله : ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح ﴾ قال : بالوحي .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، والبيهقي عنه قال : الروح أمر من أمر الله ، وخلق من خلق الله ، وصورهم على صورة بني آدم .

وما ينزل من السماء ملك إلاّ ومعه واحد من الروح .

ثم تلا ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [ النبأ : 38 ] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح ﴾ قال : القرآن .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ قال : الثياب ﴿ ومنافع ﴾ قال : ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة .

وأخرج عبد الرزاق ، والفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً ، قال : نسل كل دابة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ ﴾ يعني : مكة ﴿ لَّمْ تَكُونُواْ بالغيه إِلاَّ بِشِقّ الأنفس ﴾ قال : لو تكلفتموه ، لم تطيقوه إلاّ بجهد شديد .

وقد ورد في حلّ أكل لحوم الخيل أحاديث منها في الصحيحين وغيرهما ، من حديث أسماء ، قالت : نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلناه .

وأخرج أبو عبيد ، وابن أبي شيبة ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن جابر قال : أطعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية .

وأخرج أبو داود نحوه من حديثه أيضاً .

وهما على شرط مسلم .

وثبت أيضاً في الصحيحين من حديث جابر ، قال : " نهى رسول الله عن لحوم الحمر الأهلية ، وأذن في الخيل " وأما ما أخرجه أبو عبيد ، وأبو داود ، والنسائي من حديث خالد بن الوليد قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير " ، ففي إسناده صالح بن يحيى بن أبي المقدام ، وفيه مقال .

ولو فرضنا أن الحديث صحيح ، لم يقو على معارضة أحاديث الحلّ ، على أنه يكون أن هذا الحديث المصرّح بالتحريم متقدّم على يوم خيبر ، فيكون منسوخاً .

وأخرج الخطيب وابن عساكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال : "البراذين" .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مما خلق الله أرضاً من لؤلؤة بيضاء " ثم ساق من أوصافها ما يدلّ على أن الحديث موضوع ، ثم قال في آخره : "فذلك قوله ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ " .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السبيل ﴾ يقول : على الله أن يبين الهدى والضلالة .

﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ قال: السبل المتفرّقة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السبيل ﴾ قال: على الله بيان حلاله، وحرامه، وطاعته، ومعصيته ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ قال: من السبل ناكب عن الحق.

قال: وفي قراءة ابن مسعود "ومنكم جائر".

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ أنه كان يقرأ هذه الآية "ومنكم جائر". انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير حـ 3 صـ ﴾

*(265/432)*

---

وقال الشيخ الشنقيطى:

قوله تعالى: ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾.

اعلم أولاً ـ أن قصد السبيل: هو الطريق المستقيم القاصد، الذي لا اعوجاج فيه، وهذا المعنى معروف في كلام العرب. ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله... وعرى أفراس الصبا ورواحله

وأقصرت عما تعلمين وسددت... علي سوى قصد السبيل معادله

وقول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهدى . . . قصد السبيل منه ذو دخل

فإذا علمت ذلك فاعلمك أن في معنى الآية الكريمة وجهين معروفين للعماء ، وكل منهما له مصداق في كتاب الله ، إلا أن أحدهما أظهر عندي من الآخر .

الأول منهما – أن معنى ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ : أن طريق الحق التي هي قصد السبيل على اللهن أي موصلة إليه ، ليست حائدة ، ولا جائرة عن الوصول إليه وإلى مرضاته . ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ . أي ومن الطريق جائر لا يصل إلى الله ، بل هو زائغ وحائد عن الوصول إليه . ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [ الأنعام : 153 ] ، وقوله : ﴿ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [ يس : 61 ] .

ويؤيد هذا التفسير قوله بعده : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ وهذا الوجه أظهر عندي . واستظهره ابن كثير وغيره ، وهو قول مجاهد .

الوجه الثاني – أن معنى الآية الكريمة : ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ أي عليه جل وعلا أن يبين لكم طريق الحق على ألسنة رسله .

ويدل لهذا الوجه قوله تعالى : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [ النساء : 165 ] ، وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [

الإسراء : 15 ] ، وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين ﴾ [ التغابن : 12 ] إلى غير ذلك من الآيات .

*(266/432)*

---

وعلى هذا القول ، فمعنى قوله : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ غير واضح ، لأن المعنى : ومن طريق جائر عن الحق ، وهو الذي نهاكم الله عن سلوكه ، والجائر : المائل عن طريق الحق .

والوجهان المذكوران في هذه الآية جاريان في قوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ [ الليل : 12 ] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لو شاء هداية جميع خلقه لهداهم أجميعن . وأوضح هذا المعنى في آيات أخر ، كقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين ﴾ [ الأنعام : 35 ] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [ السجدة : 13 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ [ الأنعام : 107 ] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [ يونس : 99 ] الاية ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً . . . ﴾ [ هود : 118 ] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا هذا في سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مَّنْهُ شَرَابٌ ﴾ .

تقدم جل وعلا : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ النحل : 10-11 ] .

(267/432)

---

بين جل وعلا في هذت الأية الكريمة أن إنباته بالماء ما يأكله الناس من الحبوب والثمار ، وما تأكله المواشي من المرعى - من أعظم نعمه على بني آدم ، ومن أوضح آياته الدالة على أنه المستحق لأن يعبد وحده . وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة ، كقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ [ السجدة : 27 ] وقوله : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى ﴾ [ طه : 54 ] ، وقوله : ﴿ والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَاهَا والجبال أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [ النازعات : 30-33 ] ، وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصيد والنخل بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ

نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ ﴾ [ ق : 9-11 ] الآية وقوله : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أإله مَّعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [ النمل : 60 ] وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ [ النبأ : 14-16 ] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً .

تنبيهان

(268/432)

---

الأول – اعلم أن النظر في هذه الآيات واجب ، لما تقرر في الأصول " أن صيغة الأمر تقتضي الوجوب إلا لدليل يصرفها عن الوجوب " . والله جل وعلا أمر الإنسان أن ينظر إلى طعامه الذي به حياته ، ويفكر في الماء الذي هو سبب إنبات حبه – من أنزله ! ؟ ثم بعد إنزال الماء وري الأرض من يقدر على شق الأرض عن النبات وإخراجه منها ! ؟ ثم من يقدر على إخراج الحب من ذلك النبات ! ؟ ثم من يقدر على تنميته حتى يصير صالحاً للأكل ! ؟ ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [ الأنعام : 99 ] الآية . وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً

وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبّاً مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [ عبس : 24-32 ] .

وكذلك يجب على الإنسان النظر في الشيء الذي خلق منهن لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾ [ الطارق : 5 ] وظاهر القرآن : ان النظر في ذلك واجب ، ولا دليل يصرف عن ذلك .

التنبيه الثاني : اعلم أنه جل وعلا أشار في هذه الآيات من أول سورة " النحل " إلى براهين البعث الثلاثة ، التي قدمنا أن القرآن العظيم يكثر فيه الاستدلال بها على البعث .

الأول – خلق السموات والأرض المذكور في قوله :



---

﴿ خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ [ النحل : 3 ] الآية . والاستدلال بذلك على البعث ثير في القرآن ، كقوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا ﴾ [ النازعات : 27-28 ] إلى قوله : ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [ النازعات : 33 ] ، وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ [ الأحقاف : 33 ] ، وقوله : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ

خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] الآية ، وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ [ يس : 81 ] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم .

البرهان الثاني – خلق الإنسان أولاً المذكور في قوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [ النحل : 4 ] لأن من اخترع قادر على الإعادة ثانياً . وهذا يكثر الاستدلال به أيضاً على ابعث ، كقوله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [ يس : 79 ] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ ﴾ [ الروم : 27 ] الآية ، وقوله : ﴿ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ﴾ [ الحج : 5 ] ، وقوله : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ ق : 15 ] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم .



---

البرهان الثالث – إحياء الأرض بعد موتها المذكور هنا في قوله : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴾ [ النحل : 11 ] الآية ، فإنه يكثر في القرآن الاستدلال به على البعث أيضاً ، كقوله : ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ

الموتى ﴾ [ فصلت : 39 ] ، وقوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخروج ﴾ [ ق : 11 ] أي كذلك الأحياء خروجكم من قبوركم أحياء بعد الموت ، وقوله : ﴿ وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [ الروم : 19 ] أي من قبوركم أحياء بعد الموت ، وقوله : ﴿ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأعراف : 57 ] وقوله : ﴿ وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ الحج : 5-6 ] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم

فهذه البراهين الثلاثة يكثر جداً الاستدلال على البعث في كتاب الله كما رأيت وكما تقدم .

وهناك برهان رابع يكثر الاستدلال به على البعث أيضاً ولا ذكر له في هذه الأيات ، وهو إحياء الله بعض الموتى في دار الدنيا ، كنا تقدمت الإشارة إليه في " سورة البقرة " ، لأن من أحيا نفساً واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [ لقمان : 28 ] .

وقد ذكر جل وعلا هذا البرهان في " سورة البقرة " في خمسة مواضع .

الأول – قوله : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [ البقرة : 56 ] .

الثاني – قوله : ﴿ فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وُيرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [ البقرة : 73 ] .

الثالث – قوله جل وعلا : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ الله مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [ البقرة : 243 ] .

الرابع – قوله : ﴿ فَأَمَاتَهُ الله مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[ البقرة : 259 ] .

الخامس – قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطير فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجعل على كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادعهن يَأْتِينَكَ سَعْياً واعلم أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ البقرة : 260 ] .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [ النحل : 10 ] اي ترعون مواشيكم السائمة في ذلك الشجر الذي هو المرعى . والعرب تطلق اسم الشجر على كل ما تنبته الأرض من المرعى . ومنه قل النمر بن تولب العكلي :

إنا أتيناك وقد طال السفر . . . نقود خيلا ضمرا فيها صعر

نطعمها اللحم إذا عز الشجر . . . والعرب تقول : سامت المواشي إذا رعت في المرعى الذ

ينبته الله بالمطر . وأسامها صاحبها : اي رعاها فيه ، ومنه قول الشاعر :

مثل ابن بزعة أو كآخر مثله . . . أولى لك ابن مسيمة الأجمال

يعني يا بن راعية الجمال التي تسميها في المرعى .

وقوله : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع ﴾ [ النحل : 11 ] قرأه شعبة عن عاصم " ننبت " بالنون والباقون بالياء التحتية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(272/432)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) ﴾

جملة معترضة .

اقتضَتْ اعتراضَها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير .

فلما ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتُقِي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الرُّوحانية وهو سبيل الهدى ، فكان تعهّد الله بهذه السبيل نعمة أعظمَ من تيسير المسالك الجثمانية لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية .

وهذه السبيل هي موهبةُ العقل الإنساني الفارق بين الحقّ والباطل ، وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى الحقّ ، وتذكيرهم بما يغفلون عنه ، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقّة على خطر من التورّط في بنيّات الطريق .

فالسبيل : مجاز لما يأتيه الناس من الأعمال من حيث هي موصلة إلى دار الثواب أو دار العقاب ، كما في قوله : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ [ سورة يوسف : 108 ] .

ويزيد هذه المناسبة بياناً أنه لما شرحت دلائل التوحيد ناسب التنبيه على أن ذلك طريق للهدى ، وإزالة للعذر ، وأن من بين الطرق التي يسلكها الناس طريق ضلال وجور .

وقد استعير لتعهّد الله بتبيين سبيل الهدى حرف على ﴿ المستعار كثيراً في القرآن وكلام العرب لمعنى التعهّد ، كقوله تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ .

شبه التزام هذا البيان والتعهّد به بالحقّ الواجب على المحقوق به .

والقصد : استقامة الطريق .

وقع هنا وصفاً للسبيل من قبيل الوصف بالمصدر ، لأنه يقال : طريق قاصد ، أي مستقيم ، وطريق قصد ، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة كشأن الوصف بالمصادر ، وإضافة ﴿ قصد ﴾ إلى ﴿ السبيل ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، وهي صفة مخصّصة لأن التعريف في ﴿ السبيل ﴾ للجنس .

ويتعين تقدير مضاف لأن الذي تعهّد الله به هو بيان السبيل لا ذات السبيل .

وضمير ﴿ ومنها ﴾ عائد إلى ﴿ السبيل ﴾ على اعتبار جواز تأنيثه .

(273/432)

---

و ﴿ جائر ﴾ وصف ل ﴿ السبيل ﴾ باعتبار استعماله مذكراً .

أي من جنس السبيل الذي منه أيضاً قصد سبيل جائر غير قَصْد .

والجائر : هو الحائد عن الاستقامة .

وكنّي به عن طريق غير موصل إلى المقصود ، أي إلى الخير ، وهو المفضي إلى ضُرّ ، فهو جائر بسالكه .

ووصفه بالجائر على طريقة المجاز العقلي .

ولم يضف السبيل الجائر إلى الله لأن سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعاً لا يشهد له العقل الذي فطر الله الناس عليه ، وقد نهى الله الناس عن سلوكها .

وجملة ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ تذييل .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾

استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك

الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم.

وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي هُوَ لا غيرُه.

وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدّعون له شريكاً في ذلك، ولكنهم لما عَبدوا أصناماً لم تنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدّعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النّعم، فنزلوا منزلة من يدّعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

وإنزال الماء من السماء تقدم معناه عند قوله تعالى: ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ في سورة البقرة (22).

وذكَرَ في الماء منّتين: الشّراب منه، والإنبات للشجر والزّرع.

وجملة ﴿ لكم منه شراب ﴾ صفة لـ ﴿ ماء ﴾، و ﴿ لكم ﴾ متعلق بـ ﴿ شراب ﴾ قدم عليه للاهتمام، و ﴿ منه ﴾ خبر مقدم كذلك، وتقديمه سوّغ أن يكون المبتدأ نكرة.

والشراب: اسم للمشروب، وهو المائع الذي تشتفّه الشفتان وتُبلغه إلى الحلق فيبلعَ دون مضغ.

و(من) تبعيضية.

وقوله تعالى : ﴿ ومنه شجر ﴾ نظير قوله : ﴿ منه شراب ﴾ .

وأعيد حرف ( من ) بعد واو العطف لأن حرف ( من ) هنا للابتداء ، أو للسببية فلا يحسن عطف ﴿ شجر ﴾ على ﴿ شراب ﴾ .

والشجرَ : يطلق على النبات ذي الساق الصُلبة ، ويطلق على مطلق العُشب والكلأ تغليباً .

وروعي هذا التغليب هنا لأنه غالب مرعى أنعام أهل الحجاز لقلة الكلأ في أرضهم ، فهم يرعون الشعاري والغابات .

وفي حديث " ضالة الإبل تَشرب الماء وتَرعى الشجر حتى يأتيا ربّها " .

ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف ( في ) الظرفية ، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه والأكل مما تحته من العشب .

والإسامة : إطلاق الإبل للسّوْم وهو الرعي .

يقال : سامت الماشية فهي سائمة وأسامها ربّها .

﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ﴾

جملة ﴿ ينبت ﴾ حال من ضمير ﴿ أنزل ﴾ [ سورة النحل : 10 ] ، أي ينبت الله لكم .

وإنما لم يعطف هذا على جملة ﴿ لكم منه شراب ﴾ [ سورة النحل : 10 ] لأنّه ليس مما يحصل بنزول الماء وحده بل لا بدّ معه من زرع وغرس .

وهذا الإنبات من دلائل عظيم القدرة الربّانية ، فالغرض منه الاستدلال ممزوجاً بالتذكير بالنّعمة ، كما دلّ عليه قوله : لكم ﴾ على وزان ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ﴾ [ سورة النحل : 5 ] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ [ سورة النحل : 8 ] الآية .

وأسند الإنبات إلى الله لأنه الملهم لأسبابه والخالق لأصوله تنبيهاً للناس على دفع غرورهم بقدرة أنفسهم ، ولذلك قال : إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ لكثرة ما تحت ذلك من الدقائق .

وذكر الزرع والزيتون وما معهما تقدم غير مرة في سورة الأنعام .

والتفكّر تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ في سورة الأنعام ( 50 ) .

وإقحام لفظ قوم للدلالة على أن التفكّر من سجاياهم ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة ( 164 ) .

ومن كل الثمرات ﴾ عطف على ﴿ الزرع والزيتون ﴾ ، أي وينبت لكم به من كل الثمرات مما لم يذكر هنا .

والتعريف تعريف الجنس .

والمراد : أجناس ثمرات الأرض التي ينبتها الماء ، ولكل قوم من الناس ثمرات أرضهم وجَوّهم .

و﴿ من ﴾ تبعيضية قصد منها تنويع الامتنان على كل قوم بما نالهم من نعم الثمرات .

وإنما لم تدخل على الزرع وما عطف عليه لأنها من الثمرات التي تنبت في كل مكان .

وجملة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ تذييل .

والآية : الدلالة على أنه تعالى المبدع الحكيم .

وتلك هي إنبات أصناف مختلفة من ماء واحد ، كما قال : ﴿ تسقى بماء واحد ﴾ في سورة الرعد ( 4 ) .

ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير لأنها دلالة خفية لحصولها بالتدريج .

وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرّد الله بالإلهية بأنهم قوم لا يتفكرون .

وقرأ الجمهور ﴿ ينبت ﴾ بياء الغيبة .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بنون العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

(276/432)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) ﴾

والسبيل هو الطريق ؛ والقَصْد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول ( طريق قاصد ) أي : طريق لا دورانَ فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أنْ نصلَ إلى الغاية بأقلّ مجهود .

ونحن في لغتنا العاميّة نسأل جندي المرور " هل هذا الطريق ماشي ؟ " رغم أن الطريق لا يمشي ، بل أنت الذي تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصّلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجزك الأسباب تقول " خلّيها على الله " أي : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبِّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهي الجنة ،

جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل في الدنيا .

وأنت حين تقارن مَجْرى نهر النيل تجد فيه التفافاتٍ وتعرُّجات ؛ لأن الماء هو الذي حفر طريقه ؛ بينما تنظر إلى الرّيَاح التوفيقي مثلاً فتجده مستقيماً ؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصد معين . وحين يكون قَصْد السبيل على الله ؛ فالله لا هَوى له ولا صاحبَ ، ولا ولدَ له ، ولا يحابي أحداً ، وكلُّ الخَلْق بالنسبة له سواء ؛ ولذلك فهو حين يضع طريقاً فهو يضعُه مستقيماً لا عِوجَ فيه ؛ وهو الحق سبحانه القائل : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [ الفاتحة : 6 ] .

أي : الطريق الذي لا التواءَ فيه لأيّ غَرَض ، بل الغرض منه هو الغاية بأيسر طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل . . . ﴾ [ النحل : 9 ] .

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان في حواره مع الله قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ ص : 82-83 ] .

وردَّ الحق سبحانه : ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [ الحجر : 41 ] .

والحق أيضاً هو القائل : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ [ الليل : 12 ] .

أي : أنه حين خلق الإنسان أوضح له طريق الهداية ، وكذلك يقول سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النجدين ﴾ [ البلد : 10 ] .

أي : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طُرق الحق من الباطل ، وهكذا يكون قوله هنا :

﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ [ النحل : 9 ] .

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله سبحانه ، والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذي لا هَوى له ، والخَلْق كلهم سواء أمامه .

وهكذا . . فعلى المُفكّرين ألاَّ يُرهِقوا أنفسهم بمحاولة وَضْع تقنين من عندهم لحركة الحياة ، لأن واجدَ الحياة قد وضع لها قانون صيانتها ، وليس أدلّ على عَجْز المفكرين عن وضع قوانين تنظيم حياة البشر إلا أنهم يُغيِّرون من القوانين كل فَتْرة ، أما قانون الله فخالد باقٍ أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فمِنَ المُريح للبشر أنْ يسيروا على منهج الله والذي قال فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أنْ يُطبِّقوه ؛ وما تركه الله لنا نجتهد فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل . . . ﴾ [ النحل : 9 ] .

أي : أنه هو الذي جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التي وضعها سبحانه ، ذلك أن من

السُّبل ما هو جائر ؛ ولذلك قال :

﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ .

. . ﴾ [ النحل : 9 ] .

ولكي يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . . ﴾ [ المؤمنون : 71 ] .

بينما السبيل العادلة المستقيمة هي السبيل المُتكفّل بها سبحانه ، وهي سبيل الإيمان ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر أي : يُطِيل المسافة عليك ، أو يُعرِّضك للمخاطر ، أو توجد بها مُنْحنيات تُضِل الإنسانَ ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

(278/432)

---

ونعلم أن السبيل تُوصّل بين طرفين ( من وإلى ) وكل نقطة تصل إليها لها أيضاً ( من وإلى ) وقد شاء الحق سبحانه ألاَّ يقهرَ الإنسانَ على سبيل واحد ، بل أراد له أنْ يختار ، ذلك أن التسخير قد أراده الله لغير الإنسان مِمَّا يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً ومَنْ يعصي أوامره ، وكل البشر مَجْموعون إلى حساب ، ومَن اختار طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحباً ،

ويُثبت له المحبوبية التي هي مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أنْ يُثبتَ لنفسه طلاقة القَهْر لخَلقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخَّر الكائنات الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول في آخر الآية :

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ النحل : 9 ] .

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [ الإسراء : 44 ] .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السماوات والأرض والطير صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [ النور : 41 ] .

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أي : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالبَ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ هُوَ الذي أَنْزَلَ . . . ﴾ .

وقوله :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً . . . ﴾ [ النحل : 10 ] .

يبدو قولاً بسيطاً ؛ ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التي تُقطِّر المياه وتُخلِّصها من الشوائب لَعلِمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافي من المطر .

والسماء كما نعلم هي كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذي يجيء نتيجة تبخير الشمس

للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوَّن البخار الذي يتصاعد ، ثم يتكثَّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛ وينزل المطر على الأرض .



---

ونعلم أن الكرة الأرضية مُكوَّنة من محيطات وبحار تُغطِّي ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضية ؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط في مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التي تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمي لِتكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ ﴾ [ النور : 43 ] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [ النحل : 10 ] .

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ

يشربَ الماء المالح الموجود في البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أن جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً ؛ فالمِلْح يحفظ المياه من الفساد .

وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحاباً ، ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذي يُغذِّي الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت الماء الزرع الذي نأكل منه .

وكلمة ﴿ شَجَرٌ ﴾ تدلُّ على النبات الذي يلتفُّ مع بعضه . ومنها كلمة " مشاجرة " والتي تعني التداخل من الذين يتشاجرون معاً .

والشجر أنواع ؛ فيه مغروس بمالك وهو مِلْك لِمَنْ يغرسه ويُشرِف على إنباته ، وفي ما يخرج من الأرض دون أنْ يزرعه أحد وهو مِلْكية مشاعة ، وعادة ما نترك فيه الدَّواب لترعى ، فتأكل منه دون أنْ يردَّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [ النحل : 10 ] .



---

من سَام الدابة التي تَرْعى في المِلْك العام ، وساعة ترعى الدابة في المِلْك العام فهي تترك آثارها من مَسَارب وعلامات . ويُسمُّون الأرضَ التي يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان

بأنها " روضة أُنُف " بمعنى أن أحداً لم يَأْتِ إليها أو يَقربها ؛ كأنها أنفت أنْ يقطف منها شيء .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ . . . . ﴾ .

وهكذا يُعلِمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبته ، وهنا يَخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التي لها أَثَر في الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات .

والزيتون كما نعلم يحتوي على مواد دُهْنية ؛ والعنب يحتوي على مواد سُكرية ، وكذلك النخيل الذي يعطي البلح وهو يحتوي على مواد سُكرية ، وغذاء الإنسان يأتي من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يُوضِّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوِّنات الغذاء ؛ فهو القائل : ﴿ والتين والزيتون * وَطُورِ سِينِينَ * وهذا البلد الأمين * لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [ التين : 1-4 ] .

أي : أنه جعل للإنسان في قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التي تصون حياته .

وحين يرغب الأطباء في تغذية إنسان أثناء المرض ؛ فهم يُذِيبون العناصر التي يحتاجها للغذاء في السوائل التي يُقطِّرونها في أوردته بالحَقْن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه

الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكَّون من نوعين ؛ غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلا يملأ البطن ، ويمدُّها بالألياف التي تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْب يُغذّي ويضمن السِّمنة والوَفْرة في اللحم .

وحين يقول الحق سبحانه :

(281/432)

---

﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ [ النحل : 11 ]

.

فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول في ضَوْء قَوْل الحق سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [ الواقعة : 64 ] .

ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط ، أما الذي يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قد حرثتَ بالحديد الذي أودعه الله في الأرض فاستخرجْتَه أنت ؛ وبالخشب الذي أنبته الله ؛ وصنعتَ أنت منهما المحراث الذي تحرث به في الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التي حرثتَ بها ممنوحة لك من الله .

ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هي من عطائه ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات ﴾ [ النحل : 11 ] .

أي : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهي أكثر من أن تُعَد

.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ النحل : 11 ] .

أي : على الإنسان أنْ يُعمِلَ فكره في مُعْطيات الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات ، ويُحدِّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأنْ يفعَل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذكِّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتساند أفكارنا ؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تؤدي إلى الله لا بُدَّ أنْ يقولها لغيره .

ونجد في القرآن آيات تنتهي بالتذكُّر والتفكُّر وبالتدبُّر وبالتفقُّه ، وكُلٌّ منها تؤدي إلى العلم اليقيني ؛ فحين يقول " يتذكرون " فالمعنى أنه سبق الإلمام بها ؛ ولكن النسيان محاها ؛ فكأن مِنْ مهمتك أنْ تتذكَّر .

أما كلمة " يتفكرون " فهي أُمّ كل تلك المعاني ؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ، أنْ

تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن ﴾ [ النساء : 82 ] .

(282/432)

---

وهذا يعني ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كي تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوّنة من أربع مراحل : تفكُّر ، فتدبُّر ، فتفقُّه ، فمعرفة وعِلْم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير الشعراوى صـ ﴾

(283/432)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

يَذَّكَّرُونَ ) ( النحل : 11-13 ) . يسأل عن توحيد آية ( في الآية ) الأولى والثالثة وجمعها في الآية الثانية المتوسطة ؟ وعن تعقيب الأولى بقوله : ( لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) وتعقيب الثانية بقوله : ( لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) والثالثة بقوله : ( لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ) ؟



---

والجواب عن السؤال الأول : أن الإشارة بقوله : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) في الآية الأولى إلى المنزل من السماء في قوله : ( هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ) ( النحل : 10 ) ، ثم قال : ( يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ) ( النحل : 11 ) أي ينبت لكم بالماء المنزل من السماء -مع وحدته في الصفة- ضروب الأقوات والفواكه وأنواع الثمرات فقيل : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ) بالإفراد ، لأن الإشارة إلى الماء أو إلى إنبات أنواع الثمرات المختلفات في الطعن والألوان مع وحدة المادة من الماء وهو واحد ، وكذلك الآية الثالثة الإشارة فيها إلأى الجنس الواحد الواقع عليه لفظ ( ما ) من قوله : ( وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ) فأفرد هذا الضمير أيضاً لرجوعه إلى (( ما ) ) الواقعة على جنس واحد مبثوث في الأرض يشتكل على أنواع مختلفة في الطعوم والألوان ، فأفرد لفظ الآية لما أفرد لفظ الضمير لوقوع ذلك على الجنس الذي عبرت عنه ((

ما ) ) ، وهو جنس واحد ، فاقتضى ذلك إفراد آية . وأما الآية المتوسطة فالإشارة فيها إلى خمسة أشياء مختلفة ، أحيل عليها في الاعتبار ، وسخرت لنا تسخيراً به قوام معشنا وصح أحوالنا ومعرفة حسابنا ، وهي الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وكل واحد من هذه تتسع جهات النظر فيه والاعتبار بعجائبه ، فالليل للسكون والراحة والنهار للاكتساب والتصرف والسياحة ، والشمس للإضاءة والتسخين ، والقمر للنورية والترطيب والتكوين ، وبكلا النيرين معرفة الشهور والسنين ،



---

( لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ) ( يس : 40 ) ، والنجوم للاهتداء في ظلمات البراري والبحار ، وجهات الاعتبار بهذه الخمس يفوت الإحصاء ، فللإشارة إلى هذه المتعددات جمع فقيل : ( ( لآيات ) ) .

والجواب الثاني ، وهو وصف المعتبرين في الآية الأولى بالتفكير وفي الثانية بالعقل وفي الثالثة بالتذكير : أن إنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومختلف الثمرات بالماء المنزل من السماء مع كونه واحداً والمنبت مختلف الأنواع والطعوم والمنافع أمر يوصل إلى تعرفه وارتباطه باستعمال الفكر في ذلك وإن لم يطل ، بشرط السلامة من الغفلة ، فيحصل بمجرد

الفكر على عظيم المعتبر. وأما تسخير الليل والنهار إلى ما ذكر معهما فلا يكتفي في (معرفة) ذلك والحصول على الاعتبار به بمجرد الفكر، فإن العلم بتسخير هذه مما يغمض ويخفى إلا على ذوي البصائر والفطن السليمة والعقول الراجحة، فلم يقنع التفكر هنا بل وصف المعتبر بها بما هو فوق الفكر، وتأصل ما تعقب به موضوع الاعتبار في قوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ) (البقرة: 164)، إلى قوله: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: 164)، لما كان في الاعتبار بما انطوت عليه الآية غموض وخفاء قيل: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، وأما الآية الثالثة وهي قوله: (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) (النحل: 13) ببدأة الفكر السالم، فقصد التذكير كاف في حصول الاعتبار بذلك. فإذا تأملت ما ذكرناه ألفيت ذلك كله وارداً على أجل مناسبة، وعملت أن كل آية من هذه الثلاث لا يناسبها إلا ما أعقب به. انتهى. اهـ

﴿ ملاك التأويل صـ 294. 295 ﴾



---

فائدة

قال التسترى:

وسئل عن قوله : ﴿ وَمِن كُلِّ الثمرات إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [ 11 ] وقال بعدها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ [ 12 ] فقال : لأن الثمرات من نوع واحد ، والليل والنهار نوعان ، وكذلك الشمس والقمر ، فقال : ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [ 12 ] .

واعلم أن الله تعالى لما أراد إظهار علمه أودع علمه العقل ، وحكم أنه لا يصل أحد إلى شيء منه إلا بالعقل ، فمن فاته العقل فقد فاته العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 90 ﴾

(287/432)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ لكم فيها دفء ﴾ قال : الثياب ﴿ ومنافع ﴾ قال : ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ لكم فيها دفء ومنافع ﴾ قال : نسل كل دابة .

وأخرج الديلمي عن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " البركة في الغنم ، والجمال في الإبل " .

وأخرج ابن ماجة عن عروة البارقي ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الابل عزّ لأهلها ، والغنم بركة " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة في قوله ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ﴾ قال : إذا راحت كأعظم ما يكون أسنمة ، وأحسن ما تكون ضروعاً ﴿ وحين تسرحون ﴾ قال : إذا سرحت لرعيها . قال قتادة : وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، سئل عن الإبل فقال : " هي عز لأهلها " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد ﴾ قال يعني مكة ﴿ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ قال : لو تكلفتموه لم تطيقوه إلا بجهد شديد .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن مجاهد في قوله ﴿ إلا بشق الأنفس ﴾ قال : مشقة عليكم .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله تعالى إنما سخرها لكم لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم " .

وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه عن معاذ بن أنس ، عن أبيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال لهم : " اركبوا هذه الدواب سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبه خير من راكبها ، وأكثر ذكراً لله تعالى منه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن دينار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي لأحاديثكم ، فرب راكب مركوبة هي خير منه وأطوع لله منه وأكثر ذكراً " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن حبيب قال : كان يكره طول الوقوف على الدابة ، وأن تضرب وهي محسنة .

وأخرج أحمد والبيهقي ، عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو غفر لكم ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثير " .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ لتركبوها وزينة ﴾ قال : جعلها لتركبوها وجعلها زينة لكم .

وأخرج ابن أبي حاتم، عن قتادة: أن أبا عياض كان يقرؤها ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ يقول: جعلها زينة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

(289/432)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة، عن وهب بن منبه قال: بلغني أن الله لما أراد أن يخلق الفرس قال لريح الجنوب: إني خالق منك خلقاً، أجعله عزاً لأوليائي، ومذلة لأعدائي، وحمى لأهل طاعتي، فقبض من الريح قبضة، فخلق منها فرساً، فقال: سميتك فرساً وجعلتك عربياً، الخير معقود بناصيتك والغنائم محازة على ظهرك، والغنى معك حيث كنت، ارعاك لسعة الرزق على غيرك من الدواب، وجعلتك لها سيداً، وجعلتك تطير بلا جناحين، فأنت للطلب، وأنت للهرب، وسأحمل عليك رجالاً يسبحوني، فتسبحني معهم إذا سبحوا، ويهللوني، فتهللني معهم إذا هللوا، ويكبروني، فتكبرني معهم إذا كبروا، فلما صهل الفرس؛ قال: باركت عليك، أرهب بصهيلك المشركين، أملأ منه آذانهم، وأرعب منه قلوبهم، وأذل به أعناقهم، فلما عرض الخلق

على آدم وسماهم ، قال الله تعالى : يا آدم ، اختر من خلقي من أحببت ، فاختار الفرس ، فقال الله اخترت عزك ، وعز ولدك باق فيهم ما بقوا ، وينتج منه أولادك أولاداً ، فبركتي عليك وعليهم ، فما من تسبيحة ولا تهليلة ولا تكبيرة تكون من راكب الفرس إلا والفرس تسمعها وتجيبه مثل قوله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، عن سعيد بن جبير قال : سأل رجل ابن عباس ، عن أكل لحوم الخيل ، فكرهها وقرأ ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل ويقول : قال الله ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ فهذه للأكل ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ فهذه للركوب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن مجاهد أنه سئل عن لحوم الخيل ؟ فقال ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن الحكم في قوله ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ فجعل منه الأكل ، ثم قرأ ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ قال : لم يجعل لكم فيها أكلاً وكان الحكم يقول : الخيل والبغال والحمير حرام في كتاب الله .

وأخرج أبو عبيد وأبو داود والنسائي وابن المنذر ، عن خالد بن الوليد قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل كل ذي ناب من السباع ، وعن لحوم الخيل والبغال والحمير " .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار ، عن جابر بن عبد الله قال : طعمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الخيل ، ونهانا عن لحوم الحمر الأهلية .

وأخرج أبو داود وابن أبي حاتم من طريق أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله أنهم ذبحوا يوم خيبر الحمير والبغال والخيل ، فنهاهم النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الحمير والبغال ، ولم ينههم عن الخيل .

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء ، عن جابر قال : كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : والبغال ؟ قال : أما البغال فلا .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن المنذر ، عن أسماء قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً ، فأكلناه .

وأخرج أحمد ، عن دحية الكلبي قال : " قلت يا رسول الله ، أحمل لك حماراً على فرس ، فينتج لك بغلاً وتركبها ؟ قال : " إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون " " .

وأخرج الخطيب في تاريخه ، وابن عساكر ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال البراذين .

وأخرج ابن عساكر ، عن مجاهد في قوله ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ قال السوس في الثياب .



---

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن مما خلق الله لأرضاً من لؤلؤة بيضاء مسيرة ألف عام عليها جبل من ياقوتة حمراء محدق بها ، في تلك الأرض ملك قد ملأ شرقها وغربها ، له ستمائة رأس ، في كل رأس ستمائة وجه ، في كل وجه ستون ألف فم . في كل فم ستون ألف لسان ، يثني على الله ويقدسه ويهلله ويكبره ، بكل لسان ستمائة ألف وستين ألف مرة ، فإذا كان يوم القيامة نظر إلى عظمة الله ، فيقول وعزتك ما عبدتك حق عبادتك " فذلك قوله ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن الشعبي قال إن لله عباداً

من وراء الأندلس ، كما بيننا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق ، رضراضهم الدر والياقوت ، وجبالهم الذهب والفضة ، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملاً ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هي طعامهم ، وشجر لها أوراق عراض هي لباسهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن وهب أنه قيل له : أخبرنا من أتى سعالة الريح ، وانه رأى بها أربع نجوم كأنها أربعة أقمار ؟ فقال وهب : ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(292/432)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ : ﴿ ﴾ الضمير يعود على السبيل لأنها تُؤَنَّث : ﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾ [ يوسف : 108 ] ، أو لأنها في معنى سُبُل ، فأَنَّث على معنى الجمع .

والقَصْدُ مصدرٌ يُوصَفُ به فهو بمعنى قاصِد ، يُقال : سبيلٌ قَصْدٌ وقاصِدٌ ، أي : مستقيم كأنه يَقْصِد الوجهَ الذي يَؤُمُّه السَّالكُ لا يَعْدِل عنه . وقيل : الضمير يعود على الخلائق

ويؤيِّده قراءةُ عيسى وما في مصحف عبد الله : " ومنكم جائِزٌ " ، وقراءةُ عليٍّ : " فمنكم جائر " بالفاء .

وقيل : أل في السبيل للعَهْدِ ، فعلى هذا يعود الضميرُ على " السبيل " التي يتضمَّنها معنى الآية كأنه قيل : ومِن السبيل ، فأعاد عليها وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ؛ لأنَّ مقابلَها يَدُلُّ عليها .

وأمَّا إذا كانت أل للجنس فتعودُ على لفظها .

والجَوْرُ : العُدولُ عن الاستقامةِ . قال النابغة :

2962- . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . يَجُور بها الملاَّحُ طَوْراً ويَهْتدي

وقال آخر :

2963- ومن الطريقةِ جائرٌ وهُدىً . . . قَصْدُ السبيلِ ومنه ذُو دَخْلِ

وقال أبو البقاء : " وقَصْدُ مصدرٌ بمعنى إقامةِ السبيل وتَعْديلِ السبيلِ ، وليس مصدرَ قصَدْتُه بمعنى أَتَيْتُه " .

﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ : يجوزُ في " لكم " أن يتعلَّقَ ب " أَنْزَلَ " ، ويجوزُ أن يكونَ صفةً ل " ماءً " ، فيتعلَّقَ بمحذوفٍ ، فعلى الأولِ يكون " شرابٌ " مبتدأً و " منه " خبرُه مقدَّمٌ عليه ، والجملةُ أيضاً صفةٌ ل " ماءً " وعلى الثاني يكون " شرابٌ " فاعلاً بالظرف ، و " منه " حالٌ من " شراب " . و " مِنْ " الأولى للتبعيض ، وكذا الثانيةُ عند بعضِهم ، لكنه مجاز لأنه لَمَّا كان سَقْيُه بالماء جُعِل كأنه من الماء كقوله :

2946- أَسنِمَةَ الآبالِ في رِبابَهْ . . . أي : في سَحابة ، يعني به المطرَ الذي يَنْبُتُ به الكلأُ الذي تأكُله الإِبلُ فَتَسْمَنُ أَسْنِمَتُها .

وقال أبو بكر بن الأنباري : " هو على حذف مضاف إمَّا من الأول ، يعني قبل الضمير ، أي : مِنْ سَقْيِه وجهتِه شجرٌ ، وإمَّا من الثاني ، يعني قبل شجر ، أي : شُرْب شجر أو حياة شجر " . وجعل أبو البقاء الأولى للتبعيض والثانية للسببية ، أي : بسببه ، ودلَّ عليه قولُه : ﴿ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع ﴾ .

والشَّجَرُ هنا : كلُّ نباتٍ من الأرض حتى الكَلأُ ، وفي الحديث : " لا تأكُلوا الشجرَ فإنه سُحْتٌ " يعني الكلأ ، ينهى عن تحجُّر المباحاتِ المحتاجِ إليها بشدة . وقال :

2965- نُطْعِمُها اللحمَ إذا عَزَّ الشجَرْ . . . وهو مجازٌ ؛ لأنَّ الشجرَ ما كان له ساقٌ .

قوله : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ هذه صفةٌ أُخرى ل " ماءً " . والعامَّةُ على " تُسِيمون " بضمِّ الياء مِنْ أسام ، أي : أَرْسَلَها لِتَرْعى ، وزيد بن علي بفتحِها ، فيحتمل أن يكونَ متعدياً ،

ويكون فعَل وأَفْعَل بمعنى ، ويحتمل أن يكون لازماً على حذفِ مضافٍ ، أي : تَسِيْمُ مواشِيَكُمْ .

﴿ نْبتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) ﴾

(294/432)

---

قوله تعالى : ﴿ يُنبِتُ ﴾ : تحتمل هذه الجملةُ الاستئنافَ والتبعيةَ كما في نظيرِتها . ويقال : " أَنْبت اللهُ الزرعَ " فهو مَنْبُوت ، وقياسه مُنْبَتٌ . وقيل : " أَنْبت " قد يجيْءُ لازماً كـ " نَبَت " أنشد الفراء :

2966- رأيتَ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتِهمْ . . . قَطِيناً لهم حتى إذا أَنْبتَ البَقْلُ

وأباه الأصمعي ، والبيتُ حجةٌ عليه ، وتأويلُه بـ " أَنبت البقلُ نفسَه " على المجاز بعيدٌ جداً .

وقرأ أبو بكر " نُنْبِتُ " بنون العظمة ، /والزهري " نُنَبِّتُ " بالتشديد . والظاهر أنه تضعيف المتعدي . وقيل : بل للتكرير . وقرأ أُبَي " يَنْبُت " بفتحِ الياءِ وضم الباء ، " الزَّرعُ " وما بعده رفعٌ بالفاعلية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 196 . 199 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) ﴾

قومٌ هداهم السبيل ، وعرَّفهم الدليل ، فصرف عن قلوبهم خواطر الشكّ ، وعَصَمَهم عن الجُحْدِ والشِّرْك ، وأَطْلَعَ في قلوبهم شمسَ العرفان ، وأفردهم بنور البيان . وآخرون أضلّهم وأغواهم ، وعن شهود الحُجَجِ أعماهم ، وفي سابق حكْمِه من غير سببٍ أَذَلَّهم وقمعهم ، ولو شاء لعرّفهم وهداهم .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) ﴾

أنزل المطر وجعل به سُقيا النبات ، وأجرى العادة بأن يديمَ به الحياة ، وينبت به الأشجار ، ويخرج الثمار ، ويجري الأنهار .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ثم قال بعده بآيات : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ثم

قال بعده : ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة ؛ فأولاً التفكر ثم العلم ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خَلَلٌ وجب له العلم لا محالة ، ولا فرق بين العلم والعقل في الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

ويقال إنما قال : ﴿ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير عارفاً بربّه آياتٌ ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ، فبدليل واحد يعلم وَجْهَ النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 287 . 288 ﴾

(296/432)

---

قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ربما قال بعض الضلال : إن هذه الأشياء مستندة إلى تأثير الأفلاك ، نبه على أنها لا

تصلح لذلك بكونها متغيرة فلا بد لها من قاهر أثر فيها التغير ، ولا يزال الأمر كذلك إلى أن ينتهي إلى واحد قديم فاعل بالاختيار ، لما تقرر من بطلان التسلسل ، فقال تعالى :

﴿ وسخر لكم ﴾ أي أيها الناس لإصلاح أحوالكم ﴿ الّيل ﴾ للسكنى ﴿ والنهار ﴾ للابتغاء ؛ ثم ذكر آية النهار فقال تعالى : ﴿ والشمس ﴾ أي لمنافع اختصها بها ، ثم ذكر آية الليل فقال : ﴿ والقمر ﴾ لأمور علقها به ﴿ والنجوم ﴾ أي لآيات نصبها لها ، ثم نبه على تغيرها بقوله : ﴿ مسخرات ﴾ أي بأنواع التغير لما خلقها له على أوضاع دبرها ﴿ بأمره ﴾ سبباً لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم ، دلالة على وحدانيته وفعله بالاختيار ، ولو شاء لأقام أسباباً غيرها أو أغنى عن الأسباب .

ولما كان أمرها مع كونه محسوساً - ليس فيه من المنافع القريبة الأمر السهلة الملابسة ما يشغل عن الفكر فيه ، لم يحل أمره إلى غير مطلق العقل ، إشارة إلى وضوحه وإن كان لا بد فيه من استعمال القوة المفكرة ، ولأن الآثار العلوية أدل على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة ، فقال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي التسخير العظيم ﴿ لآيات ﴾ أي كثيرة متعددة عظيمة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ وجمع الآيات لظهور تعدادها بالتحديث عنها مفصلة .

ولما كان ما مضى موضعاً للتفكر المنتج للعلم بوحدة الصانع واختياره ، وكان التفكر في ذلك مذكراً بما بعده من سر التفاوت في اللون الذي لا يمكن ضبط أصنافه على التحرير ، وكان في ذلك تمام إبطال القول بتأثير الأفلاك والطبائع ، لأن نسبتها إلى جميع أجزاء الورقة الواحدة والحبة الواحدة واحدة ، قال تعالى عطفاً على الليل : ﴿ وما ذرأ ﴾ أي خلق وبث وفرق التراب والماء ﴿ لكم ﴾ أي خاصة ، فاشكروه واعلموا أنه ما خصكم بهذا التدبير العظيم إلا لحكم كبيرة أجلّها إظهار جلاله يوم الفصل ﴿ في الأرض ﴾ أي مما ذكر ومن غيره حال كونه ﴿ مختلفاً ألوانه ﴾ حتى في الورقة ، الواحدة ، فترى أحد وجهيها – بل بعضه – في غاية الحمرة ، والآخر في غاية السواد أو الصفرة ونحو ذلك ، فلو كان المؤثر موجباً بالذات لامتنع حصول هذا التفاوت في الآثار ، فعلم قطعاً أنه إنما هو قادر مختار ، ولم يذكر اختلاف الصور لأن دلالتها – لأجل اختلاف أشكال النجوم من السماء وصور الجبال والروابي والوهاد من الأرض – ليست على إبطال الطبيعة كدلالة اختلاف اللون . ولما كان ذلك – وإن كان خارجاً عن الحد في الانتشار – واحداً من جهة كونه لوناً ، وحد الآية فقال : ﴿ إن في ذلك ﴾ الذي ذرأه في هذه الحال على هذا الوجه العظيم ﴿ لآية ﴾ ولما نبه في التي قبلها على أن الأمر وصل في الوضوح إلى حد لا يحتاج معه إلى غير بديهة العقل ، نبه هنا على أن ذلك معلوم طرأ عليه النسيان والغفلة ، حثاً على بذل الجهد في تأمل ذلك ، وإشارة إلى أن دلالته على المقصود في غاية الوضوح فقال : ﴿ لقوم يذكرون ﴾ ولو لم يمنعوا

- بما أفاده الإدغام؛ والتذكر : طلب المعنى بالتفكر في متعلقه ، فلا بد من حضور معنى يطلب به غيره ، وقد رتب سبحانه ذلك أبدع ترتيب ، فذكر الأجسام المركبة عموماً ، ثم خص الحيوان ، ثم مطلق الجسم النامي وهو النبات ، ثم البسائط من الماء ونحوه ، ثم الأعراض من الألوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 4 صـ 252 . 253 ﴾

(298/432)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

(299/432)

اعلم أن الله تعالى لما أجاب في هذه الآية عن السؤال الذي ذكرناه من وجهين : الأول : أن نقول : إن حدوث الحوادث في هذا العالم السفلي مسندة إلى الاتصالات الفلكية والتشكلات الكوكبية إلا أنه لا بد لحركاتها واتصالاتها من أسباب ، وأسباب تلك الحركات إما ذواتها وإما أمور مغايرة لها ، والأول باطل لوجهين : الأول : أن الأجسام متماثلة ، فلو كان جسم علة لصفة لكان كل جسم واجب الاتصاف بتلك الصفة وهو محال ، والثاني : أن ذات الجسم لو كانت علة لحصول هذا الجزء من الحركة لوجب دوام هذا الجزء من الحركة بدوام تلك الذات ، ولو كان كذلك ، لوجب بقاء الجسم على حالة واحدة من غير تغير أصلاً ، وذلك يوجب كونه ساكناً ، ويمنع من كونه متحركاً ، فثبت أن القول بأن الجسم متحرك لذاته يوجب كونه ساكناً لذاته وما أفضى ثبوته إلى عدمه كان باطلاً ، فثبت أن الجسم يمتنع أن يكون متحركاً لكونه جسماً ، فبقي أن يكون متحركاً لغيره ، وذلك الغير إما أن يكون سارياً فيه أو مبايناً عنه ، والأول باطل ، لأن البحث المذكور عائد في أن ذلك الجسم بعينه لم اختص بتلك القوة بعينها دون سائر الأجسام ، فثبت أن محرك أجسام الأفلاك والكواكب أمور مباينة عنها ، وذلك المباين إن كان جسماً أو جسمانياً عاد التقسم الأول فيه ، وإن لم يكن جسماً ولا جسمانياً فإما أن يكون موجباً بالذات أو فاعلاً مختاراً والأول باطل ، لأن نسبة ذلك الموجب بالذات إلى جميع الأجسام على السوية ، فلم

يكن بعض الأجسام بقبول بعض الآثار المعينة أولى من بعض ، ولما بطل هذا ثبت أن محرك الأفلاك والكواكب هو الفاعل المختار القادر المنزه عن كونه جسماً وجسمانياً ، وذلك هو الله تعالى ، فالحاصل أنا ولو حكمنا بإسناد حوادث العالم السفلي إلى الحركات الفلكية والكوكبية فهذه الحركات الكوكبية والفلكية لا يمكن إسنادها إلى أفلاك أخرى وإلا لزم التسلسل وهو محال ، فوجب أن يكون خالق هذه الحركات ومدبرها هو



---

الله تعالى ، وإذا كانت الحوادث السفلية مستندة إلى الحركات الفلكية ، وثبت أن الحركات الفلكية حادثة بتخليق الله تعالى وتقديره وتكوينه ، فكان هذا اعترافاً بأن الكل من الله تعالى وبإحداثه وتخليقه ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ يعني إن كانت تلك الحوادث السفلية لأجل تعاقب الليل والنهار وحركات الشمس والقمر ، فهذه الأشياء لا بد وأن يكون حدوثها بتخليق الله تعالى وتسخيره قطعاً للتسلسل ، ولما تم هذا الدليل في هذا المقام لا جرم ختم هذه الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يعني أن كل من كان عاقلاً علم أن القول بالتسلسل باطل ولا بد من الانتهاء في آخر الأمر إلى الفاعل المختار القدير فهذا تقرير أحد الجوابين .

والجواب الثاني عن ذلك السؤال أن نقول : نحن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث النبات والحيوان لأجل تأثير الطباع والأفلاك والأنجم ، وذلك لأن تأثير الطبائع والأفلاك والأنجم والشمس والقمر بالنسبة إلى الكل واحد ، ثم نرى أنه إذا تولد العنب كان قشره على طبع وعجمه على طبع ولحمه على طبع ثالث وماؤه على طبع رابع ، بل نقول : إنا نرى في الورد ما يكون أحد وجهي الورقة الواحدة منه في غاية الصفرة ، والوجه الثاني من تلك الورقة في غاية الحمرة وتلك الورقة تكون في غاية الرقة واللطافة ، ونعلم بالضرورة أن نسبة الأنجم والأفلاك إلى وجهي تلك الورقة الرقيقة ، نسبة واحدة ، والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تفعل إلا فعلاً واحداً ، ألا ترى أنهم قالوا : شكل البسيط هو الكرة لأن تأثير الطبيعة الواحدة في المادة الواحدة يجب أن يكون متشابهاً ، والشكل الذي يتشابه جميع جوانبه هو الكرة ، وأيضاً إذا وضعنا الشمع فإذا استضاء خمسة أذرع من ذلك الشمع من أحد الجوانب ، وجب أن يحصل مثل هذا الأثر في جميع الجوانب ، لأن الطبيعة المؤثرة يجب أن تتشابه نسبتها إلى كل الجوانب .

إذا ثبت هذا فنقول : ظهر أن نسبة الشمس والقمر والأنجم والأفلاك والطبائع إلى وجهي

تلك الورقة اللطيفة الرقيقة نسبة واحدة ، وثبت أن الطبيعة المؤثرة متى كانت نسبتها واحدة كان الأثر متشابهاً وثبت أن الأثر غير متشابه ، لأن أحد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة ، والوجه الثاني في غاية الحمرة فهذا يفيد القطع بأن المؤثر في حصول هذه الصفات والألوان والأحوال ليس هو الطبيعة ، بل المؤثر فيها هو الفاعل المختار الحكيم ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ .

(302/432)

---

واعلم أنه لما كان مدار هذه الحجة على أن المؤثر الموجب بالذات وبالطبيعة يجب أن يكون نسبته إلى الكل نسبة واحدة ، فلما دل الحس في هذه الأجسام النباتية على اختلاف صفاتها وتنافر أحوالها ظهر أن المؤثر فيها ليس واجباً بالذات بل فاعلاً مختاراً فهذا تمام تقرير هذه الدلائل وثبت أن ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والآية الثانية بقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ والآية الثالثة بقوله : ﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ هو الذي نبه على هذه الفوائد النفيسة والدلائل الظاهرة والحمد لله على ألطافه في الدين والدنيا .

المسألة الثانية :

قرأ ابن عامر : ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ كلها بالرفع على الابتداء والخبر هو قوله :

﴿ مسخرات ﴾ وقرأ حفص عن عاصم : ﴿ والنجوم ﴾ بالرفع على أن يكون قوله : ﴿ والنجوم ﴾ ابتداء وإنما حملها على هذا لئلا يتكرر لفظ التسخير ، إذ العرب لا تقول سخرت هذا الشيء مسخراً فجوابه أن المعنى أنه تعالى سخر لنا هذه الأشياء حال كونها مسخرة تحت قدرته وإرادته ، وهذا هو الكلام الصحيح ، والتقدير : أنه تعالى سخر للناس هذه الأشياء وجعلها موافقة لمصالحها حال كونها مسخرة تحت قدرة الله تعالى وأمره وإذنه ، وعلى هذا التقدير فالتكرير الخالي عن الفائدة غير لازم والله أعلم .

بقي في الآية سؤالات :

السؤال الأول : التسخير عبارة عن القهر والقسر ، ولا يليق ذلك إلا بمن هو قادر يجوز أن يقهر ، فكيف يصح ذلك في الليل والنهار وفي الجمادات والشمس والقمر ؟

والجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى لما دبر هذه الأشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطواع ، فلهذا المعنى أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير .

وعن الوجه الثاني في الجواب : وهو لا يستقيم إلا على مذهب أصحاب علم الهيئة ، وذلك لأنهم يقولون : الحركة الطبيعية للشمس والقمر هي الحركة من المغرب إلى المشرق والله تعالى يحرك هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الأعظم من المشرق إلى المغرب ، فكانت هذه الحركة قسرية ، فلهذا السبب ورد فيها اللفظ التسخير .

السؤال الثاني : إذا كان لا يحصل للنهار والليل وجود إلا بسبب حركات الشمس كان ذكر النهار والليل مغنياً عن ذكر الشمس .

والجواب : أن حدوث النهار والليل ليس بسبب حركة الشمس ، بل حدوثهما بسبب حركة الفلك الأعظم الذي دللنا على أن حركته ليست إلا بتحريك الله سبحانه ، وأما حركة الشمس فإنها علة لحدوث السنة لا لحدوث اليوم .

السؤال الثالث : ما معنى قوله : ﴿ مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ والمؤثر في التسخير هو القدرة لا الأمر .

والجواب : أن هذه الآية مبنية على أن الأفلاك والكواكب جمادات أم لا ، وأكثر المسلمين على أنها جمادات ، فلا جرم حملوا الأمر في هذه الآية على الخلق والتقدير ، ولفظ الأمر بمعنى الشأن والفعل كثير قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ النحل : 40 ] ومن الناس من يقول إنها ليست جمادات فههنا يحمل الأمر على الإذن والتكليف ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 20 صـ 5.3 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ الآية ،

قرأ الجمهور بإعمال ﴿ سخر ﴾ في جميع ما ذكر ونصب " مسخراتٍ " على الحال المؤكدة ،كما قال تعالى : ﴿ وهو الحق مصدقاً ﴾ [ فاطر : 31 ] وكما قال الشاعر : [ البسيط ]

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي . . . ونحو هذا وقرأ ابن عامر " والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ " برفع هذا كله ، وقرأ حفص عن عاصم " والنجومُ مسخراتٌ بأمره " بالرفع ونصب ما قبل ذلك ، والمعنى في هذه الآية أن هذه المخلوقات مسخرات على رتبة قد استمر بها انتفاع البشر من السكون بالليل والسعي في المعايش وغير ذلك بالنهار ، وأما منافع الشمس والقمر فأكثر من أن تحصى وأما النجوم فهدايات ، وبهذا الوجه عدت من جملة النعم على بني آدم ، ومن النعمة بها ضياؤها أحياناً ، قال الزجاج : وعلم عدد السنين والحساب بها .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا نظر ، وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة بن مصرف "

والرياح مسخرات " في موضع " النجوم " ، ثم قال ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ لعظم الأمر لأن كل واحد مما ذكر آية في نفسه لا يشترك مع الآخر ، وقال في الآية قبل الآية لأن شيئاً واحداً يعم تلك الأربعة وهو النبات ، وكذلك في ذكر ﴿ ما ذرأ ﴾ [ النحل : 13 ] ليسارته بالإضافة ، وأيضاً ف " آية " بمعنى " آيات " واحد يراد به الجمع .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾

﴿ ذرأ ﴾ معناه بث ونشر ، والذرية من هذا في أحد الأقوال في اشتقاقها ، وقوله ﴿ ألوانه ﴾ معناه أصنافه ، كما تقول هذه ألوان من التمر ومن الطعام ، ومن حيث كانت هذه المبثوثات في الأرض أصنافاً فأعدت في النعمة وظهر الانتفاع بها أنه على وجوه ، ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة حمرة وصفرة وغير ذلك ، ويحتمل أن يكون التنبيه على اختلاف الألوان حمرة وصفرة والأول أبين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(305/432)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾

أي للسكون والأعمال ؛ كما قال : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ

وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ القصص : 73 ] .

﴿ والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ أي مُذَلَّلات لمعرفة الأوقات ونضج الثمار والزرع والاهتداء بالنجوم في الظلمات .

وقرأ ابن عباس وابن عامر وأهل الشام "والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ" بالرفع على الابتداء والخبر .

الباقون بالنصب عطفاً على ما قبله .

وقرأ حفص عن عاصم برفع "والنجومُ مسخراتٌ" خبره .

وقرىء "والشمسَ والقمرَ والنجومَ" بالنصب .

عطفاً على الليل والنهار ، ورفع النجوم على الابتداء "مسخراتٌ" بالرفع ، وهو خبر ابتداء محذوف أي هي مسخرات ، وهي في قراءة من نصبها حال مؤكدة ؛ كقوله : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدِّقاً ﴾ [ البقرة : 91 ] .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي عن الله ما نبّههم عليه ووفقّهم له .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أي وسخّر ما ذرأ في الأرض لكم .

"ذَرَأَ" أي خلق ؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءاً خلقهم ، فهو ذاريء ؛ ومنه الذُّرِّية وهي نسل

الثقلين ، إلا أن العرب تركت همزها ، والجمع الذراري .

يقال : أنمي الله ذَرْأَكَ وذَرْوَكَ ، أي ذريّتك .

وأصل الذَّرْو والذَّرْء التفريق عن جمع .

وفي الحديث : ذرء النار ؛ أي أنهم خلقوا لها .

الثانية ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها ، ومنه غير ذلك .

والدليل عليه ما رواه مالك في الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهودُ حماراً .



---

فقيل له : وما هن ؟ فقال : أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى كلِّها ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرّ ما خلق وبَرَأَ وذرأ .

وفيه عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسْرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار ، الحديث .

وفيه : وشر ما ذَرَأَ في الأرض .

وقد ذكرناه وما في معناه في غير هذا الموضع .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ "مختلفا" نصب على الحال .

و"ألوانُه" هيئاته ومناظره ، يعني الدواب والشجر وغيرها .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في اختلاف ألوانها .

﴿ لآيَةً ﴾ أي لعبرة .

﴿ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتّعظون ويعلمون أن في تسخير هذه المكوّنات لعلامات على وحدانية الله تعالى ، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 10 صـ ﴾



---

وقال الخازن :

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ﴾

تقدم تفسيره في سورة الأعراف ﴿ مسخرات ﴾ يعني مذللات مقهورات تحت قهره وإرادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أن هذه النجوم هي الفعالة

المتصرفة في العالم السفلي فأخبر الله تعالى أن هذه النجوم مسخرات في نفسها مذللات ﴿ بأمره ﴾ يعني بأمر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ، ويختار وأنها ليس لها تصرف في نفسها فضلاً عن غيرها ، ولما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ يعني أن كل من كان له عقل صحيح سليم علم أن الله سبحانه وتعالى ، هو الفعال المختار وأن جميع الخلق تحت قدرته ، وقهره وتسخيره لما أراده منهم .

﴿ وما ذرأ لكم في الأرض ﴾

يعني وما خلق لكم في الأرض ، وسخر لأجلكم من الدواب والأنعام والأشجار والثمار ﴿ مختلفاً ألوانه ﴾ يعني في الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف ألوان المخلوقات مع كثرتها ، حتى لا يشبه بعضها بعضاً من كل الوجوه ، فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى ﴿ وهو الذي سخر لكم البحر ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾

وقرأ الجمهور : والشمس وما بعده منصوباً ، وانتصب مسخرات على أنها حال مؤكدة إن كان مسخرات اسم مفعول ، وهو إعراب الجمهور .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى : أنه سخرها أنواعاً من التسخير جمع مسخر بمعنى : تسخير من قولك : سخره الله مسخراً ، كقولك : سرحه مسرحاً ، كأنه قيل : وسخرها لكم تسخيرات بأمره انتهى .

وقرأ ابن عامر : والشمس وما بعده بالرفع على الابتداء والخبر ، وحفص والنجوم مسخرات برفعهما ، وهاتان القراءتان يبعدان قول الزمخشري إنّ مسخرات بمعنى تسخيرات .

وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وابن مصرف : والرياح مسخرات في موضع ، والنجوم وهي مخالفة لسواد المصحف .

والظاهر في قراءة نصب الجميع أنّ والنجوم معطوف على ما قبله .

وقال الأخفش : والنجوم منصوب على إضمار فعل تقديره : وجعل النجوم مسخرات ، فأضمر الفعل .

وعلى هذا الإعراب لا تكون مسخرات حالاً مؤكدة ، بل مفعولاً ثانياً لجعل إن كان جعل

المقدرة بمعنى صير ، وحالاً مبينة إن كان بمعنى خلق .

وتقدم شرح تسخير هذه النيرات في الأعراف .

وجمع الآيات هنا ، وذكر العقل ، وأفرد فيما قبل ، وذكر التفكر لأنّ فيما قبل استدلالاً بإنبات الماء وهو واحد وإن كثرت أنواع النبات ، والاستدلال هنا متعدّد ، ولأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة ، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة .

وما ذرأ معطوف على الليل والنهار يعني : ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلفاً ألوانه من البياض والسواد وغير ذلك .

وقيل : مختلفاً ألوانه أصنافه كما تقول : هذه ألوان من التمر ومن الطعام .

وقيل : المراد به المعادن .

إنّ في ذلك أي : فيما ذرأ على هذه الحال من اختلاف الألوان ، أو أنّ في ذلك أي : اختلاف الألوان .

وختم هذا بقوله : يذكرون ، ومعناه الاعتبار والاتعاظ ، كان علمهم بذلك سابق طرأ عليه النسيان فقيل : يذكرون أي : يتذكرون ما نسوا من تسخير هذه المكونات في الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(310/432)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾

يتعاقبان خِلْفةً لمنامكم ومعاشِكم ولعقد الثمار وإنضاجها ﴿ والشمس والقمر ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالةً وخلافةً وإصلاحِهما لما نيط بهما صلاحُه من المكونات التي من جملتها ما فُصّل وأُجْمل ، كلُّ ذلك لمصالحكم ومنافعكم ، وليس المرادُ بتسخيرها لهم تمكينَهم من تصريفها كيف شاءوا كما في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى سَخَّرَلَنَا هذا ﴾ ونظائرِه ، بل هو تصريفُه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعُهم ومصالحُهم كأن ذلك تسخيرٌ لهم وتصرفٌ من قبلهم حسب إرادتِهم ، وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماءٌ إلى ما في المسخَّرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين ، وإيثارُ صيغةِ الماضي للدلالة على أن ذلك أمرٌ واحدٌ مستمر وإن تجددت آثارُه .

﴿ والنجوم مسخرات بِأَمْرِه ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ ، أي سائرُ النجومِ في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخراتٌ لله تعالى أو لما خُلقن له بإرادته ومشيئَتِه ، وحيث لم يكن عودُ منافعِ النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من المَلَوَين والقمرَين لم يُنسَبْ تسخيرُها إليهم بأداة الاختصاص بل ذُكر على وجه يفيد كونَها تحت ملكوتِه تعالى من غير دِلالةٍ على شيء آخرَ ولذلك عُدِل عن الجملة الفعليةِ الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار .

(311/432)

---

وقرىء برفع الشمسَ والقمرَ أيضاً ، وقرىء بنصب النجوم على أنه مفعولٌ أولٌ لفعل مقدر ينبىء عنه الفعلُ المذكور ، ومسخراتٌ حالٌ من الكل والعامل ما في ( سخّر ) من معنى نفعَ أي نفعكم بها حال كونَها مسخراتٍ لله الذي خلقها ودبرها كيف شاء ، أو لما خُلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه ، أو مصدرٌ ميميٌّ جُمع لاختلاف الأنواعِ أي أنواعاً من التسخير ، وما قيل من أن فيه إيذاناً بالجواب عما عسى يقال أن المؤثرَ في تكوين النباتِ حركاتُ الكواكب وأوضاعُها بأن ذلك إنْ سَلِم فلا ريب في أنها أيضاً أمورٌ ممكنةُ الذات والصفات ، واقعةٌ على بعض الوجوه الممْكِنة فلا بد لها من موجد مخصّصٍ مختار واجبِ الوجود دفعاً

للدَّوْر والتَسَلْسُل ، فمبناه حسبانُ ما ذُكر أدلةً على وجود الصانع تعالى وقدرته واختيارِه ، وأنت تدري أنْ ليس الأمرُ كذلك فإنه ليس مما ينازَع فيه الخصمُ ولا يتلعثم في قبوله ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ الآية ، وإنما ذلك أدلةُ التوحيد من حيث إن مَنْ هذا شأنُه لا يتوهم أن يشاركه شيءٌ في شيء فضلاً عن أن يشاركه الجمادُ في الألوهية .

(312/432)

---

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من التسخير المتلّق بما ذكر مُجملاً ومفصلاً ﴿ لآيَاتٍ ﴾ باهرةً متكاثرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وحيث كانت هذه الآثارُ العلويةُ متعددةً ودلالةُ ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمةِ على الوحدانية أظهرَ جُمع الآياتُ وعُلّقت بمجرد العقلِ من غير حاجةٍ إلى التأمل والتفكر ، ويجوز أن يكون المرادُ لقوم يعقلون ذلك ، فالمشار إليه حينئذ تعاجيبُ الدقائق المُودعةِ في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدّى لمعرفتها إلا المَهرةُ من أساطين علماءِ الحكمة ، ولا ريب في أن احتياجها إلى التفكر أكثرُ .

(313/432)

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ عطفٌ على قوله تعالى : ﴿ والنجوم ﴾ رفعاً ونصباً على أنه مفعولٌ لجعل أي وما خلق ﴿ لَكُمْ فِى الأرض ﴾ من حيوان ونبات حال كونه ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أي أصنافُه ، فإن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون مسخرٌ لله تعالى أو لما خُلق له من الخواصّ والأحوال والكيفياتِ ، أو جُعل ذلك مختلفَ الألوان أي الأصنافِ لتتمعوا من ذلك بأي صنف شئتم ، وقد عُطف على ما قبله من المنصوبات ، وعُقّب بأن ذكرَ الخلق لهم مغنٍ عن ذكر التسخير ، واعتُذر بأن الأولَ يستلزم الثانيَ لزوماً عقلياً لجواز كونِ ما خُلق لهم عزيزَ المرام صعبَ المنال ، وقيل : هو منصوبٌ بفعل مقدر أي خلق وأنبت على أن قوله : ( مختلفاً ألوانه ) حالٌ من مفعوله ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ونحوها ﴿ لآيَةً ﴾ بينةَ الدِلالةِ على أن مَنْ هذا شأنُه واحد لا نِدّ له ولا ضِدّ ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فإن ذلك غيرُ محتاج إلا إلى تذكرِ ما عسى يُغفَل عنه من العلوم الضرورية ، وأما ما يقال من أن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانعٍ حكيم ، فمدارُه ما لوّحنا به من حسبان ما ذُكر دليلاً على إثبات الصانعِ تعالى ، وقد عرفتَ حقيقةَ الحال فإن إيراد ما يدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمالِ ليس بطريق الاستدلالِ عليه ، بل من حيث إن ذلك من المقدِّمات المسلَّمةِ جيء به للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورةُ

وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شيء في الألوهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 5 صـ ﴾

(314/432)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾

يتعاقبان خلفة لمنامكم واستراحتكم وسعيكم في مصالحكم من الأسامة وتعهد حال الزرع ونحو ذلك ﴿ والشمس والقمر ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتهما إصالة وخلافة وأدائهما ما نيط بهما من تربية الأشجار والزروع وإنضاج الثمرات وتلوينها وغير ذلك من التأثيرات المترتبة عليهما بإذن الله تعالى حسبما يقوله السلف في الأسباب والمسببات ، وليس المراد بتسخير ذلك للمخاطبين تمكينهم من التصرف به كيف شاؤا كما في قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى سَخَّرَ لَنَا هذا ﴾ [ الزخرف : 13 ] ونحوه بل تصريفه سبحانه لذلك حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب إرادتهم قاله بعض المحققين .

وقال آخرون : إن أصل التسخير السوق قهراً ولا يصح إرادة ذلك لأن القهر والغلبة مما لا

يعقل فيما لا شعور له من الجمادات كالشمس والقمر وعدم تعقله في نحو الليل والنهار أظهر من ذلك فهو هنا مجاز عن الإعداد والتهيئة لما يراد من الانتفاع، وفي ذلك إيماءً إلى ما في المسخر من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين.



---

وذكر الإمام في المراد من التسخير نحو ما ذكر أولاً ثم ذكر وجهاً آخر قال فيه: إنه لا يستقيم إلا على مذهب أصحاب الهيئة وهو أنهم يقولون: الحركة الطبيعية للشمس والقمر هي الحركة من المغرب إلى المشرق فالله تعالى سخر هذه الكواكب بواسطة حركة الفلك الأعظم من المشرق إلى المغرب فكانت هذه الحركة قسرية فلذا ورد فيها لفظ التسخير، وذكر أيضاً أن حدوث الليل والنهار ليس إلا بسبب حركة الفلك الأعظم دون حركة الشمس وأما حركتها فهي سبب لحدوث السنة ولذا لم يكن ذكر الليل والنهار مغنياً عن ذكر الشمس اه؛ ولا يعترض عليه بأن ما ذكره من قوله: إن حدوث الليل والنهار إلى آخره لا يتأتى في عرض تسعين لأن الليل والنهار لا يحصلان إلا بغروب الشمس وطلوعها وهي هناك لا تغرب ولا تطلع بحركة الفلك الأعظم بل بحركتها الخاصة ولذا كانت السنة يوماً وليلة لما أن ذلك العرض غير مسكون وكذا ما يقرب منه فلا يدخل في حيز الامتنان.

نعم في كلامه عند المتمسكين بأذيال الشريعة غير ذلك فلينظر ؛ وفي كون الشمس والقمر مما لا شعور لهما خلاف بين العلماء فذهب البعض إلى أنهما عالمان وهو الذي تقتضيه الظواهر وإليه ذهب الصوفية والفلاسفة ، ولم أشعر بوقوع خلاف في أن الليل والنهار مما لا شعور لهما ، نعم رأيت في البهجة القادرية عن القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره العزيز أن الشهر أو الأسبوع يأتيه في صورة شخص فيخبره بما يحدث فيه من الحوادث ، ولعل هذا على نحو ظهور القرآن يوم القيامة في صورة الرجل الشاحب وقوله لمن كان يحفظه .



---

"أنا الذي أسهرتك في الدياجي وأظمأتك في الهواجر" وظهور الموت في صورة كبش أملح وذبحه بين الجنة والنار يوم القيامة كما جاء في الخبر ، وعليك بالإيمان بما جاء عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وأنت في الإيمان بغيره بالخيار ، وإيثار صيغة الماضي قيل للدلالة على أن ذلك التسخير أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره ﴿ والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ ﴾ مبتدأ وخبر أي وسائر النجوم البيبانية وغيرها في حركاتها وأوضاعها المتبدلة وغير المتبدلة وسائر أحوالها مسخرات لما خلقت له بخلقه تعالى وتدبيره الجاري على وفق

مشيئته فالأمر واحد الأمور ، وجوز أن يكون واحد الأوامر ويراد منه الأمر التكويني عند من لا يقول بإدراك النجوم ، والمعنى أنها مسخرة لما خلقت له بقدرته تعالى وإيجاده ، قيل : وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الجديدين والنيرين لم ينسب تسخيرها إليهم بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد أنها تحت ملكوته عز وجل من غير دلالة على شيء آخر ، ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار ، وقرأ ابن عامر برفع ﴿ الشمس والقمر ﴾ أيضاً فيكون المبتدأ الشمس والبواقي معطوفة عليه و ﴿ مسخرات ﴾ خبر عن الجميع ، ولا يتأتى على هذه القراءة ما في وجه عدم نسبة تسخير ذلك إليهم بأداة الاختصاص كما لا يخفى ، واعتبار عدم كون ظهور المنافع بمثابة السابق بالنظر إلى المجموع كما ترى .



---

ومن الناس من قال في ذلك : إن المراد بتسخير الليل والنهار لهم نفعنم بهما من حيث أنهما وقتا سعي في المصالح واستراحة ومن حيث ظهور ما يترتب عليه منافعهم مما نيط به صلاح المكونات التي من جملتها ما فصل وأجمل مثلاً كالشمس والقمر فيهما ، ويؤل ذلك بالآخرة إلى النفع بذلك وهو معنى تسخيره لهم ، فيكون تسخير الليل والنهار لهم متضمناً لتسخير

ذلك لهم فحيث أفاده الكلام أولاً استغنى عن التصريح به ثانياً وصرح بما هو أعظم شأناً منه وهو أن تلك الأمور لم تزل ولا تزال مقهورة تحت قدرته منقادة لإرادته ومشيئته سواء كنتم أو لم تكونوا فليتدبر ، وقرأ الجمهور ﴿ والنجوم والجبال مسخرات ﴾ بالنصب فيهما ، وكذا فيما تقدم ، وخرج ذلك على أن ﴿ النجوم ﴾ مفعول أول لفعل محذوف ينبىء عنه الفعل المذكور و ﴿ مسخرات ﴾ مفعول ثان له ، أي وجعل النجوم مسخرات ، وجوز جعل جعل بمعنى خلق المتعدي لمفعول واحد فمسخرات حال ، واستظهر أبو حيان كون ﴿ النجوم ﴾ معطوفاً على ما قبله بلا إضمار و ﴿ مسخرات ﴾ حينئذٍ قيل حال من الجميع على أن التسخير مجاز عن النفع أي أنفعكم بها حال كونها مسخرات لما خلقت له مما هو طريق لنفعكم وإلا فالحمل على الظاهر دال على أن التسخير في حال التسخير بأمره ولا كذلك لتأخر الأول ، وقيل : لذلك أيضاً : إن المراد مستمرة على التسخير بأمره الإيجادي لأن الإحداث لا يدل على الاستمرار ، وجوز بعض أجلة المعاصرين أن يكون حالاً موكدة بتقدير ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ متعلقاً ﴿ بسخر ﴾ والكلام من باب التنازع ، وقبوله مفوض إليك ، وقيل : هو مصدر ميمي كمسرح منصوب على أنه مفعول مطلق لسخر المذكور أولاً وسخرها مسخرات على منوال ضربته ضربات ، وجمع إشارة إلى اختلاف الأنواع ، وفي إفادة تسخير ما ذكر إيذان بالجواب عما عسى يقال : إن المؤثر في تكوين النبات حركات

الكواكب وأوضاعها فإن ذلك أن سلم فلا ريب في أنها ممكنة الذات والصفا واقعة على بعض الوجوه مع احتمال



---

غيره ترجيح بلا مرجح مختار لما أن الإيجاب ينافي الترجيح واجب الوجود دفعاً للدور أو التسلسل كذا قاله بعض الأجلة ، واعترضه المولى العمادي بأنه مبني على حسبان ما ذكر أدلة الصانع تعالى وقدرته واختياره ، وليس الأمر كذلك فإنه مما لا ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم في قبوله قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [ العنكبوت : 61 ] وقال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السماء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [ العنكبوت : 63 ] الآية وإنما ذلك أدلة التوحيد من حيث أن من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شيء في شيء فضلاً أن يشاركه الجماد في الألوهية اه ، وتعقب بأن كون ما ذكر أدلة التوحيد لا يأبى أن يكون فيه إيذان بالجواب عما عسى يقال وأي ضرر في أن يساق شيء لأمر ويؤذن بأمر آخر ، ولعمري لا أرى لهذا الاعتراض وجهاً بعد قول القائل في ذلك إيذان بالجواب عما عسى يقال الخ حيث

لم يبت القول وأقحم عسى في البين لكن للقائل كلام يدل دلالة ظاهرة على أنه اعتبر الأدلة المذكورة أدلة على وجود الصانع عز شأنه أيضاً وقد سبقه في ذلك الإمام .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي التسخير المتعلق بما ذكر ﴿ لَأَيَاتٍ ﴾ باهرة متكاثرة على ما يقتضيه المقام ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير تأمل وتفكر كأنها لمزيد ظهورها مدركة ببداهة العقل بخلاف الآثار السفلية في ذلك كذا قالوا ، وهو ظاهر على تقدير كون الاستدلال على الوحدانية لا على الوجود أيضاً ، وأما إذا كان الاستدلال على ذلك ففي دعوى الظهور المذكور بحث لانجرار الكلام على ذلك إلى إبطال التسلسل فكيف تكون الدلالة ظاهرة غير محوجة إلى فكر .



---

وأجيب عنه بأن الاستدلال بالدور أو التسلسل إنما هو بعد التفكر في بدء أمرها وما نشأ منه من اختلاف أحوالها فافهم .

وجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك والمشار إليه نهاية تعاجيب الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدى لمعرفتها إلا المهرة الذين لهم نهاية تعاجيب

الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدى لمعرفتها إلا المهرة الذين لهم نهاية الإدراك من أساطين علماء الحكمة وحينئذٍ قطع الآية بقوله سبحانه هنا : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ للإشارة إلى احتياج ذلك إلى التفكر أكثر من غيره والأول أولى كما لا يخفى .

(320/432)

---

﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أي خلق ومنه الذرية على قول والعطف عند بعض على ﴿ النجوم ﴾ [ النحل : 12 ] رفعاً ونصباً على أنه مفعول لجعل و﴿ مَا ﴾ موصولة أي والذي ذرأه ﴿ لَكُمْ فِى الأرض ﴾ من حيوان ونبات ، وقيل : من المعادن ولا بأس في التعميم فيما أرى حال كونه ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أي أصنافه كما قال جمع من المفسرين وهو مجاز معروف في ذلك ، قال الراغب : الألوان يعبر بها عن الأجناس والأنواع يقال : فلان أتى بألوان من الحديث والطعام وكان ذلك لما أن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون ، وقيل : المراد المعنى الحقيقي أي مختلفاً ألوانه من البياض والسواد وغيرهما والأول أبلغ أي ذلك مسخر لله تعالى أو لما خلق له من الخواص والأحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الألوان والأصناف لتتمتعوا بأي صنف شئتم منه ، وذهب بعضهم إلى أن الموصول معطوف على الليل وقيل عليه : إن في ذلك شبه التكرار بناءً على أن اللام في ﴿ لَكُمْ ﴾ للنفع وقد فسر

﴿ سَخَّرَ لَكُمُ ﴾ [ النحل : 12 ] لنفعكم فمآل المعنى نفعكم بما خلق لنفعكم فالأولى جعله في محل نصب بفعل محذوف أي خلق أو أنبت كما قاله أبو البقاء ويجعل ﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ حالاً من مفعوله واعتذر بأن الخلق للإنسان لا يستلزم التسخير لزوماً عقلياً ، فإن الغرض قد يتخلف مع أن الإعادة لطول العهد لا تنكر .

(321/432)

---

ورد بأنه غفلة عن كون المعنى نفعكم وما ذكر علاوة مبني على كون ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلقة بسخر أيضاً وهي عند ذلك الذاهب متعلقة كما هو الظاهر بذرأ وفي "الحواشي الشهابية" أن هذا ليس بشيء لأن التكرار لما ذكر وللتأكيد أمر سهل ، وكون المعنى نفعكم لا يأباه مع أن هذه الآية سيقت كالفذلكة لما قبلها ولذا ختمت بالتذكر ، وليس لمن يميز بين الشمال واليمين أن يقول : ما مبتدأ و ﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ حال من ضميره المحذوف ، وجملة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ خبره والرابط اسم الإشارة على حد ما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التقوى ذلك خَيْرٌ ﴾ [ الأعراف : 26 ] كأنه قيل ، وما ذرأه لكم في الأرض إن فيه لآية ، وحاصله إن فيما ذرأ لآية لظهور مخالفة الآية عليه السباق والسياق بل عدم لياقته لأن يكون محملاً لكلام الله تعالى الجليل أظهر من أن ينبه عليه ، ﴿ و ﴾ ألوانه ،

على ألوان الاحتمالات مرفوع بمختلفاً وقدر بعضهم ليصح رفعه به موصوفاً وقال : أي صنفاً مختلفاً ألوانه وهو مما لا حاجة إليه كما يخفى على من له أدنى تدرب في علم النحو ، ثم إن المشار إليه ما ذكر من التسخير ونحوه ، وقيل : اختلاف الألوان ﴿ وتنوين ﴾ آية للتفخيم آية فخيمة بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ينبغي أن يشبهه شيء في شيء وختم الآية بالتذكر إما لما في "الحواشي الشهابية" من أنها كالفذلكة لما قبلها وإما للإشارة إلى أن الأمر ظاهر جداً غير محتاج إلا إلى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية ، وقال بعضهم : يذكرون أن اختلاف طبائع ما ذكر وهيآته وأشكاله مع اتحاد مادته يدل على الفاعل الحكيم المختار ، وهو ظاهر في أن ما ذكر دليل على إثبات وجود الصانع كما أنه دليل على وحدانيته وهو الذي ذهب إليه الإمام واقتدى به غيره ، ولم يرتضه شيخ الإسلام بناءً على أن الخصم لا ينازع في الوجود وإنما ينازع في الوحدانية فجيء بما هو مسلم عنده من



صفات الكمال للاستدلال به على ما يقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شيء في الألوهية ، وقال بعضهم : لا مانع من أن يكون المراد الاستدلال بما ذكر من

الآيات على مجموع الوجود والوحدانية والخصم ينكر ذلك وإن لم ينكر الوجود وكان في أخذ الوجود في المطلوب إشارة إلى أن القول به مع زعم الشركة في الألوهية مما لا يعتد به وليس بينه وبين عدم القول به كثير نفع فتدبر ذاك والله تعالى يتولى هداك . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 14 صـ ﴾

(323/432)

---

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر لخلقه خمسة أشياء عظام ، فيها من عظيم نعمته ما لا يعلمه إلا هو ، وفيها الدلالات الواضحات لأهل العقول على أنه الواحد امستحق لأن يعبد وحده .

والخمسة المذكورة هي : الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم .

(324/432)

وكرر في القرآن ذكر إنعامه بتسخير هذه الأشياء ، وأنها من أعزم أدلة وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده . كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي الليل النهار يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ﴾ [ الأعراف : 54 ] وإغشاؤه الليل النهار : هو تسخيرهما ، وقوله : ﴿ وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ [ إبراهيم : 33 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العليم والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم ﴾ [ يس : 37-39 ] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [ الملك : 5 ] الآية ، وقوله : ﴿ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [ النحل : 16 ] إلى غير ذلك من الآيات . وفي هذه الآية الكريمة ثلاث قراءات سبعيات في الأسماء الأربعة الأخيرة ، التي هي الشمس ، والقمر ، والنجوم ، ومسخرات ، فقرأ بنصبها كلها نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية شعبة . وقرأ برفع الأسماء الأربعة ابن عامر ، على أن ﴿ والشمس ﴾ مبتدأ وما بعده معطوف عليه و ﴿ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ خبر مبتدأ . وقرأ حفص عن عاصم بنصب ﴿ والشمس والقمر ﴾ عطفاً على ﴿ الليل والنهار ﴾ ورفع ﴿ والنجوم

مُسَخَّرَاتٌ ﴾ على أنه مبتدأ وخبر . وأظهر أوجه الإعراب في قوله ﴿ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ على قراءة النصب أنها حال مؤكدة لعاملها . والتسخير في اللغة : التذليل .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾

(325/432)

---

قوله : ﴿ وَمَا ﴾ في محل نصب عطفاً على قوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ [ النحل : 12 ] أي وسخر لكم ما ذرأ لكم في الأرض ، أي ما خلق لكم فيهل في حال كونه مختلفاً ألوانه .

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة امتنانه على خلقه بما سخر لهم مما خلق لهم في الأرض منبهاً على أن خلقه لما خلق لهم في الأرض مع ما فيه من النعم العظام – فيه الدلالة الواضحة لمن يذكر ويتعظ على وحدانيته واستحقاقه لأن يعبد وحده . وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة ، كقوله : ﴿ هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [ البقرة : 29 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ [ الجاثية : 13 ] الآية . وقوله : ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ والنخل ذَاتُ الأكمام والحب ذُو العصف والريحان فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [ الرحمن : 10-13 ] ، وقوله : ﴿ هُوَ

الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [ الملك : 15 ] .

واشار في هذه الآية الكريمة إلى أن اختلاف ألوان ما خلق في الأرض من الناس والدواب وغيرهما من أعظم الأدلة على أنه خالق كل شيء ، وأنه الرب وحده ، المستحق أن يعبد وحده .

(326/432)

---

وأوضح هذا في آيات أخر . كقوله في " سورة فاطر " : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [ فاطر : 27-28 ] ، وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [ الروم : 22 ] ولا شك أن اختلاف الألوان والمناظر والمقادير والهيئات وغير ذلك – فيه الدلالة القاطعة على أن الله جل ولعا واحد ، لا شبيه له ولا نظير ولا شريك ، وأنه المعبود وحده .

وفيه الدلاة القاطعة على أن كل تأثير بقدرة وإرادة الفاعل المختار ، وان الطبيعة لا تؤثر في

شيء إلا بمشيئته جل وعلا .

كما أوضح ذلك في قوله : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [ الرعد : 4 ] فالأرض التي تنبت فيها الثمار واحدة . لأن قطعها متجاورة ، والماء الذي تسقى به ماء واحد ، والثمار تخرج متفاضلة ، مختلفة في الألوان والأشكال والطعوم ، والمقاير والمنافع .

*(327/432)*

---

فهذا أعظم برهان قاطع على وجود فاعل مختار ، يفعل ما يشاء كيف يشاء ، سبحانه جل وعلا عن الشركاء والأنداد . ومن أوضح الأدلة على أن الطبيعة لا تؤثر في شيء إلا بمشيئته جل وعلا – أن النار مع شدة طبيعة الإحراق فيها ألأقى فيها الحطب وإبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ولا شك أن الحطب اصلب وأقسى وأقوى من جلد إبراهيم ولحمه . فأحرقت الحطب بحرها . وكانت على إبراهيم برداً وسلاماً لما قال لها خالقها : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَا على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ الأنبياء : 69 ] فسبحان من لا يقع شيء كائناً ما كان إلا بمشيئته جل وعلا ، فعال لما يريد .

وقوله في هذه الاية الكريمة : ﴿ يذكرون ﴾ أصله يتذكرون ، فأدغمت التاء في الذال .

والاذكار : الاعتبار والاتعاظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 2 صـ ﴾

(328/432)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾

آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان .

وتقدم ما يفسّر هذه الآية في صدر سورة يونس .

وتسخير هذه الأشياء تقدم عند قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ألا له الخلق والأمر ﴾ في أوائل سورة الأعراف ( 54 ) وفي أوائل سورة الرعد وفي سورة إبراهيم .

وهذا انتقال للاستدلال بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه ، وإدماج بين الاستدلال والامتنان .

ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانية والقدرة ، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة .

وتقدم وجه إقحام لفظ ( قوم ) آنفاً ، وأن الجملة تذييل .

وقرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لِفعل سخر .

وقرأ ابن عامر والشمسُ والقمرُ والنجومُ ﴿ بالرفع على الابتداء ورفع ﴿ مسخرات ﴾ على أنه خبر عنها .

فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين .

وقرأ حفص برفع ﴿ النجومُ ﴾ و ﴿ مسخراتٌ ﴾ .

ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح والآخر خفيّ لقلّة من يرقب حركات النجوم .

والمراد بأمره أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف .

*(329/432)*

---

وقد أبدى الفخر في كتاب "درّة التنزيل" وجهاً للفرق بين إفراد آية في المرة الأولى والثالثة وبين جمع آيات في المرة الثانية : بأن ما ذكر أول وثالثاً يرجع إلى ما نجم من الأرض ، فجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحتويه ( أي وهو كله ذو حالة واحدة وهي حالة النبات في الأرض في الأول وحالة واحدة وهي حالة الذرء في التناسل في الحيوان في الآية الثالثة ) وأما

ما ذكر في المرة الثانية فإنه راجع إلى اختلاف أحوال الشمس والقمر والكواكب ، وفي كل واحد منها نظام يخصّه ودلائل تخالف دلائل غيره ، فكان ما ذكر في ذلك مجموع آيات ( أي لأن بعضها أعراض كالليل والنهار وبعضها أجرام لها أنظمة مختلفة ودلالات متعددة ) .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾

عطف على ﴿ الليل والنهار ﴾ [ سورة النحل : 12 ] ، أي وسخّر لكم ما ذرأ لكم في الأرض .

وهو دليل على دقيق الصّنع والحكمة لقوله تعالى : مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ .

وأومىء إلى ما فيه من منّة بقوله ﴿ لكم ﴾ .

والذرء : الخلق بالتناسل والتوّلد بالحمل والتفريخ ، فليس الإنبات ذرءاً ، وهو شامل للأنعام والكراع ( وقد مضت المنّة به ) ولغيرها مثل كلاب الصيد والحراسة ، وجوارح الصيد ، والطيور ، والوحوش المأكولة ، ومن الشجر والنبات .

وزيد هنا وصف اختلاف ألوانه وهو زيادة للتعجيب ولا دخل له في الامتنان ، فهو كقوله تعالى : ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ في سورة الرعد ( 4 ) ، وقوله تعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه ﴾ في سورة فاطر ( 27 ) .

وبذلك صار هذا آية مستقلة فلذلك ذيّله بجملة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ ،

ولكون محل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتّحاد أصل الذرء أفردت الآية في قوله تعالى

: ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ .

والألوان : جمع لون .

وهو كيفية لسطوح الأجسام مدركة بالبصر تنشأ من امتزاج بعض العناصر بالسطح بأصل

الخلقة أو بصبغها بعنصر ذي لون معروف .

وتنشأ من اختلاط عنصرين فأكثر ألوانٌ غير متناهية .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما لونها ﴾ في سورة البقرة ( 69

) .

ونيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكّر لأنه استدلال يحصل بمجرّد تذكّر الألوان

المختلفة إذ هي مشهورة .

وإقحام لفظ ( قوم ) وكون الجملة تذييلاً تقدم آنفاً .

وأبدى الفخر في درة التنزيل ﴾ وجهاً لاختلاف الأوصاف في قوله تعالى : ﴿ لقوم

يتفكرون ﴾ [ سورة النحل : 11 ] وقوله : ﴿ لقوم يعقلون ﴾ [ سورة النحل : 12 ]

وقوله : ﴿ لقوم يذكرون ﴾ : بأن ذلك لمراعاة اختلاف شدّة الحاجة إلى قوة التأمل بدلالة المخلوقات الناجمة عن الأرض يحتاج إلى التفكر ، وهو إعمال النظر المؤدي إلى العلم .

ودلالة ما ذرأه في الأرض من الحيوان محتاجة إلى مزيد تأمّل في التفكير للاستدلال على اختلاف أحوالها وتناسلها وفوائدها ، فكانت بحاجة إلى التذكّر ، وهو التفكّر مع تذكّر أجناسها واختلاف خصائصها .

وأما دلالة تسخير الليل والنهار والعوالم العلوية فلأنها أدقّ وأحوج إلى التعمّق .

عبر عن المستدلّين عليها بأنهم يعقلون ، والتعقّل هو أعلى أحوال الاستدلال . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 13 صـ ﴾

*(331/432)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) ﴾

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ،

وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نسق واحد ، والتسخير يعني قَهْر مخلوق لمخلوق ؛ لِيُؤدِّي كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهِمته الراحة .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [ القصص : 73 ] .

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ في الأرض لتبتغي رِزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهي تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهي ليست مِلْكاً لأحد غير الله ؛ بل هي من نظام الكون الذي لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً عليه ، حتى لا يتحكَّم أحدٌ في أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهَم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل : ﴿ والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [ الليل : 1-4 ] .

أي : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسَا متعارضين ؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل لِيُوضّح لنا هذا التكامل فيقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله

عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [ القصص : 72 ] .



---

وأيُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم ؛ وإن أدَّى مهمة في هذين اليومين ؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً ؛ ولذلك قال الله : ﴿ وَجَعَلْنَا اليل لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ﴾ [ النبأ : 10-11 ] .

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حَتْماً قبل الفجر وهو في قِمّة النشاط ؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً في سُبَاتٍ عميق ؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان في بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضي الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم في الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التي قدَّمتْ تلك المخترعات ؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها في موضعها الصحيح ، وفي وقتها المناسب ؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكّرين ، ليستيقظوا في الفجر بهمَّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

﴿ والنجوم مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِه . . ﴾ [ النحل : 12 ] .

نلحظ أنه لم يَأْتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلّ الأجرام ، وقد لا تتبيَّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكِنَّا نجد الحق يُقسِم بها فهو القائل : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [ الواقعة : 75-76 ] .

فكلُّ نجم من تلك النجوم البعيدة له مُهمة ، وإذا كنتَ أنت في حياتك اليومية حين ينطفيء النور تذهب لترى : ماذا حدث في صندوق الأكباس الذي في منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدَّم العلم ليصنعَ لك المصباح الكهربائي .

وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجهل ما خَلْف الأثر الواحد الذي يصلك في منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ﴾ [ الواقعة : 75 ] .



---

وهو القائل : ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [ النحل : 16 ] .

وقد خصَّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن

لكلٍّ منها منازلَ ، وهي كثيرة على العَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى تتبينَ أن لله سراً في كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركيبات الأشياء التي تنفعنا مواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيِّل الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [ النحل : 12 ] .

ونعلم أن الآيات هي الأمورُ العجيبة التي يجب ألَّا يمرَّ عليها الإنسان مراً مُعرِضاً ؛ بل عليه أنْ يتأملها ، ففي هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أنْ يستنبطَ منها المجاهيل التي تُنعِّم البشر وتُسعِدهم .

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تعني إعمالَ العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبةً خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسّات الأمورَ المعنوية ، وبهذا يأخذ من الملوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنسبة له ؛ فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أنْ يستنبطَ ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرض . . . . ﴾ .

وكلمة ﴿ ذَرَأَ ﴾ تعني أنه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر ؛ في الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما في الطيور .

(334/432)

---

وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنه ليس مطلق خَلْق ؛ بل خلق بذاته في التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسلُ بذاته حين يجتمع زوجان وتتجا مثيلاً لهما ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [ المؤمنون : 14 ] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يُعطِيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخَلْقه ؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعِدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخَلْق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم مَنْ لا وجود له ؛ وهو بذلك أحسنُ الخالقين .

والمَثل الذي أضربه دائماً هو الحبة التي تُنبِت سبْعَ سنابل وفي كل سُنْبلة مائة حَبّة ؛ وقد أوردها الحق سبحانه ليشوِّق للإنسان عملية الإنفاق في سبيل الله ، وهذا هو الخَلْق الماديّ

الملموس ؛ فمن حبَّة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ . . . ﴾ [ النحل : 13 ] .

أي : ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعدُّدها دليل على طلاقة قدرة الله في أن الكائنات لا تخلق على نَمطٍ واحد .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر في قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [ فاطر : 27-28 ] .

*(335/432)*

---

وأنت تمشي بين الجبال ، فتجدها من ألوان مختلفة ؛ وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقاتٍ مُتعدّدة ، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . . ﴾ [ فاطر : 28

] .

فَلَنا أن نعرف أن العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالم يقف على قضية كونية مَرْكوزة في الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلّي أسرار الله في خلقه . وقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يفرق فَرْقاً واضحاً في هذا الأمر ، كي لا يتدخل علماء الدين في البحث العلميّ التجريبيّ الذي يفيد الناس ، ووجد صلى الله عليه وسلم الناس تُؤبّر النخيل ؛ بمعنى أنهم يأتون بطَلْع الذُّكورة ؛ ويُلقّحون النخيل التي تتصف بالأنوثة ، وقال : لو لم تفعلوا لأثمرتْ .

ولما لم تثمر النخيل ، قَبِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر ؛ وأمر بإصلاحه وقال القولة الفصل " أنتم أعلم بشئون دنياكم " .

أي : أنتم أعلم بالأمور التجريبية المعملية ، ونلحظ أن الذي حجز الحضارة والتطوُّر عن أوربا لقرون طويلة ؛ هو محاولة رجال الدين أنْ يحجُروا على البحث العلمي ؛ ويتهموا كُلَّ عالم تجريبيّ بالكفر .

ويتميز الإسلام بأنه الدين الذي لم يَحُلْ دون بَحْث أي آية من آيات الله في الكون ، ومن حنان الله أنْ يُوضّح لخَلْقه أهمية البحث في أسرار الكون ، فهو القائل : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [ يوسف : 105 ] .

أي : عليك أيُّها المؤمن ألاَّ تُعرِض عن أيِّ آية من آيات الله التي في الكون ؛ بل على المؤمن أنْ يُعمِلَ عقله وفِكْره بالتأمُّل ليستفيد منها في اعتقاده وحياته . يقول الحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . . ﴾ [ فصلت : 53 ] .

أما الأمور التي يتعلّق بها حساب الآخرة ؛ فهي من اختصاص العلماء الفقهاء .

ويذيل الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [ النحل : 13 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾



" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقولون البيان ﴿ ومنها جائر ﴾ قال الأهواء المختلفة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول: على الله يبين الهدى والضلالة، ﴿ ومنها جائر ﴾ قال السبيل المتفرقة.

واخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن مجاهد في قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال طريق الحق على الله.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن قتادة في قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال: على الله بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ﴿ ومنها جائر ﴾ قال: على السبيل ناكب عن الحق وفي قراءة ابن مسعود "ومنكم جائر".

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف، عن علي أنه كان يقرأ هذه الآية "فمنكم جائر".

وأخرج ابن جرير، عن ابن زيد في قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال طريق الهدى، ﴿ ومنها جائر ﴾ قال: من السبل جائر عن الحق، وقرأ ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام: 153] ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ لقصد السبيل الذي هو الحق وقرأ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ [يونس: 99] ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ [السجدة: 13] والله أعلم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله ﴿ فيه تسيمون ﴾ قال ترعون فيه أنعامكم .

وأخرج الطستي ، عن ابن عباس ، أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ فيه تسيمون ﴾ قال فيه ترعون . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت الأعشى وهو يقول :

ومشى القوم بالعماد إلى الدو . . . حاء أعماد المسيم بن المساق

(338/432)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض ﴾ قال ما خلق لكم في الأرض مختلفاً : من الدواب ، والشجر ، والثمار . نعم من الله متظاهرة ، فاشكروها لله عز وجل ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 5 صـ ﴾

(339/432)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) ﴾

وقد تقدَّم خلافُ القراء في رفع " الشمس " وما بعدها ونصبِها ، وتوجيهُ ذلك في سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ عطفٌ على " الليل " قاله الزمخشري يعني ما خَلَقَ فيها من حيوانٍ وشَجَر . وقال أبو البقاء : " في موضعِ نصبٍ بفعلٍ محذوف ، أي : وخَلَقَ وأَنْبَتَ " . كأنه استبعد تَسَلُّطَ " سَخَّر " على ذلك فقدَّر فعلاً لائقاً . و " مختلفاً " حالٌ منه ، و " ألوانُه " فاعلٌ به .

وخَتَمَ الآيةَ الأولى بالتفكُّر ؛ لأنَّ ما فيها يحتاج إلى تأمُّلٍ ونَظَر ، والثانيةَ بالعقل ؛ لأنَّ مدارَ ما تقدَّم عليه ، والثالثةَ بالتذكُّر ؛ لأنه نتيجةُ ما تقدَّم . وجَمَعَ " آيات " في الثانية دونَ الأولى والثالثةِ ؛ لأنَّ ما نِيط بها أكثرُ ، ولذلك ذَكَرَ معها العقلَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 7 صـ 199 . 200 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ .

الليل والنهار ظرفا الفعل ، والناس في الأفعال مختلفون : فموفَّقٌ ومخذول ؛ فالموفَّق يجري وقته في طاعة ربه ، والمخذول يجري وقته في متابعة هواه .

العابد ، يكون في فَرْضٍ يقيمه أو نَفْلٍ يديمه ، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يعود على قلبه فيؤنسه ، وأما أرباب التوحيد فهم مُخْتَطَفُون عن الأحيان والأوقات بغلبة ما يَرِدُ عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدري أطال لَيْلي أم لا . . . كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى ؟

لو تفرَّغْتُ لاستطالة لَيْلي . . . ورعيت النجومَ كنت مُخِلاَّ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

هذا في الظاهر ، وفي الباطن نجوم العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) ﴾

أقوامٌ خَلَقَ لهم في الأرض الرياضَ والغياض ، والدور والقصور ، والمساكن والمواطن ،

وفنون النِّعم وصنوف القِسَم . . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا لهم في الأرض شِبْر ؛ لا ديار تملكهم ، ولا علاقة تُمْسِكُهُم - أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق . انتهى انتهى .

اهـ ﴿لطائف الإشارات جـ 2 صـ 288﴾

(341/432)

---

# AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

22